

تفسير الخازن

المسمى

لباب التأويل في معاني التنزيل

للإمام علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي

الشهير بالخازن

المتوفى سنة ٧٢٥ هـ

ومعه

تفسير البغوي

المسمى

معالم التنزيل

للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود

الفراء البغوي الشافعي

المتوفى سنة ٥١٦ هـ

ضبطه وصححه

عبد السلام محمد علي شاهين

الجزء الأول

المحتوى

أول سورة الفاتحة - آخر سورة آل عمران

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان
الطبعة الأولى

١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان

ص.ب: ٩٤٢٤/١١ - تلکس: Le 41245 Nasher

هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣

فاکس: ٤٧٨١٣٧٣/١٢١٢ - ٠٠/٩٦١١/٦٠٢١٣٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي خلق الأشياء فقدرها تقديرًا، وصور شكل الإنسان فأحسنه تصويرًا، ومنحه العقل وجعله سميعًا بصيرًا وشرفه بما عرفه به من العلم ونور قلبه تنويرًا وهداه، إلى معرفته فيا لها نعمة وفضلًا كبيرًا، وأطلق لسانه فأذن بشكره تحميدًا وتهليلًا وتكبيرًا، وأرسل محمدًا ﷺ إلى كافة الخلق بشيرًا ونذيرًا، وأنزل عليه كتابًا منيرًا، وأودعه حكمة وحكمًا وترغيبًا وتحذيرًا، وألهم حفاظه تلاوة له وتحبيرًا، وعلم عباده علومه تفهيمًا وتبصيرًا، وضرب فيه الأمثال ليزيل جهالة وتحذيرًا، وجعله برهانا واضحا وصوابا لائحا ووفر فضله توفيرًا، في الصدور محفوظًا وبالألسنة متلوا وفي الصحف مسطورًا، يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا، وجعل كل بليغ عن الإتيان بسورة مثله حسيرا. ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾.

(أحمده) على تواتر إنعامه حمدا كثيرا وأتوكل عليه مفوضا أمري إليه ومستجيرا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يغدو قلب قائلها مطمئنا مستنيرا، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي كساه من فضله عزاً ومهابة وتوقيرا صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه كما أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

(وبعد) فإن الله جلّ ذكره ونفذ أمره أرسل رسوله محمدا ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله رحمة للعالمين وبشيرا للمؤمنين ونذيرا للمخالفين أكمل به ببيان النبوة وختم به ديوان الرسالة، وأتم به مكارم الأخلاق، ونشر فضله في الآفاق وأنزل عليه نورا هدى به من الضلالة، وأنقذ به من الجهالة، وحكم بالفوز والفلاح لمن اتبعه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

خطبة المصنف

قال الشيخ الإمام الأجل السيد محيي السنة ناصر الحديث مفتي الشرق والغرب: أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي رضي الله عنه وعن والديه، الحمد لله ذي العظمة والكبرياء والعزة والبقاء والرّفعة والعلاء والمجد والثناء، تعالى عن الأنداد والشركاء، وتقدّس عن الأمثال والنظراء، والصلاة والسلام على نبيّه وحبيبه وصفيه محمد خاتم الأنبياء وإمام الأنقياء عدد ذرات الثرى ونجوم السماء، الحمد لله الملك السلام المؤمن المهيمن العالم شارع الأحكام ذي الجلال والإكرام الذي أكرمنا بدين الإسلام ومنّ علينا بنبيّنا محمد عليه التحية والسلام، وأنعم علينا بكتابه المفروق بين الحلال والحرام، والصلاة والسلام على حبيبه وخيرته من خلقه محمد سيّد الأنام عدد ساعات الليالي والأيام وعلى آله وأصحابه، عدد نجوم الظلام وعلى جميع الأنبياء والملائكة البررة الكرام.

أما بعد، فإنّ الله جلّ ذكره أرسل رسوله بالهدى ودين الحق رحمة للعالمين وبشيرا للمؤمنين، ونذيرا

وبالخرسان لمن أعرض عنه بعدما سمعه عجز الخلائق عن معارضته حين تحداهم على أن يأتوا بسورة من مثله في مقابله، ثم سهل على عباده المؤمنين مع إعجازه تلاوته ويسر على الألسن قراءته أمر فيه وزجر وبشر وأنذر وذكر المواعظ ليتذكر، وضرب فيه الأمثال ليتدبر، وقص فيه من أخبار الماضين ليتعبر ودل فيه على آيات التوحيد ليتفكر، ثم لم يرض منا بسرد حروفه دون حفظ حدوده ولا بإقامة كلماته دون العمل بمحكماته ولا بتلاوته دون تدبر آياته في قراءته ولا بدراسته دون تعلم حقائقه وتفهم دقائقه ولا حصول لهذه المقاصد منه إلاً بدراية تفسيره وأحكامه ومعرفة حلاله وحرامه وأسباب نزوله وأقسامه والوقوف على ناسخه ومنسوخه في خاصه وعامه، فإنه أرسخ العلوم أصلاً وأسبغها فرعاً وفصلاً وأكرمها نتائجاً وأنورها سراجاً فلا شرف إلاً وهو السبيل إليه ولا خير إلاً وهو الدال عليه وقد قيض الله تعالى له رجالاً موفقين وبالحق ناطقين حتى صنفوا في سائر علومه المصنفات، وجمعوا سائر فنونه المتفرقات كل على قدر فهمه ومبلغ علمه نظراً للخلف واقتداء بالسلف فشكر الله سعيهم ورحم كافتهم. ولما كان كتاب معالم التنزيل الذي صنفه الشيخ الجليل والحبر النبيل الإمام العالم الكامل محيي السنة قدوة الأمة وإمام الأئمة مفتي الفرق ناصر الحديث ظهير الدين أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي قدس الله روحه ونور ضريحه من أجل المصنفات في علم التفسير وأعلاها وأنبها وأسناها جامعاً للصحيح من الأقاويل عارياً عن الشبه والتصحيف والتبديل محلي بالأحاديث النبوية، مطرزاً بالأحكام الشرعية موشى بالقصص الغريبة وأخبار الماضين العجيبة مرصعاً بأحسن الإشارات مخرجاً بأوضح العبارات، مفرغاً في قالب الجمال بأفصح مقال، فرحم الله تعالى مصنفه وأجزل ثوابه وجعل الجنة مثقله ومآبه.

ولما كان هذا الكتاب كما وصفت أحببت أن أنتخب من غرر فوائده ودرر فرائده وزواهر نصوصه وجواهر فصوصه مختصراً جامعاً لمعاني التفسير ولباب التأويل والتعبير حاوياً لخلاصة من قوله متضمناً لنكته وأصوله مع فوائد نقلتها وفرائد لخصتها من كتب التفاسير المصنفة في سائر علومه المؤلفة، ولم أجعل لنفسي تصرفاً سوى النقل والانتخاب، مجتنباً حد التطويل والإسهاب وحذفت منه الإسناد لأنه أقرب إلى تحصيل المراد فما أوردت فيه

للمخالفين أكمل به ديوان النبوة، وختم به ديوان الرسالة، وأتم به مكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال، وأنزل عليه بفضل نوراً هدى به من الضلالة وأنقذ به من الجهالة، حكم بالفلاح لمن تبعه، وبالخرسان لمن أعرض عنه بعدما سمعه، وأعجز الخليقة عن معارضته، وعن الإتيان بسورة من مثله في مقابله، ثم سهل على الخلق مع إعجازه تلاوته، ويسر على الألسن قراءته، أمر فيه وزجر وبشر وأنذر وذكر المواعظ ليتذكر، وقص عن أحوال الماضين ليتعبر، وضرب فيه الأمثال ليتدبر، ودل على آيات التوحيد ليتفكر، ولا حصول لهذه المقاصد إلاً بدراية تفسيره وإعلامه، ومعرفة أسباب نزوله وأحكامه والوقوف على ناسخه ومنسوخه، ومعرفة خاصه وعامه، ثم هو كلام معجز وبحر عميق لا نهاية لأسرار علومه، ولا إدراك لحقائق معانيه، وقد ألف أئمة السلف في أنواع علومه كتباً كل على قدر فهمه ومبلغ علمه نظراً للخلق، فشكر الله تعالى سعيهم ورحم كافتهم.

فسألني جماعة من أصحابي المخلصين وعلى اقتباس العلم مقبلين كتاباً في معالم التنزيل وتفسيره، فأجبتهم إليه معتمداً على فضل الله تعالى وتيسيره، ممثلاً وصية رسول الله ﷺ فيهم فيما يرويه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إن رجلاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقون في الدين فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً»، واقتداءً بالماضين من السلف في تدوين العلم إبقاء على الخلق وليس على ما فعلوه مزيد، ولكن لا بد في كل زمان من تجديد ما طال به العهد، وقصر المطالبين فيه الجِدَّ والجهد، تنبيهاً للمتوقفين وتحريضاً للمثبطين،

من الأحاديث النبوية والأخبار المصطفوية على تفسير آية أو بيان حكم، فإن الكتاب يطلب بيانه من السنة، وعليهما مدار الشرع وأحكام الدين عزوته إلى مخرجه، وبينت اسم ناقله، وجعلت عوض كل اسم حرفاً يعرف به ليهون على الطالب طلبه فما كان من صحيح أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري فعلامته قبل ذكر اسم الصحابي الراوي للحديث (خ) وما كان من صحيح أبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري فعلامته (م) وما كان مما اتفقا عليه فعلامته (ق) وما كان من كتب السنن أبي داود والترمذي والنسائي فإني أذكر اسمه بغير علامة وما لم أجده في هذه الكتب ووجدت البغوي قد أخرجه بسند له انفرد به قلت روى البغوي بسنده، وما رواه البغوي بإسناد الثعلبي قلت: روى البغوي بإسناد الثعلبي، وما كان فيه من أحاديث زائدة وألفاظ متغيرة ناعتمده فإني اجتهدت في تصحيح ما أخرجه من الكتب المعتبرة عند العلماء كالجمع بين الصحيحين للحميدي وكتاب جامع الأصول لابن الأثير الجزري، ثم إنني عوضت عن حذف الإسناد شرح غريب الحديث، وما يتعلق به ليكون أكمل فائدة في هذا الكتاب وأسهل على الطلاب، وسقته بأبلغ ما قدرت عليه من الإيجاز وحسن الترتيب مع التسهيل والتقريب. وينبغي لكل مؤلف كتاباً في فن قد سبق إليه أن لا يخلو كتابه من خمس فوائد استنباط شيء كان معضلاً أو جمعه إن كان متفرقاً، أو شرحه إن كان غامضاً، أو حسن نظم وتأليف أو إسقاط حشو وتطويل وأرجو أن لا يخلو هذا الكتاب عن هذه الخصال التي ذكرت وسميته [لباب التأويل في معاني التنزيل] والله تعالى أسأل التوفيق لإتمام ما قصدت، وإليه أرغب في تيسير ما أردت، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يتقبله مني إنه هو السميع العليم، وهو حسبي ونعم الوكيل، عليه توكلت وإليه أنيب، وقبل أن أشرع في الكلام على التفسير أقدم مقدمة تتضمن ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في فضل القرآن وتلاوته وتعليمه:

(م) عن زيد بن أرقم قال قام رسول الله ﷺ يوماً فينا خطيباً بماء يدعى خمّاً بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال: «أما بعد ألا أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب وإني تارك فيكم

فجمعت بعون الله تعالى وحسن توفيقه فيما سألوها كتاباً متوسطاً بين الطويل الممل، والقصير المخل، أرجو أن يكون مفيداً لمن أقبل على تحصيله مزيداً، وما نقلت فيه من التفسير عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما خبر هذه الأمة، ومن بعده من التابعين، وأئمة السلف مثل: مجاهد وعكرمة وعطاء بن أبي رباح والحسن البصري رضي الله عنهما، وقتادة وأبي العالية ومحمد بن كعب القرظي، وزيد بن أسلم والكلبي والضحاك، ومقاتل بن حيان ومقاتل بن سليمان والسدي وغيرهم، فأكثرها مما أخبرني الشيخ أبو سعيد أحمد بن محمد الشريحي الخوارزمي فيما قرأته عليه، عن الأستاذ أبي إسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي عن شيوخه، أما تفسير عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ترجمان القرآن، الذي قال فيه النبي ﷺ: «اللهم علّمه الكتاب وقال: اللهم فقهه في الدين»، وقال أبو إسحاق: أخبرنا أبو محمد بن عبد الله بن حامد، أنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبدوس الطوائفي، ثنا عثمان بن سعيد الدارمي، ثنا عبد الله بن صالح: أن معاوية بن صالح حدثه عن علي بن أبي طلحة الوالي عن عبد الله بن عباس، وقال: أنا أبو القاسم الحسن بن حبيب، ثنا عبد الله بن محمد الثقفي أنا أبو جعفر محمد بن نصر بن المازني، أنا محمد بن سعيد بن محمد بن الحسن بن عطية سعد العوفي، قال: حدثني عمي الحسين بن الحسن بن عطية، حدثني أبي عن جدي عطية عن ابن عباس، وقال الثعلبي: ثنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن الحسن النيسابوري، أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي الصريمي المروزي، أنا أبو العباس أحمد بن

ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به» فحث على كتاب الله ورغب فيه ثم قال: «وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي زاد في رواية كتاب الله فيه الهدى والنور من استمسك به وأخذ به كان على الهدى ومن أخطأه ضل» وفي رواية: كتاب الله هو حبل الله من اتبعه كان على الهدى، ومن تركه كان على ضلالة، وفي رواية الترمذي عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أحدهما أعظم من الآخر وهو كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما» (م) عن عمر بن الخطاب قال أما إن نبيكم ﷺ قال: «إن الله تعالى يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين» وعن الحارث الأعور قال: مررت في المسجد فإذا الناس يخرقون في الأحاديث فدخلت على عليّ فقلت يا أمير المؤمنين ألا ترى الناس قد خاضوا في الأحاديث قال: أوقد فعلوها قلت نعم قال أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ألا إنها ستكون فتنة فقلت ما المخرج منها يا رسول الله قال: كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم والفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه. هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: إنا سمعنا قرآنًا عجيباً يهدي إلى الرشd فآمنّا به من قال به صدق ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم خذها إليك يا أعور. أخرجه الترمذي وقال: حديث غريب وإسناده مجهول وفي الحارث مقال.

(قوله هو الفصل) أي الفاصل بين الحق والباطل ليس بالهزل أي هو جد كله ليس فيه شيء من الهزل، والجبار في صفة الآدمي هو المتسلط العاتي المتكبر على الناس، قصمه الله أي أهلكه.

(قوله وهو حبل الله المتين) الحبل يرد على وجوه منها العهد ومنها الأمان فإذا اعتصم به الإنسان آواه الله تعالى إلى جواره والذكر الشرف والحكيم المحكم العاري من الاختلاف والاضطراب، والصراط المستقيم الطريق

الحضر الصيرفي، أنا أبو داود سليمان بن معبد السنجي، أنا علي بن الحسين بن واقد عن يزيد النحوي، عن عكرمة عن ابن عباس.

وأما تفسير مجاهد بن حبر المكي: قال أبو عبد الله محمد بن أحمد بن بطة، ثنا عبد الله بن محمد بن زكريا ثنا سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي، ثنا مسلم بن خالد الزنجي عن ابن أبي نجیح عن مجاهد.

وأما تفسير عطاء بن أبي رباح: قال ثنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن حسن النيسابوري، ثنا أبو القاسم عبد الرحمن بن ياسين بن الجراح الطبري، أنا أبو محمد بن بكر بن مستهل الدميّطي، ثنا عبد الغني بن سعيد الثقفي عن أبي محمد موسى بن عبد الرحمن الصغاني، عن أبي جريح عن عطاء بن أبي رباح.

وأما تفسير الحسن البصري قال: حدّثني أبو القاسم الحسن البصري قال: حدّثني أبو القاسم الحسين بن محمد بن عبد الله بن الملكيب، حدّثني أبي أنا أبو الحسن محمد بن أحمد الصلة المعروف بابن شبود المقدّثي، ثنا سعيد بن محمد، ثنا المنهل بن واصل عن أبي صالح عن عمرو بن عبيد عن الحسن بن أبي الحسن البصري.

وأما تفسير قتادة قال: أنا أبو محمد عبد الله بن حامد محمد بن الأصبهاني، أنا أبو علي حامد بن محمد بن الهروي، ثنا أبو يعقوب إسحق بن الحسن بن ميمون الحربي، ثنا أبو محمد الحسين بن محمد المروزي، ثنا

الواضح، ومعنى لا تزيع به الأهواء أي لا يميل عن الحق، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب» أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح (خ) عن عثمان عن النبي ﷺ قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» (ق) عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذي يقرأ القرآن ويتمتع فيه وهو عليه شاق له أجران».

(قوله الماهر بالقرآن) يعني الحاذق الكامل الحفظ الجيد التلاوة، وقوله: مع السفرة جمع سافر وهو الرسول من الملائكة سمي بذلك لأنه يسفر برسالات الله إلى أنبيائه وقيل السفرة الكتبة من الملائكة والبررة المطيعون لله تعالى فيما يأمر، به ومعنى كونه من الملائكة أن له منازل في الجنة يكون فيها رفيقاً لهم. وقوله: يتتبع أي يتردد في تلاوته لضعف حفظه. له أجران: يعني يحصل له أجر بسبب القراءة وأجر بسبب تعبه فيها والمشقة التي تحصل له فيها وليس معناه أن له أجراً أكثر من الماهر، بل الماهر أفضل منه وأكثر أجراً (ق) عن أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ قال: مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب، وريحها طيب ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب ولا طعم لها، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن، كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها فيه دليل على فضيلة حفاظ القرآن واستحباب ضرب الأمثال لإيضاح المقاصد، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف» أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح غريب، وقد رفعه بعضهم عن ابن مسعود، ووقفه بعضهم عليه عن ابن عباس قال: قال رجل يا رسول الله أي الأعمال أحب إلى الله تعالى؟ قال «الحال المرتحل». قال: وما الحال المرتحل؟ قال: «الذي يضرب من أول القرآن إلى آخره كلما حل ارتحل». أخرجه الترمذي عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله ﷺ: «يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند الله آخر آية تقرؤها» أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يجيء القرآن يوم القيامة فيقول يا

شبان بن عبد الرحمن النحوي عن قتادة، وقال ثنا عائشة أبو القاسم الحبيبي: أنا أبو زكريا العنبري، ثنا جعفر بن محمد سوار، أنا محمد بن رافع عن عبد الرزاق عن معمر عن قتادة بن دعامة السدوسي.

وأما تفسير أبي العالية واسمه رفيع بن مهران، قال: ثنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن الحسن المفسر أنا أبو عمر أحمد بن محمد بن منصور العمري بن حسن، ثنا أبو الحسن أحمد بن إسحاق بن إبراهيم بن يزيد السرخسي أنا أبو علي الحسن محمد بن موسى الأزدي، عن عمّار بن الحسن بن بشير الهمداني، عن عبد الله بن أبي جعفر عن أبيه عن الربيع بن أنس عن أبي العالية الرياحي.

وأما تفسير القرظي، قال: ثنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب عن أبي، ثنا أبو العباس محمد بن الحسن الهروي، ثنا رجاء بن عبد الله، أنا مالك بن سليمان الهروي عن أبي معشر عن محمد بن كعب القرظي.

وأما تفسير زيد بن أسلم قال: أنا الحسن بن محمد بن الحسن قال: كتب إلي أحمد بن كامل بن خلف بن محمد بن جرير الطبري حدثهم، قال: ثنا يونس بن عبد الأعلى الصيرفي، أنا عبد الله بن وهب أخبرني عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه.

وأما تفسير الكلبي: فقد قرأت بمرو على الشيخ أبي عبد الله محمد بن الحسن المروزي في شهر رمضان سنة أربع وستين وأربعمائة، قال: أنا أبو مسعود محمد بن أحمد بن محمد بن يونس الخطيب الكشمهيني، في محرم

رب حله فيلبس تاج الكرامة ثم يقول يا رب زده فيلبس حلة الكرامة ثم يقول يا رب ارض عنه فيرضى عنه فيقال اقرأ وارق ويزاد بكل آية حسنة» أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن عن سهل بن معاذ الجهني عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ القرآن وعمل به ألبس والداه يوم القيامة تاجاً ضوءه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا لو كانت فيكم فما ظنكم بالذي عمل بهذا» أخرجه أبو داود عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن فاستظهره فاحل حلاله وحرم حرامه أدخله الله به الجنة، وشفعه في عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت لهم النار» أخرجه الترمذي وقال: حديث غريب وليس له إسناد صحيح (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي يتغنّى بالقرآن يجهر به» معنى أذن في اللغة استمع ولا نحمله على الإصغاء فإنه يستحيل على الله تعالى بل هو كناية عن تقريبه قارئ القرآن وإجزال ثوابه في ذلك وذلك لأن سماع الله لا يختلف فموجب تأويل الحديث، وقوله يتغنّى بالقرآن أي يحسن صوته به ويكون ذلك مع تحزين وترقيق في القراءة، وقيل معناه يستغنى به عن الناس، والقول الأول أولى ويدل عليه سياق الحديث وهو قوله يجهر به (خ) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن».

الفصل الثاني في وعيد من قال في القرآن برأيه من غير علم ووعيد من أوتي القرآن فنسيه ولم يتعهده:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار» وفي رواية: من قال في القرآن برأيه؛ أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن (قوله فليتبوأ) معناه فليتخذ له مباءة أي منزلاً من النار. عن جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال في كتاب الله عز وجل برأيه فأصاب فقد أخطأ» أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حديث غريب وسأل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن قوله تعالى ﴿وفاكهة وأباً﴾ فقال: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله بغير علم. قال العلماء: النهي عن

سنة خمسين وأربعمئة، قال: أنا أبو إسحق بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن معروف الهرموزي، ثنا محمد بن علي الأنصاري المفسر ثنا علي بن إسحق وصالح بن محمد السمرقندي، قالوا: ثنا محمد بن مروان عن محمد بن السائب الكلبي عن أبي نصر عن أبي صالح أنا ذاذان مولى أم هانئ بنت أبي طالب عن ابن عباس.

وأما تفسير الضحّاك بن مزاحم الهلالي، قال: أنا أستاذ إسحق الثعلبي ثنا أبو القاسم الحسن بن محمد السدوسي، ثنا أبو عمر وأحمد بن محمد العمركي بن حسن، ثنا جعفر بن محمد سوار ثنا أحمد بن محمد بن جميل المروزي، ثنا أبو معاذ عن عبيد بن سليمان الباهلي عن الضحّاك.

وأما تفسير مقاتل بن حيان قال: أنا عبد الله بن حامد الوزاني ثنا أحمد بن محمد بن عبدوس، ثنا إسماعيل بن قتيبة ثنا أبو خالد يزيد بن صالح الفراء النيسابوري، حدثنا بكير بن معروف البلخي الأزدي، ثنا أبو معاذ عن مقاتل بن حيان.

وأما تفسير مقاتل بن سليمان قال: أخبرنا أبو إسحق إبراهيم بن محمد المهرجاني، أنا أبو محمد عبد الخالق بن الحسن بن محمد السقيطي المعروف بابن أبي رؤية، ثنا عبد الله بن ثابت بن يعقوب المقرئ، هكذا المقرئ، أبو محمد قال: ثنا أبو محمد حدثني أبو الهذيل بن حبيب أبو صالح الزيداني، عن مقاتل بن سليمان.

القول في القرآن: الرأي إنما ورد في حق من يتأول القرآن على مراد نفسه وما هو تابع لهواه وهذا لا يخلو إما أن يكون عن علم أو لا، فإن كان عن علم كمن يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته وهو يعلم أن المراد من الآية غير ذلك لكن غرضه أن يلبس على خصمه بما يقوي حجته على بدعته كما يستعمله الباطنية والخوارج وغيرهم من أهل البدع في المقاصد الفاسدة ليغفروا بذلك الناس، وإن كان القول في القرآن بغير علم لكن عن جهل وذلك بأن تكون الآية محتملة لوجوه فيفسرها بغير ما تحتمله من المعاني والوجوه. فهذان القسمان مذمومان وكلاهما داخل في النهي والوعيد الوارد في ذلك فأما التأويل وهو صرف الآية على طريق الاستنباط إلي معنى يليق بها محتمل لما قبلها وما بعدها وغير مخالف للكتاب والسنة فقد رخص فيه أهل العلم، فإن الصحابة رضي الله عنهم قد فسروا القرآن واختلفوا في تفسيره على وجوه وليس كل ما قالوه سمعوه من النبي ﷺ ولكن على قدر ما فهموا من القرآن تكلموا في معانيه وقد دعا النبي ﷺ لابن عباس فقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» فكان أكثر ما نقل عنه التفسير (ق) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «تعاهدوا هذا القرآن فوالذي نفس محمد بيده لهو أشد تفلتاً من الإبل في عقلها» (ق) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعلقة إن تعاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت الإبل المعلقة التي حبست بالعقال» وهذا مثل ضربه لصاحب القرآن فيه الحث على تعاهده بكثرة التلاوة والتكرار لئلا ينسى (ق) عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «بشما لأحدكم أن يقول نسيت آية كيت وكيت بل هو نسي استذكروا القرآن فإنه أشد تفصيلاً من صدور الرجال من النعم من عقلها» وفي رواية لا يقل أحدكم نسيت آية كذا وكذا بل هو نسي.

(قوله بشما لأحدكم): أي بثست الحالة حالة من حفظ القرآن ثم غفل عنه حتى نسيه (قوله لا يقل أحدكم نسيت آية كذا وكذا) معناه إنما كره نسبة النسيان إلى النفس لأجل أن الله تعالى هو المقدر للأشياء كلها وهو الذي أنساه وإياه. وقيل أصل النسيان الترك فكره أن يقول تركت القرآن أو قصدت إلى نسيانه، وقوله: بل نسي هو بضم النون وتشديد السين وفتح الياء أي عوقب بالنسيان على ذنب صدر منه أو لسوء تعهده القرآن وقوله أشد تفصيلاً أي خروجاً من صدور الرجال وفي معناه تفلتاً من الإبل في عقلها أي تخلصاً من العقال وهو الجبل الذي تربط به، عن سعد بن عباد رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «ما من امرئ يقرأ القرآن ثم ينساه إلا لقي الله يوم القيامة

وأما تفسير السدي قال: ثنا أبو القاسم حسن بن محمد بن الحسن، أنا أبو الطيب محمد بن عبد الله بن مبارك الشعيري، ثنا أحمد بن محمد بن نصر اللياد، ثنا عمرو بن طلحة القناد، عن أسباط عن السدي.

وأما ما نقلته عن المبتدأ لوهب بن منبه، وعن المغازي لمحمد بن إسحق: فأخبرني أبو سعيد الشريحي قال: أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، قال: أنبأني أبو نعيم عبد الملك بن الحسن بن محمد بن إسحق الأزهرى، أنا أبو محمد الحسن بن محمد بن إسحق بن راهويه بن أخت أبي عوانة، أنا أبو الحسن محمد بن حمد بن البراء العبدى، قال: قرأت على أبي عبد الله عبد المنعم بني إدريس، عن أبيه عن وهب بن منبه، وأنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحق الثعلبي أنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ، أنا أبو العباس محمد بن يعقوب بن يوسف المعقلي ثنا أحمد بن عبد الجبار العطاردي، أنا يونس بن بكير عن محمد بن إسحق بن يسار المدني، وأنا أبو سعيد الشريحي، قال أبو إسحق الثعلبي: أنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد بن عقيل الأنصاري، أنا أبو الحسن علي بن الفضل الخزاعي، أنا أبو شعيب بن عبد الله بن الحسن الحراني، أنا النقيلي أنا محمد بن سلمة عن محمد بن إسحق.

أجذم». أخرجه أبو داود الأجدم. قيل هو مقطوع اليد، وقيل هو مقطوع الحجة وقيل هو الذي به جذام. عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «عرضت على أجور أمتي حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد، وعرضت على ذنوب أمتي فلم أر فيها ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيتها رجل ثم نسيها» أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث غريب (ق) عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن ينال بسوء».

أراد بالقرآن المصحف فلا يجوز حمله إلى أرض العدو وهي بلاد الكفار للنهي الوارد فيه ولو كتب كتاباً إليهم فيه آية من القرآن فلا بأس بذلك لأن النبي ﷺ كتب إلى هرقل ملك الروم: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾.

عن عمران بن حصين أنه مر على رجل يقرأ ثم سأل فاسترجع ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ القرآن فليسأل الله به، فإنه سيجيء أقوام يقرؤون القرآن يسألون به الناس» أخرجه الترمذي عن صهيب قال قال رسول الله ﷺ: «ما آمن بالقرآن من استحل محارمه» أخرجه الترمذي وقال ليس إسناده بالقوي. عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة» أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن غريب.

الفصل الثالث في جمع القرآن وترتيب نزوله وفي كونه نزل على سبعة أحرف:

(خ) عن زيد بن ثابت قال: بعث إليّ أبو بكر لمقتل أهل اليمامة وعنده عمر فقال أبو بكر إن عمر جاءني فقال: إن القتل قد استحرّ يوم اليمامة بقراء القرآن وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في كل المواطن فيذهب من القرآن كثير، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن قال قلت لعمر كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ فقال عمر: هو والله خير، فلم يزل يراجعني في ذلك حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر عمر، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد: فقال لي أبو بكر إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، قد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه قال زيد: فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن،

فهذه أسانيد أكثر ما نقلته عن هؤلاء الأئمة وهي مسموعة من طرق سواها، تركت ذكرها حذراً من الإطالة، وربما حكيت عنهم أو عن غيرهم من الصحابة أو التابعين قولاً سمعته بغير هذه الأسانيد بعضها في موضعه من الكتاب إن شاء الله تعالى عز وجل.

ثم إن الناس كما أنهم مُتَعَبِدُونَ باتباع أحكام القرآن، وحفظ حدوده فهم مُتَعَبِدُونَ بتلاوته وحفظ حروفه على سُنَنِ خط المصحف، أعني الإمام الذي اتفقت عليه الصحابة وأن لا يجاوزوا فيما يوافق الخط ما قرأ به القراء المعروفون الذين خلفوا الصحابة والتابعين، واتفقت الأئمة على اختيارهم، وقد ذكرت في الكتاب قراءة من اشتهر منهم بالقراءات واختياراتهم، على ما قرأته على الإمام أبي نصر محمد بن أحمد بن علي المقري المروزي، رحمة الله عليه، تلاوة ورواية، قال: قرأت على أبي القاسم ظاهر بن علي الصرفي، قال: قرأت على أبي بكر أحمد بن الحسين بن مهران بإسناده المذكور، في كتابه المعروف بكتاب العناية، وهم أبو جعفر يزيد بن القعقاع، وأبو عبد الرحمن نافع بن عبد الرحمن المدنيان، وأبو معبد عبد الله بن كثير الداري المكي، وأبو عمران عبد الله بن عامر الشامي، وأبو عمرو زبان بن العلاء المازني العطار، وأبو محمد بن يعقوب بن إسحق الحضرمي البصريان،

فقلت كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال أبو بكر هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدرى للذي شرح له صدر أبي بكر، وفي رواية فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدرى للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر، ورأيت في ذلك الذي رأيا.

قال: فتتبع القرآن أجمعه من الرقاق والعصب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع خزيمة أو مع أبي خزيمة الأنصاري، فلم أجدها مع أحد غيره لقد جاءكم رسول من أنفسكم إلى آخر براءة فألحقته في سورتها.

قال: فكانت الصحف عند أبي بكر حياته حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر.

قال بعض الرواة: اللخاف يعني الخزف (خ) عن أنس أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفرغ حذيفة اختلافهم في القراءة فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلني إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها إليه فأمر زيد بن ثابت وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام رضي الله عنهم فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سوى ذلك من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق.

قال ابن شهاب: وأخبرني خارجة بن زيد أنه سمع زيد بن ثابت يقول فقدت آية من سورة الأحزاب حين نسخت الصحف قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري من المؤمنين «رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه» فألحقناها في سورتها في المصحف قال في رواية ابن اليمان مع خزيمة بن ثابت الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته رجلين، زاد في رواية قال ابن شهاب: اختلفوا يومئذ في التابوت

وأبو بكر عاصم بن أبي النجود الأسدي، وأبو عمارة حمزة بن حبيب الزيات، وأبو الحسن علي بن حمزة الكسائي الكوفيون.

فأما أبو جعفر فإنه أخذ القراءة عن عبد الله بن عباس وأبي هريرة وغيرهما، وهم قرأوا على أبي بن كعب، وأما نافع فإنه قرأ على أبي جعفر القاري، وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج قرأ على أبي هريرة، وقرأ أبو هريرة على أبي بن كعب، وأما عبد الله بن كثير فإنه قرأ على مجاهد بن جبير، وقرأ مجاهد على ابن عباس، وقرأ ابن عباس على أبي بن كعب، وقرأ أبي بن كعب على رسول الله ﷺ، وأما عبد الله بن عامر فإنه قرأ على المغيرة بن أبي شعاب المخزومي، وقرأ المغيرة على عثمان بن عفان، وأما عاصم فإنه قرأ على أبي عبد الرحمن السلمي، وقرأ أبو عبد الرحمن على علي بن أبي طالب، قال عاصم: فكنت أرجع من عند أبي عبد الرحمن فأقرأ على ذر بن حبيش، وكان ذر قد قرأ على عبد الله بن مسعود، وأما حمزة فإنه قرأ على عبد الرحمن بن أبي ليلى وسليمان بن مهران الأعمش وعمدان بن الأعين وغيرهم، وقرأ عبد الرحمن بن أبي ليلى على جماعة من أصحاب علي، وقرأ سليمان بن الأعمش على يحيى بن وثاب، وقرأ يحيى على جماعة من أصحاب عبد الله، وقرأ عمدان على أبي الأسود الدؤلي، وقرأ أبو الأسود الدؤلي على عثمان وعلي، وأما الكسائي فإنه قرأ على حمزة، وأما يعقوب فإنه

فقال زيد التابوه وقال عبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص التابوت، فرفع اختلافهم إلى عثمان فقال: اكتبوه التابوت فإنه بلسان قريش.

(شرح غريب ألفاظ الحديثين وما يتعلق بهما) (قوله بعث إلى أبو بكر لمقتل أهل اليمامة) أي لأوان قتلهم وأراد به الوقعة التي كانت باليمامة في زمن أبي بكر الصديق. وهي وقعة الردة مع أصحاب الردة فقتل فيها خلق كثير من قراء القرآن. واليمامة مدينة باليمن على يمين من الطائف وعلى أربعة أيام من مكة، ولها عمائر وهي في عداد أرض نجد (قوله استحرّ القتل) أي كثر، وينسب المكروه إلى الحر والمحبوب إلى البرد. وشرح الصدر سعته وقبوله الخير (قوله فتتبع القرآن جمعه من الرقاق) جمع رقعة، وهي ما يكتب فيها، والعصب بضم العين والسين المهملتين جمع عسيب وهو جريد النخل وسعفه، واللخاف حجارة بيض رقاق واحده لخفة. (قوله يغازي أهل الشام) أي مع أهل الشام في فتح إرمينية بكسر الهمزة وتخفيف الياء لا غير، سميت بارمين بن لمطي بن لومن بن يافث بن نوح وهو أول ما نزل بها سميت باسمه وأذربيجان بفتح الهمزة وسكون الذال وغير ذلك في ضبطها. وقال ابن جني فيها خمسة موانع من الصرف: التعريف والتأنيث والعجمة والتركيب والألف والنون، وهو موضع من بلاد العجم يشتمل على بلاد كثيرة.

(قوله حتى وجدت آخر سورة التوبة مع خزيمة) أو مع أبي خزيمة الأنصاري. وفي الحديث الآخر فقدت آية من سورة الأحزاب إلى قوله فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ الآية فاعلم أن المذكور في الحديث الأول غير المذكور في الحديث الثاني وهما قضيتان، فأما المذكور في الحديث الأول فهو أبو خزيمة بن أوس بن زيد بن أصرم بن ثعلبة بن عمر بن مالك بن النجار الأنصاري، شهد بدرًا وما بعدها، وتوفي في خلافة عثمان، وهو الذي وجدت عنده آخر سورة التوبة، كذا ذكره ابن عبد البر.

وأما المذكور في الحديث الثاني فهو أبو عمارة خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة بن ساعدة الخطمي الأوسي الأنصاري يعرف بذئ الشهادتين شهد بدرًا، وما بعدها وقتل يوم صفين مع علي بن أبي طالب.

قرأ على أبي المنذر سلام بن سليمان الخراساني، وقرأ سلام على عاصم، فذكرت قراءة هؤلاء للاتفاق على جواز القراءة بها. وما ذكرت من أحاديث رسول الله ﷺ في أثناء الكتاب على وفاق آية أو بيان حكم، فإن الكتاب يطلب بيانه من السنة، وعليهما مدار الشرع وأمور الدين، فهي من الكتب المسموعة للحفظ وأئمة الحديث، وأعرضت عن ذكر المناكير وما لا يليق بحال التفسير، فأرجو أن يكون مباركاً على من أراده وبالله التوفيق.

فصل في فضائل القرآن وتعليمه

أنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أبو محمد عبد الرحمن بن أبي شريح، أنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي، ثنا علي بن الجعد أنا شعبة عن علقمة بن مرثد، قال: سمعت سعد بن عبيدة يحدث عن أبي عبد الرحمن السلمي عن عثمان، قال شعبة: قلت: عن النبي ﷺ؟ قال: نعم، قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» صحيح أخرجه البخاري عن الحجاج بن منهال عن شعبة، أنا أبو بكر محمد بن عبد الصمد الترابي، أنا أبو محمد عبد الله بن أحمد حموية السرخسي، أنا أبو إسحق إبراهيم بن حزيم الشاشي، أنا أبو محمد عبد بن حميد الشاشي، ثنا حسين بن علي الجعفي، قال: سمعت حمزة الزيات عن أبي المختار الطائي عن ابن أخي الحارث الأعور عن الحارث الأعور، قال: مررت في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث، فدخلت على

(قوله فقدت آية من سورة الأحزاب إلى قوله فوجدنا مع خزيمة) معناه أنه كان يطلب نسخ القرآن من الأصل الذي كتب بأمر النبي ﷺ وبين يديه فلم يجد تلك الآية إلا مع خزيمة، وليس فيه إثبات القرآن بقول الواحد لأن زيدا كان قد سمعها من رسول الله ﷺ وعلم موضعها من سورة الأحزاب بتعليم رسول الله ﷺ كما صرح به الحديث قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها وتتبعه الرجال كان للاستظهار لا لاستحداث علم لأن القرآن العظيم كان محفوظاً عند زيد وغيره من الصحابة فقد ثبت في الصحيح عن أنس قال: جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ أربعة كلهم من الأنصار أبي بن كعب ومعاذ بن جبل وأبو زيد وزيد يعني ابن ثابت قلت لأنس من أبو زيد؟ قال أحد عمومي أخرجه في الصحيحين اسم أبي زيد سعد بن عبيد. وأخرج الترمذي من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «خذوا القرآن من أربعة من ابن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة قال: حديث حسن صحيح وتقدم حديث زيد بن ثابت وفيه أنه استحضر القتل بقراء القرآن، فثبت بمجموع هذه الأحاديث أن القرآن كان على هذا التأليف والجمع في زمن رسول الله ﷺ وإنما ترك جمعه في مصحف واحد لأن النسخ كان يرد على بعضه ويرفع الشيء بعد الشيء من التلاوة كما كان ينسخ بعض أحكامه فلم يجمع في مصحف واحد ثم لو رفع بعض تلاوته أدى ذلك إلى الاختلاف واختلاط أمر الدين، فحفظ الله كتابه في القلوب إلى أنقضاء زمن النسخ، ثم وفق لجمعه الخلفاء الراشدين رضي الله تعالى عنهم، وثبت بالدليل الصحيح أن الصحابة إنما جمعوا القرآن بين الدفين كما أنزله الله عز وجل على رسوله ﷺ من غير أن زادوا فيه أو نقصوا منه شيئاً. والذي حملهم على جمعه ما جاء مبيناً في الحديث وهو أنه كان مفرقاً في العصب واللخاف وصدور الرجال فخافوا ذهاب بعضه بذهاب حفظته، ففزعوا إلى خليفة رسول رب العالمين ﷺ أبي بكر فدعوا إلى جمعه، فرأى في ذلك رأيهم فأمر بجمعه في موضع واحد باتفاق من جميعهم، فكتبوا كما سمعوه من رسول الله ﷺ من غير أن قدموا أو أخروا شيئاً ووضعوا له ترتيباً لم يأخذوا من رسول الله ﷺ وكان رسول الله ﷺ يلقي أصحابه ويعلمهم ما ينزل عليه من القرآن على الترتيب الذي هو الآن في مصاحفنا بتوقيف جبريل عليه السلام إياه على ذلك، وإعلامه عند نزول كل آية أن هذه الآية، تكتب عقب آية كذا في سورة كذا، فثبت أن سعي الصحابة كان في جمعه في موضع واحد لا في ترتيبه، فإن القرآن

علي رضي الله عنه، فقلت: يا أمير المؤمنين، ألا ترى أن الناس قد خاضوا في الأحاديث؟ قال: أو قد فعلوها؟ قلت: نعم، قال: أما إني قد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا إنها ستكون فتنة، فقلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة ولا تشعب منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن - أي: لم يتوقفوا - في قبوله، وأنه كلام الله تعالى إذ سمعته حتى قالوا: إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشd فآمنوا به، من قال به صدق ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم»، خذها إليك يا أعور، قال أبو عيسى: هذا الحديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، والحرث فيه مقال، أنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنا أبو منصور محمد بن محمد بن السمعاني، أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الزياتي، ثنا حميد بن زنجويه ثنا إسحاق بن عيسى، قال: سمعت ابن لهيعة يقول: ثنا مسروح بن عاهان قال: سمعت عقبة بن عامر يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: «لو كان القرآن في إهاب ما مسته النار»، قيل معناه: من حمل القرآن وقرأه لم تمسه النار يوم القيامة، أنا عبد الواحد المليحي، أنا أبو منصور السمعاني، أنا أبو جعفر الزياتي ثنا حميد بن زنجويه، ثنا جعفر بن عوف أنا إبراهيم بن مسلم عن أبي

مكتوب في اللوح المحفوظ على النحو الذي هو في مصاحفنا الآن، وقد صح في حديث ابن عباس أن النبي ﷺ كان يعرض القرآن على جبريل عليه السلام في كل عام مرة في رمضان، وأنه عرضه في العام الذي توفي فيه مرتين. ويقال إن زيد بن ثابت شهد العرضة الأخيرة التي عرضها رسول الله ﷺ على جبريل عليه السلام، وهي العرضة التي نسخ فيها ما نسخ وبقي فيها ما بقي. ولهذا أقام أبو بكر زيد بن ثابت في كتابة المصحف، وألزمه بها لأنه قرأ على النبي ﷺ في العام الذي توفي فيه مرتين فكان جمع القرآن سبباً لبقائه في الأمة رحمة من الله تعالى لعباده وتحقيقاً لوعده في حفظه على ما قال تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ واعلم أن الله تعالى أنزل القرآن المجيد من اللوح المحفوظ جملة واحدة إلى سماء الدنيا في شهر رمضان في ليلة القدر، ثم كان ينزله مفرقاً على لسان جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ مدة رسالته نحو ما عند الحاجة وحدث ما يحدث على ما شاء الله تعالى وترتيب نزول القرآن غير ترتيبه في التلاوة والمصحف، فأما ترتيب نزوله على رسول الله ﷺ فأول ما نزل من القرآن بمكة ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾. ثم ﴿ن وَالْقَلَم﴾ ثم ﴿يا أيها المزمل﴾. ثم المدثر. ثم ﴿تبت يدا أبي لهب﴾. ثم ﴿إذا الشمس كورت﴾. ثم ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾. ثم ﴿والليل إذا يغشى﴾ ثم ﴿والفجر﴾. ثم ﴿والضحى﴾. ثم ﴿ألم نشرح﴾ ثم ﴿والعصر﴾ ثم ﴿والعاديات﴾ ثم ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ ثم ﴿ألهاكم التكاثر﴾ ثم ﴿أرأيت الذي﴾ ثم ﴿قل يا أيها الكافرون﴾. ثم ﴿الفيل﴾. ثم ﴿قل هو الله أحد﴾. ثم ﴿والنجم﴾. ثم ﴿عبس﴾. ثم سورة القدر. ثم سورة البروج. ثم التين. ثم ﴿إيلاف قریش﴾. ثم ﴿القارعة﴾. ثم القيامة. ثم الهمزة. ثم المرسلات. ثم ق. ثم سورة البلد. ثم ﴿الطارق﴾ ثم ﴿اقتربت الساعة﴾ ثم ﴿ص﴾. ثم الأعراف. ثم الجن. ثم يس. ثم الفرقان. ثم فاطر. ثم مريم. ثم طه. الواقعة. ثم الشعراء ثم النمل ثم القصص. ثم سورة بني إسرائيل. ثم يونس. ثم هود ثم يوسف. ثم الحجر. ثم الأنعام. ثم الصافات. ثم لقمان. ثم سبأ. ثم الزمر. ثم المؤمن. ثم السجدة. ثم حم عسق. ثم الزخرف. ثم الدخان. ثم الجاثية. ثم الأحقاف. ثم الذاريات. ثم الغاشية. ثم الكهف. ثم النحل. ثم نوح. ثم إبراهيم. ثم الأنبياء. ثم ﴿قد أفلح المؤمنون﴾. ثم تنزيل السجدة.

الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: إن هذا القرآن مادية الله، فتعلموا من مآدبه ما استطعتم، إن هذا القرآن حبل الله، والنور المبين والشفاء النافع، وعصمة لمن تمسك به ونجاة لمن تبعه، لا يزيف فيستعجب، ولا يعوج فيقوم، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد، فاتلوه فإن الله عز وجل يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات، أما أني لا أقول: آلم ولكن الألف واللام والميم. رواه بعضهم عن ابن مسعود مرفوعاً أنا أبو جعفر أحمد ابن أبي أحمد بن مقوية، أنا الشريف أبو القاسم علي بن محمد بن علي الحسني الحراني فيما كتب إلي، أنا أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الأجددي، ثنا أبو الفضل جعفر بن محمد بن الصدلي، ثنا الحسن بن محمد الزعفراني، ثنا علي بن عاصم عن إبراهيم الهجري، عن أبي الأحوص عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ بمعناه، أنا الإمام أبو علي الحسين بن القاضي ثنا أبو محمد عبد الله بن يوسف بن محمد بن ناموية الأصفهاني، أنا أبو محمد عبد الرحمن بن يحيى القاضي الزهري بمكة، أنا محمد بن إسماعيل بن سالم الصائغ أنا سليمان بن داود الهاشمي، ثنا إبراهيم بن سعد عن ابن شهاب الزهري عن عامر بن وائلة بن الطفيل، أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بن الخطاب رضي الله عنه، بعسفان وكان عمر استعمله على مكة، فقال له عمر: من استخلفت على أهل الوادي؟ قال: استخلفت عليهم ابن أبيزى، قال: ومن ابن أبيزى؟ قال: مولى من مواليها، قال عمر: فاستخلفت عليهم مولى؟ فقال: يا أمير المؤمنين إنه رجل قارئ القرآن عالم بالفرائض قاض بالكتاب، فقال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قال: «إن الله يرفع بالقرآن أقواماً ويضع به آخرين»، صحيح أخرجه مسلم عن زهير بن حرب، أنا

ثم الطور ثم الملك. ثم الحاقة. ثم ﴿سأل سائل﴾. ثم ﴿عم يتساءلون﴾ ثم النازعات. ثم ﴿إذا السماء انفطرت﴾. ثم ﴿إذا السماء انشقت﴾. ثم الروم. ثم العنكبوت، واختلفوا في آخر ما نزل بمكة فقال ابن عباس العنكبوت وقال الضحاك وعطاء المؤمنين، وقال مجاهد: ويل للمطففين، فهذا ترتيب ما نزل من القرآن بمكة فذلك ثلاث وثمانون سورة على ما استقرت عليه روايات الثقات. وأما ما نزل بالمدينة فأحدى وثلاثون سورة، فأول ما نزل بها سورة البقرة. ثم الأنفال. ثم آل عمران. ثم الأحزاب. ثم الممتحنة. ثم النساء. ثم ﴿إذا زلزلت الأرض﴾. ثم الحديد. ثم سورة محمد ﷺ. ثم الرعد. ثم سورة الرحمن. ثم ﴿هل أتى على الإنسان﴾. ثم الطلاق. ثم ﴿لم يكن﴾ ثم الحشر. ثم الفلق. ثم الناس. ثم ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ ثم النور. ثم الحج. ثم ﴿إذا جاءك المنافقون﴾ ثم المجادلة. ثم الحجرات. ثم التحريم. ثم الصف. ثم الجمعة. ثم التغابن. ثم الفتح. ثم التوبة. ثم المائدة. ومنهم من يقدم المائدة على التوبة فهذا ترتيب ما نزل من القرآن بالمدينة واختلفوا في الشورى ف قيل نزلت بمكة وقيل نزلت بالمدينة، وسنذكر ذلك في مواضعه إن شاء الله تعالى.

فصل في كون القرآن نزل على سبعة أحرف وما قيل في ذلك :

(ق) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئها رسول الله ﷺ فكنت أساوره في الصلاة فتربصت حتى سلم فليته بردائه فقلت من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأها قال : أقرأنيها رسول الله ﷺ فقلت : كذبت فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت ، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرأنيها فقال رسول الله ﷺ أرسله ، اقرأ يا هشام فقرأ عليه القراءة التي سمعه يقرأها فقال رسول الله ﷺ : «هكذا أنزلت» ثم قال النبي ﷺ : «اقرأ يا عمر» فقرأت بقراءتي التي أقرأني فقال رسول الله ﷺ : «هكذا أنزلت» ثم قال رسول الله ﷺ : «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقروا ما تيسر منه».

يعقوب بن إبراهيم عن أبيه إبراهيم بن سعد التراي ، أنا أبو بكر بن محمد بن عبد الصمد التراي المعروف بابن أبي الهيثم ، أنا الحاكم أبو الفضل محمد بن الحسين الحدادي سنة أربع وثمانين وثلثمائة ، أنا أبو يزيد محمد بن يحيى بن خالد أنا إسحق بن إبراهيم الحنظلي ، أنا جرير يعني ابن عبد الحميد عن قابوس ابن أبي ظبيان عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الرجل الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب» ، قال أبو عيسى : هذا حديث صحيح حسن ، أنا عبد الواحد المليحي ، أنا أبو منصور السمعاني ، أنا أبو جعفر الزباني ثنا حميد بن زنجويه ، أنا أبو أيوب الدمشقي ثنا سعد : أن ابن يحيى ثنا عبد الله بن أبي حميد عن أبي الحاكم الهذلي عن وائلة بن الأسقع ، عن رسول الله ﷺ قال : «أعطيت مكان التوراة السبع الطوال ، وأعطيت مكان الإنجيل المثني ، وأعطيت مكان الزبور المثاني ، وأعطيت فاتحة الكتاب وخواتيم البقرة من تحت العرش لم يعطها نبي قبلي ، وأعطاني ربي المفصل نافلة» ، غريب .

فصل في فضائل تلاوة القرآن

أنا عبد الواحد بن أحمد بن المليحي أنا أبو محمد أنا عبد الرحمن بن أبي شريح ، أنا أبو القاسم البغوي ثنا علي بن الجعد ، أنا شعبة عن قتادة عن ذرارة بن أبي أوفى عن سعد بن هشام عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال : «مثل الماهر بالقرآن مثل السفرة الكرام البررة ، ومثل الذي يقرأه وهو عليه شاق له أجران» ، صحيح .

(قوله فكدت أساوره في الصلاة) أي أو أثبه وأقاتله وهو في الصلاة والتربص الثبت .

(قوله فلبيته بردائه) هو بتشديد الباء الأولى ومعناه أخذت بمجامع رداءه في عنقه وجذبه به مأخوذ من اللبة وفيه بيان ما كانوا عليه من الاعتناء بالقرآن والذب عنه والمحافظة على لفظه كما سمعوه من غير عدول إلى ما تجوزه العربية، وأما أمر النبي ﷺ عمر بإرساله فلأنه لم يثبت عنده ما يقتضي تعزيره، ولأن عمر إنما نسبة إلى مخالفته في القراءة والنبي ﷺ كان يعلم من جواز القراءة ووجوهها ما لا يعلمه عمر، ولأنه إذا قرأ وهو ملبب لا يتمكن من حضور القلب وتحقيق القراءة تمكن المطلق .

(قوله إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فافروا ما تيسر منه) قال العلماء : سبب إنزاله على سبعة أحرف التخفيف والتسهيل، واختلفوا في المراد بسبعة أحرف فقليل : هو توسعه وتسهيل ولم يقصد به الحصر وقال الأكثرون : هو حصر العدد في سبعة أحرف ثم قيل هي في سبع من المعاني كالوعد والوعيد والمحكم والمتشابه والحلال والحرام والقصص والأمثال والأمر والنهي، وقيل : هي في صورة التلاوة وكيفية النطق بكلمات القرآن من إدغام وإظهار وتفخيم وترقيق ومد وقصر وإمالة لأن العرب كانت مختلفة اللغات في هذه الوجوه فيسر الله تعالى عليهم ليقراً كل إنسان بما يوافق لغته ويسهل على لسانه .

وقال أبو عبيدة هي سبع لغات من لغات العرب تميمها ومعدها وهي أفصح لغات العرب وأعلاها، وقيل : هي لغة قريش وهوازن وهذيل وأهل اليمن، وقيل : السبعة كلها لمضر وحدها وهي متفرقة في القرآن العزيز غير مجمعة في كلمة واحدة، وقيل : بل هي مجمعة في بعض الكلمات كقوله تعالى ﴿وعبد الطاغوت﴾ و﴿نرفع ونلعب﴾ و﴿باعد بين أسفارنا﴾ و﴿بعذاب بئيس﴾ وقيل هي سبع قراءات وهو الصحيح الموافق للحديث لأن هذه السبعة ظهرت واستفاضت عن النبي ﷺ وضبطها عنه الصحابة وأثبتها عثمان والجماعة في المصاحف وأخبروا بصحتها وحذفوا منها ما لم يثبت متواتراً . وإن هذه الأحرف تختلف معانيها تارة وألفاظها أخرى وليست متضادة ولا متباينة . فأما من قال إن المراد بالأحرف سبعة معان مختلفة كالأحكام والأمثال والقصص فخطأ محض لأن النبي ﷺ أشار إلى جواز القراءة بكل واحد من الحروف وإبدال حرف بحرف وقد تقرر إجماع المسلمين على أنه

وقال هشام الدستوائي عن قتادة بهذا الإسناد : (الذي يقرأ وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة) . أنا أبو حامد أحمد بن عبد الله الصالحي ، أنا أبو عمر بكر بن محمد بن عبد الله حفيد العباس بن حمزة ، ثنا أبو علي الحسين بن الفضل البجلي ثنا عفان ، ثنا أبان بن يزيد ثنا قتادة عن أنس عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ كان يقول : «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحان ريحها طيب ولا طعم لها، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها» ، صحيح أخرجه البخاري عن قتيبة عن أبي غوانة عن قتادة ، أنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني ثنا أبو جعفر الزياتي ، ثنا حميد بن زنجويه ثنا أبو نعيم ثنا سفيان عن عاصم - يعني - ابن بهدلة عن زر عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال : «يقال يعني لصاحب القرآن إقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلك عند آخر آية تقرأها» ، قال أبو عيسى : هذا حديث صحيح حسن . أنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني أنا أبو جعفر الزياتي ثنا حميد بن زنجويه ، ثنا النضر بن شميل ثنا هشام الدستوائي ، عن يحيى بن كثير عن أبي سلام عن أبي أمامة أنه حدّثه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : «إقرأ القرآن فإنه يأتي شافعاً لأصحابه، إقرأ الزهراوين : البقرة وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما، إقرأ البقرة فإن

يحرم إبدال آية أمثال بآية أحكام، وقول من قال إن المراد خواتيم الآي فيجعل مكان غفور رحيم سميع عليم ففساد أيضاً وخطأ للإجماع على أنه لا يجوز تغيير نظم القرآن والله أعلم (ق) عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أقراني جبريل على حرف فراجعته فزادني فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف» معنى الحديث لم أزل أطلب من جبريل أن يطلب من الله عز وجلّ الزيادة في الأحرف للتوسعة والتخفيف ويسأل جبريل ربه عز وجلّ فيزيده حتى انتهى إلى السبعة (م) عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: كنت في المسجد فدخل رجل يصليّ فقرأ قراءة أنكرتها عليه ثم دخل آخر، فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله ﷺ فقلت: إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه فدخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه فأمرهما رسول الله ﷺ فقرأ فحسن النبي ﷺ شأنهما فسقط في نفسي من التكذيب ولا إذ كنت في الجاهلية، فلما رأى رسول الله ﷺ ما غشيني ضرب في صدري ففضت عرقاً وكأنما أنظر إلى الله عز وجلّ فرقاً فقال لي: يا أبي أرسل إليّ أن أقرأ على حرف واحد فرددت إليه أن هوّن على أمتي، فرد إليّ الثانية أن أقرأه على حرفين فرددت إليه أن هوّن على أمتي، فرد إليّ الثالثة أن أقرأه على سبعة أحرف ولك بكل ردة رددتها مسألة تسألنيها فقلت: اللهم اغفر لأمتي اللهم اغفر لأمتي وأخرت الثالثة ليوم ترغب إلى الناس كلهم حتى إبراهيم.

(قوله فسقط في نفسي من التكذيب ولا إذ كنت في الجاهلية) معناه وسوس لي الشيطان تكديماً للنبوة أشد مما كنت عليه في الجاهلية لأنه كان في الجاهلية غافلاً ومشككاً فوسوس له الشيطان الجزم بالتكذيب. وقيل: معناه أنه اعترته حيرة ودهشة ونزع الشيطان في قلبه تكديماً لم يعتقده وهذه الخواطر إذا لم يستمر عليها الإنسان لا يؤاخذ بها.

(قوله ضرب في صدري ففضت عرقاً) قال القاضي عياض: ضربه ﷺ في صدره تثبيتاً له حين رآه قد غشيه ذلك خاطر المذموم.

(قوله وكأنما انظر إلى الله تعالى فرقاً) الفرق بالتحريك الخوف والخشية والمعنى أنه غشيه من الهيبة والخوف والعظمة حين ضربه ما أزال عنه ذلك خاطر.

أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة». صحيح. أنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني أنا أبو جعفر الزياتي ثنا حميد بن زنجويه، ثنا أبو نعيم ثنا بشير بن مهاجر العنوي، ثنا عبد الله بن بُريدة عن أبيه قال: كنت جالساً عند النبي ﷺ فسمعتة يقول: «تعلموا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة» ثم سكت ساعة ثم قال: «تعلموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوين وإنهما تظللان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف، وأن القرآن يأتي صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك فيقول له أنا صاحبك القرآن الذي أظمتك بالهواجر وأسهرت ليلتك، وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من ورائي كل تجارة فيعطى الملك بيمينه والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار ويكسى والداه حُلَّتَيْن لا يقوم لهما أهل الدنيا فيقولان: بِمَ كسبنا هذا؟ فيقول لهما: بأخذٍ ولدكما القرآن، ثم يُقال: إقرأوا واصعدوا في درج الجنة وغُرُفها فهو في صعودها ما دام يقرأ هزاً كان أو ترتيلاً»، غريب. أنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني أنا أبو جعفر الزياتي ثنا حميد بن زنجويه ثنا أيوب الدمشقي، ثنا إسماعيل بن عباس ثنا ليث بن أبي سليم عن مجاهد عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «من استمع إلى آية من كتاب الله عز وجلّ كتبت له حسنة مضاعفة، ومن قرأ آية من كتاب الله كانت له نوراً يوم القيامة» أخبرنا الإمام أبو علي حسين بن محمد القاضي، أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيايدي، أنا أبو

(قوله ولك بكل ردة رددتها مسألة تسألنيها) معناه مسألة مجابة قطعاً وأما باقي الدعوات فمرجوة الإجابة وليست قطعية الإجابة والله أعلم. روى البغوي بسنده عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «إن القرآن نزل على سبعة أحرف لكل آية منه ويروي لكل حرف منه ظهر وبطن ولكل حد مطلع» قيل في معناه الظهر لفظ القرآن والبطن تأويله. وقيل في معناه الظهر ما حدث عن أقوام أنهم عصوا فعوقبوا فهو في الظاهر خبر وفي الباطن عظة. وقيل الظهر التلاوة باللسان كما أنزل، والبطن التدبر والفهم والتفكير بالقلب فالتلاوة باللسان كما تكون بالتعليم والتلقين والتدبر والفهم تكون بصدق النية وتعظيم الحرمة وإخلاص العمل وطيب المطعم من الحلال المحض.

(قوله ولكل حد مطلع) معناه، مصعد يصعد إليه من معرفة علمه. وقيل المطلع الفهم وقد يفتح الله تعالى على المتدبر والمتفكر في القرآن العزيز من التأويل والمعاني ما لا يفتحه على غيره «وفوق كل ذي علم عليم» والله أعلم.

فصل في معنى التفسير والتأويل :

فأما التفسير فأصله في اللغة من الفسر، وهو كشف ما غطى، وهو بيان المعاني المعقولة فكل ما يعرف به الشيء ومعناه فهو تفسير. وقد يقال فيما يختص بمفردات الألفاظ وغريبها تفسير. وقيل هو من التفسرة وهو الدليل الذي ينظر فيه الطبيب فيكشف عن علة المريض فكذلك المفسر يكشف عن معنى الآية وشأنها وقصتها. وأما التأويل فاشتقاقه من الأول وهو الرجوع إلى الأصل يقال أولته فأول أي صرفته فانصرف، وهو رد الشيء إلى الغاية والمراد منه بيان غايته المقصودة منه فالتأويل بيان المعاني والوجوه المستنبطة الموافقة للفظ الآية. والفرق بين التفسير والتأويل أن التفسير يتوقف على النقل المسموع والتأويل يتوقف على الفهم الصحيح والله أعلم.

(القول في الاستعاذة) ولفظها المختار أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لموافقة قوله تعالى: ﴿فإذا قرأت القرآن﴾

بكر محمد بن عمر بن حفص التاجر، ثنا إبراهيم بن عبد الله بن عمر بن بكير الكوفي، أنا وكيع عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب أحدكم إذا رجع إلى أهله أن يجد فيه ثلاث خَلَفَاتٍ عِظَامِ سِمَانٍ؟» قلنا: نعم يا رسول الله! قال: «ثلاث آيات يقرؤهن أحدكم في صلاته خير له من ثلاث خَلَفَاتٍ عِظَامِ سِمَانٍ». صحيح. أنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني أنا أبو جعفر الزياتي، ثنا حميد بن زنجويه ثنا أبو الأسود ثنا ابن لهيعة عن زبान هو ابن فائد عن سهل هو ابن معاذ الجهني عن أبيه رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ قرأ القرآن فأحكمه وعمل بما فيه البس والده يوم القيامة تاجاً ضوءه أحسن من ضوء الشمس في بيت من بيوت الدنيا لو كانت فيه فما ظنكم بالذي عمل به؟». أنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي أنا محمد بن عبد الله الصفار ثنا أحمد بن محمد بن عيسى البولي، ثنا أبو حذيفة ثنا سفيان الثوري عن الأعمش عن حثيمة عن رجل أن عمران بن حصين مرّ على رجل يقرأ على قوم، فلما قرأ، سأل، فقال عمران: إنا لله وإنا إليه راجعون سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ قرأ القرآن فليسأل الله به فإنه سيجيء أقوام يقرؤون القرآن يسألون الناس به»، رواه أبو عيسى عن محمود بن غيلان عن أبي أحمد عن سفيان عن الأعمش عن حثيمة عن الحسن، عن عمران بن حصين قال: وقال محمد بن إسماعيل هو حثيمة البصري الذي روى عنه جابر الجعفي، وليس هو حثيمة بن عبد الرحمن.

فصل في وعيد مَنْ قال في القرآن برأيه من غير علم

أنا أبو بكر محمد بن عبد الصمد الترابي، أنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حموية السرخسي، أنا أبو

فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ ومعنى أعوذ بالله ألتجئ إليه وأمتنع به مما أخشاه من عاذ يعوذ، والشيطان أصله من شطن أي تباعد من الرحمة وقيل من شاط يشيط إذا هلك واحترق غضباً والشيطان اسم لكل عارم عات من الجن والإنس وشيطان الجن مخلوق من قوة النار فلذلك فيه القوة الغضبية الرجيم فعيل بمعنى فاعل أي يرحم بالوسوسة والشر وقيل بمعنى مفعول أي مرجوم بالشهب عند استراق السمع، وقيل مرجوم بالعذاب وقيل مرجوم بمعنى مطرود عن الرحمة وعن الخيرات وعن منازل الملأ الأعلى. وأما حكم الاستعاذة ففيه مسائل.

المسألة الأولى: اتفق الجمهور على أن الاستعاذة سنة في الصلاة فلو تركها لم تبطل صلاته سواء تركها عمداً أو سهواً، ويستحب لقارئ القرآن خارج الصلاة أن يتعوذ أيضاً. وحكي عن عطاء وجوبها سواء كانت في الصلاة أو غيرها. وقال ابن سيرين إذا تعوذ الرجل في عمره مرة واحدة كفى في إسقاط الوجوب، دليل الوجوب ظاهر قوله تعالى: ﴿فاستعذ﴾ والأمر للوجوب، وأن النبي ﷺ واظب على التعوذ فيكون واجباً، ودليل الجمهور أن النبي ﷺ لم يعلم الأعرابي الاستعاذة في جملة أعمال الصلاة وتأخير البيان عن وقته غير جائز. وأجيب عن قوله تعالى: ﴿فاستعذ﴾ بأن معناه عند جماهير العلماء إذا أردت القراءة فاستعذ كقوله: «إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا» معناه إذا أردتم القيام إلى الصلاة. وأجيب عن مواظبة النبي ﷺ بأنه ﷺ واظب على أشياء كثيرة من أفعال الصلاة ليست بواجبة كتكبيرات الانتقالات والتسبيحات في الصلاة فكان التعوذ مثلها.

المسألة الثانية: وقت الاستعاذة قبل القراءة عند الجمهور سواء كان في الصلاة أو خارجها، وحكي عن النخعي أنه بعد القراءة، وهو قول داود وإحدى الروایتين عن ابن سيرين حجة الجمهور ما روي عن أبي سعيد الخدري قال: «كان النبي ﷺ إذا قام إلى الصلاة بالليل كبر ثم يقول: سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك. ثم يقول: الله أكبر كبيراً، ثم يقول: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه» أخرجه الترمذي وقال هذا الحديث أشهر حديث في الباب وقد تكلم في بعض رجاله وقال

إسحاق إبراهيم بن حزم الشاشي، ثنا أبو محمد عبيد بن حميد ثنا عبد الرزاق، أنا الثوري عن عبد الأعلى عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهم، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»، أنا أبو منصور محمد بن عبد الملك المظفري، أنا أبو سعيد أحمد بن الفضل الفقيه، أنا أبو عبد الله الحسين بن البصري ثنا أبو الفضل العباس بن محمد الدوري، أخبرنا يحيى بن حماد ثنا أبو عوانة عن عبد الأعلى، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار»، أنا أبو بكر محمد بن عبد الصمد الترابي حدثنا عبد الله بن أحمد بن حموية، أنا إبراهيم بن خزيمة أنا عبد بن حميد، ثنا حبان بن هلال ثنا سهيل أخو حزم القطعي، ثنا أبو عمران الحوفي، عن جند بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»، غريب، وسئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿وفاكهة وأبا﴾ [عبس: ٣١] فقال: وأي سماء تُظلني وأي أرض تُقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم؟! وقال أبو الدرداء رضي الله عنه لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهاً كثيرة، قال حماد: قلت لأبي أيوب: ما معنى قول أبي الدرداء رضي الله عنه، فجعل يتفكر، فقلت: هو أن ترى له وجوهاً فتهاجب الإقدام عليه، فقال: هو ذاك.

قال شيخنا الإمام رحمه الله: قد جاء الوعيد في حق مَنْ قال في القرآن برأيه وذلك فيمن قال مَنْ قِيلَ نفسه شيئاً من غير علم، فأما التأويل وهو صرف الآية إلى معنى مُحتمل يُوافق ما قبلها وما بعدها غير مخالف للكتاب

أحمد لا يصح ولأبي داود والنسائي عن أبي سعيد نحوه. وعن جبير بن مطعم أنه رأى النبي ﷺ صلى صلاة قال عمر ولا أدري أي صلاة هي قال: الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً ثلاثاً وسبحان الله بكرة وأصيلاً ثلاثاً أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من نفخة ونفته وهمزه، قال نفخه الكبر ونفته الشعر وهمزه الموتة أخرجه أبو داود وقيل الموتة الجنون لأن من جن فقد مات عقله. وقيل همزه هو الذي يوسوسه في الصلاة ونفخه هو الذي يلقيه من الشبه في الصلاة ليقطع عليه صلاته. واحتج مخالف الجمهور بظاهر قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ وأجيب عنه بما تقدم. وقال مالك: لا يتعوذ في المكتوبة ويتعوذ في قيام رمضان بعد القراءة. لنا ما تقدم من الأدلة.

المسألة الثالثة: المختار من لفظ الاستعاذة عند الشافعي أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وبه قال أبو حنيفة لموافقة قوله تعالى: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ ولحديث جبير بن مطعم. وقال أحمد الأولى أن يقول أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم جمعاً بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ولحديث أبي سعيد. وقال الثوري والأوزاعي: الأولى أن يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم، وبالجمله فالاستعاذة تطهر القلب عن كل شيء يشغله عن الله تعالى. ومن لطائف الاستعاذة أن قوله أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إقرار من العبد بالعجز والضعف واعتراف من العبد بقدرة الباري عز وجل وأنه هو الغني القادر على دفع جميع المضرات والآفات واعتراف من العبد أيضاً بأن الشيطان عدو مبين، ففي الاستعاذة التجاء إلى الله تعالى القادر على دفع وسوسة الشيطان الغوي الفاجر، وأنه لا يقدر على دفعه عن العبد إلا الله تعالى والله أعلم.

والسنة من طريق الاستنباط فقد رُخص فيه لأهل العلم، أما التفسير وهو الكلام في أسباب نزول الآية وشأنها وقصتها، فلا يجوز إلا بالسماع بعد ثبوته من طريق النقل، وأصل التفسير من التفسرة، وهي الدليل، من الماء الذي ينظر فيه الطبيب فيكشف عن علة المريض، كذلك المفسر يكشف عن شأن الآية وقصتها، واشتقاق التأويل: من الأول، وهو الرجوع، يُقال: أولته فأول، أي: صرفته فانصرف. أخبرنا أبو بكر بن أبي الهيثم البراني أنا الحاكم أبو الفضل الحدادي أنا أبو يزيد محمد بن يحيى أن إسحق بن إبراهيم الحنظلي، ثنا جرير بن عبد الحميد عن المغيرة عن واصل بن حيان، عن ابن هذيل عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، لكل آية منها ظهر وبطن ولكل حد مطلع» ويروى: «لكل حرف حد ولكل حد مطلع». واختلفوا في تأويله، قيل: الظهر لفظ القرآن، والبطن تأويله، وقيل: الظهر ما حدث عن أقوام أنهم عصوا فعُوقبوا، فهو في الظاهر خبر وباطنه عظة وتحذير أن يفعل أحد مثل ما فعلوا فيحل به ما حل بهم، وقيل: معنى الظهر والبطن التلاوة والتفهم، يقول: لكل آية ظاهر وهو أن تقرأها كما أنزلت، قال الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: ٤]، وباطن وهو التدبر والتفكر، قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]، ثم التلاوة تكون بالتعلم، والحفظ بالدرس، والتفهم يكون بصدق النية وتعظيم الحرمة، وطيب الطعمة، وقوله: «لكل حرف حد» أراد به من حد في التلاوة والتفسير لا يجاوز، ففي التلاوة لا يجاوز المصحف وفي التفسير لا يجاوز المسموع، وقوله: «لكل حد مطلع» أي: مصعد يصعد إليه من معرفة علمه، ويُقال: المطلع الفهم، وقد يفتح الله على المدبر والمتفكر في التأويل والمعاني ما لا يفتح على غيره، وفوق كل ذي علم عليم وما توفيقى إلا بالله العزيز الحكيم.

تفسير سورة الفاتحة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ
وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

وهي سبع آيات بالاتفاق وسبع وعشرون كلمة ومائة وأربعون حرفاً. واختلف العلماء في نزولها ف قيل نزلت بمكة وهو قول أكثر العلماء. وقيل نزلت بالمدينة وهو قول مجاهد. وقيل نزلت مرتين بمكة ومرة بالمدينة وسبب ذلك التنبيه على شرفها وفضلها ولها عدة أسماء وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى وفضله. (فأول ذلك فاتحة الكتاب) سميت بذلك لأن بها افتتح القرآن، وبها تفتتح كتابة المصاحف، وبها تفتتح الصلاة. (الثاني سورة الحمد) سميت بذلك لافتتاحها بالحمد لله (الثالث أم القرآن) وأم الكتاب، سميت بذلك لأنها أصل القرآن وأم كل شيء أصله، وقيل هي إمام لما يتلوها من السور. (الرابع السبع المثاني) سميت بذلك لأنها تنشئ في الصلاة ويقرأ بها في كل ركعة، وقيل لأن الله تعالى استثنى هذه الأمة وادخرها لهم لم ينزلها على غيرهم وقيل لأنها أنزلت مرتين (الخامس الوافية) سميت بذلك لأنها لا تقسم في القراءة في الصلاة كما يقسم غيرها من السور (السادس الكافية) سميت بذلك لأنها تكفي عن غيرها في الصلاة ولا يكفي عنها غيرها.

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

ولها ثلاثة أسماء معروفة: فاتحة الكتاب، وأم القرآن، والسبع المثاني، سُميت فاتحة الكتاب لأنه تعالى بها افتتح القرآن، وأم الكتاب: لأنها أصل القرآن، منها بُدئ القرآن، وأم الشيء أصله، ويُقال لمكة: أم القرى، لأنها أصل البلاد، دُحيت الأرض من تحتها، وقيل: لأنها مقدمة وإمام يتلوها من السور يبدأ بكتابتها في الصحف وبقراءتها في الصلاة، والسبع المثاني: لأنها سبع آيات باتفاق العلماء، وسُميت مثاني لأنها تنشئ في الصلاة، فتقرأ في كل ركعة، وقال مجاهد: سُميت مثاني لأن الله تعالى استثنى هذه الأمة فدخرها لهم، وهي مكية على قول الأكثرين، وقال مجاهد: مدنية، وقيل: نزلت مرتين، مرة بمكة ومرة بالمدينة، ولذلك سُميت مثاني، والأول أصح أنها مكية لأن الله تعالى من على الرسول ﷺ بقوله: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني﴾ [الحجر: ٨٧]، والمراد منها: فاتحة الكتاب، وسورة الحَجَرِ مكية، فلم يكن يَمَنّ عليه بها قبل نزولها.

قوله: ﴿بسم الله﴾ الباء زائدة يخفض ما بعدها، مثل مِنْ وَعَنْ، والمتعلق به محذوف لدلالة الكلام عليه، تقديره: ابدأ بسم الله أو قل بسم الله، وأسقطت الألف من الاسم طلباً للخفة لكثرة استعمالها، وطوّلت الباء قال

فصل : في ذكر فضلها :

(خ) عن أبي سعيد بن المعلى قال: كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه، ثم أتيته فقلت يا رسول إني كنت أصلي فقال: ألم يقل الله استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم ثم قال لي لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد ثم أخذ بيدي فلما أراد أن يخرج قلت له يا رسول ألم تقل لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قال: الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته ورواه مالك في الموطأ عنه وقال فيه إن النبي ﷺ نادى أبي بن كعب وهو يصلي وذكر نحوه وفيه حتى تعلم سورة ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور مثلها ورواه الترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ خرج على أبي وهو يصلي وذكر نحو رواية الموطأ وقال فيه حديث حسن صحيح عن أبي بن كعب قال قال رسول الله ﷺ: «ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن وهي السبع المثاني وهو مقسومة بيني وبين عبدي، ولعبدني ما سألت» أخرجه الترمذي والنسائي عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله رب العالمين أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني» أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح (م) عن ابن عباس قال: بينا جبريل قاعد عند رسول الله ﷺ سمع نقيصاً من فوقه فرفع رأسه فقال هذا باب من السماء فتح اليوم ولم يفتح قط إلا اليوم فنزل منه ملك فقال هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم فسلم وقال أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيتها (قوله سمع نقيصاً) هو بالقفاف والضاد المعجمة أي صوتاً كصوت فتح الباب (م) عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج هي خداج غير تمام» قال فقلت يا أبا هريرة إنا أحياناً نكون وراء الإمام فغمز ذراعي وقال: اقرأ بها في نفسك يا فارسي فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تبارك وتعالى: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدني نصفين فنصفها لي ونصفها لعبدني ولعبدني ما سألت، فإذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله حمدني عبدني، وإذا قال الرحمن الرحيم قال أثنى علي عبدني، وإذا قال مالك يوم الدين قال مجدني عبدني وربما قال فوض إلي عبدني، وإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين قال هذا بيني وبين عبدني ولعبدني ما

القطيبي: ليكون افتتاح كلام كتاب الله بحرف مُعْظَم، كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يقول لكتّابه: طَوَّلُوا الباء وأظهروا السين وفرَّجوا بينهما ودَوَّرُوا الميم تعظيماً لكتاب الله عزَّ وجلَّ، وقيل: لَمَّا أسقطوا الألف ردُّوا طُول الألف على الباء ليكون دالاً على سقوط الألف، ألا ترى أنه لَمَّا كتب الألف في: ﴿اقرأ باسم ربِّك﴾ [العلق: ١] رُدَّتْ الباء إلى صيغتها، ولا يحذف الألف إذا أُضيف الاسم إلى غير الله ولا مع غير الباء، والاسم هو المسمَّى وعينه وذاته، قال الله تعالى: ﴿إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى﴾ [مريم: ٧]، أخبر أن اسمه يحيى ثم نادى الاسم فقال: ﴿يا يحيى﴾ [مريم: ١٢]، وقال: ﴿ما تعبدون من دونه إلا أسماء سَمَّيْتُمُوهَا﴾ [يوسف: ٤٠]، وأراد الأشخاص المعبودة، لأنهم كانوا يعبدون المسمَّيات وقال: ﴿سَبِّح اسم ربِّك﴾ [الأعلى: ١]، و﴿تبارك اسم ربِّك﴾ [الرحمن: ٧٨]، ثم يُقال للتسمية أيضاً اسم، فاستعماله في التسمية أكثر من المسمَّى، فإن قيل: ما معنى التسمية من الله لنفسه؟ قيل: هو تعليم للعباد كيف يستفتحون القراءة، واختلفوا في اشتقاقه، قال المبرِّد من البصريين: هو مشتق من السمو وهو العلو، فكأنه على علا معناه وظهر عليه وصار معناه لا تحته، وقال ثعلب من الكوفيين: هو من الوسم والسمَّة وهي العلامة وكأنه علامة لمعناه وعلامة للمسمَّى، والأول أصح لأنه يُصَغَّر على سُمي، ولو كان من السميت لكان يُصَغَّر على الوسيم كما يُقال في الوعد وعيد، ويُقال في تصريفه: سَمَّيت، ولو كان من الوسم لقليل وسمت.

سأل، وإذا قال اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل».

(قوله: فهي خداج) أي ناقصة (قوله: فغمز ذراعي) أي كبس ساعدي بيده. (قوله قسمت الصلاة) أراد بالصلاة هنا القراءة لأنه فسرهما بها ولأن القراءة ركن من أركانها وجزء من أجزائها. (قوله: نصفين) حقيقة هذه القسمة التي جعلها بينه وبين عبده راجعة إلى المعنى لا إلى اللفظ لأن هذه السورة من جهة المعنى نصفها ثناء ونصفها مسألة ودعاء وقسم الثناء انتهى عند قوله تعالى: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ من قسم الدعاء ولهذا قال هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل. (قوله: حمدني عبدي ومجديني) أي أثنى علي لأن الحمد هو الثناء بجميل الفعال والتمجيد الثناء بصفات الجلال وقيل التحميد والتمجيد التعظيم (قوله: وربما قال فوض إلي عبدي) وجه مطابقة هذا لقوله مالك يوم الدين يقال فلان فوض أمره إلى فلان إذا رده إليه وعول فيه عليه وفي الحديث دليل على وجوب قراءة الفاتحة وأنها متعينة وهو مذهب الشافعي وجماعة وستأتي هذه المسألة إن شاء الله تعالى بعد ذكر تفسير الفاتحة، والله أعلم.

(بسم الله الرحمن الرحيم) الباء في بسم الله حرف خافض يخفض ما بعده مثل من وعن والمتعلق به مضمرة محذوفة لدلالة الكلام عليه تقديره: أبدأ بسم الله أو باسم الله أبدأ أو أقرأ، وإنما طولت الباء في بسم الله وأسقطت الألف طلباً للخفة، وقيل لما أسقطوا الألف ردوا طولها على الباء ليدل طولها على الألف المحذوفة وأثبتت الألف في قوله تعالى: ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ لقلة استعماله وقيل إنما طولوا الباء لأنهم أرادوا أن يستفتحوا كتاب الله بحرف معظم وقيل الباء حرف منخفض الصورة فلما اتصل باسم الله ارتفع واستعلى وقيل إن عمر بن عبد العزيز كان يقول لكتابه طولوا الباء من بسم الله وأظهروا السين ودوروا الميم تعظيماً لكتاب الله عز وجل. والاسم هو المسمى عينه وذاته قال الله تعالى: ﴿إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى﴾ ثم نادى الاسم فقال يا يحيى وقال ﴿سبح اسم ربك، وتبارك اسم ربك﴾ وهذا القول ليس بقوي، والصحيح المختار أن الاسم غير المسمى وغير التسمية،

قوله تعالى: ﴿الله﴾ قال الخليل وجماعة: هو اسم علم خاص لله عز وجل لا اشتقاق له كأسماء الأعلام للعباد، مثل زيد وعمرو، وقال جماعة: هو مشتق، ثم اختلفوا في اشتقاقه فقيل: من أله إلهة أي: عبد عبادة، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ويدرك وآلهتك﴾ [الأعراف: ١٢٧] أي: عبادتك معناه أنه المستحق للعبادة دون غيره، وقيل: أصله أله، قال الله عز وجل: ﴿وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق﴾ [المؤمنون: ٩١]، قال المبرد: هو قول العرب: ألهمت إلى فلان أي سكنت إليه، قال الشاعر:

ألهمت إليها والحوادث جمّة

فكان الخلق يسكنون إليه ويطمثون بذكره، يقال: ألهمت إليه أي: فزعت إليه، وقال الشاعر:

ألهمت إليها والركائب وقف

وقيل: أصل الإله ولاه، فأبدلت الواو بالهمزة مثل وشاح وأشاح، اشتقاقه من الوله لأن العباد يولّهون إليه، أي يفزعون إليه في الشدائد ويلجؤون إليه في الحوائج كما يوله كل طفل إلى أمه، وقيل: هو من الوله وهو ذهاب العقل لفقد من يعزّ عليك.

قوله: ﴿الرحمن الرحيم﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: هما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر، واختلفوا فيهما، منهم من قال: هما بمعنى واحد مثل ندمان ونديم، ومعناهما ذو الرحمة، وذكر أحدهما بعد الآخر

فالاسم ما تعرف به ذات الشيء، وذلك لأن الاسم هو الأصوات المقطعة والحروف المؤلفة الدالة على ذات ذلك الشيء المسمى به، فثبت بهذا أن الاسم غير المسمى وأيضاً قد تكون الأسماء كثيرة والمسمى واحد كقوله تعالى: ﴿والله الأسماء الحسنى﴾. وقد يكون الاسم واحداً والمسميات به كثيرة كالأسماء المشتركة وذلك يوجب المغايرة وأيضاً فقوله: ﴿فادعوه بها﴾ أمر أن يدعي الله تعالى بأسمائه فالاسم آلة الدعاء والمدعو هو الله تعالى فالمغايرة حاصلة بين ذات المدعو وبين اللفظ المدعو به. وأجيب عن قوله تعالى: ﴿إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى﴾ بأن المراد ذات الشخص المعبر عنه يحيى لا نفس الاسم. وأجيب عن قوله تعالى سبح اسم ربك وتبارك اسم ربك بأن معنى هذه الألفاظ يقتضي إضافة الاسم إلى الله تعالى وإضافة الشيء إلى نفسه محال وقيل كما يجب تنزيه ذاته سبحانه وتعالى عن النقص فكذلك يجب تنزيه أسمائه وكون الاسم غير التسمية هو أن التسمية عبارة عن تعيين اللفظ المعين لتعريف ذات الشيء، والاسم عبارة عن تلك اللفظة المعينة والفرق ظاهر. واختلفوا في اشتقاق الاسم فقال البصريون من السمو وهو العلو، فاسم الشيء ما علاه حتى ظهر به وعلا عليه، فكأنه علا على معناه وصار علماً له. وقال الكوفيون من السمة وهي العلامة فكأنه علامة لمسماه، وحجة البصريين لو كان الاسم اشتقاقه من السمة لكان تصغيره وسيم وجمعه أوسام وأجمعوا على أن تصغيره سمي وجمعه أسماء وأسام (الله) هو اسم علم خاص لله تعالى تفرد به الباري سبحانه وتعالى ليس بمشتق ولا يشركه فيه أحد وهو الصحيح المختار دليله قوله تعالى: ﴿هل تعلم له سمياً﴾ يعني لا يقال لغيره الله، وقيل هو مشتق من أله يأله إلهة مثل عبد الرجل يعبد عبادة دليله «ويذكر وألهتك» أي وعبادتك ومعناه المستحق للعبادة دون غيره. وقيل: من الوله وهو الفرع لأن الخلق يولّهون إليه أي يفرعون إليه في حوائجهم، قال بعضهم:

ولهت إليكم في بلايا تنويني فالفنكم فيها كرائم محتد

وقيل أصله أله، يقال: ألهت إلى فلان أي سكنت إليه فكأن الخلق يسكنون إليه ويطمثون بذكره، وقيل أصله ولاه فأبدلت الواو همزة سمي بذلك لأن كل مخلوق وإله نحوه إما بالتخير أو بالإرادة ومن هذا قيل الله محبوب كل الأشياء يدل عليه، «وإن من شيء إلا يسبح بحمده» ومن خصائص هذا الاسم أنك إذا حذفته منه شيئاً بقي الباقي يدل عليه فإن حذفت الألف بقي الله، وإن حذفت اللام وأثبت الألف بقي إله، وإن حذفتها بقي له وإن

تطمعاً لقلوب الراغبين، وقال المبرد: هو إنعام بعد إنعام وتفضل بعد تفضل، ومنهم من فرق بينهما فقال: للرحمن معنى العموم، وللرحيم معنى الخصوص، فالرحمن بمعنى الرزاق في الدنيا، وهو على العموم لكافة الخلق، والرحيم بمعنى المعافي في الآخرة والعفو في الآخرة للمؤمنين على الخصوص، ولذلك قيل في الدعاء: يا رحمن الدنيا ورحيم الآخرة، فالرحمن من يصل رحمته إلى الخلق على العموم، والرحيم من يصل رحمته إليهم على الخصوص، ولذلك يدعى غير الله رحيماً ولا يدعى رحماناً، فالرحمن عام المعنى خاص اللفظ، والرحيم عام اللفظ خاص المعنى، والرحمة إرادة الله الخير لأهله، وقيل: هي ترك عقوبة من يستحقها وإسداء الخير إلى من لا يستحق، فهي على الأول صفة ذات وعلى الثاني صفة فعل، واختلفوا في آية التسمية فذهب قراء المدينة والبصرة وفقهاء الكوفة إلى أنها ليست من فاتحة الكتاب، ولا من غيرها من السور والافتتاح بها للتيمّن والتبرّك، وذهب قراء مكة والكوفة وأكثر فقهاء الحجاز إلى أنها ليست من الفاتحة وليست من سائر السور، وإنما كتبت للفصل، وذهب جماعة إلى أنها من الفاتحة ومن كل سورة إلا سورة التوبة، وهو قول الثوري وابن المبارك والشافعي في قول، لأنها كتبت في المصحف بخط سائر القرآن، واتفقوا على أن الفاتحة سبع آيات والآية الأولى عند من يعدّها من الفاتحة بسم الله الرحمن الرحيم وابتداء الآية الأخيرة صراط الذين، ومن لم يعدّها من الفاتحة قال: ابتداؤها الحمد لله ربّ

حذفت الألف واللامين معاً بقي هو والواو عوض عن الضمة. وذهب بعضهم إلى أن هذا الاسم هو الاسم الأعظم لأنه يدل على الذات وباقي الأسماء تدل على الصفات (الرحمن الرحيم) قال ابن عباس: هما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر، قيل: هما بمعنى مثل ندمان ونديم ومعناها ذو الرحمة وإنما جمع بينهما للتأكيد، وقيل: ذكر أحدهما بعد الآخر تطمיעاً لقلوب الراغبين إليه، وقيل الرحمن فيه معنى العموم والرحيم فيه معنى الخصوص فالرحمن بمعنى الرزاق في الدنيا وهو على العموم لكافة الخلق المؤمن والكافر والرحيم بمعنى الغفور الكافي للمؤمنين في الآخرة فهو على الخصوص، ولذلك قيل رحمن الدنيا ورحيم الآخرة ورحمة الله إرادة الخير والإحسان لأهله، وقيل هي ترك عقوبة من يستحق العقاب وإسداء الخير والإحسان إلى من لا يستحق فهو على الأول صفة ذات، وعلى الثاني صفة فعل، وقيل الرحمن بكشف الكروب والرحيم بغفر الذنوب، وقيل: الرحمن بتبيين الطريق، والرحيم بالعصمة والتوفيق.

فصل: في حكم البسملة:

وفيه مسألتان: (الأولى) في كون البسملة الفاتحة وغيرها من السور سوى سورة براءة. اختلف العلماء في ذلك، فذهب الشافعي وجماعة من العلماء إلى أنها آية من الفاتحة ومن كل سورة ذكرت في أولها سوى سورة براءة، وهو قول ابن عباس وابن عمر وأبي هريرة وسعيد بن جبير وعطاء وابن المبارك وأحمد في إحدى الروايتين عنه وإسحاق، ونقل البيهقي هذا القول عن علي بن أبي طالب والزهري والثوري ومحمد بن كعب. وذهب الأوزاعي ومالك وأبو حنيفة إلى أن البسملة ليست بآية من الفاتحة، زاد أبو داود ولا من غيرها من السور، وإنما هي بعض آية في سورة النمل، وإنما كتبت للفصل والتبرك قال مالك ولا يستفتح بها في الصلاة المفروضة، وللشافعي قول إنها ليست من أوائل السور مع القطع بأنها من الفاتحة. فأما حجة من منع كون البسملة آية من الفاتحة ومن غيرها فحديث أنس المشهور المخرج في الصحيحين وحديث عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ يفتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين» قالوا ولأن أول ما نزل به جبريل: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ ولم يذكر البسملة في أولها فدل على أنها ليست منها قالوا ولأن محل القرآن لا يثبت إلا بالتواتر والاستفاضة ولأن الصحابة أجمعوا على عدد كثير من السور منها سورة الملك ثلاثون آية وسورة الكوثر ثلاث آيات وسورة الإخلاص

العالمين وابتداء الآية الأخيرة غير المغضوب عليهم، واحتج من جعلها من الفاتحة ومن السور بأنها كتبت في المصحف بخط القرآن وبما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الكسائي، أنا أبو محمد عبد العزيز بن أحمد الخلال ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم، وأنا الربيع بن سليمان أنا الشافعي أنا عبد المجيد عن ابن جريج أخبرني أبي عن سعيد بن جبير: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾ [الحجر: ٨٧] هي أم القرآن قال أبي وقرأها على سعيد بن جبير حتى ختمها ثم قال: بسم الله الرحمن الرحيم الآية السابعة، قال سعيد: قرأها علي وابن عباس كما قرأتها عليك ثم قال: بسم الله الرحمن الرحيم الآية السابعة، قال ابن عباس: فذخرها لكم فما أخرجها لأحد قبلكم ومن لم يجعلها من الفاتحة، احتج بما ثنا أبو الحسن محمد بن محمد الشيرازي أنا زاهر بن أحمد ثنا أبو إسحق الهاشمي، أنا أبو مصعب عن حميد الطويل عن أنس بن مالك أنه قال: قمت وراء أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان كلهم كانوا لا يقرؤون بسم الله الرحمن الرحيم إذا افتتح الصلاة، قال سعيد بن جبير: عن ابن عباس كان رسول الله ﷺ لا يعرف ختم السورة حتى ينزل بسم الله الرحمن الرحيم، عن ابن مسعود قال: كنا لا نعلم فصل ما بين السورتين حتى ينزل بسم الله الرحمن الرحيم، وقال الشعبي: كان رسول الله ﷺ يكتب في بدء الأمر على رسم قریش باسمك اللهم حتى نزل ﴿وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها﴾ [هود: ٤١]، فكتب بسم

أربع آيات فلو كانت البسمة منها لكانت خمساً. وأما حجة من ذهب إلى إثباتها في أوائل السور من جهة النقل فقد صح عن أم سلمة «أن النبي ﷺ قرأ البسمة في أول الفاتحة في الصلاة وعدّها آية منها» وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ قال هي فاتحة الكتاب قيل فأين السابعة قال بسم الله الرحمن الرحيم أخرجهما ابن خزيمة وغيره، وروى عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ كان لا يعلم فصل السورة وفي رواية انقضاء السورة حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم» أخرجه أبو داود والحاكم أبو عبد الله في مستدركه وقال فيه: إنه صحيح على شرط الشيخين. وروى الدارقطني عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأتم الحمد لله فاقروا بسم الله الرحمن الرحيم فإنها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني وبسم الله الرحمن الرحيم أحد آياتها» قال الدارقطني في رجال إسناده كلهم ثقات وروى موقوفاً، وروى الدارقطني عن أم سلمة «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين إلى آخرها قطعها آية آية وعدّها عد الأعراب، وعدّ بسم الله الرحمن الرحيم آية ولم يعد عليهم» وأخرج مسلم في أفرادهِ عن أنس قال: «بيننا رسول الله ﷺ بين أظهرنا إذ غفا غفوة ثم رفع رأسه متبسماً فقلنا ما أضحكك يا رسول الله؟ قال أنزلت عليّ آنفاً سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ الحديث. قال البيهقي: أحسن ما احتج به أصحابنا في أن بسم الله الرحمن الرحيم من القرآن وأنها من فواتح السور سوى سورة براءة ما رويناه في جمع الصحابة كتاب الله عز وجل في المصاحف وأنهم كتبوا فيها بسم الله الرحمن الرحيم على رأس كل سورة سوى سورة براءة فكيف يتوهم متوهم أنهم كتبوا فيها مائة وثلاثة عشر آية ليست في القرآن، قال: وقد علمنا بالروايات الصحيحة عن ابن عباس أنه كان يعد بسم الله الرحمن الرحيم آية من الفاتحة وروى الشافعي بسنده عن ابن عمر أنه كان لا يدع بسم الله الرحمن الرحيم لآم القرآن والسورة التي بعدها زاد غيره عنه إنه كان يقول لما كتبت في المصحف لم لم تقرأ وروى الشافعي عن ابن عباس أنه كان يفعلهُ ويقول انتزع الشيطان منهم خير آية في القرآن. وفي أفراد البخاري

الله حتى نزلت ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾ [الإسراء: ١١٠]، فكتب بسم الله الرحمن الرحيم حتى نزلت ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾ [النمل: ٣٠]، فكتب مثلها.

قوله: ﴿الحمد لله﴾ لفظه خبر كأنه يخبر عن المستحق للحمد هو الله عز وجل وفيه تعليم الخلق، تقديره: قولوا الحمد لله، والحمد يكون بمعنى الشكر على النعمة ويكون بمعنى الثناء عليه بما فيه من الخصال الحميدة، يُقال حمدت فلاناً على ما أسدى إليّ من نعمة، وحمدته على علمه وشجاعته، والشكر لا يكون إلا على النعمة، والحمد أعم من الشكر إذ لا يقال: شكرت فلاناً على علمه، فكل حامد شاكِر وليس كل شاكِر حامداً، وقيل: الحمد باللسان قولاً والشكر بالأركان فعلاً، قال الله تعالى: ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً﴾ [الإسراء: ١١١]، وقال: ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾ [سبأ: ١٣]، يعني: اعملوا الأعمال لأجل الشكر، فشكراً مفعولاً له وانتصب باعملوا.

قوله: ﴿الله﴾ اللام فيه للاستحقاق كما يُقال الدار لزيدُ قوله: ﴿رب العالمين الرحمن الرحيم﴾، فالرب يكون بمعنى المالك كما يُقال لمالك الدار: ربُّ الدار، ويقال: ربُّ الشيء إذا ملكه، ويكون بمعنى التربة والإصلاح يقال: ربُّ فلان الضيعة يربّها إذا أتمّها وأصلحها، فهو ربُّ مثل طب وبر، فالله تعالى مالك العالمين ومُربّيهم، ولا يقال للمخلوق: هو الربُّ معروفاً، إنّما يُقال: ربُّ كذا مضافاً، لأنّ الألف واللام للتعميم، وهو لا يملك الكل، والعالمين: جمع عالمٍ والعالم جمع لا واحد له من لفظه، واختلفوا في العالمين، قال ابن عباس: هم الجن والإنس، لأنهم مكلفون بالخطاب، قال الله تعالى: ﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾ [الفرقان: ١]، وقال قتادة

من حديث أنس «أنه سئل كيف كانت قراءة رسول الله ﷺ قال كانت مدّاً ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم» فقد ثبت بهذه الأدلة الصحيحة الواضحة أن البسملة من الفاتحة من كل موضع ذكرت فيه وأيضاً فأجمع الصحابة على إثباتها في المصاحف، وأنهم طلبوا بكتابة المصاحف تجريد كلام الله عز وجل المنزل على محمد ﷺ قرآناً وتدوينه مخافة من أن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه، ولهذا لم يكتبوا فيه لفظة آمين، وإن كان قد ورد أنه كان يقولها بعد الفاتحة فلو لم تكن البسملة من القرآن في أوائل السور لما كتبوها وكان حكمها حكم آمين.

المسألة الثانية في حكم الجهر بالبسملة والإسرار:

إذا ثبت بما تقدم من الأدلة أن البسملة آية من الفاتحة ومن غيرها من السور حيث كتبت كان حكمها في الجهر والإسرار حكم الفاتحة فيجهر بها مع الفاتحة في الصلاة الجهرية ويسر بها مع الفاتحة في الصلاة السرية؛ وممن قال بالجهر بالبسملة من الصحابة أبو هريرة وابن عباس وابن عمر وابن الزبير. ومن التابعين فمن بعدهم سعيد بن جبير وأبو قلابة والزهري وعكرمة وعطاء وطاوس ومجاهد وعلي بن الحسين وسالم بن عبدالله ومحمد بن كعب القرظي وابن سيرين وابن المنكدر ونافع مولى ابن عمر ويزيد بن أسلم وعمر ومكحول وعمر بن عبد العزيز وعمرو بن دينار ومسلم بن خالد وإليه ذهب الشافعي وهو أحد قولي ابن وهب صاحب مالك ويحكي أيضاً عن ابن المبارك وأبي ثور. وممن ذهب إلى الإسرار بها من الصحابة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود وعمار بن ياسر وابن مغفل وغيرهم. ومن التابعين فمن بعدهم الحسن والشعبي وإبراهيم النخعي وقتادة والأعمش والثوري وإليه ذهب مالك وأبو حنيفة وأحمد وغيرهم. أما حجة من قال بالجهر فقد روى جماعة من الصحابة منهم أبي هريرة وابن عباس وأنس وعلي بن أبي طالب وسمرة بن جندب وأم سلمة «أن النبي ﷺ جهر بالبسملة فمنهم من

ومجاهد والحسن: جميع المخلوقين، قال الله تعالى: ﴿ قال فرعون وما رب العالمين قال ربّ السموات والأرض وما بينهما ﴾ [الشعراء: ٢٣ و ٢٤]، واشتقاقه من العلم والعلامة، سُمّوا به لظهور أثر الصنعة فيهم، قال أبو عبيد: هم أربع أمم، الملائكة والإنس والجن والشياطين، مشتق من العلم، ولا يقال للبهائم: عالم لأنها لا تعقل واختلفوا في مبلّغهم، قال سعيد بن المسيب: لله ألف عالم ستمائة في البحر وأربعمائة في البر، وقال مقاتل بن حيان: لله ثمانون ألف عالم، أربعون ألفاً في البحر وأربعون ألفاً في البر، وقال وهب: لله ثمانية عشر ألف عالم، الدنيا عالم منها وما العمران في الخراب إلّا كفسطاط في صحراء، وقال كعب الأحبار: ولا يحصي عدد العالمين أحدٌ إلّا الله، قال: ﴿ وما يعلم جنود ربك إلّا وهو ﴾ [المدثر: ٣١].

قوله: ﴿ مالِك يوم الدين ﴾، قرأ عاصم والكسائي ويعقوب ﴿ مالك ﴾ وقرأ الآخرون «ملك» قال: قوم معناهما واحد مثل فرحين وفارحين وحذرين وحاذرين، ومعناهما الربّ، يقال: ربّ الدار ومالكها، وقيل: المالك هو القادر على اختراع الأعيان من العدم إلى الوجود، ولا يقدر عليه أحدٌ غير الله، قال أبو عبيدة: «مالك» أجمع وأوسع لأنه يقال: مالك العبد والطير والدواب، ولا يقال ملك هذه الأشياء، ولأنّه لا يكون مالك لشيء إلّا وهو يملكه، وقد يكون ملك الشيء ولا يملكه، وقال قوم: ملك أولى لأن كل ملك ملك، وليس كل ملك ملكاً، ولأنّه أوفق لسائر القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿ فتعالى الله الملك الحق ﴾ [المؤمنون: ١١٦، طه: ١١٤] و﴿ الملك القدوس ﴾ [الحشر: ٢٣، الجمعة: ١] و﴿ ملك الناس ﴾ [الناس: ٢] قال ابن عباس ومقاتل والسدي: ملك يوم الدين قاضي يوم الحساب، وقال قتادة: الدين الجزاء، ويقع على الجزاء في الخير والشر جميعاً، كما يقال: كما تدين تُدان،

صرح بذلك ومنهم من فهم ذلك من عبارته ولم يرد في صريح الإسرار بها عن النبي ﷺ إلا روايتان إحداهما ضعيفة وهي رواية عبدالله بن مغفل والأخرى عن أنس وهي في الصحيح وهي معللة بما أوجب سقوط الاحتجاج بها، وروى نعيم بن عبدالله المجمر قال: «صليت وراء أبي هريرة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ثم قرأ بأم القرآن وذكر الحديث وفيه ثم يقول إذا سلم إني لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ» أخرجه النسائي وابن خزيمة في صحيحه وقال أما الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم فقد ثبت وصح عن النبي ﷺ وروى الدارقطني بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ «كان إذا قرأ وهو يؤم الناس افتتح ببسم الله الرحمن الرحيم» وذكر الحديث قال الدارقطني إسناده كلهم ثقات وعن ابن عباس قال كان النبي ﷺ: «يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم» أخرجه الدارقطني وقال ليس في روايته مجروح وأخرجه الحاكم أبو عبدالله وقال إسناده صحيح وليس له علة وفي رواية عن ابن عباس قال: «كان رسول الله ﷺ يفتتح الصلاة ببسم الله الرحمن الرحيم» أخرجه الدارقطني وقال صحيح ليس في إسناده مجروح وأخرجه الترمذي وقال ليس إسناده بذلك قال الشيخ أبو شامة أي لا يماثل إسناده ما في الصحيح ولكن إذا انضم إلى ما تقدم من الأدلة رجح على ما في الصحيح وعن أنس قال: «كان رسول الله ﷺ يجهر بالقراءة ببسم الله الرحمن الرحيم» أخرجه الدارقطني وقال إسناده صحيح وفيه عن محمد بن أبي السري العسقلاني قال: صليت خلف المعتمر بن سليمان ما لا أحصى صلاة الصبح والمغرب، فكان يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم قبل فاتحة الكتاب وبعدها، وسمعت المعتمر يقول: ما ألوي أن أقتدي بصلاة أنس بن مالك: وقال أنس بن مالك ما ألوي أن أقتدي بصلاة رسول الله ﷺ أخرجه الدارقطني وقال: كلهم ثقات. وأخرجه الحاكم أبو عبدالله وقال: رواة هذا الحديث عن آخرهم كلهم ثقات. قلت وفي الباب أحاديث وأدلة وإيرادات وأجوبة من الجانبين يطول ذكرها وفي هذا القدر كفاية وبالله التوفيق. قوله عز وجل: ﴿الحمد لله﴾ لفظه خبر كأنه سبحانه وتعالى يخبر أن المستحق للحمد هو الله تعالى، ومعناه الأمر أي قولوا الحمد لله وفيه تعليم الخلق كيف يحمدونه والحمد والمدح أخوان، وقيل بينهما فرق وهو أن المدح قد يكون قبل الإحسان وبعده والحمد لا يكون إلا بعد الإحسان، وقيل إن المدح قد يكون منهياً عنه، وأما الحمد فمأمور به، والحمد يكون بمعنى الشكر على النعمة ويكون بمعنى الثناء بجميل الأفعال، تقول: حمدت الرجل على علمه وكرمه والشكر لا يكون إلا على النعمة، فالحمد أعم من الشكر، إذ لا تقول شكرت فلاناً على علمه فكل حامد شاكِر وليس كل شاكِر حامداً، وقيل: الحمد باللسان قولاً، والشكر

قال محمد بن كعب القرظي: ملك يوم لا ينفع فيه إلا الدين، وقال يمان بن ريان: الدين القهر، يُقال دنته فدان، أي: قهرته فذلّ، وقيل: الدين الطاعة، أي: يوم الطاعة، وإنما خُصَّ يوم الدين بالذكر مع كونه مالكاً للأيام كلها لأن الأملاك يومئذ زائلة فلا ملك ولا أمر إلا له، قال الله تعالى: ﴿الملك يومئذ الحق للرحمن﴾ [الفرقان: ٢٦]، وقال: ﴿لَمَنَ الْمَلِكُ الْيَوْمَ اللَّهُ الْوَاحِدَ الْقَهَّارُ﴾ [غافر: ١٦]، وقال: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]، وقرأ أبو عمرو: ﴿الرحيم ملك﴾ بإدغام الميم في الميم، وكذلك يُدغم كل حرفين من جنس واحد أو مخرج واحد أو قريبي المخرج سواء كان الحرف ساكناً أو متحركاً إلا أن يكون الحرف الأول مشدداً أو منوناً أو منقوصاً أو مفتوحاً أو تاء الخطاب قبله ساكن من غير المثليين فإنه لا يدغمها وإدغام المتحرك يكون في الإدغام الكبير، وافقه حمزة في إدغام المتحرك في قوله: ﴿بيت طائفة﴾ [النساء: ٨١] ﴿والصّافات صفاً فالزاجرات زجراً فالتاليات ذكراً﴾ [الصّافات: ١ - ٣] و﴿الذاريات ذرواً﴾ [الذاريات: ١]، وأدغم التاء فيما بعدها من الحروف وافقه حمزة برواية رجاء وخلف والكسائي إلا في الراء عند اللام والdal عند الجيم، وكذلك لا يدغم حمزة الدال عند السين والصاد والزاي، ولا إدغام لسائر القراء إلا في أحرف معدودة.

بالأركان فعلاً، والحمد ضد الذم واللام في الله لام الاستحقاق كقولك الدار لزيد يعني أنه المستحق للحمد لأنه المحسن المتفضل على كافة الخلق على الإطلاق ﴿رب العالمين﴾ الرب بمعنى المالك كما يقال رب الدار ورب الشيء أي مالكة ويكون بمعنى التربية والإصلاح، يقال: رب فلان الضيعة يربها إذا أصلحها فالله تعالى، مالك العالمين ومربيهم ومصلحهم، ولا يقال الرب للمخلوق معرفاً بل يقال رب الشيء مضافاً. والعالمين جمع عالم لا واحد له من لفظه، وهو اسم لكل موجود سوى الله تعالى فيدخل فيه جميع الخلق. وقال ابن عباس: هم الجن والإنس لأنهم المكلفون بالخطاب وقيل العالم اسم لذوي العلم من الملائكة والجن والإنس ولا يقال للبهائم عالم لأنها لا تعقل. واختلف في مبلغ عددهم فقليل الله ألف عالم ستمائة عالم في البحر وأربعمائة في البر. وقيل ثمانون ألف عالم أربعون ألفاً في البر ومثلهم في البحر. وقيل ثمانية عشر ألف عالم الدنيا منها عالم واحد وما العمران في الخراب إلا كفسطاط في صحراء. الفسطاط الخيمة واشتقاق العالم من العلم وقيل من العلامة، وإنما سمي بذلك لأنه دال على الخالق سبحانه وتعالى ﴿الرحمن الرحيم﴾ فالرحمن هو المنعم بما لا يتصور صدور تلك النعمة من العباد، والرحيم هو المنعم بما يتصور صدور تلك النعمة من العباد فلا يقال لغير الله رحمن، ويقال لغيره من العباد رحيم. فإن قلت قد سمي مسيلمة الكذاب برحمان اليمامة وهو قول شاعرهم فيه: وأنت غيث الورى لا زلت رحماناً. قلت هو من باب تعنتهم في كفرهم ومبالغتهم في مدح صاحبهم فلا يلتفت إلى قولهم هذا. فإن قلت: قد ذكر الرحمن الرحيم في البسملة فما فائدة تكريره هنا مرة ثانية. قلت: ليعلم أن العناية بالرحمة أكثرها من غيرها من الأمور وأن الحاجة إليها أكثر فنبه سبحانه وتعالى بتكرير ذكر الرحمة على كثرتها وأنه هو المتفضل بها على خلقه. قوله تعالى: ﴿مالك يوم الدين﴾ يعني أنه تعالى صاحب ذلك اليوم الذي يكون فيه الجزاء. والمالك هو المتصرف بالأمر والنهي، وقيل: هو القادر على اختراع الأعيان من العدم إلى الوجود ولا يقدر على ذلك إلا الله تعالى. وقيل: مالك أوسع من ملك لأنه يقال مالك العبد والدابة ولا يقال ملك هذه الأشياء ولأنه لا يكون ملكاً لشيء إلا وهو يملكه، وقد يكون مالكاً لشيء ولا يملكه وقيل ملك أولى، لأن كل ملك مالك وليس كل مالك ملكاً وقيل هما بمعنى واحد مثل فرهين وفارهي، قال ابن عباس: مالك يوم الدين قاضي يوم الحساب. وقيل: الدين الجزاء ويقع على الخير والشر يقال كما تدين تدان وقيل هو يوم لا ينفع فيه إلا الدين وقيل الدين القهر. يقال: دنته فدان أي قهرته فذل. فإن قلت: لم خص يوم الدين بالذكر مع كونه مالكاً للأيام كلها؟ قلت: لأن ملك

قوله: ﴿إِيَّاكَ﴾، إيا كلمة ضمير خُصِّصَتْ بالإضافة إلى المضمر، ويستعمل مقدماً على الفعل، فيقال: إياك أعني وإياك أسأل، ولا يستعمل مؤخراً إلا منفصلاً فيقال: ما عنيت إلا إياك.

قوله: ﴿نَعْبُدُكَ﴾ أي: نوحّدك ونطيعك خاضعين، والعبادة الطاعة مع التذلل والخضوع وسُمّي العبد عبداً لذّته وانقياده يقال: طريق معبد أي: مُدَلَّل، ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، نطلب منك المعونة على عبادتك وعلى جميع أمورنا، فإن قيل: لِمَ قَدِّمَ ذكر العبادة على الاستعانة والاستعانة تكون قبل العبادة، فهذا يلزم من يجعل الاستعانة قبل الفعل، ونحن نحمد الله ونجعل التوفيق والاستعانة مع الفعل، فلا فرق بين التقديم والتأخير ويقال: الاستعانة نوع تعبّد فكأنه ذكر جملة العبادة أولاً، ثم ذكر ما هو من تفاصيلها.

قوله: ﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، اهْدِنَا: أرشدنا، وقال عليّ وأبيّ بن كعب: ثَبَّتْنَا، كما يُقال للقائم: قم حتى أعود إليك، أي: دم على ما أنت عليه، وهذا الدعاء من المؤمنين مع كونهم على الهداية، بمعنى التثبيت وبمعنى طلب مزيد الهداية، لأن الإلطاف والهدايات من الله تعالى لا تتناهى على مذهب أهل السُنّة.

الأملاك يومئذ زائل فلا ملك ولا أمر يومئذ إلا الله تعالى كما قال تعالى: ﴿الملك يومئذ الحق للرحمن﴾ وقال: ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ وقد يسمى في دار الدنيا آحاد الناس بالملك وذلك على المجاز لا على الحقيقة. قوله تعالى: ﴿إياك نعبد﴾ رجع من الخبر إلى الخطاب، وفائدة ذلك من أول السورة إلى هنا ثناء والثناء في الغيبة أولى. ومن قوله: إياك نعبد دعاء والخطاب في الدعاء أولى. وقيل فيه ضمير أي قولوا: إياك نعبد والمعنى إياك نخص بالعبادة ونوحذك ونطيعك خاضعين لك. والعبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل، وسمي العبد عبداً لذلة وانقياده. وقيل: العبادة عبارة عن الفعل الذي يؤدي به الفرض لتعظيم الله تعالى، فقول العبد إياك نعبد معناه لا أعبد أحداً سواك، والعبادة غاية التذلل من العبد ونهاية التعظيم للرب سبحانه وتعالى لأنه العظيم المستحق للعبادة ولا تستعمل العبادة إلا في الخضوع لله تعالى لأنه مولى أعظم النعم وهي إيجاد العبد من العدم إلى الوجود ثم هداه إلى دينه فكان العبد حقيقاً بالخضوع والتذلل به ﴿وإياك نستعين﴾ أي منك نطلب المعونة على عبادتك وعلى جميع أمورنا. فإن قلت: الاستعانة على العمل إنما تكون قبل الشروع فيه فلم آخر الاستعانة على العبادة وما الحكمة فيه؟ قلت ذكروا فيه وجوهاً أحدها أن هذا يلزم من يجعل الاستعانة قبل الفعل ونحن بحمد الله نجعل التوفيق والاستعانة مع الفعل فلا فرق بين التقديم والتأخير. الثاني أن الاستعانة نوع تعبد فكأنه ذكر جملة العبادة أولاً ثم ذكر ما هو من تفاصيلها ثانياً. الثالث كأن العبد يقول شرعت في العبادة فإني أستعين بك على إتمامها فلا يمنعني من إتمامها مانع. الرابع إن العبد إذا قال إياك نعبد حصل له الفخر وذلك منزلة عظيمة فيحصل بسبب ذلك العجب فأردف ذلك بقوله وإياك نستعين ليزول ذلك العجب الحاصل بسبب تلك العبادة ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ أي أرشدنا، وقيل ثبتنا، وهو كما تقول للقائم قم حتى أعود إليك ومعناه دم على ما أنت عليه وهذا الدعاء من المؤمنين مع كونهم على الهداية يعني سؤال التثبيت وطلب مزيد الهداية لأن الألفاظ والهدايات من الله لا تتناهى وهذا مذهب أهل السنة والصراط الطريق، قال جرير:

أمير المؤمنين على صراط إذا عوج المـوارد مستقيم

﴿الصراط﴾: وصراط قرىء بالسين رواه أويس عن يعقوب وهو الأصل سُمي سراطاً لأنه يسرط السابلة، ويُقرأ بالزاي وقرأ حمزة بإشمام الزاي وكلها لغات صحيحة، والاختيار الصاد عند أكثر القراء لموافقة المصحف. والصراط المستقيم: قال ابن عباس وجابر: هو الإسلام وهو قول مقاتل، وقال ابن مسعود: هو القرآن، ورؤي عن عليّ مرفوعاً «الصراط المستقيم كتاب الله» وقال سعيد بن جبیر: طريق الجنة، وقال سهل بن عبد الله: طريق السنة والجماعة، وقال بكر بن عبد الله المزني: طريق رسول الله ﷺ، وقال أبو العالية والحسن: رسول الله وآله وصاحبه، وأصله في اللغة الطريق الواضح.

﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ أي: مننت عليهم بالهداية والتوفيق، قال عكرمة: مننت عليهم بالثبات على الإيمان والاستقامة وهم الأنبياء عليهم السلام، وقيل: هم كل من ثبته الله على الإيمان من النبيين والمؤمنين الذين ذكر الله تعالى في قوله: ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين﴾ [النساء: ٦٩] الآية، وقال ابن عباس: هم قوم موسى وعيسى عليهما السلام قبل أن غيروا دينهم، وقال عبد الرحمن: هم النبي ومن معه، وقال أبو العالية: هم الرسول ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وقال عبد الرحمن بن زيدان: رسول الله ﷺ وأهل بيته، وقال شهر بن حوشب: هم أصحاب رسول الله ﷺ وأهل بيته؛ قرأ حمزة «عليهم ولديهم وإليهم» بضم هاء آتتها، ويضم يعقوب كل هاء قبلها ياء ساكنة تثنيةً وجمعاً إلا قوله: ﴿بين أيديهن وأرجلهن﴾ [المتحنة: ١٢]، وقرأ

أي على طريقة حسنة، قال ابن عباس: هو دين الإسلام، وقيل هو القرآن وروى ذلك مرفوعاً. وقيل السنة والجماعة وقيل معناه اهدنا صراط المستحقين للجنة ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ هذا بدل من الأول، أي الذين مننت عليهم بالهداية والتوفيق، وهم الأنبياء والمؤمنين الذين ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴾ وقال ابن عباس: هم قوم موسى وعيسى الذين لم يغيروا ولم يبدلوا وقيل هم أصحاب محمد ﷺ وأهل بيته ﴿غير المغضوب عليهم﴾ يعني غير صراط الذين غضبت عليهم. والغضب في الأصل هو ثوران دم القلب لإرادة الانتقام ومنه قوله ﷺ: «اتقوا الغضب فإنه جمرة تتوقد في قلب ابن آدم ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه» وإذا وصف الله به فالمراد منه الانتقام فقط دون غيره وهو انتقامه من العصاة وغضب الله لا يلحق عصاة المؤمنين إنما يلحق الكافرين ﴿ولا الضالين﴾ أي وغير الضالين عن الهدى وأصل الضلال الغيوبة والهلاك يقال ضل الماء في اللبن إذا غاب فيه وهلك وقيل غير المغضوب عليهم هم اليهود والضالين هم النصارى. عن عدي بن حاتم عن النبي ﷺ قال: «اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضلال» أخرجه الترمذي، وذلك لأن الله تعالى حكم على اليهود بالغضب فقال: ﴿من لعنه الله وغضب عليه﴾ وحكم على النصارى بالضلال فقال: ﴿ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل﴾ وقيل: غير المغضوب عليهم بالبدعة ولا الضالين عن السنة والله أعلم.

فصل: في آمين وحكم الفاتحة وفيه مسألتان: الأولى:

السنة للقارىء بعد فراغه من الفاتحة أن يقول آمين مفصلاً عنها بسكتة، وهو مخفف وفيه لغتان المد والقصر قال في المد: ويرحم الله عبداً قال آميناً. وقال في القصر: آمين فراد الله ما بيننا بعداً. ومعنى آمين اللهم اسمع واستجب. وقال ابن عباس: معناه كذلك يكون. وقيل: هو اسم من أسماء الله تعالى وقيل هو خاتم الله

الآخرون بكسرهما، فمن ضمّ الهاء ردها إلى الأصل لأنها مضمومة عند الانفراد، ومن كسرها فلاجل الياء الساكنة والياء أخت الكسرة، وضمّ ابن كثير وأبو جعفر كل ميم جمع مشبهاً في الوصل إذا لم يلقها ساكن، فإن لقيها ساكن فلا يُشبع، ونافع يخير، ويضم ورش عند ألف القطع، وإذا تلقته ألف وصل وقبل الهاء كسر أو ياء ساكنة ضمّ الهاء والميم حمزة والكسائي وكسرهما أبو عمرو، كذلك يعقوب إذا انكسر ما قبله، والآخرون يقرؤون بضمّ الميم وكسر الهاء لأجل الياء أو لكسر ما قبلها وضمّ الميم على الأصل.

قوله: ﴿غير المغضوب عليهم﴾ يعني: غير صراط الذين غضبت عليهم، والغضب هو إرادة الانتقام من العصاة، وغضب الله تعالى لا يلحق عصاة المؤمنين إنما يلحق الكافرين.

﴿ولا الضالين﴾ أي: وغير الضالين عن الهدى، وأصل الضلال الهلاك والغيوبة، يقال: ضل الماء في اللبن إذا هلك وغاب، و«غير» ههنا بمعنى لا، ولا بمعنى غير، ولذلك جاز العطف عليها، كما يُقال: فلان غير محسن ولا مجمل، فإذا كان غير بمعنى سوى، فلا يجوز العطف عليها بلا، لا يجوز في الكلام: عندي سوى عبد الله ولا زيد، وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: صراط من أنعمت عليهم، لأن الله تعالى حكم على اليهود بالغضب، فقال: من لعنه الله وغضب عليه، وحكم على النصارى بالضلال، غير المغضوب عليهم وغير الضالين، وقيل: ﴿المغضوب عليهم﴾ هم اليهود والضالون هم النصارى، فقال: ﴿ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل﴾ [المائدة: ٧٧]، وقال سهل بن عبد الله: غير المغضوب عليهم بالبدعة ولا الضالين عن السنة، والسنة للقارىء أن يقول بعد فراغه من قراءة الفاتحة: «آمين»، مفصلاً عن الفاتحة بسكتة، وهو مخفف ويجوز ممدوداً ومقصوراً،

تعالى على عباده به يدفع عنهم الآثام (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمن الإمام فأمنوا فإن من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه» قال ابن شهاب: وكان رسول الله ﷺ يقول آمين وفي رواية للبخاري «أن الإمام إذا قرأ غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقولوا آمين فإن الملائكة تقول آمين فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه».

(قوله: فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة). معناه وافقهم في وقت التأمين فأمن مع تأمينهم، وقيل: وافقهم في الصفة والخشوع والإخلاص والقول الأول هو الصحيح. واختلفوا في هؤلاء الملائكة فقليل هم الحفظة وقيل غيرهم من الملائكة.

(قوله غفر له ما تقدم من ذنبه): يعني تغفر له الذنوب الصغائر دون الكبائر وقول ابن شهاب: كان رسول الله ﷺ يقول آمين معناه أن هذه صيغة تأمينه ﷺ.

المسألة الثانية في حكم الفاتحة: اختلف العلماء في وجوب قراءة الفاتحة فذهب مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء إلى وجوب الفاتحة وأنها متعينة في الصلاة ولا تجزئ إلا بها، واحتجوا بما روى عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب» أخرجاه في الصحيحين وبحديث أبي هريرة: «من

ومعناه اللهم اسمع واستجب، وقال ابن عباس وقتادة: معناه كذلك يكون، وقال مجاهد: هو اسم من أسماء الله تعالى، وقيل: هو طابع الدعاء، وقيل: هو خاتم الله على عباده يدفع به الآفات عنهم، الخاتم الكتاب يمنعه من الفساد وظهور ما فيه. أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد بن القاضي، وأبو حامد أحمد بن عبد الله الصالحي قالوا: أنا أبو بكر أحمد بن حسن الحيري أنا أبو علي محمد بن أحمد بن محمد بن معقل الميداني، ثنا محمد بن يحيى ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن الزهري عن ابن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا قال الإمام: ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾، فقولوا: آمين، فإن الملائكة تقول: «آمين، وأن الإمام يقول آمين فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه» صحيح.

فصل في فضل فاتحة الكتاب

أنا أبو الحسن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد الكتاني أنا أبو نصر محمد بن علي بن الفضل الخزاعي، أنا أبو عثمان عمر بن عبد الله البصري ثنا محمد بن عبد الله الوهاب، ثنا خالد بن مخلد القطراني حدثني محمد بن جعفر بن أبي كثير هو أخو إسماعيل بن جعفر عن ابن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه، عن أبي هريرة قال: مر رسول الله ﷺ على أبي بن كعب وهو قائم يُصلي فصاح به فقال: تعال يا أباي فعجل أبي في صلاته، ثم جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: «ما منعك يا أباي أن تجيبني إذ دعوتك، أليس الله يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ [الأنفال: ٢٤]؟ قال أباي: لا جرم يا رسول الله، لا تدعوني إلا أجبتك وإن كنت مصلياً، قال: «أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها؟» فقال أباي: نعم يا رسول الله! فقال: «لا تخرج من باب المسجد حتى تعلمها» والنبي ﷺ يمشي يريد أن يخرج من المسجد فلما بلغ الباب ليخرج قال له أباي: السورة يا رسول الله، فوقف فقال: «نعم! كيف تقرأ في صلاتك؟» فقرأ أباي أم القرآن، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها وإنما هي السبع من المثاني التي أتاني الله عز وجل»، هذا حديث حسن صحيح، أخبرنا أبو بكر محمد بن

صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج ثلاثاً غير تمام» الحديث وقد تقدم في فضل سورة الفاتحة وذهب أبو حنيفة إلى أن الفاتحة لا تتعين على المصلي بل الواجب عليه قراءة آية من القرآن طويلة أو ثلاث آيات قصار واحتج بقوله تعالى: ﴿فأقرؤوا ما تيسر منه﴾ وبقوله ﷺ في حديث الأعرابي المسيء صلاته «ثم اقرأ بما تيسر معك من القرآن» أخرجه في الصحيحين دليل الجمهور ما تقدم من الأحاديث. فإن قيل المراد من الحديث لا صلاة كاملة قلنا هذا خلاف ظاهر لفظ الحديث ومما يدل عليه حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجزئ صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب» أخرجه الدارقطني وقال إسناده صحيح وعنه «أن رسول الله ﷺ أمره أن يخرج فينادي لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب فما زاد» أخرجه أبو داود. وأجيب عن حديث الأعرابي بأنه محمول على الفاتحة فإنها متيسرة أو على ما زاد على الفاتحة أو على العاجز عن قراءة الفاتحة، والله أعلم.

عبد الصمد الترابي أنا الحاكم أبو الفضل محمد بن حسين الحدادي، أنا أبو يزيد محمد بن يحيى بن خالد أنا إسحق بن إبراهيم الحنظلي، ثنا يحيى بن آدم ثنا أبو الأحوص عن عمار بن ذريق، عن عبد الله بن عيسى عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل إذا سمع نقضاً من فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال: هذا باب فتح من السماء ما فتح قط، قال: فنزل منه ملك فأتى النبي ﷺ فقال: «أبشّر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ حرفاً منهما إلا أعطيته»، صحيح. أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد الشيرازي حدثنا زاهر بن أحمد السرخسي، أنا أبو إسحق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي، أنا أبو مصعب أحمد بن أبي بكر الزهري عن مالك عن العلاء بن عبد الرحمن: أنه سمع أبا السائب مولى هشام بن زهرة يقول: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى صلاة لم يقرأ فيها بأَم القرآن فهي خداج غير تمام»، قال: فقلت: يا أبا هريرة إني أحياناً أكون وراء الإمام؟ فغمز ذراعي وقال: اقرأ بها يا قارىء في نفسك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، نصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل»، قال رسول الله ﷺ: «أقرؤوا يقول العبد: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ يقول الله: حمدني عبدي، يقول العبد: ﴿الرحمن الرحيم﴾، يقول الله: أثني عليّ عبدي، يقول العبد: ﴿مالك يوم الدين﴾، يقول الله: مجدني عبدي، يقول العبد: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾، يقول الله عز وجل: هذه الآية بيني وبين عبدي، فلعبدي ما سأل، يقول العبد: ﴿إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ يقول الله: فهؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل». صحيح.

تفسير سورة البقرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾

قال ابن عباس: هي أول ما نزل بالمدينة قيل سوى آية وهي قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ فإنها نزلت يوم النحر بمكة في حجة الوداع وهي مائتان وست وقيل سبع وثمانون آية وستة آلاف ومائة وإحدى وعشرون كلمة وخمسة وعشرون ألف حرف وخمسمائة حرف.

فصل: في فضلها:

(م) عن أبي أمامة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه اقرأوا الزهراوين البقرة وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن صاحبهما اقرأوا البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة» قال معاوية بن سلام بلغني أن البطلة السحرة (قوله اقرأوا الزهراوين) سميتا بذلك لنورهما يقال لكل مستنير زاهر. قوله: كأنهما غمامتان أو غيايتان: قال أهل اللغة الغمامة والغياية كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه من سحابة وغيرها والمعنى أن ثوابهما يأتي كغمامتين (قوله: فرقان من طير صواف) الفرقان الجماعة من الطير والصواف جمع صافة وهي التي

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

﴿الْم﴾ قال الشعبي وجماعة: الَمْ وسائر حروف الهجاء في أوائل السور من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، وهي سرُّ القرآن، فنحن نؤمن بظواهرها ونكل العلم فيها إلى الله تعالى، وفائدة ذكرها طلب الإيمان بها، قال أبو بكر الصديق: في كل كتاب سرٌّ وسرُّ الله في القرآن أوائل السور، وقال علي: إن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي، قال داود بن أبي هند: كنت أسأل الشعبي عن فواتح السور فقال: يا داود إن لكل كتاب سرٌّ وإن سرَّ القرآن فواتح السور فدعها، وسلَّ عما سوى ذلك، وقال جماعة: معلومة المعاني، فقيل: كل حرف منها مفتاح اسم من أسمائه كما قال ابن عباس في ﴿كَهَيْعَصَ﴾ [مريم: ١]: الكاف من كاف والهاء من هاد والياء من حكيمة والعين من عليم والصاد من صادق، وقيل في ﴿الْمَصَ﴾ [الأعراف: ١]: أنا الله الملك الصادق، وقال الربيع بن أنس في ﴿الْم﴾: الألف مفتاح اسمه الله واللام مفتاح اسمه اللطيف والميم مفتاح اسمه المجيد، وقال محمد بن كعب: الألف آلاء الله واللام لطفه والميم ملكه، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: معنى ﴿الْم﴾ أنا الله أعلم، ومعنى ﴿الْمَصَ﴾ أنا الله أعلم وأفضل، ومعنى ﴿الْرَ﴾ [يونس: ١، هود: ١،

تصف أجنحتها عند الطيران يحاجان. المحاجة المجادلة والمخاصمة وإظهار الحجة والبطلة السحرة كما جاء في الحديث مبيناً يقال أبطل إذا جاء بالباطل. وفي الحديث دليل على جواز قول سورة البقرة وسورة آل عمران وكذا باقي السور، وأنه لا كراهة في ذلك وكرهه بعض المتقدمين. وقال: إنما يقال السورة التي يذكر فيها البقرة وكذا باقي السور والصواب هو الأول وبه قال الجمهور لورود النص به (م) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة» وعنه قال قال رسول الله ﷺ: «لكل شيء سنام وإن سنام القرآن سورة البقرة وفيها آية هي سيدة آي القرآن آية الكرسي» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب (بسم الله الرحمن الرحيم) قوله عز وجل: ﴿الْم﴾ قيل إن حروف الهجاء في أوائل السور من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، وهي سر الله في القرآن، فتحن نؤمن بظاهرها، ونكل العلم فيها إلى الله تعالى، وفائدة ذكرها طلب الإيمان بها قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه، في كل كتاب سر وسر الله في القرآن أوائل السور وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه إن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي. وأورد على هذا القول بأنه لا يجوز أن يخاطب الله عباده بما لا يعلمون، وأجيب عنه بأنه يجوز أن يكلف الله عباده بما لا يعقل معناه كرمي الجمار فإنه مما لا يعقل معناه؛ والحكمة فيه هو كمال الانقياد والطاعة فكذلك هذه الحروف يجب الإيمان بها ولا يلزم البحث عنها. وقال آخرون من أهل العلم: هي معروفة المعاني. ثم اختلفوا فيها فقليل كل حرف منها مفتاح اسم من أسماء الله تعالى فالألف مفتاح اسمه الله واللام مفتاح اسمه لطيف والميم مفتاح اسمه مجيد وقيل الألف آلاء الله واللام لطفه والميم ملكه، ويؤيد هذا أن العرب تذكر حرفاً من كلمة تريد كلها قال الراجز:

قلت لها قفي فقالت قاف لا تحسبي أنا نسينا الإيجاف

قولها: قاف أي وقفت فاكتفت بجزء الكلمة عن كلها، والإيجاف الإسراع في السير قال ابن عباس: الم أنا الله أعلم. وقيل: هي أسماء الله مقطعة لو علم الناس تأليفها لعلموا اسم الله الأعظم ألا ترى أنك تقول الرّوحم ونّ فيكون مجموعها الرحمن وكذلك سائرهما، ولكن لم يتبها تأليفها جميعاً وقيل أسماء السور وبه قال جماعة من المحققين وقال ابن عباس: هي أقسام فقليل أقسم الله بهذه الحروف لشرفها وفضلها لأنها مباني كتبه المنزلة

يوسف: ١، إبراهيم: ١، الحجر: ١] أنا الله أرى، ومعنى ﴿الْمَر﴾ [الرعد: ١] أنا الله أعلم وأرى. قال الزجاج: وهذا حسن فإن العرب تذكر حرفاً من كلمة تريدها كقولهم:

قلت لها قفي فقالت لي قاف

أي: وقفت، وعن سعيد بن جبير قال: هي أسماء الله تعالى مقطعة لو أحسن الناس تأليفها لعلموا اسم الله الأعظم، ألا ترى أنك تقول ﴿الْمَر﴾ [الرعد: ١] و﴿حَم﴾ [الجاثية: ١، الأحقاف: ١، غافر: ١، فصلت: ١، الدخان: ١، الزخرف: ١] و﴿ن﴾ [القلم: ١] فيكون الرحمن، وكذلك سائرهما إلا أنا لا نقدر على وصلها، وقال قتادة: هذه الحروف أسماء القرآن، وقال مجاهد وابن زيد: هي أسماء السور، ويبانه أن القائل إذا قال قرأت المصّ عرف السامع أنه قرأ السورة التي افتتحت بالمصّ، وروى عن ابن عباس: أنها أقسام، وقال الأخفش: إنما أقسم الله بهذه الحروف لشرفها وفضلها لأنها مباني كتبه المنزلة ومبادئ أسمائه الحسنی.

قوله: ﴿ذلك الكتاب﴾ أي: هذا الكتاب وهو القرآن، وقيل: هذا فيه مضمّر أي هذا ذلك الكتاب، قال الفراء: كان الله قد وعد نبيه ﷺ أن ينزل عليه كتاباً لا يمحوه الماء ولا يخلق عن كثرة الرد، فلما أنزل الله القرآن قال: هذا ذلك الكتاب الذي وعدتك أن أنزله عليك في التوراة والإنجيل، وعلى لسان النبيين من قبلك، وهذا

وأسمائه الحسنی وصفاته العلیا، وإنما اقتصر على بعضها وإن كان المراد كلها فهو كما تقول قرأت الحمد لله، وترید أنك قرأت السورة بكمالها فكأنه تعالى أقسم بهذه الحروف أو هذا الكتاب هو الكتاب المثبت في اللوح المحفوظ وقيل إن الله تعالى لما تحداهم بقوله: ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾ وفي آية ﴿بعض سور مثله﴾ فعجزوا عنه أنزل هذه الأحرف ومعناه أن القرآن ليس هو إلا من هذه الأحرف وأنتم قادرون عليها فكان يجب أن تأتوا بمثله فلما عجزتم عنه دل ذلك على أنه من عند الله لا من عند البشر. وقيل: إنهم لما أعرضوا عن سماع القرآن وأراد الله صلاح بعضهم أنزل هذه الأحرف فكانوا إذا سمعوها قالوا كالممتعجين اسمعوا إلى ما يجيء به محمد فإذا أصغوا إليه وسمعوه رسخ في قلوبهم، فكان ذلك سبباً لإيمانهم، وقيل: إن الله تعالى غير عقول الخلق في ابتداء خطابه ليعلموا أن لا سبيل لأحد إلى معرفة خطابه إلا باعترافهم بالعجز عن معرفة كنه حقيقة خطابه. واعلم أن مجموع الأحرف المنزلة في أوائل السور أربعة عشر حرفاً في تسع وعشرين سورة وهي الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون وهي نصف حروف المعجم، وسيأتي الكلام على باقيها في مواضعها إن شاء الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿ذلك الكتاب﴾ أي هذا الكتاب هو القرآن وقيل فيه إضمار، والمعنى هذا الكتاب الذي وعدتكم به وكان الله قد وعد نبيه ﷺ أن ينزل عليه كتاباً لا يمحوه الماء ولا يخلق على كثرة الرد، فلما أنزل القرآن قال هذا ذلك الكتاب الذي وعدتكم به وقيل إن الله وعد بني إسرائيل أن ينزل كتاباً ويرسل رسولاً من ولد إسماعيل. فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وبها من اليهود خلق كثير أنزل الله تعالى هذه الآية ﴿آلم ذلك الكتاب﴾ أي هذا الكتاب الذي وعدت به على لسان موسى أن أنزله على النبي الذي هو من ولد إسماعيل والكتاب مصدر بمعنى المكتوب وأصله الضم والجمع ومنه يقال للجند كتية لاجتماعها فسمي الكتاب كتاباً لأنه يجمع الحروف بعضها إلى بعض والكتاب اسم من أسماء القرآن ﴿لا ريب فيه﴾ أي لا شك فيه أنه من عند الله وأنه الحق والصدق، وقيل: هو خبر بمعنى النهي أي لا ترتابوا فيه. فإن قلت قد ارتاب به قوم فما

للتقريب وذلك للتباعد، وقال ابن كيسان: إن الله تعالى أنزل قبل سورة البقرة سوراً كذب بها المشركون ثم أنزل سورة البقرة فقال: ذلك الكتاب يعني ما تقدم البقرة من السور، لا شك فيه، والكتاب مصدر وهو بمعنى المكتوب كما يقال للمخلوق، وهذا الدرهم ضرب فلان، أي: مضروبه، وأصل الكتاب الضم والجمع، ويقال للجند كتية، لاجتماعها وسُمي الكتاب كتاباً لأنه جمع حرف إلى أحرف. قوله تعالى: ﴿لا ريب فيه﴾، أي: لا شك فيه أنه من عند الله وأنه الحق والصدق، وقيل: هو خبر بمعنى النهي أي: لا ترتابوا فيه لقوله تعالى: ﴿لا ريب فيه﴾ ولا فسوق ﴿البقرة: ١٩٧﴾، أي: لا ترفثوا ولا تفسقوا، قرأ ابن كثير فيه بالإشباع في الوصل، وكذلك كل هاء كتابة قبلها ساكن يشبعها وصلًا ما لم يلها ساكن، ثم إن كان الساكن قبل الهاء ياء يشبعها بالكسر ياءً، وإن كان غيرها يشبعها بالضم واواً، ووافقه حفص في قوله: ﴿فيه مهاناً﴾ [الفرقان: ٦٩] فأشبعه.

قوله تعالى: ﴿هدى للمتقين﴾، يدغم الغنة عند اللام والراء أبو جعفر وابن كثير وحمزة والكسائي، زاد حمزة والكسائي عند الياء، وزاد حمزة عند الواو، والآخران لا يدغمونها، ويخفي أبو جعفر النون والتنوين عند الخاء والغين، هدى للمتقين، أي: هو هدى، أي: رشد وبيان لأهل التقوى، وقيل: هو نصب على الحال، أي: هادياً تقديره لا ريب فيه في هدايته للمتقين، والهدى ما يهتدي به الإنسان للمتقين، أي: للمؤمنين قال ابن عباس: المتقي من يتقي الشرك والكبائر والفواحش، وهو مأخوذ من الاتقاء، وأصله الحجز بين شيئين، ومنه يُقال: اتقى بترسه أي: جعله حاجزاً بين نفسه وبين ما يقصده، وفي الحديث: كنا إذا اشتد البأس

معنى لا ريب فيه . قلت معناه أنه في نفسه حق وصدق فمن حقق النظر عرف حقيقة ذلك ﴿هدى للمتقين﴾ الهدى عبارة عن الدلالة وقيل دلالة بلطف وقيل الهداية الإرشاد والمعنى هو هدى للمتقين وقيل هو هاد لا ريب في هدايته والمتقي اسم فاعل من وقاه فأتقى والتقوى جعل النفس في وقاية مما يخاف وقيل التقوى في عرف الشرع حفظ النفس مما يؤثم وذلك بترك المحظور وبعض المباحات قال ابن عباس: المتقي من يتقي الشرك والكبائر والفواحش، وهو مأخوذ من الاتقاء وأصله الحجز بين الشيئين، يقال: اتقى بترسه إذا جعله حاجزاً بينه وبين ما يقصده وفي الحديث «كنا إذا اشتد البأس اتقينا برسول الله ﷺ» معناه أنا كنا إذا اشتد الحرب جعلنا رسول الله ﷺ حاجزاً بيننا وبين العدو فكأن المتقي يجعل امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه حاجزاً بينه وبين النار وقيل المتقي هو من لا يرى نفسه خيراً من أحد. وقيل: التقوى ترك ما حرم الله وأداء ما افترض. وقيل: التقوى ترك الإصرار على المعصية وترك الاغترار بالطاعة. وقيل: التقوى أن لا يراك مولاك حيث نهاك وقيل: التقوى الاقتداء بالنبي ﷺ وأصحابه وفي الحديث «جماع التقوى في قوله تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ الآية» وقيل المتقي هو الذي يترك ما لا بأس به حذراً مما به بأس، وخص المتقين بالذكر تشريفاً لهم، لأن مقام التقوى مقام شريف عزيز، لأنهم هم المتنفعون بالهداية، ولو لم يكن للمتقين فضل إلا قوله تعالى هدى للمتقين لكانهم. فإن قلت كيف قال هدى للمتقين والمتقون هم المهتدون. قلت هو كقولك للعزيز الكريم أعزك الله وأكرمك تريد طلب الزيادة له إلى ما هو ثابت فيه كقوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ أي يصدقون بالغيب، وأصل الإيمان في اللغة التصديق قال الله تعالى: ﴿وما أنت بمؤمن لنا﴾ أي بمصدق فإذا فسر الإيمان بهذا فإنه لا يزيد ولا ينقص لأن التصديق لا يتجزأ حتى يتصور كما له مرة ونقصانه أخرى. والإيمان في لسان الشرع عبارة عن التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالأركان، وإذا فسر بهذا فإنه يزيد وينقص وهو مذهب أهل السنة من أهل الحديث وغيرهم، وفائدة هذا الخلاف تظهر في مسألة وهي أن المصدق بقلبه إذا لم يجمع إلى

أتقينا برسول الله ﷺ أي: إذا اشتد الحرب جعلناه حاجزاً بيننا وبين العدو، فكأن المتقى يجعل امتثال أمر الله والاجتناب عما نهاه حاجزاً بينه وبين العذاب، قال عمر بن الخطاب لكعب الأحبار: حدثنا عن التقوى، فقال: هل أخذت طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم، قال: فما عملت فيه؟ قال: حذرت وتشمرت، قال كعب: وذلك التقوى، وقال شهر بن حوشب: المتقي الذي يترك ما لا بأس به حذراً لما به بأس، وقال عمر بن عبد العزيز: التقوى ترك ما حرم الله وأداء ما افترض الله، فما رزق الله بعد ذلك فهو خير إلى خير، وقيل: هو اقتداء بالنبي ﷺ، وفي الحديث: «جماع التقوى» في قوله تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ [النحل: ٩٠] الآية، وقال ابن عمر: التقوى أن لا ترى نفسك خيراً من أحد، وتخصيص المتقين بالذكر تشريف لهم أو لأنهم هم المتنفعون بالهدى.

قوله تعالى: ﴿الذين يؤمنون﴾ موضع الذين خفض، نعتاً للمتقين يؤمنون يصدقون، ويترك همزة أبو عمر وورش، والآخرين يهمزونه، وكذلك يتركان كل همزة ساكنة هي فاء الفعل نحو يؤمن ومؤمن إلا أحرفاً معدودة، وحقيقة الإيمان التصديق بالقلب، قال الله تعالى: ﴿وما أنت بمؤمن لنا﴾ [يوسف: ١٧] أي: بمصدق لنا، وهو في الشريعة: الاعتقاد بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالأركان، فُسِّمَ الإقرار والعمل إيماناً لوجه من المناسبة لأنه من شرائعه، والإسلام هو الخضوع والانقياد فكل إيمان إسلام وليس كل إسلام إيماناً إذا لم يكن معه تصديق، قال الله تعالى: ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾ [الحجرات: ١٤]، وذلك لأن الرجل قد يكون مستسلماً في الظاهر غير مصدق في الباطن ويكون مصدقاً في الباطن غير منقاد في الظاهر، وقد اختلف جواب النبي ﷺ عنهما حين سأله جبريل عليه السلام، وهو ما أخبرنا أبو طاهر محمد بن علي بن محمد التوبة الزراد

تصديقه العمل بموجب الإيمان من الصلاة والزكاة والصوم والحج ونحو ذلك من أركان الدين هل يسمى مؤمناً أم لا؟ فيه خلاف، والمختار عند أهل السنة أنه لا يسمى مؤمناً لقوله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» فنفي عنه اسم الإيمان أو كمال الإيمان وأنكر أكثر المتكلمين زيادة الإيمان ونقصانه، وقالوا: متى قبل الزيادة والنقص كان ذلك شكاً وكفراً. وقال المحققون من متكلمي أهل السنة: إن نفس التصديق لا يزيد ولا ينقص والإيمان الشرعي يزيد وينقص بزيادة الأعمال ونقصانها وبهذا أمكن الجمع بين ظواهر نصوص الكتاب والسنة التي جاءت بزيادة الإيمان ونقصانه وبين أصله من اللغة. وقال بعض المحققين: إن نفس التصديق قد يزيد وينقص بكثرة النظر في الأدلة والبراهين وقلة إمعان النظر في ذلك ولهذا يكون إيمان الصديقين أقوى وأثبت من إيمان غيرهم لأنهم لا تعثرهم شبهة في إيمانهم ولا تزلزل، وما غيرهم من آحاد الناس فليس كذلك، إذ لا يشك عاقل أن نفس تصديق أبي بكر رضي الله عنه لا يساويه تصديق غيره من آحاد الأمة وقيل إنما سمي الإقرار والعمل إيماناً لوجه المناسبة لأنه من شرائعه، والدليل على أن الأعمال من الإيمان ما روي عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان» أخرجه في الصحيحين. البضع بكسر الباء ما بين الثلاثة إلى العشرة والشعبة القطعة من الشيء وإمطة الأذى عن الطريق وهو عزل الحجر والشوك ونحو ذلك عنه. والحياء بالمد وهو انقباض النفس عن فعل القبيح وإنما جعل من الإيمان وهو اكتساب لأن المستحي ينزجر باستحيائه عن المعاصي فصار من الإيمان، وقيل الإيمان مأخوذ من الأمن فسمي المؤمن مؤمناً لأنه يؤمن نفسه من عذاب الله. والإسلام هو الانقياد والخضوع فكل إيمان إسلام وليس كل إسلام إيماناً إن لم يكن معه تصديق وذلك أن الرجل قد يكون مسلماً في الظاهر غير مصدق في الباطن (ق) عن

البخاري، أنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي، ثنا أبو سعيد الهيثم بن كليب الشاشي، ثنا أبو أحمد عيسى بن أحمد العسقلاني أنا يزيد بن هارون أنا كههم بن الحسن، عن عبد الله بن بريدة عن يحيى بن يعمر قال: كان أول من تكلم في القدر يعني بالبصرة معبد الجهني، فخرجت أنا وحميد بن عبد الرحمن نريد مكة فلنا لولقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه ما يقول هؤلاء، فلقينا عبد الله بن عمر فاكنتفته أنا وصاحبي - اكتنفوا أي: أحاطوا - أحداً عن يمينه والآخر عن شماله، فعلمت أنه سيكل الكلام إليّ فقلت: أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا أناس يتفقرون هذا العلم ويطلبونه، يزعمون أن لا قدر إنما الأمر أفق، قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أنني منهم بريء وأنهم مني براء، والذي نفسي بيده لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه في سبيل الله ما قبل الله منه شيئاً حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، ثم قال: حدثنا عمر بن الخطاب، قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ أقبل رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ما يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد فأقبل حتى جلس بين يدي رسول الله ﷺ وركبته تمس ركبته، فقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً»، فقال: صدقت، فتعجبنا من سؤاله وتصديقه، ثم قال: فما الإيمان؟ قال: «أن تؤمن بالله وحده وملأكته وكتبه ورسوله وبالبعث بعد الموت والجنة والنار وبالقدر خيره وشره»، فقال: صدقت، ثم قال: فما الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإنك إن لم تكن تراه فإنه يراك»، قال: صدقت، ثم قال: فأخبرني عن الساعة، فقال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن أماراتها قال: «أن تلد الأمة ربّتها وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون في بنيان المدر»، قال: صدقت، ثم انطلق، فلما كان بعد ثالثة قال لي رسول الله ﷺ: «يا عمر هل تدري من الرجل؟» قال: قلت الله ورسوله أعلم قال: «ذلك جبرائيل أتاكم يعلمكم أمر دينكم، وما أتاني في صورة

أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يوماً بارزاً للناس فأثاه رجل فقال يا رسول الله ما الإيمان «قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ولقائه ورسوله وتؤمن بالبعث الآخر» قال يا رسول الله ما الإسلام؟ قال: «أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان». قال: يا رسول الله ما الإحسان؟ قال «أن تعبد الله كأنك تراه. فإن لم تكن تراه فإنه يراك». قال: يا رسول الله متى الساعة؟ قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأحدثك عن أشراطها. إذا ولدت الأمة ربها فذاك من أشراطها، وإذا كانت الحفاة العراة رؤوس الناس فذاك من أشراطها، وإذا تناول رعاء البهيم في البنيان فذاك من أشراطها، وخمس لا يعلمهن إلا الله» ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنْزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ إلى قوله: ﴿عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ قال ثم أدبر الرجل فقال رسول الله ﷺ: «ردوا عليّ هذا الرجل» فأخذوا ليردوه فلم يروا شيئاً فقال رسول الله ﷺ: «هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم» وفي أفراد مسلم من حديث عمر بن الخطاب نحو هذا الحديث وبمعناه، وقد تقدم الكلام على معنى الإيمان والإسلام. وبقي أشياء تتعلق بمعنى الحديث، فقوله كان رسول الله ﷺ يوماً بارزاً أي ظاهراً، وقوله: أن تؤمن بالله ولقائه وتؤمن بالبعث الآخر هو بكسر الخاء. وقيل في الجامع بين قوله وتؤمن بلقاء الله وبالبعث فإن اللقاء يحصل بمجرد الانتقال إلى الدار الآخرة وهو الموت والبعث هو بعده عند قيام الساعة وفي تقييده بالآخر وجه آخر وهو أن خروجه إلى الدنيا بعث من الأرحام وخروجه من القبر إلى الآخرة بعث آخر. قوله ما الإحسان هو هنا الإخلاص في العمل وهو شرط في صحة الإيمان والإسلام لأن من أتى بلفظ الشهادة وأتى بالعمل من غير إخلاص لم يكن محسناً، وقيل أراد بالإحسان المراقبة وحسن الطاعة، فإن من راقب الله حسن عمله، وهو المراد بقوله، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وأشراط الساعة علاماتها التي تظهر قبلها. قوله: إذا ولدت

إلا عرفته فيها إلا في صورته هذه»، قال الفراء: فالنبي ﷺ جعل الإسلام في هذا الحديث اسماً لما ظهر من الأعمال، والإيمان اسماً لما بطن من الاعتقاد، وليس ذلك لأن الأعمال ليست من الإيمان، وتصديق القلب ليس من الإسلام، بل ذلك تفصيل لجملة هي كلها شيء واحد، وجماعها الدين، ولذلك قال: «ذلك جبرائيل أتاكم يعلمكم أمر دينكم»، والدليل على أن الأعمال من الإيمان، ما أخبر أحمد بن عبد الله الصالح أن أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن علي بن الشاة، ثنا أبو أحمد بن محمد بن قريش بن سليمان، ثنا بشير بن موسى ثنا خلف بن الوليد عن جرير الرازي، عن سهل بن أبي صالح عن عبد الله بن دينار، عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضغّ وسبعون شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق والحياة شعبة من الإيمان»، الإيمان مأخوذ من الأمان فسُمي المؤمن مؤمناً لأنه يؤمن نفسه من عذاب الله، والله تعالى مؤمن لأنه يؤمن العباد من عذابه.

﴿بالغيب﴾، والغيب: مصدرٌ وُضع موضع الاسم، فقيل للغائب: غيب، كما قيل للعادل: عدل، وللزائر: زور، والغيب ما كان مغيباً من العيون، قال ابن عباس: الغيب ههنا كل ما أمرت بالإيمان به فيما غاب عن بصرك من الملائكة والبعث والجنة والنار والصراط والميزان، وقيل: الغيب ههنا هو الله تعالى، وقيل: القرآن وقال الحسن: الآخرة وقال زر بن حبیش وابن جريج: الوحي، نظيره: ﴿عنده علم الغيب﴾ [النجم: ٣٥]، وقال ابن كيسان: بالقدر، وقال عبد الرحمن بن يزيد: كنّا عند عبد الله بن مسعود فذكرنا أصحاب محمد ﷺ وما سبقوا به فقال عبد الله: إن أمر محمد كان بيننا لمن رآه والذي لا إله غيره ما آمن أحد قط إيماناً أفضل من إيمان بغيب، ثم قرأ: ﴿آلَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، إلى قوله: ﴿المفلحون﴾، قرأ أبو جعفر وأبو عمرو وورش: «يومنون»، بترك الهمزة، وكذلك يترك أبو جعفر كل همزة ساكنة إلا في ﴿أنبئهم﴾ [البقرة: ٣٣]، ﴿ينبئهم﴾ [المائدة: ١٤]،

الأمة ربها يعني سيدها والمعنى أن الرجل تكون له الأمة فتلد له ولداً فيكون ذلك الولد ابنها سيدها، ورعاء البهم بكسر الراء وفتح الباء وإسكان الهاء من البهم وهي الصغار من أولاد الضأن، والمعنى أنه ييسط المال على أهل البادية وأشباههم حتى يتباهون في البناء ويسودون الناس فذلك من أشراط الساعة والله أعلم. قوله تعالى ﴿بِالْغَيْبِ﴾، والغيب هنا مصدر وضع موضع الاسم، فقيل: الغائب غيب وهو ما كان مغيباً عن العيون قال ابن عباس: الغيب هنا كل ما أمرت بالإيمان به مما غاب عن بصرك من الملائكة والبعث والجنة والنار والصراف والميزان. وقيل: الغيب هنا هو الله تعالى وقيل القرآن وقيل بالآخرة وقيل بالوحي وقيل بالقدر وقال عبدالرحمن بن يزيد كنا عند عبدالله بن مسعود فذكرنا أصحاب محمد ﷺ وما سبقونا به فقال عبدالله بن مسعود إن أمر محمد ﷺ كان بيناً لمن رآه والذي لا إله غيره ما آمن أحد قط أفضل من إيمان بغيب ثم قرأ ﴿أَلَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ إلى قوله ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي يداومون عليها في مواقيتها بحدودها وإتمام أركانها وحفظها من أن يقع فيها خلل في فرائضها وسننها وآدابها، يقال: قام بالأمر وأقام الأمر إذا أتى به معطى حقوقه، والمراد به الصلوات الخمس. والصلوة في اللغة الدعاء والرحمة ومنه وصل عليهم أي ادع لهم وأصله من صليت العود إذا لينته فكأن المصلي يلين ويخضع. وفي الشرع اسم لأفعال مخصوصة من قيام وركوع وسجود وقعود ودعاء مع النية ﴿ومما رزقناهم﴾ أي أعطيناهم من الرزق وهو اسم لما ينتفع به من مال وولد وأصله الحظ والنصيب ﴿ينفقون﴾ أي يخرجون ويتصدقون في طاعة الله تعالى وسبيله، ويدخل فيه إنفاق الواجب كالزكاة والنذر والإنفاق على النفس وعلى من تجب نفقته عليه والإنفاق في الجهاد إذا وجب عليه والإنفاق في المندوب، وهو

الأنعام: ١٠٨ و ١٥٩، النور: ٦٤، المجادلة: ٦ و ٧، الحجر: ٤٩، ﴿وَبَشِّرْنَا﴾ [يوسف: ٣٦]، ويترك أبو عمرو كلها إلا أن يكون علامةً للجزم نحو ﴿نَبِّئْهُمْ﴾ [القمر: ٢٨، الحجر: ٥١]، و﴿أَنْبِئْهُمْ﴾ [البقرة: ٣٣]، و﴿تَسْؤُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، و﴿تَسْؤُكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]، و﴿إِنْ نَشَأْ﴾ [الشعراء: ٤]، سبأ: ٩، يس: ٤٣، و﴿نَسْأُهَا﴾، ونحوها أو يكون خروجها من لغة إلى أخرى نحو: «مؤسدة»، و﴿رُئِيا﴾، ويترك ورش كل همزة ساكنة كانت قبل فاء الفعل، إلا: «تؤوي»، و﴿تؤويه﴾، ولا يترك من عين الفعل إلا: «الرؤيا»، وبابه إلا ما كان على وزن فعل.

قوله: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾، أي: يديمونها ويحافظون عليها في مواقيتها بحدودها وأركانها وهيئاتها، يقال: قام بالأمر وأقام الأمر إذا أتى به معطياً حقوقه، أو المراد بها الصلوات الخمس، ذكر بلفظ الواحد كقوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٢١٣]، يعني: الكتب، والصلوة في اللغة: الدعاء، قال الله تعالى: ﴿فَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] أي: ادع لهم، وفي الشريعة اسم لأفعال مخصوصة من قيام وركوع وسجود وقعود ودعاء وثناء، وقيل في قوله تعالى: ﴿إِنْ اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، الآية، إن الصلاة من الله في هذه الآية الرحمة، ومن الملائكة الاستغفار، ومن المؤمنين الدعاء. قوله: ﴿ومما رزقناهم﴾، أي: أعطيناهم، والرزق اسم لكل ما يُنتفع به حتى الولد والعبد، وأصله في اللغة: الحظ والنصيب.

﴿ينفقون﴾: يتصدقون، قال قتادة: ينفقون في سبيل الله وطاعته، وأصل الإنفاق: الإخراج عن اليد والملك، ومنه نفاق السوق، لأنه يُخرج فيه السلعة عن اليد، ومنه نَفَقَتِ الدَّابَّةُ: إذا خرجت روحها، فهذه الآية في المؤمنين من مشركي العرب.

صدقه التطوع ومواساة الإخوان، وهذه كلها مما يمدح بها وأدخل من التي هي للتبعض صيانة لهم وكفاً عن السرف والتبذير المنهي عنهما في الإنفاق.

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾

﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾ أي يصدقون بالقرآن المنزل عليك وبالكتب المنزلة على الأنبياء من قبل كالتوراة والإنجيل والزبور وصحف الأنبياء كلها فيجب الإيمان بذلك كله ﴿وبالآخرة﴾ يعني بالدار الآخرة سميت آخرة لتأخرها عن الدنيا وكونها بعدها ﴿هم يوقنون﴾ من الإيقان وهو العلم والمعنى يستيقنون ويعلمون أنها كائنة.

أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾

﴿أولئك﴾ أي الذين هذه صفتهم ﴿على هدى من ربهم﴾ أي على رشاد ونور من ربهم وقيل على استقامة ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أي الناجون الفائزون نجوا من النار وفازوا بالجنة والمفلح الظافر بالمطلوب أي الذي انفتحت له وجوه الظفر ولم تستغلق عليه ويكون الفلاح بمعنى البقاء قال الشاعر:

لو كان حيي مدرك الفلاح أدركه مُلاعِب الرماح

يريد البقاء فيكون المعنى أولئك هم الباقيون في النعيم المقيم والفلاح والظفر وإدراك البغية من السعادة والعز والبقاء والغنى وأصل الفلاح الشق كما قيل: إن الحديد بالحديد يفلح، أي يقطع، فعلى هذا يكون المعنى أولئك

قوله: ﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك﴾، يعني: القرآن. ﴿وما أنزل من قبلك﴾: من التوراة والإنجيل وسائر الكتب المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ويترك أبو جعفر وابن كثير وقالون وأهل البصرة ويعقوب كلُّ مَذْيَبٍ بين كل كلمتين، والآخرين يمدونها، وهذه الآية في المؤمنين من أهل الكتب.

قوله: ﴿وبالآخرة﴾، أي: بالدار الآخرة، سُميت الدنيا: دنيا لدنوها من الآخرة، وسُميت الآخرة: آخرة لتأخرها وكونها بعد الدنيا. ﴿هم يوقنون﴾، أي: يستيقنون أنها كائنة، من الإيقان وهو العلم، وقيل: الإيقان واليقين علم عن استدلال، ولذلك لا يُسمى الله موقناً ولا علمه يقيناً إذ ليس علمه عن استدلال.

قوله: ﴿أولئك﴾، أي: أهل هذه الصفة، وأولاء: كلمة معناها الكناية عن جماعة نحو: هم، والكاف للخطاب، كما في حرف ذلك. ﴿على هدى﴾، أي: رُشد وبيان وبصيرة. ﴿من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾: الناجون والفائزون فازوا بالجنة ونجوا من النار، ويكون الفلاح بمعنى البقاء، أي: باقون في النعيم المقيم، وأصل الفلاح: القطع والشق، ومنه سُمي الزُّراع: فلاحاً، لأنه يشق الأرض، وفي مثل: الحديد بالحديد يفلح، أي: يشق، فهم المقطوع لهم بالخير في الدنيا والآخرة.

قوله: ﴿إن الذين كفروا﴾، يعني مشركي العرب، قال الكلبي: يعني اليهود، والكفر عن الجحود، وأصله: من الستر ومنه سُمي الليل كافراً لأنه يستر الأشياء بظلمته، وسُمي الزُّراع كافراً لأنه يستر الحب بالتراب، فالكافر يستر

هم المقطوع لهم بالخير في الدنيا والآخرة. واعلم أن الله عز وجل صدر هذه السورة بأربع آيات أنزلها في المؤمنين وبآيتين أنزلها في الكافرين وبثلاث عشرة آية أنزلها في المنافقين فأما التي في الكفار فقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي جحدوا وأنكروا وأصل الكفر في اللغة الستر والتغطية، ومنه سمي الليل كافراً لأنه يستر الأشياء بظلمته قال الشاعر، في ليلة كفر النجوم غمامها، أي سترها والكفر على أربعة أضرب: كفر إنكار وهو أن لا يعرف الله أصلاً ككفر فرعون وهو قوله ما علمت لكم من إله غيري، وكفر جحود وهو أن يعرف الله بقلبه ولا يقر بلسانه ككفر إبليس، وكفر عناد وهو أن يعرف الله بقلبه ويقر بلسانه ولا يدين به ككفر أمية بن أبي الصلت وأبي طالب حيث يقول في شعر له:

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحاً بذاك مبينا

وكفر نفاق، وهو أن يقر بلسانه ولا يعتقد صحة ذلك بقلبه، فجميع هذه الأنواع كفر. وحاصله أن من جحد الله أو أنكر وحدانيته أو أنكر شيئاً مما أنزله على رسوله أو أنكر نبوة محمد ﷺ أو أحداً من الرسل فهو كافر فإن مات على ذلك فهو في النار خالداً فيها ولا يغفر الله له نزلت في مشركي العرب. وقيل في اليهود ﴿سواء عليهم﴾ أي متساوٍ لديهم ﴿أأنذرتهم﴾ أي خوفتهم وحذرتهم والإنذار إعلام مع تخويف فكل منذر معلم وليس كل معلم منذراً ﴿أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ أي لا يصدقون وهذه الآية في أقوام حقت عليهم كلمة العذاب في سابق علم الله الأزلي أنهم لا يؤمنون. ثم ذكر سبب تركهم الإيمان فقال تعالى: ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ أي طبع الله

الحق بجحوده، والكفر على أربعة أنحاء: كفر إنكار، وكفر جحود، وكفر عناد، وكفر نفاق، فكفر الإنكار هو أن لا يعرف الله أصلاً ولا يعترف به، وكفر به، وكفر الجحود هو أن لا يعرف الله بقلبه ولا يعترف بلسانه ككفر إبليس وكفر اليهود، قال الله تعالى: ﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾ [البقرة: ٨٩]، وكفر العناد هو أن يعرف الله بقلبه ويعترف بلسانه ولا يدين به ككفر أبي طالب حيث يقول:

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحاً بذاك مبينا

وأما كفر النفاق فهو أن يقر باللسان ولا يعتقد بالقلب، وجميع هذه الأنواع سواء في أن من لقي الله تعالى بواحد منها لا يغفر له. قوله: ﴿سواء عليهم﴾: متساوٍ لديهم ﴿أأنذرتهم﴾: خوفتهم وحذرتهم، والإنذار: إعلام مع تخويف وتحذير، فكل منذر معلم وليس كل معلم منذراً، وحقق ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي الهمزتين في ﴿أأنذرتهم﴾، وكذلك كل همزتين تقعان في أول الكلمة، والآخرين يلبنون الثانية، ﴿أم﴾: حرف عطف على الاستفهام، ﴿لم﴾: حرف جزم لا يلي إلا الفعل، لأن الجزم يختص بالأفعال. ﴿تنذرهم لا يؤمنون﴾: وهذه الآية في أقوام حقت عليهم كلمة الشقاوة في سابق علم الله، ثم ذكر سبب تركهم الإيمان فقال:

﴿ختم الله﴾ أي: طبع الله ﴿على قلوبهم﴾ فلا تعني خيراً ولا تفهمه، وحقيقة الختم: الاستيثاق من الشيء كيلا يدخله ما خرج منه ولا يخرج عنه ما فيه ومنه الختم على الباب، قال أهل السنة أي: حكم على قلوبهم بالكفر لما سبق من علمه الأول فيهم، وقال المعتزلة: جعل على قلوبهم علامة تعرفهم الملائكة بها، ﴿وعلى سمعهم﴾، أي: على موضع سمعهم فلا يسمعون الحق ولا ينتفعون به، وأراد على أسماعهم كما قال على قلوبهم، وإنما وحده لأنه مصدر والمصدر لا يثنى ولا يجمع. ﴿وعلى أبصارهم غشاوة﴾: هذا ابتداء كلام، غشاوة أي: غطاء فلا يرون الحق.

عليها فلا تعي خيراً ولا تفهمه وأصل الختم التغطية وحقيقة الاستيثاق من الشيء لكي لا يخرج منه ما حصل فيه ولا يدخله ما خرج، منه ومنه ختم الكتاب. قال أهل السنة: ختم الله على قلوبهم بالكفر لما سبق في علمه الأزلي فيهم وإنما خص القلب بالختم لأنه محل الفهم والعلم ﴿وعلى سمعهم﴾ أي وختم على موضوع سمعهم فلا يسمعون الحق ولا ينتفعون به لأنها تمجده وتنبو عن الإصغاء إليه كأنها مستوثق منها بالختم أيضاً، وذكر السمع بلفظ التوحيد ومعناه الجمع قيل إنما وحده لأنه مصدر والمصدر لا يثنى ولا يجمع ﴿وعلى أبصارهم غشاوة﴾ هذا ابتداء كلام والغشاوة الغطاء، ومنه غاشية السرج أي وجعل على أبصارهم غشاوة فلا يرون الحق وهي غطاء التعامي عن آيات الله ودلائل توحيده ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ يعني في الآخرة وقيل الأسر والقتل في الدنيا والعذاب الدائم في العقبى. وحقيقة العذاب هو كل ما يؤلم الإنسان ويعيبه ويشق عليه وقيل هو الإيجاع الشديد وقيل هو ما يمنع الإنسان من مراده ومنه الماء العذب لأنه يمنع العطش والعظيم ضد الحقير. قوله عز وجل: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله﴾ نزلت في المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول ومعتب بن قشير وجد بن قيس وأصحابهم وذلك أنهم أظهروا كلمة الإسلام ليسلموا بها من النبي ﷺ وأصحابه وأسروا الكفر واعتقدوه وأكثرهم من اليهود. وصفة المنافق أن يعترف بلسانه بالإيمان ويقربه وينكره بقلبه ويصبح على حال ويمسي على غيرها، والناس جمع إنسان سمي به لأنه عهد إليه فنسى قال الشاعر. سميت إنساناً لأنك ناسي، وقيل سمي إنساناً لأنه يستأنس بمثله ﴿وباليوم الآخر﴾ أي وآمنا باليوم الآخر وهو يوم القيامة سمي بذلك لأنه يأتي بعد الدنيا وهو آخر الأيام المحدودة المعدودة وما بعده فلا حد له ولا آخر قال الله تعالى ردّاً على المنافقين ﴿وما هم بمؤمنين﴾ نفى عنهم الإيمان بالكلية.

يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠﴾

﴿يخادعون الله والذين آمنوا﴾ أي يخالفون الله والخديعة الحيلة والمكر وأصله في اللغة لإخفاء والمخادع

وقرأ أبو عمرو والكسائي: ﴿أبصارهم﴾ بالإمالة وكذلك كل ألف بعدها راء مجرورة في الأسماء كانت لام الفعل يُمِيلَانِهَا، ويميل حمزة منها ما فيه الراء «كالقرار» ونحوه، زاد الكسائي إمالة (جبارين، والجوار، مأواكم، ومن أنصاري، ونسارع) وبابه، وكذلك يميل هؤلاء كل ألف بمنزلة لام الفعل أو كانت علماً للتأنيث إذا كان قبلها راء، فعلم التأنيث مثل: (الكبرى، والأخرى)، ولام الفعل مثل: (تري، وفتری)، يكسرون الراء منها.

﴿ولهم عذاب عظيم﴾ أي: في الآخرة، وقيل: القتل والأسر في الدنيا والعذاب الدائم في العقبى، والعذاب: كل ما يعني الإنسان ويشق عليه، قال الخليل: العذاب ما يمنع الإنسان عن مراده، ومنه الماء العذب لأنه يمنع العطش.

قوله: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله﴾: نزلت في المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول ومعتب بن قشير وجد بن قيس وأصحابهم، حيث أظهروا كلمة الإسلام لیسلمُوا من النبي ﷺ وأصحابه، واعتقدوا خلافها، وأكثرهم من اليهود، والناس: جمع إنسان، سمي به لأنه عهد إليه فنسى، كما قال الله تعالى: ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى﴾ [طه: ١١٥]، وقيل: لظهوره من قولهم أي أبصرت، وقيل: لأنه يستأنس به، ﴿وباليوم الآخر﴾ أي: يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿وما هم بمؤمنين﴾.

﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ أي: يخالفون الله، وأصل الخداع في اللغة الإخفاء، ومنه المخدع للبيت الذي يُخْفَى فيه المتاع، فالمخادع يظهر خلاف ما يضمّر، والخداع من الله في قوله: ﴿وهو خادعهم﴾ [النساء: ١٤٢] أي: يُظْهَرُ

يظهر ضد ما يضمر ليتخلص فهو بمنزلة النفاق، وهو خادعهم أي يظهر لهم نعيم الدنيا ويعجله لهم بخلاف ما يغيب عنهم من عذاب الآخرة. فإن قلت المخادعة مفاعلة، وإنما تجيء في الفعل المشترك، والله تعالى منزّه عن المشاركة قلت المفاعلة قد ترد لا على وجه المشاركة تقول عافاك الله وطارقت النعل وعاقبت اللص، فالمخادعة هنا عبارة عن فعل الواحد والله تعالى منزّه عن أن يكون منه خداع. فإن قلت: كيف يخادع الله وهو يعلم الضمائر والأسرار؟ فمخادعة الله ممتنعة فكيف يقال يخادعون الله؟ قلت إن الله تعالى ذكر نفسه وأراد به رسوله ﷺ وذلك تفخيم لأمره وتعظيم لشأنه، وقيل أراد به المؤمنين وإذا خادعوا المؤمنين فكأنهم خادعوا الله تعالى وذلك أنهم ظنوا أن النبي ﷺ والمؤمنين لم يعلموا حالهم ولتجري عليهم أحكام الإسلام في الظاهر وهم، على خلافه في الباطن ﴿وما يخدعون إلا أنفسهم﴾ أي إن الله تعالى يجازيهم على ذلك ويعاقبهم عليه فلا يكونون في الحقيقة إلا خادعين أنفسهم، وقيل: إن وبال ذلك الخداع راجع إليهم لأن الله تعالى يطلع نبيه ﷺ على نفاقهم فيفتضحون في الدنيا ويستوجبون العقاب في العقبى. والنفس ذات الشيء وحقيقته. وقيل للدم نفس لأن به قوة البدن ﴿وما يشعرون﴾ أي لا يعلمون أن وبال خداعهم راجع عليهم.

فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لُقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامِنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾

﴿في قلوبهم مرض﴾ أي شك ونفاق وأصل المرض الضعف والخروج عن الاعتدال الخاص بالإنسان وسمي الشك في الدين والنفاق مرضاً لأنه يضعف الدين كالمرض يضعف البدن ﴿فزادهم الله مرضاً﴾ يعني أن الآيات

لهم ويُعجل لهم من النعيم في الدنيا خلاف ما يغيب عنهم من عذاب الآخرة، وقيل: أصل الخداع: الفساد، معناه يفسدون ما أظهروا من الإيمان بما أضمرُوا من الكفر، وقوله: ﴿وهو خادعهم﴾ [النساء: ١٤٢]، أي: يُفسد عليهم نعيمهم في الدنيا بما يصيرهم إليه من عذاب الآخرة، فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿يخادعون الله﴾، والمفاعلة للمشاركة وقد جلّ الله تعالى عن المشاركة في المخادعة؟ قيل: قد ترد المفاعلة لا على معنى المشاركة كقولك: عافاك الله وعافيت فلاناً وطارقت النعل، وقال الحسن: معناه يُخادعون رسول الله ﷺ، كما قال الله تعالى: ﴿إن الذين يؤذون الله﴾ [الأحزاب: ٥٧]، أي: أولياء الله، وقيل: ذكّر الله ههنا تحسین، والقصد بالمخادعة الذين آمنوا، كقوله تعالى: ﴿فإن لله خمساً وللرسول﴾ [الأنفال: ٤١]، وقيل: معناه يفعلون في دين الله ما هو خداع في دينهم. ﴿والذين آمنوا﴾، أي: ويخادعون المؤمنين بقولهم إذا رأوهم آمناً وهم غير مؤمنين، ﴿وما يخدعون﴾، قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿ما يخدعون﴾. كالحرف الأول وجعلوه من المفاعلة التي يختص بالواحد، وقرأ الباقر ﴿وما يخدعون﴾ على الأصل ﴿إلا أنفسهم﴾، لأن وبال خداعهم راجع إليهم لأن الله يطلع نبيه ﷺ على نفاقهم فيفتضحون في الدنيا ويستوجبون العقاب في العقبى، ﴿وما يشعرون﴾ أي: لا يعلمون أنهم يخدعون أنفسهم وأن وبال خداعهم يعود عليهم.

﴿في قلوبهم مرض﴾: شك ونفاق، وأصل المرض الضعف، سُمي الشك في الدنيا مرضاً لأنه يُضعف الدين كالمرض يُضعف البدن، ﴿فزادهم الله مرضاً﴾، لأن الآيات كانت تنزل تترى آية بعد آية، كلما

كانت تنزل تترى، أي آية بعد آية فلما كفروا بآية ازدادوا بعد ذلك كفراً ونفاقاً ﴿ولههم عذاب أليم﴾ أي مؤلم يخلص وجعه إلى قلوبهم ﴿بما كانوا يكذبون﴾ أي بتكذيبهم الله ورسوله في السر، وقرىء بالتخفيف أي بكذبهم إذ قالوا آمنا وهم غير مؤمنين ﴿وإذا قيل لهم﴾ يعني المنافقين وقيل اليهود والمعنى إذا قال لهم المؤمنون ﴿لا تفسدوا في الأرض﴾ أي بالكفر وتعويق الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن ﴿قالوا إنما نحن مصلحون﴾ يعني يقولونه كذباً ﴿ألا﴾ كلمة تنبيه ينبه بها المخاطب ﴿إنهم هم المفسدون﴾ يعني في الأرض بالكفر وهو أشد الفساد ﴿ولكن لا يشعرون﴾ وذلك لأنهم يظنون أن ما هم عليه من النفاق وإبطان الكفر صلاح وهو عين الفساد. وقيل لا يشعرون ما أعد الله لهم من العذاب ﴿وإذا قيل لهم﴾ يعني المنافقين وقيل اليهود ﴿آمنوا كما آمن الناس﴾ يعني المهاجرين والأنصار. وقيل عبدالله بن سلام وأصحابه من مؤمني أهل الكتاب، والمعنى أخلصوا في إيمانكم كما أخلص هؤلاء في إيمانهم لأن المنافقين كانوا يظهرون الإيمان ﴿قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء﴾ أي الجهال. فإن قلت كيف يصح النفاق مع المجاهرة بقولهم: أنؤمن كما آمن السفهاء. قلت كانوا يظهرون هذا القول فيما بينهم لا عند المؤمنين فأخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين بذلك فرد الله ذلك عليهم بقوله ﴿ألا إنهم هم السفهاء﴾ يعني الجهال. وأصل السفه خفة العقل ورقة العلم وإنما سمي الله المنافقين سفهاء لأنهم كانوا عند أنفسهم عقلاء رؤساء فقلب ذلك عليهم وسماهم سفهاء ﴿ولكن لا يعلمون﴾ يعني أنهم كذلك. قوله تعالى: ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا﴾ يعني هؤلاء المنافقين إذا لقوا المهاجرين والأنصار ﴿قالوا آمنا﴾ كإيمانكم ﴿وإذا خلوا﴾ أي رجعوا. وقيل هو من الخلوة ﴿إلى﴾ قيل بمعنى الباء أي بـ ﴿شياطينهم﴾ وقيل بمعنى مع أي مع شياطينهم والمراد بشياطينهم رؤسائهم وكهنتهم

كفروا بآية ازدادوا كفراً ونفاقاً، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ [التوبة: ١٢٥]، قرأ ابن عامر وحمزة ﴿فزادهم﴾، بالإمالة، وزاد حمزة إمالة (زاد) حيث وقع، (وزاغ، وخاب، وطاب، وحاق، وضاق)، والآخرين لا يُميلونها، ﴿ولههم عذاب أليم﴾: مؤلم يخلص وجعه إلى قلوبهم، ﴿بما كانوا يكذبون﴾: ما للمصدر، أي: بتكذيبهم الله ورسوله في السر، وقرأ الكوفيون يكذبون بالتخفيف، أي: بكذبهم إذا قالوا: آمنا وهم غير مؤمنين، (وإذا قيل) قرأ الكسائي (قيل، وغيض، وجيء، وحيل، وسيق، وسيئت)، برؤم أوائلهن الضم، ووافق أهل المدينة في (سيء، وسيئت) ووافق ابن عامر في (سيق، وحيل، وسيء، وسيئت)، لأن أصلها قول بضم القاف وكسر الواو، مثل قُتِل، وكذلك في أخواته، فأشير إلى الضمة لتكون دالة على الواو المنقلبة، والباقيون يكسر أوائلهن، استثقلوا الحركة على الواو، فنقلوا كسرتها إلى فاء الفعل وانقلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها.

﴿وإذا قيل لهم﴾، يعني: للمنافقين، وقيل: لليهود، أي: قال لهم المؤمنون: ﴿لا تفسدوا في الأرض﴾، بالكفر وتعويق الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ والقرآن، وقيل: معناه لا تكفروا، والكفر أشد فساداً في الدين، ﴿قالوا إنما نحن مصلحون﴾: يقول هذا القول كذباً كقولهم آمنا وهم كاذبون.

﴿ألا﴾: كلمة تنبيه ينبه بها المخاطب، ﴿إنهم هم المفسدون﴾ أنفسهم بالكفر، والناس بالتعويق عن الإيمان، ﴿ولكن لا يشعرون﴾ أي: لا يعلمون أنهم مفسدون، لأنهم يظنون أن الذي هم عليه من إبطان الكفر صلاح، وقيل: لا يعلمون ما أعد الله لهم من العذاب.

﴿وإذا قيل لهم﴾ أي: للمنافقين، وقيل لليهود: ﴿آمنوا كما آمن الناس﴾: عبد الله بن سلام وغيره من مؤمني أهل الكتاب، وقيل: كما آمن المهاجرون والأنصار، ﴿قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء﴾ أي: الجهال، فإن قيل: كيف يصح النفاق مع المجاهرة بقولهم أنؤمن كما آمن السفهاء؟ قيل: إنهم كانوا يُظهرون هذا القول فيما

قال ابن عباس وهم خمسة نفر: كعب بن الأشرف من اليهود بالمدينة وأبو بردة من بني أسلم، وعبد الدار في جهينة وعوف بن عامر في بني أسد وعبد الله بن السوداء بالشام، ولا يكون كاهن إلاّ ومعه شيطان تابع لهم، وقيل لهم رؤساؤهم الذين شابها الشياطين في تمردهم ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ أي على دينكم ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ أي بمحمد وأصحابه بما نظهر لهم من الإسلام لنا من شرهم ونقف على سرهم ونأخذ من غنائمهم وصدقاتهم. قال ابن عباس نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي وأصحابه، وذلك أنهم خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فقال عبد الله بن أبي لأصحابه انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم؟ فذهب فأخذ بيد أبي بكر الصديق فقال: مرحباً بالصادق سيد بني تميم وشيخ الإسلام وثاني رسول الله ﷺ في الغار الباذل نفسه وماله لرسول الله ﷺ ثم أخذ بيد عمر فقال: مرحباً بسيد بني عدي بن كعب الفاروق القوي في دين الله الباذل نفسه وماله لرسول الله ﷺ ثم أخذ بيد علي فقال: مرحباً يا ابن عم رسول الله ﷺ وختمه وسيد بني هاشم ما خلا رسول الله ﷺ. فقال له علي: اتق الله يا عبد الله ولا تنافق فإن المنافقين شر خلق الله. فقال مهلاً يا أبا الحسن إني لا أقول هذا نفاقاً والله إن إيماننا كإيمانكم وتصديقنا كتصديقكم ثم تفرقوا فقال عبد الله لأصحابه كيف رأيتموني فعلت؟ فأتوا عليه خيراً.

اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ

بينهم لا عند المؤمنين، فأخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين بذلك فردّ الله عليهم فقال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السَّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أنهم كذلك، والسفيه خفيف العقل رقيق الحلم، من قولهم: ثوب سفيه، أي: رقيق، وقيل: السفيه: الكذاب الذي يتعمد بخلاف ما يعلم.

قرأ أهل الكوفة والشام ﴿السفهاء ألا﴾ بتحقيق الهمزتين، وكذلك كل همزتين وقعتا في كلمتين اتفقتا أو اختلفتا، والآخرين يحققون الأولى ويلينون الثانية في المختلفتين طلباً للخفة، فإن كانتا متفتحتين مثل: (هؤلاء، وأولياء، وأولئك، وجاء أمر ربك)، قرأ أبو عمرو والبزّي عن ابن كثير بهمزة واحدة، وقرأ أبو جعفر وورش والقواش ويعقوب بتحقيق الأولى وتلين الثانية، وقرأ قالون بتلين الأولى وتحقيق الثانية لأن ما يستأنف أولى بالهمزة مما يسكت عليه.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، يعني: هؤلاء المنافقين إذا لقوا المهاجرين والأنصار: ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ كإيمانكم ﴿وَإِذَا خَلَوْا﴾ رجعوا، ويجوز أن يكون من الخلوة، و﴿إِلَى﴾، بمعنى: الباء، أي: بشياطينهم، وقيل: إلى بمعنى مع، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ [النساء: ٢] أي: مع أموالكم. ﴿شَيَاطِينُهُمْ﴾، أي: رؤسائهم وكهنتهم، قال ابن عباس: وهم خمسة نفر من اليهود: كعب بن الأشرف بالمدينة، وأبو بردة في بني أسلم، وعوف بن عامر في بني أسد، وعبد الله بن السوداء بالشام، ولا يكون كاهن إلاّ ومعه شيطان تابع له، والشيطان المتمرد العاتي من الجن والإنس ومن كل شيء، وأصله البعد، يقال: بثر شطون، أي: بعيدة العمق، سُمّي الشيطان شيطاناً لامتداده في الشر وبعده من الخير، وقال مجاهد: إلى أصحابهم من المنافقين والمشرّكين، ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾، أي: على دينكم ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ بمحمد ﷺ وأصحابه بما نظهر من الإسلام. قرأ أبو جعفر (مستهزؤون، ويستهزؤون، وقل استهزؤوا، وليطفؤا، وليسوطوا، ويستنبؤنك، وخاطين، وخاطون، ومتكين ومتكون فمالون، والمنشون)، بترك الهمزة فيهن.

وَتَرَكَّهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّ بَكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِيْءِ آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾

﴿الله يستهزئ بهم﴾ أي يجازيهم جزاء استهزائهم بالمؤمنين فسمي الجزء باسمه لأنه في مقابلته قال ابن عباس يفتح لهم باب الجنة فإذا انتهوا إليه سد عنهم وردوا إلى النار ﴿ويمدهم﴾ أي يتركهم ويمهلهم. والمد والإمداد واحد وأصله الزيادة وأكثر ما يأتي المد في الشر والإمداد في الخير ﴿في طغيانهم﴾ أي في ضلالهم وأصل الطغيان مجاوزة الحد ﴿يعمهم﴾ أي يترددون في الضلالة متحيرين ﴿أولئك﴾ يعني المنافقين ﴿الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ أي استبدلوا الكفر بالإيمان وإنما أخرجه بلفظ الشراء والتجارة توسعاً على سبيل الاستعارة لأن الشراء فيه إعطاء بدل وأخذ آخر. فإن قلت كيف قال اشتروا الضلالة بالهدى وما كانوا على هدى. قلت جعلوا لتمكنهم منه كأنه في أيديهم فإذا تركوه إلى الضلالة فقد عطلوه واستبدلوه بها. والضلالة الجور عن القصد وفقد الاهتداء ﴿فما ربحت تجارتهم﴾ أي ما ربحوا في تجارتهم والربح الفضل عن رأس المال وأضاف الربح إلى التجارة لأن الربح يكون فيها ﴿وما كانوا مهتدين﴾ أي مصيبين في تجارتهم، لأن رأس المال هو الإيمان فلما أضاعوه واعتقدوا الضلالة فقد ضلوا عن الهدى. وقيل وما كانوا مهتدين في ضلالتهم. قوله عز وجل ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً﴾ المثل عبارة عن قول يشبه ذلك القول قولاً آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره، ولهذا ضرب الله تعالى الأمثال في كتابه، وهو أحد أقسام القرآن السبعة ولما ذكر الله تعالى حقيقة وصف المنافقين عقبه بضرب المثل زيادة في الكشف والبيان، لأنه يؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه، ولأن المثل تشبيه الخفي بالجلي، فيتأكد الوقوف على ماهيته وذلك هو النهاية في الإيضاح، وشرطه أن يكون قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه كمثل الذي استوقد ناراً لينتفع بها ﴿فلما أضاءت﴾ يعني النار ﴿ما حوله﴾ يعني حول المستوقد ﴿ذهب الله بنورهم﴾ فإن قلت كيف وحد أولاً ثم جمع ثانياً. قلت يجوز وضع الذي يوضع الذين كقوله:

﴿الله يستهزئ بهم﴾، أي: يجازيهم جزاء استهزائهم، سمي الجزء باسمه لأنه بمقابلته، كما قال الله تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ [الشورى: ٤٠]، قال ابن عباس: هو أن يفتح لهم باب من الجنة فإذا انتهوا إليه سد عنهم وردوا إلى النار، وقيل: هو أن يضرب للمؤمنين نورٌ يمشون على الصراط فإذا وصل المنافقون إليه حيل بينهم وبين المؤمنين، كما قال الله تعالى: ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾ [سبا: ٥٤]، وقال الله تعالى: ﴿فضرب بينهم بسور له باب﴾ [الحديد: ١٣]، الآية. وقال الحسن: معناه أن الله يظهر المؤمنين على نفاقهم. ﴿ويمدهم﴾: يتركهم ويمهلهم، والمد والإمداد واحد، وأصله الزيادة إلا أن المد كثيراً ما يأتي في الشر، والإمداد في الخير، قال الله تعالى في المد: ﴿ونمئذٍ له من العذاب مداً﴾ [مریم: ٧٩]، وقال في الإمداد: ﴿وأمددناكم بأموال وبنين﴾ [الإسراء: ٦]، ﴿وأمددناهم بفأكة﴾ [الطور: ٢٢]. ﴿في طغيانهم﴾ أي: في ضلالتهم، وأصل الطغيان: مجاوزة الحد، ومنه: طغى الماء. ﴿يعمهم﴾، أي: يترددون في الضلالة متحيرين.

﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾: بالإيمان، ﴿فما ربحت تجارتهم﴾، أي: استبدلوا الكفر، أي: ما ربحوا في تجارتهم، وأضاف الربح إلى التجارة لأن الربح يكون فيها كما تقول العرب: ربح بيعك وخسرت صفقتك. ﴿وما كانوا مهتدين﴾: من الضلالة، وقيل: مصيبين في تجارتهم.

﴿مثلهم﴾: شبههم، وقيل: صفتهم، والمثل قولٌ سائر في عرف الناس يُعرف به منه الشيء، وهو أحد أقسام القرآن السبعة، ﴿كمثل الذي﴾: يعني الذين بدليل سياق الآية، ونظيره: ﴿والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك﴾

﴿وخضتم كالذي خاضوا﴾ وقيل إنما شبه قصتهم بقصة المستوقد، وقيل معناه مثل الواحد منهم كمثل الذي استوقد ناراً ﴿وتركهم في ظلمات لا يبصرون﴾ قال ابن عباس: نزلت في المنافقين يقول مثلهم في نفاقهم كمثل رجل أوقد ناراً في ليلة مظلمة في مفازة فاستدفاً ورأى ما حوله فاتقى مما يخاف، فبينما هو كذلك إذ طفت نارُه فبقي في ظلمة حائراً متخوفاً، وكذلك حال المنافقين أظهروا كلمة الإيمان فأمّنوا بها على أنفسهم وأموالهم وأولادهم وناكحوا المسلمين وقاسموهم في الغنائم فذلك نورهم، فلما ماتوا عادوا إلى الظلمة والخوف. وقيل: ذهب نورهم عقيدتهم للمؤمنين على لسان رسول الله ﷺ. وقيل ذهب نورهم في القبر أو على الصراط. فإن قلت ما وجه تشبيه الإيمان بالنور والكفر بالظلمة؟ قلت: وجه تشبيه الإيمان بالنور أن النور أبلغ الأشياء في الهداية إلى المحجة القصوى وإلى الطريق المستقيم وإزالة الحيرة وكذلك الإيمان هو الطريق الواضح إلى الله تعالى وإلى جنانه، وشبه الكفر بالظلمة لأن الضال عن الطريق المسلوكة في الظلمة لا يزداد إلا حيرة وكذلك الكفر لا يزداد صاحبه في الآخرة إلا حيرة. وفي ضرب المثل للمنافقين بالنار ثلاث حكم: إحداها أن المستضيء بالنار مستضيء بنور غيره فإذا ذهب ذلك بقي هو في ظلمته فكأنهم لما أقروا بالإيمان من غير اعتقاد قلوبهم كان إيمانهم كالمستعار. الثانية أن النار تحتاج في دوامها إلى مادة الحطب لتدوم فكذلك الإيمان يحتاج إلى مادة الاعتقاد ليدوم الثالثة أن الظلمة الحادثة بعد الضوء أشد على الإنسان من ظلمة لم يجد قبلها ضياء فشبه حالهم بذلك. ثم وصفهم الله تعالى فقال ﴿صم﴾ أي عن سماع الحق لأنهم لا يقبلونه وإذا لم يقبلوه فكأنهم لم يسمعه ﴿بكم﴾ أي خرس عن النطق بالحق فهم لا يقولونه ﴿عمي﴾ أي لا بصائر لهم يميزون بها بين الحق والباطل ومن لا بصيره له كمن لا بصر له فهو أعمى، كانت حواسهم سليمة ولكن لما سدوا عن سماع الحق آذانهم وأبوا أن تنطق به ألسنتهم وأن ينظروا إليه بعيونهم جعلوا كمن تعطلت حواسه وذهب إدراكه قال الشاعر:

صمٌ إذا سمعوا خيراً ذكراً به وإن ذكرت بسوء كلهم أذن

هم المتقون ﴿[الزمر: ٣٣]﴾ استوقد ناراً ﴿: أوقد ناراً﴾ فلما أضاءت ﴿النار﴾ ما حوله ﴿، أي: حول المستوقد، وأضاء لازم ومتعد، يقال: أضاء الشيء بنفسه وأضاء غيره، وهو هنا متعد، ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون﴾، قال ابن عباس وقتادة ومقاتل والضحاك والسدي: نزلت في المنافقين يقول مثلهم في نفاقهم كمثل رجل أوقد ناراً في ليلة مظلمة في مفازة فاستدفاً ورأى ما حوله فاتقى مما يخاف، فبينما هو كذلك إذ طفت نارُه فبقي في ظلمة خائفاً متحيراً، وكذلك المنافقون بإظهار كلمة الإيمان آمنوا على أموالهم وأولادهم وناكحوا المؤمنين ووارثوهم وقاسموهم الغنائم، فذلك نورهم، فإذا ماتوا عادوا إلى الظلمة والخوف، وقيل: ذهب نورهم في القبر، وقيل: في القيامة حيث يقولون: ﴿ل الذين آمنوا أنظرونا نقبَس من نوركم﴾ [الحديد: ١٣]، وقيل: ذهب نورهم بإظهار عقيدتهم على لسان النبي ﷺ، فضرب النار مثلاً، ثم لم يقل: أطفأ الله نارهم لكن عبر بإذهاب النور عنه، لأن النار نور وحرارة فيذهب نورهم وتبقى الحرارة عليهم، وقال مجاهد: إضاءة النار إقبالهم إلى المسلمين والهدى، وذهب نورهم إقبالهم إلى المشركين والضلالة، وقال عطاء ومحمد بن كعب: نزلت في اليهود وانتظارهم خروج النبي ﷺ واستفتاحهم به على مشركي العرب، فلما خرج كفروا به، ثم وصفهم الله فقال:

﴿صم﴾ أي: هم صم عن الحق لا يقبلونه، وإذا لم يقبلوا فكأنهم لم يسمعوا، ﴿بكم﴾ خرس عن الحق لا يقولونه، أو أنهم لما أبطنوا خلاف ما أظهروا فكأنهم لم ينطقوا بالحق، ﴿عمي﴾ أي: لا بصائر لهم، ومن لا بصيرة له كمن لا بصر له، ﴿فهم لا يرجعون﴾ عن الضلالة إلى الحق.

﴿أو كصيب﴾ أي: كأصحاب صيب، وهذا مثل آخر ضربه الله تعالى للمنافقين، بمعنى: إن شئت مثلهم

﴿فهم لا يرجعون﴾ أي عن ضلالتهم ونفاقهم. قوله تعالى: ﴿أو كصيب﴾ أي كأصحاب صيب وهو المطر، وكل ما أنزل من الأعلى إلى الأسفل فهو صيب ﴿من السماء﴾ أي من السحاب لأن كل ما علاك فأظلك فهو سماء ومنه قيل لسقف البيت سماء وقيل من السماء بعينها، وإنما ذكر الله تعالى السماء وإن كان المطر لا ينزل إلاّ منها ليرد على من زعم أن المطر ينعد من أبخرة الأرض فأبطل مذهب الحكماء بقوله من السماء ليعلم أن المطر ليس من أبخرة الأرض كما زعم الحكماء ﴿فيه﴾ أي الصيب ﴿ظلمات﴾ جمع ظلمة ﴿ورعد﴾ هو الصوت الذي يسمع من السحاب ﴿وبرق﴾ يعني النار التي تخرج منه. قال ابن عباس: الرعد اسم ملك يسوق السحاب والبرق لمعان سوط من نور يزجر به السحاب. وقيل الرعد اسم ملك يزجر السحاب إذا تبددت جمعها وضمها فإذا اشتد غضبه يخرج من فيه النار فهي البرق والصواعق، وقيل الرعد تسبيح الملك. وقيل اسمه ﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق﴾ جمع صاعقة وهي الصيحة التي يموت كل من يسمعها أو يغشى عليه، وقيل الصاعقة قطعة من العذاب ينزلها الله على من يشاء. عن ابن عمر «أن رسول الله ﷺ كان إذا سمع صوت الرعد والصواعق قال: اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب ﴿حذر الموت﴾ أي مخافة الهلاك ﴿والله محيط بالكافرين﴾ أي عالم بحالهم وقيل يجمعهم ويعذبهم. ﴿يكاد البرق﴾ أي يقرب، يقال كاد يفعل ولم يفعل ﴿يخطف أبصارهم﴾ أي يختلسها. والخطف استلاب الشيء بسرعة ﴿كلما﴾ أي متى ما جاء ﴿أضاء لهم﴾ يعني البرق ﴿مشوا فيه﴾ أي في إضاءته ونوره ﴿وإذا أظلم عليهم قاموا﴾ أي وقفوا متحيرين، وهذا مثل آخر ضربه الله تعالى للمنافقين، ووجه التمثيل أن الله عز وجل شبههم في كفرهم ونفاقهم بقوم كانوا في مفازة في ليلة مظلمة أصابهم مطر فيه ظلمات وهي ظلمة الليل وظلمة المطر وظلمة السحاب من صفة تلك الظلمات أن الساري لا يمكنه المشي فيها، ورعد من صفته أن يضم سامعوه أصابعهم إلى آذانهم من هوله، وبرق من صفته أن يخطف أبصارهم ويعميها من شدته فهذا مثل ضربه الله تعالى للقرآن وصنيع الكافرين والمنافقين معه، فالمطر هو القرآن لأنه حياة القلوب كما أن المطر حياة الأرض، والظلمات ما في القرآن من ذكر الكفر والشرك والنفاق. والرعد ما خوفوا به من الوعيد وذكر النار والبرق ما فيه من الهدى والبيان والوعد وذكر الجنة فالكافرون والمنافقون يسدون

بالمستوقد، وإن شئت بأهل الصيب، وقيل: أو بمعنى الواو يريد، وكصيب، كقوله تعالى: ﴿أو يزيدون﴾ [الصافات: ١٤٧]، بمعنى: ويزيدون، والصيب: المطر وكل ما نزل من الأعلى إلى الأسفل فهو صيب، فعيل من صاب يصوب، أي: نزل ﴿من السماء﴾ أي: من السحاب، وقيل: هي السماء بعينها، والسماء كل ما علاك فأظلك، وهي من أسماء الأجناس يكون واحداً وجمعاً. ﴿فيه﴾ أي: في الصيب، وقيل: في السماء، أي: في السحاب، ولذلك ذكره، وقيل: السماء يُذكر ويُؤنث، قال الله تعالى: ﴿السماء منفطر به﴾ [المزمل: ١٨]، وقال: ﴿إذا السماء انفطرت﴾ [الانفطار: ١]، ﴿ظلمات﴾: جمع ظلمة ﴿ورعد﴾: وهو الصوت الذي يُسمع من السحاب، ﴿وبرق﴾: وهو النار التي تخرج منه، قال عليّ وابن عباس وأكثر المفسرين: الرعد اسم ملك يسوق السحاب، والبرق لمعان سوط من نور، يزجر به الملك السحاب، وقيل: الصوت زجر السحاب، وقيل: تسبيح الملك، وقيل: الرعد نطق الملك والبرق ضحكه، وقال مجاهد: الرعد اسم الملك، ويقال لصوته أيضاً: رعد، والبرق: اسم ملك يسوق السحاب، وقال شهر بن حوشب: الرعد ملك يزجر فإذا تبددت ضمها فإذا اشتد غضبه طارت من فيه النار فهي الصواعق، وقيل: الرعد صوت انحراف الريح بين السحاب، والأول أصح. ﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق﴾: جمع صاعقة، وهي الصيحة التي يموت من يسمعها أو يغشى عليه، ويقال لكل عذاب مُهلك: صاعقة، وقال: الصاعقة قطعة عذاب ينزلها الله على من يشاء، روي عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه أن رسول الله ﷺ كان إذا سمع صوت الرعد والصواعق قال: «اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا

تفسير الخازن والبيهقي ج ١/ ٤

آذانهم عند قراءة القرآن وسماعه مخافة أن تميل قلوبهم إليه لأن الإيمان به عندهم كفر والكفر موت، وقيل هذا مثل ضربه الله تعالى للإسلام، فالمطر هو الإسلام، والظلمات ما فيه من البلاء والمحن، والرعد ما فيه من ذكر الوعيد والمخاوف في الآخرة، والبرق ما فيه من الوعد، ﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم﴾ يعني المنافقين إذا رأوا في الإسلام بلاء وشدة هربوا حذراً من الهلاك ﴿والله محيط بالكافرين﴾ يعني لا ينفعهم الهرب لأن الله من ورائهم يجمعهم ويعذبهم.

يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَتَأَيَّأُ النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾

﴿يكاد البرق﴾ يعني دلائل الإسلام تزعجهم إلى النظر لولا ما سبق لهم من الشقاوة كلمة أضاء لهم يعني المنافقين، وإضاءته لهم هو تركهم بلا ابتلاء ولا امتحان ﴿مشوا فيه﴾ يعني على المسالمة بإظهار كلمة الإيمان وقيل كلما نالوا غنيمة وراحة في الإسلام ثبتوا وقالوا إنا معكم، ﴿وإذا أظلم عليهم قاموا﴾ يعني إذا رأوا شدة وبلاء تأخروا ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم﴾ أي بصوت الرعد ﴿وأبصارهم﴾ بوميض البرق. وقيل: أي لذهب بأسماعهم وأبصارهم الظاهرة كما أذهب أسماعهم وأبصارهم الباطنة ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ أي هو الفاعل لما يشاء لا منازع له فيه. قوله عز وجل: ﴿يا أيها الناس﴾ قال ابن عباس: يا أيها الناس خطاب لأهل مكة ويا أيها الذين آمنوا خطاب لأهل المدينة، وهو هنا خطاب عام لسائر المكلفين ﴿اعبدوا ربكم﴾ قال ابن عباس: وحدوا

تُهَلِكُنَا بِعَذَابِكَ وَعَافَانَا قَبْلَ ذَلِكَ» قوله: ﴿حذر الموت﴾، أي: مخافة الهلاك، ﴿والله محيط بالكافرين﴾، أي: عالم بهم وقيل: جامعهم قال مجاهد: يجمعهم فيعذبهم، وقيل: مهلكهم، دليله قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦]، أي: تهلوكوا جميعاً ويُميل أبو عمرو والكسائي الكافرين في محل النصب أو الخفض، ولا يُميلان، ﴿أول كافر به﴾ [البقرة: ٤١].

﴿يكاد البرق﴾، أي: يقرب، يقال: كاد يفعل إذا قرب ولم يفعل، ﴿يخطف أبصارهم﴾: يختلسها، والخطف استلابٌ بسرعة، ﴿كلما﴾: كل حرف جملة، ضُمَّ إلى ما الجزاء فصار أداةً للتكرار، ومعناها متى ما، ﴿أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا﴾، أي: وقفوا متحيرين، فالله تعالى شبههم في كفرهم ونفاقهم بقوم كانوا في مفازة وسواد في ليلة مظلمة أصابهم مطرٌ فيه ظلمات، من صفتها أن الساري لا يمكنه المشي فيها، ورعد من صفته أن يضم السامعون أصابعهم إلى آذانهم من هوله، وبرق من صفته أن يقرب من أن يخطف أبصارهم ويعميها من شدة توقده، فهذا مثلٌ ضربه الله للقرآن، وصنيع الكافرين والمنافقين معه، فالمطر: القرآن لأنه حياة الجنان كما أن المطهر حياة الأبدان، والظلمات: ما في القرآن من ذكر الكفر والشرك، والرعد ما خوفوا به من الوعيد، وذكر النار والبرق ما فيه من الهدى والبيان والوعد وذكر الجنة، فالكافرون يسدون آذانهم عند قراءة القرآن مخافة ميل القلب إليه، لأن الإيمان عندهم كفر، والكفر موت، يكاد البرق يخطف أبصارهم أي: القرآن يُبهر قلوبهم، وقيل: هذا مثل ضربه الله للإسلام، فالمطر: الإسلام، والظلمات: ما فيه من البلاء والمحن، والرعد: ما

ربكم وكل ما ورد في القرآن من العبادة فمعناه التوحيد. وأصل العبودية التذلل والعبادة غاية التذلل ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال والإنعام وهو الله تعالى ﴿الذي خلقكم﴾ أي ابتدع خلقكم على غير مثال سبق ﴿والذين من قبلكم﴾ أي وخلق الذين من قبلكم ﴿لعلكم﴾ لعل وعسى حرفا ترجّ وهما أي كل منهما من الله واجب ﴿تتقون﴾ أي لكي تنجوا من العذاب، وقيل معناه تكونوا على رجاء التقوى بأن تصيروا في ستر ووقاية من عذاب الله وحكم الله من ورائكم يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً﴾ أي خلق لكم الأرض بساطاً ووطاء مذلة ولم يجعلها حزنة لا يمكن القرار عليها، والحزن ما غلط من الأرض ﴿والسماء بناء﴾ أي سقفاً مرفوعاً قيل إذا تأمل الإنسان المتفكر في العالم وجده كالبيت المعمور فيه كل ما يحتاج إليه فالسماء مرفوعة كالسقف والأرض مفروشة كالبساط والنجوم كالمصابيح والإنسان كمالك البيت وفيه ضروب النبات المهيأة لمنافعه وأصناف الحيوان مصروفة في مصالحه، فيجب على الإنسان المسخر له هذه الأشياء شكر الله تعالى عليها ﴿وأنزل من السماء﴾ يعني السحاب ﴿ماء﴾ يعني المطر ﴿فأخرج به﴾ أي بذلك الماء ﴿من الثمرات﴾ يعني من ألوان الثمرات وأصناف النبات ﴿رزقاً لكم﴾ أي وعلفاً لدوابكم ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾ يعني أمثالاً تعبدونهم كعادته، والنّد المثل ﴿وأنتم تعلمون﴾ يعني أنكم بعقولكم تعلمون أن هذه الأشياء والأمثال لا يصح جعلها أنداداً لله، وأنه واحد خالق لجميع الأشياء وأنه لا مثل له ولا ضد له.

قوله تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب﴾ أي إن كنتم في شك لأن الله تعالى عليم أنهم شاكون ﴿مما نزلنا على عبدنا﴾ أي محمد ﷺ لما تقرر إثبات الربوبية لله سبحانه وتعالى وأنه الواحد الخالق وأنه لا ضد له ولا نذّ أتبعه بإقامة الحجة على إثبات نبوة محمد ﷺ ما يدحض الشبهة في كون القرآن معجزة، وأنه من عند الله تعالى لا من عند نفسه كما تدعون فيه، وقوله على عبدنا إضافة تشريف لمحمد ﷺ وأن القرآن منزل عليه من عند الله سبحانه وتعالى ﴿فأتوا﴾ أمر تعجيز ﴿بسورة﴾ والسورة قطعة من القرآن معلومة الأول والآخِر وقيل السورة اسم للمنزلة الرفيعة، ومنه سور البلد لارتفاعه، سميت سورة لأن القارئ ينال بها منزلة رفيعة حتى يستكمل المنازل باستكمال سور القرآن ﴿من مثله﴾ أي مثل القرآن، وقيل الضمير في مثله راجع إلى عبدنا، يعني من مثل محمد ﷺ أمي لم

فيه من الوعيد والمخاوف في الآخرة، والبرق: ما فيه من الوعد، ﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم﴾ [البقرة: ١٩]. يعني: أن المنافقين إذا رأوا في الإسلام بلاءً وشدةً هَرَبُوا حَذَرًا من الهلاك، والله محيط بالكافرين: جامعهم، يعني: لا ينفعهم هَرَبُهُمْ لأن الله تعالى من ورائهم يجمعهم فيعذبهم، ﴿يكاد البرق﴾ يعني: دلائل الإسلام تزعجهم إلى النظر لولا ما سبق لهم من الشقاوة، ﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه﴾ يعني: أن المنافقين إذا أظهروا كلمة الإيمان آمنوا فإذا ماتوا عادوا إلى الظلمة، وقيل: معناه كلما نالوا غنيمةً وراحةً في الإسلام ثَبَّتُوا وقالوا: إنا معكم، وإذا أظلم عليهم يعني: رأوا شدةً وبلاءً تأخروا وقاموا، أي: وقفوا، كما قال الله تعالى: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف﴾ [الحج: ١١]، ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم﴾، أي: بأسماعهم ﴿وأبصارهم﴾ الظاهرة، كما ذهب بأسماعهم وأبصارهم الباطنة، وقيل: لذهب بما استفادوا من العِزِّ والأمان الذي لهم بمنزلة السمع والبصر، ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾: قادر، قرأ ابن عامر وحزمة: «شاء، وجاء»، حيث كان بالإمالة.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس﴾، قال ابن عباس: يا أيها الناس: خطاب أهل مكة، ويا أيها الذين آمنوا خطاب أهل المدينة، وهو ههنا عامٌ إلا من حيث إنه لا يدخله الصغار والمجانين. ﴿اعبدوا﴾: وحدوا، قال ابن عباس: كل ما ورد في القرآن من العبادة فمعناها التوحيد، ﴿ربكم الذي خلقكم﴾: والخلقُ اختراع الشيء على غير مثال سبق، ﴿والذين من قبلكم﴾، أي وخلق الذين من قبلكم، ﴿لعلكم تتقون﴾: لكي تنجوا من العذاب،

يحسن الكتابة ولم يجالس العلماء ولم يأخذ العلم عن أحد، ورد الضمير إلى القرآن أوجه وأولى ويدل عليه أن ذلك مطابق لسائر الآيات الواردة في التحدي وإنما وقع الكلام في المنزل ألا ترى أن المعنى وإن ارتبتم في أن القرآن منزل من عند الله فأتوا أنتم بسورة مما يماثله ويجانسه، ولو كان الضمير مردوداً إلى محمد ﷺ لقال وإن ارتبتم في أن محمداً منزل عليه فهااتوا قرآناً مثل محمد ﷺ، ويدل على كون القرآن معجزاً ما اشتمل عليه من الفصاحة والبلاغة في طرفي الإيجاز والإطالة فتارة يأتي بالقصة باللفظ الطويل ثم يعيدها باللفظ الوجيز ولا يخل بالمقصود الأول، وأنه فارقت أساليبه أساليب الكلام وأوزانه أوزان الأشعار والخطب والرسائل ولهذا تحدث العرب به، فعجزوا عنه وتحيروا فيه واعترفوا بفضله وهم معدن البلاغة وفرسان الفصاحة ولهم النظم والنثر من الأشعار والخطب والرسائل، حتى قال الوليد بن المغيرة في وصف القرآن: والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أصله لمغدق وإن أعلاه لمثمر ﴿وادعوا شهداءكم من دون الله﴾ أي استعينوا بالهتكم التي تعبدونها من دون الله والمعنى إن كان الأمر كما تقولون أنها تستحق العبادة فاجعلوا الاستعانة بها في دفع ما نزل بكم من أمر محمد ﷺ وإلا فاعلموا أنكم مبطلون في دعواكم أنها إلهة. وقيل معناه وادعوا أناساً يشهدون لكم ﴿إن كنتم صادقين﴾ أن محمداً ﷺ تقوله من تلقاء نفسه.

فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا

وقيل: معناه كونوا على رجاء التقوى بأن تصيروا في ستر ووقاية من عذاب الله، وحكم الله من ورائكم يفعل ما يشاء، كما قال: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]، أي: ادعوه إلى الحق وكُونَا على رجاء التذكّر، وحكم الله من ورائه يفعل ما يشاء، قال سيبويه: لعلّ وعسى حرفاً ترجّ وهما من الله واجب.

﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً﴾، أي بساطاً، وقيل: مناماً، وقيل: وطاءً، أي ذللها ولم يجعلها حَزَنَةً لا يمكن القرار عليها، والجعل ههنا بمعنى: الخلق، ﴿والسماء بناءً﴾: سقفاً مرفوعاً، ﴿وأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾، أي: من السحاب، ﴿ماءً﴾، وهو المطر، ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾: من ألوان الثمرات وأنواع النبات، ﴿رِزْقًا لَكُمْ﴾: طعاماً لكم وعلفاً لدوابكم، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾، أي: أمثالاً تعبدونهم كعبادة الله، وقال أبو عبيدة: النَّد الضَّد، وهو من الأضداد، والله تعالى بريء من المِثْل والضَّد، ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: أنه واحدٌ خالقٌ هذه الأشياء.

﴿وإن كنتم في ريب﴾، أي: وإن كنتم في شك، لأن الله تعالى علم أنهم شاكون ﴿مما نزلنا﴾، يعني: القرآن، ﴿على عبدنا﴾: محمد، ﴿فأتوا﴾: أمرٌ تعجيز، ﴿بسورة﴾، والسورة قطعة من القرآن معلومة الأول والآخر، من أسارت، أي: أفضلت، حذفت الهمزة، وقيل: السورة اسم للمنزلة الرفيعة، ومنه سور البلد لارتفاعه، سُمِّيَتْ سورة لأن القارئ ينال بقراءتها منزلةً رفيعةً حتى يستكمل المنازل باستكمال سور القرآن، ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾، أي: مثل القرآن، ومن: صلة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]، وقيل: الهاء في مثله راجعة إلى محمد ﷺ، يعني: من مثل محمد ﷺ أمي لا يُحْسِن الخط والكتابة، ﴿وادعوا شهداءكم﴾، أي: واستعينوا بالهتكم التي تعبدونها، ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، وقال مجاهد: ناساً يشهدون لكم، ﴿إن كنتم صادقين﴾: أن محمداً ﷺ تقوله من تلقاء نفسه، فلما تحدّاهم عجزوا، فقال:

هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِمْ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾

﴿فإن لم تفعلوا﴾ أي فيما مضى ﴿ولن تفعلوا﴾ فيما بقي وهذه الآية دالة على عجزهم وأنهم لم يأتوا بمثله ولا بمثل شيء منه. وذلك أن النفوس الأبية إذا قرعت بمثل هذا التقريع استفرغت الوسع في الإتيان بمثل القرآن أو بمثل سورة منه ولو قدروا على ذلك لأتوا به فحيث لم يأتوا بشيء ظهرت المعجزة للنبي ﷺ وبان عجزهم وهم أهل الفصاحة والبلاغة، والقرآن من جنس كلامهم، وكانوا حراساً على إطفاء نوره وإبطال أمره ثم مع هذا الحرص الشديد لم توجد المعارضة من أحدهم ورضوا بسبى الذراري وأخذ الأموال والقتل وإذا ظهر عجزهم عن المعارضة صح صدق رسول الله ﷺ وإذا كان الأمر كذلك وجب ترك العناد وهو قوله تعالى: ﴿فأتقوا النار﴾ أي فآمنوا واتقوا بالإيمان النار ﴿التي وقودها﴾ أي حطبها ﴿الناس والحجارة﴾ قال ابن عباس يعني حجارة الكبريت لأنها أكثر التهاباً. وقيل جميع الحجارة وفيه دليل على عظم تلك النار وقوتها. وقيل أراد بها الأصنام لأن أكثر أصنامهم كانت من الحجارة وإنما قرن الناس مع الحجارة لأنهم كانوا يعبدونها معتقدين فيها أنها تنفعهم وتشفع لهم فجعلها الله عذابهم في نار جهنم ﴿أعدت﴾ أي هيئت ﴿للكافرين﴾ قوله عز وجل: ﴿وبشر الذين آمنوا﴾ أي أخبر المؤمنين، وهذا أمر للنبي ﷺ. والبشارة إيراد الخبر السار على سامع يستبشر به ويظهر السرور في بشرة وجهه لأن الإنسان إذا فرح بشيء وسر به ظهر ذلك على بشرة وجهه ثم كثر حتى وضع موضع الخير والشر ومنه قوله: ﴿وبشرهم بعذاب أليم﴾ ولكن هو في السرور والخير أغلب ﴿وعملوا الصالحات﴾ أي الفعلات الصالحات وهي الطاعات. قيل العمل الصالح ما كان فيه أربعة أشياء: العلم والنية والصبر والإخلاص. وقال عثمان بن عفان: وعملوا الصالحات

﴿فإن لم تفعلوا﴾، فيما مضى ﴿ولن تفعلوا﴾، أبداً فيما بقي، وإنما قال ذلك لبيان الإعجاز، وأن القرآن كان معجزة النبي ﷺ حيث عجزوا عن الإتيان بمثله، قوله: ﴿فأتقوا النار﴾، أي: فآمنوا واتقوا بالإيمان النار، ﴿التي وقودها الناس والحجارة﴾، قال ابن عباس وأكثر المفسرين: يعني حجارة الكبريت لأنها أكثر التهاباً، وقيل: جمع الحجارة، وهو دليل على عظم تلك النار، وقيل: أراد بها الأصنام لأن أكثر أصنامهم كانت منحوتة من الحجارة، كما قال: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ [الأنبياء: ٩٨]، ﴿أعدت﴾: هيئت ﴿للكافرين﴾.

قوله تعالى: ﴿وبشر الذين آمنوا﴾، أي: أخبر، والبشارة: كل خبر صدق تتغير به بشرة الوجه، ويستعمل في الخير والشر وفي الخير أغلب، ﴿وعملوا الصالحات﴾، أي: الفعلات الصالحات، يعني: المؤمنين الذين هم من أهل الطاعات، قال عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه: وعملوا الصالحات، أي: أخلصوا الأعمال، كما قال: ﴿فليعمل عملاً صالحاً﴾ [الكهف: ١١٠] أي: خالياً عن الرياء، قال معاذ: العمل الصالح الذي فيه أربعة أشياء: العلم والنية والصبر والإخلاص، ﴿أن لهم جنات﴾: جمع الجنة، والجنة: البستان الذي فيه أشجار مثمرة، سُميت بها لاجتنانها وتسترها بالأشجار، وقال الفراء: الجنة ما فيه النخيل، والفردوس ما فيه الكرم، ﴿تجري من تحتها﴾ أي: من تحت أشجارها ومساكنها ﴿الأنهار﴾، أي: المياه في الأنهار، لأن النهر لا يجري، وقيل: من تحتها أي: بأمرهم، لقوله تعالى حكاية عن فرعون: ﴿وهذه الأنهار تجري من تحتي بأمر﴾ [الزخرف: ٥١]، والأنهار جمع نهر، سُمي به لسعته وضياؤه، ومنه النهار، وفي الحديث: «أنها الجنة تجري في غير أخذود». ﴿كلما﴾: متى ما، ﴿رُزقوا﴾: أطعموا ﴿منها﴾ أي: من الجنة، ﴿من ثمرة﴾ أي: ثمرة، ومن: صلة، ﴿رزقاً﴾: طعاماً، ﴿قالوا هذا الذي رزقنا من قبل﴾، وقبل رفع على الغاية، قال الله تعالى: ﴿لله

أي أخلصوا الأعمال يعني عن الرياء ﴿أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٌ﴾ جمع جنة وهي البستان الذي فيه أشجار مثمرة سميت جنة لاجتنابها وتسترها بالأشجار والأوراق. وقيل: الجنة ما فيه نخيل والفردوس ما فيه كرم ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا﴾ أي من تحت أشجارها ومسكنها ﴿الْأَنْهَارُ﴾ أي تجري المياه في الأنهار لأن الأنهار لا تجري وقيل معناه تجري بأمرهم وفي الحديث «إن أنهار الجنة تجري في غير أ حدود» أي في غير شق والخد الشق ﴿كَلِمًا رَزَقُوا﴾ أي أطعموا ﴿مِنْهَا﴾ أي من الجنة ﴿مَنْ ثَمَرَةً رَزَقًا﴾ أي طعاماً ﴿قَالُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي في الدنيا، وقيل: إن ثمار الجنة متشابهة في اللون مختلفة في الطعم فإذا رزقوا ثمرة بعد أخرى ظنوا أنها الأولى ﴿وَأَتُوا بِهِ﴾ أي بالرزق ﴿مُتَشَابِهًا﴾ قال ابن عباس مختلفاً في الطعوم وقيل يشبه بعضه بعضاً في الجودة لا رداءة فيها وقيل يشبه ثمار الدنيا في الاسم لا في الطعم (م) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «أهل الجنة يأكلون ويشربون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يبرزون يلهمون الحمد والتسبيح كما يلهمون النفس طعامهم جشاء ورشح كرشح المسك» وفي رواية «ورشحهم المسك». قوله: يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس أي يجري على ألسنتهم كما يجري النفس فلا يشغلهم عن شيء كما أن النفس لا يشغل عن شيء قوله طعامهم جشاء، يعني أن فضول طعامهم يخرج في الجشاء وهو تنفس المعدة. والرشح العرق وقوله العرق. وقوله تعالى ﴿وَلَهُمْ فِيهَا﴾ أي في الجنات ﴿أَزْوَاجٌ﴾ أي من الحور العين ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ يعني من البول والغائط والحيض والولد وسائر الأقدار وقيل هن عجائزكم الغمص العمى طهرن من قذرات الدنيا وقيل طهرن من مساوي الأخلاق قيل في الجنة جماع ما شئت ولا ولد ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي لا يخرجون منها ولا يموتون. والخلد البقاء الدائم الذي لا انقطاع له (ق) عن

الأمر مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴿[الروم: ٤] قيل: من قبل في الدنيا، وقيل: الثمار في الجنة متشابهة في اللون مختلفة في الطعم، فإذا رُزِقوا ثمرة بعد أخرى ظنوا أنها الأولى، ﴿وَأَتُوا بِهِ﴾: رزقاً ﴿مُتَشَابِهًا﴾، قال ابن عباس ومجاهد والربيع: متشابهاً في الألوان مختلفاً في الطعوم، وقال الحسن وقتادة: متشابهاً أي: يشبه بعضها بعضاً في الجودة، أي: كلها خيار لا رذالة فيها، وقال محمد بن كعب: يشبه ثمر الدنيا، غير أنها أطيب، وقيل: متشابهاً في الاسم مختلفاً في الطعم، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنه: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسامي، أنا أبو حامد بن عبد الله الصالح، أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي، أنا أبو عبد الله محمد بن الصفار، أنا أحمد بن محمد بن عيسى البزي، أنا محمد بن كثير أنا سفيان الثوري عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة يأكلون ويشربون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يبرزون، يُلهمون الحمد والتسبيح كما تُلهمون النفس، طعامهم الجشاء ورشحهم المسك».

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا﴾: في الجنان ﴿أَزْوَاجٌ﴾: نساء وجوارٍ، يعني: من الحور العين، ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾: من الغائط والبول والحيض والنفاس والبصاق والمخاط والمني والولد وكل قدر، قال إبراهيم النخعي: في الجنة جماع ما شئت ولا ولد، وقال الحسن: هن عجائزكم الغمص العمى طهرن من قذرات الدنيا، وقيل: مطهرة عن مساوي الأخلاق، ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، دائمون لا يموتون فيها ولا يخرجون منها، أنا أبو عمرو وعبد الواحد بن أحمد المليحي، أنا أبو حامد أحمد بن عبد الله النعمي، أنا محمد بن يوسف العزيزي، أنا محمد بن إسماعيل البخاري أنا قتيبة بن سعيد، أنا جرير عن عمارة عن أبي زرعة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ثمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دُرِّي في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يمتخطون، أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ومجامرهم الألوة، وأزواجهم الحور العين

أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة لا ييصقون ولا يمتخطون ولا يتغوطون ولا يبولون أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ومجامرهم الألوة وأزواجهم الحور العين على خلق رجل واحد وعلى صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء» وفي رواية «ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم قلب رجل واحد يسبحون الله بكراً وعشياً» (ق) عن أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ قال: «إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها في السماء ستون ميلاً للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً» عن أبي هريرة قال: «قلت يا رسول الله مم خلق الله الخلق؟ قال من الماء، قلت الجنة ما بناؤها؟ قال لبنه من فضة ولبنه من ذهب وملاطها المسك الأذفر وحسباؤها اللؤلؤ والياقوت وتربتها الزعفران من يدخلها ينعم ولا ييأس ويخلد ولا يموت ولا تبلى ثيابهم ولا يفنى شبابهم» أخرجه الترمذي بزيادة وقال ليس إسناده بذلك القوي. عن عباد بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض والفردوس أعلاها درجة ومنها تفجر أنهار الجنة الأربعة ومن فوقها يكون العرش فإذا سألت الله فاسأله الفردوس» أخرجه الترمذي (م) عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة لسوقاً يأتونها

على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، ستون ذراعاً في السماء» أنا عبد الواحد المليحي أنا عبد الرحمن بن أبي شريح أنا أبو القاسم البغوي، أنا علي بن الجعد أنا فضيل هو ابن مرزوق، عن عطية عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة من يدخل الجنة يوم القيامة صورة وجوههم مثل صورة القمر ليلة البدر، والزمرة الثانية على لون أحسن الكواكب في السماء، لكل رجل منهم زوجتان على كل زوجة سبعون حلة يرى مخ سوقهن دون لحومها ودمائها وحللها». أنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقى المروزي، أنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني، أنا عبد الرحمن بن أبي شريح أنا عبد الله بن عمر الجوهري، أنا أحمد بن علي الكشميهني أنا علي بن حجر، أنا إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الهمداني عن حميد الطويل عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت على الأرض لأضاءت ما بينهما، ولملأت ما بينهما ريحاً ولنصفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها»، صحيح، أخرجه محمد بن عبد الله بن محمد عن معاوية بن عمر عن أبي إسحاق عن حميد أنا أبو الحسن علي بن يوسف الجويني أنا أبو محمد محمد بن علي بن محمد بن شريك الشافعي، أنا عبد الله بن مسلم أنا أبو بكر الجوردي أنا أحمد بن الفرج الحمصي أنا عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار، أنا محمد بن المهاجر عن الضحاك المغافري عن سليمان بن موسى حدثني كريب أنه سمع أسامة بن زيد يقول: قال رسول الله ﷺ: «ألا هل من مُشمر للجنة، وإن الجنة لا خطر لها، وهي رب الكعبة نور يتلألأ وريحانة تهتز، وقصر مشيد ونهر مطرّد، وثمرة نضيجة وزوجة حسناء جميلة وحل كثيرة ومقام أبد في دار سليمة وفاكهة خضرة وحبرة ونعمة في محلة عالية بهية»، قالوا: نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها، قال: «قولوا: إن شاء الله»، قال القوم: إن شاء الله، وروى عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة جرد مُرد كحل لا يفنى شبابهم ولا يبلى ثيابهم»، وأنا أبو بكر محمد بن عبد الصمد الترابي، أنا الحاكم أبو الفضل الحدادي أنا أبو يزيد محمد بن يحيى، أنا إسحق الحنظلي أنا أبو معاوية أنا عبد الرحمن بن إسحاق، عن النعمان بن سعيد عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لسوقاً ليس فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء فإذا انتهى الرجل صورة دخل فيها، وإن فيها لمجتمع الحور العين ينادين بصوت لم يسمع الخلائق مثله نحن الخالدات فلا نبید أبداً ونحن الناعمات فلا نبأس أبداً ونحن الراضيات فلا نسخط، فطوبى لمن كان لنا وكنا له أو نحن له»، ورواه أبو عيسى عن

كل جمعة فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم فيزدادون حسناً وجمالاً فيرجعون إلى أهلهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً فيقول لهم أهلهم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً فيقولون وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً» عن علي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة لمجتمعاً للحوار العين يرفعن بأصوات لم تسمع الخلائق مثلهما يقلن: نحن الخالدات فلا نبئد ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا ننسخط طوبى لمن كان لنا وكنا له» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب. قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُون أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ؕ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ؕ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ؕ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها﴾ سبب نزول هذه الآية أن الله تعالى لما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت وذكر النحل والنمل قالت اليهود: ما أراد الله بذكر هذه الأشياء الخسيسة. وقيل قال المشركون إنا لا نعبد إلهاً يذكر هذه الأشياء وذلك لأن الكفار كانوا متفقين على إيذاء رسول الله ﷺ فقالوا ذلك، فأنزل الله تعالى ﴿إن الله لا يستحي﴾ الحياء تغير وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به ويذم عليه. وقيل هو انقباض النفس عن القبايح هذا أصله في وصف الإنسان، والله تعالى منزّه عن ذلك كله فإذا وصف الله تعالى به يكون معناه الترك، وذلك لأن لكل فعل بداية ونهاية، فبداية الحياء هو التغير الذي يلحق الإنسان من خوف أن ينسب إليه ذلك الفعل القبيح، ونهايته ترك ذلك الفعل القبيح، فإذا ورد وصف الحياء في حق الله تعالى فليس المراد منه بدايته وهو التغير والخوف، بل المراد منه ترك الفعل الذي هو نهاية الحياء وغايته فيكون معنى إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً أي لا يترك المثل لقول الكفار واليهود «ما» قيل ما صلة فيكون المعنى أن يضرب مثلاً بعوضة، وقيل ليس هي بصلة بل هي للإبهام والنكرة، والبعوض صغار البق وهو من عجيب خلق الله تعالى فإنه في غاية الصغر وله خرطوم

هناد وأحمد بن منيع عن أبي معاوية مرفوعاً وقال: هذا حديث غريب. أنا إسماعيل بن عبد القاهر الجرجاني أنا عبد الغافر بن محمد الفارسي أنا محمد بن عيسى الجلودي، أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجاج، أنا أبو عثمان سعد بن عبد الجبار البصري، أنا حماد بن مسلمة عن ثابت البناني عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة لسوقاً يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم فيزدادون حسناً وجمالاً فيرجعون إلى أهلهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً، فيقول لهم أهلهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾، سبب نزول هذه الآية أن الله تعالى لما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣]، وقال: ﴿مِثْلَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمِثْلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت: ٤١]، قالت اليهود: ما أراد الله بذكر هذه الأشياء الخسيسة؟ وقيل: قال المشركون: إنا لا نعبد إلهاً يذكر مثل هذه الأشياء، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾، أي: لا يترك ولا يمنعه الحياء أن يضرب مثلاً يذكر شبهاً، ﴿ما بعوضة﴾، ما: صلة، أي: مثلاً بالبعوضة، وبعوضة: نصب بدل عن المثل، والبعوض صغار البق، سُميت بعوضة لأنها كانت بعض البق، ﴿فما فوقها﴾، يعني: الذباب والعنكبوت، وقال أبو عبيدة: أي: فما دونها، كما يُقال:

مجوف وهو مع صغره يغوص خرطوميه في جلد الفيل والجاموس والجمل فيبلغ منه الغاية حتى أن الجمل يموت من قرصه فما فوقها يعني الذباب والعنكبوت وما هو أعظم منهما في الجثة.

وقيل معناه فما دونها وأصغر منها، وهذا القول أشبه بالآية لأن الغرض بيان أن الله تعالى لا يمتنع من التمثيل بالشيء الصغير الحقيق وقد ضرب النبي ﷺ مثلاً للعالمين بجناح البعوضة وهو أصغر منها، وقد ضربت العرب المثل بالمحقرات، فقيل: هو أحقر من ذرة وأجمع من نملة وأطيش من ذبابة وألح من ذبابة ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني بمحمد ﷺ والقرآن ﴿فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ يعني ضرب المثل ﴿الْحَقُّ﴾ يعني الصدق ﴿مَنْ رَبِّهِمْ﴾ الثابت الذي لا يجوز إنكاره لأن ضرب المثل من الأمور المستحسنة في العقل وعند العرب ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً؟ أي بهذا المثل ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾ أي من الكفار وذلك أنهم يكذبونه فيزدادون به ضلالاً ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ يعني المؤمنين يصدقونه ويعلمون أنه حق ﴿وَمَا يَضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ يعني الكافرين وقيل المنافقين. وقيل اليهود، والفسق الخروج عن طاعة الله وطاعة رسوله ثم وصفهم فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ﴾ أي يخالفون ويتركون وأصل النقض الفسخ وفك المركب ﴿عَهْدَ اللَّهِ﴾ أي أمر الله وأصل العهد حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال ﴿مَنْ بَعْدَ مِيثَاقِهِ﴾ أي من بعد عقده وتوكيده وفي معنى هذا العهد أقوال أحدها أنه الذي أخذه عليهم يوم الميثاق وهو قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ الثاني المراد به الذي أخذه على إيجاب اليهود في التوراة أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ويؤمنوا نعتهم وصفته الثالث المراد به الكفار والمنافقون الذين نقضوا عهداً أبرمه الله تعالى وأحكمه بما أنزل في كتابه من الآيات الدالة على توحيده ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ يعني الإيمان بمحمد ﷺ وجميع الرسل فآمنوا ببعض وكفروا ببعض وهم اليهود. وقيل أراد به قطع الأرحام التي أمر الله بوصلها ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني بالمعاصي وتعويق الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ والقرآن ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي المغبونون. وأصل الخسار النقص ثم قال تعالى لمشركي العرب على وجه التعجب لكن فيه تبكيت وتعنيف لهم.

فلان جاهل، فيقال: وفوق ذلك، أي: وأجهل. ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: بمحمد والقرآن، ﴿فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾، يعني: المثل هو ﴿الْحَقُّ﴾: الصدق ﴿مَنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً؟ أي: بهذا المثل، فلما حذف الألف واللام نصب على الحال والقطع، ثم أجابهم فقال: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾ من الكفار، وذلك أنهم يكذبون فيزدادون ضلالاً، ﴿وَيَهْدِي بِهِ﴾، أي: بهذا المثل ﴿كَثِيرًا﴾ من المؤمنين فيصدقونه، والإضلال هو الصرف عن الحق إلى الباطل، وقيل: هو الهلاك، يقال: ضلّ الماء في اللبن إذا هلك، ﴿وَمَا يَضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾: الكافرين، وأصل الفسق: الخروج، يقال: فسقت الرطبة إذا خرجت عن قشرها، قال الله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠]، أي: خرج، ثم وصفهم فقال:

﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ﴾: يخالفون ويتركون، وأصل النقض: الكسر، ﴿عَهْدَ اللَّهِ﴾: أمر الله الذي عهد إليهم يوم الميثاق بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وقيل: أراد به العهد الذي أخذه على النبيين وسائر الأمم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ [آل عمران: ٨١]، الآية، وقيل: أراد به العهد الذي عهد إليهم في التوراة أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ويؤمنوا نعتهم وصفته، ﴿مَنْ بَعْدَ مِيثَاقِهِ﴾: توكيده، والميثاق: العهد المؤكد، ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾، يعني: الإيمان بمحمد ﷺ وبجميع الرسل عليهم السلام لأنهم قالوا: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنُكْفِرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠]، وقال المؤمنون: ﴿لَا نَفْرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وقيل: أراد به الأرحام، ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾: بالمعاصي وتعويق الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾: المغبونون، ثم قال لمشركي العرب على وجه التعجب:

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾
هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

﴿كيف تكفرون بالله﴾ يعني بعد نصب الدلائل ووضع البراهين الدالة على وحدانيته ثم ذكر الدلائل فقال تعالى: ﴿وكنتم أمواتاً﴾ يعني نطفاً في أصلاب آبائكم ﴿فأحياكم﴾ يعني في الارحام والدنيا ﴿ثم يميتكم﴾ أي عند انقضاء آجالكم ﴿ثم يحييكم﴾ يعني بعد الموت للبعث ﴿ثم إليه ترجعون﴾ أي تردون في الآخرة فيجزئكم بأعمالكم. قوله عز وجل: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ يعني من المعادن والنبات والحيوان والجبال والبحار والمعنى كيف تكفرون بالله وقد خلق لكم ما في الأرض جميعاً لتنتفعوا به في مصالح الدين والدنيا أما مصالح الدين فهو الاعتبار والتفكر في عجائب مخلوقات الله تعالى الدالة على وحدانيته وأما مصالح الدنيا فهو الانتفاع بما خلق فيها ﴿ثم استوى إلى السماء﴾ أي قصد وأقبل على خلقها وقيل عمد، وقال ابن عباس: ارتفع وفي رواية عنه صعد. قال الأزهري معناه صعد أمره وكذا ذكره صاحب المحكم وذلك أن الله تعالى خلق الأرض أولاً ثم عمد إلى خلق السماء. فإن قلت كيف الجمع بين هذا وقوله تعالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ قلت: الدحو البسط فيحتمل أن الله تعالى خلق جرم الأرض ولم يبسطها ثم خلق السماء وبسط جرم الأرض بعد ذلك، فإن قلت هذا مشكل أيضاً لأن قوله تعالى خلق لكم ما في الأرض جميعاً يقتضي أن ذلك لا يكون إلا بعد الدحو. قلت: يحتمل أنه ليس هنا ترتيب وإنما هو على سبيل تعداد النعم كقوله الرجل لمن يذكره ما أنعم به عليه: ألم أعطك؟ ألم أرفع قدرك؟ ألم أدفع عنك؟ ولعل بعض هذه النعم متقدمة على بعض والله أعلم ﴿فسواهن سبع سموات﴾ خلقهن سبع سموات مستويات لا صدع فيها ولا فطور وسيأتي ذكر خلق الأرض عند قوله تعالى: ﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين﴾ في سورة حم السجدة إن شاء الله تعالى ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ يعني يعلم الجزئيات كما يعلم الكليات قوله تعالى:

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ

﴿كيف تكفرون بالله﴾؟ بعد نصب الدلائل ووضوح البرهان، ثم ذكر الدلائل فقال: ﴿وكنتم أمواتاً﴾: نطفاً في أصلاب آبائكم، ﴿فأحياكم﴾: في الارحام والدنيا، ﴿ثم يميتكم﴾ عند انقضاء آجالكم، ﴿ثم يحييكم﴾: للبعث، ﴿ثم إليه ترجعون﴾، أي: تُردون في الآخرة فيجزئكم بأعمالكم، قرأ يعقوب (ترجعون) كل القرآن بفتح الياء والتاء على تسمية الفاعل.

قوله تعالى: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾، للحيّ لكي تعتبروا وتستدلّوا، وقيل: لكي تنتفعوا، ﴿ثم استوى إلى السماء﴾، قال ابن عباس وأكثر مفسري السلف: أي ارتفع إلى السماء، وقال ابن كيسان والقرء وجماعة من النحويين: أي أقبل على خلق السماء، وقيل: قصد لأنه خلق الأرض أولاً ثم عمد إلى خلق السماء، ﴿فسواهن سبع سموات﴾: خلقهن مستويات لا فطور فيها ولا صدوع، ﴿وهو بكل شيء عليم﴾، قرأ أبو جعفر وأبو عمرو والكسائي وقالون (وهو، وهي) بسكون الهاء إذا كان قبل الهاء: واو أو فاء أو لام، زاد الكسائي وقالون (ثم هو) وقالون أن يملّ هو.

الَّذِينَ آمَنُوا وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ أي واذكر يا محمد إذ قال ربك وكل ما ورد في القرآن من هذا النحو فهذا سبيله، وقيل إذ زائدة والاول أوجه ﴿للملائكة﴾ جمع ملك وأصله مألوك من المألوكه والألوكه وهي لفظ البغوي وهي الرسالة وأراد بالملائكة الذين كانوا في الأرض وذلك أن الله تعالى خلق الأرض والسماء وخلق الملائكة والجن فأسكن الملائكة السماء وأسكن الجن الأرض، فعبدوا دهرًا طويلًا، ثم ظهر فيهم الحسد والبغي فأفسدوا وقتلوا، فبعث الله إليهم جنًا من الملائكة يقال لهم الجان ورأسهم إبليس وهم خزان الجنان فهبطوا إلى الأرض وطرردوا الجن إلى جزائر البحور وشعوب الجبال وسكنوا هم الأرض وخفف الله عنهم العبادة وأعطى الله إبليس ملك الأرض وملك السماء الدنيا وخزانة الجنة، وكان رئيسهم ومرشدهم وأكثرهم علماً فكان يعبد الله تارة في الأرض وتارة في السماء وتارة في الجنة فدخله العجب وقال في نفسه: ما أعطاني الله هذا الملك إلا لأنني أكرم الملائكة عليه فقال له ولجنده ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ أي إني خالق خليفة يعني بدلاً منكم ورافعكم إلي فكرهوا ذلك لأنهم كانوا أهون الملائكة عبادة والمراد بالخليفة هنا آدم عليه الصلاة والسلام لأنه خلف الجن وجاء بعدهم. وقيل لأنه يخلفه غيره والصحيح إنه إنما سمي خليفة لأنه خليفة الله في أرضه لإقامة حدوده وتنفيذ قضاياه ﴿قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها﴾ أي بالمعاصي ﴿ويسفك الدماء﴾ أي بغير حق كما فعل الجن. فإن قلت من أين عرفوا ذلك حتى قالوا هذا القول؟ قلت يحتمل أن يكونوا عرفوا ذلك بإخبار الله إياهم أو قاسوا الشاهد على الغائب، وقيل إنهم لما رأوا أن آدم خلق من أخلاط مركبة علموا أنه يكون فيه الحقد والغضب ومنهما يتولد الفساد وسفك الدماء فلماذا قالوا ذلك. وقيل لما خلق الله تعالى النار خافت الملائكة، وقالوا لمن خلقت هذه النار؟ قال لمن عصاني فلما قال إني جاعل في الأرض خليفة قالوا هو ذلك. فإن قلت الملائكة معصومون فكيف وقع منهم هذا الاعتراض. قلت ذهب بعضهم إلى أنهم غير معصومين واستدل على ذلك بوجوه منها قوله ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها﴾ ومن ذهب إلى

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾، أي: وقال ربك وإذ زائدة، وقيل: معناه واذكر إذ قال ربك، وكذلك كل ما ورد في القرآن من هذا النحو فهذا سبيله، وإذ وإذا حرفا توقيت إلا أن إذ للماضي وإذا للمستقبل، وقد يوضع أحدهما موضع الآخر، قال المبرد: إذا جاء إذ مع المستقبل كان معناه ماضياً، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ﴾ [الأنفال: ٣٠]، يريد وإذ مكر، وإذا جاء إذ مع الماضي كانت معناه مستقبلاً، كقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ﴾ [النازعات: ٣٤]، ﴿وَإِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ [النصر: ١] أي: يجيء. ﴿للملائكة﴾، جمع ملك، وأصله مألوك من المألوكه والألوكه والألوك، وهي الرسالة، فقلب فقيل: ملأك، ثم حذفت الهمزة طلباً للخفة لكثرة استعماله ونقلت حركتها إلى اللام، فقيل: ملأك وأراد به الملائكة الذين كانوا في الأرض، وذلك أن الله تعالى خلق السماء والأرض وخلق الملائكة والجن فأسكن الملائكة السماء وأسكن الجن الأرض فعبدوا دهرًا طويلًا في الأرض ثم ظهر فيهم الحسد والبغي فأفسدوا وقتلوا فبعث الله إليهم جنًا من الملائكة يقال لهم: الجن، وهم خزان الجنان اشتق لهم من الجنة رأسهم إبليس وكان رئيسهم ومرشدهم وأكثرهم علماً فهبطوا إلى الأرض فطرردوا الجن إلى شعوب الجبال وجزائر البحور وسكنوا الأرض وخفف الله عنهم العبادة فأعطى الله إبليس الأرض، وملك السماء الدنيا وخزانة الجنة وكان يعبد الله تارة في الأرض وتارة في السماء وتارة في الجنة فدخله العجب، وقال في نفسه: ما أعطاني الله هذا

عصمتهم أجاب عنه بأن هذا السؤال إنما وقع على سبيل التعجب لا على سبيل الإنكار والاعتراض فإنهم تعجبوا من كمال حكم الله تعالى وإحاطة علمه بما خفي عليهم، ولهذا أجابهم بقوله ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ وقيل: إن العبد المخلص في حب سيده يكره أن يكون له عبد آخر يعصيه فكان سؤالهم على وجه المبالغة في إعظام الله عز وجل: ﴿ونحن نسبح بحمدك﴾ أي نقول: سبحان الله وبحمده وهي صلاة الخلق وعليها يرزقون (م) عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ سئل أي الكلام أفضل قال «ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده سبحان الله وبحمده» قال ابن عباس رضي الله عنهما كل ما جاء في القرآن من التسبيح فالمراد منه الصلاة فيكون المعنى ونحن نصلي لك. وقيل أصل التسبيح تنزيه الله عما لا يليق بجلاله فيكون المعنى، ونحن ننزهك عن كل سوء ونقيصة. ومعنى بحمدك حامدين لك أو متبسين بحمدك، فإنه لولا إنعامك علينا بالتوفيق لم نتمكن من ذلك ﴿ونقدس لك﴾ أصل التقديس التطهير أن نظهرك عن النقائص وكل سوء ونصفك بما يليق بعزك وجلالك من العلو والعظمة واللام صلة وقيل معناه نظهر أنفسنا لطاعتك وعبادتك ﴿قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾ قيل إنه جواب لقول الملائكة ﴿أتجعل فيها﴾ فقال تعالى: ﴿أعلم﴾ من وجوه المصلحة والحكمة ما لا تعلمون. وقيل أعلم أن فيهم من يعبدني ويطيعني وهم الأنبياء والأولياء والصالحون، ومن يعصيني منكم وهو إبليس، وقيل أعلم أنهم يذنبون ويستغفرون فاغفر لهم.

فصل: في ماهية الملائكة وقصة خلق آدم عليه السلام:

قيل إن الملائكة أجسام لطيفة هوائية خلقت من النور تقدر أن تتشكل بأشكال مختلفة، مسكنهم السموات عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطم السماء وحق لها أن تثط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته لله ساجداً» أخرجه الترمذي بزيادة، وقال حديث حسن غريب. وأما صفة خلق آدم عليه السلام فقال وهب بن منبه: لما أراد الله تعالى أن يخلق آدم أوحى إلى الأرض أني خالق منك خليفة منهم من يطيعني ومنهم من يعصيني فمن أطاعني أدخلته الجنة، ومن عصاني أدخلته النار. قالت الأرض أتخلق مني خلقاً يكون للنار قال نعم. فبكت الأرض فانفجرت منها العيون إلى يوم القيامة، فبعث الله إليها جبريل ليأتيه بقبضة منها من أحمرها وأسودها وطيبها وخبيثها، فلما أتاها ليقبض منها قالت: أعوذ بعزة الله الذي أرسلك إليّ أن لا تأخذ مني شيئاً فرجع جبريل إلى مكانه وقال: يا رب استعاذت بك مني فكرهت أن أقدم عليها فقال الله تعالى لميكائيل: انطلق فأتني بقبضة منها فلما أتاها ليقبض منها قالت له مثل ما قالت لجبريل، فرجع إلى ربه فقال ما قالت له، فقال لعزرائيل انطلق فأتني بقبضة من الأرض فلما أتاها قالت له الأرض، أعوذ بعزة الله الذي أرسلك

المَلَكُ إِلَّا لَأَنِّي أَكْرَمُ الملائكة عليه فقال الله له ولجنده: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾، أي: بدلاً منكم ورافعكم إليّ فكرهوا ذلك لأنهم كانوا أهون الملائكة عبادة، والمراد بالخليفة ههنا آدم سَمَاهُ خليفة لأنه خلف الجن، أي: جاء بعدهم، وقيل: لأنه يخلفه غيره، والصحيح أنه خليفة الله في أرضه لإقامة أحكامه وتنفيذ قضاياه، ﴿قالوا أتجعل فيها مَنْ يفسد فيها﴾: بالمعاصي، ﴿ويسفك الدماء﴾ بغير حق، أي: كما فعل بنو الجان ففاسوا الشاهد على الغائب، وإلا فهم ما كانوا يعلمون الغيب، ﴿ونحن نسبح بحمدك﴾، قال الحسن: نقول سبحان الله وبحمده هو صلاة الخلق وصلاة البهائم وغيرهما سوى آدميين وعليها يرزقون، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد، أنا محمد بن عيسى أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، أنا مسلم بن الحجاج أنا زهير بن حرب أنا جينان بن هلال، أنا وهيب أنا سعيد الجريري عن أبي عبد الله الجسري عن ابن الصامت عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ: سئل أي الكلام أفضل؟ قال: «ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده سبحان الله وبحمده»، وقيل: نحن نصلي بأمرك، قال ابن عباس: كل ما في القرآن من التسبيح فالمراد منه الصلاة، ﴿ونقدس لك﴾، أي: نشني عليك

أن لا تأخذ مني شيئاً، فقال: وأنا أعوذ بعزته أن أعصي له أمراً. وقبض منها قبضة من جميع بقاعها من عذابها ومالها وحلوها ومرها وطيبها وخبيثها، وصعد بها إلى السماء فسأله ربه عز وجل وهو أعلم بما صنع فأخبره بما قالت له الأرض وبما رد عليها فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي لأخلقن مما جئت به خلقاً ولأسطنتك على قبض أرواحهم لقلّة رحمتك. ثم جعل الله تلك القبضة نصفها في الجنة ونصفها في النار ثم تركها ما شاء الله ثم أخرجها فجعنها طيناً لازباً مدة ثم حمماً مسنوناً مدة ثم صلصالاً ثم جعلها جسداً وألقاه على باب الجنة فكانت الملائكة يعجبون من صفة صورته لأنهم لم يكونوا رأوا مثله، وكان إبليس يمر عليه ويقول لأمر ما خلق هذا ونظر إليه فإذا هو أجوف فقال هذا خلق لا يتمالك، وقال يوماً للملائكة إن فضل هذا عليكم ما تصنعون؟ فقالوا نطيع ربنا ولا نعصيه فقال إبليس في نفسه لئن فضل علي لأعصينه ولئن فضلت عليه لأهلكه فلما أراد الله تعالى أن ينفخ فيه الروح أمرها أن تدخل في جسد آدم فنظرت فرأت مدخلاً ضيقاً فقال يا رب كيف أدخل هذا الجسد؟ قال الله عز وجل لها ادخليه كرهاً وستخرجين منه كرهاً فدخلت في يافوخه فوصلت إلى عينيه فجعل ينظر إلى سائر جسده طيناً فصارت إلى أن وصلت منخره فعطس فلما بلغت لسانه قال: الحمد لله رب العالمين وهي أول كلمة قالها فناداه الله تعالى رحمك ربك يا أبا محمد ولهذا خلقتك. ولما بلغت الروح إلى الركبتين همّ ليقوم فلم يقدر، قال الله تعالى: ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ فلما بلغت إلى الساقين والقدمين استوى قائماً بشراً سوياً لحمياً ودماً وعظاماً وعروقاً وعصباً وأحشاء وكسي لباساً من ظفر يزداد جسده جمالاً وحسناً كل يوم، وجعل في جسده تسعة أبواب سبعة في رأسه وهي الأذنان يسمع بهما والعينان يبصر بهما والمنخران يشم بهما والفم فيه اللسان يتكلم به والأسنان يطحن بها ما يأكله ويجد لذة المطعومات بها وبابين في أسفل جسده وهما القبل والدبر يخرج منهما ثقل طعامه وشرابه وجعل عقله في دماغه وفكره وصرامته في قلبه وشرهه في كليته وغضبه في كبده ورغبته في رثته وضحكه في طحاله وفرجه وحزنه في وجهه فسبحان من جعله يسمع بعظم ويبصر بشحم وينطق بلحم ويعرف بدم وركب فيه الشهوة وحجزه بالحياء (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خلق الله تعالى آدم عليه السلام وطوله ستون ذراعاً ثم قال اذهب فسلم على أولئك نفر من الملائكة فاستمع ما يحيونك به فإنها تحيتك وتحية ذريتك فقال: السلام عليكم فقالوا: السلام عليك ورحمة الله فزاده ورحمة فكل من يدخل الجنة على صورة آدم. قال: فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن (م) عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: لما صور الله آدم تركه ما شاء الله أن يتركه، فجعل إبليس يطوف به ينظر ما هو فلما رآه أجوف عرف أنه لا يتمالك. عن أبي موسى قال: سمعت رسول الله ﷺ

بالقدس والطهارة عما لا يليق بعظمتك وجلالك، وقيل: ونظهر أنفسنا لطاعتك، وقيل: ونزّهك، واللام: صلة، وقيل: لم يكن هذا من الملائكة على طريق الاعتراض والعجب بالعمل بل على سبيل التعجب وطلب الحكمة فيه، ﴿قال﴾ الله: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾: من المصلحة فيه، وقيل: إني أعلم أن في ذريته من يطيعني ويعبدني من الأنبياء والأولياء والصلحاء، وقيل: إن أعلم أن فيكم من يعصيني وهو إبليس، وقيل: إني أعلم أنهم يذنبون وأنا أغفر لهم، قرأ أهل الحجاز والبصرة: (إني أعلم) بفتح الياء وكذلك كل ياء إضافة استقبلها ألف مفتوحة إلا في مواضع معدودة، ويفتحون في بعض مواضع عند الألف المضمومة والمكسورة، وعند غير الألف، وبين القراء في تفصيله اختلاف.

قوله تعالى: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾: سُمّي آدم لأنه خلق من أديم الأرض، وقيل: لأنه كان آدم اللون، وكنيته أبو محمد وأبو البشر، فلما خلقه الله عز وجل علّمه أسماء الأشياء، وذلك أن الملائكة قالوا لَمَّا قال الله تعالى: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ ليخلق ربنا ما شاء فلن يخلق خلقاً أكرم عليه منّا وإن كان غيرنا أكرم عليه

يقول: إن الله تبارك وتعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والسهل والحزن والخيث والطيب. أخرجه الترمذي وأبو داود. قوله عز وجل ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ سمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض. وقيل لأنه كان آدم اللون وكنيته أبو محمد، وقيل: أبو البشر ولما خلق الله آدم وتم خلقه علمه أسماء الأشياء كلها، وذلك أن الملائكة قالوا ليخلق ربنا ما شاء فلن يخلق خلقاً أكرم علم منا وإن كان فنحن أعلم منه لأننا خلقنا قبله ورأينا ما لم يره، فأظهر الله فضل آدم عليهم بالعلم. وفيه دليل لمذهب أهل السنة أن الأنبياء أفضل من الملائكة وإن كانوا رسلاً، قال ابن عباس: علمه اسم كل شيء حتى القصعة والقصيعة، وقيل: خلق الله كل شيء من الحيوان والجماد وغير ذلك، وعلم آدم أسماءها كلها فقال يا آدم هذا بعير وهذا فرس وهذه شاة حتى أتى على آخرها. وقيل علم آدم أسماء الملائكة وقيل أسماء ذريته وقيل علمه اللغات كلها ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ يعني تلك الأشخاص، وإنما قال عرضهم ولم يقل عرضها لأن المسميات إذا جمعت من يعقل ومن لا يعقل عبر عنه بلفظ من يعقل لتغليب العقلاء عليهم كما يعبر عن الذكور والإناث بلفظ الذكور ﴿عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ﴾ يعني تعجيزاً لهم ﴿أَنْبِئُونِي﴾ أي أخبروني ﴿بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ يعني تلك الأشخاص ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي إني لم أخلق خلقاً إلا كنتم أفضل منه وأعلم ﴿قَالُوا﴾ يعني الملائكة ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيهاً لك وذلك لما ظهر عجزهم ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ أي إنك أجَل من أن نحيط بشيء من علمك إلا ما علمتنا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ﴾ أي بخلقك وهو من أسماء الصفات التامة وهو المحيط بكل المعلومات ﴿الْحَكِيمُ﴾ أي في أمرك، وله معنيان أحدهما أنه القاضي العدل والثاني المحكم للأمر كيلا يتطرق إليه الفساد.

قَالَ يَكَادُمْ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْمَكِيدِينَ

فنحن أعلم منه لأننا خلقنا قبله ورأينا ما لم يره، فأظهر الله تعالى فضله عليهم بالعلم، وفيه دليل على أن الأنبياء أفضل من الملائكة، وإن كانوا رسلاً كما ذهب إليه أهل السنة والجماعة، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: علمه اسم كل شيء حتى القصعة والقصيعة، وقيل: اسم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، وقال الربيع بن أنس: أسماء الملائكة، وقيل: أسماء ذريته، وقيل: صنعة كل شيء، قال أهل التأويل: إن الله عز وجل علم آدم جميع اللغات ثم تكلم كل واحد من أولاده بلغة فنفروا في البلاد واختص كل فرقة منهم بلغة، ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾، إنما قال: ﴿عَرَضَهُمْ﴾، ولم يقل عرضها، لأن المسميات إذا جمعت من يعقل ومن لا يعقل يُكْتَى عنها بلفظ من يعقل، كما يُكْتَى عن الذكور والإناث بلفظ الذكور، وقال مقاتل: خلق الله كل شيء الحيوان والجماد ثم عرض تلك الشخوص على الملائكة، فالكناية راجعة إلى الخصوص، فلذلك فقال عرضهم: ﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي﴾ أخبروني ﴿بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، إني لا أخلق خلقاً إلا وكنتم أفضل وأعلم منه، فقالت الملائكة: إقراراً بالعجز.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾: تنزيهاً لك، ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾، معناه: إنك أجَل من أن نحيط بشيء من علمك إلا ما علمتنا، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ﴾ بخلقك ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أمرك، والحيكم له معنيان أحدهما الحاكم وهو القاضي العدل، والثاني المحكم للأمر كي لا يتطرق إليه الفساد، وأصل الحكمة في اللغة: المنع فهي تمنع صاحبها من الباطل، ومنه حكمة الدابة لأنها تمنعها من الإعوجاج، فلما ظهر عجزهم.

الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا
مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾

﴿قال﴾ يعني الله تعالى ﴿يا آدم أنبئهم بأسمائهم﴾ وذلك لما ظهر عجز الملائكة فسمى كل شيء باسمه وذكر وجه الحكمة التي خلق لها ﴿فلما أنبأهم بأسمائهم قال﴾ يعني الله تعالى ﴿ألم أقل لكم﴾ يعني يا ملائكتي ﴿إني أعلم غيب السموات والأرض﴾ يعني ما كان وما سيكون وذلك أنه سبحانه وتعالى علم أحوال آدم قبل أن يخلقه فلماذا قال لهم: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ وأعلم ما تبدون﴾ يعني قول الملائكة: أتجعل فيها ﴿وما كنتم تكتمون﴾ يعني قولكم لن يخلق الله خلقاً أكرم عليه منا وقال ابن عباس أعلم ما تبدون من الطاعة وما كنتم تكتمون، يعني إبليس من المعصية. قوله عز وجل: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ قيل هذا الخطاب كان مع الملائكة الذين كانوا سكان الأرض والأصح أنه خطاب مع جميع الملائكة بدليل قوله: «فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس» ﴿فسجدوا﴾ يعني الملائكة وفي هذا السجود قولان أحدهما أنه كان لآدم على الحقيقة ولم يكن فيه وضع الجبهة على الأرض وإنما هو الانحناء وكان سجود تحية وتعظيم لا سجود عبادة كسجود إخوة يوسف له في قوله: ﴿وخرّوا له سجداً﴾ فلما جاء الإسلام أبطل ذلك بالسلام. وفي سجود الملائكة لآدم معنى الطاعة لله تعالى والامتثال لأمره. والقول الثاني أن آدم كان كالقبة، وكان السجود لله تعالى، كما جعلت الكعبة قبلة للصلاة والصلاة لله تعالى، وفي هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة في تفضيل الأنبياء على الملائكة ﴿إلا إبليس﴾ سمي به لأنه أبلس من رحمة الله أي يش، وكان اسمه عزازيل بالسرانية وبالعربية الحارث فلما عصى غير اسمه فسمى

﴿قال﴾ الله تعالى: ﴿يا آدم أنبئهم بأسمائهم﴾، أخبرهم بأسمائهم فسمى آدم كل شيء وذكر الحكمة التي لأجلها خلق، ﴿فلما أنبأهم بأسمائهم قال﴾ الله تعالى: ﴿ألم أقل لكم﴾ يا ملائكتي ﴿إني أعلم غيب السموات والأرض﴾، ما كان منهما وما يكون، لأنه قد قال لهم: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾، قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: (إني)، بفتح الياء وكذلك يفتحون كل ياء إضافة استقبلها ألف قطع مفتوحة إلا أحرفاً معدودة، ويفتح نافع وعمرو عند الألف المكسورة أيضاً إلا أحرفاً معدودة، ويفتح نافع عند المضمومة إلا أحرفاً معدودة، والآخر لا يفتحون إلا في أحرف معدودة، ﴿وأعلم ما تبدون﴾، قال الحسن وقتادة: يعني قولهم أتجعل فيها من يفسد فيها، ﴿وما كنتم تكتمون﴾: قولكم لن يخلق الله خلقاً أكرم عليه منا، قال ابن عباس هو: إن إبليس مرّ على جسد آدم وهو ملقى بين مكة والطائف لا روح فيه، فقال: لأمر ما خلق هذا، ثم دخل في فيه وخرج من دبره، وقال: إنه خلق لا يتماسك لأنه أجوف، ثم قال للملائكة الذين معه: رأيتم إن فضل هذا عليكم وأمرتم بطاعته ماذا تصنعون؟ قالوا: نطيع أمر ربنا، فقال إبليس في نفسه: والله لئن سلّطت عليه لأهلكته ولئن سلّطت علي لأعصيته، فقال الله تعالى: ﴿وأعلم ما تبدون﴾ يعني: ما تبديه الملائكة من الطاعة، وما كنتم تكتمون يعني إبليس من المعصية.

وقوله تعالى: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾، قرأ أبو جعفر: ﴿للملائكة اسجدوا﴾ بضم التاء على جوار ألف اسجدوا، وكذلك قرأ ﴿قل رب احكم بالحق﴾ [الأنبياء: ١١٢]، بضم الباء، وضعفه النحاة جداً ونسبوه إلى الغلط فيه، واختلفوا في أن هذا الخطاب مع الملائكة، فقال بعضهم: مع الذين كانوا سكان الأرض والأصح أنه مع جميع الملائكة، لقوله تعالى: ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾ [الحجر: ٣٠، ص: ٧٣]، وقوله: ﴿اسجدوا﴾، فيه قولان الأصح أن السجود كان لآدم على الحقيقة وتضمن معنى الطاعة لله عز وجل امتثال

إبليس وغيّرت صورته قال ابن عباس كان إبليس من الملائكة بدليل أنه استثناه منهم وقيل إنه من الجن لأنه خلق من النار ولملائكته خلقوا من النور ولأنه أصل الجن كما أن آدم أصل الإنس والأول أصح لأن الخطاب كان مع الملائكة فهو داخل فيهم ثم استثناه منهم ﴿أبَى﴾ أي امتنع من السجود فلم يسجد ﴿واستكبر﴾ أي تكبر وتعظم عن السجود لآدم ﴿وكان من الكافرين﴾ أي في علم الله تعالى فإنه وجبت له النار لسابق علم الله تعالى بشقاوته (م) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول يا ويله» وفي رواية يا ويلته أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فعصيت فلي النار. قوله عز وجل ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ أي اتخذها مأوى ومنزلاً وليس معناه الاستقرار لأنه لم يقل أسكنتك الجنة لأنه خلق لعمارة الأرض ولما أسكن الله آدم في الجنة بقي وحده ليس معه من يستأنس به ويجالس فآلقى الله عليه النوم ثم أخذ ضلعاً من أضلاع جنبه الأيسر، وهو الأقصر فخلق منه زوجته حواء، ووضع مكان الضلع لحماً من غير أن يحس بذلك آدم ولم يجد ألماً، ولو وجد ألماً لما عطف رجل على امرأة قط، وسميت حواء لأنها خلقت من حي، فلما استيقظ آدم من نومه ورآها جالسة كأحسن ما خلق الله تعالى فقال لها: من أنت؟ قالت: أنا زوجتك حواء قال: ولماذا خلقت؟ قالت: لتسكن إلي وأسكن إليك. واختلفوا في الجنة التي أمر آدم بسكنها فقيل إنها جنة كانت في الأرض بدليل أنه لو كانت الجنة التي هي دار الجزاء والثواب لما أخرج منها. وأجاب صاحب هذا القول عن قوله تعالى: ﴿اهبطا﴾ بأن المراد من الهبوط التحول والانتقال فهو كقوله تعالى: ﴿اهبطوا مصر﴾ والقول

أمره، وكان ذلك سجود تعظيم وتحية لا سجود عبادة، كسجود أخوة يوسف له في قوله عز وجل: ﴿وخرّوا له سُجْدًا﴾ [يوسف: ١٠٠]، ولم يكن فيه وضع الوجه على الأرض إنما كان انحناءً فلما جاء الإسلام أبطل ذلك بالسلام، وقيل معنى قوله: ﴿اسجدوا لآدم﴾ أي: إلى آدم فكان آدم قبلةً والسجود لله تعالى كما جعلت الكعبة قبلةً للصلاة والصلاة لله عز وجل، ﴿فسجدوا﴾ يعني: الملائكة، ﴿إلا إبليس﴾، وكان اسمه عزازيل بالسريانية وبالعربية الحرث، فلما أعصى غير اسمه وصورته، فقيل: إبليس لأنه أبلس من رحمة الله تعالى، أي: يشس، واختلفوا فيه، فقال ابن عباس وأكثر المفسرين: كان إبليس من الملائكة، وقال الحسن: كان من الجن ولم يكن من الملائكة، وقال الحسن: كان من الجن ولم يكن من الملائكة لقوله تعالى: ﴿إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾ [الكهف: ٥٠]، فهو أصل الجن كما أن آدم أصل الإنس، ولأنه خلق من النار والملائكة خلقوا من النور، ولأن له ذرية ولا ذرية للملائكة، والأول أصح لأن خطاب السجود كان مع الملائكة، وقوله: ﴿كان من الجن﴾ [الكهف: ٥٠]، أي: من الملائكة الذين هم خزنة الجنة، وقال سعيد بن جبیر: من الذين يعملون في الجنة، وقال قوم: من الملائكة الذين كانوا يصوغون جلياً أهل الجنة، وقيل: إن فرقة من الملائكة خلقوا من النار سُموا جنّاً لاستتارهم عن الأعين، وإبليس كان منهم، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً﴾ [الصفّات: ١٥٨]، وهو قولهم الملائكة بنات الله، ولما أخرجه الله من الملائكة جعل له ذرية، قوله: ﴿أبَى﴾ أي: امتنع فلم يسجد، ﴿واستكبر﴾، أي: تكبر عن السجود لآدم، ﴿وكان﴾ أي: وصار ﴿من الكافرين﴾، وقال أكثر المفسرين: وكان في سابق علم الله من الكافرين الذين وجبت لهم الشقاوة، أنا أبو بكر محمد بن عبد الصمد الترابي أنا ابن الحاكم أبو الفضل محمد بن الحسين الحدادي أنا أبو يزيد محمد بن يحيى بن خالد، أنا إسحق بن إبراهيم الحنظلي أنا جرير ووکیع وأبو معاوية، عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يبكي ويقول: يا ويله أمر ابن آدم بالسجود فأطاع فله الجنة وأمرت بالسجود فعصيت فلي النار».

الصحيح أنها الجنة التي هي دار الجزاء والثواب لأن الألف واللام للعهد والجنة بين المسلمين وفي عرفهم التي هي دار الجزاء. وقيل: كلا القولين ممكن فلا وجه للقطع ﴿وَكَلَّا مِنْهُمَا رِغْدًا﴾ أي واسعاً كثيراً ﴿حَيْثُ شَتَمَا﴾ أي كيف شَتَمَا ومتى شَتَمَا وأين شَتَمَا والمقصود منه الإطلاق في الأكل من الجنة بلا منع إلا ما نهى عنه، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ يعني للأكل قيل إنما وقع هذه النهي عن جنس الشجرة. وقيل عن شجرة مخصوصة قال ابن عباس هي السنبلة وقيل الكرمة. وقيل هي شجرة التين وقيل هي شجرة العلم. وقيل الكافور. وقيل: ليس في ظاهر الكلام ما يدل على التبيين إذ لا حاجة إليه لأنه ليس المقصود تعرّف عين تلك الشجرة وما لا يكون مقصود لا يجب بيانه ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني إن أكلتما من هذه الشجرة ظلمتما أنفسكما فمن جَوَز ارتكاب الذنوب على الأنبياء قال ظلم نفسه بالمعصية. وأصل الظلم وصنع الشيء في غير موضعه ومن لم يجوز ذلك على الأنبياء جعل الظلم على أنه فعل ما كان الأولى أن لا يفعله. وقيل: يحمل على أنه فعل هذا قبل النبوة. فإن قلت: هل يجوز وصف الأنبياء بالظلم أو بظلم أنفسهم؟ قلت: لا يجوز أن يطلق عليهم ذلك لما فيه من الدم. قوله عز وجل:

فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَلَقِيَ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَلَبَّ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ أي استزل آدم وحواء ودعاهما إلى الزلة وهي الخطيئة، وسيأتي الكلام إن شاء الله تعالى على عصمة الأنبياء والجواب عما صدر منهم عند قوله عز وجل: ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ في سورة طه ﴿عنها﴾ أي الجنة ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ يعني من النعيم وذلك أن إبليس أراد أن يدخل الجنة ليوسوس لآدم وحواء فمنعه الخزنة فأتى الحية وكانت صديقة لإبليس وكانت من أحسن الدواب لها أربع قوائم كقوائم البعير وكانت من

قوله تعالى: ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾، وذلك أن آدم لم يكن في الجنة من يجانسه فنام نومة فخلق الله زوجته حواء من قصيراء شقه الأيسر، وسُميت حواء لأنها خلقت من حي، خلقها الله عز وجل من غير أن يحس به آدم ولا وجد له ألماً، ولو وجد لما عطف رجل على امرأة قط، فلما هب من نومه رآها جالسة عند رأسه كأحسن ما خلق الله، فقال لها: مَنْ أَنْتِ؟ قالت: زوجتك خلقتني الله لك تسكن إليّ وأسكن إليك ﴿وَكَلَّا مِنْهُمَا رِغْدًا﴾: واسعاً كثيراً، ﴿حَيْثُ شَتَمَا﴾: كيف شَتَمَا وأين شَتَمَا، ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾، يعني: بالأكل، قال بعض العلماء: وقع النهي على جنس من الشجر، وقال آخرون: على شجرة مخصوصة، واختلفوا في تلك الشجرة، قال ابن عباس ومحمد بن كعب ومقاتل: هي السنبلة، وقال ابن مسعود: هي شجرة العنب، وقال ابن جريج: شجرة التين، وقال قتادة: شجرة العلم، وفيها من كل شيء، وقال علي: شجرة الكافور، ﴿فَتَكُونَا﴾: فتصيرا ﴿من الظالمين﴾، أي: الضارين بأنفسكما بالمعصية، وأصل الظلم: وضع الشيء في غير موضعه.

﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾: استزل ﴿الشيطان﴾ آدم وحواء، أي: دعاهما إلى الزلة، وقرأ حمزة ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ أي: نَحَاهُمَا، الشيطان: فيعال من شطن، أي: بُعد، سُمي به لبُعده عن الخير وعن الرحمة، ﴿عنها﴾ عن الجنة ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾: من النعيم، وذلك أن إبليس أراد أن يدخل لِيُوسُوسَ إلى آدم وحواء فمنعته الخزنة فأتى الحية وكانت صديقة لإبليس وكانت من أحسن الدواب لها أربع قوائم كقوائم البعير وكانت من حُرَّان الجنة، فسألها إبليس أن تدخله في فمها فأدخلته ومَرَّتْ به على الخزنة وهم لا يعلمون، فأدخلته الجنة، وقال الحسن: إنما تفسير الخازن والبعوي/ ج ١/ ٥

خَزَانِ الْجَنَّةِ فَسَأَلَهَا أَنْ تَدْخُلَهُ الْجَنَّةَ فِيهَا فَأَدْخَلَتْهُ وَمَرَّتْ بِهِ عَلَى الْخَزْنَةِ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. وَقِيلَ إِنَّمَا رَأَىٰ عَلَىٰ بَابِ الْجَنَّةِ لِأَنَّهُمَا كَانَا يَخْرُجَانِ مِنْهُمَا، وَكَانَ إِبْلِيسُ بِقَرَبِ الْبَابِ فَوَسَّوسَ لَهُمَا وَذَلِكَ أَنَّ آدَمَ لَمَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَرَأَىٰ مَا فِيهَا مِنَ النِّعَمِ قَالَ لَوْ أَنَّ خُلْدًا فَاعْتَنَمَ ذَلِكَ الشَّيْطَانُ مِنْهُ وَأَتَاهُ مِنْ قَبْلِ الْخُلْدِ. وَقِيلَ لَمَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَقَفَ عَلَىٰ آدَمَ وَحَوَاءَ وَهُمَا لَا يَعْلَمَانِ أَنَّهُ إِبْلِيسُ فَبَكَى وَنَاحَ نِيَاحَةً أَحْزَنْتَهُمَا وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ نَاحَ فَقَالَا مَا يُبْكِيكَ قَالَ أَبْكِي عَلَيْكُمَا لِأَنَّكُمَا تَمُوتَانِ فَتَفَارِقَانِ مَا أَنتُمَا فِيهِ مِنَ النِّعْمَةِ فَوَقَعَ ذَلِكَ فِي أَنْفُسِهِمَا وَاعْتَمَا وَمَضَىٰ إِبْلِيسُ ثُمَّ أَتَاهُمَا بَعْدَ ذَلِكَ وَقَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ فَأَبَىٰ أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ فَقَاسَمَهُمَا بِاللَّهِ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ، فَاعْتَرَا وَمَا ظَنَّا أَنْ أَحَدًا يُحْلِفُ بِاللَّهِ كَاذِبًا، فَبَادَرَتْ حَوَاءَ إِلَىٰ أَكْلِ الشَّجَرَةِ، ثُمَّ نَاولَتْ آدَمَ فَأَكَلَ مِنْهَا. قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ: أَوْرَثْنَا تِلْكَ الْأَكْلَةَ حُزْنًَا طَوِيلًا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «يَا آدَمُ أَلَمْ يَكُنْ فِيمَا أُبَحِّثُكَ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْدُوحَةً عَنِ الشَّجَرَةِ قَالَ بَلَىٰ يَا رَبِّ وَعِزَّتِكَ وَلَكِنْ مَا ظَنَنْتُ أَنْ أَحَدًا يُحْلِفُ بِكَ كَاذِبًا. قَالَ: فَبِعِزَّتِي لَا أَهْبِطُنْكَ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ لَا تَنَالُ الْعَيْشَ فِيهَا إِلَّا نَكْدًا فَاهْبِطْ مِنَ الْجَنَّةِ وَعَلِمَ صُنْعَةَ الْحَدِيدِ، وَأَمَرَ بِالْحَرْثِ فَحَرَثَ وَزَرَعَ وَسَقَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ وَاشْتَدَّ حَصْدُهُ ثُمَّ دَرَسَهُ ثُمَّ ذَرَاهُ ثُمَّ طَحَنَهُ ثُمَّ عَجَنَهُ وَخَبَزَهُ ثُمَّ أَكَلَهُ فَلَمْ يَبْلُغْهُ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنْهُ الْجَهْدَ». وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَىٰ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ آدَمَ لَمَّا أَكَلَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نَهَىٰ عَنْهَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ مَا حَمَلْتُكَ عَلَىٰ مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ يَا رَبِّ زَيْتَنِي لِي حَوَاءَ قَالَ: فَإِنِّي أَعَقَبْتُهَا أَنْ لَا تَحْمِلَ إِلَّا كَرْهًا وَلَا تَضَعُ إِلَّا كَرْهًا وَدَمِيتُهَا فِي الشَّهْرِ مَرَّتَيْنِ، فَرَنَتْ حَوَاءَ عِنْدَ ذَلِكَ فَقِيلَ عَلَيْكَ الرِّنَّةُ وَعَلَىٰ بَنَاتِكَ. وَالرِّنَّةُ الصَّوْتُ، فَلَمَّا أَكَلَا مِنَ الشَّجَرَةِ تَهَاوَتَا عَنْهُمَا ثِيَابُهُمَا، وَأَخْرَجَا مِنَ الْجَنَّةِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾ أَيِ انْزَلُوا إِلَى الْأَرْضِ يَعْنِي آدَمَ وَحَوَاءَ وَإِبْلِيسَ وَالْحَيَّةَ فَهَبِطَ آدَمُ بِسَرَنْدِيبٍ مِنْ أَرْضِ الْهِنْدِ عَلَىٰ جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ نُودٌ، وَأَهْبَطَتْ حَوَاءَ بِجَدَّةٍ وَإِبْلِيسَ بِالْإِبِلَةِ مِنْ أَعْمَالِ الْبَصْرَةِ وَالْحَيَّةَ بِأَصْبَهَانَ ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ يَعْنِي الْعَدَاوَةَ الَّتِي بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَبَيْنَ إِبْلِيسَ وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ وَالْعَدَاوَةَ الَّتِي بَيْنَ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَالْحَيَّةِ. عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:

رَأَىٰهُمَا عَلَىٰ بَابِ الْجَنَّةِ، لِأَنَّهُمَا كَانَا يَخْرُجَانِ مِنْهَا وَقَدْ كَانَ آدَمُ حِينَ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَرَأَىٰ مَا فِيهَا مِنَ النِّعَمِ قَالَ: لَوْ أَنَّ أَخْلُدَ، فَاعْتَنَمَ ذَلِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ فَاتَّاهُ الشَّيْطَانُ مِنْ قَبْلِ الْخُلْدِ، فَلَمَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْ آدَمَ وَحَوَاءَ وَهُمَا لَا يَعْلَمَانِ أَنَّهُ إِبْلِيسُ فَبَكَى وَنَاحَ نِيَاحَةً أَحْزَنْتَهُمَا وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ نَاحَ، فَقَالَا لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: أَبْكِي عَلَيْكُمَا تَمُوتَانِ فَتَفَارِقَانِ مَا أَنتُمَا فِيهِ مِنَ النِّعْمَةِ، فَوَقَعَ ذَلِكَ فِي أَنْفُسِهِمَا فَاعْتَمَا، وَمَضَىٰ إِبْلِيسُ ثُمَّ أَتَاهُمَا بَعْدَ ذَلِكَ وَقَالَ: يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ، فَأَبَىٰ أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ وَقَاسَمَهُمَا بِاللَّهِ أَنَّهُ لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ فَاعْتَرَا، وَمَا ظَنَّا أَنْ أَحَدًا يُحْلِفُ بِاللَّهِ كَاذِبًا فَبَادَرَتْ حَوَاءَ إِلَىٰ أَكْلِ الشَّجَرَةِ ثُمَّ نَاولَتْ آدَمَ حَتَّىٰ أَكَلَهَا، وَكَانَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ يُحْلِفُ بِاللَّهِ مَا أَكَلَ آدَمُ مِنَ الشَّجَرَةِ وَهُوَ يَعْقِلُ وَلَكِنْ حَوَاءَ سَقَتْهُ الْخَمْرُ حَتَّىٰ سَكَرَ قَادَتَهُ إِلَيْهَا فَأَكَلَ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ: أَوْرَثْنَا تِلْكَ الْأَكْلَةَ حُزْنًَا طَوِيلًا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لآدَمَ: أَلَمْ يَكُنْ فِيمَا أُبَحِّثُكَ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْدُوحَةً عَنِ الشَّجَرَةِ؟ قَالَ: بَلَىٰ يَا رَبِّ وَعِزَّتِكَ، وَلَكِنْ مَا ظَنَنْتُ أَنْ أَحَدًا يُحْلِفُ بِكَ كَاذِبًا، قَالَ: فَبِعِزَّتِي لَا أَهْبِطُنْكَ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ لَا تَنَالُ الْعَيْشَ إِلَّا نَكْدًا، فَاهْبِطْ مِنَ الْجَنَّةِ، وَكَانَا يَأْكُلَانِ فِيهَا رَغَدًا فَعَلِمَ صُنْعَةَ الْحَدِيدِ وَأَمَرَ بِالْحَرْثِ فَحَرَثَ وَزَرَعَ ثُمَّ سَقَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ حَصْدَهُ، ثُمَّ دَرَسَهُ ثُمَّ ذَرَاهُ ثُمَّ طَحَنَهُ ثُمَّ عَجَنَهُ ثُمَّ خَبَزَهُ ثُمَّ أَكَلَهُ، فَلَمْ يَبْلُغْهُ حَتَّىٰ بَلَغَ مَا شَاءَ اللَّهُ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ آدَمَ لَمَّا أَكَلَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نُهِيَ عَنْهَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا آدَمُ مَا حَمَلْتُكَ عَلَىٰ مَا صَنَعْتَ قَالَ: يَا رَبِّ زَيْتَنِي لِي حَوَاءَ، قَالَ: فَإِنِّي أَعَقَبْتُهَا أَنْ لَا تَحْمِلَ إِلَّا كَرْهًا وَلَا تَضَعُ إِلَّا كَرْهًا وَدَمِيتُهَا فِي الشَّهْرِ مَرَّتَيْنِ، فَرَنَتْ حَوَاءَ عِنْدَ ذَلِكَ فَقِيلَ عَلَيْكَ الرِّنَّةُ وَعَلَىٰ بَنَاتِكَ، فَلَمَّا أَكَلَا مِنْهَا قُتَّتَا عَنْهُمَا ثِيَابُهُمَا وَبَدَتْ سَوَاتُهُمَا وَأَخْرَجَا مِنَ الْجَنَّةِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾: انْزَلُوا إِلَى الْأَرْضِ، يَعْنِي: آدَمَ وَحَوَاءَ وَإِبْلِيسَ وَالْحَيَّةَ، فَهَبِطَ آدَمُ

قال رسول الله ﷺ: «من ترك الحيات مخافة طلبهن فليس منا، ما سالماهن منذ حاربناهن» أخرجه أبو داود، وله عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «اقتلوا الحيات كلهن فمن خاف من ثأرهن فليس مني» وفي رواية «اقتلوا الكبار كلها إلا الجان الأبيض الذي كأنه قضيب فضة» (م) عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن بالمدينة جنّاً قد أسلموا فإذا رأيتم منهم شيئاً فأذنوه ثلاثة أيام فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فإنما هو شيطان» وفي رواية «إن بهذه البيوت عوامر فإذا رأيتم منها شيئاً فاخرجوا عليه ثلاثاً فإن ذهب وإلا فاقتلوه فإنه كافر» ﴿ولكم في الأرض مستقر﴾ أي موضع قرار ﴿ومتاع﴾ أي بلغة ومستمتع ﴿إلى حين﴾ أي إلى وقت انقضاء آجالكم. قوله عز وجل ﴿فتلقى آدم﴾ أي فتلقن، والتلقي هو قبول عن فطنة وفهم. وقيل هو التعلم ﴿من ربه كلمات﴾ أي كانت سبب توبته. وقيل إن تلك الكلمات هي قوله ربنا ظلمنا أنفسنا الآية وقيل هي لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب عملت سوءاً وظلمت نفسي فتب علي إنك أنت التواب الرحيم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب عملت سوءاً وظلمت نفسي فارحمني إنك أنت أرحم الراحمين، وقيل قال آدم: يا رب أرأيت ما أتيت أشيء ابتدئته من تلقاء نفسي أم شيء قدرته عليّ قبل أن تخلقني؟ قال: بل شيء قدرته عليك قبل أن أخلقك. قال: يا رب فكما قدرته عليّ فاغفر لي. وقيل: إن الله تعالى أمر آدم بالحج وعلمه أركانه فطاف بالبيت سبعاً وهو يومئذ ربوة حمراء ثم صلى ركعتين ثم استقبل البيت وقال اللهم إنك تعلم سري وعلايتي فاقبل معذرتي وتعلم حاجتي فأعطني سؤلي وتعلم ما في نفسي فاغفر لي ذنوبي، فأوحى الله تعالى إليه يا آدم قد غفرت لك ذنوبك. وقيل: إن آدم لما أهبط إلى الأرض مكث ثلاثمائة سنة لا يرفع رأسه إلى السماء حياء من الله تعالى. وقيل هي ثلاثة أشياء: الحياء والدعاء والبكاء. قال ابن عباس: بكى آدم وحواء على ما فاتهما من نعيم الجنة مائتي سنة ولم يأكلا ولم يشربا أربعين يوماً. وقيل: لو أن دموع أهل الأرض جمعت لكانت دموع آدم أكثر حيث أصاب الخطيئة لو أن دموع داود ودموع أهل الأرض جمعت

بسر نديب من أرض الهند على جبل يقال له نود، وحواء بجدة، وإبليس بالابلة والحيّة بأصفهان، ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ أراد العداوة التي بين ذرية آدم والحيّة، وبين المؤمنين من ذرية آدم وبين إبليس، قال الله تعالى: ﴿إن الشيطان لكما عدو مبين﴾ [الأعراف: ٢٢] أنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسن بشران، أنا إسماعيل بن محمد الصفار أنا أحمد بن محمد بن الصفار، حدثنا منصور الرمادي أنا عبد الرزاق أنا معمر عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس قال: لا أعلمه إلا رفع الحديث: «أنه كان يأمر بقتل الحيات وقال: من تركهن خشية أو مخافة نأثر فليس منا»، وزاد موسى بن مسلم عن عكرمة في الحديث: «ما سالمناهن منذ حاربناهن»، وروى «أنه نهى عن ذوات البيوت»، وروى عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ «أن بالمدينة جنّاً قد أسلموا فإن رأيتم منهم شيئاً فأذنوه ثلاثة أيام فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فإنما هو شيطان»، قوله تعالى: ﴿ولكم في الأرض مستقر﴾: موضع قرار ﴿ومتاع﴾ بلغة ومُستمتع ﴿إلى حين﴾: إلى انقضاء آجالكم.

﴿فتلقى﴾: تلقى، والتلقي: هو قبول عن فطنة وفهم، وقيل: هو التعلم، ﴿آدم من ربه كلمات﴾ قراءة العامة آدم برفع الميم وكلمات بخفض التاء، وقرأ ابن كثير (آدم) بالنصب (كلمات) برفع التاء، يعني: جاءت الكلمات آدم من ربه وكانت سبب توبته، واختلفوا في تلك الكلمات، قال سعيد بن جبير ومجاهد والحسن: هي قوله: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ [الأعراف: ٢٣] الآية، وقال مجاهد ومحمد بن كعب القرظي: هو قوله لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب عملت سوءاً وظلمت نفسي فارحمني إنك أنت أرحم الراحمين، وقال عبيد بن عمير: هي أن آدم

لكانت دموع آدم أكثر حيث أخرجه الله من الجنة ﴿فتاب عليه﴾ أي فتجاوز عنه وغفر له. وأصل التوبة من تاب يتوب إذا رجع فكأن التائب رجع عن ذلك الذنب الذي كان عليه، ولا تتحقق التوبة منه إلا بثلاثة أمور. علم وحال وعمل. أما العلم فهو أن يعلم العبد ضرر الذنب وأنه حجاب عن الله تعالى، فإذا حصل هذا العلم تألم القلب فعند ذلك يحصل الندم وهو الحال فيترك العبد الذنب، ويعزم في المستقبل أن لا يعود إليه وهو العمل فإذا تحققت هذه الثلاثة الأمور وحصلت التوبة، وسيأتي بسط هذا عند قوله تعالى: ﴿توبوا إلى الله توبة نصوحاً﴾ في سورة التحريم إن شاء الله تعالى ﴿إنه هو التواب﴾ أي الرجاء على عباده بقبول التوبة. والتواب في وصف الله سبحانه وتعالى: المبالغ في قبول توبة عباده ﴿الرحيم﴾ أي بخلقه وصف سبحانه وتعالى نفسه مع كونه بأنه رحيم ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً﴾ يعني هؤلاء الأربعة. وقيل إن الهبوط الأول من الجنة إلى سماء الدنيا والهبوط الثاني من السماء الدنيا إلى الأرض، وفيه ضعف لأنه قال في الهبوط الأول «ولكم في الأرض مستقر» فدل على أنه كان من الجنة إلى الأرض، والأصح أنه للتأكيد ﴿فأما يأتينكم مني هدى﴾ فيه تنبيه على عظم نعم الله على آدم وحواء كأنه قال وإن أهبطتكم من الجنة إلى الأرض فقد أنعمت عليكم بهدايتي التي تؤديكم إلى الجنة مرة أخرى على الدوام الذي لا ينقطع وقيل المخاطب هم ذرية آدم يعني يا ذرية آدم إما يأتينكم مني رشد وبيان وشريعة وقيل كتاب ورسول ﴿فمن تبع هداي فلا خوف عليهم﴾ يعني فيما يستقبلهم ﴿ولا هم يحزنون﴾ أي على ما خلفوا وقيل لا خوف عليهم ولا هم يحزنون في الآخرة.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَتَّبِعِ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ يَهْدِيكُمْ وَإِنِّي فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْسُؤُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا الْحَقَّ وَأنْتُمْ

قال: يا رب أرأيت ما أتيت، أشيء ابتدعته من تلقاء نفسي أم شيء قدرته عليّ قبل أن تخلقني؟ قال الله تعالى: لا بل شيء قدرته عليك قبل أن أخلقك، قال: يا رب فكما قدرته قبل أن تخلقني فاغفر لي، وقيل: هي ثلاثة أشياء الحياء والدعاء والبكاء، قال ابن عباس: بكى آدم وحواء على ما فاتهما من نعيم الجنة مائتي سنة ولم يأكلا ولم يشربا أربعين يوماً، ولم يقرب آدم حواء مائة سنة، وروى المسعودي عن يونس بن خطاب وعلقمة بن مرثد قالا: لو أن دموع جميع أهل الأرض جمعت لكانت دموع داود أكثر حيث أصاب الخطيئة، ولو أن دموع داود ودموع أهل الأرض جمعت لكانت دموع آدم أكثر حيث أخرجه الله من الجنة، قال شهر بن حوشب: بلغني أن آدم لما أهبط إلى الأرض مكث ثلاثمائة سنة لا يرفع رأسه حياءً من الله تعالى، قوله: ﴿فتاب عليه﴾: فتجاوز عنه ﴿إنه هو التواب﴾: يقبل توبة عباده، ﴿الرحيم﴾: بخلقه.

قوله تعالى: ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً﴾، يعني: هؤلاء الأربعة وقيل الهبوط الأول من الجنة إلى السماء الدنيا، والهبوط الثاني من السماء الدنيا إلى الأرض، ﴿فأما يأتينكم﴾، أي: فإن يأتكم يا ذرية آدم ﴿مني هدى﴾، أي: رشد وبيان شريعة، وقيل: كتاب ورسول، ﴿فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾، قرأ يعقوب: (فلا خوف)، بالفتح في كل القرآن، والآخرين بالضم والتنوين ﴿فلا خوف عليهم﴾ فيما يستقبلهم ﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما خلقوا، وقيل: لا خوف عليهم في الدنيا ولا هم يحزنون في الآخرة.

تَعْمَلُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٨﴾ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٩﴾

﴿والذين كفروا﴾ أي جحدوا ﴿وكذبوا بآياتنا﴾ أي بالقرآن ﴿أولئك أصحاب النار﴾ أي يوم القيامة ﴿هم فيها خالدون﴾ أي لا يخرجون منها ولا يموتون فيها قوله عز وجل ﴿يا بني إسرائيل﴾ اتفق المفسرون على أن إسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم صلى الله عليه وسلم أجمعين ومعنى إسرائيل عبدالله وقيل صفوة الله والمعنى يا أولاد يعقوب ﴿اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ أي اشكروا نعمتي وإنما عبر عنه بالذكر لأن من ذكر النعمة فقد شكرها ومن جحدوها فقد كفرها وقيل الذكر يكون بالقلب ويكون باللسان ووجد النعمة لأنها المنفعة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير ومعناه أن المضرة المحضة لا تكون نعمة ولو فعل الإنسان منفعة وقصد نفسه بها لا تسمى نعمة إذا لم يقصد بها الغير ثم إن النعم ثلاثة: نعمة تفرد بها الله تعالى وهي إيجاد الإنسان ورزقه ونعمة وصلت إلى الإنسان بواسطة الغير لكن الله مكنه من ذلك فالمنعم بها في الحقيقة هو الله تعالى ونعمة حصلت للإنسان بسبب الطاعة وهي أيضاً من الله تعالى، فالله هو المنعم المطلق في الحقيقة لأن أصول النعم كلها منه. وأما النعم المختصة ببني إسرائيل فكثيرة لأن قوله ﴿اذكروا نعمتي﴾ لفظها واحد ومعناها الجمع فمن النعم أن الله تعالى أنقذهم من فرعون وخلق البحر لهم وأغرق فرعون وتظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى في التيه عليهم وإنزال التوراة ونعم غير هذه كثيرة فإن قلت إذا فسر النعمة بهذا فما كانت على المخاطبين بها بل كانت على آبائهم فكيف تكون نعمة عليهم حتى يذكرها. قلت إنما ذكر المخاطبين بها لأن فخر الآباء فخر الأبناء ولأن الأبناء إذا تيقنوا أن الله قد أنعم على آبائهم بهذه النعم فقد وجب عليهم ذكرها وشكرها. وقيل إن هذه النعم هي إدراك المخاطبين بها زمن محمد ﷺ وذكرها الإيمان به ﴿وأوفوا بعهدي﴾ أي امتثلوا أمري ﴿أوف بعهدكم﴾ أي بالقول والثواب وأصل للعهد حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال ومنه سمي الموثق الذي تلزم مراعاته عهداً وقيل أراد بالعهد جميع ما أمر الله به من غير تخصيص ببعض التكليف دون بعض وقيل أراد به ما ذكر في سورة المائدة وهو قوله: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً﴾ إلى قوله ﴿لأكفرن عنكم سيئاتكم﴾ فهذا قوله: ﴿أوف بعهدكم﴾ وقيل هو قوله: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذا ما آتيناكم بقوة﴾ يعني شريعة التوراة.

﴿والذين كفروا﴾: جحدوا ﴿وكذبوا بآياتنا﴾ بالقرآن ﴿أولئك أصحاب النار﴾: يوم القيامة، ﴿هم فيها خالدون﴾: لا يخرجون منها ولا يموتون فيها.

قوله تعالى: ﴿يا بني إسرائيل﴾ يا أولاد يعقوب، ومعنى إسرائيل: عبد الله، وإيل: هو الله تعالى، وقيل: صفوة الله، وقرأ أبو جعفر: (إسرائيل) بغير همزة، ﴿اذكروا﴾: احفظوا، والذكر يكون بالقلب ويكون باللسان، وقيل: أراد به الشكر، وذكر بلفظ الذكر، لأن في الشكر ذكراً وفي الكفران نسياناً، قال الحسن: ذكر النعمة شكرها، ﴿نعمتي﴾، أي: نعمي، لفظها واحد ومعناها جمع، كقوله تعالى: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨]، ﴿التي أنعمت عليكم﴾، أي: على أجدادكم وأسلافكم، قال قتادة: هي النعم التي خصت بها بنو إسرائيل: فلق البحر، وإنجاؤهم من فرعون بإغراقه، وتظليل الغمام عليهم في التيه، وإنزال المن والسلوى، وإنزال التوراة، في نعمة كثيرة لا تحصى، وقال غيره: هي جميع النعم التي لله عز وجل على عباده، ﴿وأوفوا بعهدي﴾: بامتثال أمري ﴿أوف بعهدكم﴾: بالقبول والثواب، قال قتادة ومجاهد: أراد بهذا العهد ما ذكر في قوله: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً﴾

وقيل هو قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾. وقيل أراد بهذا العهد ما أثبتته في كتب الأنبياء المتقدمة من وصف محمد ﷺ وأنه مبعوث في آخر الزمان، وذلك أن الله عهد إلى بني إسرائيل على لسان موسى عليه الصلاة والسلام أني باعث من بني إسماعيل نبياً آمياً فمن تبعه وصدق النور الذي يأتي به غفرت له ذنبه وأدخلته الجنة وجعلت له أجرين اثنين، وهو قوله: ﴿وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ﴾ يعني أمر محمد ﷺ وصفته ﴿وإياي فارهبون﴾ أي فخافون في نقضكم العهد ﴿وآمنوا بما أنزلت﴾ يعني بالقرآن ﴿مصدقاً لما معكم﴾ يعني أن القرآن موافق لما في التوراة من التوحيد والنبوة والأخبار ونعمت النبي ﷺ فالإيمان بمحمد ﷺ والقرآن تصديق للتوراة لأن التوراة فيها الإشارة إلى نعت النبي ﷺ وأنه نبي مبعوث فمن آمن به فقد آمن بما في التوراة ومن كذبه وكفر به فقد كذب التوراة وكفر بها ﴿ولا تكونوا أول كافر به﴾ الخطاب لليهود، نزلت في كعب بن الأشرف ورؤساء اليهود، والمعنى ولا تكونوا يا معشر اليهود أول من كفر به. فإن قلت كيف جعلوا أول من كفر به وقد سبقهم إلى الكفر به مشركو العرب من أهل مكة وغيرهم؟ قلت: هذا تعريض لهم والمعنى كان يجب أن تكونوا أول من آمن به لأنكم تعرفون صفته ونعته بخلاف غيركم وكنتم تستفتحون به على الكفار فلما بعث كان أمر اليهود بالعكس. وقيل معناه ولا تكونوا أول كافر به من اليهود فيتبعكم غيركم على ذلك فتبوءوا بإثمكم وإثم غيركم ممن تبعكم على ذلك ﴿ولا تشتروا﴾ أي ولا تستبدلوا ﴿بآياتي﴾ أي ببيان صفة محمد ﷺ التي في التوراة ﴿ثمناً قليلاً﴾ أي عوضاً يسيراً من الدنيا لأن الدنيا بالنسبة إلى الآخرة كالشيء اليسير الحقير الذي لا قيمة له والذي كانوا يأخذونه من الدنيا كالشيء اليسير بالنسبة إلى جميعها فهو قليل القليل فلهذا قال الله تعالى: ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾ وذلك أن كعب بن الأشرف ورؤساء اليهود وعلماءهم كانوا يصيرون المآكل من سفلتهم وجهالهم وكانوا يأخذون منهم في كل سنة شيئاً معلوماً من زرعهم وثمارهم ونقودهم وضروعهم فخافوا إن بينوا صفة محمد ﷺ وتابعوه أن تفوتهم تلك المآكل فغيروا نعته وكنتموا اسمه واختاروا الدنيا على الآخرة وأصروا على الكفر ﴿وإياي فاتقون﴾ أي فخافون في أمر محمد ﷺ. والتقوى قريب من معنى الرهبة والفرق بينهما أن الرهبة

[المائدة: ١٢] إلى أن قال: ﴿لَا كُفْرَ عَنْكُمْ سِثَاتِكُمْ﴾ [المائدة: ١٢]، فهذا قوله: ﴿أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ وقال الحسن: هو قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣]، فهو شريعة التوراة، وقال مقاتل: هو قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [البقرة: ٨٣]، وقال الكلبي: عهد الله إلى بني إسرائيل على لسان موسى: إني باعث من بني إسماعيل نبياً آمياً فمن اتبعه وصدق بالنور الذي يأتي به غفرت له ذنبه وأدخلته الجنة، وجعلت له أجرين اثنين، وهو قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، يعني: أمر محمد ﷺ. ﴿وإياي فارهبون﴾: فخافوني في نقض العهد، وأثبت يعقوب الآيات المحذوفة في الخط مثل (فارهبون، فاتقون، واخشون)، والآخرين يحذفونها على الخط.

﴿وآمنوا بما أنزلت﴾ يعني القرآن، ﴿مصدقاً لما معكم﴾، أي موافقاً لما معكم من التوراة في التوحيد والنبوة والأخبار ونعت النبي ﷺ، نزلت في كعب بن الأشرف وأصحابه من علماء اليهود ورؤسائهم، ﴿ولا تكونوا أول كافر به﴾، أي: بالقرآن، يريد من أهل الكتاب، لأن قريشاً كفرت قبل اليهود بمكة، معناه ولا تكونوا أول من كفر بالقرآن فتتابعكم اليهود على ذلك فتبوءوا بآثامكم وآثامهم، ﴿ولا تشتروا﴾، أي: ولا تستبدلوا ﴿بآياتي﴾: ببيان صفة محمد ﷺ، ﴿ثمناً قليلاً﴾ أي: عوضاً يسيراً من الدنيا، وذلك أن رؤساء اليهود وعلماءهم كانت لهم مأكلة يصيبنونها من سفلتهم وجهالهم يأخذون كل عام منهم شيئاً معلوماً من زروعهم وضروعهم ونقودهم، فخافوا

خوف مع حزن واضطراب والتقوى جعل النفس في وقاية مما تخاف. قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ أي ولا تكتبوا في التوراة ما ليس فيها فيختلط الحق بالمنزل بالباطل الذي كتبتم. وقيل معناه ولا تخلطوا الحق الذي أنزل عليكم من صفة محمد ﷺ في التوراة الباطل الذي تكتبونه بأيديكم من تغيير صفته وقيل لا تخلطوا صفة محمد ﷺ التي هي الحق بالباطل أي بصفة الدجال وذلك أنه لما بعث رسول الله ﷺ حسده اليهود وقالوا ليس هو الذي نتظره وإنما هو المسيح ابن داود يعني الدجال وكذبوا فيما قالوا: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعني أن محمداً ﷺ نبي مرسل. وفيه تنبيه لسائر الخلق وتحذير من مثله فصار هذا الخطاب وإن كان خاصاً في الصورة لكنه عام في المعنى فعلى كل أحد أن لا يلبس الحق بالباطل ولا يكتُم الحق لما فيه من الضرر والفساد وفيه دلالة أيضاً على أن العالم بالحق يجب عليه إظهاره ويحرم عليه كتمانها ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يعني الصلوات الخمس بمواقيتها وحدودها وجميع أركانها ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي أدوا الزكاة المفروضة عليكم في أموالكم ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أي صلوا مع المصلين، يعني محمداً ﷺ وأصحابه وعبر عن الصلاة بالركوع لأنه ركن من أركانها وهذا خطاب لليهود لأن صلاتهم ليس فيها ركوع فكانه قال لهم صلوا صلاة ذات ركوع فهذا المعنى أعاده بعد قوله وأقيموا الصلاة لأن الأول خطاب الكافة والثاني خطاب قوم مخصوصين وهم اليهود. وفيه حث على إقامة الصلاة في الجماعة فكانه قال صلوا مع المصلين في الجماعة. قوله عز وجل: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ الاستفهام فيه للتقرير مع التقرير والتعجب من حالهم. والبر اسم جامع لجميع أعمال الخير والطاعات، نزلت هذه الآية في علماء اليهود، وذلك أن الرجل منهم كان يقول لقربيه وحليفه من المسلمين إذا سأله عن أمر محمد ﷺ اثبت على دينه فإن أمره حق وقوله صدق وقيل إن جماعة من اليهود قالوا لمشركي العرب: إن رسولاً سيظهر منكم ويدعوكم إلى الحق، وكانوا يرغبونهم في اتباعه فلما بعث الله محمداً ﷺ حسدوه وكفروا به فبكتهم الله ووبخهم بذلك حيث إنهم كانوا يأمرون الناس باتباعه قبل ظهوره، فلما ظهر تركوه وأعرضوا عنه. وقيل كانوا يأمرون الناس بالطاعة والصلاة والزكاة وأنواع البر ولا يفعلونه فوبخهم الله بذلك ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي وتعطلون عما لها فيه نفع والنسيان عبارة عن

أنهم إن بينوا صفة محمد ﷺ وتابعوه أن تفوتهم تلك المأكلة، فغيروا نعتَه وكتُموا اسمه، فاختاروا الدنيا على الآخرة، ﴿وَإِنِّي فَاتَّقُونَ﴾: فاحشوني.

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾، أي: لا تخلطوا، يقال: لَبَسَ الثوبَ يَلْبَسُ لُبْساً، وَلَبَسَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ يَلْبَسُ لِبْساً، أي: خَلَطَ، يقال: لا تخلطوا الحق الذي أنزلت عليكم من صفة محمد ﷺ بالباطل الذي تكتبونه بأيديكم من تغيير صفة محمد ﷺ، والأكثر على أنه أراد لا تلبسوا الإسلام باليهودية والنصرانية، وقال مقاتل: إن اليهود أقرّوا ببعض صفة محمد ﷺ وكتُموا بعضاً ليُصدّقوا في ذلك، فقال ولا تلبسوا الحق الذي تغيرون بالباطل، يعني: بما تكتُمونه، فالحق بيانهم والباطل كتمانهم، ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾، أي: لا تكتُمونه، يعني: نعت محمد ﷺ، ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه نبي مرسل.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، يعني: الصلوات الخمس بمواقيتها وحدودها، ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ أدوا زكاة أموالكم المفروضة، فهي مأخوذة من زكاة الزرع إذا نما وكثر، وقيل: مَنْ تَزَكَّى، أي تطهر، وكلا المعنيين موجودان في الزكاة لأن فيها تطهير أو تنمية للمال، ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، أي: صلّوا مع المصلّين محمد ﷺ وأصحابه، وذكر بلفظ الركوع لأن الركوع ركن من أركان الصلاة، ولأن صلاة اليهود لم يكن فيها ركوع، وكأنه قال صلّوا صلاة ذات ركوع، قيل: وإعادته بعد قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، لهذا أي: صلّوا مع الذين في صلواتهم ركوع، فالأول مطلق في حق الكل، وهذا في حق أقوام مخصوصين، وقيل: هذا حث على إقامة الصلاة جماعة كأنه قال لهم:

السهو الحادث بعد حصول العلم والمعنى أتركون أنفسكم ولا تتبعون محمداً ﷺ ﴿وأنتم تتلون الكتاب﴾ يعني تقرأون التوراة وتدرسونها وفيها نعت محمد ﷺ وصفته وفيها أيضاً الحث على الأفعال الحسنة والإعراض عن الأفعال القبيحة والإثم ﴿أفلا تعقلون﴾ يعني أنه حق فتتبعونه والعقل قوة يهيهء قبول العلم ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة عقل ومنه قول علي بن أبي طالب:

وإن العقول عـقـلـان فمطبـوع ومسمـوع
ولا ينفـع مطبـوع إذا لم يـك مسمـوع
كما لا تنفـع الشـمس وضوء العـيـن ممنـوع

وأصل العقل الإمساك لأنه مأخوذ من عقال الدابة كعقل البعير بالعقال ليمنعه من الشرود فكذلك العقل يمنع صاحبه من الكفر والجحود والأفعال القبيحة. ومعنى الآية أن المقصود من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو إرشاد الغير إلى تحصيل المصلحة وتحذيره عما يوقعه في المفسدة والإحسان إلى النفس أولى من الإحسان إلى الغير وذلك لأن الإنسان إذا وعظ غيره ولم يتعظ هو فكأنه أتى بفعل متناقض لا يقبله العقل فلهذا قال أفلا تعقلون وقيل إن من وعظ الناس يجتهد أن ينفذ موعظته إلى القلوب فإذا خالف قوله فعله كان ذلك سبب تنفير القلوب عن قبول موعظته (ق) عن أسامة بن زيد قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أفتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار في الرحى فيجتمع إليه أهل النار فيقولون يا فلان ما لك ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول بل كنت أمر بالمعروف ولا آتية وأنهى عن المنكر وآتية» قوله فتندلق، أي تخرج أفتاب بطنه أي أمعاء بطنه واحداً قتب وروى البغوي بسنده عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أسري بي رجلاً تقرض شفاههم بمقاريض من نار قلت من هؤلاء يا جبريل قال هؤلاء خطباء من أمتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون قيل مثل الذي يعلم الناس الخير ولا يعمل به كالسراج يضيء للناس ويحرق نفسه. وقيل من وعظ بقوله ضاع كلامه، ومن وعظ بفعله نفذت سهامه، وقال بعضهم:

صلوا مع المصلين الذين سبقوكم بالإيمان.

﴿أتأمرون الناس بالبر﴾، أي: بالطاعة، نزلت في علماء اليهود وذلك أن الرجل منهم كان يقول لقريبه وحليفه من المؤمنين إذا سأله عن أمر محمد ﷺ: اثبت على دينه فإن أمره حق، وقوله صدق، وقيل: هو خطاب لأخبارهم حيث أمروا أتباعهم بالتمسك بالتوراة، ثم خالفوا وغيروا نعت محمد ﷺ، ﴿وتسبون أنفسكم﴾، أي: تتركون أنفسكم فلا تتبعونه، ﴿وأنتم تتلون الكتاب﴾، تقرأون التوراة فيها نعته وصفته، ﴿أفلا تعقلون﴾: أنه حق فتتبعون، والعقل مأخوذ من عقال الدابة، وهو ما يُشدّ به ركة البعير فيمنعه عن الشرود، فكذلك العقل يمنع صاحبه من الكفر والجحود، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحى أنا أبو عمرو بكر بن محمد المزني، أنا أبو بكر محمد بن عبد الله حفيد العباس بن حمزة، أنا الحسين بن الفضل البجلي أنا عَفَّانُ أنا حمَّاد بن سلمة أنا علي بن زيد، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت ليلة أسري بي رجلاً تقرض شفاههم بمقاريض من نار، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء من أمتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب» أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل، أنا علي بن عبد الله أنا سفيان عن الأعمش، عن أبي وائل قال: قال أسامة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أفتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون: أي

ابدأ بنفسك فانتهها عن غيرها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهنالك يسمع ما تقول ويقتدى بالقول منك وينفع التعليم

وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلتَقُوا رَبَّهُمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَبْنِي إِسْرَاءُ يَلْ أَدْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾

قوله عز وجل: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ قيل إن المخاطبين بهذا هم المؤمنون لأن من ينكر الصلاة والصبر على دين محمد ﷺ لا يقال له استعين بالصبر والصلاة فلا جرم وجب صرفه إلى من صدق محمد ﷺ وآمن به. وقيل يحتمل أن يكون الخطاب لبني إسرائيل لأن صرف الخطاب إلى غيرهم يوجب تفكيك نظم القرآن ولأن اليهود لم ينكروا أصل الصلاة والصبر لكن صلاتهم غير صلاة المؤمنين، فعلى هذا القول أن الله تعالى لما أمرهم بالإيمان بمحمد ﷺ والتزام شريعته وترك الرياسة وحب الجاه والمال قال لهم استعينوا بالصبر أي بحبس النفس عن اللذات وإن ضمتهم إلى ذلك الصلاة هان عليكم ترك ما أنتم فيه من حب الرياسة والجاه والمال. وعلى القول الأول يكون معنى الآية واستعينوا على حوائجكم إلى الله. وقيل: على ما يشغلكم من أنواع البلاء. وقيل: على طلب الآخرة بالصبر وهو حبس النفس عن اللذات وترك المعاصي. وقيل بالصبر على أداء الفرائض. وقيل الصبر هو الصوم لأن فيه حبس النفس عن المفطرات وعن سائر اللذات وفيه انكسار النفس والصلاة، أي اجمعوا بين الصبر والصلاة وقيل معناه واستعينوا بالصبر على الصلاة وعلى ما يجب فيها من تصحيح النية وإحضار القلب ومراعاة الأركان والآداب مع الخشوع والخشية، فإن من اشتغل بالصلاة ترك ما سواها. وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، أي إذا أهمله أمر لجأ إلى الصلاة وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه نعي له أخوه

فلان ما شأنك أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه»، وقال شعبة عن الأعمش فيطحن بها كما يطحن الحمار برحاه.

﴿واستعينوا﴾: على ما يستقبلكم من أنواع البلاء، وقيل: على طلب الآخرة، ﴿بالصبر والصلاة﴾: على تمحيض محو الذنوب أراد حبس النفس عن المعاصي، وقيل: أراد بالصبر: الصبر على أداء الفرائض، وقال مجاهد: الصبر: الصوم، ومنه سُمِّيَ شهر رمضان شهر الصبر، وذلك لأن الصوم يزهده في الدنيا والصلاة ترغبه في الآخرة، وقيل: الواو بمعنى «على» أي: واستعينوا بالصبر على الصلاة كما قال الله تعالى: ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾ [طه: ١٣٢]، ﴿وإنها﴾، ولم يقل وإنهما، رد الكناية إلى كل واحد منهما، أي: وإن كل خصلة منهما، كما قال: ﴿كلتا الجنتين آتت أكلها﴾ [الكهف: ٣٣]، أي: أكل كل واحد منهما، وقيل: معناه واستعينوا بالصبر وإنه لكبير، وبالصلاة وإنها لكبيرة، فحذف أحدهما اختصاراً، وقال المورج: رد الكناية إلى الصلاة لأنها أعم، كقوله تعالى: ﴿والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها﴾ [التوبة: ٣٥] رد الكناية إلى الفضة لأنها أعم، وقيل: رد الكناية إلى الصلاة لأن الصبر داخل فيها كما قال الله تعالى: ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ [التوبة: ٦٢]، ولم يقل يرضوهما، لأن رضى الرسول داخل في رضى الله عز وجل، وقال الحسين بن الفضل: رد الكناية إلى الاستعانة، ﴿لكبيرة﴾، أي: لثقيلة ﴿إلا على الخاشعين﴾، يعني: المؤمنين، وقال الحسن:

ثم وهو في سفره فاسترجع ثم تنحى عن الطريق، فصلى ركعتين أطال فيهما السجود، ثم قام إلى راحلته وهو يقول: فاستعينوا بالصبر والصلاة ﴿وإنها﴾ يعني الصلاة وقيل الاستعانة ﴿لكبيرة﴾ أي ثقيلة ﴿إلا على الخاشعين﴾ يعني المؤمنين وقيل الخائفين: وقيل المطيعين المتواضعين لله وأصل الخشوع السكون فالخاشع ساكن إلى الطاعة وقيل الخشوع الضراعة وأكثر ما تستعمل في الجوارح وإنما كانت الصلاة ثقيلة على غير الخاشعين لأن من لا يرجو لها ثواباً ولا يخاف على تركها عقاباً فهي ثقيلة عليه. وأما الخاشع الذي يرجو لها ثواباً ويخاف على تركها عقاباً فهي سهلة عليه ﴿الذين يظنون﴾ أي يستيقنون وقيل يعلمون ﴿أنهم ملاقو ربهم﴾ يعني في الآخرة وفيه دليل على ثبوت رؤية الله تعالى في الآخرة ﴿وأنهم إليه راجعون﴾ يعني بعدت فيجزئهم بأعمالهم. قوله عز وجل: ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ إنما أعاد هذا الكلام مرة أخرى تأكيداً للحجة عليهم وتحذيراً من ترك اتباع محمد ﷺ ﴿وأنني فضلتكم على العالمين﴾ يعني على عالمي زمانكم وهذا التفضيل وإن كان في حق الآباء ولكن يحصل به الشرف للأبناء ﴿واتقوا يوماً﴾ أي واخشوا عذاب يوم ﴿لا تجزي﴾ أي لا تقضي ﴿نفس عن نفس شيئاً﴾ يعني حقاً لزمها. وقيل معناه لا تنوب نفس عن نفس يوم القيامة، ولا ترد عنها شيئاً مما أصابها، بل يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ﴿ولا تقبل منها شفاعة﴾ أي في ذلك اليوم والمعنى لا تقبل الشفاعة إذا كانت النفس كافرة، وذلك أن اليهود قالوا يشفع لنا آبائنا فرد الله عليهم ذلك بقوله ولا تقبل منها شفاعة وقيل إن طاعة المطيع لا تقضي عن العاصي ما كان واجباً عليه وقيل معناه أن النفس الكافرة لو جاءت بشفيع لا يقبل منها ﴿ولا يؤخذ منها عدل﴾ أي فدية وهو مماثلة الشيء بالشيء ﴿ولا هم ينصرون﴾ أي لا يمنعون من العذاب.

قوله عز وجل: ﴿وإذ نجيناكم﴾ أي واذكروا إذ خلصنا أسلافكم وأجوادكم فاعتدها نعمة ومنة عليهم لأنهم نجوا بنجاة أسلافهم ﴿من آل فرعون﴾ أي من أتباعه وأهل دينه وفرعون اسم علم لمن كان يملك مصر من القبط والعماليق وفرعون هذا كان اسمه الوليد بن مصعب بن الريان وعمر أكثر من أربعمئة سنة ﴿يسومونكم﴾ أي يكلفونكم ويذيقونكم ﴿سوء العذاب﴾ أي أشد العذاب وأسوأه، وقيل: يصرفونكم في العذاب مرة كذا ومرة كذا، وذلك أن فرعون جعل بني إسرائيل خدماً وخولاً، وصنفهم في الأعمال أصنافاً: صنف يبنون ويزرعون، وصنف يخدمونه ومن لم يكن في عمل وضع عليه الجزية وقال ابن وهب: كانوا أصنافاً في أعمال فرعون فذوو القوة يسلخون السواري من الجبال، حتى تفرعت أيديهم وأعناقهم ودبرت ظهورهم من قطعها ونقلها وصنف ينقلون

الخائفين، وقيل: المطيعين، وقال مقاتل بن حيان: المتواضعين، وأصل الخشوع: السكون، قال الله تعالى: ﴿وخشعت الأصوات للرحمن﴾ [طه: ١٠٨]، فالخاشع ساكن إلى طاعة الله تعالى.

﴿الذين يظنون﴾: يستيقنون، فالظن من الأضداد يكون شكاً ويقيناً، كالرجاء يكون أمناً وخوفاً، ﴿أنهم ملاقوا﴾: مُعَانُوا ﴿ربهم﴾: في الآخرة، وهو رؤية الله تعالى، وقيل: المراد من اللقاء الصيرورة إليه، ﴿وإنهم إليه راجعون﴾: فيجزئهم بأعمالهم.

﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين﴾، أي: عالمي زمانكم، وذلك التفضيل وإن كان في حق الآباء ولكن يحصل به الشرف في حق الأبناء.

﴿واتقوا يوماً﴾: واخشوا عقاب يوم، ﴿لا تجزي نفس﴾: لا تقضي نفس ﴿عن نفس شيئاً﴾ أي: حقاً لزمها، وقيل: لا تغني، وقيل: لا تكفي شيئاً من الشدائد، ﴿ولا تقبل منها شفاعة﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بالتاء، لتأنيث الشفاعة، وقرأ الباقون بالياء، لأن الشفع والشفاعة بمعنى واحد كالوعظ والموعظة، فالتذكير

الحجارة والطين يبنون له القصور، وطائفة يضربون اللبن ويطبخون الآجر، وطائفة نجارون وحدادون، والضعفة منهم يضرب عليهم الخراج يعني الجزية ضريبة يؤدونها كل يوم، فمن غربت عليه الشمس قبل أن يؤدي ضريبته، غلبت يده إلى عنقه شهراً والنساء يغزلن الكتان وينسجهن وقيل تفسير يسومونكم سوء العذاب، ما بعده وهو قوله عز وجل: ﴿يَذْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أي يتركونهن أحياء. وذلك أن فرعون رأى في منامه كأن ناراً أقبلت من بيت المقدس وأحاطت بمصر، وأحرقت كل قبضي بها ولم تتعرض لبني إسرائيل فهاله ذلك، وسأل الكهنة عن رؤياه فقالوا: يولد غلام يكون على يديه هلاكك وزوال ملكك فأمر فرعون بقتل كل غلام يولد في بني إسرائيل، ووكّل بالقوابل فكّن يفعلن ذلك حتى قتل في طلب موسى اثني عشر ألفاً وقيل: سبعين ألفاً، وأسرع الموت في مشيخة بني إسرائيل فدخل رؤساء القبط على فرعون وقالوا: إن الموت قد وقع ببني إسرائيل فتذبح صغارهم ويموت كبارهم فيوشك أن يقع العمل علينا فأمر فرعون أن يذبحوا سنة ويتركوا سنة، فولد هارون في السنة التي لا يذبح فيها وولد موسى في السنة التي يذبح فيها ﴿وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ أي اختيار وامتحان، والبلاء يطلق على النعمة العظيمة وعلى المحنة الشديدة ليختبر الله العبد على النعمة بالشكر، وعلى الشدة بالصبر فإن حمل قوله: ﴿وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ على صنع فرعون كان من البلاء والمحنة وإن حمل على الإنجاء كان من النعمة. قوله عز وجل: ﴿وإذ فرقنا بكم البحر﴾ أي فصلنا بعضه من بعض وجعلنا فيه مسالك بسبب دخولكم البحر وسمي بحراً لاتساعه.

ذكر سياق القصة

وذلك أنه لما دنا هلاك فرعون، أمر الله موسى عليه الصلاة والسلام أن يسري ببني إسرائيل من مصر بالليل، فأمر موسى قومه أن يسرجوا في بيوتهم السرج إلى الصبح، وأن يستعبروا حلى القبط لتبقى لهم أو ليتبعوهم لأجل المال، وأخرج الله كل ولد زنا كان في القبط من بني إسرائيل إلى بني إسرائيل وكل ولد زنا كان في بني إسرائيل من القبط إلى القبط حتى يرجع كل ولد إلى أبيه وألقى الله الموت على القبط فمات كل بكر لهم فاشتغلوا بدفنهم وقيل: بلغ ذلك فرعون فقال لا أخرج في طلبهم حتى يصيح الديك فما صاح تلك الليلة ديك وخرج موسى في بني إسرائيل وهم ستمائة ألف وعشرون ألفاً لا يعدون ابن عشرين سنة لصغره، ولا ابن ستين سنة لكبره، وكانوا يوم دخلوا مصر مع يعقوب اثنين وسبعين إنساناً ما بين رجل وامرأة فلما أرادوا السير ضرب عليهم التيه فلم يدروا أين

على المعنى والتأنيث على اللفظ، كقوله تعالى: ﴿قد جاءكم موعظة من ربكم﴾ [يونس: ٥٧]، وقال في موضع آخر: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، أي: لا تقبل منها شفاعة إذا كانت كافرة ﴿ولا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾، أي: فداء: وسُمِّيَ به لأنه مثل المعدي والعدل والعدل المثل، ﴿ولا هم يُنصرون﴾: يُمنعون من عذاب الله.

﴿وإذ نجيناكم﴾، أي: أسلافكم وأجدادكم فأعتدها منةً عليهم، لأنهم نجوا بنجاتهم، ﴿من آل فرعون﴾: أتباعه وأهل دينه، وفرعون هو الوليد بن مصعب بن الريان، وكان من القبط العماليق وعمر أكثر من أربعمائة سنة، ﴿يسومونكم﴾: يكلفونكم ويذيقونكم ﴿سوء العذاب﴾: أشد العذاب وأسوأه، وقيل: يصرفونكم في العذاب مرة هكذا كالأبل السائمة في البرية، وذلك أن فرعون جعل بني إسرائيل خدماً ونحولاً، وصنّفهم في الأعمال فصنّف بينون، وصنّف يحرثون ويزرعون، وصنّف يخدمونه، ومن لم يكن منهم في عمل وصنع عليه الجزية، قال وهب: كانوا أصنافاً في أعمال فرعون، فذو القوة ينحتون السواري من الجبال حتى قرحت أعناقهم ودبرت ظهورهم من قطعها ونقلها، وطائفة ينقلون الحجارة، وطائفة منهم يضربون اللبن ويطبخون الآجر، وطائفة نجارون وحدادون، والضعفة منهم يضرب عليهم الخراج، ضريبة يؤدونها كل يوم فمن غربت عليه الشمس قبل أن

يذهبون فدعا موسى مشيخة بني إسرائيل وسألهم عن ذلك فقالوا: إن يوسف لما حضره الموت أخذ على إخوته عهداً أن لا يخرجوا من مصر حتى يخرجوه معهم فلذلك انسد علينا الطريق فسألهم عن موضع قبره فلم يعلموه فقال موسى: ينادي أنشد الله كل من يعلم أين قبر يوسف إلا أخبرني به ومن لم يعلم صمت أذناه عن سماع قولي: فكان يمر بالرجل وهو ينادي فلا يسمع صوته حتى سمعته عجوز منهم فقالت له: أرايتك إن دلتك على قبره أتعطيني كل ما أسألك فأبى عليها وقال: حتى أسأل ربي فأمره أن يعطيها سؤالها فقالت: إني عجوز لا أستطيع المشي فاحملني معك وأخرجني من مصر هذا في الدنيا وأما في الآخرة فأسألك أن لا تنزل غرفة من غرف الجنة إلا نزلتها معك قال: نعم، قالت: إنه في النيل في جوف الماء فادع الله أن يحسر عنه الماء فدعا الله فحسر عنه الماء، ودعا الله أن يؤخر عنه طلوع الفجر حتى يفرغ من أمر يوسف، ثم حفر موسى ذلك الموضع فاستخرجه وهو في صندوق من مرمر وحمله معه حتى دفنه بالشام، فعند ذلك فتح لهم الطريق فسار موسى ببني إسرائيل هو في ساقتهم وهارون في مقدمتهم، ثم خرج فرعون في طلبهم في ألف ألف وسبعمائة ألف وكان فيهم سبعون ألفاً من دهم الخيل سوى سائر الشيات وقيل: كان معهم مائة ألف حصان أدهم وكان فرعون في الدهم وكان على مقدمة عسكري هامان، وكان فرعون في سبعة آلاف ألف وكان بين يديه مائة ألف ناشب ومائة ألف حراب ومائة ألف ألف، معهم الأعمدة وسار بنو إسرائيل حتى وصلوا البحر والماء في غاية الزيادة، ونظروا حين أشرقت الشمس فإذا هم بفرعون في جنوده فبقوا متحيرين وقالوا: يا موسى أين ما وعدتنا به فكيف نصنع هذا فرعون خلفنا إن أدركنا قتلنا والبحر أمامنا إن دخلناه غرقنا، فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فضربه فلم يطعه فأوحى الله إليه أن كنه فضربه، وقال: انفلق يا أبا خالد فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، وظهر فيه اثنا عشر طريقاً لكل سبط منهم طريق وارتفع الماء بين كل طريقين كالجبل وأرسل الله الريح والشمس على قعر البحر، حتى صار يبساً وخاضت بنو إسرائيل البحر كل سبط في طريق عن جوانبهم الماء كالجبال الضخمة لا يرى بعضهم بعضاً فخافوا، وقال: كل سبط منهم قد هلك إخواننا فأوحى الله إلى جبال الماء أن تشبكي فصار الماء كالشباك يرى بعضهم بعضاً، ويسمع بعضهم كلام بعض حتى عبروا البحر سالمين فذلك قوله تعالى: .

يؤدي ضريته غلت يمينه إلى عنقه شهراً، والنساء يغزلن الكتان وينسجن، وقيل تفسير قوله: ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾: ما بعده وهو قوله تعالى: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾، فهو مذكور على وجه البذل من قوله: ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾، ﴿يستحيون نساءكم﴾ يتركونهن أحياء، وذلك أن فرعون رأى في منامه كأن ناراً أقبلت من بيت المقدس وأحاطت بمصر وأحرقت كل قبضي فيها، ولم يُعَرِّضْ لبني إسرائيل، فهاله ذلك وسأل الكهنة عن رؤياه فقالوا يولد ولد في بني إسرائيل غلام يكون على يده هلاكك وزوال ملكك، فأمر فرعون بقتل كل غلام يولد في بني إسرائيل، وجمَعَ القوابل فقال لهم: لا يسقط على أيديكم غلام من بني إسرائيل إلا قتل ولا جارية إلا تركت، ووكل بالقوابل، فكنن يفعلن ذلك حتى قيل: إنه قتل في طلب موسى عليه السلام اثني عشر ألف صبي، وقال وهب: بلغني أنه ذبح في طلب موسى عليه السلام تسعين ألف وليد، ثم أسرع الموت في مشيخة بني إسرائيل، فدخل رؤوس القبط على فرعون وقالوا: إن الموت قد وقع في بني إسرائيل فتذبح صغارهم ويموت كبارهم فيوشك أن يقع العمل علينا، فأمر فرعون أن يذبحوا سنة ويتركوا سنة فولد هرون في السنة التي لا يذبحون فيها وولد موسى في السنة التي يذبحون فيها، ﴿وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾، قيل: البلاء: المحنة، أي في سؤمهم إياكم سوء العذاب محنة عظيمة، وقيل: البلاء، النعمة، أي: في إنجائي إياكم منهم نعمة عظيمة، فالبلاء يكون بمعنى النعمة وبمعنى الشدة، فالله تعالى قد يختبر على النعمة بالشكر، وعلى الشدة بالصبر، قال الله تعالى: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٥٠﴾

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ «فأنجيناكم» يعني من فرعون ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾. وذلك أن فرعون لما وصل إلى البحر فرأه منفلقاً، قال لقومه: انظروا إلى البحر كيف انفلق من هبتي حتى أدرك عبيدي الذين أبقوا مني ادخلوا البحر فهاب قومه أن يدخلوا، وقيل: قالوا له: إن كنت رباً فادخل البحر كما دخل موسى وكان فرعون على حصان أدهم ولم يكن في خيل فرعون فرس أنثى فجاء جبريل عليه السلام على فرس أنثى وديق فتقدمه، وخاض البحر فلما شم أدهم فرعون ريحها اقتحم البحر في أثرها ولم يملك فرعون من أمره شيئاً، واقتحمت الخيول خلفه في البحر وجاء ميكائيل خلفهم يسوقهم وهو على فرس ويقول: الحقوا بأصحابكم حتى صاروا كلهم في البحر

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾، قيل: معناه فرقنا لكم، وقيل: فرقنا البحر بدخولكم إياه، وسُمِّيَ البحر بَحْرًا لَاتِّسَاعِهِ، ومنه قيل للفرس: بحر إذا اتسع في جريه، وذلك أنه لما دَنَا هلاك فرعون أمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يسير ببني إسرائيل من مصر ليلاً فأمر موسى قومه أن يسرجوا في بيوتهم إلى الصبح، وأخرج الله تعالى كل ولد زنا في القبط من بني إسرائيل إليهم وكل ولد زنا في بني إسرائيل من القبط إلى القبط، حتى رجع كل إلى أبيه، وألقى الله الموت على القبط فمات كل بكر لهم فاشتغلوا بدفنهم حتى أصبحوا، حتى طلعت الشمس وخرج موسى عليه السلام في ستمائة ألف وعشرين ألف مقاتل لا يُعَدُّونَ ابْنَ العشرين لصغره ولا ابن الستين لكبره، وكانوا يوم دخلوا مصر مع يعقوب اثنين وسبعين إنساناً ما بين رجل وامرأة، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كان أصحاب موسى ستمائة ألف وسبعين ألفاً، وعن عمرو بن ميمون قال: كانوا ستمائة ألف، فلما أرادوا السير ضُربَ عليهم التيه فلم يدروا أين يذهبون، فدعا موسى مشيخة بني إسرائيل وسألهم عن ذلك، فقالوا: إن يوسف عليه السلام لما حضره الموت أخذ على إخوته عهداً أن لا يخرجوا من مصر حتى يُخرجوه معهم فلذلك انسَدَّ علينا الطريق، فسألهم عن موضع قبره فلم يعلموا فقام موسى ينادي أَنشُدُ اللَّهَ كُلُّ مَنْ يَعْلَمُ أَيْنَ مَوْضِعُ قَبْرِ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا أَخْبَرَنِي بِهِ، وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ بِهِ فَصُمْتُ أَذْنَاهُ عَنْ سَمَاعِ قَوْلِي، وكان يمر بين الرجلين ينادي ولا يسمعان صوته، حتى سمعته عجوز لهم فقالت: أَرَأَيْتَكَ إِنْ دَلَلْتُكَ عَلَى قَبْرِهِ أَتُعْطِينِي كُلَّ مَا سَأَلْتُكَ؟ فَأَبَى عَلَيْهَا وَقَالَ حَتَّى أَسْأَلَ رَبِّي، فأمره الله تعالى بإيتائها سُؤْلَهَا، فقالت: إني عجوز كبيرة لا أستطيع المشي فاحملني وأخرجني من مصر، هذا في الدنيا، وأمَّا في الآخرة فأسألك أن لا تنزل غرفة من الجنة إِلَّا نَزَلْتَهَا مَعَكَ، قال: نعم، قالت: إنه في جوف الماء في النيل، فدع الله تعالى حتى يحسر عنه الماء، فدعا الله تعالى فحسر عنه الماء، ودعا أن يؤَخَّرَ طُلُوعُ الْفَجْرِ إِلَى أَنْ يَفْرَغَ مِنْ أَمْرِ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فحفر موسى عليه السلام ذلك الموضع واستخرجه في صندوق من مَرْمَرٍ وحمله حتى دفنه بالشام، فَفُتِحَ لَهُمُ الطَّرِيقُ فَسَارُوا وَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى سَاقَتِهِمْ وَهَرُونَ عَلَى مَقْدَمَتِهِمْ، وندربهم فرعون فجمع قومه وأمرهم أن لا يخرجوا في طلب بني إسرائيل حتى يصيح الديك، فوالله ما صاح ديك تلك الليلة فخرج فرعون في طلب بني إسرائيل، وعلى مقدمة عسكره هامان في ألف ألف وسبعمائة ألف، وكان فيهم سبعون ألفاً من دُهم الخيل سوى سائر الشيات، وقال محمد بن كعب رضي الله عنه: كان في عسكر فرعون مائة ألف حصان أدهم سوى سائر الشيات، وكان فرعون في الدهم، وقيل: كان فرعون في سبعة آلاف ألف، وكان بين يديه مائة ألف ناشب ومائة ألف أصحاب حراب، ومائة ألف أصحاب الأعمدة فسارت بنو إسرائيل حتى وصلوا إلى البحر أو لماء في غاية الزيادة، ونظروا فإذا هم بفرعون حين أشرقت الشمس، فبقوا متحيرين فقالوا: يا موسى كيف نصنع وأين ما وعدتنا؟ هذا فرعون خلفنا إن أدركنا قتلنا والبحر أمامنا إن دخلناه غرقنا، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ قال موسى كلا إن معي ربي سيهدين ﴿الشعراء: ٦١ و٦٢﴾ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ ﴿أَنْ اضْرِبْ

وخرج جبريل من البحر وهم أولهم بالخروج فأمر الله البحر أن يأخذهم، فالتطم عليهم وأغرقهم أجمعين وكان بين طرفي البحر أربع فراسخ وهو بحر القلزم وهو على طرف من بحر فارس، وقيل: هو بحر من وراء مصر يقال له: إساف وكان إغراق آل فرعون بمرأى من بني إسرائيل فذلك قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ يعني إلى هلاكهم وقيل: إلى مصارعهم وقيل: إن البحر قذفهم حتى نظروا إليهم ووافق ذلك يوم عاشوراء فصام موسى عليه السلام ذلك اليوم شكراً لله تعالى. قوله عز وجل:

وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَهْدِيكُمْ أَنفُسُكُمْ يَاتَّخِذْكُمْ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾

﴿وَإِذْ وَعَدْنَا﴾ من المواعدة وهو من الله الأمر ومن موسى القبول وذلك أن الله وعده بمجيء الميقات ﴿موسى﴾ اسم عبري معرب فموسى بالعبرية الماء والشجر سمي موسى لأنه أخذ من بين الماء والشجر ثم قلبت الشين سيناً فسمي موسى ﴿أربعين ليلة﴾ أي انقضاء أربعين ليلة ثلاثين من ذي القعدة وعشر من ذي الحجة، وقرن

بعضاك البحر ﴿[الشعراء: ٦٣]﴾، فضربه فلم يطعه فأوحى إليه أن كنه، فضربه وقال: انفلق يا أبا خالد بإذن الله تعالى، ﴿فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم﴾ [الشعراء: ٦٣] وظهر فيه اثنا عشر طريقاً لكل سبط طريق، وارتفع الماء بين كل طريقين كالجبل، وأرسل الله الريح والشمس على قعر البحر حتى صار ييساً فخاضت بنو إسرائيل البحر كل سبط في طريق وعن جانبيهم الماء كالجبل الضخم ولا يرى بعضهم بعضاً، فخافوا وقال كل سبط: قد قُتل إخواننا فأوحى الله تعالى إلى جبال الماء أن تشبكي فصار الماء شبكات كالطبقات يرى بعضهم بعضاً ويسمع بعضهم كلام بعض، حتى عبروا البحر سالمين، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾ من آل فرعون والغرق، ﴿وأغرقنا آل فرعون﴾، وذلك أن فرعون لما وصل إلى البحر فرآه منفلقاً قال لقومه: انظروا إلى البحر انفلق من هيتي حتى أدرك عبيدي الذين أقبوا مني، ادخلوا البحر فهاب قومه أن يدخلوه، وقيل: قالوا له: إن كنت رباً فادخل البحر كما دخل موسى، وكان فرعون على حصان أدهم، ولم يكن في خيل فرعون أنثى فجاء جبريل على فرس أنثى وديق، فتقدمهم وخاض البحر، فلما شَمَّ أدهم فرعون ريحها اقتحم البحر في أثرها وهم لا يرونه، ولم يملك فرعون من أمره شيئاً وهو لا يرى فرس جبريل، واقتحمت الخيول خلفه في البحر وجاء ميكائيل على فرس خلف القوم يسوقهم حتى لا تشدَّ رجل منهم ويقول لهم: الحقوا بأصحابكم حتى خاضوا كلهم البحر وخاض جبريل من البحر وخرج ميكائيل من البحر، وهَمَّ أولهم بالخروج فأمر الله تعالى البحر أن يأخذهم فالتطم وأغرقهم أجمعين، وكان بين طرفي البحر أربعة فراسخ وهو على طرف بحر من بحر فارس، قال قتادة: بحر من وراء مصر يقال: إساف، وذلك بمرأى من بني إسرائيل، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ إلى مصارعهم، وقيل: إلى إهلاكهم.

﴿وَإِذْ وَاَعَدْنَا﴾، هو من المفاعلة التي تكون من الواحد كقولهم عافاك الله وعاقبت اللص وطارت النعل، وقال الزجاج: كان من الله الأمر ومن موسى القبول، فلذلك ذكر بلفظ المواعدة، وقرأ أبو عمرو وأهل البصرة «وَإِذْ وَاَعَدْنَا» من الوعد، ﴿موسى﴾: اسم عبري عَرَّبَ وهو بالعبرانية الماء والشجر، سُمِّيَ به لأنه أخذ من بين

التاريخ بالليل دون النهار لأن الأشهر العربية وضعت على سير القمر وقيل لأن الظلمة أقدم من الضوء.

ذكر القصة في ذلك:

قال العلماء: لما أنجى الله بني إسرائيل من البحر وأغرق عدوهم ولم يكن لهم كتاب ولا شريعة ينتهون إليهما، وعد الله موسى أن ينزل عليه التوراة فقال موسى لقومه: إني ذاهب إلى ميقات ربي لآتیکم منه بكتاب فيه بيان ما تأتون وما تذرّون، ووعدهم أربعين ليلة واستخلف عليهم أخاه هارون فلما جاء الموعد أتاه جبريل عليه الصلاة والسلام على فرس يقال له: فرس الحياة لا يصيب شيئاً إلا حيي ليذهب بموسى إلى ميقات ربه فراه السامري، وكان صائغاً اسمه ميخا وقال ابن عباس: اسمه موسى بن ظفر، وقيل: كان من أهل ماحرا وقيل كرمان وقيل من بني إسرائيل من قبيلة يقال لها السامرة وكان منافقاً يظهر الإسلام وكان من قوم يعبدون البقر فلما رأى جبريل على ذلك الفرس ورأى موضع قدم الفرس يخضر في الحال فقال في نفسه إن لهذا شأنًا وقيل رأى جبريل حين دخل البحر قدام فرعون فقبض قبضة من تراب فرسه وألقى في روعه، أنه إذا ألقى في شيء حيي فلما ذهب موسى إلى الميقات، ومكث على الطور أربعين ليلة وأنزل الله عليه التوراة في الألواح وكانت الألواح من زبرجد، وقربه نجياً وأسمعه صرير الأقلام وقيل: إنه بقي أربعين ليلة لم يحدث فيها حدثاً حتى هبط من الطور، وكان بنو إسرائيل قد استعاروا حلياً كثيراً من القبط حين أرادوا الخروج من مصر بعلّة عرس لهم فلما هلك فرعون وقومه بقي ذلك الحلي في أيديهم فلما فصل موسى قال لهم السامري: إن الحلي الذي استعتموه من القبط غنيمة لا تحل لكم فاحفروا حفيرة وادفنوه فيها حتى يرجع موسى، ويرى فيها رأيه وقيل: إن هارون أمرهم بذلك فلما اجتمعت الحلي أخذها السامري وصاغها عجلًا في ثلاثة أيام، ثم ألقى فيها القبضة التي أخذها من تراب فرس جبريل عليه الصلاة والسلام فصار عجلًا من ذهب مرصعاً بالجواهر وخار خورة وقيل: كان يخور ويمشي، فقال لهم السامري: «هذا إلهكم وإله موسى فنسي» أي فتركه ها هنا وخرج يطلبه وكان بنو إسرائيل قد أخلفوا الوعد، فعدوا اليوم مع

الماء والشجر، ثم قلبت الشين المعجمة سيناً في العربية، ﴿أربعين ليلة﴾، أي: انقضاءها ثلاثون من ذي القعدة وعشر من ذي الحجة وقَرَنَ بالليل دون النهار لأن شهور العرب وُضعت على سير القمر، والهلال إنما يهَلُّ بالليل، وقيل: لأن الظلمة أقدم من الضوء، وخُلِقَ الليل قبل النهار، قال الله تعالى: ﴿وَأَيَّةَ لَهُمُ اللَّيْلِ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ [يس: ٣٧]، وذلك أن بني إسرائيل لما أمنوا من عدوهم ودخلوا مصر لم يكن لهم كتاب ولا شريعة ينتهون إليهما فوعد الله موسى أن ينزل عليهم التوراة، فقال موسى لقومه: إني ذاهب لميقات ربكم آتيكم بكتاب فيه بيان ما تأتون وما تذرّون، ووعدهم أربعين ليلة، ثلاثين من ذي القعدة وعشر من ذي الحجة، واستخلف عليهم أخاه هارون، فلما أتى الوعد جاء جبريل على فرس، يقال له: فرس الحياة لا يصيب شيئاً إلا حيي ليذهب بموسى إلى ربه، فلما رآه السامري وكان رجلاً صائغاً من أهل باجرمي واسمه ميخا، وقال سعيد بن جبیر: كان من أهل كرمان، وقال ابن عباس: اسمه موسى بن ظفر، وقال قتادة: كان من بني إسرائيل من قبيلة يقال لها سامرة، ورأى موضع قدم الفرس تخضر من ذلك، وكان منافقاً أظهر الإسلام، وكان من قوم يعبدون البقر، فلما رأى جبرائيل على ذلك الفرس، علم أن لهذا شأنًا فأخذ قبضة من تربة حافر فرس جبرائيل عليه السلام، قال عكرمة: ألقى في روعه أنه إذا ألقى في شيء غيره حيي، وكانت بنو إسرائيل قد استعاروا حلياً كثيرة من قوم فرعون حين أرادوا الخروج من مصر لعلّة عرس لهم فأهلك الله فرعون وبقيت تلك الحلي في أيدي بني إسرائيل، فلما فصل موسى قال السامري لبني إسرائيل: إن الحلي التي استعتموها من قوم فرعون غنيمة لا تحل لكم فاحفروا حفرة وادفنها فيها حتى يرجع موسى، فيرى فيها رأيه، وقال السدي: إن هارون عليه السلام أمرهم أن يلقوها في حفيرة، حتى يرجع موسى ففعلوا، فلما اجتمعت

الليلة يومين فلما مضى عشرون يوماً، ولم يرجع موسى وقعوا في الفتنة وقيل: كان موسى وعدهم ثلاثين ليلة ثم زيدت العشرة فكانت فتنتهم في تلك العشرة فلما مضت الثلاثون ولم يرجع موسى، ظنوا أنه قد مات ورأوا العجل وسمعوا قول السامري فعكف عليه ثمانية آلاف رجل يعبدونه، وقيل: عبده كلهم إلا هارون مع اثني عشر ألف رجل وهذا أصح فذلك قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ يعني إلهاً ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد موسى ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي وأنتم ضارون لأنفسكم بالمعصية حيث وضعتكم العبادة في غير موضعها ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ أي محونا ذنوبكم وتجاوزنا عنكم ﴿مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي من بعد عبادتكم لعجل ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لكي تشكروا عفوي عنكم، وحسن صنيعي إليكم وأصل الشكر هو تصور النعمة وإظهارها ويضاده الكفر وهو نسيان النعمة وسترها والشكر على ثلاث أضرب: شكر القلب وهو تصور النعمة. وشكر اللسان وهو الثناء على النعمة. وشكر بسائر الجوارح وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقها، وقيل الشكر هو الطاعة بجميع الجوارح في السر والعلانية؛ وقيل: حقيقة الشكر العجز عن الشكر. وحكي أن موسى عليه الصلاة والسلام قال: إلهي أنعمت عليّ النعم السوابغ وأمرتني بالشكر وإنما شكري إياك نعمة منك فأوحى الله تعالى إليه يا موسى تعلمت العلم الذي لا فوقه علم حسبي من عبدي أن يعلم أن ما به من نعمة فهي مني. وقال داود عليه الصلاة والسلام: سبحان من جعل اعتراف العبد بالعجز عن شكره شكراً كما جعل اعترافه بالعجز عن معرفته معرفة وقال الفضيل: شكر كل نعمة أن لا يعصى بعدها بتلك النعمة وقيل شكر النعمة ذكرها وقيل: شكر النعمة أن لا يراها البتة ويرى المنعم وقيل الشكر لمن فوقك بالطاعة والثناء ولنظيرك بالمكافأة ولمن دونك بالإحسان والإفضال. قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة ﴿وَالْفُرْقَانَ﴾ قيل: هو نعت الكتاب والواو زائدة. والمعنى الكتاب المرفق بين الحلال والحرام والكفر والإيمان وقيل: الفرقان هو النصر على الأعداء والواو أصلية ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ يعني بالتوراة ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ يعني الذين عبدوا العجل ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ يعني إلهاً تعبدونه فكانهم قالوا ما نصنع قال ﴿فَتَوْبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ أي ارجعوا إلى خالقكم بالتوبة قالوا كيف نتوب قال

الجلي صاغها السامري عجباً في ثلاثة أيام، ثم ألقى فيها القبضة التي أخذها من تراب أثر فرس جبرائيل عليه السلام، فخرج عجباً من ذهب مرصعاً بالجواهر كأحسن ما يكون، فخار خورة، وقال السدي كان يخور ويمشي فقال السامري: هذا إلهكم وإله موسى، فنسي، أي: فتركه ههنا وخرج يطلبه، وكانت بنو إسرائيل قد أخلفوا الوعد فعذبوا اليوم مع الليلة يومين، فلما مضى عشرون يوماً ولم يرجع موسى وقعوا في الفتنة، وقيل: كان موسى قد وعدهم ثلاثين ليلة ثم زيدت العشرة فكانت فتنتهم في تلك العشرة، فلما مضت الثلاثون ولم يرجع موسى ظنوا أنه قد مات، ورأوا العجل وسمعوا قول السامري، فعكف ثمانية آلاف رجل منهم على العجل يعبدونه، وقيل كلهم عبده إلا هارون مع اثني عشر ألف رجل وهذا أصح، وقال الحسن: كلهم عبده إلا هارون وحده، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾، أي: إلهاً ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾، أظهر ابن كثير وحفص الذال من (أخذت، واتخذت)، والآخرين يدغمونها، ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾: ضارون لأنفسكم بالمعصية واضعون العبادة في غير موضعها.

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾: محونا ذنوبكم، ﴿مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾: من عبادتكم العجل، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: لكي تشكروا عفوي عنكم وصنيعي إليكم، قيل: الشكر هو الطاعة بجميع الجوارح في السر والعلانية، قال الحسن: شكر النعمة ذكرها، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، قال الفضيل: شكر كل نعمة أن لا يعصى الله بعد تلك النعمة، وقيل: حقيقة الشكر العجز عن الشكر، حكي أن موسى عليه السلام قال: إلهي أنعمت عليّ النعم السوابغ وأمرتني بالشكر، وإنما شكري إياك نعمة منك، قال الله تعالى: يا موسى

﴿فاقتلوا أنفسكم﴾ يعني ليقتل البريء منكم المجرم. فإن قلت التوبة عبارة عن الندم على فعل القبيح والعزم على أن لا يعود إليه وهذا مغاير للقتل. فكيف يجوز تفسير التوبة بالقتل. قلت: ليس المراد تفسير التوبة بالقتل بل بيان أن توبتهم لا تتم إلا بالقتل، وإنما كان كذلك لأن الله أوحى إلى موسى عليه الصلاة والسلام أن توبة المرتد لا تتم إلا بالقتل. فإن قلت: التائب من الردة لا يقتل فكيف استحقوا القتل وقد تابوا من الردة. قلت ذلك مما يختلف فيه الشرائع فلعل شرع موسى كان يقتضي أن يقتل التائب من الردة إما عاماً في حق الكل أو خاصاً في حق الذين عبدوا العجل ﴿ذلکم خير لكم عند بارئکم﴾ يعني القتل وتحمل هذه الشدة لأن الموت لا بد منه فلما أمرهم موسى بالقتل قالوا: نصبر لأمر الله تعالى فجلسوا محتبين من الحياة وهو ضم الساق إلى البطن بثوب، وقيل لهم من حل حبوتهم أو مد طرفه إلى قاتله أو اتقاه بيد أو رجل فهو ملعون مردودة توبته، وأصلت القوم الخناجر والسيوف، وأقبلوا عليهم فكان الرجل يرى ابنه وأباه وأخاه وقريبه وصديقه وجاره فيرق له، فما يمكنهم المضي لأمر الله تعالى فقالوا يا موسى كيف نفعل؟ فأرسل الله تعالى عليهم سحابة سوداء لا يبصر بعضهم بعضاً فكانوا يقتلون إلى المساء فلما كثر القتل دعا موسى وهارون الله وبكىا وتضرعاً إليه وقال: يا رب هلكت بنو إسرائيل البقية البقية فكشف الله السحابة عنهم وأمرهم أن يكفوا عن القتل، فتكشف عن ألوف من القتلى قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كان عدد القتلى سبعين ألفاً فاشتد ذلك على موسى فأوحى الله إليه أما يرضيك أن أدخل القاتل والمقتول الجنة، فكان من قتل منهم شهيداً ومن بقي مكفراً عنه ذنوبه فذلك قوله تعالى: ﴿فتاب عليكم﴾ أي فعلتم ما أمرتم به فتجاوز عنكم ﴿إنه هو التواب﴾ أي الرجاء بالمغفرة القابل للتوبة ﴿الرحيم﴾ بخلقه. قوله عز وجل:

تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ الَّذِي لَا يَفُوقُهُ شَيْءٌ مِنْ عِلْمٍ، حَسْبِي مِنْ عَبْدِي أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ مَا بِهِ مِنْ نِعْمَةٍ فَهُوَ مِنِّي، وَقَالَ دَاوُدُ: سَبْحَانَ مَنْ جَعَلَ اعْتِرَافَ الْعَبْدِ بِالْعِجْزِ عَنْ شُكْرِهِ شُكْرًا، كَمَا جَعَلَ اعْتِرَافَهُ بِالْعِجْزِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ مَعْرِفَةً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾، يعني التوراة، ﴿وَالْفُرْقَانَ﴾، قال مجاهد: هو التوراة أيضاً ذكرها باسمين، وقال الكسائي: الفرقان نعت الكتاب، والواو زائدة، يعني: الكتاب الفرقان، أي: المفروق بين الحلال والحرام، وقال يمان بن ريان: أراد بالفرقان انفراق البحر كما قال: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾، ﴿لَعَلَّكُمْ يَهْتَدُونَ﴾: بالتوراة.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾: الذين عبدوا العجل، ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾: ضررتم بأنفسكم، ﴿بَاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾: إلهاً قالوا: بأي شيء نصنع؟ قال: ﴿فَتُوبُوا﴾: فارجعوا ﴿إِلَى بَارِئِكُمْ﴾: خالفكم، قالوا: كيف نتوب؟ قال: ﴿فاقتلوا أنفسكم﴾، يعني: ليقتل البريء منكم المجرم، ﴿ذلکم﴾، أي: القتل، ﴿خيرٌ لكم عند بارئکم﴾، فلما أمرهم موسى بالقتل، قالوا: نصبر لأمر الله فجلسوا بالأفنية مُحْتَبِينَ، وقيل لهم: مَنْ حلَّ حبوتهم أو مدَّ طرفه إلى قاتله أو اتقاه بيد أو رجل فهو ملعون مردودة توبته، وأصلت القوم عليهم الخناجر وكان الرجل يرى ابنه وأباه وأخاه وقريبه وصديقه وجاره، فلم يمكنهم المضي لأمر الله تعالى، قالوا: يا موسى كيف نفعل؟ فأرسل الله تعالى عليهم ضباباً وسحابة سوداء لا يبصر بعضهم بعضاً فكانوا يقتلونهم إلى المساء فلما كثر القتل دعا موسى وهرون عليهما السلام وبكىا وتضرعاً وقالوا: يا رب هلكت بنو إسرائيل، البقية البقية، فكشف الله تعالى السحابة وأمرهم أن يكفوا عن القتل، فكشف عن ألوف من القتلى، يُروى عن علي رضي الله عنه أنه قال: كان عدد القتلى سبعين ألفاً فاشتد ذلك على موسى فأوحى الله تعالى إليه: أما يرضيك أن أدخل القاتل والمقتول الجنة؟ فكان مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ شهيداً وَمَنْ بَقِيَ مكفراً عنه ذنوبه، فذلك قوله تعالى: ﴿فتاب عليكم﴾، أي: ففعلتم ما أمرتم به فتاب عليكم فتجاوز عنكم، ﴿إنه هو التواب﴾: القابل للتوبة، ﴿الرحيم﴾ بهم.

وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نُنْظَرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ أي لن نصدقك ﴿حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي عياناً وذلك أن الله عز وجل أمر موسى أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل، فاختار موسى من قومه سبعين رجلاً من خيارهم وقال لهم: صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم، ففعلوا وخرج بهم موسى إلى طور سيناء لميقات ربه فقالوا لموسى: اطلب لنا أن نسمع كلام ربنا قال: أفعل فلما دنا من الجبل وقع عليه عمود من الغمام وتغشى الجبل كله فدخل موسى في الغمام، وقال للقوم: ادنوا حتى دخلوا تحت الغمام وخروا سجداً وكان موسى إذا كلمه ربه وقع على وجه نور ساطع فلا يستطيع أحد أن ينظر إليه فضرب دونهم الحجاب وسمعوه يكلم موسى يأمره وينهاكم وأسمعهم الله تعالى: (إني أنا الله لا إله إلا أنا ذو بكة أخرجتكم من أرض مصر بيد شديدة فاعبدوني ولا تعبدوا غيري فلما فرغ موسى وانكشف الغمام أقبل إليهم فقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) وإنما قالوا: جهرة توكيد للرؤية لثلاثتهم متوهم أن المراد بالرؤية العلم ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ قيل: هي الموت وفيه ضعف لأن قوله وأنتم تنظرون يرده إذ لو كان المراد منها الموت لامتنع كونهم ناظرين إليها وقيل: إن الصاعقة هي سبب الموت واختلفوا في ذلك السبب فقيل: إن ناراً نزلت من السماء فأحرقتهم. وقيل: جاءت صيحة من السماء وقيل: أرسل جموعاً من الملائكة فسمعوا بحسهم فخروا صعقين ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ أي ينظر بعضكم إلى بعض كيف يأخذه الموت فلما هلكوا جعل موسى يبكي ويتضرع ويقول إلهي ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد هلك خيارهم «لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا» فلم يزل يناشد ربه حتى أحياهم الله رجلاً

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾، وذلك أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل، فاختار موسى سبعين رجلاً من قومه من خيارهم وقال لهم: صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم ففعلوا، فخرج بهم موسى إلى طور سيناء لميقات ربه، فقالوا لموسى: اطلب لنا أن نسمع كلام ربنا، فقال: أفعل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام وتغشى الجبل كله فدخل في الغمام، وقال للقوم: ادنوا فدنا القوم حتى دخلوا في الغمام وخروا سجداً، وكان موسى إذا كلمه ربه وقع على وجهه نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه، فضرب دونهم الحجاب وسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه، وأسمعهم الله إني أنا الله لا إله إلا أنا ذو بكة أخرجتكم من أرض مصر بيد شديدة فاعبدوني ولا تعبدوا غيري، فلما فرغ موسى وانكشف الغمام أقبل إليهم فقالوا له: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة معانية، وذلك أن العرب تجعل العلم بالقلب رؤية، فقال: جهرة ليُعلم أن المراد منه العيان، ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾، أي: الموت، وقيل: نارٌ جاءت من السماء فأحرقتهم، ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾، أي: ينظر بعضكم لبعض حين أخذكم الموت، وقيل: تعلمون، والنظر يكون بمعنى العلم، فلما هلكوا جعل موسى يبكي ويتضرع ويقول: ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد هلك خيارهم؟ لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا، فلم يزل يناشد ربه حتى أحياهم الله تعالى رجلاً رجلاً، بعدما ماتوا يوماً وليلة ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون فذلك قوله تعالى:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ﴾: أحييناكم، والبعث: إثارة الشيء عن محله، يقال: بعثت البعير وبعثت النائم فانبعث،

بعد رجل، بعد ما ماتوا يوماً وليلة ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ﴾ أي أحييناكم ﴿مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ أي لتستوفوا بقية آجالكم وأرزاقكم ولو أنهم كانوا قد ماتوا لانقضاء آجالهم لم يبعثوا إلى يوم القيامة ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ قوله عز وجل: ﴿وَوَضَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾ يعني في التيه يقيكم حر الشمس، وذلك أنه لم يكن لهم في التيه شيء يستريحون ولا يستظلون به فشكوا إلى موسى فأرسل الله غماماً أبيض رقيقاً يستريحون من الشمس وجعل لهم عموداً من نور يضيء لهم الليل إذا لم يكن قمر ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى﴾ أي في التيه الأكثرون على أن المَنَّاء هو الترنجيبين وقيل: هو شيء كالصمغ يقع على الشجر طعمه كالشهد. وقال وهب: هو الخبز الرقاق، وأصل المَنَّاء هو ما يمن الله به من غير تعب (ق) عن سعيد بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «الكَمَاءُ من المَنَّاء وماؤها شفاء للعين» ومعنى الحديث أن الكَمَاء شيء أنبته الله من غير سعي أحد ولا مؤنة وهو بمنزلة المَنَّاء الذي كان ينزل على بني إسرائيل، وقوله: وماؤها شفاء للعين معناه أن يخلط مع الأدوية فينتفع به لا أنه يقطر ماؤها بحثاً في العين وقيل: إن تقطيره في العين ينفع لكن لوجع مخصوص، وليس يوافق كل وجع العين وكان هذا المَنَّاء ينزل على أشجارهم في كل ليلة من وقت السحر إلى طلوع الشمس، كالثلج لكل إنسان صاع فقالوا: يا موسى قد قتلنا هذا المَنَّاء بحلاوته، فادع لنا ربك أن يطعمنا اللحم فأرسل الله عليهم السلوى، وهو طائر يشبه السمانى وقيل هو السمانى بعينه فكان الرجل يأخذ ما يكفيه يوماً وليلة، فإذا كان يوم الجمعة يأخذ ما يكفيه ليومين لأنه لم يكن ينزل يوم السبت شيء ﴿كُلُوا﴾ أي وقلنا لهم كلوا ﴿مِنْ طَيِّبَاتٍ﴾ أي حلالات ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي ولا تدخروا لغد فخالفوا وادخروا فدود وفسد، فقطع الله عنهم ذلك (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لولا بنو إسرائيل لم يخبث الطعام ولم يخزن اللحم ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها

﴿مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾، قال قتادة: أحياءهم ليستوفوا بقية آجالهم وأرزاقهم، ولو ماتوا بآجالهم لم يُبعثوا إلى يوم القيامة، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَوَضَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾، في التيه تقيكم حرَّ الشمس والغمَام من الغَمِّ، وأصله: التغطية والستر، سُمِّي السحاب غماماً لأنه يغطي وجه الشمس، وذلك أنه لم يكن لهم في التيه سكن يستريحون فشكوا إلى موسى فأرسل الله تعالى غماماً أبيض رقيقاً طيب من غمام المطر، وجعل لهم عموداً من نور يضيء لهم الليل إذا لم يكن لهم قمر، ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى﴾ أي: في التيه، والأكثرون: عن أن المَنَّاء هو الترنجيبين، وقال مجاهد: هو شيء كالصمغ كان يقع على الأشجار طعمه كالشهد، وقال وهب: هو الخبز الرقاق، وقال مجاهد: هو شيء كالصمغ كان يقع على الأشجار طعمه كالشهد، وقال وهب: هو الخبز الرقاق، قال الزجاج: جملة المَنَّاء من يمن الله به من غير تعب، وأخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل، أنا أبو نعيم أنا سفيان، عن عبد الملك هو ابن عمير، عن عمرو بن حُرَيْث عن سعيد بن زيد قال: قال النبي ﷺ: «الكَمَاءُ من المَنَّاء وماؤها شفاء للعين»، قالوا: فكان هذا المَنَّاء كل ليلة يقع على أشجارهم مثل الثلج لكل إنسان منهم صاع، فقالوا يا موسى قتلنا هذا المَنَّاء بحلاوته، فادع لنا ربك أن يطعمنا اللحم، فأنزل الله تعالى عليهم السلوى وهو طائر يشبه السمانى، وقيل: هو السمانى بعينه، بعثه الله سبحانه فمطرت السمانى في عرض ميل وطول رمح في السماء بعضه على بعض، وقال المؤرج: السلوى والعسل، فكان الله ينزل عليهم المَنَّاء والسلوى كل صباح من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فيأخذ كل واحد منهم ما يكفيه يوماً وليلة، وإذا كان يوم الجمعة أخذ كل واحد منهم ما يكفيه ليومين، لأنه لم يكن ينزل يوم السبت. ﴿كُلُوا﴾: أي: وقلنا لهم كلوا: ﴿مِنْ طَيِّبَاتٍ﴾: حلالات، ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، ولا تدخروا لغد، ففعلوا فقطع الله ذلك عنهم،

الدهر» قوله: لم يخزن اللحم لم يتن ولم يتغير ﴿وما ظلمونا﴾ أي وما بخسوا حقنا ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ يعني بأخذهم أكثر مما حولهم فاستحقوا بذلك عذابي وقطع مادة الرزق الذي كان ينزل عليهم بلا مؤنة ولا تعب في الدنيا ولا حساب في العقبى. قوله عز وجل:

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَقْسِفُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُلُّوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادخلوا هذه القرية﴾ سميت قرية لاجتماع الناس فيها قال ابن عباس: هي أريحاء قرية الجبارين وقيل: كان فيها قوم من بقية عاد يقال لهم: العمالقة ورأسهم عوج بن عتق، فعلى هذا يكون القائل يوشع بن نون لأنه هو الذي فتح أريحاء بعد موت موسى لأن موسى مات في التيه، وقيل: هي بيت المقدس وعلى هذا فيكون القائل موسى. والمعنى إذا خرجتم من التيه بعد مضي الأربعين سنة، ادخلوا بيت المقدس ﴿فكلوا منها حيث شئتم رغدا﴾ أي موسعاً عليكم ﴿وادخلوا الباب﴾ فمن قال: إن القرية أريحاء قال ادخلوا من أي باب كان من أبوابها وكان لها سبعة أبواب ومن قال إن القرية هي بيت المقدس قال هو باب حطة ﴿سجدا﴾ منحنين خضعاً متواضعين كالراكع ولم يرد به نفس السجود ﴿وقولوا حطة﴾ أي حط عنا خطايانا أمروا بالاستغفار. وقال ابن عباس قولوا لا

ودود وفسد ما آذخروا، فقال الله تعالى: ﴿وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾، أي: وما بخسوا بحقنا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون باستيجابهم عذابي، وقطع مادة الرزق الذي كان ينزل عليهم بلا مؤنة في الدنيا ولا حساب في العقبى، أخبرنا حسان بن سعيد المنيعي أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي، أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان أنا أحمد بن يوسف السلمي، أنا عبد الرزاق أنا معمر عن همام بن منبه أنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لولا بنو إسرائيل لم يخبث الطعام ولم يخزن اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر». قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادخلوا هذه القرية﴾، سميت القرية قرية لأنها تجمع أهلها، ومنه المقرة للحوض لأنها تجمع الماء، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي أريحاء وهي قرية الجبارين كان فيها قوم من بقية عاد يقال لهم: العمالقة، ورأسهم عوج بن عتق، وقيل: بلقاء، وقال مجاهد: بيت المقدس، وقال الضحاك: هي الرملة والأردن وفلسطين وتدمر، وقال مقاتل: إيليا، وقال ابن كيسان: الشام، ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾: موسعاً عليكم، ﴿وادخلوا الباب﴾، يعني: باباً من أبواب القرية، وكان لها سبعة أبواب ﴿سجدا﴾، أي: رُكعاً خضعاً منحنين، وقال وهب: فإذا دخلتموه فاسجدوا شكراً لله تعالى، ﴿وقولوا حطة﴾، قال قتادة: حطَّ عنا خطايانا، أمروا بالاستغفار، وقال ابن عباس: لا إله إلا الله، لأنها تحطُّ الذنوب، ورفعها على تقدير: قولوا مسألتنا حطة، ﴿نغفر لكم خطاياكم﴾: من الغفر وهو الستر، فالمغفرة: تستر الذنوب، وقرأ نافع بالياء وضَمَّها وفتح الفاء، وقرأها ابن عامر بالتاء وضَمَّها وفتح الفاء، وفي الأعراف [١٦١] قرأ جميعاً ويعقوب بالتاء وضَمَّها، وقرأ الآخرون فيهما: بنصب النون وكسر الفاء، ﴿وسنزيد المحسنين﴾: ثواباً من فضلنا. ﴿فبدل﴾: فغير ﴿الذين ظلموا﴾: أنفسهم، وقالوا: ﴿قولا غير الذي قيل لهم﴾، وذلك أنهم بدلوا قول الحطة بالحنطة فقالوا بلسانهم: حطانا سَمَقَاتاً، أي:

إله إلا الله لأنها تحط الذنوب والخطايا على تقدير مسألتنا حطة ﴿نغفر لكم خطاياكم﴾ أي نسترها عليكم من الغفر وهو الستر لأن المغفرة تستر الذنوب ﴿وسنزيد المحسنين﴾ يعني ثواباً ﴿فبدل﴾ أي فغير ﴿الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم﴾ أي قالوا قولاً غير ما قيل لهم، وذلك أنهم بدلوا قول الحطة بالحنطة، وقالوا بلسانهم حطناً سمقائاً أي حنطة حمراء، وذلك استخفافاً منهم بأمر الله تعالى. وقيل: طوطىء لهم للباب ليخفصوا رؤوسهم فأبوا ذلك ودخلوا زحفاً على أستاذهم فخالقوا في الفعل كما خالفوا في القول، وبدلوه (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة فبدلوا فدخلوا يزحفون على أستاذهم وقالوا حبة في شعرة» ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء﴾ يعني عذاباً من السماء، قيل: أرسل الله عليهم طاعوناً فهلك منهم في ساعة واحدة سبعون ألفاً ﴿بما كانوا يفسقون﴾ أي يعصون ويخرجون عن أمر الله تعالى. قوله عز وجل: ﴿وإذ استسقى موسى لقومه﴾ أي طلب السقيا لقومه، وذلك أنهم عطشوا في التيه فسألوا موسى أن يستسقي لهم ففعل فأوحى الله إليه كما قال مينا ﴿فقلنا اضرب بعصاك﴾ وكانت العصا من آس الجنة طولها عشرة أذرع على طول موسى عليه الصلاة والسلام ولها شعبتان تتقدان في الظلمة نوراً واسمها عليق، وقيل: نبتة حملها آدم معه من الجنة فتوارثها الأنبياء حتى وصلت إلى شعيب فأعطاها موسى ﴿الحجر﴾ قال وهب: لم يكن حجراً معيناً بل كان موسى يضرب أي حجر كان فيتفجر عيوناً لكل سبط عين، وكانوا اثني عشر سبطاً، وقيل: كان حجراً معيناً بدليل أنه عرفه بالآلف واللام قال ابن عباس: كان حجراً خفيفاً مربعاً قدر رأس الرجل وكان موسى عليه الصلاة والسلام يضعه في مخلاة، فإذا احتاجوا إلى الماء وضعه وضربه بعصاه وقيل: كان للحجر أربعة وجوه في كل وجه ثلاثة أعين لكل سبط عين وقيل كان من الرخام وقيل، كان من الكذبان وهي الحجارة اللينة وقيل: هو الحجر الذي وضع

حنطة حمراء استخفافاً بأمر الله تعالى، وقال مجاهد: طوطىء لهم الباب ليخفصوا رؤوسهم فأبوا أن يدخلوها سجداً فدخلوا يزحفون على أستاذهم مخالفة في الفعل، كما بدلوا القول وقالوا قولاً غير الذي قيل لهم، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا إسحق بن نصر، أنا عبد الرزاق عن معمر بن همام بن منبه أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «قيل لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة، فبدلوا فدخلوا يزحفون على أستاذهم وقالوا حبة في شعرة»، ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء﴾، قيل: أرسل الله عليهم طاعوناً فهلك منهم في ساعة واحدة سبعون ألفاً، ﴿بما كانوا يفسقون﴾: يعصون ويخرجون من أمر الله تعالى.

﴿وإذ استسقى موسى﴾: طلب السقيا ﴿لقومه﴾، وذلك أنهم عطشوا في التيه فسألوا موسى أن يستسقي لهم ففعل، فأوحى إليه كما قال: ﴿فقلنا اضرب بعصاك﴾ وكانت من آس الجنة طولها عشرة أذرع على طول موسى عليه السلام ولها شعبتان تتقدان في الظلمة نوراً، واسمها عليق، حملها آدم من الجنة فتوارثها الأنبياء حتى وصلت إلى شعيب عليه السلام، فأعطاها موسى عليه السلام، قال مقاتل: اسم العصا بنعته، قوله تعالى: ﴿الحجر﴾، اختلفوا فيه قال وهب: لم يكن حجراً معيناً بل كان موسى يضرب أي حجر كان من عرض الحجارة فيتفجر عيوناً، لكل سبط عين، وكانوا اثني عشر سبطاً ثم تسيل كل عين في جدول إلى السبط الذي أمر أن يسقيهم، وقال الآخرون: كان حجراً معيناً بدليل أنه عرفه بالآلف واللام، وقال ابن عباس: كان حجراً خفيفاً مربعاً على قدر رأس الرجل، كان يضعه في مخلاته فإذا احتاجوا إلى الماء وضعه وضربه بعصاه، وقال عطاء: كان للحجر أربعة وجوه لكل وجه ثلاثة أعين، لكل سبط عين، وقيل: كان الحجر خاماً، وقيل: كان من الكذبان، فيه اثنتا عشرة حفرة ينبع من كل حفرة عين ماء عذب، فإذا فرغوا وأراد موسى حمله وضربه بعصاه فيذهب الماء، وكان يسقي كل

عليه موسى ثوبه ليغتسل، ففر به فأتاه جبريل وقال إن الله يأمرك أن ترفع هذا الحجر فلي فيه قدرة ولك فيه معجزة فوضعه في مخلاة فلما سألوه السقيا قيل اضرب بعصاك الحجر فكان إذا احتاجوا إلى الماء، وضعه وضربه بعصاه فتفجر منه عيون لكل سبط عين تسيل إليهم في جدول، وكان إذا أراد حملة ضربه بعصاه فيذهب الماء وييسر الحجر فذلك قوله تعالى: ﴿فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا﴾ يعني على عدد أسباط بني إسرائيل، والمعنى فضربه فانفجرت قال المفسرون: انفجرت وانبجست: بمعنى واحد وقيل انبجست أي عرقت وانفجرت أي سالت ﴿قد علم كل أناس مشربهم﴾ أي موضع شربهم لا يدخل سبط على غيره ﴿كلوا واشربوا﴾ أي وقلنا لهم كلوا واشربوا ﴿من رزق الله﴾ يعني المن والسلوى والماء فهذا كله من رزق الله كان يأتيهم بلا مشقة ولا كلفة ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ العيث أشد الفساد في هذه الآية معجزة نبينا محمد ﷺ أعظم لأنه انفجر الماء من بين أصبعيه فروى منه الحجر الصغير ما روى منه الجمع الكثير ومعجزة نبينا محمد ﷺ أعظم لأنه انفجر الماء من بين أصبعيه فروى منه الجمل الغفير، لأن انفجار الماء من الدم واللحم أعظم من انفجاره من الحجر. قوله عز وجل:

وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسُ لَنْ نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهَيُّوْا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

﴿وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد﴾ وذلك أنهم سئمو من المن والسلوى وملوه، فاشتوهوا عليه غيره لأن المواظبة على الطعام الواحد تكون سبباً لنقصان الشهوة. فإن قلت: هما طعامان فما بالهم قالوا على طعام واحد. قلت: أرادوا بالواحد ما لا يختلف ولا يتبدل ولو كان على مائدة الرجل عدة ألوان يداوم عليها في كل يوم لا يبدلها كانت بمنزلة الطعام الواحد ﴿فادع لنا ربك﴾ أي فاسأل لنا ربك ﴿يخرج لنا مما تنبت الأرض من

يوم ستمائة ألف وقال سعيد بن جبير: هو الحجر الذي وضع موسى ثوبه عليه ليغتسل ففر بثوبه ومر به على ملاء من بني إسرائيل حين رموه بالإدرة، فلما وقف أتاه جبرائيل فقال: إن الله تعالى يقول ارفع هذا الحجر فلي فيه قدرة ولك فيه معجزة فرفعه ووضعه في مخلاته، قال عطاء: كان يضربه موسى اثنتي عشرة ضربة فيظهر على موضع كل ضربة مثل ثدي المرأة فيعرق تفجر الأنهار ثم يسيل، وأكثر أهل التفسير يقولون: انبجست وانفجرت واحد، وقال أبو عمرو بن العلاء: انبجست عرقت وانفجرت، أي: سالت، فذلك قوله تعالى: ﴿فانفجرت﴾، أي: فضرب فانفجرت أي سالت، ﴿منه اثنتا عشرة عينا﴾: على عدد الأسباط، ﴿قد علم كل أناس مشربهم﴾: موضع شربهم، لا يدخل سبط على غيره في شربه، ﴿كلوا واشربوا من رزق الله﴾، أي: وقلنا لهم: كلوا من المن والسلوى واشربوا من الماء فهذا كله من رزق الله يأتيكم بلا مشقة، ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾، والعثي: أشد الفساد، يقال: عثى يعثى عثياً، وعثا يعثوا عثواً، وعاث يعيث عيثاً.

قوله تعالى: ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد﴾، وذلك أنهم أجمعوا وسئمو من أكل المن والسلوى، وإنما قال: على طعام واحد وهما اثنان، لأن العرب تعبر عن الاثنين بلفظ الواحد كما تعبر عن الواحد بلفظ الاثنين، كقوله تعالى: ﴿يُخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ [الرحمن: ٢٢]، وإنما يخرج من المالح دون العذب، وقيل: كانوا يأكلون أحدهما بالآخر فكانا كطعام واحد، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كانوا

بقلها وقثائها وفومها ﴿ قال ابن عباس : الفوم الخبز وقيل هو الحنطة ، وقيل هو الثوم ﴾ وعدسها وبصلها ﴿ إنما طلبوا هذه الأنواع لأنها تعين على تقوية الشهوة أو لأنهم ملوا من البقاء في التيه ، فسألوا هذه الأطعمة التي لا توجد إلا في البلاد وكان غرضهم الوصول إلى البلاد لا تلك الأطعمة ﴾ قال ﴿ يعني موسى ﴾ أتستبدلون الذي هو أدنى ﴿ أي الذي هو أخس وأردأ وهو الذي طلبوه ﴾ بالذي هو خير ﴿ يعني بالذي هو أشرف وأفضل وهو ما هم فيه ﴾ اهبطوا مصرأ ﴿ يعني إن أبيتم إلا ذلك ، فأتوا مصرأ من الأمصار ، وقيل : بل هو مصر البلد الذي كانوا فيه ودخول التنوين عليه كدخوله على نوح ولوط ، والقول هو الأول ﴾ فإن لكم ما سألتم ﴿ يعني من نبات الأرض ﴾ وضربت عليهم الذلة ﴿ أي جعلت الذلة محيطة بهم مشتملة عليهم وألزموا الذل والهوان وقيل : الذلة الجزية وزبي اليهودية وفيه بعد لأنه لم تكن ضربت عليهم الجزية بعد ﴾ والمسكنة ﴿ أي الفقر والفاقة وسمي الفقير مسكيناً لأن الفقر أسكنه وأقعدته عن الحركة ، فترى اليهود وإن كانوا أغنياء مياسير كأنهم فقراء فلا ترى أحداً من أهل الملل أذل ولا أحرص على المال من اليهود ﴾ وبأؤا ﴿ أي رجعوا ولا يقال باء إلا بشر ﴾ بغضب من الله ﴿ وغضب الله إرادة الانتقام ممن عصاه ﴾ ذلك ﴿ أي الغضب ﴾ بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ﴿ أي بصفة محمد ﷺ وآية الرجم التي في التوراة ويكفرون بالإنجيل والقرآن ﴾ ويقتلون النبيين ﴿ النبي معناه المخبر من أنبأ ينبيء وقيل هو بمعنى الرفيع مأخوذ من النبوة وهو المكان المرتفع ﴾ بغير الحق ﴿ أي بغير جرم . فإن قلت : قتل الأنبياء لا يكون إلا بغير حق فما فائدة ذكره . قلت : ذكره وصفاً للقتل والقتل يوصف تارة بالحق وهو ما أمر الله به وتارة بغير الحق وهو قتل العدوان فهو كقوله : ﴿ قل رب احكم بالحق ﴾ فالحق وصف للحكم ، لا أن حكمه ينقسم إلى حق وجور . يروى أن اليهود قتلت سبعين نبياً في أول النهار ، وقامت إلى سوق بقلها في آخره وقتلوا زكريا ويحيى وشعيا وغيرهم من

يعجنون المن بالسلى فيصيران واحداً ، ﴿ فادع لنا ﴾ : فسل لأجلنا : ﴿ ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها ﴾ ، قال ابن عباس : الفوم الخبز ، وقال عطاء : الحنطة ، وقال القتيبي رحمه الله تعالى : الحبوب التي تؤكل كلها ، وقال الكلبي : الثوم ، ﴿ وعدسها وبصلها ﴾ ، ﴿ قال ﴾ ، لهم موسى عليه السلام : ﴿ أتستبدلون الذي هو أدنى ﴾ : أخس وأردأ ﴿ بالذي هو خير ﴾ : أشرف وأفضل ؟ وجعل الحنطة أدنى في القيمة وإن كانت هي خيراً من المن والسلى ، أو أراد أنها أسهل وجوداً على العادة ، ويجوز أن يكون الخير راجعاً إلى اختيار الله لهم واختيارهم لأنفسهم ، ﴿ اهبطوا مصرأ ﴾ ، يعني : فإن أبيتم إلا ذلك فانزلوا مصرأ من الأمصار ، وقال الضحاك : هو مصر موسى وفرعون ، والأول أصح لأنه لو أراداه لم يصرفه ، ﴿ فإن لكم ما سألتم ﴾ : من نبات الأرض ، ﴿ وضربت عليهم ﴾ : جعلت عليهم ، وألزموا : ﴿ الذلة ﴾ : الذل والهوان ، قيل : بالجزية ، وقال عطاء بن السائب : هو الكسيتج والزناورزي اليهودية ، ﴿ والمسكنة ﴾ : الفقر ، سمي الفقير مسكيناً لأن الفقر أسكنه وأقعدته عن الحركة ، فترى اليهود وإن كانوا مياسير كأنهم فقراء ، وقيل : الذلة هي فقر القلب فلا ترى في أهل الملل أذل وأحرص على المال من اليهود ، ﴿ وبأؤا بغضب من الله ﴾ : رجعوا ، ولا يقال : باء إلا بالشر ، وقال أبو عبيدة : احتملوا وأقروا به ، ومنه الدعاء أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي ، أي : أقر ، ﴿ ذلك ﴾ ، أي : الغضب ، ﴿ بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ﴾ : بصفة محمد ﷺ وآية الرجم في التوراة ، ويكفرون بالإنجيل والقرآن ، ﴿ ويقتلون النبيين ﴾ ، تفرد نافع بهمز النبي وبابه ، فيكون معناه : المخبر ، من أنبأ ينبيء ، والقراءة المعروفة ترك الهزمة ، وله وجهان : أحدهما هو أيضاً من الأنبياء تركت الهزمة فيه تخفيفاً لكثرة الاستعمال ، والثاني : هو بمعنى الرفيع مأخوذ من النبوة ، وهي المكان المرتفع ، فعلى هذا يكون (النبيين) على الأصل ، ﴿ بغير الحق ﴾ ، أي : بلا جرم ، فإن قيل : فلم قال بغير الحق ، وقتل النبيين لا يكون إلا بغير الحق ؟ قيل : ذكره وصفاً للقتل ، والقتل تارة يوصف بالحق ، وتارة يوصف بغير الحق ،

الأنبياء ﴿ذلك بما عصوا﴾ أي ذلك القتل والكفر بما عصوا أمري ﴿وكانوا يعتدون﴾ أي يتجاوزون أمري ويرتكبون محارمي قوله عز وجل: .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيحِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ يعني اليهود سموا بذلك لقولهم: «إنا هدنا إليك» أي ملنا إليك وقيل: هادوا أي تابوا عن عبادة العجل وقيل إنهم مالوا عن دين الإسلام ودين موسى عليه السلام ﴿والنصارى﴾ سموا بذلك لقول الحواريين نحن «أنصار الله» وقيل: لاعترائهم إلى قرية يقال لها ناصرة وكان المسيح ينزلها ﴿والصابئين﴾ أصله من صبا إذا خرج من دين إلى دين آخر سموا بذلك لخروجهم من الدين قال عمر وابن عباس: هم قوم من أهل الكتاب قال عمر ذبائحهم ذبائح أهل الكتاب وقال ابن عباس: لا تحل ذبائحهم ولا مناكحتهم وقيل: هم قوم بين اليهود والمجوس لا تحل ذبائحهم ولا مناكحتهم وقيل: هم بين اليهود والنصارى يحلقون أوساط رؤوسهم وقيل: هم قوم يقرون بالله ويقرؤون الزبور ويعبدون الملائكة ويصلون إلى الكعبة أخذوا من كل دين شيئاً، والأقرب أنهم قوم يعبدون الكواكب وذلك أنهم يعتقدون أن الله تعالى خلق هذا العالم وجعل الكواكب مدبرة له فيجب على البشر عبادتها وتعظيمها، وأنها هي التي تقرب إلى الله تعالى. ولما ذكر هذه الوظائف قال ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فإن قلت: كيف قال في أول الآية إن الذين آمنوا وقال في آخرها من آمن بالله فما فائدة التعميم أولاً ثم التخصيص آخر؟ قلت: اختلف العلماء في حكم الآية فلهم فيه طريقان أحدهما أنه أراد أن الذين آمنوا على التحقيق ثم اختلفوا فيهم فقليل هم الذين آمنوا في زمن الفطرة وهم طلاب الدين مثل حبيب النجار وقس بن ساعدة وورقة بن نوفل وبحيرا الراهب وأبي ذر الغفاري وسلمان الفارسي، فمنهم من أدرك النبي ﷺ وتابعه ومنهم من لم

وهو مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢]، ذكر الحق وصفً للحكم لا أن حكمه ينقسم إلى الجور والحق، ويروى أن اليهود قتل سبعين نبياً في أول النهار، وقامت إلى سوق بقلها في آخر النهار، ﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾: يتجاوزون أمري ويرتكبون محارمي.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾، يعني: اليهود سُمُوا به لقولهم إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ، أي: ملنا إليك، وقيل: لأنهم هادوا، أي: تابوا عن عبادة العجل، وقيل: لأنهم مالوا عن دين الإسلام وعن دين موسى عليه السلام، وقال أبو عمرو بن العلاء: لأنهم يتهودون، أي يتحركون عند قراءة التوراة، ويقولون: إن السموات والأرض تحركت حين أتى الله موسى التوراة، ﴿والنصارى﴾، سُمُوا به لقول الحواريين: نحن أنصار الله، وقال مقاتل: لأنهم نزلوا قرية يقال لها ناصرة وقيل لاعترائهم إلى نصرة وهي قرية كان ينزلها عيسى عليه السلام ﴿والصابئين﴾ قرأ أهل المدينة والصابيين والصابون بترك الهمزة، والباقون بالهمزة، وأصله الخروج، يقال: صبا فلان أي خرج من دين إلى دين آخر، وصبات النجوم إذا خرجت من مطالعها، وصبا ناب البعير إذا خرج، فهؤلاء سُمُوا به لخروجهم من دين إلى دين، قال عمر بن الخطاب وابن عباس: هم قوم من أهل الكتاب، قال عمر: تحل ذبائحهم مثل ذبائح أهل الكتاب، وقال ابن عباس: لا تحل ذبائحهم ولا مناكحتهم، قال مجاهد: هم قبيلة نحو الشام بين اليهود والمجوس، وقال الكلبي: هم قوم اليهود والنصارى يحلقون أوساط رؤوسهم ويجبون مذاكيرهم، وقال قتادة: هم

يدركه فكأنه تعالى قال: إن الذين آمنوا قبل مبعث النبي ﷺ والذين كانوا على الدين الباطل المبدل من اليهود والنصارى والصابئين من آمن منهم بالله واليوم الآخر وبمحمد ﷺ فلهم أجرهم عند ربهم، وقيل: هم المؤمنون من الأمم الماضية وقيل: هم المؤمنون من هذه الأمة والذين هادوا يعني الذين كانوا على دين موسى ولم يبدلوا والنصارى الذين كانوا على دين عيسى ولم يغيروا والصابئين يعني في زمن استقامة أمرهم من آمن منهم ومات وهو مؤمن لأن حقيقة الإيمان تكون بالوفاة. وأما الطريقة الثانية فقالوا: إن المذكورين بالإيمان في أول الآية إنما هو على طريق المجاز دون الحقيقة وهم الذين آمنوا بالأنبياء الماضين ولم يؤمنوا بك وقيل: هم المنافقون الذين آمنوا بألسنتهم ولم يؤمنوا بقلوبهم واليهود والنصارى والصابئون، فكأنه تعالى قال هؤلاء المطلوبون كل من آمن منهم الإيمان الحقيقي صار مؤمناً عند الله، وقيل: إن المراد من قوله إن الذين آمنوا يعني بمحمد ﷺ في الحقيقة حين الماضي، ثبتوا على ذلك في المستقبل وهو المراد من قوله تعالى: ﴿من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً﴾ أي في إيمانه ﴿فلهم أجرهم عند ربهم﴾ أي جزاء أعمالهم ﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي في الآخرة. قوله عز وجل: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم﴾ أي عهدكم يا معشر اليهود ﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾ يعني الجبل العظيم قال ابن عباس: أمر الله جبلاً من جبال فلسطين فانقلع من أصله حتى قام على رؤوسهم وسبب ذلك أن الله تعالى لما أنزل

قوم يُقرّون بالله ويقرّون الزبور ويعبدون الملائكة ويصلّون إلى الكعبة أخذوا من كل دين شيئاً، قال عبد العزيز بن يحيى: انقرضوا. ﴿من آمن بالله واليوم الآخر﴾، فإن قيل: كيف يستقيم قوله من آمن بالله وقد ذكر في ابتداء الآية إن الذين آمنوا؟ قيل: اختلفوا في حكم الآية فقال بعضهم: أراد بقوله إن الذين آمنوا على التحقيق ثم اختلفوا في هؤلاء المؤمنين، فقال قوم: هم الذين آمنوا بمحمد ﷺ قبل المبعث وهم طلاب الدين، مثل حبيب النجار وقس بن ساعدة وزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل والبراء الشني وأبي ذر الغفاري وسلمان الفارسي وبحيراً الراهب ووفد النجاشي، فمنهم من أدرك النبي ﷺ وتابعه، ومنهم من لم يدركه، وقيل: هم المؤمنون من الأمم الماضية، وقيل: هم المؤمنون من هذه الأمة، والذين هادوا الذين كانوا على دين موسى عليه السلام ولم يبدلوا، والنصارى الذين كانوا على دين عيسى عليه السلام ولم يغيروا وماتوا على ذلك، قالوا وهذان الاسمان لزمانهم زمن موسى وعيسى عليهما السلام حيث كانوا على الحق كالإسلام لأمة محمد ﷺ، والصابئون زمن استقامة أمرهم، من آمن أي: من مات منهم وهو مؤمن لأن حقيقة الإيمان بالموافاة، ويجوز أن يكون الواو مضمرأ، أي: ومن آمن بعدك يا محمد إلى يوم القيامة، وقال بعضهم: إن المذكورين بالإيمان في أول الآية على طريق المجاز دون الحقيقة، ثم اختلفوا فيهم فقال: بعضهم الذين آمنوا بالأنبياء الماضين ولم يؤمنوا بك، وقيل: أراد بهم المنافقين الذين آمنوا بألسنتهم ولم يؤمنوا بقلوبهم، واليهود والنصارى الذين اعتقدوا اليهودية والنصرانية بعد التبديل، والصابئون بعض أصناف الكفار، من آمن بالله واليوم الآخر من هذه الأصناف بالقلب واللسان، ﴿وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم﴾، وإنما ذكر بلفظ الجمع لأن ﴿من﴾ يصلح للواحد والاثنتين والجمع والمذكر والمؤنث، ﴿ولا خوف عليهم﴾: في الدنيا ﴿ولا هم يحزنون﴾: في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم﴾: عهدكم يا معشر اليهود، ﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾، وهو الجبل بالسريانية في قول بعضهم، وهو قول مجاهد، وقيل: ما من لغة في الدنيا إلا في القرآن، وقال الآكثرون: ليس في القرآن لغة غير لغة العرب، لقوله تعالى: ﴿قرآناً عربياً﴾ [يوسف: ٢، طه: ١١٣، الزمر: ٢٨، فصلت: ٣، الشورى: ٧، الزخرف: ٣]، وإنما هذا وأشباهه وفاق وقع بين اللغتين، وقال ابن عباس: أمر الله تعالى جبلاً من جبال فلسطين فانقلع من أصله حتى قام على رؤوسهم، وذلك أن الله تعالى أنزل التوراة على موسى عليه السلام،

التوراة على موسى، وأمرهم أن يعملوا بأحكامها فأبوا أن يقبلوها لما فيها من الآصار يعني الأثقال والتكاليف الشاقة أمر الله تعالى جبريل عليه السلام، أن يقلع جبلاً على قدر عسكرهم وكان قدره فرسخاً في فرسخ فرفعه فوق رؤوسهم قدر قامة كالظلة وقيل لهم: إن لم تقبلوا ما في التوراة وإلا أرسلت هذا الجبل عليكم ﴿خذوا﴾ أي قلنا لهم خذوا ﴿ما آتيناكم﴾ أي ما أعطيناكم ﴿بقوة﴾ أي بجهد واجتهاد ﴿واذكروا ما فيه﴾ أي ادرسوا ما فيه ﴿لعلكم تتقون﴾ أي لكي تنجوا من الهلاك في الدنيا والعذاب في العقبى وإلا رضت رؤوسكم بهذا الجبل فلما رأوا ذلك نازلاً بهم قبلوا وسجدوا، وجعلوا يلاحظون الجبل وهم سجدوا فصار ذلك سنة في سجد اليهود لا يسجدون إلا على أنصاف وجوههم، ويقولون: بهذا السجود رفع عنا العذاب.

ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنُخِذُهَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾

﴿ثم توليتم﴾ أي أعرضتم ﴿من بعد ذلك﴾ أي من بعد ما قبلتم التوراة ﴿فلولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ بالإمهال ﴿لكنتم من الخاسرين﴾ أي المغبونين بذهاب الدنيا والعذاب في العقبى. قوله عز وجل: ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم﴾ أي جاوزوا الحد ﴿في السبت﴾ يقال: سبت اليهود لأنهم يعظمونه ويقطعون فيه أعمالهم، وأصل السبت القطع.

فأمر موسى قومه أن يقبلوها ويعملوا بأحكامها، فأبوا أن يقبلوها للآصار والأثقال التي هي فيها، وكانت شريعة ثقيلة، فأمر الله تعالى جبريل عليه السلام فقلع جبلاً على قدر عسكرهم وكان فرسخاً في فرسخ فرفعه فوق رؤوسهم مثل قامة الرجل كالظلة، وقال لهم: إن لم تقبلوا التوراة أرسلت هذا الجبل عليكم، وقال عطاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: رفع الله فوق رؤوسهم الطور وبعث ناراً من قبل وجوههم وأتاهم البحر الملح من خلفهم، ﴿خذوا﴾، أي: قلنا لهم خذوا ﴿ما آتيناكم﴾: أعطيناكم ﴿بقوة﴾: بجهد واجتهاد ومواظبة، ﴿واذكروا﴾: ادرسوا ﴿ما فيه﴾، وقيل: احفظوا واعملوا، ﴿لعلكم تتقون﴾ لكي تنجوا من الهلاك في الدنيا والعذاب في العقبى، فإن قبلتم وإلا رضى خبتكم بهذا الجبل وأغرقتكم في هذا البحر وأحرقتكم بهذه النار، فلما رأوا أن لا مهرب لهم منها قبلوا وسجدوا، أو جعلوا يلاحظون الجبل وهم سجدوا فصار سنة في اليهود لا يسجدون إلا على أنصاف وجوههم ويقولون بهذا السجود رفع العذاب عنا.

﴿ثم توليتم﴾: أعرضتم ﴿من بعد ذلك﴾: من بعد ما قبلتم التوراة، ﴿فلولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ يعني بالإمهال والإدراج وتأخير العذاب عنكم، ﴿لكنتم﴾ لصرتم ﴿من الخاسرين﴾: من المغبونين بالعقوبة وذهاب الدنيا والآخرة، وقيل: من المعذبين في الحال كأنه رحمهم بالإمهال.

قوله تعالى: ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت﴾، أي: جاوزوا الحد، وأصل السبت القطع، قيل: سمي يوم السبت بذلك لأن الله تعالى قطع فيه الخلق، وقيل: لأن اليهود أمروا فيه بقطع الأعمال، والقصة فيه أنهم كانوا زمن داود عليه السلام بأرض يقال لها أيلة حرم الله عليهم صيد السمك يوم السبت، فكان إذا دخل

ذكر الإشارة إلى القصة

قال العلماء: بالأخبار إنهم كانوا في زمن داود عليه الصلاة والسلام بقرية بأرض أيلة وحرم الله عليهم صيد السمك يوم السبت، فكان إذا دخل يوم السبت لم يبق حوت في البحر إلا اجتمع هناك حتى لا يرى الماء من كثرتها. فإذا مضى السبت تفرقت الحيتان ولزمن قعر البحر فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ ثم إن الشيطان وسوس إليهم، وقال: إنما نهيتهم عن أخذها يوم السبت ولم تنهوا عن أخذها في غيره فعمد رجال منهم فحفروا حياضاً كباراً حول البحر، وشرعوا منه إليها أنهاراً فإذا كان عشية الجمعة فتحو تلك الأنهار فيقبل الموج من البحر بالحيتان إلى تلك الحياض فيقعن فيها ولا يقدرن على الخروج منها لعمقها، فإذا كان يوم الأحد أخذوها وقيل: إنهم كانوا ينصبون الشخوص والحبال يوم الجمعة، ويخرجونها يوم الأحد ففعلوا ذلك زماناً ولم تنزل بهم عقوبة فتجرؤوا على السبت وقالوا ما نرى السبت إلا قد أحل لنا فأخذوا وملحوا وأكلوا وباعوا واشتروا فلما فعلوا ذلك صار أهل القرية ثلاثة أصناف، وكانوا نحو سبعين ألفاً صنف أمسك عن الصيد ونهى عن الاصطياد وصنف أمسك ولم ينه وصنف انهمكوا في الذنب وهتكوا الحرمه وكان الصنف الناهون اثني عشر ألفاً، فلما أبى المجرمون قبول نصيحتهم قالوا: والله لا نساكنكم في قرية واحدة فقسموا القرية بينهم بجدار فغيروا على ذلك سنين، ثم لعنهم داود وغضب الله عليهم لإصرارهم على المعصية فخرج الناهون ذات يوم من بابهم ولم يخرج من المجرمين أحد، ولم يفتحوا الباب فلما أبطؤوا تسوروا عليهم الجدار فإذا هم جميع قردة لهم أذنان وهم تتعاونون، وقيل: صار الشباب قردة والشيوخ خنازير فمكثوا ثلاثة أيام ثم هلكوا ولم يمكث مسخ فوق ثلاث ولم يتولدوا. قال الله عز وجل: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قردة خاسئين﴾ أمر تحويل وتكوين، ومعنى خاسئين مبعدين مطرودين؛ وقيل فيه تقديم وتأخير معناه كونوا خاسئين قردة ولهذا لم يقل خاسئات ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ يعني عقوبتهم بالمسخ ﴿نَكَالًا﴾ أي عقوبة وعبرة ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ قيل: معناه عقوبة لما مضى من

السبت لم يبق حوت في البحر إلا اجتمع هناك حتى يخرجن خراطيمهن من الماء لا منها، حتى لا يرى الماء لكثرتها، فإذا مضى السبت تفرقن ولزمن قعر البحر فلا يرى شيء منها، فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٦٣]، ثم إن الشيطان وسوس إليهم وقال إنما نهيتهم عن أخذها يوم السبت، فعمد رجال فحفروا الحياض حول البحر، وشرعوا منه إليها الأنهار، فإذا كانت عشية الجمعة فتحو تلك الأنهار فأقبل الموج بالحيتان إلى الحياض فلا يقدرن على الخروج لبعدها وعمقها وقلة مائها، فإذا كان يوم الأحد أخذوها، وقيل: كانوا يسوقون الحيتان إلى الحياض يوم السبت ولا يأخذونها، ثم يأخذونها يوم الأحد، وقيل كانوا ينصبون الحبال والشخوص يوم الجمعة، ويخرجونها يوم الأحد، ففعلوا ذلك زماناً ولم تنزل عليهم عقوبة، فتجرؤوا على الذنب وقالوا: ما ندري السبب إلا وقد أحل لنا، فأخذوا وأكلوا وملحوا وباعوا واشتروا وكثر ما لهم، فلما فعلوا ذلك صار أهل القرية وكانوا نحواً من سبعين ألفاً، ثلاثة أصناف: صنف أمسك ونهى، وصنف أمسك ولم ينه، وصنف انتهك الحرمه، وكان الناهون اثني عشر ألفاً، فلما أبى المجرمون قبول نصحتهم قالوا: والله لا نساكنكم في قرية واحدة، فقسموا القرية بجدار وغيروا بذلك ستين، ولعنهم داود عليه السلام وغضب الله عليهم لإصرارهم على المعصية، فخرج الناهون ذات يوم من بابهم ولم يخرج من المجرمين أحد ولم يفتحوا بابهم، فلما أبطؤوا تسوروا عليهم الحائط فإذا هم جميع قردة لها أذنان يتعاونون، قال قتادة: صار الشباب قردة والشيوخ خنازير، فمكثوا ثلاثة أيام ثم هلكوا، ولم يمكث مسخ فوق ثلاثة أيام ولم يتولدوا، قال الله تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قردة﴾ أمر تحويل وتكوين، ﴿خاسئين﴾: مبعدين مطرودين، قيل: فيه تقديم وتأخير، أي: كونوا خاسئين قردة،

ذنوبهم وعبرة لمن بعدهم وقيل: جعلنا عقوبة قرية أصحاب السبت عبرة لمن بين يديها من القرى التي كانت عامرة في الحال وما خلفها أي: ما يحدث بعدها من القرى ليتعظوا بذلك وقوله عز وجل: ﴿وموعظة للمتقين﴾ أي المؤمنين من أمة محمد ﷺ لئلا يفعلوا مثل فعلهم. قوله عز وجل: ﴿وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ البقرة واحدة البقر وهي الأنثى وأصلها البقر وهو الشق سميت بذلك لأنها تشق الأرض للحرثة.

ذكر الإشارة إلى القصة في ذلك

قال علماء السير والأخبار: إنه كان في زمن بني إسرائيل رجل غني وله ابن عم فقير لا وارث له سواه فلما طال عليه موته قتله ليرثه وحمله إلى قرية أخرى، وألقاه على بابها ثم أصبح يطلب ثاره وجاء بناس إلى موسى يدعي عليهم بالقتل، فجددوا واشتبه أمر القتل على موسى عليه الصلاة والسلام. فسألوا موسى أن يدعو الله ليبين لهم ما أشكل عليهم، فسأل موسى ربه في ذلك فأمره بذبح بقرة، وأمره أن يضربه ببعضها فقال لهم: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴿قالوا أتتخذنا هزواً﴾ أي نحن نسألك أمر القتل، وأنت تستهزئ بنا وتأمركنا بذبح بقرة وإنما قالوا ذلك لبعد ما بين الأمرين في الظاهر، ولم يعلموا ما وجه الحكمة فيه ﴿قال﴾ يعني موسى ﴿أعوذ بالله﴾ أي أمتنع بالله ﴿أن أكون من الجاهلين﴾ أي المستهزئين بالمؤمنين وقيل: من الجاهلين بالجواب لا على وفق السؤال فلما علموا أن ذبح البقرة عزم من الله تعالى استوصفوه إياها ولو أنهم عمدوا إلى أي بقرة كانت فذبحوها لأجزأت عنهم ولكن شددوا فشدد عليهم وكان في ذلك حكمة الله عز وجل، وذلك أنه كان رجل صالح في بني إسرائيل، وله ابن طفل وله عجلة فأتى بها غيضة وقال: اللهم إني استودعتك هذه العجلة لابني حتى يكبر ومات ذلك الرجل، وصارت العجلة في الغيضة عواناً وكانت تهرب من الناس، فلما كبر ذلك الطفل، وكان باراً بأمه وكان يقسم ليله

ولذلك لم يقل خاسثات، والخسأ: الطرد والإبعاد، وهو لازم ومعتد، يقال: خسأته خسأً فخسأ خسوأً، مثل رجعتة رجعاً فرجع رجوعاً.

﴿فجعلناها﴾، أي: جعلنا عقوبتهم بالمسخ ﴿نكالاً﴾، أي: عقوبة وعبرة، والنكال: اسم لكل عقوبة ينكل الناظر من فعل ما جعلت العقوبة جزاءً عليه، ومنه النكول عن اليمين: وهو الامتناع، وأصله من النكل وهو القيد، وجمعه يكون أنكالاً، ﴿لما بين يديها﴾، قال قتادة: أراد بما بين يديها يعني: ما سبق من الذنوب، أي: جعلنا تلك العقوبة جزاءً لما تقدم من ذنوبهم قبل نهيمهم عن أخذ الصيد، ﴿وما خلفها﴾: ما حضر من الذنوب التي أخذوا بها، وهي العصيان بأخذ الحيتان، وقال أبو العالية والربيع: عقوبة لما مضى من ذنوبهم وعبرة لمن بعدهم أن يستنوا بسنتهم، و﴿ما﴾ الثانية بمعنى: من، وقيل: جعلناها أي: جعلنا قرية أصحاب السبت عبرة لما بين يديها، أي: القرى التي كانت مبنية في الحال، وما خلفها وما يحدث من القرى بعد ليتعظوا، وقيل: فيه تقديم وتأخير تقديره: فجعلناها وما خلفها، أي: ما أعد لهم من العذاب في الآخرة وجزاء لما بين يديها، أي: لما تقدم من ذنوبهم باعتدائهم في السبت، ﴿وموعظة للمتقين﴾: للمؤمنين من أمة محمد ﷺ، فلا يفعلون مثل فعلهم.

قوله عز وجل: ﴿وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾: البقرة هي الأنثى من البقر، يقال: هي مأخوذة من البقر وهي الشق، سُميت به لأنها تبقر الأرض، أي: تشقها للحرثة، والقصة فيه أنه كان في بني إسرائيل رجل غني وله ابن عم فقير لا وارث له سواه، فلما طال عليه موته قتله ليرثه وحمله إلى قرية أخرى وألقاه بفنائهم، ثم أصبح يطلب ثاره وجاء بناس إلى موسى يدعي عليهم القتل، فسألهم موسى فجددوا فاشتبه أمر القتل على موسى، قال الكلبي: وذلك قبل نزول قسامة في التوراة، فسألوا موسى أن يدعو الله ليبين لهم بدعائه، فأمرهم

ثلاثة أجزاء يصلي ثلثاً وينام ثلثاً، ويجلس عند رأس أمه ثلثاً فإذا أصبح انطلق فيحطب ويأتي به السوق فيبيعه بما يشاء الله فيتصدق بثلثه ويأكل ثلثه ويعطي أمه ثلثه، فقالت له أمه يوماً: يا بني إن أباك ورثك عجلة استودعها الله في غيضة كذا فانطلق وادع إله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق أن يردها عليك وعلامتها أنك إذا نظرت إليها يخيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها، وكانت تسمى المذبة لحسنها وصفرتها، فأتى الفتى غيضة فرأها ترعى فصاح بها وقال أعزم عليك بإله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، فأقبلت البقرة حتى وقفت بين يديه فقبض على قرنها يقودها فتكلمت البقرة بإذن الله تعالى، وقالت: أيها الفتى البار بأمه اركبني فإنه أهون عليك. فقال الفتى: إن أمي لم تأمرني بذلك فقالت البقرة والله لو ركبتني ما كنت تقدر عليّ أبداً فانطلق فإنك لو أمرت الجبل أن ينقلع من أصله لانقلع لبرك بأمك فسار الفتى بها إلى أمه فقالت له أمه: إنك رجل فقير ولا مال لك ويشق عليك الاحتطاب بالنهار والقيام بالليل فانطلق فبع البقرة، فقال: بكم أبيعها قالت: بثلاثة دنائير ولا تبع بغير مشورتي وكان ثمن البقرة ثلاثة دنائير فانطلق بها الفتى إلى السوق، وبعث الله ملكاً ليرى خلقه قدرته، وليختبر الفتى كيف بره بأمه، وهو أعلم فقال له الملك: بكم هذه البقرة؟ قال بثلاثة دنائير، وأشترط عليك رضى أمي فقال له الملك: لك ستة دنائير ولا تستأمر أمك فقال له الفتى لو أعطيتني وزنها ذهباً لم آخذه إلا برضا أمي. ورجع الفتى إلى أمه فأخبرها بالثمن

الله بذبح بقرة، فقال لهم موسى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾، ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزْوَاً﴾، أي: تستهزئ بنا نحن نسألك عن أمر القتل وتأمرنا بذبح البقرة، وإنما قالوا ذلك لُبعد ما بين الأمرين في الظاهر ولم يدروا ما الحكمة فيه، قرأ حمزة «هزواً وكفواً» بالتخفيف، وقرأ الآخرون بالثقل، ويترك الهمزة حفص. ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ﴾: أمتنع بالله ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، أي: من المستهزئين بالمؤمنين، وقيل: من الجاهلين بالجواب لا على وفق السؤال، لأن الجواب لا على وفق السؤال جهل، فلما علم القوم أن ذبح البقرة عزم من الله عز وجل استوصفوها، ولو أنهم عمدوا إلى أدنى بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، وكانت تحته حكمة وذلك أنه كان في بني إسرائيل رجل صالح له ابن طفل وله عجلة أتى بها إلى غيضة، وقال: اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَوْدَعْتُكَ هَذِهِ الْعَجَلَةَ لَابْنِي حَتَّى تَكْبُرَ، ومات الرجل فصارت العجلة في الغيضة عواناً، وكانت تهرب من كل مَنْ رآها فلما كبر الابن كان باراً بوالدته، وكان يقسم الليل ثلاثة أثلاث يصلي ثلثاً وينام ثلثاً ويجلس عند رأس أمه ثلثاً، فإذا أصبح انطلق فاحتطب على ظهره فيأتي به إلى السوق، فيبيعه بما شاء الله ثم يتصدق بثلثه ويأكل ثلثه ويعطي والدته ثلثه، فقالت له أمه يوماً: إن أباك ورثك عجلة استودعها الله في غيضة كذا فانطلق وادع إله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق أن يردها عليك، وعلامتها أنك إذا نظرت إليها يخيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها، وكانت تلك البقرة تسمى المذبة لحسنها وصفرتها، فأتى الفتى الغيضة فرأها ترعى فصاح بها، وقال: أعزم عليك بإله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، فأقبلت تسعى حتى قامت بين يديه، فقبض على عنقها يقودها، فتكلمت البقرة بإذن الله تعالى فقالت: أيها الفتى البار بوالدتك اركبني، فإن ذلك أهون عليك، فقال الفتى: إن أمي لم تأمرني بذلك، ولكن قالت: خذ بعنقها، فقالت البقرة: بإله بني إسرائيل لو ركبتني ما كنت تقدر عليّ أبداً فانطلق فإنك لو أمرت الجبل أن ينقلع من أصله وينطلق معك لفعل، لبرك بأمك فسار الفتى بها إلى أمه، فقالت له: إنك فقير لا مال لك فيشق عليك الاحتطاب بالنهار والقيام بالليل، فانطلق فبع البقرة، فقال: بكم أبيعها؟ قالت: بثلاثة دنائير، ولا تبع بغير مشورتي، وكان ثمن البقرة ثلاثة دنائير، فانطلق بها الفتى إلى السوق، وبعث الله ملكاً ليرى خلقه قدرته، وليختبر الفتى كيف بره بأمه وكان الله به خبيراً فقال له الملك: بكم تباع هذه البقرة؟ قال: بثلاثة دنائير وأشترط عليك رضى والدتي، فقال الملك: لك ستة دنائير ولا تستأمر والدتك، فقال الفتى: لو أعطيتني وزنها ذهباً

فقلت له: ارجع فبعها بستة دنانير ولا تبعها إلا برضاي فرجع بها إلى السوق وأتى الملك فقال له: استأمرت أمك فقال الفتى: نعم. إنها أمرتني أن لا أنقصها عن ستة على رضاها. فقال الملك: إني أعطيتك اثني عشر ديناراً ولا تستأمرها فأبى الفتى ورجع إلى أمه فأخبرها بذلك فقالت له أمه: إن الذي يأتيك ملك في صورة آدمي ليجربك، فإذا أتاك فقل له: أتأمرنا أن نبيع هذه البقرة أم لا ففعل فقال له الملك: اذهب إلى أمك فقل لها أمسكي هذه البقرة فإن موسى بن عمران يشتريها منك لقتيل يقتل في بني إسرائيل، فلا تبعها إلا بملء مسكها ذهباً والمسك الجلد فأمسكتها وقدر الله على بني إسرائيل ذبح البقرة بعينها، فما زالوا يستوصفون البقرة حتى وصفت لهم تلك البقرة بعينها مكافأة بذلك الفتى على بره بأمه فضلاً من الله تعالى ورحمة فذلك قوله تعالى:

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْأَبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِئَةٍ فِيهَا قَالُوا لَئِنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَدَجُّوْهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾

﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي﴾ أي ما سنها ﴿قال﴾ يعني موسى ﴿إنه يقول﴾ يعني الله عز وجل: ﴿إنها بقرة لا فارض ولا بكر﴾ أي لا كبيرة ولا صغيرة والفاض المسنة التي لم تلد، والبكر الفتية التي لم تلد ﴿عوان﴾ أي نصف ﴿بين ذلك﴾ أي بين السنين ﴿فافعلوا ما تؤمرون﴾ أي من ذبح البقرة ولا تكثر السؤل ﴿قالوا ادع لنا ربك﴾

لم أخذه إلا برضا أمي، فردّها إلى أمه وأخبرها بالثمن، فقالت: ارجع فبعها بستة دنانير على رضى ممي، فانطلق بها إلى السوق، وأتى الملك فقال: استأمرت أمك؟ فقال الفتى: إنها أمرتني أن لا أنقصها عن ستة دنانير على أن استأمرها، وقال الملك: فإني أعطيتك اثني عشر على أن لا تستأمرها، فأبى الفتى ورجع إلى أمه فأخبرها بذلك، فقالت: إن الذي يأتيك ذلك في صورة آدمي فإذا أتاك فقل له: أتأمرنا أن نبيع هذه البقرة أم لا؟ ففعل فقال له الملك: اذهب إلى أمك وقل لها: أمسكي هذه البقرة فإن موسى بن عمران عليه السلام يشتريها منك لقتيل يقتل في بني إسرائيل، فلا تبعها إلا بملء مسكها دنانير فأمسكها، وقدر الله تعالى على بني إسرائيل ذبح تلك البقرة بعينها فما زالوا يستوصفونها حتى وصفت لهم تلك البقرة بعينها مكافأة له على برّه بوالدته فضلاً منه ورحمة.

فذلك قوله تعالى: ﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي﴾، أي: ما سنّها ﴿قال﴾ موسى ﴿إنه يقول﴾، يعني فسأل الله تعالى فقال إنه يعني: إن الله تعالى يقول: ﴿إنها بقرة لا فارض ولا بكر﴾، أي: لا كبيرة ولا صغيرة، والفاض: المسنة التي لا تلد، يقال: منه فرضت تفرض فروضاً، والبكر: الفتية الصغيرة التي لم تلد قط، وحذفت الهاء منهما للاختصاص بالإناث كالحائض، ﴿عوان﴾: وسط نصف ﴿بين ذلك﴾، أي: بين السنين، يقال: عونت المرأة تعويناً إذا زادت على الثلاثين، قال الأخفش: العوان التي نتجت مراراً، وجمعها عون، ﴿فافعلوا ما تؤمرون﴾: من ذبح البقرة ولا تكثر السؤل.

﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها﴾، قال ابن عباس: شديدة الصفرة وقال قتادة: صاف، وقال الحسن: الصفراء السوداء، والأول أصح لأنه لا يقال أسود فاقع، إنما يقال أصفر

ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها ﴿ قال ابن عباس شديد الصفرة وقيل: لونها صاف وقيل الصفراء السوداء والأول أصح لأنه يقال أصفر فاقع وأسود حالك ﴾ تسر الناظرين ﴿ أي يعجبهم حسنهما وصفاء لونها ﴾ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ﴿ أي سائمة أو عاملة ﴾ إن البقر تشابه علينا ﴿ أي التبس واشتبه أمرها علينا ﴾ وإنا إن شاء الله لمهتدون ﴿ أي إلى وصفها قال رسول الله ﷺ: «وايم الله لو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الدهر» ﴾ قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول ﴿ أي ليست مذلة بالعمل ﴾ تثير الأرض ﴿ أي تقلبها للزراعة ﴾ ولا تسقي الحرث ﴿ أي ليست بسانية والسانية هي التي تستسقي الماء من البئر لسقي الأرض ﴾ مسلمة ﴿ أي بريئة من العيوب ﴾ لا شية فيها ﴿ أي لا لون فيها غير لونها ﴾ قالوا الآن جئت بالحق ﴿ أي بالبيان التام الذي لا إشكال فيه فطلبوها فلم يجدوا بقرة بكمال وصفها، إلا بقرة ذلك الفتى فاشتروها منه بملء مسكها ذهباً ﴾ فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴿ أي وما قاربوا أن يفعلوا ما أمروا به، قيل لغلاء ثمنها وقيل: لخوف الفضيحة وقيل: لعزة وجودها بهذه الأوصاف جميعاً. قوله عز وجل:

وَإِذ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً وَإِنَّ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ أَمَاءً وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

﴿ وإذ قتلتم نفساً ﴾ خوطبت الجماعة بذلك لوجود القتل فيهم ﴿ فادارأتم فيها ﴾ قال ابن عباس أي اختلفتم واختصمتم من الدراء وهو الدفع لأن المتخاصمين يدفع بعضهم بعضاً ﴿ والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾ أي مظهر ما

فاقع، وأسود حالك وأحمر قانيء وأخضر ناضر وأبيض بقق للمبالغة، ﴿ تسر الناظرين ﴾: إليها يعجبهم حسنهما وصفاء لونها.

﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ﴾: أسائمة أم عاملة؟ ﴿ إن البقر تشابه علينا ﴾، ولم يقل تشابهت لتذكير لفظ البقر، كقوله تعالى: ﴿ أعجاز نخل منقعر ﴾ [القمر: ٢٠]، وقال الزجاج: أي جنس البقر تشابه، أي: التبس واشتبه أمره علينا فلا نهتدي إليه، ﴿ وإنا إن شاء الله لمهتدون ﴾: إلى وصفها، قال رسول الله ﷺ: «وايم الله لو لم يستثنوا لما بينت لهم إلى آخر الأبد».

﴿ قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول ﴾: مذلة بالعمل، يقال: رجل ذلول بين الذلّ ودابة ذلولة بينة الذلّ، ﴿ تثير الأرض ﴾: تقلبها للزراعة، ﴿ ولا تسقي الحرث ﴾، أي: ليست بسانية، ﴿ مسلمة ﴾: بريئة من العيوب، ﴿ لا شية فيها ﴾: لا لون لها سوى لون جميع جلدها، قال عطاء: لا عيب فيها، قال مجاهد: لا بياض فيها ولا سواد، ﴿ قالوا الآن جئت بالحق ﴾، أي: بالبيان التام الشافي الذي لا إشكال فيه، وطلبوها فلم يجدوا بكمال وصفها إلا مع الفتى فاشتروها بملء مسكها ذهباً ﴿ فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾: من غلاء ثمنها وقال محمد بن كعب: وما كادوا يجدونها باجتماع أوصافها، وقيل: وما كادوا يفعلون من شدة اضطرابهم واختلافهم فيها.

قوله عز وجل: ﴿ وإذ قتلتم نفساً ﴾: هذا أول القصة، وإن كان مؤخراً في التلاوة، واسم القتل عاميل، ﴿ فادارأتم فيها ﴾، أصله تدارأتم، فادغمت التاء في الدال وأدخلت الألف مثل قوله: ﴿ أثاقتهم ﴾ [التوبة: ٣٨]،

كنتم من أمر القتل لا محالة ولا يتركه مكتوماً ﴿فقلنا اضربوه﴾ يعني القتل ﴿ببعضها﴾ أي ببعض البقرة قال ابن عباس ضربه بالعظم الذي يلي الغضروف، وهو أصل الأذن وقيل: ضربه بلسانها وقيل: بعجب الذنب وقيل: بفخذها اليمين والأقرب أنهم كانوا مخيرين في ذلك البعض وإنهم إذا ضربه بأي جزء منها أجزأ وحصل المقصود وإنه ليس في القرآن ما يدل على ذلك البعض ما هو. وذلك يقتضي التخيير وفي الآية إضمار تقديره فضربه فحيي وقام بإذن الله تعالى، وأوداجه تشخب دمًا وقال قتلني فلان يعني ابن عمه ثم سقط ميتاً مكانه. فحرم قاتله الميراث وفي الخبر ما ورث قاتل بعد صاحب البقرة ﴿كذلك﴾ أي كما أحيا الله عاميل صاحب البقرة ﴿يحيي الله الموتى﴾ يعني يوم القيامة ﴿ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾ أي تمنعون أنفسكم عن المعاصي. فإن قلت كان حق هذه القصة أن يقدم ذكر القتل أولاً، ثم ذكر ذبح البقرة بعد ذلك، فما وجه ترتيب هذه القصة على هذا الترتيب؟ قلت: وجهه أن الله لما ذكر من قصص بني إسرائيل وما وجد من خياناتهم تقريباً لهم على ذلك وما وجد فيهم من الآيات العظيمة، وهاتان قصتان كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقرير وإن كانتا متصلتين متحدتين في نفس الأمر، فالأولى لتقريعهم على ترك المسارعة إلى امتثال الأمر وما يتبعه والثانية لتقريعهم على قتل النفس المحرمة فلو قدم قصة القتل على قصة الذبح لكانت قصة واحدة ولذهب الغرض من تثنية التقرير، فلماذا قدم ذكر الذبح أولاً ثم عقبه بذكر القتل. فإن قلت ما فائدة ضرب القتل ببعض البقرة والله تعالى قادر على أن يحييه ابتداء من غير ضرب بشيء؟ قلت: الفائدة فيه أن تكون الحجة أوكد وعن الحيلة أبعد لاحتمال أن يتوهم متوهم أن موسى عليه السلام، إنما أحياه بضرب من السحر والحيلة فإذا أحى القتل، عندما ضرب ببعض البقرة انتفت الشبهة، وعلم أن ذلك من عند الله تعالى وبأمره كان ذلك. فإن قلت: هلا أمروا بذبح غير البقرة؟ قلت: الكلام في غير البقرة لو أمروا به كالقلام في البقرة ثم في ذبح البقرة فوائد منها التقرب بالقرابان على ما كانت العادة جارية عندهم، ومنها أن هذا

قال ابن عباس ومجاهد: معناه فاختلستم، وقال الربيع بن أنس: تدافعت، أي: يحيل بعضكم على بعض، من الدرع: وهو الدفع، فكان كل واحد يدفع عن نفسه، ﴿والله مخرج﴾، أي: مظهر: ﴿ما كنتم تكتمون﴾، فإن القاتل كان يكتم القتل.

قوله عز وجل: ﴿فقلنا اضربوه﴾، يعني: القتل، ﴿ببعضها﴾ أي: ببعض البقرة، واختلفوا في ذلك البعض، قال ابن عباس رضي الله عنه وأكثر المفسرين: ضربه بالعظم الذي يلي الغضروف وهو المقتل، وقال مجاهد وسعيد بن جبیر: بعجب الذنب لأنه أول ما يُخلق وآخر ما يبلى ويركب عليه الخلق ثانياً وهو البعث، وقال الضحاك: بلسانها، وقال الحسين بن الفضل: هذا أدل بها لأنه آلة الكلام، وقال الكلبي وعكرمة: بفخذها الأيمن، وقيل: بعضو منها لا بعينه، ففعلوا ذلك فقام القتل حياً بإذن الله تعالى وأوداجه، أي: عروق العنق تشخب دمًا، وقال: قتلني فلان ثم سقط ومات مكانه فحرم قاتله الميراث، وفي الخبر: (ما ورث قاتل بعد صاحب البقرة)، وفيه إضمار تقديره فضربت فحيي، ﴿كذلك يحيي الله الموتى﴾: كما أحيا عاميل، ﴿ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾، قيل: تمنعون أنفسكم من المعاصي أما حكم هذه المسألة إذا وُجد في الإسلام قتل في موضع ولا يعرف قاتله، فإن كان ثم لوث على إنسان، واللوث: أن يغلب على القلب صدق المدعي بأن اجتمع جماعة في بيت أو صحراء فتفرقوا عن قتل يغلب على القلب أن القاتل فيهم، أو وُجد قتل في محلة أو قرية كلهم أعداء للقتل لا يخالطهم غيرهم فيغلب على القلب أنهم قتلوه، فادعى الولي على بعضهم، يحلف المدعي خمسين يمينا على من يدعي عليه، وإن كان الأولياء جماعة توزع الأيمان عليهم، ثم بعدما حلفوا أخذوا الدية من عاقلة المدعى عليه إن ادعوا قتل خطأ، وإن ادعوا قتل عمد فمن ماله، ولا قود على قول الأكثرين، وذهب بعضهم إلى وجوب القود وهو قول

القربان كان عندهم من أعظم القرابين ومنها تحمل المشقة العظيمة في تحصيلها بتلك الصفة ومنها حصول ذلك المال العظيم الذي أخذه صاحبها من ثمنها.

فصل: في حكم هذه المسألة في شريعة الإسلام إذا وقعت:

وذلك أن: إذا وجد قاتل في موضع، ولا يعرف قاتله فإن كان ثم لوث على إنسان ادعى به. واللوث أن يغلب على الظن صدق المدعى بأن اجتمع جماعة في بيت أو صحراء ثم تفرقوا عن قاتل فيغلب على الظن أن القاتل فيهم أو وجد قاتل في محلة أو قرية وكلهم أعداء القاتل لا يخالطهم غيرهم، فيغلب على الظن أنهم قتلوه فإن ادعى الولي على بعضهم حلف خمسين يميناً على من يدعي عليه، وإن كان الأولياء جماعة توزع الإيمان عليهم فإذا حلفوا أخذوا الدية من عاقلة المدعى عليه، إن ادعوا قتل خطأ، وإن ادعوا قتل عمد فمن مال المدعى عليه ولا قود عليه في قول الأكثرين، وذهب عمر بن عبدالعزيز إلى وجوب القود وبه قال مالك وأحمد فإن لم يكن ثم لوث فالقول قول المدعي عليه لأن الأصل براءة ذمته من القتل وهل يحلف يميناً واحدة أم خمسين يميناً؟ فيه قولان: أحدهما: أنه يحلف يميناً واحدة كما في سائر الدعاوى. والثاني: أنه يحلف خمسين يميناً تغليظاً لأمر القاتل، وعند أبي حنيفة لا حكم للوثة ولا يبدأ بيمين المدعي بل إذا وجد قاتل في محلة، يختار الإمام خمسين رجلاً من صلحاء أهلها فيحلفهم أنهم ما قتلوه ولا يعرفون له قاتلاً، فإن حلفوا وإلا أخذ الدية من سكانها. والدليل على أن البداءة بيمين المدعي عند وجود اللوث. ما روى عن سهل بن أبي خيثمة قال: انطلق عبدالله بن سهل ومحبيصة بن مسعود إلى خيبر وهي يومئذ صلح فتفرقا فأتى محبيصة إلى عبدالله بن سهل وهو يتشطح في دمه قتيلاً فدفعه. ثم قدم المدينة فانطلق عبدالرحمن بن سهل ومحبيصة وحويصة ابنا مسعود إلى النبي ﷺ فذهب عبدالرحمن يتكلم فقال رسول الله ﷺ: «كبر وهو أحدث القوم سناً» فسكت، فتكلما فقال أتخلفون وتستحقون قاتلكم أو قال صاحبكم قالوا: كيف نحلف ولم نشهد ولم نر؟ قال: فتبرئكم يهود بأيمان خمسين منهم قالوا: كيف نأخذ بأيمان قوم كفار

عمر بن عبد العزيز، وبه قال مالك وأحمد، وإن لم يكن على المدعى عليه لوثة، فالقول قول المدعى عليه مع يمينه، ثم هل يحلف يميناً واحدة أم خمسين يميناً فيه قولان: أحدهما يميناً واحدة كما في سائر الدعاوى، والثاني يحلف خمسين يميناً تغليظاً لأمر الدم، وعند أبي حنيفة رضي الله عنه لا حكم للوثة، ولا يبدأ بيمين المدعى، وقال: إذا وجد قاتل في محلة يختار الإمام خمسين رجلاً من صلحاء أهلها فيحلفهم أنهم ما قتلوه ولا عرفوا له قاتلاً، ثم يأخذ الدية من سكانها، والدليل على أن البداءة بيمين المدعي، عند وجود اللوث ما أخبرنا به عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال، أنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم، أنا الربيع أنا الشافعي أنا عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي، عن يحيى بن سعيد عن بشير بن يسار عن سهل بن أبي حثمة، أن عبد الله بن سهل ومحبيصة بن مسعود: خرجا إلى خيبر فتفرقا لحاجتهما، فقتل عبد الله بن سهل، فانطلق هو وعبد الرحمن أخو المقتول وحويصة بن مسعود إلى رسول الله ﷺ فذكروا له قتل عبد الله بن سهل، فقال رسول الله ﷺ: «تخلفون خمسين يميناً وتستحقون دم صاحبكم أو قاتلكم»، فقالوا: يا رسول الله لم نشهد ولم نحضر، فقال رسول الله ﷺ: «فتبرئكم يهود بخمسين يميناً»، فقالوا: يا رسول الله كيف نقبل أيمان قوم كفار؟ فعزم النبي ﷺ عقله من عنده. وفي لفظ آخر: فعزم أن النبي ﷺ عقله من عنده. قال بشير بن يسار: قال سهل: لقد ركضتني فريضة من تلك الفرائض في مربد لنا، وفي رواية: لقد ركضتني ناقة حمراء من تلك الفرائض في مربد لنا، وجه الدليل من الخبر: أن النبي ﷺ بدأ بأيمان المدعين لتقوى جانبهم باللوثة، وهو أن عبد الله بن سهل وجد قتيلاً في خيبر، وكانت العداوة ظاهرة بين الأنصار وأهل خيبر، وكان يغلب على القلب أنهم قتلوه، واليمين أبداً

فعلقه النبي ﷺ من عنده وفي رواية يقسم خمسون منكم على رجل منهم فيدفع برمته وذكر نحوه وزاد في رواية فكره رسول الله ﷺ أن يبطل دمه، فوداه بمائة من إبل الصدقة أخرجاه في الصحيحين، ووجه الدليل من هذا الحديث أن النبي ﷺ بدأ بأيمان المدعين ليقوى جانبهم باللوث لأن اليمين أبداً تكون لمن يقوى جانبه وعند عدم اللوث تكون من جانب المدعى عليه من حيث إن الأصل براءة ذمته، فكان القول قوله مع يمينه والله أعلم. قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي يبست وجفت وقساوة القلب انتزاع الرحمة منه، وقيل معناه غلظت واسودت ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي من بعد ظهور الدلالات التي جاء بها موسى، وقيل: هي إشارة إلى إحياء القتل بعد ضربه ببعض البقرة ﴿فَهِىَ﴾ يعني القلوب في الغلظ والشدة ﴿كَالْحِجَارَةِ﴾ أي كالشيء الصلب الذي لا تخلخل فيه ﴿أَوْ﴾ قيل: أو بمعنى بل وقيل بمعنى الواو أي و ﴿أَشَدَّ قَسْوَةً﴾ فإن قلت: لم شبه قلوبهم بالحجارة ولم يشبهها بالحديد وهو أشد من الحجارة وأصلب. قلت: لأن الحديد قابل للين بالنار وقد لان لداود عليه الصلاة والسلام والحجارة ليست قابلة للين فلا تلين قط. ثم فضل الحجارة على القلب القاسي فقال ﴿وَإِنْ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ قيل: أراد به جميع الحجارة وقيل أراد به الحجر الذي كان يضرب عليه موسى ليسقي الأسباط والتفجير التفتح بالسعة والكثرة ﴿وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ يعني العيون الصغار التي دون الأنهار ﴿وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي ينزل من أعلى الجبل إلى أسفله، وخشيته عبارة عن انقيادها لأمر الله وأنها لا تمتنع عما

تكون حجة لمن يقوى جانبه، وعند عدم اللوث تقوى جانب المدعى عليه من حيث أن الأصل براءة ذمته، وكان القول قوله مع يمينه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، أي: يبست وجفت، جفاف القلب: خروج الرحمة واللين عنه، وقيل: غلظت، وقيل: اسودت، ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾: من بعد ظهور الدلالات، قال الكلبي: قالوا بعد ذلك نحن لم نقتله فلم يكونوا قط أعمى قلباً ولا أشد تكديماً لنبههم منهم عند ذلك، أي ﴿فَهِىَ﴾: في الغلظة والشدة: ﴿كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً﴾، قيل: أو بمعنى الواو، كقوله: ﴿مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]، أي: بل يزيدون. وإنما لم يشبهها بالحديد مع أنه أصلب من الحجارة لأن الحديد قابل للين، فإنه يلين بالنار، وقد لان لداود عليه السلام، والحجارة لا تلين قط، ثم فضل الحجارة على القلب القاسي فقال: ﴿وَإِنْ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾، قيل: أراد به جميع الحجارة، وقيل أراد به الحجر الذي كان يضرب عليه موسى للأسباط، ﴿وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾: أراد به عيوناً دون الأنهار، ﴿وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ﴾: ينزل من أعلى الجبل إلى أسفله ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾: وقلوبكم لا تلين ولا تخشع يا معشر اليهود، فإن قيل: الحجر جماد لا يفهم فكيف يخشى؟ قيل: الله يفهمه ويلهمه فيخشى بإلهامه، ومذهب أهل السنة والجماعة أن الله تعالى علماً في الجمادات وسائر الحيوانات، سوى العقلاء لا يقف عليه غير الله، فلها صلاة وتسبيح وخشية، كما قال جل ذكره: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] وقال: ﴿وَالطَّيْرِ صَافَاتٌ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١] وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [الحج: ١٨] الآية، فيجب على المرء الإيمان به ويكل علمه إلى الله سبحانه وتعالى، ويروى أن النبي ﷺ كان على ثبير. والكفار يطلبونه فقال الجبل: انزل عني فإني أخاف أن تؤخذ علي فيعاقبني الله بذلك، فقال له جبل جرأ: إني يا رسول الله، أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، ثنا السدي أبو الحسين محمد بن حسن العلوي، أنا أحمد بن محمد بن عبد الوهاب النيسابوري، أنا محمد بن إسماعيل الصائغ، أنا يحيى بن أبي بكر، أنا إبراهيم بن طهمان عن سماك بن حرب عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يُسَلِّم عليّ قبل أن أبعث، وإني لأعرفه

يريد منها، وقلوبكم يا معشر اليهود لا تلين ولا تخشع. فإن قلت: الحجر جماد لا يعقل ولا يفهم فكيف يخشى؟ قلت: إن الله تعالى قادر على إفهام الحجر والجمادات فتعقل وتخشى بإلهامه لها، ومذهب أهل السنة إن الله تعالى أودع في الجمادات والحيوانات، علماً وحكمة لا يقف عليهما غيره فلها صلاة وتسبيح وخشية يدل عليه قوله: ﴿وإن من شيء إلا يسبح الله بحمده﴾ وقال تعالى: ﴿والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه﴾ فيجب على المرء الإيمان به وبكل علمه إلى الله تعالى (م) عن جابر بن سمرة قال، قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث، وإني لأعرفه الآن» عن علي قال كنت مع رسول الله ﷺ بمكة فخرجنا إلى بعض نواحيها فما استقبله شجر ولا جبل إلا وهو يقول السلام عليك يا رسول الله ﷺ، أخرجه الترمذي. وقال حديث غريب (خ) عن جابر بن عبد الله قال: «كان في مسجد رسول الله ﷺ جذع في قبلته يقوم إليه رسول الله ﷺ في خطبته فلما وضع المنبر سمعنا للجذع حيناً مثل صوت العشار حتى نزل رسول الله ﷺ فوضع يده عليه، وفي رواية: صاحت النخلة صياح الصبي فنزل ﷺ حتى أخذها فضمها إليه فجعلت تنن أنين الصبي الذي لا يسكت حتى استقرت. قال: بكت على ما كانت تسمع من الذكر» قال مجاهد: ما ينزل حجر من أعلى إلى أسفل إلا من خشية الله وذلك يشهد لما قلنا ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ فيه وعيد وتهديد والمعنى أن الله بالمرصاد لهؤلاء القاسية قلوبهم وحافظ لأعمالهم حتى يجازيهم بها في الآخرة. قوله عز وجل: .

الآن، هذا حديث صحيح أخرجه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يحيى بن أبي بكر، وصح عن أنس أن رسول الله ﷺ: طلع له أحد، فقال: «هذا جبل يُحبنا ونُحبه»، ورؤي عن أبي هريرة يقول: صلى بنا رسول الله ﷺ الصبح ثم أقبل على الناس بوجهه وقال: «بينما رجل يسوق بقرة إذ عَيَّ فركبها فضر بها، فقالت: إنا لم نُخلق لهذا إنما خلقنا لحراثة الأرض، فقال الناس: سبحان الله بقرة تتكلم؟! فقال رسول الله ﷺ: فإني أومن به أنا وأبو بكر وعمر وما هما ثم»، وقال: «بينما رجل في غنم له إذ عدا الذئب على شاة منها فأدركها صاحبها فاستنقذها»، فقال الذئب: فمن لها يوم السبع، أي: يوم القيامة يوم لا راعي لها غيري؟! فقال الناس: سبحان الله ذئب يتكلم؟! فقال: «أومن به أنا وأبو بكر وعمر وما هما ثم»، وصح عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ على جراء هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير، فتحركت الصخرة فقال النبي ﷺ: «اهداً. أي: اسكن. فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد»، صحيح أخرجه مسلم، أنا عبد الله الصالحي أنا أبو سعيد يحيى بن أحمد بن علي الصانع، أنا أبو الحسن علي بن إسحاق بن هشام الرازي أنا محمد أيوب بن ضريس وهو بجلي الرازي، أنا محمد بن الصباح عن الوليد بن أبي ثور عن السدي عن عبادة بن أبي يزيد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: (كنا مع رسول الله ﷺ بمكة فخرجنا في نواحيها خارجاً من مكة بين الجبال والشجر فلم يمر بشجرة ولا جبل إلا قال: السلام عليك يا رسول الله). أنا أبو الحسن عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع، أنا الشافعي أنا عبد المجيد بن عبد العزيز عن ابن جريج أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله رضي الله عنه يقول: (كان النبي ﷺ إذا خطب استند إلى جذع نخلة من سواري المسجد، فلما صُنع له المنبر فاستوى عليه اضطربت تلك السارية، وحنّ كحنين الناقة حتى سمعها أهل المسجد حتى نزل رسول الله ﷺ فاعتنقها فسكنت). قال مجاهد: لا ينزل حجر من الأعلى إلى الأسفل إلا من خشية الله، ويشهد لما قلنا قوله تعالى: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبلٍ لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ [الحشر: ٢١].

قوله عز وجل: ﴿وما الله بغافلٍ﴾: بساءٍ ﴿عما تعملون﴾: وعيد وتهديد، وقيل: بتارك عقوبة ما تعملون، بل يجازيكم به، قرأ ابن كثير يعملون بالياء والآخرين بالتاء.

﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُّهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٧٦)

﴿أفَنظَمُونَ﴾ خطاب للنبي ﷺ لأنه هو الداعي إلى الإيمان وإنما ذكره بلفظ الجمع تعظيماً له، وقيل: هو خطاب للنبي ﷺ وأصحابه لأنهم كانوا يدعونهم إلى الإيمان أيضاً ومعنى أفَنظَمُونَ أترجعون ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ أي يصدقكم اليهود بما تخبرونهم وقيل: معناه أفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ مع أنهم لم يؤمنوا بموسى عليه الصلاة والسلام وكان هو السبب في خلاصهم من الذل وظهور المعجزات على يده ﴿وقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ قيل المراد بالفريق: هم الذين كانوا مع موسى يوم الميقات، وهم الذين سمعوا كلام الله تعالى، وقيل المراد بهم: الذي كانوا في زمن النبي ﷺ، وهو الأقرب لأن الضمير راجع إليهم في أفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ، فعلى هذا يكون معنى يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ يعني التوراة، لأنه يصح أن يقال لمن يسمع التوراة يسمع كلام الله ﴿ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ﴾ أي يغيرون كلام الله، ويبدلونه فمن فسر الفريق الذين يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ بالفريق الذين كانوا مع موسى عليه السلام استدل بقول ابن عباس رضي الله عنهما إنها نزلت في السبعين الذين اختارهم موسى لميقات ربه، وذلك لأنهم لما رجعوا إلى قومهم بعد ما سمعوا كلام الله أما الصادقون منهم فإنهم أدوا كما سمعوا وقالت طائفة منهم: سمعنا الله يقول في آخر كلامه إن استطعتم أن تفعلوا فافعلوا وإن شئتم فلن تفعلوا، فكان هذا تحريفهم ومن فسر الفريق الذين كانوا يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ بالذين كانوا في زمن النبي ﷺ قال كان تحريفهم تبديلهم صفة النبي ﷺ وآية الرجم في التوراة ﴿مَنْ بَعْدَ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي علموا صحة كلام الله ومراده فيه ثم مع ذلك خالفوه ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي فساد مخالفته ويعلمون أيضاً أنهم كاذبون. قوله عز وجل ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾ نزلت هذه الآية في اليهود، الذين كانوا في زمن النبي ﷺ قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن منافقي اليهود كانوا إذا لقوا أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لهم: آمنا بالذي آمتم به وإن صاحبكم صادق وقوله حق وإننا نجد نعتة وصفته في كتابنا ﴿وَإِذَا

قوله عز وجل: ﴿أَفَنظَمُونَ﴾: أترجون، يريد محمداً وأصحابه، ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾: تصدقكم اليهود بما تخبرونهم به؟ ﴿وقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾، يعني: التوراة، ﴿ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ﴾: يغيرون ما فيها من الأحكام، ﴿مَنْ بَعْدَ مَا عَقَلُوهُ﴾: علموه غير واصفة محمد ﷺ، وآية الرجم، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: أنهم كاذبون، هذا قول مجاهد وقتادة وعكرمة والسدي وجماعة، وقال ابن عباس ومقاتل: نزلت في السبعين الذين اختارهم موسى لميقات ربه، وذلك أنهم لما رجعوا بعدما سمعوا كلام الله إلى قومهم رجع الناس إلى قولهم، وأما الصادقون منهم فأدوا كما سمعوا، وقالت طائفة منهم: سمعنا الله يقول في آخر كلامه إن استطعتم أن تفعلوا، فهذا تحريفهم وهم يعلمون أنه الحق.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، قال ابن عباس والحسن وقتادة: يعني: منافقي اليهود الذين آمنوا بالسننهم إذا لقوا المؤمنين المخلصين، ﴿قَالُوا ءَامَنَّا﴾، كيما نكم، ﴿وَإِذَا خَلَا﴾: رجع ﴿بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ كعب بن الأشرف وكعب بن أسد ووهب بن يهودا، أو غيرهم من رؤساء اليهود، لأمرهم على ذلك، ﴿قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾: بما قص الله عليكم في كتابكم أن محمداً حق وقوله صدق، والفتاح: القاص، وقال الكسائي: بما بينه لكم من العلم بصفة محمد ﷺ ونعته، وقال الواقدي: بما أنزل الله عليكم وأعطاكم،

خلا بعضهم إلى بعض ﴿ يعني كعب بن الأشرف وكعب بن أسد ووهب بن يهودا ورؤساء اليهود لاموا منافقي اليهود على ذلك و﴿ قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ﴾ يعني قص الله عليكم في كتابكم من صفة محمد ﷺ وأنه حق وقوله صدق ﴿ ليحاجوكم به ﴾ أي ليخاصمكم أصحاب محمد ﷺ ويحتجوا عليكم بقولكم فيقولون لكم قد أقررتم أنه نبي حق في كتابكم لم لا تتبعونه، وذلك أن اليهود قالوا لأهل المدينة حين شاوروهم في إتباع محمد ﷺ: آمنوا به فإنه نبي حق ثم لام بعضهم بعضاً، وقالوا: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم لتكون لهم الحجة عليكم ﴿ عند ربكم ﴾ أي في الدنيا والآخرة وقيل: هو قول يهود بني قريظة بعضهم لبعض. حين قال لهم النبي ﷺ: يا إخوان القردة والخنازير. قالوا: من أخبر محمداً بهذا؟ هذا ما خرج إلا منكم وقيل: إن اليهود أخبروا المؤمنين بما عذبهم الله به من الجنائيات. فقال بعضهم لبعض: أتحدثونهم بما قضى الله عليكم من العذاب ليروا الكرامة لأنفسهم عليكم عند الله ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي إن ذلك لا يليق بما أنتم عليه.

أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ ﴿٧٧﴾ وَمَنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّ
وَأِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا
قَلِيلًا قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كُنْتُمْ آيْدِيَهُمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْتُسُونَ ﴿٧٩﴾

﴿ أو لا يعلمون ﴾ يعني اليهود ﴿ أن الله يعلم ما يسرون ﴾ أي ما يخفون ﴿ وما يعلنون ﴾ أي ما يبدون وما يظهرون. قوله عز وجل: ﴿ ومنهم ﴾ أي من اليهود ﴿ أميون ﴾ أي لا يحسنون الكتابة ولا القراءة جمع أمي وهو المنسوب إلى أمه كأنه باق على ما انفصل من الأم لم يتعلم كتابة ولا قراءة ﴿ لا يعلمون الكتاب إلا أمانياً ﴾ جمع أمانة وهي التلاوة، ومنه قول الشاعر:

تمنى كتاب الله أول ليلة تمنى داود الزبور على رسل

ونظيره ﴿ لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ [الأعراف: ٩٦]، أي: أنزلنا، وقال أبو عبيدة: بما من الله عليكم وأعطاكم، ﴿ ليحاجوكم به ﴾: ليخاصموكم به، ويعني: أصحاب محمد ﷺ ويحتجوا بقولكم عليكم، فيقولوا: قد أقررتم أنه نبي حق في كتابكم، ثم لا تتبعونه؟ وذلك أنهم قالوا لأهل المدينة حين شاوروهم في إتباع محمد ﷺ: آمنوا به فإنه حق، ثم قال بعضهم لبعض: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به؟. ويعني: لتكون لهم الحجة عليكم. ﴿ عند ربكم ﴾ الآخرة، وقيل: إنهم أخبروا المؤمنين بما عذبهم الله به على الجنائيات، فقال بعضهم لبعض: أتحدثونهم بما أنزل الله عليكم من العذاب ليحاجوكم به عند ربكم، ليروا الكرامة لأنفسهم عليكم عند الله، وقال مجاهد: هو قول يهود قريظة، قال بعضهم لبعض حين قال لهم النبي ﷺ: يا إخوان القردة والخنازير، فقالوا: من أخبر محمداً بهذا؟ ما خرج هذا إلا منكم، ﴿ أفلا تعقلون ﴾.

قوله عز وجل: ﴿ أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون ﴾: يخفون، ﴿ وما يعلنون ﴾: يبدون، يعني اليهود.

وقوله تعالى: ﴿ ومنهم أميون ﴾، أي: من اليهود أميون لا يحسنون القراءة والكتابة، جمع: أمي، منسوب إلى الأم كأنه باق على ما انفصل من الأم لم يتعلم كتابة ولا قراءة، ورؤي عن الرسول ﷺ أنه قال: «إنا أمة أمية»، أي: لا نكتب ولا نحسب، وقيل: هو منسوب إلى أم القرى وهي مكة، ﴿ لا يعلمون الكتاب إلا أمانياً ﴾، قرأ أبو جعفر: ﴿ أمانياً ﴾، بتخفيف الياء، كل القرآن، حذف إحدى الياءين تخفيفاً، وقراءة العامة بالتشديد، وهو جمع:

أي تلا كتاب الله. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه غير عارفين بمعاني كتاب الله تعالى وقيل الأمانى الأحاديث الكاذبة المختلفة وهي الأشياء التي كتبها علماءهم من عند أنفسهم وأضافوها إلى الله تعالى وذلك من تغيير نعت النبي ﷺ وصفته وغير ذلك، وقيل: هو من التمني وهو قولهم: ﴿لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَةً﴾ وغير ذلك مما تمنوه فعلى هذا يكون المعنى لا يعلمون الكتاب. لكن يتمنون أشياء لا تحصل لهم ﴿وإن هم إلا يظنون﴾ أي على يقين ﴿فويل﴾ الويل كلمة تقولها العرب لكل من وقع في هلكة وأصلها في اللغة العذاب والهلاك وقال ابن عباس: الويل شدة العذاب وعن أبي سعيد الخدري. قال قال رسول الله ﷺ: «الويل واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب. الخريف سنة ﴿للذين يكتبون الكتاب بأيديهم﴾ تأكيد للكتابة لأنه يحتمل أن يأمر غيره بأن يكتب فقال: بأيديهم لنفي هذه الشبهة والمراد بالذين يكتبون الكتاب اليهود وذلك أن رؤساء اليهود خافوا ذهاب مآكلهم وزوال رياستهم حين قدم النبي ﷺ المدينة فاحتالوا في تعويق سفلتهم عن الإيمان به فعمدوا إلى صفته في التوراة فغيروها، وكانت صفته فيها حسن الوجه حسن الشعر أكحل العينين ربعة فغيروا ذلك وكتبوا مكانه طوال أزرق العينين سبط الشعر فكانوا إذا سألهم سفلتهم عن ذلك قرأوا عليهم ما كتبوا ﴿ثم يقولون هذا من عند الله﴾ يعني هذه الصفة التي كتبوها. فإذا نظروا إلى النبي ﷺ وإلى تلك وجدوه مخالفاً لها فيكذبونه ويقولون إنه ليس به ﴿ليشتروا به﴾ أي بما كتبوا ﴿ثمناً قليلاً﴾ أي المآكل

أمنية وهي التلاوة، وقال الله تعالى: ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيهِ﴾ [الحج: ٥٢]، أي: في قراءته، قال أبو عبيدة: إلّا تلاوة وقراءة عن ظهر القلب لا يقرؤنه من كتاب، وقيل: يعلمونه حفظاً وقراءة لا يعرفون معناه، قال ابن عباس: يعني غير عارفين بمعاني الكتاب وقال مجاهد وقتادة: إلّا كذباً وباطلاً، قال الفراء: إلّا أمانى: الأحاديث المفتعلة، قال عثمان رضي الله عنه: ما تمنيت منذ أسلمت، أي: ما كذبت وأراد بها الأشياء التي كتبها علماءهم من عند أنفسهم، ثم أضافوها إلى الله من تغيير نعت النبي ﷺ وغيره، وقال الحسن وأبو العالية: هي من التمني وهي أمانهم الباطلة التي يتمنونها على الله عز وجل، مثل قولهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١١١]، وقولهم: ﴿لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، وقولهم: ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ [المائدة: ١٨]، فعلى هذا لا يكون بمعنى لكن، أي لا يعلمون الكتاب لكن يتمنون أشياء لا تحصل لهم، ﴿وإن هم﴾، وما هم ﴿إلا يظنون﴾، يعني: وما يظنون إلّا ظناً وتوهماً لا يقيناً قاله قتادة والربيع، وقال مجاهد: يكذبون.

قوله عز وجل: ﴿فويل﴾، قال الزجاج: ويل، كلمة تقولها العرب لكل واقع في هلكة، وقيل: هو دعاء الكفار على أنفسهم بالويل والثبور، وقال ابن عباس: شدة العذاب، وقال سعيد بن المسيب: ويل واد في جهنم لو سيرت فيه جبال الدنيا لأنماعت ولذابت من شدة حرها، أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله الخلال، أنا عبد الله بن المبارك عن راشد بن سعد عن عمرو بن الحارث أنه حدث عن أبي السمع عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الويل واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره، والصعود جبل من نار يتصعد فيه سبعين خريفاً ثم يهوي فهو كذلك»، ﴿للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً﴾، وذلك أن أحبار اليهود خافوا ذهاب مآكلهم وزوال رياستهم حين قدم النبي ﷺ المدينة، فاحتالوا في تعويق اليهود عن الإيمان به فعمدوا إلى صفته في التوراة، وكانت صفته فيها حسن الوجه حسن الشعر أكحل العينين ربعة القائمة فغيروها وكتبوا مكانها طوال أزرق سبط الشعر، فإذا سألهم سفلتهم عن صفته

والرشا التي كانوا يأخذونها من سفلتهم، قال الله تعالى: ﴿فويل لهم بما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾. قوله عز وجل:

وَقَالُوا لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ فَعُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطَبَةُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾

﴿وقالوا﴾ أي اليهود ﴿لن تمسنا﴾ أي لن تصيبنا ﴿النار إلا أياماً معدودة﴾ أي قدراً مقدراً ثم يزول عنا العذاب قال ابن عباس: قالت اليهود: مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وإننا نعذب بكل ألف سنة يوماً ثم ينقطع عنا العذاب بعد سبعة أيام وقيل: إنهم عنوا بالأيام الأربعين يوماً التي عبدوا فيها العجل وقيل: إن اليهود زعموا أن الله تعالى عتب عليهم في أمر فأقسم ليعذبهم أربعين يوماً تحلة القسم فقال الله رداً عليهم وتكذيباً لهم ﴿قل﴾ أي يا محمد لليهود ﴿أتخذتم عند الله عهداً﴾ أي موثقاً أن لا يعذبكم إلا هذه المدة ﴿فلن يخلف الله عهداً﴾ أي وعده ﴿أم تقولون على الله ما لا تعلمون بلى﴾ إثبات لما بعد حرف النفي وهو قوله: لن تمسنا النار والمعنى بلى تمسكم النار أبداً ﴿من كسب سيئة﴾ السيئة اسم يتناول جميع المعاصي كبيرة كانت أو صغيرة، والسيئة هنا الشرك في قول ابن عباس ﴿وأحاطت به خطيئته﴾ أي أحذقت به من جميع جوانبه قال ابن عباس: هي الشرك يموت عليه صاحبه وقيل: أحاطت به أي أهلكته خطيئته وأحبطت ثواب طاعته فعلى مذهب أهل السنة يتعين تفسير السيئة والخطيئة في هذه

قرؤوا ما كتبوه فيجدونه مخالفاً لصفته ويكذبونه، قال الله تعالى: ﴿فويل لهم مما كتبت أيديهم﴾، يعني: كتبوه بأنفسهم اختراعاً من تغيير نعته ﷺ، ﴿وويل لهم مما يكسبون﴾: من المآكل، ويقال: من المعاصي.

﴿وقالوا﴾، يعني اليهود ﴿لن تمسنا النار﴾: لن تصيبنا النار، ﴿إلا أياماً معدودة﴾: قدراً مقدراً ثم يزول عنا العذاب، واختلفوا في هذه الأيام، فقال ابن عباس ومجاهد: كانت اليهود يقولون مدة الدنيا سبعة آلاف سنة وإنما نعذب بكل ألف سنة يوماً واحداً ثم ينقطع العذاب بعد سبعة أيام، وقال قتادة وعطاء: يعنون أربعين يوماً التي عبد فيها آباؤهم العجل، وقال الحسن وأبو العالية: قالت اليهود: إن ربنا عتب علينا في أمرنا فأقسم الله ليعذبنا أربعين يوماً فلن تمسنا النار إلا أربعين يوماً تحلة القسم، فقال الله عز وجل تكذيباً لهم، ﴿قل﴾: يا محمد ﴿أتخذتم عند الله﴾ ألف استفهام دخلت على ألف الوصل، ﴿عهداً﴾ موثقاً أن لا يعذبكم إلا هذه المدة، ﴿فلن يخلف الله عهداً﴾، وعده، قال ابن مسعود: عهداً بالتوحيد يدل عليه قوله تعالى: ﴿إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ [مريم: ٨٧]، يعني: قوله لا إله إلا الله، ﴿أم تقولون على الله ما لا تعلمون﴾؟ ثم قال:

﴿بلى﴾، وبلى وبلى: حرفا استدراك، ومعناهما نفي الخبر الماضي وإثبات الخبر المستقبل، ﴿من كسب سيئة﴾، يعني الشرك ﴿وأحاطت به خطيئته﴾، قرأ أهل المدينة ﴿خطيئته﴾ بالجمع، والإحاطة: الإحداق بالشيء ومن جميع نواحيه، قال ابن عباس وعطاء والضحاك وأبو العالية والربيع وجماعة: هي الشرك يموت عليه، وقيل: السيئة الكبيرة والإحاطة به أن يصر عليها فيموت غير تائب، قال عكرمة والربيع بن خيثم، قال الواحدي رحمه الله في تفسيره الوسيط: المؤمنون لا يدخلون في حكم هذه الآية لأن الله تعالى أوعد بالخلود في النار من أحاطت به خطيئته، وتقدمت منه سيئة وهي الشرك، والمؤمن وإن عمل الكبائر لم يوجد منه الشرك، وقال مجاهد: هي الذنوب تحيط بالقلب كلما عمل ذنباً ارتفعت حتى يغشى القلب، وهي الرين، قال الكلبي: أوبقته

الآية، بالكفر والشرك لقوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ فإن الخلود في النار هو للكفار والمشركين.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾. فإن قلت: العمل الصالح خارج عن اسم الإيمان لأنه تعالى قال: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ فلو دل الإيمان على العمل الصالح لكان ذكر العمل الصالح بعد الإيمان تكراراً. قلت: أجب بعضهم بأن الإيمان وإن كان يدخل فيه جميع الأعمال الصالحة إلا أن قوله: آمن لا يفيد إلا أنه فعل فعلاً واحداً من أفعال الإيمان فإذا حسن أن يقول: والذين آمنوا وعملوا الصالحات وقيل: إن قوله آمنوا يفيد الماضي وعملوا الصالحات يفيد المستقبل فكأنه تعالى قال آمنوا أولاً ثم داوموا عليه آخراً ويدخل فيه جميع الأعمال الصالحات ﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ يعني في التوراة. والميثاق العهد الشديد ﴿لا تعبدون إلا الله﴾ أي أمر الله تعالى بعبادته فيدخل تحته النهي عن عبادة غيره لأن الله تعالى هو المستحق للعبادة لا غيره ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أي برّاً بهما ورحمة لهما ونزولاً عند أمرهما فيما لا يخالف أمر الله تعالى ويوصل إليهما ما يحتاجان إليه، ولا يؤذيهما البتة وإن كانا كافرين بل يجب عليه الإحسان إليهما ومن الإحسان إليهما أن يدعوهما إلى الإيمان بالرفق واللين، وكذا إن كانا فاسقين يأمرهما بالمعروف بالرفق، واللين من غير عنف وإنما عطف بر الوالدين على الأمر بعبادته، لأن شكر المنعم واجب، والله على عبده أعظم النعم لأنه هو الذي خلقه وأوجده بعد العدم فيجب تقديم شكره على شكر، غيره ثم إن للوالدين على الولد نعمة عظيمة، لأنهما السبب في كون الولد ووجوده ثم إن لهما عليه حق التربية أيضاً فيجب شكرهما ثانياً ﴿وذِي الْقُرْبَى﴾ أي القرابة لأن حق القرابة تابع لحق الوالدين والإحسان إليهم: إنما هو بواسطة الوالدين فلهذا حسن عطف القرابة على الوالدين ﴿واليتامى﴾ جمع يتيم وهو الذي مات أبوه وهو طفل صغير، فإذا بلغ الحلم زال عنه اليتيم وتجب رعاية حقوق اليتيم لثلاثة أمور: لصغره ويطمه ولخلوه، عمن يقوم بمصلحته إذ لا يقدر هو أن ينتفع بنفسه، ولا يقوم بحوائجه ﴿والمساكين﴾ جمع مسكين وسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى وإنما تأخرت درجة

ذنبه، دليله قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦]، أي: تهلكوا، ﴿فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾: في التوراة والميثاق العهد الشديد، ﴿لا تعبدون إلا الله﴾، قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي «لا يعبدون»، بالياء، والآخرين بالتاء، كقوله تعالى: ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ [البقرة: ٨٣]، معناه أن لا تعبدوا، فلما حذف (أن) صار الفعل مرفوعاً وقرأ أبي بن كعب: «لا تعبدوا»، على النهي، ﴿وبالوالدين﴾، أي: وصيناهم بالوالدين، ﴿إحساناً﴾ برّاً بهما وعطفاً عليهما ونزولاً عند أمرهما فيما لا يخالف أمر الله تعالى، ﴿وذِي الْقُرْبَى﴾، أي: وبذي القرابة، والقربى مصدر كالحسنى، ﴿واليتامى﴾، جمع

المساكين عن اليتامى، لأنه قد يمكن أن يتنفع بنفسه وينفع غيره بالخدمة ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنه خطاب للحاضرين من اليهود في زمن النبي ﷺ فلهذا عدل من الغيبة إلى الحضور، والمعنى قولوا: حقاً وصدقاً في شأن محمد ﷺ فمن سألكم عنه فأصدقوه وبيّنوا صفته ولا تكتموا قاله ابن عباس. الوجه الثاني إن المخاطبين به هم الذين كانوا في زمن موسى عليه السلام، وأخذ عليهم الميثاق وإنما عدل من الغيبة إلى الحضور على طريق الالتفات كقوله: ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم﴾ وقيل: فيه حذف تقديره وقلنا لهم: في الميثاق وقولوا: للناس حسناً ومعناه مروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر وقيل هو اللين في القول والعشرة وحسن الخلق ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ ولما أمرهم الله تعالى بهذه التكاليف الثمانية لتكون لهم المنزلة عنده بما التزموا به أخير عنهم أنهم ما وفوا بذلك بقوله تعالى: ﴿ثم توليتهم﴾ أي أعرضتم عن العهد ﴿إلا قليلاً منكم﴾ يعني من الذين آمنوا كعبد الله بن سلام وأصحابه فإنهم وفوا بالعهد ﴿وأنتم معرضون﴾ أي كإعراض آبائكم. قوله عز وجل: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم﴾ قيل: هو خطاب لمن كان في زمن النبي ﷺ من اليهود وقيل: هو خطاب لآبائهم وفيه تقييد لهم ﴿لا تسفكون﴾ أي لا تريقون ﴿دماءكم﴾ أي لا يسفك بعضكم دم بعض وقيل: معناه لا تسفكوا دماء غيركم فيسفك دماءكم فكانكم أنتم سفكتم دماء أنفسكم ﴿ولا تخرجون أنفسكم من دياركم﴾ أي لا يخرج بعضكم بعضاً من داره، وقيل: لا تفعلوا شيئاً فتخرجوا بسببه من دياركم ﴿ثم أقررتهم﴾ أي بهذا العهد أنه حق ﴿وأنتم تشهدون﴾ يعني أنتم يا معشر اليهود اليوم تشهدون على ذلك.

ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْ دِينِكُمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُم أُسْرَىٰ تَقْتُلُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾

﴿ثم أنتم هؤلاء﴾ يعني يا هؤلاء اليهود ﴿تقتلون أنفسكم﴾ أي يقتل بعضكم بعضاً ﴿وتخرجون فريقاً منكم

يتيم وهو الطفل الذي لا أب له، ﴿والمساكين﴾، يعني: الفقراء، ﴿وقولوا للناس حسناً﴾: صدقاً وحقاً في شأن محمد ﷺ، فمن سألكم عنه فأصدقوه وبيّنوا صفته لا تكتموا أمره، هذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير وابن جريج ومقاتل، وقال سفيان الثوري: مروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر، وقيل: هو اللين في القول والمعاشرة بحسن الخلق، قرأ حمزة والكسائي ويعقوب «حسناً» بفتح الحاء والسين، أي: قولاً حسناً، ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتهم﴾، أعرضتم عن العهد والميثاق، ﴿إلا قليلاً منكم﴾، وذلك أن قوماً منهم آمنوا، ﴿وأنتم معرضون﴾، كإعراض آبائكم.

قوله عز وجل: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون﴾، أي: لا تريقون ﴿دماءكم﴾، أي: لا يسفك بعضكم دم بعض، وقيل: لا تسفكوا دماء غيركم فيسفك دماءكم فكانكم سفكتم دماء أنفسكم، ﴿ولا تخرجون أنفسكم من دياركم﴾: لا يخرج بعضكم بعضاً من داره، وقيل لا تسيثوا جوار من جاوركم فتلجئوهم إلى الخروج بسوء جواركم، ﴿ثم أقررتهم﴾: بهذا العهد أنه حق وقبلتم، ﴿وأنتم تشهدون﴾: اليوم على ذلك يا معشر اليهود وتعترفون بالقبول.

قوله عز وجل: ﴿ثم أنتم هؤلاء﴾، يعني: يا هؤلاء، وهؤلاء للتنبية، ﴿تقتلون أنفسكم﴾، أي: يقتل

من ديارهم ﴿أي يخرج بعضكم بعضاً من ديارهم﴾ تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ﴿أي تتعاونون عليهم بالمعصية والظلم﴾ وإن يأتوكم أسارى ﴿جمع أسير﴾ تفادوهم ﴿أي بالمال وهو استنقاذهم بالشراء، وقرىء تفادوهم أي تبادلوهم وهو مفاداة الأسير بالأسير، ومعنى الآية أن الله تعالى أخذ على بني إسرائيل في التوراة أن لا يقتل بعضهم بعضاً. ولا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم وأيما عبد أو أمة من بني إسرائيل وجدتموه فاشتروه بما قام من ثمنه، وأعتقوه وكانت قريظة حلفاء الأوس والنضير حلفاء الخزرج، وكان بين الأوس والخزرج حروب فكانت بنو النضير تقاتل مع حلفائهم وبنو قريظة تقاتل مع حلفائهم فإذا غلب أحد الفريقين أخرجوهم من ديارهم وخربوها. وكان إذا أسر رجل من الفريقين جمعوا له مالاً يفدونه به فغيرتهم العرب. وقالوا: كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم؟ فقالوا: إنا أمرنا أن نفديهم فقالوا: كيف تقاتلونهم؟ فقالوا: إنا نستحي أن تذلل حلفاؤنا فغيرهم الله تعالى فقال: ﴿ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم﴾ وفي الآية تقديم وتأخير تقديره وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ﴿وهو محرم عليكم إخراجهم﴾ وإن يأتوكم أسارى تفادوهم فكان الله تعالى أخذ عليهم أربعة عهود ترك القتل وترك الإخراج وترك المظاهر مع أعدائهم وفك أسراهم فأعرضوا عن الكل إلا الفداء قال الله عز وجل: ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾ معناه إن وجدتموهم في يد غيركم فديتموهم وأنتم تقتلونهم بأيديكم فكان إيمانهم الفداء وكفرهم قتل بعضهم بعضاً فذمهم على مناقضة أفعالهم لا على الفداء لأنهم أتوا ببعض ما وجب عليهم وتركوا البعض ﴿فما جزاء من يفعل ذلك منكم﴾ يعني يا معشر اليهود ﴿إلا خزي في الحياة الدنيا﴾ أي عذاب وهوان فكان خزي بني قريظة القتل والسبي وخزي بني النضير الإجماع والنفي من منازلهم إلى أريحاء

بعضكم بعضاً، ﴿وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم﴾، بتشديد الظاء، أي تتظاهرون، أدغمت التاء في الظاء، وقرأ عاصم وحزمة والكسائي بتخفيف الظاء فحذفوا تاء التفاعل وأبقوا تاء الخطاب، كقوله تعالى: ﴿ولا تعاونوا﴾ [المائدة: ٢]، معناهما جميعاً تتعاونون، والظهير: العون، ﴿بالإثم والعدوان﴾: بالمعصية والظلم، ﴿وإن يأتوكم أسارى﴾، قرأ حمزة «أسرى»، وهما جمع: أسير، ومعناهما واحد، ﴿تفادوهم﴾: بالمال وتنفذوهم، وقرأ أهل المدينة وعاصم والكسائي ويعقوب تفادوهم، أي: تبادلوهم، أراد مفاداة الأسير بالأسير، وقيل: معنى القراءتين واحد، ومعنى الآية: قال السدي: إن الله تعالى أخذ على بني إسرائيل في التوراة أن لا يقتل بعضهم بعضاً ولا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم، وأيما عبد أو أمة وجدتموه من بني إسرائيل فاشتروه بما قام من ثمنه وأعتقوه، وكانت قريظة حلفاء الأوس والنضير حلفاء الخزرج، وكان يقتلون في حرب سنين، فيقاتل بنو قريظة مع حلفائهم وبنو النضير مع حلفائهم وإذا غلبوا خربوا ديارهم وأخرجوهم منها، وإذا أسر رجل من الفريقين جمعوا له حتى يفدوه وإن كان الأسير من عدوهم، فتغيرهم العرب ويقولون: كيف تقاتلونهم وتفدونهم؟ قالوا: إنا أمرنا أن نفديهم، فيقولون فلم تقاتلوهم؟ قالوا: إنا نستحي أن تذلل حلفاؤنا، فغيرهم الله تعالى، فقال: ﴿ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم﴾ وفي الآية تقديم وتأخير، ونظمها: وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان، ﴿وهو محرم عليكم إخراجهم﴾، وإن يأتوكم أسارى تفادوهم فكان الله تعالى أخذ عليهم أربعة عهود: ترك القتال وترك الإخراج وترك المظاهر عليهم مع أعدائهم وفداء أسرائهم، فأعرضوا عن الكل إلا الفداء، قال الله تعالى: ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾، قال مجاهد يقول: إن وجدته في يد غيرك فديته وأنت تقتله بيدك، ﴿فما جزاء من يفعل ذلك منكم﴾: يا معشر اليهود، ﴿إلا خزي﴾: عذاب وهوان، ﴿في الحياة الدنيا﴾، فكان خزي بني قريظة القتل والسبي، وخزي بني النضير الجلاء والنفي من منازلهم إلى أذرع وأريحاء من الشام، ﴿ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب﴾، وهو عذاب النار، ﴿وما الله بغافل عما

وأذرعنا من أرض الشام ﴿ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب﴾ يعني عذاب النار ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ فيه وعيد وتهديد عظيم .

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

﴿أولئك الذين اشتروا﴾ أي استبدلوا ﴿الحياة الدنيا بالآخرة﴾ لأن الجمع بين لذات الدنيا والآخرة غير ممكن فمن اشتغل بتحصيل لذات الدنيا فاتته لذات الآخرة ﴿فلا يخفف عنهم العذاب﴾ أي فلا يهون عليهم ﴿ولا هم ينصرون﴾ أي ولا يمنعون من عذاب الله تعالى . قوله عز وجل: ﴿ولقد آتينا﴾ أي أعطينا ﴿موسى الكتاب﴾ يعني التوراة جملة واحدة ﴿وقفينا﴾ أي وأتبعنا من التقية وهو أن يقف أثر الآخر ﴿من بعده بالرسول﴾ يعني رسولا بعد رسول وكانت الرسل بعد موسى إلى زمن عيسى عليهم السلام متواترة يظهر بعضهم في أثر بعض ، والشرعة واحدة: قيل إن الرسل بعد موسى يوشع بن نون وأشمويل وداود وسليمان وأرميا وحزقييل وإلياس ويونس وزكريا ويحيى وغيرهم، وكانوا يحكمون بشرية موسى إلى أن بعث الله تعالى عيسى عليه السلام فجاءهم بشرية جديدة، وغير بعض أحكام التوراة فذلك قوله تعالى: ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات﴾ أي الدلالات الواضحات وهي المعجزات من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وقيل هي الإنجيل . واسم عيسى بالسريانية أيشع ومريم بمعنى الخادم وقيل هو اسم علم لها كزيد من الرجال ﴿وأيدناه﴾ أي وقويناه ﴿بروح القدس﴾ قيل: أراد بالروح

تعلمون﴾، قرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر بالياء، والباقون بالناء .

قوله عز وجل: ﴿أولئك الذين اشتروا﴾: استبدلوا ﴿الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف﴾، يهون ﴿عنهم العذاب ولا هم ينصرون﴾، لا يمنعون من عذاب الله عز وجل .

﴿ولقد آتينا﴾: أعطينا ﴿موسى الكتاب﴾: التوراة جملة واحدة، ﴿وقفينا﴾: وأتبعنا، ﴿من بعده بالرسول﴾: رسولا بعد رسول، ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات﴾: الدلالات الواضحات، وهي ما ذكر الله في سورة آل عمران والمائدة، وقيل: أراد الإنجيل، ﴿وأيدناه﴾: قويناه ﴿بروح القدس﴾، قرأ ابن كثير ﴿القدس﴾ بسكون الدال، والآخر بضمها، وهما لغتان مثل: الرعب والرعب، واختلفوا في روح القدس، قال الربيع وغيره: أراد الروح الذي لا نفخ فيه، والقدس هو الله أضافه إلى نفسه تكريماً وتخصيصاً، أي: التي نفخ فيه، نحو بيت الله وناقة الله، كما قال: ﴿ففنخنه فيه من روحنا﴾ [الأنبياء: ٩١، التحريم: ١٢]، ﴿وروح منه﴾ [النساء: ١٧١]، وقيل: أراد بالقدس: الطهارة، يعني: الروح الطاهرة، سمي روحه قدساً لأنه لم تتضمنه أصلاب الفحول ولم تشتمل عليه أرحام الطوامث، إنما كان أمراً من أمر الله تعالى، قال قتادة والسدي والضحاك: روح القدس جبريل عليه السلام، وقيل: وصف جبريل بالقدس أي بالطهارة، لأنه لم يقترب ذنباً، وقال الحسن: القدس هو الله وروحه جبريل، قال الله تعالى: ﴿قل نزله روح القدس من ربك بالحق﴾ [النحل: ١٠٢]، وتأيد عيسى بجبريل عليهما السلام أنه أمر أن يسير معه حيث سار حتى صعد به إلى السماء، وقيل: سمي جبريل عليه السلام روحاً للطفاته ولمكانته من الوحي الذي هو سبب حياة القلوب، وقال ابن عباس وسعيد بن جبير: روح القدس هو

الذي نفخ فيه والقدس هو الله تعالى وأضاف روح عيسى إليه تشريفاً وتكريماً وتخصيصاً له كما تقول عبدالله وأمة الله وبيت الله وناقة الله وقال ابن عباس هو اسم الله الأعظم الذي كان عيسى يحيي به الموتى وقيل هو الإنجيل لأنه حياة القلوب سماه روحاً كما سمي القرآن روحاً وقيل هو جبريل ووصف بالقدس وهو الطهارة لأنه لم يفترق ذنباً قط وقيل القدس هو الله تعالى والروح جبريل كما تقول عبدالله، سمي جبريل روحاً للطافته لأنه روحاني خلق من النور وقيل سمي روحاً لمكانه من الوحي الذي هو سبب حياة القلوب وحمل روح القدس هنا على جبريل أولى لأنه تعالى قال وأيدناه أي قويناه بجبريل وذلك أنه أمر أن يكون مع عيسى ويسير معه حيث سار فلم يفارقه حتى صعد به إلى السماء فلما سمعت اليهود بذكر عيسى قالوا يا محمد لا مثل عيسى كما تزعم عملت ولا كما يقص علينا من أخبار الأنبياء فعلت فأتنا بما أتى به عيسى إن كنت صادقاً قال الله تعالى: ﴿أفكلما جاءكم﴾ يعني يا معشر اليهود ﴿رسول بما لا تهوى﴾ تقبل ﴿أنفسكم استكبرتم﴾ أي تعظمتم عن الإيمان به ﴿ففريقاً كذبتم﴾ يعني مثل عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم ﴿وفريقاً تقتلون﴾ يعني مثل زكريا ويحيى وسائر من قتلوه، وذلك أن اليهود كانوا إذا جاءهم رسول بما لا يهوون كذبوه فإن تهياً لهم قتله قتلوه وإنما كانوا كذلك لإرادتهم الدنيا وطلب الرياسة ﴿وقالوا﴾ يعني اليهود ﴿قلوبنا غلف﴾ جمع أغلف وهو الذي عليه غشاوة فلا يعي ولا يفقه. قال ابن عباس غلف بضم اللام جمع غلاف والمعنى أن قلوبنا أوعية للعلم فلا تحتاج إلى علمك وقيل أوعية من الوعي لا تسمع حديثاً إلا وعته إلا حديثك فإنها لا تعيه ولا تعقله ولو كان خيراً لفهمته ووعته قال الله تعالى: ﴿بل لعنهم الله بكفرهم﴾ أي طردهم وأبعدهم من كل خير. وسبب كفرهم أنهم اعترفوا بنبوة محمد ﷺ ثم إنهم أنكروه وجحدوه فلهذا لعنهم الله تعالى: ﴿فقليلاً ما يؤمنون﴾ أي لم يؤمن منهم إلا قليل لأن من آمن من المشركين كان أكثر منهم. قوله عز وجل:

اسم الله تعالى الأعظم الذي كان يُحيي به الموتى، ويُري الناس العجائب، وقيل: هو الإنجيل جعل له روحاً كما جعل القرآن روحاً لمحمد ﷺ، لأنه سبب لحياة القلوب، وقال الله تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾ [الشورى: ٥٢]، فلما سمعت اليهود ذكر عيسى عليه السلام، فقالوا: يا محمد لا مثل عيسى كما تزعم عملت، ولا كما يُقص علينا من الأنبياء فعلت، فأتنا بما أتى به عيسى إن كنت صادقاً، قال الله تعالى: ﴿أفكلما جاءكم﴾: يا معشر اليهود ﴿رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم﴾: تكبرتم وتعظمتم عن الإيمان، ﴿ففريقاً﴾: طائفة ﴿كذبتم﴾: مثل عيسى ومحمد ﷺ، ﴿وفريقاً تقتلون﴾، أي: أقتلتهم مثل زكريا ويحيى وشعيا، وسائر من قتلوا من الأنبياء عليهم السلام.

﴿وقالوا﴾، يعني اليهود، ﴿قلوبنا غلف﴾، جمع أغلف وهو الذي عليه غشاوة، معناه: عليها غشاوة فلا تسمع ولا تفقه ما يقول، قال مجاهد وقتادة: نظيره قوله تعالى: ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة﴾ [فصلت: ٥]، وقرأ ابن عباس: «غلف» بضم اللام، وهي قراءة الأعرج، وهي جمع غلاف، أي: قلوبنا أوعية لكل علم فلا تحتاج إلى علمك، قاله ابن عباس وعطاء، وقال الكلبي: معناه أوعية لكل علم فهي لا تسمع حديثاً إلا وعته إلا حديثك لا تعقله ولا تعيه، ولو كان فيه خير لوعته وفهمته، قال الله عز وجل: ﴿بل لعنهم الله﴾: طردهم الله وأبعدهم عن كل خير، ﴿بكفرهم قليلاً ما يؤمنون﴾، قال قتادة: معناه لا يؤمن منهم إلا قليل، لأن من آمن من المشركين أكثر ممن آمن من اليهود، أي: فقليلاً يؤمنون، ونصب (قليل) على الحال، وقال معمر: لا يؤمنون إلا بقليل مما في أيديهم ويكفرون بأكثره، أي: فقليل يؤمنون، ونصب (قليلاً) بنزع الخافض، و(ما) صلة على قولهما، وقال الواقدي: معناه لا يؤمنون لا قليلاً ولا كثيراً، كقول الرجل للآخر: ما أقل ما تفعل كذا، أي: لا تفعله أصلاً.

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِشْمَا أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾

﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله﴾ يعني القرآن ﴿مصدق لما معهم﴾ يعني التوراة وهذا التصديق في صحة نبوة محمد ﷺ لأن نبوته وصفته ثابتة في التوراة ﴿وكانوا﴾ يعني اليهود ﴿من قبل﴾ أي من قبل مبعث النبي ﷺ ﴿يستفتحون﴾ أي يستنصرون به ﴿على الذين كفروا﴾ يعني مشركي العرب وذلك أنهم كانوا إذا أحزنهم أمر ودهمهم عدو يقولون: اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد صفته في التوراة فكانوا ينصرون، وكانوا يقولون لأعدائهم من المشركين: قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ﴿فلما جاءهم ما عرفوا﴾ أي الذي عرفوه يعني محمداً ﷺ عرفوا نعتة وصفته وأنه من غير بني إسرائيل ﴿كفروا به﴾ أي جحدوه وأنكروه بغياً وحسداً ﴿فلعنة الله على الكافرين بشما اشتروا به أنفسهم﴾ أي بش شيء اشتروا به أنفسهم حين استبدلوا الباطل بالحق واشتروا بمعنى باعوا والمعنى بش ما باعوا به حظ أنفسهم ﴿أن يكفروا بما أنزل الله﴾ يعني القرآن ﴿بغياً﴾ أي حسداً ﴿أن ينزل الله من فضله﴾ يعني الكتاب والنبوة ﴿على من يشاء من عباده﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿فباؤوا﴾ أي فرجعوا ﴿بغضب على غضب﴾ أي مع غضب قال ابن عباس الغضب الأول بتضييعهم

﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله﴾، يعني: القرآن ﴿مصدق﴾: موافق ﴿لما معهم﴾، يعني: التوراة، ﴿وكانوا﴾ يعني: اليهود، ﴿من قبل﴾، من قبل مبعث محمد ﷺ، ﴿يستفتحون﴾: يستنصرون، ﴿على الذين كفروا﴾: على مشركي العرب، وذلك أنهم كانوا يقولون إذا أحزنهم أمر ودهمهم عدو: اللهم انصرنا عليهم بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد صفته في التوراة، فكانوا ينصرون، وكانوا يقولون لأعدائهم من المشركين: قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وثمود وإرم.

﴿فلما جاءهم ما عرفوا﴾، يعني: محمداً ﷺ من غير بني إسرائيل وعرفوا نعتة وصفته، ﴿كفروا به﴾: بغياً وحسداً، ﴿فلعنة الله على الكافرين﴾.

﴿بشما اشتروا به أنفسهم﴾، بش ونعم فعلان ماضيان وُضعا للمدح والذم، لا يتصرفان تصرف الأفعال، معناه: بش الذي اختاروا لأنفسهم حين استبدلوا الباطل بالحق، وقيل: الاشتراء ههنا بمعنى البيع، والمعنى: بش ما باعوا به حظ أنفسهم، أي: اختاروا الكفر وبذلوا أنفسهم للنار، ﴿أن يكفروا بما أنزل الله﴾، يعني: القرآن، ﴿بغياً﴾، أي: حسداً، وأصل البغي: الفساد، يقال: بغى الجرح إذا فسد، والبغي: الظلم، وأصله الطلب، والباغي طالب الظلم والحاسد يظلم المحسود جهده طلباً لإزالة نعمة الله تعالى عنه، ﴿أن ينزل الله من فضله﴾، أي: النبوة والكتاب، ﴿على من يشاء من عباده﴾: محمد ﷺ، قرأ أهل مكة والبصرة «ينزل» وبابه بالتخفيف، إلا في ﴿سبحان الذي﴾ [الإسراء: ١، يس: ٣٦، الزخرف: ١٣] في موضعين: ﴿وننزل من القرآن﴾ [الإسراء: ٨٢]، ﴿وحتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه﴾ [الإسراء: ٩٣]، قال ابن كثير: يشدهما، وشدد البصريون في [الأنعام: ٣٧] على ﴿أن ينزل آية﴾ زاد يعقوب تشديد بما ينزل في النحل [٢] ووافق حمزة والكسائي في تخفيف ﴿وينزل الغيث﴾ [لقمان: ٣٤] في سورة لقمان وحمعسق [الشورى: ١]، والآخرين يشددون الكل ولم يختلفوا في تشديد

التوراة وتبديلها والثاني بكفرهم بمحمد ﷺ. وقيل الأول بكفرهم بعبسى والإنجيل والثاني بمحمد ﷺ والقرآن. وقيل: الأول بعبادتهم العجل والثاني: بكفرهم بمحمد ﷺ وللکافرين يعني الجاحدين نبوة محمد ﷺ من الناس کلهم عذاب مهين أي يهانون فيه.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَقُولُوا نَزَّلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعَجَلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَيْنَا فِي قُلُوبِهِمُ الْعَجَلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ يَتَسَكَّمُ يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ يعني بالقرآن وقيل: بكل ما أنزل الله ﴿قَالُوا تَقُولُوا نَزَّلَ عَلَيْنَا﴾ يعني التوراة وما أنزل على أنبيائهم ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ أي بما سواه من الكتب وقيل: بما بعده يعني الإنجيل والقرآن ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ يعني القرآن ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ يعني التوراة ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ﴾ إنما أضاف القتل للمخاطبين من اليهود، وإن كان سلفهم قتلوا لأنهم رضوا بفعلهم قيل: إذا عملت المعصية في الأرض فمن كرهها وأنكرها بريء منها، ومن رضى بها كان من أهلها ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي بالتوراة وقد نهيتم فيها عن قتل الأنبياء. قوله عز وجل ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالدلالات الواضحة والمعجزات الباهرة ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعَجَلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد موسى لما ذهب إلى الميقات ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ إنما كرهه تبكيتاً لهم وتأكيذاً للحجة عليهم ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾ أي استجبوا وأطيعوا أي فيما

﴿وما ننزله إلا بقدر﴾ في [الحجر: ٢١]، ﴿فبأوا﴾: رجعوا ﴿بغضب على غضب﴾، أي: مع غضب، قال ابن عباس ومجاهد: الغضب الأول بتضييعهم التوراة وتبديلهم، والثاني بكفرهم بمحمد ﷺ والقرآن، وقال قتادة: الأول بكفرهم بعبسى والإنجيل، والثاني بكفرهم بمحمد ﷺ والقرآن، وقال السدي: الأول بعبادة العجل، والثاني بالكفر بمحمد ﷺ، ﴿وللکافرين﴾: الجاحدين بنبوة محمد ﷺ من الناس کلهم، ﴿عذاب مهين﴾: مخز يهانون فيه.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾، يعني: القرآن، ﴿قَالُوا تَقُولُوا نَزَّلَ عَلَيْنَا﴾، يعني: التوراة، يكفيننا ذلك، ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾، أي: بما سواه من الكتب، كقوله عز وجل: ﴿فَمَنْ ابْتغى وراء ذلك﴾ [المؤمنون: ٧، المعارج: ٣١] أي: سواه، وقال أبو عبيدة: بما بعده، ﴿وهو الحق﴾، يعني القرآن، ﴿مُصَدِّقًا﴾، نُصِبَ على الحال، ﴿لِمَا مَعَهُمْ﴾: من التوراة، ﴿قُلْ﴾: لهم يا محمد ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾، أي: قتلتم، ﴿أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ﴾، و(لِمَ) أصله لَمَّا، فحذفت الألف فرقاً بين الخبر والاستفهام، كقولهم فِيمَ وبِمَ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: بالتوراة، وقد نهيتم فيها عن قتل الأنبياء عليهم السلام.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالدلالات الواضحة والمعجزات الباهرة، ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعَجَلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾، أي: من بعد انطلاقه إلى الجبل، ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾، أي: استجبوا وأطيعوا، سميت الطاعة والإجابة: سمعاً على المجاز، لأنه سبب للطاعة والإجابة، ﴿قَالُوا سَمِعْنَا﴾: قولك،

أمرتم به ﴿قَالُوا سَمِعْنَا﴾ يعني قولك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ يعني أمرك وقيل إنهم لم يقولوا بألسنتهم، ولكن لما سمعوه وتلقوه تلقوه بالعصيان فنسب ذلك إليهم ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعَجَلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي تداخل حبه في قلوبهم والحرص على عبادته كما يتداخل الصبغ في الثوب. وقيل: إن موسى أمر أن يبرد العجل ويذرى في النهر وأمرهم أن يشربوا منه فمن بقي في قلبه شيء من حب العجل، ظهر سحالة الذهب على شاربه ﴿قُلْ بِسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ﴾ أي بأن تعبدوا العجل والمعنى بش الإيْمَان إيمان يأمر بعبادة العجل ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي بزعمكم وذلك أنهم قالوا: نؤمن بما أنزل علينا فكذبهم الله تعالى بذلك في قوله تعالى:

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَنَجْذِثَّهُمْ أَخْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَزَّحٍ مِّنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ﴾ وذلك أن اليهود ادعوا دعاوى باطلة منها قولهم: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً وقولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه فكذبهم الله وألزمهم الحجة فقال: قل يا محمد لليهود إن كانت لكم الدار الآخرة يعني الجنة خالصة لكم دون الناس ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ﴾ أي فاطلبوه واسألوه لأن من علم أن الجنة مأواه وأنها له حن إليها ولا سبيل إلى دخولها إلا بعد الموت فاستعجلوه بالتمني ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي في قولكم ودعواكم، روي ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «لو تمنوا الموت لغص كل إنسان بريقه وما بقي على وجه الأرض يهودي إلا مات» قال الله تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ أي لعلمهم أنهم في دعواهم كاذبون ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني من الأعمال السيئة، وإنما أضاف العمل إلى اليد لأن أكثر جنایات الإنسان تكون من يده

﴿وَعَصَيْنَا﴾: أمرك، وقيل: سمعنا بالأذن، وعصينا بالقلوب، قال أهل المعاني: إنهم لم يقولوا هذا بألسنتهم ولكن لما سمعوه وتلقوه بالعصيان: نُسب ذلك إلى القول اتساعاً. ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعَجَلَ بِكُفْرِهِمْ﴾، أي: حبَّ العجل، أي معناه: أدخل في قلوبهم حبَّ العجل وخالطها، كإشراب اللون لشدة الملازمة، يقال: فلان أشرب اللون إذا اختلط بياضه بالحمرة، وفي القصص: أن موسى أمر أن يبرد العجل بالمبرد، ثم يذره في النهر وأمرهم بالشرب منه، فمن بقي في قلبه شيء من حبَّ العجل ظهرت سحالة الذهب على شاربه، قوله عز وجل: ﴿قُلْ بِسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ﴾: أن تعبدوا العجل من دون الله، أي: بش إيمان يأمر بعبادة العجل، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: بزعمكم وذلك أنهم قالوا: نؤمن بما أنزل علينا، فكذبهم الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، وذلك أن اليهود ادعوا دعاوى باطلة مثل قولهم: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، و﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١١١]، وقولهم: ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ [المائدة: ١٨] فكذبهم الله عز وجل وألزمهم الحجة فقال: قل لهم يا محمد إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله، يعني: الجنة، ﴿خالصة﴾، أي خالصة ﴿من دون الناس فتَمَنَّوْا الْمَوْتَ﴾، أي: فأريدوه أو اسألوه، لأن من علم أن الجنة مأواه حن إليها، ولا سبيل إلى دخولها إلا بعد الموت، فاستعجلوه بالتمني، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: في قولكم، وقيل: فتَمَنَّوْا الْمَوْتَ، أي: ادعوا بالموت على الفرقة الكاذبة، وروى عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «لو تمنوا لغص كل إنسان منهم بريقه وما بقي على وجه الأرض يهودي إلا مات».

﴿والله عليم بالظالمين﴾ فيه تخويف وتهديد لهم، وإنما خصهم بالظلم لأنه أعم من الكفر لأن كل كافر ظالم وليس كل ظالم كافراً فهذا كان أعم وكانوا أولى به ﴿ولتجدنهم﴾ اللام للقسم والنون للتوكيد تقديره والله لتجدنهم يا محمد يعني اليهود ﴿أحرص الناس على حياة﴾ أي حياة متطاولة، والحرص أشد الطلب ﴿ومن الذين أشركوا﴾ قيل هو متصل بما قبله ومعطوف عليه والمعنى وأحرص من الذين أشركوا. فإن قلت: الذين أشركوا قد دخلوا تحت الناس في قوله أحرص الناس فلم أفردهم بالذكر؟ قلت: أفردهم بالذكر لشدة حرصهم وفيه توبيخ عظيم لليهود لأن الذين لا يؤمنون بالمعاد ولا يعرفون إلا الحياة الدنيا لا يستبعد حرصهم عليها، فإذا زاد عليهم في الحرص من له كتاب وهو مقر بالبعث والجزاء كان حقيقاً بالتوبيخ العظيم وقيل: إن الواو واو استئناف تقديره ومن الذين أشركوا أناس ﴿يود أحدهم﴾ وهم المجوس سمووا بذلك لأنهم يقولون: بالنور والظلمة يود أن يتمنى أحدهم ﴿لو يعمر ألف سنة﴾ أي تعمير ألف سنة وإنما خص الألف لأنها نهاية العقود ولأنها تحية المجوس فيما بينهم يقولون: زه هز لإرسال أي عش ألف سنة أو ألف نيروز أو ألف مهرجان فهذه تحيتهم. والمعنى أن اليهود أحرص من المجوس الذين يقولون ذلك ﴿وما هو بمزحزحه﴾ أي بمباعده ﴿من العذاب﴾ أي النار ﴿أن يعمر﴾ أي لو عمر طول عمره لا ينقذه من العذاب ﴿والله بصير بما يعملون﴾ أي لا يخفى عليه خافية من أحوالهم. قوله عز وجل:

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى

لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾

﴿قل من كان عدواً لجبريل﴾ قال ابن عباس سبب نزول هذه الآية أن عبداً لله بن سوريا حبر من أحبار اليهود قال للنبي ﷺ أي ملك يأتيك من السماء؟ قال جبريل قال ذلك عدونا ولو كان ميكائيل لآمنا بك إن جبريل ينزل بالعذاب والشدة والخسف، وإنه عادانا مراراً وأشد ذلك علينا أن الله أنزل على نبينا أن بيت المقدس سيخرب على يد رجل يقال له: بختنصر فلما كان زمنه بعثنا من يقتله فلقه ببابل غلاماً مسكيناً، فأخذه ليقطعه فدفن عنه جبريل

قال الله تعالى: ﴿ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم﴾، لعلمهم أنهم في دعواهم كاذبون، وأراد بما قدمت أيديهم ما قدموه من الأعمال، وأضاف العمل إلى اليد لأن أكثر جنایات الإنسان تكون باليد، فأضيف إلى اليد أعماله، وإن لم يكن لليد فيها عمل، ﴿والله عليم بالظالمين﴾.

﴿ولتجدنهم﴾، اللام لام القسم، والنون تأكيد للقسم، تقديره: والله لتجدنهم يا محمد، يعني: اليهود ﴿أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا﴾، قيل: هو متصل بالأول، أي: وأحرص من الذين أشركوا، وقيل: تم الكلام بقوله: ﴿على حياة﴾، ثم ابتداء ﴿ومن الذين أشركوا﴾، وأراد بالذين أشركوا المجوس، قال أبو العالية والربيع: سمو مشركين لأنهم يقولون بالنور والظلمة. ﴿يود﴾: يريد ويتمنى، ﴿أحدهم لو يعمر ألف سنة﴾، يعني: تعمير ألف سنة، وهي تحية المجوس فيما بينهم، يقولون: عش ألف سنة وكل ألف نيروز ومهرجان، يقول الله تعالى: اليهود أحرص على الحياة من المجوس الذين يقولون ذلك: ﴿وما هو بمزحزحه﴾: مباعده ﴿من العذاب﴾: من النار ﴿أن يعمر﴾، أي: طول عمره لا يبعده من العذاب، و(زحزح) لازم ومتعد، يقال: زحزحته: فزحزحه، وزحزحته: فزحزح، ﴿والله بصير بما يعملون﴾، قرأ يعقوب بالتاء والباقون بالياء.

قوله عز وجل: ﴿قل من كان عدواً لجبريل﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن خبراً من أحبار اليهود، يقال له عبد الله بن سوريا قال للنبي ﷺ: أي ملك يأتيك من السماء؟ قال: جبريل، قال: ذلك عدونا من الملائكة، ولو كان ميكائيل لآمنا بك، إن جبريل ينزل العذاب والقتال والشدة وإنه عادانا مراراً، كان أشد ذلك علينا

وقال: إن كان الله أمره بهلاككم فلن تسلط عليه وإن لم يكن هو فعلى أي حق تقتله فلما كبر ذلك الغلام وقوى غزانا وخرب بيت المقدس، فلهذا نتخذة عدواً فأنزل الله هذه الآية وقيل: قالوا إن الله أمره أن يجعل النبوة فينا فجعلها في غيرنا فاتخذناه عدواً. وقيل إن عمر بن الخطاب كان له أرض بأعلى المدينة وكان ممره إليها على مدارس اليهود فكان يجلس إليهم ويسمع كلامهم فقالوا يوماً ما في أصحاب محمد أحب إلينا منك وإنا لنطمع فيك فقال عمر والله ما آتيكم لحبكم ولا أسألكم، لأنني شاك في ديني وإنما أدخل عليكم لأزداد بصيرة في أمر محمد ﷺ وأرى آثاره في كتابكم فقالوا من صاحب محمد الذي يأتيه من الملائكة قال جبريل قالوا ذلك عدونا يطلع محمداً على سرنا وهو صاحب كل عذاب وخسف وشدة، وإن ميكائيل يجيء بالخصب والسلامة، فقال لهم: تعرفون جبريل وتنكرون محمداً ﷺ؟ قالوا: نعم قال فأخبروني عن منزلة جبريل وميكائيل من الله تعالى قالوا: جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره وميكائيل عدو لجبريل فقال عمر أشهد أن من كان عدواً لأحدهما كان عدواً للآخر. ومن كان عدواً لهما كان عدواً لله ثم رجع عمر إلى النبي ﷺ فوجد جبريل قد سبقه بالوحي فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآيات وقال: لقد وافقك ربك يا عمر، فقال عمر: والله لقد رأيتني بعد ذلك في ديني أصلب من الحجر. والأقرب أن سبب هذه العداوة كون جبريل كان ينزل على النبي ﷺ بالوحي لأن قوله: فإنه نزل على قلبك مشعر بذلك وقوله ﴿فإنه نزل﴾ يعني جبريل نزل بالقرآن كناية عن غير مذكور ﴿على قلبك﴾ يا محمد وإنما خص القلب بالذكر لأنه محل الحفظ ﴿بإذن الله﴾ أي بأمره ﴿مصدقاً﴾ أي موافقاً ﴿لما بين يديه﴾ أي لما قبله من الكتب ﴿وهدى وبشرى للمؤمنين﴾ أي في القرآن هداية للمؤمنين إلى الأعمال الصالحة التي يترتب عليها الثواب وبشرى لهم بثوابها إذا أتوا بها.

أن الله تعالى أنزل على نبيينا: أن بيت المقدس سيخرب على يد رجل يُقال له: بختنصر، وأخبرنا بالحين الذي يخرب فيه، فلما كان وقته بعثنا رجلاً من أقوياء بني إسرائيل في طلبه ليقته، فانطلق حتى لقيه ببابل غلاماً مسكيناً فأخذته ليقته، فدفع عنه جبريل، وكبر بختنصر وقوي وغزانا وخرب بيت المقدس، فلهذا نتخذة عدواً، فأنزل الله هذه الآية، وقال مقاتل: قالت اليهود إن جبريل عدونا لأنه أمر أن يجعل النبوة فينا فجعلها في غيرنا، وقال قتادة وعكرمة والسدي: كان لعمر بن الخطاب رضي الله عنه أرض بأعلى المدينة، وممرها على مدارس اليهود، فكان إذا أتى أرضه يأتهم ويسمع منهم، فقالوا له: ما في أصحاب محمد أحب إلينا منك، إنهم يَمُرُّون بها فيؤذوننا وأنت لا تؤذينا وإنا لنطمع فيك، فقال عمر: والله ما آتيكم لحبكم ولا أسألكم لأنني شاك في ديني وإنما أدخل عليكم لأزداد بصيرة في أمر محمد ﷺ، وأرى آثاره في كتابكم، فقالوا: من صاحب محمد الذي يأتيه من الملائكة؟ قال: جبريل، فقالوا: ذاك عدونا يُطلع محمداً على سرنا، وهو صاحب كل عذاب وخسف وسنة وشدة، وإن ميكائيل إذا جاء، جاء بالخصب والسلام، فقال لهم عمر: تعرفون جبريل وتنكرون محمداً ﷺ؟ قالوا: نعم، قال: فأخبروني عن منزلة جبريل وميكائيل من الله عز وجل، قالوا: جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، وميكائيل عدو لجبريل، قال عمر: فإني أشهد أن من كان عدواً لجبريل فهو عدو لميكائيل، ومن كان عدواً لميكائيل فإنه عدو لجبريل، ومن كان عدواً لهما كان الله عدواً له، ثم رجع عمر إلى رسول الله ﷺ، فوجد جبريل قد سبقه بالوحي فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآيات فقال: «لقد وافقك ربك يا عمر»، فقال عمر: لقد رأيتني بعد ذلك في دين الله أصلب من الحجر، قال الله تعالى: ﴿قل من كان عدواً لجبريل﴾: ﴿فإنه﴾: يعني: جبريل ﴿نزل﴾، يعني: القرآن، كناية عن غير مذكور، ﴿على قلبك﴾: يا محمد ﴿بإذن الله﴾: بأمر الله ﴿مصدقاً﴾: موافقاً ﴿لما بين يديه﴾: لما قبله من الكتب، ﴿وهدى وبشرى للمؤمنين﴾.

مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوْ كَلِمَاتٍ عَلَهُدًا عَاهِدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾

﴿من كان عدوًّا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل﴾ لما بين في الآية الأولى أن من كان عدوًّا لجبريل لأجل، أنه نزل بالقرآن على قلب محمد ﷺ، وجب أن يكون عدوًّا لله. لأن الله تعالى هو الذي نزل على محمد بين في هذه الآية أن كل من كان عدوًّا لأحد هؤلاء، فإنه عدو لجميعهم وبين أن الله عدوه بقوله: ﴿فإن الله عدو للكافرين﴾ فأما عداوتهم لله فإنها لا تضره ولا تؤثر وعداوتهم لهم تؤديهم إلى العذاب الدائم، الذي لا ضرر أعظم منه، وقيل: المراد من عداوتهم لله وعداوتهم لأوليائه وأهل طاعته فهو كقوله «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله» أي يحاربون أولياء الله وأهل طاعته. وقوله وملائكته ورسله، يعني أن من عادى واحداً منهم فقد عادى جميعهم ومن كفر بواحد منهم فقد كفر بجميعهم وجبريل وميكائيل إنما خصهما بالذكر وإن كانا داخلين في جملة الملائكة لبيان شرفهما وفضلهما وعلو منزلتهما وقدم جبريل على ميكائيل لفضله عليه لأن جبريل ينزل بالوحي الذي هو غذاء الأرواح وميكائيل ينزل بالمطر الذي هو سبب غذاء الأبدان، وجبريل وميكائيل اسمان أعجميان.

قوله عز وجل: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾: خصهما بالذكر من جملة الملائكة مع دخولها في قوله: ﴿وملائكته﴾، تفضيلاً وتخصيصاً، كقوله تعالى: ﴿فيهما فاكهة ونخل ورمان﴾ [الرحمن: ٦٨]، خصّ النخل والرمان بالذكر مع دخولهما في ذكر الفاكهة، للتفضيل، والواو فيهما بمعنى «أو»، يعني: مَنْ كَانَ عَدُوًّا لأحد هؤلاء فإنه عدو لكل، لأن الكافر بالواحد كافر بالكل، ﴿فإن الله عدو للكافرين﴾، قال عكرمة: جيروميت وإسراف هي العبد بالسريانية، وآل وإيل هو الله تعالى، ومعناهما: عبد الله وعبد الرحمن، وقرأ ابن كثير «جبريل» بفتح الجيم غير مهموز، بوزن فعيل، قال حسان:

وجبريل رسول الله فينا وروح القدس ليس له كفاء

وقرأ حمزة والكسائي بالهمزة والإشباع وزن (سلسيل)، وقرأ أبو بكر بالاختلاس، وقرأ الآخرون بكسر الجيم غير مهموز، وميكائيل قرأ أبو عمر ويعقوب وحفص «ميكال» بغير همز، قال جرير:

عبدوا الصليب وكذبوا بمحمد ويجبرائيل وكذبوا ميكال

وقال آخر:

ويوم بدر لقيناكم لنا مدد فيه مع نصر جبريل وميكال

وقرأ نافع وأهل المدينة: بالهمزة والاختلاس، بوزن ميكاعل، وقرأ الآخرون: بالهمزة والإشباع بوزن ميكاعل، قال ابن سوريا: ما جئنا بشيء نعرفه، فأنزل الله تعالى:

﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات﴾: واضحات مفضلات بالحلال والحرام والحدود والأحكام، ﴿وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾: الخارجون عن أمر الله عز وجل.

﴿أو كَلِمَاتٍ﴾، واو العطف دخلت عليها ألف الاستفهام، ﴿عاهدوا عهداً﴾، يعني: اليهود عاهدوا: لئن

ومعناهما: عبدالله وعبدالله لأن جبر وميك بالسريانية هو العبد وإيل هو الله ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات﴾ قال ابن عباس: هذا جواب لابن صوريا حيث قال لرسول الله ﷺ يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه وما أنزل عليك من آية بينة فتتبعك بها فأنزل الله هذه الآيات، ومعنى بينات واضحات مفصلات بالحلال والحرام والحدود والأحكام ﴿وما يكفر بها﴾ أي وما يجحد بهذه الآيات ﴿إلا الفاسقون﴾ أي الخارجون عن طاعتنا وما أمروا به ﴿أو كلما عاهدوا عهداً﴾ قال ابن عباس: لما ذكرهم رسول الله ﷺ ما أخذ عليهم من العهود في محمد ﷺ وأن يؤمنوا به قال مالك بن الصيف: والله ما عهد إلينا في محمد عهد فأنزل الله هذه الآية أو كلما استفهام إنكار عاهدوا عهداً هو قولهم: إنه قد أظّل زمان نبي مبعوث وإنه في كتابنا وقيل إنهم عاهدوا الله عهداً كثيرة ثم نقضوها ﴿نبذه﴾ أي طرح العهد ونقضه ﴿فريق منهم﴾ يعني اليهود ﴿بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ يعني كفر فريق منهم بنقض العهد وكفر فريق منهم بالجحد للحق.

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيمَنٌ ﴿١٠٢﴾ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِإِذْنِ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿١٠٣﴾ يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴿١٠٤﴾ وَمَا هُمْ بِصَاحِبِينَ ﴿١٠٥﴾ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٦﴾

﴿ولما جاءهم رسول من عند الله﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿مصدق لما معهم﴾ يعني مصدق بصحة التوراة ونبوة موسى عليه الصلاة والسلام وقيل: إن التوراة بشرت بنبوة محمد ﷺ فلما بعث محمد ﷺ كان مجرد مبعثه مصدقاً للتوراة ﴿نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم﴾ قيل: أراد بالكتاب القرآن. وقيل: التوراة وهو الأقرب لأن النبذ لا يكون إلا بعد التمسك، ولم يتمسكوا بالقرآن. أما نبذهم التوراة فإنهم كانوا يقرؤونها ولا يعملون بها. وقيل: إنهم أدرجوها في الحرير وحلوها بالذهب ولم يعملوا ما فيها ﴿كأنهم لا يعلمون﴾ يعني أنهم

خرج محمداً ﷺ لتؤمنن به، فلما خرج إليهم محمد ﷺ كفروا به، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما ذكرهم رسول الله ﷺ ما أخذ الله عليهم وعهد إليهم في محمد ﷺ أن يؤمنوا به، قال مالك بن الصيف: والله ما عهد إلينا عهداً في محمد، فأنزل الله تعالى هذه الآية، يدلّ عليه قراءة أبي رجاء العطاردي «أو كلما عاهدوا» فجعلهم مفعولين وقال عطاء؛ هي العهود التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين اليهود: أن لا يعاونوا المشركين على قتاله، فنقضوها كفعل بني قريظة والنضير، دليله قوله تعالى: ﴿الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم﴾ [الأنفال: ٥٦]، ﴿نبذه﴾: طرحه ونقضه ﴿فريق﴾: طوائف ﴿منهم﴾: من اليهود، ﴿بل أكثرهم لا يؤمنون﴾.

﴿ولما جاءهم رسول من عند الله﴾، يعني: محمداً ﷺ ﴿مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم﴾، يعني: التوراة، وقيل: القرآن، ﴿كأنهم لا يعلمون﴾، قال الشعبي: كانوا يقرأون التوراة ولا يعملون بها، وقال سفيان بن عيينة: أدرجوها في الحرير والديباغ وحلوها بالذهب والفضة ولم يعملوا بها، فذلك نبذهم.

نبذوا كتاب الله ورفضوه عن علم به ومعرفة، وإنما حملهم على ذلك عداوة النبي ﷺ وهم علماء اليهود الذين كانوا في زمن النبي ﷺ وكتبوا أمره وكان أولئك النفر قليلاً. قوله عز وجل: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾ يعني اليهود نبذوا كتاب الله واتبعوا ما تتلو الشياطين، ومعنى تتلو تقرأ من التلاوة وقيل معناه تفتري وتكذب ﴿على ملك سليمان﴾ وهو قولهم: إن سليمان ملك الناس بالسحر وقيل: على ملك سليمان أي على عهده وزمانه. وقصة ذلك أن الشياطين كتبوا السحر والنيرنجيات على لسان آصف: هذا ما علم آصف بن برخيا سليمان الملك وكتبوه ودفنوه تحت كرسيه وذلك حين نزع الله عنه الملك ولم يشعر بذلك وقيل: إن بني إسرائيل اشتغلوا بتعليم السحر في زمانه فمنعهم سليمان من ذلك وأخذ كتبهم ودفنها تحت سريره، فلما مات استخرجها الشياطين. وقالوا للناس إنما ملككم سليمان بهذا فتعلموه فأما صلحاء بني إسرائيل وعلماءهم فأنكروا ذلك. وقالوا: معاذ الله أن يكون هذا العلم من علم سليمان وأما السفلة منهم. فقالوا: هذا هو علم سليمان وأقبلوا على تعليمه وتركوا كتب أنبيائهم وفشت الملامة لسليمان. فلم تزل هذه حالهم إلى أن بعث الله تعالى محمداً ﷺ وأنزل عليه براءة سليمان عليه السلام فقال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مَلِكِ سُلَيْمَانَ﴾ ﴿وما كفر سليمان﴾ يعني بالسحر ولم يعمل به، وفيه تنزيه سليمان عن السحر، وذلك أن اليهود أنكروا نبوة سليمان، وقالوا: إنما حصل له هذا الملك وسخرت الجن والإنس له بسبب السحر وقيل: إن السحرة من اليهود زعموا أنهم أخذوا السحر عن سليمان فبرأه الله من ذلك، وقيل إن بعض أحبار اليهود قال ألا تعجبون من محمد يزعم أن سليمان كان نبياً وما كان إلا ساحراً

﴿وَاتَّبِعُوا﴾، يعني: اليهود ﴿ما تتلو الشياطين﴾، أي: ما تلت، والعرب تضع المستقبل موضع الماضي، والماضي موضع المستقبل، وقيل: ما كانت تتلو، أي: تقرأ، قال ابن عباس رضي الله عنه: تتبع وتعمل به، وقال عطاء: تحدّث وتتكلّم به، ﴿على ملك سليمان﴾، أي: في ملكه وعهده، وقصة الآية: أن الشياطين كتبوا السحر والنيرنجيات على لسان آصف بن برخيا: هذا ما علم آصف بن برخيا سليمان الملك، ثم دفنوها تحت مصلاه حتى نزع الله الملك عنه، ولم يشعر بذلك سليمان، فلما مات استخرجوها وقالوا: للناس إنما ملكهم سليمان بهذا فتعلموها، فأما علماء بني إسرائيل وصلحاؤهم فقالوا: معاذ الله أن يكون هذا من علم سليمان، وأما السفلة فقالوا: هذا علم سليمان وأقبلوا على تعلّمه، ورفضوا كتب أنبيائهم وفشت الملامة لسليمان، فلم يزل هذا حالهم حتى بعث الله محمداً ﷺ، وأنزل عليه براءة سليمان، هذا قول الكلبي، وقال السدي: كانت الشياطين تصعد إلى السماء، فيستمعون كلام الملائكة فيما يكون في الأرض من موت وغيره، فيأتون الكهنة ويخلطون بما سمعوا في كل كلمة سبعين كذبة ويخبرونهم بها، فاكتتب الناس ذلك وفشا في بني إسرائيل أن الجن تعلّم الغيب، فبعث سليمان في الناس، وجمع تلك الكتب وجعلها في صندوق ودفنه تحت كرسيه، وقال: لا أسمع أحداً يقول إن الشيطان يعلم الغيب إلا ضربت عنقه، فلما مات سليمان وذهب العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان ودفنه الكتب، وخلف من بعدهم خلف تمثّل الشيطان على صورة إنسان فأتى نفراً من بني إسرائيل، فقال: هل أدلكم على كنز لا تاكلونه أبداً قالوا: نعم، قال: فاحفروا تحت الكرسي وذهب معهم فأراهم المكان، وقام ناحية فقالوا: ادن، قال: لا ولكن ههنا فإن لم تجدوه فاقتلوني وذلك أنه لم يكن أحد من الشياطين يدنو من الكرسي إلا احترق، فحفروا وأخرجوا تلك الكتب، قال الشيطان: إن سليمان كان يضبط الجن والإنس والشياطين والطير بهذا، ثم طار الشيطان وفشا في الناس أن سليمان كان ساحراً وأخذ بنو إسرائيل تلك الكتب، فلذلك أكثر ما يوجد السحر في اليهود، فلما جاء محمد ﷺ برأ الله تعالى سليمان من ذلك، وأنزل في عذر سليمان: ﴿وما كفر سليمان﴾: بالسحر وقيل: لم يكن سليمان كافراً يسحر ويعمل به، ﴿ولكن الشياطين كفروا﴾، قرأ ابن عباس رضي الله عنه والكسائي وحمزة

فأنزل الله تعالى: ﴿وما كفر سليمان﴾ يعني أن سليمان كونه نبياً ينافي كونه ساحراً كافراً ثم بين الله تعالى أن الذي برأه منه لاحق بغيره فقال ﴿ولكن الشياطين كفروا﴾ يعني أن الذين اتخذوا السحر لأنفسهم هم الذين كفروا ثم بين سبب كفرهم فقال تعالى: ﴿يعلمون الناس السحر﴾ يعني ما كتب لهم الشياطين من كتب السحر. وقيل: يحتمل أن يكون يعلمون يعني اليهود الذين عنوا بقوله: واتبعوا. وسمي السحر سحراً لخفاء سببه، فلا يفعل إلا في خفية وقيل: معنى السحر الإزالة وصرف الشيء عن وجهه تقول العرب ما سحرك عن كذا أي ما صرفك عنه فكأن الساحر لما رأى الباطل في صورة الحق فقد سحر الشيء عن وجهه أي صرفه هذا أصله من حيث اللغة، وأما حقيقته فقد قيل: إنه عبارة عن التمويه والتخييل، ومذهب أهل السنة أن له وجوداً أو حقيقة والعمل به كفر وذلك إذا اعتقد أن الكواكب هي المؤثرة في قلب الأعيان وروي عن الشافعي أنه قال: السحر يخيل ويمرض وقد يقتل حتى أوجب القصاص على من قتل به وقيل إن السحر يؤثر في قلب الأعيان فيجعل الإنسان على صورة الحمار، والحمار على صورة الكلب وقد يطير الساحر في الهواء، وهذا القول ضعيف عند أهل السنة لأنهم قالوا: إن الله تعالى هو الخالق الفاعل لهذه الأشياء عند عمل الساحر لذلك إلا أن الساحر هو الفاعل لها المؤثر فيها والأصح، أن السحر يخيل ويؤثر في الأبدان بالأمراض والجنون والموت، ويدل على ذلك أن للكلام تأثيراً في الطباع فقد يسمع الإنسان ما يكره فيحرم، وقد مات قوم بكلام سمعوه فالسحر بمنزلة العلل في الأبدان وأما حكمه فإنه من الكبائر التي نهى عنها، ويحرم تعلمه لما روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات قيل

«ولكن»، خفيفة النون، و«الشياطين»، رفع، وقرأ الآخرون «ولكن»، مشددة النون «والشياطين» نصب، وكذلك ﴿ولكن الله قتلهم ولكن الله رمى﴾ [الأنفال: ١٧]، ومعنى لكن نفي الخبر الماضي وإثبات المستقبل، ﴿يَعْلَمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ﴾، قيل معنى السحر: العلم والحدق بالشيء، قال الله تعالى: ﴿وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك﴾ [الزخرف: ٤٩] أي: العالم، والصحيح أن السحر عبارة عن التمويه والتخييل، والسحر وجوده حقيقة عند أهل السنة وعليه أكثر الأمم، ولكن العمل به كفر، حُكي عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال: السحر يُخِيلُ ويُمَرِّضُ وقد يقتل، حتى أوجب القصاص على من قتل به، فهو من عمل الشيطان يتلقاه الساحر منه بتعليمه إياه، فإذا تلقاه منه بتعليمه إياه استعمله في غيره، وقيل: إنه يؤثر في قلب الأعيان فيجعل الآدمي على صورة الحمار، ويجعل الحمار على صورة الكلب، والأصح أن ذلك تخييل، قال الله تعالى: ﴿يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسْمَعُ﴾ [طه: ٦٦]، لكنه يؤثر في الأبدان بالأمراض والجنون، وللکلام تأثير في الطباع والنفوس، وقد يسمع الإنسان ما يكره فيحرم ويغضب، وربما يحرم منه، وقد مات قوم بكلام سمعوه، فهو بمنزلة العوارض والعلل التي تؤثر في الأبدان.

قوله عز وجل: ﴿وما أنزل على الملكين ببابل﴾، أي: ويعلمون الذي أنزل على الملكين، أي: إلهاماً وعلماً، فالإنزال: بمعنى الإلهام والتعليم وقيل: واتبعوا ما أنزل على الملكين، وقرأ ابن عباس والحسن: «الملكين» بكسر اللام، وقال ابن عباس: هما رجلان ساحران كانا ببابل، وقال الحسن: عِلْجان، لأن الملائكة لا يعلمون السحر، وبابل هي بابل العراق، سُميت بابل لتبليبل الألسنة بها عند سقوط صرح نمرود، أي: تفرقها، قال ابن مسعود: بابل أرض الكوفة، وقيل: جبل دماوند، والقراءة المعروفة: ﴿على المَلَكَيْنِ﴾ بالفتح، فإن قيل: كيف يجوز تعليم السحر من الملائكة؟ قيل: له تأويلان، أحدهما: أنهما لا يتعمدان التعليم لكن يصفان السحر، ويذكران بطلانه ويأمران باجتنابه، والتعليم: بمعنى الإعلام، فالشقي يترك نصيحتهما ويتعلم السحر من صنعتهما، والتأويل الثاني هو الأصح: أن الله تعالى امتحن الناس بالملكين في ذلك الوقت، فمن شقي يتعلم السحر منهما

يا رسول الله وما هن؟ قال: الإشراف بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم والزنا والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» أخرجه في الصحيحين. فعد رسول الله ﷺ السحر من الكبائر وثناه بالشرك وأمرنا باجتنابه، وقوله: الموبقات يعني المهلكات والسحر على قسمين: أحدهما، يكفر به صاحبه وهو أن يعتقد أن القدرة لنفسه في ذلك، وهو المؤثر أو يعتقد أن الكواكب هي المؤثرة الفعالة فإذا انتهى به السحر إلى هذه الغاية صار كافراً بالله تعالى، ويجب قتله لما روي عن جندب أن رسول الله ﷺ قال: «حد الساحر ضربه بالسيف» أخرجه الترمذي. والقسم الثاني، من السحر وهو التخييل الذي يشاكل النيرنجيات والشعبذة، ولا يعتقد صاحبه لنفسه فيه قدرة ولا أن الكواكب هي المؤثرة ويعتقد أن القدرة لله تعالى، وأنه هو المؤثر فهذا القدر لا يكفر به صاحبه ولكنه معصية وهو من الكبائر، ويحرم فعله فإن قتل بسحره قتل قصاصاً لما روي عن مالك أنه بلغه أن حفصة زوج النبي ﷺ قتلت جارية لها سحرتها وقد كانت دبرتها، فأمرت بها فقتلت أخرجه في الموطأ. قوله عز وجل: ﴿وما أنزل على الملكين﴾ أي ويعلمون الذي أنزل على الملكين والإنزال هنا بمعنى الإلهام والتعليم أي ما ألهمهما وعلمهما وقرىء في الشاذ الملكين بكسر اللام. قال: هما رجلان ساحران كانا ببابل. وقيل: علجان ووجهه أن الملائكة لا يعلمون السحر والقراءة المشهورة بفتح اللام. فإن قلت: كيف يجوز أن يضاف إلى الله تعالى إنزال ذلك على الملائكة وكيف يجوز للملائكة تعليم السحر؟ قلت: قال ابن جرير الطبري إن الله تعالى عرف عباده جميع ما أمرهم به وجميع ما نهاهم عنه ثم أمرهم ونهاهم بعد العلم منهم بما يؤمرون به وينهون عنه، ولو كان الأمر على غير ذلك لما كان للأمر والنهي معنى مفهوم، والسحر مما نهى عباده من بني آدم عنه فغير منكر أن يكون الله تعالى علمه الملكين اللذين سماهما في تنزيله وجعلهما فتنة لعباده من بني آدم كما أخبر عنهما أنهم يقولان: لمن جاء يتعلم ذلك منهما: إنما نحن فتنة فلا تكفر ليختبر بهما عباده الذين نهاهم عن السحر وعن التفريق بين المرء وزوجه فيتمحض المؤمن بتركه التعليم منهما، ويجري للكافر بتعلمه الكفر والسحر منهما ويكون الملكان في تعليمهما ما علما من ذلك مطيعين لله تعالى إذ كان عن إذن الله تعالى، لهما بتعليم ذلك وغير ضارهما سحر من سحر ممن تعلم ذلك منهما ما بعد نهيهما إياه عنه بقولهما إنما نحن فتنة فلا تكفر، إذ كانا قد أديا ما أمرا به. وقال غيره: إنهما لا يعتمدان ذلك بل يصفان السحر ويذكران بطلانه ويأمران باجتنابه فالشقي من ترك نصحهما، وتعلم السحر من وصفهما، والسعيد من قبل نصحهما وترك تعلم السحر منهما. وقيل: إن الله تعالى امتحن الناس بهما

فيكفر به، ومن سعد بتركه، فيبقى على الإيمان، ويزداد المعلمان بالتعليم عذاباً ففيه ابتلاء للمعلم والمتعلم، والله أن يمتحن عباده بما شاء فله الأمر والحكم، قوله عز وجل: ﴿هاروت وماروت﴾: هما اسمان سريانيان وهما في محل الخفض على تفسير الملكين إلا أنهما نصبا لعجمتهما ومعرفتهما، وكانت قصتهما على ما ذكر ابن عباس والمفسرون: أن الملائكة رأوا ما يصعد إلى السماء من أعمال بني آدم الخبيثة في زمن إدريس عليه السلام، فغيروهم وقالوا هؤلاء الذين جعلتهم في الأرض خليفة واخترتهم، فهم يعصونك فقال الله تعالى: لو أنزلتكم إلى الأرض وركبتم فيكم ما ركبت فيهم لارتكبتم مثل ما ارتكبوا، فقالوا: سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نعصيك، قال الله تعالى: فاختاروا ملكين من خياركم أهبطهما إلى الأرض، فاختاروا هاروت وماروت وكانا من أصلح الملائكة وأعبدهم، وقال الكلبي: قال الله تعالى لهم: اختاروا ثلاثة فاختاروا عزائيل وهو هاروت وعزاي وهو ماروت، غيرا اسمهما لما قارفا الذنب، فركب الله فيهم الشهوة وأهبطهم إلى الأرض وأمرهم أن يحكموا بين الناس بالحق، ونهاهم عن الشرك والقتل بغير الحق والزنا وشرب الخمر، فأما عزائيل فإنه لما وقعت الشهوة في قلبه استقبل ربّه وسأله أن يرفعه إلى السماء فأقاله، فسجد أربعين سنة لم يرفع رأسه ولم يزل بعد مطأطأً رأسه حياة من الله تعالى،

في ذلك الزمان فالشقي من تعلم السحر منهما فيكفر به والسعيد من تركه فيبقى على إيمانه، والله تعالى أن يمتحن عباده بما شاء كما امتحن بني إسرائيل بنهر طالوت بقوله: «فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني» ﴿بيابل﴾ قيل: هي بابل العراق بأرض الكوفة سميت بذلك لتبليبل الألسنة بها عند سقوط صرح نمrod. وقيل: إنها بابل نهاوند والأول أصح وأشهر ﴿هاروت وماروت﴾ اسمان سريانيان. وقصة الآية على ما ذكره ابن عباس وغيره. قالوا: إن الملائكة لما رأوا ما يصعد إلى السماء من أعمال بني آدم الخبيثة في زمن إدريس عليه السلام عيروهم. وقالوا: هؤلاء الذين جعلتهم في الأرض واخترتهم وهم يعصونك فقال الله تعالى: لو أنزلتكم إلى الأرض وركبت فيكم ما ركبت فيهم لركبتهم مثل ما ركبوا قالوا: سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نعصيك قال الله تعالى: فاختاروا ملكين من خياركم أهبطهما إلى الأرض فاختاروا هاروت وماروت، وكانا من أصلح الملائكة وأعبدهم وكان اسم هاروت عزا وماروت عزايا، فغير اسمهما لما قارفا الذنب وركب الله فيهما الشهوة وأهبطهما إلى الأرض وأمرهما أن يحكما بين الناس بالحق ونهاهما عن الشرك، والقتل بغير الحق والزنا وشرب الخمر، فكانا يقضيان بين الناس يومهما فإذا أمسيا ذكرا اسم الله الأعظم وصعدا إلى السماء فما مر عليهما شهر حتى افتتنا. وقيل: بل افتتنا في أول يوم وذلك أنه اختصم إليهما امرأة يقال لها: الزهرة وكانت من أجمل أهل فارس. وقيل: كانت ملكة فلما رآها أخذت بقلوبهما فقال أحدهما لصاحبه هل سقط في نفسك مثل الذي سقط في نفسي. قال: نعم فراوداها عن نفسها فأبت وانصرفت. ثم عادت في اليوم الثاني ففعلا مثل ذلك فأبت وقالت: لا إلا أن تعبدا هذا الصنم وتقتلا النفس وتشربا الخمر فقالا: لا سبيل إلى هذه الأشياء فإن الله تعالى قد نهانا عنها. فانصرفت ثم عادت في اليوم الثالث، ومعها قدح خمر وفي أنفسهما من الميل إليها ما فيها فراوداها عن نفسها فعرضت عليهما ما قالت بالأمس فقالا: الصلاة لغير الله عظيم وقتل النفس عظيم وأهون الثلاثة شرب الخمر فشربا فلما انتشيا وقعا بالمرأة فزنيا بها فرأهما إنسان فقتلاه خوف الفضيحة. وقيل: إنهما سجدا للصنم. وقيل: جاءتهما امرأة من أحسن الناس تخاصم زوجها. فقال: أحدهما للآخر هل سقط في نفسك مثل الذي سقط في نفسي؟ قال: نعم قال لك أن تقضي لها على زوجها فقال له صاحبه أما تعلم ما عند الله من العقوبة والعذاب. فقال له صاحبه: أما تعلم ما عند الله من العفو والرحمة فسألاها نفسها فقالت: لا إلا أن يقضيا لي على زوجي ففضيا. ثم سألاها نفسها فقالت: لا إلا أن تقتلاه فقال أحدهما: لصاحبه أما تعلم ما عند الله من العقوبة والعذاب؟ فقال له صاحبه أما تعلم ما عند الله من

وأما الآخران فإنهما ثبتا على ذلك وكانا يقضيان بين الناس يومهما، فإذا أمسيا ذكرا اسم الله الأعظم وصعدا به إلى السماء، قال قتادة: فما مر عليهما شهر حتى افتتنا، قالوا جميعاً، وذلك أنه اختصم إليهما ذات يوم الزهرة وكانت من أجمل النساء، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: وكانت من أهل فارس، وكانت ملكة في بلدها، فلما رآها أخذت بقلوبهما، فراوداها عن نفسها فأبت وانصرفت، ثم عادت في اليوم الثاني ففعلا مثل ذلك فأبت، وقالت: لا إلا أن تعبدا ما أعبد وتصليا لهذا الصنم، وتقتلا النفس وتشربا الخمر، فقالا: لا سبيل إلى هذه الأشياء فإن الله تعالى قد نهانا عنها، فانصرفت ثم عادت في اليوم الثالث ومعها قدح من خمر وفي أنفسهما من الميل إليها ما فيها، فراوداها عن نفسها فعرضت عليهما ما قالت بالأمس، فقالا: الصلاة لغير الله عظيم وقتل النفس عظيم، وأهون الثلاثة شرب الخمر فشربا الخمر فانتشيا ووقعا بالمرأة، فزنيا فلما فرغا رأهما إنسان فقتلاه، قال الربيع بن أنس: وسجدا للصنم، فمسخ الله الزهرة كوكباً. وقال بعضهم: جاءتهما امرأة من أحسن الناس تخاصم زوجها، فقال أحدهما للآخر: هل سقط في نفسك مثل الذي سقط في نفسي؟ قال: نعم، فقال: وهل لك أن تقضي لها على زوجها؟ فقال له صاحبه: أما تعلم ما عند الله من العقوبة والعذاب؟ فقال له صاحبه: أما تعلم ما عند الله من

العفو والرحمة؟ فقتلاه ثم سألاها نفسها فقالت: لا إلا أن لي صنماً أعبدُه إن أُنْتما صليْتما معي عنده فعلت. فقال أحدهما: لصاحبه مثل القول الأول فرد عليه مثله فصليا معها عنده فمسخت شهاباً. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: قالت لهم لن تدركاني حتى تخبراني بالذي تصعدان به إلى السماء فقالا: اسم الله الأكبر. قالت: فما أُنْتما بمدركي حتى تعلماني إياه فقال أحدهما للآخر: علمها. فقال: إني أخاف الله فقال الآخر فأين رحمة الله فعلمها ذلك فتكلمت به وصعدت إلى السماء فمسخها الله كوكباً، فذهب بعضهم إلى أنها هي الزهرة بعينها وأنكر آخرون ذلك وقالوا: إن الزهرة من الكواكب السيارة السبعة التي أقسم الله بها فقال: ﴿فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس﴾ والتي فتنت هاروت وماروت كانت امرأة تسمى الزهرة لجمالها وحسنها فلما بغت مسخها الله تعالى شهاباً. قالوا: فلما أمسى هاروت وماروت بعد ما قارفا الذنب، هما بالصعود إلى السماء فلم تطاوعهما أجنحتهما، فعلمنا ما حل بهما فقصدا إدريس النبي عليه السلام وأخبراه بأمرهما وسألاه أن يشفع لهما إلى الله عز وجل. وقالوا له: رأينا يصعد لك من العبادة مثل ما يصعد لجميع أهل الأرض فاشفع لنا إلى ربك ففعل ذلك إدريس فخيرهما الله بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة. فاختاروا عذاب الدنيا إذ علما أنه ينقطع، فهما ببابل يعذبان قيل: إنهما معلقان بشعورهما إلى قيام الساعة. وقيل: إنهما منكوسان يضربان بسياط الحديد. وقيل: إن رجلاً قصدهما ليتعلم السحر فوجدهما معلقين بأرجلهما مزرقة عيونهما مسودة جلودهما ليس بين ألسنتهما وبين الماء إلا قدر أربع أصابع وهما يعذبان بالعطش، فلما رأى ذلك هاله فقال: لا إله إلا الله فلما سمعا كلامه قالوا: لا إله إلا الله من أنت؟ قال: رجل من الناس. فقالوا: من أي أمة أنت؟ قال: من أمة محمد ﷺ قالوا: أو قد بعث محمد ﷺ قال: نعم فقال: الحمد لله وأظهر الاستبشار فقال الرجل مم استبشاركما؟ قالوا: إنه نبي الساعة وقد دنا انقضاء عذابنا.

فصل: في القول بعصمة الملائكة:

أجمع المسلمون على أن الملائكة معصومون فضلاً، واتفق أئمة المسلمين على أن حكم الرسل من الملائكة حكم النبيين، سواء في العصمة في باب البلاغ عن الله عز وجل وفي كل شيء ثبتت فيه عصمة الأنبياء فكذلك

العفو والرحمة، فسألاها عن نفسها فقالت: لا إلا أن تقضيا لي على زوجي، فقضيا لها ثم سألاها نفسها، فقالت: لا إلا أن تقتلاه فقال أحدهما: أما تعلم ما عند الله من العقوبة والعذاب؟ فقال له صاحبه: أما تعلم ما عند الله من العفو والرحمة، فقتلاه ثم سألاها نفسها، فقالت: لا إلا أن لنا صنماً نعبدُه إن أُنْتما صليْتما معي عنده فعلت، فقال أحدهما لصاحبه مثل القول الأول، وقال صاحبه مثله، فضلبا معها فمسخت شهاباً. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه والكلبي والسدي: إنها قالت لهما: لن تدركاني حتى تخبراني بالذي تصعدان به إلى السماء فقالا باسم الله الأكبر، قالت: فما أُنْتما بمدركي حتى تعلمانيه، فقال أحدهما لصاحبه: علمها، فقال: إني أخاف الله، قال الآخر فأين رحمة الله تعالى؟ فعلمها ذلك، فتكلمت به وصعدت إلى السماء فمسخها الله كوكباً، وذهب بعضهم إلى أنها هي الزهرة بعينها، وأنكر الآخرون هذا وقالوا: إن الزهرة من الكواكب السيارة السبعة التي أقسم الله بها، فقال: ﴿فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس﴾ [التكوير: ١٥] والتي فتنت هاروت وماروت امرأة كانت تسمى الزهرة لجمالها، فلما بغت مسخها الله تعالى شهاباً، قالوا: فلما أمسى هاروت وماروت بعدما قارفا الذنب هما بالصعود إلى السماء فلم تطاوعهما أجنحتهما، فعلمنا ما حل بهما فقصدا إدريس النبي عليه السلام فأخبراه بأمرهما وسألاه أن يشفع لهما إلى الله عز وجل، قالوا له: إنا رأيناك يصعد لك من العبادات مثل ما يصعد لجميع أهل الأرض فاستشفع لنا إلى ربك، ففعل ذلك إدريس عليه السلام فخيرهما الله بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا إذ

الملائكة وأنهم مع الأنبياء في التبليغ إليهم، كالأنبياء مع أممهم، ثم اختلفوا في غير المرسلين من الملائكة فذهب طائفة من المحققين. وجميع المعتزلة إلى عصمة جميع الملائكة عن جميع الذنوب والمعاصي، واحتجوا على ذلك بوجوه سمعية وعقلية، وذهب طائفة إلى أن غير المرسلين من الملائكة غير معصومين، واحتجوا على ذلك بوجوه سمعية وعقلية منها قصة هاروت وماروت عن علي وما نقله أهل الأخبار والسير. ونقله ابن جرير الطبري في تفسيره عن جماعة من الصحابة والتابعين فنقل قصة هاروت وماروت بالفاظ متقاربة. عن علي بن أبي طالب وابن مسعود وكعب الأحبار والسدي والربيع ومجاهد. وأجاب من ذهب إلى عصمة جميع الملائكة عن قصة هاروت وماروت، بأن ما نقله المفسرون وأهل الأخبار في ذلك لم يصح عن رسول الله ﷺ منه شيء وهذه الأخبار إنما أخذت من اليهود، وقد علم افتراؤهم على الملائكة والأنبياء وقد ذكر الله عز وجل في هذه الآيات، افتراء اليهود على سليمان أولاً، ثم عطف على ذلك قصة هاروت وماروت ثانياً، قالوا: ومعنى الآية وما كفر سليمان يعني بالسحر الذي افتعله عليه الشياطين، واتبعتهم في ذلك اليهود فأخبر عن افترائهم وكذبهم، وذكرنا أيضاً في الجواب عن هذه القصة وأنها باطلة وجوهاً: الأول: إن في القصة أن الله تعالى قال: للملائكة لو ابتليتم بما ابتليت به بنو آدم لعصيتُموني، قالوا: سبحانه ما كان ينبغي لنا أن نعصيك وفيه رد على الله تعالى وذلك كفر وقد ثبت أنهم كانوا معصومين قبل ذلك فلا يقع هذا منهم. الوجه الثاني: أنهما خيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، وذلك فاسد لأن الله تعالى لا يخير من أشرك، وإن كان قد صحت توبتهما فلا عقوبة عليهما. الوجه الثالث أن المرأة لما فجرت فكيف يعقل أنها صعدت إلى السماء وصارت كوكباً وعظم الله قدرها بحيث أقسم بها في قوله: ﴿فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس﴾ فبان بهذه الوجوه ركة هذه القصة، والله أعلم بصحة ذلك وسقمه. والأولى تنزيه الملائكة عن كل ما لا يليق بمنصبهم وقوله تعالى: ﴿وما يعلمان من أحد حتى يقول﴾ يعني وما يعلمان أحداً حتى ينصحاه أولاً ويقولوا ﴿إنما نحن فتنة﴾ أي ابتلاء ومحنة ﴿فلا تكفر﴾ أي لا تتعلم السحر فتعمل به فتكفر، قيل: يقولان إنما نحن فتنة فلا تكفر سبع مرات فإن أبا قبول نصحهما وصمم على التعليم يقولان له: إئت هذا الرماد قبل عليه فإذا فعل ذلك خرج منه نور ساطع في السماء فذلك الإيمان والمعرفة. وينزل شيء أسود مثل

علما أنه ينقطع فهما يبابل يعذبان، واختلفوا في كيفية عذابهما، فقال عبد الله بن مسعود: هما معلقان بشعورهما إلى قيام الساعة، وقال عطاء بن أبي رباح: رؤوسهما مصوبة تحت أجنحتهما، وقال قتادة: كُتِلَا من أقدامهما إلى أصول أفخاذهما، وقال مجاهد: جُعِلَا في جبٍّ ملىء ناراً، وقال عمر بن سعد: منكوسان يُضْرَبَان بسيّاط الحديد، ورُوي أن رجلاً قصد هاروت وماروت لتعلم السحر فوجدهما معلقين بأرجلهما مزرقة أعينهما مسودة جلودهما، ليس بين ألسنتهما وبين الماء إلا أربع أصابع، وهما يعذبان بالعطش، فلما رأى ذلك هاله مكانهما فقال: لا إله إلا الله فلما سمع كلامه قال له: مَنْ أنت؟ قال: رجل من الناس، قالوا: من أي أمة؟ قال: من أمة محمد ﷺ، قالوا: أو قد بُعث محمد ﷺ؟ قال: نعم، قالوا: الحمد لله وأظهر الاستبشار، فقال الرجل: وبِمَ استبشاركما؟ قالوا: إنه نبي الساعة وقد دنا انقضاء عذابنا. ﴿وما يعلمان من أحد﴾، أي: أحداً و﴿من﴾ صلة ﴿حتى﴾: ينصحاه أولاً، ﴿يقولوا إنما نحن فتنة﴾: ابتلاء ومحنة، ﴿فلا تكفر﴾، أي: لا تتعلم السحر فتعمل به فتكفر، وأصل الفتنة: الاختبار والامتحان، من قولهم: فتنة الذهب والفضة، إذا أذبتهما بالنار ليميز الجيد من الرديء، وإنما وُحِدَ الفتنة وهما اثنان لأن الفتنة مصدر، والمصادر لا تُثنى ولا تُجمع، وقيل: إنهما يقولان إنما نحن فتنة فلا تكفر سبع مرات، قال عطاء والسدي: فإن أبا إلا التعلّم قال له: إئت هذا الرماد قبل عليه فيخرج منه نور ساطع في السماء، فذلك نور المعرفة، وينزل شيء أسود شبه الدخان حتى يدخل مسامعه، وذلك غضب الله تعالى، قال مجاهد: إن هاروت

الدخان حتى يدخل مسامعه وذلك غضب الله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾ يعني من الملكين ﴿ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾ أي علم السحر الذي يكون سبباً في التفريق بين الزوجين، كالتمويه والتخييل والنفث في العقد ونحو ذلك مما يحدث الله عنده البغضاء والنشوز، والخلاف بين الزوجين ابتلاء من الله تعالى لا أن السحر له تأثير في نفسه بدليل قوله: ﴿وما هم﴾ يعني السحرة ﴿بضارين به﴾ أي بالسحر ﴿من أحد﴾ أي أحداً ﴿إلا بإذن الله﴾ أي بعلمه وقضائه وتكوينه فالساحر يسحر والله تعالى يقدر ويكون ذلك بقضائه تعالى وقدرته ومشيتته ﴿ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم﴾ يعني السحر لأنهم يقصدون به الشر ﴿ولقد علموا﴾ يعني اليهود ﴿لمن اشتراه﴾ أي اختار السحر ﴿ما له في الآخرة من خلاق﴾ يعني ما له نصيب في الجنة ﴿ولبئس ما شروا به أنفسهم﴾ أي باعوا حط أنفسهم حيث اختاروا السحر والكفر على الدين والحق ﴿لو كانوا يعلمون﴾ فإن قلت: كيف أثبت الله لهم العلم أولاً في قوله: ولقد علموا على التوكيد القسمي ثم نفاه عنهم آخر في قوله لو كانوا يعلمون. قلت: قد علموا أن من اشترى السحر ما له في الآخرة من خلاق ثم مع هذا العلم خالفوا واشتغلوا بالسحر وتركوا العمل بكتاب الله تعالى وما جاءت به الرسل عناداً منهم وبغياً، وذلك على معرفة منهم بما لمن فعل ذلك منهم من العقاب فكأنهم حين لم يعملوا بعلمهم كانوا منسلخين منه.

وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا آنظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾

﴿ولو أنهم﴾ يعني اليهود ﴿آمنوا﴾ بمحمد ﷺ والقرآن ﴿واتقوا﴾ يعني اليهودية والسحر، وما يؤثمهم ﴿لمثوبة من عند الله﴾ أي لكان ثواب الله إياهم ﴿خير﴾ لهم يعني هذا الثواب ﴿لو كانوا يعلمون﴾ يعني ذلك. قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا﴾ سبب نزول هذه الآية: أن المسلمين كانوا يقولون: راعنا يا رسول الله من المراجعة أي ارعنا سمعك وفرغه لكلامنا وكانت هذه اللفظة سبباً قبيحاً، بلغة اليهود ومعناها عندهم

وماروت لا يصل إليهما أحد ويختلف فيما بينهما شيطان في كل مسألة اختلافه واحدة، ﴿فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾، وهو أن يؤخذ كل واحد عن صاحبه ويبغض كل واحد إلى صاحبه قال الله تعالى: ﴿وما هم﴾، قيل: أي السحرة: وقيل: الشياطين، ﴿بضارين به﴾، أي: بالسحر ﴿من أحد﴾، أي: أحداً ﴿إلا بإذن الله﴾، أي: بعلمه وتكوينه، فالساحر يسحر والله يكره، قال سفيان الثوري: معناه إلا بقضائه وقدرته ومشيتته، ﴿ويتعلمون ما يضرهم﴾، يعني: السحر يضرهم، ﴿ولا ينفعهم ولقد علموا﴾: يعني اليهود، ﴿لمن اشتراه﴾: أي اختار السحر، ﴿ما له في الآخرة﴾، أي: في الجنة، ﴿من خلاق﴾، من نصيب ﴿ولبئس ما شروا به﴾: باعوا به ﴿أنفسهم﴾، حظ أنفسهم حيث اختاروا السحر والكفر على الدين والحق، ﴿لو كانوا يعلمون﴾، فإن قيل: أليس قد قال: ﴿ولقد علموا لمن اشتراه﴾ فما معنى قوله تعالى: ﴿لو كانوا يعلمون﴾ بعدما أخبر أنهم علموا؟ قيل: أراد بقوله: ولقد علموا، يعني: الشياطين، وقوله: ﴿لو كانوا يعلمون﴾ يعني: اليهود، وقيل: كلاهما في اليهود ولكنهم لما لم يعملوا بما علموا فكأنهم لم يعملوا.

﴿ولو أنهم آمنوا﴾ بمحمد ﷺ والقرآن، ﴿واتقوا﴾: اليهودية والسحر، ﴿لمثوبة من عند الله خير﴾: لكان ثواب الله إياهم خيراً لهم، ﴿لو كانوا يعلمون﴾.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا﴾، وذلك أن المسلمين كانوا يقولون: راعنا يا رسول الله، من المراجعة، أي: أرعنا سمعك، أي: فرغ سمعك لكل منا، يقال: أرعى الله الشيء وأرعاه، أي: أصغى إليه

اسمع لا سمعت. وقيل: من الرعونة إذا أرادوا أن يحمقوا إنساناً قالوا: راعنا يعني أحقق فلما سمعت اليهود هذه الكلمة من المسلمين قالوا فيما بينهم كنا نسب محمداً سراً فأعلنوا به الآن فكانوا يأتونه ويقولون راعناً يا محمد ويضحكون فيما بينهم فسمعها سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنه ففطن لها وكان يعرف لغتهم فقال لليهود لئن سمعتها من أحد منكم يقولها لرسول الله ﷺ لأضربن عنقه فقالوا: أولستم تقولونها فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ أي لكي لا يجد اليهود بذلك سبيلاً إلى شتم رسول الله ﷺ ﴿وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ أي انظر إلينا. وقيل معناه انتظرنا وتأن بنا وفهمنا ﴿واسمعوا﴾ أي ما تؤمرون به وأطيعوا نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يقولوا لنبيه محمد ﷺ راعنا لئلا يتطرق أحد إلى شتمه وأمرهم بتوقيره وتعظيمه وأن يتخيروا لخطابه ﷺ من الألفاظ أحسنها ومن المعاني أدقها، وإن سألوه بتبجيل وتعظيم ولين لا يخاطبوه بما يسر اليهود ﴿ولللكافرين﴾ يعني اليهود ﴿عذاب أليم﴾ أي مؤلم.

مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾

﴿ما يود﴾ أي ما يحب ﴿الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ يعني اليهود ﴿ولا المشركين﴾ يعني عبدة الأوثان لأن الكفر اسم جنس تحته نوعان أهل الكتاب وهم الذين بدلوا كتابهم وكذبوا الرسل وعبدة الأوثان وهم من عبدوا غير الله ﴿أن ينزل عليكم من خير من ربكم﴾ يعني ما أنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ من الوحي والنبوة، وإنما كرهت اليهود وأتباعهم من المشركين ذلك حسداً وبغياً منهم على المؤمنين، وذلك أن المسلمين قالوا لحلفائهم من اليهود آمنوا بمحمد ﷺ قالوا: ما هذا الذي تدعوننا إليه بخير مما نحن فيه ولوددنا لو كان خيراً فأنزل الله تعالى هذه الآية تكذيباً لهم ﴿والله يختص برحمته من يشاء﴾ يعني أنه تعالى يختص بنبوته ورسالته من يشاء من عباده، ويتفضل بالإيمان والهداية على من أحب من خلقه رحمة منه لهم ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ يعني أن كل خير ناله

واستمعه، وكانت هذه اللفظة سباً قبيحاً بلغة اليهود، وقيل: كان معناها عندهم: اسمع لا سمعت، وقيل: هي من الرعونة كانوا إذا أرادوا أن يحمقوا إنساناً قالوا: راعنا، بمعنى: يا أحقق فلما سمع اليهود هذه اللفظة من المسلمين قالوا فيما بينهم: كنا نسب محمداً سراً فأعلنوا به الآن، فكانوا يأتونه ويقولون: راعنا يا محمد ويضحكون فيما بينهم، فسمعها سعد بن معاذ ففطن لها وكان يعرف لغتهم، فقال لليهود: لئن سمعتها من أحد منكم يقولها للرسول ﷺ لأضربن عنقه، فقالوا: أولستم تقولونها، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ لكيلا يجد اليهود بذلك سبيلاً إلى شتم رسول الله ﷺ، ﴿وَقُولُوا انظُرْنَا﴾، أي: انظر إلينا، وقيل: انتظرنا وتأن بنا، يقال نظرت فلاناً وانتظرت، ومنه قوله تعالى: ﴿انظرونا نقبَسْ من نوركم﴾ [الحديد: ١٣]، قال مجاهد: معناه فهمنا، ﴿واسمعوا﴾: ما تؤمرون به وأطيعوا، ﴿ولللكافرين﴾، يعني: اليهود، ﴿عذاب أليم﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، وذلك أن المسلمين كانوا إذا قالوا لحلفائهم من اليهود: آمنوا بمحمد ﷺ، قالوا: ما هذا الذي تدعوننا إليه بخير مما نحن عليه، ولوددنا لو كان خيراً، فأنزل الله تكذيباً لهم ما يودُّ الذين، أي: ما يجب وما يتمنى الذين كفروا من أهل الكتاب، يعني: اليهود، ﴿ولا المشركين﴾، جره بالنسق على (من). ﴿أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، أي: خير ونبوة، و (من)،

عباده في دينهم ودنياهم، فإنه منه ابتداء وتفضلاً عليهم من غير استحقاق أحد منهم لذلك بل له الفضل والمنة على خلقه. قوله عز وجل: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها﴾ الآية. وسبب نزولها أن المشركين قالوا: إن محمداً يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ويقول: اليوم قولاً ويرجع عنه غداً ما يقول: إلا من تلقاء نفسه كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿إذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر﴾ فأنزل ما ننسخ من آية فبين بهذه الآية وجه الحكمة في النسخ وأنه من عنده لا من عند محمد ﷺ. وأصل النسخ في اللغة يكون بمعنى النقل والتحويل ومنه نسخ الكتاب، وهو أن ينقل من كتاب إلى كتاب آخر كذلك لا يقتضي إزالة الصورة الأولى بل يقتضي إثبات مثله في كتاب آخر، فعلى هذا المعنى يكون القرآن كله منسوخاً، وذلك أنه نسخ من اللوح المحفوظ ونزل جملة واحدة إلى سماء الدنيا، ويكون النسخ بمعنى الرفع والإزالة وهو إزالة شيء بشيء يعقبه كنسخ الشمس الظل، والشيب الشباب فعلى هذا المعنى يكون بعض القرآن منسوخاً وبعضه ناسخاً، وهو المراد من حكم هذه الآية وهو إزالة الحكم بحكم يعقبه.

فصل في حكم النسخ:

هو في اصطلاح العلماء، عبارة عن رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر عنه، والنسخ جائز عقلاً وواقع سمعاً خلافاً لليهود، فإن منهم من ينكره عقلاً لكنه منعه سمعاً، وشذت طائفة قليلة من المسلمين فأنكرت النسخ احتج الجمهور من المسلمين على جواز النسخ، ووقوعه بأن الدلائل قد دلت على نبوة محمد ﷺ ونبوته لا تصح، إلا مع القول، بالنسخ وهو نسخ شرع من قبله فوجب القطع بالنسخ. ولنا على اليهود إلزامات: منها أن الله تعالى حرم عليهم العمل في يوم السبت، ولم يحرمه على من كان قبلهم. ومنها أنه قد جاء في التوراة أن الله تعالى قال لنوح عليه الصلاة والسلام عند خروجه من الفلك: إني جعلت كل دابة مأكولاً لك ولذريتك وأطلقت ذلك لكم. ثم إنه تعالى حرم على موسى عليه الصلاة والسلام وعلى بني إسرائيل كثيراً من الحيوانات. ومنها إن آدم عليه الصلاة والسلام كان يزوج الأخ للأخت وقد حرمه على من بعده وعلى موسى عليه الصلاة والسلام فثبت بهذا جواز النسخ، وحيث ثبت جواز النسخ فقد اختلفوا فيه على وجوه: أحدها أن القرآن نسخ جميع الشرائع والكتب القديمة كالتوراة والإنجيل وغيرهما. الوجه الثاني المراد من النسخ هو نسخ القرآن ونقله من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا الوجه الثالث، وهو الصحيح الذي عليه جمهور العلماء أن المراد من النسخ هو رفع حكم بعض الآيات بدليل

صلة، ﴿والله يختص برحمته﴾: بنبوته، ﴿من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾، والفضل ابتداء إحسان بلا علة، وقيل: المراد بالرحمة الإسلام والهداية، وقيل معنى الآية: إن الله تعالى بعث الأنبياء من ولد إسحق فلما بعث النبي ﷺ من ولد إسماعيل لم يقع ذلك بوّد اليهود ومحبتهم، وأمّا المشركون، فإنما لم يقع بوّدهم لأنه جاء بتفضيهم وعيب آلهتهم، فنزلت الآية فيه.

قوله عز وجل: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها﴾، وذلك أن المشركين قالوا إن محمداً يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه، ويأمرهم بخلاف، ما يقوله إلا من تلقاء نفسه، يقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً، كما أخبر الله: ﴿وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل﴾ [النحل: ١٠١]، قالوا: إنما أنت مفتر وأنزل: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها﴾، فبين وجه الحكمة في النسخ بهذه الآية، والنسخ في اللغة شيثان، أحدهما: بمعنى التحويل والنقل، ومنه نسخ الكتاب وهو أن يحول من كتاب إلى كتاب، فعلى هذا الوجه كل القرآن منسوخ، لأنه نسخ من اللوح المحفوظ، والثاني: يكون بمعنى الرفع، يقال: نسخت الشمس الظل، أي: ذهبت به وأبطلته، فعلى هذا يكون بعض القرآن ناسخاً وبعضه منسوخاً، وهو المراد من الآية، وهذا على وجوه، أحدها: أن يثبت الخط وينسخ

آخر يأتي بعده وهو المراد بقوله تعالى: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾ لأن الآية إذ أطلقت، فالمراد به آيات القرآن لأنه هو المعهود عندنا.

مسألة: قال الشافعي رضي الله عنه الكتاب لا ينسخ بالسنة المتواترة، واستدل بهذه الآية وهو أنه تعالى قال: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾ وذلك يفيد أنه تعالى هو الآتي والمؤتي به هو من جنس القرآن، وما كان من جنس القرآن فهو قرآن. وقوله: نأت بخير منها يفيد أنه هو المنفرد بالآيتين بذلك الخير، وهو القرآن الذي هو كلام الله دون السنة ولأن السنة لا تكون خيراً من القرآن ولا مثله. واحتج الجمهور على جواز نسخ الكتاب بالسنة بأن آية الوصية للأقربين منسوخة بقوله ﷺ: «لا وصية لوارث» أجاب الشافعي رضي الله عنه: بأن هذا ضعيف لأن كون الميراث حقاً للوارث يمنع من صرفه إلى الوصية فثبت أن آية الميراث مانعة من الوصية، وتقرير هذا وبسطه معروف في أصول الفقه. ثم النسخ في القرآن على وجوه: أحدها ما رفع حكمه وتلاوته كما روى عن أبي إمامة بن سهل: أن قوماً من الصحابة قاموا ليلة ليقرأوا سورة فلم يذكروا منها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فغدوا إلى النبي ﷺ فأخبروه فقال رسول الله ﷺ: «تلك السورة رفعت بتلاوتها وحكمها» أخرجه البغوي بغير سند. وقيل: إن سورة الأحزاب كانت مثل سورة البقرة فرفع بعضها تلاوة وحكماً. الوجه الثاني، ما رفع تلاوته وبقي حكمه مثل آية الرجم روي عن ابن عباس قال: قال عمر بن الخطاب وهو جالس على منبر رسول الله ﷺ: إن الله بعث محمداً بالحق، وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها، ووعيناها وعقلناها ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: ما نجد الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، وإن الرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء، إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف. أخرجه مسلم والبخاري نحوه. والوجه الثالث ما رفع حكمه وثبت خطه وتلاوته وهو كثير في القرآن، مثل آية الوصية للأقربين نسخت بآية الميراث عند الشافعي وبالسنة عند غيره وآية عدة الوفاة بالحول، نسخت بآية أربعة أشهر وعشراً وآية القتال وهي قوله: ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين﴾ الآية نسخت بقوله: ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً﴾ الآية ومثل هذا كثير في القرآن. وأما

الحكم، مثل آية الوصية للأقارب، وآية عدة الوفاة بالحول، وآية التخفيف في القتال، وآية الممتحنة، ونحوها. وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ما ننسخ من آية﴾ ما نُثبت خطها ونُبدل حكمها، ومنها: أن يرفع تلاوتها ويبقى حكمها، مثل آية الرجم، ومنها أن يرفع أصلاً عن المصحف وعن القلوب، كما روي عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أن قوماً من الصحابة رضي الله عنهم، قاموا ليلة ليقرأوا سورة فلم يذكروا منها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فغدوا إلى النبي ﷺ، فأخبروه فقال رسول الله ﷺ: «تلك سورة رُفعت بتلاوتها وأحكامها»، وقيل: كانت سورة الأحزاب مثل سورة البقرة فرفع أكثرها تلاوةً وحكماً، ثم من نسخ الحكم ما يُرفع ويقام غيره مقامه، كما أن القبيلة نسخت من بيت المقدس إلى الكعبة، والوصية للأقارب نسخت بالميراث، وعدة الوفاة نسخت من الحول إلى أربعة أشهر وعشر، ومصابرة الواحد العشر في القتال، نسخت بمصابرة الإثنين، ومنها ما يُرفع ولا يُقام غيره مقامه كامتحان النساء، والنسخ إنما يعترض على الأوامر والنواهي دون الأخبار، أما الآية فقوله: ﴿ما ننسخ من آية﴾، قراءة العامة بفتح النون والسين، من النسخ أي: ترفعا، وقرأ ابن عاصم بضم النون وكسر السين، من الإنساخ، له وجهان: أحدهما نجعله في المنسوخ، والثاني: أن نجعله في المنسوخ نسخة لك، يقال: نسخت الكتاب، أي: كتبه، وأنسخته غيري: إذا جعلته نسخة له، أو نسها، أي: نسها عن قلبك، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نتركها لا ننسخها، قال الله تعالى: ﴿نسوا الله فأنسيهم﴾ [التوبة: ٦٧]، أي: تركوه

معنى الآية فقوله: ما ننسخ من آية أي نرفعها أو نرفع حكمها أو ننسها قرىء بضم النون وكسر السين، ومعناها نثبتها على قلبك وقال ابن عباس: نتركها لا ننسخها. وقيل: معناه نأمر بتركها فعلى هذا يكون النسخ الأول رفع الحكم، وإقامة غيره مقامه والإنشاء نسخ من غير إقامة غيره مقامه وقرىء ننسأها بفتح النون والسين وبالهزة ومعناها: نؤخرها فلا ننزلها أو نرفع تلاوتها ونؤخر حكمها كآية الرجم فعلى هذا يكون النسخ الأول بمعنى رفع التلاوة، والحكم قال سعيد بن المسيب وعطاء: ما ننسخ من آية فهو ما نزل من القرآن جعلناه من نسخت الكتاب إذا نقلته إلى كتاب آخر وننسأها أن نؤخرها ونتركها في اللوح المحفوظ فلا ننزلها ﴿نأت بخير منها﴾ أي بما هو أنفع لكم وأسهل عليكم وأكثر لأجوركم وليس معناه أن آية خير من آية لأن كلام الله تعالى كله واحد ﴿أو مثلها﴾ أي في المنفعة والثواب فما نسخ إلى الأيسر كان أسهل في العمل كالذي كان على المؤمنين من فرض قيام الليل، ثم نسخ ذلك فكان خيراً لهم في عاجلهم لسقوط التعب والمشقة عليهم، وما نسخ إلى الأشق كان أكمل في الثواب كالذي كان عليهم من صيام أيام معدودات في السنة فنسخ ذلك، وفرض صيام شهر رمضان فكان صوم شهر كامل في كل سنة أثقل على الأبدان، وأشق من صيام أيام معدودات فكان ثوابه أكمل وأكثر. أما المثل فكأنسخ التوجه إلى بيت المقدس، وصرفه إلى المسجد الحرام واستواء الأجر في ذلك لأن على المصلي التوجه إلى حيث أمره الله تعالى: ﴿ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ أي على النسخ والتبديل، والمعنى ألم تعلم يا محمد أني قادر على تعويضك مما نسخت من أحكامي، وغيرته من فرائضي التي كنت افترضتها عليك ما أشاء مما هو خير لك ولعبادي المؤمنين وأنفع لك ولهم عاجلاً وأجلاً.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾
تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾

﴿ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض﴾ يعني أنه تعالى هو المتصرف في السموات والأرض، وله سلطانهما دون غيره يحكم فيهما وفيما فيهما بما شاء من أمر ونهي ونسخ وتبديل هذا الخبر وإن كان خطاباً

فتركهم، وقيل: ننسها أي نأمر بتركها، يقال: أنسيت الشيء، إذا أمرت بتركه، فيكون النسخ الأول من رفع الحكم وإقامة غيره مقامه، والإنشاء يكون نسخاً من غير إقامة غيره مقامه، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «أونسأها» بفتح النون الأول والسين مهموز، أي نؤخرها فلا نبذلها، يقال نسأ الله في أجله وأنسأ الله أجله، في معناه قولان: أحدهما نرفع تلاوتها ونؤخر حكمها كما فعل في آية الرجم، فعلى هذا يكون النسخ الأول بمعنى رفع التلاوة والحكم، والقول الثاني: قال سعيد بن المسيب وعطاء أما ما نسخ من آية فهو ما قد أتى ونزل من القرآن، جعلناه من النسخة، أو ننسأها أي نؤخرها ونتركها في اللوح المحفوظ فلا تنزل. ﴿نأت بخير منها﴾، أي: بما هو أنفع لكم وأسهل عليكم وأكثر لأجركم، لا أن آية خير من آية، لأن كلام الله واحد وكله خير، ﴿أو مثلها﴾: في المنفعة والثواب، فكل ما نسخ إلى الأيسر فهو أسهل في العمل، وما نسخ إلى الأشق فهو في الثواب أكثر. ﴿ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير﴾: من النسخ والتبديل، لفظه استفهام ومعناه تقرير، أي: إنك تعلم.

﴿ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض وما لكم﴾: يا معشر الكفار عند نزول العذاب، ﴿من دون الله﴾: مما سوى الله ﴿من ولي﴾: قريب وصديق، وقيل: وال، وهو القيم بالأمور، ﴿ولا نصير﴾: ناصر يمنعكم من العذاب.

للنبي ﷺ لكن فيه تكذيب لليهود الذين أنكروا النسخ، وجحدوا نبوة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام فأخبرهم الله أن له ملك السموات والأرض، وأن الخلق كلهم عبيده وتحت تصرفه يحكم فيهم بما يشاء، وعليهم السمع والطاعة ﴿وما لكم﴾ يعني يا معشر الكفار عند نزول العذاب ﴿من دون الله﴾ أي مما سوى الله ﴿من ولي﴾ أي قريب وصديق، وقيل من وال وهو المقيم بالأمور ﴿ولا نصير﴾ أي ناصر يمنعكم من العذاب وقيل في معنى الآية، وليس لكم أيها المؤمنون بعد الله من قيم يأمركم ولا نصير يؤيدكم، ويقويكم على أعدائكم. قوله عز وجل: ﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم﴾ نزلت في اليهود، وذلك أنهم قالوا يا محمد اثنا بكتاب من السماء جملة كما أتى موسى بالتوراة، وقيل: إنهم سألو رسول الله ﷺ فقالوا: لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً كما سئل قوم موسى فقالوا: أرنا الله جهرة فأنزل الله تعالى هذه الآية، والمعنى أتريدون وقيل بل تريدون أن تسألوا رسولكم يعني محمداً ﷺ ﴿كما سئل موسى من قبل﴾ وذلك أن موسى سأله قومه فقالوا: أرنا الله جهرة ففي الآية منعهم ونهيه عن الأسئلة المقترحة بعد ظهور الدلالات والمعجزات وثبوت الحجج والبراهين على صحة نبوة محمد ﷺ. ﴿ومن يتبدل﴾ أي يستبدل ﴿الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل﴾ أي أخطأ قصد الطريق، وقيل: إن قوله ومن يتبدل الكفر بالإيمان خطاب للمؤمنين أعلمهم أن اليهود أهل غش وحسد، وأنهم يتمنون للمؤمنين المكاره فنهاهم الله تعالى أن يقبلوا من اليهود شيئاً ينصحونهم به في الظاهر، وأخبرهم أن من ارتد عن دينه فقد أخطأ قصد السبيل. قوله عز وجل: .

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَّحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾

﴿ود كثير من أهل الكتاب﴾ نزلت هذه الآية في نفر من اليهود، وذلك أنهم قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بعد وقعة أحد: لو كنتم على الحق ما هربتم فارجعوا إلى ديننا فنحن أهدي سبيلاً منكم، فقال عمار بن ياسر. كيف نقض العهد فيكم قالوا شديد قال: إني عاهدت أن لا أكفر بمحمد ﷺ ما عشت قالت اليهود، أما هذا فقد، صباً وقال حذيفة: أما أنا فقد رضيت بالله رباً وبمحمد رسولاً وبالإسلام ديناً وبالقرآن إماماً وبالكعبة قبله

قوله: ﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم﴾، نزلت في اليهود حين قالوا يا محمد اثنا بكتاب من السماء جملة كما أتى موسى بالتوراة، فقال تعالى: ﴿أم تريدون﴾، يعني: أتريدون، فالميم صلة، وقيل: بل تريدون أن تسألوا رسولكم محمداً ﷺ، ﴿كما سئل موسى من قبل﴾، سأله قومه ﴿أرنا الله جهرة﴾ [النساء: ١٥٣] وقيل: إنهم سألو رسول الله ﷺ، فقالوا: لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً، كما أن موسى سأله قومه فقالوا: أرنا الله جهرة، ففيه منعهم عن الأسئلة المقترحة بعد ظهور الدلائل والبراهين. ﴿ومن يتبدل الكفر بالإيمان﴾: يستبدل الكفر بالإيمان ﴿فقد ضل سواء السبيل﴾: أخطأ وسط الطريق، وقيل: قصد السبيل.

قوله تعالى: ﴿ود كثير من أهل الكتاب﴾، الآية نزلت في نفر من اليهود، قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بعد وقعة أحد: لو كنتم على الحق ما هزمت فارجعوا إلى ديننا فنحن أهدي سبيلاً منكم، فقال لهم عمار: كيف نقض العهد فيكم؟ قالوا: شديداً، قال: فإني قد عاهدت أن لا أكفر بمحمد ﷺ ما عشت، فقالت اليهود: أما هذا فقد صبا، وقال حذيفة: أما أنا فقد رضيت بالله تعالى رباً وبمحمد نبياً وبالإسلام ديناً وبالقرآن إماماً وبالكعبة قبله

وبالمؤمنين إخواناً. ثم إنهما أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه بذلك، فقال: أصبتما الخير وأفلحتما فأنزل الله تعالى: ﴿وَدَّ أَيُّ تَمْنَى كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يَنْصُرُوا بِطَاغُوتٍ تُبَدِّلُ الْيَهُودَ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ﴾ أي يا معشر المؤمنين ﴿مِنْ إِيْمَانِكُمْ كَفَاراً﴾ أي ترجعون إلى ما كنتم عليه من الكفر ﴿حَسِداً﴾ أي يحسدونكم حسداً وأصل الحسد تمنى زوال النعمة عمن يستحقها، وربما يكون مع ذلك سعي في إزالتها، والحسد مذموم لما روي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أو قال العشب» أخرجه أبو داود، فإذا أنعم الله على عبده نعمة فتمنى آخر زوالها عنه، فهذا هو الحسد وهو حرام فإن استعان بتلك النعمة على الكفر، والمعاصي فتمنى آخر زوالها عنه فليس بحسد، ولا يحرم ذلك لأنه لم يحسده على تلك النعمة، من حيث إنها نعمة بل من حيث إنه يتوصل بتلك النعمة إلى الشر والفساد وقوله: ﴿مَنْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي من تلقاء أنفسهم لم يأمرهم الله بذلك ﴿مَنْ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ يعني في التوراة أن قول محمد ﷺ ودينه، حق لا يشكون فيه فكفروا به حسداً وبغياً ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ أي فتجاوزوا عما كان منهم من إساءة وحسد وكان هذا الأمر بالعفو، والصفح قبل أن يؤمر بالقتال ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ أي بعذابه وهو القتل والسبي لبني قريظة والإجلاء والنفي لبني النضير قال ابن عباس: هو أمر الله له بقتالهم في قوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيه وعيد وتهديد لهم ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ لما أمر الله المؤمنين بالعفو والصفح عن اليهود أمرهم بما فيه صلاح أنفسهم من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة الواجبتين، ونبه بذلك على سائر الواجبات ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تَقْدُمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ أي من طاعة وعمل صالح، وقيل أراد بالخير المال يعني صدقة التطوع، لأن الزكاة تقدم ذكرها ﴿تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يعني ثوابه وأجره حتى الثمرة واللقمة مثل أحد ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من قليل الأعمال، وكثيرها ففيه ترغيب في الطاعات، وأعمال البر وزجر عن المعاصي. قوله عز وجل:

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

وبالمؤمنين إخواناً، ثم أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «قد أصبتما الخير وأفلحتما»، فأنزل الله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنْ يَمُرُّوا بِالْيَهُودِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ﴾ أي: تمنى وأراد كثير من أهل الكتاب من اليهود: ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُمْ﴾، يا معشر المؤمنين ﴿مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِكُمْ كَفَاراً﴾ أي: يحسدونكم حسداً، ﴿مَنْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ﴾، أي: من تلقاء أنفسهم ولم يأمرهم الله بذلك، ﴿مَنْ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ في التوراة أن قول محمد ﷺ صدق ودينه حق، ﴿فَاعْفُوا﴾: فاتركوا ﴿وَاصْفَحُوا﴾، وتجاوزوا، فالعفو، المحو، والصفح: الإعراض، وكان هذا قبل آية القتال، ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾، بعذابه القتل والسبي لبني قريظة والإجلاء والنفي لبني النضير، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وقال قتادة: هو أمره بقتالهم في قوله: ﴿قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، إلى قوله: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، وقال ابن كيسان: بعلمه وحكمه فيهم، حكم لبعضهم بالإسلام وللبعضهم بالقتل والسبي والجزية، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تَقْدُمُوا﴾: تسلفوا ﴿لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾: طاعة وعمل صالح ﴿تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، وقيل: أراد بالخير المال، كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْراً﴾ [البقرة: ١٨٠]، وأراد: من زكاة أو صدقة تجدوه عند الله حتى الثمرة واللقمة مثل أحد ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

يَحْزَنُونَ ﴿١١٦﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ قَالَ اللَّهُ يُحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٧﴾

﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً﴾ يعني يهودياً، وقيل هو جمع هائد ﴿أو نصارى﴾ وذلك أن اليهود قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً ولا دين إلا دين اليهودية، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً ولا دين إلا دين النصرانية قيل: نزلت في وفد نجران وكانوا نصارى اجتمعوا مع اليهود في مجلس رسول الله ﷺ فكذب بعضهم بعضاً في دعواه قال الله: ﴿تلك أمانيتهم﴾ أي شهواتهم الباطلة التي تمنوها على الله بغير حق ﴿قل﴾ يعني يا محمد ﴿هاتوا برهانكم﴾ أي حجتكم على دعواكم أن الجنة لا يدخلها إلا من كان يهودياً أو نصرانياً دون غيرهم ﴿إن كنتم صادقين﴾ يعني فيما تدعون. ثم قال تعالى رداً عليهم: ﴿بلى﴾ أي ليس الأمر كما تزعمون ولكن ﴿من أسلم وجهه لله وهو محسن﴾ فإنه الذي يدخل الجنة وينعم فيها ومعنى أسلم وجهه لله أخلص في دينه لله، وقيل: أخلص عبادته لله. وقيل خضع وتواضع لله، لأن أصل الإسلام الاستسلام وهو الخضوع، وإنما خص الوجه بالذكر لأنه أشرف الأعضاء، وإذا جاد الإنسان بوضع وجهه على الأرض في السجود فقد جاد بجميع أعضائه، قال عمرو بن نفيل:

وأسلمت وجهي لمن أسلمت له الأرض تحمل صخوراً ثقلاً
وأسلمت وجهي لمن أسلمت له المزن تحمل عذباً زلالاً

يعني بذلك استسلمت لطاعة من استسلم لطاعته الأرض والمزن، وهو محسن أي في عمله لله ﴿فله أجره عند ربه﴾ أي ثواب عمله ﴿ولا خوف عليهم﴾ أي في الآخرة ﴿ولا هم يحزنون﴾ أي على ما فاتهم من الدنيا. قوله عز وجل: ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء﴾، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء ﴿نزلت في يهود المدينة ونصارى نجران، وذلك أن وفد نجران لما قدموا على النبي ﷺ أتاهم أحبار اليهود وتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم فقالت اليهود للنصارى: ما أنتم على شيء من الذين وكفروا بعيسى والإنجيل؛ وقالت النصارى لليهود ما

﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً﴾، أي: يهودياً: قال الفراء: حذف الياء الزائدة ورجع إلى الفعل من اليهودية، وقال الأخفش: اليهود: جمع هائد، مثل عائد وعود وحائل وحول، ﴿أو نصارى﴾، وذلك أن اليهود قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ولا دين إلا دين اليهودية، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً ولا دين إلا دين النصرانية، وقيل: نزلت في وفد نجران وكانوا نصارى، اجتمعوا في مجلس رسول الله ﷺ مع اليهود، فكذب بعضهم بعضاً، قال الله تعالى: ﴿تلك أمانيتهم﴾، أي: شهواتهم الباطلة التي تمنوها على الله بغير الحق، ﴿قل﴾: يا محمد ﴿هاتوا﴾، أصله آتوا، ﴿برهانكم﴾: حجتكم على ما زعمتم، ﴿إن كنتم صادقين﴾، ثم قال رداً عليهم:

﴿بلى من أسلم وجهه﴾، أي: ليس كما قالوا بل الحكم للإسلام، وإنما يدخل الجنة من أسلم وجهه ﴿لله﴾، أي: أخلص دينه لله، وقيل: أخلص عبادته لله، وقيل: خضع وتواضع لله، وأصل الإسلام الاستسلام والخضوع، وخص الوجه لأنه إذا جاد بوجهه في السجود لم يبخل بسائر جوارحه، ﴿وهو محسن﴾: في عمله، وقيل: مؤمن، وقيل: مخلص، ﴿فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

قوله: ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء﴾، نزلت في يهود المدينة ونصارى أهل نجران، وذلك أن

أنتم على شيء من الذين وكفروا بموسى والتوراة فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ يعني وكلا الفريقين يقرؤون الكتاب، وليس في كتابهم هذا الاختلاف فدلّت تلاوتهم الكتاب ومخالفتهم لما فيه على كفرهم وكونهم على الباطل. وقيل: إن الإنجيل الذي تدين بصحته النصارى يحقق ما في التوراة من نبوة موسى وما فرض الله فيها على بني إسرائيل من الفرائض، وإن التوراة التي تدين بصحتها اليهود تحقق نبوة عيسى وما جاء به من عند ربه من الأحكام ثم كلا الفريقين، قالوا: ما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾ وقالت النصارى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ ﴿مَعَ عِلْمِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ بِيُطْلَانِ مَا قَالَهُ﴾: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني مشركي العرب قالوا في نبيهم محمد ﷺ وأصحابه إنهم ليسوا على شيء ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ يعني مثل قول اليهود للنصارى والنصارى لليهود. وقيل: أمم كانت قبل اليهود والنصارى مثل قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب. قالوا في أنبيائهم: ليسوا على شيء ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ﴾ أي يقضي ﴿بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يعني بين المحق والمبطل ﴿فِيمَا كَانُوا يَخْتَلِفُونَ﴾ يعني من أمر الدين قوله عز وجل: .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَافِيَةً لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَٰؤُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِيعُ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ نزلت في خراب بيت المقدس وذلك أن ططوس الرومي غزا بني إسرائيل فقتل مقاتلتهم، وسبى ذراريهم وحرقت التوراة وخرّب بيت المقدس فلم يزل خراباً حتى بناه المسلمون في زمن عمر بن الخطاب فأنزل الله تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي ومن أكفر وأبغى ممن منع مساجد الله، يعني بيت المقدس ومحاربه أن يذكر فيها اسمه أي يعبد ويصلي له فيها ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ وقيل: أن يختنصر

وفد نجران لما قَدِموا على النبي ﷺ أتاهاهم أحبار اليهود فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم، فقالت لهم اليهود: ما أنتم على شيء من الدين، وكفروا بعيسى والإنجيل، وقالت لهم النصارى: ما أنتم على شيء من الدين، وكفروا بموسى والتوراة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾، وكلا الفريقين يقرؤون الكتاب، وقيل: معناه ليس في كتبهم هذا الاختلاف، فدلّت تلاوتهم الكتاب ومخالفتهم ما فيه على كونهم على الباطل، ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، يعني: آباءهم الذين مضوا، ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾، قال مجاهد: يعني عوامّ النصارى، وقال مقاتل: يعني مشركي العرب، كذلك قالوا في نبيهم محمد ﷺ وأصحابه: أنهم ليسوا على شيء من الدين، وقال عطاء: أمم كانت قبل اليهود والنصارى، مثل قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام، قالوا لنبيهم: إنه ليس على شيء، ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: يقضي بين المحق والمبطل، ﴿فِيمَا كَانُوا يَخْتَلِفُونَ﴾: من الدين.

قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ﴾، الآية نزلت في ططوس بن أسيسبانوس الرومي وأصحابه، وذلك أنهم غزوا بني إسرائيل فقتلوا مقاتلتهم وسبوا ذراريهم وحرقت التوراة وخرّبوا بيت المقدس، وقذفوا فيه الجيف وذبحوا فيه الخنازير، فكان خراباً إلى أن بناه المسلمون في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال قتادة والسدي: هو يختنصر وأصحابه غزوا اليهود وخرّبوا بيت المقدس، وأعانهم على ذلك النصارى ططوس

المجوسي من أهل بابل هو الذي غزا بني إسرائيل وخرب بيت المقدس وأعانه على ذلك النصارى من أجل اليهود، قتلوا يحيى بن زكريا ﴿أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين﴾ وذلك أن بيت المقدس موضع حج النصارى وزيارتهم قال ابن عباس: لم يدخلها بعد عمارتها رومي أو نصراني إلا خائفاً إن علم به قتل وقيل أخيفوا بالجزية والقتل فالجزية على الذمي، والقتل على الحربي وقيل: خوفهم هو فتح مدائنهم الثلاث قسطنطينية ورومية وعمورية ﴿لهم في الدنيا خزي﴾ يعني الصغار والذل والقتل والسبي ﴿ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ يعني النار. وقيل: إن الآية نزلت في مشركي مكة وأراد بالمساجد المسجد الحرام وذلك أنهم منعوا رسول الله ﷺ وأصحابه أن يصلوا فيه في ابتداء الإسلام، ومنعهم من حجه والصلاة فيه عام الحديبية، وإذا منعوا من يعمره بذكر الله تعالى وصلواته فيه فقد سعوا في خرابه أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين يعني مشركي مكة يقول الله تعالى: أفتتحها عليكم أيها المسلمون حتى تدخلوها وتكونوا أولى بها منهم ففتحها عليهم وأمر النبي ﷺ أن ينادى بالموسم لما نزلت سورة براءة: ألا لا يحجن البيت بعد هذا العام مشرك فكان هذا خوفهم وثبت في الشرع أن لا يمكن مشرك من دخول الحرم. فإن قلت كيف قيل مساجد الله وإنما وقع المنع والتخريب على مسجد واحد وهو إما بيت المقدس أو المسجد الحرام؟ قلت يجوز أن يجيء الحكم عاماً وإن كان السبب خاصاً كما تقول لمن آذى صالحاً واحداً ومن أظلم ممن آذى الصالحين. فإن قلت أي القولين أرجح؟ قلت رجع الطبري القول الأول وقال إن النصارى هم الذين سعوا في خراب بيت المقدس بدليل أن مشركي مكة لم يسعوا في خراب المسجد الحرام، وإن كانوا قد منعوا رسول الله ﷺ في بعض الأوقات من الصلاة فيه، وأيضاً فإن الآية التي قبل هذه والتي بعدها في ذم أهل الكتاب، ولم يجر لمشركي مكة ذكر ولا للمسجد الحرام فتعين أن يكون المراد بهذه بيت المقدس، ورجح غيره القول الثاني بدليل أن النصارى يعظمون بيت المقدس أكثر من اليهود فكيف يسعون في خرابه وهو موضع حجهم. وذكر ابن العربي في أحكام القرآن قولاً ثالثاً، وهو أنه كل مسجد قال وهو الصحيح لأن اللفظ عام ورد بصيغة الجمع فتخصيصه ببعض المساجد أو ببعض الأزمنة محال. قوله عز وجل: ﴿والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ سبب نزول هذه الآية قال ابن عباس: خرج نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في سفر قبل تحويل القبلة إلى الكعبة فأصابهم الضباب وحضرت الصلاة، فتحروا القبلة وصلوا فلما ذهب الضباب استبان لهم أنهم لم يصبوا، فلما قدموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك فنزلت هذه الآية. وعن عامر بن ربيعة عن أبيه، قال: كنا مع

الرومي وأصحابه من أهل الروم، قال السدي: من أجل أنهم قتلوا يحيى بن زكريا، وقال قتادة: حملهم بعض اليهود على معاونة بختنصر البابلي المجوسي، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: أكفر ﴿مَنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ يعني: بيت المقدس ومحاربه أن يذكر ﴿فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين﴾، وذلك أن بيت المقدس موضع حج النصارى ومحل زيارتهم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يدخلها يعني بيت المقدس بعد عمارتها رومي إلا خائفاً لو علم به قتل، وقال قتادة ومقاتل: لا يدخل بيت المقدس أحد من النصارى إلا مستنكراً لو قدر عليه لعوقب، قال سيدي: أخيفوا بالجزية، وقيل: هذا خبر بمعنى الأمر، أي: أجهضوهم بالجهاد حتى لا يدخلها أحد منهم إلا خائفاً من القتل والسبي، أي: ما ينبغي لهم، ﴿لهم في الدنيا خزي﴾: عذاب وهوان، قال قتادة: هو القتل للحربي والجزية للذمي، قال مقاتل والكلبي: تفتح مدائنهم الثلاثة قسطنطينية ورومية وعمورية، ﴿ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾، وهو النار، وقال عطاء وعبد الرحمن بن زيد: نزلت في مشركي مكة، وأراد بالمساجد المسجد الحرام منعوا رسول الله ﷺ وأصحابه من حجه والصلاة فيه عام الحديبية، وإذا منعوا رسول الله ﷺ من أن يعمره بذكر الله فقد سعوا في خرابها، أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين، يعني: أهل مكة، يقول أفتتحها عليكم حتى تدخلوها وتكونوا أولى بها منهم، ففتحها عليهم وأمر النبي ﷺ

رسول الله ﷺ في سفر في ليلة مظلمة فلم ندر أين القبلة فصلى كل رجل منا على حياله فلما أصبحنا ذكرنا ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ أخرجه الترمذي. وقال حديث غريب. وقال ابن عمر نزلت في المسافر يصلي التطوع حيثما توجهت به راحلته (ق) عن ابن عمر قال: «إن رسول الله ﷺ كان يسبح على ظهر راحلته حيث كان وجهه يومئذ» وكان ابن عمر يفعلوه وفي رواية لمسلم «كان النبي ﷺ يصلي على دابته وهو مقبل من مكة إلى المدينة حيثما توجهت وفيه نزلت ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ الآية. وقيل: نزلت في تحويل القبلة إلى الكعبة وذلك أن اليهود عيرت المؤمنين وقالوا: ليس لهم قبلة معلومة فتارة يستقبلون هكذا وتارة يستقبلون هكذا فأنزل الله هذه الآية. وقيل: إنها نزلت في تخيير النبي ﷺ وأصحابه ليصلوا حيث شاؤوا من النواحي ثم إنها نسخت بقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ومعنى الآية إن الله المشرق والمغرب وما بينهما خلقاً وملكاً، وإنما خص المشرق والمغرب اكتفاء عن جميع الجهات لأن له كلها وما بينهما خلقه وعبيده، وإن على جميعهم طاعته فيما أمرهم به ونهاهم عنه فما أمرهم باستقباله فهو القبلة فإن القبلة ليست قبلة لذاتها بل لأن الله تعالى جعلها قبلة، وأمر بالتوجه إليها ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ أي فهناك قبلة الله التي وجهكم إليها، وقيل معناه فتم وجه الله تعالى بعلمه وقدرته. والوجه صفة ثابتة لله تعالى لا من حيث الصورة. وقيل: فتم رضا الله أي يريدون بالتوجه إليه رضا ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ﴾ من السعة وهو الغني أي يسع خلقه كلهم بالكفاية، والإفضال والجود والتدبير. وقيل واسع المغفرة ﴿عَلِيمٌ﴾ أي بأعمالكم ونياتكم حيثما تصلوا، وتدعوا لا يغيب عنه منها شيء.

مسألة تتعلق بحكم الآية:

وهي أن المسافر إذا كان في مفازة أو بلاد الشرك، واشتبهت عليه القبلة فإنه يجتهد في طلبها بنوع من الدلائل ويصلي إلى الجهة التي أدى إليها اجتهاده ولا إعادة عليه وإن لم يصادف القبلة فإن جهة الاجتهاد قبلته، وكذا

منادياً ينادي ألا لا يحجن بعد هذا العام مشرك، فهذا خوفهم، وثبت في الشرع أن لا يمكن مشرك من دخول الحرم، لهم في الدنيا خزي الذل والهوان والقتل والسبي والنفي.

قوله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: خرج نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في سفر قبل تحويل القبلة إلى الكعبة، فأصابهم الضباب وحضرت الصلاة فتحروا القبلة وصلوا، فلما ذهب الضباب استبان لهم أنهم لم يصيبوا، فلما قدموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فنزلت عليه هذه الآية، وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: نزلت في المسافر يصلي التطوع حيث ما توجهت به راحلته، أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي أنا زاهر بن أحمد الفقيه السرخسي، أنا أبو إسحق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: كان رسول الله ﷺ يصلي على راحلته في السفر حيث ما توجهت به، وقال عكرمة: نزلت في تحويل القبلة، قال أبو العالية: صرفت القبلة إلى الكعبة وعيرت اليهود المؤمنين وقالوا: ليست لهم قبلة فتارة يستقبلون هكذا وتارة هكذا. فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقال مجاهد والحسن: لما نزلت ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، قالوا: أين ندعوه فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١١٥]، ملكاً وخلقاً ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] يعني: أينما تحولوا وجوهكم فتم، أي: هناك وجه الله، قال الكلبي: فتم الله يعلم ويرى ﴿وَجْهَ﴾ صلة كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] أي: إلا هو، وقال الحسن ومجاهد وقتادة ومقاتل بن حيان: فتم قبلة الله، والوجه والوجهة والجهة: القبلة، وقيل: رضا الله

الغريق في البحر إذا بقي على اللوح فإنه يصلي على حسب حاله، وتصح صلاته وكذلك المشدود على جذع بحيث لا يمكنه الاستقبال. قوله عز وجل:

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانُونَ ﴿١١٦﴾

﴿وقالوا اتخذ الله ولدا﴾ نزلت في يهود المدينة حيث قالوا: عزيز ابن الله، وفي نصارى نجران حيث قالوا المسيح ابن الله وفي مشركي العرب حيث قالوا الملائكة بنات الله ﴿سبحانه﴾ أي تنزيهاً لله فنزه الله نفسه عن اتخاذ الولد وعن قولهم: وافترائهم عليه (خ) عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: قال الله عز وجل: «كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي فزعم إني لا أقدر أن أعيده كما كان وأما شتمه إياي، فقلوه لي ولد فسبحاني أن اتخذ صاحبة أو ولداً» ﴿بل له في السموات والأرض﴾ يعني عبداً ومملوكاً فكيف ينسب إليه الولد وهو داخل فيهما. وقيل: إن الولد لا بد وأن يكون من جنس الوالد والله تعالى منزّه عن الشبيه والنظير. وقيل: إن الولد إنما يتخذ للحاجة إليه والانتفاع به عند عجز الوالد وكبره، والله تعالى منزّه عن ذلك كله وإضافة الولد إليه محال ﴿كل له قانتون﴾ يعني أن أهل السموات والأرض مطيعون لله ومقرون له بالعبودية، وأصل القنوت لزوم الطاعة مع الخضوع. وقيل: أصله: القيام ومنه قوله ﷺ: «أفضل الصلاة طول القنوت» فعلى هذا يكون معنى الآية كل له قائمون بالشهادة ومقرون له بالوحدانية. وقيل: قانتون أي مذللون مسخرون لما خلقوا له. واختلف العلماء في حكم الآية فقال بعضهم: هو خاص ثم سلخوا في تخصيصه طريقتين. أحدهما: قالوا هو راجع إلى عزيز والمسيح والملائكة. الثاني: قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو راجع إلى أهل طاعته دون سائر الكفار وذهب جماعة إلى أن حكم الآية عام لأن لفظة كل تقتضي الشمول والإحاطة ثم سلخوا في الكفار طريقتين. أحدهما أن ظلّاهم تسجد لله وتطيعه. والثاني أن هذه الطاعة تكون في يوم القيامة. ومن ذهب إلى تخصيص حكم

تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ﴾، أي: غنيّ يعطي من السّعة، قال الفراء: الواسع: الجود الذي يسع عطاؤه كل شيء، قال الكلبي: واسع المغفرة، ﴿عليم﴾ بنيتهم حيث ما صلوا ودعوا.

قوله تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الله ولداً﴾، قرأ ابن عامر ﴿قالوا﴾، بلا واو، وقرأ الآخرون ﴿وقالوا اتخذ الله ولداً﴾ نزلت في يهود المدينة حيث قالوا عزيز ابن الله وفي نصارى نجران حيث قالوا: المسيح ابن الله، وفي مشركي العرب حيث قالوا: الملائكة بنات الله، ﴿سبحانه﴾، نزه وعظم نفسه، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو اليمان، أنا شعيب عن عبد الرحمن بن أبي حسن نافع بن جبير: عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقلوه لي ولد، فسبحاني أن اتخذ صاحبة أو ولداً»، قوله تعالى: ﴿بل له ما في السموات والأرض﴾: عبداً ومملوكاً، ﴿كل له قانتون﴾، قال مجاهد وعطاء والسدي مطيعون، وقال عكرمة ومقاتل: مقرون له بالعبودية، وقال ابن كيسان: قائمون بالشهادة، وأصل القنوت القيام، قال النبي ﷺ: «أفضل الصلاة طول القنوت». واختلفوا في حكم الآية، فذهب جماعة إلى أن حكم الآية خاص، وقال مقاتل: هو راجع إلى عزيز والمسيح والملائكة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: هو راجع إلى أهل طاعته دون سائر الناس، وذهب جماعة إلى أن حكم الآية عام في جميع الخلق، لأن لفظ كل يقتضي الإحاطة بالشيء بحيث لا يشذ منه شيء، ثم سلخوا في الكفار طريقتين، فقال مجاهد: يسجد ظلّاهم لله على كره منهم، قال الله تعالى: ﴿وظلالهم بالغدو والاصال﴾ [الرعد: ١٥]،

الآية أجاب عن لفظة كل بأنها لا تقتضي الشمول والإحاطة بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَوْتَيْتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ولم تؤت ملك سليمان فدل على أن لفظة كل لا تقتضي ذلك. قوله عز وجل:

بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

﴿بديع السموات والأرض﴾ أي خالقها ومبدعها ومنشئها على غير مثال سبق. وقيل: البديع الذي يبدع الأشياء أي يحدثها مما لم يكن ﴿وإذا قضى أمراً﴾ أي قدره وأراد خلقه. وقيل: إذا أحكم أمراً وحتمه وأتقنه. وأصل القضاء الحكم والفراغ والقضاء في اللغة على وجوه كلها ترجع إلى انقطاع الشيء وتماحه والفراغ منه ﴿فإنما يقول له كن فيكون﴾ أي إذا أحكم أمراً وحتمه فإنما يقول له فيكون ذلك الأمر على ما أراد الله تعالى وجوده. فإن قلت المعدوم لا يخاطب فكيف قال فإنما يقول له كن فيكون. قلت: إن الله تعالى عالم بكل ما هو كائن قبل تكوينه وإذا كان كذلك كانت الأشياء التي لم تكن كأنها كائنة لعلمه بها فجاز أن يقول لها: كوني ويأمرها بالخروج من حال العدم إلى حال الوجود وقيل اللام في قوله: ﴿له﴾ لام أجل فيكون المعنى إذا قضى أمراً، فإنما يقول: لأجل تكوينه وإرادته له كن فيكون فعلى هذا يذهب معنى الخطاب. قوله عز وجل: ﴿وقال الذين لا يعلمون﴾ قال ابن عباس هم اليهود الذين كانوا في زمن رسول الله ﷺ وقيل: هم النصارى وقيل: هم مشركو العرب ﴿لولا﴾ أي

وقال السدي: هذا يوم القيامة، دليله: ﴿وعنت الوجوه للحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١]، وقيل: قانتون مذللون مسخرون لما خلقوا له.

قوله عز وجل: ﴿بديع السموات والأرض﴾، أي: مبدعها ومنشئها من غير مثال سبق، ﴿وإذا قضى أمراً﴾، أي: قدره، وقيل: أحكمه وأتقنه، وأصل القضاء: الفراغ، ومنه قيل لمن مات: قضى عليه لفراغه من الدنيا، ومنه قضاء الله وقدره، لأنه فرغ منه تقديراً أو تدبيراً، ﴿فإنما يقول له كن فيكون﴾، قرأ ابن عامر ﴿كن فيكون﴾ بنصب النون في جميع المواضع إلا في الآية ﴿كن فيكون﴾، الحق من ربك ﴿[آل عمران: ٥٩ و٦٠] وفي الآية ﴿كن فيكون﴾، قوله الحق ﴿[الأنعام: ٧٣]، وإنما نصبها لأن جواب الأمر بالفاء يكون منصوباً، وقرأ الأخوان بالرفع على معنى: فهو يكون، فإن قيل: كيف قال: ﴿فإنما يقول له كن فيكون﴾ والمعدوم لا يُخاطب؟ قيل: قال ابن الأنباري معناه: فإنما يقول له، أي: لأجل تكوينه، فعلى هذا ذهب معنى الخطاب، وقيل: هو وإن كان معدوماً ولكنه لما قدر وجوده وهو كائن لا محالة كان كالموجود، فصَحَّ الخطاب.

قوله عز وجل: ﴿وقال الذين لا يعلمون﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: اليهود، وقال مجاهد: النصارى، وقال قتادة: مشركو العرب، ﴿لولا﴾: هلاً ﴿يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾: عياناً بأنك رسوله، وكل ما في القرآن ﴿لولا﴾ فهو بمعنى هلاً إلا واحداً وهو قوله ﴿فلولا أنه كان من المسبحين﴾ [الصفافات: ١٤٣]، معناه فلولا لم يكن، ﴿أو تأتينا آية﴾: دلالة علامة على صدقك، قال الله تعالى: ﴿وكذلك قال الذين من قبلهم﴾، أي: كفار الأمم الخالية، ﴿مثل قولهم تشابهت قلوبهم﴾، أي: أشبه بعضهم بعضاً في الكفر والقسوة وطلب المحال، ﴿قد بينا الآيات لقوم يوقنون﴾.

﴿إنا أرسلناك بالحق﴾، أي: بالصدق، كقوله: ﴿ويستنبئونك أحق هو قل أي وربي إنه لحق﴾

هلا ﴿يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ أي عياناً بأنك رسوله ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةً﴾ أي دلالة وعلامة على صدقك ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي كفار الأمم الخالية ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ وذلك أن اليهود سألوا موسى أن يريهم الله جهرة، وأن يسمعهم كلام الله. وسألوه من الآيات ما ليس لهم مسألته فأخبر الله عن الذين كانوا في زمن رسول الله ﷺ أنهم قالوا: مثل ما قال من كان قبلهم ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني أن المكذبين للرسول تشابهت أقوالهم وأفعالهم. وقيل تشابهت في الكفر والقسوة والتكذيب وطلب المحال ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ﴾ أي الدلالات على نبوة محمد ﷺ ﴿لِقَوْمٍ يَوقِنُونَ﴾ يعني أن آيات القرآن وما جاء به محمد ﷺ من المعجزات الباهرات كافية لمن كان طالباً لليقين، وإنما خص أهل الإيقان بالذكر لأنهم هم أهل الثبوت في الأمور ومعرفة الأشياء على يقين. قوله عز وجل: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالصدق وقال ابن عباس: بالقرآن وقيل: بالإسلام وقيل: معناه إنا لم نرسلك عبثاً، بل أرسلناك بالحق ﴿بَشِيرًا﴾ أي مبشراً لأوليائنا، وأهل طاعتي بالثواب العظيم ﴿وَنَذِيرًا﴾ أي منذراً ومخوفاً لأعدائي وأهل معصيتي بالعذاب الأليم ﴿وَلَا تُسْأَلُ﴾ قرىء بفتح التاء على النهي قال ابن عباس: وذلك أن النبي ﷺ قال ذات يوم: «ليت شعري ما فعل أبواي» فنزلت هذه الآية، والمعنى إنا أرسلناك لتبليغ ما أرسلت به ولا تسأل عن أصحاب الجحيم. وقرىء ولا تسأل بضم التاء ورفع اللام على الخبر. وقيل: على النفي والمعنى إنا أرسلناك بالحق لتبليغ ما أرسلت به، فإنما عليك البلاغ ولست مسؤولاً عما كفر ﴿عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ أي عن أهل النار، سميت النار جحيماً لشدة تأججها. وقيل: الجحيم معظم النار. قوله عز وجل: .

وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتِيتَهُمْ بِغَيْرِ مِلَّةٍ كَمَا أَتَىٰكَ الْبُحَارَىٰ بِغَيْرِ مِلَّةٍ ۚ وَكَذَلِكَ يَتْلُونَ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۚ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ۚ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾

﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾ وذلك أنهم كانوا يسألون النبي ﷺ الهدنة ويطمعون أنه إن أمهلهم اتبعوه فأنزل الله هذه الآية والمعنى إنك وإن هادنتهم فلا يرجون بها وإنما يطلبون ذلك تعللاً ولا يرجون منك إلا باتباع ملتهم. وقال ابن عباس: هذا في أمر القبلة وذلك أن يهود المدينة ونصارى نجران كانوا

[يونس: ٥٣] أي: صدق، قال ابن عباس رضي الله عنهما: بالقرآن دليله: ﴿بل كذبوا بالحق لما جاءهم﴾ [ق: ٥]، وقال ابن كيسان: بالإسلام وشرائعه، دليله: قوله عز وجل: ﴿وقل جاء الحق﴾ [الإسراء: ٨١]، سبأ: ٤٩]، وقال مقاتل: معناه لم نرسلك عبثاً إنما أرسلناك بالحق، كما قال: ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ [الحجر: ٨٥]، قوله عز وجل: ﴿بَشِيرًا﴾، أي: مبشراً لأوليائنا وأهل طاعتي بالثواب الكريم، ﴿وَنَذِيرًا﴾، أي: منذراً مخوفاً لأعدائي وأهل معصيتي بالعذاب الأليم، قرأ نافع ويعقوب: «وَلَا تُسْأَلُ»: على النهي، قال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: وذلك أن النبي ﷺ قال ذات يوم: «ليت شعري ما فعل أبواي»، فنزلت هذه الآية، وقيل: هو على معنى قولهم لا تسأل عن شر فلان فإنه فوق ما تحسب، وليس على النهي، وقرأ الآخرون ﴿وَلَا تُسْأَلُ﴾ بالرفع، على النفي بمعنى: ولست بمسؤول عنهم، كما قال الله تعالى: ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ [الرعد: ٤٠]، ﴿عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾، والجحيم معظم النار.

قوله عز وجل: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾، وذلك أنهم يسألون النبي ﷺ الهدنة ويطمعون أنه إن أمهلهم اتبعوه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، معناه أنك وإن هادنتهم فلا يرجون بها، وإنما يطلبون ذلك تعللاً ولا يرضون منك إلا باتباع ملتهم، وقال ابن عباس رضي الله

يرجون النبي ﷺ، حين كان يصلي إلى بيت المقدس، فلما صرف الله القبلة إلى الكعبة أيسوا منه أن يوافقهم على دينهم فأنزل الله تعالى: ﴿ولن ترضى عنك اليهود﴾ يعني إلا باليهودية، ﴿ولا النصارى﴾ يعني إلا بالنصرانية وهذا شيء لا يتصور إذ لا يجتمع في رجل واحد شيان في وقت واحد وهو قوله: ﴿حتى تتبع ملتهم﴾ يعني دينهم وطريقتهم ﴿قل﴾ أي يا محمد ﴿إن هدى الله﴾ يعني دين الله الذي هو الإسلام ﴿هو الهدى﴾ أي يصح أن يسمى هدى ﴿ولئن اتبعت﴾ يا محمد ﴿أهواءهم﴾ يعني أهواء اليهود والنصارى، فيما يرضيهم عنك وقيل: أهواءهم أقوالهم التي هي أهواء وبدع ﴿بعد الذي جاءك من العلم﴾ أي البيان لأن دين الله هو الإسلام وأن القبلة هي قبلة إبراهيم عليه السلام وهي الكعبة ﴿ما لك من الله من ولي﴾ يعني يلي أمرك ويقوم بك ﴿ولا نصير﴾ أي ينصرك ويمنعك من عقابه وقيل: في قوله ولئن اتبعت أهواءهم أنه خطاب للنبي ﷺ والمراد به أمته، والمعنى إياكم أخاطب ولكم أؤدب وأنهى فقد علمتم أن محمداً ﷺ قد جاءكم بالحق والصدق وقد عصيته فلا تتبعوا أنتم أهواء الكافرين. ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءكم من العلم والبيانات ما لكم من الله من ولي ولا نصير. قوله عز وجل: ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ قال ابن عباس: نزلت في أهل السفينة الذين قدموا مع جعفر بن أبي طالب وكانوا أربعين رجلاً اثنان وثلاثون رجلاً من الحبشة وثمانية من رهبان الشام منهم بحيرا الرهب، وقيل: هم مؤمنو أهل الكتاب مثل عبدالله بن سلام وأصحابه. وقيل: هم أصحاب رسول الله ﷺ خاصة وقيل: هم مؤمنون عامة ﴿يتلون حق تلاوته﴾ أي يقرؤونه كما أنزل لا يغيرونه ولا يحرفونه ولا يبدلون ما فيه من نعت رسول الله ﷺ. وقيل: معناه يتبعونه حق اتباعه فيحلون حلاله ويحرمون حرامه ويعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه ويقفون عنده ويكلمون علمه إلى الله تعالى. وقيل: معناه تدبروه حق تدبره وتفكروا في معانيه وحقائقه وأسراره ﴿أولئك﴾ يعني الذين يتلون حق تلاوته ﴿يؤمنون به﴾ أي يصدقون به. فإن قلنا: إن الآية في أهل الكتاب فيكون المعنى إن المؤمن بالتوراة الذي يتلوها حق تلاوتها هو المؤمن بمحمد ﷺ لأن في التوراة نعت وصفته. وإن قلنا: إنها نزلت في المؤمنين عامة فظاهر ﴿ومن يكفر به﴾ أي يجحد ما فيه من فرائض الله ونبوة محمد ﷺ ﴿فأولئك هم الخاسرون﴾ أي خسروا أنفسهم حيث استبدلوا الكفر بالإيمان. قوله عز وجل: .

عنهما: هذا في القبلة، وذلك أن يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون النبي ﷺ حين كان يصلي إلى قبلتهم، فلما صرف الله القبلة إلى الكعبة أيسوا منه أن يوافقهم على دينهم، فأنزل الله تعالى: ﴿ولن ترضى عنك اليهود﴾، ﴿ولا النصارى﴾، ﴿ولا باليهودية﴾، ﴿ولا النصرانية﴾، والملة الطريقة، ﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾، قيل الخطاب مع النبي ﷺ والمراد به الأمة كقوله: ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ [الزمر: ٢٥]، ﴿بعد الذي جاءك من العلم﴾: البيان بأن دين الله هو الإسلام والقبلة قبلة إبراهيم عليه السلام وهي الكعبة، ﴿ما لك من الله من ولي ولا نصير﴾. ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في أهل السفينة قدموا مع جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وكانوا أربعين رجلاً اثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من رهبان الشام منهم بحيرا، وقال الضحاك: هم ممن آمن من اليهود عبد الله بن سلام وشعبة بن عمرو وتمام بن يهودا وأسد وأسيد ابنا كعب وابن يامين وعبد الله بن سوريا، وقال قتادة وعكرمة: هم أصحاب محمد ﷺ، وقيل: هم المؤمنون عامة، ﴿يتلون حق تلاوته﴾، قال الكلبي: يصفونه في كتبهم حق صفته لمن سألهم من الناس، والهاء راجعة إلى محمد ﷺ، وقال الآخرون: هي عائدة إلى الكتاب، واختلفوا في معناه فقال ابن مسعود رضي الله عنه: يقرؤونه كما أنزل ولا يحرفونه، ويحلون حلاله ويحرمون حرامه، وقال الحسن: يعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه ويكلمون علم ما أشكل عليهم إلى عالمه، وقال مجاهد: يتبعونه حق اتباعه، قوله: ﴿أولئك يؤمنون به﴾. ﴿ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون﴾.

يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾

﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ أي أيادي لديكم وصنعي بكم واستنقادي إياكم من أيدي عدوكم في نعم كثيرة أنعمت بها عليكم ﴿وأنني فضلتكم على العالمين﴾ أي واذكروا تفضيلي إياكم على عالمي زمانكم، وفي هذه الآية عظة لليهود الذي كانوا في زمن رسول الله ﷺ وكررها في أول السورة وهنا للتوكيد وتذكير النعم ﴿واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً﴾ وفي هذه الآية ترهيب لهم والمعنى يا معشر بني إسرائيل المبدلين كتابي المحرفين له، خافوا عذاب يوم لا تجزي فيه نفس عن نفس شيئاً ﴿ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة﴾ أي لا يقبل منها فدية ولا يشفع لها شافع وهذا من العام الذي يراد به الخاص كقوله تعالى ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ ومعنى الآية ولا تنفعها شفاعة إذا وجب عليها العذاب ولم تستحق سواه. وقيل: إنه رد على اليهود في قولهم إن آبائنا يشفعون لنا ﴿ولا هم ينصرون﴾ أي ولا ناصر لهم ينصرهم من الله إذا انتقم منهم قوله عز وجل: ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن﴾ إبراهيم اسم أعجمي ومعناه أب رحيم وهو إبراهيم بن تارخ وهو آزر بن ناخور بن شاروع بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام، وكان مولد إبراهيم بالسوس من أرض الأهواز وقيل: ببابل وقيل بكوثي وهي قرية من سواد الكوفة. وقيل: بحران ولكن أباه نقله إلى أرض بابل وهي أرض نمرود الجبار. وإبراهيم عليه السلام تعترف بفضلته جميع الطوائف قديماً، وحديثاً فأما اليهود والنصارى فإنهم مقرون بفضلته ويتشرفون بالنسبة إليه وأنهم من أولاده وأما العرب في الجاهلية فإنهم أيضاً يعترفون بفضلته ويتشرفون على غيرهم به لأنهم من أولاده، ومن ساكني حرمة وخدام بيته، ولما جاء الإسلام زاده الله شرفاً وفضلاً فحكى الله تعالى عن إبراهيم أموراً توجب على المشركين والنصارى واليهود قبول قول محمد ﷺ، والاعتراف بدينه والانقياد لشرعه لأن ما أوجبه الله على إبراهيم عليه السلام هو من خصائص دين محمد ﷺ وفي ذلك حجة على اليهود والنصارى ومشركي العرب في وجوب الانقياد لمحمد ﷺ والإيمان به وتصديقه. وأصل الابتلاء الامتحان والاختبار ليعرف حال الإنسان وسمي التكليف بلاء لأنه يشق على الأبدان. وقيل: ليختبر به حال الإنسان فإذا قيل: ابتلى فلان بكذا يتضمن أمرين: أحدهما تعرف حاله والوقوف على ما يجهل من أمره. والثاني ظهور جودته وردائه وابتلاء الله العباد ليس ليعلم أحوالهم، والوقوف على ما يجهل منها

﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأنني فضلتكم على العالمين﴾.

﴿واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون﴾.

﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن﴾، قرأ ابن عامر: إبراهيم بالألف في بعض المواضع، وهو ثلاثة وثلاثون موضعاً، جملة تسعة وتسعون موضعاً، وهو اسم أعجمي ولذلك لا يجري عليه الصرف، وهو إبراهيم بن تارخ هو آزر بن ناخور، وكان مولده بالسوس من أرض الأهواز، وقيل: ببابل، وقيل: كوئي، وقيل: كسكر، وقيل: حران، ولكن أباه نقله إلى أرض بابل بأرض نمرود بن كنعان، ومعنى الابتلاء: الاختبار والامتحان والأمر، وابتلاء الله العباد ليس ليعلم أحوالهم بالابتلاء لأنه عالم بهم، ولكن ليعلم العباد أحوالهم حتى يعرف بعضهم بعضاً، واختلفوا في الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم، فقال عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: هي ثلاثون

لأنه عالم بجميع المعلومات التي لا نهاية لها على سبيل التفصيل من الأزل إلى الأبد. ولكن ليعلم العباد أحوالهم من ظهور جودة ورداءة وعلى هذا ينزل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾. واختلفوا في تلك الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم عليه السلام قال ابن عباس: هي ثلاثون سمان شرائع الإسلام لم يبتل بها أحد فأقامها كلها إلا إبراهيم فكتب الله له البراءة فقال: ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ ومعنى هذا الكلام إنه لم يبتل أحد قبل إبراهيم فأما بعده فقد أتى الأنبياء بجميع ما أمروا به من الدين خصوصاً نبينا محمد ﷺ فقد أتى بجميع ما أمر به، وهي عشرة مذكورة في سورة براءة في قوله: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ الآية وعشرة في سورة الأحزاب في قوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ الآية وعشرة في سورة المؤمنون في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ الآيات وهي مذكورة أيضاً في سورة سأل سائل. وعن ابن عباس أيضاً قال: ابتلاه الله بعشرة أشياء هن الفطرة خمس في الرأس قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس وخمس في الجسد تقليم الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة والختان والاستنجاء بالماء (ق). عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الفطرة خمس، وفي رواية خمس من الفطرة الختان والاستحداد وقص الشارب وتقليم الأظفار ونتف الإبط» (م) عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «عشر من الفطرة قص الشارب وإعفاء اللحية والسواك والاستنشاق بالماء وقص الأظفار وغسل البراجم ونتف الإبط وحلق العانة وانتقاص الماء». يعني الاستنجاء قال مصعب: ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة. قال وكيع: انتقاص الماء يعني الاستنجاء قال العلماء: الفطرة السنة. وقيل: الملة وقيل: الطريقة وهذه الأشياء المذكورة في الحديث وأنها من الفطرة قيل كانت على إبراهيم عليه السلام فرضاً وهي لنا سنة واتفقت العلماء على أنها من الملة وأما معانيها فقد قيل: أما قص الشارب وإعفاء اللحية فمخالفة للأعاجم فإنهم كانوا يقصون لحاهم، أو يوفرون شواربهم أو يوفرونهما معاً، وذلك عكس الجمال والنظافة وأما السواك والمضمضة والاستنشاق فلتنظيف الفم، والأنف من الطعام والقلح والوسخ، وأما قص الأظفار فللجمال، والزينة فإنها إذا طالت قبح منظرها، واحتوى الوسخ فيها وأما غسل البراجم وهي العقد التي في

سَمَانٍ، شرائع الإسلام لم يُبْتَلْ بها أحدٌ فأقامها كلها إبراهيم، فكتب له البراءة، فقال: ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ [النجم: ٣٧]، عشرٌ في براءة: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢] إلى آخرها، وعشرٌ في الأحزاب ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] إلى آخرها، وعشرٌ في سورة المؤمنين في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]، الآيات، وقوله: ﴿إِلَّا الْمَصْلِينَ﴾ [المعارج: ٢٢]، في سأل سائل، وقال طاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما: ابتلاه الله تعالى بعشرة أشياء، وهي الفطرة خمس في الرأس: قصُّ الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس، وخمس في البدن: تقليمُ الأظفار ونتفُ الإبط وحلقُ العانة والختان والاستنجاء بالماء، وفي الخبر أن إبراهيم عليه السلام أول من قصَّ الشارب، وأول من اختتن، وأول من قلَّم الأظفار، وأول من رأى الشيب، فلما رآه قال: يا ربَّ ما هذا؟ قال: الوقار، قال: يا ربَّ زدني وقاراً، قال مجاهد: هي الآيات التي بعدها في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ إلى آخر القصة، وقال الربيع وقتادة: مناسك الحج، وقال الحسن: ابتلاه الله بسبعة أشياء: بالكواكب والقمر والشمس فأحسن فيها النظر، وعلم أن ربَّه دائم لا يزول، وبالنار فصبر عليها، وبالهجرة وبذبح ابنه وبالختان فصبر عليها، قال سعيد بن جبیر: هو قول إبراهيم وإسماعيل إذ يرفعان البيت: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ [البقرة: ١٢٧] الآية، فرفعاه بسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، قال يمان بن رباب: هنَّ مَحَاجَّةُ قومه، قال الله تعالى: ﴿وَحَاجَّةُ قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٠] إلى قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وقيل: هي قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]،

ظهور الأصابع فإنه يجتمع فيها الوسخ ويشين المنظر، وأما حلق العانة ونسف الإبط فليتنظف عما يجتمع من الوسخ في الشعر وأما الاستنجاء، فليتنظف ذلك المحل عن الأذى وأما الختان فليتنظف القلفة، عما يجتمع فيها من البول. واختلف العلماء في وجوبه فذهب الشافعي إلى أن الختان واجب لأنه تنكشف له العورة، ولا يباح ذلك إلا في الواجب وذهب غيره إلى أنه سنة. وأول من ختن إبراهيم عليه السلام ولم يختن أحد قبله (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اختتن إبراهيم بالقدوم» يروى القدوم بالتخفيف والتشديد، فمن خفف ذهب إلى أنه اسم للآلة التي يقطع بها ومن شدد قال: إنه اسم موضع. عن يحيى بن سعيد أنه سمع سعيد بن المسيب يقول: «كان إبراهيم خليل الرحمن أول الناس ضيف الضيف وأول الناس قص شاربه وأول الناس رأى الشيب. قال: رب ما هذا قال الرب تبارك وتعالى وقاراً يا إبراهيم قال يا رب زدني وقاراً» أخرجه مالك في الموطأ وقيل: في الكلمات إنها مناسك الحج. وقيل: ابتلاه الله بسبعة أشياء بالكوكب والقمر والشمس فأحسن النظر فيهن وبالنار والهجرة وذبح ولده والختان، فصر عليها وقيل: إن الله اختبر إبراهيم بكلمات أوحاها إليه وأمره أن يعمل بهن فأتتهن أي أذاهن حق التأدية، وقام بموجبهن حق القيام وعمل بهن من غير تفريط وتوان ولم ينتقص منهن شيئاً. واختلفوا هل كان هذا الابتلاء قبل النبوة أو بعدها فقيل: كان قبل النبوة بدليل قوله في سياق الآية: ﴿إني جاعلك للناس إماماً﴾ والسبب يتقدم على المسبب. وقيل: بل كان هذا الابتلاء بعد النبوة لأن التكليف لا يعلم إلا من جهة الوحي الإلهي وذلك بعد النبوة. والصواب أنه إن فسر الابتلاء بالكوكب والقمر والشمس كان ذلك قبل النبوة، وإن فسر بما وجب عليه من شرائع الدين كان ذلك بعد النبوة. وقوله تعالى: ﴿قال إني جاعلك للناس إماماً﴾ أي يقتدى بك في الخير ويأتون بستك وهديك، والإمام هو الذي يؤتم به ﴿قال ومن ذريتي﴾ أي قال إبراهيم: واجعل من ذريتي وأولادي أئمة يقتدى بهم ﴿قال﴾ الله ﴿لا ينال﴾ أي لا يصيب ﴿عهدي﴾ أي نبوتي. وقيل الإمامة ﴿الظالمين﴾ يعني من ذريتك والمعنى لا ينال ما عاهدت إليك من النبوة والإمامة من كان ظالماً من ذريتك وولدتك. قوله عز وجل: .

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا

بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾

﴿وإذ جعلنا البيت﴾ يعني البيت الحرام، وهو الكعبة ويدخل فيه الحرم فإن الله تعالى وصفه بكونه آمناً وهذه صفة جميع الحرم ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي مرجعاً من ثاب يثوب إذا رجع، والمعنى يثوبون إليه من كل جانب يحجونه

إلى آخر الآيات، فأتتهن، قال قتادة أذاهن قال الضحاك: قام بهن، وقال يمان: عمل بهن، قال الله تعالى: ﴿قال إني جاعلك للناس إماماً﴾: يقتدى بك في الخير، ﴿قال﴾ إبراهيم: ﴿ومن ذريتي﴾ أي: ومن أولادي أيضاً فاجعل أئمة يقتدى بهم، ﴿قال﴾ الله تعالى: ﴿لا ينال﴾: لا يصيب ﴿عهدي الظالمين﴾، قرأ حمزة وحفص بإسكان الياء والباقون بفتحها، أي: مَنْ كان منهم ظالماً لا يصيبه، قال عطاء بن أبي رباح: عهدي رحمتي، وقال السدي: نبوتي، وقيل: الإمامة، قال مجاهد: ليس لظالم أن يطاع في ظلمه، ومعنى الآية: لا ينال ما عاهدت إليك من النبوة والإمامة مَنْ كان ظالماً من وَلَدِكَ، وقيل: أراد بالعهد الأمان من النار، وبالظالم المشرك، كقوله تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن﴾ [الأنعام: ٨٢].

قال الله تعالى: ﴿وإذ جعلنا البيت﴾، يعني: الكعبة، ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾: مرجعاً لهم، قال مجاهد وسعيد بن جبیر: يثوبون إليه من كلِّ جانب ويحجون، قال ابن عباس رضي الله عنهما: معاذاً وملجأً، وقال قتادة

﴿وَأَمَّا﴾ أي موضعاً ذا أمن يؤمنون فيه من أذى المشركين فإنهم كانوا لا يتعرضون لأهل مكة. ويقولون: هم أهل الله. وقال ابن عباس: معاذاً وملجأ (ق) عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعصده شوكه، ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلي خلاه فقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم وبيوتهم فقال: إلا الإذخر». معنى الحديث: أنه لا يحل لأحد أن ينصب القتال والحرب في الحرم وإنما أحل ذلك لرسول الله ﷺ يوم فتح مكة فقط ولا يحل لأحد بعده. قوله: لا يعصده شوكه أي لا يقطع شوك الحرم وأراد به ما لا يؤذي منه أما ما يؤذي منه كالعوسج فلا بأس بقطعه. قوله: ولا ينفر صيده أي لا يتعرض له بالاصطياد ولا يهاج. قوله: ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها أي ينشدها. والنشد رفع الصوت بالتعريف. واللقطة في جميع الأرض لا تحل إلا لمن يعرفها حوالاً فإن جاء صاحبها أخذها. وإلا انتفع بها الملتقط بشرط الضمان. وحكم مكة في اللقطة أن يعرفها على الدوام بخلاف غيرها من البلاد فإنه محدود بسنة. قوله: ولا يختلي خلاه. الخلي مقصور الرطب من النبات الذي يرعى وقيل: هو اليابس من الحشيش وخلاه قطعه. وقول: لقينهم القين الحداد وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ قيل: الحرم كله مقام إبراهيم، وقيل: أراد بمقام إبراهيم جميع مشاهد الحج مثل عرفة والمزدلفة والرمي وسائر المشاهد، والصحيح أن مقام إبراهيم هو الحجر الذي يصلي عنده الأئمة، وذلك الحجر هو الذي قام إبراهيم عليه عند بناء البيت، وقيل: كان أثر أصابع رجلي إبراهيم عليه السلام فيه فاندurst بكثرة المسح بالأيدي وقيل: إنما أمروا بالصلاة عنده ولم يؤمروا بمسحه وتقبيله (ق) عن أنس بن مالك قال قال عمر: «وافقت ربي في ثلاث قلت يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فزلت: «واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى» الحديث. وكان بدء قصة المقام على ما رواه البخاري في صحيحه، عن ابن عباس قال: أول ما اتخذت النساء المنطق من

وعكرمة: مجمعا، ﴿وَأَمَّا﴾ أي: مأمناً يأمنون فيه من إذاء المشركين فإنهم ما كانوا يتعرضون لأهل مكة، ويقولون هم أهل الله، ويتعرضون لمن حوله، كما قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل أنا علي بن عبد الله أنا جرير عن منصور عن مجاهد عن طاوس، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعصده شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلي خلاه»، فقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم وبيوتهم، فقال رسول الله ﷺ: «إلا الإذخر»، ﴿وَاتَّخَذُوا﴾، قرأ نافع وابن عامر بفتح الخاء على الخبر، وقرأ الباقر بكسر الخاء على الأمر، ﴿مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، قال يمان: المسجد كله مقام إبراهيم، وقال إبراهيم النخعي: الحرم كله مقام إبراهيم، وقيل: أراد بمقام إبراهيم جميع مشاهد الحج مثل عرفة ومزدلفة وسائر المشاهد، والصحيح: أن مقام إبراهيم هو الحجر الذي في المسجد يصلي إليه الأئمة، وذلك الحجر الذي قام عليه إبراهيم عند بناء البيت، وقيل: كان أثر أصابع رجليه بيناً فيه فاندurst من كثرة المسح بالأيدي، قال قتادة ومقاتل والسدي: أمروا بالصلاة عند مقام إبراهيم، ولم يؤمروا بمسحه وتقبيله، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل أنا مسدد عن يحيى بن حميد، عن أنس قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: وافقت الله في ثلاث، أو وافقني ربي في ثلاث: قلت يا رسول الله لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى، فأنزل الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ

قبل أم إسماعيل اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم من أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعهما هناك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفى إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل. فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء فقالت له: ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها فقالت له: الله أمرك بهذا قال: نعم قالت إذا لا يضيعنا ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات فرفع يديه وقال ربنا: إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع حتى بلغ يشكرون وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت، وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى أو قال: يتلبط فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً فلم تر أحداً فهبطت من الصفا حتى بلغت الوادي، ورفعت طرف درعها وسعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها، فنظرت هل ترى أحداً فلم تر أحداً ففعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ فلذلك سعى الناس بينهما فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه تريد نفسها ثم سمعت فسمعت أيضاً فقالت يا من قد أسمعت إن كان عندك غوث فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول: بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو يفور بعدما تغرف قال ابن عباس قال النبي ﷺ يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم، أو قال: لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً. قال: فشربت وأرضعت ولدها. فقال: لها الملك لا تخافي الضيعة، فإن ها هنا بيتاً لله يبتنيه هذا الغلام، وأبوه وإن الله لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله فكانت كذلك، حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عائفاً، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء فأرسلوا جرياً أو جريين فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم فأقبلوا وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أأأذن لنا أن ننزل عندك قالت: نعم ولكن لا حق لكم

مصلًى، وقلت: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله عز وجل آية الحجاب، قال: وبلغني معاتبه النبي ﷺ بعض نسائه، فدخلت عليهن فقلت لهن: إن انتهين أو لبيد لته الله خيراً منكن، فأنزل الله تعالى: ﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن﴾ [التحریم: ٥]، الآية. ورواه محمد بن إسماعيل أيضاً عن عمرو بن عون أنا هشام عن حميد عن أنس رضي الله عنه قال: قال عمر رضي الله عنه وافقت ربي في ثلاث، قلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلًى، فنزلت: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلًى﴾، وأما بدء قصة المقام، فقد روى سعيد بن جبيرة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أتى إبراهيم إسماعيل وهاجر وضعهما بمكة، وأتت على ذلك مدة ونزلها الجرهميون وتزوج إسماعيل منهم امرأة وماتت هاجر، واستأذن إبراهيم سارة أن يأتي هاجر فأذنت له وشرطت عليه أن لا ينزل، فقدم إبراهيم مكة وقد ماتت هاجر فذهب إلى بيت إسماعيل فقال لامرأته أين صاحبك؟ قالت: ذهب يتصيد، وكان إسماعيل عليه السلام يخرج من الحرم فيصيد، فقال لها إبراهيم: هل عندك ضيافة؟ قالت: ليس عندي ضيافة وسألها عن عيشهم، فقالت: نحن في ضيق وشدة، فشكت إليه فقال لها: إذا جاء زوجك فاقرئيه السلام وقولي له: فليغير عتبة بابه، فذهب إبراهيم فجاء إسماعيل فوجد ريح أبيه، فقال لامرأته: هل جاءك أحد فقالت: جاءني شيخ صفته كذا وكذا، كالمستخفة بشأنه، قال: فما قال لك؟ قالت: قال أقرئي زوجك السلام وقولي له فليغير عتبة بابه، قال: ذلك أبي وقد أمرني أن أفارقك، إلحقي بأهلك فطلقها، وتزوج منهم بأخرى فلبث إبراهيم ما شاء الله أن يلبث، ثم استأذن سارة أن يزور

في الماء قالوا: نعم. قال ابن عباس قال النبي ﷺ فألقى ذلك أم إسماعيل، وهي تحب الأنس فأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم حتى إذا كانوا بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وأنسهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجته امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا وفي رواية ذهب يصيد لنا ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بشر نحن في ضيق وشدة وشكت إليه فقال إذا جاء زوجك اقرئي عليه السلام وقولي له: يغير عتبة بابه فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئاً فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا في جهد، وشدة فقال: هل أوصاك بشيء قالت: نعم أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول لك غير عتبة بابك قال ذلك أبي، وقد أمرني أن أفارقك الحقي بأهلك فطلقها، وتزوج منهم أخرى فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله أن يلبث، ثم أتاهم بعد فلم يجده فدخل على امرأته فسأل عنه. فقالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بخير وسعة وأثنت على الله عز وجل فقال: وما طعامكم؟ قالت اللحم قال: وما شرابكم قالت: الماء قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء قال النبي ﷺ: ولم يكن لهم يومئذ حب ولو كان لهم حب دعا لهم فيه، قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه وفي رواية فجاء فقال: أين إسماعيل؟ فقالت امرأته: قد ذهب يصيد، فقالت امرأته: ألا تنزل عندنا فتطعم وتشرب. قال: وما طعامكم وشرابكم قالت: طعامنا اللحم وشرابنا الماء قال اللهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم. قال: فقال أبو القاسم بركة دعوة إبراهيم. قال فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه أن يثبت عتبة بابه فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه فسألني عنك فأخبرته فسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا بخير قال فأوصاك بشيء قالت: نعم يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك فقال: ذاك أبي وأنت العتبة أمرني أن أمسكك ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبكي نبالاً له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، ثم قال: يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر قال: فاسمع ما أمرك ربك، قال: وتعينني قال وأعيناك قال: فإن الله أمرني أن أبني بيتاً هنا وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها فعند ذلك رفع القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا

إسماعيل، فأذنت له وشرطت عليه أن لا ينزل، فجاء إبراهيم عليه السلام حتى انتهى إلى باب إسماعيل، فقال لامرأته: أين صاحبك؟ قالت: ذهب يتصيد وهو يجيء الآن إن شاء الله، فانزل يرحمك الله، قال: هل عندك ضيافة؟ قالت: نعم، فجاءت باللبن واللحم، وسألها عن عيشهم فقالت: نحن بخير وسعة فدعا لهما بالبركة، ولو جاءت يومئذ بخبز بر أو شعير أو تمر لكانت أكثر أرض الله برأ أو شعيراً أو تمرأ، فقالت له: انزل حتى أغسل رأسك فلم ينزل، فجاءته بالمقام فوضعت عن شقه الأيمن فوضع قدمه عليه فغسلت شق رأسه الأيمن ثم حولته إلى شقه الأيسر فغسلت شق رأسه الأيسر، فبقي أثر قدميه عليه، فقال لها: إذا جاء زوجك فأقرئي عليه السلام وقولي له: قد استقامت عتبة بابك، فلما جاء إسماعيل وجد ريح أبيه فقال لامرأته: هل جاءك أحد؟ قالت: نعم شيخ أحسن الناس وجهاً وأطيبهم ريحاً، وقال لي كذا وكذا، وقلت له: كذا وكذا، وغسلت رأسه وهذا موضع قدميه، فقال ذاك إبراهيم النبي أبي وأنت العتبة أمرني أن أمسكك، ورؤي عن سعيد بن جبير أيضاً عن ابن عباس قال: ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبكي نبالاً تحته دوحة قريبة من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، ثم قال: يا إسماعيل إن الله تعالى أمرني بأن تعينني عليه، قال: أعيناك عليه، قال: إن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً، فعند ذلك رفع القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، فلما

ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام إبراهيم عليه وهو بيني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم: وفي رواية حتى إذا ارتفع البناء وضعف الشيخ عن نقل الحجارة فقام على حجر المقام، فجعل يناوله الحجارة ويقولان: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وقيل: إن امرأة إسماعيل قالت لإبراهيم: انزل اغسل رأسك فلم ينزل فجاءته بالمقام فوضعه عند شقه الأيمن، فوضع قدمه عليه فغسلت شق رأسه الأيمن ثم حولته إلى شقه الأيسر فغسلت شق رأسه الأيسر فبقي أثر قدميه عليه. عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله نورهما ولو لم يطمس نورهما لأضاء ما بين المشرق والمغرب» أخرجه الترمذي. وقال هذا يروى عن ابن عمر موقوفاً. واختلفوا في قوله: مصلى فمن فسر المقام بمشاهد الحج ومشاعره قال مصلى مدعى من الصلاة التي هي الدعاء، ومن فسر المقام بالحجر قال معناه واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى قبله، أمروا بالصلاة عنده وهذا القول هو الصحيح، لأن لفظ الصلاة إذا أطلق لا يعقل منه إلا الصلاة المعهودة ذات الركوع والسجود، ولأن مصلى الرجل هو الموضع الذي يصلي فيه ﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل﴾ أي أمرناهما وألزمناهما وأوجبنا عليهما. قيل: إنما سمي إسماعيل لأن إبراهيم كان يدعو الله أن يرزقه ولداً، ويقول في دعائه: اسمع يا إيل وإيل بلسان السريانية هو الله. فلما رزق الولد سماه به ﴿أن طهراً بيتي﴾ يعني الكعبة أضافه إليه تشريفاً وتفضيلاً وتخصيصاً، أي ابنائه على الطهارة والتوحيد، وقيل طهراه من سائر الأقدار والأنجاس، وقيل طهراه من الشرك والأوثان وقول الزور ﴿للطائفين﴾ يعني الدائرين حوله ﴿والعاكفين﴾ يعني المقيمين به والمجاورين له ﴿والركع السجود﴾ جمع راع وساجد وهم المصلون وقيل: الطائفين يعني الغرباء الواردين إلى مكة والعاكفين يعني أهل مكة المقيمين بها. قيل: إن الطواف للغرباء أفضل والصلاة لأهل مكة بمكة أفضل. قوله عز وجل:

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ

فَأَمَتُّهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٧﴾

﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا﴾ إشارة إلى مكة وقيل إلى الحرم ﴿بلدًا آمناً﴾ أي ذا أمن يأمن فيه أهله، وإنما دعا إبراهيم له بالأمن لأنه بلد ليس فيه زرع ولا ثمر فإذا لم يكن آمناً، لم يجلب إليه شيء من النواحي فيتعذر

ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام إبراهيم على حجر المقام، وهو بيني وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ [البقرة: ١٢٧]، وفي الخبر: «الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة، ولولا مسّته أيدي المشركين لأضاء ما بين المشرق والمغرب». قوله عز وجل: ﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل﴾، أي: أمرناهما وأوصينا إليهما، قيل: سمي إسماعيل لأن إبراهيم كان يدعو الله أن يرزقه ولد ويقول: اسمع يا إيل، وإيل هو الله، فلما رزق الولد سماه به. ﴿أن طهراً بيتي﴾، يعني: الكعبة، أضافه إليه تخصيصاً وتفضيلاً، أي: ابنائه على الطهارة والتوحيد، وقال سعيد بن جبيرة وعطاء: طهراه من الأوثان والريب وقول الزور، وقيل: بخره وخلّقه، قاله يمان بن رباب، قرأ أهل المدينة وحفص ﴿بيتني﴾ بفتح الياء ههنا وفي سورة الحج، [٢٦]، وزاد حفص في سورة نوح [٢٨]، ﴿للطائفين﴾: الدائرين حوله، ﴿والعاكفين﴾: المقيمين المجاورين، ﴿والركع﴾، جمع راع، ﴿السجود﴾: ساجد، وهم المصلون، قال الكلبي ومقاتل: الطائفين هم الغرباء والعاكفين أهل مكة، قال عطاء ومجاهد وعكرمة: الطواف للغرباء أفضل، والصلاة لأهل مكة أفضل.

﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا﴾، يعني مكة، وقيل: الحرم، ﴿بلدًا آمناً﴾، أي: ذا أمن يأمن فيه أهله، ﴿وارزق أهله من الثمرات﴾، إنما دعا بذلك لأنه كان بواحد غير ذي زرع، وفي القصص: أن الطائف كانت

المقام به . فأجاب الله تعالى دعاء إبراهيم وجعله بلداً آمناً فما قصده جبار إلا قصمه الله تعالى كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم من الجبابرة . فإن قلت : قد غزا مكة الحجاج وخرب الكعبة . قلت لم يكن قصده بذلك مكة ولا أهلها ولا إخراج الكعبة ، وإنما كان قصده خلع ابن الزبير من الخلافة ولم يتمكن من ذلك إلا بذلك فلما حصل قصده أعاد بناء الكعبة فبناها وشيدها وعظم حرمتها وأحسن إلى أهلها . واختلفوا هل كانت مكة محرمة قبل دعوة إبراهيم عليه السلام أو حرمت بدعوته على قولين ؟ : أحدهما أنها كانت محرمة قبل دعوته بدليل قوله ﷺ : «إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض» وقول إبراهيم عليه السلام : «إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم» فهذا يقتضي أن مكة كانت محرمة قبل دعوة إبراهيم . القول الثاني : أنها إنما حرمت بدعوة إبراهيم بدليل قوله ﷺ : «إن إبراهيم حرم مكة وإني حرمت المدينة» وهذا يقتضي أن مكة كانت قبل دعوة إبراهيم حلالاً كغيرها من البلاد ، وإنما حرمت بدعوة إبراهيم ، ووجه الجمع بين القولين وهو الصواب أن الله تعالى حرم مكة يوم خلقها كما أخبر النبي ﷺ في قوله : «إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض» ولكن لم يظهر ذلك التحريم على لسان أحد من أنبيائه ورسله ، وإنما كان تعالى يمنعها ممن أرادها بسوء ، ويدفع عنها وعن أهلها الآفات والعقوبات فلم يزل ذلك من أمرها حتى بوأها الله تعالى إبراهيم وأسكن بها أهله فحينئذ سأل إبراهيم ربه عز وجل أن يظهر تحريم مكة لعباده على لسانه فأجاب الله تعالى دعوته ، وألزم عباده تحريم مكة فصارت مكة حراماً بدعوة إبراهيم ، وفرض على الخلق تحريمها والامتناع من استحلالها واستحلال صيدها وشجرها فهذا وجه الجمع بين القولين وهو الصواب ، والله أعلم ﴿وارزق أهله من الثمرات﴾ إنما سأل إبراهيم ذلك لأن مكة لم يكن بها زرع ولا ثمر فاستجاب الله تعالى له وجعل مكة حراماً آمناً يجبي إليه ثمرات كل شيء ﴿من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾ يعني أرزق المؤمنين من أهله خاصة . وسبب هذا التخصيص أن إبراهيم عليه السلام لما سأل ربه عز وجل أن يجعل النبوة والإمامة في ذريته فأجابه الله بقوله : ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾ صار ذلك تأديباً له في المسألة ، فلا جرم خصها ههنا بدعائه المؤمنين دون الكافرين ثم أعلمه أن الرزق في الدنيا يستوي فيه المؤمن والكافر بقوله : ﴿قال ومن كفر فأمته﴾ أي سارزق الكافر أيضاً ﴿قليلاً﴾ أي في الدنيا إلى منتهى أجله وذلك قليل لأنه ينقطع ﴿ثم أضطره إلى عذاب النار﴾ أي ألجئه وأكرهه وأدفعه إلى عذاب النار ، والمضطر هو الذي لا يملك لنفسه الامتناع مما اضطر إليه ﴿وبئس المصير﴾ أي وبئس المكان الذي يصير إليه الكافر وهو العذاب .



وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾ وكانت قصة بناء البيت على ما ذكره العلماء ،

من بلاد الشام بأردن ، فلما دعا إبراهيم عليه السلام هذا الدعاء أمر الله تعالى جبريل عليه السلام حتى قلعهما من أصلها وأدارها حول البيت سبعا ثم وضعها موضعها الذي هي الآن فيه فمنها أكثر ثمرات مكة ، ﴿من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾ : دعا للمؤمنين خاصة ، ﴿قال﴾ الله تعالى : ﴿ومن كفر فأمته﴾ ، قرأ ابن عامر ﴿فأمته﴾ خفيفاً بضمة الهمزة ، والباقون مُشَدَّدًا ، ومعناها واحد ، ﴿قليلاً﴾ ، أي سارزق الكافر أيضاً قليلاً إلى منتهى أجله ، وذلك أن الله تعالى وعد الرزق للخلق كافة مؤمنهم وكافرهم ، وإنما قيد بالقلة لأن متاع الدنيا قليل ، ﴿ثم أضطره﴾ ، أي ألجئه في الآخرة : ﴿إلى عذاب النار وبئس المصير﴾ ، أي : المرجع يصير إليه ، قال مجاهد : وجد عند المقام كتاب فيه : أنا الله ذو بكة صنعتها يوم خلقت الشمس والقمر وحرمتها يوم خلقت السموات والأرض ، وحففتها بسبعة أفلاك حنفاء ، يأتيها رزقها من ثلاثة سبل ، مبارك لها في اللحم والماء .

قوله عز وجل : ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾ ، قال الرواة : إن الله تعالى خلق موضع

وأصحاب السير أن الله تعالى خلق موضع البيت قبل أن يخلق الأرض بألفي عام فكانت زبدة بيضاء على وجه الماء، فدحيت الأرض من تحتها فلما أهبط الله آدم إلى الأرض استوحش فشكا إلى الله تعالى، فأنزل البيت المعمور وهو من ياقوته من يواقيت الجنة له بابان من زمرد أخضر باب شرقي، وباب غربي فوضعه على موضع البيت، وقال يا آدم إني أهبطت لك بيتاً تطوف به كما يطاف حول عرشي، وتصلني عنده كما يصلني عند عرشي وأنزل الله عليه الحجر الأسود، وكان أبيض فاسودّ من مس الحيف في الجاهلية فتوجه آدم من الهند ماشياً إلى مكة، وأرسل الله إليه ملكاً يدلّه على البيت فحج آدم البيت وأقام المناسك، فلما فرغ تلقته الملائكة وقالوا له برّ حجتك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام.

قال ابن عباس: حج آدم أربعين حجة من الهند إلى مكة على رجله فكان على ذلك إلى أيام الطوفان فرفعه الله إلى السماء الرابعة، وهو البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه، وبعث الله جبريل حتى خبأ الحجر الأسود في جبل أبي قبيس صيانة له، من الغرق فكان موضع البيت خالياً إلى زمن إبراهيم عليه السلام. ثم إن الله تعالى أمر إبراهيم بعد ما ولد له إسماعيل وإسحاق ببناء بيت يذكر فيه ويعبد فسأل الله أن يبين له موضعه، فبعث الله السكينة لتدلّه على موضع البيت وهي ريح خجوج لها رأسان تشبه الحية، والخجوج من الرياح هي الشديدة السريعة الهبوب وقيل: هي المتلوية في هبوبها، وأمر إبراهيم أن يبني حيث تستقر السكينة فتبعها إبراهيم، حتى أتت موضع البيت فتطوقت عليه كتطويق الحنفية، وقال ابن عباس: بعث الله سبحانه وتعالى سحابة على قدر الكعبة فجعلت تسير، وإبراهيم يمشي في ظلها إلى أن وقفت على موضع البيت، ونودي منها يا إبراهيم ابن علي قدر ظلها لا تزد ولا تنقص. وقيل: إن الريح كنست له ما حول الكعبة حتى ظهر له أساس البيت الأول فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ فبنى إبراهيم وإسماعيل البيت فكان إبراهيم بينيه،

البيت قبل الأرض بألفي عام وكانت زبدة بيضاء على الماء فدحيت الأرض من تحتها، فلما أهبط الله آدم إلى الأرض استوحش، فشكا إلى الله تعالى فأنزل الله البيت المعمور من ياقوته، من يواقيت الجنة له بابان من زمرد أخضر باب شرقي وباب غربي، فوضعه على موضع البيت، وقال: يا آدم إني أهبطت لك بيتاً تطوف به كما يطاف حول عرشي تصلني عنده كما تصلني عند عرشي، وأنزل الحجر وكان أبيض فاسودّ من لمس الحيف في الجاهلية، فتوجه آدم من أرض الهند إلى مكة ماشياً، وقبض الله له ملكاً يدلّه على البيت، فحج البيت وأقام المناسك، فلما فرغ تلقته الملائكة وقالوا: برّ حجتك يا آدم، لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام. قال ابن عباس رضي الله عنه: حج آدم أربعين حجة من الهند إلى مكة على رجله، فكان على ذلك إلى أيام الطوفان فرفعه الله تعالى إلى السماء الرابعة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، وبعث جبريل عليه السلام حتى خبأ الحجر الأسود في جبل أبي قبيس صيانة له من الغرق، فكان موضع البيت خالياً إلى زمن إبراهيم، ثم إن الله تعالى أمر إبراهيم بعدما ولد له إسماعيل وإسحق ببناء بيت يذكر فيه، فسأل الله عز وجل أن يبين له موضعه، فبعث الله السكينة لتدلّه على موضع البيت، وهي ريح خجول لها رأسان شبه الحية، فأمر إبراهيم أن يبني حيث تستقر السكينة، فتبعها إبراهيم حتى أتيا مكة، فتطوقت السكينة على موضع البيت، كتطوق الحنفية. هذا قول علي والحسن، وقال ابن عباس: بعث الله سحابة على قدر الكعبة فجعلت تسير وإبراهيم يمشي في ظلها إلى أن وافق مكة، ووقفت على موضع البيت، فنودي منها إبراهيم أن ابن علي ظلها لا تزد ولا تنقص، وقيل: أرسل الله جبريل ليدلّه على موضع البيت، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦]، فبنى إبراهيم وإسماعيل البيت، فكان إبراهيم بينيه وإسماعيل يناوله الحجر، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾، يعني أسسه، واحدها: قاعدة، وقال الكسائي: جُدر البيت، قال ابن عباس: إنما بنى البيت

وإسماعيل يناوله الحجارة فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ جمع قاعدة وهي أس البيت. وقيل جذرة من البيت. قال ابن عباس: بنى إبراهيم البيت من خمسة أجبل: من طور سيناء وطور زيتا ولبنان جبل بالشام والجودي جبل بالجزيرة، وبنى قواعده من حراء جبل بمكة فلما انتهى إبراهيم إلى موضع الحجر الأسود قال لإسماعيل: ائتني بحجر حسن يكون للناس علماً فأتاه بحجر فقال ائتني بأحسن منه فمضى إسماعيل ليطلب حجراً أحسن منه فصاح أبو قبيس: يا إبراهيم إن لك عندي وديعة فخذها فكدف بالحجر الأسود فأخذه إبراهيم فوضعه مكانه وقيل: إن الله أمد إبراهيم وإسماعيل بسبعة أملاك يعينونهما في بناء البيت فلما فرغا من بنائه قالوا: ﴿رَبَّنَا تقبل منا﴾ وفي الآية إضمار تقديره ويقولان ربنا تقبل منا أي ما عملنا لك، وتقبل طاعتنا إياك وعبادتنا لك ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ﴾ أي لدعائنا ﴿العليم﴾ يعني بنياتنا. قوله عز وجل: .

رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ وَآرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك﴾ يعني موحدين مخلصين مطيعين خاضعين لك. فإن قلت: الإسلام إما أن يكون المراد منه الدين والاعتقاد أو الاستسلام والانقياد وقد كانا كذلك حالة هذا الدعاء فما فائدة هذا الطلب؟ قلت فيه وجهان أحدهما أن الإسلام عرض قائم بالقلب وقد لا يبقى، فقلوه: واجعلنا مسلمين لك يعني في المستقبل وذلك لا ينافي حصوله في الحال. الوجه الثاني يحتمل أن يكون المراد منه طلب الزيادة في الإيمان فكأنهما طلبا زيادة اليقين والتصديق وذلك لا ينافي حصوله في الحال ﴿ومِنْ ذُرِّيَّتِنَا﴾ أي من أولادنا ﴿أُمَّةٌ﴾ أي جماعة ﴿مُسْلِمَةٌ﴾ أي خاضعة منقادة ﴿لَكَ﴾ وإنما أدخل من التي هي للتبويض لأن الله تعالى أعلمهما بقوله: ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾

من خمسة أجبل طور سيناء وطور زيتا ولبنان وهو جبل بالشام والجودي وهو جبل بالجزيرة، وبنيا قواعده من حراء وهو جبل بمكة، فلما انتهى إبراهيم إلى موضع الحجر الأسود، قال لإسماعيل: ائتني بحجر حسن يكون للناس علماً فأتاه بحجر، فقال: ائتني بأحسن من هذا، فمضى إسماعيل يطلبه فصاح أبو قبيس: يا إبراهيم إن لك عندي وديعة فخذها فأخذ الحجر الأسود فوضعه مكانه، وقيل: إن الله تعالى بنى في السماء بيتاً وهو البيت المعمور، ويُسمى ضراح، وأمر الملائكة أن يبنوا الكعبة في الأرض بحياله على قدره ومثاله، وقيل: أول مَنْ بنى الكعبة آدم، واندرس زمن الطوفان، ثم أظهره الله لإبراهيم حتى بناه، ﴿رَبَّنَا تقبل منا﴾، فيه إضمار، أي: ويقولان: رَبَّنَا تقبل منا بناءنا، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ﴾، لدعائنا ﴿العليم﴾: بنياتنا.

﴿رَبَّنَا واجعلنا مُسْلِمِينَ لَكَ﴾: موحدين مطيعين مخلصين خاضعين لك: ﴿ومِنْ ذُرِّيَّتِنَا﴾، أي: أولادنا، ﴿أُمَّةٌ﴾: جماعة، والأمة: أتباع الأنبياء، ﴿مُسْلِمَةٌ لَكَ﴾: خاضعة لك، ﴿وَآرِنَا﴾ عَلَّمْنَا وَعَرَّفْنَا، قرأ ابن كثير ساكنة الراء، وأبو عمرو بالاختلاس، والباقون بكسرهما، ووافق ابن عامر وأبو بكر في الإسكان في حم السجدة، وأصله: أرئنا، فحذفت الهمزة طلباً للخفة، ونقلت حركتها إلى الراء، وَمَنْ سَكَّنَهَا قال: ذهبت الهمزة فذهبت حركتها، ﴿مَنَاسِكُنَا﴾: شرائع ديننا وأعلام حجنا، وقيل: مواضع حجنا، ومذابحنا، والنسك: الذبيحة، وقيل: متعبداتنا، وأصل النسك: العبادة، والناسك: العابد، فأحاب الله تعالى دعاءهما فبعث جبريل فأراهما المناسك في يوم عرفة، فلما بلغ عرفات قال: عرفت يا إبراهيم؟ قال: نعم، فسُمِّيَ الوقت عَرَفَةَ والموضع

إن في ذريتهما الظالم فهذا خص بعض الذرية بالدعاء. فإن قلت: لم خص ذريتهما بالدعاء. قلت: لأنهم أحق بالشفقة والنصيحة، قال الله تعالى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ ولأن أولاد الأنبياء إذا صلحوا صلح بهم غيرهم ألا ترى أن المتقدمين من العلماء والكبراء: إذا كانوا على السداد كيف يتسبون لسداد من وراءهم. وقيل: أراد بالامة أمة محمد ﷺ بدليل قوله تعالى: ﴿وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ ﴿وَأَرْسَلْنَا﴾ أي علمنا وبصرنا ﴿مَنَاسِكُنَا﴾ أي شرائع ديننا وأعلام حجبنا، وقيل: مناسكنا يعني مذابحنا والنسك الذبيحة، وقيل متعبداتنا وأصل النسك العبادة والناسك العابد فأجاب الله دعاءهما وبعث جبريل فأرهما المناسك في يوم عرفة فلما بلغ عرفات قال: عرفت يا إبراهيم. قال إبراهيم: نعم فسمي ذلك الوقت عرفة والموضع عرفات ﴿وَتَبَّ عَلَيْنَا﴾ أي تجاوز عنا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الثَّوَابُ﴾ أي المتجاوز عن عباده ﴿الرَّحِيمُ﴾ بهم واحتج بقوله ﴿وَتَبَّ عَلَيْنَا﴾ من جوز الذنوب على الأنبياء. ووجهه أن التوبة لا تطلب من الله إلا بعد تقدم الذنب فلو لا تقدم الذنب لم يكن لطلب التوبة وجه. وأجيب عنه بأن العبد وإن اجتهد في طاعة ربه عز وجل فإنه لا ينفك عن تقصير في بعض الأوقات. أما على سبيل السهو أو ترك الأولى والأفضل، وكان هذا الدعاء لأجل ذلك، وقيل: يحتمل أن الله تعالى لما أعلم إبراهيم أن في ذريته من ظالم فلا جرم سأل ربه التوبة لأولئك الظلمة، والمعنى وتب على الظلمة من أولادنا حتى يرجعوا إلى طاعتك فيكون ظاهر الكلام الدعاء لأنفسهما والمراد به ذريتهما. وقيل: يحتمل أنهما لما رفعوا قواعد البيت وكان ذلك المكان أخرى الأماكن بالإجابة دعوا الله بذلك الدعاء ليجعلا ذلك سنة وليقتدى من بعدهما في ذلك الدعاء لأن ذلك المكان هو موضع التنصل من الذنوب وسؤال التوبة والمغفرة من الله تعالى. قوله عز وجل: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ يعني وابعث في الأمة المسلمة أو الذرية وهم العرب من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. وقوله: رسولاً منهم يعني ليدعوهم إلى الإسلام ويكمل الدين والشرع، وإذا كان الرسول منهم يعرفون نسبه ومولده ومنشأه كان أقرب لقبول قوله ويكون هو أشفق عليهم من غيره، وأجمع المفسرون على أن المراد بقوله «رسولاً منهم» هو محمد ﷺ لأن إبراهيم عليه السلام إنما دعا لذريته وهو بمكة ولم يبعث من ذريته بمكة غير محمد ﷺ فدل على أن المراد به محمد ﷺ وروى البغوي بإسناده عن العرياض بن سارية عن رسول الله ﷺ قال: «إني عند الله مكتوب خاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته وسأخبركم بأول أمري أنا دعوة إبراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أمي التي رأت حين وضعتني، وقد خرج لها نور ساطع أضاءت لها منه قصور الشام» وقوله: لمنجدل في طينته معناه أنه مطروح على وجه الأرض صورة من طين لم تجر فيه الروح وأراد بدعوة إبراهيم قوله: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا

عرفات. ﴿وَتَبَّ عَلَيْنَا﴾، تجاوز عنا، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الثَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ﴾، أي: في الأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيل، وقيل: في أهل مكة، ﴿رسولاً منهم﴾، أي: مرسلاً منهم، أراد به محمداً ﷺ، حَدَّثَنَا السَّيِّدُ أَبُو الْقَاسِمِ عَلِيُّ بْنُ مُوسَى الْمَوْسَوِي، حَدَّثَنِي أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ عَبَّاسٍ الْبَلْخِيُّ، أَنَا الْإِمَامُ أَبُو سَلِيمَانَ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْخَطَّابِيُّ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمَكِّي أَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ أَنَا ابْنُ أَخِي ابْنِ وَهْبٍ أَنَا عَمِّي أَنَا مُعَاوِيَةُ عَنْ صَالِحٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ سُوَيْدٍ عَنْ عَبْدِ الْأَعْلَى عَنْ هَلَالِ السَّلْمِيِّ عَنْ الْعَرِيَّاضِ بْنِ سَارِيَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنِّي عِنْدَ اللَّهِ مَكْتُوبُ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَأَنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ، وَسَأُخْبِرُكُمْ بِأَوَّلِ أَمْرِي: أَنَا دَعْوَةُ إِبْرَاهِيمَ، وَبَشَارَةُ عِيسَى، وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ حِينَ وَضَعْتَنِي وَقَدْ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهَا مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ»، وَأَرَادَ بِدَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ هَذَا فَإِنَّهُ دَعَا أَنْ يَبْعَثَ فِي بَنِي إِسْمَاعِيلَ رَسُولًا مِنْهُمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كُلُّ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا عَشْرَةً: نُوحٌ وَهُودٌ وَصَالِحٌ وَشُعَيْبٌ وَلُوطٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ وَإِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ وَمُحَمَّدٌ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ. ﴿يَتْلُو﴾: يقرأ ﴿عَلَيْهِمْ آيَاتُكَ﴾،

منهم»، فاستجاب الله دعاء إبراهيم وبعث محمداً ﷺ في آخر الزمان وأنقذهم به من الكفر والظلم وأراد ببشارة عيسى عليه السلام قوله في سورة الصف: ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ ﴿يتلو عليهم﴾ أي يقرأ عليهم ﴿آياتك﴾ يعني ما توحى إليه وهو القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ لأن الذي كان يتلوه عليهم هو القرآن فوجب حمله عليه ﴿ويعلمهم الكتاب﴾ يعني معاني الكتاب وحقائقه لأن المقصود الأعظم تعليم ما في القرآن من دلائل التوحيد والنبوة والأحكام الشرعية فلما ذكر الله تعالى أولاً أمر التلاوة، وهي حفظ القرآن ودراسته ليبقى مصوناً عن التحريف، والتبديل ذكر بعده تعليم حقائقه وأسراره ﴿والحكمة﴾ أي ويعلمهم الحكمة وهي الإصابة في القول والعمل ولا يسمى الرجل حكيماً إلا إذا اجتمع فيه الأمران. وقيل: الحكمة هي التي ترد عن الجهل والخطأ وذلك إنما يكون بما ذكرناه من الإصابة في القول والعمل ووضع كل شيء موضعه، وقيل الحكمة معرفة الأشياء بحقائقها. واختلف المفسرون في المراد بالحكمة ها هنا فروى ابن وهب قال: قلت لمالك ما الحكمة. قال: المعرفة بالدين والفقه فيه والاتباع له. وقال قتادة: الحكمة هي السنة وذلك لأن الله تعالى ذكر تلاوة الكتاب وتعليمه ثم عطف عليه الحكمة فوجب أن يكون المراد بها شيئاً آخر وليس ذلك إلا السنة. وقيل الحكمة: هي العلم بأحكام الله تعالى التي لا يدرك علمها إلا ببيان الرسول ﷺ والمعرفة بها منه. وقيل الحكمة: هي الفصل بين الحق والباطل. وقيل: هي معرفة الأحكام والقضاء وقيل: هي فهم القرآن، والمعنى ويعلمهم ما في القرآن من الأحكام والحكمة وهي ما فيه من المصالح الدينية والأحكام الشرعية. وقيل: كل كلمة وعظمتك أودعتك إلى مكرومة أو نهتك عن قبيح فهي حكمة ﴿ويزكيهم﴾ أي يطهرهم من الشرك وعبادة الأوثان، وسائر الأرجاس والردائل والنقائص، وقيل: يزكيهم من التزكية أي يشهد لهم يوم القيامة بالعدالة، إذا شهدوا للأنبياء بالبلاغ ثم ختم إبراهيم الدعاء بالثناء على الله تعالى فقال ﴿إنك أنت العزيز﴾ قال ابن عباس: العزيز الذي لا يوجد مثله. وقيل: هو الذي يقهر ولا يقهر وقيل هو المنيع الذي لا تناله الأيدي، وقيل العزيز القوي والعزة القوة من قولهم أرض عزاز أي صلبة قوية ﴿الحكيم﴾ أي العالم الذي لا تخفى عليه خافية، وقيل هو العالم بالأشياء وإيجادها على غاية الإحكام. قوله عز وجل:

وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفِهَةِ نَفْسِهِ وَلَقَدْ أَصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ

كتابك يعني: القرآن، والآية من القرآن كلام متصل إلى انقطاعه، وقيل هي جماعة حروف، يقال خرج القوم بآيتهم، أي: بجماعتهم، ﴿ويعلمهم الكتاب﴾، يعني: القرآن، ﴿والحكمة﴾، قال مجاهد: فهم القرآن، وقال مقاتل: مواضع القرآن وما فيه من الأحكام، قال قتبية: هي العلم والعمل، ولا يكون الرجل حكيماً حتى يجمعهما، وقيل: هي السنة والأحكام، وقيل: هي القضاء، وقيل: الحكمة الفقه، قال أبو بكر بن دريد كل كلمة وعظمتك أو دعتك إلى مكرومة أو نهتك عن قبيح فهي حكمة، ﴿ويزكيهم﴾، أي: يطهرهم من الشرك والذنوب، وقيل: يأخذ الزكاة من أموالهم، وقال ابن كيسان: يشهد لهم يوم القيامة بالعدالة إذا شهدوا للأنبياء بالبلاغ من التزكية وهي التعديل، ﴿إنك أنت العزيز الحكيم﴾، قال ابن عباس: العزيز: الذي لا يوجد مثله، وقال الكلبي: المنتقم، بيانه قوله تعالى: ﴿والله عزيز ذو انتقام﴾ [آل عمران: ٤، المائدة: ٩٥]، وقيل: المنيع الذي لا تناله الأيدي ولا يصل إليه شيء، وقيل: القوي، والعزة القوة، قال الله تعالى: ﴿فعزنا بثالث فقالوا﴾ [يس: ١٤]، أي: قوينا، وقيل: الغالب، قال الله تعالى إخباراً ﴿وعزني في الخطاب﴾ [ص: ٢٣] أي: غلبني، ويقال في المثل: من عزيز أي: من غلب سلب.

الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾

﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه﴾ سبب نزول هذه الآية أن عبد الله بن سلام دعا ابني أخيه إلى الإسلام مهاجراً وسلمة، وقال لهما: قد علمتما أن الله تعالى قال في التوراة إني باعث من ولد إسماعيل نبياً اسمه أحمد فمن آمن به فقد اهتدى، ومن لم يؤمن به فهو ملعون، فأسلم سلمة وأبى مهاجر أن يسلم فأنزل الله تعالى:

﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم﴾ أي يترك دينه وشريعته، وفيه تعريض باليهود والنصارى ومشركي العرب لأن اليهود والنصارى يفتخرون بالانتساب إلى إبراهيم والوصلة إليه، لأنهم من بني إسرائيل وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، والعرب يفتخرون به لأنهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم وإذا كان كذلك كان إبراهيم هو الذي طلب بعثة هذا الرسول في آخر الزمان فمن رغب عن الإيمان بهذا الرسول الذي هو دعوة إبراهيم فقد رغب عن ملة إبراهيم ومعنى يرغب عن ملة إبراهيم أي يترك دينه وشريعته يقال: رغب في الشيء إذا أراده ورغب عنه إذا تركه إلا من سفه نفسه قال ابن عباس: خسر نفسه وقيل: أهلك نفسه وقيل: امتنها واستخف بها وأصل السفه الخفة. وقيل: الجهل وضعف الرأي فكل سفيه جاهل لأن من عبد غير الله فقد جهل نفسه لأنه لم يعترف بأن الله خالقها وقد جاء «من عرف نفسه فقد عرف ربه» ومعناه: أن يعرف نفسه بالذل والعجز والضعف والفناء، ويعرف ربه بالعز والقدرة والقوة والبقاء ويدل على هذا أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام اعرف نفسك واعرفني قال: يا رب وكيف أعرف نفسي وكيف أعرفك؟ قال: اعرف نفسك بالعجز والضعف والفناء واعرفني بالقوة والقدرة والبقاء ﴿ولقد اصطفيناه﴾ أي اخترناه ﴿في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ يعني الفائزين وقيل: مع الأنبياء في الجنة ﴿إذ قال له ربه أسلم﴾ أي استقم على الإسلام واثبت عليه لأنه كان مسلماً لأن الأنبياء إنما نشؤوا على الإسلام والتوحيد، قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال له ذلك حين خرج من السرب وذلك عند استدلاله بالكواكب والشمس والقمر واطلاعه على أمارات الحدوث فيها، وافتقارها إلى محدث مدبر فلما عرف ذلك قال له ربه:

﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾، وذلك أن عبد الله بن سلام دعا ابني أخيه سلمة ومهاجراً إلى الإسلام فقال لهما: قد علمتما أن الله عز وجل قال في التوراة: إني باعث من ولد إسماعيل نبياً اسمه أحمد فمن آمن به فقد اهتدى ومن لم يؤمن به فهو ملعون، فأسلم سلمة وأبى مهاجر أن يسلم، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾، أي: يترك دينه وشريعته، يقال: رغب في الشيء إذا أراده، ورغب عنه إذا تركه، وقوله ﴿من﴾: لفظة استفهام ومعناه التقرير والتوبيخ، يعني: ما يرغب عن ملة إبراهيم ﴿إلا من سفه نفسه﴾، قال ابن عباس: من خسر نفسه، وقال الكلبي: ضل من قبل نفسه، وقال أبو عبيدة: أهلك نفسه، وقال ابن كيسان والزجاج: معناه جهل نفسه، والسفاهة: الجهل وضعف الرأي، وكل سفيه جاهل، وذلك أن من عبد غير الله فقد جهل نفسه لأنه لم يعرف أن الله خلقها، وقد جاء: من عرف نفسه فقد عرف ربه، وفي الأخبار: أن الله تعالى أوحى إلى داود: اعرف نفسك واعرفني، فقال: يا رب كيف أعرف نفسي وكيف أعرفك؟ فأوحى الله إليه: اعرف نفسك بالضعف والعجز والفناء، واعرفني بالقوة والقدرة والبقاء. وقال الأخفش: معناه سفه في نفسه، و﴿نفسه﴾ على هذا القول: نصب بنزع حرف الصفة، وقال الفراء: نصب على التفسير، وكان الأصل سفهت نفسه، فلما أضاف الفعل إلى صاحبها خرجت النفس مفسرة ليعلم موضع السفه، كما يقال ضقت به ذرعاً أو ضاق ذرعي به، ﴿ولقد اصطفيناه في الدنيا﴾: اخترناه في الدنيا، ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾، يعني: أي مع الأنبياء في الجنة، وقال الحسين بن الفضل: فيه تقديم وتأخير، تقديره ولقد اصطفيناه في الدنيا والآخرة وإنه لمن الصالحين.

أسلم ﴿قال أسلمت لرب العالمين﴾ أي قال إبراهيم: خضعت بالطاعة وأخلصت العبادة لمالك الخلائق ومديرها ومحدثها. وقيل: معنى أسلم أخلص دينك وعبادتك لله واجعلها سليمة. وقيل: الإيمان من صفات القلب والإسلام من صفات الجوارح وإن إبراهيم كان مؤمناً بقلبه عارفاً بالله فأمره الله أن يعمل بجوارحه وقيل: معناه أسلم نفسك إلى الله تعالى وفوض أمرك إليه. قال: أسلمت أي فوضت أمري لرب العالمين. قال ابن عباس رضي الله عنهما: وقد حقق ذلك حيث لم يستعن بأحد من الملائكة حين ألقى في النار. قوله عز وجل: .

وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾
كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَجِدَا وَنَحْنُ لَكُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَّا
كَسَبْتُمْ وَلَا تَتَّبِعُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا
كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾

﴿ووصى بها إبراهيم بنيه﴾ يعني بكلمة الإخلاص، وهي لا إله إلا الله. وقيل هي الملة الحنيفية وكان لإبراهيم ثمانية أولاد إسماعيل وأمه هاجر القبطية وإسحاق وأمه سارة ومدين ومدان ويقنان وزمران وشيق وشوخ وأهمهم قطورا بنت يقطن الكنعانية تزوجها إبراهيم حين وفاة سارة، فإن قلت، لم قال: وصى بها إبراهيم بنيه ولم يقل أمرهم؟. قلت: لأن لفظ الوصية أوكد من لفظ الأمر لأن الوصية إنما تكون عند الخوف من الموت وفي ذلك الوقت يكون احتياط الإنسان لولده أشد وأعظم، وكانوا هم إلى قبول وصيته أقرب وإنما خص بنيه بهذه الوصية لأن شفقة الرجل على بنيه أكثر من شفقة على غيرهم. وقيل: لأنهم كانوا أئمة يقتدى بهم فكان صلاحهم صلاحاً لغيرهم ﴿ويعقوب﴾ أي ووصى يعقوب بمثل ما وصى به إبراهيم، وسمي يعقوب لأنه هو والعيص كانا توأمين في بطن واحد فتقدم العيص وقت الولادة في الخروج من بطن أمه وخرج يعقوب على أثره آخذاً بعقبه قال ابن عباس: وقيل سمي يعقوب لكثرة عقبه وكان له من الولد اثنا عشر وهم: روبيل وشمعون ولاوى ويهوذا وربالون ويشجرودان ونفتالي وجاد وآشر ويوسف وبنيامين، ثم خاطب يعقوب بنيه فقال ﴿يا بني إن الله اصطفى لكم الدين﴾ أي اختار لكم دين الإسلام ﴿فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ أي مؤمنون مخلصون فالمعنى دوموا على إسلامكم حتى ياتيكم الموت وأنتم مسلمون لأنه لا يعلم في أي وقت يأتي الموت على الإنسان. وقيل: في معنى وأنتم مسلمون أي محسنون الظن بالله عز وجل يدل عليه ما روي عن جابر قال سمعت رسول الله ﷺ قبل موته

﴿إذ قال له ربه أسلم﴾، أي استقم على الإسلام واثبت عليه، لأنه كان مسلماً، قال ابن عباس: قال له ذلك حين خرج من السرب، وقال الكلبي أخلص دينك وعبادتك لله، وقال عطاء: أسلم نفسك إلى الله عز وجل وفوض أمورك إليه، ﴿قال أسلمت لرب العالمين﴾، أي: فوضت، قال ابن عباس: وقد حقق ذلك حيث لم يستعن بأحد من الملائكة حين ألقى في النار.

﴿ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب﴾، قرأ أهل المدينة والشام ﴿أوصى﴾ بالالف، وكذلك في مصاحفهم، وقرأ الباقون ﴿ووصى﴾ مشدداً، وهما لغتان مثل نزل ونزل معناه: ووصى بها إبراهيم ووصى يعقوب بنيه، قال الكلبي ومقاتل: يعني بكلمة الإخلاص لا إله إلا الله، قال أبو عبيدة: إن شئت رددت الكناية إلى الملة لأنه ذكر ملة إبراهيم، وإن شئت رددتها إلى الوصية، أي: وصى إبراهيم بنيه الثمانية: إسماعيل وأمه هاجر القبطية

بثلاثة أيام يقول: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه» أخرجاه في الصحيحين. قوله عز وجل: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ﴾ جمع شهيد بمعنى الحاضر أي ما كنتم حاضرين ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ﴾ أي حين احتضر وقرب من الموت نزلت في اليهود، وذلك لأنهم قالوا للنبي ﷺ إن يعقوب يوم مات أوصى بنيه باليهودية فأنزل الله تعالى هذه الآية تكذيباً لهم، والمعنى أم كنتم يا معشر اليهود شهوداً على يعقوب إذ حضره الموت، أي إنكم لم تحضروا ذلك فلا تدعوا على أنبيائي ورسلي الأباطيل وتنسبوهم إلى اليهودية فإني ما ابتعثت خليلي إبراهيم، وولده وأولادهم إلا بدين الإسلام، وبذلك وصوا أولادهم وبه عهدوا إليهم ثم بين ما قال يعقوب لبنيه فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ﴾ يعني يعقوب ﴿لِبَنِيهِ﴾ يعني لأولاده الاثني عشر ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي أي شيء تعبدون ﴿مِنْ بَعْدِي﴾ قيل إن الله تعالى لم يقبض نبياً حتى يخيره: بين الحياة والموت، فلما خير يعقوب وكان قد رأى أهل مصر يعبدون الأوثان والنيران فقال انظرنني حتى أسأل ولدي وأوصيهم فأمله فجمع ولده وولد ولده قال لهم قد حضر أجلي ما تعبدون من بعدي؟ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ إنما قدم إسماعيل لأنه كان أكبر من إسحاق وأدخله في جملة الآباء وإن كان عمّاً لهم لأن العرب تسمي العم أبا والخالة أمّاً قال رسول الله ﷺ: «عم الرجل صنو أبيه» وقال في عمه العباس «ردوا عليّ أبي» ﴿إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أي مخلصون العبودية ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الأمة المذكورة، يعني إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وولدهم ﴿أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أي مضت لسبيلها

وإسحق وأمه سارة، وستة أمهم قنطورا بنت يقطن الكنعانية، تزوّجها إبراهيم بعد وفاة سارة، ويعقوب، سُمّي بذلك لأنه والعيص كانا تَوَآمَيْنِ فتقدّم عيص في الخروج من بطن أمه، وخرج يعقوب على أثره أخذ بعقبه، قاله ابن عباس، وقيل سُمّي يعقوب لكثرة عقبه، يعني ووصى أيضاً يعقوب بنيه الاثني عشر ﴿يَا بَنِي﴾، معناه أن يا بني: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى﴾: اختار ﴿لَكُمْ الدِّينَ﴾، أي: دين الإسلام، ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾، مؤمنون، وقيل مخلصون، وقيل مفوضون، والنهي في ظاهر الكلام وقع على الموت، وإنما نهوا في الحقيقة عن ترك الإسلام معناه، داوموا على الإسلام حتى لا يصادفكم الموت إلا وأنتم مسلمون، وعن الفضيل بن عياض رحمه الله: أنه قال: إلا وأنتم مسلمون، أي: محسنون بربكم الظن، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أبو محمد عبد الرحمن بن أبي شريح، أنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي، أنا علي بن الجعد أنا أبو جعفر الرازي عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيام، يقول: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل».

قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ﴾ يعني أكنتم شهداء يريد ما كنتم شهداء حضوراً ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ﴾، أي: حين قرب يعقوب من الموت، قيل: نزلت في اليهود حين قالوا للنبي ﷺ: أأنت تعلم أن يعقوب يوم مات أوصى بنيه باليهودية فعلى هذا القول يكون الخطاب لليهود، وقال الكلبي: لما دخل يعقوب مصر رآهم يعبدون الأوثان والنيران، فجمع ولده وخاف عليهم ذلك، فقال عز وجل: ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾؟ قال عطاء: إن الله تعالى لم يقبض نبياً حتى يخيره بين الحياة والموت، فلما خير يعقوب قال: يا رب أنظرنني حتى أسأل ولدي وأوصيهم، ففعل الله ذلك به، فجمع ولده وولد ولده وقال لهم: قد حضر أجلي فما تعبدون من بعدي؟ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾، وكان إسماعيل عمّاً لهم، والعرب تسمي العم أبا كما تسمي الخالة أمّاً، قال النبي ﷺ: «عم الرجل صنو أبيه»، وقال في عمه العباس: «ردوا عليّ أبي فإني أخشى أن تفعل به قريش ما فعلت ثقيف بعروة بن مسعود»، وذلك أنهم قتلوه: ﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾ نُصِبَ على البدل من قوله: ﴿إِلَهَكَ﴾، وقيل: نعرفه إلهاً واحداً، ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

والمعنى يا معشر اليهود والنصارى دعوا ذكر إبراهيم وإسماعيل وإسحاق والمسلمين من أولادهم، ولا تقولوا عليهم ما ليس فيهم ﴿لها ما كسبت﴾ يعني من العمل ﴿ولكم﴾ يعني يا معشر اليهود والنصارى ﴿ما كسبتم﴾ أي من العمل ﴿ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ يعني كل فريق يسأل عن عمله لا عن عمل غيره. قوله عز وجل: ﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا﴾ قال ابن عباس: نزلت في رؤساء اليهود: كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف ووهب بن يهودا وأبي ياسر بن أخطب وفي نصارى نجران السيد، والعاقب وأصحابهما، وذلك أنهم خاصموا المؤمنين في الدين، فكل فريق منهم يزعم أنه أحق بدين الله فقالت اليهود: نبينا موسى أفضل الأنبياء وكتابنا التوراة أفضل الكتب وديننا أفضل الأديان وكفروا بيسى والإنجيل ومحمد والقرآن وقالت النصارى كذلك، وقال كل واحد من الفريقين للمؤمنين: كونوا على ديننا فلا دين إلا ذلك فأنزل الله عز وجل: ﴿قل﴾ يعني يا محمد ﴿بل ملة إبراهيم﴾ يعني إذا كان لا بد من الاتباع فتبع ملة إبراهيم لأنه مجمع على فضله ﴿حنيفاً﴾ أصله من الحنف وهو ميل واعوجاج يكون في القدم. قال ابن عباس: الحنيف المائل عن الأديان كلها إلى دين الإسلام، قال الشاعر:

ولكننا خلقنا إذ خلقنا حنيفاً ديننا عن كل دين

والعرب تسمي كل من حج أو اختتن حنيفاً تنبيهاً على أنه على دين إبراهيم، وقيل: الحنيفية الختان وإقامة المناسك مسلماً، يعني أن الحنيفية هي دين الإسلام وهو دين إبراهيم عليه السلام ﴿وما كان من المشركين﴾ يعني إبراهيم وفيه تعريض لليهود والنصارى وغيرهم ممن يدعي اتباع ملة إبراهيم وهو على الشرك، ثم علم المؤمنين طرائق الإيمان فقال تعالى:

﴿تلك أمة﴾: جماعة، ﴿قد خلت﴾: مضت، ﴿لها ما كسبت﴾: من العمل، ﴿ولكم ما كسبتم ولا تستلون عما كانوا يعملون﴾، يعني: يستل كل عن عمله لا عن عمل غيره.

﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا﴾، قال ابن عباس: نزلت في رؤساء يهود المدينة: كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف ووهب بن يهودا وأبي ياسر بن أخطب، وفي نصارى أهل نجران السيد والعاقب وأصحابهما، وذلك أنهم خاصموا المسلمين في الدين كل فرقة تزعم أنها أحق بدين الله، فقالت اليهود: نبينا موسى أفضل الأنبياء وكتابنا التوراة أفضل الكتب وديننا أفضل الأديان، وكفرت بيسى والإنجيل وبمحمد ﷺ والقرآن، وقالت النصارى نبينا أفضل الأنبياء وكتابنا الإنجيل أفضل الكتب، وديننا أفضل الأديان وكفرت بمحمد ﷺ والقرآن وقال كل واحد من الفريقين للمؤمنين كونوا على ديننا فلا دين إلا ذلك، فقال تعالى: ﴿قل﴾ يا محمد: ﴿بل ملة إبراهيم﴾، بل تتبع ملة إبراهيم، وقال الكسائي: هو نصب على الإغراء كأنه يقول: اتبعوا ملة إبراهيم، وقيل: معناه بل نكون على ملة إبراهيم، فحذف على فصار منصوباً، ﴿حنيفاً﴾، نصب على الحال عند نحاة البصرة، وعند نحاة الكوفة نصب على القطع، أراد به ملة إبراهيم الحنيف، فلما أسقطت الألف واللام لم تتبع النكرة المعرفة فانقطع منه، فنصب. قال مجاهد: الحنيفة أتباع إبراهيم فيما أتى به من الشريعة التي صار بها إماماً للناس، قال ابن عباس: الحنيف المائل عن الأديان كلها إلى دين الإسلام، وأصله من الحنف وهو ميل وعوج يكون في القدم، وقال سعيد بن جبير: الحنيف هو الحاج المختن، وقال الضحاك: إذا كان مع الحنيف المسلم فهو الحاج، وإذا لم يكن مع المسلم فهو المسلم، قال قتادة: الحنيفة الختان وتحريم الأمهات والبنات والأخوات والعَمَّات والخالات وإقامة المناسك، ﴿وما كان من المشركين﴾، ثم علم المؤمنين طريق الإيمان فقال جل ذكره:

آمنتهم به ﴿أي بما آمنتهم به ومثل صلة فهو كقوله: «ليس كمثله شيء» أي ليس مثله شيء وقيل: فإن أتوا بإيمان كإيمانكم وتوحيد كتوحيدكم﴾ فقد اهتدوا ﴿والمعنى إن حصلوا ديناً آخر يساوي هذا الدين في الصحة، والسداد فقد اهتدوا ولكن لما استحال أن يوجد دين آخر يساوي هذا الدين في الصحة والسداد استحال الاهتداء بغيره لأن هذا الدين مبناه على التوحيد والإقرار بكل الأنبياء وما أنزل إليهم وقيل معناه فإن آمنوا بكتابكم كما آمنتهم بكتابهم فقد اهتدوا﴾ وإن تولوا ﴿أي أعرضوا﴾ فإنما هم في شقاق ﴿أي في خلاف ومنازعة وقيل: في عداوة ومحاربة وقيل: في ضلال، وأصله من الشق كأنه صار في شق غير شق صاحبه بسبب عداوته وقيل هو من المشقة لأن كل واحد منهما يحرص على ما يشق على صاحبه ويؤذيه﴾ فسيفكفهم الله ﴿أي يكفيك الله يا محمد شر اليهود والنصارى وهو ضمان من الله تعالى لإظهار رسول الله ﷺ، لأنه إذا تكفل بشيء أنجزه وهو إخبار بغيب نفيه معجزة للنبي ﷺ وقد أنجز الله وعده بقتل بني قريظة وسيبهم وإجلاء بني النضير وضرب الجزية على اليهود والنصارى﴾ وهو السميع ﴿لأقوالهم﴾ العليم ﴿بأحوالهم﴾ يسمع جميع ما ينطقون به، ويعلم جميع ما يضمرون من الحسد، والغل وهو مجازيهم، ومعاقبهم عليه. قوله عز وجل:

صَبَّغَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ نَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾

﴿صبغة الله﴾ قال ابن عباس: دين الله وإنما سماه الله صبغة لأن أثر الدين يظهر على المتدين كما يظهر أثر الصبغ على الثوب وقيل: فطرة الله وقيل: سنة الله وقيل: أراد به الختان لأنه يصبغ المختن بالدم قال ابن عباس: إن النصارى إذا ولد لأحدهم مولود وأتى عليه سبعة أيام غمسوه في ماء لهم أصفر يسمونه ماء المعمودية وصبغوه به ليظهره به مكان الختان، فإذا فعلوا ذلك به قالوا الآن صار نصرانياً حقاً، فأخبر الله أن دينه الإسلام لا ما تفعله النصارى ﴿ومن أحسن من الله صبغة﴾ أي ديناً وقيل تطهيراً لأنه يظهر من أوساخ الكفر ﴿ونحن له عابدون﴾ أي

اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق ﴿أي: في خلاف ومنازعة، قال ابن عباس وعطاء: يقال شاقّ مشاقّة إذا خالف، كأن كل واحد أخذ في شقّ غير شقّ صاحبه، قال الله تعالى: ﴿لا يجرمنكم شقاقى﴾ [هود: ٨٩] أي: خلافي، وقيل: في عداوة، دليله قوله تعالى: ﴿ذلك بأنهم شاقّوا الله﴾ [الأنفال: ١٣، الحشر: ٤]، أي عادوا الله، ﴿فسيفكفهم الله﴾: يا محمد، أي يكفيك شرّ اليهود والنصارى، وقد كُفي بإجلاء بني النضير، وقتل بني قريظة، وضرب الجزية على اليهود والنصارى، ﴿وهو السميع﴾: لأقوالهم، ﴿العليم﴾: بأحوالهم.

﴿صبغة الله﴾، قال ابن عباس في رواية الكلبي وقتادة والحسن: دين الله، وإنما سماه صبغة لأنه يظهر أثر الدين على المتدين، كما يظهر أثر الثوب على الصبغ، وقيل: لأن المتدين يلزمه ولا يفارقه كالصبغ يلزم الثوب، وقال مجاهد: فطرة الله وهو قريب من الأول، وقيل: سنة الله، وقيل: أراد به الختان لأنه يصبغ صاحبه بالدم، وقال ابن عباس: هي أن النصارى إذا ولد لأحدهم ولد وفاتت عليه سبعة أيام غمسوه في ماء لهم أصفر، يقال له المعمودية، وصبغوه به ليظهره بذلك الماء مكان الختان، فإذا فعلوا به ذلك قالوا: الآن صار نصرانياً حقاً، فأخبر الله أن دينه الإسلام لا ما يفعله النصارى، وهو نصب على الإغراء، يعني إلزموا دين الله، قال الأخفش: هي بدل

مطيعون ﴿قل﴾ يعني يا محمد لليهود والنصارى الذين قالوا إن دينهم خير من دينكم وأمروكم باتباعهم ﴿أتحتاجوننا في الله﴾ أي أخاصموننا وتجادلوننا في دين الله الذي أمرنا أن نتدين به والمحاجة المجادلة لإظهار الحجة، وذلك أنهم قالوا: إن ديننا أقدم من دينكم وإن الأنبياء منا وعلى ديننا فنحن أولى بالله منكم، فأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا لهم: أحتاجوننا في الله ﴿وهو ربنا وربكم﴾ أي ونحن وأنتم في الله سواء فإنه ربنا وربكم ﴿ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ يعني أن لكل أحد جزاء عمله ﴿ونحن له مخلصون﴾ أي مخلصو الطاعة والعبادة له وفيه توبيخ لليهود والنصارى والمعنى وأنتم به مشركون. والإخلاص أن يخلص العبد دينه، وعمله لله تعالى فلا يشرك في دينه ولا يرثي بعمله، قال الفضيل بن عياض: ترك العمل من أجل الناس رياء والعمل من أجل الناس شرك والإخلاص أن يعافيك الله منهما وهذه الآية منسوخة بآية السيف. قوله عز وجل: ﴿أم تقولون﴾ يعني اليهود والنصارى وهو استفهام ومعناه التوبيخ ﴿إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى﴾ يعني أترعمون أن إبراهيم وبنيه كانوا على دينكم وملتكم وإنما حدثت اليهودية والنصرانية بعدهم فثبت كذبكم يا معشر اليهود والنصارى على إبراهيم وبنيه ﴿قل﴾ يا محمد ﴿أنتم أعلم﴾ يعني بدينهم ﴿أم الله؟﴾ أي الله أعلم بذلك. وقد أخبر أن إبراهيم وبنيه لم يكونوا على اليهودية والنصرانية ولكن كانوا مسلمين حنفاء ﴿ومن أظلم ممن كتم﴾ يعني أخفى ﴿شهادته عنده من الله﴾ وهي علمهم بأن إبراهيم وبنيه كانوا مسلمين وأن محمداً أحق بنعته وصفته وجدوا ذلك في كتبهم وكتموه وجحدوه، والمعنى ومن أظلم ممن كتم شهادة جأته من عند الله فكتمها وأخفاها ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ يعني من كتمانكم الحق فيما ألزمكم به في كتابه من أن إبراهيم وبنيه كانوا مسلمين حنفاء. وأن الدين هو الإسلام لا اليهودية والنصرانية، والمعنى وما الله غافل عن عملكم بل هو محصيه عليكم ثم يعاقبكم عليه في الآخرة.

من قوله: ﴿ملة إبراهيم﴾، ﴿ومن أحسن من الله صبغة﴾: ديناً وقيل: تطهيراً. ﴿ونحن له عابدون﴾: مطيعون.

﴿قل﴾: يا محمد لليهود والنصارى: ﴿أتحتاجوننا في الله﴾، أي في دين الله، والمحاجة: المجادلة في الله لإظهار الحجة، وذلك بأنهم قالوا: إن الأنبياء كانوا منا وعلى ديننا، وديننا أقدم فنحن أولى بالله منكم، فقال الله: ﴿قل أحتاجوننا في الله﴾، ﴿وهو ربنا وربكم﴾، أي: نحن وأنتم سواء في الله فإنه ربنا وربكم، ﴿ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾، أي: لكل واحد جزاء عمله فكيف تدعون أنكم أولى بالله، ﴿ونحن له مخلصون﴾، وأنتم به مشركون، قال سعيد بن جبیر: الإخلاص أن يخلص العبد دينه وعمله فلا يشرك به في دينه ولا يرثي بعمله، قال الفضيل: ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما.

قال الله تعالى: ﴿أم تقولون﴾، يعني: أتقولون، صيغة استفهام، ومعناه التوبيخ، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص بالتاء، لقوله تعالى: ﴿قل أحتاجوننا في الله﴾، وقال بعده: ﴿قل أنتم أعلم أم الله﴾، وقرأ الآخرون بالياء، يعني: يقول اليهود والنصارى: ﴿إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل﴾: يا محمد ﴿أنتم أعلم﴾ بدينهم ﴿أم الله؟﴾ وقد أخبر الله تعالى أن إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً. ﴿ومن أظلم ممن كتم﴾: أخفى ﴿شهادته عنده من الله﴾ تعالى، وهي علمهم بأن إبراهيم وبنيه كانوا مسلمين، وأن محمداً ﷺ حق ورسول أشهدهم الله عليه في كتبهم، ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾.

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَنَّهُمْ عَنِ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٣﴾

﴿تلك أمة قد خلت﴾ يعني إبراهيم وبنيه ﴿لها ما كسبت﴾ أي جزاء ما كسبت ﴿ولكم ما كسبتم﴾ أي جزاء ما كسبتم ﴿ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ يعني أن كل إنسان إنما يسأل يوم القيامة عن كسبه وعمله لا عن كسب غيره وعمله، وفيه وعظ وزجر لليهود ولمن يتكل على فضل الآباء، وشرفهم أي لا تتكلوا على فضل الآباء فكل يؤخذ بعمله وإنما كررت هذه الآية لأنه إذا اختلف مواطن الحجاج، والمجادلة حسن تكريره للتذكير به وتأكيده. وقيل: إنما كرره تنبيهاً لليهود لثلاث يغتروا بشرف آبائهم. قوله عز وجل: ﴿سيقول السفهاء من الناس﴾ أي الجهال من الناس والسفه خفة في النفس لنقصان العقل في الأمور الدينية والدنيوية، ولا شك أن ذلك في باب الدين أعظم لأن العادل عن الأمر الواضح في أمر دنياه يعد سفيهاً، فمن كان كذلك في أمر دينه، كان أولى بهذا الاسم فلا كافر إلا وهو سفيه ولهذا أمكن حمل هذا اللفظ على اليهود والمشركين، والمنافقين فقليل: نزلت هذه الآية في اليهود وذلك أنهم طعنوا في تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة لأنهم لا يرون النسخ. وقيل: نزلت في مشركي مكة وذلك أنهم قالوا قد تردد على محمد أمره واشتاق مولده، وقد توجه إلى نحو بلدكم فلعله يرجع إلى دينكم وقيل نزلت في المنافقين وإنما قالوا ذلك استهزاء بالإسلام وقيل: يحتمل أن لفظ السفهاء للعموم فيدخل فيه جميع الكفار والمنافقين واليهود ويحتمل وقوع هذا الكلام من كلهم إذ لا فائدة في التخصيص، ولأن الأعداء يبالغون في الطعن والقدح فإذا وجدوا مقالاً قالوا أو مجالاً جالوا ﴿ما ولاهم﴾ يعني أي شيء صرفهم ﴿عن قبلتهم التي كانوا

﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾، كرره تأكيداً.

قوله تعالى: ﴿سيقول السفهاء﴾: الجهال ﴿من الناس ما ولاهم﴾، أي شيء صرفهم وحولهم ﴿عن قبلتهم التي كانوا عليها﴾، يعني بيت المقدس، والقبلة فعلة من المقابلة نزلت في اليهود ومشركي مكة، طعنوا في تحويل القبلة من بيت المقدس إلى مكة فقالوا لمشركي مكة: قد تردد على محمد أمره فاشتاق إلى مولده وقد توجه نحو بلدكم، وهو راجع إلى دينكم، فقال الله تعالى: ﴿قل لله المشرق والمغرب﴾: ملكاً والخلق عبيده، ﴿يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾.

﴿وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً﴾، نزلت في رؤساء اليهود، قالوا لمعاذ بن جبل: ما ترك محمد قبلتنا إلا حسداً وإن قبلتنا قبلة الأنبياء، ولقد علم محمد أنا عدل بين الناس، فقال معاذ: أنا على حق وعدل، فأنزل الله تعالى: ﴿وكذلك﴾ أي: وهكذا، وقيل: الكاف للتشبيه، وهي مردودة على قوله: ﴿ولقد اصطفيناه في الدنيا﴾ [البقرة: ١٣٠] أي: كما اخترنا إبراهيم وذريته واصطفيانهم، كذلك جعلناكم أمةً وسطاً، أي: عدلاً خياراً، قال الله تعالى: ﴿قال أوسطهم﴾ [القلم: ٢٨] أي خيرهم وأعدلهم، وخير الأشياء أوسطها، وقال الكلبي: يعني أهل دين وسط بين الغلو والتقصير لأنهما مذمومان في الدين، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أبو معشر إبراهيم بن

عليها﴾ يعني بيت المقدس، والقبلة هي الجهة التي يستقبلها الإنسان وإنما سميت قبلة لأن المصلي يقابلها وتقابله ولما قال السفهاء ذلك رد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿قل﴾ يا محمد ﴿الله المشرق والمغرب﴾ يعني أن له قطري المشرق والمغرب وما بينهما ملكاً فلا يستحق شيء أن يكون لذاته قبلة لأن الجهات كلها شيء واحد، وإنما تصير قبلة لأن الله تعالى هو الذي جعلها قبلة فلا اعتراض عليه وهو قوله: ﴿يهدي من يشاء﴾ يعني من عباده ﴿إلى صراط مستقيم﴾ يعني إلى جهة الكعبة وهي قبلة إبراهيم عليه السلام. قوله عز وجل: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ الكاف في قوله وكذلك كاف التشبيه جاء لمشبه به وفيه وجوه أحدها أنه معطوف على ما تقدم من قوله في حق إبراهيم: ولقد اصطفيناه في الدنيا، وكذلك جعلناكم أمة وسطاً الثاني أنه معطوف على قوله: ﴿يهدي من يشاء﴾ إلى صراط مستقيم. وكذلك هديناكم وجعلنا قبلتكم وسطاً بين المشرق والمغرب كذلك جعلناكم أمة وسطاً يعني عدولاً خياراً، وخير الأمور أوسطها، قال زهير:

هم وسط يرضى الأنام بحكمهم إذا نزلت إحدى الليالي بمعظم

وقيل: متوسطة والمعنى أهل دين وسط بين الغلو والتقصير، لأنهما مذمومان في أمر الدين لا كغلو النصارى في عيسى، ولا كتقصير اليهود في الدين وهو تحريفهم وتبديلهم. وسبب نزول هذه الآية أن رؤساء اليهود قالوا لمعاذ بن جبل: ما ترك محمد قبلتنا إلا حسداً وإن قبلتنا قبلة الأنبياء ولقد علم محمد أننا أعدل الناس فقال معاذ: إنا على حق وعدل فأنزل الله تعالى هذه الآية. وروى أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «ألا وإن هذه الأمة توفي سبعين أمة هي آخرها، وخيرها وأكرمها على الله تعالى». وقوله تعالى: ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾ يعني يوم القيامة أن الرسل قد بلغتهم رسالات ربهم، وقيل: إن أمة محمد ﷺ شهداء على من ترك الحق من الناس أجمعين ﴿ويكون الرسول﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿عليكم شهداء﴾ يعني عدلاً مزيكاً لكم وذلك أن الله تعالى يجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد ثم يقول لكفار الأمم: ألم يأتكم نذير فينكرون ويقولون ما جاءنا من نذير فيسأل الله الأنبياء عن ذلك فيقولون: كذبوا قد بلغناهم فيسألهم البينة وهو أعلم بهم إقامة الحجة فيقولون أمة محمد تشهد لنا فيؤتى بأمة محمد عليه الصلاة والسلام، فيشهدون لهم بأنهم قد بلغوا فتقول الأمم الماضية من أين علموا وإنما

محمد بن الحسين الوراق، أنا أبو عبد الله محمد بن زكريا بن يحيى، أنا أبو الصلت أنا حماد بن زيد أنا علي بن زيد عن أبي نصر، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ يوماً بعد العصر، فما ترك شيئاً إلى يوم القيامة إلا ذكره في مقامه ذلك، حتى إذا كانت الشمس على رؤوس النخل وأطراف الحيطان، قال: «إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا، ألا وأن هذه الأمة توفي سبعين أمة هي آخرها وأخيرها وأكرمها على الله تعالى»، قوله تعالى: ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾، يوم القيامة أن الرسل قد بلغتهم، قال ابن جريج: قلت لعطاء: ما معنى قوله تعالى: ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾؟ قال: أمة محمد ﷺ شهداء على من يترك الحق من الناس أجمعين، ﴿ويكون الرسول﴾: محمد ﷺ ﴿عليكم شهداء﴾: مَعْدَلٌ مَزِيكٌ لكم، وذلك أن الله تعالى يجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، ثم يقول لكفار الأمم الماضية: ألم يأتكم نذير؟ فينكرون ويقولون: ما جاءنا من بشير ولا نذير فيسأل الله الأنبياء عليهم السلام عن ذلك فيقولون: كذبوا قد بلغناهم: فيسأل البينة - وهو أعلم بهم إقامة للحجة - فيؤتى بأمة محمد ﷺ فيشهدون لهم أنهم بلغوا فتقول الأمم الماضية من أين علموا أو إنما أتوا بعدنا؟ فيسأل هذه الأمة فيقولون: أرسلت إلينا رسولاً وأنزلت عليه كتاباً أخبرتنا فيه بتبليغ الرسل وأنت صادق فيما أخبرت، ثم يؤتى بمحمد ﷺ فيسأل عن حال أمة فيزيكهم ويشهد بصدقهم، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن

أتوا بعدنا؟ فيسأل هذه الأمة. فيقولون: أرسلت إلينا رسولاً وأنزلت عليه كتاباً أخبرتنا فيه بتبليغ الرسل وأنت صادق فيما أخبرت ثم يؤتى بمحمد ﷺ فيسأل عن حال أمته فيزيكهم ويشهد بصدقهم (خ) عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يجاء بنوح وأمته يوم القيامة فيقال له: هل بلغت؟ فيقول نعم أي رب فيسأل أمته هل بلغكم؟ فيقولون ما جاءنا من نذير فيقال لنوح من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته فيجاء بكم فتشهدون» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ زاد الترمذي وسطاً عدولاً.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ أي وما جعلنا صرفك عن القبلة التي كنت عليها، وهي بيت المقدس، وإنما حذف ذكر الصرف اكتفاء بدلالة اللفظ عليه، وقيل: معناه وما جعلنا القبلة التي كنت عليها منسوخة وقيل: معناه وما جعلنا القبلة التي كنت عليها وهي الكعبة و﴿إِلَّا لَنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾ فإن قلت ما معنى قوله: ﴿إِلَّا لَنَعْلَمَ﴾ وهو عالم بالأشياء كلها قبل كونها قلت: أراد به العلم الذي يتعلق به الثواب والعقاب فإنه لا يتعلق بما هو عالم به في الغيب إنما يتعلق بما يوجد. والمعنى لنعلم العلم الذي يستحق العامل عليه الثواب والعقاب، وقيل: العلم هنا بمعنى الرؤية أي لنرى ونميز من يتبع الرسول في القبلة ممن ينقلب على عقبيه وقيل: معناه إلا لنعلم رسلي وحزبي وأوليائي من المؤمنين من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وكان من شأن العرب إضافة ما فعله الاتباع إلى الكبير. كقولهم: فتح عمر العراق وجبى خراجها وإنما فعل ذلك أتباعه عن أمره، وقيل إنما قال إلا لنعلم وهو بذلك عالم قبل كونه على وجه الرفق بعباده ومعناه إلا لتعلموا، أنتم إذ كنتم جهالاً به قبل كونه بإضافة العلم إلى نفسه رفقاً بعباده المخاطبين. وقيل: معناه لعلنا لأنه تعالى سبق في علمه أن تحويل القبلة

إسماعيل، أخبرنا إسحق بن منصور أخبرنا أبو أسامة قال الأعمش: أخبرنا أبو صالح عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يجاء بنوح يوم القيامة فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم يا رب، فيسأل أمته هل بلغكم؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير، فيقال: مَنْ شهودك؟ فيقول: محمد وأمته، فقال رسول الله ﷺ: فيجاء بكم فتشهدون»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾، أي: تحويلها، يعني عن بيت المقدس، فيكون من باب حذف المضاف، ويحتمل أن يكون المفعول الثاني للجعل محذوفاً على تقدير: وما جعلنا القبلة التي كنت عليها منسوخة، وقيل معناه التي أنت عليها وهي الكعبة، كقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١١٠] أي: أنتم، ﴿إِلَّا لَنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾، فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿إِلَّا لَنَعْلَمَ﴾ وهو عالم بالأشياء كلها قبل كونها؟ قيل: أراد به العلم الذي يتعلق به الثواب والعقاب، فإنه لا يتعلق بما هو عالم به في الغيب، إنما يتعلق بما يوجد معناه لنعلم العلم الذي يستحق العامل عليه الثواب والعقاب، وقيل: إلا لنعلم أي: لنرى ونميز من يتبع الرسول في القبلة، ﴿مَنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبِهِ﴾، فيرتد، وفي الحديث: «أَنَّ الْقِبْلَةَ لَمَّا حُوِّلَتْ ارْتَدَّ قَوْمٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ، وَقَالُوا: رَجَعَ مُحَمَّدٌ إِلَى دِينِ آبَائِهِ»، وقال أهل المعاني: معناه إلا لعلنا من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، كأنه سبق في علمه أن تحويل القبلة سبب لهداية قوم وضلالة قوم، وقد يأتي لفظ الاستقبال بمعنى الماضي، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّ تَقْتُلُوا أَنْبِيَاءَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٩١]، أي: فلم تقتلهم ﴿وإن كانت﴾، أي: وقد كانت، أو تولية القبلة، وقيل: الكتابة راجعة إلى القبلة، وقيل: إلى الكعبة، قال الزجاج: وإن كانت التحويلة، ﴿لكبيرة﴾: ثقيلة شديدة، ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾، أي: هداهم الله، قال سيبويه: (وإن) تأكيد شبيهة باليمين، ولذلك دخلت اللام في جوابها، ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾، وذلك أن

سبب لهداية قوم وضلالة آخرين ومعنى من يتبع الرسول أي يطيعه في أمر القبلة وتحويلها ﴿ممن ينقلب على عقبيه﴾ أي يرجع إلى ما كان عليه من الكفر فيرتد، وفي الحديث «إنه لما تحولت القبلة إلى الكعبة ارتد قوم إلى اليهودية وقالوا رجع محمد إلى دين آبائه» ﴿وإن كانت﴾ أي وقد كانت ﴿لكبيرة﴾ يعني تولية القبلة ثقيلة شاقة وقيل هي التولية من بيت المقدس إلى الكعبة وقيل الكبيرة هي القبلة التي وجهه إليها قيل التحويل وهي بيت المقدس، وأنت الكبيرة لتأنيث القبلة وقيل: لتأنيث التولية ﴿إلا على الذين هدى الله﴾ يعني الصادقين في اتباع الرسول ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ يعني صلاتكم إلى بيت المقدس، وذلك أن حيي بن أخطب وأصحابه من اليهود قالوا للمسلمين: أخبرونا عن صلاتكم إلى بيت المقدس إن كانت على هدى فقد تحولتم عنه وإن كانت على ضلالة فقد دنتم الله بها مدة، ومن مات عليها فقد مات على ضلالة فقال المسلمون: إنما الهدى فيما أمر الله به والضلالة نهى الله عنه قالوا: فما شهادتكم على من مات منكم على قبلتنا وكان قد مات قبل أن تحول القبلة إلى الكعبة أسعد بن زرارة من بني النجار والبراء بن معرور من بني سلمة وكانا من النقباء ورجال آخرون فانطلق عشائهم إلى النبي ﷺ فقالوا يا رسول الله قد صرفك الله إلى قبلة إبراهيم فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس فأنزل الله تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ يعني صلاتكم إلى بيت المقدس ﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ يعني لا يضيع أجورهم، والرأفة أخص من الرحمة وأرق، وقيل: الرأفة أشد من الرحمة. وقيل: الرأفة الرحمة وقيل: في الفرق بين الرأفة والرحمة. أن الرأفة مبالغة في رحمة خاصة، وهي دفع المكروه وإزالة الضرر وأما الرحمة فإنها اسم جامع يدخل فيه ذلك المعنى ويدخل فيه أيضاً جميع الإفضال والإنعام فذكر الله الرأفة، ولا بمعنى أنه لا نضيع أعمالهم ثم ذكر الرحمة ثانياً لأنها أعم وأشمل. قوله عز وجل: .

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾

﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾ سبب نزول هذه الآية أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا يصلون بمكة إلى

حيي بن أخطب وأصحابه من اليهود، قالوا للمسلمين: أخبرونا عن صلاتكم نحو بيت المقدس إن كانت هدى، فقد تحولتم عنها، وإن كانت ضلالة فقد دنتم الله بها؟ ومن مات منكم عليها فقد مات على الضلالة، فقال المسلمون إنما الهدى ما أمر الله به، والضلالة ما نهى الله عنه، قالوا: فما شهادتكم على من مات منكم على قبلتنا، وكان قد مات قبل أن تحول إلى الكعبة من المسلمين أسعد بن زرارة، من بني النجار والبراء بن معرور من بني سلمة، وكانا من النقباء، ورجال آخرون، فانطلق عشائهم إلى النبي ﷺ وقالوا: يا رسول الله قد صرفك الله إلى قبلة إبراهيم فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾، يعني: صلاتكم إلى بيت المقدس، ﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾، قرأ أهل الحجاز وابن عامر وحفص لرؤوف مشبهاً على وزن فعول، لأن أكثر أسماء الله تعالى على فعول وفعل، كالغفور والشكور والرحيم والكريم وغيرها، وأبو جعفر يلين الهمزة، وقرأ الآخرون بالاختلاس على وزن فعل، قال جرير:

للمسلمين عليك حقاً كفعل الواحد الرؤوف الرحيم

والرأفة: أشد الرحمة.

﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾، هذه الآية وإن كانت متأخرة في التلاوة فهي متقدمة في المعنى، فإنها

الكعبة، فلما هاجر إلى المدينة أحب أن يستقبل بيت المقدس يتألف بذلك اليهود وقيل إن الله تعالى أمره بذلك ليكون أقرب إلى تصديق اليهود إياه، إذا صلى إلى قبلتهم مع ما يجدون من نعتة وصفته في التوراة فصلّى إلى بيت المقدس بعد الهجرة ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، وكان يحب أن يتوجه إلى الكعبة لأنها قبله أبيه إبراهيم، وقيل: كان يحب ذلك من أجل أن اليهود قالوا: يخالفنا محمد في ديننا ويتبع قبلتنا فقال رسول الله ﷺ لجبريل: وددت لو حولني الله إلى الكعبة فإنها قبله أبي إبراهيم فقال: جبريل ﷺ إنما أنا عبد مثلك وأنت كريم على ربك فسل أنت ربك فإنك عند الله بمكان ثم عرج جبريل وجعل رسول الله ﷺ يديم النظر إلى السماء، رجاء أن ينزل جبريل بما يحب من أمر القبلة فأنزل الله عز وجل قد نرى تقلب وجهك في السماء يعني، تردد وجهك وتصرف نظرك في السماء أي إلى جهة السماء، وهذه الآية وإن كانت متأخرة في التلاوة فهي متقدمة في المعنى لأنها رأس القصة وأول ما نسخ من أحكام الشرع أمر القبلة ﴿فلنولينك﴾ أي فلنحولنك ولنصرفنك ﴿قبلة﴾ أي ولنصرفنك عن بيت المقدس إلى قبله ﴿ترضاها﴾ أي تحبها وتميل إليها ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ أي نحوه وتلقاه وأراد به الكعبة (ق) عن ابن عباس قال: لما دخل النبي ﷺ البيت دعا في نواحيه كلها ولم يصل حتى خرج منه ولما خرج ركع ركعتين قبل الكعبة وقال هذه القبلة يعني أن أمر القبلة قد استقر على هذا البيت فلا ينسخ بعد اليوم فصلوا إلى الكعبة أبداً فهي قبلتكم (ق) عن البراء بن عازب أن النبي ﷺ كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده، أو قال أخواله من الأنصار وأنه صلى قبل بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم فخرج رجل ممن صلى معه، فمر على أهل مسجد قباء وهم راكعون فقال أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قبل الكعبة فداروا كما هم قبل البيت وكانت اليهود قد أعجبهم إذ ذاك أنه يصلي قبل بيت المقدس، وهي قبله أهل الكتاب فلما ولي وجهه قبل البيت أنكروا ذلك. قال البراء في حديثه هذا: وأنه مات على القبلة قبل أن تحول رجال وقتلوا فلم ندر ما نقول فيهم فأنزل الله

رأس القصة، وأمر القبلة أول ما نسخ من أمور الشرع، وذلك أن رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا يصلون بمكة إلى الكعبة فلما هاجر إلى المدينة أمره أن يصلي نحو صخرة بيت المقدس، ليكون أقرب إلى تصديق اليهود إياه إذا صلى إلى قبلتهم مع ما يجدون من نعتة في التوراة، فصلّى بعد الهجرة ستة عشر أو سبعة عشر شهراً إلى بيت المقدس، وكان يجب أن يُوجّه إلى الكعبة لأنها كانت قبله أبيه إبراهيم عليه السلام، وقال مجاهد: كان يحب ذلك من أجل اليهود لأنهم كانوا يقولون يخالفنا محمد ﷺ في ديننا ويتبع قبلتنا، فقال لجبريل عليه السلام وددت لو حولني الله إلى الكعبة، فإنها قبله أبي إبراهيم عليه السلام، فقال جبريل: إنما أنا عبد مثلك وأنت كريم على ربك فسل أنت ربك فإنك عند الله عز وجل بمكان، فعرج جبريل عليه السلام وجعل رسول الله ﷺ يديم النظر إلى السماء رجاء أن ينزل جبريل بما يحب من أمر القبلة، فأنزل الله تعالى: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾، ﴿فلنولينك قبلة﴾، فلنحولنك إلى قبله ﴿ترضاها﴾، أي: تحبها وتهواها، ﴿فول﴾ أي: حول ﴿وجهك شطر المسجد الحرام﴾ أي: نحوه، وأراد به الكعبة، والحرام: المحرم، ﴿وحيثما كنتم﴾، من بر أو نحو شرق أو غرب: ﴿فولوا وجوهكم شطره﴾، عند الصلاة، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا إسحاق بن نصر، أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج عن عطاء قال: سمعت ابن عباس قال: لما دخل النبي ﷺ البيت دعا في نواحيه كلها ولم يصل حتى خرج منه، فلما خرج ركع ركعتين في قبل الكعبة وقال: «هذه القبلة»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا عمرو بن خالد، أخبرنا زهير أخبرنا أبو

تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ واختلفت العلماء في وقت تحويل القبلة فقال الأكثرون: كان في يوم الاثنين بعد الزوال للنصف من رجب، على رأس سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله ﷺ المدينة وقيل: كان يوم الثلاثاء لثمانية عشر شهراً وقيل: كان لسته عشر شهراً وقيل: لثلاثة عشر شهراً وقيل: نزلت ورسول الله ﷺ في مسجد بني سلمة وقد صلى بأصحابه ركعتين من صلاة الظهر، فتحول في الصلاة واستقبل الميزاب وحول الرجال مكان النساء، والنساء مكان الرجال، فسُمي ذلك المسجد مسجد القبلتين، ووصل الخبر إلى أهل قباء في صلاة الصبح (ق) عن ابن عمر قال: بينما الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال: إن النبي ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل القبلة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة. وقوله تعالى: ﴿وحيثما كنتم﴾ أي من بر أو بحر مشرق أو مغرب ﴿فولوا وجوهكم شطره﴾ أي نحو البيت وتلقاه، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما بين المشرق والمغرب قبلة» أخرجه الترمذي. وقال: حديث حسن صحيح، قيل: أراد بالمشرق مشرق الشتاء في أقصر يوم من السنة وبالمغرب مغرب الصيف في أطول يوم من السنة فمن جعل مغرب الصيف في هذا الوقت عن يمينه ومشرق الشتاء عن يساره كان مستقبلاً للقبلة، وهذا في حق أهل المشرق لأن المشرق الشتوي جنوبي متباعد عن خط الاستواء بمقدار الميل، والمغرب الصيفي شمالي متباعد عن خط الاستواء والذي بينهما فقوسها مكة. والفرض لمن بمكة في القبلة إصابة عين الكعبة، ولمن بعد من مكة إصابة الجهة، ويعرف ذلك بدلائل القبلة وليس هذا موضع ذكرها، ولما تحولت القبلة إلى الكعبة قالت اليهود: يا محمد ما هو إلا شيء ابتدعته من تلقاء نفسك فتارة تصلي إلى بيت المقدس وتارة إلى الكعبة ولو ثبت على قبلتنا لكننا نرجو أن تكون صاحبنا الذي ننتظره فأنزل الله تعالى ﴿وإن الذين أوتوا الكتاب﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿ليعلمون أنه الحق من ربهم﴾ يعني أمر القبلة وتحويلها إلى الكعبة ثم هددهم فقال تعالى: ﴿وما الله بغافل عما يعملون﴾

إسحق، عن براء أن النبي ﷺ كان أول ما قَدِمَ المدينة نزل على أجداده أو قال أخواله من الأنصار وإنه صلى قبل بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاتها صلاة العصر، وصلى معه قوم فخرج رجل ممن صلى معه، فمر على أهل مسجد وهم راكعون، فقال: أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قبل مكة، فداروا كما هم قبل البيت، وكانت اليهود قد أعجبهم إذا كان يصلي قبل بيت المقدس، وأهل الكتاب، فلما تولى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك، وقال البراء في حديثه هذا: إنه مات على القبلة قبل أن تحول رجالٌ وقتلوا فلم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ [البقرة: ١٤٣]، وكان تحويل القبلة في رجب بعد زوال الشمس قبل قتال بدر بشهرين. قال مجاهد وغيره: نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ في مسجد بني سلمة، وقد صلى بأصحابه ركعتين من صلاة الظهر، فتحول في صلاة واستقبل الميزان، وحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال، فسُمي ذلك المسجد مسجد القبلتين، وقيل: كان التحويل خارج الصلاة بين الصلاتين، وأهل قباء وصل إليهم الخبر في صلاة الصبح. أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي أخبرنا أبو علي زاهر بن أحمد الفقيه السرخسي، أخبرنا أبو إسحق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي السامري، أخبرنا أبو مصعب أحمد بن أبي بكر الزهري، عن مالك بن أنس عن عبد الله بن دينار أن عبد الله بن عمر قال: بينا الناس بقباء في صلاة الصبح إذا جاءهم آت وقال لهم: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة، فلما تحولت القبلة قالت اليهود: يا محمد ما هو إلا شيء ابتدعه من تلقاء نفسك فتارة تصلي إلى بيت المقدس وتارة إلى الكعبة، ولو ثبت على قبلتنا لكننا نرجو أن تكون صاحبنا الذي ننتظره، فأنزل الله تعالى: ﴿وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون

يعني وما أنا بساه عما يفعل هؤلاء اليهود، فأنا أجازيهم عليه في الدنيا والآخرة وقرىء تعملون بالتاء. قال ابن عباس: يريد أنكم يا معشر المؤمنين تطلبون مرضاتي وما أنا بغافل عن ثوابكم جزائكم فأنا أثيبكم على طاعتكم أفضل الثواب، وأجزيكم أحسن الجزاء. قوله عز وجل:

وَلَيْنَ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾

﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿بكل آية﴾ أي بكل معجزة وقيل: بكل حجة وبرهان وذلك بأنهم قالوا: إئتنا بآية على ما تقول فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ما تبعوا قبلك﴾ يعني الكعبة ﴿وما أنت بتابع قبلتهم﴾ يعني أن اليهود تصلي إلى بيت المقدس والنصارى إلى المشرق وأنت يا محمد تصلي إلى الكعبة. فكيف يكون سبيل إلى اتباع قبلة أحد هؤلاء مع اختلاف جهاتها فالزم أنت قبلك التي أمرت بالصلاة إليها ﴿وما بعضهم بتابع قبلة بعض﴾ يعني وما اليهود بتابعة قبلة النصارى ولا النصارى بتابعة قبلة اليهود، لأن اليهود والنصارى لا يجتمعون على قبلة واحدة ﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ يعني مرادهم ورضاهم لو رجعت إلى قبلتهم ﴿من بعد ما جاءك من العلم﴾ أي في أمر القبلة وقيل معناه: من بعد ما وصل إليك من العلم بأن اليهود والنصارى مقيمون على باطل، وعناد للحق ﴿إنك إذا لمن الظالمين﴾ يعني أنك إن فعلت ذلك كنت بمنزلة من ظلم نفسه وضرها. قيل: هذا خطاب للنبي ﷺ والمراد به الأمة لأنه ﷺ لا يتبع أهواءهم أبداً. وقيل: هو خطاب له خاصة فيكون ذلك على سبيل التذكير والتنبيه. قوله عز وجل:

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ

أنه ﴿يعني أمر الكعبة﴾، ﴿الحق من ربهم﴾، ثم هددهم فقال: ﴿وما الله بغافل عما يعملون﴾، قرأ أبو جعفر وابن عامر وحزمة والكسائي بالتاء، قال ابن عباس: يريد أنكم يا معشر المؤمنين تطلبون مرضاتي وما أنا بغافل عن ثوابكم جزائكم، وقرأ الباقر بالياء، يعني: ما أنا بغافل عما يفعل اليهود فأجازيهم في الدنيا وفي الآخرة.

قوله تعالى: ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب﴾ يعني: اليهود والنصارى، قالوا: إئتنا بآية على ما تقول، قال الله تعالى: ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية﴾: معجزة، ﴿ما تبعوا قبلك﴾ يعني: الكعبة، ﴿وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض﴾، لأن اليهود تستقبل بيت المقدس وهو المغرب، والنصارى تستقبل المشرق، وقبلة المسلمين الكعبة، أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي، أخبرنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد بن الجراح، أخبرنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي أخبرنا أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، أخبرنا الحسن بن بكر المروزي أخبرنا المعلى بن منصور أخبرنا عبد الله بن جعفر المخزومي، عن عثمان الأحنسي عن سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قبلة ما بين المشرق والمغرب»، وأراد به في حق أهل المشرق وأراد بالمشرق: مشرق الشتاء في أقصر يوم من السنة، وبالمغرب: مغرب الصيف في أطول يوم من السنة، فمن جعل مغرب الصيف في هذا الوقت على يمينه ومشرق الشتاء على يساره كان وجهه إلى القبلة. ﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾: مرادهم، الخطاب مع النبي ﷺ، والمراد به الأمة، ﴿من بعد ما جاءك من العلم﴾، من الحق في القبلة، ﴿إنك إذا لمن الظالمين﴾.

مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيًّا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾

﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ يعني علماء اليهود والنصارى وقيل: أراد به مؤمني أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿يعرفونه﴾ أي يعرفون محمداً ﷺ معرفة جليلة بالوصف المعين الذي يجدونه عندهم ﴿كما يعرفون أبناءهم﴾ أي لا يشكون فيه ولا تشبهه عليهم كما لا يشبهه عليهم أبناءهم من أبناء غيرهم، روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لعبد الله بن سلام: إن الله أنزل على نبيه محمد ﷺ: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾ فكيف هذه المعرفة؟ فقال عبدالله: يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني ومعرفتي بمحمد ﷺ أشد من معرفتي بابني فقال عمر وكيف ذلك فقال: أشهد أنه رسول الله حق من الله وقد نعته الله في كتابنا ولا أدري ما تصنع النساء، فقبل عمر رأس عبدالله وقال: وفقك الله يا ابن سلام فقد صدقت. وقيل: الضمير في يعرفونه يعود إلى أمر القبلة والمعنى أن علماء اليهود والنصارى يعرفون أن القبلة التي صرفتك إليها هي قبلة إبراهيم وقبلة الأنبياء قبلك كما يعرفون أبناءهم لا يشكون في ذلك ﴿وإن فريقاً منهم﴾ أي من علماء أهل الكتاب ﴿ليكتُمون الحق﴾ يعني صفة محمد ﷺ. وقيل أمر القبلة ﴿وهم يعلمون﴾ يعني أن كتمان الحق معصية. وقيل يعلمون أن صفة محمد ﷺ مكتوبة عندهم في التوراة والإنجيل وهم مع ذلك يكتُمونه ﴿الحق﴾ أي الذي يكتُمونه هو الحق ﴿من ربك فلا تكونن من الممترين﴾ أي من الشاكين في أن الذين تقدم ذكرهم، علموا صحة نبوتك وقيل: يرجع إلى أمر القبلة والمعنى أن بعضهم عاند وكنم الحق فلا تشك في ذلك. فإن قلت: النبي ﷺ لم يمتز ولم يشك فما معنى هذا النهي؟. قلت: هذا الخطاب وإن كان للنبي ﷺ ولكن المراد غيره والمعنى فلا تشكوا أتم أيها المؤمنون وقد تقدم نظير هذا. قوله عز وجل: ﴿ولكل وجهة﴾ أي ولكل أهل ملة قبلة، والوجهة اسم للمتوجه إليه. وقيل الوجهة الهيئة والحالة في التوجه إلى القبلة، وقيل في قوله: ﴿ولكل وجهة﴾ إن المراد به جميع المؤمنين، أي ولكل أهل جهة من الآفاق وجهة من الكعبة يصلون إليها. وقيل: المراد بالوجهة المنهاج والشرع والمعنى ولكل قوم شريعة وطريقة لأن الشرائع مصالح للعباد فلهاذا اختلفت الشرائع بحسب اختلاف الزمان والأشخاص ﴿هو موليا﴾ أي مستقبلها والمعنى أن لكل أهل ملة وجهة هو مول وجهه إليها، وقيل: متوليها أي مختارها وقيل: إن هو عائد على اسم الله تعالى، والمعنى إن الله موليا إياه، وقرئ مولأها أي مصروف إليها

قوله تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾، يعني: مؤمني أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه، ﴿يعرفونه﴾، يعني: يعرفون محمداً ﷺ ﴿كما يعرفون أبناءهم﴾: من بين الصبيان، قال عمر بن الخطاب لعبد الله بن سلام: إن الله قد أنزل على نبيه ﷺ ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾، فكيف هذه المعرفة؟ قال عبد الله: يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما عرفت ابني، ومعرفتي بمحمد ﷺ أشد من معرفتي بابني، فقال عمر: كيف ذلك؟ فقال أشهد أنه رسول حق من الله تعالى، وقد نعته الله في كتابنا، ولا أدري ما تصنع النساء، فقال عمر: وفقك الله يا ابن سلام فقد صدقت، ﴿وإن فريقاً منهم ليكتُمون الحق﴾، يعني: صفة محمد ﷺ وأمر الكعبة، ﴿وهم يعلمون﴾.

ثم قال: ﴿الحق من ربك﴾، أي: هذا الحق خير، مبتدأ مضمَر، وقيل: رُفِع بإضمار فعل، أي: جاء الحق من ربك، ﴿فلا تكونن من الممترين﴾: الشاكين.

قوله تعالى: ﴿ولكل وجهة﴾، أي: لأهل كل ملة قبلة، والوجهة: اسم للمتوجه إليه، ﴿هو موليا﴾،

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ أي بادروا بالطاعات وقبول الأوامر وفيه حث على المبادرة إلى الأولوية والأفضلية. فعلى هذا تكون الآية دليلاً لمذهب الشافعي في أن الصلاة أول الوقت أفضل لقوله: فاستبقوا الخيرات لأن ظاهر الأمر للوجوب، فإذا لم يتحقق الوجوب فلا أقل من الندب ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا﴾ يعني أنتم وأهل الكتاب ﴿يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً﴾ يعني يوم القيامة فهو وعد لأهل الطاعة بالثواب ووعد لأهل المعصية بالعقاب ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي على الإعادة بعد الموت والإثابة لأهل الطاعة والعقاب لمستحق العقوبة. قوله عز وجل:

وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَئِمَّتْ عَلَيْنِي عَلَيْكُمْ وَلَمَّا كُنْتُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

﴿ومن حيث خرجت فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام﴾ أي من أي موضع خرجت في سفر وغيره فولِّ وجهك يا محمد قبل المسجد الحرام ونحوه ﴿وَإِنَّهُ﴾ يعني التوجه إليه ﴿لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي الحق الذي لا شك فيه فحافظ عليه ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي ليس هو بساه عن أعمالكم، ولكنه محصها لكم، وعليكم فيجازيكم بها يوم القيامة ﴿ومن حيث خرجت فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام﴾ وحيث ما كنتم فولُّوا وجوهكم شطره ﴿فإن قلت: هل في هذا التكرار فائدة. قلت: فيه فائدة عظيمة جلييلة وهي أن هذه الواقعة أول الوقائع التي ظهر النسخ فيها في شرعنا، فدعت الحاجة إلى التكرار لأجل التأكيد والتقرير وإزالة الشبهة، وإيضاح البيان فحسن التكرار فيهم لنقلهم من جهة إلى جهة ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾ قيل: أراد بالناس أهل الكتاب: وقيل: هو على

أي: مستقبلها، ومُقبل عليها، يقال: ولَّيتَه، وولَّيت إليه إذا أقبلت عليه، وولَّيت عنه إذا أدبرت عنه، قال مجاهد: هو مولَّيها وجهه، وقال الأخفش: هو كناية عن الله عز وجل، يعني: مولَّى الأمم إلى قبيلتهم، وقرأ ابن عامر: هو مولاها، أي: المستقبل مصروف إليها، ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾، أي: إلى الخيرات، يريد بادروا بالطاعات، والمراد: المبادرة إلى القبول، ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا﴾: أنتم وأهل الكتاب، ﴿يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً﴾: يوم القيامة فيجزيكم بأعمالكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿ومن حيث خرجت فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون﴾، قرأ أبو عمرو بالياء، والباقون بالتاء.

﴿ومن حيث خرجت فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام﴾ وحيثما كنتم فولُّوا وجوهكم شطره ﴿، وإنما كرَّره لتأييد النسخ، ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا﴾، اختلفوا في تأويل هذه الآية، ووجه قوله: ﴿إِلَّا﴾ فقال بعضهم: معناه حُوِّلَت الْقِبْلَةُ إِلَى الْكَعْبَةِ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِذَا تَوَجَّهْتُمْ إِلَى غَيْرِهَا، فيقولون: ليست لكم قبلة، إلا الذين ظلموا وهم قريش واليهود، فأما قريش فتقول: رجع محمد إلى الكعبة لأنه علم أنها الحق وأنها قبلة آبائه، فكذلك يرجع إلى ديننا، وأما اليهود فتقول لم ينصرف عن بيت المقدس مع علمه بأنه حق إلا أنه يعمل برأيه، وقال قوم: لئلا يكون للناس عليكم حجة يعني: اليهود، وكانت حجَّتْهم على طريق المخاصمة على المؤمنين في صلاتهم إلى بيت المقدس، أنهم كانوا يقولون: ما درى محمدٌ ﷺ وأصحابه أين قبيلتهم حتى هديناهم نحن، وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، وهم مشركوا مكة، وحجَّتْهم أنهم قالوا لما صرفت

العموم وقيل هم قريش واليهود فأما قريش فقالوا: رجع محمد إلى الكعبة لأنه علم أنها الحق وأنها قبله أبيه وسيرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا وقالت اليهود: لم ينصرف محمد عن بيت المقدس مع علمه أنه حق إلا أنه يعمل برأيه فعلى هذا يكون الاستثناء في قوله: إلا الذين ظلموا منهم متصلاً صحيحاً والمعنى، لا حجة لأحد عليكم إلا مشركو قريش واليهود فإنهم يجادلونك الباطل والظلم، وإنما سمي الاحتجاج بالباطل حجة، لأن اشتقاقها من حجه إذا غلبه فكما تكون صحيحة فكذلك تسمى حجة وتكون باطلة قال الله تعالى: ﴿حجتهم داحضة عند ربهم﴾ وقيل: هذا الاستثناء منقطع عن الكلام الأول، ومعناه لكن الذين ظلموا منهم يجادلونك بالباطل كما قال النابغة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتاب

أي لكن سيوفهم بهن فلول، وليس بعيب وقيل: في معنى الآية إن اليهود عرفوا أن الكعبة قبله إبراهيم ووجدوا في التوراة أن محمداً سيحول إليها فتكون حجتهم أنهم يقولون إن النبي الذي نجده في كتابنا سيحول إلى الكعبة ولم تحول أنت فلما حول إلى الكعبة ذهبت حجتهم ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ أي إلا أن يظلموا فيكتموا ما عرفوا من الحق.

﴿فلا تخشوهم﴾ أي فلا تخافوهم في انصرافكم إلى الكعبة في تظاهرهم عليكم بالمجادلة الباطلة فإني وليكم وناصركم، أظهركم عليهم بالحجة والنصرة ﴿واخشوني﴾ أي احذروا عقابي إن أنتم عدلتم عما ألزمتكم به

قبلتهم إلى الكعبة: إن محمداً قد تحير في دينه وسيعود إلى ملتنا كما عاد إلى قبلتنا، وهذا معنى قول مجاهد وعطاء وقتادة، وعلى هذين التأويلين يكون الاستثناء صحيحاً، وقوله: ﴿إلا الذين ظلموا﴾ يعني: لا حجة لأحد عليكم إلا مشركو قريش فإنهم يحاجونكم فيجادلونكم ويخاصمونكم بالباطل والظلم، والاحتجاج بالباطل يسمى: حجة، كما قال الله تعالى: ﴿حجتهم داحضة عند ربهم﴾ [الشورى: ١٦]، وموضع ﴿الذين﴾ خفض كأنه قال: سوى إلا الذين ظلموا، قاله الكسائي، وقال الفراء: نصب بالاستثناء، قوله تعالى: ﴿منهم﴾، يعني: من الناس، وقيل: هذا استثناء منقطع عن الكلام الأول، معناه ولكن الذين ظلموا يجادلونكم بالباطل، كما قال الله تعالى: ﴿ما لهم به من علم إلا اتباع الظن﴾ [النساء: ١٥٧]، يعني: لكن يتبعون الظن، فهو كقول الرجل: ما لك عندي حق إلا أن تظلمني، قال أبو روق: لثلاث يكون للناس، يعني: اليهود عليكم حجة، وذلك أنهم عرفوا أن الكعبة لإبراهيم، ووجدوا في التوراة أن محمداً سيحول إليها، فحوّله الله تعالى إليها لثلاث يكون لهم حجة فيقولوا: إن النبي الذي نجده في كتابنا سيحول إليها ولم تحول أنت، فلما حول إليها ذهبت حجتهم، إلا الذين ظلموا، يعني: إلا أن يظلموا فيكتموا ما عرفوا من الحق، وقال أبو عبيدة: قبله إلا الذين ظلموا ليس باستثناء، ولكن ﴿إلا﴾ في موضع واو العطف، يعني: والذين ظلموا أيضاً لا يكون لهم حجة، كما قال الشاعر:

وكل أخ مفارقه أخوه لعمر أبيك إلا الفرقدان

معناه: والفرقدان أيضاً يتفرقان، فمعنى الآية: فتوجهوا إلى الكعبة لثلاث يكون للناس - يعني لليهود - عليكم حجة فيقولوا: لم تركتم الكعبة وهي قبله إبراهيم وأنتم على دينه ولا الذين ظلموا وهم مشركو مكة فيقولون لم ترك محمد قبله جدّه وتحول عنها إلى قبله اليهود؟ ﴿فلا تخشوهم﴾: في انصرافكم إلى الكعبة، وفي تظاهرهم عليكم بالمجادلة، فإني وليكم أظهركم عليهم بالحجة والنصرة، ﴿واخشوني﴾، ولأتم نعمتي عليكم، عطف على قوله: ﴿لثلاث يكون للناس عليكم حجة﴾، ولكي أتم نعمتي عليكم بهدايتي إياكم إلى قبله إبراهيم، فتتم به لكم الملة

وفرضته عليكم ﴿وَلَأْتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ ولكي أتم نعمتي عليكم بهدايتي إلى قبة إبراهيم لتتم لكم الملة الحنيفية. وقيل: تمام النعمة الموت على الإسلام ثم دخول الجنة ثم رؤية الله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي لكي تهتدوا من الضلالة. ولعل وعسى من الله واجب. قوله عز وجل:

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾

﴿كما أرسلنا فيكم﴾ كاف التشبيه تحتاج إلى شيء ترجع إليه فقل ترجع إلى ما قبلها ومعناه ولأتم نعمتي عليكم كما أرسلنا فيكم وقيل إن إبراهيم قال: ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم وقال: ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، فبعث الله فيهم رسولاً منهم وهو محمد ﷺ ووعدته إجابة الدعوة الثانية بأن يجعل في ذريته أمة مسلمة، والمعنى كما أجبت دعوته ببعثة الرسول كذلك أجبت دعوته بأن أهديكم لدينه، وأجعلكم مسلمين، وأتم نعمتي عليكم ببيان شرائع الملة الحنيفية. وقيل: إن الكاف متعلقة بما بعدها وهو قوله: ﴿فادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ والمعنى كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم فادْكُرُونِي، ووجه التشبيه أن النعمة بالذكر جارية مجرى النعمة بإرسال الرسول، وإن قلنا: إنها متعلقة بما قبلها كان وجه التشبيه أن النعمة في أمر القبة كالنعمة بالرسالة، وفيكم خطاب لأهل مكة والعرب وكذا قوله منكم، وفي إرساله رسولاً منهم نعمة عظيمة عليه لما فيه من الشرف لهم ولأن المعروف من حال العرب الأنفة الشديدة من الانقياد للغير فكان بعثة الرسول منهم وفيهم أقرب إلى قبول قوله والانقياد له، والمعنى كما أرسلنا فيكم يا معشر العرب ﴿رسولاً منكم﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿يتلو عليكم آياتنا﴾ يعني القرآن وذلك من أعظم النعم لأنه معجزة باقية على الدهر ﴿ويزكّيكُم﴾ أي يطهركم من دنس الشرك والذنوب وقيل يعلمكم ما إذا فعلتموه صرتم أذكاء مثل محاسن الأخلاق ومكارم الأفعال ﴿ويعلمكم الكتاب﴾ يعني أحكام الكتاب وهو القرآن وقيل إن التعليم غير التلاوة فليس بتكرار ﴿والحكمة﴾ يعني السنة والفقه في الدين ﴿ويعلمكم﴾

الحنيفية، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: تمام النعمة الموت على الإسلام، قال سعيد بن جبیر: لا يتم نعمة على المسلم إلا أن يدخل الجنة، ﴿ولعلكم تهتدون﴾: لكي تهتدوا من الضلالة، ﴿ولعل وعسى﴾ من الله واجب.

قوله تعالى: ﴿كما أرسلنا فيكم﴾، هذه الكاف للتشبيه، ويحتاج إلى شيء يرجع إليه، فقال بعضهم: يرجع إلى ما قبلها، معناه: ولأتم نعمتي عليكم كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم، قال محمد بن جرير: دعا إبراهيم عليه السلام بدعوتين إحداهما، قال: ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾ [البقرة: ١٢٨]، والثانية قوله: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم﴾ [البقرة: ١٢٩]، فبعث الله الرسول، وهو محمد ﷺ، ووعد إجابة الدعوة الثانية بأن يجعل في ذريته أمة مسلمة، يعني: كما أجبت دعوته ببعث الرسول، كذلك أجبت دعوته بأن أهديكم لدينه وأجعلكم مسلمين، وأتم نعمتي عليكم ببيان شرائع الملة الحنيفية، وقال مجاهد وعطاء والكلبي: هي متعلقة بما بعدها وهو قوله: ﴿فادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] معناه: كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم فادْكُرُونِي، وهذه الآية خطاب لأهل مكة والعرب، يعني: كما أرسلنا فيكم يا معشر العرب ﴿رسولاً منكم﴾ يعني: محمداً ﷺ، ﴿يتلو عليكم آياتنا﴾ يعني: القرآن، ﴿ويزكّيكُم ويعلمكم الكتاب والحكمة﴾، قيل: الحكمة السنة، وقيل: مواظب القرآن، ﴿ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾، من الأحكام وشرائع الإسلام.

﴿فادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾، قال ابن عباس: اذكروني بطاعتي أذكركم بمعوتي، وقال سعيد بن جبیر: اذكروني

ما لم تكونوا تعلمون ﴿ يعني يعلمكم من أخبار الأمم الماضية والقرون الخالية وقصص الأنبياء والخبر عن الحوادث المستقبلية مما لم تكونوا تعلمون وذلك قبل بعثة رسول الله ﷺ ﴾ ﴿ فاذكروني ﴾ قيل الذكر يكون باللسان، وهو أن يسبحه ويحمده ويمجده ونحو ذلك من الأذكار، ويكون بالقلب وهو أن يتفكر في عظمة الله تعالى، وفي الدلائل الدالة على وحدانيته، ويكون بالجوارح وهو أن تكون مستغرقة في الأعمال التي أمروا بها، مثل الصلاة وسائر الطاعات التي للجوارح فيها فعل ﴿ أذكركم ﴾ أي بالثواب والرضا عنكم قال ابن عباس: اذكروني بطاعتي أذكركم بمعونتي وقيل: اذكروني في النعمة والرخاء أذكركم في الشدة والبلاء، وقال أهل المعاني: اذكروني بالتوحيد والإيمان: أذكركم بالجنان والرضوان. وقيل: اذكروني بالإخلاص أذكركم بالخلاص اذكروني بالقلوب، أذكركم بغفران الذنوب. اذكروني بالدعاء أذكركم بالعطاء (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل: «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه، وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً وإن تقرب إلي ذراعاً، تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» قوله عز وجل: «أنا عند ظن عبدي بي» قيل: معناه بالغفران إذا استغفر وبالقبول والإجابة، إذا دعا، وبالكفاية إذا طلب الكفاية. وقيل: المراد منه تحقيق الرجاء وتأميل العفو وهذا أصح قوله: وأنا معه إذا ذكرني يعني بالرحمة والتوفيق والهداية والإعانة. وقوله: «فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي». النفس في اللغة لها معان: منها ذات الشيء والله تعالى له ذات حقيقة. ومنها الغيب فعلى هذا يكون المعنى فإن ذكرني خالياً ذكرته بالإثابة والمجازاة مما لا يطلع عليه أحد. قوله: «وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه». الملأ أشرف الناس وعظماؤهم الذين يرجع إلى رأيهم وهذا مما استدلت به المعتزلة ومن وافقهم على تفضيل الملائكة على الأنبياء. وأجيب عنه بأن الذكر غالباً يكون في جماعة لا نبي فيهم. قوله: «وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً إلخ». وهذا من أحاديث الصفات ويستحيل إرادة ظاهره فلا بد من التأويل فعلى هذا يكون ذكر الشبر والذراع والباع والمشي والهرولة استعارة، ومجازاً فيكون المراد بقرب العبد من الله تعالى القرب بالذكر والطاعة والعمل الصالح والمراد بقرب الله من العبد قرب نعمه وألطافه وبره وكرمه وإحسانه إليه، وفيض مواهبه

بطاعتي أذكركم بمغفرتي، وقيل: اذكروني في النعمة والرخاء أذكركم في الشدة والبلاء، بيانه: ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ [الصفّات: ١٤٤]، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا عمر بن حفص، أخبرنا أبي أخبرنا الأعمش قال: سمعت أبا صالح عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه، وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة» أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد بن القاضي، وثنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة الكشميهني قال: حدّثنا أبو العباس أحمد بن محمد بن سراج الطحّان، أخبرنا أبو أحمد محمد بن قريش بن سليمان أخبرنا أبو عبد الملك الدمشقي، أخبرنا سليمان بن عبد الرحمن أخبرنا منذر بن زياد عن صخر بن جويرية، عن الحسن عن أنس قال: إني سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ عدد أنا ملي هذه العشر، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى يقول يا ابن آدم إن ذكرني في نفسك ذكرتني في نفسي وإن ذكرتني في ملأ ذكرتني في ملأ خير منهم، وإن دنوت مني شبراً دنوت منك ذراعاً وإن دنوت مني ذراعاً دنوت منك باعاً وإن مشيت إلي هرولت إليك، وإن هرولت إلي سعت إليك، وإن سألتني أعطيتك، وإن لم تسألني غضبت عليك»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا

ورحمته عليه والمعنى كلما زاد بالطاعة والذكر زدت بالبر والإحسان وإن أتاني في طاعتي أتيت هرولة أي صببت عليه الرحمة صباً وسبقته بها (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: يقول الله عز وجل: «أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه» (ق) عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت (م) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «سبق المفردون قالوا وما المفردون يا رسول الله قال الذاكرون الله كثيراً والذاكرات» المفردون الذين ذهب القرن الذي كانوا فيه، وبقوا وهم يذكرون الله تعالى. ويقال: تفرد الرجل إذا تفقه واعتزل.

وقوله تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ يعني بالطاعة ﴿وَلَا تَكْفُرُوا﴾ أي بالمعصية فمن أطاع الله فقد شكره ومن عصاه فقد كفره. قوله عز وجل:

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٦﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ءَمُوتٌ بَلْ ءَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٧﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة﴾ إنما خصهما بذلك لما فيهما من المعونة على العبادات؛ أما الصبر فهو حبس النفس على احتمال المكاره في ذات الله وتوطئتها على تحمل المشاق في العبادات، وسائر الطاعات وتجنب الجزع وتجنب المحظورات ومن الناس من حمل الصبر على الصوم وفسره به، ومنهم من حمّله على الجهاد وأما الاستعانة بالصلاة فلأنها تجب أن تفعل على طريق الخضوع والتذلل للمعبود والإخلاص له. وقيل: استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض، وبالصلوات الخمس في مواقيتها على تمحيص الذنوب ﴿إن الله مع الصابرين﴾ أي بالعون والنصر ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ءَمُوتٌ﴾ نزلت فيمن قتل بيد من المسلمين وكانوا أربعة عشر رجلاً ستة من المهاجرين وهم: عبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب وعمير بن أبي وقاص بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة الزهري أخو سعد بن أبي وقاص وذو الشمالين واسمه عمير بن عبد عمرو بن العاص بن نضلة بن عمرو بن خزاعة ثم بني غبشان وعافل بن البكير من بني سعد بن ليث بن كنانة ومهجع مولى لعمر بن الخطاب، وصفوان بن بيضاء من بني الحارث بن فهر ومن الأنصار ثمانية، وهم سعد بن خيثمة ومبشر بن عبد بن المنذر، ويزيد بن الحارث بن قيس بن فسح وعمر بن الحمام ورافع بن المعلى وحارثة بن سراقة، وعوف ومعوذ ابنا الحارث بن رفاع بن سواد وهما ابنا عفراء وهي أمهما، كان الناس يقولون لمن قتل في سبيل الله مات فلان وذهب عنه نعيم الدنيا ولذاتها فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقيل: إن الكفار

أبو جعفر الرياني أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا يحيى بن عبد الله أخبرنا الأوزاعي، أخبرنا إسماعيل بن عبد الله، عن أبي الدرداء عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله عز وجل: أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا عبد الرحمن أبي شريح، أنا أبو القاسم البغوي أخبرنا علي بن الجعد، أخبرنا إسماعيل بن عباس، أخبرنا عمرو بن قيس السكوني، عن عبد الله بن بشير المازني قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال: «أن لا تفارق الدنيا إلّا ولسانك رطب من ذكر الله تعالى»، قوله تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُوا﴾، يعني: واشكروا لي بالطاعة ولا تكفروا بالمعصية، فإن من أطاع الله، فقد شكره ومن عصاه فقد كفره.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة﴾ إن الله مع الصابرين ﴿﴾: بالعون والنصرة.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ءَمُوتٌ﴾، نزلت في قتلى بدر من المسلمين، وكانوا أربعة عشر رجلاً،

والمناققين قالوا: إن الناس يقتلون أنفسهم ظلماً لمرضاة محمد من غير فائدة فنزلت هذه الآية وأخبر أن من قتل في سبيل الله فإنه حي بقوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَاءُ﴾ وإنما أحياءهم الله عز وجل في الوقت لإيصال الثواب إليهم. وعن الحسن أن الشهداء أحياء عند الله تعالى تعرض أرزاقهم على أرواحهم، ويصل إليهم الروح والريحان والفرح كما تعرض النار على أرواح آل فرعون غدوة وعشياً فيصل إليهم، الألم والوجع ففيه دليل على أن المطيعين لله يصل إليهم ثوابهم وهم في قبورهم في البرزخ وكذا العصاة يعذبون في قبورهم. فإن قلت: نحن نراهم موتى فما معنى قوله بل أحياء وما وجه النهي، في قوله ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات. قلت: معناه لا تقولوا أموات بمنزلة غيرهم من الأموات بل هم أحياء تصل أرواحهم إلى الجنان كما ورد، «إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة» فهم أحياء من هذه الجهة، وإن كانوا أمواتاً من جهة خروج الروح من أجسادهم، وجواب آخر وهو أنهم أحياء عند الله تعالى في عالم الغيب، لأنهم صاروا إلى الآخرة فنحن لا نشاهدهم كذلك ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي لا ترونهم أحياء فتعلموا ذلك حقيقة، وإنما تعلمون ذلك بإخباري إياكم به. فإن قلت: ليس سائر المطيعين من المسلمين لله يصل إليهم من نعيم الجنة في قبورهم فلم خصص الشهداء بالذكر؟. قلت: إنما خصهم لأن الشهداء فضلوا على غيرهم بمزيد النعيم وهو أنهم يرزقون من مطاعم الجنة ومأكلاهم وغيرهم ينعمون بما دون ذلك، وجواب آخر أنه رد لقول من قال: إن من قتل في سبيل الله قد مات وذهب عنه نعيم الدنيا ولذاتها فأخبر الله تعالى بقوله: ﴿بَلْ أَحْيَاءُ﴾ بأنهم في نعيم دائم. قوله عز وجل:

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾

﴿ولنبلونكم﴾ أي لنختبرنكم يا أمة محمد واللام جواب القسم تقديره، والله لنبلونكم، والابتلاء لإظهار الطائع من العاصي لا ليعلم شيئاً، لم يكن عالماً به فإنه سبحانه وتعالى عالم بجميع الأشياء قبل كونها وحدثها ﴿بشيء﴾ إنما قال: بشيء ولم يقل بأشياء لثلاث يوههم أن أشياء تدل على ضروب من الخوف. وكذا الباقي فلما قال بشيء كان التقدير بشيء من الخوف، وبشيء من الجوع. وقيل: معناه بشيء قليل من هذه الأشياء ﴿من الخوف﴾

سنة من المهاجرين وثمانية من الأنصار، كان الناس يقولون لمن يقتل في سبيل الله: مات فلان وذهب عنه نعيم الدنيا ولذتها، فأنزل الله تعالى: ﴿ولا تقولوا لمن يُقْتَل في سبيل الله أموات﴾، ﴿بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾، كما قال في شهداء أحد: ﴿ولا تحسبن الذين قُتِلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يُرزقون﴾ [آل عمران: ١٦٩]، قال الحسن: إن الشهداء أحياء عند الله تعالى تعرض أرزاقهم على أرواحهم فيصل إليهم الرُّوح والفرح، كما تعرض النار على أرواح آل فرعون غدوة وعشياً، فيصل إليهم الوجع.

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أي: ولنختبرنكم يا أمة محمد، واللام: لجواب القسم المحذوف، تقديره: والله لنبلونكم، والابتلاء من الله لإظهار المطيع من العاصي، لا ليعلم شيئاً لم يكن عالماً به، ﴿بشيء من الخوف﴾، قال ابن عباس: يعني خوف العدو، ﴿والجوع﴾، يعني: القحط، ﴿ونقص من الأموال﴾: بالخسران والهلاك، ﴿والأنفس﴾، يعني: بالقتل والموت، وقيل: بالمرض والشيخ، ﴿والثمرات﴾، يعني: الجوائح في الثمار، وحكي عن الشافعي أنه قال: الخوف خوف الله تعالى، والجوع صيام رمضان، ونقص من الأموال أداء الزكاة والصدقات، والأنفس الأمراض، والثمرات موت الأولاد، لأن ولد الرجل ثمرة قلبه. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن

قال ابن عباس: يعني خوف العدو والخوف توقع مكروه يحصل منه ألم في القلب ﴿والجوع﴾ يعني القحط وتعذر حصول القوت ﴿ونقص من الأموال﴾ يعني بالهلاك والخسران ﴿والأنفس﴾ أي ونقص من الأنفس بالموت أو القتل ﴿والثمرات﴾ يعني الجوائح في الثمار وقيل: قد يكون بالجدب أيضاً وبترك العمل والعمارة في الأشجار. وحكي عن الشافعي رضي الله عنه في تفسير هذه الآية قال: الخوف خوف الله تعالى والجوع صيام شهر رمضان ونقص من الأموال يعني إخراج الزكاة والصدقات والأنفس يعني بالأمراض، والثمرات يعني موت الأولاد، لأن الولد ثمرة القلب. عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته أقبضتم ولد عبدي؟ قالوا: نعم. قال: أقبضتم ثمرة فؤاده؟ قالوا نعم قال فماذا قال؟ قالوا: حمدك واسترجع قال: ابنوا له بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد» أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن. فإن قلت ما الحكمة في تقديم تعريف هذا الابتلاء في قوله: ولنبلونكم. قلت فيه حكم: منها أن العبد إذا علم أنه مبتلي بشيء، وطن نفسه على الصبر، فإذا نزل به ذلك البلاء لم يجزع. ومنها أن الكفار إذا شاهدوا المؤمنين مقيمين على دينهم ثابتين عند نزول البلاء صابرين له علموا بذلك صحة الدين فيدعوهم ذلك إلى متابعتهم والدخول فيه. ومنها أن الله تعالى أخبر بهذا الابتلاء، قبل وقوعه فإذا وقع كان ذلك إخباراً عن غيب فيكون معجزة للنبي ﷺ ومنها أن المنافقين إنما أظهروا الإيمان طمعاً في المال وسعة الرزق من الغنائم فلما أخبر الله أنه مبتلي عباده فعند ذلك تميز المؤمن من المنافق والصادق من الكاذب، ومنها أن الإنسان في حال الابتلاء أشد إخلاصاً لله منه في حال الرخاء، فإذا علم أنه مبتلي دام على التضرع والابتهاال إلى الله تعالى لينجيه مما عسى أن ينزل به من البلاء ثم قال تعالى: ﴿وبشر الصابرين﴾ يعني عند نزول البلاء والمعنى وبشر يا محمد الصابرين على امتحاني بما أمتحنهم به من الشدائد والمكاره، ثم وصفهم بقوله تعالى: ﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة﴾ أي نائبة وابتلاء ﴿قالوا إنا لله﴾ أي عبيداً وملكاً ﴿وإنا إليه راجعون﴾ يعني في الآخرة (م) عن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبي وأخلف لي خيراً منها إلا آجره الله في مصيبته وأخلف له خيراً منها» قيل: ما أعطي أحد ما أعطيت هذه الأمة يعني الاسترجاع عند المصيبة ولو أعطيها أحد لأعطى يعقوب

عبد الجبار الزياتي أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا الحسن بن موسى أخبرنا حماد بن سلمة، عن أبي سنان قال: دفنت ابني سناناً وأبو طلحة الخولاني على شفير القبر، فلما أردت الخروج أخذ بيدي فأخرجني فقال: ألا أبشرك؟ حدثني الضحاك عن عروة عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته أقبضتم ولد عبدي؟ قالوا: نعم، قال: أقبضتم ثمرة فؤاده؟ قالوا: نعم، قال: فماذا قال عبدي؟ قالوا: استرجع وحمدك، قال: ابنوا له بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد»، ﴿وبشر الصابرين﴾: على البلاء والزوايا، ثم وصفهم فقال:

﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله﴾: عبيداً وملكاً، ﴿وإنا إليه راجعون﴾: في الآخرة، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، أخبرنا أبو جعفر الزياتي أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا محاضر بن المورع أخبرنا سعيد بن عمرو بن كثير، أنا أفلح أخبرنا مولى أم سلمة عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مصيبة تُصيب عبداً فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبي وأخلف لي خيراً منها إلا آجره الله في مصيبته، وأخلف له خيراً منها»، قالت أم سلمة: لما توفي أبو سلمة عَزَمَ الله لي فقلت: اللهم أجرني في مصيبي وأخلف لي خيراً منها، فأخلف الله لي رسول الله ﷺ. وقال سعيد بن جبیر: ما أعطي أحد في المصيبة ما أعطي هذه الأمة يعني: الاسترجاع، ولو أعطيها

عليه السلام ألا تسمع إلى قوله عند فقد يوسف ﴿يا أسفى على يوسف﴾. وقيل: في قول العبد إنا لله وإنا إليه راجعون تفويض منه إلى الله وأنه راض بكل ما نزل به من المصائب.

أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

﴿أولئك﴾ يعني من هذه صفتهم ﴿عليهم صلوات من ربهم﴾ قال ابن عباس: أي مغفرة من ربهم ومنه قوله ﷺ: «اللهم صل على آل أبي أوفى» أي أغفر لهم وأرحمهم وإنما جمع الصلوات لأنه عنى مغفرة، بعد مغفرة ورحمة بعد رحمة ﴿ورحمة﴾ قال ابن عباس: ونعمة والرحمة من الله إنعامه وإفضاله وإحسانه، ومن الآدميين رقة وتعطف. وقيل: إنما ذكر الرحمة بعد الصلوات لأن الصلاة من الله الرحمة لاتساع المعنى واتساع اللفظ وتفعل ذلك العرب كثيراً، إذا اختلف اللفظ، واتفق المعنى، وقيل: كررها للتأكيد أي عليهم رحمة بعد رحمة ﴿وأولئك هم المهتدون﴾ يعني إلى الاسترجاع. وقيل: إلى الجنة الفائزون بالثواب. وقيل: المهتدون إلى الحق والصواب. وقال عمر بن الخطاب: نعم العدلان ونعمت العلاوة فالعدلان الصلاة والرحمة والعلاوة الهداية.

فصل: في ذكر أحاديث وردت في ثواب أهل البلاء وأجر الصابرين:

(خ) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يصب منه» يعني يتبليه بالمصائب حتى يأجره على ذلك (ق) عن أبي سعيد وأبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا حزن ولا

أحد لأعطيها ليعقوب عليه السلام، ألا تسمع إلى قوله تعالى في قصة فقد يوسف عليه السلام ﴿يا أسفى على يوسف﴾ [يوسف: ٨٤].

﴿أولئك﴾: أهل هذه الصفة: ﴿عليهم صلوات من ربهم ورحمة﴾، صلوات أي: رحمة، فإن الصلاة من الله الرحمة، والرحمة ذكرها الله تأكيداً، وجميع الصلوات، أي رحمة: ﴿وأولئك هم المهتدون﴾: إلى الاسترجاع، وقيل: إلى الحق والصواب، وقيل: إلى الجنة والثواب، قال عمر رضي الله عنه: نَعَمْ العدلان ونعمت العلاوة فالعدلان: الصلاة والرحمة، والعلاوة الهداية، وقد وردت أخبار في ثواب أهل البلاء وأجر الصابرين، منها ما أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي، أخبرنا أبو علي زاهر بن أحمد السرخسي أخبرنا أبو إسحق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صَعْصَعَةَ أنه قال: سمعت أبا الجبال سعد بن يسار يقول: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يرد الله به خيراً يُصَبِّ منه»، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا ابن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا عبد الله بن محمد، أخبرنا عبد الملك بن عمر أخبرنا زهير بن محمد عن محمد بن عمرو بن حلحلة، عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما يُصِيبُ المسلم من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا هَمٍّ ولا حَزَنٍ ولا أذى ولا غَمٍّ، حتى الشوكة يُشَاكها، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بها من خطاياها»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا أبو جعفر الزياتي أخبرنا حميد بن زنجويه، أنا محمد بن عبيد أخبرنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: جاءت امرأة بها كَمَمٌ إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله ادعُ الله لي أن يشفيني، قال: «إن شئت دعوت الله أن يشفيك وإن شئت فاصبري ولا حساب عليك»، قالت: بل أصبر ولا حساب عليّ، أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أخبرنا أبو سعيد خلف بن

أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها خطاياها» النصب التعب والإعياء والوصب المرض (ق) عن عبدالله قال قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط الله عنه من سيئاته كما تحط الشجرة ورقها» (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الريح تفيئه ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا تهتز حتى تحصد» الأرز شجر معروف بالشام ويعرف في العراق، ومصر بالصنوبر والصنوبر ثمرة الأرز وقيل: الأرز الثابتة في الأرض. عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أراد الله بعبد خيراً عجل له العقوبة في الدنيا وإذا أراد الله بعبد شراً أمسك عنه حتى يوافي يوم القيامة» وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ قال: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط» أخرجه الترمذي. وله عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت في الدنيا بالمقاريض» وله عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده حتى يلقي الله وما عليه خطيئة» وقال حديث حسن صحيح (خ) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة عن سعد بن أبي وقاص وقال: قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاء قال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على دينه فإن كان في دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة هون عليه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض، وما عليه خطيئة» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن.

عبد الرحمن بن أبي نزار، أخبرنا أبو منصور العباس بن الفضل النضروي، أخبرنا أحمد بن نجدة أخبرنا يحيى بن عبد الحميد الجعاني، أخبرنا حماد بن زيد عن عاصم هو ابن أبي النجود، عن مصعب بن سعد عن سعد، قال: سئل رسول الله ﷺ عن أشد الناس بلاء قال: «الأنبياء والأمثل فالأمثل، يبتلى الله الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلباً ابتلي على قدر ذلك، وإن كان في دينه رقة هون عليه، فما يزال كذلك حتى يمشي على الأرض وما له ذنب» أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا أبو جعفر الزياتي أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا عبد الله بن صالح قال: حدثني الليث حدثني يزيد بن أبي حبيب، عن سعيد بن سنان عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ، أنه قال: «إن عظم الجزاء عند الله مع عظم البلاء، فإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»، أخبرنا أبو حامد أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري، أخبرنا حاجب بن أحمد الطوسي أخبرنا محمد بن يحيى، أخبرنا زيد بن هرون أخبرنا محمد بن عمرو، وعن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وماله وولده حتى يلقي الله وما عليه من خطيئة»، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أخبرنا أبو الحسين علي بن محمد بن عبد الله بن بشران، أخبرنا أبو إسماعيل بن محمد الصفار أخبرنا أحمد بن منصور الرمادي، أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري، عن ابن المسيب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الريح تفيئه، ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا تهتم حتى تستحصد»، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أبو الحسين بن بشران أخبرنا إسماعيل بن محمد الصفار، أخبرنا أحمد بن منصور الرمادي أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن أبي إسحق عن العيزار بن حريث عن عمرو بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «عجباً للمؤمن إن أصابه خير حمد الله وشكره، وإن أصابته مصيبة حمد الله وصبره، فالمؤمن يؤجر في كل أمره حتى يؤجر في اللقمة يرفعها إلى في امرأته».

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (١٥٨)

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ الصفا جمع صفاة، وهي الصخرة الصلبة الملساء، وقيل هي الحجارة الصافية. والمروة الحجر الرخو، وجمعها مرو ومروات وهذا أصلهما في اللغة، وإنما عنى الله بهما الجبلين المعروفين بمكة في طرفي المسعى، ولذلك أدخل فيهما الألف واللام وشعائر الله أعلام دينه وأصلها من الإشعار وهو الإعلام واحدها شعيرة وكل ما كان معلماً لقربان يتقرب به إلى الله تعالى من صلاة، ودعاء وذبيحة فهو شعيرة من شعائر الله. ومشاعر الحج معالمه الظاهرة للحواس ويقال: شعائر الحج فالمطاف والموقف والمنحر، كلها شعائر والمراد بالشعائر هنا المناسك التي جعلها الله أعلاماً لطاعته فالصفا، والمروة منها حيث يسعى بينهما ﴿فمن حج البيت﴾ قصد البيت هذا أصله في اللغة وفي الشرع عبارة عن أفعال مخصوصة لإقامة المناسك ﴿أو اعتمر﴾ أي زار البيت والعمرة الزيارة ففي الحج والعمرة المشروعين قصد زيارة ﴿فلا جناح عليه﴾ أي فلا إثم عليه وأصله من جنح إذا مال عن القصد المستقيم ﴿أن يطوف بهما﴾ أي يدور بهما ويسعى بينهما. وسبب نزول هذه الآية، أنه كان على الصفا والمروة صنمان يقال لهما إساف ونائلة فكان إساف على الصفات ونائلة على المروة وكان أهل الجاهلية يطوفون بين الصفا، والمروة تعظيماً للصنمين فلما جاء الإسلام وكسرت الأصنام، تخرج المسلمون عن السعي بين الصفا والمروة فأنزل الله هذه الآية وأذن في السعي بينهما وأخبر أنه من شعائر الله (ق) عن عاصم بن سليمان الأحول قال قلت لأنس: أكنتم تكرهون السعي بين الصفا والمروة؟ فقال: نعم لأنها كانت من شعائر الجاهلية حتى أنزل الله ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾. وفي رواية قال: كانت الأنصار يكرهون أن يطوفوا بين الصفا والمروة حتى نزلت ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾، الصفا جمع: صفاة، وهي الصخرة الصلبة الملساء، يقال: صفاة وصفاء، مثل: حصاة وحصى ونواة ونوى، والمروة: الحجر الرخو، وجمعها: مروّات، وجمع الكثير: مرو، مثل: ثمرة وتمرات وتمر، وإنما عنى بهما الجبلين المعروفين بمكة في طرفي المسعى، ولذلك أدخل فيهما الألف واللام، وشعائر الله أعلام دينه، أصلها من الإشعار، وهو الإعلام، واحدها شعيرة، وكل ما كان معلماً لقربان يتقرب به إلى الله تعالى من صلاة ودعاء وذبيحة، فهو شعيرة، فالمطاف والموقف والنحر كلها شعائر لله، ومثلها المشاعر، والمراد بالمشاعر هنا: المناسك التي جعلها الله إعلاماً لطاعته فالصفا والمروة منها حتى يطاف بهما جميعاً، ﴿فمن حج البيت أو اعتمر﴾، فالحج في اللغة: القصد، والعمرة: الزيارة، وفي الحج والعمرة المشروعين: قصد زيارة، ﴿فلا جناح عليه﴾، أي: لا إثم عليه، وأصله من جنح، أي: مال عن القصد، ﴿أن يطوف بهما﴾، أي: يدور بهما، وأصله يتطوّف أدغمت التاء في الطاء. وسبب نزول هذه الآية أنه كان على الصفا والمروة صنمان إساف ونائلة، وكان إساف على الصفا ونائلة على المروة، وكان أهل الجاهلية يطوفون بين الصفا والمروة تعظيماً للصنمين ويتمسحون بهما، فلما جاء الإسلام وكسرت الأصنام كان المسلمون يتخرجون عن السعي بين الصفا والمروة لأجل الصنمين، فأذن الله فيه وأخبر أنه من شعائر الله، واختلف أهل العلم في حكم هذه الآية ووجوب السعي بين الصفا والمروة في الحج والعمرة، فذهب جماعة إلى وجوبه، وهو قول ابن عمرو وجابر وعائشة، وبه قال الحسن وإليه ذهب مالك والشافعي، وذهب قوم إلى أنه تطوّع، وهو قول ابن عباس، وبه قال ابن

فصل

اختلف العلماء في حكم السعي بين الصفا والمروة في الحج والعمرة، فذهب جماعة إلى وجوبه وهو قول ابن عمر وجابر وعائشة وبه قال الحسن: وإليه ذهب مالك والشافعي وذهب قوم إلى أنه تطوع. وهو قول ابن عباس: وبه قال ابن سيرين وذهب الثوري وأبو حنيفة إلى أنه ليس بركن وعلى من تركه دم وروي عن ابن الزبير ومجاهد وعطاء أن من تركه فلا شيء عليه واختلفت الرواية عن أحمد في ذلك فروي عنه أن من ترك السعي بين الصفا والمروة لم يجزه حجه وروي عنه أنه لا شيء في تركه عمداً، ولا سهواً ولا ينبغي أن يتركه ونقل الجمهور عنه أنه تطوع وسبب هذا الاختلاف أن قوله تعالى: ﴿فلا جناح عليه﴾ يصدق عليه أنه لا إثم عليه في فعله، فدخل تحته الواجب والمندوب والمباح فظاهر هذه الآية، لا يدل على أن السعي بين الصفا والمروة واجب أو ليس بواجب، لأن اللفظ الدال على القدر المشترك بين الأقسام الثلاثة لا دلالة فيه على خصوصية أحدهما، فإذا لا بد من دليل خارج يدل على أن السعي واجب أو غير واجب فحجة الشافعي ومن وافقه في أن السعي بين الصفا والمروة، ركن من أركان الحج والعمرة، ما روى الشافعي بسنده عن صفية بنت شيبة، قالت: أخبرني بنت أبي تجزة واسمها حبيبة إحدى نساء بني عبد الدار قالت: دخلت مع نسوة من قريش دار آل أبي حسين فنظر إلى النبي ﷺ وهو يسعى بين الصفا والمروة، فرأيتة يسعى وإن مثره ليدور من شدة السعي حتى لأقول: إني لأرى ركبتة وسمعتة يقول: «اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي» وصححه الدارقطني (ق) عن عروة بن الزبير قال: قلت لعائشة زوج النبي ﷺ أرأيت قول الله: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن

سيرين ومجاهد، وإليه ذهب سفيان الثوري وأصحاب الرأي، وقال الثوري وأصحاب الرأي على من تركه دم، واحتج من أوجبه بما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الكسائي الخطيب، أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال، أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم، أخبرنا الربيع بن سليمان أخبرنا الشافعي، أخبرنا عبد الله بن نوفل العائذي، عن عمرو بن عبد الرحمن بن محيص، عن عطاء بن أبي رباح عن صفية بنت شيبة قالت: أخبرني بنت أبي تجزة اسمها حبيبة إحدى نساء بني عبد الدار - قالت: دخلت مع نسوة من قريش دار آل أبي حسين فنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يسعى بين الصفا والمروة، فرأيتة يسعى وإن مثره ليدور من شدة السعي، حتى لأقول إني لأرى ركبتة، وسمعتة يقول: «اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي»، أخبرنا أبو الحسين محمد بن محمد السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحق الهاشمي أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن هشام بن عروة عن أبيه أنه قال: قلت لعائشة زوج النبي ﷺ: أرأيت قول الله تعالى: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾، فما أرى على أحد شيئاً ألا يطوف بهما، قالت عائشة: كلا لو كانت كما تقول، كانت: فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما، إنما أنزلت هذه الآية في الأنصار كانوا يهلون لمناة وكانت مناة جذو قديد، وكانوا يتحرون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ الآية، وقال عاصم: قلت لأنس بن مالك: أكنتم تكرهون السعي بين الصفا والمروة؟ فقال: نعم، لأنها كانت من شعائر الجاهلية حتى أنزل الله تعالى: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾، أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن جعفر بن محمد، عن أبيه عن جابر بن عبد الله أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ حين خرج من المسجد وهو يريد الصفا يقول: «نبدأ بما بدأ الله تعالى به، فبدأ بالصفا، وقال: كان إذا وقف على الصفا يكبر ثلاثاً ويقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له. له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، يصنع ذلك ثلاث مرات، ويدعو ويصنع

يطوف بهما ﴿فما أرى على أحد شيئاً أن لا يطوف بهما فقالت عائشة: كلا لو كان كما تقول كانت فلا جناح عليه، أن لا يطوف بهما إنما نزلت هذه الآية في الأنصار، كانوا يهلون لمناة وكانت مناة حذو قديد وكانوا يتخرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ الآية (م) عن جابر في حديثه الطويل في صفة حجة الوداع قال: «ثم خرج من الباب إلى الصفا فلما دنا من الصفا قرأ: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله أبداً بما بدأ الله به فبدأ بالصفا﴾ الحديث فإذا ثبت أن النبي ﷺ سعى وجب علينا السعي لقوله تعالى: فاتبعوه، ولقوله ﷺ: «خذوا عني مناسككم» والأمر للجوب ومن القياس أن السعي أشواط شرعت في بقعة من بقاع الحرم ويؤتى به في إحرام كامل فكان ركناً كطواف الزيارة واحتج أبو حنيفة ومن لا يرى وجوب السعي بقوله: «فلا جناح عليه أن يطوف بهما». وهذا لا يقال في الواجبات ثم إنه تعالى أكد ذلك بقوله: ﴿ومن تطوع خيراً﴾ فبين أنه تطوع وليس بواجب. وأجيب عن الأول بأن قوله تعالى: ﴿فلا جناح عليه﴾ ليس فيه إلا أنه لا إثم على فعله وهذا القدر مشترك بين الواجب، وغيره كما تقدم بيانه فلا يكون فيه دلالة على نفي الوجوب. وعن الثاني وهو التمسك بقوله تعالى: ﴿ومن تطوع خيراً﴾ فضعيف لأن هذا لا يقتضي أن يكون المراد من هذا التطوع هو الطواف المذكور، أولاً بل يجوز أن يكون المقصود منه شيئاً آخر يدل على ذلك قول الحسن: إن المراد من قوله: ﴿ومن تطوع خيراً﴾ جميع الطاعات في الدين يعني فعل فعلاً زائداً على ما افترض عليه من صلاة وصدقة وصيام وحج وعمرة، وطواف، وغير ذلك من أنواع الطاعات. وقال مجاهد: ومن تطوع خيراً بالطواف بهما وهذا على قول من لا يرى الطواف بهما فرضاً وقيل معناه ومن تطوع خيراً فزاد في الطواف بعد الواجب والقول الأول أولى للعموم ﴿فإن الله شاكراً﴾ أي مجاز على الطاعة ﴿عليم﴾ أي بنيته وحقيقة الشاكر في اللغة هو المظهر للأنعام عليه والشكر هو تصور النعمة، وإظهارها والله تعالى لا يوصف بذلك لأنه لا يلحقه المنافع والمضار، فالشاكر في صفة الله تعالى مجاز فإذا وصف به أريد به أنه المجازي على الطاعة بالثواب، إلا أن اللفظ خرج مخرج التلطف للعباد مظهرة في الإحسان إليهم. قوله عز وجل:

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ

على المروة مثل ذلك، وقال: كان إذا نزل من الصفا مشى حتى إذا نصبت قدماه في بطن الوادي يسعى حتى يخرج منه، قال مجاهد رحمه الله: حج موسى عليه السلام على جمل أحمر وعليه عباءتان قطوانيتان فطاف بالبيت، ثم صعد الصفا ودعا ثم هبط إلى السعي وهو يلبي فيقول: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، فقال الله تعالى: «لَبَّيْكَ عَبْدِي أَنَا مَعَكَ وسامع لك وناظر إليك»، فخر موسى عليه السلام ساجداً. قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾، قرأ حمزة والكسائي بالياء وتشديد الطاء وجزم العين، وكذلك الثانية: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا﴾ [البقرة: ١٨٤]، بمعنى: يتطوع، ووافق يعقوب في الأول وقرأ الباقون بالتاء وفتح العين في الماضي، وقال مجاهد: معناه فإن تطوع بالطواف بالصفا والمروة، وقال مقاتل والكلبي فَمَنْ تَطَوَّعَ، أي: زاد في الطواف بعد الواجب، وقيل: مَنْ تَطَوَّعَ بالحج والعمرة بعد أداء الحجة الواجبة عليه، وقال الحسن وغيره: أراد سائر الأعمال، يعني: فعل غير المفترض عليه من زكاة وصلاة وطواف وغيرها من أنواع الطاعات، ﴿فإن الله شاكراً﴾، مجاز لعبده بعمله، ﴿عليم﴾: بنيته، والشكر من الله تعالى أن يُعطي لعبده فوق ما يستحق، يشكر اليسير ويعطي الكثير.

الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٦٦﴾ وَاللَّهُمَّ إِنَّكَ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٧﴾

﴿إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى﴾ نزلت في علماء اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ وآية الرجم وغيرها من الأحكام التي كانت في التوراة. وقيل: إن الآية على العموم فيمن كتم شيئاً من أمر الدين لأن اللفظ عام والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ومن قال بالقول الأول، وإنها في اليهود قال: إن الكتم لا يصح إلا منهم لأنهم كتموا صفة محمد ﷺ ومعنى الكتمان ترك إظهار الشيء مع الحاجة إلى بيانه وإظهاره، فمن كتم شيئاً من أمر الدين فقد عظمت مصيبته (ق) عن أبي هريرة قال: لولا آيتان أنزلهما الله في كتابه ما حدثت شيئاً أبداً: ﴿إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى﴾ وقوله: ﴿وإذ أخذ ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبينته للناس ولا تكتُمونه﴾ إلى آخر الآيتين، وهل إظهار علوم الدين فرض كفاية أو فرض عين؟ فيه خلاف والأصح، أنه إذا ظهر للبعض بحيث يتمكن كل واحد من الوصول إليه لم يبق مكتوماً، وقيل: متى سئل العالم عن شيء يعلمه من أمر الدين يجب عليه إظهاره وإلا فلا ﴿من بعد ما بيناه للناس في الكتاب﴾ يعني في التوراة من صفة محمد ﷺ فعلى هذا يكون المراد بالناس علماء بني إسرائيل، ومن قال: إن المراد بالكتاب جميع ما أنزل الله على أنبيائه من الأحكام قال المراد بالناس العلماء كافة ﴿أولئك﴾ يعني الذين يكتُمون ما أنزل الله من البينات والهدى ﴿يلعنهم الله﴾ أي يبعدهم من رحمته وأصل اللعن في اللغة الطرد والإبعاد ﴿ويلعنهم اللاعنون﴾ قال ابن عباس: جميع الخلائق إلا الجن والإنس وذلك أن البهائم تقول إنما منعنا القطر بمعاصي بني آدم. وقيل: اللاعنون هم الجن والإنس لأنه وصفهم بوصف من يعقل وقيل: ما تلا عن اثنان من المسلمين إلا رجعت إلى اليهود والنصارى الذين كتموا صفة محمد ﷺ ثم استثنى فقال تعالى: ﴿إلا الذين تابوا﴾ أي ندموا على ما فعلوا فرجعوا عن الكفر إلى الإسلام ﴿وأصلحوا﴾ يعني الأعمال فيما بينهم وبين الله تعالى ﴿ويبينوا﴾ يعني ما كتموا من العلم ﴿فأولئك أتوب عليهم﴾ أي أتجاوز عنهم وأقبل توبتهم ﴿وأنا التواب﴾ أي المتجاوز عن عبادي الرجاء بقلوبهم المنصرفه عني إلي ﴿الرحيم﴾ يعني بهم بعد إقبالهم علي. قوله عز وجل: ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾ قيل: هذا اللعن يكون يوم القيامة يؤتى بالكافر فيوقف فيلعنه الله ثم تلعه الملائكة ثم يلعه الناس أجمعون. فإن قلت: الكافر لا يلعن نفسه ولا يلعه أهل دينه وملته فما معنى قوله والناس أجمعين.

قوله تعالى: ﴿إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب﴾، نزلت في علماء اليهود كتموا صفة محمد ﷺ وآية الرجم وغيرها من الأحكام التي كانت في التوراة، ﴿أولئك يلعنهم الله﴾، وأصل اللعن الطرد والبعد، ﴿ويلعنهم اللاعنون﴾، أي: يسألون الله أن يلعنهم ويقولون: اللهم العنهم، واختلفوا في هؤلاء اللاعنين، قال ابن عباس: جميع الخلائق إلا الجن والإنس، وقال قتادة: هم الملائكة، وقال عطاء: الجن والإنس، وقال الحسن: جميع عباد الله قال ابن مسعود: ما تلا عن اثنان من المسلمين إلا رجعت تلك اللعنة عن اليهود والنصارى الذين كتموا أمر محمد ﷺ وصفته، وقال مجاهد: اللاعنون البهائم تلعن عصاة بني آدم إذا اشتدت السنة وأمسك المطر، وقالت: هذا من شؤم ذنوب بني آدم، ثم استثنى فقال:

﴿إلا الذين تابوا﴾: من الكفر، ﴿وأصلحوا﴾: أسلموا أو أصلحوا الأعمال فيما بينهم وبين ربهم، ﴿ويبينوا﴾: ما كتموا، ﴿فأولئك أتوب عليهم﴾: أتجاوز عنهم وأقبل توبتهم، ﴿وأنا التواب﴾ الرجاء بقلوب عبادي المنصرفه عني إلي. ﴿الرحيم﴾: بهم بعد إقبالهم علي.

﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة﴾، أي: لعنة الملائكة ﴿والناس﴾

قلت فيه أوجه: أحدها: أنه أراد بالناس من يعتد بلعنه وهم المؤمنون. الثاني: أن الكفار يلعن بعضهم بعضاً يوم القيامة. الثالث: أنهم يلعنون الظالمين والكفار من الظالمين فيكون قد لعن نفسه ﴿خالد بن فيها﴾ أي مقيم في اللعنة وقيل: في النار وإنما أضمرت لعظم شأنها ﴿لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾ أي لا يمهلون ولا يؤجلون. وقيل: لا ينظرون ليعتذروا. وقيل: لا ينظر إليهم نظر رحمة.

فصل فيما يتعلق بهذه الآية من الحكم:

قال العلماء: لا يجوز لعن كافر معين لأن حاله عند الوفاة لا يعلم فلعله يموت على الإسلام وقد شرط الله في هذه الآية إطلاق اللعنة على من مات على الكفر ويجوز لعن الكفار يدل عليه قوله ﷺ: «لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها» وذهب بعضهم إلى جواز لعن إنسان معين من الكفار، بدليل جواز قتاله وأما العصاة من المؤمنين فلا يجوز لعنة أحد منهم على التعيين وأما على الإطلاق فيجوز لما روي أن النبي ﷺ قال: «لعن الله السارق يسرق البيضة والحبل فتقطع يده» ولعن رسول الله ﷺ الواشمة والمستوشمة وآكل الربا ومؤكله ولعن من غير منار الأرض، ومن انتسب لغير أبيه وكل هذه في الصحيح. قوله عز وجل: ﴿وإلهم إله واحد﴾ سبب نزول هذه الآية، أن كفار قريش قالوا: يا محمد صف لنا ربك وانسبه، فأنزل الله هذه الآية وسورة الإخلاص ومعنى الوحدة الانفراد، وحقيقة الواحد هو الشيء الذي لا يتبعض ولا ينقسم والواحد في صفة الله أنه واحد لا نظير له وليس كمثله شيء وقيل واحد في ألوهيته وربوبيته ليس له شريك لأن المشركين أشركوا معه الآلهة فكذبهم الله تعالى بقوله: ﴿وإلهم إله واحد﴾ يعني لا شريك له في ألوهيته ولا نظير له في الربوبية والتوحيد، هو نفي الشريك والقسيم والشبيه فالله تعالى واحد في أفعاله لا شريك له يشاركه في مصنوعاته وواحد في ذاته لا قسيم له وواحد في صفاته لا يشبهه شيء من خلقه ﴿لا إله إلا هو﴾ تقرير للوحدانية بنفي غيره من الألوهية وإثباتها له سبحانه وتعالى: ﴿الرحمن الرحيم﴾ يعني أنه المولى لجميع النعم وأصولها وفروعها فلا شيء سواه بهذه الصفة لأن كل ما سواه إما نعمة وأما منعم عليه. وهو المنعم على خلقه الرحيم بهم. عن أسماء بنت يزيد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وإلهم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾،

أجمعين»، قال أبو العالية: هذا يوم القيامة يوقف الكافر فيلعنه الله ثم تلعه الملائكة ثم يلعه الناس، فإن قيل: فقد قال والناس أجمعين والملعون هو من جملة الناس، فكيف يلعن نفسه؟ قيل: يلعن نفسه في القيامة، قال الله تعالى: ﴿ويلعن بعضكم بعضاً﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقيل: إنهم يلعنون الظالمين والكافرين، ومن يلعن الظالمين والكافرين وهو منهم فقد لعن نفسه.

﴿خالد بن فيها﴾ مقيم في اللعنة وقيل في النار، ﴿لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾ لا يمهلون ولا يؤجلون، وقال أبو العالية: لا ينظرون فيعتذروا، كقوله تعالى: ﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ [المرسلات: ٣٦].

قوله تعالى: ﴿وإلهم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾، سبب نزول هذه الآية أن كفار قريش قالوا: يا محمد صف لنا ربك وانسبه، فأنزل الله تعالى هذه الآية وسورة الإخلاص، والواحد: الذي لا نظير له ولا شريك له، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا أبو جعفر الزياتي أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا بكر بن إبراهيم وأبو عاصم، عن عبد الله بن أبي زياد عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد أنها قالت: سمعت النبي ﷺ يقول: إن في هاتين الآيتين اسم الله الأعظم: ﴿وإلهم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾، و﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ [البقرة: ٢٥٥، وآل عمران: ٢]، قال أبو الضحى: لمَّا

وفاتحة آل عمران: ﴿أَلَمْ يَلَمْ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ «أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث صحيح. وقيل: لما نزلت هذه الآية. قال المشركون: إن محمداً يقول: «إلهكم إله واحد فليأتنا بآية إن كان صادقاً» فأنزل الله تعالى:

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

﴿إن في خلق السموات والأرض﴾ وعلمه كيفية الاستدلال على وحدانية الصانع، وردهم إلى التفكير في آياته والنظر في عجائب مصنوعاته وإتقان أفعاله ففي ذلك دليل على وحدانيته إذ لو كان في الوجود صانعان لهذه الأفعال، لاستحال اتفاقهما على أمر واحد ولامتنع في أفعالهما التساوي في صفة الكمال فثبت بذلك أن خالق هذا العالم والمدير له واحد قادر مختار، فبين سبحانه وتعالى من عجائب مخلوقاته ثمانية أنواع أولها: إن في خلق السموات والأرض وإنما جمع السموات لأنها أجناس مختلفة كل سماء من جنس غير جنس الأخرى ووحد الأرض لأنها جنس واحد وهو التراب، والآية في السماء هي سمكها وارتفاعها بغير عمد، ولا علاقة وما يرى فيها من الشمس والقمر والنجوم، والآية في الأرض مدها وبسطها على الماء، وما يرى فيها من الجبال والبحار والمعادن والجواهر والأنهار والأشجار والثمار والنبات. النوع الثاني قوله تعالى: ﴿واختلاف الليل والنهار﴾ أي تعاقبهما في المجيء والذهاب وقيل اختلافهما في الطول والقصر والزيادة والنقصان والنور والظلمة. وإنما قدم الليل على النهار لأن الظلمة أقدم. والآية في الليل والنهار أن انتظام أحوال العباد بسبب طلب الكسب والمعيشة يكون في النهار وطلب النوم والراحة يكون في الليل فاختلف الليل والنهار إنما هو لتحصيل مصالح العباد. النوع الثالث قوله تعالى: ﴿والفلك التي تجري في البحر﴾ أي السفن واحدة وجمعه سواء، وسمي البحر ببحراً لاتساعه وانبساطه، والآية في الفلك تسخيرها وجريانها على وجه الماء وهي موقرة بالأثقال والرجال فلا ترسب وجريانها بالرياح مقبلة ومدبرة، وتسخير البحر لحمل الفلك مع قوة سلطان الماء، وهيجان البحر فلا ينجلي منه إلا الله تعالى النوع الرابع قوله تعالى: ﴿بما ينفع الناس﴾ يعني ركوبها والحمل عليها في التجارات لطلب الأرباح، والآية في

نزلت هذه الآية قال المشركون: إن محمداً يقول: إن إلهكم إله واحد فليأتنا بآية إن كان من الصادقين فأنزل الله عز وجل:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ذكر السماوات بلفظ الجمع والأرض بلفظ الواحد لأن كل سماء من جنس آخر، والأرضون كلها من جنس واحد وهو التراب، فالآية في السماوات: سمكها وارتفاعها من غير عمد ولا علاقة، وما يرى فيها من الشمس والقمر والنجوم، والآية في الأرض: مدها وبسطها وسعتها وما يرى فيها من الأشجار والأنهار، والجبال والبحار والجواهر والنبات. قوله تعالى: ﴿واختلاف الليل والنهار﴾، أي: تعاقبهما في الذهاب والمجيء يخلف أحدهما صاحبه، إذا ذهب أحدهما جاء الآخر، أي: بعده، نظيره: قوله تعالى: ﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خِلْفَةً﴾ [الفرقان: ٦٢]، قال عطاء: أراد اختلافهما في النور والظلمة والزيادة والنقصان، والليل جمع ليلة، والليالي جمع الجمع، والنهار جمع نهر، وقدم الليل على النهار في الذكر لأنه أقدم منه، قال الله تعالى: ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار﴾ [يس: ٣٧]، ﴿والفلك التي تجري في البحر﴾، يعني: السفن واحده وجمعه سواء، فإذا أريد به الجمع يُؤنث، وفي الواحد يُذكر، قال الله تعالى في الواحد والتذكير: ﴿إِذْ أَبَقَ

ذلك أن الله تعالى لو لم يقو قلب من يركب هذه السفن لما تم الغرض في تجارتهم، ومنافعهم وأيضاً فإن الله تعالى خص كل قطر من أقطار العالم بشيء معين، وأحوج الكل إلى الكل فصار ذلك سبباً يدعوهم إلى اقتحام الأخطار في الأسفار من ركوب السفن وخوض البحر وغير ذلك فالحامل ينتفع، لأنه يريح والمحمول إليه ينتفع بما حمل إليه. النوع الخامس قوله تعالى: ﴿وما أنزل الله من السماء من ماء﴾ يعني المطر قيل أراد بالسماء السحاب سمي سماء لأن كل ما علاك فأظلك فهو سماء خلق الله الماء في السحاب، ومنه ينزل إلى الأرض وقيل: أراد السماء بعينها خلق الله الماء في السماء ومنه ينزل إلى السحاب ثم منه إلى الأرض ﴿فأحيا به﴾ أي بالماء ﴿الأرض بعد موتها﴾ أي ييسها وجدها سماء موتاً مجازاً لأنها إذا لم تنبت شيئاً، ولم يصبها المطر فهي كالميتة، والآية في إنزال المطر وإحياء الأرض به أن الله تعالى جعله سبباً لإحياء الجميع من حيوان ونبات ونزوله عند وقت الحاجة إليه بمقدار المنفعة، وعند الاستسقاء والدعاء وإنزاله بمكان دون مكان. النوع السادس قوله تعالى: ﴿وبث﴾ أي فرق ﴿فيها﴾ أي في الأرض ﴿من كل دابة﴾ قال ابن عباس: يريد كل ما دب على وجه الأرض من جميع الخلق من الناس وغيرهم، والآية في ذلك أن جنس الإنسان يرجع إلى أصل واحد وهو آدم ثم ما فيهم من الاختلاف في الصور والأشكال والألوان والألسنة والطباع والأخلاق والأوصاف إلى غير ذلك ثم يقاس على بني آدم سائر الحيوان. النوع السابع قوله تعالى: ﴿وتصريف الرياح﴾ يعني في مهابتها قبولاً ودبوراً وشمالاً وجنوباً ونكباء وهي الريح التي تأتي من غير مهب صحيح، فكل ريح تختلف مهابتها تسمى: نكباء. وقيل: تصريفها في أحوال مهابتها لينة وعاصفة وحارة وباردة وسميت ريحاً لأنها تريح قال ابن عباس: أعظم جنود الله الريح وقيل ما هبت ريح إلا لشفاء سقيم أو ضده. وقيل: البشارة في ثلاث رياح الصبا والشمال والجنوب والدبور: هي الريح العقيم التي أهلك بها عاد فلا بشارة فيها، والآية في الريح أنها جسم لطيف لا يمكس ولا يرى وهي مع ذلك في غاية القوة تقلع الشجر والصخر وتخرّب البنيان العظيم وهي مع ذلك حياة الوجود فلو أمسكت طرفة عين لمات كل ذي روح وأنتن ما على وجه الأرض.

إلى الفلك المشحون ﴿[الصافات: ١٤٠]، وقال في الجمع والتأنيث: ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة﴾ [يونس: ٢٢]، ﴿والفلك التي تجري في البحر﴾ الآية في الفلك: تسخيرها وجريها على وجه الماء، وهي موقرة لا ترسب تحت الماء، ﴿بما ينفع الناس﴾، يعني: ركوبها والحمل عليها في التجارات والمكاسب وأنواع المطالب، ﴿وما أنزل الله من السماء من ماء﴾، يعني: المطر، قيل: أراد بالسماء السحاب، يخلق الله الماء في السحاب ثم من السحاب ينزل، وقيل: أراد به السماء المعروفة، يخلق الله تعالى الماء في السماء ثم ينزل من السماء إلى السحاب ثم من السحاب ينزل إلى الأرض، ﴿فأحيا به﴾، أي: بالماء ﴿الأرض بعد موتها﴾، أي: بعد ييسها وجدوبتها، ﴿وبث فيها﴾، أي: فرق فيها ﴿من كل دابة﴾، وتصريف الرياح ﴿، قرأ حمزة والكسائي (الريح) بغير ألف، وقرأ الباقون بالألف، وكل ريح في القرآن ليس فيها ألف ولا لام، اختلفوا في جمعها وتوحيدها إلا في آية: ﴿الريح العقيم﴾ [الدّاريات: ٤١]، اتفقوا على توحيدها، وفي الحرف الأول من آية: ﴿الرياح مبشرات﴾ [الروم: ٤٦]، اتفقوا على جمعها، وقرأ أبو جعفر سائرهما على الجمع، والقراء مختلفون فيها، والريح يُذكر ويؤنث، وتصريفها أنها يتصرف إلى الجنوب والشمال، والقبول والدبور والنكباء، وقيل: تصريفها أنها تارة تكون ليناً، وتارة تكون عاصفاً، وتارة تكون حارة، وتارة باردة، قال ابن عباس: أعظم جنود الله الريح والماء، وسميت الريح ريحاً لأنها تُريح النفوس، قال شريح القاضي: ما هبت ريح إلا لشفاء سقيم أو لسقم صحيح، والبشارة في ثلاث من الرياح: في الصبا والشمال والجنوب، أما الدبور فهي الريح العقيم، لا بشارة

النوع الثامن قوله تعالى: ﴿وَالسَّحَابُ الْمُسَخَّرُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي الغيم المذل سمي سحاباً لسرعة سيره كأنه يسحب. والآية في ذلك أن السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة التي تسيل منها الأدوية العظيمة يبقى معلقاً بين السماء والأرض، ففي هذه الأنواع الثمانية المذكورة في هذه الآية دلالة عظيمة على وجود الصانع القادر المختار، وأنه الواحد في ملكه فلا شريك له ولا نظير وهو المراد من قوله: «والحكم إله واحد لا إله إلا هو» وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي فيما ذكر من دلائل مصنوعاته الدالة على وحدانيته قيل إنما جمع آيات لأن في كل واحد مما ذكر من هذه الأنواع آيات كثيرة تدل على أن لها خالقاً مديراً مختاراً ﴿لَقَوْمٌ يَعْقِلُونَ﴾ أي ينظرون بصفاء عقولهم ويتفكرون بقلوبهم، فيعلمون أن لهذه الأشياء خالقاً ومديراً مختاراً وصانعاً قادراً على ما يريد. قوله عز وجل:

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى
الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾

﴿ومن الناس﴾ يعني المشركين ﴿من يتخذ من دون الله أنداداً﴾ يعني أصناماً يعبدونها والند المثل المنازع فعلى هذا الأصنام أنداداً بعضها لبعض وليست أنداداً لله تعالى وتعالى الله أن يكون له ند، أوله مثل منازع وقيل: الأنداد الأكفاء من الرجال وهم رؤسائهم وكبرائهم الذين يطيعونهم في معصية الله تعالى: ﴿يحبونهم﴾ أي يودونهم ويميلون إليهم والحب نقيض البغض وأحببت فلاناً أي جعلته معرضاً بأن تحبه والمحبة الإرادة ﴿كحب الله﴾ أي كحب المؤمنين لله والمعنى: يحبون الأصنام كما يحب المؤمنون ربهم عز وجل. وقيل: معناه يحبونهم كحب الله فيكون المعنى أنهم يسوون بين الأصنام وبين الله في المحبة فمن قال بالقول الأول لم يثبت للكفار محبة الله تعالى ومن قال بالقول الثاني أثبت للكفار محبة الله تعالى لكن جعلوا الأصنام شركاء له في الحب ﴿والذين آمنوا أشد حُباً لله﴾ أي أثبت وأدوم على محبته لأنهم لا يختارون مع الله سواه، والمشركون إذا اتخذوا صنماً ثم رأوا آخر أحسن منه طرحوا الأول واختاروا الثاني. وقيل: إن الكفار يعدلون عن أصنامهم في الشدائد ويقبلون إلى الله

فيها، وقيل: الرياح ثمانية، أربعة للرحمة، وأربعة للعذاب، فأما التي للرحمة: المبرشات والباشرات والذاريات والمرسلات، وأما التي للعذاب: فالعقيم والصرصر في البر والعاصف والقاصف في البحر. ﴿والسحاب المسخر﴾، أي: الغيم المذل، سمي سحاباً لأنه ينسحب، أي: يسير في سرعة كأنه يسحب أي يجر، ﴿بين السماء والأرض﴾ آيات لقوم يعقلون، فيعلمون أن لهذه الأشياء خالقاً وصانعاً قال وهب بن منبه: ثلاثة لا يُدرى من أين تجيء، الرعد والبرق والسحاب.

قوله تعالى: ﴿ومن الناس﴾، يعني: المشركين، ﴿من يتخذ من دون الله أنداداً﴾، أي: أصناماً يعبدونها، ﴿يحبونهم كحب الله﴾، أي: يحبون آلهتهم كحب المؤمنين الله، وقال الزجاج: يحبون الأصنام كما يحبون الله لأنهم أشركوها مع الله، فسووا بين الله وبين أوثانهم في المحبة، ﴿والذين آمنوا أشد حُباً لله﴾، أي: أثبت وأدوم على حبه من المشركين، لأنهم لا يختارون على الله ما سواه، والمشركون إذا اتخذوا صنماً ثم رأوا أحسن منه، طرحوا الأول واختاروا الثاني، قال قتادة: إن الكافر يعرض عن معبوده في وقت البلاء ويقبل على الله تعالى، كما أخبر الله عز وجل عنهم فقال: ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين﴾ [العنكبوت: ٦٥]، والمؤمن لا يعرض عن الله في السراء والضراء والشدة والرخاء، قال سعيد بن جبير: إن الله عز وجل يأمر يوم القيامة من أحرق نفسه في الدنيا على رؤية الأصنام أن يدخلوا جهنم مع أصنامهم، فلا يدخلون لعلمهم أن عذاب جهنم على

تعالى كما أخبر عنهم فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين. والمؤمنون لا يعدلون عن الله تعالى في السراء ولا في الضراء ولا في الشدة ولا في الرخاء وقيل: إن المؤمنين يوحدون ربهم والكفار يعبدون أصناماً كثيرة فتنقص المحبة لصنم واحد. وقيل: إنما هو قال ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ لأن الله أحبهم أولاً فأحبوه ومن شهد له المعبود بالمحبة كانت محبته أتم وسيأتي بسط الكلام في معنى المحبة عند قوله: يحبهم ويحبونه ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قرئ بالتاء والمعنى ولو ترى يا محمد الذين ظلموا. يعني أشركوا في شدة العذاب، لرأيت أمراً عظيماً وقرئ بالياء ومعناه ولو يرى الذين ظلموا أنفسهم عند رؤية العذاب حين يقذف بهم في النار لعرفوا مضرة الكفر وأن ما اتخذوه من الأصنام لا ينفعهم ﴿إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ معناه لو رأى الذين كانوا يشركون في الدنيا عذاب الآخرة لعلموا حين يرون العذاب أن القوة ثابتة لله جميعاً، والمعنى أنهم شاهدوا من قدرة الله تعالى ما تيقنوا معه أن القوة له جميعاً، وأن الأمر ليس على ما كانوا عليه من الشرك والجحود ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ قوله عز وجل: .

إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرَأُ كَرَةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾

﴿إِذْ تَبَرَّأَ﴾ أي تنزه وتباعد ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ﴾ أي القادة من مشركي الإنس من الأتباع وذلك يوم القيامة حين يجمع القادة والأتباع فيتبرأ بعضهم من بعض عند نزول العذاب بهم وعجزهم عن دفعه عن أنفسهم فكيف عن غيرهم. وقيل: هم الشياطين يتبرؤون من الإنس، والقول هو الأول ﴿وتقطعت بهم

الدوام، ثم يقول للمؤمنين وهم بين أيدي الكفار: إن كنتم أحبائي فادخلوا جهنم، فيقتحمون فيها فينادي مُنَادٍ من تحت العرش: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾، وقيل: إنما قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾، لأن الله تعالى أحبهم أولاً ثم أحبوه، ومن شهد له المعبود بالمحبة كانت محبته أتم، قال الله تعالى: ﴿يَحِبُّهُمْ وَيَحْبُوهُمْ﴾ [المائدة: ٥٤]. قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، قرأ نافع وابن عامر ويعقوب ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ بالتاء وقرأ الآخرون بالياء وجواب ﴿لَوْ﴾ ههنا محذوف، ومثله كثير في القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ﴾ [الرعد: ٣١] الآية يعني: لكان هذا القرآن، فمن قرأ بالتاء معناه: ولو ترى يا محمد الذين ظلموا أنفسهم في شدة العذاب، لرأيت أمراً عظيماً، قيل: معناه: قل يا محمد: أيها الظالم لو ترى الذين ظلموا، أي: أشركوا في شدة العقاب، لرأيت أمراً فظيماً، ومن قرأ بالياء معناه: ولو يرى الذين ظلموا أنفسهم عند رؤية العذاب، أي: ولو رأوا شدة عذاب الله وعقوبته حين يرون العذاب، لعرفوا مضرة الكفر، وأن ما اتخذوا من الأصنام لا ينفعهم، قوله تعالى: ﴿إِذْ يَرُونَ﴾، قرأ ابن عامر بضم الياء والباقون بفتحها، ﴿الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾، وأن الله شديد العذاب ﴿أَي: بَأَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ معناه: لرأوا وأيقنوا أن القوة لله جميعاً، وقرأ أبو جعفر ويعقوب (إن القوة) (وإن الله) بكسر الألف على الاستئناف، والكلام تام عند قوله: ﴿إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ﴾، مع إضمار الجواب.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ﴾، هذا في يوم القيامة حين يجمع الله القادة والأتباع، فيتبرأ بعضهم من بعض، هذا قول أكثر المفسرين، وقال السدي: هم الشياطين يتبرأون من الإنس، ﴿وتقطعت بهم﴾، أي: عنهم ﴿الأسباب﴾، أي الصلوات التي كانت بينهم في الدنيا، من القرابات والصدقات، وصارت

الأسباب ﴿ يعني الوصلات التي كانت بينهم في الدنيا يتواصلون بها من قرابة وصداقة. وقيل: الأعمال التي كانت بينهم يعملونها في الدنيا. وقيل: العهود والحلف التي كانت بينهم يتوادون عليها. وأصل السبب في اللغة الحبل الذي يصعد به النخل وسمي كل ما يتوصل به إلى شيء من ذريعة أو قرابة أو مودة سبباً تشبيهاً بالحبل الذي يصعد به ﴿ وقال الذين اتبعوا ﴾ يعني الأتباع ﴿ لو أن لنا كرة ﴾ أي رجعة إلى الدنيا ﴿ فنتبرأ منهم ﴾ أي من المتبوعين ﴿ كما تبرؤوا منا ﴾ اليوم ﴿ كذلك يريهم الله ﴾ أي كما أراهم العذاب يريهم الله ﴿ أعمالهم حسرات عليهم ﴾ لأنهم أيقنوا بالهلاك. والحسرة الغم على ما فاته وشدة الندم عليه كأنه انحسر عنه الجهل الذي حمله على ما ارتكبه، والمعنى أن الله تعالى يريهم السيئات التي عملوها، وارتكبوها في الدنيا فيتحسرون لم عملوها؟. وقيل: يريهم ما تركوا من الحسنات فيندمون على تضييعها. وقيل: يرفع لهم منازلهم في الجنة فيقال لهم تلك مساكنكم لو أطعتم الله ثم تقسم بين المؤمنين فذلك حين يتحسرون ويندمون على ما فاتهم ولا ينفعهم الندم ﴿ وما هم بخارجين من النار ﴾ قوله عز وجل: .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾
يَا مَرْكُومٌ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ سَيِّئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾

﴿ يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ﴾ نزلت في ثقيف وخزاعة وعامر بن صعصعة وبني مدلج فيما حرموا على أنفسهم من الحرث والأنعام والبحيرة والسائبة والوصيلة والحام. والحلال المباح الذي أحله الشرع وانحلت عقدة الحظر عنه، وأصله من الحل الذي هو نقيض العقد. والطيب ما يستلذ، والمسلم لا يستطيب إلا الحلال ويعاف الحرام. وقيل: الطيب هو الطاهر لأن النجس تكرهه النفس وتعافه ﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾

مخالطتهم عداوة، وقال ابن جريج: الأرحام، كما قال الله تعالى: ﴿ فلا أنساب بينهم يومئذ ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وقال السدي: يعني الأعمال التي كانوا يعملونها في الدنيا، كما قال الله تعالى: ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ [الفرقان: ٢٣]، وأصل السبب ما يوصل به إلى الشيء من ذريعة أو قرابة أو مودة ومِنَّة، يقال للحبل: سبب، وللطريق: سبب.

﴿ وقال الذين اتبعوا ﴾، يعني: الأتباع: ﴿ لو أن لنا كرة ﴾، أي: رجعة إلى الدنيا، ﴿ فتبرأ منهم ﴾، أي: من المتبوعين، ﴿ كما تبرأوا منا ﴾: اليوم، ﴿ كذلك ﴾، أي: كما أراهم العذاب، كذلك ﴿ يريهم الله ﴾، وقيل: كَتَبَرُوا بعضهم من بعض، يريهم الله: ﴿ أعمالهم حسرات ﴾: ندامات عليهم، جمع حسرة، قيل: يريهم ما ارتكبوا من السيئات فيتحسرون لم عملوا، وقيل يريهم ما تركوا من الحسنات، فيندمون على تضييعها، وقال ابن كيسان: إنهم أشركوا بالله الأوثان رجاء أن تقربهم إلى الله عز وجل، فلما عذبوا على ما كانوا يرجون ثوابه تحسروا وندموا، قال السدي: ترفع لهم الجنة فينظرون إليها وإلى بيوتهم فيها لو أطاعوا الله فيقال لهم: تلك مساكنكم لو أطعتم الله، ثم تقسم بين المؤمنين فذلك حين يندمون ويتحسرون ﴿ وما هم بخارجين من النار ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ﴾، نزلت في ثقيف وخزاعة وعامر بن صعصعة، وبني مدلج فيما حرموا على أنفسهم من الحرث والأنعام، والبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، فالحلال ما أحله الشرع طيباً، قيل: ما يُستطاب ويستلذ، والمسلم يستطيب الحلال ويخاف الحرام، وقيل الطيب، ﴿ ولا تتبعوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾، قرأ أبو جعفر وابن عامر والكسائي وحفص ويعقوب بضم الطاء، والباقون بسكونها،

أي لا تسلكوا سبيله . وقيل معناه لا تأثموا به ولا تتبعوا آثاره وزلاته ، والمعنى احذروا أن تتعدوا ما أحل الله لكم إلى ما يدعوكم إليه الشيطان . قيل : هي النذور في المعاصي . وقيل : هي المحقرات من الذنوب ثم بين علة هذا التحذير ، بقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ أي ظاهر العداوة وقد أظهر الله تعالى عداوته بآية السجود لآدم ثم بين عداوته ما هي فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ ﴾ يعني بالإثم . والسوء ما يسوء صاحبه ويخزيه ﴿ وَالْفَحْشَاءِ ﴾ يعني بها المعاصي وما قبح من قول أو فعل . قال ابن عباس : السوء ما لا حد فيه ، والفحشاء ما يجب فيه الحد . وقيل الفحشاء الزنا . وقيل هو البخل ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يعني من تحريم الحرث والأنعام ويتناول ذلك جميع المذاهب الفاسدة التي لم يأذن فيها الله ولم ترد عن رسول الله ﷺ . واعلم أن أمر الشيطان ووسوسته عبارة عن هذه الخواطر التي يجدها الإنسان في قلبه ، وماهية هذه الخواطر حروف وأصوات منتظمة خفية تشبه الكلام في الخارج ، ثم إن فاعل هذه الخواطر هو الله تعالى وهو المحدث لها في باطن الإنسان ، وإنما الشيطان كالعرض ، والله هو المقدر له على ذلك وقد ورد في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ : « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » وإنما أقدر على ذلك لإيصال هذه الخواطر إلى باطن الإنسان . قوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ هذه قصة مستأنفة والضمير في « لهم » يعود إلى غير مذكور . قال ابن عباس : دعا رسول الله ﷺ اليهود إلى الإسلام . فقال رافع بن خارجه ومالك بن عوف : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا فهم كانوا خيراً منا وأعلم منا فأنزل الله هذه الآية . وقيل : إن الآية متصلة بما قبلها والضمير في « لهم » يعود إلى قوله : ﴿ وَمَنْ النَّاسُ مَنِ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً ﴾ وهم مشركو العرب . قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا يعني من عبادة الأصنام . وقيل : بل الضمير في « لهم » يعود على قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ ﴾ والمعنى وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله

﴿ وَخُطُواتِ الشَّيْطَانِ ﴾ آثاره وزلاته ، وقيل : هي النذور في المعاصي ، وقال أبو عبيدة : هي المحقرات من الذنوب ، وقال الزجاج : طُرْقُهُ ، ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ : بين العداوة ، وقد أظهر عداوته بإيائه السجود لآدم وغروره إيائه ، حتى أخرجه من الجنة ، و(أبان) يكون لازماً ومتعدياً ثم ذكر عداوته فقال :

﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ ﴾ ، أي : بالإثم ، وأصل السوء ما يسوء صاحبه ، وهو مصدر ساء يسوء سوءاً ومساءةً ، أي : أحزنه ، وسوأته فساء أي : حزنه فحزن ، ﴿ وَالْفَحْشَاءِ ﴾ : المعاصي وما قبح من القول والفعل ، وهو مصدر كالسرء والضراء ، روى باذن عن ابن عباس قال : الفحشاء من المعاصي ما يجب فيه الحد ، والسوء من الذنوب ما لا حد فيه ، وقال السدي : هي الزنا ، وقيل : هي البخل ، ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، من تحريم الحرث والأنعام .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ قيل : هذه قصة مستأنفة ، والهاء والميم في ﴿ لَهُمْ ﴾ كناية عن غير مذكور ، وروى عن ابن عباس قال : دعا رسول الله ﷺ اليهود إلى الإسلام ، فقال رافع بن خارجه ومالك بن عوف : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أي : ما وجدنا عليه آباءنا فهم كانوا أفضل وأعلم منا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وقيل : الآية متصلة بما قبلها وهي نازلة في مشركي العرب وكفار قريش ، والهاء والميم عائدة إلى قوله : ﴿ وَمَنْ النَّاسُ مَنِ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً ﴾ [البقرة: ١٦٥] ، ﴿ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا ﴾ ، أي : ما وجدنا ﴿ عَلَيْهِ آبَاءُنَا ﴾ ، من عبادة الأصنام ، وقيل : معناه وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله في تحليل ما حرموا على أنفسهم من الحرث والأنعام والبحيرة والسائبة ، والهاء والميم عائدتان إلى الناس في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا ﴾ ﴿ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ﴾ ، قرأ الكسائي ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ ﴾ بإدغام اللام في النون ، وكذلك يدغم لام هل وبل في التاء والثاء والزاء والسين والصاد والطاء والظاء ، ووافق حمزة في الثاء والسين ، و﴿ مَا أَلْفَيْنَا ﴾ ما وجدنا عليه آباءنا من التحريم

يعني في تحليل ما حرموا على أنفسهم ﴿قالوا بل نتبع ما ألفينا﴾ يعني وجدنا ﴿عليه آباءنا﴾ من التحريم والتحليل، قال الله تعالى: ﴿أو لو كان آباؤهم﴾ يعني الذين يتبعونهم ﴿لا يعقلون شيئاً﴾ يعني لا يعلمون شيئاً من أمر الدين، لفظه عام ومعناه خاص وذلك أنهم كانوا يعقلون أمر الدنيا ﴿ولا يهتدون﴾ أي إلى الصواب. ثم ضرب لهم مثلاً فقال تعالى:

وَمَثَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعُقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾
يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾

﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء﴾ النعيق صوت الراعي بالغنم، ولا يقال نعق إلا للراعي بالغنم وحدها، ومعنى الآية: ومثلك يا محمد ومثل الكفار في وعظهم ودعائهم إلى الله كمثل الراعي الذي ينعق بالغنم وهي لا تسمع إلا صوتاً فصار الداعي إلى الله وهو الرسول ﷺ بمنزلة الراعي، وصار الكفار بمنزلة الغنم المنعوق بها، ووجه المثل أن الغنم تسمع الصوت ولا تفطن للمراد وكذلك الكفار يسمعون صوت الرسول ﷺ ولكن لا ينتفعون به، وقيل معناه ومثل الذين كفروا في قلة عقلهم وفهمهم عن الله ورسوله كمثل المنعوق به من البهائم التي لا تفهم من الأمر والنهي إلا الصوت فيكون المعنى بالمثل المنعوق به خارج عن الناقع. وقيل: معناه ومثل الذين كفروا في دعائهم الأصنام التي لا تفقه ولا تعقل كمثل الناقع بالغنم، فهو لا ينتفع من نعيقه بشيء غير أنه غني عن الدعاء والنداء، فكذلك الكافر ليس له من دعاء الأصنام وعبادتها إلا العناء والبلاء، والفرق بين هذا القول والقول الذي قبله أن المحذوف هنا هو المدعو وهي الأصنام وفي القول الأول المحذوف هو الداعي وهو الرسول ﷺ ﴿صم بكم عمي﴾ لما شبههم بالبهائم زاد في تبكيهم فقال: صم لأنهم إذا سمعوا الحق ودعاء الرسول، ولم ينتفعوا به صاروا بمنزلة الأصم الذي لا يسمع ولا يعقل كأنه أصم، بكم أي عن

والتحليل، قال تعالى: ﴿أو لو كان آباؤهم﴾ أي: كيف يتبعون آباءهم، وآباؤهم ﴿لا يعقلون شيئاً﴾؟ الواو في ﴿أولئ﴾ وأو العطف، ويُقال لها أيضاً: واو التعجب دخلت عليها ألف الاستفهام للتوبيخ، والمعنى: أيتبعون آباءهم وإن كانوا جهلاً لا يعقلون شيئاً، لفظه عام ومعناه الخصوص، أي: لا يعقلون شيئاً من أمور الدين، لأنهم كانوا يعقلون أمر الدنيا، ﴿ولا يهتدون﴾، ثم ضرب لهم مثلاً فقال جل ذكره:

﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع﴾، والنعيق والنعق: صوت الراعي بالغنم، معناه: مثلك يا محمد ومثل الكفار في وعظهم ودعائهم إلى الله عز وجل كمثل الراعي الذي ينعق بالغنم، وقيل: مثل واعظ الكفار وداعيهم معهم كمثل الراعي ينعق بالغنم وهي لا تسمع، ﴿إلا دعاء﴾ صوتاً ﴿ونداء﴾، فأضاف المثل إلى الذين كفروا، لدلالة الكلام عليه، كما في قوله تعالى: ﴿واسأل القرية﴾ [يوسف: ٨٢]، معناه كما أن البهائم تسمع صوت الراعي ولا تفهم ولا تعقل ما يقال لها، كذلك الكافر لا ينتفع بوعظك إنما يسمع صوتك، وقيل: معناه ومثل الذين كفروا في قلة عقلهم وفهمهم عن الله وعن رسوله، كمثل المنعوق به من البهائم التي لا تفقه من الأمر والنهي إلا الصوت، فيكون المعنى للمنعوق به والكلام خارج عن الناقع، وهو فاش في كلام العرب يفعلون ذلك يقلبون الكلام لإيضاح المعنى عندهم، يقولون: فلان يخافك كخوف الأسد، أي: كخوفه الأسد، وقال تعالى: ﴿ما إن مفاتيحه لتنوء بالعصبة﴾ [القصص: ٧٦]، وإنما العصبة لتنوء بالمفاتيح، وقيل: معناه مثل الذين كفروا في دعاء الأصنام التي لا تفقه ولا تعقل كمثل الناقع بالغنم، فلا ينتفع من نعيقه بشيء، غير أنه في غناء من الدعاء والنداء، كذلك الكافر ليس له من دعاء الآلهة وعبادتها إلا العناء والبلاء، كما قال تعالى: ﴿إن تدعوهم لا يسمعوا

النطق بالحق عمي أي عن طريق الهدى ﴿فهم لا يعقلون﴾ قيل المراد به العقل الكسبي لأن العقل الطبيعي كان حاصلًا فيهم قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ قيل إن الأمر في قوله: كلوا قد يكون للوجوب كالأكل لحفظ النفس ودفع الضرر عنها، وقد يكون للنذب كالأكل مع الضيف وقد يكون للإباحة إذا خلا من هذه العوارض. والطيب هو الحلال (م) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله طيب ولا يقبل إلا الطيب وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً وقال: يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء: يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك». قوله: أشعث أغبر هو البعيد العهد بالدهن والغسل والنظافة. وقيل الطيب المستلذ من الطعام فلعل قومًا تنزهوا عن أكل المستلذ من المطاعم فأباح الله تعالى لهم ذلك ﴿واشكروا لله﴾ يعني على نعمه ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ أي اشكروا الله الذي رزقكم هذه النعم إن كنتم تخصونه بالعبادة وتقرون أنه إلهكم لا غيره وقيل إن كنتم عارفين بالله وبنعمه فاشكروه عليها.

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ
فَلَا إِنَّمَا عَلَيْهِ إِنْ اللَّهُ عَفُوٌّ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾

قوله عز وجل: ﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير﴾ لما أمرنا الله تعالى في الآية التي تقدمت بأكل الطيبات التي هي الحلالات بين في هذه الآية أنواعاً من المحرمات، أما الميتة فكل ما فارقه روحه من غير ذكاة مما يذبح. وأما الدم فهو الجاري وكانت العرب تجعل الدم في المصارين ثم تشويه وتأكله فحرم الله الدم. وأما الخنزير فإنه أراد بلحمه جميع أجزائه وإنما خص اللحم بالذكر لأنه المقصود لذاته بالأكل ﴿وما أهل به

دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم﴾ [فاطر: ١٤]، وقيل: معنى الآية ومثل الذين كفروا في دعاء الأوثان، كمثّل الذي يصيح في جوف الجبال، فيسمع صوتاً يُقال له الصداء لا يُفهم منه شيئاً، فمعنى الآية: كمثّل الذي ينطق بما لا يسمع منه الناعق إلا دعاء ونداء. ﴿صُمٌّ﴾، تقول العرب لمن لا يسمع ولا يعمل: كأنه أصم، ﴿بُكْمٌ﴾، عن الخير لا يقولونه، ﴿عُمِيٌّ﴾، عن الهدى لا يبصرونه، ﴿فهم لا يعقلون﴾.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات﴾: حلالات ﴿ما رزقناكم﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أبو محمد وعبد الرحمن بن أبي شريح، أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي، أخبرنا علي بن الجعد أخبرنا فضيل بن مرزوق عن عدي بن ثابت، عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا الطيب، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾ [المؤمنون: ٥١]، ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك». ﴿واشكروا لله﴾: على نعمه، ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾، ثم بين المحرمات فقال:

﴿إنما حرم عليكم الميتة﴾، قرأ أبو جعفر ﴿الميتة﴾ كل القرآن بالتشديد، والباقون يشددون البعض، والميتة: كل ما لم تدرك ذكاته مما يذبح، ﴿والدم﴾، أراد به الدم الجاري، يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿أو دمًا مسفوحاً﴾ [الأنعام: ١٤٥]، واستثنى الشرع من الميتة السمك والجراد، ومن الدم الكبد والطحال فأحلّها، أخبرنا

لغير الله ﴿يعني وما ذبح للأصنام والطواغيت وأصل الإهلال رفع الصوت وذلك أنهم كانوا يرفعون أصواتهم بذكر ألتهتم إذا ذبحوا لها فجرى ذلك مجرى أمرهم وحالهم حتى قيل لكم ذابح مهل وإن لم يجهر بالتسمية ﴿فمن اضطر﴾ يعني إلى أكل الميتة وأحوج إليها ﴿غير باغ﴾ أصل البغي الفساد ﴿ولا عاد﴾ أصله من العدوان وهو الظلم ومجاوزة الحد ﴿فلا إثم عليه﴾ أي فأكل فلا إثم عليه، أي فلا حرج في أكلها ﴿إن الله غفور﴾ أي لما أكله في حال الضرورة ﴿رحيم﴾ يعني حيث رخص لعباده في ذلك.

فصل في حكم هذه الآية وفيه مسائل:

الأولى في حكم الميتة أجمعت الأمة على تحريم أكل الميتة، وأنها نجسة واستثنى الشرع منها السمك والجراد، أما السمك فلقوله ﷺ في البحر: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» أخرجه الجماعة غير البخاري ومسلم. قال الترمذي: فيه حديث حسن صحيح. وأما الجراد فلما روي عن ابن أبي أوفى قال: «غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات، أو ستاً وكنا نأكل الجراد ونحن معه» أخرجاه في الصحيحين. واختلف في السمك الميت الطافي على الماء فقال مالك والشافعي لا بأس به وقال أبو حنيفة وأصحابه والحسن بن صالح بن حي إنه مكروه وروي عن علي بن أبي طالب أنه قال: ما طفى من صيد البحر فلا تأكله وعن ابن عباس وجابر بن عبد الله مثله وروي عن أبي بكر الصديق وأبي أيوب إباحته. واختلف في الجراد، فقال الشافعي وأبو حنيفة: لا بأس بأكل الجراد كله ما أخذه وما وجدته ميتاً. وروى مالك أن ما وجد ميتاً فلا يحل وما أخذ حياً يذكي زكاة مثله بأن يقطع رأسه ويشوى فإن غفل عنه حتى يموت فلا يحل.

المسألة الثانية في حكم الدم: اتفق العلماء على أن الدم حرام نجس لا يؤكل، ولا ينتفع به. قال الشافعي: تحرم جميع الدماء سواء كان مسفوحاً أو غير مسفوح. وقال أبو حنيفة: دم السمك ليس بحرام قال لأنه إذا يبس ابيض واستثنى الشارع من الدم الكبد والطحال. روى الدارقطني عن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «أحل لنا من الدم دمان ومن الميتة ميتتان الحوت والجراد ومن الدم الكبد والطحال» وفي لفظ آخر: «أحلت لنا ميتتان ودمان فأما الميتتان فالجراد والحوت، وأما الدمان فالطحال والكبد»

عبد الوهاب بن محمد الخطيب، أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أخبرنا أبو العباس الأصم، أخبرنا الربيع بن سليمان أخبرنا الشافعي أخبرنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أُحِلَّتْ لنا ميتتان ودمان، الميتتان: الحوت والجراد، والدمان: أحسبه قال الكبد والطحال» ﴿ولحم الخنزير﴾، أراد به جميع أجزائه، فعبر عن ذلك باللحم لأنه معظمه، ﴿وما أهل به لغير الله﴾، أي: ما ذبح للأصنام والطواغيت، وأصل الإهلال رفع الصوت، وكانوا إذا ذبحوا لألتهتم يرفعون أصواتهم بذكرها، فجرى ذلك من أمرهم حتى قيل لكل ذابح وإن لم يجهر بالتسمية: مهل، وقال الربيع بن أنس وغيره: ﴿وما أهل به لغير الله﴾ قال: ما ذكر عليه اسم غير الله، ﴿فمن اضطر﴾، بكسر النون وإخواته، عاصم وحزمة، ووافق أبو عمرو إلا في اللام والواو مثل: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾ [الإسراء: ١١٠] ويعقوب إلا في الواو، ووافق ابن عامر في التنوين، والباقون كلهم بالضم، فمن كسر قال لأن الجزم يُحرَك إلى الكسر، ومن ضم فلضمه أول الفعل، نقل حركتها إلى ما قبلها، وأبو جعفر بكسر الطاء ومعناه فمن اضطر إلى أكل الميتة، أي: أحوج وألجئ إليه، ﴿غير﴾، نصب على الحال، وقيل: على الاستثناء، وإذا رأيت ﴿غير﴾ لا يصلح في موضعها (إلا) فهي حال، وإذا صلح في موضعها (إلا) فهي استثناء، ﴿باغ ولا عاد﴾، أصل البغي: قصد الفساد، يقال: بغى الجرح يبغي بغياً إذا ترمى إلى الفساد، وأصل العدوان: الظلم ومجاوزة الحد، يقال: عدا عليه عدواً وعدواناً إذا ظلم، واختلفوا في معنى

أخرجه ابن ماجه وأحمد بن حنبل. قال أحمد وعلي بن المدني: عبدالرحمن بن زيد ضعيف. وأخوه عبدالله بن زيد قوي. ثقة. وقد أخرج الدارقطني هذا الحديث من رواية عبدالله بن زيد عن أبيه عن ابن عمر مرفوعاً وضعف أبو بكر بن العربي هذا الحديث وقال: يروى عن عمر بما لا يصح سنده وقال البيهقي: يروى هذا الحديث عن ابن عمر موقوفاً ومرفوعاً والصحيح الموقوف. واختلف في تخصيص هذا العموم في الكبد والطحال فقال: مالك لا تخصيص لأن الكبد والطحال لحم، ويشهد لذلك العيان الذي لا يفتقر إلى برهان وقال الشافعي: هما دمان ويشهد له الحديث فهو تخصيص من العموم.

المسألة الثالثة في الخنزير: أجمعت الأمة على أن الخنزير بجميع أجزائه محرم، وإنما ذكر الله تعالى لحمة لأن معظم الانتفاع متعلق به ثم اختلفوا في نجاسته فقال جمهور العلماء إنه نجس وقال مالك: إنه طاهر. وكذا كل حيوان عنده، لأن علة الطهارة هي الحياة وللشافعي قولان: في ولوغ الخنزير الجديد أنه كالكلب والقديم يكفي في ولوغه غسلة واحدة. والفرق بينهما أن التغليظ في الكلب لأن العرب كانت تألفه بخلاف الخنزير. وقيل: إن التغليظ في الكلب تعدي لا يعقل معناه فلا يتعدى إلى غيره.

المسألة الرابعة في حكم قوله: وما أهل به لغير الله: من الناس من زعم أن المراد بذلك ذبائح عبدة الأوثان التي كانوا يذبحونها لأصنامهم، وأجاز ذبيحة النصارى إذا سمي عليها باسم المسيح وهو مذهب عطاء ومكحول والحسن والشعبي وسعيد بن المسيب لعموم قوله: ﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم﴾ وقال مالك والشافعي وأبو حنيفة: لا يحل ذلك والحجة فيه أنهم إذا ذبحوا على اسم المسيح فقد أهلوا به لغير الله فوجب أن يحرم. وروي عن علي بن أبي طالب أنه قال: إذا سمعتم اليهود والنصارى يهلون لغير الله فلا تأكلوا وإذا لم تسمعوهم فكلوا، فإن الله قد أحل ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون.

المسألة الخامسة في حكم المضطر: المضطر هو المكلف بالشيء، الملجأ إليه المكروه عليه والمراد بالمضطر في قوله فمن اضطر أي خاف التلف حتى قيل: من اضطر إلى أكل فلم يأكل الميتة فلم يأكل منها حتى مات دخل النار. والمضطر على ثلاثة أقسام: إما بإكراه أو بجوع في مخمصة أو بفقر لا يجد شيئاً البتة فإن التحريم يرتفع مع وجود هذه الأقسام بحكم الاستثناء في قوله: فلا إثم عليه وتباح له الميتة فأما الإكراه فيبيح ذلك إلى زوال الإكراه وأما المخمصة فلا يخلو إن كانت دائمة فلا خلاف في جواز الشبع منها، وإن كانت نادرة فاختلف العلماء فيه. وللشافعي قولان أحدهما أنه يأكل ما يسد به الرمق، وبه قال أبو حنيفة. والثاني يأكل قدر الشبع، وبه قال مالك.

قوله: ﴿غير باغٍ ولا عادٍ﴾، فقال بعضهم: غير باغٍ أي: غير خارج على السلطان، ولا عادٍ: متعدي، عاصٍ بسفره، بأن خرج لقطع الطريق أو لفساد في الأرض، وهو قول ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير، وقالوا: لا يجوز للعاصي بسفره أن يأكل الميتة إذا اضطر إليها، ولا أن يترخص برخص المسافر حتى يتوب، وبه قال الشافعي، لأن إباحة الميتة له إعانة له على فساده، وذهب جماعة إلى أن البغي والعدوان راجعان إلى الأكل، واختلفوا في تفصيله، وقال الحسن وقتادة: غير باغٍ بأكله من غير اضطرار ولا عاد، أي: لا يعدو لشبعه، وقيل: غير باغٍ أي غير طالبيها وهو يجد غيرها، ولا عاد أي غير متعدي ما حُدَّ له، فيأكل حتى يشبع، ولكن يأكل منها قوتاً مقداراً ما يُمسك رَمَقَه، وقال مقاتل بن حيان: غير باغٍ أي مستحل لها، ولا عادٍ أي متزود منها، وقيل: غير باغٍ أي غير مجاوز للقدر الذي أُجِّلَ له، ولا عادٍ أي لا يَقْصُر فيما أُبِيحَ له فيدعه، قال مسروق: مَنْ اضطر إلى الميتة والدم ولحم الخنزير فلم يأكل ولم يشرب حتى مات دخل النار، واختلف العلماء في مقدار ما يَحِلُّ للمضطر أكله من الميتة، فقال بعضهم: مقدار ما يسد رَمَقَه، وهو قول أبي حنيفة رضي الله عنه، وأحد قولي الشافعي رضي الله عنه، والقول

المسألة السادسة في قوله غير باغ ولا عاد: قال ابن عباس: معنى غير باغ غير خارج على السلطان ولا عاد أي معتد يعني العاصي بسفره بأن يخرج لقطع الطريق أو أبق من مولاه فلا يجوز للعاصي بسفره أن يأكل من الميتة إذا اضطر إليها، ولا يترخص برخص المسافرين حتى يتوب، وبه قال الشافعي: لأن إباحة الميتة له إعانة له على فساده وذهب قوم إلى أن البغي والعدوان يرجعان إلى الأكل وبه قال أبو حنيفة. وأباح أكل الميتة للمضطر وإن كان عاصياً، وقيل في معنى قوله غير باغ أي غير طالب الميتة وهو يجد غيرها ولا عاد أي غير متعد ما حد له، وقيل: غير مستحل لها ولا متزود منها. قوله عز وجل:

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾

﴿إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب﴾ نزلت في رؤساء اليهود وعلمائهم وذلك أنهم كانوا يصيبون من سفلتهم الهدايا والمآكل وكانوا يرجون أن يكون النبي المبعوث منهم، فلما بعث محمد ﷺ وهو من غيرهم خافوا على ذهاب مآكلهم وزوال رياستهم فعمدوا إلى صفة رسول الله ﷺ فكتموها فأنزل الله: ﴿إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب﴾ أي في الكتاب من صفة رسول الله ﷺ ونعته ووقت نبوته هذا قول المفسرين قال الإمام فخر الدين الرازي وعند المتكلمين هذا ممتنع لأن التوراة والإنجيل قد بلغا من الشهرة والتواتر إلى حيث تعذر ذلك فيهما بل كانوا يكتُمون التأويل لأنه قد كان منهم من يعرف الآيات الدالة على نبوة محمد ﷺ فكانوا يذكرون لها تأويلات باطلة ويصرفونها عن محالها الصحيحة الدالة على نبوة محمد ﷺ فهذا هو المراد بالكتمان فيصير المعنى، إن الذين يكتُمون معاني ما أنزل الله من الكتاب ﴿ويشترون به﴾ أي بالكتمان وقيل يعود الضمير إلى ما أنزل الله من الكتاب ﴿ثمنًا قليلًا﴾ أي عوضاً يسيراً وهي المآكل التي كانوا يأخذونها من سفلتهم ﴿أولئك ما يأكلون في بطونهم﴾ إلا النار يعني ما يؤديهم إلى النار وهو الرشا والحرام فلما كان يفضي بهم ذلك إلى النار فكأنهم أكلوها ﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة﴾ أي كلام رحمة وما يسرهم بل يكلمهم بالتوبيخ، وهو قوله اخسؤوا فيها وقيل أراد به الغضب يقال فلان لا يكلم فلاناً إذا غضب عليه ﴿ولا يزكِّيهم﴾ أي ولا يطهرهم من دنس الذنوب ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي وجيع

الآخر: يجوز أن يأكل حتى يشبع، وبه قال مالك رحمه الله تعالى، وقال سهل بن عبد الله: غير باغ مفارق للجماعة، ولا عاد مبتدع مخالف للسنة، ولم يُرخص للمبتدع في تناول المحرم عند الضرورة، ﴿فلا إثم عليه﴾، فلا حرج عليه في أكلها، ﴿إن الله غفور﴾، لمن أكل في حال الاضطرار ﴿رحيم﴾، حيث رخص للعباد في ذلك.

قوله تعالى: ﴿إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب﴾، نزلت في رؤساء اليهود وعلمائهم، كانوا يصيبون من سفلتهم الهدايا والمآكل وكانوا يرجون أن يكون النبي المبعوث منهم، ولما بعث محمد ﷺ من غيرهم، خافوا ذهاب مآكلهم وزوال رياستهم، فعمدوا إلى صفة رسول الله ﷺ فغيروها، ثم أخرجوها إليهم، فلما نظرت السفلة إلى النعت المغيّر وجدوه مخالفاً لصفة محمد ﷺ فلم يتبعوه، فأنزل الله تعالى: ﴿إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب﴾، يعني: صفة محمد ﷺ ونبوته، ﴿ويشترون به﴾ أي: بالمكتوم ﴿ثمنًا قليلًا﴾، أي: عوضاً يسيراً، يعني: المآكل التي يصيبونها من سفلتهم، ﴿أولئك ما يأكلون في بطونهم﴾ إلا النار، يعني: إلا ما يؤديهم إلى النار وهو الرشوة والحرام وثمر الدين، فلما كان يفضي ذلك بهم إلى النار فكأنهم أكلوا النار، وقيل: معناه أنه

يصل ألمه إلى قلوبهم ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة﴾ معناه: أنهم اختاروا الضلالة على الهدى واختاروا العذاب على المغفرة لأنهم كانوا عالمين بالحق، ولكن كتموه وأخفوه وكان في إظهاره الهدى والمغفرة وفي كتمانهم الضلالة والعذاب فلما أقدموا على إخفاء الحق وكتمانهم الهدى بالضلالة والمغفرة بالعذاب ﴿فما أصبرهم على النار﴾ أي ما الذي صبرهم وأي شيء جسرهم على النار حتى تركوا الحق واتبعوا الباطل، فهو استفهام بمعنى التوبيخ وقيل: إنه بمعنى التعجب من حالهم في التباسهم بموجبات النار من غير مبالاة منهم، فلما أقدموا على ما يوجب النار مع علمهم بذلك صاروا كالراضين بالعذاب والصابرين عليه، تعجب من حالهم بقوله: فما أصبرهم على النار.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

﴿ذلك بأن الله نزل الكتاب﴾ يعني ذلك العذاب بسبب إن الله نزل الكتاب ﴿بالحق﴾ فكفروا به وأنكروه وقيل معناه فعلنا بهم ذلك، لأن الله أنزل الكتاب بالحق فحرفوه فعلى هذا يكون المراد بالكتاب التوراة ﴿وإن الذين اختلفوا في الكتاب﴾ يعني اختلفوا في معانيه وتأويله فحرفوها وبدلوها، وقيل: آمنوا ببعض وكفروا ببعض ﴿لפי شقاق﴾ أي خلاف ومنازعة ﴿بعيد﴾ يعني عن الحق.

قوله عز وجل: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾ هذا خطاب لأهل الكتاب لأن

يصير ناراً في بطونهم، ﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة﴾، أي: لا يكلمهم بالرحمة وبما يسرهم، إنما يكلمهم بالتوبيخ، وقيل: أراد به أن يكون عليهم غضبان، كما يقال: فلان لا يكلم فلاناً إذا كان عليه غضبان، ﴿ولا يزكّهم﴾، أي: لا يطهرهم من دنس الذنوب، ﴿ولهم عذاب أليم﴾.

﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار﴾، قال عطاء والسدي: هو ما الاستفهام معناه: ما الذي صبرهم على النار؟ وأي شيء صبرهم على النار حتى تركوا الحق واتبعوا الباطل؟ قال الحسن وقتادة: والله ما لهم عليها من صبر، ولكن ما أجراهم على العمل الذي يقربهم إلى النار؟ وقال الكسائي: فما أصبرهم على أهل النار، أي: ما أدومهم عليه.

﴿ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق﴾، يعني: ذلك العذاب بأن الله نزل الكتاب بالحق فأنكروه وكفروا به، وحيث يكون ﴿ذلك﴾ في محل الرفع، وقال بعضهم: محله نصب، معناه: فعلنا ذلك بهم ﴿بأن الله﴾، أي: لأن الله نزل الكتاب بالحق، فاختلفوا فيه، وقيل: معناه ذلك أي فعلهم الذين يفعلون من الكفر والاختلاف والاجترار على الله، من أجل أن الله نزل الكتاب بالحق، وهو قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تُنذِرهم لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم﴾ [البقرة: ٦ و٧]، ﴿وإن الذين اختلفوا في الكتاب﴾: فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، ﴿لפי شقاق بعيد﴾، أي: في خلاف وضلال بعيد.

النصارى تصلي قبل المشرق واليهود قبل المغرب إلى بيت المقدس، وزعم كل طائفة منهم أن البر في ذلك، فأخبر الله تعالى أن البر ليس فيما زعموا ولكن فيما بينه في هذه الآية. وقال ابن عباس: هو خطاب للمؤمنين وذلك أن الرجل كان في ابتداء الإسلام إذا أتى بالشهادتين وصلى إلى أي جهة كانت ثم مات على ذلك، وجبت له الجنة فلما هاجر رسول الله ﷺ ونزلت الفرائض وصرفت القبلة إلى الكعبة، أنزل الله هذه الآية فقال تعالى: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم﴾ أي في صلاتكم قبل المشرق والمغرب ولا تعملوا ذلك ﴿ولكن البر﴾ يعني ما بينته لكم والبر اسم جامع لكل الطاعات وأعمال الخير المقربة إلى الله الموجبة للثواب والمؤدية إلى الجنة ثم بين خصلاً من البر فقال تعالى: ﴿من آمن بالله﴾ أي ولكن البر من آمن بالله فالمراد بالبر هنا الإيمان بالله والتقوى من الله ﴿واليوم الآخر﴾ وإنما ذكر الإيمان باليوم الآخر، لأن عبدة الأوثان كانوا ينكرون البعث بعد الموت ﴿والملائكة﴾ أي ومن البر الإيمان بالملائكة كلهم لأن اليهود قالوا: إن جبريل عدونا ﴿والكتاب﴾ قيل: أراد به القرآن وقيل جميع الكتب المنزلة لسياق ما بعده وهو قوله ﴿والنبيين﴾ يعني أجمع وإنما خص الإيمان بهذه الأمور الخمسة لأنه يدخل تحت كل واحد منها أشياء كثيرة مما يلزم المؤمن أن يصدق بها ﴿وأتى المال على حبه﴾ يعني من أعمال البر إيتاء المال على حبه قيل إن الضمير راجع إلى المال فالتقدير على هذا وأتى المال على حب المال (ق) عن أبي هريرة قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجراً؟ قال أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان» قوله حتى إذا بلغت الحلقوم يعني الروح وإن لم يتقدم لها ذكر وقوله لفلان كذا هو كناية عن الموصى له وقوله وقد كان لفلان كناية عن الوارث وقيل الضمير في حبه راجع إلى الله تعالى أي وأتى المال على حب الله وطلب مرضاته ﴿ذوي القربى﴾ يعني أهل قرابة المعطي وإنما قدمهم لأنهم أحق بالإعطاء. عن سليمان بن عامر قال قال رسول الله ﷺ: «الصدقة على

قوله تعالى: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾، قرأ حمزة وحفص: ﴿ليس البر﴾ بنصب الراء، والباقون برفعها، فمن رفعها جعل البراسم ليس وخبره في قوله: ﴿أن تولوا﴾ تقديره: ليس البر توليتكم وجوهكم، ومن نصب جعل ﴿أن تولوا﴾ في موضع الرفع على اسم ليس، تقديره: توليتكم وجوهكم البر كله، كقوله تعالى: ﴿ما كان حجتهم إلا أن قالوا اتوا﴾ [البجائية: ٢٥]، والبر: كل عمل خير يفضي بصاحبه إلى الجنة، واختلفوا في المخاطبين بهذه الآية، فقال قوم: عنى بها اليهود والنصارى، وذلك أن اليهود كانت تصلي قبل المغرب إلى بيت المقدس، والنصارى قبل المشرق، وزعم كل فريق منهم أن البر في ذلك، فأخبر الله تعالى أن البر غير دينهم وعملهم، ولكنه ما بينه في هذه الآية، وعلى هذا القول قتادة ومقاتل بن حيان، وقال الآخرون: المراد بها المؤمنون، وذلك أن الرجل كان في ابتداء الإسلام قبل نزول الفرائض إذا أتى بالشهادتين وصلى الصلاة إلى أي جهة كانت، ثم مات على ذلك وجبت له الجنة، ولما هاجر رسول الله ﷺ ونزلت الفرائض، وحددت الحدود وصرفت القبلة إلى الكعبة، أنزل الله هذه الآية فقال: ﴿ليس البر﴾، أي: كله أن تصلوا قبل المشرق والمغرب ولا تعملوا على غير ذلك، ﴿ولكن البر﴾ ما ذكر في هذه الآية، وعلى هذا القول ابن عباس ومجاهد وعطاء والضحاك، ﴿ولكن البر﴾، قرأ نافع وابن عامر ﴿ولكن﴾، خفيفة النون ﴿البر﴾، رفع، وقرأ الباقر بتشديد النون ونصب البر، قوله تعالى: ﴿من آمن بالله﴾، جعل ﴿من﴾ وهي اسم خبر للبر هو فعل، ولا يقال: البر زيد، واختلفوا في وجهه، قيل: لما وقع ﴿من﴾ في موقع المصدر جعله خبراً للبر، كأنه قال: ولكن البر الإيمان بالله، والعرب تجعل الاسم خبراً للفعل، وأنشد الفراء:

لَعَمْرُكَ ما الفتيان إن تبت اللَّحى ولكنما الفتيان كل فتى ندى

المسكين صدقة وعلى ذوي الرحم ثنتان صدقة وصلة» أخرجه النسائي (ق): «إن ميمونة رضي الله عنها أعتقت وليدة ولم تستأذن النبي ﷺ فلما كان يومها الذي يدور عليها فيه قالت أشعرت يا رسول الله أني أعتقت وليدتي قال أو قد فعلت قالت نعم قال أما إنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك» الوليدة الجارية ﴿واليتامى﴾ اليتيم هو الذي لا أب له مع الصغر وقيل: يقع على الصغير والبالغ أي وآتى الفقراء من اليتامى ﴿والمساكين﴾ جمع مسكين سمي بذلك لأنه دائم السكون إلى الناس لأنه لا شيء له ﴿وابن السبيل﴾ يعني المسافر المنقطع عن أهله سمي المسافر ابن السبيل لملازمته الطريق، وقيل هو الضيف ينزل بالرجل لأنه إنما وصل إليه من السبيل وهو الطريق والأول أشبه لأن ابن السبيل اسم جامع جعل للمسافر ﴿والسائلين﴾ يعني الطالبين المستطعمين. عن علي بن أبي طالب أن رسول الله ﷺ قال: «للسائل حق ولو جاء على فرس» أخرجه أبو داود عن زيد بن أسلم أن رسول الله ﷺ قال: «أعطوا السائل ولو جاء على فرس» أخرجه مالك في الموطأ عن أم نجيد قالت: قلت يا رسول الله إن المسكين ليقوم على بابي فلم أجد شيئاً أعطيه إياه قال: «إن لم تجدي إلا ظلفاً محرقاً فادفعيه إليه في يده» أخرجه أبو داود والترمذي. وقال حديث حسن صحيح. وفي رواية مالك في الموطأ عنها أن رسول الله ﷺ قال: «ردوا المسكين ولو بظلف محرق» قوله ردوا المسكين، لم يرد به رد الحرمان وإنما أراد به ردوه بشيء تعطونه إياه ولو كان ظلفاً وهو خف الشاة وفي كونه محرقاً مبالغة في قلة ما يعطي ﴿وفي الرقاب﴾ يعني المكاتبين. وقيل: هو فك النسمة وعق الرقبة وفداء الأسارى ﴿وأقام الصلاة﴾ يعني المفروضة في أوقاتها ﴿وآتى الزكاة﴾ يعني الواجبة ﴿والموفون بعهدهم﴾ يعني ما أخذه الله من العهود على عباده بالقيام بحدوده والعمل بطاعته. وقيل: أراد بالعهد ما يجعله الإنسان على نفسه ابتداء من نذر وغيره. وقيل: العهد الذي كان بينه وبين الناس مثل الوفاء بالمواعيد وأداء الأمانات ﴿إذا عاهدوا﴾ يعني إذا وعدوا أنجزوا وإذا نذروا أوفوا وإذا حلفوا بروا في أيماهم وإذا قالوا صدقوا في

فجعل نبات اللحية خبراً للفتى، وقيل: فيه إضمار، معناه: ولكن البرّ من آمن بالله، فاستغنى بذكر الأول عن الثاني، كقولهم: الجود حاتم، أي: الجود جود حاتم، وقيل معناه: ولكن ذا البرّ من آمن بالله، كقوله تعالى: ﴿هم درجات عند الله﴾ [آل عمران: ١٦٣]، أي: ذو درجات، وقيل معناه: ولكن البارّ من آمن بالله، كقوله تعالى: ﴿والعاقبة للتقوى﴾ [طه: ١٣٢] أي: للمتقي، والمراد من البرّ ههنا الإيمان والتقوى، ﴿واليوم الآخر والملائكة﴾: كلهم، ﴿والكتاب﴾، يعني: الكتب المنزلة، ﴿والنبيين﴾: أجمع، ﴿وآتى المال﴾: أعطى المال، ﴿على حبه﴾، اختلفوا في هذه الكناية، فقال أكثر أهل التفسير: إنها راجعة إلى المال، أي: أعطى المال في حال صحته ومحبه المال، قال ابن مسعود: أن تؤتيه وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا موسى بن إسماعيل أخبرنا عبد الواحد، ثنا عمار بن القعقاع أنا أبو زرعة، أخبرنا أبو هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجراً؟ قال: «أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تمهل، حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا، وقد كان لفلان»، وقيل: هي عائدة إلى الله عز وجل، أي: على حب الله تعالى، ﴿ذوي القربى﴾: أهل القرابة، أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي، أخبرنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي، أخبرنا أبو العباس المحبوبي أخبرنا أبو عيسى الترمذي، أخبرنا قتيبة أخبرنا سفيان بن عيينة، عن عاصم الأحول عن حفصة بنت سيرين، عن الرباب عن عمّها سليمان بن عامر، يبلغ به النبي ﷺ قال: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم ثنتان صدقة وصلة»، قوله تعالى: ﴿واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾، قال مجاهد: يعني المسافر المنقطع عن أهله يمرّ عليك،

أقوالهم وإذا اتُّمِنُوا أدوا ﴿والصابرين في البأساء﴾ أي في الشدة والفقر والفاقة ﴿والضراء﴾ يعني المرض والزمانة ﴿وحين البأس﴾ يعني القتال والحرب في سبيل الله.. وسمي الحرب بأساً لما فيه من الشدة (ق) عن البراء قال كنا والله إذا احمر البأس نتقي به وأن الشجاع منا الذي يحاذي به يعني النبي ﷺ قوله احمر البأس: أي اشتد الحرب ونتقي به أي نجعله وقاية لنا من العدو ﴿وأولئك الذين صدقوا﴾ أي أهل هذه الأوصاف هم الذين صدقوا في إيمانهم ﴿وأولئك هم المتقون﴾ قوله عز وجل:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَبْعِهُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ

أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتل﴾ نزلت في حيين من أحياء العرب اقتتلوا في الجاهلية

ويقال للمسافر: ابن السبيل لملازمته الطريق، وقيل: هو الضيف ينزل بالرجل، قال النبي ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»، ﴿والسائلين﴾، يعني: الطالبين، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن زيد بن أسلم عن أبي نجيد الأنصاري، وهو عبد الرحمن بن نجيد، عن جدته وهي أم نجيد: أن رسول الله ﷺ قال: «رُدُّوا السَّائِلَ وَلَوْ بِظُلْفٍ مُحْرَقٍ»، وفي رواية: قال لها رسول الله ﷺ: «إِنْ لَمْ تَجِدِي شَيْئًا إِلَّا ظُلْفًا مُحْرَقًا فَادْفِئِيهِ إِلَيْهِ»، قوله تعالى: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾، يعني: المكاتبين، قاله أكثر المفسرين، وقيل: عتق النَّسَمَةِ وفكَّ الرقبة، وقيل: فداء الأسارى، ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾: وأعطى الزكاة ﴿وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾: فيما بينهم وبين الله عز وجل، وفيما بينهم وبين الناس، ﴿وَإِذَا عَاهَدُوا﴾، يعني: إذا وعدوا أنجزوا، وإذا حلفوا ونذروا أوفوا، وإذا عاهدوا أوفوا وإذا قالوا صدقوا وإذا اتُّمِنُوا أدوا، واختلفوا في رفع قوله: ﴿وَالْمُؤْفُونَ﴾، قيل: هو عطف على خبر، معناه: ولكن ذا البر: المؤمنون والمؤفون بعهدهم، وقيل: تقديرهم المؤفون كأنه عدُّ أصنافاً، ثم قال: هم والمؤفون كذا، وقيل: رفع على الابتداء والخبر، يعني: وهم المؤفون، ثم قال: ﴿والصابرين﴾، وفي نصبها أربعة أوجه، قال أبو عبيدة: نصبها على تطاول الكلام، ومن شأن العرب أن تغيّر الإعراب إذا طال الكلام والنسق، ومثله في قوله: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ [النساء: ١٦٢] وفي قوله ﴿وَالصَّابِثُونَ وَالنَّصَارَى﴾ [المائدة: ٦٩] وقيل معناه: أعني الصابرين، وقيل: نصبه نسقاً على قوله: ﴿ذَوِي الْقُرْبَى﴾، أي: وأتى الصابرين، وقال الخليل: نصب على المدح، والعرب تنصب الكلام على المدح والذم كأنهم يريدون أفراد المدح والمذموم، فلا يتبعونه أول الكلام وينصبونه، فالمدح كقوله تعالى: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ [النساء: ١٦٢]، والذم كقوله تعالى: ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقُفُوا﴾ [الأحزاب: ٦١] قوله تعالى: ﴿فِي الْبَأْسَاءِ﴾، أي: الشدة والفقر ﴿والضراء﴾: المرض والزمانة، ﴿وحين البأس﴾ أي القتال والحرب، أخبرنا المطهر بن علي بن عبد الله الفارسي، أخبرنا أبو ذر محمد بن إبراهيم الصالحاني، أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حبان، أخبرنا عبد الله بن محمد البغوي أخبرنا علي بن الجعد، أخبرنا زهير عن أبي إسحق عن حارثة بن مضرب عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: كنّا إذا احمر البأس ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه، يعني: إذا اشتد الحرب، ﴿وأولئك الذين صدقوا﴾: في إيمانهم، ﴿وأولئك هم المتقون﴾: محارم الله.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص﴾، قال الشعبي والكلبي وقتادة: نزلت هذه الآية في

بسبب قتيل، فكانت بينهم قتلى وحروب وجراحات كثيرة، ولم يأخذ بعضهم من بعض حتى جاء الإسلام. وقيل نزلت في الأوس والخزرج، وكان لأحد الحيين طول على الآخر في الكثرة والشرف وكانوا ينكحون نساءهم بغير مهر، وأقسموا لنقتلن بالعبد منا الحر منهم وبالمراة منا الرجل منهم وبالرجل منا الرجلين، وجعلوا جراحاتهم ضعفي جراحات أولئك فرفعوا أمرهم إلى النبي ﷺ، فأنزل الله هذه الآية وأمره بالمساواة فرضوا وسلموا. وقيل: إنما نزلت هذه الآية لإزالة الأحكام التي كانت قبل مبعث النبي ﷺ، وذلك أن اليهود كانوا يوجبون القتل فقط بلا عفو والنصارى يوجبون العفو بلا قتل والعرب في الجاهلية كانوا يوجبون القتل تارة ويوجبون أخذ الدية تارة وكانوا يتعدون في الحكمين فإن وقع القتل على شريف قتلوا به عدداً ويأخذون دية الشريف أضعاف دية الخسيس، فلما بعث محمد ﷺ أوجب الله رعاية العدل وسوى بين عباده في حكم القصاص فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ أَيُّ فَرَضٍ عَلَيْكُمْ الْقَصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾. فإن قلت: كيف يكون القصاص فرضاً والولي مخير فيه بين العفو والقصاص وأخذ الدية؟ قلت: إن القصاص فرض على القاتل للولي لا على الولي. وقيل إذا أردتم القصاص فقد فرض عليكم. والقصاص المساواة والمماثلة في القتل والدية والجراح من قص الأثر إذا اتبعه فالمفعول به يتبع ما فعل فيفعل به مثل ذلك، فلو قتل رجل رجلاً بعضاً أو خنقه أو شدخ رأسه بحجر فمات فيقتل القاتل بمثل الذي قتل به وهو قول مالك والشافعي وإحدى الروايتين عن أحمد وقيل يقتل بالسيف وهو قول أبي حنيفة والرواية الثانية عن أحمد ﴿الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى﴾ ومعناه أنه إذا تكافأ الدمان من الأحرار المسلمين أو العبيد من المسلمين أو الأحرار من المعاهدين أو العبيد منهم فيقتل كل صنف إذ قتل بمثله الذكر بالذكر والأنثى بالأنثى وبالذكر ولا يقتل مؤمن بكافر ولا حر بعبد ولا والد بولد ويقتل الذمي بالمسلم والعبد بالحر والولد بالولد هذا مذهب مالك والشافعي وأحمد ويدل عليه ما روى البخاري في صحيحه عن أبي جحيفة قال:

حَيَّينَ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ اقْتَتَلُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَبِيلَ الْإِسْلَامِ بَقِيلٍ، وَكَانَتْ بَيْنَهُمَا قَتْلَى وَجَرَاحَاتٌ لَمْ يَأْخُذْهَا بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، حَتَّى جَاءَ الْإِسْلَامُ، قَالَ قَتَادَةُ وَمِقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: كَانَتْ بَيْنَ بَنِي قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ: كَانَتْ بَنُ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، قَالُوا جَمْعاً: وَكَانَ لِأَحَدِ الْحَيَّيْنِ عَلَى الْآخَرِ طَوْلٌ فِي الْكَثْرَةِ وَالشَّرَفِ، وَكَانُوا يَنْكَحُونَ نِسَاءَهُمْ بِغَيْرِ مَهْرٍ، فَأَقْسَمُوا لَنْقَتِلَنَّ بِالْعَبْدِ مَنَا الْحُرِّ مِنْهُمْ، وَبِالْمَرْأَةِ مَنَا الرَّجُلِ مِنْهُمْ، وَبِالرَّجُلِ مَنَا الرَّجُلَيْنِ مِنْهُمْ، وَبِالرَّجُلَيْنِ مَنَا أَرْبَعَةَ رِجَالٍ مِنْهُمْ، وَجَعَلُوا جَرَاحَاتَهُمْ ضِعْفِي جَرَاحَاتِ أَوْلَئِكَ، فَرَفَعُوا أَمْرَهُمْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ، وَأَمَرَ بِالسَّوَادَةِ، فَفَرَضُوا وَأَسْلَمُوا، قَوْلُهُ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقَصَاصُ﴾ أَيُّ: فَرَضَ عَلَيْكُمْ الْقَصَاصُ، ﴿فِي الْقَتْلِ﴾، وَالْقَصَاصُ: السَّوَادَةُ وَالْمُمَاتِلَةُ فِي الْجَرَاحَاتِ وَالذِّيَّاتِ، وَأَصْلُهُ مِنْ قَصَّ الْأَثَرَ إِذَا اتَّبَعَهُ، فَالْمَفْعُولُ بِهِ يَتَّبِعُ مَا فَعَلَ بِهِ فَيَفْعَلُ مِثْلَهُ، ثُمَّ يَبِينُ الْمُمَاتِلَةَ فَقَالَ: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى﴾، وَجُمْلَةُ الْحُكْمِ فِيهِ أَنَّهُ إِذَا تَكَافَأَ الدِّمَانُ مِنَ الْأَحْرَارِ الْمُسْلِمِينَ، أَوِ الْعَبِيدِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، أَوِ الْأَحْرَارِ مِنَ الْمَعَاهِدِينَ أَوِ الْعَبِيدِ مِنْهُمْ، قُتِلَ مِنْ كُلِّ صَنْفٍ مِنْهُمْ الذَّكَرُ إِذَا قُتِلَ بِالذَّكَرِ وَبِالْأَنْثَى، وَتُقْتَلُ الْأَنْثَى إِذَا قُتِلَتْ بِالْأَنْثَى وَبِالذَّكَرِ، وَلَا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ وَلَا حُرٌّ بِعَبْدٍ، وَلَا وَالِدٌ بِوَلَدٍ وَلَا مُسْلِمٌ بِذِمِّيٍّ، وَيُقْتَلُ الذِّمِّيُّ بِالْمُسْلِمِ وَالْعَبْدُ بِالْحُرِّ وَالْوَلَدُ بِالْوَالِدِ، هَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْخَطِيبُ أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَحْمَدَ الْخَلَّالُ، أَخْبَرَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ الْأَصَمُ أَخْبَرَنَا الرَّبِيعُ بْنُ سَلِيمَانَ، أَنَا الشَّافِعِيُّ أَخْبَرَنَا سَفْيَانُ بْنُ عَيْنَةَ عَنْ مَطْرِفٍ عَنِ الشَّعْبِيِّ عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ قَالَ: «سَأَلْتُ عَلِيّاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هَلْ عِنْدَكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ شَيْءٌ سِوَى الْقُرْآنِ؟ فَقَالَ: لَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسْمَةَ، إِلَّا أَنْ يُؤْتِيَ اللَّهُ عَبْدًا فَهَمًّا فِي الْقُرْآنِ، وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، قُلْتُ: وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ؟ قَالَ: فَكَأُكَ الْأَسِيرِ، وَلَا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ»، وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ

سألت علياً هل عندكم من النبي ﷺ شيء سوى القرآن قال لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن يؤتى الله عبداً فهماً في القرآن وما في هذه الصحيفة قلت: وما في هذه الصحيفة قال: العقل وفك الأسير وأن لا يقتل مؤمن بكافر، وقد أخرج مسلم عن علي نحو هذا من غير رواية أبي جحيفة. العقل هنا هو الدية والعاقلة الجماعة من أولياء القاتل الذين يعقلون. عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تقام الحدود في المساجد، ولا يقتل الوالد بالولد» أخرجه الترمذي، وذهب أصحاب الرأي إلى أن المسلم يقتل الذمي والحر بالعبد وهذه الآية مع الأحاديث حجة لمذهب الشافعي ومن وافقه ويقولون هي مفسرة لما أبهم في قوله: «النفس بالنفس» وأن تلك واردة لحكاية ما كتب على بني إسرائيل في التوراة وهذه الآية خطاب للمسلمين بما كتب عليهم وذهب أصحاب الرأي إلى أن هذه منسوخة بقوله «النفس بالنفس» وتقتل الجماء بالواحد يدل عليه ما روى البخاري في صحيحه عن ابن عمر أن غلاماً قتل غيلة فقال عمر: لو اشترك فيه أهل صنعاء لقتلتهم به. قال البخاري وقال مغيرة بن حكيم عن أبيه: أن أربعة قتلوا صبياً فقال عمر مثله. وروى مالك في الموطأ عن ابن المسيب أن عمر قتل نفراً خمسة أو سبعة برجل واحد قتلوه غيلة وقال: لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلهم جميعاً. الغيلة أن يقتل الرجل خديعة ومكرراً من غير أن يعلم ما يراد به. وقوله لقتلتهم لو تمالأ أي تعاونوا واجتمعوا عليه. وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ أي ترك له وصفح عنه من الواجب عليه وهو القصاص في قتل العمد، ورضي بالدية أو العفو عنها، أو قبول الدية في قتل العمد من أخيه أي من دم أخيه وأراد بالأخ ولي المقتول، وإنما قيل له أخ لأنه لا بسه من قبل أنه ولي الدم والمطالب به. وقيل: إنما ذكره بلفظ الأخوة ليعطف أحدهما على صاحبه بما هو ثابت بينهما من الجنسية وأخوة الإسلام. وفي قوله شيء دليل على أن بعض الأولياء إذا عفا سقط القود وثبتت الدية لأن شيئاً من الدم قد بطل «فاتباع بالمعروف» أي فليتبع الولي القاتل بالمعروف فلا يأخذ أكثر من حقه ولا يعنفه «وأداء إليه بإحسان» أي على القاتل أداء الدية إلى ولي الدم من غير ماطلة، أمر كل واحد منهما بالإحسان فيما له وعليه وقيل في تقدير الآية: وإذا عفا ولي الدم عن شيء يتعلق بالقاتل، وهو وجوب القصاص فليتبع القاتل ذلك العفو بمعروف

الله ﷻ: «لا تقام الحدود في المساجد ولا يُقاد بالولد الوالد»، وذهب الشعبي والنخعي وأصحاب الرأي إلى أن المسلم يُقتل بالكافر الذمي، وإلى أن الحر يُقتل بالعبد، والحديث حجة لمن لم يُوجب القصاص على المسلم بقتل الذمي، وتقتل الجماعة بالواحد، رُوِيَ عن سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب قتل سبعة أو خمسة برجل قتلوه غيلة، وقال: لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم به جميعاً، ويجري القصاص في الأطراف كما يجري في النفوس، إلا في شيء واحد وهو أن الصحيح السوي يُقتل بالمرضى والزمن، وفي الأطراف لو قطع يداً شلاء أو ناقصة بالإصبع لا تقطع بها الصحيحة الكاملة، وذهب أصحاب الرأي إلى أن القصاص في الأطراف لا يجري إلا بين حرين أو حرتين، ولا يجري بين الذكر والأنثى ولا العبد، ولا بين الحر والعبد، وعند الآخرين الطرف في القصاص مقيس عن النفس، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا عبد الله بن منيرة أنه سمع عبد الله بن بكر السهمي، أخبرنا حميد عن أنس بن النضر أن الربيع عمته كسرت ثنية فجارية فطلبوا إليها العفو فأبوا فعرضوا الأرض فأبوا فأتوا رسول الله ﷺ، فأبوا إلا القصاص فأمر رسول الله ﷺ بالقصاص، قال أنس بن النضر: يا رسول الله أتكسر ثنية عمّة الربيع، لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتهما، فقال رسول الله ﷺ: «يا أنس كتاب الله القصاص»، فرضي القوم فعفوا، فقال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره»، قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾، أي: ترك له وصفح عنه من الواجب عليه وهو القصاص في قتل العمد، ورضي بالدية، هذا قول أكثر المفسرين، قالوا: العفو أن يقبل الدية في

وليؤد ما وجب عليه من الدية إلى ولي الدم بإحسان من غير مطل ولا مدافعة. وفي الآية دليل على أن القاتل يصير كافراً وأن الفاسق مؤمن ووجه ذلك من وجوه: الأول إن الله تعالى خاطبه بعد القتل بالإيمان وسماه مؤمناً بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقَصَاصُ﴾ فسماه مؤمناً حال ما وجب عليه من القصاص. وإنما وجب عليه بعد صدور القتل منه وقتل العمد والعدوان من الكبائر بالإجماع فدل على أن صاحب الكبيرة مؤمن.

الوجه الثاني: أنه تعالى أثبت الأخوة بين القاتل وولي الدم بقوله: ﴿فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ أراد بالأخوة أخوة الإيمان فلولا أن الإيمان باق على القاتل لم تثبت له الأخوة.

الوجه الثالث: أنه تعالى ندب إلى العفو عن القاتل، والعفو لا يليق إلا عن المؤمن لا عن الكافر. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ يعني الذي ذكر من الحكم بشرع القصاص والعفو عن القصاص وأخذ الدية تخفيف من ربكم، يعني في حقكم ورحمة، وذلك لأن العفو وأخذ الدية كان حراماً على اليهود وكان القصاص حتماً في التوراة، وكان في شرع النصارى أخذ الدية ولم يكتب عليهم القصاص، وقيل: كان عليهم العفو دون القصاص وأخذ الدية فخير الله هذه الأمة بين القصاص أو العفو وأخذ الدية توسعة عليهم وتيسيراً وتفضيلاً لهم على غيرهم ﴿فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ يعني بعد هذا التخفيف فقتل الجاني بعد العفو أو قبول الدية ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهو أن يقتل قصاصاً ولا تقبل منه دية ولا يعفى عنه. وقيل: المراد بالعذاب الأليم عذاب الآخرة..

قتل العمد، وقوله: ﴿مَنْ أَخِيهِ﴾، أي: من دم أخيه، وأراد بالأخ: المقتول، والكنيتان في قوله: ﴿لَهُ﴾ ومن: ﴿أَخِيهِ﴾، ترجعان إلى ﴿مَنْ﴾ وهو القاتل، وقوله: ﴿شَيْءٌ﴾ دليل على أن بعض الأولياء إذا عفا يسقط القود لأن شيئاً من الدم قد بطل. قوله تعالى: ﴿فَاتَّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾، أي: على الطالب للدية أن يتبع بالمعروف فلا يطالب بأكثر من حقه، ﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾، أي: على المطلوب منه أداء الدية بالإحسان من غير مُطاطلة، أمر كل واحد منهما بالإحسان فيما له وعليه، ومذهب أكثر العلماء من الصحابة والتابعين: أن ولي الدم إذا عفا عن القصاص على الدية، فله أخذ الدية، وإن لم يرَضَ به القاتل، وقال قوم: لا دية له إلا برضى القاتل، وهو قول الحسن والنخعي وأصحاب الرأي، وحجة المذهب الأول ما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال، أخبرنا أبو العباس الأصم أخبرنا الربيع، أخبرنا الشافعي أخبرنا محمد بن إسماعيل بن أبي فديك عن ابن أبي ذئب عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي شريح الكعبي أن رسول الله ﷺ قال: «ثم أنتم يا خزاعة قد قتلتم هذا القتل من هذيل، وأنا والله عاقله فمن قتل بعده قتيلاً فأهله بين خيرتين إن أحبوا قتلوا وإن أحبوا أخذوا العقل»، قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾، أي: ذلك الذي ذكرت من العفو عن القصاص وأخذ الدية تخفيف من ربكم ورحمة، وذلك أن القصاص في النفس والجراح كان حتماً في التوراة على اليهود، ولم يكن لهم أخذ الدية، وكان في شرع النصارى الدية ولم يكن لهم القصاص، فخير الله هذه الأمة بين القصاص وبين العفو عن الدية تخفيفاً منه ورحمة، ﴿فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ﴾، فقتل الجاني بعد العفو وقبول الدية، ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وهو أن يقتل قصاصاً، قال ابن جريج: يتحتم قتله حتى لا يقبل بعد العفو، وفي الآية دليل على أن القاتل لا يصير كافراً بالقتل، لأن الله تعالى خاطبه بعد القتل بخطاب الإيمان فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقَصَاصُ﴾، وقال في آخر الآية: ﴿فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ وأراد به أخوة الإيمان، فلم يقطع الأخوة بينهما بالقتل.

وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ

إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾

قوله عز وجل: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ أي بقاء، وذلك أن القاصد للقتل إذا علم أنه إذا قتل قتل ترك القتل وامتنع عنه فيكون فيه بقاءه وبقاء من هم بقتله. وقيل: إن نفس القصاص سبب للحياة وذلك أن القاتل إذا اقتصر منه ارتدع غيره ممن كان يهيم بالقتل. واعلم أن هذا الحكم ليس مختصاً بالقصاص الذي هو القتل بل يدخل فيه جميع الجراح والشجاج وغير ذلك لأن الجراح إذا علم أنه إذا جرح جرح لم يجرح، فيصير ذلك سبباً لبقاء الجراح والمجروح، وربما أفضت الجراحة إلى الموت فيقتصر من الجراح. وقيل في معنى الآية إن الحياة سلامته من قصاص الآخرة فإنه إذا اقتصر منه في الدنيا لم يقتصر منه في الآخرة، وفي ذلك حياته وإذا لم يقتصر منه في الدنيا اقتصر منه في الآخرة ﴿يا أولي الأبواب﴾ أي يا ذوي العقول الذين يعرفون الصواب لأن العاقل لا يريد إتلاف نفسه بإتلاف غيره ﴿لعلكم تتقون﴾ يعني لعلكم تنتهون عن القتل خوف القصاص.

قوله عز وجل: ﴿كتب﴾ أي فرض وأوجب ﴿عليكم إذا حضر أحدكم الموت﴾ أي قرب ودنا منه، وظهرت آثاره عليه من العلل والأمراض المخوفة وليس المراد منه معاينة الموت لأنه في ذلك الوقت يعجز عن الإيصاء ﴿إن ترك خيراً﴾ يعني مالا قيل يطلق على القليل والكثير وهو قول الزهري: فتجب الوصية في الكل وقيل: إن لفظة الخير لا تطلق إلا على المال الكثير وهو قول الأكثرين واختلفوا في مقدار الكثير الذي تقع فيه الوصية فقيل: ألف درهم فما زاد عليها. وقيل: سبعمائة فما فوقها. وقيل: إنه من خمسمائة إلى ألف وقيل: إنه المال الكثير الفاضل عن العيال، روي أن رجلاً قال لعائشة: إني أريد أن أوصي فقالت كم مالك؟ قال: ثلاثة آلاف درهم قالت: كم عيالك؟ قال أربعة. قالت إنما قال الله: ﴿إن ترك خيراً﴾ وهذا شيء يسير فاتركه لعيالك. ﴿الوصية﴾ أي الإيصاء والوصية التقدم إلى الغير بما يعمل به وقيل: هي القول المبين لما يستأنف من العمل والقيام به بعد الموت ﴿للولدين والأقربين﴾ كانت الوصية في ابتداء الإسلام فريضة للوالدين والأقربين على من مات وله مال. وسبب ذلك أن أهل الجاهلية كانوا يوصون للأبعدين طلباً للفخر والشرف والرياء ويتركون

قوله تعالى: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾، أي: بقاء، وذلك أن القاصد للقتل إذا علم أنه إذا قتل يُقتل، يمتنع عن القتل، فيكون فيه بقاءه وبقاء من هم بقتله، وقيل في المثل: القتل أنفى للقتل، وقيل معنى الحياة: سلامته من قصاص الآخرة، فإنه إذا اقتصر منه في الدنيا حيي في الآخرة، وإذا لم يقتصر منه في الدنيا اقتصر منه في الآخرة، ﴿يا أولي الأبواب لعلكم تتقون﴾، أي: تنتهون عن القتل مخافة القود.

قوله تعالى: ﴿كتب عليكم﴾، أي: فرض عليكم، ﴿إذا حضر أحدكم الموت﴾، أي: جاء أسباب الموت وآثاره من العلل والأمراض، ﴿إن ترك خيراً﴾، أي: مالا، نظيره قوله تعالى: ﴿وما تنفقوا من خير﴾ [البقرة: ٢٧٢ و ٢٧٣] ﴿الوصية للوالدين والأقربين﴾، كانت الوصية فريضة في ابتداء الإسلام للوالدين والأقربين على من مات وله مال، ثم نسخت بآية الميراث، أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أخبرنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمض الزياتي، أخبرنا أبو بكر محمد بن عمر بن حفص التاجر، أخبرنا محمد بن أحمد بن الوليد، أخبرنا الهيثم بن جميل أخبرنا حماد بن سلمة عن قتادة عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم عن عمرو بن خارجة قال: كنت آخذاً بزمام ناقة النبي ﷺ فقال: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث»، فذهب جماعة إلى أن وجوبها صار منسوخاً في حق الأقارب الذين يرثون، وبقي وجوبها في حق الذي

الأقربين فقراء فأوجب الله تعالى الوصية للأقربين، ثم نسخت هذه الآية بآية الموارث، وبما روي عن عمرو بن خارجة قال: كنت آخذاً بزمام ناقة النبي ﷺ وهو يخطب فسمعتة يقول: «إن الله أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث» أخرجه النسائي والترمذي، نحوه وذهب ابن عباس إلى أن وجوبها صار منسوخاً في حق من يرث، وبقي وجوبها في حق من لا يرث من الوالدين والأقربين. وهو قول الحسن ومسروق وطاوس والضحاك ومسلم بن يسار وحجة هؤلاء أن الآية دالة على وجوب الوصية للوالدين والأقربين ثم نسخ ذلك الوجوب في حق من يرث بآية الميراث وبالحديث، المذكور فوجب أن تبقى الآية دالة على وجوب الوصية للقريب الذي لا يرث فعلى قول هؤلاء النسخ يتناول بعض أحكام الآية، وذهب الأكثرون من المفسرين والعلماء وفقهاء الحجاز والعراق إلى أن وجوبها صار منسوخاً في حق الكافة وهي مستحبة في حق من لا يرث ويدل على استحباب الوصية والحث عليها ما روي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه» وفي رواية: «له شيء يريد أن يوصي به أن يبيت ليلتين» وفي رواية: «ثلاث ليالٍ إلّا ووصيته مكتوبة عنده» قال نافع سمعت عبد الله بن عمر يقول: ما مرت علي ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك إلّا ووصيتي مكتوبة عندي أخرجه الجماعة. قوله: ما حق امرئ الحق يشتمل معناه على الوجوب والندب والحث، فيحمل هنا على الحث في الوصية لأنه لا يدري متى يأتيه الموت فربما أتاه بغتة فيمنعه عن الوصية. وقوله تعالى: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي بالعدل الذي لا وكس فيه ولا شطط فلا يزيد على الثلث ولا يوصي للغني ويدع الفقير (ق) عن سعد بن أبي وقاص قال: «جاءني رسول الله ﷺ يعودني عام حجة الوداع من وجع اشتد بي فقلت يا رسول الله إني قد بلغ بي من الوجع ما ترى، وأنا ذو مال ولا يرثني إلّا ابنة لي أفأتصدق بثلاثي ما لي قال لا قلت فالشطر يا رسول الله قال لا قلت فالثلث قال الثلث والثلث كثير أو قال والثلث كبير إنك إن تذر ذريتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس» وقوله يتكففون الناس التكفف. المسألة: من الناس كأنه من الطلب بالأكف (ق) عن ابن عباس قال: في الوصية: لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع فإن النبي ﷺ قال لسعد والثلث كثير وقال علي بن أبي طالب لأن أوصي بالخمسة أحب

يرثون من الوالدين والأقارب، وهو قول ابن عباس وطاوس وقتادة والحسن، قال طاوس: مَنْ أوصى لقوم سَمَاهُمْ وترك ذَوِي قَرَابَتِهِ محتاجين، انتزَعَتْ مِنْهُمْ وَرَدَتْ إِلَى ذَوِي قَرَابَتِهِ، وذهب الأكثرون إلى أن الوجوب صار منسوخاً في حق الكافة، وهي مستحبة في حق الذين لا يرثون، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا طاهر بن أحمد، أخبرنا إسحق الهاشمي أخبرنا أبو مصعب، عن مالك عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه، يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إلّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَ رَأْسِهِ». قوله تعالى: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾، يُرِيدُ: يُوَصِّي بِالْمَعْرُوفِ وَلَا يَزِيدُ عَلَى الثَّلَاثِ، وَلَا يُوصِي لِلْغَنِيِّ وَيَدَعُ الْفَقِيرَ، قال ابن مسعود: الوصية للأهل فالأهل، أي: الأُحْوَجُ فَالْأَحْوَجُ، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالح أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسين الخيري، أخبرنا أبو جعفر محمد بن علي بن رحيمة الشيباني، أخبرنا أحمد بن حازم بن أبي عروة أخبرنا عبد الله بن موسى وأبو نعيم عن سفيان الثوري، عن سعيد بن إبراهيم، عن عامر بن سعيد عن سعد بن مالك قال: جاءني النبي ﷺ يعودني فقلت: يا رسول الله أوصي بمالي كله، قال: «لا»، قلت: فالشطر، قال: «لا»، قلت: فالثلث، قال: «الثلث والثلث كثير، إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس بأيديهم»، فقوله: «يتكففون الناس» أي: يسألون الناس الصدقة بأَكْفَهُمْ، وعن ابن أبي مُلَيْكَةَ أن رجلاً قال لعائشة رضي الله عنها: إني أريد أن أوصي، قالت: كم مالك؟ قال: ثلاثة آلاف، قالت: كم عيالك؟ قال: أربعة، قالت: إنما قال الله: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾، وإن هذا شيء يسير فاتركه لعيالك. وقال علي رضي الله عنه: لأن أوصي بالخمسة أحب إلي من أن أوصي بالربع، ولأن أوصي

إلي من أن أوصي بالربع ولأن أوصي بالربع أحب إلي من أن أوصي بالثلث فمن أوصى بالثلث فلم يترك» وقيل يوصي بالسدس أو بالخمس أو الربع ﴿حقاً﴾ أي ثابتاً ثبوت ندب لا ثبوت فرض ووجوب ﴿على المتقين﴾ أي على المؤمنين الذين يتقون الشرك.

فَمَنْ بَدَّلُوا بَعْدَ مَا سَمِعُوا فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾

﴿فمن بدله﴾ أي غير الوصية من الأولياء والأوصياء وذلك التغيير يكون إما في الكتابة أو في قسمة الحقوق، أو الشهود بأن يكتموا الشهادة أو يغيروها. وإنما ذكر الكناية في بدله مع أن الوصية مؤنثة لأن الوصية بمعنى الإيصاء كقوله: «فمن جاءه موعظة» أي وعظ والتقدير فمن بدل قول الميت، أو ما أوصى به ﴿بعد ما سمعه﴾ أي من الموصي وتحققه ﴿فإنما إثمهم على الذين يبدلونهم﴾ أي إن إثم ذلك التبديل لا يعود إلا على المبدل، والموصي له بريتان منه ﴿إن الله سميع﴾ يعني لما أوصى به الموصي ﴿عليم﴾ يعني بتبديل المبدل.

فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَكُمْ تَنَقُّونَ ﴿١٨٣﴾

﴿فمن خاف﴾ أي علم وهو خطاب عام لجميع المسلمين ﴿من موص جنفًا﴾ يعني جوراً في الوصية وعدولاً عن الحق، والجنف الميل ﴿أو إثمًا﴾ أي ظلماً ﴿فأصلح بينهم﴾ وقيل الجنف الخطأ في الوصية والإثم العمد. وقيل في معنى الآية: إنه إذا حضر رجل مريضاً وهو يوصي فراه يميل في وصيته إما بتقصير أو إسراف أو وضع الوصية في غير موضعها فلا حرج عليه أن يأمره بالعدل في وصيته وينهاه عن الجنف والميل، وقيل إنه أراد به إذا أخطأ الميت في وصيته أو حاف متعمداً فلا حرج على وليه أو وصيه أو ولي أمور المسلمين أن يصلح بعد موته بين ورثته وبين الموصي لهم، ويرد الوصية إلى العدل والحق ﴿فلا إثم عليه﴾ أي فلا حرج عليه في الصلح ﴿إن الله

بالربع أحب إلي من أن أوصي بالثلث، فمن أوصى بالثلث فلم يترك. وقال الحسن البصري رضي الله عنه: يُوصي بالسدس أو الخمس أو الربع. وقال الشعبي: إنما كانوا يُوصون بالخمس أو الربع. قوله تعالى: ﴿حقاً﴾ نُصب على المصدر، وقيل: على المفعول، أي: جعل الوصية حقاً، ﴿على المتقين﴾: المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾، أي: غير الوصية عن الأوصياء أو الأولياء أو الشهود، ﴿بعد ما سمعه﴾، أي: بعد ما سمع قول الموصي، ولذلك ذكر الكناية مع كون الوصية مؤنثة، وقيل: الكناية راجعة إلى الإيصاء، كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، رَدَّ الكناية إلى الوعظ، ﴿فإنما إثمهم على الذين يبدلونهم﴾، والميت بريء منه، ﴿إن الله سميع﴾، لما أوصى به الموصي، ﴿عليم﴾: بتبديل المُبدِّل أو سميع لوصيته عليم بنيته.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ﴾، أي علم، كقوله تعالى: ﴿لَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، أي: علمتم، ﴿من موصٍ﴾، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ويعقوب بفتح الواو وتشديد الصاد، كقوله تعالى: ﴿مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣] ﴿ووصينا الإنسان﴾ [العنكبوت: ٨، لقمان: ١٤، الأحقاف: ١٥]، وقرأ الآخرون بسكون الواو وتخفيف الصاد، كقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينِ﴾ [النساء: ١١ و١٢]، ﴿جَنَفًا﴾ أي: جوراً وعدولاً عن الحق، والجنف: الميل، ﴿أو إثمًا﴾ أي: ظلمًا، وقال السدي وعكرمة والربيع: الجَنَفُ: الخطأ، والإثم: العمد، ﴿فأصلح بينهم﴾، فلا إثم عليه، واختلفوا في

غفور رحيم ﴿١﴾ أي لمن أصلح وصيته بعد الجنف والميل. عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل والمرأة ليعمل بطاعة الله ستين سنة، ثم يحضرهما الموت فيضاران في الوصية فتجب لهما النار» ثم قرأ أبو هريرة: «من بعد وصية يوصي بها أو دين» إلى قوله: «ذلك الفوز العظيم» أخرجه أبو داود والترمذي. قوله: فيضار إن المضارة إيصال الضرر إلى شخص ومعنى المضارة في الوصية أن لا تمضى أو ينقص بعضها أو يوصي لغير أهلها أو يحيف في الوصية ونحو ذلك. قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾. والصوم في اللغة: الإمساك يقال صام النهار إذا اعتدل وقام قائم الظهيرة ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ أي صمتاً لأنه إمساك عن الكلام، والصوم في الشرع: عبارة عن الإمساك عن الأكل والشرب والجماع في وقت مخصوص وهو من طلوع الفجر إلى غروب الشمس مع النية ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يعني من الأنبياء والأمم من لدن آدم إلى عهدكم والمعنى أن الصوم عبادة قديمة أي في الزمن الأول ما أخلق الله أمة لم يفرضه عليهم كما فرضه عليكم وذلك لأن الصوم عبادة شاقة والشيء الشاق إذا عم سهل عمله وقيل إن صيام شهر رمضان كان واجباً على النصارى كما فرض علينا فصاموا رمضان زماناً قريباً وقع في الحر الشديد والبر الشديد وكان يشق ذلك عليهم في أسفارهم ويضرهم في معاشهم فاجتمع رأي علمائهم ورؤسائهم أن يجعلوه في فصل من السنة معتدل بين الصيف والشتاء: فجعلوه في فصل الربيع ثم زادوا فيه عشرة أيام كفارة لما صنعوا فصاموا أربعين يوماً، ثم بعد زمان اشتكى ملكهم فمه فجعل الله عليه إن هو برأ من وجعه أن يزيد في صومهم

معنى الآية قال مجاهد: معناها أن الرجل إذا حضر مريضاً وهو يوصي فراه يميل إمّا بتقصير أو إسراف أو وضع الوصية في غير موضعها، فلا حرج على من حضره أن يأمره بالعدل وينهاه عن الجنف، فينظر للموصى له والورثة، وقال الآخرون: إنه أراد به أنه إذا أخطأ الميت في وصيته أو جاز متعمداً فلا حرج على وليه أو وصيه أو والي أمور المسلمين أن يصلح بعد موته بين ورثته وبين الموصى لهم، ويرد الوصية إلى العدل والحق ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، أي: لا حرج عليه، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وقال طاوس: «جَنَفُهُ» توجيهه، وهو أن يوصي لبني بنيه، يريد ابنه أو ولد ابنته ولزوج ابنته بذلك ابنته، وقال الكلبي: كان الأولياء والأوصياء يُمضون وصية الميت بعد نزول قوله تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ﴾ [البقرة: ١٨١] الآية، وإن استغرق المال كله، ولم يبق للورثة شيء، ثم نسخها قوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا﴾ الآية، قال ابن زيد: فعجز الموصي أن يوصي للوالدين والأقربين كما أمر الله تعالى، وعجز الوصي أن يصلح، فانتزع الله تعالى ذلك منهم، ففرض الفرائض. روي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل ليعمل أو المرأة بطاعة الله ستين سنة، ثم يحضرهما الموت فيضاران في الوصية فتجب لهما النار»، ثم قرأ أبو هريرة ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ﴾ إلى قوله: ﴿غَيْرِ مَضَارٍ﴾ [النساء: ١١ و١٢].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾، أي: فرض وأوجب الصوم، والصيام في اللغة: الإمساك، يُقال: صام النهار إذا اعتدل وقام قائم الظهير، لأن الشمس إذا بلغت كبد السماء كأنها وقفت وأمسكت عن السير سريعة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ [مريم: ٢٦] أي: صمتاً، لأنه إمساك عن الكلام، وفي الشريعة: الصوم وهو الإمساك عن الأكل والشرب والجماع مع النية في وقت مخصوص. ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾: من الأنبياء والأمم، واختلفوا في هذا التشبيه، فقال سعيد بن جبير: كان صوم من قبلنا من العتمة إلى الليلة القابلة، كما كان في ابتداء الإسلام، وقال جماعة من أهل العلم: أراد أن صيام رمضان كان واجباً على النصارى، كما فرض علينا، فربما كان يقع في الحر الشديد والبرد الشديد، وكان يشق عليهم في أسفارهم ويضرهم في معاشهم، فاجتمع رأي علمائهم ورؤسائهم على أن يجعلوا صيامهم في فصل من السنة بين

أسبوعاً فبراً فزاد فيه أسبوعاً، ثم مات ذلك الملك بعد زمان ووليهم ملك آخر فقال: ما شأن هذه الثلاثة أيام أتموه خمسين يوماً فأتّموه وقيل أصابهم موتان فقالوا: زيدوا في صيامكم فزادوا عشراً قبله وعشرأ بعده. وقيل: إن النصراني فرض الله عليهم صوم رمضان فصاموا قبله يوماً وبعده يوماً ثم لم يزلوا يزيّدونه يوماً بعد يوم حتى بلغ خمسين فلذلك نهى عن صوم يوم الشك ﴿لعلكم تتقون﴾ يعني ما حرم عليكم في صيامكم لأن الصوم وصلة إلى التقوى لما فيه من كسر النفس وترك الشهوات من الأكل والجماع وغيرهما. وقيل: معناه لعلكم تتقون ما فعله النصراني من تغيير الصوم وقيل: لعلكم تنتظمون في زمرة المتقين لأن الصوم من شعارهم.

أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٥﴾

﴿أياماً معدودات﴾ أي مقدرات. وقيل قليلات. قيل: إنه كان في ابتداء الإسلام صوم ثلاثة أيام من كل شهر واجباً وصوم يوم عاشوراء ثم نسخ ذلك بفريضة صوم شهر رمضان. قال ابن عباس أول ما نسخ بعد الهجرة أمر القبلة ثم الصوم (ق) عن عائشة قالت: كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية، وكان رسول الله ﷺ يصومه في الجاهلية فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة صامه وأمر بصيامه فلما فرض رمضان ترك عاشوراء فمن شاء صامه ومن شاء تركه وقيل إن المراد من قوله أياماً معدودات أيام شهر رمضان ووجهه أن الله تعالى قال أولاً: ﴿كتب عليكم الصيام﴾ وهذا يحتمل صوم يوم أو يومين ثم بينه بقوله: معدودات على أنه أكثر من ذلك لكنها غير منحصرة

الشتاء والصيف، فجعلوه في الربيع وزادوا فيه عشرة أيام كفارة لما صنعوا، فصار أربعين، ثم إن ملكاً لهم اشتكى فمه، فجعل الله عليه إن هو برأ من وجعه أن يزيد في صومهم أسبوعاً فبراً، فزاد فيه أسبوعاً، ثم مات ذلك الملك ووليهم ملك آخر فقال: أتموه خمسين يوماً، وقال مجاهد: أصابهم موتان فقالوا: زيدوا في صيامكم، فزاد فيه عشرأ قبل وعشرأ بعد، قال الشعبي: لو صمت السنة كلها لأفطرت اليوم الذي يُشك فيه، فيقال من شعبان، ويقال من رمضان، وذلك أن النصراني فرض الله عليهم شهر رمضان فصاموا قبله يوماً وبعده يوماً، ثم لم يزل الآخر يستن بسنة القرن الذي قبله حتى صاروا إلى خمسين يوماً، فذلك قوله تعالى: ﴿كما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، ﴿لعلكم تتقون﴾، يعني: بالصوم، لأن الصوم وصلة إلى التقوى، لما فيه من قهر النفس وكسر الشهوات، وقيل: ﴿لعلكم تتقون﴾ تحذرون عن الشهوات من الأكل والشرب والجماع.

﴿أياماً معدودات﴾، قيل: كان في ابتداء الإسلام صوم ثلاثة أيام من كل شهر واجباً، وصوم يوم عاشوراء، فصاموا كذلك من الربيع إلى شهر رمضان سبعة عشر شهراً، ثم نسخ بصوم رمضان، قال ابن عباس: أول ما نسخ بعد الهجرة أمر القبلة والصوم، ويقال: نزل صوم شهر رمضان قبل بدر بشهر وأيام، قال محمد بن إسحق: كانت غزوة بدر يوم الجمعة لسبع عشر ليلة خلت من شهر رمضان على رأس ثمانية عشر شهراً من الهجرة، حدثنا أبو الحسن الشيرازي أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحق الهاشمي أخبرنا أبو مصعب، عن مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: كان يوم عاشوراء يوماً تصومه قريش في الجاهلية، وكان رسول الله ﷺ يصومه في الجاهلية، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة صامه وأمر الناس بصيامه، فلما فرض رمضان كان هو الفريضة، وترك يوم عاشوراء، فمن شاء صامه ومن شاء تركه. وقيل: المراد من قوله: ﴿أياماً معدودات﴾: شهر رمضان، وهي غير منسوخة، ونصب ﴿أياماً﴾ على الظرف، أي: في أيام معدودات، وقيل: على التفسير، وقيل: على هو خير ما لم يسم فاعله ﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سَفَرٍ فَعِدَّةٌ﴾، أي فأفطر فعِدَّة ﴿من أيام

بعدد ثم بين حصرها بقوله: شهر رمضان فإذا أمكن ذلك فلا وجه لحمل الأيام المعدودات على غير رمضان فتكون الآية غير منسوخة يقال: إن فريضة رمضان نزلت في السنة الثانية من الهجرة وذلك قبل غزوة بدر بشهر وأيام، وكانت غزوة بدر يوم الجمعة لسبع عشرة خلت من رمضان على رأس ثمانية عشر شهراً من الهجرة ﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر﴾ أي فإفطر ﴿ف﴾ عليه ﴿عدة من أيام أخر﴾ يعني غير أيام مرضه وسفره ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾ أي يطيقون الصوم. واختلف العلماء في حكم هذه الآية فذهب أكثرهم إلى أنها منسوخة وهو قول عمر بن الخطاب وسلمة بن الأكوع وغيرهما، وذلك أنهم كانوا في ابتداء الإسلام مخيرين بين أن يصوموا وبين أن يفطروا ويفدوا وإنما خيرهم الله تعالى لثلاث يشق عليهم، لأنهم كانوا لم يتعودوا الصوم ثم نسخ التخيير ونزلت العزيمة بقوله تعالى: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ فصارت هذه الآية ناسخة للتخيير (ق) عن سلمة بن الأكوع قال لما نزلت هذه الآية ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ كان من أراد أن يفطر ويفتدي فعل حتى نزلت هذه الآية التي بعدها فنسخها وفي رواية حتى نزلت هذه الآية ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾، وقال قتادة: هي خاصة في حق الشيخ الكبير الذي لا يطيق الصوم ولكن يشق عليه رخص له أن يفطر ويفتدي ثم نسخ ذلك. وقال الحسن: هذا في المريض الذي يقع عليه اسم المرض وهو يستطيع الصوم خير بين الصيام وبين أن يفطر ويفتدي ثم نسخ. وذهب جماعة منهم ابن عباس إلى أن الآية محكمة غير منسوخة، ومعناها وعلى الذين كانوا يطيقونه في حال الشباب، ثم عجزوا عنه عند الكبر فعليهم الفدية بدل الصوم وقرأ ابن عباس: وعلى الذين

أخر ﴿، أي: فعليه عدة، والعدد والعدة واحد من أيام أخر، أي: غير أيام مرضه وسفره، و﴿أخر﴾ في موضع خفض، لكنها لا تنصرف، فلذلك نُصبت، قوله تعالى: ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾، اختلف العلماء في تأويل هذه الآية وحكمها، فذهب أكثرهم إلى أن الآية منسوخة، وهو قول ابن عمرو وسلمة بن الأكوع وغيرهما، وذلك أنهم كانوا في ابتداء الإسلام مخيرين بين أن يصوموا وبين أن يفطروا أو يفتدوا، خيرهم الله تعالى لثلاث يشق عليهم، لأنهم كانوا لم يتعودوا الصوم، ثم نسخ التخيير ونزلت العزيمة بقوله تعالى: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ [البقرة: ١٨٥]، قال قتادة: هي خاصة في حق الشيخ الكبير الذي يطيق الصوم، ولكن يشق عليه، رخص له في أن يفطر ويفتدي، ثم نسخ، وقال الحسن: هذا في المريض الذي به ما يقع عليه اسم المرض وهو مستطيع للصوم، خير بين أن يصوم وبين أن يفطر أو يفدي، ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ [البقرة: ١٨٥] وثبتت الرخصة للذين يطيقون، وذهب جماعة إلى أن الآية محكمة غير منسوخة، ومعناه: وعلى الذين كانوا يطيقونه في حال الشباب فعجزوا عنه في حال الكبر فعليهم الفدية بدل الصوم، وقرأ ابن عباس ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾ بضم الياء وفتح الطاء وتخفيفها وفتح الواو وتشديدها، أي: يكلفون الصوم، وتأويله: على الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان الصوم، والمريض الذي لا يرجى زوال مرضه، فهم يكلفون الصوم ولا يطيقونه، فلهم أن يفطروا ويطعموا مكان كل يوم مسكيناً، وهو قول سعيد بن جبير، وجعل الآية محكمة. قوله تعالى: ﴿فدية طعام مسكين﴾، قرأ أهل المدينة والشام مضافاً، وكذلك في قوله: ﴿كفارة طعام مسكين﴾ [المائدة: ٩٥]، أضاف الفدية إلى الطعام، وإن كان واحداً لاختلاف اللفظين، كقوله تعالى: ﴿وحب الحصيد﴾ [ق: ٩]، وقولهم: مسجد الجامع، وربيع الأول، وقرأ الآخرون (فدية وكفارة) منونة، (وطعام)، رفع، وقرأ (مساكين) بالجمع هنا، أهل المدينة والشام، وآخرون على التوحيد، فمن جمع نصب النون، ومن وحّد خفض النون ونونها، والفدية: الجزاء، ويجب أن يطعم مكان كل يوم مسكيناً مذكراً من الطعام بمدة النبي ﷺ وهو رطل وثلاث من غالب قوت البلد، هذا قول فقهاء الحجاز، وقال بعض فقهاء أهل العراق: عليه لكل مسكين نصف صاع لكل

يطوقونه بضم الياء وفتح الطاء وبالواو المشددة المفتوحة عوض الياء ومعناه يكلفون الصوم (خ) عن عطاء أنه سمع ابن عباس يقرأ: ﴿وعلى الذين يطوقونه فدية طعام مسكين﴾ قال ابن عباس: ليست بمنسوخة هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً ﴿فدية طعام مسكين﴾ الفدية الجزاء وهو القدر الذي يبذله الإنسان، بقي به نفسه من تقصير وقع منه في عبادة ونحوها ويجب على من أفطر في رمضان ولم يقدر على القضاء، لكبر أن يطعم مكان كل يوم مسكيناً مداً من غالب قوت البلد وهذا قول فقهاء الحجاز، وقال بعض فقهاء العراق عليه لكل مسكين نصف صاع عن كل يوم وقال بعضهم نصف صاع من البر وصاع من غيره، وقال ابن عباس يعطي كل مسكين عشاء وسحوره ﴿فمن تطوع خيراً فهو خير له﴾ يعني زاد على مسكين واحد فأطعم عن كل يوم مسكينين فأكثر، وقيل فمن زاد على قدر الواجب عليه فأطعم صاعاً وعليه مد فهو خير له ﴿وأن تصوموا خير لكم﴾ قيل هو خطاب مع الذين يطبقونه فيكون المعنى وأن تصوموا أيها المطيعون وتحملوا المشقة فهو خير لكم من الإفطار والفدية، وقيل: هو خطاب مع الكافة وهو الأصح لأن اللفظ عام فرجوعه إلى الكل أولى ﴿إن كنتم تعلمون﴾ يعني أن الصوم خير لكم وقيل: معناه إذا صمتم علمتم ما في الصوم من المعاني المورثة للخير والتقوى. واعلم أنه لا رخصة لأحد من المسلمين المكلفين في إفطار رمضان بغير عذر والأعذار المبيحة للفطر ثلاثة: أحدها السفر والمرض والحيض والنفاس فهؤلاء إذا أفطروا فعليهم القضاء دون الكفارة. الثاني الحامل والمرضع إذا خافتا على ولديهما أفطرتا وعليهما القضاء والكفارة وإليه ذهب الشافعي، وذهب أهل الرأي إلى أنه لا فدية عليهما. الثالث الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة والمريض الذي لا يرجى برؤه فعليهم الكفارة دون القضاء.

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

قوله عز وجل: ﴿شهر رمضان﴾ يعني وقت صيامكم شهر رمضان، سمي الشهر شهراً لشهرته يقال:

يوم يفطر، وقال بعضهم: نصف صاع من قمح أو صاع من غيره، وقال بعض الفقهاء: ما كان المفطر يتقوته يومه الذي أفطره، وقال ابن عباس: يعطي كل مسكين عشاءً وسحوره، ﴿فمن تطوع خيراً فهو خير له﴾، أي: زاد على مسكين واحد فأطعم مكان كل يوم مسكينين فأكثر، قاله مجاهد وعطاء وطاوس، وقيل: من زاد على القدر الواجب عليه فأعطى صاعاً وعليه مد فهو خير له، ﴿وأن تصوموا خير لكم﴾، فمن ذهب إلى النسخ قال معناه: الصوم خير له من الفدية، وقيل هذا في الشيخ الكبير لو تكلف الصوم، وإن شقَّ عليه فهو خير له من أن يفطر ويفدي، ﴿إن كنتم تعلمون﴾، واعلم أنه لا رخصة لمؤمن مكلف في إفطار رمضان إلا لثلاثة، أحدهم: يجب عليه القضاء والكفارة، والثاني: عليه القضاء دون الكفارة، والثالث: عليه الكفارة دون القضاء، أما الذي عليه القضاء والكفارة: فالحامل والمرضع، إذا خافتا على ولديهما فإنهما تفطرا وتقضيان، وعليهما مع القضاء الفدية، وهو قول ابن عمر وابن عباس وبه قال مجاهد، وإليه ذهب الشافعي رحمه الله، وقال قوم: لا فدية عليهما، وبه قال الحسن وعطاء وإبراهيم النخعي والزهري، وإليه ذهب الأوزاعي والثوري وأصحاب الرأي، وأما الذي عليه القضاء دون الكفارة: فالمريض والمسافر والحائض والنفساء، وأما الذي عليه الكفارة دون القضاء فالشيخ الكبير والمريض الذي لا يرجى زوال مرضه، ثم بين الله تعالى أيام الصيام فقال:

﴿شهر رمضان﴾، رفعه على معنى: هو شهر رمضان، وقال الكسائي كتب عليكم شهر رمضان، وسُمِّي

للسر إذا أظهره شهره وسمي الهلال شهراً لشهرته وبيانه وقيل: سمي الشهر شهراً باسم الهلال، وأما رمضان فاشتقاقه من الرمضاء وهي الحجارة المحمأة في الشمس وقيل: إنهم لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التي وقعت فيها، فوافق هذا الشهر أيام رمض الحر فسموه به. وقيل: إن رمضان اسم من أسماء الله تعالى فيكون معناه شهر الله والأصح أن رمضان اسم لهذا الشهر كـشهر رجب وشهر شعبان وشهر رمضان ﴿الذي أنزل فيه القرآن﴾ لما خص الله شهر رمضان بهذه العبادة العظيمة بين سبب تخصيصه بإنزال أعظم كتبه فيه، والقرآن اسم لهذا الكتاب المنزل على رسول الله ﷺ روي عن الشافعي أنه كان يقول القرآن اسم وليس بمهموز وليس هو من القراءة ولكنه اسم لهذا الكتاب كالتوراة والإنجيل فعلى هذا القول إنه ليس بمشتق وذوهم الأكثرون إلى أنه مشتق من القرء وهو الجمع فسمي قرآناً لأنه يجمع السور والآيات بعضها إلى بعض، ويجمع الأحكام والقصص والأمثال والآيات الدالة على وحدانية الله تعالى. قال ابن عباس أنزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ في ليلة القدر من شهر رمضان فوضع في بيت العزة في سماء الدنيا، ثم نزل به جبريل على محمد ﷺ نجوماً في ثلاث وعشرين سنة فذلك قوله: «فلا أقسم بمواقع النجوم» وروى أبو داود عن النبي ﷺ أنه قال: «أنزلت صحف إبراهيم في ثلاث ليال مضين من رمضان، وفي رواية في أول ليلة من رمضان وأنزلت توراة موسى في ست ليال مضين من رمضان وأنزل إنجيل عيسى في ثلاث عشرة ليلة مضت من رمضان، وأنزل زبور داود في ثمان عشرة ليلة مضت من رمضان، وأنزل الفرقان على محمد ﷺ في الرابعة والعشرين لست بقين بعدها» فعلى هذا يكون ابتداء نزول القرآن على محمد ﷺ في شهر رمضان، وهو قول ابن إسحاق وأبي سليمان الدمشقي وقيل في معنى الآية شهر رمضان الذي نزل بفرض صيامه القرآن كما تقول نزلت هذه الآية في الصلاة والزكاة ونحو ذلك من الفرائض يروى ذلك عن مجاهد والضحاك وهو اختيار الحسن بن الفضل ﴿هدى للناس﴾ يعني من الضلال ﴿وبينات من الهدى والفرقان﴾.

الشهر شهراً لشهرته، وأما رمضان فقد قال مجاهد: هو من أسماء الله تعالى، يقال: شهر رمضان كما يقال شهر الله، والصحيح: أنه اسم للشهر سُمي به من الرمضاء، وهي الحجارة المحمأة، وهم كانوا يصومونه في الحر الشديد، وكانت ترمض فيه الحجارة من الحرارة، قوله تعالى: ﴿الذي أنزل فيه القرآن﴾، سُمي القرآن قرآناً لأنه يجمع السور والآي والحروف، وجمع فيه القصص والأمر والنهي والوعد والوعيد، وأصل القرء: الجمع، وقد يحذف الهمزة فيقال: قرئت الماء في الحوض إذا جمعته، وقرأ ابن كثير القرآن بفتح الراء غير مهموز، وكذلك كان يقرأ الشافعي، ويقول: ليس هو من القراءة ولكنه اسم لهذا الكتاب كالتوراة والإنجيل، روي عن مقسم عن ابن عباس أنه سُئل عن قوله عز وجل: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾، وقوله: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ [القدر: ١]، وقوله: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ [الدخان: ٣]، وقد نزل في سائر الشهور، وقال عز وجل: ﴿وقرآناً فرقناه﴾ [الإسراء: ١٠٦]؟ فقال: أنزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ في ليلة القدر من شهر رمضان إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ثم نزل به جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ نجوماً في ثلاث وعشرين سنة، فذلك قوله تعالى: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ [الواقعة: ٧٥]، قال داود بن أبي هند قلت للشعبي: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ أما كان ينزل في سائر الشهور؟ قال: بلى ولكن جبرائيل كان يعارض محمداً ﷺ في رمضان ما أنزل الله إليه، فيحكم الله ما يشاء ويثبت ما يشاء ويُسيه ما يشاء، وروى عن أبي ذر عن النبي ﷺ قال: «أنزل صحف إبراهيم في ثلاث ليالٍ مضين من رمضان»، ويروى «في أول ليلة من رمضان»، «وأنزلت توراة موسى في ست ليالٍ مضين من رمضان، وأنزل الإنجيل على عيسى في ثلاث عشرة ليلة مضت من رمضان، وأنزل الزبور على داود في ثمان عشرة ليلة مضت من رمضان، وأنزل الفرقان على محمد ﷺ في الرابعة

فإن قلت هذا فيه إشكال وهو أنه يقال ما معنى قوله: وبينات من الهدى بعد قوله هدى للناس؟ قلت إنه تعالى ذكر أولاً أنه هدى ثم الهدى على قسمين: تارة يكون هدى جلياً وتارة لا يكون كذلك، فكأنه قال هو هدى في نفسه ثم قال: هو المبين من الهدى الفارق بين الحق والباطل وقيل: إن القرآن هدى في نفسه فكأنه قال: إن القرآن هدى للناس على الإجمال وبينات من الهدى والفرقان على التفصيل، لأن البينات هي الدلالات الواضحات التي تبين الحلال الحرام والحدود والأحكام، ومعنى الفرقان الفارق بين الحق والباطل.

قوله عز وجل: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ أي فمن كان حاضراً مقيماً غير مسافر فأدركه الشهر فليصمه والشهود الحضور، وقيل: هو محمول على العادة بمشاهدة الشهر وهي رؤية الهلال ولذلك قال النبي ﷺ: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته» أخرجاه في الصحيحين، ولا خلاف أنه يصوم رمضان من رأى الهلال ومن أخبر به واختلف العلماء في وجه الخبر عنه منهم من قال يجزىء فيه خبر الواحد، قاله أبو ثور: ومنهم من أجراه مجرى الشهادة في سائر الحقوق قاله مالك: ومنهم من أجرى أوله مجرى الأخبار فقبل فيه خبر الواحد وأجرى آخره مجرى الشهادة فلا يقبل في آخره أقل من اثنين؛ قاله الشافعي: وهذا للاحتياط في أمر العبادة لدخولها وخروجها ﴿ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾ إنما كرهه لأن الله تعالى ذكر في الآية الأولى تخيير المريض والمسافر والمقيم الصحيح ثم نسخ تخيير المقيم الصحيح بقوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فلو اقتصر على هذا لاحتمل أن يشمل النسخ الجميع، فأعاد بعد ذكر الناسخ الرخصة للمريض والمسافر ليعلم أن الحكم باق على ما كان عليه.

فصل في حكم الآية، وفيه مسائل: الأولى:

اختلفوا في المرض المبيح للنظر على ثلاثة أقوال: أحدها وهو قول أهل الظاهر أي مرض كان وهو ما يطلق عليه اسم المرض، فله أن يفطر تنزيلاً للفظ المطلق على أقل أحواله، وإليه ذهب الحسن وابن سيرين. القول

والعشرين من شهر رمضان لست بقين بعدها». قوله تعالى: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾: من الضلالة، و﴿هُدًى﴾ في محل النصب على القطع، لأن القرآن معرفة وهدى نكرة، ﴿وبينات من الهدى﴾، أي: دلائل واضحات من الحلال والحرام، والحدود والأحكام، ﴿والفرقان﴾، أي: الفارق بين الحق والباطل، قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، أي فمن كان مقيماً في الحضر فأدركه الشهر، واختلف أهل العلم فيمن أدركه الشهر وهو مقيم ثم سافر، روي عن علي رضي الله عنه أنه قال: يجوز له الفطر، وبه قال عبيدة السلماني، لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ أي: الشهر كله، وذهب أكثر الصحابة والفقهاء إلى أنه إذا أنشأ السفر في شهر رمضان جاز له أن يفطر، ومعنى الآية: فمن شهد منكم الشهر كله فليصمه، أي: الشهر كله ومن لم يشهد منكم الشهر كله فليصم ما شهد منه، والدليل عليه: ما أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحق الهاشمي أخبرنا أبو منصور عن مالك عن ابن شهاب، عن عبيد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خرج إلى مكة عام الفتح في رمضان، فصام حتى بلغ الكديد ثم أفطر وأفطر الناس معه فكانوا يأخذون بالأحدث فالأحدث من أمر رسول الله ﷺ. قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، أباح الفطر لعذر المرض والسفر، أعاد هذا الكلام ليُعلم أن هذا الحكم ثابت في الناسخ بثبوته في المنسوخ، واختلفوا في المرض الذي يبيح الفطر، فذهب أهل الظاهر إلى أن ما يطلق عليه اسم المرض يبيح الفطر، وهو قول ابن سيرين، قال طريق بن تمام العطاردي: دخلت على محمد بن سيرين في رمضان وهو يأكل فقال إنه وجعت أصبعي هذه، وقال الحسن وإبراهيم النخعي: هو المرض الذي يجوز به الصلاة قاعداً، وذهب الأكثرون إلى أنه مرض

الثاني وهو قول الأصم إن هذه الرخصة مختصة بالمرريض الذي لو صام، لوقع في مشقة عظيمة تنزيلاً للفظ المطلق على أكمل أحواله. القول الثالث وهو قول أكثر الفقهاء إن المرض المبيح للفطر، هو الذي يؤدي إلى ضرر في النفس أو زيادة علة محتملة كالمحموم إذا خاف أنه لو صام اشتدت حماه وصاحب وجع العين يخاف لو صام أن يشتد وجع عينه فالمراد بالمرض، ما يؤثر في تقويته قال الشافعي إذا أجهدته الصوم أفطر، إلا فهو كالصحيح.

المسألة الثانية: الفطر في السفر مباح، والصوم جائز وبه قال عامة العلماء وقال ابن عباس وأبو هريرة وبعض أهل الظاهر: لا يجوز الصوم في السفر، ومن صام فعليه القضاء واحتجوا بقوله ﷺ: «ليس من البر الصيام في السفر» وحمله عامة العلماء على من يجهد الصوم في السفر فالأولى له الفطر ويدل على ذلك ما روي عن جابر قال: «كان رسول الله ﷺ في سفر فرأى زحاماً ورجلاً قد ظلل عليه فقال ما هذا؟ قالوا صائم قال: ليس من البر الصيام في السفر» أخرجه البخاري ومسلم، وحجة الجمهور على جواز الصوم والفطر في السفر ما روي عن أنس قال: «سافرنا مع رسول الله ﷺ في رمضان فلم يعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم» أخرجه في الصحيحين.

المسألة الثالثة: اختلف العلماء في قدر السفر المبيح للفطر. فقال داود: الظاهري أي سفر كان ولو كان فرسخاً. وقال الأوزاعي: السفر المبيح للفطر مسيرة يوم واحد. وقال الشافعي وأحمد ومالك: أقله مسيرة ستة عشر فرسخاً يومان وقال أبو حنيفة وأصحابه أقله مسيرة ثلاثة أيام.

المسألة الرابعة: إذا استهل الشهر وهو مقيم ثم أنشأ السفر في أثناءه جاز له أن يفطر حالة السفر ويجوز له أن يصوم في بعض السفر وأن يفطر في بعضه إن أحب، يدل عليه ما روي عن ابن عباس: «أن رسول الله ﷺ خرج إلى مكة عام الفتح في رمضان فصام حتى بلغ الكديد ثم أفطر وأفطر الناس معه، وكانوا يأخذون بالأحداث فلا أحدث

يخاف معه من الصوم زيادة علة غير مُحتملة، وفي الجملة أنه إذا أجهدته الصوم فأفطر، وإن لم يجهده فهو كالصحيح، وأما السفر فالفطر فيه مُباح، والصوم جائز عند عامة أهل العلم إلا ما روي عن ابن عباس وأبي هريرة وعروة بن الزبير وعلي بن الحسين أنهم قالوا: لا يجوز الصوم في السفر، ومن صام فعليه القضاء، احتجوا بقول النبي ﷺ: «ليس من البر الصوم في السفر»، وذلك عند الآخرين في حق من يجهد الصوم، فالأولى له أن يفطر، والدليل ما أخبرنا به عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا آدم، أخبرنا شعبة أخبرنا محمد بن عبد الرحمن الأنصاري قال: سمعت محمد بن عمرو بن الحسين بن علي عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ في سفر فرأى زحاماً ورجلاً قد ظلل عليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا صائم، فقال: «ليس من البر الصوم في السفر»، والدليل على جواز الصوم ما حدثنا الأستاذ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، أخبرنا أبو نعيم الإسفرايني، أخبرنا أبو عوانة أخبرنا أبو أمية أخبرنا عبد الله القواريري، أخبرنا حماد بن زيد أخبرنا الحريري، عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال: كنا نساfer مع رسول الله ﷺ في رمضان، فمنّا الصائم ومنّا المفطر، فلا يعيب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم. واختلفوا في أفضل الأمرين، فقالت طائفة: الفطر في السفر أفضل من الصوم، روي ذلك عن ابن عمر وإليه ذهب سعيد بن المسيب والشعبي، وذهب قوم إلى أن الصوم أفضل، وروي ذلك عن معاذ بن جبل وأنس، وبه قال إبراهيم النخعي وسعيد بن جبیر، وقالت طائفة: أفضل الأمرين أيسرهما عليه، لقوله تعالى: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾، وهو قول مجاهد وقتادة وعمر بن العزيز، ومن أصبح مقيماً صائماً ثم سافر في أثناء النهار لا يجوز له أن يفطر ذلك اليوم عند أكثر أهل العلم، وقالت طائفة: له أن يفطر، وهو قول الشعبي وبه قال أحمد، أما

من أمر رسول الله ﷺ «أخرجاه في الصحيحين. الكديد اسم موضع وهو على ثمانية وأربعين ميلاً من مكة.

المسألة الخامسة: اختلفوا في الأفضل. فذهب الشافعي إلى أن الصوم أفضل من الفطر في السفر، وبه قال مالك وأبو حنيفة وقال أحمد الفطر، أفضل من الصوم في السفر، وقالت طائفة من العلماء: هما سواء، وأفضل الأمرين أيسرهما، لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.

المسألة السادسة: يبيح الفطر كل سفر مباح ليس سفر معصية ولا يجوز للعاصي بسفره أن يترخص برخص الشرع وقوله تعالى: ﴿فعدة من أيام أخر﴾ معناه فأفطر فعليه عدة من أيام آخر فظاهر هذا أنه يجوز قضاء الصوم متفرقاً وإن كان التابع أولى، وفيه أيضاً وجوب القضاء من غير تعيين لزمان القضاء فيدل على جواز التراخي في القضاء ويدل عليه أيضاً ما روي عن عائشة قالت: «كان يكون على الصوم من رمضان فما أستطيع أن أقضي إلا في شعبان ذاك من الشغل بالنبي ﷺ» أخرجاه في الصحيحين «يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ» أي التسهيل في هذه العبادة وهي إباحة الفطر للمسافر والمريض «وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ» أي وقد نفى عنكم الحرج في أمر الدين قيل: ما خير رجل بين أمرين فاختر أيسرهما إلا كان ذلك أحب إلى الله تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ أي عدد الأيام التي أفطرتُم فيها بعذر السفر والمرض والحيض، لتقضوا بعددها وقيل: أراد عدد أيام الشهر (ق) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «الشهر تسع وعشرون ليلة فلا تصوموا حتى تروا الهلال ولا تفطروا حتى تروه فإن غم عليكم فاقدروا له، وفي رواية فأكملوا العدة ثلاثين» ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾ فيه قولان أحدهما أنه تكبير ليلة العيد، قال ابن عباس: حق على المسلمين إذا رأوا إهلال شوال أن يكبروا. وقال الشافعي: واجب إظهار التكبير في العيدين، وبه قال مالك وأحمد وأبو يوسف ومحمد وقال أبو حنيفة: لا يكبر في عيد الفطر ويكبر في عيد الأضحى حجة الشافعي ومن وافقه قوله

المسافر إذا أصبح صائماً فيجوز له أن يفطر بالاتفاق، والدليل عليه ما أخبر عبد الوهاب بن محمد الخطيب، أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أخبرنا أبو العباس الأصم، أخبرنا الربيع أخبرنا الشافعي، أخبرنا عبد العزيز بن محمد بن جعفر بن محمد، عن أبيه عن جابر أن رسول الله ﷺ خرج إلى مكة عام الفتح في رمضان فصام حتى بلغ كراع الغميم، صام الناس معه فقليل له: يا رسول الله إن الناس قد شقَّ عليهم الصيام، فدعا بقدر من ماء بعد العصر فشرب والناس ينظرون فأفطر بعض الناس، وصام بعضهم، فبلغه أن ناساً صاموا فقال: «أولئك العصاة»، واختلفوا في السفر الذي يبيح الفطر، فقال قوم: مسيرة يوم، وذهب جماعة إلى مسيرة يومين، وهو قول الشافعي رحمه الله، وذهب جماعة إلى مسيرة ثلاثة أيام، وهو قول سفيان الثوري وأصحاب الرأي. قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾، بإباحة الفطر في المرض والسفر، ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾، قرأ أبو جعفر «العسر واليسر» ونحوهما بضم السين، وقرأ الآخرون بالسكون، وقال الشعبي ما خير رجل بين أمرين فاختر أيسرهما إلا كان ذلك أحبهما إلى الله عز وجل، ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾، قرأ أبو بكر بتشديد الميم، وقرأ الآخرون بالتخفيف، وهو الاختيار، لقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، والواو في قوله تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا﴾ وأو النسق واللام لام كي، تقديره: ويريد لكي تكملوا العدة، أي لتكملوا عدة أيام الشهر بقضاء ما أفطرتُم في مرضكم وسفركم، وقال: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ أي: عدة أيام الشهر، أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال، أخبرنا أبو العباس الأصم أخبرنا الربيع أخبرنا الشافعي، أخبرنا مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «الشهر تسع وعشرون فلا تصوموا حتى تروا الهلال ولا تفطروا حتى تروه، فإن غم عليكم فأكملوا العدة ثلاثين»، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسين الحيري، أخبرنا حاجب بن أحمد الطوسي أخبرنا محمد بن يحيى، أخبرنا يزيد بن هارون أخبرنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن

تعالى: ﴿وَلِتَكْمَلُوا الْعِدَّةَ وَلِتَكْبِرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ قالوا: معناه ولتكمّلوا عدة صوم رمضان ولتكبروا الله على ما هداكم إلى آخر هذه العبادة القول الثاني في معنى قوله لتكبروا الله، أي ولتعظموا الله شكراً على ما أنعم به عليكم ووفقكم للقيام بهذه العبادة ﴿عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ أي أرشدكم إلى طاعته وإلى ما يرضى به عنكم ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على نعمه.

فصل: في فضل شهر رمضان وفضل صيامه:

(ق) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل شهر رمضان صفدت الشياطين وفتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار» الصدف الغل أي شدد بالأغلال (ق) عن النبي ﷺ قال: من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه. ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه. قوله إيماناً واحتساباً أي طلباً لوجه الله تعالى وثوابه وقيل إيماناً بأنه فرض عليه، واحتساباً ثوابه عند الله وقيل: معناه نية وعزيمة وهو أن يصوم على التصديق به والرغبة في ثوابه طيبة بها نفسه غير كارهة (ق) عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «كل عمل ابن آدم له يضاعف الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله تعالى: «إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ يَدْعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي، لِلصَّائِمِ فَرَحَتَانِ فَرِحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ وَفَرِحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ، وَلِخُلُوفِ فَمِ الصَّائِمِ عِنْدَ اللَّهِ أَطْيَبُ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ زَادَ فِي رِوَايَةٍ «وَالصَّيَّامُ جَنَّةٌ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرِفْثُ يَوْمِئِذٍ وَلَا يَصْخَبُ فَإِنْ شَتَمَهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي صَائِمٌ». قوله: كل عمل ابن آدم له معناه أن له فيه حظاً لا اطلاع الخلق عليه إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لَا يَطْلُعُ عَلَيْهِ أَحَدٌ وَإِنَّمَا خَصَّ الصَّوْمَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى لِي وَإِنْ كَانَتْ جَمِيعُ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ لَهُ وَهُوَ يَجْزِي عَلَيْهَا لِأَنَّ الصَّوْمَ لَا

أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَقْدُمُوا الشَّهْرَ بِصَوْمِ يَوْمٍ وَلَا يَوْمَيْنِ، إِلَّا أَنْ يُوَافِقَ ذَلِكَ صَوْمًا كَانَ يَصُومُهُ أَحَدُكُمْ، صُومُوا لِرُؤْيَيْتِهِ وَأَفْطَرُوا لِرُؤْيَيْتِهِ فَإِنْ غَمَّ عَلَيْكُمْ فَعِدُّوا ثَلَاثِينَ ثُمَّ أَفْطَرُوا»، ﴿وَلِتَكْبِرُوا اللَّهَ﴾: ولتعظموا الله، ﴿عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾: أرشدكم إلى ما أرضى به من صوم شهر رمضان وخصكم به دون سائر أهل الملل، قال ابن عباس: هو تكبيرات ليلة الفطر، وروى الشافعي عن ابن المسيب وعروة وأبي سلمة أنه كانوا يَكْبِرُونَ ليلة الفطر يجهرُونَ بالتكبير، وشبه ليلة النحر بها إِلَّا مَنْ كَانَ حَاجًّا وَذَكَرَهُ التَّلْبِيَّةُ، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: الله على نعمه، وقد وردت أخبار في فضل شهر رمضان وثواب الصائمين، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن حسن المروزي، أخبرنا أبو العباس أحمد بن محمد بن سراج الطحّان، أخبرنا أبو أحمد محمد بن قريش بن سليمان أخبرنا علي بن عبد العزيز المكي أخبرنا أبو عبيد القاسم بن سلام، حدّثني إسماعيل بن جعفر عن أبي سهيل عن نافع بن مالك عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل رمضان صُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ وَفُتِّحَتِ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ وَغُلِّقَتِ أَبْوَابُ النَّارِ»، أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي أخبرنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد بن الجراح، أخبرنا أبو عباس محمد بن أحمد المحموي أخبرنا أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، أخبرنا أبو كريب محمد بن العلاء، أخبرنا أبو بكر محمد بن عياش عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ وَمَرَدَةُ الْجَنِّ وَغُلِّقَتِ أَبْوَابُ النَّارِ فَلَمْ يُفْتَحْ مِنْهَا بَابٌ، وَفُتِّحَتِ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ، وَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا بَاغِيَ الْخَيْرِ أَقْبِلْ وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ، وَلِلَّهِ عُتَقَاءُ مِنَ النَّارِ، وَذَلِكَ كُلُّ لَيْلَةٍ»، أخبرنا أبو بكر أحمد بن أبي نصر بن أحمد الكوفاني الهروي بها أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن بن عمر بن محمد النحبي المصري بها المعروف بأبي النجاش، قيل له: أخبركم أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد المَقْبَرِي البصري بمكة المعروف بابن الأعرابي، أخبرنا الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني، أخبرنا سفيان بن عُيَيْنَةَ عن الزهري أخبرنا أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ

يظهر من ابن آدم بقول ولا فعل حتى تكتبه الحفظة وإنما هو من أعمال القلوب بالنية ولا يطلع عليه إلا الله تعالى لقول الله تعالى: إنما أتولى جزاءه على ما أحب لا على حساب ولا كتاب له. وقوله: وللصائم فرحتان فرحة عند فطره أي بالطعام لما بلغ به من الجوع لتأخذ النفس حاجتها منه وقيل فرحة بما وفق له من إتمام الصوم الموعود عليه بالثواب وهو قوله: وفرحة عند لقاء ربه لما يرى من جزيل ثوابه. وقوله: ولخلف بضم الخاء وفتحها لغتان وهو تغير طعم الفم وريحه لتأخير الطعام ومعنى كونه أطيب عند الله من ريح المسك هو الثناء على الصائم والرضا بفعله، لئلا يمتنع من المواظبة على الصوم الجالب للخلف والمعنى أن خلف فم الصائم أبلغ عند الله في القبول من ريح المسك عند أحدهم. قوله: الصيام جنة أي حصن من المعاصي لأن الصوم يكسر الشهوة فلا يواقع المعاصي قوله فلا يرفث كلمة جامعة لكل ما يريده الإنسان من المرأة، وقيل: هو التصريح بذكر الجماع. والصخب الضجر والجلبة والسياح (ق) عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة باباً يقال له باب

ذنبه، ومن قام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه»، أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أخبرنا أبو سعيد خلف بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي نزار، حدَّثنا الحسين بن أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن أسد الصفار، أخبرنا أبو جعفر أحمد بن محمد بن أبي إسحق العنزي، أخبرنا علي بن حجر بن إياس السعدي أخبرنا يوسف بن زياد عن علي بن زيد بن جدعان، عن سعيد بن المسيب عن سلمان قال: خطبنا رسول الله ﷺ في آخر يوم من شعبان فقال: «يا أيها الناس إنه أظلكم شهر عظيم»، وفي رواية «قد أظلكم» بالطاء: أطلَّ أشرف شهر عظيم، شهر مبارك شهر فيه ليلة القدر خير من ألف شهر، شهر جعل الله صيامه فريضة فيما سواه، وهو شهر الصبر، والصبر ثوابه الجنة، وشهر المواساة أي المساهمة، وشهر يُزاد فيه الرزق، ومن فطر فيه صائماً كان له مغفرة لذنوبه وعتق رقبة من النار، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء، قالوا: يا رسول الله ليس كلنا نجد ما نفطر به الصائم؟ قال رسول الله ﷺ: «يُعطي الله هذا الثواب لمن فطر صائماً على مذقة لبن أو تمر أو شربة من ماء، ومن أشبع صائماً سقاه الله عز وجل من حوضي شربة لا يظمأ بعدها حتى يدخل الجنة، ومن خفف عن مملوكه فيه غفر الله له وأعتقه من النار حتى يدخل الجنة، وهو شهر أوله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار، فاستكثروا فيه من أربع خصال: خصلتين تُرضون بها ربكم، وخصلتين لا غنى بكم عنهما، أمنا الخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم فشهادة أن لا إله إلا الله وتستغفرونه، وأما اللتان لا غنى بكم عنهما فتسألون الله الجنة وتعوذون به من النار»، أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أخبرنا أبو طاهر محمد بن محمش الزيايدي، أخبرنا أبو بكر محمد بن عمر بن حفص التاجر، أخبرنا إبراهيم بن عبد الله بن عمر بن بكير الكوفي، أخبرنا وكيع عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل عمل ابن آدم يُضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف، قال الله تعالى: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به يدع الصائم طعامه وشرابه وشهوته من أجلي، للصائم فرحتان فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، ولخلف فيه أطيب عند الله من ريح المسك، الصوم جنة وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يفسق فإن سابّه أحد أو قاتله فليقل: إني امرؤ صائم»، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا سعيد بن أبي مريم أخبرنا محمد بن مطرف، حدَّثني أبو حازم عن سهل بن سعد عن النبي ﷺ قال: «في الجنة ثمانية أبواب، منها باب يُسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون»، أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي توبة، أخبرنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث، أخبرنا محمد بن يعقوب الكسائي أخبرنا عبد الله بن محمود، أخبرنا إبراهيم بن عبد الله الخلال أخبرنا عبد الله بن المبارك، عن

الريان يدخل منه الصائمون يوم القيام يقال أين الصائمون فيقومون. لا يدخل منه أحد غيرهم فإذا دخلوا أغلق فلا يدخل منه أحد وفي رواية إن في الجنة ثمانية أبواب منها باب يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون» عن أبي أمامة قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله مرني بأمر ينفعني الله به قال: «عليك بالصوم فإنه لا مثل له» وفي رواية: «أي العمل أفضل فقال عليك بالصوم فإنه لا عدل له» أخرجه النسائي.

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ قال ابن عباس قال يهود المدينة: يا محمد كيف يسمع ربنا دعاءنا وأنت تزعم أن بيننا وبين السماء خمسمائة عام وأن غلط كل سماء مثل ذلك فنزلت هذه الآية. وقيل سأل بعض الصحابة النبي ﷺ فقالوا: أقرب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه وقيل إنهم سألوه في أي ساعة ندعو ربنا فنزلت. وقيل: إنهم قالوا أين ربنا؟ فنزلت هذه الآية وهذا السؤال لا يخلو إما أن يكون عن ذات الله أو عن صفاته أو عن أفعاله أما السؤال عن ذات الله فهو سؤال عن القرب والبعد بحسب الذات، وأما السؤال عن صفاته تعالى فهو أن يكون السائل سأل هل يسمع ربنا دعاءنا، وأما السؤال عن أفعاله تعالى فهو أن يكون السائل سأل هل يجيب ربنا إذا دعوناه؟ فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ فيحتمل هذه الوجوه كلها، وقوله تعالى ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ معناه قريب بالعلم والحفظ لا يخفى علي شيء، وفيه إشارة إلى سهولة إجابته لمن دعاه وإنجاح حاجة من سأله (ق) عن أبي موسى الأشعري قال: لما غزا رسول الله ﷺ خيبر، أو قال: توجه إلى خيبر أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير: الله أكبر لا إله إلا الله فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً بصيراً قريباً وهو معكم» قوله اربعوا على أنفسكم أي ارفقوا بها وقيل معناه أمسكوا عن الجهر فإنه قريب يسمع دعاءكم. وقوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ أي أسمع دعاء عبدي الداعي إذا دعاني وقيل: الدعاء عبارة عن التوحيد والثناء على الله تعالى كقول العبد: يا الله لا إله إلا أنت فقولك يا الله فيه دعاء، وقولك: لا إله إلا أنت فيه توحيد وثناء على الله تعالى فسمي هذا دعاء بهذا الاعتبار وسمي قبوله إجابة لتجانس اللفظ، وفيه إشارة إلى أن العبد يعلم أن له رباً ومدبراً يسمع دعاءه إذا دعاه ولا يخيب رجاء من رجاء وذلك ظاهر فإن العبد إذا دعا، وهو يعلم أن له رباً بإخلاص وتضرع أجاب الله دعوته. فإن قلت: إنا نرى الداعي يبالغ في الدعاء والتضرع فلا يجاب له فما وجه: قوله أجيب دعوة الداع؟ وقوله تعالى: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾. قلت ذكر العلماء فيه أجوبة: أحدها أن هذه الآية مطلقة وقد وردت آية أخرى مقيدة وهي قوله: ﴿بل إياه

راشد بن سعد عن يحيى بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد، يقول الصيام أي رب إني منعتك الطعام والشراب والشهوات بالنهار فشفعني فيه، ويقول القرآن رب إني منعتك النوم بالليل فشفعني فيه فيشفعان».

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾، روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: قال يهود أهل المدينة: يا محمد كيف يسمع ربنا دعاءنا وأنت تزعم أن بيننا وبين السماء مسيرة خمسمائة عام، وأن غلط كل سماء مثل ذلك؟ فنزلت هذه الآية، وقال الضحاك: سأل بعض الصحابة النبي ﷺ فقالوا: أقرب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾، وفيه إضمار، كأنه قال: فقل لهم إني قريب منهم بالعلم لا يخفى علي شيء، كما قال: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ [ق: ١٦]، أخبرنا

تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء» والمطلق يحمل على المقيد. وثانيها أن معنى الدعاء هنا هو الطاعة ومعنى الإجابة هو الثواب وذلك في الآخرة. وثالثها أن معنى الآيتين خاص. وإن كان لفظهما عاماً فيكون معناه أوجب دعوة الداعي إذا وافق القضاء أو أجبته إن كانت الإجابة خيراً له أو أجبته إذا لم يسأل إثماً أو محالاً. ورابعها أن معناها عام أي أسمع وهو معنى الإجابة المذكورة في الآية، وأما إعطاء الأمانة فليس بمذكور فالإجابة حاصلة عند وجود الدعوة وقد يجب السيد عبده ولا يعطيه سؤله. وخامسها أن للدعاء آداباً وشرائط وهي أسباب الإجابة، فمن استكملها وأتى بها كان من أهل الإجابة ومن أخطأها كان من أهل الاعتداء في الدعاء فلا يستحق الجواب والله أعلم. وقوله تعالى ﴿فليستجيبوا لي﴾ يعني إذا دعوتهم إلى الإيمان والطاعة كما أتى أجبتهم إذا دعوني لحوائجهم. والإجابة في اللغة الطاعة. فالإجابة من العبد الطاعة ومن الله الإثابة والعطاء ﴿وليؤمنوا بي لعلمهم يرشدون﴾ أي لكي يهتدوا إلى مصالح دينهم ودنياهم.

فصل: في فضل الدعاء وآدابه:

(ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول: من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له» هذا الحديث من أحاديث الصفات، وفيه مذهبان مشهوران للعلماء: أحدهما وهو مذهب جمهور السلف وبعض المتكلمين أنه يجب الإيمان به وبأنه حق على ما يليق به ونكل علمه إلى الله تعالى ورسوله وإن ظاهره المتعارف في حقنا غير مراد ولا نتكلم في تأويله مع اعتقادنا تنزيه الله تعالى عن صفات المخلوقين وعن الانتقال والحركات. والمذهب الثاني مذهب أكثر المتكلمين وجماعة من السلف أنها تؤول على ما يليق فعلى هذا نقل عن مالك وغيره أن معناه تنزل رحمته وأمره وملائكته وقيل: إنه على الاستعارة ومعناه الإقبال على الداعين بالإجابة واللفظ وفي الحديث الحث على الدعاء

عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا عبد الواحد عن عاصم عن أبي عثمان، عن أبي موسى الأشعري قال: لَمَّا غَزَا رسول الله ﷺ خيبر، أو قال: لَمَّا تَوَجَّه رسول الله ﷺ إلى خيبر، أشرف الناس على وإد فرفعوا أصواتهم بالتكبير الله أكبر لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: «أرَبُّعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا وَهُوَ مَعَكُمْ»، قوله تعالى: ﴿أُجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَا﴾، قرأ أهل المدينة غير قالون وأبي عمرو بإثبات الياء فيهما في الوصل، والباقون يحذفونها وصلاً ووقفاً، وكذلك اختلف القراء في إثبات الياءات المحذوفة من الخط وحذفها في التلاوة، وأثبت يعقوب جميعها وصلاً ووقفاً، واتفقوا على إثبات ما هو مثبت في الخط وصلاً ووقفاً، ﴿فليستجيبوا لي﴾، قيل: الاستجابة بمعنى الإجابة، أي: فليجيبوا إليّ بالطاعة، والإجابة في اللغة: الطاعة وإعطاء ما سئل، فالإجابة من الله تعالى: العطاء، ومن العبد: الطاعة: وقيل: فليستجيبوا إليّ أي: ليستدعوا مني الإجابة، وحقيقته فليطيعوني، ﴿وليؤمنوا بي لعلمهم يرشدون﴾، لكي يهتدوا، فإن قيل: فما وجه قوله تعالى: ﴿أُجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ وقوله: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقد ندعو كثيراً فلا يُجيب؟ قلنا: اختلفوا في معنى الآيتين، قيل: معنى الدعاء ههنا: الطاعة، ومعنى الإجابة: الثواب، وقيل: معنى الآيتين خاص، وإن كان لفظهما عاماً تقديراً: أُجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِنْ شِئْتُ، كما قال: ﴿فيكشف ما تدعون إليه إن شاء﴾ [الأنعام: ٤١]، وأُجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِنْ وَافَقَ الْقَضَاءُ، أو أجبته إن كانت الإجابة خيراً له، أو أجبته إن لم يسأل مُحالاً، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الزياتي، أخبرنا حميد بن زنجويه أخبرنا عبد الله بن صالح، حدَّثني معاوية بن صالح أن ربيعة بن يزيد حدَّثه عن

والترغيب فيه عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ربكم حي كريم يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً خائبين» أخرجه أبو داود والترمذي. وقال حديث حسن غريب. الصفر الخالي يقال بيت صفر ليس فيه متاع. عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله إياها أو صرف عنه من الشر مثلها ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم فقال رجل من القوم إذا نكث قال الله أكثر» أخرجه الترمذي. قوله؛ الله أكثر معناه الله أكثر إجابة عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه» أخرجه الترمذي. وقال حديث غريب. عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء» أخرجه الترمذي. وله عن أنس أن النبي ﷺ قال: «الدعاء مخ العبادة» وله عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «من فتح له باب من الدعاء فتحت له أبواب الرحمة وما سئل الله شيئاً أحب إليه من أن يسأل العافية وإن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل» وله عن سلمان أن رسول الله ﷺ قال: «لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر» وله عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من لم يسأل الله يغضب عليه» (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل بقوله قد دعوت فلم يستجب لي» ولمسلم قال: «لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل قيل: يا رسول الله ما الاستعجال؟ قال يقول قد دعوت وقد دعوت فلم يستجب لي فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء». قوله يستحسر أي يستنكف عن السؤال وأصله من حسر الطرف إذا كلَّ وضعف (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دعا أحدكم فلا يقل اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت ولكن ليعزم المسألة فإن الله لا مكروه له» زاد البخاري «ارزقني إن شئت ليعزم مسألته فإنه يفعل ما يشاء لا مكروه له» قوله ليعزم المسألة أي لا تكن في دعائك ربك متردداً بل أعزم وجد في المسألة. عن فضالة بن عبيد قال: «سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو في صلاته فلم يصل على النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: عجل هذا ثم دعاه فقال له أو لغيره: إذا صلى أحدكم فليبدأ بحمد الله والثناء عليه ثم ليصل على النبي ﷺ ثم ليدع بما شاء» أخرجه الترمذي وقال حديث صحيح. قوله عز وجل:

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفْتُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَّاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَّاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْتَنَ بِشِرْوَهْنِ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ

أبي إدريس، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يستجيب الله لأحدكم ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم أو يستعجل»، قالوا: وما الاستعجال يا رسول الله؟ قال: «يقول قد دعوتك يا رب قد دعوتك يا رب فلا أراك تستجيب لي، فيستحسر عند ذلك، فيدع الدعاء»، وقيل: هو عام، ومعنى قوله أجيب أي: أسمع، ويقال: ليس في الآية أكثر من استجابة الدعوة، فأما إعطاء المنية فليس بمذكور فيها، وقد يجيب السيد عبده والوالد ولده ثم لا يعطيه سؤله، فالإجابة كائنة لا محالة عند حصول الدعوة، وقيل: معنى الآية أنه يجيب دعاءه فإن قدر له ما سأل أعطاه، وإن لم يُقدَّر له أذخر له الثواب في الآخرة أو كف عنه به سوءاً، والدليل عليه ما أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا أبو جعفر الزياتي أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا محمد بن يوسف. أخبرنا ابن ثوبان وهو محمد بن عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، عن أبيه عن مكحول عن جبير بن نفير عن عبادة بن الصامت حدثهم: أن النبي ﷺ قال: «ما على الأرض رجل مسلم يدعو الله تعالى بدعوة إلا آتاه الله إياها، أو كف عنه من السوء مثلها ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم»، وقيل: إن الله تعالى يجيب دعاء المؤمن في الوقت، ويُؤخر إعطاء من يجيب مراده ليدعوه فيسمع صوته، ويعجل إعطاء من لا يحبه لأنه يغيض صوته، وقيل: إن للدعاء آداباً وشرائط وهي أسباب الإجابة، فمن استكملها كان من أهل الإجابة، ومن أخل بها فهو من أهل الاعتداء في الدعاء، فلا يستحق الإجابة.

يَبَيِّنَ لَكُمْ الْخَيْطَ الْأَبْيَضَ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾ سبب نزول هذه الآية أنه كان في ابتداء الأمر بالصوم إذا أفطر الرجل حل له الطعام والشراب والجماع إلى أن يصلي العشاء الأخيرة أو يرقد قبلها فإذا صلى، أو رقد حرم عليه ذلك كله إلى الليلة القابلة ثم إن عمر بن الخطاب واقع أهله بعد ما صلى العشاء فلما اغتسل أخذ بيكي ويلوم نفسه ثم أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أعتذر إلى الله وإليك من هذه الخطيئة إني رجعت إلى أهلي بعد ما صليت العشاء فوجدت رائحة طيبة فسولت لي نفسي فجامعت أهلي فقال النبي ﷺ: «ما كنت بذلك جديراً يا عمر فقام رجال فاعترفوا بمثل ذلك فنزلت في عمر وأصحابه أحل لكم أي أباح لكم ليلة أراد بالليلة ليالي الصيام الرفث إلى نسائكم الرفث كلام يستقبح لفظه من ذكر الجماع ودواعيه وهو هنا كناية عن الجماع قال ابن عباس إن الله تعالى حي كريم يكتفي بما ذكره من المباشرة والملامسة وغير ذلك إنما هو الجماع ﴿هن لباس لكم﴾ أي سكن لكم ﴿وأنتم لباس لهن﴾ أي سكن لهن قيل لا يسكن شيء إلى شيء كسكون أحد الزوجين إلى الآخر وسمي كل واحد من الزوجين لباساً لتجردهما عند النوم واجتماعهما في ثوب واحد وقيل اللباس اسم لما يوارى فيكون كل واحد منهما ستراً لصاحبه عما لا يحل كما جاء في الحديث «من تزوج فقد أحرز ثلثي دينه» ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم﴾ قال ابن عباس يريد فيما ائتمنكم عليه وخيانتهم أنهم كانوا يباشرون في ليالي الصوم، والمعنى يظلمونها بالمجامعة بعد العشاء وهو من الخيانة وأصل الخيانة أن يؤتمن الرجل على شيء فلا يؤدي فيه الأمانة ويقال للعاصي خائن لأنه مؤتمن على دينه ﴿فتاب عليكم﴾ أي فتبتم فتاب عليكم وتجاوز عنكم ﴿وعفا عنكم﴾ أي ومحا ذنوبكم (خ) عن البراء قال لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله فكان رجال يخونون أنفسهم

قوله تعالى: ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾، فالرفث كناية عن الجماع، قال ابن عباس: إن الله حيي كريم يكتفي، كلما ذكر في القرآن من المباشرة والملامسة والإفضاء والدخول والرفث، وإنما عني به الجماع، وقال الزجاج: الرفث كلمة جامعة لكل ما يريده الرجال من النساء، قال أهل التفسير كان في ابتداء الأمر إذا أفطر الرجل حل له الطعام والشراب والجماع إلى أن يصلي العشاء الأخيرة، أو يرقد قبلها، فإذا صلى العشاء أو رقد قبلها حرم عليه الطعام والشراب والنساء إلى الليلة القابلة، ثم إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه واقع أهله بعدما صلى العشاء فلما اغتسل أخذ بيكي ويلوم نفسه، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني أعتذر إلى الله وإليك من نفسي هذه الخطيئة، إني رجعت إلى أهلي بعدما صليت العشاء فوجدت رائحة طيبة فسولت لي نفسي فجامعت أهلي، فقال النبي ﷺ: ما كنت جديراً بذلك يا عمر، فقام رجال واعترفوا بمثله، فنزل في عمر وأصحابه: ﴿أحل لكم ليلة الصيام﴾، أي: أباح لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم: ﴿هن لباس لكم﴾ أي سكن لكم، ﴿وأنتم لباس لهن﴾، أي: سكن لهن، دليله قوله تعالى: ﴿وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾ [الأعراف: ١٨٩] وقيل: لا يسكن شيء إلى شيء كسكون أحد الزوجين إلى الآخر، وقيل: سمي كل واحد من الزوجين لباساً لتجردهما عند النوم واجتماعهما في ثوب واحد، حتى يصير كل واحد منهما لصاحبه كالثوب الذي يلبسه، وقال الربيع بن أنس: هن فراش واجتماعهما لكم، وأنتم لحاف لهن، قال أبو عبيدة وغيره: يقال للمرأة هي لباسك وفراشك وإزارك، وقيل: اللباس اسم لما يوارى الشيء، فيجوز أن يكون كل واحد منهما ستراً لصاحبه عما لا يحل، كما جاء في الحديث: «من تزوج فقد أحرز ثلثي دينه»، ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم﴾، أي تخونونها وتظلمونها

فأنزل الله: ﴿عَلَّمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ الآية قال ابن عباس: فكان ذلك مما نفع الله به الناس ورخص لهم ويسر ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهِنَّ﴾ أي جامعوهن فهو حلال لكم في ليالي الصوم، وسميت المجامعة مباشرة لتلاصق بشرة واحد بصاحبه ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي ما قضى لكم في اللوح المحفوظ يعني الولد، وقيل: وابتغوا الرخصة التي كتب الله لكم بإباحة الأكل والشرب والجماع في اللوح المحفوظ يعني الولد. وقيل: اطلبوا ليلة القدر.

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ نزلت في صرمة بن قيس بن صرمة الأنصاري، ويقال قيس بن صرمة وذلك أنه ظل يعمل في أرض له وهو صائم فلما أمسى رجع إلى أهله بتمر، وقال لأهله قدمي الطعام فأرادت المرأة أن تطعمه شيئاً سخناً فأخذت تعمل له ذلك فلما فرغت فإذا هو قد نام وكان قد أعيا من التعب، فأيقظته فكره أن يعصي الله ورسوله وأبى أن يأكل وأصبح صائماً مجهوداً فلم ينتصف النهار حتى غشي عليه فلما أفاق أتى النبي ﷺ فلما رآه قال: يا أبا قيس ما لك أمسيت طليحاً فذكر له حاله فاغتم لذلك رسول الله ﷺ فأنزل الله هذه الآية وقوله: طليحاً أي مهزولاً مجهوداً (خ) عن البراء قال كان أصحاب محمد ﷺ إذا كان الرجل صائماً، فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي وإن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائماً فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال أعندك طعام؟ قالت: لا ولكن أنطلق فأطلب لك وكان يومه يعمل فغلبته عينه فجاءته امرأته فلما رآته قالت خيبة لك فلما انتصف النهار غشي عليه فذكر ذلك للنبي ﷺ فنزلت هذه الآية: ﴿أَحْلَ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثَ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ ففرحوا بها فرحاً شديداً ونزلت: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ ومعنى الآية: وكلوا واشربوا في ليالي الصوم، حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود: بياض النهار من سواد الليل، وسميا خيطين لأن كل واحد منهما يبدو في الأفق ممتداً كالخيط، قال الشاعر:

فلما أضاءت لنا سدفه ولاح من الصبح خيط أنارا

بالمجامعة بعد العشاء، قال البراء: لما نزل صوم رمضان، كانوا لا يقرؤون النساء كله، وكان رجال يخونون أنفسهم، فأنزل الله تعالى: ﴿عَلَّمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾، ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾: تجاوز عنكم، ﴿وَعَفَا عَنْكُمْ﴾: مَحَا ذُنُوبَكُمْ، ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهِنَّ﴾: جامعوهن حلالاً، سُمِّيتِ المجامعة: مباشرة، لملاصقة بشرة كل واحد منهما صاحبه، ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، أي: فاطلبوا ما قضى الله لكم، وقيل: ما كتب الله لكم في اللوح المحفوظ، يعني: الولد، قاله أكثر المفسرين، قال مجاهد: ابتغوا الولد إن لم تلد هذه فهذه، وقال قتادة: وابتغوا الرخصة التي كتب الله لكم بإباحة الأكل والشرب والجماع في اللوح المحفوظ، وقال معاذ بن جبل: وابتغوا ما كتب الله لكم، يعني: ليلة القدر، قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ﴾، نزلت في رجل من الأنصار اسمه أبو صرمة بن قيس بن صرمة، وقال عكرمة: أبو قيس بن صرمة، وقال الكلبي: أبو قيس صرمة بن أنس بن صرمة، وذلك أنه ظل نهاره يعمل في أرض له وهو صائم، فلما أمسى رجع إلى أهله بتمر، وقال لأهله قدمي الطعام، فأرادت المرأة أن تطعمه شيئاً سخناً فأخذت تعمل له سخينة، وكان في الابتداء من صلي العشاء ونام حرم عليه الطعام والشراب، فلما فرغت من طعامه إذ هو به قد نام، وكان قد أعيا وكل، فأيقظته فكره أن يعصي الله ورسوله فأبى أن يأكل فأصبح صائماً مجهوداً، فلم ينتصف النهار حتى غشي عليه فلما أفاق أتى رسول الله ﷺ فلما رآه رسول الله ﷺ قال: ﴿يَا أبا قيس مَا لَكَ أَصْبَحْتَ طَلِيحاً﴾، فذكر له حاله فاغتم لذلك رسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ يعني في ليالي الصوم ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾

السدف اختلاط الظلام وأسدف الفجر أضاء (ق) عن سهل بن سعد قال لما نزلت: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ ولم ينزل «من الفجر» فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود، ولا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما فأنزل الله عز وجل بعده ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ فَعَلِمُوا أَنَّهُ إِنَّمَا يَعْنِي اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (ق) عن عدي بن حاتم: «لما نزلت حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود عمدت إلى عقال أسود وعقال أبيض فجعلتهما تحت وسادتي وجعلت أنظر في الليل فلا يتبين لي فغدوت على رسول الله ﷺ، فذكرت له ذلك فقال: إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار» (ق) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن بلالاً يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم» قال: وكان ابن أم مكتوم رجلاً أعمى لا ينادي حتى يقال له: أصبحت أصبحت. واعلم أن الفجر الذي يحرم به على الصائم الطعام والشراب والجماع هو الفجر الصادق المستطير المنتشر في الأفق سريعاً، لا الفجر الكاذب المستطيل. فإن قلت كيف شبه الصبح الصادق بالخيط والخيط مستطيل والصبح الصادق ليس بمستطيل؟ قلت إن القدر الذي يبدو من البياض هو أول الصبح يكون رقيقاً صغيراً ثم ينتشر فلهذا شبه بالخيط، والفرق بين الفجر الصادق والفجر الكاذب أن الفجر الكاذب يبدو في الأفق فيرتفع مستطيلاً ثم يضمحل ويذهب ثم يبدو الفجر الصادق بعده منتشراً في الأفق مستطيراً (م) عن سمرة بن جندب قال قال رسول الله ﷺ: «لا يغرنكم من سحوركم أذان بلال ولا بياض الأفق المستطيل هكذا حتى يستطير هكذا» وحكاها حماد بيديه قال يعني معترضاً وفي رواية الترمذي: «لا يمنعكم من سحوركم أذان بلال ولا الفجر المستطيل ولكن الفجر المستطير في الأفق» فإذا تحقق طلوع الفجر الثاني وهو الصادق حرم على الصائم الطعام والشراب والجماع إلى غروب الشمس وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ يعني منتهى الصوم إلى الليل فإذا دخل الليل حصل الفطر (ق) عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله ﷺ: «إذا أقبل الليل من هاهنا وأدبر النهار من هاهنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم» وهل يلزم الصائم أن يتناول عند تحقق غروب الشمس شيئاً؟ فيه وجهان: أحدهما نعم يلزم ذلك لنهي ﷺ عن الوصال. والثاني لا، لأنه قد حصل الفطر بمجرد دخول الليل سواء أكل أو لم يأكل، وتمسكت الحنفية بهذه الآية في أن الصوم النفل يجب إتمامه وقالوا: لأن قوله تعالى:

يعني: بياض النهار من سواد الليل: سُمِّيَا خَيْطَيْنِ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَبْدُو فِي الْإِبْتِدَاءِ مُمْتَدًّا كَالْخَيْطِ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ أَحْمَدَ الْمَلِيحِيُّ أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّعِمِيُّ، أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَوْسُفَ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، أَخْبَرَنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِي مَرْيَمَ أَخْبَرَنَا أَبُو غَسَّانَ مُحَمَّدُ بْنُ مَطْرَفَ، ثَنَا أَبُو حَازِمٍ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: أَنْزَلَتْ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾، وَلَمْ يَنْزَلْ قَوْلُهُ: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾، فَكَانَ رِجَالٌ إِذَا أَرَادُوا الصَّوْمَ رَبط أَحَدَهُمْ فِي رِجْلِهِ الْخَيْطَ الْأَبْيَضَ وَالْخَيْطَ الْأَسْوَدَ، وَلَا يَزَالُ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ رُؤْيَاهُمَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَهُ: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾، فَعَلِمُوا إِنَّمَا يَعْنِي بِهِمَا: اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ الْمَلِيحِيُّ أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّعِمِيُّ، أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَوْسُفَ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، أَخْبَرَنَا حُجَّاجُ بْنُ مَنْهَالٍ أَخْبَرَنَا هَشِيمُ أَخْبَرَنَا حَصِينُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ الشَّعْبِيِّ عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ عَمَدْتُ إِلَى عَقَالٍ أَسْوَدَ وَإِلَى عَقَالٍ أَبْيَضٍ فَجَعَلْتُهُمَا تَحْتَ وَسَادَتِي فَجَعَلْتُ أَنْظُرَ إِلَيْهِمَا وَإِلَى اللَّيْلِ فَلَا يَسْتَبِينُ لِي، فَغَدَوْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: «إِنَّمَا ذَلِكَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ»، أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ السَّرْحَسِيُّ أَخْبَرَنَا زَاهِرُ بْنُ أَحْمَدَ أَخْبَرَنَا أَبُو إِسْحَاقَ الْهَاشِمِيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو مُصْعَبٍ عَنْ مَالِكٍ عَنْ ابْنِ شَهَابٍ، عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنْ بَلَائِلٌ يَنَادِي بَلِيلٌ فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَنَادِيَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ»، قَالَ: ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ رَجُلٌ أَعْمَى لَا يَنَادِي حَتَّى يَقَالَ لَهُ: أَصْبَحْتَ أَصْبَحْتَ،

﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ أمر وهو للوجوب وهو يتناول كل الصيام. أجاب أصحاب الشافعي عنه بأن هذا إنما ورد في بيان أحكام صوم الفرض فكان المراد منه صوم الفرض ويدل على إباحة الفطر من النفل ما روي عن عائشة قالت: «دخل النبي ﷺ ذات يوم فقال هل عندكم شيء، قلنا لا قال: فأني إذا صائم ثم أتانا يوماً آخر فقلت يا رسول الله أهدي لنا حيس. قال: أرنيه فلقد أصبحت صائماً فأكل» أخرجه مسلم. الحيس هو خلط الأقط والتمر والسمن وقد يجعل عوض الأقط دقيق أو فتيت وقيل هو التمر ينزع نواه ويخلط بالسويق والأول أعرف. قوله عز وجل: ﴿ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد﴾ الاعتكاف هو الإقبال على الشيء والملازمة له على سبيل التعظيم. وهو في الشرع عبارة عن الإقامة في المسجد على عبادة الله تعالى. وسبب نزول هذه الآية أن نفرًا من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يعتكفون في المسجد، فإذا عرض لرجل منهم حاجة إلى أهله خرج إليها وخلابها، ثم اغتسل ورجع إلى المسجد فنهوا عن ذلك حتى يفرغوا من اعتكافهم. واعلم أن الله تعالى بين أن الجماع يحرم على الصائم بالنهار ويباح له في الليل، فكان يحتمل أن يكون حكم الاعتكاف كحكم الصوم فبين الله تعالى في هذه الآية أن الجماع يحرم على المعتكف في النهار والليل حتى يخرج من اعتكافه.

فصل في حكم الاعتكاف:

الاعتكاف سنة ولا يجوز في غير المسجد، وذلك لأن المسجد يتميز عن سائر البقاع بالفضل لأنه بني لإقامة الطاعات والعبادات فيه. ثم اختلفوا فنقل عن علي أنه لا يجوز إلا في المسجد الحرام لقوله: ﴿وطهر بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾ فخصه به وقال عطاء: لا يجوز إلا في المسجد الحرام ومسجد المدينة. وقال حذيفة: يجوز في هذين المسجدين ومسجد بيت المقدس. وقال الزهري: لا يصح إلا في الجامع وقال أبو حنيفة: لا يجوز إلا في مسجد له إمام ومؤذن وقال الشافعي ومالك وأحمد يجوز في سائر المساجد لعموم قوله: ﴿وأنتم عاكفون في المساجد﴾ إلا أن المسجد الجامع أفضل حتى لا يحتاج إلى الخروج من معتكفه لصلاة الجمعة (ق) عن عائشة: أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجل ثم اعتكف أزواجه بعده (ق) عن ابن عمر: «أن رسول الله ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان».

واعلم أن الفجر فجران: كاذب وصادق، فالكاذب: يطلع أولاً مستطيلاً كذب السرحان يصعد إلى السماء، فبطلوعه لا يخرج الليل ولا يحرم الطعام والشراب على الصائم، ثم يغيب فيطلع بعده الفجر الصادق مستطيلاً ينتشر سريعاً في الأفق، فبطلوعه يدخل النهار ويحرم الطعام والشراب على الصائم، أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي، أخبرنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي، أخبرنا أبو العباس المحبوبي أخبرنا أبو عيسى الترمذي، أخبرنا هناد بن يوسف بن عيسى، قال: أخبرنا وكيع عن أبي هلال عن سواد بن حنظلة عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يمنعكم من سحوركم أذان بلال ولا الفجر المستطيل، ولكن الفجر المستطير في الأفق». قوله تعالى: ﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾، فالصائم يحرم عليه الطعام والشراب بطلوع الفجر الصادق ويمتد إلى غروب الشمس، وإذا غربت حصل الفطر، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا الحميدي أخبرنا سفيان الثوري أخبرنا هشام بن عروة قال: سمعت أبي يقول: سمعت عاصم بن عمر بن الخطاب عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا، وغربت الشمس، فقد أفطر الصائم». قوله تعالى: ﴿ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد﴾، العكوف هو الإقامة على الشيء، والاعتكاف في الشرع هو الإقامة في المسجد على عبادة الله، وهوسنة، ولا يجوز في غير المسجد ويجوز في جميع المساجد، أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي،

فروع: الأول:

يجوز الاعتكاف بغير صوم والأفضل أن يصوم معه، وقال أبو حنيفة: الصوم شرط في الاعتكاف ولا يصح إلا به، وحجة الشافعي ما روي عن عمر: «قال يا رسول الله إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام قال فأوف بنذرك» أخرجاه في الصحيحين ومعلوم أنه لا يصح الصوم في الليل.

الفرع الثاني:

لا يقدر للاعتكاف زمان عند الشافعي وأقله لحظة، ولا حد لأكثره، فلو نذر اعتكاف ساعة صح نذره، ولو نذر أن يعتكف مطلقاً يخرج من نذره باعتكاف ساعة. قال الشافعي: وأحب أن يعتكف يوماً، وإنما قال ذلك للخروج من الخلاف فإن أقل زمن الاعتكاف عند مالك وأبي حنيفة يوم بشرط أن يدخل فيه قبل طلوع الفجر ويخرج منه بعد غروب الشمس.

الفرع الثالث:

الجماع حرام في حال الاعتكاف ويفسد به وأما ما دون الجماع كالقبلة ونحوها فمكروه ولا يفسد به عند أكثر العلماء، وهو أظهر قول الشافعي والثاني يبطل به وهو قول مالك، وقيل إن أنزل بطل اعتكافه وإن لم ينزل فلا، وهو قول أبي حنيفة، وأما الملامسة بغير شهوة فجائز، ولا يفسد به الاعتكاف لما روي عن عائشة: «أنها كانت ترجل النبي ﷺ وهي حائض وهو معتكف في المسجد، وهي في حجرتها يناولها رأسه» زاد في رواية: «وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة إذا كان معتكفاً» وفي رواية: «وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان» أخرجاه في الصحيحين. الترجيل تسريح الشعر، وقولها إلا لحاجة حوائج الإنسان كثيرة والمراد منها هاهنا كل ما يضطر الإنسان إليه مما لا يجوز له فعله في المسجد وموضع معتكفه.

وقوله تعالى: ﴿تلك حدود الله﴾ يعني تلك الأحكام التي ذكرت في الصيام والاعتكاف من تحريم الأكل والشرب والجماع حدود الله وقيل حدود الله فرائض الله. وأصل الحد في اللغة المنع، والحد الحاجز بين الشيئين الذي يمنع اختلاط أحدهما بالآخر وحد الشيء بالوصف المحيط بمعناه المميز له عن غيره وقيل معنى حدود الله المقادير التي قدرها ومنع من مخالفتها ﴿فلا تقربوها﴾ أي فلا تأتوها ولا تغشوها. فإن قلت في الآية إشكالان: أما الأول فهو أنه قال: تلك حدود الله وهو إشارة إلى ما تقدم من الأحكام وبعضها فيه إباحة وبعضها فيه حظر فكيف قال في الجميع فلا تقربوها؟ الإشكال الثاني هو أنه تعالى قال في هذه الآية: ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾ وقال في آية أخرى: ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها﴾ وقال في آية أخرى: ﴿ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده﴾ فكيف الجمع بين هذه الآيات؟ قلت: الجواب عن السؤالين من وجهين: أما الإشكال الأول، فجوابه أن الأحكام

أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا عبد الله بن يوسف، أخبرنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير، عن عائشة زوج النبي ﷺ أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله تعالى. ثم اعتكفت أزواجه من بعده، والآية نزلت في نفر من أصحاب النبي ﷺ كانوا يعتكفون في المسجد، فإذا عرضت للرجل منهم الحاجة إلى أهله خرج إليها فجامعها ثم اغتسل، فرجع إلى المسجد، فنهوا عن ذلك ليلاً ونهاراً حتى يفرغوا من اعتكافهم، فالجماع حرام في حال الاعتكاف، ويفسد به الاعتكاف، أما ما دون الجماع من المباشرات كالقبلة واللمس بالشهوة فمكروه، ولا يفسد به الاعتكاف عند أكثر أهل العلم، وهو أظهر قول الشافعي، كما لا يبطل به الحج، وقالت طائفة يبطل بها اعتكافه، وهو قول مالك، وقيل: إن أنزل بطل اعتكافه، وإن لم ينزل فلا، كالصوم، وأما اللمس الذي لا يقصد به التلذذ فلا يفسد به الاعتكاف، لما أخبرنا أبو الحسن

التي تقدمت فيما قبل، وإن كانت كثيرة إلا أن أقربها إلى هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَاشِرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ وذلك يوجب تحريم الجماع في حال الاعتكاف، وقال قبلها: ﴿ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ وذلك يوجب تحريم الأكل والشرب في النهار فلما كان الأقرب إلى هذه الآية جانب التحريم قال ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ والجواب عن الإشكال الثاني أن من كان في طاعة الله تعالى والعمل بفرائضه فهو منصرف في حيزي الحق فنهي أن يتعداه فيقع في حيز الباطل ثم بولغ في ذلك فنهي أن يقرب الحد الذي هو الحاجز بين حيزي الحق والباطل لئلا يداني الباطل فيقع فيه فهو كقوله ﷺ «كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه» وقيل أراد بحدوده هنا محارمه ومناهيه لقوله: ﴿وَلَا تَبَاشِرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ ونحو هذا التحريم فهي حدود لا تقرب ﴿كذلك﴾ أي كما بين لكم ما أمركم به ونهاكم عنه كذلك ﴿يبين الله آياته﴾ أي معالم دينه وأحكام شريعته ﴿للناس﴾ مثل هذا البيان الشافي الوافي ﴿لعلهم يتقون﴾ أي لكي يتقوا ما حرم عليهم فينجوا من العذاب. قوله عز وجل:

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ نزلت في امرئ القيس بن عابس الكندي ادعى عليه ربيعة بن عبدان الحضرمي عند رسول الله ﷺ في أرض فقال رسول الله ﷺ للحضرمي: ألك بينة قال لا قال فلك يمينه فانطلق ليحلف فقال رسول الله ﷺ أما إن حلف على ماله ليأكله ظلماً ليلقين الله وهو عنه معرض فأنزل الله هذه الآية. والمعنى لا يأكل بعضكم مال بعض بالباطل أي من غير الوجه الذي أباحه الله له. وأصل الباطل الشيء الذاهب.

فصل

أما حكم الآية فأكل المال بالباطل على وجوه: الأول: أن يأكله بطريق التعدي والنهب والغصب. الثاني: أن

السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي أخبرنا أبو مصعب عن مالك، عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عمرة بنت عبد الرحمن، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا اعتكف أدنى إلي رأسه فأرجله وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان، قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾، يعني: تلك الأحكام التي ذكرها في الصيام والاعتكاف حدود، أي: ما منع الله عنها، قال السدي: شروط الله وقال شهر بن حوشب: فرائض الله وأصل الحد في اللغة المنع، ومنه يقال للبواب: حداد لأنه يمنع الناس من الدخول، وحدود الله ما يمنع الناس من مخالفتها، ﴿فلا تقربوها﴾ فلا تأتوها ﴿كذلك﴾، هكذا ﴿يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾، لكي يتقوها فينجوا من العذاب.

قوله تعالى: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾، قيل: نزلت هذه الآية في امرئ القيس بن عابس الكندي ادعى عليه ربيعة بن عبدان الحضرمي عند رسول الله ﷺ أرضاً فقال النبي ﷺ للحضرمي ألك بينة؟ قال: لا، قال: فلك يمينه فانطلق ليحلف، فقال رسول الله ﷺ: «إما أن يحلف على ماله ليأكله ظلماً ليلقين الله وهو عنه معرض»، فأنزل الله هذه الآية ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾، أي: لا يأكل بعضكم مال بعض بالباطل، أي: من غير الوجه الذي أباحه الله وأصل الباطل: الشيء الذاهب، والأكل بالباطل أنواع قد يكون بطريق الغصب والنهب، وقد يكون بطريق اللهو كالقمار وأجرة المغني، وغيرهما وقد يكون بطريق الرشوة والخيانة، ﴿وتدّلوا بها إلى

يأكله بطريق اللهو كالقمار وأجرة المغنى وثمر الخمر والملاهي ونحو ذلك. الثالث: أن يأكله بطريق الرشوة في الحكم وشهادة الزور. الرابع: الخيانة وذلك في الوديعة والأمانة ونحو ذلك. وإنما عبر عن أخذ المال بالأكل لأنه المقصود الأعظم، ولهذا وقع في التعارف فلان يأكل أموال الناس بمعنى يأخذها بغير حلها ﴿وتدلوها بها إلى الحكام﴾ أي وتلقوا أمور تلك الأموال التي فيها الحكومة إلى الحكام. قال ابن عباس هذا في الرجل يكون عليه المال وليس عليه بينة فيجحد ويخاصم إلى الحكام وهو يعلم أن الحق عليه وهو آثم بمنعه وقيل: هو أن يقيم شهادة الزور عند الحاكم وهو يعلم ذلك. وقيل معناه ولا تأكلوا المال بالباطل وتنسبوه إلى الحكام، وقيل: لا تدل بمال أخيك إلى الحاكم وأنت تعلم أنك ظالم فإن قضاءه لا يحل حراماً وكان شريح القاضي يقول إني لأقضي لك وإني لأظنك ظالماً ولكن لا يسعني إلا أن أقضي بما يحضرنني من البينة وإن قضائي لا يحل لك حراماً (ق) عن أم سلمة «أن رسول الله ﷺ سمع جلبة خصم بباب حجرته فخرج إليهم فقال: إنما أنا بشر وإنه يأتييني الخصم فلعل بعضهم أن يكون أبلغ من بعض» وفي رواية «ألحن بحجته من بعض فأحسب أنه صادق فأقضي له فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليحملها أو يذرها» قوله سمع جلبة خصم يعني أصوات خصم قوله ألحن بحجته، يقال: فلان ألحن بحجته من فلان أي أقوم بها منه وأقدر عليها، من اللحن بفتح الحاء وهو الفطنة ﴿لتأكلوا فريقاً﴾ أي طائفة وقطعة ﴿من أموال الناس بالإثم﴾ يعني بالظلم وقال ابن عباس باليمين الكاذبة وقيل بشهادة الزور ﴿وأنتم تعلمون﴾ يعني أنكم على الباطل. قوله عز وجل:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجُّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٨٩)

﴿يسألونك﴾ أي يا محمد ﴿عن الأهل﴾ نزلت في معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم الأنصاريين قالوا يا رسول الله

الحكماء، أي: تلقوا أمور تلك الأموال بينكم وبين أربابها إلى الحكماء، وأصل الإدلاء إرسال الدلو، وإلقاؤه في البئر، يقال: أدلى دلوه إذا أرسله، ودلاه يدلوه إذا أخرجه قال ابن عباس: هذا في الرجل يكون عليه مال وليس عليه بينة فيجحد المال، ويخاصم فيه الحاكم وهو يعرف أن الحق عليه، وإنه آثم بمنعه قال مجاهد في هذه الآية: لا تخاصم وأنت ظالم، قال الكلبي هو أن يقيم شهادة الزور، وقوله: ﴿وتدلوها﴾ في محل الجزم بتكرير حرف النهي معناه، ولا تدلوها بها إلى الحكماء، وقيل: معناه ولا تأكلوا بالباطل وتنسبونه إلى الحكماء، قال قتادة: لا تدل بمال أخيك إلى الحاكم وأنت تعلم أنك ظالم فإن قضاءه لا يحل حراماً، وكان شريح القاضي يقول: إني لأقضي لك وإني لأظنك ظالماً، ولكن لا يسعني إلا أن أقضي لك بما يحضرنني من البينة، وإن قضائي لا يحل لك حراماً، أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال، أخبرنا أبو العباس الأصم أخبرنا الربيع، أخبرنا الشافعي أخبرنا مالك بن أنس عن هشام بن عروة عن أبيه، عن زينب بنت أبي سلمة عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار»، قوله تعالى: ﴿لتأكلوا فريقاً﴾: طائفة ﴿من أموال الناس بالإثم﴾: بالظلم، وقال ابن عباس: باليمين الكاذبة يقطع بها مال أخيه، ﴿وأنتم تعلمون﴾: أنكم مبطلون.

قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الأهل﴾، نزلت في معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم الأنصاريين قالوا: يا رسول الله

ما بال الهلال يبدو دقيقاً ثم يزيد حتى يمتلئ نوراً، ثم لا يزال ينقص حتى يعود دقيقاً كما بدا ولا يكون على حال واحدة فأنزل الله: ﴿يسألونك عن الأهلة﴾ وكان هذا سؤالاً منهم على وجه الفائدة عن وجه الحكمة في تبين حال الهلال في الزيادة والنقصان والأهلة جمع هلال وهو أول حال القمر حين يراه الناس أول ليلة من الشهر ﴿قل هي مواقيت للناس﴾ جمع ميقات، والمعنى أن فعلنا ذلك لمصالح دينية ودنيوية ليعلم الناس أوقات حجهم وصومهم وإفطارهم ومحل ديونهم وأجائزهم وعدد النساء وأوقات الحيض وغير ذلك من الأحكام المتعلقة بالأهلة ولهذا خالف بينه وبين الشمس التي هي دائمة على حالة واحدة ﴿والحج﴾ أي وللحج، وإنما أفرد الحج بالذكر وإن كان داخلياً في جملة العبادات لفائدة عظيمة وهي أن العرب في الجاهلية كانت تحج بالعدد وتبدل الشهور فأبطل الله ذلك من فعلهم وأخبر أن الحج مقصور على الأشهر التي عينها لفرض الحج بالأهلة، وأنه لا يجوز نقل الحج عن تلك الأشهر التي عينها الله تعالى له كما كانت العرب تفعل بالنسيء ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾ (ق) عن البراء قال: نزلت هذه الآية فينا فكانت الأنصار إذا حجوا فجاءوا لم يدخلوا من قبل أبواب البيوت فجاء رجل من الأنصار فدخل من قبل بابه فكانه غير بذلك فنزلت: وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها، وفي رواية كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيوت من ظهورها فأنزل الله هذه الآية وقيل كان الناس في الجاهلية وفي أول الإسلام إذا أحرم الرجل منهم لم يدخل حائطاً ولا داراً ولا فسطاطاً من بابه، فإن كان من أهل المدر نقب نقباً في ظهر بيته منه يدخل ويخرج أو يتخذ سلماً يصعد منه، وإن كان من أهل الوبر دخل وخرج من خلف الخباء ولا يدخل ولا يخرج من الباب ويرون ذلك براً، وكانت الحمس وهم قريش وكنانة وخزاعة ومن دان بدينهم، سموا حمساً لتشدهم في دينهم والحماسة الشدة كانوا إذا أحرموا لم يدخلوا بيتاً البتة ولم يستظلوا بظل، ثم إن رسول الله ﷺ دخل حائطاً فدخل رجل من الأنصار معه وقيل كانت الحمس لا يبالون بذلك،

ما بال الهلال يبدو دقيقاً ثم يزيد حتى يمتلئ نوراً، ثم يعود دقيقاً كما بدا ولا يكون على حالة، فأنزل الله تعالى: ﴿يسألونك عن الأهلة﴾، وهي جمع هلال، مثل رداء وأردية، سُمي هلالاً لأن الناس يرفعون أصواتهم بالذكر عند رؤيته، من قولهم استهل الصبي إذا صرخ حين يُولد، وأهل القوم بالحج إذا رفعوا أصواتهم بالتلبية، ﴿قل هي مواقيت للناس والحج﴾، جمع ميقات، أي: فعلنا ذلك ليعلم الناس أوقات الحج والعمرة والصوم والإفطار وأجال الديون وعدد النساء وغيرها، فلذلك خالف بينه وبين الشمس التي هي دائمة على حالة واحدة، ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾، قال أهل التفسير: كان الناس في الجاهلية وفي أول الإسلام إذا أحرم الرجل منهم بالحج أو العمرة، لم يدخل حائطاً ولا بيتاً ولا داراً من بابه، فإن كان من أهل المدر نقب نقباً في ظهر بيته ليدخل منه ويخرج، أو يتخذ سلماً يصعد منه، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخيمة والفسطاط ولا يدخل ولا يخرج من الباب حتى يحل من إحرامه، ويرون ذلك براً إلا أن يكون من الحمس، وهم قريش وكنانة وخزاعة وثقيف وخيثم وبنو عامر بن صعصعة وبنو نضر بن معاوية، سموا أحماً لتشدهم في دينهم، والحماسة الشدة والصلابة، قالوا: فدخل رسول الله ﷺ ذات يوم بيتاً لبعض الأنصار، فدخل رجل من الأنصار يُقال له: رفاعه بن التابوت على أثره من الباب، وهو محرم فأنكروا عليه، فقال له رسول الله ﷺ: «لَمْ دَخَلْتَ مِنَ البابِ وَأَنْتَ مُحْرَمٌ؟» قال: رأيتك دخلت فدخلت على أترك، فقال رسول الله ﷺ: «إني أحمسي»، فقال الرجل: إن كنت أحماً فإني أحمسي رضيتُ بهديك وسميتك ودينك، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقال الزهري: كان ناس من الأنصار إذا أهلوا بالعمرة لم يحل بينهم وبين السماء شيء، وكان الرجل يخرج مهلاً بالعمرة فتبدو له الحاجة بعدما يخرج من بيته، فيرجع ولا يدخل من باب الحجرة من أجل سقف البيت أن يحول بينه وبين السماء، فيفتح الجدار من ورائه ثم يقول في

ثم إن رسول الله ﷺ دخل ذات يوم بيتاً فدخل على أثره رجل من الأنصار يقال له رفاعه بن الثابت من الباب وهو محرم فأنكروا عليه فقال له رسول الله ﷺ لم دخلت من الباب وأنت محرم فقال: رأيتك دخلت فدخلت على أثرك فقال رسول الله ﷺ إني أحمسي فقال الرجل إن كنت أحمسياً فأنا أحمسي رضيت بهديك وسمتك ودينك فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال الزهري كان ناس من الأنصار إذا أهلوا بالعمرة لم يجعلوا بينهم وبين السماء شيئاً، وكان الرجل يخرج مهلاً بالعمرة فتبدو له الحاجة بعد ما خرج من بيته فيرجع ولا يدخل من باب الحجرة من أجل سقف البيت أن يحول بينه وبين السماء فيفتح الجدار من ورائه ثم يقوم في حجرته فيأمر بحاجته ثم بلغنا أن رسول الله ﷺ أهل زمن الحديبية بالعمرة فدخل حجرة فدخل رجل من الأنصار من بني سلمة على أثره فقال النبي ﷺ لم فعلت ذلك؟ قال: لأنني رأيتك دخلت فقال عليه الصلاة والسلام: إني أحمسي فقال الأنصاري وأنا أحمسي يقول أنا على دينك فأنزل الله تعالى ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها﴾ يعني في حال الإحرام وغيره ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾.

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتَلُونَكُمْ وَلَا تَقْسَدُوا أَمْوَالَكُمْ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾

قوله عز وجل: ﴿وقاتلوا في سبيل الله﴾ أي في طاعة الله وطلب رضوانه (ق) عن أبي موسى الأشعري قال سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ﴿الذين يقاتلونكم﴾ كان في ابتداء الإسلام أمر الله رسوله ﷺ بالكف عن قتال المشركين ثم لما هاجر إلى المدينة أمر بقتال من قاتله منهم بهذه الآية. قال الربيع بن أنس: هذه أول آية نزلت في القتال ثم أمر الله بقتال المشركين كافة قاتلوا أو لم يقاتلوا بقوله تعالى: ﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾.

حجرته فيأمر بحاجته، حتى بلغنا أن رسول الله ﷺ أهل زمن الحديبية بالعمرة فدخل حجرة فدخل رجل على أثره من الأنصار من بني سلمة فقال النبي ﷺ: ﴿لم فعلت ذلك؟﴾ قال لأنني رأيتك دخلت، فقال رسول الله ﷺ: ﴿إني أحمسي﴾، فقال الأنصاري وأنا أحمسي، يقول: وأنا على دينك، فأنزل الله تعالى: ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾، قرأ ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر «البيوت والغيوب والجيوب والعيوب وشيوخاً» بكسر أوائلهن، لمكان الياء، وقرأ الباقر بالضم على الأصل، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي «جبوب» بكسر الجيم، وقرأ أبو بكر وحمزة «العيوب» بكسر العين، ﴿ولكن البر من اتقى﴾، أي: البر من اتقى ﴿وأتوا البيوت من أبوابها﴾، في حال الإحرام، ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾.

﴿وقاتلوا في سبيل الله﴾، أي: في طاعة الله، ﴿الذين يقاتلونكم﴾، كان في ابتداء الإسلام أمر الله تعالى رسول الله ﷺ بالكف عن قتال المشركين، ثم لما هاجر إلى المدينة أمره بقتال من قاتله منهم بهذه الآية، وقال الربيع بن أنس: هذه أول آية نزلت في القتال، ثم أمره بقتال المشركين كافة، قاتلوا أو لم يقاتلوا بقوله: ﴿اقتلوا المشركين﴾ [التوبة: ٥]، فصارت في هذه الآية منسوخة بها، وقيل: نسخ بقوله: ﴿اقتلوا المشركين﴾ [التوبة: ٥] قريب من سبعين آية. وقوله: ﴿ولا تعتدوا﴾، أي: لا تبدؤوهم بالقتال، وقيل: هذه الآية محكمة غير منسوخة، أمر النبي ﷺ بقتال المقاتلين، ومعنى قوله: ﴿ولا تعتدوا﴾ أي: لا تقتلوا النساء والصبيان والشيخ الكبير والرهبان، ولا من ألقى إليكم السلام، هذا قول ابن عباس ومجاهد، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو بكر بن محمد بن سهل القهستاني، المعروف بابي تراب أخبرنا محمد بن عيسى الطوسي، أنا

وبقوله: ﴿اقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ فصارت آية السيف ناسخة لهذه الآية وقيل إنها محكمة ومعناها على هذا القول وقاتلوا في سبيل الله الذين أعدوا أنفسهم للقتال، فأما من لم يعد نفسه للقتال كالرهبان والشيوخ والزماني والمكافيف والمجانين فلا تقاتلوهم لأنهم لم يقاتلوكم، وهو قوله تعالى: ﴿ولا تعتدوا﴾ وقال ابن عباس ولا تقتلوا النساء والصبيان والشيوخ والرهبان ولا من ألقى إليكم السلام (م) عن بريدة قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تعتدوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا. قوله: ﴿ولا تغلوا﴾ الغلول الخيانة وهو ما يخفيه أحد الغزاة من الغنيمة وقوله: ﴿ولا تعتدوا﴾ أي ولا تنقضوا العهد وقيل في معنى الآية: لا تعتدوا أي لا تبدوهم بالقتال فعلى هذا القول تكون الآية منسوخة بآية القتال قال ابن عباس: لما صد المشركون رسول الله ﷺ عام الحديبية وصالحوه على أن يرجع من قاتل فيخلوا له مكة ثلاثة أيام يطوف بالبيت، فلما تجهز رسول الله ﷺ وأصحابه لعمره القضاء خافوا أن لا تفي قريش بما قالوا ويصدّوهم عن البيت وكره المسلمون قتالهم في الشهر الحرام وفي الحرم، فأنزل الله: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ فأطلق لهم قتال الذين يقاتلونهم في الشهر الحرام وفي الحرم ورفع عنهم الحرج والجناح في ذلك وقال ولا تعتدوا بابتداء القتال ﴿إن الله لا يحب المعتدين﴾ قوله عز وجل:

وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْبِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِن أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِن أَنْتَهُوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾

﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ أي حيث وجدتموهم وأدرکتموهم في الحل والحرم، وتحقيق القول فيه أن الله تعالى أمر بالجهاد في الآية الأولى بشرط إقدام الكفار على القتال وفي هذه الآية أمرهم بالجهاد معهم سواء قاتلوا أو لم يقاتلوا واستثنى منه المقاتلة عند المسجد الحرام ﴿وأخرجوهم من حيث أخرجوكم﴾ أي وأخرجوهم من ديارهم كما أخرجوكم من دياركم ﴿والفتنة أشد من القتل﴾ يعني أن شرهم بالله أشد وأعظم من قتلهم إياهم في

يحيى بن بكير أنا الليث بن سعد عن جرير بن حازم عن شعبة، عن علقمة بن يزيد عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: كان النبي ﷺ إذا بعث جيشاً قال: «اغزوا باسم الله وفي سبيل الله قاتلوا من كفر بالله لا تغلوا، ولا تعتدوا ولا تقتلوا امرأة ولا وليداً ولا شيخاً كبيراً»، وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في صلح الحديبية، وذلك أن رسول الله ﷺ خرج مع أصحابه للعمرة، وكانوا ألفاً وأربعمائة، فساروا حتى نزلوا الحديبية فصدهم المشركون عن البيت الحرام، فصالحهم على أن يرجع عامه ذلك، على أن يخلوا له مكة العام القابل ثلاثة أيام فيطوف بالبيت، فلما كان العام القابل تجهز رسول الله ﷺ وأصحابه لعمره القضاء، وخافوا أن لا تفي قريش بما قالوا، وأن يصدّوهم عن البيت الحرام، وكره أصحاب رسول الله ﷺ قتالهم في الشهر الحرام وفي الحرم، فأنزل الله تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله﴾، يعني محرمين، ﴿الذين يقاتلونكم﴾، يعني قريشاً ﴿ولا تعتدوا﴾ فنبذوا بالقتال في الحرم محرمين، ﴿إن الله لا يحب المعتدين﴾.

﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾، قيل: نسخت الآية الأولى بهذه الآية، وأصل الثقافة: الجدُّ والبصر بالأمر، ومعناه: واقتلوهم حيث أبصرتم مقاتلتهم وتمكنتم من قتلهم، ﴿وأخرجوهم من حيث أخرجوكم﴾، وذلك أنهم أخرجوا المسلمين من مكة، فقال: أخرجوهم من ديارهم كما أخرجوكم من دياركم، ﴿والفتنة أشد من

الحرم والإحرام وإنما سمي الشرك بالله فتنة لأنه فساد في الأرض يؤدي إلى الظلم. وإنما جعل أعظم من القتل لأن الشرك بالله ذنب يستحق صاحبه الخلود في النار وليس القتل كذلك، والكفر يخرج صاحبه من الأمة وليس القتل كذلك فثبت أن الفتنة أشد من القتل ﴿وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ اختلف العلماء في هذه الآية فذهب مجاهد في جماعة من العلماء إلى أنها محكمة وأنه لا يحل أن يقاتل في المسجد الحرام إلا من قاتل فيه وهو قوله: ﴿فَإِنْ قَاتِلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ أي فقاتلوهم، وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن مكة لا تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي وإنما أحلت لي ساعة من نهار ثم عادت حراماً إلى يوم القيامة» فثبت بهذا تحريم القتال في الحرم إلا أن يقاتلوا فيقاتلوا ويكون دفعاً لهم وذهب قتادة إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ فأمر بقتالهم في الحل والحرم. وقيل إنها منسوخة بقوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ كذلك جزاء الكافرين فإن انتهوا يعني عن القتال. وقيل عن الشرك والكفر ﴿فَإِنْ اللَّهُ غَفُورٌ﴾ يعني لما سلف ﴿رَحِيمٌ﴾ يعني بعباده حيث لم يعاجلهم بالعقوبة ﴿وَقَاتِلُوهُمْ﴾ أي وقاتلوا المشركين ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي شرك والمعنى وقاتلوهم حتى يسلموا ولا يقبل من الوثني إلا الإسلام والقتل بخلاف الكتابي والفرق بينهما أن أهل الكتاب معهم كتب منزلة فيها شرائع وأحكام يرجعون إليها وإن كانوا قد حرفوا وبدلوا فأمرهم الله تعالى بحرمة تلك الكتب من القتل وأمر بإصغارهم وأخذ الجزية منهم لينظروا في كتبهم ويتدبروها فيقفوا على الحق منها فيتبعوه كفعل مؤمني أهل الكتاب الذين عرفوا الحق فأسلموا، وأما عبدة الأصنام فلم يكن لهم كتاب يرجعون إليه ويرشداهم إلى الحق فكان إهمالهم زيادة في شركهم وكفرهم فأبى الله عز وجل أن يرضى منهم إلا بالإسلام أو القتل

القتل، يعني: شركهم بالله عز وجل أشد وأعظم من قتلهم إياهم في الحرم والإحرام، ﴿وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتِلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾، قرأ حمزة والكسائي ﴿وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى يَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ قَاتِلُوكُمْ﴾، بغير ألف فيهن من القتل على معنى ولا تقتلوا بعضهم، تقول العرب: قتلنا بني فلان وإنما قتلوا بعضهم، وقرأ الباقر بالألف من القتال وكان هذا في ابتداء الإسلام، كان لا يحل بدايتهم بالقتال في البلد الحرام، ثم صار منسوخاً بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣] هذا قول قتادة، وقال مقاتل بن حبان: قوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى تَقْتُلُوهُمْ﴾، أي: حيث أدركتموهم في الحل والحرم، صارت هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، ثم نسختها آية السيف في براءة، فهي ناسخة منسوخة، وقال مجاهد وجماعة: هذه الآية محكمة ولا يجوز الابتداء بالقتال في الحرم، ﴿كذلك جزاء الكافرين﴾.

﴿فَإِنْ انْتَهَوْا﴾، عن القتال والكفر، ﴿فَإِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، أي غفورٌ لِمَا سَلَفَ رَحِيمٌ بالعباد. ﴿وَقَاتِلُوهُمْ﴾، يعني: المشركين، ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، أي شرك، يعني قاتلوهم حتى يسلموا فلا يقبل من الوثني إلا الإسلام فإن أبى قُتل، ﴿وَيَكُونُ الدِّينُ﴾، أي: الطاعة والعبادة ﴿لِلَّهِ﴾ وحده فلا يُعبد شيءٌ دونه، قال نافع: جاء رجل إلى ابن عمر في فتنة ابن الزبير، فقال: ما يمنعك أن تخرج؟ قال: يمنعني أن الله حرم دم أخي، قال: ألا تسمع ما ذكره الله عز وجل: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ [الحجرات: ٩]، فقال: يا ابن أخي ولأن اعتبر بهذه الآية ولا أقاتل أحب إلي من أن أعتبر بالآية التي يقول الله عز وجل فيها: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ [النساء: ٩٣]... قال: ألم يقل الله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؟ قال: فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذ كان الإسلام قليلاً، وكان الرجل يُفتن في دينه ما يقتلونه أو يعذبونه، حتى كثر الإسلام فلم تكون فتنة، وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوهم حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله. وعن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عمر كيف ترى في قتال الفتنة؟ فقال: هل تدري ما الفتنة؟ كان محمد ﷺ يقاتل المشركين، وكان

﴿ويكون الدين لله﴾ أي الطاعة والعبادة لله وحده فلا يعبد من دونه شيء ﴿فإن انتهوا﴾ يعني عن القتال وقيل عن الشرك والكفر ﴿فلا عدوان﴾ أي فلا سبيل ﴿إلا على الظالمين﴾ قاله ابن عباس فعلى القول الأول تكون الآية منسوخة بآية السيف وعلى القول الآخر الآية محكمة. وقيل: معناه فلا تظلموا إلا الظالمين، سمي جزاء الظالمين ظلماً على سبيل المشاكلة، وسمي الكافر ظالماً لوضعه العبادة في غير موضعها. قوله عز وجل:

الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدُّوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾

﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام﴾ نزلت في عمرة القضاء وذلك أن النبي ﷺ خرج معتمراً في ذي القعدة سنة ست من الهجرة فصده المشركون عن البيت بالحديبية فصالح أهل مكة على أن ينصرف عامه ذلك ويرجع من قابل فيقضي عمرته فانصرف رسول الله ﷺ ثم رجع في ذي القعدة سنة سبع فقضى عمرته وذلك قوله تعالى: ﴿الشهر الحرام﴾ يعني ذا القعدة الذي دخلتم فيه مكة وقضيت عمرتكم ﴿بالشهر الحرام﴾ الذي صددتم فيه عن البيت ﴿والحرمات﴾ جمع حرمة وإنما جمعت لأنه أراد حرمة الشهر وحرمة البلد وحرمة الإحرام ﴿قصاص﴾ القصاص المساواة والمماثلة وهو أن يفعل بالفاعل مثل ما فعل، والمعنى أنهم لما منعوكم عن العمرة وأضاعوا هذه الحرمات في سنة ست، فقد وفقتم حتى قضيتموها على رغمتهم في سنة سبع. وقيل: هذا في القتال، ومعناه: فإن بدؤوكم بالقتال في الشهر الحرام فاقتلوهم فيه فإنه قصاص ﴿فمن اعتدى عليكم﴾ أي بالقتال ﴿فاعتدوا عليه﴾ أي فقاتلوه ﴿بمثل ما اعتدى عليكم﴾ سمي الجزاء بالاعتداء على سبيل المشاكلة ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾ قوله عز وجل:

الدخول عليهم فتنة، وليس قتالكم كقتالهم على الملك، ﴿فإن انتهوا﴾: عن الكفر وأسلموا، ﴿فلا عدوان﴾، فلا سبيل ﴿إلا على الظالمين﴾، قاله ابن عباس، يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ﴾ [القصص: ٢٨] أي: فلا سبيل عليّ، وقال أهل المعاني: العدوان: الظلم، أي: فإن أسلموا فلا نهب ولا أسر ولا قتل، إلا على الظالمين الذين بقوا على الشرك، وما يفعل بأهل الشرك من هذه الأشياء لا يكون ظلماً، وسمّاه عدواناً على طريق المجازات والمقابلة، كما قال: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه﴾ [البقرة: ١٩٤]، وكقوله تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئةً مثلها﴾ [الشورى: ٤٠]، وسمّي الكافر ظالماً لأنه يضع العبادة في غير موضعها.

﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام﴾، نزلت هذه الآية في عمرة القضاء، وذلك أن النبي ﷺ خرج معتمراً في ذي القعدة فصده المشركون عن البيت بالحديبية، فصالح أهل مكة على أن ينصرف عامه ذلك ويرجع العام المقبل فيقضي عمرته، فانصرف رسول الله ﷺ عامه ذلك، ورجع في العام القابل في ذي القعدة، وقضى عمرته سنة سبع من الهجرة، فذلك معنى قوله تعالى: ﴿الشهر الحرام﴾ يعني ذي القعدة الذي دخلتم فيه مكة، وقضيت فيه عمرتكم سنة سبع، بالشهر الحرام يعني: ذا القعدة الذي صددتم فيه عن البيت سنة ست، ﴿والحرمات﴾: جمع حرمة، وإنما جمعها لأنه أراد حرمة الشهر الحرام والبلد الحرام، وحرمة الإحرام والقصاص: المساواة والمماثلة، وهو أن يفعل بالفاعل مثل ما فعل، وقيل: هذا في أمر القتال، معناه: إن بدؤوكم بالقتال في الشهر الحرام فقاتلوهم فيه، فإنه قصاص بما فعلوا فيه، ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه﴾، وقاتلوه ﴿بمثل ما اعتدى عليكم﴾، سمي الجزاء باسم الابتداء على ازدواج الكلام، كقوله تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئةً مثلها﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾.

وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

﴿وأنفقوا في سبيل الله﴾ يعني به الجهاد وذلك أن الله تعالى لما أمر بالجهاد والاشتغال به يحتاج إلى الإنفاق فأمر به، والإنفاق هو صرف المال في وجوه المصالح الدينية كالإنفاق في الحج والعمرة وصلة الرحم والصدقة وفي الجهاد وتجهيز الغزاة وعلى النفس والعيال وغير ذلك مما فيه قربة لله تعالى لأن كل ذلك مما هو في سبيل الله لكن إطلاق هذه اللفظة ينصرف إلى الجهاد (خ) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً واحتساباً لله وتصديقاً بوعده فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة» يعني حسنات. عن خريم بن فاتك قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق نفقة في سبيل الله كتب الله له سبعمائة ضعف» أخرجه الترمذي والنسائي ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ قيل: الباء زائدة ومعناه لا تلقوا أيديكم إلى التهلكة، والمراد بالأيدي الأنفس والمعنى ولا تلقوا أنفسكم إلى التهلكة، عبر بالأيدي عن الأنفس، وقيل الباء على أصلها وفي الكلام حذف تقديره: ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم إلى التهلكة، كما يقال: أهلك فلان نفسه بيده، إذا تسبب في هلاكها وقيل التهلكة كل شيء يصير عاقبته إلى الهلاك وقيل التهلكة ما يمكن الاحتراز عنه والهلاك ما لا يمكن الاحتراز عنه، ومعنى الآية النهي عن ترك الإنفاق في سبيل الله لأنه سبب الإهلاك قال ابن عباس: أنفق في سبيل الله وإن لم يكن لك إلا سهم أو مشقص ولا يقول أحدكم لا أجد شيئاً. السهم هنا هو ما يرمى به، والمشقص سهم فيه نصل عريض وقيل كان رجال يخرجون في البعث بغير نفقة فإما أن ينقطع بهم وإما أن يكونوا عالة فأمرهم الله تعالى بالإنفاق على أنفسهم في سبيل الله ومن لم يكن عنده شيء ينفق عليه في الغزو فلا يخرج لثلا يلقي نفسه في التهلكة وهو أنه يهلك من الجوع والعطش والمشي. وقيل نزلت الآية في ترك الجهاد (ت) عن أبي عمران واسمه أسلم قال: كنا بمدينة الروم فأخرجوا لنا صفاً عظيماً من الروم فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر وعلى أهل مصر عقبة بن عامر وعلى الجماعة فضالة بن عبيد فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم فصاح

قوله تعالى: ﴿وأنفقوا في سبيل الله﴾، أراد به الجهاد وكل خير هو في سبيل الله، ولكن إطلاقه ينصرف إلى الجهاد، ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾، قيل: الباء في قوله تعالى: ﴿بأيديكم﴾ زائدة، يُريد: ولا تلقوا أيديكم، أي: أنفسكم إلى التهلكة عبّر عن الأنفس بالأيدي، كقوله تعالى: ﴿بما كسبت أيديكم﴾ [الشورى: ٣٠] أي: بما كسبت، وقيل: الباء في موضعها، وفيه حذف، أي: ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم إلى التهلكة، أي الهلاك، وقيل: التهلكة كل شيء يصير عاقبته إلى الهلاك، أي: ولا تأخذوا في ذلك، وقيل التهلكة ما يمكن الاحتراز عنه، والهلاك ما لا يمكن الاحتراز عنه، والعرب لا تقول للإنسان: ألقى بيده إلا في الشر، واختلفوا في تأويل هذه الآية، فقال بعضهم: هذا في البخل وترك الإنفاق، يقول: ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة بترك الإنفاق في سبيل الله، وهو قول حذيفة والحسن وقتادة وعكرمة وعطاء، وقال ابن عباس في هذه الآية: أنفق في سبيل الله وإن لم يكن لك إلا سهم أو مشقص، ولا يقول أحدكم: إني لا أجد شيئاً، وقال السدي فيها: أنفق في سبيل الله ولو عقلاً ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة، ولا تقل: ليس عندي شيء، وقال سعيد بن المسيب ومقاتل بن حبان: لما أمر الله تعالى بالإنفاق قال رجال: أمرنا بالنفقة في سبيل الله، ولو أنفقنا أموالنا بقينا فقراء، فأنزل الله هذه الآية، وقال مجاهد فيها: لا يمنعكم من نفقة في حق خيفة العيلة، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أحمد بن الحسن الحيري أخبرنا أبو جعفر محمد بن علي بن دحيم الشيباني، أخبرنا أحمد بن حازم بن أبي غرزة، أخبرنا أبو غسان، أخبرنا خالد بن عبد الله الواسطي، أخبرنا واصل مولى أبي عتبة عن بشار بن أبي سيف، عن

الناس. سبحانه الله يلقي بيديه إلى التهلكة فقام أبو أيوب الأنصاري فقال: «أيها الناس إنكم لتؤولون هذه الآية هذا التأويل، وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه فقال بعضنا لبعض سرّاً دون رسول الله ﷺ إن أموالنا قد ضاعت وإن الله قد أعز الإسلام وكثر ناصروه فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ يرد علينا ما قلنا:

﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها وتركنا الغزو فما زال أبو أيوب شاخصاً في سبيل الله حتى دفن بأرض الروم» وقال حديث غريب صحيح مات أبو أيوب في آخر غزوة غزاها بأرض قسطنطينية ودفن في أصل سورها فهم يتبركون بقبره ويستسقون به (م) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه به مات على شعبة من النفاق» قال ابن المبارك فنرى أن ذلك كان على عهد النبي ﷺ. وقيل الإلقاء إلى التهلكة هو أن يقنط من رحمة الله، وهو أن الرجل يصيب الذنب فيقول قد هلكت ليس لي توبة فيأس من رحمة الله وينهمك على المعاصي فهو القنوط فهى الله عن ذلك. وقيل في معنى الآية: أنفقوا في سبيل الله ولا تقولوا إنا نخاف الفقر إن أنفقنا فهلك فهو أن يجعلوا أنفسهم هالكين بالإنفاق (خ) عن حذيفة قال: أنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة قال نزلت في النفقة ﴿وأحسنوا﴾ أي بالإنفاق على من تلزمكم مؤنته ونفقتة وقيل أحسنوا في الإنفاق ولا تسرفوا ولا تقتروا، نهوا عن الإسراف والإقتار في الإنفاق وقيل معناه: وأحسنوا في أداء فرائض الله تعالى ﴿إن الله يحب المحسنين﴾ أي يثيبهم على إحسانهم. قوله عز وجل:

وَاتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِفُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَن تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ

الوليد بن عبد الرحمن عن عياض بن غصيف قال: أتينا أبا عبيدة نعوذه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ أَتَفَقَ نفقةً فاضلةً في سبيل الله، فبسبعمائة، وَمَنْ أَتَفَقَ نفقةً على أهله فالحسنة بعشر أمثالها»، وقال زيد بن أسلم: كان رجال يخرجون في البعوث بغير نفقة، فإذا أن يقطع بهم وإما أن يكونوا عيالاً، فأمرهم الله تعالى بالإنفاق على أنفسهم في سبيل الله، وَمَنْ لم يكن عنده شيء ينفقه، فلا يخرج بغير نفقة ولا قوت فيلقي بيده إلى التهلكة، فالتهلكة: أن يهلك من الجوع والعطش أو بالمشي، وقيل: نزلت الآية في ترك الجهاد، قال أبو أيوب الأنصاري: نزلت فينا معشر الأنصار، وذلك أن الله تعالى لما أعز ونصر رسوله، قلنا فيما بيننا: إنا قد تركنا أهلنا وأموالنا حتى فشا الإسلام ونصر الله نبيه فلو رجعنا إلى أهلنا وأموالنا فأقمنا فيها فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله تعالى: ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾، فالتهلكة الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد، فما زال أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى كان آخر غزوة غزاها بقسطنطينية في زمن معاوية، فتوفي هناك ودفن في أصل سور القسطنطينية، وهم يستسقون به، ورؤي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق»، وقال محمد بن سيرين وعبيدة السلماني: الإلقاء إلى التهلكة هو القنوط من رحمة الله تعالى، قال أبو قلابة: هو الرجل يصيب الذنب فيقول قد هلكت ليس لي توبة، فيأس من رحمة الله وينهمك في المعاصي، فنهاهم الله تعالى عن ذلك قال الله تعالى: ﴿إنه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ [يوسف: ٨٧]، ﴿وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾.

الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ
الْحُرَامِ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ قال ابن عباس وهو أن يتمهما بمناسكهما وحدودهما وسننهما وقيل إتمامهما أن تحرم بهما من ديرة أهلك وقيل هو أن تفرد لكل واحد منهما سفراً وقيل إتمامها أن تكون النفقة حلالاً وتنتهي عما نهى الله عنه. وقيل إتمامها أن تخرج من أهلك لهما لا للتجارة ولا لحاجة. وقيل إذا شرع فيهما وجب عليه الإتمام.

فصل

واتفقت الأمة على وجوب الحج على من استطاع إليه سبيلاً (م) عن أبي هريرة قال خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا»، فقال رجل أفني كل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً فقال رسول الله ﷺ لو قلت نعم لوجب ولما استطعتم» وفي وجوب العمرة قولان للشافعي أصحهما إنها واجبة وهو قول علي وابن عمر وابن عباس والحسن وابن سيرين وعطاء وطاوس وسعيد بن جبير ومجاهد وإليه ذهب أحمد بن حنبل، والقول الثاني إنها سنة ويروى ذلك عن ابن مسعود وجابر وإبراهيم والشعبي وإليه ذهب مالك وأبو حنيفة. حجة من أوجب العمرة ما روي في حديث الضبي بن معبد أنه قال لعمر بن الخطاب إني وجدت الحج والعمرة مكتوبين علي وإني أهلك بهما فقال أهديت لسنة نبيك محمد ﷺ أخرجه أبو داود والنسائي بأطول من هذا وجه الدليل أنه أخبر عن وجوبهما عليه وصوبه عمر وبين أنه مهتد بما رآه في وجوبهما عليه لسنة النبي ﷺ.

وروي عن ابن عباس أنها كقرينها في كتاب الله: ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ وعن ابن عمر قال: «الحج

قوله عز وجل: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾، قرأ علقمة وإبراهيم النخعي: ﴿وأقيموا الحج والعمرة لله﴾، واختلفوا في إتمامها فقال بعضهم: هو أن يتمهما بمناسكهما وحدودهما وسننهما، وهو قول ابن عباس وعلقمة وإبراهيم النخعي ومجاهد، وأركان الحج خمسة: الإحرام، والوقوف بعرفة، وطواف الزيارة، والسعي بين الصفا والمروة، وحلق الرأس أو التقصير، وللحج تحللان، وأسباب التحلل ثلاثة: رمي جمرة العقبة يوم النحر، وطواف الزيارة، والحلق، فإذا وجد شيئا من هذه الأشياء الثلاثة حصل التحلل الأول، وبالثلاث حصل التحلل الثاني، وبعد تحلل الأول يستبيح جميع محظورات الإحرام إلا النساء، وبعد الثاني يستبيح الكل، وأركان العمرة أربعة: الإحرام، والطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، والحلق. قال سعيد بن جبير وطاوس: تمام الحج والعمرة أن تحرم بهما مفردين مستأنفين من ذويرية أهلك، وسئل علي بن أبي طالب عن قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾، قال: أن تحرم بهما من ذويرية أهلك، ومثله عن ابن مسعود قال قتادة: تمام العمرة أن تعمر في غير أشهر الحج، فإن كانت في أشهر الحج ثم أقام حتى حج فهي تمتعه، وعليه فيه الهدي إن وجدته أو الصيام إن لم يجد الهدي، وتمام الحج أن يؤتى بمناسكه كلها حتى لا يلزمه عما ترك دم بسبب قرآن ولا ميتة، وقال الضحاك: إتمامهما أن تكون النفقة حلالاً وينتهي عما نهى الله عنه، وقال سفيان الثوري: إتمامهما أن تخرج من أهلك لهما، ولا تخرج لتجارة ولا لحاجة أخرى، قال عمر بن الخطاب: الوفد كثير والحاج قليل، واتفقت الأمة على وجوب الحج على من استطاع إليه سبيلاً، واختلفوا في وجوب العمرة، فذهب أكثر أهل العلم إلى وجوبها وهو قول عمر، وعلي وابن عمر، وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: والله إن العمرة لقرينة الحج في كتاب الله، ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ

والعمرة فريضتان» وعنه: «ليس أحد من خلق الله إلا وعليه حجة وعمرة واجبتان من استطاع إلى ذلك سبيلاً» وعن ابن عباس قال: «العمرة واجبة كوجوب الحج» وعن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة وليس لحجة مبرورة ثواب إلا الجنة» أخرجه النسائي والترمذي وزاد: «وما من مؤمن يظل يومه محرماً إلا غابت الشمس بذنوبه» وقال حديث حسن صحيح. وجه الدليل أنه أمر بالمتابعة بين الحج والعمرة والأمر للوجوب ولأنها قد نظمت مع الحج في الأمر بالإتمام فكانت واجبة كالحج، وحجة من قال بأنها سنة ما روي عن جابر قال: «سئل رسول الله ﷺ عن العمرة أواجبة هي؟ قال: لا وأن تعتمروا خير لكم» أخرجه الترمذي. وأجيب عنه بأن هذا الحديث يرويه حجاج بن أرطاة وحجاج ليس ممن يقبل منه ما تفرد به لسوء حفظه وقلة مراعاته لما يحدث به واجتمعت الأمة على جواز أداء الحج والعمرة على ثلاثة أنواع إفراد وتمتع وقران فصورة الإفراد أن يحج ثم بعد فراغه منه يعتمر من أدنى الحل أو يعتمر قبل أشهر الحج ثم يحج في تلك السنة. وصورة التمتع أن يحرم بالعمرة في أشهر الحج ويأتي بأعمالها فإذا فرغ من أعمالها أحرم بالحج من مكة في تلك السنة وإنما سمي تمتعاً لأنه يستمتع بمحظورات الإحرام بعد التحلل من العمرة إلى أن يحرم بالحج. وصورة القرآن أن يحرم بالحج والعمرة معاً في أشهر الحج فينويهما بقلبه وكذلك لو أحرم بالعمرة في أشهر الحج ثم أدخل عليها الحج قبل أن يفتح الطواف فيصير قارناً. واختلفوا في الأفضل فذهب مالك والشافعي إلى أن الإفراد أفضل ثم التمتع ثم القرآن يدل عليه ما روي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ أفرد الحج، أخرجه مسلم وله عن ابن عمر قال: أهللنا مع رسول الله ﷺ الحج مفرداً، وفي رواية إن رسول الله ﷺ أهل بالحج مفرداً، وله عن جابر قال: قدمنا مع رسول الله ﷺ ونحن نصرخ بالحج صراحاً. وعن ابن عمر قال: افصلوا بين حجكم وعمركم فإن ذلك أتم لحج أحدكم وأتم لعمركم أن يعتمر في غير أشهر الحج.

والعمرة لله ﷻ، وبه قال عطاء وطاوس ومجاهد والحسن وقتادة وسعيد بن جبير، وإليه ذهب الثوري والشافعي في أصح قوليه، وذهب قوم إلى أنها سنة، وهو قول جابر وبه قال الشعبي، وإليه ذهب مالك وأهل العراق وتأولوا قوله تعالى: ﴿وَأَتَمُوا الْحَجَّ وَالْعَمْرَةَ لِلَّهِ﴾، على معنى أتموهما إذا دخلتم فيها، أما ابتداء الشروع فيها فتطوع، واحتج من لم يوجبها بما روي عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه سئل عن العمرة أواجبة هي؟ فقال: «لا وإن تعتمروا خير لكم»، والقول الأول أصح، ومعنى قوله: ﴿وَأَتَمُوا الْحَجَّ وَالْعَمْرَةَ لِلَّهِ﴾ أي: ابتدؤوهما فإذا دخلتم فيهما فأتموهما فهو أمر بالإبداء والإتمام، أي: أقيموهما، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، أي: ابتدؤوه وأتموه، أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أبو منصور السمعاني أخبرنا أبو جعفر الزياتي، أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا ابن أبي شيبة، أخبرنا أبو خالد الأحمر عن عمرو بن قيس عن عاصم، عن شقيق عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب، كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة، وليس للحج المبرور جزاء إلا الجنة»، وقال ابن عمر: ليس من خلق الله أحد إلا وعليه حجة وعمرة واجبتان إن استطاع إلى ذلك سبيلاً كما قال الله تعالى: ﴿وَأَتَمُوا الْحَجَّ وَالْعَمْرَةَ لِلَّهِ﴾، فمن زاد بعد ذلك فهو خير تطوع، واتفقت الأمة على أنه يجوز أداء الحج والعمرة على ثلاثة أوجه: الإفراد والتمتع والقران، فصورة الإفراد أن يفرد الحج، ثم بعد الفراغ منه يعتمر، وصورة التمتع: أن يعتمر في أشهر الحج ثم بعد الفراغ من أعمال العمرة يحرم بالحج من مكة، فيحج في هذا العام، وصورة القرآن أن يحرم بالحج والعمرة معاً، أو يحرم بالعمرة ثم يدخل عليها الحج قبل أن يفتح الطواف، فيصير قارناً، واختلفوا في الأفضل من هذه الوجوه، فذهب جماعة إلى أن الإفراد أفضل، ثم التمتع ثم القرآن، وهو قول مالك والشافعي، لما أخبرنا أبو الحسن السرخسي،

أخرجهم مالك في الموطأ وذهب الثوري وأبو حنيفة إلى أن القرآن أفضل يدل عليه ما روي عن أنس قال سمعت رسول الله ﷺ يلي بالحج والعمرة جميعاً وفي رواية سمعت رسول الله ﷺ يقول لبيك عمرة وحجاً، أخرجاه في الصحيحين. وذهب أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه إلى أن التمتع أفضل، يدل عليه ما روي عن ابن عباس قال: «تمتع رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان فأول من نهى عنهما معاوية» أخرجه الترمذي (ق) عن ابن عمر قال تمتع رسول الله ﷺ في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج وأهدى فساق معه الهدى من ذي الحليفة وبدأ رسول الله ﷺ فأهل بالعمرة ثم أهل بالحج وتمتع الناس مع رسول الله ﷺ بالعمرة إلى الحج وكان من الناس من أهدى ومنهم لم يهد فلما قدم رسول الله ﷺ مكة قال للناس من كان منكم أهدى فإنه لا يحل من شيء حرم منه حتى يقضي حجه ومن لم يكن منكم أهدى فليطف بالبيت والصفاء والمروة وليقصر وليتحلل ثم ليهل بالحج وليهد فمن لم يجد هدياً فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله، وطاف رسول الله ﷺ حين قدم مكة فاستلم الركن أول شيء ثم خب ثلاثة أطواف من السبع ومشى أربعة أطواف ثم ركع حين قضى طوافه بالبيت عند المقام ركعتين ثم سلم فانصرف فأتى الصفاء فطاف بالصفاء والمروة سبعة أشواط ثم لم يحل من شيء حرم منه حتى قضى حجه ونحر هديه يوم النحر وأفاض وطاف بالبيت ثم حل من كل شيء حرم منه وفعل مثل ما فعل رسول الله ﷺ من أهدى فساق الهدى من الناس». اختلفت الروايات في حجة النبي ﷺ هل كان مفرداً أو متمتعاً أو قارناً؟ وهي ثلاثة أقوال للعلماء بحسب مذاهبهم السابقة ورجحت كل طائفة نوعاً وادّعت أن حجة النبي ﷺ كذلك وطريق الجمع بين روايات الصحابة واختلافهم في حجته ﷺ أنه كان أولاً مفرداً ثم إنه ﷺ أحرم بالعمرة بعد ذلك وأدخلها على الحج فصار قارناً فمن روى أنه كان مفرداً فهو الأصل ومن روى القرآن اعتمد آخر الأمر ومن روى التمتع أراد التمتع اللغوي وهو الانتفاع والارتفاق وقد ارتفق بالقرآن كارتفاق التمتع وزيادة وهو الاقتصار على فعل واحد، وبهذا أمكن الجمع بين الأحاديث المختلفة في صفة حجة الوداع وهو الصحيح وذكر الشافعي في كتاب اختلاف

أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن بن نوفل، عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام حجة الوداع فمنا من أهل بعمرة، ومنا من أهل بحج وعمرة، ومنا من أهل بحج، وأهل رسول الله ﷺ بالحج، فأما من أهل بالعمرة فحل وأما من أهل بالحج أو جمع بين الحج والعمرة، فلن يحل حتى كان يوم النحر، أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب، أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أخبرنا أبو العباس الأصم، أخبرنا الربيع أخبرنا الشافعي أخبرنا مسلم عن ابن جريج عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر وهو يحدث عن حجة النبي ﷺ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ لا ننوي إلا الحج، ولا نعرف غيره ولا نعرف العمرة، ورؤي عن ابن عمر أن النبي ﷺ أفرد الحج، وذهب قوم إلى أن القرآن أفضل، وهو قول الثوري وأصحاب الرأي واحتجوا بما أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالح، أخبرنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي، أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم، أخبرنا محمد بن هشام بن ملاس النميري أخبرنا مروان بن معاوية الفراري أخبرنا حميد قال أنس بن مالك أهل رسول الله ﷺ فقال: «لبيك بحجة وعمرة»، وذهب قوم إلى أن التمتع أفضل، وهو قول أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه، واحتجوا بما أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا يحيى بن بكير، أخبرنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب، عن سالم بن عبد الله عن ابن عمر قال: تمتع رسول الله ﷺ في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج، فساق معه الهدى من ذي الحليفة، وبدأ رسول الله ﷺ فأهل بالعمرة ثم أهل بالحج، فتمتع الناس مع النبي ﷺ بالعمرة إلى الحج، فكان من

الحديث كلاماً موجزاً في ذلك فقال إن أصحاب رسول الله ﷺ كان منهم المفرد والقارن والمتمتع وكل كان يأخذ منه أمر نسكه ويصدر عن تعليمه فأضيف الكل إليه على معنى أنه أمر به وأذن فيه ويجوز في لغة العرب إضافة الفعل إلى الأمر به كما تجوز إضافته إلى فاعله كما يقال بنى فلان داره وأريد به أنه أمر ببنائها وكما يروى: «أن النبي ﷺ رجم ماعزاً» وإنما أمر برجمه، واختار الشافعي الأفراد واحتج في ترجيحه بأنه صح ذلك من رواية جابر وابن عمر وابن عباس وعائشة وهؤلاء لهم مزية في حجة الوداع على غيرهم، فأما جابر فهو أحسن الصحابة سيقاً لرواية حديث حجة الوداع فإنه ذكرها من حين خرج النبي ﷺ من المدينة إلى آخرها فهو أضبط لها من غيره، وأما ابن عمر فصح عنه أنه كان آخذاً بخطام ناقة النبي ﷺ في حجة الوداع وإنما سمعه يلبي بالحج. وأما ابن عباس فمحلّه من العلم والفقه والدين معروف مع كثرة بحثه عن أحوال رسول الله ﷺ وأما عائشة فقربها من رسول الله ﷺ معروف وإطلاعها على باطن أمره وظاهره مع كثرة فقهاها وعلمها، ومن دلائل ترجيح الأفراد أن الخلفاء الراشدين أفردوا الحج بعد رسول الله ﷺ وواظبوا عليه. وأركان الحج خمسة الإحرام والوقوف بعرفة والطواف والسعي بين الصفا والمروة وحلق الرأس أو التقصير في أصح القولين. وأركان العمرة أربعة: الإحرام والطواف والسعي والحلق أو التقصير، وبهذه الأركان تمام الحج والعمرة.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ﴾ أصل الحصر في اللغة الحبس والتضييق، ثم اختلف أهل اللغة في الحصر والإحصار فقليل إذا رد الرجل عن وجه يريده فقد أحصر، وإذا حبس فقد حصر وقال ابن السكيت أحصره المرض إذا منعه من السفر أو حاجة يريد بها وحصره العدو إذا ضيق عليه. وقال الزجاج: الرواية عن أهل اللغة يقال للذي يمنعه الخوف أو المرض أحصر والمحبوس حصر، وقال ابن قتيبة في قوله: ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ﴾ هو أن يعرض للرجل ما يحول بينه وبين الحج من مرض أو كسر أو عد ويقال أحصر فهو محصر فإن حبس في دار أو سجن قيل حصر فهو محصور وذهب قوم إلى أنهما بمعنى واحد. قال الزجاج: يقال الرجل من حصرك هنا ومن أحصرك وقال

الناس مَنْ أَهْدَى فَسَاقِ الْهَدْيِ، ومنهم مَنْ لَمْ يَهْدِ فَلَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ قَالَ لِلنَّاسِ: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ أَهْدَى فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ مِنْ شَيْءٍ حَرُمَ مِنْهُ، حَتَّى يَقْضِيَ حَجَّهَ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَهْدَى فَلْيُطْفَأْ بِالْبَيْتِ وَيَسْعَى بَيْنَ الصَّافَا وَالْمَرْوَةِ وَيُقَصِّرَ وَلْيَتَحَلَّلْ، ثُمَّ لِيَهْلُ بِالْحَجِّ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ هَدِيًّا فَلْيَصُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةَ إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ»، فطاف حين قَدِمَ مَكَّةَ وَاسْتَلَمَ الرُّكْنَ أَوَّلَ شَيْءٍ، ثُمَّ خَبَّ ثَلَاثَةَ أَشْوَاطٍ وَمَشَى أَرْبَعًا فَرَكِعَ حِينَ قَضَى طَوَافَهُ بِالْبَيْتِ عِنْدَ الْمَقَامِ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ سَلَّمَ فَانْصَرَفَ فَاتَى الصَّافَا فَطَافَ بِالصَّافَا وَالْمَرْوَةِ سَبْعَةَ أَشْوَاطٍ ثُمَّ لَمْ يَتَحَلَّلْ مِنْ شَيْءٍ حَرُمَ مِنْهُ حَتَّى قَضَى حَجَّهَ وَنَحَرَ هَدِيهَ يَوْمَ النَّحْرِ، وَأَفَاضَ فَطَافَ بِالْبَيْتِ ثُمَّ حَلَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَرُمَ مِنْهُ، وَفَعَلَ مِثْلَ مَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْ أَهْدَى وَسَاقِ الْهَدْيِ مِنَ النَّاسِ، وَعَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَخْبَرَتْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي تَمَتُّعِهِ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ، فَتَمَتَّعَ النَّاسُ مَعَهُ بِمِثْلِ الَّذِي أَخْبَرَنِي سَالِمٌ عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ شَيْخُنَا الْإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدْ اخْتَلَفَ الرُّوَاةُ فِي إِحْرَامِ النَّبِيِّ ﷺ، كَمَا ذَكَرْنَا وَذَكَرَ الشَّافِعِيُّ فِي كِتَابِ اخْتِلَافِ الْأَحَادِيثِ كَلَامًا مُوجِزًا أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَ مِنْهُمْ الْمَفْرَدُ وَالْقَارِنُ وَالْمَتَمَتِّعُ، وَكُلُّ كَانَ يَأْخُذُ مِنْهُ أَمْرٌ نُسَكُهُ وَيُصَدَّرُ عَنْ تَعْلِيمِهِ، فَأُضِيفَ الْكُلُّ إِلَيْهِ عَلَى مَعْنَى أَنَّهُ أَمْرٌ بِهِ وَأُذِنَ فِيهِ، فَيَجُوزُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ إِضَافَةُ الْفِعْلِ إِلَى الْأَمْرِ بِهِ، كَمَا يَجُوزُ إِضَافَتُهُ إِلَى الْفَاعِلِ لَهُ كَمَا يَقَالُ: بَنَى فُلَانٌ دَارًا وَأُرِيدُ أَنَّهُ أَمَرَ بِبِنَائِهَا، وَكَمَا رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَجَمَ مَاعِزًا، وَإِنَّمَا أَمَرَ بِرَجْمِهِ، وَاخْتَارَ الشَّافِعِيُّ الْإِفْرَادَ، لِرَوَايَةِ جَابِرٍ وَعَائِشَةَ وَابْنَ عُمَرَ وَقَدَّمَهَا عَلَى رَوَايَةِ غَيْرِهِمْ لِتَقَدُّمِ صَحْبَةِ جَابِرِ النَّبِيِّ ﷺ، وَحَسَنَ سِيَاقَهُ لِبَتْدَاءِ قِصَّةِ حَجَّةِ الْوُدَاعِ وَآخِرَهَا، وَلِفَضْلِ حِفْظِ عَائِشَةَ، وَقَرَّبَ ابْنَ عُمَرَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالَ الشَّافِعِيُّ فِي اخْتِلَافِ الْأَحَادِيثِ إِلَى التَّمَتُّعِ، وَقَالَ: لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْاِخْتِلَافِ أَيْسَرُ مِنْ هَذَا، وَإِنْ

أحمد بن يحيى أصل الحصر والإحصار الحبس وحصر في الحبس أقوى من أحصر وقيل الإحصار يقال في المنع الظاهر كالعدو والمنع الباطن كالمرض والحصر لا يقال إلا في المنع الباطن وأما قوله ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ﴾ فمحمول على الأمرين وبحسب اختلاف أهل اللغة في معناها اختلف الفقهاء في حكمها فذهب قوم إلى أن كل مانع من عدو أو مرض أو ذهاب نفقة فإنه يبيح له التحلل من إحرامه وهو قول عطاء ومجاهد وقتادة وهو مذهب أبي حنيفة ويدل عليه ما روي عن عكرمة قال حدثني الحجاج بن عمرو قال قال: رسول الله ﷺ: «من كسر أو عرج فقد حلَّ وعليه حجة أخرى» قال عكرمة: فذكرت ذلك لأبي هريرة وابن عباس فقالا: صدق، أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وقال حديث حسن وذهب قوم إلى أنه لا يباح له التحلل إلا بحبس العدو وهو قول ابن عمر وابن عباس وأنس وبه قال مالك والليث والشافعي وأحمد وقالوا الحصر والإحصار بمعنى واحد واحتجوا بأن نزول الآية كان في قصة الحديدية في سنة ست وكان ذلك حبساً من جهة العدو لأن كفار مكة منعوا النبي ﷺ وأصحابه من الطواف بالبيت فنزلت هذه الآية فحل النبي ﷺ من عمرته ونحر هديه وقضاها من قابل ويدل عليه أيضاً سياق الآية وهو قوله: ﴿فَإِذَا أَمْتُمْ﴾ والأمن لا يكون إلا من خوف وثبت عن ابن عباس أنه قال لا حصر إلا حصر العدو فثبت بذلك أن المراد من الإحصار هو حصر العدو دون المرض وغيره. وأجيب عن حديث الحجاج بن عمرو بأنه محمول على من شرط التحلل بالمرض ونحوه إحرامه ويدل على جواز الاشتراط في الإحرام ما روي عن ابن عباس أن ضباعة بنت الزبير أتت النبي ﷺ فقالت يا رسول الله إني أريد الحج أفأشترط؟ قال نعم قالت كيف أقول؟ قال قل ليبيك اللهم ليبيك محلي من الأرض حيث تحبسنني أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح. ولغيره أن ضباعة بنت الزبير كانت وجعة فقال لها النبي ﷺ: حجّي واشترطي وقولي اللهم محلي حيث حبستني فذهب الشافعي وأحمد وإسحاق إذا اشترط في الحج فعرض له مرض أو عذر أن يتحلل ويخرج من إحرامه ثم المحصر يتحلل بذبح الهدي وحلق الرأس وهو المراد من قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ ومعنى الآية فإن أحصرتم دون تمام

كان الغلط فيه قبيحاً من جهة أنه مباح، لأن الكتاب ثم السنة ثم ما لا أعلم فيه خلافاً يدل على أن التمتع بالعمرة إلى الحج وإفراد الحج والقرآن واسع كله، أي التمتع والإفراد والقرآن، وقال من قال إنه إفراد الحج يشبه أن يكون قاله على ما يعرف من أهل العلم الذين أدركوا دور رسول الله ﷺ أن أحداً لا يكون مقيماً على الحج إلا وقد ابتدأ إحرامه بالحج، قال شيخنا الإمام ومما يدل على أنه كان متمتعاً أن الرواية عن ابن عمر وعائشة متعارضة، وقد روي عن ابن شهاب عن سالم عن ابن عمر قال: تمتع رسول الله ﷺ في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج، وقال ابن شهاب عن عروة: إن عائشة أخبرته عن النبي ﷺ في تمتعه بالعمرة إلى الحج، فتمتع الناس معه بمثل الذي أخبرني سالم عن ابن عمر وقال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «هذه عمرة استمتعنا بها»، وقال سعد بن أبي وقاص في المتعة: صنعها رسول الله ﷺ وصنعناها معه، قال شيخنا الإمام: وما روي عن جابر أنه قال: خرجنا لا ننوي إلا الحج لا ينافي التمتع، لأن خروجهم كان لقصد الحج، ثم منهم من قدم العمرة ومنهم من أهل بالحج إلى أن أمره النبي ﷺ أن يجعله متعة. قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ﴾، اختلف العلماء في الإحصار الذي يبيح للمحصر التحلل، من إحرامه، فذهب جماعة إلى أن كل مانع يمنعه عن الوصول إلى البيت الحرام والمضي في إحرامه من عدو أو مرض أو جرح أو ذهاب نفقة أو ضلال راحلة يبيح له التحلل، وبه قال ابن مسعود، وهو قول إبراهيم النخعي والحسن ومجاهد وعطاء وقتادة وعروة بن الزبير، وإليه ذهب سفيان الثوري وأهل العراق، وقالوا: إن الإحصار في كلام العرب هو: حبس العلة أو المرض، وقال الكسائي وأبو عبيدة: ما كان من مرض أو ذهاب نفقة، يقال: منه أحصر فهو محصر، وما كان من حبس عدو أو سجن يقال: منه حصر فهو محصور، إنما جعل ههنا حبس العدو إحصاراً

الحج أو العمرة فحللتكم فعليكم ما استيسر من الهدى والهدي ما يهدى إلى البيت وأعلاه بدنة وأوسطه بقرة وأدناه شاة. قال ابن عباس: شاة لأنه أقرب إلى اليسر، ومحل ذبح هدي المحصر حيث أحصر وإليه ذهب الشافعي لأن النبي ﷺ ذبح الهدى عام الحديبية بها، وذهب أبو حنيفة إلى أنه يقيم على إحرامه ويبعث بهديه إلى الحرم ويواعد من يذبحه هناك ثم يحل في ذلك الوقت.

﴿ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله﴾ أي مكانه الذي يجب أن يذبح فيه، وفيه قولان أحدهما أنه الحرم فإن كان حاجاً فمحله يوم النحر وإن كان معتمراً فمحله يوم يبلغ هديه إلى الحرم وهو قول أبي حنيفة والقول الثاني محل ذبحه حيث أحصر سواء كان في الحل أو في الحرم، ومعنى محله يعني حيث يحل ذبحه وأكله وهو قول مالك والشافعي وأحمد ويدل عليه ما روي عن ابن عمر قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ معتمرين فحال كفار قریش دون البيت فنحر رسول الله ﷺ وحلق رأسه، أخرجه البخاري.

قوله عز وجل: ﴿فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه﴾ معناه ولا تحلقوا رؤوسكم في حال الإحرام إلا أن تضطروا إلى حلقه لمرض أو أذى وهو القمل أو الصداع ﴿ففدية﴾ فيه إضمار تقديره فحلق رأسه فعليه فدية، نزلت هذه الآية في كعب بن عجرة (ق) عن كعب بن عجرة قال: أتى على رسول الله ﷺ وأنا أوقد تحت قدر لي والقمل يتناثر على وجهي فقال: أيؤذيك هوام رأسك؟ قال قلت نعم قال فاحلق وصم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين أو انسك نسكة لا أدري بأي ذلك بدأ وفي رواية قال نزلت هذه الآية: ﴿فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك﴾ وذكر نحوه وفي أخرى أن رسول الله ﷺ مر به وهو بالحديبية قبل أن يدخل مكة وهو محرم وذكره، وفي أخرى أن النبي ﷺ قال له: ما كنت أرى أن الوجع بلغ منك ما أرى أو ما كنت أرى أن الجهد بلغ بك ما أرى أتجد شاة؟ قلت لا قال: فصم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع. قال كعب فنزلت في خاصة وهي لكم عامة ومعنى قوله تعالى ﴿ففدية من صيام﴾ أي صوم ثلاثة أيام ﴿أو

قياساً على المرض إذا كان في معناه، واحتجوا بما روي عن عكرمة عن الحجاج بن عمرو الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَسَرَ أَوْ عَرَجَ فَقَدْ حَلَّ عَلَيْهِ الْحَجَّ مِنْ قَابِلٍ»، قال عكرمة: فسألت ابن عباس وأبا هريرة فقالا: صدق، وذهب جماعة إلى أنه لا يباح له التحلل إلا بحبس العدو، وهو قول ابن عباس، وقال: لا حصر إلا حصر العدو، وروي معناه عن ابن عمر وعبد الله بن الزبير، وهو قول سعيد بن المسيب وسعيد بن جبیر، وإليه ذهب الشافعي وأحمد وإسحق، وقالوا: الحصر والإحصار بمعنى واحد، وقال ثعلب: تقول العرب حصرت الرجل عن حاجته، فهو محصور، وأحصره العدو إذا منعه عن السير هو محصر، واحتجوا بأن نزول هذه الآية في قصة الحديبية كان ذلك حبساً من جهة العدو، ويدل عليه قوله تعالى في سياق الآية: ﴿فَإِذَا أُمْتُمَ﴾، والأمن يكون من الخوف، وضعفوا حديث الحجاج بن عمرو بما ثبت عن ابن عباس أنه قال: لا حصر إلا حصر العدو، وتأوله بعضهم على أنه إنما يحل بالكسر والعرج إذا كان قد شرط ذلك في عقد الإحرام، كما روي أن ضباعة بنت الزبير كانت وجعة فقال لها النبي ﷺ: «حُجِّي واشترطي وقولي اللَّهُمَّ مَحِلِّي حَيْثُ حَبَسْتَنِي»، ثم المحصر يتحلل بذبح الهدى وحلق الرأس، والهدي بشاة وهو المراد من قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ ومحل ذبحه حيث أحصر عند أكثر أهل العلم، لأن النبي ﷺ ذبح الهدى عام الحديبية بها، وذهب قوم إلى أن المحصر يقيم على إحرامه، ويبعث بهديه إلى الحرم ويواعد من يذبحه هناك ثم يحل، وهو قول أهل العراق، واختلف القول في المحصر إذا لم يجد هدياً ففي قول: لا بدل له فيتحلل والهدي في ذمته إلى أن يجده، والقول الثاني: له بدل، فعلى هذا اختلف القول فيه، ففي قول: عليه صوم التمتع، وفي قول: تقوم الشاة بدرهم ويجعل الدراهم طعاماً فيتصدق به، فإن عجز عن

صدقة ﴿ يعني إطعام ثلاثة أصوع ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع ﴾ أو نسك ﴿ واحداً نسيكة أي ذبيحة وأغلاها بدنة وأوسطها بقرة وأدناها شاة وهذه الفدية على التخيير إن شاء ذبح أو صام أو تصدق وكل هدي أو طعام يلزم المحرم فإنه لمساكين الحرم إلا هدي المحصر فإنه يذبحه حيث أحصر. وأما الصوم فله أن يصوم حيث شاء. قوله تعالى: ﴿ فإذا أمتتم ﴾ يعني من خوفكم وبرأتكم من مرضكم وقيل إذا أمتتم من الإحصار ﴿ فمن تمتع بالعمرة إلى الحج ﴾ قال ابن الزبير معناه فمن أحصر حتى فاته الحج ولم يتحلل فقدم مكة فخرج من إحرامه بعمل عمرة فاستمتع بإحلاله ذلك بتلك العمرة إلى السنة المستقبلة ثم حج فيكون متمتعاً بذلك الإحلال إلى إحرامه الثاني في العام المقبل وقيل معناه فإذا أمتتم وقد أحللتكم من إحرامكم بعد الإحصار ولم تعتمروا في تلك السنة ثم اعتمرتم في السنة القابلة في أشهر الحج ثم أحللتكم فاستمتعتم بإحلالكم إلى الحج ثم أحرمتكم بالحج فعليكم ما استيسر من الهدي وقال ابن عباس: هو الرجل يقدم معتمراً من أفق الآفاق في أشهر الحج ففضى عمرته وأقام بمكة حلالاً حتى أنشأ منها الحج فحج من عامه ذلك فيكون مستمتعاً بالإحلال عن العمرة إلى إحرامه بالحج. ومعنى التمتع في اللغة هو الاستمتاع بعد الخروج من العمرة والتلذذ بما كان محظوراً عليه في حال الإحرام إلى إحرامه بالحج ﴿ فما استيسر من الهدي ﴾ يعني فعلية ما استيسر من الهدي وهو شاة يذبحها يوم النحر، فلو ذبح قبله بعدما أحرم بالحج أجزأه عند الشافعي كدم الجبرانات ولا يجزئه ذبحه عند أبي حنيفة قبل يوم النحر كدم الأضحية. ولوجوب دم التمتع خمس شرائط: أحدها: أن يقدم العمرة على الحج. الثاني: أن يحرم بالعمرة في أشهر الحج. الثالث: أن يحج بعد الفراغ من العمرة في هذه السنة. الرابع: أن يحرم من مكة ولا يعود إلى ميقات بلده، فإن رجع إلى

الإطعام صام عن كل مُدٍّ من الطعام يوماً كما في فدية الطيب واللبس، فإن المحرم إذا احتاج إلى ستر رأسه لحرٍّ أو بردٍ أو إلى لبس قميص أو مرض فاحتاج إلى مداواته بدواء فيه طيب، فعلٌ وعليه الفدية، وفديته على الترتيب والتعديل فعليه ذبح شاة، فإن لم يجد يقوم الشاة بدراهم، والدراهم يشتري بها طعاماً فيتصدق به، فإن عجز صام عن كل مُدٍّ يوماً، ثم المحصر إن كان إحرامه بفرض قد استقر عليه فذلك الفرض في ذمته، وإن كان بحج تطوع فهل عليه القضاء؟ اختلفوا فيه فذهب جماعة إلى أنه لا قضاء عليه، وهو قول مالك والشافعي، وذهب قوم إلى أن عليه القضاء وهو قول مجاهد والشعبي والنخعي وأصحاب الرأي. قوله تعالى: ﴿ فما استيسر من الهدي ﴾، أي: فعلية ما تيسر من الهدي، ومحل رفعه، وقيل: ﴿ ما ﴾ في محل النصب، أي فاهد ما استيسر، والهدي جمع هدية وهي اسم لكل ما يُهدى إلى بيت الله تقريباً إليه، وما استيسر من الهدي شاة، قاله علي بن أبي طالب وابن عباس لأنه أقرب إلى اليسر، وقال الحسن وقتادة أعلاه بدنة وأوسطه بقرة وأدناها شاة، قوله تعالى: ﴿ ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله ﴾، اختلفوا في المحل الذي يحل المحصر ببلوغ هديه إليه، فقال بعضهم: هو ذبحه بالموضع الذي أحصر فيه سواء كان في الحل أو في الحرم، ومعنى ﴿ محله ﴾ حيث يحل ذبحه فيه، أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا عبد الله بن محمد أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر، أخبرني الزهري أخبرني عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة في قصة الحديبية، قال: فلما فرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا»، فوالله ما قام رجل منهم حتى قال ذلك مرّات، فلما لم يقدّم منهم أحدٌ دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك! اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم بكلمة حتى تنحر بُذْنَكَ وتدعوا حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك نحر بُذْنَةً ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً، أي: ازدحاماً غمّاً، وقال بعضهم: محل هدي

الميقات وأحرم منه لم يكن متمتعاً. الخامس: أن لا يكون من حاضري المسجد الحرام فهذه الشروط معتبرة في وجوب دم التمتع ومتى فقد شيء منها لم يكن متمتعاً ودم التمتع دم جبران عند الشافعي فلا يجوز أن يأكل منه. وقال أبو حنيفة: هو دم نسك فيجوز أن يأكل منه وقوله ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ يعني الهدي ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾ أي فعلية صيام ثلاثة أيام في وقت اشتغاله بالحج. قيل: يصوم يوماً قبل يوم التروية ويوم التروية ويوم عرفة وقيل بل المستحب أن يصوم في أيام الحج بحيث يكون يوم عرفة مفطراً فإن لم يصم قبل يوم النحر فقبل يصوم أيام التشريق وبه قال مالك وأحمد وهو أحد قولي الشافعي. وقيل: بل يصوم بعد أيام التشريق وهو رواية عن أحمد والقول الآخر للشافعي ﴿وَسَبْعَةَ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ يعني وصوموا سبعة أيام إذا رجعتكم إلى أوطانكم وأهلكم قاله ابن عباس وبه قال الشافعي، فلو صام قبل الرجوع إلى أهله لم يجزه عنده وقيل المراد من الرجوع هو الفراغ من أعمال الحج والأخذ في الرجوع فعلى هذا يجزئه أن يصوم السبعة أيام بعد الفراغ من أعمال الحج وقبل الرجوع إلى أهله وبه قال أبو حنيفة: ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ يعني في الثواب والأجر وقيل كاملة في قيامها مقام الهدي لأنه قد يحتمل أن يظن ظان أن الثلاثة قد قامت مقام الهدي فاعلم الله أن العشرة بكمالها هي القائمة مقام الهدي وقيل فائدة التكرار التوكيد كقول الفرزدق:

ثَلَاثَ وَاثْنَانِ فَهِنَّ خَمْسٌ وَسَادِسَةٌ تَمِيلُ إِلَى سَهَامٍ

ولأن القرآن أنزل بلغة العرب والعرب تكرر الشيء تريد به التوكيد وقيل فائدة ذلك الفذلكة في علم الحساب وهو أن يعلم العدد مفصلاً ثم يعلمه جملة ليجتاط به من جهتين فكذاك قوله تعالى: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾

المحصر: الحَرَم، فإن كان حاجاً فمحله يوم النحر، وإن كان معتمراً فمحله يوم يبلغ هديه الحرم، قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ﴾، معناه لا تحلقوا رؤوسكم في حال الإحرام إلا أن تضطروا إلى حلقه لمرضٍ أو لأذى في الرأس من هواءٍ أو صداعٍ ﴿فَفِدْيَةٌ﴾، فيه إضمار، أي: فحلق عليه فدية، نزلت في كعب بن عجرة. أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا الحسن بن خلف، أخبرنا إسحق بن يوسف عن أبي بشر وقرأه عن ابن أبي نجیح عن مجاهد قال: حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي لَيْلَى عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَاهُ وَقَمَلُهُ يَسْقُطُ عَلَى وَجْهِهِ، فَقَالَ: «أَيُّذِيكَ هَوَامُكُ؟» قَالَ: نَعَمْ، فَأَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَحْلُقَ وَهُوَ بِالْحَدِيبَةِ، وَلَمْ يَبَيِّنْ لَهُمْ أَنَّهُمْ يَحْلُقُونَ بِهَا، وَهُمْ عَلَى طَمَعٍ أَنْ يَدْخُلُوا مَكَةَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْفَدْيَةَ، فَأَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُطْعِمَ فَرَقاً بَيْنَ سِتَّةِ مَسَاكِينَ، أَوْ يَهْدِيَ شَاةً أَوْ يَصُومَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ﴾، أي: ثلاثة أيام، ﴿أَوْ صَدَقَةٌ﴾، أي: ثلاثة أصع على سِتَّةِ مَسَاكِينَ، لكل مسكين نصف صاع، ﴿أَوْ نُسْكَ﴾، واحدتها نسكة، أي: ذبيحة أعلاها بدنة وأوسطها بقرة وأدناها شاة، أيتها شاء ذبح، فهذه الفدية على التخيير والتقدير، ويتخير بين أن يذبح أو يصوم أو يتصدق، وكل هدي أو طعام يلزم المحرم يكون بمكة ويتصدق به على مساكين الحرم، إلا هدياً يلزم المحصر فإنه يذبحه حيث أحصر، وأما الصوم فله أن يصوم حيث شاء، قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُمْتُمْ﴾، أي: من خوفكم وبرأتكم من مرضكم، ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾، اختلفوا في هذه المتعة فذهب عبد الله بن الزبير إلى أن معناه: فَمَنْ أَحْصَرَ حَتَّى فَاتَهُ الْحَجُّ وَلَمْ يَتَحَلَّلْ فَقَدِمَ مَكَةَ يَخْرُجُ مِنْ إِحْرَامٍ بِعَمَلِ عُمْرَةٍ وَاسْتَمْتَعَ بِإِحْلَالِهِ ذَلِكَ، فَتِلْكَ الْعُمْرَةُ إِلَى السَّنَةِ الْمُقْبِلَةِ ثُمَّ حَجَّ، فَيَكُونُ مَتَمَعاً بِذَلِكَ الْإِحْلَالِ إِلَى إِحْرَامِهِ الثَّانِي فِي الْعَامِ الْقَابِلِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَاهُ فَإِذَا أُمْتُمْ وَقَدْ حَلَلْتُمْ مِنْ إِحْرَامِكُمْ بَعْدَ الْإِحْصَارِ، وَلَمْ تَقْضُوا عِمْرَتَكُمْ وَأَخْرَجْتُمُ الْعُمْرَةَ إِلَى السَّنَةِ الْقَابِلَةِ فَاعْتَمَرْتُمْ فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ ثُمَّ حَلَلْتُمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِإِحْلَالِكُمْ إِلَى الْحَجِّ ثُمَّ أَحْرَمْتُمْ بِالْحَجِّ، فَعَلَيْكُمْ مَا اسْتَيْسَرَ مِنْ

وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ﴿١﴾ وقيل إن العرب لما كانوا لا يعلمون الحساب وكانوا يحتاجون إلى زيادة بيان وإيضاح فلذلك قال تلك عشرة كاملة وقيل لفظه خبر ومعناه أمر أي أكملوها ولا تنقصوها ﴿ذلك﴾ أي هذا الحكم الذي تقدم ﴿لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾ قيل حاضرو المسجد الحرام هم أهل مكة وهو قول مالك. وقيل: هم أهل الحرم وبه قال طاوس. وقال ابن جريج: هم أهل عرفة والرجيع وضجنان ونخلة. وقال الشافعي: كل من كان وطنه من مكة على أقل من مسافة القصر فهو من حاضري المسجد الحرام وقيل هم من دون الميقات وقال أبو حنيفة حاضرو المسجد الحرام أهل الميقات والمواقيت ذو الحليفة والجحفة وقرن ويللمم وذات عرق فمن كان من أهل هذه المواضع فما دونها إلى مكة فهو من حاضري المسجد الحرام. وقيل حاضرو المسجد الحرام من تلزمه الجمعة فيه ومعنى الآية أن المشار إليه في قوله: ﴿ذلك﴾ يرجع إلى أقرب مذكور وهو لزوم الهدى أو بدله على المتمتع وهو الآفاقي فأما المكي إذا تمتع أو قرن فلا هدي عليه ولا بد له لأنه لا يجب عليه أن يحرم من الميقات فأقدمه على المتمتع لا يوجب خللاً في حجه فلا يجب عليه الهدى ويدل على ذلك ما أخرجه

الهدى، وهو قول علقمة وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير، وقال ابن عباس وعطاء وجماعة: هو الرجل يقدم معتمراً من أفق الآفاق في أشهر الحج، ففضى عمرته وأقام حلالاً بمكة حتى أنشأ منها الحج، فحج من عامه ذلك فيكون مستمتعاً بالإحلال من العمرة إلى إحرامه بالحج، فمعنى التمتع: هو الاستمتاع بعد الخروج من العمرة بما كان محظوراً عليه في الإحرام إلى إحرامه بالحج، ولوجوب هدي التمتع أربع شرائط: أحدها أن يحرم بالعمرة في أشهر الحج، والثاني أن يحج بعد الفراغ من العمرة في هذه السنة، الثالث أن يحرم بالحج في مكة ولا يعود إلى الميقات لإحرامه، الرابع أن يكون من حاضري المسجد الحرام، فمتى وجدت هذه الشرائط فعليه ما استيسر من الهدى، وهو دم شاة ويذبحها يوم النحر، فلو ذبحها قبله بعد ما أحرم بالحج يجوز عند بعض أهل العلم كدماء الجنائيات، وذهب بعضهم إلى أنه لا يجوز قبل يوم النحر كدم الأضحية. قوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾: الهدى ﴿فصيام ثلاثة أيام في الحج﴾، أي: صوموا ثلاثة أيام يصوم يوماً قبل التروية ويوم التروية ويوم عرفة، ولو صام قبله بعدما أحرم بالحج جاز، ولا يجوز يوم النحر ولا أيام التشريق عند أكثر أهل العلم، وذهب بعضهم إلى جواز صوم الثلاثة في أيام التشريق، يروى ذلك عن عائشة وابن عمر وابن الزبير، وهو قول مالك والأوزاعي وأحمد وإسحق، قوله تعالى: ﴿وسبعة إذا رجعتم﴾، أي صوموا سبعة أيام إذا رجعتم إلى أهليكم وبلدكم، فلو صام السبعة قبل الرجوع إلى أهله لا يجوز، وهو قول أكثر أهل العلم، روي ذلك عن ابن عمر وابن عباس، وقيل: يجوز أن يصومها بعد الفراغ من أعمال الحج، وهو المراد من الرجوع المذكور في الآية، قوله تعالى: ﴿تلك عشرة كاملة﴾: ذكرها على وجه التأكيد، وهذا لأن العرب ما كانوا يهتدون إلى الحساب فكانوا يحتاجون إلى فضل شرح وزيادة بيان، وقيل: فيه تقديم وتأخير، يعني: فصيام عشرة أيام ثلاثة في الحج وسبعة إذا رجعتم، فهي عشرة كاملة، وقيل: كاملة في الثواب والأجر، وقيل: كاملة فيما أريد به من إقامة الصوم بدل الهدى، وقيل كاملة شروطها وحدودها، وقيل: لفظه خبر ومعناه أمر: أي فأكملوها ولا تنقصوها، ﴿ذلك﴾ أي: هذا الحكم، ﴿لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾، واختلفوا في حاضري المسجد الحرام، فذهب قوم إلى أنهم أهل مكة، وهو قول مالك، وقيل: هم أهل الحرم، وبه قال طاوس، وقال ابن جريج: أهل عرفة والرجيع وضجنان، وقال الشافعي كل من كان وطنه من مكة على أقل من مسافة القصر، فهو من حاضري المسجد الحرام، وقال عكرمة: هم من دون الميقات، وقيل: هم أهل الميقات فما دونه، وهو قول أصحاب الرأي، ودم القرآن كدم التمتع، والمكي إذا قرن أو تمتع فلا هدي عليه، قال عكرمة: سئل ابن عباس عن متعة الحج، فقال: أهل المهاجرون والأنصار وأزواج النبي ﷺ في حجة الوداع،

البخاري تعليقاً من حديث عكرمة قال سئل ابن عباس عن متعة الحج فقال: «أهل المهاجرون والأنصار وأزواج رسول الله ﷺ في حجة الوداع وأهلنا فلما قدما مكة قال رسول الله ﷺ اجعلوا إهلالكم بالحج عمرة إلا من قلد الهدى فطفنا بالبيت وبالصفا والمروة وأتينا النساء ولبسنا الثياب وقال: من قلد الهدى فإنه لا يحل من شيء حتى يبلغ الهدى محله ثم أمرنا عشية التروية أن نهل بالحج فإذا فرغنا من المناسك جئنا فطفنا بالبيت وبالصفا والمروة وقد تم حجنا وعلينا الهدى كما قال تعالى ﴿فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم﴾ إلى أمصاركم والشاة تجزى فجمعوا بين النسكين في عام بين الحج والعمرة فإن الله أنزله في كتابه وسنة نبيه ﷺ وأباحه للناس من غير أهل مكة قال الله تعالى: ﴿ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾ وفي الحديث زيادة قال الحميدي قال أبو مسعود الدمشقي هذا حديث غريب ولم أجده إلا عند مسلم بن الحجاج ولم يخرج في صحيحه، من أجل عكرمة فإنه لم يرو عنه في صحيحه وعندني أن البخاري إنما أخذه من مسلم. وقوله تعالى: ﴿واتقوا الله﴾ أي فيما فرضه عليكم ونهاكم عنه في الحج وفي غيره ﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ يعني لمن خالف أمره وتهاون بحدوده وارتكب مناهيه.

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَكْرَدُوا فَاتِكِ خَيْرَ الزَّادِ النَّفَقَى وَأَتَقُونِ يَكْأُولِي الْأَلْبَسِ ﴿١٩٧﴾

قوله عز وجل: ﴿الحج أشهر معلومات﴾ يعني أشهر الحج أشهر معلومات وقيل وقت الحج أشهر معلومات وهي شوال وذو القعدة وعشر ليل من ذي الحجة إلى طلوع الفجر من يوم النحر وبه قال عبدالله بن مسعود وجابر بن عبدالله وعبدالله بن الزبير ومن التابعين الحسن وابن سيرين والشعبي وهو قول الشافعي والثوري وأبي ثور وحجة الشافعي ومن وافقه أن الحج يفوت بطلوع الفجر الثاني من يوم النحر والعبادة لا تفوت مع بقاء وقتها فدل

وأهلنا فلما قدما مكة قال رسول الله ﷺ: «اجعلوا إهلالكم بالحج عمرة إلا من قلد الهدى»، فطفنا بالبيت بالصفا والمروة وأتينا النساء ولبسنا الثياب ثم أمرنا عشية التروية أن نهل بالحج، فإذا فرغنا فقد تم حجنا وعلينا الهدى، فجمعوا بين نسكين في عام، بين الحج والعمرة، فإن الله أنزل في كتابه وسنة نبيه، وأباحه للناس من غير أهل مكة، قال الله تعالى: ﴿ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾، ومن فاته الحج، وفواته يكون بفوات الوقوف، بعرفة حتى يطلع الفجر يوم النحر فإنه يتحلل بعمل العمرة، وعليه القضاء من قابل، والفدية وهي على الترتيب والتقدير كفدية التمتع والقرآن، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن نافع، عن سليمان بن يسار أن هناد بن الأسود جاء يوم النحر وعمر بن الخطاب ينحر هديه فقال: يا أمير المؤمنين أخطأنا العدد كنا نظن أن هذا اليوم يوم عرفة، فقال له عمر: اذهب إلى مكة فطف أنت ومن معك بالبيت، واسعوا بين الصفا والمروة، وانحروا هدياً إن كان معكم، ثم احلقوا وقصروا، ثم ارجعوا فإذا كان العام القابل فحجوا وأهدوا، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع. ﴿واتقوا الله﴾: في أداء الأوامر، ﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾، على ارتكاب المناهي.

قوله تعالى: ﴿الحج أشهر معلومات﴾، أي: وقت الحج أشهر معلومات، وهي: شوال وذو القعدة وتسع من ذي الحجة إلى طلوع الفجر من يوم النحر، ويروى عن ابن عمر: شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة، وكل واحد من اللفظين صحيح غير مختلف فيه، فمن قال: عشر عتبه عن الليالي، ومن قال تسع عتبه عن الأيام، فإن آخر أيامها يوم عرفة وهو يوم التاسع، وإنما قال: ﴿أشهر﴾ بلفظ الجمع وهي شهران وبعض الثالث لأنها وقت،

على أن يوم النحر ليس من أشهر الحج وأيضاً فإن الإحرام بالحج فيه لا يجوز فدل على أنه وما بعده ليس من أشهر الحج. وقال ابن عباس أشهر الحج شوال وذو القعدة وعشرة أيام من ذي الحجة آخرها يوم النحر وبه قال ابن عمر وعروة بن الزبير وطاوس وعطاء والنخعي وقتادة ومكحول والضحاك والسدي وأبو حنيفة وأحمد بن حنبل وهي إحدى الروايتين عن مالك وحجة هذا القول أن يوم النحر وهو يوم الحج الأكبر لأن فيه يقع طواف الإفاضة وهو تمام أركان الحج، وقيل إن أشهر الحج شوال وذو القعدة وذو الحجة بكماله، وهو رواية عن ابن عمر وبه قال الزهري: وهي الرواية الأخرى عن مالك وحجة هذا القول إن الله تعالى ذكر أشهر الحج بلفظ الجمع وأقل الجمع المطلق ثلاث، ولأن كل شهر كان أوله من أشهر الحج كان آخره كذلك. فإن قلت هنا إشكال. وهو أن الله تعالى قال قبل هذه الآية: ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج﴾ فجعل الأهلة كلها مواقيت للحج. قلت قوله هي مواقيت للناس والحج وعام وهذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿الحج أشهر معلومات﴾ خاص والخاص مقدم على العام. وقيل: إن الآية الأولى مجملة وهذه الآية مفسرة لها. فإن قلت إنما قال الحج أشهر بلفظ الجمع وعند الشافعي أشهر الحج شهران وعشر ليالٍ وعند أبي حنيفة وعشرة أيام فما وجه هذا؟ قلت: إن لفظ الجمع يشترك فيه ما وراء الواحد بدليل قوله تعالى: ﴿فقد صغت قلوبكما﴾ وقيل إنه نزل بعض الشهر منزلة كله كما يقال رأيتك سنة كذا وإنما رآه في ساعة منها ولا إشكال فيه على القول الثالث وهو قول من قال إن أشهر الحج ثلاث شوال وذو القعدة وذو الحجة بكماله ﴿فمن فرض فيهن الحج﴾ يعني فمن ألزم نفسه وأوجب عليها فيهن الحج والمراد بهذا الفرض ما به يصير حاجاً وهو فعل يفعله ثم اختلفوا في ذلك الفعل فقال الشافعي: ينعقد الإحرام بمجرد النية من غير حاجة إلى التلبية ووجهه أن فرض الحج عبارة عن النية فوجب أن تكون النية كافية في انعقاد الحج وقال أبو حنيفة: لا يصح الشروع في الإحرام بمجرد النية حتى تنضم إليه التلبية أو سوق الهدي ووجهه أن الحج عبادة

والعرب تسمي الوقت تاماً بقليله وكثيره، فيقول أتيتك يوم الخميس، وإنما أتاه في ساعة منه، ويقولون: زرتك العام، وإنما زاره في بعضه، وقيل: الاثنان فما فوقهما جماعة، لأن معنى الجمع ضم شيء إلى شيء فإذا جاز أن يسمى الاثنان جماعة، جاز أن يسمى الاثنان وبعض الثالث جماعة، وقد ذكر الله تعالى الاثنين بلفظ الجمع فقال: ﴿فقد صغت قلوبكما﴾ [التحریم: ٤] أي: قَلْبَاكُمَا، وقال عروة بن الزبير وغيره: أراد بالأشهر شوالاً وذو القعدة وذو الحجة كمالاً، لأنه يبقى على الحاج أمورٌ بعد عَرَفَةَ يجب عليه فعلها مثل الرمي والذبح والحلق وطواف الزيارة والبيتوتة بمنى، فكانت في حكم الحج، ﴿فمن فرض فيهن الحج﴾، أي: فمن أوجب على نفسه الحج بالإحرام والتلبية، وفيه دليل على أن من أحرم بالحج في غير أشهر الحج لا ينعقد إحرامه بالحج، وهو قول ابن عباس وجابر، وبه قال عطاء وطاوس ومجاهد وإليه ذهب الأوزاعي والشافعي، وقال سعيد: ينعقد إحرامه بالعمرة، لأن الله تعالى خص هذه الأشهر بفرض الحج فيها، فلو انعقد في غيرها لم يكن لهذا التخصيص فائدة، كما أنه علق بالصلوات بالمواقيت، ثم من أحرم بفرض الصلاة قبل دخول وقته لا ينعقد إحرامه عن العرض، وذهب جماعة إلى أنه ينعقد إحرامه بالحج، وهو قول مالك والثوري وأبي حنيفة، وأما العمرة فجميع أيام السنة لها وقتٌ إلا أن يكون متلبساً بالحج، ورؤي عن أنس أنه كان بمكة فكان إذا حمم رأسه خرج فاعتمر، قوله تعالى: ﴿فلا رفت ولا فسوق﴾، قرأ ابن كثير وأهل البصرة ﴿فلا رفت ولا فسوق﴾ بالرفع والتنوين فيهما، وقرأ الآخرون بالنصب من غير تنوين، كقوله تعالى: ﴿ولا جدال في الحج﴾، وقرأ أبو جعفر كلها بالرفع والتنوين واختلفوا في الرفث، قال ابن مسعود وابن عباس وابن عمر: هو الجماع، وهو قول الحسن ومجاهد وعمرو بن دينار وقتادة وعكرمة والربيع وإبراهيم النخعي، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الرفث غشيان النساء والتقبيل والغمز وأن يعرض لها

لها تحليل وتحريم فلا به من انضمام شيء إلى النية كتكبير الإحرام مع النية في الصلاة، وفي الآية دليل على أن الإحرام بالحج لا ينقصد إلا في أشهره وهو قول ابن عباس وإليه ذهب الشافعي وأحمد وإسحاق لأن الله تعالى خصص هذه الأشهر بفرض الحج فيها فلو انعقد في غيرها لم يكن لهذا التخصيص وجه ولا فائدة وقال مالك والثوري وأبو حنيفة: ينقصد إحرامه بالحج في جميع شهور السنة ووجهه أن الإحرام إلزام الحج فجاز تقديمه على الوقت كالنذر لأن الله تعالى جعل الأهلة كلها مواقيت للحج بقوله: ﴿هي مواقيت للناس والحج﴾ وقد تقدم الجواب عنه. وقوله تعالى ﴿فلا رث﴾ قال ابن عباس الرث الجماع وفي رواية عنه أن الرث غشيان النساء والتقبيل والغمز وأن يعرض لهن بالفحش من الكلام فعلى هذا القول التلطف به في غيبة النساء لا يكون رثاً، قال حصين بن قيس أخذ ابن عباس بذنب بعيره يلويه وهو يحدو ويقول:

وهـن يمشين بنا هميسا إن يصدق الطير نـنك لميسا

فقلت: أترث وأنت محرم؟ فقال: إن الرث ما قيل عند النساء وقوله لميسا هو اسم امرأة وقيل الرث كلام متضمن لما يستقبح ذكره من ذكر الجماع ودواعيه وقوله فلا رث يحتمل أن يكون نهياً عن تعاطي الجماع وأن يكون نهياً عن الحديث في ذلك لأنه من دواعيه وقيل الرث هو الفحش والخنا والقول القبيح. وقيل الرث اللغو من الكلام ويدل عليه قوله ﷺ: «إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث يومئذ ولا يصخب» ﴿ولا فسوق﴾ أصله الخروج عن الطاعة قال ابن عباس: هي المعاصي كلها وهو قول طاوس والحسن وسعيد بن جبيرة وقاتدة والزهرى والربيع والقرظي وقال ابن عمر: هو ما نهى عنه المحرم في حال الإحرام من قتل الصيد وتقليم الأظفار، وأخذ الشعر وما أشبه ذلك وقيل هو السباب والتنازع بالألقاب (ق) عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حج ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه» ﴿ولا جدال في الحج﴾ قال ابن عباس الجدال هو المراء وهو أن يماري

بالفحش من الكلام، قال حصين بن قيس: أخذ ابن عباس رضي الله عنهما بذنب بعيره، فجعل يلويه وهو يحدو ويقول:

وهن يمشين بنا هميسا إن تصدق الطير نـنك لميسا

فقلت له: أترث وأنت محرم؟ فقال: إنما الرث ما قيل عند النساء، قال طاوس: الرث التعريض للنساء بالجماع وذكره بين أيديهن، وقال عطاء: الرث قول الرجل للمرأة في حال الإحرام إذا حلت أصبتك، وقيل: الرث الفحش والقول القبيح، أما الفسوق فقد قال ابن عباس: هو المعاصي كلها، وهو قول طاوس والحسن وسعيد بن جبيرة وقاتدة والزهرى والربيع والقرظي، وقال ابن عمر: هو ما نهى عنه المحرم في حال الإحرام من قتل الصيد وتقليم الأظفار وأخذ الأشعار وما أشبههما، وقال إبراهيم وعطاء ومجاهد: هو السباب، بدليل قول النبي ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»، وقال الضحاك هو التنازع بالألقاب بدليل قوله تعالى: ﴿ولا تنازعوا بالألقاب بسبب الاسم﴾ [الحجرات: ١١]، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا آدم أخبرنا شعبة أخبرنا سيار أبو الحكم، قال: سمعت أبا حازم يقول سمعت أبا هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ حَجَّ لَهِ فَلَـمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ» قوله تعالى: ﴿ولا جدال في الحج﴾، قال ابن مسعود وابن عباس: الجدال أن يماري صاحبه ويخاصمه حتى يغضبه، وهو قول عمرو بن دينار وسعيد بن جبيرة وعكرمة والزهرى وعطاء وقاتدة، وقال القاسم بن محمد هو أن يقول بعضهم: الحج اليوم ويقول بعضهم: الحج غداً، وقال القرظي: كانت قریش إذا

الرجل صاحبه ويخاصمه حتى يغضبه وقيل: هو قول الرجل الحج اليوم يقول آخر الحج غمّاً وقيل هو أن النبي ﷺ قال في حجة الوداع وقد أحرّموا بالحج «اجعلوا أهلاً لكم بالحج عمرة إلا من قلد الهدى قالوا كيف نجعلها عمرة وقد سمينا الحج فهذا كان جدالهم. وقيل: هو ما كان عليه أهل الجاهلية كان بعضهم يقف بعرفة وبعضهم بمزدلفة وكان بعضهم يحج في ذي القعدة وبعضهم في ذي الحجة وكل يقول الصواب فيما فعلته فأنزل الله: ﴿ولا جدال في الحج﴾ فأخبر أن أمر الحج قد استقر على ما فعله رسول الله ﷺ فلا خلاف فيه بعده وذلك معنى قول النبي ﷺ: «ألا أن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» وقيل: معناه ولا شك في الحج أنه في ذي الحجة فأبطل النسب وقيل: ظاهر الآية خبر ومعناه نهى أي لا ترفثوا ولا تفسقوا ولا تجادلوا في الحج وإنما نهى عن ذلك وأمر باجتنابه في الحج وإن كان اجتناب ذلك في كل الأحوال والأزمان واجباً لأن الرفث والفسوق والجدال في الحج أسمع وأفزع منه في غيره ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، وهو الذي يجازيكم عليها، حث الله على فعل الخير عقيب النهي عن الشر وهو أن يستعملوا مكان الرفث الكلام الحسن ومكان الفسوق البر والتقوى ومكان الجمال الوفاق والأخلاق الجميلة، وقيل: جعل فعل الخير عبارة عن ربط الأنفس عن الشر حتى لا يوجد منهم ما نهوا عنه. وقيل: إنما ذكر الخير وإن كان عالماً بجميع أفعال العباد من الخير والشر لفائدة، وهي أنه تعالى إذا علم من العبد الخير ذكره وشهره وإذا علم منه الشر ستره وأخفاه فإذا كان هذا فعله مع عبده في الدنيا فكيف يكون في العقبى وهو أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾ نزلت في أناس من أهل اليمن كانوا يخرجون للحج من غير زاد ويقولون نحن متوكلون ويقولون نحج بيت ربنا أفلا يطعمنا فإذا قدموا مكة سألوا الناس وربما أفضى بهم الحال إلى النهب والغصب فأنزل الله وتزودوا أي ما تبغفون به وتكفون به وجوهكم عن الناس واتقوا إبراهيم والتثقل عليهم فإن خير الزاد التقوى وقيل في معنى الآية وتزودوا من التقوى فإن الإنسان لا بد له من سفر في الدنيا، ولا بد فيه من زاد ويحتاج فيه إلى الطعام والشراب والمركب وسفر من الدنيا إلى الآخرة، ولا بد فيه من زاد أيضاً وهو تقوى الله والعمل بطاعته وهذا الزاد

اجتمعت بمنى قال هؤلاء: حجنا أتم من حجكم، وقال هؤلاء: حجنا أتم من حجكم، وقال مقاتل: هو أن النبي ﷺ قال لهم في حجة الوداع وقد أحرّموا بالحج: «اجعلوا إهلالكم بالحج عمرة إلا من قلد الهدى»، قالوا: كيف نجعله عمرة وقد سمينا الحج؟ فهذا جدالهم. وقال ابن زيد كانوا يقفون مواقف مختلفة: كلهم يزعم أن موقفه موقف إبراهيم، فكانوا يجادلون فيه، وقيل: هو ما كان عليه أهل الجاهلية كان بعضهم يقف بعرفة وبعضهم بالمزدلفة وكان بعضهم يحج في ذي القعدة وكان بعضهم يحج في ذي الحجة، فكل يقول: ما فعلته فهو الصواب، فقال جلّ ذكره: ﴿ولا جدال في الحج﴾ أي استقر أمر الحج على ما فعله رسول الله ﷺ، فلا اختلاف فيه من بعد. وذلك معنى قول النبي ﷺ: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض»، قال مجاهد: معناه ولا شك في الحج أنه في ذي الحجة. فأبطل النسب، قال أهل المعاني: ظاهر الآية نفي، ومعناها: نهى، أي: لا ترفثوا ولا تفسقوا ولا تجادلوا، كقوله تعالى: ﴿لا ريب فيه﴾ [البقرة: ٢، آل عمران: ٩ و٢٥، النساء: ٨٧، الأنعام: ١٢، يونس: ٣٧، الإسراء: ٩٩، السجدة: ٢، الشورى: ٧، الجاثية: ٢٦]، أي: لا ترتابوا، ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾، أي: لا يخفى عليه فيجازيكم به. قوله تعالى: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾، نزلت في ناس من أهل اليمن كانوا يخرجون إلى الحج بغير زاد ويقولون: نحن متوكلون، ويقولون: نحن نحج بيت الله فلا يطعمنا، فإذا قدموا مكة سألوا الناس، وربما يُفضي بهم الحال إلى النهب والغصب، فقال الله جلّ ذكره: ﴿وتزودوا﴾ أي: ما تبغفون به وتكفون به وجوهكم، قال أبي التفسير: الكعك

أفضل من الزاد الأول، فإن زاد الدنيا يوصل إلى مراد النفس وشهواتها، وزاد الآخرة يوصل إلى النعيم المقيم في الآخرة وفي هذا المعنى قال الأعشى:

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثلهم وأنك لم ترصد كما كان أرصدا

﴿واتقون﴾ أي وخافوا عقابي وقيل معناه واشتغلوا بتقواي وفيه تنبيه على كمال عظمة الله جل جلاله: ﴿يا أولي الأبواب﴾ يا ذوي العقول الذين يعلمون حقائق الأمور. قوله عز وجل:

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفْتُمْ
فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْرِقِ الْحَرَّاءِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ
الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾

﴿ليس عليكم جناح﴾ أي حرج ﴿أن تبغوا فضلاً من ربكم﴾ يعني رزقاً ونفعاً وهو الربح في التجارة (خ) عن ابن عباس قال كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية فلما كان الإسلام فكانهم تأثموا أن يتجروا في المواسم فنزلت:

﴿ليس عليكم جناح أن تبغوا فضلاً من ربكم﴾ في مواسم الحج. وقرأها ابن عباس هكذا وفي رواية أن تبغوا في مواسم الحج فضلاً من ربكم. وعكاظ سوق معروف بقرب مكة، ومجنة بفتح الميم وكسرها سوق بقرب مكة أيضاً، قال الأزرقى: هي بأسفل مكة على بريد منها وذو المجاز سوق عند عرفة كانت العرب في الجاهلية يتجرون في هذه الأسواق ولها مواسم فكانوا يقيمون بعكاظ عشرين يوماً من ذي القعدة ثم ينتقلون إلى مجنة فيقيمون بها ثمانية عشر يوماً عشرة أيام من آخر ذي القعدة، وثمانية أيام من أول ذي الحجة ثم يخرجون إلى عرفة في يوم التروية وقال الداودي: مجنة عند عرفة وعن أبي أمامة التيمي قال: كنت رجلاً أكرى في هذا الوجه وكان الناس يقولون لي: إنه ليس لك حج فلقيت ابن عمر فقلت له يا أبا عبد الرحمن إنني رجل أكرى في هذا الوجه وإن أناساً يقولون إنه ليس لك حج فقال ابن عمر أليس تحرم وتلبى وتطوف بالبيت وتفيض من عرفات وترمي الجمار؟ فقلت بلى قال فإن ذلك حجاج جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فسأله عن مثل ما سألتني عنه فسكت رسول الله ﷺ فلم يجبه حتى نزلت هذه الآية: ﴿ليس عليكم جناح أن تبغوا فضلاً من ربكم﴾ فأرسل إليه رسول الله ﷺ: «وقراها عليه وقال لك حج» أخرجه أبو داود والترمذي. وقال بعض العلماء: إن التجارة إن أوقعت نقصاً في أعمال الحج

والزيب والسويق والتمر ونحوها، ﴿فإن خير الزاد التقوى﴾ من السؤال والنهب، ﴿واتقون يا أولي الأبواب﴾: يا ذوي العقول.

قوله تعالى: ﴿ليس عليكم جناح أن تبغوا فضلاً من ربكم﴾، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا علي بن عبد الله، أخبرنا سفيان عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية، فلما كان الإسلام تأثموا من التجارة فيها، فأنزل الله تعالى: ﴿ليس عليكم جناح أن تبغوا فضلاً من ربكم﴾ في مواسم الحج، قرأ ابن عباس كذا، ورؤي عن أبي أمامة التيمي قال: قلت لابن عمر إنا قوم نكري في هذا الوجه، يعني: إلى مكة فيزعمون أن لا حج لنا؟ فقال: أستم تحرمون كما يحرمون وتطوفون كما يطوفون

لم تكن مباحة وإن لم توقع نقصاً فيه كانت من المباحات التي الأولى تركها لتجريد العبادة عن غيرها لأن الحج بدون التجارة أفضل وأكمل. قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَقَضْتُمْ﴾ أي دفعتم والإفاضة دفع بكثرة ﴿مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ جمع عرفة سميت بذلك وإن كانت بقعة واحدة لأن كل موضع من تلك المواضع عرفة فسمي مجموع تلك المواضع عرفات وقيل. إن اسم الموضع عرفات. واسم اليوم عرفة قال عطاء كان جبريل يرى إبراهيم المناسك ويقول له: عرفت فيقول عرفت فسمي ذلك المكان عرفات واليوم عرفة. وقال الضحاك: إن آدم لما أهبط وقع بالهند وحواء بجدة فجعل كل واحد منهما يطلب صاحبه فاجتمعا بعرفات في يوم عرفة فتعارفا فسمي اليوم عرفة والموضع عرفات، وقال السدي: إن إبراهيم لما أذن في الناس بالحج وأجابوه بالتلبية وأبى من أبى أمره الله تعالى أن يخرج إلى عرفات ونعتها له، فخرج فلما بلغ الشجرة استقبله الشيطان يرده فرماه بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة فطار فوق على الجمرة الثانية فرماه وكبر فطار فوق على الجمرة الثالثة فرماه وكبر فطار فلما رأى الشيطان أنه لا يطيعه ذهب فانطلق إبراهيم حتى أتى ذا المجاز فنظر إليه فلم يعرفه فجاهزه فسمي ذا المجاز، ثم انطلق إبراهيم حتى وقع بعرفات فعرفها بالنعت، فسمي الوقت عرفة والموضع عرفات حتى إذا أمسى ازدلف إلى جمع فسمي ذلك الموضع المزدلفة. وفي رواية عن ابن عباس أن إبراهيم رأى ليلة التروية في منامه أنه يؤمر بذبح ولده فلما أصبح تروى يومه أجمع أي تفكر هل هذه الرؤيا من الله تعالى أم من الشيطان فسمي يوم التروية، ثم رأى ذلك في ليلة عرفة ثانياً فلما أصبح عرف أن ذلك من الله فسمي اليوم عرفة. وقيل: سمي بذلك لأن الناس يعترفون في ذلك اليوم بذنوبهم وقيل: سمي عرفة من العرف وهو الطيب وسميت منى لما يمنى فيها من الدماء أي يصب فيكون فيه الفروث والدماء، فلا يكون الموضع طيباً وعرفات طاهرة عن مثل هذا فتكون طيبة. واعلم أن الوقوف بعرفة ركن من أركان الحج ولا يتم الحج إلا به، ومن فاته الوقوف في وقته فقد فاته الحج. ويدخل وقت الوقوف بعرفة بزوال الشمس من يوم عرفة ويمتد إلى طلوع الفجر الثاني من يوم النحر وذلك نصف يوم وليلة كاملة فمن وقف بعرفات في هذا

وترمون كما يرمون؟ قلت: بلى، قال: أنت حاج، جاء رجل إلى النبي ﷺ يسأله عن الذي سألتني عنه فلم يجبه بشيء حتى نزل جبريل بهذه الآية ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾، أي: حرج أن تبتغوا فضلاً من ربكم، يعني: بالتجارة في مواسم الحج، ﴿فَإِذَا أَقَضْتُمْ﴾: دفعتم، والإفاضة: دفع بكثرة، وأصله من قول العرب: أفاض الرجل ماءه، أي: صبه، ﴿مِنْ عَرَفَاتٍ﴾، هي جمع عَرَفَة، جُمِعَتْ عَرَفَة بما حولها وإن كانت بقعة واحدة، كقولهم: ثوب أخلاق واختلفوا في المعنى الذي لأجله سُمِّيَ الموقف عرفات، واليوم عَرَفَة، فقال عطاء: كان جبريل عليه السلام يُري إبراهيم عليه السلام المناسك ويقول أعرفت؟ فيقول: عرفت فُسُمِيَ ذلك المكان عرفات، واليوم عَرَفَة، وقال الضحاك: إن آدم عليه السلام لَمَّا أُهْبِطَ إلى الأرض وقع بالهند وحواء بجدة، فجعل كل واحد منهما يطلب صاحبه، فاجتمعا بعرفات يوم عَرَفَة وتعارفا، فُسُمِيَ اليوم يوم عَرَفَة والموضع عرفات، وقال السدي: لما أذن إبراهيم في الناس بالحج وأجابوه بالتلبية، وأتاه من أتاه أمره الله أن يخرج إلى عرفات ونعتها له، فخرج فلما بلغ الجمرة عند العقبة استقبله الشيطان ليرده، فرماه بسبع حصيات فكبر مع كل حصاة فطار، فوقع على الجمرة الثانية، فرماه وكبر فطار، فوقع على الجمرة الثالثة فرماه وكبر فلما رأى الشيطان أنه لا يطيعه ذهب، فانطلق إبراهيم حتى أتى ذا المجاز فلما نظر إليه لم يعرفه فجاهز، فُسُمِيَ ذا المجاز، ثم انطلق حتى وقف بعرفات فعرفها بالنعت، فُسُمِيَ الوقت عَرَفَة والموضع عرفات، حتى إذا أمسى ازدلف، أي: قرب إلى جمع، فُسُمِيَ المزدلفة. ورؤي عن أبي صالح عن ابن عباس: أن إبراهيم عليه السلام رأى ليلة التروية في منامه أنه يؤمر بذبح ابنه، فلما أصبح روى يومه أجمع، أي فكر أمين الله تعالى هذه الرؤيا؟ أم من الشيطان؟ فُسُمِيَ اليوم يوم التروية، ثم رأى ذلك ليلة عَرَفَة ثانياً فلما أصبح عرف

الوقت ولو لحظة واحدة من ليل أو نهار، فقد حصل له الوقوف ويتم حجه وقال أحمد: وقت الوقوف من طلوع الفجر يوم عرفة إلى طلوعه من يوم النحر ووقت الإفاضة من عرفات، بعد غروب الشمس فإذا غربت الشمس دفع من عرفات وأخر صلاة المغرب حتى يجمع بينها وبين العشاء بمزدلفة (ق) عن أسامة بن زيد قال دفع رسول الله ﷺ من عرفة حتى إذا كان بالشعب نزل فبال ثم توضأ ولم يسبغ الوضوء، فقلت: الصلاة يا رسول الله فقال الصلاة أمامك ثم ركب فلما جاء المزدلفة، نزل فتوضأ فأسبغ الوضوء ثم أقيمت الصلاة فصلى المغرب ثم أناخ كل إنسان بعيه، في منزله، ثم أقيمت العشاء فصلى ولم يصل بينهما شيئاً.

وقوله تعالى: ﴿فاذكروا الله عند المشعر الحرام﴾ سمي مشعراً من الشعار وهي العلامة لأنه من معالم الحج وأصل الحرام المنع فهو ممنوع من أن يفعل فيه ما لم يؤذن فيه، والمشعر الحرام هو ما بين جبلي المزدلفة من مازمي عرفة إلى وادي محسر، وليس المأزمان ولا وادي محسر من المشعر الحرام وقيل المشعر الحرام هو المزدلفة وسماه الله بذلك لأن الصلاة والمبيت به والدعاء عنده من معالم الحج وقيل المشعر الحرام، هو قرح وهو آخر حد المزدلفة والأول أصح. وسميت المزدلفة من الازدلاف وهو الاقتراب، لأنها منزلة من الله تعالى وقربة. وقيل: لنزول الناس بها زلف الليل: وقيل: لاجتماع الناس بها وتسمى المزدلفة جمعاً لأنه يجمع فيها بين المغرب والعشاء، قيل المراد بالذكر عند المشعر الحرام هو الجمع بين صلاتي المغرب والعشاء هناك. ويدل عليه أن قوله: فاذكروا الله أمر وهو للوجوب ولا يجب هناك إلا الصلاة، والذي عليه جمهور العلماء أن المراد بالذكر هو الدعاء والتلبية والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير (ق) عن ابن عباس أن أسامة بن زيد كان رديف النبي ﷺ، من عرفة إلى المزدلفة ثم أردف الفضل من المزدلفة إلى منى فكلاهما قال: لم يزل النبي ﷺ يلي حتى رمى جمرة العقبة، عن جابر قال دفع رسول الله ﷺ حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبح بينهما شيئاً، ثم اضطجع حتى طلع الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر

أن ذلك من الله تعالى، فسُمي اليوم يوم عرفة. وقيل: سُمي بذلك لعلو الناس فيه على جباله، والعرب تُسمي ما علا عرفة، ومنه سُمي عُرف الديك لعلوه، وقيل: سُمي بذلك لأن الناس يعترفون في ذلك اليوم بذنوبهم، وقيل: سُمي بذلك من العرف، وهو الطيب، وسُمي منى لأنه يُمنى فيه الدم، أي: يُصب فيه فيكون فيه الفروث والدماء ولا يكون الموضع طيباً، وعرفات طاهرة عنها فتكون طيبة، قوله تعالى: ﴿فاذكروا الله﴾: بالدعاء والتلبية، ﴿عند المشعر الحرام﴾، وهو ما بين جبلي المزدلفة من مرمى عرفة إلى المحسر، وليس المأزمان ولا المحسر من المشعر الحرام، وسُمي مشعراً من الشعار، وهي العلامة لأنه من معالم الحج، وأصل الحرام من المنع، فهو ممنوع أن يفعل فيه ما لم يؤذن فيه، وسُمي المزدلفة جمعاً لأنه يُجمع فيه بين صلاة المغرب والعشاء، والإفاضة من عرفات تكون بعد غروب الشمس، ومن جمع قبل طلوعها من يوم النحر، قال طاوس: كان أهل الجاهلية يدفعون من عرفة قبل أن تغيب الشمس، ومن المزدلفة بعد أن تطلع الشمس، ويقولون أشرك ثبير كيما تغير، فأخر الله هذه، وقدم هذه. أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحق الهاشمي أخبرنا أبو مصعب، عن مالك عن موسى بن عقبة عن كريب مولى عبد الله بن عباس عن أسامة بن زيد أنه سمعه يقول: دفع رسول الله ﷺ من عرفة حتى إذا كان بالشعب، نزل فبال ثم توضأ فلم يسبغ الوضوء، فقلت له الصلاة يا رسول الله، قال: فقال: الصلاة أمامك فركب فلما جاء المزدلفة، نزل فتوضأ فأسبغ الوضوء، ثم أقيمت الصلاة فصلى المغرب، ثم أناخ كل إنسان بعيه في منزله، ثم أقيمت العشاء فصلاها ولم يصل بينهما شيئاً، وقال جابر: دفع رسول الله ﷺ حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يُسبج بينهما شيئاً ثم اضطجع حتى طلع الفجر،

الحرام فاستقبل القبلة وكبره وهله ووحده ولم يزل واقفاً حتى أسفر جداً ودفع قبل أن تطلع الشمس هذا الحديث ذكره البغوي بغير سند. ولم أجده في الأصول، قال طاوس كانوا في الجاهلية يدفعون من عرفة قبل أن تغيب الشمس ومن المزدلفة بعد طلوعها وكانوا يقولون: أشرق ثبير كيما نغير، فنسخ الله تعالى أحكام الجاهلية فأخر الإفاضة من عرفة إلى ما بعد غروب الشمس وقدم الإفاضة من المزدلفة إلى ما قبل طلوعها. وثبير جبل بمكة ومعنى قولهم أشرق ثبير أدخل أيها الجبل في الشروق وهو نور الشمس وقولهم كيما نغير أي ندفع للنحر يقال أغار إذا أسرع ودفع في عدوه (خ) عن عمرو بن ميمون قال قال عمر كان أهل الجاهلية لا يفيضون من جمع حتى تطلع الشمس وكانوا يقولون: أشرق ثبير فخالفهم النبي ﷺ فأفاض قبل طلوع الشمس.

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ أي اذكروه بالتوحيد والتعظيم كما ذكركم بالهداية فهذاكم لدينه ومناسك حجه ﴿وإن كنتم من قبله لمن الضالين﴾ أي لا تعرفون كيف تذكرونه وتعبدونه، والهاء في من قبله راجعة إلى الهدي وقيل إلى الرسول أي من قبل إرسال الرسول لمن الضالين، وهو كناية عن غير مذكور وقيل يرجع إلى القرآن والمعنى واذكروه كما هداكم بكتابه الذي أنزله عليكم، وإن كنتم من قبل إنزاله لمن الضالين. قوله عز وجل:

ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾

﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ أي لتكن إفاضتكم من حيث أفاض الناس، وفي المخاطبين بهذا قولان أحدهما أنه خطاب لقريش قال أهل التفسير: كانت قريش ومن دان بدينها وهم الحمس يقفون بالمزدلفة ويقولون: نحن أهل الله وقطان حرمه فلا نخلف الحرم ولا نخرج منه ويتعاضمون أن يقفوا مع سائر الناس بعرفات، وكان سائر الناس يقفون بعرفات فإذا أفاض الناس من عرفات أفاض الحمس من المزدلفة فأمرهم الله أن يقفوا بعرفات مع سائر الناس، ثم يفيضوا منها إلى جمع وأخبرهم أنه سنة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام (ق) عن عائشة رضي الله عنها قالت كان قريش ومن دان بدينها يقفون بالمزدلفة، وكان يسمون الحمس وكانت سائر العرب يقفون

فصلّى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة ودعاه وكبره وهله ووحده، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً، فدفع قبل أن تطلع الشمس، أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا زهير بن حرب أخبرنا وهب بن جرير، أخبرنا أبي عن يونس الأيلي عن الزهري عن عبد الله بن عبد الله عن ابن عباس أن أسامة بن زيد كان ردّف رسول الله ﷺ من عرفة إلى المزدلفة، ثم أردف الفضل من مزدلفة إلى منى، قال: فكلاهما قال: لم يزل النبي ﷺ يلبي حتى رمى جمرَةَ العقبة، قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾، أي واذكروه بالتوحيد والتعظيم، كما ذكركم بالهداية، فهذاكم لدينه ومناسك حجه، ﴿وإن كنتم من قبله لمن الضالين﴾، أي: وقد كنتم، وقيل: وما كنتم من قبله إلا من الضالين، كقوله تعالى: ﴿وإن نظنك لمن الكاذبين﴾ [الشعراء: ١٨٦]، أي: وما نظنك إلا من الكاذبين، والهاء في قوله: ﴿من قبله﴾ راجعة إلى الهدى، وقيل: إلى رسول الله ﷺ كناية عن غير مذكور.

قوله تعالى: ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾، قال أهل التفسير كانت قريش وحلفاؤها ومن دان بدينها وهم الحمس، يقفون بالمزدلفة ويقولون: نحن أهل الله وقطان حرمه، فلا نخلف الحرم ولا نخرج منه، ويتعاضمون أن يقفوا مع سائر العرب بعرفات، وسائر الناس كانوا يقفون بعرفات، فإذا أفاض الناس من عرفات أفاض الحمس من المزدلفة، فأمرهم الله أن يقفوا بعرفات ويفيضوا منها إلى جمع مع سائر الناس، وأخبرهم أنه سنة إبراهيم

بعرفة فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات فيقف بها ثم يفيض منها فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ قولها: كانوا يسمون الحمس هو جمع أحمس وأصله من الشدة والشجاعة وإنما سميت قریش وكنانة حمساً لتشددهم في دينهم فعلى هذا القول الناس معناه جميع العرب سوى الحمس، والقول الثاني: إنه خطاب لسائر المسلمين أمرهم الله أن يفيضوا من حيث أفاض إبراهيم، وهو المراد بقوله من حيث أفاض الناس، وقيل: الناس هم آدم وحده بدليل قراءة سعيد بن جبير ثم أفيضوا من حيث أفاض الناسي بالياء وقال هو آدم عهد إليه فنسي، ووجه هذا أن الوقوف بعرفات والإفاضة منها شرع قديم وما سواه مبتدع محدث، وقيل: المراد من هذه الآية أن الإفاضة من المزدلفة إلى منى يوم النحر، قبل طلوع الشمس للرمي والنحر، وأراد بالناس إبراهيم وإسماعيل وأتباعهما لأنه كانت إفاضتهم من المزدلفة قبل طلوع الشمس، ووجه هذا القول أن الإفاضة من عرفات قد تقدم ذكرها في قوله: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ ثم قال بعد ذلك ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ فدل على أن هذه الإفاضة من المزدلفة إلى منى لكن القول الأول هو الأصح الذي عليه جمهور المفسرين. فإن قلت على القول الأول الذي هو قول جمهور المفسرين إشكال، وهو أن ظاهر الكلام لا يقتضي ذلك لأن قوله: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ والإفاضة من عرفات قبل الإفاضة من جمع فكيف قال ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ فكانه قال فإذا أفضتم من عرفات فأفيضوا من عرفات وذلك غير جائز. قلت: أجيب عن هذا الإشكال بأن فيه تقديماً وتأخيراً وتقديره ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم فإذا أفضتم من عرفات، فاذكروا الله فعلى هذا الترتيب يصح أن تكون هذه الإفاضة تلك الإفاضة بعينها وقيل: إن ثم في قوله ثم أفيضوا بمعنى الواو أي وأفيضوا كقوله ثم كان من الذين آمنوا والإفاضة الدفع (ق) عن هشام بن عروة عن أبيه قال سأل أسامة بن زيد وأنا جالس كيف كان رسول الله ﷺ يسير في حجة الوداع قال: كان يسير العنق فإذا وجد فجوة نص قال هشام والنص فوق العنق. العنق بفتح العين ضرب من السير سريع، هو أشد من المشي والفجوة: الفرجة وهي المتسع من الأرض، والنص السير السريع حتى يستخرج من الناقة أقصى وسعها (خ) عن ابن عباس أنه دفع مع النبي ﷺ يوم عرفة فسمع النبي ﷺ وراءه زجراً شديداً وضرباً

وإسماعيل عليهما السلام، وقال بعضهم: خاطب به جميع المسلمين. وقوله تعالى: قال: ﴿مَنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ من جمع، أي: ثم أفيضوا من جمع إلى منى، وقالوا: لأن الإفاضة من عرفات قبل الإفاضة من جمع، فكيف يسوغ أن يقول: فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله ثم أفيضوا من عرفات؟ والأول قول أكثر أهل التفسير، وفي الكلام تقديم وتأخير، تقديره: فمن فرض فيهن الحج فلا رفت ولا فسوق ولا جدال في الحج، ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس، فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام، وقيل: ثم بمعنى الواو أي: وأفيضوا، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البلد: ١٧]، وأما الناس فهم العرب كلهم غير الحمس، وقال الكلبي: هم أهل اليمن وربيعة، وقال الضحاك: الناس ههنا إبراهيم عليه السلام وحده، كقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ [النساء: ٥٤] وأراد به محمداً ﷺ وحده، ويقال: هذا الذي يُقْتَدَى به ويكون لسان قومه، وقال الزهري: الناس ههنا آدم عليه السلام وحده، دليله قراءة سعيد بن جبير: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾، بالياء، وقال: هو آدم نسي عهد الله حين أكل من الشجرة، أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا عبد الله بن يوسف أخبرنا مالك عن هشام بن عروة، عن أبيه أنه قال: سُئِلَ أسامة وأنا جالس كيف كان يسير رسول الله ﷺ في حجة الوداع حين دفع؟ قال: كان يسير العنق، فإذا وجد فجوة نص، قال هشام: والنص فوق العنق. أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله

للإبل فأشار بسوطه إليهم وقال: يا أيها الناس عليكم بالسكينة فإن البر ليس بالإيضاع، الإيضاع السير السريع الشديد. قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ أي من مخالفتكم في الموقف ولجميع ذنوبكم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يعني أن الله هو الساتر للذنوب لعباده برحمته والغفور يفيد المبالغة في الغفر وكذا الرحيم وفيه دليل على أنه تعالى يقبل التوبة من عباده التائبين ويغفر لهم، لأنه تعالى أمر المذنب بالاستغفار ثم وصف نفسه تعالى بأنه كثير الغفران كثير الرحمة فدل ذلك على أنه تعالى يغفر للمستغفرين ويرحم المذنبين بمنه وكرمه. قوله عز وجل: .

فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴿٢٠٠﴾

﴿فإذا قضيتم مناسككم﴾ أي فرغتم من حجكم وعبادتكم وذبحتم نسائككم أي ذبائحكم وذلك بعد رمي جمرة العقبة والاستقرار بمنى ﴿فاذكروا الله﴾ يعني بالتحميد والتمجيد والتلهيل والتكبير والثناء عليه ﴿كذكركم آباءكم﴾ قال أهل التفسير، كانت العرب في الجاهلية إذا فرغوا من حجهم وقفوا بين المسجد بمنى وبين الجبل، وقيل: عند البيت فيذكرون مفاخر آبائهم ومآثرهم وفضائلهم ومحاسنهم ومناقبهم، فيقول أحدهم: كان أبي كبير الجفنة رحب الفناء يقرى للضيف وكان كذا وكذا يعد مفاخره ومناقبه ويتناشدون الأشعار في ذلك ويتكلمون بالمنثور والمنظوم من الكلام الفصيح وغرضهم الشهرة والسمعة والرفعة بذكر مناقب سفلهم وآبائهم، فلما من الله عليهم بالإسلام أمرهم أن يكون ذكركم لله لا لآبائهم وقال: اذكروني فأنا الذي فعلت ذلك بكم وبهم وأحسن إليكم وإليهم قال ابن عباس: معناه فاذكروا الله كذكر الصبيان الصغار الآباء وذلك أن الصبي أول ما يفصح بالكلام ويقول: أبه أمه لا يعرف غير ذلك فأمرهم أن يذكروه كذكر الصبيان الصغار الآباء ﴿أو أشد ذكراً﴾ أي بل أشد ذكراً، وقيل: أو بمعنى الواو أي لأشد ذكراً أي وأكثر ذكراً للآباء لأنه هو المنعم عليهم وعلى الآباء، فهو المستحق للذكر والحمد مطلقاً، وسئل ابن عباس عن هذه الآية قيل له قد يأتي على الرجل اليوم ولا يذكر فيه أباه فقال: ليس كذلك ولكن أن تغضب الله عز وجل إذا عصى أشد من غضبك لو لديك إذا شتما ﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا﴾ يعني أن المشركين كانوا يسألون الله في حجهم للدنيا، ونعيمها كانوا يقولون: اللهم أعطنا إبلًا وغنماً وبقراً وعبيداً وإماء وكان أحدهم يقوم فيقول: اللهم إن أبي كان عظيم الفتة كبيراً الجفنة كثير المال فأعطني مثل ما

النعمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا سعيد بن أبي مريم أخبرنا إبراهيم بن سويد، حدثني عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب قال: أخبرنا سعيد بن جبير مولى واثلة الكوفي حدثني ابن عباس أنه دفع مع النبي ﷺ يوم عرفة، فسمع النبي ﷺ وراءه زجراً شديداً وضرباً للإبل، فأشار بسوطه إليهم وقال: «أيها الناس عليكم بالسكينة فإن البر ليس بالإيضاع»، ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿فإذا قضيتم مناسككم﴾، أي: فرغتم من حجكم وذبحتم نسائككم، أي: ذبائحكم، يقال: نسك الرجل ينسك نسكاً إذا ذبح نسكته، وذلك بعد رمي جمرة العقبة والاستقرار بمنى، ﴿فاذكروا الله﴾: بالتكبير والتحميد والثناء عليه، ﴿كذكركم آباءكم﴾، وذلك أن العرب كانت إذا فرغت من الحج وقفت عند البيت فذكرت مفاخر آبائهم، فأمرهم الله بذكره، وقال: ﴿فاذكروني﴾ [البقرة: ١٥٢] فإني الذي فعلت ذلك بكم وبآبائكم وأحسن إليكم وإليهم، قال ابن عباس وعطاء: معناه فاذكروا الله كذكر الصبيان الصغار الآباء، وذلك أن الصبي أول ما يتكلم يلهج بذكر أبيه لا يذكر غيره، فيقول الله: فاذكروا الله لا غير، كذكر الصبي أباه، ﴿أو أشد ذكراً﴾، وسئل ابن عباس عن قوله: ﴿فاذكروا الله كذكركم آباءكم﴾ فقيل: قد يأتي على الرجل اليوم لا يذكر فيه

أعطيته. قال قتادة: هذا عبد نيته الدنيا لها أنفق ولها عمل ونصب (خ) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط تعس، وانتكس وإذا شيك فلا انتقش» قوله: تعس عبد الدينار هذا دعاء عليه بالهلاك وهو الوقوع على الوجه من العثار والخميصة ثوب من خز أو صوف معلم، وقوله وانتكس هذا دعاء عليه أيضاً لأن من انتكس على رأسه أو في أمره فقد خاب، وخسر وقوله وإذا شيك هذا فعل ما لم يسم فاعله، تقول شاكته الشوكة إذا دخلت في جسمه والانتقاش إخراج الشوكة من الجسم وإنما كان سؤال المشركين للدينار ولم يطلبوا التوبة والمغفرة ونعيم الآخرة لأنهم كانوا ينكرون البعث ﴿وما له في الآخرة من خلاق﴾ أي وما له في الآخرة من حظ ولا نصيب.

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾

﴿ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾ يعني المؤمنين. واعلم أن الله تعالى قسم الداعين فريقين البعث: فريق اقتصروا في الدعاء على طلب الدنيا وهم الكفار لأنهم كانوا لا يعتقدون البعث والآخرة، والفريق الثاني: هم المؤمنون الذين جمعوا في الدعاء بين طلب الدنيا والآخرة وذلك لأن الإنسان خلق ضعيفاً محتاجاً لا طاقة له بآلام الدنيا ومتاعها فالأولى له أن يستعيذ بالله من شرها وآلامها لأنه لو اضطرب على الإنسان عرق من عروقه، لشوش عليه حياته في الدنيا، وتعطل عن الاشتغال بطاعة الله تعالى فثبت بذلك أن طلب الدنيا في الدعاء من أمر الدين، فلذلك قال الله تعالى: إخباراً عن المؤمنين: ﴿ومنهم من يقول ربنا آتنا في

آباه، قال ابن عباس: ليس كذلك ولكن إن تغضب الله إذا عصي أشد من غضبك لو الذيك إذا شتما، وقوله تعالى: ﴿أو أشد ذكراً﴾ يعني: بل أشد، أي: وأكبر ذكراً، ﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا﴾، أراد به المشركين كانوا لا يسألون الله تعالى في الحج إلا الدنيا، يقولون: اللهم أعطنا غنماً وإبلًا وبقراً وعبداً، وكان الرجل يقوم فيقول: اللهم إن أبي كان عظيم القبة كبير الجفنة كثير المال، فأعطني مثل ما أعطيته، قال قتادة: هذا عبد نيته الدنيا لها أنفق ولها عمل ونصب، ﴿وما له في الآخرة من خلاق﴾: من حظ ونصيب.

﴿ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾، يعني: المؤمنين، واختلفوا في معنى الحسنتين، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: في الدنيا حسنة امرأة صالحة، وفي الآخرة حسنة الجنة والحدود العين. أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن محمد الحنفي أنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الطوسي، أخبرنا أبو بكر أحمد بن يوسف بن خلاد أنا الحارث بن أسامة أنا أبو عبد الرحمن المقرئ، أخبرنا حياة وابن لهيعة قالوا: أخبرنا شرحبيل بن شريك أنه سمع أبا عبد الرحمن الجبلي يحدث عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ قال: «الدنيا كلها متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة»، وقال الحسن: في الدنيا حسنة العلم والعبادة، وفي الآخرة حسنة الجنة والنظر. وقال السدي وابن حبان: في الدنيا حسنة رزقاً حلالاً وعملاً صالحاً، وفي الآخرة حسنة المغفرة والثواب، أخبرنا أبو بكر بن محمد بن عبد الله بن أبي توبة أخبرنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث أخبرنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي، أخبرنا عبد الله بن محمود أخبرنا إبراهيم بن عبد الله الخلال، ثنا عبد الله بن المبارك عن يحيى بن أيوب حدثني عبيد الله بن زجر عن علي بن يزيد عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «أعبط أوليائي عندي مؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من الصلاة، أحسن عبادة ربه فإطاعه في السر وكان غامضاً في الناس لا يُشار إليه بالأصابع وكان رزقه كفافاً فصبر على ذلك، ثم نفر بيده فقال: هكذا عجلت منية، قلت بواكيه، قل تراثه»، وقال قتادة في الدنيا عافية وفي الآخرة عافية وقال عوف في هذه الآية من آتاه

الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ﴿ قيل: إن الحسنة في الدنيا عبارة عن الصحة والأمن والكفاية والتوفيق إلى الخير والنصر على الأعداء والولد الصالح والزوجة الصالحة (م) عن عبدالله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ قال: «الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة» وقيل: الحسنة في الدنيا العلم والعبادة وفي الآخرة الجنة وقيل: الحسنة في الدنيا الرزق الحلال والعمل الصالح وفي الآخرة المغفرة والثواب. وقيل: من آتاه الله الإسلام والقرآن وأهلاً ومالاً فقد أوتي في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة يعني في الدنيا عافية وفي الآخرة عافية. (م) عن أنس أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد خف فصار مثل الفرخ، فقال له رسول الله ﷺ: «هل كنت تدعو الله بشيء أو تسأله إياه؟ قال: نعم كنت أقول اللهم ما كنت معاقبني به في الآخرة فعجله لي في الدنيا فقال رسول الله ﷺ: سبحان الله لا تطيقه ولا تستطيعه أفلا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» قال: فدعا الله به فشفاه (ق) عن أنس بن مالك. قال كان أكثر دعاء النبي ﷺ: اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. عن عبدالله بن السائب قال سمعت رسول الله ﷺ يقول بين الركنتين: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» أخرجه أبو داود.

أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَآتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

﴿أولئك﴾ إشارة إلى المؤمنين الداعين بالحسنتين ووجه هذا القول أن الله ذكر حكم الفريق بكماله. فقال: وما له في الآخرة من خلاق وقيل: يرجع إلى الفريقين ﴿لهم﴾ جميعاً أي لكل فريق من هؤلاء ﴿نصيب﴾ أي حظ

الله الإسلام والقرآن وأهلاً ومالاً فقد أوتي في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، أخبرنا الشيخ أبو القاسم عبد الله بن علي الكرماني الطوسي أخبرنا أبو طاهر محمد بن محمش الزياتي أخبرنا أبو الفضل عبدوس بن الحسين بن منصور السمسار، أخبرنا أبو حاتم محمد بن إدريس الحنظلي الرازي، أخبرنا محمد بن عبد الله الأنصاري، أخبرنا حميد الطويل عن ثابت البناني، عن أنس بن مالك قال رأى رسول الله ﷺ رجلاً قد صار مثل الفرخ فقال: هل كنت تدعو الله بشيء أو تسأله إياه؟ فقال: يا رسول الله كنت أقول اللهم ما كنت معاقبني به في الآخرة فحوّله لي في الدنيا، فقال: «سبحان الله لا تستطيعه ولا تطيقه، هلاً قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار؟» أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي، أخبرنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن أبي إسحاق الحجاجي، أخبرنا أبو العباس محمد بن عبد الرحمن الداغولي، أخبرنا محمد بن مسكان أخبرنا أبو داود أخبرنا شعبة عن ثابت عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يُكثر أن يقول: ﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾، أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الكسائي أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أخبرنا أبو العباس الأصم أخبرنا الربيع بن سليمان أخبرنا الشافعي أخبرنا سعيد بن سالم القداح عن ابن جريج عن يحيى بن عبيد مولى السائب عن أبيه عبد الله بن السائب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول فيما بين ركن بني جمح والركن الأسود: ﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾.

قوله تعالى: ﴿أولئك لهم نصيب﴾: حظ ﴿مما كسبوا﴾: من الخير والدعاء بالثواب والجزاء، ﴿والله سريع الحساب﴾: يعني: إذا حاسب عبده فحسابه سريع لا يحتاج إلى عقد يد ولا وعي صدور ولا إلى رؤية ولا

﴿مما كسبوا﴾ يعني من الخير والدعاء بالثواب والجزاء على الدعاء بالدنيا من جنس ما كسب ودعا ﴿والله سريع الحساب﴾ ذكروا في معنى الحساب أن الله تعالى يعلم العباد بما لهم وعليهم بمعنى أن الله تعالى يخلق العلوم الضرورية في قلوبهم بمقادير أعمالهم وكمياتها وكيفياتها وبمقادير ما لهم من الثواب وعليهم من العقاب. وقيل: إن المحاسبة عبارة عن المجازاة ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً﴾ وقيل: إن الله تعالى يكلم عباده يوم القيامة ويعرفهم أحوال أعمالهم وما لهم من الثواب والعقاب. وقيل: إنه تعالى إذا حاسب عباده فحسابه سريع لأنه تعالى لا يحتاج إلى عقد يد وروية فكر وصف الله نفسه تعالى بسرعة الحساب مع كثرة الخلائق وكثرة أعمالهم ليدل بذلك على كمال قدرته لأنه تعالى لا يشغله شأن عن شأن ولا يحتاج إلى آلة ولا مادة ولا مساعد، فلا جرم كان قادراً على أن يحاسب جميع الخلائق في أقل من لمح البصر، وروي أنه تعالى يحاسب الخلائق في قدر حلب شاة أو ناقة، وقيل: في معنى كونه تعالى سريع الحساب أي سريع القبول لدعاء عباده والإجابة لهم، وذلك أنه تعالى يسأل السائلون في الوقت الواحد كل واحد منهم أشياء مختلفة من أمور الدنيا والآخرة فيعطي كل واحد من غير أن يشتبه عليه شيء من ذلك، لأنه تعالى عالم بجميع أحوال عباده وأعمالهم وقيل في معنى الآية إن إتيان القيامة قريب لأن كل ما هو كائن وآت قريب لا محالة، وفيه إشارة إلى المبادرة بالدعاء والذكر وسائر الطاعات وطلب الآخرة.

قوله عز وجل: ﴿واذكروا الله﴾ يعني بالتوحيد والتعظيم والتكبير في أدبار الصلوات وعند رمي الجمرات، وذلك أنه يكبر مع كل حصاة من حصى الجمار فقد ورد في الصحيح أن النبي ﷺ كبر مع كل حصاة ﴿في أيام معدودات﴾ يعني أيام التشريق وهي أيام منى ورمي الجمار سميت معدودات لقلتهن وهي ثلاثة أيام بعد يوم النحر، أولها اليوم الحادي عشر من ذي الحجة وهو قول ابن عمر وابن عباس والحسن وعطاء ومجاهد وقتادة وهو مذهب الشافعي. وقيل: إن الأيام المعدودات يوم النحر ويومان بعده. وهو قول علي بن أبي طالب ويروي عن ابن عمر أيضاً وهو مذهب أبي حنيفة (م) عن نبيشة الهذلي قال: قال رسول الله ﷺ: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله» ومن الذكر في هذه الأيام التكبير (خ) عن ابن عمر أنه كان يكبر بمنى تلك الأيام وخلف الصلوات، وعلى فراشه وفي فسطاطه وفي مجلسه وفي ممشاه في تلك الأيام جميعاً وفي رواية أنه كان يكبر في قبته فيسمعه أهل المسجد فيكبرون، ويكبر أهل الأسواق حتى ترتج منى أخرجه البخاري بغير إسناد وأجمع العلماء على أن المراد بهذا هو التكبير عند رمي الجمار، وهو أن يكبر مع كل حصاة يرمي بها في جميع أيام التشريق، وأجمعوا أيضاً على أن التكبير في عيد الأضحى وفي هذه الأيام في إدبار الصلوات سنة واختلفوا في وقت التكبير فقبل

فكر، قال الحسن: أسرع من لمح البصر، وقيل: معناه إتيان القيامة قريب لأن ما هو آتٍ لا محالة فهو قريب، قال الله تعالى: ﴿وما يُدريك لعل الساعة قريب﴾ [الشورى: ١٧].

قوله تعالى: ﴿واذكروا الله﴾، يعني التكبيرات أدبار الصلاة وعند الجمرات، يكبر مع كل حصاة وغيرها من الأوقات، ﴿في أيام معدودات﴾ الأيام المعدودات هي أيام التشريق وهي أيام منى ورمي الجمار، سُميت معدودات لقلتهن، كقوله: ﴿دراهم معدودة﴾ [يوسف: ٢٠]، والأيام المعلومات: عشر ذي الحجة آخرهن يوم النحر، هذا قول أكثر أهل العلم، وروى عن ابن عباس: المعلومات يوم النحر، ويومان بعده والمعدودات أيام التشريق، وعن علي قال: المعلومات يوم النحر وثلاثة أيام بعده، وقال عطاء عن ابن عباس المعلومات يوم عرفة، ويوم النحر وأيام التشريق وقال محمد بن كعب: هما شيء واحد وهي أيام التشريق، وروى عن نبيشة الهذلي قال: قال رسول الله ﷺ: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله»، ومن الذكر في أيام التشريق التكبير، واختلفوا فيه

يبتدئ به من صلاة الظهر يوم النحر إلى صلاة الصبح من آخر أيام التشريق فيكون التكبير على هذا القول في خمسة عشر صلاة، وهو قول ابن عباس وابن عمر، وبه قال الشافعي: في أصح أقواله قال الشافعي: لأن الناس فيه تبع للحاج وذكر الحاج قيل: هذا الوقت هو التلبية ويأخذون في التكبير يوم النحر من صلاة الظهر. وقيل: إنه يبتدئ به من صلاة المغرب ليلة النحر ويختم بصلاة الصبح من آخر أيام التشريق، وهو القول الثاني الشافعي فيكون التكبير على هذا القول: في ثمانية عشر صلاة والقول الثالث للشافعي إنه يبتدئ بالتكبير من صلاة الصبح يوم عرفة، ويختم به بعد صلاة العصر من آخر أيام التشريق، فيكون التكبير على هذا القول في ثلاث وعشرين صلاة وهو قول علي بن أبي طالب، ومكحول وبه قال أبو يوسف ومحمد، وقال ابن مسعود يبتدأ به من صبح يوم عرفة ويختم بصلاة العصر من يوم النحر، فعلى هذا القول يكون التكبير في ثمان صلوات، وبه قال أبو حنيفة وقال أحمد بن حنبل: إذا كان حلالاً كبير عقيب ثلاث وعشرين صلاة أولها الصبح من يوم عرفة وآخرها صلاة العصر من آخر أيام التشريق وإن كان محرماً كبير عقيب سبعة عشر صلاة أولها الظهر من يوم النحر وآخرها عصر آخر أيام التشريق. ولفظ التكبير عند الشافعي ثلاثاً نسقاً الله أكبر الله أكبر الله أكبر وهو قول سعيد بن جبير والحسن، وهو قول أهل المدينة، قال الشافعي: وما زاد من ذكر الله فحسن ويروى عن ابن مسعود أنه يكبر مرتين فيقول الله أكبر الله أكبر وهو قول أهل العراق.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي فمن تعجل النفر الأول وهو في الثاني من أيام التشريق ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي فلا حرج عليه وذلك أنه يجب على الحاج المبيت بمنى الليلة الأولى والثانية من ليالي أيام التشريق، ليرمي كل يوم بعد الزوال إحدى وعشرين حصاة يرمي عند كل جمرة سبع حصيات ثم من رمى في اليوم الثاني وأراد أن ينفر ويدع البيوتة الليلة الثالثة ورمى يومها فذلك واسع له لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ يعني فلا إثم على من تعجل فنفر في اليوم الثاني في تعجيله ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ يعني ومن تأخر إلى النفر الثاني، وهو اليوم الثالث من أيام التشريق فلا إثم عليه في تأخره. واعلم أنه إنما يجوز التعجيل لمن نفر بعد

فُرُوي عن عمرو عن عبد الله بن عمر أنهما كانا يكبران بمنى تلك الأيام خلف الصلاة وفي المجلس وعلى الفراش والفسطاط وفي الطريق، ويكبر الناس بتكبيرهما، ويتلوان هذه الآية، والتكبير أذبار الصلاة مشروع في هذه الأيام في حق الحاج وغير الحاج عند عامة العلماء، واختلفوا في قدره فذهب قوم إلى أنه يبتدئ التكبير عقيب صلاة الصبح من يوم عرفة ويختم بعد العصر من أيام التشريق، يُروى ذلك عن عمر وعن علي رضي الله عنهما، وبه قال مكحول وإليه ذهب أبو يوسف رضي الله عنه، وذهب قوم إلى أنه يبتدئ التكبير عقيب صلاة الصبح من يوم عرفة، ويختم بعد العصر من يوم النحر، يُروى ذلك عن ابن مسعود، وبه قال أبو حنيفة رضي الله عنه، وقال قوم يبتدئ التكبير عقيب صلاة الظهر من يوم النحر ويختم بعد الصبح من آخر أيام التشريق، يُروى ذلك عن ابن عباس، وبه قال مالك والشافعي في أحد قوليه، قال الشافعي: لأن الناس فيه تبع للحاج، وذكر الحاج قبل هذا الوقت التلبية، ويأخذون في التكبير يوم النحر من بعد صلاة الظهر، ولفظ التكبير: كان سعيد بن جبير والحسن يقولان: الله أكبر الله أكبر ثلاثاً نسقاً، وهو قول أهل المدينة وإليه ذهب الشافعي، وقال: وما زاد من ذكر الله فهو حسن، وعند أهل العراق يكبر اثنين، يُروى ذلك عن ابن مسعود، قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، أراد من نفر الحاج في اليوم الثاني من أيام التشريق، فلا إثم عليه، وذلك أنه على الحاج أن يبيت بمنى الليلة الأولى والثانية من أيام التشريق، ويرمي كل يوم بعد الزوال إحدى وعشرين حصاة، عند كل جمرة بسبع حصيات، ورخص في ترك البيوتة لرعاة الإبل وأهل سقاية الحاج، ثم كل من يرمي اليوم الثاني من أيام التشريق وأراد أن ينفر فیدع البيوتة

الزوال من اليوم الثاني من أيام التشريق وقبل غروب الشمس، من ليلة ذلك اليوم وإن غربت عليه الشمس، وهو بمنى لزمه المبيت بها لرمي اليوم الثالث، هذا مذهب الشافعي وأكثر الفقهاء وقال أبو حنيفة: يجوز له أن ينفر ما لم يطلع الفجر لأنه لم يدخل وقت الرمي، بعد ورخص لرعاة الإبل وأهل سقاية الحاج ترك المبيت بمنى ليالي منى. فإن قلت: قوله ومن تأخر فلا إثم عليه فيه إشكال وهو أن الذي أتى بأفعال الحج كاملة تامة فقد أتى بما يلزمه، فما معنى قوله فلا إثم عليه إنما يخاف من الإثم من قصر فيما يلزمه. قلت فيه أجوبة أحدها أنه تعالى لما أذن في التعجيل على سبيل الرخصة احتمل أن يخطر ببال قوم أن من لم يجر على موجب هذه الرخصة، فإنه يأثم فأزال الله تعالى هذه الشبهة وبين أنه لا إثم عليه في الأمرين فإن شاء عجل وإن شاء أخر. الجواب الثاني أن من الناس من كان يتعجل ومنهم من كان يتأخر، وكل فريق يصوب فعله على فعل الفريق الآخر فبين الله تعالى أن كل واحد من الفريقين مصيب في فعله وأنه لا إثم عليه. الجواب الثالث إنما قال: ومن تأخر فلا إثم عليه لمشكلة اللفظة الأولى فهو كقوله: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثله﴾ ومعلوم أن جزاء السيئة ليس بسيئة. الجواب الرابع أن فيه دلالة على جواز الأمرين فكأنه تعالى قال: فتعجلوا أو تأخروا فلا إثم في التعجيل ولا في التأخير ﴿لمن اتقى﴾ أي ذلك التأخير ونفي الإثم للحاج المتقي وقيل لمن اتقى أن يصيب في حجه شيئاً مما نهاه الله عنه من قتل صيد وغيره، مما هو محظور في الحج، وقيل: معناه أنه ذهب إثم إن اتقى فيمن بقي من عمره، وذلك أن الحاج يرجع مغفوراً له بشرط أن لا يرتكب ما نهى عنه فيما بقي من عمره وهو قوله: ﴿واتقوا الله﴾ أي في المستقبل والتقوى عبارة عن فعل الواجبات وترك المحظورات ﴿واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾ أي فيجازيكم بأعمالكم وفيه حث على التقوى. قوله عز وجل:

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ ۖ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٥﴾

﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا﴾ نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة، واسمه أبي وإنما سمي الأخنس لأنه خنس يوم بدر بثلاثمائة رجل من بني زهرة، عن قتال رسول الله ﷺ وذلك أنه أشار

الليلة الثالثة، ورمى يومها فذلك له واسع، لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ وَمَنْ لَمْ يَنْفِرْ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ فَعَلَيْهِ أَنْ يَبِتَ حَتَّى يَرْمِيَ الْيَوْمَ الثَّالِثَ ثُمَّ يَنْفِرَ، وقوله: ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، يعني: لا إثم على مَنْ تَعَجَّلَ فَنَفَرَ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي فِي تَعْجِيلِهِ، وَمَنْ تَأَخَّرَ حَتَّى يَنْفِرَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ فِي تَأَخُّرِهِ، وقيل معناه: فَمَنْ تَعَجَّلَ فَقَدْ تَرَخَّصَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ بِالتَّرَخُّصِ، وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ بِتَرْكِ التَّرَخُّصِ، وقيل معناه: رجع مغفوراً له لا ذنب عليه تعجل أو تأخر، كما روينا: «مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ - أي: خرج - من ذنوبه كيوم ولدته أمه»، وهذا قول علي وابن مسعود. قوله تعالى: ﴿لَمَنْ اتَّقَى﴾، أي: لَمَنْ اتَّقَى أَنْ يَصِيبَ فِي حَجِّهِ شَيْئاً نَهَاكَ اللَّهُ عَنْهَا، كما قال: «مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ»، قال ابن مسعود: إنما جعلت مغفرة الذنوب لَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ تَعَالَى فِي حَجِّهِ، وفي رواية الكلبي عن ابن عباس معناه: لَمَنْ اتَّقَى الصَّيْدَ، لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَقْتُلَ صَيْدًا حَتَّى تَنْقُضِيَ أَيَّامَ التَّشْرِيقِ، وقال أبو العالية: ذهب أئمة أن اتقى فيما بقي من عمره، ﴿واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾: تجمعون في الآخرة يجزيكم بأعمالكم.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، قال الكلبي ومقاتل وعطاء: نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة، واسمه أبي وسُمِّيَ الأخنس لأنه خنس يوم بدر بثلاثمائة رجل من بني زهرة عن قتال رسول الله ﷺ وكان رجلاً حلو الكلام حلو المنظر، وكان يأتي رسول الله ﷺ فيجالسه ويظهر

على بني زهرة الرجوع يوم بدر، وقال لهم: إن محمداً ابن أختكم فإن يك كاذباً كفاكموه الناس وإن يك صادقاً كنتم أسعد الناس به قالوا: نعم ما رأيت قال إني سأخسن بكم فاتبعوني فخنس فسمي الأخنس بذلك وكان الأخنس حلو الكلام حلو المنظر، وكان يأتي رسول الله ﷺ ويجالسه ويظهر الإسلام ويقول: إني لأحبك ويحلف بالله على ذلك وكان رسول الله ﷺ يدين مجلسه وكان الأخنس منافقاً فتزل فيه، ومن الناس من يعجبك قوله، أي يروقك وتستحسنه ويعظم في قلبك في الحياة الدنيا، يعني أن حلاوة كلامه فيما يتعلق بأمر الدنيا ﴿ويشهد الله على ما في قلبه﴾ يعني قوله: والله إني بك مؤمن ولك محب ﴿وهو ألد الخصام﴾ أي شديد الجدل في الباطل، وقيل: هو كاذب القول، وقيل: هو شديد القسوة في المعصية جدل بالباطل يتكلم بالحكمة ويعمل بالخطيئة (ق) عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم» يعني الشديد في الخصومة.

وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَلَبِئْسَ الْإِمَّهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾

﴿وإذا تولى﴾ أي أدبر وأعرض عنك بعد إلانة القول وحلاوة المنطق ﴿سعى في الأرض﴾ أي سار ومشى في الأرض ﴿ليفسد فيها﴾ يعني بقطع الأرحام وسفك دماء المسلمين ﴿ويهلك الحرث والنسل﴾ وذلك أن الأخنس بن شريق كان بينه وبين ثقيف خصومة فبيتهم ليلاً، فأحرق زروعهم وأهلك مواشيهم، وقيل: خرج إلى الطائف

الإسلام، ويقول إني لأحبك ويحلف بالله على ذلك، وكان منافقاً فكان رسول الله ﷺ يدين مجلسه، فتزل قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا﴾ أي: تستحسنه ويعظم في قلبك، ويقال في الاستحسان أعجبني كذا، وفي الكراهية والإنكار: عجب من كذا، ﴿ويشهد الله على ما في قلبه﴾، يعني: قول الأخنس المنافق: والله إني بك مؤمن ولك محب، ﴿وهو ألد الخصام﴾، أي: شديد الخصومة، يقال: لددت يا هذا وأنت تلدد لدداً ولدادة، فإذا أردت أنه غلب على خصمه قلت: لده يلدّه لداً، يقال: رجل ألد وامرأة لداء وقوم لُد قال الله تعالى: ﴿وتنذر به قوماً لداً﴾ [مريم: ٩٧]، قال الزجاج: اشتقاقه من لذيدي العنق وهما صفحتان، وتأويله: أنه في أي وجه أخذ من يمين أو شمال، في أبواب الخصومة غلب، والخصام: مصدر خاصمه خصاماً ومخاصمةً، قاله أبو عبيدة، وقال الزجاج: وهو جمع خصم، يقال: خصم وخصام وخصوم، مثل: بحر وبحار وبحور، قال الحسن: ألد الخصام، أي: كاذب القول، قال قتادة شديد القسوة في المعصية، جدل بالباطل يتكلم بالحكمة، ويعمل بالخطيئة، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا أبو عاصم عن ابن جريج، عن ابن أبي مليكة عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «إن أبغض الرجال إلى الله تعالى الألد الخصم».

﴿وإذا تولى﴾، أي: أدبر وأعرض عنك، ﴿سعى في الأرض﴾، أي: عمل فيها، وقيل: سار فيها ومشى، ﴿ليفسد فيها﴾، قال ابن جريج: قطع الرحم وسفك دماء المسلمين، ﴿ويهلك الحرث والنسل﴾، وذلك أن الأخنس كان بينه وبين ثقيف خصومة فبيتهم ليلة فأحرق زروعهم وأهلك مواشيهم، قال مقاتل: خرج إلى الطائف مقتضياً مالا له على غريم فأحرق له كدساً وعقر له أتاناً، والنسل: نسل كل دابة، والناس منهم، وقال الضحاك وإذا تولى، أي: ملك الأمر وصار والياً سعى في الأرض، قال مجاهد في قوله عز وجل: ﴿وإذا تولى سعى في

مقتضياً ديناً كان له على غريم فأحرق له كدساً وعقر له أتاناً وقيل معناه إذا تولى أي صار والياً وملك الأمر سعى في الأرض ليفسد فيها يعني بالظلم والعدوان كما يفعله ولالة السوء والظلمة، وقيل: يظهر ظلمه حتى يمنع الله بشؤم ظلمه القطر فيهلك الحرث والنسل بسبب منع المطر وقيل أن الآية عامة في حق كل من كان موصوفاً بهذه الصفات المذكورة ولا يمتنع أن تنزل في رجل واحد ثم تكون عامة في حق كل من كان موصوفاً بهذه الصفات ﴿والله لا يحب الفساد﴾ قال ابن عباس: لا يرضى بالمعاصي واحتجت المعتزلة بهذه الآية على أن المحبة عبارة عن الإرادة. وأجيب عنه بأن الإرادة معنى غير المحبة، فإن الإنسان قد يريد شيئاً ولا يحبه وذلك لأنه قد يتناول الدواء المر ولا يحبه فبان الفرق بين الإرادة والمحبة، وقيل: إن المحبة مدح الشيء وتعظيمه والإرادة بخلاف ذلك ﴿وإذا قيل له اتق الله﴾ أي خف الله في شرك وعلايتك ﴿أخذته العزة بالإثم﴾ أي حملته العزة وحمية الجاهلية على فعل الإثم وقيل بأن يعمل الإثم وهو الظلم وترك الالتفات إلى الوعظ وعدم الإصغاء إليه. وأصل العزة المنعة والتكبر ﴿فحسبه جهنم﴾ أي كافية له جهنم جزاء وعذاباً، وجهنم اسم من أسماء النار التي يعذب بها الكفار في الآخرة، وقيل: هو اسم أعجمي وقيل بل هو عربي سميت النار بذلك لبعدها قعرها ﴿ولبئس المهاد﴾ أي الفراش والمهاد التوطئة أيضاً والمعنى أن العذاب بالنار يجعل تحته وفوقه قال ابن مسعود إن من أكبر الذنوب عند الله أن يقال للعبد: اتق الله فيقول: عليك بنفسك. وروي أنه قيل لعمر اتق الله فوضع خده على الأرض تواضعاً لله تعالى. قوله عز وجل: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في سرية الرجيع وكانت بعد أحد (خ) عن أبي هريرة قال بعث النبي ﷺ سرية عيناً وأمر عليهم عاصم بن ثابت وهو جد عاصم بن عمر بن الخطاب، فانطلقوا حتى إذا كانوا بين عسفان ومكة ذكروا الحي من هذيل يقال لهم بنو لحيان فتبعوهم بقريب من مائة رام فاقتفوا آثارهم حتى أتوا منزلاً نزلوه فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من المدينة فقالوا هذا تمر يثرب، فتبعوا أثرهم حتى لحقوهم. فلما أحس بهم عاصم وأصحابه لجؤوا إلى فدقد، وجاء القوم فأحاطوا بهم فقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلاً، فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر اللهم أخبر عنا

الأرض﴾ قال: إذا ولى يعمل بالعدوان والظلم، فأمسك الله المدر وأهلك الحرث والنسل، ﴿والله لا يحب الفساد﴾، أي: لا يرضى بالفساد، وقال سعيد بن المسيب: قطع الدراهم من الفساد في الأرض.

قوله: ﴿وإذا قيل له اتق الله﴾، أي: خَفِ الله، ﴿أخذته العزة بالإثم﴾، أي: حملته العزة، حمية الجاهلية على الفعل بالإثم، أي: بالظلم والعزة والتكبر والمنعة، وقيل معناه: أخذته العزة للإثم الذي في قلبه، فأقام الباء مقام اللام، قوله: ﴿فحسبه جهنم﴾، أي كافيته، ﴿ولبئس المهاد﴾ أي: الفراش، قال عبد الله بن مسعود: إن من أكبر الذنوب عند الله أن يقال للعبد: اتق الله فيقول: عليك بنفسك، وروي أنه قيل لعمر بن الخطاب: اتق الله فوضع خده على الأرض تواضعاً لله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾، أي: لطلب رضا الله تعالى، ﴿والله رؤوف بالعباد﴾، روي عن ابن عباس والضحاك أن هذه الآية نزلت في سرية الرجيع، وذلك أن كفار قريش بعثوا إلى رسول الله ﷺ وهو بالمدينة إننا قد أسلمنا، فابعث إلينا نفرأ من علماء أصحابك يعلموننا دينك، وكان ذلك مكرأ منهم، فبعث رسول الله ﷺ خبيب بن عدي الأنصاري ومروء بن أبي مروء الغنوي وخالد بن بكر، وعبد الله بن طارق بن شهاب البلوي وزيد بن الدثنة، وأمر عليهم عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح الأنصاري، قال أبو هريرة بعث رسول الله ﷺ عشرة عيناً وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري فساروا فنزلوا ببطن الرجيع بين مكة والمدينة ومعهم تمر عجوة فأكلوا فمرت عجوز فأبصرت النوى فرجعت إلى قومها بمكة وقالت: قد سلك هذا الطريق أهل يثرب،

رسولك فقاتلوهم فرموهم حتى قتلوا عاصماً في سبعة نفر بالنبل وبقي خبيب وزيد ورجل آخر فأعطوهم العهد والميثاق. فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قسيهم فربطوهم بها فقال الرجل الثالث الذي معهم: هذا أول الغدر، فأبى أن يصحبهم فجروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة، فاشتري خبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيب هو الذي قتل الحارث يوم بدر فمكث عندهم أسيراً حتى إذا اجتمعوا على قتله استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحذ بها فأعارتها، فقالت: فغفلت عن صبي لي فدرج إليه حتى أتاه فوضعه على فخذه فلما رأته فزعت فزعة عرف ذلك مني وفي يده موسى، فقال: أتخشين مني أن أقتله ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله تعالى وكانت تقول: ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب لقد رأيت يأكُل من قطف عنب وما بمكة يومئذٍ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد. وما كان إلّا رزقاً رزقه الله خبيباً، فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه قال: دعوني أصلي ركعتين، فصلى ركعتين ثم انصرف فقال: لولا ترون أن ما بي جزع من الموت لزدت، فكان أول من سن ركعتين عند القتل، وقال: اللهم أحصهم عدداً وقال:

فلسـت أبـالي حين أقتـل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع

ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله، وبعث قريش إلى عاصم ليأتوا بشيء من جسده بعد موته وكان قتل عظيماً من عظمائهم يوم بدر، فبعث الله عليه مثل الظلة من الدبر فحمته من رسلهم، فلم يقدروا منه على شيء زاد

من أصحاب محمد ﷺ، فركب سبعون رجلاً منهم معهم الرماح حتى أحاطوا بهم، وقال أبو هريرة رضي الله عنه ذكروا الحي من هذيل يقال لهم بنو لحيان فبعوهم بقريب من مائة رجل رام، فاقتنوا آثارهم حتى وجدوا مأكَلهم التمر في منزل نزلوه فقالوا: تمر يثرب فاتبعوا آثارهم فلما أحس بهم عاصم وأصحابه لجؤوا إلى فدغد فأحاط بهم القوم فقتلوا مَرْتَداً وخالداً وعبد الله بن طارق ونثر عاصم بن ثابت كنانته وفيها سبعة أسهم فقتل بكل سهم رجلاً من عظماء المشركين ثم قال: اللهم إني قد حميت دينك صدر النهار فاحم ليحمي آخر النهار، ثم أحاط المشركون فقتلوه فلما قتلوه أرادوا جَزَ رأسه ليبعوه من سَلَافَة بنت سعد بن شهيد، وكانت قد نذرت حين أصاب ابنها يوم أحد لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن في قحفه الخمر، فأرسل الله رجلاً من الدُّبَر وهي الزنابير فحمت عاصماً فلم يقدروا عليه، فسَمِي حمي الدُّبَر فقالوا: دعوه حتى نمسي فتذهب عنه فنأخذه، فجاءت سحابة سوداء وأمطرت مطراً كالعزالي فبعث الله الوادي غديراً فاحتمل عاصماً به فذهب به إلى الجنة، وحمل خمسين من المشركين إلى النار، وكان عاصم قد أعطى الله تعالى عهداً أن لا يمسه مشرك ولا يمسه مشركاً أبداً وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول حين بلغه أن الدُّبَر منعت: عجباً لحفظ الله العبد المؤمن، كان عاصم نذر أن لا يمسه مشرك ولا يمسه مشركاً أبداً فمَنعه الله بعد وفاته كما امتنع عاصم في حياته، وأسر المشركون خبيب بن عدي الأنصاري وزيد بن الدُّبَّة فذهبوا بهما إلى مكة، فأما خبيب فابتاعه بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف ليقتلوه بأبيهم، وكان خبيب هو الذي قتل الحرث يوم بدر، فلبث خبيب عندهم أسيراً، حتى أجمعوا على قتله فلستعار من بعض بنات الحارث موسى ليستحذ بها فأعارته، فدرج بُني لها وهي غافلة فما راع المرأة إلّا خبيب قد أجلس الصبي على فخذه والموسى بيده، فصاحت المرأة، فقال خبيب: أتخشين أن أقتله ما كنت لأفعل ذلك إن الغدر ليس من شأننا، فقالت المرأة بعد: والله ما رأيت أسيراً خيراً من خبيب والله لقد وجدته يوماً يأكُل قُطْفاً من عنب في يده وإنه لموثق بالحديد وما بمكة من ثمرة إن كان إلّا رزقاً رزقه الله خبيباً، ثم إنهم خرجوا به من الحرم ليقتلوه في الجَلِّ وأرادوا أن يصلبوه،

في رواية وأخبر يعني النبي ﷺ أصحابه يوم أصيبوا خبرهم. الفدغد: الموضع الذي فيه غلظ وارتفاع. وقوله عالجوه: أي مارسوه، وأراد به أنهم يخدعونه ليتبعهم فأبى. وقوله ليستحد الاستحداد حلق العانة. والقطف العنقود من العنب: قوله على أوصال شلو. الشلو العضو من أعضاء الإنسان. والممزع: المفرق. والظلة: الشيء الذي يظل من فوق الإنسان. والدبر: جماعة النحل والزناير. وقال أهل التفسير: إن كفار قريش بعثوا إلى رسول الله ﷺ وهو بالمدينة أنا قد أسلمنا فابعث إلينا نفراً من علماء أصحابك يعلمونا دينك، وكان ذلك مكرراً منهم فبعث رسول الله ﷺ خبيب بن عدي الأنصاري ومرثد بن أبي مرثد الغنوي وخالد بن بكر وعبدالله بن طارق بن شهاب البلوي وزيد بن الدثنة وأمر عليهم عاصم بن ثابت بن أبي أفلح الأنصاري، وذكر نحو حديث البخاري، زاد عليه: فقالوا: نصلب خبيباً حياً، فقال: اللهم إنك تعلم أنه ليس لي أحد حولي يبلغ سلامي رسولك فأبلغه سلامي، فقام إليه أبو سروعة عقبة بن الحارث فقتله ويقال كان رجل من المشركين يقال له أبو ميسرة سلامان معه رمح فوضعه بين ثديي خبيب فقال له خبيب: اتق الله، فما زاده ذلك إلا عتواً فطعنه فأنفذه فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ يعني سلامان. وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقته بأبيه أمية بن خلف فبعثه مع مولى له يسمى نسطاس إلى التنعيم ليقته في الحل، واجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب فقال له أبو سفيان حين قدم ليقته أنشدك الله يا زيد أتحب محمداً عندنا الآن مكانك يضرب عنقه وأنك في أهلك قال زيد والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي، فقال أبو سفيان: ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً ثم قتله نسطاس، فلما بلغ النبي ﷺ هذا الخبر قال لأصحابه أيكم ينزل خبيباً عن خشبته وله الجنة فقال الزبير: أنا يا رسول الله وصاحبي

فقال لهم خبيب: دعوني أصلي ركعتين فتركوه، فكان خبيب هو أول من سنَّ لكل مسلم قتل صبراً الصلاة، فركع ركعتين، ثم قال: لولا أن يحسبوا أن ما بي جزع لزدت، اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بديداً ولا تبق منهم أحداً ثم أنشأ يقول:

فلست أبالي حين أقتل مسلماً على أي شق كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع

فصلبوه حياً فقال: اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد حولي يبلغ سلامي رسولك فأبلغه سلامي، ثم قام أبو سروعة عقبة بن الحارث فقتله، ويقال كان رجل من المشركين، يقال له سلامان أبو ميسرة معه رمح فوضعه بين ثديي خبيب فقال له خبيب: اتق الله فما زاده ذلك إلا عتواً فطعنه فأنفذه، وذلك قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾، يعني: سلامان، وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقته بأبيه أمية بن خلف، فبعثه مع مولى له يسمى نسطاس إلى التنعيم ليقته بأبيه، واجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب فقال له أبو سفيان حين قدم ليقته: أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمداً عندنا الآن بمكانك ونضرب عنقه، وإنك في أهلك؟ فقال: والله ما أحب أن محمداً ﷺ الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي، فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً، ثم قتله نسطاس، فلما بلغ النبي ﷺ هذا الخبر قال لأصحابه: «أيكم ينزل خبيباً عن خشبته وله الجنة»، فقال الزبير: أنا يا رسول الله وصاحبي المقداد بن الأسود، فخرجا يمشيان بالليل ويكمنان بالنهار، حتى أتيا التنعيم ليلاً وإذا حول الخشب أربعون رجلاً من المشركين نائمون نشاوى، فأنزلاه فإذا هو رطب ينثني لم يتغير منه شيء بعد أربعين يوماً ويده على جراحته وهي تبض دماً اللون لون الدم والريح ريح المسك، فحملة الزبير على فرسه وساروا، فانتبه الكفار وقد فقدوا خبيباً

المقداد بن الأسود، فخرجوا يمشيان الليل ويكتمان النهار حتى أتيا التنعيم ليلاً، فإذا حول الخشب أربعون من المشركين نشأوا وهم نيام، فأنزلوه عن خشبته، فإذا هو رطب ينثني ولم يتغير منه شيء بعد أربعين يوماً ويده على جراحته وهي تبض دماً اللون لون الدم والريح ريح المسك، فحمله الزبير على فرسه وسار فأنته الكفار وقد فقدوا خبيباً فأخبروا قريشاً فركب معهم سبعون فارساً فلما لحقوهم قذف الزبير خبيباً فابتلعت الأرض فسمي بليغ الأرض وقال الزبير ما أجراكم علينا يا معشر قريش ثم رفع العمامة عن رأسه وقال: أنا الزبير بن العوام وأمي صفية بنت عبد المطلب وصاحبي المقداد بن الأسود أسدان ضاريان يدفعان عن أشبالهما. فإن شئتم ناضلتكم وإن شئتم نازلتكم وإن شئتم انصرفتم، فانصرفوا إلى مكة، وقدم الزبير وصاحبه المقداد على رسول الله ﷺ وجبريل عنده فقال يا محمد إن الملائكة لتباهي بهذين من أصحابك، ونزل في الزبير والمقداد: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾ حين شربا أنفسهما بإنزال خبيب عن خشبته. وقال أكثر المفسرين: نزلت في صهيب ابن سنان الرومي، وإنما نسب إلى الروم لأن منازلهم كانت بأرض الموصل فأغارت الروم على تلك الناحية فسبوه وهو غلام صغير فنشأ بالروم، وإنما كان من العرب ابن النمر بن قاسط قال سعيد بن المسيب وعطاء أقبل صهيب مهاجراً إلى النبي ﷺ فاتبعه نفر من مشركي قريش فنزل عن راحلته ونثل ما كان في كنانته وقال: والله لا تصلوا إليّ أو أرمي بكل سهم معي ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي، وإن شئتم دللتكم على مال دفنته بمكة وخليتم سبيلي. فقالوا نعم، ففعل، فلما قدم على رسول الله ﷺ نزلت: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾ الآية فقال رسول الله ﷺ: ربح البيع أبا يحيى، وتلا عليه هذه الآية. وقال الحسن: أتدرون فيم نزلت هذه الآية؟ نزلت في المسلم يلقي الكافر فيقول له قل: لا إله إلا الله فيأبى أن يقولها فيقولها المسلم والله لأشرين نفسي لله فتقدم فقاتل وحده حتى قتل، وقيل نزلت هذه الآية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقال ابن عباس: رضي الله عنهما: أرى من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله يقوم فيأمر هذا بتقوى الله فإذا لم يقبل وأخذته العزة بالإثم قال وأنا أشري

فأخبروا قريشاً فركب منهم سبعون فلما لحقوهم قذف الزبير خبيباً فابتلعت الأرض، فسمي بليغ الأرض فقال الزبير ما جراكم علينا يا معشر قريش، ثم رفع العمامة عن رأسه وقال: أنا الزبير بن العوام وأمي صفية بنت عبد المطلب، وصاحبي المقداد بن الأسود أسدان رابضان يدفعان عن شبليلهما، فإن شئتم ناضلتكم وإن شئتم نازلتكم، وإن شئتم انصرفتم، فانصرفوا إلى مكة وقديماً على رسول الله ﷺ وجبريل عنده، فقال: يا محمد إن الملائكة لتباهي بهذين من أصحابك فنزل في الزبير والمقداد بن الأسود: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله﴾، حين شربا أنفسهما بإنزال خبيب عن خشبته، وقال أكثر المفسرين: نزلت في صهيب بن سنان الرومي، حين أخذه المشركون في رهط من المؤمنين، فعذبوهم فقال لهم صهيب: إني شيخ كبير لا يضركم أمينكم كنت أم من غيركم، فهل لكم أن تأخذوا مالي وتذرني وديني ففعلوا، وكان شرط عليهم راحلة ونفقة فأقام بمكة ما شاء الله، ثم خرج إلى المدينة فتلقاه أبو بكر وعمر في رجال فقال له أبو بكر: ربح بيعك يا أبا يحيى فقال له صهيب: وبيعك فلا تتحسر، قال صهيب: ماذا لي فقد أنزل الله فيك وقرأ هذه الآية، وقال سعيد بن المسيب وعطاء: أقبل صهيب مهاجراً نحو النبي ﷺ، فاتبعه نفر من مشركي قريش، فنزل عن راحلته ونثل ما كان في كنانته، ثم قال: يا معشر قريش لقد علمتم إني ليمن أركام رجلاً، والله لا أضع سهماً مما في كنانتي إلا في قلب رجل منكم، وأيم الله لا تصلون إليّ حتى أرمي بكل سهم في كنانتي ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي، ثم افعلوا ما شئتم، وإن شئتم دللتكم على مالي بمكة وخليتم سبيلي، قالوا: نعم، ففعل ذلك، فأنزل الله هذه الآية، وقال الحسن: أتدرون فيم نزلت هذه الآية؟ نزلت في المسلم يلقي الكافر، فيقول له: قل لا إله إلا الله، فيأبى أن يقولها، فقال المسلم: والله لأشرين نفسي

نفسى لله فقاتله، وكان علي كرم الله وجهه إذا قرأ هذه الآية يقول اقتتلا ورب الكعبة. وسمع عمر رجلاً يقرأ هذه الآية: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾ فقال عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون قام رجل فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر فقتل. عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ «من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر» أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن غريب. وأما تفسير الآية فذكر المفسرون أن المراد بهذا الشراء البيع ومنه قوله: ﴿وشروه بثمن﴾ أي باعوه والمعنى أن المسلم باع نفسه بثواب الله تعالى في الدار الآخرة، وهذا البيع هو أن يبذل نفسه في طاعة الله من صلاة وصيام، وحج وجهاد وأمر بمعروف ونهي عن المنكر، فكان ما يبذله من نفسه كالسلعة فصار كالبائع، والله تعالى المشتري، والثمن هو ثواب الله تعالى في الآخرة ابتغاء مرضاة الله أي طلب رضا الله ﴿والله رؤوف بالعباد﴾ أي من رأفة الله بعباده أن جعل النعيم الدائم في الجنة جزاء على العمل القليل المنقطع، ومن رأفته أنه يقبل توبة عبده ومن رأفته أن نفس العباد وأموالهم له، ثم إنه تعالى يشترى ملكه بملكه فضلاً منه ورحمة وإحساناً قوله عز وجل:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة﴾ نزلت في مؤمني أهل الكتاب عبدالله بن سلام وأصحابه، وذلك لما أسلموا قاموا على تعظيم شرائع موسى فعظموا السبت وكرهوا لحوم الإبل والألبانها، وقالوا: إن ترك هذه الأشياء مباح في الإسلام وواجب في التوراة، وقالوا أيضاً: يا رسول الله إن التوراة كتاب الله دعنا فلنقم به في صلاتنا بالليل، فأنزل الله هذه الآية وأمرهم أن يدخلوا في السلم أي في شرائع الإسلام ولا يتمسكوا بالتوراة فإنها منسوخة. والمعنى استسلموا لله وأطيعوه فيما أمركم به وقيل هو خطاب لمن لم يؤمن بمحمد ﷺ من أهل الكتاب. والمعنى: يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى ادخلوا في السلم كافة أي في الإسلام. وروى جابر عن النبي ﷺ حين أتاه عمر فقال إنا نسمع أحاديث من يهود وتعبنا فنرى أن نكتب بعضها فقال ﷺ: «أتهوكون كما تهوكت اليهود والنصارى، لقد جئتمكم بها بيضاء نقية ولو أن موسى حي ما وسعه إلا اتباعي» قوله أتهوكون أي تحيرون أنتم في دينكم حتى تأخذوه من اليهود والنصارى، وقوله لقد جئتمكم بها يعني بالملة الحنيفية بيضاء نقية،

لله، فتقدم فقاتل وحده حتى قتل، وقيل: نزلت الآية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال ابن عباس: أرى من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله يقوم فيأمر هذا بتقوى الله فإذا لم يقبل وأخذته العزة بالإثم، قال: وأن أشري نفسى لله فقاتله فاقتل الرجلان لذلك، وكان علي إذا قرأ هذه الآية يقول: اقتتلا ورب الكعبة، وقال أبو الخليل: سمع عمر بن الخطاب إنساناً يقرأ هذه الآية ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله﴾، فقال عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون، قام رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فقتل، أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا عبد الرحمن بن شريح أخبرنا أبو القاسم البغوي أخبرنا علي بن الجعد، أخبرنا حماد بن سلمة عن أبي غالب عن أبي أمامة أن رجلاً قال: يا رسول الله أي الجهاد أفضل؟ قال: «أفضل الجهاد من قال كلمة حق عند سلطان جائر».

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة﴾، قرأ أهل الحجاز والكسائي (السلم) ههنا بفتح السين، وقرأ الباقر بكسرها، وفي سورة الأنفال بالكسر، وقرأ أبو بكر والباقر بالفتح، وفي سورة محمد ﷺ بالكسر، حمزة وأبو بكر، نزلت هذه الآية في مؤمني أهل الكتاب، عبد الله بن سلام النضيري وأصحابه، وذلك

أي لا تحتاج إلى شيء، وقيل يحتمل أن يكون خطاباً للمنافقين من المؤمنين، والمعنى يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم ادخلوا في السلم أي الانقياد والطاعة لأن أصل السلم الاستسلام، وهو الانقياد كافة، أي بأجمعكم ولا تتفرقوا، وقيل يحتمل أن يرجع إلى الإسلام والمعنى ادخلوا في أحكام الإسلام وشرائعه كافة وهذا المعنى أليق بظاهر التفسير لأنهم أمروا بالقيام بها كلها. قال حذيفة بن اليمان في هذه الآية: للإسلام ثمانية أسهم فعل الصلاة والزكاة والصوم والحج والعمرة والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال: وقد خاب من لا سهم له ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ يعني آثاره فيما زين لكم من تحريم السبت ولحوم الإبل وغير ذلك، وقيل: لا تلتفتوا إلى الشبهات التي يلقيها إليكم أصحاب الضلالة والغواية والأهواء المضلة لأن من اتبع سنة إنسان فقد تبع أثره ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ يعني الشيطان. فإن قلت عداوته بإيصال الضرر وإلقاء الوسوسة فكيف يصح ذلك مع الاعتقاد، فإن الله هو الفاعل لجميع الأشياء. قلت: إنه يحاول إيصال الضرر والبلاء إلينا، ولكن الله منعه عن ذلك وأما معنى الوسوسة فمعلوم أنه يزين المعاصي وإلقاء الشبهات، وكل سبب لوقوع الإنسان في مخالفة الله تعالى فيصده بذلك عن الثواب، فهذا من أعظم جهات العداوة. فإن قلت: كيف يصح وصف الشيطان بأنه مبين مع أنا لا نراه؟ قلت: إن الله تعالى بين عداوته ما هي فكأنه بين وإن لم يشاهد ﴿فَإِنْ زُلْتُمْ﴾ أي ملتم وضللت وقال ابن عباس أشركتم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي الدلالات الواضحات ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي في نعمته ممن خالفه غالب لا يعجزه شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ يعني أنه لا ينتقم إلا بحق والحكيم ذو الإصابة في الأمور كلها وفي الآية وعيد وتهديد لمن في قلبه شك ونفاق، أو عنده شبهة في الدين قوله عز وجل:

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلُلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ

أنهم كانوا يعظمون السبت ويكرهون لحوم الإبل وألبانها بعدما أسلموا وقالوا: يا رسول الله إن التوراة كتاب الله فدعنا فلننقم بها في صلاتنا بالليل، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كُلَّةً﴾، أي: في الإسلام، قال مجاهد: في أحكام أهل الإسلام وأعمالهم كافة أي جميعاً، وقيل: ادخلوا في الإسلام إلى منتهى شرائعه كافة عن المجاوزة إلى غيره، وأصل السلم من الاستسلام والانقياد، ولذلك قيل: للصلح سلم، قال حذيفة بن اليمان في هذه الآية: الإسلام ثمانية أسهم فعّد الصلاة والزكاة والصوم والحج والعمرة والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقال: قد خاب من لا سهم له، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾، أي: آثاره فيما زين لكم من تحريم السبت ولحوم الإبل وغيره، ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾، أخبرنا محمد بن الحسن المروزي أخبرنا أبو العباس الطحان أخبرنا أبو أحمد محمد بن قريش، أخبرنا علي بن عبد العزيز المكي أخبرنا أبو عبيد القاسم بن سلام، أخبرنا هاشم أخبرنا مخلد عن الشعبي، عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ حين أتاه عمر فقال: إنا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا أفترى أن نكتب بعضها؟ فقال: «أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى؟ لقد جشتم بها بيضاء نقية ولو كان موسى حياً ما وسعه إلا أتباعي».

﴿فَإِنْ زُلْتُمْ﴾، ضللت، وقيل: ملتم، يقال: زلت قدمه تزل زلاً وزللاً إذا دحضت، قال ابن عباس: يعني الشرك، قال قتادة: قد علم الله أنه سيزل زالون من الناس، فتقدم في ذلك وأوعد فيه ليكون لديه الحجة عليهم، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾، أي: الدلالات الواضحات، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾: في نعمته، ﴿حَكِيمٌ﴾: في أمره، فالعزیز: هو الغالب الذي لا يفوته شيء، والحكيم: ذو الإصابة في الأمر.

الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ آيَاتٍ يَبَيِّنُ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾

﴿هل ينظرون﴾ أي ينتظرون التاركون الدخول في السلم والمتبعون خطوات الشيطان ﴿إلا أن يأتيهم الله في ظلل﴾ جمع ظلة ﴿من الغمام﴾ يعني السحاب الأبيض الرقيق سمي غماماً لأنه يغم ويستر وقيل هو شيء غير السحاب ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تيههم وهو كهية الضباب الأبيض ﴿والملائكة﴾ أي وتأتيهم الملائكة. وروى الطبري في تفسيره بسند متصل عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «من الغمام طاقات يأتي الله عز وجل فيها محفوفاً، وذلك قوله تعالى ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر﴾ قال عكرمة: والملائكة حوله وقيل معناه حول الغمام وقيل حول الرب تبارك وتعالى. واعلم أن هذه الآية من آيات الصفات وللعلماء في آيات الصفات وأحاديث الصفات مذهبان أحدهما وهو مذهب سلف هذه الأمة وأعلام أهل السنة: الإيمان والتسليم لما جاء في آيات الصفات وأحاديث الصفات، وأنه يجب علينا الإيمان بظاهرها ونؤمن بها كما جاءت وكل علمها إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ مع الإيمان، والاعتقاد بأن الله تعالى منزّه عن سمات الحدوث وعن الحركة والسكون. قال الكلبي: هذا من الذي لا يفسر وقال سفيان بن عيينة: كل ما وصف الله به نفسه في كتابه فتفسيره قراءته والسكوت عليه ليس لأحد أن يفسره إلا الله ورسوله. وكان الزهري والأوزاعي ومالك وابن المبارك وسفيان الثوري والليث بن سعد وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه يقولون في هذه الآية وأمثالها اقرؤوها كما جاءت بلا كيف ولا تشبيه ولا تأويل هذا مذهب أهل السنة ومعتقد سلف الأمة، وأشد بعضهم في المعنى:

عقيدتنا أن ليس مثل صفاته	ولا ذاته شيء عقيدة صائب
نسلم آيات الصفات بأسرها	وأخبارها للظاهر المتقارب
ونؤيس عنها كنه فهم عقولنا	وتأويلنا فعل اللبيب المغالب
ونركب للتسليم سفناً فإنها	لتسليم دين المرء خير المراكب

(المذهب الثاني) وهو قول جمهور علماء المتكلمين، وذلك أنه أجمع جميع المتكلمين من العقلاء والمعتبرين من أصحاب النظر على أنه تعالى منزّه عن المجيء والذهاب، ويدل على ذلك أن كل ما يصح عليه المجيء والذهاب لا ينفك عن الحركة والسكون وهما محدثان، وما لا ينفك عن المحدث فهو محدث، والله تعالى منزّه عن ذلك فيستحيل ذلك في حقه تعالى فثبت بذلك أن ظاهر الآية ليس مراداً، فلا بد من التأويل على

قوله تعالى: ﴿هل ينظرون﴾، أي: هل ينتظرون، التاركون الدخول في السلم والمتبعون خطوات الشيطان، يقال نظرت وانتظرت بمعنى واحد، فإذا كان النظر مقروناً بذكر الوجه أو إلى لم يكن إلا بمعنى الرؤية، ﴿إلا أن يأتيهم الله في ظلل﴾، جمع ظلة، ﴿من الغمام﴾، وهو السحاب الأبيض الرقيق سمي غماماً لأنه يغم، أي يستر، وقال مجاهد: هو غير السحاب، ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تيههم، وقال مقاتل: كهية الضباب أبيض، قال الحسن: في سترة من الغمام، فلا ينظر إليهم أهل الأرض، ﴿والملائكة﴾ قرأ أبو جعفر بالخفض عطفاً على الغمام، تقديره مع الملائكة، تقول العرب: أقبل الأمير في العسكر، أي: مع العسكر، وقرأ الباقون الرفع على معنى إلا أن يأتيهم الله والملائكة في ظلل من الغمام، والأولى في هذه الآية وفيما شاكلها أن يؤمن

سبيل التفصيل، فعلى هذا قيل في معنى الآية هل ينظرون إلّا أن يأتيهم الله الآيات فيكون مجيء الآيات مجيئاً لله تعالى على سبيل التفخيم لشأن الآيات وقيل معناه إلّا أن يأتيهم أمر الله ووجه هذا التأويل أن الله تعالى فسرّه في آية أخرى فقال: هل ينظرون إلّا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك، فصار هذا الحكم مفسراً لهذا المجمل في هذه الآية. وقيل: معناه يأتيهم الله بما أوعده من الحساب والعقاب فحذف ما يأتي به تهويلاً عليهم إذ لو ذكر ما يأتي به كان أسهل عليهم في باب الوعيد، وإذا لم يذكر كان أبلغ وقيل يحتمل أن تكون الفاء بمعنى الباء لأن بعض الحروف يقوم مقام بعض فيكون المعنى هل ينظرون إلّا أن يأتيهم الله بظلل من الغمام والملائكة، والمراد العذاب الذي يأتي من الغمام مع الملائكة، وقيل معناه ما ينظرون إلّا أن يأتيهم قهر الله وعذابه في ظلل من الغمام. فإن قلت: لم كان إتيان العذاب في الغمام؟ قلت: لأن الغمام مظنة الرحمة ومنه ينزل المطر، فإذا نزل منه العذاب كان أعظم وأفظع وقيل إن نزول الغمام علامة لظهور القيامة وأحوالها ﴿وقضي الأمر﴾ أي وجب العذاب وفرغ من الحساب، وذلك فصل الله القضاء بين العباد يوم القيامة ﴿والى الله ترجع الأمور﴾ أي إلى الله تصير أمور العباد في الآخرة. فإن قلت: هل كانت ترجع إلى غيره؟ قلت: إن أمور جميع العباد ترجع إليه في الدنيا والآخرة، ولكن المراد من هذا إعلام الخلق إنه المجازي على الأعمال بالثواب والعقاب، وجواب آخر وهو أنه لما عبد قوم غيره في الدنيا أضافوا أفعاله إلى سواه ثم فإذا كان يوم القيامة وانكشف الغطاء ردوا إلى الله ما أضافوه إلى غيره في الدنيا. قوله عز وجل: ﴿سل بني إسرائيل﴾ الخطاب للنبي ﷺ أمره أن يسأل يهود المدينة، وليس المراد بهذا السؤال العلم بالآيات لأنه كان ﷺ قد علمها بإعلام الله إياه، ولكن المراد بهذا السؤال التقرير والتوبيخ والمبالغة في الزجر عن الإعراض عن دلائل الله وترك الشكر، وقيل المراد بهذا السؤال التقرير وتذكير النعم التي أنعم بها على سلفهم ﴿كم آتيناهم من آية بينة﴾ أي من دلالة واضحة على نبوة موسى عليه السلام مثل العصا واليد البيضاء وقلق البحر وإنزال المن والسلوى ﴿ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته﴾ يعني يغير الآية التي جاءته من الله لأنها هي سبب الهدى والنجاة من الضلالة، وقيل هي حجج الله الدالة على نبوة محمد ﷺ وذلك أنهم أنكروها وبدلوها، وقيل المراد بنعم الله عهده الذي عهد إليهم فلم يفوا به ﴿فإن الله شديد العقاب﴾ يعني لمن بدل نعمة الله. قوله عز وجل:

الإنسان بظواهرها ويكل علمها إلى الله تعالى، أو يعتقد أن الله عز اسمه منزّه عن سمات الحَدَث، على ذلك مضت أئمة السلف وعلماء السُنّة، قال الكلبي: هذا من المكتوم الذي لا يُفسّر، وكان مكحول والزهري والأوزاعي ومالك وابن المبارك وسفيان الثوري والليث بن سعد وأحمد وإسحق، يقولون فيه وفي أمثاله: أمرها كما جاءت بلا كيف، قال سفيان بن عُيينة: كلما وصف الله به نفسه في كتابه فتفسيره: قراءته والسكرت عليه، ليس لأحد أن يفسره إلّا الله تعالى ورسوله. قوله تعالى: ﴿وقضي الأمر﴾، أي: وجب العذاب وفرغ من الحساب، وذلك فصل الله القضاء بالحق بين الخلق يوم القيامة، ﴿والى الله ترجع الأمور﴾، قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب بفتح التاء وكسر الجيم، وقرأ الباقون بضمّ التاء وفتح الجيم.

قوله تعالى: ﴿سل بني إسرائيل﴾، أي: سل يا محمد يهود المدينة: ﴿كم آتيناهم﴾: أعطينا آبائهم وأسلافهم، ﴿من آية بينة﴾، قرأ أهل الحجاز وقيية بتشديد الياء والباء، والباقون بتشديد الياء، دلالة واضحة على نبوة موسى عليه السلام، مثل العصا واليد البيضاء وقلق البحر وغيرها، وقيل: معناه الدلالات التي آتاهم الله في التوراة والإنجيل على نبوة محمد ﷺ، ﴿ومن يبدل﴾، يعني: يغير ﴿نعمة الله﴾: كتاب الله، وقيل: عهد الله، وقيل: مَنْ يُنكر الدلالة على نبوة محمد ﷺ، ﴿من بعد ما جاءته﴾ فإن الله شديد العقاب.

رُئِيَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾

﴿زين للذين كفروا الحياة الدنيا﴾ نزلت في مشركي العرب أبي جهل وأصحابه لأنهم كانوا يتنعمون بما بسط لهم في الدنيا من المال ويكذبون بالمعاد، وقيل: نزلت في المنافقين عبدالله بن أبي وأصحابه. وقيل: نزلت في رؤساء اليهود. ويحتمل أنها نزلت في الكل. والمزين هو الله تعالى بدليل قراءة من قرأ زين بفتح الزاي وذلك أنه لا يمتنع أن يكون الله تعالى هو المزين لهم بما أظهره في الدنيا من الزهرة والنضارة والطيب واللذة وخلق الأشياء العجيبة والمناظر الحسنة، وإنما فعل ذلك ابتلاء العباد وذلك أنه جعل دار الدنيا ابتلاء وامتحان وركب في الطباع الميل إلى اللذات وحب الشهوات لا على سبيل الإلجاء والقسر الذي لا يمكن تركه، بل على سبيل التحبب الذي تميل النفس إليه مع إمكان. ردها عنه فنظر الخلق إلى الدنيا أكثر من قدرها فأعجبهم حسناتها وزهرتها وزينتها فأحبوها وفتنوا بها. وقيل: إن المراد من التزين أنه تعالى أمهلهم في الدنيا حتى أقبلوا عليها وأحبوها، فكان هذا الإمهال هو التزين. وقيل: إن المزين هو الشيطان وغواة الجن والإنس، وذلك أنهم زينوا للكفار الحرص على الدنيا وطلبها وقبحوا لهم أمر الآخرة. وقيل: أوهموهم أن لا آخرة ليقبلوا على لذات الدنيا وطلب الحرص عليها، وهذا التأويل ضعيف لأن قوله تعالى زين الذين كفروا يتناول جميع الكفار فيدخل فيه الشيطان وغواة الجن والإنس وأن كلهم مزين لهم وهذا المزين لا بد وأن يكون مغايراً لهم فثبت بهذا ضعف قول المعتزلة ﴿ويسخرون من الذين آمنوا﴾ يعني أن الكفار يستهزئون بفقرء المؤمنين، قال ابن عباس: مثل عبدالله بن مسعود وعمار بن ياسر وصهيب وبلال ونظرائهم. وقيل: كانوا يقولون انظروا إلى هؤلاء الذين يزعم محمد أنه يغلب بهم ﴿والذين اتقوا﴾ يعني الفقراء من المؤمنين ﴿فوقهم﴾ أي فوق الكفار ﴿يوم القيامة﴾ لأن الفقراء في عليين والكفار والمنافقين في أسفل السافلين (ق) عن حارثة بن وهب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ألا أخبركم بأهل الجنة كل ضعيف مستضعف لو

﴿رُئِيَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾، الأكثرون على أن المزين هو الله تعالى، والتزين من الله تعالى هو: أنه خلق الأشياء الحسنة والمناظر العجيبة، فنظر الخلق بأكثر من قدرها فأعجبهم حسناتها ففتنوا بها، وقال الزجاج: زين لهم الشيطان، قيل: نزلت هذه الآية في مشركي العرب أبي جهل وأصحابه، كانوا يتنعمون بما بسط الله لهم في الدنيا من المال ويكذبون بالمعاد، ﴿ويسخرون من الذين آمنوا﴾، أي: يستهزئون بالفقراء من المؤمنين، قال ابن عباس: أراد بالذين آمنوا عبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر وصهيباً وبلالاً وخباباً وأمثالهم، وقال مقاتل: نزلت في المنافقين عبد الله بن أبي وأصحابه كانوا يتنعمون في الدنيا ويسخرون من ضعفاء المؤمنين وفقراء المهاجرين، ويقولون: انظروا إلى هؤلاء الذين يزعم محمد أنه يغلب بهم، وقال عطاء: نزلت في رؤساء اليهود من بني قريظة والنضير وبني قينقاع، سخروا من فقراء المهاجرين، فوعدهم الله أن يعطيهم أموال بني قريظة والنضير بغير قتال، ويسخرون من الذين آمنوا لفقيرهم، ﴿والذين اتقوا﴾، يعني: هؤلاء الفقراء، ﴿فوقهم يوم القيامة﴾، لأنهم في أعلى عليين وهم في أسفل السافلين، أخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الطاهري، أخبرنا جدي عبد الصمد بن عبد الرحمن البزار أخبرنا أبو بكر محمد بن زكريا العذافري، أخبرنا إسحق الديري أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «وقفت على باب الجنة فرأيت أكثر أهلها المساكين، ووقفت على باب النار فرأيت أكثر أهلها النساء، وإذا أهل الجنة محبوسون إلا من كان منهم من أهل النار، فقد أمر به إلى النار»، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي،

أقسم على الله لأبره ألا أخبركم بأهل النار كل عتلّ جَوَاطِ جعظري مستكبر العتلّ اللفظ الغليظ الشديد في الخصومة الذي لا ينقاد لخير. والجواط الفاجر المختال في مشيته، وقيل هو القصير البطين. والجعظري اللفظ الغليظ، وقيل هو الذي يتمدح بما ليس فيه أو عنده (ق) عن أسامة بن زيد عن النبي ﷺ قال: «قمت على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين وأصحاب الجدة محبوسون غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء» الجدة بفتح الجيم هو الحظ والغنى وكثرة المال ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ قال ابن عباس: يعطي كثيراً بغير مقدار لأن كل ما يدخل عليه الحساب فهو قليل، والمعنى أنه يوسع لمن يشاء من عباده وقيل يرزقه في الدنيا ولا يحاسبه في الآخرة، وقيل معناه أنه يرزق من يشاء من حيث لا يحتسب وقيل معناه أنه يرزقه بغير استحقاق وقيل معناه أنه تعالى لا يخاف نفاق ما في خزائنه حتى يحتاج إلى حساب لما يخرج منها لأن الحساب إنما يكون ليعلم قدر ما يعطي والله غني عالم بما يعطي ولا يخاف نفاق خزائنه لأنها بين الكاف والنون وقيل معناه إن الله يقرر الرزق على ما يشاء ويبسط الرزق لمن يشاء، ولا يعطي كل واحد على قدر حاجته، بل يعطي الكثير لمن لا يحتاج إليه، ولا معارض له في حكمه، ويحاسب فيما رزق، ولا يقال له لم أعطيت هذا وحرمت هذا، ولا لم أعطيت هذا أكثر من ذاك؟ لأنه تعالى لا شريك له في ملكه ينازعه ولا يسأل عما يفعل. وقيل: يحتمل أن يكون المراد منه ما يعطي الله المتقين في الآخرة من الثواب والكرامة بغير محاسبة منه لهم على ما من به عليهم وذلك أن نعيم الجنة لا نفاق له ولا انقطاع. وقيل: إنه تعالى يعطي أهل الجنة الثواب والأجر بقدر أعمالهم ثم يتفضل عليهم فذلك الفضل منه إليهم بغير حساب قوله عز وجل: .

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ
النَّاسِ فِي مَا اختلفُوا فِيهِ وَمَا اختلف فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ
الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اختلفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾

﴿كان الناس أمة واحدة﴾ أي على دين واحد. قيل هو آدم وذريته كانوا مسلمين على دين واحد إلى أن قتل

أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل ثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثني عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه عن سهل بن سعد الساعدي أنه قال: مرّ رجل على رسول الله ﷺ فقال لرجل عنده جالس: «ما رأيك في هذا؟» فقال رجل من أشراف الناس: هذا والله حريّ إن خطب أن يُنكح، وإن شفع أن يشفع، قال: فسكت رسول الله ﷺ، ثم مرّ رجل آخر فقال له رسول الله ﷺ: «ما رأيك في هذا؟» فقال: يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حريّ إن خطب أن لا يُنكح وإن شفع أن لا يشفع وإن قال أن لا يُسمع لقوله، فقال رسول الله ﷺ: «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا»، ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾، يعني: كثيراً بغير مقدار، لأن كل ما دخل عليه الحساب فهو قليل، يريد يوسع على من يشاء ويبسط لمن يشاء من عباده، وقال الضحاك: يعني: من غير تبعة يرزقه في الدنيا ولا يحاسبه في الآخرة، وقيل: هذا يرجع إلى الله، معناه: يقرّر على من يشاء ويبسط لمن يشاء، ولا يُعطي لكل أحد بقدر حاجته بل يعطي الكثير من لا يحتاج إليه ولا يُعطي القليل من يحتاج إليه، فلا يُعترض عليه ولا يُحاسب فيما يرزق، ولا يُقال: لِمَ أعطيت هذا وحرمت هذا، ولم أعطيت هذا أكثر مما أعطيت ذاك، وقيل: معناه لا يخاف نفاق خزائنه، فيحتاج إلى حساب ما يخرج منها لأن الحساب من المعطي إنما يكون بما يخاف من نفاق خزائنه.

قوله تعالى: ﴿كان الناس أمة واحدة﴾: على دين واحد، قال مجاهد: أراد آدم وحده كان أمة واحدة، قال: سُمّي الواحد بلفظ الجمع، لأنه أصل النسل وأبو البشر، ثم خلق الله تعالى منه حواء ونشر منهما الناس فانتشروا،

قابيل هابيل فاختلفوا. وقيل كان الناس على شريعة واحدة من الحق والهدى من وقت آدم إلى مبعث نوح ثم اختلفوا، فبعث الله نوحاً، وهو أول رسول بعث، ثم بعث بعده الرسل. وقيل هم أهل السفينة الذين كانوا مع نوح وكانوا مؤمنين ثم اختلفوا بعد وفاته. وقيل إن العرب كانت على دين إبراهيم عليه السلام إلى أن غيره عمرو بن لحي. وقيل كانت الناس أمة واحدة حين أخرجوا من ظهر آدم لأخذ الميثاق فقال: أأست بربكم؟ قالوا بلى، فاعترفوا بالعبودية ولم يكونوا أمة واحدة غير ذلك اليوم، ثم لما ظهوروا إلى الوجود اختلفوا بسبب البغي والحسد. وقيل إن آدم وحده كان أمة واحدة يعني إماماً وقدوة يقتدى به وإنما ظهر الاختلاف بعده. وقيل كان الناس أمة واحدة على الكفر والباطل بدليل قوله ﴿فبعث الله النبيين﴾ فإن قيل: أليس قد كان فيهم من هو مسلم نحو هابيل وشيث وإدريس ونحوهم؟ فالجواب أن الغالب في ذلك الزمان كان الكفر والحكم للغالب. وقيل إن الآية دلت على أن الناس كانوا أمة واحدة وليس فيها ما يدل على أنهم كانوا على إيمان أو كفر فهو موقوف على دليل من خارج ﴿فبعث الله النبيين﴾ وجملتهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً الرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر المذكورون منهم في القرآن بأسماء الأعلام ثمانية وعشرون نبياً ﴿مبشرين﴾ بالثواب لمن آمن وأطاع ﴿ومنذرين﴾ يعني مخوفين بالعقاب لمن كفر وعصى، وإنما قدم البشارة على الإنذار لأن البشارة تجري مجرى حفظ الصحة للأبدان والإنذار يجري مجرى إزالة المرض، ولا شك أن المقصود هو الأول فكان أولى بالتقديم ﴿وأنزل معهم الكتاب﴾ أي الكتب أو يكون التقدير وأنزل مع كل واحد الكتاب ﴿بالحق﴾ أي بالعدل والصدق وجملة الكتب المنزلة من السماء مائة وأربعة كتب أنزل على آدم عشر صحائف، وعلى شيث ثلاثون، وعلى إدريس خمسون، وعلى موسى عشر صحائف والتوراة، وعلى داود الزبور، وعلى عيسى الإنجيل، وعلى محمد ﷺ وعليهم القرآن ﴿ليحكم بين الناس﴾ يعني الكتاب وإنما أضيف الحكم إلى الكتاب وإن كان الحاكم هو الله تعالى لأنه أنزله. والمعنى ليحكم الله بالكتاب الذي أنزله وقيل معناه ليحكم بين الناس كل نبي بكتابة المنزل عليه فإسناد الحكم إلى الكتاب أو للنبي مجاز والله هو الحاكم في الحقيقة ﴿فيما اختلفوا فيه﴾ أي في الحق الذي اختلفوا فيه من بعد ما كانوا متفقين عليه ﴿وما اختلف فيه﴾ أي في الحق ﴿إلا الذين أوتوه﴾ أي أعطوا الكتاب والمراد به التوراة والإنجيل والذين أوتوه

وكانوا مسلمين إلى أن قتل هابيل فاختلفوا، ﴿فبعث الله النبيين﴾ قال الحسن وعطاء: كان الناس من وقت وفاة آدم إلى مبعث نوح أمة واحدة على ملّة الكفر أمثال البهائم فبعث الله نوحاً وغيره من النبيين، وقال قتادة وعكرمة: كان الناس من وقت آدم إلى مبعث نوح، وكان بينهما عشرة قرون، كلهم على شريعة واحدة من الحق والهدى، ثم اختلفوا في زمن نوح، فبعث الله إليهم نوحاً فكان أول نبي بُعث، ثم بعث بعده النبيين، وقال الكلبي: هم أهل سفينة نوح كانوا مؤمنين، ثم اختلفوا بعد وفاة نوح، ورؤي عن ابن عباس قال: كان الناس على عهد إبراهيم عليه السلام أمة واحدة كفّاراً كلهم فبعث الله إبراهيم وغيره من النبيين، وقيل: كان العرب على دين إبراهيم إلى أن غيره عمرو بن لحي لعنة الله عليه، ورؤي عن أبي العالية عن أبي بن كعب قال كان الناس حين عُرضوا على آدم وأخرجوا من ظهره، وأقروا بالعبودية لله تعالى أمة واحدة مسلمين كلهم، ولم يكونوا أمة واحدة قطّ غير ذلك اليوم، ثم اختلفوا بعد آدم، نظيره في سورة يونس [١٩]: ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين﴾، وجملتهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، والرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر، والمذكورون في القرآن باسم العلم ثمانية وعشرون نبياً، ﴿مُبَشِّرِينَ﴾: بالثواب مَنْ آمن وأطاع، ﴿ومُنْذِرِينَ﴾، محذرين بالعقاب مَنْ كفر وعصى، ﴿وأنزل معهم الكتاب﴾، أي: الكتب، تقديره: وأنزل مع كل واحد منهم الكتاب، ﴿بالحق﴾: بالعدل والصدق، ﴿ليحكم بين الناس﴾، قرأ أبو جعفر ﴿ليحكم﴾ بضم الياء وفتح الكاف ههنا، وفي أول آل عمران

اليهود والنصارى واختلافهم هو تكفير بعضهم بعضاً بغياً وحسداً. وقيل اختلافهم هو تحريفهم وتبديلهم. وقيل الكناية فيه راجعة إلى محمد ﷺ والمعنى وما اختلف في أمر محمد ﷺ بعد وضوح الدلالات على صحة نبوته ﷺ إلا اليهود الذين أوتوا الكتاب بغياً منهم وحسداً ﴿من بعد ما جاءتهم البينات﴾ أي الدلالات الواضحات على صحة نبوة محمد ﷺ ﴿بغياً بينهم﴾ أي إنهم لم يبق لهم عذر في العدول عنه وترك ما جاء وإنما تركوا إتباعه بغياً وحسداً، وهو طلب الدنيا وطلب الرياسة ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه﴾ أي إلى ما اختلفوا فيه ﴿من الحق﴾ والمعنى فهدى الله الذين آمنوا لمعرفة ما اختلفوا فيه من الحق وقيل هو من المقلوب والمعنى فهدى الله الذين آمنوا للحق الذي اختلفوا فيه وكان اختلافهم الذي اختلفوا فيه الجمعة فهدى الله تعالى هذه الأمة الإسلامية إليها (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يقوم القيامة أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله فغداً لليهود وبعد غد للنصارى» وفي رواية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نحن الآخرون السابقون بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له» زاد النسائي: يعني يوم الجمعة، ثم اتفقا فالناس لنا تبع اليهود غداً والنصارى بعد غد (م) عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «أضل الله عن يوم الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وللنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا ليوم الجمعة فجعل الله الجمعة والسبت والأحد وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة نحن الآخرون من أهل الدنيا الأولون يوم القيامة المقضي لهم يوم القيامة قبل الخلاق. وقيل اختلفوا في شأن القبلة فصلت اليهود نحو المغرب إلى بيت المقدس، وصلت النصارى إلى المشرق، وهدانا الله إلى الكعبة. وقيل اختلفوا في الصيام فهدانا الله لشهر رمضان، واختلفوا في إبراهيم فقالت اليهود كان يهودياً، وقالت النصارى كان نصرانياً، فهدانا إلى الحق فقلنا: كان حنيفاً مسلماً. واختلفوا في عيسى ابن مريم فاليهود فرطوا فيه والنصارى أفرطوا فيه، فهدانا الله في ذلك كله للحق. والمعنى فهدى الله الذين آمنوا إلى الحق الذي اختلف فيه من اختلف ﴿بإذنه﴾ يعني بعلمه وأمره وإرادته ﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾.

وفي النور موضعين، لأن الكتاب لا يحكم في الحقيقة إنما يحكم به، وقراءة العامة بفتح الياء وضّم الكاف، أي: ليحكم الكتاب، ذكره على سبعة الكلام، كقوله تعالى: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾ [الجاثية: ٢٩]، وقيل: معناه ليحكم كل نبي بكتابه، ﴿فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه﴾، أي: في الكتاب ﴿إلا الذين أوتوه﴾، أي: أعطوا الكتاب، ﴿من بعد ما جاءتهم البينات﴾، يعني: أحكام التوراة والإنجيل، قال الفراء: ولاختلافهم معيان: أحدهما كفر بعضهم بكتاب بعض، قال الله تعالى: ﴿ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض﴾ [النساء: ١٥٠]، والآخر: تحريفهم كتاب الله قال الله: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦]، والمائدة: [١٣]، وقيل: الآية راجعة إلى محمد ﷺ وكتابه، اختلف فيه أهل الكتاب ﴿من بعد ما جاءتهم البينات﴾، صفة محمد ﷺ في كتبهم، ﴿بغياً﴾ ظلماً وحسداً ﴿بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه﴾، أي: إلى ما اختلفوا فيه، ﴿من الحق﴾ بإذنه، بعلمه وإرادته فيهم، قال ابن زيد في هذه الآية: اختلفوا في القبلة فمنهم من يصلي إلى المشرق ومنهم من يصلي إلى المغرب، ومنهم من يصلي إلى بيت المقدس، فهدانا الله إلى الكعبة، واختلفوا في الصيام فهدانا الله لشهر رمضان، واختلفوا في الأيام، فأخذت اليهود السبت، والنصارى الأحد، فهدانا الله للجمعة، واختلفوا في إبراهيم عليه السلام، فقالت اليهود: كان يهودياً، وقالت النصارى: كان نصرانياً، فهدانا الله للحق من ذلك، واختلفوا في عيسى فجعلته اليهود الفرية، وجعلته النصارى إلهاً، وهدانا الله للحق فيه، ﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبِأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾

قوله عز وجل: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ نزلت في غزوة الأحزاب وهي غزوة الخندق، وذلك أن المسلمين أصابهم ما أصابهم من الجهد والشدة والخوف والبرد وضيق العيش الذي كانوا فيه يومئذ. وقيل: نزلت في غزوة أحد. وقيل: لما دخل رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة في أول الهجرة اشتد عليهم الضر لأنهم خرجوا بلا مال وتركوا أموالهم وديارهم بأيدي المشركين، وآثروا رضا الله ورسوله، وأظهرت اليهود العداوة لرسول الله ﷺ وآثر قوم النفاق فأنزل الله هذه الآية تطيباً لقلوبهم. ومعنى الآية: أحسبتم والميم صلة. وقيل: هل حسبتهم والمعنى أظننتم أيها المؤمنون أن تدخلوا الجنة بمجرد الإيمان ولم يصبكم مثل ما أصاب من كان قبلكم من إتباع الأنبياء والرسول من الشدائد والمحن والابتلاء والاختبار وهو قوله: ﴿ولمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي شبه الذين مضوا قبلكم من النبيين وأتباعهم من المؤمنين ومثل محتتهم ﴿مستهم البأساء﴾ أي أصابهم الفقر والشدة والمسكنة وهو اسم من البؤس ﴿والضراء﴾ يعني المرض والزمانة وضروب الخوف ﴿وزلزلوا﴾ أي وحركوا بأنواع البلايا والرزايا وأصل الزلزلة الحركة وذلك لأن الخائف لا يستقر بل لا يزال يضطرب ويتحرك لقلقه ﴿حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله﴾ وذلك لأن الرسل أثبت من غيرهم وأصبر وأضبط للنفس عند نزول البلاء وكذا أتباعهم من المؤمنين. والمعنى أنه بلغ بهم الجهد والشدة والبلاء ولم يبق لهم صبر وذلك هو الغاية القصوى في الشدة فلما بلغ بهم الحال في الشدة إلى هذه الغاية واستبطوا النصر قيل لهم ﴿ألا إن نصر الله قريب﴾ إجابة لهم في طلبهم. والمعنى: هكذا كان حالهم لم يغيرهم طول البلاء والشدة عن دينهم إلى أن يأتيهم نصر الله فكونوا يا معشر المؤمنين كذلك وتحملوا الأذى والشدة والمشقة في طلب الحق فإن نصر الله قريب (خ) عن خباب بن الارت قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا ألا تنتصر لنا ألا تدعو لنا فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصدده ذلك عن دينه والله ليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾، قال قتادة والسدي: نزلت هذه الآية في غزوة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد وشدة الخوف والبرد وضيق العيش وأنواع الأذى، كما قال الله تعالى: ﴿وبلغت القلوب الحناجر﴾ [الأحزاب: ١٠]، وقيل: نزلت في حرب أحد، وقال عطاء: لما دخل رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة، اشتد عليهم الضر لأنهم خرجوا بلا مال وتركوا ديارهم وأموالهم بأيدي المشركين، وآثروا رضا الله ورسوله، وأظهرت اليهود العداوة لرسول الله ﷺ، وأسروا قوم النفاق، فأنزل الله تعالى تطيباً لقلوبهم ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾، معناه حسبتهم والميم صلة قاله الفراء، وقال الزجاج: بل حسبتهم، ومعنى الآية: أظننتم أيها المؤمنون أن تدخلوا الجنة، ﴿ولمَّا يَأْتِكُمْ﴾، أي: ولم يأتكم ﴿وما﴾ صلة ﴿مثل الذين خلَوْا﴾، شبه الذين مضوا، ﴿من قبلكم﴾: من النبيين والمؤمنين، ﴿مستهم البأساء﴾: الفقر والشدة والبلاء، ﴿والضراء﴾: المرض والزمانة، ﴿وزلزلوا﴾، أي: حركوا بأنواع البلايا والرزايا وخوفوا، ﴿حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله﴾، ما زال البلاء بهم حتى استبطوا النصر، قال الله تعالى: ﴿ألا إن نصر الله قريب﴾، قرأ نافع ﴿حتى يقول الرسول﴾ بالرفع، معناه: حتى قال الرسول، وإذا كان الفعل الذي يلي حتى في معنى الماضي، ولفظه لفظ المستقبل، فلذلك فيه الوجهان: الرفع والنصب، فالنصب على ظاهر الكلام لأن (حتى) تنصب الفعل المستقبل،

صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون».

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾

قوله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ نزلت في عمرو بن الجموح، وكان شيخاً كبيراً ذا مال، فقال يا رسول الله بماذا نتصدق وعلى من نفق؟ فأنزل الله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ﴾ أي مال والمعنى: وما تفعلوا من إنفاق شيء من المال قل أو كثر ﴿فَلِلَّوَالِدَيْنِ﴾ وإنما قدم الإنفاق على الوالدين لوجوب حقهما على الولد لأنهما كانا السبب في إخراجهم من العدم إلى الوجود ﴿وَالْأَقْرَبِينَ﴾ وإنما ذكر بعد الوالدين الأقربين لأن الإنسان لا يقدر أن يقوم بمصالح جميع الفقراء فتقديم القرابة أولى من غيرهم ﴿وَالْيَتَامَى﴾ وإنما بعد الأقربين اليتامى لصغرهم، ولأنهم لا يقدرون على الاكتساب، ولا لهم أحد ينفق عليهم ﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾ وإنما آخرهم لأن حاجتهم أقل من حاجة غيرهم ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ يعني المسافر فإنه بسبب انقطاعه عن بلده قد يقع في الحاجة والفقر فانظر إلى هذا الترتيب الحسن العجيب في كيفية الإنفاق. ثم لما فصل الله هذا التفصيل الحسن الكامل أتبعه بالإجمال فقال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ وما تفعلوا من خير مع هؤلاء أو غيرهم طلباً لوجه الله تعالى ورضوانه فإن الله به عليم فيجازيكم عليه وذكر علماء التفسير أن هذه الآية منسوخة قال ابن مسعود نسختها آية الزكاة وقال الحسن إنها محكمة ووجه إحكامها أن الله ذكر فيها من تجب النفقة عليه مع فقره وهما الوالدان. وقال ابن زيد: هذا في النفل، وهو ظاهر الآية فمن أحب التقرب إلى الله تعالى بالإنفاق فالأولى به أن ينفق في الوجوه المذكورة في الآية، فيقدم الأول فالأول. (بقي في الآية سؤال: وهو أنه كيف طابق السؤال الجواب وهو أنهم سألوا عن بيان ما ينفق فأجيبوا ببيان المصروف، وأجيب عن هذا السؤال بأنه قد تضمن قوله: ما

والرفع معناه الماضي، و(حتى) لا تعمل في الماضي.

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾، نزلت في عمرو بن الجموح وكان شيخاً كبيراً ذا مال فقال: يا رسول الله بماذا نتصدق وعلى من نفق؟ فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾، وفي قوله: ﴿مَاذَا﴾ وجهان من الإعراب، أحدهما: أن يكون محله نصباً بقوله: ﴿يُنْفِقُونَ﴾، تقديره أي شيء ينفقون، والآخر: أن يكون رفعاً بـ ﴿مَا﴾ ومعناه: ما الذي ينفقون؟ ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ﴾، أي: من مال، ﴿فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾، وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم، يُجازيكم به قال أهل التفسير: كان هذا قبل فرض الزكاة فنسخت بالزكاة.

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾، أي: فرض عليكم الجهاد، واختلف العلماء في حكم هذه الآية فقال عطاء: الجهاد تطوع، والمراد من الآية أصحاب رسول الله ﷺ دون غيرهم، وإليه ذهب الثوري، واحتج من ذهب إلى هذا بقوله تعالى: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [النساء: ٩٥]، ولو كان القاعد تاركاً فرضاً لم يكن بعده الحُسْنَى، وجرى بعضهم على ظاهر الآية وقال: الجهاد فرض على كافة المسلمين إلى قيام الساعة، أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشربجي الخوارزمي، أخبرنا أبو إسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أخبرنا أبو عمرو أحمد بن أبي القرالي، أخبرنا أحمد بن حازم بن أبي

أنفقتم من خير بيان ما ينفقونه وهو المال ثم ضم إلى جواب السؤال ما يكمل به المقصود، وهو بيان المصروف لأن النفقة لا تعد نفقة إلا أن تقع موقعها قال الشاعر:

إن الصنيعَةَ لا تعد صنيعَةً حتى يصاب بها طريق المصنّع

قوله عز وجل: ﴿كتب عليكم القتال﴾ أي فرض عليكم الجهاد. واختلف العلماء في حكم الآية فقال عطاء الجهاد تطوع والمراد من الآية أصحاب رسول الله ﷺ دون غيرهم وإليه ذهب الثوري وحكى عن الأوزاعي نحوه، وحجة هذا القول أن قوله كتب يقتضي الإيجاب ويكفي العمل به مرة واحدة وحجة من أوجه على أصحاب رسول الله ﷺ أن قوله عليكم يقتضي تخصيص هذا الخطاب بالموجودين في ذلك الوقت، وقيل: بل الآية على ظاهرها والجهاد فرض على كل مسلم ويدل على ذلك ما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الجهاد واجب عليكم مع كل أمير برأ كان أو فاجراً» أخرجه أبو داود بزيادة فيه (ق) عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الجهاد يوم الفتح: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا» وقيل: إن الجهاد فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط الفرض عن الباقي وهذا القول: هو المختار الذي عليه جمهور العلماء. قال الزهري كتب الله القتال على الناس جاهدوا أو لم يجاهدوا فمن غزا فيها ونعمت ومن قعد عدة إن استعين به أعان وإن استنفر نفر وإن استغنى عنه قعد قال الله تعالى: ﴿فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدین درجة وكلاً وعد الله الحسنى﴾ ولو كان القاعد تاركاً فرضاً لم يعده بالحسنى، واختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية على ثلاثة أقوال: أحدها أنها محكمة ناسخة للعفو عن المشركين. القول الثاني: إنها منسوخة لأن فيها وجوب الجهاد على

عُرْزَة، أخبرنا سعيد بن عثمان العبدی عن عمرو بن محمد بن المنکدر عن سمي عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مات ولم يغزْ ولم يُحَدِّثْ نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق» وقال قوم وعليه الجمهور: إن الجهاد فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقي، مثل صلاة الجنازة، ورد السلام، قال الزهري والأوزاعي: كتب الله الجهاد على الناس غَزَوْا أو قعدوا، فَمَنْ غزا فيها ونعمت، وَمَنْ قعد فهو عِدَّةٌ إن استُعين به أعان وإن استُنفِرَ نفرٌ، وإن استُغني عنه قعد، قوله تعالى: ﴿وهو كُرَّةٌ لكم﴾، أي: شاق عليكم، قال بعض أهل المعاني: هذا الكره من حيث نفور الطبع عنه، لما فيه من مؤنة المال ومشقة النفس وخطر الروح، لا أنهم كرهوا أمر الله تعالى، وقال عكرمة: نسخها قوله تعالى: ﴿سمعنا وأطعنا﴾ [البقرة: ٢٨٥، النساء: ٤٦، المائدة: ٧، النور: ٥١]، يعني: أنهم كرهوا ثم أحبوه، فقالوا: سمعنا وأطعنا، قال الله تعالى: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾، لأن في الغزو إحدى الحُسنيين إما الظفر والغنيمة وإما الشهادة والجنة، ﴿وعسى أن تُحِبُّوا شيئاً﴾، يعني: القعود عن الغزو، ﴿وهو شرُّ لكم﴾: لما فيه من فوات الغنيمة والأجر، ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾، قوله تعالى: ﴿يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه﴾ [البقرة: ٢١٧]؟ سبب نزول هذه الآية: أن رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن جحش وهو ابن عمّة النبي ﷺ أخت أبيه في جمادى الآخرة، قبل قتال بدر بشهرين على رأس سبعة عشر شهراً من مَقْدِمِهِ إلى المدينة، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين، سعد بن أبي وقاص الزهري وعُكاشة بن محصن الأسدي وعتبة بن غزوَان السُّلَمي وأبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة وسُهَيْل بن بيضاء وعامر بن ربيعة ووَاقِد بن عبد الله وخالد بن بكير، وكتب لأُميرهم عبد الله بن جحش كتاباً وقال له: «سر على اسم الله، ولا تنظر في الكتاب حتى تسير يومين، فإذا نزلت فافتح الكتاب، واقرأه على أصحابك، ثم امض لما أمرك الله ولا تستكرهنَّ أحداً من أصحابك على السير معك»، فسار عبد الله يومين ثم نزل وفتح الكتاب فإذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم أمّا بعد فسر على بركة الله ممّن تبعك من أصحابك حتى تنزل بطن مكة فترصد بها غير قريش لعلك

الكافة ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ القول الثالث: إنها ناسخة من وجه ومنسوخة من وجه فالنسخ منها إيجاب الجهاد مع المشركين بعد المنع منه، والمنسوخ إيجاب الجهاد على الكافة. وقوله تعالى: ﴿وهو كره لكم﴾ أي القتال شاق عليكم وهذا الكره إنما حصل من حيث نفور الطبع عن القتال، لما فيه من مؤنة المال ومشقة النفس وخطر الروح والخوف لا أنهم كرهوا أمر الله قيل: نسخ هذا الكره بقوله تعالى إخباراً عنهم: «وقالوا سمعنا وأطعنا» وقيل: إنما كان كراهتهم القتال قبل أن يفرض عليهم لما فيه من الخوف والشدة وكثرة الأعداء فبين الله تعالى أن الذين تكرهون من القتال هو خير لكم من تركه لئلا يكرهونه بعد أن فرض عليهم ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾ لفظة عسى توهم الشك مثل لعل، وهي من الله يقين. وقيل: إنها كلمة مطمعة فهي لا تدل على حصول الشك للقائل وتدل على حصول الشك للمستمع، والمعنى أن الغزو فيه إحدى الحسنيين إما الظفر والغنيمة وإما الشهادة والجنة وقيل: ربما كان الشيء شاقاً في الحال وهو سبب المنافع الجليلة في المستقبل، ومثله شرب الدواء المر فإنه ينفر عنه الطبع في الحال ويكرهه لكن يتحمل هذه الكراهة والمشقة لتوقع حصول الصحة في المستقبل ﴿وعسى أن تحبوا شيئاً﴾ يعني القعود عن الغزو ﴿وهو شر لكم﴾ يعني لما فيه من فوت الغنيمة والأجر وطمع العدو فيكم، لأنه إذا علم ميلكم إلى الراحة والدعة والسكون قصد بلادكم وحاول قتالكم وإذا علم أن فيكم شهامة وجلادة على القتال كف عنكم ﴿والله يعلم﴾ يعني ما في الجهاد من الغنيمة والأجر

تأتينا منه بخير، فلما نظر في الكتاب قال سمعاً وطاعة، ثم قال لأصحابه ذلك، وقال إنه نهاني أن أستكره أحداً منكم فمن كان يريد الشهادة فلينطق، ومن كره فليرجع، ثم مضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف عنه منهم أحد حتى كان بمعدن فوق الفرع بموضع من الحجاز يقال له نجران، أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بغيراً لهما يعتقبانه فتخلفا في طلبه، ومضى ببقية أصحابه حتى نزلوا بطن نخلة بين مكة والطائف، فبينما هم كذلك إذ مرت عير لقريش تحمل زيباً وأدماً وتجارة من تجارة الطائف فيهم عمرو بن الحضرمي والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة وعثمان بن عبد الله بن المغيرة وأخوه نوفل بن عبد الله المخزوميان، فلما رأوا أصحاب رسول الله ﷺ هابوهم، فقال عبد الله بن جحش: إن القوم قد دُعِروا منكم فاحلقوا رأس رجل منكم وليتعرض لهم، فحلقوا رأس عكاشة فوق ثم أشرفوا عليهم، فقالوا: قوم عمار لا بأس عليكم فأمَنوهم، وكان ذلك في آخر يوم من جمادى الآخرة، وكانوا يرون أنه من جمادى وهو من رجب، فتشاور القوم وقالوا: إن تركتموهم الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن منكم، فأجمعوا أمرهم في موافقة القوم فرمى واقد بن عبد الله السهمي عمرو بن الحضرمي فقتله، فكان أول قتل من المشركين وهو أول قتل في الهجرة، وأدى النبي ﷺ ذية ابن الحضرمي إلى ورثته من قریش، قال مجاهد وغيره: لأنه كان بين رسول الله ﷺ وبين قریش عهد، وادع أهل مكة ستين أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه واستأسر الحكم وعثمان فكانا أول أسيرين في الإسلام وأُفلت نوفل فأعجزهم واستاق المؤمنون العير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ بالمدينة، فقالت قریش: قد استحل محمد الشهر الحرام فسفك فيه الدماء وأخذ الحرائب، وعير بذلك أهل مكة من كان بها من المسلمين، وقالوا: يا معشر الصبأ استحلتم الشهر الحرام وقاتلتم فيه وبلغ رسول الله ﷺ، فقال لابن جحش وأصحابه: ما أمرتكم بالقتال في الشهر الحرام ووقف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ شيئاً من ذلك، فعظم ذلك على أصحاب السرية وظنوا أن قد هلكوا وسقط في أيديهم، وقالوا: يا رسول الله إنا قد قتلنا ابن الحضرمي ثم أمسينا فظننا إلى هلال رجب فلا ندري أفي رجب أصبناه أم في جمادى، وأكثر الناس في ذلك فأنزل الله تعالى هذه الآية، فأخذ رسول الله ﷺ العير فعزل منها الخمس فكان أول خمس في الإسلام، وقسم الباقي بين أصحاب السرية فكان أول غنيمة في الإسلام، وبعث أهل مكة في فداء أسيرهم،

والخير ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني ذلك والمعنى أن العبد إذا علم قصور علمه وكمال علم الله ثم إن الله تعالى أمره بأمر كان ذلك الأمر فيه مصلحة عظيمة فيجب على العبد امتثال أمر الله تعالى وإن كان يشق على النفس في الحال . قوله عز وجل :

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ
دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا
وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه﴾ سبب نزول هذه الآية . أن رسول الله ﷺ بعث عبدالله بن جحش وهو ابن عمته في سرية في جمادى الآخرة قبل قتال بدر بشهرين وأمره على السرية وكتب له كتاباً، وقال: سر على اسم الله ولا تنظر في الكتاب حتى تسير يومين، فإذا نزلت فافتح الكتاب فاقرأه على أصحابك ثم امض لما أمرتك به، ولا تستكرهن أحداً منهم على السير معك فسار عبدالله يومين، ثم نزل وفتح الكتاب، فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فسر على بركة الله تعالى، بمن معك من أصحابك حتى تنزل بطن نخلة فارصد بها عيراً لقريش لعلك تأتينها منها بخير . فقال: سمعاً وطاعة ثم قال لأصحابه ذلك وقال إنه نهاني أن أستكره أحداً منكم فمن كان يريد الشهادة فلينطلق ومن كان يكره فليرجع، ثم مضى ومضى أصحابه معه وكانوا ثمانية رهط، ولم يتخلف عنه أحد منهم حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع بموضع من الحجاز، يقال له نجران أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما كانا يتعقبانه فتخلفا في طلبه، ومضى عبدالله ببقية أصحابه حتى نزل في بطن نخلة بين مكة والطائف فينما هم كذلك إذ مرت بهم عير لقريش تحمل زيباً وأدماً، وتجارة من تجارة الطائف وفي العير عمرو بن الحضرمي والحكم بن كيسان وعثمان بن عبدالله بن المغيرة ونوفل بن عبدالله بن المخزوميان فلما رأوا أصحاب رسول الله ﷺ هابوهم وقد نزلوا قريباً منهم فقال عبدالله بن جحش: إن القوم قد ذعروا منكم، فاحلقوا رأس رجل منكم وليتعرض لهم فإذا رأوه محلوفاً آمنوا، فحلقوا رأس عكاشة بن محصن، ثم أشرف عليهم فلما رأوه آمنوا وقالوا: قوم عمار فلا بأس علينا وكان ذلك في آخر يوم من جمادى الآخرة وكانوا يرون أنه من رجب فتشاور القوم فيهم، وقالوا: متى تركتموهم هذه الليلة ليدخلن الحرم وليمتنعن منكم فأجمعوا أمرهم في مواجهة

فقال: بل نبقيهما حتى يقدم سعد وعقبة وإن لم يقدما قتلناهما بهما، فلما قدما فأذاهما، فأما الحكم بن كيسان فأسلم وأقام مع رسول الله ﷺ بالمدينة فقتل يوم بئر معونة شهيداً، وأما عثمان بن عبد الله فرجع إلى مكة فمات بها كافراً، وأما نوفل فضرب بطن فرسه يوم الأحزاب ليدخل الخندق فوقع في الخندق مع فرسه فتحطما جميعاً، فقتله الله فطلب المشركون جيفته بالثمن فقال رسول الله ﷺ: «خذوه فإنه خبيث الجيفة خبيث الدية»، فهذا سبب نزول هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام﴾؟ يعني: رجياً، سُمي بذلك لتحريم القتال فيه، قوله تعالى: ﴿قتال فيه﴾، أي: عن قتال فيه، ﴿قل﴾، يا محمد: ﴿قتال فيه كبير﴾: عظيم، تم الكلام ههنا ثم ابتدأ فقال: ﴿وصد عن سبيل الله﴾، وصدكم المسلمين عن الإسلام ﴿وكفر به﴾، أي: كفركم بالله، ﴿والمسجد

القوم فرمى واقد بن عبدالله السهمي عمرو بن الحضرمي بسهم، فقتله فكان أول قتيل من المشركين وأسر الحكم بن كيسان وعثمان وكانا أول أسيرين في الإسلام، وأفلت نوفل فأعجزهم واستاق المسلمون العير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ. فقالت قريش: قد استحل محمد الشهر الحرام وسفك الدماء وأخذ الحرائب يعني المال، وعير بذلك أهل مكة من كان بها من المسلمين. وقالوا: يا معشر الصباة استحللتم الشهر الحرام، وقاتلتم فيه فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لعبدالله بن جحش وأصحابه: ما أمرتكم بالقتال في الشهر الحرام، ووقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ شيئاً من ذلك وعنف المسلمون أصحاب السرية فيما صنعوا، وقالوا لم صنعتم ما لم تؤمروا به، فعظم ذلك على أصحاب السرية وظنوا أنهم قد هلكوا وسقط في أيديهم. وقالوا يا رسول الله إنا قتلنا ابن الحضرمي ثم أمسينا فنظرنا هلال رجب فلا ندري أفي رجب أصبناه أم في جمادى وأكثر الناس في ذلك فأنزل الله هذه الآية فأخذ رسول الله ﷺ العير فعزل منها الخمس، وكان أول خمس في الإسلام وأول غنيمة قسمت فقسم الباقي على أصحاب السرية وبعث أهل مكة في فداء أسيرهم. فقال بل نبقيهما حتى يقدم سعد وعقبة، وإن لم يقدم قتلناهما بهما. فلما قدما فاداها فاما الحكم بن كيسان فأسلم وأقام مع رسول الله ﷺ بالمدينة فقتل يوم بئر معونة شهيداً وأما عثمان بن عبدالله فرجع إلى مكة فمات بها كافراً. وأما نوفل فضرب بطن فرسه يوم الأحزاب ليدخل الخندق فوقع في الخندق مع فرسه فتحطما جميعاً، وقتله الله، فطلب المشركون جيفته بالثمن. فقال رسول الله ﷺ: خذوه فإنه خبيث الجيفة خبيث الدية وأما تفسير الآية فقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ يعني يا محمد عن الشهر الحرام يعني رجباً وسمي بذلك لتحريم القتال فيه وفي السائلين رسول الله ﷺ قولان: أحدهما أنهم المسلمون سألوا رسول الله ﷺ هل أخطؤوا أم أصابوا وقيل: إن المسلمين كانوا يعلمون أن القتال في الحرم وفي الشهر الحرام لا يحل فلما كتب عليهم القتال سألوا رسول الله ﷺ عن القتال في الشهر الحرام فنزلت هذه الآية: والقول الثاني أن السائلين هم المشركون وإنما سألوه على وجه العيب على المسلمين فنزلت هذه الآية ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ عن الشهر الحرام قتال فيه قل ﴿أي قل لهم يا محمد﴾ قتال فيه كبير ﴿أي عظيم مستكبر واختلف العلماء في حكم هذه الآية على قولين أحدهما أنها محكمة وأنه لا يجوز الغزو في الشهر الحرام إلا أن يقاتلوا فيه فيقاتلوا على سبيل الدفع. روي عن عطاء أنه كان يحلف بالله ما يحل للناس، أن يغزوا في الشهر الحرام، ولا أن يقاتلوا فيه وما نسخت. والقول الثاني الذي عليه جمهور العلماء وهو الصحيح أنها منسوخة. قال سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار. القتال جائز في الشهر الحرام وهذه الآية منسوخة بقوله: ﴿اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ وبقوله: ﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾ يعني في الأشهر الحرم وغيرها ﴿وصد عن سبيل الله﴾ هذا ابتداء كلام والمعنى وصدكم المسلمين عن الحج أو وصدكم عن الإسلام من يريده ﴿وكفر به﴾ أي بالله ﴿والمسجد الحرام﴾ أي وصدكم عن المسجد الحرام ﴿وإخراج أهله منه﴾ يعني رسول الله ﷺ والمؤمنين حين أذوهم حتى هاجروا وتركوا مكة، وإنما جعلهم الله أهله لأنهم كانوا هم القائمين بحقوق المسجد الحرام دون المشركين ﴿أكبر عند الله﴾ أي أعظم وزراً عند الله من القتال في الشهر الحرام ﴿والفتنة﴾ أي الشرك الذي أنتم عليه ﴿أكبر من القتل﴾ يعني قتل ابن الحضرمي

الحرام، أي بالمسجد الحرام، وقيل: وصدكم عن المسجد الحرام، ﴿وإخراج أهله﴾، أي: إخراج أهل المسجد ﴿منه أكبر﴾: أعظم وزراً ﴿عند الله والفتنة﴾، أي: الشرك الذي أنتم عليه، ﴿أكبر من القتل﴾، أي: أعظم من قتل ابن الحضرمي في الشهر الحرام، فلما نزلت هذه الآية كتب عبد الله بن أبيس إلى مؤمني مكة: إذا عيركم المشركين بالقتال في الشهر الحرام فعيروهم أنتم بالكفر وإخراج رسول الله ﷺ من مكة ومنعهم المسلمين عن البيت الحرام، ثم قال: ﴿ولا يزالون﴾، يعني: مشركي مكة، وهو فعل لا مصدر له مثل عسى، ﴿يقاتلونكم﴾، يا معشر المؤمنين، ﴿حتى يردوكم﴾: يصرفوكم، ﴿عن دينكم إن استطاعوا ومن يردكم منكم﴾

في الشهر الحرام فلما نزلت هذه الآية كتب عبدالله بن أنيس وقيل: عبدالله بن جحش إلى مؤمني مكة إن غيركم المشركون بالقتال في الشهر الحرام فعيروهم أنتم بالكفر وبإخراج رسول الله ﷺ من مكة والمسلمين، ومنهم إياهم من البيت ﴿ولا يزالون﴾ يعني مشركي مكة ﴿يقاتلونكم﴾ يعني يا معشر المؤمنين ﴿حتى يردوكم عن دينكم﴾ يعني إلى دينهم وهو الكفر ﴿إن استطاعوا﴾ يعني إن قدروا على ذلك وفيه استبعاد لاستطاعتهم فهو كقول الرجل لعدوه إن ظفرت بي فلا تبقي علي وهو واثق أنه لا يظفر به ﴿ومن يردت منكم عن دينه فيمت وهو كافر﴾ يعني ومن يطاوعهم منكم فيرجع إلى دينهم فيمت على رده قبل أن يتوب ﴿فأولئك حبطت أعمالهم﴾ أي بطلت أعمالهم ﴿في الدنيا والآخرة﴾ وهو أن المرتد يقتل وتبين زوجته منه، ولا يستحق الميراث من أقاربه المؤمنين ولا ينصر إن استنصر ولا يمدح ولا يشي عليه ويكون ماله فيثاً للمسلمين هذا في الدنيا، ولا يستحق الثواب على أعماله ويحبط أجرها في الآخرة وظاهر الآية يقتضي أن الارتداد إنما تتفرع عليه الأحكام إذا مات المرتد على الكفر، أما إذا أسلم بعد الردة لم يثبت عليه شيء من أحكام الردة وفيه دليل للشافعي أن الردة لا تحبط الأعمال حتى يموت المرتد على رده. وعند أبي حنيفة أن الردة تحبط العمل وإن أسلم ﴿وأولئك أصحاب النار﴾ يعني الذين ماتوا على الردة والكفر هم أصحاب النار ﴿هم فيها خالدون﴾ أي لا يخرجون منها أبداً ﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله﴾ نزلت في عبدالله بن جحش وأصحابه وذلك أن أصحاب السرية قالوا: يا رسول الله هل نؤجر على وجهنا هذا ونطمع أن يكون لنا غزو. فأنزل الله هذه الآية، وعن جندب بن عبدالله قال: لما كان من أمر عبدالله بن جحش وأصحابه وأمر ابن الحضرمي ما كان قال بعض المسلمين: إن لم يكونوا أصابوا في سفرهم وزراً فليس لهم فيه أجر فأنزل الله هذه الآية ﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا﴾ أي فارقوا مساكنهم وعشائرتهم وأموالهم وفارقوا مساكنة المشركين في أمصارهم، ومجاورتهم في ديارهم فتحولوا عن المشركين وعن بلادهم إلى غيرها، وجاهدوا يعني المشركين في سبيل الله أي في طاعة الله فجعل الله لأصحاب هذه السرية جهاداً ﴿أولئك يرجون رحمة الله﴾ أي يطمعون في نيل رحمة الله أخبر أنهم على رجاء الرحمة. وقيل: المراد من الرجاء هنا القطع في أصل الثواب وإنما دخل الظن في كميته ووقته. قال قتادة: أثنى الله تعالى على أصحاب محمد ﷺ أحسن الثناء فقال: «إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله» هؤلاء هم خيار هذه الأمة ثم جعلهم الله أهل رجاء كما تسمعون وأنه من رجا طلب ومن خاف هرب ﴿والله غفور﴾ أي لذنوب عباده ﴿رحيم﴾ بهم والمعنى أنه تعالى غفر لعبدالله بن جحش وأصحابه ما لم يعلموا به قوله عز وجل: .

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْمَفْهُومُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾

﴿٢١٩﴾

﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ الآية نزلت في عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل وجماعة من الأنصار أتوا

عن دينه فيمت ﴿، جُزم بالنسق، ﴿وهو كافر فأولئك حبطت﴾: بطلت ﴿أعمالهم﴾: حسناتهم ﴿في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾، قال أصحاب السرية: يا رسول الله هل نؤجر على وجهنا هذا وهل نطمع أن يكون سفرنا هذا غزواً؟

فأنزل الله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا﴾، فارقوا عشائرتهم ومنازلهم وأموالهم، ﴿وجاهدوا﴾، المشركين ﴿في سبيل الله﴾، طاعة الله فجعلها جهاداً، ﴿أولئك يرجون رحمة الله﴾، أخبر أنهم على رجاء الرحمة، ﴿والله غفور رحيم﴾.

قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾، الآية نزلت في عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل ونفر من

رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله أفنتا في الخمر والميسر فإنهما مذهب للعلل مسلبة للمال فأنزل الله هذه الآية: وأصل الخمر في اللغة الستر والتغطية وسميت الخمر خمراً لأنها تخامر العقل أي تخالطه. وقيل: لأنها تسترته وتغطيه وجملة القول في تحريم الخمر أن الله عز وجل أنزل في الخمر أربع آيات نزلت بمكة: ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً﴾ فكان المسلمون يشربونها في أول الإسلام، وهي لهم حلال ثم نزل بالمدينة في جواب سؤال عمر ومعاذ: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير﴾ فتركها قوم لقوله، إثم كبير وشربها قوم لقوله ومنافع للناس ثم إن عبد الرحمن بن عوف صنع طعاماً، ودعا إليه ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ فأطعمهم وسقاهم الخمر وحضرت صلاة المغرب فقدموا أحدهم ليصلي بهم فقرأ: قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون بحذف حرف لا إلى آخر السورة فأنزل الله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾ فحرم الله السكر في أوقات الصلوات فكان الرجل يشربها بعد صلاة العشاء، فيصبح وقد زال سكره فيصلي الصبح، ويشربها بعد صلاة الصبح، فيصحو وقت الظهر ثم إن عتبان بن مالك اتخذ صنيعاً يعني وليمة ودعا رجالاً من المسلمين، وفيهم سعد بن أبي وقاص، وكان قد شوى لهم رأس بعير فأكلوا وشربوا الخمر حتى أخذت منهم فافتخروا عند ذلك وانتسبوا وتناشدوا الأشعار، فأنشد سعد قصيدة فيها فخر قومه وهجاء الأنصار، فأخذ رجل من الأنصار لحي البعير فضرب به رأس سعد فشجه موضحة فانطلق سعد إلى رسول الله ﷺ وشكا إليه الأنصاري فقال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، ويروى أن حمزة بن عبدالمطلب، شرب الخمر يوماً وخرج فلقي رجلاً من الأنصار ويده ناضح له والأنصاري يتمثل بيتين لكعب بن مالك يمدح قومه وهما:

جمعنا مع الإيواء نصراً وهجرة فلم ير حيّ مثلنا في المعاشر
فأحيأونا من خير أحياء من مضى وأمواتنا من خير أهل المقابر

الأنصار أتوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله أفنتا في الخمر والميسر فإنهما مذهب للعلل مسلبة للمال، فأنزل الله هذه الآية، وجملة القول في تحريم الخمر على ما قاله المفسرون: إن الله أنزل في الخمر أربع آيات نزلت بمكة وهي: ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً﴾ [النحل: ٦٧]، فكان المسلمون يشربونها وهي لهم حلال يومئذ، ثم نزلت هذه الآية في مسألة عمر ومعاذ بن جبل: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير﴾، فلما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «إن الله تقدّم في تحريم الخمر»، فتركها قوم لقوله: ﴿إثم كبير﴾، وشربها أقوام لقوله: ﴿ومنافع للناس﴾ إلى أن صنع عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعا ناساً من أصحاب النبي ﷺ وأتاهم بخمر فشربوا وسكروا وحضرت صلاة المغرب، فقدموا بعضهم ليصلي بهم فقرأ: قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون هكذا إلى آخر السورة بحذف لا، فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾ [النساء: ٤٣]، فحرم السكر في أوقات الصلاة، فلما نزلت هذه الآية تركها قوم وقالوا: لا خير في شيء يحول بيننا وبين الصلاة، وتركها قوم في أوقات الصلاة وشربوها في غير حين الصلاة حتى كان الرجل يشرب بعد صلاة العشاء فيصبح وقد زال عنه السكر، ويشرب بعد صلاة الصبح فيصحو إذا جاء وقت الظهر، واتخذ عتبان بن مالك صنيعاً ودعا رجالاً من المسلمين فيهن سعد بن أبي وقاص، وكان قد شوى لهم رأس بعير فأكلوا منه وشربوا الخمر حتى أخذت منهم، ثم أنهم افتخروا عند ذلك وانتسبوا وتناشدوا الأشعار، فأنشد سعد قصيدة فيها هجاء للأنصار، وفخر لقومه فأخذ رجل من الأنصار لحي بعير فضرب به رأس سعد فشجه موضحة فانطلق سعد إلى رسول الله ﷺ وشكا إليه الأنصاري، فقال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فأنزل الله

فقال حمزة: أولئك المهاجرون وقال الأنصاري، بل نحن الأنصار فتنازعا فجرد حمزة سيفه وعدا على الأنصاري فهرب الأنصاري وترك ناضحه فقطعه حمزة فجاء الأنصاري مستعدياً إلى رسول الله ﷺ فأخبره بفعل حمزة فغرم له رسول الله ﷺ ناضحاً فقال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فأنزل الله تعالى الآية التي في المائدة إلى قوله ﴿فهل أنتم متتهون﴾ فقال عمر: انتهينا يا رب، وذلك بعد غزوة الأحزاب بأيام والحكمة في وقوع التحريم على هذا الترتيب أن الله تعالى علم أن القوم كانوا قد ألفوا شرب الخمر وكان انتفاعهم بذلك كثيراً فعلم أنه لو منعهم من الخمر دفعة واحدة لشق ذلك عليهم فلا جرم استعمل هذا التدريج وهذا الرفق. قال أنس: حرمت الخمر ولم يكن يومئذ للعرب عيش أعجب منها وما حرم عليهم شيء أشد من الخمر (ق) عن أنس قال: ما كان لنا خمر غير فضيخكم وإني لقائم أسقي أبا طلحة وأبا أيوب وفلاناً وفلاناً إذ جاء رجل، فقال: حرمت الخمر فقالوا: أهرق هذه القلال يا أنس فما سألوا عنها ولا راجعوا بعد خبر هذا الرجل. الفضيف بالضاد والخاء المعجمتين شراب يتخذ من بسر مطبوخ والمفضوخ المشدوخ والمكسور والإهراق الصب والقلال جمع قلة وهي الجرة الكبيرة.

فصل: في تحريم الخمر ووعيد من شربها:

أجمعت الأمة على تحريم الخمر، وأنه يحد شاربها ويفسق بذلك مع اعتقاد تحريمها فإن استحلال كفر بذلك ويجب قتله (ق) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «كل مسكر خمر وكل مسكر حرام ومن شرب الخمر في الدنيا، ومات وهو يدمنها ولم يتب منها لم يشربها في الآخرة» لفظ مسلم (م) عن جابر: «أن رجلاً قدم من جيشان وجيشان من اليمن فسأل النبي ﷺ عن شراب يشربونه بأرضهم من الذرة يقال له: المزر. فقال رسول الله ﷺ: أو مسكر هو؟ قال: نعم. قال رسول الله ﷺ: كل مسكر حرام وإن على الله عهداً لمن يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال. قالوا: وما طينة الخبال يا رسول الله. قال: عرق أهل النار أو عصارة أهل النار» وعن ابن عباس أن

تعالى تحريم الخمر في قوله: ﴿فهل أنتم متتهون﴾ [المائدة: ٩١]، وذلك بعد غزوة الأحزاب بأيام، فقال عمر رضي الله عنه: انتهينا يا رب، قال أنس: حُرِّمَت الخمر ولم يكن يومئذ للعرب عيش أعجب منها، وما حَرَّمَ عليهم شيء أشد من الخمر، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما نزلت الآية التي في سورة المائدة حرمت الخمر فخرجنا بالحُباب إلى الطريق فمنا من حسر حُبّه، ومنا من غسله بالماء والطين، ولعلّه غودرت أزقة المدينة بعد ذلك حيناً، فلما مطرت استبان فيها لون الخمر وفاحت منها ريحها، وعن أنس رضي الله عنه سُمِّيت الخمر خمرًا لأنهم كانوا يَدْعُونَهَا في الدندان حتى تختمر وتتغير، وعن ابن المسيب: لأنها تُرَكَّت حتى صفا لونها ورسب كدرها، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا يعقوب بن إبراهيم أخبرنا ابن علية، أخبرنا عبد العزيز بن سهيب قال: قال لي أنس بن مالك ما كان لنا خمر غير فضيخكم وإني لقائم أسقي أبا طلحة وفلاناً وفلاناً إذ جاء رجل فقال: حُرِّمَت الخمر، فقالوا: أهرق هذه القلال يا أنس، قال: فما سألوها عنها ولا راجعوا بعد خبر الرجل، واختلف العلماء في ماهية الخمر، فقال قوم: هي عصير العنب أو الرُّطْب الذي اشتدَّ وغلا من غير عمل النار فيه، واتفقت الأئمة على أن هذه الخمر نجس يُحد شاربها ويفسق، ويَكْفُر مُسْتَحِلَّهَا، وذهب سفيان الثوري وأبو حنيفة وجماعة إلى أن التحريم لا يتعدى هذا، ولا يحرم ما يُتَّخَذ من غيرها كالمتَّخَذ من الحنطة والشعير والذرة والعسل والفانيذ، إلّا أن يسكر منه كَيَحْرُم، وقالوا: إذا طبخ عصير العنب والرُّطْب حتى ذهب نصفه فهو حلال ولكنه يُكره، وإن طبخ حتى ذهب ثلثاه قالوا هو حلال مُباح شربه، إلّا أن السكر منه حرام، ويحتجّون بما رُوِيَ أن عمر بن الخطاب كتب إلى بعض عمّاله: إن أرزق المسلمين

رسول الله ﷺ قال: «كل مسكر خمر وكل مسكر حرام ومن شرب مسكراً بخست صلواته أربعين صباحاً فإن تاب تاب الله عليه فإن عاد الرابعة كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال. قيل: وما طينة الخبال يا رسول الله قال: صديد أهل النار» أخرجه أبو داود. عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «من شرب الخمر فجعلها في بطنه لم تقبل منه صلاة سبعا وإن مات فيها مات كافراً فإن أذهبت عقله عن شيء من الفرائض. وفي رواية عن القرآن لم تقبل صلواته أربعين يوماً وإن مات فيها مات كافراً» أخرجه النسائي. عن عثمان بن عفان قال: اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث فإنه والله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر إلا يوشك أن يخرج أحدهما صاحبه أخرجه النسائي موقوفاً عليه وفيه قصة عن أنس قال لعن رسول الله ﷺ في الخمر عشرة عاصرها ومعتصرها وشاربها وساقياها وحاملها والمحمولة إليه وبائعها ومبتاعها وواهبها وآكل ثمنها أخرجه الترمذي.

فصل: في أحكام تتعلق بالخمر:

وفيه مسائل: الأولى في ماهيتها: قال الشافعي: الخمرة عبارة عن عصير العنب النيء الشديد الذي قذف بالزبد وكذلك نقيع الزبيب والتمر المتخذ من العسل والحنطة والشعير والأرز والذرة، وكل ما أسكر فهو خمر، وقال أبو حنيفة: الخمر من العنب والرطب ونقيع التمر والزبيب فإن طبخ حتى ذهب ثلثاه حل شربه والمسكر منه حرام واحتج على ذلك بما روي عن عمر بن الخطاب أنه كتب إلى بعض عماله أن ارزق المسلمين من الطلاء، ما ذهب ثلثاه وبقي ثلثه وفي رواية: أما بعد فاطبخوا شرابكم حتى يذهب منه نصيب الشيطان فإن له اثنين ولكم واحد أخرجه النسائي. الطلاء بكسر الطاء والمد الشراب المطبوخ من عصير العنب الذي ذهب ثلثاه وبقي ثلثه، واحتج أيضاً بما روي عن ابن عباس قال: حرمت الخمر بعينها قليلاً وكثيراً والسكر من كل شراب أخرجه النسائي. واستدل أيضاً على أن السكر حرام لما روي عن أبي الأحوص عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي بردة أن النبي ﷺ قال: «اشربوا ولا تسكروا» وعن عائشة نحوه أخرجه النسائي. وقال هذا حديث غير ثابت، واستدل

من الطلاء ما ذهب ثلثاه وبقي ثلثه، ورأى أبو عبيدة ومعاذ شرب الطلاء على الثلث، وقال قوم: إذا طبخ العصير أدنى طبخ صار حلالاً وهو قول إسماعيل بن علقمة، وذهب أكثر أهل العلم إلى أن كل شراب أسكر كثيره فهو خمر وقليله حرام يُحد شاربه، واحتجوا بما أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا أبو إسحق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت: سئل رسول الله ﷺ عن البتع، فقال: «كل شراب أسكر فهو حرام»، أخبرنا أبو عبد الله بن محمد بن الفضل الخرقى أنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني، أنا عبد الله بن عمر الجوهري أخبرنا أحمد بن علي الكشميني، أنا علي بن حجر أنا إسماعيل بن جعفر عن داود بن بكر بن أبي الفرات، عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «ما أسكر كثيره فقليله حرام»، أخبرنا إسماعيل بن عبد القادر الجرجاني أنا عبد الغافر بن محمد الفارسي، أنا محمد بن عيسى الجلودي أنا إبراهيم بن محمد بن أبي سفيان، أنا مسلم بن الحجاج أنا أبو الربيع العتكي، أخبرنا حماد بن زيد عن أيوب عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مسكر حرام، ومن شرب الخمر في الدنيا فمات وهو يدمنها ولم يتب لم يشربها في الآخرة»، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أحمد بن أبي رجاء أنا يحيى عن أبي حيان التيمي، عن الشعبي عن ابن عمر قال: خطب عمر على منبر رسول الله ﷺ فقال: إنه قد نزل تحريم الخمر، وهي من خمسة أشياء من العنب والتمر والحنطة والشعير والعسل، والخمر: ما خامر العقل، وروى الشعبي عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من العنب خمراً وإن من التمر خمراً وإن من العسل خمراً وإن من

الشافعي على أن الخمر في عدة أشياء بما روي عن ابن عمر أن عمر قال على منبر رسول الله ﷺ: أما بعد أيها الناس أنه نزل تحريم الخمر وهي من خمسة العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير والخمر ما خامر العقل ثلاث، وددت أن رسول الله ﷺ كان عهد إلينا فيهن عهداً تنتهي إليه الجذ والكلالة وأبواب من أبواب الربا أخرجه البخاري ومسلم (ق) عن عائشة أن رسول الله ﷺ سئل عن البتع فقال كل شراب أسكر فهو حرام. البتع شراب يتخذ من العسل كان أهل اليمن يشربونه. عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال: «إن من العنب خمراً وإن من البر خمراً وإن من الشعير خمراً وإن من التمر خمراً» أخرجه أبو داود. وزاد في رواية والذرة وإني أنهاكم عن كل مسكر وللترمذي نحوه وزاد وإن من العسل خمراً (خ) عن ابن عباس أنه سئل عن الباذق فقال: سبق حكم محمد في الباذق، فما أسكر فهو حرام عليك والشراب الحلال الطيب ليس بعد الحلال الطيب ليس بعد الحلال الطيب إلا الحرام الخبيث قال صاحب المطالع: الباذق بفتح الذال المعجمة هو الطلاء المطبوع من عصير العنب كان أول من صنعه وسماه بنو أمية لينقلوه عن اسم الخمر، وكل ما أسكر فهو خمر لأن الاسم لا ينقله عن معناه الموجود فيه. وقال ابن الأثير في النهاية الباذق الخمر تعريب باذه وهو اسم للخمر بالفارسية أي لم يكن في زمانه أو سبق. قوله: فيها وفي غيرها من جنسها. وقيل معناه سبق حكم محمد ﷺ إن ما أسكر فهو حرام. عن أم سلمة قالت: نهى رسول الله ﷺ عن كل مسكر ومفتر أخرجه أبو داود: والمفتر كل شراب أحمى الجسد وصار فيه فتور وضعف وانكسار واستدل الشافعي على ما أسكر كثيره فقليله حرام، مما روي عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «ما أسكر كثيره فقليله حرام» أخرجه الترمذي وأبو داود. عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «كل مسكر حرام وما أسكر منه الفرق فملاء الكف منه حرام» أخرجه أبو داود والنسائي. وفي رواية له «والحسوة منه حرام» الفرق بالتحريك مكيال يسع تسعة عشر رطلاً بالبغداد، وأجيب عن حديث عمر في الطلاء بأنه معارض بما روي عن السائب يزيد أن عمر قال: وجدت من فلان ريح شراب وزعم أنه شرب الطلاق وأنا سائل عنه فإن كان يسكر جلده فسال عنه فقليل له: إنه يسكر فجلده عمر الحد تاماً أخرجه مالك في الموطأ. وأما حديث ابن عباس،

البر خمراً وإن من الشعير خمراً، فثبت أن الخمر لا يختص بما يتخذ من العنب أو الرطب، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب، عن السائب بن يزيد أنه أخبره: أن عمر بن الخطاب خرج عليهم فقال: إني وجدت من فلان ريح خمر أو شراب، وزعم أنه شرب الطلاء، وأنا سائل عما شرب! فإن كان يسكر جلده، فجلده عمر الحد تاماً، وما روي عن عمر وأبي عبيدة ومعاذ في الطلاء فهو فيما طُبِّخ حتى خرج عن أن يكون مُسْكراً، سئل ابن عباس عن الباذق، فقال: سبق محمد الباذق، فما أسكر فهو حرام، قوله تعالى: ﴿وَالْمِيسِرَ﴾ يعني: القمار، قال ابن عباس: كان الرجل في الجاهلية يُخاطر الرجل على أهله وماله فأَيُّهما قمر صاحبه ذهب بأهله وماله، فأنزل الله تعالى هذه الآية، والميسر: مفعول من قولهم: يَسِرُّ لي الشيء إذا وجب يسر يسراً وميسراً، ثم قيل للقمار: ميسر، وللمقامر: ياسر ويُسِر، وكان أصل الميسر في الجزور، وذلك أن أهل الثروة من العرب كانوا يشترون جزوراً فينحرونها ويجزؤونها عشرة أجزاء ثم يُسهمون عليها بعشرة قداح يقال لها الأزلام والأقلام السبعة، منها أنصباء وهي الفذ، وله نصيب واحد، والتوأم وله نصيبان، والرقيب وله ثلاثة أسهم، والحلس وله أربعة، والنافس وله خمسة، والمسبل وله ستة، والمعلّى وله سبعة، وثلاثة منها لا أنصباء لها وهي: المنيج والسفيح والوغد، ثم يجعلون القداح في خريطة تسمى الراباة ويضعونها على يدي رجل عدل عندهم يسمى المحيل والمفيض، ثم يحيلها ويخرج قدحاً منها باسم رجل منهم، فأَيُّهم خرج اسمه أخذ نصيبه على قدر ما خرج، فإن خرج له واحد من هذه الثلاثة التي لا أنصباء لها كان لا يأخذ شيئاً، ويغرم ثمن

فموقوف عليه ومعارض بما روي عنه في الباذق، وقوله: والسكر من كل شراب قد رواه الحفاظ السكر بفتح السين. قال صاحب الغريبين: السكر خمر الأعاجم، ويقال لما يسكر السكر وروى هذا الحديث ابن حنبل وقال فيه: والمسكر من كل شراب، وقال موسى بن هارون: وهو الصواب، وأما حديث أبي الأحوص ففيه وهمان: أحدهما في سنده حيث قال: عن أبي بردة، وإنما يرويه سماك عن القاسم عن ابن بريدة عن أبيه والوهم الثاني في متنه حيث قال: اشربوا ولا تسكروا، وإنما يرويه الناس ولا تشربوا مسكراً، ويدل على صحة هذا ما روى مسلم في صحيحه عن محارب بن دثار عن ابن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «كنت نهيتكم عن الأشربة في ظروف الأدم فاشربوا في كل وعاء غير أن لا تشربوا مسكراً» وقال النسائي: في حديث أبي الأحوص هذا حديث منكر غلط فيه أبو الأحوص سلام بن سليم لا يعلم أن أحداً تابعه عليه من أصحاب سماك، وأما حديث عائشة فيه فهو غير ثابت كما تقدم في قول النسائي.

المسألة الثانية: في الحكم بنجاسة الخمر. الخمر وما يلحق بها نجاسة العين ويدل على نجاستها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ والرجس في اللغة النجس والشيء المستقذر وقوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ فأمر باجتنابها فكانت نجاسة العين ويدل على نجاستها أيضاً أنها محرمة التناول لا للاحترام، ولأن الناس مشغوفون بها فينبغي أن يحكم بنجاستها تأكيداً للزجر عنها.

المسألة الثالثة: في تحريم بيعها والانتفاع بها. أجمعت الأمة على تحريم بيع الخمر والانتفاع بها وتحريم ثمنها ويدل على ذلك ما روي عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول عام فتح مكة: «إن الله تعالى حرم بيع الخمر والانتفاع بها والميتة والخنزير والأصنام» أخرجاه في الصحيحين مع زيادة اللفظ (ق). عن عائشة قالت خرج رسول الله ﷺ فقال: «حرمت التجارة في الخمر» (ق) عن ابن عباس قال بلغ عمر بن الخطاب أن فلاناً باع خمرأ فقال قاتل الله فلاناً ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوا فباعوها» عن المغيرة بن شعبة قال قال رسول الله ﷺ: «من باع الخمر فليشقص الخنازير» أخرجه أبو داود. وقوله فليشقص الخنازير أي فليقطعها قطعاً قطعاً كما تقطع الشاة للبيع والمعنى من استحلال بيع الخمر فليستحل بيع الخنازير فإنهما في التحريم سواء. عن أبي طلحة قال يا نبي الله إني اشتريت خمرأ لأيتام في حجري. فقال: اهرق الخمر واكسر الدنان أخرجه الترمذي. وقال وقد روي عن أنس إن أبا طلحة كان عنده خمر لأيتام وهو أصح. فإن قلت فما وجه قوله تعالى: ﴿وَمَنْعَ النَّاسِ﴾ قلت: منافعها اللذة التي توجد عند شربها والفرح والطرب معها وما كانوا يصيبون من الربح في ثمنها، وذلك قبل التحريم فلما حرمت الخمر حرم ذلك كله.

الجزور كله، وقال بعضهم: كان لا يأخذ شيئاً ولا يُغرم، ويكون ذلك القدح لغواً ثم يدفعون ذلك الجزور إلى الفقراء ولا يأكلون منه شيئاً، وكانوا يفتخرون بذلك ويذمون من لم يفعل ذلك، ويسمونه البرم، وهو أصل القمار الذي كانت تفعله العرب، والمراد من الآية أنواع القمار كلها، قال طائوس وعطاء ومجاهد: كل شيء فيه قمار فهو من الميسر، حتى لعب الصبيان بالجوز والكعباب، وروى عن علي رضي الله عنه في النرد والشطرنج أنهما من الميسر، ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾: وزر عظيم من المخاصمة والمشاتمة وقول الفحش، قرأ حمزة والكسائي ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾، بالناء المثناة وقرأ الباقون بالباء، فالإثم في الخمر والميسر ما ذكره الله في قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾؟ [المائدة: ٩١] ﴿وَمَنْعَ النَّاسِ﴾، فمنفعة الخمر اللذة عند شربها والفرح واستمرار الطعام، وما يصيبون من الربح بالتجارة فيها، ومنفعة الميسر إصابة المال من غير كد ولا تعب، وأرتفاق الفقراء به، والإثم فيه أنه إذا ذهب ماله عن

(فصل)

وأما الميسر فهو القمار واشتقاقه من اليسر لأنه أخذ مال بسهولة من غير تعب، وكذا قال ابن عباس كان الرجل في الجاهلية يخاطر الرجل على أهله وماله فأيهما قمر صاحبه ذهب بأهله وماله فأنزل الله هذه الآية. وأصل الميسر أن أهل الثروة من العرب في الجاهلية كانوا يشترون جزوراً فينحرونها ويجزئونها ثمانية وعشرين جزءاً، ثم يسهمون عليها بعشرة قдах يقال لها: الأزلام والأقلام وأسماءها الفذ والتوأم والرقب والحلس والنافس والمسبل والمعلى والمنيح والسفيح والوغد وكانوا يسهمون لسبعة منها أنصباء فللفذ سهماً وللتوأم سهمين وللرقب ثلاثة أسهم وللحلس أربعة وللنافس خمسة، وللمسبل ستة والمعلى سبعة وثلاثة من القдах لا أنصباء لها وهي المنيح والسفيح والوغد قال بعضهم:

لي في الدنيا سهام ليس فيها ربيح
إنما سهمي وغد ومني ربح وسفيح

ثم يجمعون القдах في خريطة يسمونها الريابة، ويضعونها على يد رجل عدل عندهم يسمونه المحيل والمفيض فيحيلها في الخريطة، ويخرج منها قداً باسم رجل منهم فأيهما خرج اسمه أخذ نصيبه على قدر ما يخرج من القдах، وإن خرج له قдах من الثلاثة التي لا أنصباء لها لم يأخذ شيئاً وغرم ثمن الجزور كله وقيل: لا يأخذ ولا يغرم ويسمون ذلك القдах لغواً ثم يدفعون ذلك الجزور إلى الفقراء ولا يأكلون منه شيئاً وكانوا يفتخرون بذلك ويدمونه من لا يفعله ويسمونه البرم يعني البخيل الذي لا يخرج شيئاً بين الأصحاب لبخله. وأما حكم الآية فالمراد به جميع أنواع القمار. فكل شيء فيه قمار فهو من الميسر روي عن ابن سيرين ومجاهد وعطاء كل شيء فيه خطر يعني الرهن فهو من الميسر حتى لعب الصبيان بالجزو والكعاب وأما النرد فيحرم اللعب به سواء كان بخطر أم لا يدل على تحريمه ما روي عن بريدة أن رسول الله ﷺ قال: «من لعب بالنردشير فكأنما صبغ يده في دم خنزير». أخرجه مسلم. وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «من لعب بنرد أو نردشير فقد عصى الله ورسوله» أخرجه أبو داود. وعن علي بن أبي طالب قال النرد والشطرنج من الميسر. واختلفوا في الشطرنج فذهب أبي حنيفة أنه يحرم اللعب به سواء كان برهن أو بغير رهن، ومذهب الشافعي أنه مباح بشروط ذكرها الشافعي فقال: إذا خلا الشطرنج عن الرهان واللسان عن الطغيان ويروى عن الهذيان والصلاة عن النسيان لم يكن حراماً، وهو خارج عن الميسر لأن الميسر ما يوجب دفع مال، وأخذ مال وهذا ليس كذلك وقوله تعالى: ﴿قل فيهما﴾ يعني في الخمر والميسر ﴿إنم كبير﴾ أي وزر عظيم وقيل: إن الخمر عدو للعقل فإذا غلبت على عقل الإنسان ارتكب كل

غير عوض ساء ذلك فعادى صاحبه فقصده بالسوء، ﴿وإنمهما أكبر من نفعهما﴾، قال الضحّاك وغيره: إنمهما بعد التحريم أكبر من نفعهما قبل التحريم، هو ما يحصل به من العداوة والبغضاء. قوله تعالى: ﴿ويسألونك ماذا ينفقون﴾؟ وذلك أن رسول الله ﷺ حثهم على الصدقة، فقالوا: ماذا ننفق؟ فقال: ﴿قل العفو﴾، قرأ أبو عمرو والحسن وقتادة وابن أبي إسحق ﴿العفو﴾ بالرفع، معناه أي: الذي يُنفقون هو العفو، وقرأ الآخرون بالنصب على معنى: قل: أنفقوا العفو، واختلفوا في معنى العفو، فقال قتادة وعطاء والسدي: هو ما فُضِّلَ عن الحاجة، وكانت الصحابة يكتسبون المال ويمسكون قدر النفقة ويتصدقون بالفضل بحكم هذه الآية، ثم نسخ بآية الزكاة، وقال مجاهد: معناه التصدق عن ظهر غنى حتى لا يبقى كلاً على الناس، أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيايدي، أنا أبو بكر محمد بن عمر بن حفص التاجر، أنا إبراهيم بن عبد الله بن عمر الكوفي أنا وكيع عن الأعمش، عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

قبيح ففي ذلك آثام كبيرة منها إقدامه على شرب المحرم ومنها فعل ما لا يحل فعله. وأما الإثم الكبير في الميسر فهو أكل المال الحرام بالباطل وما يجري بينهما من الشتم والمخاصمة والمعاداة وكل ذلك فيه آثام كثيرة ﴿ومنافع للناس﴾ يعني أنهم كانوا يربحون في بيع الخمر قبل تحريمها. وأما منافع الميسر فهو أخذ مال بغير كد ولا تعب. قيل ربما أن الواحد منهم كان يقرر في المجلس الواحد مائة بعير، فيحصل له المال الكثير، وربما كان يصرفه إلى المحتاجين فيكسب بذلك الثناء والمدح، وهو المنفعة ﴿وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ يعني إثمهما بعد التحريم أكبر من نفعهما قبل التحريم، وقيل: إثمهما قوله تعالى: ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم متتهون﴾ فهذه ذنوب يترتب عليها آثام كبيرة بسبب الخمر والميسر. قوله تعالى: ﴿ويسألونك ماذا ينفقون﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ حضهم على الصدقة فقالوا ماذا ننفق فقال الله تعالى: ﴿قل العفو﴾ يعني الفضل والعفو ما فضل عن قدر الحاجة. فكانت الصحابة يكتسبون المال ويمسكون قدر النفقة. ويتصدقون بالفاضل بحكم هذه الآية ثم نسخ ذلك بآية الزكاة وقيل: هو التصديق عن ظهر غنى (ق) عن الزهري قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول» وقيل: هو الوسط في الإنفاق من غير إسراف ولا إقتار وقيل: هو في صدقة التطوع إذ لو كان المراد بهذا الإنفاق الواجب لبين الله قدره فلما لم يبينه دل ذلك على أن المراد به صدقة التطوع ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات﴾ أي يبين لكم الأمور التي سألتكم عنها من وجوه الإنفاق ومصارفه ﴿لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة﴾. يعني فتأخذون ما يصلحكم في الدنيا وتنفقون الباقي فينفعكم في الآخرة. وقيل: لعلكم تتفكرون في زوال الدنيا فتزهدوا فيها وفي إقبال الآخرة وبقائها فترغبوا فيها. قوله عز وجل:

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّتِي تَمَنَّى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَاطَبُوا عَنْ مَالِهِمْ فَلَا تَعْلَمُوا
الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمْ عَنْ اللَّهِ غَزِيرٌ حَكِيمٌ

﴿ويسألونك عن اليتامى﴾ قال ابن عباس لما نزلت: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾ تخرج المسلمون من أموال اليتامى تخرجاً شديداً حتى عزلوا أموالهم عن أموالهم وتركوا مخالطتهم، وربما كان يصنع

«خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول»، وقال عمرو بن دينار: الوسط من غير إسراف ولا إقتار، قال الله تعالى: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا﴾ [الفرقان: ٦٧] وقال طاوس: ما يسر، والعفو اليسر من كل شيء، ومنه قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] أي الميسور من أخلاق الناس، أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز أحمد الخلال، أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع بن سليمان أخبرنا الشافعي، أنا سفيان بن محمد بن عجلان عن سعيد بن أبي سعد عن أبي هريرة قال جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله عندي دينار، قال ﷺ: «أنفقه على نفسك»، قال: عندي آخر، قال ﷺ: «أنفقه على ولدك»، قال: عندي آخر، قال ﷺ: «أنفقه على أهلك»، قال: عندي آخر، قال ﷺ: «أنفقه على خادمك»، قال: عندي آخر، قال ﷺ: «أنت أعلم»، قوله تعالى: ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات﴾، قال الزجاج: إنما قال كذلك على الواحد وهو يخاطب جماعة، لأن الجماعة معناها القبيل، كأنه قال: كذلك أيها القبيل، وقيل: هو خطاب للنبي ﷺ، فإنه خطاب يشتمل على خطاب الأمة، كقوله تعالى: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء﴾ [الطلاق: ١]، قوله تعالى: ﴿لعلكم تتفكرون﴾.

﴿في الدنيا والآخرة﴾، قيل: معناه يبين الله لكم الآيات في أمر النفقة لعلكم تتفكرون في الدنيا

لليتيم الطعام فيفضل منه فيتركونه ولا يأكلونه، فاشتد ذلك عليهم فسألوا رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى ويسألونك عن اليتامى ﴿قل إصلاح لهم خير﴾ أي إصلاح أموال اليتامى من غير أخذ أجره، ولا عوض خير لكم أي أعظم أجراً. وقيل: هو أن يوسع على اليتيم من طعام نفسه ولا يوسع من طعام اليتيم ﴿وإن تخالطوهم﴾ يعني في الطعام والخدمة والسكنى وهذا فيه إباحة المخالطة أي شاركوهم في أموالهم واخلطوها بأموالكم ونفقاتكم ومساكنكم وخدمكم ودوابكم، فتصيبوا من أموالهم عوضاً من قيامكم بأمرهم أو تكافئهم على ما تصيبون من أموالهم ﴿فإخوانكم﴾ أي فهم إخوانكم والإخوان يعين بعضهم بعضاً ويصيب بعضهم من مال بعض على وجه الإصلاح والرضا ﴿والله يعلم المفسد من المصلح﴾ يعني المفسد لمال اليتيم والمصلح له، ويعلم الذي يقصد بالمخالطة الخيانة وأكل مال اليتيم بغير حق والذي يقصد الإصلاح.

﴿ولو شاء الله لأعتكم﴾ أي لضيق عليكم وما أباح لكم مخالطتهم وأصل العنت الشدة والمشقة، والمعنى لكلفكم في كل شيء ما يشق عليكم ﴿إن الله عزيز حكيم﴾ أي غالب يقدر أن يشق على عباده ويعنتهم ولكنه حكيم لا يكلف عباده إلا ما تتسع فيه طاقتهم. قوله عز وجل:

وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ

والآخرة، فتحسبون من أموالكم ما يصلحكم في معاش الدنيا، وتنفقون الباقي فيما ينفعكم في العقبى، وقال أكثر المفسرين معناها: هكذا يبين الله لكم الآيات في أمر الدنيا والآخرة لعلكم تتفكرون، وقيل: معناه يبين الله لكم الآيات في أمر النفقة لعلكم تتفكرون في زوال الدنيا وفنائها فتزهدوا فيها، وفي إقبال الآخرة وبقائها فترغبوا فيها. قوله تعالى: ﴿ويسألونك عن اليتامى﴾، قال ابن عباس وقتادة: لما نزل قوله تعالى: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن﴾ [الأنعام: ١٥٢، الإسراء: ٣٤] وقوله تعالى: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾ [النساء: ١٠] الآية، تخرج المسلمون من أموال اليتامى تحرجاً شديداً حتى عزلوا أموال اليتامى عن أموالهم، حتى كان يصنع لليتيم طعاماً منه شيء فيتركونه ولا يأكلونه حتى يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فسألوا رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿قل إصلاح لهم خير﴾، أي: الإصلاح لأموالهم من غير أجره ولا أخذ عوض خير وأعظم أجراً لما لكم في ذلك من الثواب، وخير لهم لما في ذلك من توفر أموالهم عليهم، قال مجاهد: يوسع عليه من طعام نفسه ولا يوسع من طعام اليتيم، ﴿وإن تخالطوهم﴾، هذه إباحة المخالطة، أي: إن تشاركوهم في أموالهم وتخلطوا بأموالكم في نفقاتكم ومساكنكم وخدمكم ودوابكم، فتصيبوا من أموالهم عوضاً عن قيامكم بأمرهم أو تكافؤوهم على ما تصيبون من أموالهم، ﴿فإخوانكم﴾، أي: فهم إخوانكم، والإخوان يعين بعضهم بعضاً ويصيب بعضهم من أموال بعض على وجه الإصلاح والرضا، ﴿والله يعلم المفسد﴾: لأموالهم ﴿من المصلح﴾: لها، يعني: الذي يقصد بالمخالطة الخيانة وإفساد مال اليتيم وأكله بغير حق من الذي يقصد الإصلاح ﴿ولو شاء الله لأعتكم﴾، أي: لضيق عليكم وما أباح لكم مخالطتهم، وقال ابن عباس: ولو شاء الله لجعل ما أصبتم من أموال اليتامى موبقاً لكم، وأصل العنت: الشدة والمشقة، ومعناه: كلفكم في كل شيء ما يشق عليكم، ﴿إن الله عزيز﴾، أي عزيز في سلطانه وقدرته على الإعانات، وقيل: العزيز الذي يأمر بعزه سهل على العباد أو شق عليهم، ﴿حكيم﴾ فيما صنع من تدبيره وترك الإعانات.

يَا ذِينَءِ وَيْبَيْنُءِ آيَتِيءِءِ لِّلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾ نزلت في أبي مرثد بن أبي مرثد الغنوي واسم أبي مرثد يسار بن حصين بعثه رسول الله ﷺ إلى مكة ليخرج منها ناساً من المسلمين سراً، فلما قدمها سمعت به امرأة مشركة يقال لها عناق وكانت خليلته في الجاهلية فأتته فقالت: ألا تخلو فقال ويحك يا عناق إن الإسلام حال بيني وبين ذلك فقالت له: هل لك أن تتزوج بي؟ قال نعم ولكن أرجع إلى رسول الله ﷺ أستأمره فقالت: أبي تبرم واستعانت عليه فضربه ضرباً شديداً، ثم خلوا سبيله فلما قضى حاجته بمكة، وانصرف إلى رسول الله ﷺ أعلمه بما كان من أمره، وأمر عناق وما لقي بسببها وقال يا رسول الله: أيحل لي أن أتزوجها فأنزل الله تعالى هذه الآية وأصل النكاح في اللغة الوطء ثم كثر حتى قيل العقد نكاح. ومعنى الآية: ولا تنكحوا أيها المؤمنون المشركات حتى يؤمن أي يصدقن بالله ورسوله وهو الإقرار بالشهادتين والتزام أحكام المسلمين واختلاف العلماء في حكم هذه الآية فقيل: إنها تدل على أن كل مشركة يحرم نكاحها على كل مسلم من أي أجناس الشرك كانت كالوثنية والمجوسية والنصرانية وغيرهن من أصناف المشركات، ثم استثنى الله تعالى من ذلك نكاح الحرائر الكتابيات بقوله تعالى: ﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ فأباح الله تعالى نكاحهن بهذه الآية قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾ ثم استثنى نساء أهل الكتاب فقال: ﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ وقيل: إن حكم الآية نزل في مشركات العرب الوثنيات خاصة ولم ينسخ منها شيء ولم يستثن وإنما حكمها عام مخصوص، قال قتادة: ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن يعني مشركات العرب اللاتي ليس فيهن كتاب يقرأنه. وبيان هذا في مسألة وهي أن لفظ الشرك على من يطلق؟ فالأكثر من العلماء وهو القول الصحيح المختار أن لفظ الشرك يندرج فيه أهل الكتاب من اليهود والنصارى وكذلك عبدة الأصنام والمجوس وغيرهم. ويدل على أن اليهود والنصارى يطلق عليهم اسم الشرك.

قوله تعالى: ﴿وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾ ثم قال تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾

قوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾، سبب نزول هذه الآية أن أبا مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وقال مقاتل هو أبو مرثد الغنوي، وقال عطاء: أبو مرثد كنان بن الحصين، وكان شجاعاً بعثه رسول الله ﷺ إلى مكة ليخرج منها ناساً من المسلمين سراً، فلما قدمها سمعت به امرأة مشركة يقال لها عناق، وكانت خليلته في الجاهلية فأتته وقالت: يا أبا مرثد ألا تخلو فقال لها: ويحك يا عناق إن الإسلام قد حال بيننا وبين ذلك، قالت: فهل لك أن تتزوج بي؟ قال: نعم ولكن أرجع إلى رسول الله ﷺ فاستأمره، فقالت: أبي تبرم؟ ثم استعانت عليه فضربه ضرباً شديداً ثم خلوا سبيله، فلما قضى حاجته بمكة وانصرف إلى رسول الله ﷺ أعلمه بالذي كان من أمره وأمر عناق وما لقي بسببها، وقال: يا رسول الله أتحل لي أن أتزوجها؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾ وقيل: الآية منسوخة في حق الكتابيات، لقوله تعالى: ﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ [المائدة: ٥]، وبخبر رسول الله ﷺ وإجماع الأمة، روى الحسن عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «نزوج نساء أهل الكتاب ولا يتزوجون نساءنا» فإن قيل: كيف أطلقتم اسم الشرك على من لم ينكر إلا نبوة محمد ﷺ؟ قال أبو الحسن بن فارس: لأن من يقول القرآن كلام غير الله فقد أشرك مع الله غيره، وقال قتادة وسعيد بن جبیر: أراد بالمشركات الوثنيات، فإن عثمان تزوج نائلة بنت فراقصة وكانت نصرانية فأسلمت تحته،

فهذه الآية صريحة في شرك اليهود والنصارى وقيل: كل من كفر بالنبي ﷺ وإن زعم أن الله تعالى واحد فهو مشرك وذلك أن من كفر بالنبي ﷺ مع صحة نبوته، وظهور معجزاته فقد زعم أن ما أتى به النبي ﷺ، هو من عند غير الله فقد أشرك مع الله غيره فعلى هذا القول أيضاً يدخل فيه اليهود والنصارى لأنكارهم نبوة محمد ﷺ. وقيل: إن اسم الشرك لا يتناول إلا عبدة الأوثان فقط والأول أصح لما تقدم من الأدلة فعلى قول من قال: إن اسم الشرك لا يتناول إلا الوثنيات تكون الآية محكمة وعلى قول الأكثرين أن اسم الشرك يتناول الوثنيات والكتابات وغيرهن تكون الآية محكمة في حق الوثنيات منسوخة في حق الكتابيات وقوله تعالى: ﴿وَلَا أُمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ﴾ يعني أنفع وأصلح وأفضل ﴿من مشركة﴾ يعني حرة ﴿ولو أعجبكم﴾ يعني بجمالها ومالها ونسبها فالأمة المؤمنة خير وأفضل عند الله من الحرة المشركة، نزلت في خنساء وليدة كانت لحذيفة بن اليمان فقال: يا خنساء قد ذكرت في الملاء الأعلى على سوادك ودمايتك ثم أعتقها وتزوجها. وقيل: نزلت في عبد الله بن رواحة كانت أمه سوداء فغضب عليها يوماً فلطمها، ثم فرغ فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال: وما هي يا عبد الله قال: هي تشهد أن الله لا إله إلا الله وأنت رسول الله وتصوم رمضان وتحسن الوضوء وتصلي. فقال: هذه أمة مؤمنة. قال عبد الله: فوالذي بعثك بالحق لأعتقنها ولأتزوجنها ففعل فطعن عليه ناس من المسلمين فقالوا أنتكح أمة وعرضوا عليه حرة مشركة فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ هذا خطاب لأولياء المرأة أي لا تزوجوا المسلمة من المشركين. حرم على المؤمنات أن ينكحن مشركين من أي أصناف الشرك كان، وانعقد الإجماع على أنه لا يجوز للمسلمة أن تتزوج ﴿ولعبد مؤمن خير من مشرك﴾ يعني حراً ﴿ولو أعجبكم﴾ بحسنه وماله وجماله ﴿أولئك يدعون إلى النار﴾ يعني يدعون إلى الشرك الذي يؤدي إلى النار ﴿والله يدعو إلى الجنة والمغفرة﴾ يعني أنه تعالى بين هذه الأحكام وأباح بعضها، وحرم بعضها، فاعملوا بما أمركم به، وانتهوا عما نهاكم عنه فإن من عمل بذلك استحق الجنة والمغفرة ﴿يأذنه﴾ أي بتسير الله وإرادته وتوقيه ﴿ويبين آياته للناس﴾ أي يوضح أدلته وحججه في أوامره ونواهيه وأحكامه ﴿لعلهم يتذكرون﴾ أي فيتعظون. قوله عز وجل: .

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعِزُّوهُنَّ لِلنِّسَاءِ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَظْهَرْنَ فَإِذَا تَظَهَّرْنَ

وتزوج طلحة بن عبد الله نصرانية، وتزوج حذيفة يهودية، فكتب إليه عمر رضي الله عنه: خلّ سبيلها، فكتب إليه: أتزعم أنها حرام؟! فقال: لا أزعم أنها حرام ولكني أخاف أن تتعاطوا المؤمنات منهن، ﴿وَلَا أُمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾: بجمالها ومالها، نزلت في خنساء وليدة سوداء كانت لحذيفة بن اليمان قال حذيفة: يا خنساء قد ذكرت في الملاء الأعلى على سوادك ودمايتك فأعتقها وتزوجها، وقال السدي: نزلت في عبد الله بن رواحة كانت له أمة سوداء فغضب عليها ولطمها ثم خرج فأتى النبي ﷺ وأخبره بذلك فقال له ﷺ: «وما هي يا عبد الله؟» فقال: هي تشهد أن لا إله إلا الله وإنك رسول الله وتصوم رمضان وتحسن الوضوء وتصلي، فقال رسول الله ﷺ: «هذه مؤمنة»، قال عبد الله: فوالذي بعثك بالحق نبياً لأعتقنها ولأتزوجنها، ففعل ذلك فطعن عليه ناس من المسلمين وقالوا: أنتكح أمة؟ وعرضوا عليه حرة مشركة فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾، هذا إجماع لا يجوز للمسلمة أن تنكح المشرك، ﴿ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك﴾، يعني: المشركين ﴿يدعون إلى النار﴾، أي: إلى الأعمال الموجبة للنار، ﴿والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه﴾، أي: بقضائه وقدره وإرادته، ﴿ويبين آياته للناس﴾، أي: أوامره ونواهيه، ﴿لعلهم يتذكرون﴾: يتعظون.

فَأَتَوْهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾

﴿ويسألونك عن المحيض﴾ (م) عن أنس أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها، ولم يجامعوها في البيوت فسأل أصحاب رسول الله ﷺ النبي ﷺ فأُنزل الله عز وجل: ﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض﴾ الآية فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح» فبلغ ذلك اليهود فقالوا ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا: يا رسول الله إن اليهود تقول كذا وكذا أفلا نجامعهن فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أنه قد وجد عليهما فخرجا فاستقبلتهما هدية من لبن إلى رسول الله ﷺ فأرسل في آثارهما فسقاها فعرفنا أنه لم يجد عليهما الوجد الغضب، وأصل الحيض السيلان والانفجار. يقال: حاض الوادي إذا سال وفاض ماؤه ﴿قل هو أذى﴾ أي هو شيء قذر والأذى في اللغة ما يكره من كل شيء ﴿فاعتزلوا النساء في المحيض﴾ أي فاجتنبوا مجامعتهم ﴿ولا تقربوهن﴾ يعني بالوطء والمجامعة فهو كالتوكيد لقوله: ﴿فاعتزلوا النساء في المحيض حتى يطهرن﴾ يعني في الحيض والمعنى ولا تقربوهن حتى يزول عنهن الدم، وقرئ يطهرن بتشديد الطاء ومعناه حتى يغتسلن ﴿فإذا تطهرن﴾ أي اغتسلن من حيضهن ﴿فأتوهن من حيث أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ قال ابن عباس: طؤوهن في الفرج ولا تعتدوا إلى غيره فإنه هو الذي أمر الله به ولا تأتوهن إلى غير المأتي وقيل: فأتوهن من الوجه الذي أَمَرَكُمُ اللَّهُ به وهو الطهر. وقيل: معناه وأتوهن من حيث يحل لكم غشيانهن وذلك بأن لا يكن صائمات ولا معتكفات ولا محرمات.

(فصل: في حكم هذه الآية وفيه مسائل)

المسألة الأولى: أجمع المسلمون على تحريم الجماع في زمن الحيض، ومستحلّه كافر عن أبي هريرة عن

قوله تعالى: ﴿ويسألونك عن المحيض﴾، أخبرنا أبو طاهر عمر بن عبد العزيز القاشاني أنا أبو عمر القاسم بن جعفر بن عبد الواحد الهاشمي، أنا أبو علي محمد بن أحمد بن عمر اللؤلؤي أنا أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، أنا موسى بن إسماعيل أنا حماد هو ابن سلمة أنا ثابت البناني عن أنس بن مالك: أن اليهود كانوا إذا حاضت منهم المرأة أخرجوها من البيت، ولم يؤاكلوها ولم يشاربوها، ولم يجامعوها في البيت، فسئل رسول الله ﷺ، فأُنزل الله تعالى: ﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ: «جامعوهن في البيوت واصنعوا كل شيء إلا النكاح»، فقالت اليهود: ما يريد هذا الرجل أن يدع شيئاً من أمرنا إلا خالفنا فيه، فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر إلى النبي ﷺ فقالا: يا رسول الله إن اليهود تقول كذا وكذا، أفلا ننكحهن في المحيض، فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجد عليهما فخرجا فاستقبلتهما هدية من لبن إلى رسول الله ﷺ، فبعث في آثارهما فسقاها فعرفنا أنه لم يجد عليهما قوله تعالى: ﴿ويسألونك عن المحيض﴾، أي: عن الحيض، وهو مصدر حاضت المرأة تحيض حيضاً ومحيضاً، كالسير والسير، وأصل الحيض الانفجار والسيلان، وقوله: ﴿قل هو أذى﴾ أي: قذر، والأذى كل ما يكره من كل شيء، ﴿فاعتزلوا النساء في المحيض﴾ أراد بالاعتزال ترك الوطء، ﴿ولا تقربوهن﴾ أي: لا تجامعوهن، أما الملامسة والمضاجعة معها فجائزة، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا قبيصة، أنا سفيان عن منصور عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أغتسل أنا والنبي ﷺ من إناء واحد، كلانا جنب، وكان يأمرني أن أتزر فيأشرنني وأنا حائض، وكان يُخرج

النبي ﷺ قال: «من أتى حائضاً أو امرأة في دبرها أو كاهناً فقد كفر بما أنزل على محمد» أخرجه الترمذي . وقال : إنما معنى هذا عند أهل العلم على التغليظ ومن فعله وهو عالم بالتحريم عزره الإمام وفي وجوب الكفارة قولان أحدهما أنه يستغفر الله ويتوب إليه ولا كفارة عليه وهو قول أبي حنيفة والشافعي في الجديد، والقول الثاني أنه تجب عليه الكفارة، وهو القول القديم للشافعي وبه قال أحمد بن حنبل : لما روي عن ابن عباس عن النبي ﷺ في الرجل يقع على امرأته وهي حائض، قال : يتصدق بنصف دينار وفي رواية . قال : إذا كان دماً أحمر فدينار وإن كان دماً أصفر فنصف دينار أخرجه الترمذي . وقال : رفعه بعضهم عن ابن عباس ووقفه بعضهم .

المسألة الثانية: أجمع العلماء على جواز الاستمتاع بالمرأة الحائض بما فوق السرة ودون الركبة وجواز مضاجعتها وملاستها، ويدل على ذلك ما روي عن عائشة قالت: كانت إحدانا إذا كانت حائضاً وأراد رسول الله ﷺ أن يباشرها أمرها أن تأتزر بإزار في فور حيضها، ثم يباشرها وأيكم يملك إربه كما كان رسول الله ﷺ يملك إربه وفي رواية قالت: كنت اغتسل أنا ورسول الله ﷺ من إناء واحد وكلانا جنب وكان يأمرني فأتزر فيباشرني وأنا حائض أخرجه في الصحيحين المراد بالمباشرة الاستمتاع بما دون الفرج، وفور كل شيء أوله وابتناؤه وقولها يملك إربه يروى بسكون الراء وهو العضو ويفتحها وهو الحاجة (م) عن عائشة قالت: قال لي رسول الله ﷺ: ناوليني الخمرة من المسجد قلت: أنا حائض . قال إن حيضتك ليس في يدك . الخمرة حصير صغير

رأسه إليّ وهو معتكف فأغسله وأنا حائض . أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو أحمد بن عبد الله النعيمي ، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا سعد بن حفص ، أنا شيبان عن يحيى عن أبي سلمة عن زينب بنت أبي سلمة حدثته : أن أم سلمة قالت : حضت وأنا مع رسول الله ﷺ في الخَمِيلَةِ فانسَلْتُ فخرجت منه فأخذت ثياب حِيضَتِي فلبستها، فقال لي رسول الله ﷺ : «أنفست»؟ قلت : نعم، فدعاني فأدخلني معه الخَمِيلَةَ، أخبرنا أبو القاسم بن عبد الله بن محمد الحنفي أنا أبو الحارث طاهر بن محمد الظاهري أنا محمد بن الحسن بن محمد بن حكيم، أنا أبو الموجة محمد بن عمرو، أنا صدقة أنا وكيع أنا مسعر وسفيان عن المقدم بن شريح عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أشرب وأنا حائض فأناولهُ النبي ﷺ، فيضع فاهُ على موضع فيّ وأتعرق العِرْقُ فيتناولهُ فيضع فاه في موضع فيّ فوطء الحائض حرام وَمَنْ فعله يعصي الله عَزَّ وَجَلَّ ويعزِّزه الإمام إن عُلِمَ منه ذلك، واختلف أهل العلم في وجوب الكفارة عليه، فذهب أكثرهم إلى أنه لا كفارة عليه فيستغفر الله ويتوب إليه، وذهب قوم إلى وجوب الكفارة عليه، منهم قتادة والأوزاعي وأحمد وإسحق، لِمَا أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا عبد الرحمن بن أبي شريح، أنا أبو القاسم البغوي أنا علي بن الجعد، أنا أبو جعفر الرازي عن عبد الكريم بن أبي المخارق عن مُقْسَم عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال في رجل جامع امرأته وهي حائض قال : «إن كان الدم عبيطاً فليَتَصَدَّقْ بدينار، وإن كان صفرة فنصف دينار»، ويُروى هذا موقوفاً على ابن عباس، ويمنع الحيضُ جوازَ الصلاة ووجوبها، ويمنع جوازَ الصوم ولا يمنع وجوبه، حتى إذا طَهُرَتْ يجب عليها قضاء الصوم ولا يجب قضاء الصلاة، وكذلك النفساء، أخبرنا أبو عثمان سعيد عن عبيدة بن أبي محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي، أنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي، أنا أبو عيسى الترمذي أنا علي بن حجر أنا علي بن مُسَهَّر بن إسماعيل الضبيّ، أنا مُعَقَّب الضبي عن عبد الكريم عن إبراهيم النَّخَعِي عن الأسود عن عائشة قالت: كُنَّا نَحِيضُ عند رسول الله ﷺ ثم نَطهرُ فيأمرنا بقضاء الصيام ولا يأمرنا بقضاء الصلاة. ولا يجوز للحائض الطواف بالبيت ولا الاعتكاف في المسجد ولا مَسَّ المصحف ولا قراءة القرآن، ولا يجوز للزوج غشيانها، أخبرنا عمر بن عبد العزيز أنا القاسم بن جعفر أنا أبو علي اللؤلؤي، أنا أبو داود أنا مسدد أنا عبد الواحد بن زياد أنا أفلت بن خليفة قال: حَدَّثَتْنِي جِسْرَةُ بنت دجاجة

مضفور من سعف النخل أو غيره بقدر الكف وقولها: من المسجد يعني ناداها من المسجد لأنه ﷺ كان معتكفاً في المسجد، وعائشة في حجرتها فطلب منها الخمرة وهي حائض.

المسألة الثالثة: يحرم على الحائض الصلاة والصوم ودخول المسجد وقراءة القرآن ومس المصحف وحمله، فلو أمنت الحائض من التلوّث في عبور المسجد جاز في أحد الوجهين قياساً على الجنب والثاني لا لأن حدثها أغلظ، ويجب على الحائض قضاء الصوم دون الصلاة لما روي عن معاذة العدوية، قالت: سألت عائشة فقلت: ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة قالت: أحرورية أنت؟ قلت لست بحرورية ولكني أسأل قالت: كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة أخرجاه في الصحيحين.

المسألة الرابعة: لا يرتفع شيء مما منعه الحيض بانقطاع الدم ما لم تغتسل، أو تتيّم عند عدم الماء إلا الصوم، فإنه إذا انقطع دمها بالليل ونوت الصوم فإنه يصح، وإن اغتسلت في النهار وذهب أبو حنيفة إلى أنه يجوز للزوج غشيانها إذا انقطع الدم لأكثر الحيض، وهو عشرة أيام عنده قبل الغسل، ومذهب الشافعي وغيره من العلماء أنه لا يجوز للزوج غشيانها ما لم تغتسل من الحيض أو تتيّم عند عدم الماء لأن الله تعالى علّق جواز وطء الحائض بشرطين: أحدهما انقطاع الدم والثاني الغسل فقال: ﴿ولا تقربوهن حتى يطهرن﴾ يعني من الحيض ﴿فإذا تطهرن﴾ يعني اغتسلن ﴿فأتوهن من حيث أمركم الله﴾ فدل ذلك على أن الوطء لا يحل قبل الغسل. وقوله تعالى: ﴿إن الله

قالت: سمعت عائشة تقول: جاء رسول الله ﷺ ووجوه بيوت أصحابه شاردة في المسجد، فقال: «وجّهوا هذه البيوت عن المسجد فإنني لا أحلّ المسجد لحائض ولا جنب». قوله تعالى: ﴿حتى يطهرن﴾، قرأ عاصم برواية أبي بكر وحمزة والكسائي بتشديد الطاء والهاء، حتى يغتسلن، وقرأ الآخرون بسكون الطاء وضّم الهاء مخفّف، ومعناه: حتى يطهرن من الحيض وينقطع دمهنّ، ﴿فإذا تطهرن﴾ يعني: اغتسلن، ﴿فأتوهن﴾، أي: فجامعوهنّ، ﴿من حيث أمركم الله﴾، أي: من حيث أمركم أن تعتزلوهنّ منه وهو الفرج، قال مجاهد وقتادة وعكرمة وقال ابن عباس: وطؤهنّ في الفرج ولا تعدّوه إلى غيره، أي: اتقوا الأدبار، وقيل: من حيث بمعنى في حيث أمركم الله تعالى وهو الفرج، كقوله عزّ وجلّ: ﴿إذا نُودي للصلاة من يوم الجمعة﴾ [الجمعة: ٩]، أي: في يوم الجمعة، وقيل: فأتوهنّ من الوجه الذي أمركم الله أن تأتوهنّ وهو الطهر، وقال ابن الحنفية من قبل الحلال دون الفجور، وقيل لا تأتوهنّ صائحات ولا معتكفات ولا محرمات وأتوهنّ وغشيانهنّ لكم حلال، واعلم أنه لا يرتفع تحريم شيء مما منعه الحيض بانقطاع الدم ما لم تغتسل أو تتيّم عند عدم الماء إلّا تحريم الصوم، فإن الحائض إذا انقطع دمها بالليل ونوت الصوم فوق غسلها بالنهار صحّ صومها، والطلاق في حال الحيض يكون بدعيّاً وإذا طلقها بعد انقطاع الدم قبل الغسل لا يكون بدعيّاً، وذهب أبو حنيفة رضي الله عنه إلى أنه إذا انقطع دمها لأكثر الحيض وهي عنده عشرة أيام يجوز للزوج غشيانها قبل الغسل، وقال مجاهد وعطاء وطاوس: إذا غسلت فرجها يجوز للزوج غشيانها قبل الغسل، وأكثر أهل العلم على التحريم ما لم تغتسل أو تتيّم عند عدم الماء، لأن الله تعالى علّق جواز وطئها بشرطين: بانقطاع الدم والغسل، فقال: ﴿حتى يطهرن﴾ يعني: من الحيض ﴿فإذا تطهرن﴾ يعني: اغتسلن فأتوهنّ، ومن قرأ يطهرن بالتشديد فالمراد منه: الغسل، كقوله تعالى: ﴿وإن كنتم جنبا فاطهروا﴾ [المائدة: ٦]، أي: فاغتسلوا، فدلّ على أن قبل الغسل لا يحلّ الوطء، قوله تعالى: ﴿إن الله يحبّ التوابين ويحبّ المتطهرين﴾، قال عطاء ومقاتل بن سليمان والكلبي: يحبّ التوابين من الذنوب ويحبّ المتطهرين بالماء من الأحداث والنجاسات، وقال مقاتل بن حيّان: يحبّ التوابين من الذنوب والمتطهرين من الشرك، وقال

يحب التوابين ﴿ يعني من الذنوب ، والتواب الذي كلما أذنب جدد توبة ، وقيل : التواب هو الذي لا يعود إلى الذنب ﴾ ويحب المتطهرين ﴿ يعني من الأحداث وسائر النجاسات بالماء . وقيل : المتطهرين من الشرك وقيل : هم الذين لم يصيبوا الذنوب .

نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُّلَقَوُهُ وَبَشِّرِ

الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾

قوله عز وجل : ﴿ نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ الآية (ق) عن جابر قال : كانت اليهود تقول : إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول فنزلت : ﴿ نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ وفي رواية للترمذي كانت اليهود تقول : من أتى المرأة في قلبها من دبرها وذكر الحديث وعن ابن عباس قال : جاء عمر إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله هلكت . قال : وما أهلكك قال : حولت رحلي الليلة قال : فلم يرد عليه شيئاً فأوحى الله إلى رسوله ﷺ بهذه الآية : ﴿ نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ أقبل وأدبر واتق الدبر والحیضة أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح . قوله : حولت رحلي هو كناية عن الإتيان في غير المحل المعتاد هذا ظاهره ، ويجوز أن يريد به أنه أتاها في المحل المعتاد لكن من جهة ظهرها ، وعن ابن عباس قال : كان هذا الحي من الأنصار وهم أهل وثن مع هذا الحي من يهود وهم أهل كتاب فكانوا يرون لهم فضلاً عليهم في العلم فكانوا يقتدون بكثير من فعلهم ، وكان من شأن أهل الكتاب أن لا يأتوا النساء إلا على حرف وذلك أشق ما تكون المرأة ، فكان هذا الحي من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم ، وكان هذا الحي من قريش يشرحون النساء شرحاً منكراً ويتلذذون بهن مقبلات ومدبرات ومستلقيات فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار فذهب أن يصنع بها ذلك

سعيد بن جبیر : التَّوَابِينَ من الشرك والمتطهرين من الذنوب ، وقال مجاهد : التَّوَابِينَ من الذنوب لا يعودون فيها والمتطهرين منها لم يصيبوها ، والتَّوَابِ الذي كلما أذنب تاب ، نظيره قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً ﴾ [الإسراء : ٢٥] .

قوله تعالى : ﴿ نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ ، أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي ، أنا أبو إسحق الثعلبي أخبرنا عبد الله بن حامد الأصبهاني ، أخبرنا محمد بن يعقوب أنا ابن المنادي أنا يونس ، أنا يعقوب القمي عن جعفر بن المغيرة عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله هلكت ، قال : « وما الذي أهلكك ؟ » قال : حولتُ رحلي البارحة فلم يردّ عليه شيئاً ، وأوحى الله إليه : ﴿ نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ ، يقول : « أَدْبِرْ وَأَقْبِلْ وَاتَّقِ الدُّبَرَ وَالْحَيْضَةَ » ، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أخبرنا أحمد بن الحسين الحيري ، أنا صاحب ابن أحمد الطوسي أنا عبد الرحيم بن منيب ، أنا ابن عُيَيْنَةَ عن ابن المنكدر أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : كانت اليهود تقول في الذي يأتي امرأته من دبرها في قلبها أن الولد يكون أحول ، فنزلت ﴿ نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ ، وروى مجاهد عن ابن عباس قال : كان من شأن أهل الكتاب أن لا يأتوا النساء إلا على حرف ، وذلك أستر ما تكون المرأة ، وكان هذا الحي من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم ، وكان هذا الحي من قريش يتلذذون منهن مقبلات ومدبرات ومستلقيات ، فلما قَدِمَ المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار فذهب يصنع بها ذلك ، فأنكرت عليه وقالت : إنا كنا نؤتي على حرف فإن شئت فاصنع ذلك ، وإلا فاجتنبني ، حتى سرى أمرهما ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى : ﴿ نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ الآية ، يعني : موضع الولد ﴿ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ مقبلات ومدبرات ومستلقيات ، و﴿ أَنَّى ﴾ حرف

فأنكرته عليه. وقالت: إنا كنا نؤتي على حرف فاصنع ذلك وإلا فاجتنبني حتى سرى أمرهما فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل: ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ أي مقبلات ومدبرات ومستقلبات يعني بذلك موضع الولد، أخرجه أبو داود والوثن الصنم. وقيل: الصورة لا جثة لها. وقوله: على حرف، الحرف الجانب وحرف كل شيء جانبه وقوله: يشرحون النساء. يقال شرح فلان جاريته إذا وطئها على قفاها وأصل الشرح البسط وقوله: سرى أمرهما أي ارتفع وعظم وتفاخم وأصله من سرى البرق إذا لج في اللمعان. عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال في قوله تعالى: ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ في صمام واحد ويروى صمام بالسین أخرجه الترمذي. وقال حديث حسن وقوله تعالى: ﴿حرث لكم﴾ معناه مزرع لكم ومنبت للولد، وهذا على سبيل التشبيه فجعل فرج المرأة كالأرض والنطفة كالبدن والولد كالنبات الخارج ﴿فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ يعني كيف شئتم وحيث شئتم، إذا كان في القبل والمعنى كيف شئتم مقبلة ومدبرة، على كل حال إذا كان في الفرج وفي الآية دليل على تحريم إتيان النساء في أدبارهن لأن محل الحرث والزرع هو القبل لا الدبر، ويؤيد ذلك ما روي عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ملعون من أتى امرأة في دبرها» أخرجه أبو داود. وقال سعيد بن المسيب: هذا في العزل يعني إن شئتم فاعزلوا وإن شئتم لا تعزلوا، وسئل ابن عباس عن العزل فقال: حرثك إن شئت فاعطش وإن شئت فارو ويروى عنه أنه قال: تستأمر الحرة في العزل ولا تستأمر الجارية وبه قال أحمد: وكره جماعة العزل وقالوا: هو الوأد الخفي وروى نافع قال كنت أمسك على ابن عمر المصحف فقرأ هذه الآية:

استفهام يكون سؤالاً عن الحال والمحل، معناه: كيف شئتم وحيث شئتم بعد أن يكون في صمام واحد، وقال عكرمة أنى شئتم: إنما هو الفرج، ومثله لكم أي: مزرع لكم ومنبت الولد بمنزلة الأرض التي تزرع، وفيه دليل على تحريم الأدبار، لأن محل الحرث والزرع هو القبل لا الدبر، وقال سعيد بن المسيب: هذا في العزل يعني إن شئتم، فاعزلوا وإن شئتم فلا تعزلوا، وسئل ابن عباس عن العزل فقال: حرثك إن شئت فاعطش وإن شئت فارو، ورؤي عنه أنه قال: تستأمر الجارية، وبه قال أحمد وكره جماعة العزل، وقال: هو الوأد الخفي، ورؤي عن مالك عن نافع قال: كنت أمسك على ابن عمر المصحف فقرأ هذه الآية ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ فقال أتدري فيم، نزلت هذه الآية؟ قلت: لا، قال: نزلت في رجل أتى امرأته في دبرها فشق ذلك عليه، فنزلت هذه الآية، ويحكي عن مالك إباحة ذلك، وأنكر ذلك أصحابه، ورؤي عن عبد الله بن الحسن أنه لقي سالم بن عبد الله فقال له: يا أبا عمر ما حدثت بحديث نافع عن عبد الله أنه لم يكن يرى بأساً بإتيان النساء في أدبارهن؟ فقال: كذب العبد وأخطأ إنما قال عبد الله يؤتون في فروجهن من أدبارهن، والدليل على تحريم الأدبار ما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد بن الخطيب، أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أخبرنا أبو العباس الأصم، أنا الربيع أخبرنا الشافعي أنا عمر محمد بن علي بن شافع، أخبرنا عبد الله بن علي بن السائب عن عمرو بن أحيحة بن الحلاج، عن خزيمة بن ثابت أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن إتيان النساء في أدبارهن، فقال النبي ﷺ: «في أي الخرمتين، أو في أي الخرزتين أو في الخصفيتين أم في دبرها في قبلها فنعم، أم من دبرها في دبرها فلا، فإن الله لا يستحي من الحق، لا تأتوا النساء في أدبارهن». أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحق الثعلبي، أنا أبو عبد الله الحسين بن محمد الحافظ أنا عمر بن أحمد بن القاسم النهاوندي، أخبرنا محمد بن عبد الله بن سليمان الحضرمي أنا عبد الله بن أبان أنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة عن مسلم بن خالد عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ملعون من أتى امرأة في دبرها». قوله تعالى: ﴿وقدموا لأنفسكم﴾، قال عطاء: التسمية عند الجماع، قال مجاهد: وقدموا لأنفسكم يعني: إذا أتى أهله فليدع، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا

﴿نَسْأُوكُمْ حَرْثَ لَكُمْ﴾ قال: تدري فيم نزلت هذه الآية؟ قلت: لا. قال: نزلت في رجل أتى امرأته في دبرها فشق ذلك عليه فنزلت هذه الآية وروى عبدالله بن الحسن أنه لقي سالم بن عبدالله بن عمر فقال له: يا عم ما حديث يحدثه نافع عن عبدالله أنه لم يكن يرى بأساً بإتيان النساء في أدبارهن فقال: كذب العبد وأخطأ إنما قال عبدالله: يؤتون في فروجهن من أدبارهن، ويحكى عن مالك إباحة ذلك وأنكره أصحابه، وأجمع جمهور العلماء على تحريم إتيان النساء في أدبارهن، وقالوا: لأن الله حرم الفرج في حال الحيض لأجل النجاسة العارضة وهو الدم فأولى أن يحرم الدبر لأجل النجاسة اللازمة ولأن الله تعالى نص على ذكر الحَرْث والحَرْث به يكون نبات الولد فلا يحل العدول عنه إلى غيره. وقوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ﴾ يعني الولد وقيل: قدموا التسمية والدعاء عند الجماع (ق) عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال بسم الله اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبداً» وقيل: أراد به تقديم الإفراط (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلة القسم» قوله إلا تحلة القسم يعني قدر ما يبر الله قسمه فيه وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فإذا وردها جاوزها فقد أبر الله قسمه، وقيل: قدموا لأنفسكم يعني من الخير والعمل الصالح بدليل سياق الآية ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي احذروا أن تأتوا شيئاً مما نهاكم الله عنه ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ﴾ أي صائرون إليه في الآخرة فيجزىكم بأعمالكم ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني بالكرامة من الله تعالى. قوله عز وجل:

وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾

﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم﴾ نزلت في عبدالله بن رواحة كان بينه وبين ختنته بشير بن النعمان شيء، فحلف عبدالله لا يدخل عليه ولا يكلمه ولا يصلح بينه وبين خصم له فكان إذا قيل له: فيه يقول: قد حلفت بالله أن لا أفعل فلا يحل لي إلا أن تبر يميني فأنزل الله هذه الآية، وقيل: نزلت في أبي بكر الصديق حين حلف ألا ينفق

محمد بن إسماعيل أنا عثمان بن أبي شيبة أنا جرير عن منصور عن سالم عن كريب عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقنا، فإنه إن يُقَدَّرَ بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبداً»، وقيل: قدموا لأنفسكم يعني: طلب الولد، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقى أنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني، أخبرنا عبد الله بن عمر الجوهري أنا أحمد بن علي الكشميهني، أنا علي بن حجر عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له، وقيل: هو التزوّج بالعفاف ليكون الولد صالحاً، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا مسدد أنا يحيى عن عبد الله حدثني سعيد بن أبي سعيد عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «تُنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فافطر بذات الدين تربت يداك»، وقيل: معنى الآية تقديم الإفراط، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحق الهاشمي، أنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلة القسم»، وقال الكلبي والسدي: وقدموا لأنفسكم يعني: الخير والعمل الصالح بدليل سياق الآية ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ﴾: صائرون إليه فيجزىكم بأعمالكم، ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم﴾، نزلت في عبد الله بن رواحة كان بينه وبين ختنته علي

على مسطح حين خاض في حديث الإفك والعرضة ما يجعل معرضاً للشيء، وقيل: العرضة الشدة والقوة وكل ما يعترض فيمنع عن الشيء، فهو عرضة، والمعنى: ولا تجعلوا الحلف بالله سبباً مانعاً لكم من البر والتقوى يدعى أحدكم إلى بر وصلة رحم فيقول قد حلفت بالله لا أفعله فيعتل بيمينه في ترك البر والإصلاح ﴿أَنْ تَبْرُوا وَتَتَّقُوا وَتَصْلَحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ قبل معناه لا تحلفوا بالله أن لا تبروا ولا تتقوا ولا تصلحوا بين الناس. (م) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأتها وليكفر عن يمينه» وقيل: معناه لا تكثروا الحلف بالله وإن كنتم بارين متقين مصلحين فإن كثرة الحلف بالله ضرب من الجراءة عليه ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أي لحلفكم ﴿عَلِيمٌ﴾ يعني بنياتكم. قوله عز وجل: ﴿لَا يُوَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ اللغو كل ساقط مطروح من الكلام، وما لا يعتد به، وهو الذي يورد لا عن روية وفكر. واللغو في اليمين هو الذي لا عقد معه كقول القائل: لا والله بلى والله على سبق اللسان من غير قصد ونية وبه قال الشافعي: ويعضده ما روي عن عائشة قالت نزل قوله تعالى: .

﴿لَا يُوَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾

﴿لَا يُوَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ في قول الرجل: لا والله وبلى والله أخرجه الترمذي. موقوفاً ورفعه أبو داود قال: قالت عائشة قال رسول الله ﷺ: «هو قول الرجل في يمينه كلا والله وبلى والله» ورواه عنها أيضاً موقوفاً، وقيل: في معنى اللغو هو أن يحلف الرجل على شيء يرى أنه صادق ثم يتبين له خلاف ذلك، وبه قال أبو حنيفة: ولا كفارة فيه ولا إثم عليه عنده، قال مالك في الموطأ: أحسن ما سمعت في ذلك أن اللغو حلف الإنسان على الشيء يتيقن أنه كذا ثم يوجد بخلافه فلا كفارة فيه. قال: والذي يحلف على الشيء وهو يعلم أنه فيه آثم كاذب ليرضى به أحداً ويعتذر المخلوق أو يقطع به مალأً، فهذا أعظم من أن تكون فيه كفارة وإنما الكفارة على من حلف أن لا يفعل الشيء المباح له فعله، ثم يفعله أو أن يفعله ثم لا يفعله مثل أن يحلف لا يبيع ثوبه بعشرة

أخيه بشير بن النعمان الأنصاري شيء، فحلف عبد الله أن لا يدخل عليه ولا يكلمه ولا يصلح بينه وبين خصمه، وإذا قيل له فيه، قال: قد حلفت بالله أن لا أفعل فلا يحل لي إلا أن تبر بيمينني، فأنزل الله هذه الآية، وقال ابن جريج: نزلت في أبي بكر الصديق حين حلف أن لا ينفق على مسطح حين خاض في حديث الإفك، والعرضة أصلها الشدة والقوة، ومنه قيل للدابة التي تتخذ للسفر: عرضة لقوتها عليه، ثم قيل لكل ما يصلح لشيء هو عرضة له، حتى قالوا للمرأة هي عرضة النكاح إذا صلحت له، والعرضة كل ما يعترض فيمنع عن الشيء، ومعنى الآية: لا تجعلوا الحلف بالله سبباً مانعاً لكم من البر والتقوى، يدعى أحدكم إلى صلة رحم أو بر، فيقول: حلفت بالله أن لا أفعله فيعتل بيمينه في ترك البر، ﴿أَنْ تَبْرُوا﴾، معناه: أن لا تبروا، كقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَصَلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦] أي: لئلا تصلوا، ﴿وَتَتَّقُوا وَتَصْلَحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أبو إسحق الهاشمي، أنا أبو مصعب عن مالك عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف بيمين فرأى خيراً منها فليكفر عن يمينه ليفعل الذي هو خير».

قوله تعالى: ﴿لَا يُوَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾، اللغو كل ساقط مطروح من الكلام لا يعتد به، واختلف أهل العلم في لغو اليمين المذكورة في الآية، فقال قوم: هو ما يسبق إلى اللسان على عجلة لصلة الكلام من غير عقد وقصد، كقول القائل لا والله وبلى والله وكلاً والله، أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الكسائي أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أخبرنا أبو العباس الأصم، أنا الربيع أنا الشافعي أنا مالك عن هشام عن عروة، عن أبيه عن عائشة أنها

دراهم، ثم يبيعه بذلك أو يحلف ليضربن غلامه، ثم لا يضربه، وفائدة الخلاف الذي بين الشافعي وأبي حنيفة في لغو اليمين أن الشافعي لا يوجب الكفارة في قول الرجل، لا والله وبلى والله ويوجبها فيما إذا حلف على شيء يعتقد أنه كان ثم بان أنه لم يكن وأبو حنيفة يحكم بضد ذلك، ومذهب الشافعي هو قول: عائشة والشعبي وعكرمة ومذهب أبي حنيفة هو قول ابن عباس والحسن ومجاهد والنخعي والزهري وسليمان بن يسار وقتادة ومكحول. وقيل: في معنى اللغو إنه اليمين في الغضب وقيل: هو ما يقع سهواً من غير قصد البتة ومعنى لا يؤاخذكم أي لا يعاتبكم الله بلغو اليمين. وقيل: ﴿لا يؤاخذكم﴾ أي لا يلزمكم الكفارة بلغو اليمين ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ يعني لكن يؤاخذكم بما عزمتم عليه وقصدتم له، وكسب القلب هو العقد والنية.

(فصل في بيان حكم الآية: وفيه مسائل)

المسألة الأولى: لا تنعقد اليمين إلا بالله وبأسمائه وصفاته، فأما اليمين بالله فهو كقول الرجل: والذي نفسي بيده والذي أعبد، ونحو ذلك، والحلف بأسمائه كقوله والله والرحمن والرحيم والمهيمن ونحو ذلك والحلف بصفاته كقوله وعزة الله، وقدرته وعظمته ونحوه، فإذا حلف بشيء من ذلك ثم حث فعليه الكفارة.

المسألة الثانية: لا يجوز الحلف بغير الله كقوله: والكعبة والنبى وأبي ونحو ذلك، فإذا حلف بشيء من ذلك لا تنعقد يمينه ولا كفارة عليه، ويكره الحلف به لما روى عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ أدرك عمر وهو يسير في ركب وهو يحلف بأبيه فقال رسول الله ﷺ: «إن الله ينهاكم أن تحلفوا بأبائكم فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت» أخرجه في الصحيحين.

المسألة الثالثة: إذا حلف على أمر في المستقبل، فحث فعليه الكفارة وإن كان على أمر ماض ولم يكن، أو

قالت: لغو اليمين قول الإنسان: لا والله وبلى والله، ورفع بعضهم، وإلى هذا ذهب الشعبي وعكرمة، وبه قال الشافعي، ويروى عن عائشة أيمان اللغو: ما كانت في الهزل والمرء والخصومة، والحديث الذي لا يعقد عليه القلب، وقال قوم: هو أن يحلف عن شيء يرى أنه صادق فيه، ثم يتبين له خلاف ذلك، وهو قول الحسن والزهري وإبراهيم النخعي وقتادة ومكحول، وبه قال أبو حنيفة رضي الله عنه، وقالوا: لا كفارة فيه ولا إثم، وقال علي: الغضب، وبه قال طاوس وقال سعيد بن جبير: هو اليمين في المعصية لا يؤاخذ الله بالحنث فيها، بل يحنث ويكفر، وقال مسروق: ليس عليه كفارة، أنكفر خطوات الشيطان؟ وقال الشعبي في الرجل يحلف على المعصية: كفارته أن يتوب منها، وكل يمين لا يحل لك أن تفى بها فليس فيها كفارة، ولو أمرته بالكفارة لأمرته أن يتم ويستمر على قوله، وقال زيد بن أسلم: هو دعاء الرجل على نفسه، كقول الإنسان: أعمى الله بصري أن أفعل كذا، فهذا كله لغو لا يؤاخذ الله به، ولو أخذهم به لعجل لهم العقوبة، ﴿ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم﴾ [يونس: ١١]، وقال: ﴿ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير﴾ [الإسراء: ١١] قوله تعالى: ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾، أي: عزمتم وقصدتم إلى اليمين، وكسب القلب: العقد والنية، ﴿والله غفورٌ حلِيمٌ﴾، واعلم أن اليمين لا تنعقد إلا بالله أو باسم من أسمائه أو بصفة من صفاته، فاليمين بالله أن يقول: والذي أعبد والذي أصلي له والذي نفسي بيده، ونحو ذلك، واليمين بأسمائه كقوله: والله والرحمن ونحوه، واليمين بصفاته كقوله: وعزة الله وعظمته الله وجلال الله وقدرته الله ونحوهما، فإذا حلف بشيء منها على أمر في المستقبل، فحنث يجب عليه الكفارة، وإذا حلف على أمر ماض أنه كان ولم يكن، أو على أنه لم يكن وقد كان، إن كان عالماً به حالة ما حلف فهو اليمين الغموس وهو من الكبائر، ويجب فيه الكفارة عند بعض أهل العلم عالماً كان أو

على أنه لم يكن فكان فإن كان عالماً به حال حلفه بأن يقول: والله ما فعلت وقد فعل أو لقد فعلت وما فهل فهذه اليمين الغموس، وهي من الكبائر سميت غموساً لأنها تنغمس صاحبها في الإثم وتجب فيها الكفارة عند الشافعي سواء كان عالماً أو جاهلاً، وذهب أبو حنيفة إلى أنه لا كفارة عليه، فإن كان عالماً فهي كبيرة، وإن كان جاهلاً فهي من لغو اليمين ﴿والله غفور﴾ يعني لعباده فيما لغوا من أيمانهم التي أخبر أنه لا يؤاخذكم عليها، ولو شاء أخذهم وألزمهم للكفارة في العاجل والعقوبة عليها في الآجل ﴿حليم﴾ يعني في ترك معاملة أهل العصيان بالعقوبة، قال الحليمي في معنى الحليم إنه الذي لا يحبس إنعامه وأفضاله عن عباده لأجل ذنوبهم، ولكنه يرزق العاصي كما يرزق المطيع ويبقيه وهو منهمك في معاصيه كما يبقى البر المتقي وقد يقيه الآفات والبلايا، وهو غافل لا يذكره فضلاً عن أن يدعو كما يقبها الناسك الذي يدعوه ويسأله، وقال أبو سليمان الخطابي: الحليم ذو الصفح والأناة الذي لا يستفزه غضب ولا يستخفه جهل جاهل ولا عصيان عاص ولا يستحق الصافح مع العجز اسم الحليم، إنما الحليم الصفوح مع القدرة على الانتقام المتأنّي الذي لا يعجل بالعقوبة قوله عز وجل: .

لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾

﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ يؤلون أي يحلفون والألية اليمين قال كثير:

قليل الألياء حافظ ليمينه وإن سبقت منه الألية برت

والإيلاء في عرف الشرع، هو اليمين على ترك الوطء كما إذا قال: والله لا أجامعك أو لا أباضعك أو لا أقربك قال ابن عباس: كان أهل الجاهلية إذا طلب الرجل من امرأته شيئاً فأبت أن تعطيه حلف لا يقربها السنة والستين والثلاث فيدعها لا أيماً، ولا ذات بعل، فلما كان الإسلام جعل الله ذلك للمسلمين أربعة أشهر، وأنزل هذه الآية، وقال سعيد بن المسيب: كان الإيلاء ضرار أهل الجاهلية فكان الرجل يريد امرأته، ولا يحب أن يتزوجها غيره فيحلف أن لا يقربها أبداً فيتركها لا أيماً ولا ذات بعل، وكانوا عليه في ابتداء الإسلام فجعل الله تعالى له الأجل الذي يعلم به ما عند الرجل في المرأة أربعة أشهر، وأنزل هذه الآية للذين يؤلون من نسائهم ﴿تربص﴾ أي انتظار ﴿أربعة أشهر﴾ والتربص التثبت والانتظار.

جاهلاً، وبه قال الشافعي، ولا يجب عند بعضهم وهو قول أصحاب الرأي، وقالوا: إن كان عالماً فهو كبيرة ولا كفارة لها كما في سائر الكبائر، وإن كان جاهلاً فهو يمين اللغو عندهم، ومن حلف بغير الله مثلاً، مثل إن قال: والكعبة وبيت الله ونبي الله، أو حلف بأبيه ونحو ذلك فلا يكون يميناً فلا يجب به الكفارة إذا حلف، وهو يمين مكروهة، قال الشافعي: وأخشى أن يكون معصية، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أبو إسحاق الشافعي، أنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ أدرك عمر بن الخطاب وهو يسير في ركب وهو يحلف بأبيه فقال رسول الله ﷺ: «إن الله ينهاكم أن تحلفوا بأبائكم، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت».

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾، يؤلون أي: يحلفون، والألية: اليمين، والمراد من الآية اليمين على ترك وطء المرأة، قال قتادة: كان الإيلاء طلاقاً لأهل الجاهلية، وقال سعيد بن المسيب: كان ذلك من ضرار أهل الجاهلية، وكان الرجل لا يحب امرأته ولا يريد أن يتزوج بها غيره، فيحلف أن لا يقربها أبداً فيتركها لا أيماً ولا ذات بعل، وكانوا عليه في ابتداء الإسلام، فضرب الله له أجلاً في الإسلام، واختلف أهل العلم فيه، فذهب أكثرهم إلى أنه إن حلف أن لا يقرب زوجته أبداً أو سُمي مدة أكثر من أربعة أشهر يكون

﴿فَإِنْ فَاؤُوا﴾ أي رجعوا عن اليمين بالوطء، والمعنى فإن رجعوا عما حلفوا عليه من ترك جماعها ﴿فَإِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ للزوج إذا تاب من إصراره بامرأته فإنه غفور رحيم لكل التائبين.

(فروع) تتعلق بحكم الآية:

(الفرع الأول): إذا حلف أنه لا يقرب زوجته أبداً أو مدة هي أكثر من أربعة أشهر فهو مول، فإذا مضت أربعة أشهر، يوقف الزوج، ويؤمر بالفيء وهو الرجوع أو الطلاق، وذلك بعد مطالبة الزوجة فإن رجع عما قال بالوطء إن قدر عليه أو بالقول مع العجز عنه، فإن لم يفيء ولم يطلق طلق عليه الحاكم واحدة، وهو قول عمر وعثمان وأبي الدرداء وابن عمر، قال سليمان بن يسار: أدركت بضعة عشر من أصحاب النبي ﷺ كلهم يقول: يوقف المولي. وذهب إليه سعيد بن جبيرة وسليمان بن يسار ومجاهد. وبه قال مالك والشافعي وأحمد وإسحاق، وقال ابن عباس وابن مسعود: إذا مضت مدة أربعة أشهر يقع عليها طلاق بائنة. وبه قال سفيان الثوري وأبو حنيفة، وقال سعيد بن المسيب والزهرري: يقع عليها طلاق رجعية.

(الفرع الثاني): لو حلف أن لا يطأها أقل من أربعة أشهر فليس بمول بل هو حالف فإن وطئها قبل مضي المدة لزمه كفارة يمين.

(الفرع الثالث): لو حلف أن لا يطأها أربعة أشهر، فليس بمول بعد مضي المدة عند الشافعي لأن بقاء المدة شرط للوقوف، وثبوت المطالبة بالفيء أو الطلاق، وقد مضت المدة، وعند أبي حنيفة يكون مولىً ويقع الطلاق بمضي المدة.

(الفرع الرابع): مدة الإيلاء أربعة أشهر في حق الحر والعبد، جميعاً عند الشافعي لأنها مدة ضربت لمعنى يرجع إلى الطبع وهو قلة صبر المرأة عن الزوج فيستوي فيه الحر والعبد كمدة العنة وعن مالك وأبي حنيفة تنصف.

مولىً، فلا يتعرض قبل مضي أربعة أشهر وبعد مضيتها يوقف ويؤمر بالفيء أو بالإطلاق بعد مطالبة المرأة، والفيء: هو الرجوع عما قاله بالوطء إن قدر عليه، وإن لم يقدر فبالقول، فإن لم يفٍ ولم يُطلق طلق عليه السلطان واحدة، وذهب إلى الوقوف بعد مضي المدة عمر وعثمان وعلي وأبو الدرداء وابن عمر، قال سليمان بن يسار: أدركت بضعة عشر من أصحاب النبي ﷺ كلهم يقولون يوقف المولي، وإليه ذهب سعيد بن جبيرة وسليمان بن يسار ومجاهد، وبه قال مالك والشافعي وأحمد وإسحاق، وقال بعض أهل العلم: إذا مضت أربعة أشهر تقع عليها طلاق بائنة، وهو قول ابن عباس وابن مسعود، وبه قال سفيان الثوري وأصحاب الرأي، وقال سعيد بن المسيب والزهرري: تقع طلاق رجعية، ولو حلف أن لا يطأها أقل من أربعة أشهر لا يكون مولىً بل هو حالف، فإذا وطئها قبل مضي تلك المدة تجب عليه كفارة اليمين، ولو حلف أن لا يطأها أربعة أشهر لا يكون مولىً عند من يقول بالوقوف بعد مضي المدة، لأن بقاء المدة شرط للوقوف وثبوت المطالبة بالفيء أو الطلاق، وقد مضت المدة، وعند من لا يقول بالوقوف يكون مولىً ويقع الطلاق بمضي المدة، ومدة الإيلاء أربعة أشهر في حق الحر والعبد جميعاً عند الشافعي رحمه الله، لأنها ضربت لمعنى يرجع إلى الطبع، وهو قلة صبر المرأة عن الزوج، فيستوي فيه الحر والعبد جميعاً عند الشافعي رحمه الله، لأنها ضربت لمعنى يرجع إلى الطبع، وهو قلة صبر المرأة عن الزوج، فيستوي فيه الحر والعبد كمدة العنة، وعند مالك رحمه الله وأبي حنيفة رحمه الله تنصف مدة العنة بالرق غير أن عند أبي حنيفة تنصف برق المرأة، وعند مالك برق الزوج، كما قالوا في الطلاق قوله تعالى: ﴿تَرْبِصُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾؛ أي: انتظار أربعة أشهر، والتربص: التثبت والتوقف، ﴿فَإِنْ فَاءُوا﴾: رجعوا عن اليمين بالوطء، ﴿فَإِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وإذا

تفسير الخازن والبغوي/ ج ١/ م ١٩

مدة الإيلاء بالرق غير أن عند أبي حنيفة تنتصف مدة الإيلاء برق المرأة، وعند مالك برق الزوج كما في الطلاق.
 (الفرع الخامس): إذا وطئ خرج من الإيلاء ويجب عليه كفارة يمين، وهذا قول أكثر العلماء وقيل: لا كفارة عليه لأن الله تعالى وعده المغفرة فقال: ﴿فَإِنْ فَاؤُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ومن قال: بوجوب الكفارة عليه، قال: ذلك في إسقاط العقوبة عنه لا في الكفارة.

وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَالْمُطَلَّقَتُ يَرْبِصُ أَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ أي تحققوه بالإيقاع ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يعني أي لأقوالهم ﴿عليهم﴾ يعني بنياتهم وفيه دليل على أنها لا تطلق ما لم يطلقها زوجها، لأنه تعالى شرط فيها العزم. قوله عز وجل: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ﴾ أي المخليات من حبال أزواجهن والمطلقة هي التي أوقع الزوج عليها الطلاق ﴿يَرْبِصْنَ أَنْفُسِهِنَّ﴾ أي ينتظرن فلا يتزوجن ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ جمع قرء والقرء اسم يقع على الحيض، والطهر، قال أبو عبيدة: الأقراء من الأضداد كالشفق اسم للحمرة، والبياض وقيل: إنه حقيقة في الحيض مجاز في الطهر. وقيل: بالعكس واختلفوا في أصله فقيل أصله الجمع من قرأ أي جمع لأن في وقت الحيض يجتمع الدم في الرحم وفي وقت الطهر يجتمع في البدن وقيل: أصله الوقت. يقال رجع فلان لقرئه أي لوقته الذي كان فيه لأن الحيض يأتي لوقت والطهر يأتي لوقت وبحسب اختلاف أهل اللغة في الأقراء اختلف الفقهاء على قولين: أحدهما أن الأقراء هي الحيض روى ذلك عن عمرو علي وابن مسعود وابن عباس وأبي موسى وعبادة بن الصامت وأبي الدرداء، وبه قال عكرمة والضحاك والسدي والأوزاعي وسفيان الثوري وأبو حنيفة وأصحابه، وقال أحمد بن حنبل: كنت أقول إن الأقراء هي الأطهار وأنا اليوم أذهب إلى أنها الحيض، القول الثاني أنها الأطهار، يروى ذلك عن زيد بن ثابت وابن عمر وعائشة وبه قال الزهري وأبان بن عثمان ومالك والشافعي وحجة من يقول إن الأقراء هي الحيض قوله ﷺ للمستحاضة دعي

وطئ في الفرج عن الإيلاء، وتجب عليه كفارة اليمين عند أكثر أهل العلم، وقال الحسن وإبراهيم النخعي وقتادة: لا كفارة عليه لأن الله تعالى وعده بالمغفرة، فقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وذلك عند الأكثرين في سقوط العقوبة لا في الكفارة، ولو قال لزوجته: إن قربتك فعبدي حرًا أو ضربتك فأنت طالق، أو لله علي عتق عبد أو صوم أو صلاة، فهو مول لأن المولي من يلزمه أمر بالوطء ويوقف بعد مضي المدة، فإن فاء يقع الطلاق أو العتق المعلق به، وإن التزم في الذمة تلزمه كفارة اليمين في قول، وفي قول: يلزمه ما التزم في ذمته من الإعتاق أو الصلاة أو الصوم.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾، أي: حققوه بالإيقاع، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: لقولهم، ﴿عليهم﴾: بنياتهم، وفيه دليل على أنها لا تطلق بعد مضي المدة ما لم يطلقها زوجها، لأنه شرط فيه العزم، وقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، فدل على أنه يقضي مسموعاً، والقول هو الذي يُسمع.

قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ﴾، أي: المخليات من حبال أزواجهن، ﴿يَرْبِصْنَ﴾: ينتظرن، ﴿بأنفسهن﴾ ثلاثة قُرُوءٍ، فلا يتزوجن، والقُرُوء: جمع قرء مثل قرع، وجمعه القليل: أقرؤ، والجمع الكثير: أقراء، واختلف أهل العلم في القرء فذهب جماعة إلى أنها الحيض، وهو قول عمر وعلي وابن مسعود وابن عباس، وبه قال الحسن ومجاهد، وإليه ذهب الأوزاعي والثوري وأصحاب الرأي، واحتجوا بأن النبي ﷺ قال للمستحاضة: «دعي الصلاة

الصلاة أيام أقرائك يعني أيام حيضك لأن المرأة لا تدع الصلاة إلا أيام حيضها وحجة من يقول: إنها الأطهار أن ابن عمر لما طلق امرأته وهي حائض قال النبي ﷺ: لعمر مره فليراجعها حتى تطهر، ثم إن شاء أمسكها وإن شاء طلق قبل أن يمسه فتلك العدة، التي أمر الله أن يطلق لها فأخبر أن زمان العدة هو الطهر لا الحيض ويعضد من اللغة قول الأعشى:

ففي كل عام أنت جاشم غزوة تشد لأقصاها عزيماً عرائكا
مورثة مالا وفي الحي رفعة لما ضاع فيها من قروء نساكا

أراد أنه كان يخرج للغزو ولم يغش نساءه فتضيع أقرأهمن وإنما تضيع بالسفر زمان الطهر لا زمان الحيض، وفائدة الخلاف أن مدة العدة عند الشافعي أقصر، وعند غيره أطول وذلك أن المعتدة إذا شرعت في الحيضة الثالثة فقد انقضت عدتها، وحلت للأزواج ويحسب بقية الطهر الذي وقع فيه الطلاق قرأاً على قول من يجعل الأقرء الأطهار، قالت عائشة رضي الله عنها: إذا دخلت المطلقة في الحيضة الثالثة فقد بانت من زوجها وحلت للأزواج وروي عنها أنها قالت: القرء الطهر ليس بالحيضة. قال الشافعي: والنساء بهذا أعلم لأن هذا مما يتبلى به النساء وإن طلقها في حال الحيض فإذا شرعت في الحيضة الرابعة انقضت عدتها، وعلى قول من يجعل الأقرء حيضاً وهو مذهب أبي حنيفة لا تنقضي عدتها ما لم تطهر من الحيضة الثالثة. إن كان وقع الطلاق في حال الطهر أو من الحيضة الرابعة، إن وقع في حال الحيض فإن قلت ما معنى الإخبار عنهن بالتريص في قوله: والمطلقات يتريصن بأنفسهن. قلت: هو خبر في صورة الأمر، وأصل الكلام وليريص المطلقات فاخرج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر، وإشعار بأنه مما يجب أن يلتقي بالمسارعة إلى امتثاله فكانهن امتثلن الأمر بالتريص فهو يخبر عن موجود

أيام أقرائك»، وإنما تدع المرأة الصلاة أيام حيضها، وذهب جماعة إلى أنها الأطهار، وهو قول زيد بن ثابت وعبد الله بن عمر وعائشة، وهو قول الفقهاء السبعة والزهري، وبه قال ربيعة ومالك والشافعي، واحتجوا بأن ابن عمر رضي الله عنه لما طلق امرأته وهي حائض قال النبي ﷺ: لعمر: «مره فليراجعها حتى تطهر، ثم إن شاء أمسك وإن شاء طلق قبل أن يمسه»، فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء، فأخبر أن زمان العدة هو الطهر. ومن جهة اللغة قول الشاعر:

ففي كل عام أنت جاشم غزوة تشد لأقصاها عزيماً عرائكا
مورثة مالا وفي الحي رفعة لما رضع فيها من قروء نساكا

وأراد به أنه كان يخرج إلى الغزو ولم يغش نساءه فتضيع أقرأهمن، وإنما تضيع بالسفر زمان الطهر، لا زمان الحيض، وفائدة الخلاف تطهر في أن المعتدة إذا شرعت في الحيضة الثالثة تنقضي عدتها على قول من يجعلها أطهاراً وتحسب بقية الطهر الذي وقع فيه الطلاق قرأاً، قالت عائشة رضي الله عنها: إذا طعنت المطلقة في الدم من الحيضة الثالثة فقد برئت منه وبريء منها، ومن ذهب إلى أن الأقرء هي الحيض يقول لا تنقضي عدتها ما لم تطهر من الحيضة الثالثة، وهذا الخلاف من حيث إن اسم القرء يقع على الطهر والحيض جميعاً، يقال: أقرأت المرأة إذا حاضت، وأقرأت إذا طهرت فهي مقرء، واختلفوا في أصله فقال أبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة: هو الوقت لمجيء الشيء وذهابه، يقال: رجع فلان لقرئه ولقارئه، أي: لوقته الذي يرجع فيه، وهذا قارئ الرياح، أي: وقت هبوبها، قال مالك بن الحارث الهذلي:

كرهت العقر عقر بني سليل إذا هبت لقارئها الرياح

ونظيره قولهم في الدعاء: يرحمك الله أخرج في صورة الخبر ثقة بالإجابة فكأنه قال: وجدت الرحمة فهو يخبر عنها.

فصل في أحكام العدة وفيه مسائل:

المسألة الأولى: عدة الحامل تنقضي بوضع الحمل سواء المطلقة والمتوفى عنها زوجها، وسواء في ذلك الحرة والأمة.

المسألة الثانية: عدة المتوفى عنها سوى الحامل أربعة أشهر وعشرة أيام سواء مات عنها زوجها قبل الدخول أو بعده وسواء في ذلك الحيض والأمة والآيسة.

المسألة الثالثة: عدة المطلقة المدخول بها وهي ضربان: أحدهما الحيض فعدتها بالإقراء، وهي ثلاثة أقراء الضرب الثاني الآيسات من الحيض وإما الكبير، أو تكون لم تحض قط فعدتها ثلاثة أشهر وأما المطلقة قبل الدخول فلا عدة عليها.

المسألة الرابعة: عدة الإماء نصف عدة الحرائر فيما له نصف وفي الأقراء قرآن لأنه لا يتنصف قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: ينكح العبد اثنتين ويطلق طلقتين وتعتد الأمة بحيضتين وقوله تعالى: ﴿ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن﴾ قال ابن عباس: يعني الولد، وقيل: الحيض؛ والمعنى أنه لا يحل للمرأة كتمان ما خلق الله في رحمها من الحيض أو الحمل لتبطل بذلك الكتمان حق الزوج من الرجعة والولد ﴿إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ هذا وعيد شديد لتأكيد تحريم الكتمان وإيجاب أداء الأمانة في الإخبار عما في الرحم من الحيض أو الولد، والمعنى أن هذا من فعل المؤمنات وإن كانت المؤمنة والكافرة فيه سواء، فهو كقولك أدّ حقّي

أي: لوقتها، والقراء يصلح للوجهين لأن الحيض يأتي لوقت، والطهر مثله، وقيل: هو من القراء وهو الحبس والجمع، تقول العرب: ما قرأت الناقة سلاً قط، أي: لم تضمّ رحمها على ولد، ومنه قرئت الماء في المقرأة وهي الحوض، أي: جمعته بترك همزها، فالقراء ههنا احتباس الدم واجتماعه، فعلى هذا يكون الترجيح فيه للطهر، لأنه يجبس الدم ويجمعه، والحيض يُرخيه ويُرسله، وجملة الحكم في العدد أن المرأة إذا كانت حاملاً فعدتها بوضع الحمل سواء وقعت الفرقة بينها وبين الزوج بالطلاق أو بالموت، لقوله تعالى: ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾ [الطلاق: ٤]، فإن لم تكن حاملاً نُظر إن وقعت الفرقة بينهما بموت الزوج، فعليها أن تعتد بأربعة أشهر وعشر، سواء مات الزوج قبل الدخول أو بعده وسواء كانت المرأة ممّن تحيض أو لا تحيض، لقول الله عزّ وجلّ: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهنّ أربعة أشهر وعشراً﴾ [البقرة: ٢٣٤]، وإن وقعت الفرقة بينهما بالطلاق في الحياة نُظر أكان قبل الدخول بها فلا عدة عليها، لقول الله تعالى: ﴿إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهنّ فما لكم عليهن من عدة تعتدونها﴾ [الأحزاب: ٤٩]، وإن كان بعد الدخول نُظر إن كانت المرأة لم تحض قطّ أو بلغت في الكبير سنّ الآيسات فعدتها ثلاثة أشهر، لقول الله تعالى: ﴿واللّاتي يثنسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهنّ ثلاثة أشهر واللّاتي لم يحضن﴾ [الطلاق: ٤]، وإن كانت ممّن تحيض فعدتها ثلاثة أقروء، لقوله تعالى: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهنّ ثلاثة قروء﴾ وقوله: ﴿يتربصن بأنفسهنّ﴾ لفظه خبر ومعناه أمر، وعدة الأمة إن كانت حاملاً بوضع الحمل كالحرّة، وإن كانت حائلاً ففي الوفاة عدتها شهران وخميس ليالٍ، وفي الطلاق إن كانت تحيض فعدتها قرآن، وإن كانت ممّن لا تحيض فشهر ونصف، وقيل: شهران كالقريين في حق ممّن تحيض، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ينكح العبد امرأتين ويُطلق طلقتين، وتعتدّ

إن كنت مؤمناً يعني أن أداء الحقوق من أفعال المؤمنين وتقول للذي يظلم: إن كنت مؤمناً فلا تظلمني؛ والمعنى ينبغي أن يمنعك إيمانك من الظلم، وفي سبب وعيد النساء بهذا قولان أحدهما أنه لأجل ما يستحقه الزوج من الرجعة. قاله ابن عباس: والثاني أنه لأجل إلحاق الولد بغير أبيه قاله قتادة وقيل: كانت المرأة إذا رغبت في زوجها تقول: إني حائض وإن كانت قد طهرت ليراجعها وإن كانت زاهدة فيه كتمت حيضها وتقول قد طهرت لتفوته فنهاهن الله عن ذلك وأمرن بأداء الأمانة ﴿وبعولتهن أحق بردهن في ذلك﴾ يعني أزواجهن سمي الزوج بعلاً لقيامه بأمر زوجته، وأصل البعل السيد والمالك والمعنى وأزواجهن أولى برجعتهن وردهن إليهم في ذلك أي في حال العدة فإذا انقضى وقت العدة فقد بطل حق الرد والرجعة ﴿إن أرادوا إصلاحاً﴾ يعني إن أراد الزوج بالرجعة الإصلاح وحسن العشرة لا الإضرار بهن، وذلك أن أهل الجاهلية كانوا يراجعون، ويريدون بذلك الإضرار فنهى الله المؤمنين عن مثل ذلك، وأمرهم بالإصلاح وحسن العشرة بعد الرجعة ﴿ولهن﴾ يعني وللنساء على الأزواج ﴿مثل الذي عليهن﴾ يعني للأزواج ﴿بالمعروف﴾ وذلك أن حق الزوجية لا يتم إلا إذا كان كل واحد منهما يراعي حق الآخر فيما له، وعليه فيجب على الزوج أن يقوم بجميع حقها، ومصالحتها ويجب على الزوجة الانقياد والطاعة له، قال ابن عباس في معنى الآية: إني أحب أن أتزين لامرأتي كما أحب أن تتزين لي لأن الله تعالى. قال: ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾ (م) عن جابر أنه ذكر خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع وقال: فيها قال رسول الله ﷺ: «فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانات الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف».

قوله: «فاتقوا الله في النساء» فيه الحث على الوصية بهن ومراعاة حقوقهن ومعاشرتهن بالمعروف. قوله: «فإنكم أخذتموهن بأمانات الله» ويروى بأمانة وقوله: «واستحللتم فروجهن بكلمة الله» معناه بإباحة الله والكلمة هي

الأمة بحيضتين فإن لم تكن تحيض فشهريين أو شهراً ونصفاً، قوله عز وجل: ﴿ولا يحلّ لهنّ أن يكتنن ما خلق الله في أرحامهنّ﴾، قال عكرمة: يعني الحيض وهو أن يريد الرجل مراجعتها، فتقول قد حضت الثلاثة، وقال ابن عباس وقتادة: يعني الحمل، ومعنى الآية: لا يحلّ للمرأة كتمان ما خلق الله في رحمها من الحيض والحمل لتبطل حق الزوج من الرجعة والولد. ﴿إن كنّ يؤمن بالله واليوم الآخر﴾، معناه: أن هذا من فعل المؤمنات، وإن كانت المؤمنة والكافرة في هذا الحكم سواء، كما تقول: أدّ حقّي إن كنت مؤمناً، يعني: أداء الحقوق من فعل المؤمنين، ﴿وبعولتهن﴾، يعني: أزواجهن جمع بعل، كالفحولة جمع فحل، سُمّي الزوج بعلاً لقيامه بأمور زوجته، وأصل البعل السيد والمالك، ﴿أحقّ بردهن﴾: أولى برجعتهن إليهم، ﴿في ذلك﴾، أي: في حال العدة، ﴿إن أرادوا إصلاحاً﴾، أي: إن أرادوا بالرجعة الصلاح وحسن العشرة لا الإضرار، كما كانوا يفعلونه في الجاهلية كالرجل يطلق امرأته، فإذا قرب انقضاء عدتها راجعها، ثم تركها مدة ثم طلقها، فإذا قرب انقضاء عدتها راجعها، ثم بعد مدة طلقها يقصد بذلك تطويل العدة عليها، ﴿ولهن﴾، أي: للنساء على الأزواج ﴿مثل الذي عليهن﴾ للأزواج ﴿بالمعروف﴾، قال ابن عباس في معناه: إني أحب أن أتزين لامرأتي كما تحبّ امرأتي أن تتزين لي، لأن الله تعالى قال: ﴿ولهنّ مثل الذي عليهنّ بالمعروف﴾، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الحسن المروزي، أخبرنا أبو سهل محمد بن عمر بن طرفة الشجري، أنا أبو سليمان الخطابي أخبرنا أبو بكر بن داسة، أنا أبو داود السجستاني أنا موسى بن إسماعيل، أنا حماد أنا أبو قرعة سويد بن حجر الباهلي، عن حكيم بن معاوية القشيري عن أبيه قال: قلت يا رسول الله ما حقّ زوجة أحدنا عليه؟ قال: «أن تطعمها إذا طعمت وأن تكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلا في البيت»، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر الجرجاني، أخبرنا عبد الغافر بن محمد

قوله: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ وقيل: الكلمة هي قوله ﴿فَامْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ﴾ وقيل: الكلمة هي كلمة التوحيد وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله إذ لا تحل مسلمة لغير مسلم وقوله: لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه معناه ولا يأذن لأحد أن يتحدث إليهن، وكان من عادة العرب أن يتحدث الرجال مع النساء ولا يرون ذلك عيباً ولا يعدونه ريبة إلى أن نزلت آية الحجاب فنهوا عن ذلك وليس المراد بوطء الفرش نفس الزنا فإن ذلك محرم على كل الوجوه، فلا معنى لاشتراط الكراهة فيه، ولو كان المراد ذلك لم يكن الضرب فيه ضرباً غير مبرح إنما كان فيه الحد، والضرب المبرح هو الشديد. وقول: ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف يعني بالعدل وفيه وجوب نفقة الزوجة، وكسوتهن وذلك ثابت بالإجماع.

وقوله تعالى: ﴿وَاللرِّجَالُ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ أي منزلة ورفعة قال ابن عباس: بما ساق إليها من المهر وأنفق عليها من المال. وقيل: إن فضيلة الرجال على النساء بأمور منها العقل والشهادة والميراث والدية وصلاحية الإمامة والقضاء وللرجال أن يتزوج عليها ويتسرى، وليس لها ذلك وبيد الرجل الطلاق فهو قادر على تطليقها وإذا طلقها رجعية فهو قادر على رجعتها وليس شيء من ذلك بيدها ﴿والله عزيز﴾ أي غالب لا يمتنع عليه شيء ﴿حكيم﴾ أي في جميع أفعاله وأحكامه. روى البغوي بسنده عن أبي ظبيان أن معاذ بن جبل خرج في غزاة بعثه رسول الله ﷺ فيها، ثم رجع فرأى رجالاً يسجد بعضهم لبعض فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها». قوله عز وجل: .

الطَّلُقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكُكُمْ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُكُمْ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْنَتْهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ

الفارسي، أنا محمد بن عيسى الجلودي أنا أبو إسحق إبراهيم بن محمد بن سفيان، أنا محمد بن الحجاج أنا أبو بكر بن أبي شيبة أنا حاتم بن إسماعيل المدني، عن جعفر بن محمد عن أبيه أنه قال: دخلنا على جابر بن عبد الله، فقلت أخبرني عن حجة رسول الله ﷺ، فسرّد قصة حجة الوداع إلى أن ذكر خطبته يوم عرفة، قال: «فأتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعده: كتاب الله، وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلين؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: اللهم اشهد ثلاث مرات». أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحني أنا أحمد بن الحسن الحيري، أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا محمد بن يحيى، أنا يعلى بن عبيدة أنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائكم»، قوله تعالى: ﴿وَاللرِّجَالُ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾، قال ابن عباس: بما ساق إليها من المهر وأنفق عليها من المال، وقال قتادة: بالجهاد، وقيل: بالعقل، وقيل: بالشهادة، وقيل: بالميراث، وقيل: بالدية، وقيل: بالطلاق، لأن الطلاق بيد الرجال، وقيل: بالرجعة، وقال سفيان وزيد بن أسلم: بالإمارة، وقال الفتيبي: ﴿وَاللرِّجَالُ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ معناه: فضيلة في الحق، ﴿والله عزيز حكيم﴾، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحني، أخبرنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي، أنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصفار، أخبرنا أحمد بن محمد بن محمد بن عيسى البرني، أنا حذيفة أنا سفيان عن الأعمش عن أبي ظبيان أن معاذ بن جبل خرج في غزاة بعثه النبي ﷺ فيها، ثم رجع فرأى رجالاً يسجد بعضهم لبعض، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها».

يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾

﴿الطلاق مرتان﴾ عن عروة بن الزبير قال: كان الرجل إذا طلق زوجته ثم ارتجعها قبل أن تنقضي عدتها، كان له ذلك وإن طلقها ألف مرة، فعمد رجل إلى امرأته فطلقها حتى إذا شارفت انقضاء عدتها ارتجعها ثم قال: والله لا أويك إلي ولا تحلين أبداً فأنزل الله تعالى: ﴿الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ فاستقبل الناس الطلاق جديداً من ذلك اليوم من كان طلق أو لم يطلق أخرجه الترمذي. وله عن عائشة قالت: كان الناس والرجل يطلق امرأته ما شاء الله أن يطلقها وهي امرأته إذا ارتجعها وهي في العدة وإن طلقها مائة أو أكثر حتى قال رجل لامرأته: والله لا أطلقك فتبينني مني ولا أويك أبداً. قالت: وكيف ذلك؟ قال: أطلقك فكلما همت عدتك أن تنقضي راجعتك فذهبت المرأة حتى دخلت على عائشة فأخبرتها فسكتت عائشة حتى جاء النبي ﷺ فأخبرته فسكت النبي ﷺ حتى نزل القرآن ﴿الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ قالت عائشة: فاستأنف الطلاق مستقبلاً من كان قد طلق ومن لم يطلق، ومعنى الآية أن الطلاق الرجعي مرتان ولا رجعة بعد الثالثة إلا أن تنكح زوجاً آخر، وهذا التفسير هو قول من جوز الجمع بين الطلاق الثلاث في دفعة واحدة وهو الشافعي، وقيل في معنى الآية: إن التطلق الشرعي يجب أن يكون تطليقة بعد تطليقة على التفريق دون الجمع والإرسال دفعة واحدة وهذا التفسير هو قول من قال: إن الجمع بين الثلاثة حرام إلا أن أبا حنيفة قال: يقع الثلاث وإن كان حراماً وقيل: إن الآية دالة على عدد الطلاق الذي يكون للرجل فيه الرجعة على زوجته والعدد الذي تبين به زوجته منه، والمعنى أن عدد الطلاق الذي لكم فيه رجعة على أزواجكم إذا كن مدخولاً بهن تطليقتان، وأنه لا رجعة له بعد التطليقتين إن سرحها فطلقها الثالثة ﴿فإمساك بمعروف﴾ يعني بعد الرجعة وذلك أنه إذا راجعها بعد التطليقة الثانية فعليه أن يمسكها بالمعروف وهو كل ما عرف في الشرع من أداء حقوق النكاح وحسن الصحبة ﴿أو تسريح

قوله تعالى: ﴿الطلاق مرتان﴾، روي عن عروة بن الزبير قال: كان الناس في الابتداء يطلقون من غير حصر ولا عدد، وكان الرجل يطلق امرأته، فإذا قاربت انقضاء عدتها راجعها، ثم طلقها كذلك ثم راجعها، يقصد مضارتها، فنزلت هذه الآية: ﴿الطلاق مرتان﴾، يعني الطلاق الذي يملك الرجعة عقبيه مرتان، فإذا طلق ثلاثاً فلا تحل له إلا بعد نكاح زوج آخر، قوله تعالى: ﴿فإمساك بمعروف﴾، قيل: أراد بالإمساك الرجعة بعد الثانية، والصحيح أن المراد منه الإمساك بعد الرجعة، يعني: إذا راجعها بعد الطلقة الثانية فعليه أن يمسكها بالمعروف، والمعروف كل ما يعرف في الشرع من أداء حقوق النكاح وحسن الصحبة، ﴿أو تسريح بإحسان﴾، هو أن يتركها بعد الطلاق حتى تنقضي عدتها، وقيل: الطلقة الثالثة، قوله تعالى: ﴿أو تسريح بإحسان﴾، وصريح اللفظ الذي يقع به الطلاق من غير نية ثلاثة: الطلاق والفراق والسراح، وعند أبي حنيفة: الصريح هو لفظ الطلاق فحسب، وجملة الحكم فيه: أن الحر إذا طلق زوجته طلقة أو طلقتين بعد الدخول بها يجوز له مراجعتها بغير رضاها ما دامت في العدة، وإن لم يراجعها حتى انقضت عدتها، أو طلقها قبل الدخول بها، أو خالعه، فلا تحل له إلا بنكاح جديد بإذنها وإذن وليها، فإن طلقها ثلاثاً فلا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره، وأما العبد إذا كانت تحت امرأة فطلقها طلقتين فإنها لا تحل إلا بعد نكاح زوج آخر، واختلف أهل العلم فيما إذا كان أحد الزوجين رقيقاً فذهب أكثرهم إلى أنه يعتبر عدد الطلاق بالزوج فالحر يملك على زوجته الأمة ثلاث طلاقات، والعبد لا يملك على زوجته الحرة إلا طلقتين، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: الطلاق بالرجال، والعدة بالنساء، يعني يعتبر في عدد الطلاق في

بإحسان﴾ يعني أنه يتركها بعد الطلاق حتى تنقضي عدتها من غير مضارة. وقيل هو أنه إذا طلقها أدى إليها جميع حقوقها المالية ولا يذكرها بعد المفارقة بسوء ولا ينفر الناس عنها.

(فروع): تتعلق بأحكام الطلاق:

(الفرع الأول): صريح اللفظ الذي يقع به الطلاق، من غير نية ثلاث الطلاق والفراق والسراح، وعند أبي حنيفة الصريح هو لفظ الطلاق فقط.

(الفرع الثاني): الحر إذا طلق زوجته طليقة أو طليقتين بعد الدخول بها فله مراجعتها من غير رضاها مادامت في العدة فإذا لم يراجعها حتى انقضت عدتها أو طلقها قبل الدخول بها أو خالعا، فلا تحل له إلا بنكاح جديد بإذنها وإذن وليها.

(الفرع الثالث): العبد يملك على زوجته الأمة تطليقتين. واختلف فيما إذا كان أحد الزوجين حراً فالحر يملك على زوجته الأمة ثلاث تطليقات، والعبد يملك على زوجته الحرة تطليقتين فالاعتبار بحال الزوج في عدد الطلاق وبه قال الشافعي ومالك وأحمد وذهب أبو حنيفة إلى أن الاعتبار بالمرأة فالعبد يملك على زوجته الحرة ثلاث تطليقات، والحر يملك على زوجته الأمة تطليقتين ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن﴾ يعني أعطيتموهن شيئاً يعني من مهر أو غيره، ثم استثنى الخلع فقال تعالى: ﴿إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله﴾ نزلت في جميلة بنت عبد الله بن أبي أوفى ويقال حبيبة بنت سهل الأنصاري كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس وكانت تبغضه وهو يحبها، وكان بينهما كلام فأتت أباهما تشكو إليه زوجها وقالت: إنه يسب أبي ويضربني فقال: ارجعي إلى زوجك فإنني أكره للمرأة أن لا تزال رافعة يديها تشكو زوجها قال: فرجعت إليه الثالثة وبها أثر الضرب فقال: ارجعي إلى زوجك فلما رأت إن أباهما لا يشكياها أتت رسول الله ﷺ فشكت إليه زوجها وأرته أثاراً بها من ضربه

حال الرجل، وفي قدر العدة حال المرأة، وهو قول عثمان وزيد بن ثابت وابن عباس رضي الله عنهم، وبه قال عطاء وسعيد بن المسيب، وإليه ذهب مالك والشافعي وأحمد وإسحق، وذهب قوم إلى أن الاعتبار بالمرأة في عدد الطلاق، فيملك العبد على زوجته الحرة ثلاث طلاقات، ولا يملك الحر على زوجته الأمة إلا طليقتين، وهو قول سفيان الثوري وأصحاب الرأي. قوله تعالى: ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً﴾: أعطيتموهن شيئاً من المهور وغيرها، ثم استثنى الخلع، فقال: ﴿إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله﴾، نزلت في جميلة بنت عبد الله بن أبي أوفى، ويقال في حبيبة بنت سهل، كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس، وكانت تبغضه وهو يحبها فكان بينهما كلام فأتت أباهما فشكت إليه زوجها، وقالت: إنه يسيء إليّ ويضربني، فقال: ارجعي إلى زوجك فإنني أكره للمرأة أن لا تزال رافعة يديها تشكو زوجها، قال: فرجعت إليه الثانية وبها أثر الضرب، فقال: ارجعي إلى زوجك فلما رأت أن أباهما لا يشكياها أتت رسول الله ﷺ فشكت إليه زوجها وأرته أثاراً بها من ضربه، وقالت: يا رسول الله لا أنا ولا هو، فأرسل رسول الله ﷺ إلى ثابت بن قيس فقال: «ما لك ولأهلك؟» فقال: والذي بعثك بالحق نبياً ما على وجه الأرض أحب إليّ منها غيرك، فقال لها: «ما تقولين؟» فكرهت أن تكذب رسول الله ﷺ حين سألها، فقالت: صدق يا رسول الله ولكن قد خشيت أن يهلكني، فأخرجني منه، وقالت: يا رسول الله ما كنت لأحدثك حديثاً ينزل الله عليك خلافة فهو من أكرم الناس محبةً لزوجته، ولكني أبغضه، فلا أنا ولا هو، قال ثابت: يا رسول الله قد أعطيتها حديقة فقل لها تردّها عليّ وأخلي سبيلها، فقال لها: «تردّين عليه حديقته وتملكين أمرك؟» قالت: نعم، فقال رسول الله ﷺ: «يا ثابت خذ منها ما أعطيتها، وخلّ سبيلها»، ففعل. أخبرنا عبد الواحد المليحي

وقالت: يا رسول الله لا أنا ولا هو فأرسل رسول الله ﷺ إلى ثابت فقال: مالك ولأهلك فقال: والذي بعثك بالحق نبياً ما على وجه الأرض أحب إلى منها غيرك فقال: لها ما تقولين؟ فكرهت أن تكذب رسول الله ﷺ حين سألها فقالت: صدق يا رسول الله ولكنني خشيت أن يهلكني فأخرجني منه. وقالت: يا رسول الله ما كنت أحدثك حديثاً ينزل عليك خلافه هو أكرم الناس حباً لزوجته ولكنني أبغضه فلا أنا ولا هو قال ثابت أعطيتها حديقة نخل فقل لها فلتردها علي، وأخلى سبيلها، فقال لها: ترددين عليه حديقته وتملكين أمرك قالت: نعم فقال رسول الله ﷺ يا ثابت خذ منها ما أعطيتها وخلّ سبيلها ففعل. (خ) عن ابن عباس «أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبي ﷺ فقالت يا رسول الله إن ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خلق ولا مال ولكنني أكره الكفر في الإسلام. قال أبو عبدالله: يعني تبغضه: قال رسول الله ﷺ: ترددين عليه حديقته؟ قالت: نعم قال رسول الله ﷺ: اقبل الحديقة وطلقها تطليقة» قوله: ما أعتب عليه يعني ما أجد عليه والعنبي الموجدة والحديقة البستان من النخل إذا كان عليه الحائط ومعنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا﴾ أي يعلما الزوجان من أنفسهما أن لا يقيما حدود الله والمعنى تخاف المرأة أن تعصي الله في أمور زوجها، ويخاف الزوج أنه إذا لم تطعه أن يعتدي عليها، فنهى الله الرجل أن يأخذ من امرأته شيئاً مما أعطها إلا أن يكون النشوز من قبلها، وذلك أن تقول لا أطيع لك أمراً ولا أطأ لك مضجعاً، ونحو ذلك، وقرىء يخافا بضم الياء، ومعناه إلا أن يعلم ذلك من حالهما يعني يعلم القاضي والوالي ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ يعني فإن خشيتم وأشفقتهم، وقيل: معناه فإن ظننتم ﴿أَلَا يَقِيْمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ يعني ما أوجب الله على كل واحد منهما من طاعته فيما أمره به من حسن الصحبة، والمعاشرة بالمعروف وقيل: هو يرجع إلى المرأة وهو سوء خلقها واستخفافها بحق زوجها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ أي لا جناح على المرأة في النشوز إذا خشيت الهلاك، والمعصية فيما افتدت به نفسها أو أعطت من المال لأنها ممنوعة من إتلاف المال بغير حق، ولا على الزوج فيما أخذ من المال إذا أعطته المرأة طائعة راضية.

أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا زاهر بن جميل، أخبرنا عبد الوهاب الثقفي أنا خالد عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله ما أعتب عليه في خلق ولا دين ولكنني أكره الكفر في الإسلام، قال رسول الله ﷺ: «أترددين عليه حديقته؟» قالت: نعم، قال رسول الله ﷺ: «اقبل الحديقة وطلقها تطليقة»، قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا﴾، أي: يعلما أن لا يقيما حدود الله، قرأ أبو جعفر وحزمة ويعقوب ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا﴾ بضم الياء، أي: يعلم ذلك منهما، يعني: يعلم القاضي والوالي ذلك من الزوجين، بدليل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾، فجعل الخوف لغير الزوجين، ولم يقل: فإن خافا، وقرأ الآخرون: ﴿يَخَافَا﴾ بفتح الياء، أي: يعلم الزوجان من أنفسهما أن لا يقيما حدود الله، تخاف المرأة أن تعصي الله في أمر زوجها، ويخاف الزوج إذا لم تطعه امرأته أن يعتدي عليها فنهى الله الرجل أن يأخذ من امرأته شيئاً مما آتاها إلا أن يكون النشوز من قبلها، فقالت: لا أطيع لك أمراً ولا أطالك مضجعاً ونحو ذلك، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَا يَقِيْمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾، أي: فيما افتدت به المرأة نفسها منه، قال الفراء: أراد بقوله ﴿عليهما﴾: الزوج دون المرأة، فذكرهما جميعاً لاقترانهما، كقوله تعالى: ﴿نَسِيا حُوتَهُمَا﴾ [الكهف: ٦١] وإنما الناسي فتى موسى دون موسى، وقيل: أراد أنه لا جناح عليهما جميعاً، لا جناح على المرأة في النشوز إذا خشيت الهلاك والمعصية، ولا فيما افتدت به وأعطت به المال لأنها ممنوعة من إتلاف المال بغير حق، وعلى الزوج فيما أخذ منها من المال إذا أعطته طائعة، وذهب أكثر أهل العلم إلى أن الخلع جائز على أكثر مما أعطها، وقال الزهري: لا يجوز بأكثر مما أعطها من المهر، وقال سعيد بن المسيب: لا يأخذ منها

فصل: في حكم الخلع وفيه مسائل:

الأولى: قال الزهري والنخعي وداود: لا يباح الخلع إلا عند الغضب والخوف من أن لا يقيما حدود الله فإن وقع الخلع في غير هذه الحالة فهو فاسد، وحجة هذا القول: أن الآية صريحة في أنه لا يجوز للزوج أن يأخذ من المرأة شيئاً عند طلاقها، ثم استثنى الله تعالى حالة مخصوصة فقال: ﴿إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله﴾ فكانت هذه صريحة في أنه لا يجوز الأخذ في غير حالة الغضب، والخوف من أن لا يقيما حدود الله، وذهب جمهور العلماء إلى أنه يجوز الخلع من غير نشوز ولا غضب، غير أنه يكره لما فيه من قطع الوصلة بلا سبب عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلْتَ زَوْجَهَا الطَّلَاقَ مِنْ غَيْرِ بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ» أخرجه أبو داود والترمذي. عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «أَبْغَضُ الْحَلَالِ إِلَى اللَّهِ الطَّلَاقُ» أخرجه أبو داود ودليل الجمهور على جواز الخلع من غير نشوز قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَبُنْ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ فإذا جاز لها أن تهب مهرها من غير أن يحصل لها شيء فإذا بذلت كان ذلك في الخلع الذي تصير بسببه مالكة أمر نفسها أولى. وأجيب عن الاستثناء المذكور في هذه الآية أنه محمول على الاستثناء المنقطع.

المسألة الثانية: الخلع جائز على أكثر مما أعطاه وبه قال أكثر العلماء، وقال بعضهم: لا يجوز أن يأخذ أكثر مما أعطاه وهو قول علي، وبه قال الزهري والشعبي والحسن وعطاء وطاوس وقال سعيد بن المسيب: بل يأخذ دون ما أعطاه حتى يكون الفضل فيه وحجة الجمهور أن الخلع عقد على معاوضة، فوجب أن لا يقيد بمقدار معين كما أن للمرأة أن لا ترضى عند عقد النكاح إلا بالكثير فكذلك للزوج أن لا يرضى عند الخلع إلا بالبدل الكثير، لا سيما وقد أظهرت الاستخفاف بالزوج حيث أظهرت بغضه وكراهته.

المسألة الثالثة: اختلف العلماء في الخلع هل هو فسخ أو طلاق؟ فقال الشافعي في القديم: إنه فسخ وهو

جميع ما أعطاه بل يترك شيئاً، ويجوز الخلع على غير حال النشوز، غير أنه يكره لما فيه من قطع الوصلة بلا سبب، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحق الثعلبي، أنا أبو عبد الله بن زنجويه الدينوري، أنا عبد الله بن محمد بن شيبة، أنا أحمد بن جعفر المستملي أنا أبو محمد يحيى بن إسحق بن شاكر بن أحمد بن خباب، أنا عيسى بن يونس أنا عبيد الله بن الوليد الوصافي عن مُحَارِبِ بْنِ دِثَارٍ، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ مِنْ أَبْغَضِ الْحَلَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الطَّلَاقُ، وَلَا أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الْعَتَقِ»، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحق الثعلبي أخبرني ابن زنجويه، أنا ابن أبي شيبة أنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، أنا أبي أنا أسامة عن حماد بن زيد عن أبي أيوب، عن أبي قلابة عن أبي أسماء الرحبي، عن ثوبان يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلْتَ زَوْجَهَا الطَّلَاقَ فِي غَيْرِ بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ»، وقال طاوس: الخلع يختص بحالة خوف النشوز لظاهر الآية، والآية خرجت على وفق العادة في أن الخلع لا يكون إلا في حال خوف النشوز غالباً، وإذا طَلَّقَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ بِلَفْظِ الطَّلَاقِ عَلَى مَا لَفِظَتْ وَقَعَتِ الْبَيْنُونَةُ، وانقص به العدد، واختلف أهل العلم في الخلع، فذهب أكثرهم إلى أنه تطليقة بائنة ينقص بها عدد الطلاق، وهو قول عمر وعثمان وعلي وابن مسعود، وبه قال سعيد بن المسيب وعطاء والحسن والشعبي والنخعي، وإليه ذهب مالك والثوري والأوزاعي وأصحاب الرأي، وهو أظهر قولي الشافعي، وذهب قوم إلى أنه فَسْخٌ لا ينتقص به عدد الطلاق، وهو قول عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وبه قال عكرمة وطاوس، وإليه ذهب أحمد وإسحق، واحتجوا بأن الله تعالى ذكر الطلاق مرتين، ثم ذكر بعد الخلع، ثم ذكر بعده الطلقة الثالثة فقال: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾

قول ابن عباس وطاوس وعكرمة. وبه قال أحمد وإسحاق وأبو ثور وقال الشافعي في الجديد: إنه طلاق وهو الأظهر وهو قول عثمان وعلي وابن مسعود والحسن والشعبي والنخعي وعطاء وابن المسيب ومجاهد ومكحول والزهري. وبه قال أبو حنيفة ومالك وسفيان الثوري. وحجة القول القديم أن الله تعالى ذكر الطلاق مرتين ثم ذكر بعده الخلع ثم ذكر الطلقة الثالثة فقال: .

فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

﴿فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره﴾ ولو كان الخلع طلاقاً لكان الطلاق أربعاً وحجة القول الجديد أنه لو كان فسخاً لما صح بالزيادة على المهر المسمى كالإقالة في البيع وأيضاً لو كان الخلع فسخاً فإذا خالعه ولم يذكر مهراً وجب أن يجب المهر عليها كالإقالة، فإن الثمن يجب رده وإن لم يذكره فثبت أن الخلع ليس بفسخ وإذا بطل ذلك ثبت أنه طلاق وأيضاً فإن الطلقة الثالثة قوله: أو تسريح بإحسان. وفائدة الخلاف أنا إذا جعلناه طلاقاً ينقص به عدد الطلاق فإن تزوجها بعده كانت معه على طلقتين وإن جعلناه فسخاً بانت منه بثلاث.

قوله تعالى: ﴿تلك حدود الله﴾ يعني هذه أوامر الله ونواهيه وهو ما تقدم من أحكام الطلاق والرجعة والخلع وحدود الله ما منع من مجاوزتها وهو قوله: ﴿فلا تعتدوها﴾ أي فلا تجاوزها ﴿ومن يتعد حدود الله﴾ أي يجاوزها ﴿فأولئك هم الظالمون﴾ قوله عز وجل: ﴿فإن طلقها﴾ يعني الطلقة الثالثة ﴿فلا تحل له من بعد﴾ أي لا تحل له رجعتها بعد الثلاث ﴿حتى تنكح زوجاً غيره﴾ يعني حتى تتزوج زوجاً آخر غير المطلق فيجامعها، والنكاح يتناول العقد والوطء جميعاً والمراد هنا الوطء، نزلت في تميمه وقيل: عائشة بنت عبد الرحمن بن عتيك القرظي وكانت تحت ابن عمها رفاعه بن وهب بن عتيك القرظي فطلقها ثلاثاً (ق) عن عائشة قالت: «جاءت امرأة رفاعه القرظي إلى رسول الله ﷺ فقالت إني كنت عند رفاعه فطلقني فبت طلاقاً فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزبير وإنما معه مثل هدية الثوب فتبسم رسول الله ﷺ وقال: أتريدين أن ترجعي إلى رفاعه لا حتى يذوق عسيلتك وتذوقي عسيلته»

[البقرة: ٢٣٠]، ولو كان الخلع طلاقاً لكان الطلاق أربعاً، ومن قال بالقول الأول جعل الطلقة الثالثة: ﴿أو تسريح بإحسان﴾. قوله تعالى: ﴿تلك حدود الله﴾، أي: هذه أوامر الله ونواهيه، وحدود الله ما منع الشرع من المجاوزة عنه، ﴿فلا تعتدوها﴾، فلا تجاوزوها، ﴿ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾.

قوله تعالى: ﴿فإن طلقها﴾، يعني: الطلقة الثالثة، ﴿فلا تحل له من بعد﴾، أي: من بعد الطلقة الثالثة، ﴿حتى تنكح زوجاً غيره﴾، أي: غير المطلق فيجامعها، والنكاح يتناول العقد جميعاً، نزلت في تميمه، وقيل: في عائشة بنت عبد الرحمن بن عتيك القرظي، كانت تحت ابن عمها رفاعه بن وهب بن عتيك القرظي فطلقها ثلاثاً، أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب، أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال، أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي، أخبرنا سفيان عن الزهري عن عروة عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنه سمعها تقول: جاءت امرأة رفاعه القرظي إلى رسول الله ﷺ فقالت: إني كنت عند رفاعه القرظي فطلقني فبت طلاقاً وتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزبير، وإنما معه مثل هدية الثوب، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: أتريدين أن ترجعي إلى رفاعه؟ قالت: نعم، قال: «لا، حتى يذوق عسيلتك وتذوقي عسيلته» وروى أنها لبثت ما شاء الله، ثم رجعت إلى رسول الله ﷺ فقالت: إن زوجي قد مسني فقال لها النبي ﷺ: «كذبت بقولك الأول فلن نصدقك في الآخر» فلبثت حتى قبض النبي ﷺ، فأنت أبا بكر رضي الله عنه، فقالت: يا خليفة رسول الله ﷺ أرجع إلى زوجي

قولها: فبت طلاقي أي قطعه والبت القطع وقولها: مثل هدبة الثوب أي طرفه وهو كناية عن استرخاء الذكر قوله: حتى يذوق عسيلتك بضم العين تصغير العسل شبة لذة الجماع بالعسل وهو كناية عنه وإنما أنث العسل لأن من العرب من يؤنثه، وقيل: أنثه حملاً له على المعنى، لأن المراد منه النطفة، وعبدالرحمن المذكور هو عبدالرحمن بن الزبير بفتح الزاي وكسر الباء مشددة، وروي أنها لبثت ما شاء الله ثم رجعت إلى رسول الله ﷺ فقالت: إن زوجي قد مسني فقال لها النبي ﷺ: كذبت بقولك الأول فلن أصدقك في الآخر، فلبثت حتى قبض رسول الله ﷺ فأتت أبا بكر فقالت يا خليفة: رسول الله ﷺ أرجع إلى زوجي الأول فإن زوجي الآخر قد مسني وطلقني، فقال لها أبو بكر: قد شهدت رسول الله ﷺ حين أتته وقال له ما قالت لك ما قال فلا ترجعي إليه، فلما قبض أبو بكر أتت عمر وقالت له ما قالت لأبي بكر فقال لها: لئن رجعت إليه لأرجمنك. قوله تعالى: ﴿فإن طلقها﴾ يعني الزوج الثاني بعد وطئها ﴿فلا جناح عليهما﴾ يعني على المرأة والزوج الأول ﴿أن يترابعا﴾ يعني بنكاح جديد ﴿إن ظنا﴾ أي علماً وأيقناً وقيل: إن رجوا لأن أحداً لا يعلم ما هو كائن إلا الله تعالى: ﴿أن يقيما حدود الله﴾ يعني يقيما بينهما الصلاح وحسن العشرة والصحبة وقيل: معناه إن علما أن نكاحها على غير دلسة، والمراد بالدلسة التحليل.

فرعان: الأول: مذهب جمهور العلماء أن المطلقة بالثلاث لا تحل للزوج المطلقة منه بالثلاث إلا بشرائط، وهي أن تعتد منه ثم تتزوج بزواج آخر ويطأها، ثم يطلقها، ثم تعتد منه، فإذا حصلت هذه الشرائط فقد حلت للأول وإلا فلا، وقال سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب: تحل بمجرد العقد والمذهب الأول هو الأصح، واختلف العلماء في اشتراط الوطء هل ثبت بالكتاب أو بالسنة؟ على ثلاثة أقوال: الثالث وهو المختار أنه ثبت بهما (الثاني) إذا تزوج بالمطلقة ثلاثة ليحلها للأول فهذا نكاح باطل وعقد فاسد وبه قال: مالك وأحمد لما روي عن ابن مسعود عن النبي ﷺ: «أنه لعن المحلل والمحلل له» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح وروي أنه قال هو التيس المستعار ولو تزوجها ولم يشترط في النكاح أنه يفارقها فالنكاح صحيح ويحصل به التحليل إذا طلقها وانقضت العدة غير أنه يكره إذا كان في عزمهما ذلك، وبه قال الشافعي وأبو حنيفة، ودليل ذلك أن الآية دلت على أن الحرمة تنتهي بوطء مسبوق بعقد وقد وجد ذلك فوجب القول بانتهاء الحرمة، وقال نافع: «أتى رجل إلى ابن عمر

الأول فإن زوجي الآخر قد مسني وطلقني، فقال لها أبو بكر: قد شهدت رسول الله ﷺ حين أتته وقال لك ما قال، فلا ترجعي إليه، فلما قبض أبو بكر رضي الله عنه أتت عمر رضي الله عنه وقالت له مثل ذلك، فقال لها عمر رضي الله عنه: لا ترجعي إليه لئن رجعت إليه لأرجمنك. قوله تعالى: ﴿فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يترابعا﴾، يعني: فإن طلقها الزوج الثاني بعدما جامعها فلا جناح عليهما، يعني: على المرأة وعلى الزوج الأول أن يترابعا، يعني: بنكاح جديد، ﴿إن ظنا﴾، أي: علماً، وقيل: رجوا، لأن أحداً لا يعلم ما هو كائن إلا الله عز وجل، ﴿أن يقيما حدود الله﴾، أي: يكون بينهما الصلاح وحسن الصحبة، وقال مجاهد: معناه إن علما أن نكاحهما على غير دلسة، وأراد بالدلسة: التحليل، وهو مذهب سفيان الثوري والأوزاعي ومالك وأحمد وإسحق، قالوا: إذا تزوجت المطلقة ثلاثاً زوجاً آخر ليحلها للزوج الأول فإن النكاح فاسد، وذهب جماعة إلى أنه إذا لم يشترط في النكاح مع الثاني أنه يفارقها، فالنكاح صحيح ويحصل به التحليل، ولها صدق مثلها غير أنه يكره إذا كان في عزمها ذلك، أخبرنا أبو الفرج المظفر بن إسماعيل التميمي، أخبرنا أبو القاسم حمزة بن يوسف السهمي أنا أبو أحمد عبد الله بن عدي الحافظ، أنا الحسن بن الفرج أخبرنا عمرو بن خالد الحراني، أنا عبيد الله بن عبد الكريم هو الجوزي، عن أبي واصل عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «لعن الله المحلل والمحلل له»، وقال نافع: أتى

فقال: إن رجلاً طلق امرأته ثلاثاً فانطلق أخ له من غير مؤامرة فتزوجها ليحلها للأول فقال: لا إلا نكاح رغبة، كنا نعد هذا سفاحاً على عهد رسول الله ﷺ وقوله تعالى: ﴿وتلك حدود الله بينها لقوم يعلمون﴾ يعني يعلمون ما أمرهم به ونهاهم عنه، وإنما خص العلماء لأنهم هم الذين ينتفعون بذلك البيان.

وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّعَعْدَتِكُمْ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾

قوله عز وجل: ﴿وإذا طلقتم النساء﴾ نزلت في ثابت بن يسار رجل من الأنصار طلق امرأته حتى إذا قرب انقضاء عدتها راجعها ثم طلقها يقصد بذلك مضارتها ﴿فبلغن أجلهن﴾ أي قاربن انقضاء عدتهن وشارفن منتهاها، ولم يرد انقضاء العدة لأنه لو انقضت عدتها لم يكن للزوج إمساكها فالبلوغ هنا بلوغ مقاربة كما يقال: بلغ فلان البلد إذا قاربه وشارفه، فهذا من باب المجاز الذي يطلق اسم الكل فيه على الأكثر. وقيل إن الأجل اسم للزمان فيحمل على الزمان الذي هو آخر زمان يمكن إيقاع الرجعة، فيه بحيث إذا فات لا يبقى بعده مكنة إلى الرجعة وعلى هذا التأويل فلا حاجة لنا إلى المجاز ﴿فأمسكوهن﴾ أي راجعوهن ﴿بمعروف﴾ وهو أن يشهد على رجعتها وأن يراجعها بالقول لا بالوطء ﴿أو سرحوهن بمعروف﴾ أي اتركوهن حتى تنقضي عدتهن فيملكن أنفسهن ﴿ولا تمسكوهن ضراً﴾ أي لا تقصدوا بالرجعة المضارة بتطويل الحبس. وقيل: كانوا يضاروهن لتفتدي المرأة منه بمالها ﴿لتعندوا﴾ أي لتظلموهن بمجاوزتكم في أمورهن حدود الله التي بينها لكم. وقيل معناه: لا تضاروهن على قصد الاعتداء عليهن ﴿ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه﴾ أي ضر نفسه بمخالفة أمر الله وتعريضها عذاب الله ﴿ولا تتخذوا آيات الله هزواً﴾ يعني بذلك ما بين من حلاله وحرامه وأمره ونهيه في وحيه وتنزيله، فلا تتخذوا ذلك استهزاء ولعباً، فمن وجب عليه طاعة الله وطاعة رسوله ثم وصل إليه هذه الأحكام التي تقدم ذكرها في العدة والرجعة والخلع وترك المضارة فلا يتخذها هزواً، ففيه تهديد عظيم ووعد شديد، وقيل: هو راجع إلى قوله

رجل ابن عمر فقال له: إن رجلاً طلق امرأته ثلاثاً، فانطلق أخ له من غير مؤامرة، فتزوجها ليحلها للأول، فقال: لا إلا نكاح رغبة، كنا نعد هذا سفاحاً على عهد رسول الله ﷺ، وقال رسول الله ﷺ: «لعن الله المحلل والمحلل له»، ﴿وتلك حدود الله بينها لقوم يعلمون﴾، يعني: يعلمون ما أمرهم الله تعالى به.

قوله تعالى: ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن﴾، الآية نزلت في رجل من الأنصار يدعى ثابت بن يسار طلق امرأته حتى قاربت انقضاء عدتها راجعها ثم طلقها يقصد بذلك مضارتها، قوله تعالى: ﴿فبلغن أجلهن﴾، أي: أشرفن على أن تبين بانقضاء العدة، ولم يرد حقيقة انقضاء العدة لأن العدة إذا انقضت لم يكن للزوج إمساكها، فالبلوغ هنا بلوغ مقاربة، وفي قوله تعالى بعد هذا: ﴿فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن﴾ [البقرة: ٢٣٢]، حقيقة انقضاء العدة والبلوغ يتناول المعنيين، يقال: بلغت المدينة إذا قربت منها إذا دخلتها، ﴿فأمسكوهن﴾، أي: راجعوهن، ﴿بمعروف﴾ قيل: المراجعة بالمعروف أن يشهد على رجعتها وأن يراجعها بالقول لا بالوطء، ﴿أو سرحوهن بمعروف﴾، أي: اتركوهن حتى تنقضي عدتهن فيكن أملك لأنفسهن، ﴿ولا تمسكوهن ضراً﴾ لتعندوا، أي: لا تقصدوا بالرجعة المضارة بتطويل الحبس. ﴿ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه﴾، أي: أضّر بنفسه بمخالفة أمر الله تعالى، ﴿ولا تتخذوا آيات الله هزواً﴾ قال الكلبي: يعني قوله تعالى: ﴿فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وكل من خالف أمر الشرع فهو متخذ آيات الله هزواً، وقال أبو الدرداء: هو أن

فإمسك بمعروف أو تسريح بإحسان، فكل من خالف أمراً من أمور الشرع فهو متخذ آيات الله هزواً. وقيل: كان الرجل يطلق ويعتق ويتزوج ويقول كنت لاعباً فنهوا عن ذلك. عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث جدهن جد وهزلهن جد: النكاح والطلاق والرجعة» أخرجه أبو داود والترمذي.

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يعني بالإيمان الذي أنعم به الله عليكم فهداكم له وسائر نعمه التي أنعم بها عليكم ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي واذكروا نعمته فيما أنزله عليكم ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ يعني القرآن ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ يعني السنة التي علمها رسول الله ﷺ وسنها لكم. وقيل: المراد بالحكمة مواظب القرآن ﴿يُعَظِّمُ بِهِ﴾ أي بالكتاب الذي أنزله على نبيه ﷺ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ يعني خافوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعني أن الله تعالى يعلم ما أخفيتم من طاعة ومعصية في سر وعلن لا يخفى عليه شيء من ذلك. قوله عز وجل:

وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ



مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ لَكُمْ لَكُمْ وَأَطَهُرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ نزلت في معقل بن يسار المزني عضل أخته جميلة، وكانت تحت أبي القداح عاصم بن عدي فطلقها معقل بن يسار قال: كانت لي أخت تخطب إلي وأمنعها من الناس فأتاني ابن عم لي فأنكحها إياه فاصطحبها ما شاء الله ثم طلقها طلاقاً له رجعة ثم تركها حتى انقضت عدتها، فلما خطبت إلي أتاني يخطبها مع الخطاب، فقلت له: خطبت إلي فمنعتها الناس وأثرتك بها فزوجتك ثم طلقها طلاقاً لك فيه رجعة، ثم تركتها حتى انقضت عدتها، فلما خطبت إلي أتيتني تخطبها مع الخطاب والله لا أنكحها لك أبداً، ففي ذلك نزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ الآية، فكفرت عن يميني وأنكحها إياه أخرجه البخاري، وقيل إن جابر بن عبد الله كانت له ابنة عم فطلقها زوجها تطليقة، فلما انقضت عدتها أراد أن يرتجعها فأبى جابر وقال: طلقت ابنة عمنا ثم تريد أن تنكحها الثانية، وكانت المرأة تريد زوجها قد

الرجل كان يطلق امرأته ثم يقول كنت لاعباً، ويعتق ويقول مثل ذلك، وينكح ويقول مثل ذلك، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقى أنا أبو الحسن الطيسفوني أخبرنا عبد الله بن عمر الجوهري، أخبرنا أحمد بن علي الكشمهيني أخبرنا علي بن حجر، أخبرنا إسماعيل بن جعفر عن أبي حبيب بن أردك هو عبد الرحمن بن حبيب وابن ماهك هو يوسف بن ماهك، عن عطاء بن أبي رباح عن أبي ماهك عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث جدهن جد وهزلهن جد: الطلاق والنكاح والرجعة»، ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: بالإيمان ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾، يعني: القرآن، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾، يعني: السنة، وقيل: مواظب القرآن، ﴿يُعَظِّمُ بِهِ﴾، واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم.

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾، نزلت في جميلة بنت يسار أخت معقل بن يسار المزني كانت تحت أبي القداح بن عاصم بن عدي بن عجلان، فطلقها، أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أخبرنا أحمد بن أبي عمرو: حدثني أبي حدثني أبو هاشم عن يونس عن الحسن قال: حدثني معقل بن يسار قال: زوجت أختاً لي من رجل فطلقها حتى إذا انقضت عدتها جاء يخطبها، فقلت له: زوجتك وفرشتك وأكرمتك فطلقتها! ثم جئت تخطبها؟ ألا والله لا تعود إليك أبداً، وكان رجلاً لا بأس به وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه، فأنزل الله تعالى ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾، فقلت: الآن أفعل يا رسول الله، قال: فزوجها إياه، قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾، أي: انقضت عدتهن ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ﴾

رضيته فنزلت هذه الآية: وأراد ببلوغ الأجل في قوله ﴿فبلغن أجلهن﴾ انقضاء العدة بخلاف الآية التي قبل هذه الآية. قال الشافعي: دل اختلاف الكلامين على افتراق البلوغين ﴿فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن﴾ خطاب للأولياء، والمعنى لا تضيقوا عليهن أيها الأولياء، فتمنعوهن من مراجعة أزواجهن بنكاح جديد تبتغون بذلك مضارتهن فهو خطاب عام لجميع الأولياء، وإن كان سبب الآية خاصاً. وأصل العضل المنع والتضييق ومنه قول أوس بن حجر:

وليس أخوك الدائم العهد بالذي يذمك إن ولى ويرضيك مقبلاً
ولكنه النائي إذا كنت آمناً وصاحبك الأدنى إذا الأمر أعضلاً

يعني إذا أضاق الأمر، وفي الآية دليل للشافعي ومن وافقه في أن المرأة لا تلي عقد النكاح ولا تأذن فيه إذ لو كانت تملك ذلك لم يكن عضل ولا لنهي الولي عن العضل معنى. وقوله تعالى: ﴿إذا تراضوا بينهم بالمعروف﴾ يعني إذا تراضى الخطاب والنساء، والمعروف هنا ما وافق الشرع من عقد حلال ومهر جائز. وقيل هو أن يرضى كل واحد منهما بما التزمه لصاحبه بحق العقد حتى تحصل الصحة الحسنة والعشرة الجميلة ﴿ذلك﴾ أي ذلك الذي ذكر من النهي ﴿يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ يعني أن المؤمن هو الذي ينتفع بالوعظ دون غيره ﴿ذلكم أزكى لكم وأطهر﴾ يعني أنه خير لكم وأطهر لقلوبكم وأطيب عند الله ﴿والله يعلم﴾ يعني ما في ذلك من الزكاة والتطهير ﴿وأنتم لا تعلمون﴾ يعني ذلك. قوله عز وجل:

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِيمَ الرِّضَاعَةُ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَشَاوِرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَالْقَوْلُ اللَّهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

﴿والوالدات﴾ يعني المطلقات اللاتي لهن أولاد من أزواجهن وقيل المراد بهن جميع الوالدات سواء كن

أزواجهن، أي: لا تمنعهن عن النكاح، والعضل: المنع، وأصله الضيق والشدة، يقال: عضلت المرأة: إذا نشب ولدها في بطنها فضاق عليه الخروج، والداء العضال الذي لا يُطاق علاجه، وفي الآية دليل على أن المرأة لا تلي عقد النكاح، إذ لو كانت تملك ذلك لم يكن هناك عضل، ولا لنهي الولي عن العضل معنى، وقيل: الآية خطاب مع الأزواج لمنعهن من الإضرار لأن ابتداء الآية خطاب معهم، والأول أصح، ﴿إذا تراضوا بينهم بالمعروف﴾، بعقد حلال ومهر جائز، ﴿ذلك﴾، أي: الذي ذكر من النهي ﴿يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر﴾، وإنما قال ذلك موحداً والخطاب للأولياء، لأن الأصل في مخاطبة الجمع ذلكم، ثم كثر حتى توهموا أن الكاف من نفس الحرف وليس بكاف خطاب، فقالوا ذلك، فإذا قالوا هذا كانت الكاف موحدة مستوية في الاثنين والجمع والمؤنث والمذكر، قيل: هو خطاب للنبي ﷺ، فلذلك وحّد ثم رجع إلى خطاب المؤمنين، فقال: ﴿ذلكم أزكى لكم﴾، أي: خير لكم، ﴿وأطهر﴾: لقلوبكم من الريبة وذلك أنه كان في نفس كل واحد منهما علاقة حيث لم يؤمن أن يتجاوز ذلك إلى غير ما أحل الله لهما، ولم يؤمن من الأولياء أن يسبق إلى قلوبهم منهما ما لعلهما أن يكونا بريئين من ذلك فيأثمون، ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾، أي: يعلم من حب كل واحد منهما لصاحبه ما لا تعلمون أنتم.

قوله تعالى: ﴿والوالدات يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾، أي: المطلقات اللاتي لهن أولاد من أزواجهن ﴿يُرضعن﴾

مطلقات أو متزوجات، ويدل عليه أن اللفظ عام، وما قام على دليل التخصيص فوجب تركه على عمومه، ولأنه ظاهر اللفظ فوجب حمله عليه ﴿يرضعن أولادهن﴾ هذا خبر بمعنى الأمر، والتقدير والوالدات يرضعن أولادهن في حكم الله الذي أوجبه، وهذا الأمر ليس أمر إيجاب، وإنما هو أمر ندب واستحباب لأن تربية الطفل بلبن الأم أصلح له من لبن غيرها ولكمال شفقتها عليه ويدل على أنه لا يجب على الوالدة إرضاع الولد. قوله: ﴿فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن﴾ ولو وجب عليها الرضاع لما استحققت الأجرة وقال تعالى: ﴿وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى﴾ هذا نص صريح في ذلك، فإن لم يوجد من يرضع الطفل أو لم يقبل غير لبن أمه وجب عليها إرضاعه كما يجب على كل أحد مواساة المضطر، فإن رغبت الأم في إرضاع ولدها، فهي أولى به من غيرها ﴿حولين كاملين﴾ الحول السنة، وأصله من حال يحول إذا انقلب، وإنما قال كاملين للتوكيد لأنه مما يتسامح فيه، تقول: أقمت عند فلان حولاً وإن لم تستكمل، فبين الله أنهما حولان كاملان أربعة وعشرون شهراً، وهذا التحديد بالحولين ليس لتحديد إيجاب، ويدل على ذلك قوله بعده: ﴿لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ فلما علق الإتمام بإرادتنا علمنا أن هذا الإتمام غير واجب، فثبت أن المقصود من هذا التجديد قطع النزاع بين الزوجين في مقدار زمن الرضاعة فقدر الله تعالى ذلك بالحولين حتى يرجعا إليه عند التنازع، قال ابن عباس في رواية عكرمة: إذا وضعت الولد لستة أشهر أرضعته حولين وإن وضعته لسبعة أشهر أرضعته ثلاثاً وعشرين شهراً، وإن وضعته لتسعة أشهر أرضعته أحداً وعشرين شهراً، كل ذلك ثلاثون شهراً، لقوله تعالى: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾ وقال في رواية الوالي عنه: هو حد لكل مولود في أي وقت ولد لا ينقص رضاعه عن حولين إلا باتفاق من الأبوين، فأيهما أراد فطام الولد قبل الحولين فليس له ذلك إلا إذا اتفقا عليه يدل على ذلك قوله: ﴿فإن أرادا فصلاً عن تراض منهما﴾ وقيل: فرض الله على الوالدات إرضاع الولد حولين ثم أنزل التخفيف فقال: لمن أراد أن يتم الرضاعة، أي هذا منتهى الرضاع لمن أراد إتمام الرضاعة، وليس فيما دون ذلك حد محدود، وإنما هو على مقدار إصلاح الطفل وما

خبر بمعنى الأمر وهو أمر استحباب لا أمر إيجاب، لأنه لا يجب عليهن الإرضاع إذا كان يوجد من يرضع الولد، لقوله تعالى في سورة الطلاق: ﴿فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن﴾ [الطلاق: ٦]، فإن رغبت الأم في الإرضاع فهي أولى من غيرها، ﴿حولين كاملين﴾، أي: ستين، وذكر الكمال للتأكيد، كقوله تعالى: ﴿تلك عشرة كاملة﴾ [البقرة: ١٩٦] وقيل: إنما قال كاملين لأن العرب قد تسمي بعض الحول حولاً وبعض الشهر شهراً، كما قال الله تعالى: ﴿الحج أشهر معلومات﴾ [البقرة: ١٩٧]، وإنما هي شهران وبعض الثالث، وقال: ﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه﴾ [البقرة: ٢٠٣]، وإنما يتعجل في يوم وبعض يوم ويقال أقام فلان بموضع كذا حولين، وإنما أقام به حولاً وبعض آخر، فبين الله تعالى أنهما حولان كاملان أربعة وعشرون شهراً، واختلف أهل العلم في هذا الحد، فمنهم من قال: هو حد لبعض المولودين، فروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها إذا وضعت لستة أشهر فإنها ترضعه حولين كاملين، وإن وضعت لسبعة أشهر فإنها ترضعه ثلاثة وعشرين شهراً، وإن وضعت لتسعة أشهر فإنها ترضعه أحداً وعشرين شهراً، وإن وضعت لعشرة أشهر فإنها ترضعه عشرين شهراً، كل ذلك تمام ثلاثين شهراً، لقوله تعالى: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾ [الأحقاف: ١٥]، وقال قوم: هو لكل مولود بأي وقت وُلد لا ينقص رضاعه عن حولين إلا باتفاق الأبوين، فأيهما أراد الفطام قبل تمام الحولين ليس له ذلك إلا أن يجتمعا عليه لقوله تعالى: ﴿فإن أرادا فصلاً عن تراضٍ منهما وتشاور﴾، وهذا قول ابن جريج والثوري، ورواية الوالي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقيل: المراد من الآية بيان أن الرضاع الذي يثبت الحرمة ما يكون في الحولين فلا يحرم ما يكون بعد الحولين، قال قتادة فرض الله على الوالدات إرضاع حولين كاملين، ثم أنزل التخفيف فقال: ﴿لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾، أي: هذا منتهى الرضاعة، وليس فيها دون ذلك حد محدود، وإنما هو على مقدار

يعيش به ﴿وعلى المولود له﴾ يعني الأب، وإنما عبر عنه بهذا لأن الوالدات إنما ولدن للآباء، ولذلك ينسب الولد للأب دون الأم قال بعضهم:

وإنما أمهات الناس أوعية مستودعات ولآباء أبناء

وقيل: إن هذا تنبيه على أن الولد إنما يلتحق بالوالد لكونه مولود على فراشه، فكأنه قال: إذا ولدت المرأة الولد لأجل الرجل وعلى فراشه وجب عليه رعاية مصالحه ﴿رزقهن﴾ أي طعامهن ﴿وكسوتهن﴾ أي لباسهن ﴿بالمعروف﴾ أي على قدر الميسرة ﴿لا تكلف نفس إلا وسعها﴾ يعني طاقتها، والمعنى أن أبا الولد لا يكلف في الإنفاق عليه وعلى أمه إلا قدر ما تتسع به قدرته ولا يبلغ إسراف القدرة ﴿لا تضار والدة بولدها﴾ يعني لا ينزع الولد من أمه بعد أن رضيت بإرضاعه ولا يدفع إلى غيرها وقيل معناه لا تكره الأم على إرضاع الولد إذا قبل الصبي لبن غيرها لأن ذلك ليس بواجب عليها ﴿ولا مولود له بولده﴾ يعني لا تلقي المرأة الولد إلى أبيه وقد ألفها تضاره بذلك، وقيل معناه لا يلزم الأب أن يعطي أم الولد أكثر مما يجب عليه لها إذا لم يرضع الولد من غير أمه، فعلى هذا يرجع الضرر إلى الوالدين فيكون المعنى: لا يضار كل واحد منهما صاحبه بسبب الولد. وقيل يحتمل أن يكون الضرر راجعاً إلى الولد. والمعنى: لا يضار كل واحد من الأبوين الولد فلا ترضعه حتى يموت فيتضرر بذلك ولا ينفق عليه الأب أو ينزعه من أمه فيضره بذلك، فعلى هذا تكون الباء صلة، والمعنى لا تضار والدة ولدها ولا أب ولده ﴿وعلى الوارث مثل ذلك﴾ يعني وعلى وارث أبي الولد إذا مات مثل ما كان يجب عليه من النفقة والكسوة فيلزم وارث الأب أن يقوم مقامه في القيام بحق الولد. وقيل: المراد بالوارث وارث الصبي الذي لو مات الصبي ورثه فعلى هذا الوارث مثل ما كان على أبي الصبي في حال حياته، واختلف في أي وارث هو فقيل هم عصبة الصبي كالجد والأخ والعم وابنه. وقيل: هو كل وارث له من الرجال والنساء، وبه قال أحمد: فيجبرون على نفقة الصبي كل على قدر سهمه منه. وقيل هو من كان ذا رحم محرم منه وبه قال أبو حنيفة. وقيل المراد

صلاح الصبي وما يعيش به. ﴿وعلى المولود له﴾، يعني: الأب، ﴿رزقهن﴾: طعامهن، ﴿وكسوتهن﴾: لباسهن، ﴿بالمعروف﴾، أي: على قدر الميسرة، ﴿لا تكلف نفس إلا وسعها﴾، أي: طاقتها، ﴿لا تضار والدة بولدها﴾، قرأ ابن كثير وأهل البصرة برفع الراء، نسقاً على قوله: ﴿لا تكلف﴾ وأصله تضار، فأدغمت الراء في الراء، وقرأ الآخرون ﴿تضار﴾، بنصب الراء، وقالوا: لما أدغمت الراء في الراء حُرِّكَتْ إلى أخفِّ الحركات وهو النصب، ومعنى الآية: لا تضار والدة بولدها فينزع الولد منها إلى غيرها بعد أن رضيت بإرضاعه، ﴿ولا مولود له بولده﴾، أي: لا تلقيه المرأة إلى أبيه بعدما ألفها تضاره بذلك، وقيل: معناه لا تضار والدة فتكره على إرضاعه إذا كرهت إرضاعه، وقيل الصبي من غيرها، لأن ذلك ليس بواجب عليها ولا مولود له بولده، فيحتمل أن يعطي الأم أكثر مما يجب لها إذا لم يرتضع الولد من غيرها، فعلى هذين القولين أصل الكلمة: لا تضار، بفتح الراء الأولى على الفعل المجهول، والوالدة والمولود مفعولان، ويحتمل أن يكون الفعل لهما وتكون تضار بمعنى: تضار بكسر الأولى على تسمية الفاعل، والمعنى: لا تضار والدة فتأبى أن ترضع ولدها ليشقَّ على أبيه، ولا مولود له، أي: لا يضار الأب أم الصبي فينزع منها ويمنعها من إرضاعه، وعلى هذه الأقوال يرجع الضرر إلى الوالدين، يضار كل واحد منهما صاحبه بسبب الولد، ويجوز أن يكون الضرر راجعاً إلى الصبي، أي: لا يضار كل واحد منهما الصبي، ولا ترضعه الأم حتى يموت، أو لا يُنْفَقَ الأب، أو ينزعه من الأم حتى يضرَّ بالصبي، فعلى هذا تكون الباء زائدة، ومعناه: لا تضار والدة ولدها، ولا أب ولده، وكل هذه الأقاويل مروية عن المفسرين. قوله تعالى: ﴿وعلى الوارث مثل ذلك﴾، اختلفوا في هذا الوارث، فقال قوم: هو وارث الصبي، معناه: وعلى وارث الصبي الذي لو

بالوارث الصبي نفسه، فعلى هذا تكون أجرة رضاع الصبي في ماله فإن لم يكن له مال فعلى الأم ولا يجبر على نفقة الصبي غير الأبوين، وبه قال مالك والشافعي. وقيل معناه وعلى الوارث ترك المضارة ﴿فإن أراداً﴾ يعني الوالدين ﴿فصلاً﴾ يعني فطام الولد قبل الحولين ﴿عن تراض منهما﴾ أي على اتفاق من الوالدين في ذلك ﴿وتشاور﴾ أي يشاورون أهل العلم في ذلك حتى يخبروا أن الفطام قبل الحولين لا يضر بالولد، والمشاورة استخراج الرأي بما فيه مصلحة ﴿فلا جناح عليهما﴾ أي فلا حرج ولا إثم على الوالدين في الفطام قبل الحولين إذا لم يضر بالولد ﴿وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم﴾ أي لأولادكم مرضع غير أمهاتهم إذا أبت أمهاتهم إرضاعهم أو تعذر ذلك لعلة بهن من انقطاع لبن أو غير ذلك أو أردن التزويج ﴿فلا جناح عليكم إذا سلمتم﴾ يعني إلى المرضع ﴿ما آتيت﴾ يعني لهن من أجرة الرضاع وقيل إذا سلمتم إلى أمهاتهم من أجرة الرضاع بقدر ما أرضعن ﴿بالمعروف﴾ أي بالإحسان والإجمال أمروا أن يكونوا عند تسليم الأجرة مستبشري الوجوه ناطقين بالقول الجميل مطيئين لأنفس المرضع بما أمكن حتى يؤمن من تفریطهن بقطع معاذيرهن ﴿واتقوا الله﴾ يعني وخافوا الله فيما فرض عليكم من الحقوق وفيما أوجب عليكم لأولادكم ﴿واعلموا أن الله بما تعملون بصير﴾ يعني لا يخفى عليه خافية من جميع أعمالكم سرها وعلايتها، فإنه تعالى يراها ويعلمها. قوله عز وجل: .

مات الصبي وله مال وزنه مثل الذي كان على أبيه في حال حياته، ثم اختلفوا في أنه أي وارث هو من ورثته، فقال بعضهم: هو عصة الصبي من الرجال، مثل الجد والأخ وابن الأخ والعَم وابن العَم، وهو قول عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، وبه قال إبراهيم والحسن ومجاهد وعطاء، وهو مذهب سفيان، قالوا: إذا لم يكن للصبي مال ينفق عليه أُجبرت عصبته الذين يرثونه على أن يسترضعوه، وقيل: هو وارث الصبي من كان من الرجال والنساء، وهو قول قتادة وابن أبي ليلي، ومذهب أحمد وإسحق، وقالوا: يُجبر على نفقته كل وارث على قدر ميراثه، عصبته كانوا أو غيرهم، وقال بعضهم: هو من كان ذا رحم محرم من ورثة المولود، فمن ليس بمحرم مثل ابن العَم والمولى، فغير مراده بالآية: وهو قول أبي حنيفة رحمه الله، وذهب جماعة إلى أن المراد بالوارث هو الصبي نفسه الذي هو وارث أبيه المتوفى، يكون أجرة رضاعه ونفقته في ماله، فإن لم يكن له مال فعلى الأم، ولا يجبر على نفقة الصبي إلا الوالدان، وهو قول مالك والشافعي رحمهما الله، وقيل: هو الباقي من والدي المولود، بعد وفاة الآخر عليه، مثل ما كان على الأب من أجرة الرضاع والنفقة والكسوة، وقيل: ليس المراد منه النفقة بل معناه وعلى الوارث ترك المضارة، وبه قال الشعبي والزهري، ﴿فإن أراداً﴾، يعني: الوالدين، ﴿فصلاً﴾: فطاماً، قيل: الحولين ﴿عن تراض منهما﴾، أي: اتفاق الوالدين، ﴿وتشاور﴾، أي: يشاورون أهل العلم به حتى يخبروا أن الفطام في ذلك الوقت لا يضر بالولد، والمشاورة استخراج الرأي، ﴿فلا جناح عليهما﴾، أي: لا حرج عليهما في الفطام قبل الحولين، ﴿وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم﴾، أي: لأولادكم مرضع غير أمهاتهم إذا أبت أمهاتهم إرضاعهم، أو تعذر لعلة بهن أو انقطاع لبن أو أردن النكاح، ﴿فلا جناح عليكم إذا سلمتم﴾، إلى أمهاتهم، ﴿ما آتيت﴾، ما سميت لهن من أجرة الرضاع، بقدر ما أرضعن، وقيل: إذا سلمتم أجور المرضع إليهن، ﴿بالمعروف﴾، قرأ ابن كثير ﴿ما آتيت﴾ وفي قوله: ﴿وما آتيت من ربا﴾ [الروم: ٣٩] بقصر الألف، ومعناه: ما فعلتم، يقال: آتيت جميلاً إذا فعلته، فعلى هذه القراءة يكون التسليم بمعنى الطاعة والانقياد، لا بمعنى تسليم الأجرة، يعني إذا سلمتم لأمره وانقدتم لحكمه، وقيل: إذا سلمتم للاسترضاع عن تراض وإنفاق دون الضرار. ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير﴾.

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾

﴿والذين يتوفون﴾ يعني يموتون ﴿منكم﴾ وأصل التوفي أخذ الشيء وافياً، فمن مات فقد استوفى عمره كاملاً، ويقال توفي فلان يعني قبض وأخذ ﴿ويذرون﴾ أي ويتركون ﴿أزواجاً﴾ والمراد بالأزواج هنا النساء لأن العرب تطلق اسم الزوج على الرجل والمرأة ﴿يتربصن﴾ أي ينتظرن ﴿بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾ يعني قدر هذه المدة وإنما قال عشراً بلفظ التأنيث لأن العرب إذا أبهمت في العدد من الليالي والأيام غلبوا الليالي حتى إن أحدهم ليقول: صمت عشراً من الشهر لكثرة تغليبهم الليالي على الأيام فإذا أظهروا الأيام قالوا صمنا عشرة أيام وقيل إن هذه الأيام أيام حزن ولبس إحداد فشبهها بالليالي على سبيل الاستعارة ووجه الحكمة في أن الله تعالى حد العدة بهذا القدر لأن الولد يركض في بطن أمه لنصف مدة الحمل، يعني يتحرك. وقيل: إن الروح ينفخ في الولد في هذه العشرة أيام، ويدل على ذلك ما روي عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكاً يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح» أخرجاه في الصحيحين بزيادة، فدل هذا الحديث على أن خلق الولد يجتمع في مدة أربعة أشهر ويتكامل خلقه بنفخ الروح فيه في هذه الأيام الزائدة.

فصل: في حكم عدة المتوفى عنها زوجها والإحداد. وفي مسائل

المسألة الأولى: عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشر وعدة الأمة على نصف عدة الحرة شهران وخمسة أيام، وبه قال جمهور العلماء، وقال أبو بكر الأصب: عدة الأمة كعدة الحرائر وتمسك بظاهر هذه الآية، وعدة الحامل بوضع الحمل سواء فيه الحرة والأمة، ولو وضعت بعد وفاة زوجها بلحظة حل لها أن تتزوج، ويدل

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ﴾، أي: يموتون ويتوفى آجالهم، وتوفي واستوفى بمعنى واحد، ومعنى التوفي: أخذ الشيء وافياً، ﴿ويذرون أزواجاً﴾: يتركون أزواجاً، ﴿يتربصن﴾: ينتظرن، ﴿بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾، أي: يعتدون بترك الزينة والطيب والنقلة على فراق أزواجهن هذه المدة، إلا أن يكن حوامل فعدتن بوضع الحمل، وكانت عدة الوفاة في الابتداء حولاً كاملاً لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠]، ثم نسخت بأربعة أشهر وعشراً، وقال ابن أبي نجيب عن مجاهد: كانت هذه العدة يعني أربعة أشهر وعشراً واجبة عند أهل زوجها، فأنزل الله تعالى متاعاً إلى الحول فجعل لها تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة وصية إن شاءت سكنت في وصيتها وإن شاءت خرجت وهو قول الله عز وجل: ﴿غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٤٠]، كالعدة كما هي واجبة عليها، وقال عطاء قال ابن عباس رضي الله عنهما: نسخت هذه الآية عدتها عند أهلها، وسكنت في وصيتها، وإن شاء خرجت، قال عطاء: ثم جاء الميراث فنسخ السكنى، فتعدت حيث شاءت ولا سكنى لها، ويجب عليها الإحداد في عدة الوفاة، وهي أن تمنع من الزينة والطيب، فلا يجوز لها تدهين رأسها بأي دهن سواء كان في طيب أو لم يكن، ولها تدهين جسدها بدهن لا طيب فيه، فإن كان فيه طيب فلا يجوز، ولا يجوز لها أن تكتحل بكحل فيه طيب أو فيه زينة كالكحل الأسود، ولا بأس بالكحل الفارسي الذي لا زينة فيه، فإن اضطرت إلى كحل فيه زينة فقد رخص فيه كثير من أهل العلم، منهم سالم بن عبد الله وسليمان بن يسار، وعطاء والنخعي وبه قال مالك وأصحاب

على هذا ما روي عن سبيعة الأسلمية أنها كانت تحت سعد بن خولة وهو من بني عامر بن لؤي، وكان ممن شهد بدرًا، فتوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل، فلم تلبث أن وضعت حملها بعد وفاته، فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك رجل من بني عبد الدار فقال: ما لي أراك تجملت للخطاب لعلك ترجين النكاح وإنك والله ما أنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشر. قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك جمعت عليّ ثيابي حين أمسيت وأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي وأمرني بالتزويج إن بدا لي، أخرجاه في الصحيحين، وفيه قال ابن شهاب: ولا أرى بأساً أن تتزوج حين وضعت وإن كانت في دمها غير أنه لا يقربها حتى تطهر، فعلى هذا حكم الآية عام في كل من توفي عنها زوجها بأن تعتد أربعة أشهر وعشرًا، ثم خصص من هذا العموم أولات الأحمال بهذا الحديث وبقوله تعالى: ﴿وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾.

المسألة الثانية: يجب على من توفي عنها زوجها الإحداد، وهو ترك الزينة والطيب ودهن الرأس بكل دهن والكحل المطيب، فإن اضطرت إلى كحل فيه زينة فيرخص لها، وبه قال مالك وأبو حنيفة. وقال الشافعي: تكتحل به بالليل وتمسحه بالنهار. عن أم سلمة قالت: «دخل عليّ رسول الله ﷺ حين توفي أبو سلمة وقد جعلت عليّ صبراً فقال: ما هذا يا أم سلمة؟ قلت: إنما هو صبر يا رسول الله ليس فيه طيب، فقال: إنه يشب الوجه فلا تجعله إلا بالليل وتنزعيه بالنهار ولا تمتشطي بالطيب ولا بالحناء فإنه خضاب. قلت: بأي شيء أمتشط يا رسول الله؟ قال: بالسدر تغلفين به رأسك» أخرجه أبو داود والنسائي نحوه. قوله «فإنه يشب الوجه» أي يوقده ويحسنه وينوره من شب النار إذا أوقدها. قوله «تغلفين به رأسك» أي تلتخين به رأسك والتغلف هو الغمرة على وجه المرأة وكذا رأسها إذا لطخته بشيء فأكثر منه. ولا يجوز لها لبس الديباج والحرير والحلي والمصبوغ للزينة كالأحمر والأصفر ويجوز لها لبس ما صبغ لغير الزينة كالأسود والأزرق، ويجوز لها أن تلبس البياض من الثياب والصوف والوبر (ق) عن زينب بنت أبي سلمة قالت: دخلت على أم حبيبة زوج النبي ﷺ حين توفي أبوها أبو سفيان بن حرب فدعت أم حبيبة بطيب فيه صفرة خلوق أو غيره فدهنت به جارية ثم مست بعارضيتها ثم قالت:

الرأي، وقال الشافعي رحمه الله تكتحل به ليلاً وتمسحه بالنهار، قالت أم سلمة: دخل عليّ رسول الله ﷺ حين توفي أبو سلمة وقد جعلت على وجهي صبراً فقال: «إنه يشب الوجه فلا تجعله إلا بالليل وتنزعيه بالنهار»، ولا يجوز لها الخضاب ولا لبس الوشي والديباج والحلي، ويجوز لها لبس البياض من الثياب ولبس الثوب والوبر، ولا تلبس الصوف المصبوغ للزينة كالأحمر والأخضر الناضر والأصفر، ويجوز ما صبغ لغير زينة كالسواد والكحلي، وقال سفيان: لا تلبس المصبوغ بحال، أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مضعب عن مالك عن عبد الله بن أبي بكر محمد بن عمر بن حزم، عن حميد بن نافع عن زينب بنت أبي سلمة أنها أخبرته بهذه الأحاديث الثلاثة، قالت زينب: دخلت على أم حبيبة زوج النبي ﷺ حين توفي أبوها أبو سفيان بن حرب فدعت أم حبيبة بطيب في صفرة خلوق أو غيره فدهنت به جارية ثم مست به بطنها، ثم قالت: والله ما لي بالطيب من حاجة غير أنني سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «لا يحل لامرأة أن تحج على ميت فوق ثلاث ليالٍ إلا على زوج أربعة أشهر وعشرًا»، وقالت زينب: ثم دخلت على زينب بنت جحش حين توفي أخوها عبد الله فدعت بطيب فمست به، ثم قالت: والله ما لي بالطيب من حاجة غير أنني سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله أن تحج على ميت فوق ثلاث ليالٍ إلا على زوج أربعة أشهر وعشرًا»، قالت زينب: وسمعت أُمِّي أم سلمة تقول: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن ابنتي توفي عنها زوجها وقد

والله ما لي بالطيب من حاجة غير أنني سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحدّ على ميت فوق ثلاث إلّا على زوج أربعة أشهر وعشراً» قالت زينب: ثم دخلت على زينب بنت جحش حين توفي أخوها فدعت بطيب فمست منه ثم قالت: والله ما لي بالطيب من حاجة غير أنني سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحدّ على ميت فوق ثلاث إلّا على زوج أربعة أشهر وعشراً» (م) عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحدّ على ميت فوق ثلاث إلّا على زوجها أربعة أشهر وعشراً» (ق) عن أم عطية قالت: «كنا ننهي أن نحدّ على ميت فوق ثلاث إلّا على زوج أربعة أشهر وعشراً ولا نكتحل ولا نتطيب ولا نلبس ثوباً مصبوغاً إلّا ثوب عصب وقد رخص لنا عند الطهر إذا اغتسلت إحداً من حيضتها في نبذة من كست أظفار». قولها: إلّا ثوب عصب العصب بالعين والصاد المهملتين من البرود الذي صبغ غزله قبل النسج. قولها: نبذة من كست. النبذة الشيء اليسير. والكست لغة في القسط وهو شيء معروف يتبخر به. عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا تلبس المتوفى عنها زوجها المعصفرة من الثياب ولا الممشقة ولا الحلي ولا تختضب ولا تكتحل ولا تطيب» أخرجه أبو داود. قولها: ولا الممشقة الثياب. الممشقة هي المصبوغة بالمشق وهي المغرة، عن نافع: «أن صفية بنت عبد الله اشتكت عينها وهي حادّة على زوجها ابن عمر فلم تكتحل حتى كادت عيناها ترمضان» أخرجه مالك في الموطأ.

المسألة الثالثة: اختلفوا في أن هذه المدة سببها الوفاة أو العلم بالوفاة، فقال بعضهم: ما لم تعلم بوفاة زوجها لا تعتد بانقضاء الأيام في العدة، واحتجوا على ذلك بأن الله تعالى قال: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ وذلك لا يحل إلّا بالقصد إلى التربص ولا يحل ذلك إلّا مع العلم. قال الجمهور: السبب هو الموت فلو انقضت المدة أو أكثرها أو بعضها ثم بلغها خبر موت الزوج وجب أن تعتد بما انقضى ويدل على ذلك أن الصغيرة التي لا علم لها يكفي في انقضاء عدتها هذه المدة.

المسألة الرابعة: أجمع العلماء على أن هذه الآية ناسخة لما بعدها من الاعتداد بالحوال وإن كانت هذه الآية متقدمة في التلاوة وسنذكر تمام الكلام عليه بعد في موضعه إن شاء الله تعالى، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا

اشتكت عينها أفتكحلها؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا»، ثم قال: «إنما هي أربعة أشهر وعشراً، وقد كانت إحداكن في الجاهلية ترمي بالبرة على رأس الحول»، قال حميد: فقلت لزينب: وما ترمي بالبرة على رأس الحول؟ فقالت زينب: كانت المرأة إذا توفي عنها زوجها دخلت خفياً ولبست شرّ ثيابها، ولم تمسّ طيباً ولا شيئاً حتى يمرّ بها سنة، ثم تؤتى بدابة حماراً أو شاة أو طيراً فتفصّ به، فقلماً تفتضّ بشيء إلا مات، ثم تخرج فتعطي بعة فترمي بها، ثم تراجع بعد ذلك ما شاءت من طيب أو غيره، وقال مالك: تفتضّ أي: تنسلخ جلدّها، وقال سعيد بن المسيب: الحكمة في هذه المدة أن فيها ينفخ الروح في الولد، ويقال: إن الولد يرتكض، أي: يتحرّك في البطن لنصف مدة الحمل أربعة أشهر وعشراً قريباً من نصف مدة الحمل، وإنما قال عشراً بلفظ المؤنث لأنه أراد الليالي، لأن العرب إذا أبهمت العدد بين الليالي والأيام غلبت عليها الليالي، فيقولون صمنا عشراً، والصوم لا يكون إلّا بالنيهار، وقال المبرّد: إنّما أنت العشر لأنه أراد المدة، أي: عشر مدد، كل مدة يوم وليلة، وإذا كان المتوفى عنها زوجها حاملاً فعُدّتها بوضع الحمل عند أكثر أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم، روي عن علي وابن عباس رضي الله عنهما: أنها تنتظر آخر الأجلين من وضع الحمل أو أربعة أشهر وعشراً، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أنزلت سورة النساء القصص بعد الطولي، أراد بالقصر في قوله: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]، نزلت بعد قوله تعالى: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾، في سورة البقرة فحمل على

بلغن أجلهن ﴿أي انقضت عدتهن﴾ ﴿فلا جناح عليكم﴾ خطاب للأولياء لأنهم هم الذين يتولون العقد ﴿فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف﴾ يعني من التزين والتطيب والنقلة من المسكن الذي كانت معتدة فيه ونكاح من يجوز لها نكاحه وقيل إنما عني بذلك النكاح خاصة، وقيل معنى قوله: ﴿بالمعروف﴾ هو النكاح الحلال الطيب. واحتج أصحاب أبي حنيفة على جواز النكاح بغير ولي بهذه الآية لأن إضافة الفعل إلى الفاعل محمول على المباشرة، وأجاب أصحاب الشافعي أن قوله تعالى: ﴿فلا جناح عليكم﴾ للأولياء ولو صح العقد بغير ولي لما كان مخاطباً. وأجيب على قوله فيما فعلن في أنفسهن إنما هو التزين والتطيب بعد انقضاء العدة لا أنها تزوج نفسها ﴿والله بما تعملون خبير﴾ يعني أنه تعالى لا يخفى عليه خافية. والخبير في صفة الله تعالى هو العالم بكنه الشيء وحقيقته من غير شك والخبير في صفة المخلوقين إنما يستعمل في نوع من العلم وهو الذي يتوصل إليه بالاجتهاد والفكر، والله تعالى منزّه عن ذلك كله. قوله عز وجل:

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ فَهِيمٌ ﴿٢٣٥﴾

﴿ولا جناح﴾ أي لا حرج ﴿عليكم فيما عرضتم به﴾ أي لو حتم وأشترتم به والتعريض ضد التصريح ومعناه أن يضمن كلامه ما يصلح للدلالة على مقصوده ويصلح للدلالة على غير مقصوده ولكن إشعاره بجانب المقصود أتم وأرجح وقيل هو الإشارة إلى الشيء بما يفهم السامع مقصوده من غير تصريح به وقيل التعريض من الكلام ما له ظاهر وباطن ﴿من خطبة النساء﴾ يعني المعتقدات في عدتهن والخطبة بالكسر طلب النكاح والتماسه وقيل هو ذكر النساء والخطبة بالضم كلام منظوم له أول وآخر، ومعنى الآية فيما عرضتم به من ذكر النساء عندهن. والتعريض

النسخ، وعامة الفقهاء خصوا الآية بجديت سبيعة وهو ما أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي، أنا أبو مضعب عن مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن المسور بن مخرمة أن سبيعة نفست بعد وفاة زوجها بليالٍ فجاءت إلى رسول الله ﷺ فاستأذنته أن تنكح، فأذن لها، فنكحت. قوله تعالى: ﴿فإذا بلغن أجلهن﴾، أي: انقضت عدتهن ﴿فلا جناح عليكم﴾، خطاب للأولياء، ﴿فيما فعلن في أنفسهن﴾، أي: من اختيار الأزواج دون العقد إلى الولي، وقيل: فيما فعلن من التزين للرجال زينة لا يشكرها الشرع، ﴿بالمعروف﴾، والله بما تعملون خبير، والإحداد واجب على المرأة في عدة الوفاة، أما المعتقدة عن الطلاق ففيها نظر، فإن كانت رجعية لا إحداد عليها في العدة، لأن لها أن تضع ما يشوق قلب الزوج إليها ليُراجعها، وفي البائنة بالخلع والطلقات الثلاث قولان، أحدهما: الإحداد كالمتوفى عنها زوجها، وهو قول سعيد بن المسيب، وبه قال أبو حنيفة، والثاني: لا إحداد عليها، وهو قول عطاء، وبه قال مالك.

قوله تعالى: ﴿ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء﴾، أي: النساء المعتقدات، وأصل التعريض: هو التلويح بالشيء، والتعريض في الكلام بما يفهم به السامع مراده من غير تصريح، والتعريض بالخطبة مباح في العدة، وهو أن يقول: ربّ راغب فيك، من يجد مثلك، إنك لجميلة، وإنك لصالحة، وإنك عليّ لكريمة، وإني فيك لراغب، وإنّ من غرضي أن أتزوج بك، وأن جمع الله بيني وبينك بالحلال، أعجبتي، ولئن تزوّجتك لأحسن إليك، ونحو ذلك من الكلام من غير أن يقول أنكحيني، والمرأة تجيبه بمثله إن رغبت فيه، وقال إبراهيم: لا بأس أن يهدي إليها ويقوم بشغلها في العدة إذا كانت ههنا شابة، روي أن سكينه بنت حنظلة بنت من

بالخطبة في العدة مباح وهو أن يقول: إنك لجميلة، وإنك لصالحة وإن غرضي التزويج وإني فيك لراغب وعسى الله أن ييسر لي امرأة صالحة ونحو ذلك، من الكلام الموهوم من غير تصريح لأن يقول إني أريد أن أنكحك أو أتزوجك ونحو ذلك ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فِيمَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ هو أن يقول: إني أريد التزويج، وإن النساء لمن حاجتي، ولوددت أن تيسر لي امرأة صالحة، أخرج به البخاري. وروي أن سكينه بنت حنظلة تأيمت فدخل عليها أبو جعفر محمد بن علي الباقر في عدتها فقال: قد علمت قرابتي من رسول الله ﷺ وحق جدي عليّ وقدمي في الإسلام. فقالت سكينه: غفر الله لك أتخطبني في العدة وأنت يؤخذ عنك؟ فقال: إنما أخبرتك بقرابتي من رسول الله ﷺ قد دخل رسول الله ﷺ على أم سلمة وهي في عدة زوجها أبي سلمة فذكر لها منزلته من الله عز وجل وهو متحامل على يده حتى أثر الحصر في يده ﷺ من شدة تحامله عليها فما كانت تلك خطبة ﴿أَوْ أَكُنْتُمْ﴾ يعني أضمرتم ﴿فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ يعني من نكاحهن وقيل هو أن يدخل ويسلم ويهدي إن شاء ولا يتكلم بشيء، والمقصود أنه لا حرج عليكم في التعريض للمرأة في عدة الوفاة، ولا فيما يضر الرجل في نفسه من الرغبة فيها ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ يعني بقلوبكم لأن شهوة النفس والتمني لا يخلو منه أحد، فلما كان هذا الخاطر كالشيء الشاق أسقط عنه الحرج ﴿وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ اختلفوا في معنى هذا السر المنهي عنه فقليل هو الزنا كان الرجل يدخل على المرأة يعرض بالنكاح ومراده الزنا ويقول لها: دعيني فإذا وفيت عدتك أظهرت نكاحك، فنحو ذلك. وقيل هو قول بالرجل للمرأة لا تفوتيني نفسك فإني ناكحك. وقيل: هو أن يأخذ عليها العهد والميثاق أن لا تتزوج غيره وقيل هو أن يخطبها في العدة وقال الشافعي: السر الجماع، وهو رواية عن ابن عباس. قال الكلبي: لا تصفوا أنفسكم لهن بكثرة الجماع، ويدل على

زوجها فدخل عليها أبو جعفر محمد بن علي الباقر في عدتها وقال: يا بنت حنظلة أنا من قد علمت قرابتي من رسول الله ﷺ وحق جدي عليّ وقدمي في الإسلام! فقالت سكينه: أتخطبني وأنا في العدة وأنت يؤخذ عنك؟ فقال إنما أخبرتك بقرابتي من رسول الله ﷺ، قد دخل رسول الله ﷺ على أم سلمة وهي في عدة زوجها أبي سلمة، فذكر لها منزلته من الله عز وجل وهو متحامل على يده، حتى أثر الحصر في يده من شدة تحامله علي يده، والتعريض بالخطبة جائز في عدة الوفاة، أما المعتدة عن فرقة الحياة يُنظر إن كانت ممن لا يحلّ لمن بانت من نكاحها كالمطلقة ثلاثاً، والمُبانة باللعان والرضاع، فإنه يجوز خطبتها تعريضاً، وإن كانت ممن يحلّ للزوج نكاحها كالمختلعة والمفسوخ نكاحها، يجوز لزوجها خطبتها تعريضاً وتصريحاً، وهل يجوز للغير تعريضاً؟ فيه قولان، أحدهما: يجوز كالمطلقة ثلاثاً، والثاني: لا يجوز لأن المعاودة ثابتة لصاحب العدة الرجعية لا يجوز للغير تعريضاً بالخطبة، وهو قوله تعالى: ﴿مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ التماس النكاح وهي مصدر خَطَبَ الرجل المرأة يَخْطُبُ خُطْبَةً، وقال الأخفش: الخطبة الذكر والخُطبة الشَّهَد، فيكون معناه فيما عرضتم به من ذكر النساء عندهن ﴿أَوْ أَكُنْتُمْ﴾: أضمرتم، ﴿فِي أَنْفُسِكُمْ﴾، من نكاحهن، يقال: أَكُنْتُ الشَّيْءَ وَكُنْتُ لَغْتَان، وقال ثعلب: أَكُنْتُ الشَّيْءَ، أي: أخفيت في نفسي وكننته سترته، قال السدي: هو أن يدخل فيسلم ويهدي إن شاء ولا يتكلم بشيء، ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾: بقلوبكم، ﴿وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾، اختلفوا في السر المنهي عنه، فقال قوم: هو الزنا، كان الرجل يدخل على المرأة من أجل الزينة وهو يعرض بالنكاح، ويقول لها: دعيني فإذا وفيت عدتك أظهرت نكاحك، هذا قول الحسن وقتادة وإبراهيم وعطاء، ورواية عطية عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال زيد بن أسلم: أي لا ينكحها سراً فيمسكها فإذا حلت أظهر ذلك، وقال مجاهد: هو قول الرجل لا تفوتيني بنفسك فإني ناكحك، وقال الشعبي والسدي: لا يؤخذ ميثاقها أن لا تنكح غيره، وقال عكرمة: لا ينكحها ولا يخطبها في العدة، قال الشافعي: السر هو

أن لفظ السر كناية عن الجماع قول امرئ القيس:

ألا زعمت بسباسة اليوم أنني كبرت وألا يحسن السر أمثالي

بسباسة اسم امرأة. وإنما وقع الكناية عن الجماع بالسر لأنه مما يسر والله تعالى حيي كريم فكنى به عن لفظ الجماع الصريح. ومعنى الآية: لا تواعدوهن مواعدة سرية أو لا تواعدوهن بالشيء الموصوف بالسر وقيل في معنى الآية أن الله تعالى أن أذن في أول الآية في التعريض بالخطبة ومنع في آخرها عن التصريح بالخطبة ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ يعني هو ما ذكر من التعريض بالخطبة. وقيل: هو إعلام ولي المرأة أنه راغب في نكاحها ﴿وَلَا تَعْزَمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجْلَهُ﴾ أي لا تحققوا العزم على عقدة النكاح في العدة حتى تنقضي وإنما سماها الله كتاباً لأنها فرضت به ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ أي فخافوه ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ لا يعجل بالعقوبة على من جاهره بالمعصية بل يستر عليه. قوله عز وجل: .

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي ولم تمسوهن ولم تفرضوا لهن فريضة يعني ولم تعينوا لهن صداقاً ولم توجبوهن عليكم. نزلت في رجل من الأنصار تزوج امرأة من بني حنيفة ولم يسم لها صداقاً، ثم طلقها قبل أن يمسه، فنزلت هذه الآية فقال له رسول الله ﷺ: أمتعها ولو بقلنسوتك. فإن قلت: هل على من طلق امرأته جناح بعد المسيس حتى يوضع عنه الجناح قبل المسيس فما وجه نفي الحرج والجناح عنه؟ قلت، فيه سبب قطع الوصلة: وما جاء في الحديث: «إن أبغض الحلال إلى الله الطلاق» فنفي الله

الجماع، وقال الكلبي: أي لا تصفوا أنفسكم لهنّ بكثرة الجماع، فيقول: آتيتك الأربعة والخمسة، وأشابه ذلك، ويذكر السر ويؤاد به الجماع، قال امرؤ القيس:

ألا زعمت بسباسة القوم أنني كبرت وألا يحسن السر أمثالي

وإنما قيل للزنا والجماع: سرّاً لأنه لا يكون في خفاء بين الرجل والمرأة، قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾، هو ما ذكرنا من التعريض بالخطبة. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْزَمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجْلَهُ﴾، أي: لا تحققوا العزم على عقد النكاح في العدة حتى يبلغ الكتاب أجله، أي: حتى تنقضي العدة، وسماها الله: كتاباً، لأنها فرض من الله، كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٨ و ١٨٠ و ١٨٣ و ٢١٦ و ٢٤٦] أي: فرض عليكم، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾، أي: فخافوا الله، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾، لا يعجل بالعقوبة.

وقوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾، أي: ولم تمسوهن ولم تفرضوا، نزلت في رجل من الأنصار تزوج امرأة من بني حنيفة ولم يسم لها مهراً، ثم طلقها قبل أن يمسه، فنزلت هذه الآية، فقال له رسول الله ﷺ: «متّعها ولو بقلنسوتك»، قرأ حمزة والكسائي (ما لم تماسوهن)، بالألف ههنا وفي الأحزاب على المفاعلة، لأنّ بَدَنَ كل واحد منهما يُلاقِي بَدَنَ صاحبه، كما قال الله تعالى: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَتَمَاسَا﴾ [المجادلة: ٣ و ٤]، وقرأ الباقون ﴿تمسوهن﴾ بلا ألف، لأن الغشيان يكون من فعل الرجل، دليله قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَمْسُنِي بَشَرٌ﴾ [آل عمران: ٤٧، مريم: ٢٠]، أو تفرضوا لهنّ فريضة، أي: توجبوا لهنّ

الجناح عنه إذا كان الفراق أروح من الإمساك، وقيل معناه لا حرج عليكم في تطليقهن قبل المسيس في أي وقت شئتم حائضاً كانت المرأة أو طاهراً، لأنه لا سنة في طلاقهن قبل الدخول ﴿ومتعوهن﴾ أي أعطوهن من مالكم ما يتمتعن به والمتعة والمتاع ما يتبلغ به من الزاد ﴿على الموسع﴾ أي الغنى الذي يكون في سعة من غناه ﴿قدره﴾ أي قدر إمكانه وطاقته ﴿وعلى المقتر﴾ أي الفقير الذي هو في ضيق من فقره ﴿قدره﴾ أي قدر إمكانه وطاقته ﴿متاعاً﴾ بالمعروف يعني متعوهن تمتعاً بالمعروف يعني من غير ظلم ولا حيف ﴿حقاً﴾ أي حق ذلك التمتع حقاً واجباً لازماً ﴿على المحسنين﴾ يعني إلى المطلقات بالتمتع، وإنما خص المحسنين بالذكر لأنهم الذين ينتفعون بهذا البيان. وقيل: معناه من أراد أن يكون من المحسنين، فهذا شأنه وطريقه. والمحسن هو المؤمن.

فصل: في بيان حكم الآية وفيه فروع

الفرع الأول: إذا تزوج امرأة ولم يفرض لها مهراً ثم طلقها قبل المسيس يجب لها عليه المتعة، وبه قال الشافعي وأبو حنيفة وأحمد. وقال مالك: المتعة مستحبة ولو طلقها قبل الدخول، وقد فرض لها مهراً وجب لها عليه نصف المهر المفروض ولا متعة لها عليه.

صداقاً، فإن قيل: فما الوجه في نفي الجناح على المطلق؟ قيل: الطلاق قطع سبب الوصلة، وجاء في الحديث «أبغض الحلال إلى الله تعالى الطلاق»، فنفي الجناح عنه إذا كان الفراق أروح من الإمساك، وقيل: معناه لا سبيل للنساء عليكم إن طلقتموهن من قبل المسيس، والفرض بصدق ولا نفقة، وقيل: لا جناح عليكم في تطليقهن قبل المسيس في أي وقت شئتم حائضاً كانت المرأة أو طاهراً لأنه لا سنة ولا بدعة في طلاقهن قبل الدخول بها، بخلاف المدخول بها، فإنه لا يجوز تطليقها في حال الحيض، ﴿ومتعوهن﴾، أي: أعطوهن من مالكم ما يتمتعن به، والمتعة والمتاع: ما يتبلغ به من الزاد، ﴿على الموسع﴾، أي: على الغني، ﴿قدره﴾ وعلى المقتر، أي: الفقير، ﴿قدره﴾، أي: إمكانه وطاقته، قرأ أبو جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي وحفص ﴿قدره﴾ بفتح الدال فيهما، وقرأ الآخرون بسكونهما، وهما لغتان، وقيل: القدر بسكون الدال: المصدر، وبالفتح: الاسم، ﴿متاعاً﴾ نصب على المصدر، أي: متعوهن، ﴿متاعاً بالمعروف﴾، أي بما أمركم الله به من غير ظلم، ﴿حقاً على المحسنين﴾، وبيان حكم الآية: أن من تزوج امرأة ولم يفرض لها مهراً، ثم طلقها قبل المسيس يجب عليه المتعة بالاتفاق، وإن طلقها بعد الفرض قبل المسيس فلا متعة لها، على قول الأكثرين، ولها نصف المهر المفروض، واختلفوا في المطلقة بعد الدخول بها فذهبت جماعة إلى أنها لا متعة لها، لأنها تستحق المهر، وهو قول أصحاب الرأي، وذهب جماعة إلى أنها تستحق المتعة لقوله تعالى: ﴿وللمطلقات متاع بالمعروف﴾ [البقرة: ٢٤١] وهو قول عبد الله بن عمر، وبه قال عطاء ومجاهد والقاسم بن محمد وإليه ذهب الشافعي، لأن استحقاقها المهر بمقابلة ما أتلف عليها من منفعة البضع، فلها المتعة على وحشة الفراق، فعلى هذا القول لا متعة إلا لواحدة، وهي المطلقة قبل الفرض والميسس، وعلى القول الثاني: لكل مطلقة متعة إلا لواحدة وهي المطلقة بعد الفرض قبل المسيس، قال عبد الله بن عمر: لكل مطلقة متعة إلا التي فرض لها ولم يمسه زوجها، فحسبها نصف المهر، قال الزهري: متعتان يقضي بإحداهما السلطان ولا يقضي بالأخرى، بل يلزمه فيما بينه وبين الله تعالى، فأما التي يقضي بها السلطان فهي المطلقة قبل الفرض والميسس، وهو قوله تعالى: ﴿حقاً على المحسنين﴾، والتي تلزمه فيما بينه وبين الله تعالى ولا يقضي بها السلطان، فهي المطلقة بعد المسيس، وهو قوله تعالى: ﴿حقاً على المتقين﴾ [البقرة: ٢٤١]، وذهب الحسن وسعيد بن جبير إلى أن لكل مطلقة متعة سواء كان قبل الفرض والميسس أو بعد

الفرع الثاني المطلقة المدخول بها: فيها قولان قال في القديم: لا متعة لها لأنها تستحق المهر كاملاً، وبه قال أبو حنيفة، وهو إحدى الروايتين عن أحمد. وقال في الجديد: لها المتعة لقوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتاعُ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو الرواية الأخرى عن أحمد قال ابن عمر: لكل مطلقة متعة إلا التي فرض لها المهر ولم يدخل بها زوجها فحسبها نصف المهر.

الفرع الثالث في قدر المتعة: قال ابن عباس: أعلاها خادم، وأوسطها ثلاثة أثواب درع وخمار وإزار، وأقلها دون ذلك وقاية أو مقنعة أو شيء من الورق وهو مذهب الشافعي لأنه قال أعلاها على الموسع خادم وأوسطها ثوب وأقلها ما له ثمن وحسن ثلاثون درهماً. وروي أن عبد الرحمن بن عوف طلق امرأته وحممها، يعني متعتها جارية سوداء، ومتع الحسن بن علي زوجته بعشرة آلاف درهم فقالت: متاع قليل من حبيب مفارق. وقال أبو حنيفة: مبلغها إذا اختلف الزوجان قدر نصف مهر مثلها لا يجاوز وقال أحمد في إحدى الروايتين عنه تتقدر بما تجزي فيه الصلاة وقال في الرواية الأخرى تتقدر بتقدير الحاكم، والآية تدل على أن المتعة تعتبر بحال الزوج في اليسر والعسر وأنه مفوض إلى الاجتهاد لأنها كالنفقة التي أوجبها الله تعالى للزوجات، وبين أن حال الموسر مخالف حال المعسر في ذلك.

الفرع الرابع: ومن حكم الآية أن من تزوج امرأة بالغة برضاها على غير مهر صح النكاح، ولها مطالبة بأن

الفرض قبل المسيس، لقوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتاعُ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٤١]، ولقوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾ [الأحزاب: ٤٩]، وقالوا: معنى قوله تعالى: ﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة﴾، أي: أولم تفرضوا لهن فريضة، وقال بعضهم: المتعة غير واجبة والأمر بها أمر ندب واستحباب، روي أن رجلاً طلق امرأته وقد دخل بها فخاصمته إلى شريح في المتعة فقال شريح: لا تأب أن تكون من المحسنين ولا تأب أن تكون من المتقين، ولم يجبره على ذلك، واختلفوا في قدر المتعة، فروي عن ابن عباس: أعلاها خادم، وأوسطها ثلاثة أثواب: درع وخمار وإزار، ودون ذلك وقاية، أو شيء من الورق، وبه قال الشافعي والزهري وهذا مذهب الشافعي، قال: أعلاها على الموسع: خادم، وأوسطها: ثوب، وأقلها: ما له ثمن حسن ثلاثون درهماً، وطلق عبد الرحمن بن عوف امرأته وجمعها جارية سوداء، أي: متعتها، ومتع الحسن بن علي رضي الله عنه امرأة له بعشرة آلاف درهم، فقالت: متاع قليل من حبيب مفارق، وقال أبو حنيفة رحمه الله: مبلغها إذا اختلف الزوجان قدر نصف مهر مثلها لا يجاوز، والآية تدل على أنه يعتبر حال الزوج في اليسر والعسر واليسر، ومن حكم الآية أن من تزوج امرأة بالغة برضاها على غير مهر يصح النكاح، وللمرأة مطالبة بأن يفرض لها صداقاً، فإن دخل بها قبل الفرض فلها عليه مهر مثلها، وإن طلقها قبل الفرض والدخول فلها المتعة، وإن مات أحدهما قبل الفرض والدخول، فاختلف أهل العلم في أنها هل تستحق المهر أم لا؟ فذهب جماعة إلى أنه لا مهر لها، وهو قول علي وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس، كما لو طلقها قبل الفرض والدخول، وذهب قوم إلى أن لها المهر لأن الموت كالدخول في تقرير المسمى، كذلك في إيجاب مهر المثل إذا لم يكن في العقد مسمى، وهو قول الثوري وأصحاب الرأي واحتجوا بما روي عن علقمة عن ابن مسعود أنه سئل عن رجل تزوج امرأة ولم يفرض لها صداقاً ولم يدخل بها حتى مات، فقال ابن مسعود: لها صداق نسائها ولا وكس ولا شطط، وعليها العدة ولها الميراث، فقام معقل بن يسار الأشجعي فقال: قضى رسول الله ﷺ في بردع بنت واشق امرأة من مثل ما قضيت ففرح بها ابن مسعود رضي الله عنه، وقال الشافعي رحمه الله: فإن ثبت حديث بردع

يفرض لها صداقاً، فإن دخل بها قبل الفرض فلها عليه مهر مثلها وإن طلقها قبل الفرض والدخول فلها الممتعة. قوله عز وجل: .

وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ
يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن﴾ يعني تجامعوهن وهذا في المطلقة بعد تسمية المهر وقبل الدخول حكم الله لها بنصف المهر ولا عدة عليها وهو قوله تعالى: ﴿وقد فرضتم لهن فريضة﴾ أي سميت لهن مهراً ﴿فنصف ما فرضتم﴾ أي فلهن نصف المهر المسمى، ومذهب الشافعي أن الخلوة من غير مسيس لا توجب إلا نصف المهر المسمى لأن المسيس إما حقيقة في المس باليد أو جعل كناية عن الجماع وأيهما كان فقد وجد الطلاق قبله. وقال أبو حنيفة: الخلوة الصحيحة تقرر المهر ومعنى الخلوة الصحيحة أن يخلو بها وليس هناك مانع حسي ولا شرعي، فالحسي نحو الرق والقرن أو يكون معهما ثالث، والشرعي نحو الحيض والنفاس وصوم الفرض وصلاة الفرض والإحرام سواء كان فرضاً أو نفلاً، والآية حجة لمذهب الشافعي، قال شريح: لم أسمع الله ذكر في كتابه باباً ولا سترأ إن زعم أنه لم يمسه فلها نصف الصداق، وقال ابن عباس: إذا خلا بها ولم يمسه فلها نصف المهر.

فرع: لو مات أحد الزوجين بعد التسمية وقبل المسيس فلها المهر كاملاً وعليها العدة إن كان الزوج هو الميت. وقوله تعالى: ﴿إلا أن يعفون﴾ يعني النساء المطلقات والمعنى إلا أن لا تترك المرأة نصيبها من الصداق

بنت واشتق فلا حجة في قول أحد دون قول النبي ﷺ، وإن لم يثبت فلا مهر لها ولها الميراث، وكان علي يقول في حديث بردع: لا تقبل قول أعرابي من أشجع على...

وقوله تعالى: ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم﴾، هذا في المطلقة بعد الفرض قبل المسيس، فلها نصف المفروض وإن مات أحدهما قبل المسيس فلها كمال المهر المفروض، والمراد بالمس المذكور في الآية: الجماع، واختلف أهل العلم فيما لو خلا الرجل بامرأته ثم طلقها قبل أن يدخل بها، فذهب قوم إلى أنه لا يجب لها إلا نصف الصداق ولا عدة عليها، لأن الله تعالى أوجب في الطلاق قبل المسيس نصف الصداق ولم يوجب العدة، وهو قول ابن عباس رضي الله عنه وابن مسعود، وبه قال الشافعي رحمه الله، وقال قوم: يجب لها كمال المهر وعليها العدة، لما روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: إذا أرخيت الستور فقد وجب الصداق، ومثله عن زيد بن ثابت، وحمل بعضهم قول عمر على وجوب تسليم الصداق إليها إذا سلمت نفسها، لا على تقدير الصداق، وقيل: هذه الآية ناسخة للآية التي في الأحزاب: ﴿فما لكم عليهن من عدة تعتدونها، فمتعهن﴾ [الأحزاب: ٤٩]، فقد كان للمطلقة قبل المسيس متاع فنُسخت بهذه الآية وأوجب للمطلقة المفروض لها قبل المسيس نصف المفروض، ولا متاع لها، وقوله تعالى: ﴿وقد فرضتم لهن فريضة﴾ أي: سميت لهن مهراً فنصف ما فرضتم، أي: لها نصف المهر المسمى، ﴿إلا أن يعفون﴾، يعني: النساء، أي: إلا أن تترك المرأة نصيبها فيعود جميع الصداق إلى الزوج، قوله تعالى: ﴿أو يعفوا الذي بيده عقدة النكاح﴾، اختلفوا فيه فذهب بعضهم: إلى أن الذي بيده عقدة النكاح هو الولي، وبه قال ابن عباس رضي الله عنه، معناه أن

فتنه للزوج فيعود جميع الصداق إلى الزوج ﴿أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾ فيه قولان: أحدهما أنه الولي وهو قول ابن عباس في رواية عنه والحسن وعلقمة وطاوس والشعبي والنخعي والزهري والسدي وبه قال الشافعي في القديم ومالك. والقول الثاني أنه الزوج، وهو قول علي وابن عباس في الرواية الأخرى وجبير بن مطعم وسعيد بن المسيب وابن جبير ومجاهد والريبع وقتادة ومقاتل والضحاك ومحمد بن كعب القرظي وهو قول أبي حنيفة والشافعي في الجديد وأحمد وجمهور الفقهاء فعلى القول الأول يكون معنى الآية إلا أن تعفو المرأة إذا كانت ثيباً بالغة من أهل العفو عن نصيبها للزوج أو يعفو وليها إذا كانت المرأة بكرة صغيرة أو غير جائزة التصرف فيجوز عفو وليها فيترك نصيبها للزوج وإنما يجوز عفو الولي بشروط وهي أن تكون بكرة صغيرة ويكون الولي أباً أو جداً لأن غيرهما لا يزوج الصغيرة وعلى القول الثاني أن الذي بيده عقدة النكاح هو الزوج وصحح هذا القول الطبري والواحد فيكون معنى الآية أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح يعني الزوج فيعطي المرأة الصداق كاملاً لأن الله تعالى لما ذكر عفو المرأة عن النصف الواجب لها ذكر عفو الزوج عن النصف الساقط عنه فيحسن للمرأة أن تعفو ولا تطالب بشيء من الصداق وللرجل أن يعفو فيوفي لها المهر كاملاً. وروي أن جبير بن مطعم تزوج امرأة ثم طلقها قبل الدخول بها فأكمل لها الصداق وقال أنا أحق بالعفو، ولأن المهر حق المرأة فليس لوليها أن يهب من مالها شيئاً، فذلك المهر لأنه مال لها ﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾ هذا خطاب للرجال والنساء جميعاً وإنما غلب جانب التذكير لأن الذكورة هي الأصل والتأنيث فرع عنها والمعنى وعفو بعضكم عن بعض أيها الرجال والنساء أقرب إلى حصول التقوى وقيل هو خطاب للزوج والمعنى وليعفو الزوج فيترك حقه الذي ساق من المهر إليها قبل الطلاق فهو أقرب للتقوى ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾ يعني ليتفضل بعضكم على بعض فيعطي الرجل الصداق كاملاً أو يترك المرأة نصيبها من الصداق حثماً جميعاً على الإحسان ومكارم الأخلاق ﴿إن الله بما تعملون﴾ يعني من عفو بعضكم لبعض عما وجب له عليه من حق ﴿بصير﴾ أي لا يخفى عليه شيء من ذلك. قوله عز وجل: .

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾

﴿حافظوا﴾ أي داوموا وواظبوا ﴿على الصلوات﴾ يعني الخمس المكتوبات أمر الله عز وجل عباده بالمحافظة

لا تعفو المرأة بترك نصيبها إلى الزوج إن كانت ثيباً من أهل العفو أو يعفو وليها، فيترك نصيبها إن كانت المرأة بكرة، أو غير جائزة العفو فيجوز عفو وليها، وهو قول علقمة وعطاء والحسن والزهري وربيعة، وذهب بعضهم إلى أنه إنما يجوز عفو الولي إذا كانت المرأة بكرة، فإن كانت ثيباً فلا يجوز عفو وليها وقال بعضهم: الذي بيده عقدة النكاح هو الزوج، وهو قول علي، وبه قال سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والشعبي والشريحي ومجاهد وقتادة، وقالوا: لا يجوز لوليها ترك الشيء من الصداق بكرة كانت أو ثيباً كما لا يجوز له ذلك قبل الطلاق بالاتفاق كما لا يجوز له أن يهب شيئاً من مالها، وقالوا: معنى الآية أن لا تعفو المرأة بترك نصيبها فيعود جميع الصداق إلى الزوج، أو يعفو الزوج بترك نصيبه فيكون لها جميع الصداق، فعلى هذا التأويل وجه الآية الذي بيده عقدة النكاح نكاح نفسه في كل حال قبل الطلاق أو بعده، ﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾، موضعه رفع بالابتداء، أي: والعفو أقرب للتقوى أي إلى التقوى، والخطاب للرجال والنساء جميعاً، لأن المذكر والمؤنث إذا اجتماعاً، كانت الغلبة للمذكر، معناه وعفو بعضكم عن بعض أقرب للتقوى، ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾، أي: إفضال بعضكم على بعض بإعطاء الرجل تمام الصداق أو ترك المرأة نصيبها، حثماً جميعاً على الإحسان، ﴿إن الله بما تعملون بصير﴾.

قوله تعالى: ﴿حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى﴾، أي: وواظبوا وداوموا على الصلوات المكتوبات

على الصلوات الخمس المكتوبات بجميع شروطها وحدودها وإتمام أركانها وفعلها في أوقاتها المختصة بها ﴿والصلاة الوسطى﴾ تأنيث الأوسط ووسط كل شيء خيره وأعدله وقيل الوسطى يعني الفضلى من قولهم للأفضل أوسط وإنما أفردت وعطفت على الصلوات لانفرادها بالفضل وقيل سميت الوسطى لأنها أوسط الصلوات محلاً.

فصل في ذكر اختلاف العلماء في الصلاة الوسطى

قد اختلف العلماء من الصحابة فمن بعدهم في الصلاة الوسطى على مذاهب: الأول أن الصلاة الوسطى هي صلاة الفجر، وهو قول عمر وابن عمر وابن عباس ومعاذ وجابر وعطاء وعكرمة ومجاهد والربيع بن أنس، وبه قال مالك والشافعي، ويدل على ذلك أن مالكاً بلغه أن علي بن أبي طالب وابن عباس كانا يقولان: الصلاة الوسطى صلاة الفجر أخرجه مالك في الموطأ، وأخرجه الترمذي عن ابن عباس وابن عمر تعليقاً. ولأنها بين صلاتي جمع فالظهر والعصر يجمعان وهما صلاتا نهار، والمغرب والعشاء يجمعان وهما صلاتا ليل وصلاة الفجر لا تقصر ولا تجمع إلى غيرها ولأنها تأتي في وقت مشقة بسبب برد الشتاء وطيب النوم في الصيف وفتور الأعضاء إلى غيرها ولأنها تأتي في وقت مشقة بسبب برد الشتاء وطيب النوم في الصيف وفتور الأعضاء وكثرة النعاس وغفلة الناس عنها فخصت بالمحافظة عليها لكونها معرضة للضياع ولأن الله تعالى قال عقبها ﴿وقوموا لله قانتين﴾ والقنوت هو طول القيام وصلاة الفجر مخصوصة بطول القيام ولأن الله تعالى خصها بالذكر في قوله وقرآن الفجر ﴿إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ يعني تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار فهي مكتوبة في ديوان حفظة الليل وديوان حفظة النهار فدل ذلك على مزيد فضلها. المذهب الثاني أنها صلاة الظهر وهو قول زيد بن ثابت وأسامة بن زيد وأبي سعيد الخدري ورواية عائشة وبه قال عبيد الله بن شداد وهو رواية عن أبي حنيفة ويدل على ذلك ما روي عن زيد بن ثابت وعائشة قالوا: الصلاة الوسطى صلاة الظهر، أخرجه مالك في الموطأ عن زيد والترمذي عنهما تعليقاً وأخرجه أبو داود عن زيد قال: «كان رسول الله ﷺ يصلي الظهر بالهجرة ولم يكن يصلي صلاة أشد على أصحاب رسول الله ﷺ منها فنزلت: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾ وقال إن قبلها صلاتين وبعدها صلاتين ولأن صلاة الظهر تأتي وسط النهار وفي شدة الحر ولأنها تأتي بين البردين يعني صلاة الفجر وصلاة العصر. المذهب الثالث أنها صلاة العصر وهو قول علي وابن مسعود وأبي أيوب وأبي هريرة وابن عمر وابن عباس وأبي

بمواقيتها وحدودها، وإتمام أركانها، ثم خص من بينها الصلاة الوسطى بالمحافظة عليها دلالة على فضلها، ووسطى تأنيث الأوسط، ووسط الشيء: خيره وأعدله، واختلف العلماء من الصحابة ومن بعدهم في الصلاة الوسطى فقال قوم: هي صلاة الفجر، وهو قول عمر وابن عمر وابن عباس ومعاذ وجابر، وبه قال عطاء وعكرمة ومجاهد، وإليه مال مالك والشافعي لأن الله تعالى قال: ﴿وقوموا لله قانتين﴾، فالقنوت: طول القيام، وصلاة الصبح مخصوصة بطول القيام وبالقنوت لأن الله تعالى خصها في آية أخرى من بين الصلاة فقال الله تعالى: ﴿وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ [الإسراء: ٧٨]، يعني: تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار فهي مكتوبة في ديوان الليل وديوان النهار، ولأنها بين صلاتي جمع، وهي لا تقصر ولا تجمع إلى غيرها، وذهب قوم إلى أنها صلاة الظهر، وهو قول زيد بن ثابت وأبي سعيد الخدري وأسامة بن زيد، لأنها في وسط النهار وهي أوسط صلاة النهار في الطول، أخبرنا عمر بن عبد العزيز أخبرنا أبو القاسم بن جعفر الهاشمي، أنا أبو علي اللؤلؤي أنا أبو داود، أنا محمد بن المثنى أنا محمد بن جعفر، أنا شعبة حدثني عمرو بن أبي حكيم قال: سمعت الزبير يحدث عن عروة بن الزبير، عن زيد بن ثابت قال: كان رسول الله ﷺ يصلي الظهر بالهجرة ولم يكن يصلي صلاة أشد على أصحاب النبي ﷺ منها، فنزلت: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾، وذهب الأكثرون إلى أنها صلاة

سعيد الخدري وعائشة، وهو قول عبيدة السلماني والحسن البصري وإبراهيم النخعي وقتادة والضحاك والكلبي ومقاتل، وبه قال أبو حنيفة وأحمد وداود وابن المنذر وقال الترمذي: هو قول أكثر الصحابة فمن بعدهم وقال الماوردي من أصحابنا: هذا مذهب الشافعي لصحة الأحاديث فيه قال وإنما نص على أنها الصبح لأنه لم يبلغه الأحاديث الصحيحة في العصر ومذهبه اتباع الحديث ويدل على صحة هذا المذهب ما روي عن علي أن النبي ﷺ قال يوم الأحزاب وفي رواية يوم الخندق «ملاً الله قلوبهم ويوتهم ناراً كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس» وفي رواية «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر» وذكر نحوه وزاد في أخرى «ثم صلاها بين المغرب والعشاء» أخرجه في الصحيحين (م) عن ابن مسعود قال حبس المشركون رسول الله ﷺ عن صلاة العصر حتى احمرت الشمس أو اصفرت فقال رسول الله ﷺ: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملاً الله أجوافهم وقبورهم ناراً، أو حشا الله أجوافهم وقبورهم ناراً» عن سمرة بن جندب أن رسول الله ﷺ قال: «الصلاة الوسطى صلاة العصر» أخرجه الترمذي وله عن ابن مسعود مثله وقال في كل واحد منهما حسن صحيح (م) عن أبي يونس مولى عائشة قال أمرتني عائشة أن أكتب مصحفاً وقالت إذا بلغت هذه الآية فأذني: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾ قال فلما بلغت أذنتها فأملت علي: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين﴾ قالت عائشة سمعتها من رسول الله ﷺ ويروى عن حفصة نحو ذلك، ولأن صلاة العصر تأتي وقت اشتغال الناس بمعاشهم فكان الأمر بالمحافظة عليها أولى، ولأنها تأتي بين صلاتي نهار وهما الفجر والظهر وصلاتي ليل وهما المغرب والعشاء، وقد خصت بمزيد التأكيد والأمر بالمحافظة والتغليظ لمن ضيعها، ويدل على ذلك ما روي عن أبي المليح قال: كنا مع بريدة في غزوة فقال في يوم ذي غيم: بكروا بصلاة العصر فإن النبي ﷺ قال: «من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله» أخرجه البخاري. قوله بكروا بصلاة العصر أي قدموها في أول وقتها (ق) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «الذي تفوته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله» قوله: وتر أي نقص وسلب أهله وماله فبقي فرداً بلا أهل ولا مال ومعنى الحديث ليكن حذره من فوت صلاة العصر كحذره من ذهاب أهله وماله. المذهب الرابع أنها صلاة المغرب قاله قبيصة بن ذؤيب، وحجة هذا المذهب أن صلاة المغرب تأتي

العصر، رواه جماعة عن رسول الله ﷺ، وهو قول علي وعبد الله بن مسعود وأبي أيوب وأبي هريرة وعائشة رضوان الله عليهم، وبه قال إبراهيم النخعي وقتادة والحسن، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحق الهاشمي، أنا أبو مصعب عن مالك عن زيد بن أسلم، عن القعقاع بن حكيم عن أبي يونس مولى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنهما أنه قال: أمرتني عائشة أن أكتب لها مصحفاً وقالت: إذا بلغت هذه الآية فأذني ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾، فلما بلغت أذنتها فأملت علي ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾ - صلاة العصر - ﴿وقوموا لله قانتين﴾ قالت عائشة رضي الله عنها سمعتها من رسول الله ﷺ، وعن حفصة مثل ذلك. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، أنا أبو جعفر الزياتي أنا حميد بن زنجويه، أخبرنا أبو نعيم أنا سفيان عن عاصم بن أبي النجود عن ذر بن حُبَيْش قال قلنا لعبيدة سَلْ عَلِيّاً عن الصلاة الوسطى، فسأله، قال: كنا نرى أنها صلاة الفجر حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم الخندق: «شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر، ملاً الله أجوافهم وقبورهم ناراً»، ولأنها بين صلاتي نهار وصلاتي ليل، وقد خصها النبي ﷺ بالتغليظ، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا مسلم بن إبراهيم، أنا هشام يحيى بن أبي كثير عن أبي قلابة عن أبي المليح قال: كنا مع بُريدة في غزوة في يوم ذي غيم فقال: بكروا بصلاة العصر فإن النبي ﷺ قال: «من ترك صلاة العصر فقد حبط

بين بياض النهار وسواد الليل ولأنها أزيد من ركعتين كما في الصباح، وأقل من أربع، ولا تقصر في السفر وهي وتر النهار، ولأن صلاة الظهر تسمى الأولى لأن ابتداء جبريل كان بها، وإذا كانت الظهر أولى الصلوات كانت المغرب هي الوسطى. المذهب الخامس أنها صلاة العشاء ولم ينقل عن أحد من السلف فيها شيء، وإنما ذكرها بعض المتأخرين، وحجة هذا المذهب أنها متوسطة بين صلاتين لا تقصران وهما المغرب والصبح ولأنها أثقل صلاة على المنافقين. المذهب السادس أن الصلاة الوسطى هي إحدى الصلوات الخمس لا بعينها لأن الله تعالى أمر بالمحافظة على الصلوات الخمس ثم عطف عليها بالصلاة الوسطى، وليس في الآية ذكر بيانها، وإذا كان كذلك أمكن أن يقال في كل واحدة من الصلوات الخمس أنها هي الوسطى أبهما الله على عباده مع ما خصها بمزيد التوكيد تحريضاً لهم على المحافظة على أداء جميع الصلوات على صفة الكمال والتمام ولهذا السبب أخفى الله تعالى ليلة القدر في شهر رمضان وأخفى ساعة الإجابة في يوم الجمعة وأخفى اسمه الأعظم في جميع أسمائه ليحافظوا على ذلك كله. وهذا المذهب اختاره جمع من العلماء قال محمد بن سيرين إن رجلاً سأل زيد بن ثابت عن الصلاة الوسطى فقال حافظ على الصلوات كلها تصبها وسئل الربيع ابن خيثم عن الصلاة فقال للسائل الوسطى واحدة منهن فحافظ على الكل تكن محافظاً على الوسطى ثم قال رأيت لو علمتها بعينها أكنت محافظاً عليها ومضيعاً سائرهن فقال السائل لا فقال الربيع إنك أن حافظت عليهن فقد حافظت على الوسطى. والصحيح من هذه الأقوال كلها قولان قول من قال إنها الصبح وقول من قال إنها العصر وأصح الأقوال كلها أنها العصر للأحاديث الصحيحة الواردة فيها والله تعالى أعلم. وقوله تعالى: ﴿وقوموا لله قانتين﴾ أي طائعين فهو عبارة عن إكمال الطاعة وإتمامها والاحتراز عن إيقاع الخلل في أركانها وسننها قيل لكل أهل دين صلاة يقومون فيها عاصين فقوموا أنتم الله في صلاتكم طائعين، وقيل القنوت هو الدعاء والذكر بدليل: «أمن هو قانت» ولما أمر بالمحافظة على الصلوات وجب أن يحمل هذا القنوت على ما فيها من الذكر والدعاء فمعنى الآية وقوموا لله داعين ذاكرين وقيل إنما خص القنوت بصلاة الصبح والوتر لهذا المعنى، وقيل: القنوت هو السكوت عما لا يجوز التكلم به في الصلاة، ويدل على ذلك ما روي عن زيد بن أرقم قال: «كنا نتكلم في الصلاة يكلم الرجل صاحبه وهو إلى جنبه في الصلاة حتى نزلت: ﴿وقوموا لله قانتين﴾ فأمرنا

عمله»، وقال قبيصة بن ذؤيب: هي صلاة المغرب لأنها وسط ليس بأقلها ولا أكثرها، وقال بعضهم: إنها صلاة العشاء، ولم يُنقل عن السلف فيها شيء، وإنما ذكرها بعض المتأخرين لأنها بين صلاتين لا تقصران، وقال بعضهم هي إحدى الصلوات الخمس لا بعينها أبهما الله تعالى تحريضاً للعباد على المحافظة على أداء جميعها، كما أخفى ليلة القدر في شهر رمضان وساعة إجابة الدعوة في يوم الجمعة، وأخفى الاسم الأعظم في الأسماء ليحافظوا على جميعها. قوله تعالى: ﴿وقوموا لله قانتين﴾، أي: مطيعين، قال الشعبي وعطاء وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وطاوس: القنوت: الطاعة، قال الله تعالى: ﴿أَمَّةٌ قَانِتَةٌ لِلَّهِ﴾ [النحل: ١٢٠] أي: مُطِيعاً، وقال الكلبي ومقاتل: لكل أهل دين صلاة يقومون فيها عاصين، فقوموا أنتم الله في صلاتكم مطيعين، وقيل: القنوت السكوت عما لا يجوز التكلم به في الصلاة، أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي، أنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي، أنا أبو العباس محمد بن أحمد المجبوبي، أنا أبو عيسى الترمذي أنا أحمد بن منيع، أنا هشيم أنا إسماعيل بن أبي خالد عن الحارث بن سقيل، عن أبي عمرو الشيباني عن زيد بن أرقم، قال: كنا نتكلم خلف رسول الله ﷺ في الصلاة يُكَلِّمُ الرجلُ منّا صاحبه إلى جنبه، حتى نزلت ﴿وقوموا لله قانتين﴾، فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام. وقال مجاهد: خاشعين، وقال: من القنوت طول الركوع، وغضُّ البصر، والركود وخفضُ الجناح، كان العلماء إذا كان أحدهم يُصَلِّي يهاب الرحمن أن يلتفت أو يقلّب الحصى أو يعبث بشيء أو يُحدّث

بالسكوت ونهينا عن الكلام» أخرجاه في الصحيحين، وقيل: القنوت هو طول القيام في الصلاة ويدل عليه ما روي عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصلاة طول القنوت» أخرجه مسلم ومن القنوت أيضاً طول الركوع والسجود وغض البصر والهدوء في الصلاة وخفض الجناح والخشوع فيها وكان العلماء إذا قام أحدهم يصلي يهاب الرحمن أن يلتفت أو يقلب الحصى أو يعبث بشيء أو يحدث نفسه بشيء من أمور الدنيا إلا ناسياً قوله عز وجل:

﴿إِنْ خِفْتُمْ فَرَجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمْنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾

﴿إِنْ خِفْتُمْ فَرَجَالًا﴾ أي رجالة ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ يعني على الدواب جمع راكب والمعنى إن لم يمكنكم أن تصلوا قانتين موفين حقوق الصلاة من إتمام الركوع والسجود والخضوع والخشوع لخوف عدو أو غيره فصلوا مشاة على أرجلكم أو ركباناً على دوابكم مستقبلي القبلة وغير مستقبلها وهذا في حال المقاتلة والمسايفة في وقت الحرب. وصلاة الخوف قسمان: أحدهما أن يكون في حال القتال وهو المراد بهذه الآية، وقسم في غير حال القتال وهو المذكور في سورة النساء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ وسيأتي الكلام عليها إن شاء الله تعالى في موضعه، فإذا التحم القتال ولم يكن تركه لأحد فمذهب الشافعي أنهم يصلون ركباناً على الدواب ومشاة على الأرجل إلى القبلة وإلى غير القبلة يؤمنون بالركوع والسجود ويكون السجود أخفض من الركوع ويحترزون عن الصياح فإنه لا حاجة إليه، وقال أبو حنيفة: لا يصلي الماشي بل يؤخر الصلاة ويقضيها لأن النبي ﷺ أخر الصلاة يوم الخندق فصلى الظهر والعصر والمغرب بعدما غربت الشمس فيجب علينا الاقتداء به في ذلك واحتج الشافعي لمذهبه بهذه الآية. وأجيب عن تأخير النبي ﷺ الصلاة يوم الخندق بأنه لم يكن نزل حكم صلاة الخوف وإنما نزل بعد فلما نزلت صلاة الخوف لم يؤخر النبي ﷺ بعد ذلك صلاة قط، أما الخوف الحاصل لا في القتال بل بسبب آخر كالهارب من العدو أو قصده سبع هائج أو غشيه سيل يخاف على نفسه الهلاك لو صلى صلاة أمن فله أن يصلي صلاة شدة الخوف بالإيماء في حال العدو لأن قوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ مطلق يتناول الكل. فإن قلت: قوله تعالى: ﴿فَرَجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ يدل على أن المراد منه خوف العدو حال القتال. قلت هو كذلك إلا أنه هناك ثابت لدفع الضرر، وهذا المعنى موجود هنا فوجب أن يكون الحكم كذلك ها هنا وروي عن ابن عباس قال: «فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين وفي الخوف ركعة»

نفسه بشيء من أمر الدنيا إلا ناسياً، وقيل: المراد من القنوت طول القيام. أخبرنا أبو عثمان الضبي أنا أبو محمد الجراحي أنا أبو العباس المحبوبي أنا أبو عيسى الترمذي، أنا ابن أبي عمر أنا سفيان بن عُيينة عن ابن الزبير، عن جابر قال: قيل للنبي ﷺ: أي الصلاة أفضل؟ قال: «طولُ القنوت»، وقيل: قانتين أي: داعين، دليله ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قنت رسول الله ﷺ شهراً متتابعاً يدعو على أحياء من بني سليم على رعل وذكوان وعصية. وقيل: معناه مصلتين، لقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ [الزمر: ٩]، أي: مُصل.

قوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ فَرَجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾، فرجالاً أي: رجالة، يقال: راجل ورجال، مثل صاحب وصحاب، وقائم وقيام، ونائم ونيام، أو رُكباناً على دوابهم، وهو جمع راكب، معناه: إن لم يُمكنكم أن تصلوا قانتين موفين للصلاة حقها لخوف، فصلوا مشاةً على أرجلكم أو ركباناً على ظهور دوابكم، وهذا في حال المقاتلة والمسايفة يصلي حيث كان وجهه، راجلاً أو راكباً مستقبل القبلة، وغير مستقبلها، ويؤمُّ بالركوع والسجود، ويجعل السجود أخفض من الركوع، وكذلك إذا قصده سبع أو غشيه سيل يخاف منه على نفسه فعداً أمامه مُصلياً بالإيماء يجوز، والصلاة في حال الخوف على أقسام، فهذه أحد أقسام شدة صلاة الخوف، وسائر الأقسام سيأتي

أخرجه مسلم، وقد عمل بظاهر هذا جماعة من السلف منهم الحسن البصري وعطاء وطاوس ومجاهد وقتادة والضحاك وإبراهيم وإسحاق بن راهويه قالوا: يصلي في حال شدة الخوف ركعة وقال الشافعي ومالك وجمهور العلماء صلاة الخوف كصلاة الأمن في عدد الركعات قال كان الخوف في الحضر وجب عليه أن يصلي أربع ركعات وإن كان في السفر صلى ركعتين ولا يجوز الاقتصار على ركعة واحدة في حال من الأحوال وتأولوا حديث ابن عباس هذا على أن المراد به ركعة مع الإمام وركعة أخرى يأتي بها منفرداً كما جاءت الأحاديث الصحيحة في صلاة النبي ﷺ وأصحابه في صلاة الخوف وهذا التأويل لا بد منه للجمع بين الأحاديث. وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَمْتُمْ﴾ يعني من خوفكم ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ أي فصلوا الله الصلوات الخمس تامة بأركانها وسننها ﴿كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ فيه إشارة إلى إنعام الله تعالى علينا بالعلم ولولا هدايته وتعليمه إيانا لم نعلم شيئاً ولم نصل إلى معرفة شيء فله الحمد على ذلك. قوله عز وجل: .

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَّتَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾

﴿والذين يتوفون منكم﴾ يعني يا معشر الرجال ﴿ويذرون أزواجاً﴾ يعني زوجات ﴿وصية لأزواجهم﴾ قرئ بالنصب على معنى فليوصوا وصية وبالرفع على معنى كتب عليهم وصية ﴿متاعاً إلى الحول﴾ أي متعوهن متاعاً وقيل جعل الله لهن ذلك متاعاً والمتاع نفقة سنة لطعامها وكسوتها وما تحتاج إليه ﴿غير إخراج﴾ أي غير مخرجات من بيوتهن نزلت هذه الآية في رجل من أهل الطائف يقال له حكيم بن الحارث هاجر إلى المدينة ومعه أبواه وامراته وله أولاد فمات فرفع ذلك إلى النبي ﷺ فأنزل الله هذه الآية فأعطى النبي ﷺ أبويه وأولاده ميراثه ولم يعط امرأته شيئاً وأمرهم أن ينفقوا عليها من تركه زوجها حولاً وكان الحكم في ابتداء الإسلام أنه إذا مات الرجل اعتدت زوجته حولاً وكان يحرم على الوارث إخراجها من البيت قبل تمام الحول وكانت نفقتها وسكنائها واجبتين في مال زوجها تلك السنة وليس لها من الميراث شيء، ولكنها تكون مخيرة فإن شاءت اعتدت في بيت زوجها ولها النفقة والسكنى، وإن شاءت خرجت قبل تمام الحول وليس لها نفقة ولا سكنى، وكان يجب على الرجل أن يوصي بذلك فدلّت هذه الآية على مجموع أمرين: أحدهما أن لها النفقة والسكنى من مال زوجها سنة والثاني أن عليها عدة سنة

بيانها في سورة النساء إن شاء الله تعالى، ولا يُنتقص عدد الركعات بالخوف عند أكثر أهل العلم، وروى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة، وهو قول عطاء وطاوس والحسن ومجاهد وقتادة: أنه يُصلي في حال شدة الخوف ركعة، وقال سعيد بن جبیر: إذا كنت في القتال وضرب الناس بعضهم بعضاً فقل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، واذكر الله، فإذا ذكرت الله فتلك صلاتك. ﴿فَإِذَا أَمْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾، أي: فصلوا الصلوات الخمس تامة بحقوقها، ﴿كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ﴾: يا معشر الرجال، ﴿ويذرون﴾، أي يتركون ﴿أزواجاً﴾ أي: زوجات، ﴿وصية لأزواجهم﴾، قرأ أهل البصرة وابن عامر وحمزة وحفص ﴿وصية﴾ بالنصب على معنى: فليوصوا وصية، وقرأ الباقر بالرفع، أي كتب عليكم الوصية، ﴿متاعاً إلى الحول﴾، متاعاً نصب على المصدر، أي: متعوهن متاعاً، وقيل: جعل الله ذلك لهن متاعاً، والمتاع: نفقة سنة لطعامها وكسوتها وسكنائها وما تحتاج إليه، ﴿غير إخراج﴾، نصب على الحال وقيل: بنزع حرف على الصفة، أي: من غير إخراج، نزلت هذه الآية في رجل

﴿حقاً على المتقين﴾ يعني المؤمنين الذين يتقون الشرك وقد تقدم أحكام المتعة. وقوله تعالى: ﴿كذلك يبين الله لكم آياته﴾ يعني يبين لكم ما يلزم ويلزم أزواجكم أيها المؤمنون وكما عرفتمكم أحكامي والحق الذي يجب لبعضكم على بعض في هذه الآيات كذلك أبين لكم سائر أحكامي في آياتي التي أنزلتها على محمد ﷺ في هذا الكتاب ﴿لعلكم تعقلون﴾ أي لكي تعقلوا ما بينت لكم من الفرائض والأحكام وما فيه صلاحكم وصلاح دينكم اهـ. قوله عز وجل: ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم﴾ قال أكثر المفسرين: كانت قرية يقال لها داوردان وقع بها الطاعون فخرجت طائفة منها وبقيت طائفة فسلم الذين خرجوا وهلك أكثر من بقي بالقرية فلما ارتفع الطاعون رجع الذين خرجوا سالمين فقال الذين بقوا كان أصحابنا أحزم منا رأياً لو صنعنا كما صنعوا لبقينا كما بقوا ولئن وقع الطاعون ثانية لنخرجن إلى أرض لا وباء فيها فرجع الطاعون من قابل فهرب عامة أهلها فخرجوا حتى نزلوا وادياً أفصح فلما نزلوا المكان الذين يتغون فيه النجاة ناداهم ملك من أسفل الوادي وملك آخر من أعلاه أن موتوا فماتوا جميعاً. (ق) عن عمر أنه خرج إلى الشام فلما جاء سرغ بلغه أن الوباء قد وقع بها فأخبره عبدالرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها فراراً منه» فحمد الله عمر ثم انصرف وقيل إنما فروا من الجهاد وذلك أن ملكاً من ملوك بني إسرائيل أمرهم أن يخرجوا إلى قتال عدوهم فعسكروا ثم جبنوا وكرهوا الموت فاعتلوا وقالوا لملكهم إن الأرض التي تأتيها بها وباء فلا تخرج حتى ينقطع منها الوباء فأرسل الله عليهم الموت فخرجوا فراراً منه فلما رأى الملك ذلك قال: اللهم رب يعقوب وإله موسى قد ترى معصية عبادك فأرهم آية في أنفسهم حتى يعلموا أنهم لا يستطيعون الفرار منك، فلما خرجوا قال لهم موتوا عقوبة لهم فماتوا وماتت دوابهم كموت رجل واحد فما أتى عليهم ثمانية أيام حتى انتفخوا وأروحت أجسادهم فخرج الناس إليهم فعجزوا عن دفنهم فحظروا حظيرة دون السباع فذلك قوله تعالى: ﴿ألم تر﴾ أي ألم

رجل من المسلمين: إن أحسنت فعلت وإن لم أر ذلك لم أفعل، فقال الله تعالى: ﴿وللمطَّلقات متاع﴾، جعل المتعة لهن بلام التمليك، وقال: ﴿حقاً على المتقين﴾ يعني: المؤمنين المتقين الشرك.

﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾.

قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم﴾، قال أكثر أهل التفسير: كانت قرية يقال لها داوردان قبل واسط، بها وقع الطاعون فخرجت طائفة منها وبقيت طائفة فهلك أكثر من بقي بالقرية، وسلم الذين خرجوا، فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين، فقال الذين بقوا: أصحابنا كانوا أحزم منا لو صنعنا كما صنعوا لبقينا ولئن وقع الطاعون ثانية لنخرجن إلى أرض لا وباء بها، فوقع الطاعون من قابل فهرب عامة أهلها وخرجوا حتى نزلوا وادياً أفصح، فلما نزلوا المكان الذي يتغون فيه النجاة ناداهم ملك من أسفل الوادي وآخر من أعلاه: أن موتوا فماتوا جميعاً، أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحق الهاشمي، أنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب، عن عبدالله بن عامر بن ربيعة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشام فلما جاء سرغ بلغه أن الوباء قد وقع بالشام، فأخبره عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه»، فرجع عمر من سرغ. قال الكلبي ومقاتل والضحاك: إنما فروا من الجهاد وذلك أن ملكاً من ملوك بني إسرائيل أمرهم أن يخرجوا إلى قتال عدوهم فعسكروا ثم جبنوا وكرهوا الموت فاعتلوا وقالوا لملكهم: إن الأرض التي تأتيها بها الوباء فلا تأتيها حتى ينقطع منها الوباء، فأرسل الله عليهم الموت فخرجوا من ديارهم فراراً من الموت، فلما رأى الملك ذلك قال: اللهم رب يعقوب وإله موسى وهرون قد ترى معصية عبادك فأرهم آية في أنفسهم حتى يعلموا أنهم لا يستطيعون الفرار منك، فلما خرجوا قال لهم الله تعالى:

تعلم يا محمد بإعلامي إياك وهو من رؤية القلب قال أهل المعاني هو تعجيب له يقول هل رأيت مثل هؤلاء كما تقول ألم تر إلى صنيع فلان وكل ما في القرآن من قوله ألم تر ولم يعاينه النبي ﷺ فهذا معناه . قوله تعالى : ﴿وهم ألوف﴾ قيل هو من العدد واختلفوا في مبلغ عددهم فقيل ثلاثة آلاف وقيل عشرة آلاف وقيل بضع وثلاثون ألفاً وقيل أربعون ألفاً وقيل سبعون ألفاً وأصح الأقوال قول من قال إنهم كانوا زيادة على عشرة آلاف لأن الله تعالى قال : ﴿وهم ألوف﴾ والألوف جمع الكثير وجمع القليل آلاف وقيل معنى وهم ألوف مؤتلفون جمع ألف والأول أصح قالوا فمر عليهم مدة فبليت أجسادهم وعريت عظامهم فمر عليهم حزقيل بن بوذي هو ثالث خلفاء بني إسرائيل بعد موسى . وذلك أن القيم بأمر بني إسرائيل بعد موسى كان يوشع بن نون ثم كان من بعده كالب بن يوقنا ثم قام من بعده حزقيل . وكان يقال له ابن العجوز لأن أمه كانت عجوزاً فسألت الله تعالى الولد بعدما كبرت وعقمت فوهب الله لها حزقيل ويقال له ذو الكفل سمي به لأن تكفل سبعين نبياً وأنجاهم من القتل فلما مر حزقيل على هؤلاء الموتى وقف عليهم وجعل يفكر فيهم فأوحى الله تعالى إليه أتريد أن أريك قال نعم يا رب فأحياهم الله تعالى وقيل دعا ربه حزقيل أن يحييهم فأحياهم الله تعالى وقيل إنهم كانوا قومه أحياهم الله تعالى بعد ثمانية أيام وذلك أنه لما أصابهم ذلك خرج في طلبهم فوجدهم موتى فبكى وقال يا رب كنت في قوم يعبدونك ويذكرونك فبقيت وحيداً لا قوم لي فأوحى الله إليهم إني قد جعلت حياتهم إليك فقال حزقيل أحيوا بإذن الله فعاشوا ، وقيل إنهم قالوا حين أحيوا سبحانه ربنا وبحمدك لا إله إلا أنت ثم رجعوا إلى قومهم وعاشوا دهوراً طويلاً وسحنة الموت على وجوههم لا يلبسون ثوباً إلا عاد دنساً مثل الكفن حتى ماتوا لآجالهم التي كتبت لهم . قال ابن عباس : وإنها لتوجد اليوم تلك الريح في ذلك السبط من اليهود : قال قتادة : مقتهم الله على فرارهم من الموت فأماتهم عقوبة لهم ثم بعثهم الله ليستوفوا بقية آجالهم ولو جاءت آجالهم لما بعثوا . فإن قلت كيف أميت هؤلاء مرتين في الدنيا وقد قال الله تعالى : ﴿لا يدوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾ قلت إن موتهم كان عقوبة لهم كما قال قتادة وقيل إن موتهم وإحياءهم

﴿مُوتُوا﴾ عقوبة لهم فماتوا وماتت دوابهم كموت رجل واحد فأتى عليهم ثمانية أيام حتى انتفخوا وأزاحت أجسادهم ، فخرج إليهم الناس فعجزوا عن دفنهم ، فحظروا عليهم حظيرة دون السباع وتركوهم ، واختلفوا في مبلغ عددهم ، قال عطاء الخراساني : كانوا ثلاثة آلاف ، وقال وهب : أربعة آلاف مقاتل وقال الكلبي : ثمانية آلاف ، وقال أبو رواق : عشرة آلاف ، وقال السدي : بضعة وثلاثون ألفاً ، وقال ابن جريج : أربعون ألفاً ، وقال عطاء بن أبي رباح : سبعون ألفاً ، وأولى الأقاويل قول من قال : كانوا زيادة على عشرة آلاف ، لأن الله تعالى قال : ﴿وهم ألوف﴾ والألوف جمع الكثير ، وجمعه القليل آلاف ، والألوف لا يُقال لِمَا دُونَ عشرة آلاف ، قالوا : فأتت على ذلك مدة وقد بليت أجسادهم وعريت عظامهم ، فمرّ عليهم نبيّ يقال له حزقيل ابن بوذي ، ثالث خلفاء بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام ، وذلك أن القيم بعد موسى بأمر بني إسرائيل يوشع بن نون ثم كالب بن يوقنا ثم حزقيل ، كان يقال له ابن العجوز لأن أمه كانت عجوزاً فسألت الله الولد بعدما كبرت وعقمت فوهبه الله تعالى لها . قال الحسن ومقاتل : هو ذو الكفل ، وسُمي حزقيل ذا الكفل لأنه تكفل بسبعين نبياً وأنجاهم من القتل ، فلما مرّ حزقيل على أولئك الموتى ، وقف عليهم يتفكر فيهم متعجباً ، فأوحى الله تعالى إليه تريد أن أريك آية؟ قال : نعم ، فأحياهم الله ، وقيل : دعا حزقيل ربه أن يحييهم فأحياهم ، وقال مقاتل والكلبي : هم كانوا قوم حزقيل أحياهم الله بعد ثمانية أيام ، وذلك أنه لما أصابهم ذلك خرج حزقيل في طلبهم ، فوجدهم موتى فبكى وقال : يا رب كنت في قوم يحمدونك ويسبحونك ويقدسونك ويكبرونك ويهللونك فبقيت وحيداً لا قوم لي فأوحى الله تعالى إليه إني جعلت حياتهم إليك قال حزقيل : أحيوا بإذن الله ، فعاشوا ، قال مجاهد : إنهم قالوا حين أحيوا سبحانه اللهم ربنا وبحمدك

كان معجزة من معجزات ذلك النبي ومعجزات الأنبياء خوارق للعادات، ونوادير فلا يقاس عليها فيكون قوله إلا الموتة الأولى عاماً مخصوصاً بمعجزات الأنبياء أي إلا الموتة الأولى التي ليست من معجزات الأنبياء ولا من خوارق العادات وفي هذه الآية احتجاج على اليهود ومعجزة عظيمة لنبينا ﷺ حيث أخبرهم بأمر لم يشاهدوه وهم يعلمون صحة ذلك وفيه احتجاج على منكري البعث أيضاً إذ قد أخبر الله تعالى وهو الصادق في خبره أنه أماتهم ثم أحياهم في الدنيا فهو تعالى قادر على أن يحييهم يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿حذر الموت﴾ أي مخافة الطاعون وكان قد نزل بهم وقيل إنهم أمروا بالجهاد ففروا منه حذر الموت ﴿فقال لهم الله موتوا﴾ يحتمل أنهم ماتوا عند قوله تعالى ﴿موتوا﴾ ويحتمل أن يكون ذلك أمر تحويل فهو كقوله: ﴿كونوا قردة خاسئين﴾ ثم أحياهم يعني بعد موتهم ﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾ يعني أن الله تعالى تفضل على أولئك الذين أماتهم باحيائهم لأنهم ماتوا على معصيته فتفضل عليهم بإعادتهم إلى الدنيا ليتوبوا وقيل هو على العموم فهو تعالى متفضل على كافة الخلق في الدنيا ويخص المؤمنين بفضله يوم القيامة ﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ يعني أن أكثر من أنعم الله عليه لا يشكره أما الكافر فإنه لم يشكره أصلاً وأما المؤمنون فلم يبلغوا غاية شكره. قوله عز وجل: .

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٥﴾ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ
أَضعافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصِطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٦﴾

﴿وقاتلوا في سبيل الله﴾ قيل هو خطاب للذين أحيوا أحياءهم الله ثم أمرهم بالجهاد فعلى هذا القول فيه إضمار تقديره وقيل لهم قاتلوا في سبيل الله وقيل هو خطاب لأمة محمد ﷺ ومعناه لا تهربوا من الموت كما هرب هؤلاء فلم ينفعهم ذلك ففيه تحريض للمؤمنين على الجهاد ﴿واعلموا أن الله سميع﴾ يعني لما يقوله المتعلل عن

لا إله إلا أنت، فرجعوا إلى قومهم وعاشوا دهرًا طويلاً وسحنة الموت على وجوههم لا يلبسون ثوباً إلا عاد دنساً مثل الكفن حتى ماتوا لأجلهم التي كتبت لهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: وإنها لتوجد اليوم في ذلك السبط من اليهود تلك الريح، قال قتادة: مقتهم الله على فرارهم من الموت فأماتهم عقوبة لهم، ثم بعثوا ليستوفوا مدة آجالهم، ولو جاءت آجالهم ما بعثوا، فذلك قوله تعالى: ﴿ألم تر﴾ أي: ألم تعلم بإعلامي إياك، وهو من رؤية القلب، وقال أهل المعاني: هو تعجب يقول: هل رأيت مثلهم كما تقول ألم تر إلى ما يصنع فلان، وكل ما في القرآن ألم تر ولم يعاين النبي ﷺ فهذا وجهه، ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم، ﴿وهم أوف﴾، جمع ألف، وقيل: مؤتلفة قلوبهم جمع ألف، مثل قاعد وقعود، والصحيح: أن المراد منه العدد، ﴿حذر الموت﴾، أي: خوف الموت، ﴿فقال لهم الله موتوا﴾، أمر تحويل، كقوله تعالى: ﴿كونوا قردة خاسئين﴾ [البقرة: ٦٥، الأعراف: ١٦٦]، ﴿ثم أحياهم﴾، بعد موتهم، ﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾، قيل هو على العموم في حق الكافة، وقيل على الخصوص في حق المؤمنين، ﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾، أما الكفار فلم يشكروا، وأما المؤمنون فلم يبلغوا غاية الشكر.

﴿وقاتلوا في سبيل الله﴾، أي: في طاعة أعداء الله ﴿واعلموا أن الله سميعٌ عليم﴾، قال أكثر أهل التفسير: هذا خطاب للذين أحيوا، أمروا بالقتال في سبيل الله فخرجوا من ديارهم فراراً من الجهاد فأماتهم الله ثم أحياهم وأمرهم أن يجاهدوا، وقيل: الخطاب لهذه الأمة أمرهم بالجهاد.

قوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، القرض: اسم لكل ما يعطيه الإنسان ليجازى عليه،

القتال ﴿عليهم﴾ بما يضمنه. قوله عز وجل: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ القرض اسم لكل ما يعطيه الإنسان ليجازى عليه فسمى الله تعالى عمل المؤمنين له قرضاً على رجاء ما وعدهم به من الثواب لأنهم يعلمون لطلب الثواب، وقيل: القرض من ما أسلفت من عمل صالح أو شيء قال أمية بن أبي الصلت:

كل امرئ سوف يجزى قرضه حسناً أو سيئاً أو مدينياً كالذي دانا

وأصل القرض في اللغة القطع سمي به لأن المقرض يقطع من ماله شيئاً فيعطيه ليرجع إليه مثله ومعنى الآية من ذا الذي يقدم لنفسه إلى الله ما يرجو ثوابه عنده وهذا تطف من الله تعالى في استدعاء عباده إلى أعمال البر والطاعة وقيل في الآية اختصار تقديره من ذا الذي يقرض عباد الله والمحتاجين من خلقه فهو كقوله: ﴿إن الذين يؤذون الله﴾ أي يؤذون عباد الله، وكما جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني قال: يا رب كيف أطعمتك وأنت رب العالمين؟ قال: استطعمتك عبدي فلان فلم تطعمه أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟» الحديث، واختلفوا في المراد بهذا القرض، فقيل هو الإنفاق في سبيل الله، وقيل هو الصدقة الواجبة قيل صدقة التطوع لأن الله تعالى سماه قرضاً والقرض لا يكون إلا تبرعاً ولما روى الطبري بسنده عن ابن مسعود قال: لما نزلت: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ قال أبو الدحداح وإن الله يريد منا القرض؟ قال النبي ﷺ نعم يا أبا الدحداح قال: ناولني يدك فناوله يده قال: فإنني قد أقرضت ربي حائطي حائطاً فيه ستمائة نخلة ثم جاء يمشي حتى أتى الحائط وأم الدحداح فيه في عيالها فنادها يا أم الدحداح قالت ليك قال اخرجي من الحائط فإنني قد أقرضته لربي، زاد غيره فقال النبي ﷺ: كم من عذق رداح لأبي الدحداح وقيل في معنى يقرض الله أي ينفق في طاعته فيدخل فيه الواجب والتطوع وهو الأقرب حسناً يعني محتسباً طيبة به نفسه. وقيل: هو الإنفاق من المال الحلال في وجوه البر وقيل هو أن لا يمن بالقرض ولا يؤذي وقيل هو الخالص لله تعالى ولا يكون فيه رياء ولا سمعة ﴿فيضاعفه له﴾ يعني ثواب ما أنفق ﴿أضعافاً كثيرة﴾ قيل هو يضاعفه إلى سبعمائة ضعف، وقال السدي هذا التضعيف لا يعلمه إلا الله تعالى وهذا هو الأصح وإنما أبهم الله ذلك لأن ذكر المبهم في باب الترغيب أقوى من ذكر المحدود ﴿والله يقبض ويبسط﴾ قيل

فسمى الله تعالى عمل المؤمنين له على رجاء ما عده لهم من الثواب قرضاً، لأنهم يعملونه لطلب ثوابه، قال الكسائي: القرض ما أسلفت من عمل صالح أو سيئ، وأصل القرض في اللغة: القطع، سمي به القرض لأنه يقطع به من ماله شيئاً يعطيه ليرجع إليه مثله، وقيل في الآية اختصار مجازة: من ذا الذي يقرض عباد الله والمحتاجين من خلقه، كقوله تعالى: ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله﴾ [الأحزاب: ٥٧] أي: يؤذون عباد الله، كما جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة: يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني، قال: يا رب كيف أطعمتك وأنت رب العالمين؟ قال: استطعمتك عبدي فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟» وقوله عز وجل: ﴿يقرض الله﴾ أي: ينفق في طاعة الله قرضاً حسناً، قال الحسين بن علي الواقيدي يعني: محتسباً طيبةً به نفسه. قال ابن المبارك: من مالٍ حلالٍ، وقال: لا يمن به ولا يؤذي ﴿فيضاعفه له﴾، قرأ ابن كثير وأبو جعفر وابن عامر ويعقوب (فيضعفه) وبابه بالتشديد، ووافق أبو عمرو في سورة الأحزاب [٣٠] وقرأ الآخرون ﴿فيضاعفه﴾ بالألف مخففاً، وهما لغتان، ودليل التشديد قوله: ﴿أضعافاً كثيرة﴾ لأن التشديد للتكثير، وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب بنصب الفاء، وكذلك في سورة الحديد على جواب الاستفهام، وقيل: بإضمار أن، وقرأ الآخرون برفع الفاء نسقاً على قوله يقرض: ﴿أضعافاً كثيرة﴾ قال السدي: هذا التضعيف لا يعلمه إلا الله عز وجل، وقيل: سبعمائة ضعف، ﴿والله يقبض ويبسط﴾

يقبض بإمساك الرزق والتقتير على من يشاء ويسط بمعنى يوسع على من يشاء وقيل يقبض بقبول الصدقة ويسط بالخلف والثواب وقيل إنه تعالى لما أمرهم بالصدقة وحثهم على الإنفاق أخبر أنه لا يمكنهم ذلك إلا بتوفيقه وإرادته وإعانتة والمعنى والله يقبض بعض القلوب حتى لا تقدر على الإنفاق في الطاعة وعمل الخير ويسط بعض القلوب حتى تقدر على فعل الطاعات والإنفاق في البر. كما روي عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث شاء» ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم مصرف القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك» أخرجه مسلم. وهذا الحديث من أحاديث الصفات التي يجب الإيمان بها والسكوت عنها وإمرارها كما جاءت من غير تكليف ولا تشبيه ولا إثبات جارحة، هذا مذهب أهل السنة وسلف هذه الأمة ﴿وإليه ترجعون﴾ يعني في الآخرة فيجزيك بأعمالكم. قوله عز وجل:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لَنَبِيِّ لَّهُمْ أَتَيْتُ لَنَا مَلِكًا نَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾

﴿ألم تر إلى الملاء من بني إسرائيل﴾ الملاء أشرف القوم ووجوههم وأصله الجماعة من الناس لا واحد له من لفظه كالقوم والرهط ﴿من بعد موسى﴾ أي من بعد موت موسى أي من بعد زمنه منه ﴿إذ قالوا﴾ يعني أولئك الملاء ﴿لنبي لهم﴾ اختلفوا في ذلك النبي فقيل هو يوشع بن نون بن أفرايم بن يوسف بن يعقوب وقيل هو شمعون بن صفية بن علقمة من ولد لاوي بن يعقوب وإنما سمي شمعون لأن أمه دعت الله أن يرزقها غلاماً فاستجاب الله لها فولدت غلاماً فسمته شمعون ومعناه سمع الله دعائي وتبدل السنين بالعبرانية شيئاً وقال أكثر المفسرين هو أشمويل بن يال وقيل: هو ابن هلفائي. قيل إنه من ولد هارون ومعرفة حقيقة ذلك النبي بعينه ليست مرادة من القصة إنما المراد منها الترغيب في الجهاد وذلك حاصل.

ويسط ﴿، قرأ أهل البصرة وحمزة﴾ يسط ﴿، هنا وفي قوله: ﴿بسطة﴾ [الأعراف: ٦٩] بالسين كنظائرهما، وقرأهما الآخرون بالصاد، وقيل: يقبض بإمساك الرزق والنفس والتقتير، ويسط بالتوسيع، وقيل: يقبض بقبول التوبة والصدقة، ويسط بالخلف والثواب، وقيل: هو الإحياء والإماتة فمن أماته فقد قبضه ومن مد له في عمره فقد بسط له، وقيل: هذا في القلوب لما أمرهم الله بالصدقة أخبر أنهم لا يمكنهم ذلك إلا بتوفيقه، قال: يقبض بعض القلوب فلا ينشط بالخير ويسط بعضها فيقدم لنفسه خيراً كما جاء في الحديث «القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها الله كيف يشاء» الحديث، ﴿وإليه ترجعون﴾، أي: إلى الله تعودون فيجزيك بأعمالكم، وقال قتادة: الهاء راجعة إلى التراب كناية من غير مذكور، أي: من التراب خلقهم وإليه يعودون.

قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الملاء من بني إسرائيل﴾، والملاء من القوم: وجوههم وأشرافهم، وأصل الملاء: الجماعة من الناس، ولا واحد له من لفظه، كالقوم والرهط والإبل والخيول والجيش، وجمعه أملاء، ﴿من بعد موسى﴾، أي: من بعد موت موسى، ﴿إذ قالوا لنبي لهم﴾، واختلفوا في ذلك النبي، فقال قتادة: هو يوشع بن نون بن أفرايم بن يوسف عليه السلام، وقال السدي: اسمه شمعون وإنما سمي شمعون لأن أمه دعت الله أن يرزقها غلاماً فاستجاب الله دعاءها فولدت غلاماً فسمته شمعون، تقول: سمع الله تعالى دعائي، والسين تصير شيئاً

ذكر الإشارة إلى القصة

كان سبب مسألة أولئك الملائكة لذلك النبي أنه لما مات موسى عليه السلام خلف من بعده في بني إسرائيل يوشع بن نون يقيم فيهم أمر الله تعالى. ويحكم بالتوراة حتى قبضه الله تعالى. ثم خلف من بعده كالب بن يوقنا كذلك، ثم حزقيل كذلك، حتى قبضه الله تعالى فعظمت الأحداث بعده في بني إسرائيل ونسوا عهد الله حتى عبدوا الأصنام فبعث الله إليهم إلياس نبياً فدعاهم إلى الله تعالى، وكانت الأنبياء من بني إسرائيل من بعد موسى يبعثون إليهم ليجددوا ما نسوا من التوراة ويأمروهم بالعمل بأحكامها. ثم خلف من بعد إلياس اليسع فكان فيهم ما شاء الله تعالى ثم قبضه الله تعالى. ثم خلف من بعده خلوف وعظمت فيهم الخطايا وظهر لهم عدو يقال له البلثاا وهم قوم جالوت وكانوا يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين وهم العمالقة فظهروا على بني إسرائيل وغلبوا على كثير من أرضهم وسبوا كثيراً من ذراريهم وأسروا من أبناء ملوكهم أربعمئة وأربعين غلاماً، فضربوا عليهم الجزية وأخذوا توراتهم ولقي بنو إسرائيل منهم بلاء وشدة ولم يكن لهم نبي يدبر أمرهم وكان سبط النبوة قد هلكوا كلهم إلا امرأة حبلى فحبسوها في بيت رهبة أن تلد جارية فتبدلها بغلام لما ترى من رغبة بني إسرائيل في ولدها وجعلت المرأة تدعو الله أن يرزقها غلاماً فولدت غلاماً فسمته أشمويل ومعناه بالعربية إسماعيل. تقول: سمع الله دعائي فلما كبر الغلام أسلمته لتعليم التوراة في بيت المقدس وكفله شيخ من علمائهم وتبناه فلما بلغ الغلام أتاها جبريل عليه السلام وهو نائم إلى جانب الشيخ وكان الشيخ لا يأمن عليه أحداً فدعاه جبريل بلحن الشيخ يا أشمويل! فقام الغلام فزعا إلى الشيخ وقال: يا أبتاه رأيتك تدعوني فكره الشيخ أن يقول لا فيفزع الغلام فقال يا بني ارجع فتم فنام

بالعبرانية، وهو شمعون ابن صفية بنت علقمة من ولد لاوى بن يعقوب وقال سائر المفسرين: هو أشمويل وهو بالعبرانية إسماعيل بن يال بن علقمة، وقال مقاتل: هو من نسل هرون، وقال مجاهد: هو أشمويل، وهو بالعبرانية إسماعيل بن هلقايا، وقال وهب وابن إسحق والكلبي وغيرهم: كان سبب مسألتهم إياه ذلك أنه لما مات موسى عليه السلام خلف بعده في بني إسرائيل يوشع بن نون يقيم فيهم التوراة وأمر الله تعالى حتى قبضه الله تعالى، ثم خلف فيهم كالب بن يوقنا كذلك حتى قبضه الله تعالى، ثم خلف حزقيل حتى قبضه الله، ثم عظمت الأحداث في بني إسرائيل ونسوا عهد الله حتى عبدوا الأوثان، فبعث الله إليهم إلياس نبياً فدعاهم إلى الله تعالى وكانت الأنبياء من بني إسرائيل من بعد موسى يبعثون إليهم بتجديد ما نسوا من التوراة، ثم خلف من بعد إلياس اليسع، فكان فيهم ما شاء الله ثم قبضه الله، وخلف فيهم الخلوف وعظمت الخطايا فظهر لهم عدو يقال له البلثاا، وهم قوم جالوت كانوا يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين، وهم العمالقة فظهروا على بني إسرائيل وغلبوا على كثير من أرضهم وسبوا كثيراً من ذراريهم وأسروا من أبناء ملوكهم أربعمئة وأربعين غلاماً فضربوا عليهم الجزية، وأخذوا توراتهم ولقي بنو إسرائيل منهم بلاء وشدة، ولم يكن لهم من يدبر أمرهم، وكان سبط النبوة قد هلكوا فلم يبق منهم إلا امرأة حبلى فحبسوها في بيت رهبة أن تلد جارية فتبدلها بغلام لما ترى من رغبة بني إسرائيل في ولدها وجعلت المرأة تدعو الله أن يرزقها غلاماً فولدت غلاماً فسمته أشمويل، تقول: سمع الله تعالى دعائي، فكبر الغلام فأسلمته ليعلم التوراة في بيت المقدس، وكفله شيخ من علمائهم وتبناه، فلما بلغ الغلام أتاها جبريل وهو نائم إلى جنب الشيخ، وكان لا يأتمن عليه أحداً فدعاه جبريل بلحن الشيخ: يا أشمويل، فقام الغلام فزعا إلى الشيخ فقال: يا أبتاه دعوتني، فكره الشيخ أن يقول لثلاثا فيفزع الغلام، وقال: يا بني ارجع فتم فرجع الغلام فنام، ثم دعاه الثانية، فقال الغلام: يا أبت دعوتني، فقال: ارجع فتم فإن دعوتك الثالثة فلا تجبني، فلما كانت الثالثة ظهر له جبريل، فقال له: اذهب إلى قومك فبلغهم رسالة ربك فإن الله قد بعثك فيهم نبياً، فلما أتاهاهم كذبوه وقالوا: استعجلت بالنبوة ولم

ثم دعاه الثانية فقال الغلام: دعوتني فقال: نعم فإن دعوتك فلا تجبني فلما كانت الثالثة ظهر له: جبريل عليه السلام وقال له اذهب إلى قومك فبلغهم رسالة ربك فإن الله قد بعثك فيهم نبياً فلما أتاهم كذبوه وقالوا له استعجلت بالنبوة ولم تنلك وقالوا له إن كنت صادقاً فابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله آية على نبوتك وإنما كان قوام أمر بني إسرائيل بالاجتماع على الملوك وطاعة الملوك أنبياءهم وكان الملك هو الذي يسير بالجموع والنبى هو الذي يقيم له أمره ويشير عليه ويرشده ويأتيه بالخبر من ربه. قال وهب فبعث الله أشمويل نبياً فلبثوا أربعين سنة بأحسن حال ثم كان من أمر جالوت والعمالقة ما كان فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لَنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلَكًا نَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ جزم على جواب الأمر فلما قالوا له ذلك ﴿قَالَ﴾ يعني قال النبي ﷺ ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ هذا استفهام شك يقول لعلمكم ﴿إِنْ كُتِبَ﴾ أي فرض ﴿عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ﴾ يعني مع ذلك الملك ﴿أَنْ لَا تَقَاتِلُوا﴾ يعني لا تفوا بما قلتم وتجنبوا عن القتال معه ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَنْ لَا نَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. فإن قلت ما وجه دخول أن والعرب لا تقول ما لك أن لا تفعل كذا ولكن تقول ما لك لا تفعل كذا. قلت دخول أن وحذفها لغتان صحيحتان فالإثبات كقوله: ﴿مَا لَكَ أَنْ لَا تكون مع الساجدين﴾ والحذف كقوله ﴿مَا لَكُمْ لَا تَتُومِنُونَ﴾ وقيل معناه: وما لنا في أن لا نقاتل بحذف حرف الجر وقيل أن هنا زائدة ومعناه وما لنا لا نقاتل في سبيل الله ﴿وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ أي أخرج من غلب عليهم من ديارهم فظاهر الكلام العموم وباطنه الخصوص لأن الذين قالوا لنبيهم ابعث لنا ملكاً كانوا في ديارهم وأبنائهم وإنما أخرج من أسر منهم ومعنى الآية أنهم قالوا لنبيهم إنا إنما كنا تركنا الجهاد لأننا كنا ممنوعين في بلادنا لا يظهر علينا عدونا فأما إذا بلغ ذلك منا فنتطبع ربنا في جهاد عدونا ونمنع نساءنا وأولادنا قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ في الكلام حذف وتقديره فسأل الله ذلك النبي فبعث لهم ملكاً وكتب عليهم القتال فلما كتب عليهم القتال ﴿تَوَلَّوْا﴾ أي أعرضوا عن الجهاد وضيعوا أمر الله ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ يعني لم يتولوا عن الجهاد هم الذين

تنلك، وقالوا له: إن كنت صادقاً فابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله آية من نبوتك، وإنما كان قوام أمر بني إسرائيل بالاجتماع على الملوك، وطاعة الملوك لأنبيائهم، فكان الملك هو الذي يسير بالجموع والنبى يقيم له أمره ويشير عليه برشده، ويأتيه بالخبر من ربه، قال وهب بن منبه: بعث الله تعالى أشمويل نبياً فلبثوا أربعين سنة بأحسن حال، ثم كان من أمر جالوت والعمالقة ما كان، فقالوا لأشمويل: ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلَكًا نَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، جزم على جواب الأمر، فلما قالوا له ذلك، ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ﴾، استفهام شك، يقول: لعلمكم، قرأ نافع ﴿عَسَيْتُمْ﴾ بكسر السين، كل القرآن، وقرأ الباقون بالفتح، وهي اللغة الفصيحة بدليل قوله تعالى: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٩، الإسراء: ٨، التحريم: ٨]، ﴿إِنْ كُتِبَ﴾: فرض ﴿عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ﴾، من ذلك الملك، ﴿أَنْ لَا تَقَاتِلُوا﴾، أن لا تفوا بما تقولون ولا تقاتلوا معه، ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَنْ لَا نَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فإن قيل: فما وجه دخول أن في هذا الموضع، والعرب لا تقول ما لك أن لا تفعل، وإنما يقال: ما لك لا تفعل؟ قيل: دخول أن وحذفها لغتان صحيحتان، فالإثبات كقوله تعالى: ﴿مَا لَكَ أَنْ لَا تكون مع الساجدين﴾ [الحجر: ٣٢]، والحذف كقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَتُومِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [الحديد: ٨]، وقال الكسائي: معناه وما لنا في أن لا نقاتل، فحذف في، وقال الفراء: أي: وما يمنعنا أن لا نقاتل في سبيل الله، كقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ لَا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢]، وقال الأخفش: أن ههنا زائدة معناه: وما لنا لا نقاتل في سبيل الله، ﴿وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾، أي أخرج من غلب عليهم من ديارهم فظاهر الكلام العموم، وباطنه الخصوص، لأن الذين قالوا لنبيهم: ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله كانوا في ديارهم وأوطانهم، وإنما أخرج من أسر منهم، ومعنى الآية: أنهم قالوا مجيبين لنبيهم: إنما كنا نزهد في الجهاد إذ كنا ممنوعين في بلادنا لا يظهر علينا عدونا، فأما إذا بلغ ذلك منا فنتطبع ربنا في الجهاد، ونمنع

عبروا النهر مع طالوت واقتصروا على الغرفة على ما سيأتي في قصتهم إن شاء الله تعالى ﴿والله عليم بالظالمين﴾ يعني هو عالم بمن ظلم نفسه حين خالف أمر ربه ولم يف بما قال . قوله عز وجل :

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾

﴿وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً﴾ وذلك أن أشمويل سأل الله عز وجل أن يبعث لهم ملكاً فأتى بعضاً وقرن فيه دهن القدس، وقيل له إن صاحبكم الذي يكون ملكاً يكون طوله هذه العصا وانظر إلى القرن الذي فيه الدهن فإذا دخل عليك رجل فنش الدهن في القرن فهو ملك بني إسرائيل فادهن رأسه بالدهن وملكه عليهم واسم طالوت بالعبرانية ساول بن قيس من سبط بنيامين بن يعقوب . وإنما سمي طالوت لطوله وكان أطول من جميع الناس برأسه ومنكبيه وكان طالوت رجلاً دباغاً يدبغ الأديم قاله وهب وقيل كان سقاء يستقي الماء على حمار فضل حماره فخرج يطلبه . وقال وهب : ضلت حمر لأبي طالوت فأرسله أبوه ومعه غلام في طلبها فمر على بيت أشمويل النبي فقال الغلام لطالوت لو دخلنا على هذا النبي فسألناه عن أمر الحمر ليرشدنا أو ليدعو لنا فدخلنا عليه فبينما هما عنده يذكران له حاجتهما إذ نش الدهن في القرن فقام أشمويل فقام طالوت بالعصا فكانت على طوله فقال لطالوت قرب رأسك فقربه إليه فدهنه بدهن القدس . وقال له : أنت ملك بني إسرائيل الذي أمرني الله تعالى أن أملكك عليهم فقال طالوت أوما علمت أن سبطي من أدنى أسباط بني إسرائيل قال : بلى قال فبأي آية قال بآية أنك ترجع وقد وجد أبوك حمره فكان كذلك ثم قال لبني إسرائيل إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً وقيل إنه جلس عنده وقال يا أيها الناس إن الله ملك طالوت فأنت عظماء بني إسرائيل إلى نبيهم أشمويل وقالوا له : ما شأن طالوت تملك علينا وليس هو من بيت النبوة ولا المملكة وقد عرفت أن النبوة في سبط لاوي بن يعقوب

نسأنا وأولادنا، قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا ﴾ : أعرضوا عن الجهاد وضيّعوا أمر الله ، ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴾ ، وهم الذين عبروا النهر مع طالوت واقتصروا على الغرفة ، على ما سيأتي إن شاء الله تعالى ، ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ .

﴿ وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ﴾ ، وذلك أن أشمويل سأل الله تعالى أن يبعث لهم ملكاً فأتى بعضاً وقرن فيه دهن القدس، وقيل له : إن صاحبكم الذي يكون طوله هذه العصا، وانظر هذا القرن الذي فيه الدهن، فإذا دخل عليك رجل فنش الدهن الذي في القرن فهو ملك بني إسرائيل، فادهن به رأسه وملكه عليهم، وكان طالوت اسمه بالعبرانية ساول بن قيس من أولاد بنيامين بن يعقوب، سمي طالوت لطوله، وكان أطول من كل أحد برأسه ومنكبيه، وكان رجلاً دباغاً يعمل الأديم، قاله وهب، وقال السدي : كان رجلاً سقاءً يستقي على حمار له من النيل، فضل حماره فخرج في طلبه، وقال وهب : بل ضلت حمر لأبي طالوت فأرسله وغلاماً له في طلبها فمرأ بيت أشمويل عليه السلام، فقال الغلام لطالوت : لو دخلنا على هذا النبي فسألناه عن أمر الحمر ليرشدنا ويدعو لنا، فدخلنا عليه فبينما هما عنده يذكران له حاجتهما، إذ نش الدهن الذي في القرن، فقام أشمويل عليه السلام فقام طالوت بالعصا فكانت طوله، فقال لطالوت : قرب رأسك فقربه فدهنه بدهن القدس، ثم قال له : أنت

والمملكة في سبط يهوذا بن يعقوب فقال لهم نبيهم أشمويل إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمَلِكُ عَلَيْنَا﴾ أي من أين يكون له الملك وكيف يستحقه ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمَلِكِ مِنْهُ﴾ إنما قالوا ذلك لأنه كان في بني إسرائيل سبطان سبط نبوة وسبط مملكة فسبط النبوة سبط لاوي بن يعقوب ومنه كان موسى وهارون عليهما السلام وسبط المملكة سبط يهوذا بن يعقوب ومنه كان داود وسليمان عليهما السلام ولم يكن طالوت من أحدهما. وإنما كان من سبط بنيامين بن يعقوب فلهذا السبب أنكروا كونه ملكاً لهم وزعموا أنهم أحق بالملك منه ثم أكدوا ذلك بقولهم ﴿وَلَمْ يَأْتِ سَعَةَ مِنَ الْمَالِ﴾ يعني أنه فقير والملك يحتاج إلى المال ﴿قَالَ﴾ يعني أشمويل النبي ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي اختاره عليكم وخصه بالملك وفي هذه الآية دليل على بطلان قول من زعم من الشيعة أن الإمامة موروثه وذلك لأن بني إسرائيل أنكروا أن يكون ملكهم من لا يكون من بيت المملكة فرد الله عليهم وأعلمهم أن هذا شرط فاسد والمستحق للملك من خصه الله به ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً﴾ أي فضيلة وسعة ﴿فِي الْعِلْمِ﴾ وذلك أنه كان من أعلم بني إسرائيل وقيل إنه أوحى إليه حين أوتي الملك وقيل هو العلم في الحرب ﴿وَالْجِسْمِ﴾ يعني بالطول وذلك لأنه كان أطول من الناس برأسه ومنكبيه وقيل بالجمال وكان طالوت من أجمل بني إسرائيل وقيل المراد به القوة لأن العلم بالحروب والقوة على الأعداء مما فيه حفظ المملكة ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني أن الله تعالى لا اعتراض عليه لأحد في فعله فيخص بملكه من يشاء من عباده ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ يعني أن الله تعالى واسع الفضل والرزق والرحمة وسعت رحمته كل شيء ووسع فضله ورزقه كل خلقه والمعنى أنكم طعنتم في طالوت بكونه فقيراً والله واسع الفضل والرزق فإذا فوض إليه الملك فتح عليه أبواب الرزق والمال من فضله وسعته وقيل الواسع ذو السعة وهو الذي يعطي عن غنى ﴿عَلِيمٌ﴾ يعني أنه تعالى مع قدرته على إغناء الفقير عالم بما يحتاج إليه في تدبير نفسه وملكه والعليم هو العالم بما يكون وبما كان. قوله عز وجل: .

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ

ملك بني إسرائيل الذي أمرني الله تعالى أن أملكه عليهم، فقال طالوت: أما علمت أن سبطي أدنى أسباط بني إسرائيل، وبيتي أدنى بيوت بني إسرائيل؟ قال: بلى، قال: فبأي آية؟ قال: بآية أنك ترجع وقد وجد أبوك حمراً، فكان كذلك، ثم قال لبني إسرائيل: إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً، ﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمَلِكُ عَلَيْنَا﴾، أي: من أين يكون له الملك علينا؟ ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ﴾: أولى ﴿بِالْمَالِ مِنْهُ﴾؟ وإنما قالوا ذلك لأنه كان في بني إسرائيل سبطان، سبط النبوة وسبط المملكة، فكان سبط النبوة سبط لاوي بن يعقوب، ومنه كان موسى وهرون، وسبط المملكة سبط يهوذا بن يعقوب، ومنه كان داود وسليمان، ولم يكن طالوت من أحدهما، إنما كان من سبط بنيامين بن يعقوب، وكانوا عملوا ذنباً عظيماً، كانوا ينكحون النساء على ظهر الطريق نهاراً، فغضب الله تعالى عليهم ونزع الملك والنبوة عنهم، وكانوا يسمونه سبط الإثم، فلما قال لهم نبيهم ذلك، أنكروا عليه لأنه لم يكن من سبط المملكة، ومع ذلك قالوا: هو فقير، ﴿وَلَمْ يَأْتِ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾، قال إن الله اصطفاه ﴿اختاره﴾ عليكم وزاده بسطة ﴿فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾، وذلك أنه كان أعلم بني إسرائيل في وقته، وقيل: إنه أتاه الوحي حين أوتي الملك، وقال الكلبي: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً﴾ فضيلة وسعة في العلم بالحرب، وفي الجسم بالطول، وقيل: الجسم بالجمال، وكان طالوت أجمل رجل في بني إسرائيل وأعلمهم، ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، قيل: الواسع ذو السعة وهو الذي يعطي عن غنى، والعليم العالم، وقيل: العالم بما كان، والعليم بما يكون، فقالوا له: فما آية ملكه؟ فقال لهم نبيهم: إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت.

وَمَا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

﴿وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت﴾ وذلك أنهم سألوا أشمويل النبي فقالوا ما آية ملكه فقال: إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت. وكانت قصة التابوت على ما ذكره علماء السير والأخبار أن الله تعالى أنزل على آدم عليه السلام تابوتاً فيه صور الأنبياء عليهم السلام وكان التابوت من خشب الشمشاد طوله ثلاثة أذرع في عرض ذراعين فكان عند آدم ثم صار إلى شيث ثم توارثه أولاد آدم إلى أن بلغ إبراهيم عليه السلام ثم كان عند إسماعيل لأنه كان أكبر أولاده ثم صار إلى يعقوب ثم كان في بني إسرائيل إلى أن وصل إلى موسى عليه السلام فكان يضع فيه التوراة ومتاعاً من متاعه ثم كان عنده إلى أن مات ثم تداوله أنبياء بني إسرائيل إلى وقت أشمويل وكان في التابوت ما ذكر الله تعالى وهو قوله: ﴿فيه سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ واختلفوا في تلك السكينة ما هي فقال علي بن أبي طالب: هي ريح خجوج هفافة لها رأسان ووجه كوجه الإنسان. وقال مجاهد: هي شيء يشبه الهرة له رأس كرأس الهرة وذنب كذنب الهرة وله جناحان، وقيل له عینان لهما شعاع وجناحان من زمرّد وزبرجد، وكانوا إذا سمعوا صوته تيقنوا النصر، فكانوا إذا خرجوا وضعوا التابوت قدامهم، فإذا سار ساروا وإذا وقف وقفوا. وقال ابن عباس هي طشت من ذهب من الجنة كان يغسل فيه قلوب الأنبياء وقال وهب هي روح من الله تعالى تتكلم إذا اختلفوا في شيء فتحبرهم ببيان ما يريدون. وقال عطاء بن أبي رباح هي ما يعرفون من الآيات التي يسكنون إليها وقال قتادة والكلبي هي فعلية من السكون أي طمأنينة من ربكم ففي أي مكان كان التابوت اطمأنوا وسكنوا إليه وهذا القول أولى بالصحة فعلى هذا كل شيء كانوا يسكنون إليه فهو سَكِينَةٌ فيحمل على جميع ما قيل فيه لأن كل شيء يسكن إليه القلب فهو سَكِينَةٌ ولم يرد فيه نص صريح فلا يجوز تصويب قول وتضعيف آخر.

وقوله تعالى: ﴿وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون﴾ يعني موسى وهارون أنفسهما بدليل قوله ﷺ لأبي موسى الأشعري: «لقد أوتيت زمماراً من مزامير آل داود» فالمراد به داود نفسه. واختلفوا في تلك البقية التي ترك

فذلك قوله تعالى: ﴿وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت﴾، وكانت قصة التابوت أن الله تعالى أنزل تابوتاً على آدم فيه صورة الأنبياء عليهم السلام، وكان من عود الشمشاد نحواً من ثلاثة أذرع في ذراعين، فكان عند آدم إلى أن مات، ثم بعد ذلك عند شيث، ثم توارثه أولاد آدم إلى أن بلغ إبراهيم، ثم عاد عند إسماعيل لأنه كان أكبر ولده، ثم عند يعقوب ثم كان في بني إسرائيل إلى أن وصل إلى موسى، فكان موسى يضع فيه التوراة، ومتاعاً من متاعه، فكان عنده إلى أن مات موسى عليه السلام، ثم تداولته أنبياء بني إسرائيل إلى وقت أشمويل، وكان فيه ما ذكر الله تعالى: ﴿فيه سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، اختلفوا في السكينة ما هي؟ قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ريح خجوج هفافة لها رأسان، ووجه كوجه الإنسان، وعن مجاهد: شيء يشبه الهرة له رأس كرأس الهرة وذنب كذنب الهرة وله جناحان، وقيل: له عینان لهما شعاع وجناحان من زمرّد وزبرجد فكانوا إذا سمعوا صوته تيقنوا بالنصرة، وكانوا إذا خرجوا وضعوا التابوت قدامهم، فإذا سار ساروا، وإذا وقف وقفوا، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: هي طشت من ذهب من الجنة، كان يغسل فيه قلوب الأنبياء، وعن وهب بن منبه قال: هي روح من الله يتكلم إذا اختلفوا في شيء يخبرهم ببيان ما يريدون، وقال عطاء بن أبي رباح: هي ما يعرفون من الآيات فيسكنون إليها، وقال قتادة والكلبي: السكينة فعيلة من السكون أي: طمأنينة من ربكم، ففي أي مكان كان التابوت اطمأنوا إليه وسكنوا، ﴿وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون﴾، يعني: موسى وهارون أنفسهما، كان فيه لوحان من التوراة

آل موسى وآل هارون فقيل رضاض من الألواح وعصا موسى وقيل عصا موسى وعصا هارون وشيء من الألواح التوراة وقيل كانت العلم والتوراة. وقيل كان فيه عصا موسى ونعلاه وعصا هارون وعمامته وقفيز من المن الذي ينزل على بني إسرائيل فكان التابوت عند بني إسرائيل يتوارثونه قرناً بعد قرن وكانوا إذا اختلفوا في شيء تحاكموا إليه فيتكلم ويحكم بينهم. وكانوا إذا حضروا القتال قدموه بين أيديهم يستفتحون به على عدوهم فينصرون فلما عصوا وأفسدوا سلط الله عز وجل عليهم العمالة فغلبوهم على التابوت وأخذوه منهم وكان السبب في ذلك أنه كان لعليل وهو الذي ربي أشمويل ابنان شابان وكان عليل حبر بني إسرائيل وصاحب قربانهم في زمنه فأحدث ابنه في القربان شيئاً لم يكن فيه وذلك أنه كان منوط القربان الذي ينوطونه كلايين فما أخرجنا كانا للكهان الذي كانا ينوطه فجعل ابنه كلاليب. وكان النساء يصلين في بيت المقدس فيتشبهان بهن فأوحى إلى أشمويل: أن انطلق إلى عليلي وقل له منعك حب الولد من أن تزجر ابنيك عن أن يحدثا في قرباني وقديسي شيئاً وأن يعصيانني فلا تزعن الكهانة منك ومن ولدك ولأهلكك وإياهما. فأخبره أشمويل بذلك ففرغ وسار إليهم عدوهم من حولهم فأمر عليلي ابنه أن يخرج بالناس فيقاتل ذلك العدو فخرجوا وأخرجوا معهما التابوت فلما تهيؤوا القتال جعل عليلي يتوقع الخبر فجاءه رجل فأخبره أن الناس قد انهزموا وقد قتل ابنه قال: فما فعل في التابوت قال أخذه العدو. وكان عليلي قاعداً على كرسيه فشهو ووقع على قفاه فمات فخرج أمر بني إسرائيل وتفرقوا إلى أن بعث الله طالوت ملكاً فسألوا أشمويل البينة على صحة ملك طالوت فقال لهم نبيهم يعني أشمويل: إن آية ملكه يعني علامة ملكة التي تدل على صحته أن يأتيكم التابوت وكانت قصة رجوع التابوت على ما ذكره أصحاب الأخبار أن الذين أخذوا التابوت من بني إسرائيل أتوا به قرية من قرى فلسطين يقال لها أزدود فجعلوه في بيت أصنام لهم ووضعوه تحت الصنم الأعظم فأصبحوا من الغد والصنم تحته فأخذوه ووضعوه فوقه وسمروا قديمي الصنم على التابوت فأصبحوا وقد قطعت يد

ورضاض الألواح التي تكسرت، وكان فيه عصا موسى ونعلاه، وعمامة هارون وعصاه، وقفيز من المن الذي كان ينزل على بني إسرائيل، فكان التابوت عند بني إسرائيل وكانوا إذا اختلفوا في شيء تكلم وحكم بينهم، وإذا حضروا القتال قدموه بين أيديهم فيستفتحون به على عدوهم، فلما عصوا وأفسدوا سلط الله عليهم العمالة فغلبهم على التابوت، وكان السبب في ذلك أنه كان لعليل العالم الذي ربي أشمويل عليه السلام ابنان شابان وكان عليل حبرهم وصاحب قربانهم، فأحدث ابنه في القربان شيئاً لم يكن فيه، وذلك أنه كان لعليل منوط القربان الذي كانا ينوطونه به كلايين، فما أخرجنا كان للكهان الذي ينوطه فجعل ابنه كلاليب، وكان النساء يصلين في بيت المقدس فيتشبهان بهن، فأوحى الله تعالى إلى أشمويل عليه السلام انطلق إلى عليلي فقل له: منعك حب الولد من أن تزجر ابنيك عن أن يحدثا في قرباني وقديسي شيئاً، وأن يعصيانني فلا تزعن الكهانة منك ومن ولدك ولأهلكك وإياهم، فأخبر أشمويل عليلي بذلك ففرغ فزار إليهم عدوهم من حولهم فأمر ابنه أن يخرج بالناس فيقاتل ذلك العدو، فخرجوا وأخرجوا معهما التابوت فلما تهيؤوا للقتال جعل عليلي يتوقع الخبر ماذا صنعوا، فجاءه رجل وهو قاعد على كرسيه فقال: إن الناس قد انهزموا وإن أبنيك قد قُتلا، قال: فما فعل التابوت؟ قال: ذهب به العدو فشهو ووقع على قفاه من كرسيه ومات، فخرج أمر بني إسرائيل وتفرقوا إلى أن بعث الله طالوت ملكاً، فسألوه البينة فقال لهم نبيهم: إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت، وكانت قصة التابوت أن الذين سبوا التابوت أتوا به قرية من قرى فلسطين يقال لها أزدود وجعلوه في بيت صنم لهم ووضعوه تحت الصنم الأعظم فأصبحوا من الغد والصنم تحته فأخذوه ووضعوه فوقه وسمروا قديمي الصنم على التابوت فأصبحوا وقد قطعت يد الصنم ورجلاه، وأصبح ملقى تحت التابوت، وأصبحت أصنامهم منكسة فأخرجوه من بيت الصنم ووضعوه في ناحية من مدينتهم، فأخذ أهل تلك

الصنم ورجلاه وأصبح الصنم ملقى تحت التابوت وأصبحت أصنامهم منكسة فأخرجوا التابوت من بيت الأصنام ووضعوه في ناحية من مدينتهم فأخذ أهل تلك الناحية وجع في أعناقهم حتى هلك أكثرهم . فقال بعضهم لبعض أليس قد علمتم أن إله بني إسرائيل لا يقوم له شيء فأخرجوه إلى قرية أخرى فبعث الله على أهل تلك الناحية فأرة فكانت الفأرة تبيت مع الرجل فيصبح ميتاً قد أكلت ما في جوفه . فأخرجوه إلى الصحراء ودفنوه في مخرة لهم فكان كل من تبرز هناك أخذه الباسور والقولنج فتحيروا فيه فقالت لهم امرأة من بني إسرائيل كانت عندهم وهي من بنات الأنبياء : لا تزالون ترون ما تكرهون ما دام هذا التابوت فيكم فأخرجوه عنكم . فأتوا بعجلة بإشارة تلك المرأة وحملوا عليها التابوت ثم علقوها في ثورين وضربوا جنوبهما فأقبل الثوران يسيران ووكل الله بالثورين أربعة أملاك يسوقونهما فأقبلا حتى وقفا على أرض بني إسرائيل فكسرا نيريهما وقطعا حبالهما ووضعوا التابوت في أرض فيها حصاد لبني إسرائيل ورجعا إلى أرضهما ما لم يرع بني إسرائيل إلا والتابوت عندهم فكبروا وحمدوا الله تعالى .

﴿تحمله الملائكة﴾ أي تسوقه . وقال ابن عباس جاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض وهم ينظرون إليه حتى وضعته عند طالوت . وقال الحسن كان التابوت مع الملائكة في السماء فلما ولي طالوت الملك حملته الملائكة ووضعته بينهم . وقال قتادة بل كان التابوت في التيه خلفه موسى عند يوشع بن نون فبقي هناك فأقبلت الملائكة تحمله حتى وضعته في دار طالوت فأصبح في داره فأقروا بملكه ﴿إن في ذلك لآية لكم﴾ يعني قال لهم نبيهم أشمويل إن في مجيء التابوت تحمله الملائكة لآية لكم يعني علامة ودلالة على صدقي فيما أخبرتكم أن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ يعني مصدقين بذلك قال المفسرون فلما جاءهم التابوت وأقروا بالملك لطالوت تأهب للخروج إلى الجهاد فأسرعوا لطاعته وخرجوا معه وذلك قوله تعالى : .

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّكَ اللَّهُ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا

الناحية وجع في أعناقهم حتى هلك أكثرهم ، فقال بعضهم لبعض : أليس قد علمتم أن إله بني إسرائيل لا يقوم له شيء فأخرجوه إلى قرية كذا ، فبعث الله على أهل تلك القرية فأراً فكانت الفأرة تبيت مع الرجل فيصبح ميتاً قد أكلت ما في جوفه ، فأخرجوه إلى الصحراء فدفنوه في مخرة لهم ، فكان كل من تبرز هناك أخذه الباسور والقولنج فتحيروا ، فقالت لهم امرأة كانت عندهم من سبي بني إسرائيل من أولاد الأنبياء : لا تزالون ترون ما تكرهون ما دام هذا التابوت فيكم فأخرجوه عنكم ، فأتوا بعجلة ، بإشارة تلك المرأة ، وحملوا عليها التابوت ، ثم علقوها على ثورين وضربوا جنوبهما ، فأقبل الثوران يسيران ، ووكل الله تعالى بهما أربعة من الملائكة يسوقونها ، فأقبلا حتى وقفا على أرض بني إسرائيل فكسرا نيريهما وقطعا حبالهما ووضعوا التابوت في أرض فيها حصاد لبني إسرائيل ورجعا إلى أرضهما ، فلم يرع بني إسرائيل إلا بالتابوت ، فكبروا وحمدوا الله ، فذلك قوله تعالى : ﴿ تحمله الملائكة ﴾ ، أي : تسوقه ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : جاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض وهم ينظرون إليه حتى وضعته عند طالوت ، وقال الحسن : كان التابوت مع الملائكة في السماء فلما ولي طالوت الملك حملته الملائكة ووضعته بينهم ، وقال قتادة : بل كان التابوت في التيه خلفه موسى عبد يوشع بن نون فبقي هناك ، فحملته الملائكة حتى وضعته في دار طالوت فأقروا بملكه ، ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ : لعلهم ، ﴿ لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : إن التابوت وعصى موسى في بحيرة طبرية ، وإنهما يخرجان قبل يوم القيامة .

مَعَهُمْ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ كَم مِّنْ فَتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فَتْنَهُ كَثِيرَةً يَا ذَانِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾

﴿فلما فصل طالوت بالجنود﴾ أي خرج وأصل الفصل القطع يعني قطع مستقره شاخصاً إلى غيره فخرج طالوت من بيت المقدس بالجنود وهم سبعون ألف مقاتل . وقيل ثمانون ألفاً وقيل مائة وعشرون ألفاً ولم يتخلف عنه إلا كبير لكبره أو مريض لمرضه أو معذور لعذره وذلك أنهم لما رأوا التابوت لم يشكوا في النصر فسارعوا إلى الخروج في الجهاد وكان مسيرهم في حر شديد فشكوا إلى طالوت قلة الماء بينهم وبين عدوهم وقالوا إن المياه لا تحملنا فادع الله أن يجري لنا نهراً ﴿فقال﴾ طالوت ﴿إن الله مبتليكم بنهر﴾ أي مختبركم به لتبين طاعتكم وهو أعلم بذلك قال ابن عباس هو نهر فلسطين وقيل هو نهر عذب بين الأردن وفلسطين ﴿فمن شرب منه فليس مني﴾ أي فليس من أهل ديني وطاعتي ﴿ومن لم يطعمه﴾ أي لم يذقه يعني الماء ﴿فإنه مني﴾ يعني من أهل طاعتي ﴿إلا من اغترف غرفة بيده﴾ قرء بفتح الغين وضمها لغتان، وقيل الغرفة بالضم التي تحصل في الكف من الماء والغرفة بالفتح الاغتراف فالضم اسم والفتح مصدر ﴿فشربوا منه﴾ يعني من النهر ﴿إلا قليلاً منهم﴾ قيل هم أربعة آلاف لم يشربوا منه وقيل ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً وهو الصحيح ويدل على ذلك ما روي عن البراء بن عازب قال : «كان أصحاب محمد ﷺ يتحدثون أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ولم يجاوزوه معه إلا مؤمن بضعة عشر وثلاثمائة» أخرجه البخاري قيل البضع هنا ثلاثة عشر، فلما وصلوا إلى النهر ألقى عليهم العطش فشرب منه الكل إلا هذا العدد القليل وكان من اغترف منه غرفة كما أمره الله تعالى كفته لشربه وشرب دوابه وقوي قلبه وصح إيمانه وعبر النهر سالماً والذين شربوا منه وخالفوا أمر الله تعالى اسودت شفاههم وغلبهم العطش فلم يروا وجبنوا وبقوا على شط النهر ولم يجاوزوه، وقيل جاوزوه كلهم ولكن الذين شربوا لم يحضروا القتال

قوله تعالى : ﴿ فلما فصل طالوت بالجنود ﴾ ، أي : خرج بهم ، وأصل الفصل : القطع ، يعني : قطع مستقره شاخصاً إلى غيره ، فخرج طالوت من بيت المقدس بالجنود وهم يومئذ سبعون ألف مقاتل ، وقيل : ثمانون ألفاً لم يتخلف عنه إلا كبيرٌ لهزمه أو مريضٌ لمرضه ، أو معذور لعذره ، وذلك أنهم لما رأوا التابوت لم يشكوا في النصر فتسارعوا إلى الجهاد ، فقال طالوت : لا حاجة لي في كل ما أرى لا يخرج معي رجل يني بناءً لم يفرغ منه ، ولا صاحب تجارة يشتغل بها ، ولا رجل عليه دين ولا رجل تزوج امرأة ولم يني بها ، ولا يتبعني إلا الشاب النشيط الفارغ ، فاجتمع له ثمانون ألفاً من شرطه ، وكان في حرٍّ شديد فشكوا قلة الماء بينهم وبين عدوهم ، فقالوا : إن المياه قليلة لا تحملنا فادعُ الله أن يجري لنا نهراً ، ﴿ قال ﴾ طالوت : ﴿ إن الله مبتليكم بنهر ﴾ : مختبركم ليري طاعتكم وهو أعلم ، ﴿ بنهر ﴾ قال ابن عباس والسدي : هو نهر فلسطين ، وقال قتادة : نهر بين أردن وفلسطين عذب ، ﴿ فمن شرب منه فليس مني ﴾ ، أي : من أهل ديني وطاعتي ، ﴿ ومن لم يطعمه ﴾ : لم يشربه ﴿ فإنه مني ﴾ إلا من اغترف غرفة بيده ﴾ ، قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو ﴿ غرفة ﴾ بفتح الغين ، وقرأ الآخرون بالضم وهما لغتان ، قال الكسائي : الغرفة بالضم الذي يحصل في الكف من الماء إذا غرف ، والغرفة بالفتح : الاغتراف ، فالضم اسم والفتح مصدر ، ﴿ فشربوا منه إلا قليلاً منهم ﴾ ، نصب على الاستثناء ، واختلفوا في القليل الذين لم يشربوا ، فقال السدي : كانوا أربعة آلاف ، وقال غيره : ثلاثمائة وبضعة عشر وهو الصحيح ، لما أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي ، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد الله بن رجاء أنا إسرائيل عن أبي

وإنما قاتل أولئك القليل الذين لم يشربوا وهو قوله تعالى : ﴿ فلما جاوزوه ﴾ يعني جاوز النهر طالوت ﴿ والذين آمنوا معه ﴾ يعني أولئك القليل ﴿ قالوا ﴾ يعني الذين شربوا من النهر وخالفوا أمر الله تعالى وكانوا أهل شك ونفاق فعلى هذا يكون قد جاوز النهر مع طالوت المؤمن والطائع والعاصي فلما رأوا العدو قال المنافقون ﴿ لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾ فأجابهم المؤمنون بقولهم ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة ﴾ وقيل لم يجاوز النهر مع طالوت إلا المؤمنون خاصة لقوله تعالى : ﴿ فلما جاوزوه هو والذين آمنوا معه ﴾ . فإن قلت فعلى هذا القول من القائل « لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » . قلت يحتمل أن يكون أهل الإيمان وهم الثلاثمائة وبضعة عشر انقسموا إلى قسمين قسم حين رأوا العدو وكثرته وقلة المؤمنين قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده فأجابهم القسم الآخر بقولهم ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ ومعنى لا طاقة لنا لا قوة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴿ قال الذين يظنون ﴾ أي يستيقنون ويعلمون ﴿ أنهم ملاقوا الله ﴾ أي ملاقوا ثواب الله ورضوانه في الدار الآخرة ﴿ كم من فئة قليلة ﴾ الفئة الجماعة لا واحد له من لفظه كالرھط ﴿ غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴾ أي بقضاء الله وإرادته ﴿ والله مع الصابرين ﴾ يعني بالنصر والمعونة . قوله عز وجل :

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾

﴿ ولما برزوا ﴾ يعني طالوت وجنوده المؤمنين ﴿ لجالوت وجنوده ﴾ يعني الكافرين ومعنى برزوا صاروا بالبراز من الأرض وهو ما ظهر واستوى منها ﴿ قالوا ﴾ يعني المؤمنين أصحاب طالوت ﴿ ربنا أفرغ ﴾ أي اصبب ﴿ علينا صبراً وثبت أقدامنا ﴾ أي قو قلوبنا لتثبت أقدامنا ﴿ وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ وذلك أن جالوت وقومه كانوا يعبدون الأصنام فسأل المؤمنون الله أن ينصرهم على القوم الكافرين .

إسحق عن البراء قال : كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن عدّة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ولم يجاوز معه إلا مؤمن وهم بضعة عشر وثلاثمائة . وروى : ثلاثمائة وثلاثة عشر، فلما وصلوا إلى النهر وقد ألقى الله عليهم العطش، فشرب منه الكل إلا هذا العدد القليل فمن اغترف غرفة كما أمر الله قوي قلبه وصحّ إيمانه، وعبر النهر سالماً وكفته تلك الغرفة الواحدة لشربه وحمله ودوابه، والذين شربوا وخالفوا أمر الله اسودّت شفاههم وغلبهم العطش، فلم يروا ويقوا على شط النهر وجنبوا عن لقاء العدو، فلم يجاوزوا ولم يشهدوا الفتح، وقيل : كلهم جاوزوا ولكن لم يحضر القتال إلا الذين لم يشربوا، ﴿ فلما جاوزوه ﴾، يعني : النهر ﴿ هو ﴾، يعني : طالوت، ﴿ والذين آمنوا معه ﴾، يعني : القليل، ﴿ قالوا ﴾، يعني : الذين شربوا وخالفوا أمر الله وكانوا أهل شك ونفاق، ﴿ لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما والسدي : فانحرفوا ولم يجاوزوا، ﴿ قال الذين يظنون ﴾ : يستيقنون ﴿ أنهم ملاقوا الله ﴾، وهم الذين ثبتوا مع طالوت، ﴿ كم من فئة ﴾ : جماعة، وهي جمع لا واحد له من لفظه، وجمعها فئات وفؤن، في الرفع، وفئين في الخفض والنصب، ﴿ قليلة ﴾ غلبت فئة كثيرة بإذن الله : بقضائه وقدره وإرادته، ﴿ والله مع الصابرين ﴾ : بالنصر والمعونة .

﴿ ولما برزوا ﴾، يعني : طالوت وجنوده، يعني : المؤمنين، ﴿ لجالوت وجنوده ﴾ المشركين، ومعنى برزوا : صاروا بالبراز من الأرض وهو ما ظهر واستوى منها، ﴿ قالوا ربنا أفرغ علينا ﴾ : أنزل واصبب ﴿ صبراً وثبت أقدامنا ﴾ : قو قلوبنا، ﴿ وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ .

فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾

﴿فهزموهم بإذن الله﴾ يعني أن الله تعالى استجاب دعاء المؤمنين فأفرغ عليهم الصبر وثبت أقدامهم ونصرهم على القوم الكافرين حين التقوا فهزموهم بإذن الله يعني بقضائه وإرادته وأصل الهزم في اللغة الكسر أي كسروهم وردوهم ﴿وقتل داود جالوت﴾ وكانت قصة قتله ما ذكره أهل التفسير وأصحاب الأخبار أنه عبر النهر فيمن عبر مع طالوت أيشا أبو داود في ثلاثة عشر ابناً له وكان داود أصغرهم وكان يرمي بالقذافة فقال داود لأبيه يوماً يا أبتاه ما أرمي بقذافتي شيئاً إلا صرعته، فقال له أبوه أبشر يا بني فإن الله قد جعل رزقك في قذافتك ثم أتاه مرة أخرى فقال: يا أبتاه لقد دخلت بين الجبال فوجدت أسداً رابضاً فركبته وأخذت بأذنه فلم يهجني فقال له أبوه: أبشر يا بني فإن هذا خير يريدك الله بك، ثم أتاه يوماً آخر فقال له: يا أبتاه إني لأمشي بين الجبال فأسبح فلا يبقى جبل إلا سبح معي فقال: يا بني أبشر فإن هذا خير أعطاكه الله تعالى. قالوا فأرسل جالوت الجبار إلى طالوت ملك بني إسرائيل أن ابرز إلي وأبرز إليك أو أبرز إلي من يقاتلني، فإن قتلتني فلكم ملكي وإن قتلتني فلي ملككم فشق ذلك على طالوت ونادى في عسكره من قتل جالوت زوجته ابنتي وناصفته ملكي فهاب الناس جالوت فلم يجبه أحد فسأل طالوت نبيهم أن يدعوا الله في ذلك فدعا الله فأتى بقرن فيه دهن القدس وتنور حديد. وقيل له إن صاحبكم الذي يقتل جالوت هو الذي إذا وضع هذا القرن على رأسه سال على رأسه حتى يدهن من رأسه ولا يسيل على وجهه بل يكون على رأسه كهيئة الإكليل ويدخل في هذا التنور فيملؤه ولا يتقلقل فيه فدعا طالوت بني إسرائيل وجربهم فلم يوافقوه

﴿فهزموهم بإذن الله﴾ أي: بعلم الله تعالى، ﴿وقتل داود جالوت﴾، وصفة قتله: قال أهل التفسير: عبر النهر مع طالوت فيمن عبر إيشا أبو داود في ثلاثة عشر ابناً له وكان داود أصغرهم وكان يرمي بالقذافة، فقال لأبيه يوماً: يا أبتاه ما أرمي بقذافتي شيئاً إلا صرعته، فقال له: أبشر يا بني فإن الله جعل رزقك في قذافتك، ثم أتاه مرة أخرى فقال: يا أبتاه لقد دخلت بين الجبال فوجدت أسداً رابضاً فركبته فأخذت بأذنيه فلم يهجني، فقال: أبشر يا بني فإن هذا خير يريدك الله بك، ثم أتاه يوماً آخر فقال: يا أبتاه إني لأمشي بين الجبال فأسبح فما يبقى جبل إلا سبح معي، فقال: أبشر يا بني فإن هذا خير أعطاكه الله تعالى، فأرسل جالوت إلى طالوت أن ابرز لي أو أبرز إلي من يقاتلني، فإن قتلتني فلكم ملكي وإن قتلتني فلي ملككم فشق ذلك على طالوت فنادى في عسكره من قتل جالوت زوجته ابنتي وناصفته ملكي فهاب الناس جالوت فلم يجبه أحد، فسأل طالوت نبيهم أن يدعوا الله تعالى فدعا الله في ذلك فأتى بقرن فيه دهن القدس وتنور في حديد فليل: إن صاحبكم الذي يقتل جالوت هو الذي يوضع هذا القرن على رأسه فيغلي الدهن حتى يدهن منه رأسه ولا يسيل على وجهه بل يكون على رأسه كهيئة الإكليل، ويدخل في هذا التنور فيملؤه ولا يتقلقل فيه، فدعا طالوت بني إسرائيل فجربهم فلم يوافقوه منهم أحد، فأوحى الله إلى نبيهم أن في ولد إيشا من يقتل الله به جالوت فدعا طالوت إيشا، فقال: أعرض عليّ بنيك، فأخرج الله اثني عشر رجلاً أمثال السواري، فجعل يعرضهم على القرن فلا يرى شيئاً فقال لإيشا: هل بقي لك ولد غيرهم؟ فقال: لا، فقال النبي ﷺ: «يا رب إنه زعم أن لا ولد له غيرهم»، فقال: كذب، فقال النبي ﷺ: «إن ربي كذبك»، فقال: صدق الله يا نبي الله إن لي ابناً صغيراً يقال له داود، استحيت أن يراه الناس لقصر قامته وحقارته فخلفته في الغنم يرعاها وهو في شعب كذا وكذا، وكان داود رجلاً قصيراً مسقاماً مصفراً أزرق أمرار، فدعا طالوت، ويقال بل خرج

أحد منهم فأوحى الله إلى نبيهم إن في ولد إيشا من يقتل جالوت فدعا طالوت إيشا وقال له أعرض على بنيك فأخرج له اثني عشر رجلاً أمثال السواري فجعل يعرض واحداً واحداً على القرن فلا يرى شيئاً فقال لإيشا هل بقي لك ولد غير هؤلاء فقال لا؟ فقال النبي ﷺ يا رب إنه قد زعم أنه لا ولد غيرهم فقال له كذب فقال له النبي : إن ربي قد كذبك، فقال إيشا: صدق ربي يا نبي الله إن لي ولداً صغيراً مسقماً اسمه داود استحيت أن يراه الناس لقصر قامته وحقارته فجعلته في الغنم يرعاها وهو في شعب كذا وكان داود عليه السلام رجلاً قصيراً مسقماً أزرق أضر مصفراً فدعا به طالوت ويقال إنه خرج إليه فوجده في الوادي وقد سال الوادي ماء وهو يحمل شاتين شاتين يعبر بهما السيل إلى الزريبة التي يريح فيها غنمه، فلما رآه طالوت قال هذا هو الرجل المطلوب لا شك فيه فهذا يرحم البهائم فهو بالناس أرحم، فدعاه طالوت ووضع القرن على رأسه فشش وفاض فقال له طالوت هل لك أن تقتل جالوت وأزوجك ابنتي وأجري خاتمك في ملكي قال نعم فقال له: هل أنست من نفسك شيئاً تتقوى به على قتله قال نعم أنا أرى الغنم فيجيء الأسد أو النمر أو الذئب فيأخذ شاة من الغنم فأقوم فأفتح لحييه عنها وأخرجها من قفاه، فأخذ طالوت داود وردة إلى العسكر، فمر داود عليه السلام في طريقه بحجر فناداه يا داود احملني فإني حجر هارون فحملة ثم مر بحجر آخر فقال يا داود احملني فإني حجر موسى فحملة ثم مر بحجر آخر فقال له: يا داود احملني فإني حجر الذي تقتل به جالوت، فحملة فوضع الثلاثة في مخلاته، فلما رجع طالوت إلى العسكر ومعه داود وتصافوا للقتال برز جالوت يطلب المبارزة فانتدب له داود عليه السلام فأعطى داود فرساً وسلاحاً فلبس السلاح وركب الفرس وسار قريباً ثم رجع إلى طالوت فقال من حوله: جبن الغلام فجاء فوقف على طالوت فقال له ما شأنك فقال له داود عليه السلام إن لم ينصرني ربي لم يغن هذا السلاح عني شيئاً وإن نصرني فلا حاجة لي به

طالوت إليه فوجد الوادي قد سال بينه وبين الزريبة التي كان يريح إليها فوجده يحمل شاتين يجيز بهما السيل ولا يخوض بهما الماء فلما رآه قال: هذا هو لا شك فيه هذا يرحم البهائم فهو بالناس أرحم، فدعاه ووضع القرن على رأسه ففاض، فقال طالوت: هل لك أن تقتل جالوت وأزوجك ابنتي وأجري خاتمك في ملكي؟ قال: نعم، قال: وهل أنست من نفسك شيئاً تتقوى به على قتله؟ قال: نعم، أنا أرى الغنم فيجيء الأسد أو النمر أو الذئب فيأخذ شاة فأقوم إليه فأفتح لحييه عنها وأخرجها من قفاه، فأخذ طالوت داود وردة إلى عسكره، فمر داود عليه السلام في طريقه بحجر فناداه الحجر: يا داود احملني فإني حجر هارون الذي قتل بي ملك كذا وكذا فحملة في مخلاته، ثم مر بحجر آخر فقال: احملني فإني حجر موسى الذي قتل بي ملك كذا وكذا فحملة في مخلاته، ثم مر بحجر آخر فقال: احملني فإني حجر الذي تقتل بي جالوت فوضعها في مخلاته، فلما تصافوا للقتال وبرز جالوت وسأل المبارزة، انتدب له داود فأعطاه طالوت فرساً ودرعاً وسلاحاً فلبس السلاح وركب الفرس وسار قريباً ثم انصرف إلى الملك فقال من حوله: جبن الغلام فجاء فوقف على الملك، فقال: ما شأنك؟ فقال له داود: إن الله إن لم ينصرني لم يغن عني هذا السلاح شيئاً فدعني أقاتل جالوت كما أريد، قال: فافعل ما شئت، قال: نعم، فأخذ داود مخلاته فتقلدها وأخذ المقلاع ومضى نحو جالوت، وكان جالوت من أشد الرجال وأقواهم وكان يهزم الجيوش وحده، وكان له بيضة فيها ثلاثمائة رطل حديد، فلما نظر إلى داود ألقى الله في قلبه الرعب، فقال له: أنت تبرز إلي؟ قال: نعم، وكان جالوت على فرس أبلق وعليه السلاح التام قال: فأيتيني بالمقلاع والحجر كما تأتي الكلب؟ قال داود عليه السلام: نعم أنت شر من الكلب، قال جالوت: لا جرم لأقسم لحكمك بين سباع الأرض وطير السماء، فقال داود: أو يقسم الله لحكمك، فقال داود: باسم إله إبراهيم وأخرج حجراً ثم أخرج الآخر وقال: باسم إله إسحق ووضع في مقلاعه ثم أخرج الثالث وقال: باسم إله يعقوب ووضع في مقلاعه فصارت كلها حجراً واحداً، ودور داود عليه

فدعني أقاتل كما أريد قال نعم فأخذ داود مخلاته وتقلدها وأخذ المقلاع بيده ومضى نحو جالوت وكان جالوت من أشد الناس وأقواهم وكان يهزم الجيوش وحده وكان له بيضة حديد وزنها ثلاثمائة رطل فلما نظر إلى داود وهو يريد له وقع الرعب في قلبه فقال له: جالوت وأنت تبرز لي قال: نعم وكان جالوت على فرس أبلق عليه السلاح التام فقال: اتيتني بالمقلاع والحجر كما يؤتى الكلب فقال: نعم وأنت شر من الكلب. قال جالوت: لا جرم لأقسم لحملك بين سباع الأرض وطير السماء، فقال داود عليه السلام: أو يقسم الله لحملك، ثم قال داود: باسم إله إبراهيم، وأخرج حجراً ثم قال باسم إله إسحاق وأخرج حجراً ثم قال باسم إله يعقوب وأخرج حجراً ووضعها في مقلاعه فصارت الثلاثة حجراً واحداً، وأدار داود المقلاع ورمى به جالوت فسخر الله له الريح فحملت الحجر حتى أصاب أنف البيضة فخلط دماغ جالوت وخرج من قفاه وقتل من ورائه ثلاثين رجلاً، وخر جالوت صريعاً قتيلاً، فأخذ داود يعجره حتى ألقاه بين يدي طالوت ففرح بنو إسرائيل بذلك فرحاً شديداً وهزم الله الجيش فرجع طالوت بالناس إلى المدينة سالمين غانمين وجعل الناس يذكرون داود فجاء داود إلى طالوت وقال له: أنجز لي ما وعدتني به فقال له أتريد ابنة الملك بغير صداق فقال له داود ما شرطت علي صداقاً وليس لي شيء فقال: لا أكلفك إلا ما تطيق أنت رجل جريء وفي حيالنا أعداء لنا غلف فإن قتلت مائتي رجل وجئتني بغلفهم زوجتك ابنتي فأتاهم فجعل كلما قتل واحداً منهم نظم غلفته في خيط حتى نظم مائتي غلفة فجاء بها إلى طالوت وألقاها بين يديه وقال ادفع إلي امرأتي فزوجه ابنته وأجرى خاتمه في ملكه، فمال الناس إلى داود عليه السلام وأحبوه وأكثروا ذكره فحسده طالوت وأراد قتله فأخبر بذلك ابنة طالوت رجل يقال له ذو العينين فأخبرت بذلك داود وقالت له: إنك مقتول الليلة قال ومن يقتلني قالت: أبي قال: وهل أجزمت جرماً يوجب القتل قالت حدثني بذلك من لا يكذب

السلام المقلاع ورمى به فسخر الله له الريح حتى أصاب الحجر أنف البيضة فخلط دماغه وخرج من قفاه، وقتل من ورائه ثلاثين رجلاً وهزم الله تعالى الجيش وخر جالوت قتيلاً فأخذ يعجره حتى ألقاه بين يدي طالوت، ففرح المسلمون فرحاً شديداً، وانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين، والناس يذكرون داود، فجاء داود طالوت وقال: أنجز لي ما وعدتني، فقال تريد ابنة الملك بغير صداق، فقال داود: ما شرطت علي صداقاً وليس لي شيء، فقال: لا أكلفك إلا ما تطيق أنت رجل جريء وفي حيالنا أعداء لنا غلف فإذا قتلت منه مائتي رجل وجئتني بغلفهم زوجتك ابنتي، فأتاهم فجعل كلما قتل واحداً منهم نظم غلفته في خيط حتى نظم مائتي غلفة فجاء بها إلى طالوت وألقاها إليه، وقال: ادفع إلي امرأتي فزوجه ابنته وأجرى خاتمه في ملكه فمال الناس إلى داود وأحبوه، وأكثروا ذكره فحسده طالوت وأراد قتله فأخبر ذلك ابنة طالوت رجل يقال له ذو العينين، فقالت ابنة طالوت لداود: إنك مقتول في هذه الليلة، قال: ومن يقتلني؟ قالت: أبي، قال: فهل أجزمت جرماً؟ فقالت: حدثني من لا يكذب ولا عليك أن تغيب هذه الليلة حتى تنظر مصداق ذلك، قال: لئن كان أراد ذلك ما أستطيع خروجاً ولكن اثبتني بزق خمر فأتت به فوضعه في مضجعه على السرير وسجّاه ودخل تحت السرير، فدخل طالوت نصف الليل، فقال لها: أين بعلك؟ قالت: هو نائم على السرير، فضربه بالسيف ضربة فسال الخمر، فلما وجد ريح الخمر قال: يرحم الله داود ما كان أكثر شربه للخمر وخرج، فلما أصبح علم أنه لم يفعل شيئاً فقال: إن رجلاً طلبت منه ما طلبت لخليق أن لا يدعني حتى يدرك مني ثأره، فاشتد حجابيه وحرّاسه وأغلق دونه أبوابه، ثم إن داود أتاه ليلة وقد هدأت العيون فأعمى الله سبحانه الحجة وفتح له الأبواب، فدخل عليه وهو نائم على فراشه فوضع سهماً عند رأسه وسهماً عند رجله وسهماً عن شماله، ثم خرج فلما استيقظ طالوت بصّر بالسهم فعرّفها، فقال: يرحم الله تعالى داود هو خير مني ظفرت به فقصدت قتله وظفر بي فكف عني ولو شاء لوضع هذا السهم في حلقي وما أنا بالذي آمنه، فلما كانت القابلة أتاه

ولا عليك أن تغيب الليلة حتى تنظر مصداق ذلك فقال إن كان يريد ذلك فلا أستطيع خروجاً ولكن ائتني بزق خمر فأنته به فوضعه في مضجعه على سريره وسجاه ودخل داود تحت السرير فدخل طالوت نصف الليل فقال لابنته أين بعلك قالت هو نائم على سريره فضربه بالسيف فسال الخمر فلما وجد ريح الخمر قال يرحم الله داود ما كان أكثر شربه للخمر وخرج، فلما أصبح علم أنه لم يفعل شيئاً فقال: إن رجلاً طلبت منه ما طلبت لتحقيق أن لا يدعني حتى يدرك ثأره مني فاشتد حجابيه وحراسه وأغلق دونه أبوابه، ثم إن داود أتاه ليلة وقد هدأت العيون وأعمى الله عنه الحجاب ففتح الأبواب ودخل عليه وهو نائم على فراشه، فوضع سهماً عند رأسه وسهماً عند رجله وسهماً عن يمينه وسهماً عن شماله وخرج فاستيقظ طالوت فبصر بالسهم فعرّفها فقال يرحم الله داود هو خير مني ظفرت به فقصدت قتله وظفر بي فكف عني ولو شاء لوضع هذا السهم في حلقي وما أنا بالذي آمنه فلما كان من الليلة القابلة أتاه ثانياً فأعمى الله عنه الحجاب فدخل عليه وهو نائم فأخذ إبريق وضوئه وكوزه الذي يشرب منه وقطع شعرات من لحيته وشيئاً من طرف ثوبه ثم خرج وتوارى، فلما أصبح طالوت ورأى ذلك سلط على داود العيون وطلبه أشد، الطلب فلم يقدر عليه. ثم إن طالوت ركب يوماً فوجد داود يمشي في البرية فقال اليوم أقتله وركض في أثره فاشتد داود في عدوه. وكان إذا فرغ لم يدرك فدخل غاراً فأوحى الله تعالى إلى العنكبوت فنسجت عليه فلما انتهى طالوت إلى الغار ونظر إلى بناء العنكبوت قال: لو كان دخل هنا لتخرق هذا النسج وانطلق طالوت وتركه فخرج داود حتى أتى جبل المتعبدين فتعبد معهم وطعن العلماء والعباد على طالوت في شأن داود فجعل طالوت لا ينهيه أحد عن قتل داود إلا قتلته فقتل خلقاً كثيراً من العباد والعلماء حتى أتى بامرأة تعلم الاسم الأعظم فأمر خبازه بقتلها فرحمها الخباز فلم يقتلها، وقال: لعلنا نحتاج إلى عالم فتركها ثم وقع في قلب طالوت التوبة والندم على ما فعل وأقبل على البكاء حتى رحمه الناس. وكان كل ليلة يخرج إلى القبور ويكي وينادي أشد الله

ثانياً وأعمى الله الحجاب فدخل عليه وهو نائم فأخذ إبريق طالوت الذي كان يتوضأ منه وكوزه الذي كان يشرب منه وقطع شعرات من لحيته وشيئاً من هذب ثيابه، ثم خرج وهرب وتوارى، فلما أصبح طالوت ورأى ذلك سلط على داود العيون وطلبه أشد الطلب، فلم يقدر عليه، ثم إن طالوت ركب يوماً فوجد داود يمشي في البرية، فقال: اليوم أقتله فركض على أثره واشتد داود وكان إذا فرغ لم يدرك، فدخل غاراً فأوحى الله تعالى إلى العنكبوت فنسج عليه بيتاً فلما انتهى طالوت إلى الغار ونظر إلى بناء العنكبوت قال: لو كان دخل هنا لخرق بناء العنكبوت فتركه ومضى، وانطلق داود وأتى الجبل مع المتعبدين فتعبد فيه فطعن العلماء والعباد على طالوت في شأن داود فجعل طالوت لا ينهيه أحد عن قتل داود إلا قتلته وأغرى على قتل العلماء، فلم يكن يقدر على عالم في بني إسرائيل يطيق قتله إلا قتلته حتى أتى بامرأة تعلم اسم الله الأعظم فأمر خبازه بقتلها، فرحمها الخباز وقال: لعلنا نحتاج إلى عالم فتركها فوقع في قلب طالوت التوبة وندم على ما فعل، وأقبل على البكاء حتى رحمه الناس، وكان كل ليلة يخرج إلى القبور فيكي وينادي أشد الله عبداً يعلم أن لي توبة إلا أخبرني بها فلما أكثر عليهم ناداه مناد من القبور: يا طالوت أما ترضى أن تقتلنا حتى تؤذينا أمواتاً، فازداد بكاءً وحزناً، فرحمه الخباز فقال: ما لك أيها الملك؟ قال: هل تعلم لي في الأرض عالماً أسأله هل لي من توبة؟ فقال الخباز: إنما مثلك مثل ملك نزل قرية عشاء فصاح الديك فتطير منه، فقال: لا تتركوا في القرية ديكا إلا ذبحتموه، فلما أراد أن ينام قال لأصحابه: إذا صاح الديك فأيقظونا حتى نذليج فقالوا له: وهل تركت ديكا نسمع صوته؟ ولكن هل تركت عالماً في الأرض؟ فازداد حزناً وبكاءً فلما رأى الخباز ذلك قال له: رأيته إن دلتك على عالم لعلك أن تقتله، قال: لا، فتوثق عليه الخباز فأخبره أن المرأة العالمة عنده، قال: انطلق بي إليها أسأله هل لي من توبة، وكانت من أهل بيت يعلم الاسم الأعظم، فإذا فئت

عبدًا يعلم لي توبة إلا أخبرني بها فلما كثر ذلك منه ناداه مناد من القبور: يا طالوت أما ترضى أن قتلنا حتى تؤدينا أمواتاً فازداد حزناً وبكاء فتوجه الخباز إلى طالوت لما رأى من حاله وقال: ما لك أيها الملك فأخبره وقال: هل تعلم لي توبة أو تعلم في الأرض عالماً أسأله عن توبتي فقال له الخباز أيها الملك إن دلتك على عالم يوشك أن تقتله فقال لا فتوثق منه باليمين فأخبره أن تلك المرأة العالمة عنده. فقال: انطلق بي إليها لأسألها عن توبتي قال نعم فانطلق به فلما قربا من الباب قال له الخباز: أيها الملك إنها إذا رأتك فزعت ولكن ائت خلفي فلما دخلا عليها قال لها الخباز: يا هذه ألسنت تعلمين حقي عليك؟ قالت: بلى قال فإن لي إليك حاجة فتقصيها قالت نعم قال هذا طالوت قد جاءك يسأل هل له من توبة فلما سمعت بذكر طالوت غشى عليها فلما أفاقت قالت والله ما أعلم له توبة ولكن دلوني على قبر نبي فانطلقوا بها إلى قبر أشمويل فوقف عليه ودعت وكانت تعلم الاسم الأعظم ثم قالت يا صاحب القبر فخرج ينفذ التراب عن رأسه فلما نظر إلى ثلاثتهم قال: ما لكم أقامت القيامة قالت المرأة لا ولكن هذا طالوت قد جاء يسألك هل له من توبة فقال أشمويل: يا طالوت ما فعلت بعدي قال لم أدع من الشر شيئاً إلا فعلته وجئت أطلب التوبة فقال أشمويل يا طالوت كم لك من الولد قال عشرة رجال قال ما أعلم لك من توبة إلا أن تتخلي من ملكك وتخرج أنت وولدك في سبيل الله ثم تقدم ولدك حتى يقتلوا بين يديك ثم تقاتل أنت حتى تقتل آخرهم. ثم إن أشمويل سقط ميتاً ورجع طالوت أحزن ما كان رهبة أن لا يتابعه بنوه على ما يريد. وكان قد بكى حتى سقطت أشفار عينيه ونحل جسمه فجمع أولاده وقال لهم: رأيتم لو دفعت إلى النار هل كنتم تنقذونني منها فقالوا بلى ننقذك بما نقدر عليه قال: فإنها النار إن لم تفعلوا ما أمركم به قالوا: اعرض علينا ما أردت فذكر لهم القصة قالوا: وإنك لمقتول قال نعم قالوا فلا خير لنا في الحياة بعدك قد طابت أنفسنا بالذي سألت. فتجهز هو وولده وخرج طالوت مجاهداً في سبيل الله فتقدم أولاده فقاتلوا حتى قتلوا ثم شد هو من بعدهم فقاتل حتى قتل

رجالهم علمت نساؤهم، فلما بلغ طالوت الباب، قال الخباز: إنها إذا رأتك فزعت، ولكن ائت خلفي، ثم دخلا عليها فقال لها: ألسنت أعظم الناس منةً عليك أنجيتك من القتل وآويتك؟ قالت: بلى، قال: فإن لي إليك حاجة، هذا طالوت يسأل هل لي من توبة، فغشى عليها من الفرق، فقال لها: إنه لا يريد قتلك، ولكن يسألك هل له من توبة؟ قالت: لا والله لا أعلم لطالوت توبة، ولكن أعلم مكان قبر نبي فانطلقت بهما إلى قبر أشمويل فصلت ودعت ثم نادى يا صاحب القبر فخرج أشمويل من القبر ينفذ رأسه من التراب فما نظر إليهم ثلاثتهم قال: ما لكم؟ أقامت القيامة؟ قالت: لا ولكن طالوت يسألك هل له من توبة، قال أشمويل: يا طالوت ما فعلت بعدي؟ قال: لم أدع من الشر شيئاً إلا آتيت وجئت لطلب التوبة، قال له: كم لك عيال، يعني: كم لك من الولد؟ قال: عشرة رجال، قال: ما أعلم لك من توبة إلا أن تتخلي من ملكك وتخرج أنت وولدك تقاتل في سبيل الله، ثم تقدم ولدك حتى يقتلوا بين يديك، ثم تقاتل أنت حتى تقتل آخرهم، ثم رجع أشمويل إلى القبر وسقط وخر ميتاً، ورجع طالوت أحزن ما كان رهبة أن لا يتابعه ولده، وقد بكى حتى سقطت أشفار عينيه ونحل جسمه، فدخل عليه أولاده فقال لهم: رأيتم لو دُفعت إلى النار هل كنتم تفدونني؟ قالوا: بلى نفديك بما قدرنا عليه، قال: فإنها النار إن لم تفعلوا ما أقول لكم، قالوا: فاعرض علينا، فذكر لهم القصة، قالوا: وإنك لمقتول؟ قال: نعم، قالوا: فلا خير لنا في الحياة بعدك قد طابت أنفسنا بالذي سألت، فتجهز بماله وولده فتقدم ولده وكانوا عشرة فقاتلوا بين يديه حتى قتلوا ثم شد هو بعدهم للقتال حتى قُتل، فجاء قاتله إلى داود ليشّره، وقال: قتلت عدوك، فقال داود: ما أنت بالذي تحيا بعده فضرب عنقه، وكان ملك طالوت إلى أن قتل أربعين سنة وأتى بنو إسرائيل إلى داود وأعطوه خزائن طالوت وملكوه على أنفسهم. قال الكلبي والضحاك: ملك داود بعد قتل طالوت سبع سنين، ولم يجتمع بنو

وجاء قاتل طالوت إلى داود فبشره بقتله وقال له: قد قتلت عدوك فقال داود: ما أنت بباقي بعده وقتله فكان ملك طالوت إلى أن قتل مدة أربعين سنة فأتى بنو إسرائيل إلى داود فملكوهم عليهم وأعطوه خزائن طالوت. قال الكلبي والضحاك ملك داود بعد قتل جالوت سبع سنين ولم يجتمع بنو إسرائيل على ملك واحد إلا على داود فذلك قوله تعالى: ﴿وَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾ يعني النبوة جمع الله لداود بين الملك والنبوة ولم يكن كذلك من قبل بل كانت النبوة في سبط والملك في سبط وقيل الحكمة هي العلم مع العمل به ﴿وعلمه مما يشاء﴾ أي وعلم الله داود صنعة الدروع فكان يصنعها ويبيعها وكان لا يأكل إلا من عمل يده، وقيل علمه منطق الطير وقيل علمه الزبور وقيل هو الصوت الطيب والألحان ولم يعط الله أحداً من خلقه مثل صوت داود فكان إذا قرأ الزبور تدنو منه الوحوش حتى يؤخذ بأعناقها وتظله الطير مصيخة له ويركد الماء الجاري وتسكن الرياح عند قراءته، وقيل علمه سياسة الملك وضبطه، وذلك لأنه لم يكن من بيت الملك حتى يتعلمه من آبائه، وقال ابن عباس هو أن الله تعالى أعطاه سلسلة موصولة بالمجرة ورأسها عند صومعته قوتها قوة الحديد ولونها لون النور وحلقها مستديرة مفصلة بالجواهر مدرسة بقضبان اللؤلؤ الرطب فكان لا يحدث في الهواء حدث إلا صلصلت السلسلة فيعلم داود ذلك الحدث ولا يمسه ذو عاهة إلا برىء. وكانوا يتحاكمون إليهما بعد داود إلى أن رفعت فمن تعدى على صاحبه أو أنكره حقاً أتى السلسلة فمن كان صادقاً مديده إلى السلسلة فنالها ومن كان كاذباً لم ينلها فكانت كذلك إلى أن ظهر فيهم المكر والخبث. فبلغنا أن بعض ملوكهم أودع رجلاً جوهرة ثمينة، فلما طالبه بالوديعة أنكره إياها فتحاكما إلى السلسلة، فعمد الذي عنده الجوهرة إلى عكازه فنقرها وجعل الجوهرة فيها واعتمد عليها حتى أتيا السلسلة فقال صاحب الجوهرة: رد على الوديعة فقال صاحبه ما أعرف لك عندي وديعة فإن كنت صادقاً فتناول السلسلة فتناولها بيده

إسرائيل على ملك واحد إلا على داود. فذلك قوله تعالى: ﴿وَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾، يعني: النبوة، جمع الله لداود بين الملك والنبوة، ولم يكن كذلك من قبل كان الملك في سبط والنبوة في سبط، وقيل: الملك والحكمة هو: العلم مع العمل، قوله تعالى: ﴿وعلمه مما يشاء﴾، قال الكلبي وغيره: يعني صنعة الدروع، وكان يصنعها ويبيعها وكان لا يأكل إلا من عمل يده، وقيل: منطق الطير وكلام الجعل والنمل والذرة والخنفاء وحمار قبان، وما أشبههما مما لا صوت لها، وقيل: هو الزبور، وقيل هو الصوت الطيب والألحان، فلم يعط الله أحداً من خلقه مثل صوته، وكان إذا قرأ الزبور تدنو الوحوش حتى يؤخذ بأعناقها، وتظله الطير مصيخة له ويركد الماء الجاري، ويسكن الريح، وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو أن الله تعالى أعطاه سلسلة موصولة بالمجرة ورأسها عند صومعته قوتها قوة الحديد ولونها لون النار وحلقها مستديرة مفصلة بالجواهر مدرسة بقضبان اللؤلؤ الرطب فلا يحدث في الهواء حدث إلا صلصلت السلسلة فيعلم داود ذلك الحدث، ولا يمسه ذو عاهة إلا برىء وكانوا لا يتحاكمون إلا إليها بعد داود عليه السلام إلى أن رفعت، فمن تعدى على صاحبه وأنكر له حقاً أتى السلسلة فمن كان صادقاً مديده إلى السلسلة فتناولها، ومن كان كاذباً لم ينلها، فكانت كذلك إلى أن ظهر بهم المكر والخديعة، فبلغنا أن بعض ملوكها أودع رجلاً جوهرة ثمينة فلما استردها أنكرها فتحاكما إلى السلسلة فعمد الذي عنده الجوهرة إلى عكازه فنقرها وضمنها الجوهرة واعتمد عليها حتى حضر السلسلة فقال صاحب الجوهرة: رد عليّ الوديعة، فقال صاحبه: ما أعرف لك عندي من وديعة، قال: فإن كنت صادقاً فتناول السلسلة فتناولها بيده، فقيل للمنكر: قم أنت فتناولها، فقال لصاحب الجوهرة: خذ عكازتي هذه فاحفظها حتى أتناول السلسلة فأخذها المالك عنده، ثم قام المنكر نحو السلسلة فأخذها، فقال الرجل: اللهم إن كنت تعلم أن هذه الوديعة التي يدعيها عليّ قد وصلت إليه فقرّب مني السلسلة، فمدّ يده فتناولها فتعجب القوم وشكروا فيها فأصبحوا وقد رفع الله السلسلة. قوله تعالى:

وقال للمنكر قم أنت أيضاً فتناولها فقال لصاحب الجوهرة أمسك عكازتي فأخذها الرجل منه وقام المنكر إلى السلسلة وقال: اللهم إن كنت تعلم أن الوديعه التي يدعيها قد وصلت إليه فقرب السلسلة مني ومد يده فتناولها فعجب القوم من ذلك وشكوا فيها فأصبحوا وقد رفع الله السلسلة. قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَوَ أَنَّهُ لَدَفَعَ بَعْضُ النَّاسِ وَهُمْ أَهْلُ الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ بَعْضاً وَهُمْ أَهْلُ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ بَجُنُودِهِ الْمُسْلِمِينَ لَغَلَبَ الْمُشْرِكُونَ عَلَى الْأَرْضِ فَقَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَخَرَّبُوا الْمَسَاجِدَ وَالْبِلَادَ وَقِيلَ مَعْنَاهُ لَوْ دَفَعَ اللَّهُ بِالْمُؤْمِنِينَ وَالْأَبْرَارِ عَنِ الْكُفَّارِ وَالْفَجَّارِ ﴿لَفُسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ يعني لهلكت بمن فيها ولكن الله يدفع بالمؤمن عن الكافر وبالصالح عن الفاجر روى أحمد بن حنبل عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لِيُدْفِعَ بِالْمُسْلِمِ الصَّالِحِ عَنْ مِائَةِ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ جِيرَانِهِ الْبَلَاءَ» ثم قرأ ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴿يعني إن دفع الفساد بهذا الطريق إناعام وإفضال عم الناس كلهم.

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾

﴿تلك آيات الله﴾ يعني القصص التي اقتصها من حديث الألوف وإماتهم وإحيائهم وتمليك طالوت وإظهاره بالآية وهي التابوت وإهلاك الجبابرة على يد صبي ﴿نتلوها عليك بالحق﴾ أي باليقين الذي لا يشك فيه أهل الكتاب لأنه في كتبهم ﴿وإنك لمن المرسلين﴾ يعني حيث تخبر بهذه الأخبار العجيبة والقصص القديمة من غير أن تعرف بقراءة كتاب ولا سماع أخبار فدل ذلك على أنك من المرسلين وأن الذي تخبر به وحي من الله تعالى. قوله عز وجل: ﴿تلك الرسل﴾ يعني جماعة الرسل الذين تقدم ذكرهم في هذه السورة ﴿فضلنا بعضهم على بعض﴾ فيه

﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض﴾، قرأ أهل المدينة ويعقوب ﴿دفاع الله﴾ بالألف ههنا وفي سورة الحج [٤٠]، قرأ الآخرون بغير الألف، لأن الله تعالى لا يغالبه أحد، وهو الدافع وحده، ومن قرأ بالألف قال: قد يكون الدفاع من واحد مثل قول العرب: أحسن الله عنك الدفاع، قال ابن مجاهد: ولولا دفع الله الناس بجنود المسلمين لغلب المشركون على الأرض فقتلوا المؤمنين وخرَّبوا المساجد والبِلاد، وقال سائر المفسرين: لولا دفع الله بالمؤمنين والأبرار عن الكفار والفجار لهلكت الأرض بمن فيها ولكن الله يدفع بالمؤمن عن الكافر، وبالصالح عن الفاجر، أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أخبرنا أبو إسحق الثعلبي، أنا أبو عبد الله بن زنجويه أنا أبو بكر بن خزيمة، أنا عبد الله بن أحمد بن حنبل أنا أبو حميد الحمصي، أنا يحيى بن سعيد العطار أنا حفص بن سليمان، عن محمد بن سوقة عن وبرة عن عبد الرحمن عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لِيُدْفِعَ بِالْمُسْلِمِ الصَّالِحِ عَنْ مِائَةِ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ جِيرَانِهِ الْبَلَاءَ»، ثم قرأ ابن عمر رضي الله عنهما ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين﴾.

﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله﴾، أي: كلمه الله تعالى، يعني: موسى عليه السلام، ﴿ورفع بعضهم درجات﴾، يعني: محمداً ﷺ، قال الشيخ الإمام: وما أوتي نبي آية إلا أوتي نبينا مثل

دليل على زوال الشبهة لمن أوجب التسوية بين الأنبياء في الفضيلة لاستوائهم في القيام بالرسالة وأجمعت الأمة على أن الأنبياء بعضهم أفضل من بعض وأن نبينا محمد ﷺ أفضلهم لعموم رسالته وهو قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾ ﴿منهم﴾ أي من الرسل ﴿من كلم الله﴾ أي كلمة الله وهو موسى عليه السلام ﴿ورفع بعضهم درجات﴾ يعني محمداً ﷺ رفع الله منصبه ومرتبته على كافة سائر الأنبياء بما فضله عليهم من الآيات البينات والمعجزات الباهرات فما أوتي نبي من الأنبياء آية أو معجزة إلا أوتي نبينا محمد ﷺ مثل ذلك وفضل محمد ﷺ على غيره من الأنبياء بآيات ومعجزات أخر مثل انشقاق القمر بإشارته وحنين الجذع الذي حن عند مفارقه وتسليم الحجر والشجر عليه وكلام البهائم له شاهدة برسالته ونبع الماء من بين أصابعه وغير ذلك من الآيات والمعجزات التي لا تحصى كثرة، وأعظمها وأظهرها معجزة آية القرآن العظيم الذي عجز أهل الأرض عن معارضته والإتيان بمثله فهو معجزة باقية إلى يوم القيامة (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» (ق) عن جابر قال قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» (م) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «فضلت على الأنبياء بست أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً وأرسلت إلى الخلائق كافة وختم بي النبيون» فإن قلت لم ذكره على سبيل الرمز والإشارة ولم يصرح باسمه ﷺ؟ قلت: في هذا الإبهام والرمز من تفخيم فضله وإعلاء قدره ﷺ ما لا يخفى لما فيه من الشهادة بأنه العلم الذي لا يشبه ولا يلتبس فهو كما يقول الرجل وقد فعل شيئاً فعله بعضكم أو أحدكم ويريد نفسه فيكون أفخم من التصريح به كما سئل الخطيئة: من أشعر الناس؟ قال زهير والنابعة. ثم قال ولو شئت لذكرت الثالث أراد نفسه وقوله تعالى: ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات﴾ يعني الحجج والأدلة الباهرة والمعجزات على نبوته مثل إبراء الأكهم والأبرص وإحياء الموتى ﴿وأيدناه بروح القدس﴾ أي وقويناه بجبريل عليه السلام فكان معه إلى أن رفعه إلى عنان السماء السابعة. فإن قلت لم خص موسى وعيسى

تلك الآية، وفضل على غيره بآيات مثل انشقاق القمر بإشارته، وحنين الجذع على مفارقه، وتسليم الحجر والشجر عليه، وكلام البهائم والشهادة برسالته، ونبع الماء من بين أصابعه، وغير ذلك من المعجزات والآيات التي لا تُحصى، وأظهرها القرآن الذي عجز أهل السماء والأرض عن الإتيان بمثله. أخبرنا أبو بكر يعقوب بن أحمد بن محمد بن علي الصيرفي، أنا أبو الحسن محمد بن أحمد المخلدي، أخبرنا أبو العباس بن محمد بن إسحق الثقفي، أنا قتيبة بن سعيد أنا الليث بن سعد، عن سعيد بن أبي سعيد عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله تعالى إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل، أنا محمد بن سنان أخبرنا هشيم أناسيا، أنا يزيد الفقير أنا جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد من قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقى أنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني، أنا عبد الله بن عمر الجوهري أنا أحمد بن

بالذكر من بين سائر الأنبياء. قلت لما أوتيا من الآيات العظيمة والمعجزات الباهرة ولقد بين الله تعالى وجه التفضيل حيث جعل التكليم من الفضل وهو آية عظيمة وتأييد عيسى بروح القدس آية عظيمة أيضاً فلما أوتي موسى وعيسى من الآيات العظيمة خصا بالذكر في باب التفضيل فعلى هذا كل من كان من الأنبياء أعظم آيات وأكثر معجزات كان أفضل ولهذا أحرز نبينا ﷺ قصبات السبق في الفضل لأنه أعظم الأنبياء آيات وأكثرهم معجزات فهو أفضلهم ﷺ وعليهم أجمعين ﴿ولو شاء الله﴾ أي ولو أراد الله وأصل المشيئة الإرادة ﴿ما اقتتل الذين من بعدهم﴾ يعني بعد الرسل الذين وصفهم الله ﴿من بعد ما جاءتهم البينات﴾ أي الدلالات الواضحات من الله بما فيه مزدجر لمن هداه الله تعالى ووفقه ﴿ولكن اختلفوا﴾ يعني اختلف هؤلاء الذين من بعد الرسل ﴿فمنهم من آمن﴾ أي ثبت على إيمانه بالله ورسوله بفضل الله ﴿ومنهم من كفر﴾ أي ومنهم من تعمد الكفر بعد قيام الحجة وبعثة الرسل ﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا﴾ أي ولو أراد الله أن يحجزهم عن الاقتتال والاختلاف لحجزهم عن ذلك ﴿ولكن الله يفعل ما يريد﴾ يعني أنه تعالى يوفق من يشاء لطاعته والإيمان به فضلاً منه ورحمة ويخذل من يشاء عدلاً منه لا اعتراض عليه في ملكه وفعله. سأل رجل علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن القدر فقال يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر فقال طريق مظلم فلا تسلكه فأعاد السؤال فقال بحر عميق فلا تلجه فأعاد السؤال فقال: سر الله قد خفي عليك فلا تفتشه. قوله عز وجل: .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٦﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم﴾ قيل أراد به الزكاة الواجبة وقيل أراد به صدقة التطوع والإنفاق في وجوه الخير ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه﴾ أي لا فدية فيه وإنما سماه بيعاً لأن الفداء شراء النفس من الهلاك، والمعنى قدموا لأنفسكم اليوم من أموالكم من قبل أن يأتي يوم لا تجارة فيه فيكسب الإنسان ما يفترق به من

علي الكشمهيني، أنا علي بن حجر أنا إسماعيل بن جعفر أنا العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بَسْتُ، أُوتِيتُ جَوَامِيعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِداً، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِي النَّبِيُّونَ». قوله تعالى: ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس، ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم﴾، أي: من بعد الرسل، ﴿من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن﴾، ثبت على إيمانه بفضل الله، ﴿ومنهم من كفر﴾، يخذلانه، ﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا﴾، أعاده تأكيداً، ﴿ولكن الله يفعل ما يريد﴾، يوفق من يشاء فضلاً ويخذل من يشاء عدلاً، سأل رجل علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر، فقال: هو طريق مظلم فلا تسلكه، فأعاد السؤال، فقال: بحر عميق فلا تلجه، فأعاد السؤال، فقال: سر الله في الأرض قد خفي عليك فلا تفتشه.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم﴾، قال السدي: أراد به الزكاة المفروضة، وقال غيره: أراد به صدقة التطوع والنفقة في الخير، ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه﴾ أي: لا فداء فيه، سُمِّيَ بيعاً لأن الفداء شراء نفسه، ﴿ولا خلة﴾، ولا صداقة ﴿ولا شفاعة﴾، إلا بإذن الله، قرأ ابن كثير وأهل البصرة كلها بالنصب،

العذاب ﴿ولا خلة﴾ أي ولا مودة ولا صداقة ﴿ولا شفاعة﴾ وظاهر هذا يقتضي نفي الخلة والشفاعة وقد دلت النصوص على ثبوت المودة والشفاعة، بين المؤمنين فيكون هذا عاماً مخصوصاً ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ لأنهم وضعوا العبادة في غير موضعها. قوله عز وجل: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾.

فصل: في فضل هذه الآية الكريمة

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لكل شيء سنام وإن سنام القرآن البقرة وفيها آية هي سيدة أي القرآن آية الكرسي» أخرجه الترمذي. قوله: إن لكل شيء سناماً. سنام كل شيء أعلاء تشبيهاً بسنام البعير والمراد منه تعظيم هذه السورة والسيد الفاضل في قومه والشريف والكريم وأصله من ساد يسود وقوله هي سيدة أي القرآن أي أفضله. (م) عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قلت: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ فضرب في صدري وقال: ليهنك العلم يا أبا المنذر» عن واثلة بن الأسقع: «أن النبي ﷺ جاءهم في صفة المهاجرين فسأله إنسان أي آية في القرآن أعظم؟ فقال رسول الله ﷺ ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ أخرجه أبو داود. وقال العلماء: إنما تميزت آية الكرسي بكونها أعظم آية في القرآن لما جمعت من أصول الأسماء والصفات من الإلهية والوحدانية والحياة والعلم والقومية والملك والقدرة والإرادة، فهذه أصول الأسماء والصفات، وذلك لأن الله تعالى أعظم مذكور فما كان ذكراً له من توحيد وتعظيم كان أعظم الأذكار وفي هذا الحديث حجة لمن يقول بجواز تفضيل بعض القرآن على بعض وتفضيله على سائر كتب الله المنزلة، ومنع من جواز تفضيل بعض القرآن على بعض جماعة منهم أبو الحسن الأشعري وأبو بكر الباقلاني قالوا لأن تفضيل بعضه على بعض يقتضي نقص المفضل، وليس في كلام الله عز وجل نقص وتأول هؤلاء ما ورد من إطلاق لفظ أعظم وأفضل على بعض الآيات أو السور بمعنى عظيم وفاضل، ومن أجاز تفضيل بعض القرآن على بعض من العلماء

وكذلك في قوله تعالى: ﴿لا يبيع فيه ولا خلال﴾ [إبراهيم: ٣١] وفي قوله تعالى: ﴿لا لغو فيها ولا تأثيم﴾ [الطور: ٢٣]، وقرأ الآخرون كلها بالرفع والتنوين، ﴿والكافرون هم الظالمون﴾، لأنهم وضعوا العبادة في غير موضعها.

قوله عز وجل: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أبو منصور محمد بن سمعان أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الزياتي، أنا حميد بن زنجويه أنا ابن أبي شيبة، أنا عبد الأعلى عن الجريري عن أبي السبيل عن عبد الله بن رباح الأنصاري عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا المنذر أي آية من كتاب الله أعظم؟ قلت: الله لا إله إلا هو الحي القيوم، قال: فضرب في صدري ثم قال: «لِيُهِنَكَ الْعِلْمُ يَا أبا المنذر، ثم قال: والذي نفس محمد بيده إن لهذه الآية لساناً وشفعتين تُقَدِّسُ الْمَلِكَ عِنْدَ سَاقِ الْعَرْشِ». أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: وكُتِبَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ وَلِي عِيَالٌ وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ، قَالَ: فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟» قلت: يا رسول الله شكاً حاجةً شديدةً وعيلاً فرحمته فخلّيت سبيله، قال: «أما إنه قد كذبتك وسيعود»، فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ، فرصدته فجاء يحثو من الطعام فأخذه، فقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَلِي عِيَالٌ وَلَا أَعُودُ فَرَحْمَتَهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟» قلت: يا رسول الله شكاً حاجةً شديدةً وعيلاً فرحمته وخلّيت سبيله،

والمتكلمين قالوا: هذا التفضيل راجع إلى عظم أجر القارئ أو جزيل ثوابه وقول: إن هذه الآية أو هذه السورة أعظم أو أفضل بمعنى أن الثواب المتعلق بها أكثر وهذا هو المختار وهو معنى الحديث والله أعلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حين يصبح آية الكرسي وآيتين من أول حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم حفظ يومه ذلك حتى يمسي ومن قرأها حين يمسي حفظ ليلته تلك حتى يصبح» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب. وأما التفسير فقوله عز وجل: ﴿الله لا إله إلا هو﴾ نفى الإلهية عن كل ما سواه وأثبت الإلهية له سبحانه وتعالى فهو كقولك لا كريم إلا زيد فإنه أبلغ من قولك زيد كريم الحي يعني الباقي على الأبد الدائم بلا زوال، والحي في صفة الله تعالى وهو الذي لم يزل موجوداً وبالحياة موصوفاً لم تحدث له الحياة بعد موت ولا يعترية الموت بعد حياة، وسائر الأحياء سواء يعترهم الموت والعدم فكل شيء هالك إلا وجهه سبحانه وتعالى. القيوم قال مجاهد: القيوم القائم على كل شيء وتأويله أنه تعالى قائم بتدبير خلقه في إيجادهم وأرزاقهم وجميع ما يحتاجون إليه وقيل وهو القائم الدائم بلا زوال الموجود الذي يمتنع عليه التغير وقيل هو القائم على كل نفس بما كسبت والقيوم فيعمل من القيام وهو نعت للقائم على الشيء ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ السنة ما يتقدم النوم من الفتور الذي يسمى نعاساً وهو النوم الخفيف والوسنان بين النائم واليقظان والنوم هو الثقل المزيل للعقل والقوة. وقيل: السنة في الرأس والنعاس في العين والنوم في القلب فالسنة هي أول النوم والنوم هو غشية ثقيلة تقع على القلب تمنع المعرفة بالأشياء والمعنى لا تأخذه سنة فضلاً عن أن يأخذه نوم لأن النوم والسهو والغفلة محال على الله تعالى لأن هذه الأشياء عبارة عن عدم العلم وذلك نقص وآفة والله تعالى منزّه عن النقص والآفات، وأن ذلك تغير والله تعالى منزّه عن التغير، (م) عن أبي موسى الأشعري قال: «قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً بخمس كلمات فقال إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل حجاب النور». وفي رواية: «النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

قال: «أما إنه قد كذبك وسيعود»، فرصدته الثالثة فجاء يحثو من الطعام فأخذه فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم لا تعود ثم تعود، قال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: ما هي؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ حتى تختتم الآية فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح فخلّيت سبيله فأصبحت، فقال لي رسول الله ﷺ: «ما فعل أسيرك البارحة؟» قلت: يا رسول الله زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخلّيت سبيله، قال: «وما هي؟» قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختتم الآية ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾، وقال: لن يزال عليه من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح، وكانوا أحرص الناس على الخير، فقال النبي ﷺ: «أما إنه قد صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليل يا أبا هريرة؟» قلت: لا، قال: «ذاك شيطان» أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا أبو جعفر الزياتي أخبرنا حميد بن زنجويه أخبرنا يحيى، أخبرنا أبو معاوية عن عبد الرحمن بن أبي بكر هو المليكي، عن زرارة بن مصعب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حين يصبح آية الكرسي وآيتين من أول ﴿حم﴾ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم﴾ [غافر: ١] حفظ في يومه ذلك حتى يمسي! ومن قرأها حين يمسي حفظ في ليلته تلك حتى يصبح» قوله عز وجل: ﴿الله﴾ رفع بالابتداء وخبره في ﴿لا إله إلا هو الحي﴾، الباقي الدائم على الأبد وهو من له الحياة، والحياة صفة الله تعالى القيوم، قرأ عمرو بن مسعود (القيام) وقرأ علقمة (القيم) وكلها

شرح ما يتعلق بلفظ هذا الحديث منقول من شرح مسلم للشيخ محيي الدين النووي قوله ﷺ: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام» فمعناه الإخبار أنه سبحانه وتعالى لا ينام وأنه مستحيل في حقه لأن النوم انغمار وغلبة على العقل يسقط به الإحساس والله تعالى منزّه عن ذلك وقوله: «يخفض القسط ويرفعه» أراد بالقسط الميزان الذي يقع به العدل ومعناه أن الله تعالى يخفض الميزان ويرفعه بما يوزن فيه من أعمال العباد المرتفعة إليه وقيل أراد بالقسط الرزق الذي هو قسط كل مخلوق ومعنى يخفض يقبض ويضيق على من يشاء ويرفعه أي يوسع على من يشاء وقوله: «يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار» يعني أن الحفظة من الملائكة يصعدون بأعمال العباد في الليل بعد انقضائه في أول النهار، ويصعدون بأعمال النهار بعد انقضائه في أول الليل قوله: «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» سبحات بضم السين المهملة والباء الموحدة تحت وبضم التاء في آخره جمع سبحة، ومعنى سبحات وجهه نوره وجلاله وبهاؤه والحجاب أصله في اللغة المنع وحقيقة الحجاب إنما تكون للأجسام المحدودة والله تعالى منزّه عن الجسم والحد، فالمراد به هنا الشيء المانع من الرؤية، وسمي ذلك الشيء المانع نوراً أو ناراً لأنهما يمتنعان من الإدراك في العادة، والمراد بالوجه الذات، والمراد بما انتهى إليه بصره من خلقه جميع المخلوقات لأن بصره سبحانه وتعالى محيط بجميع الكائنات ولقطة من في قوله من خلقه لبيان الجنس لا للتبعض ومعنى الحديث لو زال المانع وهو الحجاب المسمى نوراً أو ناراً وتجلّى لخلقه لأحرق جلال ذاته جميع مخلوقاته هذا آخر كلام للشيخ على هذا الحديث والله أعلم. وروى الطبري بسنده عن ابن عباس في قوله: ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ إن موسى عليه السلام سأل الملائكة هل ينام الله تعالى؟ فأوحى الله تعالى إلى الملائكة وأمرهم أن يؤرقوه ثلاثاً فلا يتركوه ينام ففعلوا ثم أعطوه قارورتين فأمسكهما ثم تركوه وحذروه أن يكسرهما فجعل ينفس وينتبه وهما في يده في كل يد واحدة حتى نعس نعسة فضرب إحداهما بالأخرى فكسرهما قال معمر إنما هو مثل ضربة الله تعالى له يقول فكذلك السموات والأرض، ورواه عن أبي هريرة مرفوعاً قال سمعت رسول الله ﷺ يحكي عن موسى على المنبر قال: «وقع في نفس موسى هل ينام الله» وذكر نحو حديث ابن عباس قال بعض العلماء: إن صح هذا الحديث فيحمل على أن هذا السؤال كان من جهال قوم موسى كطلب الرؤية

لغات بمعنى واحد قال مجاهد: القيوم القائم على كل شيء، قال الكلبي: القائم على كل نفس، وقيل: هو القائم بالأمور، وقال أبو عبيدة الذي لا يزول: ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم له﴾، السنة النعاس، وهو النوم الخفيف، والوسنان بين النائم واليقظان، يقال منه وسن يسن يسناً وسنة، والنوم هو: الثقل المزيل للقوة والعقل، قال المفضل الضبي: السنة في الرأس، والنوم: في القلب، فالسنة أول النوم وهو النعاس، وقيل: السنة في الرأس والنعاس في العين، والنوم في القلب، فهو غشية ثقيلة تقع على القلب تمنع المعرفة بالأشياء، نفى الله تعالى عن نفسه النوم لأنه آفة وهو منزّه عن الآفات، ولأنه تغير ولا يجوز عليه التغير. أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي، أخبرنا أبو إسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أخبرنا عبد الله بن حامد أخبرنا محمد بن جعفر، أخبرنا علي بن حرب أخبرنا أبو معاوية أخبرنا الأعمش، عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن أبي موسى قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ولكنه يخفض القسط ويرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»، ورواه المسعودي عن عمرو بن مرة وقال: «حجابه النار». ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾، ملكاً وخلقاً، ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾، بأمره، ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾، قال مجاهد وعطاء السدي: ما بين أيديهم من أمر الدنيا وما خلفهم من أمر الآخرة، وقال الكلبي: ما بين أيديهم، يعني: الآخرة لأنهم

من موسى لأن الأنبياء عليهم السلام هم أعلم بالله من غيرهم فلا يجوز أن ينسب لموسى مثل هذا السؤال والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني أن الله تعالى مالك جميع ذلك بغير شريك ولا منازع وهو خالقهم وهم عبيده وفي ملكه. فإن قلت لم قال له ما في السموات ولم يقل من في السموات؟ قلت: لما كان المراد إضافة كل ما سواه إليه من الخلق والملك وكان الغالب فيهم من لا يعقل أجرى الغالب مجرى الكل فعبّر عنه بلفظ ما ﴿من ذا الذي يشفع عنده إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي بأمره وهذا استفهام إنكاري والمعنى لا يشفع عنده أحد إِلَّا بأمره وإرادته، وذلك لأن المشركين زعموا أن الأصنام تشفع لهم فأخبر أنهم لا شفاعا لأحد عنده إِلَّا ما استثناه بقوله ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ يريد بذلك شفاعا النبي ﷺ وشفاعة بعض الأنبياء والملائكة وشفاعة المؤمنين بعضهم لبعض ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ يعني ما بين أيديهم من الدنيا وما خلفهم من الآخرة وقيل بعكسه لأنهم يقدمون على الآخرة ويخلفون الدنيا وراء ظهورهم وقيل يعلم ما كان قبلهم وما كان بعدهم وقيل يعلم ما قدموه بين أيديهم من خير أو شر وما خلفهم مما هم فاعلوه والمقصود من هذا أنه سبحانه وتعالى عالم بجميع المعلومات لا يخفى عليه شيء من أحوال جميع خلقه ﴿وَلَا يَحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾ يقال: أحاط بالشيء إذا علمه وهو أن يعلم وجوده وجنسه وقدره وحقيقته، فإذا علمه ووقف عليه وجمعه في قلبه فقد أحاط به والمراد بالعلم المعلوم والمعنى أن أحداً لا يحيط بمعلومات الله تعالى: ﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ يعني أن يطلعهم عليه وهم من الأنبياء والرسل ليكون ما يطلعهم عليه من علم غيبه دليلاً على نبوتهم كما قال تعالى: ﴿فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ يقال فلان وسع الشيء سعة إذا احتمله وأطاقه وأمكنه القيام به وأصل الكرسي في اللغة من تركب الشيء بعضه على بعض ومنه الكراسة لتركب بعض أوراقها على بعض والكرسي في العرف اسم لما يقعد عليه سمي به لتركب خشباته بعضها على بعض. واختلفوا في المراد بالكرسي هنا على أربعة أقوال: أحدها أن الكرسي هو العرش نفسه قال الحسن لأن العرش والكرسي اسم للسرير الذي يصح التمكن عليه. القول الثاني أن الكرسي غير العرش وهو أمامه وهو فوق السموات السبع ودون العرش قال السدي إن السموات والأرض في جوف

يقدمون عليها، وما خلفهم من الدنيا لأنهم يخلفونها وراء ظهورهم، وقال ابن جريج: ما بين أيديهم: ما مضى أمامهم، وما خلفهم: ما يكون بعدهم، وقال مقاتل: ما بين أيديهم ما كان قبل الملائكة وما خلفهم، أي: ما كان بعد خلقهم، وقيل: ما بين أيديهم أي: ما قدموه من خير وشر، وما خلفهم ما هم فاعلوه، ﴿وَلَا يَحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾، أي: من علم الله، ﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾، أن يطلعهم عليه، يعني: لا يحيطون بشيء من علم الغيب إِلَّا بما شاء مما أخبر به الرسل، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦ و ٢٧]، قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، أي: ملاً وأحاط به، واختلفوا في الكرسي، فقال الحسن: هو العرش نفسه، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: الكرسي: موضوع أمام العرش، ومعنى قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: سعته مثل سعة السموات والأرض، وفي الأخبار: «إن السموات والأرض في جنب الكرسي، كحلقة في فلاة، والكرسي في جنب العرش، كحلقة في فلاة». ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن السموات السبع والأرضين السبع في الكرسي كدارهم سبعة ألقيت في ترس، وقال علي ومقاتل: كل قائمة من الكرسي طولها مثل السموات السبع والأرضين السبع، وهو بين يدي العرش، ويحمل الكرسي أربعة أملاك، لكل ملك أربعة وجوه، وأقدامهم في الصخرة التي تحت الأرض السابعة السفلى مسيرة خمسمائة عام. ملك على صورة سيد البشر آدم عليه السلام، وهو يسأل للآدميين الرزق والمطر من السنة إلى

الكرسي كحلقة ملقاة في فلاة والكرسي في جنب العرش كحلقة في فلاة وعن ابن عباس أن السموات السبع في الكرسي كدراهم سبعة ألقيت في ترس وقيل إن كل قائمة من قوائم الكرسي طولها مثل السموات والأرض وهو بين يدي العرش ويحمل الكرسي أربعة أملاك لكل ملك أربعة وجوه وأقدامهم على الصخرة التي تحت الأرض السابعة السفلى: ملك على صورة أبي البشر آدم وهو يسأل الرزق والمطر لبني آدم من السنة إلى السنة، وملك على صورة النسر وهو يسأل الرزق للطير من السنة إلى السنة، وملك على صورة الثور وهو يسأل الرزق للأنعام من السنة إلى السنة وملك على صورة السبع وهو يسأل الرزق للوحوش من السنة إلى السنة. وفي بعض الأخبار أن بين حملة العرش وحملة الكرسي سبعين حجاباً من ظلمة وسبعين حجاباً من نور غلظ كل حجاب مسيرة خمسمائة عام لولا ذلك لاحتترقت حملة الكرسي من نور حملة العرش. القول الثالث: إن الكرسي هو الاسم الأعظم لأن العلم يعتمد عليه. كما أن الكرسي يعتمد عليه قال ابن عباس كرسية علمه. القول الرابع: المراد بالكرسي الملك والسلطان والقدرة لأن الكرسي موضع الملك والسلطان فلا يبعد أن يكنى عن الملك بالكرسي على سبيل المجاز ﴿ولا يؤوده﴾ أي لا يثقله ولا يجهد ولا يشق عليه ﴿حفظهما﴾ أي حفظ السموات والأرض ﴿وهو العلي﴾ أي الرفيع فوق خلقه الذي ليس فوقه شيء فيما يجب له أن يوصف به من معاني الجلال والكمال فهو العلي بالإطلاق المتعالي عن الأشباه والأنداد والأضداد وقيل العلي بالملك والسلطنة والقهر فلا أعلى منه أحد وقيل معنى العلو في صفة الله تعالى منقول إلى اقتداره وقهره واستحقاق صفات المدح جميعها على كل وجه وقيل معناه أنه يعلو أن يحيط به وصف الواصفين ﴿العظيم﴾ يعني أنه ذو العظمة والكبرياء الذي لا شيء أعظم منه. وقال ابن عباس: العظيم الذي قد كمل في عظمته وقيل العظيم هو ذو العظمة والجلال والكمال وهو في صفة الله تعالى ينصرف إلى عظم الشأن وجلالة القدر دون العظم الذي هو من نعوت الأجسام. قوله عز وجل: .

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

﴿لا إكراه في الدين﴾ سبب نزول هذه الآية فيما يروى عن ابن عباس قال: كانت المرأة من الأنصار تكون مقلاة وهي التي لا يعيش لها ولد فكانت تنذر لئن عاش لها ولد، لتهودنه فإذا عاش جعلته في اليهود فجاء الإسلام

السنة، وملك على صورة سيّد الأنعام وهو الثور، وهو يسأل للأنعام الرزق من السنة إلى السنة، وعلى وجه غضاضة منذ عبد العجل، وملك على صورة سيد السباع، وهو الأسد يسأل للسباع الرزق من السنة إلى السنة، وملك على صورة سيد الطير، وهو النسر يسأل الرزق للطير من السنة إلى السنة. وفي بعض الأخبار أن ما بين حملة العرش وحملة الكرسي سبعين حجاباً من ظلمة وسبعين حجاباً من نور، غلظ كل حجاب مسيرة خمسمائة عام، لولا ذلك لاحتترقت حملة الكرسي من نور حملة العرش. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أراد بالكرسي عمله، وهو قول مجاهد، ومنه قيل لصحيفة العلم كراسة، وقيل: كرسية ملكه وسلطانه، والعرب تسمي الملك القديم: كرسياً. ﴿ولا يؤوده﴾، أي: لا يثقله ولا يشق عليه، يقال: آدني الشيء أي أثقلني، ﴿حفظهما﴾ أي: حفظ السموات والأرض، ﴿وهو العلي﴾: الرفيع فوق خلقه، والمتعالي عن الأشياء والأنداد، وقيل: العلي بالملك والسلطنة، ﴿العظيم﴾: الكبير الذي لا شيء أعظم منه.

قوله تعالى: ﴿لا إكراه في الدين﴾، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: كانت المرأة من الأنصار تكون مقلاة، والمقلاة من النساء التي لا يعيش لها ولد، وكانت تنذر لئن عاش لها ولد لتهودنه فإذا عاش

وفيهم منهم، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم عدد من أولاد الأنصار فأرادت الأنصار استردادهم وقالوا هم أبناءنا وإخواننا فنزلت الآية ﴿لا إكراه في الدين﴾. فقال رسول الله ﷺ: قد خير أصحابكم فإن اختاروكم فهم منكم، وإن اختاروهم فأجلوهم معهم وقيل: كان لرجل من الأنصار. من بني سالم بن عوف يقال له أبو الحصين ابنان متنصران قبل مبعث النبي ﷺ ثم قدما المدينة في نفر من النصارى يحملون الزيت فلزمهما أبوهما وقال لا أدعكما حتى تسلما فاختصموا إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله أيدخل بعضي النار وأنا انظر فأنزل الله تعالى ﴿لا إكراه في الدين﴾ فخلى سبيلهما وقيل نزلت في أهل الكتاب إذا قبلوا بذل الجزية لم يكرهوا على الإسلام وذلك أن العرب كانت أمة أمية ولم يكن لهم كتاب يرجعون إليه فلم يقبل منهم إلا الإسلام أو القتل ونزل في أهل الكتاب لا إكراه في الدين يعني إذا قبلوا الجزية فمن أعطى الجزية منهم لم يكره على الإسلام فعلى هذا القول تكون الآية محكمة ليست بمنسوخة وقيل: بل الآية منسوخة وكان ذلك في ابتداء الإسلام قبل أن يؤمروا بالقتال ثم نسخت بآية القتال وهو قول ابن مسعود وقال الزهري سألت زيد بن أسلم عن قول الله تعالى لا إكراه في الدين قال كان رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين لا يكره أحداً في الدين فأبى المشركون إلا أن يقاتلوه فاستأذن الله في قتالهم فأذن له ومعنى لا إكراه في الدين أي دين الإسلام ليس فيه إكراه عياله ﴿قد تبين الرشد من الغي﴾ يعني ظهر ووضح وتميز الحق من الباطل والإيمان من الكفر والهدى من الضلالة بكثرة الآيات والبراهين الدالة على صحته ﴿فمن يكفر بالطاغوت﴾ يعني الشيطان، وقيل: هو الساحر والكاهن، وقيل هو كل ما عبد من دون الله تعالى، وقيل: كل ما يطغي الإنسان فهو طاغوت فاعول من الطغيان ﴿ويؤمن بالله﴾ أي ويصدق بالله أنه ربه ومعبوده من دون كل شيء كان يعبد فيه إشارة إلى أنه لا بد للكافر أن يتوب أولاً عن الكفر ويتبرأ منه ثم يؤمن بعد ذلك بالله فمن فعل ذلك صح إيمانه وهو قوله تعالى: ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ أي فقد تمسك واعتصم بالعقد الوثيق المحكم في الدين والوثنى تأنيث الأوثق وقيل العروة الوثقى السبب الذي يوصل إلى رضا الله تعالى وهو دين الإسلام ﴿لا انفصام لها﴾ أي لا انقطاع لها حتى تؤديه إلى الجنة والمعنى أن المتمسك بالدين الصحيح الذي هو دين الإسلام كالمتمسك بالشئ

ولدها جعلته في اليهود، فجاء الإسلام وفيهم منهم، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم عدد من أولاد الأنصار فأرادت الأنصار استردادهم، وقالوا: هم أبناءنا وإخواننا، فنزلت هذه الآية ﴿لا إكراه في الدين﴾، فقال رسول الله ﷺ: «قد خير أصحابكم فإن اختاروكم فهم منكم وإن اختارهم فأجلوهم معهم». وقال مجاهد: كان ناسٌ مسترضعين في اليهود من الأوس فلما أمر النبي ﷺ بإجلاء بني النضير، قال الذين كانوا مسترضعين فيهم: لنذهب معهم ولندين بدينهم، فمنعهم أهلهم، فنزلت ﴿لا إكراه في الدين﴾، وقال مسروق: كان لرجل من الأنصار من بني سالم بن عوف ابنان متنصران قبل مبعث النبي ﷺ، ثم قدما المدينة في نفر من النصارى يحملون الطعام، فلزمهما أبوهما وقال: لا أدعكما حتى تسلما، فتخاصما إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله أيدخل بعضي النار وأنا أنظر؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لا إكراه في الدين﴾ فخلى سبيلهما، وقال قتادة وعطاء: نزلت في أهل الكتاب إذا قبلوا الجزية، وذلك أن العرب كانت أمة أمية لم يكن لهم كتاب فلم يقبل منهم إلا الإسلام، فلما أسلموا طوعاً أو كرهاً أنزل الله تعالى: ﴿لا إكراه في الدين﴾ فأمر بقتال أهل الكتاب إلى أن يسلموا أو يقرّوا بالجزية، فمن أعطى منهم الجزية لم يكره على الإسلام. وقيل: كان هذا في الابتداء قبل أن يؤمر بالقتال، فصارت منسوخة بآية السيف، وهو قول ابن مسعود رضي الله عنه، ﴿قد تبين الرشد من الغي﴾، أي: الإيمان من الكفر والحق من الباطل، ﴿فمن يكفر بالطاغوت﴾، يعني: بالشيطان، وقيل: كل ما عبد من دون الله تعالى فهو طاغوت، وقيل: ما يطغي الإنسان، فاعول، من الطغيان زيدت التاء فيه بدلاً من لام الفعل كقولهم: حانوت وتابوت، فالتاء فيها مبدل من هاء التأنيث،

الوثيق الذي لا يمكن كسره ولا انقطاعه ﴿والله سميع﴾ يعني أنه تعالى يسمع قول من كفر بالطاغوت وأتى بالشهادتين ﴿عليم﴾ بما في قلبه من الإيمان وقيل معناه سميع لدعائك إياهم إلى الإسلام عليم بحرصك على إسلامهم . قوله عز وجل :

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ
يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ
إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ
إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

﴿الله ولي الذين آمنوا﴾ أي ناصرهم ومعينهم وقيل محبهم ومتولي أمورهم فلا يكلهم إلى غيره وقيل هو متولي هدايتهم ﴿يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ أي من الكفر إلى الإيمان وكل ما في القرآن من ذكر الظلمات والنور، فالمراد به الكفر والإيمان غير الذي في سورة الأنعام وهو قوله تعالى وجعل الظلمات والنور، فالمراد به الليل والنهار وإنما سمي الكفر ظلمة لالتباس طريقه ولأن الظلمة تحجب الأبصار عن إدراك الحقائق فكذلك الكفر يحجب القلوب عن إدراك حقائق الإيمان وسمي الإسلام نوراً لوضوح طريقه وبيان أدلته ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت﴾ يعني كعب بن الأشرف وحبي بن أخطب وسائر رؤوس الضلالة ﴿يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾ أي من الهدى إلى الضلالة . فإن قلت: كيف قال يخرجونهم من النور إلى الظلمات وهم كفار لم يكونوا في نور قط؟ قلت: هم اليهود كانوا موقنين بمحمد ﷺ وصحة نبوته قبل أن يبعث لما يجدون في كتبهم من نعتة وصفته فلما بعث كفروا به وجحدوا نبوته وقيل: هو على العموم في حق جميع الكفار سمي منع الطاغوت إياهم عن الدخول فيه إخراجاً من الإيمان بمعنى صدهم الطاغوت عنه وحرهم خيره وإن لم يكونوا دخلوا فيه قط فهو كقول الرجل لأبيه أخرجتني عن مالك إذا أوصى به لغيره في حياته وحرمه منه وكقول الله تعالى إخباراً عن يوسف

﴿ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾، أي: تمسك واعتصم بالعقد الوثيق المحكم في الدين، والوثقى: تأنيث الأوثق، وقيل: العروة الوثقى السبب الذي يوصل إلى رضا الله تعالى، ﴿لا انفصام لها﴾: لا انقطاع لها، ﴿والله سميع﴾: لدعائك إياهم إلى الإسلام، ﴿عليم﴾: بحرصك على إيمانهم.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: ناصرهم ومُعِينهم، وقيل: مُحِبُّهم، وقيل: متولي أمورهم لا يكلهم إلى غيره، وقال الحسن ولي هدايتهم، ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، أي: من الكفر إلى الإيمان، قال الواقدي: كل ما في القرآن من الظلمات والنور فالمراد منه: الكفر والإيمان غير التي في قوله تعالى: ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ [الأنعام: ١] فالمراد منه: الليل والنهار، سُمِّيَ الكفر: ظُلمة لالتباس طريقه، وسُمِّيَ الإسلام نوراً لوضوح طريقه. ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت﴾، قال مقاتل: يعني: كعب بن الأشرف وحبي بن أخطب وسائر رؤوس الضلالة، ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾، يدعوهم من النور إلى الظلمات، والطاغوت يكون مذكراً ومؤنثاً وواحداً وجمعاً قال تعالى في المذكر والواحد: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [النساء: ٦٠]، وقال في المؤنث: ﴿والذين اجتنبوا الطَّاغُوتِ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ [الزمر: ١٧]، وقال في الجمع: ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾، فإن قيل: كيف يخرجونهم من النور إلى

عليه السلام: «إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله» ولم يكن قط في ملتهم ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ يعني الكفار والطاغوت أهل النار الذين يخلدون فيها دون غيرهم.

قوله عز وجل: ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه﴾ يعني هل انتهى إليك يا محمد خبر الذي خاصم إبراهيم وجادله لأن ألم تر كلمة يوقف بها المخاطب على تعجب منها ولفظها استفهام كما يقال ألم تر إلى فلان كيف يصنع معناه هل رأيت فلاناً في صنعه والذي حاج إبراهيم هو نمروذ بن كنعان الجبار وهو أول من وضع التاج على رأسه وتجبر في الأرض وادعى الربوبية ﴿أن آتاه الله الملك﴾ أي لأن آتاه الله الملك فطغى وتجبر بسببه وكانت تلك المحاجة من بطر الملك وطغيانه قال مجاهد ملك الأرض أربعة مؤمنان وكافران فأما المؤمنان فسلیمان بن داود وذو القرنين، وأما الكافران فنمرود، وبختنصر. واختلفوا في وقت هذه المحاجة فقيل: لما كسر إبراهيم الأصنام سجنه نمروذ ثم أخرجه ليحرقه فقال له: من ربك الذي تدعونا إليه؟ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت وقيل: كان هذا بعد إلقائه في النار وذلك أن الناس قحطوا على عهد نمروذ، وكان الناس يمتارون من عنده الطعام فكان إذا آتاه أحد يمتار سأل من ربك؟ فيقول أنت فيميره فخرج إبراهيم عليه السلام إليه يمتار لأهله الطعام فأتاه فقال له من ربك قال ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم: «فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر» فرده بغير طعام فرجع إبراهيم إلى أهله فمر على كتيب رمل أعفر فأخذ منه تطيباً لقلوب أهله إذا دخل عليهم فلما أتى أهله وضع متاعه ثم نام فقامت زوجته سارة إلى رحله ففتحته فإذا هو

الظلمات وهم كفار لم يكونوا في نور قط؟ قيل: هم اليهود وكانوا مؤمنين بمحمد ﷺ قبل أن يُبعث لما يجدون في كتبهم من نعمته، فلما بُعث كفروا به، وقيل: هو على العموم في حق جميع الكفار، قالوا: منعهم إياهم من الدخول فيه: إخراج، كما يقول الرجل لأبيه أخرجتني من مالك، ولم يكن فيه، كما قال الله تعالى إخباراً عن يوسف عليه السلام: ﴿إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله﴾ [يوسف: ٣٧]، ولم يكن قط في ملتهم، ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه﴾، معناه: هل انتهى إليك يا محمد خبر الذي حاج إبراهيم، أي خاصم وجادل، وهو نمروذ، وهو أول من وضع التاج على رأسه وتجبر في الأرض وادعى الربوبية؟ ﴿أن آتاه الله الملك﴾ أي: لأن آتاه الله الملك فطغى أي: كانت تلك المحاجة من بطر الملك وطغيانه، قال مجاهد: ملك الأرض أربعة: مؤمنان وكافران، فأما المؤمنان: فسلیمان وذو القرنين، وأما الكافران: فنمرود وبختنصر، واختلفوا في وقت هذه المناظرة، قال مقاتل: لما كسر إبراهيم الأصنام سجنه نمروذ، ثم أخرجه ليحرقه بالنار، فقال له: من ربك الذي تدعونا إليه؟ فقال: ﴿ربي الذي يحيي ويميت﴾، وقال آخرون: كان هذا بعد إلقائه في النار وذلك أن الناس قحطوا على عهد نمروذ، وكان الناس يمتارون من عنده الطعام، فكان إذا آتاه الرجل في طلب الطعام سأل من ربك فإن قال: أنت، باع منه الطعام، فأتاه إبراهيم فيمن آتاه، فقال له نمروذ: من ربك؟ قال: ﴿ربي الذي يحيي ويميت﴾ فاشتغل بالمحاجة ولم يعطه شيئاً، فرجع إبراهيم فمر على كتيب من رمل أعفر فأخذ منه تطيباً لقلوب أهله إذا دخل عليهم، فلما أتى أهله ووضع متاعه نام فقامت امرأته إلى متاعه ففتحته فإذا هو أجود طعام رآته، فصنعت له منه فقرّبه، فقال: من أين هذا؟ قالت: من الطعام الذي جئت به، فعرف أن الله رزقه فحمد الله، قال الله تعالى: ﴿إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت﴾، وهذا جواب سؤال غير مذكور تقديره: قال له من ربك؟ قال إبراهيم: ﴿ربي الذي يحيي ويميت﴾ قرأ حمزة ﴿ربي الذي يحيي ويميت﴾ بإسكان الياء تفسير الخازن والبغوي/ ج ١/ ٢٣

طعام أجود ما رآه أحد فصنعت منه خبزاً فلما انتبه قربته إليه فقال لها إبراهيم من أين هذا؟ وكان عهد أهله وليس عندهم طعام فقالت من الطعام الذي جئت به فعلم إبراهيم أن الله قد رزقه فحمد الله تعالى: ثم إن الله تعالى بعث إلى نمرود الجبار ملكاً فقال له إن ربك يقول لك أن آمن بي وأتركك في ملكك قال وهل رب غيري فجاءه الثانية فقال له مثل ذلك ثم أتاه الثالثة فرد عليه مثل ذلك فقال له الملك أجمع جموعك فجمع الجبار جموعه فأمر الله الملك ففتح عليه باباً من البعوض حتى سترت الشمس فلم يروها فبعثها الله عليهم فأكلت لحومهم وشربت دماءهم فلم يبق إلا العظام ونمرود ينظر ولم يصبه شيء من ذلك ثم بعث الله عليه بعوضة فدخلت في منخره فمكثت في رأسه أربعمئة سنة يضرب رأسه بالمطارق وكان أرحم الناس به من يجمع له يديه ثم يضرب بهما رأسه فكان كذلك يعذب أربعمئة سنة مدة ملكه حتى أماته الله عز وجل: ﴿إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت﴾ هذا جواب سؤال غير مذكور تقديره قال له نمرود من ربك قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت ﴿قال﴾ يعني قال نمرود ﴿أنا أحيي وأميت﴾ قال أكثر المفسرين دعا نمرود برجلين فقتل أحدهما واستحيا الآخر فجعل ترك القتل إحياء فانتقل إبراهيم ﷺ إلى حجة أخرى لا عجزاً عن نصر حجته الأولى فإنها كانت لازمة لأنه أراد بالإحياء إحياء الميت فكان لإبراهيم أن يقول لنمرود فأحيي من أمت إن كنت صادقاً ولكن انتقل إلى حجة أخرى أوضح من الأولى لما رأى من قصور فهم نمرود وضعف رأيه فإنه عارض الفعل بمثله ونسي اختلاف الفعلين ﴿قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر﴾ يعني تحير نمرود ودهش وانقطعت حجته ولم يرجع إليه شيئاً وعرف أنه لا يطيق ذلك. فإن قلت كيف بهت الذي كفر وكان يمكنه أن يقول لإبراهيم سل أنت ربك حتى يأتي بها من المغرب. قلت إنما لم يقله لأنه خاف أنه لو سأل ذلك دعا إبراهيم ربه فكان ذلك زيادة في فضيحة نمرود وانقطاعه وقيل إن الله تعالى صرفه عن تلك المعارضة إظهاراً للحجة عليه ومعجزة لإبراهيم ﷺ وهو الصحيح ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ يعني لا يرشدهم إلى حجة يدحضون بها حجج أهل الحق عند المحاجة والمخاصمة وعنى بالظالمين نمرود. قول عز وجل: .

وكذلك ﴿حرّم ربّي الفواحش﴾ [الأعراف: ٣٣]، و﴿عن آياتي الذين يتكبرون﴾ [الأعراف: ١٤٦]، و﴿قل لعبادي الذين﴾ [إبراهيم: ٣١]، و﴿أتاني الكتاب﴾ [مريم: ٣٠]، و﴿مسنّي الضر﴾ [الأنبياء: ٨٣]، و﴿عبادي الصالحون﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، و﴿عبادي الشكور﴾ [سبأ: ١٣] و﴿مسنّي الشيطان﴾ [ص: ٤١]، و﴿إن أرادني الله﴾ [الزمر: ٣٨]، و﴿إن أهلكني الله﴾ [الملك: ٢٨]، أسكن البلاء فيهن حمزة، ووافق ابن عامر والكسائي في ﴿لعبادي الذين آمنوا﴾ [إبراهيم: ٣١]، وابن عامر ﴿آياتي﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وفتحها الآخرون، ﴿قال﴾ رجلاً نمرود ﴿أنا أحيي وأميت﴾، قرأ أهل المدينة ﴿أنا﴾ بإثبات الألف والمد في الوصل إذا تلتها ألف مفتوحة أو مضمومة، والباقون بحذف الألف، ووقفوا جميعاً بالألف، قال أكثر المفسرين: دعا نمرود برجلين فقتل أحدهما واستحيا الآخر فجعل القتل إماتة، وترك القتل إحياء، فانتقل إبراهيم إلى حجة أخرى ليعجزه، فإن حجته كانت لازمة لأنه أراد بالإحياء إحياء الميت فكان له أن يقول فأحيي من أمت إن كنت صادقاً، فانتقل إلى حجة أخرى أوضح من الأولى ﴿قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر﴾، أي: تحير ودهش وانقطعت حجته، فإن قيل: كيف بهت وكان يمكنه أن يعارض إبراهيم فيقول له: سل أنت ربك حتى يأتي بها من المغرب، قيل: إنما لم يقله لأنه خاف أن لو سأل ذلك، دعا إبراهيم ربه فكان زيادة في فضيحته وانقطاعه، والصحيح أن الله صرفه عن تلك المعارضة إظهاراً للحجة عليه أو معجزة لإبراهيم عليه السلام، ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾.

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتُ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

﴿أو كالذي مر على قرية﴾ هذه معطوفة على الآية التي قبلها والمعنى ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم أو كالذي مر على قرية فيكون هذا عطفاً على المعنى وقيل تقديره هل رأيت كالذي حاج إبراهيم وهل رأيت كالذي مر على قرية وقيل الكاف زائدة التقدير ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم أو إلى الذي مر على قرية واختلفوا في ذلك المار فروى عن مجاهد أنه كان كافراً شك في البعث وهذا قول ضعيف لقوله تعالى: ﴿قال كم لبثت﴾ والله تعالى لا يخاطب الكافر ولقوله تعالى: ﴿ولنجعلك آية للناس﴾ وهذا اللفظ لا يستعمل في حق الكافر وإنما يستعمل في حق الأنبياء وقال قتادة وعكرمة والضحاك والسدي هو عزيز بن شرخيا وقال وهب بن منبه هو أرميا بن حلقيا من سبط هارون وهو الخضر ومقصود القصة تعريف منكري البعث قدرة الله تعالى على إحياء خلقه بعد إماتتهم لا تعريف اسم ذلك المار على القرية فجائز أن يكون ذلك المار هو عزيز وجائز أن يكون أرميا وفي هذه القصة دلالة عظيمة بنبوة نبينا محمد ﷺ لأنه أخبر اليهود بما يجدونه في كتبهم ويعرفونه وهو أُمِّي لم يقرأ الكتب القديمة واختلفوا في تلك القرية فقيل هي بيت المقدس وذلك لما خربها بختنصر والمراد بالإحياء هنا عمارتها وقيل هي القرية التي أهلك الله أهلها الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف وقيل وهي دير سابر آباد وقيل سلماباد وقيل هي دير هرقل وقيل قرية العنب هي على فرسخين من بيت المقدس وقوله هي دير سابر آباد موضع كان بفارس وسلماباد محلة أو

قوله تعالى: ﴿أو كالذي مر على قرية﴾، وهذه الآية مسوقة على الآية الأولى، تقديره: ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه، وهل رأيت كالذي مر على قرية؟ وقيل: تقديره: هل رأيت كالذي حاج إبراهيم في ربه؟ وهل رأيت كالذي مر على قرية؟ واختلفوا في ذلك المار، فقال قتادة وعكرمة والضحاك: هو عزيز بن شرخيا، وقال وهب بن منبه: هو أرميا بن سلقيا، وكان من سبط هارون وهو الخضر، وقال مجاهد: هو كافر شك في البعث، واختلفوا في تلك القرية فقال وهب وعكرمة وقاتدة: هي بيت المقدس، وقال الضحاك: هي الأرض المقدسة، وقال الكلبي: هي دير سابر آباد، وقال السدي: مسلم آباد، وقيل: دير هرقل، وقيل: هي الأرض التي أهلك الله فيها الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف، وقيل: هي قرية العنب وهي على فرسخين من بيت المقدس، ﴿وهي خاوية﴾: ساقطة، يقال: خوي البيت بكسر الواو يخوي، خوي مقصوراً إذا سقط وخوي البيت بالفتح خواء ممدوداً إذا خلا، ﴿على عروشها﴾: سقوفها، واحداً عرش، وقيل: كل بناء عرش، ومعناه: أن السقوف سقطت ثم وقعت الشيطان عليها، ﴿قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها﴾؟ وكان السبب في ذلك على ما روى محمد بن إسحق عن وهب بن منبه: أن الله تعالى بعث أرميا إلى ناشية بن أموص ملك بني إسرائيل ليسدده في ملكه، ويأتيه بالخير من الله عز وجل، فعظمت الأحداث في بني إسرائيل، وركبوا المعاصي فأوحى الله تعالى إلى أرميا أن ذكر قومك نعيي وعرفهم أحداثهم وادعهم إليّ، فقال أرميا: إني ضعيف إن لم تقوني، عاجز إن لم تبغني، مخذول إن لم تنصرنني، فقال الله عز وجل: أنا ألهمك، فقام أرميا فيهم ولم يدر ما يقول، فألهمه الله في الوقت خطبةً بليغةً طويلةً بين لهم فيها ثواب الطاعة وعقاب المعصية، وقال في آخرها عن الله تعالى: وإني أحلف بعزتي لأقيضن لهم فتنة

قرية من نواحي جرجان وقيل: أيضاً من نواحي همدان ودير هرقل بكسر أوله وراء ساكنة وقاف مكسورة دير مشهور بين البصرة وعسكر مكرم. وقيل: هو موضع الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف فأماتهم الله تعالى ثم أحياهم لحزقيل كما تقدم ويقال إن المراد بقوله تعالى: ﴿أَو كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ هي التي عندها أحياء الله حمار عزيز ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ أي ساقطة على سقوفها وذلك أن السقوف سقطت أولاً وقفت الشيطان عليها بعد ذلك ﴿قَالَ﴾ يعني ذلك المار ﴿أَنِّي يَحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فمن قال إن ذلك المار كان كافراً وهو ضعيف إنما حمّله على الشك في قدرة الله ومن قال كان نبياً حمّله على سبيل الاستبعاد بحسب مجاري العرف والعادة لا على سبيل الإنكار لقدرة الله تعالى أو كان المقصود منه طلب زيادة الدلائل لأجل التأكيد كما قال إبراهيم عليه السلام: «رب أرني كيف تحيي الموتى» ومعنى ﴿أَنِّي يَحْيِي هَذِهِ اللَّهُ﴾ من أين يحيي هذه القرية والمراد بالإحياء عمارتها فأحب الله أن يريه آية في نفسه وفي إحياء تلك القرية. وكان سبب القصة في ذلك ما روي عن وهب بن منبه أن الله تعالى بعث أرمياء إلى ناشية بن أموص ملك بني إسرائيل ليسدده ويأتيه بالخبر من الله تعالى فعظمت الأحداث في بني إسرائيل وركبوا المعاصي فأوحى الله تعالى إلى أرمياء أن ذكر قومك نعمي عليهم وعرفهم أحداثهم وادعهم إلي فقال أرمياء يا رب إني ضعيف إن لم تقوني عاجز إن لم تبلغني مخدول إن لم تنصرنني فقال الله تعالى: إني ألهمك فقام أرمياء فيهم ولم يدر ما يقول، فألهمه الله تعالى في الوقت خطبة بليغة طويلة بين لهم فيها ثواب الطاعة وعقاب المعصية وقال في آخرها عن الله عز وجل إني أحلف بعزتي لأقيضن لهم فتنة يتحير فيها الحكيم ولأسلطن عليهم جباراً فارسياً ألبسه الهيبة وأنزع من صدره الرحمة يتبعه عدد مثل سواد

يتحير فيها الحكيم، ولأسلطن عليهم جباراً فارسياً ألبسه الهيبة وأنزع من صدره الرحمة يتبعه عدد مثل سواد الليل المظلم، ثم أوحى الله إلى أرمياء: إني مهلك بني إسرائيل، ويافث من أهل بابل، وهم من ولد يافث بن نوح عليه السلام، فلما سمع أرمياء ذلك صاح وبكى وشق ثيابه ونبذ الرماد على رأسه، فلما سمع الله تضرعه وبكائه ناداه يا أرمياء أشق عليك ما أوحيت إليك؟ قال: نعم يا رب، أهلكني قبل أن أرى في بني إسرائيل ما لا أسر به، فقال الله تعالى: وعزتي لا أهلك بني إسرائيل حتى يكون الأمر في ذلك من قبلك، ففرح أرمياء بذلك وطابت نفسه، فقال: لا والذي بعث موسى بالحق لا أرضى بهلاك بني إسرائيل، ثم أتى الملك فأخبره بذلك وكان ملكاً صالحاً فاستبشر وفرح، فقال: إن يُعَذِّبَنَا رَبُّنَا فَبِذُنُوبٍ كَثِيرَةٍ، وإن عفا عَنَّا فَبِرَحْمَتِهِ، ثم إنهم لبثوا بعد الوحي ثلاث سنين لم يزدادوا إلا معصية وتمادياً في الشر، وذلك حين اقتراب هلاكهم فقل الوحي، ودعاهم الملك إلى التوبة فلم يفعلوا فسَلَطَ الله عليهم بختنصر فخرج في ستمائة ألف راية يريد أهل بيت المقدس، فلما فصل سائراً أتى الملك الخبر فقال لأرمياء: أين ما زعمت أن الله أوحى إليك، فقال أرمياء: إن الله لا يخلف الميعاد، وأنا به واثق، فلما قَرُبَ الأجل بعث الله إلى أرمياء ملكاً قد تمثّل له رجلاً من بني إسرائيل، فقال له أرمياء: مَنْ أنت؟ قال: أنا رجل من بني إسرائيل أتيتك أستفتيك في أهل رحمي، وصلت أرحامهم ولم آت إليهم إلا حسناً ولا يزيدهم إكرامي إليهم إلا إسقاطاً لي، فأفتني فيهم، قال: أحسن فيما بينك وبين الله وصلهم وأبشّر بخير، فانصرف الملك فمكث أياماً ثم أقبل إليه في صورة ذلك الرجل، فقعده بين يديه، فقال له أرمياء: مَنْ أنت؟ قال: أنا الرجل الذي أتيتك أستفتيك في شأن أهلي، فقال له أرمياء: أما طهرت أخلاقهم لك بعد؟ قال: يا نبي الله والذي بعثك بالحق ما أعلم كرامة يأتيها أحد من الناس إلا رَجِمَهُ إِلَّا قَدَمَتَهَا إِلَيْهِمْ وَأَفْضَلَ، فقال له النبي أرمياء عليه السلام: ارجع فأحسن إليهم واسأل الله الذي يصلح عباده الصالحين أن يصلحهم، فانصرف الملك، فمكث أياماً وقد نزل بختنصر وجنوده حول بيت المقدس بأكثر من الجراد ففزع منهم بنو إسرائيل، فقال ملكهم لأرمياء: يا نبي الله أين ما وعدك الله؟ قال: إني

الليل المظلم ثم أوحى الله تعالى إليه إني مهلك بني إسرائيل بياض وياض هم أهل بابل وهم من ولد يافث بن نوح فلما سمع أرمياء ذلك صاح وبكى وشق ثيابه ونبذ الرماد على رأسه فلما رأى الله تضرعه وبكاءه ناداه يا أرمياء أشق عليك ما أوحيت إليك قال نعم يا رب أهلكني قبل أن أرى في بني إسرائيل مالا أسربه فقال الله عز وجل: وعزتي وجلالي لا أهلك بني إسرائيل حتى يكون الأمر في ذلك من قبلك ففرح أرمياء بذلك وطابت نفسه وقال: لا والذي بعث موسى بالحق لا أرضى بهلاك بني إسرائيل، ثم أتى الملك فأخبره بذلك وكان ملكاً صالحاً فاستبشر وفرح وقال إن يعذبنا ربنا فبذنوبنا وإن يعف عنا فبرحمته ثم إنهم مكثوا بعد ذلك الوحي ثلاث سنين لم يزدادوا إلا معصية وتمادياً في الشر فقل الوحي وذلك حين اقترب هلاكهم فدعاهم الملك إلى التوبة فلم يفعلوا فسلط الله عليهم بختنصر البابلي فخرج في ستمائة ألف راية يريد أهل بيت المقدس فلما فصل سائراً وأتى الخبر إلى ملك بني إسرائيل قال لأرمياء: أين ما زعمت أن الله تعالى أوحى إليك فقال أرمياء: إن الله لا يخلف الميعاد وأنا به واثق فلما قرب الأجل بعث الله تعالى إلى أرمياء ملكاً قد تمثل له في صورة رجل من بني إسرائيل فقال له أرمياء من أنت قال أنا رجل من بني إسرائيل أتيتك أستفتيك في أهل رحمي وصلت أرحامهم ولم آت إليهم إلا حسناً ولا يزيدهم إكرامي إياهم إلا سهطاً لي فافتني فيهم فقال أرمياء: أحسن فيما بينك وبين الله وصلهم وأبشر بخير فانصرف الملك فمكث أياماً ثم أقبل إليه في صورة ذلك الرجل فقعد بين يديه فقال له أرمياء من أنت قال أنا الرجل الذي أتيتك أستفتيك في شأن أهلي فقال له أرمياء أما طهرت أخلاقهم بعدك فيهم فقال يا نبي الله والذي بعثك بالحق نبياً ما أعلم كرامة يأتيها أحد من الناس إلى رحمه إلا قدمتها إليهم وأفضل فقال أرمياء: ارجع إليهم فأحسن إليهم

بربي واثق، ثم أقبل الملك إلى أرمياء وهو قاعد على جدار بيت المقدس يضحك ويستبشر بنصر ربه الذي وعده، فقعد بين يديه فقال له أرمياء: من أنت؟ فقال: أنا الذي أتيتك في شأن أهلي مرتين، فقال النبي: ألم يأن لهم أن يفيقوا من الذي هم فيه؟ فقال الملك يا نبي الله كل شيء كان يصيني منهم قبل اليوم كنت أصبر عليه، فاليوم رأيتهم في عمل لا يرضي الله، فقال النبي على أي عمل رأيتهم؟ قال: على عمل عظيم من سخط الله، فغضبت الله وأتيتك لأخبرك، وإنني أسألك بالله الذي بعثك بالحق نبياً إلا ما دعوت الله عليهم ليهلكهم، فقال أرمياء: يا مالك السموات والأرض إن كانوا على حق وصواب فأبقهم، وإن كانوا على عمل لا ترضاه فأهلكهم، فلما خرجت الكلمة من في أرمياء أرسل الله صاعقة من السماء في بيت المقدس، فالتهب مكان القربان وحُسف بسبعة أبواب من أبوابها، فلما رأى ذلك أرمياء صاح وشق ثيابه ونبذ الرماد على رأسه، وقال: يا مالك السموات والأرض أين ميعادك الذي وعدتني به، فنودي أنه لم يصيبهم ما أصابهم إلا بفتيك ودعائك، فاستيقن النبي عليه السلام أنها فتياه وأن ذلك السائل كان رسول ربه، فطار أرمياء حتى خالط الوحوش، ودخل بختنصر وجنوده بيت المقدس ووطىء الشام وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم وخرّب بيت المقدس، ثم أمر جنوده أن يملأ كل رجل منهم ترسه تراباً فيقذفه في بيت المقدس ففعلوا حتى ملؤوه، ثم أمرهم أن يجمعوا من كان في بلدان بيت المقدس، فاجتمع عندهم صغيرهم وكبيرهم من بني إسرائيل، فاختر منهم سبعين ألف صبي فقسمهم بين الملوك الذين كانوا معه، فأصاب كل رجل منهم أربعة غلme، وكان من أولئك الغلمان دانيال وحنانيا، وفرّق من بقي من بني إسرائيل ثلاث فرق فثلثاً قتلهم وثلثاً سباهم وثلثاً أقرهم بالشام، وكانت هذه الواقعة الأولى التي أنزلها الله في بني إسرائيل بظلمهم فلما ولّى عنهم بختنصر راجعاً إلى بابل ومعه سبايا بني إسرائيل أقبل أرمياء على حماره، ومعه عصير عنب في ركوة وسلّة تين حتى غشي إيلياء، فلما وقف عليها ورأى خرابها قال: ﴿أني يحيي هذه الله بعد موتها﴾ وقال الذي قال: إن المارّ كان عزيزاً وإن بختنصر لما خرّب بيت المقدس وقدم بسبي بني إسرائيل ببابل كان فيهم عزيز ودانيال وسبعة آلاف من أهل بيت داود، فلما

واسأل الله الذي يصلح عباده الصالحين أن يصلحهم فقام الملك فمكث أياماً ثم إن بختنصر نزل بجنوده بيت المقدس ففزع منهم بنو إسرائيل فقال ملكهم لأرمياء يا نبي الله أين ما وعدك الله فقال إني بربي واثق ثم أقبل ذلك الملك إلى أرمياء وهو قاعد على جدار بيت المقدس يضحك ويستبشر بنصر ربه الذي وعده فقعد بين يديه فقال له أرمياء من أنت قال أنا الذي جئت في شأن أهلي مرتين فقال أرمياء: أما آن لهم أن يفيقوا من الذي هم فيه فقال الملك يا نبي الله إن كل شيء كان يصيني منهم قبل اليوم كنت أصبر عليه فاليوم رأيتهم على عمل لا يرضي الله تعالى فقال له أرمياء: على أي عمل رأيتهم؟ قال على عمل عظيم يسخط الله تعالى فغضبت الله عز وجل فأتيتهم لأخبرك وأنا أسألك بالله الذي بعثك بالحق أن تدعو الله عليهم ليهلكوا فقال أرمياء: يا مالك السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام إن كانوا على حق وصواب فأبقهم وإن كانوا على عمل لا ترضاه فأهلكهم فما خرجت الكلمة من فيه حتى أرسل الله عز وجل صاعقة من السماء على بيت المقدس فالتهب مكان القربان وأحرقت سبعة أبواب من أبوابه، فلما رأى ذلك أرمياء صاح وشق ثيابه ونبد الرماد على رأسه وقال يا مالك السموات والأرض أين ميعادك الذي وعدتني به فنودي أنهم لم يصبهم ما أصابهم إلا بفيتاك ودعائك عليهم، فاستيقن أرمياء أنها فتياه وأن ذلك السائل كان رسولاً من الله تعالى إليه فخرج أرمياء حتى خالط الوحوش ودخل بختنصر وجنوده بيت المقدس ووطئ الشام، وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم وخرّب بيت المقدس وأمر جنوده أن يملأ كل رجل منهم ترسه تراباً ويقذفه في بيت المقدس ففعلوا ذلك حتى ملؤوه ثم أمرهم أن يجمعوا من كان بقي في بلدان بيت المقدس فاجتمع عنده من كان بقي من بني إسرائيل من صغير وكبير فاختر منهم سبعين ألف صبي فقسمهم بين الملوك الذين كانوا معه فأصاب كل رجل منهم أربعة غلّة. وكان في أولئك الغلمان دانيال عليه السلام وحنانيا وعزير، وفرق من بقي من بني إسرائيل ثلاث فرق فثلاثاً قتلهم وثلاثاً سباهم وثلاثاً أقرهم بالشام فكانت هذه الواقعة الأولى التي أنزلها الله ببني إسرائيل بظلمهم فلما ولى بختنصر راجعاً إلى بابل ومعه سبايا بني إسرائيل أقبل أرمياء على حمار له ومعه عصير

نجا عزير من بابل ارتحل على حمار له حتى نزل دير هرقل على شطّ دجلة، فطاف في القرية فلم ير فيها أحداً وعامة شجرها حاصل، فأكل من الفاكهة واعتصر من العنب فشرب منه وجعل فضل الفاكهة في سلّة وفضل العصير في زقّ، فلما رأى خراب القرية وهلاك أهلها قال: ﴿أنى يحيي هذه الله بعد موتها﴾، قالها تعجباً لا شكاً في البعث. رجعنا إلى حديث وهب، قال: ثم ربط أرمياء حماره بحبل جديد فألقى الله تعالى عليه النوم فلما نام نزع الله منه الروح مائة عام، وأمات حماره، وعصيره وتينه عنده فأعمى الله عنه العيون فلم يره أحد، وذلك ضحى ومنع الله السباع والطير لحمه فلما مضى من موته سبعون سنة أرسل الله ملكاً إلى ملك من ملوك فارس يقال له نوشك، فقال: إن الله يأمرك أن تنفّر بقومك فتعمر بيت المقدس وإلياء حتى يعود أعمر ما كان، فانتدب الملك بألف قهرمان مع كل قهرمان ثلاثمائة ألف عامل وجعلوا يعمرّونه، فأهلك الله بختنصر ببعوضة دخلت دماغه، ونجا الله من بقي من بني إسرائيل، ولم يمت ببابل أحد وردّهم جميعاً إلى بيت المقدس ونواحيه وعمرّوها ثلاثين سنة، وكثروا حتى عادوا على أحسن ما كانوا عليه، فلما مضت المائة أحيا الله منه عيّنه وسائر جسده ميت ثم أحيا جسده وهو ينظر إليه، ثم نظر إلى حماره فإذا عظامه متفرقة بيض تلوح، فسمع صوتاً من السماء: أيتها العظام البالية إن الله يأمرك أن تجتمع فاجتمع بعضها إلى بعض واتصل بعضها ببعض، ثم نودي أن الله يأمرك أن تكتسي لحماً وجلداً فكانت كذلك، ثم نودي أن الله يأمرك أن تحيا فقام بإذن الله ونهق، وعمر الله أرمياء فهو الذي يرى في الفلوات، فذلك قوله تعالى: ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾، أي: أحياه، ﴿قال كم لبثت﴾، أي: كم مكثت؟ يقال: لما أحياه الله بعث إليه ملكاً فسأله: كم لبثت ﴿قال لبثت يوماً﴾، وذلك أن الله تعالى أماته ضحى في أول النهار وأحياه بعد

عنب في ركوة وسلّة تين حتى غشي إيليا وهي أرض بيت المقدس فلما رأى خرابها قال: أنى يحيي هذه الله بعد موتها. ومن قال: إن المار كان عزيزاً قال: إن بختنصر لما خرب بيت المقدس بسبايا بني إسرائيل وكان فيهم عزيز ودانيال وسبعة آلاف من أهل بيت داود، فلما نجا عزيز من بابل ارتحل على حمار حتى نزل دير هرقل على شط دجلة فطاف بالقرية فلم ير أحداً وعامة شجرها حامل فأكل من الفاكهة واعتصر من العنب فشرب منه وجعل فضل الفاكهة في سلة وفضل العصير في زق، ولما رأى خراب القرية وهلاك أهلها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها وإنما قال ذلك تعجباً لا شكاً في البعث. ورجعنا إلى حديث وهب قال ثم إن أرمياء ربط حمارة بحبل جديد وألقى الله تعالى عليه النوم فلما نام ونزع الله منه الروح فمات مائة عام وأمات حمارة وبقي عصيره وتينه عنده وأعمى الله عنه العيون فلم يره أحد وذلك ضحى ومنع لحمه من السباع والطير، فلما مضى من وقت موته مدة سبعين سنة أرسل الله تعالى ملكاً إلى ملك من ملوك فارس يقال له نوشك وقال له: إن الله يأمرك أن تنفر بقومك فتعمر بيت المقدس وإيليا حتى يعود أعمر ما كان فانتدب الملك ألف قهرمان مع كل قهرمان ثلاثمائة ألف عامل وجعلوا يعمرونه وأهلك الله بختنصر ببعوضة دخلت في دماغه ونجى الله من بقي من بني إسرائيل وردهم جميعاً إلى بيت المقدس ونواحيها فعمروها ثلاثين سنة وكثروا كأحسن ما كانوا، فلما مضت المائة أحيا الله منه عينيه وسائر جسده ميت ثم أحيا الله جسده وهو ينظر ثم نظر إلى حمارة فإذا عظامه تلوح بيض متفرقة فسمع صوتاً من السماء أيتها العظام البالية إن الله يأمرك أن تجتمعي فاجتمع بعضها إلى بعض، ثم نودي إن الله يأمرك أن تكتسي لحماً وجلداً فكان كذلك، ثم نودي إن الله يأمرك أن تحيي فقام الحمار بإذن الله ثم نهق وعمر الله أرمياء فهو يدور في الفلوات فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ﴾ أصل العام من العوم وهو السباحة سميت السنة عاماً لأن الشمس تعوم في جميع بروجها ﴿ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ أي ثم أحياه وأصله من بعث الناقة إذا أقمتها من مكانها ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ﴾ يعني قال الله تعالى له كم قدر الزمان الذي مكثت فيه ميتاً قبل أن أبعثك من مكانك حياً؟ ويقال إن الله تعالى لما أحياه بعث إليه ملكاً

مائة عام في آخر النهار قبل غيوبة الشمس، فقال: كم لبثت؟ قال: لبثت يوماً وهو يرى أن الشمس قد غربت، ثم التفت فرأى بقية من الشمس، فقال: ﴿أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ﴾، بل بعض يوم، ﴿قَالَ﴾ له الملك: ﴿بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ﴾، يعني: التين، ﴿وَشَرَابِكَ﴾، يعني: العصير، ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾، أي: لم يتغير، فكان التين كأنه قُطِفَ من ساعته، والعصير كأنه عُصِرَ من ساعته، قال الكسائي: كأنه لم تأت عليه السنون، وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ بحذف الهاء في الوصل، وكذلك ﴿فَبَهْدَاهُمَ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] وقرأ الآخرون بالهاء فيهما وصلاً ووقفاً، فمن أسقط الهاء في الوصل جعل الهاء صلةً زائدةً، وقال: أصله يتسنّى، فحذف الياء بالجزم وأبدل منه هاء في الوقف، وقال أبو عمرو: وهو من التسنّن، بنونين، وهو التغير، كقوله تعالى: ﴿مَنْ حَمَأٌ مَسْنُونٌ﴾ [الحجر: ٢٦ و ٢٨ و ٣٣]، أي: متغير، فعوّضت من أحد النون ياء، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾ [القيامة: ٣٣]، أي: يتمطط، وقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مِنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ١٠]، وأصله: دسّسها، ومن أثبت الهاء في الحالين جعل الهاء أصلية لآم الفعل، وهذا على قول من جعل أصل السنة السنه، وتصغيرها سُنيّه، والفعل من المسانهة، وإنما قال: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ ولم يشته مع أنه أخبر عن شيئين رداً للمتغير إلى أقرب اللفظين به، وهو الشراب، واكتفى بذكر أحد المذكورين، لأنه في معنى الآخر، ﴿وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾، فنظر فإذا هو عظام بيض، فركب الله تعالى العظام بعضها على بعض فكساه اللحم والجلد وأحياه وهو ينظر، ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾، قيل: الواو زائدة مقحمة، وقال الفراء: أدخلت الواو فيه دلالةً على أنها شرط لفعل بعدها معناه: ولنجعلك آيةً: عبرةً ودلالةً على البعث بعد الموت، قاله أكثر المفسرين، وقال الضحّاك وغيره:

فسأله كم لبثت ﴿قال﴾ يعني ذلك المبعوث بعد مماته ﴿لبثت يوماً﴾ وذلك أن الله تعالى أماته ضحى في أول النهار وأحياه بعد مائة سنة في آخر النهار قبل أن تغيب الشمس فقال لبثت يوماً وهو يرى أن الشمس قد غابت ثم التفت فرأى بقية من الشمس فقال: ﴿أو بعض يوم قال﴾ يعني قال الله له، وقيل قال الملك له ﴿بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك﴾ يعني التين الذي كان معه قبل موته ﴿وشرابك﴾ يعني العصير ﴿لم يتسنه﴾ يعني لم يغيره السنون التي أتت عليه فكان التين كأنه قد قطف من ساعته والعصير كأنه قد عصر من ساعته لم يتغير ولم يتن ﴿وانظر إلى حمارك﴾ أي وانظر إلى إحياء حمارك فنظر فإذا هو عظام بيض فركب الله تعالى العظام بعضها على بعض ثم كساه اللحم والجلد وأحياه وهو ينظر ﴿ولنجعلك آية للناس﴾ قيل الواو زائدة مقحمة وقيل: دخول الواو فيه دلالة على أنها شرط لفعل بعدها والمعنى وفعلنا ما فعلنا من الإمامة والإحياء لنجعلك آية للناس يعني عبرة ودلالة على البعث بعد الموت. وقال أكثر المفسرين وقيل: إنه عاد إلى القرية وهو شاب أسود الرأس واللحية وأولاده وأولاد أولاده شيوخ وعجائز شمت فكان ذلك آية للناس ﴿وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً﴾ قرء بالراء ومعناه كيف نحياها يقال أنشر الله الميت إنشأراً يعني أحياه وقرء بالزاي ومعناه: كيف نرفعها من الأرض ونردها إلى مكانها من الجسد، وتركيب بعضها على بعض وإنشاز الشيء رفعه وإنزعاجه يقال: نشزته فنشز أي رفعته فارتفع واختلفوا في معنى الآية فقال الأكثرون إنه أراد عظام الحمار قيل إن الله تعالى أحياء عزيراً أو أرمياً على اختلاف القولين فيه ثم قال: له: انظر إلى حمارك قد هلك وبليت عظامه، فنظر وبعث الله ريحاً فجاءت بعظام الحمار من كل سهل وجبل، فاجتمعت فركب بعضها على بعض حتى الكسرة من العظم رجعت إلى موضعها فصار حماراً من عظام ليس عليه لحم، ولا فيه دم ثم كسا الله تلك العظام اللحم والعروق والدم، فصار حماراً ذا لحم ودم لا روح فيه، ثم بعث الله ملكاً فأقبل إليه يمشي حتى أخذ بمنخر الحمار فنفخ فيه الروح فقام الحمار حياً بإذن الله تعالى، ثم نهق وقيل: أراد بالعظام عظام هذا الرجل نفسه وذلك أن الله تعالى أماته ثم بعثه ولم يمت حماره. ثم قيل: له انظر إلى حمارك فنظر فرأى حماره حياً قائماً كهيئته يوم ربطه لم يطعم ولم يشرب مائة عام ونظر إلى الرمة في عنقه جديدة لم تتغير ثم قيل له: انظر إلى العظام كيف ننشزها وذلك أن الله أول ما أحيى منه عينيه فنظر فرأى سائر جسده

إنه عاد إلى قريته شاباً وأولاده وأولاد أولاده شيوخ وعجائز، وهو أسود الرأس واللحية، قوله تعالى: ﴿وانظر إلى العظام كيف تُنشزها﴾، قرأ أهل الحجاز والبصرة: (ننشزها) بالراء، معناه: نحياها، يقال: أنشر الله الميت إنشأراً وأنشره نشوراً، قال الله تعالى: ﴿ثم إذا شاء أنشره﴾ [عبس: ٢٢]، وقال في اللازم: ﴿وإليه النشور﴾ [الملك: ١٥]، وقال الآخرون بالزاي، أي نرفعها من الأرض ونركب بعضها على بعض، وإنشاز الشيء: رفعه وإنزعاجه، قال: أنشزته فنشز. أي: رفعته فارتفع، واختلفوا في معنى الآية، فقال الأكثرون: أراد به عظام حماره، وقال السدي: إن الله تعالى أحياء عزيراً، ثم قال له: انظر إلى حمارك قد هلك وبليت عظامه، فبعث الله تعالى ريحاً فجاءت بعظام الحمار من كل سهل وجبل، وقد ذهبت بها الطير والسباع، فاجتمعت فركب بعضها في بعض وهو ينظر فصار حماراً من عظام ليس فيه لحم ولا دم، ﴿ثم نكسوها لحماً﴾، ثم كسى العظام لحماً فصار حماراً لا روح فيه، ثم أقبل ملك يمشي حتى أخذ بمنخر الحمار فنفخ فيه، فقام الحمار ونهق بإذن الله، وقال قوم: أراد به عظام هذا الرجل، ذلك أن الله تعالى لم يمت حماره بل أماته هو، فأحيى الله عينيه، ورأسه وسائر جسده ميت، ثم قال: انظر إلى حمارك فنظر فرأى حماره قائماً واقفاً كهيئته يوم ربطه حياً لم يطعم ولم يشرب مائة عام، ونظر إلى الرمة في عنقه جديدة لم تتغير، وتقدير الآية وانظر إلى مارك وانظر إلى عظامك كيف ننشزها، وهذا قول قتادة عن كعب والضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما، والسدي عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما: لما أحيى الله

ميتاً وفي الآية تقديم وتأخير تقديره وانظر إلى حمارك وانظر إلى العظام كيف ننشزها، ولنجعلك آية للناس وعن ابن عباس وغيره من المفسرين لما أحيا الله عزيزاً بعد ما أماته سنة ركب حماره حتى أتى إلى محلته فأنكره الناس، وأنكر منازلهم فانطلق على وهم حتى أتى منزله فإذا بعجوز عمياء مقعدة قد أتى عليها مائة وعشرون سنة، وكانت أمة لهم ولما خرج عزيز عنهم كانت بنت عشرين سنة، وكانت قد عرفته وعقلته فقال لها عزيز: يا هذه هذا منزل عزيز فقالت: نعم وبكت وقالت ما رأيت أحداً يذكر عزيزاً منذ كذا وكذا؛ فقال: أنا عزيز فقالت: سبحان الله إن عزيزاً فقدناه من مائة سنة ولم نسمع له بذكر فقال: إني عزيز إن الله تعالى أماتني مائة سنة ثم أحياني فقالت: إن عزيزاً كان رجلاً مجاب الدعوة وكان يدعو للمريض وصاحب البلاء بالعافية فادع الله أن يرد علي بصري حتى أراك فإن كنت عزيزاً عرفتك فدعا ربه ومسح بيده على عينيه فصحتا وأخذ بيدها وقال لها: قومي بإذن الله تعالى فأطلق الله رجلها فقامت صحيحة، فنظرت إليه وقالت: أشهد أنك عزيز وانطلقت إلى بني إسرائيل وهم في أنديتهم ومجالسهم وابن لعزير شيخ ابن مائة سنة وثمانية عشرة سنة، وبنو بنيه شيوخ فنادت هذا عزيز قد جاءكم، فكذبوها فقالت: أنا فلانة مولاتكم فدعا عزيز ربه فرد علي بصري وأطلق رجلي، وزعم أن الله تعالى قد أماته مائة سنة ثم بعثه قال: فنهض الناس إليه، وقال ابنه: كان لأبي شامة سوداء مثل الهلال بين كتفيه فكشف عن كتفيه فنظر إليها فرآها فعرف أنه عزيز، وقيل: لما رجع عزيز إلى قريته وقد أحرق بختنصر التوراة ولم يكن من الله عهد بين الخلائق بكى عزيز على التوراة فاتاه ملك بإناء فيه ماء فسقاه من ذلك الماء فثبتت التوراة في صدره فرجع إلى بني إسرائيل وقد علمه الله التوراة، وبعثه نبياً فقال أنا عزيز: فلم يصدقوه فقال إني عزيز وقد بعثني الله إليكم لأجدد لكم توراتكم، قالوا: فاملها علينا فأملها عليهم من ظهر قلبه فقالوا: ما جعل الله التوراة في قلب رجل بعد ما ذهبت إلا أنه ابنه فقالوا: عزيز ابن الله وستأتي القصة في سورة التوبة إن شاء الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿فلما تبين له﴾

تعالى عزيزاً بعدما أماته مائة سنة ركب حماره حتى أتى محلته فأنكره الناس وأنكر منازلهم، فانطلق على وهم حتى أتى منزله فإذا هو بعجوز عمياء مقعدة قد أتى عليها مائة وعشرون سنة كانت عرفته وعقلته، فقال لها عزيز: يا هذه هذا منزل عزيز؟ قالت: نعم هذا منزل عزيز وبكيت، وقالت: ما رأيت أحداً من كذا وكذا سنة تذكر عزيزاً، قال: فأني أنا عزيز، قالت: سبحان الله فإن عزيزاً قد فقدناه من مائة سنة لم نسمع له بذكر، قال: فأني أنا عزيز كان الله أماتني مائة سنة ثم بعثني، قالت: فإن عزيزاً كان رجلاً مستجاب الدعوة ويدعو للمريض ولصاحب البلاء بالعافية، فادع الله أن يرد لي بصري حتى أراك، فإن كنت عزيزاً عرفتك، فدعا ربه ومسح بيده على عينيه فصحتا وأخذ بيدها، وقال: قومي بإذن الله تعالى، فأطلق الله رجلها فقامت صحيحة فنظرت إليه فقالت: أشهد أنك عزيز، فانطلقت إلى بني إسرائيل، وهم في أنديتهم ومجالسهم، وابن لعزير شيخ كبير ابن مائة سنة وثمانية عشرة سنة، وبنو بنيه شيوخ في المجلس، فنادت هذا عزيز قد جاءكم فكذبوها، فقالت: أنا فلانة مولاتكم، دعا لي ربه فرد علي بصري وأطلق رجلي، وزعم أن الله كان أماته مائة سنة ثم بعثه، فنهض الناس فأقبلوا إليه فقال ولده: كان لأبي شامة سوداء مثل الهلال بين كتفيه، فكشف عن كتفيه فإذا هو عزيز، وقال السدي والكلبي: لما رجع عزيز إلى قومه، وقد أحرق بختنصر التوراة ولم يكن من الله عهد بين الخلق فبكى عزيز على التوراة، فاتاه ملك بإناء فيه ماء فسقاه من ذلك الماء فمثلت التوراة في صدره فرجع إلى بني إسرائيل وقد علمه الله التوراة، وبعثه نبياً فقال: أنا عزيز فلم يصدقوه، فقال: إني عزيز قد بعثني الله إليكم لأجدد لكم توراتكم، قالوا: أملها علينا فأملها عليهم عن ظهر قلبه، فقالوا: ما جعل الله التوراة في صدر رجل بعدما ذهبت إلا أنه ابنه، فقالوا: عزيز ابن الله وستأتي القصة في سورة براءة إن شاء الله تعالى، ﴿فلما تبين له﴾ ذلك عياناً، ﴿قال أعلم﴾، قرأ حمزة والكسائي مجزوماً

يعني فلما اتضح له عياناً ما كان ينكره من إحياء القرية ورآه عياناً في نفسه ﴿قال أعلم﴾ قرىء مجزوماً موصولاً على الأمر يعني قال الله له أعلم وقرىء أعلم على قطع الألف، ورفع الميم على الخبر عن الذي قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها والمعنى فلما تبين له ورأى ذلك عياناً قال: أعلم ﴿أن الله على كل شيء قدير﴾ يعني الإمامة والإحياء.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُؤْمِنُ قَال بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكَ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾

قوله عز وجل: ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى﴾ اختلفوا في سبب هذا السؤال من إبراهيم عليه السلام فقيل: إنه مر على دابة ميتة وهي جيفة حمار وقيل: بل كانت حوتاً ميتاً وقيل: كان رجلاً ميتاً بساحل البحر وقيل: بحر طبرية فرآها وقد توزعها دواب البحر والبر. فإذا مد البحر جاءت الحيتان فأكلت منها وإذا جزر البحر جاءت السباع فأكلت منها. فإذا ذهبت السباع جاءت الطير فأكلت منها فلما رأى إبراهيم ذلك تعجب منها. وقال: يا رب إني قد علمت إنك لتجمعها من بطون السباع وحواصل الطير وأجواف الدواب فأرني كيف تحييها لأعين ذلك، فأزداد يقيناً فعاتبه الله تعالى: ﴿قال أولم تؤمن﴾ يعني أ لم تصدق ﴿قال بلى﴾ يا رب قد علمت وآمنت ﴿ولكن ليطمئن قلبي﴾ أي ليسكن قلبي عند المعاينة أراد إبراهيم عليه السلام أن يصير له علم اليقين عين اليقين لأن الخبر ليس كالمعاينة وقيل لما رأى الجيفة وتطلعت نفسه إلى مشاهدة ميت يحييه ربه، ولم يكن إبراهيم عليه السلام شاكاً في إحياء الله الموتى ولا دافعاً له ولكنه أحب أن يرى ذلك عياناً كما أن المؤمنين يحبون أن يروا نبيهم محمداً ﷺ، ويحبون رؤية الله تعالى في الجنة ويطلبونها، ويسألونه في دعائهم مع الإيمان بصحة ذلك وزوال

موصولاً على الأمر على معنى قال الله تعالى له: اعلم، وقرأ الآخرون ﴿أعلم﴾ بقطع الألف ورفع الميم على الخبر عن عزيز أنه قال لما رأى ذلك: أعلم، ﴿أن الله على كل شيء قدير﴾.

قوله تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى﴾، قال الحسن وقتادة وعطاء الخراساني والضحاك وابن جريج: كان سبب هذا السؤال من إبراهيم عليه السلام أنه مر على دابة ميتة، قال ابن جريج: كانت جيفة حمار بساحل البحر، قال عطاء: في بحيرة طبرية، قالوا: فرآها وقد توزعت دواب البحر والبر، فكان إذا مد البحر جاءت الحيتان ودواب البحر فأكلت منها، فما وقع منها يصير في البحر، فإذا جزر البحر ورجع جاءت السباع فأكلن منها فما سقط منها يصير تراباً، فإذا ذهبت السباع جاءت الطير فأكلت منها فما سقط منها قطعته الرياح في الهواء، فلما رأى ذلك إبراهيم عليه السلام تعجب منها وقال: يا رب قد علمت أنك لتجمعها من بطون السباع وحواصل الطير وأجواف دواب البحر، فأرني كيف تحييها لأعين فأزداد يقيناً فعاتبه الله تعالى، ﴿قال أولم تؤمن قال بلى﴾ يا رب علمت وآمنت، ﴿ولكن ليطمئن قلبي﴾، أي: ليسكن قلبي إلى المعاينة والمشاهدة، أراد أن يصير له علم اليقين، عين اليقين، لأن الخبر ليس كالمعاينة، وقيل: كان سبب هذا السؤال من إبراهيم أنه لما احتج على نمرود فقال: ربّي الذي يحيي ويميت، قال نمرود: أنا حيي وأميت، فقتل أحد الرجلين وأطلق الآخر، فقال إبراهيم: إن الله تبارك وتعالى يقصد إلى جسد ميت فيحييه، فقال له نمرود: أنت عاينته فلم يقدر أن يقول نعم، فانتقل إلى حجة أخرى، ثم سأله ربه أن يريه إحياء الموتى، قال: أولم تؤمن؟ قال: بلى، ولكن ليطمئن قلبي بقوة حجتي،

الشك عنهم فكذلك أحب إبراهيم أن يصير الخبر له عياناً، وقيل: كان سبب هذا السؤال من إبراهيم أنه لما احتج على نمرود فقال إبراهيم: ربي الذي يحيي ويميت فقال نمرود: أنا أحيي وأميت فقتل أحد الرجلين وأطلق الآخر فقال إبراهيم: إن الله تعالى يقصد إلى جسد ميت فيحييه فقال له نمرود أنت عاينته فلم يقدر إبراهيم أن يقول: نعم فانتقل إلى حجة أخرى ثم سأل إبراهيم ربه أن يريه كيف يحيي الموتى؟ قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي بقوة حجتي فإذا قيل: أنت عاينته فأقول نعم وقال سعيد بن جبير لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً سأل ملك الموت ربه أن يأذن له فيبشر إبراهيم بذلك فأذن له، فأتى إبراهيم ولم يكن في الدار فدخل داره وكان إبراهيم من أغبر الناس وكان إذا خرج أغلق بابَه فلما جاء، وجد في الدار رجلاً فثار إليه ليأخذه وقال له: من أذن لك أن تدخل داري فقال: أذن لي رب الدار فقال: إبراهيم صدقت وعرف أنه ملك فقال له: من أنت قال: أنا ملك الموت جئتك أبشرك أن الله قد اتخذك خليلاً فحمد الله عز وجل وقال له: ما علامة ذلك قال: أن يجيب الله دعاءك ويحيي الموتى بسؤالك فحينئذ قال إبراهيم: رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي بأنك اتخذتني خليلاً، وتجييني إذا دعوتك وتعطيني إذا سألتك (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرني كيف تحيي الموتى. قال: أولم تؤمن؟ قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي».

(القول على معنى الحديث) وما يتعلق به اختلف العلماء في قوله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» على أقوال كثيرة فأحسنها وأصحها ما نقل المزي وغيره من العلماء أن الشك مستحيل في حق إبراهيم فإن الشك في إحياء الموتى لو كان متطرقاً إلى الأنبياء لكانت أنا أحق به من إبراهيم ولقد علمتم أنني لم أشك فاعلموا أن إبراهيم لم يشك وإنما خص إبراهيم بالذكر لكون الآية قد يسبق إلى بعض الأذهان الفاسدة منها احتمال الشك فنفي ذلك عنه، وقال الخطابي: ليس في قوله نحن أحق بالشك من إبراهيم؛ اعتراف بالشك على نفسه، ولا على إبراهيم

فإذا قيل أنت عاينته فأقول نعم قد عاينته، وقال سعيد بن جبير: لما اتخذ الله تعالى إبراهيم خليلاً، سأل ملك الموت ربه أن يأذن له فيبشر إبراهيم بذلك، فأذن له، فأتى إبراهيم ولم يكن في الدار فدخل داره، وكان إبراهيم عليه السلام أغبر الناس، إذا خرج أغلق بابَه، فلما جاء وجد في داره رجلاً فثار عليه ليأخذه وقال له: من أذن لك أن تدخل داري؟ فقال: أذن لي رب هذه الدار، فقال إبراهيم: صدقت، وعرف أنه ملك، فقال: من أنت؟ قال: أنا ملك الموت، جئت أبشرك بأن الله تعالى قد اتخذك خليلاً، فحمد الله عز وجل، قال: فما علامة ذلك؟ قال: أن يجيب الله دعاءك ويحيي الموتى بسؤالك، فحينئذ قال إبراهيم: رب أرني كيف تحيي الموتى، قال: أولم تؤمن؟ قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي إنك اتخذتني خليلاً وتجييني إذا دعوتك. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا أحمد بن صالح، أنا ابن وهب أخبرنا يونس عن ابن شهاب، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وسعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «نحن أحق بالشك من إبراهيم، إذ قال رب أرني كيف تحيي الموتى؟ قال: أولم تؤمن؟ قال: بلى، ولكن ليطمئن قلبي، ورحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي»، وأخرج مسلم بن الحجاج هذا الحديث عن حرملة بن يحيى عن وهب بهذا الإسناد مثله، وقال: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» إذ قال رب أرني كيف تحيي الموتى ﴿حكى محمد بن إسحق بن خزيمة عن أبي إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني أنه قال على هذا الحديث: لم يشك النبي ﷺ ولا إبراهيم في أن الله قادر على أن يحيي الموتى، وإنما شكنا في أنه هل يجيبهما إلى

لكن فيه نفي الشك عنهما يقول: إذا لم أشك أنا في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى فإبراهيم أولى بأن لا يشك وقال ذلك على سبيل التواضع والهضم من النفس وكذلك قوله: لو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي وفيه الإعلام بأن المسألة من إبراهيم لم تعرض من جهة الشك لكن من قبل زيادة العلم بالبيان، والعيان يفيد من المعرفة، والطمأنينة ما لا يفيد الاستدلال وقيل: لما نزلت هذه الآية قال: قوم: شك إبراهيم ولم يشك نبينا ﷺ فقال رسول الله ﷺ: نحن أحق بالشك من إبراهيم ومعناه أن هذا الذي تظنونه شكاً أنا أولى به فإنه ليس بشك، وإنما هو طلب لمزيد اليقين وإنما رجع إبراهيم ﷺ على نفسه ﷺ تواضعاً منه وأدباً، أو قبل أن يعلم أنه ﷺ خير ولد آدم وأما تفسير الآية فقوله تعالى: وإذا قال إبراهيم: أي واذكر يا محمد، إذ قال: إبراهيم، وقيل: إنه معطوف على قوله: «ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه» والتقدير ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه ألم تر إذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى، قال يعني قال الله إبراهيم: «أولم تؤمن» الألف في أولم تؤمن من ألف إثبات وإيجاب كقول جرير: أستم خير من ركب المطايا. أي أستم كذلك والمعنى أو لست قد آمنت وصدقت أنني أحيي الموتى قال بلى قد آمنت وصدقت ولكن ليطمئن قلبي يعني سألتك ذلك إرداة طمأنينة القلب وزيادة اليقين وقوة الحجة وقال ابن عباس: معناه ولكن لأرى من آياتك وأعلم أنك قد أجبتني ﴿قال فخذ أربعة من الطير﴾ قيل أخذ طاووساً وديكاً وحمامةً وغراباً وقيل نسرأ بدل الحمامة. فإن قلت لم خص الطير من جملة الحيوانات بهذه الحالة. قلت لأن الطير صفته الطيران في السماء والارتفاع في الهواء، وكانت همة إبراهيم عليه السلام كذلك وهو العلو في الوصول إلى الملكوت فكانت معجزته مشاكلة لهمته. فإن قلت: لم خص هذه الأربعة الأجناس من الطير بالأخذ. قلت فيه إشارة ففي الطاووس إشارة إلى ما في الإنسان من حب الزينة، والجاه وفي النسر إشارة إلى شدة الشغف بالأكل وفي الديك إشارة إلى شدة الشغف بحب النكاح وفي الغراب إشارة إلى شدة الحرص، ففي هذه الطيور

ما سألنا، وقال أبو سليمان الخطابي: ليس في قوله: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» اعتراف بالشك على نفسه ولا على إبراهيم لكن فيه نفي الشك عنهما بقول: إذا لم أشك أنا في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى فإبراهيم أولى بأن لا يشك، وقال ذلك على سبيل التواضع والهضم من النفس، وكذلك قوله: «لو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي»، وفيه الإعلام أن المسألة من إبراهيم عليه لم تعرض من جهة الشك، ولكن من قبل زيادة العلم بالبيان، فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيد الاستدلال، وقيل: لما نزلت هذه الآية قال قوم: شك إبراهيم ولم يشك نبياً! فقال رسول الله ﷺ هذا القول تواضعاً منه وتقديماً لإبراهيم على نفسه، قوله: أولم تؤمن؟ معناه: قد آمنت فلم تسأل؟ شهد له بالإيمان، كقول جرير:

أستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطول راح

يعني أنتم كذلك ولكن ليطمئن قلبي بزيادة اليقين. ﴿قال فخذ أربعة من الطير﴾، قال مجاهد وعطاء وابن جريج: أخذ طاووساً وديكاً وحمامةً وغراباً، وحكي عن ابن عباس رضي الله عنه: ونسرأ بدل الحمامة، وقال عطاء الخراساني: أوحى إليه أن خذ بطة خضراء وغراباً أسود وحمامةً بيضاء وديكاً أحمر، ﴿فصُرْهُنَّ إليك﴾، قرأ أبو جعفر وحمزة ﴿فصُرْهُنَّ إليك﴾ بكسر الصاد، أي: قطعهن ومزقهن، يقال: صار يصير صيراً، إذا قُطِع، وانصار الشيء انصيأراً إذا انقطع، قال الفراء: هو مقلوب من صرّيت أضري صرياً، إذا قُطِعَتْ، وقرأ الآخرون ﴿فصُرْهُنَّ﴾ بضم الصاد، ومعناه: أملهن إليك ووجههن يقال صرت الشيء أضوره، إذا أملهته، ورجل أضور إذا كان مائل العنق، وقال عطاء معناه: اجمعهن واضمهمن إليك، يقال: صار يصور صوراً إذا اجتمع، ومنه قيل

مشابهة لما في الإنسان من حب هذه الأوصاف وفيه إشارة إلى أن الإنسان إذا ترك هذه الشهوات الذميمة لحق أعلى الدرجات في الجنة، وفاز بنيل السعادات ﴿فصرهن﴾ قرىء بكسر الصاد ومعناه قطعهن ومزقهن وقرىء بضم الصاد ومعناه أملهن ﴿إليك﴾ ووجههن وقيل: معناه اجمعهن واضممنهن إليك فمن فسره بالإمالة والضم قال فيه إضمار ومعناه فصرهن إليك ثم قطعهن فحذف اكتفاء بقوله: ﴿ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً﴾ لأنه يدل عليه قال المفسرون: أمر الله تعالى إبراهيم ﷺ أن يذبح تلك الطيور وينتف ريشها وأن يخلط ريشها ولحمها ودمها بعضه ببعض ففعل ثم أمره أن يجعل على كل جبل منهن جزءاً. واختلفوا في عدد الأجزاء والجبال فقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أمر أن يجعل كل طائر أربعة أجزاء وأن يجعلها أربعة أجبل على كل جبل رباعاً من كل طائر، قيل: جبل على جهة الشرق وجبل على جهة الغرب، وجبل على جهة الشمال وجبل على جهة الجنوب وقيل جزءاً سبعة أجزاء ووضعها على سبعة أجبل وأمسك رؤوسهن بيده ثم دعاهن فقال: تعالين يا ذن الله تعالى: فجعلت كل قطرة من دم طائر تطير إلى القطرة الأخرى، وكل ريشة تطير إلى الريشة الأخرى وكل عظم يطير إلى العظم الآخر وكل بضعة تطير إلى البضعة الأخرى، وإبراهيم ينظر حتى لقيت كل جثة بعضها ببعض في السماء بغير رؤوس ثم أقبلن سعيّاً إلى رؤوسهن كلما جاء طائر مال برأسه فإن كان رأسه دنا منه وإن لم يكن تأخر عنه حتى التقى كل طائر برأسه فذلك قوله تعالى: ﴿ثم ادعهن يأتينك سعيّاً﴾ وقيل: المراد بالسعي الإسراع والعدو وقيل المشي، والحكمة في سعي الطيور إليه دون الطيران، لأن ذلك أبعد من الشبهة لأنها لو طارت لتوهم متوهم أنها غير تلك الطيور أو أن أرجلها غير سليمة، فنفى الله تعالى هذه الشبهة بقوله: ﴿يأتينك سعيّاً﴾ وقيل: المراد بالسعي المشي والمراد بالمشي الطيران وفيه ضعف لأنه لا يقال: للطائر إذا طار سعى وقيل السعي هو الحركة الشديدة ﴿واعلم أن الله عزيز﴾ يعني أنه تعالى غالب على جميع الأشياء لا يعجزه شيء ﴿حكيم﴾ يعني في جميع أموره. قوله عز وجل: .

لجماعة النحل: صور، من فسره بالإمالة والضم قال: فيه إضمار معناه: فصرهن إليك ثم قطعهن، فحذفه اكتفاءً بقوله: ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً لأنه يدل عليه، وقال أبو عبيدة: فصرهن معناه قطعهن أيضاً، والصور: القطع، قوله تعالى: ﴿ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً﴾، قرأ عاصم برواية أبي بكر ﴿جزءاً﴾ مثقلاً مهموزاً، والآخرين بالتخفيف والهمزة، وقرأ أبو جعفر مشدداً الزاي بلا همز، وأراد بعض الجبال، قال المفسرون: أمر الله إبراهيم أن يذبح تلك الطيور، وينتف ريشها ويقطعها ويخلط ريشها ودماءها ولحومها بعضها ببعض، ففعل ثم أمره أن يجعل أجزاءها على الجبال واختلفوا في عدد الأجزاء والجبال، فقال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة: أمر أن يجعل كل طائر أربعة أجزاء، ويجعلها على أربعة أجبل، على كل جبل رباعاً من كل طائر، وقيل: جبل على جانب الشرق وجبل على جانب الغرب وجبل على الشمال وجبل على الجنوب، وقال ابن جريج والسدي: جزأها سبعة أجزاء ووضعها على سبعة أجبل وأمسك رؤوسهن، ثم دعاهن فقال: تعالين يا ذن الله، فجعلت كل قطرة من دم طائر تطير إلى القطرة الأخرى وكل ريشة تطير إلى الريشة الأخرى وكل عظم يصير إلى العظم الآخر وكل بضعة تصير إلى الأخرى، وإبراهيم ينظر حتى لقيت كل جثة بعضها بعضاً في الهواء بغير رأس، ثم أقبلن سعيّاً فكلما جاء طائر مال برأسه، فإن كان رأسه دنا منه، وإن لم يكن تأخر حتى التقى كل طائر برأسه. فذلك قوله تعالى: ﴿ثم ادعهن يأتينك سعيّاً﴾، قيل: المراد بالسعي الإسراع والعدو، وقيل: المراد به المشي دون الطيران، كما قال الله تعالى: ﴿فاسعوا إلى ذكر الله﴾ [الجمعة: ٩] أي: فامضوا، والحكمة في المشي دون الطيران كونه أبعد من الشبهة لأنها لو طارت لتوهم متوهم أنها غير تلك الطيور، وإن أرجلها غير سليمة والله أعلم، وقيل: السعي بمعنى: الطيران، ﴿واعلم أن الله عزيز حكيم﴾.

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾

﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله﴾ قيل أراد به الإنفاق في الجهاد وقيل هو الإنفاق في جميع أبواب الخير ووجوه البر فيدخل فيه الواجب والتطوع، وفيه إضمار تقديره مثل صدقات الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ﴿كمثل حبة﴾ أي كمثل زارع حبة ﴿أنبت﴾ يعني أخرجت تلك الحبة ﴿سبع سنابل﴾ جمع سنبلة ﴿في كل سنبلة مائة حبة﴾. فإن قلت فهل رأيت سنبلة فيها مائة حبة حتى يضرب المثل بها. قلت: ذلك غير مستحيل وما لا يكون مستحيلاً فضرب المثل به جائز وإن لم يوجد والمعنى في كل سنبلة مائة حبة إن جعل الله ذلك فيها، وقيل هو موجود في الدخن، وقيل: إن المقصود من الآية أنه إذا علم الإنسان الطالب للزيادة والربح أنه إذا بذر حبة واحدة أخرجت له سبعمئة حبة ما كان ينبغي له ترك ذلك، ولا التقصير فيه فكذاك ينبغي لمن طلب الأجر عند الله في الآخرة أن لا يترك الإنفاق في سبيل الله، إذا علم أنه يحصل له بالواحد عشرة ومائة وسبعمئة ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾ يعني أنه تعالى يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء وقيل معناه يضاعف على هذا ويزيد لمن يشاء من سبع إلى سبعين إلى سبعمئة إلى ما يشاء من الأضعاف مما لا يعلمه إلا الله ﴿والله واسع﴾ أي غني يعطي عن سعة، وقيل واسع القدرة على المحازاة وعلى الجود والإفضال ﴿عليم﴾ يعني بنية من ينفق في سبيله، وقيل عليم بمقادير الإنفاق وبما يستحق المنفق من الجزاء والثواب عليه. قوله عز وجل: ﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله﴾ قيل: نزلت في عثمان بن عفان وعبدالرحمن بن عوف، أما عثمان فجهاز المسلمين في غزوة تبوك بألف بعير بأقنابها وأحلاسها فنزلت هذه الآية وقال عبدالرحمن بن سمر «وجاء عثمان بألف دينار في جيش العسرة فصبها في حجر النبي ﷺ فرأيته يدخل يده فيها ويقلبها ويقول ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم فأنزل الله تعالى: ﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله﴾ وأما عبدالرحمن فجاء بأربعة آلاف درهم صدقة إلى رسول الله ﷺ وقال: كان عندي ثمانية آلاف فأمسكت لنفسي ولعوالي أربعة آلاف وأربعة آلاف أخرجتها لربي عز وجل فقال رسول الله ﷺ بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت»، والمعنى الذين يعينون المجاهدين في سبيل الله بالإنفاق عليهم في حوائجهم ومؤنتهم ﴿ثم لا يتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذى﴾ أي لا يتبع نفقته التي أنفقها عليهم بالمن والأذى وهو أن يمن عليه بعبثاته

قوله تعالى: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله﴾، فيه إضمار تقديره: مثل صدقات الذين ينفقون أموالهم، ﴿كمثل﴾، زارع ﴿حبة﴾، وأراد بسبيل الله: الجهاد، وقيل: جميع أبواب الخير، ﴿أنبت﴾: أخرجت، ﴿سبع سنابل﴾، جمع: سنبلة، ﴿في كل سنبلة مائة حبة﴾، فإن قيل: فما رأينا سنبلة فيها مائة حبة فكيف ضرب المثل به؟ قيل: ذلك متصور غير مستحيل وما لا يكون مستحيلاً جاز ضرب المثل به، وإن لم يوجد معناه في كل سنبلة مائة حبة، إن جعل الله فيها، وقيل: هو موجود في الدخن، وقيل: معناه أنها إن بذرت أنبت مائة حبة، فما حدث من البذر الذي كان فيها كان مضاعفاً إليها، وكذلك تأوله الضحَّاك فقال: كل سنبلة أنبت مائة حبة. ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾، قيل: معناه يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء، وقيل: معناه يضاعف على هذا ويزيد لمن يشاء ما بين سبع إلى سبعين إلى سبعمئة إلى ما شاء الله من الأضعاف مما لا يعلمه إلا الله، ﴿والله واسع﴾، غني يعطي عن سعة، ﴿عليم﴾ بنية من ينفق ماله.

قوله تعالى: ﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله﴾، قال الكلبي: نزلت هذه الآية في عثمان بن عفان

فيقول: قد أعطيتك كذا وكذا فيعدد نعمه عليه فيكدرها عليه والأذى هو أن يعيره فيقول: كم تسأل وأنت فقير أبداً وقد بليت بك وأراحني الله منك وأمثال ذلك. والمن في اللغة الإنعام، والمنة النعمة الثقيلة يقال: من فلان على فلان إذا أثقله بالنعمة ويكون ذلك بالقول: أيضاً ومنه قول الشاعر:

فمني علينا بالسلام فإنما كلامك ياقوت ودر منظم

ومن المن بالقول ما هو مستقبح بين الناس، مثل أن يمن على الإنسان بما أعطاه، قال عبدالرحمن بن يزيد كان أبي يقول إذا أعطيت رجلاً شيئاً ورأيت أن سلامك يثقل عليه فلا تسلم عليه والعرب تمدح بترك المن وكنتم النعمة وتذم على إظهارها والمن بها قال قائلهم في المدح بترك المن:

زاد معروفاً عند عظماء أنه عندك مستور حقيق
تناساه كأن لم تأت به وهو في العالم مشهور كبير

وقال قائلهم يذم المنان بالعتاء:

أتيت قليلاً ثم أسرعته منة فيلك ممنون لذاك قليل

وأما الأذى فهو ما يصل إلى الإنسان من ضرر بقول أو فعل. إذا عرفت هذا فنقول المن هو إظهار المعروف إلى الناس، والمن عليهم به والأذى هو أن يشكو منهم بسبب ما أعطاهم فحرم الله تعالى على عباده المن بالمعروف والأذى فيه وذم فاعله. فإن قلت: قد وصف الله تعالى نفسه بالمنان فما لفرق. قلت المنان في صفة الله تعالى معناه المتفضل فمن الله إفضال على عباده وإحسانه إليهم فجميع ما هم فيه منة منه سبحانه وتعالى ومن العباد تعبير وتكدير فظهر الفرق بينهما. وقوله تعالى: ﴿لهم أجرهم﴾ يعني ثوابهم ﴿عند ربهم﴾ يعني في الآخرة ﴿ولا خوف عليهم﴾ يعني يوم القيامة ﴿ولا هم يحزنون﴾ يعني على ما خلفوا من الدنيا.

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا بُطْلَؤُا
صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ

وعبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنهما، جاء عبد الرحمن بأربعة آلاف درهم صدقةً إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كان عندي ثمانية آلاف فأمسكت منها لنفسي وعبالي أربعة آلاف درهم وأربعة آلاف أقرضتها ربّي، فقال له رسول الله ﷺ: «بارك الله فيما أمسكت لك، وفيما أعطيت»، وأما عثمان فجهّز جيش المسلمين في غزوة تبوك بألف بغير بأقتابها وأحلاسها فنزلت فيهما هذه الآية، وقال عبد الرحمن بن سُمرة: جاء عثمان رضي الله عنه بألف دينار في جيش العسرة فصبّها في حجر رسول الله ﷺ فرأيت النبي ﷺ يدخل فيها يده ويقلّبها ويقول: «ما ضرّ ابن عفّان ما عمل بعد اليوم»، فأنزل الله تعالى الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله: في طاعة الله، ﴿ثم لا يتبعون ما أنفقوا متّاً﴾ وهو أن يمنّ عليه بعبثائه، فيقول: أعطيتك كذا، ويعدّ نعمه عليه فيكدرها عليه ﴿ولا أذى﴾، هو أن يعيره فيقول: إلى كم تسأل وكم تؤذيني؟ وقيل: من الأذى: وهو أن يذكر إنفاقه عليه عند من لا يحبّ وقوفه عليه، وقال سفيان: متّاً ولا أذى، هو: أن يقول قد أعطيتك فما شكرت. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم كان أبي يقول: إذا أعطيت رجلاً شيئاً ورأيت أن سلامك يثقل عليك فكفّ سلامك عنه، فحظّر الله على عباده المَنّ بالصنيعة، واختصّ به صفةً لنفسه، لأنه من العباد تعبير وتكدير، ومن الله إفضال وتذكير، ﴿لهم أجرهم﴾، أي: ثوابهم، ﴿عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابُهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

﴿قول معروف﴾ أي كلام حسن ورد جميل على الفقير السائل وقيل: عدة حسنة توعد به، وقيل: دعاء صالح تدعو له بظهر الغيب ﴿ومغفرة﴾ أي تستر عليه خلته وفقره ولا تهتك ستره وقيل هو أن يتجاوز عن الفقير إذا استطال عليه حالة رده ﴿خير من صدقة﴾ يعني هذا القول المعروف والمغفرة خير من الصدقة التي تدفعها إلى الفقير ﴿يتبعها أذى﴾ وهو أن يعطي الفقير الصدقة ويمن عليه بها ويعيره بقول أو يؤذيه بفعل ﴿والله غني﴾ أي مستغن عن صدقة العباد والغنى الكامل الغني الذي لا يحتاج إلى أحد وليس كذلك إلا الله تعالى ﴿حليم﴾ يعني أنه تعالى حليم لا يعجل بالعقوبة على من يمن على عباده ويؤذي بصدقته. قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم﴾ يعني أجور صدقاتكم ﴿بالممن والأذى﴾ يعني على السائل الفقير، وقال ابن عباس بالمن على الله تعالى والأذى لصاحبها ثم ضرب الله تعالى لذلك مثلاً فقال تعالى ﴿كالذي﴾ أي كإبطال الذي ﴿ينفق ماله رياء الناس﴾ أي مراعاة لهم وسمعة ليروا نفقته ويقولوا: إنه سخي كريم ﴿ولا يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ يعني أن الرياء

﴿قول معروف﴾، أي: كلام حسن ورد على السائل جميل، وقيل: عدة حسنة، وقال الكلبي: دعاء صالح يدعو لأخيه بظهر الغيب، وقال الضحاك: نزلت في إصلاح ذات البين، ﴿ومغفرة﴾، أي: تستر عليه خلته ولا تهتك عليه ستره، وقال الكلبي والضحاك: يتجاوز عن ظالمه، وقيل: يتجاوز عن الفقير إذا استطال عليه عند رده، ﴿خير من صدقة﴾ يدفعها إليه، ﴿يتبعها أذى﴾، أي: من وتعيير للسائل أو قول يؤذيه، ﴿والله غني﴾، أي: مستغن عن صدقة العباد، ﴿حليم﴾ لا يعجل بالعقوبة على من يمن ويؤذي بالصدقة.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم﴾، أي: أجور صدقاتكم، ﴿بالممن﴾، على السائل، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: بالمن على الله تعالى، ﴿والأذى﴾، لصاحبها ثم ضرب لذلك مثلاً فقال: ﴿كالذي ينفق ماله﴾، أي: كإبطال الذي ينفق ماله ﴿رياء الناس﴾، أي: مراعاة وسمعة ليروا نفقته ويقولوا: إنه كريم سخي، ﴿ولا يؤمن بالله واليوم الآخر﴾، يريد أن الرياء يبطل الصدقة، ولا تكون النفقة مع الرياء من فعل المؤمنين، وهذا للمنافقين لأن الكافر معلن بكفره غير مرائي، ﴿فمثلته﴾، أي: مثل هذا المرائي، ﴿كمثل صفوان﴾، وهو الحجر الأملس، وهو واحد وجمع، فمن جعله جمعاً فواحد صفوان، ومن جعله واحداً فجمعه صفوي، ﴿عليه﴾، أي على الصفوان، ﴿تراب فأصابه وابل﴾، وهو المطر الشديد العظيم القطر، ﴿فتركه صلدًا﴾، أي: أملس، والصلد: الحجر الصلب الأملس الذي لا شيء عليه، فهذا مثل ضربه الله تعالى لنفقة المنافق والمرائي والمؤمن الذي يمن بصدقته ويؤذي، ويرى الناس في الظاهر أن لهؤلاء أعمالاً كما يرى التراب على هذا الصفوان، فإذا كان يوم القيامة بطل كله واضمحل لأنه لم يكن لله، كما أذهب الوابل ما على الصفوان من التراب فتركه صلدًا ﴿لا يقدرُونَ على شيء مما كَسَبُوا﴾، أي: على ثواب شيء مما كَسَبُوا وعملوا في الدنيا، ﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقى، أخبرنا أبو الحسن الطيسفوني أخبرنا عبد الله بن عمر الجوهري، أخبرنا أحمد بن علي الكشمهيني أخبرنا علي بن حجر أخبرنا إسماعيل بن جعفر، أخبرنا عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب عن عاصم بن عمر، عن محمود بن لبيد أن النبي ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، قالوا: يا رسول الله وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء، يقول الله لهم يوم

يبتل الصدقة ولا تكون النفقة مع الرياء من فعل المؤمنين لكن من فعل المنافقين لأن الكافر معلن بكفره غير مراء به ﴿فمثلته﴾ أي مثل هذا المرائي بصدقته وسائر أعماله ﴿كمثل صفوان﴾ هو الحجر الأملس الصلب وهو واحد وجمع فمن جعله جمعاً قال واحده صفوانه ومن جعله واحداً قال جمعه صفي ﴿عليه تراب﴾ أي على ذلك الصفوان تراب ﴿فأصابه وابل﴾ يعني المطر الشديد العظيم القطر ﴿فتركه صلداً﴾ يعني ترك المطر ذلك الصفوان صلداً أملس لا شيء عليه من ذلك التراب، فهذا مثل ضربه الله تعالى لنفقة المنافق والمرائي والمؤمن المنان بصدقته يؤدي الناس يرى الناس أن لهؤلاء أعمالاً في الظاهر، كما يرى التراب على الصفوان فإذا جاء المطر أذهبته وأزاله وكذلك حال هؤلاء يوم القيامة، تبطل أعمالهم وتضمحل لأنها لم تكن لله تعالى كما أذهب الوابل ما على الصفوان من التراب ﴿لا يقدرُونَ على شيء مما كسبوا﴾ أي لا يقدرُونَ على ثواب شيء مما عملوا في الدنيا ﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ يعني الذين سبق في علمه أنهم يموتون على الكفر. روى البغوي بسنده عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: «إنما أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا: يا رسول الله وما الشرك الأصغر قال: الرياء يقال لهم يوم تجازى العباد بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء» (م) عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه». قوله عز وجل: .

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَنْبِيئًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَأَنَّتْ أَكُلَهَا ضَعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٦٩﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ

يجازي العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء». أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة، أخبرنا أبو طاهر محمد بن أحمد الحارثي، أخبرنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي. أخبرنا عبد الله بن محمد بن محمود، أخبرنا إبراهيم بن عبد الله الخلال، أخبرنا عبد الله بن المبارك، عن حيوة بن شريح أخبرني الوليد بن أبي الوليد أبو عثمان المدائني، أن عقبة بن مسلم حدثه أن أبا سفيان الأصبحي حدثه، أنه دخل المدينة فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس، فقال: من هذا؟ قالوا: أبو هريرة، فدنوت منه حتى قعدت بين يديه وهو يحدث الناس، فلما سكت وخلا، قلت له: أنشدك الله بحقي كما حدثني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية، فأول من يدعونه رجل جمع القرآن، ورجل قُتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله للقاريء: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ فقال: بلى يا رب، فماذا عملت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله تعالى: بل أردت أن يقال فلان قاريء فقد قيل ذلك، ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يا رب، قال: فما عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدق فيقول الله له: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت، ويقول الله تعالى: بل أردت أن يقال فلان جواد فقد قيل ذلك، ويؤتى بالذي قُتل في سبيل الله فيقول الله له: فبماذا قُلت؟ فيقول: يا رب أمرت بالجهاد في سبيلك، فقاتلت حتى قُلت، فيقول الله: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت، ويقول الله تعالى: بل أردت أن يقال فلان جريء فقد قيل ذلك، ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال: يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلقٍ تُسعر بهم النار يوم القيامة».

الْكِبَرُ وَلَمْ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله﴾ أي طلب رضا الله ﴿وتثبيتاً من أنفسهم﴾ يعني على الإنفاق في طاعة الله تعالى وتصديقاً بثوابه، وقيل: معناه إن أنفسهم موقنة بمصدة بوعده الله إياها فيما أنفقت وقيل: إحساناً وقيل تصديقاً والمعنى أنهم يخرجون زكاة أموالهم، وينفقون أموالهم في سائر وجوه البر والطاعات طيبة أنفسهم بما أنفقوا على يقين بثواب الله وتصديق بوعده يعلمون أن ما أنفقوا خير لهم مما تركوا وقيل معناه على يقين بإخلاف الله عليهم وقيل: معناه أنهم يتثبتون في الموضع الذي يضعون فيه صدقاتهم قيل: كان الرجل إذا هم بصدقة تثبت فإن كانت لله خالصة أمضاها، وإن خالطه شك أو رياء أمسك ﴿كمثل جنة﴾ أي بستان قال الفراء إذا كان في البستان نخل فهو جنة وإن كان فيه كرم فهو فردوس ﴿بربوة﴾ هي المكان المرتفع عن الأرض المستوي لأن ما ارتفع من الأرض عن مسيل الماء والأودية كان ثمرها أحسن وأزكى إذا كان لها من الماء ما يرويها وقيل: هي الأرض المستوية الجيدة الطيبة إذا أصابها المطر انتفخت وربت فإذا كانت الأرض بهذه الصفة كثر ريعها وحملت أشجارها ﴿أصابها وابل﴾ وهو المطر الكثير الشديد قال بعضهم:

ما روضة من رياض الحزن معشبة خضراء جاد عليها وابل هطل

أراد بالحزن ما غلظ وارتفع من الأرض ﴿فآتت أكلها ضعفين﴾ أي فأعطت ثمرتها مثلين قيل إنها حملت في سنة من الربيع ما يحمله غيرها في سنتين وقيل أضعفت فحملت في السنة مرتين ﴿فإن لم يصبها وابل فطل﴾ أي طش وهو المطر الخفيف الضعيف، والمعنى إن لم يكن أصابها وابل وأصابها طل فتلك حال هذه الجنة في تضاعف ثمرها فإنها لا تنقص بالطل عن مقدار ثمرها بالوابل وهذا مثل ضربه الله تعالى: لعمل المؤمن المخلص

قوله تعالى: ﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله﴾، أي: طلب رضا الله تعالى، ﴿وتثبيتاً من أنفسهم﴾، قال قتادة: احتساباً، وقال الشعبي والكلبي تصديقاً من أنفسهم، أي يخرجون الزكاة طيبة بها أنفسهم على يقين بالثواب، وتصديق بوعده الله، ويعلمون أن ما أخرجوا خير لهم مما تركوا، وقيل: على يقين بإخلاف الله عليهم وقال عطاء ومجاهد: يثبتون، أي: يضعون أموالهم، قال الحسن: كان الرجل إذا هم بصدقة يثبت، فإن كان لله أمضى، وإن كان يخالطه شك أمسك، وعلى هذا القول يكون الثبوت بمعنى التثبت، كقوله تعالى: ﴿وتبتل إليه تبتيلاً﴾ [المزمل: ٨] أي: تبتيلاً. ﴿كمثل جنة﴾، أي بستان، قال المبرد والفراء: إذا كان في البستان نخل فهو جنة وإن كان فيه كرم فهو فردوس، ﴿بربوة﴾، قرأ ابن عامر وعاصم ﴿بربوة﴾ و﴿إلى ربوة﴾ [المؤمنون: ٥٠] بفتح الراء، وقرأ الآخرون بضمها، وهي المكان المرتفع المستوي الذي تجري فيه الأنهار فلا يعلوه الماء ولا يعلو عن الماء، وإنما جعلها بربرة لأن النبات عليها أحسن وأزكى، ﴿أصابها وابل﴾ مطر شديد كثير، ﴿فآتت أكلها﴾، ثمرها قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بالتخفيف، وقرأ الباقر بالتثقل، وزاد نافع وابن كثير تخفيف «أكله» و«الأكل» وخفف أبو عمرو «رسلنا، ورسلكم، ورسلم، وسبلنا» ﴿ضعفين﴾، أي: أضعفت في الحمل، قال عطاء: حملت في سنة من الربيع ما يحمل غيرها في سنتين، وقال عكرمة: حملت في السنة مرتين، ﴿فإن لم يصبها وابل فطل﴾، أي: فطش وهو المطر الضعيف الخفيف، ويكون دائماً، قال السدي: هو الندى، وهذا مثل ضربه الله تعالى لعمل المؤمن المخلص، فيقول: كما أن هذه الجنة تُربح في كل حال ولا تُخلف سواء قل المطر أو كثر، كذلك يُضعف الله صدقة المؤمن المخلص الذي لا يَمَن ولا يؤدي سواء قلت نفقته أو

في إنفاقه وسائر أعماله، يقول الله تعالى كما أن هذه الجنة تريع وتزكو في كل حال ولا تخلف سواء كان المطر قليلاً أو كثيراً فكذلك يضعف الله صدقة المؤمن المخلص في صدقته وإنفاقه الذي لا يمن ولا يؤذي سواء قلت نفقته أو كثرت ﴿والله بما تعملون بصير﴾ يعني أن الله تعالى لا تخفى عليه نفقة المخلص في صدقته الذي لا يمن بها ولا يؤذي والذي يمن بصدقته ويؤذي قوله عز وجل: ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب﴾ هذه متصلة بما قبلها وهو قوله تعالى. لا تبطلوا صدقاتكم باليمن والأذى أيود يعني أحب أحدكم أن تكون له جنة أي بستان من نخيل وأعناب إنما خصهما بالذكر لأنهما أشرف الفواكه وأحسنها ولما فيهما من الغذاء والتفكه ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ يعني أن تجري الأنهار فيها من تمام حسنها، وسبب لزيادة ثمرها ﴿له فيها من كل الثمرات﴾ لأن ذلك من تمام كمال البستان وحسنه ﴿وأصابه الكبر﴾ يعني صاحب هذه الجنة كثرت جهات حاجاته ولم يكن له كسب غيرها فحينئذ يكون في غاية الاحتياج إلى تلك الجنة فإن قلت: كيف عطف وأصابه الكبر على أيود، وكيف يجوز عطف الماضي على المستقبل قلت فيه وجهان أحدهما أن يكون له جنة حال ما أصابه الكبر والوجه الثاني أنه عطف على المعنى، فكأنه قيل أيود أحدكم لو كانت له جنة وأصابه الكبر ﴿وله ذرية ضعفاء﴾ يعني له أولاد صغار عجزت عن الحركة بسبب الضعف والصغر ﴿فأصابها﴾ يعني أصاب تلك الجنة ﴿إعصار فيه نار فاحترقت﴾ الإعصار ريح ترتفع إلى السماء وتستدير كأنها عمود وهذا مثل ضربه الله تعالى لعمل المنافق والمرائي يقول مثل عمل المنافق والمرائي بعمله في حسنه كحسن جنة ينتفع بها صاحبها فلما كبر وضعف وصار له أولاد ضعفاء أصاب جنته إعصار فيه نار فأحرقها وهو أحوج ما يكون إليها فحصل في قلبه من الغم والحسرة ما لا يعلمه إلا الله تعالى لكبره وضعفه وضعف أولاده فهو لا يجد ما يعود به على أولاده، وهم لا يجدون ما يعودون به عليه فبقوا جميعاً متحيرين عجزاً لا حيلة بأيديهم، فكذلك حال من أتى يوم القيامة بأعمال حسنة ولم يقصد بها وجه الله تعالى، فيبطلها الله تعالى، وهو في غاية الحاجة إليها حين لا مستعتب له ولا توبة. وقال عبيد بن عمير: قال عمر يوماً لأصحاب رسول الله ﷺ فيمن ترون نزلت هذه الآية ﴿أيود أحدكم﴾ قالوا: الله أعلم فغضب عمر وقل قولوا نعلم أو لا نعلم فقال ابن عباس في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين فقال عمر قل يا ابن أخي ولا تحقرن نفسك فقال ضرب الله

كثرت، وذلك أن الطل إذا كان يدوم يعمل عمل الوابل الشديد، ﴿والله بما تعملون بصير﴾.

﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار﴾، هذه الآية متصلة بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم باليمن والأذى أيود﴾ يعني: أحب أحدكم أن تكون له جنة؟ أي: بستان، من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار؟ ﴿له فيها من كل الثمرات، وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء﴾، أولاد صغار ضعفاء عجزوا، ﴿فأصابها إعصار﴾، وهو الريح العاصف التي ترتفع إلى السماء كأنها عمود وجمعه أعاصير، ﴿فيه نار فاحترقت﴾ هذا مثل ضربه الله لعمل المنافق والمرائي، يقول: عمله في حسنه كحسن الجنة ينتفع به كما ينتفع صاحب الجنة بالجنة، فإذا كبر أو ضعف وصار له أولاد ضعفاء أصاب جنته إعصار فيه نار فاحترقت، فصار أحوج ما يكون إليها وضعف عن إصلاحها الكبر وضعف أولاده عن إصلاحها لصغرهم، ولم يجد هو ما يعود به على أولاده ولا أولاده ما يعودون به عليه، فبقوا جميعاً متحيرين عجزاً لا حيلة بأيديهم، كذلك يبطل الله عمل هذا المنافق والمرائي حين لا مغيب لهما ولا توبة ولا إقالة، قال عبيد بن عمير قال عمر رضي الله عنه يوماً لأصحاب النبي ﷺ فيمن ترون هذه الآية نزلت: ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب﴾؟ قالوا: الله أعلم فغضب عمر رضي الله عنه، فقال: قولوا نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس رضي الله عنهما في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، فقال عمر رضي الله عنه: ابن أخي قل ولا تحقر نفسك، قال ابن عباس رضي الله عنهما:

مثلاً لعمل قال لأي عمل قال لرجل غني يعمل بطاعة الله ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أحرق أعماله كلها ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات﴾ يعني كما بين الله تعالى لكم أمر النفقة المقبولة، وغير المقبولة كذلك يبين الله لكم من الآيات سوى ذلك ﴿لعلكم تتفكرون﴾ أي فتتعضوا وقال ابن عباس: لعلكم تتفكرون يعني في زوال الدنيا وإقبال الآخرة. قوله عز وجل:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِتَاخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفِيرٌ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم﴾ أي من خيار ما كسبتم وجيده وقيل: من حلالات ما كسبتم بالتجارة والصناعة وفيه دليل على إباحة الكسب وأنه ينقسم إلى طيب وخبيث. عن خولة الأنصارية قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا المال خضر حلو من أصابه بحق بورك له فيه، ورب متخوض فيما شاءت نفسه من مال الله ورسوله ليس له يوم القيامة إلا النار» أخرجه الترمذي. المتخوض الذي يأخذ المال من غير وجهه كما يخوض الإنسان في الماء يميناً وشمالاً (خ) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما أخذ منه أمن حلال أم من حرام» (خ) عن المقدم أن رسول الله ﷺ قال: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده» عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «إن أطيب ما أكلتم من كسبكم، وإن أولادكم من كسبكم» أخرجه الترمذي والنسائي. واختلفوا في المراد بقوله تعالى: ﴿أنفقوا﴾ فقيل: المراد به الزكاة المفروضة لأن الأمر للوجوب والزكاة واجبة فوجب صرف الآية إليها وقيل: المراد به صدقة التطوع وقيل: إنه يتناول الفرض والنفل جميعاً لأن المفهوم من هذا الأمر ترجيح جانب الفعل على الترك وهذا المفهوم قدر مشترك بين الفرض والنفل فوجب أن يدخل تحت هذا الأمر فعلى القول الأول أن المراد من هذا الإنفاق هو الزكاة يتفرع عليه مسائل:

ضربت مثلاً لعمل، فقال عمر رضي الله عنه: أي عمل؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: لعمل منافقٍ ومُراءٍ، قال عمر رضي الله عنه: لأي رجل؟ قال: لرجل غني يعمل بطاعة الله بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أحرق أعماله، ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات﴾: من خيار، قال ابن مسعود رضي الله عنه ومجاهد: من حلالات ما كسبتم، بالتجارة والصناعة وفيه دلالة على إباحة الكسب، وأنه ينقسم إلى طيب وخبيث، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أبو منصور محمد بن سمعان، أخبرنا أبو جعفر الزياتي، أخبرنا حميد بن زنجويه أخبرنا يعلى بن عبيد، أخبرنا الأعمش عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن أطيب ما يأكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه»، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أبو منصور السمعاني أخبرنا أبو جعفر الزياتي، أخبرنا حميد بن زنجويه أخبرنا عبد الله بن صالح، أخبرنا أبو معاوية بن صالح عن بحير بن سعيد، عن خالد بن معدان عن المقدم بن معد يكرب، أنه حدثه عن النبي ﷺ أنه قال: ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وكان داود لا يأكل إلا من عمل يده، أخبرنا أبو القاسم يحيى بن علي بن محمد الكشمهيني، أخبرنا نجاح بن يزيد المحاربي بالكوفة، أخبرنا أبو جعفر محمد بن علي بن دحيم الشيباني، أخبرنا أحمد بن حازم أخبرنا يحيى بن عبيد، أخبرنا أبان بن إسحق عن الصباح بن محمد بن مرة الهمداني، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لا يكتسب عبد مالاً حراماً فيتصدق منه

المسألة الأولى: ظاهر الآية يدل على وجوب الزكاة في كل مال يكتسبه الإنسان فيدخل فيه زكاة الذهب والفضة والنعم وعروض التجارة، لأن ذلك يوصف بأنه مكتسب وذهب جمهور العلماء إلى وجوب الزكاة في مال التجارة وقال داود الظاهري: لا تجب الزكاة بحكم التجارة في العروض إلا أن ينوي به التجارة في حال تملكه، ودليل الجمهور ما روي عن سمرة بن جندب قال: «كان رسول الله ﷺ يأمرنا بإخراج الصدقة من الذي يعد للبيع» أخرجه أبو داود وعن أبي عمرو بن خماس أن أباه قال: مررت بعمر بن الخطاب وعلى عنقي أدمة أحملها فقال عمر ألا تؤدي زكاتك يا خماس فقلت مالي غير هذا واهب في القرض قال: ذاك مال فضع فوضعها فحسبها فأخذ منها الزكاة فإذا حال الحول على عروض التجارة قوم فإن بلغ قيمته عشرين ديناراً أو مائتي درهم أخرج منه ربع العشر.

المسألة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ومما أخرجنا لكم من الأرض﴾ ظاهر الآية يدل على وجوب الزكاة في كل ما خرج من الأرض من النبات مما يزرع الآدميون، لكن جمهور العلماء خصصوا هذا العموم فأوجبوا الزكاة في النخيل، والكروم وفيما يقتات ويدخر من الحبوب وأوجب أبو حنيفة الزكاة في كل ما يقصد من نبات الأرض، كالفاكهة والبقول والخضراوات كالبطيخ والقثاء والخيار ونحو ذلك، دليل الجمهور ما روي عن معاذ: «أنه كتب إلى النبي ﷺ يسأله عن الخضراوات وهي البقول فقال: ليس فيها شيء» أخرجه الترمذي. وقال هذا الحديث ليس بصحيح وليس يصح عن النبي ﷺ في هذا الباب شيء وإنما يروى هذا عن موسى بن طلحة عن النبي ﷺ، رسلاً والعمل على هذا عند أهل العلم أنه ليس في الخضراوات صدقة. قلت وحديث موسى بن طلحة أخرجه الشيخ مجد الدين أبو البركات عبدالسلام بن عبدالله بن تيمية الحراني في أحكامه عن عطاء بن السائب قال: «أراد عبدالله بن المغيرة أن يأخذ من أرض موسى بن طلحة من الخضراوات صدقة فقال له: موسى بن طلحة: ليس ذلك

فيقبل الله منه، ولا ينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث». والزكاة واجبة في مال التجارة عند أكثر أهل العلم، فبعد الحول يقوم العروض فيخرج من قيمتها ربع العشر إذا كان قيمتها عشرون ديناراً أو مائتي درهم، قاله سمرة بن جندب: كان رسول الله ﷺ يأمرنا أن نخرج الصدقة من الذي نعدّه للبيع، وعن أبي عمرو بن خماس أن أباه قال: مررت بعمر بن الخطاب رضي الله عنه وعلى عنقي أدمة أحملها، فقال عمر: ألا تؤدي زكاتك يا خماس؟ فقلت: ما لي غير هذا، واهب في القرض، فقال: ذاك مال فضع فوضعها فحسبها فأخذ منها الزكاة. قوله تعالى: ﴿ومما أخرجنا لكم من الأرض﴾، قيل: هذا أمر بإخراج العُشور من الثمار والحبوب، واتفق أهل العلم على إيجاب العشر في النخيل والكروم، وفيما يقتات من الحبوب إن كان مسقياً بماء السماء أو من نهر يجري الماء إليه من غير مؤنة وإن كان مسقياً بساقية أو بنضح ففيه نصف العشر. أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا سعيد بن أبي مريم، أخبرنا عبد الله بن وهب، أخبرني يونس بن زيد عن ابن شهاب، عن سالم بن عبد الله عن أبيه عن النبي ﷺ: «فيما سقت السماء والعيون أو كان عثراً: العشر، وفيما سيق بالنضح نصف العشر»، أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب، أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال، أخبرنا أبو العباس الأصم، أخبرنا الربيع أخبرنا الشافعي أخبرنا عبد الله بن نافع، عن محمد بن صالح التمار عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب عن عثمان بن أسيد أن رسول الله ﷺ قال في زكاة الكرم: «يُخرص كما يُخرص النخل ثم تُؤدى زكاته زبيياً كما يؤدى زكاة النخل ثمرأ»، واختلف أهل العلم فيما سوى النخل والكروم، وفيما سوى ما يقتات به من الحبوب، فذهب قوم إلى أنه لا عشر في شيء منها، وهو قول ابن أبي

لك إن رسول الله ﷺ كان يقول: ليس في ذلك صدقة» رواه الأثرم في سننه وهو أقوى المراسيل لاحتجاج من أرسله به وقال الزهري والأوزاعي ومالك تجب الزكاة في الزيتون، وتجب في الثمار عند بدو الصلاح وهو أن يحمر البسر ويصفر ووقت الإخراج بعد الاجتناء والجفاف، وفي الحبوب عند الاشتداد ووقت الإخراج بعد الدراس والتصفية.

المسألة الثالثة: يجب إخراج العشر فيما سقي بالمطر والأنهار والعيون ونصف العشر فيما سقي بنضح أو سانية، ويدل على ذلك ما روي عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «فيما سقت السماء والعيون أو كان عثرياً العشر وما سقي بالنضح نصف العشر» أخرجه البخاري. ولأبي داود والنسائي قال: «فيما سقت السماء والأنهار والعيون أو كان بعلاً العشر وما سقي بالسواني والنضح نصف العشر» قال أبو داود البعل ما شرب بعروقه ولم يتعن في سقيه وقال وكيع: هو الذي ينبت من ماء السماء قوله: أو كان عثرياً أراد به القوي من الزرع وهو البعل وقد فسر في لفظ الحديث والنضح هو الاستسقاء وكذلك السانية وهي الدابة التي يسقي عليها سواء كانت من الإبل أو البقر، ولا يجب العشر في السماء والزرع حتى تبلغ خمسة أو سق والوسق ستون صاعاً، وقال أبو حنيفة: يجب العشر في كل قليل أو كثير من الثمار والزرع واحتج الجمهور في إيجاب النصاب بما روي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة وليس فيما دون خمسة أواق صدقة، وليس فيما دون خمسة ذود صدقة» وفي رواية «ليس فيما دون خمسة أوساق من تمر أو حب صدقة» أخرجاه في الصحيحين، ومن قال: إن المراد بقوله تعالى: ﴿أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض﴾ صدقة التطوع احتج بما روي عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة» أخرجاه في الصحيحين. وقوله تعالى: ﴿ولا تيمموا الخبيث﴾ أي ولا تقصدوا الخبيث يعني

ليلي والشافعي رضي الله عنه، وقال الزهري والأوزاعي ومالك رضي الله عنهم: يجب في الزيتون، وقال أبو حنيفة جميع البقول والخضراوات كالثمار إلا الحشيش والحطب، وكل ثمرة أوجبت فيها الزكاة فإنما يجب بدو الصلاح ووقت الإخراج بعد الاجتناء والجفاف، وكل حب أو جبن فيه العشر، فوقت وجوبه اشتداد الحب، ووقت الإخراج بعد الدياسة والتنقية، ولا يجب العشر في شيء منها حتى تبلغ خمسة أوسق عند أكثر أهل العلم، وعند أبي حنيفة رحمه الله يجب في كل قليل وكثير منها، واحتج من شرط النصاب بما أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب، عن مالك عن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة المازني، عن أبيه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس فيما دون خمسة أوسق من التمر صدقة، وليس فيما دون خمسة أواق من الورق صدقة، وليس فيما دون خمس ذود من الإبل صدقة»، وروي يحيى بن عباد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ليس في حب ولا تمر صدقة حتى تبلغ خمسة أوسق»، وقال قوم: الآية في صدقات التطوع، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا أبو جعفر الزياتي، أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا يحيى أخبرنا أبو عوانة، عن قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مؤمن يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة إلا كان له صدقة». قوله تعالى: ﴿ولا تيمموا﴾، قرأ ابن عامر برواية البرقي بتشديد التاء في الوصل فيها وفي أخواتها، وهي إحدى وثلاثون موضعاً في القرآن، لأنه في الأصل تاء ان أسقطت إحداهما، فردّ هو الساقطة وأدغم، وقرأ الآخرون بالتخفيف، ومعناه: لا تقصدوا، ﴿الخبيث منه تنفقون﴾، روي عن عدي بن ثابت عن البراء بن عازب قال: كانت الأنصار تخرج إذا كان جذاذ النخل أقناء من التمر والبسر فيعلقونه على جبل بين

الرديء من أموالكم ﴿منه تنفقون﴾ أي من الخبيث. عن البراء بن عازب في قوله تعالى: ﴿ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون﴾ قال: نزلت فينا معشر الأنصار، كنا أصحاب نخل فكان الرجل يأتي من نخله على قدر كثرته، وقلته: وكان الرجل يأتي بالقنو والقنوين فيعلقه في المسجد، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام فكان أحدهم إذا جاع أتى القنو فضربه بعضاً، فسقط البسر أو التمر فيأكل وكان ناس ممن لا يرغب في الخير، يأتي بالقنوية الشيص والحشف، وبالقنو قد انكسر فيعلقه فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بأخذه إلا أن تغمضوا فيه﴾ قال: لو أن أحدكم أهدي إليه مثل ما أعطى لم يأخذه إلا على إغماض وحياء قال: فكنا بعد ذلك يأتي أحدنا بصالح ما عنده أخرجه الترمذي. وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب وقيل كانوا يتصدقون بشار ثمارهم ورذالة أموالهم، ويعزلون الجيد لأنفسهم فأنزل الله تعالى: ﴿ولا تيمموا الخبيث﴾ يعني الرديء منه تنفقون يعني تتصدقون ﴿ولستم بأخذه﴾ يعني ذلك الشيء الخبيث الرديء ﴿إلا أن تغمضوا فيه﴾ الإغماض في اللغة غرض البصر، وإطباق الجفن والمراد به هنا التجويز والمساهلة، وذلك أن الإنسان إذا رأى ما يكره أغمض عينيه لئلا يرى ذلك قال ابن عباس: معناه لو أن لأحدكم على رجل حقاً فجاء بهذا لم يأخذه إلا وهو يرى أنه قد أغمض عن حقه وتركه وقال البراء: هو لو أهدي ذلك ما أخذتموه إلا على استحياء من صاحبه وغيظ فكيف ترضون إلى ما لا ترضون لأنفسكم إذا كان المال كله جيداً فليس له إعطاء الرديء لأن أهل السهمان شركاء له فيما عنده، وإن كان كله رديئاً فلا بأس بإعطاء الرديء ﴿واعلموا أن الله غني﴾ يعني عن صدقاتكم لم يأمركم بالتصدق لعوز واحتياج إليها ﴿حميد﴾ أي محمود في أفعاله، وقيل: حميد بمعنى حامد أي أجركم على ما تفعلونه من الخير. قوله عز وجل: .

الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾

﴿الشیطان يعدكم الفقر﴾ أي يخوفكم الفقر يقال: وعدته خيراً ووعدته شراً وإذا لم يذكر الخير والشر يقال:

الأسطوانتين في مسجد رسول الله ﷺ فيأكل منه فقراء المهاجرين، فكان الرجل منهم يعلم فيدخل قنوَ الحَشَفِ وهو يظن أنه جائز عنه في كثرة ما يوضع من الأتقاء، فنزل فيمن فعل ذلك، ولا تيمموا الخبيث، أي: الحَشَفَ والرديء، وقال الحسن ومجاهد والضحاك: كانوا يتصدقون بشار ثمارهم ورذالة أموالهم ويعملون الجيد ناحيةً لأنفسهم، فأنزل الله تعالى: ﴿ولا تيمموا الخبيث﴾ الرديء منه تنفقون، ﴿ولستم بأخذه﴾، يعني: الخبيث، ﴿إلا أن تغمضوا فيه﴾، الإغماض: غرض البصر، وأراد ههنا: التجويز والمساهلة، معناه: لو كان لأحدكم على رجل حق فجاء بهذا لم يأخذه إلا وهو يرى أنه قد أغمض له عن حقه وتركه، قال الحسن وقتادة: لو وجدتموه يُباع في السوق ما أخذتموه بسعر الجيد. ورُوي عن البراء قال: لو أهدي ذلك لكم ما أخذتموه إلا على استحياء من صاحبه وغيظ، فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم، هذا إذا كان المال كله جيداً فليس له إعطاء الرديء، لأن أهل السهمان شركاؤه فيما عنده، فإن كان كل ماله رديئاً فلا بأس بإعطاء الرديء، ﴿واعلموا أن الله غني﴾ عن صدقاتكم، ﴿حميد﴾، محمود في أفعاله.

﴿الشیطان يعدكم الفقر﴾، أي: يُخوفكم بالفقر، ويُقال: وعدته خيراً ووعدته شراً، قال الله تعالى في

في الخير وعدته وفي الشر أوعده والفقر سوء الحال، وقلة ذات اليد وأصله من كسر فقار الظهر ومعنى الآية أن الشيطان يخوفكم بالفقر، ويقول للرجل أمسك عليك مالك فإنك إذا تصدقت افتقرت ﴿ويأمركم بالفحشاء﴾ يعني يوسوس لكم ويحسن لكم، البخل ومنع الزكاة والصدقة قال الكلبي كل فحشاء في القرآن فهي الزنا إلا هذا الموضع وفي هذه الآية لطيفة وهي أن الشيطان يخوف الرجل أولاً بالفقر ثم يتوصل بهذا التخويف إلى أن يأمره بالفحشاء، وهي البخل وذلك لأن البخل على صفة مذمومة عند كل أحد فلا يستطيع الشيطان أن يحسن له البخل إلا بتلك المقدمة وهي التخويف من الفقر، فلماذا قال تعالى: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه﴾ يعني مغفرة لذنوبكم وستراً لكم ﴿وفضلاً﴾ يعني رزقاً وخلفاً. فالمغفرة إشارة إلى منافع الآخرة والفضل إشارة إلى منافع الدنيا، وما يحصل من الرزق والخلف. عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة فأما لمة الشيطان فيإعاد بالشر، وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فيإعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله تعالى فليحمد الله ومن وجد الأخرى فليتنعذ بالله من الشيطان ثم قرأ ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾ أخرجه الترمذي. وقال هذا حديث حسن غريب قوله: إن للشيطان لمة بابن آدم اللمة الخطرة الواحدة من الإلمام وهو القرب من الشيء والمراد بهذه اللمة اللمة التي تقع في القلب من فعل خير أو شر والعزم فأما لمة الشيطان فوسوسة وأما لمة الملك فإلهام من الله تعالى ﴿والله واسع﴾ أي غني قادر على إغنائكم وإخلاف ما تنفقونه ﴿عليم﴾ يعني بما تنفقونه لا تخفى عليه خافية (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من يوم يصبح فيه العباد إلا وملكان ينزلان يقول: أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً» (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى أنفق أنفق عليك» وفي رواية «يد الله ملأى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، وقال: أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغيض ما في يده» وفي رواية «فإنه لم يغيض ما في يمينه، وكان عرشه على الماء وبيده الميزان يخفض ويرفع» وفي رواية وبيده الأخرى الفيض القبض يرفع ويخفض (ق) عن أسماء بنت بكر الصديق قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «أنفقي ولا تحصي فيحصي عليك ولا توعي فيوعي عليك» قوله: ولا توعي أي لا تشحي فيشح الله عليك فيجازيك بالتقتير في رزقك ولا يخلف عليك ولا يبارك لك، والمعنى لا تجمعني وتمنعي بل أنفقي ولا تعدي ولا تشحي. قوله عز وجل: ﴿يؤتي الحكمة من يشاء﴾ قال ابن عباس: هي علم القرآن ناسخه ومنسوخه

الخير: ﴿وعدكم الله مغانم كثيرة﴾ [الفتح: ٢٠] وقال في الشر: ﴿النار وعدّها الله الذين كفروا﴾ [الحج: ٧٢]، فإذا لم يذكر الخير والشر قلت في الخير: وعدته وفي الشر أوعده، والفقر سوء الحال وقلة ذات اليد، وأصله من كسر الفقار، ومعنى الآية: أن الشيطان يخوفكم بالفقر، ويقول للرجل: أمسك عليك مالك فإنك إذا تصدقت به افتقرت، ﴿ويأمركم بالفحشاء﴾، أي: بالبخل ومنع الزكاة، وقال الكلبي: كل الفحشاء في القرآن فهو الزنا إلا هذا، ﴿والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً﴾، أي: لذنوبكم. ﴿والله واسع﴾، غني ﴿عليم﴾ أخبرنا حسان بن سعيد المنبجي، أخبرنا أبو طاهر الزيادي، أخبرنا محمد بن الحسين القطان، أخبرنا أحمد بن يوسف السلمي، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن هشام، عن همام بن منبه قال: حدثنا أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول: ابن آدم أنفق أنفق عليك»، وقال: قال رسول الله ﷺ: «يمين الله ملأى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يغيض ما في يمينه، قال: وعرش على الماء وبيده الأخرى القسط، يرفع ويخفض»، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا عبد الله بن سعيد، أخبرنا

ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه، وقال الضحاك: القرآن والفهم فيه وإنما قال: ذلك لتضمن القرآن الحكمة وقال في القرآن: مائة وتسع آيات ناسخة ومنسوخة وألف آية حلال وحرام لا يسع المؤمنين تركهن حتى يعلمونهن ولا يكونوا كأهل النهروان يعني الخوارج تأولوا آيات من القرآن في أهل القبلة وإنما نزلت في أهل الكتاب فجهلوا علمها فسفكوا بها الدماء، وانتهبوا الأموال وشهدوا على أهل السنة بالضلالة فعليكم بعلم القرآن فإنه من علم فيما نزل لم يختلف في شيء منه، وقيل: هي القرآن والعلم والفقه وقيل هي الإصابة في القول والفعل. وحاصل هذه الأقوال إلى شيئين: العلم والإصابة فيه، ومعرفة الأشياء بذواتها وأصل الحكمة المنع ومنه حكمة الدابة لأنها تمنعها قال الشاعر:

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم

أي امنعوا سفهاءكم، وقال السدي: الحكمة النبوة لأن النبي يحكم بين الناس فهو حاكم وقيل الحكمة الورع في دين الله لأن الورع يمنع صاحبه من أن يقع في الحرام، أو ما لا يجوز له فعله ﴿ومن يؤت الحكمة﴾ يعني ومن يؤته الله الحكمة ﴿فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ تنكير تعظيم معناه فقد أوتي أي خير كثير. ﴿وما يذكر إلا أولو الألباب﴾ أي وما يتعظ بما وعظه الله إلا ذوو العقول الذين عقلوا عن الله أمره ونهيه. قوله عز وجل: .

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٢٧٠﴾
تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾

﴿وما أنفقتُم من نفقة﴾ يعني فيما فرضه الله عليكم من إعطاء زكاة وغيرها ﴿أو نذرتُم من نذر﴾ يعني به ما

عبد الله بن نمير، أخبرنا هشام بن عروة عن فاطمة بنت المنذر عن أسماء أن رسول الله ﷺ قال لها: «أنفقي ولا تحصي، فيُحصي الله عليك، ولا تُوعِي فيُوعِي الله عليك».

قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾، قال السدي: هي النبوة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة: عِلْمُ الْقُرْآنِ نَاسِخُهُ وَمَنْسُوخُهُ وَمَحْكَمُهُ وَمُتَشَابَهُهُ وَمَقْدَمُهُ وَمُؤَخَّرُهُ وَحَلَالُهُ وَحَرَامُهُ وَأَمْثَالُهُ، وقال الضحاك: القرآن والفهم فيه، وقال: في القرآن مائة وتسع آيات ناسخة ومنسوخة وألف آية حلال وحرام لا يسع المؤمنين تركهن حتى يتعلموهن، ولا يكونوا كأهل نهروان تأولوا آيات من القرآن في أهل القبلة، وإنما أنزلت في أهل الكتاب، جهلوا علمها فسفكوا بها الدماء وانتهبوا الأموال، وشهدوا علينا بالضلالة، فعليكم بعلم القرآن فإنه من علم فيم أنزل لم يختلف في شيء منه، وقال مجاهد: هي القرآن والعلم والفقه، وروى ابن أبي نجيح عنه: الإصابة في القول والفعل، وقال إبراهيم النخعي: معرفة معاني الأشياء وفهمها، ﴿وَمَنْ يُؤْتِ الْحِكْمَةَ﴾ ﴿مَنْ﴾ في محل الرفع على ما لم يُسم فاعله، و﴿الحكمة﴾ خبره، وقرأ يعقوب يؤتي الحكمة بكسر التاء أي: من يؤته الله الحكمة، دليله قراءة الأعمش «وَمَنْ يُؤْتِهِ اللَّهُ» حُكِيَ عَنِ الْحَسَنِ ﴿وَمَنْ يُؤْتِ الْحِكْمَةَ﴾ قال: الورع في دين الله، ﴿فقد أوتي خيراً كثيراً﴾، قال الحسن: مَنْ أُعْطِيَ الْقُرْآنَ فَكَأَنَّمَا أُدْرِجَتِ النَّبُوءَةُ بَيْنَ جَنَبِيهِ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ. ﴿وما يذكر﴾: يَتَعَزَّ، ﴿إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾: ذُوو الْعُقُولِ.

قوله تعالى: ﴿وما أنفقتُم من نفقة﴾: فيما فرض الله عليكم، ﴿أو نذرتُم من نذر﴾، أي: ما أوجبتُموه أنتُم

أوجبتموه على أنفسكم في طاعة الله فوفيتم به والنذر أن يوجب الإنسان على نفسه شيئاً ليس بواجب يقال نذرت الله نذراً وأصله من الخوف لأن الإنسان إنما يعقد على نفسه النذر من خوف التقصير في الأمر المهم، والنذر في الشرع على ضربين مفسر، وغير مفسر. فالمفسر أن يقول الله على صوم أو حج أو عتق أو صدقة فيلزمه الوفاء به، ولا يجزيه غيره وغير المفسر وهو أن يقول: نذرت الله لا أفعل كذا ثم يفعله أو يقول الله على نذر من غير تسمية شيء فيلزمه فيه كفارة يمين (خ) عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه» عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر نذراً لم يسمه فكفارته كفارة يمين ومن نذر نذراً في معصية فكفارته كفارة يمين ومن نذر نذراً لا يطيقه فكفارته كفارة يمين ومن نذر نذراً فأطاقه فليف به» أخرجه أبو داود عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «لا نذر في معصية ولا فيما لا يملك ابن آدم» أخرجه النسائي (ق) عن ابن عمر: «أن رسول الله ﷺ نهى عن النذر وقال إنه لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل» (م) عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إن النذر لا يقرب من ابن آدم شيئاً لم يكن الله قدره، ولكن النذر يوافق القدر فيخرج بذلك من البخيل ما لم يكن البخيل يريد أن يخرج» قال بعض العلماء: يحتمل أن يكون سبب النهي عن النذر كون الناذر يصير ملتزماً مالاً فيأتي به تكلفاً من غير نشاط أو يكون سببه كونه يأتي به على سبيل المعارضة عن الأمر الذي طلبه فينقص أجره، وشأن العبادة أن تكون متمحضة لله تعالى وقال بعضهم يحتمل أن يكون النهي لكونه قد يظن بعض الجهلة أن النظر يرد القدر أو يمنع من حصول المقدور فنهى عنه خوفاً من اعتقاد ذلك، وسياق الحديث يؤكد هذا، وقوله: في بعض روايات الحديث إنه لا يأتي بخير معناه أنه لا يرد شيئاً من القدر. وقوله: فيخرج بذلك من البخيل ما لم يكن البخيل يريد أن يخرج معناه أنه لا يأتي بهذه القرية تطوعاً محضاً مبتدأ وإنما يأتي بها في مقابلة شيء يريده كقوله إن شفى الله مريضاً فله على كذا ونحو ذلك مما يحصل بالنذر والله أعلم، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ اللَّهُ يَعْلَمُ﴾ أي يعلم ما أنفقتم ونذرتم فيجازيكم به وإنما قال: يعلم ولم يقل يعلمهما لأنه رد الضمير على الآخر منهما فهو كقوله: ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً وقيل: إن الكناية عادت على: «ما» في قوله وما أنفقتم لأنها اسم فهو كقوله: «وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به» ولم يقل بهما ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ يعني الواضعين الصدقة في غير موضعها وقيل: الذين يريدون

على أنفسكم في طاعة الله فوفيتم به، ﴿فَإِنْ اللَّهُ يَعْلَمُ﴾، يحفظه حتى يجازيكم به، وإنما قال: ﴿يَعْلَمُ﴾ ولم يقل يعلمها، لأنه رده إلى الآخر منها، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا﴾ [النساء: ١١٢] وإن شئت حملته على ﴿مَا﴾ كقوله: ﴿وَمَا أَنزَلْ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٣١]، ولم يقل بهما، ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾، الواضعين الصدقة في غير موضعها بالرياء ويتصدقون من الحرام، ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾، من أعوان أن يدفعون عذاب الله عنهم، وهي جمع نصير، مثل شريف وأشراف.

قوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ﴾، أي: تُظهروها، ﴿فَنِعْمًا هِيَ﴾، أي: نعمت الخصلة هي، و﴿مَا﴾ في محل الرفع، وهي في محل النصب، كما تقول: نعم الرجل رجلاً، فإذا عرفت رفعت فقلت: نعم الرجل زيد، وأصله نعم ما وصلت، قرأ أهل المدينة غير ورش وأبو عمر وأبو بكر ﴿فَنِعْمًا﴾ بكسر النون وسكون العين، وقرأ ابن عامر وحزمة والكسائي بفتح النون وكسر العين، وقرأ ابن كثير ونافع برواية ورش ويعقوب وحفص بكسرهما، وكلها لغات صحيحة، وكذلك في سورة النساء. و﴿إِنْ تُخْفَوْهَا﴾، تُسرّوها، ﴿وَتُؤْتُوهُا الْفُقَرَاءَ﴾ أي: تُؤتوها الفقراء في السر، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ وأفضل وكل مقبول إذا كانت النية صادقة، ولكن صدقة السر أفضل، وفي الحديث: «صدقة السر تطفئ غضب الرب». أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحق

بصدقاتهم الرياء والسمعة وقيل: هم الذين يتصدقون بالمال الحرام ﴿من أنصار﴾ أي من أعوان يدفعون عنهم عذاب الله تعالى، وفيه وعيد عظيم لكل ظالم قوله عز وجل: ﴿إن تبدوا الصدقات﴾ أي تظهروا الصدقات والصدقة ما يخرجها الإنسان من ماله على وجه القربة فيدخل فيه الزكاة الواجبة، وصدقة التطوع ﴿فنعما هي﴾ أي فنعمت الخصلة هي وقيل فنعم الشيء هي وقيل: معناه فنعم شيئاً إبداء الصدقات ﴿وإن تخفوها﴾ أي تسروا الصدقة ﴿وتؤتوها الفقراء﴾ أي وتعطوها الفقراء في السر ﴿فهو خير لكم﴾ يعني إخفاء الصدقة أفضل من العلانية وكل مقبول إذا كانت النية صادقة، واختلفوا في المراد بالصدقة المذكورة في الآية فقال الأكثرون المراد بها صدقة التطوع، واتفق العلماء على أن كتمان صدقة التطوع أفضل وإخفاؤها خير من إظهارها، لأن ذلك أبعد من الرياء وأقرب إلى الإخلاص، ولأن فيه بعداً عما تؤثره النفس من إظهار الصدقة، وفي صدقة السر أيضاً فائدة ترجع إلى الفقير الآخذ وهي أنه إذا أعطى في السر زال عنه الذل والانكسار وإذا أعطى في العلانية يحصل له الذل والانكسار ويدل على أن صدقة السر أفضل ما روي عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل وشاب نشأ في طاعة الله تعالى ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ورجلان تحابا في الله تعالى اجتمعا على ذلك وافترقا عليه ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه من خشية الله تعالى ورجل دعت امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» أخرجه في الصحيحين ووجه جواز إظهار الصدقة يكون ممن قد أمن على نفسه من مداخلة الرياء في عمله أو يكون ممن يقتدى به في أفعاله فإذا أظهر الصدقة تابعه غيره على ذلك، وأما الزكاة فإظهار إخراجها أفضل من كتمانها كالصلاة المكتوبة في الجماعة أفضل وصلاة التطوع في البيت أفضل ولكن في إظهار الزكاة نفي التهمة عن المزكي وقيل إن الآية واردة في زكاة الفرض، وكان إخفاؤها خيراً على عهد رسول الله ﷺ لأنهم كانوا لا يظنون بأحد أنه يمنع الزكاة، فأما اليوم في زماننا إظهار الزكاة أفضل حتى لا يساء الظن به وقيل إن الآية عامة في جميع الصدقات الواجبة والتطوع والإخفاء أفضل في كل صدقة من زكاة غيرها. وقوله تعالى: ﴿ونكفر عنكم من سيئاتكم﴾ قيل إن من صلة زائدة تقديره ونكفر عنكم سيئاتكم قال ابن عباس جميع سيئاتكم وقيل أدخل من للتبغيض ليكون العباد على وجل ولا يتكلموا والمعنى ونكفر عنكم الصغائر من سيئاتكم وأصل التكفير في اللغة التغطية والستر ﴿والله بما تعملون خبير﴾ يعني من إظهار الصدقات وإخفاؤها. قوله عز وجل: .

الهاشمي أخبرنا أبو مصعب، عن مالك عن حبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم، عن أبي سعيد الخدري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل وشاب نشأ في عبادة الله تعالى، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وافترقا عليه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعت امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» وقيل: الآية في صدقة التطوع، أما الزكاة المفروضة فالإظهار فيها أفضل حتى يقتدي به الناس، كالصلاة المكتوبة في الجماعة أفضل، والنافلة في البيت أفضل، وقيل: الآية في الزكاة المفروضة كان الإخفاء فيها خيراً على عهد رسول الله ﷺ أما في زماننا فالإظهار أفضل حتى لا يساء به الظن. قوله تعالى: ﴿ويُكفر عنكم من سيئاتكم﴾، قرأ ابن كثير وأهل البصرة وأبو بكر بالنون ورفع الرءاء أي: ونحن نُكفر، وقرأ ابن عامر وحفص بالياء ورفع الرءاء، أي: ويكفر الله، وقرأ أهل المدينة وحمزة والكسائي بالنون والجزم نسقاً على الفاء التي في قوله: ﴿فهو خير لكم﴾ لأن موضعها جزم الجزاء، وقوله: ﴿ومن سيئاتكم﴾ قيل: ﴿من﴾ صلة، تقديره: نكفر عنكم سيئاتكم، وقيل: هو للتحقيق والتبغيض، يعني: نكفر الصغائر من الذنوب، ﴿والله بما تعملون خبير﴾.

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسْكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾

﴿ليس عليك هداهم﴾ قيل سبب نزول هذه الآية: أن ناساً من المسلمين كان لهم قرابات وأصهار في اليهود وكانوا ينفقون عليهم قبل أن يسلموا فلما أسلموا كرهوا أن ينفقوا عليهم وأرادوا بذلك أن يسلموا وقيل كانوا يتصدقون على فقراء أهل المدينة فلما كثر المسلمون نهى رسول الله ﷺ عن التصديق على المشركين كي تحملهم الحاجة إلى الدخول في الإسلام لحرصه ﷺ على سلامتهم فنزل ليس عليك هداهم ومعناه ليس عليك هداية من خالفك حتى تمنعهم الصدقة لأجل أن يدخلوا في الإسلام فحيثما تصدق عليهم فأعلمهم الله تعالى أنه إنما بعث بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه، فأما كونهم مهتدين فليس ذلك إليك ﴿ولكن الله يهدي من يشاء﴾ يعني أن الله تعالى يوفق من يشاء فيهديه إلى الإسلام وأراد بالهداية هنا هداية التوفيق وأما هداية البيان والدعوة فكانت على رسول الله ﷺ فلما نزلت هذه الآية أعطوهم وتصدقوا عليهم ﴿وما تنفقوا من خير﴾ أي من مال ﴿فلا أنفسكم﴾ أي ما تفعلوا تنفقوا به أنفسكم ﴿وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله﴾ ظاهره خبر ومعناه نهى أي ولا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله وقال الزجاج: هذا خاص للمؤمنين أعلمهم الله تعالى أنه قد علم أن مرادهم بنفقتهم ما عنده وقيل معناه لستم في صدقاتكم على أقاربكم من المشركين تقصدون إلا وجه الله وقد علم هذا من قلوبكم فأنفقوا عليهم إذا كنتم إنما تبتغون بذلك وجه الله في صلة الرحم وسد خلة مضطر قال بعض العلماء: لو أنفقت على شر خلق الله لكان لك ثواب نفقتك وأجمع العلماء على أنه لا يجوز صرف الزكاة إلا إلى المسلمين وهم أهل السهمان المذكورون في سورة التوبة، وجوز أبو حنيفة صرف صدقة الفطر إلى أهل الذمة، وخالفه سائر العلماء في ذلك فعلى هذا تكون الآية مختصة بصدقة التطوع أباح الله تعالى أن تصرف إلى فقراء المسلمين وفقراء أهل الذمة فأما زكاة الفرض فلا يجوز صرفها إلى أهل الذمة بحال ﴿وما تنفقوا من خير يوف إليكم﴾ أي يوفر لكم جزاؤه وقال ابن عباس: يجازيكم به يوم القيامة ومعناه يؤدي إليكم يوم القيامة ولهذا حسن إدخال إلى مع التوفية لأنها تضمنت معنى التأدية ﴿وأنتم لا تظلمون﴾ أي لا تنقصون شيئاً من ثواب أعمالكم. قوله عز وجل: .

﴿ليس عليك هداهم﴾، قال الكلبي: سبب نزول هذه الآية أن ناساً من المسلمين كانت لهم قرابة وأصهار في اليهود، وكانوا ينفقون عليهم قبل أن يسلموا، فلما أسلموا كرهوا أن ينفقوا عليهم، وأرادوهم على أن يسلموا، وقال سعيد بن جبير: كانوا يتصدقون على فقراء أهل الذمة فلما كثر فقراء المسلمين نهى رسول الله ﷺ عن التصديق على المشركين كي تحملهم الحاجة على الدخول في الإسلام، فنزل قوله: ﴿ليس عليك هداهم﴾، فمنعهم الصدقة ليدخلوا في الإسلام حاجة منهم إليها، ﴿ولكن الله يهدي من يشاء﴾، وأراد به هداية التوفيق، أما هدي البيان والدعوة كان على عهد رسول الله ﷺ فأعطوهم بعد نزول الآية، ﴿وما تنفقوا من خير﴾، أي: مال، ﴿فلا أنفسكم﴾، أي: تنفقونه لأنفسكم، ﴿وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله﴾، لفظة جحد ومعناه نهى، أي: لا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله، ﴿وما تنفقوا من خير﴾، شرط كأول، ولذلك حذف النون منهما، ﴿يوف إليكم﴾، أي: يوفر لكم جزاؤه، ومعناه: يؤدي إليكم، ولذلك دخل فيه إلى، ﴿وأنتم لا تظلمون﴾، لا تنقصون من ثواب أعمالكم شيئاً، وهذا في صدقة التطوع أباح الله تعالى أن توضع في أهل الإسلام وأهل الذمة، فأما الصدقة المفروضة فلا يجوز وضعها إلا في المسلمين، وهم أهل السهمان المذكورون في سورة التوبة.

لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ
يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَتِهِمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا
تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾

﴿للفقراء﴾ اختلفوا في موضع اللام في قوله للفقراء فقيل: هو مردود على موضع اللام من قوله فلاأنفسكم فكأنه قال: وما تنفقوا من خير للفقراء وإنما تنفقون لأنفسكم، وقيل معناه الصدقات التي سبق ذكرها للفقراء. وقيل خبر محذوف تقديره للفقراء الذين من صفتهم كذا وكذا حق واجب وهم فقراء المهاجرين كانوا نحو أربعمائة رجل لم يكن لهم بالمدينة مساكن ولا عشائر وكانوا يأوون إلى صفة في المسجد يتعلمون القرآن بالليل ويرضخون النوى بالنهار وكانوا يخرجون في كل سرية يبعثها رسول الله ﷺ وهم أصحاب الصفة فحث الله تعالى الناس على مواساتهم فكان من عنده فضل أتاها به إذا أمسى وقوله: ﴿الذين أحصروا في سبيل الله﴾ يعني هم الذين حبسوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله وقيل: حبسوا أنفسهم على طاعة الله ﴿لا يستطيعون ضرباً في الأرض﴾ يعني لا يفرغون للتجارة وطلب المعاش والكسب، وهم أهل الصفة الذين تقدم ذكرهم وقيل حبسهم الفقر والعدم عن الجهاد في سبيل الله، وقيل هم قوم أصابتهم جراحات في الجهاد مع رسول الله ﷺ فصاروا زمنى حصرهم المرض والزمانة عن الضرب في سبيل الله ﴿يحبسهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾ أي يظن من لم يختبر حالهم أنهم أغنياء من التعفف وهو تفعل من العفة وهي ترك الشيء والكف عنه. يقال: تعفف إذا ترك السؤال ولزم القناعة والمعنى

قوله تعالى: ﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله﴾ اختلفوا في موضع هذه اللام، قيل: هي مردودة على موضع اللام من قوله: ﴿فلاأنفسكم﴾ كأنه قال: وما تنفقوا من خير للفقراء، وإنما تنفقون لأنفسكم، وقيل: معناها الصدقات التي سبق ذكرها، وقيل: خبر محذوف تقديره: للفقراء الذين صفتهم كذا حق واجب وهم للفقراء المهاجرين، كانوا نحواً من أربعمائة رجل لم يكن لهم مساكن بالمدينة ولا عشائر، وكانوا في المسجد يتعلمون القرآن ويرضخون النوى بالنهار، وكانوا يخرجون في كل سرية يبعثها رسول الله ﷺ، وهم أصحاب الصفة، فحث الله تعالى عليهم الناس فكان من عنده فضل أتاها به إذا أمسى، ﴿الذين أحصروا في سبيل الله﴾، فيه أقاويل، قال قتادة: هم هؤلاء حبسوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله، ﴿لا يستطيعون ضرباً في الأرض﴾، لا يفرغون للتجارة وطلب المعاش، وهم أهل الصفة الذين ذكرناهم، وقيل: حبسوا أنفسهم على طاعة الله، وقيل: معناه حبسهم الفقر والعدم عن الجهاد في سبيل الله، وقيل: هؤلاء قوم أصابتهم جراحات مع رسول الله ﷺ في الجهاد في سبيل الله فصاروا زمنى أحصرهم المرض والزمانة عن الضرب في سبيل الله للجهاد، وقيل: معناه: من كثرة ما جاهدوا صارت الأرض كلها حرباً لهم فلا يستطيعون ضرباً في الأرض من كثرة أعدائهم، ﴿يحبسهم﴾، قرأ أبو جعفر وابن عامر وعاصم وحزمة ﴿يحبسهم﴾ وبابه بفتح السين، وقرأ الآخرون بالكسر، ﴿الجاهل﴾، بحالهم، ﴿أغنياء من التعفف﴾، أي: من تعففهم عن السؤال وقناعتهم يظن من لا يعرف حالهم أنهم أغنياء والتعفف التفعل من العفة وهي الترك، يقال: عَفَّ عن الشيء إذا كَفَّ عنه وتعَفَّف إذا تكلَّف في الإمساك، ﴿تعرفهم بسيماهم﴾، السيماء والسيماة والسمة: العلامة التي يُعرف بها الشيء، واختلفوا في معناها ههنا، فقال مجاهد: هي التخشع والتواضع، وقال السدي: أثر الجهد من الحاجة والفقر، وقال الضحاك: صُفرة ألوانهم من الجوع والضر، وقيل: رثاء ثيابهم، ﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾، قال عطاء: إذا كان عندهم غداء لا يسألون عشاء وإذا كان عندهم عشاء لا يسألون غداء، وقيل: معناه: لا يسألون الناس إلحافاً أصلاً، لأنه قال: ﴿من التعفف﴾،

يظنهم من لم يعرف حالهم أغنياء لإظهارهم التجمل وتركهم المسألة ﴿تعرفهم بسيماهم﴾ السيماء والسيماء والسمة العلامة التي يعرف بها الشيء واختلفوا في معناها فقيل: هي الخضوع والتواضع وقيل هي أثر الجهد من الحاجة والفقر وقيل: هي صفرة ألوانهم من الجوع ورثاء ثيابهم من الضر ﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾ يعني إلحاحاً قيل: إذا كان عنده غداء لا يسأل عشاء وإذا كان عنده عشاء لا يسأل غداء وقيل لا يسألون الناس أصلاً لأنه قال يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف وهو ترك المسألة فعلم بذلك أنهم لا يسألون ألبتة ولأنه قال تعالى: ﴿تعرفهم بسيماهم﴾ ولو كانت المسألة من شأنهم لما كانت من معرفتهم بالعلامة حاجة فمعنى الآية ليس يصدر منهم سؤال حتى يقع فيهم إلحاف. فهم لا يسألون الناس إلحافاً ولا غير إلحاف (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ليس الغني عن كثرة العرض ولكن الغني غني النفس» (ق) عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمر والتمران ولكن المسكين الذي لا يجد غني يغنيه ولا يفطن به فيتصدق عليه ولا يقوم فيسأل» الناس لفظ (خ) عن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يأتي الجبل فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها خير له» من أن يسأل الناس أعطوه أم منعوه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل الناس وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ومسألته في وجهه خموش أو خدوش أو كدوح وقيل: يا رسول الله ما يغنيه؟ قال خمسون درهماً أو قيمتها من الذهب» أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي عن أبي سعيد الخدري. قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف» أخرجه أبو داود وقال: زاد هشام في حديثه وكانت

والتعفف: ترك السؤال، ولأنه قال تعرفهم بسيماهم، ولو كانت المسألة من شأنهم لما كانت إلى معرفتهم بالعلامة حاجة، فمعنى الآية: ليس لهم سؤال فيقع فيه إلحاف، والإلحاف: الإلحاح واللجاج، أخبرنا الأستاذ الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، أخبرنا أبو سعيد محمد بن إبراهيم بن إسماعيل، أخبرنا محمد بن يعقوب أخبرنا محمد بن عبد الله بن الحكم، أخبرنا أنس بن عياض عن هشام بن عروة، عن أبيه عن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يأخذ أحدكم حبله فيذهب فيأتي بحزمة حطب على ظهره فيكف الله بها وجهه، خير له من أن يسأل الناس أشياءهم أعطوه أو منعوه». أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب عن مالك، عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بهذا الطواف الذي يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان والتمر والتمران» قالوا: فمن المسكين يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يجد غنى فيغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس» وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من سأل وله أوقية أو عدلها فقد سأل إلحافاً»، أخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الظاهري، أخبرنا جدي سهل بن عبد الصمد بن عبد الرحمن البزار، أخبرنا محمد بن زكريا بن غدافر، أخبرنا إسحق بن إبراهيم بن عباد الديري، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن هارون بن زيان، عن كنانة العدوي عن قبيصة بن مخارق، قال: إني تحملت بحمالة في قومي فأتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله إني تحملت بحمالة في قومي وأنتيتك لتعينني فيها، قال: «بل نتحملها عنك يا قبيصة ونؤذيها إليهم من الصدقة» ثم قال: «يا قبيصة إن المسألة قد حرمت إلا في إحدى ثلاث: رجل أصابته حاجة فاجتاح ماله فيسأل حتى يصيب قواماً من عيشه ثم يمسك، ورجل أصابته حاجة حتى يشهد له ثلاثة نفر من ذوي الحجة من قومه لقد أصابت فلاناً فاقه، أن المسألة قد حلت له فيسأل حتى يصيب القوام من العيش ثم يمسك، ورجل تحمّل بحمالة فيسأل حتى إذا بلغ أمسك، وما كان غير ذلك فإنه سحت يأكله صاحبه سحتاً». أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي، أخبرنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي، أخبرنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي، أخبرنا أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، أخبرنا قتيبة، أخبرنا

الأوقية على عهد رسول الله ﷺ أربعين درهماً وفي رواية عطاء بن يسار من سأل منكم وله أوقية أو عدلها فقد سأل إلحافاً عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل الناس وله أربعون درهماً فهو ملحف» أخرجه النسائي (م) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «من سأل الناس تكثراً فإنما يسأل جمراً فليستقل أو ليستكثر». وقوله تعالى: ﴿وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم﴾ يعني أن الله تعالى يعلم مقادير الإنفاق ويجازي عليها ففيه حث على الصدقة والإنفاق في الطاعة. قوله عز وجل: .

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية﴾ قال ابن عباس في رواية عنه: نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب كانت عنده أربعة دراهم لا يملك غيرها فتصدق بدرهم ليلاً وبدرهم نهاراً وبدرهم سرّاً وبدرهم علانية وفي رواية عنه قال: «لما نزل للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله» بعث عبدالرحمن بن عوف بدنانير كثيرة إلى أهل الصفة، وبعث علي بن أبي طالب في الليل بوسق من تمر فأنزل الله فيهما: ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار﴾ يعني بنفقة الليل نفقة علي وبالنهار نفقة عبدالرحمن وفي الآية إشارة إلى أن صدقة السر أفضل من صدقة العلانية لأنه تعالى قدم نفقة الليل على نفقة النهار وقدم السر على العلانية وقيل: نزلت الآية في الذين يربطون الخيل للجهاد في سبيل الله لأنهم يعلفونها بالليل والنهار وفي السر: والعلانية (خ) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً واحتساباً وتصديقاً بوعده كان شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة» يعني حسنات وقيل: إن الآية عامة في الذين ينفقون أموالهم في جميع الأوقات ويعمون بها

شريك عن حكيم بن جبير، عن محمد بن عبد الرحمن بن يزيد، عن أبيه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ وَلَهُ مَا يَغْنِيهِ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَسْأَلَتُهُ فِي وَجْهِهِ خُمُوشٌ أَوْ خُدُوشٌ أَوْ كَدُوحٌ»، قيل: يا رسول الله وما يغنيه؟ قال: «خمسون درهماً أو قيمتهما ذهباً»، قوله تعالى: ﴿وما تنفقوا من خير﴾، من مال، ﴿فإن الله به عليم﴾، وعليه مجازي.

﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية﴾، رُوِيَ عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كانت عنده أربعة دراهم لا يملك غيرها، فتصدق بدرهم ليلاً وبدرهم نهاراً وبدرهم سرّاً وبدرهم علانية. وعن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، بعث عبد الرحمن بن عوف بدنانير كثيرة إلى أصحاب الصفة، وبعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه في جوف الليل بوسق من تمر، فأنزل الله تعالى فيهما: ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار﴾ الآية، عني بالنهار: علانية صدقة عبد الرحمن بن عوف، وبالليل: سرّاً صدقة علي رضي الله عنه. وقال: أبو أمامة وأبو الدرداء ومكحول والأوزاعي: نزلت في الذين يربطون الخيل للجهاد فإنها تعتلف ليلاً ونهاراً سرّاً وعلانية. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا علي بن جعفر، أخبرنا ابن المبارك، أخبرنا طلحة بن أبي سعيد قال: سمعت سعيد المقبري يحدث أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول: قال النبي ﷺ: «مَنْ احْتَبَسَ فَرَسًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِيْمَانًا بِاللَّهِ وَتَصَدِيقًا بِوَعْدِهِ فَإِنْ شَبَعَهُ وَرِيَّهُ وَرَوَّثَهُ وَبَوْلَهُ فِي مِيزَانِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وقوله تعالى: ﴿فلهم أجرهم عند ربهم﴾،

أصحاب الحاجات والفاقات. ﴿فلهم أجرهم عند ربهم﴾ أي جزاء أعمالهم ﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ يعني في الآخرة. قوله عز وجل: .

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾

﴿الذين يأكلون الربا﴾ أي يعاملون به وإنما خص الأكل لأنه معظم الأمر المقصود من المال لأن المال لا يؤكل إنما يصرف في المأكول ثم يؤكل فمنع الله التصرف في الربا بما ذكر فيه من الوعيد (م) عن جابر قال: «لعن رسول الله ﷺ أكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديه وقال: هم سواء» وأصل الربا في اللغة الزيادة يقال ربا الشيء يربو إذا زاد وكثر فالربا الزيادة في المال ﴿لا يقومون﴾ يعني من قبورهم يوم القيامة ﴿إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان﴾ أي يصصره، وأصل الخبط الضرب والوطء وهو ضرب على غير استواء يقال ناقة خبطت للتي تضرب الأرض بقوائمها وتطأ الناس بأخفافها ومنه قولهم: يخطب خبط عشواء للرجل الذي يتصرف في الأمور على غير اعتداء وتمييز وتدبر، وتخبطه الشيطان إذا مسه بخبل وجنون ﴿من المس﴾ يعني من الجنون يقال: مس الرجل فهو ممسوس إذا كان به جنون، ومعنى الآية أن أكل الربا يبعث يوم القيامة مثل المصروع الذي لا يستطيع الحركة الصحيحة لأن الربا ربا في بطونهم حتى أثقلهم فلا يقدر على الإسراع. قال سعيد بن جبير تلك علامة أكل الربا إذا استحل يوم القيامة وروى البغوي بسند الثعلبي عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ في قصة الإسراء قال: «فانطلق بي جبريل إلى رجال كثير كل رجل بطنه مثل البيت الضخم منضدين على سابلة آل فرعون وآل فرعون»

قال الأخفش: جعل جواب الخبر بالفاء، لأن الذين بمعنى ﴿من﴾ وجوابها بالفاء في الخبر، أو معنى الآية: مَنْ أنفق كذا فله أجره عند ربّه، ﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

قوله تعالى: ﴿الذين يأكلون الربا﴾، أي: الذين يعاملون به، وإنما خص الأكل لأنه معظم المقصود من المال ﴿لا يقومون﴾، يعني: يوم القيامة من قبورهم ﴿إلا كما يقوم الذي يتخبطه﴾، أي يصصره ﴿الشيطان﴾، أصل الخبط: الضرب والوطء وهو ضرب على غير استواء، يقال: ناقة خبطت للتي تطأ الناس وتضرب الأرض بقوائمها، ﴿من المس﴾، أي: الجنون، يقال: مس الرجل فهو ممسوس إذا كان مجنوناً، ومعناه: أن أكل الربا يُبعث يوم القيامة كمثّل المصروع. أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي، أخبرنا أبو إسحق الثعلبي، أخبرنا عبد الله بن حامد، أخبرنا أحمد بن محمد بن يوسف، أخبرنا عبد الله بن يحيى، أخبرنا يعقوب بن سفيان أخبرنا إسماعيل بن سالم، أخبرنا عباد بن عباد، عن أبي هارون العبدى عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ في قصة الإسراء، قال: «فانطلق بي جبريل عليه السلام إلى رجال كثير كل رجل منهم بطنه مثل البيت الضخم منضدين على سابلة آل فرعون، وآل فرعون يُعرضون على النار غدواً وعشيا، قال: فيقبلون مثل الإبل المنهومة يخطون الحجارة والشجرة لا يسمعون ولا يعقلون، فإذا أحس بهم أصحاب تلك البطون قاموا، فتميل بهم بطونهم فيصرعون، ثم يقوم أحدهم فيميل به بطنه فيصرع، فلا يستطيعون أن يبرحوا حتى يغشاهم آل فرعون فيردّوهم مُقبلين ومُدبرين فذلك عذابهم في البرزخ بين الدنيا والآخرة، قال: وآل فرعون يقولون: اللهم لا تقم الساعة أبداً، قال: يوم القيامة يُقال ادخلوا آل فرعون أشدّ العذاب، قلت: يا جبريل مَنْ هؤلاء؟ قال: هؤلاء

يعرضون على النار غدواً وعشيا قال فيقبلون مثل الإبل المنهومة يخبطون الحجارة والشجر لا يسمعون ولا يعقلون فإذا أحس بهم أصحاب تلك البطون قاموا فتميل بهم بطونهم فيصرعون ثم يقوم أحدهم فيميل به بطنه فيصرع فلا يستطيعون أن يبرحوا حتى يغشاهم آل فرعون فيردوهم مقبلين ومدبرين فذلك عذابهم في البرزخ بين الدنيا والآخرة، قال: وآل فرعون يقولون: اللهم لا تقم الساعة أبداً. قال: ويوم القيامة يقول أدخلوا آل فرعون أشد العذاب قلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس». قوله: بطنه مثل البيت الضخم أي العظيم الكبير الغليظ، وقوله: منضدين أي موضوعين بعضهم على بعض والسابلة الطريق، وقوله مثل الإبل المنهومة، النهم بالتحريك إفراط في الشهوة بالطعام من الجوع. قوله عز وجل: ﴿ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا﴾ أي ذلك الذي نزل بهم من العذاب بقولهم هذا واستحللهم إياه وذلك أن أهل الجاهلية كان أحدهم إذا حل ماله على غريمه يطالبه به فيقول الغريم لصاحب الحق زدني في الأجل حتى أزيدك في المال فيفعلان ذلك وكانوا يقولون: سواء علينا الزيادة في أول البيع بالربح أو عند المحل لأجل التأخير فكذبهم الله تعالى. ورد عليهم ذلك بقوله: ﴿وأحل الله البيع وحرم الربا﴾ يعني وأحل الله لكم الأرباح في التجارة بالبيع والشراء وحرم الربا الذي هو زيادة في المال لأجل تأخير الأجل وذلك لأن الله تعالى خلق الخلق فهم عبيده وهو مالكهم يحكم فيهم بما يشاء ويستعبدهم بما يريد ليس لأحد أن يعترض عليه في شيء مما حل أو حرم، وإنما على كافة الخلق الطاعة والتسليم لحكمه وأمره ونهيه. وذكر بعض العلماء الفرق بين البيع والربا فقال إذا باع ثوباً يساوي عشرة بعشرين فقد جعل ذات الثوب مقابلاً للعشرين فلما حصل التراضي على هذا التقابل صار كل واحد منهما مقابلاً للآخر في المالية عندهما فلم يكن أخذ من صاحبه شيئاً بغير عوض، أما إذا باع عشرة دراهم بعشرين فقد أخذ العشرة الزائدة بغير عوض ولا يمكن أن يقال: إن العوض هو الإمهال في مدة الأجل لأن الإمهال ليس مالاً أو شيئاً يشار إليه حتى يجعله عوضاً عن العشرة الزائدة فقد ظهر الفرق بين الصورتين.

فصل: في حكم الربا وفيه مسائل

المسألة الأولى: ذكروا في سبب تحريم الربا وجوهاً: أحدها: أن الربا يقتضي أخذ مال الغير بغير عوض،

﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾ قوله تعالى: ﴿ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا﴾، أي: ذلك الذي نزل بهم لقولهم هذا واستحللهم إياه وذلك أن أهل الجاهلية كان أحدهم إذا حل ماله على غريمه فطالبه فيقول الغريم لصاحب الحق: زدني في الأجل حتى أزيدك في المال، فيفعلان ذلك ويقولون: سواء علينا الزيادة في أول البيع بالربح أو عند المحل لأجل التأخير، فكذبهم الله تعالى وقال: ﴿وأحل الله البيع وحرم الربا﴾، وأعلم أن الربا في اللغة، الزيادة، قال الله تعالى: ﴿وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس﴾ [الروم: ٣٩] أي: ليكثر فلا يربو عند الله، فطلب الزيادة بطريق التجارة غير حرام في الجملة، إنما المحرم زيادة على صفة مخصوصة في مال مخصوص بيته رسول الله ﷺ فيما أخبرنا أبو الحسن عبد الوهاب بن محمد الخطيب، أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال، أخبرنا أبو العباس الأصم أخبرنا الربيع، أخبرنا الشافعي، أخبرنا عبد الوهاب، عن أيوب بن أبي تميمة عن محمد بن سيرين، عن مسلم بن يسار ورجل آخر، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبيعوا الذهب بالذهب، ولا الورق بالورق، ولا البر بالبر، ولا الشعير بالشعير، ولا التمر بالتمر، ولا الملح بالملح، إلا سواءً بسواء عيناً بعين يداً بيد، ولكن بيعوا الذهب بالورق والورق بالذهب، والبر بالشعير، والشعير بالبر، والتمر يداً بيد كيف شئتم نقص أحدهما الملح أو التمر أو زاد

لأن من يبيع درهماً بدرهمين نقداً كان أو نسيئة فقد حصل له زيادة درهم من غير عوض فهو حرام. الوجه الثاني: إنما حرم عقد الربا لأنه يمنع الناس من الاشتغال بالتجارة لأن صاحب الدراهم إذا تمكن من عقد الربا خف عليه تحصيل الزيادة من غير تعب ولا مشقة، فيقضي ذلك إلى انقطاع منافع الناس بالتجارات وطلب الأرباح. الوجه الثالث: أن الربا هو سبب إلى انقطاع المعروف بين الناس من القرض، فلما حرم الربا طابت النفوس بقرض الدراهم للمحتاج واسترجاع مثله لطلب الأجر من الله تعالى. الوجه الرابع: أن تحريم الربا قد ثبت بالنص ولا يجب أن يكون حكم جميع التكاليف معلومة للخلق فوجب القطع بتحريم الربا وإن كنا لا نعلم وجه الحكمة في ذلك.

المسألة الثانية: اعلم أن الربا في اللغة هو الزيادة، وطلب الزيادة بطريق التجارة غير حرام فثبت أن الزيادة المحرمة هو الربا وهو على صفة مخصوصة في مال مخصوص بينه رسول الله ﷺ (ق) عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله ﷺ: «الذهب بالورق رباً إلا هاء وهاه والبر بالبر رباً إلا هاء وهاه والشعير بالشعير رباً إلا هاء وهاه والتمر بالتمر رباً إلا هاء وهاه». وفي رواية: «الورق بالورق رباً إلا هاء وهاه والذهب بالذهب رباً إلا هاء وهاه» (م) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «الذهب بالذهب وزناً بوزن مثلاً بمثل فممن زاد واستزاد فقد أربى» وفي رواية: «التمر بالتمر والحنطة بالحنطة والشعير بالشعير والملح بالملح مثلاً بمثل يداً بيد، فمن زاد واستزاد فقد أربى إلا ما اختلفت ألوانه». (م) عن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله ﷺ: «الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر والبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلاً بمثل سواء بسواء يداً بيد، فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد» فنص رسول الله ﷺ على جريان الربا في هذه الستة أشياء وهي النقدان وأربعة أصناف من المطعومات وهي البر والشعير والتمر والملح، فذهب عامة أهل العلم إلى أن حكم الربا ثبت في هذه الأشياء لأوصاف فيها، فيعتدي إلى كل ما يوجد من تلك الأصناف فيه ثم اختلفوا في تلك الأوصاف فذهب قوم إلى أن المعنى في جميعها هو واحد وهو النفع فأثبتوا الربا

أحدهما، ومن زاد أو استزاد فقد أربى»، وروى هذا الحديث مطرف عن محمد بن سيرين عن مسلم بن يسار وعبد الله بن عتيك عن عبادة، فالنبي ﷺ نص على ستة أشياء، وذهب عامة أهل العلم إلى أن حكم الربا يثبت في هذه الأشياء الست بالأوصاف فيها فيتعدى إلى كل مال توجد فيه تلك الأوصاف، ثم اختلفوا في تلك الأوصاف، فذهب قوم إلى أن المعنى في جميعها واحد وهو النفع، وأثبتوا الربا في جميع الأموال وذهب الأكثرون إلى أن الربا يثبت في الدراهم والدنانير بوصف، وفي الأشياء المطعومة بوصف آخر، واختلفوا في ذلك الوصف، فقال قوم: ثبت في الدراهم والدنانير بوصف النقدية، وهو قول مالك والشافعي، وقال قوم: ثبت بعلّة الوزن، وهو قول أصحاب الرأي، وأثبتوا الربا في جميع الموزونات مثل الحديد والنحاس والقطن ونحوها، وأما الأشياء الأربعة فذهب قوم إلى أن الربا يثبت فيها بعلّة الكيل، وهو قول أصحاب الرأي، وأثبتوا الربا في جميع المكيلات مطعوماً كان أو غير مطعوم كالجصّ والثورة ونحوهما، وذهب جماعة إلى أن العلة فيها الطعم مع الكيل والوزن، فكل مطعوم وهو مكيل أو موزون يثبت فيه الربا، ولا يثبت فيما ليس بمكيل ولا موزون، وهو قول سعيد بن المسيب وقوله الشافعي رحمه الله في القديم، وقال في الجديد: يثبت فيها الربا بوصف الطعم، وأثبت الربا في جميع الأشياء المطعومة من الثمار والفواكه والبقول والأدوية مكيلة كانت أو موزونة، لما روي عن معمر بن عبد الله قال: كنت أسمع رسول الله ﷺ يقول: «الطعام بالطعام مثلاً بمثل»، فجملة مال الربا عند الشافعي ما كان ثماراً أو مطعوماً، والربا نوعان ربا الفضل وriba النساء، فإذا باع مال الربا بجنسه مثلاً بمثل بأن باع أحد النقدين بجنسه، أو باع مطعوماً

في جميع الأموال وذهب الأكثرون إلى أن الربا يثبت في الدراهم والدنانير بوصف وفي الأشياء المطعومة بوصف آخر، واختلفوا في ذلك الوصف فذهب الشافعي ومالك إلى أنه ثبت في الدراهم والدنانير بوصف النقدية وذهب أصحاب الرأي إلى أنه ثبت بعلقة الوزن فأثبتوا الربا في جميع الموزونات مثل الحديد والنحاس والقطن ونحو ذلك، وأما الأربعة أشياء المطعومة فذهب أصحاب الرأي إلى أن الربا يثبت فيها بعلقة الوزن والكيل فأثبتوا الربا في جميع المكيلات والموزونات مطعوماً كان أو غير مطعوم كالجص والثورة ونحوهما، وذهب جماعة إلى أن العلة فيها الطعم مع الكيل والوزن فكل مطعوم مكيل أو موزون يثبت فيه الربا ولا يثبت فيما سوى ذلك مما ليس بمكيل أو موزون وهو قول سعيد بن المسيب والشافعي في القديم. وقال في الجديد: ثبت الربا فيها بوصف الطعم فأثبت الربا في جميع الأشياء المطعومة من الثمار والفواكهة والبقول والأدوية مكيلة كانت أو موزونة لما روي عن معمر بن عبد الله أرسل غلامه بصاع قمح فقال: به ثم اشتر به شعيراً، فذهب الغلام فأخذ صاعاً وزيادة بعض من صاع فلما جاء معمرأ أخبره بذلك. فقال له معمر: لم فعلت ذلك انطلق فردّه ولا تأخذن إلا مثلاً بمثل فإنني كنت أسمع رسول الله ﷺ يقول: «الطعام بالطعام مثلاً بمثل» وكان طعامنا الشعير قيل له: فإنه ليس بمثله فقال إنني أخاف أن يضارع أخرجه مسلم فجملة مال الربا عند الشافعي ما كان ثمناً أو مطعوماً.

المسألة الثالثة: الربا نوعان ربا فضل وهو الزيادة وربا نسيئة وهو الأجل، فإن باع ما يدخل فيه الربا بجنسه إن باع أحد النقيدين بجنسه كالذهب بالذهب أو المطعوم بجنسه كالحنطة بالحنطة ونحو ذلك فيشترط فيه التماثل والمساواة بمعيار الشرع فإن كان موزوناً كالدرهم والدنانير فيشترط فيه المساواة في الوزن وإن كان مكيلاً كالحنطة والشعير يشترط في بيعه بجنسه المساواة في الكيل، ويشترط التقابض في مجلس العقد فإن باع ما يدخل فيه الربا بغير جنسه ينظر فإن باع بما لا يوافقه في وصف الربا مثل إن باع مطعوماً بأحد النقيدين فلا ربا فيه كما لو باعه بغير مال الربا فإن باعه بما لا يوافقه في الوصف لا في الجنس مثل أن باع الدراهم بالدنانير أو باع الحنطة بالشعير أو كان مطعوماً بمطعوم آخر من غير جنسه فلا يثبت فيه ربا التفاضل فيجوز بيعه متفاضلاً ويثبت فيه ربا النسيئة فيشترط في بيعه التقابض في المجلس لقوله ﷺ «إلا يداً بيد». وقوله «هاء وهاء» فيه اشتراط التقابض في المجلس

بجنسه، كالحنطة بالحنطة ونحوها يثبت فيه كلاً نوعي الربا، حتى لا يجوز إلا متساويين في معيار الشرع، فإن كان موزوناً كالدرهم والدنانير فيشترط المساواة في الوزن، وإن كان مكيلاً كالحنطة والشعير يبيع بجنسه، فيشترط المساواة في الكيل ويشترط التقابض في مجلس العقد، وإذا باع مال الربا بغير جنسه نُظر إن باع بما لا يوافقه في وصف الربا مثل: إن باع مطعوماً بأحد النقيدين فلا ربا فيه، كما لو باعه بغير مال الربا، وإن باعه بما يوافقه في الوصف مثل: إن باع الدراهم بالدنانير أو باع الحنطة بالشعير أو باع مطعوماً بمطعوم آخر من غير جنسه فلا يثبت فيه ربا الفضل حتى يجوز متفاضلاً أو جزافاً وثبت فيه ربا النساء حتى يشترط التقابض في المجلس، وقول النبي ﷺ: «لا تبيعوا الذهب بالذهب»، إلى أن قال: «إلا سواء بسواء» فيه إيجاب المماثلة وتحريم الفضل عند اتفاق الجنس، وقوله: «عيناً بعين» فيه تحريم النساء، وقوله: «يداً بيد كيف شئتم» فيه إطلاق التفاضل عند اختلاف الجنس مع إيجاب التقابض في المجلس، هذا في ربا المبيعة ومن أقرض شيئاً بشرط أن يرده عليه أفضل، فهو قرض منفعة، وكل قرض جر منفعة فهو ربا. قوله تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾: تذكير وتخويف، وإنما ذكر الفعل ردّاً إلى الوعظ، ﴿فَانْتَهَى﴾، عن أكل الربا، ﴿فَلَمْ يَسْلَفْ﴾، أي: ما مضى من ذنبه، قبل النهي مغفور له، ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾، بعد النهي إن شاء عصمه حيث يثبت على الانتهاء، وإن شاء خذله حتى يعود، وقيل: أمره إلى الله فيما يأمره وينهاه ويحلّ له ويحرّم عليه، وليس إليه من أمر نفسه شيء، ﴿وَمَنْ عَادَ﴾، بعد التحريم إلى أكل الربا مستحلاً له،

وتحريم النسيئة وقوله ﷺ: «إلا سواء بسواء مثلاً بمثل» فيه إيجاب المماثلة وتحريم التفاضل عند اتفاق الجنس وقوله ﷺ: «فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم» فيه إطلاق التبائع مع التفاضل عند اختلاف الجنس مع اشتراط التقابل في المجلس وهو قوله ﷺ: «إذا كان يداً بيد» والله أعلم.

المسألة الرابعة: في القرض وهو من أقرض شيئاً وشرط أن يرد عليه أفضل منه فهو قرض جر منفعة وكل قرض جر منفعة فهو ربا يدل عليه ما روي عن مالك قال: بلغني أن رجلاً أتى ابن عمر فقال إني أسلفت رجلاً سلفاً واشترطت عليه أفضل مما أسلفته، فقال عبدالله بن عمر: فذلك الربا أخرجه مالك في الموطأ. قال فإن لم يشترط فضلاً في وقت القرض فرد المستقرض أفضل مما أخذ جاز. ويدل على ذلك ما روي عن مجاهد أن ابن عمر استلف دراهم ففضى صاحبها خيراً منها فأبى أن يأخذها وقال هذه خير من دراهمي. فقال ابن عمر: قد علمت ولكن نفسي بذلك طيبة أخرجه مالك في الموطأ. وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي تذكير وتخويف وإنما ذكر الفعل لأن تأنيبه غير حقيقي فجاز تذكيره وذلك لأن الوعظ والموعظة شيء واحد ﴿فَانْتَهَى﴾ أي عن أكل الربا ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ أي ما مضى من ذنبه قبل النهي مغفور له ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ يعني بعد النهي إن شاء عصمه حتى يثبت على الانتهاء وإن شاء خذله حتى يعود إلى أكل الربا وقيل معناه وأمره إلى الله فيما يأمره وينهاه ويحل له ويحرم عليه وليس إليه من أمر نفسه شيء. وقيل: إن الآية فيمن يعتقد تحريم أكل الربا ثم يأكله فأمره إلى الله تعالى إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه ﴿وَمِنْ عَادَ﴾ يعني إلى أكل الربا بعد التحريم مستحلاً له ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾

قوله عز وجل: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ أي ينقصه ويهلكه ويذهب ببركته قال ابن عباس لا يقبل الله منه صدقة ولا حجاً ولا جهاداً ولا صلة ﴿وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ﴾ أي يزيدها ويثمرها ويبارك فيها في الدنيا ويضاعف أجرها في الآخرة. (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تصدق أحد بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله الطيب إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربي أحدكم فلوه

﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا محمد بن المثنى، حدثني غندر أخبرنا شعبة عن عوف بن أبي جحيفة عن أبيه أنه قال: «إن النبي ﷺ نهى عن ثمن الدم، وثمن الكلب، وكسب البغي، ولعن أكل الربا ومؤكله، والواشمة والمستوشمة، والمصور». أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر الجرجاني، أخبرنا الغافر بن محمد الفارسي، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، أخبرنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، أخبرنا مسلم بن الحجاج، أخبرنا زاهر بن حرب أخبرنا هشيم، أخبرنا أبو الزبير عن جابر رضي الله عنه قال: «لعن رسول الله ﷺ أكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديه، وقال: هم سواء». أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أخبرنا أبو إسحق الثعلبي، أنا أبو محمد المخلدني أنا أبو حامد بن الشرقي أخبرنا أحمد بن يوسف السلمي، أخبرنا النضر بن محمد، أخبرنا عكرمة بن عمار، أخبرنا يحيى هو ابن كثير قال: حدثني أبو سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الربا سبعون باباً أهونها عند الله عز وجل كالذي ينكح أمه».

قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾، أي: ينقصه ويهلكه ويذهب ببركته، وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: يمحَقُ الله الربا. يعني: لا يقبل منه صدقة ولا جهاداً ولا حجاً ولا صلة، ﴿وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ﴾، أي:

أو فضيله» لفظ مسلم والبخاري «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يصعد إلى الله. وفي رواية ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل». ﴿والله لا يحب كل كفار﴾ يعني كل مصر على كفره مقيم عليه مستحل لأكل الربا ﴿أثيم﴾ يعني متمادياً في الإثم وفيه نهى عنه وأن من أكل الربا لا يتزجر عنه ولا يتركه وقيل يحتمل أن يكون الكفار راجعاً إلى مستحل الربا والأثيم راجعاً إلى من يفعله مع اعتقاد التحريم فتكون الآية جامعة للفريقين. قوله عز وجل: .

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾

﴿إن الذين آمنوا﴾ يعني صدقوا بالله ورسوله ﴿وعملوا الصالحات﴾ يعني التي أمرهم الله بها ﴿وأقاموا الصلاة﴾ يعني المفروضة بأركانها وحدودها في أوقاتها ﴿وآتوا الزكاة﴾ يعني المفروضة عليهم في أموالهم ﴿لهم أجرهم عند ربهم﴾ أي لهم ثواب أعمالهم في الآخرة ﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي يوم القيامة. قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا﴾ قيل: نزلت في العباس بن عبد المطلب وعثمان بن عفان وكانا قد أسلفا في التمر فلما كانا وقت الجذاذ قال صاحب التمر لهما: إن أنتما أخذتما حقكما لم يبق لي ما يكفي عيالي فهل لكما أن تأخذا النصف وتؤخرا النصف وأضعف لكما ففعلا فلما حل الأجل طلبا منه الزيادة فبلغ ذلك النبي ﷺ فنهاهما، وأنزل الله هذه الآية فسمعا وأطاعا وأخذا رؤوس أموالهما، وقيل نزلت في العباس وخالد بن الوليد وكانا شريكين في الجاهلية يسلفان في الربا إلى بني عمرو بن عمير ناس من ثقيف فجاء الإسلام ولهما أموال عظيمة في الربا فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال النبي ﷺ في حجة الوداع: فيما رواه جابر من أفراد مسلم «ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعاً في بني سعد فقتله هذيل وربا الجاهلية موضوع. وأول ربا أضع ربا

يُشْرَها ويبارك فيها في الدنيا ويضاعف بها الأجر والثواب في العقبى، ﴿والله لا يحب كل كفار﴾، بتحريم الربا، ﴿أثيم﴾، فاجر بأكله.

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا﴾ قال عطاء وعكرمة: نزلت في العباس بن عبد المطلب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما، وكانا قد أسلفا في التمر، فلما حضر الجذاذ قال لهما صاحب التمر: إن أنتما أخذتما حقكما لا يبقى لي ما يكفي عيالي، فهل لكما أن تأخذا النصف وتؤخرا النصف وأضعف لكما ففعلا، فلما حل الأجل طلبا الزيادة فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنهاهما، فأنزل الله تعالى هذه الآية فسمعا وأطاعا وأخذا رؤوس أموالهما. وقال السدي: نزلت في العباس وخالد بن الوليد وكانا شريكين في الجاهلية يسلفان في الربا إلى بني عمرو بن عمير، ناس من ثقيف، فجاء الإسلام ولهما أموال عظيمة في الربا، فأنزل الله تعالى هذه الآية فقال النبي ﷺ في حجة الوداع في خطبته يوم عرفة: «ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعاً في بني سعد فقتله هذيل، وربا الجاهلية موضوعة كلها، وأول ربا أضع ربا العباس بن عبد المطلب، فإنها موضوعة كلها». وقال مقاتل: نزلت في أربعة أخوة من ثقيف، مسعود وعبد ياليل وحبيب وربيعه، وهم بنو عمرو بن عمير بن عوف الثقفي، كانوا

العباس بن عبدالمطلب فإنه موضوع كله» وقيل: نزلت في أربعة إخوة من ثقيف وهم: مسعود وعبد ياليل وحبیب وربيعة بن عمرو بن عميرة بن عوف الثقفي كانوا يداينون بني المغيرة بن عبد الله بن عمير بن مخزوم، وكانوا يرايون فلما ظهر النبي ﷺ على الطائف أسلم هؤلاء الإخوة بنو عمرو الثقفي وطلبوا رباهم من بني المغيرة فقال بنو المغيرة: والله ما نعطي الربا في الإسلام وقد وضعه الله تعالى عن المؤمنين فاختصموا إلى عتاب بن أسيد وكان عامل رسول الله ﷺ على مكة فكتب عتاب إلى النبي ﷺ بقضية الفريقين وكان ذلك مالا عظيماً فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي خافوا الله فيما أمركم به وانتهوا عما نهاكم عنه، وذروا أي واركوا ما بقي من الربا والمعنى واركوا طلب ما بقي لكم ما فضل على رؤوس أموالكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني إن كنتم محققين لإيمانكم قولاً وفعلاً.

فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾

﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ أي لم تتركوا ما بقي من الربا بعد تحريمه ﴿فَأَذَنُوا﴾ قرء بكسر الذال والمد على وزن آمنوا ومعناه: فأعلموا غيركم أنه حرب لله ورسوله وقرء فأذنوا بفتح الذال مع القصر ومعناه فاعلموا أنتم وأيقنوا ﴿بحرب من الله ورسوله﴾. قال ابن عباس يقال لأكل الربا يوم القيامة: خذ سلاحك للحرب. قال أهل المعاني: حرب الله النار وحرب رسوله السيف واختلفوا في معنى هذه المحاربة ف قيل المراد بها المبالغة في الوعيد والتهديد دون نفس الحرب، وقيل: بل المراد منه نفس الحرب وذلك أن من أصر على أكل الربا وعلم به الإمام قبض عليه وأجرى فيه حكم الله من التعزير والحبس إلى أن تظهر منه التوبة وإن كان أكل الربا ذا شوكة وصاحب عسكر حاربه الإمام كما يحارب الفئة الباغية. قال ابن عباس: من كان مقيماً على أكل الربا لا ينزع عنه فحق على إمام المسلمين أن يستتيه فإن نزع أي تاب وإلا ضرب عنقه ﴿وإن تبتم﴾ أي إن تركتم أكل الربا ورجعتم عنه ﴿فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون﴾ يعني لا تظلمون أنتم الغريم بطلب زيادة على رأس المال. ولا تظلمون أنتم بنقصان رأس المال فلما نزلت هذه الآية قال بنو عمرو الثقفي ومن كان يعامل بالربا من غيرهم بل نتوب إلى الله

يُداينون بني المغيرة بن عبد الله بن عمير بن مخزوم، وكانوا يُرايون فلما ظهر النبي ﷺ على الطائف أسلم هؤلاء الأخوة فطلبوا رباهم من بني المغيرة، فقال بنو المغيرة: والله ما نعطي الربا في الإسلام وقد وضعه الله تعالى عن المؤمنين، فاختصموا إلى عتاب بن أسيد، وكان عامل رسول الله ﷺ على مكة، فكتب عتاب بن أسيد إلى النبي ﷺ بقصة الفريقين، وكان ذلك مالا عظيماً، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا﴾، أي: إذا لم تذكروا ما بقي من الربا، ﴿فَأَذَنُوا بحرب من الله ورسوله﴾، قرأ حمزة وعاصم برواية أبي بكر «فَأَذَنُوا» بالمد، على وزن آمنوا، أي: فأعلموا غيركم أنكم حرب لله ورسوله، وأصله من الأذن، أي: وقعوا في الأذان، وقرأ الآخرون «فَأَذَنُوا» مقصوراً بفتح الذال، أي: فأعلموا أنتم وأيقنوا بحرب من الله ورسوله، وقال سعيد بن جبیر عن ابن عباس رضي الله عنهما: يقال لأكل الربا يوم القيامة خذ سلاحك للحرب، قال أهل المعاني: حرب الله النار، وحرب رسول الله السيف، ﴿وإن تبتم﴾، أي: تركتم استحلال الربا ورجعتم عنه، ﴿فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون﴾، بطلب الزيادة ﴿ولا تظلمون﴾، بالنقصان عن رأس المال، فلما

فإنه لا يدان لنا يعني لا قوة لنا بحرب الله ورسوله ورضوا برؤوس أموالهم. فشكا بنو المغيرة العسرة ومن كان عليه دين وقالوا: أخرونا إلى أن تدرك الغلات فأبوا أن يؤخروهم فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ يعني وإن كان الذي عليه الحق من غرمائكم معسراً والعسر نقيض اليسر وهو تعذر وجدان المال، وأعسر الرجل إذا أضاق ولم يجد ما يؤديه في دينه ﴿فَنظَرَةٌ﴾ أي فإمهال وتأخير ﴿إِلَى مِيسْرَةٍ﴾ أي إلى زمن اليسار وهو ضد الإعسار وهو وجدان المال الذي يؤديه في دينه واختلفوا في حكم الآية وهل الإنظار مختص بالربا أم هو عام في كل دين؟ على قولين: القول الأول وهو قول ابن عباس وشريح والضحاك والسدي إن الآية في الربا. وذكر عن شريح أن رجلاً خاصم رجلاً إليه ف قضى عليه وأمر بحبسه فقال رجل: كان عند شريح إنه معسر والله تعالى يقول في كتابه: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ فقال شريح إنما ذاك في الربا وإن الله تعالى قال في كتابه ﴿إِنْ اللَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْهَبُوا بِالْأَمْوَالِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ ولا يأمرنا الله بشيء ثم يعذبنا عليه. والقول الثاني وهو قول مجاهد وجماعة من المفسرين أن حكم الآية عام في كل دين على معسر واحتجوا بأن الله تعالى قال: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ ولم يقل ذا عسرة ليكون الحكم عاماً في جميع المعسرين ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرَ لَكُمْ﴾ يعني وإن تصدقوا على المعسر بما عليه من الدين فتركوا رؤوس أموالكم للمعسر خير لكم، وإنما جاز هذا الحذف للعلم به لأنه قد جرى ذكر المعسرين وذكر رأس المال فعلم أن التصديق راجع إليهما ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعني أن التصديق خير لكم وأفضل لأن فيه الثناء الجميل في الدنيا والثواب الجزيل في العقبى.

فصل: في ثواب إنظار المعسر والوضع عنه وتشديد أمر الدين والأمر بقضائه:

(م) عن أبي قتادة أنه طلب غريماً له فتوارى عنه ثم وجده فقال: إني معسر قال الله قال الله قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سره أن ينجي الله من كرب القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه». (م) عن أبي اليسر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله». (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم تاجر يداين الناس فإن رأى معسراً قال لفتيانه: تجاوزوا عنه

نزلت الآية قال بنو عمرو الثقفي ومن كان يعامل بالربا من غيرهم: بل نتوب إلى الله فإنه لا يدان لنا بحرب الله ورسوله، فرضوا برأس المال فشكا بنو المغيرة العسرة وقالوا: أخرونا إلى أن تدرك الغلات فأبوا أن يؤخروا، فأنزل الله تعالى:

﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾، يعني: وإن كان الذي عليه الدين معسراً، رفع الكلام باسم كان ولم يأت لها بخبر، وذلك جائز في النكرة تقول: إن كان رجلاً صالحاً فأكرمه، وقيل: كان بمعنى وقع، وحينئذ لا يحتاج إلى خبر، قرأ أبو جعفر عسرة بضم السين، ﴿فَنَظَرَةٌ﴾ أمر في صيغة الخبر، تقديره: فعليه نظرة، ﴿إِلَى مِيسْرَةٍ﴾، قرأ نافع ﴿مِيسْرَةٍ﴾ بضم السين، وقرأ الآخرون بفتحها، وقرأ مجاهد ﴿مِيسْرَةٍ﴾ بضم السين مضافاً، ومعناه: اليسار والسعة، ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا﴾، أي: تتركوا رؤوس أموالكم إلى المعسر، ﴿خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، قرأ عاصم تصدقوا بتخفيف الصاد، والآخرون بتشديدها، أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أخبرنا أبو الطيب سهل بن محمد بن سليمان أخبرنا أبو العباس إسماعيل بن عبد الله الميكالي، أخبرنا عبد الله بن أحمد بن موسى بن عيدان الحافظ، أخبرنا أبو طاهر أحمد بن عمرو بن السرح، أخبرنا ابن وهب عن جرير بن حازم، عن أيوب عن يحيى بن كثير عن عبد الله بن أبي قتادة! عن أبيه أنه كان يطلب رجلاً بحق فاختمى منه، فقال: ما حملك على ذلك؟ قال: العسرة، فاستحلفه على ذلك فحلف فدعا بصكه فأعطاه إياه، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من

لعل الله أن يتجاوز عنا فتجاوز الله عنه» وعن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «إن أعظم الذنوب عند الله أن يلقاه به عبد بعد الكبائر التي نهى الله عنها أن يموت رجل وعليه دين لا يدع له قضاء» أخرجه أبو داود (خ) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عز وجل عنه، ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله»، (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «مطل الغني ظلم، زاد في رواية وإذا أتبع أحدكم على مليء فليتبع». (ق) عن كعب بن مالك أنه تقاضى ابن أبي حذرد ديناً كان له في عهد رسول الله ﷺ في المسجد فارتفعت أصواتهما حتى سمعها رسول الله ﷺ وهو في بيته فخرج إليهما حتى كشف سجف حجرته فنادى فقال: يا كعب قلت: لبيك يا رسول الله فأشار بيده أن ضع الشطر من دينك فقال كعب: قد فعلت يا رسول الله قال قم فاقضه. (ق) عن أبي هريرة قال: «كان لرجل على رسول الله ﷺ سن من الإبل فجاء يتقاضاه فقال: أعطوه فطلبوا سنة فلم يجدوا إلا سناً فوقها فقال: أعطوه فقال: أوفيتني وفاك الله فقال النبي ﷺ: إن خيركم أحسنكم قضاء وفي رواية أنه أغلظ لرسول الله ﷺ حين استقضاه حتى هم به بعض أصحابه فقال: دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً ثم أمر له بأفضل من سنه». (م) عن أبي قتادة الأنصاري عن النبي ﷺ: «أنه قام فيهم فذكر لهم أن الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال فقال رجل فقال: يا رسول الله أرأيت إن قتل في سبيل الله تكفر عني خطاياي؟ فقال له رسول الله ﷺ: نعم إن قتل في سبيل الله وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر ثم قال رسول الله ﷺ كيف قلت قال أرأيت إن قتل في سبيل الله أتكفر عني خطاياي؟ فقال رسول الله ﷺ نعم وأنت صابر

أنظر مُعْسِراً وَوَضَعَ عَنْهُ أَنْجَاهُ اللَّهُ مِنْ كَرْبٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أبو منصور محمد بن سمان، أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني، أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا عبيد الله بن موسى، أخبرنا إسرائيل عن منصور عن ربعي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إن الملائكة لتَلْعَقُ بَرُوحَ رَجُلٍ كَانَ قَبْلَكُمْ»، فقالوا له: هل عملت خيراً قط؟ قال: «لا»، قالوا: تذكر، قال: «لا إلا أنني رجل كنت أداين الناس فكنت أمر فتياي أن يُنظروا المُوسر ويتجاوزوا عن المعسر»، قال الله تبارك وتعالى: «تجاوزوا عنه»، أخبرنا عبد الواحد بن المليحي، أخبرنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا أبو جعفر الزياتي، أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا أحمد بن عبد الله، أخبرنا زائدة عن عبد الملك بن عمير، عن ربعي عن أبي اليسر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِراً أَوْ وَضَعَ عَنْهُ أَظْلَهُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ».

فصل في الدين وحسن قضاؤه وتشديد أمره

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا أحمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا أبو الوليد، أخبرنا شعبة، أخبرنا سلمة بن كهيل قال: سمعت أبا سلمة بمنى يُحَدِّثُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أن رجلاً تقاضى رسول الله ﷺ، فأغلظ له، فهمَّ به أصحابه، فقال: «دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً، واشتروا له بغيراً فأعطوه إياه»، قالوا: لا نجد إلا أفضل من سنّه، قال: «اشتروه فأعطوه إياه، فإن خياركم أحسنكم قضاء»، أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد السرخسي أخبرنا أبو إسحق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «مُطْلُ الْغَنِيِّ ظِلْمٌ، فَإِذَا أُتْبِعَ أَحَدُكُمْ عَلَى مَلِيٍّ فَلْيَتَّبِعْ». أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب، أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال، أخبرنا أبو العباس الأصم، أخبرنا الربيع، أخبرنا الشافعي، أخبرنا إبراهيم بن سعيد بن إبراهيم عن أبيه عن عمر بن أبي سلمة عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «نفس المؤمن مُعَلَّقةٌ بِدَيْنِهِ حَتَّى

محتسب مقبل غير مدبر إلا الدين فإن جبريل قال لي ذلك» عن محمد بن جحش قال: «كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فرفع رأسه إلى السماء ثم وضع يده على جبهته ثم قال: سبحان الله ماذا نزل من التشديد فسكتنا وفرعنا. فلما كان من الغد سأله يا رسول الله: ما هذا التشديد الذي نزل فقال: والذي نفسي بيده لو أن رجلاً قتل في سبيل الله ثم أحيي ثم قتل ثم أحيي وعليه دين ما دخل الجنة حتى يقضي عنه دينه» أخرجه النسائي. قوله عز وجل:

وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

﴿واتقوا﴾ أي وخافوا ﴿يوماً ترجعون فيه إلى الله﴾ قرىء بفتح التاء أي تصيرون فيه إلى الله وقرىء بضم التاء وفتح الجيم أي تردون فيه إلى الله ﴿ثم توفى كل نفس ما كسبت﴾ يعني من خير أو شر ﴿وهم لا يظلمون﴾ أي في ذلك اليوم. وفي هذه الآية وعد شديد وزجر عظيم قال ابن عباس: هذه آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ. فقال جبريل وضعها على رأس مائتين وثمانين من سورة البقرة وعاش بعدها رسول الله ﷺ أحدًا وعشرين يوماً وقيل: تسع ليالٍ وقيل سبعةً ومات ﷺ لليلتين خلتا من ربيع الأول في يوم الاثنين سنة إحدى عشرة من الهجرة. وروى الشعبي عن ابن عباس أن آخر آية نزلت آية الربا. قوله عز وجل:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ

يُقضى عنه». أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد السرخسي، أخبرنا أبو إسحق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن عبد الله بن أبي قتادة الأنصاري عن أبيه أنه جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت إن قتلت في سبيل الله صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبرٍ يكفر الله عن خطايي؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، فلما أدبر ناداه رسول الله ﷺ، أو أمر به، فنودي فقال رسول الله ﷺ: «كيف قلت؟» فأعاد عليه قوله، فقال رسول الله ﷺ: «نعم إلا الدين، كذلك قال جبريل».

قوله تعالى: ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله﴾، قرأ أهل البصرة بفتح التاء، أي: تصيرون إلى الله، وقرأ الآخرون بضم التاء وفتح الجيم، أي: تردون إلى الله تعالى: ﴿ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هذه آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ، فقال له جبريل عليه السلام: ضعها على رأس مائتين وثمانين آية من سورة البقرة، وعاش بعدها رسول الله ﷺ واحداً وعشرين يوماً، وقال ابن جريج: تسع ليالٍ، وقال سعيد بن جبیر: سبع ليالٍ، ومات يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول حين زاغت الشمس سنة إحدى عشرة من الهجرة، قال الشعبي عن ابن عباس رضي الله عنهما: آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ آية الربا. قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما حرم الله الربا أباح السلم، وقال أشهد أن السلم المضمون إلى أجل مسمى قد أحله الله تعالى في كتابه وأذن فيه، ثم قرأ:

إِحْدَيْهِمَا فُتْدَكِرَ إِحْدَيْهِمَا الْآخَرَىٰ وَلَا يَأْبُ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُوبُوا صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُوبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين﴾ قال ابن عباس لما حرم الربا أباح السلم وقال: أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى قد أحله الله في كتابه وأذن فيه. وقوله ﴿إذا تداينتم﴾ أي تعاملتم بالدين أو دايين بعضهم بعضاً والتداين تفاعل من الدين يقال دايته إذا عاملته بالدين وإنما قال بدين بعد قوله: إذا تداينتم لأن المداينة قد تطلق على المجازاة وعلى المعطاة فقيده بالدين ليعرف المراد من اللفظ ويخلص أحد المعنيين من الآخر. وقيل إنما قال بدين ليرجع الضمير إليه في قوله: فاكتبوه إذ لو لم يذكر ذلك لوجب أن يقال: فاكتبوا الدين فلا يحسن النظم بذلك وقيل إنما ذكره تأكيداً ﴿إلى أجل مسمى﴾ يعني إلى مدة معلومة الأول والآخر مثل السنة والشهر ولا يجوز إلى غير مدة معلومة كما لو قال إلى الحصاد أو نحوه والأجل يلزم في الثمن في البيع وفي السلم حتى لا يكون لصاحب الحق الطلب قبل محل الأجل بخلاف القرض فإنه لا يلزم فيه الأجل عند أكثر أهل العلم. (ق) عن ابن عباس قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يسلفون في التمر العام والعامين فقال لهم: «من أسلف في تمر ففي كيل معلوم أو وزن معلوم إلى أجل معلوم» وقوله تعالى: ﴿فاكتبوه﴾ أي اكتبوا الدين الذي تداينتم به بيعاً كان ذلك أو سلماً أو قرضاً واختلفوا في هذه الكتابة ف قيل: هي واجبة وهو مذهب عطاء وابن جريج والنخعي واختاره محمد بن جرير الطبري وقيل الأمر محمول على النذب والاستحباب فإن ترك فلا بأس وهو قول جمهور العلماء وقيل بل كانت الكتابة والإشهاد والرهن فرضاً ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿فإن أمن بعضهم بعضاً فليؤد الذي ائتمن أمانته﴾ وهو قول الحسن والشعبي والحكم بن عيينة ثم بين الله تعالى كيفية الكتابة فقال تعالى: ﴿وليكتب بينكم كاتب﴾ أي

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى﴾ ﴿فاكتبوه﴾، قوله: ﴿إذا تداينتم﴾ أي: تعاملتم بالدين، يقال: دايته إذا عاملته بالدين، وإنما قال بدين بعد قوله: ﴿إذا تداينتم﴾ لأن المداينة قد تكون مجازاة وقد تكون معطاة فقيده بالدين ليعرف المراد من اللفظ، وقيل: ذكره تأكيداً ﴿إلى أجل مسمى﴾، الأجل: مدة معلومة الأول والآخر، والأجل يلزم في الثمن والمبيع في السلم حتى لا يكون لصاحب الحق الطلب قبل محله، وفي القرض لا يلزم الأجل عند أكثر أهل العلم، ﴿فاكتبوه﴾ أي: اكتبوا الدين الذي تداينتم به بيعاً كان أو سلماً أو قرضاً، واختلفوا في هذه الكتابة فقال بعضهم: هي واجبة، والأكثر على أنه أمر استحباب، فإن ترك فلا بأس كقوله تعالى: ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض﴾ [الجمعة: ١٠] وقال بعضهم: كانت كتابة الدين والإشهاد والرهن فرضاً ثم نسخ الكل بقوله: ﴿فإن أمن بعضهم بعضاً فليؤد الذي ائتمن أمانته﴾ [البقرة: ٢٨٣] وهو قول الشعبي، ثم بين كيفية الكتابة فقال جل ذكره: ﴿وليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾، أي: ليكتب كتاب الدين بين الطالب والمطلوب كاتب بالعدل، أي: بالحق من غير زيادة ولا نقصان ولا تقديم أجل ولا تأخير، ﴿ولا يأب﴾، أي لا يمتنع، ﴿كاتب أن يكتب﴾، واختلفوا في وجوب الكتابة على الكاتب وتحمل الشهادة على الشهادة، فذهب قوم إلى وجوبها إذا طُلب، وهو قول مجاهد، وقال الحسن: يجب إذا لم يكن كاتب غيره، وقال قوم: هو على النذب والاستحباب، وقال الضحاك: كانت غريمة واجبة على الكاتب والشاهد، فنسخها قوله

ليكتب الدين بين الطالب والمطلوب كاتب ﴿بالعدل﴾ أي بالحق من غير زيادة ولا نقصان ولا تقديم أجل ولا تأخيرته قيل إن فائدة الكتابة هي حفظ المال من الجانيين لأن صاحب الدين إذا علم أن حقه مقيد بالكتابة تعذر عليه طلب زيادة أو تقديم المطالبة قبل حلول الأجل، ومن عليه الدين إذا عرف ذلك تعذر عليه الجحود أو النقص من أصل الدين الذي عليه، فلما كانت هذه الفائدة من الكتابة أمر الله تعالى بها ﴿ولا ياب﴾ أي ولا يمتنع ﴿كاتب أن يكتب﴾ واختلفوا في وجوب الكتابة على الكاتب وتحمل الشهادة على الشاهد فقليل بوجوبهما لأن ظاهر الكلام نهى عن الامتناع من الكتابة وإيجابها على كل كتاب فإذا طولب بالكتابة وتحمل الشهادة من هو من أهلها وجب عليه ذلك. وقيل: هو من فرض الكفاية وهو قول الشعبي فإن لم يوجد إلا واحد وجب عليه ذلك وقيل هو على الندب والاستحباب وذلك لأن الله تعالى لما علمه الكتابة وشرفه بها استحبه له أن يكتب ليقضي حاجة أخيه المسلم ويشكر تلك النعمة التي أنعم الله بها عليه وقيل: كانت الكتابة وتحمل الشهادة واجبتين على الكاتب والشاهد ثم نسخهما الله تعالى بقوله: ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾ ﴿كما علمه الله﴾ أي كما شرعه الله وأمر به ﴿فليكتب﴾ وذلك أن يكتب بحيث لا يزيد ولا ينقص ويكتب ما يصلح أن يكون حجة عند الحاجة ولا يخص أحد الخصمين بالاحتياط له دون الآخر، وأن يكون كل واحد منهما آمناً من أبطال حقه، وأن يكون ما يكتبه متفقاً عليه عند العلماء، وأن يحترز من الألفاظ التي يقع النزاع فيها وهذه الأمور لا تحصل إلا لمن هو فقيه عالم باللغة ومذاهب العلماء. ﴿وليملل الذي عليه الحق﴾ يعني أن المطلوب الذي عليه الحق يقر على نفسه بلسانه ليعلم ما عليه من الحق فيذكر قدره وجنسه وصفة الأجل ونحو ذلك. والإملاء والإملاء لغتان فصيحتان معناهما واحد ﴿وليتق الله﴾ ربه يعني المملي ﴿ولا يبخس﴾ أي ولا ينقص ﴿منه﴾ أي من الحق الذي وجب ﴿شيئاً فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً﴾ أي جاهلاً بالإملاء وقيل هو الطفل الصغير. وقال الشافعي: السفيه هو المبذر المفسد لماله

تعالى: ﴿لا يضار كاتب ولا شهيد﴾، ﴿كما علمه الله﴾ أي: كما شرعه الله وأمره، ﴿فليكتب وليملل الذي عليه الحق﴾، يعني: المطلوب يُقر على نفسه بلسانه ليعلم ما عليه، والإملاء والإملاء لغتان فصيحتان معناهما واحد جاء بهما القرآن، فالإملاء هنا، والإملاء قوله تعالى: ﴿فهي تُملى عليه بكرة وأصيلاً﴾ [الفرقان: ٥]، ﴿وليتق الله ربه﴾، يعني: المملي، ﴿ولا يبخس منه شيئاً﴾ أي: ولا ينقص منه أي من الحق الذي عليه شيئاً، ﴿فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً﴾، أي: جاهلاً بالإملاء، قاله مجاهد، وقال الضحاك والسدي: طفلاً صغيراً، وقال الشافعي: السفيه المبذر المفسد لماله أو في دينه، قوله: ﴿أو ضعيفاً﴾ أي: شيخاً كبيراً، وقيل: هو ضعيف العقل لعتيه أو جنون، ﴿أو لا يستطيع أن يمل هو﴾، لخرس أو عمى أو عجمة أو حبس أو غيبة لا يمكنه حصول الكتابة أو جهل بما له وعليه، ﴿فليملل وليه﴾ أي قيمه، ﴿بالعدل﴾ أي: بالصدق والحق، وقال ابن عباس رضي الله عنه ومقاتل: أراد بالولي صاحب الحق، يعني إن عجز من عليه الحق من الإملاء ليملل ولي الحق وصاحب الدين بالعدل لأنه أعلم بالحق ﴿واشهدوا﴾ أي: وأشهدوا، ﴿شهودين﴾ أي: شاهدين ﴿من رجالكم﴾ يعني: الأحرار المسلمين دون العبيد والصبيان، وهو قول أكثر أهل العلم، وأجاز شريح وابن سيرين شهادة العبيد، ﴿فإن لم يكونا رجلين﴾ أي: لم يكن الشاهدان رجلين، ﴿فرجل وامرأتان﴾ أي: فليشهد رجل وامرأتان، وأجمع الفقهاء على أن شهادة النساء جائزة مع الرجال في الأموال حتى يثبت برجل وامرأتين، واختلفوا في غير الأموال، فذهب جماعة إلى أنه يجوز شهادتهن مع الرجال في غير العقوبات، وهو قول سفيان الثوري وأصحاب الرأي، وذهب جماعة إلى أن غير المال لا يثبت إلا برجلين عدلين، وذهب الشافعي رحمه الله إلى أن ما يطلع عليه النساء غالباً كالولادة والرضاع والثبوة والبكارة ونحوها يثبت بشهادة رجل وامرأتين، وبشهادة أربع نسوة، واتفقوا

ودينه ﴿أو ضعيفاً﴾ يعني شيخاً كبيراً وقيل: هو ضعيف العقل لعتة أو جنون ﴿أو لا يستطيع أن يمل هو﴾ يعني لخرس أو عمى أو عجمة في كلامه أو حبس أو غيبة لا يمكنه الحضور عند الكاتب أو يجهل بماله، وعليه فهؤلاء كلهم لا يصح إقرارهم فلا بد من أن يقوم غيرهم مقامهم وهو قوله تعالى: ﴿فليملل وليه﴾ يعني ولي كل واحد من هؤلاء الثلاثة المحجور عليهم لأنه مقامه في صحة الإقرار. وقال ابن عباس: أراد بالولي صاحب الدين يعني إن عجز الذي عليه الحق عن الإملاء فليملل صاحب الحق لأنه أعلم بحقه ﴿بالعدل﴾ أي بالصدق ﴿واستشهدوا شهيدين﴾ يعني وأشهدوا على حقوقكم شهيدين لأن المقصود من الكتابة هو الإشهاد ﴿من رجالكم﴾ يعني من أهل ملتكم يعني من المسلمين الأحرار دون العبيد والصبيان وهذا قول أكثر أهل العلم. وأجاز شريح وابن سيرين شهادة العبيد وحجة هذا القول أن قوله من رجالكم عام يتناول العبيد وغيرهم وذلك لأن عقل الإنسان ودينه وعدالته تمنعه من الكذب، فإذا اجتمعت هذه الشرائط فيه كانت شهادته معتبرة. وحجة جمهور العلماء ولا ياب الشهداء إذا ما دعوا فهذا نص يقتضي أن من تحمل شهادة وجب عليه الأداء إذا ما طُلب بها والعبد ليس كذلك فإن السيد إذا لم يأذن له في ذلك حرم عليه الذهاب إلى الشهادة فوجب أن لا يكون العبد من أهل الشهادة ﴿فإن لم يكونا رجلين﴾ أي فإن لم يكن الشاهدان رجلين ﴿فرجل وامرأتان﴾ أي فليشهد رجل وامرأتان، وأجمع الفقهاء على أن شهادة النساء مع الرجال جائزة في الأموال فيثبت الحق بشهادة رجل وامرأتين واختلفوا في غير الأموال فذهب سفيان الثوري وأصحاب الرأي إلى أنه يجوز شهادة النساء مع الرجال في سائر الحقوق غير العقوبات، وذهب جماعة إلى أن غير المال لا يثبت إلا برجلين عدلين، وذهب الشافعي إلى أن ما يطلع عليه النساء غالباً كالولادة والرضاع والكبارة والثبوة ونحوها تجوز شهادة رجل وامرأتين أو شهادة أربع نسوة. واتفقوا على أن شهادة النساء غير جائزة ولا مقبولة في العقوبات والحدود، وقوله تعالى: ﴿ممن ترضون من الشهداء﴾ يعني من كان مرضياً عندكم في دينه وأمانته والشرائط المعتبرة في العدالة. وقبول الشهادة عشرة وهي: الإسلام والحرية والعقل والبلوغ والعدالة والمروءة، وأن لا يجر بتلك الشهادة منفعة إلى نفسه ولا يدفع عنه بها مضرة، ولا يكون معروفاً بكثرة الغلط والسهو، وأن لا يكون بينه وبين من شهد عليه عداوة فشهادة الكافر مردودة لأن الكذاب لا

على أن شهادة النساء غير جائزة في العقوبات. قوله تعالى: ﴿ممن ترضون من الشهداء﴾ يعني: من كان مرضياً في ديانته وأمانته. وشرائط قبول الشهادة سبعة: الإسلام، والحرية، والعقل، والبلوغ. والعدالة، والمروءة، وانتفاء التهمة، فشهادة الكافر مردودة، لأن المعروفين بالكذب عند الناس لا تجوز شهادتهم، فالذي يكذب على الله تعالى أولى أن يكون مردود الشهادة، وجوز أصحاب الرأي شهادة أهل الذمة بعضهم على بعض، ولا تقبل شهادة العبيد، وأجازها شريح وابن سيرين، وهو قول أنس بن مالك رضي الله عنه، ولا قول للمجنون حتى يكون له شهادة، ولا يجوز شهادة الصبيان، سئل ابن عباس رضي الله عنه عن ذلك فقال: لا يجوز لأن الله تعالى يقول: ﴿ممن ترضون من الشهداء﴾، والعدالة شرط، وهي أن يكون الشاهد مجتنباً للكبائر غير مُصرٍّ على الصغائر، والمروءة شرط، وهي ما يتصل بأداب النفس مما يعلم أن تاركه قليل الحياء، وهي حسن الهيئة والسيرة والعشرة والصناعة، فإن كان الرجل يظهر من نفسه شيئاً مما يستحي أمثاله من إظهاره في الأغلب يعلم به قلة مروءته، وترد شهادته، وانتفاء التهمة شرط حتى لا تقبل شهادة العدو على العدو، وإن كان مقبول الشهادة على غيره لأنه متهم في حق عدوه، ولا تقبل شهادة الرجل لولده ووالده وإن كان مقبول الشهادة عليهما، ولا يقبل شهادة من يجز إلى نفسه بشهادته نفعاً، كالوارث يشهد على رجل يقتل مورثه، أو يدفع عن نفسه بشهادته ضرراً كالمشهد عليه يشهد بجرح من شهد عليه لتمكين التهمة في شهادته، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الحسين المروزي، أخبرنا أبو العباس أحمد بن محمد بن

تقبل شهادته. فالذي يكذب على الله أولى بأن ترد شهادته وجوز بعض أهل الرأي شهادة أهل الذمة بعضهم على بعض ولا تقبل شهادة العبيد وأجازها ابن شريح وابن سيرين وهو قول أنس ولا قول للمجنون معتبر حتى تصح شهادته. ولا تجوز شهادة الصبيان وسئل ابن عباس عن ذلك فقال: لا تجوز لأن الله تعالى قال: ﴿ممن ترضون من الشهداء﴾ والعدالة شرط وهو أن لا يكون الشاهد مقيماً على الكبائر مصراً على الصغائر والمروءة شرط وهي ما تتصل بآداب النفس مما يعلم أن تاركه قليل الحياء وهي حسن الهبة والسيرة والعشرة والصناعة، فإن كان الرجل يظهر في نفسه شيئاً مما يستحيي أمثاله من إظهاره في الأغلب علم بذلك قلة مروءته وترد شهادته وانتفاء التهمة شرط فلا تقبل شهادة العدو على عدوه وإن كان مقبول الشهادة على غيره، لأنه متهم في حق عدوه لا في حق غيره ولا تقبل شهادة الرجل لولده ووالده وتقبل شهادته عليهما ولا تقبل شهادة من يجر بشهادته إلى نفسه نفعاً عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «لا تجوز شهادة خائن ولا خائنة ولا مجلود حداً ولا ذي غمر على أخيه ولا مجرب شهادة ولا القانع أهل البيت لهم ولا ظنين في ولاء ولا قرابة». قال الفزاري: القانع التابع، أخرجه الترمذي. قوله: لا تجوز شهادة خائن أراد بالخيانة الخيانة في الدين والمال والأمانة فإن من ضيع شيئاً من أوامر الله أو ارتكب شيئاً مما نهى الله عنه لا يكون عدلاً. والغمر بكسر الغين الحقد والقانع هو السائل المستطعم وقيل: المنقطع إلى قوم يخدمهم فترد شهادته للتهمة في جر النفع إلى نفسه لأن التابع لأهل البيت ينتفع بما يصير إليهم والظنين بكسر الظاء المتهم. وقوله تعالى: ﴿أن تضل إحداهما﴾ أي تنسى إحدى المرأتين ﴿فتذكر إحداهما الأخرى﴾ لأن الغالب على طباع النساء النسيان فأقيمت المرأتان مقام الرجل الواحد حتى لو نسيت إحداهما تذكرها الأخرى فتقول حضرنا مجلس كذا وسمعنا كذا فيحصل بذلك الذكرى. وحكي عن سفيان بن عيينة أنه قال هو من الذكر أي تجعل إحداهما الأخرى ذكراً والمعنى أن شهادتهما تصيرا كشهادة ذكر، والقول الأول أصح لأنه معطوف على تضل وهو النسيان. وقوله تعالى: ﴿ولا يَأْب الشهداء إذا ما دعوا﴾ يعني إذا دعوا لتحمل الشهادة وسماهم شهداء لأنهم يكونون شهداء وهذا أمر إيجاب عند بعضهم. وقال قوم: يجب إذا لم يكن غيره فإن كان غيره فهو مخير، وقيل: هو أمر ندب فهو مخير في جميع الأحوال. وقال بعضهم هذا في إقامة الشهادة وأدائها. ومعنى الآية

سراج القطن، أخبرنا أبو أحمد محمد بن قريش بن سليمان، أخبرنا علي بن عبد العزيز الملكي أخبرنا أبو عبيد القاسم بن سلام أخبرنا مروان الفزاري، عن شيخ من أهل الحيرة يقال له يزيد بن زياد عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها ترفعه: «لا يجوز شهادة خائن ولا خائنة، ولا ذي غمر على أخيه ولا ظنين في ولاء ولا قرابة، ولا القانع مع أهل البيت»، قوله تعالى: ﴿أن تضل إحداهما﴾، قرأ حمزة ﴿أن تضل﴾ بكسر الالف، ﴿فتذكر﴾، برفع الراء، ومعناه الجزاء والابتداء، وموضع ﴿تضل﴾ جزم بالجزاء، إلا أنه لا نسق بالتضعيف ﴿فتذكر﴾ رفع، لأن ما بعد فاء الجزاء مبتدأ، وقراءة العامة بفتح الالف ونصب الراء على الاتصال بالكلام الأول، و﴿تضل﴾ محله نصب بأن ﴿فتذكر﴾ منسوق عليه، ومعنى الآية فرجل وامرأتان كي تذكر إحداهما الأخرى، ومعنى تضل أي: تنسى، يريد إذا نسيت إحداهما شهادتها فتذكرها الأخرى، فتقول: ألسنا حضرنا مجلس كذا وسمعنا كذا؟ قرأ ابن كثير وأهل البصرة ﴿فتذكر﴾ مخففاً، وقرأ الباقر مشدداً (وذكر) (واذكر) بمعنى واحد، وهما متعديان، من الذكر الذي هو ضد النسيان، وحكي عن سفيان بن عيينة أنه قال: هو من الذكر أي: تجعل إحداهما الأخرى ذكراً، أي: تصير شهادتهما كشهادة ذكر، والأول أصح لأنه معطوف على النسيان: قوله تعالى: ﴿ولا يَأْب الشهداء إذا ما دعوا﴾، قيل: أراد به إذا ما دُعوا لتحمل الشهادة، سماهم شهداء على معنى أنهم يكونون شهداء، وهو أمر إيجاب عند بعضهم، وقال قوم: تجب الإجابة إذا لم يكن غيرهم، فإن وجد

ولا يَأْبُ الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا الْأَدَاءُ الشَّهَادَةِ الَّتِي تَحْمِلُوهَا. وَقِيلَ: الْآيَةُ فِي الْأَمْرَيْنِ جَمِيعاً يَعْنِي فِي التَّحْمِلِ وَالْأَدَاءِ وَالْإِقَامَةِ إِذَا كَانَ عَارِفاً. وَقِيلَ الشَّاهِدُ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَشْهَدْ فَإِذَا شَهِدَ وَجِبَ عَلَيْهِ الْأَدَاءُ ﴿وَلَا تَسْأَمُوا﴾ أَيِ وَلَا تَمْلُوا وَلَا تَضْجُرُوا ﴿أَنْ تَكْتُبُوهُ﴾ الضَّمِيرُ رَاجِعٌ إِلَى الْحَقِّ أَوِ الدِّينِ ﴿صَغِيرًا﴾ كَانَ ﴿أَوْ كَبِيرًا﴾ يَعْنِي قَلِيلاً كَانَ الْحَقُّ أَوِ الدِّينُ أَوْ كَثِيراً ﴿إِلَى أَجَلِهِ﴾ يَعْنِي إِلَى مَحَلِّ الْحَقِّ وَالدِّينِ ﴿ذَلِكُمْ﴾ يَعْنِي ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴿أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يَعْنِي أَعْدَلُ عِنْدَ اللَّهِ لِأَنَّهُ أَمْرٌ بِهِ وَاتِّبَاعُ أَمْرِهِ أَعْدَلُ مِنْ تَرْكِهِ، ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾ يَعْنِي أَنَّ الْكِتَابَةَ تَذَكُّرُ الشُّهُودِ ﴿وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ يَعْنِي وَأَحْرَى وَأَقْرَبُ إِلَى أَنْ لَا تَشْكُوا فِي الشَّهَادَةِ ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً﴾ أَيِ إِلَّا أَنْ تَقَعَ تِجَارَةٌ حَاضِرَةٌ يَدُ بِيَدٍ ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ أَيِ فِيمَا بَيْنَكُمْ لَيْسَ فِيهَا أَجَلٌ ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أَيِ لَا ضَرَرَ عَلَيْكُمْ ﴿أَنْ لَا تَكْتُبُوهَا﴾ يَعْنِي التِّجَارَةَ الْحَاضِرَةَ، وَالتِّجَارَةُ تَقْلِبُ الْأَمْوَالَ وَتَصْرِيفُهَا لَطَلَبُ النِّمَاءِ وَالزِّيَادَةِ بِالْأَرْبَاحِ، وَإِنَّمَا رَخَّصَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْكِتَابَةِ وَالْإِشْهَادِ فِي هَذَا النَّوعِ مِنَ التِّجَارَةِ لِكَثْرَةِ مَا يَجْرِي بَيْنَ النَّاسِ، فَلَوْ كَلَفُوا فِيهَا الْكِتَابَةَ وَالْإِشْهَادَ لَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَلَئِنْ إِذَا أَخَذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُتَبَايعِينَ حَقَّهُ مِنْ صَاحِبِهِ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ خَوْفُ التَّجَاحُدِ فَلَا حَاجَةَ إِلَى الْكِتَابَةِ وَالْإِشْهَادِ ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ يَعْنِي فِيمَا جَرَتْ الْعَادَةُ بِالْإِشْهَادِ فِيهِ. وَاخْتَلَفُوا فِي هَذَا الْأَمْرِ فَقِيلَ هُوَ لِلْجَوَابِ فَيَجِبُ أَنْ يَشْهَدَ فِي صَغِيرِ الْحَقِّ وَكَبِيرِهِ وَنَقْدِهِ وَنَسِيئَتِهِ وَقِيلَ: هُوَ أَمْرٌ نَدْبٌ وَاسْتِحْبَابٌ وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ. وَقِيلَ إِنَّهُ مَنْسُوخٌ بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي ائْتَمَنَّ أَمَانَتَهُ﴾. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ هَذَا نَهْيٌ عَنِ الْمُضَارَّةِ وَأَصْلُهُ يُضَارُّ بِكَسْرِ الرَّاءِ الْأُولَى وَمَعْنَاهُ لَا يُضَارُّ الْكَاتِبُ فَيَأْبَى أَنْ يَكْتُبَ وَالشَّاهِدُ فَيَأْبَى أَنْ يَشْهَدَ أَوْ يُضَارَّ الْكَاتِبُ فَيَزِيدُ أَوْ يَنْقُصُ أَوْ يَحْرَفُ مَا أَمْلَى عَلَيْهِ فَيُضَرُّ صَاحِبُ الْحَقِّ أَوْ مِنْ عَلَيْهِ الْحَقُّ، وَكَذَلِكَ الشَّاهِدُ وَقِيلَ: أَصْلُهُ يُضَارُّ بِفَتْحِ الرَّاءِ الْأُولَى وَمَعْنَاهُ أَنْ يَدْعُو الرَّجُلُ الْكَاتِبَ وَالشَّاهِدَ وَهُمَا

غَيْرُهُمْ فَهَمْ مَخْيَرُونَ، وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ، وَقَالَ قَوْمٌ: هُوَ أَمْرٌ نَدْبٌ وَهُوَ مَخْيَرٌ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ وَقَالَ بَعْضُهُمْ؛ هَذَا فِي إِقَامَةِ الشَّهَادَةِ وَأَدَائِهَا، فَمَعْنَى الْآيَةِ: وَلَا يَأْبُ الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا لِأَدَاءِ الشَّهَادَةِ الَّتِي تَحْمِلُوهَا، وَهُوَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ وَعُكْرَمَةَ وَسَعِيدِ بْنِ جَبْرِ، وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: الشَّاهِدُ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يُشْهَدْ، وَقَالَ الْحَسَنُ: الْآيَةُ فِي الْأَمْرِ جَمِيعاً فِي التَّحْمِلِ وَالْإِقَامَةِ إِذَا كَانَ فَازِعاً ﴿وَلَا تَسْأَمُوا﴾ أَيِ: وَلَا تَمْلُوا ﴿أَنْ تَكْتُبُوهُ﴾، الْهَاءُ رَاجِعَةٌ إِلَى الْحَقِّ، ﴿صَغِيرًا﴾ كَانَ الْحَقُّ، ﴿أَوْ كَبِيرًا﴾، قَلِيلاً كَانَ أَوْ كَثِيراً، ﴿إِلَى أَجَلِهِ﴾، إِلَى مَحَلِّ الْحَقِّ، ﴿ذَلِكُمْ﴾ أَيِ: الْكِتَابُ، ﴿أَقْسَطُ﴾، أَعْدَلُ ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾، لِأَنَّهُ أَمْرٌ بِهِ، وَاتِّبَاعُ أَمْرِهِ أَعْدَلُ مِنْ تَرْكِهِ، ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾، لِأَنَّ الْكِتَابَةَ تُذَكِّرُ الشُّهُودَ، ﴿وَأَدْنَى﴾ وَأَحْرَى وَأَقْرَبُ إِلَى، ﴿أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ تَشْكُوا فِي الشَّهَادَةِ، ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً﴾، قَرَأَهَا عَاصِمٌ بِالنَّصْبِ عَلَى خَبَرِ كَانَ وَأَضْمَرَ الْأِسْمَ مَجَازاً إِلَّا أَنْ تَكُونَ التِّجَارَةُ تِجَارَةً أَوْ الْمُبَايَعَةُ تِجَارَةً، وَقَرَأَهَا الْبَاقُونَ بِالرَّفْعِ، وَلَهُ وَجْهَانِ، أَحَدُهُمَا: أَنْ يَجْعَلَ الْكَوْنَ بِمَعْنَى الْوُقُوعِ، مَعْنَاهُ: إِلَّا أَنْ تَقَعَ تِجَارَةٌ، وَالثَّانِي: أَنْ يَجْعَلَ الْأِسْمَ فِي التِّجَارَةِ وَالْخَبَرُ فِي الْفِعْلِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ تَقْدِيرُهُ: إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةٌ حَاضِرَةٌ دَائِرَةٌ بَيْنَكُمْ، وَمَعْنَى الْآيَةِ: إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةٌ حَاضِرَةٌ يَدُ بِيَدٍ تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ لَيْسَ فِيهَا أَجَلٌ، ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ لَا تَكْتُبُوهَا﴾، يَعْنِي: التِّجَارَةُ. ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾، قَالَ الضَّحَّاكُ: هُوَ عَزَمَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْإِشْهَادُ وَاجِبٌ فِي صَغِيرِ الْحَقِّ وَكَبِيرِهِ وَنَقْدِهِ وَنَسِيئِهِ، وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخَدْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الْأَمْرُ فِيهِ إِلَى الْأَمَانَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ [البقرة: ٢٣٨]، الْآيَةُ، وَقَالَ الْآخَرُونَ: هُوَ أَمْرٌ نَدْبٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾، هَذَا نَهْيٌ لِلْغَائِبِ، وَأَصْلُهُ: يُضَارُّ، فَادْغَمَتْ إِحْدَى الرَّائِيْنِ فِي الْآخَرَى وَنُصِبَتْ، لِحَقِّ التَّضْعِيفِ لِلتَّلَاقِ السَّاكِنَيْنِ، وَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: أَصْلُهُ يُضَارُّ بِكَسْرِ الرَّاءِ الْأُولَى، وَجَعَلَ الْفِعْلُ لِلْكَاتِبِ وَالشَّهِيدِ، مَعْنَاهُ: لَا يُضَارُّ الْكَاتِبُ فَيَأْبَى أَنْ يَكْتُبَ وَلَا الشَّهِيدُ فَيَأْبَى أَنْ يَشْهَدَ، وَلَا يُضَارُّ الْكَاتِبُ فَيَزِيدُ أَوْ يَنْقُصُ أَوْ يَحْرَفُ مَا أَمْلَى

مشغولان فيقولان نحن على شغل مهم فاطلب غيرنا فيقول الداعي: إن الله أمركما أن تجييا إذا دعيتما ويلح عليهما فيشغلها عن حاجتهما فنهى عن مضارتهما، وأمر أن يطلب غيرهما ﴿وإن تفعلوا﴾ يعني ما نهيتم عنه من الضرار ﴿فإنه فسوق بكم﴾ أي معصية وخروج عن الأمر. ﴿واتقوا الله﴾ أي خافوا الله واحذروه فيما نهاكم عنه من المضارة وغيرها ﴿ويعلمكم الله﴾ يعني ما يكون إرشاداً لكم في أمر الدنيا، كما يعلمكم ما يكون إرشاداً لكم في أمر الدين ﴿والله بكل شيء عليم﴾ يعني أن الله تعالى عليم بجميع مصالح عباده لا يخفى عليه شيء من ذلك. قوله عز وجل:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِيَّمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾

﴿وإن كنتم على سفر﴾ أي في سفر ﴿ولم تجدوا كاتباً﴾ يعني ولم تجدوا آلات الكتابة ﴿فرهن﴾ جمع رهن وقرىء فرهان ﴿مقبوضة﴾ يعني فارتهنوا ممن تدينونه رهوناً مقبوضة لتكون وثيقة لكم بأموالكم، وأصل الرهن الدوام يقال: رهن الشيء إذا دام وثبت، والرهن ما وضع عند الإنسان مما ينوب مناب ما أخذ منه ديناً. فإن قلت: لم شرط الارتهان في السفر مع عدم الكاتب ولا يختص به سفر دون حضر وقد صح أن رسول الله ﷺ رهن درعه عند أبي الشحم اليهودي على طعام أخذه إلى أجل، ولم يكن ذلك في سفر ولا عند عدم كاتب. قلت ليس الغرض تجويز الارتهان في السفر خاصة دون الحضر، ولكن لما كان السفر مظنة لإعواز الكاتب. والإشهاد أمر الله تعالى به على سبيل الإرشاد إلى حفظ الأموال لمن كان على سفر بأن يقيم التوثيق بالارتهان مقام الكتابة والإشهاد. واتفق العلماء على جواز الرهن في الحضر والسفر جميعاً ومع وجود الكاتب وعدمه. وقال مجاهد: لا يجوز إلا في السفر عند عدم الكاتب لظاهر الآية وأجاب الجمهور عن ظاهر الآية أن الكلام إنما خرج على الأغلب لا على سبيل الشرط. واتفق العلماء على أن الرهن لا يتم إلا بالقبض وهو قوله تعالى: ﴿فرهن مقبوضة﴾ يعني ارتهنوا واقبضوا، لأن المقصود من الرهن هو استيثاق جانب صاحب الحق وذلك لا يتم إلا بالقبض فلو رهن ولم يسلم لم يجبر الراهن على التسليم، فإذا سلم الرهن لزم من جهته حتى لا يجوز له أن يسترجعه ما دام شيء من الحق باقياً قوله

عليه ولا الشهيد فيشهد بما لم يستشهد عليه وهذا قول طاووس والحسن وقتادة، وقال قوم: أصله يضارّ بفتح الراء على الفعل المجهول، وجعلوا الكاتب والشهيد مفعولين، ومعناه: أن يدعو الرجل الكاتب أو الشاهد وهما على شغل مهم فيقولان نحن على شغل مهم فاطلب غيرنا، فيقول الداعي إن الله أمركما أن تجييا ويلح عليهما فيشغلها عن حاجتهما فنهى عن ذلك، وأمر بطلب غيرهما، ﴿وإن تفعلوا﴾ ما نهيتكم عنه من الضرار، ﴿فإنه فسوق بكم﴾ أي: معصية وخروج عن الأمر، ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم﴾.

﴿وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿فرهان﴾ بضم الهاء والراء وقرأ الباقون ﴿فرهان﴾ وهو جمع: رهن، مثل: بغل وبغال وجبل وجبال، والرهن جمع الرهان: جمع الجمع، قاله الفراء والكسائي، وقال أبو عبيدة وغيره: هو جمع الرهن أيضاً مثل: سقف وسُقف، وقال أبو عمرو: وإنما قرأنا (فرهن) ليكون فرقاً بينهما وبين رهان الخيل، وقال عكرمة: رُهن بضم الراء وسكون الهاء، والتخفيف والتثقل في الرهن لغتان، مثل: كُتِبَ وَكُتِبَ وَرُسِّلَ وَرُسِّلَ، ومعنى الآية: وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً الآن فارتهنوا ممن تدينونه رهوناً لتكون وثيقة بأموالكم، واتفقوا على أن الرهن لا يتم إلا بالقبض، وقوله: فرهن مقبوضة، أي ارتهنوا واقبضوا حتى لو رهن ولم يسلم فلا يجبر الراهن على التسليم، فإذا سلم لزم من

تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ يعني فإن كان الذي عليه الحق أميناً عند صاحب الحق ولم يرتهن منه شيئاً لحسن ظنه به ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي ائْتَمَنَّ أَمَانَتَهُ﴾ يعني فليؤد المديون الذي عليه الحق الذي كان أميناً في ظن الدائن الذي هو صاحب الحق أمانته يعني حقه سمي الدين أمانة وإن كان مضموناً لا ئتماناً عليه حيث أمن من جحوده فلم يكتب ولم يشهد عليه ولم يأخذ منه رهناً حث المديون على أن يكون عند ظن الدائن الذي ائتمنه وأن يؤدي إليه حقه الذي ائتمنه عليه ولم يرتهن منه عليه شيئاً ثم زاد ذلك تأكيداً بقوله: ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ أي المديون في أداء الحق عند حلول الأجل من غير مماطلة ولا جحود بل يعامله المعاملة الحسنة كما أحسن ظنه فيه، ثم رجع إلى خطاب الشهود فقال تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ يعني إذا دعيتم إلى إقامتها وأدائها وذلك لأن الشاهد متى امتنع من إقامة الشهادة وكتمها فقد أبطل بذلك حق صاحب الحق فهذا نهى عن كتمان الشهادة وبالغ في الوعيد عليه فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا﴾ يعني الشهادة ﴿فَإِنَّهُ آثَمُ قَلْبِهِ﴾ أي فاجر قلبه والآثم الفاجر، وإنما أضيف الإثم إلى القلب لأن الأفعال من الدواعي والصوارف إنما تحدث في القلب فلما كان الأمر كذلك أضيف الإثم إلى القلب قيل: ما أوعد الله على شيء كإيعاده عن كتمان الشهادة فإنه تعالى قال ﴿فَإِنَّهُ آثَمُ قَلْبِهِ﴾ وأراد به مسخ القلب نعوذ بالله من ذلك ﴿والله بما تعملون عليم﴾ يعني من بيان الشهادة وكتمانها ففيه وعيد وتحذير لمن كتم الشهادة ولم يظهرها. قوله عز وجل: .

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ملكاً وأهلها له عبيد وهو مالكمهم ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ وهذا يتناول حديث النفس والخواطر الفاسدة التي ترد على القلب ولا يتمكن من دفعها، والمؤاخذه بها تجري مجرى تكليف ما لا يطاق: وأجيب عن هذا بأن الخواطر الحاصلة في القلب على قسمين فمنها ما يوطن الإنسان نفسه عليه ويعزم على إظهاره إلى الوجود، فهذا مما يؤاخذ الإنسان به. والقسم الثاني ما يخطر بالبال ولا يمكن دفعه عن نفسه لكن يكره ولا يعزم على فعله ولا إظهاره إلى الوجود فهذا معفو عنه بدليل

جهة الراهن، حتى لا يجوز له أن يسترجعه ما دام شيء من الحق باقياً، ويجوز في الحَضَرِ الرهن مع وجود الكاتب، وقال مجاهد: لا يجوز الرهن إلا في السفر عند عدم الكاتب لظاهر الآية، وعند الآخرين: خرج الكلام في الآية على الأعم الأغلب لا على سبيل الشرط، والدليل عليه ما رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه رهن درعه عند أبي الشحم اليهودي، ولم يكن ذلك في السفر ولا عند عدم كاتب. ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾، وفي حرف أبي (فإن ائتمن) يعني: فإن كان الذي عليه الحق أميناً عند صاحب الحق فلم يرتهن منه شيئاً لحسن ظنه به ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي ائْتَمَنَّ أَمَانَتَهُ﴾ أي: فليقضه على الأمانة، ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ في أداء الحق، ثم رجع إلى خطاب الشهود فقال: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾، إذا دعيتم إلى إقامتها نهى عن كتمان الشهادة وأوعد عليه فقال: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثَمُ قَلْبِهِ﴾ أي: فاجر قلبه، قيل: ما وعد على شيء كإيعاده على كتمان الشهادة قال: ﴿فَإِنَّهُ آثَمُ قَلْبِهِ﴾ وأراد به مسخ القلب نعوذ بالله من ذلك، ﴿والله بما تعملون﴾ من بيان الشهادة وكتمانها، ﴿عليم﴾.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ملكاً وأهلها له عبيد وهو مالكمهم، ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء واللَّهُ على كل شيء قدير، اختلف العلماء في هذه الآية فقال قوم: هي خاصة ثم اختلفوا في وجه خصوصها، فقال بعضهم: هي متصلة بالآية الأولى نزلت في كتمان

قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾. وقال قوم: إن هذه الآية خاصة ثم اختلفوا في وجه تخصيصها فقال بعضهم: هي متصلة بالآية التي قبلها وإنما نزلت في كتمان الشهادة ومعنى الآية ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم﴾ أيها الشهود من كتمان الشهادة أي تخفوه أي تخفوا الكتمان يحاسبكم به الله وهذا ضعيف، لأن اللفظ هام وإن كان وارداً عقيب قضية فلم يلزم صرفه إليها. وقال بعضهم: إن الآية نزلت فيمن يتولى الكافرين من المؤمنين والمعنى: وإن تبدوا أي تظهروا ما في أنفسكم يعني من ولاية الكفار أو تخفوه فلا تظهروه يحاسبكم به الله. وذهب أكثر العلماء إلى أن الآية عامة ثم اختلفوا فقال قوم: هي منسوخة بالآية التي بعدها ويدل عليه ما روي عن أبي هريرة قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ في السماوات وما في الأرض، وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه﴾ الآية. اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الركب فقالوا: أي رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطبق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطبقها فقال رسول الله ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا بل قول سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير فلما اقترأها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله تعالى في أثرها: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله، وقالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها الله عز وجل فأنزل الله: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا

الشهادة، معناه: وإن تبدوا ما في أنفسكم أيها الشهود من كتمان الشهادة أو تخفوا الكتمان يحاسبكم به الله، وهو قول الشعبي وعكرمة، وقال بعضهم: نزلت فيمن يتولى الكافرين من دون المؤمنين، يعني: وإن تعلنوا ما في أنفسكم من ولاية الكفار أو تسروهم يحاسبكم به الله، وهو قول مقاتل، كما ذكر في قوله تعالى: ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ [آل عمران: ٢٨] إلى أن قال: ﴿قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٢٩]، وذهب الأكثرون إلى أن الآية عامة ثم اختلفوا فيها فقال قوم: هي منسوخة بالآية التي بعدها، والدليل عليه ما أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر الجرجاني، أخبرنا عبد الغافر بن محمد، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحاج، حدثني محمد بن المنهال الضرير وأمّية بن بسطام العيشي اللفظ له قال: أخبرنا يزيد بن زريع أنا روح وهو ابن القاسم عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما أنزل الله على رسوله ﷺ ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ في السماوات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴿الآية قال: اشتد على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الركب فقالوا - أي: لرسول الله ﷺ - كُلفنا من الأعمال ما نطبق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطبقها، قال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير»، فلما قرأها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله في إثرها ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال: «نعم»، ربنا ولا تحمِلْ علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا، قال: «نعم»، ربنا ولا تحمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ»، قال: «نعم»، واعفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ»، قال: «نعم». وروى سعيد بن جبیر عن ابن عباس رضي الله عنهما بمعناه، وقال في كل ذلك: قد فعلت بدل قوله نعم، وهذا قول ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما وابن عمر، وإليه ذهب محمد بن سيرين ومحمد بن كعب وقتادة والكلبي، أخبرنا تفسير الخازن والبغوي/ ج ١/ م ٢٦

لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا» قال نعم: «ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا» قال نعم ربنا: «ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به» قال نعم: «واعف عنا وافرغ لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين» قال نعم أخرجهم مسلم وله عن ابن عباس نحوه وفيه قد فعلت بدل نعم (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يعملوا به أو يتكلموا به وفي رواية ما وسوست به صدورهم» وقال قوم: إن الآية غير منسوخة لأن النسخ لا يرد إلا على الأمر والنهي ولا يرد على الإخبار. وقول الله تعالى: ﴿يَحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ خبر فلا يرد عليه النسخ ثم اختلفوا في تأويلها فقال قوم: قد أثبت الله تعالى للقلب كسباً فقال: بما كسبت قلوبكم وليس الله عبد أسر عملاً أو أعلنه من حركة جارحة أو همة قلب إلا يعلمه الله ثم يخبره به ويحاسبه عليه ثم يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، وقال آخرون في معنى الآية: إن الله تعالى يحاسب خلقه بجميع ما أبدوا من أعمالهم وأخفوه وعاقبهم عليه غير أن معاقبتهم على ما أخفوه أخف مما لم يعملوا به وهو ما يحدث لهم في الدنيا من النوائب والمصائب والأمور التي يحزنون عليها وهذا قول عائشة عن أمية إنها سألت عائشة عن قول الله عز وجل ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ وعن قوله ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾ فقالت: ما سألتني عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ فقال: هذه معاتبه الله العبد بما يصيبه من الحمى والنكبة حتى البضاعة يضعها في يد قميصه فيفقددها فيفزع لها، حتى أن العبد ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الأحمر من الكير» أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب. وله عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عليه بذنبه حتى يوافيه به يوم القيامة». وقال قوم في معنى الآية وإن تبدوا ما في أنفسكم يعني مما عزمتم عليه أو تخفوه أي ولا تبدوه وأنتم

الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أخبرنا أبو محمد عبد الله بن يوسف الأصفهاني، أخبرنا أبو بكر أحمد بن إسحاق الفقيه، أخبرنا يعقوب بن يوسف القزويني، أخبرنا أبو القاسم بن الحكم المغربي، أخبرنا مسعد ابن كدام، عن قتادة عن زُرارة بن أوفى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله تجاوز عن أمتي ما وسوست به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به»، وقال بعضهم: الآية غير منسوخة لأن النسخ لا يرد على الأخبار، إنما يرد على الأمر والنهي، وقوله: ﴿يَحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ خبر لا يرد عليه النسخ، ثم اختلفوا في تأويلها فقال قوم: قد أثبت الله تعالى للقلب كسباً فقال: ﴿بما كسبت قلوبكم﴾ [البقرة: ٢٢٥] فليس الله عبد أسر عملاً أو أعلنه من حركة من جوارحه أو همة في قلبه إلا يخبره الله به ويحاسبه عليه، ثم يغفر ما يشاء ويعذب بما يشاء، وهذا معنى قول الحسن، يدل عليه قوله تعالى: ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾ [الإسراء: ٣٦] وقال الآخرون: معنى الآية، إن الله عز وجل يحاسب خلقه بجميع ما أبدوا من أعمالهم أو أخفوه ويعاقبهم عليه، غير أن معاقبته على ما أخفوه مما لم يعملوه بما يحدث لهم في الدنيا من النوائب والمصائب، والأمور التي يحزنون عليها، وهذا قول عائشة رضي الله عنها، قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقال: «يا عائشة هذه معاتبه الله العبد بما يصيبه من الحمى والنكبة حتى الشوكة والبضاعة يضعها في كمه فيفقددها، فيزوع لها، حتى إن المؤمن يخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الأحمر من الكير». أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا أبو جعفر الزياتي، أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا عبد الله بن الصالح، حدثني الليث، حدثني يزيد بن أبي حبيب عن سعيد بن سنان عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عليه بذنبه حتى يوافيه به يوم القيامة». وقال بعضهم: وإن تبدوا ما في أنفسكم يعني: ما في قلوبكم مما عزمتم عليه أو تخفوه يحاسبكم به الله، ولا تبدوه وأنتم عازمون

عازمون عليه يحاسبكم به الله. فأما حديث النفس مما لم تعزموا عليه فإن ذلك مما لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ولا يؤاخذ به. قال عبدالله بن المبارك: قلت لسفيان: أيؤاخذ العبد بالهمة؟ فقال: إذا كانت عزمًا أخذ بها وقيل معنى المحاسبة الإخبار والتعريف فيرجع معنى هذه المحاسبة إلى كونه تعالى عالماً بكل ما في الضمائر والسرائر مما ظهر وخفي ومعنى الآية: وإن تبدوا ما في أنفسكم فتعملوا به أو تخفوه مما أضمرتم ونويتم يحاسبكم به الله أي يخبركم به ويعرفكم إياه، ثم يغفر للمؤمنين إظهاراً لفضله ويعذب الكافرين إظهاراً لعدله. يروى عن ابن عباس ويدل عليه أنه قال: يحاسبكم به الله ولم يقل: يؤاخذكم به لأن المحاسبة غير المؤاخذة ويدل عليه أيضاً ما روي عن صفوان بن محرز المازني قال: بينما ابن عمر يطوف إذ عرض له رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن أخبرني ما سمعت من رسول الله ﷺ في النجوى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يدني المؤمن من ربه حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه تعرف ذنب كذا وكذا فيقول: أعرف رب أعرف مرتين فيقول الله: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ثم تطوى صحيفة حسابه، وأما الآخرون وهم الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين» أخرجاه في الصحيحين. وقوله تعالى: ﴿فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾ قال ابن عباس: يغفر لمن يشاء الذنب العظيم ويعذب من يشاء على الذنب الصغير لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴿والله على كل شيء قدير﴾ يعني أنه تعالى قادر على كل شيء كامل القدرة فيغفر للمؤمنين فضلاً ويعذب الكافرين عدلاً. قوله عز وجل: .

عليه يحاسبكم به الله، فأما ما حدثت به أنفسكم مما لم تعزموا فإن ذلك مما لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ولا يؤاخذكم به، دليله قوله تعالى: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ [البقرة: ٢٢٥]، قال عبد الله بن المبارك: قلت لسفيان: أيؤاخذ الله العبد بالهمة؟ قال: إذا كان عزمًا أخذ بها، وقيل معنى المحاسبة: الإخبار والتعريف، ومعنى الآية: وإن تبدوا ما في أنفسكم فتعملوا به أو تخفوه مما أضمرتم ونويتم، يحاسبكم به الله ويخبركم به ويعرفكم إياه، ثم يغفر للمؤمنين إظهاراً لفضله، ويعذب الكافرين إظهاراً لعدله، وهذا معنى قول الضحاك، ويروى ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، يدل عليه أنه قال: يحاسبكم به الله، ولم يقل: يؤاخذكم به، والمحاسبة غير المؤاخذة، والدليل عليه ما أخبرنا أبو طاهر محمد بن علي الزرادي، أخبرنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي، أنا أبو سعيد الهيثم بن كليب، أنا عيسى بن أحمد العسقلاني، أنا يزيد بن هارون، أنا همام بن يحيى، عن قتادة عن صفوان بن محرز قال: كنت أخذاً بيد عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما فأتاه رجل فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى يدني المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه يسترهُ من الناس فيقول: أي عبدي! أتعرف ذنب كذا وكذا؟ فيقول: نعم، أي رب، ثم يقول: أي عبدي أتعرف ذنب كذا وكذا؟ فيقول: نعم، أي رب حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: فإني سترتها عليك في الدنيا وقد غفرتها لك اليوم، ثم يعطي كتاب حسناته، وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة على الظالمين». قوله تعالى: ﴿فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾ رفع الراء والباء أبو جعفر وابن عامر وعاصم ويعقوب، وجزمهما الآخرون فالرفع على الابتداء والجزم على النسق، روى طاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما فيغفر لمن يشاء الذنب العظيم ويعذب من يشاء على الذنب الصغير لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴿والله على كل شيء قدير﴾ .

ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَمَلَكَيْهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾

﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه﴾ عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية وإن تبدوا ما في أنفسكم أوتخفوه يحاسبكم به الله دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل من شيء فقالوا للنبي ﷺ فأنزل الله ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون﴾ الآية ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ قال: قد فعلت ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا﴾ قال: قد فعلت ﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ قال قد فعلت أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن. قال الزجاج: لما ذكر الله في هذه السورة فرض الصلاة والزكاة والصوم والحج والطلاق والإيلاء والحيض والجهاد وأقاصيص الأنبياء وما ذكر من كلام الحكماء ختم السورة بذكر تصديق نبيه ﷺ والمؤمنين بجميع ذلك ومعنى آمن الرسول صدق الرسول يعني محمداً ﷺ والمعنى صدق الرسول أن هذا القرآن وجملته ما فيه من الشرائع والأحكام منزل من عند الله عز وجل: ﴿والمؤمنون﴾ أي وصدق المؤمنون بذلك أيضاً ﴿كل﴾ أي كل واحد من المؤمنين ﴿آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾ فهذه أربع مراتب من أصول الإيمان وضرورياته، فأما الإيمان بالله فهو أن يؤمن بأن الله واحد أحد لا شريك له ولا نظير له ويؤمن بجميع أسمائه الحسنى وصفاته العليا وأنه حي عالم قادر على كل شيء، وأما الإيمان بالملائكة فهو أن يؤمن بوجودهم وأنهم معصومون مطهرون وأنهم السفرة الكرام البررة وأنهم الوسائط بين الله تعالى وبين رسله. وأما الإيمان بكتبه فهو أن يؤمن بأن الكتب المنزلة من عند الله هي وحي الله إلى رسله، وأنها حق وصدق من عند الله بغير شك ولا ارتياب، وأن القرآن لم يحرف ولم يبدل ولم يغير، وأنه مشتمل على المحكم والمتشابه، وأن محكمه يكشف عن متشابهه. وأما الإيمان بالرسول فهو أن يؤمن بأنهم رسل الله إلى عباده وأمناءه على وحيه، وأنهم معصومون وأنهم أفضل الخلق، وأن بعضهم أفضل من بعض وقد أنكر بعضهم ذلك وتمسك بقوله تعالى: ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾. وأجيب عنه بأن المقصود من هذا الكلام شيء آخر وهو إثبات نبوة الأنبياء والرد على اليهود والنصارى الذين يقرون بنبوة موسى وعيسى وينكرون نبوة محمد ﷺ وقد ثبت بالنص الصريح تفضيل بعض الأنبياء على بعض بقوله: «تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض» ومعنى قوله: ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى بل نؤمن بجميع رسله، وفي الآية إضمار تقديره وقالوا: يعني المؤمنين لا نفرق بين أحد من رسله ﴿وقالوا سمعنا وأطعنا﴾ يعني سمعنا قولك وأطعنا أمرك، والمعنى قال المؤمنون: سمعنا قول

قوله تعالى: ﴿آمن الرسول﴾ أي: صدق ﴿بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله﴾، يعني: كل واحد منهم، ولذلك وحّد الفعل، ﴿وملائكته وكتبه ورسله﴾ قرأ حمزة والكسائي «وكتابه» على الواحد يعني: القرآن، وقيل معناه: الجمع وإن ذكر بلفظ التوحيد، كقوله تعالى: ﴿فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقرأ الآخرون ﴿وكتبه﴾ بالجمع، كقوله تعالى: ﴿وملائكته وكتبه ورسله﴾ ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى، وفيه إضمار تقديره: يقولون لا نفرق، وقرأ يعقوب: لا يفرق، بالياء فيكون خبراً عن الرسول، أو معناه: لا يفرق الكل، وإنما قال: ﴿بين أحد﴾ ولم يقل بين آحاد، لأن الأحد يكون للواحد والجمع، قال الله تعالى: ﴿فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ [الحاقة: ٤٧]، ﴿وقالوا سمعنا﴾، قولك ﴿وأطعنا﴾ أمرك، روي عن حكيم عن جابر رضي الله

ربنا فيما أمرنا به، وأطعناه فيما ألزمتنا من فرائضه، واستعبدنا به من طاعته، وسلمنا له فيما أمرنا به ونهانا عنه، ﴿غفرانك ربنا﴾ أي نسألك غفرانك ربنا، أو يكون المعنى اغفر لنا غفرانك ربنا ﴿وإليك المصير﴾ يعني قالوا، إليك يا ربنا مرجعنا ومعادنا فاغفر ذنوبنا. روى البغوي بغير سند عن حكيم بن جابر: «أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ: إن الله عز وجل قد أثنى عليك وعلى أمتك فسل تعطه». قال بتلقين الله تعالى غفرانك ربنا وإليك المصير. قوله عز وجل: .

لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ
أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ
وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ

﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ قيل: يحتمل أن يكون ابتداء خبر من الله تعالى ويحتمل أن يكون حكاية عن المؤمنين وفيه إضمار كأنه قال الله تعالى عنهم وقالوا: لا يكلف الله نفساً إلا وسعها يعني طاقتها والوسع اسم لما يسع الإنسان ولا يضيق عليه. قال ابن عباس وأكثر المفسرين إن هذه الآية نسخت حديث النفس والوسوسة وذلك أنه لما نزل وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه ضج المؤمنون منها وقالوا: يا رسول الله نتوب من عمل اليد والرجل واللسان فكيف نتوب من الوسوسة وحديث النفس؟ فنزلت هذا الآية. والمعنى أنكم لا تستطيعون أن تمتنعوا من الوسوسة وحديث النفس؟ كان ذلك ما لم تطيقوه وقال ابن عباس في رواية عنه: هم المؤمنون خاصة وسع الله عليهم أمر دينهم ولم يكلفهم ما لا يستطيعون. كما قال: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ وقال تعالى: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ وسئل سفيان بن عيينة عن قوله: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ قال: إلا يسرها ولم يكلفها فوق طاقتها وهذا قول حسن، لأن الوسع ما دون الطاقة وقيل معناه أن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها فلا يتعبها بما لا تطيق. ﴿لها ما كسبت﴾ يعني للنفس ما عملت من الخير فلها أجره وثوابه.

عنهما أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ حين نزلت هذه الآية: إن الله قد أثنى عليك وعلى أمتك، فسل تعطه، فسأل بتلقين الله تعالى فقال: ﴿غفرانك﴾، وهو نصب على المصدر، أي: اغفر غفرانك، أو على المفعول به، أي: نسألك غفرانك، ﴿ربنا وإليك المصير﴾.

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ظاهر الآية قضاء لحاجته وفيها إضمار السؤال كأنه قال: وقالوا لا تكلفنا إلا وسعنا، وأجاب، أي: لا يكلف الله نفساً إلا وسعها أي: طاقتها، والوسع: اسم لما يسع الإنسان، ولا يضيق عليه، واختلفوا في تأويله، فذهب ابن عباس رضي الله عنه وعطاء وأكثر المفسرين إلى أنه أراد به حديث النفس الذي ذكر في قوله: ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه﴾ كما ذكرنا، ورؤي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: هم المؤمنون خاصة وسع عليهم أمر دينهم ولم يكلفهم فيه إلا ما يستطيعون، كما قال الله تعالى: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال الله تعالى: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ [الحج: ٧٨]، وسئل سفيان بن عيينة عن قوله عز وجل: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ قال: إلا يسرها ولم يكلفها فوق طاقتها، وهذا قوله حسن، لأن الوسع ما دون الطاقة. قوله تعالى: ﴿لها ما كسبت﴾ أي للنفس ما عملت من الخير لها أجره وثوابه ﴿وعليها ما اكتسبت﴾ من الشر وعليها وزره ﴿ربنا لا تؤاخذنا﴾ أي: لا تعاقبنا ﴿إن نسينا﴾، جعله بعضهم من النسيان الذي هو السهو، قال الكلبي: كانت بنو إسرائيل إذا نسوا شيئاً مما أمروا

﴿وعليها ما اكتسبت﴾ يعني من الشر عليها وزره وعقابه وقيل في معنى الآية: إن الله تعالى لا يؤاخذ أحداً بذنب غيره.

قوله عز وجل: ﴿ربنا لا تؤاخذنا﴾ وهذا تعليم من الله تعالى عباده المؤمنين كيف يدعونه ومعناه قولوا: ربنا لا تؤاخذنا أي لا تعاقبنا وإنما جاء بلفظ المفاعلة وهو فعل واحد لأن المسيء قد أمكن من نفسه وطرق السبيل إليها بفعله فكأنه أعدى عليه من يعاقبه بذنبه ويأخذه به. ﴿إن نسينا أو أخطأنا﴾ فيه وجهان: أحدهما أنه من النسيان الذي هو السهو وهو ضد التذكر قيل: كان بنو إسرائيل إذا نسوا شيئاً مما أمروا به أو أخطؤوا عجلت لهم العقوبة فيحرم عليهم شيء مما كان حلالاً لهم من مطعم أو مشرب على حسب ذلك الذنب، فأمر الله المؤمنين أن يسألوه ترك مؤاخذتهم بذلك. فإن قلت: أليس فعل الناسي في محل العفو بدليل قوله ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» فإذا كان النسيان في محل العفو قطعاً فما معنى العفو عنه بالدعاء؟ قلت: الجواب عنه من وجوه: الأول: أن النسيان على ضربين: أما الأول: فهو ما كان من العبد على وجه التضيق والتفريط، وهو ترك ما أمر بفعله كمن رأى على ثوبه دماً فأخر إزالته، عنه ثم نسي فصلى فيه، وهو على ثوبه فيعد مقصراً إذ كان يلزمه المبادرة إلى إزالته أما إذا لم يره فيعذر فيه وكذا لو ترك ما أمر بفعله على وجه السهو أو ارتكب منهياً عنه من غير قصد إليه كأكل آدم عليه السلام من الشجرة التي نهى عنها على وجه النسيان من غير عزم على المخالفة كما قال تعالى: ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً﴾ فمثل هذا يجب أن يسأل الله تعالى أن يعفو له عن ذلك. وأما الضرب الثاني فهو كمن ترك صلاة ثم نسيها أو ترك دراسة القرآن بعد أن حفظه حتى نسيه فهذا لا يعذر بنسيانه وسهوه لأنه فرط فثبت أن النسيان على قسمين وإذا كان كذلك صح طلب العفو والغفران عن النسيان. الوجه الثاني من الجواب أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا من المتقين لله حق تقانة فإن صدر منهم ما لا ينبغي فلا يكون إلا على سبيل السهو والنسيان فطلبهم العفو والغفران لما يقع منهم على سبيل السهو والنسيان إنما هو لشدة خوفهم وتقواهم. الوجه الثالث أن المقصود من هذا الدعاء هو التضرع والتذلل لله تعالى. وأما الخطأ في قوله أو أخطأنا فعلى وجهين أيضاً: أحدهما أن يأتي العبد ما نهى عنه بقصد وإرادة فذلك خطأ منه وهو به مأخوذ فيحسن طلب العفو والغفران لذلك الفعل الذي ارتكبه. الوجه الثاني أن يكون الخطأ على سبيل الجهل والظن لأن له فعله كمن ظن أن وقت الصلاة لم يدخل وهو في يوم غيم فأخراها حتى خرج وقتها فهذا من الخطأ الموضوع عن العبد.

به أو أخطؤوا عجلت لهم العقوبة فحرم عليهم شيء من مطعم أو مشرب على حسب ذلك الذنب، فأمر الله المؤمنين أن يسألوه ترك مؤاخذتهم بذلك، وقيل: هو من النسيان الذي هو الترك كقوله تعالى: ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ [التوبة: ٦٧]، قوله تعالى: ﴿أو أخطأنا﴾ قيل: معناه القصد والعمد، يقال: أخطأ فلان إذا تعمّد، قال الله تعالى: ﴿إن قتلهم كان خطئاً كبيراً﴾ [الإسراء: ٣]، قال عطاء: إن نسينا أو أخطأنا يعني: إن جهلنا أو تعمّدنا، وجعله الأكثرون: من الخطأ الذي هو الجهل والسهو، لأن ما كان عمداً من الذنب فغير معفو عنه بل هو في مشيئة الله، والخطأ معفو عنه، قال النبي ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه». قوله تعالى: ﴿ربنا ولا تحمِلْ علينا إصراً﴾ أي عهداً ثقيلاً وميثاقاً لا نستطيع القيام به فتعذبنا بنقضه وتركه، ﴿كما حملته على الذين من قبلنا﴾، يعني: اليهود، فلم يقوموا به فتعذبهم هذا قول مجاهد وعطاء وقتادة والسدي والكلبي وجماعة، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وأخذتم على ذلكم أصري﴾ [آل عمران: ٨١] أي: عهدي، وقيل معناه: لا تشدّ ولا تغلظ الأمر علينا كما شدّدت على من قبلنا من اليهود، وذلك أن الله فرض عليهم خمسين صلاة وأمرهم بأداء رُبع أموالهم من الزكاة ومن أصاب ثوبه نجاسة قطعها، ومن أصاب ذنباً أصبح ذنبه مكتوباً علي باب، ونحوها من الأثقال

لكن طلب العفو والغفران لسبب تقصيره وقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا﴾ يعني عهداً ثقیلاً وميثاقاً غليظاً فلا نستطيع القيام به فتعذبنا بنقضه وتركه ﴿كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ يعني اليهود فلم يقوموا به فعذبهم عليه، وقيل معناه ولا تشدد علينا كما شددت على اليهود من قبلنا وذلك أن الله تعالى فرض عليهم خمسين صلاة وأمرهم بأداء ربع أموالهم زكاة ومن أصاب منهم ثوبه نجاسة قطعها ومن أصاب ذنباً أصبح وذنبه مكتوب على بابه. ونحو هذا من الأفعال والآثار التي كتبت عليهم فسأل المسلمون ربهم أن يصونهم عن أمثال هذه التغليظات والعهود الثقيلة وقد أجاب الله تعالى دعاءهم برحمته وخفف عنهم بفضلهم وكرمه فقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ «وقيل الإصر ذنب لا توبة له فسأل المؤمنون ربهم أن يعصمهم من مثله ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ يعني لا تكلفنا من الأعمال ما لا نطبق القيام به لثقل حمله علينا وتكليف ما لا يطاق على وجهين: أحدهما ما ليس في قدرة العبد احتماله كتكليف الأعمى النظر والزمن العدو فهذا النوع من التكليف الذي لا يكلف الله به عبده بحال. الوجه الثاني من تكليف ما لا يطاق هو ما في قدره العبد احتماله مع المشقة الشديدة والكلفة العظيمة كتكليف الأعمال الشاقة والفرائض الثقيلة كما كان في ابتداء الإسلام صلاة الليل واجبة ونحوه. فهذا الذي سأل المؤمنون ربهم لا يحملهم ما لا طاقة لهم به واستدل بهذه الآية من يقول إن تكليف ما لا يطاق جائز إذ لو لم يكن جائزاً لما حسن طلب تخفيفه بالدعاء من الله تعالى. وقيل في قوله ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به هو حديث النفس والوسوسة وقيل هيجان الغلظة وقيل هو الحب وقيل هو شماتة الأعداء وقيل: هو الفرقة والقطيعة وقيل هو مسخ القردة والخنازير نعوذ بالله من ذلك كله ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾ أي تجاوز عن ذنوبنا وامحها عنا ﴿وَاعْفِرْ لَنَا﴾ أي استر علينا ذنوبنا ولا تفضحنا ﴿وَارْحَمْنَا﴾ أي تغمدنا برحمة تنجيننا بها من عقابك فإنه ليس بناج من عقابك إلا من رحمته. وقيل: إنا لا ننال العمل بطاعتك ولا نترك معصيتك إلا برحمتك، وأصل الرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم وإذا وصف بها الله تعالى فليس يراد بها إلا الإحسان المجرد والتفضل على العباد دون الرقة. وقيل: إن طلب العفو هو أن يسقط عنه عقاب ذنوبه، وطلب المغفرة هو أن يستر عليه صوناً له من الفضيحة كأن العبد يقول: أطلب منك العفو وإذا عفوت عني فاستره علي فإذا عفا الله تعالى عن العبد وستره طلب الرحمة التي هي الإنعام والإحسان ليفوز بالنعيم والثواب ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ أي ناصرنا وحافظنا ووليّنا ومتوليّ أمورنا ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ يعني الجاحدين الذين عبدوا غيرك وجحدوا وحدانيتك. قال ابن عباس في قوله غفرانك ربنا قال قد غفرت لكم.

والأغلال، وهذا معنى قول عثمان وعطاء ومالك بن أنس وأبي عبيدة وجماعة، يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَيُضَعُّ عَنْهُمْ إِصْرُهُمْ وَالأَغْلَالُ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقيل: الإصرُ ذنب لا توبة له، معناه: اعصمنا من مثله، والأصل فيه العقل والأحكام. قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ أي: لا تُكَلِّفْنَا مِنَ الأَعْمَالِ مَا لَا نَطِيقُهُ، وقيل: هو حديث النفس والوسوسة، حُكي عن مكحول أنه قال: هو الغلظة، قيل: الغلظة شدة الشهود، وعن إبراهيم قال: هو الحب، وعن محمد بن عبد الوهاب قال: العشق، وقال ابن جريج: وهو مسخ القردة والخنازير، وقيل: هو شماتة الأعداء، وقيل: هو الفرقة والقطيعة نعوذ بالله منها، قوله تعالى: ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾ أي: تجاوز وامح عنا ذنوبنا، ﴿وَاعْفِرْ لَنَا﴾ أي: استر علينا ذنوبنا ولا تفضحنا ﴿وَارْحَمْنَا﴾ فإننا لا ننال العمل إلا بطاعتك ولا نترك معصيتك إلا برحمتك، ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ ناصرنا وحافظنا ووليّنا، ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾. روى سعيد بن جبیر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل: ﴿غفرانك ربنا﴾ قال الله تعالى: «قد غفرت لكم»، وفي قوله: ﴿لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال: لا تؤاخذكم، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا﴾ قال: لا أحمل عليكم إصراً ﴿وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قال: لا أحملكم ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾ إلى

وفي قوله: لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا قال لا أوأخذكم ربنا ولا تحمل علينا إصراً قال: لا أحمل عليكم ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به. قال: لا أحملكم واعف عنا، واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين. قال قد عفوت عنكم وغفرت لكم ورحمتكم ونصرتكم على القوم الكافرين. كان معاذ إذا ختم سورة البقرة قال آمين. (م) عن عبدالله بن مسعود قال: لما أسري برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدره المنتهى وهي في السادسة وإليها ينتهي ما يعرج من الأرض فيقبض منها. وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها قال: ﴿إذ يغشى السدره ما يغشى﴾ قال فراش من ذهب قال فأعطي رسول الله ﷺ ثلاثاً أعطي الصلوات الخمس وخواتيم سورة البقرة وغفر لمن لا يشرك بالله من أمته شيئاً من المقحّمات. المقحّمات: الذنوب العظام التي تولج مرتكبها النار وأصل الاقتحام الولوج. (ق) عن أبي مسعود الأنصاري قال قال رسول الله ﷺ: الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأهما في ليلة كفتاه معناه كفتاه من كل ما يحذر من كل هامة وشيطان فلا يقربه تلك الليلة وقيل كفتاه عن قيام الليل. (م) عن ابن عباس قال بينا رسول الله ﷺ عنده جبريل عليه السلام إذ سمع نقيضاً من فوقه فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم فنزل منه ملك فقال: هذا ملك نزل من السماء إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم فسلم، وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: إن الله كتب لنا كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام أنزل فيه آيتين ختم بهما سورة البقرة ولا يقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان أخرجه الترمذي وقال: حديث غريب آخر تفسير سورة البقرة والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

آخره، قال: عفوت عنكم وغفرت لكم ورحمتكم ونصرتكم على القوم الكافرين. وكان معاذ بن جبل إذا ختم سورة البقرة قال: آمين. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجاج أنا أبو بكر بن أبي شيبة أنا أبو أمامة حدثني مالك بن مسعود عن الزبير بن عدي عن طلحة بن علي بن مصرف عن مرة عن عبد الله قال: (لما أسري برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدره المنتهى وهي في السماء السادسة إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض، فيقبض منها وإليها ينتهي ما يهبط فوقها فيقبض منها قال: ﴿إذ يغشى السدره ما يغشى﴾ [النجم: ١٦]، قال: فراش من ذهب، قال: وأعطي رسول الله ﷺ ثلاثاً: الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله من أمته شيئاً من المقحّمات). أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو نعيم عبد الملك بن الحسين الإسفرائيني أنا أبو عوانة يعقوب بن إسحاق الحافظ، أنا يونس وأحمد بن ثنان قال: ثنا سفيان بن عيينة عن منصور عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن يزيد عن ابن مسعود رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «الآيتان من آخر سورة البقرة، من قرأهما في ليلة كفتاه، أي عن قيام الليل»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو المنصور السمعاني أنا أبو جعفر الزيات أخبرنا حميد بن زنجويه أنا العلاء بن عبد الجبار أنا حماد بن سلمة أخبرنا الأشعث بن عبد الرحمن الجرمي عن أبي قلابة عن أبي الأشعث الصنعاني عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام، فأنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، فلا تقرأ في ثلاث ليال فيقربها الشيطان».

تفسير سورة آل عمران

مدينة وهي مائتا آية وثلاثة آلاف وأربع مائة وثمانون كلمة وأربعة عشر ألفاً وخمسمائة وعشرون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْعَمَّ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿١﴾

قوله عز وجل: ﴿الْعَمَّ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ قال المفسرون: نزلت هذه الآية في وفد نجران وكانوا ستين راكباً قدموا على رسول الله ﷺ وفيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم منهم ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم وهم العاقب واسمه عبدالمسيح وهو أمير القوم وصاحب مشورتهم الذي لا يصدر عن رأيه، والسيد واسمه الأيهم وهو ثمالهم القائم بمالهم وصاحب رحلهم الذي يقوم بأمر طعامهم وشرابهم وأبو حارثة بن علقمة وهو أسقفهم وأخبرهم وكان ملوك الروم يكرمونه لما بلغهم عن علمه واجتهاده في دينه فدخلوا مسجد رسول الله ﷺ حين كان يصلي العصر وعليهم ثياب الحبرات جيب وأردية يقول من رأيهم من أصحاب رسول الله ﷺ ما رأينا وفداً مثلهم وقد حانت صلاتهم فقاموا للصلاة في مسجد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ دعوهم ففصلوا إلى المشرق فلما فرغوا كلم السيد والعاقب رسول الله ﷺ فقال لهما رسول الله ﷺ أسلما قالوا: قد أسلمنا قبلك. قال كذبتما يمنعكما من الإسلام دعواكما لله ولداً وعبادتكما للصليب وأكلكما الخنزير، قال إن لم يكن عيسى ولد الله فمن أبوه وخاصموه جميعاً في عيسى فقال النبي ﷺ: ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه قالوا بلى قال: ألستم

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

قوله تعالى: ﴿الْعَمَّ اللَّهُ﴾ قال الكلبي والربيع بن أنس وغيرهما: نزلت هذه الآية في وفد نجران وكانوا ستين راكباً قدموا على رسول الله ﷺ وفيه أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، وفي الأربعة عشر ثلاثة نفر يؤول إليهم أمرهم، العاقب أمير القوم وصاحب مشورتهم الذي لا يصدر عن رأيه واسمه عبد المسيح، والسيد ثمالهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم واسمه الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة وهو أسقفهم وأخبرهم، دخلوا مسجد رسول الله ﷺ حين صلى العصر، عليهم ثياب الحبرات جيب وأردية في جمال رجال، وإذا بالحارث بن كعب يقول: ما رأينا وفداً مثلهم وقد حانت صلاتهم فقاموا للصلاة في مسجد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «دعوهم» فصلوا إلى المشرق، فتكلم السيد والعاقب فقال لهما رسول الله ﷺ: «أسلما» قالوا: قد أسلمنا قبلك، قال: «كذبتما يمنعكما من الإسلام ادعواكما لله ولداً وعبادتكما للصليب وأكلكما الخنزير»، قالوا: إن لم يكن ولد الله فمن أبوه؟ وخاصموه جميعاً في عيسى، فقال لهم النبي ﷺ: «ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه؟» قالوا: بلى، قال: «ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت وأن عيسى يأتي عليه الفناء؟» قالوا: بلى، قال: «ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يحفظه ويرزقه؟» قالوا: بلى، قال: «فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً؟» قالوا: لا، قال: «ألستم

تعلمون أن ربنا حي لا يموت وأن عيسى يأتي عليه الموت. قالوا: بلى قال: ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يحفظه ويرزقه. قالوا بلى قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً قالوا: لا قال ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. قالوا بلى قال فهل يعلم عيسى من ذلك إلا ما علم قالوا لا. قال: ألستم تعلمون أن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء وربنا لا يأكل ولا يشرب قالوا: بلى قال ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ثم غذي كما يغذي الصبي ثم كان يطعم ويشرب ويحدث. قالوا: بلى قال: فكيف يكون إلهاً كما زعمتم فسكتوا. فأنزل الله صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها زاد بعضهم. فقالوا يا محمد ألست تزعم أن عيسى كلمة الله وروح منه قال بلى قالوا حسبنا ثم أبوا إلا جحوداً فأنزل الله رداً عليهم ﴿الم الله لا إله إلا هو﴾ يعني إن كانت منازعتكم يا معشر النصارى في معرفة الإله فهو الله الذي لا إله إلا هو فكيف تثبتون له ولداً فبين تعالى أن أحداً لا يستحق العبادة سواه لأنه الواحد الأحد ليس معه إله ولا له ولد ثم أتبع ذلك بما يجري مجرى الدلالة عليه فقال تعالى: ﴿الحي القيوم﴾ أما الحي في صفة الله تعالى فهو الدائم الباقي الذي لا يصح عليه الموت. وأما القيوم فهو القائم بذاته والقائم بتدبير الخلق ومصلحتهم فيما يحتاجون إليه في معاشهم ومعادهم.

نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْقُرْآنَ إِنَّا الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾

﴿نزل عليك الكتاب﴾ يعني القرآن ﴿بالحق﴾ أي بالصدق والعدل ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ يعني لما قبله من الكتب في التوحيد والنبوات والأخبار وبعض الشرائع. وقوله ﴿لما بين يديه﴾ من مجاز الكلام وذلك أن ما بين يديه فهو أمامه فقبل لكل شيء تقدم على الشيء هو بين يديه لغاية ظهوره واشتهاره ﴿وأنزل التوراة والإنجيل من قبل﴾ أي من قبل القرآن. فإن قلت لم قيل نزل الكتاب وأنزل التوراة والإنجيل. قلت لأن القرآن نزل منجماً مفصلاً

تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟ قالوا: بلى، قال: ﴿فهل يعلم عيسى من ذلك إلا ما علم؟﴾ قالوا: لا، قال: ﴿فإن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء، وربنا لا يأكل ولا يشرب﴾، قالوا: بلى، قال: ﴿ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غذي كما يغذي الصبي، ثم كان يطعم ويشرب ويحدث؟﴾ قالوا: بلى، قال: ﴿فكيف يكون هذا كما زعمتم؟﴾ فسكتوا، فأنزل الله تعالى صدر سورة آل عمران وإلى بضع وثمانين آية منها، فقال عز من قائل: ﴿آلم الله﴾، مفتوح الميم موصول عند العامة، وإنما فتح الميم لالتقاء الساكنين، حُرِّكَ إلى أخف الحركات، وقرأ أبو يوسف ويعقوب بن خليفة الأعمش عن أبي بكر ﴿آلم الله﴾ مقطوعاً مسكناً الميم على نية الوقف، ثم قطع الهمزة للابتداء وأجراه على لغة من يقطع ألف الوصل، ﴿لا إله إلا هو الحي القيوم﴾. قوله تعالى: ﴿الله﴾ ابتداء وما بعده خبره، و﴿الحي القيوم﴾ نعت له.

﴿نزل عليك الكتاب﴾ أي: القرآن، ﴿بالحق﴾، بالصدق، ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾، لما قبله من الكتب في التوحيد والنبوة والأخبار وبعض الشرائع، ﴿وأنزل التوراة والإنجيل﴾.

﴿من قبل﴾، وإنما قال: ﴿وأنزل التوراة والإنجيل﴾ لأن التوراة والإنجيل أنزلا جملة واحدة، وقال في القرآن ﴿نزل﴾ لأنه نزل مفصلاً، والتنزيل: للتكثير، والتوراة، قال البصريون: أصلها وورية على وزن: فَوَعلة

في أوقات كثيرة ونزل هو للتكثير وأنزل التوراة والإنجيل جملة واحدة ﴿هدى للناس﴾ يعني أن إنزال التوراة والإنجيل قبل القرآن كان هدى للناس. فإن قلت كيف وصف القرآن في أول البقرة بأنه هدى للمؤمنين ووصف هنا التوراة والإنجيل بأنهما هدى للناس. قلت إنما وصف القرآن بأنه هدى للمؤمنين لأنهم هم الذين انتفعوا به وتبعوه ووصف هنا التوراة والإنجيل بأنهما هدى للناس لأن المناظرة كانت مع نصارى نجران وهم يعتقدون صحة التوراة والإنجيل فلهذا السبب قال هنا ﴿هدى للناس﴾ وقيل إن قوله هدى للناس يعود إلى الكتب الثلاثة يعني القرآن المتقدم ذكره والتوراة والإنجيل وإنما وصف هذه الكتب بأنها هدى للناس لما فيها من الشرائع والأحكام ﴿وأنزل الفرقان﴾ يعني الفارق بين الحق والباطل قيل أراد به القرآن وإنما أعاد ذكره تعظيماً لشأنه ومد حاله لكونه فارقاً بين الحق والباطل وقيل إنما أعاد ذكره ليبين أنه تعالى أنزله بعد التوراة والإنجيل ليُجعله فارقاً بين ما اختلف فيه اليهود والنصارى في أمر عيسى عليه السلام وقيل المراد به الكتب الثلاثة لأنها كلها هدى للناس ومفرقة بين الحلال والحرام والحق والباطل. وقال السدي: في الآية تقديم وتأخير تقديره وأنزل التوراة والإنجيل والفرقان هدى للناس ﴿إن الذين كفروا بآيات الله﴾ يعني الكتب المنزلة وغيرها قيل أراد بهم نصارى وفد نجران كفروا بالقرآن وبمحمد ﷺ وقيل إن خصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ فهو يتناول كل من كفر بشيء من آيات الله تعالى: ﴿لهم عذاب شديد والله عزيز﴾ أي غالب لا يغلب ﴿ذو انتقام﴾ يعني ممن كفر به والانتقام المبالغة في العقوبة. قوله عز وجل: ﴿إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أمر العالم وهو المطلع على أحوالهم فقلوه:

إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء إشارة إلى كمال علمه المتعلق بجميع المعلومات ﴿هو الذي يصوركم في الأرحام﴾ التصوير جعل الشيء على صورة والصورة هيئة يكون عليها الشيء بالتأليف والأرحام جمع رحم ﴿كيف يشاء﴾ يعني الصور المختلفة المتفاوتة في الحلقة ذكراً أو أنثى أبيض أو أسود حسناً أو قبيحاً كاملاً أو ناقصاً والمعنى أنه الذي يصوركم في ظلمات الأرحام صوراً مختلفة في الشكل والطبع واللون وذلك من نطفة. (ق) عن عبدالله بن مسعود قال حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق إن خلق أحدكم يجمع في بطن

مثل دوخلة وحوقة فحوّلت الواو الأولى تاء وجعلت الياء المفتوحة ألفاً فصارت توراة، ثم كتبت بالياء على أصل الكلمة، وقال الكوفيون: أصلها تفعله مثل توصية وتوفية، فقلبت ألفاً على لغة طيء، فإنهم يقولون للجارية جارة، وللناصية ناصة، وأصلها من قولهم. ورى الزند إذا خرجت ناره وأوريتها أنا، قال الله تعالى: ﴿أفأنتم النار التي تُورون﴾ [الواقعة: ٧١] فسُمي التوراة لأنها نور وضياء، قال الله تعالى: ﴿وضياء وذكرى للمؤمنين﴾ [الأنبياء: ٤٨]، وقيل: هي من التورية وهي كتمان السر والتعريض بغيره، وكان في التوراة معاريض من غير تصريح، والإنجيل: أفعيل من النجل وهو الخروج، ومنه سمي الولد نجلاً لخروجه، فسُمي الإنجيل به لأن الله تعالى أخرج به دارساً من الحق عافياً ويقال: هو من النجل وهو سعة العين، سمي به لأنه أنزل سعة لهم ونوراً، وقيل: التوراة بالعبرانية توروتور، معناه: الشريعة، والإنجيل بالسريانية: أنقليون، ومعناه الإكليل. قوله تعالى: ﴿هدى للناس﴾، هادياً لمن تبعه، ولم يثنه لأنه مصدر، ﴿وأنزل الفرقان﴾ المفرق بين الحق والباطل، وقال السدي: في الآية تقديم وتأخير، تقديرها: وأنزل التوراة والإنجيل والفرقان هدى للناس، قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام﴾.

﴿إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾.

﴿هو الذين يصوركم في الأرحام كيف يشاء﴾، من الصور المختلفة ذكراً أو أنثى أبيض أو أسود حسناً أو

أمه أربعين يوماً ثم يكون علقه مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه ملك بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله شقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح فوالله الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها. (ق) عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «وكل الله بالرحم ملكاً فيقول: أي رب نطفة أي رب علقة أي رب مضغة فإذا أراد الله أن يقضي خلقها قال: يا رب أذكر أم أنثى أشقي أم سعيد فما الرزق فما الأجل؟ فكتب له ذلك في بطن أمه» وقيل إن الآية واردة في الرد على النصارى وذلك أن عيسى عليه السلام كان يخبر ببعض الغيب فيقول: أكلت في دارك كذا صنعت كذا وإنه أحيا الموتى وأبرأ الأكف والأبرص وخلق من الطين طيراً فادعت النصارى فيه الإلهية وقالوا: ما قدر على ذلك إلا أنه إله فرد الله تعالى عليهم بذلك. وأخبر أن الإله المستحق لهذا الاسم هو الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وأنه المصور في الأرحام كيف يشاء، وأن عيسى عليه السلام ممن صورته في الرحم فنبه بكونه مصور في الرحم على أنه عبد مخلوق كغيره وأنه يخفى عليه ما لا يخفى على الله عز وجل: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وهذا أيضاً في الرد على النصارى حيث قالوا: عيسى ولد الله كأنه قال: كيف يكون ولد إله وقد صورته الله في الرحم. قوله عز وجل: .

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ تُحْكِمُكَ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرَى مُتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾

﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب﴾ يعني القرآن ﴿منه آيات محكمات﴾ يعني مبيّنات مفصلات أحكمت عبارتها

قبيحاً تاماً أو ناقصاً. ﴿لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾، وهذا ردٌ على وفد نجران من النصارى حيث قالوا: عيسى ولد الله، وكأنه يقول: كيف يكون ولداً وقد صورّه الله تعالى في الرحم؟ أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أبو محمد عبد الرحيم بن أحمد بن محمد الأنصاري أنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي أنا علي بن الجعد أنا أبو خيثمة زهير بن معاوية عن الأعمش عن زين بن وهب قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «أن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفةً ثم يكون علقةً مثل ذلك، ثم يكون مضغةً مثل ذلك ثم يبعث الله إليه الملك أو قال: يُبعث إليه الملك بأربع كلمات، فيكتب رزقه وعمله وأجله وشقي أو سعيد، قال: وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينها وبينه غير ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينها وبينه غير ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها». أخبرنا إسماعيل بن عبد القادر الجرجاني أنا عبد الغافر بن محمد الفارسي أنا أبو أحمد محمد بن عيسى الجلودي أنا أبو إسحق إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجاج أنا محمد بن عبد الله بن نمير ثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد يبلغ به النبي ﷺ قال: «يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة، فيقول: يا رب أشقي أم سعيد؟ فيكتب ذلك فيقول: يا رب أذكر أم أنثى؟ فيكتبان، ويكتب عمله وأجله ورزقه ثم تطوى الصحف، فلا يُزاد فيها ولا يُنقص».

قوله تعالى: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات﴾ مبيّنات مفصلات سمّيت محكمات من

من احتمال التأويل والاشتباه سميت محكمة من الأحكام كأنه تعالى أحكمها فمنع الخلق من التصرف فيها لظهورها ووضوح معناها ﴿هن أم الكتاب﴾ يعني هن أصل الكتاب الذي يعول عليه في الأحكام، ويعمل به في الحلال والحرام فإن قلت: كيف قال هن أم الكتاب ولم يقل أمهات الكتاب؟ قلت: لأن الآيات في اجتماعها وتكاملها كآلية الواحدة وكلام الله كله شيء واحد. وقيل: إن كل آية منهن أم الكتاب كما قال وجعلنا ابن مريم وأمه آية يعني أن كل واحد منهما آية ﴿وأخر﴾ جمع أخرى ﴿متشابهات﴾ يعني أن لفظه يشبه لفظ غيره ومعناه يخالف معناه. فإن قلت: قد جعله هنا محكماً ومتشابهاً وجعله في موضع آخر كله محكماً فقال في أول هود ﴿الر كتاب أحكمت آياته﴾ وجعله في موضع آخر كله متشابهاً. فقال تعالى في الزمر: ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً﴾ فكيف الجمع بين هذه الآيات. قلت: حيث جعله كله محكماً أراد أنه كله حق وصدق ليس فيه عيب ولا هزل وحيث جعله كله متشابهاً أراد أن بعضه يشبه بعضاً في الحسن والحق والصدق، وحيث جعله هنا بعضه محكماً وبعضه متشابهاً فقد اختلفت عبارات العلماء فيه فقال ابن عباس: المحكمات الثلاث آيات التي في آخر سورة الأنعام وهي قوله تعالى: ﴿قل تعالوا أثل ما حرم ربكم عليكم﴾ ونظيرها في بني إسرائيل ﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلّا إياه الآيات﴾. وعنه أن الآيات المحكمة هي الناسخ والمتشابهات هي الآيات المنسوخة وبه قال ابن مسعود وقتادة والسدي وقيل إن المحكمات ما فيه أحكام الحلال والحرام والمتشابهات ما سوى ذلك يشبه بعضه بعضاً ويصدق بعضه بعضاً وقيل: إن المحكمات ما طلع الله عباده على معناه والمتشابه ما استأثر الله بعلمه فلا سبيل لأحد إلى معرفته نحو الخبر عن أشراط الساعة مثل الدجال وأجوج ومأجوج ونزول عيسى عليه السلام وطلوع الشمس من مغربها وفناء الدنيا وقيام الساعة فجميع هذا مما استأثر الله بعلمه وقيل: إن المحكم ما لا يحتمل من التأويل إلّا وجهاً واحداً والمتشابه ما يحتمل أوجهاً وروي ذلك عن الشافعي وقيل إن المحكم سائر القرآن والمتشابه هي الحروف المقطعة في أوائل السور. قال ابن عباس إن رهطاً من اليهود منهم حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف ونظراؤهما أتوا النبي ﷺ فقال له حيي بلغنا: أنك أنزل عليك الم فأنشذك الله أنزل عليك قال

الإحكام كأنه أحكمها فمنع الخلق من التصرف فيها لظهورها ووضوح معناها، ﴿هن أم الكتاب﴾، أي: أصله الذي يعول عليه في الأحكام، وإنما قال: هن أم الكتاب، ولم يقل: أمهات الكتاب لأن الآيات كلها في تكاملها واجتماعها كآلية الواحدة، وكلام الله تعالى واحد، وقيل معناه: كل آية منهن أم الكتاب، كما قال: ﴿وجعلنا ابن مريم وأمه آية﴾ [المؤمنون: ٥٠] أي: كل واحد منهما آية، ﴿وأخر﴾، جمع أخرى، ولم يصرفه لأنه معدول عن الآخر مثل: عمر وزفر، ﴿متشابهات﴾، فإن قيل: كيف فرق ههنا بين المحكم والمتشابه وقد جعل الله كل القرآن محكماً في مواضع أخر فقال: ﴿الر كتاب أحكمت آياته﴾ [هود: ١] وجعل كله متشابهاً فقال: ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً﴾ [الزمر: ٢٣]؟ قيل: حيث جعل الكل محكماً أراد أن الكل حق ليس فيه عيب ولا هزل، وحيث جعل الكل متشابهاً أراد أن بعضه يشبه بعضاً في الحق والصدق وفي الحسن، وجعل ههنا بعضه محكماً وبعضه متشابهاً. واختلف العلماء فيهما فقال ابن عباس رضي الله عنهما: المحكمات هن الآيات الثلاث في سورة الأنعام: ﴿قل تعالوا أثل ما حرم ربكم عليكم﴾ [الأنعام: ١٥١]، ونظيرها في بني إسرائيل: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلّا إياه﴾ [الإسراء: ٢٣]، الآيات. وعنه أنه قال: المتشابهات حروف التهجي في أوائل السور. وقال مجاهد وعكرمة: المحكم ما فيه من الحلال والحرام، وما سوى ذلك متشابه يشبه بعضه بعضاً في الحق ويصدق بعضه بعضاً، كقوله تعالى: ﴿وما يضل به إلّا الفاسقين﴾ [البقرة: ٢٦]، ﴿ويجعل الرجس على الذين لا يؤمنون﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال قتادة والضحاك والسدي: المحكم الناسخ الذي يعمل به، والمتشابه المنسوخ

نعم. قال: إن كان ذلك حقاً فإنني أعلم مدة ملك أمتك هي إحدى وسبعون سنة فهل أنزل عليك غيرها؟ قال: نعم
 ألمص قال: فهذه أكثر هي إحدى وستون ومائة فهل أنزل عليك غيرها؟ قال نعم آلر قال: هذه أكثر هي مائتان
 وإحدى وثلاثون سنة فهل من غيرها؟ قال: نعم ألمر قال هذه أكثر هي مائتان وإحدى وسبعون سنة. وقد اختلط
 علينا فلا ندري أبكثيره نأخذ أم بقليله ونحن ممن لا يؤمن بهذا. فأنزل الله هذه الآية قوله تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي
 قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ وقيل: إن المحكم ما لم تتكرر ألفاظه والمتشابه ما تكررت ألفاظه وقيل: إن
 المحكم ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان. والمتشابه ما احتاج إلى بيان وقيل: إن المحكم هو الأمر والنهي
 والوعد والوعيد والمتشابه هو القصص والأمثال. فإن قلت: إنما نزل القرآن لبيان الدين وإرشاد العباد وهدايتهم
 فما فائدة المتشابه وهلا كان كله محكماً؟ قلت: ذكر العلماء عن هذا السؤال أجوبة أحدها. أن القرآن أنزل بألفاظ
 العرب ولغاتهم وكلام العرب على ضربين أحدهما: الإيجاز للاختصار والموجز الذي لا يخفى على سامعه لا
 يحتمل غير ظاهره، والإطالة لبيان المراد والتوكيد. الضرب الثاني: المجاز والكنيات والإشارات والتلويحات
 وإغماض بعض المعاني، وهذا الضرب هو المستحسن عند العرب والبديع في كلامهم فأنزل الله تعالى القرآن على
 هذين الضربين ليتحقق عجزهم عن الإتيان بمثله فكأنه قال: عارضوه بأي الضربين شئتم، ولو نزل كله محكماً
 واضحاً لقالوا: هلا أنزل بالضرب المستحسن عند الجواب الثاني أن الله تعالى أنزل المتشابه لفائدة عظيمة، وهي
 أن يشتغل أهل العلم والنظر بردهم المتشابه إلى المحكم فيطول بذلك فكرهم ويتصل بالبحث عن معاني اهتمامهم
 فيثابون على تعبههم كما أثبتوا على عباداتهم. ولو أنزل القرآن كله محكماً لاستوى في معرفته العالم والجاهل ولم
 يفضل العالم على غيره ولماتت الخواطر وخمدت الفكرة، ومع الغموض تقع الحاجة إلى الفكرة والحيلة إلى
 استخراج المعاني. وقد قيل في عيب الغنى إنه يورث البلادة وفي فضيلة الفقر إنه يورث الفطنة. وقيل: إنه يبعث
 على الحيلة لأنه إذا احتاج احتال. الجواب الثالث: أن أهل كل علم يجعلون في علومهم معاني غامضة ومسائل
 دقيقة ليختبروا بذلك أذهان المتعلمين منهم على انتزاع الجواب لأنهم إذ قدروا على انتزاع المعاني الغامضة كانوا
 على الواضح أقدر، فلما كان ذلك حسناً عند العلماء جاز أن يكون ما أنزل الله تعالى من المتشابه على هذا النحو.

الذي يؤمن به ولا يعمل به. وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: محكمات القرآن:
 ناسخه، وحلاله، وحرامه، وحدوده، وفرائضه، وما يؤمن به، ويعمل به والمتشابهات: منسوخه، ومقدمه، ومؤخره،
 وأمثاله، وأقسامه، وما يؤمن به ولا يعمل به. وقيل: المحكمات ما أوقف الله الخلق على معناه، والمتشابه ما استأثر
 الله تعالى بعلمه، ولا سبيل لأحد إلى علمه، نحو الخبر عن أشراط الساعة، وخروج الدجال ونزول عيسى عليه
 السلام، وطلوع الشمس من مغربها، وقيام الساعة، وفناء الدنيا. قال أحمد بن جعفر بن الزبير: المحكم ما لا
 يحتمل من التأويل غير وجه واحد، والمتشابه ما يحتمل أوجهاً. وقيل: المحكم ما يُعرف معناه وتكون حجته
 واضحة، ودلائله لا تحتمل لا يشبهه، والمتشابه هو الذي يُدرك علمه بالنظر، ولا يعرف العوام تفصيل الحق فيه من
 الباطل. وقال بعضهم: المحكم ما يستقل بنفسه في المعنى، والمتشابه ما لا يستقل بنفسه إلا برده إلى غيره. قال
 ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في رواية بأذان: المتشابه حروف التهجي في أوائل السور، وذلك أن رهطاً من
 اليهود منهم حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف ونظراؤهما أتوا النبي ﷺ فقال له حيي: بلغنا أنه أنزل عليك
 ﴿آلم﴾ [آل عمران: ١] ننشدك الله أنزلت عليك؟ قال: نعم، قال: فإن كان ذلك حقاً فإنني أعلم مدة ملك أمتك هي
 إحدى وسبعون سنة، فهل أنزل غيرها؟ قال: نعم ﴿آلمص﴾ [الأعراف: ١]، قال: فهذه أكثر، هي إحدى وسبعون
 ومائة سنة، قال: فهل غيرها؟ قال: نعم ﴿آلر﴾ [هود: ١]، يوسف: ١، إبراهيم: ١ [الحجر: ١]، قال: هذه أكثر
 هي مائتان وإحدى وسبعون سنة، فهل غيرها؟ قال: نعم ﴿آلمر﴾ [الرعد: ١]، قال: هذه أكثر هي مائتان وإحدى

الجواب الرابع: ان الله تعالى أنزل المتشابه في كتابه مختبراً به عباده ليقف المؤمن عنده ويرد علمه إلى عالمه فيعظم بذلك ثوابه، ويرتاب به المنافق فيداخله الزيف فيستحق بذلك العقوبة كما ابتلى بنو إسرائيل بالنهر والله أعلم بمراده. وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي ميل عن الحق وقيل: الزيف الشك واختلفوا في المعنى بهم والمشار إليهم فليلهم هم وفد نجران الذين خاصموا رسول الله ﷺ في عيسى عليه السلام وقالوا: ألسنت تزعم أن عيسى روح الله وكلمته؟ قال: بلى قالوا: حسبننا فأنزل الله هذه الآية. وقيل: هم اليهود لأنهم طلبوا معرفة مدة بقاء هذه الأمة واستخراجه بحساب الجميل من الحروف المقطعة في أوائل السور. وقيل: هم المنافقون وقيل: هم الخوارج وكان قتادة يقول: إن لم يكونوا الحرورية والسبئية فلا أدري من هم. وقيل هم جميع المبتدعة ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ يعني يحيلون المحكم على المتشابه والمتشابه على المحكم، ويقولون: ما بال هذه الآية عمل بها كذا وكذا ثم نسخت. وقيل كل من احتج لباطله بالمتشابه فهو المعنى بهذه الآية. (ق) عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «تلا رسول الله ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ - إِلَى - وَمَا يَذْكَرُ إِلَّا أَوَّلُ الْأَلْبَابِ﴾ فقال: إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سماهم الله فاحذروهم» وقوله تعالى: ﴿ابْتَغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ أي طلب الشرك والكفر. وقيل: طلب الشبهات واللبس ليضلوا بها جهالهم وقيل: طلب إفساد ذات البين ﴿وَابْتَغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ أي تفسيره. وأصل التأويل في اللغة: المرجع والمصير تقول: آل الأمر إلى كذا إذا رجع إليه وتسمى العاقبة تأويلاً لأن الأمر يصير إليه. قال ابن عباس في قوله: وابتغاء تأويله أي طلب بقاء ملك محمد ﷺ وقيل: المراد بهم الكفار طلبوا متى يبعثون وكيف أحياءهم بعد الموت وقيل هو طلب تفسير المتشابه وعلمه ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ يعني تأويل المتشابه وقيل: لا يعلم انقضاء ملك هذه الأمة إلا الله تعالى لأن انقضاء ملكها مع

وسبعون سنة، ولقد خلطت علينا فلا ندري أبكثيره نأخذ أم بقليله، ونحن ممن لا يؤمن بهذا، فأنزل الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي: ميل عن الحق، وقيل: شك، ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾، واختلفوا في المعنى بهذه الآية، قال الربيع: هم وفد نجران إن خاصموا النبي ﷺ في عيسى عليه السلام، وقالوا له: ألسنت تزعم أنه كلمة الله وروح منه؟ قال: بلى، قالوا: حسبننا ذلك، فأنزل الله هذه الآية. وقال الكلبي: هم اليهود طلبوا علم أجل هذه الأمة واستخراجه بحساب الجمل. وقال ابن جريج: هم المنافقون. وقال الحسن: هم الخوارج. وكان قتادة إذا قرأ هذه الآية ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ قال: إن لم يكونوا الحرورية والسبئية فلا أدري من هم؟ وقيل: هم جميع المبتدعة. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا عبد الله بن مسلمة أنا يزيد بن إبراهيم التستري عن ابن أبي مليكة عن القاسم بن محمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ إلى قوله: ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾، قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمي الله فاحذروهم» قوله تعالى: ﴿ابْتَغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾: طلب الشرك، قاله الربيع والسدي، وقال مجاهد: ابتغاء الشبهات واللبس ليضلوا بها جهالهم، ﴿وَابْتَغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾: تفسيره وعلمه، دليله قوله تعالى: ﴿سَأَنبِتُكَ بِتَأْوِيلٍ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨]، وقيل: ابتغاء عاقبته، وطلب أجل هذه الأمة من حساب الجمل، دليله قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩، الإسراء: ٣٥] أي: عاقبة. قوله تعالى: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم﴾، اختلف العلماء في نظم هذه الآية فقال قوم: الواو في قوله: ﴿والراسخون﴾ واو العطف، يعني: أن تأويل المتشابه يعلمه الله ويعلمه الراسخون في العلم وهم مع

قيام الساعة. ولا يعلم ذلك إلا الله وقيل: يجوز أن يكون للقرآن تأويل استأثر الله بعلمه ولم يطلع عليه أحداً من خلقه كعلم قيام الساعة ووقت طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدجال، ونزول عيسى ابن مريم، وعلم الحروف المقطعة، وأشباه ذلك مما استأثر الله بعلمه فالإيمان به واجب وحقائق علومه مفوضة إلى الله تعالى، وهذا قول أكثر المفسرين وهو مذهب ابن مسعود وابن عباس في رواية عنه، وأبي بن كعب وعائشة وأكثر التابعين فعلى هذا القول تم الكلام عند قوله: ﴿إلا الله﴾ فيوقف عليه ثم ابتداء فقال عز من قائل ﴿والراسخون في العلم﴾ أي الثابتون في العلم وهم الذين أتقنوا علمهم بحيث لا يدخل في علمهم شك ﴿يقولون آمنا به﴾ قال ابن عباس: سماهم راسخين في العلم بقولهم آمنا به فرسوخهم في العلم هو الإيمان به. وقال عمر بن عبد العزيز في هذه الآية انتهى علم الراسخين في العلم بتأويل القرآن إلى أن قالوا آمنا به ﴿كل من عند ربنا﴾ يعني المحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ وما علمنا منه وما لم نعلم ونحن معتبدون في المتشابه بالإيمان به، ونكل معرفته إلى الله تعالى. وفي المحكم يجب علينا الإيمان به والعمل بمقتضاه. وروي عن ابن عباس أنه قال تفسير القرآن على أربعة أوجه فمنه تفسير لا يسع أحداً جهله، وتفسير تعرفه العرب بألسنتها، وتفسير تعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله. وقيل: إن الواو في قوله والراسخون في العلم واو عطف يعني أن تأويل المتشابه يعلمه الله ويعلمه الراسخون في العلم وهم مع علمهم يقولون آمنا به. روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه أنه كان يقول: أنا من الراسخين في العلم وعن مجاهد عنه أنا ممن يعلم تأويله. ووجه هذا القول أن الله تعالى أنزل كتابه لينتفع به عباده ولا يجوز أن يكون في القرآن شيء لا يعرفه أحد من الأمة وفي المراد بالراسخين في العلم هنا قولان أحدهما: أنهم مؤمنوا أهل الكتاب مثل عبدالله بن سلام وأصحابه دليله قوله تعالى: ﴿لكن الراسخون في العلم منهم﴾. والقول الثاني:

علمهم: ﴿يقولون آمنا به﴾، وهذا قول مجاهد والربيع، وعلى هذا يكون قوله: ﴿يقولون﴾ حالاً معناه: والراسخون في العلم مع علمهم قائلين آمنا به، هذا كقوله تعالى: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى﴾ [الحشر: ٧] ثم قال: ﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم﴾ [الحشر: ٨] إلى أن قال: ﴿والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم﴾ [الحشر: ٩] ثم قال: ﴿والذين جاؤوا من بعدهم﴾ [الحشر: ١٠]، وهذا عطف على ما سبق، ثم قال: ﴿يقولون ربنا اغفر لنا﴾ [الحشر: ١٠] يعني: هم مع استحقاقهم للفيء يقولون: ربنا اغفر لنا، أي: قائلين على الحال، وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقول في هذه الآية: إنا من الراسخين في العلم، وقال مجاهد: إنا ممن يعلم تأويله، وذهب الأكثرون إلى أن الواو في قوله: ﴿والراسخون﴾ واو الاستئناف وتم الكلام عند قوله: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ وهو قول أبي بن كعب وعائشة وعروة بن الزبير رضي الله عنهم، ورواية طاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما، وبه قال الحسن وأكثر التابعين، واختاره الكسائي والفراء والأخفش، وقالوا: لا يعلم تأويل المتشابه إلا الله، ويجوز أن يكون في القرآن تأويل استأثر الله بعلمه ولم يطلع عليه أحداً من خلقه، كما استأثر بعلم الساعة، ووقت طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدجال، ونزول عيسى عليه الصلاة والسلام، ونحوها. والخلق متعبدون في المتشابه بالإيمان به، وفي المحكم بالإيمان به والعمل، ومما يصدق ذلك قراءة عبدالله (إن تأويله إلا عند الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا)، وفي حرف أبي (ويقول الراسخون في العلم آمنا به)، وقال عمر بن عبد العزيز في هذه الآية: انتهى علم الراسخين في العلم بتأويل القرآن إلى أن قالوا: آمنا به كل من عند ربنا. وهذا القول أقيس في العربية وأشبه بظاهر الآية. قوله تعالى: ﴿والراسخون في العلم﴾ أي: الداخلون في العلم هم الذين أتقنوا علمهم بحيث لا يدخل في معرفتهم شك، وأصله من رسوخ الشيء في الشيء وهو ثبوته، يقال: رسخ الإيمان في قلب فلان،

أن الراسخين هم العلماء العاملون بعلمهم. سئل أنس بن مالك عن الراسخين في العلم فقال: العالم العامل بما علم المتبع له وقيل، الراسخ في العلم من وجد في علمه أربعة أشياء التقوى فيما بينه وبين الله تعالى، والتواضع فيما بينه وبين الناس، والزهد فيما بينه وبين الدنيا، والمجاهدة فيما بينه وبين النفس ﴿وما يذكر إلا أولو الأبواب﴾ أي وما يتعظ بما في القرآن إلا ذوو العقول وهذا ثناء من الله عز وجل على الذين قالوا آمنا به كل من عند ربنا. قوله عز وجل:

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَذَّبَ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾

﴿ربنا لا تزغ قلوبنا﴾ أي ويقول الراسخون في العلم: ربنا لا تزغ قلوبنا أي لا تملها عن الحق والهدى كما أزغت قلوب الذين في قلوبهم زيغ ﴿بعد إذ هديتنا﴾ أي وفقتنا لدينك والإيمان بالمحكم والمتشابه من كتابك ﴿وهب لنا من لدنك رحمة﴾ أي أعطنا توفيقاً وتثبيتاً للذي نحن عليه من الإيمان والهدى وقيل: هب لنا تجاوزاً ومغفرة ﴿إنك أنت الوهاب﴾ الهبة العطية الخالية عن الأعواض والأغراض والوهاب في صفة الله تعالى أنه يعطي كل أحد على قدر استحقاقه. (م) عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء» ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك» هذا من أحاديث الصفات وللعلماء فيه قولان أحدهما: الإيمان به وإمراره كما جاء، من غير تعرض لتأويل ولا تكييف ولا لمعرفة معناه بل تؤمن به كما جاء وأنه حق ونكل علمه إلى مراد الله ورسوله ﷺ

يرسخ رسخاً ورُسوخاً، وقيل: الراسخون في العلم مؤمنوا أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وأصحابه، دليله قوله تعالى: ﴿لكن الراسخون في العلم منهم﴾ [النساء: ١٦٢]، يعني: الدارسون علم التوراة والإنجيل، وسئل مالك بن أنس رضي الله عنه عن الراسخين في العلم، قال: العالم العامل بما علم المتبع لما علم. وقيل: الراسخ في العلم من وجد في علمه أربعة أشياء: التقوى بينه وبين الله، والتواضع بينه وبين الخلق، والزهد بينه وبين الدنيا، والمجاهدة بينه وبين نفسه. وقال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد والسدي: بقولهم آمنا به سماءهم الله تعالى راسخين في العلم، فرسوخهم في العلم قولهم آمنا به، أي: بالمتشابه، ﴿كل من عند ربنا﴾: المحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ، وما علمنا وما لم نعلم، ﴿وما يذكر﴾: ما يتعظ بما في القرآن ﴿إلا أولو الأبواب﴾، ذوو العقول.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾، أي: ويقول الراسخون ربنا لا تزغ قلوبنا، أي: لا تملها عن الحق والهدى كما أزغت قلوب الذين في قلوبهم زيغ، ﴿بعد إذ هديتنا﴾، وفقتنا لدينك والإيمان بالمحكم والمتشابه من كتابك، ﴿وهب لنا من لدنك﴾: أعطنا من عندك، ﴿رحمة﴾، توفيقاً وتثبيتاً للذي نحن عليه من الإيمان والهدى. وقال الضحاك: تجاوزاً ومغفرة، ﴿إنك أنت الوهاب﴾. أخبرنا أبو الفرج المظفر بن إسماعيل التميمي، أنا أبو القاسم حمزة بن يوسف السهمي أنا أبو القاسم أحمد بن عدي الحافظ، أنا أبو بكر بن عبد الرحمن بن القاسم القرشي، يُعرف بابن الرواس الكبير بدمشق، أنا أبو مسهر عبد الأعلى بن مسهر الغساني أنا صدقة، أنا ابن

هذا القول هو مذهب أهل السنة من سلف الأمة وخلفها من أهل الحديث وغيرهم. والقول الثاني إنه يتأول بحسب ما يليق به وأن ظاهره غير مراد قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فعلى هذا المراد هو المجاز كما يقال فلان في قبضتي وفي كفي يريد أنه تحت قدرته وفي تصرفه إلا أنه حال في كفه فمعنى الحديث أنه سبحانه وتعالى متصرف في قلوب عباده وغيرها كيف شاء لا يمتنع عليه منها شيء ولا يفوته ما أراد منها كما لا يمتنع على الإنسان ما بين أصبعيه فخطاب رسول الله ﷺ أصحابه بما يفهمونه ويعلمونه من أنفسهم، وإنما ثنى لفظ الأصبعين والقدرة واحدة لأنه جرى على المعهود من التمثيل بحسب ما اعتادوه وإن كان غير مقصود به التثنية أو الجمع، وهذا مذهب جمهور المتكلمين وغيرهم من المتأخرين. وإنما خص القلوب بالذكر لفائدة وهي أن الله تعالى جعل القلوب، محلاً للخواطر والإرادات والنيات وهي مقدمات الأفعال ثم جعل سائر الجوارح تابعة للقلوب في الحركات والسكنات والله أعلم. قوله عز وجل: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي ليوم القضاء. وقيل: اللام بمعنى في أي يوم لا ريب فيه أي لا شك فيه أنه كائن وهو يوم القيامة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ هذا من بقية دعاء الراسخين في العلم، وذلك أنهم طلبوا من الله تعالى أن يصرف قلوبهم عن الزيغ وأن يخصهم بالهداية والرحمة وذلك من مصالح الدين والدنيا ثم إنهم اتبعوا ذلك بقولهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ومعناه إنا نعلم أنك جامع الناس للجزاء في يوم القيامة، ونعلم أن وعدك حق، وأنت لا تخلف الميعاد فمن أزغت قلبه فهو هالك، ومن مننت عليه بالهداية والرحمة فهو ناج من العذاب سعيد. قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني برسول الله ﷺ قال ابن عباس: هم قريظة والنضير ﴿لَنْ تَغْنِيَ﴾ أي لن تنفع ولن تدفع ﴿عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً﴾ أي من عذاب الله شيئاً وقيل: من بمعنى عند أي عند الله شيئاً ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ كَذَّابٌ آلَ فِرْعَوْنَ﴾ قال ابن عباس: كفعل آل فرعون وصنيعهم في الكفر. وقيل: كسنة آل فرعون وقيل كعادة آل فرعون والمعنى أن عادة هؤلاء الكفار في تكذيب رسول الله ﷺ وجحود الحق كعادة آل فرعون فإنهم كذبوا موسى وصدقوا

عبد الرحمن بن جابر حدثني بشر بن عبيد الله قال: سمعت أبا إدريس الخولاني يقول: حدثني النّوّاس بن سميان الكلبي قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، إِذَا شَاءَ أَنْ يَزِيغَهُ أَزَاغَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَنْ يَقِيمَهُ أَقَامَهُ» وكان رسول الله ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ»، والميزان بيد الرحمن يرفع قوماً ويضع آخرين إلى يوم القيامة. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالح، حدثنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا عبد الرحيم بن منيب أنا يزيد بن هارون، أنا سعيد بن أياس الحميري عن غنيم بن قيس، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الْقَلْبِ كَرِيشَةٍ بَارِضٍ فَلَا تَقْلِبُهَا الرِّيحُ ظَهراً لِبطنٍ».

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا انقضاء يوم، وقيل: اللام بمعنى: في يوم، ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك فيه، وهو يوم القيامة، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾، وهو مفعال، من الوعد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾، قال الكلبي: من عذاب الله، وقال أبو عبيدة: من بمعنى عند، أي: عند الله ﴿شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾. ﴿كَذَّابٌ آلَ فِرْعَوْنَ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة ومجاهد: كفعل آل فرعون وصنيعهم في الكفر والتكذيب. وقال عطاء والكسائي وأبو عبيدة: كسنة آل فرعون. وقال الأخفش: كأمير آل فرعون وشأنهم. وقال النضر بن شميل: كعادة آل فرعون، يريد عادة هؤلاء الكفار في تكذيب الرسل وجحود الحق كعادة آل فرعون، ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾: كفار الأمم الماضية مثل عاد وثمود وغيرهم، ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾،

فرعون ﴿والذين من قبلهم﴾ يعني كفار الأمم الماضية مثل عاد وثمود وغيرهم ﴿كذبوا بآياتنا﴾ يعني لما جاءتهم بها الرسل ﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾ أي فعاقبهم الله بسبب تكذيبهم ﴿والله شديد العقاب﴾ وقيل في معنى الآية: إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم عند حلول النقمة والعقوبة مثل آل فرعون وكفار الأمم الخالية فأخذناهم فلم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم. قوله عز وجل:

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الَّذِينَ تُلَاقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَهُمْ رَأَىٰ الْمَعِينِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾

﴿قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون﴾ قرأ بالتاء والياء فيهما فمن قرأ بالياء المنقوطة تحت فمعناه بلغهم يا محمد أنهم سيغلبون ويحشرون، ومن قرأ التاء المنقوطة فوق فمعناه قل لهم: ستغلبون وتحشرون ﴿إلى جهنم﴾ قيل: أراد بالذين كفروا مشركي قريش والمعنى قل لكفار مكة: ستغلبون يوم بدر وتحشرون في الآخرة إلى جهنم فلما نزلت هذه الآية قال لهم النبي ﷺ يوم بدر: إن الله غالبكم وحاشركم إلى جهنم وقيل: إن أبا سفيان جمع جماعة من قومه بعد وقعة بدر فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقيل: إن هذه الآية نزلت في اليهود. وقال ابن عباس: إن يهود المدينة قالوا لما هزم رسول الله ﷺ المشركين يوم بدر، هذا والله النبي الذي بشر به موسى لا ترد له راية وأرادوا إتباعه ثم قال بعضهم لبعض: لا تعجلوا حتى تنظروا واقعة أخرى. فلما كان يوم أحد ونكب أصحاب رسول الله ﷺ شكواً وغلب عليهم الشقاء فلم يسلموا، وكان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد إلى مدة فنقضوا العهد وانطلق كعب بن الأشرف في ستين راكباً إلى مكة ليستفزهم فأجمعوا أمرهم على قتال رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال ابن عباس وغيره: لما أصاب رسول الله ﷺ قريشاً يوم بدر ورجع إلى المدينة جمع اليهود في سوق بني قينقاع وقال: يا معشر اليهود احذروا من الله مثل ما أنزل بقريش يوم بدر، وأسلموا قبل أن ينزل لكم

فعاقبهم الله، ﴿بذنوبهم﴾، وقيل: نظم الآية: إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم عند حلول النقمة والعقوبة، مثل آل فرعون وكفار الأمم الخالية، أخذناهم فلن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئاً، ﴿والله شديد العقاب﴾.

قوله تعالى: ﴿قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم﴾، قرأ حمزة والكسائي بالياء فيهما، أي: أنهم يغلبون ويحشرون، وقرأ الآخرون بالتاء فيهما على الخطاب، أي: قل لهم إنكم ستغلبون وتحشرون، قال مقاتل: أراد مشركي مكة، معناه: قل لكفار مكة ستغلبون يوم بدر وتحشرون إلى جهنم في الآخرة، فلما نزلت هذه الآية قال لهم النبي ﷺ يوم بدر: «إن الله غالبكم وحاشركم إلى جهنم»، وقال بعضهم: المراد بهذه الآية اليهود، وقال الكلبي: عن ابن صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن يهود أهل المدينة قالوا لما هزم رسول الله ﷺ المشركين يوم بدر: هذا والله النبي الذي بشرنا به وسُمي، لا ترد له راية، وأرادوا إتباعه، ثم قال بعضهم لبعض: لا تعجلوا حتى تنظروا إلى وقعة أخرى، فلما كان يوم أحد ونكب أصحاب رسول الله ﷺ شكواً، فغلب عليهم الشقاء، فلم يسلموا، وقد كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد إلى مدة فنقضوا ذلك العهد، وانطلق كعب بن الأشرف في ستين راكباً إلى مكة يستفزهم، فأجمعوا أمرهم على قتال رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية. وقال محمد بن إسحق عن رجاله، ورواه سعيد بن جبيرة وعكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً: أنه لما

ما نزل بهم فقد عرفتم إني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم فقالوا: يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قومًا أغماراً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة وإنا الله لو قاتلناك لعرفت إنا نحن الناس. فأنزل الله عز وجل ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني من اليهود ﴿سُتُغْلِبُونَ﴾ أي ستهزمون ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ يعني في الآخرة إلى جهنم ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أي الفراش والمعنى: بئس ما مهد لهم في النار. قوله عز وجل: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئْتَيْنِ الثَّقَاتِ﴾ قيل: الخطاب للمؤمنين يروى ذلك عن ابن مسعود والحسن. وقيل: هو خطاب لكفار مكة فيكون عطفاً على الذي قبله فيخرج على قول ابن عباس (١). وقيل: هو خطاب لليهود قاله ابن جرير. فإن قلت: لم قال قد كان لكم آية ولم يقل قد كانت لأن الآية مؤنثة؟ قلت: كل ما ليس بمؤنث حقيقي يجوز تذكيره وقيل: إنه رد المعنى إلى البيان فمعناه قد كان لكم بيان فذهب إلى المعنى وترك اللفظ. وقال الفراء: إنما ذكر لأنه حالت الصفة بين الفعل والاسم المؤنث فذكر الفعل وكل ما جاء من هذا فهذا وجهه ومعنى الآية قد كان لكم آية أي عبرة ودلالة على صدق ما أقول إنكم ستغلبون في فئتين أي فرقتين وأصلها في الحرب لأن بعضهم يفيء إلى بعض أي يرجع ﴿الثَّقَاتِ﴾ يعني يوم بدر ﴿فِئَةٌ تَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي في طاعة الله وهم رسول الله ﷺ وأصحابه وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً سبعة وسبعون رجلاً من المهاجرين ومائتان وستة وثلاثون رجلاً من الأنصار، وكان صاحب راية المهاجرين علي بن أبي طالب وصاحب راية الأنصار سعد بن عباد وكان فيهم سبعون بعيراً وفرسان وكان معهم من السلاح ستة أدرع وثمانية سيوف. وقوله تعالى: ﴿وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾ أي وفرقة أخرى كافرة وهم مشركو مكة وكانوا تسعمائة وخمسين رجلاً من المقاتلة وكان رأسهم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، وكان فيهم مائة فرس وكانت وقعة بدر أول مشهد شهده رسول الله ﷺ بعد الهجرة وقوله تعالى: ﴿يُرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ﴾ قرءء بالياء يعني ترون أهل مكة ضعفي المسلمين يا معشر اليهود وذلك أن جماعة من اليهود كانوا قد حضروا قتال بدر لينظروا على من تكون الدائرة ولمن النصر فرأوا المشركين مثلي عدد المسلمين، ورأوا النصر للمسلمين فكان ذلك معجزة. وقرءء يرونهم بالياء واختلفوا في

أصاب رسول الله ﷺ قريشاً ببدر ورجع إلى المدينة، جمع اليهود في سوق بني قينقاع، وقال: «يا معشر اليهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش يوم بدر، وأسلموا قبل أن ينزل بكم مثل ما نزل بهم، فقد عرفتم أنني نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم»، فقالوا: يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قومًا أغماراً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة إنا والله لو قاتلناك لعرفت أننا نحن الناس. فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ - يعني: اليهود ﴿سُتُغْلِبُونَ﴾ تَهْزَمُونَ في الدنيا في قتالكم محمداً ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ في الآخرة ﴿إِلَى جَهَنَّمَ﴾، ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أي: الفراش، أي: بئس ما مهد لهم، يعني: النار.

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾، ولم يقل كانت، والآية مؤنثة لأنه ردها إلى البيان، أي: قد كان بيان، فذهب إلى المعنى، وقال الفراء: إنما ذكر لأنه حالت الصفة بين الفعل والاسم المؤنث فذكر الفعل، وكل ما جاء من هذا النحو فهذا وجهه، فمعنى الآية: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أي: عبرة ودلالة على صدق ما أقول إنكم ستغلبون، ﴿فِي فِئَتَيْنِ﴾: فرقتين، وأصلها أفئء الحرب، لأن بعضهم يفيء إلى بعض، ﴿الثَّقَاتِ﴾، يوم بدر، ﴿فِئَةٌ تَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، طاعة الله، وهم رسول الله ﷺ وأصحابه وهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، سبعة وسبعون رجلاً من المهاجرين ومائتان وستة وثلاثون رجلاً من الأنصار، وصاحب راية المهاجرين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وصاحب راية الأنصار سعد بن عباد، وكان فيهم سبعون بعيراً وفرسان فرس للمقداد بن عمرو، وفرس لمرثد بن أبي مرثد، وأكثرهم رجالة وكان معهم من السلاح ستة أدرع وثمانية سيوف. وقوله تعالى: ﴿وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾ أي: فرقة أخرى كافرة، وهم مشركو مكة وكانوا تسعمائة وخمسين رجلاً من المقاتلة، يرأسهم عتبة بن

وجه قراءة الباء فجعل بعضهم الرؤية للمسلمين ثم له تأويلان أحدهما: يرى المسلمون المشركين مثلهم كما هم. فإن قلت: كيف قال مثلهم وإنما كانوا ثلاثة أمثالهم. قلت: هذا مثل قول الرجل وعنده درهم أنا محتاج إلى مثلي هذا الدرهم يعني إلى مثليه سواء فيكون ثلاثة دراهم ووجه آخر وهو أن يكون الله تعالى أظهر للمسلمين من عدد المشركين القدر الذي يعلم المؤمنون أنهم يغلبونهم لإزالة الخوف من قلوبهم، وهذا التأويل الثاني هو الأصح قلل الله المشركون في أعين المسلمين حتى رأوهم مثلهم. فإن قلت كيف الجمع بين قوله تعالى ﴿يرونهم مثلهم﴾ وبين قوله: ﴿وَإِذْ يَرْكُضُهُمْ إِذَا تَقَيَّمَتْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيَقْلِلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ وكيف يقال: إن المشركين استكثروا المسلمين أو المسلمين استكثروا المشركين، وإن الفئتين تساويا في استقلال إحداهما الأخرى. قلت: إن التقليل والتكثير كانا في حالتين مختلفتين فإن قيل: إن الفئة الرائية هم المسلمون فإنهم رأوا عدد المشركين عند بداية القتال على ما هم عليه. ثم قلل الله المشركين في أعين المسلمين حتى اجتروا عليهم فصبروا على قتالهم بذلك السبب. قال ابن مسعود: نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا، ثم نظرنا فاهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلاً واحداً. وفي رواية أخرى عنه قال: لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي: تراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة قال فأسرنا منهم رجلاً فقلنا: كم كنتم قال: ألفاً وإن قلنا إن الفئة الرائية هم المشركون على قول بعضهم إن الرؤية راجعة إلى المشركين يعني رأى المشركون المسلمين مثلهم فقلل الله المسلمين في أعين المشركين في أول القتال ليجتروا عليهم ولا ينصرفوا، فلما أخذوا في القتال كثر الله المسلمين في أعين المشركين ليجنبوا فيكون ذلك سبب خذلانهم، وقد روي أن المشركين لما أسروا يوم بدر قالوا للمسلمين: كم كنتم قالوا: كنا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً قالوا: يعني المشركين ما كنا نراكم إلا تضعفون علينا فكان في وقعة بدر أحوال في التكثير والتقليل وما ذلك إلا إظهاراً للقدرة التامة وقوله تعالى: ﴿رَأَى الْعَيْنُ﴾ أي في رأي العين ﴿وَاللهُ يُوَدُّ﴾ أي يقوي بنصره من يشاء إن في ذلك ﴿يعني الذي ذكر من النصرة. وقيل رؤية الجيش مثلهم﴾ ﴿لَعِبْرَةٍ﴾ أي لآية والعبرة الدلالة الموصلة إلى اليقين المؤدية إلى العلم وأصلها من العبور كأنه طريق يعبرونه فيوصلهم إلى مرادهم.

ربيعه بن عبد شمس وفيهم مائة فرس، وكانت حرب بدر أول مشهد شهده رسول الله ﷺ، ﴿يرونهم مثلهم﴾، قرأ أهل المدينة ويعقوب بالتاء، يعني: ترون يا معشر اليهود أهل مكة مثل عدد المسلمين، وذلك أن جماعة من اليهود كانوا حضروا قتال بدر لينظروا على من تكون الدائرة فرأوا المشركين مثلي عدد المسلمين ورأوا النصر مع ذلك للمسلمين، فكان ذلك معجزة وآية، وقرأ الآخرون بالياء، واختلفوا في وجهه، فجعل بعضهم الرؤية للمسلمين، ثم له تأويلان، أحدهما: يرى المسلمون المشركين مثلهم كما هم، فإن قيل: كيف قال: ﴿مثلهم﴾ وهم كانوا هم ثلاثة أمثال؟ قيل: هذا مثل قول الرجل وعنده درهم: أنا أحتاج إلى مثلي هذا الدرهم، يعني: إلى مثليه سواء، فيكون ثلاثة دراهم. والتأويل الثاني وهو الأصح: كان المسلمون يرون المشركين مثلي عدد أنفسهم قللهم الله تعالى في أعينهم حتى رأوهم ستمائة وستة وعشرين، ثم قللهم الله في أعينهم في حالة أخرى، حتى رأوهم مثل عدد أنفسهم. قال ابن مسعود رضي الله عنه: نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون رجلاً واحداً، ثم قللهم الله تعالى أيضاً في أعينهم حتى رأوهم عدداً يسيراً أقل من أنفسهم، قال ابن مسعود رضي الله عنه حتى قلت لرجل إلى جنبي: تراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة. وقال بعضهم: الرؤية راجعة إلى المشركين، يعني: يرى المشركون المسلمين مثلهم، قللهم الله قبل القتال في أعين المشركين ليجتريء المشركون عليهم، ولا ينصرفوا، فلما أخذوا في القتال كثرهم في أعين المشركين، ليجنبوا، وقللهم في أعين المؤمنين ليجتروا، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْكُضُهُمْ - إِذَا تَقَيَّمَتْ - فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيَقْلِلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾

وقيل: العبرة هي التي يعبر منها من منزلة الجهل إلى منزلة العلم ﴿لأولي الأبصار﴾ لذوي العقول والبصائر. قوله عز وجل:

زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ
وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَكِعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴿١٤﴾

﴿زين للناس﴾ قال أهل السنة: المزين هو الله تعالى لأنه تعالى خالق الجميع أفعال العباد ولأن الله تعالى خلق جميع ملاذ الدنيا وأباحها لعبيده وإباحتها للعبد تزوين لها قال الله تعالى: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ وقال تعالى: ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾ وقال الله تعالى: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها﴾ وقال تعالى: ﴿وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً﴾ وكل ذلك يدل على أن المزين هو الله تعالى. ومما يؤيد ذلك قراءة مجاهد زين بفتح الزاي على تسمية الفاعل وقال الحسن: المزين هو الشيطان وهو قول طائفة من المعتزلة ويدل على ذلك أن الله تعالى زهد في هذه الأشياء بأن أعلم عباده زوالها. ولأن الله تعالى أطلق حب الشهوات فيدخل فيه الشهوات المحرمة، والمزين لذلك هو الشيطان، ولأن الله تعالى ذكر هذه الأشياء في معرض الذم للدنيا ويدل عليه آخر الآية وهو قوله تعالى ﴿والله عنده حسن المآب﴾. ونقل عن أبي علي الجبائي من المعتزلة أن كل ما كان حراماً كان المزين له هو الشيطان، وكل ما كان مباحاً كان المزين له هو الله تعالى، والصحيح ما ذهب إليه أهل السنة لأن الله تعالى خالق كل شيء ولا شريك له في ملكه. وقوله تعالى: ﴿حب الشهوات﴾ يعني المشتبهات لأن الشهوة توقان النفس إلى الشيء المشتبه ﴿من النساء﴾ إنما بدأ بذكر النساء لأن الالتذاذ بهن أكثر، والاستئناس بهن أتم، ولأنهن حبات الشيطان وأقرب إلى الافتتان ﴿والبنين﴾ إنما خص البنين بالذكر لأن حب الولد الذكر أكثر من حب الأنثى ووجه حبه ظاهر لأنه يتكرر به ويعضده ويقوم مقامه. وقد جعل الله تعالى في قلب الإنسان حب الزوجة والولد لحكمة بالغة وهي بقاء التوالد ولو زالت تلك المحبة لما حصل ذلك ﴿والقناطر المقنطرة﴾ جمع قنطار وسمي قنطاراً من الإحكام والعقد يقال: قنطرت إذا أحكمته ومنه القنطرة المحكمة الطاق واختلفوا في القنطار هل محدود أو غير محدود؟ على قولين أحدهما: أنه محدود ثم اختلفوا في حده فروي عن معاذ بن جبل أن القنطار ألف ومائتا أوقية. وقال ابن عباس: ألف ومائتا مثقال وعنه أنه اثنا عشر ألف درهم أو ألف دينار دية أحدكم وبه قال الحسن: وقال سعيد بن جبيرة: هو مائة ألف ومائة من ومائة رطل ومائة مثقال ومائة درهم. ولقد جاء الإسلام يوم جاء وبمكة مائة رجل قد قنطروا، وقال سعيد بن المسيب وقتادة:

[الأنفال: ٤٤]. قوله تعالى: ﴿رَأَى الْعَيْنُ﴾ أي: في رأي العين، نُصِبَ بِنَزْعِ حَرْفِ الصِّفَةِ، ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾، الذي ذُكِرَتْ، ﴿لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾، لذوي العقول، وقيل: لَمَنْ أَبْصَرَ الْجَمْعِينَ.

قوله تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾، جمع شهوة، وهي ما تدعو النفس إليه، ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾، بدأ بهن لأنهن حبات الشيطان، ﴿وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ﴾، جمع قنطار، واختلفوا فيه، فقال الربيع بن أنس: القنطار المال الكثير يعضه على بعض، وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: القنطار ألف ومائتا أوقية، لكل أوقية أربعون درهماً. وقال ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك: ألف ومائتا مثقال، وعنهما رواية أخرى: اثنا عشر ألف درهم وألف دينار، دية أحدكم. وعن الحسن قال: القنطار دية أحدكم، وقال سعيد بن جبيرة وعكرمة: هو مائة ألف ومائة من ومائة رطل ومائة مثقال ومائة درهم، ولقد جاء الإسلام وبمكة مائة رجل قد قنطروا. وقال سعيد بن المسيب وقتادة: ثمانون ألفاً، وقال مجاهد: سبعون ألفاً. وعن السدي قال: أربعة آلاف مثقال، وقال الحكم: القنطار ما بين السماء

هو ثمانون ألفاً وقال مجاهد: سبعون ألفاً. وقال السدي: هو أربعة آلاف مثقال والقول الثاني: إن القنطار ليس بمحدود. وقال الربيع بن أنس: القنطار مال الكثير بعضه على بعض وروي عن أبي عبيدة أنه حكى عن العرب أن القنطار وزن لا يحد وهو اختيار ابن جرير الطبري وغيره. وقال الحاكم القنطار ما بين السماء والأرض من مال. وقال أبو نصر: القنطار ملء مسك ثور ذهباً أو فضة وقال القنطار من المال ما فيه عبور الحياة تشبيهاً بعبور القنطرة المقنطرة أي المجموعة وقيل: المضاعفة لأن القناطير جمع وأقله ثلاثة والمقنطرة المضاعفة أن تكون ستة أو تسعة وقيل المقنطرة المسكوكة المنقوشة ﴿من الذهب والفضة﴾ إنما بدأ بهما من بين سائر أصناف الأموال لأنهما قيم الأشياء وإنما كانا محبوبين لأن المالك لهما مالك قادر على ما يريده وهي صفة كمال وهي محبوبة. وقيل سمي الذهب ذهباً لأنه يذهب ولا يبقى والفضة لأنها تنفض أي تتفرق ﴿والخيل المسومة﴾ الخيل جمع لا واحد له من لفظه كالقوم والرهط سميت الأفراس خيلاً لاختيالها في مشيتها. وقيل: لأن الخيل لا يركبها أحد إلا وجد في نفسه مخيلة عجباً واختلفوا في معنى المسومة على ثلاثة أقوال القول الأول: إنها الراعية يقال أمتت الدابة وسومتها إذا أرسلتها المرعى والمقصود أنها إذا رعت زاد حسننها والقول الثاني أنها من السمة وهي العلامة ثم القائلون بهذا القول اختلفوا في تلك العلامة فقيل: الثالث هي الغرة والتحجيل التي تكون في الخيل وقيل: هي الخيل البلق وقيل: هي المعلمة بالكي. والقول الثالث: إنها المضمرة الحسان وتسويمها حسننها ﴿والأنعام﴾ جمع نعم وهي الإبل والبقر والغنم ولا يقال للجنس الواحد منها إلا للإبل خاصة فإنه غلب عليها ﴿والحرث﴾ يعني الزرع ﴿ذلك﴾ يعني ذلك الذي ذكر من هذه الأصناف ﴿متاع الحياة الدنيا﴾ أي الذي يستمتع به في الحياة الدنيا وهي زائلة فانية يشير إلى أن الحياة الدنيا متاع يفنى ﴿والله عنده حسن المآب﴾ أي المرجع، فيه إشارة إلى التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة. وقيل: فيه إشارة إلى أن من أتاه الله الدنيا كان الواجب عليه أن يصرفها فيما يكون فيه صلاحه في الآخرة لأنها السعادة القصوى. قوله عز وجل: .

﴿قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (١٥)

﴿قل أؤنبكم﴾ أي أخبركم ﴿بخير من ذلكم﴾ يعني الذي ذكر من متاع الدنيا ﴿للذين اتقوا﴾ قال ابن عباس

والأرض من مال، وقال أبو نصر: ملء مسك ثور ذهباً أو فضة. وسُمي قنطاراً من الإحكام، يقال: قنطرت الشيء إذا أحكمته، ومنه سُميت القنطرة. قوله تعالى: ﴿المُقَنْطَرَةُ﴾، قال الضحاك: المُحَصَّنَةُ المُحَكَّمَةُ. وقال قتادة: هي الكثيرة المنضدة بعضها فوق بعض. وقال يمان: هي المدفونة. وقال السدي: هي المضروبة المنقوشة حتى صارت دراهم ودنانير. وقال الفراء: المضغفة. فالقناطير ثلاثة، والمقنطرة تسعة، ﴿من الذهب والفضة﴾، قيل: سُمي الذهب ذهباً لأنه يذهب ولا يبقى، والفضة فضةً لأنها تنفض، أي: تتفرق، ﴿والخيل المُسَوِّمَةُ﴾: الخيل جمع لا واحد له من لفظه، وأحدها فرس، كالقوم والنساء ونحوهما، ﴿المُسَوِّمَةُ﴾ قال مجاهد: هي المُطَهَّمَةُ الحسان. وقال عكرمة: تسويمها حُسْنُهَا، وقال سعيد بن جبیر: هي الراعية، يقال: أسام الخيل وسَوَّمتها، وقال الحسن وأبو عبدة: هل المعلمة من السيماء العلامة، ثم منهم من قال: سيماها الشبه واللون، وهو قول قتادة، وقيل: الكي، ﴿والأنعام﴾، جمع النعم، وهي الإبل والبقر والغنم، جمع لا واحد له من لفظه، ﴿والحرث﴾ يعني: الزرع، ﴿ذلك﴾، الذي ذكرت، ﴿متاع الحياة الدنيا﴾، يشير إلى أنها متاع يفنى، ﴿والله عنده حُسْنُ المآب﴾ أي: المرجع، فيه إشارة إلى التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ﴾ أي: أخبركم ﴿بخير من ذلكم للذين اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا.

في رواية عنه يريد المهاجرين والأنصار. أراد أن يعرفهم ويشوقهم إلى الآخرة قال العلماء: ويدخل في هذا الخطاب كل من اتقى الشرك ﴿عند ربهم﴾ معناه أن الله تعالى أخبر أن ما عنده خير مما كان في الدنيا وإن كان محبوباً فتحثهم على ترك ما يحبون لما يرجون ثم فسر لك الخير فقال تعالى: ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله﴾. (ق) عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير كله في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: يا رب وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك فيقول، أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً وقيل: إن العبد إذا علم أن الله تعالى قد رضي عنه كان أتم لسروره وأعظم لفرحه ﴿والله بصير بالعباد﴾ يعني أن الله تعالى عالم بمن يؤثر ما عنده ممن يؤثر شهوات الدنيا فيجازي كلاً على عمله فيثبت ويعاقب على قدر الأعمال. وقيل: إن الله تعالى بصير بالذين اتقوا فلذلك أعدلهم الجنات. قوله عز وجل: .

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ
وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ
قَابِئًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

﴿الذين يقولون ربنا إننا آمنّا﴾ أي صدقنا ﴿فاغفر لنا ذنوبنا﴾ أي استر علينا وتجاوز عنا ﴿وقنا عذاب النار﴾. قوله عز وجل: ﴿الصابرين﴾ يعني على أداء الواجبات وعن المحرمات والمنهيات، وفي البأساء والضراء وحين البأس. وقيل: الصابرين على دينهم وما أصابهم ﴿والصادقين﴾ يعني في إيمانهم. وقال قتادة: هم قوم صدقت نياتهم واستقامت ألسنتهم وقلوبهم في السر والعلانية والصدق يكون في القول والأفعال والنية، فأما صدق القول فهو مجانبة الكذب والصدق في الفعل هو عدم الانصراف عنه قبل إتمامه، والصدق في النية العزم على الفعل حتى يبلغه. ﴿والقانتين﴾ يعني المطيعين لله وقيل لهم المصلون، وهو عبارة عن دوام الطاعة والمواظبة عليها ﴿والمنفقين﴾ يعني أموالهم في طاعة الله تعالى، ويدخل فيه نفقة الرجل على نفسه وعلى أهله وأقاربه وصلة رحمه، والزكاة والنفقة في جميع القربات ﴿والمستغفرين بالأسحار﴾ يعني المصلين بالسحر وهو الوقت بعد ظلمة الليل إلى طلوع الفجر، وقيل كانوا يصلون بالليل حتى إذا كان وقت السحر أخذوا في الدعاء والاستغفار فكان هذا دأبهم في ليلهم. قال نافع: كان ابن عمر يحيي الليل ثم يقول: يا نافع أسحرنا؟ فأقول: لا فيعاود الصلاة فإذا قلت

الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله﴾، قرأ العامة بكسر الراء، وروى أبو بكر عن عاصم بضم الراء، وهما لغتان كالعدوان والعدوان. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا يحيى بن سليمان حدثني ابن وهب حدثني مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: ﴿إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك يا ربنا وسعديك والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: يا رب وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً.﴾ قوله تعالى: ﴿والله بصير بالعباد﴾. ﴿الذين يقولون﴾، إن شئت جعلت محل ﴿الذين﴾ خفضاً رداً على قوله: ﴿للذين اتقوا﴾ وإن شئت جعلته رفعا على الابتداء، ويحتمل أن يكون نصباً تقديره: أعني الذين يقولون: ﴿ربنا إننا آمنّا﴾، صدقنا،

نعم فقد يستغفر ويدعو حتى يصلي الصبح. (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ: «قال: ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى الثلث الأخير فيقول: من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له. وفي لفظ مسلم فيقول: أنا الملك أنا الملك من ذا الذي يدعوني الحديث وله في رواية أخرى فيقول: هل من سائل؟ فيعطى هل من داع فيستجاب له؟ هل من مستغفر فيغفر له حتى ينفجر الصبح؟» هذا الحديث من أحاديث الصفات وللعلماء فيه وفي أمثاله مذهبان معروفان مذهب السلف الإيمان به وإجراؤه على ظاهره ونفي الكيفية عنه، والمذهب الثاني هو مذهب من يتأول أحاديث الصفات. قال أبو سليمان الخطابي: إنما ينكر هذا الحديث من يقيس الأمور على ما يشاهده من النزول الذي هو تدل من أعلى إلى أسفل، وانتقال من فوق إلى تحت وهذا صفة الأجسام، فأما نزول من لا تستولي عليه صفات الأجسام فإن هذه المعاني غير متوهمة فيه، وإنما هو خبر عن قدرته ورأفته بعباده وعطفه عليهم واستجابته دعاءهم، ومغفرته لهم يفعل ما يشاء لا يتوجه على صفاته كيفية ولا على أفعاله كمية سبحانه ليس كمثله دعاءهم، ومغفرته لهم يفعل ما يشاء لا يتوجه على صفاته كيفية ولا على أفعاله كمية سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. وقيل في قوله: والمستغفرين بالأسحار وصف الله تعالى هؤلاء بما وصف ثم بين أنهم مع ذلك لشدة خوفهم ووجلهم أنهم يستغفرون بالأسحار. وروي أن لقمان قال لابنه: يا بني لا تكن أعجز من الديك فإنه يصوت بالأسحار وأنت نائم على فراشك. وقيل: هم الذين يصلون صلاة الصبح في جماعة فعلى هذا القول إنما سميت الصلاة استغفاراً لأنهم طلبوا بفعلها المغفرة.

قوله عز وجل: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾ قيل سبب نزول الآية أن حبرين من أحبار الشام قدما على النبي ﷺ فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي ﷺ الذي يخرج في آخر الزمان، فلما دخلا على النبي ﷺ عرفاه بالصفة فقالا له: أنت محمد؟ قال: نعم، قالا وأنت أحمد؟ قال: نعم. قالا فإننا نسألك عن شيء: فإن أنت أخبرتنا به آمنا بك وصدقناك قال: أسألاني قالا: فأخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله عز وجل، فأنزل الله هذه الآية فأسلم الحبران. وقيل: إن هذه الآية نزلت في نصارى نجران فيما ادعوا في عيسى عليه السلام فقوله تعالى: شهد الله يعني بين الله وأظهر لأن معنى الشهادة تبين وإظهار. وقيل: معنى شهد الله حكم الله وقضى. وقيل: معناه أعلم الله أنه لا إله إلا هو وذلك بيان الدلائل لما أمكن التوصل إلى معرفة الوحداية، فهو تعالى أرشد عباده إلى معرفة توحيده بما بين من عجائب مصنوعاته وغرائب مبتدعاته سئل بعض

﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ استرها علينا وتجاوز عنا، ﴿وَقَنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ﴾، إن شئت نصبتها على المدح، وإن شئت خفصتها على النعت، يعني: الصابرين في أداء الأوامر، وعن ارتكاب النهي، وعن البأساء والضراء وحين البأس والصادقين في إيمانهم، قال قتادة: هم قوم صدقت نياتهم واستقامت قلوبهم وألستهم فصدقوا في السر والعلانية، ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾، المطيعين المصلين، ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾ أموالهم في طاعة الله، ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾، قال مجاهد وقاتدة والكلبي: يعني المصلين بالأسحار وعن زيد بن أسلم أنه قال: هم الذين يصلون الصبح في الجماعة، وقيل: بالسحر لقربه من الصبح، وقال الحسن: مدوا الصلاة إلى السحر، ثم استغفروا، وقال نافع: كان ابن عمر رضي الله عنهما يحيي الليل، ثم يقول: يا نافع أسجرنا؟ فأقول: لا، فيعاود الصلاة، فإذا قلت: نعم، قعد وأخذ يستغفر الله ويدعو حتى يصبح. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أبو محمد بن الحسن بن أحمد المخلدي حدثنا أبو العباس محمد بن إسحق السراج، أنا قتيبة أنا يعقوب بن عبد الله عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل الله إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى الثلث الأخير، فيقول: أنا الملك من ذا الذي يدعوني

الأعراب ما الدليل على وجود الصانع؟ فقال: إن البعرة تدل على البعير، وآثار القدم تدل على المسير فهيكلي علوي بهذه اللطافة ومركز سفلي بهذه الكثافة أما يدلان على وجود الصانع الخبير. قال ابن عباس: خلق الله تعالى الأرواح قبل الأجساد بأربعة آلاف سنة، وخلق الأرزاق قبل الأرواح بأربعة آلاف سنة، فشهد لنفسه بنفسه قبل أن خلق الخلق حين كان ولم تكن سماء ولا أرض ولا بر ولا بحر، فقال تعالى: شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴿والملائكة﴾ أي وشهد الملائكة فمعنى شهادة الله تعالى الإخبار والإعلام ومعنى شهادة الملائكة والمؤمنين الإقرار والاعتراف بأنه لا إله إلا هو، ولما كان كل واحد من هذين الأمرين يسمى شهادة حسن إطلاق لفظ الشهادة عليهما ﴿وأولو العلم﴾ أي وشهد أولوا العلم بأنه لا إله إلا هو، واختلفوا في أولي العلم فقيل: هم الأنبياء عليهم السلام لأنهم أعلم الخلق بالله تعالى وقيل: هم علماء أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار وقيل: هم علماء مؤمني أهل الكتاب مثل عبدالله بن سلام وأصحابه، وقيل: هم علماء جميع المؤمنين ﴿قائماً بالقسط﴾ أي بالعدل نصب على الحال والقطع أو المدح ومعناه أنه تعالى قائم بتدبير خلقه كما يقال: فلان قائم بأمر فلان يعني أنه مدير له ومتعهد لأسبابه، وفلان قائم بحق فلان، أي أنه مجاز له فالله مدير أمر خلقه وقائم بأرزاقهم ومجاز لهم بأعمالهم ﴿لا إله إلا هو﴾ إنما كرهه للتأكيد، وقيل إن الأول وصف وتوحيد والثاني رسم وتعليم أي قولوا لا إله إلا هو. وقيل فائدة تكرارها الإعلام بأن هذه الكلمة أعظم الكلام وأشرفه فيه حث للعباد على تكريرها والاشتغال بها، فإنه من اشتغل بها فقد اشتغل بأفضل العبادات ﴿العزیز﴾ أي الغالب الذي لا يقهر ﴿الحكيم﴾ يعني في جميع أفعاله ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ يعني أن الدين المرضي عند الله هو الإسلام كما قال تعالى: ﴿ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ وفيه رد على اليهود والنصارى وذلك لما ادعت اليهود أنه لا دين أفضل من اليهودية، وادعت النصارى أنه لا دين أفضل من النصرانية رد الله عليهم ذلك فقال: إن الدين عند الله الإسلام. وقرئ أن الدين بفتح الهمزة رداً على أن الأولى والمعنى شهد الله أنه لا إله إلا هو، وشهد أن الدين عند الله الإسلام، وأصل الدين في اللغة الجزاء. يقال كما تدين تدان ثم صار اسماً للملة والشرعة، ومعناه الانقياد للطاعة والشرعة، قال الزجاج الدين اسم لجميع ما تعبد الله به خلقه وأمرهم بالإقامة عليه، والإسلام هو الدخول في السلم وهو الاستسلام والانقياد والدخول في الطاعة. وروى البغوي بسند الثعلبي عن غالب القطان قال: أتيت الكوفة في تجارة فنزلت

فأستجيب له، مَنْ ذا الذي يسألني فأعطيه، مَنْ ذا الذي يستغفرني فأغفر له»، وحكي عن الحسن: أن لقمان قال لابنه: يا بني لا تكن أعجز من هذا الدِّيك يصوت بالأسحار، وأنت نائم على فراشك.

قوله تعالى: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾، قيل: نزلت هذه الآية في نصارى نجران. وقال الكلبي: قَدِمَ حَبْرَان من أحبار الشام على النبي ﷺ فلما أبصر المدينة قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي ﷺ الذي يخرج في آخر الزمان، فلما دخلا عليه عرفاه بالصفة، فقالا له: أنت محمد؟ قال: نعم، قال له: وأنت أحمد؟ قال: أنا محمد وأحمد، قال له: فَإِنَّا نَسْأَلُكَ عَنْ شَيْءٍ فَإِنْ أَخْبَرْتَنَا بِهِ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ، فقال: نعم، قال: فأخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله عز وجل، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فأسلم الرجلان. قوله: ﴿شهد الله﴾ أي بَيْنَ اللّٰهُ، لأن الشهادة تبيين، وقال مجاهد: حَكَمَ الله، وقيل: عَلِمَ الله أنه لا إله إلا هو. قال ابن عباس رضي الله عنهما: خلق الله الأرواح قبل الأجساد بأربعة آلاف سنة، وخلق الأرزاق قبل الأرواح بأربعة آلاف سنة، فشهد بنفسه قبل أن يخلق الخلق حين كان ولم تكن سماء ولا أرض ولا بر ولا بحر، فقال: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾، وقوله: ﴿والملائكة﴾، أي: وشهدت الملائكة، قيل: معنى شهادة الله: الإخبار والإعلام، ومعنى شهادة الملائكة والمؤمنين الإقرار، ﴿وأولو العلم﴾، يعني: الأنبياء عليهم السلام، وقال ابن كيسان: يعني المهاجرين

قريباً من الأعمش فكنت أختلف إليه فلما كان ذات ليلة أردت أن أنحدر إلى البصرة قام من الليل يتجهّد فمر بهذه الآية ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ قال الأعمش: وأنا أشهد بما شهد الله به وأستودع الله هذه الشهادة وهي لي عند الله وديعة إن الدين عند الله الإسلام قالها مراراً. قلت: سمع فيها شيئاً فصليت الصبح معه وودعته ثم قلت له: إني سمعتك ترددهما فما بلغك فيها؟ قال: والله لا أحدثك فيها إلى سنة فكتبت على بابه ذلك اليوم وأقمت سنة، فلما مضت السنة قلت: يا أبا محمد قد مضت السنة فقال: حدثني أبو وائل عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: يجاء بصاحبها يوم القيامة. فيقول الله عز وجل: إن لعبدي هذا عندي عهداً وأنا أحق من وفي بالعهد أدخلوا عبدي الجنة. قوله عز وجل: .

إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَلْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا أَلْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَنِيًّا
بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾

﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب﴾ قال الكلبي: نزلت في اليهود والنصارى حين تركوا الإسلام والمعنى: وما اختلف الذين أوتوا الكتاب في نبوة محمد ﷺ ﴿إلا من بعد ما جاءهم العلم﴾ يعني بيان نعتة وصفته في كتبهم. وقال الربيع: إن موسى عليه السلام لما حضره الموت دعا سبعين رجلاً من خيار بني إسرائيل وأودعهم التوراة واستخلف يوشع بن نون، فلما مضى القرن الأول والثاني والثالث وقعت الفرقة والاختلاف، بينهم، وهم الذين

والأنصار. وقال مقاتل: علماء مؤمني أهل الكتاب، عبد الله بن سلام وأصحابه. قال السدي والكلبي: يعني جميع علماء المؤمنين. ﴿قائماً بالقسط﴾ أي: بالعدل، ونظم الآية: شهد الله قائماً بالقسط، نصب على الحال، وقيل: نصب على القطع، ومعنى قوله: ﴿قائماً بالقسط﴾ أي: قائماً بتدبير الخلق، كما يقال: فلان قائم بأمر فلان أي: مدبّر له ومتعهد لأسبابه، وفلان قائم بحق فلان أي: مجاز له، فالله تعالى مدبّر ورازق ومجاز بالأعمال، ﴿لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَلْإِسْلَامُ﴾، يعني: الدين المرضي الصحيح، كما قال: ﴿ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ [المائدة: ٣]، وقال: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] وفتح الكسائي الألف من (أن الدين) ردّاً على أن الأولى، تقديره: شهد الله أنه لا إله إلا هو وشهد أن الدين عند الله الإسلام، أو شهد الله أن الدين عند الله الإسلام بأنه لا إله إلا هو، وكسر الباقون الألف على الابتداء، والإسلام: هو الدخول في السلم، وهو الانقياد والطاعة، يقال: أسلم، أي: دخل في السلم، واستسلم، قال قتادة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَلْإِسْلَامُ﴾، قال: شهادة أن لا إله إلا الله والإقرار بما جاء من عند الله تعالى وهو دين الله الذي شرع لنفسه وبعث به رسوله ودلّ عليه أوليائه، فلا يقبل غيره، ولا يُجزى إلا به أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحق الثعلبي، أنا أبو عمر الفراوي أنا أبو موسى عمران بن موسى، أنا الحسن بن سفيان أنا عمار بن عمرو بن المختار، حدثني أبي عن غالب القطان، قال: أتيت الكوفة في تجارة فنزلت قريباً من الأعمش، وكنت أختلف إليه، فلما كنت ذات ليلة أردت أن أنحدر إلى البصرة، فإذا الأعمش قائم من الليل يتجهّد فمرّ بهذه الآية ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾، ثم قال الأعمش: وأنا أشهد بما شهد الله به، وأستودع الله هذه الشهادة وهي لي عند الله وديعة، إن الدين عند الله الإسلام، قالها مراراً. قلت: لقد سمع فيها شيئاً، فصليت الصبح معه وودعته، ثم قال: قلت: إني سمعتك تقرأ آية ترددها، فما بلغك فيها؟ قال

أوتوا الكتاب وهم من أبناء الملوك السبعين حتى أهرقوا الدماء ووقع الشر والاختلاف، وذلك بعد ما جاءهم العلم يعني بيان ما في التوراة من الأحكام ﴿بغياً بينهم﴾ أي طلباً بينهم للملك والرياسة فسلط الله عليهم الجبابة. وقيل: نزلت في نصارى نجران ومعناه وما اختلف الذين أوتوا الكتاب يعني الإنجيل واختلافهم كان في أمر عيسى عليه الصلاة والسلام، وما ادعوا فيه من الإلهية إلا من بعد ما جاءهم العلم. يعني بأن الله تعالى واحد أحد وأن عيسى عبده ورسوله بغياً بينهم يعني المعادة والمخالفة. ﴿ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾ فيه وعيد وتهديد لمن أصر على الكفر من اليهود والنصارى الذين جحدوا نبوة محمد ﷺ قوله عز وجل: .

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةَ أَسْلَمْتُ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾

﴿فإن حاجوك﴾ أي خاصموك يا محمد في الدين، وذلك أن اليهود والنصارى قالوا: لسنا على ما سميتنا به يا محمد إنما اليهودية والنصرانية نسب والدين هو الإسلام ونحن عليه فأمر الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ أن يحتج عليهم بأنه اتبع أمر الله الذي هم يقرون به بقوله: ﴿فقل أسلمت وجهي لله﴾ أي انقدت له بقلبي ولساني وجميع جوارحي، وإنما خص الوجه بالذكر لأنه أشرف جوارح الإنسان الظاهرة إذا خضع وجهه لشيء فقد خضع له سائر جوارحه وقيل: أراد بالوجه العمل أي خلصت عملي لله وقصدت بعبادتي الله ﴿ومن اتبعن﴾ يعني ومن أسلم كما

لي: أوما بلغك ما فيها؟ قلت: أنا عندك منذ سنتين لم تحدّثني، قال: والله لا أحدثك بها إلى سنة، فكتبتُ على بابهِ ذلك اليوم، وأقمتُ سنةً فلما مضت السنة قلت: يا أبا محمد مضت السنة، قال: حدّثني أبو وائل عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يُجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله: إن لعبدي هذا عندي عهداً وأنا أحقُّ مَنْ وَفَى بالعهد، أَدْخِلُوا عبدي الجنة». قوله تعالى: ﴿وما اختلفَ الذي أوتوا الكتابَ﴾، قال الكلبي: نزلت في اليهود والنصارى حين تركوا الإسلام، أي: وما اختلف الذين أوتوا الكتاب في نبوة محمد ﷺ ﴿إلا من بعد ما جاءهم العلم﴾ يعني: بيان نعتهم في كتبهم، وقال الربيع بن أنس: إن موسى عليه السلام لما حضره الموت دعا سبعين رجلاً من أحبار بني إسرائيل فاستودعهم التوراة واستخلف يوشع بن نون، فلما مضى القرن الأول والثاني والثالث وقعت الفرقة بينهم وهم الذين أوتوا الكتاب من أبناء أولئك السبعين، حتى أهرقوا بينهم الدماء، ووقع الشر والاختلاف وذلك من بعد ما جاءهم العلم يعني بيان ما في التوراة، ﴿بغياً بينهم﴾ أي: طلباً للملك والرياسة فسلط الله عليهم الجبابة، وقال محمد بن جعفر بن الزبير: نزلت في نصارى نجران ومعناها: وما اختلف الذين أوتوا الكتاب، يعني: الإنجيل في أمر عيسى عليه السلام، وفرّقوا القول فيه، إلا من بعد ما جاءهم العلم بأن الله واحد، وأن عيسى عبده ورسوله، بغياً بينهم أي: للمعادة والمخالفة، ﴿ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾.

قوله تعالى: ﴿فإن حاجوك﴾ أي: خاصموك يا محمد في الدين، وذلك أن اليهود والنصارى قالوا: ألسنا ما سميتنا به يا محمد إنما اليهودية والنصرانية نسب، والدين هو الإسلام ونحن عليه؟ فقال الله تعالى: ﴿فقل أسلمت وجهي لله﴾ أي: انقدتُ لله وحده بقلبي ولساني وجميع جوارحي، وإنما خصّ الوجه لأنه أكرم الجوارح للإنسان، وفيه بهاؤه فإذا خضع وجهه للشيء فقد خضع له جميع جوارحه. وقال الفراء: معناه أخلصت عملي لله، ﴿ومن اتبعن﴾ أي: ومن اتبعني فأسلم كما أسلمت، وأثبت نافع وأبو عمرو الياء في قوله تعالى: ﴿اتبعني﴾ على الأصل

أسلمت أنا ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿والأمة﴾ يعني مشركي العرب ﴿أسلمتم﴾ لفظه استفهام ومعناه أمر أي أسلموا ﴿فإن أسلموا فقد اهتدوا﴾ يعني إلى الفوز والنجاة في الآخرة، فلما قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية على أهل الكتاب قالوا: قد أسلمنا فقال لليهود: أتشهدون أن موسى كليم الله وعبدته ورسوله فقالوا: معاذ الله وقال للنصارى: أتشهدون أن عيسى كلمة الله وعبدته ورسوله فقالوا: معاذ الله أن يكون عيسى عبداً قال الله تعالى: ﴿وإن تولوا﴾ أي أعرضوا ﴿فإنما عليك البلاغ﴾ يعني تبليغ الرسالة. وليس عليك هدايتهم واختلف علماء الناسخ والمنسوخ في الآية فذهب طائفة إلى أنها محكمة، والمراد بها تسليية النبي ﷺ لأنه كان يحرص على إيمانهم ويتألم لتركهم الإجابة، وذهب طائفة إلى أنها منسوخة بآية السيف لأن المراد بها الاقتصار على التبليغ وهذا منسوخ بآية السيف ﴿والله بصير بالعباد﴾ يعني أنه تعالى عالم بمن يؤمن وبمن لا يؤمن. قوله عز وجل: .

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَالُهُمْ مِنَ النَّصِيرِ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

﴿إن الذين يكفرون بآيات الله﴾ يعني يجحدون القرآن وينكرونها وهم اليهود والنصارى ﴿ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس﴾ كان أنبياء بني إسرائيل يأتيهم الوحي ولم يكن يأتيهم كتاب لأنهم كانوا ملتزمين بأحكام التوراة، فكانوا يذكرون قومهم فيقتلونهم فيقوم رجال ممن آمن بهم وصدقهم فيذكرونهم ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر فيقتلونهم أيضاً، فهم الذين يأمرون بالقسط يعني بالعدل من الناس. روى البغوي بسند الثعلبي عن أبي عبيدة بن الجراح قال: قلت: يا رسول الله أي الناس أشد عذاباً يوم القيامة؟ قال رجل: قتل نبياً أو رجلاً أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ويقتلون النبيين بغير حق﴾

وحذفه الآخرون على الخطأ لأنهما في المصحف بغير ياء، وقوله: ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأمة﴾، يعني: العرب ﴿أسلمتم﴾، لفظه استفهام ومعناه أمر أي: وأسلموا، كما قال: ﴿فهل أنتم منتهون﴾ [المائدة: ٩١] أي: انتهوا، ﴿فإن أسلموا فقد اهتدوا﴾، فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية فقال أهل الكتاب: أسلمنا، فقال لليهود: أتشهدون أن عزيراً عبده ورسوله؟ فقالوا: معاذ الله أن يكون عزير عليه السلام عبداً، وقال للنصارى: أتشهدون أن عيسى كلمة الله وعبدته ورسوله؟ قالوا: معاذ الله أن يكون عيسى عبداً، فقال الله عز وجل: ﴿وإن تولوا فإنما عليك البلاغ﴾ أي: تبليغ الرسالة، وليس عليك الهداية، ﴿والله بصير بالعباد﴾، عالم بمن يؤمن وبمن لا يؤمن.

قوله تعالى: ﴿إن الذين يكفرون بآيات الله﴾، يجحدون بآيات الله، يعني: القرآن، وهم اليهود والنصارى، ﴿ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس﴾، قرأ حمزة (ويقاتلون الذين يأمرون) بألف، قال ابن جريج: كان الوحي يأتي على أنبياء بني إسرائيل ولم يكن يأتيهم كتاب الله فيذكرون قومهم فيقتلون أنبياءهم، فيقوم رجال ممن تبعهم وصدقهم فيذكرون قومهم فيقتلون أيضاً فهم الذين يأمرون بالقسط من الناس. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحق الثعلبي، أنا أبو عبد الله الحسين بن محمد فنجويه الديوري، أنا أبو نصر منصور بن جعفر النهاوندي، أنا أحمد بن يحيى بن الجارود أنا محمد بن عمرو بن حيّان أنا محمد بن

ويقتلون الذين يأمرُونَ بالقسط من الناس ﴿ إلى أن انتهى إلى قوله ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ ثم قال رسول الله ﷺ: يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة، فقام مائة واثنًا عشر رجلاً من عباد بني إسرائيل فأمرُوا من قتلهم بالمعروف ونهواهم عن المنكر فقتلهم جميعاً من آخر النهار في ذلك اليوم فهم الذين ذكرهم الله في كتابه وأنزل الآية فيهم ﴿ فبشّرهم بعذابٍ أليم ﴾ إنما دخلت الفاء في قوله فبشّرهم مع أنه خبر إن لأنه في معنى الجزاء والتقدير من كفر فبشّرهم بعذاب أليم يوم القيامة، وهذا محمول على الاستعارة وهو أن إنذار الكفار بالعذاب قام مقام بشرى المحسنين بالثواب، وفي هذه الآية توبيخ لليهود الذين كانوا في زمن رسول الله ﷺ وإن كان أسلافهم الذين قتلوا الأنبياء لأنهم رضوا بفعلهم ﴿ أولئك الذين حبّطت ﴾ أي بطلت ﴿ أعمالهم في الدنيا والآخرة ﴾ وبطلان العمل هو أن لا يقبل في الدنيا ولا يجازى عليه في الآخرة ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ يعني يمنعونهم من العذاب. قوله عز وجل: ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ﴾ أنزلت في اليهود ﴿ يدعون إلى كتاب الله ﴾ يعني القرآن، وذلك أن اليهود دعوا إلى حكم القرآن فأعرضوا عنه. قال ابن عباس: إن الله جعل القرآن حكماً فيما بينهم وبين رسول الله ﷺ، فحكم القرآن على اليهود والنصارى أنهم على غير الهدى فأعرضوا عنه. وروى عن ابن عباس أيضاً أن رسول الله ﷺ دخل بيت المدارس على جماعة من اليهود فدعاهم إلى الله عز وجل فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد على أي دين أنت يا محمد؟ فقال: على ملة إبراهيم. قال: إن إبراهيم كان يهودياً فقال رسول الله ﷺ: هلموا إلى التوراة فهي بيننا وبينكم فأبيا عليه فأنزل الله

حمير أنا أبو الحسن مولى بني أسد عن مكحول عن قبيصة بن ذؤيب الخزاعي عن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قال: قلت لرسول الله ﷺ أي الناس أشدّ عذاباً يوم القيامة؟ قال: «رجل قتل نبياً أو رجلاً أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرُونَ بالقسط من الناس ﴾، إلى أن انتهى إلى قوله: ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾، ثم قال رسول الله ﷺ: يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة، فقام مائة واثنًا عشر رجلاً من عباد بني إسرائيل فأمرُوا من قتلهم بالمعروف ونهواهم عن المنكر، فقتلهم جميعاً في آخر النهار في ذلك اليوم، فهم الذين ذكرهم الله في كتابه وأنزل الآية فيهم، ﴿ فبشّرهم ﴾، أخبرهم ﴿ بعذابٍ أليم ﴾، وجميع، وإنما أدخل الفاء على الباء في خبر ﴿ إن ﴾ لتضمن الدين معنى الشرط والجزاء، لأن تقديره: الذين يكفرون ويقتلون فبشّرهم، لأنه لا يقال: إن زيد فقتلهم.

﴿ أولئك الذين حبّطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين ﴾، وبطلان العمل في الدنيا أن لا يقبل وفي الآخرة أن لا يجازى عليه.

قوله تعالى: ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ﴾، يعني: اليهود، ﴿ يدعون إلى كتاب الله ﴾، اختلفوا في هذا الكتاب، فقال قتادة: هم اليهود دعوا إلى حكم القرآن فأعرضوا عنه، وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: إن الله تعالى جعل القرآن حكماً فيما بينهم وبين رسول الله ﷺ فحكم القرآن على اليهود والنصارى: أنهم على غير الهدى، فأعرضوا عنه، وقال الآخرون: هو التوراة. وروى سعيد بن جبيرة وعكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دخل رسول الله ﷺ بيت المدارس على جماعة من اليهود فدعاهم إلى الله عز وجل، فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد: على أي دين أنت يا محمد؟ فقال: على ملة إبراهيم، فقالا: إن إبراهيم كان يهودياً، فقال رسول الله ﷺ: «فهلّموا إلى التوراة، فهي بيننا وبينكم»، فأبيا عليه، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً وامرأة من أهل خيبر زنيا،

الآية. فعلى هذا القول يكون المراد بكتاب الله التوراة. وروي عنه أيضاً أن رجلاً وامرأة من أهل خير زنيا وكان في كتابهم الرجم فكرهوا رجمهما لشرفهما فيهم فرفعوا أمرهما إلى رسول الله ﷺ ورجوا أن تكون عنده رخصة فحكم عليهما بالرجم. فقال النعمان بن أوفى وبحري بن عمرو: جرت عليهما يا محمد وليس عليهما الرجم. فقال رسول الله ﷺ: «بيني وبينكم التوراة» فقالوا: قد أنصفت. فقال من أعلمكم بالتوراة؟ فقالوا رجل أعور يقال له عبدالله بن سوريا يسكن فذك فأرسلوا إليه فقدم المدينة وكان جبريل قد وصفه للنبي ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «أنت ابن سوريا؟ قال: نعم قال: أنت أعلم اليهود بالتوراة. قال: كذلك يزعمون. فدعا رسول الله ﷺ بالتوراة وقال له: اقرأ فقرأ فلما أتى على آية الرجم وضع يده عليها وقرأ ما بعدها فقال عبدالله بن سلام: يا رسول الله قد جاوزها ثم قام ورفع كفه عنها وقرأها على رسول الله ﷺ وعلى اليهود وفيها: أن المحصن والمحصنة إذا زنيا وقامت عليهما البينة رجماً، وإن كانت المرأة حبلى تربص بها حتى تضع ما في بطنها، فأمر رسول الله ﷺ باليهوديين فرجما فغضبت اليهود لذلك فأنزل الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِنَ الْكِتَابِ﴾ يعني علمهم الذي علموه من التوراة يدعون إلى كتاب الله يعني القرآن أو التوراة على اختلاف الروايتين ﴿ليحكم بينهم﴾ أي ليقضي بينهم وإضافة الحكم إلى الكتاب هو على سبيل المجاز ﴿ثم يتولى فريق منهم﴾ يعني الرؤساء والعلماء ﴿وهم معرضون﴾ يعني عن الحق وقيل الذين تولوا هم العلماء، والذين أعرضوا هم الأتباع.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلُوكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلُوكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾

﴿ذلك بأنهم﴾ يعني ذلك التولي والإعراض إنما حصل بسبب أنهم ﴿قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات﴾ تقدم تفسيره في سورة البقرة ﴿وغرهم﴾ أي وأطمعهم ﴿في دينهم ما كانوا يفترون﴾ أي يحلفون ويكذبون قيل: هو

وكان في كتابهم الرجم فكرهوا رجمهما لشرفهما فيهم، فرفعوا أمرهم إلى رسول الله ﷺ ورجوا أن يكون عنده رخصة، فحكم عليهما بالرجم، فقال له النعمان بن أوفى وبحري بن عمرو: جرت عليهما يا محمد ليس عليهما الرجم، فقال رسول الله ﷺ: «بيني وبينكما التوراة»، فقالوا: قد أنصفتنا، قال: «فمن أعلمكم بالتوراة؟ قالوا: رجل أعور يسكن فذك يقال له ابن سوريا، فأرسلوا إليه فقدم المدينة وكان جبريل قد وصفه لرسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «أنت ابن سوريا»، قال: نعم، قال: «أنت أعلم اليهود؟ قال: كذلك يزعمون، قال: فدعا رسول الله ﷺ بشيء من التوراة فقال له: «اقرأ»، فلما أتى على آية الرجم وضع كفه عليها، وقرأ ما بعدها على رسول الله ﷺ، فقال عبد الله بن سلام: يا رسول الله قد جاوزها، فقام ورفع كفه عنها، ثم قرأ على رسول الله ﷺ وعلى اليهود بأن المحصن والمحصنة إذا زنيا وقامت عليهما البينة رجماً، وإن كانت امرأة حبلى تربص ما في بطنها، فأمر رسول الله ﷺ باليهوديين فرجما فغضبت اليهود لذلك وانصرفوا، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِنَ الْكِتَابِ﴾ التوراة (حظاً من الكتاب) ﴿يدعون إلى كتاب الله﴾ ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون.

﴿ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات، وغرهم في دينهم﴾، والغرور: هو الأطماع فيما لا

قولهم نحن أبناء الله وأحباؤه وقيل: هو قولهم: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات وقيل غرهم قولهم نحن على الحق وأنتم على الباطل ﴿فكيف إذا جمعناهم﴾ أي فكيف يكون حالهم إذا جمعناهم ﴿ليوم﴾ أي في يوم ﴿لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت﴾ أي لا شك فيه أنه كائن وواقع وهو يوم القيامة، وفيه تهديد لهم واستعظام لما أعد لهم في ذلك اليوم، وأنهم يقعون فيما لا حيلة لهم فيه وإن ما حدثوا به أنفسهم وسهلوه عليها تعلل بباطل وطمع فيما لا يكون ولا يحصل لهم. قيل: إن أول راية ترفع لأهل الموقف من رايات الكفار راية اليهود تفضحهم على رؤوس الأشهاد ثم يؤمر بهم إلى النار ﴿وهم لا يظلمون﴾ أي لا ينقص من حسناتهم إن كانت لهم حسنة ولا يزداد على سيئاتهم. قوله عز وجل: ﴿قل اللهم مالك الملك﴾ قال قتادة: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ دعا ربه عز وجل أن يجعل ملك فارس والروم في أمته فأنزل الله هذه الآية. وقال ابن عباس: لما فتح رسول الله ﷺ مكة وعد أمته ملك فارس والروم، فقال المنافقون واليهود: هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم وهم أعز وأمنع من ذلك ألم يكف محمداً مكة والمدينة حتى طمع في ملك فارس والروم؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقيل: إن اليهود قالوا: والله لا نطيع رجلاً جاء ينقل النبوة من بني إسرائيل إلى غيرهم فنزلت هذه الآية ﴿قل اللهم﴾ معناه يا الله لما حذف حرف النداء زيد الميم في آخره. وقيل: إن الميم فيه معنى آخر وهو يا الله أمنا بخير أي أقصدنا مالك الملك أي مالك العباد وما ملكوا. وقيل: مالك السموات والأرض، وقيل معناه بيده الملك يؤتيه من يشاء وقيل: معناه مالك الملوك ووارثهم يوم لا يدعي الملك أحد غيره. وفي بعض كتب الله المنزلة أنا الله ملك الملوك ومالك الملك قلوب الملوك ونواصيهم بيدي، فإن العباد أطاعوني جعلتهم عليهم رحمة، وإن هم عصوني جعلتهم عليهم عقوبة فلا تشتغلوا بسبب الملوك ولكن توبوا إلى أعطفهم عليكم. وقيل: الملك هو القدرة والمالك هو القادر. والمعنى أنه تعالى قادر على كل شيء، وملك على كل مالك، ومملوك وقادر ومقدور. وقيل: معناه مالك الملك أي جنس الملك يتصرف فيه كيف يشاء ﴿تؤتي الملك من تشاء﴾ يعني النبوة لأنها أعظم مراتب الملك، وذلك لأن النبي ﷺ

يحصل منه شيء، ﴿ما كانوا يفترون﴾، والافتراء: اختلاق الكذب.

قوله تعالى: ﴿فكيف إذا جمعناهم﴾، أي: فكيف حالهم أو كيف يصنعون إذا جمعناهم، ﴿ليوم لا ريب فيه﴾، وهو يوم القيامة ﴿ووفيت﴾، وفرت ﴿كل نفس ما كسبت﴾ أي: جزاء ما كسبت من خير أو شر ﴿وهم لا يظلمون﴾ أي: لا ينقص من حسناتهم ولا يزداد على سيئاتهم.

قوله تعالى: ﴿قل اللهم مالك الملك﴾، قال قتادة: ذكر لنا أن النبي ﷺ سأل ربه أن يجعل ملك فارس والروم في أمته فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقال ابن عباس رضي الله عنه وأنس بن مالك رضي الله عنه: لما فتح رسول الله ﷺ مكة وعد أمته ملك فارس والروم، قال المنافقون واليهود: هيهات هيهات من أين لمحمد ﷺ ملك فارس والروم؟ وهم أعز وأمنع من ذلك، ألم يكف محمداً مكة والمدينة حتى طمع في ملك فارس والروم، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿قل اللهم﴾ قيل: معناه يا الله، فلما حذف حرف النداء زيد الميم في آخره، وقال قوم: للميم فيه معنى، ومعناها اللهم أمنا بخير، أي: أقصدنا، حذف منه حرف النداء، كقولهم هلم إلينا، كان أصله هل أم إلينا، ثم كثرت في الكلام فحذفت الهمزة استخفافاً وربما خففوا أيضاً فقالوا: لا هم، قوله: ﴿مالك الملك﴾، يعني: يا مالك الملك، أي: مالك العباد وما ملكوا، وقيل: يا ملك السموات والأرض، وقال الله تعالى في بعض الكتب: «أنا الله ملك الملوك ومالك الملوك قلوب الملوك ونواصيهم بيدي، فإن العباد أطاعوني جعلتهم عليهم رحمة وإن عصوني جعلتهم عليهم عقوبة، فلا تشتغلوا بسبب الملوك، ولكن توبوا إلي أعطفهم عليكم». قوله تعالى: ﴿تؤتي الملك من تشاء﴾، قال مجاهد وسعيد بن جبير: يعني ملك النبوة، وقال الكلبي: تؤتي الملك من

له الأمر على بواطن الخلق وظواهرهم، والملك ليس له الأمر إلا على ظواهر بعض الخلق وهو من يطيعه منهم وطاعة النبي واجبة على الكافة ﴿وتنزع الملك ممن تشاء﴾ يعني بذلك نزع النبوة من بني إسرائيل وإيتاءها محمداً ﷺ فإنه لا نبي بعده ولم يشركه في نبوته ورسالته أحد، وقيل: تؤتي الملك من تشاء يعني محمداً ﷺ وأصحابه وتنزع الملك ممن تشاء، يعني من أبي جهل وصناديد قريش وقيل تؤتي الملك من تشاء يعني أمة محمد ﷺ وتنزع الملك ممن تشاء يعني فارس والروم. وقيل: تؤتي الملك من تشاء يعني آدم وذريته وتنزع الملك ممن تشاء يعني إبليس وجنوده الذين كانوا في الأرض قبل آدم. ﴿وتعز من تشاء﴾ يعني محمداً ﷺ بالنبوة والرسالة ﴿وتذل من تشاء﴾ يعني اليهود بأخذ الجزية منهم ونزع النبوة عنهم، وقيل: تعز المهاجرين والأنصار، وتذل فارس والروم، وقيل: تعز من تشاء يعني محمداً وأصحابه دخلوا مكة في عشرة آلاف ظاهرين عليها، وتذل من تشاء يعني أبا جهل وأضرابه حين قتلوا وألقوا في قليب بدر يوم بدر، وقيل: تعز من تشاء بالطاعة وتذل من تشاء بالمعصية، وقيل: تعز من تشاء بالغنى وتذل من تشاء بالفقر، وقيل: تعز من تشاء بالقناعة والرضا، وتذل من تشاء بالحرص والطمع ﴿بيدك الخير﴾ يعني النصر والغنيمة. وقيل: الألف واللام تفيد العموم والمعنى بيدك كل الخيرات. فإن قلت: كيف قال بيدك الخير دون الشر. قلت: لأن الكلام إنما وقع في الخير الذي يسوقه الله تعالى إلى عباده المؤمنين وهو الذي أنكرته اليهود والمنافقون فقال: بيدك الخير تؤتيه أولياءك على رغم أعدائك. وقيل: إن قوله بيدك الخير لا ينافي أن يكون بيد غيره، فيكون المعنى بيدك الخير وبيدك ما سواه إلا أنه خص الخير بالذكر لأنه المنتفع به والمرغوب فيه. ﴿إنك على كل شيء قدير﴾ يعني من إيتاء الملك من تشاء، وإعزاز من تشاء وإذلال من تشاء.

تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ

نَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى: ﴿تولج الليل في النهار﴾ الآية. لما ذكر الله تعالى أنه مالك الملك أردفه بذكر قدرته الباهرة في حال الليل والنهار، وفي المعاقبة بينهما وحال إخراج الحي من الميت ثم عطف عليه أنه يرزق من يشاء بغير

تشاء محمداً وأصحابه، ﴿وتنزع الملك ممن تشاء﴾ أبي جهل وصناديد قريش، وقيل: تؤتي الملك من تشاء: العرب، وتنزع الملك ممن تشاء: فارس والروم، وقال السدي: تؤتي الملك من تشاء، آتى الله الأنبياء عليهم السلام الملك وأمر العباد بطاعتهم، وتنزع الملك ممن تشاء، نزع من الجبارين، وأمر العباد بخلافهم، وقيل: تؤتي الملك من تشاء: آدم وولده، وتنزع الملك ممن تشاء: إبليس وجنوده، وقوله تعالى: ﴿وتعز من تشاء وتذل من تشاء﴾، قال عطاء: تعز من تشاء المهاجرين والأنصار، وتذل من تشاء: فارس والروم، وقيل: تعز من تشاء محمداً ﷺ وأصحابه، حتى دخلوا مكة في عشرة آلاف ظاهرين عليها، وتذل من تشاء أبا جهل وأصحابه، حتى جُزَّت رؤوسهم وألقوا في القليب، وقيل: تعز من تشاء: بالإيمان والهداية. وتذل من تشاء: بالكفر والضلالة، وقيل: تعز من تشاء بالطاعة، وتذل من تشاء بالمعصية، وقيل: تعز من تشاء بالنصر، وتذل من تشاء بالقهر، وقيل: تعز من تشاء بالغنى، وتذل من تشاء بالفقر، وقيل: تعز من تشاء بالقناعة والرضى، وتذل من تشاء بالحرص والطمع، ﴿بيدك الخير﴾ أي: بيدك الخير والشر فاكثفي بذكر أحدهما. قال تعالى: ﴿سرابيل تقيكم الحر﴾ [النحل: ٨١] أي: الحر والبرد، فاكثفي بذكر أحدهما. ﴿إنك على كل شيء قدير﴾.

قوله تعالى: ﴿تولج الليل في النهار﴾، أي: تدخل الليل في النهار، حتى يكون النهار خمس عشرة ساعة والليل تسع ساعات، ﴿وتولج النهار في الليل﴾، حتى يكون الليل خمس عشرة ساعة، والنهار تسع ساعات، فما

حساب، وفي ذلك دلالة على أن من قدر على تلك الأفعال العظيمة المحيرة لذوي الأفهام والعقول، فهو قادر أن ينزع الملك من فارس والروم واليهود ويؤتيه العرب ويعزهم فقله تعالى: ﴿تولج الليل في النهار﴾ يعني تدخل الليل في النهار وهو أن تجعل الليل قصيراً وما نقص منه زائداً في النهار حتى يكون النهار خمس عشرة ساعة ذلك غاية طول النهار، ويكون الليل تسع ساعات وذلك غاية قصر الليل. ﴿وتولج النهار في الليل﴾ حتى يكون الليل خمس عشرة ساعة وذلك غاية طوله، ويكون النهار تسع ساعات وذلك غاية قصره. وقيل: المراد أنه تعالى يأتي بسواد الليل عقيب ضوء النهار، ويأتي بضوء النهار بعد ظلمة الليل والقول الأول أصح وأقرب إلى معنى الآية لأنه إذا نقص الليل كان ذلك القدر زيادة في النهار وبالعكس وهو معنى الولوج. ﴿وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي﴾ وهو أنه تعالى يخرج الإنسان الحي من النطفة وهي ميتة، ويخرج النطفة من الإنسان ويخرج الفرج وهو حي من البيضة وهي ميتة وبالعكس، وكذلك سائر الحيوان. وقيل: يخرج النبات الغض الأخضر من الحب اليابس، ويخرج النخلة من النواة وبالعكس. وقيل: معناه أنه تعالى يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن لأن المؤمن حي الفؤاد، والكافر ميتة ﴿وترزق من تشاء بغير حساب﴾ يعني من غير تضيق ولا تقتير، بل تبسط الرزق لمن تشاء وتوسع عليه. قوله عز وجل: ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ قال ابن عباس: كان الحجاج بن عمرو وابن أبي الحقيق وقيس بن زيد يبطنون بنفراً من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم فقال رفاعة بن المنذر وعبدالله بن جبير وسعيد بن خيثمة لأولئك نفر: اجتنبوا هؤلاء اليهود لا يفتنونكم عن دينكم، فأبى أولئك نفر إلا مباظنتهم فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقيل: نزلت في حاطب بن أبي بلتعة وغيره ممن كان يظهر المودة لكفار مكة. وقيل: نزلت في عبدالله بن أبي وأصحابه كانوا يتولون المشركون واليهود ويأتونهم بالأخبار ويرجون أن يكون لهم الظفر على رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ونهى المؤمنين عن مثل ذلك.

نقص من أحدهما زاد في الآخر، ﴿وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي﴾، قرأ أهل المدينة وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿الميت﴾ بتشديد الياء ههنا وفي [الأنعام: ٩٥] و[يونس: ٣١] و[الروم: ١٩] وفي قوله: ﴿لبلد ميت﴾ [الأعراف: ٥٧] وفي قوله: ﴿إلى بلد ميت﴾ [فاطر: ٩] زاد نافع ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه﴾ [الأنعام: ١٢٢] و﴿لحم أخيه ميتاً﴾ [الحجرات: ١٢] و﴿الأرض الميتة أحييناها﴾ [يس: ٣٣] فشددوها، والآخرين يخففونها، وشدد يعقوب ﴿يخرج الحي من الميت﴾ و﴿لحم أخيه ميتاً﴾ [الحجرات: ١٢] قال ابن مسعود وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة: معنى الآية يخرج الحيوان من النطفة وهي ميتة، ويخرج النطفة من الحيوان، وقال عكرمة والكلبي: تخرج الحي من الميت، أي: الفرج من البيضة وتخرج البيض من الطير، وقال الحسن وعطاء: يخرج المؤمن من الكافر ويخرج الكافر من المؤمن، والمؤمن حي الفؤاد والكافر ميت الفؤاد، قال الله تعالى: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه﴾ [الأنعام: ١٢٢] وقال الزجاج: يخرج النبات الغض الطري من الحب اليابس، ويخرج الحب اليابس من النبات الحي النامي. ﴿وترزق من تشاء بغير حساب﴾ من غير تضيق ولا تقتير. أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن محمد الحنفي، أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري، أنا أبو جعفر عبد الله بن إسماعيل بن إبراهيم الهاشمي، أنا محمد بن علي بن زيد الصائغ، أنا محمد بن أزهر، أنا الحارث بن عمير، أنا جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن فاتحة الكتاب وآية الكرسي والآيتين من آل عمران ﴿شهد الله﴾ إلى قوله: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾، ﴿وقل اللهم مالك الملك﴾ إلى قوله: ﴿بغير حساب﴾ مشفعات معلقات بالعرش ما بينهما وبين الله عز وجل حجاب، قلن: يا رب تهبطنا إلى أرضك وإلى من يعصيك؟ قال الله عز وجل: بي حلفت لا يقرأ أحد من عبادي دُبر كل صلاة إلا

وقيل: إن عبادة بن الصامت كان له حلفاء من اليهود فقال يوم الأحزاب: يا رسول الله إن معي خمسمائة من اليهود وقد رأيت أن أستظهر بهم على العدو فنزلت هذه الآية. وقوله: .

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَكُمْ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾

﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء﴾ يعني أنصاراً وأعواناً من دون المؤمنين يعني من غير المؤمنين، والمعنى لا يجعل المؤمن ولايته لمن هو غير مؤمن نهى الله المؤمنين أن يوالوا الكفار أو يلاطفوهم لقراءة بينهم أو محبة أو معاشرة، والمحبة في الله والبغض في الله باب عظيم وأصل من أصول الإيمان ﴿ومن يفعل ذلك﴾ يعني موالاة الكفار من نقل الأخبار إليهم وإظهار عورة المسلمين أو يودهم ويحبهم ﴿فليس من الله في شيء﴾ أي فليس من دين الله في شيء. وقيل: معناه فليس من ولاية الله في شيء وهذا أمر معقول من أن ولاية المولى معاداة أعدائه وموالاة الله وموالاة الكفار ضدان لا يجتمعان ﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾ أي إلا أن تخافوا منهم مخافة. ومعنى الآية أن الله نهى المؤمنين عن موالاة الكفار ومداختهم ومبايعةهم إلا أن يكون الكفار غاليين ظاهرين، أو يكون المؤمن في قوم كفاراً فيداهنهم بلسانه وقلبه مطمئن بالإيمان دفعاً عن نفسه من غير أن يستحل دماً حراماً أو مالاً حراماً أو غير ذلك من المحرمات، أو يظهر الكفار على عورة المسلمين، والتقية لا تكون إلا مع خوف القتل مع سلامة النية قال الله تعالى: ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ ثم هذه التقية رخصة فلو صبر على إظهار إيمانه حتى قتل كان له بذلك أجر عظيم، وأنكر قوم التقية اليوم وقالوا: إنما كانت التقية في جدة الإسلام قبل استحكام الدين وقوة المسلمين، فأما اليوم فقد أعز الله الإسلام والمسلمين فليس لأهل الإسلام أن يتقوا من عدوهم. قال يحيى البكاء:

جعلت الجنة مثواه على ما كان فيه وأسكتته في حظيرة القدس، ونظرت إليه بعيني المكنونة، وقضيت له كل يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة، وأعدت له من كل عدو وحاسد، ونصرته عليهم». رواه الحارث بن عمر وهو ضعيف. قوله عز وجل: ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾، قال ابن عباس رضي الله عنه: كان الحجاج بن عمرو وابن أبي الحقيق وقيس بن زيد ييطنون بنفر من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم، فقال رفاعة بن المنذر وعبد الله بن جبير وسعيد بن خيثمة لأولئك النفر: اجتنبوا هؤلاء اليهود لا يفتنونكم عن دينكم، فأبى أولئك النفر إلا مبايعةهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقال مقاتل: نزلت في حاطب بن أبي بلتعة وغيره، وكانوا يظهرون المودة لكفار مكة، وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في المنافقين: عبد الله بن أبي وأصحابه كانوا يتولون اليهود والمشركين ويأتونهم بالأخبار، ويرجون أن يكون لهم الظفر على رسول الله ﷺ، فأنزل الله هذه الآية ونهى المؤمنين عن مثل فعلهم، قوله تعالى: ﴿ومن يفعل ذلك﴾ أي: موالاة الكفار في نقل الأخبار إليهم وإظهارهم على عورة المسلمين، ﴿فليس من الله في شيء﴾ أي: ليس من دين الله في شيء، ثم استثنى فقال: ﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾ يعني: إلا أن تخافوا منهم مخافة، قرأ مجاهد ويعقوب (تقية) على وزن بقية لأنهم كتبوها بالياء، ولم يكتبوها بالألف: مثل حصاة ونواة، وهي مصدر يقال: تقيت تقاة وتقى تقية وتقوى، فإذا قلت: اتقيت كان المصدر الاتقاء وإنما قال تتقوا من الاتقاء، ثم قال: تقاة ولم يقل: اتقاء لأن معنى اللفظين إذا كان واحداً يجوز إخراج مصدر أحدهما على لفظ الآخر، كقوله تعالى: ﴿وتبتل إليه تبتلاً﴾ [المزمل: ٨] ومعنى الآية: إن الله تعالى نهى المؤمنين عن موالاة الكفار ومداختهم ومبايعةهم، إلا أن يكون الكفار غاليين ظاهرين أو يكون المؤمن، في قوم كفار يخافهم فيداريهم باللسان، وقلبه مطمئن بالإيمان دفعاً عن نفسه من

الأجل والغاية، وقيل معناه تود أنها لم تعمله ويكون بينها وبينه أمد بعيد ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ إنما كرره لتأكيد الوعيد ﴿والله رؤوف بالعباد﴾ قيل: معناه أنه رؤوف بهم حيث حذرهم نفسه وعرفهم كمال قدرته وعلمه، وأنه يمهّل ولا يهمل. وقيل: معناه أنه رؤوف بالعباد حيث أمهلهم للتوبة ولتدارك العمل الصالح. وقيل: إنه تعالى لما قال: ويحذركم الله نفسه وهو وعيد أتبعه بقوله والله رؤوف بالعباد، وهو وعد ليعلم العبد المؤمن أن رحمته ووعد غلبت وعيده وسخطه. قوله عز وجل:

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾

﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ نزلت في اليهود والنصارى حيث قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه فنزلت هذه الآية، فعرضها رسول الله ﷺ عليهم فلم يقبلوها. وقال ابن عباس: وقف رسول الله ﷺ على قريش وهم في المسجد الحرام وقد نصبوا أصنامهم وعلقوا عليها بيض النعام وجعلوا في آذانها الشنوف وهم يسجدون لها فقال: يا معشر قريش والله لقد خالفتكم ملة أبيكم إبراهيم وإسماعيل فقالت قريش: إنما نعبدها حباً لله لتقرينا إلى الله زلفى فنزلت هذه الآية. وقيل: إن نصارى نجران قالوا: إنما نقول هذا القول في عيسى حباً لله وتعظيماً له فأنزل الله ﴿قل يا محمد إن كنتم تحبون الله﴾ فيما تزعمون فاتبعوني يحببكم الله لأنه قد ثبت نبوة محمد ﷺ بالدلائل الظاهرة والمعجزات الباهرة فوجب على كافة الخلق متابعتة. والمعنى قل: إن كنتم صادقين في ادعاء محبة الله فكونوا منقادين لأوامره مطيعين له فاتبعوني، فإن اتباعي من محبة الله تعالى وطاعته. وقال العلماء: إن محبة العبد لله عبارة عن إعظامه وإجلاله وإيثار طاعته واتباع أمره ومجانبة نهيه، ومحبة الله للعبد ثناؤه عليه ورضاه عنه وثوابه له وعفوه عنه فذلك قوله تعالى: ﴿ويغفر لكم ذنوبكم﴾ يعني أن من غفر له فقد أزال عنه العذاب ﴿والله غفور رحيم﴾ يعني أنه تعالى يغفر ذنوب من أحبه ويرحمه بفضل وكرمه، ولما نزلت هذه الآية قال

تجد محضراً ما عملت من الخير والشر، فتسر بما عملت من الخير، وجعل بعضهم خيراً مستأنفاً، ودليل هذا التأويل قراءة ابن مسعود رضي الله عنهما ﴿وما عملت من سوء ودت لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً﴾ قوله تعالى: ﴿تود لو أن بينها﴾ أي: بين النفس وبينه يعني وبين السوء ﴿أمداً بعيداً﴾ قال السدي: مكاناً بعيداً، وقال مقاتل: كما بين المشرق والمغرب والأمد والأجل، والغاية التي ينتهي إليها، وقال الحسن: يسر أحدهم أن لا يلقي عمله أبداً وقيل: يود أنه لم يعمل له ﴿ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد﴾.

﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾، نزلت في اليهود والنصارى حيث قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، وقال الضحّاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: (وقف النبي ﷺ على قريش وهم في المسجد الحرام وقد نصبوا أصنامهم وعلقوا عليها بيض النعام وجعلوا في آذانها الشنوف وهم يسجدون لها، فقال: والله يا معشر قريش لقد خالفتكم ملة أبيكم إبراهيم وإسماعيل، فقالت له قريش: إنما نعبدها حباً لله ليقربونا إلى الله زلفى)، فقال الله تعالى: قل لهم يا محمد إن كنتم تحبون الله وتعبدون الأصنام ليقربوكم إليه، فاتبعوني يحببكم الله، فأنا رسوله إليكم وحبته عليكم، اتبعوا شريعتي وسنتي يحببكم الله، فحب المؤمنين لله اتباعهم أمره وإيثار طاعته، وابتغاء مرضاته؛ وحب الله للمؤمنين ثناؤه عليهم وثوابه لهم وعفوه عنهم، فذلك قوله تعالى: ﴿ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم﴾، قيل: لما نزلت هذه الآية قال عبد الله بن أبي لأصحابه: إن محمداً يجعل طاعته كطاعة الله ويأمرنا أن نحبه كما أحببت النصارى عيسى ابن مريم، فنزل قوله تعالى:

عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين لأصحابه: إن محمداً يجعل طاعته كطاعة الله ويأمرنا أن نحبه كما أحببت النصارى عيسى ابن مريم فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ يعني أن طاعة الله متعلقة بطاعة رسول الله ﷺ فإن طاعته لا تتم مع عصيان رسول الله ﷺ ولهذا قال الشافعي رضي الله عنه: كل أمر أو نهى ثبت عن رسول الله ﷺ جرى ذلك في الفريضة واللزوم مجرى ما أمر الله به في كتابه أو نهى عنه، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: فإن طاعتكم لمحمد ﷺ طاعتكم لي، فأما أن تطيعوني وتعصوا محمداً فلن أقبل منكم. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي أعرضوا عن طاعة الله ورسوله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ أي لا يرضى فعلهم ولا يغفر لهم. (خ) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى قالوا: ومن أبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى». (ق) عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني». قوله عز وجل: .

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ٣٣ ذُرِّيَّةً بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ

عَلِيمٌ ٣٤ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٣٥

﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً﴾ قال ابن عباس: قالت اليهود: نحن من أبناء إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونحن على دينهم فأنزل الله هذه الآية. والمعنى أن الله اصطفى هؤلاء بالإسلام وأنتم يا معشر اليهود على غير دين الإسلام. ومعنى اصطفى اختار من الصفوة وهي الخالص من كل شيء آدم هو أبو البشر عليه السلام ونوحاً هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس عليه السلام. وحكى ابن الجوزي في تفسيره عن أبي سليمان الدمشقي أن اسم نوح السكن وإنما سمي نوحاً لكثرة نوحه على نفسه ﴿وآل إبراهيم﴾ قيل: أراد بآل إبراهيم

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾: أعرضوا عن طاعتهما، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾، لا يرضى فعلهم ولا يغفر لهم. أخبرنا عبد الواحد المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل، أنا محمد بن سنان أنا فليح أنا هلال بن علي عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل من أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى»، قالوا: ومن أبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»، أخبرنا عبد الواحد المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا محمد بن عبادة، أنا يزيد، أنا سليمان بن حيان وأثنى عليه، أنا سعيد بن ميناء قال: حدثنا أو سمعت جابر بن عبد الله يقول: جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: إن لصاحيكم هذا مثلاً فاضربوا له مثلاً، فقالوا: مثله كمثل رجل بنى داراً وجعل فيها مائدة وبعث داعياً، فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المائدة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المائدة، فقالوا: أولوها يفقهها فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: أما الدار: الجنة، وأما الداعي: محمد ﷺ، فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً فقد عصى الله، ومحمداً ﷺ فرق بين الناس.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا﴾ الآية، قال ابن عباس رضي الله عنهما: قالت اليهود نحن من أبناء إبراهيم وإسحق ويعقوب، ونحن على دينهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية، يعني: إن الله اصطفى هؤلاء بالإسلام، وأنتم على غير دين الإسلام. اصطفى: اختار، افتعل من الصفوة، وهي الخالص من كل شيء، آدم أبا البشر ونوحاً، ﴿وآل إبراهيم وآل عمران﴾، قيل: أراد بآل إبراهيم وآل عمران إبراهيم عليه السلام وعمران.

إبراهيم نفسه، وقيل آل إبراهيم إسماعيل وإسحاق ويعقوب وذلك أن الله تعالى جعل إبراهيم أصلاً لشعبتين فجعل إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام أصلاً للعرب ومحمد ﷺ منهم فهو داخل في هذا الاصطفاء، وجعل إسحاق أصلاً لبني إسرائيل، وجعل فيهم النبوة والملك إلى زمن نبينا محمد ﷺ ثم جمع له ولأمته النبوة والملك إلى يوم القيامة. وقيل: أراد بآل إبراهيم من كان على دينه ﴿وآل عمران﴾ واختلفوا في عمران هذا فقيل: هو عمران بن يصر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب وهو والد موسى وهارون فيكون آل عمران موسى وهارون أو نفسه، وقيل: هو عمران بن آشيم بن آمون وقيل: ابن ماثان وهو من ولد سليمان بن داود عليهما السلام وعمران هذا هو والد مريم وابنها عيسى فعلى هذا يكون المراد بآل عمران مريم وابنها عيسى عليه السلام، وإنما خص هؤلاء بالذكر لأن الأنبياء والرسل من نسلهم ﴿على العالمين﴾ أي اختارهم واصطفاهم على العالمين بما خصهم من النبوة والرسالة ﴿ذرية﴾ أي اصطفى ذرية وأصلها من ذراً بمعنى خلق وقيل: من الذر لأن الله تعالى استخرجهم من ظهر آدم كالذر وإنما سمي الآباء والأبناء ذرية لأن الله خلق بعضهم من بعض، فالأبناء من ذرية الآباء والآباء من ذرية آدم وهو ممن ذراه الله تعالى أي خلقه ﴿بعضها من بعض﴾ أي بعضها من ولد بعض وقيل: بعضها من بعض في التناسل والتعاقد وقيل: بعضها على دين بعض ﴿والله سميع عليم﴾ يعني أن الله تعالى سميع لأقوال العباد عليم بنياتهم وإنما يصطفي لنبوته ورسالته من يعلم استقامته قولاً وفعلًا.

قوله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ﴾ هي حنة بنت فاقودا أم مريم وعمران هو عمران بن ماثان وقيل: ابن آشيم وليس بعمران أبي موسى لأن بينهما ألفاً وثمانمائة سنة، وكان بنو ماثان رؤوس بني إسرائيل في ذلك الزمن وأجبارهم وملوكهم ﴿رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً﴾ أي جعلت الحمل الذي في بطني نذراً محرراً مني لك، والنذر ما يوجب الإنسان على نفسه، والمعنى محرراً أي عتيقاً خالصاً مفرغاً لعبادة الله وخدمة الكنيسة لا أشغله بشيء من أمور الدنيا. قيل: كان المحرر عندهم إذا حرر جعل في الكنيسة فيقوم عليها ويخدمها ولا يبرح

أنفسهما، كقوله تعالى: ﴿وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون﴾ [البقرة: ٢٤٨]، يعني: موسى وهارون، وقال آخرون: آل إبراهيم: إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وكان محمد ﷺ من آل إبراهيم عليه السلام، وأما آل عمران فقد قال مقاتل: هو عمران بن يصر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب عليه السلام، وآله: موسى وهارون، وقال الحسن وهب: هو عمران بن أشهم بن عمون من ولد سليمان بن داود عليهما السلام، وآله: مريم وعيسى، وقيل: عمران بن ماثان، وإنما خص هؤلاء بالذكر لأن الأنبياء والرسل كلهم من نسلهم، ﴿على العالمين﴾.

﴿ذُرِّيَّةٌ﴾، اشتقاقها من ذرا بمعنى خلق، وقيل: من الذر لأنه استخرجهم من صلب آدم كالذر، ويسمى الأولاد والآباء ذرية، فالأولاد ذرية، لأنه ذراهم، والآباء ذرية لأنه ذرا الأبناء منهم، قال الله تعالى: ﴿وآية لهم أنا حملنا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [يس: ٤١] أي: آباءهم، ﴿ذُرِّيَّةٌ﴾ نصب على معنى: واصطفى ذرية ﴿بعضها من بعض﴾ أي: بعضها من ولد بعض، وقيل: بعضها من بعض في التناسل، وقيل: بعضها على دين بعض، ﴿والله سميع عليم﴾.

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ﴾، وهي حنة بنت فاقودا أم مريم، وعمران: هو عمران بن ماثان، وليس بعمران أبي موسى عليه السلام، لأن بينهما ألفاً وثمانمائة سنة، وقيل كان بين إبراهيم وموسى عليهما السلام ألف سنة، وبين موسى وعيسى عليهما السلام ألفاً سنة، وكان بنو ماثان رؤوس بني إسرائيل وأجبارهم وملوكهم، وقيل: عمران بن أشهم، قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بطني مُحرراً﴾ أي: جعلت لك الذي في بطني محرراً نذراً مني

مقيماً فيها حتى يبلغ الحلم ثم يخير فإن أحب أقام فيها، وإن أحب ذهب حيث شاء، فإن اختار الخروج بعد أن اختار الإقامة في الكنيسة لم يكن له ذلك، ولم يكن أحد من أنبياء بني إسرائيل ومن علمائهم إلا ومن أولاده محرر لخدمة بيت المقدس، ولم يكن يحزر إلا الغلمان ولا تصلح الجارية لخدمة بيت المقدس لما يصيبها من الحيض والأذى فحررت أم مريم ما في بطنها، وكانت القصة في ذلك على ما ذكره أصحاب السير والأخبار أن زكريا وعمران تزوجا أختين فكانت إيشاع بنت فاقوذا وهي أم يحيى عند زكريا، وكانت حنة بنت فاقوذا أخت إيشاع عند عمران وهي أم مريم، وكان قد أمسك عن حنة الولد حتى أيست وكبرت وكانوا أهل بيت صالحين وهم من الله بمكان، فبينما هي في ظل شجرة إذ بصرت بطائر يطعم فرخاً فتحركت نفسها بذلك للولد، فدعت الله أن يهب لها ولداً وقالت: اللهم لك علي إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس، فيكون من سدنته وخدمه فلما حملت بمريم حررت ما في بطنها ولم تعلم ما هو فقال لها زوجها: ويحك ما صنعت أرايت إن كان ما في بطنك أنثى فلا تصلح لذلك فوقاً جميعاً في هم شديد من أجل ذلك. فمات عمران قبل أن تضع حنة حملها ثم قال تعالى حاكياً عنها ﴿فتقبل مني﴾ يعني فتقبل نذري، والتقبل أخذ الشيء على الرضا وأصله من المقابلة لأنه يقابل بالجزاء وهذا سؤال من لا يريد بما فعله إلا الطلب لرضا الله تعالى والإخلاص في دعائه وعبادته ﴿إنك أنت السميع﴾ يعني لتضرعي ودعائي ﴿العليم﴾ يعني بنيتي وما في ضميري. قوله عز وجل: .

فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾

﴿فلما وضعتها﴾ أي ولدت حملها وإنما قال: وضعتها لأنه كان في علم الله أنها جارية وكانت حنة ترجو أن يكون غلاماً ﴿قالت﴾ يعني حنة ﴿رب إنني وضعتها أنثى﴾ تريد بذلك اعتذار إلى الله من إطلاقها النذر المتقدم

لك، ﴿فتقبل مني إنك أنت السميع العليم﴾ والنذر ما يُوجِبُهُ الإنسان على نفسه محرراً أي: عتيقاً خالصاً لله مفرغاً لعبادة الله ولخدمة الكنيسة، لا أشغله بشيء من الدنيا، وكل ما أخلص فهو محرر، يقال: حررت العبد إذا أعتقته وخلصته من الرق، قال الكلبي ومحمد بن إسحق وغيرهما: كان المحرر إذا حرر جعل في الكنيسة يقوم عليها ويكتسبها ويخدمها ولا يبرحها حتى يبلغ الحلم، ثم يخير إن أحب أقام فيه وإن أحب ذهب حيث شاء، وإن أراد أن يخرج بعد التخيير لم يكن له ذلك، ولم يكن أحد من الأنبياء والعلماء إلا من نسله محرر لبيت المقدس، ولم يكن محرراً إلا الغلمان ولا تصلح له الجارية، لما يصيبها من الحيض والأذى، فحررت أم مريم ما في بطنها وكانت القصة في ذلك أن زكريا وعمران تزوجا أختين، وكانت إيشاع بنت فاقوذا أم يحيى عند زكريا، وكانت حنة بنت فاقوذا أم مريم عند عمران، وكان قد أمسك عن حنة الولد حتى أسنت وكانوا أهل بيت من الله بمكان، فبينما هي في ظل شجرة بصرت بطائر يطعم فرخاً فتحركت بذلك نفسها للولد، فدعت الله أن يهب لها ولداً وقالت: اللهم لك علي إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس، فيكون من سدنته وخدمه، فحملت بمريم فحررت ما في بطنها، ولم تعلم ما هو، فقال لها زوجها: ويحك ما صنعت أرايت إن كان ما في بطنك أنثى تصلح لذلك؟ فوقاً جميعاً في هم من ذلك، فهلك عمران وحنة حامل بمريم.

﴿فلما وضعتها﴾ أي: ولدتها، إذا هي جارية، والهاء في قوله: ﴿وضعتها﴾ راجعة إلى النذيرة لا إلى ما ﴿ولذلك أنت﴾، قالت ﴿حنة وكانت ترجو أن يكون غلاماً﴾، ﴿رب إنني وضعتها أنثى﴾ اعتذاراً إلى الله عز

فذكرت ذلك على سبيل الاعتذار لا على سبيل الإعلام، لأن الله تعالى عالم بما في بطنها قبل أن تضعه ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ قرئ بجزم التاء إخباراً عن الله تعالى والمعنى أنه تعالى قال: والله أعلم بالشيء الذي وضعت. وقرئ وضعت برفع التاء وهو من كلام أم مريم على تقدير أنها لما قالت رب: إني وضعتها أنثى خافت أن تكون أخبرت الله بذلك فأزالت هذه الشبهة بقولها والله أعلم بما وضعت ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾ يعني في خدمة الكنيسة والعباد الذين فيها، وفي الكلام تقديم وتأخير تقديره وليس الأنثى كالذكر، والمراد منه تفضيل الذكر على الأنثى لأن الذكر يصلح للخدمة للكنيسة ولا تصلح الأنثى لذلك لضعفها، وما يحصل لها من الحيض لأنها عورة ولا يجوز لها الحضور مع الرجال. وقيل: في معنى الآية: إن المراد منها هو تفضيل هذه الأنثى على الذكر كأنها قالت: كان الذكر مطلوباً لخدمة المسجد وهذه الأنثى هي موهوبة لله تعالى، وليس الذكر التي طلبت كالأنثى التي هي موهبة لله تعالى وكانت مريم من أجمل النساء وأفضلهن في وقتها ﴿وإني سميتها مريم﴾ يعني العابدة والخدمة وهو بلغتهم أرادت بهذه التسمية أن يفضلها الله على إناث الدنيا ﴿وإني أعيدها بك وذريتها﴾ أي أمنعها وأجيرها بك وذريتها ﴿من الشيطان الرجيم﴾ يعني اللعين الطريد وذلك أن حنة أم مريم لما فاتها ما كانت تطلب من أن يكون ولدها ذكراً، فإذا هي أنثى تضرعت إلى الله تعالى أن يحفظها ويعصمها من الشيطان الرجيم، وأن يجعلها من الصالحات العابدات. (ق) عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من بني آدم من مولود إلا نخسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً من نخسه إياه إلا مريم وابنها». ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم «وإني أعيدها بك وذريتها من الشيطان الرجيم». وللبخاري عنه قال: كل ابن آدم يطعن الشيطان في جنبه بأصبعه حين يولد غير عيسى ابن مريم ذهب ليطعن فطعن في الحجاب. قوله عز وجل:

فَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

﴿فتقبلها ربها بقبول حسن﴾ يعني أن الله تعالى تقبل مريم من حنة مكان الذكر المحرر بمعنى قبل ورضي.

وجلّ، ﴿والله أعلم بما وضعت﴾، بجزم التاء إخباراً عن الله تعالى عز وجلّ، وهي قراءة العامة وقرأ ابن عامر وأبو بكر ويعقوب ﴿وضعت﴾ برفع التاء جعلوها من كلام أم مريم، ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾، في خدمة الكنيسة والعباد الذين فيها للينها وضعفها وما يعتريها من الحيض والنفاس، ﴿وإني سميتها مريم﴾، وهي بلغتهم العابدة والخدمة، وكانت مريم من أجمل النساء في وقتها وأفضلهن، ﴿وإني أعيدها﴾ أمنعها وأجيرها، ﴿بك وذريتها﴾ أولادها ﴿من الشيطان الرجيم﴾، والشيطان الطريد اللعين والرجيم المرمى بالشهب، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو اليمان أنا شعيب، عن الزهري حدثني سعيد بن المسيب قال: قال أبو هريرة رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من بني آدم من مولود إلا يمسسه الشيطان حين يولد، فيستهل الصبي صارخاً من الشيطان، غير مريم وابنها»، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه ﴿وإني أعيدها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا أبو اليمان أنا شعيب عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبه بأصبعه حين يولد غير عيسى ابن مريم، ذهب يطعن فطعن في الحجاب».

قوله: ﴿فتقبلها ربها بقبول حسن﴾ أي: قبل الله مريم من حنة، مكان المحرر، وتقبل بمعنى: قبل ورضي،

قال الزجاج: الأصل في العربية تقبلها بتقبل ولكن قبول محمول على قبلها قبولاً كما يقال: قبلت الشيء قبولاً إذا رضيته. وقال أبو عمر: ليس في المصادر فعول بفتح الفاء إلا هذا ولم أسمع فيه الضم. قيل معنى التقبل والقبول واحد وهما سواء وهو أن يرى الشيء ويأخذه. وقيل معنى التكفل في التربية والقيام بشأنها، وإنما قال بقبول للجمع بين الأمرين يعني التقبل الذي بمعنى التكفل والقبول الذي بمعنى الرضا ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ معناه وأنبتها فنبتت هي نباتاً حسناً قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أي سلك بها طريق السعداء: ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ يعني سوى خلقها من غير زيادة ولا نقصان، فكانت تنبت في اليوم ما ينبت المولود في عام ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ قال أهل الأخبار: لما ولدت حنة مريم أخذتها فلفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأخبار أبناء هارون وهم يومئذ يلون من بيت المقدس ما تلي الحجة من الكعبة، وقالت: دونكم النذيرة فتنافس فيها الأخبار لأنها بنت إمامهم وصاحب قربانهم قال زكريا: أنا أحق بها لأن خالتها عندي فقالت له الأخبار لو تركت لأحق الناس بها لتركت لأمها التي ولدتها ولكننا نفتقر عليها فتكون عند من خرج سهمه بها، فانطلقوا وكانوا تسعة وعشرين رجلاً إلى نهر جار قيل: هو الأردن فألقوا أقلامهم في الماء على أن من ثبت قلمه في الماء وصعد فهو أولى بها من غيره وكان على كل قلم مكتوب اسم واحد منهم وقيل بل كانوا يكتبون التوراة فألقوا أقلامهم التي كانت بأيديهم فارتفع قلم زكريا فوق الماء ووقف وانحدرت أقلامهم ثم رسبت في النهر. وقيل جري قلم زكريا مصعداً إلى أعلى وجرت أقلامهم مع جري الماء إلى أسفل فسهمهم زكريا وقرعهم، وكان زكريا رأس الأخبار ونبهم فذلك قوله تعالى: وكفلها زكريا قرىء بتشديد الفاء ومعناه ضمنها الله زكريا وضمها إليه بالقرعة. وقرىء بتخفيف الفاء ومعناه ضمها زكريا إلى نفسه بالقرعة وقام بأمرها وهو زكريا بن أذن بن مسلم بن صدوق من أولاد سليمان بن داود عليهما السلام، فلما ضم زكريا مريم إلى نفسه بنى لها بيتاً واسترضع لها المراضع وقيل:

والقبُول: مصدر قَبِلَ يَقْبَلُ قَبُولًا، مثل الولوغ والزوغ، ولم يأت غير هذه الثلاثة، وقيل: معنى التقبُّل: التكفُّل في التربية والقيام بشأنها، ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾، معناه: وأنبتها فنبتت نباتاً حسناً، وقيل: هذا مصدر على غير الصدر، أي المصدر، وكذلك قوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾، ومثله سائغ كقوله: تكلمت كلاماً. وقال جرير عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: فتقبلها ربها بقبول حسن، أي: سلك بها طريق السعداء، وأنبتها نباتاً حسناً يعني: سوى خلقها من غير زيادة ولا نقصان، فكانت تنبت في اليوم ما ينبت المولود في العام، ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾، قال أهل الأخبار: أخذت حنة مريم حين ولدتها، فلفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد فوضعتها عند الأخبار أبناء هارون، وهم يومئذ يلون من بيت المقدس ما يلي الحجة من الكعبة، فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة، فتنافس فيها الأخبار لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم، فقال لهم زكريا: أنا أحقكم بها، عندي خالتها، فقالت له الأخبار: لا تفعل ذلك فإنها لو تركت لأحق الناس بها لتركت لأمها التي ولدتها. لكننا نفتقر عليها فتكون عند من خرج سهمه، فانطلقوا وكانوا تسعة وعشرين رجلاً إلى نهر جارٍ، قال السدي: هو نهر الأردن، فألقوا أقلامهم في الماء على أن من ثبت قلمه في الماء وصعد فهو أولى بها، وقيل: كان على كل قلم اسم واحد منهم، وقيل كانوا يكتبون التوراة فألقوا أقلامهم التي كانت بأيديهم في الماء فارتد قلم زكريا، فارتفع فوق الماء وانحدرت أقلامهم ورسبت في النهر، قاله محمد بن إسحق وجماعة، وقيل: جرى قلم زكريا مصعداً إلى أعلى الماء وجرت أقلامهم بجري الماء، وقال السدي وجماعة: بل ثبت قلم زكريا وقام فوق الماء كأنه في طين، وجرت أقلامهم في جرية الماء، فسهمهم وقرعهم زكريا، وكان رأس الأخبار ونبيهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾، قرأ حمزة وعاصم والكسائي ﴿كَفَّلَهَا﴾ بتشديد الفاء، فيكون زكريا في محل نصب أي: ضمنها الله وضمها إليه بالقرعة،

ضمها إلى خالتها أم يحيى حتى إذا شئت وبلغت مبلغ النساء بني لها محراباً في المسجد وجعل بابه في وسطه ولا يرقى إليه إلا بسلم ولا يصعد إليها غيره. وكان يأتيها بطعامها وشرابها كل يوم فذلك قوله تعالى: ﴿كَلِمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ يعني الغرفة والمحراب أشرف المجالس ومقدمها، وكذلك هو من المسجد وقيل: المحراب ما يرقى إليه بدرج. وقيل كان زكريا يغلق عليها سبعة أبواب فإذا دخل عليها المحراب ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ يعني فاكهة في غير وقتها فكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء ﴿قَالَ﴾ يعني زكريا ﴿يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا﴾ أي من أين لك هذه الفاكهة ﴿قَالَتْ﴾ يعني مريم محببة لزكريا ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يعني من الجنة. وقيل: إن مريم من حين ولدت لم تلقم ثدياً بل كان يأتيها رزقها من الجنة فيقول زكريا: يا مريم أنى لك هذا فتقول هو من عند الله تكلمت وهي صغيرة في المهد كما تكلم ولدها عيسى عليه السلام وهو صغير في المهد. وقال محمد بن إسحاق: أصابت بني إسرائيل أزمة وهي على ذلك من حالها حتى ضعف زكريا عن حملها وكفالتها فخرج على بني إسرائيل فقال: يا بني إسرائيل تعلمون والله لقد كبرت سني وضعفت عن حمل بنت عمران فأياكم يكفلها بعدي؟ فقالوا: والله لقد جهدنا وأصابنا من السنة ما ترى فتدافعوها بينهم ثم لم يجدوا من حملها بدأ فتقارعوا عليها بالأقلام فخرج السهم لرجل نجار يقال له يوسف بن يعقوب وكان ابن عم لمريم فحملها فعرفت مريم في وجهه شدة ذلك عليه. فقالت: يا يوسف أحسن بالله الظن فإن الله سيرزقنا، فصار يوسف يرزق لمكانها منه فكان يأتيها كل يوم من كسبه بما يصلحها إذا أدخله عليها في المحراب أنماه الله وزاده فيدخل زكريا عليها فيقول: يا مريم أنى لك هذا فتقول: هو من عند الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وهذا يحتمل أن يكون من تمام كلام مريم أو ابتداء كلام من الله عز وجل ومعناه أن الله تعالى يرزق من يشاء بغير تقدير لكثيره أو من غير سبب، وفي هذه الآية دليل على جواز كرامات الأولياء وظهور خوارق العادات على أيديهم قال أهل

وقرأ الآخرون بتخفيف فيكون زكريا في محل الرفع، أي: ضمها زكريا إلى نفسه وقام بأمرها، وهو زكريا بن أذن بن مسلم بن صدوق من أولاد سليمان بن داود عليهما السلام، وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿زَكَرِيَّا﴾ مقصوراً، والآخرون يمدونه، فلما ضم زكريا مريم إلى نفسه بنى لها بيتاً واسترضع لها، وقال محمد بن إسحق ضمها إلى خالتها أم يحيى حتى إذا شئت وبلغت مبلغ النساء، بنى لها محراباً في المسجد وجعل بابه في وسطها لا يرقى إليها إلا بالسلم مثل باب الكعبة لا يصعد إليها غيره، وكان يأتيها بطعامها وشرابها ودونها كل يوم، ﴿كَلِمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾، وأراد بالمحراب الغرفة، والمحراب أشرف المجالس ومقدمها، وكذلك هو من المسجد، ويقال للمسجد أيضاً محراب، وقال المبرد لا يكون المحراب إلا أن يرتقى إليه بدرجة، وقال الربيع بن أنس: كان زكريا إذا خرج يُغلق عليها سبعة أبواب، فإذا دخل عليها فتحها، ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ أي: فاكهة في غير حينها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف، ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا﴾، قال أبو عبيدة معناه: من أين لك هذا، وأنكر بعضهم عليه وقال: معناه من أي جهة لك هذا لأن ﴿أَنَّى﴾ للسؤال عن الجهة، ﴿وَأَيْنَ﴾ للسؤال عن المكان، ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، أي: من قطف الجنة، وقال أبو الحسن: إن مريم من حين ولدت لم تلقم ثديها قط بل كان يأتيها رزقها من الجنة، فيقول لها زكريا أنى لك هذا؟ فتقول: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، تكلمت وهي صغيرة، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، قال محمد بن إسحاق: ثم أصابت بني إسرائيل أزمة، وهي على ذلك من حالها حتى ضعف زكريا عن حملها، فخرج على بني إسرائيل فقال: يا بني إسرائيل تعلمون والله لقد كبرت سني وضعفت عن حمل مريم بنت عمران، فأياكم يكفلها بعدي؟ فقالوا: والله لقد جهدنا وأصابنا من السنة ما ترى فتدافعوها بينهم ثم لم يجدوا من حملها بدأ فتقارعوا عليها بالأقلام، فخرج السهم

الأخبار: فلما رأى زكريا ذلك قال: إن الذي قدر على أن يأتي مريم بالفاكهة في غير وقتها وحينها من غير سبب لقادر أن يصلح زوجي ويهب لي ولداً في غير حينه مع الكبر وطمع في الولد. وذلك أن أهل بيته كانوا قد انقضوا، وكان زكريا قد كبر وشاخ وأيس من الولد فذلك قوله عز وجل: .

هَٰذَا دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٢٨﴾

﴿هناك دعا زكريا ربه﴾ يعني أنه عليه السلام دخل محرابه وأغلق الأبواب وسأل ربه الولد ﴿قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة﴾ يعني أنه قال: يا رب أعطني من عندك ولداً مباركاً تقياً صالحاً رضيعاً والذرية تطلق على الواحد والجمع والذكر والأنثى والمراد هنا الواحد وإنما قال طيبة لتأنيث لفظ الذرية ﴿إنك سميع الدعاء﴾ أي سامعه ومجيبه. قوله عز وجل: .

فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٩﴾

﴿فنادته الملائكة﴾ يعني جبريل عليه السلام، وإنما أخبر عنه بلفظ الجمع تعظيماً لشأنه ولأنه رئيس الملائكة، وقل أن يبعث إلّا ومعه جمع من الملائكة فجري ذلك على مجرى العادة ﴿وهو قائم يصلي في المحراب﴾ أي في المسجد وذلك أن زكريا عليه السلام كان الخبر الكبير الذي يقرب القربان ويفتح لهم الباب فلا يدخلون حتى يأذن لهم في الدخول، فبينما هو قائم يصلي في محرابه عند المذبح والناس ينتظرون أن يأذن في

على رجل نجار من بني إسرائيل، يقال له: يوسف بن يعقوب، وكان ابن عمّ مريم، فحملها فعرفت مريم في وجهه شدة مؤنة ذلك عليه، فقالت له: يا يوسف أحسن بالله الظن فإن الله سيرزقنا، فجعل يوسف يرزق بمكانها منه فيأتيها كل يوم من كسبه بما يصلحها فإذا أدخله عليها في الكنيسة أنما الله فيدخل عليها زكريا فيرى عندها فضلاً من الرزق ليس بقدر ما يأتيها به يوسف، فيقول: ﴿يا مريم أتئى لك هذا؟﴾ قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴿، قال أهل الأخبار: فلما رأى ذلك زكريا قال: إن الذي قدر على أن يأتي مريم بالفاكهة في غير حينها من غير سبب لقادر على أن يصلح زوجتي ويهب لي ولداً في غير حينه على الكبر، فطمع في الولد وذلك أن أهل بيته كانوا قد انقضوا، وكان زكريا قد شاخ وأيس من الولد.

قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾، فدخل المحراب وغلق الأبواب وناجى ربه ﴿قال رب﴾ أي: يا رب، ﴿هب لي﴾ أعطني ﴿من لدنك﴾ أي: من عندك، ﴿ذرية طيبة﴾ أي: ولداً مباركاً تقياً صالحاً رضيعاً، والذرية تكون واحداً أو جمعاً ذكراً أو أنثى، وهو هنا واحد بدليل قوله عز وجل: ﴿فهب لي من لدنك ولياً﴾ [مريم: ٥]، وإنما قال: طيبة لتأنيث لفظ الذرية، ﴿إنك سميع الدعاء﴾ أي: سامعه، وقيل: مجيبه، كقوله تعالى: ﴿إني آمنت بربكم فاسمعون﴾ [يس: ٢٥] أي: فأجيبوني.

﴿فنادته الملائكة﴾، قرأ حمزة والكسائي فناده بالياء، والآخرين بالتاء لتأنيث لفظ الملائكة، وللجمع مع أن الذكور إذا تقدم فعلهم وهم جماعة كان التأنيث فيهم أحسن، كقوله تعالى: ﴿قالت الأعراب﴾ [الحجرات: ١٤]، وعن إبراهيم قال: كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما يذكر الملائكة في القرآن، قال أبو عبيدة: إنما نرى عبد الله اختار ذلك خلافاً للمشركين في قولهم: الملائكة بنات الله تعالى: وروى الشعبي: أن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إذا اختلفتم في التاء والياء فاجعلوها ياء، وذكروا القرآن، وأراد بالملائكة هنا جبريل

الدخول إذا هو برجل شاب عليه ثياب بيض ففرغ زكريا منه فناداه جبريل عليه السلام يا زكريا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَشْرِكُ بِيَحْيَى﴾ أي بولد اسمه يحيى قال ابن عباس: سمي يحيى لأن الله تعالى أحيا به عقر أمه وقيل: لأن الله تعالى أحيا قلبه بالإيمان وقيل لأن الله تعالى أحياه بالطاعة حتى لم يهَم بمعصية قط ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ يعني عيسى ابن مريم وإنما سمي عيسى عليه السلام كلمة لأن الله تعالى قال له: كن فكان من غير أب دلالة على كمال القدرة فوقه عليه اسم الكلمة لأنه بها كان. وقيل سمي كلمة لأن عيسى عليه السلام كان يرشد الخلق إلى الحقائق والأسرار ويهتدى به كما يهتدى بكلام الله تعالى فسمي كلمة بهذا الاعتبار. وقيل سمي كلمة لأن الله تعالى بشر به مريم على لسان جبريل عليه السلام: وقيل لأن الله تعالى أخبر الأنبياء الذين قبله في كتبه المنزلة عليهم أنه يخلق نبياً من غير واسطة أب، فلما جاء قيل: هذا هو تلك الكلمة يعني الوعد الذي وعد أنه يخلقه كذلك، وكان يحيى أول من آمن بعيسى وصدقته، وكان يحيى أكبر من عيسى بستة أشهر وكانا ابني خالة وقتل يحيى قبل أن يرفع عيسى عليه السلام. وقيل: إن أم يحيى لقيت أم عيسى وهما حاملتان فقالت أم يحيى لأم عيسى: يا مريم أشعرت أني حامل فقالت مريم: وأنا أيضاً حامل فقالت أم يحيى: يا مريم إني لأجد ما في بطني يسجد لما في بطنك فذلك قوله: مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ يعني أن يحيى آمن بعيسى وصدق به ﴿وَسَيِّدًا﴾ من ساد يسود. والسيد هو الرئيس الذي يتبع وينتهي إلى قوله. وكان يحيى عليه السلام سيد المؤمنين ورئيسهم في الدين والعلم والحلم. وقيل: السيد هو

عليه السلام وحده، كقوله تعالى: ﴿يَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [النحل: ٢] يعني جبريل بالروح والوحي، ويجوز في العربية أن يخبر عن الواحد بلفظ الجمع، كقولهم: سمعت هذا الخبر من الناس، وإنما سمع من واحد، نظيره قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] يعني: نعيم بن مسعود. ﴿إِنَّ النَّاسَ﴾ [آل عمران: ١٧٣] يعني: أبا سفيان بن حرب، وقال المفضل بن سلمة: إذا كان القائل رئيساً يجوز الإخبار عنه بالجمع، لاجتماع أصحابه معه، وكان جبريل عليه السلام رئيس الملائكة، وقل ما يبعث إلاّ ومعه جمع، فجرى على ذلك، قوله تعالى: ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحَارِبِ﴾ أي: في المسجد، وذلك أن زكريا كان الحبر الكبير الذي يُقَرَّبُ القربان فيفتح باب المذبح، فلا يدخلون حتى يأذن لهم في الدخول، فبينما هو قائم يصلي في المحراب، يعني: في المسجد عند المذبح يصلي والناس ينتظرون أن يأذن لهم في الدخول، فإذا هو برجل شاب عليه ثياب بيض تلمع ففرغ منه، فناداه وهو جبريل عليه السلام: يا زكريا ﴿أَنْ اللَّهَ يُشْرِكُ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة «إِنَّ اللَّهَ» بكسر الألف على إضمار القول، تقديره: فنادته الملائكة فقالت: إن الله، وقرأ الآخرون بالفتح بإيقاع النداء عليه كأنه قال فنادته الملائكة بأن الله يشرك، قرأ حمزة ﴿يُشْرِكُ﴾ وبابه بالتخفيف كل القرآن إلاّ قوله: ﴿فِيمَ تَبْشُرُونَ﴾ [الحجر: ٥٤] فإنهم اتفقوا على تشديدها، ووافقه الكسائي ههنا في الموضعين وفي ﴿سُبْحَانَ﴾ [الإسراء: ٩] و﴿الكهف﴾ [آية: ٢] و﴿حَمَّعَسَقَ﴾ [الشورى: ٢٣] ووافق ابن كثير وأبو عمرو في ﴿حَمَّعَسَقَ﴾ [الشورى: ٢٣] والباقون بالتشديد، فمن قرأ بالتشديد فهو من بشر يبشر تبشيراً، وهو أعرب اللغات وأفصحها، دليل التشديد قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِي﴾ [الزمر: ١٧] و﴿بَشِّرْناهُ بِإِسْحَاقَ﴾ [الصافات: ١١٢] قالوا: ﴿بَشِّرْناكَ بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٥٥] وغيرها من الآيات، ومن خفف فهو من بشر يبشر وهي لغة تهامة، وقراءة ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿بِيَحْيَى﴾، هو الاسم لا يجز لمعرفته، وللزائد في أوله، ومثل: يزيد ويعمر، وجمعه يحيون مثل موسون وعيسون، واختلفوا في أنه لم يسمي يحيى، فقال ابن عباس رضي الله عنهما لأن الله أحيا به عقر أمه، قال قتادة: لأن الله تعالى أحيا به قلبه بالإيمان، وقيل: سمي يحيى لأنه استشهد، والشهداء أحياء، وقيل: معناه يموت، وقيل: لأن الله تعالى أحياه بالطاعة حتى لم يعص ولم يهَم بمعصية، ﴿مُصَدِّقًا﴾ نصب على

الحسن الخلق وقيل: هو الذي يطيع ربه وقيل: هو الفقيه العالم وقيل: سيداً في العلم والعبادة والورع وقال السيد هو الحلیم الذي لا يغضبه شيء وقيل: السيد هو الذي يفوق في جميع خصال الخير. وقيل: هو السخي قال رسول الله ﷺ: «من سيدكم يا بني سلمة؟ قالوا: جد بن قيس على أنا نبخله قال وأي داء أدوا من البخل لكن سيدكم عمرو بن الجموح» ﴿وحصوراً﴾ قال ابن عباس وغيره من المفسرين: الحصور الذي لا يأتي النساء ولا يقربهن فعلى هذا هو فعول بمعنى فاعل يعني أنه حصر نفسه عن الشهوات وأصله من الحصر وهو الحبس: وقيل: هو العنين وقيل هو الفقير الذي لا مال له فيكون الحصور بمعنى المحصور يعني الممنوع من النساء. قال سعيد بن المسيب: كان له مثل هذبة الثوب وقد تزوج مع ذلك ليغض بصره وفيه قول آخر: وهو أن الحصور هو الممتنع عن الوطء مع القدرة عليه، وإنما تركه للغة والزهد فيه وهذا القول هو الصحيح وهو قول جماعة من المحققين وهو أليق بمنصب الأنبياء لأن الكلام إنما خرج مخرج المدح والثناء وذكر صفة النقص في معرض المدح لا يجوز، وأيضاً فإن منصب النبوة يجلب من أن يضاف إلى أحد منهم نقص أو آفة، فحمل الكلام على منع النفس من الوطء مع القدرة عليه أولى من حمله على ترك الوطء مع العجز عنه ﴿ونبياً من الصالحين﴾ يعني أنه من أولاد الأنبياء الصالحين. قوله عز وجل: .

الحال، ﴿بكلمة من الله﴾ يعني: عيسى عليه السلام، سُمي عيسى كلمة الله لأن الله تعالى قال له: كن من غير أب فكان، فوقع عليه اسم الكلمة، وقيل: سُمي كلمة لأنه يُهتدى به كما يُهتدى بكلام الله تعالى، وقيل: هي بشارة الله تعالى لمريم بعيسى عليه السلام، بكلامه على لسان جبريل عليه السلام، وقيل: لأن الله تعالى أخبر الأنبياء بكلامه في كتبه على أنه يخلق نبياً بلا أب، فسمّاه كلمة لحصوله بذلك الوعد، وكان يحيى عليه السلام أول من آمن بعيسى عليه السلام وصدّقه، وكان يحيى عليه السلام أكبر من عيسى بستة أشهر وكانا ابني خالة، ثم قُتل يحيى قبل أن يرفع عيسى عليه السلام، وقال أبو عبيدة: بكلمة من الله، أي: بكتاب من الله وآياته، تقول العرب: أنشدني كلمة فلان، أي: قصديته: قوله تعالى: ﴿وسيداً﴾ هو فعيل من ساد يسود، وهو الرئيس الذي يتبع ويتبعي إلى قوله، قال المفضل: أراد سيداً في الدين، قال الضحاك: السيد: الحسنُ الخلق، قال سعيد بن جبیر: السيد الذي يطيع ربه عز وجل، وقال سعيد بن المسيب: السيد الفقيه العالم، وقال قتادة: سيد في العلم والعبادة والورع، وقيل: الحلیم الذي لا يغضبه شيء، قال مجاهد: الكريم على الله تعالى، وقيل: السيد التقى قاله الضحاك، قال سفيان الثوري: الذي لا يحسد، وقيل: الذي يفوق قومه في جميع خصال الخير، وقيل: هو القانع بما قسم الله له، وقيل: هو السخي، قال رسول الله ﷺ: «من سيدكم يا بني سلمة؟ قالوا: جد بن قيس على أنا نبخله، قال: «وأي داء أدوا من البخل، لكن سيدكم عمرو بن الجموح». قوله تعالى: ﴿وحصوراً ونبياً من الصالحين﴾، والحصور: أصله من الحضر وهو الحبس، والحصور في قول ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جبیر وقاتدة رضي الله عنهم، وعطاء والحسن الذي لا يأتي النساء ولا يقربهن، وهو على هذا القول: فعول بمعنى فاعل، يعني: أنه يحصر نفسه عن الشهوات، وقال سعيد بن المسيب، هو العنين الذي لا ماء له فيكون الحصور بمعنى المحصور، يعني: الممنوع من النساء، قال سعيد بن المسيب: كان له مثل هذبة الثوب، وقد تزوج مع ذلك ليكون أغض لبصره، وفيه قول آخر: أن الحصور الممتنع من الوطء مع القدرة عليه، واختار قوم هذا القول لوجهين أحدهما لأن الكلام خرج مخرج الثناء، وهذا أقرب إلى استحقاق الثناء، والثاني أنه أبعد من إلحاق الآفة بالأنبياء.

قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٠﴾

﴿قال﴾ يعني زكريا ﴿رب﴾ أي يا رب قيل خطاب مع جبريل لأن الآية المتقدمة دلت على أن الذين نادوهم الملائكة فعلى هذا القول يكون الرب هنا بمعنى السيد والمربي أي يا سيدي، وقيل: إنه خطاب مع الله تعالى فيكون الرب بمعنى المالك، وذلك أن الملائكة لما بشروه بالولد تعجب ورجع في إزالة ذلك التعجب إلى الله تعالى فقال رب ﴿أنى يكون لي غلام﴾ يعني من أين يكون وكيف يكون لي غلام ﴿وقد بلغني الكبر﴾ قيل: هو من المقلوب ومعناه وقد بلغت الكبر وشخت. وقيل: معناه وقد نالني الكبر وأدركني الضعف. فإن قلت كيف أنكر زكريا الولد مع تبشير الملائكة إياه به وما معنى هذه المراجعة، ولم تعجب من ذلك بعد وعد الله إياه به أكان شاكاً في وعد الله أو في قدرته؟ قلت: لم يشك زكريا عليه السلام في وعد الله وفي قدرته إنما قال ذلك على سبيل الاستفهام والاستعلام والمعنى من أي جهة يكون لي الولد أ يكون بإزالة العقر عن زوجتي ورد شبابي علي؟ أو يكون ونحن على حالنا من الكبر والضعف؟ فأجابه بقوله ﴿كذلك الله يفعل ما يشاء﴾ وقال عكرمة والسدي: لما سمع زكريا نداء الملائكة جاءه الشيطان وقال: يا زكريا إن الصوت الذي سمعت ليس هو من الله تعالى، وإنما هو من الشيطان، ولو كان من الله تعالى لأوحاه إليك كما يوحى إليك في سائر الأمور: فقال ذلك زكريا دفعاً للوسوسة واعترض على الجواب بأنه لا يجوز أن يشتبه على الأنبياء كلام الملائكة بكلام الشيطان، إذ لو جوزنا ذلك لارتفع الوثوق بأخبارهم عن الوحي السماوي، وأجيب عن هذا الاعتراض بأنه لما دلت الدلائل على صدق الأنبياء فيم يخبرون به عن الله تعالى بواسطة الملك، فلا مدخل للشيطان فيه وذلك فيما يتعلق بالدين والشرائع، فأما ما يتعلق بمصالح الدنيا وبالولد فقد يحتمل فيه حصول الوسوسة فسأل زكريا ذلك لنزول هذه الوسوسة من خاطره. قال الكلبي: كان زكريا يوم بشر بالولد ابن اثنين وتسعين سنة. وقيل: ابن تسع وتسعين سنة وقال ابن عباس في رواية الضحاك: كان ابن مائة وعشرين سنة وكانت امرأته بنت ثمان وتسعين سنة فذلك قوله تعالى: ﴿وامرأتي عاقرة﴾ أي عقيم لا تلد ﴿قال كذلك الله يفعل ما يشاء﴾ يعني أنه تعالى قادر على هبة الولد على الكبر يفعل ما يشاء لا يعجزه شيء. قوله عز وجل: .

قوله تعالى: ﴿قال رب﴾ أي: يا سيدي، قال لجبريل عليه السلام، هذا قول الكلبي وجماعة، وقيل: قاله الله عز وجل ﴿أنى يكون﴾ يعني: أين يكون، ﴿لي غلام﴾ أي: أين ﴿وقد بلغني الكبر﴾، هذا من المقلوب، أي: وقد بلغت الكبر وشخت، كما تقول: بلغني الجهد، أي: أنا في الجهد، وقيل: معناه وقد نالني الكبر وأدركني وأضعفني، قال الكلبي: كان زكريا يوم بشر بالولد ابن اثنين وتسعين سنة، وقيل: ابن تسع وتسعين سنة، وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان ابن عشرين ومائة سنة، وكانت امرأة بنت ثمان وتسعين سنة، فذلك قوله تعالى: ﴿وامرأتي عاقرة﴾ أي: عقيم لا تلد، ويقال: رجل عاقر وامرأة عاقر، وقد عقر بضم القاف يعقر عقرًا وعقارة، ﴿قال كذلك الله يفعل ما يشاء﴾، فإن قيل: لِمَ قال: زكريا بعدما وعده الله تعالى: ﴿أنى يكون لي غلام﴾ أكان شاكاً في وعد الله وفي قدرته، قيل: إن زكريا لما سمع النداء من الملائكة جاءه الشيطان فقال: يا زكريا إن الصوت الذي كنت تسمعه ليس من الله إنما هو من الشيطان، ولو كان من الله لأوحاه إليك كما يوحى إليك في سائر الأحوال، فقال ذلك دفعاً للوسوسة، قال عكرمة والسدي: وجواب آخر وهو أنه لم يشك في وعد الله إنما شك في كيفيته، أي: كيف ذلك أتجعلني وامرأتي شابين، أم ترزقنا ولداً على الكبر منا أم ترزقني من امرأة أخرى؟ قاله مستفهماً لا شاكاً هذا قول الحسن.

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَادَّكُرَ رَبُّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرِيئُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾

﴿قال﴾ يعني زكريا يا ﴿رب اجعل لي آية﴾ أي علامة أعلم بها وقت حمل امرأتي فأزيد في العبادة والشكر لك ﴿قال آيتك﴾ أي علامتك على الذي طلبت معرفة علمه ﴿أن لا تكلم الناس﴾ أي لا تقدر على تكليم الناس ﴿ثلاثة أيام﴾ أي مدة ثلاثة أيام بليليتها. قال جمهور المفسرين: عقد لسانه عن تكليم الناس ثلاثة أيام مع إبقائه على قدرة التسبيح والذكر ولذلك قال في آخر الآية ﴿واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار﴾ يعني في أيام منعك من تكليم الناس وهذه من الآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة لأن قدرته على التسبيح والذكر مع عجزه عن تكليم الناس بأمور الدنيا. وذلك مع صحة الجسم وسلامة الجوارح من أعظم المعجزات، وإنما منع من الكلام مع الناس ليخلص في هذه الأيام لعبادة الله تعالى وذكره ولا يشغل لسانه بشيء آخر توقيراً منه على قضاء حق هذه النعمة الجسيمة وشكراً لله على إجابته فيما طلب الآية من أجله، وأن يكون ذلك دليلاً على وجود الحمل ليطمئنه بذلك وقال قتادة: إنما أمسك لسانه عن الكلام عقوبة لسؤاله الآية بعد مشافهة الملائكة إياه ببشارة الولد فلم يقدر على الكلام ﴿ثلاثة أيام إلا رمزاً﴾ يعني الإشارة والإشارة قد تكون باليد وبالعين وبالإيماء بالرأس وكانت إشارته بالأصبع المسبحة. وقيل: الرمز قد يكون باللسان من غير تبين كلام وهو الصوت الخفي شبه الهمس وقيل: أراد به صوم ثلاثة أيام لأنهم كانوا إذا صاموا لم يتكلموا والقول الأول أصح لموافقة أهل اللغة عليه ﴿واذكر ربك كثيراً﴾ وذلك لما منعه الله من الكلام في تلك المدة أمره بالذكر فقال: واذكر ربك كثيراً فإنك لا تمنع من ذلك ولا يحال بينك وبينه ﴿وسبح﴾ أي وعظم ربك ونزهه عن النقائص وقيل: وصل لربك وسميت الصلاة تسبيحاً لأن فيها تنزيهاً للرب سبحانه وتعالى ﴿بالعشي والإبكار﴾ فأما العشي فهو ما بين زوال الشمس إلى غروبها، ومنه سميت صلاتاً الظهر والعصر صلاتي العشي والإبكار هو ما بين طلوع الفجر إلى الضحى. قوله عز وجل: ﴿واذ قالت

قوله تعالى: ﴿قال رب اجعل لي آية﴾ أي: علامة أعلم بها وقت حمل امرأتي فأزيد في العبادة شكراً لك، ﴿قال آيتك أن لا تكلم الناس﴾ أي: تكف عن الكلام، ﴿ثلاثة أيام﴾، وتقبل بكليتك على عبادتي لا أنه يحبس لسانه عن الكلام، ولكنه نهى عن الكلام، وهو صحيح سوي كما قال في سورة مريم [١٠]: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ يدل على قوله تعالى: ﴿وسبح بالعشي والإبكار﴾ فأمره بالذكر ونهاه عن كلام الناس، وقال أكثر المفسرين: عقل لسانه عن الكلام مع الناس ثلاثة أيام، وقال قتادة: أمسك لسانه عن الكلام عقوبة لسؤاله الآية، بعد مشافهة الملائكة إياه، فلم يقدر على الكلام ثلاثة أيام. وقوله: ﴿إلا رمزاً﴾ أي: إشارة والإشارة قد تكون باللسان وبالعين واليد، وكانت إشارته بالأصبع المسبحة، قال الفراء: قد يكون الرمز باللسان من غير أن يبين، وهو الصوت الخفي شبه الهمس، وقال عطاء: أراد به صوم ثلاثة أيام لأنهم كانوا إذا صاموا لم يتكلموا إلا رمزاً، ﴿واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار﴾، قيل: المراد بالتسبيح: الصلاة والعشي ما بين زوال الشمس إلى غروب الشمس، ومنه سميت صلاة الظهر والعصر صلاتي العشي والإبكار، ما بين صلاة الفجر إلى الضحى. قوله تعالى: ﴿واذ قالت الملائكة﴾ يعني: جبريل، ﴿يا مريم إن الله اصطفاك﴾، اختارك، ﴿وطهرك﴾، قيل: من ميسر الرجال، وقيل: من الحيض والنفاس، قال السدي: كانت مريم لا تحيض، وقيل:

الملائكة يعني جبريل عليه السلام ﴿يا مريم إن الله اصطفاك﴾ أي واختارك ﴿وطهرك﴾ يعني من مسيس الرجال . وقيل: من الحيض والنفاس . وكانت مريم لا تحيض وقيل: من الذنوب ﴿واصطفاك﴾ أي واختارك ﴿على نساء العالمين﴾ أي على عالمي زمانها وقيل: على جميع نساء العالمين . فإن قلت هل فرق بين الاصطفاء الأول والثاني؟ قلت: ذكر العلماء في معناه وجوهاً يتحصل منها الفرق فقليل في معنى الاصطفاء الأول إن الله تعالى اختار مريم وقبلها مندورة محررة ولم تحرر قبلها أنثى ولم يجعل ذلك لغيرها من النساء وأن الله بعث إليها رزقها من عنده وكفلها زكريا ومعنى الاصطفاء الثاني أن الله تعالى وهب لها عيسى من غير أب وأسمعها كلام الملائكة ولم يحصل ذلك لغيرها من النساء (ق) عن علي بن أبي طالب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد قال أبو كريب: وأشار وكيع إلى السماء والأرض قيل: أراد وكيع بهذه الإشارة تفسير الضمير في قوله خير نسائها ومعناه أنهما خير كل النساء بين السماء والأرض قال الشيخ محيي الدين النووي: والأظهر أن معناه أن كل واحدة مهما خير نساء الأرض في عصرها، وأما التفضيل بينهما فمسكوت عنه . (ق) عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» قال العلماء معناه أن الثريد من كل طعام أفضل من المرق وثريد اللحم أفضل من مرقه بلا ثريد، وثريد ما لا لحم فيه أفضل من مرقه من غير ثريد وفضل عائشة على النساء كزيادة فضل الثريد على غيره . وليس في هذا تصريح بتفضيلها على مريم وآسية لاحتمال أن المراد تفضيلها على نساء هذه الأمة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون» أخرجه الترمذي . قوله عز وجل: .

يَمْرِمُ أَفْتَى لِرَبِّكَ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِبِينَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَمْ يَأْتِهِمْ يَكْفُلْ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرِمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾

﴿يا مريم افنتي لربك﴾ أي قالت الملائكة لها شفاهاً أطيعي ربك وقيل: معناه أطيلي القيام في الصلاة لربك .

من الذنوب، ﴿واصطفاك على نساء العالمين﴾، قيل: على عالمي زمانها، وقيل: على جميع نساء العالمين في أنها ولدت بلا أب ولم يكن ذلك لأحد من النساء، وقيل: بالتحريم في المسجد ولم تحرر أنثى . أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا أحمد بن رجاء، أخبرنا النضر عن هشام، أخبرني أبي قال: سمعت عبد الله بن جعفر قال: سمعت علياً رضي الله عنه يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: «خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة» رضي الله عنهما ورواه وكيع وأبو معاوية عن هشام بن عروة وأشار وكيع إلى السماء والأرض . أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا آدم أنا شعبة عن عروة بن مرة عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «كَمُلُ من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» . أخبرنا أبو بكر سعيد بن عبد الله بن أحمد الطاهري أخبرنا جدي عبد الرحمن بن عبد الصمد البزار، أخبرنا محمد بن زكريا العذافري أخبرنا إسحق الديري أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن قتادة عن أنس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «حسبك من نساء العالمين: مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ، وآسية امرأة فرعون» .

قوله تعالى: ﴿يا مريم افنتي لربك﴾، قالت لها الملائكة شفاهاً أي: أطيعي ربك وقال مجاهد: أطيلي

قال الأوزاعي: لما قالت الملائكة لها ذلك قامت حتى تورمت قدماهما وسالت دماً وقيحاً وحكي عن مجاهد نحوه ﴿واسجدني واركعي مع الراكعين﴾ إنما قدم السجود على الركوع لأن الواو لا تقتضي الترتيب إنما هي للجمع كأنه قيل لها: افعلي الركوع والسجود وقيل: إنما قدم السجود على الركوع لأنه كان كذلك في شريعتهم. وقال ابن الأنباري: أمرها أمراً عاماً وحضها على فعل الخير فكأنه قال: استعملي السجود في حال والركوع في حال ولم يرد تقديم السجود على الركوع بل أراد العموم بالأمر على اختلاف الحالين. وإنما قال: اركعي مع الراكعين ولم يقل: مع الراكعات لأن لفظ الراكعين أعم فيدخل فيه الرجال والنساء، والصلاة مع الرجال أفضل وأتم. وقيل: معناه افعلي كفعل الراكعين وقيل: المراد به الصلاة في جماعة أي صلى مع المصلين في جماعة. قوله عز وجل: ﴿ذلك من أنباء الغيب﴾ يقول الله عز وجل لمحمد ﷺ بذلك الذي ذكرت لك من حديث زكريا ويحيى ومريم وعيسى عليهم السلام من أخبار الغيب ﴿نوحه إليك﴾ أي نلقيه إليك يا محمد لأنه لا يمكنك أن تعلم أخبار الأمم الماضين إلاّ بوحي منا إليك وإنما قال نوحه لأنه رد الضمير إلى ذلك فلذلك يذكر اللفظ ﴿وما كنت﴾ يعني يا محمد ﴿لديهم﴾ هنالك عندهم ﴿إذ يلقون أقلامهم﴾ يعني التي كانوا يكتبون بها في الماء لأجل الاقتراع ﴿أيهم يكفل مريم﴾ يعني يربيهما ويقوم بمصالحهما قيل سبب منازعتهم في كفالة مريم حتى اقترعوا على ذلك أنها كانت بنت عمران وكان رئيسهم وكبيرهم فلأجل ذلك رغبوا في كفالتها وقيل: لأن مريم حررت لعبادة الله وخدمة المسجد وكان أبوها قد مات فلأجل ذلك رغبوا في كفالتها ﴿وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾ يعني في كفالتها وتربيتها قوله عز وجل: ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه﴾ معناه وما كنت لديهم يا محمد إذ يختصمون وما كنت لديهم إذ قالت الملائكة يعني جبريل عليه السلام: يا مريم إن الله يبشرك والبشارة إخبار المرء بما يسره من خير بكلمة منه يعني برسالة من الله وخير من عنده فهو كقول القائل ألقى إليّ فلان كلمة سرنى بها وأخبرني خيراً فرحت به. ومعنى الآية إذ قالت الملائكة لمريم: يا مريم إن الله يبشرك ببشرى من عنده وهي ولد يولد لك من غير بعل ولا فحل وذلك الولد ﴿اسمه المسيح عيسى ابن مريم﴾ وقال قتادة في قوله تعالى ﴿بكلمة منه﴾ هو قوله تعالى: كن فسماه الله كلمة لأنه كان عن الكلمة التي هي كن كما يقال لما قدر الله من شيء هذا قدر الله وقضاء الله يعني أن هذا الأمر عن قدره وقضائه حدث. وقال ابن عباس: الكلمة هي عيسى عليه السلام وإنما سمي كلمة لأنه وجد عن الكلمة التي هي كن. فإن قلت إن كل مخلوق إنما يوجد بواسطة الكلمة التي هي كن فلم خص عيسى عليه السلام بهذا الاسم وسماه كلمة دون غيره؟ قلت: إن كل مخلوق وإن وجد حدوثه وخلقه بواسطة الكلمة إلاّ أن هذا السبب ما هو المتعارف، ولما كان حدوث عيسى عليه السلام بمجرد الكلمة من غير واسطة أخرى فلا جرم كان إضافة حدوثه إلى الكلمة أتم وأكمل وبهذا التأويل حسن أن يسمى عيسى عليه السلام نفس الكلمة لأنه حدث عنها، فإن قلت الضمير في قوله اسم عائد إلى الكلمة وهي مؤنثة فلم ذكر الضمير؟ قلت: لأن المسمى بها مذكر

القيام في الصلاة لربك، والفنوت: الطاعة، وقيل: الفنوت طول القيام، قال الأوزاعي: لما قالت لها الملائكة ذلك قامت في الصلاة حتى ورمّت قدماهما وسالت دماً وقيحاً ﴿واسجدني واركعي﴾، قيل: إنما قدّم السجود على الركوع لأنه كان كذلك في شريعتهم، وقيل: بل كان الركوع قبل السجود في الشرائع كلها، وليس الواو للترتيب بل للجمع، يجوز أن يقول الرجل: رأيت زيدا وعمراً وإن كان قد رأى عمراً قبل زيد، ﴿مع الراكعين﴾، ولم يقل مع الراكعات ليكون أعم وأشمل، فإنه يدخل فيه الرجال والنساء، وقيل: معناه مع المصلين في الجماعة.

قوله تعالى: ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحه إليك﴾، يقول لمحمد ﷺ: ذلك الذي ذكرت من حديث زكريا ويحيى ومريم وعيسى، على نبينا وعليهم السلام، من أنباء الغيب، أي: من أخبار الغيب نوحه إليك رد الكناية

فلهذا ذكر الضمير. فإن قلت لم قال اسمه المسيح عيسى ابن مريم وهذه ثلاثة الاسم منها واحد وهو عيسى، وأما المسيح فللقب وابن مريم صفة. قلت: الضمير في قوله اسمه يرجع إلى عيسى وللمسمى علامة يعرف بها ويتميز عن غيره فكأنه قال الذي يعرف به ويتميز عن سواه هو مجموع هذه الثلاثة واختلفوا لم سمي عيسى عليه السلام مسيحاً وهل هو اسم مشتق أو موضوع؟ فقيل: إنه موضوع واسمه بالعبرانية مشيحا فغيرته العرب وأصل عيسى أيشوع كما قالوا موسى وأصله موسى أو ميشى وقال الأكثرون: إنه اسم مشتق ثم ذكروا فيه وجوهاً قال ابن عباس: سمي عيسى مسيحاً لأنه ما مسح ذا عاهة إلا برأ منها وقيل لأنه مسح بالبركة وقيل: لأنه مسح من الأقدار وطهر من الذنوب، وقيل: إنه خرج من بطن أمه ممسوحاً بالدهن. وقيل: لأن جبريل عليه السلام مسحه بجناحه حتى لا يكون للشيطان عليه سبيل. وقيل: لأنه كان يسبح في الأرض ولا يقيم بمكان فكأنه يمسح الأرض أي يقطعها مساحة فعلى هذا القول تكون الميم زائدة وقيل سمي مسيحاً لأنه كان مسيح القدمين لا أخصص له وسمي الدجال مسيحاً لأنه ممسوح إحدى العينين وقيل: المسيح هو الصديق وبه سمي عيسى عليه السلام وقد يكون المسيح بمعنى الكذاب وبه سمي الدجال فعلى هذا تكون هذه الكلمة من الأضداد. وقوله تعالى: ﴿وَجِئَهاً﴾ أي شريفاً رفيعاً ذا جاه وقدر ﴿في الدنيا والآخرة﴾ أما وجاهته في الدنيا فبسبب النبوة وأنه كان يرى الأكمه والأبرص ويحيي الموتى وأما وجاهته في الآخرة فبسبب علو مرتبته عند الله وهو قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ يعني عند الله يوم القيامة لأن لأهل الجنة منازل ودرجات ومنازل الأنبياء ودرجاتهم أعلى من سواهم وقيل: فيه تنبيه على علو منزلته وأنه رفعه إلى السماء.

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ
كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيَعْلَمُ الْكِنَافَ وَالْحِكْمَةَ وَالْتَوْرَةَ
وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾

﴿يكلم الناس في المهد﴾ يعني ويكلم الناس صغيراً وهو في المهد وذلك قبل أوان الكلام ووقته والكلام الذي تكلم به هو ما ذكره الله عنه في سورة مريم وهو قوله: ﴿إني عبد الله آتاني الكتاب﴾ الآية. وتكلم ببراءة أمه

إلى ذلك فلذلك ذكره، ﴿وما كنت﴾، يا محمد، ﴿لديهم إذ يلقون أقلامهم﴾، سهامهم في الماء للاقتراع، ﴿أيهم يكفل مريم﴾ يحضنها ويربّيها، ﴿وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾، في كفالتها.

قوله تعالى: ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يُبَشِّرُكِ بكلمةٍ منه اسمهُ المسيحُ عيسى ابنُ مريم﴾، إنما قال اسمه، وردّ الكناية إلى عيسى، واختلفوا في أنه لِمَ سُمِّيَ مسيحاً، فمنهم مَنْ قال: هو فاعل بمعنى المفعول يعني: أنه مُسح من الأقدار وطُهر من الذنوب، وقيل: لأنه مسح بالبركة، وقيل: لأنه خرج من بطن أمه ممسوحاً بالدهن، وقيل: مسحه جبريل بجناحه حتى لم يكن للشيطان عليه سبيل، وقيل: لأنه كان مسيح القدم لا أخصص له، وسمي الدجال مسيحاً لأنه كان ممسوح إحدى العينين، وقال بعضهم هو فاعل بمعنى الفاعل، مثل: عليم وعالم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: سُمِّيَ عيسى عليه السلام مسيحاً لأنه ما مسح ذا عاهة إلا برأ، وقيل: سُمِّيَ بذلك لأنه كان يسبح في الأرض ولا يقيم في مكان، وعلى هذا القول تكون الميم فيه زائدة، وقال إبراهيم النخعي: المسيح الصديق، ويكون المسيح بمعنى: الكذاب، وبه سُمِّيَ الدجال. والحرف من الأضداد، ﴿وجيهاً﴾ أي شريفاً رفيعاً ذا جاهٍ وقدر، ﴿في الدنيا والآخرة ومن المقربين﴾، عند الله.

﴿ويكلم الناس في المهد﴾ صغيراً قبل أوان الكلام، كما ذكره في سورة مريم، ﴿قال إني عبد الله آتاني

مما رماها به أهل الفرية من القذف. ويحكى أن مريم قالت كنت إذا خلوت أنا وعيسى حدثني وحديثه فإذا شغلني عنه إنسان سبج وهو في بطني وأنا أسمع ولما تكلم ببراءة أمه سكت بعد ذلك فلم يتكلم إلا في الوقت الذي يتكلم فيه الصغير قال ابن عباس: تكلم عيسى ساعة ثم سكت ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغ النطق ﴿وكهلاً﴾ يعني ويكلم الناس في حال الكهولة والكهل هو اللغة الذي اجتمعت قوته وكمل شبابه والكهل عند العرب الذي جاوز الثلاثين وقيل: هو الذي وخطه الشيب، وهو السن الذي يستحكم فيه العقل وتنبأ فيه الأنبياء. قال ابن قتيبة: لما كان لعيسى ثلاثون سنة أرسله الله تعالى فمكث في رسالته ثلاثين شهراً ثم رفعه الله تعالى وقال وهب بن منبه: جاءه الوحي على رأس ثلاثين سنة فمكث في نبوته ثلاث سنين ثم رفعه الله فمعنى الآية أنه يكلم الناس وهو في المهد ببراءة أمه وهي معجزة عظيمة، ويكلم الناس في حال الكهولة بالدعوة والرسالة وقيل: فيه بشارة لمريم أخبرها بأنه يبقى حتى يكتهل وقيل: فيه أخبار بأنه يتغير من حال إلى حال ولو كان إلهاً كما زعمت النصارى لم يدخل عليه التغيير ففيه رد على النصارى الذين يدعون فيه الألوهية. وقال الحسن بن الفضل: وكهلاً يعني ويكلم الناس كهلاً بعد نزوله من السماء وفي هذه نص على أنه سينزل من السماء إلى الأرض ويقتل الدجال. وقال مجاهد: الكهل الحكيم والعرب تمدح الكهولة لأنها الحالة الوسطى في احتناك السن واستحكام العقل وجودة الرأي والتجربة ﴿ومن الصالحين﴾ يعني أنه من العباد الصالحين مثل إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وغيرهم من الأنبياء وإنما ختم أوصاف عيسى عليه السلام بكونه من الصالحين بعد ما وصفه بالأوصاف العظيمة. لأن الصلاح من أعظم المراتب وأشرف المقامات لأنه لا يسمى المرء صالحاً حتى يكون مواظباً على النهج الأصح والطريق الأكمل في جميع أقواله وأفعاله. فلما وصفه الله تعالى بكونه وجهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين وأنه يكلم الناس في المهد وكهلاً أردفه بقوله ومن الصالحين ليكمل له أعلى الدرجات وأشرف المقامات. قوله عز وجل: ﴿قالت﴾ يعني مريم ﴿رب﴾ يعني يا سيدي تقوله لجبريل لما بشرها بالولد وقيل تقوله لله عز وجل: ﴿أنى يكون لي ولد﴾ أي من أين يكون لي ولد ﴿ولم يمسنى بشر﴾ أو لم يصبني رجل وإنما قالت ذلك تعجباً لا شكاً في قدرة الله تعالى إذ لم تكن العادة جرت أن يولد ولد من غير أب ﴿قال كذلك الله يخلق ما يشاء﴾ يعني هكذا يخلق الله منك ولداً من غير أن يمسك بشر فيجعله آية للناس وعبرة فإنه يخلق ما يشاء ويصنع ما يريد وهو قوله ﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ يعني كما يريد ﴿ويعلمه الكتاب﴾ يعني الكتابة والخط باليد ﴿والحكمة﴾ يعني العلم والسنّة

الكتاب ﴿[مريم: ٣٠] الآية، حكي عن مجاهد قال: قالت مريم: كنت إذا خلوت أنا وعيسى عليه السلام حدثني وحديثه، فإذا شغلني عنه إنسان سبج في بطني وأنا أسمع قوله، ﴿وكهلاً﴾، قال مقاتل: يعني إذا اجتمعت قوته قبل أن يرفع إلى السماء، وقال الحسين بن الفضل: وكهلاً بعد نزوله من السماء، وقيل: أخبرها أنه يبقى حتى يكتهل وكلامه بعد الكهولة إخبار عن الأشياء المعجزة، وقيل: وكهلاً نبياً بشرها بنبوة عيسى عليه السلام، وكلامه في المهد معجزة وفي الكهولة دعوة، وقال مجاهد: وكهلاً أي: حليماً، والعرب تمدح الكهولة، لأنها الحالة الوسطى في احتناك السن واستحكام العقل وجودة الرأي والتجربة، ﴿ومن الصالحين﴾، أي: هو من العباد الصالحين.

﴿قالت رب﴾ يا سيدي، تقوله لجبريل، وقيل: تقول لله عز وجل، ﴿أنى يكون لي ولد ولم يمسنى بشر﴾ ولم يصبني رجل، قالت ذلك تعجباً إذ لم تكن جرت العادة بأن يولد ولد لا أب له، ﴿قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً﴾، أراد كون الشيء، ﴿فإنما يقول له كن فيكون﴾، كما يُريد، قوله تعالى: ﴿ويعلمه الكتاب﴾، قرأ أهل المدينة وعاصم ويعقوب بالياء لقوله تعالى: ﴿كذلك الله يخلق ما يشاء﴾، وقيل: رده على قوله: ﴿إن الله يُبشرك﴾.

وأحكام الشرائع ﴿والتوراة﴾ يعني التي أنزلت على موسى ﴿والإنجيل﴾ يعني الذي أنزل عليه وهذا إخبار من الله تعالى لمريم ما هو فاعل بالولد الذي بشرها به من الكرامة وعلو المنزلة .

وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَنُفِّخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُنْشِئُ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ مَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾

﴿ورسولاً إلى بني إسرائيل﴾ أي ونجعله رسولاً إلى بني إسرائيل وكان أول أنبياء بني إسرائيل يوسف بن يعقوب وآخرهم عيسى ابن مريم عليه السلام فلما بعث إليهم قال ﴿أنِّي قد جئتكم بآية من ربكم﴾ يعني بعلامة من ربكم على صدق قلبي وإنما قال بآية وقد جاء بآيات كثيرة لأن الكل دل على شيء واحد وهو صدقه في الرسالة، فلما قال ذلك عيسى لبني إسرائيل قالوا: ما هذه الآية؟ قال ﴿أنِّي أخلق﴾ أي أصور وأقدر ﴿لكم من الطين كهية الطير﴾ والهيئة الصورة المهيأة من قولهم هيأت الشيء إذا قدرته وأصلحته ﴿فأنفخ فيه﴾ أي في الطين المهيأ المصور ﴿فيكون طيراً﴾ قرىء بلفظ الجمع لأن الطير اسم جنس يقع على الواحد والاثني والجمع . وقرىء فيكون طائراً على التوحيد على معنى يكون ما أنفخ فيه طائراً أو ما أخلقه يكون طائراً وقيل إنه لم يخلق غير الخفاش وهو الذي يطير في الليل، وإنما خص الخفاش لأنه من أكمل الطير خلقاً وذلك لأنه يطير بلا ريش وله أسنان ويقال: إن الأنثى منه لها ثدي وتحيض ذكروا أن عيسى عليه السلام لما ادّعى النبوة وأظهر لهم المعجزات أخذوا يتعنتون عليه فطلبوا منه أن يخلق لهم خفاشاً فأخذ طيناً وصوره كهية الخفاش، ثم نفخ فيه فإذا هو طير يطير بين السماء والأرض قال وهب: كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه فإذا غاب عنهم سقط ميتاً ليميز فعل المخلوق من فعل الخالق وهو الله تعالى، وليعلم أن الكمال لله تعالى: ﴿بإذن الله﴾ معناه بتكوين الله وتخليقه والمعنى إني أعمل هذا التصوير أنا، فأما خلق الحياة فيه فهو من الله تعالى على سبيل إظهار المعجزة على يد عيسى عليه السلام ﴿وأبرئ الأكمه والأبرص﴾ أي وأشفي الأكمه والأبرص وأصحبهما، واختلفوا في الأكمه فقال ابن عباس: هو الذي ولد أعمى وقيل: هو الأعمى وإن كان أبصر وقيل: هو الأعشى وهو الذي يبصر بالليل، والأبرص هو الذي به وضح

﴿ويعلمه﴾، وقرأ الآخرون بالنون على التعظيم، كقوله تعالى: ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك﴾ [آل عمران: ٤٤]، قوله: ﴿الكتاب﴾ أي: الكتابة والخط، ﴿والحكمة﴾، العلم والفقه ﴿والتوراة والإنجيل﴾ علّمه الله التوراة والإنجيل.

﴿وَرَسُولًا﴾ أي: ونجعله رسولاً ﴿إلى بني إسرائيل﴾، قيل: كان رسولاً في حال الصبا، وقيل: إنما كان رسولاً بعد البلوغ، وكان أول أنبياء بني إسرائيل يوسف وآخرهم عيسى عليهما السلام، فلما بعث قال: ﴿أنِّي﴾، قال الكسائي إنما فتح لأنه أوقع الرسالة عليه، وقيل: معناه بأني ﴿قد جئتكم بآية﴾، علامة، ﴿من ربكم﴾، تصديق قلبي، وإنما قال بآية وقد أتني بآيات لأن الكل دل على شيء واحد وهو صدقه في الرسالة، فلما قال ذلك عيسى عليه السلام لبني إسرائيل قالوا: وما هي قال: ﴿أنِّي﴾، قرأ نافع بكسر الألف على الاستئناف، وقرأ الباقون بالفتح على معنى بأني ﴿أخلق﴾ أي: أصور وأقدر، ﴿لكم من الطين كهية الطير﴾، قرأ أبو جعفر (كهية الطائر)، وهنا وفي المائة [١١٠]، والهيئة الصورة المهيأة من قولهم: هيأت الشيء إذا قدرته وأصلحته، ﴿فأنفخ فيه﴾، أي: في الطير ﴿فيكون طيراً بإذن الله﴾، قراءة الأكثرين بالجمع، لأنه خلق طيراً كثيراً، وقرأ أهل المدينة ويعقوب

وكان الغالب على زمان عيسى عليه السلام الطب فأراهم المعجزة من جنس ذلك إلا أنه ليس في علم الطب إبراء الأكمه والأبرص فكان ذلك معجزة له ودليلاً على صدقه. وقال وهب: ربما اجتمع على عيسى عليه السلام من المرضى في اليوم الواحد نحو خمسين ألفاً فمن أطاق أن يمشي إليه مشى، ومن لم يطق مشى عيسى عليه السلام إليه وكان يداويهم بالدعاء على شرط الإيمان برسالته ﴿وَأَحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: قد أحيا أربعة أنفس عازر وابن العجوز وابنة العاشر وسام بن نوح وكلهم بقي وولد له إلا سام بن نوح فأما عازر فكان صديقاً لعيسى عليه السلام فأرسلت إليه أخت عازر إن أخاك عازر يموت وكان بينهما مسيرة ثلاثة أيام فاتاه عيسى وأصحابه فوجدوه قد مات منذ ثلاثة أيام فقال لأخته: انطلقي بنا إلى قبره فانطلقت بهن إلى قبره فدعا الله عيسى فقام عازر حياً بإذن الله تعالى فخرج من قبره وعاش وولد له. وأما ابن العجوز فإنه مر به وهو ميت على عيسى عليه السلام يحمل على السرير فدعا الله عيسى فجلس على سريريه ونزل عن أعناق الرجال ولبس ثيابه وأتى أهله وولد له، وأما ابنة العاشر فكان أبوها يأخذ العشور من الناس وماتت بالأمس فدعا الله عيسى فأحياها بدعوته فعاشت وولد لها، وأما سام بن نوح فإن عيسى جاء إلى قبره ودعا الله باسمه الأعظم فخرج من قبره وقد شاب نصف رأسه خوفاً من قيام الساعة ولم يكونوا يشيرون في ذلك الزمان فقال: قد قامت الساعة فقال عيسى عليه السلام: لا ولكن دعوتك باسم الله الأعظم ثم قال له: مت فقال: بشرط أن يعيذني الله من سكرات الموت مرة أخرى فدعا الله عيسى ففعل ﴿وَأَنْبِئُكُمْ﴾ يعني وأخبركم ﴿بِمَا تَأْكُلُونَ﴾ أي مما لم أعينه ﴿وما تدخرون في

﴿فَيَكُونُ طَائِراً﴾ على الواحد ههنا وفي سورة المائدة [١١٠]، ذهبوا إلى نوع واحد من الطير، لأنه لم يخلق غير الخفاش، وإنما خصّ الخفاش لأنه أكمل الطير خلقاً لأن له ثدياً وأسناناً، وهي تحيض، قال وهب: كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتاً ليميز فعل الخلق من فعل الخالق، وليعلم أن الكمال لله عز وجل، قوله تعالى: ﴿وَأَبْرَأَ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ﴾، أي: أشفيهما وأصحهما، واختلفوا في الأكمه قال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة: هو الذي ولد أعمى، وقال الحسن والسدي: هو الأعمى، وقال عكرمة: هو الأعمش، وقال مجاهد: هو الذي يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل، والأبرص هو الذي به وضح، وإنما خصّ هذين لأنهما داءان عيائان وكان الغالب في زمن عيسى عليه السلام الطب، فأراهم الله المعجزة من جنس ذلك، قال وهب: ربما اجتمع على عيسى عليه السلام من المرضى في اليوم الواحد خمسون ألفاً من أطاق منهم أن يبلغه بلغه، ومن لم يطق مشى إليه عيسى، وكان يداويهم بالدعاء على شرط الإيمان، قوله تعالى: ﴿وَأَحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، قال ابن عباس: قد أحيا أربعة أنفس عازر وابن العجوز وابنة العاشر وسام بن نوح، فأما عازر فكان صديقاً له فأرسلت أخته إلى عيسى عليه السلام أن أخاك عازر يموت وكان بينه وبينه مسيرة ثلاثة أيام فاتاه هو وأصحابه فوجدوه وقد مات منذ ثلاثة أيام، فقال لأخته انطلقي بنا إلى قبره، فانطلقت معهم إلى قبره، فدعا الله تعالى فقام عازر ودّكه بقطر فخرج من قبره وبقي وولد له، وأما ابن العجوز فإنه مرّ به ميتاً على عيسى عليه السلام على سرير يحمل فدعا الله عيسى فجلس على سريريه ونزل عن أعناق الرجال ولبس ثيابه وحمل السرير على عنقه ورجع إلى أهله فبقي وولد له، وأما ابنة العاشر فكان والدها رجلاً يأخذ العشور، ماتت له بنت بالأمس فدعا الله عز وجل فأحياها، وبقيت وولدت، وأما سام بن نوح عليه السلام فإن عيسى عليه السلام جاء إلى قبره فدعا باسم الله الأعظم فخرج من قبره، وقد شاب نصف رأسه خوفاً من قيام الساعة، ولم يكونوا يشيرون في ذلك الزمان، فقال: قد قامت القيامة؟ قال: لا ولكن دعوتك باسم الله الأعظم، ثم قال له: مُتْ، قال: بشرط أن يُعيذني الله من سكرات الموت، فدعا الله ففعل. قوله تعالى: ﴿وَأَنْبِئُكُمْ﴾ أخبركم، ﴿بِمَا تَأْكُلُونَ﴾، مما لم أعينه، ﴿وما

بيوتكم﴾ أي وما ترفعونه فتخبؤونه في بيوتكم لتأكلوه فيما بعد ذلك، قيل: كان عيسى عليه السلام يخبر الرجل بما أكل البارحة وبما يأكله اليوم وبما يدخره للعشاء. وقيل كان في الكتاب يحدث الغلمان بما يصنع آباؤهم ويقول للغلام: انطلق فقد أكل أهلك كذا وكذا وقد رفعوا لك كذا فينطلق الصبي فيكي على أهله حتى يعطوه ذلك الشيء فيقولون من أخبرك بهذا؟ فيقول عيسى فحبسوا صبيانهم عنه وقالوا: لا تقعوا مع ذلك الساحر وجمعوهم في بيت فجاء عيسى يطلبهم فقالوا: ليسوا هنا فقال: وما في البيت؟ قالوا خنازير فقال كذلك يكونون. ففتحوا عليهم الباب فإذا هم خنازير ففشا ذلك في بني إسرائيل وظهر فهموا به فخافت عليه أمه فحملته على حمار لها وخرجت هاربة إلى مصر. وقال قتادة: إنما كان هذا في نزول المائدة وكان خواناً ينزل عليهم أينما كانوا فيه من طعام الجنة وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا الغد فخانوا وادخروا، فكان عيسى عليه السلام يخبرهم بما أكلوا من المائدة وما أدخروا منها فمسخهم الله خنازير وفي هذا دليل قاطع على صحة نبوة عيسى عليه السلام ومعجزة عظيمة له، وهي إخباره عن المغيبات مع ما تقدم له من الآيات الباهرات من إبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله تعالى وإخباره عن الغيوب بإعلام الله إياه ذلك وهذا مما لا سبيل لأحد من البشر عليه إلا الأنبياء عليهم السلام، فإن قلت قد يخبر المنجم والكاهن عن مثل ذلك فما الفرق؟. قلت: إن المنجم والكاهن لا بد لكل واحد منهما من مقدمات يرجع إليها ويعتمد في إخباره عليها، أما المنجم فإنه يستعين على ذلك بواسطة معرفة الكواكب وامتزاجاتها أو بواسطة حساب الرمل أو نحو ذلك وقد يخطيء في كثير مما يخبر به، وأما الكاهن فإنه يستعين برائد من الجن وقد يخطيء أيضاً في كثير مما يخبر به وأما أخبار الأنبياء عليهم السلام عن المغيبات فليس إلا بالوحي السماوي وهو من الله تعالى وليس ذلك باستعانة بواسطة حساب ولا غيره فحصل الفرق ﴿إن في ذلك﴾ يعني الذي تقدم ذكره من خلق الطير من الطين بإذن الله وإبراء الأكمة والأبرص والإخبار عن المغيبات ﴿آية لكم﴾ أي لعلبة ودلالة على صدق أني رسول من الله إليكم ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ يعني مصدقين بذلك.

وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَجَلْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن

رَبِّكُمْ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾

﴿ومصدقاً﴾ قيل: إنه عطف على قوله ورسولاً وقيل إنه عطف على أني قد ﴿جئتكم بآية من ربكم﴾ والمعنى

تَدْخِرُونَ﴾، ترفعونه، ﴿في بيوتكم﴾، حتى تأكلوه، وقيل: كان يخبر الرجل بما أكل البارحة وبما يأكل اليوم وبما أدخره للعشاء، وقال السدي: كان عيسى عليه السلام في الكتاب يحدث الغلمان بما يصنع آباؤهم، ويقول للغلام: انطلق فقد أكل أهلك كذا وكذا ورفعوا لك كذا، فينطلق الصبي إلى أهله ويكي عليهم حتى يعطوه ذلك الشيء، فيقولون: من أخبرك بهذا؟ فيقول: عيسى عليه السلام، فحبسوا صبيانهم عنه، وقالوا: لا تلعبوا مع هذا الساحر فجمعوهم في بيت، فجاء عيسى يطلبهم فقالوا ليسوا ههنا، فقال: فما في هذا البيت قالوا خنازير، قال عيسى: كذلك يكونون، ففتحوا عليهم فإذا هم خنازير، ففشا ذلك في بني إسرائيل فهمت به بنو إسرائيل فلما خافت عليه أمه حملته على حمار لها وخرجت هاربة إلى مصر، وقال قتادة: إنما كان هذا في المائدة، وكانت خواناً ينزل عليهم أينما كانوا كالمين والسلوى، وأمروا أن لا يخونوا ولا يخبثوا للغد فخانوا وخبثوا للغد، فجعل عيسى يخبرهم بما أكلوا من المائدة وبما أدخروا منها، فمسخهم الله خنازير. قوله تعالى: ﴿إن في ذلك﴾، الذي ذكرت، ﴿آية لكم إن كنتم مؤمنين﴾.

﴿ومصدقاً﴾ عطف على قوله: ﴿ورسولاً﴾ ﴿لما بين يدي من التوراة ولأجل لكم بعض الذي حُرِّم

وجئتكم مصداقاً ﴿لما بين يدي من التوراة﴾ وذلك لأن الأنبياء عليهم السلام يصدق بعضهم بعضاً فكل واحد منهم يصدق الذي قبله ويصدق بما أنزل الله من الكتب والشرائع والأحكام فلهذا قال عيسى عليه السلام مصداقاً لما بين يدي من التوراة ﴿ولاحلّ لكم بعض الذي حرم عليكم﴾ قال وهب بن منبه: أن عيسى كان على شريعة موسى عليهما السلام وكان يسبت ويستقبل بيت المقدس وقال لبني إسرائيل: إني لم أدعكم إلى خلاف حرف مما في التوراة إلا لأحلّ لكم بعض الذي حرم عليكم وأضع عنكم الآصار وذلك أن الله تعالى كان قد حرم على اليهود بعض الأشياء عقوبة لهم على بعض ما صدر منهم من الخيانات كما قال تعالى: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾ فبقي ذلك التحريم مستمراً على اليهود إلى أن جاء عيسى عليه السلام فرفع عنهم تلك التشديدات التي كانت عليهم وقال قتادة: كان الذي جاء به عيسى الين من الذي جاء به موسى وكان قد حرم عليهم فيما جاء به موسى لحوم الإبل والثروب والشحوم وأشياء من الطير والحيتان زاد بعضهم فجاءهم عيسى بالتخفيف وأحلها لهم وقال آخرون إن عيسى عليه السلام رفع كثيراً من أحكام التوراة ورفع السبت ووضع الأحد وكان ذلك كله بأمر الله فكان ذلك ناسخاً لتلك الأحكام والشرائع والناسخ والمنسوخ حق وصدق ﴿وجئتكم بآية من ربكم﴾ أي بحجة واضحة شاهدة على صحة رسالتي ثم خوفهم بقوله ﴿فاتقوا الله﴾ يعني يا معشر بني إسرائيل فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿وأطيعون﴾ يعني فيما أدعوكم إليه لأن طاعة الرسول من توابع تقوى الله وما أدعوكم إليه هو قلبي ﴿إن الله ربي وربكم فاعبدوه﴾ لأن جميع الرسل كانوا على دين واحد وهو التوحيد ولم يختلفوا في الله تعالى وفي هذه الآية حجة بالغة على نصارى وفد نجران ومن قال بقولهم من سائر النصارى بإخبار الله عن عيسى عليه السلام أنه كان بريئاً مما نسب إليه النصارى وأنه كان عبداً لله وخصه بنبوته ورسالته ثم ختم ذلك بقوله: ﴿هذا صراط مستقيم﴾ يعني التوحيد. قوله عز وجل:

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا

بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥١﴾

﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر﴾ أي وجد وعرف وقيل: رأى والإحساس عبارة عن وجدان الشيء بالحاسة والمعنى أنهم تكلموا بكلمة الكفر فأحس ذلك عيسى منهم وعرف إصرارهم عليه وعزمهم على قتله.

ذكر سبب القصة:

قال أهل الأخبار والسير: لما بعث الله عيسى إلى بني إسرائيل وأمره بإظهار رسالته والدعاء إليه نفوه

عليكم ﴿من اللحوم والشحوم، وقال أبو عبيدة: أراد بالبعض الكل، يعني: كل الذي حُرِّم عليكم، وقد ذكر البعض ويُراد به الكل، كقول لبيد:

تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حمامها

يعني: كل النفوس. قوله تعالى: ﴿وجئتكم بآية من ربكم﴾ يعني: ما ذكر من الآيات، وإنما وحّدها لأنها كلها جنس واحد في الدلالة على رسالته، ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾.

﴿إنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ أي: وجد، قاله الفراء، وقال أبو عبيدة: عرف، وقال مقاتل: رأى، ﴿منهم الكفر﴾

وأخرجوه من بينهم، فخرج هو وأمه يسبحان في الأرض فنزلا في قرية على رجل فأضافهما وأحسن إليهما وكان لتلك القرية ملك جبار معتد فجاء ذلك الرجل في بعض الأيام وهو مهموم حزين فدخل منزله عند امرأته فقالت مريم: ما شأن زوجك أراه كئيلاً حزيناً فقالت: لا تسأليني فقالت مريم: أخبريني لعل الله أن يفرج كربته قالت المرأة: إن لنا ملكاً جباراً وقد جعل على كل رجل منا يوماً يطعمه فيه هو وجنوده ويسقيهم الخمر وإن لم يفعل ذلك عاقبه واليوم نوبتنا وليس عندنا سعة لذلك فقالت لها قولي له: لا يهتم لذلك فأنا أمر ابني أن يدعو له فيكفي ذلك ثم قالت مريم لعيسى في ذلك فقال عيسى: إن فعلت ذلك وقع شر فقالت مريم: لا نبالي فإنه قد أحسن إلينا وأكرمنا فقال عيسى: قولي له إذا قرب ذلك الوقت فاملاً قدورك وخوابيك ماء ثم أعلمني، ففعل الرجل ذلك ثم دعا الله عيسى عليه السلام فتحول ماء القدور مرقاً ولحماً وماء الخوابي خمراً لم تر الناس مثله، فلما جاء الملك وأكل من ذلك الطعام وشرب من ذلك الخمر قال من أين لك هذا الخمر؟ فقال الرجل: هو من أرض كذا فقال الملك: إن خمري من تلك الأرض وليست مثل هذه فقال: هي من أرض أخرى فلما رآه الملك اختلط شدد عليه فقال الرجل: أنا أخبرك أن عندي غلاماً لا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه، وأنه دعا الله تعالى فجعل الماء خمراً وكان للملك ابن يريد أن يستخلفه في ملكه وقد مات قبل ذلك بأيام وكان يحبه حباً شديداً فقال الملك: إن رجلاً دعا الله تعالى حتى صار الماء خمراً بدعوته ليستجيب له في إحياء بني فطلب عيسى وكلمه في ذلك فقال له عيسى لا تفعل فإنه إن عاش وقع شر فقال الملك: لا أبالي أليس أراه فقال: عيسى: إن أنا أحبيته تتركني أنا وأمي نذهب حيث

وأرادوا قتله استنصر عليهم، ﴿ قال مَنْ أنصاري إلى الله ﴾، وقال السدي: كان سبب ذلك أن عيسى عليه السلام لما بعثه الله تعالى إلى بني إسرائيل وأمره بالدعوة نفثه بنو إسرائيل وأخرجوه، فخرج هو وأمه يسبحان في الأرض، فنزل في قرية على رجل فأضافهما وأحسن إليهما وكان لتلك المدينة جباراً معتداً فجاء ذلك الرجل يوماً مهتماً حزيناً فدخل منزله ومريم عند امرأته، فقالت لها مريم: ما شأن زوجك أراه كئيلاً، قالت: لا تسأليني، قالت: أخبريني لعل الله يفرج كربته، قالت: إن لنا ملكاً يجعل على كل رجل منا يوماً أن يطعمه وجنوده ويسقيهم الخمر، فإن لم يفعل عاقبه، واليوم نوبتنا وليس عندنا سعة، قالت: فقولي له لا تهتم فأني أمر ابني فيدعو له فيكفي ذلك، فقالت مريم لعيسى عليه السلام في ذلك، فقال عيسى: إن فعلت ذلك وقع شرٌ قالت: فلا نبالي فإنه قد أحسن إلينا وأكرمنا، فقال عيسى عليه السلام: فقولي له إذا اقترب ذلك فاملاً قدورك وخوابيك ماء، ثم أعلمني، ففعل ذلك، فدعا الله تعالى عيسى عليه السلام فتحول ماء القدر مرقاً ولحماً وماء الخوابي خمراً لم ير الناس مثله قط، فلما جاء الملك أكل فلما شرب الخمر قال: من أين هذا الخمر؟ قال: من أرض كذا، قال الملك: فإن خمري من تلك الأرض وليست مثل هذه، قال: هي من أرض أخرى، فلما خلط على الملك شدد عليه، قال: فأنا أخبرك عندي غلام لا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه، وأنه دعا الله فجعل الماء خمراً ومارقاً ولحماً، وكان للملك ابن يريد أن يستخلفه فمات قبل ذلك بأيام، وكان أحب الخلق إليه فقال: إن رجلاً دعا الله حتى جعل الماء خمراً ليُجاء به إليّ حتى يُحيي ابني، فدعا عيسى فكلمه في ذلك، فقال عيسى: لا تفعل فإنه إن عاش وقع شرٌ، قال الملك: لا أبالي أليس أراه حياً؟ فقال عيسى: إن أحبيته تتركوني وأمي نذهب حيث نشاء؟ قال: نعم، فدعا الله فعاش الغلام فلما رآه أهل مملكته قد عاش تبادروا إلى السلاح، وقالوا: أكلنا هذا حتى إذا دنا موته يريد أن يستخلف علينا ابنه، فيأكلنا كما أكل أبوه، فاقتلوا فذهب عيسى وأمه فمرّ بالحواريين وهم يصطادون السمك، فقال: ما تصنعون فقالوا: نصطاد السمك، قال: أفلا تمشون حتى نصطاد الناس، قالوا: مَنْ أنت؟ قال: عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله، ﴿ مَنْ أنصاري إلى الله ﴾، فآمنوا به وانطلقوا معه، قوله تعالى: ﴿ مَنْ أنصاري إلى الله ﴾ قال السدي وابن جريج:

نشاء؟ قال: نعم فدعا الله عيسى فعاش الغلام فلما رآه أهل مملكة الرجل فقد عاش فبادروا إلى السلاح وقالوا: قد أكلنا هذا الملك حتى إذا دنا أجله يريد أن يستخلف علينا ابنه ليأكلنا كما أكلنا أبوه فقاتلوه وظهر أثر عيسى فقصدوا قتله وكفروا به وقيل: إن اليهود كانوا عارفين بأنه المسيح المبشر به في التوراة وأنه ينسخ دينهم فلما أظهر عيسى الدعوة اشتد ذلك عليهم فأخذوا في أذاه وطلبوا قتله وكفروا به فاستنصر عليهم كما أخبر الله عز وجل عنه بقوله ﴿قال﴾ يعني عيسى عليه السلام ﴿من أنصاري إلى الله﴾ أي مع الله وقيل: معناه إلى أن أبين أمر الله وأظهر دينه وقيل: إلى بمعنى في أي في ذات الله وسبيله وقيل: إلى في موضعها والمعنى من يضم نصرته إلى نصرته إلى نصرته الله لي ﴿قال الحواريون نحن أنصار الله﴾ وذلك أن عيسى عليه السلام لما دعا بني إسرائيل إلى الله تعالى وتمردوا عليه وكفروا به خرج يسوع في الأرض فمر بجماعة يصطادون السمك، وكانوا اثني عشر ورئيسهم شمعون ويعقوب فقال عيسى عليه السلام: ما تصنعون؟ قالوا: نصيد السمك قال: أفلا تمشون حتى نصيد الناس قالوا: ومن أنت؟ قال أنا عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله فسألوه آية تدلهم على صدقه وكان شمعون قد رمي بشبكته في الماء فدعا الله عيسى فاجتمع في تلك الشبكة من السمك ما كادت تتمزق من كثرتهم فاستعانوا بأهل سفينة أخرى وملؤوا السفينتين من السمك فعند ذلك آمنوا به وانطلقوا معه واختلف في الحواريين فقيل: كانوا يصطادون السمك فلما آمنوا بعيسى صاروا يصطادون الناس ويهدونهم إلى الدين، سمو حواريين لبياض ثيابهم يقال: حورت الشيء بمعنى بيضته: وقيل: كانوا قصارين سمو بذلك لأنهم كانوا يحورون الثياب أي يبيضونها. وقيل: إن مريم سلمت عيسى إلى أعمال شتى فكان آخر من سلمته إليه الحواريين وكانوا قصارين وصباغين فدفعته إلى رئيسهم ليتعلم منه فاجتمع عنده ثياب وعرض له سفر فقال لعيسى: إنك قد تعلمت هذه الصنعة وأنا خارج إلى السفر ولا أرجع إلى عشرة أيام وهذه ثياب مختلفة الألوان، وقد علمت كل واحد منها بخيط على اللون الذي يصبغ به فأريد أن تفرغ منها وقت وقدمي. وخرج المعلم إلى سفره فطبخ عيسى حباً واحداً على لون واحد وأدخل فيه جميع الثياب وقال؟ كوني

مع الله تعالى، تقول العرب: الذَّودُ إلى الذَّودِ أبل، أي: مع الذود، كما قال الله تعالى: ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾ [النساء: ٢] أي: مع أموالكم، وقال الحسن وأبو عبيدة: ﴿إلى﴾ بمعنى في أي: من أعواني في الله، أي: في ذات الله، وسبيله، وقيل: ﴿إلى﴾ في موضعها معناه: مَنْ يَضُمُّ نصرته إلى نصرته الله لي، واختلفوا في الحواريين، قال مجاهد والسدي: كانوا صيادين يصطادون السمك، سُمُّوا حواريين لبياض ثيابهم، وقيل: كانوا ملاحين، وقال الحسن: كانوا قصارين، سُمُّوا بذلك لأنهم كانوا يُحَوِّرُونَ الثياب، أي: يبيضونها، وقال عطاء: سلمت مريم عيسى عليه السلام إلى أعمال شتى، فكان آخر ما دفعته إلى الحواريين وكانوا قصارين وصباغين، فدفعته إلى رئيسهم ليتعلم منه فاجتمع عنده ثياب، وعرض له سفر فقال لعيسى: إنك قد تعلمت هذه الحرفة وأنا خارج في سفر لا أرجع إلى عشرة أيام، وهذه ثياب مختلفة الألوان وقد علمت كل واحد منها بخيط على اللون الذي يُصبغ به، فأحب أن تكون فارغاً منها وقت قدومي، وخرج فطبخ عيسى حباً واحداً على لون واحد وأدخل جميع الثياب، وقال لها: كوني بإذن الله على ما أريد منك، فقدم الحواري والثياب كلها في الحب فقال: ما فعلت؟ فقال: فرغت قال: أين هي؟ قال: في الحب، قال: كلها؟ قال: نعم، قال: لقد أفسدت تلك الثياب، قال: قم فانظر، فأخرج عيسى ثوباً أحمر وثوباً أصفر وثوباً أخضر إلى أن أخرجها على الألوان التي أرادها، فجعل الحواري يتعجب ويعلم أن ذلك من الله، فقال الناس: تعالوا فانظروا، فأمن به هو وأصحابه، فهم الحواريون، وقال الضحاك: سُمُّوا حواريين لصفاء قلوبهم، وقال ابن المبارك: سُمُّوا به لِمَا عليهم من أثر العبادة ونورها، وأصل الحور عند العرب: شدة البياض، يقال: رجل أحور وامرأة حوراء أي: شديدة بياض العين، وقال الكلبي وعكرمة:

بإذن الله على ما أريد منك ثم قدم الحواري والثياب كلها في الحب فقال لعيسى: ما فعلت؟ قال قد فرغت منها قال وأين هي؟ قال في الحب قال كلها: قال: نعم قال لقد أفسدت علي الثياب قال عيسى: لا ولكن قم فانظر وقام عيسى وأخرج ثوباً أحمر وثوباً أخضر وثوباً أصفر وثوباً أسود حتى أخرجها كلها على الألوان التي يريد الحواري فجعل الحواري يتعجب من ذلك وعلم أن ذلك من الله تعالى فقال للناس: تعالوا فانظروا فآمن به هو وأصحابه وهم الحواريون. وقيل: سموا حواريين لصفاء قلوبهم ولما ظهر عليهم من أثر العبادة ونورها وقيل: الحواريون الأصفياء وكانوا أصفياء عيسى وخاصته وقيل: الحواريون هم الخلفاء وقيل: هم الوزراء وكانوا خلفاء عيسى ووزرائه وقيل: الحواريون هم الأنصار والحواري الناصر والحواري الرجل الذي يستعان به (ق) عن جابر بن عبد الله قال: ندب النبي ﷺ الناس يوم الخندق فانتدب الزبير ثم ندبهم فانتدب الزبير ثم ندبهم فانتدب الزبير فقال النبي ﷺ إن لكل نبي حوارياً وحواريي الزبير قال الحواريون: نحن أنصار الله يعني أنصار دين الله ورسوله وأعوانه ﴿آمنّا بالله﴾ أي صدقنا بأن الله ربنا ورب كل شيء ﴿واشهد﴾ يعني أنت يا عيسى ﴿بأننا مسلمون﴾ قيل: معناه واشهد بأننا منقادون لما تريد من نصرك والذب عنك ومستسلمون لأمر الله عز وجل وقيل: هو إقرار منهم بأن دينهم الإسلام وأنه دين عيسى وكل الأنبياء قبله لا اليهودية والنصرانية.

رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكْرُؤًا مِمَّا كَرِهَ اللَّهُ

وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينِ ﴿٥٤﴾

﴿ربنا آمنا بما أنزلت﴾ يعني قال الحواريون بعد إشهد عيسى عليهم بأنهم مسلمون ربنا آمنا بما أنزلت يعني بكتابك الذي أنزلته على عيسى عليه السلام ﴿واتبعنا الرسول﴾ يعني عيسى ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾ يعني الذين شهدوا لأنبيائك بالصدق واتبعوا أمرك ونهيك فأنبت أسماءنا مع أسمائهم واجعلنا في عدادهم ومعهم فيما تكرمهم به وهذا يقتضي أن يكون للشاهدين الذين سألوا الحواريون أن يكونوا معهم مزيد فضل عليهم فلهذا قال ابن عباس

الحواريون هم الأصفياء، وهم كانوا أصفياء عيسى عليه السلام، وكانوا اثني عشر رجلاً، وقال روح بن أبي القاسم: سألت قتادة عن الحواريين، قال: هم الذين تصلح لهم الخلافة، وعنه أيضاً أنه قال: الحواريون هم الوزراء، وقال الحسن: الحواريون الأنصار، والحواري الناصر، والحواري في كلام العرب خاصة: الرجل الذي يستعين به فيما ينويه، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا الحميدي أخبرنا سفيان أخبرنا محمد بن المنكدر قال سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، يقول: ندب رسول الله ﷺ الناس يوم الخندق، فانتدب الزبير، ثم ندبهم، فانتدب الزبير، فقال النبي ﷺ: «إن لكل نبي حوارياً، وحواريي الزبير»، قال سفيان: الحواري: الناصر، قال معمر قال قتادة: إن الحواريين كلهم من قريش، أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وحزمة وجعفر وأبو عبيدة بن الجراح وعثمان بن مظعون وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام رضي الله عنهم أجمعين، ﴿قال الحواريون نحن أنصار الله﴾، أعوان دين الله ورسوله ﴿آمنّا بالله واشهد﴾، يا عيسى، ﴿بأننا مسلمون﴾.

﴿ربنا آمنا بما أنزلت﴾، من كتابك، ﴿واتبعنا الرسول﴾، عيسى، ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾، الذين شهدوا لأنبيائك بالصدق، وقال عطاء مع النبيين لأن كل نبي شاهد أمته، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: مع محمد ﷺ وأُمته، لأنهم يشهدون للرسول بالبلاغ.

قوله تعالى: ﴿ومكروا﴾ يعني: كفار بني إسرائيل الذي أحس عيسى منهم الكفر، دبّروا في قتل عيسى

في قوله: فاكتبنا مع الشاهدين أي مع محمد ﷺ وأمته لأنهم المخصوصون بتلك الفضيلة فإنهم يشهدون للرسول بالبلاغ وقيل: مع الشاهدين يعني النبيين لأن كل نبي شاهد على أمته قوله عز وجل: ﴿وَمَكُرُوا﴾ يعني كفار بني إسرائيل الذين أحس عيسى منهم الكفر وأصل المكر صرف الغير عما يقصده بضرب من الحيلة وقيل: هو السعي بالفساد في الخفية فأما مكرهم بعيسى فإنهم دبروا في قتله وهموا به وذاك أن عيسى عليه السلام بعد أن أخرجه قومه هو وأمه رجع مع الحواريين وصاح فيهم بالدعوة وأظهر رسالته إليهم فهموا بقتله والفتك به فلذلك مكرهم والمكر من الخلق الخبيث والخديعة والحيلة ﴿ومكر الله﴾ أي جازاهم على مكرهم فسمي الجزاء باسم الابتداء لأنه في مقابلته وقيل: مكر الله استدراج العبد وأخذه بغتة من حيث لا يحتسب ومكر الله في هذه الآية خاصة هو إلقاء الشبه على صاحبهم الذي دلهم على عيسى حين أرادوا قتله حتى قتل قال ابن عباس أن عيسى عليه السلام استقبل رهطاً من اليهود فلما رأوه قالوا: قد جاء الساحر ابن الساحر والفاعل ابن الفاعلة فقفوه وأمه، فلما سمع عيسى ذلك دعا عليهم ولعنهم فمسخوا خنازير فلما رأى ذلك يهوداً رأس اليهود وملكهم فزع لذلك وخاف دعوته فاجتمعت كلمة اليهود على قتل عيسى وساروا إليه ليقتلوه فبعث الله عز وجل جبريل فأدخله خوخة في سقفها روزنة فرفعه الله من تلك الروزنة وأمر يهوداً ملك اليهود رجلاً من أصحابه يقال له ططيانوس أن يدخل الخوخة فيقتله ظنوا أنه عيسى فأخذوه وقتلوه وصلبوه. وقال وهب بن منبه: إن اليهود طرقوا عيسى في بعض الليل ونصبوا له خشبة ليصلبوه عليها فأظلمت الأرض وأرسل الله عز وجل الملائكة فحالت بينهم وبينه فجمع عيسى عليه السلام الحواريين تلك الليلة وأوصاهم وقال: ليكفر بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ويبيعني بدراهم يسيرة فخرجوا وتفرقوا وكانت اليهود تطلبه فأتى أحد الحواريين إلى اليهود وقال: ما تجعلون لي إن دللتكم على المسيح فجعلوا

عليه السلام، بعد إخراج قومه إياه وأمه عاد إليهم مع الحواريين، وصاح فيهم بالدعوة فهموا بقتله وتواطئوا على الفتك به فذلك مكرهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرَ الْمَاكِرِينَ﴾، فالمكر من المخلوقين الخبث والخديعة والحيلة، والمكر من الله استدراج العبد وأخذه بغتة من حيث لا يعلم، كما قال ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ [الأعراف: ١٨٢، القلم: ٤٤]، وقال الزجاج: مكر الله عز وجل مجازاتهم على مكرهم، فسمي الجزاء باسم الابتداء لأنه في مقابلته، كقوله تعالى: ﴿الله يستهزئ بهم﴾ [البقرة: ١٥] ﴿وهو خادعهم﴾ [النساء: ١٤٢] ومكر الله تعالى خاصة بهم في هذه الآية وهو إلقاء الشبه على صاحبهم الذي أراد قتل عيسى عليه السلام، حتى قُتل، قال الكلبي: عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن عيسى استقبل رهطاً من اليهود فلما رأوه قالوا: قد جاء الساحر ابن الساحرة والفاعل ابن الفاعلة، وقذفوه وأمه فلما سمع ذلك عيسى عليه السلام منهم دعا عليهم، ولعنهم فمسخهم الله خنازير، فلما رأى ذلك يهوداً رأس اليهود وأميرهم، فزع لذلك وخاف دعوته، فاجتمعت كلمة اليهود على قتل عيسى عليه السلام، وساروا ليقتلوه فبعث الله جبريل فأدخله في خوخة في سقفها روزنة فرفعه إلى السماء من تلك الروزنة، فأمر يهوداً رأس اليهود رجلاً من أصحابه يقال له: ططيانوس أن يدخل الخوخة ويقتله، فلما دخل غرفته لم ير عيسى فأبطأ عليهم فظنوا أنه يُقاتله فيها فألقى الله عليه شبه عيسى عليه السلام، فلما خرج ظنوا أنه عيسى عليه السلام فقتلوه وصلبوه، قال وهب: طرقوا عيسى في بعض الليل ونصبوا خشبة ليصلبوه، فأظلمت الأرض فأرسل الله الملائكة فحالت بينهم وبينه، فجمع عيسى الحواريين تلك الليلة وأوصاهم ثم قال: ليكفرن بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ويبيعني بدراهم يسيرة، فخرجوا وتفرقوا، وكلفت اليهود تطلبه فأتى أحد الحواريين إلى اليهود فقال لهم: ما تجعلون لي إن دللتكم على المسيح؟ فجعلوا له ثلاثين درهماً، فأخذها ودلهم عليه، ولما دخل البيت ألقى الله عليه شبه عيسى، ورفع عيسى وأخذ الذي دلهم عليه، فقال: أنا

له ثلاثين درهماً فأخذها ودلهم عليه، فلما دخل البيت الذي فيه المسيح ألقى الله شبه عيسى عليه ورفع الله عيسى عليه السلام وأخذ الذي دل عليه فقال: أنا الذي دلتكم عليه فلم يلتفتوا إلى قوله فقتلوه وصلبوه وهم يظنون أنه عيسى فلما صلب الذي ألقى عليه شبه عيسى جاءت مريم وامرأة أخرى كان عيسى دعا لها فأبرأها الله من الجنون بدعوته فجعلتا تبكيان عند المصلوب فجاءهما عيسى عليه السلام وقال: على من تبكيان إن الله عز وجل قد رفعني ولم يصبني إلا خيراً وهذا شيء شبه لهم فلما كان بعد سبعة أيام قال الله تعالى لعيسى أهبط إلى مريم المجدلانية وهو اسم موضع نسبت إليه فإنه لم ييك عليك أحد بكاءها، ولم يحزن عليك أحد حزنها ثم لتجمع لك الحواريين فبثهم في الأرض دعاة إلى الله عز وجل فأهبطه الله عز وجل إليها فاشتعل الجبل نوراً حين هبط فجمعت له الحواريين فبثهم دعاة في الأرض ثم رفعه الله فتلك الليلة التي تدخن فيها النصارى فلما أصبح الحواريون تكلم كل واحد منهم بلغة من أرسله عيسى إليهم فذلك قوله تعالى: ﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾ يعني وهو أفضل المجازين بالسيسة العقوبة. وقال السدي: إن اليهود حبست عيسى عليه السلام في بيت ومعه عشرة من الحواريين فدخل عليهم رجل منهم كان قد نافق ألقى عليه شبه فأخذ وقتل وصلب وقال قتادة ذكر لنا أن نبي الله عيسى عليه السلام قال لأصحابه أيكم يقذف عليه شبيهي فإنه مقتول فقال رجل منهم: أنا يا نبي الله فقتل ذلك الرجل ومنع الله عيسى ورفعته إليه وكساه الريش وألبسه النور وقطع عنه لذة الطعام والمشرب وطار مع الملائكة فهو معهم حول العرش وصار إنساً ملكياً أرضياً سماوياً. قال أهل التاريخ: حملت مريم بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة وولدت له بيت لحم من أرض أوري شلم لمضي خمس وستين سنة من غلبة الإسكندر على أرض بابل، وأوحى الله إلى عيسى على رأس ثلاثين سنة ورفع الله من بيت المقدس ليلة القدر من رمضان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة فكانت نبوته ثلاث سنين وعاشت أمه مريم بعد رفعه ست سنين. قوله عز وجل: .

الذي دلتكم عليه، فلم يلتفتوا إلى قوله، وقتلوه وصلبوه وهم يظنون أنه عيسى، فلما صلب شبه عيسى جاءت مريم وامرأة كان عيسى دعا لها فأبرأها الله من الجنون تبكيان عند المصلوب، فجاءهما عيسى عليه السلام فقال: أهبط لهما فقال: علام تبكيان إن الله قد رفعني ولم يصبني إلا خيراً، وإن هذا شيء مثبته لهم. فلما كان بعد سبعة أيام قال الله عز وجل لعيسى عليه السلام: أهبط على مريم المجدلانية اسم موضع في جبلها فإنه لم ييك أحد عليك بكاءها، ولم يحزن عليك أحد حزنها، وليجتمع لك الحواريون فبثهم في الأرض دعاة إلى الله عز وجل فأهبطه الله عليها فاشتعل الجبل حين هبط نوراً فجمعت له الحواريون فبثهم في الأرض دعاة ثم رفعه الله عز وجل إليه وتلك الليلة هي التي تدخن فيها النصارى، فلما أصبح الحواريون حدث كل واحد منهم بلغة من أرسله عيسى إليهم، فذلك قوله تعالى: ﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾، وقال السدي: إن اليهود حبسوا عيسى في بيت وعشرة من الحواريين، فدخل عليهم رجل منهم ليقتله فألقى الله عليه شبهه، وقال قتادة: ذكر لنا أن نبي الله عيسى عليه السلام قال لأصحابه: أيكم يقذف عليه شبيهي فإنه مقتول، فقال رجل من القوم: أنا يا نبي الله، فقتل ذلك الرجل، ومنع الله عيسى عليه السلام، ورفعته إليه وكساه الريش وألبسه النور وقطع عنه لذة الطعام والمشرب، وطار مع الملائكة فهو معهم حول العرش، وصار إنسياً ملكياً سماوياً أرضياً، قال أهل التاريخ: حملت مريم بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة، وولدت عيسى بيت لحم من أرض أوري شلم لمضي خمس وستين سنة من غلبة الإسكندر على أرض بابل، فأوحى الله إليه على رأس ثلاثين سنة، ورفع الله من بيت المقدس ليلة القدر من شهر رمضان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فكانت نبوته ثلاث سنين، وعاشت أمه مريم بعد رفعه ست سنين، فتوفيت مريم عليها السلام وهي بنت اثنين وخمسين سنة.

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِي مَتْوَفِيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِي مَتْوَفِيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ اختلفوا في معنى التوفي هنا على طريقتين: فالطريق الأول أن الآية على ظاهرها من غير تقديم ولا تأخير وذكرها في معناها وجوهاً: الأول: معناه أني قابضك ورافعك إلي من غير موت من قولهم توفيت الشيء واستوفيته إذا أخذته وقبضته تاماً، والمقصود منه هنا أن لا يصل أعداؤه من اليهود إليه بقتل ولا غيره. الوجه الثاني: أن المراد بالتوفي النوم ومنه قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ والتي لم تمت في منامها فجعل النوم وفاة، وكان عيسى قد نام فرفعه الله وهو نائم لثلاً يلحقه خوف، فمعنى الآية أني منيكم ورافعك إلى الوجه الثالث أن المراد بالتوفي حقيقة الموت، قال ابن عباس: معناه أني مميتك قال وهب بن منبه: إن الله توفي عيسى ثلاث ساعات من النهار ثم أحياه ثم رفعه إليه وقيل: إن النصارى يزعمون أن الله توفاه سبع ساعات من النهار ثم أحياه ورفعته إليه. الوجه الرابع: أن الواو في قوله ورافعك إلي لا تفيد الترتيب والآية تدل على أن الله تعالى يفعل به ما ذكر فأما كيف يفعل؟ ومتى يفعل؟ فالأمر فيه موقوف على الدليل. وقد ثبت في الحديث أن عيسى سينزل ويقتل الدجال وسنذكره إن شاء الله تعالى. الوجه الخامس: قال أبو بكر الواسطي: معناه أني متوفيك عن شهواتك وعن حظوظ نفسك ورافعك إلي ذلك أن عيسى عليه السلام لما رفع إلى السماء صارت حالته حالة الملائكة في زوال الشهوة. الوجه السادس: أن معنى التوفي أخذ الشيء وافيأً ولما علم الله تعالى أن من الناس من يخطر بباله أن الذي رفعه الله إليه هو روحه دون جسده كما زعمت النصارى أن المسيح رفع لاهوته يعني روحه وبقي في الأرض ناسوته يعني جسده فرد الله عليهم بقوله إني متوفيك ورافعك إلي فأخبر الله تعالى أنه رفع بتمامه إلى السماء بروحه وجسده جميعاً. الطريق الثاني: أن في الآية تقديماً وتأخيراً تقديره أني رافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد إنزالك إلى الأرض وقيل: لبعضهم هل تجد نزول عيسى إلى الأرض في القرآن؟ قال: نعم قوله تعالى وكهلاً وذلك لأنه لم يكتهل في الدنيا وإنما معناه وكهلاً بعد نزوله من السماء. (ق) عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عادلاً مقسطاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد زاد وفي رواية حتى

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِي مَتْوَفِيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾، اختلفوا في بعض التوقي ههنا، قال الحسن والكلبي وابن جريج: إنني قابضك ورافعك في الدنيا إلي من غير موت، يدل عليه قوله تعالى: ﴿فلما توفيتني﴾ [المائدة: ١١٧] أي: قبضتني إلى السماء وأنا حي، لأن قومه إنما تنصروا بعد رفعه لا بعد موته، فعلى هذا للتوفي تأويلان أحدهما إنني رافعك إلي وافيأً لم ينالوا منك شيئاً، من قولهم: توفيت من كذا وكذا وأستوفيه إذا أخذته تاماً، والآخر: إنني متسلمك، من قولهم توفيت منه كذا، أي: تسلمته، وقال الربيع بن أنس: المراد بالتوفي النوم، وكان عيسى قد نام فرفعه الله نائماً إلى السماء، معناه إنني مُميتك ورافعك إلي، كما قال الله تعالى: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾ [الأنعام: ٦٠] أي: يُنيمكم بالليل، وقال بعضهم: المراد بالتوفي الموت، وروى علي بن طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن معناه: إنني مميتك يدل عليه قوله تعالى: ﴿قل يتوفاكم ملك الموت﴾ [السجدة: ١١]، فعلى هذا له تأويلان أحدهما ما قاله وهب: توفي الله عيسى ثلاث ساعات من النهار ثم أحياه ثم رفعه إليه، وقال محمد بن إسحق: إن النصارى يزعمون أن الله تعالى توفاه سبع ساعات من النهار، ثم أحياه ورفعته إليه، والآخر: ما قاله الضحاك وجماعة: أن في هذه الآية تقديماً وتأخيراً معناه: إنني رافعك إلي ومطهرك من الذين

تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته وفي رواية كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم. وفي رواية فأمكم منكم قال ابن أبي ذؤيب: تدري ما أمكم منكم؟ قلت فأخبرني قال فأمكم كتاب ربكم عز وجل وبسنة نبيكم ﷺ وفي أفراد مسلم من حديث النواس بن سمعان قال: فبينما هما إذ بعث الله المسيح ابن مريم عليه السلام فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ليس بيني وبينه يعني عيسى نبي وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه فإنه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض ينزل بين مضرتين كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل فيقاتل الناس على الإسلام، فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويهلك الله الملل في زمانه كلها إلا الإسلام ويهلك المسيح الدجال ثم يمكث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون أخرجه أبو داود ونقل بعضهم أن عيسى عليه السلام يدفن في حجرة رسول الله ﷺ فيقوم أبو بكر وعمر يوم القيامة بين نبيين محمد وعيسى عليهما السلام. قوله عز وجل: ﴿ومطهرك من الذين كفروا﴾ يعني مخرجك من بينهم ومنجيك منهم ﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾ يعني وجاعل الذين اتبعوك في التوحيد وصدقوا قولك وهم أهل الإسلام من أمة محمد ﷺ فوق الذين كفروا بالعز والنصر والغلبة بالحجة الظاهرة. وقيل: هم الحواريين الذين اتبعوا عيسى على دينه وقيل: هم النصارى فهم فوق اليهود وذلك لأن ملك اليهود قد ذهب ولم يبق لهم مملكة وملك النصارى باق فعلى هذا القول يكون الاتباع بمعنى المحبة والادعاء لا اتباع الدين لأن النصارى وإن أظهروا متابعة عيسى عليه السلام فهم أشد مخالفة له وذلك أن عيسى عليه السلام لم يرض بما هم عليه من الشرك، والقول الأول هو الأصح لأن الذين اتبعوه هم الذين شهدوا له بأنه عبدالله ورسوله وكلمته وهم المسلمون وملكهم باق إلى يوم القيامة ﴿ثم إليّ مرجعكم﴾ يعني يقول الله عز وجل: إلي مرجع الفريقين في الآخرة الذين اتبعوا عيسى وصدقوا به والذين كفروا به ﴿فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾ يعني من الحق في أمر عيسى ثم بين ذلك الحكم فقال تعالى: .

كفروا ومتوفيك بعد إنزالك من السماء، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا عبد الرحمن بن أبي شريح أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي أخبرنا علي بن الجعد أخبرنا عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «والذي نفس محمد بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، يكسر الصليب ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة خير من الدنيا وما عليها»، ويروى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في نزول عيسى عليه السلام قال: «وتهلك في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك الدجال فيمكث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون»، وقيل للحسين بن الفضل: هل تجد نزول عيسى في القرآن؟ قال: نعم، قوله ﴿وكهلاً﴾ وهو لم يكتهل في الدنيا وإنما معناه ﴿وكهلاً﴾ بعد نزوله من السماء، قوله تعالى: ﴿ومطهرك من الذين كفروا﴾ أي مخرجك من بينهم ومنجيك منهم، ﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾، قال قتادة والربيع والشعبي ومقاتل الكلبي: هم أهل الإسلام الذين صدقوه واتبعوا دينه في التوحيد من أمة محمد ﷺ، فهو فوق الذين كفروا ظاهرين قاهرين بالعزة والمنعة والحجة، وقال الضحاك: يعني الحواريين فوق الذين كفروا، وقيل: هم أهل الروم، وقيل: أراد بهم النصارى، أي: فهم فوق اليهود إلى يوم القيامة، فإن اليهود قد ذهب ملكهم، وملك النصارى دائم إلى قريب من قيام الساعة، فعلى هذا يكون الاتباع بمعنى الادعاء والمحبة، لا اتباع الدين، ﴿ثم إليّ مرجعكم﴾، في الآخرة، ﴿فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾، من الدين وأمر عيسى.

فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الذين جحدوا نبوة عيسى وخالفوا ملته وقالوا فيه ما قالوا من الباطل ووصفوه بما لا ينبغي من سائر اليهود والنصارى ﴿فَأَعَذَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا﴾ يعني بالقتل والسبي والذلة وأخذ الجزية منهم ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ أي وأعذبهم في الآخرة بالنار ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ يعني ما نعين يمنعونهم من عذابنا ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني بعيسى عليه السلام وصدقوا بنبوته وأنه عبدالله ورسوله وكلمته ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني عملوا بما فرضت عليهم وشرعت لهم ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ يعني جزاء أعمالهم لا ينقص منه شيء ﴿وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا يحب من ظلم غيره حقاً له أو وضع شيئاً في غير موضعه والمعنى أنه تعالى لا يرحمهم ولا يشني عليهم بجميل ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ يعني الذي ذكرته لك من أخبار عيسى وأمه مريم والحواريين وغير ذلك من القصص ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ أي نخبرك به يا محمد على لسان جبريل، وإنما أضاف ما يتلوه جبريل عليه السلام إلى نفسه سبحانه تعالى لأنه من عنده وبأمره من غير تفاوت أصلاً فأضافه إليه ﴿مِنَ الْآيَاتِ﴾ يعني من القرآن وقيل الآيات يعني العلامات الدالة على نبوتك يا محمد لأنها أخبار لا يعلمها إلا من يقرأ ويكتب أو نبي يوحى إليه وأنت أُمِّي لا تقرأ ولا تكتب فثبت أن ذلك من الوحي السماوي الذي أنزل عليك ﴿وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ أي المحكم الممنوع من الباطل قيل المراد من الذكر الحكيم القرآن لأنه حاكم يستفاد منه. جميع الأحكام وقيل: الذكر الحكيم هو اللوح المحفوظ الذي منه تنزلت جميع كتب الله على رسله وهو لوح من درة بيضاء معلق بالعرش.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ الآية. أجمع أهل التفسير أن هذه الآية نزلت في محاجة نصارى وفد نجران قال ابن عباس: إن رهطاً من أهل نجران قدموا على النبي ﷺ: كان فيهم السيد والعاقب فقالوا للنبي ﷺ: ما شأنك تذكر صاحبنا فقال من هو؟ قالوا: عيسى تزعم أنه عبدالله فقال النبي ﷺ: أجل إنه عبدالله فقالوا له: فهل رأيت له مثلاً أو أثبت به؟ ثم خرجوا من عنده فجاءه جبريل عليه السلام فقال: قل لهم إذا أتوك إن مثل عيسى عند الله كمثال آدم خلقه من تراب وقيل أن النبي ﷺ قال لهم: إنه عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول فغضبوا وقالوا: يا محمد هل رأيت إنساناً قط من غير أب؟ فأنزل الله تعالى:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا﴾، بالقتل والسبي والجزية والذلة، ﴿وَالْآخِرَةِ﴾، أي: وفي الآخرة بالنار، ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾، قرأ ورش والحسن وحفص بالياء، والباقون بالنون أي: يوفِّيهم أجور أعمالهم، ﴿وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾، أي: لا يرحم الكافرين ولا يشني عليهم بالجميل.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: هذا الذي ذكرته لك من الخبر عن عيسى ومريم والحواريين ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾، يعني: نخبرك به بتلاوة جبريل عليك، ﴿مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾، يعني القرآن والذكر ذي الحكمة، وقال مقاتل: الذكر الحكيم، أي: المحكم الممنوع من الباطل، وقيل: الذكر الحكيم: وهو اللوح المحفوظ، وهو معلق

﴿إن مثل عيسى عند الله﴾ أي في الخلق والإنشاء في كونه خلقه من غير أب كمثل آدم في كونه خلقه من تراب من غير أب وأم، ومعنى الآية أن صفة خلق عيسى من غير أب كصفة آدم في كونه خلقه من تراب لا من أب وأم، فمن أقر بأن الله خلق آدم من التراب اليابس وهو أبلغ في القدرة، فلم لا يقر بأن الله خلق عيسى من مريم من غير أب بل الشأن في خلق آدم أعجب وأغرب وتم الكلام عند قوله كمثل آدم لأنه تشبيه كامل ثم قال تعالى: خلقه من تراب فهو خير مستأنف على جهة التفسير لحال خلق آدم في كونه خلقه من تراب أي قدره جسداً من طين ﴿ثم قال له كن﴾ أي أنشأه خلقاً بالكلمة، وكذلك عيسى أنشأه خلقاً بالكلمة فعلى هذا القول ذكروا في الآية إشكالاً وهو أنه تعالى قال: خلقه من تراب ثم قال له: كن فهذا يقتضي أن يكون خلق آدم متقدماً على قوله كن ولا تكوين بعد الخلق. وأجيب عن هذا الإشكال بأن الله تعالى أخبر بأنه خلقه من تراب لا من ذكر وأنثى ثم ابتداء خبراً آخر. فقال: إني أخبركم أيضاً أنني قلت له كن فكان من غير ترتيب في الخلق كما يكون في الولادة، ويحتمل أن يكون المراد أنه تعالى خلقه جسداً من تراب ثم قال له: كن بشراً فكان يصح النظم وقيل: الضمير في قوله كن يرجع إلى عيسى عليه السلام وعلى هذا إشكال في الآية. فإن قلت: كيف شبه عيسى عليه السلام بآدم عليه السلام وقد وجد عيسى من غير أب ووجد آدم من غير أب ولا أم. قلت: هو مثله في أحد الطرفين فلا يمنع اختصاصه دونه بالطرف الآخر من تشبيهه به، لأن المماثلة مشاركة في بعض الأوصاف ولأنه شبه به في أنه وجد وجوداً خارجاً عن العادة المستمرة وهما في ذلك نظيران لأن الوجود من غير أب وأم أغرب في العادة من الوجود من غير أب، فشبه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه. وحكي أن بعض العلماء أسر في بعض بلاد الروم فقال لهم: لم تعبدون عيسى؟ قالوا: لأنه لا أب له قال: فآدم أولى لأنه لا أب له ولا أم قالوا: وكان يحيي الموتى فقال: حزقيل أولى لأن عيسى أحيا أربعة نفر وأحيا حزقيل أربعة آلاف: قالوا: أو كان يبرئ الأكمه والأبرص قال: فجرجيس أولى لأنه طبخ وأحرق ثم قام سليماً وقوله كن ﴿فيكون﴾ قال ابن عباس: معناه كن فكان فأريد بالمستقبل الماضي وقيل: معناه ثم قال له: كن وأعلم يا محمد أن قال له ربك كن فإنه يكون لا محالة.

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٥٦﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا

بالعرش من درة بيضاء، وقيل: من الآيات التي من العلامات الدالة على نبوتك لأنها أخبار لا يعلمها إلا قارىء كتاب الله أو من يوحى إليه وأنت أُمِّي لا تقرأ.

﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم﴾ الآية نزلت في وفد نجران، وذلك أنهم قالوا لرسول الله ﷺ: ما لك تشتم صاحبنا، قال: «وما أقول؟» قالوا تقول: إنه عبد الله، قال: «أجل هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول»، فغضبوا وقالوا: هل رأيت إنساناً قط من غير أب، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿إن مثل عيسى عند الله﴾ في كونه خلقه من غير أب كمثل آدم، لأنه خلق من غير أب وأم، ﴿خلق من تراب ثم قال له﴾، يعني: لعيسى عليه السلام، ﴿كن فيكون﴾، يعني: فكان، فإن قيل: ما معنى قوله ﴿خلق من تراب﴾، ثم قال له كن فيكون ﴿خلقاً﴾، ولا تكوين بعد الخلق، قيل: معناه خلقه ثم أخبركم أنني قلت له كن فكان من غير ترتيب في الخلق كما يكون في الولادة، وهو مثل قول الرجل: أعطيتك اليوم درهماً ثم أعطيتك أمس درهماً أي: ثم أخبرك أنني أعطيتك أمس درهماً، وفيما سبق من التمثيل دليل على جواز القياس، لأن القياس هو رد فرع إلى أصل بنوع شبه، وقد رد الله تعالى خلق عيسى إلى آدم عليهم السلام بنوع شبه.

وَأَبْنَاءُكُمْ وَنِسَاءُكُمْ وَأَنْفُسُكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلَ فَنَجْعَلُ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿١١﴾

﴿الحق من ربك﴾ الذي أخبرتك به من تمثيل عيسى بآدم هو الحق من ربك ﴿فلا تكن من الممترين﴾ أي من الشاكين إن ذلك كذلك وهذا خطاب للنبي ﷺ والمراد به أمته لأنه ﷺ لم يشك قط فهو كقوله تعالى: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء﴾ والمعنى فلا تكن من الممترين يا أيها السامع كائناً من كان لهذا التمثيل والبرهان الذي ذكر فهو من باب التهيج لزيادة الثبات والطمأنينة.

قوله عز وجل: ﴿فمن حاجك فيه﴾ أي فمن جاد لك في عيسى وقيل في الحق ﴿من بعد ما جاءك من العلم﴾ يعني بأن عيسى عبد الله ورسوله ﴿فقل تعالوا﴾ أي هلموا والمراد منه المجيء وأصله من العلو بالرأي والعزم كما تقول تعال نتفكر هذه المسألة ﴿ندع أبناءنا وأبنائكم﴾ أي يدع كل منا ومنكم إبنائه ﴿ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم﴾ قيل: أراد بالأبناء الحسن والحسين والنساء فاطمة وبالنفس ﷺ وعلياً رضي الله عنه وقيل هو على العموم لجماعة أهل الدين ﴿ثم نبتهل﴾ قال ابن عباس: تنضرع في الدعاء وقيل: معناه نجتهد ونبالغ في الدعاء. وقيل: معناه نلتعن والابتهال الالتعان يقال عليه بهلة الله أي لعنة الله ﴿فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ يعني منا ومنكم في أمر عيسى قال المفسرون: لما قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية على وفد نجران ودعاهم إلى المباهلة قالوا: حتى نرجع وننظر في أمرنا ثم نأتيك غداً فلما خلا بعضهم ببعض قالوا للعاقب: وكان كبيرهم وصاحب رأيهم ما ترى يا عبد المسيح قال لقد عرفتم يا معشر النصاري أن محمداً نبي مرسل، ولئن فعلتم ذلك لتهلكن فإن أبيتم إلا الإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم فأتوا رسول الله ﷺ وقد احتضن الحسين وأخذ بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعلي يمشي خلفها والنبي ﷺ يقول لهم: إذا دعوت فأمّنوا فلما رآهم أسقف نجران قال: يا معشر النصاري إني لأرى وجوهاً لو سألوها الله أن يزيل أهلها لأزاله من مكانه فلا تبتهلوا فتهلكوا، ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة فقالوا: يا أبا القاسم قد رأينا أن لا نباهلك وأن نتركك على دينك وتركنا على ديننا فقال لهم رسول الله ﷺ: فإن أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم فأبوا ذلك. فقال: إني أناجز فقالوا ما لنا بحرب العرب طاقة ولكننا نصالحك على ما لا تغزوننا ولا تخيفنا ولا تردنا عن ديننا وأن نؤدي إليك في كل سنة ألفي حلة ألف في صفر وألف في رجب زاد في

قوله تعالى: ﴿الحق من ربك﴾ أي: هو الحق، وقيل: جاءك الحق من ربك، ﴿فلا تكن من الممترين﴾ أي: الشاكين، الخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته.

قوله عز وجل: ﴿فمن حاجك فيه﴾ أي: جادل في أمر عيسى وفي الحق، ﴿من بعد ما جاءك من العلم﴾، بأن عيسى عبد الله ورسوله، ﴿فقل تعالوا﴾، أصله تعالوا تفاعلوا من العلو فاستثقلت الضمة على الياء فحذفت، قال الفراء: بمعنى تعال كأنه يقول ارتفع، ﴿ندع﴾ جزم لجواب الأمر، وعلامة الجزم سقوط الواو، ﴿أبناءنا وأبنائكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم﴾، قيل: أبناءنا الحسن والحسين، ونساءنا فاطمة وأنفسنا عني نفسه وعلياً رضي الله عنه، والعرب تسمي ابن عم الرجل نفسه، كما قال الله تعالى: ﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾ [الحجرات: ١١] يريد إخوانكم، وقيل: هو على العموم لجماعة أهل الدين، ﴿ثم نبتهل﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي تنضرع في الدعاء، وقال الكلبي: نجتهد ونبالغ في الدعاء، وقال الكسائي وأبو عبيدة: نبتهل، والابتهال الإلتعان، يقال عليه بهلة الله، أي: لعنته ﴿فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾، منا ومنكم في أمر عيسى، فلما قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية على وفد نجران ودعاهم إلى المباهلة، قالوا: حتى نرجع وننظر في أمرنا

رواية وثلاثاً وثلاثين درعاً عادية وثلاثة وثلاثين بغيراً وأربعاً وثلاثين فرساً غازية فصالحهم رسول الله ﷺ على ذلك وقال: والذي نفسي بيده إن العذاب تدلى على أهل نجران ولو تلاعنوا لمسخوا قردة وخنازير ولاضطرم عليهم الوادي ناراً ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على الشجر ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى هلكوا». فإن قلت ما كان دعاؤه إلى المباهلة إلا لتبيين الصادق من الكاذب منه ومن خصمه وذلك يختص به وبمن يباهله فما معنى ضم الأبناء والنساء في المباهلة. قلت ذلك أكد في الدلالة على ثقته بحاله واستيقانه بصدقه حيث استجراً على تعريض أعزته وأفلاذ كبده وأحب الناس إليه، فلذلك ضمهم في المباهلة، ولم يقتصر على تعريض نفسه لذلك وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزته هلاك استتصال إن تمت المباهلة، وإنما خص الأبناء والنساء لأنهم أعز الأهل وألصقهم بالقلب وربما فداهم الرجل بنفسه، وحارب دونهم حتى يقتل وإنما قدمهم في الذكر على النفس لينبه بذلك على لطف مكانهم وقرب منزلتهم، وفيه دليل قاطع وبرهان واضح على صحة نبوة محمد ﷺ لأنه لم يرو أحد من موافق ومخالف أنهم أجابوا إلى المباهلة لأنهم عرفوا صحة نبوته وما يدل عليها في كتبهم. قوله تعالى: .

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَزْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكْ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾

﴿إن هذا﴾ يعني الذي قص عليك يا محمد من خبر عيسى عليه السلام وأنه عبد الله ورسوله ﴿لهو القصص الحق﴾ وأصله من القصص وهو تتبع الأثر والقصص الخبر الذي تتتابع فيه المعاني ﴿وما من إله إلا الله﴾ إنما دخلت من لتوكيد النفي والمعنى أن عيسى ليس بإله كما زعمت النصارى ففيه رد عليهم ونفي جميع من ادعى من

ثم نأتيك غداً فخلا بعضهم ببعض فقالوا: للعاقب وكان ذا رأيهم، يا عبد المسيح ما ترى قال: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمداً نبي مرسل والله ما لاعسن قوم نبياً قط فعاش كبيرهم ونبت صغيرهم، ولئن فعلتم ذلك لتهلكن فإن أبيتم إلا الإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم، فأتوا رسول الله ﷺ وقد غدا رسول الله ﷺ محتضناً للحسين آخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعليّ خلفها، وهو يقول لهم: «إذا أنا دعوت فأمنوا» فقال أسقف نجران: يا معشر النصارى إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله، فلا تبتهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة، فقالوا: يا أبا القاسم قد رأينا أن لا نلاعنك وأن نتركك على دينك ونثبت على ديننا، فقال رسول الله ﷺ: «فإن أبيتم المباهلة فأسلموا، يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم، فأبوا فقال: فإني أنا بذككم، فقالوا: ما لنا بحرب العرب طاقة، ولكننا نصالحك على أن لا تغزونا ولا تخفينا، ولا تردنا عن ديننا، أن نؤدي إليك كل عام ألفي حلة ألفاً في صفر وألفاً في رجب، فصالحهم رسول الله ﷺ على ذلك، وقال والذي نفسي بيده إن العذاب قد تدلى على أهل نجران، ولو تلاعنوا لمسخوا قردة وخنازير ولاضطرم عليهم الوادي ناراً ولاستأصل الله نجران، وأهله حتى الطير على الشجر، ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى هلكوا».

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ ﴿النبا الحق﴾ ﴿وما من إله إلا الله﴾، ﴿ومن﴾ صلة تقديره: ﴿وما إله إلا الله﴾، ﴿وإن الله لهو العزيز الحكيم﴾.

المشركين أنهم آلهة وإثبات الإلهية لله تعالى وحده لا شريك له في الإلهية ﴿وإن الله لهو العزيز﴾ أي الغالب المنتقم ممن عصاه وخالف أمره وادّعى معه إلهاً آخر ﴿الحكيم﴾ يعني في تدبيره وفيه رد على النصارى لأن عيسى لم يكن كذلك ﴿فإن تولوا﴾ يعني فإن أعرضوا عن الإيمان ولم يقبلوه ﴿فإن الله عليم بالمفسدين﴾ أي الذين يعبدون غير الله ويدعون الناس إلى عبادة غيره وفيه وعيد وتهديد لهم. قوله لهم. قوله عز وجل: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾ قال المفسرون: لما قدم وفد نجران المدينة اجتمعوا باليهود واختصموا في إبراهيم ﷺ فزعمت النصارى أنه كان نصرانياً وهم على دينه وأولى الناس به وقالت اليهود: بل كان يهودياً وهم على دينه وأولى الناس به فقال رسول الله ﷺ: كلا الفريقين بريء من إبراهيم ودينه بل كان حنيفاً مسلماً وأنا على دينه فاتبعوا دينه الإسلام فقالت اليهود: ما تريد إلا أن نتخذك ربما كما اتخذت النصارى عيسى رباً. وقالت النصارى: يا محمد ما تريد إلا أن نقول فيك ما قالت اليهود في عزيز فأنزل الله عز وجل: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾ إلى كلمة يعني فيها إنصاف ولا ميل فيها لأحد على صاحبه، والعرب تسمي كل قصة أو قصيدة لها أول وآخر وشرح كلمة سواء أي عدل لا يختلف فيها التوراة والإنجيل والقرآن وتفسير الكلمة قوله: ﴿أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾ وذلك أن النصارى عبدوا غير الله وهو المسيح وأشركوا به وهو قولهم أب وابن وروح القدس فجعلوا الواحد ثلاثة واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله وذلك أنهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الشرك ويسجدون لهم فهذا معنى اتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، فثبت أن النصارى قد جمعوا بين هذه الثلاثة أشياء ومعنى الآية قل: يا محمد لليهود والنصارى هلموا إلى أمر عدل نصف وهو أن لا نقول عزيز ابن الله ولا نقول المسيح ابن الله لأن كل واحد منهما بشر مخلوق مثلنا ولا نطيع أحبارنا ورهباننا فيما أحدثوا من التحريم والتحليل من غير رجوع إلى ما شرع ولا يسجد بعضهم لبعض لأن السجود لغير الله

﴿فإن تولوا﴾، أعرضوا عن الإيمان ﴿فإن الله عليم بالمفسدين﴾، الذين يعبدون غير الله ويدعون الناس إلى عبادة غير الله.

﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾ الآية، قال المفسرون: قَدِمَ وفد نجران المدينة فالتقوا مع اليهود فاخصموا في إبراهيم عليه السلام فزعمت النصارى أنه كان نصرانياً وهم على دينه، وأولى الناس به، وقالت اليهود: بل كان يهودياً وهم على دينه وأولى الناس به، فقال لهم رسول الله ﷺ: كلا الفريقين بريء من إبراهيم ودينه، بل كان حنيفاً مسلماً وأنا على دينه وأولى الناس به، فاتبعوا دينه الإسلام، فقالت اليهود: يا محمد ما تريد إلا أن نتخذك رباً كما اتخذت النصارى عيسى رباً؟ وقالت النصارى: يا محمد ما تريد إلا أن نقول فيك ما قالت اليهود في عزيز، فأنزل الله تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة﴾ والعرب تسمي كل قصيدة لها شرح ﴿كلمة﴾ ومنه سميت القصيدة كلمة سواء عدل بيننا وبينكم مستوية أي أمر مستو، يقال دعا فلان إلى السواء، أي إلى النصفة، وسواء كل شيء وسطه، ومنه قوله تعالى: ﴿فراه في سواء الجحيم﴾ [الصفافات: ٥٥] وإنما قيل: «لنصفة سواء» لأن أعدل الأمور أفضلها وأوسطها، سواء نعت لكلمة إلا أنه مصدر، والمصدر لا يشي ولا يجمع ولا يؤنث، فإذا فُتحت السين مددت، وإذا كُسرت أو ضُمّت قُصرت، كقوله تعالى: ﴿مكاناً سوى﴾ [طه: ٥٨]، ثم فسر الكلمة فقال: ﴿أن لا نعبد إلا الله﴾ ومحل ﴿أن﴾ رفع على إضمار ﴿هي﴾، وقال الزجاج: رفع بالابتداء، وقيل: محله نصب بنزع حرف الصلة، معناه بأن لا نعبد إلا الله، وقيل: محله خفض بدلاً من الكلمة؛ أي: تعالوا إلى كلمة أن لا نعبد إلا الله، ﴿ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾ كما فعلت اليهود والنصارى، قال الله تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ [التوبة: ٣١]،

حرام فلا نسجد لغير الله وقيل: معناه ولا نطيع أحداً في معصية الله ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ يعني فإن أعرضوا عما أمرتهم به ﴿فَقُولُوا﴾ أنتم لهؤلاء ﴿اشْهَدُوا بِأَنَا مُسْلِمُونَ﴾ أي مخلصون بالتوحيد لله والعبادة له. (ق) عن ابن عباس أن أبا سفيان أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ ماد فيها أبا سفيان وكفار قريش فأتوه وهو بإيلياء فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به مع دحية الكلبي إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل فقرأه فإذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم اليريسيين، يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون لفظ الحديث أحد روايات البخاري، وقد أخرجه بأطول من هذا وفيه زيادة قوله اليريسيين وفي رواية الأريسيين والأريس الأكار وهو الزراع والفلاح وقيل: هم أتباع عبدالله بن أريس رجل كان في الزمن الأول بعثه الله فخالفه قومه وقيل هم الأروسيون وهم نصارى أتباع عبدالله بن أروس وهم الأروسة. وقيل: هم الأريسون بضم الهمزة وهم الملوك الذين يخالفون أنبياءهم وقيل: هم المتبخترون وقيل: هم اليهود والنصارى الذين صددهم عن الإسلام واتبعوك على كفركم. قوله عز وجل:

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٥﴾ هَكَأَنتمْ هَتُولَاءِ حَبَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾

﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم﴾ قال ابن عباس: اجتمع عند النبي ﷺ نصارى نجران وأخبار اليهود فتنازعوا عنده فقالت الأخبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً. وقالت النصارى ما كان إبراهيم إلا نصرانياً فأُنزل الله فيهم يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم؟ ﴿وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده﴾ ومعنى الآية اليهود والنصارى

وقال عكرمة هو سجود بعضهم لبعض أي لا نسجد لغير الله، وقيل: معناه لا نطيع أحداً في معصية الله ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ فقولوا ﴿اشْهَدُوا﴾ أي: فقولوا أنتم يا أمة محمد ﷺ لهم: اشهدوا ﴿بأننا مسلمون﴾ مُخْلِصُونَ بالتوحيد، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا أبو اليمان الحكم بن نافع، أخبرنا شعيب عن الزهري أخبرنا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أخبره أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ ماد فيها أبا سفيان وكفار قريش فأتوه وهو بإيلياء فدعاهم في مجلسه، وحوله عظماء الروم ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به مع دحية بن خليفة الكلبي وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى، فدفعه إلى هرقل فقرأه فإذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم أسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين ﴿يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَا مُسْلِمُونَ ﴿١٦﴾.

قوله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم﴾ تزعمون أنه كان على دينكم، وإنما دينكم اليهودية

لما اختصموا عند رسول الله ﷺ في شأن إبراهيم عليه السلام وأدعت كل طائفة أنه كان منهم وعلى دينهم فبرأ الله عز وجل إبراهيم مما ادعوا فيه وأخبر أن اليهودية والنصرانية إنما حدثا بعد نزول التوراة والإنجيل وإنما نزلا بعد إبراهيم بزمان طويل فكان بين إبراهيم وبين موسى ونزول التوراة عليه خمسمائة سنة وخمسة وسبعون سنة وبين موسى وعيسى ألف وستمائة واثنان وثلاثون سنة. وقال ابن إسحاق: كان بين إبراهيم وموسى خمسمائة سنة وخمس وستون سنة وبين موسى وعيسى ألف سنة وتسعمائة وعشرون سنة وأورد على هذا التأويل أن الإسلام أيضاً إنما حدث بعد إبراهيم وموسى وعيسى بزمان طويل، وكذلك إنزال القرآن إنما نزل بعد التوراة والإنجيل فكيف يصح ما ادعيت في إبراهيم أنه كان حنيفاً مسلماً وأجيب عنه بأن الله عز وجل أخبر في القرآن بأن إبراهيم كان حنيفاً مسلماً وليس في التوراة والإنجيل أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً فصح وثبت ما ادعاه المسلمون وبطل ما ادعاه اليهود والنصارى. وهو قوله تعالى ﴿أفلا تعقلون﴾ يعني بطلان قولكم يا معشر اليهود والنصارى حتى لا تجادلوا مثل هذا الجدل المحال ﴿ها أنتم هؤلاء﴾ ها للتنبيه وهو موضع النداء يعني يا هؤلاء والمراد بهم أهل الكتابين يعني يا معشر اليهود والنصارى ﴿حاججتم﴾ أي جادلتم وخاصمتم ﴿فيما لكم به علم﴾ يعني فيما وجدتم في كتبكم وأنزل عليكم بيانه في أمر موسى وعيسى، وادعيت أنكم على دينهما وقد أنزلت التوراة والإنجيل عليكم ﴿فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم﴾ يعني أنه ليس في كتابكم أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً ﴿والله يعلم﴾ يعني ما كان إبراهيم عليه من الدين ﴿وأنتم لا تعلمون﴾ يعني ذلك والمعنى وأنتم جاهلون بما تقولون في إبراهيم ثم برأه الله عز وجل عما قالوا فيه واعلمهم أن إبراهيم بريء من دينهم. فقال تعالى: .

مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾

﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً﴾ يعني لم يكن كما ادعوه فيه، ثم وصفه بما كان عليه من الدين فقال تعالى: ﴿ولكن كان حنيفاً مسلماً﴾ يعني مائلاً عن الأديان إلى الدين المستقيم وهو الإسلام وقيل: الحنيف الذي يوجد ويختن ويضحى ويستقبل الكعبة في صلاته وهو أحسن الأديان وأسهلها وأحبها إلى الله عز وجل ﴿وما كان

والنصرانية وقد حدثت اليهودية بعد نزول التوراة، والنصرانية بعد نزول الإنجيل، ﴿وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده﴾، أي: بعد إبراهيم بزمان طويل وكان بين إبراهيم وموسى ألف سنة وبين موسى وعيسى ألف سنة ﴿أفلا تعقلون﴾ بطلان قولكم.

قوله تعالى: ﴿ها أنتم﴾ بتلحين الهمزة، حيث كان مدني، وأبو عمرو والباقون بالهمزة واختلفوا في أصله، فقال بعضهم: أصله أنتم، وهاء تنبيه، وقال الأخفش: أصله أنتم، فقلبت الهمزة الأولى هاء كقولهم: هرت الماء وأرقت، ﴿هؤلاء﴾ أصله أولاء دخلت عليه هاء التنبيه، وهو موضع النداء يعني: يا هؤلاء أنتم، ﴿حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم﴾، يعني في أمر موسى وعيسى، وادعيت أنكم على دينهما، وقد أنزلت التوراة والإنجيل عليكم، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم وليس في كتابكم أنه كان يهودياً أو نصرانياً، وقيل: حاججتم فيما لكم به علم يعني: في أمر محمد ﷺ، لأنهم وجدوا نعتهم في كتابهم، فجادلوا فيه بالباطل، فلم تحاجون في إبراهيم، وليس في كتابكم ولا علم لكم به، ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾، ثم برأ الله تعالى إبراهيم عما قالوا، فقال:

﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾، والحنيف المائل عن

من المشركين ﴿ يعني الذين يعبدون الأصنام وقيل: فيه تعريض بكون النصارى مشركين لقولهم بإلهية المسيح وعبادتهم له. قوله عز وجل: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم﴾ يعني أخصهم به وأقربهم منه ﴿للمؤمنين﴾ يعني الذين آمنوا به وآمنوا به واتبعوا شريعته ﴿وهذا النبي﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿والذين آمنوا﴾ يعني هذه الأمة الإسلامية ﴿والله ولي المؤمنين﴾ يعني بالنصر والمعونة عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: إن لكل نبي ولاية من النبيين وإن وليي أبي و خليل ربي إبراهيم ثم قرأ ﴿إن أولى الناس بإبراهيم﴾ للمؤمنين الذين آمنوا بالله وولي المؤمنين أخرجه الترمذي وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ورواه محمد بن إسحاق عن ابن شهاب بإسناده حديث هجرة الحبشة قال: لما هاجر جعفر بن أبي طالب وأناس من أصحاب النبي ﷺ إلى أرض الحبشة واستقرت بهم الدار وهاجر النبي ﷺ إلى المدينة وكان من أمر بدر وما كان اجتمعت قريش في دار الندوة وقالوا: إن لنا في الذين عند النجاشي من أصحاب محمد ﷺ ثأراً ممن قتل منكم بيدرجاعوا مالا وأهدوه إلى النجاشي لعله يدفع إليكم من عنده من قومكم وليتدب لذلك رجلان من ذوي رأيكم فبعثوا عمرو بن العاص وعمارة بن أبي معيط معهما الهدايا الأدم وغيره فركبا البحر حتى أتيا الحبشة فلما دخلا على النجاشي سجدا له وسلما عليه وقالوا له إن قومنا لك ناصحون شاكرون ولأصحابك محبون، وإنهم بعثونا إليك لنحذرك هؤلاء الذين قدموا عليك لأنهم قوم رجل كذاب خرج يزعم أنه رسول الله ولم يتابعه أحد منا إلا السفهاء وإننا كنا قد ضيقنا عليهم الأمر وألجاناهم إلى شعب بأرضنا لا يدخل عليهم أحد ولا يخرج منهم أحد فقتلهم الجوع والعطش، فلما اشتد عليه الأمر بعث إليك ابن عمه ليفسد عليك دينك وملكك ورعيته فاحذرهم وادفعهم إلينا لنكفيكم. قال: وآية ذلك أنهم إذا دخلوا

الأديان إلى الدين المستقيم، وقيل: الحنيف الذي يؤخذ ويحج ويضحي ويختن ويستقبل الكعبة وهو أسهل الأديان وأحبها إلى الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم﴾ أي: من أتبعه في زمانه ومثله بعده، ﴿وهذا النبي﴾ يعني محمداً ﷺ، ﴿والذين آمنوا﴾ يعني: من هذه الأمة ﴿والله ولي المؤمنين﴾، روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، ورواه محمد بن إسحاق عن ابن شهاب بإسناده حديث هجرة الحبشة لما هاجر جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وأناس من أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة واستقرت بهم الدار وهاجر النبي ﷺ إلى المدينة، وكان من أمر بدر ما كان، اجتمعت قريش في دار الندوة، وقالوا: إن لنا في الذين هم عند النجاشي من أصحاب محمد ﷺ ثأراً ممن قتل منكم بيدرجاعوا مالا وأهدوه إلى النجاشي لعله يدفع إليكم من عنده من قومكم، وليتدب لذلك رجلان من ذوي رأيكم، فبعثوا عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد أو عمارة بن أبي معيط مع الهدايا الأدم وغيره، فركبا البحر وأتيا الحبشة، فلما دخلا على النجاشي سجداً وسلماً عليه وقالوا له: إن قومنا لك ناصحون شاكرون ولأصحابك محبون، وإنهم بعثونا إليك لنحذرك هؤلاء الذين قدموا عليك لأنهم قوم رجل كذاب خرج يزعم أنه رسول الله ولم يتابعه أحد منا إلا السفهاء وإننا كنا قد ضيقنا عليهم الأمر وألجاناهم إلى شعب بأرضنا لا يدخل عليهم أحد ولا يخرج منهم أحد فقتلهم الجوع والعطش، فلما اشتد عليهم الأمر بعث إليك ابن عمه ليفسد عليك دينك وملكك ورعيته، فاحذرهم وادفعهم إلينا لنكفيكم، وقالوا: وآية ذلك أنهم إذا دخلوا عليك لا يسجدون لك ولا يحيونك بالتحية التي يحييك بها الناس رغبة عن دينك وستتك، قال: فدعاهم النجاشي، فلما حضروا صاح جعفر بالبواب يستأذن عليك حزب الله، فقال النجاشي: مروا هذا الصائح فليعد كلامه، ففعل جعفر، فقال النجاشي: نعم فليدخلوا بأمان الله وذمته، فنظر عمرو بن العاص إلى صاحبه فقال: ألا تسمع كيف يרטنون بحزب الله، وما أجابهم به النجاشي، فساءهما ذلك، ثم دخلوا عليه فلم يسجدوا له، فقال عمرو بن العاص: ألا

عليك لا يسجدون لك ولا يحيونك بالتحية التي يحييك بها الناس رغبة عن دينك وستتك قال: فدعاهم النجاشي فلما حضروا صاح جعفر بالبواب يستأذن عليك حزب الله تعالى فقال النجاشي: مروا هذا الصائح فليعد كلامه ففعل جعفر فقال النجاشي: نعم فليدخلوا بأمان الله وذمته فنظر عمرو إلى صاحبه فقال: ألا تسمع كيف يرطنون بحزب الله وما أجابهم به الملك فساءهما ذلك ثم دخلوا عليه فلم يسجدوا له فقال عمرو بن العاص: ألا ترى أنهم يستكبرون أن يسجدوا لك فقال لهما النجاشي: ما منعكم أن تسجدوا لي وتحينوني بالتحية التي يحييني بها من أتاني من الآفاق نسجد لله الذي خلقك وملكك إنما كانت تلك التحية لنا ونحن نعبد الأوثان فبعث الله فينا نبياً صادقاً فأمرنا بالتحية التي رضىها الله وهي السلام تحية أهل الجنة، فعرف النجاشي أن ذلك حق وأنه في التوراة والإنجيل. قال: أيكم الهاتف يستأذن عليك حزب الله؟ قال جعفر أنا قال فتكلم؛ قال: إنك ملك من ملوك الأرض من أهل الكتاب ولا يصلح عندك كثرة الكلام ولا الظلم وإنما أحب أن أجيب عن أصحابي فمر هذين الرجلين فليتكلم أحدهما ولينصت الآخر فتسمع محاورتنا فقال عمرو لجعفر تكلم فقال جعفر للنجاشي: سل هذين الرجلين أعبيد نحن أم أحرار؟ فإن كنا عبيداً قد أبقنا من أربابنا فردنا عليهم فقال النجاشي أعبيد هم أم أحرار؟ فقال بل أحرار كرام فقال النجاشي: نجوا من العبودية فقال جعفر: سلهما هل أرقنا دماً بغير حق فيقتص منا فقال عمرو: لا ولا قطرة قال جعفر: سلهما هل أخذنا أموال الناس بغير حق فعلينا قضاؤها قال النجاشي: إن كان قنطاراً فعلي قضاؤه فقال عمرو: لا ولا قيراط فقال النجاشي: فما تطلبون منهم قال كنا وإياهم على دين واحد وأمر واحد على دين آبائنا فتركوا ذلك وابتعوا غيره فبعثنا قومنا لتدفعهم إلينا فقال النجاشي: وما هذا الدين الذي كنتم عليه والدين الذي اتبعوه فقال جعفر: أما الدين الذي كنا عليه فهو دين الشيطان كنا نكفر بالله ونعبد الحجارة، وأما الذي تحولنا إليه فهو دين الله الإسلام جاءنا به من عند الله رسول، وكتاب مثل كتاب ابن مريم موافقاً له فقال النجاشي: يا جعفر تكلمت بأمر عظيم فعلى رسلك ثم أمر النجاشي بضرب الناقوس فضرب فاجتمع إليه كل قسيس

ترى أنهم يستكبرون أن يسجدوا لك، فقال لهم النجاشي ما منعكم أن تسجدوا إليّ وتحينوني بالتحية التي يحييني بها من أتاني من الآفاق، قالوا: نسجد لله الذي خلقك وملكك، وإنما كانت تلك التحية لنا ونحن نعبد الأوثان، فبعث الله فينا نبياً صادقاً وأمرنا بالتحية التي رضىها الله وهي السلام، تحية أهل الجنة، فعرف النجاشي أن ذلك حق، وأنه في التوراة والإنجيل، قال: أيكم الهاتف يستأذن عليك حزب الله، قال جعفر: أنا، قال: فتكلم، قال: إنك ملك من ملوك أهل الأرض، ومن أهل الكتاب، ولا يصلح عندك كثرة الكلام ولا الظلم، وأنا أحب أن أجيب عن أصحابي، فمر هذين الرجلين فليتكلم أحدهما ولينصت الآخر، فتسمع محاورتنا، فقال عمرو لجعفر: تكلم، فقال جعفر للنجاشي: سل هذين الرجلين أعبيد نحن أم أحرار كرام، فإن كنا عبيداً أبقنا من أربابنا فأرذدنا إليهم، فقال النجاشي: أعبيد هم أم أحرار؟ فقال عمرو: بل أحرار كرام، فقال النجاشي: نجوا من العبودية، ثم قال جعفر: سل هل أهرقنا دماً بغير حق فيقتص منا؟ فقال عمرو: لا ولا قطرة، فقال جعفر: سلهما هل أخذنا أموال الناس بغير حق فعلينا قضاؤها؟ قال النجاشي: إن كان قنطاراً فعلي قضاؤه، فقال عمرو: لا ولا قيراطاً، قال النجاشي: فما تطلبون منهم؟ قال عمرو: كنا وهم على دين واحد وأمر واحد، على دين آبائنا فتركوا ذلك وابتعوا غيره، فبعثنا إليك قومهم لتدفعهم إلينا، فقال النجاشي: ما هذا الدين الذي كنتم عليه والدين الذي اتبعوه أصدقني؟ فقال جعفر: أما الدين الذي كنا عليه فتركناه فهو دين الشيطان كنا نكفر بالله ونعبد الحجارة، وأما الذي تحولنا إليه فدين الله الإسلام جاءنا به من الله رسول وكتاب مثل كتاب عيسى ابن مريم، موافقاً له، فقال النجاشي: يا جعفر لقد تكلمت بأمر عظيم فعلى رسلك، ثم أمر النجاشي بضرب الناقوس فاجتمع عليه كل قسيس وراهب فلما اجتمعوا

وراهب، فلما اجتمعوا عنده قال النجاشي: أنشدكم الله الذي أنزل الإنجيل على عيسى هل تجدون بين عيسى وبين يوم القيامة نبياً مرسلًا قالوا: اللهم نعم قد بشرنا به عيسى فقال: من آمن به فقد آمن بي ومن كفر به فقد كفر بي. فقال النجاشي لجعفر: ماذا يقول لكم هذا الرجل وما يأمركم به وما ينهاكم عنه؟ فقال يقرأ علينا كتاب الله ويأمرنا بالمعروف وينهانا عن المنكر ويأمرنا بحسن الجوار وصلة الرحم وبر اليتيم، ويأمرنا أن نعبد الله وحده لا شريك له فقال له: اقرأ علي مما يقرأ عليكم فقرأ عليه سورة العنكبوت والروم ففاضت عينا النجاشي وأصحابه من الدمع وقالوا: زدنا من هذا الحديث الطيب فقرأ عليهم سورة الكهف فأراد عمرو أن يغضب النجاشي فقال: إنهم يشتمون عيسى وأمه فقال النجاشي: فما تقولون في عيسى وأمه فقرأ عليهم سورة مريم فلما أتى على ذكر مريم وعيسى رفع النجاشي من سواكه قدر ما يقذف العين وقال: والله ما زاد المسيح على ما تقولون هذا. ثم أقبل على جعفر وأصحابه فقال: اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي يقول آمنون من سبكم أو أذاكم غرم ثم قال: أبشروا ولا تخافوا فلا دهورة اليوم على حزب إبراهيم فقال عمرو: يا نجاشي ومن حزب إبراهيم؟ قال: هؤلاء الرهط وصاحبهم الذي جاؤوا من عنده ومن اتبعهم فأنكر ذلك المشركون وادعوا دين إبراهيم ثم رد النجاشي على عمرو وصاحبه المال الذي حملوه وقال: إنما هديتكم إلى رشوة فاقبضوها فإن الله ملكني ولم يأخذ مني رشوة قال جعفر: فانصرفنا فكنا في خير جوار وأنزل الله عز وجل في ذلك اليوم على رسول الله ﷺ في خصومتهم في إبراهيم وهو في المدينة: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾. قوله تعالى: .

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٧﴾ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ شَاهِدُونَ ﴿٦٨﴾ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لِمَ تَلْسُونِ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ

عنده قال النجاشي: أنشدكم الله الذي أنزل الإنجيل على عيسى هل تجدون بين عيسى وبين يوم القيامة نبي مرسل فقالوا: اللهم نعم قد بشرنا به عيسى، وقال: من آمن به فقد آمن بي ومن كفر به فقد كفر بي، فقال النجاشي لجعفر: ماذا يقول لكم هذا الرجل؟ وما يأمركم به؟ وما ينهاكم عنه؟ فقال: يقرأ علينا كتاب الله، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويأمرنا بحسن الجوار وصلة الرحم، وبر اليتيم، ويأمرنا بأن نعبد الله وحده لا شريك له، فقال: اقرأ علي مما يقرأ عليكم، فقرأ عليهم سورة العنكبوت والروم، ففاضت عينا النجاشي وأصحابه من الدمع، وقالوا: زدنا يا جعفر من هذا الحديث الطيب، فقرأ عليهم سورة الكهف، فأراد عمرو أن يغضب النجاشي، فقال: إنهم يشتمون عيسى وأمه، فقال النجاشي: ما تقولون في عيسى وأمه؟ فقرأ جعفر عليهم سورة مريم، فلما أتى على ذكر مريم وعيسى عليهما السلام رفع النجاشي نفثته من سواكه قدر ما يقذف العين، فقال: والله ما زاد المسيح على ما تقولون مثل هذا، ثم أقبل على جعفر وأصحابه فقال: اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي، يقول: آمنون من سبكم أو أذاكم غرم، ثم قال: أبشروا ولا تخافوا فلا دهورة اليوم على حزب إبراهيم، قال عمرو: يا نجاشي ومن حزب إبراهيم؟ قال: هؤلاء الرهط وصاحبهم الذي جاؤوا من عنده ومن تبعهم، فأنكر ذلك المشركون وادعوا دين إبراهيم، ثم رد النجاشي على عمرو وصاحبه المال الذي حملوه، وقال: إنما هديتكم إلي رشوة فاقبضوها، فإن الله ملكني ولم يأخذ مني رشوة، قال جعفر: فانصرفنا فكنا في خير دار وأكرم جوار، وأنزل الله تعالى في ذلك اليوم على رسول الله ﷺ في خصومتهم في إبراهيم، وهو بالمدينة ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرُهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾

﴿ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم﴾ نزلت في معاذ بن جبل، وحذيفة بن اليمان، وعمار بن ياسر حين دعاهم اليهود إلى دينهم، فنزلت فيهم ودت طائفة أي تمت جماعة من أهل الكتاب يعني اليهود لو يضلونكم يعني عن دينكم ويردونكم إلى الكفر ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾ لأن المؤمنين لا يقبلون قولهم فيحصل عليهم الإثم بتمنيهم إضلال المؤمنين ﴿وما يشعرون﴾ يعني أن وبال الإضلال يعود عليهم لأن العذاب يضاعف لهم بسبب ضلالهم وتمني إضلال المسلمين وما يقدرون على ذلك إنما يضلون أمثالهم وأتباعهم وأشياعهم ﴿يا أهل الكتاب﴾ الخطاب لليهود ﴿لم تكفرون بآيات الله﴾ يعني القرآن. وقيل المراد بآيات الله الواردة في التوراة والإنجيل من نعت محمد ﷺ وصفته وسبب كفرهم بالتوراة والإنجيل على هذا القول هو تحريفهم وتبديلهم ما فيها من بيان نعت محمد ﷺ وصفته والبشارة بنبوته لأنهم ينكرون ذلك، ﴿وأنتم تشهدون﴾ يعني أن نعتهم وصفته مذكور في التوراة والإنجيل، وذلك أن أحبار اليهود كانوا يكتمون الناس نعتهم وصفته فإذا خلا بعضهم ببعض أظهرها ذلك فيما بينهم وشهدوا أنه حق يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل، وذلك أن علماء اليهود والنصارى كانوا يعلمون بقلوبهم أن محمداً ﷺ رسول من عند الله وأن دينه حق، وكانوا ينكرون ذلك بألسنتهم وكانوا يجتهدون في إلقاء الشبهات والتشكيكات، وذلك أن الساعي في إخفاء الحق لا يقدر على ذلك إلا بهذه الأمور فقوله تعالى: ﴿لم تلبسون الحق بالباطل﴾ معناه تحريف التوراة وتبديلها فيخلطون المحرف الذي كتبه بأيديهم بالحق المنزل وقيل هو خلط الإسلام باليهودية والنصرانية وذلك أنهم تواطؤوا على إظهار الإسلام في أول النهار والرجوع عنه في آخره، والمراد بذلك تشكيك الناس وقيل إنهم كانوا يقولون: إن محمداً ﷺ معترف بصحة نبوة موسى وإنه حق ثم إن التوراة دالة على أن شرع موسى لا ينسخ فهذا من تلبيساتهم على الناس ﴿وتكتُمون الحق﴾ يعني نعت محمد ﷺ وصفته في التوراة ﴿وأنتم تعلمون﴾ يعني أنه رسول من عند الله وأن دينه حق وإنما كتمتم الحق عناداً وحسداً وأنتم تعلمون ما تستحقون على كتمان الحق من العقاب. قوله عز وجل: ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره﴾ وهذا نوع آخر من تلبيسات اليهود، وقيل تواطأ اثنا عشر حبراً من يهود خيبر وقرى عريضة فقال بعضهم لبعض: ادخلوا في دين محمد أول النهار باللسان دون اعتقاد القلب ثم اكفروا آخر النهار وقولوا: إنا نظرنا في كتبنا وشارونا علماءنا فوجدنا أن محمداً ليس هو بذلك المنعوت وظهر لنا كذبه فإذا فعلتكم

قوله عز وجل: ﴿ودت طائفة من أهل الكتاب﴾، نزلت في معاذ بن جبل وحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر حين دعاهم اليهود إلى دينهم، فنزلت ﴿ودت طائفة﴾ أي: تمت جماعة من أهل الكتاب يعني اليهود، ﴿لو يضلونكم﴾ يستزيلونكم عن دينكم ويردونكم إلى الكفر، ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾ وما يشعرون. ﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله﴾ يعني: القرآن وبيان نعت محمد ﷺ، ﴿وأنتم تشهدون﴾ أن نعتهم في التوراة والإنجيل مذكور.

﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل﴾ تخلطون الإسلام باليهودية والنصرانية، وقيل: لم تخلطون الإيمان بعبسى عليه السلام وهو الحق، بالكفر بمحمد ﷺ، وهو الباطل. وقيل: لم تخلطون التوراة التي أنزلت على موسى بالباطل الذي حرّفتموه وكتبتموه بأيديكم، ﴿وتكتُمون الحق﴾ وأنتم تعلمون ﴿أن محمداً ﷺ ودينه حق﴾.

ذلك شك أصحاب محمد في دينه واتهموه وقالوا: إنهم أهل الكتاب وأعلم به منا فيرجعون عن دينهم وقيل: هذا في شأن القبلة وذلك أنه لما صرفت إلى الكعبة شق ذلك على اليهود فقال كعب بن الأشرف لأصحابه آمنوا بالذي أنزل على محمد في أمر الكعبة وصلوا إليها أول النهار ثم اكفروا وارجعوا إلى قبلكم آخر النهار لعلهم يرجعون فيقولون: هؤلاء أهل كتاب وهم أعلم فيرجعون إلى قبلتنا فأطلع الله رسوله ﷺ على سرهم وأنزل هذه الآية، ووجه النهار أوله والوجه مستقبل كل شيء لأنه أول ما يواجهه منه وأنشدوا في معناه.

من كان مسروراً بمقتل مالك فليأت نسوتنا بوجهه نهار

وقوله ﴿لعلهم يرجعون﴾ يعني عنه أي إنا ألقينا هذه الشبهة لعلهم يشكون في دينهم فيرجعون عنه ولما دبوا هذه الحيلة أخبر الله تعالى نبيه ﷺ بها فلم تتم لهم ولم يحصل لها أثر في قلوب المؤمنين ولولا هذا الإعلام من الله تعالى لكان ربما أثر ذلك في قلوب بعض من كان في إيمانه ضعف قوله تعالى: .

وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ

قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِ ۝٧٣

﴿ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾ هذا متصل بالأول وهو من قول اليهود يقول بعضهم لبعض ولا تؤمنوا أي ولا تصدقوا إلا لمن تبع دينكم أي وافق ملتكم التي أنتم عليها وهي اليهودية. واللام في لمن صلة كقوله ردف لكم أي ردفكم ﴿قل إن الهدى هدى الله﴾ أي إن الدين دين الله والبيان بيانه، وهذا خبر من الله تعالى ثم اختلفوا فيه فمنهم من قال: هذا كلام معترض بين كلامين وما بعده متصل بالكلام الأول وهو إخبار عن قول اليهود بعضهم لبعض ومعنى الآية ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من العلم والحكمة والكتاب والآيات من فلق البحر وإنزال المن والسلوى عليكم وغير ذلك من الكرامات، ولا تؤمنوا أن يحاجوكم عند ربكم لأنكم أصبح ديناً منهم فلما أخبر الله تعالى عن اليهود بذلك قال في أثناء ذلك قل إن الهدى هدى الله،

﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا﴾ الآية، قال الحسن وقتادة والسدي: تواطأ اثنا عشر خبياً من يهود

خير وقرى عرينة، وقال بعضهم لبعض: ادخلوا في دين محمد ﷺ أول النهار باللسان دون الاعتقاد ثم اكفروا آخر النهار وقولوا: إنا نظرنا في كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا محمداً ﷺ ليس هو بذلك المنعوت وظهر لنا كذبه، فإذا فعلتم ذلك شك أصحابه في دينهم واتهموه، فقالوا إنهم أهل كتاب وهم أعلم منا به فيرجعون عن دينهم. وقال مجاهد ومقاتل والكلبي: هذا في شأن القبلة لما صرفت إلى الكعبة شق ذلك على اليهود، فقال كعب بن الأشرف لأصحابه: آمنوا بالذي أنزل على محمد من أمر الكعبة وصلوا إليها أول النهار، ثم اكفروا وارجعوا إلى قبلكم آخر النهار لعلهم يقولون هؤلاء أهل الكتاب وهم أعلم فيرجعون إلى قبلتنا، فأطلع الله تعالى رسوله ﷺ على سرهم وأنزل: ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا﴾ ﴿بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار﴾ أوله، سمي وجهاً لأنه أحسنه وأول ما يواجه الناظر فيه، ﴿واكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾، فيشكون ويرجعون عن دينهم.

﴿ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾، هذا متصل بالأول من قول اليهود بعضهم لبعض، ولا تؤمنوا أي: ولا

تصدقوا إلا لمن تبع دينكم، أي: وافق ملتكم، واللام في ﴿لمن﴾ صلة أي: لا تصدقوا إلا لمن تبع دينكم اليهودية، كقوله تعالى: ﴿قل عسى أن يكون ردف لكم﴾ [النمل: ٧٢] أي: ردفكم. ﴿قل إن الهدى هدى الله﴾، هذا خبر من الله تعالى أن البيان بيانه، ثم اختلفوا فيه فمنهم من قال: هذا كلام معترض بين كلامين وما

والمعنى أن الذي أنتم عليه إنما صار ديناً بحكم الله وأمره فإذا أمر بدين آخر وجب اتباعه والانقياد لحكمه لأنه هو الذي هدى إليه وأمر به وقيل: معناه قل لهم: يا محمد إن الهدى هدى الله وقد جئتمكم به ولن ينفعكم في دفعه هذا الكيد الضعيف وقرأ الحسن والأعمش إن يؤتى بكسر الألف فيكون قول اليهود تاماً عند قوله إلا لمن تبع دينكم وما بعده من قول الله تعالى والمعنى قل يا محمد إن الهدى هدى الله ﴿أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم﴾ وتكون أن معنى الجحد أي ما يؤتى أحد مثل ما أوتيتم يا أمة محمد من الدين والهدى ﴿أو يحاجوكم عند ربكم﴾ يعني إلا أن يحاجوكم أي اليهود بالباطل فيقولوا: نحن أفضل منكم وقوله عند ربكم أي عند فعل ربكم وقيل: أوفي قوله أو يحاجوكم بمعنى حتى ومعنى الآية ما أعطى الله أحداً مثل ما أعطيتم يا أمة محمد من الدين والحجة حتى يحاجوكم عند ربكم وقرأ ابن كثير أن يؤتى بالمد على الاستفهام، وحيث أن يكون في الكلام اختصار تقديره أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم يا معشر اليهود من الكتاب والحكمة فتحسدونه ولا تؤمنون به هذا قول قتادة والربيع قال: هذا من قول الله تعالى قل يا محمد إن الهدى هدى الله لأن أنزل كتاباً مثل كتابكم وبعث نبياً مثل نبيكم حسدتموه وكفرتم به قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء. وقوله: أو يحاجوكم على هذه القراءة رجوع إلى خطاب المؤمنين وتكون أو بمعنى إن لأنهما حرفا شرط وجزاء يوضع أحدهما موضع الآخر. والمعنى وأن يحاجوكم يا معشر المؤمنين عند ربكم قل: يا محمد إن الهدى هدى الله ونحن عليه ويحتمل أن يكون الجميع خطاباً للمؤمنين ويكون نظم الآية أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم يا معشر المؤمنين، فإن حسدوكم فقل إن الفضل بيد الله، فإن حاجوكم فقل إن الهدى هدى الله ويحتمل أن يكون الخبر عن اليهود قد تم عند قوله لعلهم يرجعون وقوله: ولا تؤمنوا من كلام الله تعالى ثبت به قلوب المؤمنين لئلا يشكوا عند تلبس اليهود وتزويرهم في دينهم يقول الله عز وجل: ولا تصدقوا يا معشر المؤمنين

بعده متصل بالكلام الأول إخبار عن قول اليهود لبعض، ومعناه: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من العلم والكتاب والحكمة والآيات من المن والسلوى وقلق البحر وغيرها من الكرامات، ولا تؤمنوا أن يحاجوكم عند ربكم لأنكم أصبح ديناً منهم، وهذا معنى قول مجاهد، وقيل: إن اليهود قالت لسفلتهم، ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، ﴿أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم﴾ من العلم، أي لئلا يؤتى أحد، و﴿لا﴾ فيه مضمر، كقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضَلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦] أي: لئلا تضلوا، يقولون: لا تصدقوهم لئلا يعلموا مثل ما علمتم فيكون لكم الفضل عليهم في العلم، أو لئلا يحاجوكم عند ربكم فيقولوا عرفتم أن ديننا حق، وهذا معنى قول ابن جريج، وقرأ الحسن والأعمش (إن يؤتى) بكسر الألف، فيكون قول اليهود تاماً عند قوله: إلا لمن تبع دينكم، وما بعده من قول الله تعالى، يقول: قل يا محمد ﴿إن الهدى هدى الله﴾ أن يؤتى ﴿أن﴾ بمعنى: الجحد، أي: ما يؤتى أحد مثل ما أوتيتم يا أمة محمد ﷺ، ﴿أو يحاجوكم عند ربكم﴾ يعني: إلا أن يجادلكم اليهود بالباطل فيقولوا: نحن أفضل منكم، فقوله عز وجل: ﴿عند ربكم﴾، أي: عند فعل ربكم بكم، وهذا معنى قول سعيد بن جبير والحسن والكلبي ومقاتل، وقال الفرأ ويجوز أن يكون ﴿أو﴾ بمعنى حتى كما يُقال: تعلق به أو يعطيك حقك، ومعنى الآية: ما أعطي أحد مثل ما أعطيتم يا أمة محمد من الدين والحجة حتى يحاجوكم عند ربكم! وقرأ ابن كثير «أن يؤتى» بالمد على الاستفهام، وحيث أن يكون فيه اختصار تقديره: أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم يا معشر اليهود من الكتاب والحكمة تحسدونه ولا تؤمنون به، هذا قول قتادة والربيع، قال: هذا من قول الله تعالى، يقول: قل لهم يا محمد إن الهدى هدى الله بأن أنزل كتاباً مثل كتابكم وبعث نبياً حسدتموه وكفرتم به، ﴿قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسعٌ عليم﴾، قوله: ﴿أو يحاجوكم﴾ على هذه القراءة رجوع إلى خطاب المؤمنين، وتكون (أو) بمعنى (أن) لأنهما حرفا شرط وجزاء يوضع أحدهما موضع الآخر،

إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ وَلَا تَصَدَّقُوا أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ مِنَ الدِّينِ وَالْفَضْلِ وَلَا تَصَدَّقُوا أَنْ يَحَاجَّوَكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَوْ يَقْدِرُوا عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّ الْهُدَى هَدَى اللَّهِ، وَإِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. فَتَكُونُ الْآيَةُ كُلُّهَا خُطَاباً لِلْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ تَلْبِيسِ الْيَهُودِ لثَلَا يَرْتَابُوا وَلَا يَشْكُوا وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ الْفَضْلَ﴾ يَعْنِي قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ إِنْ التَّوْفِيقَ لِلْإِيمَانِ وَالْهُدَايَةَ لِلْإِسْلَامِ ﴿بِيَدِ اللَّهِ﴾ أَيُّ أَنَّهُ مَالِكٌ لَهُ وَقَادِرٌ عَلَيْهِ دُونَكُمْ وَدُونَ سَائِرِ خَلْقِهِ ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يَعْنِي الْفَضْلَ الَّذِي هُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ يُعْطِيهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيُفَوِّقُ لَهُ مَنْ أَرَادَ مِنْ خَلْقِهِ وَفِيهِ تَكْذِيبٌ لِلْيَهُودِ فِي قَوْلِهِمْ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى رَدّاً عَلَيْهِمْ قُلْ لَهُمْ لَيْسَ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ وَإِنَّمَا الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَأَصْلُ الْفَضْلِ فِي اللُّغَةِ الزِّيَادَةُ وَأَكْثَرُ مَا يَسْتَعْمَلُ فِي زِيَادَةِ الْإِحْسَانِ وَالْفَاضِلِ الزَّائِدِ عَلَى غَيْرِهِ فِي خِصَالِ الْخَيْرِ ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ أَيُّ ذُو سَعَةٍ يُتَفَضَّلُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴿عَلِيمٌ﴾ أَيُّ بَعِنِ يُتَفَضَّلُ عَلَيْهِ وَهُوَ لِلْفَضْلِ أَهْلٌ.

يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُتَيْنِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ﴾ يَعْنِي بِنُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ وَقِيلَ بَدِينِهِ الَّذِي هُوَ الْإِسْلَامُ وَقِيلَ بِالْقُرْآنِ ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ يَعْنِي مَنْ خَلَقَهُ وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ النُّبُوَّةَ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِالْإِخْتِصَاصِ وَالتَّفَضُّلِ لَا بِالْإِسْتِحْقَاقِ لِأَنَّهُ تَعَالَى جَعَلَهَا مِنْ بَابِ الْإِخْتِصَاصِ وَلِلْفَاعِلِ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَشَاءُ إِلَى مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ أَخْبَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ فِيهِمْ أَمَانَةٌ وَخِيَانَةٌ وَقَسَمَهُمْ قَسَمَيْنِ، وَالْقِنْطَارُ عِبَارَةٌ عَنِ الْمَالِ الْكَثِيرِ وَالدِينَارُ عِبَارَةٌ عَنِ الْمَالِ الْقَلِيلِ يَقُولُ مِنْهُمْ مَنْ يُؤَدِّ الْأَمَانَةَ وَإِنْ كَثُرَتْ مِثْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤَدِّهَا وَإِنْ قُلْتُ: وَهُمْ كَفَّارُ أَهْلِ

أَيُّ: وَإِنْ يُحَاجُّوَكُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ رَبِّكُمْ، فَقُلْ يَا مُحَمَّدُ إِنْ الْهُدَى هَدَى اللَّهُ وَنَحْنُ عَلَيْهِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْجَمِيعُ خُطَاباً لِلْمُؤْمِنِينَ، وَيَكُونُ نَظْمُ الْآيَةِ: أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ حَسَدُكُمْ، فَقُلْ: إِنْ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ، وَإِنْ حَاجَّوَكُمْ، فَقُلْ: ﴿إِنْ الْهُدَى هَدَى اللَّهُ﴾، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْخَبَرُ عَنِ الْيَهُودِ قَدْ تَمَّ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا﴾ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ يَثْبِتُ بِهِ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ لثَلَا يَشْكُوا عِنْدَ تَلْبِيسِ الْيَهُودِ وَتَزْوِيرِهِمْ فِي دِينِهِمْ، وَيَقُولُ: لَا تَصَدَّقُوا يَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا لِمَنْ أَتَبَعَ دِينَكُمْ، وَلَا تَصَدَّقُوا أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَالْدِينِ وَالْفَضْلِ، وَلَا تَصَدَّقُوا أَنْ يَحَاجَّوَكُمْ فِي دِينِكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَيُّ: يَقْدِرُوا عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّ الْهُدَى هَدَى اللَّهُ، وَإِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ، فَتَكُونُ الْآيَةُ كُلُّهَا خُطَاباً لِلْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ تَلْبِيسِ الْيَهُودِ لثَلَا يَرْتَابُوا.

قوله: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ﴾ أَيُّ: بِنُبُوَّتِهِ ﴿مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

قوله تَعَالَى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ الْآيَةُ، نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ فِيهِمْ أَمَانَةً وَخِيَانَةً، وَالْقِنْطَارُ عِبَارَةٌ عَنِ الْمَالِ الْكَثِيرِ، وَالدِينَارُ عِبَارَةٌ عَنِ الْمَالِ الْقَلِيلِ، يَقُولُ: مِنْهُمْ مَنْ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ وَإِنْ كَثُرَتْ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤَدِّهَا وَإِنْ قُلْتُ، قَالَ مُقَاتِلٌ: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ هُمْ مُؤْمِنُوا أَهْلُ الْكِتَابِ، كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ يَعْنِي: كَفَّارُ الْيَهُودِ، كَعُكْبَ بْنِ الْأَشْرَفِ وَأَصْحَابِهِ، وَقَالَ جَوْبِرٌ عَنِ الضَّحَّاكِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ

الكتاب مثل كعب بن الأشرف وأصحابه قال ابن عباس في هذه الآية: أودع رجل من قريش عبدالله بن سلام ألفاً ومائتي أوقية من ذهب فأداها إليه فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنْ أَنْ تَأْمَنَهُ بَقَنْطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَنْ تَأْمَنَهُ بَدِينَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ﴾ يعني فنحاص بن عازوراء استودعه رجل من قريش ديناراً فخانه وجحدته ولم يؤده إليه. وقيل: أهل الأمانة هم النصارى، وأهل الخيانة هم اليهود لأن مذهبهم أن يحل قتل من خالفهم في أمر الدين وأخذ ماله بأي طريق كان ﴿إِلَّا مَا دُمْتُ عَلَيْهِ قَائِماً﴾ قال ابن عباس: يريد تقوم عليه وتطالبه بالإلحاح والخصومة والملازمة وقيل: معناه إلا مدة دوامك عليه يا صاحب الحق قائماً على رأسه متوكلاً عليه بالمطالبة له والتعنيف بالرفع إلى الحاكم وإقامة البينة عليه. وقيل أراد أنه إن أودعته شيئاً ثم استرجعته منه في الحال وأنت قائم على رأسه لم تفارقه رده عليك. وإن أخرت استرجاع ما أودعته وأنكره ولم يرده عليك ﴿ذَلِكَ﴾ أي سبب ذلك الاستحلال والخيانة ﴿بأنهم قالوا﴾ يعني اليهود ﴿ليس علينا في الأميين سبيل﴾ يعني أنهم يقولون ليس علينا إثم ولا حرج في أخذ مال العرب وذلك أن اليهود قالوا: أموال العرب حلال لنا إنهم ليسوا على ديننا ولا حرمة لهم في كتابنا وكانوا يستحلون ظلم من خالفهم في دينهم وقيل: إن اليهود قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه والخلق لنا عبيد فلا سبيل علينا إذا أكلنا أموال عبيدنا وقيل إنهم قالوا: إن الأموال كلها كانت لنا فما في يد العرب فهو لنا، وإنما هم ظلمونا وغصبوها منا فلا سبيل علينا في أخذها منهم بأي طريق كان وقيل إن اليهود كانوا يبايعون رجالاً من المسلمين في الجاهلية. فلما أسلموا تقاضوهم بقية أموالهم فقالوا: ليس لكم علينا حق ولا عندنا قضاء لأنكم تركتم دينكم وانقطع العهد بيننا وبينكم، وادعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم فأكذبهم الله تعالى فقال ﴿ويقولون على الله الكذب﴾ يعين اليهود ﴿وهم يعلمون﴾ يعني أنهم كاذبون ثم إنه تعالى رد على اليهود قولهم فقال: .

إِنْ تَأْمَنَهُ بَقَنْطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ ﴿﴾ يعني: عبد الله بن سلام، أودعه رجل ألفاً ومائتي أوقية من ذهب فأداها إليه، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَنْ تَأْمَنَهُ بَدِينَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ﴾ يعني: فنحاص بن عازوراء، استودعه رجل من قريش ديناراً فخانه، قوله: ﴿يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ﴾ قرأ أبو عمرو وأبو بكر وحمة ﴿يُؤَدُّهُ﴾ و﴿لَا يُؤَدُّهُ﴾ و﴿نُضِّلِهِ﴾ [النساء: ١١٥] و﴿نُؤْتَهُ﴾ [آل عمران: ١٤٥، الشورى: ٢٠] و﴿نُؤْلِهِ﴾ [النساء: ١١٥] ساكنة الهاء، وقرأ أبو جعفر وقالون ويعقوب بالاختلاس كسراً، والباقون بالإشباع كسراً، فَمَنْ سَكَنَ الْهَاءَ قَالَ: لأنها وضعت في موضع الجزم وهو الياء الذاهبة، وَمَنْ اخْتَلَسَ فَانْتَفَى بِالْكَسْرِ عَنْ الْيَاءِ، وَمَنْ أَشْبَعَ فَعَلَى الْأَصْلِ، لأن الأصل في الهاء الإشباع، ﴿إِلَّا مَا دُمْتُ عَلَيْهِ قَائِماً﴾، قال ابن عباس مُلِحّاً، يريد يقوم عليه يطالبه بالإلحاح، وقال الضحاك: مواظباً أي تَوَاطَبَ عَلَيْهِ بِالْاِقْتِضَاءِ، وقيل: أراد أودعته ثم استرجعته وأنت قائم على رأسه ولم تفارقه رده إليك، فإن فارقت وأخرته أنكره ولم يؤده، ﴿ذَلِكَ﴾ أي: ذلك الاستحلال والخيانة، ﴿بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل﴾ أي: في مال العرب إثم وحرج، كقوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١]، وذلك بأن اليهود قالوا: أموال العرب حلال لنا، لأنهم ليسوا على ديننا ولا حرمة لهم في كتابنا، وكانوا يستحلون ظلم من خالفهم في دينهم، وقال الكلبي: قالت اليهود إن الأموال كلها كانت لنا فيما في يد العرب منها فهو لنا، وإنما ظلمونا وغصبونا فلا سبيل علينا في أخذنا إياه منهم، وقال الحسن وابن جريج ومقاتل: بايع اليهود رجالاً من المسلمين في الجاهلية فلما أسلموا تقاضوهم بقية أموالهم فقالوا: ليس لكم علينا حق، ولا عندنا قضاء لأنكم تركتم دينكم وانقطع العهد بيننا وبينكم، وادعوا أنهم وجدوا ذلك في كتبهم، فكذبهم الله عز وجل وقال عز من قائل: ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾، ثم قال رداً عليهم:

بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِسْمَةِ وَلَا يَرْحَمُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

﴿بلى﴾ أي ليس الأمر كما قالوا بل عليهم سبيل ولفظة بلى لمجرد نفي ما قبلها فعلى هذا يحسن الوقوف عليها ثم يتبدى من أوفى أي ولكن ﴿من أوفى بعهده﴾ أي بعهد الله الذي عهد إليه في التوراة من الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن الذي أنزل عليه وبأداء الأمانة إلى من ائتمنه عليها وقيل الهاء في قوله بعهده راجعة إلى الموفى ﴿واتقى﴾ يعني الكفر والخيانة ونقض العهد ﴿فإن الله يحب المتقين﴾ يعني الذين يتقون الشرك. (ق) عن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كان فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر، وفي رواية إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر. قوله عز وجل: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً﴾ قال عكرمة نزلت هذه الآية في أحبار اليهود ورؤسائهم أبي رافع وكنانة بن أبي الحقيق وكعب بن الأشرف وحبي بن أخطب الذين كتبوا ما عهد الله إليهم في التوراة في شأن محمد ﷺ فبدلوه وكتبوا بأيديهم غيره وحلفوا أنه من عند الله لثلاث فتوتهم الرشا والمآكل التي كانوا يأخذونها من أتباعهم وسفلتهم وقيل نزلت في ادعاء اليهود الذين قالوا: إنه ليس علينا في الأميين سبيل وكتبوا ذلك بأيديهم وحلفوا أنه من عند الله وقيل نزلت في الأشعث بن قيس وخصم له. (ق) عن عبدالله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على مال امرئ مسلم بغير حقه لقي الله وهو عليه غضبان» قال عبدالله: ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ مصداقة من كتاب الله عز وجل: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً﴾ إلى آخر الآية وفي رواية: «قال من حلف على يمين صبر يقطع بها

﴿بلى﴾ أي: ليس كما قالوا بل عليهم سبيل، ثم ابتداء فقال: ﴿مَنْ أَوْفَى﴾ أي: ولكن مَنْ أوفى ﴿بعهده﴾ أي: بعهد الله الذي عهد إليه في التوراة من الإيمان بمحمد ﷺ والقرآن وأداء الأمانة، وقيل: الهاء في عهده راجعة إلى الموفى ﴿واتقى﴾ الكفر والخيانة ونقض العهد، ﴿فإن الله يحب المتقين﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا قبيصة بن عقبة أنا سفيان عن الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ قال: «أربع مَنْ كُنْ فِيهِ كَانَ منافقاً خالصاً وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا: إِذَا ائْتَمَنَ خَانَ وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ قال عكرمة: نزلت في رؤوس اليهود كتبوا ما عهد الله إليهم في التوراة في شأن محمد ﷺ وبدلوه وكتبوا بأيديهم غيره وحلفوا أنه من عند الله لثلاث فتوتهم الرشا والمآكل التي كانت لهم من أتباعهم. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا موسى بن إسماعيل أنا أبو غوانة عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ صَبْرٍ يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَان»، فأنزل الله تعالى تصديق ذلك ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إلى آخر الآية، فدخل الأشعث بن قيس، فقال: ما يحدثكم أبو عبد الرحمن؟ فقالوا: كذا وكذا، فقال: في أنزلت كانت لي بئر في أرض

مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان فأنزل الله تصديق ذلك ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الآية. فدخل الأشعث بن قيس الكندي فقال: ما يحدثكم أبو عبد الرحمن قلنا كذا وكذا فقال صدق في نزلت كان بيني وبين رجل خصومة في بئر فاختمنا إلى رسول الله ﷺ: فقال رسول الله ﷺ: شاهدك أو يمينه قلت إنه إذا يحلف لا يبالي فقال رسول الله ﷺ: من حلف على يمين صبر يقطع بها مال امرئ مسلم هو فيها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان». ونزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إلى آخر الآية. وأخرجه الترمذي وأبو داود وقالوا: إن الحكومة كانت بين الأشعث وبين رجل يهودي. وقيل نزلت هذه الآية في رجل أقام سلعة في السوق فحلف بالله لقد أعطى بها ما لم يعطه ليوقع فيها رجلاً من المسلمين فنزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إلى آخر الآية. وقيل الأقرب حمل الآية على الكل فقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ يدخل فيه جميع ما أمر الله به ويدخل فيه العهود والمواثيق المأخوذة من جهة الرسل ويدخل فيه ما يلزم الرجل نفسه من عهد وميثاق فكل ذلك من عهد الله الذي يجب الوفاء به. ومعنى إن الذين يشترون يستبدلون بعهد الله يعني الأمانة وأيمانهم يعني الكاذبة ثمنًا قليلًا يعني شيئاً يسيراً من حطام الدنيا، وذلك لأن المشتري يأخذ شيئاً ويعطي شيئاً فكل

ابن عم لي فأتيت رسول الله ﷺ فحدثته، فقال: «هَاتِ بَيْتَكَ أَوْ يَمِينَهُ»، قلت: إذا يحلف عليها يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ صَبْرٍ وَهُوَ فِيهَا فَاجِرٌ يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانٌ». أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد الفارسي أنا محمد بن عيسى الجلودي، أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجاج أنا قتيبة بن سعيد أنا أبو الأحوص عن سماك بن حرب عن علقمة بن وائل بن حجر، عن أبيه قال: جاء رجل من حضرموت ورجل من كِنْدَةَ إلى النبي، فقال الحضرمي: يا رسول الله إن هذا قد غلبني على أرض لي كانت لأبي، فقال الكندي: هي أرض في يدي أزرعها ليس له فيها حق، فقال النبي ﷺ للحضرمي: «أَلَكِ بَيِّنَةٌ؟» قال: لا، قال: «فَلَكِ يَمِينُهُ» قال: يا رسول الله إن الرجل فاجر لا يُبَالِي على ما يحلف عليه، قال: «لَيْسَ لَكَ مِنْهُ إِلَّا ذَلِكَ»، فانطلق ليحلف له، فلما أدبر قال رسول الله ﷺ: «أَمَّا لِيْزَنُ حَلَفَ عَلَى مَالِهِ لِيَأْكُلَهُ ظُلْمًا لِيَلْقِيَنَّ اللَّهَ وَهُوَ عَنْهُ مُغْرَضٌ»، ورواه عبد الملك بن عَمِيرٍ عن علقمة، وقال هو امرؤ القيس بن عابس الكندي وخصمه ربيعة بن عبدان، وروى: لَمَّا هَمَّ أَنْ يَحْلِفَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فَامْتَنَعَ امْرُؤُ الْقَيْسِ أَنْ يَحْلِفَ. وأقر لخصمه بحقه ودفعه إليه. أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد السرخسي، أنا أبو مصعب عن مالك عن العلاء بن عبد الرحمن عن سعيد بن كعب عن أخيه عبد الله بن كعب بن مالك عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَأَوْجِبَ لَهُ النَّارَ»، قالوا: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ قال: «وإن كان قضياً من أراك» قالها ثلاث مرات. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عمرو بن محمد أنا هشيم بن محمد أنا العوام بن حوشب عن إبراهيم بن عبد الرحمن عن عبد الله بن أبي أوفى أن رجلاً أقام سلعة وهو في السوق فحلف بالله لقد أعطى بها ما لم يعط، ليوقع فيها رجلاً من المسلمين، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ﴾ أي: يستبدلون بعهد الله، وأراد الأمانة، وأيمانهم الكاذبة ثمنًا قليلًا أي: شيئاً قليلًا من حطام الدنيا، ﴿أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ﴾، لا نصيب لهم ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾، ونعيمها، ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ كلاماً ينفعهم ويُسرهم، وقيل: هو بمعنى الغضب، كما يقول الرجل: إني لا أكلم فلاناً إذا كان غضب عليه، ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: لا يرحمهم ولا

واحد من يعطي، والمأخوذ ثمناً للآخر فهذا معنى الشراء ﴿أولئك﴾ يعني من هذه صفتهم ﴿لا خلاق لهم في الآخرة﴾ أي لا نصيب لهم في الآخرة ونعيمها وجميع منافعها ﴿ولا يكلمهم الله﴾ يعني كلاماً يسرهم به أو ينفعهم. وقيل: هو بمعنى الغضب ﴿ولا ينظر إليهم يوم القيامة﴾ أي لا يرحمهم ولا يحسن إليهم ولا ينيلهم خيراً ﴿ولا يزيكهم﴾ أي ولا يظهرهم من الذنوب ولا يثني عليهم بجميل ﴿ولهم عذاب أليم﴾ يعني في الآخرة. (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزيكهم ولهم عذاب أليم: رجل حلف على سلعة لقد أعطي بها أكثر مما أعطي وهو كاذب، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر ليقطع بها مال امرئ مسلم، ورجل منع فضل ماله فيقول الله له اليوم أمنعتك فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل يداك»، (م) عن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزيكهم ولهم عذاب أليم قال: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرات فقلت: خابوا وخسروا من هم يا رسول الله؟ قال المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب «وللنساء» المنان بما أعطى والمسبل إزاره والمنفق سلعته بالحلف الكاذب. (م) عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه حرم الله عليه الجنة وأوجب له النار فقالوا: يا رسول الله وإن كان شيئاً يسيراً قال وإن كان قضيباً من أراك» قوله عز وجل: .

وَأَنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونُ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾

﴿وإن منهم﴾ يعني من اليهود ﴿لفريقاً﴾ يعني طائفة وجماعة وهم كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وحبي بن أخطب وأبو ياسر وشعبة بن عمرو الشاعر ﴿يلوون﴾ أي يعطفون ويميلون، وأصل اللي الفتل من قولك

يُحَسِّنُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُنِيلُهُمْ خيراً، ﴿ولا يزيكهم﴾، أي: لا يثني عليهم بالجميل ولا يظهرهم من الذنوب، ﴿ولهم عذاب أليم﴾، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغفار بن محمد الفارسي، أنا محمد بن عيسى الجلودي أنا إبراهيم بن محمد أنا سفيان أنا مسلم بن الحجاج أنا محمد بن جعفر عن شعبة عن علي بن مُدْرِك عن أبي زرعة عن خرشة بن الحر عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزيكهم ولهم عذاب أليم» قال: قرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرات، فقال أبو ذر: خابوا وخسروا من هم يا رسول الله؟ قال: «المُسْبِل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب»، في رواية «المسبل إزاره»، أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أسيد أبو الحسن محمد بن الحسين العلوي، أنا أبو نصر محمد بن حمدويه المروزي أنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزيكهم ولهم عذاب أليم، رجل حلف يميناً على مال مسلم فاقتطعه، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد صلاة العصر أنه أعطي بسلعته أكثر مما أعطى وهو كاذب، ورجل منع فضل ماله، فإن الله تعالى يقول اليوم أمنعتك فضل ما لم تعمل يداك».

قوله تعالى: ﴿وإن منهم لفريقاً﴾ يعني: من أهل الكتاب لفريقاً أي: طائفة، وهم كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وحبي بن أخطب وأبو ياسر وشعبة بن عمرو الشاعر، ﴿يَلُونُ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾ أي: يعطفون تفسير الخازن والبغوي/ ج ١/ م ٣١

لويت يده إذا فلتتها ﴿أَلَسْتَهُمْ بِالْكِتَابِ﴾ يعني بالتحريف والتغيير والتبديل وتحريف الكلام تقلبيه عن وجهه لأن المحرف يلوي لسانه عن سنن الصواب بما يأتي به من عند نفسه قال الواحدي: ويحتمل أن يكون المعنى يلوون بألستهم الكتاب لأنهم يحرفون الكتاب عما هو عليه بألستهم فيأتون به على القلب ونقل الإمام فخر الدين عن القفال قال يلوون ألستهم معناه أن يعمدوا إلى اللفظة فيحرفونها في حركات الإعراب تحريفاً يتغير به المعنى وهذا كثير في لسان العرب فلا يبعد مثله في العبرانية فلما فعلوا ذلك في الآيات الدالة على نبوة محمد ﷺ من التوراة كان ذلك هو المراد من قوله يلوون ألستهم بالكتاب وقيل إنهم غير واصفة النبي ﷺ من التوراة وبدلوها، وآية الرجم وغير ذلك مما بدلوها وغيروا ﴿لِتَحْسِبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يعني لتظنوا أن الذي حرفوه وبدلوه من الكتاب الذي أنزله الله أنبيائه ﴿وما هو من الكتاب﴾ يعني ذلك الذي يزعمون أنه من الكتاب ما هو منه ﴿ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله﴾ يعني الذي يقولونه ويغيرونه، وإنما كرر هذا بلفظين مختلفين مع اتحاد المعنى لأجل التأكيد ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ يعني أنهم كاذبون. وقال ابن عباس: إن الآية نزلت في اليهود والنصارى جميعاً وذلك أنهم حرفوا التوراة والإنجيل وألحقوا في كتاب الله ما ليس فيه. قوله عز وجل: ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة﴾ قيل إن نصارى نجران قالوا إن عيسى أمرهم أن يتخذوه رباً فقال الله تعالى رداً عليهم: ما كان لبشر يعني عيسى عليه السلام أن يؤتيه الله الكتاب يعني الإنجيل. وقال ابن عباس في قوله تعالى ما كان لبشر يعني محمداً ﷺ أن يؤتيه الله الكتاب يعني القرآن وذلك أن أبا رافع من اليهود والسيد من نصارى نجران قالوا: يا محمد تريد أن نعبدك ونتخذك رباً؟ قال معاذ الله أن آمر بعبادة غير الله وما بذلك أمرني الله، وما بذلك بعثني فأنزل الله هذه الآية ما كان لبشر أي ما ينبغي لبشر وهو جميع بني آدم لا واحد له من لفظه كالقوم والرهط ويوضع موضع الواحد والجمع أن يؤتيه الله الكتاب والحكم يعني الفهم والعلم، وقيل هو إمضاء الحكم من الله تعالى والنبوة يعني المنزلة الرفيعة ﴿ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله﴾ ومعنى الآية أنه لا يجتمع لرجل نبوة مع القول للناس كونوا عباداً لي من دون الله وكيف يدعو الناس إلى عبادة نفسه دون الله وقد أتاه الله ما أتاه من الكتاب والحكم والنبوة وذلك أن الأنبياء موصون بصفات لا يحصل معها ادعاء الإلهية والربوبية منها إن الله تعالى

أَلَسْتَهُمْ بِالْكِتَابِ والتحريف والتغيير، وهو ما غيروا من صفة النبي ﷺ وآية الرجم وغير ذلك، يُقال: لَوَى لسانه عن كذا أي: غيره، ﴿لِتَحْسِبُوهُ﴾ أي: لتظنوا ما حرفوا ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾، الذي أنزله الله تعالى، ﴿وما هو من الكتاب﴾ ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب عمداً، ﴿وهم يعلمون﴾، أنهم كاذبون، وقال الضحاك عن ابن عباس: إن الآية نزلت في اليهود والنصارى جميعاً وذلك أنهم حرفوا التوراة والإنجيل وألحقوا بكتاب الله ما ليس منه.

قوله تعالى: ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب﴾ الآية، قال مقاتل والضحاك: ما كان لبشر يعني: عيسى عليه السلام، وذلك أن نصارى نجران كانوا يقولون: إن عيسى أمرهم أن يتخذوه رباً فقال تعالى: ﴿ما كان لبشر﴾ يعني: عيسى ﴿أن يؤتيه الله الكتاب﴾ أي الإنجيل، وقال ابن عباس وعطاء: ﴿ما كان لبشر﴾ يعني محمداً ﴿أن يؤتيه الله الكتاب﴾ أي القرآن، وذلك أن أبا رافع القرظي من اليهود، والرئيس من نصارى أهل نجران قالوا: يا محمد تريد أن نعبدك ونتخذك رباً فقال: معاذ الله أن آمر بعبادة غير الله، وما بذلك أمرني الله، وما بذلك بعثني، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ما كان لبشر﴾ أي ما ينبغي لبشر، كقوله تعالى: ﴿ما يكون لنا أن نتكلم بهذا﴾ [النور: ١٦] أي ما ينبغي لنا، والبشر: جميع بني آدم لا واحد له من لفظه، كالقوم والجيش، ويوضع موضع الواحد والجمع، ﴿أن يؤتيه الله الكتاب والحكم﴾، الفهم والعلم، وقيل: إمضاء الحكم عن الله عز وجل،

أَتَاهُمُ الْكُتُبَ السَّمَاوِيَّةَ، وَمِنْهَا إِيْتَاءُ النُّبُوَّةِ وَلَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ كَمَالِ الْعِلْمِ وَكُلُّ هَذِهِ تَمْنَعُ مِنْ هَذِهِ الدَّعْوَى ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ يعني ولكن يقول لهم كونوا ربانيين فأضمر القول على حسب مذهب العرب في جواز الإضمار إذا كان في الكلام ما يدل عليه، واختلفوا في معنى الرباني فقال ابن عباس: معناه كونوا فقهاء علماء وعنه كونوا فقهاء معلمين وقيل معناه حكماء حكماء، وقيل الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم وكباره وقيل الرباني العالم الذي يعمل بعلمه، وقيل الرباني العالم بالحلال والحرام والأمر والنهي وقيل الرباني الذي جمع بين علم البصيرة والعلم بسياسة الناس، ولما مات ابن عباس رضي الله عنهما قال محمد بن الحنفية: اليوم مات رباني هذه الأمة قال سيبويه: الرباني المنسوب إلى الرب بمعنى كونه عالماً به ومواظباً على طاعته وزيادة الألف والنون فيه للدلالة على كمال هذه الصفة وقال المبرد: الربانيون أرباب العلم واحدهم ربان وهو الذي يربي العلم ويربي الناس أي يعلمهم وينصحهم والألف والنون للمبالغة فعلى قول سيبويه الرباني منسوب إلى الرب على معنى التخصيص بمعرفة الرب وطاعته، وعلى قول المبرد الرباني مأخوذ من التربية. وقيل الربانيون هم ولادة الأمر والعلماء وهما الفريقان اللذان يطاعان ومعنى الآية على هذا التأويل لا أدعوكم إلى أن تكونوا عباداً لي ولكن أدعوكم إلى أن تكونوا ملوكاً وعلماء ومعلمين الناس الخير ومواظبين على طاعة الله وعبادته. وقال أبو عبيدة: أحسب أن هذه الكلمة ليست عربية إنما هي عبرانية أو سريانية وسواء كانت عربية أو عبرانية فهي تدل على الذي علم وعمل بما علم وعلم الناس طريق الخير. وقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أي كونوا ربانيين بسبب كونكم عالمين ومعلمين وبسبب دراستكم الكتاب، فدللت الآية على أن العلم والتعليم والدراسة توجب كون الإنسان ربانياً فمن اشتغل بالعلم والتعليم لا لهذا المقصود ضاع علمه وخاب سعيه. قوله عز وجل: .

وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَالِيَّةَ وَالنَّيِّتَ أَرْبَابًا أَيَاْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ-

﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾، المنزلة الرفيعة بالإنباء، ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا﴾ أي: ولكن يقول كُونُوا، ﴿رَبَّانِيِّينَ﴾، اختلفوا فيه، قال علي وابن عباس والحسن: كونوا فقهاء علماء، وقال قتادة: حكماء وعلماء، وقال سعيد بن جبیر: العالم الذي يعمل بعلمه، وعن سعيد بن جبیر عن ابن عباس: فقهاء مُعَلِّمِينَ، وقيل: الرباني الذي يُرَبِّي الناس بصغار العلم قبل كباره، وقال عطاء: حكماء وعلماء ونُصَحَاءُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ، قال أبو عبيدة: سمعت رجلاً عالماً يقول: الرباني العالم بالحلال والحرام والأمر والنهي العارف بأنباء الأمة ما كان وما يكون، وقيل: الربانيون فوق الأحرار، والأحرار فوق العلماء، والربانيون الذين جمعوا مع العلم البصائر بسياسة الناس، قال المؤرّج: كونوا ربانيين تدينون لربكم، من الربوبية، كان في الأصل رَبِّي فَأَدْخَلْتُ الْآلِفَ لِلتَّفْخِيمِ، ثُمَّ أَدْخَلْتُ النُّونَ لِسُكُونِ الْآلِفِ، كما قيل: صنعاني وبهراني، وقال المبرد: هم أرباب العلم سُمُّوا بِهِ لِأَنَّهُمْ يَرْبُونُ الْعِلْمَ، وَيَقُومُونَ بِهِ وَيَرْبُونَ الْمُتَعَلِّمِينَ بِصِغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهَا، وَكُلُّ مَنْ قَامَ بِإِصْلَاحِ الشَّيْءِ وَإِتِمَامِهِ فَقَدْ رَبَّاهُ يَرْبِيهِ، وَاحِدُهَا: رَبَّانٌ كَمَا قَالُوا: رَبَّانٌ وَعُطْشَانٌ وَشُبْعَانٌ وَغُرْثَانٌ، ثُمَّ ضُمَّتْ إِلَيْهِ يَاءُ النِّسْبَةِ، كَمَا يَقَالُ: الْحَيَانِيُّ وَرَقْبَانِيُّ، وَحُكِّي عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: هُوَ الَّذِي يُرَبِّي عِلْمَهُ بِعَمَلِهِ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ يَوْمَ مَاتَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْيَوْمَ مَاتَ رَبَّانِي هَذِهِ الْأُمَّةُ، ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: بما أنتم كقولته تعالى: ﴿مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩]، أي: مَنْ هُوَ فِي الْمَهْدِ ﴿تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾، قرأ ابن عامر وعاصم والكسائي ﴿تَعْلَمُونَ﴾ بالتشديد من التعليم، وقرأ الآخرون (تَعْلَمُونَ) بالتخفيف من العلم، كقوله: ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أي: تَقْرَؤُونَ.

وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾

﴿ولا يأمركم﴾ قرىء بنصب الراء عطفاً على قوله ثم يقول: فيكون مردوداً على البشر وقيل على إضمار أن أي ولا أن يأمركم، وقرىء برفع الراء على الاستئناف وهو ظاهر ومعناه ولا يأمركم الله وقيل لا يأمركم محمد ﷺ وقيل ولا يأمركم عيسى وقيل ولا يأمركم الأنبياء ﴿أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً﴾ يعني كفعل قریش والصابئين حيث قالوا الملائكة بنات الله وكفعل اليهود والنصارى حيث قالوا في المسيح والعزير ما قالوا وإنما خص الملائكة والنبيين بالذكر لأن الذين وصفوا بعبادة غير الله عز وجل من أهل الكتاب لم يحك عنهم إلا عبادة الملائكة وعبادة المسيح وعزير، فلهذا المعنى خصهم بالذكر ﴿أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾ إنما قاله على طريق التعجب والإنكار، يعني لا يقول هذا ولا يفعله.

قوله عز وجل: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين﴾ قال الزجاج: موضع إذ نصب والمعنى واذكر في أقاصيصك إذ أخذ الله. وقال الطبري: معناه واذكروا يا أهل الكتاب إذ أخذ الله يعني حين أخذ الله ميثاق النبيين. وأصل الميثاق في اللغة عقد يؤكد بيمين، ومعنى ميثاق النبيين ما وثقوا به على أنفسهم من طاعة الله فيما أمرهم به ونهاهم عنه وذكروا في معنى أخذ الميثاق وجهين: أحدهما: أنه مأخوذ من الأنبياء. والثاني: أنه مأخوذ لهم من غيرهم فلهذا السبب اختلفوا في المعنى بهذه الآية، فذهب قوم إلى أن الله تعالى أخذ الميثاق من النبيين خاصة قبل أن يبلغوا كتاب الله ورسالاته إلى عباده أن يصدق بعضهم بعضاً، وأخذ العهد على كل نبي أن يؤمن بمن يأتي بعده من الأنبياء وينصره إن أدركه وإن لم يدركه أن يأمر قومه بنصرته إن أدركوه فأخذ الميثاق من موسى أن يؤمن بعيسى، ومن عيسى أن يؤمن بمحمد ﷺ وعليهم أجمعين. وهذا قول سعيد بن جبير والحسن وطاوس وقيل: إنما أخذ الميثاق من النبيين في أمر محمد ﷺ خاصة وهو قول علي وابن عباس وقتادة والسدي فعلى هذا القول اختلفوا، فقيل إنما أخذ الله الميثاق على أهل الكتاب الذين أرسل إليهم النبيين ويدل عليه قوله ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه وإنما كان محمد ﷺ مبعوثاً إلى أهل الكتاب دون النبيين، وإنما أطلق هذا اللفظ عليهم لأنهم كانوا يقولون نحن أولى بالنبوة من محمد لأننا أهل كتاب والنبيون منا، وقيل أخذ الله الميثاق على النبيين وأممهم

قوله: ﴿ولا يأمركم﴾، قرأ ابن عامر وحمزة ويعقوب بنصب الراء عطفاً على قوله: ثم يقول: فيكون مردوداً على البشر، أي: ولا يأمر ذلك البشر، وقيل: على إضمار ﴿أن﴾ أي: ولا أن يأمركم ذلك البشر، وقرأ الباقر بالرفع على الاستئناف، معناه: ولا يأمركم الله، وقال ابن جريج وجماعة: ولا يأمركم محمد، ﴿أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً﴾، كفعل قریش والصابئين حيث قالوا: الملائكة بنات الله واليهود والنصارى حيث قالوا في المسيح وعزير ما قالوا، ﴿أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾، قالوا له على طريق التعجب والإنكار، يعني: لا يقول هذا.

قوله عز وجل: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة﴾، قرأ حمزة ﴿لما﴾ بكسر اللام، وقرأ الآخرون بفتحها، فمن كسر اللام فهي لام الإضافة دخلت على ما الموصولة، ومعناه: إن الذي يريد للذي آتيتكم، أي: أخذ ميثاق النبيين لأجل الذي آتاهم من الكتاب والحكمة وأنهم أصحاب الشرائع، ومن فتح اللام فمعناه: للذي آتيتكم، بمعنى الخبر، وقيل: بمعنى الجزء، أي: لئن آتيتكم ومهما آتيتكم، وجواب الجزء، قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾ قوله: ﴿لما آتيتكم﴾ قرأ نافع وأهل المدينة (آتيناكم) على التعظيم كما قال: ﴿وآتينا داود زبوراً﴾ [النساء: ١٦٣] ﴿وآتيناه الحكم صيباً﴾ [مريم: ١٢] وقرأ الآخرون بالتاء لموافقة الخط، ولقوله: ﴿وإننا معكم﴾ واختلفوا في المعنى بهذه الآية فذهب قوم إلى أن الله تعالى أخذ الميثاق على النبيين خاصة أن

جميعاً في أمر محمد ﷺ فاكتمى بذكر الأنبياء لأن العهد مع المتبوع عهد مع الأتباع وهو قول ابن عباس قال علي بن أبي طالب: ما بعث الله نبياً آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في أمر محمد ﷺ وأخذ هو العهد على قومه ليؤمنن به ولئن بعث وهم أحياء لينصرونه وقيل إن المراد من الآية أن الأنبياء كانوا يأخذون العهد والميثاق على أمهم بأنه إذا بعث محمداً ﷺ أن يؤمنوا به وينصروه وهذا قول كثير من المفسرين وقوله ﴿لما أتيتكم من كتاب وحكمة﴾ قرء بفتح اللام من لما وبكسرهما مع التخفيف في القراءتين فمن قرأ بفتح اللام قال: معنى الآية وإذا أخذ الله ميثاق النبيين من أجل الذي آتاهم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول يعني ذكر محمد ﷺ في التوراة لتؤمنن به للذي عندكم في التوراة من ذكره ومن قرأ بكسر اللام جعل قوله لتؤمنن به من أخذ الميثاق كما يقال أخذت ميثاقك لتفعلن لأن أخذ الميثاق بمنزلة الاستحلاف فكان معنى الآية وإذا استحلف الله النبيين للذي آتاهم من كتاب وحكمة متى جاءهم رسول مصدق لما معهم ليؤمنن به ولينصرونه وقوله ﴿ثم جاءكم رسول﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿مصدق لما معكم﴾ وذلك أن الله وصفه في كتب الأنبياء المتقدمة وشرح فيها أحواله فإذا جاءت صفاته وأحواله مطابقة في كتبهم المنزلة فقد صار مصدقاً لها فيجب الإيمان به والانقياد لقوله ولأم قوله ﴿لتؤمنن به﴾ لام القسم تقديره والله لتؤمنن به ﴿ولتنصرنه﴾ قال البغوي: قال الله عز وجل للأنبياء حين استخرج الذرية من صلب آدم والأنبياء فيهم كالمصاييح أخذ عليهم الميثاق في أمر محمد ﷺ ﴿أأقرتم وأخذتم على ذلكم إصري﴾ الآية. وقال الإمام فخر الدين الرازي: يحتمل أن يكون هذا الميثاق ما قرر في عقولهم من الدلائل الدالة على أن الانقياد من الله واجب، فإذا جاء رسول وظهرت المعجزات الدالة على صدقه، فإذا أخبرهم بعد ذلك أن الله أمر الخلق بالإيمان به عرفوا عند ذلك وجوبه بتقرير هذا الدليل في عقولهم فهذا هو المراد من الميثاق ﴿قال أأقرتم﴾ يعني قال الله تعالى: أأقرتم فإن فسرنا أن أخذ الميثاق كان من النبيين؛ كان معناه قال الله تعالى للنبيين: أأقرتم بالإيمان به والنصر له وإن فسرنا بأن أخذ الميثاق كان على الأمم كان معناه قال كل نبي لأمته أأقرتم وذلك لأنه تعالى أضاف أخذ الميثاق إلى نفسه وإن كان النبيون أخذوه على الأمم فلذلك طلب هذا الإقرار وأضافه إلى نفسه وإن وقع من الأنبياء والمقصود أن الأنبياء بالغوا في إثبات هذا الميثاق وتأكيده على الأمم وطالبوهم بالقبول وأكدوا ذلك بالإشهاد ﴿وأخذتم على ذلكم إصري﴾ أي عهدي والإصر العهد الثقيل وقيل سمي العهد إصراراً لأنه مما يؤصر أي

يُبلغوا كتاب الله ورسالته إلى عباده، وأن يُصدق بعضهم بعضاً وأخذ اليهود على كل نبي أن يؤمن بمن يأتي بعده من الأنبياء، وينصرونه إن أدركه، فإن لم يدركه أن يأمر قومه بنصرتهم إن أدركه، فأخذ الميثاق من موسى أن يؤمن بعيسى، ومن عيسى أن يؤمن بمحمد ﷺ، وقال الآخرون: بما أخذ الله الميثاق منهم في أمر محمد ﷺ، فعلى هذا اختلفوا فمنهم من قال: إنما أخذ الميثاق على أهل الكتاب الذين أرسل منهم النبيين، وهذا قول مجاهد والربيع، ألا ترى إلى قوله: ﴿ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه﴾، وإنما كان محمد ﷺ مبعوثاً إلى أهل الكتاب دون النبيين يدل عليه أن في قراءة عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب ﴿وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وإنما القراءة المعروفة ﴿وإذا أخذ الله ميثاق النبيين﴾ فأراد: أن الله أخذ ميثاق النبيين أن يأخذوا الميثاق إلى أمهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ويصدقوه وينصروه، إن أدركوه، وقال بعضهم: أراد أخذ الله الميثاق على النبيين، وأمهم جميعاً في أمر محمد ﷺ، فاكتمى بذكر الأنبياء لأن العهد على المتبوع عهد على الأتباع، وهذا معنى قول ابن عباس، وقال علي بن أبي طالب: لم يبعث الله نبياً آدم فمن بعده إلا أخذ عليه الميثاق والعهد في أمر محمد، وأخذ العهد على قومه ليؤمنن به، ولئن بعث وهم أحياء لينصرونه، قوله: ﴿ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم﴾، يعني: محمداً ﷺ، ﴿لتؤمنن به ولتنصرنه﴾ قال، يقول الله تعالى للأنبياء حين استخرج

يشد ويعقد. ﴿قَالُوا أَقْرَبْنَا﴾ أي قال النبيون: أقرنا بما ألزمتنا من الإيمان برسلك الذين ترسلهم مصدقين لما معنا من كتبك ﴿قَالَ فَاشْهَدُوا﴾ يعني قال الله عز وجل للنبيين: فاشهدوا يعني أنتم على أنفسكم وقيل: على أممكم وأتباعكم الذين أخذتم عليهم الميثاق وقيل: قال الله للملائكة فاشهدوا فهو كناية عن غير مذكور، وقيل: معناه فاعلموا وبينوا لأن أصل الشهادة العلم والبيان ﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ يعني قال الله يا معشر الأنبياء وأنا معكم من الشاهدين عليكم وعلى أتباعكم أو قال للملائكة وأنا معكم من الشاهدين عليهم.

فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

﴿فَمَنْ تَوَلَّى﴾ أي أعرض عن الإيمان بمحمد ﷺ ونصرته ﴿بعد ذلك﴾ الإقرار ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ أي الخارجون عن الإيمان والطاعة. قوله عز وجل: ﴿أفغير دين الله يبغون﴾ وذلك أن أهل الكتاب اختلفوا فادعى كل فريق منهم أنه على دين إبراهيم عليه السلام فاختموا إلى النبي ﷺ فقال لهم رسول الله ﷺ: كلا الفريقين بريء من دين إبراهيم فغضبوا وقالوا: لا نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك فأنزل الله أفغير دين الله؛ الهمزة للاستفهام والمراد منه الإنكار والتوبيخ يعني أفبعد أخذ الميثاق عليهم ووضوح الدلائل لهم أن دين إبراهيم هو دين الله الإسلام. تبغون قرءاءة بالتاء على خطاب الحاضر أي أفغير دين الله تطلبون يا معشر اليهود والنصارى وقرى بالياء على الغيبة رداً على قوله فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴿وله أسلم﴾ أي خضع وانقاد ﴿من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً﴾ الطوع الانقياد والاتباع بسهولة والكره ما كان من ذلك بمشقة وإباء من النفس. واختلفوا في معنى قوله طوعاً وكرهاً فقليل: أسلم أهل السموات طوعاً وأسلم بعض أهل الأرض طوعاً وبعضهم

الذرية من صلب آدم عليه السلام والأنبياء فيهم كالمصاييح والسرّج، وأخذ عليهم الميثاق في أمر محمد ﷺ، ﴿أَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾، أي: قبلتم على ذلكم عهدي، والإصر: العهد الثقيل، ﴿قَالُوا أَقْرَبْنَا قَالَ﴾، الله تعالى: ﴿فَاشْهَدُوا﴾ أي: فاشهدوا أنتم على أنفسكم وعلى أتباعكم، ﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾، عليكم وعليهم، وقال ابن عباس: فاشهدوا، أي: فاعلموا، وقال سعيد بن المسيب: قال الله تعالى للملائكة فاشهدوا عليهم كناية عن غير مذكور.

﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ﴾، الإقرار، ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾، العاصون الخارجون عن الإيمان.

قوله عز وجل: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾، وذلك أن أهل الكتاب اختلفوا فادعى كل واحد أنه على دين إبراهيم عليه السلام واختموا إلى رسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ: ﴿كَلَّا الْفَرِيقَيْنِ بَرِيءٌ مِنْ دِينِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾، فغضبوا وقالوا: لا نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك، فأنزل الله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾، قرأ أهل البصرة وحفص عن عاصم ﴿يَبْغُونَ﴾ بالياء لقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، وقرأ الآخرون بالتاء لقوله تعالى: ﴿لَمَّا آتَيْتَكُمْ﴾، ﴿وله أسلم﴾، خضع وانقاد، ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾، فالطوع: الانقياد والاتباع بسهولة، والكره: ما كان بمشقة وإباء من النفس، واختلفوا في قوله ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ قال الحسن: أسلم أهل السموات طوعاً وأسلم مَنْ في الأرض بعضهم طوعاً وبعضهم كرهاً خوفاً من السيف والسيب، وقال مجاهد: طوعاً المؤمن، وكرهاً ذلك الكافر، بدليل: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وظلالهم بالغدو والآصال﴾ [الرعد: ١٥]، وقيل: هذا يوم الميثاق حين قال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾

كرهاً من خوف القتل والسبي، وقيل: أسلم المؤمن طوعاً وانقاد الكافر كرهاً، وقيل هذا في يوم أخذ الميثاق حين قال: أأست بربكم؟ قالوا: بلى فمن سبقت له السعادة قال ذلك طوعاً، ومن سبقت له الشقاوة قال ذلك كرهاً. وقيل: أسلم المؤمن طوعاً فنفعه إسلامه يوم القيامة والكافر يسلم كرهاً عند الموت في وقت اليأس فلم ينفعه ذلك في القيامة وقيل إنه لا سبيل لأحد من الخلق إلى الامتناع على الله في مراده فأما المسلم فينقاد الله فيما أمره أو نهاه عنه طوعاً وأما الكافر فينقاد الله كرهاً في جميع ما يقتضي عليه ولا يمكنه دفع قضائه وقدره عنه ﴿وإليه ترجعون﴾ قرء بالتاء والياء والمعنى أن مرجع الخلق كلهم إلى الله يوم القيامة فيه وعيد عظيم لمن خالفه في الدنيا. قوله عز وجل: .

قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾

﴿قل آما بالله﴾ لما ذكر الله عز وجل في الآية المتقدمة أخذ الميثاق على الأنبياء في تصديق الرسول الذي يأتي مصداقاً لما معهم بين في هذه الآية أن من صفة محمد ﷺ مصداقاً لما معهم فقال تعالى: قل آما بالله وإنما وحد الضمير في قوله قل وجمع في قوله آما بالله لأنه إنما خاطبه بلفظ الواحد ليدل هذا الكلام على أنه لا يبلغ هذا التكليف عن الله تعالى إلى الخلق إلا هو. ثم قال: آما بالله تنبيهاً على أنه حين قال هذا القول وافقه أصحابه فحسن الجمع في قوله آما، ومعنى الآية: قل يا محمد صدقنا بالله أنه ربنا وإلهنا لا إله غيره ولا رب سواه وإنما قدم الإيمان بالله على غيره لأنه الأصل ﴿وما أنزل علينا﴾ يعني قل يا محمد وصدقنا أيضاً بما أنزل علينا من وحيه وتنزيله وإنما قدم ذكر القرآن لأنه أشرف الكتب وأنه لم يحرف ولم يبدل وغيره حرف وبدل ﴿وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى﴾ إنما خص هؤلاء الأنبياء بالذكر لأن أهل الكتاب يعترفون بوجودهم ولم يختلفوا في نبوتهم، والأسباط هم أولاد يعقوب الاثنا عشر وكانوا أنبياء ثم جمع جميع الأنبياء فقال ﴿والنبيون﴾ أي وما أوتي النبيون ﴿من ربهم لا نفرق بين أحد منهم﴾ وذلك أن أهل الكتاب

[الأعراف: ١٧٢]، فقال بعضهم: طوعاً وبعضهم: كرهاً، وقال: قتادة المؤمن من أسلم طوعاً فنفعه الإيمان، والكافر أسلم كرهاً في وقت اليأس فلم ينفعه الإسلام، قال الله تعالى: ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾ [غافر: ٨٥]، وقال الشعبي: هو استعاذتهم به عند اضطرارهم، كما قال الله تعالى: ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين﴾ [العنكبوت: ٦٥] وقال الكلبي: طوعاً الذي ولد في الإسلام، وكرهاً الذين أجبروا على الإسلام ممن يسبى منهم فيجاء بهم في السلاسل، ﴿وإليه يرجعون﴾، قرأ بالياء حفص عن عاصم ويعقوب كما قرأ ﴿يبيغون﴾ بالياء وقرأ الآخرون بالتاء فيهما إلا أبو عمرو فإنه قرأ ﴿يبيغون﴾ بالياء و (ترجعون) بالتاء، قال: لأن الأولى خاص والثاني عام، لأن مرجع جميع الخلق إلى الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿قل آما بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾، ذكر الملل والأديان واضطراب الناس فيها، ثم أمر رسول الله ﷺ أن يقول: آما بالله الآية.

يؤمنون ببعض النبيين ويكفرون ببعض فأمر الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ أن يخبر عن نفسه وعن أمته أنه يؤمن بجميع الأنبياء. فإن قلت: لم عدي أنزل في «هذه الآية بحرف الاستعلاء وفيما تقدم من مثلها في البقرة بحرف الانتهاء». قلت لوجود المعنيين جميعاً لأن الوحي ينزل من فوق ويتنهي إلى الرسل فجاء تارة بأحد المعنيين وتارة بالمعنى الآخر ﴿ونحن له مسلمون﴾ أي موحدون مخلصون أنفسنا له لا نجعل له شريكاً في عبادتنا. قوله عز وجل: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ يعني أن الدين المقبول عند الله هو دين الإسلام وأن كل دين سواه غير مقبول عنده لأن الدين الصحيح ما يأمر الله به ويرضى عن فاعله ويثيبه عليه ﴿وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ يعني الذين وقعوا في الخسارة وهو حرمان الثواب وحصول العقاب وروى ابن جرير الطبري عن عكرمة: في قوله: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ قالت اليهود فنحن مسلمون فقال الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ قل لهم والله على الناس حج البيت فلم يحجوا. قوله عز وجل: ﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم﴾ نزلت في اثني عشر رجلاً ارتدوا عن الإسلام وخرجوا من المدينة وأتوا مكة كفاراً منهم الحارث بن سويد الأنصاري وطعمة بن أبيرق وحجوج بن الأسلت. وقال ابن عباس: نزلت في اليهود والنصارى وذلك أن اليهود كانوا قبل مبعث النبي ﷺ يستفتحون به على الكفار ويقولون به ويقولون: قد أظل زمان نبي مبعوث فلما بعث محمد ﷺ كفروا به بغياً وحسداً ومعنى كيف يهدي الله كيف يرشد الله للصواب ويوفق للإيمان قوماً كفروا أي جحدوا نبوة محمد ﷺ بعد إيمانهم أي تصديقهم إياه وإقرارهم به وبما جاء به من عند ربه ﴿وشهدوا أن الرسول حق﴾ يعني وبعد أن أفروا وشهدوا أن محمداً رسول الله إلى خلقه وأنه حق وصدق ﴿وجاءهم البينات﴾ يعني الحجج والبراهين والمعجزات الدالة على صحة نبوته التي بمثلها ثبتت النبوة ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي لا يوفقهم إلى الحق والصواب لما سبق في علمه تعالى أنهم ظالمون وقيل لا يهديهم في الآخرة إلى الجنة والثواب. فإن قلت: كيف قال في أول الآية كيف يهدي الله قوماً كفروا وقال في آخرها والله لا يهدي القوم الظالمين وهذا تكرار؟ قلت: ليس فيه تكرار لأن قوله كيف يهدي الله قوماً كفروا إنما هو مختص بأولئك المرتدين عن الإسلام ثم إنه تعالى عمم ذلك الحكم في آخر الآية فقال: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ يعني جميع الكفار المرتدين عن الإسلام والكافر الأصلي وإنما سمي الكافر ظالماً لأنه وضع العبادة في غير موضعها.

أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾

﴿أولئك جزاؤهم﴾ يعني الذين كفروا بعد إيمانهم ﴿أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين﴾

قوله: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾، نزلت في اثني عشر رجلاً ارتدوا عن الإسلام وخرجوا من المدينة وأتوا مكة كفاراً، منهم الحارث بن سويد الأنصاري، فنزلت فيهم ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾.

﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم﴾، لفظة استفهام ومعناه جحد، أي: لا يهدي الله، وقيل معناه: كيف يهديهم الله في الآخرة إلى الجنة والثواب ﴿وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين﴾.

﴿أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾.

فيها ﴿أي في عذاب اللعنة وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة﴾ لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ﴿أي لا يؤخرون عن وقت العذاب لا يؤخر عنهم من وقت إلى وقت ثم استثنى سبحانه وتعالى فقال: ﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك﴾ يعني من بعد ارتدادهم وكفرهم وذلك آل الحارث بن سويد الأنصاري لما لحق بالكفار ندم على ذلك فأرسل إلى قومه أن سلوا رسول الله ﷺ هل لي من توبة؟ ففعلوا ذلك فأنزل الله تعالى ﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا﴾ الله فبعث بها إليه أخوه الجلاس مع رجل من قومه، فأقبل إلى المدينة تائباً وقبل رسول الله ﷺ توبته وحسن إسلامه ﴿وأصلحوا﴾ أي وضموا إلى التوبة الأعمال الصالحة فبيّن أن التوبة وحدها لا تكفي حتى يضاف إليها العمل الصالح. وقيل: معناه وأصلحوا باطنهم مع الحق بالمراقبات وظاهرهم مع الخلق بالعبادات والطاعات ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ أي غفور لقبائهم في الدنيا بالستر رحيم في الآخرة بالعفو وقيل: غفور بإزالة العذاب رحيم بإعطاء الثواب. قوله عز وجل: ﴿إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم﴾ نزلت في اليهود وذلك أنهم كفروا بعتسى والإنجيل بعد إيمانهم بموسى وغيره من أنبيائهم ثم ازدادوا كفراً يعني كفرهم بمحمد ﷺ والقرآن، وقيل نزلت في اليهود والنصارى وذلك أنهم كفروا بمحمد ﷺ لما رأوه بعد إيمانهم به قبل مبعثه لما ثبت عندهم من نعته وصفته في كتبهم ثم ازدادوا كفراً يعني ذنباً في حال كفرهم. وقيل نزلت في جميع الكفار وذلك أنهم أشركوا بالله بعد إقرارهم بأن الله خالقهم ثم ازدادوا كفراً يعني بإقامتهم على كفرهم حتى هلكوا عليه، وقيل زيادة كفرهم هو قولهم تتربص بمحمد ريب المنون وقيل نزلت في أحد عشر رجلاً من أصحاب الحارث بن سويد الذين ارتدوا عن الإسلام فلما رجع الحارث إلى الإسلام أقاموا على كفرهم بمكة وقالوا: نقيم على الكفر ما بدا لنا ومتى أردنا الرجعة ينزل فينا مثل ما نزل في الحارث فلما فتح رسول الله ﷺ مكة فمّن دخل منهم في الإسلام قبلت توبته ونزل فيمن مات منهم على كفره: ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار﴾ الآية. فإن قلت قد وعد الله قبول التوبة ممن تاب فما يعني قوله لن تقبل توبتهم؟ قلت اختلف المفسرون في معنى قوله: لن تقبل توبتهم فقال الحسن وعطاء وقتادة والسدي: لن تقبل توبتهم حين يحضرهم الموت وهو وقت الحشجة لأن الله تعالى قال: ﴿وليس التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن﴾ فإن الذي يموت على الكفر لا تقبل توبته كأنه قال إن اليهود أو الكفار أو المرتدين الذين فعلوا ما فعلوا ثم ماتوا على ذلك لن تقبل توبتهم وقال ابن عباس: إنهم الذين ارتدوا وعزموا على إظهار التوبة لستر أحوالهم والكفر في ضمائرهم وقال

﴿خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾، وذلك أن الحارث بن سويد لما لحق بالكفار ندم فأرسل إلى قومه أن سلوا رسول الله ﷺ هل لي من توبة ففعلوا ذلك، فأنزل الله تعالى:

﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾، لما كان منه، فحملها إليه رجل من قومه وقرأها عليه فقال الحارث: إنك والله فيما علمت لصدوق وأن رسول الله ﷺ لأصدق منك وإن الله عز وجل لأصدق الثلاثة، فرجع الحارث إلى المدينة وأسلم وحسن إسلامه.

قوله عز وجل: ﴿إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً﴾ قال قتادة والحسن: نزلت في اليهود كفروا بعتسى عليه السلام والإنجيل بعد إيمانهم بأنبيائهم ثم ازدادوا كفراً بمحمد ﷺ والقرآن، وقال أبو العالية: نزلت في اليهود والنصارى كفروا بمحمد ﷺ لما رأوه بعد إيمانهم بنعتهم وصفته في كتبهم، ثم ازدادوا كفراً، يعني: ذنباً في حال كفرهم، قال مجاهد: نزلت في جميع الكفار أشركوا بعد إقرارهم بأن الله خالقهم، ثم ازدادوا كفراً أي: أقاموا على كفرهم حتى هلكوا عليه، قال الحسن: ثم ازدادوا كفراً كلما نزلت آية كفروا بها، فازدادوا كفراً وقيل: ثم ازدادوا كفراً بقولهم: تتربص بمحمد ريب المنون، قال الكلبي: نزلت في أحد عشر من أصحاب الحارث بن

أبو العالية: هم قوم تابوا من ذنوب عملوها في حال للشرك ولم يتوبوا من الشرك فإن توبتهم في حال الشرك، غير مقبولة. وقال مجاهد: لن تقبل توبتهم إذا ماتوا على الكفر وقال ابن جرير الطبري: معنى لن تقبل توبتهم أي مما ازدادوا من الكفر على كفرهم بعد إيمانهم لا من كفرهم لأن الله تعالى لما وعد أن يقبل التوبة عن عباده وأنه قابل توبة كل تائب من كل ذنب لقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ علم أن المعنى الذي لا تقبل التوبة منه غير المعنى الذي تقبل التوبة منه فعلى هذا فالذي لا تقبل التوبة منه هو الزيادة على الكفر بعد الكفر لا يقبل الله منه توبة ما أقام على كفره لأن الله تعالى لا يقبل عمل مشرك ما أقام على شركه، فإذا تاب من شركه وكفره وأصلح فإن الله كما وصف نفسه غفور رحيم. وقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ يعني هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً وهم الذين ضلوا عن سبيل الحق وأخطؤوا منهاجه. قوله عز وجل:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ ۚ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَبْهُتُ بِهِ ۚ عَلَيْهِ

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ قال ابن عباس: لما فتح رسول الله ﷺ مكة دخل من كان من أصحاب الحارث بن سويد حباً في الإسلام فنزلت هذه الآية فيمن مات منهم على الكفر، وقيل نزلت فيمن مات كافراً من جميع أصناف اليهود والنصارى وعبدة الأصنام، فالآية عامة في جميع من مات على الكفر ﴿فلن يقبل أحدهم ملء الأرض ذهباً﴾ أي قدر ما يملأ الأرض من شرقها إلى غربها ﴿ولو افتدى به﴾ قيل معناه لو افتدى به والواو زائدة مقحمة وقيل الواو على حالها وفائدتها أنها للعطف والتقدير لو تقرب إلى الله بملء الأرض ذهباً وقد مات على كفره لم ينفعه ذلك وكذا لو افتدى من العذاب بملء الأرض ذهباً لن يقبل منه، وهذا أكد في التعليل لأنه تصريح بنفي القبول من جميع الوجوه. فإن قلت الكافر لا يملك شيئاً في الآخرة فما وجه قوله فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً؟ قلت: الكلام ورد على سبيل الفرض والتقدير والمعنى لو أن للكافر قدر ملء الأرض ذهباً يوم القيامة لبذله في تخليص نفسه من العذاب ولكن لا يقدر على شيء من ذلك وقيل معناه لو أن الكافر أنفق في الدنيا

سويد، لما رجع الحارث إلى الإسلام أقاموا هم على الكفر بمكة وقالوا نقيم على الكفر ما بدأ لنا فمتى أردنا الرجعة نزل فينا ما نزل في الحارث، فلما افتتح رسول الله ﷺ مكة فمَن دخل منهم في الإسلام قبلت توبته، ونزل فيمن مات منهم كافراً ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [البقرة: ١٦١، آل عمران: ٩١] الآية، فإن قيل: قد وعد الله قبول توبة من تاب، فما معنى قوله: ﴿لَنْ يُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾، قيل: لن تقبل توبتهم إذا رجعوا في حال المعايعة، كما قال: ﴿وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ [النساء: ١٨]، وقيل: هذا في أصحاب الحارث بن سويد حيث أعرضوا عن الإسلام، وقالوا نتربص بمحمد ريب المنون، فإن ساعده الزمان نرجع إلى دينه، لن تقبل توبتهم، لن يقبل ذلك لأنهم متربصون غير محققين، وأولئك هم الضالون.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا﴾، أي: قدر ما يملأ الأرض من شرقها إلى غربها، ﴿ذهباً﴾، نصب على التفسير، كقولهم: عشرون درهماً. ﴿ولو افتدى به﴾، قيل: معناه لو افتدى به، والواو زائدة مقحمة، ﴿أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين﴾. أخبرنا

ملء الأرض ذهباً ثم مات على كفره لم ينفعه ذلك لأن الطاعة مع الكفر غير مقبولة ﴿أولئك﴾ إشارة إلى من مات على الكفر ﴿لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين﴾ يعني مانعين يمنعونهم من العذاب (ق) عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال يقول الله عز وجل لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لو أن لك ما في الأرض من شيء أكنّت تفندي به؟ فيقول: نعم فيقول أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا الشرك لفظ مسلم. قوله عز وجل: ﴿لن تنالوا البر﴾ قال ابن عباس: يعني الجنة، وقيل: البر هو التقوى، وقيل هو الطاعة وقيل معناه لن تنالوا حقيقة البر ولن تكونوا أبرار حتى تنفقوا مما تحبون وقيل معناه لن تنالوا بر الله وهو ثوابه وأصل البر التوسع في فعل الخير يقال بر العبد ربه أي توسع في طاعته فالبر من الله الثواب ومن العبد الطاعة وقد يستعمل في الصدق وحسن الخلق لأنهما من الخير المتوسع فيه (ق) عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وأن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً».

(م) عن النّوّاس بن سميّان قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: البر حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس منك فعلى هذا يكون المعنى عليكم بالأعمال الصالحة حتى تكونوا أبراراً وتدخلوا في زمرة الأبرار ومن قال إن لفظ البر هو الجنة فقال معنى الآية لن تنالوا ثواب البر المؤدي إلى الجنة ﴿حتى تنفقوا مما تحبون﴾ يعني من جيد أموالكم أنفسها عندكم قال الله تعالى: ﴿ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون﴾ وقيل هو أن تنفق من مالك ما أنت محتاج إليه قال الله تعالى: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ (ق) عن أبي هريرة قال: أتى رسول الله ﷺ رجل فقال: يا رسول الله أي الصدقة أفضل؟ قال: إن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تهمل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا إلا وقد كان، واختلفوا في هذا الإنفاق قال ابن عباس: هو الزكاة المفروضة والمعنى لن تنالوا حتى تخرجوا زكاة أموالكم فعلى هذا القول قيل إن الآية منسوخة بآية الزكاة وفيه بعداً لأنه ترغيب في إخراج الزكاة وقال ابن عمر: المراد بها سائر الصدقات وقال الحسن: كل شيء أنفق المسلم من مالك مما يبتغي به وجه الله ويطلب ثوابه حتى الثمرة فإنه يدخل في قوله: لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون (ق) عن أنس بن مالك قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً وكان أحب أمواله إليه بيرحاء وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب

عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا محمد بن بشار أخبرنا شعبة عن أبي عمران قال: سمعت أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «يقول الله لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة: أرايت لو أن لك ما في الأرض جميعاً من شيء أكنّت تفندي به؟ فيقول: نعم، فيقول: أردت منك أهون من ذلك وأنت صلب آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي».

قوله تعالى: ﴿لن تنالوا البر﴾ يعني: الجنة، قاله ابن عباس وابن مسعود ومجاهد، وقال مقاتل بن حيان: التقوى، وقيل: الطاعة، وقيل: الخير، وقال الحسن: لن تكونوا أبراراً، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري، أنا حاجب بن أحمد الطوسي أخبرنا محمد بن حماد الصالح قال: أخبرنا أبو معاوية عن الأعمش عن شقيق عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً». قوله تعالى: ﴿حتى تنفقوا مما تحبون﴾ أي: من أحب أموالكم إليكم، روى الضحاك عن ابن عباس: أن المراد منه أداء الزكاة، وقال مجاهد والكلبي: هذه الآية نسختها آية الزكاة، وقال الحسن: كل إنفاق يبتغي به

قال أنس: فلما نزلت هذه الآية ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن الله تعالى يقول في كتابه ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالي إلي بئرحا وإنها صدقة لله عز وجل أرجو برها وذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث شئت فقال رسول الله ﷺ: «بخ بخ ذلك مال رابح» أو قال ذلك مال رابح أرى أن تجعلها في الأقربين فقال أبو طلحة: افعل يا رسول الله فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه قوله بخ بخ هي كلمة تقال عند المدح والرضا وتكريرها للمبالغة وهي مبنية على السكون فإذا وصلت جرب ونونت فقلت: بخ بخ قوله: مال رابح أي ذو ربح وفي الرواية الأخرى ذلك مال رابح بالياء معناه يروح عليك نفعه وثوابه وبئرحا اسم موضع بالمدينة وهو حائط كان لأبي طلحة. وروي عن مجاهد قال: كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري أن يبتاع له جارية من سبي جلولاء يوم فتحت فلما جاءت أعجبتة فقال عمر إن الله عز وجل يقول لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون فأعتقها عمر وعن حمزة بن عبد الله بن عمر أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما خطرت على قلبه هذه الآية: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قال عبد الله فذكرت ما أعطاني الله تعالى فما كان شيء أحب إلي من فلانة فقلت هي حرة لوجه الله تعالى قال ولولا أنني لا أعود في شيء جعلته لله لنكحتها وعن عمرو بن دينار قال لما نزلت هذه الآية لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون جاء زيد بن حارثة بفرس يقال لها سيل كان يحبها إلى رسول الله ﷺ فقال: تصدق بهذه يا رسول الله فأعطاه رسول الله ﷺ أسامة بن زيد بن حارثة فقال يا رسول الله إنما أردت أن أتصدق بها فقال رسول الله ﷺ: قد قبلت صدقتك وفي رواية كأن زيدا أوجد في نفسه فلما رأى ذلك منه النبي ﷺ قال: أما إن الله قد قبلها وروى أن أبا ذر نزل به ضيف فقال للراعي: اثني بخير إبلي فجاء بناقة مهزولة فقال للراعي خنتني فقال الراعي وجدت خير الإبل فحلها فذكرت يوماً حاجتكم إليه فقال: إن يوم حاجتي إليه ليوم أوضع في حفرتي وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني من أي شيء كان من طيب تحبونه أو من خبيث تكرهونه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ أي يعلمه ويجازيكم به. قوله عز وجل: .

المسلم وجه الله حتى الثمرة ينال به هذا البر، وقال عطاء: لن تنالوا البر أي: شرف الدين والتقوى حتى تصدقوا وأنتم أصحاب أشحاء، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي، أنا أبو مصعب عن مالك عن إسحق بن عبد الله بن أبي طلحة أنه سمع أنس بن مالك يقول: (كان أبو طلحة الأنصاري أكثر الأنصار بالمدينة مالاً وكان أحب ماله إليه بئرحا، وكانت مستقبله المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس: فلما نزلت هذه الآية ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالي إلي بئرحا، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث شئت، فقال رسول الله ﷺ: «بخ بخ ذلك مال رابح». أو قال: «ذلك مال رابح وقد سمعت ما قلت فيها، وإنني أرى أن تجعلها في الأقربين»، فقال أبو طلحة أفعل يا رسول الله فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه. وروى عن مجاهد قال: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري أن يبتاع له جارية من سبي جلولاء يوم فتحت فدعا بها فأعجبتة، فقال عمر: إن الله عز وجل يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ فأعتقها عمر. وعن حمزة بن عبد الله بن عمر قال: خطرت على قلب عبد الله بن عمر هذه الآية ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قال ابن عمر: فذكرت ما أعطاني الله عز وجل، فما كان شيء أعجب إلي من فلانة، هي حرة لوجه الله تعالى، قال: ولولا أنني لا أعود في شيء جعلته لله لنكحتها، ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾، أي: يعلمه ويجازي به.

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنْزَلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

﴿كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم الله على نفسه من قبل أن تنزل التوراة﴾ سبب نزول هذه الآية أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: إنك تزعم أنك على ملة إبراهيم وكان إبراهيم لا يأكل لحوم الإبل وألبانها وأنت تأكل ذلك كله فلست على ملته فقال النبي ﷺ: كان ذلك حلالاً لإبراهيم قالوا كل ما نحرمة اليوم كان ذلك حراماً على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا فأنزل الله عز وجل كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه وهو يعقوب من قبل أن ينزل التوراة يعني ليس الأمر على ما تدعيه اليهود من تحريم لحوم الإبل على إبراهيم بل كان ذلك حلالاً على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، وإنما حرمه يعقوب بسبب من الأسباب وبقيت تلك الحرمة في أولاده فأنكر اليهود ذلك فأمرهم رسول الله ﷺ بإحضار التوراة وطلب منهم أن يستخرجوا منها أن ذلك كان حراماً على إبراهيم، فعجزوا عن ذلك وافتضحوا وبأن كذبهم فيما ادعوا من حرمة هذه الأشياء على إبراهيم وقيل: إن اليهود أنكروا شرع محمد ﷺ وادعوا أن النسخ غير جائز، فأبطل الله ذلك عليهم وأخبر أن كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه فذلك الذي حرمه على نفسه كان حلالاً ثم صار حراماً عليه وعلى أولاده فقد حصل النسخ وبطل قول اليهود بأن النسخ غير جائز، فأنكرت اليهود ذلك وقالوا: بل كان ذلك حراماً من زمن آدم إلى هذا الوقت فألزمهم رسول الله ﷺ بإحضار التوراة وقال: إن التوراة ناطقة بأن بعض أنواع الطعام إنما حرم بسبب أن إسرائيل حرمه على نفسه فخاف اليهود من الفضيحة وامتنعوا من إحضار التوراة فحصل بذلك كذبهم وأنهم ينسبون إلى التوراة ما ليس فيها وبطل قولهم بأن النسخ غير جائز، وفي هذا دليل على صحة نبوة محمد ﷺ وذلك أنه ﷺ كان رجلاً أميناً لم يقرأ الكتب ولم يعرف ما في التوراة، فلما أخبر أن ذلك ليس في التوراة علم أن الذي أخبر به ﷺ وحي من الله تعالى وقوله تعالى: كل الطعام يعني كل أنواع الطعام أو سائر المطعومات كان حلالاً أي حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه إسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، واختلفوا في الذي حرم يعقوب على نفسه قيل حرم لحوم الإبل وألبانها وروى الطبري بسنده عن ابن عباس: أن عصابة من اليهود حضرت رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة فقال رسول الله ﷺ أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى هل

قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنْزَلَ التَّوْرَةُ﴾ سبب نزول هذه الآية: أن اليهود قالوا لرسول الله ﷺ: إنك تزعم أنك على ملة إبراهيم وكان إبراهيم لا يأكل لحوم الإبل وألبانها وأنت تأكلها، فلست على ملته، فقال رسول الله ﷺ: «كان ذلك حلالاً لإبراهيم عليه السلام»، فقالوا: كل ما نحرمة اليوم كان ذلك حراماً على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾، يريد: سوى الميتة والدم، فإنه لم يكن حلالاً قط، إلا ما حرم إسرائيل على نفسه وهو يعقوب عليه السلام من قبل أن تنزل التوراة، يعني: ليس الأمر على ما قالوا من حرمة لحوم الإبل وألبانها على إبراهيم، بل كان الكل حلالاً له ولبني إسرائيل، وإنما حرمها إسرائيل على نفسه قبل نزول التوراة، يعني: ليست في التوراة حرمتها، واختلفوا في الطعام الذي حرمه يعقوب على نفسه وفي سببه، قال أبو العالية وعطاء ومقاتل والكلبي: كان ذلك الطعام لحمان: الإبل وألبانها، وروى أن يعقوب مرض مرضاً شديداً فطال سقمه فندر لئن عافاه الله من سقمه ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل وأحب الشراب إليه ألبانها،

تعلمون أن إسرائيل يعقوب مرض مرضاً شديداً فطال سقمه منه فنذر الله نذراً لئن عافاه الله من سقمه ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل، وأحب الشراب إليه ألبانها؟ فقالوا: اللهم نعم. وقال ابن عباس: هي العروق وكان سبب ذلك أنه اشتكى عرق النسا وكان أصل وجعه فيما روي عن الضحاك أن يعقوب كان نذر لئن وهب الله له اثني عشر ولداً وأتى بيت المقدس صحيحاً أن يذبح أحدهم. وفي رواية آخرهم فتلقاه ملك من الملائكة وقال: يا يعقوب إنك رجل قوي فهل لك في الصراع؟ فعالجه فلم يصرع أحدهما صاحبه فغمزه الملك غمزة فعرض له عرق النسا من ذلك ثم قال أما إني لو شئت أن أصرعك لفعلت ولكن غمزتك هذه الغمزة لأنك قد نذرت إن أتيت بيت المقدس صحيحاً ذبحت آخر ولدك، فجعل الله لك بهذه الغمزة من ذلك مخرجاً، فلما قدم يعقوب بيت المقدس أراد ذبح ولده ونسي ما قال له الملك فأتاه الملك وقال له: إنما غمزتك للمخرج وقد وفي نذرك فلا سبيل لك إلى ذبح ولدك. وقال ابن عباس في آخرين أقبل يعقوب من حران يريد بيت المقدس حين هرب من أخيه العيص، وكان يعقوب رجلاً بطشاً قوياً فلقيه ملك في صورة رجل فظن يعقوب أنه لص فعالجه أن يصصره فغمز الملك فخذ يعقوب وصعد إلى السماء ويعقوب ينظر فهاج به عرق النسا ولقي منه شدة فكان لا ينام الليل من الوجع ويبست له رغاء أي صياح، فحلف يعقوب لئن شفاه الله أن لا يأكل عرقاً ولا طعاماً فيه عرق فحرمه على نفسه فكان بنوه بعد ذلك يتبعون العروق ويخرجونها من اللحم ولا يأكلونها، وقيل لما أصاب يعقوب ذلك وصف له الأطباء أن يجتنب لحوم الإبل فحرمها يعقوب على نفسه، وقيل إنما حرم يعقوب لحوم الجوزور تعبداً لله تعالى وسأل ربه أن تنجز فحرمه الله على ولده وهو ظاهر الآية لأن الله تعالى قال: كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل، ثم استثنى ما حرم إسرائيل على نفسه فوجب بحكم الاستثناء أن يكون ذلك حراماً على بني إسرائيل أما قوله من قبل أن تنزل التوراة فمعناه أن قبل إنزال التوراة كان كل أنواع الطعام حلالاً لبني إسرائيل سوى ما حرمه

فحرمهما، وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي والضحاك: هي العروق، وكان السبب في ذلك أنه اشتكى عرق النسا وكان أصل وجعه، فيما روى جوير عن الضحاك: أن يعقوب كان نذر إن وهبه الله اثني عشر ولداً وأتى من بيت المقدس صحيحاً أن يذبح آخرهم، فتلقاه ملك من الملائكة، فقال: يا يعقوب إنك رجل قوي فهل لك في الصراع فصارع فلم يصرع واحداً منهما صاحبه، فغمزه الملك غمزة فعرض له عرق النسا من ذلك، ثم قال له الملك: أما إني لو شئت أن أصرعك لفعلت ولكن غمزتك هذه الغمزة لأنك كنت نذرت إن أتيت بيت المقدس صحيحاً ذبحت آخر ولدك، فجعل الله لك بهذه الغمزة من ذلك مخرجاً، فلما قدمها يعقوب أراد ذبح ولده ونسي ما قاله له الملك، فأتاه الملك وقال: إنما غمزتك للمخرج وقد وفي نذرك فلا سبيل لك إلى ولدك، وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي: أقبل يعقوب من حران يريد بيت المقدس حين هرب من أخيه عيصو، وكان رجلاً بطشاً قوياً فلقيه ملك فظن يعقوب أنه لص فعالجه أن يصصره، فغمز الملك فخذ يعقوب، ثم صعد إلى السماء ويعقوب عليه السلام ينظر إليه، فهاج به عرق النسا ولقي من ذلك بلاءً وشدة، وكان لا ينام بالليل من الوجع، ويبست له زقاء، أي: صياح، فحلف يعقوب لئن شفاه الله أن لا يأكل عرقاً ولا طعاماً فيه عرق، فحرمه على نفسه فكان بنوه بعد ذلك يتبعون العروق ويخرجونها من اللحم، وروى جوير عن الضحاك عن ابن عباس: لما أصاب يعقوب عرق النسا وصف له الأطباء أن يجتنب لحم الإبل فحرمها يعقوب على نفسه، وقال الحسن: حرم إسرائيل على نفسه لحم الجوزور تعبداً لله تعالى: فسأل ربه أن يُجيز له ذلك فحرمها الله على ولده، ثم اختلفوا في هذا الطعام المحرم على بني إسرائيل بعد نزول التوراة، فقال السدي: حرم الله عليهم في التوراة ما كانوا يحرمونه قبل نزولها، وقال عطية: إنما كان محرماً عليهم بتحريم إسرائيل فإنه قد قال: إن عافاني الله لا آكله ولا يأكله ولد لي ولم يكن محرماً

إسرائيل على نفسه أما بعد نزول التوراة فقد حرم الله تعالى عليهم أشياء كثيرة من أنواع الطعام ثم اختلفوا في حال هذا الطعام المحرم على بني إسرائيل بعد نزول التوراة فقال السدي: حرم الله عليهم في التوراة ما كانوا حرموه على أنفسهم قبل نزولها وقال عطية: إنما كان حراماً عليهم بتحريم إسرائيل فإنه قال: إن عافاني الله تعالى لا يأكله ولد لي ولم يكن ذلك محرماً عليهم في التوراة وقال الكلبي: لم يحرمه الله في التوراة وإنما حرم عليهم بعد نزول التوراة لظلمهم كما قال تعالى: ﴿فَبُظْلِمَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ وقال تعالى: وعلى الذين هادوا حرمنا إلى أن قال ذلك جزيناهم ببغيهم ﴿وإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فكانت بنو إسرائيل إذا أصابوا ذنباً عظيماً حرم الله عليهم طعاماً طيباً أو صب عليهم رجزاً وهو الموت. وقال الضحاك: لم يكن شيء من ذلك حراماً عليهم ولا حرمه الله في التوراة، وإنما حرموه على أنفسهم اتباعاً لأبيهم ثم أضافوا تحريمه لله عز وجل فكذبهم الله تعالى فقال الله تعالى: ﴿قُلْ فَاتُوا بِالْتَّورَةِ﴾ يعني قل لهم يا محمد فاتوا بالتوراة ﴿فَاتْلُوهَا﴾ أي فاقروها وما فيها حتى يتبين أن الأمر كما قلتم ﴿إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعني فيما ادعيتم فلم يأتوا بها وخافوا الفضيحة فقال تعالى: .

فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١٣﴾

﴿فمن افتري على الله الكذب﴾ الافتراء اختلاق الكذب والافتراء الكذب والقذف والإفساد وأصله من فري الأديم إذا قطعه لأن الكاذب يقطع القول من غير حقيقة له في الوجود ﴿من بعد ذلك﴾ أي من بعد ظهور الحجة بأن التحريم إنما كان من جهة يعقوب ولم يكن محرماً قبله ﴿فأولئك هم الظالمون﴾ أي هم المستحقون للعذاب لأن كفرهم ظلم منهم لأنفسهم ولمن أضلوه عن الدين من بعدهم وهذا رد على اليهود وتكذيب لهم حيث أرادوا براءة ساحتهم فيما بقي عليهم مما نطق به القرآن من تعديد مساويهم التي كانوا يرتكبونها ﴿قل صدق الله﴾ يعني قل صدق الله يا محمد فيما أخبر أن ذلك النوع من الطعام صار حراماً على إسرائيل وأولاده بعد أن كان حلالاً لهم فصح القول بالنسخ، وبطل قول اليهود وقيل معناه صدق الله في قوله أن لحوم الإبل وألبانها كانت محللة لإبراهيم عليه السلام، وإنما حرمت على بني إسرائيل بسبب تحريمها إسرائيل على نفسه وقيل صدق الله في أن سائر الأطعمة كانت محللة على بني إسرائيل وإنما حرمت على اليهود جزاء على قبائح أفعالهم ففيه تعريض بكذب اليهود والمعنى ثبت أن الله تعالى صادق فيما أنزل وأخبر وأنتم كاذبون يا معشر اليهود ﴿فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً﴾ أي اتبعوا ما يدعوكم إليه محمد ﷺ من ملة إبراهيم وهي الإسلام وهو الدين الصحيح وهو الذي عليه محمد ومن آمن معه وإنما دعاهم إلى ملة إبراهيم لأنها ملة محمد ﷺ ﴿وما كان من المشركين﴾ أي لم يدع مع الله إلهاً آخر ولا عبداً سواه.

عليهم في التوراة، وقال الكلبي: لم يحرمه الله عليهم في التوراة وإنما حرم عليهم بعد التوراة بظلمهم، كما قال الله تعالى: ﴿فَبُظْلِمَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠] وقال الله تعالى: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر﴾ [الأنعام: ١٤٦]، إلى أن قال: ﴿ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون﴾ [الأنعام: ١٤٦]، وكانت بنو إسرائيل إذا أصابوا ذنباً عظيماً حرم الله عليهم طعاماً طيباً أو صب عليهم رجزاً وهو الموت، وقال الضحاك: لم يكن شيء من ذلك حراماً عليهم ولا حرمه الله في التوراة، وإنما حرموه على أنفسهم اتباعاً لأبيهم، ثم أضافوا تحريمه إلى الله، فكذبهم الله عز وجل، فقال: ﴿قل﴾ يا محمد ﴿فاتوا بالتوراة فاتلوها﴾، حتى يتبين لكم أنه كما قلت، ﴿إن كنتم صادقين﴾، فلم يأتوا، فقال الله عز وجل: ﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿إِنْ أُولَ بَيْتٍ وَضَعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بَيْكَةً﴾ سبب نزول هذه الآية أن اليهود قالوا للمسلمين بيت المقدس قبلتنا وهو أفضل من الكعبة وأقدم وهو مهاجر الأنبياء وقبلتهم وأرض المحشر. وقال المسلمون: بل الكعبة أفضل فأنزل الله هذه الآية، وقيل لما ادعت اليهود والنصارى أنهم على ملة إبراهيم أكذبهم الله تعالى وأخبر أن إبراهيم كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين وأمرهم باتباعه فقال تعالى في الآية المتقدمة: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾ وكان من أعظم شعائر ملة إبراهيم الحج إلى الكعبة ذكر في هذه الآية فضيلة البيت ليفرح عليها إيجاب الحج وقوله: ﴿إِنْ أُولَ بَيْتٍ وَضَعَ لِلنَّاسِ الْأَوَّلُ﴾ هو الفرد السابق المتقدم على ما سواه وقيل هو اسم للشيء الذي يوجد ابتداء سواء حصل عقبه شيء آخر، أو لم يحصل والمعنى أن أول بيت وضع للناس أي وضعه الله موضعاً للطاعات والعبادات وقبلة للصلاة وموضعاً للحج وللطواف تزداد فيه الخيرات وثواب الطاعات وكونه وضع للناس يعني يشترك فيه جميع الناس كما قال تعالى: ﴿سواء العاكف فيه والباد﴾. فإن قلت: كيف أضافه إلى نفسه مرة في قوله وطهر بيتي وأضافه للناس أخرى بقوله وضع للناس. قلت: أما إضافته إلى نفسه فعلى سبيل التشريف والتعظيم له كقوله ناقة الله، وأما إضافته إلى الناس فلا لأنه يشترك فيه جميع الناس لأنه موضع حجهم وقبلة صلاتهم للذي بئكة. قيل هي مكة نفسه والعرب تعاقب بين الباء والميم فيقولون ضربة لازم وقيل بكة اسم لموضع البيت ومكة اسم للبلد وفي اشتقاق بكة وجهان: أحدهما: أنه من البك الذي هو عبارة عن الدفع يقال بكة بئكة إذا دفعه وزاحمه ولهذا قال سعيد بن جبيرة: سميت بكة لأن الناس يتباكون فيها أي يزدحمون في الطواف وهو قول محمد بن علي الباقر ومجاهد وقتادة. الوجه الثاني سميت بكة لأنها تبك أعناق الجبارة أي تدقها ولم يقصدها جبار بسوء إلا قصمه الله تعالى وهذا قول عبدالله بن الزبير، وأما مكة فسميت بذلك لقلة مائها من قول العرب مك الفصيل ضرع أمه وامتكه إذا مص كل ما فيه من اللبن، وقيل لأنها تمك الذنوب أي تزيلها وسميت مكة أم رحم لأن الرحمة تنزل بها، والحاطمة لأنها تحطم من استخلف بحرمتها، أو لأن الناس يحطم بعضهم بعضاً من الزحمة، وسميت أم القرى لأنها أصل كل بلدة ومن تحتها دحيت الأرض، واختلف العلماء في كون البيت أول بيت وضع للناس على قولين: أحدهما أنه أول في الوضع والبناء قال مجاهد: خلق الله هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً من الأرضين وفي رواية عنه إن الله خلق موضع البيت قبل أن يخلق شيئاً من الأرض بألفي عام، وقيل هو أول بيت ظهر على وجه الماء عند خلق السموات والأرض خلقه قبل الأرض بألفي عام وكان زبدة بيضاء على وجه الماء فدحيت الأرض من تحته. وهذا قول ابن عمر ومجاهد وقتادة والسدي. وقيل هو أول بيت بني على الأرض. وروي عن علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم أن الله تعالى وضع تحت العرش بيتاً وهو البيت المعمور وأمر الملائكة أن يطوفوا به ثم أمر الملائكة الذين في الأرض أن يبنوا بيتاً في الأرض على مثاله وقدره فبنوا هذا البيت واسمه الضراح، وأمر من في الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور وروي أن الملائكة بنوه قبل خلق آدم بألفي عام وكانوا يحجونه فلما حجه آدم قالت له الملائكة بر حجك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام وقال ابن عباس: هو أول بيت بناه آدم في الأرض قيل إن آدم لما أهبط إلى الأرض استوحش وشكا الوحشة فأمره الله تعالى ببناء الكعبة فبناها وطاف بها وبقي ذلك البناء إلى زمان نوح عليه السلام فلما كان الطوفان رفع الله البيت إلى السماء وبقي موضع البيت أكمة بيضاء إلى أن بعث الله إبراهيم عليه السلام فأمره ببنائه. القول

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وإنما دعاهم إلى اتباع ملة إبراهيم لأن في اتباع ملة إبراهيم اتباعه ﷺ.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أُولَ بَيْتٍ وَضَعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بَيْكَةً مَبَارَكاً﴾، سبب نزول هذه الآية أن اليهود قالوا

الثاني، أن المراد من الأولية كون هذا أول بيت وضع للناس مباركاً ويدل عليه سياق الآية وهو قوله تعالى: ﴿لِلَّذِي بَيْكَةً مَّبَارَكًا﴾ وروي أن رجلاً قام إلى أبي علي بن أبي طالب فقال: ألا تخبرني عن البيت أهو أول بيت وضع في الأرض؟ قال: لا قد كان قبله بيوت ولكنه أول بيت وضع للناس مباركاً وهدي وفيه مقام إبراهيم ومن دخل كان آمناً وقال الحسن: وهو أول مسجد عبد الله فيه، وقال مطرف: هو أول بيت وضع للعبادة. وقال الضحاك: هو أول بيت وضع فيه البركة، وأول بيت وضع للناس يحج إليه، وأول بيت جعل قبلة للناس. (ق) عن أبي ذر قال: «سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع في الأرض قال: المسجد الحرام قلت: ثم أي؟ قال المسجد الأقصى قلت: كم بينهما؟ قال أربعون عاماً ثم الأرض لك مسجداً فحيثما أدركت الصلاة فصل» زاد البخاري فإن الفضل فيه وقوله ﴿مباركاً﴾ يعني ذا بركة وأصل البركة النمو والزيادة، وقيل هو ثبوت الخير الإلهي فيه وقيل هو أول بيت خص بالبركة وزيادة الخير وقيل لأن الطاعات وسائر العبادات تتضاعف ويزداد ثوابها عنده (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة في مسجدتي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام» ﴿وهدي للعالمين﴾ يعني أنه قبلة للمؤمنين يهتدون به إلى جهة صلاتهم. وقيل لأن فيه دلالة على وجود الصانع المختار لما فيه من الآيات التي لا يقدر عليها غيره. وقيل هو هدي للعالمين إلى الجنة لأن من قصده بأن صلى إليه أو حجه فقد أوجب الله تعالى له الجنة برحمته. قوله تعالى: .

فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا
وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾

﴿فيه آيات بينات﴾ أي فيه دلالات واضحات على حرمة ومزيد فضله، ثم اختلفوا في تفسير تلك الآيات فقيل هي قوله مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً، وقيل الآيات غير مذكورة وهي ما يدل على فضل هذا البيت منها أن الطير لا يطير فوق الكعبة في الهواء بل ينحرف عنها إذا وصل إليها يميناً وشمالاً، ومنها أن الوحوش لا تؤذي بعضها في الحرم حتى الكلاب لا تهيج الظباء ولا تصطادها، ومنها أن الطير إذا مرض منه شيء استشفى بالكعبة ومنها تعجيل العقوبة لمن انتهك حرمة البيت وما قصده جبار بسوء إلا أهلكه الله كما أهلك أصحاب الفيل وغيرهم، ومن الآيات التي فيه الحجر الأسود والملتمزم والحطيم وزمزم ومشاعر الحج التي فيها كلها من الآيات، ومنها أن الأمر ببناء هذا البيت هو الجليل والمهندس له جبريل، والبناني هو إبراهيم الخليل، والمساعد في بنيانه هو إسماعيل فهذه فضيلة عظيمة لهذا البيت. قوله تعالى: ﴿مقام إبراهيم﴾ يعني الحجر الذي كان يقوم عليه عند بناء البيت وكان فيه أثر قدمي إبراهيم فاندرس من كثرة المسح بالأيدي ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ قيل لما كانت الآيات المذكورة عقيب قوله: إن أول بيت وضع للناس موجودة في جميع الحرم، علم أن المراد بقوله ومن دخله كان آمناً

للمسلمين: بيت المقدس قبلتنا وهو أفضل من الكعبة وأقدم وهو مهاجر الأنبياء، وقال المسلمون في الكعبة أفضل، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿إِنْ أُولَ بَيْتٍ وَضَعُ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بَيْكَةً مَّبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾.

﴿فيه آيات بينات مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمناً﴾، وليس شيء من هذه الفضائل لبيت المقدس، واختلف العلماء في قوله تعالى: ﴿إِنْ أُولَ بَيْتٍ وَضَعُ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بَيْكَةً﴾، فقال بعضهم: هو أول بيت ظهر على وجه الماء عند خلق السماء والأرض، خلقه قبل الأرض بألفي عام، وكان زبدية بيضاء على الماء فدحيت الأرض من تحته، هذا قول عبد الله بن عمر ومجاهد وقتادة والسدي، وقال بعضهم: هو أول بيت بُني في الأرض، رُوي عن علي بن الحسين: أن الله تعالى وضع تحت العرش بيتاً وهو البيت المعمور فأمر الملائكة أن يطوفوا به، ثم أمر الملائكة الذين هم سكان الأرض أن يبنوا في الأرض بيتاً على مثاله وقدره، فبنوه واسمه الضراح، وأمر من في

جميع الحرم ويدل عليه أيضاً دعوة إبراهيم حيث قال رب اجعل هذا البلد آمناً يعني من أن يهاج فيه وكانت العرب يقتل بعضهم بعضاً ويغير بعضهم على بعض وكان من دخل الحرم آمن من القتل والغارة وهو المراد من حكم الآية على قول أكثر المفسرين قال الله تعالى: ﴿أولم يروا أننا جعلنا محرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم﴾ وقيل في معنى الآية ومن دخله عام عمرة القضاء مع رسول الله ﷺ كان آمناً، وقيل هو خبر بمعنى الأمر تقديره ومن دخله فأمنوه وهو قول ابن عباس حتى ذهب أبو حنيفة إلى أن من وجب عليه القتل قصاصاً كان أو أحداً فالتجأ إلى الحرم فإنه لا يستوفى منه القصاص أو الحد في الحرم لكنه لا يطعم ولا يبايع ولا يشارى ولا يكلم ويضيق عليهم حتى يخرج من الحرم فيقام عليه الحد خارج الحرم. وقال الشافعي: إذا وجب عليه القصاص خارج الحرم ثم لجأ إلى الحرم استوفى منه في الحرم. وأجمعوا على أنه لو قتل في الحرم أو سرق أو زنى فإنه يستوفى منه الحد في الحرم عقوبة له، وقيل في معنى الآية ومن دخله معظماً له متقرباً بذلك إلى الله تعالى كان آمناً من العذاب يوم القيامة وقيل ومن دخله كان آمناً من الذنوب التي اكتسبها قبل ذلك. قوله عز وجل: ﴿ولله على الناس حج البيت﴾ أي والله على الناس فرض حج البيت والحج أحد أركان الإسلام. (ق) عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والحج وصوم رمضان» فعد النبي ﷺ الحج من أركان الإسلام الخمسة و«من استطاع إليه سبيلاً» يعني وفرض الحج واجب على ما استطاع من أهل التكليف ووجد السبيل إلى حج البيت الحرام.

فصل في فضل البيت والحج والعمرة:

(ق) عن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ: «إن أول بيت وضع للناس مباركاً يصلي فيه الكعبة قلت ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى قلت كم بينهما؟ قال أربعون عاماً». عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «نزل الحجر

الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور، ورُوي أن الملائكة بنوه قبل خلق آدم بألفي عام، فكانوا يحجونه، فلما حجّه آدم قالت الملائكة: برّ حجك يا آدم، حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام، ويروى عن ابن عباس أنه قال: أراد به أنه أول بيت بناه آدم في الأرض، وقيل: هو أول بيت مبارك وضع هدى للناس يُعبد الله فيه ويحج إليه، وقيل: هو أول بيت جعل قبلة للناس، وقال الحسن والكلبي: معناه أن أول مسجد ومُتَعَبِّدُ وضع للناس، يروى ذلك عن علي بن أبي طالب، قال الضحاك: أول بيت وضع فيه البركة، وقيل: أول بيت وضع للناس يُعبد الله فيه، كما قال الله تعالى: ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع﴾ [النور: ٣٦] يعني المساجد، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن إسماعيل أخبرنا عبد الواحد أنا الأعمش أخبرنا إبراهيم بن يزيد التيمي عن أبيه قال: سمعت أبا ذر يقول: قلت يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أولاً؟ قال: «المسجد الحرام»، قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى»، قلت: كم كان بينهما؟ قال: «أربعون سنة»، ثم قال: «أينما أدركتكم الصلاة بعد فصل فإن الفضل فيه»، قوله تعالى: ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ قال جماعة: هي مكة نفسها، وهو قول الضحاك، والعرب تعاقبت بين الباء والميم، فنقول: سبداً رأسه وسمده، وضربة لازب ولازم، وقال الآخرون: بكّة موضع البيت في مكة، ومكة اسم البلد كله، وقيل: بكّة موضع البيت والمطاف، سُميت بكّة: لأن الناس يتباكون فيها، أي يزدحمون بيلك بعضهم بعضاً ويمر بعضهم بين يدي بعض، وقال عبد الله بن الزبير: سُميت بكّة لأنها تبك أعناق الجبابرة، أي تدقّها فلم يقصدها جبار بسوء إلا قصمه الله، وأما مكة سُميت بذلك لقلّة مائها، من قول العرب: مَكَّ الفصيل ضرع أمه وأمتكه إذا امتصّ كلّ ما فيه من اللبن، وتدعى أم رحم لأن الرحمة تنزل بها، ﴿مباركاً﴾ نصب على الحال، أي: ذا بركة وهدى للعالمين، لأنه قبلة للمؤمنين فيه آيات بينات، قرأ ابن عباس

الأسود من الجنة وهو أشد بياضاً من اللبن وإنما سودته خطايا بني آدم» أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح وله عنه قال قال رسول الله ﷺ في الحجر: «والله ليعتنه الله يوم القيامة وله عينان يبصر بهما ولسان ينطق به يشهد على من استلمه بحق» وله عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله نورهما ولو لم يطمس نورهما لأضاءتا ما بين المشرق والمغرب». قال الترمذي: وهذا يروي عن ابن عمر موقوفاً (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجد الرسول والمسجد الأقصى» (ق) عن أبي سعيد الخدري أن النبي عليه السلام قال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى». (م) عن أبي هريرة قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا، فقال له رجل: في كل عام يا رسول الله فسكت حتى قالها ثلاثاً فقال رسول الله ﷺ: لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم» عن ابن عمر قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ما يوجب الحج؟ قال الزاد والراحلة» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن وإبراهيم بن يزيد الجوزي المكي قد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه. (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة» وفي رواية سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حج لله عز وجل وفي لفظ من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه» أخرجه الترمذي وقال: «غفر له ما تقدم من ذنبه» وعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الذنوب والفقر كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة وليس لحجة مبرورة ثواب إلا الجنة. وما من مؤمن يظل يومه محرماً إلا غابت الشمس بذنوبه» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب وله عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم لبي إلا بلي ما عن يمينه وشماله من حجر أو شجر أو مدر حتى تنقطع الأرض من ها هنا وها هنا وقال الترمذي: هذا حديث غريب وله عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من طاف بالبيت خمسين مرة خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» قال الترمذي: هذا حديث غريب.

﴿ آية بيّنة ﴾ على الواحد، وأراد مقام إبراهيم وحده، وقرأ الآخرون آيات بيّنات، بالجمع، فذكر منها مقام إبراهيم وهو الحجر الذي قام عليه إبراهيم، وكان أثر قدميه فيه فاندرس من كثرة المسح بالأيدي، ومن تلك الآيات في البيت الحجر الأسود والحطيم وزمزم والمشاعر كلها، وقيل: مقام إبراهيم جميع الحرم، ومن الآيات في البيت أن الطير تطير فلا تعلق فوقه، وأن الجارحة إذا قصدت صيداً فإذا دخل الصيد الحرم كفت عنه، وإنه يلد صدر إليه الأنبياء والمرسلون والأولياء والأبرار وإن الطاعة والصدقة فيها تضاعف بمائة ألف، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنا أبو محمد بن الحسن بن أحمد المخلدي، أخبرنا أبو العباس محمد بن إسحق السراج، أخبرنا أبو مصعب أحمد بن أبي بكر الزهري أنا مالك بن أنس عن زيد بن رباح أخبرنا عبد الله بن عبد الله الأعز عن أبي عبد الله الأعمش عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة، فيما سواه إلا المسجد الحرام». قوله عز وجل: ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ من أن يهاج فيه، وذلك بدعاء إبراهيم عليه السلام حيث قال: رَبِّ اجْعَلْ هذا البلد آمناً، وكانت العرب في الجاهلية يقتل بعضهم بعضاً ويغير بعضهم على بعض ومن دخل الحرم أمن من القتل والغارة، وهو المراد من الآية على قول الحسن وقتادة وأكثر المفسرين، قال الله تعالى: ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَفُّ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقيل: المراد به أن من دخله عام عمرة القضاء مع رسول الله ﷺ كان آمناً، كما قال تعالى: ﴿ لَتَدْخُلَنَّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين ﴾ [الفتح: ٢٧] وقيل: هو خبر بمعنى الأمر تقديره: ومن دخله فأمّنه، كقوله تعالى: ﴿ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال

فصل: في أحكام تتعلق بالحج

قال العلماء: الحج واجب على كل مسلم وهو أحد أركان الإسلام الخمسة. ولوجوب الحج خمس شرائط: الإسلام والبلوغ والعقل والحرية والاستطاعة، ولا يجب على الكافر والمجنون، ولو حجاً لم يصح لأن الكافر ليس من أهل القرية ولا حكم لقول المجنون ولا يجب على الصبي والعبد ولو حج صبي يعقل، أو حج عبد صح حجهما تطوعاً، ولا يسقط الفرض فإذا بلغ الصبي وعق العبد واجتمع فيهما شرائط الحج وجب عليهما أن يحجا ثانياً، ولا يجب على غير المستطيع لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ فلو تكلف غير المستطيع الحج وحج صح حجه وسقط عنه فرض عنه فرض حجة الإسلام والاستطاعة نوعان: أحدهما: أن يكون مستطيعاً بنفسه، والآخر أن يكون مستطيعاً بغيره فأما المستطيع بنفسه فهو أن يكون قوياً قادراً على الذهاب ووجد الزاد والراحلة لما تقدم من حديث ابن عمر في الزاد والراحلة قال ابن المنذر، وحديث الزاد والراحلة لا يثبت لأنه ليس بمتصل وإنما المرفوع ما رواه إبراهيم بن يزيد عن محمد بن عباد عن ابن عمر عن النبي ﷺ وإبراهيم متروك الحديث قال يحيى بن معين: إبراهيم ليس بثقة قال ابن المنذر: واختلف العلماء في قوله تعالى: من استطاع إليه سبيلاً فقالت طائفة الآية على العموم إذ لا نعلم خبراً ثابتاً عن النبي ﷺ ولا إجماعاً لأهل العلم يوجب أن نستثني من ظاهر الآية بعضاً فعلى كل مستطيع الحج يجد إليه السبيل بأي وجه كانت الاستطاعة الحج على ظاهر الآية قال: وروينا عن عكرمة أنه قال: الاستطاعة الصحة، وقال الضحاك: إذا كان شاباً صحيحاً فليؤجر نفسه بأكله وعقبه حتى يقضي نسكه وقال مالك الاستطاعة على إطاقة الناس الرجل يجد الزاد والراحلة ولا يقدر على المشي وآخر يقدر على المشي على رجله وقالت طائفة: الاستطاعة الزاد والراحلة كذلك قال الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وأحمد بن حنبل واحتجوا بحديث ابن عمر المتقدم. وقال الشافعي: الاستطاعة وجهان:

في الحج ﴿البقرة: ١٩٧﴾، أي: لا ترفثوا ولا تفسقوا، حتى ذهب بعض أهل العلم إلى أن من وجب عليه القتل قصاصاً أو حداً فالتجأ إلى الحرم فلا يستوفى منه فيه، ولكنه لا يطعم ولا يبايع ولا يشارى حتى يخرج منه، فيقتل، قاله ابن عباس، وبه قال أبو حنيفة وذهب قوم إلى أن القتل الواجب بالشرع يستوفى فيه أما إذا ارتكب الجريمة في الحرم فيستوفى فيه عقوبته بالاتفاق، وقيل: معناه ومن دخله معظماً له متقرباً إلى الله عز وجل كان آمناً يوم القيامة من العذاب، قوله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، أي: والله فرض واجب على الناس حج البيت، قرأ أبو جعفر وحزمة والكسائي وحفص ﴿حج البيت﴾ بكسر الحاء في هذا الحرف خاصة، وقرأ الآخرون بفتح الحاء، وهي لغة أهل الحجاز، وهما لغتان فصيحتان ومعناهما واحد، والحج أحد أركان الإسلام. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أنا عبد الله بن موسى أنا حنظلة بن أبي سفيان عن عكرمة بن خالد عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والحج»، قال أهل العلم: ولوجوب الحج خمس شرائط الإسلام والعقل والبلوغ والحرية والاستطاعة، فلا يجب على الكافر ولا على المجنون، ولا حجاً بأنفسهما لا يصح لأن الكافر ليس من أهل القرية ولا حكم لفعل المجنون ولا يجب على الصبي ولا على العبد، ولو حج صبي يعقل، أو عبد يصح حجهما تطوعاً ولكن لا يسقط به فرض الإسلام عنهما فلو بلغ الصبي، أو أعتق العبد بعدما حج واجتمع في حقه شرائط وجوب الحج، عليه أن يحج ثانياً ولا يجب على غير المستطيع، لقوله تعالى: ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ غير أنه لو تكلف فحج يسقط عنه فرض الإسلام، والاستطاعة نوعان، أحدهما: أن يكون قادراً مستطيعاً بنفسه، والآخر: أن يكون

أحدهما أن يكون الرجل مستطيعاً ببذنه واجداً من ماله ما يبلغه الحج فتكون استطاعته تامة فعليه فرض الحج. والثاني: لا يقدر أن يثبت على الراحلة وهو قادر على من يطيعه إذا أمره أن يحج عنه، أو قادر على مال ويجد من يستأجره فيحج عنه فيكون هذا ممن لزمه فرض الحج. أما حكم الزاد والراحلة فهو أن يجد راحلة تصلح له ووجد من الزاد ما يكفيه لذهابه ورجوعه فاضلاً عن نفقته ونفقة من تلزمه نفقتهم وكسوتهم وعن دين إن كان عليه ووجد رفقة يخرجون في وقت جرت العادة بخروج أهل البلد في ذلك الوقت، فإن خرجوا قبله أو أخرؤا الخروج إلى وقت لا يصلون إلّا بقطع أكثر من مرحلة لا يلزمه الخروج معهم. ويشترط أن يكون الطريق آمناً فإن كان فيه خوف من عدو مسلم أو كافر أو رصدي يطلب الخفارة لا يلزمه. ويشترط أن تكون منازل الماء مأهولة معمورة يجد فيها ما جرت العادة بوجوده من الماء والزاد فإن تفرق أهلها بجذب أو غارت مياهها فلا يلزمه الخروج ولو لم يجد الراحلة وهو قادر على المشي أو لم يجد الزاد وهو قادر على الاكتساب لا يلزمه الحج عند من جعل وجدان الزاد والراحلة شرطاً لجوب الحج ويستحب له أن يفعل ذلك ويلزمه الحج عند مالك. وأما المستطيع بغيره فهو أن يكون الرجل عاجزاً بنفسه بأن كان زمناً أو به مرض لا يرجى برؤه وله مال يمكنه أن يستأجر من يحج عنه فيجب عليه أن يستأجر من يحج عنه وإن لم يكن له مال وبذل له ولده أو أجنبي الطاعة في أن يحج عنه لزمه الحج إن كان يعتمد على صدقه لأن وجوب الحج متعلق بالاستطاعة. وعند أبي حنيفة لا يجب الحج ببذل الطاعة وعند مالك لا يجب على من غصب ماله وحجة من أوجب الحج ببذله الطاعة. ما روي عن ابن عباس قال: «كان الفضل بن عباس رديف رسول الله ﷺ فجاءته امرأة من خثعم تستفتيه فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه فجعل رسول الله ﷺ يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر قالت: يا رسول الله إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يثبت على الراحلة أفأحج عنه قال: نعم وذلك في حجة الوداع» أخرجاه في الصحيحين.

مستطيعاً بغيره، أما الاستطاعة بنفسه، فإن يكون قادراً بنفسه على الذهاب ووجد الزاد والراحلة، أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الكسائي الخطيب ثنا عبد العزيز بن أحمد الخلال ثنا أبو العباس الأصم أخبرنا الربيع بن سليمان أخبرنا الشافعي أخبرنا سعيد بن سالم عن إبراهيم بن يزيد عن محمد عباد بن جعفر قال: قعدنا إلى عبد الله بن عمر فسمعته يقول: سأل رجل رسول الله ﷺ فقال: ما الحاج؟ قال: «الشعث الثفل»، فقام رجل آخر فقال: يا رسول الله: أي الحج أفضل؟ قال: «العج والثج»، فقام رجل آخر فقال: يا رسول الله ما السبيل؟ قال: «زاد وراحلة»، وتفصيله: أن يجد راحلة تصلح لمثله، ووجد الزاد للذهاب والرجوع، فاضلاً عن نفقة عياله ومن تلزمه نفقتهم وكسوتهم لذهابه ورجوعه، وعن دين يكون عليه، ووجد رفقة يخرجون في وقت جرت عادة أهل بلده بالخروج في ذلك الوقت، فإن خرجوا قبله أو أخرؤا الخروج إلى وقت لا يصلون إلّا أن يقطعوا كل يوم أكثر من مرحلة لا يلزمهم الخروج في ذلك الوقت، ويشترط أن يكون الطريق آمناً فإن كان فيه خوف من عدو مسلم أو كافر أو رصدي يطلب شيئاً لا يلزمه، ويشترط أن تكون المنازل معمورة يجد الزاد والماء، فإن كان زمان جدوية تفرق أهلها أو غارت مياهها، فلا يلزمه الحج، ولو لم يجد الراحلة لكنه قادر على المشي أو لم يجد الزاد ولكن يمكنه أن يكتسب في الطريق لا يلزمه الحج، ويستحب لو فعل، وعند مالك يلزمه، أما الاستطاعة بالغير فهي أن يكون الرجل عاجزاً بنفسه، بأن كان زمناً أو به مرض غير مرجو الزوال، لكن له مال يمكنه أن يستأجر به من يحج عنه، يجب عليه أن يستأجر، أو لم يكن له مال بل بذل له ولده أو أجنبي الطاعة في أن يحج عنه، يلزمه أن يأمره إذا كان يعتمد صدقه، لأن وجوب الحج يتعلق بالاستطاعة، ويقال في العرف: فلان مستطيع لبناء دار وإن كان لا يفعله بنفسه، وإنما يفعله بماله وبأعوانه، وعند أبي حنيفة لا يجب الحج ببذل الطاعة، وعند مالك لا يجب على المغمصوب في

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ يعني ومن جحد ما ألزمه الله من فرض حج بيته وكفر به فإن الله غني عنه وعن حجه وعمله وعن جميع خلقه وقيل نزلت فيمن وجد ما يحج ثم مات ولم يحج فهو كفر به لما روي عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «من ملك زاداً أو راحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً وذلك أن الله تعالى يقول والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً» أخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وفي إسناده مقال وهلال بن عبد الله مجهول والحارث يضعف في الحديث وقيل هو الذي إن حج لم يره برأ وإن قعد لم يره إثماً، وقيل نزلت في اليهود وغيرهم من أصحاب الملل حيث قالوا: إنا مسلمون فنزلت والله على الناس حج البيت فلم يحجوا. وقالوا: الحج إلى مكة غير واجب وكفروا به فنزلت ومن كفر فإن الله غني عن العالمين. فعلى هذه الأقوال تكون هذه الآية متعلقة بما قبلها وقيل إنه كلام مستأنف ومعناه ومن كفر بالله واليوم الآخر فإن الله غني عن العالمين. وقوله عز وجل: .

قُلْ يٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يٰٓأَهْلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرْهَاقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أَوْتُوا ٱلْكِتَآبَ يَرُدُّوكُم بِمَدِّ ٱيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾

﴿قل يا أهل الكتاب﴾ قيل الخطاب لعلماء أهل الكتاب الذين علموا صحة نبوة محمد ﷺ وقيل الخطاب لجميع أهل الكتاب اليهود والنصارى الذين أنكروا نبوته ﴿لم تكفرون بآيات الله﴾ يعني الآيات الدالة على نبوة محمد ﷺ أنه حق وصدق والمعنى لم تكفرون بآيات الله التي دلتكم على صدق نبوة محمد ﷺ وقيل المراد بآيات الله القرآن ومحمد ﷺ ﴿والله شهيد على ما تعملون﴾ أي والله شهيد على أعمالكم فيجازيكم عليها ﴿قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن﴾، يعني لم تصرفون عن دين الله من آمن وكان صدهم عن سبيل الله بالقاء

المال، وحُجَّةٌ مَنْ أوجبه ما أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب عن سليمان بن يسار عن عبد الله بن عباس أنه قال: كان الفضل بن عباس رديف رسول الله ﷺ فجاءته امرأة من خثعم تستفتيه، فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه فجعل رسول الله ﷺ يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر، فقالت: يا رسول الله إن فريضة الله على عباده في الحج، أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يثبت على الراحلة، أفأحج عنه؟ قال: «نعم». قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾، قال ابن عباس والحسن وعطاء: جَحَدَ فَرَضَ الحج، وقال مجاهد: مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وقال سعيد بن المسيب: نزلت في اليهود حيث قالوا: الحج إلى مكة غير واجب، وقال السدي: هو مَنْ وجد ما يحج به ثم لم يحج حتى مات فهو كفر به، أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحق الثعلبي، أخبرنا أبو الحسن الكلماي أخبرنا أبو بكر محمد بن عمرو، أخبرنا سهيل بن عمارة أخبرنا يزيد بن هارون أخبرنا شريك عن ليث عن عبد الرحمن بن سابط عن أبي أمامة أن النبي ﷺ قال: «مَنْ لَمْ تَحْسِ حَاجَةً ظَاهِرَةً أَوْ مَرَضَ حَابِسَ أَوْ سُلْطَانًا جَائِرًا، وَلَمْ يَحْجْ فَلَيْمَتْ إِنْ شَاءَ يَهُودِيًّا وَإِنْ شَاءَ نَصْرَانِيًّا».

قوله تعالى: ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله﴾ أي: لم تصرفون عن دين الله، ﴿مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا﴾ تطلبونها، ﴿عِوَجًا﴾ زيغاً وميلاً، يعني: لم تصدون عن سبيل الله باغين لها عوجاً؟ قال أبو عبيدة: العوج

الشبهة والشكوك وذلك بإنكارهم صفة محمد ﷺ في كتبهم ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾، يعني زيغاً وميلاً عن الحق والعوج بالكسر الزيغ والميل عن الاستواء في الدين والقول والعمل وكل ما لا يرى فأما الشيء الذي يرى كالحائط والقناة ونحو ذلك يقال فيه عوج بفتح العين والهاء في قوله تبغونها عائدة على السبيل والمعنى لم تطلبون الزيغ والميل في سبيل الله بإلقاء الشبه في قلوب الضعفاء ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ قال ابن عباس: يعني وأنتم شهداء أن نعت محمد ﷺ وصفته مكتوب في التوراة، وأن دين الله الذي لا يقبل غيره هو الإسلام وقيل معناه وأنتم تشهدون المعجزات التي تظهر على يد محمد ﷺ الدالة على نبوته ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فيه وعيد وتهديد لهم وذلك أنهم كانوا يجتهدون ويحتالون بإلقاء الشبهة في قلوب الناس ليصدوهم عن سبيل الله والتصديق بمحمد ﷺ فلذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ .

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ الآية قال زيد بن أسلم: مر شاس بن قيس اليهودي وكان شيخاً عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين فمر بنفر من الأوس والخزرج وهم في مجلس يتحدثون فيه فغاضه ما رأى من ألفتهم وصلاح ذات بينهم في الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية وقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار فأمر شاباً من اليهود كان معه فقال له اعمد إليهم واجلس معهم ثم ذكرهم يوم بعث وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من الأشعار وكان يوم بعث يوماً اقتتل في الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج ففعل فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواب رجلاً من الحيين على الركب وهما أوس بن قيطي أحد بني حارثة من الأوس وجبار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج فتقاولا فقال أحدهما لصاحبه: إن شئت والله رددناها الآن جذعة وغضب الفريقان جميعاً وقالوا قد فعلنا السلاح السلاح موعدكم الظاهر وهي الحرة فخرجوا إليها وانضمت الأوس والخزرج بعضهم إلى بعض على دعواهم في الجاهلية فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين حتى جاءهم فقال: يا معشر المسلمين أبدوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام

- بالكسر - في الدين والقول والعمل ، والعَوَجُ - بالفتح - في الجدار، وكل شخص قائم، ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، أن في التوراة مكتوباً نعت محمد ﷺ وإن دين الله الذي لا يقبل غيره هو الإسلام.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، قال زيد بن أسلم: إن مرشاش بن قيس اليهودي وكان شيخاً عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين، فمر على نفر من الأوس والخزرج في مجلس جمعهم يتحدثون، فغاضه ما رأى من ألفتهم وصلاح ذات بينهم في الإسلام بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة، وقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد لا والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا بها من قرار، فأمر شاباً من اليهود كان معه فقال: اعمد إليهم واجلس معهم ثم ذكرهم يوم بُعِثَ وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، وكان بُعِثَ يوماً اقتتل في الأوس مع الخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج، ففعل وتكلم فتكلم القوم عند ذلك فتنازعوا وتفاخروا حتى تواب رجلاً من الحيين على الركب، أوس بن قيطي أحد بني حارثة من الأوس وجبار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج، فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئت والله رددتها الآن جذعة، وغضب الفريقان جميعاً وقالوا: قد فعلنا السلاح السلاح موعدكم الظاهرة، وهي الحرة فخرجوا جميعاً إليها وانضمت الأوس والخزرج بعضهم إلى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين حتى جاءهم، فقال ﷺ: «يا معشر المسلمين أبدوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، وألف بينكم؟ ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً،

وقطع عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً؟ الله الله. فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح وبكوا واعتنق بعضهم بعضاً ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين قال جابر: فما رأيت يوماً أقبح أولاً وأحسن آخراً من ذلك اليوم فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ يعني شاساً اليهودي وأصحابه ﴿يُرِدُّوكُم بِعَدِّ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ والكفر يوجب الهلاك في الدنيا بوقوع العداوة والبغضاء وهيجان الفتنة والحرب وسفك الدماء وفي الآخرة النار ثم قال تعالى:

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾

﴿وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله﴾ وكلمة كيف كلمة تعجب والتعجب إنما يليق بمن لا يعلم السبب وذلك على الله محال، فالمراد منه المنع والتغليظ وذلك لأن تلاوة آيات الله وهي القرآن حالاً بعد حال وكون رسول الله ﷺ فيكم يرشدكم إلى مصالحكم وذلك يمنع من وقوع الكفر فكان وقوع الكفر منهم بعيداً على هذا الوجه قال قتادة: في هذه الآية علمان بينان كتاب الله تعالى ونبي الله ﷺ أما نبي الله فقد مضى، وأما كتاب الله تعالى فقد أبقاء الله بين أظهركم رحمة منه ونعمة. (م) عن زيد بن أرقم قال: قام رسول الله ﷺ يوماً فينا خطيباً بماء يدعى خمّاً بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ الناس وذكر، ثم قال: «أما بعد ألا أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب، وإنني تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحث على كتاب الله ورغب فيه ثم قال وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي وقوله تعالى: ﴿ومن يعتصم بالله﴾ أي يمتنع بالله ويستمسك بدينه وطاعته وأصل العصمة الامتناع من الوقوع في آفة، وفيه حث لهم في الالتجاء إلى الله تعالى في دفع شر الكفار عنهم ﴿فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾ أي إلى طريق واضح وهو طريق الحق المؤدي إلى الجنة. قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته﴾. قال مقاتل بن حيان: كان بين الأوس والخزرج عداوة في الجاهلية وقتال فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أصلح بينهم

اللَّهُ اللَّهُ!! فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح وبكوا وعانق بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب﴾ يعني: مرشاساً وأصحابه، ﴿يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ قال جابر: فما رأيت قط يوماً أقبح، أولاً أحسن آخراً من ذلك اليوم، ثم قال الله تعالى على وجه التعجب:

﴿وكيف تكفرون﴾ يعني: ولم تكفرون؟ ﴿وأنتم تُتلى عليكم آيات الله﴾، القرآن، ﴿وفيكم رسوله﴾،

محمد ﷺ، قال قتادة: في هذه الآية علمان بينان: كتاب الله ونبي الله، أما نبي الله فقد مضى، وأما كتاب الله فقد أبقاء الله بين أظهركم رحمة من الله ونعمة. أخبرنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن العباس الحميدي أخبرنا أبو عبيد الله محمد بن عبد الله الحافظ أنا أبو الفضل الحسن بن يعقوب بن يوسف العدل أخبرنا أبو أحمد محمد بن عبد الوهاب العبدي أنا أبو جعفر بن عوف أخبرنا أبو حيان يحيى بن سعيد بن حبان عن يزيد بن حبان قال: سمعت زيد بن أرقم قال: «قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيبه وأنا تارك فيكم الثقلين أولهما: كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال: وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في

فافتخر بعد ذلك منهم رجلان وهما ثعلبة بن غنم من الأوس وأسعد بن زرارة من الخزرج. فقال الأوسي: منا خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين ومنا حنظلة غسيل الملائكة ومنا عاصم بن ثابت بن أفلح حمي الدبر ومنا سعد بن معاذ الذي اهتز عرش الرحمن له ورضي الله بحكمه في بني قريظة وقال الخزرجي: منا أربعة أحكموا القرآن أبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد ومنا سعد بن عباد خطيب الأنصار ورئيسهم فجرى الحديث بينهما فغضبا وأنشدا الأشعار وتفاخرا فجاء الأوس والخزرج ومعهم السلاح فاتاهم النبي ﷺ فأصلح بينهم فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ قال ابن عباس: هو أن يطاع فلا يعصى ويشكر فلا يكفر ويذكر فلا ينسى. وقال مجاهد: هو أن تجاهدوا في الله حق جهاده ولا تأخذكم في الله لومة لائم وتقوموا لله بالقسط ولو على أنفسكم وآبائكم وأبنائكم وعن أنس قال: لا يتقي الله عبد حق تقاته حتى يخزن لسانه، وقيل حق تقاته يعني واجب تقواه وهو القيام بالواجب واجتناب المحارم. واختلف العلماء في هذا القدر من هذه الآية هل هو منسوخ أم لا على قولين أحدهما أنه منسوخ وذلك أنه لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين وقالوا: يا رسول الله ومن يقوى على هذا؟ فأنزل الله تعالى الناسخ وهو قوله تعالى في سورة التغابن: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ وهذا قول ابن عباس وسعيد بن جبيرة وقتادة وابن زيد والسدي. والقول الثاني أنها محكمة غير منسوخة وهو رواية عن ابن عباس أيضاً وبه قال طاوس: وموجب هذا الاختلاف يرجع إلى معنى الآية فمن قال إنها منسوخة قال حق تقاته هو أن يأتي العبد بكل ما يجب لله ويستحقه فهذا يعجز العبد عن الوفاء به فتحصيله ممتنع ومن قال بأنها محكمة قال: إن حق تقاته أداء ما يلزم العبد على قدر طاقته فكان قوله تعالى اتقوا الله ما استطعتم مفسراً لحق تقاته لا ناسخاً ولا مخصصاً فمن اتقى الله ما استطاع فقد اتقاه حق تقواه وقيل معنى حق تقاته كما يجب أن يتقي وذلك بأن يجتنب جميع معاصيه، وقيل في معنى قول ابن عباس هو أن يطاع فلا يعصى هذا صحيح والذي يصدر من العبد على سبيل السهو والنسيان غير قادح فيه لأن التكليف في تلك الحال مرفوع عنه وكذلك قوله: وأن يشكر فلا يكفر فواجب على العبد حضور ما أنعم الله به عليه بالبال، وأما عند السهو فلا يجب عليه. وكذلك قوله وأن يذكر فلا ينسى فإن هذا إنما يجب عند الدعاء والعبادة لا عند السهو والنسيان.

أهل بيتي» قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ﴾ أي: يمتنع بالله ويستمسك بدينه وطاعته، ﴿فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، طريق واضح، وقال ابن جريج وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ أي: يُؤْمِنُ بِاللَّهِ، وأصل العصمة: المنع، فكل مانع شيئاً فهو عاصم له.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾، قال مقاتل بن حيان: كان بين الأوس والخزرج عداوة في الجاهلية وقتال حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، فأصلح بينهم فافتخر بعده منهم رجلان: ثعلبة بن غنم من الأوس وأسعد بن زرارة من الخزرج، فقال الأوسي: منا خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، ومنا حنظلة غسيل الملائكة، ومنا عاصم بن ثابت بن أفلح حمي الدبر، ومنا سعد بن معاذ الذي اهتز عرش الرحمن له ورضي الله بحكمه في بني قريظة، وقال الخزرجي: منا أربعة أحكموا القرآن: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، ومنا سعد بن عباد خطيب الأنصار ورئيسهم، فجرى الحديث بينهما فغضبا وأنشدا الأشعار وتفاخرا، فجاء الأوس والخزرج ومعهم السلاح، فاتاهم النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ وقال عبد الله بن مسعود وابن عباس: هو أن يُطَاعَ فلا يُعْصَى، وقال مجاهد: أن تجاهدوا في سبيل الله حق جهاده ولا تأخذكم في الله لومة لائم، وتقوموا لله بالقسط ولو على أنفسكم وآبائكم وأبنائكم. وعن أنس أنه قال: لا يتقي الله عبد حق تقاته حتى يخزن لسانه، قال أهل التفسير: لما نزلت هذه الآية شق ذلك عليهم، فقالوا:

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ لفظ النهي واقع على الموت والمعنى واقع على الأمر بالإقامة على الإسلام، والمعنى كونوا على الإسلام فإذا ورد عليكم الموت صادفكم على ذلك. وقيل هذا في الحقيقة نهى عن ترك الإسلام المعنى لا تتركوا الإسلام فإن الموت لا بد منه فمتى جاءكم صادفكم وأنتم على الإسلام لأنه لما كان يمكنكم الثبات على الإسلام حتى إذا أتاهم الموت أتاهم وهم على الإسلام صار الموت على الإسلام بمنزلة ما قد دخل في إمكانهم، وقيل معناه ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون مخلصون مفوضون إلى الله أموركم تحسنون الظن به عز وجل. عن ابن عباس: «أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون فقال: لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معاشهم فكيف بمن تكون طعامه» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح. قوله عز وجل:

وَاَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً﴾ أي تمسكوا بحبل الله والحبل هو السبب الذي يتوصل به إلى البغية وسمي الإيمان حبلاً لأنه سبب يتوصل به إلى زوال الخوف وقيل حبل الله هو السبب الذي به يتوصل إليه فعلى هذا اختلفوا في معنى الآية فقال ابن عباس: معناه تمسكوا بدين الله لأنه سبب يوصل إليه، وقيل حبل الله هو القرآن لأنه أيضاً سبب يوصل إليه. وفي أفراد مسلم من حديث زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ قال: «ألا وإني تارك فيكم ثقلين أحدهما كتاب الله هو حبل الله من اتبعه كان على الهدى ومن تركه كان على ضلالة» الحديث عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «إن هذا القرآن هو حبل الله المتين وهو النور المبين والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به» وذكره البغوي بغير سند وقال ابن مسعود: هو الجماعة وقال عليكم بالجماعة فإنها حبل الله الذي أمر به وإن ما تكرهون في الجماعة والطاعة خير مما تحبون في الفرقة وقيل بحبل الله يعني بأمر الله وطاعته ﴿ولا تفرقوا﴾ يعني كما تفرقت اليهود والنصارى وقيل ولا تفرقوا يعني كما كنتم متفرقين في الجاهلية متدابرين يعادي بعضكم بعضاً ويقتل

يا رسول الله وَمَنْ يَقْوَى عَلَى هَذَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] فَسَخَتْ هَذِهِ الْآيَةَ، وَقَالَ مَقَاتِلُ: لَيْسَ فِي آلِ عِمْرَانَ مِنَ الْمَنْسُوخِ إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أَي: مُؤْمِنُونَ، وَقِيلَ: مُخْلِصُونَ مَفُوضُونَ أُمُورَكُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَالَ الْفَضِيلُ: مُحْسِنُونَ الظَّنَّ بِاللَّهِ. أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ أَحْمَدَ الْمَلِيحِيُّ أَنَا أَبُو بَكْرٍ الْعَبْدُوسِيُّ أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ حَمْدُونَ بْنُ خَالِدِ بْنِ يَزِيدَ أَخْبَرَنَا سَلِيمَانُ بْنُ يَوْسُفَ أَخْبَرَنَا وَهْبُ بْنُ جَرِيرٍ أَنَا شُعْبَةُ عَنْ الْأَعْمَشِ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ فَلَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزُّقُومِ قُطِرَتْ عَلَى الْأَرْضِ لَأَمْرَتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعِيشَتَهُمْ، فَكَيْفَ بِمَنْ هُوَ طَعَامُهُ وَلَيْسَ لَهُ طَعَامٌ غَيْرُهُ؟»

قوله عز وجل: ﴿وَاَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾، الحبل: السبب الذي يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى الْبُغْيَةِ، وَسُمِّيَ الْإِيمَانُ حَبْلًا لِأَنَّهُ سَبَبٌ يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى زَوَالِ الْخَوْفِ، وَاخْتَلَفُوا فِي مَعْنَاهُ ههنا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَعْنَاهُ تَمَسَّكُوا بِدِينِ اللَّهِ، وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: هُوَ الْجَمَاعَةُ، وَقَالَ: عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّهَا حَبْلُ اللَّهِ الَّذِي أَمَرَ بِهِ، وَإِنْ مَا تَكْرَهُونَ فِي الْجَمَاعَةِ وَالطَّاعَةِ خَيْرٌ مِمَّا تُحِبُّونَ فِي الْفِرْقَةِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعَطَاءُ: بَعْدَ اللَّهِ، وَقَالَ قَتَادَةُ وَالسَّدي: هُوَ الْقُرْآنُ، وَرَوَى عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينِ، وَهُوَ النُّورُ الْمُبِينُ، وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ،

بعضكم بعضاً. قيل معناه لا تحدثوا ما يكون عنه التفرق ويزول معه الاجتماع والألفة التي أنتم عليها ففيه النهي عن التفرق والاختلاف والأمر بالاتفاق والاجتماع لأن الحق لا يكون إلا واحداً وما عداه يكون جهلاً وضلالاً وإذا كان كذلك وجب النهي عن الاختلاف في الدين وعن الفرقة لأن كل ذلك كان عادة أهل الجاهلية فنهوا عنه وروى البغوي بسنده عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويسخط لكم ثلاثاً يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً، وأن تناصحوا من ولّى الله أمركم، ويسخط لكم ثلاثاً قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال».

قوله تعالى: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾ قال محمد بن إسحاق وغيره من أهل الأخبار كان الأوس والخزرج أخوين لأب وأم فوقعت بينهما عداوة قتيل ثم تطاولت تلك العداوة والحروب بينهم مائة وعشرين سنة إلى أن أطفأ الله ذلك بالإسلام وألف بينهم بنبيه محمد ﷺ. وسبب ذلك أن سويد بن الصامت أخا بني عمرو بن عوف وكان شريفاً يسميه قومه الكامل لجلده ونسبه قدم مكة حاجاً أو معتمراً وكان رسول الله ﷺ قد بعث وأمر بالدعوة فتصدى له النبي حين سمع به ودعاه إلى الله عز وجل وإلى الإسلام فقال له سويد فلعل الذي معك مثل الذي معي فقال له رسول الله ﷺ وما الذي معك؟ قال مجلد لقمان يعني حكمة لقمان فقال له رسول الله ﷺ أعرضها علي فعرضها عليه فقال: إن هذا الكلام حسن ومعني أفضل من هذا قرآن أنزل الله عز وجل على نورا وهدى فتلا عليه القرآن ودعاه إلى الإسلام فلم يبعد منه وقال: إن هذا القول قول حسن ثم انصرف إلى المدينة فلم يلبث أن قتله الخزرج يوم بعاث وإن قومه يقولون: قد قتل وهو مسلم. ثم قدم أبو الحيس أنس بن رافع ومعه فتية من بني عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج فلما سمع بهم رسول الله ﷺ أتاهم وجلس إليهم وقال لهم: هل لكم إلى خير مما جئتم له قالوا وما هو؟ قال أنا رسول الله قد بعثني الله إلى العباد أدعوهم إلى أن لا يشركوا بالله شيئاً وأنزل على

وعصمة الله لمن تمسك به، ونجاة لمن تبعه، وقال مقاتل بن حيان: بحبل الله أي: بأمر الله وطاعته، ﴿ولا تفرقوا﴾، كما افترقت اليهود والنصارى، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحق الهاشمي أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى يرضى لكم ثلاثاً، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً، وأن تناصحوا من ولّى الله أمركم، ويسخط لكم ثلاثاً: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال». قوله تعالى: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم﴾ قال محمد بن إسحاق وغيره من أهل الأخبار: كانت الأوس والخزرج أخوين لأب وأم فوقعت بينهما عداوة بسبب قتيل قُتل بينهم، فتطاولت تلك العداوة والحرب بينهم عشرين ومائة سنة إلى أن أطفأ الله عز وجل ذلك بالإسلام، وألف بينهم برسوله محمد ﷺ، وكان سبب ألفتهم أن سويد بن الصامت أخا بني عمرو بن عوف وكان شريفاً يسميه قومه الكامل لجلده ونسبه، وقدم مكة حاجاً أو معتمراً، وكان رسول الله ﷺ قد بعث وأمر بالدعوة، فتصدى له حين سمع به ودعاه إلى الله عز وجل وإلى الإسلام، فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي، فقال له رسول الله ﷺ: «وما الذي معك؟» فقال: مُجلد لقمان، يعني: حكمته، فقال له رسول الله ﷺ: «اعرضها علي» فعرضها، فقال: «إن هذا كلام حسن، ومعني أفضل من هذا، قرآن أنزل الله علي نورا وهدي»، فتلا عليه القرآن ودعاه إلى الإسلام، فلم يبعد منه ولم ينفر وسر بذلك، وقال: إن هذا القول حسن، ثم انصرف إلى المدينة فلم يلبث أن قتله الخزرج قبل يوم بعاث، فإن قومه ليقولون: إنه قد قتل وهو مسلم، ثم قدم أبو الجيسر أنس بن رافع، ومعه فئة من بني الأشهل فيهم إياس بن

الكتاب ثم ذكر الإسلام وتلا عليهم القرآن. قال إياس بن معاذ وكان غلاماً حدثاً أي قوم هذا والله خير مما جئتم له فأخذ أبو الحيس حفنة من البطحاء فضرب بها وجه إياس وقال: دعنا منك فلعمري لقد جئنا لغير هذا فصمت إياس وقام رسول الله ﷺ عنهم وانصرفوا إلى المدينة فكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج فلم يلبث إياس بن معاذ أن هلك، فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه وإعزاز نبيه ﷺ خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقي فيه النفر من الأنصار فعرض نفسه على القبائل من العرب كما كان يصنع في كل موسم فلقي عند العقبة رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً وهم ستة نفر أسعد بن زرارة وعوف بن الحارث وهو ابن عفراء ورافع بن مالك العجلاني وقطبة بن عامر بن خريدة وعقبة بن عامر بن بابي وجابر بن عبد الله رضي الله عنهم فقال لهم رسول الله ﷺ من أنتم قالوا نفر من الخزرج قال أمن موالي اليهود قالوا نعم قال: أفلا تجلسون حتى أكلمكم قالوا: بلى، فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن. قال: وكان مما صنع الله لهم به في الإسلام أن يهود كانوا معهم ببلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم وهم أهل أوثان وشرك وكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا: إن نبياً الآن مبعوث قد أظلم زمانه سنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله عز وجل قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلمون والله أنه النبي الذي توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه فأجابوه وصدقوه وأسلموا معه وقالوا إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى الله أن يجمعهم بك وسنقدم عليهم وندعوهم إلى أمرك، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم فلما قدموا المدينة ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر

معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قوم من الخزرج، فلما سمع بهم رسول الله ﷺ أتاهم فجلس إليهم، وقال: «هل لكم إلى خير مما جئتم له؟» قالوا: وما ذلك؟ قال: «أنا رسول الله بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أن لا يشركوا بالله شيئاً، وأنزل الله عليّ الكتاب»، ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن فقال إياس بن معاذ وكان غلاماً حدثاً: أي قوم هذا والله خير مما جئتم له، فأخذ أبو الجيسر حفنة من البطحاء فضرب بها وجه إياس وقال: دعنا منك فلعمري لقد جئنا لغير هذا، فصمت إياس وقام رسول الله ﷺ عنهم، وانصرفوا إلى المدينة، وكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج، ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك، فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه وإعزاز نبيه ﷺ خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقي فيه النفر من الأنصار ويعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم، فلقي عند العقبة رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً، وهم ستة نفر: أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث وهو ابن عفراء، ورافع بن مالك العجلاني، وقطبة بن عامر بن خريدة، وعقبة بن عامر بن بابي، وجابر بن عبد الله، فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أنتم؟» قالوا: نفر من الخزرج، قال: «أمن موالي يهود؟» قالوا: نعم، قال: «أفلا تجلسون حتى أكلمكم؟» قالوا: بلى، فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، قالوا: وكان مما صنع الله لهم به في الإسلام أن يهود كان معهم ببلادهم، وكانوا أهل أوثان وشرك، وكانوا إذا كان منهم شيء قالوا: إن نبياً الآن مبعوث قد أظلم زمانه، نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله عز وجل قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلمون والله إنه النبي الذي توعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه، فأجابوه وصدقوه وأسلموا، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى الله أن يجمعهم بك، وسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، فإن جمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك، ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم قد آمنوا به ﷺ، فلما قدموا المدينة ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام، حتى فشا فيهم فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ، حتى إذا كان العام المقبل

رسول الله ﷺ حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً وهم أسعد بن زرارة وعوف ومعاذ ابنا عفراء ورافع بن مالك العجلاني وذكوان بن عبد القيس وعبادة بن الصامت وزيد بن ثعلبة وعباس بن عباد وعقبة بن عامر وقطبة بن عامر فهؤلاء خزرجيون وأبو الهيثم بن التيهان وعويم بن ساعدة من الأوس فلقوه بالعقبة وهي العقبة الأولى فبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين بهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف الآية فإن فليتم فلكم الجنة وإن غشيتم شيئاً من ذلك فأخذتم بحده في الدنيا فهو كفارة وإن ستر عليكم فأمركم إلى الله عز وجل إن شاء عذبكم وإن شاء غفر لكم قال وذلك قبل أن يفرض الحرب، قال: فلما انصرف القوم بعث معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين وكان يسمى مصعب بالمدينة المقرئ، وكان منزله على أسعد بن زرارة ثم إن أسعد بن زرارة خرج ومصعب فدخل به حائطاً من حوائط بني ظفر فجلسا في الحائط واجتمع إليهما رجال ممن أسلم فقال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا دارنا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما فإن أسعد بن خالتي ولولا ذلك لكفيتك، وكان سعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيدي قومهما من بني عبد الأشهل وهما بعد مشركان فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إلى مصعب: وأسعد وهما جالسان في الحائط فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه قال مصعب إن يجلس أكلمه فلما وقف عليهما متشتماً وقال ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا اعتزلا إن كانت لكما في أنفسكما حاجة قال له مصعب أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته وإن كرهته كف عنك ما تكره؟ قال: أنصفت ثم ركز حربته وجلس إليهما فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن قال والله لعرفنا الإسلام في وجهه قبل أن يتكلم من إشرافه وتسهيله ثم قال ما أحسن هذا وأجمله كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين

أتى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً وهم: أسعد بن زرارة، وعوف ومعاذ ابنا عفراء، ورافع بن مالك العجلاني، وذكوان بن عبد القيس، وعبادة بن الصامت، ويزيد بن ثعلبة، وعباس بن عباد، وعقبة بن عامر، وقطبة بن عامر، وهؤلاء خزرجيون، وأبو الهيثم بن التيهان وعويم بن ساعدة من الأوس، فلقوه بالعقبة وهي بيعة العقبة الأولى، فبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، على أن لا يُشركوا بالله شيئاً ولا يسرقوا ولا يزنوا، إلى آخر الآية، فإن فليتم فلكم الجنة، وإن غشيتم شيئاً من ذلك فأخذتم بحده في الدنيا فهو كفارة له، وإن ستر عليكم فأمركم إلى الله إن شاء عذبكم وإن شاء غفر لكم، قال: وذلك قبل أن يفرض عليهم الحرب، قال: فلما انصرف القوم بعث معهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف، وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين، وكان مصعب يُسمى بالمدينة المقرئ، وكان منزله على أسعد بن زرارة، ثم إن أسعد بن زرارة خرج بمصعب فدخل به حائطاً من حوائط بني ظفر، فجلسا في الحائط واجتمع إليهما رجال ممن أسلم، فقال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير: انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارنا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما، فإن أسعد بن زرارة ابن خالتي ولولا ذلك لكفيتك، وكان سعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيدي قومهما من بني عبد الأشهل وهما مشركان، فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إلى مصعب وأسعد وهما جالسان في الحائط، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب: هذا والله سيد قومه قد جاءك، فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمه، قال: فوقف عليهما متشتماً، فقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلا إن كانت لكما في أنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمراً قبلته وإن كرهته كف عنك ما تكره، قال: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن، والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراف

قالا تغتسل وتطهر ثوبك وتشهد شهادة الحق ثم تصلي ركعتين فقام واغتسل وطهر ثوبه وشهد شهادة الحق ثم صلى ركعتين ثم قال: إن ورائي رجلاً إن تبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكما الآن سعد بن معاذ ثم أخذ حربته فانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديبهم فلما نظر سعد إلى أسيد مقبلاً قال أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم فلما وقف أسيد على النادي قال له سعد ما فعلت قال كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً وقد نهيتهما فقال: لا نفعل إلا ما أحببت وقد حدثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليحقروك فقام سعد مغضباً للذي ذكره من بني حارثة فأخذ الحربة ثم قال والله ما أراك أغنيت شيئاً فانصرف إليهما فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيداً إنما أراد أن يسمع منهما فوقف عليهما متشتماً ثم قال لأسعد بن زرارة: لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني تغشانا في دارنا بما نكره وقد كان قال أسعد لمصعب: جاءك والله سيد قومه إن يتبعك لم يخالفك أحد منهم، فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره فقال سعد: أنصفت ثم ركزا الحربة وجلس فعرض عليه مصعب الإسلام وقرأ عليه القرآن قالوا فعرفنا والله الإسلام في وجهه قبل أن يتكلم من إشراق وجهه وتسهيله ثم قال: كيف تصنعون إذا أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالوا: تغتسل وتطهر ثوبك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي ركعتين. فقام واغتسل وطهر ثوبه وشهد شهادة الحق وركع ركعتين ثم أخذ حربته وأقبل عامداً إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير فلما رأوه مقبلاً قالوا نحلف بالله لقد رجع سعد إليكم بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم قالوا سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبة. قال: فإن كان رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله قال فما أمسى في دار بني الأشهل رجل ولا

وجهه وتسهيله، ثم قال: ما أحسن هذا وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالوا له: تغتسل وتطهر ثوبك ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين، فقام واغتسل وطهر ثوبه، وشهد شهادة الحق ثم قام وركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن أتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه سأرسله إليكما الآن هو سعد بن معاذ، ثم أخذ حربته فانصرف إلى سعد وقومه، وهم جلوس في ناديبهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب من عندكم، فلما وقف على النادي قال: قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً وقد نهيتهما، فقالوا: فافعل ما أحببت وقد حدثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليخفروك فقام سعد مغضباً مبادراً للذي ذكره له من بني حارثة، فأخذ الحربة، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئاً فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيداً إنما أراد أن يسمع منهما فوقف عليهما متشتماً، ثم قال لأسعد بن زرارة: لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني تغشانا في دارنا بما نكره، فقال أسعد لمصعب: جاءك والله سيد قومه، وإن اتبعك لم يخالفك أحد منهم فقال مصعب: أو تقعد فتسمع فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره، قال سعد أنصفت، ثم ركز الحربة فجلس، فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن، قالوا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهيله، ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالوا له: تغتسل وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي ركعتين، فقام واغتسل وطهر ثوبه ثم تشهد شهادة الحق وركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عامداً إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير، فلما رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبة قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، قال: فما أمسى في

امراً إلا مسلم ومسلمة ورجع أسعد بن زرارة ومصعب بن عمير إلى منزل أسعد فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون ومسلمات إلا ما كان من دار أمية بن زيد وخطمة ووائل ووافق ذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت الشاعر وكانوا يسمعون منه ويطيعونه فوقف بهم عن الإسلام حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ومضى بدر وأحد والخندق قالوا ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة وخرج معه من الأنصار المسلمين سبعون رجلاً مع حجاج قومهم من أهل الشرك حتى قدموا مكة فوعدها رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق وهي بيعة العقبة الثانية قال كعب ابن مالك وكان قد شهد ذلك فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر أخبرناه وكنا نكتم من معنا من المشركين من قومنا أمرنا فكلّمناه وقلنا: يا أبا جابر إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرفنا، وإننا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطياً للنار غداً ودعوانه إلى الإسلام فأسلم فأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ فشهد معنا العقبة وكان نقيباً فبتنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل مستخفين تسلل القطا حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن سبعون رجلاً ومعنا امرأتان من نساءنا نسيبة بنت كعب أم عمارة إحدى نساء بني النجار وأسماء بنت عمرو بن عدي أم منيع إحدى نساء بني سلمة فاجتمعنا بالشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه عمه العباس ابن عبدالمطلب وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوقف له فلما جلسنا كان أول من تكلم العباس بن عبدالمطلب فقال: يا معشر الخزرج وكانت العرب يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج خزرجها وأوسها إن محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه عن قومنا ممن هو على مثل رأينا وهو في عز من قومه ومنعة في بلده وإنه قد أبى إلا الانقطاع إليكم واللاحق

الدار لبني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلم أو مسلمة، ورجع أسعد بن زرارة ومصعب بن عمير إلى منزل أسعد بن زرارة، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد وخطمة ووائل ووافق، وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت الشاعر، وكانوا يسمعون منه ويطيعونه فوقف بهم عن الإسلام حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، ومضى بدر وأحد والخندق، قال: ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة وخرج معه من الأنصار من المسلمين سبعون رجلاً مع حجاج قومهم من أهل الشرك حتى قدموا مكة فواعدوا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق وهي بيعة العقبة الثانية قال كعب بن مالك: وكان قد شهد ذلك فلما فرغنا من الحج، وكانت تلك الليلة التي واعدنا فيها رسول الله ﷺ، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر أخبرناه وكنا نكتم عن معنا من المشركين من قومنا أمرنا فكلّمناه، وقلنا له: يا أبا جابر إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرفنا وإننا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطياً للنار غداً، ودعوانه إلى الإسلام فأسلم، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ فشهد معنا العقبة، وكان نقيباً، فبتنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل مستخفين تسلل القطا، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن سبعون رجلاً ومعنا امرأتان من نساءنا نسيبة بنت كعب بن عمارة إحدى نساء بني النجار، وأسماء بنت عمرو بن عدي أم منيع إحدى نساء بني سلمة، فاجتمعنا بالشعب ننتظر رسول الله ﷺ، حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبدالمطلب، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوقف له، فلما جلسنا كان أول من تكلم العباس بن عبدالمطلب، فقال: يا معشر الخزرج وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار خزرجها وأوسها أن محمداً ﷺ منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا وهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وأنه قد أبى إلا الانقطاع إليكم واللاحق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتهموه

بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم به من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه فإنه في عزو ومنعة قال فقلنا: قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله وخذ لنفسك ولربك ما شئت فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ودعا إلى الله عز وجل ورغب في الإسلام ثم قال أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم ونساءكم وأبناءكم قال فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعك مما تمنع منه أئزنا فبايعنا يا رسول الله فنحن أهل الحرب وأهل الحلقة ورثناهما كابرأ عن كابر فاعترض القول والبراء يكلم رسول الله ﷺ أبو الهيثم بن التيهان فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الناس حباً لا يعني عهداً وإنا قاطعوها فهل عسيت إن فعلنا ذلك ثم أظهرك أن ترجع إلى قومك وتدعنا فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: بل الدم الدم والهدم الهدم أنتم مني وأنا منكم أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم وقال رسول الله ﷺ: أخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيباً كفلاء على قومهم بما فيهم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم فأخرجوا اثني عشر نقيباً تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس قال عاصم بن عمرو بن قتادة إن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عباد بن نضلة الأنصاري: يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلاً أسلمتموه فمن الآن فهو والله خزي في الدنيا والآخرة وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا فإننا نأخذ على مصيبة الأموال وقتل الأشراف فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا قال الجنة قالوا أبسط يدك فبسط يده فبايعوه وأول من ضرب على يده البراء بن معرور ثم تتابع القوم قال فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت ما سمعته قط يا أهل الجباب هل لكم في مذمم والصبابة معه قد اجتمعوا على حربكم فقال رسول الله ﷺ: هذا عدو الله هذا أذب العقبة يعني

إليه ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه في عزٍّ ومنعة، قال: فقلنا قد سمعنا ما قلت: فتكلم يا رسول الله وخذ لنفسك ولربك ما شئت، قال: فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ودعا إلى الله تعالى ورغب في الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم ونساءكم وأبناءكم، قال: فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعك مما تمنع منه أئزنا فبايعنا يا رسول الله، فنحن أهل الحرب وأهل الحلقة ورثناهما كابرأ عن كابر، قال فاعترض القول والبراء يكلم رسول الله ﷺ أبو الهيثم بن التيهان، فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الناس حباً لا يعني العهد، وإنا قاطعوها فهل عسيت إن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا، فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال: «لا بل الأبد الدم الدم والهدم الهدم، أنتم مني وأنا منكم أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم»، وقال رسول الله ﷺ: «أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً كفلاء على قومهم بما فيهم، ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم»، فأخرجوا اثني عشر نقيباً تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، قال عاصم بن عمرو بن قتادة: إن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عباد بن نضلة الأنصاري: يا معشر الخزرج هل تدرون علام ما تبايعون هذا الرجل؟ إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلاً أسلمتموه، فمن الآن فهو والله إن فعلتم خزي في الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهك الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير في الدنيا والآخرة، قالوا: فإننا نأخذ على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، قالوا: فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا؟ قال: «الجنة»، قال: أبسط يدك فبسط يده فبايعوه، وأول من ضرب على يده البراء بن معرور، ثم تتابع القوم، فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة

شيطان العقبة اسمع أي عدو الله أما والله لأفرغن لك ثم قال رسول الله ﷺ: انفضوا إلى رحالكم فقال العباس بن عباد بن نضلة والذي بعثك بالحق لئن شئت لنميلن على أهل منى بأسيفنا فقال رسول الله ﷺ: لم تؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم فرجعنا إلى مضاجعنا فمنا عليها حتى أصبحنا فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش حتى جاؤونا في منازلنا فقالوا: يا معشر الخزرج بلغنا أنكم جئتم صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا وإنه والله ماحي من العرب أبغض إلينا أن تشب الحرب بيننا وبينه منكم قال فانبعث من هناك من مشركي قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شيء وما علمناه وصدقوا لم يعلموا به وبعضنا ينظر إلى بعض وقام القوم وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي وعليه نعلان جديدتان قال: فقلت له كلمة كأني أريد أن أشرك القوم بها فيما قالوه يا أبا جابر أما تستطيع أن تتخذ وأنت سيد من ساداتنا مثل نعلي هذا الفتى من قريش قال فسمعها الحارث فخلعهما من رجله ورمى بهما إليّ وقال والله لتتعلنهما قال أبو جابر مه والله أحفظت الفتى فاردد إليه نعليه قال فقلت لا أردهما قال: والله يا أبا صالح لئن صدق الفأل لأسلبنه قال: ثم انصرف الأنصار إلى المدينة وقد شدوا العقد فلما قدموها أظهروا الإسلام بها وبلغ ذلك قريشاً فأذوا أصحاب رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «إن الله قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون فيها» فأمرهم بالهجرة إلى المدينة والالحاق بإخوانهم من الأنصار فأول من هاجر إلى المدينة أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي ثم عامر بن ربيعة ثم عبد الله بن جحش ثم تتابعوا أصحاب رسول الله ﷺ أرسلوا إلى المدينة ثم هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة فجمع الله عز وجل أهل المدينة أوسها وخزرجها بالإسلام، وأصلح ذات بينهم بنبيه عليه الصلاة والسلام وأنزل الله عز وجل: ﴿واذكروا﴾ يعني يا معشر الأنصار ﴿نعمة الله عليكم﴾ يعني بالإسلام ﴿إذ كنتم أعداء﴾ يعني قبل الإسلام ﴿فألف بين قلوبكم﴾ يعني بالإسلام

صوتاً ما سمعته قط: يا أهل الحباحب أهل لكم في مذمم والصباة قد اجتمعوا على حربكم، فقال رسول الله ﷺ: «هذا عدو الله هذا أرب العقبة، اسمع أي عدو الله أما والله لأفرغن لك»، ثم قال رسول الله ﷺ: «ارفضوا إلى رحالكم»، فقال العباس بن عباد بن نضلة: والذي بعثك بالحق لئن شئت ليملن غداً على أهل منى بأسيفنا، فقال رسول الله ﷺ: «لم تؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم»، قال: فرجعنا إلى مضاجعنا فمنا عليها حتى أصبحنا فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش حتى جاؤونا في منازلنا، فقالوا: يا معشر الخزرج بلغنا أنكم جئتم صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا، فإنه والله ماحي من العرب أبغض إلينا أن ينشب بالحرب بيننا وبينهم منكم، قال: فانبعث من هناك من مشركي قومنا يحلفون لهم بالله ما كان من هذا شيء وما علمناه، وصدقوا لم يعلموا وبعضنا ينظر إلى بعض، وقام القوم وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي وعليه نعلان جديدتان، قال: فقلت له كلمة كأني أريد أن أشرك القوم بها فيما قالوا: يا أبا جابر أما تستطيع أن تتخذ وأنت سيد من ساداتنا مثل نعلي هذا الفتى من قريش، قال: فسمعها الحارث فخلعهما من رجله ثم رمى بهما إليّ فقال: والله لتتعلنهما، قال: يقول أبو جابر رضي الله عنه: مه والله لقد أحفظت الفتى فاردد إليه نعله، قال: لا أردهما، قال: والله يا أبا صالح والله لئن صدق الفأل لأسلبنه، قال: ثم انصرف الأنصار إلى المدينة وقد شدوا العقد، فلما قدموها أظهروا الإسلام بها وبلغ ذلك قريشاً فأذوا أصحاب رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «إن الله تعالى قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون فيها» وأمرهم بالهجرة إلى المدينة والالحاق بإخوانهم من الأنصار، فأول من هاجر إلى المدينة أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، ثم عامر بن ربيعة ثم عبد الله بن جحش ثم تتابع أصحاب رسول الله ﷺ أرسلوا إلى المدينة فجمع الله أهل المدينة أوسها وخزرجها بالإسلام وأصلح ذات بينهم بنبيه محمد ﷺ، قال الله تعالى: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ يا معشر الأنصار ﴿إذ كنتم أعداء﴾ قبل الإسلام ﴿فألف بين

وبنيته عليه الصلاة والسلام فأصبحتم بنعمته إخواناً يعني فصرتم برحمته وبدينه الإسلام إخواناً في الدين والولاية بعد العداوة ﴿وكنتم﴾ يا معشر الأوس والخزرج ﴿على شفا حفرة من النار﴾ يعني على طرف حفرة مثل شفا البئر ليس بينكم وبين الوقوع في النار إلا أن تموتوا على كفركم ﴿فأنقذكم منها﴾ أي فخلصكم بالإيمان من الوقوع في النار ﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾.

وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾

قوله تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ اللام في قوله ولتكن لام الأمر أي لتكن منكم أمة دعاة إلى الخير، وقيل إن كلمة من في قوله منكم للتبيين لا للتبعيض وذلك لأن الله عز وجل أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على كل الأمة في قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾ فيجب على كل مكلف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إما بيده أو بلسانه أو بقلبه (م) عن أبي سعيد الخدري قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» فعلى هذا يكون معنى الآية كونوا أمة دعاة إلى الخير آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر ومن قال بهذا القول يقول: إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية إذا قام به واحد سقط الفرض عن الباقين، وقيل إن من هنا للتبعيض وذلك لأن في الأمة من لا يقدر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لعجز وضعف فحسن إدخال لفظ من في قوله ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير وقيل إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما يختص بالعلماء ولاه الأمر فعلى هذا يكون المعنى ليكون بعضكم أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر. (خ) عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها

قلوبكم﴾ بالإسلام، ﴿فأصبحتم﴾، أي فصرتم، ﴿بنعمته﴾، برحمته وبدينه الإسلام، ﴿إخواناً﴾ في الدين والولاية بينكم. ﴿وكنتم﴾ يا معشر الأوس والخزرج ﴿على شفا حفرة من النار﴾، أي على طرف حفرة مثل شفا البئر، معناه: وكنتم على طرف حفرة من النار ليس بينكم وبين الوقوع فيها إلا أن تموتوا على كفركم، ﴿فأنقذكم﴾ الله ﴿منها﴾ بالإيمان، ﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾.

﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾، أي: ولتكونوا أمة، ﴿مِنْ﴾ صلة ليست للتبعيض، كقوله تعالى: ﴿فاجتنبوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠] لم يُردَّ اجتناب بعض الأوثان بل أراد فاجتنبوا الأوثان، واللام في قوله: ﴿ولتكن﴾ لام الأمر، ﴿يدعون إلى الخير﴾، إلى الإسلام، ﴿ويأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر قال: أنا عبد الغافر بن محمد قال: أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي أخبرنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج حدثنا أبو بكر محمد بن أبي شيبة أخبرنا وكيع عن سفيان عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال: قال أبو سعيد رضي الله عنهما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مَنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَلْيَسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أضعف الإيمان»، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقى قال: أخبرنا أبو الحسن الطيسفوني أخبرنا عبد الله بن عمرو الجوهري أخبرنا أحمد بن علي الكشمهيني أخبرنا علي بن حجر أخبرنا إسماعيل بن جعفر أنا عمرو بن أبي عمرو عن عبد الله بن عبد الرحمن الأشهل عن حذيفة أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذاباً من عنده ثم لتدعنه فلا يستجاب لكم»، أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أخبرنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيايدي أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان أنا علي بن الحسين

كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذي في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً» والخير المذكور في الآية هو كل شيء يرغب فيه من الأفعال الحسنة وقيل: هو هنا كناية عن الإسلام والمعنى لتكون أمة أي جماعة دعاء إلى الإسلام وإلى كل فعل حسن يستحسن في الشرع والعقل وقيل الدعوة إلى فعل الخير يندرج تحتها نوعان: أحدهما: الترغيب في فعل ما ينبغي وهو الأمر بالمعروف. والثاني: الترغيب في ترك ما لا ينبغي وهو النهي عن المنكر فذكر الحسن أولاً وهو الخير ثم أتبعه بنوعيه مبالغة في البيان والمعروف اسم لكل فعل يعرف بالعقل والشرع حسنه والمنكر ضد ذلك وهو ما عرف بالعقل والشرع قبحه وقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ تقدم تسييره. قوله عز وجل:

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾
يَوْمَ تَجُودُ وَجُوهُهُمْ وَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَتْ وَجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾

﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا﴾ يعني ولا تكونوا يا معشر المؤمنين كالذين تفرقوا يعني أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى في قول أكثر المفسرين واختلفوا في دين الله وأمره ونهيه، وقيل تفرقوا واختلفوا بمعنى واحد وإنما ذكرهما للتأكيد وقيل تفرقوا بسبب العداوة واتباع الهوى واختلفوا في دين الله فصاروا فرقاً مختلفين قال الربيع في هذه الآية: هم أهل الكتاب نهى الله أهل الإسلام أن يتفرقوا أو يختلفوا كما تفرق واختلف أهل الكتاب. وقال ابن عباس: أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة وأخبرهم إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في الدين. وقال بعضهم: هم المبتدعة من هذه الأمة وقال أبو أمامة: هم الحرورية: قال عبدالله بن شداد: وقف أبو أمامة وأنا معه على رؤوس الحرورية على درج جامع دمشق فذرفت عيناه ثم قال: كلاب أهل النار

الدروردي أخبرنا أبو النعمان أخبرنا عبد العزيز بن مسلم المقيمي أنا إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم قال: سمعت أبا بكر الصديق رضي الله عنه يقول: يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا منكراً فلم يغيروه يوشك أن يعمهم الله تعالى بعقابه»، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عمرو بن حفص بن غياث أخبرنا أبي أنا الأعمش حدثني الشعبي أنه سمع النعمان بن بشير رضي الله عنه يقول: قال النبي ﷺ: «مثل المداهن في حدود الله تعالى والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم في أسفلها وصار بعضهم في أعلاها، فكان الذي في أسفلها يمر بالماء على الذين في أعلاها فتأذوا به فأخذ فأساً فجعل ينقر أسفل السفينة، فأتوه فقالوا: ما لك؟ قال: تأذيتم به ولا بد لي من الماء، فإن أخذوا على يديه أنجوه وأنجوا أنفسهم وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم».

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾، قال أكثر المفسرين: هم اليهود والنصارى، وقال بعضهم: المبتدعة من هذه الأمة، وقال أبو أمامة رضي الله عنه: هم الحرورية بالشام. قال عبد الله بن شداد: وقف أبو أمامة وأنا معه على رأس الحرورية بالشام فقال: هم كلاب النار، كانوا مؤمنين فكفروا بعد إيمانهم، ثم قرأ ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالح أنا أبو الحسن بن بشران أخبرنا إسماعيل بن محمد الصفار حدثنا أحمد بن منصور الرمادي حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن عبد الملك بن عمير عن عبد الله بن الزبير أن

وكانوا مؤمنين فكفروا بعد إيمانهم، شر قتيل تحت أديم السماء، وخير قتيل تحت أديم السماء الذين قتلهم هؤلاء قلت فما شأنك دمعت عينك قال رحمة لهم كانوا من أهل الإسلام فكفروا بعد إيمانهم ثم أخذ بيدي وقال: إن بأرضي منهم كثير وفي رواية ثم قرأ بعد قوله: ﴿فكفروا بعد إيمانهم ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا﴾ إلى قوله: ﴿أكفرتم بعد إيمانكم﴾ ورواه الترمذي عن أبي غالب قال رأى أبو أمامة: رؤوساً منصوبة على درج دمشق فقال أبو أمامة كلاب أهل النار شر قتلي تحت أديم السماء خير قتلي من قتلوه ثم قرأ: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾ إلى آخر الآية قلت لأبي أمامة: أنت سمعته من رسول الله ﷺ. قال: لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين أو ثلاث مرات أو أربع مرات حتى عد سبعا ما حدثتكموه وقال فيه هذا حسن وقوله تعالى: ﴿من بعد ما جاءهم البينات﴾ يعني الحجج الواضحات فعلموها ثم خالفوها وإنما قال جاءهم ولم يقل جاءتهم لجواز حذف علامة التانيث من الفعل في التقديم تشبيهاً بعلامة التثنية والجمع ﴿وأولئك لهم عذاب عظيم﴾ يعني لهؤلاء الذين تفرقوا واختلفوا لهم عذاب عظيم في الآخرة وفيه زجر عظيم للمؤمنين عن التفرق والخلاف عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «من فارق الجماعة شبراً فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه أخرجه أبو داود. أراد بربقة الإسلام عقد الإسلام وأصله أن الربق حبل فيه عدة عرا يشد بها الغنم الواحدة من العري ربقة. وروى البغوي بسنده عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال: «من سره أن يسكن بحبوة الجنة فعليه بالجماعة فإن الشيطان مع الفذ وهو من الاثنين أبعد» بحبوة الجنة وسطها والفذ هو الواحد. قوله عز وجل: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾ يعني اذكروا يوم تبيض وجوه المؤمنين وتسود وجوه الكافرين، وقيل تبيض وجوه أهل السنة وتسود وجوه أهل البدعة، وقيل تبيض وجوه المخلصين وتسود وجوه المنافقين وفي بياض الوجوه وسوادها قولان: أحدهما، إن البياض كناية عن الفرح والسرور والسواد كناية عن الغم والحزن، وهذا مجاز مستعمل يقال لمن نال بغيته وظفر بمطلوبه ابيض وجهه يعني من السرور والفرح ولمن ناله مكروه اسود وجهه وأريد لونه يعني من الحزن والغم قال الله تعالى: ﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً﴾ يعني من الحزن فعلى هذا بياض الوجوه إشراقها وسرورها

عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ سَرَّه أَنْ يَسْكُنَ بِحَبْوَةِ الْجَنَّةِ فَعَلَيْهِ بِالْجَمَاعَةِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْفَذِّ، وَهُوَ مِنَ الْاِثْنَيْنِ أَبْعَدُ»، قوله تعالى: ﴿وأولئك لهم عذاب عظيم﴾.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾، ﴿يَوْمَ﴾ نصبٌ على الظرف، أي: في يوم، وانتصاب الظرف على التشبيه بالمفعول، يريد: تبيض وجوه المؤمنين وتسود وجوه الكافرين، وقيل: تبيض وجوه المخلصين وتسود وجوه المنافقين، وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ هذه الآية قال: تبيض وجوه أهل السنة وتسود وجوه أهل البدعة، قال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: إذا كان يوم القيامة رُفِعَ لكل قوم ما كانوا يعبدونه، فيسعى كل قوم إلى ما كانوا يعبدونه، وهو قوله تعالى: ﴿نُولِيَ مَا تَوَلَّى﴾ [النساء: ١١٥] فإذا انتهوا إليه حزنوا فتسود وجوههم من الحزن، وبقي أهل القبلة واليهود والنصارى لم يعرفوا شيئاً مما رُفِعَ لهم، فيأتيهم الله فيسجد له مَنْ كان يسجد في الدنيا مطيعاً مؤمناً ويبقى أهل الكتاب والمنافقون لا يستطيعون السجود، ثم يؤذن لهم فيرفعون رؤوسهم ووجوه المؤمنين مثل الثلج بياضاً والمنافقون أهل الكتاب إذا نظروا إلى وجوه المؤمنين حزنوا حزناً شديداً فاسودَّت وجوههم، فيقولون: ربنا ما لنا مسودة وجوهنا فوالله ما كنا مشركين؟ فيقول الله للملائكة: «انظروا كيف كذبوا على أنفسهم»، قال أهل المعاني: بياض الوجوه إشراقها واستبشارها وسرورها بعملها وبشواب الله، واسودادها حزنها وكآبتها وكسوفها بعملها وبعباد الله، يدل عليه قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ

واستبشارها بعملها، وذلك أن المؤمن إذا ورد القيامة على ما قدم من خير وعمل صالح استبشر بثواب الله ونعمه عليه فإذا كان كذلك وسم وجهه ببياض اللون وإشراقه واستنارته وابيضت صحيفته وأشرقت وسعى النور بين يديه وعن يمينه وشماله. وأما الكافر والظالم إذا ورد القيامة على ما قدم من قبيح عمل وسيئات حزن واغتم لعلمه بعذاب الله فإذا كان كذلك وسم وجهه بسواد اللون وكمودته واسودت صحيفته وأظلمت وأحاطت به الظلمة من كل جانب نعوذ بفضل الله وسعة رحمته من الظلمات يوم القيامة والقول الثاني بياض الوجوه وسوادها حقيقة تحصل في الوجه فيبيض وجه المؤمن ويكسى نوراً ويسود وجه الكافر ويكسى ظلمة لأن لفظ البياض والسواد حقيقة فيهما والحكمة في بياض الوجوه وسوادها أن أهل الموقف إذا رأوا بياض وجه المؤمن عرفوا أنه من أهل السعادة وإذا رأوا سواد وجه الكافر عرفوا أنه من أهل الشقاوة ﴿فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ أي فيقال لهم أكفرتم والهمزة للتوبيخ والتقريع. فإن قلت كيف قال أكفرتم بعد إيمانكم وهم لم يكونوا مؤمنين فمن المراد بهؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم. قلت اختلف العلماء في ذلك فروى عن أبي بن كعب أنه قال: أراد به الإيمان يوم أخذ الميثاق حين قال لهم ألسن بربكم؟ قالوا بلى فآمن الكل، فكل من كفر في الدنيا فقد كفر بعد الإيمان، وقال الحسن: هم المنافقون وذلك أنهم تكلموا بالإيمان باللسان وأنكروهم بقلوبهم. وقال عكرمة: هم أهل الكتاب وذلك أنهم آمنوا بمحمد ﷺ قبل مبعثه فلما بعث أنكروهم وكفروا به وقيل هم الذين ارتدوا زمن أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهم أهل الردة (ق) عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «أنا فرطكم على الحوض وليرفعن إلي رجال منكم حتى إذا أهويت إليهم لأنا لهم اختلجوا دوني فأقول أي رب أصحابي فيقول إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك» (ق) عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «ليردن علي الحوض رجال ممن صاحبي حتى إذا رفعوا إلي اختلجوا دوني فلاقولن أي رب أصحابي أصحابي فيقال لي لا تدري ما أحدثوا بعدك» زاد في رواية فأقول: «سحقاً لمن بدل عدي» (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يرد على يوم القيامة رهط من أصحابي أو قال من أمتي فيجلون عن الحوض فأقول يا رب أصحابي فيقول: إنه لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أديبارهم القهقري» وقيل هم الخوارج الذين خرجوا على علي بن أبي طالب وقتلهم وهم الحرورية. (م) عن زيد بن وهب أنه كان في الجيش الذين كانوا مع علي لما ساروا إلى الخوارج فقال علي: أيها الناس إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج قوم من أمتي يقرؤون القرآن ليس قراءتهم بشيء ولا صلاتهم بشيء ولا صيامهم بشيء ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء يقرءون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم لا تجاوز صلاتهم تراقيم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية» وفي رواية سويد بن غفلة عنه يقرءون القرآن لا يجاوز

ذلة ﴿[يونس: ٢٧] وقال: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ووجوه يومئذ باسرة﴾ [القيامة: ٢٢ و ٢٣ و ٢٤] وقال: ﴿وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة﴾ [عبس: ٣٨ و ٣٩ و ٤٠]، ﴿فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم﴾، معناه: يقال لهم أكفرتم بعد إيمانكم، ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾، فإن قيل: كيف قال أكفرتم بعد إيمانكم، وهم لم يكونوا مؤمنين؟ قيل: حكي عن أبي بن كعب أنه قال: أراد به الإيمان يوم الميثاق، حين قال لهم ربهم: ألسن بربكم؟ قالوا: بلى، يقول: أكفرتم بعد إيمانكم يوم الميثاق. وقال الحسن: هم المنافقون تكلموا بالإيمان باللسان وأنكروهم بقلوبهم، وقال عكرمة إنهم أهل الكتاب آمنوا بآبائهم وبمحمد ﷺ قبل أن يبعث، فلما بعث كفروا به، وقال قوم: هم من أهل قبلتنا، وقال أبو أمامة: هم الخوارج، وقال قتادة: هم أهل البدع، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا سعيد بن أبي مريم عن نافع بن عمر حدثني ابن أبي مليكة عن أسماء بنت أبي بكر، قالت: قال رسول الله ﷺ: «إني على الحوض حتى أنظر من يرد علي منكم، وسيؤخذ ناسٌ دوني،

إيمانهم حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم عند الله يوم القيامة (ق) عن بشير بن عمرو. قال: قلت لسهل بن حنيف هل سمعت رسول الله ﷺ يقول في الخوارج شيئاً قال: سمعته يقول وأهوى بيده إلى العراق «ويخرج منهم قوم يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية» وقيل هم أهل البدع والأهواء من هذه الأمة كالقدرية ونحوهم ومن قال بهذا القول يقول كفرهم بعد إيمانهم هو خروجهم من الجماعة ومفارقتهم في الاعتقاد. (م) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ويمسي مؤمناً، ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا». وقال الحارث الأعور: سمعت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: على المنبر إن الرجل ليخرج من أهله فما يؤوب إليهم حتى يعمل عملاً يستوجب به الجنة وإن الرجل ليخرج من أهله فما يعود إليهم حتى يعمل عملاً يستوجب به النار ثم قرأ ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَالْآيَةُ ثُمَّ نادى هم الذين كفروا بعد الإيمان ورب الكعبة. وقوله تعالى: .

وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ﴾ يعني المؤمنين المطيعين لله عز وجل ﴿ففي رحمة الله﴾ يعني ففي جنة الله وإنما سميت الجنة رحمة لأنها دار رحمة وفيه إشارة إلى أن العبد وإن عمل بالطاعات لا يدخل الجنة إلا برحمة الله تعالى ﴿هم فيها خالدون﴾ قيل: إنما كرر كلمة في لأن في كل واحدة منهن معنى غير الأخرى المعنى أنهم في رحمة الله وأنهم في الرحمة خالدون ﴿تلك آيات الله﴾ يعني القرآن وقيل هذه الآيات التي تقدمت ﴿نتلوها عليك بالحق﴾ أي بالمعنى الحق لأن المتلو حق ﴿وما الله يريد ظلماً للعالمين﴾ يعني لا يعاقب أحداً بغير جرم واستحقاق للعقوبة وإنما ذكر الظلم هنا لأنه قد تقدم ذكر العقوبة في قوله فأما الذين اسودَّت وجوههم إلى قوله فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون أخبر أنهم إنما وقعوا فيما وقعوا فيه بسبب أفعالهم المنكرة وأنه لا يظلم أحداً من خلقه.

فأقول: يا رب مني ومن أمتي، فقال: هل شعرت بما عملوا بعدك؟ فوالله ما برحوا يرجعون على أعقابهم»، وقال الحارث الأعور: سمعت علياً رضي الله عنه على المنبر يقول: إن الرجل ليخرج من أهله فما يعود إليهم حتى يعمل عملاً يستوجب به الجنة، وإن الرجل ليخرج من أهله فما يؤوب إليهم حتى يعمل عملاً يستوجب به النار، ثم قرأ ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ الآية، ثم نادى: هم الذين كفروا بعد الإيمان ورب الكعبة. أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقى أخبرنا أبو الحسن الطيسفوني أنا عبد الله بن عمر الجوهري أخبرنا أحمد بن علي الكشمهيني أنا علي بن حجر أنا إسماعيل بن جعفر عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا».

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ﴾، هؤلاء أهل الطاعة، ﴿ففي رحمة الله﴾، ففي جنة الله. ﴿هم فيها خالدون﴾.

﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعالمين﴾.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾

﴿والله ما في السموات وما في الأرض﴾ لما ذكر الله أنه لا يريد ظلماً للعالمين لأنه لا حاجة به إلى الظلم، وذلك أن الظالم إنما يظلم غيره ليزداد مالاً أو عزاً أو سلطاناً أو يتم نقصاً فيه بما يظلم به غيره ولما كان الله عز وجل مستغنياً عن ذلك، وله صفة الكمال أخبر أن له ما في السموات وما في الأرض وأن جميع ما فيهما ملكه وأهلها عبده، وإذا كان كذلك يستحيل في حقه سبحانه وتعالى أن يظلم أحداً من خلقه لأنهم عبده، وفي قبضته ثم قال: ﴿والى الله ترجع الأمور﴾ يعني وإليه مصير جميع الخلائق المؤمن والكافر والطائع والعاصي فيجازي الكل على قدر استحقاقهم ولا يظلم أحداً منهم.

قوله عز وجل: ﴿كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ سبب نزول هذه الآية أن مالك بن الصيف ووهب بن يهودا اليهوديين قالا لعبدالله بن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى حذيفة: نحن أفضل منكم وديننا خير من دينكم الذي تدعوننا إليه فأنزل الله هذه الآية واختلف في لفظة كان ف قيل هي بمعنى الحدوث والوقوع والمعنى حدثتم ووجدتم وخلقتهم خير أمة وقيل كان هنا ناقصة وهي عبارة عن وجود الشيء في زمان ماض ولا تدل على انقطاع طارئ بدليل قوله: ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ فعلى هذا التقدير يكون المعنى: كتتم في علم الله خير أمة وقيل كتتم مذكورين في الأمم الماضية بأنكم خير أمة، وقيل كتتم في اللوح المحفوظ موصوفين بأنكم خير أمة وقيل معناه كتتم منذ آمنتم خير أمة وقيل قوله خير أمة تابع لقوله: ﴿فأما الذين ابيضت وجوههم﴾ والتقدير أنه يقال لهم عند دخول الجنة: كتتم في دنياكم خير أمة فلهذا استحققتهم ما أنتم فيه من بياض الوجوه والنعم المقيم، وقيل كتتم بمعنى أنتم وقيل يحتمل أن يكون كان بمعنى صار فمعنى قوله كتتم أي صرتم خير أمة. فأما المخاطبون بهذا من هم ففيه خلاف قال ابن عباس في قوله كتتم خير أمة هم الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ وروى ابن جرير عن عمر بن الخطاب قال لو شاء الله تعالى لقال: أنتم فكننا كلنا ولكن في خاصة من أصحاب رسول الله ﷺ ومن صنع مثل ما صنعتم كانوا خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وقال الضحاك: هم أصحاب رسول الله ﷺ يعني به كانوا هم الرواة الدعاة الذين أمر الله عز وجل المسلمين باتباعهم وطاعتهم. (ق) عن

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

﴿كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال عكرمة ومقاتل: نزلت في ابن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة، رضي الله عنهم، وذلك أن مالك بن الصيف ووهب بن يهود اليهوديين قالا لهم: نحن أفضل منكم وديننا خير مما تدعوننا إليه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وروى سعيد بن جبيرة عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ هم الذين هاجروا مع النبي ﷺ إلى المدينة، وقال جوبير عن الضحاك: هم أصحاب محمد ﷺ خاصة الرواة والدعاة الذين أمر الله المسلمين باتباعهم. وروى عمر بن الخطاب قال: كتتم خير أمة أخرجت للناس تكون لأولنا ولا تكون لآخرنا. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أبو محمد عبد الرحمن بن شريح أنا أبو القاسم البغوي أنا علي بن الجعد أخبرنا شعبة عن أبي حمزة قال: سمعت زهد بن مضرب بن عمران بن حصين رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين

عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة ثم إن بعدهم قوماً يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون وينذرون ولا يوفون ويظهر فيهم السمن» زاد في رواية: «ويحلفون ولا يستحلفون». (ق) عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته» قوله: «خير الناس قرني» يعني أصحابي والقرن أهل كل زمان مأخوذ من الاقتران فكأنه الزمان الزمان الذي يقترن فيه أهل ذلك الزمان في أعمارهم وأحوالهم، وقيل القرن أربعون سنة وقيل ثمانون وقيل مائة. (ق) عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي فلو أن أحداً أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه» النصيف النصف. وقال ابن عباس في رواية عطاء في قوله: كنتم خير أمة هم أمة محمد ﷺ قال الزجاج قوله كنتم خير أمة الخطاب فيه مع أصحاب رسول الله ﷺ ولكنه عام في كل أمة ونظيره قوله: «كتب عليكم الصيام، كتب عليكم القصاص» فإن كل ذلك خطاب مع الحاضرين بحسب اللفظ، ولكنه عام في حق الكل كذا ههنا عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه سمع النبي ﷺ يقول في قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ قال أنتم الأمة تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله تعالى أخرجه الترمذي وقال حديث حسن وأصل الأمة الجماعة المجتمعة على الشيء. وأمة محمد ﷺ هم الجماعة الموصوفين بالإيمان بالله عز وجل وبمحمد ﷺ (خ) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى. قالوا: ومن أبى؟ قال من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى» عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا يجمع أمتي أو قال أمة محمد ﷺ على ضلالة ويد الله على الجماعة ومن شذ شذ في النار» أخرجه الترمذي عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أمتي أمة مرحومة ليس عليها عذاب في الآخرة عذابها في الدنيا الفتن والزلازل والقتل» أخرجه أبو داود عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «مثل أمتي كمثل المطر لا يدري آخره خير أم أوله» أخرجه الترمذي وله عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أهل الجنة عشرون ومائة صف، ثمانون من هذه الأمة، وأربعون من سائر الأمم» وله عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «باب أمتي الذي يدخلون منه الجنة عرضه مسيرة الراكب المسرع المجد ثلاثاً ثم إنهم يتضاغظون عليه حتى تكاد مناكبهم تزول» قال الترمذي سألت محمداً يعني البخاري عن هذا الحديث فلم يعرفه وقال لخالد بن أبي بكر مناكير عن سالم بن عبد الله زاد غيره في الحديث وهم شركاء الناس في سائر الأبواب عن

يلونهم». قال عمران: لا أدري أذكر النبي ﷺ بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً، ثم إن بعدهم قوماً يخونون ولا يؤتمنون ويشهدون ولا يستشهدون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن وبهذا الإسناد عن علي بن الجعد أخبرنا شعبة وأبو معاوية عن الأعمش عن ذكوان عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحداً أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»، وقال الآخرون: جميع المؤمنين من هذه الأمة، وقوله ﴿كنتم﴾ أي: أنتم، كقوله تعالى: ﴿واذكروا إذ كنتم قليلاً﴾ [الأعراف: ٨٦]، وقال في موضع آخر: ﴿واذكروا إذ أنتم قليل﴾ [الأنفال: ٢٦]، وقيل: معناه كنتم خير أمة عند الله في اللوح المحفوظ، وقال قوم: قوله: ﴿للناس﴾ صلة قوله خير أمة، أي: أنتم خير أمة للناس. قال أبو هريرة معناه: كنتم خير الناس للناس، تجيئون بهم في السلاسل فتدخلونهم في الإسلام، قال قتادة: هم أمة محمد ﷺ لم يؤمر نبي بعده بالقتال، فهم يقتلون الكفار فيدخلونهم في دينهم، فهم خير أمة للناس، وقيل: للناس صلة قوله أخرجت معناه: ما أخرج الله للناس أمة خيراً من أمة محمد ﷺ أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحق الثعلبي أنا أبو عبد الله الحسين بن محمد الحافظ أخبرنا أبو علي الحسين بن محمد بن حبيش المقرئ أنا علي بن زنجويه أخبرنا سلمة بن شبيب أنا عبد الرازق أنا

أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «من أمتي من يشفع في الفتام من الناس ومنهم من يشفع في القبيلة ومنهم من يشفع للعصبة من يشفع للواحد» أخرجه الترمذي (خ) عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفاً أو سبعمائة ألف سباطين متماسكين آخذ بعضهم ببعض حتى يدخل أولهم وآخرهم الجنة وجوههم على صورة القمر ليلة البدر» عن أبي أمامة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «وعندي ربي أن يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفاً لا حساب عليهم ولا عذاب ومع كل ألف سبعون ألفاً وثلاث حثيات من حثيات ربي» أخرجه الترمذي. وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن الجنة حرمت على الأنبياء كلهم حتى أدخلها وحرمت على الأمم حتى تدخلها أمتي» وقوله تعالى: ﴿أخرجت للناس﴾ معناه كنتم خير الأمم المخرجة للناس في جميع الأعصار ومعنى أخرجت أظهرت للناس حتى تميزت وعرفت وقيل معناه كنتم للناس خير أمة أخرجت (خ) عن أبي هريرة قال: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ قال: خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام، وقيل أخرجت صلة والتقدير كنتم خير أمة للناس وقيل معناه ما أخرج للناس أمة خير من أمة محمد ﷺ: ﴿تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾ هذا كلام مستأنف والمقصود منه بيان علة تلك الخيرية وكونهم خير أمة كما تقول: زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بمصالحهم. والمعروف هو التوحيد، والمنكر هو الشرك، والمعنى تأمرون الناس بقول لا إله إلا الله وتنهونهم عن الشرك ﴿وتؤمنون بالله﴾ أي تصدقون بالله وتخلصون له التوحيد والعبادة. فإن قلت لم قدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله في الذكر مع أن الإيمان يلزم أن يكون مقدماً على كل الطاعات والعبادات؟ قلت الإيمان بالله أمر يشترك فيه جميع الأمم المؤمنة وإنما فضلت هذه الأمة الإسلامية بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على سائر الأمم، وإذا كان كذلك كان المؤثر في هذه الخيرية هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأما الإيمان بالله فهو شرط في هذا الحكم لأنه ما لم يوجد الإيمان لم يضر شيء من الطاعات مقبولا فثبت أن الموجب لهذه الخيرية لهذه الأمة هو كونهم أمرين بالمعروف ناهين عن المنكر، فلهذا السبب حسن تقديم ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ذكر الإيمان وقوله تعالى: ﴿ولو آمن أهل الكتاب﴾ يعني ولو آمن اليهود والنصارى بمحمد ﷺ وبالدين الذي جاء به ﴿لكان خيراً لهم﴾ يعني مما هم عليه من اليهودية والنصرانية وإنما حملهم على ذلك حب الرياسة واستتباع العوام ولو أنهم آمنوا لحصلت لهم الرياسة في الدنيا، والثواب

معمّر عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جدّه أنه سمع النبي ﷺ يقول في قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ قال: «إنكم تنمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل»، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا معشر بن إبراهيم بن محمد الفيركي أخبرنا أبو عبد الله محمد بن زكريا بن يحيى أخبرنا أبو الصلت أخبرنا حماد بن زيد أخبرنا علي بن زيد عن أبا نصرّة عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «ألا وإن هذه الأمة تُوفي سبعين أمة هي أخيرها وأكرمها على الله عز وجل»، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحق الثعلبي، أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن محمد أنا الفضل بن الفضل أخبرنا خليفة الفضل بن الحباب قال عبد الرحمن يعني ابن المبارك أخبرنا حماد بن يحيى الأشج أنا ثابت البناني عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل أمتي مثل المطر لا يُدرى أوله خير أم آخره». أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحق الثعلبي أنا أبو محمد المخلدني أخبرنا أبو نعيم عبد الملك بن محمد بن عدي أخبرنا محمد بن عيسى التنيسي أخبرنا عمر بن أبي سلمة أخبرنا صدقة بن عبد الله عن زهير محمد بن عبد الله بن عقيل عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن الجنة حُرِّمَتْ على الأنبياء كلهم حتى أدخلها، وحُرِّمَتْ على الأمم كلهم

العظيم في الآخرة وهو دخول الجنة ﴿منهم﴾ يعني من أهل الكتاب ﴿المؤمنون﴾ يعني عبدالله بن سلام وأصحابه الذين أسلموا من اليهود والنجاشي وأصحابه الذين أسلموا من النصارى ﴿وأكثرهم الفاسقون﴾ أي المتمردون في الكفر، وقيل إن الكافر قد يكون عدلاً في دينه وهؤلاء مع كفرهم فاسقون. قوله عز وجل: .

لَنْ يَضُرَّوْكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلَوْكُمْ الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَبَغَضٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾

﴿لَنْ يَضُرَّوْكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ سبب نزول هذه الآية أن رؤساء اليهود عمدوا إلى من آمن منهم مثل عبدالله بن سلام وأصحابه فأذوهم لإسلامهم فأنزل الله تعالى ﴿لَنْ يَضُرَّوْكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ يعني لن يضرركم أيها المؤمنون هؤلاء اليهود إلا أذى يعني باللسان من طعنهم في دينكم أو تهديد أو إلقاء شبهة وتشكيك في القلوب وكل ذلك يوجب الأذى والغم ﴿وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلَوْكُمْ الْأَذْبَارُ﴾ يعني منهزمين مخذولين ﴿ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ يعني لا يكون لهم النصر عليكم بل تنصرون عليهم وفيه تثبيت لمن أسلم من أهل الكتاب لأنهم كانوا يؤذونهم بالقول ويهددونهم ويوبخونهم فأعلمهم الله تعالى أنهم لا يقدر أن يجاوزوا الأذى بالقول إلى غيره من الضرر ثم وعدهم الغلبة والانتقام منهم وأن عاقبتهم الخذلان والذل فقال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ يعني جعلت الذلة ملصقة بهم كالشيء يضرب على الشيء فيلتصق به، والمراد بالذلة قتلهم وسبيهم وغنيمة أموالهم وقيل الذلة ضرب الجزية عليهم لأنهم ذلة وصغار وقيل ذلتهم أنك لا ترى في اليهود ملكاً قاهراً ولا رئيساً معتبراً بل مستضعفون في جميع البلاد ﴿أَيْنَمَا تُقِفُوا﴾ أي حيثما وجدوا وصودفوا ﴿إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ﴾ يعني إلا بعهد من الله وهو أن يسلموا فتزول عنهم الذلة ﴿وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ﴾ يعني المؤمنين ببذل الجزية والمعنى ضربت عليهم الذلة في عامة الأحوال إلا في حال اعتصامهم بحبل الله وحبل الناس وهو ذمة الله وعهده وذمة المسلمين وعهدهم لا عزلهم إلا هذه الواحدة وهي التجاؤهم إلى الذمة لما قبلوه من بذل الجزية. وإنما سمي العهد حبلاً لأنه سبب يوصل إلى الأمن وزال الخوف ﴿وَبَاؤُوا بِغَضَبِ مِنَ اللَّهِ﴾ يعني رجعوا بغضب من الله واستوجبوه وقيل أصله من البواء وهو المكان والمعنى أنهم مكثوا في غضب من الله وحلوا فيه ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ يعني كما يضرب البيت على أهله فهم ساكنون في

حتى تدخلها أمي»، أخبرنا أبو سعيد الشريحي قال: أخبرنا أبو إسحق الثعلبي أنا أبو عبد الله الحسين بن محمد أخبرنا أبو القاسم عمر بن محمد بن عبد الله بن حاتم الترمذي أخبرنا جدي لأبي محمد بن عبد الله بن مرزوق أنا عقاب بن مسلم أنا عبد العزيز بن مسلم أخبرنا أبو سنان يعني ضرار بن مرة عن محارب بن دثار عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة عشرون ومائة صف ثمانون من هذه الأمة»، قوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: الكافرون.

قوله تعالى: ﴿لَنْ يَضُرَّوْكُمْ إِلَّا أَذًى﴾، قال مقاتل: إن رؤوس اليهود عمدوا إلى من آمن منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه، فأذوهم فأنزل الله تعالى هذه الآية، لن يضرركم أيها المؤمنون هؤلاء اليهود إلا أذى باللسان وعيداً وطغياناً، وقيل كلمة كفر تتأذون بها ﴿وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلَوْكُمْ الْأَذْبَارُ﴾، منهزمين، ﴿ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾، بل يكون لكم النصر.

المسكنة غير خارجين منها قال الحسن المسكنة هي الجزية، وذلك لأن الله تعالى أخرج المسكنة عن الاستثناء، وذلك يدل على أنها باقية عليهم والباقي عليهم هو الجزية فدل على أن المسكنة هي الجزية، وقيل المراد بالمسكنة هو أن اليهودي يظهر من نفسه الفقر وإن كان غنياً موسراً ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما ذكر من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب ﴿بأنهم﴾ أي بسبب أنهم ﴿كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ أي ذلك الذي نزل بهم بسبب عصيانهم لله عز وجل وتعديهم لحدوده فنزل بهم ما نزل قوله عز وجل: .

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ

بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿١١٤﴾

﴿ليسوا سواء﴾ قال ابن عباس: لما أسلم عبدالله بن سلام وأصحابه قالت أحبار اليهود ما آمن محمد ﷺ إلا شرارنا ولولا ذلك ما تركوا دين آبائهم فأنزل الله تعالى هذه الآية وفي قوله: ﴿ليسوا سواء﴾ قولان أحدهما أنه كلام تام يوقف عليه والمعنى أهل الكتاب الذي سبق ذكرهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ليسوا سواء، وقيل معناه لا يستوي اليهود وأمة محمد ﷺ القائمة بأمر الله الثابتة على الحق. والقول الثاني أن قوله: ﴿ليسوا سواء﴾ متعلق بما بعده ولا يوقف عليه وقوله: ﴿من أهل الكتاب أمة قائمة﴾ فيه اختصار وإضمار والتقدير ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة ومنهم أمة مذمومة غير قائمة فترك ذكر الأمة الأخرى اكتفاء بذكر أحد الفريقين وهذا على مذهب العرب أن ذكر أحد الضدين يغني عن ذكر الآخر قال أبو ذؤيب:

دعاني إليها القلب إنني امرؤ لها مطيع فلا أدري أرشد طلابها

أراد أم غير رشد فاكتمى بذكر أحد الرشددين دون الآخر. وقال الزجاج: لا حاجة إلى إضمار الأمة المذمومة لأنه قد جرى ذكر أهل الكتاب بقوله: كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق فأعلم الله أن منهم أمة قائمة فلا حاجة بنا إلى أن نقول وأمة غير قائمة إنما ابتدأ بذكر فعل الأكثر منهم وهو الكفر والمشاقة، ثم ذكر من كان

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَمَا تُقِفُوا﴾، حيث ما وجدوا ﴿إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ﴾ يعني: أينما وجدوا استضعفوا وقُتِلُوا أو سُبُّوا فلا يأمنون إِلَّا بِحَبْلِ: عهد من الله تعالى بأن يُسَلِّمُوا، ﴿وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ﴾ من المؤمنين ببذل جزية أو أمان، يعني: إِلَّا أَنْ يُعَصِّمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ فَيَأْمِنُوا، قوله تعالى: ﴿وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾، رجعوا به، ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما ومقاتل: لما آمن عبد الله بن سلام وأصحابه، قالت أحبار اليهود: ما آمن بمحمد ﷺ إلا شرارنا ولولا ذلك لما تركوا دين آبائهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية، واختلفوا في وجهها فقال قوم: فيه اختصار تقديره: ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة وأخرى غير قائمة، فترك الأخرى اكتفاء بذكر أحد الفريقين، وقال الآخرون: تمام الكلام عند قوله: ﴿ليسوا سواء﴾ وهو وقف لأنه قد جرى ذكر الفريقين من أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾ ثم قال: ﴿ليسوا سواء﴾ يعني: المؤمنين والفاسقين، ثم وصف الفاسقين، فقال: ﴿لَنْ يَضُرَّوْكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ ووصف المؤمنين بقوله: ﴿أمة قائمة﴾ وقيل: قوله: ﴿من أهل الكتاب﴾ ابتداء كلام آخر، لأن ذكر

مبايناً لهم في فعلهم فقال: «ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة» قال ابن عباس: قائمة أي مهدية قائمة على أمر الله تعالى لم يضعوه ولم يتركوه، وقيل قائمة أي عادلة وقيل قائمة على كتاب الله عز وجل وحدوده وقيل: قائمة في الصلاة ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي يقرؤون كتاب الله عز وجل: ﴿آثَاءَ اللَّيْلِ﴾ يعني ساعاته ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ يعني يصلون، عبر بالسجود عن الصلاة لأن التلاوة لا تكون في السجود وقيل: هي صلاة التهجد بالليل وقيل هي صلاة العشاء لأن اليهود لا يصلونها وقيل يحتمل أنه أراد بالسجود الخضوع والخشوع لأن العرب تسمي الخشوع سجوداً وقال عطاء في قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ يريد أربعين رجلاً من أهل نجران من العرب واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى عليه الصلاة والسلام وصدقوا بمحمد ﷺ وآمنوا به وكانوا عدة نفر من الأنصار منهم أسعد بن زرارة والبراء بن معرور ومحمد بن مسلمة وأبو قيس صرمة بن أنس كانوا قبل الإسلام موحدين يغتسلون من الجنابة ويقومون بما عرفوا من شرائع الحنيفية حتى جاءهم الله عز وجل بالنبى ﷺ فآمنوا به وصدقوه، ثم وصفهم الله تعالى بصفات ما كانت في اليهود فقال: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وذلك لأن إيمان أهل الكتاب فيه شرك ويصفون اليوم الآخر بغير ما يصفه المؤمنون، وقيل إن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بجميع أنبيائه ورسله واليهود يؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون ببعض والإيمان باليوم الآخر يستلزم الحذر من فعل المعاصي واليهود لا يحترزون منها فلم يحصل الإيمان الخالص بالله واليوم الآخر ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ يعني غير مدهنين كما يدهن اليهود بعضهم بعضاً. وقيل يأمرُونَ بالمعروف يعني بتوحيد الله تعالى والإيمان بمحمد ﷺ وينهون عن المنكر يعني عن الشرك وعن كتم صفة محمد ﷺ ﴿وَيَسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي يبادرون إليها خوف الفوت وذلك أن من رغب في أمر سارع إليه وقام به غير متوان عنه وقيل يسارعون في الخيرات غير متفاقلين ولا كسالي ﴿وَأُولَئِكَ﴾ إشارة إلى الموصوفين بما وصفوا به ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي من جملة الصالحين الذين صلحت أحوالهم عند الله عز وجل ورضي عنهم واستحقوا ثناءه عليهم، وذلك لأن الصلاح ضد الفساد فإذا حصل الصلاح للإنسان فقد حصل له أعلى الدرجات وأكمل المقامات وقيل يحتمل أن يراد بالصالحين المسلمون والمعنى أولئك الذين تقدم وصفهم من جملة المسلمين. قوله عز وجل: .

الفريقين قد جرى، ثم قال: ليس هذان الفريقان سواء، ثم ابتدأ فقال: من أهل الكتاب، قال ابن مسعود رضي الله عنه: لا يستوي اليهود وأمة محمد ﷺ القائمة بأمر الله الثابتة على الحق المستقيمة، وقوله تعالى: ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ قال ابن عباس: أي مهدية قائمة على أمر الله لم يضيّعوه ولم يتركوه. وقال مجاهد: عادلة. وقال السدي: مطيعة قائمة على كتاب الله وحده. وقيل: قائمة في الصلاة. وقيل: الأمة الطريقة. ومعنى الآية: أي ذُؤُوا أُمَّةً، أي: ذُؤُوا طريقةً مستقيمة. ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾، يقرؤون كتاب الله، وقال مجاهد: يتبعون ﴿آثَاءَ اللَّيْلِ﴾، ساعاته، واحداها: أنى وآناء، مثل نحى وأنحاء، وأنى وآناء مثل: معى وأمعاء، وأنى مثل منا وأمناء، ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أي: يصلون، لأن التلاوة لا تكون في السجود. واختلفوا في معناها، فقال بعضهم: هي قيام الليل، وقال ابن مسعود صلاة العتمة يصلونها ولا يصلونها من سواهم من أهل الكتاب، وقال عطاء: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ الآية يريد: أربعين رجلاً من أهل نجران من العرب واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى وصدقوا محمداً ﷺ، وكان من الأنصار منهم عدة قبل قدوم النبي ﷺ، منهم أسعد بن زرارة والبراء بن معرور ومحمد بن سلمة وأبو قيس بن صرمة بن أنس، كانوا موحدين يغتسلون من الجنابة ويقومون بما عرفوا من شرائع الحنيفية حتى جاءهم الله تعالى بالنبى ﷺ فصدقوه ونصروه.

قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ .

وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْتُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾

﴿وما يفعلوا من خير فلن يكفروه﴾ قرىء بالياء لأن الكلام متصل بما قبله من ذكر مؤمني أهل الكتاب وذلك أن اليهود لما قالوا لعبدالله بن سلام وأصحابه إنكم خسرتم بسبب هذا الدين الذي دخلتم فيه فأخبر الله تعالى أنهم فازوا بالدرجات العلى وما فعلوه مكن خير يجازيهم به ولا يمنع من خصوص السبب عموم الحكم فيدخل فيه كل فاعل للخير وقرىء بالتاء على أنه ابتداء كلام وهو خطاب لجميع المؤمنين ويدخل فيه مؤمنوا أهل الكتاب أيضاً ومعنى الآية وما تفعلوا من خير أيها المؤمنون فلن تكفروه أي فلن تعدموا ثوابه ولن تجرموه أو تمنعوه بل يشكره لكم ويجازيكم به ﴿والله عليم بالمتقين﴾ فيه بشارة للمتقين بجزيل الثواب ودلالة على أنه لا يفوز عنده إلا أهل الإيمان والتقوى. قوله عز وجل: ﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً﴾ قال ابن عباس: يريد بني قريظة والنضير وذلك أن رؤساء اليهود مالوا إلى تحصيل الأموال في معاداة رسول الله ﷺ، وإنما كان مقصودهم بمعاداته تحصيل الرياسة والأموال فقال الله عز وجل: ﴿لن تغني عنهم أموالهم﴾ وقيل: نزلت في مشركي قريش فإن أبا جهل كان كثير الاقتحار بالأموال وأنفق أبو سفيان مالاً كثيراً في يومي بدر وأحد على المشركين وقيل: إن الآية عامة في جميع الكفار لأن اللفظ عام ولا دليل يوجب التخصيص فوجب إجراء اللفظ على عمومهم ومعنى الآية: ﴿إن الذين كفروا لن تغني﴾ أي تدفع أموالهم بالفدية لو افتدوا بها من عذاب الله ولا أولادهم بالنصر وإنما خص الأموال والأولاد بالذكر لأن الإنسان يدفع عن نفسه تارة بالفداء بالمال وتارة بالاستعانة بالأولاد فأعلم الله تعالى أن الكافر لا ينفعه شيء من ذلك في الآخرة ولا مخلص له من عذاب الله وهو قوله: ﴿وأولئك أصحاب النار هم خالدون﴾ لا يخرجون منها ولا يفارقونها قوله عز وجل: ﴿مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا﴾ قيل أراد نفقة أبي سفيان وأصحابه ببدر وأحد في معاداة رسول الله ﷺ وقيل أراد نفقة اليهود على علمائهم ورؤسائهم وقيل: أراد نفقات جميع الكفار وصدقاتهم في الدنيا وقيل: أراد نفقة المرائي الذي لا يريد بما ينفق وجه الله تعالى وذلك لأن إنفاقهم المال إما أن يكون لمنافع الدنيا أو لمنافع الآخرة فإن كان لمنافع الدنيا لم يبق له أثر في الآخرة في حق المسلم فضلاً عن الكافر وإن كان لمنافع الآخرة كمن يتصدق ويعمل أعمال البر فإن

﴿وما يفعلوا من خير فلن يكفروه﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص بالياء فيهما إخبار عن الأمة القائمة، وقرأ الآخرون بالتاء فيهما، لقوله: ﴿كنتم خير أمة﴾، وأبو عمرو يرى القراءتين جميعاً، ومعنى هذه الآية: وما تفعلوا من خير فلن تعدموا ثوابه بل يشكر لكم وتجاوزون عليه، ﴿والله عليم بالمتقين﴾، بالمؤمنين.

﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً﴾، أي: لا تدفع أموالهم بالفدية وأولادهم بالنصرة من الله شيئاً، أي: من عذاب الله، وخصهما بالذكر لأن الإنسان يدفع عن نفسه تارة بفداء المال وتارة بالاستعانة بالأولاد. ﴿وأولئك أصحاب النار هم خالدون﴾، وإنما جعلهم من أصحابهم لأنهم أهلها لا يخرجون منها ولا يفارقونها، كصاحب الرجل لا يفارقه.

كان كافراً فإن الكفر محبط لجميع أعمال البر فلا ينتفع بما أنفق في الدنيا لأجل الآخرة وكذلك المرائي الذي لا يريد بما أنفق وجه الله تعالى فإنه لا ينتفع بنفقته في الآخرة ثم ضرب لذلك الإنفاق مثلاً فقال تعالى: ﴿كَمْثِلَ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ فيه وجهان: أحدهما وهو قول أكثر المفسرين، وأهل اللغة إن الصر البرد الشديد وبه قال ابن عباس وقتادة والسدي وابن زيد: والوجه الثاني أن الصر هو السموم الحارة التي تقتل وهو رواية عن ابن عباس وبه قال ابن الأنباري من أهل اللغة وعلى الوجهين فالتشبيه صحيح والمقصود منه حاصل لأنها سواء كان فيها برد فهي مهلكة أو حر فهي مهلكة أيضاً ﴿أَصَابَتْ﴾ يعني الريح التي فيها صر ﴿حَرِثَ قَوْمٌ﴾ أي زرع قوم ﴿ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ يعني بالكفر والمعاصي ومنع حق الله فيه ﴿فَأَهْلَكَتْ﴾ يعني فأهلك الريح الزرع ومعنى الآية مثل نفقات الكفار في ذهابها وقت الحاجة إليها كمثل زرع أصابته ريح باردة فأهلكته أو نار فأحرقته فلم ينتفع به أصحابه. فإن قلت الغرض تشبيه ما أنفقوا وأبطال ثوابه وعدم الانتفاع به الحِرْث الذي هلك بالريح فكيف شبهه بالريح المهلكة للحِرْث؟ قلت هو من التشبيه المركب وهو ما حصلت فيه المشابهة بين ما هو المقصود من الجملتين وإن لم تحصل المشابهة بين أجزاء الجملتين فعلى هذا زال الإشكال ومن التشبيه ما حصلت فيه المشابهة بين المقصود من الجملتين وبين أجزاء كل واحدة منهما فإن جعلنا هذا المثل من هذا القسم ففيه وجهان: أحدهما أن يكون التقدير مثل الكفر في إهلاك ما ينفقون كمثل الريح المهلكة للحِرْث. الوجه الثاني مثل ما ينفقون كمثل مهلك الريح وهو الحِرْث والمقصود من ضرب هذا المثل هو تشبيه ما ينفقون بشيء يذهب بالكلية ولا يبقى منه شيء. وقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ يعني بأن لم يقبل نفقاتهم ﴿وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ يعني أنهم عصوا الله فاستحقوا عقابه فأبطل نفقاتهم وأهلك حرثهم وقيل ظلموا أنفسهم حيث لم يأتوا بنفقاتهم مستحقة للقبول. قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً﴾ الآية قال ابن عباس: كان رجال من المسلمين يواصلون اليهود لما بينهم من القرابة والصداقة والحلف والجوار والرضاع فأنزل الله عز وجل هذه الآية ونهاهم عن مبايحتهم خوف الفتنة عليهم ويدل على صحة هذا القول أن الآيات المتقدمة فيها ذكر اليهود فتكون هذه الآية كذلك، وقيل كان قوم من المؤمنين يصفون المنافقين ويفشون إليهم الأسرار ويطلعونهم على الأحوال الخفية فنهاهم الله عن ذلك وحجة هذا القول أن

﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، قيل: أراد نفقات أبي سفيان وأصحابه ببدر وأُخذ على عداوة رسول الله ﷺ، وقال مقاتل: أراد نفقة اليهود على علمائهم، قال مجاهد: يعني جميع نفقات الكفار في الدنيا وصدقاتهم، وقيل: أراد إنفاق المرائي الذي لا يبتغي به وجه الله تعالى، ﴿كَمْثِلَ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾، حُكي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنها السُّموم الحارة التي تقتل، وقيل: فيها صِرٌّ أي: صوت، وأكثر المفسرين قالوا: فيها برد شديد، ﴿أَصَابَتْ حَرِثَ قَوْمٍ﴾ زرع قوم، ﴿ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾، بالكفر والمعصية ومنع حق الله تعالى، ﴿فَأَهْلَكَتْ﴾، فمعنى الآية: مثل نفقات الكفار وذهابها وقت الحاجة إليها كمثل زرع أصابته ريح باردة فأهلكته أو نار فأحرقته فلم ينتفع أصحابه منه بشيء، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾، بذلك، ﴿وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، بالكفر والمعصية.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾ الآية، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان رجال من المسلمين يواصلون اليهود لما بينهم من القرابة والصداقة والحلف والجوار والرضاع، فأنزل الله تعالى هذه الآية ينهاهم عن مبايحتهم خوف الفتنة عليهم، وقال مجاهد: نزلت في قوم من المؤمنين كانوا يصفون المنافقين فنهاهم الله تعالى عن ذلك، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾ أي: أولياء أصفياء من غير أهل ملتكم، وبطانة الرجل: خاصته، تشبيهاً ببطانة الثوب التي تلي بطنه، لأنهم يستبطنون أمره ويطلعون منه على

الله ذكر في سياق هذه الآية قوله: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكَ﴾ وهذه صفة المنافقين لا صفة اليهود وقيل المراد بهذه جميع أصناف الكفار، ويدل على صحة هذا القول معنى الآية لأن الله تعالى قال لا تتخذوا بطانة من دونكم فمنع المؤمنين أن يتخذوا بطانة من دون المؤمنين فيكون ذلك نهياً عن جميع الكفار والبطانة خاصة الرجل المطلع على سره واشتقاقه من بطانة الثوب بدلالة قولهم لبست فلاناً إذا اختصصته، ويقال فلان شعاري وثناري والشعار الذي يلي الجسد وكذلك البطانة والحاصل أن الذي يخصه الإنسان بمزيد القرب يسمى بطانة لأنه يستبطن أمره ويطلع منه على ما لا يطلع عليه غيره ﴿مِنْ دُونِكُمْ﴾ قبل من صلة زائدة والتقدير لا تتخذوا بطانة دونكم، وقيل من للتبيين أي لا تتخذوا بطانة من دون أهل ملتكم والمعنى لا تتخذوا أولياء ولا أصفياء من غير أهل ملتكم ثم بين سبحانه وتعالى علة النهي عن مباظنتهم فقال تعالى: ﴿لَا يَأْلُوَكُمْ خِبَالًا﴾ يعني لا يقصرون ولا يتركون جهدهم فيما يورثكم الشر والفساد وهو الخبال لأن أصل الخبال الفساد والضرر الذي يلحق الإنسان فيورثه نقصان العقل ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ أي يودون عنتكم وهو ما يشق عليكم من الضرر والشر والهلاك والعنت المشقة ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي ظهرت العداوة من أفواههم بالشتيمة والوقعة بين المسلمين وقيل هو إطلاع المشركين على أسرار المؤمنين ﴿وَمَا تُخْفِي صدورهم﴾ يعني من العداوة والغيط ﴿أَكْبَرُ﴾ أي أعظم مما يظهرونه ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ يعني الدالة على وجوب الإخلاص في الدين من موالة المؤمنين ومعادة الكافرين ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يعني ما بين لكم فتعظون به. قوله تعالى: .

هَآأَنَئِمُّ أَوْلَآءَ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمْ
الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِنْ تَمَسَسَكُمْ حَسَنَةٌ سَوَّاهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ
سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾

﴿ها أنتم﴾ ها للتنبية وأنتم كناية للمخاطبين من الذكور ﴿أولاء﴾ اسم للمشار إليهم في قوله ﴿تحبونهم﴾ والمعنى أنتم إليها المؤمنون تحبون هؤلاء اليهود الذين نهيتكم عن مباظنتهم للأسباب التي بينكم وبينهم من القرابة والرضاع والمصاهرة والحلف ﴿ولا يحبونكم﴾ يعني اليهود لما بينكم وبينهم من المخالفة في الدين، وقيل تحبونهم يعني تريدون لهم الإسلام وهو خير الأشياء ولا يحبونكم لأنهم يريدون لكم الكفر وهو شر الأشياء لأن فيه هلاك الأبد وقيل هم المنافقون تحبونهم لما أظهروا من الإيمان وأنتم لا تعلمون ما في قلوبهم ولا يحبونكم لأن

ما لا يطلع عليه غيرهم، ثم بين العلة في النهي عن مباظنتهم فقال جل ذكره ﴿لَا يَأْلُوَكُمْ خِبَالًا﴾، أي: لا يقصرون ولا يتركون جهدهم فيما يورثكم الشر والفساد، والخبال: الشر والفساد، ونصب ﴿خبالاً﴾ على المفعول الثاني، لأن ﴿يألو﴾ يتعدى إلى مفعولين، وقيل: بنزع الخافض، أي بالخبال، كما يقال أوجعته ضرباً، ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾، أي يودون ما يشق عليكم من الضر والشر والهلاك، والعنت المشقة، ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ﴾ أي: البغض، معناه ظهرت أمانة العداوة، ﴿مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾، بالشتيمة والوقعة في المسلمين، وقيل: بإطلاع المشركين على أسرار المسلمين، ﴿وَمَا تُخْفِي صدورهم﴾، من العداوة والغيط، ﴿أَكْبَرُ﴾، أعظم، ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ .

﴿ها أنتم﴾ ها تنبيه وأنتم كناية للمخاطبين من الذكور، ﴿أولاء﴾ اسم للمشار إليه، يريد أنتم أيها المؤمنون، ﴿تحبونهم﴾ أي: تحبون هؤلاء اليهود الذين نهيتكم عن مباظنتهم للأسباب التي بينكم من القرابة والرضاع والمصاهرة، ﴿ولا يحبونكم﴾، لما بينكم من مخالفة الدين، وقال مقاتل هم المنافقون يحبهم المؤمنون

الكفر ثابت في قلوبهم وقيل تحبونهم وذلك بأن تفشوا إليهم أسراركم ولا يحبونكم أي لا يفعلون مثل ذلك معكم ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ يعني وهم لا يؤمنون وإنما ذكر الكتاب بلفظ الواحد والمراد به الجمع لأنه ذهب به إلى الجنس كقولهم كثر الدرهم في أيدي الناس والمعنى أنكم تؤمنون بالكتب كلها وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم ﴿وَإِذَا لَقُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ يعني أن الذين وصفهم في هذه الآية بهذه الصفات إذا لقوا المؤمنين قالوا آمنا كإيمانكم وصدقنا كتصديقكم وهذه صفة المنافقين وقيل هم اليهود ﴿وَإِذَا خَلَوْا﴾ أي خلا بعضهم إلى بعض ﴿عَصَوْا عَلَيْكُمْ الْأُنَاطِلَ مِنَ الْغِيظِ﴾ الأنامل جمع أنملة وهي طرف الأصبع والمعنى أنه إذا خلا بعضهم ببعض أظهروا العداوة وشدة الغيظ، على المؤمنين لما يرون من ائتلافهم واجتماع كلمتهم وصلاح ذات بينهم وعض الأنامل عبارة عن شدة الغيظ وهذا من مجاز الأمثال وإن لم يكن هناك عض كما يقال عض يده من الغيظ والغضب ﴿قُلْ مَوْتُوا بِغِيظِكُمْ﴾ هذا دعاء عليهم أن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به وذلك لما يرون من قوة الإسلام وعزة أهله ومالهم في ذلك من الذل والخزي والمعنى ابقوا إلى الممات بغيظكم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يعني به الخواطر القائمة بالقلب والدواعي والصوارف الموجودة فيه وهي لكونها حالة في القلب منتسبة إليه كنى عنها بذات الصدور والمعنى أنه تعالى عالم بكل ما يحصل في قلوبكم من الخواطر فأخبرهم أنه عليم بما يسرونه من عض الأنامل غيظاً إذا خلوا وأنه عليم بما هو أخفى منه وهو ما يسرونه في قلوبهم. قوله عز وجل: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ﴾ أي تصبكم أيها المؤمنون وأصل المس باليد ثم يسمى كل ما يصل إلى شيء ماساً له على سبيل التشبيه كما يقال مسه نصب وتعب أي أصابه ﴿حَسَنَةً﴾ المراد بالحسنة هنا منافع الدنيا مثل ظهوركم على عدوكم وإصابتكم غنيمة منهم وتتابع الناس في الدخول في دينكم وخصب في معاشكم ﴿تَسْؤُهُمْ﴾ أي تحزنهم وتغمهم والسوء ضد الحسنى ﴿وَإِنْ تَصْبِكُمْ سَيِّئَةً﴾ أي مساءة من إخفاق سرية لكم أو إصابة عدو منكم أو اختلاف يقع بينكم أو غدر ونكبة ومكروه يصيبكم ﴿يَفْرَحُوا بِهَا﴾ أي بما أصابكم من ذلك المكروه ﴿وَإِنْ تَصَبَرُوا﴾ يعني على أذاهم وقيل إن تصبروا على طاعة الله وما ينالكم فيها من شدة ﴿وَتَتَّقُوا﴾ أي تخالفوا ربكم وقيل وتتقوا ما نهاكم عنه وتوكلوا عليه ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ أي لا ينقصكم ﴿كَيْدُهُمْ﴾ أي عداوتهم ومكرهم ﴿شَيْئاً﴾ أي لأنكم في عناية الله وحفظه ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ قرئ بالياء على

لما أظهروا من الإيمان، ولا يعلمون ما في قلوبهم، ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾، يعني: بالكتب كلها وهم لا يؤمنون بكتابكم، ﴿وَإِذَا لَقُوا قَالُوا آمَنَّا، وَإِذَا خَلَوْا﴾، وكان بعضهم مع بعض ﴿عَصَوْا عَلَيْكُمْ الْأُنَاطِلَ مِنَ الْغِيظِ﴾، يعني: أطراف الأصابع واحدها أنملة بضم الميم وفتحها، من الغيظ لما يرون من ائتلاف المؤمنين واجتماع كلمتهم، وعض الأنامل عبارة عن شدة الغيظ وهذا من مجاز الأمثال، وإن لم يكن ثم عض ﴿قُلْ مَوْتُوا بِغِيظِكُمْ﴾، أي: ابقوا إلى الممات بغيظكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، أي: بما في القلوب من خير وشر.

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ﴾ أي: تصبكم أيها المؤمنون ﴿حَسَنَةً﴾ بظهوركم على عدوكم وغنيمة تنالونها منهم، وتتابع الناس في الدخول في دينكم، وخصب في معاشكم ﴿تَسْؤُهُمْ﴾، تحزنهم، ﴿وَإِنْ تَصْبِكُمْ سَيِّئَةً﴾، مساءة بإخفاق سرية لكم أو إصابة عدو منكم، واختلاف يكون بينكم أو جذب أو نكبة، ﴿يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصَبَرُوا﴾، على أذاهم ﴿وَتَتَّقُوا﴾، تخافوا ربكم ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾، أي: لا ينقصكم، ﴿كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾، قرأ ابن عامر وابن كثير ونافع وأهل البصرة ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ بكسر الضاد خفيفة، يقال: ضار يضير ضيراً، وهو جزم على جواب الجزاء، وقرأ الباقون بضم الضاد وتشديد الراء من ضرّ يضّرّ ضرّاً، مثل ردّ يردّ ردّاً وفي رفعه وجهان. أحدهما: أنه أراد الجزم، وأصله يضرركم فأدغمت الراء في الراء، ونقلت ضمة الراء الأولى الضاد وضمت الثانية

الغبية والمعنى أنه عالم بما يعملون من عداوتكم وأذاكم فيعاقبهم عليه وقرىء بالتاء على خطاب الحاضر والمعنى أنه عالم بما تعملون أيها المؤمنون من الصبر والتقوى فيجازيكم عليه ﴿محيط﴾ أي عالم بجميع ذلك حافظ لا يعزب عنه شيء منه . قوله عز وجل :

وَإِذَا غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾

﴿وإذا غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال﴾ قال جمهور المفسرين إن هذا كان في يوم أحد وهو قول عبدالرحمن بن عوف وابن مسعود وابن عباس والزهري وقتادة والسدي والربيع وابن إسحاق، وقال الحسن ومجاهد ومقاتل: إنه يوم الأحزاب ونقل عن الحسن أيضاً أنه يوم بدر قال ابن جرير الطبري الأول أصح لقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشِلَا﴾ وقد اتفق العلماء أن ذلك كان يوم أحد قال مجاهد والكلبي والواقدي غداً رسول الله ﷺ من منزل عائشة فمشى على رجله إلى أحد فجعل يصف أصحابه للقتال كما يقوم القدح قال محمد بن إسحاق والسدي عن رجالهما إن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء فلما سمع رسول الله ﷺ بنزولهم استشار أصحابه ودعا عبدالله بن أبي ابن سلول ولم يدعه قط قبلها فاستشاره فقال عبدالله بن أبي وأكثر الأنصار يا رسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج إليه فوالله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه فكيف وأنت فينا فدعهم يا رسول الله، فإن أقاموا أقاموا بشر مجلس وإن دخلوا قاتلتهم الرجال في وجوهم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم وإن رجعوا رجعوا خائبين فأعجب رسول الله ﷺ هذا الرأي وقال بعض أصحابه يا رسول الله اخرج بنا إلى هذه الأكلب لئلا يروا أنا جنبنا عنهم وضعفنا وخفناهم فقال رسول الله ﷺ إني قد رأيت في منامي بقرأ فأولتها خيراً ورأيت في ذباب سيفي ثلماً فأولتها هزيمة ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم فإن أقاموا أقاموا بشر وإن دخلوا علينا المدينة قاتلناهم فيها وكان رسول الله ﷺ يعجبه أن يدخلوا عليه المدينة فيقاتلهم في الأركة فقال رجال من المسلمين ممن فاتهم يوم بدر وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد أخرج بنا إلى أعدائنا، فلم يزلوا برسول الله ﷺ من حبههم للقاء القوم حتى دخل رسول الله ﷺ منزله ولبس لأمته فلما رآوه قد لبس السلاح ندموا وقال بشس ما صنعنا نشير على رسول الله ﷺ والوحي يأتيه فقاموا واعتذروا إليه وقالوا: يا رسول الله اصنع ما شئت فقال رسول الله ﷺ: لا ينبغي

اتباعاً، والثاني: أن يكون لا بمعنى ليس ويضمير فيه الفاء، تقديره: وإن تصبروا وتتقوا فليس يضرركم كيدهم شيئاً، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، أي: عالم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾، قال الحسن: هو يوم بدر، وقال مقاتل: يوم الأحزاب، وقال سائر المفسرين: هو يوم أحد، وقال مجاهد والكلبي والواقدي: غدا رسول الله ﷺ من منزل عائشة رضي الله عنها يمشي على رجله إلى أحد فجعل يصف أصحابه للقتال كما يقوم القدح، قال محمد بن إسحق والسدي عن رجالهما: إن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء فلما سمع رسول الله ﷺ بنزولهم استشار أصحابه ودعا عبد الله بن أبي ابن سلول ولم يدعه قط قبلها فاستشاره، فقال عبد الله بن أبي وأكثر الأنصار: يا رسول الله أقم بالمدينة لا تخرج إليهم فوالله ما خرجنا إلى عدو قط إلا أصاب منا ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فكيف وأنت فينا فدعهم يا رسول الله فإن أقاموا أقاموا بشر مجلس، وإن دخلوا قاتلتهم الرجال في وجوهم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوق، وإن رجعوا رجعوا خائبين فأعجب رسول الله ﷺ هذا الرأي، وقال بعض أصحابه: يا رسول الله اخرج بنا إلى هذه الأكلب، لا يرون أننا جنبنا عنهم وضعفنا، وقال رسول الله ﷺ: «إني رأيت في منامي

لنبي أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل وكان قد قام المشركون بأحد يوم الأربعاء والخميس وخرج رسول الله ﷺ يوم الجمعة بعد ما صلى بأصحابه الجمعة، وكان قد مات في ذلك اليوم رجل من الأنصار فصلى عليه ثم خرج عليهم فأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال سنة ثلاث من الهجرة. وقيل كان نزوله في جانب الوادي وجعل ظهره وأصحابه إلى أحد وأمر عبدالله بن جبير على الرماة. وقال ادفعوا عنا بالنبل حتى لا يأتونا من هرا وراثنا وقال رسول الله ﷺ اثبتوا في هذا المقام فإذا عاينوكم ولوا الأدبار فلا تطلبوا المدبرين ولا تخرجوا من هذا المقام ولما خالف رسول الله ﷺ رأى عبدالله بن أبي ابن سلول شق عليه ذلك وقال لأصحابه أطاع الولدان وعصاني ثم قال لأصحابه إن محمداً إنما يظفر بعدوه بكم وقد وعد أصحابه أن أعداءهم إذا عاينوهم انهزموا فإذا رأيتم أعداءهم فانهزموا أنتم فيتبعونكم فيصير الأمر إلى خلاف ما قاله محمد لأصحابه فلما التقى الجمعان وكان عسكر المسلمين ألفا وكان المشركون ثلاثة آلاف انخذل عبدالله بن أبي ابن سلول بثلاثمائة من أصحابه من المنافقين وبقي مع رسول الله ﷺ نحو سبعمائة من أصحابه فقواهم الله تعالى وثبتهم حتى هزموا المشركين. فلما رأى المؤمنون انهزام المشركين طمعوا في أن تكون هذه الواقعة كوقعة بدر فطلبوا المدبرين وخالفوا أمر رسول الله ﷺ فأراد الله أن يقطعهم عن هذا الفعل لثلا يقدموا على مثله من مخالفة رسول الله ﷺ وليعلموا أن ظفرهم يوم بدر إنما كان ببركة طاعة الله وطاعة رسوله. ثم إن الله تعالى نزع الرعب من قلوب المشركين فكروا راجعين على المسلمين فانهزم المسلمون وبقي رسول الله ﷺ في جماعة من أصحابه منهم أبو بكر وعلي والعباس وطلحة وسعد وكسرت رابعة رسول الله ﷺ وشج وجهه يومئذ وكان من أمر غزو أحد ما كان فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي واذكر إذ غدت من أهلك يعني منزل عائشة ففيه منقبة عظيمة لعائشة رضي الله عنها لقوله من أهلك فص الله تعالى على أنها من أهله تبوء المؤمن أي تنزل المؤمنين مقاعد للقتال أي مواضع ومواطن للقتال. وقيل تتخذ عسكراً للقتال ﴿والله سميع﴾ يعني لأقوالكم ﴿عليم﴾ يعني بنيانكم وضما تترك. قوله عز وجل:

إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢١﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٢﴾ إِذْ نَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ

بقراً مذبوحه، فأولتها خيراً، ورأيت في ذباب سيفي ثلماً فأولتها هزيمة، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة»، وكان يعجبه أن يدخلوا عليهم بالمدينة فيقاتلوا في الأزقة، فقال رجل من المسلمين ممن فاتهم يوم بدر وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد: اخرج بنا إلى أعدائنا فلم يزالوا برسول الله ﷺ من حبهم للقاء القوم حتى دخل رسول الله ﷺ، فلبس لأمته فلماً رآوه قد لبس السلاح ندبوا، وقالوا بش ما صنعنا نشير على رسول الله ﷺ والوحي يأتيه، فقاموا واعتذروا إليه وقالوا: اصنع ما رأيت، فقال ﷺ: «لا ينبغي لنبي أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل»، وكان قد أقام المشركون بأحد يوم الأربعاء والخميس، فراح رسول الله ﷺ يوم الجمعة بعدما صلى بأصحابه الجمعة وقد مات في ذلك اليوم رجل من الأنصار فصلى عليه رسول الله ﷺ، ثم خرج إليهم، فأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال سنة ثلاث من الهجرة، فكان من حرب أحد ما كان، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تَبَوَّءُ﴾ تنزل المؤمنين ﴿مقاعداً للقتال﴾ أي: مواطن، ومواضع للقتال، يقال: تبوأ القوم إذا وطنتهم، وتبؤوا هم إذا توطؤوا، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءاً صَدَقَ﴾ [يونس: ٩٣]، وقال: ﴿أَنْ تَبَوَّأَ لِقَوْمِكَمَا بِمِصْرَ بِيوتاً﴾ [يونس: ٨٧] وقيل: تتخذ معسكراً، ﴿والله سميع عليم﴾.

مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُزْلَيْنِ ﴿١٢٢﴾ بَلَىٰ إِن نَّصِيرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٣﴾

﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ أي تجبنا وتضعفا عن القتال والطائفتان بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس كان جناحي العسكر وذلك أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد مع ألف رجل، وقيل في تسعمائة وخمسين رجلاً وكان المشركون ثلاثة آلاف رجل فلما بلغوا الشوط انخذل عبدالله بن أبي بثلث الناس ورجع في ثلاثمائة وقال علام نقتل أنفسنا وأولادنا فتبعه أبو جابر السلمي وقال أنشدكم الله في نبيكم وأنفسكم فقال عبدالله بن أبي لو نعلم قتالاً لاتبعناكم وهمت الطائفتان بالانصراف مع عبدالله بن أبي فعصمهم الله فثبتوا ومضوا مع رسول الله ﷺ قال ابن عباس: أضمروا أن يرجعوا فعزم الله لهم على الرشد فثبتوا فذكرهم الله عظيم نعمته عليهم فقال: إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ﴿والله وليهما﴾ أي ناصرهما وحافظهما ومتولي أمرهما بالتوفيق والعصمة. فإن قلت الهم العزم على فعل الشيء والآية تدل على أن الطائفتين قد عزمتا على الفشل وترك القتال وذلك معصية فكيف مدحهما الله تعالى بقوله والله وليهما. قلت الهم قد يراد به العزم وقد يراد به حديث النفس وإذا كان كذلك فحمل الهم على حديث النفس هنا أولى والله تعالى لا يؤاخذ بحديث النفس ويعضده قول ابن عباس إنهم أضمروا أن يرجعوا فلما عزم الله لهم على الرشد وثبتوا مع رسول الله ﷺ مدحهم الله تعالى بقوله والله وليهما (ق) عن جابر قال: نزلت فينا: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا﴾ قال نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة وما يسرني أنها لم تنزل لقول الله والله وليهما ففيه الاستبشار بما حصل لهم من الشرف العظيم، وإنزاله فيهم آياته ناطقة مفصحة بأن الله وليهم وأن تلك الهمة التي هموها ما أخرجتهم من ولاية الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ التوكل تفعل من وكل أمره إلى غيره إذا اعتمد عليه في كفايته والقيام به، وقيل التوكل هو العجز والاعتماد على الغير وقيل هو تفويض الأمر إلى الله تعالى ثقة بحسن تدبيره فأمر الله عباده المؤمنين أن لا يتوكلوا إلا عليه وأن لا يفوضوا أمرهم إلا إليه.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ﴾ بدر اسم موضع بين مكة والمدينة معروف وقيل هو اسم لبئر هناك وكانت البئر لرجل يقال له بدر فسميت به. ذكر الله المؤمنين منته عليهم بالنصر يوم بدر ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ جمع ذليل

﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ أي: تَجْبُنَا وَتَضَعُفَا وَتَتَخَلَّفَا، والطائفتان بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس، وكانا جناحي العسكر، وذلك أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد في ألف رجل، وقيل: في تسعمائة وخمسين رجلاً، فلما بلغوا الشوط اتخذ عبد الله بن أبي بثلث الناس ورجع في ثلاث مائة وقال علام نقتل أنفسنا وأولادنا؟ فتبعهم أبو جابر السلمي فقال: أنشدكم بالله في نبيكم وفي أنفسكم، فقال عبد الله بن أبي: لو نعلم قتالاً لاتبعناكم، وهمت بنو سلمة وبنو حارثة بالانصراف مع عبد الله بن أبي، فعصمهم الله فلم ينصرفوا فذكرهم الله عظيم نعمته، فقال عز وجل: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا﴾ ناصرهما وحافظهما، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل أنا محمد بن يوسف عن ابن عيينة عن عمر بن جابر قال: نزلت هذه الآية فينا ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا﴾ بنو سلمة وبنو حارثة، وما أحب أنها لم تنزل، والله يقول: ﴿والله وليهما﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ﴾، وبدر موضع بين مكة والمدينة وهو اسم لموضع، وعليه الأكثرون،

وهو جمع قلة وأراد به قلة العدد فإن المسلمين كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر وفي رواية وثلاثة عشر رجلاً والمراد بذلتهم ضعف الحال وقلة السلاح والمركوب والمال وعدم القدرة على مقاومة العدو وذلك أنهم خرجوا على مواضع وكان النفر منهم يتعقب على البعير الواحد. وكان أكثرهم رجالة ولم يكن معهم إلا فرس واحد وكان عدوهم من كفار قريش في حال الكثرة زهاء ألف مقاتل ومعهم مائة فرس وكان معهم السلاح والشوكة فنصر الله المؤمنين مع قتلهم على عدوهم مع كثرتهم ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ يعني في الثبات مع رسول الله ﷺ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يعني بتقواكم ما أنعم به عليكم من نصرته. قوله عز وجل: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَ بِكُمْ بَثْلَآئِةَ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ اختلف المفسرون في أن هذا الوعد بإنزال الملائكة هل حصل يوم بدر أو يوم أحد على قولين أحدهما أنه كان يوم بدر. قال قتادة: كان هذا يوم بدر أمدهم الله بألف من الملائكة كما قال: إن تستغيثون ربكم فاستجاب لكم: «أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين» ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم صاروا خمسة آلاف كما ذكر ههنا ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَاتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ فصبروا يوم بدر وتقاوا فأمدهم الله بخمسة آلاف كما وعد. قال ابن عباس: لم تقاتل الملائكة في معركة إلا يوم بدر وفيما سوى ذلك يشهدون القتال ولا يقاتلون إنما يكونون عدداً أو مدداً، وقال الحسن: هؤلاء الخمسة آلاف ردة للمؤمنين إلى يوم القيامة، وقال الشعبي: بلغ رسول الله ﷺ والمسلمين يوم بدر أن كرز بن جابر المحاربي يريد أن يمد المشركين فشق ذلك عليهم فأنزل الله تعالى أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ إِلَى قَوْلِهِ مَسُومِينَ فَبَلَغَ كَرْزًا الْهَزِيمَةَ فَرَجَعَ وَلَمْ يَأْتِهِمْ وَلَمْ يَمْدِهِمْ فَلَمْ يَمْدِهِمْ اللَّهُ أَيْضاً بِالْخَمْسَةِ آلَافِ وَكَانُوا قَدْ أَمَدُوا بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وفي صحيح البخاري من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: «هذا جبريل أخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب» واحتج لصحة هذا القول أيضاً بأن الله تعالى قال قبل هذه الآية ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة وظاهر هذا يقتضي أن الله نصرهم حين قال النبي ﷺ للمؤمنين: أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَ بِكُمْ بَثْلَآئِةَ آلَافٍ وَلأن العدد والعدد كانت يوم بدر قليلة وكان الاحتياج إلى الإمداد أكثر. القول الثاني إن هذا الوعد بإنزال الملائكة كان يوم أحد وهو قول عكرمة والضحاك ومقاتل. قال عمير بن إسحاق: لما كان يوم أحد انجلى القوم عن رسول الله ﷺ وبقي سعد بن مالك يرمي وفتى شاب يتنبل له كلما فني النبل أتاه به فشره وقال ارم أبا إسحاق ارم أبا إسحاق مرتين فلما انجلت المعركة سئل عن ذلك الرجل

وقيل: اسم لبثر هناك، وقيل: كانت بدر بئراً لرجل يقال له بدر، قاله الشعبي، وأنكر الآخرون عليه، يذكر الله تعالى في هذه الآية مَنَّةً عَلَيْهِم بِالنَّصْرِ يَوْمَ بَدْرٍ، ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾، جمع: ذليل، وأراد به قلة العدد فإنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً فنصرهم الله مع قلة عَدَدِهِمْ وَعُدَّتِهِمْ، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَ بِكُمْ رَبُّكُمْ﴾، اختلفوا في هذه الآية فقال قتادة: كان يوم بدر أمدهم الله تعالى بألف من الملائكة كما قال: ﴿فَاسْتَجَابَ رَبُّكُمْ أَنِّي مُمَدِّدُكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ [الأنفال: ٩]، ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم صاروا خمسة آلاف كما ذكر ههنا، ﴿بَثْلَآئِةَ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾.

﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ فصبروا يوم بدر واتقاوا فأمدهم الله بخمسة آلاف من الملائكة كما وعد، قال الحسن: وهؤلاء الخمسة آلاف ردة المؤمنين إلى يوم القيامة، قال ابن عباس ومجاهد: لم تقاتل الملائكة في المعركة إلا يوم بدر، فيما سوى ذلك يشهدون القتال ولا يقاتلون، وإنما يكون عدداً ومدداً، قال محمد بن إسحاق: لما كان يوم أحد انجلى القوم عن رسول الله ﷺ وبقي سعد بن مالك يرمي، وفتى شاب يتنبل له كلما فني النبل أتاه به فشره، فقال إرم يا أبا إسحاق مرتين، فلما انجلت المعركة سئل عن ذلك الرجل فلم يعرفه أحد، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا

فلم يعرف (ق) عن سعد بن أبي وقاص قال: «رأيت عن يمين رسول الله ﷺ وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه كأشد القتال ما رأيتهما قبل، ولا بعد يعني جبريل وميكائيل» واحتج لصحة هذا القول بأن المدد كان يوم بدر بألف من الملائكة كما نص عليه في سورة الإنفاق ولم يكن بثلاثة آلاف ولا بخمسة آلاف كما هنا وأيضاً أن الكفار كانوا يوم بدر ألفاً أو ما يقرب منهم وكان المسلمون على الثلث من ذلك فإنهم كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر فأنزل الله يوم بدر ألفاً من الملائكة في مقابلة عدد الكفار فوقع النصر يومئذ للمسلمين والهزيمة للكفار، وكان عدد المسلمين يوم أحد ألفاً وعدد الكفار ثلاثة آلاف فناسب أن يكون المدد يومئذ للمسلمين ثلاثة آلاف من الملائكة ليكون ذلك مقابلاً لعدد الكفار كما في يوم بدر. وأجيب عن الاحتجاج الأول لهذا القول بأن الله تعالى أمدهم يوم بدر بألف كما ذكر في سورة الأنفال ثم لما سمع أصحاب رسول الله ﷺ بإمداد كرز لكفار قريش شق عليهم وعدوا بأن يمدوا بثلاثة آلاف وبخمسة آلاف لتقوى قلوبهم بذلك. وأجيب عن الثاني وهو أن الكفار كانوا يوم بدر ألفاً فأنزل الله ألفاً وفي يوم أحد كانوا ثلاثة آلاف فأنزل الله ثلاثة آلاف بأن هذا تقريب حسن والله أن يزيد ما شاء في أي وقت شاء ولهذا قال عكرمة في قوله تعالى: ﴿بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا﴾ قال يوم بدر قال ولم يصبروا ولم يتقوا يوم أحد فلم يمدوا ولو أمدوا لم يهزموا يومئذ وقيل لم يصبروا ولم يتقوا إلا في يوم الأحزاب فأمدهم الله بالملائكة حتى حاصروا قريظة (ق) عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما رجع رسول الله ﷺ من الخندق ووضع السلاح واغتسل أتاه جبريل فقال: قد وضعت السلاح والله ما وضعناه اخرج إليهم قال: فإلى أين؟ قال ههنا وأشار إلى بني قريظة فخرج النبي ﷺ» (ق) عن أنس رضي الله عنه قال: «كأنني أنظر إلى الغبار ساطعاً في زقاق بني غنم موكب جبريل عليه السلام حين سار رسول الله ﷺ إلى بني قريظة وقال عبدالله بن أبي أوفى كنا محاصرين قريظة والنضير ما شاء الله فلم يفتح علينا فرجعنا فدعا رسول الله ﷺ بغسل فهو يغسل رأسه إذ جاءه جبريل عليه السلام فقال: أوضعتم أسلحتكم ولم تضع الملائكة أوزارها فدعا رسول الله ﷺ بخرقه فلف بها رأسه ولم يغسله ثم نادى فينا فقمنا حتى أتينا قريظة والنضير فيومئذ أمدنا الله تعالى بثلاثة آلاف من الملائكة ففتح لنا فتحاً سيراً» وقال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال بالصواب أن الله تعالى أخبر عن نبيه ﷺ أنه قال للمؤمنين: «ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة» فوعدهم بثلاثة آلاف من الملائكة مدداً لهم ثم

أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد العزيز بن عبد الله أنا إبراهيم بن سعد عن أبيه عن جدّه عن سعد بن أبي وقاص قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم أحد ومعه رجلان يقاتلان عنه عليهما ثياب بيض كأشد القتال ما رأيتهما قبل ولا بعد. رواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة، قال أخبرنا محمد بن بشر وأبو أسامة عن مسعر عن سعد بن إبراهيم عن أبيه عن سعد يعني ابن أبي وقاص قال: رأيت عن يمين رسول الله ﷺ وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض ما رأيتهما قبل ولا بعد، يعني: جبريل وميكائيل، وقال الشعبي: بلغ رسول الله ﷺ يوم بدر: أن كرز بن جابر المحاربي يريد أن يمدّ المشركين فشق ذلك عليهم، فأنزل الله تعالى: ﴿ألن يكفيكم أن يمدكم﴾ إلى قوله: ﴿مُسَوِّمين﴾ فبلغ كرزاً الهزيمة فرجع فلم يأتهم ولم يمدّهم، فلم يمدّهم الله أيضاً بالخمسة آلاف، وكانوا قدّموا بألف، وقال الآخرون: إنما وعد الله تعالى المسلمين يوم بدر إن صبروا على طاعته واتفقوا محارمه أن يمدّهم أيضاً في حروبهم كلّها، فلم يصبروا إلا يوم الأحزاب، فأمدهم حين حاصروا قريظة والنضير، قال عبد الله بن أبي أوفى: كنّا محاصري قريظة والنضير ما شاء الله فلم يُفتح علينا فرجعنا فدعا رسول الله ﷺ بغسل فهو يغسل رأسه إذ جاءه جبريل عليه السلام، فقال: وضعتم أسلحتكم ولم تضع الملائكة أوزارها؟ فدعا رسول الله ﷺ بخرقه فلف بها رأسه ولم يغسله، ثم نادى فينا فقمنا حتى أتينا قريظة والنضير، فيومئذ أمدنا الله

وعدهم بخمسة آلاف إن صبروا لأعدائهم وانتقوا ولا دلالة في الآية على أنهم أمدوا بهم ولا على أنهم لم يمدوا بهم فقد يجوز أن الله أمدهم وقد يجوز أن لا يكون أمدهم ولا يثبت ذلك إلا بنص تقوم به الحجة في ذلك. وقد ثبت بنص القرآن أنهم أمدوا يوم بدر بألف من الملائكة كما في سورة الأنفال وأما يوم أحد فالدلالة على أنهم لم يمدوا أبين منها بأنهم أمدوا وذلك أنهم لو أمدوا لم يهزموا ولم ينل منهم ما نيل منهم. فإن قلت فما تصنع بحديث سعد بن أبي وقاص المتقدم في يوم أحد وأنه رأى ملكين عن يمين النبي ﷺ وشماله قلت إنما كان ذلك للنبي ﷺ خاصة لأنه صبر ولم يهزم كما انهزم أصحابه يوم أحد. وأما التفسير فقوله تعالى: **إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ فَعَلَى قَوْلٍ مِنْ قَالَ: إِنَّ هَذَا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ. قَالَ نَظُمَ الْآيَةَ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ** إذ تقول للمؤمنين فعلى قول من يقول نظم الآية أن الله ذكر قصة أحد ثم أتبعه بقوله: **«وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ»** فكذلك هو قادر أن ينصركم في سائر المواطن ثم رجع إلى قصة أحد فقال تعالى: **﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ﴾** ومعنى الكفاية هو سد الخلة والقيام بالأمر مع بلوغ المراد أن يمدكم ربكم. الإمداد إعانة الجيش فما كان على جهة القوة والإعانة يقال أمدته إمداداً وما كان على جهة الزيادة يقال فيه مده مدّاً، وقيل المد في الشر والإمداد في الخير بثلاثة آلاف من الملائكة منزّلين إنما وعدهم الله بنزول الملائكة لتقوى قلوبهم ويثقوا بنصر الله ويعزموا على الثبات. بلى تصديق لوعده الله أي بلى نمدكم وقيل بلى إيجاب لما بعد ألن يعني يكفيكم الإمداد بهم فأوجب الكفاية أن تصبروا أي على لقاء عدوكم وتتقوا يعني معصية الله ومخالفة نبيه ﷺ ويأتوكم يعني المشركين من فورهم هذا قال ابن عباس: ابتداء الأمر يوجد فيه ثم يوصل بآخر فمن قال معنى من فورهم من وجههم أراد ابتداء مخرجهم يوم بدر. ومن قال معناه من غضبهم أراد ابتداء غضبهم لقتالهم يوم بدر لأنهم رجعوا للحرب يوم أحد من غضبهم يوم بدر. يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة لم يرد خمسة آلاف سوى الثلاثة المتقدمة بل أراد معهم فمن قال إن هذا الإمداد كان يوم بدر قال: إن الله تعالى أمدهم بألف فلما سمعوا أن كرز بن جابر المحاربي يريد أن يمد المشركين فشق على المسلمين ذلك قال النبي ﷺ للمسلمين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم الآية على تقدير أن يجيء للمشركين المدد، فلما لم يمدوا لم يمد الله المسلمين بغير ألف وروى ابن الجوزي في تفسيره عن جبير بن مطعم عن علي بن أبي طالب قال: بينا أنا امتح من قليب بدر جاءت ريح شديدة لم أر أشد منها ثم جاءت ريح شديدة لم أر أشد منها إلا التي قبلها ثم جاءت ريح شديدة لم أر أشد منها إلا التي كانت قبلها فكانت الريح الأولى جبريل نزل في ألفين من الملائكة وكانوا بين يدي النبي ﷺ وكانت الريح الثانية ميكائيل نزل في ألفين من الملائكة وكانوا عن يمين

تعالى بثلاثة آلاف من الملائكة، ففتح لنا فتحاً سيراً، وقال الضحاك وعكرمة: كان هذا يوم أحد وعدهم الله المَدَّ إن صبروا فلم يصبروا فلم يمدوا، قوله تعالى: **﴿أَنْ يُمَدِّكُمْ رَبُّكُمْ﴾** الإمداد: إعانة الجيش، وقيل: ما كان على جهة القوة والإعانة، يقال فيه: أمدّه إمداداً، وما كان على جهة الزيادة، ويقال فيه: مده مدّاً، منه قوله تعالى: **﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ﴾** [لقمان: ٢٧] وقيل: المد في الشر، والإمداد في الخير، يدلّ عليه قوله تعالى: **﴿وَيُمَدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ﴾** [البقرة: ١٥] **﴿وَنَمَدَّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً﴾** [مريم: ٧٩] وقال في الخير: **﴿أَنْي مُمَدِّكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ﴾** [الأنفال: ٩] منزّلين، وقال: **﴿وَأَمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾** [الإسراء: ٦] قوله تعالى: **﴿بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾** قرأ ابن عامر تشديد الزاي على التكثير لقوله تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾** [الأنعام: ١١١]، وقرأ الآخرون بالتخفيف دليله قوله تعالى: **﴿لَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ﴾** [الفرقان: ٢١] وقوله: **﴿وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا﴾** [التوبة: ٢٦]، ثم قال: **﴿بَلَى﴾** نمدكم **﴿إِنْ تَصْبِرُوا﴾** لعدوكم **﴿وَتَتَّقُوا﴾** مخالفة نبيكم **﴿وَيَأْتُوَكُمْ﴾** يعني المشركين **﴿من فورهم هذا﴾** قال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة والحسن وأكثر

رسول الله ﷺ والريح الثالثة إسرافيل نزل في ألف من الملائكة عن يسار رسول الله ﷺ وكنت عن يساره وهزم الله أعداءه ومن الناس من ضم العدد القليل إلى الكثير. فقال لأن الله تعالى ذكر الألف في سورة الأنفال وذكر هنا ثلاثة آلاف وخمسة آلاف فيكون المجموع تسعة آلاف، وإن جعلناه على غزوة أحد فيكون المجموع ثمانية آلاف لأنه ليس فيها ذكر الألف المفردة ﴿مُسُومِينَ﴾ قرئ بفتح الواو وبكسرها فمن فتح الواو أراد أن الله سومهم ومعناه معلمين قد سوموا فيهم مسومون والسومة والسيما العلامة وهذه العلامة يعلمها الفارس يوم اللقاء ليعرف بها قال عترة:

فتعرفوني أنسي أنا ذلكم شاكي سلاح في الحوادث معلم

ومن كسر الواو نسب الفعل إلى الملائكة والمعنى أنهم أعلموا أنفسهم بعلامات مخصوصة أو أعلموا خيلهم واختلفوا في تلك العلامة فقال عروة بن الزبير: كانت الملائكة على خيل بلق وعليهم عمائم صفر. وقال علي وابن عباس: كان عليهم عمائم بيض قد أرسلوها بين أكتافهم وقال هشام بن عروة والكلبي: كانت عليهم عمائم صفر مرخاة على أكتافهم، وقال قتادة والضحاك: كانوا قد أعلموا بالعهن يعني بالصوف المصبوغ في نواصي خيلهم وأذناها وروي أن النبي ﷺ قال لأصحابه يوم بدر: «تسوموا فإن الملائكة قد تسومت بالصوف الأبيض في قلائسهم ومغافرهم» ذكره البغوي بغير سند وقيل كانت عمامة الزبير يوم بدر صفراء فنزلت الملائكة كذلك وقيل كانوا قد سوموا أنفسهم بسيما القتال. قوله تعالى: .

وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۖ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾

﴿وما جعله الله﴾ يعني هذا الوعد والمدد ﴿إلا بشرى لكم﴾ يعني بشارة بأنكم تنصرون فتستبشرون به ﴿ولتطمئنن﴾ أي ولتسكن ﴿قلوبكم به﴾ أي فلا تجزع من كثرة عدوكم وقلة عددكم ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ يعني لا تحيلوا النصر على الملائكة والجند وكثرة العدد، فإن النصر من عند الله لا من عند غيره والغرض أن يكون توكلهم على الله لا على الملائكة الذين أمدوا بهم وفيه تنبيه على الإعراض عن الأسباب والإقبال على مسبب

المفسرين: من وجههم هذا، وقال مجاهد والضحاك: من غضبهم هذا لأنهم إنما رجعوا للحرب يوم أُحُد من غضبهم ليوم بدر، ﴿يُمدِّدُكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ لم يرد خمسة آلاف سوى ما ذكر من ثلاثة آلاف، بل أراد معهم، وقوله: ﴿مُسُومِينَ﴾ أي: معلمين، قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم بكسر الواو، وقرأ الآخرون بفتحها، فمن كسر الواو فأراد أنهم سوموا خيلهم، ومن فتحها أراد به أنفسهم، والتسويم: الإعلام من السومة وهي العلامة، واختلفوا في تلك العلامة، فقال عروة بن الزبير، كانت الملائكة على خيل بلق وعليهم عمائم صفر، وقال علي وابن عباس رضي الله عنهم: عمائم بيض قد أرسلوها بين أكتافهم، وقال هشام بن عروة والكلبي: عليهم عمائم صفر مرخاة على أكتافهم، وقال الضحاك وقاتدة: كانوا قد أعلموا بالعهن في نواصي الخيل وأذناها، وروي أن النبي ﷺ قال لأصحابه يوم بدر: «تسوموا فإن الملائكة قد تسومت بالصوف الأبيض في قلائسهم ومغافرهم».

قوله تعالى: ﴿وما جعله الله﴾ يعني هذا الوعد والمدد، ﴿إلا بشرى لكم﴾ أي: بشارة لتستبشروا به ﴿ولتطمئنن﴾ ولتسكن ﴿قلوبكم به﴾ فلا تجزعوا من كثرة عدوكم وقلة عددكم، ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾

الأسباب ﴿العزیز الحکیم﴾ یعنی فاستعینوا به وتوکلوا علیه لأن العز وهو کمال القدرة والقوة والحکم وهو کمال العلم فلا تخفی علیه مصالح عبادہ ﴿لیقطع طرفاً من الذین کفروا﴾ هذا متعلق بقوله ولقد نصرکم الله بیدر، والمعنی أن المقصود من نصرکم بیدر ليقطع طرفاً أي لیهلك طائفة من الذین کفروا وقيل معناه لیهدم رکناً من أركان الشریک بالقتل والأسر فقتل يوم بدر من قاداتهم وساداتهم سبعون وأسر سبعون ومن حمل الآیة علی غزوة أحد قال: قد قتل منهم ستة عشر وكان النصر فیہ للمسلمین حتی خالفوا أمر رسول الله ﷺ ﴿أو یکتبهم﴾ أصل الکبت فی اللغة صرع الشيء علی وجهه والمعنی أنه یصرعهم علی وجوههم والمراد منه القتل والهزيمة أو الإهلاك أو اللعن والخزي ﴿فینقلبوا خائبین﴾ أي بالخیبة لم ینالوا شیئاً من الذی أملوه من الظفر بکم.

قوله عز وجل: ﴿لیس لك من الأمر شیء أو یتوب علیهم أو یعذبهم﴾ اختلف فی سبب نزول هذه الآیة. فقيل: إنها نزلت فی أهل بئر معونة وهم سبعون رجلاً من القراء بعثهم رسول الله ﷺ إلى بئر معونة وهي بین مكة وعسفان وأرض هذیل وذلك فی صفر سنة أربع من الهجرة علی رأس أربعة أشهر من أحد بعثهم لیعلموا الناس القرآن والعلم وأمر علیهم المنذر بن عمرو فقتلهم عامر بن الطفیل فوجد رسول الله ﷺ من ذلك وجداً شديداً وقتت شهراً فی الصلوات كلها يدعو علی جماعة من تلك القبائل باللعن (خ) عن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع فی الركعة الأخيرة من الفجر یقول: اللهم العن فلاناً وفلاناً وفلاناً بعدما یقول سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد فأنزل الله تعالی علیه لیس لك من الأمر شیء إلى قوله فإنهم ظالمون (ق) عن أبي هريرة قال: «لما رفع رسول الله ﷺ رأسه من الركعة الثانية قال: اللهم أنج الولید بن الولید وسلمة بن هشام وعیاش بن أبي ربيعة والمستضعفین بمكة» اللهم اشد وطأتك علی مضر اللهم أجعلها علیهم سنین كسني يوسف» زاد فی رواية: «اللهم العن فلاناً وفلاناً لأحیاء من العرب حتی أنزل الله تعالی لیس لك من الأمر شیء الآیة سماهم فی رواية یونس اللهم

العزیز الحکیم﴾ یعنی: لا تحیلوا بالنصر علی الملائكة والجند، فإن النصر من الله تعالی فاستعینوا به وتوکلوا علیه، لأن العز والحکم له.

قوله تعالی: ﴿لیقطع طرفاً من الذین کفروا﴾، یقول لقد نصرکم الله ليقطع طرفاً أي: لكي یهلك طائفة من الذین کفروا، وقال السدي: معناه لیهدم رکناً من أركان الشریک بالقتل والأسر، فقتل من قاداتهم وساداتهم يوم بدر سبعون وأسر سبعون، ومن حمل الآیة علی حرب أحد فقد قتل منهم یومئذ ستة عشر وكان النصر للمسلمین حین خالفوا أمر الرسول ﷺ فانقلب علیهم، ﴿أو یکتبهم﴾ قال الکلبی: یهزمهم، وقال یمان: یصرعهم لوجوههم، قال السدي: یلعنهم، وقال أبو عبيدة: یهلكهم، وقيل: یحزنهم، والمکبوت: الحزین، وقيل: یکبدهم أي: یصیب الحزن والغیظ أكبادهم، والتاء والذال یتعاقبان كما یقال سبت رأسه وسبده إذا حلقة، وقيل: یکتبهم بالخیبة، ﴿فینقلبوا خائبین﴾، لم ینالوا شیئاً مما كانوا یرجون من الظفر بکم.

قوله تعالی: ﴿لیس لك من الأمر شیء﴾ الآیة، اختلفوا فی سبب نزول هذه الآیة فقال قوم: نزلت فی أهل بئر معونة وهم سبعون رجلاً من القراء بعثهم رسول الله ﷺ إلى أهل بئر معونة فی صفر سنة أربع من الهجرة علی رأس أربعة أشهر من أحد لیعلموا الناس القرآن والعلم أمیرهم المنذر بن عمرو، فقتلهم عامر بن الطفیل، فوجد رسول الله ﷺ من ذلك وجداً شديداً، وقتت شهراً فی الصلوات كلها يدعو علی جماعة من تلك القبائل باللعن والسنین، فنزلت: ﴿لیس لك من الأمر شیء﴾، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد الملیحي أنا أحمد بن عبد الله النعمي أخبرنا محمد بن یوسف أنا محمد بن إسماعیل أخبرنا حبان بن موسى أخبرنا عبد الله یعنی ابن المبارک

العن رعلًا وذكوان وعصية عصت الله ورسوله قال ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما أنزل الله ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم، فإنهم ظالمون وقيل إنها نزلت يوم أحد ثم اختلفوا في سببها فقيل: إن عتبة بن أبي وقاص شج وجه رسول الله ﷺ وكسر رباعيته. (ق) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كسرت رباعيته وشج في رأسه فجعل يسלט الدم عنه ويقول: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله فأنزل الله تعالى: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾».

وقيل أراد النبي ﷺ أن يدعو عليهم بالاستئصال فنزلت هذه الآية وذلك لعلمه أن أكثرهم يسلمون وقيل إن النبي ﷺ لما وقف على عمه حمزة ورأى ما صنعوا به من المثلة أراد أن يدعو عليهم فنزلت هذه الآية. وقال العلماء: وهذه الأشياء كلها محتملة فلا يبعد حمل الآية في النزول على كلها ومعنى الآية ليس لك من أمر مصالح عبادي شيء إلا ما أوحى إليك، فإن الله تعالى هو مالك أمرهم فإما أن يتوب عليهم ويهديهم فيسلموا أو يهلكهم ويعذبهم إن أصروا على الكفر. وقيل ليس لك مسألة هلاكهم والدعاء عليهم لأنه تعالى أعلم بمصالحهم وربما تاب على من يشاء منهم وقيل معناه ليس لك من أمر خلقي شيء إلا ما وافق أمري إنما أنت عبد مبعوث للإنذارهم ومجاهدتهم، وقيل إن قوله أو يتوب عليهم معطوف على قوله ليقطع طرفاً وقوله ليس لك من الأمر شيء كلام معترض بين المعطوف والمعطوف عليه والتقدير ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكتبهم أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ليس لك من الأمر شيء بل الأمر أمري في ذلك كله. قال بعض العلماء: والحكمة في منعه ﷺ من الدعاء عليهم ولعنهم أن الله تعالى علم من حال بعض الكفار أنه سيسلم فيتوب عليهم أو سيولد من بعضهم ولد يكون مسلماً براً تقياً فلاجل هذا المعنى منعه الله تعالى من الدعاء عليهم لأن دعوته ﷺ مجابة. فلو دعا عليهم بالهلاك هلكوا جميعاً لكن اقتضت حكمة الله وما سبق في علمه إبقاءهم ليتوب على بعضهم وسيخرج من بعضهم

أخبرنا معمر عن الزهري قال: حدثني سالم عن أبيه أنه سمع رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر يقول: «اللَّهُمَّ العن فلاناً وفلاناً وفلاناً، بعد ما يقول: سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد»، فأنزل الله تعالى ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ ﴿أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾، وقال قوم: نزلت يوم أحد، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي أخبرنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أخبرنا مسلم بن الحجاج أخبرنا عبد الله بن مسلم بن قعنب أخبرنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد وشج في رأسه، فجعل يسלט الدم عنه ويقول: «كيف يفلح قوم شجوا رأس نبيهم وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله عز وجل؟». فأنزل الله تعالى: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم أحد: «اللَّهُمَّ العن الحارث بن هشام، اللَّهُمَّ العن صفوان بن أمية»، فنزلت: ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم﴾ فأسلموا وحسن إسلامهم، وقال سعيد بن المسيب ومحمد بن إسحق لما رأى رسول الله ﷺ والمسلمون يوم أحد ما أصابهم من جدد الأذان والأنوف وقطع المذاكير، قالوا لئن أدالنا الله تعالى منهم لنفعلن مثل ما فعلوا، ولنمثلن مثله لم يمثلها أحد من العرب بأحد، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقيل: أراد النبي ﷺ أن يدعو عليهم بالاستئصال، فنزلت هذه الآية، وذلك لعلمه فيهم بأن كثيراً منهم يسلمون. قوله تعالى: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ أي: ليس إليك، فاللأم بمعنى ﴿إلى﴾ كقوله تعالى: ﴿ربنا إنا سمعنا منادياً ينادي للإيمان﴾ [آل عمران: ١٩٣]، أي: إلى الإيمان، وقوله تعالى: ﴿أو يتوب عليهم﴾، قال بعضهم: معناه حتى يتوب عليهم، أو: إلا أن يتوب عليهم،

ذرية صالحة مؤمنة، ويهلك بعضهم بالقتل والموت وهو قوله أو يعذبهم فيحتمل أن يكون المراد بعذابهم في الدنيا وهو القتل والأسر وفي الآخرة وهو عذاب النار ﴿فإنهم ظالمون﴾ هو كالتعليل لعذابهم والمعنى إنما يعذبهم لأنهم ظالمون ثم قال تعالى: .

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾

﴿والله ما في السموات وما في الأرض﴾ هذا تأكيد لما قبله من قوله ليس لك من الأمر شيء. والمعنى إنما يكون لمن له ما في السموات وما في الأرض وليس ذلك إلا الله تعالى وليس لأحد معه أمر ﴿يغفر لمن يشاء﴾ بفضلته ورحمته ﴿ويعذب من يشاء﴾ بعدله يحكم فيهم بما يشاء لا منازع له في حكمه ولا معارض له في فعله ﴿والله غفور رحيم﴾ يعني أنه تعالى يستر ذنوب عباده ويغفرها لهم ويرحمهم بترك العقوبة عنهم عاجلاً، وإنما يفعل ذلك على سبيل التفضل والإحسان إلى عباده لا على سبيل الوجوب عليه، لأنه تعالى لو أدخل جميع خلقه الجنة لكان ذلك برحمته ولو أدخل جميع خلقه النار كان ذلك بعدله لكن جانب المغفرة والرحمة غالب.

قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة﴾ أراد به ما كانوا يفعلونه في الجاهلية عند حلول الدين من زيادة المال وتأخير الأجل كان الرجل في الجاهلية إذا كان له على إنسان دين فإذا جاء الأجل ولم يكن للمديون ما يؤدي قال له صاحب الدين: زدني في المال حتى أزيدك في الأجل فربما فعلوا ذلك مراراً فيصير الدين أضعافاً مضاعفة فنهى الله عز وجل عن ذلك، وحرم أصل الربا ومضاعفته ﴿واتقوا الله﴾ يعني في أكل الربا فلا تأكلوه ﴿لعلكم تفلحون﴾ أي لكي تسعدوا بثوابه في الآخرة لأن الفلاح يتوقف على التقوى فلو أكل ولم يتق لم يحصل الفلاح، وفيه دليل على أن أكل الربا من الكبائر ولهذا أعقبه بقوله تعالى: .

وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ * وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمٰوٰتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَنِيِّ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾

﴿واتقوا النار التي أعدت للكافرين﴾ يعني واتقوا أيها المؤمنون أن تستحلوا شيئاً مما حرم الله. فإن من استحل شيئاً مما حرم الله فهو كافر بالإجماع ويستحق النار بذلك قال ابن عباس: هذا تهديد للمؤمنين أن يستحلوا

وقيل: هو نسق على قوله: ﴿ليقطع طرفاً﴾، وقوله: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ اعتراض بين الكلامين، ونظم الآية: ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكتبهم أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون، ليس لك من الأمر شيء، بل الأمر أمري في ذلك كله.

ثم قال: ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم﴾. ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة﴾، أراد به ما كانوا يفعلونه عند طول أجل الدين من زيادة المال وتأخير الطلب، ﴿واتقوا الله﴾ في أمر الربا فلا تأكلوه، ﴿لعلكم تفلحون﴾. ثم خوفهم فقال: ﴿واتقوا النار التي أعدت للكافرين﴾.

ما حرم الله عليهم من الربا وغيره مما أوجب الله فيه النار قال بعضهم: إن هذه الآية أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه يجتنبوا محارمه. وقال الواحدي: في هذه الآية تقوية لرجاء المؤمنين رحمة من الله تعالى لأنه قال أعدت للكافرين فجعلها معدة للكافرين دون المؤمنين ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ يعني فيما أمركم به أو نهاكم عنه من أكل الربا وغيره ﴿وَالرَّسُولَ﴾ أي وأطيعوا الرسول أيضاً فإن طاعته طاعة الله قال محمد بن إسحاق في هذه الآية معاتبه للذين عصوا رسول الله ﷺ يوم أحد ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ أي لكي ترحموا وما تعذبوا إذا أطعتم الله ورسوله فإن طاعة الله مع معصية رسوله ليست بطاعة.

قوله عز وجل: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني وبادروا وسابقوا إلى ما يوجب المغفرة من ربكم وهي الأعمال الصالحة المأمور بفعلها قال ابن عباس: إلى الإسلام ووجهه أن الله تعالى ذكر المغفرة على سبيل التنكير والمراد منه المغفرة العظيمة وذلك لا يحصل إلا بسبب الإسلام لأنه يجب ما قبله وعن ابن عباس أيضاً إلى التوبة لأن التوبة من الذنوب توجب المغفرة وقال علي بن أبي طالب: إلى داء الفرائض لأن اللفظ مطلق فيعم الكل وكذا وجه من قال إلى جميع الطاعات وروي عن أنس بن مالك وسعيد بن جبير أنها التكبيرة الأولى يعني تكبيرة الإحرام وقيل إلى الإخلاص في الأعمال لأن المقصود من جميع العبادات هو الإخلاص وقيل إلى الهجرة وقيل إلى الجهاد ﴿وَجَنَّةٍ﴾ أي وسارعوا إلى جنة وإنما فصل بين المغفرة والجنة لأن المغفرة هي إزالة العقاب والجنة هي حصول الثواب وقيل إشعاراً بأنه لا بد من المسارعة إلى التوبة الموجبة للمغفرة وذلك بترك المنهيات والمساورة إلى الأعمال الصالحة المؤدية إلى الجنة ﴿عَرْضُهَا﴾ أي عرض الجنة ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني كعرض السموات والأرض لأن نفس السموات والأرض ليس عرضاً للجنة والمراد سعتها وإنما خص العرض للمبالغة لأن الطول في العادة يكون أكثر من العرض يقول هذه صفة عرضها فكيف بطولها، والمراد وصف الجنة بالسعة والبسط فشبهت بأوسع شيء علمه الناس وذلك أنه لو جعلت السموات والأرض طبقاً طبقاً ثم وصل البعض ببعض حتى يكون طبقاً واحداً كان ذلك مثل عرض الجنة فأما طولها فلا يعلمه إلا الله تعالى. وقيل المراد بالعرض السعة كما تقول العرب بلاد عريضة أي واسعة عظيمة قال الشاعر:

كَيَّاَنَ بِلَادِ اللَّهِ وَهِيَ عَرِيضَةٌ عَلَى الْخَائِفِ الْمَطْلُوبِ كَفَةِ حَابِلِ

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾، لكي تُرحموا.

﴿وَسَارِعُوا﴾ قرأ أهل المدينة والشام سارعوا بلا واو، ﴿إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، بادروا وسابقوا إلى الأعمال التي توجب المغفرة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إلى الإسلام، ورُوي عنه: إلى التوبة، وبه قال عكرمة، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إلى أداء الفرائض، وقال أبو العالية: إلى الهجرة، وقال الضحاك: إلى الجهاد، وقال مقاتل: إلى الأعمال الصالحة. ورُوي عن أنس بن مالك أنها التكبيرة الأولى، ﴿وَجَنَّةٍ﴾ أي وإلى جنة ﴿عَرْضُهَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: عرضها كعرض السموات والأرض، كما قال الله عز وجل: ﴿وَجَنَّةٌ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١] أي: سعتها، وإنما ذكر العرض على المبالغة لأن طول كل شيء في الأكثر والأغلب أكثر من عرضه، يقول: هذه صفة عرضها فكيف طولها؟ قال الزهري: إنما وصف عرضها فأما طولها فلا يعلمه إلا الله، وهذا على التمثيل لا أنها كالسموات والأرض لا غير معناه، كعرض السموات السبع والأرضين السبع عند ظنكم، كقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [هود: ١٠٧] يعني: عند ظنكم وإلا فهما زائلتان، ورُوي عن طارق عن ابن شهاب أن ناساً من اليهود

والأصل فيه أن ما اتسع عرضه لم يضق ولم يدق وما ضاق عرضه دق فجعل العرض كناية عن السعة. وروي أن هرقل أرسل إلى النبي ﷺ: إنك كتبت تدعوني إلى جنة عرضها السموات والأرض فأين النار؟ فقال رسول الله ﷺ سبحانه الله فأين الليل إذا جاء النهار قيل معناه والله أعلم بذلك أنه إذا دار الفلك حصل النهار في جانب والليل في ضد ذلك الجانب فكذلك الجنة في جهة العلو والنار في جهة السفلى. وروى طارق بن شهاب أن ناساً من اليهود سألوا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعنده أصحابه فقالوا: رأيتم قولكم وجنة عرضها السموات والأرض. فأين النار؟ فقال عمر بن الخطاب رأيتم إذا جاء الليل فأين يكون النهار وإذا جاء النهار فأين يكون الليل فقالوا إنها لمثلها في التوراة ومعناه حيث يشاء الله تعالى. فإن قلت قال الله تعالى: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ وأراد بالذي وعدنا به الجنة ومذهب أهل السنة أنها في السموات وإذا كانت الجنة في السموات فكيف يكون عرضها السموات والأرض قلت المراد من قولنا إنها في السموات إنها فوق السموات وتحت العرش كما سئل أنس بن مالك عن الجنة أفي السماء هي أم في الأرض؟ فقال: أي أرض وسماء تسع الجنة قيل له: فأين هي؟ قال فوق السموات تحت العرش وقد وصف رسول الله ﷺ الفردوس فقال وسقفها عرش الرحمن وقال قتادة: كانوا يرون أن الجنة فوق السموات السبع وأن جهنم تحت الأرضين السبع وقيل: إن باب الجنة في السماء وعرضها كعرض السموات والأرض ﴿أعدت للمتقين﴾ أي هيئت للمتقين وفيه دليل على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن.

قوله عز وجل: ﴿الذين ينفقون في السراء والضراء﴾ يعني في العسر واليسر لا يتركون الإنفاق في كلتا الحالتين في الغنى والفقر والرخاء والشدة ولا في حال فرح وسرور ولا في حال محنة وبلاء. وسواء كان الواحد منهم في عرس أو في حبس فإنهم لا يدعون الإحسان إلى الناس فأول ما ذكر الله من أخلاقهم الموجبة للجنة السخاء لأنه أشق على النفس. وكانت الحاجة إلى إخراج المال في ذلك الوقت أعظم الأحوال للحاجة إليه في مجاهدة الأعداء ومواساة الفقراء من المسلمين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار ولجاهل سخي أحب إلى الله تعالى من عابد بخيل» أخرجه الترمذي (ق) عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جنتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفّت على جلده حتى تخفي ثيابه وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع» الجنة الدرع من الحديد (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر اللهم أعط ممسكاً تلفاً» (ق) عنه أن

سألوا عمر بن الخطاب وعنده أصحابه رضي الله عنهم، قالوا: رأيتم قوله: ﴿وجنة عرضها السموات والأرض﴾ فأين النار؟ فقال عمر: أف رأيتم إذا جاء الليل أين يكون النهار، وإذا جاء النهار أين يكون الليل؟ فقالوا: إنها لمثلها في التوراة، ومعناه أنه حيث يشاء الله، فإن قيل: قد قال الله تعالى: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ [الذاريات: ٢٢] وأراد بالذي وعدنا: الجنة فإذا كانت الجنة في السماء فكيف يكون عرضها السموات والأرض؟ قيل: إن باب الجنة في السماء وعرضها السموات والأرض، كما أخبر، وسئل أنس بن مالك رضي الله عنه عن الجنة: أفي السماء أم في الأرض؟ فقال: أي أرض وسماء تسع الجنة؟ فقيل: أين هي؟ قال: فوق السموات السبع تحت العرش. قال قتادة: كانوا يرون الجنة فوق السموات السبع تحت العرش، وأن جهنم تحت الأرضين السبع. ﴿أعدت للمتقين﴾.

﴿الذين ينفقون في السراء والضراء﴾، أي: في اليسر والعسر، فأول ما ذكر من أخلاقهم الموجبة للجنة ذكر

رسول الله ﷺ قال: «قال الله تبارك وتعالى أنفق ينفق عليك» (ق) عنه قال قال رسول الله ﷺ: «من أنفق زوجين في سبيل الله دعاه خزينة الجنة كل خزنة باب أي قل هلم فقال أبو بكر: فقال يا رسول الله ذاك الذي لا توي عليه قال رسول الله ﷺ إني لأرجو أن تكون منهم» قوله أي فل يعني يا فلان وليس بترخيم والتوي الهلاك يعني ذاك الذي لا هلاك عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَالكَافِظِينَ الْغَيْظَ﴾ يعني والجارعين الغيظ عند امتلاء نفوسهم منه والكظم حبس الشيء عند امتلائه وكظم الغيظ هو أن يمتلىء غيظاً فيرده في جوفه ولا يظهره بقول ولا فعل ويصبر عليه ويسكت عنه ومعنى الآية أنهم يكفون غيظهم عن الإمضاء ويردون غيظهم في أجوافهم وهذا الوصف من أقسام الصبر والحلم عن سهل بن معاذ عن أنس الجهني عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «من كظم غيظاً وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله تعالى يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره في أي الجور شاء» أخرجه الترمذي وأبو داود (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» وروي عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن خادماً لها غاظها فقالت لله در التقوى ما تركت لذي غيظ شفاء ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ يعني إذا جنى عليهم أحد لم يؤاخذوه فتكون الآية على العموم وقيل أراد بالناس الممالك لسوء أدب يقع منهم، فتكون على الخصوص وقيل يعفون عمن ظلمهم وأساء إليهم وهو قريب من القول الأول ﴿وَاللَّهُ يَحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ يحتمل أن تكون اللام للجنس فيتناول كل محسن ويحتمل أن تكون للعهد فتكون إشارة إلى المذكورين في الآية والإحسان إلى الغير إنما يكون بإيصال النفع إليه وبدفع الضرر عنه وقيل الإحسان أن تحسن لمن أساء إليك فإن الإحسان إلى المحسن متاجرة. وقيل المحسن هو الذي يعم بإحسانه كل أحد كالشمس والمطر والريح، وقيل الإحسان وقت الإمكان وليس عليك في كل وقت إحسان. وقيل الإحسان هذه الخصال المذكورة في هذه الآية فمن فعلها فهو محسن. ولما كانت هذه الخصال إحساناً إلى الغير ذكر الله ثوابها بقوله والله يحب المحسنين فإن محبة الله تعالى للعبد أعظم درجات الثواب. قوله عز وجل: .

السَّخَاوَةَ. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أخبرنا أبو إسحق الثعلبي أخبرنا أبو عمر الفراتي أخبرنا أبو العباس أحمد بن إسماعيل العنبري أخبرنا أبو عبد الله بن حازم البغوي بمكة أخبرنا أبو صالح بن أيوب الهاشمي أخبرنا إبراهيم بن سعد أخبرنا سعيد بن محمد عن يحيى بن سعيد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «السَّخِي قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ، بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ، وَالْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ، وَالْجَاهِلُ سَخِي أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ عَابِدٍ بِخِيلٍ». ﴿وَالكَافِظِينَ الْغَيْظَ﴾ أي: الجارعين الغيظ عند امتلاء نفوسهم منه، والكظم: حبس الشيء عند امتلائه، وكظم الغيظ أن يمتلىء غيظاً فيرده في جوفه ولا يظهره. ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَافِظِينَ﴾ [غافر: ١٨]، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أخبرنا أبو إسحق الثعلبي أخبرنا أبو عمرو الفراتي أخبرنا أبو محمد الحسن بن محمد الإسفرائيني أخبرنا أبو عبد الله بن محمد زكريا العلاني أخبرنا روح بن عبد المؤمن أخبرنا أبو عبد الرحمن المقرئ أخبرنا سعيد بن أبي أيوب قال: حدثني أبو مرحوم عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَنْفِذَهُ دَعَاهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ حَتَّى يَخِيَرَهُ مِنْ أَيْ الْحُورِ شَاءَ»، ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾، قال الكلبي عن المملوكين سوء الأدب، وقال زيد بن أسلم ومقاتل: عَمَّنْ ظَلَمَهُمْ وَأَسَاءَ إِلَيْهِمْ، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، عن الثوري: الإحسان أن تحسن إلى المسيء، فإن الإحسان إلى المحسن تجارة.

وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ ذُنُوبَهُ
إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾

﴿والذين إذا فعلوا فاحشة﴾ قال ابن مسعود رضي الله عنه قال المؤمنون للنبي ﷺ يا رسول الله كانت بنو إسرائيل أكرم على الله منا كان أحدهم إذا أذنب ذنباً أصبحت كفارة ذنبه مكتوبة على عتبة بابه اجدع أنفك أو أذنك افعل كذا فسكت رسول الله ﷺ فأنزل الله هذه الآية وروى عطاء عن ابن عباس أنها نزلت في تيهان التمار أخته امرأة حسناء تتباع منه تمراً فقال لها: إن هذا التمر ليس بجيد وفي البيت أجود منه فذهب بها إلى بيته فضمها إلى نفسه وقبلها فقالت له: اتق الله فتركها وندم على ذلك. فأتى النبي ﷺ وذكر له ذلك فنزلت هذه الآية في رواية أبي صالح عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ آخى بين رجلين أحدهما أنصاري والآخر ثقفى، فخرج الثقفى في غزوة واستخلف أخاه الأنصاري على أهله فاشترى لهم ذات يوم لحماً فلما أرادت المرأة أن تأخذه منه دخل على أثرها وقبل يدها ثم ندم وانصرف ووضع التراب على رأسه وهام على وجهه فلما رجع الثقفى لم يستقبله الأنصاري فسأل امرأته عن حاله فقالت: لا أكثر الله في الإخوان مثله وذكرت له الحال والأنصاري يسبح في الجبال تائباً مستغفراً، فطلبه الثقفى حتى وجده فأتى به إلى أبي بكر رجاء أن يجد عنده راحة وفرجاً فقال الأنصاري: هلكك وذكر القصة فقال أبو بكر: ويحك أما علمت أن الله تعالى يغار للغازي ما لا يغار للمقيم ثم لقيا عمر فقال لهما: مثل ذلك فأتيا النبي ﷺ فقال لهما مثل مقالتهما فأنزل الله عز وجل: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة﴾ يعني فعلة فاحشة خارجة عما أذن الله فيه والفاحشة ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال وأصل الفحش القبح والخروج عن الحد، قال جابر: الفاحشة الزنا.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ ظلم النفس هو ما دون الزنا مثل القبله والمعانقه واللمس والنظر وقيل الفاحشة الكبيرة وظلم النفس هي الصغيرة وقيل الفاحشة مما يكون فعله كاملاً في القبح وظلم النفس هو أي ذنب

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ قال ابن مسعود: قال المؤمنون: يا رسول الله كانت بنو إسرائيل أكرم على الله منا، كان أحدهم إذا أذنب وكفارة ذنبه مكتوبة في عتبة بابه، اجدع أنفك أو أذنك، افعل كذا وكذا، فسكت رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقال عطاء: نزلت في تيهان التمار وكنيته أبو معبد أخته امرأة حسناء، تتباع منه تمراً فقال لها: إن هذا التمر ليس بجيد، وفي البيت أجود منه، فذهب بها إلى بيته فضمها إلى نفسه وقبلها، فقالت له: اتق الله، فتركها وندم على ذلك، فأتى النبي ﷺ، وذكر ذلك له، فنزلت هذه الآية، وقال مقاتل والكلبي: آخى رسول الله ﷺ بين رجلين أحدهما من الأنصار والآخر من ثقيف فخرج الثقفى في غزاة فاستخلف الأنصاري على أهله فاشترى لهم اللحم ذات يوم، فلما أرادت المرأة أن تأخذ منه دخل على أثرها وقبل يدها، ثم ندم وانصرف ووضع التراب على رأسه وهام على وجهه، فلما رجع الثقفى لم يستقبله الأنصاري فسأل امرأته عن حاله، فقالت: لا أكثر الله في الإخوان مثله ووصفت له الحال، والأنصاري يسبح في الجبال تائباً مستغفراً، فطلبه الثقفى حتى وجده فأتى به أبا بكر رجاء أن يجد عنده راحة وفرجاً فقال الأنصاري: هلكك، وذكر القصة، فقال له أبو بكر: ويحك أما علمت أن الله تعالى يغار للغازي ما لا يغار للمقيم، ثم أتيا عمر رضي الله عنه فقال مثل ذلك، فأتيا النبي ﷺ فقال له مثل مقالتهما، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ يعني: قبيحة خارجة عما أذن الله تعالى فيه، وأصل الفحش القبح والخروج عن الحد، قال جابر: الفاحشة الزنا، ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾، ما دون الزنا من القبله والمعانقة والنظر واللمس، وقال مقاتل والكلبي: الفاحشة ما دون

كان ﴿ذكروا الله﴾ يعني ذكروا وعيد الله وعقابه وأن الله يسألهم عن ذلك يوم الفزع الأكبر وقيل ذكروا جلال الله الموجب للحياء منه. وقيل ذكروا الله باللسان عند الذنوب وهو قوله تعالى: ﴿فاستغفروا لذنوبهم﴾ يعني لأجل ذنوبهم فتابوا منها واقلعوا عنها نادمين على فعلها عازمين أن لا يعودوا إليها وهذه شروط صحة التوبة المقبولة ﴿ومن يغفر الذنوب إلا الله﴾ وصف نفسه بسعة الرحمة وقرب المغفرة وأن التائب من الذنب عنده كمن لا ذنب له، وأنه لا مفزع للمذنبين إلا إلى فضله وكرمه وإحسانه وعفوه ورحمته وفيه تنبيه على أن العبد لا يطلب المغفرة إلا منه وأنه القادر على عقاب المذنب وكذلك هو القادر على إزالة ذلك العقاب عنه فثبت أنه لا يجوز طلب المغفرة إلا منه ﴿ولم يصروا على ما فعلوا﴾ يعني ولم يقيموا على الذنوب ولم يثبتوا عليها ولكن تابوا منها وأنابوا واستغفروا قيل الإصرار هو ترك الاستغفار عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة» أخرجه أبو داود وقال: حديث حسن غريب وعنده عوض ولو عاد ولو فعل ﴿وهم يعلمون﴾ قال ابن عباس: وهم يعلمون أنها معصية وأن لهم رباً يغفرها وقيل وهم يعلمون أن الإصرار ضار وقيل معناه وهم يعلمون أن الله يملك مغفرة الذنب وقيل وهم يعلمون أن الله لا يتعاطمه العفو عن الذنوب وإن كثرت وقيل معناه وهم يعلمون أنهم إن استغفروه غفر لهم قال ثابت البناني بلغني أن إبليس بكى حين نزلت هذه الآية والذين إذا فعلوا فاحشة إلى آخرها.

فصل: في فضل الاستغفار

عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال: إني كنت إذا سمعت حديثاً من رسول الله ﷺ نفعتني الله منه ما شاء أن ينفعني. وإذا حدثني أحد من الصحابة استحلفته فإذا حلف لي صدقته وإنه حدثني أبو بكر وصدق أبو بكر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد مؤمن أو قال ما من رجل يذنب ذنباً فيقوم فيستغفر ثم يصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر الله له ثم قرأ هذه الآية ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله﴾ إلى آخر الآية» أخرجه الترمذي أبو داود والترمذي وقال هذا حديث قد رواه غير واحد عن عثمان بن المغيرة فرفعه ورواه مسعر وسفيان عن عثمان بن المغيرة فوقفاه ولم يرفعه ولا يعرف لأسماء إلا هذا الحديث عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً ومن كل هم فرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب» أخرجه أبو داود (م) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو لم تذنوبوا لذهب الله بكم ولجاء بكم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم (ق) عنه عن النبي ﷺ فيما يحكى عن ربه تبارك وتعالى قال: «إذا أذنب عبد ذنباً فقال: اللهم اغفر لي ذنبي قال تبارك وتعالى أذنب عبدي ذنباً علم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ثم عاد فأذنب فقال: أي رب اغفر لي ذنبي فقال تبارك وتعالى: إن عبدي أذنب ذنباً فعلم أن به رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ثم عاد فقال: أي رب اغفر لي ذنبي فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. وفي رواية اعمل ما شئت قد غفرت لك» قال عبد الأعلى لا أدري أقال في الثالثة أو الرابعة أعمل ما شئت عن أنس قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى يا ابن آدم إنك ما دعوتني

الزنا من قبله أو لمسة أو نظرة فيما لا يحل، أو ظلموا أنفسهم بالمعصية، وقيل: فعلوا فاحشة الكبائر، أو ظلموا أنفسهم بالصغائر، وقيل: فعلوا فاحشة فعلاً أو ظلموا أنفسهم قولاً، ﴿ذَكُرُوا اللَّهَ﴾ أي: ذكروا وعيد الله، والله سائلهم، وقال مقاتل بن حيان: ذكروا الله باللسان عند الذنوب، ﴿فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله﴾ أي: وهل يغفر الذنوب إلا الله، ﴿ولم يصروا على ما فعلوا﴾ أي: لم يقيموا ولم يثبتوا عليه، ولكن تابوا وأنابوا واستغفروا، وأصل الإصرار: الثبات على الشيء، قال الحسن: إتيان العبد ذنباً عمداً إصراراً حتى يتوب. وقال

ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي يا ابن آدم وأتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن عنان السماء بفتح العين قيل هو السحاب وقيل هو ما عن لك منها أي ما ظهر لك منها وقراب الأرض بضم القاف وروي بكسرهما والضم أشهر وهو ما يقارب ملأها عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «من قال أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفرت ذنوبه وإن كان قد فر من الزحف» أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم قال حديث حسن صحيح على شرط البخاري ومسلم عن أبي الدرداء قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل ذنب عسى الله أن يغفره أو قال عسى أن يغفره الله إلا من مات مشركاً ومن قتل مؤمناً متعمداً» أخرجه أبو داود اهـ. قوله عز وجل: .

أُولَئِكَ جَزَاءُهم مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهم وَجَنَّتْ تُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ

الْعَامِلِينَ ﴿١٣٧﴾

﴿أولئك﴾ إشارة إلى من تقدم ذكره في قوله تعالى: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم﴾ الآية ﴿جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار﴾ معنى الآية أن المطلوب بالتوبة أمران أحدهما الأمن

السدي: الإصرار: السكوت وترك الاستغفار. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا أبو منصور السمعاني أخبرنا أبو جعفر الزياتي أخبرنا حميد بن زنجويه أنا يحيى بن يحيى أنا عبد الحميد بن عبد الرحمن عن عثمان بن واقد العمري عن أبي نصره قال: لقيت مولياً لأبي بكر رضي الله عنه فقلت له: أَسَمِعْتَ من أبي بكر شيئاً؟ قال: نعم سمعته يقول: قال رسول الله ﷺ: «ما أصرُّ من استغفر، وإن عاد في اليوم سبعين مرة». ﴿وهم يعلمون﴾، قال ابن عباس والحسن ومقاتل والكلبي: وهم يعلمون أنها معصية، وقيل: وهم يعلمون أن الإصرار ضارٌّ، وقال الضحاك: وهم يعلمون أن الله يملك مغفرة الذنوب، وقال الحسن بن الفضل: أن لهم رباً يغفر الذنوب، وقيل: وهم يعلمون أن الله لا يتعاضمه العفو عن الذنوب وإن كثرت، وقيل: وهم يعلمون أنهم إن استغفروا غفر لهم.

﴿أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين﴾، ثواب المطيعين. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أبو منصور السمعاني أخبرنا أبو جعفر الزيات أنا حميد بن زنجويه أنا عفان بن مسلم أنا أبو عوانة أنا عثمان بن المغيرة عن علي بن ربيعة الأسدي عن أسماء بن الحكم الفزاري قال: سمعت علياً رضي الله عنه يقول: إني كنت رجلاً إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً ينفعني الله منه بما شاء أن ينفعني، وإذا حدثني أحد من أصحابه استحلفته فإذا حلف لي صدقته، وإنه حدثني أبو بكر وصدق أبو بكر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد مؤمن يذنب ذنباً فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ثم يستغفر الله إلا غفر الله له»، ورواه أبو عيسى عن قتبية عن أبي عوانة وزاد: ثم قرأ: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم﴾ [آل عمران: ١٣٥] الآية. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني أنا أبو جعفر الزياتي أنا حميد بن زنجويه أنا هشام بن عبد الملك أخبرنا همام عن إسحق عن عبد الله بن أبي طلحة قال: كان قاض بالمدينة يقال له عبد الرحمن بن أبي عمرة وسمعته يقول: سمعت أبا هريرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن عبداً أذنب ذنباً فقال: أي رب أذنبت ذنباً فاغفره لي، قال: فقال له ربُّه عز وجل: عليم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به،

من العقاب وإليه الإشارة بقوله مغفرة من ربهم والثاني إيصال الثواب وإليه الإشارة بقوله وجنات تجري من تحتها الأنهار أي ذلك لهم ذكر لا يبخس وأجر لا يوكس ﴿خالدين فيها﴾ أي في الجنات ﴿ونعم أجر العاملين﴾ أي ونعم ثواب المطيعين يعني الجنة. قوله عز وجل:

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَاسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ

وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾

﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾ يعني قد انقضت من قبلكم سنة الله في الأمم الماضية بالهلاك والاستئصال لأنهم خالفوا الأنبياء والرسل للحرص على الدنيا وطلب لذاتها والبقاء فيها فانقضوا ولم يبق منهم أحد وقيل في معنى السنة الطريقة المستقيمة والمثال المتبع. لكل أمة سنة ومنهاج إذا اتبعوه رضي الله عنهم بذلك. وقيل سنن أي شرائع وقيل سنن أي أمم والسنة الأمة ومعنى الآية قد مضت وسلفت مني سنن فيمن كان قبلكم من الأمم الماضية الكافرة بآلهة إياهم حتى يبلغ الكتاب أجله فيهم الذي أجلته لإهلاكهم ﴿فسيروا في الأرض﴾ أمر ندب لا على سبيل الوجوب بل المقصود تعرف أحوال الماضين بقوله ﴿فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ فرغب أمة محمد ﷺ في تأمل أحوال الأمم الماضية ليصير ذلك داعياً لهم إلى الإيمان بالله ورسوله والإعراض عن الدنيا ولذاتها. وفيه أيضاً زجر للكافر عن كفره لأنه إذا تأمل أحوال الكفار وإهلاكهم صار ذلك داعياً إلى الإيمان لأن النظر إلى آثار المتقدمين له أثر في النفس كما قيل:

إِنْ أَثَارُنَا تَدَلَّ عَلَيْنَا فَانظُرُوا بَعْدَنَا إِلَى الْآثَارِ

غفرت لعبدي، ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنباً آخر فقال: رَبِّ أَذْنِبْتُ ذَنْباً فَاغْفِرْهُ لِي، فقال رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ: عَلِمَ عَبْدِي أَنْ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَفْعَلْ مَا شَاءَ، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني أنا أبو جعفر الزياتي أنا حميد بن زنجوية أخبرنا النعمان السدوسي أخبرنا المهدي بن ميمون أخبرنا غيلان بن جرير عن شهر بن حوشب عن مَعْدِي كَرَب عن أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «قَالَ يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ، ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ إِنْ لَقِيتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا لَقِيتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً بَعْدَ أَنْ لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئاً، ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ إِنْ تَذَنَّبَ حَتَّى تَبْلُغَ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ تَسْتَغْفِرَنِي أَغْفِرُ لَكَ»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أبو الحسن محمد بن الحسين الحسيني أنا عبد الله بن محمود بن محمود بن حسن الشريقي أنا أبو الأزهر أحمد بن الأزهر أخبرنا إبراهيم بن الحكم بن أبان حدثني أبي عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: قال الله تعالى: «مَنْ عَلِمَ أَنِّي ذُو قُدْرَةٍ عَلَى مَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ مَا لَمْ يُشْرِكْ بِي شَيْئاً». قال ثابت البناني: بلغني أن إبليس بكى حين نزلت هذه الآية ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة﴾ إلى آخرها.

قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾، قال عطاء: شرائع، وقال الكلبي: مضت لكل أمة سنة ومنهاج إذا اتبعوها رضي الله عنهم، وقال مجاهد: قد خلت من قبلكم سنن بالهلاك فيمن كذب قبلكم، وقيل: سُنُنٌ أي: أُمَمٌ، والسنة: الأمة، قال الشاعر:

ما عاينَ النَّاسُ مِنْ فَضْلٍ كَفَضْلِكُمْ ولا رأوا مثلكم في سالفِ السَّنَنِ

وقيل معناه: أهل السنن، والسنة: الطريقة المتبعة في الخير والشر، يقال: سنَّ فلانُ سنةً حسنةً، وسنةً سيئةً

وفي هذه الآية تسليّة لأصحاب رسول الله ﷺ وما جرى لهم في غزوة أحد يقول فإنني إنما أمهلت الكفار حتى يبلغ الكتاب أجله فيهم الذي أجلته لهم في إهلاكهم ونصر محمد ﷺ وأوليائه وهلاك أعدائه. قوله عز وجل: .

﴿هذا﴾ يعني القرآن وقيل هو اسم إشارة إلى ما تقدم من أمره ونهيه ووعدته ووعدته ﴿بيان الناس﴾ يعني عامة ﴿وهدى﴾ يعني من الضلالة ﴿وموعظة للمتقين﴾ يعني خاصة وقيل في الفرق بين البيان والهدى والموعظة لأن العطف يقتضي المغايرة والبيان هو الدلالة التي تفيد إزالة الشبهة بعد أن كانت حاصلة والهدى هو طريق الرشد المأمور بسلوكه دون طريق الغي، والموعظة هي الكلام الذي يفيد الزجر عما لا ينبغي في طريق الدين. فالحاصل أن البيان جنس تحته نوعان أحدهما الكلام الهادي إلى ما ينبغي في الدين وهو الهدى والثاني الكلام الزاجر عما لا ينبغي في الدين وهو الموعظة وإنما خصص المتقين بالهدى والموعظة لأنهم المنتفعون بهما دون غيرهم.

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرَجٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَجٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾

قوله عز وجل: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا﴾ نزلت يوم أحد حين أمر النبي ﷺ أصحابه بطلب القوم مع ما أصابهم من الجراح فاشتد ذلك على المسلمين فأنزل الله تعالى هذه الآية وحث فيها أصحاب النبي ﷺ على الجهاد على ما أصابهم من الجراح والقتل. وكان قد قتل يوم أحد من الأنصار سبعون رجلاً ومن المهاجرين خمسة رجال منهم حمزة بن عبدالمطلب عم رسول الله ﷺ ومصعب بن عمير. ومعنى الآية ولا تهنوا أي ولا تضعفوا عن الجهاد ولا تحزنوا يعني على من قتل منكم لأنهم في الجنة ﴿وأنتم الأعلون﴾ يعني بالنصر والغلبة عليهم وأن العاقبة لكم وقال ابن عباس: انهزم أصحاب رسول الله ﷺ في الشعب فأقبل خالد بن الوليد في خيل المشركين يريد أن يعلو عليهم الجبل. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم لا يعلوه علينا اللهم لا قوة لنا إلا بك» فثاب نفر من المسلمين رماة فصعدوا الجبل ورموا خيل المشركين حتى انهزموا وعلا المسلمون الجبل فذلك قوله تعالى: ﴿وأنتم الأعلون﴾ وقيل وأنتم الأعلون لأن حالكم خير من حالهم لأن قتلكم في الجنة وقتلاهم في النار وأنتم تقاتلون على الحق

إذا عمل عملاً اقتدي به فيه من خير وشر، ومعنى الآية: قد مضت وسلفت مني سنن فمن كان قبلكم من الأمم الماضية الكافرة، بامهالي واستدراجي إليهم حتى يبلغ الكتاب فيهم أجلي الذي أجلته لإهلاكهم، وإذالة أنبيائي عليهم. ﴿فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾، أي: آخرا من المكذبين، وهذا في حرب أحد، يقول الله عز وجل: فأنأ أمهلهم وأستدرجهم حتى يبلغ أجلي الذي أجلته في نصرة النبي ﷺ وأوليائه وإهلاك أعدائه.

﴿هذا﴾ أي: هذا القرآن، ﴿بيان للناس﴾، عامة، ﴿وهدى﴾، من الضلالة، ﴿وموعظة للمتقين﴾،

خاصة.

قوله تعالى: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا﴾، هذا حث لأصحاب النبي ﷺ على الجهاد والصبر على ما أصابهم من القتل والجرح يوم أحد، يقول الله تعالى: ولا تهنوا أي: لا تضعفوا ولا تجبنوا عن جهاد أعدائكم بما نالكم من القتل والجرح، وكان قد قتل يومئذ من المهاجرين خمسة منهم: حمزة بن عبدالمطلب ومصعب بن عمير، وقُتل من الأنصار سبعون رجلاً، ﴿ولا تحزنوا﴾ أي: على ما فاتكم، ﴿وأنتم الأعلون﴾ بأن يكون لكم العاقبة بالنصر

وهم يقاتلون على الباطل. وقيل وأنتم الأعلون في العاقبة لأنكم تظفرون بهم وتستولون عليهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي إذ كنتم مؤمنين وقيل معناه إن كنتم مصدقين بأن ناصركم هو الله تعالى فصدقوا بذلك فإنه حق وصدق.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسِكُمْ قَرْحٌ﴾ قرىء بضم القاف وبفتحها وهما لغتان ومعناها واحد وقيل إنه بالفتح مصدر وبالضم اسم وقيل إنه بالفتح اسم للجراحة وبالضم ألم للجراحة الآية خطاب للمسلمين حين انصرفوا من أحد مع الحزن والكآبة يقول: إن يمسكم أيها المسلمون قرح يوم أحد ﴿فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ﴾ يعني في يوم بدر وقيل إن الكفار قد نالهم يوم أحد مثل ما نالكم من الجراح والقتل فقد قتل منهم نيف وعشرون رجلاً وكثرت الجراحات فيهم ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ المداولة نقل الشيء من واحد إلى آخر يقال تداولته الأيدي إذا انتقل من واحد إلى آخر ويقال الدنيا دول أي تنتقل من قوم إلى آخرين ثم منهم إلى غيرهم والمعنى أن أيام الدنيا هي دول بين الناس فيوم لهؤلاء ويوم لهؤلاء فكانت الدولة للمسلمين على المشركين في يوم بدر حتى قتلوا منهم سبعين رجلاً وأسروا سبعين وأدبل المشركون من المسلمين يوم أحد حتى جرحوا منهم سبعين وقتلوا خمساً وسبعين (خ) عن البراء بن عازب قال: جعل النبي ﷺ على الرجالة يوم أحد وكانوا خمسين رجلاً وهم الرماة عبدالله بن جبير. فقال: إن رأيتونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا من مكانكم هذا حتى أرسل إليكم وإن رأيتونا هزمننا القوم ووطئناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم فهزمهم الله. قال: فأنا والله رأيت النساء يشتددن قد بدت خلاخلهن وأسوقهن رافعات ثيابهن فقال أصحاب عبدالله بن جبير الغنيمة أي قوم الغنيمة ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبدالله بن جبير أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ فقالوا: والله لنأتين الناس فلنصيب من الغنيمة فلما أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين فذلك قوله والرسول يدعوكم في أخراكم فلم يبق مع النبي ﷺ غير اثني عشر رجلاً فأصابوا منا سبعين رجلاً وكان النبي ﷺ قد أصاب من المشركين يوم بدر أربعين ومائة: سبعين أسيراً وسبعين قتيلاً فقال أبو سفيان أفي القوم محمد؟ ثلاث مرات فنهاهم النبي ﷺ أن يجيئوه ثم قال أفي القوم ابن أبي قحافة؟ ثلاث مرات ثم قال أفي القوم عمر بن الخطاب؟ ثلاث مرات ثم رجع إلى أصحابه فقال أما هؤلاء فقد قتلوا فما ملك عمر نفسه فقال كذبت والله يا عدو الله إن الذي عددت لأحياء كلهم وقد بقي لك ما يسوءك قال يوم بيوم بدر والحرب سجال إنكم ستجدون في القوم مثله لم أمر بها ولم تسؤني ثم أخذ يرتجز اعل هبل اعل هبل فقال النبي ﷺ ألا تجيئوه؟

والظفر على أعدائكم، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني: إذ كنتم، أي: لأنكم مؤمنون، قال ابن عباس رضي الله عنهما: انهزم أصحاب رسول الله ﷺ في الشعب فأقبل خالد بن الوليد بخيل المشركين يريد أن يعلو عليهم الجبل، فقال النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ لَا يعلو علينا، اللَّهُمَّ لَا قُوَّةَ لَنَا إِلَّا بِكَ»، وثاب نفر من المسلمين رماة فصعدوا الجبل ورموا خيل المشركين حتى هزموها، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلُونَ﴾ وقال الكلبي: نزلت هذه الآية بعد يوم أحد حين أمر النبي ﷺ أصحابه بطلب القوم بعدما أصابهم من الحرج، فاشتد ذلك على المسلمين فأنزل الله تعالى هذه الآية، دليله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ [النساء: ١٠٤].

﴿إِنْ يَمْسِكُمْ قَرْحٌ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ﴿قَرْحٌ﴾ بضم القاف حيث جاء، وقرأ الآخرون بالفتح وهما لغتان ومعناها واحد كالجهد والجهد، وقال الفراء: بالفتح اسم للجراحة، وبالضم اسم لألم الجراحة، هذا خطاب مع المسلمين حيث انصرفوا من أحد مع الكآبة والحزن، يقول الله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسِكُمْ قَرْحٌ﴾، يوم أحد، ﴿فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾، يوم بدر، ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾، فيوم لهم ويوم عليهم، أدبل المسلمون من المشركين يوم بدر حتى قتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين، وأدبل المشركون من المسلمين يوم أحد حتى جرحوا منهم سبعين وقتلوا خمساً وسبعين. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا محمد بن عبد الله النعيمي

فقالوا: يا رسول الله ما نقول؟ قال قولوا الله أعلى وأجل قال أبو سفيان. إن لنا عزي ولا عزي لكم فقال النبي ﷺ ألا تجيبوه قالوا يا رسول الله ما نقول قال قولوا الله مولانا ولا مولى لكم. قال البغوي وقد روي هذا المعنى عن ابن عباس وفي حديثه قال أبو سفيان يوم بيوم وإن الأيام دول والحرب سجال فقال عمر لا سواء قتلتنا في الجنة وقتلاكم في النار قال الزجاج الدولة تكون للمسلمين على الكفار لقوله تعالى وإن جندنا لهم الغالبون فكانت يوم أحد للكفار على المسلمين لمخالفتهم أمر رسول الله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾ يعني إنما جعل الدولة للكفار على المسلمين ليميز المؤمن المخلص ممن يرتد عن الدين إذا أصابته نكبة وشدة وقيل معناه وليعلم الله الذين آمنوا بما يظهر من صبرهم على جهاد عدوهم أي ليعرفهم بأعيانهم إلا أن السبب العلم وهو ظهور الصبر حذف هنا وقيل معناه ليعلم الله ذلك واقعاً منهم لأن الله تعالى يعلم الشيء قبل وجوده ولا يحتاج إلى سبب حتى يعلم والمعنى ليقع ما علمه عياناً ومشاهدة للناس والمجازاة إنما تقع على الواقع دون المعلوم الذي لم يوجد وقيل معناه ليعلم أولياء الله فأضاف علمهم إلى نفسه تفخيماً. وقيل معناه ليحكم الله بالامتنياز بين المؤمن والمنافق فوضع العلم موضع الحكم لأن الحكم لا يحصل إلا بعد العلم ﴿ويتخذ منكم شهداء﴾ يعني وليكرم قوماً منكم بالشهادة ممن أراد أن يكرمهم بها وذلك لأن قوماً من المسلمين فاتهم يوم بدر وكانوا يتمنون لقاء العدو وأن يكون لهم يوم كيوم بدر فيقاتلون فيه العدو ويلتمسون فيه الشهادة والشهداء جمع شهيد وهو من قتل من المسلمين بسيف الكفار في المعركة واختلفوا في معنى الشهيد فقيل الشهيد الحي لقوله تعالى بل أحياء عند ربهم يرزقون فأرواحهم حية حضرت دار السلام وشهدتها وأرواح غيرهم لا تشهدا وقيل سمي شهيداً لأن الله تعالى شهد له بالجنة. وقيل سموا شهداء لأنهم يشهدون يوم القيامة مع الأنبياء

أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أخبرنا عمرو بن خالد أنا زهير أخبرنا أبو إسحق قال: سمعت البراء بن عازب يحدث قال: جعل النبي ﷺ على الرجال يوم أحد وكانوا خمسين رجلاً عبد الله بن جبير، فقال: «إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم وإن رأيتمونا هزماً القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم»، فلهزمهم، قال: فإننا والله رأيت النساء يشتدن قد بدت خلاخلهن وأسوقهن رافعات ثيابهن، فقال أصحاب عبد الله بن جبير: الغنيمة، أي قوم الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: والله لنائين الناس فلنصين من الغنيمة، فلما أتوهم صرقت وجوههم فأقبلوا منهزمين. فذلك قوله: ﴿والرسول يدعوكم في أخراكم﴾ [آل عمران: ١٥٣]، فلم يبق مع النبي ﷺ غير اثني عشر رجلاً فأصابوا من سبعين، وكان النبي ﷺ وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر مائة وأربعين، سبعين أسيراً وسبعين قتيلاً، فقال أبو سفيان: أفي القوم محمد ثلاث مرات، فنهاهم النبي ﷺ أن يجيبوه، ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة ثلاث مرات، ثم قال: أفي القوم ابن الخطاب ثلاث مرات، ثم رجع إلى أصحابه، فقال: أما هؤلاء فقد قُتلوا، فما ملك عمر نفسه، فقال: كذبت والله يا عدو الله، إن الذين عدت لأحياء كلهم، وقد بقي لك ما يسوءك، فقال: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، إنكم ستجدون في القوم مثله لم أمر بها ولم تسؤني، ثم أخذ يرتجز: أعل هُبْلُ أعل هُبْلُ، فقال النبي ﷺ: «ألا تجيبوه؟» قالوا: يا رسول الله ما نقول؟ قال: «قولوا لله أعلى وأجل»، قال: إن لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي ﷺ: «ألا تجيبوه؟» قالوا: يا رسول الله ما نقول؟ قال: «قولوا الله مولانا ولا مولى لكم»، ورؤي هذا المعنى عن ابن عباس رضي الله عنهما وفي حديثه قال أبو سفيان: يوم بيوم وإن الأيام دول والحرب سجال، فقال عمر رضي الله عنه: لا سواء، قتلتنا في الجنة وقتلاكم في النار. قال الزجاج: الدولة تكون للمسلمين على الكفار، لقوله تعالى: ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾ [الصافات: ١٧٣]، وكانت يوم أحد للكفار

والصديقين على الأمم لأن الشهادة تكون للأفضل فالأفضل من الأمة لأن منصب الشهادة منصب عظيم ودرجة عالية ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ يعني المشركين وقيل هم الذين ظلموا أنفسهم بالمعاصي وقيل هم المنافقون الذين يظهرون الإيمان بالستهم ويسرون الكفر، والمعنى والله لا يحب من لا يكون ثابتاً على الإيمان صابراً على الجهاد.

وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمْنُونَ الْوَيْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

﴿وليمحص الله الذين آمنوا﴾ أي وليطهرهم من ذنوبهم ويزيلها عنهم وأصل المحص في اللغة التنقية والإزالة ﴿ويمحق الكافرين﴾ أي يفيئهم ويهلكهم ومعنى الآية إن قتلتم الكافرين فهو شهادة وتطهير لكم وإن قتلتموهم أنتم فهو محققهم واستئصالهم.

قوله عز وجل: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أي بل حسبتم وظننتم والمراد به الإنكار والمعنى لا تحسبوا أيها المؤمنون ﴿أن تدخلوا الجنة﴾ وتنالوا كرامتي وثوابي ﴿ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾ قال الإمام فخر الدين الرازي: ظاهر الآية يدل على وقوع النفي على العلم والمراد وقوعه على نفي المعلوم والتقدير: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يصدر الجهاد عنكم وتقديره إن العلم متعلق بالمعلوم كما هو عليه فلما حصلت هذه المطابقة لا جرم حسن إقامة كل واحد منهما مقام الآخر وقال الواحدي النفي في الآية واقع على العلم والمعنى على الجهاد دون العلم وذلك لما فيه من الإيجاز في انتفاء جهاد لو كان لعلمه والتقدير: ولما يكن المعلوم من الجهاد الذي أوجب عليكم فجرى النفي على العلم للإيجاز على سبيل التوسع في الكلام إذ المعنى مفهوم من غير إخلال. وقال الزجاج: المعنى ولما يقع العلم بالجهاد والعلم بصبر الصابرين أي ولما يعلم الله ذلك واقعاً منكم لأنه يعلمه غيباً وإنما يجازيهم على عملهم وقال الطبري يقول ولما يتبين لعبادي المؤمنين المجاهد منكم على ما أمرته به ﴿ويعلم الصابرين﴾ يعني في الحرب وعلى ما نالهم في ذات الله عز وجل من جراح وألم ومكره وفي هذه الآية معاتبة لمن انهزم يوم أحد والمعنى أَمْ حَسِبْتُمْ أيها المهزومون أن تدخلوا الجنة كما دخلها الذين قتلوا وبذلوا مهجهم لربهم عز وجل وصبروا على ألم الجراح والضرب وثبتوا لعدوهم من غير أن تسلكوا طريقهم وتصبروا صبرهم.

قوله تعالى: ﴿ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه﴾ قال ابن عباس: لما أخبر الله عز وجل المؤمنين على لسان نبيه ﷺ بما فعل بشهادتهم يوم بدر من الكرامة رغبوا في ذلك فتمنوا قتلاً يستشهدون فيه فيلحقون

على المسلمين لمخالفتهم أمر رسول الله ﷺ. قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: إنما كانت هذه المداولة ليعلم؛ أي: ليرى الله الذين آمنوا فيميز المؤمن من المنافق، ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾، يُكْرَمُ أَقْوَاماً بالشهادة، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: يطهركم من الذنوب، ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾، يُفْنِيهِمْ وَيُهْلِكُهُمْ، معناه: أنهم إن قتلوكم فهو تطهير لكم، وإن قتلتموهم فهو محققهم واستئصالهم.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أي: أحسبتم؟ ﴿أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ أي: ولم يعلم الله، ﴿الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمْنُونَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾، وذلك أن قوماً من المسلمين تمنوا يوماً كيوم بدر ليقاتلوا

بإخوانهم فأراهم الله يوم أحد فلم يلبثوا أن انهزموا إلا من شاء الله منهم فأنزل الله هذه الآية وقيل إن قوماً من المسلمين تمنوا يوماً كيوم بدر ليقاتلوا فيه ويستشهدوا فأراهم الله يوم أحد ومعنى قوله له تمنون الموت أي تطلبون أسباب الموت وهو القتال والجهاد من قبل أن تلقوه أي من قبل أن تلقوا يوم أحد ﴿فقد رأيتموه﴾ يعني رأيتم ما كنتم تتمنون والهاء في رأيتموه عائدة على الموت أي رأيتم أسبابه معانين له شاهدين قتل من قتل من إخوانكم بين أيديكم ﴿وأنتم تنظرون﴾ قيل ذكره تأكيداً. وقال الزجاج: معناه فقد رأيتموه وأنتم بصراء كما تقول: رأيت كذا وكذا وليس في عينك علة أي رأيته رؤية حقيقية وقيل: معناه وأنتم تنظرون ما تمنيتم فلم انهزمتهم. قوله عز وجل: .

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ قال أهل المغازي خرج رسول الله ﷺ حتى نزل بالشعب من أحد في سبعمائة رجل وجعل عبدالله بن جبير على الرجالة وكانوا خمسين رجلاً وقال: «أقيموا بأصل الجبل وانضحوا عنا بالنبل حتى لا يأتونا من خلفنا فإن كانت لنا أو علينا لا تبرحوا من مكانكم حتى أرسل إليكم فأنا لن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم» وكانت قريش على ميمتهم خالد بن الوليد وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبي جهل ومعهم النساء يضربن بالدفوف وينشدن الأشعار فقاتلوا حتى حميت الحرب وحمل النبي ﷺ وأصحابه على المشركين فهزمهم وكان النبي ﷺ قد أخذ سيفاً وقال: «من يأخذ هذا السيف بحقه ويضرب به العدو حتى يثخن» فأخذه أبو دجانة سماك بن خرشة الأنصاري فلما أخذه اعتم بعمامة حمراء وجعل يتبختر في مشيته فقال رسول الله ﷺ: «إنها لمشية يبغضها الله تعالى ورسوله إلا في هذا الموضع» فلما نظرت الرماة إلى المشركين وقد انكشفوا ورأوا أصحابهم يهبون الغنيمة أقبلوا يريدون النهب، فلما رأى خالد بن الوليد قلة الرماة واشتغال المسلمين بالغنيمة ورأى ظهورهم خالية صاح في خيله وحمل على أصحاب رسول الله ﷺ فهزمهم ورمى عبدالله بن قميئة رسول الله ﷺ بحجر فكسر أنفه ورباعيته وشجه في وجهه فأثقله وتفرق عنه أصحابه ونهض رسول الله ﷺ إلى

ويستشهدوا فأراهم الله يوم أحد، وقوله: ﴿تمنون الموت﴾ أي: سبب الموت وهو الجهاد من قبل أن تلقوه، ﴿فقد رأيتموه﴾ يعني: أسبابه، ﴿وأنتم تنظرون﴾، فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿وأنتم تنظرون﴾، بعد قوله: ﴿فقد رأيتموه﴾؟ قيل: ذكره تأكيداً، وقيل: الرؤية قد تكون بمعنى العلم، فقال: ﴿وأنتم تنظرون﴾ ليعلم، أن المراد بالرؤية النظر، وقيل: معناه وأنتم تنظرون إلى محمد ﷺ.

قوله عز وجل: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾، قال أصحاب المغازي: خرج رسول الله ﷺ حتى نزل بالشعب من أحد في سبعمائة رجل، وجعل عبد الله بن جبير وهو أخو خوات بن جبير على الرجالة، وكانوا خمسين رجلاً، وقال: أقيموا بأصل الجبل وانضحوا عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا، فإن كانت لنا أو علينا فلا تبرحوا مكانكم حتى أرسل إليكم وأنا لن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم فجاءت قريش وعلى ميمتهم خالد بن الوليد وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبي جهل ومعهم النساء يضربن بالدفوف ويقلن الأشعار فقاتلوا حتى حميت الحرب فأخذ رسول الله ﷺ سيفاً فقال: «من يأخذ هذا السيف بحقه ويضرب به العدو حتى يثخن»؟ فأخذه أبو دجانة سماك بن خرشة الأنصاري، فلما أخذه اعتم بعمامة حمراء وجعل يتبختر فقال رسول الله ﷺ: «إنها لمشية

صخرة ليعلوها فلم يستطع وكان قد ظاهر بين درعين فجلس تحته طلحة فنهض حتى استوى على الصخرة فقال رسول الله ﷺ: «أوجب طلحة» ووقعت هند والنسوة معها يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ يجدعن الآذان والأنوف حتى اتخذت من ذلك قلائد وأعطتها وحشياً وبقرت عن كبد حمزة رضي الله تعالى عنه وكان قد قتل يومئذ فأخذت منها قطعة فلاكتها فلم تسغها فلفظتها وأقبل عبدالله بن قميئة يريد قتل رسول الله ﷺ فذب عنه مصعب بن عمير رضي الله عنه وهو يومئذ صاحب راية رسول الله ﷺ فقتله ابن قميئة وهو يرى أنه قتل رسول الله ﷺ فرجع وقال: إني قد قتلت محمداً وصاح صارخاً ألا إن محمداً قد قتل ويقال إن الصارخ إبليس اللعين فانكفاً الناس وجعل رسول الله ﷺ يقول: «إليَّ عباد الله إليَّ عباد الله» فاجتمع إليه ثلاثون رجلاً فحموه حتى كشفوا عنه المشركين ورمى سعد بن أبي وقاص حتى اندقت سية قوسه ونثل له رسول الله ﷺ كنانته وقال: «ارم فذاك أبي وأمي» وكان أبو طلحة رجلاً رامياً شديد النزع كسر يومئذ قوسين أو ثلاثة وكان الرجل يمر معه جعبة النبل فيقول: «انثرها لأبي طلحة» وكان إذا رمى تشرف رسول الله ﷺ ينظر موضع نبلة وأصيب يد طلحة بن عبيدالله فيست حين وقى بها رسول الله ﷺ وأصيب عين قتادة بن النعمان يومئذ حتى وقعت على وجنته فردها رسول الله ﷺ فعادت أحسن ما كانت فلما انصرف رسول الله ﷺ أدركه أبي بن خلف الجمحي وهو يقول لانجوت إن نجوت فقال: القوم يا رسول الله ألا تعطف عليه رجل منا؟ فقال رسول الله ﷺ: «دعوه» حتى إذا دنا منه وكان أبي ذلك يلقي رسول الله ﷺ فيقول عندي رمكة أعلفها كل يوم فرق ذرة أقتلك عليها فقال رسول الله ﷺ: «بل أنا أقتلك إن شاء الله» فلما دنا منه تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة ثم استقبله وطعنه في عنقه وخدشه خدشه فسقط عن فرسه وهو يخور كما يخور الثور ويقول قتلي محمد. فاحتمله أصحابه وقالوا ليس عليك بأس بل لو كانت هذه الطعنة بريئة ومضر لقتلتهم أليس قال لي أنا أقتلك؟ فلو بزق عليّ بعد تلك المقالة لقتلني بها فلم يلبث بعد ذلك إلا يوماً حتى مات بموضع يقال له سرف (خ) عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «اشتد غضب الله

ببغضها الله تعالى إلا في هذا الموضع»، ففلق به هام المشركين، وحمل النبي ﷺ وأصحابه على المشركين فهزمهم، وروينا عن البراء بن عازب قال: فأنا والله رأيت النساء يشتددن قد بدت خلاجهن وأسوقهن رافعات ثيابهن فقال أصحاب عبد الله بن جبير: الغنيمة والله لثاين الناس ولتصين من الغنيمة، فلما أتوهم صرفت وجوههم، قال الزبير بن العوام: فرأيت هنداً وصواحباً هاربات مصعدات في الجبل، باديات خدامهن ما دون أخذهن شيء، فلما نظرت الرماة إلى القوم قد انكشفوا ورأوا أصحابهم ينتهبون الغنيمة أقبلوا يريدون النهب، فلما رأى خالد بن الوليد قلة الرماة واشتغال المسلمين بالغنيمة، ورأى ظهورهم خالية صاح في خيله من المشركين، ثم حمل على أصحاب النبي ﷺ من خلفهم فهزمهم وقتلوهم، ورمى عبد الله بن قميئة رسول الله ﷺ بحجر فكسر أنفه، ورُباعيته وشجّه في وجهه فأثقله وتفرّق عنه أصحابه ونهض رسول الله ﷺ إلى صخرة يعلوها، وكان قد ظاهر بين درعين، فلم يستطع فجلس اتحته طلحة حتى استوى عليها، فقال رسول الله ﷺ: «أوجب طلحة» ووقعت هند والنسوة معها يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ يجدعن الآذان والأنوف حتى اتخذت هند من ذلك قلائد، وأعطتها وحشياً وبقرت عن كبد حمزة ولاكتها فلم تستطع أن تسغها فلفظتها، وأقبل عبد الله بن قميئة يريد قتل النبي ﷺ فذب عنه مصعب بن عمير - وهو صاحب راية رسول الله ﷺ - عن رسول الله ﷺ فقتله ابن قميئة، وهو يرى أنه قتل رسول الله ﷺ، فرجع إلى المشركين وقال: إني قتلت محمداً وصاح صارخ ألا إن محمداً قد قتل، ويقال: إن ذلك الصارخ إبليس لعنة الله عليه، فانكفاً الناس، وجعل رسول الله ﷺ يدعو الناس: «إليَّ عباد الله إليَّ عباد الله»، فاجتمع إليه ثلاثون رجلاً فحموه حتى كشفوا عنه المشركين، ورمى سعد بن أبي وقاص حتى اندقت سية

على من قتله نبي في سبيل الله اشتد غضب الله على قوم أدموا وجه نبي الله « قالوا وفشا في الناس أن محمداً ﷺ قد قُتِلَ فقال: بعض المسلمين ليت لنا رسولاً إلى عبدالله بن أبي فيأخذ لنا أماناً من أبي سفيان وجلس بعض الصحابة وألقوا ما بأيديهم وقال أناس من المنافقين إن كان محمد قد قتل فالحقوا بدينكم الأول وقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك: يا قوم إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد لم يقتل وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ فقاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا على ما مات عليه ثم قال: اللهم إني أعترز إليك مما يقول هؤلاء - يعني المسلمين - وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء يعني المشركين ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل. ثم إن رسول الله ﷺ انطلق إلى الصخرة وهو يدعو الناس فأول من عرف رسول الله ﷺ كعب بن مالك قال قد عرفت عينيه تزهرا تحت المغفر فناديت بأعلى صوتي يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله ﷺ فأشار إلي أن أسكت فانحازت إليه طائفة من أصحابه فلامهم النبي ﷺ على الفرار فقالوا يا رسول الله فدينك بآبائنا وأمهاتنا أتناا الخبر بأنك قد قتلت فرعبت قلوبنا فولينا مدبرين فأنزل الله عز وجل: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ ومعنى الآية فيسخلو محمد كما خلت الرسل من قبله فكما أن أتباعهم بقوا متمسكين بدينهم بعد خلو أنبيائهم فعليكم أتم أن تتمسكوا بدينه بعد خلوه لأن الغرض من بعث الرسول تبليغ الرسالة وإلزام الحجة لا وجوده بين ظهرائي قومه ومحمد اسم علم لرسول الله ﷺ وفيه إشارة إلى وصفه بذلك وتخصيصه بمعناه وهو الذي كثرت خصاله المحمودة والمستحق جميع المحامد لأنه الكامل في نفسه ﷺ فأكرم الله عز وجل نبيه ﷺ فسماه باسمين مشتقين من اسمه المحمود سبحانه

قوسه، ونزل له رسول الله ﷺ كنانته، وقال له: «ارمِ فداك أبي وأمي»، وكان أبو طلحة رجلاً شديد النزع كسر يومئذ قوسين أو ثلاثاً، وكان الرجل يمر بجعبة من النبل فيقول: انثرها لأبي طلحة، وكان إذا رمى استشرف النبي ﷺ لينظر إلى موضع نبلة، وأصيب يد طلحة بن عبيد الله فبيست حين وقى بها رسول الله ﷺ، وأصيب عين قتادة بن النعمان يومئذ حين وقعت على وجنته، فردّها رسول الله ﷺ مكانها، فعادت كأحسن ما كانت، فلما انصرف رسول الله ﷺ أدركه أبي بن خلف الجمحي، وهو يقول: لا نجوت إن نجوت، فقال القوم: يا رسول الله لا يعطف عليه رجل منا؟ فقال ﷺ: «دعوه» حتى إذا دنى منه، وكان أبي قبل ذلك يلقي رسول الله ﷺ فيقول: عندي رمكة أعلفها كل يوم فرق دُرّة أقتلك عليها، فقال رسول الله ﷺ: «بل أنا أقتلك إن شاء الله»، فلما دنا منه تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة ثم استقبله فطعنه في عنقه، فخدشه خدشة فندهداً عن فرسه وهو يخور كما يخور الثور، ويقول: قتلتني محمد، فحملة أصحابه وقالوا: ليس عليك بأس، قال: بلى لو كانت هذه الطعنة بريعة ومُضر لقتلتهم، أليس قال لي: أقتلك؟ فلو بزق عليّ بعد تلك المقالة لقتلني، فلم يلبث إلا يوماً حتى مات بموضع يقال له سرف. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن إسماعيل أنا عمرو بن علي أنا أبو عاصم عن ابن جريج عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: اشتد غضبُ الله على من قتله نبي واشتد غضبُ الله على من دمي وجه رسول الله ﷺ، قالوا: وفشا في الناس أن محمداً قُتِلَ فقال بعض المسلمين: ليت رسولاً إلى عبد الله بن أبي فيأخذ لنا أماناً من أبي سفيان، وبعض الصحابة جلسوا وألقوا ما بأيديهم من الأسلحة، وقال أناس من أهل النفاق: إن كان محمداً قُتِلَ فالحقوا بدينكم الأول، فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك: يا قوم إن كان قد قُتِلَ محمد فإن ربَّ محمد لم يُقتل وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ؟ فقاتلوا على ما قاتل عليه رسول الله ﷺ وموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ، ثم قال: اللهم إني أعترز إليك مما يقول هؤلاء يعني المسلمين، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء يعني المنافقين، ثم شد بسيفه فقاتل حتى قُتِلَ، ثم إن رسول الله ﷺ انطلق إلى الصخرة وهو يدعو الناس، فأول من عرف رسول الله ﷺ كعب بن مالك، قال عرفت عينيه تحت

وتعالى فسماه محمداً وأحمد وفي ذلك يقول حسان بن ثابت:

ألم تر أن الله أرسل عبده ببرهانه والله أعلى وأمجـد
أغر عليه للنبوّة خاتم من الله مشهور يلوح ويشهد
وشق له من اسمه ليجله فذو العرش من محمود وهذا محمد

(ق) عن جبير بن مطعم قال قال رسول الله ﷺ: «لي خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب» والعاقب الذي ليس بعده نبي وسماه الله رؤوفاً رحيماً (م) عن أبي موسى الأشعري قال كان رسول الله ﷺ يسمي لنا نفسه أسماء فقال: «أنا محمد وأنا أحمد وأنا المقفى ونبي التوبة ونبي الرحمة» قوله المقفى هو آخر الأنبياء الذي لا نبي بعده والرسول هو المرسل ويكون بمعنى الرسالة والمراد به هنا المرسل بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ يعني أنقلبون على أعقابكم إن مات محمد أو قتل وترجعون إلى دينكم الأول يقال لكل من رجع إلى ما كان عليه رجع وراءه ونكص على عقبيه وحاصل الكلام إن الله تعالى بين أن موت محمد ﷺ أو قتله لا يوجب ضعفاً في دينه ولا الرجوع عنه بدليل موت سائر الأنبياء قبله وأن أتباعهم ثبتوا على دين أنبيائهم بعد موتهم ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ﴾ يعني فيرتد عن دينه ويرجع إلى الكفر ﴿فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً﴾ يعني بارتداده لأن الله تعالى لا يضره كفر الكافرين لأنه تعالى غني عن العالمين وإنما يضر المرتد والكافر نفسه ﴿وَيُجْزَى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ يعني الثابتين على دينهم الذين لم ينقلبوا عنه لأنهم شكروا نعمة الله عليهم بالإسلام وثباتهم عليه فسماهم الله شاكرين لما فعلوا والمعنى وسيثيب الله من شكره على توفيقه وهدايته وروى ابن جبير عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه في قوله: ﴿وَيُجْزَى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ قال الثابتين على دينهم أبا بكر وأصحابه وكان علي يقول أبو بكر أمين الشاكرين وأمين أخبار الله وكان أشكرهم وأحبهم إلى الله تعالى. قوله عز وجل: .

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا وَمَنْ يَرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَمَنْ يَرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا

المغفر تزهرا فناديت بأعلى صوتي: يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله ﷺ، فأشار إليّ أن اسكت، فأنحازت إليه طائفة من أصحابه، فلامهم النبي ﷺ على الفرار، فقالوا: يا نبي الله فدينك بآبائنا وأمهاتنا، أئانا الخبر بأنك قد قُتِلت، فرعبت قلوبنا فولينا مدبرين، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾، ومحمد هو المستغرق لجميع المحامد، لأن الحمد لا يستوجه إلا الكامل، والتحميد فوق الحمد، فلا يستحقه إلا المستولي على الأمر في الكمال، وأكرم الله نبيه وصفيه باسمين مشتقين من اسمه جلّ جلاله (محمد وأحمد)، وفيه يقول حسان بن ثابت:

ألم تر أن الله أرسل عبده ببرهانه والله أعلى وأمجـد
وشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد

قوله تعالى: ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ أي: رجعتُم إلى دينكم الأول، ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ﴾، ويرتد عن دينه، ﴿فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً﴾، بارتداده وإنما ضر نفسه، ﴿وَيُجْزَى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾.

أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾

﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله﴾ أي بأمر الله وقضائه وقدره وعلمه وذلك أن الله تعالى يأمر ملك الموت بقبض الأرواح فلا يموت أحد إلا بإذن الله تعالى وأمره والمراد من الآية تحريض المؤمنين على الجهاد وتشجيعهم على لقاء العدو بإعلامهم بأن الجبن لا ينفع وأن الحذر لا يدفع المقدور وأن أحداً لا يموت قبل أجله وإن خاض المهالك واقتحم المعارك وإذا جاء الأجل لم يدفع الموت بحيلة فلا فائدة في الخوف والجبن. وفي الآية أيضاً ذكر حفظ الله رسوله ﷺ عند غلبة العدو وتخليصه منهم عند التفافهم عليه وإسلام أصحابه له فأنجاه الله تعالى من عدوه سالماً مسلماً لم يضره شيء ﴿كتاباً مؤجلاً﴾ يعني مؤقتاً له أجل معلوم لا يتقدم ولا يتأخر. والمعنى أن الله تعالى كتب لكل نفس أجلاً لا يقدر أحد على تغييره أو تقديمه أو تأخيره وقيل الكتاب هو اللوح المحفوظ لأن فيه آجال جميع الخلق ﴿ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها﴾ يعني من يرد بعمله وطاعته الدنيا ويعمل لها نؤته منها ما يكون جزاء لعمله والمعنى نؤته منها ما نشاء على ما قدرناه له نزلت في الذين تركوا المركز يوم أحد وطلبوا الغنيمة ﴿ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها﴾ يعني من يرد بعمله الآخرة نؤته ثوابه فيها نزلت في الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ يوم أحد. واعلم أن هذه الآية وإن نزلت في الجهاد خاصة لكنها عامة في جميع الأعمال ذلك لأن الأصل في ذلك كله يرجع إلى نية العبد فإن كان يريد بعمله الدنيا فليس له جزاء إلا فيها وكذلك من أراد بعمله الدار الآخرة فجزاؤه أيضاً فيها (ق) عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات» وفي رواية «بالنية وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها»، وفي رواية «ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» وروى البغوي بسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «من كانت نيته طلب الآخرة جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا راغمة وما كانت نيته طلب الدنيا جعل الله الفقر بين عينيه وشتت عليه أمره ولا يأتيه منها إلا ما كتب الله له».

وقوله تعالى: ﴿وسنجزى الشاكرين﴾ يعني المؤمنين المطيعين الذين لم يشغلهم شيء عن الجهاد ولم يريدوا بأعمالهم إلا الله تعالى والدار الآخرة.

﴿وما كان لنفس أن تموت﴾، قال الأخفش: اللام في ﴿لنفس﴾ منقولة من تموت تقديره: وما كان نفس لتموت، ﴿إلا بإذن الله﴾، بقضائه وقدره، وقيل: بعلمه، وقيل: بأمره، ﴿كتاباً مؤجلاً﴾ أي: كتب لكل نفس أجلاً لا يقدر أحد على تغييره وتأخيره، ونصب ﴿كتاباً﴾ على المصدر، أي: كتب كتاباً، ﴿ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها﴾ يعني: من يرد بطاعته الدنيا ويعمل لها نؤته منها ما يكون جزاء لعمله، يريد نؤته منها ما يشاء مما قدرناه له، كما قال: ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد﴾ [الإسراء: ١٨]، نزلت في الذين تركوا المركز يوم أحد طلباً للغنيمة، ﴿ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها﴾، أي أراد بعمله الآخرة، قيل: أراد الذين ثبتوا مع أميرهم عبد الله بن جبير حتى قتلوا، ﴿وسنجزى الشاكرين﴾، أي: المؤمنين المطيعين. أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد الداوردي أخبرنا أبو الحسن أحمد بن موسى بن الصلت أنا أبو إسحق إبراهيم عبد الصمد الهاشمي أنا أبو يحيى محمد بن عبد الله بن يزيد بن عبد الرحمن بن المقرئ أنا أبي أنا الربيع بن صبيح عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من كانت نيته طلب الآخرة جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت نيته طلب الدنيا جعل الله الفقر بين عينيه وشتت عليه أمره، ولا

قوله عز وجل: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ نَبِيٍّ﴾ أي وكم من نبي ﴿قُتِلَ مَعَهُ﴾ وقرئ قاتل معه فمن قرأ قاتل بضم القاف فله أوجه: أحدها أن يكون القتل راجعاً على النبي وحده فعلى هذا يكون الوقف على قتل لأنه كلام تام وفيه إضمار تقديره قتل ومعه ربيون كثير. ويكون معناه قتل حال ما كان معه ربيون كثير والمعنى أن كثيراً من الأنبياء قتلوا والذين بقوا بعدهم ما وهنوا في دينهم وما استكانوا بل استمروا على جهاد عدوهم ونصرة دينهم فكان ينبغي لكم أن تكونوا مثلهم. الوجه الثاني أن القتل نال النبي ومن معه من الربيين ويكون المراد البعض ويكون قوله: «فما وهنوا» راجعاً إلى الباقيين والمعنى وكأين من نبي قتل وبعض من كان معه فما ضعف الباقيون لقتل من قتل من إخوانهم بل مضوا على جهاد عدوهم فكان ينبغي لكم أن تكونوا كذلك. الوجه الثالث أن يكون القتل نال الربيين لا النبي والمعنى وكأي من نبي قتل من كان معه وعلى دينه ربيون كثير ومن قرأ قاتل معه ربيون كثير فالمعنى وكأي من نبي قاتل معه العدد الكثير من أصحابه فأصابهم من عدوهم قروح وجراحات فما وهنوا لما أصابهم بل استمروا على جهاد عدوهم لأن الذي أصابهم إنما هو في سبيل الله وطاعته وإقامة دينه ونصرة نبيه فكان ينبغي لكم أن تفعلوا مثل ذلك يا أمة محمد، وحجة هذه القراءة ما روي عن سعيد بن جبير أنه قال ما سمعنا أن نبياً قُتِلَ في القتال وقوله ﴿رَبِيُونَ كَثِيرٌ﴾ قال ابن عباس جموع كثيرة وقيل الربيون الألوف وقيل الربية الواحدة عشرة آلاف وقيل ألف وقيل ربيون يعني فقهاء علماء وقيل الربيون هم الأتباع ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ أي فما جنبوا عن الجهاد في سبيل الله ﴿لَمَّا أَصَابَهُمْ

يأتيه منها إلّا ما كتب الله له»، أخبرنا أبو طاهر محمد بن علي بن أبي توبة الزرّاد أخبرنا أبو بكر محمد بن إدريس بن محمد الجرجاني وأبو أحمد محمد بن أحمد بن علي المعلم الهروي قال أخبرنا أبو الحسن علي بن عيسى الماليني أخبرنا أبو العباس الحسن بن سفيان النسوي أخبرنا حسان بن موسى وعبد الله بن أسماء ابن أخي جويرية بن أسماء قال أخبرنا عبد الله بن المبارك عن يحيى بن سعيد عن محمد بن إبراهيم التيمي عن علقمة بن وقاص الليثي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ».

قوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ نَبِيٍّ قَاتِلَ مَعَهُ رَبِيُونَ كَثِيرٌ﴾، قرأ ابن كثير «وكائن» بالمد والهمزة على وزن كاعن، وبتلوين الهمزة أبو جعفر، وقرأ الآخرون ﴿وَكَايْنٍ﴾ بالهمزة والتشديد على وزن كعين، ومعناه: وكم، وهي كاف التشبيه ضُمَّتْ إلى أي الاستفهامية، ولم يقع التنوين صورة في الخطّ إلّا في هذا الحرف خاصة، ويقف بعض القراء على ﴿وَكَايْنٍ﴾ بلا نون، والأكثرون على الوقف بالنون، قوله: ﴿قَاتِلَ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأهل البصرة بضم القاف، وقرأ الآخرون ﴿قَاتِلَ﴾ فَمَنْ قرأ ﴿قَاتِلَ﴾ فلقوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ ويستحيل وصفهم بأنهم لم يهنوا بعدما قُتِلُوا، لقول سعيد بن جبير: ما سمعنا أن نبياً قُتِلَ في القتال، ولأنَّ ﴿قَاتِلَ﴾ أعمّ، قال أبو عبيدة: إن الله تعالى إذا حمد من قاتل كان من قُتِلَ داخل فيه، وإذا حمد من قُتِلَ لم يدخل فيه غيرهم، فكان ﴿قَاتِلَ﴾ أعمّ، ومن قرأ ﴿قُتِلَ﴾ فله ثلاثة أوجه، أحدها: أن يكون القتل راجعاً إلى النبي وحده، فيكون تمام الكلام عند قوله: «قتل»، ويكون في الآية إضمار معناه: ومعه ربيون كثير، كما يقال: قتل فلان معه جيش كثير، أي: ومعه، والوجه الثاني: أن يكون القتل نال النبي ومن معه من الربيين، ويكون المراد: بعض من معه، تقول العرب: قتلنا بني فلان، وإنما قتلوا بعضهم، ويكون قوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ راجعاً إلى الباقيين، والوجه الثالث: أن يكون القتل للربين لا غير، وقوله: ﴿رَبِيُونَ كَثِيرٌ﴾، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: جموع كثيرة، وقال ابن مسعود: الربيون الألوف، وقال الكلبي الربية الواحدة: عشرة آلاف، وقال الضحاك: الربية الواحدة: ألف، وقال الحسن: فقهاء

في سبيل الله وما ضعفوا يعني عن مجاهدة عدوهم بما نالهم من ألم الجراح وقتل الأصحاب ﴿وما استكانوا﴾ يعني وما استسلموا وما خضعوا لعدوهم ولكنهم صبروا على أمر ربهم وطاعة نبيهم وجهاد عدوهم وهذا تعريض بما أصابهم يوم أحد من الوهن والانكسار عند الأرجاف بقتل رسول الله ﷺ وضعفهم عن مجاهدة المشركين واستكانتهم لهم حين أرادوا أن يعتضدوا بالمنافق عبد الله بن أبي في طلب الأمان من أبي سفيان والمقصود من الآية حكاية ما جرى لسائر الأنبياء وأتباعهم لتقتدي هذه الأمة بهم وترغب الذين كانوا مع رسول الله ﷺ في الجهاد ﴿والله يحب الصابرين﴾ يعني في الجهاد، والمعنى أن من صبر على تحمل الشدائد في طلب الآخرة ولم يظهر الجزع والعجز فإن الله تعالى يحبه ومحبة الله تعالى للعبد عبارة عن إرادة إكرامه وإعزازه وإيصال الثواب له وإدخاله الجنة مع أوليائه وأصفياه ثم قال تعالى: .

وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابُ الْآخِرَةِ ۖ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرْذِلْكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

﴿وما كان قولهم﴾ يعني قول الربيين ﴿إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا﴾ فيدخل فيه جميع الصغائر والكبائر ﴿وإسرافنا في أمرنا﴾ يعني ما أسرفنا فيه فتخطينا إلى العظام من الذنوب لأن الإسراف الإفراط في الشيء ومجاوزة الحد فيه فيكون المعنى اغفر لنا ذنوبنا الصغائر منها والكبائر ﴿وثبت أقدامنا﴾ لكي لا نزل عند لقاء العدو وذلك يكون بإزالة الخوف والرعب من قلوبهم ﴿وانصرونا على القوم الكافرين﴾ لأن النصر على الأعداء لا يكون إلا من عند الله. بين الله تعالى أنهم كانوا مستعدين عند لقاء العدو بالدعاء والتضرع وطلب الإعانة والنصر من الله تعالى والغرض منه أن يقتدي بهم في هذه الطريقة الحسنة أمة محمد ﷺ يقول هلا فعلتم مثل ما فعلوا وقتلتم مثل ما قالوا ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا﴾ يعني النصر والغنيمة وقهر الأعداء، والثناء الجميل وغفران الذنوب والخطايا ﴿وحسن ثواب الآخرة﴾ يعني الجنة وما فيها من النعيم المقيم وإنما خص ثواب الآخرة بالحسن تنبيهاً على إجلاله وعظمته، لأنه غير زائل ولم يشب بتغيص ولم يصف ثواب الدنيا بالحسن لقلته ولأنه سريع الزوال مع ما يشوبه من التغيص

علماء، وقيل: هم الأتباع، والربانيون والربيون الولاية والريعية، وقيل: منسوب إلى الرب وهم الذين يعبدون الرب، ﴿فما وهنوا﴾ أي: فما جبنوا، ﴿لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا﴾، عن الجهاد بما نالهم من ألم الجراح، وقتل الأصحاب. ﴿وما استكانوا﴾، قال مقاتل: وما استسلموا وما خضعوا لعدوهم، وقال السدي: وما ذلوا، وقال عطاء: وما تضرعوا، وقال أبو العالية: وما جبنوا ولكن صبروا على أمر ربهم وطاعة نبيهم وجهاد عدوهم، ﴿والله يحب الصابرين﴾.

قوله تعالى: ﴿وما كان قولهم﴾، نصب على خبر كان، والاسم في أن قالوا، ومعناه: وما كان قولهم عند قتل نبيهم، ﴿إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا﴾ أي: الصغائر، ﴿وإسرافنا في أمرنا﴾، أي: الكبائر، ﴿وثبت أقدامنا﴾، كي لا نزول، ﴿وانصرونا على القوم الكافرين﴾، فيقول فهلاً فعلتم وقتلتم مثل ذلك يا أصحاب محمد ﷺ.

﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا﴾، النصرة والغنيمة، ﴿وحسن ثواب الآخرة﴾، أي الأجر والجنة، ﴿والله يحب المحسنين﴾.

﴿والله يحب المحسنين﴾ يعني الذين يفعلون مثل ما فعل هؤلاء وهذا تعليم من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يقولوا مثل هذا عند لقاء العدو وفيه دققة لطيفة وهي أنهم لما اعترفوا بذنوبهم وكونهم مسيئين سماهم الله تعالى محسنين .

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني اليهود والنصارى، وقيل المنافقين وذلك في قولهم للمؤمنين عند الهزيمة يوم أحد ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا في دينهم . وقيل معناه أن تطيعوهم فيما يأمرونكم به من ترك الجهاد ﴿يردوكم على أعقابكم﴾ يعني يرجعوكم إلى أركم الأول وهو الكفر والشرك بالله بعد الإيمان به لأن قبول قولهم في الدعوة إلى الكفر كفر ﴿فتنقلبوا خاسرين﴾ يعني مغبونين في الدنيا والآخرة أما خسار الدنيا فهو طاعة الكفار والتذلل للأعداء وأما خسار الآخرة فهو دخول النار وحرمان دار القرار .

بَلِ اللَّهِ مَوْلَانَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾

﴿بل الله مولاكم﴾ أي وليكم وناصركم وحافظكم فاستعينوا به ﴿وهو خير الناصرين﴾ يعني أنه تعالى قادر على نصركم والمعنى أنكم إنما تطيعون الكفار لينصروكم ويعينوكم وهم عاجزون عن نصر أنفسهم فضلاً عن غيرهم فاطلبوا النصر من الله تعالى فهو خير الناصرين .

قوله عز وجل: ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ وذلك أن أبا سفيان ومن معه ارتحلوا يوم أحد متوجهين إلى مكة، فلما بلغوا بعض الطريق ندموا وقالوا بئس ما صنعنا قتلناهم حتى إذا لم يبق منهم إلا الشريد تركناهم ارجعوا إليهم فاستأصلوهم فلما عزموا على ذلك ألقى الله في قلوبهم الرعب، يعني الخوف الشديد حتى رجعوا عما هموا به فعلى هذا القول يكون الوعد بإلقاء الرعب في قلوب الكفار مخصوصاً بيوم أحد وقيل إنه عام وإن كان السبب خاصاً لقوله ﷺ: «نصرت بالرعب مسيرة شهر» فكأنه قال سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب منكم حتى تهروهم ويظهر دينكم على سائر الأديان وقد فعل الله ذلك بفضله وكرمه حتى صار دين الإسلام ظاهراً

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، يعني: اليهود والنصارى، وقال علي رضي الله عنه، يعني: المنافقين في قولهم: للمؤمنين عند الهزيمة: ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا في دينهم، ﴿يردوكم على أعقابكم﴾، يرجعوكم إلى أول أركم من الشرك بالله، ﴿فتنقلبوا خاسرين﴾، مغبونين .
ثم قال: ﴿بل الله مولاكم﴾، ناصركم وحافظكم على دينكم الإسلام، ﴿وهو خير الناصرين﴾ .

﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ وذلك أن أبا سفيان والمشركين لما ارتحلوا يوم أحد متوجهين نحو مكة انطلقوا حتى إذا بلغوا بعض الطريق، ندموا وقالوا: بئس ما صنعنا قتلناهم حتى إذا لم يبق منهم إلا الشريد تركناهم، ارجعوا فاستأصلوهم، فلما عزموا على ذلك قذف الله في قلوبهم الرعب، حتى رجعوا عما هموا به، فذلك قوله تعالى سنلقي أي: سنقذف في قلوب الذين كفروا الرعب، الخوف، قرأ أبو جعفر وابن عامر والكسائي

على جميع الأديان والملل كما قال الله تعالى ليظهره على الدين كله ﴿بما أشركوا بالله﴾ يعني إنما كان إلقاء الرعب في قلوبهم بسبب إشراكهم بالله ﴿ما لم ينزل به سلطاناً﴾ يعني حجة وبرهاناً وسميت الحجة سلطاناً لأن السلطان مشتق من السليط وهو ما يستصبح به وقيل السلطان القوة والقدرة وسميت الحجة سلطاناً لقوتها على دفع الباطل ﴿ومأواهم النار﴾ لما بين الله تعالى حال الكفار في الدنيا وهو إلقاء الرعب والخوف في قلوبهم بين حالهم في الآخرة فقال تعالى: ﴿ومأواهم النار﴾ أي مسكنهم ﴿وبئس مثوى الظالمين﴾ أي المسكن الذي يستقرون به ويقيمون فيه وكلمة بئس تستعمل في جميع المذام والمعنى وبئس مقام الظالمين الذين ظلموا أنفسهم باكتساب ما أوجب لهم عذاب النار والإقامة فيها.

قوله عز وجل: ﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾ قال محمد بن كعب القرظي: لما رجع رسول الله ﷺ وأصحابه من أحد إلى المدينة وقد أصابهم ما أصابهم قال ناس من الصحابة من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر فأنزل الله تعالى: ﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾ يعني بالنصر والظفر وذلك أن الظفر كان للمسلمين في الابتداء وقيل إن الله وعد المؤمنين النصر بأحد فنصرهم فلما خالفوا أمر رسول الله ﷺ وطلبوا الغنيمة هزموا ﴿إذ تحسونهم﴾ يعني إذ تقتلون الكفار قتلاً ذريعاً وقيل معنى تحسونهم تستأصلونهم بالقتل ﴿بإذنه﴾ يعني بعلم الله وأمره وقيل بقضاء الله وقدره ﴿حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم﴾ قال الفراء فيه تقديم وتأخير تقديره حتى إذا تنازعتم في الأمر وعصيتهم فشلتم. وقيل معناه ولقد صدقكم الله وعده بالنصر إلى أن كان منكم الفشل والتنازع والمعصية وقيل فيه معنى الشرط وجوابه محذوف تقديره حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم منعكم الله النصر ومعنى فشلتم ضعفتم والفشل الضعف مع جبن ومعنى التنازع الاختلاف وكان اختلافهم وتنازعهم أن الرماة الذين كانوا مع عبدالله بن جبير لما انهزم المشركون قال بعضهم لبعض أي قوم ما نصنع بمقامنا ها هنا وقد انهزم المشركون ثم أقبلوا على الغنيمة، وقال بعضهم لبعض لا تجاوزوا أمر رسول الله ﷺ وثبت عبدالله بن جبير أمير القوم في نفر يسير دون العشرة ممن كان معه فلما رأى خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل ذلك حملوا على الرماة الذين ثبتوا مع عبدالله بن جبير وأصحابه وأقبلوا على المسلمين وتحولت الريح دبوراً بعد ما كانت صباءً، وانقضت صفوف

ويعقوب ﴿الرعب﴾ بضم العين، وقرأ الآخرون بسكونها، ﴿بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾ حجة وبرهاناً، ﴿ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين﴾، مقام الكافرين.

قوله تعالى: ﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾ قال محمد بن كعب القرظي: لما رجع رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة من أحد، قد أصابهم ما أصابهم، قال ناس من أصحابه: من أين أصابنا هذا؟ وقد وعدنا الله النصر، فأنزل الله تعالى: ﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾ بالنصر والظفر، وذلك أن الظفر كان للمسلمين في الابتداء، ﴿إذ تحسونهم بإذنه﴾، وذلك أن رسول الله ﷺ جعل أحداً خلف ظهره واستقبل المدينة وجعل عينين وهو جبل عن يساره وأقام عليه الرماة وأمر عليهم عبد الله بن جبير، وقال لهم: احموا ظهورنا فإن رأيتونا قد غمنا فلا تشركونا وإن رأيتونا نقتل فلا تنصرونا، وأقبل المشركون فأخذوا في القتال فجعل الرماة يرشقون خيل المشركين بالنبل، والمسلمون يضربونهم بالسيوف، حتى ولوا هارين فذلك قوله تعالى: ﴿إذ تحسونهم بإذنه﴾ أي تقتلونهم قتلاً ذريعاً بقضاء الله، قال أبو عبيدة: الجس: الاستئصال بالقتل، ﴿حتى إذا فشلتم﴾ أي: إن جبتهم، وقيل: معناه فلما فشلتم، ﴿وتنازعتم في الأمر وعصيتهم﴾، فالواو زائدة في ﴿وتنازعتم﴾ يعني: إذا فشلتم تنازعتم، وقيل: فيه تقديم وتأخير، تقديره: حتى إذا تنازعتم في الأمر وعصيتهم فشلتم، ومعنى التنازع الاختلاف، وكان اختلافهم أن الرماة اختلفوا حين انهزم المشركون، فقال بعضهم: انهزم القوم فما مقامنا؟ وأقبلوا على الغنيمة، وقال بعضهم: لا

المسلمين واختلطوا فجعلوا يقتلون على غير شعار يضرب بعضهم بعضاً وما يشعرون بذلك من الدهش ونادى إبليس أن محمداً قد قتل فكان ذلك سبب هزيمة المسلمين وقوله: وعصيتم يعني أمر رسول الله ﷺ فيما أمركم به من لزوم المركز ﴿من بعد ما أراكم ما تحبون﴾ من النصر والظفر والغنيمة يا معشر المسلمين ﴿منكم من يريد الدنيا﴾ يعني الذين تركوا المركز وأقبلوا على النهب ﴿ومنكم من يريد الآخرة﴾ يعني الذين ثبتوا مع أميرهم عبدالله بن جبير حتى قتلوا قاله عبدالله بن مسعود ما شعرت أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى كان يوم أحد نزلت هذه الآية ﴿ثم صرفكم عنهم﴾ يعني يا معشر المسلمين يعني عن المشركين بالهزيمة ﴿ليبتليكم﴾ يعني ليمتحنكم وقيل لينزل عليكم البلاء لتتوبوا إليه وتستغفروه وقيل معناه ليختبركم وهو أعلم ليمتيز المؤمن من المنافق ومن يريد الدنيا ممن يريد الآخرة ﴿ولقد عفا عنكم﴾ يعني ولقد عفا الله عنكم أيها المخالفون أمر رسول الله ﷺ فلم يستأصلكم بعد المخالفة والمعصية وقيل: عفا عن عقوبتكم أيها المخالفون ﴿والله ذو فضل على المؤمنين﴾ وهذا من تمام نعمه على عباده المؤمنين لأنه نصرهم أولاً ثم عفا عن المذنبين منهم ثانياً لأنه ذو الفضل والطول والإحسان. وفي الآية دليل على أن صاحب الكبيرة مؤمن وأن الله تعالى يعفو عنه بفضله وكرمه إن شاء لأنه سماهم مؤمنين مع ما ارتكبه من مخالفة أمر رسول الله ﷺ وهي كبيرة وعفا عنهم بعد ذلك. قوله عز وجل: .

﴿إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ فَاتَّبِعْتُمْ غَمًّا يَغْمِرُ لَكُمُ الْكَيْلَ تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

﴿إذ تصعدون﴾ قيل هو متعلق بما قبله والتقدير ولقد عفا عنكم إذ تصعدون لأن عفوه عنهم لا بد وأن يتعلق بأمر اقترفوه وذلك الأمر هو ما بينه بقوله إذ تصعدون يعني هاربين في الجبل. وقيل هو ابتداء كلام لا يتعلق له بما قبله والمعنى اذكروا إذ تصعدون قراءة الجمهور بضم التاء وكسر العين من الإصعاد وهو الذهاب في الأرض

تجاوزوا أمر رسول الله ﷺ، وثبت عبد الله بن جبير في نفر يسير دون العشرة، فلما رأى خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل ذلك حملوا على الرماة فقتلوا عبد الله بن جبير وأصحابه، وأقبلوا على المسلمين وجاءت الرياح فصارت دبوراً بعد ما كانت صَباً، وانقضت صفوف المسلمين واختلطوا فجعلوا يقتلون على غير شعار يضرب بعضهم بعضاً ما يشعرون من الدهش، ونادى إبليس أن محمداً قد قُتل، فكان ذلك سبب هزيمة المسلمين. قوله تعالى: ﴿وعصيتم﴾ يعني: الرسول ﷺ وخالفتم أمره، ﴿من بعد ما أراكم﴾، الله ﴿ما تحبون﴾ يا معشر المسلمين من الظفر والغنيمة، ﴿منكم من يريد الدنيا﴾، يعني: الذين تركوا المركز وأقبلوا على النهب، ﴿ومنكم من يريد الآخرة﴾، يعني: الذين ثبتوا مع عبد الله بن جبير حتى قتلوا، قال عبد الله بن مسعود: ما شعرت أحداً من أصحاب النبي ﷺ يريد الدنيا حتى كان يوم أحد، ونزلت هذه الآية ﴿ثم صرفكم عنهم﴾، أي: ردكم عنهم بالهزيمة، ﴿ليبتليكم﴾، ليمتحنكم، وقيل: لينزل البلاء عليكم ﴿ولقد عفا عنكم﴾، فلم يستأصلكم بعد المعصية والمخالفة منكم لأمر نبيكم، ﴿والله ذو فضل على المؤمنين﴾.

﴿إذ تصعدون﴾ يعني: ولقد عفا عنكم إذ تصعدون هاربين، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي والحسن وقتادة «تصعدون» بفتح التاء والعين، والقراءة المعروفة بضم التاء وكسر العين، والإصعاد: السير في مستوى الأرض، والصعود: الارتفاع على الجبال والسطوح، قال أبو حاتم: يقال أصعدت إذا مضيت حيال وجهك، وصعدت إذا

والإبعاد فيها وقرأ الحسن تصعدون بفتح التاء من الصعود وهو الارتقاء من أسفل إلى أعلى كالصعود على الجبل وعلى السلم ونحوه، وللمفسرين في معنى الآية قولان أحدهما أنه صعودهم في الجبل عند الهزيمة والثاني أنه الإبعاد في الأرض في حال الهزيمة ووقت الهرب ﴿ولا تلون على أحد﴾ أي لا ترجون ولا تقيمون على أحد ولا يلتفت بعضكم إلى بعض من شدة الهرب ﴿والرسول يدعوكم في أخراكم﴾ أي في آخركم ومن ورائكم يقول إليّ عباد الله أنا رسول الله مَنْ كَرَّ أَي رَجَعَ فله الجنة ﴿فأتابكم غماً بغم﴾ يعني فجزاكم بفراركم عن نبيكم ﷺ وفشلكم عن عدوكم غماً بغم فسمي العقوبة التي عاقبهم بها ثواباً على سبيل المجاز لأن لفظ الثواب لا يستعمل في الأغلب إلا في الخير وقد يجوز استعماله في الشر لأنه مأخوذ من تاب إذا رجع فأصل الثواب كل ما يعود إلى الفاعل من جزاء فعله سواء كان خيراً أو شراً فمتى حملنا الثواب على أصل اللغة كان الكلام صحيحاً ومتى حملناه على الأغلب كان على سبيل المجاز فهو كقول الشاعر:

أخاف زياداً أن يكون عطاؤه أداهم سوداً أو محدرجة سمرأ

فجعل العطاء مكان العقاب لأن الأداهم السود هي القيود الثقالة والمحدرجة هي السياط والباء في قوله غماً بغم بمعنى مع أو بمعنى على لأن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض. وقيل الباء على بابها والمعنى غماً متصلاً بغم واختلفوا في معنى الغمين ف قيل الغم الأول هو ما فاتهم من الظفر والغنيمة والغم الثاني هو ما نالهم من القتل والهزيمة وقيل الغم الأول ما أصابهم من القتل والجراح والغم الثاني هو ما سمعوا بأن محمداً ﷺ قد قتل فأنساهم غمهم. وقيل الغم الأول هو أنهم غموا رسول الله ﷺ بمخالفة أمره فجزاهم الله بذلك الغم القتل والهزيمة. وقيل إن غمهم الأول بسبب إشراف خالد بن الوليد مع خيل المشركين عليهم والغم الثاني حين أشرف أبو سفيان عليهم. وذلك أن أبا سفيان وأصحابه وقفوا بباب الشعب فلما نظر المسلمون إليهم غمهم ذلك وظنوا أنهم يميلون عليهم فيقتلونهم فأغمهم ذلك. قوله تعالى: ﴿لكيلاً﴾ في لفظة لا قولان: أحدهما أنها باقية على أصلها ومعناها النفي

ارتقيت في جبل أو غيره، وقال المبرد: أصعد إذا أبعده في الذهاب، وكلتا القراءتين صواب فقد كان يومئذ من المنهزمين مُصعد وصاعد، وقال المفضل: صعد وأصعد بمعنى واحد، ﴿ولا تَلَوْنِ عَلَى أَحَدٍ﴾ أي: لا ترجون ولا تقيمون على أحد، لا يلتفت بعضكم إلى بعض، ﴿والرسول يدعوكم في أخراكم﴾ أي: في آخركم ومن ورائكم إليّ عباد الله أنا رسول الله مَنْ يَكُرْ فله الجنة، ﴿فأتابكم﴾، فجزاكم، جعل الإثابة بمعنى العقاب، وأصلها في الحسنات لأنه وضعها موضع الثواب، كقوله تعالى: ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ [آل عمران: ٢١]، التوبة: ٣٤، [الانشقاق: ٢٤] جعل البشارة في العذاب، ومعناه: جعل مكان الثواب الذين كنتم ترجون ﴿غماً بغم﴾، وقيل: الباء بمعنى على، أي: غماً على غم، وقيل: غماً متصلاً بغم، فالغم الأول: ما فاتهم من الظفر والغنيمة، والغم الثاني: ما نالوا من القتل والهزيمة، وقيل: الغم الأول ما أصابهم من القتل والجراح، والغم الثاني: أن محمداً ﷺ قد قُتل فأنساهم الغم الأول، وقيل: الغم الأول: إشراف خالد بن الوليد عليهم بخيل المشركين، والغم الثاني: حين أشرف عليهم أبو سفيان، وذلك أن رسول الله ﷺ انطلق يومئذ يدعو الناس حتى انتهى إلى أصحاب الصخرة، فلما رآه وضع رجل سهماً في قوسه فأراد أن يرميه، فقال أنا رسول الله، ففرحوا حين وجدوا رسول الله، وفرح النبي ﷺ حين رأى أن في أصحابه مَنْ يمتنع به، فأقبلوا يذكرون الفتح وما فاتهم منه، ويذكرون أصحابهم الذين قُتلوا فأقبل أبو سفيان وأصحابه، حتى وقفوا بباب الشعب، فلما نظر المسلمون إليهم همهم ذلك وظنوا أنهم يميلون عليهم فيقتلونهم فأنساهم هذا ما نالهم، فقال رسول الله ﷺ: «ليس لهم أن يعلموا اللهم إن تقتل هذه العصاة لا تعبد في الأرض»، ثم ندب أصحابه فرمهم بالحجارة حتى أنزلوهم، وقيل: إنهم

هذا يكون الكلام متصلاً بقوله ولقد عفا عنكم والمعنى ولقد عفا عنكم لكيلاً ﴿تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ لأن عفوه يذهب كل هم وحزن وقيل معناه فأتاكم غمماً أنساكم الحزن على ما فاتكم ولا ما أصابكم وقد روي أنهم لما سمعوا بأن النبي ﷺ قد قتل نسوا ما أصابهم وما فاتهم والقول الثاني أن لفظة لا صلة ومعنى الكلام لكي تحزنوا على ما فاتكم وأصابكم عقوبة لكم على مخالفتكم. قال ابن عباس: الذي فاتهم الغنيمة والذي أصابهم القتل والهزيمة ﴿والله خير بما تعملون﴾ أي هو عالم بجميع أعمالكم خيراً وشرها فيجازيكم عليها. قوله عز وجل: .

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخَفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَان لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هُنَا قُل لَّو كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾

﴿ثم أنزل عليكم﴾ يا معشر المسلمين ﴿من بعد الغم﴾ الذي أصابكم ﴿أمنة نعاساً﴾ يعني أمانة والأمنة والأمن واحد وقيل الأمن يكون مع زوال الخوف والأمنة مع بقاء سبب الخوف. وكان سبب الخوف يعد باقياً، والنعاس أخف من النوم والمعنى أعقبكم بما نالكم من الخوف والرعب أن أمتكم أمانة تنامون معه لأن الخائف لا يكاد ينام فأتهم بعد خوفهم ﴿يغشى طائفة منكم﴾ قال ابن عباس: أمتهم يومئذ بنعاس يغشاهم وإنما ينعس من يأمن والخائف لا ينام (خ) عن أنس عن أبي طلحة قال: كنت فيمن يغشاهم النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مراراً يسقط وأخذه ويسقط فأخذه. وأخرجه الترمذي عنه قال: غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد وذكر نحو رواية البخاري وزاد الطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم هم إلا أنفسهم أجبن قوم وأرعبه وأخذ له للحق. وفي رواية أخرى له قال رفعت رأسي يوم أحد فجعلت أراهم وما منهم يومئذ أحد إلا يمد تحت حجفته من النعاس فذلك قوله تعالى ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانة نعاساً. وقال الزبير بن العوام لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد علينا الخوف أرسل الله تعالى علينا النوم والله إني لأسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشاني ما أسمعه إلا

غَمَّوْا الرِّسُولَ بِمُخَالَفَةِ أَمْرِهِ، فَجَازَاهُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ الْغَمِّ غَمَّ الْقَتْلِ وَالْهَزِيمَةِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾، مِنَ الْفَتْحِ وَالْغَنِيمَةِ، ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ أَي: وَلَا عَلَى مَا أَصَابَكُمْ مِنَ الْقَتْلِ وَالْهَزِيمَةِ، ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿ثم أنزل عليكم﴾، يا معشر المسلمين، ﴿من بعد الغم أمنة﴾ يعني: أمانة، والأمن الأمانة بمعنى واحد، وقيل: الأمن يكون مع زوال سبب الخوف، والأمنة مع بقاء سبب الخوف، وكان سبب الخوف هنا قائماً، ﴿نعاساً﴾، بدل من الأمنة ﴿يغشى طائفة منكم﴾ قرأ حمزة والكسائي (تغشى) بالتاء رداً إلى الأمنة، وقرأ الآخرون بالياء رداً إلى النعاس، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أمتهم يومئذ بنعاس يغشاهم، وإنما ينعس من يأمن، والخائف لا ينام، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أخبرنا إسماعيل أخبرنا إسحق بن إبراهيم بن عبد الرحمن أنا حسن بن محمد أخبرنا شيبان عن قتادة أخبرنا أنس أن أبا طلحة قال: غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد، قال: فجعل سيفي يسقط من يدي وأخذه، وقال ثابت عن أنس عن أبي طلحة قال: رفعت رأسي يوم أحد فجعلت ما أرى أحداً من القوم إلا وهو يميل

كالحلم يقول لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلناها هنا فقلوه تعالى: ﴿يَغْشَى طَائِفَةٌ مِنْكُمْ﴾ يعني المؤمنين ﴿وطائفة قد أهملتهم أنفسهم﴾ يعني المنافقين أراد الله يميز المؤمنين من المنافقين فأوقع النعاس على المؤمنين حتى أمنوا ولم يوقع النعاس على المنافقين فبقوا في الخوف. وفي إلقاء النعاس على المؤمنين دون المنافقين آية عظيمة ومعجزة باهرة لأن النعاس كان سبب أمن المؤمنين وعدم النعاس عن المنافقين كان سبب خوفهم وهو قوله تعالى: ﴿وطائفة قد أهملتهم أنفسهم﴾ يعني حملتهم أنفسهم على الهم لأن أسباب الخوف وهي قصد الأعداء كانت حاصلة عندهم ﴿يظنون بالله غير الحق﴾ يعني يظنون أن الله لا ينصر محمداً وأصحابه وقيل إن محمداً ﷺ قد قتل وإن أمره يضمحل والمعنى يظنون بالله غير الظن الحق الذي يجب أن يظن به ﴿ظن الجاهلية﴾ أي كظن أهل الجاهلية ﴿يقولون﴾ يعني المنافقين ﴿هل لنا﴾ أي مالنا ﴿من الأمر شيء﴾ وذلك أنه لما شاور النبي ﷺ عبدالله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين في هذه الواقعة وأشار عليه أن لا يخرج من المدينة فلما خالفه النبي ﷺ وخرج وقتل من قتل قيل لعبدالله بن أبي قد قتل بنو الخزرج قال هل لنا من الأمر شيء وهو استفهام على سبيل الإنكار أي مالنا أمر يطاع. وقيل المراد بالأمر النصر والظفر يعني ما لنا من هذا الذي يعدنا محمد به من النصر والظفر من شيء إنما هو للمشركين ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء المنافقين ﴿إن الأمر كله لله﴾ يعني النصر والظفر والقضاء والقدر كله لله وبيده يصرفه كيف يشاء ويدبره كيف أحب ﴿يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك﴾ يعني من الكفر والشك في وعد الله عز وجل وقيل يخفون الندم على خروجهم مع المسلمين وقيل الذي أخفوه وهو قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلناها هنا﴾ وذلك أن المنافقين قال بعضهم لبعض لو كان لنا عقول لم نخرج مع محمد إلى قتال أهل مكة ولم تقتل رؤسائنا. وقيل كانوا يقولون لو كنا على الحق ما قتلنا هاهنا. وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يظنون بالله غير الحق﴾ يعني التكذيب بالقدر وهو قولهم: «لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا» قيل إن الذي قال هل لنا من الأمر من شيء هو عبدالله بن أبي ابن سلول المنافق والذي قال لو كان لنا من الأمر شيء هو معتب بن قشير ﴿قل﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المنافقين ﴿لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل﴾ أي مضى عليهم القتل وقدر عليهم ﴿إلى مضاجعهم﴾ يعني مصارعهم التي يصرعون بها وقت القتل ومعنى الآية أن الحذر لا ينفع مع القدر والتدبير لا يقاوم. التقدير فالذين قدر عليهم القتل وقضاه وحكم به عليهم لا بد وأن يقتلوا والمعنى لو جلستم في بيوتكم لخرج منها ولظهر الذين قضى الله عليهم بالقتل وقضاه إلى حيث يقتلون فيه

تحت جُحْفِيهِ مِنَ النَّعَاسِ، وقال عبد الله بن الزبير عن أبيه الزبير بن العوام لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد علينا الحرب، أرسل الله علينا النوم، والله إني لأسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشاني ما أسمع إلا كالحلم، يقول: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا، فذلك قوله تعالى: ﴿يَغْشَى طَائِفَةٌ مِنْكُمْ﴾ يعني: المؤمنين، ﴿وطائفة قد أهملتهم أنفسهم﴾، يعني: المنافقين: قيل: أراد تمييز المنافقين من المؤمنين، فأوقع النعاس على المؤمنين حتى أمنوا، ولم يُوقع على المنافقين، فبقوا في الخوف قد أهملتهم أنفسهم، أي: حملتهم على الهم يقال: أمرهم ﴿يظنون بالله غير الحق﴾ أي: لا ينصر محمداً، وقيل: ظنوا أن محمداً ﷺ قد قتل، ﴿ظن الجاهلية﴾ أي: كظن أهل الجاهلية والشرك، ﴿يقولون هل لنا﴾، ﴿ما لنا﴾ لفظة استفهام ومعناه: جُحْدٌ، ﴿من الأمر من شيء﴾ يعني: النصر، ﴿قل إن الأمر كله لله﴾، قرأ أهل البصرة برفع اللام على الابتداء وخبره في ﴿لله﴾ وقرأ الآخرون بالنصب على البدل، وقيل: على النعت، ﴿يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك﴾ يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا، وذلك أن المنافقين، قال بعضهم لبعض: لو كان لنا عقول لم نخرج مع محمد إلى قتال أهل مكة ولم يُقتل رؤسائنا، وقيل: لو كنا على الحق ما قتلنا ههنا، قال الضحاك عن ابن عباس

﴿وليتلي الله ما في صدوركم﴾ أي وليختبر ما في صدوركم ليعلمه مشاهدة، كما علمه غيباً لأن المجازاة إنما تقع على ما علمه مشاهدة وقيل معناه ليعاملكم معاملة المبتلي المختبر لكم وقيل معناه ليتلي أولياء الله ما في صدوركم فأضاف الابتلاء إليه تعظيماً لشأن أوليائه المؤمنين ﴿وليمحص الله ما في قلوبكم﴾ قال قتادة أي يطهرها من الشك والارتياب بما يريكم من عجائب صنعه في إلقاء الأمانة وصرف العدو وإظهار سرائر المنافقين فعلى هذا يكون الخطاب للمؤمنين خاصة. وقيل معناه وليبين ويظهر ما في قلوبكم يعني من الاعتقاد لله ولرسوله وللمؤمنين من العداوة فعلى هذا يكون الخطاب للمنافقين خاصة ﴿والله عليم بذات الصدور﴾ يعني بالأشياء الموجودة في الصدور وهي الأسرار والضمائر لأنه عالم بجميع المعلومات. قوله عز وجل:

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا كَافِرِينَ كَافَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّمُ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾

﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان﴾ أي انهزموا وهربوا منكم يا معشر المسلمين فهو خطاب لمن كان مع النبي ﷺ من المؤمنين يوم أحد بأحد وكان قد انهزم أكثر المسلمين ولم يبق مع النبي ﷺ إلا ثلاثة عشر رجلاً وقيل أربعة عشر من المهاجرين سبعة ومن الأنصار سبعة، فمن المهاجرين أبو بكر وعمر وعلي وطلحة بن عبيدالله وعبدالرحمن بن عوف والزيبر وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم ﴿إنما استزلهم الشيطان﴾ أي طلب زلتهم كما يقال استعجله أي طلب عجلته وقيل حملهم على الزلة وهي الخطيئة وذلك بإلقاء الوسوسة في قلوبهم لا أنه أمرهم بها ﴿ببعض ما كسبوا﴾ يعني بمعصيتهم النبي ﷺ وتركهم المركز. وقيل استزلهم الشيطان بتذكير خطايا سبقت لهم فكروا أن يقتلوا قبل إخلاص التوبة منها وهذا اختيار الزجاج لأنه قال لم يتولوا على جهة المعاندة ولا على الفرار من الزحف رغبة في الدنيا وإنما ذكرهم الشيطان خطايا سلفت لهم فكروا إلقاء الله إلا على حالة يرضاها ﴿ولقد عفا الله عنهم﴾ يعني ولقد تجاوز الله عن الذين تولوا يوم التقى الجمعان فلم يعاقبهم بذلك وغفر لهم وقيل إن عثمان عوتب في هزيمة يوم أحد فقال إن ذلك وإن كان خطأ لكن الله قد عفا عنه وقرأ هذه الآية ﴿إن الله غفور﴾

رضي الله عنهم: يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، يعني: التكذيب بالقدر، وهو قولهم: ﴿لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا﴾، ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب﴾، ﴿قضي﴾، ﴿عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾، مصارعهم، ﴿وليتلي الله﴾، وليمتحن الله، ﴿ما في صدوركم وليمحص﴾، يخرج ويظهر ﴿ما في قلوبكم، والله عليم بذات الصدور﴾، بما في القلوب من خير وشر.

﴿إن الذين تولوا﴾، انهزموا، ﴿منكم﴾، يا معشر المسلمين، ﴿يوم التقى الجمعان﴾، جمع المسلمين وجمع المشركين يوم أحد، وكان قد انهزم أكثر المسلمين ولم يبق مع النبي ﷺ إلا ثلاثة عشر رجلاً ستة من المهاجرين: وهم أبو بكر وعمر وعلي وطلحة وعبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم، قوله تعالى: ﴿إنما استزلهم الشيطان﴾ أي: طلب زلتهم، كما يقال: استعجلت فلاناً إذا طلبت عجلته، وقيل: حملهم الزلة وهي الخطيئة، وقيل: أزل واستزل بمعنى واحد، ﴿ببعض ما كسبوا﴾، أي: بشؤم ذنوبهم، قال بعضهم: بتركهم المركز، وقال الحسن: ما كسبوا هو قبولهم من الشيطان ما وسوس إليهم من الهزيمة، ﴿ولقد عفا الله عنهم﴾ إن الله غفورٌ حلِيمٌ.

يعني لمن تاب وأناب ﴿حليم﴾ لا يعجل العقوبة ولا يستأصلهم بالقتل. قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني المنافقين عبد الله بن أبي وأصحابه ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ يعني في النفاق والكفر وقيل لإخوانهم في النسب وكانوا مسلمين ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني إذا سافروا في الأرض لتجارة وغيرها ﴿أَوْ كَانُوا غَزَى﴾ جمع غاز أي غزاة، في الكلام حذف دل المعنى على ذلك الحذف وهو إذا ضربوا في الأرض فماتوا أو كانوا غزى فقتلوا ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا﴾ يعني مقيمين ﴿مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ﴾ يعني قولهم وظنهم ﴿حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يعني غما وتأسفاً ﴿وَاللَّهُ يَحْيِي وَيُمِيتُ﴾ هذا رد لقول المنافقين لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا والمعنى أن الأمر بيد الله وأن المحيي والمميت هو الله تعالى فقد يحيي المسافر والغازي ويميت المقيم والقاعد عن الغزو كما يشاء فكيف ينفع الجلوس في البيت وهل يحمي أحد من الموت ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يعني أنه تعالى مطلع على ما تعملون من خير أو شر فيجازيكم به فاتقوه ولا تكونوا مثل المنافقين لأن مقصدهم تنفير المؤمنين عن الجهاد بقولهم لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا فإن الله تعالى هو المحيي المميت، فمن قدر له البقاء لم يقتل في الجهاد ومن قدر له الموت لم يبق وإن أقام بيته عند أهله فلا تقولوا أنتم أيها المؤمنون لمن يريد الخروج إلى الجهاد لا تخرج فتقتل فلان يموت في الجهاد فيستوجب الثواب فإن ذلك خير له من أن يموت في بيته بلا فائدة. وإليه الإشارة بقوله تعالى: .

وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتْتُمْ لِمَغْفِرَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَيْنَ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فِيمَا رَحِمَهُ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَّمْ يَكُنْ لَّهُمْ لَوْلَا كُنْتُ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنَّفُضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾

﴿ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة﴾ يعني في العاقبة ﴿خير مما تجمعون﴾ يعني من الغنائم والمعنى ولئن تم عليكم ما تخافونه من القتل في سبيل الله أو الهلاك بالموت فإن ما تنالونه من المغفرة والرحمة بالموت والقتل في سبيل الله خير مما تجمعون من الدنيا ومنافعها لو لم تموتوا ﴿ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون﴾ يعني إلى الله الرحيم الواسع الرحمة والمغفرة المشيب العظيم الثواب تحشرون في الآخرة فيجازيكم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾، يعني: المنافقين عبد الله بن أبي وأصحابه، ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾، في النفاق والكفر، وقيل: في النسب، ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: سافروا فيها لتجارة أو غيرها، ﴿أَوْ كَانُوا غَزَى﴾ أي: غزاة جمع غاز فقتلوا، ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ﴾ يعني: قولهم وظنهم، ﴿حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يَحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ قرأ ابن كثير وحزمة والكسائي (يعملون) بالياء، وقرأ الآخرون بالتاء.

﴿ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم﴾، قرأ نافع وحزمة والكسائي ﴿مُتُّمْ﴾ بكسر الميم، وقرأ الآخرون بالضم، فمن ضمه فهو من مات يموت، كقولك: من قال يقول قلت، بضم القاف، ومن كسره فهو من مات يمات، كقولك من خاف يخاف خفت، ﴿لمغفرة من الله﴾، في العاقبة، ﴿ورحمة خير مما يجمعون﴾، من الغنائم، قراءة العامة ﴿يجمعون﴾ بالتاء، لقوله: ﴿ولئن قتلتم﴾ وقرأ حفص عن عاصم ﴿يجمعون﴾ بالياء، يعني: خير مما يجمع الناس.

﴿ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون﴾، في العاقبة.

بأعمالكم. وقد قسم بعض مقامات العبودية ثلاثة أقسام فمن عبد الله خوفاً من ناره أمنه الله مما يخاف وإليه الإشارة بقوله تعالى لمغفرة من الله ومن عبد الله تعالى شوقاً إلى جنته أناله ما يرجو. وإليه الإشارة بقوله تعالى لمغفرة من الله ومن عبد الله تعالى شوقاً إلى جنته أناله ما يرجو وإليه الإشارة بقوله تعالى ورحمة لأن الرحمة من أسماء الجنة ومن عبد الله شوقاً إلى وجهه الكريم لا يريد غيره فهذا هو العبد المخلص الذي يتجلى له الحق سبحانه وتعالى في دار كرامته. وإليه الإشارة بقوله لإلى الله تحشرون. قوله عز وجل: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ﴾ أي فبرحمة من الله وما صلة لنت لهم أي سهلت لهم أخلاقك وكثرة احتمالك ولم تسرع إليهم بتعنيف على ما كان يوم أحد منهم ومعنى فبما رحمة من الله هو توفيق الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ للرفق والتلطف بهم وإن الله تعالى ألقى في قلب نبيه ﷺ داعية الرحمة واللطف حتى فعل ذلك معهم ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا﴾ يعني جافياً ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ يعني قاسي القلب سيء الخلق قليل الاحتمال ﴿لَا نَفْضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ أي لنفروا عنك وتفرقوا حتى لا يبقى منهم أحد عندك ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ أي تجاوز عن زلاتهم وما أتوا يوم أحد ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي واسأل الله المغفرة لهم حتى يشفعك فيهم وقيل فاعف عنهم فيما يختص بك واستغفر لهم فيما يختص بحقوق الله وذلك من تمام الشفقة عليهم ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي استخرج آراءهم واعلم ما عندهم. واختلف العلماء في المعنى الذي من أجله أمر الله عز وجل نبيه ﷺ بالمشاورة لهم مع كمال عقله وجزالة رأيه ونزول الوحي عليه ووجوب طاعته وعلى كافة الخلق فيما أحبوا أو كرهوا. فقل هو عام مخصوص والمعنى وشاورهم فيما ليس عندك من الله فيه عهد وذلك في أمر الحرب ونحوه من أمور الدنيا لتستظهر برأيهم فيما تشاورهم فيه. وقيل أمر الله عز وجل نبيه ﷺ بمشاورتهم تطبيقاً لقلوبهم فإن ذلك أعطف لهم عليه وأذهب لأضغانهم فإن سادات العرب كانوا إذا لم يشاوروا في الأمور شق ذلك عليهم. وقال الحسن قد علم الله تعالى أن ما به إلى مشاورتهم حاجة ولكن أراد أن يستن به من بعده من أمته، وقيل إنما أمر بمشاورتهم ليعلم مقادير عقولهم وأفهامهم لا ليستفيد منهم رأياً وروى البغوي بسنده عن عائشة أنها قالت ما رأيت رجلاً أكثر استشارة للرجال من رسول الله ﷺ اتفق العلماء على أن كل ما نزل فيه وحي من الله تعالى لم يجز لرسول الله ﷺ. أن يشاور فيه الأمة وإنما أمر أن يشاور فيما سوى ذلك من أمر الدنيا ومصالح الحرب ونحو ذلك وقيل أن يشاورهم في أمر الدين والدنيا فيما لم ينزل عليه فيه شيء لأن النبي ﷺ شاورهم في أسارى بدر وهو من أمر الدين قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الاستشارة عين الهداية وقد خاطر من استغنى برأيه والتدبر قبل العمل يؤمنك من الندم. وقال بعض الحكماء ما استنبط الصواب بمثل المشاورة ومن فوائد المشاورة أنه قد يعزم

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: فبرحمة من الله، و﴿مَا﴾ صلة، كقوله: ﴿فَبِمَا نَقْضُهِمْ﴾ [المائدة: ١٣]، ﴿لَنْتَ لَهُمْ﴾ أي: سهلت لهم أخلاقك، وكثرة احتمالك، ولم تسرع إليهم بالغضب فيما كان منهم يوم أحد، ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا﴾ يعني: جافياً سيء الخلق قليل الاحتمال، ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾، قال الكلبي: فَظًّا في القول غليظ القلب في الفعل، ﴿لَا نَفْضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾، أي: نفروا وتفرقوا عنك، يقال: فضضتهم فانفضوا، أي: فرقتهم ففترقوا ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾، تجاوز عنهم ما أتوا يوم أحد، ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ حتى أشفعك فيهم، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي: استخرج آراءهم واعلم ما عندهم، من قول العرب: شرت الدابة، وشورتها، إذا استخرجت جريها، وشرت العسل وأشرته إذا أخذته من موضعه، واستخرجته، واختلفوا في المعنى الذي لأجله أمر الله نبيه ﷺ بالمشاورة مع كمال عقله وجزالة رأيه ونزول الوحي عليه، ووجوب طاعته على الخلق فيما أحبوا أو كرهوا، فقال بعضهم: هو خاص في المعنى، أي: وشاورهم فيما ليس عندك فيه من الله تعالى عهد، وقال الكلبي: يعني ناظرهم في لقاء العدو ومكايد الحرب عند الغزو، وقال مقاتل وقتادة: أمر الله تعالى بمشاورتهم تطبيقاً

الإنسان على أمر فيشاور فيه فيتبين له الصواب في قول غيره فيعلم بذلك عجز نفسه عن الإحاطة بفنون المصالح ومنها أنه إذا لم ينجح أمره علم أن امتناع النجاح محض قدر فلم يلم نفسه وقال بعضهم في مدح المشاورة:

وشاور إذا شاورت كل مهذب لبيب أخى حزم لترشد في الأمر
ولا تك ممن يستبد برأيه فتعجز أو لا تستريح من الفكر
ألم تر أن الله قال لعبده وشاورهم في الأمر حتماً بلا نكر

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ يعني على المشاورة ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي فاستعن بالله في أمورك كلها وثق به ولا تعتمد إلا عليه فإنه ولي الإعانة والعصمة والتسديد والمقصود أن لا يكون للعبد اعتماد على شيء إلا على الله تعالى في جميع أموره وأن المشاورة لا تنافي التوكل ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ يعني المتوكلين عليه في جميع أمورهم. قوله عز وجل: .

إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ﴾ يعني إن يعينكم الله بنصره ويمنعكم من عدوكم كما فعل يوم بدر ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ يعني من الناس لأن الله تعالى هو المتولي نصركم ﴿وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ﴾ كما فعل يوم أحد فلم ينصركم ووكلكم إلى أنفسكم لمخالفتكم أمره وأمر رسوله ﷺ ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد خذلانه ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ لا على غيره لأن الأمر كله لله ولا راد لقضائه ولا دافع لحكمه فيجب أن يتوكل العبد في كل الأمور على الله تعالى لا على غيره. وقيل التوكل أن لا تعصي الله من أجل رزقك ولا تطلب لنفسك ناصراً غيره ولا لعملك شاهداً سواء (م) عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب قالوا ومن هم يا رسول الله قال هم الذين لا يكتون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون، فقام

لقلوبهم، فإن ذلك أعطف لهم عليه وأذهب لأضغانهم، فإن سادات العرب كانوا إذا لم يشاوروا في الأمر شق ذلك عليهم، وقال الحسن: قد علم الله عز وجل أنه ما به إلى مشاورتهم حاجة ولكنه أراد أن يستن به من بعده، أخبرنا أبو طاهر المطهر بن علي بن عبيد الله الفارسي قال: أخبرنا أبو ذر محمد بن إبراهيم بن علي الصالحاني أخبرنا عبد الله بن محمد بن جعفر أخبرنا علي بن العباس المقانعي أخبرنا أحمد بن ماهان أخبرني أبي أخبرنا طاهر بن زيد عن عقيل عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت رجلاً أكثر استشارة للرجال من رسول الله ﷺ، ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ لا على مشاورتهم، أي: قم بأمر الله وثق به واستعنه، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ﴾، يُعِينُكُمْ الله ويمنعكم من عدوكم، ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾، مثل يوم بدر، ﴿وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ﴾ يترككم فلم ينصركم كما كان بأحد، والخذلان: القعود عن النصرة، والإسلام: للهلكة، ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾، أي: من بعد خذلانه، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، قيل: التوكل أن لا تعصي الله من أجل رزقك، وقيل: أن لا تطلب لنفسك ناصراً غير الله ولا لرزقك خازناً غيره ولا لعملك شاهداً غيره، أخبرنا الأستاذ الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن شجاع البزار ببغداد أخبرنا

عكاشة بن محصن فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال أنت منهم فقام آخر فقال يا نبي الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال سبقك بها عكاشة» عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله حقّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن. قوله عز وجل: ﴿وما كان لنبي أن يغفل﴾ قال ابن عباس نزلت هذه الآية وما كان لنبي أن يغفل في قطيفة حمراء فقدت يوم بدر فقال بعض القوم لعل رسول الله ﷺ أخذها فأنزل الله تعالى هذه الآية إلى آخرها. أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن غريب وروي عن الضحاك قال بعث رسول الله ﷺ طلّاع فغتم النبي ﷺ فلم يقسم الطلائع فأنزل الله تعالى وما كان لنبي أن يغفل وروى ابن جرير الطبري عن ابن عباس في قوله تعالى وما كان لنبي أن يغفل يقول ما كان لنبي أن يقسم إلى طائفة من المؤمنين ويترك طائفة ويجور في القسم ولكن يقسم بالعدل يأخذ فيه بأمر الله ويحكم فيه بما أنزل الله يقول ما كان الله ليجعل نبياً يغفل من أصحابه فإذا فعل ذلك النبي استنوا به وقال مقاتل والكلبي نزلت في غنائم أحد حين ترك الرماة المركز للغنيمة. وقالوا نخشى أن يقول النبي ﷺ: من أخذ شيئاً فهو له وأن لا تقسم الغنائم كما لم تقسم يوم بدر فتركوا المركز ووقعوا في الغنائم فقال لهم النبي ﷺ: ألم أعهد إليكم أن لا تتركوا المركز حتى يأتيكم أمري قالوا تركنا بقية إخواننا وقوفاً فقال النبي ﷺ بل ظننتم أنا نغل فلا نقسم فأنزل الله هذه الآية وقال قتادة ذكر لنا أنها نزلت في طائفة غلت من أصحابه وقيل إن الأقوياء ألحوا عليه يسألونه من المغنم فأنزل الله تعالى ﴿وما كان لنبي أن يغفل﴾ يعني فيعطي قوماً ويمنع آخرين بل عليه أن يقسم بينهم بالسوية وقال محمد بن كعب القرظي ومحمد بن إسحاق بن يسار هذا في شأن الوحي يقول وما كان لنبي أن يكتم شيئاً من الوحي رغبة أو رهبة أو مدهانة والغلول هو الخيانة. وأصله أخذ الشيء في خفية يقال غل فلان يغفل قرىء بفتح الياء وضم الغين أي وما كان لنبي أن يخون لأن النبوة والخيانة لا يجتمعان لأن منصب النبوة أعظم المناصب وأشرفها وأعلاها لا تليق به الخيانة لأنها في نهاية الدناءة والخسة والجمع بين الضدين محال فثبت بذلك أن النبي ﷺ لم يخن أمته في شيء لا من الغنائم، ولا من الوحي. وقيل المراد به الأمة لأنه قد ثبت براءة ساحة النبي ﷺ من الغلول والخيانة فدل ذلك على أن المراد بالغلول غيره وقيل اللام فيه منقولة معناه ما كان النبي ليغفل على نفي الغلول عن الأنبياء

أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد الهيثم الأنباري أخبرنا محمد بن أبي العوام أخبرنا وهب بن جرير أخبرنا هشام بن حسان عن الحسن بن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل سبعون ألفاً من أمتي الجنة بغير حساب» قيل: يا رسول الله من هم؟ قال: «هم الذين لا يكثرون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون»، فقال عكاشة بن محصن: يا رسول الله ادع الله لي أن يجعلني منهم، قال: «أنت منهم» ثم قام رجل آخر فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «سبقك بها عكاشة» أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة قال أخبر محمد بن أحمد بن الحارث أخبرنا محمد بن يعقوب الكسائي أخبرنا عبد الله بن محمود أخبرنا إبراهيم بن محمد الخلال أنا عبد الله بن المبارك عن حياة بن شريح حدّثني بكر بن عمرو عن عبد الله بن هبيرة أنه سمع أبا تميم الجيشاني يقول: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو أنكم تتوكلون على الله حقّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً».

قوله عز وجل: ﴿وما كان لنبي أن يغفل﴾ الآية، قال عكرمة ومقسم عن ابن عباس رضي الله عنهما: إن هذه الآية نزلت في قطيفة حمراء فقدت يوم بدر، فقال بعض الناس أخذها رسول الله ﷺ، وقال الكلبي ومقاتل: نزلت في غنائم أحد حين ترك الرماة المركز للغنيمة، وقالوا: نخشى أن يقول النبي ﷺ من أخذ شيئاً فهو له وأن لا يقسم الغنائم كما لم يقسمها يوم بدر، فتركوا المركز ووقعوا في الغنائم، فقال النبي ﷺ: «لم أعهد إليكم أن لا تتركوا

وقيل معناه ما كان لنبي الغلول أراد ما غل نبي قط فنفي عن الأنبياء: الغلول وقيل معناه وما كان يحل لنبي الغلول وإذا لم يحل له لم يفعله وحجة هذه القراءة أنهم نسبوا النبي ﷺ إلى الغلول. في بعض الروايات فبين الله تعالى بهذه الآية أن هذه الخصلة لا تليق به ونفي عنه ذلك بقوله وما كان لنبي أن يغل وقرئ يغل بضم الياء وفتح الغين ولها معنيان أحدهما أن يكون من الغلول أيضاً ومعناه وما كان لنبي أن يخان أي تخونه أمته والثاني أن يكون من الإغلال ومعناه وما كان لنبي أن يخون أي ينسب إلى الخيانة ﴿ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة﴾ يعني بالشيء الذي غله بعينه يحمله على ظهره يوم القيامة ليزداد فضيحة بما يحمله يوم القيامة وقيل يمثل ذلك الشيء في النار ثم يقال له انزل فخذ فينزل فيحمله على ظهره فإذا بلغ موضعه وقع ذلك الشيء في النار فيكلف أن ينزل إليه ليخرجه يفعل به ذلك ما شاء الله وقيل معناه أنه يأتي بإثم ما غله فيجازى به يوم القيامة وهو قوله تعالى: ﴿ثم توفى كل نفس ما كسبت﴾ يعني من خير أو شر والمعنى أن كل كاسب خيراً كان ذلك الكسب أو شراً فهو مجزى به يوم القيامة وهو في جزاء عمله ﴿وهم لا يظلمون﴾ يعني بل يعدل بينهم يوم القيامة في الجزاء فيجازى كل على عمله.

فصل في ذكر أحاديث وردت في الغلول ووعيد الغال

وقد تقدم أن أصل الغلول هو أخذ الشيء في خفية وأنه الخيانة إلا أنه قد صار في العرف مخصوصاً بالخيانة في الغنيمة وبهذا وردت الأحاديث (ق) عن أبي هريرة قال: قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره حتى قال: لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء يقول يا رسول الله أغثني وأقول لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحة فيقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء يقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رغاء يقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رغاء يقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت

المركز حتى يأتيكم أمري؟ قالوا: تركنا بقية إخواننا وقوفاً، فقال النبي ﷺ: «بل ظننتم أنا نغل ولا نقسم»، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقال قتادة: ذكر لنا أنها نزلت في طائفة غلّت من أصحابه، وقيل: إن الأقوياء ألحوا عليه يسألونه من المغنم، فأنزل الله تعالى: ﴿وما كان لنبي أن يغلل﴾ فيُعطي قوماً ويمنع آخرين بل عليه أن يقسم بينهم بالسوية، وقال محمد بن إسحق: هذا في الوحي، يقول: ما كان لنبي أن يكتم شيئاً من الوحي رغبة أو رهبة أو مدهنة، قوله تعالى: ﴿وما كان لنبي أن يغلل﴾، قرأ ابن كثير وأهل البصرة وعاصم ﴿يغلل﴾ بفتح الياء وضم الغين، معناه: أن يخون، والمراد منه الأمة، وقيل: اللام فيه منقولة، معناه: ما كان النبي ليغلل، وقيل: معناه ما كان يظن به ذلك ولا يأتي به، وقرأ الآخرون بضم الياء وفتح الغين، وله وجهان، أحدهما: أن تكون من الغلول أيضاً، أي: ما كان لنبي أن يخان، يعني: أن تخونه أمته، والوجه الآخر: أن يكون من الإغلال، معناه: ما كان لنبي أن يغلل: أن يخون، أي: يُنسب إلى الخيانة، ﴿ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة﴾، قال الكلبي: يمثل له ذلك الشيء في النار ثم يقال له: انزل فخذ فينزل فيحمله على ظهره فإذا بلغ موضعه وقع إلى النار، ثم يكلف أن ينزل إليه، فيخرجه فيفعل ذلك به، أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد الفقيه أخبرنا أبو إسحق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن ثور بن زيد الديلي عن أبي الغيث مولى بن مطيع عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام خيبر فلم نغنم ذهباً ولا فضةً إلا الأموال والثياب والمتاع، قال فوجه رسول الله ﷺ نحو وادي القرى، وكان رفاعه بن زيد وهب لرسول الله ﷺ

فيقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك لفظ مسلم. الرغاء صوت البعير والثغاء صوت الشاة والرقاع الثياب والصامت الذهب والفضة (ق) عن أبي هريرة قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر ففتح الله علينا فلم نغنم ذهباً ولا ورقاً غنمنا المتاع والطعام والثياب ثم انطلقنا إلى الوادي يعني وادي القرى ومع رسول الله ﷺ عبد له وهبه له رجل من جذام يدعى رفاعه بن زيد من بني الضبيب فلما نزلنا الوادي قام عبد رسول الله ﷺ يحل رحله فرمى بسهم فكان فيه حتفه فقلنا هنيئاً له شملته الشهادة يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ: كلا والذي نفس محمد بيده إن الشملة لتلتهب عليه ناراً أخذها من الغنائم يوم خيبر لم تصبها المقاسم قال ففزع الناس فجاء رجل بشراك أو شراكين فقال: أصبتها يوم خيبر فقال رسول الله ﷺ شراك من نارٍ أو شراكان من نار وفي رواية نحوه وفيه ومعه عبد يقال له مدعم أهداه له أحد بني الضبيب وفيه إذ جاءه سهم عائر إشراك سير النعل الذي يكون على ظهر القدم ومثله شسع النعل والسهم العائر هو السهم الذي لا يدرى من رماه (خ) عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال كان على ثقل رسول الله ﷺ: رجل يقال له كركرة فمات فقال رسول الله ﷺ هو في النار فذهبوا ينتظرون إليه فوجدوا عباءة قد غلها عن زيد بن خالد الجهني أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ توفي فذكروه لرسول الله ﷺ فقال صلّوا على صاحبكم فتغيرت وجوه الناس لذلك فقال أن صاحبكم غل في سبيل الله ففتشنا متاعه فوجدنا خرزاً من خرز اليهود لا يساوي درهمين. أخرجه أبو داود والنسائي عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال من غل فاحرقوا متاعه واضربوه. أخرجه أبو داود والترمذي عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر أحرقوا متاع الغال وضربوه زاد في رواية ومنعوه سهمه أخرجه أبو داود. قوله تعالى: .

عبدًا أسود يقال له مدعم، قال فخرجنا حتى إذا كنّا بوادي القرى فينا مدعم يحطّ رحلاً لرسول الله ﷺ إذ جاءه سهم عائر فجاءه فأصابه فقتله، فقال الناس: هنيئاً له الجنة، فقال رسول الله ﷺ: «كلا والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من الغنائم لم تُصَبَّها المقاسم، تشتعل ناراً»، فلما سمع ذلك الناس جاء رجل بشراك أو شراكين إلى النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «شراك من نار أو شراكان من نار»، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أخبرنا إسحق الهاشمي أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن يحيى بن سعيد عن محمد بن يحيى بن حيان عن أبي عمرة الأنصاري عن زيد بن خالد الجهني قال: إن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ توفي يوم خيبر فذكر لرسول الله ﷺ قال: «صلّوا على صاحبكم» فتغيرت وجوه الناس لذلك فرغم زيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن صاحبكم قد غلّ في سبيل الله» قال: ففتشنا متاعه فوجدنا خرزاً من خرز اليهود لا يساوي درهمين. أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب المروزي أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع بن سليمان أخبرنا الشافعي أخبرنا سفيان بن الزهري عن عروة بن الزبير عن أبي حميد الساعدي قال: استعمل النبي ﷺ رجلاً من الأزد يُقال له ابن اللبّية على الصدقة فلما قدّم قال: هذا لكم وهذا أهدي لي، فقام النبي ﷺ على المنبر فقال: «ما بال العامل نبهته على بعض أعمالنا فيقول هذا لكم وهذا أهدي لي، فهلاًّ جلس في بيت أمه أو في بيت أبيه فينظر أيهدى إليه أم لا، والذي نفسي بيده لا يأخذ أحد منه شيئاً إلّا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبتة إن كان بغيراً له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة لها تبعر»، ثم رفع يده حتى رأينا عفرة أبطيه، ثم قال: «اللهم هل بلغت» ثلاثاً. وروى قيس بن أبي حازم عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فقال: «لا تصيبن شيئاً إلّا بإذني فإنه غلول، ومن يغلّل يأت بما غلّ يوم القيامة». وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا وجدتم الرجل قد غلّ فاحرقوا متاعه واضربوه» وروى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر أحرقوا متاع الغال وضربوه». قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا لَهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ
وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ
وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ
مُصِيبَةً قَدِ أَصَبْتُمْ مِّثْلَهَا قُلْتُمْ إِنَّا هَذَا قَوْلُ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ إِنَّا اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾

﴿أفمن اتبع رضوان الله﴾ يعني فترك الغلول فلم يغل ﴿كمن باء﴾ أي رجع ﴿بسخط من الله﴾ يعني بغضب من الله والمعنى فغل والسخط الغضب الشديد المفضي للعقوبة وهو من الله إنزال العقوبة بمن سخط عليه وقيل في معنى الآية أن النبي ﷺ لما أمر المسلمين باتباعه والخروج معه يوم أحد اتبعه المؤمنون وتخلف عنه جماعة من جماعة المنافقين فأخبرنا الله تعالى بحال من اتبعه بقوله ﴿أفمن اتبع رضوان الله﴾ وبحال من تخلف عنه بقوله: ﴿كمن باء بسخط من الله﴾ ﴿وماواه جهنم وبئس المصير﴾ يعني الغال أو المتخلف عن النبي ﷺ ﴿هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون﴾ يعني هم ذوو درجات عند الله قال ابن عباس: يعني من اتبع رضوان الله ومن باء بسخط من الله مختلفو المنازل عند الله فلمن اتبع رضوان الله الثواب العظيم ولمن باء بسخط من الله ليسوا سواء بل هم درجات عند الله على حسب أعمالهم. وقيل الضمير في قوله هم درجات عائد على قوله أفمن اتبع رضوان الله فقط لأن الغالب في العرف استعمال الدرجات لأهل الثواب والدركات لأهل النار ولأن الله وصف من باء بسخط من الله إن ماواه جهنم وبئس المصير فدل على أن الضمير في قوله هم درجات عند الله عند راجع للأول وفيه تحريض على العمل بطاعته وتحذير عن العمل بمعاصيه. قوله عز وجل: ﴿لقد مَنَّ الله على المؤمنين﴾ يعني أحسن إليهم وتفضل عليهم والمنة النعمة العظيمة وذلك في الحقيقة لا يكون إلا من الله ومنه قوله تعالى لقد مَنَّ الله على المؤمنين ﴿إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم﴾ يعني من جنسهم عربياً مثلهم ولد ببلدهم ونشأ بينهم يعرفون نسبه وليس حي من أحياء العرب إلا وقد ولده وله فيهم نسب. إلا بني تغلب فإنهم كانوا نصارى وقد ثبتوا على النصرانية فظهر الله رسول الله ﷺ من أن يكون له فيهم نسب وقيل أراد بالمؤمنين جميع المؤمنين ومعنى قوله تعالى من أنفسهم أي بالإيمان والشفقة لا بالنسب ومن جنسهم ليس بملك ولا أحد من غير بني آدم وقيل من أنفسهم يعني أنه من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام ووجه المنة والإنعام على المؤمنين ببعث الرسول ﷺ لكونه داعياً لهم إلى ما يخلصهم من العذاب الأليم ويوصلهم إلى الثواب في جنات النعيم وكونه من أنفسهم ومن جنسهم لأنه إذا كان اللسان واحداً سهل الأخذ عنه فيما يجب عليهم، وكانوا واقفين على جميع أحواله وأفعاله يعرفون صدقه

﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾، فترك الغلول، ﴿كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ﴾، فعل، ﴿وَمَا لَهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

﴿هُم دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يعني: ذو درجات عند الله، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ وَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ مُخْتَلَفُوا الْمَنَازِلَ عِنْدَ اللَّهِ، فلمن اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ الثَّوَابُ الْعَظِيمُ، وَلَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ. ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، قيل: أراد به العرب لأنه ليس حي من أحياء العرب إلا وله فيهم من نسب إلا بني تغلب، دليله قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢] وقال الآخرون: أراد به جميع المؤمنين، ومعنى قوله تعالى: ﴿مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: بالإيمان والشفقة

وأمانته فكان ذلك أقرب إلى تصديقه والوثوق به، وفي كونه من أنفسهم شرف لهم وكان فيما خطب به أبو طالب حين زوج رسول الله ﷺ خديجة بنت خويلد رضي الله تعالى عنها وقد حضر ذلك بنو هاشم ورؤساء مضر قوله الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئى معد وعنصر مضر وجعلنا سدنة بيته وسواس حرمه وجعل لنا بيتاً محجوباً وحرماً آمناً وجعلنا الحكام على الناس وإن ابني هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به فتى إلا رجح وهو الله بعد هذا له نبأ عظيم وخطب جليل. وقيل في وجه المثة ببعثة الرسول ﷺ أن الخلق جبلوا على الجهل ونقصان العقل وقلة الفهم وعدم الدراية فمن الله تعالى على خلقه وأنعم عليهم وأحسن إليهم بأن بعث فيهم رسولاً من أنفسهم أنقذهم به من الضلالة وبصرهم به من الجهالة وهداهم به إلى صراط مستقيم وإنما خص المؤمنين بالذكر لأنهم هم المنتفعون بما جاء به دون غيرهم ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ يعني يقرأ عليهم كتابه الذي أنزل عليه بعد أن كانوا أهل جاهلية لم يطرق أسماعهم شيء من الوحي السماوي ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي ويطهرهم من دنس الكفر ونجاسة المحرمات والخبائث ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ يعني القرآن والسنة التي سننها لهم على لسان نبيه ﷺ ﴿وإن كانوا من قبل﴾ يعني من قبل بعثة الرسول ﷺ ﴿لفي ضلال مبين﴾ يعني لفي جهالة وحيرة عن الهدى عمياً لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً فهداهم الله بنبيه ﷺ. قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابْتَكُمْ مَصِيبَةً﴾ يعني ما أصابهم يوم أحد ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾ يعني ببدر وذلك أن المشركين قتلوا من المسلمين يوم أحد سبعين وقتل المسلمون من المشركين يوم بدر سبعين وأسرهم سبعين وقيل إن المسلمين هزموا المشركين يوم بدر وهزمهم في أول الأمر يوم أحد ولما عصوا الله ورسوله هزمهم المشركون فحصل انهزام المشركين مرتين وانهزام المسلمين مرة واحدة ﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾ أي من أين لنا هذا القتل والهزيمة ونحن المسلمون ورسول الله ﷺ فينا وهو استفهام إنكار ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ يعني إنما وقعت فيما وقعت فيه بشؤم ذنوبكم وهو مخالفتكم أمر رسول الله ﷺ وذلك أنه ﷺ اختار الإقامة في المدينة على الخروج إلى العدو واختاروا هم الخروج إليه وأيضاً أمر الرماة بالإقامة في الموضع الذي عينه لهم فخالفوا وتركوا المركز لأجل الغنيمة فكان ذلك سبب القتل والهزيمة. وروى عبيدة السلماني عن علي بن أبي طالب قال جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال إن الله قد كره ما صنع قومك في أخذهم الفداء من الأسارى وقد أمرك أن تخيرهم بين أن يضربوا أعناق الأسارى وبين أن يأخذوا الفداء على أن يقتل منهم عدتهم فذكر رسول الله ﷺ للناس فقالوا يا رسول الله عشائرتنا وإخواننا بل تأخذ فداءهم فتتقوى به على قتال عدونا ويستشهد منا عدتهم فقتل منهم يوم أحد سبعون عدد أسارى أهل بدر لم يسنده البغوي وأسنده ابن جرير الطبري فذلك معنى قوله ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ يعني بأخذكم الفداء واختياركم القتل لأنفسكم ﴿إن الله على كل شيء

لا بالنسب، دليله قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل بعثه ﴿لفي ضلال مبين﴾.

﴿أَوَلَمَّا﴾ أي: حين ﴿أَصَابْتُمْ مَصِيبَةً﴾، بأحد، ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾، ببدر، وذلك أن المشركين قتلوا من المسلمين يوم أحد سبعين وقتل المسلمون منهم ببدر سبعين وأسرهم سبعين، ﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾، من أين لنا هذا القتل والهزيمة ونحن مسلمون ورسول الله ﷺ فينا؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾، روى عبيدة السلماني عن علي رضي الله عنه قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: إن الله قد كره ما صنع قومك في أخذهم الفداء من الأسارى، وقد أمرك أن تخيرهم بين أن يقدموا فتضرب أعناقهم، وبين أن يأخذوا الفداء على أن يقتل منهم عدتهم، فذكر ذلك رسول الله ﷺ للناس فقالوا: يا رسول الله عشائرتنا وإخواننا، لا بل تأخذ منهم فداءهم، فتقوى به على قتال عدونا ويستشهد منا عدتهم، فقتل منهم يوم أحد سبعون عدد أسارى أهل بدر، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ

قدير ﴿ يعني من نصركم مع الطاعة وترك نصركم مع المخالفة. قوله عز وجل: .

وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْ فَنُقَاتِلْهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَنَكُمُ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ اقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾

﴿وما أصابكم﴾ يعني من القتل والجراح والهزيمة ﴿يوم التقى الجمعان﴾ يعني جمع المؤمنين وجمع المشركين وذلك بأحد يوم أحد ﴿فيأذن الله﴾ يعني فبعلمه وقضائه وقدره وحكمه وفيه تسلية للمؤمنين بما حصل لهم يوم أحد من القتل والهزيمة ولا تقع التسلية إلا إذا علموا أن ذلك كان واقعاً بقضاء الله وقدره فحينئذ يرضون بما قضى الله عليهم ﴿وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا﴾ أي ليظهر إيمان المؤمنين بثبوتهم على مالهم ويظهر نفاق المنافقين بقلة صبرهم على ما نزل بهم فالمراد من العلم المعلوم والتقدير ليتبين المؤمن من المنافق وليتميز أحدهما من الآخر والمنافق هو الذي أظهر الإيمان بلسانه وأضمر خلافه واشتقاقه من النفق وهو السرب في الأرض النافذ، ومنه نافقاً اليربوع لأن له حجراً في الأرض له بابان إذا طلب من أحدهما خرج من الآخر فكذلك المنافق صنع له طريقين أحدهما إظهار الإيمان بلسانه والآخر إضمار الكفر بقلبه من أيهما طلب خرج من الآخر. وقيل لأنه دخل في الإيمان من باب وخرج من باب آخر والنفاق اسم إسلامي لم تك العرب تعرفه قبل الإسلام ﴿وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا﴾ المقول له عبدالله بن أبي ابن سلول المنافق وأصحابه وذلك أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى أحد في ألف رجل حتى إذا كان بالشوط بين أحد والمدينة انخزل عبدالله بن أبي ابن سلول بثلاث الناس وقال ما ندري علام نقتل أنفسنا فرجع بمن معه من المنافقين فتبعهم جابر بن عبدالله بن عمر بن حرام الأنصاري أخو بني سلمة وهو يقول: يا قوم أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم عند حضور عدوه فذلك قوله تعالى وقيل لهم يعني المنافقين عبدالله بن أبي ابن سلول وأصحابه تعالوا قاتلوا في سبيل الله أي لأجل دين الله وطاعته أو ادفعوا يعني عن أموالكم وأهلكم وقيل معناه تعالوا كثروا سواد المسلمين إن لم تقاتلوا ليكون ذلك دفعاً وقمعاً

هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴿ أي: بأخذكم الفداء واختياركم القتل، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ﴾، بأحد من القتل والجرح والهزيمة، ﴿فَيَاذَنَ اللَّهُ﴾، أي: بقضاء الله وقدره، ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: وليُمَيِّزَ، وقيل ليرى.

﴿وليعلم الذين نافقوا وقيل تعالوا قاتلوا في سبيل الله﴾، أي: لأجل دين الله وطاعته، ﴿أو ادفعوا﴾، عن أهلكم وحريمكم، وقال السدي: أي: كثروا سواد المسلمين واربطوا إن لم تقاتلوا يكون ذلك دفعاً وقمعاً للعدو، ﴿قالوا لو نعلم قتالاً لا تبعنكم﴾، وهو عبد الله بن سلام وأصحابه الذين انصرفوا عن أحد وكانوا ثلاثمائة، قال الله تعالى: ﴿هم للكفر يومئذ أقرب﴾ أي: إلى الكفر يومئذ أقرب ﴿منهم للإيمان﴾ أي: إلى الإيمان، ﴿يقولون بأفواههم﴾، يعني: كلمة الإيمان ﴿ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون﴾.

﴿الذين قالوا لإخوانهم﴾، في النسب لا في الدين وهم شهداء أحد ﴿وقعدوا﴾ يعني: قعد هؤلاء

للعُدُو ﴿قَالُوا﴾ يعني المنافقين ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعُنَاكُمْ﴾ أي لو نعلم أن اليوم يجري فيه قتال لا تبعنناكم ولم نرجع ولو علموا ما تبعوهم. وقيل معناه لو نحسن قتالاً لا تبعنناكم ﴿هَمَّ لِلْكَفَرِ﴾ يعني المنافقين إلى الكفر ﴿يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ أي الإيمان وإنما قال تعالى يومئذ لأنهم قبل ذلك اليوم لم يظهروا ما أظهروه من المعاندة والرجوع عن المسلمين وقولهم لو لم نعلم قتالاً لا تبعنناكم وإنما كانوا قبل ذلك يظهرون كلمة الإسلام ويخفون الكفر ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يعني يظهرون بألسنتهم الإيمان وليس هو في قلوبهم إنما في قلوبهم الكفر والنفاق وهذه صفة المنافقين لا صفة المؤمنين لأن صفة المؤمن المخلص موطأة القلب للسان على شيء واحد وهو التوحيد ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ يعني من النفاق ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ نزلت في عبدالله بن أبي المنافق وأصحابه وفي المراد بإخوانهم قولان: أحدهما أن المراد بإخوانهم الذين استشهدوا بأحد فيكون إخوانهم في النسب لا في الدين والقول الثاني إن المراد بإخوانهم المنافقون فعلى القول الأول يكون معنى الآية الذين قالوا في إخوانهم أو عن إخوانهم الذين قتلوا بأحد لو أطاعونا ما قتلوا لأنهم بعد أن قتلوا لا يخاطبون وعلى القول الثاني يكون معنى الآية الذين قالوا وهم عبدالله بن أبي وأصحابه لإخوانهم يعني في النفاق ﴿وَقَعَدُوا﴾ يعني عن الجهاد ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ يعني هؤلاء الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ لو أطاعونا يعني في القعود عن رسول الله ﷺ أو الانصراف عنه ﴿مَا قُتِلُوا﴾ يومئذ فرد الله تعالى عليهم بقوله ﴿قُلْ﴾ يعني قل لهم يا محمد ﴿فَادْرُؤُوا﴾ أي فادفعوا ﴿عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعني أن الحذر لا ينفع من القدر وفي الآية دليل على أن المقتول يموت بأجله خلافاً لمن يزعم أن القتل قطع على المقتول أجله ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ قيل نزلت في شهداء بدر وكانوا أربعة عشر رجلاً ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار. وقال أكثر المفسرين إنها نزلت في

القائلون عن الجهاد ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾، وانصرفوا عن محمد ﷺ وقعدوا في بيوتهم ﴿مَا قُتِلُوا قُلْ﴾، لهم يا محمد، ﴿فَادْرُؤُوا﴾، فادفعوا، ﴿عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، أن الحذر يُغني عن القدر.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ الآية: قيل: نزلت في شهداء بدر وكانوا أربعة عشر رجلاً ثمانية من الأنصار وستة من المهاجرين، وقال الآخرون: نزلت في شهداء أحد وكانوا سبعين رجلاً أربعة من المهاجرين حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وعثمان بن شماس وعبد الله بن جحش وسائرهم من الأنصار، أخبرنا أحمد بن عبد الصالح أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا محمد بن حماد أنا أبو معاوية عن الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق قال: سألنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ الآية، قال: إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أرواحهم كطير خضر» ويروى «في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم أطالعةً فقال: هل تشتبهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحسب نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لم يُتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نُقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أنهم لا يسألون إلا هذا تركوا». أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحق الثعلبي أنا عبد الله بن حامد أخبرنا أحمد بن محمد بن شاذان أنا جسعويه أنا صالح بن محمد أنا سليمان بن عمرو عن إسماعيل بن أمية عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «إنه لما أُصيب إخوانكم يوم أحد جعل الله عز وجل أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها وتسرح من الجنة حيث شاءت وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا لهيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم ورأوا ما أعد الله لهم من

شهداء أحد ويدل على ذلك ما روي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه إنه لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكّل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معقّلة في ظل العرش فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا من يبلغ أخواننا عنا أننا أحياء في الجنة لئلا يزهدوا في الجنة ولا يتركوا عن الحرب فقال الله تعالى أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ إلى آخر الآية أخرجه أبو داود (م) عن مسروق قال سألتنا عبدالله عن هذه الآية: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ فقال أما إنا قد سألتنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل فأطلع إليهم ربهم إطلاعه فقال: هل تشتهون شيئاً قالوا أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ففعل ذلك بهم ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل مرة أخرى فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا.

(ذكر ما يتعلق بهذا الحديث) قول مسروق سألتنا عبدالله كذا جاء عبدالله غير منسوب وقد نسب بعض الناس فقال عبدالله بن عمر قد ذكره أبو مسعود الدمشقي والحميدي في مسنده عن عبدالله بن مسعود وهو الصحيح وهذا الحديث مرفوع لقوله أما إنا قد سألتنا عن ذلك فقال يعني النبي ﷺ وفي الحديث دليل عن أن الجنة مخلوقة الآن خلافاً للمعتزلة لقوله ﷺ تسرح من الجنة حيث شاءت وهو مذهب أهل السنة وفيه دليل على أن الأرواح باقية لا تفنى بفناء الجسد لأن المحسن ينعم ويجازى بالثواب وأن المسيء يعذب ويجازى بالعقاب قبل يوم القيامة وهو مذهب أهل السنة أيضاً قوله أرواحهم في جوف طير خضر أي يجعل الله أرواح الشهداء في جوف طير خضر وهذا ليس ببعيد لا سيما مع القول بأن الأرواح أجسام لطيفة. وقيل إن المنعم والمعذب من الأرواح والأجساد جزء من الجسد تبقى فيه الروح وهو الذي يتلذذ بالنعيم ويتألم بالعذاب فغير مستحيل أن يصور الله تعالى ذلك الجزء طائراً ويجعل في جوف طير فتسرح في الجنة وتأوي إلى تلك القناديل وقد تعلق بهذا الحديث من يقول بالتناسخ من المبتدعة ويقول بانتقال الأرواح وتنعيمها في الصور الحسان المرفهة وتعذيبها في الصور القبيحة المسخرة ويزعمون أن هذا هو الثواب والعقاب وهذا ضلال بين وقول سخيف وبدعة باطلة لما في هذا القول من إبطال ما جاءت به

الكرامة، قالوا: يا ليت قومنا يعلمون ما نحن فيه من النعيم وما يصنع الله بنا كي يرغبوا في الجهاد، ولا يتكلموا عنه، فقال الله عز وجل: أنا مخبرٌ عنكم ومبلغٌ إخوانكم ففرحوا بذلك واستبشروا، فأنزل الله تعالى ﴿ولا تحسبن الذين قُتِلُوا في سبيلِ اللهِ أمواتاً﴾ إلى قوله: ﴿لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وسمعتُ عبد الواحد بن أحمد المليحي قال: سمعتُ الحسن بن أحمد القتيبي قال: سمعتُ محمد بن عبد الله بن يوسف قال: سمعتُ محمد بن إسماعيل البكري قال: سمعتُ يحيى بن حبيب بن عرين قال: سمعتُ موسى بن إبراهيم قال: سمعتُ طلحة بن خراش قال: سمعتُ جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول: لقيني رسول الله ﷺ فقال لي: «يا جابر ما لي أراك منكسراً؟ قلتُ: يا رسول الله استشهد أبي وترك عيالاً وديناً، قال: «أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟ قلتُ: بلى يا رسول الله، قال: «ما كلم الله تعالى أحداً قط إلا من وراء حجاب، وإنه أحياناً أباك فكلمه كفاحاً، قال: يا عبيدِ تمنّ عليّ أعطك، قال: يا ربّ أحييني فأقتل فيك الثانية، قال الرب تبارك وتعالى: إنه قد سبق منّي أنهم لا يرجعون، فأنزلت فيهم ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيلِ اللهِ أمواتاً﴾». أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الخرقى أنا أبو الحسن الطيسفوني أنا عبد الله بن عمر الجوهري أنا أحمد بن علي الكشمهيني أنا علي بن حجر أنا إسماعيل بن جعفر أنا حميد عن أنس رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يموت له عند الله خيرٌ يحبُّ أن يرجع إلى

الشرائع من الحشر والنشر والمعاد والجنة والنار وقد جاء في بعض روايات هذا الحديث ما يرد عليهم وهو قوله حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه يعني يحيي جميع جسده يوم يبعثه وهو يوم القيامة والله أعلم. عن جابر قال لقيني رسول الله ﷺ وأنا مهتم فقال ما لي أراك منكسراً قلت يا رسول الله استشهد أبي يوم أحد وترك عيالاً وديناً فقال ألا أبشرك بما لقي الله به أباك قلت بلى قال ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب وإنه أحيا أباك وكلمه كفاحاً وقال يا عبدي تمنّ علي أعطك قال: يا رب تحييني فأقتل ثانية قال سبحانه إنه قد سبق مني أنهم لا يرجعون فنزلت: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله﴾ الآية أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب وقيل إن الآية نزلت في شهداء بئر معونة وهي بئر بين مكة وعسفان وأرض هذيل قال محمد بن إسحاق عن أشياخه من أهل العلم قالوا: قدم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة وكان سيد بني عامر بن صعصعة على رسول الله ﷺ وأهدى له هدية فأبى رسول الله ﷺ أن يقبلها وقال إني لا أقبل هدية مشرك ثم عرض عليه الإسلام وأخبره بما له فيه وما أعد الله للمؤمنين وقرأ عليه القرآن فلم يسلم ولم يبعد وقال يا محمد إن الذي تدعو إليه حسن جميل فلو بعثت رجلاً من أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبيوا لك فقال رسول الله ﷺ إني أخشى عليهم أهل نجد فقال أبو براء نالهم جار فأبعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو أخا بني ساعدة في سبعين رجلاً من خيار المسلمين. وكان يقال لهم القراء منهم الحارث بن الصمة وحرام بن ملحان وعروة بن أسماء بن الصلت ونافع بن يزيد بن ورقاء الخزاعي وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر. وذلك في سفر سنة أربع من الهجرة بعد أحد بأربعة أشهر فساروا حتى نزلوا بئر معونة وهي أرض بين أرض بني عامر وحرة بني سليم فلما نزلوها قال بعضهم لبعض أيكم يبلغ رسالة رسول الله ﷺ أهل هذا الماء فقال حرام بن ملحان: أنا فخرج بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل وكان على ذلك الماء فلما أتاهم حرام بن ملحان: لم ينظر عامر بن الطفيل في كتاب رسول الله ﷺ فقال حرام بن ملحان يا أهل بئر معونة إني رسول رسول الله إليكم وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فآمنوا بالله ورسوله فخرج إليه رجل من كسر البيت برمح فضربه به في جنبه حتى خرج من الشق الآخر فقال: الله أكبر فزت ورب الكعبة ثم استصرخ عامر بن الطفيل بني عامر على المسلمين فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه وقالوا لا نخفر أبا براء فقد عقد لهم عقداً وجواراً فاستصرخ

الدنيا، وأن له الدنيا وما فيها، إلا الشهيد لما يرى من فضل الشهادة، فإنه يحب أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى»، وقال قوم: نزلت هذه الآية في شهداء بئر معونة، وكان سبب ذلك على ما روى محمد بن إسحاق عن أبيه إسحاق بن يسار عن المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم وعن حميد الطويل عن أنس بن مالك وغيرهم من أهل العلم قال: قدّم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة وكان سيد بني عامر بن صعصعة، على رسول الله ﷺ المدينة وأهدى إليه هدية، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبلها، وقال: «لا أقبل هدية مشرك، فأسلم إن أردت أن أقبل هديتك؟» ثم عرض عليه الإسلام، وأخبره بما له فيه وما أعد الله للمؤمنين، وقرأ عليه القرآن فلم يسلم، ولم يبعد وقال: يا محمد إن الذي تدعو إليه حسن جميل فلو بعثت رجلاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوههم إلى أمرك رجوت أن يستجيبيوا لك، فقال رسول الله ﷺ: «إني أخشى عليهم أهل نجد»، فقال أبو براء: أنا لهم جار فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك، فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو وأخا بني ساعدة في سبعين رجلاً من خيار المسلمين منهم الحارث بن الصمة وحرام بن ملحان وعروة بن أسماء بن الصلت السلمي ونافع بن يزيد بن ورقاء الخزاعي وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضي الله عنه، وذلك في صفر سنة أربع من الهجرة على رأس أربعة أشهر من أحد فساروا حتى نزلوا بئر معونة وهي أرض بين

عليهم قبائل بني سليم عصبية ورعلا وذكوان فأجابوه فخرجوا حتى غشوا القوم فأحاطوا بهم في رحالهم فلما رأوهم أخذوا السيوف فقاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم إلا كعب بن زيد فإنهم تركوه وبه رمق فارتث بين القتلى فعاش حتى قتل يوم الخندق وكان في سرح القوم عمرو بن أمية الضمري ورجل من الأنصار أحد بني عمرو بن عوف فلم يعلمها بمصاب أصحابهما إلا الطير تحوم على العسكر فقالا: والله إن لهذا الطير لشأناً فأقبلا لينظرا فإذا القوم في دمائهم وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة فقال الأنصاري لعمر بن أمية ماذا ترى قال نلحق برسول الله ﷺ ونخبره فقال الأنصاري لكن لا أرغب عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو ثم قاتل القوم حتى قتل وأخذ عمرو بن أمية الضمري أسيراً فلما أخبرهم أنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل وجز ناصيته وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمة فقدم عمرو بن أمية على رسول الله ﷺ وأخبره الخبر فقال رسول الله ﷺ: هذا عمل أبي براء وقد كنت لهذا كارهاً متخوفاً فبلغ ذلك أبا براء فشق عليه أخفار عامر بن الطفيل إياه وما أصاب رسول الله ﷺ بسببه وجواره. وكان فيمن أصيب عامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق فروى محمد بن أسحاق عن هشام بن عروة عن أبيه أن عامر بن الطفيل كان يقول من الرجل منهم لما قتل رأيته رفع بين السماء والأرض حتى رأيت السماء من دونه قالوا هو عامر بن فهيرة قالوا: وبلغ ربيعة بن أبي براء أن عامر بن الطفيل أخفر ذمة أبيه فحمل على عامر بن الطفيل فطعنه فخر عن فرسه.

قلت وذكر ابن الأثير الجزري في كتاب جامع الأصول له في قسم الأسماء في ترجمة عامر بن الطفيل أن عامر بن الطفيل قدم على النبي ﷺ وهو ابن بضع وثمانين سنة ولم يسلم وعاد من عنده فخرج له خراج في أصل أذنه أخذه منه مثل النار فاشتد عليه ومات منه (ق) عن أنس قال: بعث رسول الله ﷺ أقواماً من بني سليم إلى بني عامر في سبعين وفي رواية أن رسول الله ﷺ بعث خاله أحملاً لأم سليم واسمه حرام في سبعين راكباً فلما قدموا قال لهم خالي أتقدمكم فإن آمنوني حتى أبلغهم عن رسول الله ﷺ وإلا كنتم مني قريباً فتقدم فأمنوه فبينما هو يحدثهم عن رسول الله ﷺ إذ آمنوا إلى رجل منهم فطعنه فأنفذه فقال: الله أكبر فزت ورب الكعبة ثم مالوا على بقية أصحابه فقتلوهم إلا رجلاً أعرج صعد الجبل قال همام وأراه آخر معه فأخبر جبريل عليه السلام النبي ﷺ إنهم قد لقوا ربهم

أرضي بني عامر وحرّة بني سليم فلما نزلوها، قال بعضهم لبعض: أيكم يبلغ رسالة رسول الله ﷺ أهل هذا الماء؟ فقال حرام بن ملحان: أنا. فخرج بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل، وكان على ذلك الماء فلما أتاهم حرام بن ملحان لم ينظر عامر بن الطفيل في كتاب رسول الله ﷺ، فقال حرام بن ملحان: يا أهل بئر معونة إني رسول رسول الله إليكم إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فأمنوا بالله ورسوله، فخرج إليه رجل من كسر البيت برمح فضرب به في جنبه حتى خرج من الشق الآخر، فقال: الله أكبر فزت ورب الكعبة، ثم استصرخ عامر بن الطفيل بني عامر على المسلمين فأبوا إلى أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه وقالوا: لن نخفر أبا براء قد عقد لهم عقداً وجواراً ثم استصرخ عليهم قبائل من بني سلمة عصبية ورعلاً وذكوان فأجابوه فخرجوا حتى غشوا القوم فأحاطوا بهم في رحالهم، فلما رأوهم أخذوا السيوف فقاتلوهم حتى قتلوا من عند آخرهم إلا كعب بن زيد فإنهم تركوه وبه رمق فارتث بين القتلى، فضلّوه فيهم فعاش حتى قتل يوم الخندق، وكان في سرح القوم عمرو بن أمية الضمري ورجل من الأنصار أحد بني عمرو بن عوف فلم يعلم بينهما بمصاب أصحابهما إلا الطير تحوم على المعسكر! فقالا: والله إن لهذا الطير لشأناً فأقبلا لينظرا فإذا القوم في دمائهم وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة، فقال الأنصاري لعمر بن أمية: ماذا ترى؟ قال: أرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره، فقال الأنصاري: الله أكبر لكني ما كنت لأرغب بنفسني عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو، ثم قاتل القوم حتى قتل، وأخذوا عمرو بن أمية أسيراً فلما

فرضي عنهم وأرضاهم. قال فكنا نقرأ أن بلغوا قومنا إن قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا ثم نسخ بعد فدعا عليهم أربعين صباحاً على رعل وذكوان وبني عصية الذين عصوا الله ورسوله وفي رواية إن رعلًا وذكوان وبني لحيان استمدوا رسول الله ﷺ فأمدهم بسبعين رجلاً من الأنصار كنا نسميهم القراء في زمانهم كانوا يحتطبون بالنهار ويصلون بالليل حتى إذا كان ببئر معونة قتلوهم وغدروا بهم فبلغ ذلك النبي ﷺ فغنت عليهم شهراً يدعو في الصباح على أحياء من العرب على رعل وذكوان وعصية وبني لحيان قال أنس: فقرأنا فيهم قرآنًا ثم إن ذلك رفع بلغوا قومنا إن قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا ولمسلم قال: جاء ناس إلى النبي ﷺ فسألوه أن أبعث معنا رجالاً يعلمونا القرآن والسنة فبعث إليهم سبعين رجلاً من الأنصار وذكر نحو ما تقدم وقيل إن أولياء الشهداء وأهلهم كانوا إذا أصابتهم نعمة وخير تحسروا على الشهداء وقالوا نحن في النعمة والرخاء وآبائنا وأبنائنا وإخواننا في القبور فأنزل الله تعالى هذه الآية تطيباً لقلوبهم وتنفساً عنهم وإخباراً عن حال قتلهم فقال تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً﴾ أي ولا تظنن الخطاب لرسول الله ﷺ ولكل أحد من أمته والمعنى لا يظن ظان إن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً يعني كموات غيرهم ممن لم يقتل في سبيل الله ﴿بل أحياء﴾ أي بل هم أحياء وظاهر الآية يدل على كون من قتل في سبيل الله حياً فأما أن يكون المراد أنهم سيصبرون أحياء في الآخرة أو يكون المراد إنهم أحياء في الحال وعلى تقدير أنهم أحياء في الحال يكون المراد إثبات الحياة الروحانية أو إثبات الحياة الجثمانية. فهذه ثلاثة أوجه في معنى احتمال الحياة فمن قال بالوجه الأول هو أنهم سيصبرون أحياء في الآخرة قال معنى الآية بل هم أحياء في الذكر: وأنهم يذكرون بخير أعمالهم وأنهم استشهدوا في سبيل الله وقيل بل هم أحياء في الدين وهذا القول ليس بصواب لأن الله تعالى أثبت لهم الحياة في الحال بقوله بل أحياء يعني في حال ما يقتلون فإنهم يحيون وهو الاحتمال الثاني. واختلفوا في معنى هذه الحياة هل هي للروح أو للجسم والروح معاً فمن أثبت الحياة للروح دون الجسم يقال يدل على ذلك قوله ﷺ أرواح الشهداء في حواصل طير خضر فخص الأرواح دون الأجساد وقال بعض المفسرين إن أرواح الشهداء تركع وتسجد كل ليلة تحت العرش إلى يوم القيامة. ومن أثبت الحياة الروح والجسم معاً قال: يدل عليه سياق الآية وهو قوله عند ربهم يرزقون فأخبر الله سبحانه وتعالى أنهم يرزقون ويأكلون

أخبرهم أنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل، وجز ناصيته وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه، فقَدِم عمرو بن أمية على رسول الله ﷺ وأخبره الخبر، فقال رسول الله ﷺ: «هذا عمل أبي براء قد كنت لهذا كارهاً متخوفاً»، فبلغ ذلك أبا براء فشق عليه إخفاء عامر إياه، وما أصاب رسول الله ﷺ بسببه وجواره، وكان فيمن أصيب عامر بن فهيرة، فروى محمد بن إسحق عن هشام بن عروة عن أبيه أن عامر بن الطفيل كان يقول: من الرجل منهم لما قتل رأيته رُفِع بين السماء والأرض حتى رأيت السماء من دونه؟ قالوا: هو عامر بن فهيرة، ثم بعد ذلك حمل ربيعة بن أبي براء على عامر بن الطفيل فطعنه على فرسه فقتله. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد الأعلى بن حماد أنا يزيد بن زريع أنا سعيد عن قتادة عن أنس بن مالك أن رعلًا وذكوان وعصية وبني لحيان استمدوا رسول الله ﷺ على عدوهم فأمدهم بسبعين من الأنصار كنا نسميهم القراء في زمانهم، كانوا يحتطبون بالنهار ويصلون بالليل، حتى كانوا ببئر معونة قتلوهم وغدروا بهم، فبلغ النبي ﷺ فغنت شهراً يدعو في الصباح على أحياء من العرب على رعل وذكوان وعصية وبني لحيان، قال أنس رضي الله عنه: فقرأنا فيهم قرآنًا، ثم إن ذلك رُفِع: بلغوا عنا قومنا إننا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا، ثم نسخت فرفع بعدما قرأناه زماناً وأنزل الله تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً﴾ الآية، وقيل: إن أولياء الشهداء كانوا أصابتهم نعمة تحسروا على الشهداء، وقالوا: نحن في النعمة وآبائنا وأبنائنا وإخواننا في القبور،

ويتنعمون كالأحياء وقيل إن الشهيد لا يبلى في قبره ولا تأكله الأرض كغيره. وروي أنه لما أراد معاوية أن يجري الماء على قبور الشهداء أمر أن ينادي من كان له قتيل فليخرجه وليحوّله من هذا الموضع قال جابر: فخرجنا إليهم فأخرجناهم رطاب الأبدان فأصابنا المسحاة أصعب رجل منهم فأنبعث دماً وذكر البغوي بغير سند عن عبيد الله بن عمير قال مر رسول الله ﷺ حين انصرف من أحد على مصعب بن عمير وهو مقتول فوقف عليه ودعا له ثم قرأ: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ ثم قال رسول الله ﷺ: «أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة فأتوهم وزورهم وسلموا عليهم فالذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه» وقوله تعالى: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يعني في محل كرامته وفضله ﴿يُرْزَقُونَ﴾ يعني من ثمار الجنة وتحفها.

فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧١﴾

﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ يعني بما أعطاهم من الثواب والكرامة والإحسان والإفضال في دار النعيم ﴿ويستبشرون﴾ أي يفرحون والاستبشار هو الفرح والسرور الذي يحصل للإنسان عند البشارة ﴿بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم﴾ يعني من إخوانهم الذين تركوهم أحياء في الدنيا على منهج الإيمان والجهاد لعلمهم بأنهم إذا استشهدوا سألوا الله عز وجل أن يخبر إخوانهم بما نالوا من الخير والكرامة ليرغبوا في الجهاد فأخبرهم الله عز وجل إني قد أنزلت على نبي محمد ﷺ وأخبرته بحالكم وما صرتم إليه من الكرامة وأن محمداً ﷺ قد أخبر إخوانكم بذلك ففرحوا بذلك واستبشروا ﴿أن لا خوف عليهم﴾ يعني في الآخرة ﴿ولا هم يحزنون﴾ يعني على ما فاتهم من نعيم الدنيا.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرَ عَظِيمٍ﴾ ﴿١٧٢﴾

﴿يستبشرون بنعمة من الله وفضل﴾ لما بين الله تعالى أن الشهداء يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم في خلفهم

فأنزل الله تعالى تنفيساً عنهم وإخباراً عن حال قتلاهم: ﴿ولا تحسبن﴾ ولا تظنن ﴿الذين قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قرأ ابن عامر (قُتِلُوا) بالتشديد، والآخرين بالتخفيف ﴿أمواتاً﴾ كأموات من لم يُقتل في سبيل الله ﴿بل أحياء عند ربهم﴾، قيل أحياء في الدين، وقيل: في الذكر، وقيل: لأنهم يرزقون ويأكلون ويتمتعون كالأحياء، وقيل: لأن أرواحهم تركع وتسجد كل ليلة تحت العرش إلى يوم القيامة، وقيل: لأن الشهيد لا يبلى في القبر، ولا تأكله الأرض، وقال عبيدة بن عمير: مر رسول الله ﷺ حين انصرف من أحد على مصعب بن عمير وهو مقتول فوقف عليه ودعا له ثم قرأ ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، ثم قال رسول الله ﷺ: «أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة، ألا فأتوهم وزورهم وسلموا عليهم، فوالذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه». ﴿يُرْزَقُونَ﴾، من ثمار الجنة وتحفها.

﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾، رزقه وثوابه، ﴿ويستبشرون﴾، ويفرحون، ﴿بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم﴾، من إخوانهم الذين تركوهم أحياء في الدنيا على منهج الإيمان والجهاد لعلمهم أنهم إذا استشهدوا ولحقوا بهم ونالوا من الكرامة ما نالوا، فهم لذلك مستبشرون، ﴿أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

﴿يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله﴾ أي: وبأن الله، وقرأ الكسائي بكسر الألف على الاستئناف،

ذكر أنهم أيضاً يستبشرون لأنفسهم بما رزقوا من النعيم والفضل فلاستبشار الأول كان لغيرهم والاستبشار الثاني لأنفسهم خاصة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني كما أنه تعالى لا يضيع أجر المجاهدين والشهداء كذلك لا يضيع أجر المؤمنين.

فصل في فضل الجهاد في سبيل الله

(ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيل وإيمان بي وتصديق برسلي فهو على ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة. والذي نفس محمد بيده ما من كلم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين يكلم لونه لون دم وريحه ريح مسك. والذي نفس محمد بيده لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً ولكن لا أجد سعة فأحملهم ولا يجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عني. والذي نفس محمد بيده لوددت أني أغزو في سبيل الله فأقتل ثم أغزوا فأقتل لفظ (ق) عن أنس أن رسول الله ﷺ قال لغدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها (ق) عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها وموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما عليها. عن فضالة بن عبيد أن رسول الله ﷺ قال: كل ميت يختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة ويؤمن من فتنة القبر أخرجه أبو داود والترمذي عن معاذ بن جبل أنه سمع رسول الله ﷺ يقول من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة ومن سأل الله القتل في سبيل الله صادقاً من نفسه ثم مات أو قتل كان له أجر شهيد، ومن جرح جرحاً في سبيل الله أو نكب نكبة فإنها تجيء يوم القيامة كأغزر ما كانت لونها لون الزعفران وريحها ريح المسك ومن خرج به خراج في سبيل الله فإن عليه طابع الشهداء. أخرجه أبو داود والنسائي وأخرجه الترمذي مفرقاً في موضعين (ق) عن أبي سعيد قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: أي الناس أفضل؟ قال: مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله قال ثم من قال رجل في شعب من الشعاب يعبد الله وفي رواية يتقي الله ويدع الناس من شره (خ) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً واحتساباً وتصديقاً فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة يعني حسنات (ق) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: ما أحد يدخل الجنة فيحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة وفي رواية لما يرى من فضل الشهادة (م) عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال يغفر للشهيد كل ذنب إلى الدين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد

﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تَكْفُلُ اللَّهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ مِنْ بَيْتِهِ إِلَّا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ وَتَصْدِيقُ كَلِمَتِهِ، أَنْ يُدْخِلَهُ أَوْ يُرْجِعَهُ إِلَى مَسْكِنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ مَعَ مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ»، وقال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُكَلِّمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجُرْحُهُ يَتَغَبَّدُ دَمًا لَللَّوْنِ لَوْنُ الدِّمِ وَالرَّيْحُ رِيحُ الْمَسْكِ»، أخبرنا الإمام أبو علي الحسن بن محمد القاضي أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمض الزياتي أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان أنا علي بن الحسن الداريجردي أنا عبد الله بن يزيد المقرئ أنا سعيد حدثني محمد بن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الشَّهِيدُ لَا يَجِدُ أَلَمَ الْقَتْلِ إِلَّا كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ أَلَمَ الْقَرْصَةِ».

أحدكم من القرصة أخرجه الترمذي؛ وللنسائي نحوه عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته أخرجه أبو داود: قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لَِّ وَالرَّسُولَ﴾ الآية قال أكثر المفسرين أن أبا سفيان وأصحابه لما انصرفوا من أحد فبلغوا الروحاء ندموا على انصرافهم وتلاوموا فقالوا: لا محمداً قتلتم ولا الكواعب أردفتهم قتلتموهم حتى إذا لم يبق إلا الشريد تركتهم ارجعوا فاستأصلوهم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأراد أن يهرب العدو ويريه من نفسه وأصحابه قوة فندب أصحابه للخروج في طلب أبي سفيان فانتدب عصابة منهم مع ما بهم من ألم الجراح والقرح الذي أصابهم يوم أحد ونادى مناد رسول الله ﷺ ألا لا يخرجن معنا أحد إلا من حضرنا بالأمس فكلمه جابر بن عبد الله فقال: يا رسول الله إن أبي كان خلفني على أخوات لي سبع وقال لي بني إنه لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة ولا رجل فيهن ولست بالذي أوثرك على نفسي بالجهاد مع رسول الله ﷺ فتخلف على أخواتك فتخلفت عليهن فأذن له رسول الله ﷺ فخرج معه وإنما خرج رسول الله ﷺ مرهباً للعدو وليبلغهم أنه خرج في طلبهم فيظنون به قوة وأن الذي أصابهم لم يوهنهم فينصرفوا فخرج رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان في سبعين رجلاً من أصحابه حتى بلغوا حمراء الأسد وهي من المدينة على ثمانية أميال، (ق) عن عائشة في قوله الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح، الذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم. قالت لعروة: يا ابن أخي كان أبواك منهم الزبير وأبو بكر لما أصاب نبي الله ﷺ ما أصاب يوم أحد وانصرف المشركون خاف أن يرجعوا فقال من يذهب في أثرهم فانتدب منهم سبعون رجلاً كان فيهم أبو بكر والزبير قال: فمر برسول الله ﷺ الخزاعي بحمراء الأسد كانت خزاعة مسلمهم وكافرهم عيبة رسول الله ﷺ بتهامة صفقتهم معه لا يخفون عنه شيئاً كان بها ومعبد يومئذ مشرك فقال يا محمد والله لقد عز علينا ما أصابك في

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لَِّ وَالرَّسُولَ﴾ الآية، وذلك أن أبا سفيان وأصحابه لما انصرفوا من أحد فبلغوا الروحاء ندموا على انصرافهم وتلاوموا وقالوا: لا محمداً قتلتم ولا الكواعب أردفتهم، قتلتموهم حتى إذا لم يبق إلا الشريد تركتموه؟ ارجعوا فاستأصلوهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأراد أن يهرب العدو، ويريه من نفسه وأصحابه قوة فندب أصحابه للخروج في طلب أبي سفيان، فانتدب عصابة منهم مع ما بهم من الجراح والقرح الذي أصابهم يوم أحد ونادى منادي رسول الله ﷺ: ألا لا يخرجن معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس، فكلمه جابر بن عبد الله، فقال: يا رسول الله إن أبي كان قد خلفني على أخوات لي سبع، وقال لي: يا بني إنه لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة ولا رجل فيهن، ولست بالذي أوثرك على نفسي في الجهاد مع رسول الله ﷺ، فتخلف على أخواتك، فتخلفت عليهن، فأذن له رسول الله ﷺ فخرج معه، وإنما خرج رسول الله ﷺ مرهباً للعدو، وليبلغهم أنه خرج في طلبهم فيظنون أن بهم قوة وأن الذي أصابهم لم يوهنهم فينصرفوا، فخرج رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وأبو عبيدة بن الجراح في سبعين رجلاً رضي الله عنهم حتى بلغوا حمراء الأسد، وهي من المدينة على ثمانية أميال، فروى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لعبد الله بن الزبير: يا ابن أخي أما والله إن أباك وجدك تعني أبا بكر، والزبير ليمين الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لَِّ وَالرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾، فمر برسول الله ﷺ معبد الخزاعي بحمراء الأسد وكانت خزاعة مسلمهم وكافرهم عيبة نصح رسول الله ﷺ عليهم بتهامة، صفقتهم معه لا يخفون عنه شيئاً، وكان معبد يومئذ مشركاً فقال: يا محمد والله لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك، ولوددنا أن الله تعالى كان أعفأك منهم، ثم خرج من عند رسول الله ﷺ، حتى لقي أبا سفيان ومن معه

أصحابك ولوددنا أن الله كان قد أعفاك فيهم. ثم خرج معبد من عند رسول الله ﷺ حتى لقي أبا سفيان ومن معه بالروحاء وقد أجمعوا على الرجعة إلى رسول الله ﷺ وقالوا قد أصبنا جل أصحابه وقادتهم لنكرن على بقيتهم ولنفرغن منهم فلما رأى أبو سفيان معبداً قال له: ما وراءك يا معبد قال محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قد يتحرقون عليكم تحرقاً وقد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم وندموا على صنيعهم، وفيهم من الحق عليكم شيء لم أر مثله قط قال أبو سفيان: ويملك ما تقول؟ قال: والله ما أراك ترحل حتى ترى نواصي الخيل قال فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم فقال والله إنني أنهاك عن ذلك فوالله لقد حملني ما رأيت على إن قلت أبياتاً قال وما قلت قال قلت:

كادت تهدي من الأصوات راحلتي	إذ سالت الأرض بالجراد الأبايل
تردى بأسد كرام لا تنابلة	عند اللقاء ولا ميل معازيل
فقلت ويل ابن حرب من لقائكمو	إذا تغططت البطحاء بالخيـل
إنني نذير لأهل السبل ضاحية	لكل ذي أربة منهم ومعقول
من جيش أحمد لا وحش يقابله	وليس يوصف ما أنذرت بالفيل

قالوا فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه ومر ركب من عبد القيس فقال: أين تريدون؟ قالوا نريد المدينة لأجل الميرة قال: فهل أنتم مبلغون عنا محمداً رسالة وأحمل لكم إيلكم زيبياً بعكاظ إذا وفيتموها قالوا: نعم إذا وفيتموه فأخبروه إنا أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم وانصرف أبو سفيان إلى مكة ومر الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد فأخبروه بالذي قال أبو سفيان فقال رسول الله ﷺ وأصحابه: حسبنا الله ونعم الوكيل. ثم انصرف رسول الله ﷺ راجعاً إلى المدينة بعد ثلاثة وقال مجاهد وعكرمة نزلت هذه الآية في غزوة بدر

بالروحاء قد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ، وقالوا: قد أصبنا جُلّة أصحابه وقادتهم لنكرن على بقيتهم، ولنفرغن منهم، فلما رأى أبو سفيان معبداً قال له: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج مع أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقاً، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم وندموا على صنيعهم، وفيهم من الحق عليكم شيء لم أر مثله قط، قال: ويملك ما تقول؟ قال: والله ما أراك ترحل حتى ترى نواصي الخيل، قال: فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم، لنستأصل بقيتهم، قال: فإنني والله أنهاك عن ذلك، فوالله لقد حملني ما رأيت على أن قلت فيه أبياتاً:

كادت تهّد من الأصوات راحلتي إذ سالت الأرض بالجراد الأبايل

فذكر أبياتاً فردّ ذلك أبا سفيان ومن معه، ومرّ به ركب من عبد القيس، فقال: أين تريدون؟ قالوا نريد المدينة، قال: ولم يقولوا نريد الميرة، قال: فهل أنتم مبلغون عني محمداً رسالة وأحمل لكم إيلكم هذه زيبياً بعكاظ غداً إذا وفيتمونا؟ قالوا: نعم، قال: فإذا جئتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم، وانصرف أبو سفيان إلى مكة، ومرّ الركب برسول الله ﷺ وهم بحمراء الأسد فأخبروه بالذي قاله أبو سفيان، فقال رسول الله ﷺ وأصحابه: «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد الثالثة. هذا قول أكثر المفسرين. وقال مجاهد وعكرمة: نزلت هذه الآية في غزوة بدر الصغرى، وذلك أن أبا سفيان يوم أُحُد حين أراد أن ينصرف قال: يا محمد بيننا وبينك موسم بدر الصغرى لقابل إن شئت، فقال رسول الله ﷺ: «ذلك بيننا وبينك إن شاء الله» فلما كان العام المقبل خرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مجنة من ناحية مر الظهران، ثم ألقى الله

الصغرى وذلك أن أبا سفيان يوم أحد حين أراد أن ينصرف قال يا محمد موعد ما بيننا وبينك موسم بدر الصغرى لقابل إن شئت فقال رسول الله ﷺ ذلك بيننا وبينك إن شاء الله فلما كان العام المقبل خرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل بمجنة من ناحية مر الظهران ثم ألقى الله الرعب في قلبه فبدى له الرجوع فلقي نعيم بن مسعود الأشجعي وقد قدم معتمراً فقال له أبو سفيان: يا نعيم إني قد واعدت محمداً وأصحابه أن نلتقي بموسم الصغرى وهذا عام جذب ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ونشرب اللبن، وقد بدا لي أن لا أخرج إليها وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج أنا فيزيدهم ذلك جراءة ولا أن يكون الخلف من قبلهم أحب إلي من أن يكون من قبلي فالحق بالمدينة فثبطهم وأعلمهم أنا في جمع كثير لا طاقة لهم بنا ولك عندي عشرة من الإبل أضعها لك على يد سهيل بن عمرو ويضمنها لك قال وجاء سهيل فقال له نعيم: يا أبا يزيد أتضمن لي هذه القلائص وانطلق إلى محمد فأثبته قال: نعم، قال: فخرج نعيم حتى أتى المدينة فوجد الناس يتجهزون لميعاد أبي سفيان فقال نعيم: أين تريدون؟ قالوا: واعدنا أبا سفيان أن نلتقي بموسم بدر الصغرى فقال نعيم بشس الرأي رأيتم أنوكم في دياركم وقراركم فلم يفلت منكم إلا الشريد أفتريدون أن تخرجوا إليهم وقد جمعوا لكم عند الموسم والله لا يفلت منكم أحد فكره أصحاب رسول الله ﷺ الخروج فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده لأخرجن ولو وحدي فأما الجبان فإنه رجع وأما الشجاع فإنه تأهب للقتال وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فخرج رسول الله ﷺ في أصحابه حتى وافوا بدر الصغرى وكانوا يلقون المشركين فيسألونهم عن قريش فيقولون قد جمعوا لكم يريدون بذلك أن يرعبوا المسلمين فيقول المؤمنون حسبنا الله ونعم الوكيل. حتى بلغوا بدر الصغرى وكانت موضع سوق لهم في الجاهلية يجتمعون إليها كل عام ثمانية أيام فأقام رسول الله ﷺ ببدر ينتظر أبا سفيان وقد انصرف أبا سفيان من مجنة إلى مكة فلم يلق رسول الله ﷺ وأصحابه أحداً من المشركين ووافوا السوق وكان معهم تجارات ونفقات فباعوا فأصابوا بالدرهم

الرعب في قلبه فبدا له الرجوع فلقي نعيم بن مسعود الأشجعي وقد قَدِمَ معتمراً فقال له أبو سفيان: يا نعيم إني واعدت محمداً وأصحابه أن نلتقي بموسم بدر الصغرى، وإن هذه عام جذب ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن، وقد بدا لي أن لا أخرج إليها، وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج أنا فيزيدهم ذلك جراءة ولأن يكون الخلف من قبلهم أحب إلي من أن يكون من قبلي، فالحق بالمدينة فثبطهم وأعلمهم أنني في جمع كثير لا طاقة لهم بنا، ولك عندي عشرة من الإبل أضعها لك على يدي سهيل بن عمرو ويضمنها، قال: فجاء سهيل فقال له نعيم يا أبا يزيد: أتضمن لي من هذه القلائص من أبي سفيان وأنطلق إلى محمد وأثبته؟ قال: نعم، فخرج نعيم حتى أتى المدينة فوجد الناس يتجهزون لميعاد أبي سفيان فقال: أين تريدون؟ فقالوا: واعدنا أبا سفيان أن نلتقي بموسم بدر الصغرى، قال: بشس الرأي رأيكم أنوكم في دياركم وقراركم فلم يفلت منكم إلا الشريد، أفتريدون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم عند الموسم، والله لا يفلت منكم أحد، فكره أصحاب رسول الله ﷺ الخروج، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لأخرجن ولو وحدي، فأما الجبان فإنه رجع، وأما الشجاع فإنه تأهب للقتال، وقال: حسبنا الله ونعم الوكيل»، فخرج رسول الله ﷺ في أصحابه حتى وافوا بدر الصغرى، فجعلوا يلقون المشركين ويسألونهم عن قريش فيقولون قد جمعوا لكم يريدون أن يرعبوا المسلمين فيقول المؤمنون: حسبنا الله ونعم الوكيل، حتى بلغوا بدرأ وكانت موضع سوق لهم في الجاهلية يجتمعون إليها في كل عام ثمانية أيام، فأقام رسول الله ﷺ ببدر ينتظر أبا سفيان وقد انصرف أبو سفيان من مجنة إلى مكة، فلم يلق رسول الله ﷺ وأصحابه أحداً من المشركين، ووافوا السوق وكانت معهم تجارات ونفقات فباعوا فأصابوا بالدرهم درهمين، فانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين، فذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أي أجابوا، ومحل ﴿الَّذِينَ﴾

درهمين وانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين فذلك قوله تعالى الذين استجابوا لله والرسول أي أجابوا الله وأطاعوه في جميع أوامره وأطاعوا الرسول أيضاً ﴿من بعدما أصابهم القرع﴾ يعني من بعد ما نالهم من ألم الجراح ﴿للكذين أحسنو منهم واتقوا﴾ يعني أحسنوا بطاعة رسول الله ﷺ وأجابوه إلى الغزو واتقوا معصيته والتخلف عنه ﴿أجر عظيم﴾ يعني لهم ثواب جزيل وهو الجنة. قوله عز وجل: .

الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَى ديارهم فَأَخْبَرُوا الْبَنِيَّاءَ بِمَا لَبَّيُوا مِنَ النَّاسِ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٤﴾

﴿الذين قال لهم الناس﴾ هذه الآية متعلقة بالآية التي قبلها لأن المراد بالذين من تقدم ذكره وهم الذين استجابوا لله والرسول وفي المراد بالناس وجوه أحدها: أنه نعيم بن مسعود الأشجعي فيكون اللفظ عاماً أريد به الخاص وإنما جاز إطلاق لفظ الناس على الإنسان الواحد لأن ذلك الواحد إذا فعل فعلاً أو قال قولاً ورضي به غيره حسن إضافة ذلك الفعل والقول إلى الجماعة وإن كان الفاعل واحداً فهو كقوله تعالى: ﴿وإذا قتلتم نفساً﴾ والقاتل واحد والوجه الثاني أن المراد بالناس الركب من عبد القيس قاله ابن عباس ومحمد بن إسحاق. الوجه الثالث أن المراد بالناس المنافقون وذلك أنهم لما رأوا النبي ﷺ يتجهز لميعاد أبي سفيان نهوا أصحابه عن الخروج معه وقالوا لهم أن القوم قد أتوكم في دياركم فقتلوا الأكثر منكم فإن خرجتم إليهم لم يبق أحد منكم ﴿إن الناس﴾ يعني أبا سفيان وأصحابه من رؤساء المشركين ﴿قد جمعوا لكم﴾ يعني الجموع الكثيرة لأن العرب تسمى الجيش جمعاً ويجمعونه جمعاً ﴿فاخشوهم﴾ أي فخافوهم واحذروهم فإنه لا طاقة لكم بهم ﴿فزادهم إيماناً﴾ يعني فزاد المسلمين ذلك التخويف تصديقاً وقيناً وقوة في دينهم وثبوتاً على نصر نبيهم ﷺ وفي هذه الآية دليل لمن يقول بزيادة الإيمان ونقصانه لأن الله تعالى نص على وقوع الزيادة في الإيمان ﴿وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ أي كافينا الله هو الذي يكفينا أمرهم فهو كقول امرئ القيس. وحسبك من غني شع. وروي أي يكفيك الشع والري ونعم الوكيل يعني ونعم الموكل إليه في الأمور كلها وقيل الوكيل هو الكافي يكفيننا الله ونعم الكافي هو. وقيل الوكيل هو الكفيل ووكيل الرجل في ماله هو الذي كفله وقام به والوكيل في صفة الله تعالى هو الكفيل بأرزاق العباد ومصالحهم وأنه الذي يستقل بأمورهم كلها (خ) عن ابن عباس قال في قوله تعالى: ﴿إن الناس قد جمعوا لكم﴾ إلى قوله ﴿وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ قالها إبراهيم حين ألقي في النار وقالها محمد ﷺ حين قال لهم الناس

خفف على صفة المؤمنين تقديره: إن الله لا يضيع أجر المؤمنين المستجيبين الذين استجابوا لله والرسول، ﴿من بعد ما أصابهم القرع﴾، أي: نالهم الجرح، وتم الكلام ههنا ثم ابتداء فقال: ﴿للكذين أحسنوا منهم﴾ بطاعة رسول الله ﷺ وإجابته إلى الغزو، ﴿واتقوا﴾، معصيته ﴿أجر عظيم﴾.

﴿الذين قال لهم الناس﴾ ومحل ﴿الذين﴾ خفض أيضاً مردوداً على الذين الأول وأراد بالناس: نعيم بن مسعود، في قول مجاهد وعكرمة فهو من العام الذي أريد به الخاص كقوله تعالى: ﴿أم يحسدون الناس﴾ [النساء: ٥٤] يعني: محمداً ﷺ وحده، وقال محمد بن إسحق وجماعة: أراد بالناس الركب من عبد القيس، ﴿إن الناس قد جمعوا لكم﴾، يعني أبا سفيان وأصحابه، ﴿فاخشوهم﴾، فخافوهم واحذروهم، فإنه لا طاقة لكم بهم، ﴿فزادهم إيماناً﴾ تصديقاً وقيناً وقوله: ﴿وقالوا حسبنا الله﴾ أي: كافينا الله، ﴿ونعم الوكيل﴾، أي: الموكل إليه الأمور، فعيل بمعنى مفعول، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أخبرنا محمد بن يونس أخبرنا أبو بكر عن أبي حصين عن أبي

إن الناس قد جمعوا لكم. قوله تعالى: ﴿فَانْقَلِبُوا﴾ أي فانصرفوا ورجعوا بعد خروجهم والمعنى وخرجوا فانقلبوا فحذف الخروج لأن الانقلاب يدل عليه ﴿بنعمة من الله﴾ أي بعافية لم يلقوا عدواً ﴿وفضل﴾ أي تجارة وربح وهو ما أصابوا في سوق بدر من الربح وقيل النعمة منافع الدنيا والفضل ثواب الآخرة ﴿لم يمسههم سوء﴾ أي لم يصيبهم أذى ولا مكروه من قتل وجراح ﴿واتبعوا رضوان الله﴾ يعني في طاعة الله وطاعة رسوله وقيل إنهم قالوا هل يكون هذا غزواً فأعطاهم الله ثواب الغزو ورضي عنهم بمجرد خروجهم مع رسول الله ﷺ ﴿والله ذو فضل عظيم﴾ يعني أنه تعالى تفضل عليهم بالتوفيق لما فعلوا وقيل تفضل عليهم بإلقاء الرعب في قلوب المشركين حتى رجعوا قوله عز وجل:

إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يَسْعُرُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطْلًا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَشْرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾

﴿وإنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه﴾ يعني إنما ذلكم المخوف والمبشط هو الشيطان يخوف بالوسوسة بأن ألقى ذلك في أفواههم ليرهبوا المؤمنين ويخوفوهم ويجنبوهم قوله أولياءه يعني الشيطان يخوفكم يا معشر المؤمنين بأوليائه. وقيل معناه أولياءه في صدوركم لتخافوهم وقيل معناه يخوف أولياءه المنافقين ليقعدوا عن قتال المشركين وأولياء الشيطان هم الكفار والمنافقون الذين يطيعونه ويؤثرون أمره وأولياء الله هم المؤمنون الذين لا يخافون الشيطان إذا خوفهم ولا يطيعونه إذا أمرهم ﴿فلا تخافوهم﴾ يعني فلا تخافوا أولياء الشيطان ولا تقعدوا عن قتلهم ولا تجنبوا عنهم ﴿وخافون﴾ أي فجاهدوا في سبيلي مع رسولي فأني وليكم وناصركم ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي مصدقين بوعدني إني متكفل لكم بالنصر والظفر. قوله تعالى: ﴿ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ قيل هم كفار قريش وقيل هم المنافقون ورؤساء اليهود وقيل هم قوم ارتدوا عن الإسلام والمعنى ولا يحزنك يا محمد من

الضحى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ كلمة قالها إبراهيم حين ألقى في النار وقالها محمد ﷺ حين قال لهم الناس: ﴿إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾.

﴿فانقلبوا﴾، فانصرفوا، ﴿بنعمة من الله﴾ بعافية لم يلقوا عدواً ﴿وفضل﴾ تجارة وربح وهو ما أصابوا في السوق ﴿لم يمسههم سوء﴾ لم يصيبهم أذى ولا مكروه، ﴿واتبعوا رضوان الله﴾ في طاعة الله وطاعة رسوله، وذلك أنهم قالوا: هل يكون هذا غزواً فأعطاهم الله ثواب الغزو ورضي عنهم، ﴿والله ذو فضل عظيم﴾.

قوله تعالى: ﴿إنما ذلكم الشيطان﴾، يعني: ذلك الذي قال لكم: ﴿إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم﴾، من فعل الشيطان ألقى في أفواههم لترهبوهم وتجنبوا عنهم، ﴿يخوف أولياءه﴾، أي يخوفكم بأوليائه، وكذلك هو في قراءة أبي بن كعب يعني: يخوف المؤمنين بالكافرين، قال السدي: يعظم أولياءه في صدورهم ليخافوهم، يدل عليه قراءة عبد الله بن مسعود «يخوفكم أولياءه»، ﴿فلا تخافوهم وخافون﴾، في ترك أمري ﴿إن كنتم مؤمنين﴾، مصدقين بوعدني لأنني متكفل لكم بالنصر والظفر.

قوله عز وجل: ﴿ولا يحزنك﴾، قرأ نافع ﴿يحزنك﴾ بضم الباء وكسر الزاي، وكذلك في جميع القرآن إلا

يسارع في الكفر ويجمع الجموع لمحاربتك فإن هذا المقصود لا يحصل له وقيل مسارعتهم في الكفر ومظاهرتهم الكفار على النبي ﷺ والمعنى يسارعون في نصره الكفر فلا يحزنك فعلهم فإنك منصور عليهم ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُوا اللَّهَ شَيْئاً﴾ يعني بمسارعتهم في الكفر إنما يضرون أنفسهم بذلك وقيل معناه لن يضروا أولياء الله شيئاً ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ يعني لا يجعل لهم نصيباً في ثواب الآخرة فلذلك خذلهم حتى سارعوا في الكفر. وفي الآية دليل على أن الخير والشر بإرادة الله تعالى وفيه رد على القدريّة والمعتزلة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يعني في الآخرة ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ يعني المنافقين آمنوا ثم كفروا والمعنى أنهم استبدلوا الكفر بالإيمان فكأنهم أعطوا الإيمان وأخذوا الكفر كما يفعل المشتري من إعطاء شيء وأخذ غيره بدلاً عنه ﴿لَن يَضُرُوا اللَّهَ شَيْئاً﴾ يعني باستبدالهم الكفر بالإيمان وإنما ضروا أنفسهم بذلك ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني في الآخرة.

قوله عز وجل: ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قرىء تحسبن بالتاء والياء فمن قرأ بالتاء فمعناه ولا تحسبن يا محمد إملاءنا للكفار خير لأنفسهم ومن قرأ بالياء قال: معناه ولا يحسبن الكفار إملاءنا لهم خيراً نزلت في مشركي مكة وقيل نزلت في يهود بني قريظة والنضير ﴿أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ﴾ الإملاء الإمهال والتأخير وأصله من الملوء وهي المدة من الزمان والمعنى ولا يظن الذين كفروا إن أمهالنا إياهم بطول العمر والإنشاء في الأجل ﴿خَيْرٌ لَّأَنْفُسِهِمْ﴾ ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ﴾ ليزدادوا إثماً يعني إنما نمهلهم ونؤخر في آجالهم ليزدادوا إثماً ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يعني في الآخرة روى البغوي بسنده عن عبدالرحمن بن أبي بكر عن أبيه قال سئل رسول الله ﷺ أي الناس خير؟ قال: من طال عمره وحسن عمله قيل فأَيُّ الناس شر؟ قال: من طال عمره وساء عمله وروى ابن جرير الطبري بسنده عن الأسود قال: قال عبدالله: ما من نفس برة ولا فاجرة إلا والموت خير لها. وقرأ: ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا إِثْمُهُمْ خَيْرٌ لَّأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ وقرأ ﴿نَزَلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ وقال ابن الأثيري قال جماعة من أهل العلم أنزل الله عز وجل هذه الآية في قوم يعاندون الحق سبق في علمه أنهم لا يؤمنون فقال إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً بمعاندتهم الحق وخلافهم الرسول وقد قال رسول الله ﷺ إذا

قوله: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، ضده أبو جعفر، وهما لغتان: حزن يحزن وأحزن يحزن، إلا أن اللغة الغالبة حزن يحزن، ﴿الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾، قال الضحاك: هم كفار قريش، وقال غيره: المنافقون يسارعون في الكفر بمظاهرة الكفار. ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُوا اللَّهَ شَيْئاً﴾، بمسارعتهم في الكفر، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾، نصيباً في ثواب الآخرة، فلذلك خذلهم حتى سارعوا في الكفر، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا﴾، استبدلوا ﴿الْكَفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُوا اللَّهَ شَيْئاً﴾، بمسارعتهم في الكفر وإنما يضرون أنفسهم، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، قرأ حمزة هذا والذي بعده بالتاء فيهما، وقرأ الآخرون بالياء، فمن قرأ بالياء «فالذين» في محل الرفع على الفاعل وتقديره: لا يحسبن الكفار إملاءنا لهم خيراً، ومن قرأ بالتاء يعني: ولا تحسبن يا محمد الذين كفروا، وإنما نصب على البدل من الذين، ﴿أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنْفُسِهِمْ﴾، والإمهال التأخير، يقال: عشت طويلاً وتمليت حيناً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦] أي: حيناً طويلاً، ثم ابتداء فقال: ﴿إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ﴾، نمهلهم ﴿لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، قال مقاتل: نزلت في مشركي مكة، وقال عطاء: في قريظة والنضير، أخبرنا عبد الرحمن بن عبد الله القفال أنا أبو منصور أحمد بن

رأيت الله يعطي على المعاصي فإن ذلك استدراج من الله لخلقه ثم تلا هذه الآية وقال الزجاج هؤلاء قوم أعلم الله نبيه ﷺ أنهم لا يؤمنون أبداً وأن نفاقهم يزيدهم كفراً وإثماً وهذه الآية حجة ظاهرة على القدرية حيث أخبر الله تعالى أنه يطيل أعمار قوم ويمهلهم ليزدادوا كفراً وإثماً وغياً. قوله تعالى : .

مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾

﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب﴾ اختلف العلماء في سبب نزول هذه الآية فقال الكلبي قالت قريش يا محمد تزعم أن من خالفك فهو في النار والله عليه غضبان وإن من أطاعك وتبعك على دينك فهو في الجنة والله عنه راض فأخبرنا بمن يؤمن بك ومن لا يؤمن بك فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال السدي قال رسول الله ﷺ: «عرضت على أمي في صورها في الطين كما عرضت على آدم وأعلمت من يؤمن بي ومن يكفر بي» فبلغ ذلك المنافقين فقالوا استهزاء زعم محمداً أنه يعلم من يؤمن به ومن يكفر ممن لم يخلق بعد ونحن معه وما يعرفنا فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقام على المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: ما بال أقوام طعنوا في علمي لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة إلا أنبأتكم به فقام عبدالله بن حذافة السهمي فقال من أبي يا رسول الله فقال حذافة فقام عمر فقال يا رسول الله رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبالقرآن إماماً وبك نبياً فاعفُ عنا عفا الله عنك فقال النبي ﷺ: فهل أنتم متتهون فهل أنتم متتهون ثم نزل عن المنبر فأنزل الله هذه الآية. وقيل إن المؤمنين سألوا أن يعطوا آية يفرقون بها بين المؤمن والكافر فنزلت هذه الآية وقيل إن قوماً من المنافقين ادعوا أن إيمانهم كإيمان المؤمنين فأظهر الله نفاقهم يوم أحد وأنزل هذه الآية واختلفوا في معنى الآية وحكمها فقال ابن عباس وأكثر المفسرين الخطاب للكفار والمنافقين والمعنى ما كان ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه يا معشر الكفار والمنافقين من الكفر والنفاق حتى يميز الخبيث من الطيب وقيل الخطاب للمؤمنين والمعنى ما كان الله

الفضل البروجردي أنا أبو أحمد بكر بن محمد بن حمدان الصيرفي أنا محمد بن يونس أنا أبو داود الطيالسي أنا شعبة عن علي بن زيد عن عبد الرحمن بن أبي بكر عن أبيه قال: سئل رسول الله ﷺ أي الناس خير؟ قال: «من طال عمره وحسن عمله»، قيل: فأَيُّ الناس شر؟ قال: «من طال عمره وساء عمله».

وله تعالى: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب﴾، اختلفوا فيها، فقال الكلبي: قالت قريش: يا محمد تزعم أن من خالفك فهو في النار والله عليه غضبان، وأن من أتبعك على دينك فهو في الجنة، والله عنه راض، فأخبرنا بمن يؤمن بك وبمن لا يؤمن بك، فأنزل الله تعالى هذه الآية: وقال السدي: قال رسول الله ﷺ: «عرضت على أمي في صورها في الطين كما عرضت على آدم، وأعلمت من يؤمن بي ومن يكفر بي»، فبلغ ذلك المنافقين، فقالوا استهزاء: زعم محمد أنه يعلم من يؤمن به ومن يكفر ممن لم يخلق بعد، ونحن معه وما يعرفنا، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقام على المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «ما بال أقوام طعنوا في علمي لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة إلا أنبأتكم به»، فقام عبد الله بن حذافة السهمي، فقال: من أبي يا رسول الله؟ قال: حذافة، فقام عمر فقال: يا رسول الله رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبالقرآن إماماً وبك نبياً فاعفُ عنا عفا الله عنك، فقال النبي ﷺ: «فهل أنتم متتهون؟» ثم نزل عن المنبر، فأنزل الله تعالى هذه الآية. واختلفوا في حكم الآية ونظمها، فقال ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك ومقاتل والكلبي وأكثر المفسرين: الخطاب للكفار والمنافقين، يعني: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه﴾ يا معشر الكفار

ليذكركم يا معشر المؤمنين على ما أنتم عليه من اختلاط المؤمن بالمنافق والتباس بعضهم ببعض حتى يميز الخبيث من الطيب يعني المنافق من المؤمن الخالص فيميز الله المؤمنين من المنافقين يوم أحد فأظهر المنافقون النفاق وتخلفوا عن رسول الله ﷺ وقيل: إنما حصل التمييز يوم أحد بإلقاء الجميع في الخوف والقتل والهزيمة فمن كان مؤمناً ثبت على إيمانه وتصديقه ولم يتزلزل ومن كان منافقاً ظهر نفاقه وكفره وقيل في معنى الآية حتى يميز المؤمن من الكافر بالجهاد والهجرة. وقيل في معنى الآية ما كان الله ليذر المؤمنين في أصلاب الرجال المشركين وأرحام النساء المشركات. والمعنى ما كان الله ليدع أولادكم الذين جرى لهم الحكم بالإيمان على ما أنتم عليه من الشرك حتى يميز الخبيث من الطيب يعني يفرق بينكم وبين من في أصلابكم وأرحام نسائكم من المؤمنين فيحكم لأهل الإيمان بالجنة ولأهل الشرك والكفر والنفاق بالنار ﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾ الخطاب في قوله ليطلعكم لكفار قريش الذين قالوا يا محمد أخبرنا عمن يؤمن بك ومن لا يؤمن والمعنى وما كان الله ليبين لكم أيها الكفار المؤمن من الكافر فيقول فلان مؤمن وفلان كافر أو منافق لأنه لا يعلم الغيب أحد غيره وإن سنة الله جارية أنه لا يطلع على غيبة أحد الناس فلا سبيل إلى معرفة المؤمن من الكافر والمنافق إلا بالامتحان بالآفات والمصائب فيتميز المؤمن المخلص بشبته على إيمانه ويتزلزل المنافق عن المحن والبلايا. وقيل في معنى الآية وما كان الله ليطلع محمداً على الغيب فيخبركم بالمؤمن من الكافر ﴿ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء﴾ يعني ولكن الله يصطفى ويختار من رسله من يشاء فيطلعه على ما يشاء من غيبه ﴿فآمنوا بالله ورسوله﴾ يعني أنه لما قالت الدلائل على صحة نبوة محمد ﷺ فلم يبق إلا الإيمان بالله ورسوله محمد ﷺ وإنما قال ورسله على الجمع ولم يقل ورسوله على التوحيد لقوله ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء ولأنه إذا أقر بجميع الرسل كان مقراً بأحدهم وهذه صفة المؤمنين لأنهم آمنوا بجميع الرسل ﴿وإن تؤمنوا وتتقوا﴾ يعني وأن تصدقوا آجتيته برسالتي وأطعته على ما أشاء من غيبي وأعلمته بالمنافق منكم والمؤمن المخلص وتتقوا ربكم فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿فلكم أجر عظيم﴾ يعني فلكم بأيمانكم واتقائكم ثواب جزيل وهو الجنة. قوله عز وجل: .

والمنافقين من الكفر والنفاق ﴿حتى يميز الخبيث من الطيب﴾، وقال قوم: الخطاب للمؤمنين الذين أخبر عنهم، معناه: ما كان الله ليذكركم يا معشر المؤمنين على ما أنتم عليه من التباس المؤمن بالمنافق، فرجع من الخبر إلى الخطاب ﴿حتى يميز الخبيث من الطيب﴾، وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب بضم الياء وتشديدها وكذلك التي في الأنفال، وقرأ الباقون بالتخفيف، يقال: ماز الشيء يميزه مِيزاً ومِيزَةً تمييزاً إذا فرقه فامتاز، وإنما هو بنفسه، قال أبو معاذ: إذا فرقت بين شيئين، قلت: مزت مِيزاً، فإذا كانت أشياء، قلت: ميزتها تمييزاً، وكذلك إذا جعلت الشيء الواحد شيئين قلت: فرقت بالتخفيف، ومنه فرقت الشعر، فإن جعلته أشياء، قلت: فرقته تفريقاً، ومعنى الآية: حتى يميز المنافق من المخلص، فميز الله المؤمنين من المنافقين يوم أحد حيث أظهروا النفاق فتخلفوا عن رسول الله ﷺ، وقال قتادة: حتى يميز الكافر من المؤمن بالهجرة والجهاد، وقال الضحاك: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه﴾ في أصلاب الرجال وأرحام النساء يا معشر المنافقين والمشركين حتى يفرق بينكم وبين من في أصلابكم وأرحام نسائكم من المؤمنين، وقيل: ﴿حتى يميز الخبيث﴾ وهو المذنب ﴿من الطيب﴾ وهو المؤمن، يعني: حتى تحط الأوزار عن المؤمن بما يصيبه من نكبة ومحنة ومصيبة، ﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾، لأنه لا يعلم الغيب أحد غير الله، ﴿ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء﴾ فيطلعه على بعض علم الغيب، نظيره قوله تعالى: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول﴾ [الجن: ٢٦]، وقال السدي: معناه وما كان الله ليطلع محمداً ﷺ على الغيب ولكن الله اجتبه، ﴿فآمنوا بالله وإن تؤمنوا وتتقوا﴾ فلكم أجر عظيم ﴿.

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَنْتَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم﴾ يعني ولا يحسبن الذين يبخلون بالبخل خيراً لهم ﴿بل هو﴾ يعني البخل ﴿شر لهم﴾ والبخل هو إمساك المقتنيات عما لا يستحق حبسها عنه والبخل هو الذي يكثر منه البخل والآية دالة على ذم البخل عن عبدالله بن عمر قال: خطب رسول الله ﷺ فقال: إياكم والشح فإنما هلك من كان قبلكم بالشح. أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالفجور ففجروا أخرجه أبو داود عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ خصلتان لا يجتمعان في مؤمن: البخل وسوء الخلق أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب واختلف العلماء فيمن نزلت هذه الآية فقال عبدالله بن مسعود وأبو هريرة وابن عباس في رواية أبي صالح عنه والشعبي ومجاهد نزلت هذه الآية في الذين يبخلون أن يؤدوا زكاة أموالهم ووجه هذا القول أن أكثر العلماء ذهبوا إلى أن البخل عبارة عن منع الواجب وأن من منع التطوع لا يكون بخيلاً ويدل عليه الوعيد الشديد في سياق الآية. وهو قوله تعالى سيطوقون ما بخلوا به وهذا لا يكون إلا في ترك الواجب لا في التطوع وقال ابن عباس في رواية عطية عنه وابن جريج عن مجاهد أنها نزلت في أحبار اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ ونبوته وهذا القول هو اختيار الزجاج ووجه هذا القول أن البخل عبارة عن منع الخير والنفع ويدخل فيه العلم كما يقال بخل فلان بعلمه وصحح الطبري القول الأول واختاره وقوله ﴿سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾ أي سيلزمون وبال ما بخلوا به إلزام الطوق فإن حملنا معنى الآية على منع الزكاة والبخل بها فقد قال ابن مسعود وابن عباس يجعل ما منعه من الزكاة حية تطوق في عنقه يوم القيامة تنهشه من فرقه إلى قدمه ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالاً فلم يود زكاته مثل له يوم القيام شجاع أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم أخذ بلهزمته يعني شذقيه ثم يقول: أنا مالك أنا كنتك ثم تلا ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله» الآية أخرجه البخاري قوله زبيبتان قيل هما النكتتان السوداوان فوق عيني الحية وقيل هما نقطتان يكتنفان فاهما وقيل هما زبيبتان في شذقيها وقد جاء في الحديث تفسير لهزمته بأنهما شذقاه وقيل إنهما مضغتان في أصل الحنك وقيل هما منحنى اللحين أسفل من الأذنين وكله متقارب. (ق) عن أبي ذر قال: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو جالس في ظل الكعبة فلما رأيته قال: هم الأخسرون ورب الكعبة قال: فجئت حتى جلست فلم أقتر أن قمت فقلت يا رسول الله فذاك أبي وأمي من هم؟ قال هم الأكثرون أموالاً إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه

﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم﴾، أي: ولا يحسبن الباخلون بالبخل خيراً لهم، ﴿بل هو﴾، يعني: البخل، ﴿شر لهم سيطوقون﴾، أي: سوف يطوقون، ﴿ما بخلوا به يوم القيامة﴾، يعني: يجعل ما منعه من الزكاة حية تطوق في عنقه يوم القيامة تنهشه من فوقه إلى قدمه، هذا قول ابن مسعود وابن عباس وأبي وائل والشعبي والسدي: أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا علي بن عبد الله المدني أنا هاشم بن قاسم أخبرنا عبد الرحمن بن دينار عن أبي صالح السمان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالاً فلم يود زكاته مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان، يطوقه يوم القيامة فيأخذ بلهزمته، يعني شذقيه، ثم يقول: أنا مالك أنا كنتك، ثم تلا: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون﴾ الآية». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عمرو بن حفص بمن غياث أنا أبي أنا الأعمش عن المعروور بن سويد عن أبي ذر

وعن يمينه وعن شماله وقيل ما هم ما من صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدي زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها كلما نفذت أخراها عادت عليه أولاهها حتى يقضي بين الناس لفظ مسلم وفرقه البخاري، بمعناه في موضعين. وقيل في معنى الآية أنه يجعل في أعناقهم أطواق من النار وقيل يكلفون يوم القيامة أن يأتوا بما بخلوا به من أموالهم في الدنيا وإن حملنا تفسير البخل على البخل بالعلم وكتمانه فقد قال ابن عباس في قوله سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة أي يحملون وزره وإثمه فيكون على طريق التمثيل كما يقال قلدتك هذا الأمر وجعلته في عنقك وقيل يجعل في رقابهم طوق من نار ويدل عليه ما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ من سئل علماً يعلمه فكتمه ألجم بلجام من نار أخرجه الترمذي وفي رواية أبي داود من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة قيل في معنى الحديث إنهم لما سألوا عن العلم فكتموه ولم ينطقوا به بالستهم ولم يخرجوه من أفواههم عوضوا عن ذلك بلجام من نار في أفواههم عقوبة لهم والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿والله ميراث السموات والأرض﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى الباقي الدائم بعد فناء خلقه وزوال أملاكهم فيموتون وتبقى أملاكهم فيرثها سبحانه والمقصود من الآية أنه يبطل ملك جميع المالكين ويبقى الملك لله تعالى وقيل في معنى الآية وله ما فيهما مما يتوارثه أهلها من مال وعلم وغير ذلك ذلك فما لهؤلاء البخلاء يبخلون عليه بملكه ولا ينفقونه في سبيله ﴿والله بما تعملون خبير﴾ قرىء يعملون الباء على الغيبة على طريقة الالتفات وهي أبلغ في الوعيد والمعنى والله بما يعملون يعني البخلاء من منعهم الحقوق خبير فيجازيهم عليه وقرىء بالتاء على خطاب الحاضرين قوله عز وجل:

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ

حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾

﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ قال الحسن وقتادة لما نزلت هذه الآية من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً قالت اليهود إن الله فقير يستقرض منا ونحن أغنياء وذكر الحسن أن القائل هذه المقالة هو حيي بن أخطب وقال عكرمة والسدي ومقاتل ومحمد بن إسحاق كتب النبي ﷺ مع أبي بكر الصديق إلى يهود بني

رضي الله عنه قال: انتهيت إليه يعني النبي ﷺ فقال: «والذي نفسي بيده أو والذي لا إله غيره أو كما حلف، ما من رجل يكون له إبل أو بقر أو غنم لا يؤدي حقها إلا أتى بها يوم القيامة أعظم ما يكون وأسمنه، تطؤه بأخفافها وتنطحه بقرونها كلما جاوزت أخراها ردت عليه أولاهها حتى يقضى بين الناس»، قال إبراهيم النخعي: معنى الآية يجعل يوم القيامة في أعناقهم طوقاً من النار، قال مجاهد: يكلفون يوم القيامة أن يأتوا بما بخلوا به في الدنيا من أموالهم. وروى عطية عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت في أحبار اليهود الذين كتبوا صفة محمد ﷺ ونبوته، وأراد بالبخل كتمان الله كما قال الله عز وجل: ﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله﴾ [النساء: ٣٧] ومعنى قوله: ﴿سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾ أي: يحملون وزره وإثمه، كقوله تعالى: ﴿يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾ [الأنعام: ٣١]. ﴿والله ميراث السموات والأرض﴾، يعني: أنه الباقي الدائم بعد فناء خلقه وزوال أملاكهم فيموتون ويرثهم، نظيره قوله تعالى: ﴿إنا نحن نرث الأرض ومن عليها﴾ [مريم: ٤٠]، ﴿والله بما تعملون خبير﴾، قرأ أهل البصرة ومكة بالياء، وقرأ الآخرون بالتاء.

قوله تعالى: ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقيرٌ ونحن أغنياء﴾، قال الحسن ومجاهد: لما نزلت: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ [البقرة: ٢٤٥، الحديد: ١١] قالت اليهود: إن الله فقير يستقرض منا

فينقاع يدعوهم إلى الإسلام وإلى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً فدخل أبو بكر ذات يوم بيت مدراسهم فوجد ناساً كثيراً قد اجتمعوا على فنحاص بن عازوراء وكان من علمائهم ومعه حبر آخر يقال له أسبيع فقال أبو بكر لفنحاص: اتق الله وأسلم فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله ﷺ قد جاءكم بالحق من عند الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة فأمن وصدق وأقرض الله قرضاً حسناً يدخلك الجنة ويضاعف لك الثواب. فقال فنحاص: يا أبا بكر تزعم أن ربنا يستقرض أموالنا وما يستقرض إلا الفقير من الغني فإن كان ما تقول حقاً فإن الله إذا فقير ونحن أغنياء فغضب أبو بكر وضرب وجه فنحاص ضربة شديدة وقال والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينكم لضربت عنقك يا عدو الله فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ وقال: يا محمد انظر ما صنع بي صاحبك فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر ما حملك على ما صنعت فقال يا رسول الله إن هذا عدو الله قال قولاً عظيماً زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء فغضبت لله وضربت وجهه فجحد ذلك فنحاص فأنزل الله تصديقاً لأبي بكر وتكذيباً لفنحاص ورداً عليهم: ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ وهذه المقالة وإن كانت قد صدرت من واحد من اليهود لكنهم يرضون بمقالته هذه فنسبت إلى جميعهم ولا يخلوا أن يكونوا قالوا هذه المقالة عن اعتقاد لذلك القول أو قالوها استهزاء وأيهما كان فهذه المقالة عظيمة القبح لا تصدر عن عاقل وإنما صدرت عن كافر متمرد في كفره وضلاله ﴿سنكتب ما قالوا﴾ يعني قولهم إن الله فقير ونحن أغنياء لأن ذلك كذب وافتراء والمعنى سنحفظ عليهم ما قالوا وقيل: سنثبت ذلك القول في صحائف أعمالهم التي تكتبها الحفظة عليهم حتى يوافوا بها يوم القيامة فهو وعيد وتهديد لهم ﴿وقتلهم الأنبياء بغير حق﴾ قيل معناه سنكتب ما قال هؤلاء اليهود ونكتب ما فعله أسلافهم فنجازي كلا الفريقين بما هو أهله وإنما نسب قتل الأنبياء إلى اليهود الذين كانوا في زمن النبي ﷺ وإنما فعله أسلافهم وأوائلهم لأنهم رضوا بفعلهم فنسب إليهم. وقيل في معنى الآية سنكتب على هؤلاء ما قالوا بأنفسهم ونكتب عليهم أيضاً رضاهم بقتل آبائهم الأنبياء والفائدة في ضم قتلهم الأنبياء إلى ما وصفوا الله تعالى بالفقر الإعلام بذلك أنهما أخوان في العظم وإن هذا القول منهم ليس بأول ما ارتكبه من العظائم وأنهم أصلاء في الكفر والجهل والضلال ولهم في ذلك سوابق، وأن من قتل الأنبياء لا يبعد منه الإجترأ على مثل هذا القول العظيم الفحش والقبح ﴿ونقول﴾ يعني لهؤلاء الذين قالوا هذه المقالة ﴿ذوقوا عذاب الحريق﴾ أي ننتقم منهم بأن نقول

ونحن أغنياء، وذكر الحسن: أن قائل هذا الكلام حيي بن أخطب، وقال عكرمة والسدي ومقاتل ومحمد بن إسحق: كتب النبي ﷺ مع أبي بكر رضي الله عنه إلى يهود بني قينقاع يدعوهم إلى الإسلام أو إلى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً، فدخل أبو بكر رضي الله عنه ذات يوم بيت مدراسهم فوجد ناساً كثيراً من اليهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم، يقال له فنحاص بن عازوراء وكان من علمائهم، ومعه حبر آخر يقال له أسبيع فقال أبو بكر لفنحاص: اتق الله وأسلم فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله ﷺ قد جاءكم بالحق من عند الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة، فأمن وصدق وأقرض الله قرضاً حسناً يدخلك الجنة، ويضاعف لك الثواب، فقال فنحاص: يا أبا بكر تزعم أن ربنا يستقرض أموالنا وما يستقرض إلا الفقير من الغني؟ فإن كان ما تقول حقاً فإن الله إذا الفقير ونحن أغنياء، وأنه ينهاكم عن الربا ويعطينا، ولو كان غنياً ما أعطانا الربا، فغضب أبو بكر رضي الله عنه وضرب وجه فنحاص ضربة شديدة، وقال: والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو الله، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد انظر ما صنع بي صاحبك، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: «ما حملك على ما صنعت؟» فقال: يا رسول الله إن عدو الله قال قولاً عظيماً زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء، فغضبت لله فضربت وجهه، فجحد ذلك فنحاص، فأنزل الله تعالى تكذيباً ورداً على فنحاص وتصديقاً لأبي بكر رضي الله عنه: ﴿ولقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾، ﴿سنكتب ما قالوا﴾، من الإفك

لهم يوم القيامة ذوقوا عذاب الحريق كما أذقتم المسلمين الغصص في الدنيا ﴿ذلك﴾ أي ذلك العذاب المحرق جزاء فعلكم حيث وصفتم الله بالفقر وأقدمتم على قتل الأنبياء ﴿بما قدمت أيديكم﴾ إنما ذكر الأيدي على سبيل المجاز لأن الفاعل هو الإنسان لا اليد إلا أن اليد لما كانت آلة الفعل حسن إسناد الفعل إليها ولأن أكثر الأعمال يكون باليد فجعل كل عمل كالواقع بالأيدي على سبيل التغليب ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ فيعذب بغير ذنب بل هو سبحانه وتعالى عادل ومن العدل أن يعاقب المسيء ويثبت المحسن . قوله عز وجل :

الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ الْبَيْتِ وَالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيْتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحْجَ عَنِ النَّارِ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴿١٨٥﴾

﴿الذين قالوا إن الله عهد إلينا﴾ قال الكلبي نزلت في كعب بن الأشرف ومالك بن صيفي ووهب بن يهودا وزيد بن تابوت وفنحاص بن عازوراء وحيي بن أخطب من اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا يا محمد تزعم أن الله بعثك إلينا رسولا وأنزل عليك كتابا وإن الله عهد إلينا في التوراة أن لا نؤمن لرسول يزعم أنه جاء من عند الله حتى يأتينا بقربان تأكله النار فإن جئتنا به صدقناك فأنزل الله تعالى ﴿الذين قالوا﴾ يعني قد سمع الله قول الذين ﴿إن الله عهد إلينا﴾ يعني أمرنا وأوصانا في كتبه ﴿أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار﴾ يعني فيكون ذلك دليلا على صدقه . وذكر الواحدي عن السدي أنه قال إن الله تعالى أمر بني إسرائيل في التوراة من جاءكم يزعم أنه رسول الله فلا تصدقوه حتى يأتيكم بقربان تأكله النار . حتى يأتيكم المسيح ومحمد فإذا أتياكم فآمنوا بهما فإنهما يأتيان بغير قربان . زاد غير الواحدي عنه قال : وكانت هذه العادة باقية فيهم إلى مبعث المسيح عليه السلام ثم ارتفعت وزالت وقيل إن ادعاء هذا الشرط كذب على التوراة وهو من كذب اليهود وتحريفهم ويدل على ذلك أن المقصود في الدلالة على صدق النبي هو ظهور المعجزة الخارقة للعادة فأى معجزة أتى بها النبي قبلت منه وكانت دليلا على

والفرية على الله فنجازيهم به ، وقال مقاتل : سنحفظ عليهم ، وقال الواقدي : سنأمر الحفظة بالكتابة ، نظيره قوله تعالى : ﴿ وإنا له كاتبون ﴾ [الأنبياء : ٩٤] ، ﴿ وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق ﴾ ، قرأ حمزة « سيكتب » بضم الياء ، ﴿ وقتلهم ﴾ برفع اللام ﴿ ويقول ﴾ بالياء ، ﴿ ذوقوا عذاب الحريق ﴾ أي : النار ، وهو بمعنى المحرق ، كما يقال : ﴿ لهم عذاب أليم ﴾ [التوبة : ٦١ ، إبراهيم : ٢٢ ، النور : ١٩] إلى آخره ، أي : مؤلم .

﴿ ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ ، فيُعَذَّب بغير ذنب .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا ﴾ ، الآية : قال الكلبي : نزلت في كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف ووهب بن يهودا وزيد بن التابوت وفنحاص بن عازوراء وحيي بن أخطب أتوا النبي ﷺ فقالوا : يا محمد تزعم أن الله تعالى بعثك إلينا رسولا وأنزل عليك الكتاب وأن الله تعالى قد عهد إلينا في التوراة ﴿ أن لا نؤمن لرسول ﴾ ، يزعم أنه من عند الله ، ﴿ حتى يأتينا بقربان تأكله النار ﴾ ، فإن جئتنا به صدقناك ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿ الذين قالوا ﴾ أي : سمع الله قول الذين قالوا : ومحل ﴿ الذين ﴾ خفض رداً على ﴿ الذين ﴾ الأول ، ﴿ إن الله

صدقه . وقد أتى النبي ﷺ بالمعجزات الباهرات الدالة على صدقه فوجب على كافة الخلق اتباعه وتصديقه والقربان كل ما يتقرب به العبد إلى الله عز وجل من أعمال البر من نسك وصدقة وذبح وكل عمل صالح، ويدل على ذلك قوله ﷺ الصوم جنة والصلاة قربان يعني أنها مما يتقرب بها إلى الله عز وجل . وكانت القرابين والغنائم لا تحل لبني إسرائيل وكانوا إذا قربوا قرباناً أو غنموا غنيمة جمعوا ذلك وجاءت نار بيضاء من السماء لا دخان لها ولها دوي حفيف فتأكل ذلك القربان أو الغنيمة وتحرقه فيكون ذلك دليلاً وعلامة على القبول وإذا لم يقبل بقي على حاله ولم تنزل نار . وقال عطاء كانت بنو إسرائيل يذبحون لله فيأخذون الثروب وأطايب اللحم فيضعونها في وسط بيت والسقف مكشوف فيقوم نبيهم عليه السلام في البيت ويناجي ربه عز وجل وبنو إسرائيل خارجون حول البيت فتنزل نار بيضاء لها دوي وحفيف ولا دخان لها فتأكل ذلك القربان ثم قال الله عز وجل مجيباً عن هذه الشبهة التي ذكرها هؤلاء اليهود وإقامة للحجة عليهم ﴿قل﴾ يعني قل يا محمد لهؤلاء اليهود ﴿قد جاءكم﴾ يا معشر اليهود ﴿رسل من قبلي﴾ يعني مثل زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام ﴿بالبينات﴾ يعني بالدلائل الواضحات الدالة على صدقهم ﴿وبالذي قلتم﴾ يعني ما طلبوا من القربان ﴿فلم قتلتموهم﴾ عني فلم قتلتم الأنبياء الذين أوتوا بنا طلبتم منهم مثل زكريا ويحيى وسائر من قتلوا من الأنبياء وأراد بذلك فعل أسلافهم وإنما خاطب بذلك اليهود الذين كانوا في زمن النبي ﷺ لأنهم كانوا راضين بفعل أسلافهم ﴿إن كنتم صادقين﴾ يعني في دعواكم ومعناه تكذيبهم إياك يا محمد مع علمهم بصدقك كقتل آبائهم الأنبياء مع إتيانهم بالقربان ثم قال تعالى مسلياً لنبيه ﷺ ﴿فإن كذبوك﴾ يعني هؤلاء اليهود ﴿فقد كذب رسل من قبلك﴾ يعني مثل نوح وهود وصالح وإبراهيم وغيرهم من الرسل ﴿جاءوا بالبينات﴾ يعني بالدلائل الواضحات والمعجزات الباهرات ﴿والزبر﴾ أي الكتب واحداً زبور وكل كتاب فيه حكمة فهو زبور وأصله من الزبر وهو الزجر وسمي الكتاب الذي فيه الحكمة زبوراً لأنه يزيّر عن الباطل ويدعو إلى الحق ﴿والكتاب المنير﴾ أي الواضح المضيء وإنما عطف الكتاب المنير على الزبر لشرفه وفضله وقيل أراد بالزبر الصحف وبالكتاب المنير التوراة والإنجيل .

قوله عز وجل: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ يعني أن كل نفس مخلوقة ذائقة الموت ولا بد لها منه . قيل لما

عهداً إلينا ﴿أي﴾: أمرنا وأوصانا في كتبه أن لا نؤمن برسول، أي: لا نصدق رسولاً يزعم أنه جاء من عند الله حتى يأتينا بقربان تأكله النار فيكون دليلاً على صدقه، والقربان: كل ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى من نسيكة وصدقة وعمل صالح، وهو فعّال من القرية، وكانت القرابين والغنائم لا تحل لبني إسرائيل، وكانوا إذا قربوا قرباناً أو غنموا غنيمة جاءت نار بيضاء من السماء لا دخان لها، ولها دوي وحفيف، فتأكله وتحرق ذلك القربان وتلك الغنيمة فيكون ذلك علامة القبول، وإذا لم يقبل بقيت على حالها، وقال السدي: إن الله تعالى أمر بني إسرائيل من جاءكم يزعم أنه رسول الله فلا تصدّقه حتى يأتكم بقربان تأكله النار حتى يأتكم المسيح ومحمد، فإذا أتياكم فآمنوا بهما، فإنهما يأتيان بغير قربان، قال الله تعالى إقامة للحجة عليهم، ﴿قل﴾، يا محمد، ﴿قد جاءكم﴾، يا معشر اليهود، ﴿رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم﴾، من القربان ﴿فلم قتلتموهم﴾؟ يعني: زكريا ويحيى وسائر من قتلوا من الأنبياء، وأراد بذلك أسلافهم فخاطبهم بذلك لأنهم رضوا بفعل أسلافهم ﴿إن كنتم صادقين﴾، معناه تعذيبهم إياك مع علمهم بصدقك، كقتل آبائهم الأنبياء، مع الإتيان بالقربان والمعجزات، ثم قال معزياً لنبيه ﷺ:

﴿فإن كذبوك فقد كُذِّبَتْ رُسُلٌ من قبلك جاءوا بالبينات والزُّبر﴾، قرأ ابن عامر «وبالزبر» أي: بالكتب

المزبورة، يعني: المكتوبة، واحداً مثل: رسول ورُسُل، ﴿والكتاب المنير﴾، الواضح المضيء.

نزل ﴿قُلْ يَتُوفَاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾ يا رسول الله إنما نزلت في بني آدم فأين ذكر الموت للجن والأنعام والوحوش والطيور؟ فنزلت هذه الآية وقيل لما خلق الله آدم عليه السلام اشتكت الأرض إلى ربها عز وجل مما أخذ منها فوعدها أن يرد فيها ما أخذ منها فما أحد يموت إلا ويدفن في التربة التي خلق منها. فإن قلت الحور والولدان نفوس مخلوقة في الجنة لا تذوق الموت فما حكم لفظ كل في قوله كل نفس ذائقة الموت؟ قلت لفظه كل لا تقتضي الشمول والإحاطة بدليل قوله تعالى وأوتيت من كل شيء ولم تؤت ملك سليمان فتكون الآية من العام المخصوص ويحتمل أن يكون المراد بهم المكلفين بدليل سياق الآية وهو قوله تعالى: ﴿وإنما توفون أجوركم﴾ يعني توفون جزاء أعمالكم ﴿يوم القيامة﴾ إن كان خيراً فخير وإن كان شراً فشر ﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾ يعني فمن نجا وأبعد من النار وأدخل الجنة فقد ظفر بالنجاة ونجا من الخوف ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ يعني أن العيش في هذه الدار الفانية يغر الإنسان بما يمينه من طول البقاء وسينقطع عن قريب فوصفت بأنها متاع الغرور لأنها تغر ببذل المحبوب. وتخيل للإنسان أنه يدوم وليس بدائم والمتاع كل ما استمتع به الإنسان من مال وغيره وقيل المتاع كالفارس والقدر والقصة ونحوها والغرور ما يغر الإنسان مما لا يدوم وقيل الغرور الباطل. ومعنى الآية أن منفعة الإنسان بالدنيا كمنفعته بهذه الأشياء التي يستمتع بها ثم تزول عن قريب. وقيل متاع متروك يوشك أن يضمحل ويزول فخذوا من هذا المتاع واعملوا فيه بطاعة الله ما استطعتم. قال سعيد بن جبير هي متاع الغرور لمن لم يشتغل بطلب الآخرة فأما من اشتغل بطلب الآخرة فهي له متاع وبلاغ إلى ما هو خير منها (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ قال الله عز وجل: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» واقروا إن شئتم فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين. زاد الترمذي: «وفي الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها» واقروا إن شئتم: «وظل ممدود ولموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها» واقروا إن شئتم: ﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾. قوله عز وجل: .

قوله عز وجل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾، منفوسة، ﴿ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، وفي الحديث: «لما خلق الله تعالى آدم اشتكت الأرض إلى ربها لما أخذ منها، فوعدها أن يرد فيها ما أخذ منها، فما من أحد إلا ويدفن في التربة التي خلق منها»، ﴿وإنما توفون أجوركم﴾، توفون جزاء أعمالكم، ﴿يوم القيامة﴾ إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ﴿فمن زحزح﴾، نُحِّي وأزيل، ﴿عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾، يعني منفعة ومتعة كالفأس والقدر والقصة، ثم يزول ولا يبقى، وقال الحسن: كخضرة النبات ولعب النبات لا حاصل له، قال قتادة: هي متاع متروكة يوشك أن تضمحل بأهلها، فخذوا من هذا المتاع بطاعة الله ما استطعتم، والغرور الباطل، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسين الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي أخبرنا محمد بن إسماعيل بن يحيى أخبرنا يزيد بن هارون أخبرنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»، واقروا إن شئتم ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾ [السجدة: ١٧]، وإن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، واقروا إن شئتم: ﴿وظل ممدود﴾ [الواقعة: ٣٠] ولموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما عليها، واقروا إن شئتم ﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾.

﴿لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَلَنْ نَصْبِرُوا وَتَتَفَوَّاهُمْ وَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (١٨٦)

﴿لتبلون﴾ اللام لام القسم تقديره والله لتبلون أي لتختبرن فتوقع عليكم المحن ليعلم المؤمن من غيره والاختبار طلب المعرفة ليعرف الجيد من الرديء وذلك في وصف الله محال لأن الله تعالى عالم بحقائق الأشياء كلها قبل أن يخلقها فعلى هذا يكون معنى الاختبار في وصف الله تعالى أنه يعامل العبد معاملة المختبر ﴿في أموالكم﴾ يعني بالابتلاء في الأموال بالنقصان منها وقيل بأداء ما فرض فيها من الحقوق ﴿وأنفسكم﴾ يعني بالمصائب والأمراض والقتل وفقد الأقارب والعشائر خوطب بهذه الآية المسلمون ليوطنوا أنفسهم على احتمال الأذى وما سيلقون من الشدائد والمصائب ليصبروا على ذلك حتى إذ لقوها لقوها وهم مستعدون بالصبر لها لا يرهقهم ما يرهق غيرهم ممن تصيبه الشدة بغتة فينكرها ويشمئز منها ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً﴾ قال عكرمة نزلت في أبي بكر الصديق وفتحاص بن عازوراء وذلك أن النبي ﷺ بعث أبا بكر إلى فتحاص سيد بني قينقاع يستمده وكتب إليه كتاباً وقال لأبي بكر: لا تفتأتن علي بشيء حتى ترجع فجاء أبو بكر وهو متوشح بالسيف إلى فتحاص وأعطاه الكتاب فلما قرأه قال فتحاص قد احتاج ربك حتى نمده فهم أبو بكر أن يضربه بالسيف ثم ذكر قول النبي ﷺ لا تفتأتن علي بشيء حتى ترجع فنزلت الآية وقال الزهري نزلت هذه الآية في النبي ﷺ وكعب بن الأشرف اليهودي وذلك أنه كان يهجو النبي ﷺ ويسب المسلمين ويحرض المشركين على قتالهم في شعره. (ق) عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله قال محمد بن مسلمة أتحب أن أقتله قال نعم قال ائذن لي فالأقل قال فأتاه فقال له وذكر ما بينهم وقال إن هذا الرجل قد أراد الصدقة وقد عنانا فلما سمعه قال وأيضاً والله لتملنك قال إنا قد ابتعناه ونكره الآن أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير أمره قال: وقد أردت أن تسلفني سلفاً قال فما ترهنني أترهنني نساءكم؟ قال أنت أجمل العرب أنرهنك نساءنا قال له ترهنون أولادكم قال يسب ابن أحدنا فيقال رهن في وسقين من تمر ولكن نرهنك اللأمة يعني السلاح قال: نعم. وواعده أن يأتيه بالحارث وأبي عيسى بن جبر وعباد بن بشر قال فجاءوا

﴿لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ الآية، قال عكرمة ومقاتل والكلبي وابن جريج: نزلت الآية في أبي بكر وفتحاص بن عازوراء، وذلك أن النبي ﷺ بعث أبا بكر إلى فتحاص بن عازوراء سيد بني قينقاع ليستمده، وكتب إليه كتاباً وقال لأبي بكر رضي الله عنه: «لا تفتأتن عليّ بشيء حتى ترجع»، فجاء أبو بكر رضي الله عنه وهو متوشح بالسيف فأعطاه الكتاب، فلما قرأه قال: قد احتاج ربك إلى أن نمده، فهم أبو بكر رضي الله عنه أن يضربه بالسيف، ثم ذكر قول النبي ﷺ: «لا تفتأتن عليّ بشيء حتى ترجع»، فكف فنزلت هذه الآية، وقال الزهري: نزلت في كعب بن الأشرف فإنه كان يهجو رسول الله ﷺ ويسب المسلمين، ويحرض المشركين على النبي ﷺ وأصحابه، في شعره ويسب نساء المسلمين، فقال النبي ﷺ: «من لي بابن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله؟» فقال محمد بن مسلمة الأنصاري: أنا لك يا رسول الله، أنا أقتله، قال: «فاعمل إن قدرت على ذلك»، فرجع محمد بن مسلمة فمكث ثلاثاً لا يطعم ولا يشرب إلا ما تعلق به نفسه، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فدعاه، وقال له: «لِمَ تَرَكْتَ الطعام والشراب؟» قال: يا رسول الله قلت قولاً ولا أدري هل أفى به أم لا، فقال: «إنما عليك الجهد»، فقال: يا رسول الله إنه لا بد لنا من أن نقول فيك، قال: «قولوا ما بدا لكم وأنتم في حل من ذلك»، فاجتمع في قتله محمد بن سلمة وسلكان بن سلام وأبو نائلة، وكان أخا كعب من الرضاعة، وعباد بن بشر والحارث بن أوس وأبو

فدعوه ليلاً إليهم قالت امرأته إني لأسمع صوتاً كأنه صوت دم قال إنما هو محمد ورضيحي أبو نائلة أن الكريم لو دعي إلى طعنة ليلاً لأجاب قال محمد: إني إذا جاء فسوف أمد يدي إلى رأسه فإذا استمكن منه فدونكم قال فلما نزل وهو متوشح فقالوا: نجد منك ريح الطيب قال: نعم تحتي فلانة أعطر نساء العرب قال فتأذن لي أن أشم منه قال نعم فتناول فشم ثم قال: أتأذن لي أن أعود فاستمكن من رأسه ثم قال دونكم فقتلوه. زاد في رواية ثم أتوا النبي ﷺ فأخبروه وزاد أصحاب السير والمغازي فاختلف عليهم أسيافهم فلم تغن شيئاً قال محمد بن مسلمة فذكرت مغولاً في سيفي فأخذته وقد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولنا إلا وأوقدت عليه نار قال فوضعت في ثنودته ثم تحاملت عليه حتى بلغت عانته ووقع عدو الله وقد أصيب الحارث بن أوس بجرح في رأسه أصابه بعض أسيافنا فخرجنا وقد أبطأ علينا صاحبنا الحارث ونزفه الدم فوقفنا له ساعة حتى أتانا يتبع آثارنا فحملناه وجئنا به رسول الله ﷺ آخر الليل وهو قائم يصلي فسلمنا عليه فخرج علينا فأخبرناه بقتل كعب بن الأشرف وجئنا برأسه إليه وتفل على جرح صاحبنا فرجعنا إلى أهلنا وأصبحنا وقد خافت اليهود وقعتنا بعدو الله فقال رسول الله ﷺ من

عيسى بن جبير، فمشى معهم رسول الله ﷺ إلى بقيع الغرقد ثم وجههم، وقال: «انطلقوا على اسم الله اللهم أعنهم»، ثم رجع رسول الله ﷺ، وذلك في ليلة مقمرة فأقبلوا حتى أنهوا إلى حصنه فقدموا أبا نائلة فجاءه فتحدث معه ساعة وتناشد الشعر، وكان أبو نائلة يقول الشعر، ثم قال: ويحك يا ابن الأشرف إني قد جئت لك حاجة أريد ذكرها لك فآتكم عليّ، قال: أفعل، قال: كان قدوم هذا الرجل بلادنا بلاءً، عادتنا العربُ ورمونا عن قوس واحدة، وانقطعت عنا السبلُ حتى ضاعت العيال وجهدت الأنفس، فقال كعب: أنا ابن الأشرف أما والله لقد كنت أخبرتك يا ابن سلامة أن الأمر سيصير إلى هذا، فقال أبو نائلة: إن معي أصحاباً أردنا أن تبيعنا طعأمك ونُرهنك ونوثق لك وتحسن في ذلك، قال: أترهونني أبناءكم، قال: إنا نستحي إن يُعيرَ أبناءنا فيقال هذا رهينة وسوق، وهذا رهينة وسقين، قال: ترهونني نساءكم، قالوا: كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب ولا نأمنك، وأية امرأة تمنع منك لجمالك، ولكننا نرهنك الحلقة، يعني: السلاح، وقد علمت حاجتنا إلى السلاح، قال: نعم، وأراد أبو نائلة أن لا ينكر السلاح إذا رآه فوعده أن يأتيه فرجع أبو نائلة إلى أصحابه فأخبرهم خبره، فأقبلوا حتى انتهوا إلى حصنه ليلاً، فهتف به أبو نائلة وكان حديث عهد بعرس فوثب من ملحفته فقالت امرأته: أسمع صوتاً يقطر منه الدم، وإنك رجل محارب، وإن صاحب المحرب لا ينزل في مثل هذه الساعة فكلمهم من فوق الحصن، فقال: إنما هو أخي محمد بن مسلمة ورضيحي أبو نائلة وإن هؤلاء لو وجدوني نائماً لأيقظوني، وإن الكريم إذا دعي إلى طعنة ليل ليل أجاب، فنزل إليهم فتحدثوا معه ساعة ثم قالوا: يا ابن الأشرف هل لك إلى أن تتماشى إلى شعب العجود نتحدث فيه بقية ليلتنا هذه؟ قال: إن شئتم؟ فخرجوا يتماشون، وكان أبو نائلة قال: لأصحابه إني نائل شعره فأشمه فإذا رأيتموني استمكن من رأسه فدونكم فاضربوه، ثم إنه شام يده في فود رأسه ثم شم يده، فقال: ما رأيته كالليلة طيب عروس قط، قال: إنه طيب أم فلان يعني امرأته، ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها حتى اطمأن ثم مشى ساعة فعاد لمثلها ثم أخذ بفود رأسه حتى استمكن ثم قال: اضربوا عدو الله فاختلفت عليه أسيافهم فلم تغن شيئاً، قال محمد بن مسلمة فذكرت مغولاً في سيفي فأخذته، وقد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولنا حصنٌ إلا وأوقدت عليه نار، قال: فوضعت في ثنودته ثم تحاملت عليه حتى بلغت عانته، ووقع عدو الله وقد أصيب الحارث بن أوس بجرح في رأسه أصابه بعض أسيافنا، قال: فخرجنا وقد أبطأ علينا صاحبنا الحارث بن أوس بجرح في رأسه ونزفه الدم، ثم وقفنا له ساعة ثم أتانا يتبع آثارنا فاحتملناه فجئنا به رسول الله ﷺ آخر الليل وهو قائم يصلي فسلمنا عليه فخرج إلينا فأخبرناه بقتل كعب وجئنا برأسه إليه، وتفل على جرح صاحبنا، فرجعنا إلى أهلنا فأصبحنا وقد خافت

ظفرتهم به من رجال اليهود فاقتلوه وأنزل الله عز وجل في شأن الأشرف اليهودي ﴿لَتَبْلُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعْنَ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ يعني مشركي العرب ﴿أَذَى كَثِيرًا﴾ يعني بالأذى قول اليهود إن الله فقير ونحن أغنياء وما أشبه ذلك من افتراءهم وكذبهم على الله ورسوله وما كان كعب بن الأشرف يهجو به النبي ﷺ والمسلمين فهذا هو الأذى الكثير ﴿وَأِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ وللمسلمين يعني وإن تصبروا على أذاهم وتتقوا فيما أمركم به ونهاكم عنه لأن الصبر عبارة عن احتمال الأذى والمكروه والتقوى عبارة عن الاحتراز عما لا ينبغي ﴿فَإِنْ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي من صواب التدبير الذي لا شك أن الرشد فيه ولا ينبغي لعاقل تركه وأصله من قولك عزمت عليك أن تفعل كذا أي ألزمتك أن تفعله لا محالة ولا تتركه وقيل معناه فإن ذلك مما قد عزم عليكم فعله أي ألزمتكم الأخذ به . قوله تعالى :

وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِمَّا قَلِيلًا فِئْسَ مَا يَشْتُرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرُحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾

﴿وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ﴾ أي واذكر يا محمد وقت إذ أخذ الله ﴿ميثاق الذين أوتوا الكتاب﴾ يعني اليهود والنصارى، والمراد منهم العلماء خاصة وقيل المراد بالذين أوتوا الكتاب العلماء والأخبار من اليهود خاصة وأخذ الميثاق هو التوكيد والإلزام لبيان ما أوتوه من الكتاب وهو قوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ﴾ يعني لتبينن ما في الكتاب ولتظهرنه للناس حتى يعلموه وذلك أن الله أوجب على علماء التوراة والإنجيل أن يشرحوا للناس ما في هذين الكتابين من الدلائل الدالة على نبوة محمد ﷺ ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ يعني ولا تخفون ذلك عن الناس ﴿فَنَبَذُوهُ﴾ يعني الكتاب وقيل

اليهود وقعتنا بعدو الله، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ ظَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ رِجَالِ الْيَهُودِ فَاقْتُلُوهُ»، فوثب محيصة بن مسعود على سفينة رجل من تجار اليهود كان يلبسهم ويبيعهم فقتله، وكان حويصة بن مسعود إذ ذاك لم يُسَلِّمْ وكان أسن من محيصة فلما قتله، جعل حريصة يضربه ويقول: أَيُّ عَدُوِّ اللَّهِ قَتَلْتَهُ أَمَا وَاللَّهِ لَرُبِّ شَحْمٍ فِي بَطْنِكَ مِنْ مَالِهِ، قَالَ محيصة: وَاللَّهِ لَوْ أَمَرَنِي بِقَتْلِكَ مَنْ أَمَرَنِي بِقَتْلِهِ لَضَرَبْتُ عُنُقَكَ، قَالَ: لَوْ أَمَرْتُ مُحَمَّدٌ بِقَتْلِي لَقَتَلْتَنِي؟! قَالَ: نَعَمْ، وَاللَّهِ إِنْ دِينًا بَلَغَ بِكَ هَذَا الْعَجَبُ؟! فَاسْلَمْ حَوِيصَةً، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي شَأْنِ كَعْبٍ: ﴿لَتَبْلُؤَنَّ﴾ لتخبرن، اللام للتأكيد، وفيه معنى القسم، والنون لتأكيد القسم ﴿فِي أَمْوَالِكُمْ﴾ بالجوائح والعاهات والخسران ﴿وَأَنْفُسِكُمْ﴾ بالأمراض، وقيل: بمصائب الأقارب والعشائر، قال عطاء: هم المهاجرون أخذ المشركون أموالهم ورباعهم وعذبوهم، وقال الحسن: هو ما فرض عليهم من أموالهم وأنفسهم من الحقوق، كالصلاة والصيام والحج والجهاد والزكاة، ﴿وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يعني: اليهود والنصارى، ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾، يعني: مشركي العرب، ﴿أَذَى كَثِيرًا﴾ وإن تصبروا ﴿عَلَى أَذَاهُمْ﴾ وتَّقُوا، الله، ﴿فَإِنْ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾، من حق الأمور وخيرها، وقال عطاء: من حقيقة الإيمان.

﴿وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾، قرأ ابن كثير وأهل البصرة وأبو بكر البلاء فيهما، لقوله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾، وقرأ الآخرون بالتاء فيها على إضمار القول، ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾، أي: طرحوه وضيعوه وتركوا العمل به، ﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، يعني: المأكَل والرُّشَا، ﴿فِئْسَ مَا يَشْتُرُونَ﴾، قال قتادة: هذا ميثاق أخذه الله تعالى على أهل العلم فَمَنْ عَلِمَ شَيْئًا فَلْيُعَلِّمَهُ، وَإِيَّاكُمْ وَكتمان العلم

الميثاق ﴿وراء ظهورهم﴾ أي فطرحوه وضيعوه وتركوا العمل به ﴿واشتروا به ثمناً قليلاً﴾ يعني المآكل والرشا التي كانوا يأخذونها من عوامهم وسفلتهم ﴿فبئس ما يشترون﴾ ذمهم الله تعالى على فعلهم ذلك. واعلم أن ظاهر هذه الآية وإن كان مخصوصاً بعلماء أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى فلا يبعد أن يدخل فيه علماء هذه الأمة الإسلامية لأنهم أهل كتاب وهو القرآن وهو أشرف الكتب. قال قتادة: هذا ميثاق أخذ الله تعالى على أهل العلم فمن علم شيئاً فليعلمه وإياكم وكتمان العلم فإنه هلكة وقال أيضاً طويي لعالم ناطق ومستمع واع هذا علم علماً فبذله وهذا حكمه لا تخرج كمثل صنم لا يأكل ولا يشرب وقال أيضاً طويي لعالم ناطق ومستمع واع هذا علم علماً فبذله وهذا سمع خيراً فقبله ووعاه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ من سئل علماً يعلمه فكتمه ألجم «بلجام من نار» أخرجه الترمذي. ولأبي داود «من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة». وقال أبو هريرة لولا ما أخذ الله عز وجل على أهل الكتاب ما حدثتكم بشيء ثم تلا هذه الآية ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب﴾ الآية وقال الحسن بن عمارة أتيت الزهري بعد أن ترك الحديث فألفيته على بابه فقلت أريد أن تحدثني، فقال: أما علمت أنني قد تركت الحديث فقلت: إما أن تحدثني وإما أن أحدثك قال: حدثني فقلت: حدثني الحكم بن عيينة عن يحيى بن الخراز قال سمعت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: ما أخذ الله على أهل الجاهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا قال: فحدثني أربعين حديثاً.

قوله عز وجل: ﴿لا تحسبن الذين يفرحون﴾ قرىء بالتاء على الخطاب أي لا تحسبن يا محمد الفارحين الذين يفرحون، وقرىء بالياء على الغيبة يعني ولا يحسبن الفارحون والمعنى لا يحسبن الذين يفرحون فرحهم منجياً لهم من العذاب نزلت هذه الآية في المنافقين (ق) عن أبي سعيد الخدري أن رجلاً من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كان إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ فإذا قدم رسول الله ﷺ اعتذروا إليه وحلفوا له وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا ﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا﴾ الآية وقيل نزلت في اليهود (ق) عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف أن مروان قال اذهب يا رافع لبوابه إلى ابن عباس

فإنه هلكة، وقال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: لولا ما أخذ الله على أهل الكتاب ما حدثتكم بشيء، ثم تلا هذه الآية ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب﴾ حدثنا أبو الفضل زياد بن محمد الحنفي أخبرنا أبو معاذ الشاه بن عبد الرحمن أخبرنا أبو بكر عمر بن سهل وإسماعيل الدينوري أخبرنا أحمد بن محمد بن عيسى البرني أخبرنا أبو حذيفة موسى بن مسعود أخبرنا إبراهيم بن طهمان عن سماك بن حرب عن عطاء بن أبي رباح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ عَلَيْهِ وَكُتِمَ الْجَمُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»، وقال الحسن بن عمارة: أتيت الزهري بعد أن ترك الحديث فألفيته على بابه، فقلت: أوريأت أن تحدثني؟ فقال: أما علمت أنني قد تركت الحديث؟ فقلت: إما أن تحدثني وإما أن أحدثك، فقال: حدثني، فقلت: حدثني الحكم بن عيينة عن يحيى بن الخراز قال: سمعت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: ما أخذ الله على أهل الجاهل أن يتعلموا حتى يأخذ على أهل العلم أن يعلموا، قال: فحدثني أربعين حديثاً.

﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا﴾ الآية، قرأ عاصم وحزمة والكسائي ﴿لا تحسبن﴾ بالتاء، أي: لا تحسبن يا محمد الفارحين، وقرأ الآخرون بالياء «لا يحسبن» الفارحون في فرحهم منجياً لهم من العذاب، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «فلا يحسبنهم» بالياء وضّم بالياء خبراً عن الفارحين، أي فلا يحسبن أنفسهم، وقرأ الآخرون بالتاء وفتح الباء، أي: فلا تحسبنهم يا محمد، وأعاد قوله: ﴿فلا تحسبنهم﴾ تأكيداً، وفي حرف عبد الله بن مسعود «ولا يحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا بمفازة من العذاب» من غير تكرار،

فقل لئن كان كل امرئ مما فرح بما أتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل لنعذبن أجمعون. قال ابن عباس: ما لكم. ولهذه الآية إنما نزلت هذه الآية في أهل الكتاب ثم تلا ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَنَّهُ لِلنَّاسِ﴾ الآية وتلا ابن عباس: ﴿لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ وقال ابن عباس سألهم رسول الله ﷺ عن شيء فكتبوه إياه وأخبروه بغيره فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا إليه بذلك وفرحوا بما أتوا من كتمانهم إياه ما سألهم عنه ﴿بِمَا أُتُوا﴾ يعني يفرحون بما فعلوا ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ أي ويحبون أن يحمدهم الناس على شيء لم يفعلوه قيل عنى بذلك قوماً من أحبار اليهود كانوا يفرحون بأضلالهم الناس ونسبة الناس إليهم إلى العلم قال ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَى قَوْلِهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني فنحاص وأسبيع وأشباههما من الأحبار الذين يفرحون بما يصيرون من الدنيا على ما زينوا للناس من الضلالة ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا أي بقول الناس لهم علماء وليسوا بأهل علم. وقيل هم اليهود فرحوا باجتماع كلمتهم على تكذيب محمد ﷺ. وذلك أنهم كتبوا إلى يهود العراق والشام واليمن ومن يبلغهم كتابهم من اليهود في الأرض كلها أن محمداً ليس بنبي فاثبتوا على دينكم فاجتمعت كلمتهم على الكفر وفرحوا بذلك، وقالوا: نحن أهل الصوم والصلاة وأحبوا أن يحمدوا على ذلك. وقيل فرحوا بما أتوا من تبديلهم التوراة وأحبوا أن يحمدهم الناس على ذلك. وقيل أن يهود خبير أتت إلى النبي ﷺ فقالوا نحن نعرفك ونصدقك وقالوا لأصحابه نحن على رأيكم نحن لكم ردة وليس ذلك في قلوبهم وأحبوا أن يحمدهم النبي ﷺ والمسلمون على ذلك ﴿فَلَا تَحْسِبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أي فلا تظنهم بمنجاة من العذاب الذي أعد الله لهم في الدنيا من القتل والأسر وضرب الجزية والذلة والصغار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني في الآخرة وهذه الآية وإن كانت

واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا سعيد بن أبي مريم أنا محمد بن جعفر حدثني زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري أن رجلاً من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو وتخلّفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ فإذا قدّم رسول الله ﷺ اعتذروا إليه وحلفوا، وأحبوا أن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا، فنزل ﴿لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُتُوا﴾ الآية، وأخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا إبراهيم بن موسى أنا هشام أن ابن جريج أخبرهم قال: أخبرني ابن أبي مليكة أن علقمة بن وقاص أخبره أن مروان قال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس رضي الله عنهما فقل له: لئن كان كل امرئ مما فرح بما أُوتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لنعذبن أجمعون، فقال ابن عباس: ما لكم ولهذه إنما دعا النبي ﷺ يهود فسألهم عن شيء فكتبوه إياه فأخبروه بغيره فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم، ثم قرأ ابن عباس رضي الله عنهما ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ كذلك إلى قوله: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾، قال عكرمة: نزلت في فنحاص وأسبيع وغيرهما من الأحبار يفرحون بأضلالهم الناس بنسبة الناس إليهم إلى العلم وليسوا بأهل العلم، وقال مجاهد: هم اليهود فرحوا بإعجاب الناس بتبديلهم الكتاب وحمدهم إياهم عليه، وقال سعيد بن جبيرة: هم اليهود فرحوا بما أعطى الله آل إبراهيم وهم برآء من ذلك، وقال قتادة ومقاتل: أتت يهود خبير نبي الله ﷺ فقالوا: نحن نعرفك ونصدقك وإنّا على رأيك ونحن لك ردة، وليس ذلك في قلوبهم، فلما خرجوا قال لهم المسلمون: ما صنعتم؟ قالوا: عرفناه وصدقناه، فقال لهم المسلمون: أحسنتم هكذا فافعلوا، فحمدهم ودعوا لهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقال: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُتُوا﴾ قال الفراء بما فعلوا، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتَ

قد نزلت في اليهود أو المنافقين خاصة فإن حكمها عام في كل من أحب أن يحمد بما لم يفعل من الخير والصلاح أو ينسب إلى العلم وليس هو كذلك. قوله عز وجل: .

وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ

الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾

﴿والله ملك السموات والأرض﴾ يعني أنه تعالى مالك لما فيهما جميعاً يتصرف فيه كيف يشاء وفيه تكذيب لمن قال إن الله فقير ونحن أغنياء يقول الله عز وجل: إن من له جميع ما حوته السموات والأرض من شيء كيف يكون فقيراً ﴿والله على كل شيء قدير﴾ يعني أنه تعالى قادر على تعجيل العقوبة لهم على ذلك القول لكنه تفضل على خلقه بإمهالهم. قوله عز وجل: .

﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الأبالب﴾ قال ابن عباس إن أهل مكة سألوا النبي ﷺ أن يأتيهم بآية فنزلت هذه الآية والمعنى تفكروا واعتبروا أيها الناس فيما خلقته وأنشأته من السموات والأرض لمعاشكم وأرزاقكم وفيما عقت من ذلك بين الليل والنهار، واختلافهما في الطول والقصر، فجعلتهما يختلفان ويعتقبان عليكم لكي تتصرفوا فيهما لمعاشكم تطلبون أرزاقكم في النهار وتسكنون في الليل لراحة أجسادكم، فاعتبروا وتفكروا يا أولي الأبالب يعني يا ذوي العقول الصافية. يعني الذين يفتحون بصائرهم للنظر والاستدلال. والاعتبار لا ينظرون إليهما نظر البهائم غافلين عما فيهما من عجائب مخلوقاته وغرائب مبتدعاته (ق) عن ابن عباس أنه بات عند ميمونة أم المؤمنين وهي خالته قال: فقلت: لأنظرن إلى صلاة رسول الله ﷺ فطرحته لرسول الله ﷺ وسادة فاضطجعت في عرض الوسادة واضطجع رسول الله ﷺ وأهله في طولها فنام رسول الله ﷺ حتى انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل ثم استيقظ رسول الله ﷺ فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده ثم قرأ العشر آيات الخواتيم من سورة آل عمران. ثم قام إلى شن معلقة فتوضأ منها فأحسن وضوءه ثم قام يصلي. قال عبدالله بن عباس فقمتم فصنعت مثل ما صنع ثم ذهبت فقمتم إلى جنبه فوضع رسول الله ﷺ يده اليمنى إلى رأسي وأخذ بأذني ففتلها فصلى ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم أوتر ثم اضطجع حتى جاء المؤذن فقام فصلى

شيئاً قريباً ﴿[مريم: ٢٧] أي: فعلت، ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبْنَهُمْ بِمَفَازَةٍ﴾، بمنجاة، ﴿مَنْ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، يصرفها كيف يشاء، ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو نعيم عبد الملك بن الحسين الإسفرايني أنا أبو عوانة يعقوب بن إسحق الحافظ أنا أحمد بن عبد الجبار أنا ابن فضيل عن حصين بن عبد الرحمن عن حبيب بن أبي ثابت عن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه رَفَدَ عند رسول الله ﷺ فرآه استيقظ فتسوّك ثم توضأ وهو يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ حتى ختم السورة، ثم قام فصلى ركعتين فأطال فيهما القيام والركوع والسجود، ثم انصرف فنام حتى نفخ ثم فعل ذلك ثلاث مرات ست ركعات كل ذلك يستاك، ثم يتوضأ ثم يقرأ هؤلاء الآيات، ثم أوتر بثلاث ركعات ثم أتاه المؤذن فخرج إلى الصلاة وهو يقول: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي بَصْرِي نوراً وفي سمعي نوراً وفي لساني نوراً واجعل من خلفي نوراً ومن أمامي نوراً واجعل من فوقي نوراً ومن تحتي نوراً، اللَّهُمَّ أعطني نوراً» ورواه كريب عن ابن عباس رضي الله عنهما، وزاد: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نوراً وفي بصري نوراً»

ركعتين خفيفتين ثم خرج فصلى الصبح وفي رواية فقامت عن يساره فأخذني فجعلني عن يمينه وفي رواية قال بت في بيت خالتي ميمونة فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد فلما كان ثلث الليل الأخير قعد فنظر إلى السماء فقال: ﴿إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ذكره. قوله تعالى: .

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾

﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾ قال علي بن أبي طالب وابن مسعود وابن عباس وقتادة هذا في الصلاة. يعني الذين يصلون قياماً فإن عجزوا فقعوداً فإن عجزوا فعلى جنوبهم والمعنى أنهم لا يتركون الصلاة في حال من الأحوال بل يصلون في كل حال (خ) عن عمران بن حصين قال كانت بي بواسير فسألت النبي ﷺ عن الصلاة فقال: «صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب» أخرجه الترمذي. وقال فيه سألته عن صلاة المريض وذكر نحوه قال الشافعي رضي الله عنه إذا صلى المريض مضطجعا وجب عليه أن يصلي على جنب ويومئ برأسه إيماء. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: بل يصلي مستلقياً على ظهره فإن وجد خفة قعد وحجة الشافعي ظاهر الآية وهو قوله تعالى وعلى جنوبهم وقوله ﷺ لعمران بن حصين فإن لم تستطع فعلى جنب فنص على الجنب دون غيره. وقال أكثر المفسرين المراد به المداومة على الذكر في غالب الأحوال لأن الإنسان قل أن يخلو من إحدى هذه الثلاث حالات وهي: القيام والقعود وكونه نائماً على جنبه (م) عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يذكر الله عز وجل في كل أحيانه وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قعد مقعداً لم يذكر الله فيه كانت عليه من الله ترة ومن اضطجع مضطجعا لا يذكر الله فيه كانت عليه من الله ترة وما مشى أحد ممشياً لا يذكر الله فيه إلا كانت عليه من الله ترة» أخرجه أبو داود والثرية النقص وقيل هي هنا التبعة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أصل الفكر إعمال الخاطر في الشيء وتردد القلب في ذلك الشيء وهو قوة متطرفة للعلم إلى المعلوم والتفكر جريان تلك القوة بحسب نظر العقل. ولا يمكن التفكير إلا فيما له صورة في القلب ولهذا قيل تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله إذ الله منزه أن يوصف بصورة. فلذلك

وفي سمعي نوراً وعن يميني نوراً وعن يساري نوراً، قوله تعالى: ﴿لَا يَاتِ لَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ذوي العقول، ثم وصفهم فقال:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾، قال علي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهم والنخعي وقتادة: هذا في الصلاة يصلي قائماً فإن لم يستطع قاعداً فإن لم يستطع فعلى جنب. أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي أخبرنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي أنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي أخبرنا أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي أنا هناد أنا وكيع عن إبراهيم بن طهمان عن حسين المعلم عن عبد الله بن زيدة عن عمران بن حصين قال سألت رسول الله ﷺ عن صلاة المريض، فقال: «صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب»، وقال سائر المفسرين أراد به المداومة على الذكر في عموم الأحوال لأن الإنسان قل ما يخلو من إحدى هذه الحالات الثلاث، نظيره في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا

أخبر عن عباده الصالحين بأنهم يتفكرون في خلق السموات والأرض وما أبدع الله فيهما من عجائب مصنوعات وغرائب مبتدعاته ليدلهم ذلك على كمال قدرة الصانع سبحانه وتعالى ويعلموا أن لهما خالقاً قادراً مدبراً حكيماً لأن عظم آثاره وأفعاله تدل على عظم خالقها سبحانه وتعالى كما قيل:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

وقيل: إن الفكر مقلوب عن الفك لأن الفكر مستعمل في المعاني وهو فك الأمور وبحثها طلباً للوصول إلى حقيقتها. وقيل الفكرة تذهب الغفلة وتحدث للقلب الخشية كما يحدث الماء للزرع النماء وما جلبت القلوب بمثل الأحزان، ولا استنارت بمثل الفكرة ﴿ربنا﴾ أي ويقولون ربنا وقيل معناه ويتفكرون في خلق السموات والأرض قائلين ربنا ﴿ما خلقت هذا باطلاً﴾ يعني وهزلاً بل خلقتة دليلاً على وحدانيتك وكمال قدرتك ﴿سبحانك﴾ تنزيهاً لك عن أن تخلق شيئاً عبثاً لغير حكمة ﴿فقنا عذاب النار﴾ يعني إنا قد صدقنا بوحدانيتك وإن لك جنة وناراً فقنا عذاب النار والمقصود من قوله سبحانه فقنا عذاب النار تعليم عباده كيفية الدعاء ويدل عليه قوله فقنا عذاب النار ﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته﴾ أي أهنته وأذلته وقيل أهلكته وقيل فضحته وأبلغت في إيذائه والخزي ضرب من الاستخفاف أو انكسار يلحق الإنسان وهو الحياء المفرط. فإن قلت قد تمسكت المعتزلة بهذه الآية وقالوا قد أخبرنا الله أنه لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه فوجب أن كل من يدخل النار لا يكون مؤمناً لقوله إنك من تدخل النار فقد أخزيته والمؤمن لا يخزي. قلت قد ذكر العلماء في الجواب وجوهاً أحدها ما روي عن أنس في تفسير قوله تعالى إنك من تدخل النار فقد أخزيته قال من يخلده وروي نحوه عن سعيد بن المسيب قال هي خاصة لمن لا يخرج منها وهذا الجواب إنما يصح على مذهب أهل السنة الذين يرون إخراج الموحدين من النار أما على مذهب المعتزلة فلا يصح هذا الجواب لأن مذهبهم أن الفاسق مخلد في النار فهو داخل في قوله تعالى فقد أخزيته، الوجه الثاني في الجواب أن المدخل في النار مخزي في حال دخوله وإن كانت عاقبته أن يخرج منها ومعنى الآية على هذا فقد أخزيته بدخوله فيها وتعذيبه بها ويدل على صحة هذا المعنى ما روي عن عمرو بن دينار قال قدم علينا جابر بن عبد الله في عمرة فأنتهيت إليه أنا وعطاء فسألته عن هذه الآية: ﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته﴾ فقال وما أخزاه حين أحرقه بالنار إن دون ذا لخزيا. وهذا الوجه هو اختيار ابن جرير الطبري لأن من أدخل النار فقد أخزي بدخوله إياها وإن أخرج منها وذلك الخزي هو هتك المخزي وفضيحته. وقال ابن الأباري حمل الآية على العموم أولى من نقلها إلى الخصوص إذ لا دليل عليه، الوجه الثالث في الجواب ما قاله أهل المعاني وهو أن الخزي يحتمل معاني منها الإهانة والإهلاك والإبعاد. وهذا للكفار ومنها الإخجال يقال خزي خزية إذا استحي وإذا عمل عملاً يستحي منه ويخجل فيكون خزي المؤمن الذي يدخل النار الحياء من المؤمنين بدخوله النار إلى أن يخرج منها. وخزي الكافر الهلاك بالخلود في النار وحاصل هذا الجواب أن لفظ الإخزاء مشترك بين التخجيل والإهلاك. واللفظ المشترك لا يمكن حمله في طرفي النفي والإثبات على معنيين جميعاً وهذا

وقعوداً وعلى جنوبكم ﴿[النساء: ١٠٣]، ﴿ويتفكرون في خلق السموات والأرض﴾، وما أبدع فيهما ليدلهم ذلك على قدرة الله ويعرفوا أن لها صانعاً قادراً مدبراً حكيماً، قال ابن عوان: الفكرة تذهب الغفلة وتحدث للقلب الخشية كما يحدث الماء للزرع النماء وما جلبت القلوب بمثل الأحزان، ولا استنارت بمثل الفكرة، ﴿ربنا﴾ أي: ويقولون ربنا ﴿ما خلقت هذا﴾ رده إلى الخلق فلذلك لم يقل هذه، ﴿باطلاً﴾، أي: عبثاً وهزلاً بل خلقتة لأمر عظيم، وانتصب ﴿باطلاً﴾ بترع الخافض، أي: بالباطل، ﴿سبحانك فقنا عذاب النار﴾.

﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته﴾، أي: أهنته، وقيل: أهلكته، وقيل: فضحته، لقوله تعالى: ﴿ولا

يسقط الاستدلال، الوجه الرابع في الجواب وهو الذي اختاره الفخر الرازي وصححه أن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ لا يقتضي نفي الإخزاء مطلقاً وإنما يقتضي أن لا يحصل الإخزاء حال ما يكونون مع النبي وهذا النفي لا يناقضه إثبات الإخزاء في الجملة لاحتمال أن يحصل ذلك الإثبات في وقت آخر والله أعلم وقوله تعالى ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ يعني المشركين الذين وضعوا العبادة في غير موضعها ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾ يعني ينصرونهم يوم القيامة ويمنعونهم من العذاب. قوله عز وجل: .

رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَاسْتَجَبَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلٌ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَأَلْزَمْنَا الْكُفْرَ الَّذِي هَا جَرُّوهُمُ مِنْ دِينِهِمْ وَأَوْدُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقَتَلُوا لَا تُكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخِلَتْ جَنَّتُ بَحْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾

﴿ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان﴾ قال ابن عباس وأكثر المفسرين المنادي هو محمد ﷺ ويدل على صحة هذا قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ﴾ وقوله: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ وقال محمد بن كعب القرظي المنادي هو القرآن قال إذ ليس كل أحد لقي النبي ﷺ ووجه هذا لقول أن كل أحد يسمع القرآن ويفهمه فإذا وفقه الله تعالى للإيمان به فقد فاز به. وذلك لأن القرآن مشتمل على الرشد والهدى وأنواع الدلائل الدالة على الوحدة فصار كالداعي إليها واللام في الإيمان بمعنى إلى يعني ينادي إلى الإيمان ﴿أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ أي فصدقنا ﴿ربنا فاغفر لنا ذنوبنا﴾ أي كبائر ذنوبنا ﴿وكفر عنا سيئاتنا﴾ أي صغائر ذنوبنا وقيل إن الغفر هو الستر والتغطية وكذلك التفكير فهما بمعنى واحد وإنما ذكرهما للتأكيد لأن الإلحاح في الدعاء والمبالغة فيه مندوب إليه وقيل معناه اغفر لنا ما تقدم من ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا في المستقبل وقيل يريد بالغفران ما يزول بالتوبة من الذنوب وبالتكفير ما يكفر بالطاعات من الذنوب ﴿وتوفنا مع الأبرار﴾ يعني في جملتهم وزمرتهم والأبرار هم الأنبياء والصالحون والمعنى توفنا على مثل أعمالهم حتى نكون في درجاتهم يوم القيامة وقيل توفنا في جملة أتباعهم

تَخْرُجُونَ فِي ضَيْفِي ﴿[هود: ٧٨] فَإِنْ قِيلَ: قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ لَا يَخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [التحریم: ٨]، وَمِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ، وَقَدْ قَالَ: ﴿إِنَّكَ مَنْ تَدْخُلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾، فَكَيْفَ الْجَمْعُ؟ قِيلَ: قَالَ أَنَسٌ وَقَتَادَةُ مَعْنَاهُ: إِنَّكَ مَنْ تَخَلَّدَ فِي النَّارِ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ هَذِهِ خَاصَّةُ لِمَنْ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا، فَقَدْ رَوَى أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ قَوْمًا النَّارَ ثُمَّ يَخْرُجُونَ مِنْهَا». ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.

﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾ يعني: محمداً ﷺ، قاله ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما، وأكثر الناس، وقال القرظي: يعني القرآن، فليس كل واحد يلقى النبي ﷺ، ﴿يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾، إلى الإيمان، ﴿أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا فَآغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾، أي: في جملة الأبرار.

﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾، أي: على ألسنة رُسُلِكَ، ﴿وَلَا تُخْزِنَا﴾، وَلَا تُعَذِّبْنَا وَلَا تَهْلِكْنَا وَلَا تَفْضَحْنَا وَلَا تُهَنَّا، ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾، فَإِنْ قِيلَ: مَا وَجْهُ قَوْلِهِمْ: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى

وأشياهم ﴿ربنا وآتانا ما وعدتنا على رسلك﴾ يعني على السنة رسلك وقيل معناه وآتانا ما وعدتنا على تصديق رسلك. فإن قلت كيف سألوا الله إنجاز ما وعد والله لا يخلف الميعاد. قلت معناه أنهم طلبوا من الله تعالى التوفيق فيما يحفظ عليهم أسباب إنجاز الميعاد. وقيل هو من باب اللجأ إلى الله تعالى والتذلل له وإظهار الخضوع والعبودية. كما أن الأنبياء عليهم السلام يستغفرون الله مع علمهم أنهم مغفور لهم يقصدون بذلك التذلل لربهم سبحانه وتعالى والتضرع إليه واللجأ إليه الذي هو سيما العبودية. وقيل معناه ربنا واجعلنا ممن يستحق ثوابك وتؤتيهم ما وعدتهم على السنة رسلك لأنهم لم يتيقنوا استحقاقهم لتلك الكرامة فسألوه أن يجعلهم مستحقين لها. وقيل إنما سألوه تعجيل ما وعدهم من النصر على الأعداء وقالوا قد علمنا أنك لا تخلف الميعاد ولكن لا صبر لنا على حلمك فعجل هلاكهم وانصرنا عليهم ﴿ولا تخزنا يوم القيامة﴾ يعني ولا تهلكنا ولا تفضحنا ولا تهنا في ذلك اليوم فإن قلت قوله وآتانا ما وعدتنا على رسلك يدل على طلب الثواب ومتى حصل الثواب اندفع العقاب لا محالة فما معنى قوله ولا تخزنا وهو طلب دفع العقاب عنهم قلت المقصود من الآية طلب التوفيق على الطاعة والعصمة عن فعل المعصية كأنهم قالوا وفقنا للطاعات وإذا وفقنا لها فاعصمنا عن فعل ما يبطلها ويوقعنا في الخزي وهو الهلاك ويحتمل أن يكون قوله ولا تخزنا يوم القيامة سبباً لقوله تعالى: ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾ فإنه ربما يظن الإنسان أنه على عمل صالح فإذا كان يوم القيامة ظهر أنه على غير ما يظن فيحصل الخجل والحسرة والندامة في موقف القيامة فسألوا الله تعالى أن يزيل ذلك عنهم فقالوا ﴿ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد﴾.

قوله تعالى: ﴿فاستجاب لهم ربهم﴾ يعني أجاب دعاءهم وأعطاهم ما سألوه ﴿أنى﴾ أي وقال لهم أنى ﴿لا أضيع عمل عامل منكم﴾ يعني لا أحبط عملكم أيها المؤمنون بل أثيبكم عليه ﴿من ذكر أو أنى﴾ يعني لا أضيع عمل عامل منكم ذكراً كان أو أنثى عن أم سلمة قالت قلت يا رسول الله ما أسمع الله تعالى ذكر النساء في الهجرة بشيء فأنزل الله تعالى: ﴿أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنى بعضهم من بعض - إلى - والله عنده حسن الثواب﴾ أخرجه الترمذي وغيره.

وقوله تعالى: ﴿بعضكم من بعض﴾ يعني في الدين والنصرة والموالات. وقيل كلكم من آدم وحواء وقيل بمعنى الكاف أي بعضكم كبعض في الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية فهو كما يقال: فلان يعني على خلقي وسيرتي وقيل إن الرجال والنساء في الطاعة على شكل واحد ﴿فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي﴾ يعني المهاجرين الذين هجروا أوطانهم وأهليهم وأذاهم المشركون بسبب إسلامهم ومتابعتهم

رسلك، وقد علموا أن الله لا يخلف الميعاد؟ قيل: لفظه دعاء ومعناه خبر، أي: لتؤتينا ما وعدتنا على رسلك، تقديره: ﴿فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا﴾ ﴿ولا تخزنا يوم القيامة﴾، لتؤتينا ما وعدتنا على رسلك من الفضل والرحمة، وقيل: معناه ربنا واجعلنا ممن يستحقون ثوابك وتؤتيهم ما وعدتهم على السنة رسلك لأنهم لم يتيقنوا استحقاقهم لتلك الكرامة، فسألوه أن يجعلهم مستحقين لها، وقيل: إنما سألوه تعجيل ما وعدهم من النصر على الأعداء، وقالوا: قد علمنا أنك لا تخلف وعدك من النصر، ولكن لا صبر لنا على حلمك فعجل خزيهم وانصرنا عليهم.

قوله تعالى: ﴿فاستجاب لهم ربهم أنى﴾ أي: بأني، ﴿لا أضيع﴾، لا أحبط، ﴿عمل عامل منكم﴾، أيها المؤمنون ﴿من ذكر أو أنى﴾ قال مجاهد: قالت أم سلمة يا رسول الله إني أسمع الله يذكر كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ الرجال في الهجرة ولا يذكر النساء، فأنزل الله تعالى في هذه الآية، ﴿بعضكم من بعض﴾، قال

رسول الله ﷺ فخرجوا مهاجرين إلى الله ورسوله وتركوا أوطانهم وعشائرهم لله ورسوله ومعنى ﴿في سبيلي﴾ في طاعتي وديني وابتغاء مرضاتي وهم المهاجرون الذين أخرجهم المشركون من مكة فهاجر طائفة إلى الحبشة وطائفة إلى المدينة قبل هجرة رسول الله ﷺ وبعد هجرته فلما استقر رسول الله ﷺ في المدينة رجع إليه من كان هاجر إلى الحبشة من المسلمين ﴿وقاتلوا وقتلوا﴾ يعني وقاتلوا العدو واستشهدوا في جهاد الكفار ﴿لأكفروا عنهم سيئاتهم﴾ يعني لأمحون عنهم ذنوبهم ولأغفرنا لهم ﴿ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله﴾ يعني ذلك الذي أعطاهم من تكفير سيئاتهم وإدخالهم الجنة ثواباً من فضل الله وإحسانه إليهم ﴿والله عنده حسن الثواب﴾ وهذا تأكيد لكون ذلك الثواب الذي أعطاهم من فضله وكرمه لأنه جواد كريم روى ابن جرير الطبري بسنده عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول ثلثة تدخل الجنة فقراء المهاجرين الذين يتقى بهم المكاره إذا أمروا سمعوا وأطاعوا وإن كانت لرجل منهم حاجة إلى سلطان لم تقض له حتى يموت وهي في صدره. فإن الله عز وجل يدعو يوم القيامة الجنة فتأتي بزخرفها وزينتها فيقول أين عبادي الذين قاتلوا في سبيلي وقتلوا وأوذوا في سبيلي وجاهدوا في سبيلي، ادخلوا الجنة فيدخلونها بغير عذاب ولا حساب وتأتي الملائكة فيسجدون ويقولون: ربنا نحن نسبح لك الليل والنهار ونقدس لك؛ من هؤلاء الذين آثرتهم علينا؟ فيقول الرب عز وجل: هؤلاء عبادي الذين قاتلوا في سبيلي وأوذوا في سبيلي فتدخل الملائكة عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار. قال بعضهم في هذه الآية تعليم من الله تعالى لعباده كيف يدعى وكيف يبتهل إليه ويتضرع وتكرير ربنا من باب الابتهاال وإعلام بما يوجب حسن الإجابة. وقال جعفر الصادق من حزه أمر فقال خمس مرات: ربنا نجّاه الله تعالى مما يخاف وأعطاه ما أراد وقرأ هذه الآية وقال الحسن حكى الله عنهم أنهم قالوا خمس مرات ربنا ثم أخبر أنه استجاب لهم.

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾

قوله عز وجل: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ نزلت في المشركين وذلك أنهم كانوا في رخاء ولين من العيش يتجرون ويتنعمون فقال بعض المؤمنين: إن أعداء الله فيما نرى من الخير ونحن في الجهد فأنزل

الكلبي: في الدين والنصرة والموالة، وقيل: كلكم من آدم وحواء، وقال الضحاك: رجالكم شكل نسائكم ونسائكم شكل رجالكم في الطاعة، كما قال: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ [التوبة: ٧١]، ﴿فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي﴾، أي: في طاعتي وديني، وهم المهاجرون الذين أخرجهم المشركون من مكة، ﴿وقاتلوا وقتلوا﴾، قرأ ابن عامر وابن كثير ﴿قاتلوا﴾ بالتشديد، وقال الحسن: يعني أنهم قطعوا في المعركة، والآخرون بالتخفيف، وقرأ أكثر القراء: ﴿وقاتلوا وقتلوا﴾ يريد أنهم قاتلوا العاوثم أنهم قتلوا، وقرأ حمزة والكسائي «قتلوا وقتلوا» وله وجهان، أحدهما: معناه وقاتل من بقي منهم، ومعنى قوله: ﴿وقتلوا﴾ أي: قُتل بعضهم، تقول العرب: قتلنا بني فلان وإنما قتلوا بعضهم، والوجه الآخر ﴿وقتلوا﴾ وقد قاتلوا، ﴿لأكفروا عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله﴾، نصب على القطع قاله الكسائي، وقال المبرد: مصدر، أي: لأثيبهم ثواباً، ﴿والله عنده حسن الثواب﴾.

قوله عز وجل: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾، نزلت في المشركين، وذلك أنهم كانوا في رخاء ولين من العيش يتجرون ويتنعمون، فقال بعض المؤمنين: إن أعداء الله تعالى فيما نرى من الخير، ونحن في

الله تعالى هذه الآية لا يغرنك الخطاب لرسول الله ﷺ والمراد به غيره من الأمة لأنه ﷺ لم يغتر قط والمعنى لا يغرنك أيها السامع تقلب الذين كفروا في البلاد يعني ضربهم في الأرض وتصرفهم في البلاد للتجارات وطلب الأرباح والمكاسب ﴿متاع قليل﴾ أي ذلك متاع قليل وبلغة فانية ونعمة زائلة ﴿ثم مأواهم﴾ يعني مصيرهم في الآخرة ﴿جهنم وبئس المهاد﴾ أي وبئس الفراش هي: قوله تعالى: ﴿ولكن الذين اتقوا ربهم﴾ فيما أمرهم به من العمل بطاعته واتباع مرضاته واجتناب ما نهاهم عنه من معاصيه ﴿لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاً﴾ أي جزاء وثواباً والنزل ما يهيا للضيف عند قدومه ﴿من عند الله﴾ يعني من فضل الله وكرمه وإحسانه ﴿وما عند الله﴾ يعني من الخير والكرامة والنعيم الدائم الذي لا ينقطع ﴿خير للأبرار﴾ يعني ذلك الفضل والنعمة التي أعدها الله للمطيعين الأبرار خير مما يتقلب فيه هؤلاء الكفار من نعيم الدنيا ومتاعها فإنه قليل زائل (ق) عن عمر بن الخطاب قال: جئت رسول الله ﷺ فإذا هو في مشربة وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء وتحت رأسه وسادة من آدم حشوها ليف وعند رجله قرظ مصبور وعند رأسه أهب معلقة فرأيت أثر الحصر في جنبه فبكيت فقال: ما يبكيك؟ قلت: يا رسول الله إن كسرى وقيصر فيما هم وأنت رسول الله فقال أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة. لفظ البخاري المشربة الغرفة والعلية والمشارب العلالي. قوله عز وجل: .

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَآيَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم﴾ قال ابن عباس نزلت في النجاشي ملك الحبشة واسمه أصحمة ومعناه بالعربية عطية وذلك إنه لما مات نعا جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ في اليوم

الجهد؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد﴾، وضربهم في الأرض وتصرفهم في البلاد للتجارات وأنواع المكاسب، فالخطاب للنبي ﷺ والمراد منه غيره.

﴿متاع قليل﴾، أي: هو متاع قليل، بلغة فانية ومُتعة زائلة، ﴿ثم مأواهم﴾، مصيرهم، ﴿جهنم وبئس المهاد﴾، الفراش.

﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاً﴾، جزاء وثواباً، ﴿من عند الله﴾، نصب على التفسير، وقيل: جعل ذلك نزلاً، ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾، من متاع الدنيا أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد العزيز بن عبد الله أنا سليمان بن بلال عن يحيى بن سعيد عن عبيد بن جبير أنه سمع ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: جئت فإذا رسول الله ﷺ في مشربة وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من آدم حشوها ليف، وإن عند رجله قرظاً مصبوراً وعند رأسه أهب معلقة فرأيت أثر الحصر في جنبه، فبكيت فقال: «ما يبكيك؟» فقلت: يا رسول الله إن كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت رسول الله؟ فقال: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟».

قوله عز وجل: ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله﴾ الآية، قال ابن عباس وجابر وأنس وقتادة: نزلت في النجاشي ملك الحبشة، واسمه أصحمة وهو بالعربية عطية، وذلك أنه لما مات نعا جبريل عليه السلام لرسول

الذي مات فيه فقال رسول الله ﷺ لأصحابه اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم النجاشي . فخرج إلى البقيع وكشف له إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشي فصلّى عليه وكبر أربع تكبيرات واستغفر له فقال المنافقون انظروا إلى هذا يصلي على عُلج حبشي نصراني لم يره قط وليس على دينه فأنزل الله تعالى هذه الآية وقيل نزلت في أربعين رجلاً من أهل نجران واثنتين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى عليه السلام فآمنوا بالنبي ﷺ وصدقوه . وقيل نزلت في عبدالله بن سلام وأصحابه الذين آمنوا بالنبي ﷺ وقيل نزلت في جميع مؤمني أهل الكتاب وهذا القول أولى لأنه لما ذكر أحوال الكفار وأحوال أهل الكتاب وأن مصيرهم إلى النار ذكر حال من آمن من أهل الكتاب وأن مصيرهم إلى الجنة فقال تعالى: ﴿وإن من أهل الكتاب﴾ يعني بعض اليهود والنصارى أهل التوراة والإنجيل لمن يؤمن بالله يعني من يقر بوحداية الله وما أنزل إليكم يعني ويؤمن بما أنزل إليكم أيها المؤمنون يعني القرآن وما أنزل إليهم يعني من الكتب المنزلة مثل التوراة والإنجيل والزبور ﴿خاشعين لله﴾ يعني خاضعين لله متواضعين له غير مستكبرين ﴿لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً﴾ يعني لا يغيرون كتبهم ولا يحرفونها ولا يكتُمون صفة محمد ﷺ لأجل الرياسة والمآكل والرشى كما يفعله غيرهم من رؤساء اليهود ﴿أولئك﴾ إشارة إلى أن من هذه صفته من أهل الكتاب ﴿لهم أجرهم عند ربهم﴾ يعني لهم ثواب أعمالهم التي عملوها لله ذلك الثواب لهم ذخّر عند الله يوفيه إليهم يوم القيامة ﴿إن الله سريع الحساب﴾ يعني إنه تعالى عالم بجميع المعلومات لا يخفى عليه شيء من أعمال عباده فيجازي كل أحد على قدر عمله لأنه سريع الحساب قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا﴾ يعني على دينكم الذي أنتم عليه ولا تدعوه لشدة ولا لغيرها وأصل الصبر حبس النفس عما لا يقتضيه شرع ولا عقل . والصبر لفظ عام تحته أنواع من المعاني قال بعض الحكماء: الصبر على ثلاثة أقسام ترك الشكوى وقبول القضاء وصدق الرضا . وقيل في معنى الآية اصبروا على طاعة الله وقيل على أداء الفرائض وقيل على تلاوة القرآن وقيل اصبروا على أمر الله وقيل اصبروا على البلاء وقيل اصبروا على الجهاد وقيل اصبروا على أحكام الكتاب والسنة ﴿وصابروا﴾ يعني الكفار والأعداء وجاهدوهم . ﴿ورابطوا﴾ يعني وداوموا على جهاد المشركين

الله ﷻ في اليوم الذي مات فيه ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه اخرجوا فصلّوا على أخ لكم مات بغير أرضكم ، النجاشي ، فخرج إلى البقيع وكشف له إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشي وصلى عليه وكبر أربع تكبيرات ، واستغفر له ، فقال المنافقون : انظروا إلى هذا يصلي على عُلج حبشي نصراني لم يره قط ، وليس على دينه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وقال عطاء : نزلت في أهل نجران أربعين رجلاً اثنان وثلاثون من أرض الحبشة وثمانية من الروم ، كانوا على دين عيسى عليه السلام ، فآمنوا بالنبي ﷺ ، وقال ابن جريج : نزلت في عبد الله بن سلام وأصحابه ، وقال مجاهد : نزلت في مؤمني أهل الكتاب كلهم ، ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله ﴾ ، ﴿ وما أنزل إليكم ﴾ ، يعني : القرآن ، ﴿ وما أنزل إليهم ﴾ ، يعني : التوراة والإنجيل ، ﴿ خاشعين لله ﴾ خاضعين متواضعين لله ، ﴿ لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً ﴾ ، يعني : لا يحرفون كتبهم ولا يكتُمون صفة محمد ﷺ لأجل الرياسة والمآكلة ، كفعل غيرهم من رؤساء اليهود ، ﴿ أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب ﴾ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ﴾ ، قال الحسن : اصبروا على دينكم ولا تدعوه لشدة ولا رخاء ، وقال قتادة : اصبروا على طاعة الله ، وقال الضحاك ومقاتل بن سليمان : على أمر الله ، وقال مقاتل بن حيان : على أداء فرائض الله تعالى ، وقال زيد بن أسلم : على الجهاد ، وقال الكلبي : على البلاء ، وصابروا يعني : على قتال الكفار ، ورابطوا يعني : المشركين ، قال أبو عبيدة : أي دافعوا وأثبتوا ، والربط الشد ، وأصل الرباط أن يربط خيولهم ، وهؤلاء خيولهم ، ثم قيل : ذلك لكم مقيم في ثغر يدفع عن وراءه ، وإن لم يكن له مركب ، أخبرنا

واثبتوا عليه. وأصل المراقبة أن يربط هؤلاء خيولهم. وهؤلاء خيولهم، بحيث يكون كل من الخصمين مستعداً لقتال الآخر. ثم قيل لكل مقيم بشعر يدفع عمن وراءه مرابط، وإن لم يكن له مركب مربوط (ق) عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها والروحة يروحها العبد في سبيل الله والغدوة خير من الدنيا وما عليها». (م) عن سلمان الخير قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات فيه جرى عليه عمله الذي كان يعمل، وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان» وقيل المراد بالمراقبة انتظار الصلاة بعد الصلاة قال أبو سلمة بن عبد الرحمن: لم يكن في زمن النبي ﷺ غزو يرباط فيه ولكنه انتظار الصلاة خلف الصلاة ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات قالوا بلى يا رسول الله قال إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة. فذلكم الرباط فذلكم الرباط» أخرجه مسلم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ قال محمد بن كعب القرظي يقول الله عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ غداً إذا لقيتموني وقال أهل المعاني في معنى هذه الآية يا أيها الذين آمنوا اصبروا على بلائي وصابروا على نعمائي وربطوا على مجاهدة أعدائي واتقوا محبة سوائي لعلكم تفلحون بلقائي وقيل اصبروا على النعماء وصابروا على البأساء والضراء وربطوا في دار الأعداء واتقوا إله الأرض والسماء لعلكم تفلحون في دار البقاء وقيل اصبروا على الدنيا ومحنها رجاء السلامة وصابروا عند القتال بالثبات والاستقامة وربطوا على مجاهدة النفس اللوامة واتقوا الندامة لعلكم تفلحون غداً في دار الكرامة والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد الله بن بشير أنه سمع أبا النصر أنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن أبي حازم عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ قال: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، ولروحة يروحها العبد في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها». أخبرنا أبو الحسن علي بن يوسف الجويني أخبرنا أبو محمد محمد بن علي بن محمد بن شريك الشافعي أنا يونس بن عبد الأعلى أنا ابن وهب أخبرني عبد الرحمن بن الحارث، أنا أبو عبيدة بن عقبة أنا شرحبيل بن السمط أنا سلمان الخير أن رسول الله ﷺ قال: «من رباط يوماً وليلة في سبيل الله كان له أجر صيام شهر مقيم، ومن مات مرابطاً جرى له مثل ذلك الأجر، وأجرى عليه من الرزق، وأمن من الفتان»، وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن: لم يكن في زمان النبي ﷺ غزو يرباط فيه، ولكنه انتظار الصلاة بعد الصلاة، ودليل هذا التأويل ما أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي أنا زاهر بن أحمد الفقيه أنا أبو إسحق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي أنا أبو مصعب أنا مالك أخبرنا العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم بما يمحو الله الخطايا ويرفع به الدرجات؟ إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط فذلكم الرباط» ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، قال بعض أرباب اللسان: اصبروا على النعماء وصابروا على البأساء والضراء وربطوا في دار الأعداء واتقوا إله الأرض والسماء لعلكم تفلحون في دار البقاء.

فهرس محتويات
الجزء الأول
من تفسير الخازن والبغوي

فهرس المحتويات

١٠٠		الآيتان : ٧٦ ، ٧٥	٣		مقدمة المحقق
١٠١		الآيات : ٧٧ - ٧٩			تفسير سورة الفاتحة
١٠٣		الآيتان : ٨٠ ، ٨١	٢١		الآيات : ١ - ٧
١٠٤		الآيات : ٨٢ - ٨٤			تفسير سورة البقرة
١٠٥		الآية : ٨٥	٣٤		الآيات : ١ - ٣
١٠٧		الآيات : ٨٦ - ٨٨	٤١		الآية : ٤
١٠٩		الآيتان : ٨٩ ، ٩٠	٤١		الآيات : ٥ - ٨
١١٠		الآيات : ٩١ - ٩٣	٤٣		الآية : ٩
١١١		الآيات : ٩٤ - ٩٦	٤٤		الآيات : ١٠ - ١٤
١١٢		الآية : ٩٧	٤٧		الآيات : ١٥ - ١٩
١١٤		الآيات : ٩٨ - ١٠٠	٥٠		الآيات : ٢٠ - ٢٣
١١٥		الآيتان : ١٠١ ، ١٠٢	٥٣		الآيتان : ٢٤ ، ٢٥
١٢٢		الآيتان : ١٠٣ ، ١٠٤	٥٦		الآيتان : ٢٦ ، ٢٧
١٢٣		الآيتان : ١٠٥ ، ١٠٦	٥٨		الآيتان : ٢٨ ، ٢٩
١٢٤		الآيتان : ١٠٧ ، ١٠٨	٥٩		الآيات : ٣٠ - ٣٢
١٢٧		الآيتان : ١٠٩ ، ١١٠	٦٣		الآيات : ٣٣ - ٣٥
١٢٩		الآيات : ١١١ - ١١٣	٦٥		الآيات : ٣٦ - ٣٨
١٣٠		الآيتان : ١١٤ ، ١١٥	٦٩		الآيات : ٣٩ - ٤٤
١٣٣		الآية : ١١٦	٧٣		الآيات : ٤٥ - ٤٩
١٣٤		الآيات : ١١٧ - ١١٩	٧٧		الآية : ٥٠
١٣٥		الآيتان : ١٢٠ ، ١٢١	٧٨		الآيات : ٥١ - ٥٤
١٣٧		الآيات : ١٢٢ - ١٢٤	٨٢		الآيات : ٥٥ - ٥٧
١٣٩		الآية : ١٢٥	٨٤		الآيات : ٥٨ - ٦٠
١٤٣		الآية : ١٢٦	٨٦		الآية : ٦١
١٤٤		الآية : ١٢٧	٨٨		الآيتان : ٦٢ ، ٦٣
١٤٦		الآيتان : ١٢٨ ، ١٢٩	٩٠		الآيات : ٦٤ - ٦٧
١٤٩		الآيتان : ١٣٠ ، ١٣١	٩٤		الآيات : ٦٨ - ٧١
١٥٠		الآيات : ١٣٢ - ١٣٥	٩٥		الآيات : ٧٢ - ٧٤

٢٢٦	 الآية: ١٩٦	١٥٣	 الآية: ١٣٦، ١٣٧
٢٣٥	 الآية: ١٩٧	١٥٤	 الآية: ١٣٨ - ١٤٠
٢٣٩	 الآية: ١٩٨	١٥٦	 الآية: ١٤١ - ١٤٣
٢٤٢	 الآية: ١٩٩	١٥٩	 الآية: ١٤٤
٢٤٤	 الآية: ٢٠٠	١٦٢	 الآية: ١٤٥
٢٤٥	 الآية: ٢٠١	١٦٣	 الآية: ١٤٦ - ١٤٨
٢٤٦	 الآية: ٢٠٢، ٢٠٣	١٦٤	 الآية: ١٤٩، ١٥٠
٢٤٩	 الآية: ٢٠٤	١٦٦	 الآية: ١٥١، ١٥٢
٢٥٠	 الآية: ٢٠٥ - ٢٠٧	١٦٨	 الآية: ١٥٣، ١٥٤
٢٥٥	 الآية: ٢٠٨، ٢٠٩	١٦٩	 الآية: ١٥٥، ١٥٦
٢٥٧	 الآية: ٢١٠، ٢١١	١٧١	 الآية: ١٥٧
٢٥٩	 الآية: ٢١٢	١٧٣	 الآية: ١٥٨
٢٦٠	 الآية: ٢١٣	١٧٦	 الآية: ١٥٩ - ١٦٣
٢٦٣	 الآية: ٢١٤	١٧٨	 الآية: ١٦٤
٢٦٤	 الآية: ٢١٥، ٢١٦	١٨٠	 الآية: ١٦٥
٢٦٧	 الآية: ٢١٧، ٢١٨	١٨١	 الآية: ١٦٦، ١٦٧
٢٦٩	 الآية: ٢١٩	١٨٢	 الآية: ١٦٨ - ١٧٠
٢٧٦	 الآية: ٢٢٠	١٨٤	 الآية: ١٧١، ١٧٢
٢٧٨	 الآية: ٢٢١	١٨٥	 الآية: ١٧٣
٢٨٠	 الآية: ٢٢٢	١٨٨	 الآية: ١٧٤، ١٧٥
٢٨٣	 الآية: ٢٢٣	١٨٩	 الآية: ١٧٦، ١٧٧
٢٨٥	 الآية: ٢٢٤	١٩٢	 الآية: ١٧٨
٢٨٦	 الآية: ٢٢٥	١٩٦	 الآية: ١٧٩، ١٨٠
٢٨٨	 الآية: ٢٢٦	١٩٨	 الآية: ١٨١
٢٩٠	 الآية: ٢٢٧، ٢٢٨	١٩٨	 الآية: ١٨٢، ١٨٣
٢٩٥	 الآية: ٢٢٩	٢٠٠	 الآية: ١٨٤
٢٩٩	 الآية: ٢٣٠	٢٠٢	 الآية: ١٨٥
٣٠١	 الآية: ٢٣١	٢٠٩	 الآية: ١٨٦
٣٠٢	 الآية: ٢٣٢	٢١٢	 الآية: ١٨٧
٣٠٣	 الآية: ٢٣٣	٢١٧	 الآية: ١٨٨
٣٠٧	 الآية: ٢٣٤	٢١٨	 الآية: ١٨٩
٣١٠	 الآية: ٢٣٥	٢٢٠	 الآية: ١٩٠
٣١٢	 الآية: ٢٣٦	٢٢١	 الآية: ١٩١ - ١٩٣
٣١٥	 الآية: ٢٣٧	٢٢٣	 الآية: ١٩٤
٣١٦	 الآية: ٢٣٨	٢٢٤	 الآية: ١٩٥

تفسير سورة آل عمران	٣٢٠		الآية: ٢٣٩
..... الآية: ٢، ١	٣٢١		الآية: ٢٤٠
..... الآيات: ٣-٦	٣٢٢		الآيات: ٢٤١-٢٤٣
..... الآية: ٧	٣٢٥		الآيات: ٢٤٤، ٢٤٥
..... الآيات: ٨-١١	٣٢٧		الآية: ٢٤٦
..... الآيات: ١٢، ١٣	٣٣٠		الآية: ٢٤٧
..... الآية: ١٤	٣٣٢		الآية: ٢٤٨
..... الآية: ١٥	٣٣٥		الآية: ٢٤٩
..... الآيات: ١٦-١٨	٣٣٦		الآية: ٢٥٠
..... الآية: ١٩	٣٣٧		الآية: ٢٥١
..... الآية: ٢٠	٣٤٣		الآيات: ٢٥٢، ٢٥٣
..... الآيات: ٢١-٢٣	٣٤٥		الآيات: ٢٥٤، ٢٥٥
..... الآيات: ٢٤-٢٦	٣٥٠		الآية: ٢٥٦
..... الآية: ٢٧	٣٥٢		الآيات: ٢٥٧، ٢٥٨
..... الآية: ٢٨	٣٥٥		الآية: ٢٥٩
..... الآيات: ٢٩، ٣٠	٣٦٢		الآية: ٢٦٠
..... الآيات: ٣١، ٣٢	٣٦٦		الآيات: ٢٦١، ٢٦٢
..... الآيات: ٣٣-٣٥	٣٦٨		الآيات: ٢٦٣، ٢٦٤
..... الآية: ٣٦	٣٧٠		الآيات: ٢٦٥، ٢٦٦
..... الآية: ٣٧	٣٧٢		الآية: ٢٦٧
..... الآيات: ٣٨، ٣٩	٣٧٥		الآيات: ٢٦٨، ٢٦٩
..... الآية: ٤٠	٣٧٧		الآيات: ٢٧٠، ٢٧١
..... الآيات: ٤١، ٤٢	٣٨٠		الآية: ٢٧٢
..... الآيات: ٤٣-٤٥	٣٨١		الآية: ٢٧٣
..... الآيات: ٤٦-٤٨	٣٨٣		الآية: ٢٧٤
..... الآية: ٤٩	٣٨٤		الآية: ٢٧٥
..... الآيات: ٥٠، ٥١	٣٨٨		الآية: ٢٧٦
..... الآية: ٥٢	٣٨٩		الآيات: ٢٧٧، ٢٧٨
..... الآيات: ٥٣، ٥٤	٣٩٠		الآيات: ٢٧٩، ٢٨٠
..... الآية: ٥٥	٣٩٣		الآية: ٢٨١
..... الآيات: ٥٦-٥٩	٣٩٤		الآية: ٢٨٢
..... الآيات: ٦٠، ٦١	٣٩٩		الآية: ٢٨٣
..... الآيات: ٦٢-٦٤	٤٠٠		الآية: ٢٨٤
..... الآيات: ٦٥، ٦٦	٤٠٤		الآية: ٢٨٥
..... الآيات: ٦٧، ٦٨	٤٠٥		الآية: ٢٨٦

٥٤٤	 الآية: ١٣٦	٤٧٤	 الآيات: ٦٩ - ٧٢
٥٤٥	 الآيتان: ١٣٧، ١٣٨	٤٧٥	 الآية: ٧٣
٥٤٦	 الآيتان: ١٣٩، ١٤٠	٤٧٧	 الآيتان: ٧٤، ٧٥
٥٤٩	 الآيات: ١٤١ - ١٤٣	٤٧٩	 الآيتان: ٧٦، ٧٧
٥٥٠	 الآية: ١٤٤	٤٨١	 الآيتان: ٧٨، ٧٩
٥٥٤	 الآيتان: ١٤٥، ١٤٦	٤٨٤	 الآيتان: ٨٠، ٨١
٥٥٦	 الآيات: ١٤٧ - ١٤٩	٤٨٦	 الآيتان: ٨٢، ٨٣
٥٥٧	 الآيات: ١٥٠ - ١٥٢	٤٨٧	 الآيات: ٨٤ - ٨٦
٥٥٩	 الآية: ١٥٣	٤٨٨	 الآيات: ٨٧ - ٩٠
٥٦١	 الآية: ١٥٤	٤٩٠	 الآيتان: ٩١، ٩٢
٥٦٣	 الآيتان: ١٥٥، ١٥٦	٤٩٣	 الآية: ٩٣
٥٦٤	 الآيات: ١٥٧ - ١٥٩	٤٩٥	 الآيات: ٩٤ - ٩٦
٥٦٦	 الآيتان: ١٦٠، ١٦١	٤٩٧	 الآية: ٩٧
٥٧٠	 الآيات: ١٦٢ - ١٦٥	٥٠٢	 الآيات: ٩٨ - ١٠٠
٥٧٢	 الآيات: ١٦٦ - ١٦٩	٥٠٤	 الآيتان: ١٠١، ١٠٢
٥٧٨	 الآية: ١٧٠	٥٠٦	 الآية: ١٠٣
٥٧٨	 الآيتان: ١٧١، ١٧٢	٥١٤	 الآية: ١٠٤
٥٨٣	 الآيتان: ١٧٣، ١٧٤	٥١٥	 الآيتان: ١٠٥، ١٠٦
٥٨٤	 الآيات: ١٧٥ - ١٧٨	٥١٨	 الآيتان: ١٠٧، ١٠٨
٥٨٦	 الآية: ١٧٩	٥١٩	 الآيتان: ١٠٩، ١١٠
٥٨٨	 الآية: ١٨٠	٥٢٢	 الآيتان: ١١١، ١١٢
٥٨٩	 الآيتان: ١٨١، ١٨٢	٥٢٣	 الآيتان: ١١٣، ١١٤
٥٩١	 الآيات: ١٨٣ - ١٨٥	٥٢٥	 الآيات: ١١٥ - ١١٨
٥٩٤	 الآية: ١٨٦	٥٢٧	 الآيتان: ١١٩، ١٢٠
٥٩٦	 الآيتان: ١٨٧، ١٨٨	٥٢٩	 الآية: ١٢١
٥٩٩	 الآيتان: ١٨٩، ١٩٠	٥٣١	 الآيات: ١٢٢ - ١٢٥
٦٠٠	 الآيتان: ١٩١، ١٩٢	٥٣٥	 الآيات: ١٢٦ - ١٢٨
٦٠٢	 الآيات: ١٩٣ - ١٩٥	٥٣٨	 الآيتان: ١٢٩، ١٣٠
٦٠٤	 الآيات: ١٩٦ - ١٩٨	٥٣٨	 الآيات: ١٣١ - ١٤٣
٦٠٥	 الآيتان: ١٩٩، ٢٠٠	٥٤٢	 الآية: ١٣٥

مؤسسة جولد للطباعة والتصوير



هاتف: ٨٢٨١٥٧-٢-٨٢٧٧٠٢ - ب.ع.ت. بنات

تفسير الخازن

المستنى

لباب التأويل في معاني التنزيل

للإمام علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي

الشهير بالخازن

المتوفى سنة ٧٢٥ هـ

ومعه

تفسير البغوي

المستنى

معالم التنزيل

للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود

الفراء البغوي الشافعي

المتوفى سنة ٥١٦ هـ

ضبطه وصححه

عبد السلام محمد علي شاهين

الجزء السادس

المحتوى

أول سورة ق - آخر سورة الناس

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان
الطبعة الأولى

١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان

ص.ب: ٩٤٢٤/١١ - تلکس: Le 41245 Nasher

هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣

فاکس: ٤٧٨١٣٧٣/١٢١٢ - ٠٠/٩٦١١/٦٠٢١٣٣

سورة ق

(مكية وهي خمس وأربعون آية وثلاثمائة وسبع وخمسون كلمة وألف وأربعمائة وأربعة وتسعون حرفاً).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَوَذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا دَلَّكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كَنْزٌ حَفِيفٌ ﴿٤﴾

قوله عز وجل: ﴿ق﴾ قال ابن عباس: هو قسم وقيل: هو اسم للسورة وقيل اسم من أسماء الله وقيل اسم من أسماء القرآن وقيل هو مفتاح اسمه القدير والقادر والقاهر والقريب والقباض والقدوس والقيوم. وقيل: معناه قضى الأمر أو قضى ما هو كائن. وقيل: هو جبل محيط بالأرض من زمردة خضراء متصلة عروقه بالصخرة التي عليها الأرض والسماء كهيئة القبة وعليه كتفاها وخضرة السماء منه والعالم داخله ولا يعلم ما وراءه إلا الله تعالى ويقال هو من وراء الحجاب الذي تغيب الشمس من ورائه بمسيرة سنة ﴿والقرآن المجيد﴾ أي الشريف الكريم على الله الكثير الخير والبركة واختلفوا في وجوب القسم قيل جوابه محذوف تقديره لتبعثن وقيل جوابه بل عجبوا وقيل ما يلفظ من قول وقيل قد علمنا ومعنى ﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم﴾ إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب وهو أن يخوفهم رجل

سُورَةُ ق

مكية وهي خمس وأربعون آية.

﴿ق﴾ قال ابن عباس: هو قسم، وقيل: هو اسم للسورة، وقيل: هو اسم من أسماء القرآن. وقال القرظي: هو مفتاح اسمه القدير، والقادر والقاهر والقريب والقباض، وقال عكرمة والضحاك: هو جبل محيط بالأرض من زمردة خضراء، منه خضرة السماء والسماء مقببة وعليه كتفاها، ويقال هو وراء الحجاب الذي تغيب الشمس من ورائه بمسيرة سنة، وقيل: معناه قضى الأمر أو قضى ما هو كائن كما قالوا في حم [السجدة: ١] ﴿والقرآن المجيد﴾، الشريف الكريم على الله الكثير الخير واختلفوا في جواب هذا القسم، فقال أهل الكوفة جوابه بل عجبوا وقيل جوابه محذوف، مجازة: والقرآن المجيد لتبعثن. وقيل: جوابه قوله ما يلفظ من قول. وقيل: قد علمنا، وجوابات القسم سبعة أن الشديدة كقوله: ﴿والفجر وليالٍ عشر﴾ [الفجر: ١] ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَلْمرصاد﴾ [الفجر: ١٤] وما النفي كقوله: ﴿والضحى ما ودّعك ربك﴾ [الضحى: ١ و٣]، واللام المفتوحة كقوله: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين﴾ [الحجر: ٩٢] وإن الخفيفة كقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مبين﴾ [الشعراء: ٩٧] ولا كقوله: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت﴾ [النحل: ٣٨]، وقد كقوله تعالى: ﴿والشمس وضحاها قد أفلح من زكّاها﴾ [الشمس: ١ و٩]، وبل كقوله: ﴿والقرآن المجيد﴾.

منهم قد عرفوا وساطته فيهم وعدالته وأمانته وصدقه ﴿فقال الكافرون هذا شيء عجيب﴾ أي معجب غريب ﴿أئذا متنا وكنا تراباً﴾ أي حين نموت ونبلى نبعث وترك ذكر البعث لدلالة الكلام عليه ﴿ذلك رجع بعيد﴾ أي يبعد أن نبعث بعد الموت قال الله تعالى: ﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم﴾ أي ما تأكل الأرض من لحومهم ودمائهم وعظامهم لا يعزب عن علمنا شيء ﴿وعندنا﴾ أي مع علمنا بذلك ﴿كتاب حفيظ﴾ بمعنى محفوظ أي من التبديل والتغيير وقيل حفيظ بمعنى حافظ أي حافظ لعددتهم وأسمائهم ولما تنقص الأرض منهم وهو اللوح المحفوظ وقد أثبت فيه ما يكون.

بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَدٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾

﴿بل كذبوا بالحق﴾ أي بالقرآن ﴿لما جاءهم﴾ قيل: معناه كذبوا به لما جاءهم. وقيل: كذبوا المنذر لما جاءهم ﴿فهم في أمر مريج﴾ أي مختلط ملتبس قيل معنى اختلاط أمرهم قولهم للنبي ﷺ مرة شاعر ومرة ساحر ومرة معلم مجنون ويقولون في القرآن مرة سحر ومرة رجز ومرة مفترى فكان أمرهم مختلطاً ملتبساً عليهم وقيل في هذه الآية من ترك الحق مرج عليه أمره والتبس عليه دينه وقيل ما ترك قوم الحق إلا مرج عليهم أمرهم؛ ثم دلهم على عظيم قدرته فقال تعالى: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها﴾ أي: بغير عمد ﴿وزيناها﴾ أي بالكواكب ﴿وما لها من

﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر﴾، مخوف، ﴿منهم﴾، يعرفون نسبه وصدقه وأمانته، ﴿فقال الكافرون هذا شيء عجيب﴾، غريب.

﴿أئذا متنا وكنا تراباً﴾، نبعث ترك ذكر البعث لدلالة الكلام عليه، ﴿ذلك رجع﴾، أي رد إلى الحياة ﴿بعيد﴾، وغير كائن أي يبعد أن نبعث بعد الموت.

قال الله عز وجل: ﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم﴾، أي ما تأكل من لحومهم ودمائهم وعظامهم لا يعزب عن علمه شيء. قال السدي: هو الموت، يقول: قد علمنا من يموت منهم ومن يبقى، ﴿وعندنا كتاب حفيظ﴾، محفوظ من الشياطين ومن أن يُدس ويتغير، وقيل: حفيظ أي حافظ لعذبته وأسمائهم.

﴿بل كذبوا بالحق﴾، بالقرآن، ﴿لما جاءهم فهم في أمر مريج﴾، مختلط، قال سعيد بن جبير ومجاهد: ملتبس. قال قتادة: في هذه الآية من ترك الحق مرج عليه أمره والتبس عليه دينه. وقال الحسن: ما ترك قوم الحق إلا مرج أمرهم. وذكر الزجاج معنى اختلاط أمرهم، فقال: هو أنهم يقولون للنبي ﷺ، مرة شاعر، ومرة ساحر، ومرة معلم، ويقولون للقرآن مرة سحر، ومرة رجز، ومرة مفترى، فكان أمرهم مختلطاً ملتبساً عليهم، ثم دلهم على قدرته.

فقال: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها﴾، بغير عمد، ﴿وزيناها﴾، بالكواكب، ﴿وما لها من فروج﴾، شقوق وفتوق وصدوع واحدها فرج.

﴿والأرض مددناها﴾، بسطناها على وجه الماء، ﴿وألقينا فيها رواسي﴾، جبلاً ثوابت، ﴿وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج﴾، حسن كريم يبهج به، أي يسر بنظره.

فروج ﴿أي: شقوق وصدوع﴾ والأرض مددناها ﴿أي بسطناها على وجه الماء﴾ وألقينا فيها رواسي ﴿أي: جبلاً ثوابت﴾ وأنبأنا فيها من كل زوج بهيج ﴿أي: من كل صنف حسن كريم يبتهج به أي: يسر به﴾ تبصرة ﴿أي جعلنا ذلك تبصرة﴾ وذكرى ﴿أي تذكرة﴾ لكل عبد منيب ﴿أي: راجع إلى الله تعالى والمعنى ليتبصر ويتذكر به من أناب﴾ ونزلنا من السماء ماء مباركاً ﴿أي كثير الخير والبركة فيه حياة كل شيء وهو المطر﴾ فأنبتنا به ﴿أي: بذلك الماء﴾ جنات ﴿أي بساتين﴾ وحب الحصيد ﴿يعني البر والشعير وسائر الحبوب التي تحصد﴾ والنخل باسقات ﴿أي: طوالاً وقيل مستويات﴾ لها طلع ﴿أي: ثمر يطلع ويظهر ويسمى طلعاً قبل أن يتشقق﴾ نضيد ﴿أي: متراكب بعضه على بعض في أكمامه فإذا تشقق وخرج من أكمامه فليس بنضيد﴾ رزقاً ﴿أي: جعلنا ذلك رزقاً﴾ للعباد وأحيينا به ﴿أي: بالمطر﴾ بلدة ميتاً ﴿فأنبتنا فيها الكلاً والعشب﴾ كذلك الخروج ﴿أي: من القبور أحياء بعد الموت﴾ قوله تعالى:

كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ ﴿١٤﴾ أَفَعِيبْنَا بِالْحَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مِثْلَ ثَوْبٍ نَّسُوسٍ بِهِ نَفْسُهُ وَحَنَ آقَرُّبَ إِلَيْهِ مِّنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾

﴿كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرأس وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة﴾ قيل: كان لوط مرسلًا إلى طائفة من قوم إبراهيم ولذلك قال إخوان لوط ﴿وقوم تبع﴾ هو أبو كرب أسعد تبع الحميري وقد تقدم قصص جمعهم قيل ذم الله عز وجل قوم تبع ولم يذمه وذم فرعون لأنه هو المكذب المستخف لقومه فلماذا خص بالذكر دونهم ﴿كل كذب الرسل فحق وعيد﴾ أي: كل هؤلاء المذكورين كذبوا رسلهم فحق وعيدي أي وجب لهم عذابي

﴿تبصرة﴾، أي جعلنا ذلك تبصرة، ﴿وذكرى﴾، أي تبصيراً وتذكيراً، ﴿لكل عبد منيب﴾، أي ليصبروا به ويتذكروا به.

﴿ونزلنا من السماء ماء مباركاً﴾، كثير الخير وفيه حياة كل شيء وهو المطر، ﴿فأنبتنا به جنات وحب الحصيد﴾، يعني البر والشعير وسائر الحبوب التي تحصد فأضاف الحب إلى الحصيد، وهما واحد لاختلاف اللفظين، كما يقال: مسجد الجامع وربيع الأول. وقيل: حب الحصيد أي وحب الثبت الحصيد.

﴿والنخل باسقات﴾، قال مجاهد وعكرمة وقتادة: طوالاً، يقال: بسقت النخلة بسوقاً إذا طالت. وقال سعيد بن جبیر: مستويات. ﴿لها طلع﴾ ثمر وحمل، سُمي بذلك لأنه يطلع، والطلع أول ما يظهر قبل أن ينشق، ﴿نضيد﴾، متراكب متراكم منضود بعضه على بعض في أكمامه، فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد.

﴿رزقاً للعباد﴾، أي جعلناها رزقاً للعباد، ﴿وأحيينا به﴾، أي بالمطر، ﴿بلدة ميتاً﴾، أنبتنا فيها الكلاً، ﴿كذلك الخروج﴾، من القبور.

قوله عز وجل: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾، وهو تبع الحميري، واسمه أسعد أبو كرب، قال قتادة: ذم الله قومه ولم يذمه، ذكرنا قصته في سورة الدخان. ﴿كل كذب الرسل﴾، أي كل من هؤلاء المذكورين كذب الرسل، ﴿فحق وعيد﴾، وجب لهم عذابي ثم أنزل جواباً لقولهم ذلك رجع بعيد.

وقيل فحق وعيدي للرسول بالنصر ﴿أفعمينا بالخلق الأول﴾ هذا جواب لقولهم ذلك رجع بعيد والمعنى أعجزنا حين خلقناهم أولاً فنعياً بالإعادة ثانياً وذلك لأنهم اعترفوا بالخلق الأول وأنكروا البعث ﴿بل هم في لبس﴾ أي شك ﴿من خلق جديد﴾ وهو البعث.

قوله عز وجل: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه﴾ أي ما يحدث به قلبه فلا تخفى علينا سرائره وضمائره ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ بيان لكمال علمه أي نحن أعلم به منه والوليد العرق الذي يجري فيه الدم ويصل إلى كل جزء من أجزاء البدن وهو بين الحلقوم والعلباوين ومعنى الآية أن أجزاء الإنسان وأبعاضه يحجب بعضها بعضاً ولا يحجب عن علم الله شيء. وقيل: يحتمل أن يكون المعنى ونحن أقرب إليه بنفوذ قدرتنا فيه ويجري فيه أمرنا كما يجري الدم في عروقه ﴿إذ يتلقى المتلقيان﴾ أي يتلقن الملكان الموكلان به وبعمله ومنطقه فيكتبانه ويحفظانه عليه ﴿عن اليمين وعن الشمال﴾ يعني أن أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله فصاحب اليمين يكتب الحسنات وصاحب الشمال يكتب السيئات ﴿قعيد﴾ أي قاعد وكل واحد منهما قعيد فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر. وقيل: أراد بالقعيد الملازم الذي لا يبرح ﴿ما يلفظ من قول﴾ أي ما يتكلم من كلام يخرج من فيه ﴿إلا لديه رقيب﴾ أي حافظ ﴿عتيد﴾ أي حاضر أينما كان سوى وقت الغائط وعند جماعة فإنهما يتأخران عنه فلا يجوز للإنسان أن يتكلم في هاتين الحالتين حتى لا يؤدي الملائكة بدنوهما منه وهو على تلك الحالة حتى يكتب ما يتكلم به أنهما يكتبان عليه كل شيء يتكلم به حتى أتيته في مرضه وقيل لا يكتبان إلا ما له أجر وثواب أو عليه وزر وعقاب. وقيل: إن مجلسهما

﴿أفعمينا بالخلق الأول﴾، يعني أعجزنا حين خلقناهم أولاً فنعياً بالإعادة وهذا تقرير لهم لأنهم اعترفوا بالخلق الأول وأنكروا البعث، ويقال لكل من عجز عن شيء عيى به. ﴿بل هم في لبس﴾، أي في شك، ﴿من خلق جديد﴾، وهو البعث.

﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه﴾، يحدث به قلبه فلا يخفى علينا سرائره وضمائره، ﴿ونحن أقرب إليه﴾، أعلم به، ﴿من حبل الوريد﴾، لأن أبعاضه وأجزاءه يحجب بعضها بعضاً، ولا يحجب علم الله شيء وحبل الوريد عرق العنق، وهو عرق بين الحلقوم والعلباوين، يتفرق في سائر البدن، والحبل هو الوريد، فاضيف إلى نفسه لاختلاف اللفظين.

﴿إذ يتلقى المتلقيان﴾، إذ يتلقى ويأخذ الملكان الموكلان بالإنسان عمله ومنطقه يحفظانه ويكتبانه، ﴿عن اليمين وعن الشمال﴾، أي أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله، فالذي عن اليمين يكتب الحسنات، والذي عن الشمال يكتب السيئات. ﴿قعيد﴾، أي قاعد، ولم يقل قعيدان لأنه أراد عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، فاكتفى بأحدهما عن الآخر، هذا قول أهل البصرة، وقال أهل الكوفة: أراد قعوداً كالرسول يجعل للثنين والجمع، كما قال الله تعالى في الاثنين: ﴿فقولا إنا رسول رب العالمين﴾ [الشعراء: ١٦]، قيل: أراد بالقعيد الملازم الذي لا يبرح، لا القاعد الذي هو ضد القائم. قال مجاهد: القعيد الرصيد.

﴿ما يلفظ من قول﴾، ما يتكلم من كلام فيلفظه أي يرميه من فيه، ﴿إلا لديه رقيب﴾، حافظ، ﴿عتيد﴾، حاضر أينما كان. قال الحسن: إن الملائكة يجتنبون الإنسان على حالين عند غائطه وعند جماعه. وقال مجاهد يكتبان عليه حتى أتيته في مرضه. وقال عكرمة: لا يكتبان إلا ما يؤثر عليه أو يؤزر فيه. وقال الضحاك: مجلسهما تحت الشعر على الحنك، ومثله عن الحسن، وكان الحسن يعجبه أن ينظف عنقه. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا الحسين بن محمد بن الحسين الدينوري ثنا إسماعيل بن جعفر بن حمدان ثنا الفضل بن

تحت الشعر على الحنك وكان الحسن البصري يعجبه أن ينظف عنقه روى البغوي بإسناد الثعلبي . عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ كاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشراً وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر . قوله تعالى :

وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَيْنِي ﴿٢٤﴾

﴿وجاءت سكرة الموت﴾ أي غمرته وشدته التي تغشى الإنسان وتغلب على عقله ﴿بالحق﴾ أي بحقيقة الموت وقيل بالحق من أمر الآخرة حتى يتبينه الإنسان ويراه بالعيان وقيل بما يؤول إليه أمر الإنسان من السعادة والشقاوة ﴿ذلك ما كنت منه تحيد﴾ أي يقال لمن جاءته سكرة الموت: ذلك الذي كنت عنه تميل . وقيل: تهرب وقال ابن عباس: تكره ﴿ونفخ في الصور﴾ يعني نفخة البعث ﴿ذلك يوم الوعيد﴾ أي ذلك اليوم الذي وعد الله الكفار أن يعذبهم فيه ﴿وجاءت﴾ أي في ذلك اليوم ﴿كل نفس معها سائق﴾ أي يسوقها إلى المحشر ﴿وشهيد﴾ أي يشهد عليها بما

عباس بن مهران ثنا طالوت ثنا حماد بن سلمة أنا جعفر بن الزبير عن القاسم بن محمد عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «كاتب الحسنات على يمين الرجل، وكاتب السيئات على يسار الرجل، وكاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات، فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشراً، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر».

﴿وجاءت سكرة الموت﴾، غمرته وشدته التي تغشى الإنسان وتغلب على عقله، ﴿بالحق﴾، أي بحقيقة الموت، وقيل: بالحق من أمر الآخرة حتى يتبينه الإنسان ويراه بالعيان. وقيل: بما يؤل إليه أمر الإنسان من السعادة والشقاوة. ويقال: لمن جاءته سكرة الموت، ﴿ذلك ما كنت منه تحيد﴾، تميل، قال الحسن: تهرب. قال ابن عباس: تكره، وأصل الحيد الميل، يقال: حدث عن الشيء أحيد حيداً ومحيداً إذا ملت عنه.

﴿ونفخ في الصور﴾، يعني نفخة البعث، ﴿ذلك يوم الوعيد﴾، أي ذلك اليوم يوم الوعيد الذي وعده الله للكفار أن يعذبهم فيه. قال مقاتل: يعني بالوعيد العذاب أي يوم وقوع الوعيد.

﴿وجاءت﴾، ذلك اليوم، ﴿كل نفس معها سائق﴾، يسوقها إلى المحشر، ﴿وشهيد﴾، يشهد عليها بما عملت، وهو عمله، قال الضحاك: السائق من الملائكة والشاهد من أنفسهم الأيدي والأرجل، وهي رواية العوفي عن ابن عباس. وقال الآخرون: هما جميعاً من الملائكة.

فيقول الله لها: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا﴾، اليوم في الدنيا، ﴿فكشفنا عنك غطاءك﴾، الذي كان في الدنيا على قلبك وسمعك وبصرك، ﴿فبصرك اليوم حديد﴾، نافذ تبصر ما كنت تنكر في الدنيا. ورؤي عن مجاهد قال: يعني نظرك إلى لسان ميزانك حين توزن حسناتك وسيئاتك.

﴿وقال قرينه﴾، الملك الموكل به، ﴿هذا ما لدي عتيد﴾، معد محضر، وقيل: ﴿ما﴾ بمعنى (من)، وقال مجاهد: يقول هذا الذي وكلتني به من ابن آدم حاضر عندي قد أحضرته وأحضرت ديوان أعماله.

فيقول الله عز وجل لقرينه: ﴿ألقيا في جهنم﴾، هذا خطاب للواحد بلفظ التثنية على عادة العرب، يقولون:

عملت. قال ابن عباس: السائق من الملائكة والشاهد من أنفسهم الأيدي والأرجل فيقول الله تعالى لصاحب تلك النفس ﴿لقد كنت في غفلة من هذا﴾ أي من هذا اليوم في الدنيا ﴿فكشفنا عنك غطاءك﴾ أي الذي كان على قلبك وسمعك وبصرك في الدنيا ﴿فبصرك اليوم حديد﴾ أي قوي ثابت نافذ تبصر ما كنت تتكلم به في الدنيا. وقيل: ترى ما كان محجوباً عنك وقيل نظرك إلى لسان ميزانك حين توزن حسناتك وسيئاتك ﴿وقال قرينه﴾ يعني الملك الموكل به ﴿هذا ما لدي﴾ أي عندي ﴿عتيد﴾ أي معد محضر. وقيل: يقول الملك هذا الذي وكلتني به من بني آدم قد أحضرته وأحضرت ديوان عمله ﴿ألقيا في جهنم﴾ أي يقول الله تعالى لقرينه وقيل هذا أمر للسائق والشهيد ﴿كل كفار﴾ أي شديد الكفر ﴿عتيد﴾ أي عاص معرض عن الحق معاند لله فيما أمره به.

مَنَاجٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَفْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴿٣٠﴾

﴿منافع للخير﴾ أي للزكاة المفروضة وكل حق وجب عليه في ماله ﴿معتد﴾ أي ظالم لا يقر بتوحيد الله ﴿مریب﴾ أي: شاك في التوحيد ﴿الذي جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه في العذاب الشديد﴾ يعني النار ﴿قال قرينه﴾ يعني الشيطان الذي قبض لهذا الكافر ﴿ربنا ما أطفئته﴾ قيل: هذا جواب لكلام مقدر وهو أن الكافر حين يلقي في النار يقول: ربنا أطفاني شيطاني فيقول الشيطان ربنا ما أطفئته أي ما أضللتته وما أغويته ﴿ولكن كان في ضلال بعيد﴾ أي عن الحق فيتبرأ منه شيطانه وقال ابن عباس: قرينه يعني الملك يقول الكافر رب إن الملك زاد علي في الكتابة فيقول الملك ربنا ما أطفئته أي ما زدت عليه وما كتبت إلا ما قال وعمل ولكن كان في ضلال بعيد أي طويل لا يرجع عنه إلى الحق ﴿قال﴾ الله تعالى: ﴿لا تختصموا لدي﴾ أي لا تعتذروا عندي بغير عذر وقيل هو خصامهم مع قرنائهم ﴿وقد

ويلك ارحلها وازجرها وخذاها وأطلقها، للواحد، قال الفراء: وأصل ذلك أن أدنى أعوان الرجل في إبله وغنمه وسفره اثنان، فجرى كلام الواحد على صاحبيه، ومنه قولهم في الشعر للواحد خليلي. وقال الزجاج: هذا أمر للسائق والشهيد، وقيل: للمتلقين. ﴿كل كفار عتيد﴾، عاصٍ معرض عن الحق. قال عكرمة ومجاهد: مجانب للحق معاند لله.

﴿منافع للخير﴾، أي للزكاة المفروضة وكل حق وجب في ماله، ﴿معتد﴾، ظالم لا يقر بتوحيد الله، ﴿مریب﴾، شاك في التوحيد، ومعناه: داخل في الريب.

﴿الذي جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه في العذاب الشديد﴾، وهو النار.

﴿قال قرينه﴾، يعني الشيطان الذي قبض لهذا الكافر، ﴿ربنا ما أطفئته﴾، ما أضللتته وما أغويته، ﴿ولكن كان في ضلال بعيد﴾، عن الحق فيتبرأ منه شيطانه، قال ابن عباس وسعيد بن جبیر ومقاتل: قال قرينه يعني الملك، قال سعيد بن جبیر: يقول الكافر يا رب إن الملك زاد علي في الكتابة، فيقول الملك: ربنا ما أطفئته، يعني ما زدت عليه وما كتبت إلا ما قال وعمل، ولكن كان في ضلال بعيد، طويل لا يرجع عنه إلى الحق. ﴿قال﴾، يعني يقول الله: ﴿لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد﴾، في القرآن وأنذرتكم وحذرتكم على لسان الرسول، وقضيت عليكم ما أنا قاضٍ.

﴿ما يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ﴾، لا تبديل لقولي وهو قوله: ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾

قدمت إليكم بالوعيد ﴿أي بالقرآن وأنذرتكم على ألسن الرسل وحذرتكم عذابي في الآخرة لمن كفر﴾ ﴿ما يبدل القول لدي﴾ أي لا تبديل لقولي وهو قوله عز وجل: ﴿لأملأن جهنم﴾ وقضيت عليكم ما أنا قاض فلا يغير قولي ولا يبدل وقيل معناه ولا يكذب عندي ولا يغير القول عن وجهه، لأنني علام الغيوب وأعلم كيف ضلوا وهذا القول هو الأولى يدل عليه أنه قال ما يبدل القول لدي ولم يقل ما يبدل قولي ﴿وما أنا بظلام للعبيد﴾ أي: فأعاقبهم بغير جرم. وقيل: معناه فأزيد على إساءة المسيء أو أنقص من إحسان المحسن.

قوله عز وجل: ﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت﴾ بيان لما سبق لها من وعد الله تعالى إياها أنه يملؤها من الجنة والناس وهذا السؤال من الله تعالى لتصديق خبره وتحقيق وعده ﴿وتقول﴾ يعني جهنم ﴿هل من مزيد﴾ يعني تقول قد امتلأت ولم يبق في موضع لم يمتلئ فهو استفهام إنكاري. وقيل: هو بمعنى الاستزادة. وهو رواية عن ابن عباس. فعلى هذا يكون السؤال وهو قوله: هل امتلأت؟ قبل دخول جميع أهلها فيها.

وروي عن ابن عباس: «إن الله تعالى سبقت كلمته لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين فلما سبق أعداء الله إليها لا يلقى فيها فوج إلا ذهب فيها ولا يملؤها شيء فتقول أأست قد أقسمت لتملأني فيضع قدمه عليها فيقول هل امتلأت؟ فتقول قط قط قد امتلأت وليس في مزيد» (ق) عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العرش - وفي رواية رب العزة - فيها قدمه فيزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط بعزتك ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً فيسكنهم فضول الجنة. ولأبي هريرة نحوه وزاد «ولا يظلم الله من خلقه أحداً».

(فصل)

هذا الحديث من مشاهير أحاديث الصفات وللعلماء فيه وفي أمثاله مذهبان:

أحدهما: وهو مذهب جمهور السلف وطائفة من المتكلمين أنه لا يتكلم في تأويلها بل تؤمن بأنها حق على ما أراد الله ورسوله ونجربها على ظاهرها ولها معنى يليق بها وظاهرها غير مراد والمذهب الثاني وهو قول جمهور المتكلمين أنها تتأول بحسب ما يليق بها فعلى هذا اختلفوا في تأويل هذا الحديث. فقيل: المراد بالقدم المقدم وهو سائح في اللغة. والمعنى: حتى يضع الله فيها من قدمه لها من أهل العذاب. وقيل: المراد به قدم بعض المخلوقين

[هود: ١١٩، السجدة: ١٣]، وقال قوم: معنى قوله: ﴿ما يبدل القول لدي﴾ أي: لا يكذب القول عندي، ولا يغير القول عن وجهه لأنني أعلم الغيب. وهذا قول الكلبي، واختيار الفراء لأنه قال: ﴿ما يبدل القول لدي﴾ ولم يقل ما يبدل لي. ﴿وما أنا بظلام للعبيد﴾، فأعاقبهم بغير جرم.

﴿يوم نقول لجهنم﴾، قرأ نافع وأبو بكر بالياء، أي يقول الله لقوله: ﴿قال لا تختصموا لدي﴾، وقرأ الآخرون بالنون، ﴿هل امتلأت﴾، وذلك لما سبق لها من وعده إياها أنه يملؤها من الجنة والناس، وهذا السؤال من الله عز وجل لتصديق خبره وتحقيق وعده، ﴿وتقول﴾، جهنم، ﴿هل من مزيد﴾، قيل: معناه قد امتلأت فلم يبق في موضع لم يمتلئ، فهو استفهام إنكار، هذا قول عطاء ومجاهد ومقاتل بن سليمان، وقيل: هذا استفهام بمعنى الاستزادة، وهو قول ابن عباس في رواية أبي صالح، وعلى هذا يكون السؤال بقوله: ﴿هل امتلأت﴾، قبل دخول جميع أهلها فيها، وروى عن ابن عباس: أن الله تعالى سبقت كلمته ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ [هود: ١١٩، السجدة: ١٣]، فلما سبق أعداء الله إليها لا يلقى فيها فوج إلا ذهب فيها ولا يملؤها شيء، فتقول: أأست قد أقسمت لتملأني؟ فيضع قدمه عليها، تعالى عما يقول الظالمون، ثم يقول: هل امتلأت؟

فيعود الضمير في قدمه إلى ذلك المخلوق المعلوم. وقيل: إنه يحتمل أن في المخلوقات من تسمى بهذه التسمية وخلقوا لها. قال القاضي عياض: أظهر التأويل أنهم قوم استحقوها وخلقوا لها قال المتكلمون: ولا بد من صرفه عن ظاهره لقيام الدليل القطعي العقلي على استحالة الجارحة على الله تعالى والله أعلم.

قوله: قط قط أي: حسبي حسبي. قد اكتفيت. وفيها ثلاث لغات: إسكان الطاء، وكسرها منونة، وغير منونة. وقوله: ولا يظلم الله من خلقه أحداً، يعني: أنه يستحيل الظلم في حق الله تعالى فمن عذبه بذنب أو بغير ذنب فذلك عدل منه سبحانه وتعالى وقوله تعالى.

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَنِيِّ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾

﴿وأُزْلِفَتِ الجنة﴾ أي قربت وأدْنيت ﴿للمتقين﴾ أي الذين اتقوا الشرك ﴿غير بعيد﴾ يعني أنها جعلت عن يمين العرش بحيث يراها أهل الموقف قبل أن يدخلوها ﴿هذا ما توعدون﴾ أي يقال لهم الذي وعدتم به في الدنيا على السنة الأنبياء ﴿لكل أواب﴾ أي رجاع عن المعصية إلى الطاعة. قال سعيد بن المسيب: هو الذي يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب. وقيل: هو الذي يذكر ذنوبه في الخلاء فيستغفر منها. وقيل: هو التواب، وقال ابن عباس: هو المسيح. وقيل: هو المصلي ﴿حفيظ﴾ قال ابن عباس الحافظ لأمر الله وعنه هو الذي يحفظ ذنوبه حتى يرجع عنها ويستغفر منها وقيل: حفيظ لما استودعه الله من حقه. وقيل: هو المحافظ على نفسه المتعهد لها المراقب لها. وقيل: هو المحافظ على الطاعات والأوامر ﴿ومن خشى الرحمن بالغيب﴾ أي خاف الرحمن فأطاعه وإن لم يره وقيل: خافه في الخلوة

فتقول: «قط قط فليس في مزيد». أخبرنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن العباس الحميدي أنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ ثنا أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن أيوب الطوسي أنا أبو حاتم محمد بن إدريس الرازي ثنا آدم بن أبي إياس العسقلاني ثنا شيبان بن عبد الرحمن عن قتادة عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال جهنم تقول هل من مزيد، حتى يضع ربُّ العزة فيها قدمه، فتقول قط قط وعزتك، وينزوي بعضها إلى بعض، ولا يزال في الجنة فضل حتى يُنشئ الله خلقاً فيسكنه فضول الجنة».

﴿وأُزْلِفَتِ الجنة﴾، قُرِبَتْ وأدْنيت، ﴿للمتقين﴾، الشرك، ﴿غير بعيد﴾، ينظرون إليها قبل أن يدخلوها.

﴿هذا ما توعدون﴾، قرأ ابن كثير بالياء والآخرين بالياء، يقال لهم: هذا الذي ترونه ما توعدون على السنة الأنبياء عليهم السلام، ﴿لكل أواب﴾، رجاع إلى الطاعة عن المعاصي، قال سعيد بن المسيب: هو الذي يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب. وقال الشعبي ومجاهد: الذي يذكر ذنوبه في الخلاء فيستغفر منها. وقال الضحاك: هو التواب. وقال ابن عباس وعطاء: هو المسيح، من قوله: ﴿يا جبال أوبي معه﴾ [سبأ: ١٠] وقال قتادة: هو المصلي. ﴿حفيظ﴾، قال ابن عباس: الحافظ لأمر الله، وعنه أيضاً: هو الذي يحفظ ذنوبه حتى يرجع عنها ويستغفر منها. قال قتادة: حفيظ لما استودعه الله من حقه. قال الضحاك: المحافظ على نفسه المتعهد لها. قال الشعبي: المراقب. قال سهل بن عبد الله: هو المحافظ على الطاعات والأوامر.

﴿من خشى الرحمن بالغيب﴾، محل من جرَّ على نعت الأواب. وقيل رفع على الاستئناف، ومعنى الآية: من خاف الرحمن وأطاعه بالغيب ولم يره. وقال الضحاك والسدي: يعني في الخلوة حيث لا يراه أحد. قال الحسن

بحيث لا يراه أحد إذا ألقى الستر أغلق الباب ﴿وجاء بقلب منيب﴾ أي مخلص مقبل على طاعة الله ﴿ادخلوها﴾ أي يقال لأهل هذه الصفة: ادخلوا الجنة ﴿بسلام﴾ أي بسلامة من العذاب والهموم. وقيل: بسلام من الله وملائكته عليهم وقيل: بسلامة من زوال النعم ﴿ذلك يوم الخلود﴾ أي في الجنة لأنه لا موت فيها.

لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَّخِصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾

﴿لهم ما يشاؤون فيها﴾ وذلك أنهم يسألون الله حتى تنتهي مسألتهم فيعطون ما سألوا ثم يزيد الله عبيده ما لم يسألوا مما لم يخطر بقلب بشر وهو قوله تعالى: ﴿ولدينا مزيد﴾ وقيل: المزيد، هو النظر إلى وجهه الكريم قيل: يتجلى لهم الرب تبارك وتعالى في كل جمعة في دار كرامته فهذا هو المزيد.

قوله تعالى: ﴿وكم أهلكنا قبلهم﴾ أي قبل كفار مكة ﴿من قرن هم أشد منهم بطشاً﴾ يعني سطوة والبطش الأخذ بصولة وعنف ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ أي ساروا وتقلبوا في البلاد وسلكوا كل طريق ﴿هل من مخيص﴾ أي فلم يجدوا لهم مخيصاً أي مهرباً من أمر الله وقيل: لا يجدون لهم مفرّاً من الموت بل يموتون فيصيرون إلى عذاب الله وفيه تخويف لأهل مكة لأنهم على مثل سبيلهم ﴿إن في ذلك لذكرى﴾ أي إن فيما ذكر من إهلاك القرى تذكراً وموعظة ﴿لمن كان له قلب﴾. قال ابن عباس: أي عقل. وقيل: له قلب حاضر مع الله واع عن الله ﴿أو ألقى السمع﴾ أي استمع القرآن واستمع ما يقال له لا يحدث نفسه بغيره ﴿وهو شهيد﴾ أي حاضر القلب ليس بغافل ولا ساه.

قوله تعالى: ﴿ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب﴾ أي إعياء وتعب قال المفسرون نزلت في اليهود حيث قالوا: خلق الله السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام أولها الأحد وآخرها الجمعة ثم استراح يوم السبت واستلقى على العرش فلذلك تركوا العمل فيه فأنزل الله تعالى هذه الآية رداً عليهم

إذا أرخى الستر وأغلق الباب. ﴿وجاء بقلب منيب﴾، مخلص مقبل إلى طاعة الله.

﴿ادخلوها﴾، أي يُقال لأهل هذه الصفة: ادخلوها، أي ادخلوا الجنة. ﴿بسلام﴾، بسلامة من العذاب والهموم. وقيل: بسلام من الله وملائكته عليهم. وقيل: بسلامة من زوال النعم، ﴿ذلك يوم الخلود﴾.

﴿لهم ما يشاؤون فيها﴾، وذلك أنهم يسألون الله تعالى حتى تنتهي مسألتهم فيعطون ما شاؤوا، ثم يزيدهم الله من عنده ما لم يسألوه، وهو قوله: ﴿ولدينا مزيد﴾، يعني الزيادة لهم في النعيم مما لم يخطر ببالهم. وقال جابر وأنس هو النظر إلى وجه الله الكريم.

قوله عز وجل: ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقَّبوا في البلاد﴾، ضربوا وساروا وتقلبوا وطافوا، وأصله من النقب وهو الطريق كأنهم سلكوا كل طريق، ﴿هل من مخيص﴾، فلم يجدوا مخيصاً من أمر الله. وقيل: هل من مخيص مفر من الموت؟ فلم يجدوا فيه، إنذاراً لأهل مكة وأنهم على مثل سبيلهم لا يجدون مفرّاً عن الموت يموتون، فيصيرون إلى عذاب الله.

﴿إن في ذلك﴾، فيما ذكرت من العبر والعذاب وإهلاك القرى، ﴿لذكرى﴾، تذكراً وعظة، ﴿لمن كان له﴾

وتكذيباً لهم في قولهم استراح يوم السبت بقوله تعالى: ﴿وما مسنا من لغوب﴾.

قال الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره: والظاهر أن المراد الرد على المشركين والاستدلال بخلق السموات والأرض وما بينهما فقوله ﴿وما مسنا من لغوب﴾ أي ما تعبنا بالخلق الأول حتى لا نقدر على الإعادة ثانياً كما قال الله تعالى: ﴿أفعمينا بالخلق الأول﴾ الآية وأما ما قاله اليهود ونقلوه من التوراة فهو إما تحريف منهم أو لم يعلموا تأويله وذلك أن الأحد والاثنين أزمنة مستمرة بعضها بعد بعض فلو كان خلق السموات والأرض ابتدء يوم الأحد لكان الزمان قبل الأجساد والزمان لا ينفك عن الأجساد فيكون قبل خلق الأجسام أجسام لأن اليوم عبارة عن زمان سير الشمس من الطلوع إلى الغروب وقبل السموات والأرض لم يكن شمس ولا قمر لكن اليوم قد يطلق ويراد به الوقت والحين وقد يعبر به عن مدة الزمان أي مدة كانت قوله عز وجل: ﴿فاصبر على ما يقولون﴾ الخطاب للنبي ﷺ أي: اصبر يا محمد على ما يقولون أي من كذبهم فإن الله لهم بالمرصاد وهذا قبل الأمر بقتالهم ﴿وسبح بحمد ربك﴾ أي صلِّ حامداً لله ﴿قبل طلوع الشمس﴾ أي صلاة الصبح ﴿وقبل الغروب﴾ يعني صلاة المغرب. قال ابن عباس: صلاة الظهر والعصر.

وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ ﴿٤١﴾ وَأَسْتَمِعُ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤٢﴾

﴿ومن الليل فسبحه﴾ يعني صلاة المغرب والعشاء. وقيل: يعني صلاة الليل أي وقت صلى ﴿وأدبار السجود﴾ قال عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وغيرهما: أدبار السجود الركعتان بعد المغرب، وأدبار النجوم الركعتان قبل صلاة الفجر. وهي رواية عن ابن عباس.

ويروى مرفوعاً عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت «لم يكن النبي ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهداً منه

قلب﴾، قال ابن عباس: أي عقل. قال الفراء: هذا جائز في العربية، تقول: ما لك قلب وما قلبك معك، أي ما عقلك معك. وقيل له: قلب حاضر مع الله. ﴿أو ألقى السمع﴾، استمع القرآن، واستمع ما يقال له لا يحدث نفسه بغيره، تقول العرب: ألقى إليَّ سمعك، يعني استمع، ﴿وهو شهيد﴾، يعني حاضر القلب ليس بغافل ولا ساهٍ.

قوله عز وجل: ﴿ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب﴾، إعياء وتعب، نزلت في اليهود حيث قالوا يا محمد: أخبرنا بما خلق الله من الخلق في هذه الأيام الستة، فقال: «خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين، والجمال يوم الثلاثاء، والمدائن والأنهار والأقوات يوم الأربعاء، والسموات والملائكة يوم الخميس إلى ثلاث ساعات من يوم الجمعة، وخلق في أول الثلاث الساعات الآجال، وفي الثانية الآفة، وفي الثالث آدم»، قالوا: صدقت إن أتممت، قال: وما ذاك؟ قالوا: ثم استراح يوم السبت، واستلقى على العرش، فأنزل الله تعالى هذه الآية رداً عليهم.

﴿فاصبر على ما يقولون﴾، من كذبهم فإن الله لهم بالمرصاد، وهذا قبل الأمر بقتالهم، ﴿وسبح بحمد ربك﴾، أي صلِّ حامداً لله، ﴿قبل طلوع الشمس﴾، يعني صلاة الصبح، ﴿وقبل الغروب﴾، يعني صلاة العصر. وروى عن ابن عباس قال: قبل الغروب الظهر والعصر.

﴿ومن الليل فسبحه﴾، يعني صلاة المغرب والعشاء. وقال مجاهد: ومن الليل أي صلاة الليل أي وقت صلي. ﴿وأدبار السجود﴾ قرأ أهل الحجاز وحمة: ﴿وأدبار السجود﴾ بكسر الهمزة، مصدر أدبر إدباراً، وقرأ الآخرون بفتحها على جمع الدبر. قال عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب والحسن والشعبي والنخعي

على ركعتي الفجر» (م) عنها أن النبي ﷺ قال: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها» يعني بذلك سنة الفجر، عن ابن مسعود، قال: «ما أحصى ما سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في الركعتين بعد المغرب والركعتين قبل صلاة الفجر يقلل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب.

وقيل: في قوله وأدبار السجود: التسبيح باللسان في أدبار الصلوات المكتوبات (خ) عن ابن عباس قال: أمر رسول الله ﷺ أن يسبح في أدبار الصلوات كلها يعني قوله وأدبار السجود (م). عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سبح الله في دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين وحمد الله ثلاثاً وثلاثين وكبر الله ثلاثاً وثلاثين فذلك تسعة وتسعون ثم قال: تمام المائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غفرت ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر» (خ) عنه «أن فقراء المسلمين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات والنعيم المقيم فقال وما ذاك؟ قالوا صلوا كما صلينا وجاهدوا كما جاهدنا وأنفقوا من فضول أموالهم وليست لنا أموال قال أفلا أخبركم بأمر تدركون به من كان قبلكم وتسبقون من جاء بعدكم ولا يأتي أحد بمثل ما جئتم به إلا من جاء بمثله تسبحون في دبر كل صلاة عشراً وتحمدون عشراً وتكبرون عشراً».

قوله تعالى: ﴿واستمع يوم يناد المناد﴾ يعني استمع يا محمد حديث يوم ينادي المنادي. وقيل: معناه انتظر

والأوزاعي: أدبار السجود الركعتان بعد صلاة المغرب، وأدبار النجوم الركعتان قبل صلاة الفجر. وهي رواية العوفي عن ابن عباس. وروى عنه مرفوعاً، هذا قول أكثر المفسرين، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا أبو أيوب الدمشقي ثنا الوليد بن مسلم ثنا ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما كان رسول الله ﷺ على شيء من النوافل أشدَّ مُعَاهَدةً منه على الركعتين أمام الصبح. أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي أنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي ثنا أبو العباس محمد بن أحمد المحجوبي ثنا أبو عيسى الترمذي ثنا صالح بن عبد الله ثنا أبو عوانة عن قتادة عن زرارة بن أبي أوفى عن سعيد بن هشام عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها». أخبرنا أبو عثمان الضبي أنا أبو محمد الجراحي أنا أبو العباس المحجوبي ثنا أبو عيسى الترمذي ثنا محمد بن المثنى ثنا بدل بن المحبر ثنا عبد الملك بن معدان عن عاصم بن بهدلة عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود أنه قال: ما أحصى ما سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في الركعتين بعد المغرب وفي الركعتين قبل صلاة الفجر: بقل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد. وقال مجاهد: قوله: ﴿أدبار السجود﴾ هو التسبيح باللسان في أدبار الصلوات المكتوبات. أخبرنا أبو الحسين طاهر بن الحسين الدورقي الطوسي بها، أنا أبو الحسن محمد بن يعقوب أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن أيوب أنا مسدد ثنا خالد هو ابن عبد الله ثنا سهيل عن أبي عبيد عن عطاء بن يزيد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَبَّحَ اللَّهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَكَبَّرَ اللَّهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَحَمِدَ اللَّهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَذَلِكَ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ، ثُمَّ قَالَ تَمَامَ الْمِائَةِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، غُفِرَتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا إسحاق أنا يزيد أنا ورقاء عن سُمَيٍّ عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قالوا: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم، قال: كيف ذاك؟ قال: «صَلُّوا كَمَا صَلَّيْنَا وَجَاهِدُوا كَمَا جَاهَدْنَا، وَأَنْفَقُوا مِنْ فَضُولِ أَمْوَالِهِمْ وَلَيْسَتْ لَنَا أَمْوَالٌ»، قال: «أَفَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَمْرٍ تَدْرِكُونَ بِهِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَتَسْبِقُونَ مَنْ جَاءَ بَعْدَكُمْ، وَلَا يَأْتِي أَحَدٌ بِمِثْلِ مَا جِئْتُمْ بِهِ إِلَّا مَنْ جَاءَ بِمِثْلِهِ: تَسْبِحُونَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ عَشْرًا وَتَحْمَدُونَ عَشْرًا وَتُكَبِّرُونَ عَشْرًا».

صيحة القيامة والنشور. قال المفسرون: المنادي هو إسرئيل يقف على صخرة بيت المقدس فينادي بالحشر فيقول: يا أيها العظام البالية والأوصال المتقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء، وهو قوله تعالى: ﴿من مكان قريب﴾ قيل: إن صخرة بيت المقدس أقرب الأرض إلى السماء بشمانية عشر ميلاً وقيل: هي في وسط الأرض.

يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ ﴿٤٦﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تَشَقُّو
الْأَرْضُ عَنْهُمْ سَرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٨﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ
وَعِيدِ ﴿٤٩﴾

﴿يوم يسمعون الصيحة بالحق﴾ أي الصيحة الأخيرة ﴿ذلك يوم الخروج﴾ أي من القبور ﴿إنا نحن نحْيِي﴾ أي في الدنيا ﴿ونُمِيتُ﴾ يعني عند انقضاء الأجل ﴿وإلينا المصير﴾ أي في الآخرة وقيل: تقديره نُمِيت في الدنيا ونحْيِي للبعث وإلينا المصير بعد البعث ﴿يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً﴾ أي يخرجون سراعاً إلى المحشر وهو قوله تعالى: ﴿ذلك حشر علينا يسير﴾ أي هين ﴿نحن أعلم بما يقولون﴾ يعني كفار مكة في تكذيبك ﴿وما أنت عليهم بجبار﴾ أي بمسلط تجبرهم على الإسلام إنما بعثت مذكراً وذلك قبل أن يؤمر بقتالهم ﴿فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ أي ما أوعدت به من عصاني من العذاب قال ابن عباس: «قالوا يا رسول الله لو خوفتنا فنزلت: فذكر بالقرآن من يخاف وعيد» أي عظ بالقرآن من يخاف وعيدي والله أعلم بمراده.

قوله عز وجل: ﴿واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب﴾، أي واستمع يا محمد صيحة القيامة والنشور يوم ينادي المنادي، قال مقاتل: يعني إسرئيل ينادي بالحشر يا أيها العظام البالية والأوصال المتقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء من مكان قريب من صخرة بيت المقدس، وهي وسط الأرض. قال الكلبي: هي أقرب الأرض إلى السماء بشمانية عشر ميلاً.

﴿يوم يسمعون الصيحة بالحق﴾، وهي الصيحة الأخيرة، ﴿ذلك يوم الخروج﴾، من القبور.

﴿إنا نحن نحْيِي ونُمِيت وإلينا المصير﴾ * يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً، جمع سريع أي يخرجون سراعاً، ﴿ذلك حشر علينا﴾، جمع علينا ﴿يسير﴾.

﴿نحن أعلم بما يقولون﴾، يعني كفار مكة في تكذيبك، ﴿وما أنت عليهم بجبار﴾، بمسلط تجبرهم على الإسلام إنما بعثت مذكراً، ﴿فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾، أي ما أوعدت به من عصاني من العذاب. قال ابن عباس: قالوا: يا رسول الله لو خوفتنا، فنزلت: ﴿فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾.

سورة الذاريات

(مكية وهي ستون آية وثلاثمائة وستون كلمة وألف ومائتان وتسعة وثلاثون حرفاً)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمَقْسَمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾

قوله عز وجل: ﴿والذاريات ذرؤاً﴾ يعني الرياح التي تذر التراب ﴿فالحاملات وقرأ﴾ فالحاملات يعني السحاب يحمل ثقلاً من الماء ﴿فالجاريات يسراً﴾ يعني السفن تجري في الماء جرياً سهلاً ﴿فالمقسمات أمراً﴾ يعني الملائكة يقسمون الأمور بين الخلق على ما أمروا به وقيل: هم أربعة: جبريل صاحب الوحي إلى الأنبياء الأمين عليه وصاحب الغلظة، وميكائيل صاحب الرزق والرحمة، وإسرافيل صاحب الصور واللوح، وعزرائيل صاحب قبض الأرواح. وقيل: هذه الأوصاف الأربعة في الرياح لأنها تنشئ السحاب وتسيره ثم تحمله وتقله ثم تجري به جرياً سهلاً ثم تقسم الأمطار بتصرف السحاب أقسم الله تعالى بهذه الأشياء لشرف ذواتها ولما فيها من الدلالة على عجب صنعته وقدرته. والمعنى: أقسم بالذاريات بهذه الأشياء، وقيل: فيه مضمير تقديره ورب الذاريات ثم ذكر جواب القسم فقال تعالى:

إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوْفَعُوا ﴿٦﴾ وَأَسْمَاءَ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَافِكُ ﴿٩﴾ قُلِ الْخَرَصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمِ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفَنُّونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعِجِلُونَ ﴿١٤﴾

﴿إن ما توعدون﴾ أي من الثواب والعقاب يوم القيامة ﴿لصادق﴾ أي الحق ﴿وإن الدين﴾ أي الحساب والجزاء

سورة الذاريات

مكية وهي ستون آية.

﴿والذاريات ذرؤاً﴾، يعني الرياح التي تذر التراب ذرؤاً، يقال: ذرت الريح التراب وأذرت.

﴿فالحاملات وقرأ﴾، يعني السحاب التي تحمل ثقلاً من الماء.

﴿فالجاريات يسراً﴾، هي السفن تجري في الماء جرياً سهلاً.

﴿فالمقسمات أمراً﴾، هي الملائكة يقسمون الأمور بين الخلق على ما أمروا به، أقسم بهذه الأشياء لما فيها

من الدلالة على صنعته وقدرته.

ثم ذكر المقسم عليه فقال: ﴿إنما توعدون﴾، من الثواب والعقاب، ﴿لصادق﴾.

﴿لواقع﴾ أي لكائن ثم ابتداءً قسماً آخر فقال تعالى: ﴿والسمااء ذات الحُبك﴾ قال ابن عباس: ذات الخلق الحسن المستوي، وقيل: ذات الزينة حبكت بالنجوم وقيل: ذات البنيان المتقن وقيل: ذات الطرائق كحبك الماء إذا ضربته الريح وحبك الرمل ولكنها لا ترى لبعدها من الناس وجواب القسم قوله ﴿إنكم﴾ يعني يا أهل مكة ﴿لفي قول مختلف﴾ يعني في القرآن وفي محمد ﷺ يقولون في القرآن سحر وكهانة وأساطير الأولين وفي محمد ﷺ ساحر وشاعر وكاهن ومجنون وقيل: لفي قول مختلف أي مصدق ومكذب ﴿يؤفك عنه من أفك﴾ أي يصرف عن الإيمان به من صرف حتى يكذبه وهو من حرمه الله الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن وقيل: معناه أنهم كانوا يتلقون الرجل إذا أراد الإيمان بمحمد ﷺ فيقولون إنه ساحر وشاعر وكاهن ومجنون فيصرفونه عن الإيمان به ﴿قتل الخراصون﴾ أي: الكذابون وهم المقتسمون الذين اقتسموا عقاب مكة واقتسموا القول في النبي ﷺ ليصرفوا الناس عن الإسلام. وقيل: هم الكهنة ﴿الذين هم في غمرة﴾ أي في غفلة وعمى وجهالة ﴿ساهون﴾ أي لاهون غافلون عن أمر الآخرة والسهو الغفلة عن الشيء وذهاب القلب عنه ﴿يسألون آيان يوم الدين﴾ أي يقولون يا محمد متى يوم الجزاء يعني يوم القيامة تكذيباً واستهزاء قال الله تعالى: ﴿يوم هم﴾ أي يكون هذا الجزاء في يوم هم ﴿على النار يفتنون﴾ أي يدخلون ويعذبون بها وتقول لهم خزنة النار: ﴿ذوقوا فتنتكم﴾ أي عذابكم ﴿هذا الذي كنتم به تستعجلون﴾ أي في الدنيا تكذيباً به.

﴿وإن الدين﴾، الحساب والجزاء، ﴿لواقع﴾، لكائن.

ثم ابتداءً قسماً آخر فقال: ﴿والسمااء ذات الحُبك﴾، قال ابن عباس وقتادة وعكرمة: ذات الخلق الحسن المستوي، يقال للنساج إذا نسج الثوب فأجاد: ما أحسن حبكته! قال سعيد بن جبیر: ذات الزينة. قال الحسن: حبكت بالنجوم. قال مجاهد: هي المتقنة البنيان. وقال مقاتل والكلبي والضحاك: ذات الطرائق كحبك الماء إذا ضربته الريح، وحبك الرمل والشعر الجعد، ولكنها لا ترى لبعدها من الناس، وهي جمع حباك وحببكة، وجواب القسم وله.

﴿إنكم﴾، يا أهل مكة، ﴿لفي قول مختلف﴾، في القرآن وفي محمد ﷺ، تقولون في القرآن سحر وكهانة وأساطير الأولين، وفي محمد ﷺ ساحر وشاعر ومجنون. وقيل: لفي قول مختلف أي مُصدّق ومُكذّب.

﴿يؤفك عنه من أفك﴾، يُصرف عن الإيمان به من صُرف حتى يكذّبه، يعني من حرمه الله الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن، وقيل: (عن) بمعنى: من أجل، أي يصرف من أجل هذا القول المختلف أو بسببه عن الإيمان من يصرف. وذلك أنهم كانوا يتلقون الرجل إذا أراد الإيمان فيقولون: إنه ساحر وكاهن ومجنون، فيصرفونه عن الإيمان، وهذا معنى قول مجاهد.

﴿قتل الخراصون﴾، لُعن الكذابون، يقال: تحرص على فلان الباطل، وهم المقتسمون الذين اقتسموا عقاب مكة، واقتسموا القول في النبي ﷺ ليصرفوا الناس عن دين الإسلام. وقال مجاهد: هم الكهنة.

﴿الذين هم في غمرة﴾، غفلة وعمى وجهالة، ﴿ساهون﴾ لاهون غافلون عن أمر الآخرة، والسهو: الغفلة عن الشيء، وهو ذهاب القلب عنه.

﴿يسألون آيان يوم الدين﴾، يقولون: يا محمد متى يوم الجزاء، يعني يوم القيامة تكذيباً واستهزاءً.

قال الله عز وجل: ﴿يوم هم﴾، أي يكون هذا الجزاء في يوم هم، ﴿على النار يفتنون﴾، أي يعذبون ويحرقون بها كما يفتن الذهب بالنار. وقيل: ﴿على﴾ بمعنى الباء أي بالنار، وتقول لهم خزنة النار:

﴿ذوقوا فتنتكم﴾، عذابكم، ﴿هذا الذي كنتم به تستعجلون﴾، في الدنيا تكذيباً به.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ آلِ إِبْرَاهِيمَ مَا يَجْعَلُونَ ﴿١٧﴾ وَيَا لَأَسْحَارٍ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ يعني في خلال الجنات عيون جارية ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ﴾ أي ما أعطاهم ﴿رَبُّهُمْ﴾ أي من الخير والكرامة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ أي قبل دخولهم الجنة كانوا محسنين في الدنيا ثم وصف إحسانهم فقال تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ أي كانوا ينامون قليلاً من الليل ويصلون أكثره. وقال ابن عباس: كانوا قل ليلة تمر بهم إلا صلوا فيها شيئاً إما من أولها أو من أوسطها عن أنس بن مالك في قوله: «كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون» قال: كانوا بين المغرب والعشاء أخرجه أبو داود.

وقيل: كانوا لا ينامون حتى يصلون العتمة وقيل: قل ليلة أت عليهم هجعوا كلها، ووقف بعضهم على قوله: كانوا قليلاً، أي من الناس ثم ابتداء من الليل ما يهجعون أي لا ينامون بالليل البتة بل يقومون الليل كله في الصلاة والعبادة ﴿وَيَا لَأَسْحَارٍ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي ربما مدوا عبادتهم إلى وقت السحر ثم أخذوا في الاستغفار وقيل: معناه يستغفرون من تقصيرهم في العبادة وقيل: يستغفرون من ذلك القدر القليل الذي كانوا ينامونه من الليل وقيل: معناه يصلون بالأسحار لطلب المغفرة (ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له» ولمسلم قال: «فيقول أنا الملك أنا الملك» وذكر الحديث وفيه «حتى يضيء الفجر» وزاد في رواية «من يقرض غير عديم ولا ظلوم».

(فصل)

هذا الحديث من أحاديث الصفات وفيه مذهبان معروفان:

أحدهما: وهو مذهب السلف وغيرهم أنه يمر كما جاء من غير تأويل ولا تعطيل ويترك الكلام فيه وفي أمثاله مع الإيمان به وتنزيه الرب تبارك وتعالى عن صفات الأجسام.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ، أعطاهم، ﴿رَبُّهُمْ﴾، من الخير والكرامة، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾، قبل دخولهم الجنة، ﴿مُحْسِنِينَ﴾، في الدنيا.

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾، والهجوم النوم بالليل دون النهار، ﴿وَمَا﴾ صلة، والمعنى: كانوا يهجعون قليلاً من الليل أي يصلون أكثر الليل، وقيل: معناه كان الليل الذي ينامون فيه كله قليلاً، وهذا معنى قول سعيد بن جبير عن ابن عباس، يعني: كانوا أقل ليلة تمر بهم إلا صلوا فيها شيئاً إما من أولها أو من أوسطها. قال أنس بن مالك: كانوا يصلون ما بين المغرب والعشاء. وقال محمد بن علي: كانوا لا ينامون حتى يصلوا العتمة. قال مطرف بن عبد الله بن الشخير: قل ليلة أت عليهم هجعوا كلها. قال مجاهد: كانوا لا ينامون كل الليل. ووقف بعضهم على قوله: ﴿قَلِيلًا﴾ أي كانوا من الناس قليلاً، ثم ابتداء: ﴿مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾، وجعله جحداً أي لا ينامون بالليل البتة، بل يقومون للصلاة والعبادة، وهو قول الضحاك ومقاتل.

﴿وَيَا لَأَسْحَارٍ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، قال الحسن: لا ينامون من الليل إلا أقله، وربما نشطوا فمدوا إلى السحر، ثم أخذوا في الأسحار بالاستغفار. وقال الكلبي ومجاهد ومقاتل: وبالأسحار يصلون، وذلك أن صلاتهم بالأسحار لطلب المغفرة. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو محمد الحسن بن أحمد بن محمد المخلدي أنا أبو العباس تفسير الخازن والبغوي ج ٦/ ٢

المذهب الثاني: وهو قول جماعة من المتكلمين وغيرهم أن الصعود والنزول من صفات الأجسام والله تعالى يتقدس عن ذلك. فعلى هذا يكون معناه نزول الرحمة والألطف الإلهية وقربها من عباده والإقبال على الداعين بالإجابة واللفظ. وتخصيصه بالثلث الأخير من الليل، لأن ذلك وقت التهجد والدعاء وغفلة أكثر الناس عن التعرض لنفحات رحمة الله تعالى وفي ذلك الوقت تكون النية خالصة والرغبة إلى الله تعالى متوفرة فهو مظنة لقبول الإجابة والله تعالى أعلم (ق).

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال: اللهم لك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق ولقاؤك الحق وقولك الحق والجنة حق والنار حق ومحمد حق والساعة حق اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت». زاد في رواية: «وما أنت أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت ولا إله غيرك» زاد النسائي: «ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» (خ) عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «من تعار من الليل فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير الحمد لله وسبحان الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ثم قال اللهم اغفر لي، أو قال دعا استجيب له فإن توضأ وصلى قبلت صلاته» قوله تعار من الليل يقال: تعار الرجل من نومه إذا انتبه وله صوت وقوله عز وجل:

وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُتَوَقِّينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ

محمد بن إسحاق السراج ثنا قتيبة ثنا يعقوب بن عبد الرحمن عن سهل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل الله إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل فيقول: أنا الملك أنا الملك من الذي يدعوني فأستجيب له؟ من الذي يسألني فأعطيه؟ من الذي يستغفري فأغفر له»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا علي بن عبد الله ثنا سفيان ثنا سليمان بن أبي مسلم عن طاوس سمع ابن عباس قال: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد، قال: «اللهم لك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق، ولقاؤك الحق، وقولك الحق، والجنة حق، والنار حق، والنبؤن حق، ومحمد حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت، وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت ولا إله غيرك». قال سفيان: وزاد عبد الكريم أبو أمية: ولا حول ولا قوة إلا بالله». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا صدقة أنا الوليد عن الأوزاعي حدثني عمير بن هانيء حدثني جنادة بن أبي أمية حدثني عبادة عن النبي ﷺ قال: «من تعار من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: رب اغفر لي، أو قال: دعا استجيب له، فإن توضأ وصلى قبلت صلاته».

رَزَقَكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَنْتُمْ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمَكْرُمِ ﴿٢٤﴾

﴿وفي أموالهم حق﴾ أي نصيب قيل إنه ما يصلون به رحماً أو يقرون به ضيفاً أو يحملون به كلاً أو يعينون به محروماً وليس بالزكاة قاله ابن عباس. وقيل: إنه الزكاة المفروضة ﴿للسائل﴾ أي الذي يسأل الناس ويطلب منهم ﴿والمحروم﴾ قيل هو الذي ليس له في الغنائم سهم ولا يجري عليه من الفية شيء قال ابن عباس رضي الله عنهما: المحروم الذي ليس له في فيء الإسلام سهم. وقيل: معناه الذي حرم الخير والعطاء، وقيل: المحروم، المتعفف الذي لا يسأل. وقيل: هو صاحب الجائحة الذي أصيب زرعه وثمره أو نسل ماشيته وقيل: هو المحارف المحروم في الرزق والتجارة وقيل: هو المملوك وقيل: هو المكاتب، وأظهر الأقوال، أنه المتعفف لأنه قرنه بالسائل والمتعفف لا يسأل ولا يكاد الناس يعطون من لا يسأل إنما يفتن له متيقظ ﴿وفي الأرض آيات﴾ أي عبر من البحار والجبال والأشجار والثمار وأنواع النبات ﴿للموقنين﴾ أي بالله الذي يعرفونه ويستدلون عليه بصنائه ﴿وفي أنفسكم﴾ أي آيات إذ كنتم نطفة ثم علقه ثم مضغه ثم عظماء إلى أن تنفخ الروح.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد اختلاف الألسنة والصور والألوان والطبائع وقيل: يريد سبيل الغائط والبول يأكل ويشرب من مدخل واحد ويخرج من سبيلين وقيل: يعني تقويم الأدوات السمع والبصر والنطق والعقل إلى غير ذلك من العجائب المودعة في ابن آدم ﴿أفلا تبصرون﴾ يعني كيف خلقكم فتعرفوا قدرته على البعث ﴿وفي السماء رزقكم﴾ قال ابن عباس هو المطر وهو سبب الأرزاق ﴿وما توعدون﴾ يعني من الثواب والعقاب. وقيل: من الخير والشر. وقيل: الجنة والنار ثم أقسم سبحانه وتعالى بنفسه فقال: ﴿فورب السماء والأرض إنه لحق﴾ أي ما ذكر من الرزق وغيره ﴿مثل ما أنكم تنطقون﴾ أي بلا إله إلا الله.

قوله عز وجل: ﴿وفي أموالهم حق للسائل والمحروم﴾، السائل الذي يسأل الناس، والمحروم الذي ليس له في الغنيمة سهم، ولا يجري عليه من الفية شيء، هذا قول ابن عباس وسعيد بن المسيب، قال: المحروم الذي ليس له في الإسلام سهم، ومعناه في اللغة: الذي مُنِع الخير والعطاء. وقال قتادة والزهري: المحروم المتعفف الذي لا يسأل. وقال زيد بن أسلم: هو المصاب ثمره أو زرعه أو نسل ماشيته. وهو قول محمد بن كعب القرظي، قال: المحروم صاحب الحاجة، ثم قرأ: ﴿إنا لمغرمون بل نحن محرومون﴾ [الواقعة: ٦٦].

﴿وفي الأرض آيات﴾، عبر، ﴿للموقنين﴾، إذا ساروا فيها من الجبال والبحار والأشجار والثمار وأنواع النبات. ﴿وفي أنفسكم﴾، آيات إذ كانت نطفة ثم علقه ثم مضغه ثم عظماء إلى أن نفخ فيها الروح. وقال عطاء عن ابن عباس: يريد اختلاف الألسنة والصور والألوان والطبائع. وقال ابن الزبير: يريد سبيل الغائط والبول يأكل ويشرب من مدخل واحد ويخرج من السبيلين. ﴿أفلا تبصرون﴾، قال مقاتل: أفلا تبصرون كيف خلقكم فتعرفوا قدرته على البعث.

﴿وفي السماء رزقكم﴾، قال ابن عباس ومجاهد ومقاتل: يعني المطر الذي هو سبب الأرزاق، ﴿وما توعدون﴾، قال عطاء: من الثواب والعقاب. وقال مجاهد: من الخير والشر. وقال الضحاك: وما توعدون من الجنة والنار، ثم أقسم بنفسه فقال:

﴿فورب السماء والأرض إنه لحق﴾، أي ما ذكرت من أمر الرزق لحق، ﴿مثل﴾، قرأ حمزة والكسائي

وقيل: شبه تحقيق ما أخبر عنه بتحقيق نطق الآدمي ومعناه إنه لحق كما أنك تتكلم. وقيل: إن معناه في صدقه ووجوده كالذي تعرفه ضرورة وقال بعض الحكماء معناه كما أن كل إنسان ينطق بلسان نفسه لا يمكنه أن ينطق بلسان غيره كذلك كل إنسان يأكل رزق نفسه الذي قسم له لا يقدر أن يأكل رزق غيره.

قوله تعالى: ﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم﴾ يعني هل أتاك يا محمد حديث الذين جاؤوا إبراهيم بالبشرى فاستمع نقصه عليك وقد تقدم ذكر عددهم وقصتهم في سورة هود ﴿المكرمين﴾ قيل: سماهم مكرمين لأنهم كانوا ملائكة كراماً عند الله. وقيل: لأنهم كانوا ضيف إبراهيم وهو أكرم الخلق على الله يومئذ وضيف الكريم مكرمون.

وقيل: لأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أكرمهم بتعجيل قراهم وخدمته إياهم بنفسه وطلاقة وجهه لهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: سماهم مكرمين لأنهم كانوا غير مدعوين (ق) عن أبي شريح العدوي قال: قال رسول الله ﷺ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه.

إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَأَىٰ إِلَهُهُ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ وَبَشِّرْهُ بِقُلُوبٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَانِي فِي صَرْقٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ جِبَارَةً مِن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾

﴿إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلاماً قوماً منكرين﴾ أي غرباء لا نعرفكم.

قال ابن عباس: قال في نفسه هؤلاء قوم لا نعرفهم وقيل: إنما أنكر أمرهم، لأنهم دخلوا بغير استئذان وقيل: أنكر سلامهم في ذلك الزمان وفي تلك الأرض ﴿فراغ﴾ أي عدل ومال ﴿إلى أهله فجاء بعجل سمين﴾ أي جيد وكان

وأبو بكر عن عاصم: ﴿مثل﴾ برفع اللام بدلاً من الحق، وقرأ الآخرون بالنصب أي كمثل، ﴿ما أنكم تنطقون﴾، فنقولون: لا إله إلا الله. وقيل: شبه تحقيق ما أخبر عنه بتحقيق نطق الآدمي، كما تقول: إنه لحق كما أنت ههنا، وإنه لحق كما أنك تتكلم، والمعنى: إنه في صدقه ووجوده كالذي تعرفه ضرورة: وقال بعض الحكماء: يعني كما أن كل إنسان ينطق بلسان نفسه لا يمكنه أن ينطق بلسان غيره كذلك كل إنسان يأكل رزق نفسه الذي قسم له. ولا يقدر أن يأكل رزق غيره.

قوله عز وجل: ﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم﴾، ذكرنا عددهم في سورة هود [٢٨]، ﴿المكرمين﴾، قيل: سماهم مكرمين لأنهم كانوا ملائكة كراماً عند الله، وقد قال الله تعالى في وصفهم: ﴿بل عبادٌ مكرمون﴾ [الأنبياء: ٢٦]، وقيل: لأنهم كانوا ضيف إبراهيم وكان إبراهيم أكرم الخليقة، وضيف الكرام مكرمون. وقيل: لأن إبراهيم عليه السلام أكرمهم بتعجيل قراهم، والقيام بنفسه عليهم بطلاقة الوجه. وقال ابن أبي نجيج عن مجاهد: خدمته بنفسه إياهم. وروى عن ابن عباس: سماهم مكرمين لأنهم جاؤوا غير مدعوين. وروينا عن النبي ﷺ أنه قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه».

﴿إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال﴾، إبراهيم، ﴿سلاماً قوماً منكرين﴾، أي غرباء لا نعرفكم، قال ابن عباس: قال في نفسه هؤلاء قوم لا نعرفهم. وقيل: إنما أنكر أمرهم لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان. وقال أبو العالية: أنكر سلامهم في ذلك الزمان وفي تلك الأرض.

مشوياً. قيل: كان عامة مال إبراهيم البقر فجاء بعجل ﴿فقربه إليهم﴾ هذا من آداب المضيف أن يقدم الطعام إلى الضيف ولا يحوجهم السعي إليه فلما لم يأكلوا ﴿قال ألا تأكلون﴾ يعني أنه حثهم على الأكل. وقيل: عرض عليهم الأكل من غير أن يأمرهم ﴿فأوجس﴾ أي فأضمر ﴿منهم خيفة﴾ لأنهم لم يتحرموا بطعامه ﴿قالوا لا نخف وبشروه بغلام عليم﴾ أي يبلغ ويعلم وقيل: عليم أي نبي ﴿فأقبلت امرأته﴾ قيل لم يكن ذلك إقبالاً من مكان إلى مكان بل كانت في البيت فهو كقول القائل أقبل يفعل كذا إذا أخذ فيه ﴿في صرة﴾ أي في صيحة والمعنى أنها أخذت تولول وذلك من عاد النساء إن سمعن شيئاً ﴿فصكت وجهها﴾ قال ابن عباس: لطمت وجهها. وقيل: جمعت أصابعها وضربت جبينها تعجباً وذلك من عادة النساء أيضاً إذا أنكرن شيئاً ﴿وقالت عجوز عقيم﴾ معناه: أتلد عجوز عقيم وذلك لأن سارة لم تلد قبل ذلك ﴿قالوا كذلك قال ربك﴾ أي كما قلنا لك قال ربك إنك ستلدين غلاماً ﴿إنه هو الحكيم العليم﴾ ثم إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما علم حالهم وأنهم من الملائكة قال ﴿فما خطبكم﴾ أي فما شأنكم وما طلبكم ﴿أيها المرسلون قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين﴾ يعني قوم لوط ﴿لنرسل عليهم حجارة من طين﴾ قيل هو الآجر ﴿مسومة﴾ أي معلمة قيل على كل حجر اسم من يهلك به.

وقيل: معلمه بعلامة تدل على أنها ليست من حجارة الدنيا ﴿عند ربك للمسرفين﴾ قال ابن عباس يعني المشركين لأن الشرك أسرف الذنوب وأعظمها.

فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ فَبَدَّنَهُمْ فِي آيَمٍ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾

﴿فأخرجنا من كان فيها﴾ أي في قرى قوم لوط ﴿من المؤمنين﴾ فما وجدنا فيها غير بيت ﴿أي أهل بيت﴾ من

﴿فراغ﴾، فعدل ومال، ﴿إلى أهله فجاء بعجل سمين﴾، مشوي.

﴿فقربه إليهم﴾، ليأكلوا فلم يأكلوا، ﴿قال ألا تأكلون﴾ فأوجس منهم خيفة قالوا لا نخف وبشروه بغلام عليم ﴿فأقبلت امرأته في صرة﴾، أي صيحة، قيل: لم يكن ذلك إقبالاً من مكان إلى مكان، وإنما هو كقول القائل: أقبل يشتمني، بمعنى أخذ في شتمي، أي أخذت تولول كما قال الله تعالى: ﴿قالت يا ويلتي﴾ [هود: ٧٢]، ﴿فصكت وجهها﴾، قال ابن عباس: لطمت وجهها. وقال الآخرون: جمعت أصابعها فضربت جبينها تعجباً، كعادة النساء إذا أنكرن شيئاً، وأصل الصك: ضرب الشيء بالشيء العريض. ﴿وقالت عجوز عقيم﴾، مجازة: أتلد عجوز عقيم، وكانت سارة لم تلد قبل ذلك.

﴿قالوا كذلك قال ربك﴾، أي كما قلنا لك قال ربك إنك ستلدين غلاماً، ﴿إنه هو الحكيم العليم﴾.

﴿قال﴾، إبراهيم، ﴿فما خطبكم أيها المرسلون﴾ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين، يعني قوم لوط.

﴿لنرسل عنهم حجارة من طين﴾ مسومة، معلمة، ﴿عند ربك للمسرفين﴾، قال ابن عباس:

للمشركين، والشرك أشرف الذنوب وأعظمها.

﴿فأخرجنا من كان فيها﴾، أي في قرى قوم لوط، ﴿من المؤمنين﴾، وذلك قوله: ﴿فأسر بأهلك بقطع

من الليل﴾ [هود: ٨١، الحجر: ٦٥].

المسلمين ﴿ يعني لوطاً وابتتيه وصفهم الله تعالى بالإيمان والإسلام جميعاً لأنه ما من مؤمن إلا وهو مسلم. لأن الإسلام أعم من الإيمان. وإطلاق العام على الخاص لا مانع منه فإذا سمي المؤمن مسلماً، لا يدل على اتحاد مفهوميهما ﴿وتركنا فيها﴾ أي في مدينة قوم لوط ﴿آية﴾ أي عبرة ﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ والمعنى تركنا فيها علامة للخائفين تدلهم على أن الله مهلكهم فيخافون مثل عذابهم قوله عز وجل: ﴿وفي موسى﴾ أي وتركنا في إرسال موسى آية وعبرة ﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي حجة ظاهرة ﴿فَتَوَلَّى﴾ أي أعرض عن الإيمان ﴿بِرُكْنِهِ﴾ أي بجمعه وجنوده الذين كان يتقوى بهم ﴿وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ فَاتَّخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُ فِي الْيَمِّ﴾ أي فأغرقناه في البحر ﴿وهو مليم﴾ أي آت بما يلام عليه من دعوى الربوبية وتكذيب الرسل ﴿وفي عاد﴾ أي وفي إهلاك عاد أيضاً آية وعبرة ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ يعني التي لا خير فيها ولا بركة فلا تلقح شجراً ولا تحمل مطراً ﴿ما تذر من شيء أنت عليه﴾ أي من أنفسهم وأموالهم وأنعامهم ﴿إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ﴾ أي كالشيء الهالك البالي وهو ما يبس وديس من نبات الأرض كالشجر والتبن ونحوه وأصله من رم العظم إذا بلي ﴿وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين﴾ يعني إلى وقت انقضاء آجالهم وذلك أنهم لما عقروا الناقة قيل لهم: تمتعوا في داركم ثلاثة أيام.

فَعَمَّوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَاخَذَتْهُمْ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَاَسْتَظْلَمُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مِنْصَرِفِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمٌ

﴿فما وجدنا فيها غير بيت﴾، أي غير أهل بيت، ﴿من المسلمين﴾، يعني لوطاً وابتتيه، وصفهم الله تعالى بالإيمان والإسلام جميعاً لأنه ما من مؤمن إلا وهو مسلم.

﴿وتركنا فيها﴾، أي في مدينة قوم لوط، ﴿آية﴾، عبرة، ﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾، أي علامة للخائفين تدلهم على أن الله تعالى أهلكهم فيخافون مثل عذابهم.

﴿وفي موسى﴾، أي وتركنا في إرسال موسى آية وعبرة. وقيل: هو معطوف على قوله: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين﴾ [الذاريات: ٢٠]، وفي موسى، ﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾، بحجة ظاهرة.

﴿فتولى﴾، أي فأعرض وأدبر عن الإيمان، ﴿بركنه﴾، أي بجمعه وجنوده الذين كانوا يتقوى بهم، كالركن الذي يقوى به البنيان، نظيره قوله: ﴿أو آوي إلى ركن شديد﴾ [هود: ٨٠]، ﴿وقال ساحرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾. قال أبو عبيدة: ﴿أو﴾ بمعنى الواو.

﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم﴾، أغرقناهم فيه، ﴿وهو مليم﴾، أي آت بما يلام عليه من دعوى الربوبية وتكذيب الرسل.

﴿وفي عاد﴾، أي وفي إهلاك عاد أيضاً آية، ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾، وهي التي لا خير فيها ولا بركة ولا تلقح شجراً ولا تحمل مطراً.

﴿ما تذر من شيء أنت عليه﴾، من أنفسهم وأنعامهم ومواشيهم وأموالهم، ﴿إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ﴾، كالشيء الهالك البالي، وهو نبات الأرض إذا يبس وديس. قال مجاهد: كالتبن اليابس. قال قتادة: كريم الشجر. قال أبو العالية: كالتراب المدقوق. وقيل: أصله من العظم البالي.

﴿وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين﴾، يعني وقت فناء آجالهم، وذلك أنهم لما عقروا الناقة قيل لهم: تمتعوا ثلاثة أيام.

نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوْا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾

﴿فَعْتُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي تكبروا عن طاعة ربهم ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ أي بعد مضي ثلاثة أيام من بعد عقر الناقة وهي الموت في قول ابن عباس. وقيل: أخذهم العذاب والصاعقة كل عذاب مهلك ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أي يرون ذلك العذاب عياناً ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾ أي فما قاموا بعد نزول العذاب بهم ولا قدروا على نهوض من تلك الصرعة ﴿وَمَا كَانُوا مُتَّصِرِينَ﴾ أي ممتنعين منا وقيل: ما كانت عندهم قوة يمتنعون بها من أمر الله ﴿وَقَوْمُ نُوحٍ﴾ قرىء بكسر الميم ومعناه وفي يوم نوح وقرىء بنصبها ومعناه: وأغرقنا قوم نوح ﴿مِّن قَبْلُ﴾ أي من قبل هؤلاء وهم عاد وثمود وقوم فرعون ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي خارجين عن الطاعة.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ أي بقوة وقدرة ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ قيل: هو من السعة: أي أوسعنا السماء بحيث صارت الأرض وما يحيط بها من السماء والفضاء والنسبة إلى سعة السماء كالحلقة الملقاة في الفلاة وقال ابن عباس: معناه قادرون على بنائها كذلك وعنه لموسعون أي الرزق على خلقنا وقيل: معناه وإنا ذوو السعة والغنى ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ أي بسطانها ومهدناها لكم ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ أي نحن ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي صنفين ونوعين مختلفين كالسما والأرض والشمس والقمر والليل والنهار والبر والبحر والسهل والجبل والصفى والشتاء والجن والإنس والذكر والأنثى والنور والظلمة والإيمان والكفر والسعادة والشقاوة والحق والباطل والجلو

﴿فَعْتُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾، يعني بعد مضي الأيام الثلاثة، وهي الموت في قول ابن عباس، قال مقاتل: يعني العذاب، والصاعقة: كل عذاب مهلك، وقرأ الكسائي: (الصعقة)، وهي الصوت الذي يكون من الصاعقة، ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾، يرون ذلك عياناً.

﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾، فما قاموا بعد نزول العذاب بهم ولا قدروا على نهوض. قال قتادة: لم ينهضوا من تلك الصرعة، ﴿وَمَا كَانُوا مُتَّصِرِينَ﴾، منتقمين منا. قال قتادة: ما كانت عندهم قوة يمتنعون بها من الله.

﴿وَقَوْمُ نُوحٍ﴾، قرأ أبو عمرو وحزمة والكسائي: ﴿وَقَوْمُ﴾ بجر الميم، أي وفي قوم نوح، وقرأ الآخرون بنصبها بالحمل على المعنى، وهو أن قوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾، معناه: أغرقناهم، كأنه قال: أغرقناهم وأغرقنا قوم نوح. ﴿مِّن قَبْلُ﴾، أي من قبل هؤلاء، وهم عاد وثمود وقوم فرعون. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾، بقوة وقدرة، ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لقادرون. وعنه أيضاً: لموسعون الرزق على خلقنا. وقيل: ذو سعة. وقال الضحاك: أغنياء، دليله قوله عز وجل: ﴿وَعَلَى الْمُوسَى قَدَرُهُ﴾ [البقرة: ٢٣٦]، قال الحسن: المطيقون.

﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾، بسطانها ومهدناها لكم، ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾، الباسطون نحن: قال ابن عباس: نِعْمَ مَا وَطَّأَتْ لِعِبَادِي.

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾، صنفين ونوعين مختلفين كالسما والأرض، والشمس والقمر، والليل

والمر والحامض ﴿لعلكم تذكرون﴾ أي فتعلمون أن خالق الأزواج فرد لا نظير له ولا شريك معه ﴿ففروا إلى الله﴾ أي: قل يا محمد ففروا إلى الله أي فاهربوا من عذابه إلى ثوابه بالإيمان والطاعة وقال ابن عباس ففروا منه إليه واعملوا بطاعته وقال سهل بن عبد الله ففروا مما سوى الله إلى الله ﴿إني لكم منه نذير﴾ أي مخوف ﴿مبين﴾ أي بين الرسالة بالحجة الظاهرة والمعجزة الباهرة والبرهان القاطع ﴿ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر﴾ أي وحدوه ولا تشركوا به شيئاً ﴿إني لكم منه نذير مبين﴾ قيل: إنما كرر قوله إني لكم منه نذير مبين عند الأمر بالطاعة والنهي عن الشرك ليعلم أن الإيمان لا ينفع إلا مع العمل كما أن العمل لا ينفع إلا مع الإيمان وأنه لا يفوز عند الله إلا الجامع بينهما.

كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾

﴿كذلك﴾ أي كما كذبك قومك وقالوا ساحر أو مجنون كذلك ﴿ما أتى الذين من قبلهم﴾ أي من قبل كفار مكة والأمم الخالية ﴿من رسول﴾ يعني يدعوهم إلى الإيمان والطاعة ﴿إلا قالوا ساحر أو مجنون﴾ قال الله تعالى: ﴿أتوأسوا به﴾ أي أوصى أولهم آخرهم وبعضهم بعضاً بالكذب وتواطؤوا عليه وفيه توبيخ لهم ﴿بل هم قوم طاغون﴾ أي لم يتواصلوا بهذا القول لأنهم لم يتلاقوا على زمان واحد بل جمعتهم على ذلك علة واحدة وهي الطغيان وهو الحامل لهم على ذلك القول ﴿فتول عنهم﴾ أي أعرض عنهم ﴿فما أنت بملوم﴾ أي لا لوم عليك فقد أدت الرسالة وبذلت المجهود وما قصرت فيما أمرت به.

قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية حزن رسول الله ﷺ واشتد على أصحابه وظنوا أن الوحي قد انقطع وأن

والنهار، والبر والبحر، والسهل والجبل، والشتاء والصيف، والجن والإنس، والذكر والأنثى، والنور والظلمة، والإيمان والكفر، والسعادة والشقاوة، والجنة والنار، والحق والباطل، والحلو والمر. ﴿لعلكم تذكرون﴾، فتعلمون أن خالق الأزواج فرد.

﴿ففروا إلى الله﴾، فاهربوا من عذاب الله إلى ثوابه، بالإيمان والطاعة. قال ابن عباس: ففروا منه إليه واعملوا بطاعته. وقال سهل بن عبد الله: ففروا مما سوى الله إلى الله. ﴿إني لكم منه نذير مبين﴾ ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إني لكم منه نذير مبين.

﴿كذلك﴾، أي كما كذبك قومك يا محمد وقالوا ساحر أو مجنون كذلك، ﴿ما أتى الذين من قبلهم﴾، من قبل كفار مكة، ﴿من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون﴾.

قال الله تعالى: ﴿أتوأسوا به﴾، أي أوصى أولهم آخرهم وبعضهم بعضاً بالكذب وتواطؤوا عليه؟ والألف فيه للتوبيخ، ﴿بل هم قوم طاغون﴾، قال ابن عباس: حملهم الطغيان فيما أعطيتهم ووسعت عليهم على تكذيبك، ﴿فتول عنهم﴾، فأعرض عنهم، ﴿فما أنت بملوم﴾، لا لوم عليك فقد أدت الرسالة وما قصرت فيما أمرت به. قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية حزن رسول الله ﷺ واشتد ذلك على أصحابه، وظنوا أن الوحي قد انقطع، وأن العذاب قد حضر إذ أمر النبي ﷺ أن يتولى عنهم.

فأنزل الله تعالى: ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾، فطابت أنفسهم. قال مقاتل: معناه عظم القرآن

العذاب قد حضر إذ أمر النبي ﷺ أن يتولى عنهم فأنزل الله عز وجل: ﴿وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فطابت نفوسهم بذلك والمعنى عظم القرآن كفار مكة فإن الذكرى تنفع من علم الله أنه يؤمن منهم وقيل: معناه عظم القرآن من آمن من قومك فإن الذكرى تنفعهم.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ﴾ أي من المؤمنين ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ قيل هذا خاص بأهل طاعته من الفريقين يدل عليه قراءة ابن عباس «وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين إلا ليعبدون» وقيل: معناه وما خلقت السعداء من الجن والإنس إلا لعبادتي والأشقياء منهم إلا لمعصيتي وهو ما جبلوا عليه من الشقاوة والسعادة. وقال علي بن أبي طالب إلا ليعبدون أي إلا لآمرهم أن يعبدوني وأدعوهم إلى عبادتي. وقيل: معناه إلا ليعرفوني وهذا حسن لأنه لو لم يخلقهم لم يعرف وجوده وتوحيده. وقيل: معناه إلا ليخضعوا لي ويتذللوا لأن معنى العبادة في اللغة التذلل والانقياد وكل مخلوق من الجن والإنس خاضع لقضاء الله متذلل للمشيئة لا يملك أحد لنفسه خروجاً عما خلق له. وقيل: معناه إلا ليوحدوني فأما المؤمن فيوحده اختياراً في الشدة والرخاء وأما الكافر فيوحده اضطراراً في الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ أي ما أريد أن يرزقوا أحداً من خلقي ولا أن يرزقوا أنفسهم لأنني أنا الرزاق المتكفل لعبادي بالرزق القائم لكل نفس بما يقيمها من قوتها ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ يَطْعَمُونَ﴾ أي أن يطعموا أحداً من خلقي وإنما أسند الإطعام إلى نفسه لأن الخلق كله عيال الله ومن أطعم عيال أحد فقد أطعمه لما صح من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا ابْنَ آدَمَ مَرَضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي قَالَ يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فَلَاناً مَرَضَ فَلَمْ تَعُدْهُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَنِي لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَطْعَمَنِي قَالَ يَا رَبِّ كَيْفَ أَطْعَمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطَعَمَكَ عَبْدِي فَلَانٌ فَلَمْ تَطْعَمْهُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتَكَ فَلَمْ تَسْقِنِي قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ

كفّار مكة، فإن الذكرى تنفع من في علم الله أن يؤمن منهم. وقال الكلبي: عظم بالقرآن من آمن من قومك فإن الذكرى تنفعهم.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، قال الكلبي والضحاك وسفيان: هذا خاص لأهل طاعته من الفريقين، يدل عليه قراءة ابن عباس: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ﴾ (من المؤمنين) ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، ثم قال في آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال بعضهم: وما خلقت السعداء من الجن والإنس إلا لعبادتي والأشقياء منهم إلا لمعصيتي، وهذا معنى قول زيد بن أسلم، قال: هم على ما جبلوا عليه من الشقاوة والسعادة. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إلا ليعبدون أي إلا لآمرهم أن يعبدوني وأدعوهم إلى عبادتي، يؤيده قوله عز وجل: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [التوبة: ٣١]، وقال مجاهد: إلا ليعرفوني. وهذا أحسن لأنه لو لم يخلقهم لم يعرف وجوده وتوحيده، دليله قوله تعالى: ﴿وَلْتَن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقيل: معناه إلا ليخضعوا إليّ ويتذللوا، ومعنى العبادة في اللغة: التذلل والانقياد، فكل مخلوق من الجن والإنس خاضع لقضاء الله، ومتذلل لمشيئته لا يملك أحد لنفسه خروجاً عما خلق عليه قدر ذرة من نفع أو ضرر. وقيل: إلا ليعبدون إلا ليوحدون، فأما المؤمن فيجده في الشدة والرخاء، وأما الكافر فيوحده في الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء، بيانه قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾، أي أن يرزقوا أحداً من خلقي ولا أن يرزقوا أنفسهم، ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ يَطْعَمُونَ﴾، أي أن يطعموا أحداً من خلقي، وإنما أسند الإطعام إلى نفسه، لأن الخلق عيال الله ومن أطعم عيال

رب العالمين قال استسقاك عبدي فلان فلم تسقه أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي» أخرجه مسلم ثم بين أن الرزاق هو لا غيره فقال تعالى :

إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

﴿إن الله هو الرزاق﴾ أي لجميع خلقه ﴿ذو القوة المتين﴾ يعني هو القوي الشديد المقتدر البليغ القوة والقدرة الذي لا يلحقه في أفعاله مشقة ﴿فإن للذين ظلموا﴾ أي من أهل مكة ﴿ذنوباً﴾ أي نصيباً من العذاب ﴿مثل ذنوب أصحابهم﴾ أي مثل نصيب أصحابهم الذين هلكوا من قوم نوح وعاد وثمود ﴿فلا يستعجلون﴾ أي بالعذاب لأنهم أخرؤا إلى يوم القيامة يدل عليه قوله عز وجل ﴿فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون﴾ يعني يوم القيامة وقيل : يوم بدر والله تعالى أعلم بمراده .

أحد فقد أطعمه . كما جاء في الحديث يقول الله : «يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني»، أي فلم تطعم عبدي، ثم بين أن الرزاق هو لا غيره فقال :

﴿إن الله هو الرزاق﴾، يعني لجميع خلقه، ﴿ذو القوة المتين﴾، وهو القوي المقتدر المبالغ في القوة والقدرة.

﴿فإن للذين ظلموا﴾، كفروا من أهل مكة، ﴿ذنوباً﴾، نصيباً من العذاب، ﴿مثل ذنوب أصحابهم﴾، مثل نصيب أصحابهم الذين أهلكوا من قوم نوح وعاد وثمود، وأصل الذنوب في اللغة: الدلو العظيمة المملوءة ماء، ثم استعمل في الحظ والنصيب، ﴿فلا يستعجلون﴾، بالعذاب يعني أنهم أخرؤا إلى يوم القيامة.

يدل عليه قوله عز وجل: ﴿فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون﴾، يعني يوم القيامة، وقيل: يوم بدر.

سورة الطور

(مكية وهي تسع وأربعون آية وثلاثمائة واثنى عشرة كلمة وألف وخمسمائة حرف)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكُتِبَ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ﴿٣﴾

قوله عز وجل: ﴿والطور﴾ أراد به الجبل الذي كلم الله موسى عليه الصلاة والسلام بالأرض المقدسة وقيل: بمدین ﴿وكتاب مسطور﴾ أي مكتوب ﴿في رق﴾ يعني الأديم الذي يكتب فيه المصحف ﴿منشور﴾ أي مبسوط.

واختلفوا في الكتاب، فقيل: هو ما كتب الله بيده لموسى من التوراة وموسى يسمع صرير الأقدام. وقيل: هو اللوح المحفوظ. وقيل: هو دواوين الحفظة يخرج إليهم يوم القيامة منشوراً فأخذ بيمينه وأخذ بشماله. وقيل: هو القرآن.

وَأَلْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَمْ مِنْ

دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾

﴿والبيت المعمور﴾ يعني بكثرة الغاشية والأهل وهو بيت في السماء السابعة قدام العرش بحيال الكعبة يقال له الصراع حرمة في السماء كحرمة الكعبة في الأرض وصح في حديث المعراج من أفراد مسلم عن أنس أن رسول الله

سُورَةُ الطُّورِ

مَكِّيَّةٌ وَهِيَ تِسْعٌ وَأَرْبَعُونَ آيَةً.

﴿والطور﴾، أراد به الجبل الذي كلم الله تعالى عليه موسى عليه السلام بالأرض المقدسة أقسم الله تعالى

به.

﴿وكتاب مسطور﴾، مكتوب.

﴿في رق منشور﴾، الرق: ما يكتب فيه، وهو أديم المصحف والمنشور المبسوط، واختلفوا في هذا الكتاب، قال الكلبي: هو ما كتب الله بيده لموسى من التوراة وموسى يسمع صرير القلم. وقيل: هو اللوح المحفوظ. وقيل: هو دواوين الحفظة تخرج إليهم يوم القيامة منشورة، فأخذ بيمينه وأخذ بشماله. دليله قوله عز وجل: ﴿ونُخْرِجْ له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾ [الإسراء: ١٣].

﴿والبيت المعمور﴾، بكثرة الغاشية والأهل، وهو بيت في السماء السابعة حذاء العرش بحيال الكعبة

ﷺ رأى البيت المعمور في السماء السابعة قال: فإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه وفي رواية أخرى قال فانتهيت إلى بناء فقلت للملك ما هذا؟ قال بناء بناه الله للملائكة يدخل فيه كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون يسبحون الله ويقصدونه.

وفي أفراد البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «أنه رأى البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك» ﴿والسقف المرفوع﴾ يعني السماء ﴿والبحر المسجور﴾ يعني الموقد المحمي بمنزلة التنور المسجور وهو قول ابن عباس. وذلك ما روي أن الله تعالى يجعل البحار كلها يوم القيامة ناراً فيزداد بها في نار جهنم وجاء في الحديث عن عبد الله بن عمرو وقال قال رسول الله ﷺ «لا يركب رجل البحر إلا غازياً أو معتمراً أو حاجاً فإن تحت البحر ناراً وتحت النار بحراً وقيل: المسجور المملوء وقيل: هو اليابس الذي ذهب ماؤه ونضب. وقيل: هو المختلط العذب بالملح.

وروي عن علي أنه قال البحر المسجور هو بحر تحت العرش غمره كما بين سبع سموات إلى سبع أرضين فيه ماء غليظ يقال له بحر الحيوان يمطر العباد بعد النفخة الأولى منه أربعين صباحاً فينبتون من قبورهم أقسم الله بهذه الأشياء لما فيها من عظيم قدرته وجواب القسم قوله تعالى: ﴿إن عذاب ربك لواقع﴾ يعني إنه لحق وكائن ونازل بالمشركون في الآخرة ﴿ما له من دافع﴾ أي مانع.

قال جبير بن مطعم: قدمت المدينة لأكلم رسول الله ﷺ في أسارى بدر فدفعت له وهو يصلي بأصحابه المغرب وصوته يخرج من المسجد فسمعتة يقرأ والطور إلى قوله إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع فكأنما صدع قلبي حين

يقال له: الصُّرَّاح، حُرْمته في السماء كحُرْمَةِ الكعبة في الأرض يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يطوفون به ويصلُّون فيه ثم لا يعودون إليه أبداً.

﴿والسقف المرفوع﴾، يعني السماء نظيره قوله عز وجل: ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً﴾ [الأنبياء: ٣٢].

﴿والبحر المسجور﴾، قال محمد بن كعب القرظي والضحاك: يعني الموقد المحمي بمنزلة التنور المسجور، وهو قول ابن عباس: وذلك ما روي أن الله تعالى جعل البحار كلها يوم القيامة ناراً فيزداد بها في نار جهنم، كما قال الله تعالى: ﴿وإذا البحار سجرت﴾ [التكوير: ٦]، وجاء في الحديث عن عبد الله بن عمرو قال رسول الله ﷺ: «لا يركب رجلُ بحراً إلا غازياً ومعتمراً أو حاجاً، فإن تحت البحر ناراً وتحت النار بحراً» وقال مجاهد والكلبي: المسجور المملوء، يقال: سجرت الإناء إذا ملأته. وقال الحسن وقتادة وأبو العالية: هو اليابس الذي قد ذهب ماؤه ونضب. وقال الربيع بن أنس: هو المختلط العذب بالملح. وروي الضحاك عن الزال بن سبرة عن علي أنه قال في البحر المسجور: هو بحر تحت العرش، سعتة كما بين سبع سموات إلى سبع أرضين، فيه ماء غليظ يقال له: بحر الحيوان، تمطر العباد بعد النفخة الأولى منه أربعين صباحاً فينبتون في قبورهم. هذا قول مقاتل: أقسم الله بهذه الأشياء.

﴿إن عذاب ربك لواقع﴾، نازل كائن.

﴿ما له من دافع﴾، مانع قال جبير بن مطعم: قَدِمْتُ المدينة لأكلم رسول الله ﷺ في أسارى بدر فدفعت إليه وهو يصلي بأصحابه المغرب، وصوته يخرج من المسجد فسمعتة يقرأ ﴿والطور﴾ إلى قوله: ﴿إن عذاب

سمعت ولم يكن أسلم يومئذ فأسلمت خوفاً من نزول العذاب وما كنت أظن أنني أقوم من مكاني حتى يقع بي العذاب ثم بين أنه متى يقع فقال تعالى: ﴿يوم تمور السماء موراً﴾ أي تدور كدوران الرحي وتتكفأ بأهلها تكفؤ السفينة وقيل: تتحرك وتختلف أجزاؤها بعضها من بعض وتضطرب ﴿وتسير الجبال سيراً﴾ أي تزول عن أماكنها وتصير هباءً مثوراً والحكمة في مور السماء وسير الجبال الإنذار والأعلام بأن لا رجوع ولا عود إلى الدنيا وذلك لأن الأرض والسماء وما بينهما من الجبال والبحار وغير ذلك إنما خلقت لعمارة الدنيا وانتفاع بني آدم بذلك فلما لم يبق لهم عود إليها أزالها الله تعالى وذلك لخراب الدنيا وعمارة الآخرة.

فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَدْعُوثُ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَكَيْهِنَ بِمَاءٍ أَنْهَمَ رَبُّهُمْ وَوَقَّهْمَ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾

﴿فويل﴾ أي شدة عذاب ﴿يومئذ للمكذبين﴾ أي يوم القيامة ﴿الذين هم في خوض﴾ أي يخوضون في الباطل ﴿يلعبون﴾ أي غافلون لأهون عما يراد بهم ﴿يوم يدعون﴾ أي يدفعون ﴿إلى نار جهنم دعا﴾ يعني دفعاً بعنف وجفوة، وذلك أن خزنة جهنم يغفلون أيدي الكفار إلى أعناقهم ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم ويدفعون بها دفعاً إلى النار على وجوههم وزجاً في أقيمتهم حتى يردوا إلى النار، فإذا دنوا منها، قال لهم خزنتها: ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾ أي في الدنيا ﴿أفسحر هذا﴾ ذلك أنهم كانوا ينسبون محمداً ﷺ إلى السحر وأنه يغطي على الأبصار فوبخوا بذلك وقيل

ربك لواقع * ما له من دافع *، فكأنما صدع قلبي حين سمعته، ولم يكن أسلم يومئذ، قال فأسلمت خوفاً من نزول العذاب وما كنت أظن أنني أقوم من مكاني حتى يقع بي العذاب. ثم بين أنه متى يقع فيقال:

﴿يوم تمور السماء موراً﴾، أي تدور كدوران الرحي وتتكفأ بأهلها تكفؤ السفينة. قال قتادة: تتحرك. قال عطاء الخراساني: تختلف أجزاؤها بعضها في بعض. وقيل: تضطرب، والمور يجمع هذه المعاني فهو في اللغة: الذهاب والمجيء والتردد والدوران والاضطراب.

﴿وتسير الجبال سيراً﴾ فتزول عن أماكنها وتصير هباءً مثوراً.

﴿فويل﴾ فشدة عذاب، ﴿يومئذ للمكذبين﴾ الذين هم في خوض يلعبون، يخوضون في الباطل يلعبون غافلين لا همين.

﴿يوم يدعون﴾. يدفعون، ﴿إلى جهنم دعا﴾، دفعاً بعنف وجفوة، وذلك أن خزنة جهنم يغفلون أيديهم إلى أعناقهم، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم، ثم يدفعونهم إلى النار دفعاً على وجوههم، وزجاً في أقيمتهم حتى يردوا النار، فإذا دنوا منها قال لهم خزنتها:

﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾، في الدنيا.

لهم: أفسح هذا ﴿أم أنتم لا تبصرون اصلوها﴾ أي قاسوا شدتها ﴿فاصبروا﴾ أي على العذاب ﴿أو لا تصبروا﴾ أي عليه ﴿سواء عليكم﴾ أي الصبر والجزع ﴿إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ أي من الكفر والتكذيب في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿إن المتقين في جنات ونعيم فأكهين﴾ أي معجبين بذلك ناعمين ﴿بما آتاهم ربهم﴾ أي من الخير والكرامة ﴿ووقاهم ربهم عذاب الجحيم كلوا﴾ أي يقال لهم كلوا ﴿واشربوا هنيئاً﴾ أي مأمون العاقبة من التخمة والسقم ﴿بما كنتم تعملون﴾ أي في الدنيا من الإيمان والطاعة ﴿متكئين على سرر مصفوفة﴾ أي موضوعة بعضها إلى بعض ﴿وزوجناهم بحور عين والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم بإيمان﴾ يعني ألحقنا أولادهم الصغار والكبار بإيمانهم فالكبار بإيمانهم بأنفسهم والصغار بإيمان آبائهم فإن الولد الصغير يحكم بإسلامه تبعاً لأحد أبويه ﴿ألحقنا بهم ذرياتهم﴾ يعني المؤمنين في الجنة بدرجات آبائهم وإن لم يبلغوا بأعمالهم درجات آبائهم تكرمة لآبائهم لتقر بذلك أعينهم هذه رواية عن ابن عباس. وفي رواية أخرى عنه، أن معنى الآية والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم يعني البالغين بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم الصغار الذين لم يبلغوا الإيمان بإيمان آبائهم أخبر الله تعالى أنه يجمع لعبده المؤمن من ذريته في الجنة كما كان يحب في الدنيا أن يجتمعوا إليه فيدخلهم الجنة بفضلهم ويلحقهم بدرجته بعمله من غير أن

﴿أفسح هذا﴾، وذلك أنهم كانوا ينسبون محمداً ﷺ إلى السحر، وإلى أنه يغطي على الأبصار بالسحر، فوبّخوا به، وقيل لهم: ﴿فسح هذا أم أنتم لا تبصرون﴾.

﴿اصلوها﴾، قاسوا شدتها، ﴿فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم﴾، الصبر والجزع، ﴿إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾.

﴿إن المتقين في جنات ونعيم * فأكهين﴾، معجبين بذلك ناعمين، ﴿بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم﴾، ويقال لهم:

﴿كلوا واشربوا هنيئاً﴾، مأمون العاقبة من التخمة والسقم، ﴿بما كنتم تعملون﴾.

﴿متكئين على سرر مصفوفة﴾، موضوعة بعضها إلى جنب بعض، ﴿وزوجناهم بحور عين﴾.

﴿والذين آمنوا وأتبعتهم ذريتهم بإيمان﴾، قرأ أبو عمرو: (أتبعناهم) بقطع الألف على التعظيم، (ذرياتهم)، بالألف وكسر التاء فيهما لقوله: ﴿ألحقنا بهم﴾ ﴿وما ألتناهم﴾، ليكون الكلام على نسق واحد، وقرأ الآخرون ﴿وأتبعتهم﴾ بوصل الألف وتشديد التاء بعدها وسكون التاء الأخيرة، ثم اختلفوا في ذريتهم، قرأ أهل المدينة الأولى بغير ألف وضّم التاء، والثانية بالألف وكسر التاء، وقرأ أهل الشام ويعقوب كلاهما بالألف وكسر التاء في الثانية، وقرأ الآخرون بغير ألف فيهما ورفع التاء الأولى ونصبها في الثانية، واختلفوا في معنى الآية، فقال قوم: معناها والذين آمنوا وأتبعتهم ذريتهم بإيمان يعني أولادهم الصغار والكبار، فالكبار بإيمانهم بأنفسهم، والصغار بإيمان آبائهم، فإن الولد الصغير يحكم بإسلامه تبعاً لأحد الأبوين ﴿ألحقنا بهم ذريتهم﴾ المؤمنين في الجنة بدرجاتهم وإن لم يبلغوا بأعمالهم درجات آبائهم تكرمة لآبائهم لتقر بذلك أعينهم. وهي رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهم. وقال آخرون: معناه والذين آمنوا وأتبعتهم ذريتهم البالغون بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم الصغار الذين لم يبلغوا الإيمان بإيمان آبائهم. وهو قول الضحاك، ورواية العوفي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، أخبر الله عز وجل أنه يجمع لعبده المؤمن ذريته في الجنة كما كان يحب في الدنيا أن يجتمعوا إليه، يدخلهم الجنة بفضلهم ويلحقهم بدرجته بعمل أبيه، من غير أن ينقص الآباء من أعمالهم شيئاً، فذلك قوله: ﴿وما ألتناهم﴾، قرأ ابن كثير بكسر اللام، والباقون بفتحها أي ما نقصانهم يعني الآباء، ﴿من عملهم من شيء﴾،

ينقص الآباء من أعمالهم شيئاً وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني: وما نقصنا الآباء من أعمالهم شيئاً عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه ثم قرأ والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم إلى آخر الآية.

عن علي قال: «سألت خديجة النبي ﷺ عن ولدين ماتا لها في الجاهلية فقال رسول الله ﷺ هما في النار فلما رأى الكراهية في وجهها قال: لو رأيت مكانهما لأبغضتهما قالت يا رسول الله ﷺ فولدي منك قال: في الجنة ثم قال رسول الله ﷺ إن المؤمنين وأولادهم في الجنة وإن المشركين وأولادهم في النار ثم قرأ النبي ﷺ والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم» أخرج هذين الحديثين البغوي بإسناد الثعلبي.

﴿كل امرئ﴾ أي كافر ﴿بما كسب﴾ أي عمل من الشرك ﴿رهين﴾ أي مرتهن بعمله في النار والمؤمن لا يكون مرتهنًا بعمله لقوله «كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين» ثم ذكر ما وعدهم به من الخير والنعمة فقال تعالى:

وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهِةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَنْزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيمٌ ﴿٢٣﴾

﴿وأمددناهم بفاكهة﴾ يعني زيادة عما كان لهم ﴿ولحم مما يشتهون﴾ أي من أنواع اللحوم ﴿يتنازعون﴾ أي يتعاطون ويتناولون ﴿فيها﴾ أي في الجنة ﴿كأساً لا لغو فيها﴾ أي لا باطل فيها ولا رفث ولا تخاصم ولا تذهب عقولهم فيلغوا ويرفثوا ﴿ولا تأنيم﴾ أي لا يكون فيها ما يؤثمهم ولا يجري بينهم ما فيه لغو وإثم كما يجري بين شربة الخمر في الدنيا. وقيل: لا يأثمون في شربها.

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني الحسين بن محمد بن عبد الله الحديثي ثنا سعيد بن محمد بن إسحاق الصيرفي ثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة جنادة بن المفلس ثنا قيس بن الربيع ثنا عمر بن مرة عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل، لتقر بهم عينه»، ثم قرأ: ﴿والذين آمنوا وأتبعهم ذرياتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم﴾، إلى آخر الآية. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا عبد الله بن فنجويه الدينوري ثنا أبو بكر مالك القطيعي ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثني عثمان بن أبي شيبة ثنا محمد بن فضل عن محمد بن عثمان عن زاذان عن علي رضي الله عنه قال: سألت خديجة رضي الله تعالى عنها عن النبي ﷺ عن ولدين ماتا لها في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «هما في النار»، فلما رأى الكراهية في وجهها، قال: «لو رأيت مكانهما لأبغضتهما»، قالت: يا رسول الله فولدي منك؟ قال: «في الجنة» ثم قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمنين وأولادهم في الجنة، وإن المشركين وأولادهم في النار»، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿والذين آمنوا وأتبعهم ذرياتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم﴾. ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾، قال مقاتل: كل امرئ كافر بما عمل من الشرك مرتهن في النار، والمؤمن لا يكون مرتهنًا، لقوله عز وجل: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة * إلا أصحاب اليمين﴾ [المذثر: ٣٨ و٣٩] ثم ذكر ما يزيدهم من الخير والنعمة.

فقال: ﴿وأمددناهم بفاكهة﴾، زيادة على ما كان لهم، ﴿ولحم مما يشتهون﴾، من أنواع اللحمان.

﴿يتنازعون﴾، يتعاطون ويتناولون، ﴿فيها كأساً لا لغو فيها﴾، وهو الباطل، وروى ذلك عن قتادة، وقال مقاتل بن حيان: لا فضول فيها. وقال سعيد بن المسيب: لا رفث فيها. وقال ابن زيد: لا سباب ولا تخاصم فيها. وقال القتيبي: لا تذهب عقولهم فيلغوا ويرفثوا، ﴿ولا تأنيم﴾، أي لا يكون منهم ما يؤثمهم. قال الزجاج: لا يجري بينهم ما يلغي ولا ما فيه إثم كما يجري في الدنيا بشربة الخمر. وقيل: لا يأثمون في شربها.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ ٢٤ ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ٢٥ ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ ٢٦ ﴿فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّعْنَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ ٢٧ ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ ٢٨ ﴿فَذَكَرْنَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ يَكَاهِنُ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ ٢٩ ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرْتَصُّ بِهِ رَبِّبَ الْمُتَنُونَ﴾ ٣٠

﴿ويطوف عليهم﴾ أي للخدمة ﴿غلمان لهم كأنهم﴾ أي في الحسن والبياض والصفاء ﴿لؤلؤ مكنون﴾ أي مخزون مصون لم تمسه الأيدي وقال عبد الله بن عمرو ما من أحد من أهل الجنة إلا يسعى عليه ألف غلام كل واحد منهم على عمل غير عمل صاحبه وعن قتادة قال: «ذكر لنا أن رجلاً قال يا نبي الله هذا الخادم فكيف المخدم؟ قال: فضل المخدم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب.

قوله تعالى: ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ يعني يسأل بعضهم بعضاً في الجنة قال ابن عباس: يتذكرون ما كانوا فيه من الخوف والتعب في الدنيا ﴿قالوا إنا كنا قبل في أهلنا﴾ أي في الدنيا ﴿مشفقين﴾ أي خائفين من العذاب ﴿فمن الله علينا﴾ أي بالمغفرة ﴿ووقنا عذاب السموم﴾ يعني عذاب النار وقيل: هو اسم من أسماء جهنم ﴿إنا كنا من قبل﴾ أي في الدنيا ﴿ندعوه﴾ أي نخلص الدعاء والعبادة له ﴿إنه هو البر﴾ قال ابن عباس: اللطيف وقيل: يعني الصادق فيما وعد. وقيل: البر العطوف على عباده المحسن إليهم الذي عم بره جميع خلقه ﴿الرحيم﴾ بعبده.

قوله عز وجل: ﴿فذكر﴾ يعني فعظ يا محمد بالقرآن كفار مكة ﴿فما أنت بنعمة ربك﴾ أي برحمته وعصمته

﴿ويطوف عليهم﴾، بالخدمة، ﴿غلمان لهم كأنهم﴾، في الحُسْن والبياض والصفاء، ﴿لؤلؤ مكنون﴾، مخزون مصون لم تمسه الأيدي. قال سعيد بن جبير: مكنون يعني في الصدف. قال عبد الله بن عمرو: ما من أحد من أهل الجنة إلا يسعى عليه ألف غلام، وكل غلام على عمل ما عليه صاحبه. ورؤي عن الحسن أنه لما تلا هذه الآية قال: قالوا يا رسول الله: الخادم كاللؤلؤ المكنون، فكيف المخدم؟ وعن قتادة قال: ذكر لنا أن رجلاً قال: يا نبي الله هذا الخادم فكيف المخدم؟ قال: «فضل المخدم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب».

﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾، يسأل بعضهم بعضاً في الجنة. قال ابن عباس: يتذكرون ما كانوا فيه من التعب والخوف في الدنيا.

﴿قالوا إنا كنا قبل في أهلنا﴾، في الدنيا، ﴿مشفقين﴾، خائفين من العذاب.

﴿فمن الله علينا﴾، بالمغفرة، ﴿ووقنا عذاب السموم﴾، قال الكلبي: عذاب النار. وقال الحسن: السموم اسم من أسماء جهنم.

﴿إنا كنا من قبل﴾، في الدنيا، ﴿ندعوه﴾، نخلص له العبادة، ﴿إنه﴾، قرأ أهل المدينة والكسائي ﴿إنه﴾ بفتح الألف، أي لأنه أو بأنه، وقرأ الآخرون بالكسر على الاستئناف، ﴿هو البر﴾، قال ابن عباس: اللطيف. وقال الضحاك: الصادق فيما وعد ﴿الرحيم﴾.

﴿فذكر﴾، يا محمد بالقرآن أهل مكة، ﴿فما أنت بنعمة ربك﴾، برحمته وعصمته، ﴿بكاهن﴾، تبتدع القرآن وتخبر بما في غد من غير وحي، ﴿ولا مجنون﴾، نزلت في الذين اقتسموا عقبات مكة يرمون رسول الله ﷺ بالكهانة والسحر والجنون والشعر.

وقيل: بإنعامه عليك بالنبوة ﴿بكاهن ولا مجنون﴾ الكاهن هو الذي يوهم أنه يعلم الغيب ويخبر بما في غد من غير وحي والمعنى أنك لست كما يقول كفار مكة إنه كاهن أو مجنون إنما تنطلق بالوحي نزلت في الذين اقتسموا أعقاب مكة يرمون رسول الله ﷺ بالكهانة والسحر والشعر والجنون ﴿أم يقولون﴾ يعني هؤلاء المقتسمين ﴿شاعر﴾ أي هو شاعر ﴿نتربص به﴾ أي نتظر به ﴿ريب المنون﴾ يعني حوادث الدهر وصروفه فيموت ويهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء أو يتفرق عنه أصحابه وإن أباه مات وهو شاب ونحن نرجو أن يكون موته كموت أبيه والمنون اسم للموت وللدهر وأصله القطع سميًا بذلك لأنهما يقطعان الأجل.

قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُمْ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخُلُقُوتُ ﴿٣٥﴾ أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكِ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾

﴿قل ترصبوا﴾ أي انتظروا بي الموت ﴿فإني معكم من المتربصين﴾ أي من المنتظرين حتى يأتي أمر الله فبكم فعذبوا يوم بدر بالقتل والسبي ﴿أم تأمرهم أخلامهم﴾ أي عقولهم ﴿بهذا﴾ وذلك أن عظماء قريش كانوا يوصفون بالأحلام والعقول فازرى الله بعقولهم حين لم تشر لهم معرفة الحق من الباطل ﴿أم هم قوم طاغون﴾ أي يتجاوزون الحد في الطغيان والكفر ﴿أم يقولون نقوله﴾ أي اختلق القرآن من تلقاء نفسه والتقول التكلف ولا يستعمل إلا في الكذب والمعنى ليس الأمر كما زعموا ﴿بل لا يؤمنون﴾ أي بالقرآن استكباراً ثم ألزمهم الحجة فقال تعالى: ﴿فليأتوا بحديث مثله﴾ أي مثل القرآن في نظمه وحسنه وبيانه ﴿إن كانوا صادقين﴾ يعني إن محمد تقوله من قبل نفسه ﴿أم خلقوا من غير شيء﴾.

﴿أم يقولون﴾، بل يقولون يعني هؤلاء المقتسمين الخراصين، ﴿شاعر﴾، أي هو شاعر، ﴿نتربص به﴾ ريب المنون، حوادث الدهر وصروفه فيموت ويهلك كما هلك من قبله من الشعراء، ويتفرق أصحابه وأن أباه مات شاباً ونحن نرجو أن يكون موته كموت أبيه، والمنون يكون بمعنى الدهر ويكون بمعنى الموت، سُميًا بذلك لأنهما يقطعان الأجل.

﴿قل ترصبوا﴾، انتظروا بي الموت، ﴿فإني معكم من المتربصين﴾، من المنتظرين حتى يأتي أمر الله فيكم فتعذبوا يوم بدر بالسيف.

﴿أم تأمرهم أخلامهم﴾، عقولهم، ﴿بهذا﴾، وذلك أن عظماء قريش كانوا يُوصَفُونَ بالأحلام والعقول، فازرى الله بعقولهم حين لم تتم لهم معرفة الحق من الباطل، ﴿أم هم﴾، بل هم، ﴿قومٌ طاغون﴾.

﴿أم يقولون نقوله﴾، أي تخلق القرآن من تلقاء نفسه، والتقول: تكلف القول، ولا يستعمل ذلك إلا في الكذب وليس الأمر كما زعموا، ﴿بل لا يؤمنون﴾، بالقرآن استكباراً.

ثم ألزمهم الحجة فقال: ﴿فليأتوا بحديث مثله﴾، أي مثل القرآن في نظمه وحسن بيانه، ﴿إن كانوا صادقين﴾، أن محمداً تقوله من تلقاء نفسه.

﴿أم خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾، قال ابن عباس: من غير ربٍّ، ومعناه: أُخْلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ خَلَقَهُمْ فَوُجِدُوا بِلا خالق، وذلك مما لا يجوز أن يكون، لأن تعلق الخلق بالخالق من ضرورة الاسم، فلا بد له من خالق، فإن أنكروا الخالق لم يجز أن يُوجَدُوا بِلا خالق، ﴿أم هم الخالقون﴾، لأنفسهم ذلك في البطلان أشد، لأن ما لا وجود له

قال ابن عباس: من غير رب خالق. والمعنى: أم خلقوا من غير شيء خلقهم فوجدوا بلا خالق وذلك مما لا يجوز أن يكون لأن تعلق الخلق بالخالق من ضرورة الاسم فإن أنكروا الخالق لم يجز أن يوجدوا بلا خالق ﴿أم هم الخالقون﴾ أي لأنفسهم وذلك في البطلان أشد لأن ما لا وجود له كيف يخلق فإذا بطل الوجهان قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقاً فليؤمنوا به وليوحده وليعبدوه وقيل: في معنى الآية: أخلقوا باطلاً فلا يحاسبون ولا يؤمرون ولا ينهون أم هم الخالقون أي لأنفسهم فلا يجب عليهم لله أمر ﴿أم خلقوا السموات والأرض﴾ يعني ليس الأمر كذلك ﴿بل لا يوقنون﴾ أي بالحق وهو توحيد الله تعالى وقدرته على البعث وأن الله تعالى هو خالقهم وخالق السموات والأرض فليؤمنوا به وليوقنوا أنه ربهم وخالقهم ﴿أم عندهم خزائن ربك﴾ يعني النبوة ومفاتيح الرسالة فيضعونها حيث شاؤوا وقيل: خزائن المطر والرزق ﴿أم هم المسيطرون﴾ أي المسلمون الجبارون. وقيل: الأرباب القاهرون فلا يكونون تحت أمر ولا نهى ويفعلون ما يشاؤون.

﴿أَمْ لَهُمْ سُلْمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلَيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ ﴿٤٠﴾ ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ﴿٤١﴾ ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ ﴿٤٥﴾

﴿أم لهم سلم﴾ يعني مرقى ومصعد إلى السماء ﴿يستمعون فيه﴾ أي يستمعون عليه الوحي من السماء فيعلمون أن ما هم عليه حق فهم به متمسكون ﴿فليأت مستمعهم﴾ أي إن ادعوا ذلك ﴿بسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي بحجة بينة ﴿أم له البنات ولكم البنون﴾ هذا إنكار عليهم حيث جعلوا لله ما يكرهون لأنفسهم ﴿أم تسألهم أجراً﴾ أي جعلاً على ما جتتهم به من النبوة ودعوتهم إليه من الدين ﴿فهم من مغرم مثقلون﴾ يعني أثقلهم ذلك المغرم الذي سألتهم فمنعهم عن الإسلام ﴿أم عندهم الغيب﴾ أي علم الغيب وهو ما غاب عنهم حتى علموا أن ما يخبرهم به الرسول من أمر القيامة

كيف يخلق، فإذا بطل الوجهان قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقاً فليؤمنوا به، ذكر هذا المعنى أبو سليمان الخطابي، قال الزجاج: معناه أخلقوا باطلاً لا يحاسبون ولا يؤمرون؟ وقال ابن كيسان: أخلقوا عبثاً وتركوا سُدًى لا يؤمرون ولا ينهون، فهو كقول القائل فعلت كذا وكذا من غير شيء، أي لغير شيء، أم هم الخالقون لأنفسهم فلا يجب عليهم لله أمر؟

﴿أم خلقوا السموات والأرض﴾، فيكونوا هم الخالقين، ليس الأمر كذلك، ﴿بل لا يوقنون﴾.

﴿أم عندهم خزائن ربك﴾، قال عكرمة: يعني النبوة. قال مقاتل: أبأيديهم مفاتيح ربك بالرسالة فيضعونها حيث شاؤوا؟ قال الكلبي: خزائن المطر والرزق، ﴿أم هم المسيطرون﴾، المسلمون الجبارون، قال عطاء: أرباب قاهرون فلا يكونوا تحت أمر ونهي، ويفعلون ما شاؤوا. ويجوز بالسين والصاد جميعاً، قرأ ابن عامر بالسين ههنا وفي قوله: (بمسيطر)، وقرأ حمزة بإشمام الزاي فيهما، وقرأ ابن كثير ههنا بالسين و﴿بمسيطر﴾ [الغاشية: ٢٢] بالصاد، وقرأ الآخرون بالصاد فيهما.

﴿أم لهم سلم﴾، مرقى ومصعد إلى السماء، ﴿يستمعون فيه﴾، أي يستمعون عليه الوحي، كقوله: ﴿ولأصلبكنم في جذوع النخل﴾ [طه: ٧١] أي عليها، أي ألهم سلم يرتقون به إلى السماء، فيستمعون الوحي ويعلمون أن ما هم عليه حق بالوحي، فهم متمسكون به كذلك؟ ﴿فليأت مستمعهم﴾، إن دعوا ذلك، ﴿بسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾، بحجة بينة.

والبعث باطل. وقيل: هو جواب لقولهم نتربص به ريب المنون، والمعنى: اعلموا أن محمداً يموت قبلهم ﴿فهم يكتبون﴾ أي يحكمون قال ابن عباس: معناه أم عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ويخبرون الناس به ﴿أم يريدون كيداً﴾ أي مكرأ بك ليهلكوك ﴿فالذين كفروا هم المكيدون﴾ أي المجزيون بكيدهم والمعنى أن ضرر كيدهم يعود عليهم ويحقيق مكرهم بهم وهو أنهم مكروا به في دار الندوة ليقتلوه فقتلوا ببدر ﴿أم لهم إله غير الله﴾ يعني يرزقهم وينصرهم ﴿سبحان الله عما يشركون﴾ المعنى: أنه نزهة نفسه عما يقولون.

قوله تعالى: ﴿وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً﴾ هذا جواب لقولهم فأسقط علينا كسفاً من السماء يقول لو عذبناهم بسقوط قطعة من السماء عليهم لم ينتهوا عن كفرهم ﴿يقولوا﴾ لمعاندتهم هذا ﴿سحاب مركوم﴾ أي بعضه على بعض يسقينا ﴿فذرهم حتى يلاقوا﴾ أي يعاينوا ﴿يومهم الذي فيه يصعقون﴾ أي يموتون ويهلكون.

يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾

﴿يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون﴾ أي لا ينفعهم كيدهم يوم الموت ولا يمنعهم من العذاب مانع

﴿أم له البنات ولكم البنون﴾، هذا إنكار عليهم حين جعلوا لله ما يكرهون، كقوله: ﴿فاستفتهم الربك البنات ولهم البنون﴾.

﴿أم تسألهم أجراً﴾، جعلاً على ما جئتهم به ودعوتهم إليه من الدين، ﴿فهم من مغرم مثقلون﴾، أثقلهم ذلك الغرم الذي تسألهم، فمنعهم ذلك عن الإسلام.

﴿أم عندهم الغيب﴾، أي علم ما غاب عنهم حتى علموا أن ما يخبرهم الرسول من أمر القيامة والبعث باطل. وقال قتادة: هذا جواب لقولهم: ﴿نتربص به ريب المنون﴾، يقول: أعندهم علم الغيب حتى علموا أن محمداً ﷺ يموت قبلهم؟ ﴿فهم يكتبون﴾، قال القتيبي: فهم يكتبون أي يحكمون، والكتاب الحكم قال النبي ﷺ للرجلين اللذين تخاصما إليه: «أقضي بينكما بكتاب الله»، أي بحكم الله، وقال ابن عباس: معناه أم عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ويخبرون الناس به؟

﴿أم يريدون كيداً﴾، مكرأ بك ليهلكوك، ﴿فالذين كفروا هم المكيدون﴾، أي هم المجزيون بكيدهم يريد أن ضرر ذلك يعود عليهم، ويحقيق مكرهم بهم، وذلك أنهم مكروا به في دار الندوة فقتلوا ببدر.

﴿أم لهم إله غير الله﴾، يرزقهم وينصرهم، ﴿سبحان الله عما يشركون﴾، قال الخليل: ما في هذه السورة من ذكر أم كلمة استفهام وليس بعطف.

﴿وإن يروا كسفاً﴾، قطعة، ﴿من السماء ساقطاً﴾، هذا جواب لقولهم: ﴿فأسقط علينا كسفاً من السماء﴾ [الشعراء: ١٨٧]، يقول: لو عذبناهم بسقوط بعض من السماء عليهم لم ينتهوا عن كفرهم، ﴿يقولوا﴾، لمعاندتهم هذا، ﴿سحاب مركوم﴾، بعضه على بعض يسقينا.

﴿فذرهم حتى يلاقوا﴾، يعاينوا، ﴿يومهم الذي فيه يصعقون﴾، يموتون، أي حتى يعاينوا الموت، قرأ ابن عامر وعاصم يصعقون بضّم الياء أي يهلكون.

﴿يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون﴾، أي لا ينفعهم كيدهم يوم الموت ولا يمنعهم من العذاب مانع.

﴿وإن للذين ظلموا﴾ أي كفروا ﴿عذاباً دون ذلك﴾ أي عذاباً في الدنيا قبل عذاب الآخرة قال ابن عباس يعني القتل يوم بدر وقيل: هو الجوع والقحط سبع سنين وقيل: هو عذاب القبر ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أي أن العذاب نازل بهم. قوله عز وجل: ﴿واصبر لحكم ربك﴾ أي إلى أن يقع بهم العذاب الذي حكمنا عليهم به ﴿فإنك بأعيننا﴾ أي بمرأى منا.

قال ابن عباس: نرى ما يعمل بك. وقيل: معناه أنك بحيث نراك ونحفظك فلا يصلون إليك بمكروه ﴿وسبح بحمد ربك حين تقوم﴾ أي: قل حين تقوم من مجلسك: سبحانك اللهم وبحمدك فإن كان المجلس خيراً ازدادت بذلك إحساناً وإن كان غير ذلك كان كفارة لك.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من جلس مجلساً فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك إلا كان كفارة لما بينهما» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

وقال ابن عباس: معناه حين تقوم من منامك. وقيل: هو ذكر الله بالليل من حين تقوم من الفراش إلى أن تدخل في الصلاة وعن عاصم بن حميد قال: «سألت عائشة بأي شيء كان يفتح رسول الله ﷺ قيام الليل فقالت سألتني عن شيء ما سألتني عنه أحد قبلك كان إذا قام كبر عشراً وحمد الله عشراً وسبح عشراً وهلل عشراً واستغفر عشراً وقال اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني وعافني وكان يتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة» أخرجه أبو داود والنسائي وقيل:

﴿وإن للذين ظلموا﴾، كفروا، ﴿عذاباً دون ذلك﴾، أي عذاباً في الدنيا قبل عذاب الآخرة. قال ابن عباس: يعني القتل يوم بدر وقال مجاهد: هو الجوع والقحط سبع سنين. وقال البراء بن عازب: هو عذاب القبر. ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾، أن العذاب نازل بهم.

﴿واصبر لحكم ربك﴾، إلى أن يقع بهم العذاب الذي حكمنا عليهم، ﴿فإنك بأعيننا﴾، أي بمرأى منا، قال ابن عباس: نرى ما يعمل بك. وقال الزجاج: معناه أنك بحيث نراك ونحفظك فلا يصلون إلى مكروهك. ﴿وسبح بحمد ربك حين تقوم﴾، قال سعيد بن جبير وعطاء: أي قل حين تقوم من مجلسك: سبحانك اللهم وبحمدك، فإن كان المجلس خيراً ازدادت إحساناً، وإن كان غير ذلك كان كفارة له. أخبرنا أبو عبد الله عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد القفال أنا أبو منصور أحمد بن الفضل البروجردي أنا أبو أحمد بكر بن محمد الصيرفي ثنا أحمد بن عبد الله الترسي ثنا حجاج بن محمد عن ابن جريج عن موسى بن عقبة عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من جلس مجلساً فكثر فيه لغطه، فقال قبل أن يقوم: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلا كان كفارة لما بينهما». وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: معناه صلّ الله حين تقوم من مقامك. وقال الضحاك والربيع: إذا قمت إلى الصلاة فقل سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك. أخبرنا أبو عثمان الضبي أنا أبو محمد الجراحي ثنا أبو العباس المحبوبي ثنا أبو عيسى الترمذي ثنا الحسن بن عرفة ويحيى بن موسى قال ثنا أبو معاوية عن حارثة بن أبي الرجال عن عمرة عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ إذا افتتح الصلاة قال: «سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك». وقال الكلبي: هو ذكر الله باللسان حين تقوم من الفراش إلى أن يدخل في صلاته. أخبرنا أبو طاهر عمر بن عبد العزيز القاشاني أنا أبو عمر القاسم بن جعفر بن عبد الواحد

إذا قمت إلى الصلاة فقل سبحانك اللهم وبحمدك يدل عليه ما روي عن عائشة قالت «كان النبي ﷺ إذا افتتح الصلاة قال سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك وجل ثناؤك ولا إله غيرك» أخرجه الترمذي وأبو داود وقد تكلم في أحد روايته.

وقوله تعالى: ﴿ومن الليل فسبحه﴾ أي فصل له يعني صلاة المغرب والعشاء ﴿وإدبار النجوم﴾ يعني الركعتين قبل صلاة الفجر ذلك حين تدبر النجوم أي تغيب بضوء الصبح هذا قول أكثر المفسرين يدل عليه ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال «إدبار النجوم الركعتان قبل الفجر وإدبار السجود الركعتان بعد المغرب» أخرجه الترمذي وقال: حديث غريب. وقيل: إدبار النجوم هي فريضة صلاة الصبح (ق) عن جبير بن مطعم قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور» والله تعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه.

الهاشمي أنا أبو علي محمد بن أحمد بن عمر اللؤلؤي ثنا أبو داود بن سليمان الأشعث ثنا محمد بن نافع ثنا زيد بن حباب أخبرني معاوية بن صالح أنا أزهر بن سعيد الحرازي عن عاصم بن حميد قال: سألت عائشة رضي الله تعالى عنها بأي شيء كان يفتح رسول الله ﷺ قيام الليل؟ فقالت: كان إذا قام كبر الله عشراً وحمد الله عشراً، وسبح الله عشراً وهلل عشراً، واستغفر عشراً، وقال: «اللهم اغفر لي واهدني وارزقني وعافني، ويتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة».

﴿ومن الليل فسبحه﴾، أي صل له، قال مقاتل: يعني صلاة المغرب والعشاء. ﴿وإدبار النجوم﴾، يعني ركعتين قبل صلاة الفجر، وذلك حين تدبر النجوم أي تغيب بضوء الصبح، هذا قول أكثر المفسرين. وقال الضحاك: هو فريضة صلاة الصبح. أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور.

سورة النجم

(مكية وهي اثنتان وستون آية وثلاثمائة وستون كلمة وألف وأربعمائة وخمسة أحرف)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾

قوله عز وجل: ﴿والنجم إذا هوى﴾ قال ابن عباس يعني الثريا إذا سقطت وغابت والعرب تسمي الثريا نجماً ومنه قولهم إذا طلع النجم عشاء ابتغى الراعي كساء وجاء في الحديث عن أبي هريرة مرفوعاً: «ما طلع النجم قط وفي الأرض من العاهة شيء إلا رفع» أراد بالنجم الثريا، وقيل: هي نجوم السماء كلها وهويها غروبها فعلى هذا لفظه واحد ومعناه الجمع. وروي عن ابن عباس أنه الرجوم من النجوم وهي ما ترمى به الشياطين عند استراق السمع. وقيل: هي النجوم إذا انتشرت يوم القيامة. وقيل: أراد بالنجم القرآن سمي نجماً لأنه نزل نجوماً متفرقة في عشرين سنة وهو قول ابن عباس أيضاً. وقيل: النجم هو النبات الذي لا ساق له وهويه سقوطه إذا ييس على الأرض. وقيل: النجم هو محمد ﷺ وهويه نزوله ليلة المعراج من السماء وجواب القسم قوله تعالى: ﴿ما ضل صاحبكم﴾ يعني محمداً ﷺ ما ضل عن طريق الهدى ﴿وما غوى﴾ أي ما جهل. وقيل: الفرق بين الضلال والغى أن الضلال هو أن لا يجد السالك إلى مقصده

سُورَةُ النَّجْمِ

مَكِّيَّةٌ وَهِيَ اثْنَتَانِ وَسِتُّونَ آيَةً.

﴿والنجم إذا هوى﴾، قال ابن عباس في رواية الوالبي والعمري: يعني الثريا إذا سقطت وغابت، وهويته مغيبته، والعرب تسمي الثريا نجماً، وجاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «ما طلع النجم قط وفي الأرض من العاهة شيء إلا رُفِعَ» وأراد بالنجم الثريا. وقال مجاهد: هي نجوم السماء كلها حين تغرب، لفظه واحد ومعناه الجمع، سُمِّيَ الكوكب نجماً لطلوعه، وكل طالع نجم يقال نجم السن، والقرن والنبت إذا طلع. وروى عن عكرمة عن ابن عباس: أنه الرجوم من النجوم، يعني ما ترمى بها الشياطين عند استراقهم السمع. وقال أبو حمزة الثمالي: هي النجوم إذا انتشرت يوم القيامة. وقيل: المراد بالنجم القرآن سُمِّيَ نجماً لأنه نزل نجوماً متفرقة في عشرين سنة، وسُمِّيَ التفريق: تنجيماً، والمفرق: منجماً، هذا قول ابن عباس في رواية عطاء، وقول الكلبي، والهوى: النزول من أعلى إلى أسفل. وقال الأخفش: النجم هو النبات الذي لا ساق له، ومنه قوله عز وجل: ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ [الرحمن: ٦٦]، وهويته سقوطه على الأرض. وقال جعفر الصادق: يعني محمداً ﷺ إذ نزل من السماء إلى الأرض ليلة المعراج، والهوى: النزول، يقال: هوى يهوي هويماً إذا نزل، مثل مضى يمضي مضياً.

وجواب القسم. قوله: ﴿ما ضل صاحبكم﴾، يعني محمداً ﷺ ما ضل عن طريق الهدى، ﴿وما غوى﴾ *

طريقاً أصلاً والغواية أن لا يكون له طريق إلى مقصده مستقيم وقيل: إن الضلال أكثر استعمالاً من الغواية ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ أي بالهوى والمعنى لا يتكلم بالباطل وذلك أنهم قالوا: إن محمداً يقول القرآن من تلقاء نفسه ﴿إن هو﴾ أي ما هو يعني القرآن وقيل: نطقه في الدين ﴿إلا وحي﴾ من الله ﴿يُوحى﴾ إليه.

عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿٩﴾ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴿١١﴾

﴿علمه شديد القوى﴾ يعني جبريل علم محمداً ﷺ ما أوحى الله إليه عز وجل وكونه شديد القوى أنه اقتلع قري قوم لوط وحملها على جناحه حتى بلغ بها السماء ثم قلبها وصاح صيحة بشمود فأصبحوا جاثمين وكان هبوطه بالوحي على الأنبياء أسرع من رجعة الطرف ﴿ذو مرة﴾ أي ذو قوة وشدة. وقال ابن عباس: ذو منظر حسن وقيل: ذو خلق طويل حسن.

﴿فاستوى﴾ يعني جبريل عليه الصلاة والسلام ﴿وهو﴾ يعني محمداً ﷺ والمعنى استوى جبريل ومحمد ليلة المعراج ﴿وبالافق الأعلى﴾ عند مطلع الشمس وقيل: فاستوى يعني جبريل وهو كناية عن جبريل أيضاً أي قام في صورته التي خلقه الله فيها وهو بالافق الأعلى وذلك أن جبريل عليه الصلاة والسلام كان يأتي رسول الله ﷺ في صورة آدميين كما كان يأتي الأنبياء قبله فسأله رسول الله ﷺ أن يريه نفسه على صورته التي جبل عليها فأراه نفسه مرتين مرة في الأرض ومرة في السماء فأما التي في الأرض فبالأفق الأعلى والمراد بالأفق الأعلى جانب المشرق وذلك أن رسول الله ﷺ كان بحراء، فطلع له جبريل عليه الصلاة والسلام من ناحية المشرق، فسد الأفق إلى المغرب فخرّ رسول الله ﷺ مغشياً عليه فنزل جبريل عليه، الصلاة والسلام في صورة آدميين فضمه إلى نفسه وجعل يمسح الغبار عن وجهه وهو قوله تعالى: ﴿ثم دنا فتدلى﴾ وأما التي في السماء فعند سدرة المنتهى ولم يره أحد من الأنبياء على تلك الصورة

وما ينطق عن الهوى﴾، يعني بالهوى يريد لا يتكلم بالباطل، وذلك أنهم قالوا: إن محمداً ﷺ يقول القرآن من تلقاء نفسه.

﴿إن هو﴾، ما نطقه في الدين، وقيل: القرآن، ﴿إلا وحي يُوحى﴾، يعني وحي من الله يُوحى إليه. ﴿علمه شديد القوى﴾، وهو جبريل، والقوى جمع القوة.

﴿ذو مرة﴾، قوة وشدة في خلقه، يعني جبريل. قال ابن عباس: ذو مرة يعني ذو منظر حسن. وقال قتادة: ذو خلق طويل حسن. ﴿فاستوى﴾، يعني جبريل.

﴿وهو﴾، يعني محمداً ﷺ، وأكثر كلام العرب إذا أرادوا العطف في مثل هذا أن يُظهروا كناية المعطوف عليه، فيقولون: استوى هو وفلان، وقلما يقولون: استوى وفلان، ونظير هذا قوله: ﴿أثذا كنا تراباً وآبائنا﴾ [النمل: ٦٧]، عطف الآباء على المكنى في كنا من غير إظهار نحن، ومعنى الآية: استوى جبريل ومحمد عليهما السلام ليلة المعراج، ﴿بالأفق الأعلى﴾، وهو أقصى الدنيا عند مطلع الشمس، وقيل: فاستوى يعني جبريل، وهو كناية عن جبريل أيضاً، أي قام في صورته التي خلقه الله، وهو بالافق الأعلى، وذلك أن جبريل كان يأتي رسول الله ﷺ في صورة آدميين كما كان يأتي النبيين، فسأله رسول الله ﷺ أن يريه نفسه على صورته التي جبل عليها فأراه نفسه مرتين في الأرض ومرة في السماء، فأما الأرض ففي الأفق الأعلى، والمراد بالأعلى جانب المشرق، وذلك أن محمداً ﷺ كان بحراء فطلع له جبريل من المشرق فسد الأفق إلى المغرب، فخرّ رسول الله ﷺ

التي خلق عليها إلا نبينا محمد ﷺ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾.

اختلف العلماء في معنى هذه الآية فروي عن مسروق بن الأجدع قال «قلت لعائشة فأين قوله ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى؟ قالت ذلك جبريل كان يأتيه في صورة الرجل وإنه أتاه في هذه المرة في صورته التي هي صورته فسد الأفق» أخرجاه في الصحيحين.

وعن زر بن حبیش في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ وفي قوله ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ وفي قوله ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ قال: فيها كلها أن ابن مسعود قال «رأى جبريل عليه الصلاة والسلام له ستمائة جناح» زاد في رواية أخرى «رأى جبريل في صورته» أخرجه مسلم والبخاري في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ فعلى هذا يكون معنى الآية ثم دنا جبريل بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض فتدلى إلى محمد ﷺ فكان منه قاب قوسين أو أدنى أي: بل أدنى وبه قال ابن عباس والحسن وقتادة. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير تقديره ثم تدلى فدنا لأن التدلي سبب الدنو. وقال آخرون: ثم دنا الرب عز وجل من محمد ﷺ فتدلى أي فقرب منه حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى وقد ورد في الصحيحين في حديث المعراج من رواية شريك بن عبد الله بن أبي نمر عن أنس ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى. وهذه رواية أبي سلمة عن

مغشياً عليه، فنزل جبريل في صورة الأدميين وضمه إلى نفسه، وجعل يمسح الغبار عن وجهه، وهو قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾، وأما في السماء فعند سدة المنتهى، ولم يره أحد من الأنبياء على تلك الصورة إلا نبينا محمد ﷺ.

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾، اختلفوا في معناه أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو أسامة ثنا زكريا بن أبي زائدة عن أبي الأشوع عن الشعبي عن مسروق قال: قلت لعائشة فأين قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾؟ قالت: ذلك جبريل كان يأتيه في صورة الرجل وإنه أتاه هذه المرة في صورته التي هي صورته، فسد الأفق. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا طلق بن غنام ثنا زائدة عن الشيباني قال: سألت زراً عن قوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾، قال: أخبرنا عبد الله يعني ابن مسعود أن محمداً ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح، فمعنى الآية: ثم دنا جبريل بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض، فتدلى فنزل إلى محمد ﷺ، فكان منه قاب قوسين أو أدنى، بل أدنى، وبه قال ابن عباس والحسن وقتادة، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، تقديره: ثم تدلى فدنا، لأن التداني سبب الدنو. وقال آخرون: ثم دنا الرب عز وجل من محمد ﷺ فتدلى، فقرب منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى. وروينا في قصة المعراج عن شريك بن عبد الله عن أنس: ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى. وهذا رواية أبي سلمة عن ابن سلمة عن ابن عباس، والتدلي هو النزول إلى الشيء حتى يقرب منه. وقال مجاهد: دنا جبريل من ربه. وقال الضحاك: دنا محمد ﷺ من ربه فتدلى فأهوى للسجود، فكان منه قاب قوسين أو أدنى، ومعنى قوله: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ أي قدر قوسين، والقاب والقيب والقاد والقيد عبارة عن المقدار، والقوس: ما يرمى به في قول مجاهد وعكرمة وعطاء عن ابن عباس، فأخبر أنه كان بين جبريل وبين محمد ﷺ مقدار قوسين، قال مجاهد: معناه حيث الوتر من القوس، وهذا إشارة إلى تأكيد القصد وأصله أن الحلفين من العرب كانا إذا أرادا عقد الصفا والعهد خرجا بقوسيهما فالتصفا بينهما، يريدان بذلك أنهما متظاهران بحامي كل واحد منهما عن صاحبه. وقال عبد الله بن مسعود: قاب قوسين أي قدر ذراعين، وهو قول سعيد بن جبير وشقيق بن سلمة، والقوس: الذراع يُقاس بها كل شيء، أو أدنى بل أقرب.

ابن عباس والتدلي هو النزول إلى النبي ﷺ. قال الحافظ عبدالحق في كتابه. الجمع بين الصحيحين، بعد ذكر حديث أنس من رواية شريك، وقد زاد فيه زيادة مجهولة وأتى فيه بألفاظ غير معروفة.

وقد روى حديث الإسراء جماعة من الحفاظ المتقنين كابن شهاب وثابت البناني وقتادة يعني عن أنس فلم يأت أحد منهم بما أتى به وفي رواية شريك قدم وآخر وزاد ونقص فيحتمل أن هذا اللفظ من زيادة شريك في الحديث وقال الضحاك دنا محمد ﷺ من ربه عز وجل فتدلى أي فأهوى للسجود فكان منه قاب قوسين أو أدنى والقاب القدر والقوس الذي يرمي به وهو رواية عن ابن عباس. وقيل: معناه حيث الوتر من القوس فأخبر أنه كان بين جبريل ومحمد ﷺ مقدار قوسين وهذا إشارة إلى تأكيد القرب وأصله أن الحليفين من العرب كانا إذا أرادا عقد الصفاء والعهد بينهما خرجا بقوسيهما فالصفا بينهما يريد أن بذلك أنهما متظاهران يحامي كل واحد منهما عن صاحبه. وقال عبد الله بن مسعود: قاب قوسين قدر ذراعين والقوس الذراع التي يقاس بها من قاس يقاس أو أدنى بل أقرب ﴿فأوحى﴾ أي فأوحى الله ﴿إلى عبده﴾ محمد ﷺ ﴿ما أوحى﴾ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال أوحى جبريل إلى رسول الله ﷺ ما أوحى إليه ربه عز وجل وقال سعيد بن جبیر: أوحى إليه ﴿ألم يجدك يتيماً فأوى﴾ إلى قوله ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ وقيل: أوحى إليه أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها أنت وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك قوله عز وجل: ﴿ما كذب الفؤاد﴾ قرء بالتشديد أي ما كذب محمد ﷺ ﴿ما رأى﴾ أي بعينه تلك الليلة بل صدقه وحققه وقرء بالتخفيف أي ما كذب فؤاد محمد الذي رآه بل صدقه والمعنى: ما كذب الفؤاد فيما رأى. واختلفوا في الذي رآه، فقيل: رأى جبريل وهو قول ابن عباس وابن مسعود وعائشة وقيل: هو الله عز وجل ثم اختلفوا في معنى الرؤية فقيل جعل بصره في فؤاده وهو قول ابن عباس (م). عن ابن عباس ما كذب الفؤاد ما رأى ولقد رآه نزلة أخرى قال: رآه بفؤاده مرتين وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه حقيقة وهو قول أنس بن مالك والحسن وعكرمة قالوا: رأى محمد ربه عز وجل.

﴿فأوحى﴾، أي أوحى الله، ﴿إلى عبده ما أوحى﴾، محمد ﷺ، قال ابن عباس في رواية عطاء والكلبي والحسن والربيع وابن زيد: معناه أوحى جبريل إلى رسول الله ﷺ ما أوحى إليه ربه عز وجل. قال سعيد بن جبیر: أوحى إليه: ﴿ألم يجدك يتيماً فأوى﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ [الانشرح: ٤]، وقيل: أوحى إليه أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها أنت، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك.

﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾، قرأ أبو جعفر ما كذب بتشديد الذال أي ما كذب قلب محمد ﷺ ما رأى بعينه تلك الليلة، بل صدقه وحققه، وقرأ الآخرون بالتخفيف، أي ما كذب فؤاد محمد ﷺ الذي رأى، بل صدقه، يقال: كذبه إذا قال له الكذب، وصدقه إذا قال له الصدق، مجازة: ما كذب الفؤاد فيما رأى، واختلفوا في الذي رآه، فقال قوم: رأى جبريل، وهو قول ابن مسعود وعائشة، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج ثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا حفص هو أبا غياث عن الشيباني عن زر عن عبد الله قال: ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ قال: رأى جبريل وله ستمائة جناح. وقال آخرون: هو الله عز وجل. ثم اختلفوا في معنى الرؤية، فقال بعضهم: جعل بصره في فؤاده فرأى بفؤاده، وهو قول ابن عباس، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج ثنا أبو سعيد الأشج ثنا وكيع ثنا الأعمش عن زياد بن الحصين عن أبي العالية عن ابن عباس: ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾. ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ قال: رآه بفؤاده مرتين، وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه، وهو قول أنس والحسن وعكرمة، قالوا: رأى محمد ربه، وروى عكرمة عن ابن عباس قال: إن الله اصطفى إبراهيم بالخلة واصطفى موسى بالكلام واصطفى محمداً ﷺ بالرؤية. وكانت عائشة رضي الله عنها تقول:

وجل. وروى عكرمة عن ابن عباس، قال: إن الله عز وجل اصطفى إبراهيم بالخلعة، واصطفى موسى بالكلام، واصطفى محمداً بالرؤية. وقال كعب: إن الله قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى فكلهم موسى مرتين ورآه محمد مرتين أخرجه الترمذي بأطول من هذا. وكانت عائشة تقول: لم ير رسول الله ﷺ ربه. وتحمل الآية على رؤية جبريل.

عن مسروق قال: قلت لعائشة: يا أمه هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد قف شعري مما قلت أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب. من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب ثم قرأت: لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير، وما كان لبشر أن يكلمه إلا الله وحياً أو من وراء حجاب. ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب. ثم قرأت: وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت ومن حدثك أن محمداً أتم أمراً فقد كذب ثم قرأت يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين. أخرجاه في الصحيحين (م) عن أبي ذر قال: «سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ قال: نور أنى أراه». قوله عز وجل:

أَفْتَرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٥﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٣﴾ إِذْ يَغْشَىٰ السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٢﴾

﴿أفتمارونه على ما يرى﴾ يعني أفتمجادلونه على ما يرى وذلك أنهم جادلوه حين أسري به وقالوا له صف لنا بيت المقدس وأخبرنا عن غيرنا في الطريق وغير ذلك مما جادلوه به. والمعنى: أفتمجادلونه جدالاً ترومون به دفعه عما رآه وعلمه ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ يعني رأى جبريل في صورته التي خلق عليها نازلاً من السماء نزلة أخرى وذلك أنه رآه في صورته مرتين مرة في الأرض ومرة عند سدرة المنتهى (م) عن أبي هريرة ولقد رآه نزلة أخرى قال: رأى جبريل. وعلى قول ابن عباس: يعني نزلة أخرى هو أنه كانت للنبي ﷺ في تلك الليلة عرجات لمسألة التخفيف من أعداد

لم ير رسول الله ﷺ ربه، وتحمل الآية على رؤيته جبريل عليه السلام، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يحيى ثنا وكيع عن إسماعيل بن أبي خالد عن عامر عن مسروق قال: قلت لعائشة يا أمه هل رأى محمد ﷺ ربه؟ فقالت: لقد تكلمت بشيء وقف له شعري مما قلت، أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب؟ من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب﴾ [الشورى: ٥١]، ﴿ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت ﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غداً﴾ [لقمان: ٣٤]، ﴿ومن حدثك أنه كتم شيئاً فقد كذب، ثم قرأت ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ [المائدة: ٦٧] الآية، ولكنه رأى جبريل في صورتين مرتين. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج ثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا وكيع عن يزيد بن إبراهيم عن قتادة عن عبد الله بن شقيق بن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنى أراه».

﴿أفتمارونه على ما يرى﴾، قرأ حمزة والكسائي ويعقوب: (أفتمارونه) بفتح التاء بلا ألف، أي أفتمجادلونه، تقول العرب: مريت الرجل حقّه إذا جحدته، وقرأ الآخرون: ﴿أفتمارونه﴾ بالألف وضّم التاء، على معنى أفتمجادلونه على ما يرى، وذلك أنهم جادلوه حين أسري به، فقالوا: صف لنا بيت المقدس، وأخبرنا عن غيرنا في الطريق، وغير ذلك مما جادلوه به، والمعنى: أفتمجادلونه جدالاً ترومون به دفعه عما رآه وعلمه.

الصلوات فيكون لكل عرجة نزلة فرأى ربه عز وجل في بعضها.

وروي عن ابن عباس أنه رأى ربه بفؤاده مرتين وعنه أنه رآه بعينه ﴿عند سدره المنتهى﴾ (م) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «لما أسري برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدره المنتهى وهي في السماء السادسة وإليها ينتهي ما يعرج من الأرض فيقبض منها وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها وقال إذ يغشى السدره ما يغشى قال فراش من ذهب».

وفي رواية الترمذي إليها ينتهي علم الخلائق لا علم لهم فوق ذلك وفي حديث المعراج المخرج في الصحيحين «ثم صعد بي إلى السماء السابعة ثم قال ثم رفعت إلى سدره المنتهى فإذا نبقتها مثل قلال هجر وإذا ورقها كأذان الفيلة قال: هذه سدره المنتهى. وفي أفراد مسلم من حديث أنس قال: «ثم عرج بنا إلى السماء السابعة وذكره إلى أن قال فيه ثم ذهب بي إلى سدره المنتهى وإذا ورقها كأذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال قال فلما غشيها من نور الله ما غشي تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها» وقال هلال بن يساف سأل ابن عباس كعباً عن سدره المنتهى وأنا حاضر فقال كعب إنها سدره في أصل العرش على رؤوس حملة العرش وإليها ينتهي علم الخلائق وما خلفها غيب لا يعلمه إلا الله عز وجل وعن أسماء بنت أبي بكر قالت: «سمعت رسول الله ﷺ ذكر سدره المنتهى فقال: يسير الراكب

﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾، يعني رأى جبريل في صورته التي خُلِقَ عليها نازلاً من السماء نزلة أخرى، وذلك أنه رآه في صورته مرتين، مرة في الأرض ومرة في السماء.

﴿عند سدره المنتهى﴾، وعلى قول ابن عباس معنى: ﴿نزلة أخرى﴾ هو أنه كانت للنبي ﷺ عرجات في تلك الليلة لمسألته التخفيف من أعداد الصلوات، فيكون لكل عرجة نزلة، فرأى ربه في بعضها، وروينا عنه: «أنه رأى ربه بفؤاده مرتين». وعنه: «أنه رآه بعينه»، وقوله: ﴿عند سدره المنتهى﴾، روينا عن عبد الله بن مسعود قال: لما أسري برسول الله ﷺ إلى سدره المنتهى وهي في السماء السابعة وإليها ينتهي إلى ما يعرج به من الأرض فيقبض منها وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها، قال: إذ يغشى السدره ما يغشى، قال: فراش من ذهب. وروينا في حديث المعراج: «ثم صعد بي إلى السماء السابعة فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام فسلمت عليه، ثم رفعت إلى سدره المنتهى فإذا نبقتها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة»، والسدره شجرة النبق، وقيل لها: سدره المنتهى لأنه إليها ينتهي علم الخلق. قال هلال بن يساف: سأل ابن عباس كعباً عن سدره المنتهى وأنا حاضر، فقال كعب: إنها سدره في أصل العرش على رؤوس حملة العرش وإليها ينتهي علم الخلائق، وما خلفها غيب لا يعلمه إلا الله، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني ابن فنجويه ثنا ابن شيبه ثنا المسوحي ثنا عبد الله بن يعيش ثنا يونس بن بكير أنا محمد بن إسحاق عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن جدته أسماء بنت أبي بكر قالت: سمعت النبي ﷺ يذكر سدره المنتهى، قال: «يسير الراكب في ظل الغصن منها مائة عام يستظل في الغصن منها مائة ألف راكب، فيها فراش من ذهب، كأن ثمرها القلال»، وقال مقاتل: هي شجرة تحمل الحلى والحلل والثمار من جميع الألوان، لو أن ورقة منها وضعت في الأرض لأضاءت لأهل الأرض، وهي طوبى التي ذكرها الله تعالى في سورة الرعد.

﴿عندها جنة المأوى﴾، قال عطاء عن ابن عباس: جنة المأوى جنة يأوي إليها جبريل والملائكة. وقال مقاتل والكلبي: يأوي إليها أرواح الشهداء.

﴿إذ يغشى السدره ما يغشى﴾، قال ابن مسعود: فراش من ذهب. وروينا في حديث المعراج عن أنس عن

في ظل الفن منها مائة سنة أو قال يستظل بظلها مائة ألف راكب فيها فراش الذهب كأن ثمرها القلال» أخرجه الترمذي. وقال: مقاتل هي شجرة تحمل الحلي والحلل والثمار من جميع الألوان ولو أن ورقة وضعت منها في الأرض لأضاءت لأهل الأرض وهي شجرة طوبى التي ذكرها الله في سورة الرعد ﴿عندها جنة المأوى﴾ قال ابن عباس: جنة المأوى يأوي إليها جبريل والملائكة وقيل: يأوي إليها أرواح الشهداء ﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾ قال ابن مسعود: فراش من ذهب وقيل: يغشاها ملائكة أمثال الغربان. وقيل: أمثال الطيور حتى يقعن عليها. وقيل: غشيتها نور الخلاق وغشيتها الملائكة من حب الله تعالى أمثال الغربان حتى يقعن عليها وقيل: هو نور رب العزة ويروى في الحديث قال: رأيت على كل ورقة منها ملكاً قائماً يسبح الله عز وجل:

مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴿١٨﴾ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكْتَ وَالْعُرَى ﴿١٩﴾

﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ يعني ما مال بصر النبي ﷺ في ذلك المقام وفي تلك الحضرة المقدسة الشريفة يمينا وشمالاً ولا جاوز ما رأى وقيل: ما أمر به وهذا وصف أدبه ﷺ في ذلك المقام الشريف إذ لم يلتفت إلى شيء سوى ما أمر به.

وفي معنى الآية إن قلنا إن الذي يغشى السدرة فراش من ذهب أي لم يلتفت إليه ولم يشتغل به وفيه بيان أدبه ﷺ إذ لم يقطع بصره عن المقصود وإن قلنا الذي يغشى السدرة هو نور رب العزة ففيه وجهان: أحدهما: أنه ﷺ لم يلتفت عنه يمنة ولا يسرة ولا يشتغل بغير مطالعة ذلك النور.

الوجه الثاني: ما زاغ البصر بصعقة ولا غشية كما أخبر عن موسى بقوله «وخر موسى صعقاً» وذلك أنه لما تجلى رب العزة وظهر نوره على الجبل قطع نظره وغشي عليه ونبينا ﷺ ثبت في ذلك المقام العظيم الذي تحار فيه العقول وتزل فيه الأقدام وتميل فيه الأبصار فوصف الله عز وجل قوة نبينا ﷺ في ذلك المقام العظيم بقوله تعالى ما زاغ البصر وما طغى.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ يعني رأى رسول الله ﷺ الآيات العظام وقيل: أراد ما رأى تلك الليلة في مسيره ورجوعه وقيل: معناه لقد رأى من آيات ربه الآيات الكبرى (م) عن عبد الله بن مسعود قال: لقد رأى من آيات ربه الكبرى. قال: رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح (خ) عنه قال لقد رأى من آيات ربه الكبرى قال رأى رفرفاً أخضر سد أفق السماء.

رسول الله ﷺ: «ثم عُرج بي إلى سدرة المنتهى فإذا ورقها كأذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، قال: فلما غشيتها من أمر الله ما غشيتها تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، وأوحى إليّ ما أوحى ففرض عليّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة»، وقال مقاتل: يغشاها الملائكة أمثال الغربان. وقال السدي: من الطيور. وروى عن أبي العالية عن أبي هريرة رضي الله عنه أو غيره قال: غشيتها نور الخلاق وغشيتها الملائكة من حب الله أمثال الغربان، حتى يقعن على الشجر، قال فكلّمه عند ذلك، فقال له: سل. وعن الحسن قال: غشيتها نور رب العزة فاستنارت. ويروى في الحديث: «رأيت على كل ورقة منها ملكاً قائماً يسبح الله تعالى».

﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾، أي ما مال بصر النبي ﷺ يمينا ولا شمالاً وما طغى، أي ما جاوز ما رأى. وقيل: ما جاوز ما أمر به وهذا وصف أدبه في ذلك المقام إذ لم يلتفت جانباً.

﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ يعني الآيات العظام. وقيل: أراد ما رأى تلك الليلة في مسيره وعوده، دليله قوله: ﴿لَنُرِيهِ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء: ١]، وقيل: معناه لقد رأى من آيات ربه الآية الكبرى، أخبرنا

(فصل من كلام الشيخ محيي الدين النووي في معنى قوله تعالى ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ وهل رأى النبي ﷺ ربه عز وجل ليلة الإسراء)

قال القاضي عياض اختلف السلف والخلف هل رأى نبينا ﷺ ربه ليلة الإسراء فأكثرته عائشة كما وقع في صحيح مسلم. وجاء مثله عن أبي هريرة وجماعة وهو المشهور عن ابن مسعود وإليه ذهب جماعة من المحدثين والمتكلمين.

وروي عن ابن عباس أنه رآه بعينه ومثله عن أبي ذر وكعب والحسن وكان يحلف على ذلك وحكي مثله عن ابن مسعود وأبي هريرة وأحمد بن حنبل وحكي أصحاب المقالات عن أبي الحسن الأشعري وجماعة من أصحابه أنه رآه ووقف بعض مشايخنا في هذا وقال: ليس عليه دليل واضح ولكنه جائز ورؤية الله عز وجل في الدنيا جائزة وسؤال موسى إياها دليل على جوازها إذ لا يجهل نبي ما يجوز أن يتمتع على ربه. واختلفوا في أن نبينا ﷺ هل كلم ربه ليلة الإسراء بغير واسطة أم لا، فحكي عن الأشعري وقوم من المتكلمين أنه كلمه. وعزا بعضهم هذا القول إلى جعفر بن محمد وابن مسعود وابن عباس وكذلك اختلفوا في قوله: ثم دنا فتدلى فالأكثر على أن هذا الدنو والتدلي منقسم بين جبريل والنبي ﷺ أو مختص بأحدهما من الآخر أو من سدره المنتهى.

وذكر ابن عباس والحسن ومحمد بن كعب وجعفر بن محمد وغيرهم أنه دنو من النبي ﷺ إلى ربه أو من الله فعلى هذا القول يكون الدنو والتدلي متأولاً ليس على وجهه بل كما قال جعفر بن محمد الدنو من الله لا حد له ومن العباد بالحدود فيكون معنى دنو النبي ﷺ وقربه منه ظهور عظيم منزله لديه وإشراق أنوار معرفته عليه وإطلاعه من غيبه وأسرار ملكوته على ما لم يطلع سواه عليه. والدنو من الله تعالى له إظهار ذلك وعظيم بره وفضله العظيم لديه ويكون قوله تعالى: قاب قوسين أو أدنى، هنا عبارة عن لطف المحل وإيضاح المعرفة والإشراف على الحقيقة من نبينا ﷺ ومن الله تعالى إجابة الرغبة وإبانة المنزلة هذا آخر كلام القاضي عياض.

قال الشيخ محيي الدين: وأما صاحب التحرير فإنه اختار إثبات الرؤية. قال: والحجج في المسألة وإن كانت كثيرة ولكن لا تتمسك إلا بالأقوى منها وهو حديث ابن عباس: «أتعجبون أن تكون الخلعة لإبراهيم والكلام لموسى والرؤية لمحمد ﷺ وعليهم أجمعين» وعن عكرمة قال: سئل ابن عباس هل رأى محمد ﷺ ربه؟ قال: نعم. وقد روي بإسناد لا بأس به عن شعبة عن قتادة عن أنس قال: رأى محمد ربه عز وجل وكان الحسن يحلف لقد رأى محمد ﷺ ربه عز وجل.

والأصل في المسألة حديث ابن عباس حبر هذه الأمة وعالمها والمرجوع إليه في المعضلات وقد راجعه ابن عمر في هذه المسألة وراسله هل رأى محمد ﷺ ربه عز وجل فأخبره أنه رآه ولا يقدح في هذا حديث عائشة لأن عائشة

إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج ثنا عبد الله بن معاذ العنبري ثنا أبي ثنا شعبة عن سليمان الشيباني سمع زر بن حبيش عن عبد الله قال لقد رأى من آيات ربه الكبرى قال: رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح وأخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا حفص بن عمرو ثنا شعبة عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله: لقد رأى من آيات ربه الكبرى، قال: رأى رفرافاً أخضر سدأفق السماء.

قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾، هذه أسماء أصنام اتخذوها آلهة يعبدونها، اشتقوا لها أسماء من أسماء

لم تخبر أنها سمعت النبي ﷺ يقول: لم أر ربي وإنما ذكرت ما ذكرت متأولة لقول الله تعالى ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً﴾ ولقوله ﴿لا تدركه الأبصار﴾ والصحابي إذا قال قولاً وخالفه غيره منهم لم يكن قوله حجة وإذا قد صحت الروايات عن ابن عباس أنه تكلم في هذه المسألة بإثبات الرؤية وجب المصير إلى إثباتها لأنها ليست مما يدرك بالعقل ويؤخذ بالظن وإنما يتلقى بالسمع ولا يستجيز أحد أن يظن بآبَنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ تكلم في هذه المسألة بالظن والاجتهاد وقد قال معمر بن راشد حين ذكر اختلاف عائشة وابن عباس ما عائشة عندنا بأعلم من ابن عباس ثم إن ابن عباس أثبت ما نفاه غيره والمثبت مقدم على النفي هذا كلام صاحب التحرير في إثبات الرؤية.

قال الشيخ محيي الدين فالاحاصل أن الراجح عند أكثر العلماء أن رسول الله ﷺ رأى ربه عز وجل بعيني رأسه ليلة الإسراء لحديث ابن عباس وغيره مما تقدم وإثبات هذا لا يأخذونه إلا بالسمع من رسول الله ﷺ هذا مما لا ينبغي أن يتشكك فيه ثم إن عائشة لم تنف الرؤية بحديث عن رسول الله ﷺ ولو كان معها حديث لذكرته وإنما اعتمدت على الاستنباط من الآيات وسنوضح الجواب عنها، فنقول: أما احتجاج عائشة رضي الله تعالى عنها بقوله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ فجوابه ظاهر، فإن الإدراك هو الإحاطة والله تعالى لا يحاط به وإذا ورد النص بنفي الإحاطة لا يلزم منه نفي الرؤية بغير إحاطة وهذا الجواب في نهاية الحسن مع اختصاره. وأما احتجاجها بقوله تعالى: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً﴾ الآية، فالجواب عنه من أوجه: أحدها أنه لا يلزم مع الرؤية وجود الكلام حال الرؤية فيجوز وجود الرؤية من غير كلام، الوجه الثاني: أنه عام مخصوص بما تقدم من الأدلة.

الوجه الثالث: ما قاله بعض العلماء إن المراد بالوحي الكلام من غير واسطة وهذا القول وإن كان محتملاً لكن الجمهور.

على أن المراد بالوحي هنا إلهام والرؤية في المنام وكلاهما يسمى وحياً وأما قوله تعالى: ﴿أو من وراء حجاب﴾ فقال الواحدي وغيره معناه غير مجاهر لهم بالكلام بل يسمعون كلامه سبحانه من حديث لا يروونه وليس المراد أن هناك حجاباً يفصل موضعاً عن موضع ويدل على تحديد المحجوب فهو بمنزلة ما يسمع من وراء حجاب حيث لم ير المتكلم وقول عائشة في أول الحديث «لقد قف شعري» فمعناه قام شعري من الفزع لكوني سمعت ما لا ينبغي أن يقال تقول العرب عند إنكار الشيء: قف شعري واقشعر جلدي واشمأزت نفسي وقوله ﷺ في حديث أبي ذر «نور أني أراه» فهو بتنوين نور وفتح الهمزة في أني وتشديد النون المفتوحة ومعناه: حجاب به نور فكيف أراه قال الماوردي الضمير في أراه عائد على الله تعالى والمعنى أن النور يمنعني من الرؤية كما جرت العادة بإغشاء الأنوار الأبصار ومنعها من إدراك ما حال بين الرائي وبينه وفي رواية رأيت نوراً معناه: رأيت النور فحسب ولم أر غيره وفي رواية ذاته نور أني أراه ومعناه هو خالق النور المانع من رؤيته فيكون من صفات الأفعال ومن المستحيل أن تكون ذات

الله تعالى فقالوا: من الله اللآت، ومن العزيز العزى. وقيل: العزى تأنيث الأعز، أما اللآت قال قتادة: كانت بالطائف، فقال ابن زيد: بيت نخلة كانت قريش تعبده، وقرأ ابن عباس ومجاهد وأبو صالح: اللآت بتشديد التاء، وقالوا: كان رجلاً يلبس السويق للحاج، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه. وقال مجاهد: كان في رأس جبل له غنيمة يسأله السمن ويأخذ منها الأقط، ويجمع رسلها ثم يتخذ منها حيساً فيطعم منه الحاج، وكان يبطن نخلة، فلما مات عبده، وهو اللآت. وقال الكلبي: كان رجلاً من ثقيف يقال له صرمة بن غنم، وكان يسأله السمن فيضعها على صخرة ثم تأتيه العرب فتلبس به أسوقتهم، فلما مات الرجل حولتها ثقيف إلى منازلها فعبدها، فعمدت الطائف على موضع اللآت. وأما العزى قال مجاهد: هي شجرة بغطفان كانوا يعبدونها، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن

الله نوراً إذ النور من جملة الأجسام والله يتعالى عن ذلك هذا مذهب جميع أئمة المسلمين والله أعلم.

قوله عز وجل: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ هذه أسماء أصنام اتخذوها آلهة يعبدونها واشتقوا لها أسماء من أسماء الله عز وجل فقالوا من الله اللات ومن العزيز العزى. وقيل: العزى تأنيث الأعز. والمعنى: أخبرونا عن هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله هل لها من القدرة والعظمة التي وصف بها رب العزة شيء وكان اللات بالطائف وقيل: بنخلة كانت قریش تعبده وقرىء اللات بالتشديد (خ). عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان اللات رجلاً يلت السوق للحاج. قيل: فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه. وقيل: كان في رأس جبل له غنيمة يسلاً منها السمن ويأخذ منها الأقط ويجمع رسلها ثم يتخذ حيساً فيطعم الحاج وكان بطن نخلة فلما مات عبدوه وهو اللات. وقيل: كان رجلاً من ثقيف يقال له صرمة بن غنم وكان يسلاً السمن فيضعه على صخرة فتأتيه العرب فتلت به أسوقتهم فلما مات الرجل حولها ثقيف إلى منازلها فمرت الطائف على موضع اللات وأما العزى فقيل هي شجرة بغطفان كانوا يعبدونها فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فقطعها فجعل يضربها بالفأس ويقول:

يا عز كفرانك لا سبحانهك إنني رأيت الله قد أهانك

فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها داعية بويلها واضعة يدها على رأسها ويقال: إن خالداً رجع إلى النبي ﷺ فقال: قد قطعتها. فقال: ما رأيت؟ فقال ما رأيت شيئاً فقال ما قطعت فعاودها ومعه المعول فقطعها واجتثت أصلها فخرجت منها امرأة عريانة فقتلها ثم رجع إلى النبي ﷺ فأخبره بذلك فقال: تلك العزى ولن تعبد أبداً.

وقيل: هي صنم لغطفان وضعها لهم سعد بن سالم الغطفاني. وقيل: إنه قدم مكة فرأى الصفا والمروة ورأى أهل مكة يطوفون بينهما فرجع إلى بطن نخلة فقال لقومه: إن لأهل مكة الصفا والمروة وليستا لكم ولهم إله يعبدونه وليس لكم قالوا فما تأمرنا؟ قال: أنا أصنع لكم كذلك فأخذ حجراً من الصفا وحجراً من المروة ونقلهما إلى نخلة فوضع الذي أخذ من الصفا وقال الصفا ثم وضع الذي أخذ من المروة. وقال: هذه المروة ثم أخذ ثلاثة أحجار وأسندها إلى شجرة. وقال: هذا ربكم فجعلوا يطوفون بين الحجرين ويعبدون الحجاره الثلاث حتى افتتح رسول الله ﷺ مكة وأمر برفع الحجاره وأمر خالد بن الوليد بالعزى فقطعها وقيل: هي بيت بالطائف كانت تعبد ثقيف. وقوله تعالى:

الوليد فقطعها فجعل خالد بن الوليد يضربها بالفأس ويقول:

يا عز كفرانك لا سبحانهك إنني رأيت الله قد أهانك

فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها داعية بويلها واضعة يدها على رأسها. ويقال: إن خالداً رجع إلى النبي ﷺ فقال: قد قلعتها، فقال: «ما رأيت؟» قال: ما رأيت شيئاً، فقال النبي ﷺ: «ما قلعت»، فعاودها ومعه المعول فقلعها واجتث أصلها فخرجت منها امرأة عريانة، فقتلها ثم رجع إلى النبي ﷺ وأخبره بذلك، فقال: «تلك العزى ولن تعبد أبداً»، وقال الضحاك: هي صنم لغطفان وضعها لهم سعد بن ظالم الغطفاني، وذلك أنه قدِم مكة فرأى الصفا والمروة، ورأى أهل مكة يطوفون بينهما، فعاد إلى بطن نخلة، وقال لقومه: إن لأهل مكة الصفا والمروة وليستا لكم ولهم إله يعبدونه وليس لكم، قالوا: فما تأمرنا؟ قال: أنا أصنع لكم كذلك، فأخذ حجراً من الصفا وحجراً من المروة ونقلهما إلى نخلة، فوضع الذي أخذ من الصفا، فقال: هذا الصفا، ثم وضع الذي أخذه من المروة، فقال: هذه المروة، ثم أخذ ثلاثة أحجار فأسندها إلى شجرة، فقال: هذا ربكم، فجعلوا يطوفون بين الحجرين ويعبدون الحجاره، حتى افتتح رسول الله ﷺ مكة، فأمر برفع الحجاره، وبعث خالد بن الوليد إلى العزى فقطعها. وقال ابن زيد: هي بيت بالطائف كانت تعبد ثقيف.

وَمِنَ الثَّلَاثَةِ الْآخَرِ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَى ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذْ قَسَمَ ضَيْزَى ﴿٢٢﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا
أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ﴿٢٣﴾

﴿ومناة﴾ قيل: هي لخزاعة كانت بقديد وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها في الأنصار كانوا يهلون لمناة وكانت حذو قديد وقيل: هي بيت بالمشلل كانت تعبده بنو كعب. وقيل: مناة، صنم لهذيل وخزاعة وكانت تعبدها أهل مكة وقيل: اللات والعزى ومناة أصنام من الحجارة كانت في جوف الكعبة يعبدونها ﴿الثالثة الأخرى﴾ الثالثة نعت لمناة إذ هي الثالثة في الذكر وأما الأخرى فإن العرب لا تقول الثالثة الأخرى وإنما الأخرى هنا نعت للثلاثة قال الخليل: قالها لوفاق رؤوس الآي كقوله «مأرب أخرى» ولم يقل آخر.

وقيل: في الآية تقديم وتأخير تقديره أفرأيتم اللات والعزى الأخرى ومناة الثالثة.

وقيل: هي صفة ذم كأنه تعالى قال ومناة الثالثة المتأخرة الدليلة. فعلى هذا فالأصنام ترتب مراتب، وذلك لأن اللات كان صنماً على صورة آدمي والعزى شجرة فهي نبات ومناة صخرة فهي جماد وهي في أخريات المراتب. ومعنى الآية: هل رأيتم هذه الأصنام حق الرؤية، وإذا رأيتموها علمتم أنها لا تصلح للعبادة لأنها لا تضر ولا تنفع وقيل: أفرأيتم أيها الزاعمون أن اللات والعزى ومناة بنات الله ألكم الذكر وله الأنثى. وقيل: كان المشركون بمكة يقولون: الأصنام والملائكة بنات الله وكان الرجل منهم إذا بشر بالأنثى كره ذلك فقال الله عز وجل منكراً عليهم ﴿ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى﴾ قال ابن عباس: أي قسمة جائزة حيث جعلتم لربكم ما تكرهون لأنفسكم وقيل: قسمة عوجاء غير معتدلة ﴿إن هي﴾ أي ما هذه الأصنام ﴿إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم﴾ والمعنى: أنكم

﴿ومناة﴾، قرأ ابن كثير بالمد والهمزة، وقرأ العامة بالقصر غير مهموز، لأن العرب سمّت زيد مناة وعبد مناة، ولم يسمع فيها المد. قال قتادة: هي لخزاعة كانت بقديد، قالت عائشة رضي الله عنها: في الأنصار كانوا يهلون لمناة، وكانت حذو قديد. قال ابن زيد: بيت كان بالمشلل يعبد بنو كعب. قال الضحاك: مناة صنم لهذيل وخزاعة يعبدونها أهل مكة، وقال بعضهم: اللات والعزى ومناة أصنام من حجارة كانت في جوف الكعبة يعبدونها. واختلف القراء في الوقف على اللات ومناة، فوقف بعضهم عليهما بالهاء وبعضهم بالياء. وقال بعضهم: ما كتب في المصحف بالياء يوقف عليه بالياء، وما كتب بالهاء فيوقف عليه بالهاء. وأما قوله: ﴿الثالثة الأخرى﴾، فالثالثة نعت لمناة أي الثالثة للضنمين في الذكر، وأما الأخرى فإن العرب لا تقول الثالثة الأخرى، إنما الأخرى ههنا نعت للثالثة. قال الخليل: فالياء لوفاق رؤوس الآي، كقوله: ﴿مأرب أخرى﴾ [طه: ١٨] ولم يقل: آخر. وقيل: في الآية تقديم وتأخير، مجازها: أفرأيتم اللات والعزى الأخرى ومناة الثالثة، ومعنى الآية: أفرأيتم أخبرونا أيها الزاعمون أن اللات والعزى ومناة بنات الله تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً. وقال الكلبي: كان المشركون بمكة يقولون الأصنام والملائكة بنات الله، وكان الرجل منهم إذا بشر بالأنثى كره ذلك.

فقال الله تعالى منكراً عليهم: ﴿ألكم الذكر وله الأنثى * تلك إذا قسمة ضيزى﴾، قال ابن عباس وقاتة: أي قسمة جائزة حيث جعلتم لربكم ما تكرهون لأنفسكم. قال مجاهد ومقاتل: قسمة عوجاء، وقال الحسن: غير معتدلة. قرأ ابن كثير: (ضيزى) بالهمز، وقرأ الآخرون بغير همز. قال الكسائي: يقال منه ضاز يضيض ضيزاً، وضاز يضور ضوزاً وضاز يضرّض ضاراً إذا ظلم ونقص، وتقدير ضيزى من الكلام فعلى بضم الفاء، لأنها صفة والصفات لا تكون إلا على فعلى بضم الفاء، نحو جبلى وأنى وبُشرى، أو فعلى بفتح الفاء، نحو غضبي وسكرى وعطشى،

سميتوها آلهة وليست حقيقة ولا بمعبودة حقيقة وقيل: معناه قلمت لبعضها عزى ولا عزة لها فلا يكون لها مسمى حقيقة.

﴿ما أنزل الله بها من سلطان﴾ أي حجة بما تقولون إنها آلهة ﴿إن يتبعون إلا الظن﴾ أي في قولهن إنها آلهة ﴿وما تهوى الأنفس﴾ يعني هو ما زين لهم الشيطان من عبادة الأصنام وقيل: وضعوا عبادتهم بمقتضى شهواتهم والذي ينبغي أن تكون العبادة بمقتضى الشرع لا بمتابعة هوى النفس ﴿ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ أي البيان بالكتاب المنزل والنبي المرسل أن الأصنام ليست بآلهة وأن العبادة لا تصلح إلا لله الواحد القهار. قوله تعالى:

أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ وَكَرَّمَن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴿٢٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُؤْنَ لِلْمَلَائِكَةِ سَمِيَّةً الْأُنثَى ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴿٣٠﴾

﴿أم للإنسان ما تمنى﴾ معناه أیظن الكافر أن له ما يتمنى ويشتهي من شفاعاة الأصنام أي ليس الأمر كما يظن ويتمنى ﴿فلله الآخرة والأولى﴾ أي لا يملك أحد فيها شيئاً أبداً إلا بإذنه وقيل: معناه أن الإنسان إذا اختار معبوداً على ما تمناه واشتهاه فلله الآخرة والأولى يعاقبه على فعله ذلك إن شاء في الدنيا والآخرة وإن شاء أمهله إلى الآخرة ﴿وكم من ملك في السموات﴾ أي ممن يعبدهم هؤلاء ويرجون شفاعتهم عند الله ﴿لا تغني شفاعتهم شيئاً﴾ يعني أن الملائكة، مع علو منزلتهم، لا تغني شفاعتهم، شيئاً فكيف تشفع الأصنام مع حقارتها ثم أخبر أن الشفاعاة لا تكون إلا بإذنه فقال تعالى: ﴿إلا من بعد أن يأذن الله﴾ أي في الشفاعاة ﴿لمن يشاء ويرضى﴾ أي من أهل التوحيد قال ابن عباس

وليس في كلام العرب فعلى بكسر الفاء في النعوت، إنما يكون في الأسماء مثل ذكرى وشعري وكسرى، والضاد ههنا لثلاثا تنقلب الياء واواً وهي من بنات الباء كما قالوا في جمع أبيض بيض، والأصل بوض مثل جمر وصفر، فأما من قال: ضاز يضوز فالاسم منه ضوزى مثل شورى.

﴿إن هي﴾، ما هذه الأصنام، ﴿إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾، حجة وبرهان بما تقولون إنها آلهة، ثم رجع إلى الخبر بعد المخاطبة فقال: ﴿إن يتبعون إلا الظن﴾، في قولهم إنها آلهة، ﴿وما تهوى الأنفس﴾، وهو ما زين لهم الشيطان، ﴿ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾، البيان بالكتاب والرسول أنها ليست بآلهة، وأن العبادة لا تصلح إلا لله الواحد القهار.

﴿أم للإنسان ما تمنى﴾، أیظن الكافر أن له ما يتمنى ويشتهي من شفاعاة الأصنام.

﴿فلله الآخرة والأولى﴾، ليس كما ظن الكافر وتمنى، بل لله الآخرة والأولى لا يملك أحدٌ فيهما شيئاً إلا بإذنه.

﴿وكم من ملك في السموات﴾، ممن يعبدهم هؤلاء الكفار ويرجون شفاعتهم عند الله، ﴿لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله﴾، في الشفاعاة، ﴿لمن يشاء ويرضى﴾، أي من أهل التوحيد. قال ابن عباس: يريد لا تشفع الملائكة إلا لمن رضي الله عنه، وجمع الكناية في قوله: شفاعتهم والملك واحد لأن المراد من قوله: ﴿وكم من ملك﴾، الكثرة فهو كقوله: ﴿فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ [الحاقة: ٤٧].

يريد لا تشفع الملائكة إلا لمن رضي الله عنه وقيل: إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء من الملائكة في الشفاعة لمن شاء الشفاعة له ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ يعني الكفار الذين أنكروا البعث ﴿لَيَسْمُونُ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى﴾ أي بتسمية الأنثى حيث قالوا إنهم بنات الله. فإن قلت كيف قال تسمية الأنثى ولم يقل تسمية الإناث.

قلت المراد منه بيان الجنس وهذا اللفظ أليق بهذا الموضع لمناسبته رؤوس الآي وقيل: إن كل واحد من الملائكة يسمونه تسمية الأنثى وذلك لأنهم إذا قالوا الملائكة بنات الله فقد سمو كل واحد منهم بنتاً وهي تسمية الأنثى ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ يعني بالله فيشركون به ويجعلون له ولداً وقيل: ما يستيقنون أن الملائكة إناث ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ يعني في تسمية الملائكة بالإناث ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ يعني لا يقوم الظن مقام العلم الذي هو الحق وقيل معناه إنما يدرك الحق الذي هو حقيقة الشيء بالعلم واليقين لا بالظن والتوهم وقيل: الحق هو الله تعالى والمعنى أن الأوصاف الإلهية لا تستخرج بالظنون ﴿فَأَعْرَضَ عَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا﴾ يعني القرآن.

وقيل: عن الإيمان ﴿وَلَمْ يَزِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ يعني أنهم لا يؤمنون بالآخرة حتى يردوها ويعملوا لها وفيه إشارة إلى إنكارهم الحشر ثم صغر رأيهم فقال تعالى: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي ذلك نهاية علمهم وقلة عقولهم أن آثروا الدنيا على الآخرة وقيل: معناه أنهم لم يبلغوا من العلم إلا ظنهم أن الملائكة بنات الله وأنهم يشفعون لهم فاعتمدوا على ذلك وأعرضوا عن القرآن والإيمان ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ أي هو عالم بالفريقين ويجازيهم بأعمالهم.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴿٣٢﴾

﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ وهذه إشارة إلى كمال قدرته وغناه وهو معترض بين الآية الأولى وبين قوله ﴿ليجزى الذين أسأوا بما عملوا﴾. والمعنى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُونُ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى﴾، أي بتسمية الأنثى حين قالوا إنهم بنات الله.

﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾، قال مقاتل: معناه ما يستيقنون أنهم إناث، ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾، والحق بمعنى العلم أي لا يقوم الظن مقام العلم. وقيل: الحق بمعنى العذاب، أي أظنهم لا ينقذهم من العذاب.

﴿فَأَعْرَضَ عَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا﴾، يعني القرآن. وقيل: الإيمان، ﴿وَلَمْ يَزِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

ثم صغر رأيهم فقال: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾، أي ذلك نهاية علمهم وقدر عقولهم أن آثروا الدنيا على الآخرة. وقيل: لم يبلغوا من العلم إلا ظنهم أن الملائكة بنات الله، وأنها تشفع لهم فاعتمدوا على ذلك وأعرضوا عن القرآن. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾، أي هو عالم بالفريقين فيجازيهم.

﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾، وهذا معترض بين الآية الأولى وبين قوله: ﴿ليجزى الذين أسأوا بما عملوا﴾، فاللام في قوله: ﴿ليجزى﴾ متعلق بمعنى الآية الأولى، لأنه إذا كان أعلم بهم جازى كلاً بما

إذا كان أعلم بهم جازى كل أحد بما يستحقه فيجزى الذين أسأؤوا أي أشركوا بما عملوا من الشرك ﴿وبيجزي الذين أحسنوا﴾ أي وحدوا ربهم ﴿بالحسنى﴾ يعني الجنة وإنما يقدر على مجازاة المحسن والمسيء إذا كان كثير الملك كامل القدرة فلذلك قال والله ما في السموات وما في الأرض ثم وصف المحسنين فقال عز وجل: ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم﴾ قيل: الإثم، الذنب الذي يستحق صاحبه العقاب وقيل: هو اسم للأفعال المبذولة عن الثواب، وقيل: هو فعل ما لا يحل وقيل: الإثم جنس يشتمل على كبائر وصغائر وجمعه آثام والكبيرة متعارفة في كل ذنب تعظم عقوبته وجمعه كبائر ﴿والفواحش﴾ جمع فاحشة، وهي ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال وقيل: هي ما فحش من الكبائر ﴿إلا اللثم﴾ أي إلا ما قل وصغر من الذنوب وقيل: هي مقاربة المعصية من قولك ألممت بكذا إذا قاربته من غير واقعة واختلفوا في معنى الآية فقل هذا استثناء صحيح واللم من الكبائر والفواحش ومعنى الآية: إلا إن يلم بالفاحشة مرة ثم يتوب أو يقع الواقعة ثم ينتهي وهو قول أبي هريرة ومجاهد والحسن ورواية عن ابن عباس. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: اللثم ما دون الشرك. وقال أبو صالح: سئلت عن قول الله عز وجل إلا اللثم فقلت: هو الرجل يلم بالذنب ثم لا يعاود فذكرت، ذلك لابن عباس فقال: أعانك عليها ملك كريم. عن ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللثم﴾.

قال: قال رسول الله ﷺ «إن تغفر اللهم تغفر جماعاً وأي عبد لك لا ألما» أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح غريب وقيل: أصل اللثم والإلمام ما يعمل به الإنسان الحين بعد الحين ولا يكون له إعادة ولا إقامة وقيل: هو استثناء منقطع مجازاه لكن اللثم ولم يجعل اللثم من الكبائر والفواحش ثم اختلفوا في معناه فقل هو ما سلف في الجاهلية فلا يؤاخذهم به في الإسلام وذلك أن المشركين قالوا للمسلمين: إنهم كانوا بالأمس يعملون معنا فأنزل الله عز وجل هذه الآية وهذا قول زيد بن ثابت وزيد بن سلم. وقيل: اللثم هو صغار الذنوب كالنظرة والغمزة والقبلة ونحو ذلك مما هو دون الزنا وهو قول ابن مسعود وأبي هريرة ومسروق والشعبي والرواية الأخرى عن ابن عباس (ق) عن ابن عباس قال «ما رأيت شيئاً أشبه باللم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال إن الله عز وجل كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العينين النظر وزنا اللسان النطق والنفس تتمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه».

ولمسلم قال: «كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة العينان زناهما النظر والأذان زناهما الاستماع واللسان زناه الكلام واليد زناها البطش والرجل زناها الخطا والقلب يهوى ويتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه» وقيل: اللثم على وجهين، أحدهما أنه كل ذنب لم يذكر الله تعالى عليه حداً في الدنيا ولا عذاباً في الآخرة فذلك الذي تكفره الصلوات الخمس وصوم رمضان ما لم يبلغ الكبائر والفواحش.

والوجه الثاني: هو الذنب العظيم يلم به المسلم المرة بعد المرة فيتوب منه وقيل: هو ما لم على القلب أي خطر وقيل: اللثم النظرة من غير عمد فهو مغفور فإن أعاد النظر فليس بلمم فهو ذنب والله سبحانه وتعالى أعلم.

يستحقه، الذين أسأؤوا أي أشركوا بما عملوا من الشرك، ﴿وبيجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾، وحدوا ربهم بالحسنى بالجنة، وإنما يقدر على مجازاة المحسن والمسيء إذا كان كثير الملك، ولذلك قال: ﴿والله ما في السموات وما في الأرض﴾.

ثم وصفهم فقال: ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللثم﴾، اختلفوا في معنى الآية، فقال قوم: هذا استثناء صحيح، واللم: من الكبائر والفواحش، ومعنى الآية: إلا أن يلم بالفاحشة مرة ثم يتوب، ويقع الواقعة ثم ينتهي وهو قول أبي هريرة ومجاهد والحسن، ورواية عطاء عن ابن عباس، قال عبد الله بن عمرو بن

(فصل: في بيان الكبيرة وحدها وتمييزها عن الصغيرة)

قال العلماء: أكبر الكبائر الشرك بالله وهو ظاهر لا خفاء به لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ويليه القتل بغير حق فأما ما سواهما من الزنا واللواط وشرب الخمر وشهادة الزور وأكل مال اليتيم بغير حق والسحر وقذف المحصنات وعقوق الوالدين والفرار من الزحف وأكل الربا وغير ذلك من الكبائر التي ورد بها النص فلها تفاصيل وأحكام تعرف بها مراتبها ويختلف أمرها باختلاف الأحوال والمفاسد المرتبة عليها. فعلى هذا يقال في كل واحدة منها: هي من أكبر الكبائر بالنسبة إلى ما دونها.

وقد جاء عن ابن عباس أنه سئل عن الكبائر أسبع هي قال هي إلى السبعين أقرب.

وفي رواية إلى سبعمائة أقرب وقد اختلف العلماء في حد الكبيرة وتمييزها عن الصغيرة فجاء عن ابن عباس: كل شيء نهى الله عنه فهو كبيرة. وبهذا قال الأستاذ أبو إسحاق الأسفرايني وحكاه القاضي عياض عن المحققين واحتج القائلون بهذا بأن كل مخالفة فهي بالنسبة إلى جلال الله كبيرة وذهب الجماهير من السلف والخلف من جميع الطوائف إلى انقسام المعاصي إلى صغائر وكبائر وقد تظاهرت على ذلك دلائل الكتاب والسنة واستعمال سلف الأئمة. وإذا ثبت انقسام المعاصي إلى صغائر وكبائر، فقد اختلف في ضبطها، فروي عن ابن عباس أنه قال: الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب وعن الحسن نحو هذا وقيل: هي ما وعد الله عليه بنار في الآخرة وأحد في الدنيا. وقال الغزالي: في البسيط الضابط الشامل في ضبط الكبيرة أن كل معصية يقدم عليها المرء من غير استشعار خوف أو استحداث ندم كالمتهاون في ارتكابها والمستجريء عليها اعتياداً فما أشعر بهذا الاستخفاف والتهاون فهو كبيرة وما تحمل عليه فلتات النفس وفترة مراقبة التقوى ولا ينفك عن ندم يمتزج به تنغيص التلذذ بالمعصية فهذا لا يمنع العدالة وليس بكبيرة. وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام في كتابه القواعد:

إذا أردت معرفة الفرق بين الكبيرة والصغيرة فأعرض مفسدة الذنب على مفسدات الكبائر المنصوص عليها فإن نقصت عن أقل مفسدات الكبائر فهي من الصغائر وإن ساوت أدنى مفسدات الكبائر أو زادت عليه فهي من الكبائر فمن أمسك امرأة محصنة لمن يزني بها أو أمسك مسلماً لمن يقتله فلا شك أن مفسدة ذلك أعظم ممن أكل درهماً من مال اليتيم مع كونه من الكبائر. وكذلك لو دل الكفار على عورة المسلمين مع علمه بأنهم يستأصلونهم بدلالته فإن تسببه إلى هذه المفسدة أعظم من توليه يوم الزحف بغير عذر مع كونه من الكبائر وكذلك لو كذب على إنسان كذباً يعلم أنه يقتل بسببه. ولو كذب على إنسان كذباً يعلم أنه يؤخذ منه ثمرة بسبب كذبه لم يكن ذلك من الكبائر.

وقال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح في فتاويه الكبيرة: كل ذنب كبير وعظم عظماً بحيث يصح معه أنه يطلق عليه اسم الكبيرة ويوصف بكونه عظيماً على الإطلاق فهذا حد الكبيرة ولها أمارات منها الحد ومنها الإيعاد عليها بالعذاب

العاص: اللّمْ ما دون الشرك. وقال السدي وأبو صالح: سُئِلْتُ عن قول الله تعالى: ﴿إِلَّا اللَّمْ﴾، فقلت: هو الرجل يلّم بالذنب ثم لا يعاوده، فذكرت ذلك لابن عباس فقال: لقد أعانك عليها ملك كريم. وروينا عن عطاء عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا اللَّمْ﴾، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ تَغْفَرَ اللَّمْ تَغْفَرَ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ إِلَّا أَلَمًا» وأصل اللّمْ والإلّمام ما يعمل به الإنسان الحين بعد الحين، ولا يكون له إعادة، ولا إقامة عليه. وقال آخرون: هذا استثناء منقطع مجازه لكن اللّمْ، ولم يجعلوا اللّمْ من الكبائر والفواحش، ثم اختلفوا في معناه، فقال بعضهم: هو ما سلف في الجاهلية فلا يؤاخذهم الله به، وذلك أن المشركين قالوا للمسلمين: إنهم كانوا بالأمس يعملون معناه؟ فأنزل الله هذه الآية، وهذا قول زيد بن ثابت وزيد بن أسلم، وقال بعضهم: هو صغار الذنوب كالنظرة والغزوة

بالنار ونحوها في الكتاب أو السنة ومنها ما وصف فاعلها بالفسق أو يضاف إليه اللعن كلعن الله من غير منار الأرض ونحو ذلك والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ قال ابن عباس: لمن فعل ذلك ثم تاب وأتاب.

وروي عن عمر بن الخطاب وابن عباس قالا: لا كبيرة في الإسلام أي لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار معناه أن الكبيرة أيضاً تمحى بالاستغفار والتوبة والصغيرة تصير كبيرة بالإصرار وقيل في حد الإصرار هو أن يتكرر منه الصغيرة تكراراً يشعر بقلته مبالاته بذنبه وتم الكلام على قوله إن ربك واسع المغفرة ثم ابتداء فقال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ أي قبل أن يخلقكم وهو قوله: ﴿إِذْ أَنْشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ يعني خلق أباكم آدم من التراب ﴿وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةُ﴾ جمع جنين ﴿فِي بَطُونٍ أُمَهَاتِكُمْ﴾ سمي جنيناً لاستتاره في بطن أمه ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ قال ابن عباس: لا تمدحوها. وقال الحسن: علم الله من كل نفس ما هي صانعة وإلى ما هي صائرة فلا تزكوا أنفسكم فلا تبرئوها من الآثام ولا تمدحوها بحسن الأعمال. وقيل في معنى الآية: هو أعلم بكم أيها المؤمنون علم حالكم من أول خلقكم إلى آخر يومكم فلا تزكوا أنفسكم رياء وخيلاء ولا تقولوا لمن لم تعرفوا حقيقته أنا خير منك أو أنا أذكى منك أو أتقى منك فإن العلم عند الله وفيه إشارة إلى وجوب خوف العاقبة فإن الله يعلم عاقبة من هو على التقوى وهو قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ يعني بمن بر وأطاع وأخلص العمل وقيل في معنى الآية فلا تزكوا أنفسكم يعني لا تنسبوا إلى زكاء العلم وزيادة الخير والطاعات وقيل لا تنسبوا إلى الزكاة والطهارة من المعاصي ولا تثنوا عليها واهضموها فقد علم الله الزكي منكم والتقي أولاً وآخرأ قبل أن يخرجكم من صلب أبيكم آدم وقبل أن تخرجوا من بطون أمهاتكم. قيل: نزلت من ناس كانوا يعملون أعمالاً حسنة ثم يقولون صلاتنا وصيامنا وحجنا فأنزل الله فيهم هذه الآية. قوله عز وجل:

وَالْقُبُلَةُ وَمَا كَانَ دُونَ الزُّنَا، وهذا قول ابن مسعود وأبي هريرة ومسروق والشعبي، ورواية طاوس عن ابن عباس، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا محمود بن عيلان أنا عبد الرزاق أنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال: ما رأيْتُ أشبه باللَّئم مما قاله أبو هريرة عن النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزُّنَا أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مُحَالَهَ، فَرَزْنَا الْعَيْنَ النَّظَرَ، وَزَنَا اللِّسَانَ النَّطْقَ، وَالنَّفْسَ تَتَمَنَّى وَتَتَشَهَّى، وَالْفَرْجَ يَصْدُقُ ذَلِكَ وَيَكْذِبُهُ»، ورواه سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، وزاد: «وَالْعَيْنَانِ زَنَاهُمَا النَّظَرَ، وَالْأُذُنَانِ زَنَاهُمَا السَّمْعَ، وَاللِّسَانُ زَنَاهُ الْكَلَامَ، وَالْبَدَنُ زَنَاهُ الْبَطْشَ، وَالرَّجُلُ زَنَاهُ الْخَطْيَ». وقال الكلبي: اللَّئِمُ عَلَى وَجْهَيْنِ كُلِّ ذَنْبٍ لَمْ يَذْكُرِ اللَّهُ عَلَيْهِ حَدًّا فِي الدُّنْيَا وَلَا عَذَابًا فِي الْآخِرَةِ فَذَلِكَ الَّذِي تَكْفَرُهُ الصَّلَوَاتُ مَا لَمْ يَبْلُغِ الْكِبَايْرَ وَالْفَوَاحِشَ، وَالْوَجْهَ الْآخِرَ هُوَ: الذَّنْبُ الْعَظِيمُ يَلْمُ بِهِ الْمُسْلِمُ الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ فَيَتُوبُ مِنْهُ. وقال سعيد بن المسيب: هو ما لَمَّ عَلَى الْقَلْبِ أَيْ خَطَرُ. وقال الحسين بن الفضل: اللَّئِمُ النَّظَرَةُ مِنْ غَيْرِ تَعَمُّدٍ فَهُوَ مَغْفُورٌ، فَإِنْ أَعَادَ النَّظَرَةَ فَلَيْسَ بِلَمٍّ وَهُوَ ذَنْبٌ. ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾، قال ابن عباس: لَمَّنْ فَعَلَ ذَلِكَ وَتَابَ، تَمَّ الْكَلَامُ ههنا، ثم قال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾، أي خلق أباكم آدم من التراب، ﴿وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةُ﴾، جمع جنين، سُمِّيَ جَنِينًا لِاجْتِنَانِهِ فِي الْبَطْنِ، ﴿فِي بَطُونٍ أُمَهَاتِكُمْ فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، قال ابن عباس: لا تمدحوها. قال الحسن: علم الله من كل نفس ما هي صانعة وإلى ما هي صائرة، فلا تزكوا أنفسكم، فلا تبرئوها عن الآثام ولا تمدحوها بحسن أعمالها. قال الكلبي ومقاتل: كان الناس يعملون أعمالاً حسنة ثم يقولون صلاتنا وصيامنا وحجنا جهادنا، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾، أي برَّ وأطاع وأخلص العمل لله تعالى.

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴿٣٤﴾ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ

مُوسَى ﴿٣٦﴾

﴿أفأريت الذي تولى﴾ نزلت في الوليد بن المغيرة كان قد اتبع النبي ﷺ على دينه فغيره بعض المشركين وقالوا: أتركت دين الأشياخ وضللت. قال: إني خشيت عذاب الله فضمن له الذي عاتبه إن أعطاه كذا من ماله ورجع إلى الشرك أن يتحمل عنه عذاب الله فرجع الوليد إلى الشرك وأعطى للذي غيره بعض الذي ضمن له من المال ومنعه تمامه فأنزل الله أفأريت الذي تولى يعني أدبر وأعرض عن الإيمان ﴿وأعطى﴾ يعني لصاحبه الذي غيره ﴿قليلًا وأكدي﴾ أي بخل بالباقي. وقيل: أعطى قليلًا يعني من الخير بلسانه وأكدي يعني قطعه وأمسك ولم يعم بالعطية.

وقيل: نزلت في العاص بن وائل السهمي وذلك أنه كان ربما يوافق النبي ﷺ في بعض الأمور.

وقيل: نزلت في أبي جهل وذلك أنه قال والله ما يأمرنا محمد إلا بمكارم الأخلاق فذلك قوله: وأعطى قليلًا وأكدي يعني لم يؤمن به ومعنى الآية أكدي يعني قطع وأصله من الكدية وهي حجر يظهر في البئر يمنع من الحفر ﴿أعنده علم الغيب فهو يرى﴾ أي ما غاب عنه يعني أن صاحبه يتحمل عنه عذابه ﴿أم لم ينبأ﴾ يعني يخبر ﴿بما في صحف موسى﴾ يعني أسفاره التوراة.

وَابْتَهِمَ الَّذِي وَفَى ﴿٣٧﴾ أَلَا نَزَرُ وَزَرَ ﴿٣٨﴾ وَزَرَ أُخْرَى ﴿٣٩﴾ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٤٠﴾ وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ

يُرَى ﴿٤١﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى ﴿٤٢﴾

﴿وابتهم﴾ يعني ويخبر بما في صحف إبراهيم ﴿الذي وفى﴾ يعني كمل وتمم مما أمر به وقيل: عمل بما أمر به وبلغ رسالات ربه إلى خلقه وقيل وفى فرض عليه وقيل قام بذبح ولده وقيل استكمل الطاعة. وقيل: وفى بما فرض

قوله عز وجل: ﴿أفأريت الذي تولى﴾، نزلت في الوليد بن المغيرة، كان قد اتبع النبي ﷺ على دينه فغيره بعض المشركين، وقال أتركت دين الأشياخ وضللتهم؟ قال: إني خشيت عذاب الله فضمن الذي عاتبه إن هو أعطاه كذا من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله، فرجع الوليد إلى الشرك وأعطى الذي غيره بعض ذلك المال الذي ضمن ومنعه تمامه، فأنزل الله عز وجل: ﴿أفأريت الذي تولى﴾ أدبر عن الإيمان.

﴿وأعطى﴾، صاحبه، ﴿قليلًا وأكدي﴾، بخل بالباقي، وقال مقاتل: أعطى يعني الوليد قليلًا من الخير بلسانه، وأكدي ثم أكدي، يعني قطعة وأمسك ولم يعم على العطية. وقال السدي: نزلت في العاص بن وائل السهمي وذلك أنه كان ربما يوافق النبي ﷺ في بعض الأمور، وقال محمد بن كعب القرظي: نزلت في أبي جهل وذلك أنه قال: والله ما يأمرنا محمد إلا بمكارم الأخلاق، فذلك قوله: ﴿وأعطى قليلًا وأكدي﴾، لم يؤمن به، ومعنى أكدي: يعني قطع، وأصله من الكدية وهي حجر يظهر في البئر يمنع من الحفر، تقول العرب: أكدي الحافر وأجبل إذا بلغ في الحفر الكدية والجبل.

﴿أعنده علم الغيب فهو يرى﴾، ما غاب عنه ويعلم أن صاحبه يتحمل عنه عذابه.

﴿أم لم ينبأ﴾، لم يخبر، ﴿بما في صحف موسى﴾، يعني أسفار التوراة.

﴿وابراهيم﴾، وفي صحف إبراهيم عليه السلام، ﴿الذي وفى﴾، تمم وأكمل ما أمر به. قال الحسن وسعيد بن جبيرة وقتادة: عمل بما أمر به وبلغ رسالات ربه إلى خلقه. قال مجاهد: وفى بما فرض عليه. قال الربيع:

عليه في سهام الإسلام وهو قوله ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ والتوفية الإتمام. وقيل: وفي شأن المناسك. وروى البغوي بسنده عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال إبراهيم الذي وفي عمله كل يوم بأربع ركعات أول النهار.

عن أبي الدرداء وأبي ذر عن رسول الله ﷺ عن الله تبارك وتعالى أنه قال «ابن آدم اركع لي أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره» أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن غريب ثم بين ما في صحفهما فقال تعالى: ﴿أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا تحمل نفس حاملة حمل نفس أخرى. والمعنى: لا تؤخذ نفس بإثم غيرها. وفي هذا إبطال قول من ضمن للوليد بن المغيرة أن يحمل عنه الإثم. وقال ابن عباس: كانوا قبل إبراهيم يأخذون الرجل بذنب غيره كان الرجل يقتل بقتل أبيه وابنه وأخيه وامراته وعبدته حتى كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام فنهاهم عن ذلك وبلغهم عن الله تعالى: ﴿أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أي عمل وهذا في صحف إبراهيم وموسى أيضاً قال ابن عباس هذا منسوخ الحكم في هذه الشريعة بقوله تعالى: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فأدخل الأبناء الجنة بصلاح الآباء وقيل كان ذلك لقوم إبراهيم وموسى فأما هذه الأمة فلها ما سعوا وما سعى لهم غيرهم لما روي عن ابن عباس «أن امرأة رفعت صبيها فقالت يا رسول الله ألهذا حج؟ قال نعم ولك أجر» أخرجه مسلم وعنه «أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ إن أمتي توفيت أينفعها إن تصدقت عنها؟ قال نعم».

وفي رواية أن سعد بن عبادَةَ أَخَا بَنِي سَعْدٍ وَذَكَرَ نَحْوَهُ وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «إِنْ رَجُلًا قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِنَّ أُمَّي افْتَلَتَتْ نَفْسَهَا وَأَظْهَنَهَا لَوْ تَكَلَّمْتُ تَصَدَّقْتَ فَهَلْ لَهَا أَجْرٌ إِنْ تَصَدَّقْتَ عَنْهَا؟ قَالَ نَعَمْ.» أخرجه في الصحيحين. وفي حديث ابن عباس دليل لمذهب الشافعي ومالك وأحمد وجماهير العلماء أن حج الصبي منعقد صحيح يثاب عليه وإن كان لا يجزيه عن حجة الإسلام بل يقع تطوعاً. وقال أبو حنيفة: لا يصح حجه وإنما

وَفِي رُؤْيَاهُ وَقَامَ بِذِيحِ ابْنِهِ. وَقَالَ عَطَاءُ الْخِرَاسَانِيُّ: اسْتَكْمَلَ الطَّاعَةَ. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: وَفِي سَهَامِ الْإِسْلَامِ. وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤]، والتوفية الإتمام. وقال الضحاك: وَفِي مِيثَاقِ الْمَنَاسِكِ. أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الصَّالِحِيُّ أَنَا أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ الْحَسَنِ الْخَيْرِيُّ أَنَا أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ دَحِيمِ الشَّيْبَانِيِّ ثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ إِسْحَاقَ الزَّهْرِيُّ ثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ مَنْصُورٍ عَنْ إِسْرَائِيلَ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ الزَّيْبَرِ عَنْ الْقَاسِمِ عَنْ أَبِي أَمَامَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِبْرَاهِيمُ الَّذِي وَفَى صَلَّى أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ أَوَّلَ النَّهَارِ»، أَخْبَرَنَا أَبُو عَثْمَانَ الضَّبِّيُّ أَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ الْجَرَّاحِيُّ ثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ الْمُحَبَّبِيُّ ثَنَا أَبُو عَيْسَى التِّرْمِذِيُّ ثَنَا أَبُو جَعْفَرِ الشَّيْبَانِيُّ ثَنَا أَبُو مُسَهَّرٍ ثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عِيَّاشٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ عَنْ جَبْرِ بْنِ نَفِيرٍ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ وَأَبِي ذَرٍّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «ابْنَ آدَمَ ارْكَعْ لِي أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ أَكْفِكَ آخِرَهُ».

ثُمَّ بَيَّنَّ مَا فِي صَحْفِهِمَا فَقَالَ: ﴿أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، أي لا تحمل نفس حاملة حمل أخرى، ومعناه: لا تؤخذ نفس بإثم غيرها، وفي هذا إبطال قول من ضمن للوليد بن المغيرة بأنه يحمل عنه الإثم. وروى عكرمة عن ابن عباس قال: كانوا قبل إبراهيم عليه السلام يأخذون الرجل بذنب غيره، كان الرجل يقتل بذنب أبيه وابنه وأخيه وامراته وعبدته، حتى كان إبراهيم فنهاهم عن ذلك، وبلغهم عن الله ﴿أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾، أي عمل كقوله: ﴿إِنْ سَعَيْكُمْ لَشَتَىٰ﴾ [الليل: ٤]، وهذا أيضاً في صحف إبراهيم وموسى. قال ابن عباس: هذا منسوخ الحكم في هذه الشريعة، بقوله: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١]، فأدخل الأبناء الجنة بصلاح الآباء. وقال عكرمة: كان ذلك لقوم إبراهيم وموسى، فأما هذه الأمة

يكون ذلك تمريناً للعبادة. وفي الحديثين الآخرين دليل على أن الصدقة عن الميت تنفع الميت ويصله ثوابها. وهو إجماع العلماء.

وكذلك أجمعوا على وصول الدعاء وقضاء الدين للنصوص الواردة في ذلك ويصح الحج عن الميت حجة الإسلام وكذا لو أوصى بحج تطوع على الأصح عند الشافعي واختلف العلماء في الصوم إذا مات وعليه صوم فالراجع جوازه عنه للأحاديث الصحيحة فيه والمشهور من مذهب الشافعي أن قراءة القرآن لا يصله ثوابها. وقال جماعة من أصحابه: يصله ثوابها. وبه قال أحمد بن حنبل وأما الصلوات وسائر التطوعات فلا يصله عند الشافعي والجمهور. وقال أحمد: يصله ثواب الجميع والله أعلم.

وقيل: أراد بالإنسان الكافر. والمعنى: ليس له من الخير إلا ما عمل هو فيثاب عليه في الدنيا بأن يوسع عليه في رزقه ويعافى في بدنه حتى لا يبقى له في الآخرة خير وروي أن عبد الله بن أبي ابن سلول كان أعطى العباس قميصاً ألبسه إياه فلما مات أرسل رسول الله ﷺ قميصه ليكفن فيه فلم يبق له في الآخرة حسنة يثاب عليها. وقيل: ليس للإنسان إلا ما سعى هو من باب العدل فأما من باب الفضل فجائز أن يزيده الله ما يشاء من فضله وكرمه ﴿وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يَرَى﴾ أي يراه في ميزانه يوم القيامة وفيه بشارة للمؤمن وذلك أن الله تعالى يريه أعماله الصالحة ليفرح بها ويحزن الكافر بأعماله الفاسدة فيزداد غماً ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ﴾ أي السعي ﴿الجزء الأوفى﴾ أي الأتم والأكمل. والمعنى: أن الإنسان يجزى جزاء سعيه الجزء الأوفى. قوله عز وجل:

وَأَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنْتُمْ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنْتُمْ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنْتُمْ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِنْ نُّطْفَةٍ إِذَا تَمَنَّى ﴿٤٦﴾ وَأَنْ عَلَيْهِ النَّشْأَةُ الْآخِرَىٰ ﴿٤٧﴾

﴿وَأَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ أي إليه منتهى الخلق ومصيرهم إليه في الآخرة وهو مجازيهم بأعمالهم وفي المخاطب بهذا وجهان أحدهما أنه عام تقديره وأن إلى ربك أيها السامع أو العاقل كائناً من كان المنتهى فهو تهديد بليغ للمسيء وحث شديد للمحسن ليقطع المسيء عن إساءته ويزداد المحسن في إحسانه الوجه الثاني أن المخاطب بهذا

فلهم ما سعوا وما سعى لهم غيرهم، لِمَا رُويَ أن امرأة رفعت صبيّاً لها فقالت: يا رسول الله ألهذا حج؟ قال: «نعم ولك أجر»، وقال رجل للنبي ﷺ: إن أُمِّي افْتَلَتَتْ نَفْسَهَا، فَهَلْ لَهَا أَجْرٌ إِنْ تَصَدَّقْتُ عَنْهَا؟ قال: «نعم». وقال الربيع بن أنس: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ يعني الكافر، فأما المؤمن فله ما سعى وما سعى له. قيل: ليس للكافر من الخير إلا ما عمل هو، فيثاب عليه في الدنيا حتى لا يبقى له في الآخرة خير. ويروى أن عبد الله بن أبي كان أعطى العباس قميصاً ألبسه إياه، فلما مات أرسل رسول الله ﷺ قميصه ليكفنه فيه، فلم يبق له حسنة في الآخرة يثاب عليها.

﴿وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يَرَى﴾، في ميزانه يوم القيامة، من أريته الشيء.

﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجُزَاءَ الْأَوْفَى﴾، الأكمل والأتم أي يُجْزَى الإنسان بسعيه، يقال: جزيت فلاناً سعيه وبسعيه، قال الشاعر:

إِنْ أَجْزَىٰ عُلُقْمَةَ ابْنِ سَعْدٍ سَعِيَهُ لَمْ أَجْزِهِ بِبَلَاءِ يَوْمٍ وَاحِدٍ

فجمع بين اللغتين.

﴿وَأَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾، أي منتهى الخلق ومصيرهم إليه، وهو مجازيهم بأعمالهم. وقيل: منه ابتداء

النبي ﷺ فعلى هذا، ففيه تسلية للنبي ﷺ. والمعنى: لا تحزن فإن إلى ربك المنتهى. وقيل. في معنى الآية: منه ابتداء المنة وإليه انتهاء الآمال. وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ في قوله ﴿وَيُنَادِي إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ قال لا فكرة في الرب.

وهذا مثل ما روي عن أبي هريرة مرفوعاً: «تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإنه لا تحيط به الفكرة». ومعناه: لا فكرة في الرب أي انتهى الأمر إليه لأنك إذا نظرت إلى سائر الموجودات الممكنة علمت أن لا بد لها من موجد وإذا علمت أن موجدها هو الله تعالى فقد انتهى الأمر إليه فهو إشارة إلى وجوده ووحدانيته سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ أي هو القادر على إيجاد الضدين في محل واحد الضحك والبكاء ففيه دليل على أن جميع ما يعملها الإنسان فبقضاء الله وقدره وخلقه حتى الضحك والبكاء وقيل أضحك أهل الجنة في الجنة وأبكى أهل النار في النار قيل أضحك الأرض بالنبات وأبكى السماء بالمطر وقيل: أفرح وأحزن، لأن الفرح يجلب الضحك والحزن يجلب البكاء عن جابر بن سمرة قال «جلست مع النبي ﷺ أكثر من مائة مرة وكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكت وربما تبسم معهم إذا ضحكوا» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

وفي رواية سماك بن حرب: فيضحكون ويتبسم معهم إذا ضحكوا يعني النبي ﷺ. وسئل ابن عمر: هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون؟ قال: نعم والإيمان في قلوبهم أعظم من الجبل (ق).

عن أنس قال: «خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط فقال: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم لهم خنين» وهو بالخاء المعجمة أي بكاء مع صوت يخرج من الأنف ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا﴾ أي أَمَات في الدنيا وأَحْيَا للبعث. وقيل: أَمَات الآباء وأَحْيَا الأبناء. وقيل: أَمَات الكافر بالنكرة وأَحْيَا المؤمن بالمعرفة ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجِينَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ أي من كل حيوان وهو أيضاً من جملة

المنة وإليه انتهاء الآمال. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني الحسن بن محمد الشيباني أنا محمد بن سليمان بن الفتح الحنبلي ثنا علي بن محمد المصري أنا أبو إسحاق بن منصور الصعدي أنا العباس بن زفر عن أبي جعفر الرازي عن أبيه عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾، قال: «لا فِكْرَةَ في الرَّبِّ»، وهذا مثل ما رُوِيَ عن أبي هريرة مرفوعاً: «تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق». فإنه لا تحيط به الفكرة.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾، فهذا يدل على أن كل ما يعملها الإنسان فبقضائه وخلقه حتى الضحك والبكاء، قال مجاهد والكلبي: أضحك أهل الجنة في الجنة، وأبكى أهل النار في النار. وقال الضحاك: أضحك الأرض بالنبات، وأبكى السماء بالمطر. قال عطاء بن أبي مسلم: يعني فرح وأحزن، لأن الفرح يجلب الضحك، والحزن يجلب البكاء. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا عبد الرحمن بن أبي شريح أنا أبو القاسم البغوي ثنا علي بن الجعد أنا قيس هو ابن الربيع الأسدي ثنا سماك بن حرب قال: قلت لجابر بن سمرة: أكنت تجالس النبي ﷺ؟ قال: نعم وكان أصحابه يجلسون فيتناشدون الشعر، ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية، فيضحكون ويتبسم معهم إذا ضحكوا، يعني النبي ﷺ. وقال معمر عن قتادة: سئل ابن عمر هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون؟ قال: نعم والإيمان في قلوبهم أعظم من الجبل.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا﴾، أي أَمَات في الدنيا وأَحْيَا للبعث. وقيل: أَمَات الآباء وأَحْيَا الأبناء. وقيل: أَمَات الكافر بالنكرة وأَحْيَا المؤمن بالمعرفة.

المتضادات التي تتوارد على النطفة فيخلق بعضها ذكراً وبعضها أنثى وهذا شيء لا يصل إليه فهم العقلاء ولا يعلمونه وإنما هو بقدره الله تعالى وخلق لا بفعل الطبيعة ﴿من نطفة إذا تمنى﴾ أي تصب في الرحم. وقيل: تقدر. وفي هذا تنبيه على كمال قدرته، لأن النطفة شيء واحد خلق الله منها أعضاء مختلفة وطبائع متباينة وخلق منها الذكر والأنثى وهذا من عجيب صنعته وكمال قدرته ولهذا لم يؤكده بقوله وأنه هو خلق لأنه لم يدع أحد إيجاد نفسه ولا خلقها ولا خلق غيره كما لم يقدر أحد أن يدعي خلق السموات والأرض ﴿وأن عليه النشأة الأخرى﴾ أي الخلق الثاني بعد الموت للبعث يوم القيامة.

وَأَنْتُمْ هُمْ أَقْنَى ﴿٤٨﴾ وَأَنْتُمْ هُمْ رَبُّ الشَّعْرَى ﴿٤٩﴾ وَأَنْتُمْ أَهْلُكَ عَادَا الْأُولَى ﴿٥٠﴾ وَتُمُودًا فَمَا أَبْقَى ﴿٥١﴾ وَقَوْمٌ نُوْجٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْلَى ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤَنَّفَكَةَ أَهْوَى ﴿٥٣﴾ فَفَشَلَهَا مَا عَشَّى ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تُتَمَارَى ﴿٥٥﴾ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَى ﴿٥٦﴾

﴿وأنه هو أغنى وأقنى﴾ أي أغنى الناس بالأموال وأعطى القنية وهي أصول الأموال وما يدخرونه بعد الكفاية. وقيل: أغنى بالذهب والفضة وصنوف الأموال وما يدخرونه بعد الكفاية. وأقنى: بالإبل والبقر والغنم. وقيل: أقنى أي أخدم.

وقال ابن عباس: أغنى وأقنى، أي أعطى فأرضى. وقيل: أغنى يعني رفع حاجته ولم يتركه محتاجاً إلى شيء لأن الغنى ضد الفقر، وأقنى: أي زاد فوق الغنى ﴿وأنه هو رب الشعرى﴾ أي أنه رب معبودهم وكانت خزاعة تعبد الشعرى وأول من سن لهم ذلك الرجل من أشرافهم يقال له أبو كبشة عبدها وقال: لأن النجوم تقطع السماء عرضاً

﴿وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى﴾، من كل حيوان.

﴿من نطفة إذا تمنى﴾، أي تصب في الرحم، يقال منى الرجل وأمنى. قال الضحّاك وعطاء بن أبي رباح وقال آخرون: تقدر، يقال: منيت الشيء إذا قدرته.

﴿وأن عليه النشأة الأخرى﴾، أي الخلق الثاني للبعث يوم القيامة.

﴿وأنه هو أغنى وأقنى﴾، قال أبو صالح: أغنى الناس بالأموال وأقنى أي أعطى القنية وأصول الأموال وما يدخرونه بعد الكفاية. قال الضحّاك: أغنى بالذهب والفضة وصنوف الأموال بالإبل والبقر والغنم. وقال قتادة والحسن: أقنى أخدم. وقال ابن عباس: أغنى وأقنى أعطى فأرضى. قال مجاهد ومقاتل: أقنى أرضى بما أعطى وقنع. وقال ابن زيد: أغنى أكثر وأقنى أقل، وقرأ: ﴿يسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ [الرعد: ٢٦، الإسراء: ٣٠، سبأ: ٣٦، الزمر: ٥٢، الشورى: ١٢]، وقال الأخفش: أقنى أفقر. وقال ابن كيسان: أولد.

﴿وأنه هو رب الشعرى﴾، وهو كوكب خلف الجوزاء وهما شعريان، فقال لأحدهما العبور وللأخرى الغميصاء، سُميت بذلك لأنها أخفى من الأخرى، والمجرة بينهما. وأراد ههنا الشعرى العبور وكانت خزاعة تعبد لها، وأول من سن لهم ذلك رجل من أشرافهم يقال له أبو كبشة عبدها، وقال: لأن النجوم تقطع السماء عرضاً، والشعرى طولاً فهي مخالفة لها، فعبدتها خزاعة، فلما خرج رسول الله ﷺ على خلاف العرب في الدين سمّوه ابن أبي كبشة لخلافه إياهم كخلاف أبي كبشة في عبادة الشعرى.

﴿وأنه أهلك عاداً الأولى﴾، قرأ أهل المدينة والبصرة بلام مشددة بعد الدال، ويهمز وأوّه قالون عن نافع، والعرب تفعل ذلك فتقول: قم لأن عنا، تريد: قم الآن عنا، ويكون الوقف عندهم عاداً، والابتداء: أولى، بهمة

والشعري تقطعها طولاً فهي مخالفة لها فعبدها وعبدتها خزاعة فلما خرج رسول الله ﷺ على خلاف العرب في الدين سموه ابن أبي كبشة تشبيهاً له في خلافه إياهم كما خالفهم أبو كبشة وعبد الشعري وهو كوكب يضيء خلف الجوازي ويسمى كلب الجبار أيضاً وهما اثنتان: يمانية وشامية يقال لإحدهما العبور والأخرى الغميصاء. سميت بذلك لأنها أخفى من العبور والمجرة بينهما. وأراد بالشعري هنا العبور ﴿وأنه أهلك عاداً الأولى﴾ وهم قوم هود أهلكوا بريح صرصر وكان لهم عقب فكانوا عاداً أخرى وقيل: الأخرى إرم. وقيل: الأولى يعني أول الخلق هلاكاً بعد قوم نوح ﴿وثمود﴾ وهم قوم صالح أهلكهم الله بالصيحة ﴿فما أبقي﴾ يعني منهم أحداً ﴿وقوم نوح من قبل﴾ يعني أهلك قوم نوح من قبل عاد وثمود بالغرق ﴿إنهم كانوا هم أضل وأطغى﴾ يعني لطول دعوة نوح إياهم وعتوهم على الله بالمعصية والتكذيب ﴿والمؤتفكة﴾ يعني قرى قوم لوط ﴿أهوى﴾ أي أسقط وذلك أن جبريل رفعها إلى السماء ثم أهوى بها ﴿فغشاها﴾ أي ألبسها الله ﴿ما غشى﴾ يعني الحجارة المنضودة المسومة ﴿فبأي آلاء ربك تتمارى﴾ أي تشك أيها الإنسان. وقيل: أراد الوليد بن المغيرة. قال ابن عباس: تتمارى أي تكذب ﴿هذا نذير﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿من النذر الأولى﴾ أي رسول من الرسل المتقدمة أرسل إليكم كما أرسلت الرسل إلى قومهم وقيل: أنذر محمد كما أنذرت الرسل من قبله.

أَرَفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَنَ هَذَا الْحَدِيثِ تَعَجَّبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْبُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾

﴿أزفت الآزفة﴾ أي قربت القيامة واقتربت الساعة ﴿ليس لها من دون الله كاشفة﴾ أي مظهرة ومبينة متى تقوم. وقيل: معناه ليس لها نفس قادرة على كشفها إذا وقعت إلا الله غير أنه لا يكشفها. وقيل: الكاشفة مصدر بمعنى

واحدة مفتوحة بعدها لام مضمومة، ويجوز الابتداء: لولى، بحذف الهمزة المفتوحة، وقرأ الآخرون: ﴿عاداً الأولى﴾، وهم قوم هود أهلكوا بريح صرصر فكان لهم عقب فكانوا عاداً الأخرى.

﴿وثموداً﴾، وهم قوم صالح أهلكهم الله بالصيحة، ﴿فما أبقي﴾، منهم أحداً. ﴿وقوم نوح من قبل﴾، أي أهلك قوم نوح من قبل عاد وثمود، ﴿إنهم كانوا هم أضل وأطغى﴾، لطول دعوة نوح إياهم وعتوهم على الله بالمعصية والتكذيب.

﴿والمؤتفكة﴾، يعني قرى قوم لوط، ﴿أهوى﴾، أسقط أي أهواها جبريل بعدما رفعها إلى السماء.

﴿فغشاها﴾، ألبسها الله، ﴿ما غشى﴾، يعني الحجارة المنضودة المسومة.

﴿فبأي آلاء ربك﴾، نعم ربك أيها الإنسان، وقيل: أراد الوليد بن المغيرة، ﴿تتمارى﴾، تشك وتجادل، قال ابن عباس: تكذب.

﴿هذا نذير﴾، يعني محمداً، ﴿من النذر الأولى﴾، أي رسول من أرسل إليكم كما أرسلوا إلى أقوامهم، وقال قتادة يقول أنذر محمد كما أنذر الرسل من قبله.

﴿أزفت الآزفة﴾، دنت القيامة واقتربت الساعة.

﴿ليس لها من دون الله كاشفة﴾، أي مظهرة مقيمة كقوله تعالى: ﴿لا يجليها لوقتها إلا هو﴾ [الأعراف: ١٨٧]، والهاء فيه للمبالغة أو على تقدير نفس كاشفة، ويجوز أن تكون الكاشفة مصدراً كالخيالة والعافية، والمعنى: ليس لها من دون الله كاشف، أي لا يكشف عنها ولا يظهرها غيره. وقيل: معناه ليس لها رادّ يعني إذا غشيت الخلق أهوالها وشدائدها لم يكشفها ولم يردّها عنهم أحد، وهذا قول عطاء وقتادة والضحاك.

الكشف كالعافية. والمعنى: لا يكشف عنها ولا يظهرها غيره. وقيل: معناه ليس لها رد يعني: إذا غشيت الخلق أهوالها وشدائدها لم يكشفها ولم يردّها عنهم أحد.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هَذَا الْحَدِيثِ﴾ يعني القرآن ﴿تَعْجِبُونَ﴾ تنكرون ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ أي استهزاء ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ أي مما فيه من الوعيد ﴿وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾ أي لاهون غافلون قاله ابن عباس. وعنه، أن السمود هو الغناء بلغة أهل اليمن وكانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا. ولعبوا وأصل السمود في اللغة، رفع الرأس، مأخوذ، من سمد البعير إذا رفع رأسه وجد في سيره والسامد اللاهي والمعنى. وقيل: معناه أشرون بطرون. وقال مجاهد: غضاب مبرطمون قيل له: وما البرطمة؟ قال: الإعراض ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ يعني أيها المؤمنون شكراً على الهداية. وقيل: هذا محمول على سجود التلاوة. وقيل: على سجود الفرض في الصلاة ﴿وَاعْبُدُوا﴾ أي اعبدوا الله وإنما قال: واعبدوا، إما لكونه معلوماً، وإما لأن العبادة في الحقيقة لا تكون إلا لله تعالى (ق) عن عبد الله بن مسعود: «أن رسول الله ﷺ قرأ والنجم فسجد فيها وسجد من كان معه غير أن شيخاً من قريش أخذ كفاً من حصباء أو تراب فرفعه إلى جبهته وقال: يكفيني هذا قال عبد الله فلقد رأيته بعد قتل كافر» زاد البخاري في رواية له قال: «أول سورة نزلت فيها سجدة النجم وذكره» وقال في آخره وهو «أمية بن خلف» (خ).

عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ سجد بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس (ق) عن زيد بن ثابت قال: «قرأت على رسول الله ﷺ النجم فلم يسجد فيها» ففي هذا الحديث دليل على أن سجود التلاوة غير واجب وهو قول الشافعي وأحمد وقال عمر بن الخطاب: إن الله لم يكتبها علينا إلا أن نشاء وذهب قوم إلى وجوبها على القارئ والمستمع وهو قول سفيان وأصحاب الرأي والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿أَفَمَنْ هَذَا الْحَدِيثِ﴾، يعني القرآن، ﴿تَعْجِبُونَ * وَتَضْحَكُونَ﴾، الاستهزاء، ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ لما فيه من الوعد والوعيد.

﴿وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾، لاهون غافلون، والسمود الغفلة عن الشيء واللهو، يقال: دعا عتاً سمودك أي لهوك، هذا رواية الوالبي والعمري عن ابن عباس، وقال عكرمة عنه: هو الغناء بلغة أهل اليمن وكانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا ولعبوا، وقال الضحاك: أشرون بطرون. وقال مجاهد: غضاك مبروطون. فقيل له: ما البرطمة؟ قال: الإعراض.

﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾، أي واعبدوه، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا مسدد ثنا عبد الوارث ثنا أيوب عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي ﷺ: سجد بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا محمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل ثنا نصر بن علي أخبرني أبو أحمد ثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن الأسود بن يزيد عن عبد الله قال: أول سورة أنزلت فيها سجدة النجم، قال: فسجد رسول الله ﷺ وسجد من خلفه إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه، فرأيت بعد ذلك قتل كافراً وهو أمية بن خلف. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل أنا آدم بن أبي إياس أنا ابن ذئب أنا يزيد بن عبد الله بن قسيط عن عطاء بن يسار عن زيد بن ثابت قال: قرأت على النبي ﷺ والنجم فلم يسجد فيها، فقلت: هذا دليل على أن سجود التلاوة غير واجب. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن الله لم يكتبها علينا إلا أن نشاء. وهو قول الشافعي وأحمد. وذهب قوم إلى أن وجوب التلاوة على القارئ والمستمع جميعاً، وهو قول سفيان الثوري وأصحاب الرأي.

سورة القمر

(مكية وهي خمس وخمسون آية وثلاثمائة واثنان وأربعون كلمة وألف وأربعمائة وثلاثون وعشرون حرفاً)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾

قوله عز وجل: ﴿اقتربت الساعة﴾ أي دنت القيامة ﴿وانشق القمر﴾ قيل: فيه تقديم وتأخير تقديره انشق القمر واقتربت الساعة وانشقاق القمر من آيات رسول الله ﷺ والظاهرة ومعجزاته يدل عليه ما روي عن أنس: «أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر مرتين».

أخرجه البخاري ومسلم. وزاد الترمذي فنزلت ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ إلى قوله ﴿سحر مستمر﴾ ولهما عن ابن مسعود. قال: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين فقال رسول الله ﷺ اشهدوا» وفي رواية أخرى قال: «بينما نحن مع رسول الله ﷺ بمنى إذ انفلق القمر فلقتين، فلقة فوق الجبل، وفلقة دونه. فقال لنا رسول الله ﷺ: اشهدوا» ولهما عن ابن عباس قال: «إن القمر انشق في زمن رسول الله ﷺ» (م) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فستر الجبل فلقة وكانت فلقة فوق الجبل فقال رسول الله ﷺ: اشهدوا» وعن جبير بن مطعم قال: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين فقالت قريش سحر محمد أعيننا، فقال بعضهم لئن كان سحرنا ما يستطيع أن يسحر الناس كلهم» أخرجه الترمذي وزاد غيره فكانوا يتلقون الركبان فيخبرونهم بأنهم قد رأوه فيكذبونهم.

قال مقاتل: انشق القمر ثم التأم بعد ذلك. وروى مسروق عن عبد الله بن مسعود قال: انشق القمر على عهد

سُورَةُ الْقَمَرِ

مكية وهي خمس وخمسون آية.

﴿اقتربت الساعة﴾، دنت القيامة، ﴿وانشق القمر﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عبد الله بن عبد الوهاب أنا بشر بن المفضل ثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس بن مالك أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما، وقال شيبان عن قتادة: فأراهم انشقاق القمر مرتين. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا مسدد ثنا يحيى عن شعبة وسفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن أبي معمر عن ابن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين، فرقة فوق الجبل وفرقة دونه، فقال

رسول الله ﷺ فقالت قريش: سحرهم ابن أبي كبشة فسألوا السفارة فقالوا: نعم. قد رأيناه فأنزل الله تعالى: اقتربت الساعة وانشق القمر. فهذه الأحاديث الصحيحة قد وردت بهذه المعجزة العظيمة، مع شهادة القرآن المجيد بذلك فإنه أدل دليل وأقوى مثبت له وإمكانه لا يشك فيه مؤمن وقد أخبر عنه الصادق فيجب الإيمان به واعتقاد وقوعه.

وقال الشيخ محيي الدين النووي في شرح صحيح مسلم، قال الزجاج: وقد أنكرها بعض المبتدعة المضاهين المخالفي الملة وذلك لما أعمى الله قلبه ولا إنكار للعقل فيها لأن القمر مخلوق لله تعالى يفعل فيه ما يشاء كما يفنيه ويكوره في آخر أمره. فأما قول بعض الملاحدة لو وقع هذا النقل متواتراً واشترك أهل الأرض كلهم في رؤيتهم له ومعرفته ولم يختص بها أهل مكة فأجاب العلماء عن هذا بأن هذا الانشقاق حصل في الليل ومعظم الناس نيام غافلون والأبواب مغلقة وهم مغطون بثيابهم فقل من يتفكر في السماء أو ينظر إليها إلا الشاذ النادر. ومما هو مشاهد معتاد أن كسوف القمر وغيره مما يحدث في السماء في الليل من العجائب والأنوار والطوالع والشهب العظام ونحو ذلك يقع ولا يتحدث به إلا آحاد الناس ولا علم عند غيرهم بذلك لما ذكرناه من غفلة الناس. وكان هذا الانشقاق آية عظيمة حصلت في الليل لقوم سألوها واترحوا رؤيتها، فلم يتأهب غيرهم لها. قال العلماء: وقد يكون القمر حينئذ في بعض المجاري والمنازل التي تظهر لبعض أهل الآفاق دون بعض كما يكون ظاهراً لقوم غائباً عن قوم وكما يجد الكسوف أهل بلد دون بلد والله أعلم وقيل في معنى الآية ينشق القمر يوم القيامة وهذا قول باطل لا يصح وشاذ لا يثبت لإجماع المفسرين على خلافه ولأن الله ذكره بلفظ الماضي وحمل الماضي على المستقبل بعيد يفتقر إلى قرينة تنقله أو دليل يدل عليه وفي قوله تعالى: ﴿وإن يروا آية يعرضوا﴾ دليل على وجود هذه الآية العظيمة وقد كان ذلك في زمن رسول الله ﷺ والمعنى: وإن يروا آية أي تدل على صدق رسول الله ﷺ، والمراد بالآية هنا انشقاق القمر يعرضوا أي عن التصديق بها ﴿ويقولوا سحر مستمر﴾ أي دائم مضطرد.

وكل شيء دام حاله قيل فيه: مستمر.

وذلك لما رأوا تتابع المعجزات وترادف الآيات فقالوا هذا سحر مستمر: وقيل مستمر أي قوي محكم شديد بعلمه يعلمو كل سحر.

قيل: مستمر أي ذاهب سوف يبطل ويذهب ولا يبقى وإنما قالوا ذلك تمنية لأنفسهم وتعليلاً ﴿وكذبوا﴾ يعني

رسول الله ﷺ: «اشهدوا»، وقال أبو الضحى عن مسروق عبد الله قال: انشق القمر بمكة. وقال مقاتل: انشق القمر ثم التأم بعد ذلك. وروى أبو الضحى عن مسروق عن عبد الله قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ، فقالت قريش: سحرهم ابن أبي كبشة، فاسألوا السُّقَّار، فسألوهم، فقالوا: نعم قد رأيناه، فأنزل الله عز وجل: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾.

﴿وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾، أي ذاهب وسوف يذهب ويبطل من قولهم مر الشيء واستمر إذا ذهب، مثل قولهم: قر واستقر، هذا قول مجاهد وقتادة، وقال أبو العالية والضحاك: مستمر، أي قوي شديد يعلمو كل سحر من قولهم مر الحبل إذا صلب واشتد، وأمرته أنا إذا أحكمت فتله واستمر الشيء إذا قوي واستحكم.

﴿وكذبوا واتبعوا أهواءهم﴾، أي كذبوا النبي ﷺ وما عاينوا من قدرة الله عز وجل، واتبعوا ما زين لهم الشيطان من الباطل، ﴿وكل أمر مستقر﴾، قال الكلبي: لكل أمر حقيقة ما كان منه في الدنيا فسيظهر وما كان منه في الآخرة فسيعرف. وقال قتادة: كل أمر مستقر فالخير مستقر بأهل الخير، والشر مستقر بأهل الشر. وقيل: كل أمر

النبي ﷺ وما عاينوا من قدرة الله ﴿وَاتَّبِعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي ما زين لهم الشيطان من الباطل وقيل: هو قولهم إنه سحر القمر ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي لكل أمر حقيقة فما كان منه في الدنيا فسيظهر وما كان منه في الآخرة فسيعرف. وقيل: كل أمر مستقر. فالخير مستقر بأهله في الجنة، والشر مستقر بأهله في النار، وقيل: يستقر قول المصدقين والمكذابين حين يعرفون حقيقته بالثواب أو العقاب. وقيل: معناه لكل حديث منتهى. وقيل: ما قدر فهو كائن وواقع لا محالة. وقيل: هو جواب قولهم سحر مستمر يعني ليس أمره بذهاب كما زعمتم بل كل أمر من أموره مستقر وإن أمر محمد رسول الله ﷺ سيظهر إلى غاية يتبين فيها أنه حق

وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿١﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٢﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ ﴿٣﴾ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ ﴿٤﴾

﴿ولقد جاءهم﴾ يعني أهل مكة ﴿من الأنباء﴾ أي من أخبار الأمم الماضية المكذبة في القرآن ﴿وما فيه مزدجر﴾ أي منتهى وموعظة ﴿حكمة بالغة﴾ يعني القرآن حكمة تامة قد بلغت الغاية ﴿فما تغني النذر﴾ يعني أي غنى تغني النذر إذا خالفوهم وكذبوهم ﴿فتول عنهم﴾ أي أعرض عنهم نسختها آية القتال ﴿يوم يدع الداع﴾ أي اذكر يا محمد يوم يدع الداعي وهو إسرافيل ينفخ في الصور قائماً على صخرة بيت المقدس ﴿إلى شيء نكر﴾ أي منكر فظيع لم يروا مثله،

من خير أو شر مستقر قراره، فالخير مستقر بأهله في الجنة، والشر مستقر بأهله في النار. وقيل: يستقر قول المصدقين والمكذابين حتى يعرفوا حقيقته بالثواب والعقاب. وقال مقاتل: لكل حديث منتهى. وقيل: كل ما قدر كائن واقع لا محالة. وقرأ أبو جعفر ﴿مستقر﴾ بجر الراء، ولا وجه له.

﴿ولقد جاءهم﴾، يعني أهل مكة، ﴿من الأنباء﴾، من أخبار الأمم المكذبة في القرآن، ﴿ما فيه مزدجر﴾، لا منتهى مصدر بمعنى الازدجار، أي نهى وعظة، يقال زجرته وازدجرته إذا نهيته عن السوء، وأصله مزتجر، قلبت التاء دالاً.

﴿حكمة بالغة﴾، يعني القرآن حكمة تامة قد بلغت الغاية في الزجر، ﴿فما تغني النذر﴾، يجوز أن تكون (ما) نفيًا على معنى فليست تغني النذر، ويجوز أن يكون استفهاماً، والمعنى: فأي شيء تغني النذر إذا خالفوهم وكذبوهم، كقوله: ﴿وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ [يونس: ١٠١]، والنذر جمع نذير.

﴿فتول عنهم﴾، أي أعرض عنهم نسختها آية القتال. قيل: ههنا وقف تام. وقيل: فتول عنهم. ﴿يوم يدع الداع﴾، أي إلى يوم الداعي، قال مقاتل: هو إسرافيل ينفخ قائماً على صخرة بيت المقدس، ﴿إلى شيء نكر﴾، منكر فظيع لم يروا مثله فينكرونه استعظاماً، قرأ ابن كثير: (نكر) بسكون الكاف، والآخرين بضمها.

﴿خُشْعًا أَبْصَرَهُمْ﴾، قرأ أبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي: (خاشعاً) على الواحد، وقرأ الآخرون: ﴿خُشْعًا﴾ بضم الخاء وتشديد الشين على الجمع، ويجوز في أسماء الفاعلين إذا تقدمت على الجماعة التوحيد والجمع والتذكير والتأنيث، تقول: مررتُ برجال حسن أوجههم وحسنة أوجههم وحسان أوجههم، قال الشاعر:

ورجال حسن أوجههم من إياد بن نزار بن معد

وفي قراءة عبد الله: (خاشعة أبصارهم) أي ذليلة خاضعة عند رؤية العذاب. ﴿يخرجون من الأجداث﴾، من القبور، ﴿كأنهم جراد منتشر﴾، منبث حيارى، وذكر المنتشر على لفظ الجراد، نظيرها: ﴿كالفراس

فينكرونه استعظماً له ﴿خشعاً﴾ وقرىء خاشعاً ﴿أبصارهم﴾ أي ذليلة خاضعة عند رؤية العذاب ﴿يخرجون من الأجدات﴾ يعني من القبور ﴿كأنهم جراد منتشر﴾ مثل في كثرتهم وتموج بعضهم في بعض حيارى فرعين .

مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عِسر ﴿٨﴾ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِر ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾

﴿مهطعين﴾ مسرعين مادي أعناقهم مقبلين ﴿إلى الداع﴾ يعني إلى صوت الداعي وهو إسرأفيل وقيل ناظرين إليه لا يقلعون بأبصارهم ﴿يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾ أي صعب شديد وفيه إشارة إلى أن ذلك اليوم يوم شديد على الكافرين لا على المؤمنين .

قوله تعالى: ﴿كذبت قبلهم﴾ أي قبل أهل مكة ﴿قوم نوح فكذبوا عبدنا﴾ يعني نوحاً ﴿وقالوا مجنون وازدجر﴾ أي زجروه على دعوته ومقالته بالشم والوعيد بقولهم «لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين» ﴿فدعا﴾ يعني نوحاً ﴿ربه﴾ وقال ﴿إني مغلوب﴾ أي مقهور ﴿فانتصر﴾ أي فانتقم لي منهم ﴿ففتحنأ أبواب السماء﴾ قيل هو على ظاهره وللسماء أبواب تفتح وتغلق ولا يستبعد ذلك لأنه قد صح في الحديث أن للسماء أبواباً . وقيل: هو على الاستعارة، فإن الظاهر أن يكون المطر من السحاب ﴿بماء منهمر﴾ أي منصب انصباباً شديداً لم ينقطع أربعين يوماً ﴿وفجرنا﴾

المبثوث ﴿القارعة: ٤﴾، وأراد أنهم يخرجون فرعين لا جهة لأحد منهم يقصدها كالجراد لا جهة لها تكون مختلطة بعضها في بعض .

﴿مهطعين﴾، مسرعين مقبلين، ﴿إلى الداع﴾، إلى صوت إسرأفيل، ﴿يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾، صعب شديد .

قوله عز وجل: ﴿كذبت قبلهم﴾، أي قبل أهل مكة، ﴿قوم نوح فكذبوا عبدنا﴾، نوحاً، ﴿وقالوا مجنون وازدجر﴾، أي زجروه عن دعوته ومقالته بالشم والوعيد، وقالوا: ﴿لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين﴾ [الشعراء: ١١٦]، وقال مجاهر معنى: ازدجر أي استطير جنوناً .

﴿فدعا﴾، نوح، ﴿ربه﴾، وقال، ﴿أني مغلوب﴾، مقهور، ﴿فانتصر﴾، فانتقم لي منهم .
﴿ففتحنأ أبواب السماء بماء منهمر﴾، مُنْصَبٌ انصباباً شديداً لم ينقطع أربعين يوماً، وقال يمان: قد طبق ما بين السماء والأرض .

﴿وفجرنا الأرض عيوناً فاللقى الماء﴾، يعني ماء السماء وماء الأرض، وإنما قال: التقى الماء والالتقاء لا يكون من واحد إنما يكون بين اثنين فصاعداً لأن الماء يكون جمعاً واحداً، وقرأ عاصم الجحدري: فاللقى المآن . ﴿على أمر قد قدير﴾، أي قضى عليهم في أم الكتاب . وقال مقاتل: قدر الله أن يكون المآن سواء فكانا على ما قدر .

﴿وحملناه﴾، يعني نوحاً، ﴿على ذات ألواح ودسر﴾، أي سفينة ذات ألواح . ذكر النعت وترك الاسم، أراد بالألواح خشب السفينة العريضة، ﴿ودسر﴾ أي المسامير التي تُشدُّ بها الألواح، واحداً دسار ودسير، يقال: دسرت السفينة إذا شددتها بالمسامير . وقال الحسن: الدسر صدر السفينة سُميت بذلك لأنها تدر الماء بجوؤها،

الأرض عيوناً﴾ أي وجعلنا الأرض كلها عيوناً تسيل بالماء ﴿فالتقى الماء﴾ يعني ماء السماء وماء الأرض ﴿على أمر قد قدر﴾ أي قضى عليهم في أم الكتاب.

وقيل قدر الله أن يكون الماءان سواء فكانا على ما قدر ﴿وحملناه﴾ يعني نوحاً ﴿على ذات ألواح﴾ يعني سفينة ذات ألواح. وأراد بالألواح، خشب السفينة العريضة. ﴿ودسر﴾ هي المسامير التي تشد بها الألواح وقيل الدسر صدر السفينة. وقيل: هي عوارض السفينة وأضلاعها.

وقيل: الألواح: جانبا السفينة، والدسر: أصلها وطرفاها. ﴿تجري﴾ يعني السفينة ﴿بأعيننا﴾ يعني بمرأى منا. وقيل: بحفظنا. وقيل: بأمرنا ﴿جزاء لمن كان كفر﴾ يعني فعلنا ذلك به وبهم من إنجاء نوح وإغراق قومه ثواباً لنوح لأنه كان كفر به وجحد أمره. وقيل لمن بمعنى لما أي جزاء لما كان كفر من أيادي الله ونعمه عند الذين أغرقهم. وقيل: جزاء لما صنع بنوح وأصحابه.

وَلَقَدْ تَرَكْنَهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْفُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْفُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذْرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِثَّا وَجِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَلٍ وَسُعْرٍ ﴿٢٤﴾

﴿ولقد تركناها آية﴾ يعني الفعلة التي فعلنا بهم آية يعتبر بها. وقيل: أراد السفينة. قال قتادة: أبقاها الله تعالى بأرض الجزيرة عبرة حتى نظر إليها أوائل هذه الأمة ﴿فهل من مدكر﴾ يعني متذكر معتبر متعظ خائف مثل عقوبتهم (ق) عن ابن مسعود قال «قرأت على رسول الله ﷺ مذكر فردها عليّ» وفي رواية أخرى «سمعت يقرأها فهل من مدكر دالاً» ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ يعني إنذاري ﴿ولقد يسرنا القرآن﴾ يعني سهلنا القرآن ﴿للمذكر﴾ يعني ليتذكر ويعتبر

أي تدفع. وقال مجاهد: هي عوارض السفينة. وقيل: أضلاعها. وقال الضحاك: الألواح جانبها، والدسر أصلها وطرفاها.

﴿تجري بأعيننا﴾، أي بمرأى منا. وقال مقاتل بن حيان: بحفظنا، ومنه قولهم للمودع: عين الله عليك. وقال سفيان: بأمرنا. ﴿جزاء لمن كان كفر﴾، يعني فعلنا به وبهم من إنجاء نوح وإغراق قومه ثواباً لمن كان كفر به وجحد أمره، وهو نوح عليه السلام، وقيل: من بمعنى ما أي جزاء لما كان كفر من أيادي الله ونعمه عند الذين أغرقهم، أو جزاء لما صنع بنوح وأصحابه وقرأ مجاهد، جزاء لمن كان كفر بفتح الكاف والفاء، يعني كان الغرق جزاء لمن كان كفر بالله وكذب رسوله.

﴿ولقد تركناها﴾، يعني الفعلة التي فعلنا، ﴿آية﴾، يعتبر بها. وقيل: أراد السفينة. قال قتادة: أبقاها الله بباقردي من أرض الجزيرة، عبرة وآية حتى نظرت إليها أوائل هذه الأمة، ﴿فهل من مدكر﴾، أي متذكر متعظ معتبر خائف مثل عقوبتهم. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو نعيم ثنا زهير عن أبي إسحاق أنه سمع رجلاً سأل الأسود عن قوله: ﴿فهل من مدكر﴾ أو مذكر؟ قال: سمعت عبد الله يقرأها ﴿فهل من مدكر﴾، وقال سمعت النبي ﷺ يقرأها: ﴿فهل من مدكر﴾ دالاً.

﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾، أي إنذار، قال الفراء: الإنذار والنذر مصدران، تقول العرب: أنذرت إنذاراً تفسير الخازن والبغوي/ ج ٦/ م ٥

به قال سعيد بن جبير يسرناه للحفظ والقراءة وليس شيء من كتب الله تعالى يقرأ كله ظاهراً إلا القرآن ﴿فهل من مذكر﴾ يعني متعظ بمواعظه وفيه الحث على تعليم القرآن والاشتغال به لأنه قد يسره الله وسهله على من يشاء من عباده بحيث يسهل حفظه للصغير والكبير والعربي والعجمي وغيرهم .

قوله تعالى: ﴿كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر﴾ أي إنذاري لهم بالعذاب ﴿إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً﴾ أي شديدة الهبوب ﴿في يوم نحس﴾ أي يوم شؤم ﴿مستمر﴾ أي دائم الشؤم استمر على جميعهم بنحو سنة فلم يبق منهم أحد إلا هلك فيه .

وقيل: كان ذلك اليوم يوم الأربعاء في آخر الشهر ﴿تنزع الناس﴾ أي الريح تقلعهم ثم ترمي بهم على رؤوسهم فتدق رقابهم . قيل: كانت تنزعهم من حفرهم ﴿كانهم أعجاز نخل﴾ قال ابن عباس: أصول نخل ﴿منقعر﴾ أي منقطع من مكانه ساقط على الأرض . قيل: كانت الريح تبين رؤوسهم من أجسامهم فتبقى أجسامهم بلا رؤوس كعجز النخلة الملقاة ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر كذبت ثمود بالنذر ﴿أي بالإنذار الذي جاء به صالح﴾ فقالوا أبشرا منا واحداً يعني آدمياً واحداً منا ﴿نتبعه﴾ أي ونحن جماعة كثيرون ﴿إنا إذا لفي ضلال﴾ أي خطأ وذهاب عن الصواب ﴿وسعمر﴾ قال ابن عباس: عذاب . وقيل: شدة عذاب وقيل إنا لفي عناء وعذاب مما يلزمنا من طاعته . وقيل: لفي جنون . وقيل: لفي بعد عن الحق .

أَلَفِي الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مَرْسِلُوا النَّاقَةَ

ونذراً، كقولهم أنفقت إنفاقاً ونفقةً، وأيقنت إيقاناً ويقيناً، أقيم الاسم مقام المصدر.

﴿ولقد يسرنا﴾، سهّلنا، ﴿القرآن للذكر﴾، ليتذكر ويعتبر به، وقال سعيد بن جبير: يسرناه للحفظ والقراءة، وليس شيء من كتب الله يقرأ كله ظاهراً إلا القرآن. ﴿فهل من مذكر﴾، متعظ بمواعظه.

﴿كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر﴾ * إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً، شديدة الهبوب، ﴿في يوم نحس مستمر﴾، شديد دائم الشؤم، استمر عليهم بنحو سنة فلم يبق منهم أحد إلا أهلكه، قيل: كان ذلك يوم الأربعاء في آخر الشهر.

﴿تنزع الناس﴾، تقلعهم ثم ترمي بهم على رؤوسهم فتدق رقابهم. ورؤي أنها كانت تنزع الناس من قبورهم، ﴿كانهم أعجاز نخل﴾، قال ابن عباس: أصولها، وقال الضحاك: أوراك نخل. ﴿منقعر﴾، منقلع من مكانه ساقط على الأرض وواحد الأعجاز عجز، مثل عضد وأعضاء، وإنما قال: ﴿أعجاز نخل﴾ وهي أصولها التي قطعت فروعها لأن الريح كانت تبين رؤوسهم من أجسادهم، فتبقى أجسادهم بلا رؤوس.

﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر * كذبت ثمود بالنذر، بالإنذار الذي جاءهم به صالح.

﴿فقالوا أبشراً﴾، آدمياً، ﴿منا واحداً نتبعه﴾، ونحن جماعة كثيرة وهو واحد، ﴿إنا إذا لفي ضلال﴾، خطأ وذهاب عن الصواب، ﴿وسعمر﴾، قال ابن عباس: عذاب. وقال الحسن: شدة عذاب. وقال قتادة: عناء، يقولون: إنا إذا لفي عناء وعذاب مما يلزمنا من طاعته. قال سفيان بن عيينة: هو جمع سعيير. وقال الفراء: جنون، يقال ناقة مسعورة إذا كانت خفيفة الرأس هائمة على وجهها. وقال وهب: وسعمر: أي بعد عن الحق.

فَنَنَّا لَهُمْ فَأَرْقَبَهُمْ وَأَصْطَبِرَ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُخْتَصِرٌ ﴿٢٨﴾ فَادَّأُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾

﴿أَلْقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ﴾ يعني أنزل الوحي عليه ﴿من بيننا بل هو كذاب أشير﴾ أي بطر متكبر يريد أن يتعظم علينا بادعائه النبوة ﴿سيعلمون غداً﴾ أي حين ينزل بهم العذاب. وقيل: يعني يوم القيامة وإنما ذكر الغد للتقريب ﴿من الكذاب الأشير﴾ أي صالح أم من كذبه ﴿إنا مرسلو الناقة﴾ أي باعثوها ومخرجوها من الهضبة التي سألوا، وذلك أنهم تمتنوا على صالح فسألوه أن يخرج لهم من صخرة حمراء ناقة عشراء فقال الله تعالى إنا مرسلو الناقة ﴿فتنة﴾ أي محنة واختباراً ﴿لهم فارتقبهم﴾ أي فانتظر ما هم صانعون ﴿واصطبر﴾ أي أذاهم ﴿ونبئهم﴾ أي أخبرهم ﴿أن الماء قسمة بينهم﴾ أي بين الناقة وبينهم لها يوم ولهم يوم وإنما قال تعالى بينهم تغليياً للعقلاء ﴿كل شرب﴾ أي نصيب من الماء ﴿مختصر﴾ أي يحضره من كانت نوبته فإذا كان يوم الناقة حضرت شربها وإذا كان يومهم حضروا شربهم. وقيل: يعني يحضرون الماء إذا غابت الناقة فإذا جاءت حضروا اللبن ﴿فنادوا صاحبهم﴾ يعني قدار بن سالف ﴿فتعاطى﴾ أي فتناول الناقة بسيفه ﴿فعقر﴾ يعني الناقة ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ ثم بين عذابهم فقال تعالى: ﴿إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة﴾ يعني صيحة جبريل ﴿فكانوا كهشيم المحتظر﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو الرجل يحظر لغنمه حظيرة من الشجر والشوك دون السباع فما سقط من ذلك فداسته الغنم فهو الهشيم. وقيل: هو الشجر البالي الذي يهشم حين تذروه الرياح.

﴿أَلْقَى الذِّكْرُ﴾، أنزل الذكر الوحي، ﴿عليه من بيننا بل هو كذاب أشير﴾، بطر متكبر يريد أن يتعظم علينا بادعائه النبوة، والأشير المرح والتجبر.

﴿سيعلمون﴾، قرأ ابن عامر وحمزة: (ستعلمون)، بالتاء على معنى قول صالح لهم، وقرأ الآخرون بالياء، يقول الله تعالى: ﴿سيعلمون غداً﴾، حين ينزل بهم العذاب. وقال الكلبي: يعني يوم القيامة وذكر الغد للتقريب على عادة الناس، يقولون: إن مع اليوم غداً، ﴿مِّنَ الكَذَابِ الْأَشِيرِ﴾.

﴿إِنَّا مُرْسَلُوا النَّاَقَةَ﴾، أي باعثوها ومخرجوها من الهضبة التي سألوا أن يخرجها منها، وذلك أنهم تمتنوا على صالح، فسألوه أن يخرج لهم من صخرة ناقة حمراء عشراء، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسَلُوا النَّاَقَةَ فَنَنَّا لَهُمْ﴾، محنة واختباراً لهم، ﴿فارتقبهم﴾، فانتظر ما هم صانعون، ﴿واصطبر﴾، على ارتقابهم، وقيل: على ما يصيبك من الأذى.

﴿ونبئهم أن الماء قسمة بينهم﴾، وبين الناقة، يوم لها ويوم لهم، وإنما قال بينهم لأن العرب إذا أخبرت عن بني آدم وعن البهائم غلبت بني آدم على البهائم، ﴿كل شرب﴾، نصيب من الماء، ﴿مختصر﴾، يحضره من كانت نوبته، فإذا كان يوم الناقة حضرت شربها، وإذا كان يومهم حضروا شربهم، وأحضر وحضر بمعنى واحد، قال مجاهد: يعني يحضرون الماء إذا غابت الناقة، فإذا جاءت الناقة حضروا اللبن.

﴿فنادوا صاحبهم﴾، وهو قدار بن سالف، ﴿فتعاطى﴾، فتناول الناقة بسيفه ﴿فعقر﴾، أي فعقرها.

﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾، ثم بين عذابهم.

فقال: ﴿إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة﴾، قال عطاء: يريد صيحة جبريل عليه السلام، ﴿فكانوا كهشيم

والمعنى: أنهم صاروا كيبس الشجر إذا بلي وتحطم وقيل كالعظام النخرة المحترقة وقيل هو التراب يتناثر من الحائط.

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٣٦﴾ كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنَّذْرِ ﴿٣٧﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٨﴾ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنَّذْرِ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرٍ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ ﴿٤٣﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٍ ﴿٤٤﴾

﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾.

قوله تعالى: ﴿كذبت قوم لوط بالنذر إنا أرسلنا عليهم حاصباً﴾ يعني الحصباء وهي الحجارة التي دون ملء الكف وقد يكون الحاصب الرامي، فعلى هذا، يكون المعنى إنا أرسلنا عليهم عذاباً يحصبهم أي يرميهم بالحجارة ثم استثنى.

فقال تعالى: ﴿إلا آل لوط﴾ يعني لوطاً وابنتيه ﴿نجيئناهم﴾ يعني من العذاب ﴿بسحر نعمة من عندنا﴾ أي جعلناه نعمة منا عليهم حيث نجيناهم ﴿كذلك نجزي﴾ أي كما أنعمنا على آل لوط كذلك نجزي ﴿من شكر﴾ يعني أن من وحد الله لم يعذبه مع المشركين ﴿ولقد أنذرهم﴾ أي لوط ﴿بطشتنا﴾ يعني أخذنا إياهم بالعقوبة ﴿فتماروا بالنذر﴾

المحظّر، قال ابن عباس: هو الرجل يجعل لغنمه حظيرة من الشجر والشوك دون السباع، فما سقط من ذلك فداسته الغنم فهو الهشيم. وقال ابن زيد هو الشجر البالي الذي تهشم حتى ذرته الريح، والمعنى أنهم صاروا كيبس الشجر إذا تحطم والغرب تسمي كل شيء كان رطباً فييس هشيماً. وقال قتادة: كالعظام النخرة المحترقة. وقال سعيد بن جبیر: هو التراب الذي يتناثر من الحائط.

﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ كذبت قوم لوط بالنذر * إنا أرسلنا عليهم حاصباً، ريحاً ترميهم بالحصباء، وهي الحصا، قال الضحاك: يعني صغار الحصى. وقيل: الحصباء هي الحجر الذي دون ملء الكف، وقد يكون الحاصب الرامي، فيكون المعنى على هذا: أرسلنا عليهم عذاباً يحصبهم، يعني يرميهم بالحجارة، ثم استثنى فقال: ﴿إلا آل لوط﴾، يعني لوطاً وابنتيه، ﴿نجيئناهم﴾، من العذاب، ﴿بسحر﴾.

﴿نعمة من عندنا﴾، يعني جعلناه نعمة منا عليهم حيث أنجيناهم، ﴿كذلك﴾، يعني كما أنعمنا على آل لوط، ﴿نجزي من شكر﴾، قال مقاتل: من وحد الله لم يعذبه مع المشركين.

﴿ولقد أنذرهم﴾، لوط، ﴿بطشتنا﴾، أخذنا إياهم بالعقوبة، ﴿فتماروا بالنذر﴾، شكوا بالإنذار وكذبوا ولم يصدقوا.

﴿ولقد راودوه عن ضيفه﴾، طلبوا أن يسلم إليهم أضيافه ﴿فطمسنا أعينهم﴾، وذلك أنهم لما قصدوا دار لوط وعالجوا الباب ليدخلوا، قالت الرسل للوط: خل بينهم وبين الدخول فإن رسل ربك لن يصلوا إليك، فدخلوا الدار فصفقهم جبريل بجناحه بإذن الله فتركهم عُمياً يترددون متحيرين لا يهتدون إلى الباب، فأخرجهم لوط عمياً لا يبصرون. قوله: ﴿فطمسنا أعينهم﴾ يعني صبرناها كسائر الوجه لا يرى لها شق، هذا قول أكثر المفسرين. وقال

أي شكوا بالإنذار ولم يصدقوا وكذبوا ﴿ولقد راودوه عن ضيفه﴾ أي طلبوا منه أن يسلم إليهم أضيافه ﴿فطمسنا أعينهم﴾ وذلك أنهم لما قصدوا دار لوط عالجوا الباب ليدخلوا عليهم فقالت الرسل للوط خل بينهم وبين الدخول فإننا رسل ربك لن يصلوا إليك فدخلوا الدار فصفقهم جبريل بجناحه فتركهم عمياً بإذن الله يترددون متحيرين لا يهتدون إلى الباب وأخرجهم لوط عمياً لا يبصرون.

ومعنى: فطمسنا أعينهم، يعني صيرناها كسائر الوجه لا يرى لها شق. وقيل: طمس الله أبصارهم فلم يروا الرسل فقالوا لقد رأيناهم حين دخلوا فأين ذهبوا؟ فلم يروه ﴿فذوقوا عذابي ونذر﴾ يعني ما أنذركم به لوط من العذاب ﴿ولقد صبحهم بكرة﴾ أي جاءهم وقت الصبح ﴿عذاب مستقر﴾ يعني دائم استقر فيهم حتى أفضى بهم إلى عذاب الآخرة ﴿فذوقوا عذابي ونذر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾

قوله عز وجل: ﴿ولقد جاء آل فرعون النذر﴾ يعني موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام. وقيل: النذر، الآيات التي أنذرتهم بها موسى ﴿كذبوا بآياتنا كلها﴾ يعني الآيات التسع ﴿فأخذناهم﴾ يعني بالعذاب ﴿أخذ عزيز مقتدر﴾ يعني غالب في انتقامه قادر على إهلاكهم لا يعجزه عما أراد ثم خوف كفار مكة فقال تعالى:

أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ أَمْ لَهُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيَرَهُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الذُّبُرُ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾

﴿أكفاركم خير من أولئكم﴾ يعني أقوى وأشد من الذين أحللت بهم نقمتي مثل قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون وهذا استفهام إنكار، أي، ليسوا بأقوى منهم ﴿أم لكم براءة﴾ يعني من العذاب ﴿في الزبُر﴾ أي في الكتب أنه لن يصيبكم ما أصاب الأمم الخالية ﴿أم يقولون﴾ يعني كفار مكة ﴿نحن جميع﴾ يعني أمرنا ﴿منتصر﴾ يعني من

الضحاك: طمس الله أبصارهم فلم يروا الرسل، فقالوا: قد رأيناهم حين دخلوا البيت فأين ذهبوا، فلم يروه فرجعوا. ﴿فذوقوا عذابي ونذر﴾، أي ما أنذركم به لوط من العذاب.

﴿ولقد صبحهم بكرة﴾، جاءهم وقت الصبح، ﴿عذاب مستقر﴾، دائم استقر فيهم حتى أفضى بهم إلى عذاب الآخرة، وقيل: عذاب حق.

﴿فذوقوا عذابي ونذر﴾ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر * ولقد جاء آل فرعون النذر، يعني موسى وهارون عليهما السلام، وقيل: هي الآيات التي أنذرتهم بها موسى.

﴿كذبوا بآياتنا كلها﴾، وهي الآيات التسع، ﴿فأخذناهم﴾، بالعذاب، ﴿أخذ عزيز﴾، غالب في انتقامه، ﴿مقتدر﴾، قادر على إهلاكهم لا يعجزه ما أراد بهم، ثم خوف أهل مكة فقال:

﴿أكفاركم خير من أولئكم﴾، أشد وأقوى من الذين أحللت بهم نقمتي من قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون؟ وهذا استفهام بمعنى الإنكار، أي ليسوا بأقوى منهم، ﴿أم لكم براءة﴾، من العذاب، ﴿في الزبُر﴾، في الكتب أنه لن يصيبكم ما أصاب الأمم الخالية.

﴿أم يقولون﴾، يعني كفار مكة، ﴿نحن جميع منتصر﴾، قال الكلبي: نحن جميع أمرنا منتصر من أعدائنا، والمعنى: نحن يد واحدة على من خالفنا، منتصر ممن عادانا، ولم يقل منتصرون لموافقة رؤوس الآي.

أعدائنا والمعنى: نحن يد واحدة على من خالفنا منصورون ممن عادانا. ولم يقل منصورون لموافقة رؤوس الآي. وقيل: معناه نحن كل واحد منا منتصر كما يقال: كلهم عالم، يعني: كل واحد منهم عالم. قال الله تعالى: ﴿سَيَهْزَمُ الْجَمْعُ﴾ يعني كفار مكة ﴿وَيُولُونُ الدَّبْرَ﴾ يعني الأدبار فوحد لأجل رؤوس الآي. وقيل في الأفراد، إشارة إلى أنهم في التولية والهزيمة كنفس واحدة، فلا يتخلف أحد عن الهزيمة ولا يثبت أحد للزحف فهُمْ في ذلك كرجل واحد (خ).

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ وهو في قبة يوم بدر «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد بعد هذا اليوم أبداً فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك يا رسول الله فقد ألححت على ربك فخرج وهو في الدرع وهو يقول: سيهزم الجمع ويولون الدبر» ﴿بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر﴾ فصدق الله وعده وهزمهم يوم بدر.

وقال سعيد بن المسيب: سمعت عمر بن الخطاب يقول: لما نزلت سيهزم الجمع ويولون الدبر: كنت لا أدري أي جمع يهزم، فلما كان يوم بدر، رأيت النبي ﷺ يشب في درعه ويقول: سيهزم الجمع ويولون الدبر فعلمت تأويلها ﴿بل الساعة موعدهم﴾ يعني جميعاً والساعة أدهى وأمر، أي أعظم داهية وأشد مرارة من الأسر والقتل يوم بدر. قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ﴾ يعني المشركين ﴿فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ قيل في بعد عن الحق وسعر أي نار تسعر عليهم.

وقيل: في ضلال في الدنيا ونار مسعرة في الآخرة. وقيل: في ضلال، أي عن طريق الجنة وسعر أي عذاب الآخرة ثم بين عذابهم فقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ﴾ أي يجرون ﴿فِي النَّارِ عَلَى وجوههم﴾ ويقال لهم ﴿ذوقوا مس سقر﴾ أي ذوقوا أيها المكذبون لمحمد ﷺ مس سقر.

قال الله تعالى: ﴿سَيَهْزَمُ الْجَمْعُ﴾، قرأ يعقوب: (سنهزم) بالنون، ﴿الجمع﴾ نصب، وقرأ الآخرون بالياء وضمها، ﴿الجمع﴾ رفع على غير تسمية الفاعل، يعني كفار مكة، ﴿وَيُولُونُ الدَّبْرَ﴾، يعني الأدبار فوحد لأجل رؤوس الآي، كما يقال: ضربنا منهم الرؤوس وضربنا منهم الرأس إذا كان الواحد يؤدي معنى الجمع، أخبر الله أنهم يولون أدبارهم منهزمين فصدق الله وعده وهزمهم يوم بدر. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن المثنى ثنا عبد الوهاب ثنا خالد عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ وهو في قبة يوم بدر: «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم»، فأخذ أبو بكر بيده، فقال: حسبك يا رسول الله، فقد ألححت على ربك، وهو في الدرع، فخرج وهو يقول: ﴿سَيَهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونُ الدَّبْرَ﴾.

﴿بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر﴾، قال سعيد بن المسيب: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: لما نزلت: ﴿سَيَهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونُ الدَّبْرَ﴾ كنت لا أدري أي جمع سيهزم، فلما كان يوم بدر رأيت النبي ﷺ يشب في درعه ويقول: ﴿سَيَهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونُ الدَّبْرَ﴾ بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر، أي أعظم داهية وبلية وأشد مرارة من الأسر والقتل يوم بدر.

﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ﴾، المشركين، ﴿فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾، قيل: في ضلال بعد عن الحق. قال الضحاك: وسُعر أي نار تسعر عليهم: وقيل: في ضلال ذهاب عن طريق الجنة في الآخرة، وسُعر: نار مسعرة، قال الحسين بن فضل: إن المجرمين في ضلال في الدنيا ونار في الآخرة. وقال قتادة: في عناء وعذاب.

ثم بين عذابهم فقال: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ﴾، يُجْرُونَ، ﴿فِي النَّارِ عَلَى وجوههم﴾، ويقال لهم: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾.

إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاءَكُمْ فَهُمْ مِنْ مُذَكِّرٍ ﴿٥١﴾

﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ أي مقدور ومكتوب في اللوح المحفوظ . وقيل : معناه قدر الله لكل شيء من خلقه قدره الذي ينبغي له . وقال ابن عباس : كل شيء بقدر حتى وضعك يدك على خدك .

(فصل في سبب نزول الآية وما ورد في القدر وما قيل فيه)

(م) «عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : كتب الله مقادير الخلائق كلها قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة» قال وعرضه على الماء (م) .

عن أبي هريرة قال : «جاء مشركو قريش إلى النبي ﷺ يخاصمونهم في القدر فنزلت هذه الآية ﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ إلى قوله ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (م) عن طاوس قال : أدركت ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : كل شيء بقدر الله تعالى قال : وسمعت عبد الله بن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ : كل شيء بقدر حتى العجز والكيس أو الكيس والعجز» .

عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله ﷺ «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع : يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ﷺ بعثني بالحق ، ويؤمن بالموت ، وبالبعث بعد الموت ، ويؤمن بالقدر» أخرجه الترمذي . وله عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه» وقال : حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن ميمون وهو منكر الحديث . وفي حديث جبريل المتفق عليه : وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت ففيه ذم القدريّة .

عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : «لكل أمة مجوس ومجوس هذه الأمة الذين يقولون لا قدر من مات منهم فلا تشهدوا جنازته ومن مرض منهم فلا تعودوه وهم من شيعة الدجال وحق على الله أن يلحقهم بالدجال» . أخرجه أبو داود وله عن أبي هريرة مثله «وزاد فلا تجالسوهم ولا تفتحوهم في الكلام» .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ «صنفان من أمتي ليس لهما في الإسلام نصيب : المرجئة والقدريّة» أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن غريب .

وروى ابن الجوزي في تفسيره عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال «إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة أمر منادياً فينادي نداء يسمعه الأولون والآخرون أي خصماء الله فتقوم القدريّة فيأمر بهم إلى النار يقول الله ذوقوا مس سقر إنا كل شيء خلقناه بقدر» .

﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ ، أي ما خلقناه فمقدور ومكتوب في اللوح المحفوظ ، قال الحسن : قدر الله لكل شيء من خلقه قدره الذي ينبغي له ، أخبرنا أبو الحسن علي بن الحسين القرشي أنا مسلم غالب بن علي الرازي أنا أبو معشر يعقوب بن عبد الجليل بن يعقوب ثنا أبو يزيد حاتم بن محبوب أنا أحمد بن نصر النيسابوري أنا عبد الله بن الوليد العدني أنا الثوري عن زياد بن إسماعيل السهمي عن محمد بن عباد المخزومي عن أبي هريرة قال : جاء مشركوا قريش إلى النبي ﷺ يخاصمونهم في القدر فنزلت هذه الآية : ﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ إلى قوله : ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ ، أخبرنا أبو الحسن علي بن يوسف الجويني أنا أبو محمد محمد بن

قال ابن الجوزي: وإنما قيل: خصماء الله، لأنهم يخاصمون في أنه لا يجوز أن يقدر المعصية على العبد ثم يعذبه عليها. وروي عن الحسن قال: والله لو أن قدرياً صام حتى يصير كالجبل، وصلى حتى يصير كالوتر، ثم أخذ ظملاً حتى يذبح بين الركن والمقام لكبه الله على وجهه في صقر ثم قيل له ذق مس صقر إنا كل شيء خلقناه بقدر. قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله أعلم أن مذهب أهل الحق إثبات القدر ومعناه أن الله تعالى قدر الأشياء في القدم وعلم سبحانه وتعالى أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه وتعالى وعلى صفات مخصوصة فهي تقع على حسن ما قدرها الله تعالى وأنكرت القدرية هذا وزعمت أنه سبحانه وتعالى لم يقدرها ولم يتقدم علمه بها وإنها مستأنفة العلم أي إنما يعلمها سبحانه وتعالى بعد وقوعها وكذبوا على الله سبحانه وتعالى عن أقوالهم الباطلة علواً كبيراً. وسميت هذه الفرقة قدرية، لإنكارهم القدر. قال أصحاب المقالات من المتكلمين: وقد انقرضت القدرية القائلون بهذا القول الشنيع الباطل ولم يبق أحد من أهل القبلة عليه. وصارت القدرية في الأزمان المتأخرة تعتقد إثبات القدر ولكن تقول الخير من الله والشر من غيره تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

وحكى أبو محمد بن قتيبة في كتابه غريب الحديث، وأبو المعالي إمام الحرمين في كتابه الإرشاد في أصول الدين، أن بعض القدرية قالوا: لسنا بقدرية بل أنتم القدرية لاعتقادكم إثبات القدر. قال ابن قتيبة وإمام الحرمين: هذا تمويه من هؤلاء الجهلة ومباهته وتواقع، فإن أهل الحق يرفضون أمورهم إلى الله تعالى. ويضيفون القدر والأفعال إلى الله تعالى وهؤلاء الجهلة يضيفونه إلى أنفسهم ومدعي الشيء لنفسه ومضيفه إليها أولى بأن ينسب إليه ممن يعتقد له غيره وينفيه عن نفسه.

قال إمام الحرمين: وقد قال رسول الله ﷺ «القدرية مجوس هذه الأمة» شبههم بهم لتقسيمهم الخير والشر في حكم الإرادة كما قسمت المجوس فصرفت الخير إلى يزدان والشر إلى أهرمن. ولا خفاء باختصاص هذا الحديث بالقدرية. وحديث: القدرية مجوس هذه الأمة، رواه أبو حازم عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ وأخرجه أبو داود في سننه والحاكم أبو عبد الله في المستدرک على الصحيحين. وقال: صحيح على شرط الشيخين إن صح سماع أبي حازم عن ابن عمر وقال الخطابي: إنما جعلهم مجوساً لمضاهاة مذهب المجوس لقولهم بالأصلين: النور

علي بن محمد بن شريك الشافعي الخدشاهي أنا عبد الله بن محمد بن مسلم أبو بكر الجويدري أنا يونس بن عبد الأعلى الصدفي أنا عبد الله بن وهب أخبرني أبو هانئ الخولاني عن أبي عبد الرحمن الجيلي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وكان عرشه على الماء». أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن زياد بن سعد عن عمرو بن مسلم عن طاوس اليماني قال: أدركت ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: «كل شيء بقدر الله»، قال وسمعت عبد الله بن عمر رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «كل شيء بقدر حتى العجز والكيس، أو الكيس والعجز»، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا أبو جعفر محمد بن علي بن دحيم الشيباني أنا أحمد بن حازم بن أبي عروة أنا يعلى بن عبيد وعبد الله بن موسى وأبو نعيم عن سفيان عن منصور عن ربعي بن حراش عن رجل عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن عبدٌ حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر زاد عبد الله خيره وشره»، ورواه أبو داود عن شعبة عن منصور وقال: عن ربعي عن علي ولم يقل: عن رجل، وهذا أصح.

﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾، قوله: ﴿واحدة﴾، ترجع إلى المعنى دون اللفظ، أي: وما أمرنا

والظلمة يزعمون أن الخير من فعل النور والشر من فعل الظلمة فصاروا ثنوية وكذلك القدرية يضيفون الخير إلى الله والشر إلى غيره والله سبحانه وتعالى خالق كل شيء الخير والشر جميعاً لا يكون شيء منهما إلا بمشيئته فهما مضافان إليه سبحانه وتعالى خلقاً وإيجاداً وإلى الفاعلين لهما من عباده فعلاً واكتساباً. قال الخطابي: وقد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار الله تعالى العبد وقهره على ما قدره وقضاه وليس الأمر كما يتوهمونه وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله تعالى بما يكون من اكساب العباد وصدورها عن تقدير منه وخلق لها خيرها وشرها. قال: والقدر اسم لما صدر مقدراً عن فعل القادر. ويقال: قدرت الشيء وقدرته بالتخفيف والتثقيب بمعنى واحد. والقضاء في هذا معناه الخلق كقوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ أي خلقهن. وقد تظاهرت الأدلة القطعية من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأهل العقد والحل من السلف والخلف على إثبات قدر الله سبحانه وتعالى وقد قرر ذلك أئمة المتكلمين أحسن تقرير بدلائله القطعية السمعية والعقلية والله أعلم.

وأما معاني الأحاديث المتقدمة، فقوله: جاء مشركو قريش إلى قوله إنا كل شيء خلقناه بقدر المراد بالقدر هنا القدر المعروف وهو ما قدره الله وقضاه وسبق به علمه وإرادته فكل ذلك مقدر في الأزل معلوم لله تعالى مراد له، وكذلك قوله: كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء المراد منه تحديد وقت الكتابة في اللوح المحفوظ أو غيره لا أصل القدر فإن ذلك أزلي لا أول له وقوله وعرشه على الماء أي قبل أن يخلق السموات والأرض، وقوله: كل شيء بقدر حتى العجز والكيس. أو قال: الكيس والعجز. العجز: عدم القدرة. وقيل: هو ترك ما يجب فعله بالتسويق به وتأخيره عن وقته. وقيل: يحتمل العجز عن الطاعات ويحتمل العموم في أمور الدنيا والآخرة والكيس ضد العجز وهو النشاط والحذق بالأمور. ومعنى الحديث: أن العاجز قدر عجزه والكيس قدر كيسه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمَرْنَا إِلَّا وَاحِدَةً﴾ أي وما أمرنا إلا مرة واحدة وقيل معناه وأما أمرنا للشيء إذا أردنا تكوينه إلا كلمة واحدة ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ لا مراجعة فيه فعلى هذا إذا أراد الله سبحانه وتعالى شيئاً قال له كن فيكون فهنا بان فرق بين الإرادة والقول فالإرادة قدر والقول قضاء وقوله واحدة فيه بيان أنه لا حاجة إلى تكرير القول بل هو إشارة إلى نفاذ الأمر ﴿كلمح البصر﴾ قال ابن عباس: يريد أن قضائي في خلقي أسرع من لمح البصر. وعن ابن عباس أيضاً: معناه وما أمرنا بمجيء الساعة في السرعة إلا كطرف البصر ﴿ولقد أهلكنا أشياعكم﴾ أي أشباهكم ونظراءكم في الكفر من الأمم السالفة ﴿فهل من مدكر﴾ أي متعظ بأن ذلك حق فيخاف ويعتبر.

وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ كَبِيرٌ مُسْتَطَرٌّ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْتَّافِينَ فِي جَنَّتِ وَنَهْرٍ ﴿٥٤﴾ فِي

مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْدِرٍ ﴿٥٥﴾

﴿وكل شيء فعلوه﴾ يعني الأشياع من خير وشر ﴿في الزبر﴾ أي في كتب الحفظه وقيل في اللوح المحفوظ

إلا مرة واحدة، وقيل: معناه وما أمرنا للشيء إذا أردنا تكوينه إلا كلمة واحدة: كن فيكون، لا مراجعة فيها كلمح بالبصر. قال عطاء عن ابن عباس: يريد أن قضائي في خلقي أسرع من لمح البصر. وقال الكلبي عنه: وما أمرنا بمجيء الساعة في السرعة إلا كطرف البصر.

﴿ولقد أهلكنا أشياعكم﴾، أشباهكم ونظراءكم في الكفر من الأمم السالفة، ﴿فهل من مدكر﴾، متعظ

يعلم أن ذلك حق فيخاف ويعتبر.

﴿وكل شيء فعلوه﴾، يعني فعله الأشياع من خير وشر، ﴿في الزبر﴾، في كتاب الحفظه، وقيل: في

اللوح المحفوظ.

﴿وكل صغير وكبير﴾ أي من الخلق وأعمالهم وآجالهم ﴿مستطر﴾ أي مكتوب.

قوله عز وجل: ﴿إن المتقين في جنات﴾ أي بساتين ﴿ونهر﴾ أي أنهار وإنما وَّحَّده لموافقة رؤوس الآي وأراد أنها الجنة من الماء والخمر واللبن والعسل.

وقيل: معناه في ضياء وسعة ومنه النهار والمعنى لا ليل عندهم ﴿في مقعد صدق﴾ أي في مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم وقيل في مجلس حسن وقيل في مقعد لا كذب فيه لأن الله صادق فمن وصل إليه امتنع عليه الكذب فهو في مقعد صدق ﴿عند مليك﴾ قيل معناه قرب المنزلة والتشريف لا معنى المكان ﴿مقتدر﴾ أي قادر لا يعجزه شيء وقيل مقربين عند مليك أمره في الملك والاقتراد أعظم شيء، فلا شيء إلا وهو تحت ملكه وقدرته فأَي منزلة أكرم من تلك المنزلة وأجمع للغبطة كلها والسعادة بأسرها. قال جعفر الصادق: وصف الله تعالى المكان بالصدق، فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق، والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

﴿وكل صغير وكبير﴾، من الخلق وأعمالهم وآجالهم، ﴿مستطر﴾، مكتوب، يقال: سطرت واستطرت وكتبت واكتبت.

﴿إن المتقين في جنات﴾، بساتين، ﴿ونهر﴾، أي أنهار، ووَّحَّده لأجل رؤوس الآي، وأراد أنهار الجنة من الماء والخمر واللبن والعسل. وقال الضحاك: يعني في ضياء وسعة ومنه النهار. وقرأ الأعرج: ﴿ونهر﴾ بضمين جمع النهار يعني لا ليل لهم.

﴿في مقعد صدق﴾، في مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم، ﴿عند مليك مقتدر﴾، ملك قادر لا يعجزه شيء. قال جعفر الصادق رضي الله عنه: مدح الله المكان بالصدق فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق.

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾
(قرآن كريم)

سورة الرحمن علا، وعز وجل

(وهي مكية وذكر ابن الجوزي أنها مدنية في قول من قولين عن ابن عباس وهي ست وسبعون آية وثلاثمائة وإحدى وخمسون كلمة وألف وستمائة وستة وثلاثون حرفاً).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤

قوله عز وجل: ﴿الرحمن علم القرآن﴾ قيل لما نزلت اسجدوا للرحمن قال كفار مكة وما الرحمن فأنكروه وقالوا لا نعرف الرحمن فأنزل الله الرحمن يعني الذي أنكرتموه هو الذي علم القرآن، وقيل هذا جواب لأهل مكة حين قالوا إنما يعلمه بشر فقال تعالى الرحمن علم القرآن يعني علّم محمداً القرآن وقيل علّم القرآن يسره للذكر ليحفظ ويتلى وذلك أن الله عز وجل عد نعمه على عباده فقدم أعظمها نعمة وأعلاها رتبة وهو القرآن العزيز لأنه أعظم وحي الله إلى أنبيائه وأشرفه منزلة عند أوليائه وأصفياه وأكثره ذكراً وأحسنه في أبواب الدين أثراً وهو سنام الكتب السماوية المنزلة على أفضل البرية ﴿خلق الإنسان﴾ يعني آدم عليه الصلاة والسلام قاله ابن عباس ﴿علمه البيان﴾ يعني أسماء كل شيء وقيل علّمه اللغات كلها فكان آدم يتكلم بسبعمائة لغة أفضلها العربية وقيل الإنسان اسم جنس وأراد به جميع الناس، فعلى هذا يكون معنى علمه البيان أي النطق الذي يتميز به عن سائر الحيوانات، وقيل علمه الكتابة والفهم والإفهام حتى عرف ما يقول وما يقال له وقيل علم كل قوم لسانهم الذي يتكلمون به وقيل أراد بالإنسان محمداً ﷺ علّمه البيان يعني بيان ما يكون وما كان لأنه صلى الله عليه وسلم ينبيء عن خير الأولين والآخرين وعن يوم الدين،

سُورَةُ الرَّحْمَنِ

مدنية وهي ثمانٍ وسبعون آية.

﴿الرحمن﴾ نزلت حين قالوا وما الرحمن، وقيل: هو جواب لأهل مكة حين قالوا إنما يعلمه بشر.

﴿علم القرآن﴾، قال الكلبي علم القرآن محمداً. وقيل: علم القرآن يسره للذكر.

﴿خلق الإنسان﴾، يعني آدم عليه السلام، قاله ابن عباس وقتادة.

﴿علمه البيان﴾، أسماء كل شيء، وقيل: علّمه اللغات كلها، وكان آدم يتكلم بسبعمائة لغة أفضلها العربية. وقال الآخرون: الإنسان اسم جنس، وأراد به جميع الناس، علّمه البيان النطق والكتابة والفهم والإفهام حتى عرف ما يقول وما يقال له، هذا قول أبي العالية وابن زيد والحسن وقال السدي: علّم كل قوم لسانهم الذي يتكلمون به. وقال ابن كيسان: ﴿خلق الإنسان﴾، يعني محمداً ﷺ ﴿علمه البيان﴾ يعني بيان ما كان وما يكون

وقيل علمه بيان الأحكام من الحلال والحرام والحدود والأحكام.

الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَكِهَةٌ وَالتَّخْلُ ذَاتُ الْأَكَامِ ﴿١١﴾

﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ قال ابن عباس يجريان بحساب ومنازل لا يتعديانها وقيل يعني بهما حساب الأوقات والآجال ولولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يدر أحد كيف يحسب ما يريد، وقيل الحساب هو الفلك تشبيهاً بحسبان الرحي وهو ما يدور الحجر بدورانه ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ قيل النجم ما ليس له ساق من النبات كالبقول والشجر ما له ساق يبقى في الشتاء وسجودها سجود ظلها وقيل النجم هو الكوكب، وسجوده ظلوعه والقول الأول أظهر لأنه ذكره مع الشجر في مقابلة الشمس والقمر ولأنهما أرضيان في مقابلة سماءين ﴿والسماء رفعها﴾ أي فوق الأرض ﴿ووضع الميزان﴾ قيل أراد بالميزان العدل لأنه آلة العدل والمعنى أنه أمر بالعدل يدل عليه قوله ﴿ألا تطفوا في الميزان﴾ أي لا تجاوزوا العدل وقيل أراد به الآلة التي يوزن بها للتوصل إلى الإنصاف والانتصاف وأصل الوزن التقدير أن لا تطفوا في الميزان أي لثلاث تميلوا وتظلموا وتجاوزوا الحق في الميزان ﴿وأقيموا الوزن بالقسط﴾ يعني بالعدل وقيل أقيموا لسان الميزان بالعدل وقيل الإقامة باليد والقسط بالقلب ﴿ولا تخسروا﴾ أي لا تنقصوا ﴿الميزان﴾ أي لا تطفوا في الكيل والوزن أمر بالتسوية ونهى عن الطغيان الذي هو اعتداء وزيادة وعن الخسران الذي هو تطفيف ونقصان وكرر لفظ الميزان تشديداً للتوصية به وتقوية للأمر باستعماله والحث عليه ﴿والأرض وضعها﴾ أي

لأنه كان يبين عن الأولين والآخرين وعن يوم الدين.

﴿الشمس والقمر بحسبان﴾، قال مجاهد: كحسبان الرحي يدوران في مثل قطب الرحا، قال غيره: معناه أي يجريان بحساب ومنازل لا يعدوانها، قاله ابن عباس وقتادة وقال ابن زيد وابن كيسان: يعني بهما تحسب الأوقات والآجال ولولا الليل والنهار والشمس والقمر فم يدر أحد كيف يحب شيئاً. وقال الضحاك: يجريان بقدر، والحسبان يكون مصدر حسبت حساباً وحسباناً مثل الغفران والكفران والرجحان والنقصان، وقد يكون جمع الحساب كالشبهان والركبان.

﴿والنجم والشجر يسجدان﴾، النجم ما ليس له ساق من النبات، والشجر ما له ساق يبقى في الشتاء، وسجودهما سجود ظلهما كما قال: ﴿يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله﴾ [النحل: ٤٨] وقال مجاهد: النجم هو الكوكب وسجوده طلوعه.

﴿والسماء رفعها﴾، فوق الأرض، ﴿وضع الميزان﴾، قال مجاهد: أراد بالميزان العدل المعنى أنه أمر بالعدل، يدل عليه قوله تعالى:

﴿ألا تطفوا في الميزان﴾، أي لا تجاوزوا العدل. وقال الحسن وقتادة والضحاك أراد به الذي يوزن به ليوصل به الإنصاف والانتصاف، وأصل الوزن التقدير ألا تطفوا يعني لثلاث تميلوا وتظلموا وتجاوزوا الحق في الميزان.

﴿وأقيموا الوزن بالقسط﴾، بالعدل، وقال أبو الدرداء وعطاء: معناه أقيموا لسان الميزان بالعدل. قال ابن عيينة: الإقامة باليد والقسط بالقلب، ﴿ولا تخسروا﴾، ولا تنقصوا ﴿الميزان﴾، ولا تطفوا في الكيل والوزن.

خفضها مدحوة على الماء ﴿لِلْأَنَامِ﴾ يعني للخلق الذين بثهم فيها وهو كل ما ظهر عليها من دابة وقيل للإنس والجن فهي كالمهاد لهم يتصرفون فوقها ﴿فِيهَا﴾ يعني في الأرض ﴿فَاكِهَةً﴾ يعني من أنواع الفاكهة وقيل ما يتفكهون به من النعم التي لا تحصى ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ يعني الأوعية التي يكون فيها الثمر لأن ثمر النخل يكون في غلاف وهو الطلع ما لم ينشق وكل شيء ستر شيئاً فهو كم وقيل أكمامها ليفها واقتصر على ذكر النخل من بين سائر الشجر لأنه أعظمها وأكثرها بركة.

وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٣﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴿١٤﴾

﴿والحب﴾ يعني جميع الحبوب التي يقات بها كالحنطة والشعير ونحوهما وإنما أخر ذكر الحب على سبيل الارتقاء إلى الأعلى لأن الحب أنفع من النخل وأعم وجوداً في الأماكن ﴿ذو العصف﴾ قال ابن عباس يعني التبن وعنه أنه ورق الزرع الأخضر إذ قطع رؤوسه ويس وقيل هو ورق كل شيء يخرج منه الحب يبدو صلاحه ولا ورق وهو العصف ثم يكون سوقاً ثم يحدث الله فيه أكماماً ثم يحدث في الأكمام الحب ﴿والريحان﴾ يعني الرزق قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كل ريحان في القرآن فهو رزق وقيل هو الريحان الذي يشم، وقيل: العصف التبن والريحان ثمرته فذكر قوت الناس والأنعام ثم خاطب الجن والإنس فقال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني أيها الثقلان يريد هذه الأشياء المذكورة وكرر هذه الآية في هذه الصورة في أحد وثلاثين موضعاً تقريراً للنعمة وتأكيداً في التذكير بها، ثم عدد على الخلق آلاءه وفصل بين كل نعمتين بما ينبههم عليها ليفهمهم النعم ويقررهم بها كقول الرجل لمن

﴿والأرض وضعها للأنام﴾، للخلق الذين بثهم فيها.

﴿فيها فاكهة﴾، يعني أنواع الفواكه، قال ابن كيسان: ما يتفكهون به من النعم التي لا تحصى، ﴿والنخل ذات الأكمام﴾ الأوعية التي يكون فيها الثمر لأن ثمر النخل يكون في غلاف ما لم ينشق، واحداً كم، وكل ما ستر شيئاً فهو كم، وكمة، ومنه كم القميص، ويقال للقلنسوة كمة، قال الضحاك: ذات الأكمام أي ذات الغلف. وقال الحسن: أكمامها ليفها. وقال ابن زيد: هو الطلع قبل أن ينفق.

﴿والحب ذو العصف﴾، أراد بالحب جميع الحبوب التي يقات بها. قال مجاهد: هو ورق الزرع. قال ابن كيسان: ﴿العصف﴾ تحرث في الأرض والعصف ورق كل شيء يخرج منه الحب، يبدو أولاً ورقاً وهو العصف ثم يكون سوقاً ثم يحدث الله فيه أكماماً ثم يحدث من الأكمام الحب. وقال ابن عباس في رواية الوالي: هو التبن. وهو قول الضحاك وقتادة. وقال عطية عنه: هو ورق الزرع الأخضر إذا قطع رؤوسه ويس، نظيره: ﴿كعصفٍ مأكول﴾ [الفيل: ٥]. ﴿والريحان﴾، هو الرزق في قول الأكثرين، قال ابن عباس: كل ريحان في القرآن فهو رزق. قال الحسن وابن زيد هو ريحانكم الذي يشم، قال الضحاك: العصف هو التبن والريحان ثمرته، وقراءة العامة: ﴿والحب ذو العصف والريحان﴾، كلها مرفوعات بالرد على الفاكهة، وقرأ ابن عامر ﴿والحب ذو العصف والريحان﴾ بنصب الياء والنون وذو بالألف على معنى: خلق الإنسان وخلق هذه الأشياء، وقرأ حمزة والكسائي ﴿والريحان﴾ بالجر عطفاً على العصف فذكر قوت الناس والأنعام ثم خاطب الجن والإنس.

فقال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، أيها الثقلان يريد من هذه الأشياء المذكورة وكرر هذه الآية في هذه السورة تقريراً للنعمة وتأكيداً في التذكير بها على عادة العرب في الإبلاغ والإشباع، يعدد على الخلق آلاءه ويفصل

أحسن إليه وتابع إليه بالأيدى وهو ينكرها ويكفرها ألم تكن فقيراً فأغنيتك أفتنكر هذا؟ ألم تكن عرياناً فكسوتك أفتنكر هذا؟ ألم تكن حاملاً فعززتك أفتنكر هذا؟ ومثل هذا الكلام شائع في كلام العرب حسن تقريراً وذلك لأن الله تعالى ذكر في هذه السورة ما يدل على وحدانيته من خلق الإنسان وتعليمه البيان وخلق الشمس والقمر والسماء والأرض إلى غير ذلك مما أنعم به على خلقه وخاطب الجن والإنس فقال فبأي آلاء ربكما تكذبان من الأشياء المذكورة لأنها كلها منعم بها عليكم. عن جابر رضي الله تعالى عنه قال «خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقراً عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا فقال لقد قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن مردوداً منكم كنت كلما أتيت على قوله فبأي آلاء ربكما تكذبان قالوا لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب وفي رواية غيره «كانوا أحسن منكم رداً وفيه ولا بشيء» قوله تعالى: ﴿خلق الإنسان من صلصال﴾ يعني من طين يابس له صلصلة وهو الصوت منه إذا نقر ﴿كالفخار﴾ يعني الطين المطبوخ بالنار وهو الخزف.

فإن قلت قد اختلفت العبارات في صفة خلق الإنسان الذي هو آدم فقال تعالى من تراب وقال من حمأ مسنون وقال من طين لازب وقال من ماء مهين وقال هنا من صلصال كالفخار قلت ليس في هذه العبارات اختلاف بل المعنى متفق وذلك أن الله تعالى خلقه أولاً من تراب ثم جعله طيناً لازباً لما اختلط بالماء ثم حمأ مسنوناً وهو الطين الأسود الممتن فلما ييس صار صلصالاً كالفخار ﴿وخلق الجن﴾ وهو أبو الجن. وقيل هو إبليس ﴿من مارج من نار﴾ يعني الصافي من لهب النار الذي لا دخان فيه، وقيل هو ما اختلط ببعضه ببعض من اللهب الأحمر والأصفر والأخضر الذي يعلو النار إذا أوقدت.

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ يَنْتَهِمَا بَرَزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾

﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان رب المشرقين﴾ يعني مشرق الصيف وهو غاية ارتفاع الشمس ومشرق الشتاء وهو غاية انحطاط الشمس. ﴿ورب المغربين﴾ يعني مغرب الصيف ومغرب الشتاء، وقيل يعني مشرق الشمس ومشرق

بين كل نعمتين بما ينبتهم عليها، كقول الرجل لمن أحسن إليه وتابع عليه بالأيدى وهو ينكرها ويكفرها: ألم تكن فقيراً فأغنيتك أفتنكر هذا؟ ألم تكن عرياناً فكسوتك أفتنكر هذا؟ ألم تك خاملاً فعززتك أفتنكر هذا؟ ومثل هذا التكرار شائع في كلام العرب حسن تقريراً، وقد خاطب بلفظ التثنية على عادة العرب مخاطب الواحد بلفظ التثنية كقوله تعالى: ﴿ألقيا في جهنم﴾ [ق: ٢٤]، وروى عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال قرأ علينا رسول الله ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها، ثم قال: «ما لي أراكم سكوتاً للجن كانوا أحسن منكم رداً ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة فبأي آلاء ربكما تكذبان إلا قالوا ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد».

﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار﴾.

﴿وخلق الجن﴾، وهو أبو الجن وقال الضحاك: هو إبليس، ﴿من مارج من نار﴾، وهو الصافي من لهب النار الذي لا دخان فيه. قال مجاهد: وهو ما اختلط ببعضه ببعض من اللهب الأحمر والأصفر والأخضر الذي يعلو النار إذا أوقدت، من قولهم مرج أمر القوم إذا اختلط.

﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ * رب المشرقين، مشرق الصيف ومشرق الشتاء، ﴿ورب المغربين﴾، مغرب الصيف ومغرب الشتاء.

القمر ومغرب الشمس ومغرب القمر ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان مرج البحرين﴾ يعني أرسل البحرين العذب والملح متجاورين متلاقين لا فصل بين المائين لأن من شأنهما الاختلاط وهو قوله: ﴿يلتقيان﴾ لكن الله تعالى منعهما عما في طبعهما بالبرزخ وهو قوله: ﴿بينهما برزخ﴾ أي حاجز من قدرة الله ﴿لا يبغيان﴾ أي لا يبغي أحدهما على صاحبه وقيل لا يختلطان ولا يتغيران وقيل لا يطغيان على الناس بالغرق وقيل مرج البحرين بحر الروم وبحر الهند وأنتم الحاجز بينهما وقيل بحر فارس والروم بينهما برزخ يعني الجزائر وقيل بحر السماء وبحر الأرض يلتقيان في كل عام ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان يخرج منهما﴾ قيل إنما يخرج من البحر الملح دون العذب فهو كقوله ﴿وجعل القمر فيهن نورا﴾ وقيل أراد يخرج من أحدهما فحذف المضاف وقيل لما التقى البحرين فصارا كالشيء الواحد جاز أن يقال يخرج منهما كما يقال يخرج من البحر ولا يخرج من جميع البحر ولكن من بعضه وقيل يخرج من السماء وماء البحر قيل إذا أمطرت السماء تفتح الأصداف أفواها فحيثما وقعت قطرة صارت لؤلؤة على قدر القطرة، وقوله تعالى: ﴿اللؤلؤ﴾ قيل هو ما عظم من الدر ﴿والمرجان﴾ صغاره وقيل بعكس ذلك وقيل المرجان هو الخرز الأحمر ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان وله الجوار﴾ يعني السفن الكبار ﴿المنشآت﴾ أي المرفوعات التي يرفع خشبها بعضه على بعض وقيل هي ما رفع قلعها من السفن أما ما لم يرفع قلعها فليست من المنشآت وقيل معنى المنشآت المحدثات المخلوقات المسخرات ﴿في البحر كالأعلام﴾ أي كالجبال جمع علم وهو الجبل الطويل شبه السفن في البحر بالجبل في البر ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ قوله عز وجل:

﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾.

﴿مرج البحرين﴾، العذب والمالح أرسلهما وخلهما ﴿يلتقيان﴾.

﴿بينهما برزخ﴾، حاجز من قدرة الله تعالى، ﴿لا يبغيان﴾، لا يختطفان ولا يتغيران ولا يبغي أحدهما على صاحبه. وقال قتادة: لا يطغيان على الناس بالغرق. وقال الحسن مرج البحرين يعني بحر الروم وبحر الهند، وأنتم الحاجز بينهما. وعن قتادة أيضاً: بحر فارس وبحر الروم بينهما برزخ يعني الجزائر. وقال مجاهد والضحاك: بحر السماء وبحر الأرض يلتقيان كل عام.

﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾.

﴿يخرج منهما﴾، قرأ أهل المدينة والبصرة ﴿يخرج﴾ بضم الياء وفتح الراء، وقرأ الآخرون بفتح الياء وضم الراء، ﴿اللؤلؤ والمرجان﴾، وإنما يخرج من المالح دون العذب، وهذا جائز في كلام العرب أن يذكر شيئاً ثم يخص أحدهما بفعل كما قال عز وجل: ﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم﴾ [الأنعام: ١٣٠] وكان الرسل من الإنس دون الجن وقال بعضهم يخرج من ماء السماء وماء البحر. قال ابن جريج: إذا أمطرت السماء فتحت الأصداف أفواها فحيثما وقعت قطرة كانت لؤلؤة واللؤلؤة ما عظم من الدر، والمرجان صغارها. وقال مقاتل ومجاهد على الضد من هذا. وقيل: المرجان الخرز الأحمر. وقال عطاء الخراساني: هو البسد.

﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ وله الجوار، السفن الكبار، ﴿المنشآت﴾، وقرأ حمزة وأبو بكر المنشآت بكسر الشين أي المنشآت السير يعني اللاتي ابتدأن وأنشأن السير، وقرأ الآخرون بفتح الشين أي المرفوعات وهي التي رفع خشبها بعضها على بعض. وقيل: هي ما رفع قلعها من السفن وأما ما لم يرفع قلعها فليس من المنشآت. وقيل: المخلوقات المسخرات، ﴿في البحر كالأعلام﴾، كالجبال جمع علم وهو الجبل الطويل شبه السفن في البحر وبالجبال في البر.

﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾.

كُلٌّ مِّنْ عَلَيْهَا فَإِنَّ رَبَّيَّ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَإِنِّي آءِآءُ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْتَكْمِلُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَإِنِّي آءِآءُ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾

﴿كل من عليها﴾ أي على الأرض من حيوان وإنما ذكره بلفظة من تغليبا للعقلاء ﴿فإن﴾ أي هالك لأن وجود الإنسان في الدنيا عرض فهو غير باق وما ليس بباق فهو فان ففيه الحث على العبادة وصرف الزمن الي السير إلى الطاعة ﴿ويبقى وجه ربك﴾ يعني ذاته والوجه يعبر به عن الجملة.

وفي المخاطب وجهان أحدهما أنه كل واحد والمعنى ويبقى وجه ربك أيها الإنسان السامع.

والوجه الثاني: أنه يحتمل أن الخطاب مع النبي ﷺ ﴿ذو الجلال﴾ أي ذو العظمة والكبرياء ومعناه الذي يجله الموحدون عن التشبيه بخلقه ﴿والإكرام﴾ أي المكرم لأنبيائه وأوليائه وجميع خلقه بلطفه وإحسانه إليهم مع جلاله وعظمته ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ «ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام» أخرجه الترمذي وقال الحاكم حديث صحيح الإسناد ومعنى ألظوا الزموا هذه الدعوة وأكثروا منها.

قوله تعالى: ﴿يسأله من في السموات والأرض﴾ يعني من ملك وإنس وجن فلا يستغني عن فضله أهل السموات والأرض قال ابن عباس فأهل السموات يسألونه المغفرة وأهل الأرض يسألونه الرزق والمغفرة وقيل كل أحد يسأل الرحمة وما يحتاج إليه في دينه أو دنياه وفيه إشارة إلى كمال قدرة الله تعالى وأن كل مخلوق وإن جل وعظم فهو عاجز عن تحصيل ما يحتاج إليه مفتقر إلى الله تعالى: ﴿كل يوم هو في شأن﴾ قيل نزلت ردأ على اليهود حيث قالوا إن الله لا يقضي يوم السبت شيئا قال المفسرون من شأنه أنه يحيي ويميت ويرزق ويعز قوماً ويذل قوماً ويشفي مريضاً ويمرض صحيحاً ويفك عانياً ويفرج عن مكروب ويجيب داعياً ويعطي سائلاً ويغفر ذنباً إلا ما لا يحصى من أفعاله وإحداثه في خلقه ما يشاء سبحانه وتعالى وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن عباس قال «إن مما خلق الله عز وجل لوحاً من درة بيضاء دفتاه من ياقوتة حمراء قلمه نور وكتابه نور ينظر الله فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة يخلق ويرزق ويحيي ويميت

﴿كُلٌّ مِّنْ عَلَيْهَا﴾، أي على الأرض من حيوان فإنه، ﴿فَإِنَّ﴾، هالك.

﴿ويبقى وجه ربك ذو الجلال﴾، ذو العظمة والكبرياء، ﴿والإكرام﴾، أي مكرم أنبيائه وأوليائه بلطفه مع جلاله وعظمته.

﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ يسأله من في السموات والأرض، من ملك وإنس وجن. وقال قتادة: معناه لا يستغني عنه أهل السماء والأرض. قال ابن عباس: فأهل السموات يسألونه المغفرة وأهل الأرض يسألونه الرزق والتوبة والمغفرة. وقال مقاتل: يسأله أهل الأرض الرزق والمغفرة، وتسأله الملائكة أيضاً لهم الرزق والمغفرة. ﴿كل يوم هو في شأن﴾، قال مقاتل: نزلت في اليهود حين قالوا إن الله لا يقضي يوم السبت شيئاً. قال المفسرون: من شأنه أن يحيي ويميت ويرزق ويعز قوماً ويذل قوماً ويشفي مريضاً ويفك عانياً ويفرج مكروباً ويجيب داعياً ويعطي سائلاً ويغفر ذنباً إلى ما لا يحصى من أفعاله وإحداثه في خلقه ما يشاء. أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أنا أبو بكر محمد بن أحمد بن عبدوس المزكي إملاءً أنا أبو حامد أحمد بن محمد بن يحيى البزاز أنا يحيى بن الربيع المكي أنا سفيان بن عيينة أنا أبو حمزة اليماني عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: إن مما خلق الله عز وجل لوحاً من درة بيضاء دفتاه ياقوتة حمراء قلمه نور وكتابه نور ينظر الله عز وجل فيه كل يوم ثلاث مائة وستين نظرة، يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء،

ويعز ويذل ويفعل ما يشاء فذلك قوله تعالى: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ قال ابن عيينة الدهر كله عند الله يومان أحدهما مدة أيام الدنيا والآخر يوم القيامة والشأن الذي هو فيه اليوم الذي هو مدة أيام الدنيا الاختبار بالأمر والنهي والإحياء والإماتة والإعطاء والمنع وشأن يوم القيامة الجزاء والحساب والثواب والعقاب، وقال الحسين بن الفضل هو سوق المقادير إلى المواقيت ومعناه إن الله عز وجل كتب ما يكون في كل يوم وقدر ما هو كائن فإذا جاء ذلك الوقت تعلقت إرادته بالفعل فيوجده في ذلك الوقت وقال أبو سليمان الداراني في هذه الآية له في كل يوم إلى العبيد بر جديد وقيل شأنه تعالى أنه يخرج في كل يوم وليلة ثلاثة عساكر عسكراً من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات وعسكراً من الأرحام إلى الدنيا وعسكراً من الدنيا إلى القبور ثم يرتحلون جميعاً إلى الله تعالى: ﴿فَبَآئِيَ آلَاءُ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾ قيل هو وعيد من الله تعالى للخلق بالمحاسبة وليس هو فراغ عن شغل لأن الله تعالى لا يشغله شأن عن شأن فهو كقول القائل لمن يريد تهديده لأتفرغن لك وما به شغل وهذا قول ابن عباس وإنما حسن ذكر هذا الفراغ لسبق ذكر الشأن وقيل معناه سنقصدكم بعد الترك والإمهال ونأخذ في أمركم فهو كقول للقائل الذي لا شغل له قد فرغت لك وقيل معناه أن الله وعد أهل التقوى وأوعد أهل الفجور فقال سنفرغ لكم مما وعدناكم وأخبرناكم فنحاسبكم ونجازيكم فننجز لكم ما وعدناكم فتم ذلك ونفرغ منه فهو على طريق المثل وأراد بالثقلين الإنس والجن سمياً ثقلين لأنهما ثقلاً على الأرض أحياء وأمواتاً، وقيل كل شيء له قدر ووزن ينافس فيه فهو ثقل ومنه قول النبي ﷺ «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي» فجعلهما ثقلين إعظاماً لقدرهما وقال جعفر بن محمد الصادق سمي الإنس والجن ثقلين لأنهما مثقلان بالذنوب.

فذلك قوله: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾. قال سفيان بن عيينة: الدهر كله عند الله يومان أحدهما مدة أيام الدنيا والآخر يوم القيامة، فالشأن الذي هو فيه اليوم الذي هو مدة الدنيا الاختبار بالأمر والنهي والإحياء والإماتة والإعطاء والمنع، وشأن يوم القيامة الجزاء والحساب والثواب والعقاب. وقيل: شأنه جلّ ذكره أنه يخرج في كل يوم وليلة ثلاثة عساكر، عسكراً من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات، وعسكراً من الأرحام إلى الدنيا، وعسكراً من الدنيا إلى القبور، ثم يرتحلون جميعاً إلى الله عز وجل. وقال الحسين بن الفضل: هو سوق المقادير إلى المواقيت. وقال أبو سليمان الداراني في هذه الآية: كل يوم له إلى العبيد بر جديد.

﴿فَبَآئِيَ آلَاءُ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ * سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾، قرأ حمزة والكسائي: سيفرغ بالياء لقوله: ﴿يسأله من في السموات والأرض﴾، ﴿ويبقى وجه ربك﴾، ﴿وله الجوار﴾، فاتبع الخبر، وقرأ الآخرون بالنون، وليس المراد منه الفراغ عن شغل لأن الله تعالى لا يشغله شأن عن شأن ولكنه وعيد من الله تعالى للخلق بالمحاسبة، كقول القائل لأتفرغن لك، وما به شغل، وهذا قول ابن عباس والضحاك، وإنما حسن هذا الفراغ لسبق ذكر الشأن. وقال آخرون: معناه سنقصدكم بعد الترك والإمهال ونأخذ في أمركم، كقول القائل الذي لا شغل له قد تفرغت لك. وقال بعضهم: إن الله وعد أهل التقوى وأوعد أهل الفجور، ثم قال سنفرغ لكم مما وعدناكم، وأخبرناكم فنحاسبكم ونجازيكم وننجز لكم ما وعدناكم، فتم ذلك ونفرغ منه، وإلى هذا ذهب الحسن ومقاتل. ﴿أيها الثقلان﴾، أي الجن والإنس سمياً ثقلين لأنهما ثقلاً على الأرض أحياء وأمواتاً، قال الله تعالى: ﴿وأخرجت الأرض أثقالها﴾ [الزلزلة: ٢]، وقال أهل البعاني: كل شيء له قدر ووزن ينافس فيه ثقل، قال النبي ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي» فجعلهما ثقلين إعظاماً لقدرهما، وقال جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام: سمي الجن والإنس ثقلين لأنهما مثقلان بالذنوب.

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَمْشِرَ الْجِنَّ وَالْإِنسُ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
فَأَنْفُذُوا لَا تَنْفُذُوا إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِئَ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٍ فَلَا
تَنْصَرِفَانِ ﴿٣٥﴾

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا أي تخرجوا ﴿من أقطار السموات والأرض﴾ أي جوانبهما وأطرافهما ﴿فأنفذوا﴾ أي فاخرجوا والمعنى إن استطعتم أن تهربوا من الموت بالخروج من أقطار السموات والأرض فاهربوا واخرجوا منها فحيثما كنتم يدرككم الموت وقيل يقال لهم هذا يوم القيامة والمعنى إن استطعتم أن تخرجوا من أقطار السموات والأرض فتعجزوا ربكم حتى لا يقدر عليكم فاخرجوا وقيل معناه إن استطعتم أن تهربوا من قضائي وتخرجوا من ملكي ومن سمائي وأرضي فافعلوا وقدم الجن على الإنس في هذه الآية لأنهم أقدر على النفوذ والهرب من الإنس وأقوى على ذلك ثم قال تعالى: ﴿لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ يعني لا تقدرون على النفوذ إلا بقوة وقهر وغلبة وأني لكم ذلك لأنكم حيثما توجهتم كنتم في ملكي وسلطاني وقال ابن عباس معناه إن استطعتم أن تعلموا ما في السموات والأرض فاعلموا ولن تعلموه إلا بسُلطان أي بينة من الله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وفي الخبر ﴿يحاط على الخلق بالملائكة وبلسان من نار ثم ينادي يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض﴾ الآية فذلك قوله تعالى: ﴿يرسل عليكم شواطئ من نار﴾ قال أكثر المفسرين هو اللهب الذي لا دخان فيه وقيل هو اللهب الأخضر المنقطع من النار ﴿ونحاس﴾ وقيل هو الدخان وهو رواية عن ابن

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا أي تجوزوا وتخرجوا، ﴿من أقطار السموات والأرض﴾ أي من جوانبهما وأطرافهما، ﴿فأنفذوا﴾، معناه إن استطعتم أن تهربوا من الموت بالخروج من أقطار السموات والأرض. فاهربوا واخرجوا منها، والمعنى حيث ما كنتم أدرككم الموت، كما قال جل ذكره: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ﴾ [النساء: ٧٨]، وقيل: يقال لهم هذا يوم القيامة إن استطعتم أن تجوزوا أطراف السموات والأرض فتعجزوا ربكم حتى لا يقدر عليكم فجوزوا، ﴿لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾، أي: بملك، وقيل: بحجة، والسلطان: القوة التي يتسلط بها على الأمر، فالملك والقدرة والحجة كلها سلطان، يريد حيثما توجهتم كنتم في ملكي وسلطاني. وروى عن ابن عباس قال: معناه إن استطعتم أن تعلموا ما في السموات والأرض فاعلموا ولن تعلموه إلا بسُلطان أي بينة من الله عز وجل. وقيل قوله: ﴿لَا بِسُلْطَانٍ أَيَّ إِلَى سُلْطَانٍ كَقَوْلِهِ:﴾ ﴿وقد أحسن بي﴾ [يوسف: ١٠٠] أي إليّ.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، وفي الخبر: يُحاط على الخلق بالملائكة وبلسان من نار ثم ينادون ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا﴾، الآية.

فذلك قوله عز وجل: ﴿يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِئَ مِنْ نَارٍ﴾، قرأ ابن كثير بكسر الشين والآخرين بضمها، وهما لغتان مثل صوار من البقر وصوار وهو اللهب الذي لا دخان فيه هذا قول أكثر المفسرين. وقال مجاهد: هو اللهب الأخضر المنقطع من النار، ﴿ونحاس﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمر ونحاس بجر السين عطفاً على النار، وقرأ الباقر برفعها عطفاً على الشواطئ، قال سعيد بن جبيرة والكلبي: النحاس الدخان، وهو رواية عطاء عن ابن عباس، ومعنى الرفع يرسل عليكم شواطئ، ويرسل نحاس هذا مرة وهذا مرة، ويجوز أن يرسل معاً من غير أن يمتزج أحدهما بالآخر، ومن جر بالعطف على النار يكون ضعيفاً لأنه يكون شواطئ من نحاس فيجوز أن يكون تقديره شواطئ من نار وشيء من

عباس وقيل هو الصفر المذاب يصب على رؤوسهم وهو الرواية الثانية عن ابن عباس وقال ابن مسعود النحاس المهمل وقيل يرسل عليهما هذا مرة وهذا مرة وقيل يجوز أن يرسل معاً من غير أن يمتزج أحدهما بالآخر ﴿فلا تتصران﴾ أي فلا تمتنعان من الله ولا يكون لكم ناصر منه .

فَبَآئِيَ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبَآئِيَ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ ﴿٣٩﴾ فَبَآئِيَ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِمَتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾

﴿فَبَآئِيَ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي انفرجت فصارت أبواباً لنزول الملائكة وقيل المراد منه خراب السماء وذلك لما قال كل من عليها فان إشارة إلى أهل الأرض ذكر في هذه الآية بيان حال سكان السماء وقيل فيه تهويل وتعظيم للأمر لأن فيه إشارة إلى ما هو أعظم من إرسال الشواظ على الإنس والجن وهو تشقق السماء وذوبانها وهو قوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ جمع دهن شبه تلون السماء عند انشقاقها بتلون الفرس الورد وهو الأبيض الذي يضرب إلى الحمرة وقيل إن السماء تتلون يومئذ ألواناً كاللوان الفرس الورد يكون في الربيع أصفر وفي أول الشتاء أحمر فإذا اشتد البرد صار أغبر فشبه السماء في تلونها عند انشقاقها بهذا الفرس في تلونه وقيل كالدهان أي كاللوان الذي يتلون في الساعة ألواناً وقيل تصير السماء كالدهن الذائب وذلك حين يصلها حر جهنم وقيل كالدهان أي كاللوان الأحمر ﴿فَبَآئِيَ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴿قيل لا يسألون عن ذنوبهم لتعلم من جهتهم لأن الله تعالى علمها منهم وكتبها الحفظة عليهم وهذه رواية عن ابن عباس وعنه لا تسأل الملائكة المجرمين لأنهم يعرفون بسيماهم دليله ما بعده وعن ابن عباس أيضاً في الجمع بين هذه الآية وبين قوله

نحاس، على أنه حكى أن الشواظ لا يكون من النار والدخان جميعاً، قال مجاهد وقتادة: النحاس هو الصفر المذاب يُصَبَّ على رؤوسهم، وهو رواية العوفي عن ابن عباس. وقال عبد الله بن مسعود النحاس هو المهمل. ﴿فلا تتصران﴾، أي فلا تمتنعان من عذاب الله ولا يكون لكم ناصر منه.

﴿فَبَآئِيَ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ﴾، انفرجت، ﴿السَّمَاءُ﴾، فصارت أبواباً لنزول الملائكة ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾، أي كلون الفرس الورد، وهو الأبيض الذي يضرب إلى الحمرة والصفرة، قال قتادة: إنها اليوم خضراء ويكون لها يومئذ لون آخر يضرب إلى الحمرة. وقيل: إنها تتلون ألواناً يومئذ كلون الفرس الورد يكون في الربيع أصفر وفي أول الشتاء أحمر فإذا اشتد الشتاء كان أغبر فشبه السماء في تلونها عند انشقاقها بهذا الفرس في تلونه، ﴿كَالدِّهَانِ﴾، جمع دهن شبه تلون السماء بتلون الورد من الخيل وشبه الورد في اختلاف ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه، وهو قول الضحاك ومجاهد وقتادة والربيع، وقال عطاء بن أبي رباح: كالدهان كعصير الزيت يتلون في الساعة ألواناً. وقال مقاتل: كدهن الورد الصافي. وقال ابن جريج تصير السماء كالدهن الذائب وذلك حين يصيبها حر جهنم. وقال الكلبي: كالدهان أي كاللوان الأحمر وجمعه أدهنة ودهن.

﴿فَبَآئِيَ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴿قال الحسن وقتادة: لا يسألون عن ذنوبهم لتعلم من جهتهم لأن الله عز وجل علمها منهم، وكتب الملائكة عليهم وهي رواية العوفي عن ابن عباس. وعنه أيضاً لا تسأل الملائكة المجرمين لأنهم يعرفونهم بسيماهم دليله ما بعده وهذا قول مجاهد. وعن ابن عباس في الجمع بين هذه الآية وبين قوله: ﴿فَوَرَبُّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢]، قال: لا يسألهم هل علمتم

تعالى: ﴿فَورِكَ لِنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قال لا يسألهم هل عملتم كذا وكذا لأنه أعلم بذلك منهم ولكنه يسألهم لم عملتم كذا وكذا وقيل إنها مواطن فيسأل في بعضها ولا يسأل في بعضها وعن ابن عباس أيضاً قال لا يسألون سؤال شفقة ورحمة إنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ وقيل لا يسأل غير المجرم عن ذنب المجرم ﴿فَبَأْيَ آلاءِ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ﴾ يعرف المجرمون بسيماهم، يعني بسواد وجوههم وزرقة عيونهم ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ قيل تجعل الأقدام مضمومة إلى النواصي من خلف ظهره وقيل تجعل رؤوسهم على ركبهم ونواصيهم في أصابع أرجلهم مربوطة وقيل يسحب بعضهم بالنواصي وبعضهم بالأقدام ثم يلقون في النار.

فَبَأْيَ آلاءِ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٤٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ ﴿٤٤﴾ فَبَأْيَ آلاءِ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿٤٦﴾

﴿فَبَأْيَ آلاءِ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ﴾ أي يقال لهم هذه جهنم ثم يلقون فيها ﴿التي يكذب بها المجرمون﴾ يعني المشركين ﴿يطوفون بينها وبين حميم آن﴾ يعني قد انتهى حره أي أنهم يسعون بين الحميم وبين الجحيم فإذا استغاثوا من النار جعل عذابهم الحميم الأنى الذي قد صار كالمهل وقال كعب الأحبار آن واد من أودية جهنم يجمع فيه صديد أهل النار فينطلق بهم في الأغلال فيغمسون فيه حتى تنخلع أوصالهم ثم يخرجون منه وقد أحدث الله لهم خلقاً جديداً فيلقون في النار فذلك قوله تعالى: ﴿يطوفون بينها وبين حميم آن﴾ ﴿فَبَأْيَ آلاءِ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ﴾ فإن قلت هذه الأمور المذكورة في هذه الآيات من قوله: ﴿كل من عليها فان﴾ إلى هنا ليست نعماً فكيف عقبها بقوله ﴿فَبَأْيَ آلاءِ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ﴾.

كذا وكذا لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يسألهم لم عملتم كذا وكذا؟ وعن عكرمة أنه قال: إنها مواطن يسأل في بعضها ولا يسأل في بعضها. وعن ابن عباس أيضاً لا يسألون سؤال شفقة ورحمة وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ. وقال أبو العالية لا يسأل غير المجرم عن ذنب المجرم.

﴿فَبَأْيَ آلاءِ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ﴾ يعرف المجرمون بسيماهم، وهو سواد الوجوه وزرقة العيون، كما قال جل ذكره: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾.

﴿فَبَأْيَ آلاءِ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ﴾، تجعل الأقدام مضمومة إلى النواصي من خلف ويلقون في النار.

ثم يقال لهم: ﴿هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون﴾، المشركون.

﴿يطوفون بينها وبين حميم آن﴾، قد انتهى حره. قال الزجاج: أنى يأنى فهو آن إذا انتهى في النضج، والمعنى: أنهم يسعون بين الجحيم والحميم فإذا استغاثوا من حر النار جعل عذابهم الحميم الأنى الذي صار كالمهل، وهو قوله: ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال كعب الأحبار: آن واد من أودية جهنم يجتمع فيه صديد أهل النار فينطلق بهم في الأغلال فيغمسون في ذلك الوادي حتى تنخلع أوصالهم ثم يخرجون منه وقد أحدث الله تعالى بهم خلقاً جديداً فيلقون في النار، وذلك قوله: ﴿يطوفون بينها وبين حميم آن﴾.

﴿فَبَأْيَ آلاءِ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ﴾، وكل ما ذكر الله تعالى من قوله: ﴿كل من عليها فان﴾ [الرحمن: ٢٦] إلى ههنا مواعظ وزواجر وتخويف، وكل ذلك نعمة من الله تعالى لأنها تزجر عن المعاصي، ولذلك ختم كل آية بقوله: ﴿فَبَأْيَ آلاءِ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ﴾، ثم ذكر ما أعدّه لمن اتقاه وخافه.

قلت المذكور في هذه الآيات مواعظ وزواجر وتخويف وكل ذلك نعمة من الله تعالى لأنها تزجر العبد عن المعاصي فصارت نعماً فحسن ختم كل آية منها بقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ثم ذكر ما أعدّه لمن اتقاه وخافه من عبادته المؤمنين فقال تعالى: ﴿وَلِمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ يعني مقامه بين يدي ربه للحساب فترك الشهوة والمعصية وقيل قيام ربه عليه يعني اطلاعه عليه وهو الذي يهيم بالمعصية فيذكر الله واطلاعه عليه فيدعها من مخافة الله وقيل لمن راقب الله في السر والعلانية بعمله فما عرض له من محرم تركه من خشيته وما عمل من خير أخلصه الله ولا يحب أن يطلع عليه أحد قيل إن المؤمنين خافوا ذلك المقام فعملوا الله مع الإخلاص ودأبوا الليل والنهار ﴿جَنَّاتٍ﴾ يعني جنة عدن وجنة نعيم وقيل جنة بخوفه ربه وجنة بتركه شهوته.

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة» أخرجه الترمذي قوله أدلج الإدلاج محققاً سير أول الليل ومثقلاً سير آخر الليل والمراد من الإدلاج التشمير والجد والاجتهاد في أول الأمر فإن من سار أول الليل كان جديراً ببلوغ المنزل وروى البغوي بسنده عن أبي ذر «أنه سمع النبي ﷺ يقص على المنبر وهو يقول ولِمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ فَقُلْتُ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ فَقَالَ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ ثُمَّ قَالَ وَلِمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ فَقُلْتُ الثَّانِيَةَ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ ثُمَّ قَالَ وَلِمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ فَقُلْتُ الثَّالِثَةَ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ عَلَى رِغْمِ أَبِي ذَرٍّ».

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ

فقال: ﴿وَلِمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾، أي مقامه بين يدي ربه للحساب فترك المعصية والشهوة. وقيل: قيام ربه عليه بيانه قوله: ﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] وقال إبراهيم النخعي ومجاهد: هو الذي يهيم بالمعصية فيذكر الله فيدعها من مخافة الله. وقوله: ﴿جَنَّاتٍ﴾ قال مقاتل جنة عدن وجنة نعيم. قال محمد بن علي الترمذي: جنة لخوفه ربه وجنة لتركه شهوته. قال الضحاك هذا لمن راقب الله في السر والعلانية بعلمه ما عرض له من محرم تركه من خشية الله وما عمل من خير أفضى به إلى الله لا يحب أن يطلع عليه أحد. وقال قتادة: إن المؤمنين خافوا ذلك المقام فعملوا الله ودأبوا بالليل والنهار، أخبرنا أبو الحسن علي بن القرشي أنا أبو مسلم غالب بن علي الرازي حدثنا أبو بكر محمد بن إبراهيم بن يونس أنا أبو جعفر محمد بن موسى بن عيسى الحلواني أنا محمد بن عبيد الهمداني أنا هاشم بن القاسم عن أبي عقيل هو الثقفى عن يزيد بن شيبان سمعت بكير بن فيروز قال سمعت أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزَلَ أَلَا إِنَّ سَلْعَةَ اللَّهِ الْغَالِيَةَ» أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقى أنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني أنا عبد الله بن عمر الجوهري أنا أحمد بن علي الكشمهيني أنا علي بن حجر أنا إسماعيل بن جعفر عن محمد بن أبي حرملة مولى حويطب ابن عبد العزيز عن عطاء بن يسار عن أبي الدرداء أنه سمع رسول الله ﷺ يقص على المنبر وهو يقول: ﴿وَلِمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾، قلت: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: ﴿وَلِمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾، قلت الثانية: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: ﴿وَلِمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾، قلت في الثالثة: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ قال: «وإن زنى وإن سرق على رِغْمِ أَبِي الدَّرْدَاءِ».

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكْهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴿٥٤﴾ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٥﴾

﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ ثم وصف الجنتين فقال تعالى: ﴿ذواتا أفنان﴾ أي أغصان واحدها فنن وهو الغصن المستقيم طويلاً وقيل ذواتا ظلال وهو ظل الأغصان على الحيطان، وقال ابن عباس ذواتا ألوان يعني ألوان الفواكه وجمع عطاء بين القولين فقال في كل غصن فنون من الفاكهة وقيل ذواتا فضل وسعة على ما سواهما، ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ قال ابن عباس بالكرامة والزيادة لأهل الجنة وقيل تجريان بالماء الزلال إحداهما التسليم والأخرى السلسيل وقيل إحداهما من ماء غير آسن والأخرى من خمر لذة للشاربين ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ أي صنفان ونوعان وقيل معناه إن فيهما من كل ما يتفكه به ضريبن رطباً ويابساً قال ابن عباس ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل إلا أنه حلو ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ متكئين على فرش ﴿جمع فراش﴾ بطائنهما ﴿من استبرق﴾ تحت الظهارة ﴿من استبرق﴾ وهو ما غلظ من الديباج قال ابن مسعود وأبو هريرة هذه البطائن فما ظنكم بالظواهر وقيل لسعيد بن جبيرة البطائن من استبرق فما الظواهر؟ قال هي مما قال الله تعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾، وعنه أيضاً قال بطائنهما من استبرق وظواهرها من نور جامد وقال ابن عباس وصف البطائن وترك الظواهر لأنه ليس في الأرض أحد يعرف ما الظواهر وقيل ظواهرها من سندس وهو الديباج الرقيق الناعم وهذا يدل على نهاية شرف هذه الفرش لأنه ذكر أن بطائنهما من الإستبرق ولا بد أن تكون الظواهر خيراً من البطائن فهو مما لا يعلمه البشر، ﴿وجنى الجنتين دان﴾ يعني أن ثمرهما

﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ ثم وصف الجنتين.

فقال: ﴿ذواتا أفنان﴾، أغصان واحدها فنن، وهو الغصن المستقيم طويلاً. وهذا قول مجاهد وعكرمة والكلبي، وقال عكرمة ظل الأغصان على الحيطان. قال الحسن: ذواتا ظلال. قال ابن عباس: ألوان. قال سعيد بن جبيرة والضحاك: ألوان الفواكه واحدها فنن من قولهم أفنن فلان في حديثه إذا أخذ في فنون منه وضروب. وجمع عطاء بين القولين فقال: في كل غصن فنون من الفاكهة. وقال قتادة: ذواتا فضل وسعة على ما سواهما. ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ فيهما عينان تجريان، قال ابن عباس: بالكرامة والزيادة على أهل الجنة. قال الحسن: تجريان بالماء الزلال إحداهما التسليم والأخرى السلسيل. وقال عطاء إحداهما من ماء غير آسن والأخرى من خمر لذة للشاربين.

﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ فيهما من كل فاكهة زوجان، صنفان ونوعان، قيل: معناه إن فيهما من كل ما يتفكه به ضريبن رطباً ويابساً. قال ابن عباس ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة ألا وهي في الجنة حتى الحنظل إلا أنه حلو.

﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ متكئين على فرش، جمع فراش، ﴿بطائنهما﴾، جمع بطانة وهي التي تحت الظهارة. وقال الزجاج: وهي مما يلي الأرض. ﴿من استبرق﴾، وهو ما غلظ من الديباج. قال ابن مسعود وأبو هريرة: هذه البطائن فما ظنكم بالظواهر؟ وقيل لسعيد بن جبيرة: البطائن من إستبرق والظواهر؟ قال: هذا مما قال الله عز وجل: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ [السجدة: ١٧]، وعنه أيضاً قال: بطائنهما من إستبرق فظواهرها من نور جامد. وقال ابن عباس: وصف البطائن وترك الظواهر لأنه ليس في الأرض أحد يعرف ما الظواهر.

قريب يناله القائم والقاعد والنائم وهذا بخلاف ثمر الدنيا فإنها لا تنال إلا بكدّ وتعب قال ابن عباس تدنو الشجرة حتى يجنيها ولي الله إن شاء قائماً وإن شاء قاعداً وقيل لا يرد أيديهم عنها بعد ولا شوك.

فَبَآئِيَ آءِ آلِهِ رَبَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْغُرَفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْفُسُ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَبَآئِيَ آءِ آلِهِ رَبَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٥٧﴾ كَانَتْ هُنَّ آيَاتُكَ وَالْمَرْحَانُ ﴿٥٨﴾

﴿فَبَآئِيَ آءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ فِيهِنَّ﴾ فَإِنْ قُلْتَ الضَّمِيرُ إِلَى مَاذَا يَعُودُ؟

قلت إلى الجنتين وإنما جمع بقوله فيهن لاشتغال الجنتين على مساكن وقصور ومجالس ﴿قاصرات الطرف﴾ أي غاضات الأعين قصرن أطرافهن على أزواجهن فلا ينظرن إلى غيرهم ولا يردن سواهم قيل تقول الزوجة لزوجها وعزة ربي ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك فالحمد لله الذي جعلك زوجي وجعلني زوجتك ﴿لم يطمئن﴾ أي لم يجامعهن ولم يفرعهن والمعنى لم يدمهن بالجماع وقيل معناه لم يمسهن ومنه قول الفرزدق:

خَرَجْنَ إِلَيَّ لَمْ يَطْمِئِنَّ قَبْلَ وَهْنِ أَصْحَ مِنْ بِيضِ النِّعَامِ

أي لم يمسسني والمعنى لم يطأهن ولم يغشهن ﴿أنس قبلهم﴾ أي قبل أزواجهن من أهل الجنة، ﴿ولا جان﴾ قيل إنما نفى الجن لأن لهم أزواجاً في الجنة منهم وفي الآية دليل على أن الجني يغشى كما يغشى الإنسي وسئل ضمرة بن حبيب هل للجن ثواب؟ فقال نعم وقرأ هذه الآية ثم قال الإنسيات للإنس والجنيات للجن وقال مجاهد في هذه الآية إذا جامع ولم يسم انطوى الجني على إحليله فجامع معه واختلف في هؤلاء اللواتي لم يطمئن فقيل هن الحور العين لأنهن خلقن في الجنة فلم يمسهن أحد قبل أزواجهن وقيل إنهن من نساء الدنيا أنشئن خلقاً آخر أبكاراً كما وصفهن.

لم يمسهن منذ أنشئن خلقاً آخر أحد وقيل هن الآدميات اللاتي متن أبكاراً ومعنى الآية المبالغة في نفى الطمث

﴿وجنى الجنتين دان﴾، الجنى ما يجتنى من الثمار، يريد ثمرهما دان قريب يناله القائم والقاعد والنائم. قال ابن عباس: تدنو الشجرة حتى يجتنيها ولي الله إن شاء قائماً وإن شاء قاعداً. قال قتادة: لا يرد أيديهم عنها بعد ولا شوك.

﴿فَبَآئِيَ آءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرَفِ ﴿﴾ غَاضَاتُ الْأَعْيُنِ، قَصَرْنَ طَرَفَهُنَّ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ لَا يَنْظُرْنَ إِلَى غَيْرِهِمْ وَلَا يَرْدُنَّ غَيْرَهُمْ. قال ابن زيد: تقول لزوجها وعزة ربي ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك، فالحمد لله الذي جعلك زوجي وجعلني زوجتك. ﴿لم يطمئن﴾ لم يجامعهن ولم يفرعهن، وأصله من الدم قيل للحائض طامث، كانه قال لم يدمهن بالجماع، ﴿أنس قبلهم ولا جان﴾، قال الزجاج: فيه دليل على أن الجني يغشى كما يغشى الإنسي. قال مجاهد: إذا جامع الرجل ولم يسم انطوى الجان على إحليله فجامع معه. قال مقاتل في قوله: ﴿لم يطمئن أنس قبلهم ولا جان﴾: لأنهن خلقهن في الجنة. فعلى قوله هؤلاء من حور الجنة. وقال الشعبي: هن من نساء الدنيا لم يمسسن منذ أنشئن، وهو قول الكلبي يعني لم يجامعهن في هذا الخلق الذي أنشئن فيه إنس ولا جان. وقرأ طلحة مصرف: ﴿لا يطمئن﴾ بضم الميم فيهما، وقرأ الكسائي إحداهما بالضم فإن كسر الأولى ضمّ الثانية وإن ضمّ الأولى كسر الثانية، لما روى أبو إسحاق السبيعي قال: كنت أصلي خلف أصحاب علي رضي الله عنه فأسمعهم يقرؤون لم يطمئن بالرفع، وكنت أصلي خلف أصحاب عبد الله بن مسعود فأسمعهم يقرؤون بكسر الميم، وكان الكسائي يضمّ إحداهما ويكسر الأخرى لثلاثي يخرج عن هذين الأثرين.

عنهن لأن ذلك أقر لأعين أزواجهن إذا لم يغشهن أحد غيرهم ﴿فَبَآئِيَ آلَاءُ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ أراد صفاء الياقوت في بياض المرجان وهو صغار اللؤلؤ وأشدّه بياضاً وقيل شبه لونهن ببياض اللؤلؤ مع حمرة الياقوت لأن أحسن الألوان البياض المشوب بحمرة والأصح أنه شبههن بالياقوت لصفاته لأنه حجر لو أدخلت فيه سلكاً ثم استصفيته لرأيت السلك من ظاهره لصفاته وقال عمرو بن ميمون إن المرأة من الحور العين لتلبس سبعين حلة فيرى مخ ساقها من وراء الحلل كما يرى الشراب الأحمر في الزجاج البياض يدل على صحة ذلك ما روي عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة حتى يرى مخها وذلك لأن الله تعالى يقول كأنهن الياقوت والمرجان فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكاً ثم استصفيته لرأيته من ورائه أخرجه الترمذي قال وقد روي عن ابن مسعود بمعناه ولم يرفعه وهو أصح (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر زاد في رواية ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة لا ييصقون فيها ولا يتمخطون ولا يتغوطون أنيتهم الذهب والفضة وأمشاطهم الذهب ومجامرهم الألوة ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم قلب رجل واحد يسبحون الله بكرة وعشياً، وللبخاري قلوبهم على قلب رجل واحد وزاد فيه ولا يسقمون قوله مجامرهم الألوة يعني بخورهم العود.

فَبَآئِيَ آلَاءُ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٦٠﴾ فَبَآئِيَ آلَاءُ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبَآئِيَ آلَاءُ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبَآئِيَ آلَاءُ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ ﴿٦٦﴾ فَضَاخَتَانِ ﴿٦٧﴾

﴿فَبَآئِيَ آلَاءُ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴿٦٠﴾ أي ما جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يحسن إليه

﴿فَبَآئِيَ آلَاءُ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ كأنهن الياقوت والمرجان ﴿٥٩﴾، قال قتادة: صفاء الياقوت في بياض المرجان. وروينا عن أبي سعيد في صفة أهل الجنة عن رسول الله ﷺ: «لكل رجل منهم زوجتان على كل زوجة سبعون حلة، يرى مخ سوقهن دون لحمهما ودمائهما وجلدهما». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل أنا أبو اليمان أنا شعيب أنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ثم الذين يلونهم كأشد كوكب دري في السماء إضاءة قلوبهم على قلب رجل واحد لا اختلاف بينهم ولا تباغض، لكل امرئ منهم زوجتان من الحور العين يرى مخ سوقهن من وراء العظم واللحم من الحسن، يسبحون الله بكرة وعشياً لا يسقمون ولا يبولون ولا يتغوطون، ولا يتفلون ولا يتمخطون، أنيتهم الذهب والفضة وأمشاطهم الذهب، وقود مجامرهم الألوة ورشحهم المسك على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء». أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرنا الحسين بن محمد بن الحسين أنا هارون بن محمد بن هارون أنا حازم بن يحيى الحلواني أنا سهيل بن عثمان العسكري أنا عبيدة بن حميد عن عطاء بن المسيب عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «إن المرأة من أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة من حرير ومخها إن الله تعالى يقول: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾، فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكاً ثم استصفيته لرأيته من ورائه. وقال عمرو بن ميمون: إن المرأة من الحور العين لتلبس سبعين حلة فيرى مخ ساقها من ورائها كما يرى الشراب الأحمر في الزجاج البياض.

﴿فَبَآئِيَ آلَاءُ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴿٦٠﴾، أي ما جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن

في الآخرة وقال ابن عباس هل جزاء من قال لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة. روى البغوي بإسناد الثعلبي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قرأ رسول الله ﷺ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ثم قال هل تدرون ما قال ربكم؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال يقول هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة، وروى الواحدي بغير سند عن ابن عمر وابن عباس أن رسول الله ﷺ قال في هذه الآية يقول الله عز وجل هل جزاء من أنعمت عليه بمعرفتي وتوحيدي إلا أن أسكنه جنتي وحظيرة قدسي برحمتي، وقيل في معنى الآية هل جزاء من أتى بالفعل الحسن إلا أن يؤتى في مقابلته بفعل حسن وفي الآية إشارة إلى رفع التكليف في الآخرة لأن الله وعد المؤمنين بالإحسان وهو الجنة فلو بقي التكليف في الآخرة وتركه العبد لاستحق العقاب على ترك العمل والعقاب ترك الإحسان إليه فلا تكليف ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان ومن دونهما جنتان﴾ أي ومن دون الجنتين الأوليين جنتان أخريان وقال ابن عباس من دونهما في الدرج وقيل في الفضل وقال أبو موسى الأشعري جنتان من ذهب للسابقين وجنتان من فضة للتابعين وقال ابن جريج هن أربع جنان: جنتان للمقربين السابقين فيهما من كل فاكهة زوجان وجنتان لأصحاب اليمين والتابعين فيهما فاكهة ونخل ورمان، (ق) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال جنتان من فضة آتيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن وقال الكناني ومن دونهما جنتان يعني أمامهما وقبلهما يدل عليه قول الضحاك الجنتان الأوليان من ذهب وفضة والجنتان الأخريان من ياقوت وزبرجد وهما أفضل من الأوليين ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ ثم وصف الجنتين فقال تعالى: ﴿مدهامتان﴾ أي سوداوان من ربهما وشدة خضرتهما لأن الخضرة إذا اشتدت ضربت إلى السواد، ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان فيهما

يُحَسِّنُ إِلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ. وقال ابن عباس: هل جزاء من قال: لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة؟ أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني ابن فنجويه أنا ابن أبي شيبة أنا إسحاق ابن إبراهيم بن بهرام أنا الحجاج بن يوسف المكتب أنا بشر بن الحسين عن الزبير عدي عن أنس بن مالك قال قرأ رسول الله ﷺ: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾، ثم قال: هل تدرون ما قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «يقول هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة».

﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان * ومن دونهما جنتان﴾، أي من دون الجنتين الأوليين جنتان أخريان. قال ابن عباس: من دونهما في الدرج. وقال ابن زيد: من دونهما في الفضل. وقال أبو موسى الأشعري: جنتان من ذهب للسابقين وجنتان من فضة للتابعين. وقال ابن جريج: هن أربع جنتان للمقربين السابقين فيهما من كل فاكهة زوجان وجنتان لأصحاب اليمين والتابعين ﴿فيهما فاكهة ونخل ورمان﴾. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل أنا علي بن عبد الله أنا عبد العزيز بن عبد الصمد عن أبي عمران عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «جنتان من فضة آتيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن». وقال الكسائي: ﴿ومن دونهما﴾ أي أمامهما وقبلهما، يدل عليه قول الضحاك: الجنتان الأوليان من ذهب وفضة والأخريان من ياقوت.

﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان * مدهامتان﴾، ناعمتان سوداوان من ربهما وشدة خضرتهما، لأن الخضرة إذا اشتدت ضربت إلى السواد، يقال: إدهام الزرع إذا علاه السواد رياً ادهيماً فهو مدهام.

﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان * فيهما عينان نضاختان﴾، فوارتان بالماء لا تنقطعان والنضخ فوران الماء من

عينان نضاختان ﴿ أي فوارتان بالماء لا ينقطعان وقال ابن عباس والضحاك ينضخان بالخير والبركة على أهل الجنة وقال ابن مسعود ينضخان بالمسك والكافور على أولياء الله وقال أنس بن مالك ينضخان بالمسك والعنبر في دور أهل الجنة كطش المطر.

فَبَآئِيَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبَآئِيَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرٌ حَسَنٌ ﴿٧٠﴾ فَبَآئِيَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبَآئِيَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْشَاءُ قَبْلَهُمْ وَلَا جِئَانٌ ﴿٧٤﴾ فَبَآئِيَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَقَرٍ خَضِرٍ وَعَبَقَرٍ حَسَانٍ ﴿٧٦﴾

﴿فَبَآئِيَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني فيهما من أنواع الفواكه كلها وإنما عطف النخل والرمّان بالواو وإن كانا من جملة الفواكه تنبيهاً على فضلها وشرفها على سائر الفواكه وعلى هذا القول عامة المفسرين وأهل اللغة قالوا إنما فضلها بالذكر للتخصيص والتفضيل فهو كقوله من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال خصهما بالذكر وإن كان من جملة الملائكة لشرفهما وفضلهما وقيل بعضهم ليس النخل والرمّان من الفواكه لأن ثمرة النخل فاكهة وطعام وثمره الرمان فاكهة ودواء فلم يخلصا للتفكه ولهذا قال أبو حنيفة إذا حلف لا يأكل الفاكهة فأكل رطباً أو رماناً لم يحنث وخالفه صاحبه وهذا القول خلاف قول أهل اللغة ولا حجة له في الآية وروى البغوي بسنده عن ابن عباس موقوفاً قال نخل الجنة جذوعها زمرد أخضر وكرمها ذهب أحمر وسعفها كسوة لأهل الجنة منها حللهم وثمرها مثل القلال أو الدلاء أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل وألين من الزبد ليس له عجم وروي أن الرمانة من رمان الجنة مثل البعير المقتب وقيل إن نخل أهل الجنة نضيد وثمرها كالقلال كلما نرعت منها واحدة عادت مكانها أخرى العنقود منها اثني عشر ذراعاً، ﴿فَبَآئِيَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي في الجنان الأربع

العين، قال ابن عباس: تنضخان بالخير والبركة على أهل الجنة، وقال ابن مسعود: تنضخان بالمسك والكافور على أولياء الله. وقال أنس بن مالك: تنضخان بالمسك والعنبر في دور أهل الجنة كطش المطر.

﴿فَبَآئِيَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فيهما فاكهة ونخل ورمان، قال بعضهم: ليس النخل والرمّان من الفاكهة والعامّة على أنها من الفاكهة، وإنما أعاد ذكر النخل والرمّان وهما من جملة الفواكه للتخصيص والتفصيل، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة: ٩٨]، أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن حارث أنا محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال أنا عبد الله بن المبارك عن سفيان عن حماد عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال: نخل الجنة جذوعها زمرد أخضر وورقها ذهب أحمر وسعفها كسوة لأهل الجنة منها مقطعاتهم وحللهم، وثمرها أمثال القلال أو الدلاء أشد بيضاً من اللبن وأحلى من العسل وألين من الزبد ليس له عجم.

﴿فَبَآئِيَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فيهن، يعني في الجنات الأربع، ﴿خيرات حسان﴾، روى الحسن عن أبيه عن أم سلمة قالت: قلت لرسول الله ﷺ: أخبرني عن قوله: ﴿خيرات حسان﴾، قال: «خيرات الأخلاق حسان الوجوه».

﴿فَبَآئِيَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ حور مقصورات، محبوسات مستورات في الحجال، يقال: امرأة مقصورة وقصيرة إذا كانت مخدرة مستورة لا تخرج. وقال مجاهد: يعني قصرن طرفهنّ وأنفسهنّ على أزواجهنّ فلا يبغي

﴿خيرات حسان﴾ روي عن أم سلمة قالت قلت لرسول الله ﷺ أخبرني عن قوله خيرات حسان قال خيرات الأخلاق حسان الوجوه، ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان حور مقصورات﴾ أي مخدرات مستورات لا يخرجن لكوامتهن وشرفهن روي عن النبي ﷺ أنه قال «لو أن امرأة من نساء أهل الجنة أطلعت إلى الأرض لأضاءت ما بين السماء والأرض ولملأت ما بينهما ريحاً ولنضيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها» وقيل قصرن أطرافهن وأنفسهن على أزواجهن فلا يبغيهن بهن بدلاً ﴿في الخيام﴾ قيل هي البيوت. قال ابن الأعرابي الخيمة لا تكون إلا من أربعة أعواد ثم تسقف بالثمام ويقال خيم فلان خيمة إذا بناها من جريد النخل وخيم بها إذا قام بها وتظلل فيها وقيل كل خيامها من در ولؤلؤ وزبرجد مجوف تضاف إلى القصور في الجنة. (ق) عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها في السماء وفي رواية عرضها ستون ميلاً للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان لم يطمثن إنس قبلهم ولا جان﴾ تقدم تفسيره، ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان متكئين على رفرف خضر﴾ قيل الرفرف رياض الجنة خضر مخصبة ويروى هذا عن ابن عباس وقيل إن الرفرف البسط، وعن ابن عباس الرفرف فضول المجالس والبسط منه وقيل هي مجالس خضر فوق الفرش وقيل هي المرافق وقيل الزرابي وقيل كل ثوب عريض عند العرب فهو رفرف ﴿وعبقري حسان﴾ قيل هي الزرابي والطنافس الثخان وقيل هي الطنافس الرقاق وقيل كل ثوب موشى عند العرب فهو عبقري وقال الخليل كل جليل نفيس فاخر من الرجال وغيرهم فهو عبقري عند العرب ومنه قول النبي ﷺ في عمر «فلم أر عبقرياً يفري فريه» وأصل هذا فيما قيل إنه نسب إلى عبقري وهي أرض يسكنها الجن فصار مثلاً لكل منسوب إلى شيء رفيع عجيب وذلك أن العرب تعتقد في الجن كل صفة عجيبة وأنهم يأتون بكل أمر عجيب ولما كانت عبقري معروفة بسكنى الجن نسبوا إليها كل شيء عجيب بديع.

بهم بدلاً، وروينا عن النبي ﷺ قال: «لو أن امرأة من نساء أهل الجنة أطلعت إلى الأرض لأضاءت ما بين السماء والأرض ولملأت ما بينهما ريحاً ولنضيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها». ﴿في الخيام﴾ جمع خيمة، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن المثنى أنا عبد العزيز بن عبد الصمد أنا أبو عمران الجوني عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة عرضها ستون ميلاً في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمن».

﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان * لم يطمثن إنس قبلهم ولا جان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * متكئين على رفرف خضر﴾، قال سعيد بن جبیر: الرفرف رياض الجنة خضر مخصبة. ويروى ذلك عن ابن عباس، واحداً منها رفرفة، وقال: الرفارف جمع الجمع، وقيل: الرفرف البسط، وهو قول الحسن ومقاتل والقرظي وروى العوفي عن ابن عباس الرفرف فضول المجالس والبسط. وقال الضحاك وقتادة: هي مجالس خضر فوق الفرش. وقال ابن كيسان: هي المرافق. وقال ابن عيينة الزرابي. وقال غيره: هي ثوب عريض عند العرب فهو رفرف. ﴿وعبقري حسان﴾، هي الزرابي والطنافس الثخان، وهي جمع واحدها عبقري، وقال قتادة: العبقري عتاق الزرابي، وقال أبو العالية هي الطنافس المخملة إلى الرقة. وقال القتيبي: كل ثوب موشى عند العرب عبقري. وقال أبو عبيدة هو منسوب إلى أرض يعمل بها الوشي قال الخليل: كل جليل نفيس فاخر من الرجال وغيرهم عند العرب عبقري، ومنه قول النبي ﷺ في عمر رضي الله عنه: «فلم أر عبقرياً يفري فريه».

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام﴾ قيل لما ختم نعم الدنيا بقوله «ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام» وفيه إشارة إلى أن الباقي هو الله تعالى وأن الدنيا فانية ختم نعمة الآخرة بهذه الآية وهو إشارة إلى تمجيده وتحميده (م) عن ثوبان قال «كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً وقال اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام» وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت «كان رسول الله ﷺ إذا سلم من الصلاة لم يقعد إلا مقدار ما يقول: اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام» أخرجه أبو داود والنسائي غير قولها لم يقعد إلا مقدار ما يقول والله أعلم بمراده.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام﴾، قرأ أهل الشام (ذو الجلال) بالواو وكذلك هو في مصاحفهم إجراءً على الاسم، أخبرنا أبو الحسن علي بن يوسف الجويني أنا أبو محمد محمد بن علي بن محمد بن شريك الشافعي أنا عبد الله بن محمد بن مسلم ثنا أبو بكر الجوزي أنا أحمد بن حرب أنا أبو معاوية الضرير عن عاصم الأحول عن عبد الله بن الحارث عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا سلم من الصلاة لم يقعد إلا مقدار ما يقول: «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمَنْكَ السَّلَامُ تَبَارَكَتْ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ».

سورة الواقعة

(مكية وهي سبع وتسعون آية وثلاثمائة وثمان وسبعون كلمة وألف وسبعمائة وثلاثة أحرف)

روى البغوي بسنده عن أبي ظبية عن عبد الله بن مسعود قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً».

وكان أبو ظبية لا يدعها أبداً وأخرجه ابن الأثير في كتابه جامع الأصول لم يعزه والله تعالى أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴿٦﴾ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾

قوله عز وجل: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ يعني إذا قامت القيامة وقيل إذا نزلت صيحة القيامة وهي النفخة الأخيرة وقيل الواقعة اسم للقيامة كالآزفة، ﴿لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ يعني لمجيئها ﴿كَاذِبَةٌ﴾ يعني ليس لها كذب والمعنى أنها تقع حقاً وصدقاً وقيل معناه ليس لوقعها قصة كاذبة أي كل ما أخبر الله عنها وقص من خبرها قصة صادقة غير كاذبة وقيل معناه ليس لوقعها نفس كاذبة أي إن كل من يخبر عن وقوعها صادق غير كاذب لم تكذب نفس أخبرت عن وقوعها، ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ أي تخفض أقواماً إلى النار وترفع أقواماً إلى الجنة وقال ابن عباس تخفض أقواماً كانوا في الدنيا مرتفعين وترفع أقواماً كانوا في الدنيا مستضعفين وقيل تخفض أقواماً بالمعصية وترفع أقواماً بالطاعة، ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ أي إذا حركت وزلزلت زلزلاً وذلك أن الله عز وجل إذا أوحى إليها اضطربت فرقاً وخوفاً قال المفسرون

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

مكية وهي ست وتسعون آية.

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾، إذا قامت القيامة. وقيل: إذا نزلت صيحة القيامة، وهي النفخة الأخيرة.

﴿لَيْسَ لَوْعَتِهَا﴾، لمجيئها، ﴿كَاذِبَةٌ﴾، كذب، كقول: ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لِاَغْيَةً﴾ [الغاشية: ١١]، أي لغو يعني أنها تقع صدقاً وحقاً. والكاذبة اسم كالعافية والنازلة.

﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾، تخفض أقواماً إلى النار وترفع آخرين إلى الجنة. وقال عطاء عن ابن عباس: تخفض أقواماً كانوا في الدنيا مرتفعين وترفع أقواماً كانوا في الدنيا مستضعفين.

﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾، حركت وزلزلت زلزلاً، قال الكلبي: إن الله إذا أوحى إليها اضطربت فرقاً. قال

ترج كما يرج الصبي في المهد حتى ينهدم كل بناء عليها وينكسر كل ما فيها من جبال وغيرها وهو قوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾ أي فتتت حتى صارت كالدقيق المبسوس وهو المبلول وقيل صارت كثيباً مهبطاً بعد أن كانت شامخة وقيل معناه قلعت من أصلها وسيرت على وجه الأرض حتى ذهب بها ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا﴾ أي غباراً متفرقاً كالذي يرى في شعاع الشمس إذا دخل الكوة وهو الهباء، ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي أصنافاً ﴿ثَلَاثَةً﴾ ثم فسر الأزواج فقال تعالى: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ يعني أصحاب اليمين.

والميمنة ناحية اليمين وهم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة وقال ابن عباس هم الذين كانوا على يمين آدم حين أخرجت الذرية من صلبه وقال الله تعالى: «هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي» وقيل هم الذين يعطون كتبهم بأيمانهم وقيل هم الذين كانوا ميامين أي مباركين على أنفسهم وكانت أعمالهم صالحة في طاعة الله وهم التابعون بإحسان ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ تعجب من حالهم في السعادة. والمعنى أي شيء هم.

وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١﴾ وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ ﴿٢﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٣﴾ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٤﴾ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٥﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٦﴾ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴿٧﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَدِّمِينَ ﴿٨﴾

﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ ما أصحاب المشأمة يعني أصحاب الشمال وهم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار وقال ابن عباس هم الذين كانوا على شمال آدم عند إخراج الذرية وقال الله تعالى لهم: «هؤلاء إلى النار ولا أبالي»

المفسرون: ترج كما يرج الصبي في المهد حتى ينهدم كل بناء عليها وينكسر كل ما عليها من الجبال وغيرها. وأصل الرج في اللغة التحريك، يقال: رججته فارتج.

﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾، قال عطاء ومقاتل ومجاهد: فَتَّتْ فَتًا فصارت كالدقيق المبسوس وهو المبلول. قال سعيد بن المسيب والسدي: كسرت كسراً وقال الكلبي: سِيرَتْ على وجه الأرض تسييراً. قال الحسن: قلعت من أصلها فذهبت، نظيرها: ﴿فَقُلْ يَنْسِفْهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥] قال ابن كيسان: جعلت كثيباً مهبطاً بعد أن كانت شامخة طويلة.

﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا﴾، غباراً متفرقاً كالذي يرى في شعاع الشمس إذا دخل الكوة وهو الهباء.

﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا﴾، أصنافاً، ﴿ثَلَاثَةً﴾.

ثم فسرهما فقال: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾، هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة، وقال ابن عباس: هم الذين كانوا على يمين آدم حين أخرجت الذرية من صلبه، وقال الله لهم هؤلاء في الجنة ولا أبالي. وقال الضحاك: هم الذين يعطون كتبهم بأيمانهم. وقال الحسن والربيع: هم الذين كانوا ميامين مباركين على أنفسهم، وكانت أعمارهم في طاعة الله وهم التابعون بإحسان، ثم عجب نبيه ﷺ، فقال: ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾، وهذا كما يقال: زيد ما زيد يُراد زيد شديد.

﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ ما أصحاب المشأمة، يعني أصحاب الشمال، والعرب تسمي اليد اليسرى الشؤمي، ومنه يسمى الشام واليمن لأن اليمن عن يمين الكعبة والشأم عن شمالها، وهم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار. وقال ابن عباس: هم الذين كانوا على شمال آدم عند إخراج الذرية وقال الله لهم: هؤلاء في النار ولا أبالي. وقال الضحاك: هم الذين يؤتون كتبهم بشمالهم. وقال الحسن: هم المشائيم على أنفسهم وكانت أعمارهم في المعاصي.

وقيل هم الذين يؤتون كتبهم بشمائلهم وقيل هم المشائيم على أنفسهم وكانت أعمالهم في المعاصي لأن العرب تسمي اليد اليسرى الشؤمى، ﴿والسابقون السابقون﴾ قال ابن عباس هم السابقون إلى الهجرة السابقون في الآخرة إلى الجنة وقيل هم السابقون إلى الإسلام وقيل هم الذين صلوا إلى القبلتين من المهاجرين والأنصار وقيل هم السابقون إلى الصلوات الخمس وقيل إلى الجهاد وقيل هم المسارعون إلى التوبة وإلى ما دعا الله إليه من أعمال البر والخير وقيل هم أهل القرآن المتوجون يوم القيامة.

فإن قلت لم آخر ذكر السابقين وكانوا أولى بالتقديم عن أصحاب اليمين.

قلت فيه لطيفة وذلك أن الله تعالى ذكر في أول السورة من الأمور الهائلة عند قيام الساعة تخويفاً لعباده فإما محسن فيزداد رغبة في الثواب وإما مسيء فيرجع عن إساءته خوفاً من العقاب فلذلك قدم أصحاب اليمين ليسمعوا ويرغبوا ثم ذكر أصحاب الشمال ليرهبوا ثم ذكر السابقين وهم الذين لا يحزنهم الفزع الأكبر ليجتهد أصحاب اليمين في القرب من جهنم ثم أثنى على السابقين فقال تعالى: ﴿أولئك المقربون﴾ يعني من الله في جواره وفي ظل عرشه ودار كرامته وهو قوله: ﴿في جنات النعيم﴾ قوله تعالى: ﴿ثلة﴾ أي جماعة غير محصورة العدد، ﴿من الأولين﴾ يعني من الأمم الماضية من لدن آدم إلى زمن نبينا ﴿وقليل من الآخرين﴾ يعني من هذه الأمة وذلك لأن الذين عاينوا جميع الأنبياء وصدقوهم من الأمم الماضية أكثر ممن عاين النبي ﷺ وآمن به وقيل إن الأولين هم أصحاب رسول الله ﷺ وقيل من الآخرين أي ممن جاء بعدهم من الصحابة، ﴿على سرور موضونة﴾ أي منسوجة من الذهب والجواهر وقيل موضونة يعني مصفوفة ﴿متكئين عليها﴾ أي على السرر ﴿متقابلين﴾ يعني لا ينظر بعضهم في قفا بعض وصفوا بحسن

﴿والسابقون السابقون﴾، قال ابن عباس: السابقون إلى الهجرة هم السابقون في الآخرة. وقال عكرمة: السابقون إلى الإسلام. قال ابن سيرين: هم الذين صلوا إلى القبلتين، دليله قوله: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار﴾ [التوبة: ١٠٠]، قال الربيع بن أنس: السابقون إلى إجابة الرسول ﷺ في الدنيا هم السابقون إلى الجنة في العقبى. وقال مقاتل: إلى إجابة الأنبياء صلوات الله عليهم بالإيمان. وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: إلى الصلوات الخمس. وقال الضحاك: إلى الجهاد. وقال سعيد بن جبير: هم المسارعون إلى التوبة وإلى أعمال البر. قال الله تعالى: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم﴾ [الحديد: ٢١]، ثم أثنى عليهم فقال: ﴿أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾ [المؤمنون: ٦١]، قال ابن كيسان: والسابقون إلى كل ما دعا الله إليه. ورؤي عن كعب قال: هم أهل القرآن المتوجون يوم القيامة. وقيل: هم أولهم رواحاً إلى المسجد وأولهم خروجاً في سبيل الله. وقال القرظي: إلى كل خير.

﴿أولئك المقربون﴾، من الله.

﴿في جنات النعيم * ثلة من الأولين﴾، أي من الأمم الماضية من لدن آدم عليه السلام إلى زمان نبينا ﷺ، والثلة: الجماعة غير محصورة العدد.

﴿وقليل من الآخرين﴾، يعني من هذه الأمة، قال الزجاج: الذين عاينوا جميع النبيين من لدن آدم عليه الصلاة والسلام وصدقوهم، أكثر ممن عاين النبي ﷺ.

﴿على سرر موضونة﴾، منسوجة كما توضن خلق الدرع فيدخل بعضها في بعض. قال المفسرون: هي موصولة منسوجة بالذهب والجواهر. وقال الضحاك: موضونة مصفوفة.

العشرة في المجالسة وقيل لأنهم صاروا أرواحاً نورانية صافية ليس لهم أدبار وظهور.

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانٌ مُخْلَدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَنَكِهَتْ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ الذُّلُولِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾

﴿يطوف عليهم﴾ أي للخدمة ﴿ولدان﴾ أي غلمان ﴿مخلدون﴾ لا يموتون ولا يهرمون ولا يتغيرون ولا ينتقلون من حالة إلى حالة وقيل مخلدون مفرطون والخلد القرط وهو الحلقة تعلق في الأذن واختلفوا في هؤلاء الولدان فقيل هم أولاد المؤمنين الذين ماتوا أطفالاً وفيه ضعف لأن الله أخبر أنه يلحقهم بآبائهم ولأن من المؤمنين من لا ولد له فلو خدمه ولد غيره كان منقصة بأبي الخادم وقيل هم صغار الكفار الذين ماتوا قبل التكليف وهذا القول أقرب من الأول لأنه قد اختلف في أولاد المشركين على ثلاثة مذاهب فقال الأكثرون هم في النار تبعاً لآبائهم وتوقف فيهم طائفة والمذهب الثالث وهو الصحيح الذي ذهب إليه المحققون أنهم من أهل الجنة ولكل مذهب دليل ليس هذا موضعه، وقيل هم أطفال ماتوا لم يكن لهم حسنات فيثابوا عليها ولا سيئات فيعاقبوا عليها ومن قال بهذه الأقوال يعلل بأن الجنة ليس فيها ولادة والقول الصحيح الذي لا معدل عنه إن شاء الله إنهم ولدان خلقوا في الجنة لخدمة أهل الجنة كالحور وإن لم يولدوا ولم يحصلوا عن ولادة أطلق عليهم اسم الولدان لأن العرب تسمي الغلام وليداً ما لم يحتلم والأمة وليدة وإن أسنت، ﴿بأكواب﴾ جمع كوب وهي الأقداح المستديرة الأفواه لا أذان لها ولا عرا ﴿وأباريق﴾ جمع إبريق وهي ذوات الخراطيم والعرا سميت أبريق لبريق لونها من الصفاء وقيل لأنها يرى باطنها كما يرى ظاهرها، ﴿وكأس من معين﴾ أي من خمرة جارية ﴿لا يصدعون عنها﴾ أي لا تصدع رؤوسهم من شربها وعنهما كناية عن الكأس وقيل لا يتفرقون عنها ﴿ولا ينزفون﴾ أي لا يغلب على عقولهم ولا يسكرون منها وقرئ بكسر الزاي ومعناه لا ينفد شربهم، ﴿وفاكهة مما يتخيرون﴾ أي يأخذون خيارها ﴿ولحم طير مما يشتهون﴾ قال ابن عباس يخطر على قلبه لحم الطير فيطير ممثلاً بين يديه على ما اشتهى وقيل إنه يقع على صحيفة الرجل فيأكل منه ما يشتهي ثم يطير.

﴿متكئين عليها متقابلين﴾، لا ينظر بعضهم في قفا بعض.

﴿يطوف عليهم﴾، للخدمة، ﴿ولدان﴾، غلمان، ﴿مخلدون﴾، لا يموتون ولا يهرمون ولا يتغيرون. وقال الفراء: تقول العرب لمن كبر ولمن شمت إنه مخلد. قال ابن كيسان: يعني ولداناً لا يحولون من حالة إلى حالة. قال سعيد بن جبیر: مقرطون يقال خلد جاريته إذا حلأها بالخلد، وهو القرط. قال الحسن: هم أولاد أهل الدنيا لم تكن لهم حسنات فيثابوا عليها ولا سيئات فيعاقبوا عليها لأن الجنة لا ولادة فيها فهم خدم أهل الجنة.

﴿بأكواب وأباريق﴾، فالأكواب جمع كوب وهي الأقداح المستديرة الأفواه لا أذان لها ولا عرى، والأباريق وهي ذوات الخراطيم سُميت أبريق لبريق لونها من الصفاء. ﴿وكأس من معين﴾، خمر جارية.

﴿لا يصدعون عنها﴾، لا تصدع رؤوسهم من شربها، ﴿ولا ينزفون﴾، أي لا يسكرون هذا إذا قرئ بفتح الزاي ومن كسر فمعناه لا ينفد شربهم.

﴿وفاكهة مما يتخيرون﴾، يختارون ما يشتهون يقال تخيَّرت الشيء إذا أخذت خيره.

﴿ولحم طير مما يشتهون﴾، قال ابن عباس يخطر على قلبه لحم الطير فيصير ممثلاً بين يديه على ما اشتهى، ويقال إنه يقع على صحيفة الرجل فيأكل منه ما يشتهي ثم يطير فيذهب.

﴿وحور عِين﴾، قرأ أبو جعفر وحمة والكسائي بكسر الراء والنون، أي وبحور عين أتبعه قوله: ﴿بأكواب

فإن قلت هل في تخصيص الفاكهة بالتخير واللحم بالاشتواء بلاغة؟.

قلت نعم وكيف لا وفي كل حرف من حروف القرآن بلاغة وفصاحة والذي يظهر فيه أن اللحم والفاكهة إذا حضرا عند الجائع تميل نفسه إلى اللحم وإذا حضرا عند الشبعان تميل نفسه إلى الفاكهة فالجائع مشته والشبعان غير مشته بل هو مختار وأهل الجنة إنما يأكلون لا من جوع بل للتفكه فميلهم إلى الفاكهة أكثر فيتخيرنها ولهذا ذكرت في مواضع كثيرة من القرآن بخلاف اللحم وإذا اشتواه حضر بين يديه على ما يشتهي فتميل نفسه إليه أدنى ميل ولهذا قدم الفاكهة على اللحم والله أعلم، ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ أي ويطوف عليهم حور عین وقيل لهم حور عین وجاء في تفسير حور أي بيض عین أي ضخام العيون ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ أي المخزون في الصدف المصون الذي لم تمسه الأيدي ولم تقع عليه الشمس والهواء فيكون في نهاية الصفاء روي «أنه سطع نور في الجنة فقليل ما هذا؟ قيل ضوء ثغر حوراء ضحك» وروي «أن الحوراء إذا مشيت يسمع تقديس الخلاخل من ساقها وتمجيد الأسورة من ساعديها وإن عقد الياقوت يضحك من نحرها وفي رجليها نعلان من ذهب شراكها من لؤلؤ يصران بالتسبيح».

جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلِّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾

﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ أي فعلنا ذلك بهم جزاء بما كانوا يعملون في الدنيا بطاعتنا ﴿لا يسمعون فيها﴾ أي في الجنة، ﴿لغوا﴾ قيل اللغو ما يرغب عنه من الكلام ويستحق أن يلغى وقيل هو القبيح من القول والمعنى ليس فيها لغو فيسمع ﴿ولا تأثيماً﴾ قيل معناه أن بعضهم لا يقول لبعض أثمت لأنهم لا يتكلمون بما فيه إثم كما يتكلم به أهل الدنيا وقيل معناه لا يأتون تأثيماً أي ما هو سبب التأثيم من قول أو فعل قبيح ﴿إلا قِيلاً﴾ معناه لكن يقولون قِيلاً أو

وأباريق وفاكهة ولحم طير ﴿ في الإعراب وإن اختلفا في المعنى لأن الحور لا يُطاف بهن كقول الشاعر:

إذا ما الغانيات برزن يوماً وزججن الحواجب والعيونا

والعين لا تزجج وإنما تكحل ومثله كثير، وقيل: معناه ويكرمون بفاكهة ولحم طير وحور عین. وقرأ الباقون بالرفع أي ويطوف عليهم حور عین. وقال الأخفش رفع على معنى لهم حور عین وجاء في تفسيره حور عین بيض ضخام العيون.

﴿كأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾، المخزون في الصدف لم تمسه الأيدي. ويُروى أنه يسطع نور في الجنة قالوا وما هذا قالوا ضوء ثغر حوراء ضحك في وجه زوجها. ويُروى أن الحوراء إذا مشيت لیسع تقديس الخلاخل من ساقها وتمجيد الإسورة من ساعديها. وإن عقد الياقوت ليضحك من نحرها، وفي رجليها نعلان من ذهب شراكها من لؤلؤ يصران بالتسبيح.

﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾.

﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً﴾ * إلا قِيلاً، أي قولاً: ﴿سلاماً سلاماً﴾، نصبهما إتباعاً لقوله قِيلاً أي يسمعون قِيلاً سلاماً سلاماً. قال عطاء: يحيي بعضهم بعضاً بالسلام، ثم ذكر أصحاب اليمين وعجب من شأنهم فقال جل ذكره:

﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين﴾ * في سدر مخضود، لا شوك فيه كأنه خضد شوكه أي قطع ونزع

يسمعون قليلاً ﴿سلاماً سلاماً﴾ يعني يسلم بعضهم على بعض وقيل تسلم الملائكة عليهم أو يرسل الرب بالسلام إليهم وقيل معناه أن قولهم يسلم في اللغو.

ثم ذكر أصحاب اليمين وعجب من شأنهم فقال تعالى: ﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين﴾ لما بين حال السابقين شرع في بيان حال أصحاب اليمين فقال تعالى: ﴿في سدر مخضود﴾ أي لا شوك فيه كأنه خضد شوكه أي قطع ونزع منه وهذا قول ابن عباس وقيل هو الموقر حملاً قيل ثمرها أعظم من القلال وهو النبق قيل لما نظر المسلمون إلى وج وهو واد مخضب بالطائف فأعجبهم سدره فقالوا ليت لنا مثل هذا فأنزل الله هذه الآية ﴿وطلح﴾ قيل هو الموز عند أكثر المفسرين وقيل هو شجر له ظل بارد طيب وقيل هو شجر أم غيلان له شوك ونور طيب الرائحة فخطبوا ووعدوا بمثل ما يحبون ويعرفون إلا أن فضله على شجر الدنيا كفضل الجنة على الدنيا ﴿منضود﴾ أي متراكم قد نضد بالحمل من أوله إلى آخره ليست له سوق بارزة بل من عروقه إلى أغصانه ثمر وليس شيء من ثمر الجنة في غلاف كثمر الدنيا مثل الباقلاء والجوز ونحوهما بل كلها مأكول ومشروب ومشوم ومنظور إليه، ﴿وظل ممدود﴾ أي دائم لا تنسخه الشمس كظل أهل الدنيا وذلك لأن الجنة ظل كلها لا شمس فيها. (ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة وافرؤوا إن شئتم وظل ممدود» وعن ابن عباس في قوله وظل ممدود قال شجرة في الجنة على ساق يخرج إليها أهل الجنة فيتحدثون في أصلها فيشتهي بعضهم لهو الدنيا فيرسل الله عز وجل ريحاً من الجنة فتحرك تلك الشجرة بكل لهو في الدنيا ﴿وماء مسكوب﴾ أي مصبوب يجري دائماً في غير أخذود ولا ينقطع.

منه، هذا قول ابن عباس وعكرمة. وقال الحسن: لا يعقر الأيدي. قال ابن كيسان: هو الذي لا أذى فيه. قال: وليس شيء من ثمر الجنة في غلف كما يكون في الدنيا من الباقلاء وغيره بل كلها مأكول ومشروب ومشوم ومنظور إليه. قال الضحاك ومجاهد: هو الموقر حملاً. قال سعيد بن جبير: ثمارها أعظم من القلال. قال أبو العالية والضحاك: ونظر المسلمون إلى وج وهو واد مخضب بالطائف فأعجبهم سدرها، وقالوا: يا ليت لنا مثل هذا فأنزل الله هذه الآية.

﴿وطلح﴾، أي موز واحدتها طلحة، عن أكثر المفسرين. وقال الحسن: ليس هو بالموز ولكنه شجر لها ظل بارد طيب. قال الفراء وأبو عبيدة: الطلح عند العرب شجر عظام لها شوك. وروى مجاهد عن الحسن بن سعيد قال: قرأ رجل عند علي رضي الله عنه: ﴿وطلح منضود﴾، فقال: وما شأن الطلح إنما هو طلع منضود ثم قرأ طلوعها هضيم، قلت: يا أمير المؤمنين إنها في المصحف بالحاء أفلا تحولها؟ فقال: إن القرآن لا يهاج اليوم ولا يحول، والمنضود المتراكم الذي قد نضد بالحمل من أوله إلى آخره، ليست هو سوق بارزة قال مسروق أشجار الجنة من عروقتها إلى أفنانها ثمر كله.

﴿وظل ممدود﴾، دائم لا تنسخه الشمس والعرب تقول للشيء الذي لا ينقطع ممدود، أخبرنا أبو علي حسان بن سعيد المنيعي أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيايدي أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان ثنا أبو الحسن أحمد بن يوسف السلمي ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن همام بن منبه قال: ثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها»، وروى عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿وظل ممدود﴾ قال: شجرة في الجنة على ساق العرش يخرج إليها أهل الجنة فيتحدثون في أصلها ويشتهي بعضهم لهو الدنيا فيرسل الله عز وجل ريحاً من الجنة فتحرك تلك الشجرة بكل لهو في الدنيا.

﴿وماء مسكوب﴾، مصبوب يجري دائماً في غير أخذود لا ينقطع.

وَفَكَهْمٌ كَثِيرٌ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٌ وَلَا مَمْنُوعَةٌ ﴿٣٣﴾ وَفُرْشٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾

﴿وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة﴾ قال ابن عباس لا تنقطع إذا جنيت ولا تمتنع من أحد إذا أراد أخذها وقيل لا مقطوعة بالأزمان ولا ممنوعة بالأثمان كما تنقطع ثمار الدنيا في الشتاء ولا يوصل إليها إلا بالثمن وقيل لا يحظر عليها كما يحظر على بساتين الدنيا وجاء في الحديث «ما قطعت ثمرة من ثمار الجنة إلا أبدل الله عز وجل مكانها ضعفين» ﴿وفرش مرفوعة﴾ قال علي مرفوعة على الأسرة وقيل بعضها فوق بعض فهي مرفوعة عالية عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ «في قوله: وفرش مرفوعة قال ارتفاعها كما بين السماء والأرض ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب قال الترمذي قال بعض أهل العلم معنى هذا الحديث ارتفاعها كما بين السماء والأرض يقول ارتفاع الفرش المرفوعة في الدرجات والدرجات ما بين كل درجتين بين السماء والأرض وقيل أراد بالفرش النساء والعرب تسمي المرأة فراشاً ولباساً على الاستعارة فعلى هذا القول يكون معنى مرفوعة أي رفعن بالفضل والجمال على نساء الدنيا ويدل على هذا التأويل قوله في عقبه، ﴿إنا أنشأناهن إنشاء﴾ أي خلقناهن خلقاً جديداً قال ابن عباس يعني الآدميات العجائز الشمط يقول خلقناهن بعد الكبر والهرم خلقاً آخر، ﴿فجعلناهن أبكاراً﴾ يعني عذارى. عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إن أنشأناهن إنشاء قال إن من المنشآت اللاتي كن في الدنيا عجائز عمشاً رمصاً» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب وضعف بعض رواته وروى البغوي بسنده عن

﴿وفاكهة كثيرة * لا مقطوعة ولا ممنوعة﴾، قال ابن عباس: لا تنقطع إذا جنيت ولا تمتنع من أحد أراد أخذها. وقال بعضهم: لا مقطوعة بالأزمان ولا ممنوعة بالأثمان، كما ينقطع أكثر ثمار الدنيا إذا جاء الشتاء، ولا يتوصل إليها إلا بالثمن. وقال القتيبي: يعني لا يحظر عليها كما يحظر على بساتين الدنيا. وجاء في الحديث: «ما قطعت ثمرة من ثمار الجنة إلا أبدل الله مكانها ضعفين».

﴿وفرش مرفوعة﴾، قال علي رضي الله عنه: ﴿وفرش مرفوعة﴾ على الأسرة. وقال جماعة من المفسرين: بعضها فوق بعض فهي مرفوعة عالية. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني ابن فنجويه ثنا ابن حبيش ثنا أبو عبد الرحمن النسائي ثنا أبو تريب ثنا رشد بن سعد عن عمرو بن الحارث عن دراج أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة قالا: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وفرش مرفوعة﴾ قال: «إن ارتفاعها لكما بين السماء والأرض، وإن ما بين السماء والأرض لمسيرة خمسمائة عام». وقيل: أراد بالفرش النساء والعرب تسمي المرأة فراشاً ولباساً على الاستعارة، مرفوعة رفعن بالجمال والفضل على نساء الدنيا دليل هذا التأويل قوله في عقبه:

﴿إنا أنشأناهن إنشاء﴾، خلقناهن خلقاً جديداً، قال ابن عباس: يعني الآدميات العجّز الشمط، يقول خلقناهن بعد الهرم خلقاً آخر.

﴿فجعلناهن أبكاراً﴾، عذارى، أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبد الصمد الجوزجاني أنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي عن الهيثم بن كليب الشاشي أنا أبو عيسى الترمذي أنا عبد بن حميد أنا مصعب بن المقدم أنا المبارك بن فضالة عن الحسن قال: أتت عجوز النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله ادع الله أن يدخلني الجنة، فقال: «يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز»، قال: «فولت تبكي»، قال: «أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز إن الله تعالى يقول: ﴿إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكاراً﴾». أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن الخطيب أنا أبو سعيد عمرو بن محمد بن

الحسن قال «أتت عجوز النبي ﷺ فقالت يا رسول الله ادع الله أن يدخلني الجنة فقال يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز قال فقلت تبكي قال أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز إن الله تعالى قال ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً﴾ هذا حديث مرسل وروي بإسناد الثعلبي عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ في قوله ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً﴾ عجائزكن في الدنيا عمشاً رمصاً فجعلناهن أبكاراً وقال المسيب بن شريك هن عجائز الدنيا أنشأهن الله بقدرته خلقاً جديداً كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكاراً وقيل إنهن فضلن على الحور العين بصلاتهن في الدنيا وقيل هن الحور العين أنشأهن الله لم تقع عليهن ولادة فجعلناهن أبكاراً عذارى وليس هناك وجع.

عُرَبَاءُ أَتْرَابًا ﴿٢٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٢٩﴾ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٣٠﴾

﴿عرباً﴾ جمع عرب وهي المتحبة إلى زوجها قاله ابن عباس في رواية عنه وعنه أنها الملقاة وقيل الغنجة وعن أسامة بن زيد عن أبيه عرباً قال حسان الكلام ﴿أتراباً﴾ يعني أمثالاً في الخلق وقيل مستويات في السن على سن واحد بنات ثلاث وثلاثين، عن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال «يدخل أهل الجنة الجنة جرماً مرداً مكحلين أبناء ثلاثين أو قال ثلاث وثلاثين سنة» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب ﴿لأصحاب اليمين﴾ يعني أنشأهن لأصحاب اليمين وقيل هذا الذي ذكرنا لأصحاب اليمين ﴿ثلاثة من الأولين﴾ يعني من المؤمنين الذين هم قبل هذه الأمة ﴿وثلاثة من الآخرين﴾ يعني من مؤمني هذه الأمة يدل عليه ما روى البغوي بإسناد الثعلبي عن عروة بن رويم قال «لما أنزل الله عز وجل على رسول الله ﷺ ثلاثة من الأولين وقليل من الآخرين بكى عمر فقال يا نبي الله آمنا برسول الله وصدقناه ومن ينجو منا قليل فأنزل الله عز وجل وثلاثة من الأولين وثلاثة من الآخرين فدعا رسول الله ﷺ عمر فقال قد أنزل الله تعالى فيما قلت فقال رضيانا عن ربنا وتصديق نبينا فقال رسول الله ﷺ من آدم إلينا ثلاثة ومنا إلى يوم القيامة ثلاثة ولا يستتمها الأسودان من رعاة الإبل ممن قال لا إله إلا الله»، (ق) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ «عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد إذ رفع إلى سواد عظيم

منصور أنا أبو بكر بن محمد بن سليمان بن الحارث الواسطي ببغداد أنا خلاد بن يحيى بن صفوان السلمي ثنا سفيان الثوري عن يزيد بن أبان عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ في قوله: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً﴾، قال: عجائز كنّا في الدنيا عمشاً رمصاً. ﴿فجعلناهن أبكاراً﴾. وقال المسيب بن شريك: هن عجائز الدنيا أنشأهن الله تعالى خلقاً جديداً كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكاراً. وذكر المسيب عن غيره أنهن فضلن على الحور العين بصلاتهن في الدنيا. وقال مقاتل وغيره: هن الحور العين أنشأهن الله لم يقع عليهن ولادة فجعلناهن أبكاراً عذارى وليس هناك وجع.

﴿عرباً﴾ قرأ حمزة وإسماعيل عن نافع وأبو بكر: ﴿عرباً﴾ ساكنة الراء الباقون بضمها وهي جمع عرب أي عواشق محبات إلى أزواجهن. قال الحسن ومجاهد وقتادة وسعيد بن جبیر. وهي رواية الوالي عن ابن عباس، وقال عكرمة عنه: ملقة. وقال عكرمة: غنجة. وقال أسامة بن زيد عن أبيه: عرباً حسنات الكلام. ﴿أتراباً﴾، مستويات في السن على سن واحد، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني ابن فنجويه ثنا ابن شيبه أنا يزيد بن هارون عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يدخل أهل الجنة الجنة جرماً مرداً بيضاً جعاداً مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين، على خلق آدم طوله ستون ذراعاً في سبعة أذراع». أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث أنا محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود ثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك

فظننت أنهم أمتي فقيل لي هذا موسى وقومه ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد عظيم فقيل لي انظر إلى الأفق الآخر فإذا سواد عظيم فقيل لي هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ثم نهض فدخل منزله فخاض القوم في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب قال بعضهم فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ وقال بعضهم فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله وذكروا أشياء فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال ما الذي تخوضون فيه فأخبروه فقال هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون، فقام عكاشة بن محصن فقال يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال أنت منهم فقام رجل آخر فقال يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال سبقك بها عكاشة» الرهيط تصغير رهط وهم دون العشرة وقيل إلى الأربعين. (ق) عن عبد الله بن مسعود

عن رشد بن سعد حدثني عمرو بن الحارث عن دراج أبي السمع عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أدنى أهل الجنة الذي له ثمانون ألف خادم واثنان وسبعون زوجة، وتنصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية إلى صنعاء»، وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ قال: «ينظر إلى وجهه في خدّها أصفى من المرأة، وإن أدنى لؤلؤة عليها تضيء ما بين المشرق والمغرب، وإنه ليكون عليها سبعون ثوباً ينفذها بصره حتى يرى من خلفها من وراء ذلك». وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ قال: «مَن مات من أهل الجنة من صغير أو كبير يُردون بني ثلاثين سنة في الجنة لا يزيدون عليها أبداً، وكذلك أهل النار»، وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ قال: «إن عليهم التيجان، إن أدنى لؤلؤة فيها تضيء ما بين المشرق والمغرب»، أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا أبو طاهر الحارثي أنا محمد بن يعقوب أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال أنا عبد الله بن المبارك عن محمد بن سليمان عن الحجاج بن عتاب العبدي عن عبد الله بن معبد الرماني عن أبي هريرة قال: أدنى أهل الجنة منزلة وما منهم دنيء لَمَن يغدو عليه ويروح عشرة آلاف خادم، مع كل واحد منهم طريفة ليست مع صاحبه.

قوله عز وجل: ﴿لأصحاب اليمين﴾، يريد أنشأناهم لأصحاب اليمين.

﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾، من المؤمنين الذين كانوا قبل هذه الأمة.

﴿وثلثة من الآخرين﴾، من مؤمني هذه الأمة، هذا قول عطاء ومقاتل، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني الحسين بن محمد العدل ثنا عبد الله بن عبد الرحمن الدقاق ثنا محمد بن عبد العزيز ثنا عيسى بن المساور ثنا الوليد بن مسلم ثنا عيسى بن موسى عن عروة بن رويم قال: لَمَّا أنزل الله على رسوله ﷺ ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ بكى عمر رضي الله عنه، فقال: يا نبي الله آمناً برسول الله ﷺ وصدّقناه ومَن ينجو منّا قليل؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾، فدعا رسول الله ﷺ عمر فقال: «قد أنزل الله عز وجل فيما قلت». فقال عمر رضي الله عنه: رضينا عن ربنا وتصديق لنبينا، فقال رسول الله ﷺ: «من آدم إلينا ثلثة ومني إلى يوم القيامة ثلثة، ولا يستتمها إلا سودان من رعاة الإبل ممّن قال لا إله إلا الله»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا مسدد ثنا حصين بن نمير عن حصين بن عبد الرحمن عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، وَرَأَيْتُ سَوَاداً كَثِيراً سَدَّ الْأَفْقَ فَرَجَوْتُ أَنْ يَكُونُوا أُمَّتِي، فَقِيلَ: هَذَا مُوسَى فِي قَوْمِهِ، ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ فَرَأَيْتُ سَوَاداً كَثِيراً سَدَّ الْأَفْقَ فَقِيلَ لِي: انْظُرْ هَكَذَا وَهَكَذَا فَرَأَيْتُ سَوَاداً كَثِيراً سَدَّ الْأَفْقَ، فَقِيلَ: هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ وَمَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بَغَيْرِ حِسَابٍ، فَتَفَرَّقَ النَّاسُ وَلَمْ يَبَيِّنْ لَهُمْ فَتَذَكَّرَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: أَمَا نَحْنُ

قال «كنا مع رسول الله ﷺ في قبة نحواً من أربعين فقال أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟ قلنا نعم قال أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟ قلنا نعم قال والذي نفس محمد بيده إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مؤمنة مسلمة وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر» وعن بريدة عن النبي ﷺ قال «أهل الجنة عشرون ومائة صف ثمانون منها من هذه الأمة وأربعون من سائر الأمم» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن وذهب جماعة إلى أن الثلثين جميعاً من هذه الأمة وهو قول أبي العالية ومجاهد وعطاء بن أبي رباح والضحاك قالوا ثلثة من الأولين من سابقي هذه الأمة وثلثة من الآخرين من هذه الأمة أيضاً في آخر الزمان يدل على ذلك ما روى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن عباس في هذه الآية ثلثة من الأولين وثلثة من الآخرين قال قال رسول الله ﷺ «هما جميعاً من أمتي» وهذا القول هو اختيار الزجاج قال معناه جماعة ممن تبع النبي ﷺ وآمن به وعابنه وجماعة ممن آمن به وكان بعده ولم يعابنه.

فإن قلت كيف قال في الآية الأولى وقليل من الآخرين وقال في هذه الآية وثلثة من الآخرين؟

قلت: الآية الأولى في السابقين الأولين وقليل ممن يلحق بهم من الآخرين وهذه الآية في أصحاب اليمين وهم كثيرون من الأولين والآخرين وحكي عن بعضهم أن هذه ناسخة للأولى واستدل بحديث عروة بن رويم ونحوه والقول بالنسخ لا يصح لأن الكلام في الآيتين خبر والخبر لا يدخله النسخ. قوله تعالى:

فولدنا في الشرك ولكننا آمنّا بالله ورسوله ولكن هؤلاء هم أبناؤنا فبلغ النبي ﷺ فقال: «هم الذين لا يتطيرون ولا يسترقون ولا يكتونون وعلى ربهم يتوكلون»، فقام عكاشة بن محصن فقال: أمنهم يا رسول الله؟ فقال: «نعم»، فقام آخر فقال: أمنهم أنا؟ قال عليه السلام: «قد سبقك بها عكاشة». ورواه عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ قال: «عرضت علي الأنبياء الليلة باتباعها حتى أتى علي موسى عليه السلام في كبكه بني إسرائيل فلما رأيته أعجبوني، فقلت: أي رب هؤلاء؟ قيل: هذا أخوك موسى ومن بني إسرائيل، قلت: رب فأين أمتي؟ قيل: انظر عن يمينك فإذا ظراب مكة قد سدّت بوجوه الرجال، قيل: هؤلاء أمتك أرضيت؟ قلت: رب أرضيت رب أرضيت، قيل: انظر عن يسارك فإذا الأفق قد سدّ بوجوه الرجال، قيل: هؤلاء أمتك أرضيت؟ قلت: رب أرضيت، فقيل: إن مع هؤلاء سبعين ألفاً يدخلون الجنة لا حساب لهم، فقال نبي الله ﷺ إن استطعتم أن تكونوا من السبعين فكونوا وإن عجزتم وقصّرتم فكونوا من أهل الظراب وإن عجزتم فكونوا من أهل الأفق فإني قد رأيت ثم أناساً يتهاوشون كثيراً»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن بشار ثنا غندر ثنا شعبة عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله قال: كنا مع رسول الله ﷺ في قبة فقال: «أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟ قلنا: نعم، قال: «أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟ قلنا: نعم، قال: «والذي نفس محمد بيده إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة، وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر». وذهب جماعة إلى أن الثلثين جميعاً من هذه الأمة، وهو قول أبي العالية ومجاهد وعطاء بن أبي رباح والضحاك، قالوا: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ من سابقي هذه الأمة ﴿وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ من هذه الأمة في آخر الزمان، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني الحسين بن محمد الدينوري ثنا أحمد بن إسحاق الضبي أنا أبي خليفة الفضل بن الحباب ثنا محمد بن كثير أنا سفيان عن أبان بن أبي عياش، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ و﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ قال رسول الله ﷺ: «هما جميعاً من أمتي».

وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سُمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا
 قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا
 لَمَبَعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أُنِيتُمْ
 أَضْأَلُونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَا كَلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زُقُومٍ ﴿٥٢﴾ فَالْتَوْنَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَرِبُوا شَرَبَ
 الْهَيْمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا نُزِّلَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾

﴿وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال﴾ قد تقدم أنه بمعنى التعجب من حالتهم وهم الذين يعطون كتبهم بشمائلهم ثم بين منقلبهم وما أعد لهم من العذاب فقال تعالى: ﴿في سموم﴾ أي في حر النار وقيل في ريح شديد الحرارة ﴿وحميم﴾ أي ماء حار يغلي، ﴿وظل من يحموم﴾ يعني في ظل من دخان شديد السواد قيل إن النار سواد وأهلها سود وكل شيء فيها أسود وقيل اليحموم اسم من أسماء النار ﴿لا بارد ولا كريم﴾ يعني لا بارد المنزل ولا كريم المنظر وذلك لأن فائدة الظل ترجع إلى أمرين أحدهما دفع الحر والثاني حسن المنظر وكون الإنسان فيه مكرماً وظل أهل النار بخلاف هذا لأنهم في ظل من دخان أسود حار، ثم بين بما استحقوا ذلك فقال تعالى: ﴿إنهم كانوا قبل ذلك﴾ يعني في الدنيا، ﴿مترفين﴾ يعني منعمين ﴿وكانوا يصرون على الحنث العظيم﴾ يعني على الذنب الكبير وهو الشرك وقيل الحنث العظيم اليمين الغموس وذلك أنهم كانوا يحلفون أنهم لا يبعثون وكذبوا في ذلك يدل عليه سياق الآية وهو قوله تعالى: ﴿وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون أو أبأؤنا الأولون﴾ فرد الله تعالى عليهم بقوله ﴿قل إن الأولين والآخرين﴾ يعني الآباء والأبناء، ﴿لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم﴾ يعني أنهم يجمعون ويحشرون ليوم الحساب ﴿ثم إنكم أيها الضالون﴾ يعني عن الهدى ﴿المكذبون﴾ أي بالبعث والخطاب لكفار مكة وقيل إنه عام مع كل ضال مكذب، ﴿لاكلون من شجر من زقوم﴾ تقدم تفسيره ﴿فمالثون منها البطون﴾

قوله تعالى: ﴿وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال﴾ في سموم، ريح حارة، ﴿وحميم﴾، ماء حار. ﴿وظل من يحموم﴾، دخان شديد السواد، تقول العرب: أسود يحموم إذا كان شديد السواد، وقال الضحاك: النار سوداء وأهلها سود، وكل شيء فيها أسود. وقال ابن كيسان اليحموم اسم من أسماء النار. ﴿لا بارد ولا كريم﴾، قال قتادة: لا بارد المنزل ولا كريم المنظر. وقال سعيد بن المسيب: ولا كريم ولا حسن، نظيره ﴿من كل زوج كريم﴾ [الشعراء: ٧، لقمان: ١٠]. وقال مقاتل: طيب.

﴿إنهم كانوا قبل ذلك﴾، يعني في الدنيا، ﴿مترفين﴾ منعمين. ﴿وكانوا يصرون﴾، يقيمون ﴿على الحنث العظيم﴾، على الذنب الكبير وهو الشرك. وقال الشعبي: الذنب العظيم اليمين الغموس. ومعنى هذا: أنهم كانوا يحلفون أنهم لا يبعثون وكذبوا في ذلك. ﴿وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون﴾، قرأ أبو جعفر ونافع ويعقوب ﴿أئذا﴾ مستفهماً، ﴿إننا﴾ بتركه، وقرأ الآخرون بالاستفهام فيهما.

﴿أو أبأؤنا الأولون﴾ قل إن الأولين والآخرين ﴿لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم﴾ ثم إنكم أيها الضالون المكذبون ﴿لاكلون من شجر من زقوم﴾ فمالئون منها البطون ﴿فشاربون عليه من الحميم﴾ فشاربون شرب الهيم، قرأ أهل المدينة وعاصم وحزمة ﴿شرب﴾ بضم الشين، وقرأ الباقر بفتحها وهما لغتان فالفتح على

فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم ﴿ يعني الإبل العطاش قيل إن الهيماء داء يصيب الإبل فلا تروى معه ولا تزال تشرب حتى تهلك وقيل الهيم الأرض ذات الرمل التي لا تروى بالماء قيل يلقي على أهل النار العطش فيشاربون من الحميم شرب الهيم فلا يروون ﴿ هذا نزلهم ﴾ يعني ما ذكر من الزقوم والحميم أي رزقهم وغذاؤهم وما أعد لهم ﴿ يوم الدين ﴾ يعني يوم يجازون بأعمالهم ثم احتج عليهم في البعث بقوله تعالى :

نَحْنُ خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَنْ يُبَدَّلَ أَمْثَلُكُمْ وَنُشِئْكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطًا مَّا فَظَلَمْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾

﴿ نحن خلقناكم ﴾ يعني ولم تكونوا شيئاً وأنتم تعلمون ذلك ﴿ فلولا ﴾ أي فهلا ﴿ تصدقون ﴾ يعني بالبعث بعد الموت .

قوله عز وجل : ﴿ أفأرأيتم ما تمنون ﴾ يعني ما تصبون في الأرحام من النطف ﴿ أنتم تخلقونه ﴾ أي أنتم تخلقون ما تمنون بشراً ﴿ أم نحن الخالقون ﴾ أي إنه خلق النطفة وصورها وأحياها فلم لا تصدقون بأنه واحد قادر على أن يعيدكم كما أنشأكم احتج عليهم في البعث بالقدرة على ابتداء الخلق ، ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت ﴾ يعني الآجال فمنكم من يبلغ الكبر والهرم ومنكم من يموت صبيّاً وشاباً وغير ذلك من الآجال القريبة والبعيدة وقيل معناه إنه جعل أهل السماء وأهل الأرض فيه سواء شريفهم ووضيعهم فعلى هذا القول يكون معنى قدرنا قضينا ، ﴿ وما نحن بمسبوقين ﴾ يعني لا يفوتني شيء أريده ولا يمتنع مني أحد وقيل معناه وما نحن بمغلوبين عاجزين عن إهلاككم وإبدالكم بأمثالكم وهو قوله تعالى : ﴿ على أن نبدل أمثالكم ﴾ أي نأتي بخلق مثلكم بدلاً منكم في أسرع حين ﴿ وننشئكم ﴾ أي نخلقكم ﴿ فيما لا تعلمون ﴾ أي من الصور والمعنى نغير حليتكم إلى ما هو أسمح منها من أي خلق

المصدر والضم اسم بمعنى المصدر كالضعف و﴿ الهيم ﴾ الإبل العطاش ، قال عكرمة وقتادة : الهيماء داء يصيب الإبل لا تروى معه ولا تزال تشرب حتى تهلك . يقال : جمل أهيم ، وناقة هيماء ، والإبل هيم . وقال الضحاك وابن عيينة : الهيم الأرض السهلة ذات الرمل .

﴿ هذا نزلهم ﴾ ، يعني ما ذكر من الزقوم والحميم ، أي رزقهم وغذاؤهم وما أعد لهم ، ﴿ يوم الدين ﴾ ، يوم يجازون بأعمالهم ثم احتج عليهم في البعث .

فقال تعالى : ﴿ نحن خلقناكم ﴾ ، قال مقاتل خلقناكم ولم تكونوا شيئاً وأنتم تعلمون ذلك ، ﴿ فلولا ﴾ فهلا ﴿ تصدقون ﴾ ، بالبعث .

﴿ أفأرأيتم ما تمنون ﴾ ، تصبون في الأرحام من النطف .

﴿ أنتم تخلقونه ﴾ ، يعني أنتم تخلقونه ما تمنون بشراً ، ﴿ أم نحن الخالقون ﴾ نحن قدرنا ، قرأ ابن كثير بتخفيف الدال والباقون بتشديدها وهما لغتان ، ﴿ بينكم الموت ﴾ ، قال مقاتل فمنكم من يبلغ الهرم ومنكم من يموت صبيّاً وشاباً . وقال الضحاك : تقديره إنه جعل أهل السماء وأهل الأرض فيه سواء فعلى هذا يكون معنى قدرنا قضينا . ﴿ وما نحن بمسبوقين ﴾ ، بمغلوبين عاجزين عن إهلاككم وإبدالكم بأمثالكم .

شئنا وقيل نبدل صفاتكم فنجعلكم قردة وخنازير كما فعلنا بمن كان قبلكم أي إن أردنا أن نفعل ذلك بكم ما فاتنا، وقال سعيد بن المسيب فيما لا تعلمون في حواصل طيور سود كأنها الخطاطيف تكون ببرهوت وهو واد باليمن وهذه الأقوال كلها تدل على المسخ وعلى أنه لو شاء أن يبدلهم بأمثالهم من بني آدم قدر ولو شاء أن يمسخهم في غير صورهم قدر، وقال بعض أهل المعاني هذا يدل على النشأة الثانية يكونها الله تعالى في وقت لا يعلمه العباد ولا يعلمون كيفيته كما علموا الإنشاء الأول من جهة التناسل ويكون التقدير على هذا وما نحن بمسبوقين على أن ننشئكم في وقت لا تعلمونه يعني وقت البعث والقيامة، وفيه فائدة وهو التحريض على العمل الصالح لأن التبديل والإنشاء هو الموت والبعث وإذا كان ذلك واقعاً في الأزمان ولا يعلمه أحد فينبغي أن لا يتكل الإنسان على طول المدة ولا يغفل عن إعداد العدة ﴿ولقد علمتم النشأة الأولى﴾ أي الخلق الأولى ولم تكونوا شيئاً وفيه تقرير للنشأة الثانية يوم القيامة ﴿فلولا تذكرون﴾ أي بأي قادر على إعادتكم كما قدرت على إبدائكم أول مرة.

قوله تعالى: ﴿أفأرأيتم ما تحرثون﴾ لما ذكر الله تعالى ابتداء الخلق وما فيه من دلائل الوحداية ذكر بعده الرزق لأن به البقاء وذكر أموراً ثلاثة المأكول والمشروب وما به إصلاح المأكول والمشروب ورتبه ترتيباً حسناً فذكر المأكول أولاً لأنه هو الغذاء وأتبعه المشروب لأن به الاستمرار ثم النار التي بها الإصلاح وذكر من أنواع المأكول الحب لأنه هو الأصل ومن المشروب الماء لأنه أيضاً هو الأصل وذكر من المصلحات النار لأن بها إصلاح أكثر الأغذية، فقله أفأرأيتم ما تحرثون أي ما تثيرون من الأرض وتلقون فيه البذر ﴿أنتم تزرعونه﴾ أي تنبتونه وتنشئونه حتى يشتد ويقوم على سوقه ﴿أم نحن الزارعون﴾ معناه أنتم فعلتم ذلك أم الله ولا شك في أن إيجاد الحب في السنبل ليس بفعل أحد غير الله تعالى وإن كان إلقاء البذر من فعل الناس، ﴿لو نشاء لجعلناه﴾ يعني ما تحرثونه وتلقون فيه من البذر، ﴿حطاماً﴾ أي تبناً لا قمح فيه وقيل هشيماً لا ينتفع به في مطعم ولا غيره وقيل هو جواب لمعاند يقول نحن نحتره وهو بنفسه يصير زرعاً لا بفعلنا ولا بفعل غيرنا فرد الله عليّ هذا المعاند بقوله لو نشاء لجعلناه حطاماً فهل تقدرون أنتم على حفظه أو هو يدفع عن نفسه بنفسه تلك الآفات التي تصيبه ولا يشك أحد في أن دفع الآفات ليس إلا بإذن الله وحفظه،

فذلك قوله عز وجل: ﴿على أن نبدل أمثالكم﴾، يعني نأتي بخلق مثلكم بدلاً منكم، ﴿وننشئكم﴾، نخلقكم ﴿فيما لا تعلمون﴾، من الصور، قال مجاهد: في أي خلق شئنا. وقال الحسن: أي نبدل صفاتكم فنجعلكم قردة وخنازير كما فعلنا بمن كان قبلكم، يعني إن أردنا أن نفعل ذلك ما فاتنا ذلك. وقال سعيد بن المسيب: فيما لا تعلمون يعني في حواصل طير سود تكون ببرهوت كأنها الخطاطيف وبرهوت واد باليمن. ﴿ولقد علمتم النشأة الأولى﴾، الخلق الأولى ولم تكونوا شيئاً. ﴿فلولا تذكرون﴾، أي قادر على إعادتكم كما قدرت على أعدائكم.

﴿أفأرأيتم ما تحرثون﴾، يعني تثيرون من الأرض وتلقون فيها من البذر.

﴿أنتم تزرعونه﴾، تنبتونه، ﴿أم نحن الزارعون﴾، المنبتون.

﴿لو نشاء لجعلناه حطاماً﴾، قال عطاء تبناً لا قمح فيه، وقيل: هشيماً لا ينتفع به في مطعم وغذاء، ﴿فظلمت﴾، وأصله فظلمتكم، حُذفت إحدى اللامين تخفيفاً، ﴿تفكهون﴾، تتعجبون بما نزل بكم في زرعكم، وهو قول عطاء والكلبي ومقاتل. وقيل: تندمون على نفقاتكم، وهو قول يمان، نظيره: ﴿فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها﴾ [الكهف: ٤٢]، وقال الحسن: تندمون على ما سلف منكم من المعصية التي أوجبت تلك العقوبة. وقال عكرمة: تتلاومون. وقال ابن كيسان: تحزنون. قال الكسائي: هو تلَهَف على ما فات وهو من الأضداد، تقول

﴿فَظَلَّمْتُمْ تَفَكُّهُونَ﴾ أي تتعجبون مما نزل بكم في زرعكم وقيل تندمون على نفقاتكم وقيل تندمون على ما سلف منكم من المعاصي التي أوجبت تلك العقوبة وقيل تتلاومون وقيل تحزنون وقيل هو تلهف على ما فات.

إِنَّا لَمَغْرُمُونَ ﴿١٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿١٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿١٨﴾ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿١٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٢١﴾ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٢٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴿٢٣﴾

﴿إنا لمغرمون﴾ أي وتقولون فحذف القول ومعنى الغرم ذهاب المال بغير عوض وقيل معناه لموقع بنا وقال ابن عباس رضي الله عنهما لمعذبون يعني أنهم عذبوا بذهاب أموالهم بغير فائدة والمعنى إنا غررنا الحب الذي بذرناه فذهب بغير عوض، ﴿بل نحن محرومون﴾ أي ممنوعون والمعنى حررنا الذي كنا نطلبه من الربيع في الزرع، ﴿أفرايتم الماء الذي تشربون﴾ أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ﴿ذكرهم الله تعالى نعمة عليهم بإنزال المطر الذي لا يقدر عليه إلا الله عز وجل: ﴿لو نشاء جعلناه أجاجاً﴾ قال ابن عباس شديد الملوحة وقيل مرأ لا يمكن شربه ﴿فلولا﴾ أي فلا ﴿تشكرون﴾ يعني نعمة الله عليكم ﴿أفرايتم النار التي تورون﴾ يعني تقدحون من الزند ﴿أنتم أنشأتم شجرتها﴾ يعني التي تقدح منها النار وهي المرخ والعفار وهما شجرتان تقدح منهما النار وهما رطبتان وقيل أراد جميع الشجر الذي توقد منه النار ﴿أم نحن المنشئون نحن جعلناها﴾ يعني نار الدنيا ﴿تذكرة﴾ أي للنار الكبرى إذا رأى الرائي هذه النار ذكر بها نار جهنم فيخشى الله ويخاف عقابه وقيل موعظة يتعظ بها المؤمن. (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن

العرب: تفكهت أي تنعمت وتفكهت أي حزنت.

﴿إنا لمغرمون﴾، قرأ أبو بكر عن عاصم (أثنا) بهمزيين وقرأ الآخرون على الخبر، ومجاز الآية فظلمت تفكهون وتقولون إنا لمغرمون. وقال مجاهد وعكرمة لموقع بنا. وقال ابن عباس وقتادة: معذبون، والغرام العذاب. وقال الضحاك وابن كيسان: غررنا أموالنا وصار ما أنفقنا غراماً علينا. والمغرم الذي ذهب ماله بغير عوض.

وهو قوله: ﴿بل نحن محرومون﴾، محدودون ممنوعون أي حررنا ما كنا نطلبه من الربيع في الزرع.

﴿أفرايتم الماء الذي تشربون﴾ * أنتم أنزلتموه من المزن، السحاب واحدها مزن، ﴿أم نحن المنزلون﴾ * لو نشاء جعلناه أجاجاً، قال ابن عباس شديد الملوحة، قال الحسن: مرأ. ﴿فلولا تشكرون﴾. ﴿أفرايتم النار التي تورون﴾، تقدحون وتستخرجون من زندكم.

﴿أنتم أنشأتم شجرتها﴾، التي تقدح منها النار وهي المرخ والعفار، ﴿أم نحن المنشئون﴾ * نحن جعلناها، خلقناها يعني نار الدنيا، ﴿تذكرة﴾، للنار الكبرى إذا رآها الرائي ذكر جهنم، قاله عكرمة ومجاهد ومقاتل. وقال عطاء: موعظة يتعظ بها المؤمن. أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي أنا أبو علي زاهر بن أحمد الفقيه ثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نار بني آدم التي يوقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم»، قالوا: يا رسول الله إن كانت لكافية، قال: «فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً». ﴿ومتاعاً﴾، بلغة ومنفعة، ﴿للمقوين﴾، المسافرين والمقوي النازل في الأرض والقي والقواء هو القفر الخالية البعيدة من العمران يقال قوت الدار إذا خلت من سكانها والمعنى أنه يتنفع بها أهل البوادي والأسفار، فإن منفعتهم بها أكثر من منفعة المقيم وذلك أنهم

رسول الله ﷺ قال «ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم قالوا والله إن كانت لكافية يا رسول الله قال فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرها» ﴿ومتاعاً﴾ أي بلغة ومنفعة ﴿للمقوين﴾ يعني للمسافرين والمقوي النازل في الأرض القواء وهي القفر الخالية البعيدة من العمران والمعنى أنه ينتفع بها أهل البوادي والسفار فإن منفعتهم أكثر من المقيم فإنهم يوقدون بالليل لتهرب الشماع ويهتدي بها الضال إلى غير ذلك من المنافع هذا قول أكثر المفسرين وقيل المقوين الذين يستمتعون بها في الظلمة ويصطلون بها من البرد ويتنفعون بها في الطبخ والخبز إلى غير ذلك من المنافع وقيل المقوي من الأضداد يقال للفقير مقول لخلوه من المال ويقال للغني مقول لقوته على ما يريد والمعنى أن فيها متاعاً ومنفعة للفقراء والأغنياء جميعاً لا غنى لأحد عنها.

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ ﴿وَأِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ ﴿إِنَّهُمْ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ ﴿٧٥﴾

﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ لما ذكر الله ما يدل على وحدانيته وقدرته وإنعامه على سائر الخلق خاطب نبيه ﷺ ويجوز أن يكون خطاباً لكل فرد من الناس فقال تعالى فسبح باسم ربك أي برىء الله ونزهه عما يقول المشركون في صفته والاسم يكون بمعنى الذات والمعنى فسبح بذات ربك العظيم.

قوله عز وجل: ﴿فلا أقسم﴾ قال أكثر المفسرين معناه فأقسم ولا صلة مؤكدة وقيل لا على أصلها وفي معناها وجهان أحدهما أنها ترجع إلى ما تقدم ومعناها النهي وتقديره فلا تكذبوا ولا تجحدوا ما ذكرته من النعم والحجج.

الوجه الثاني: أن لا رد لما قاله الكفار في القرآن من أنه سحر وشعر وكهانة والمعنى ليس الأمر كما تقولون ثم استأنف القسم فقال أقسم والمعنى لا والله لا صحة لقول الكفار وقيل إن لا هنا معناها النفي فهو كقول القائل لا تسأل عما جرى وهو يريد تعظيم الأمر لا النهي عن السؤال، ﴿بمواقع النجوم﴾ قال ابن عباس أراد نجوم القرآن فإنه كان ينزل على رسول الله ﷺ متفرقاً وقيل أراد مغارب النجوم ومساقطها وقيل أراد منازلها وقيل انكدارها وانتشارها يوم القيامة وقيل مواقعها في اتباع الشياطين عند الرجم ﴿وإنه القسم لو تعلمون عظيم﴾ قيل هذا يدل على أن المراد بمواقع النجوم نزول القرآن والمعنى إن القسم بمواقع النجوم لقسم عظيم لو تعلمون عظمته لاتنفعتم بذلك وقيل معنى لو

يوقدون ليلاً لتهرب منهم السباع ويهتدي بها الضلال وغير ذلك من المنافع، هذا قول أكثر المفسرين. وقال مجاهد وعكرمة: للمقوين يعني للمستمتعين بها من الناس أجمعين المسافرين والحاضرين يستضيئون بها في الظلمة ويصطلون من البرد، ويتنفعون بها في الطبخ والخبز، قال الحسن: بلغة للمسافرين يتبلغون بها إلى أسفارهم يحملونها في الخرق والجوايق. وقال ابن زيد: للجائعين تقول العرب أقويت منذ كذا وكذا أي ما أكلت شيئاً. قال قطرب: المقوي من الأضداد يقال للفقير مقول لخلوه من المال، ويقال للغني مقول لقوته على ما يريد، يقال: أقوى الرجل الرجل إذا قويت دوابه وكثر ماله، وصار إلى حالة القوة، والمعنى أن فيها متاعاً للأغنياء والفقراء جميعاً لا غنى لأحد عنها.

﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾.

قوله عز وجل: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾، قال أكثر المفسرين: معناه أقسم ولا صلة، وكان عيسى بن عمر يقرأ: فلا قسم، على التحقيق. وقيل: قوله: ﴿لا﴾ رد لما قاله الكفار في القرآن إنه سحر وشعر وكهانة، معناه ليس الأمر كما تقولون ثم استأنف القسم، فقال: ﴿أقسم بمواقع النجوم﴾. قرأ حمزة والكسائي بموقع على

تعلمون أي فاعلموا عظمته وقيل إنه اعتراض بين القسم والمقسم عليه والمعنى فأقسم بمواقع النجوم، ﴿إنه لقرآن كريم﴾ أي إن الكتاب الذي أنزل على محمد ﷺ لقرآن كريم أي عزيز مكرم لأنه كلام الله تعالى ووحيه إلى نبيه ﷺ وقيل الكريم الذي من شأنه أن يعطي الكثير وسمي القرآن كريماً لأنه يفيد الدلائل التي تؤدي إلى الحق في الدين وقيل الكريم اسم جامع لما يحمد والقرآن الكريم لما يحمد فيه من الهدى والنور والبيان والعلم والحكم فالفقيه يستدل به ويأخذ منه والحكيم يستمد منه ويحتج به والأديب يستفيد منه ويتقوى به فكل عالم يطلب أصل علمه منه وقيل سمي كريماً لأن كل أحد يناله ويحفظه من كبير وصغير وذكي وبلید بخلاف غيره من الكتب، وقيل إن الكلام إذا كرر مراراً يسأمه السامعون ويهون في الأعين وتمله الآذان والقرآن عزيز كريم لا يهون بكثرة التلاوة ولا يخلق بكثرة الترداد ولا يملئه السامعون ولا يثقل على الألسنة بل هو غرض طري يبقى أبد الدهر كذلك ﴿في كتاب مكنون﴾ أي مصون مستور عند الله تعالى في اللوح المحفوظ من الشياطين من أن يناله بسوء وقيل المراد بالكتاب المصحف ومعنى مكنون مصون محفوظ من التبديل والتحريف والقول الأول أصح، ﴿لا يمسه﴾ أي ذلك الكتاب المكنون ﴿إلا المطهرون﴾ وهم الملائكة الموصوفون بالطهارة من الشرك والذنوب والأحداث يروى هذا القول عن ابن عباس وأنس وهو قول سعيد بن جبیر وأبي العالية وقتادة وابن زيد وقيل هم السفرة الكرام البررة وعلى القول الثاني من أن المراد بالكتاب المصحف فقل معنى لا يمسه إلا المطهرون أي من الشرك وكان ابن عباس ينهى أن تمكن اليهود والنصارى من قراءة القرآن قال الفراء لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن به وقيل معناه لا يقرأه إلا الموحدون وقال قوم معناه لا يمسه إلا المطهرون من الأحداث والجنابات وظاهر الآية نفي ومعناها نهى قالوا لا يجوز للجنب ولا للحائض ولا للمحدث حمل المصحف ولا مسه وهو قول عطاء وطاوس وسالم والقاسم وأكثر أهل العلم وبه قال مالك والشافعي وأكثر الفقهاء يدل عليه ما روى مالك في الموطأ عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم إن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمر بن حزم «أن لا تمس القرآن إلا طاهراً» أخرجه مالك مرسلاً وقد جاء موصولاً عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل اليمن بهذا والصحيح فيه الإرسال وروى الدارقطني بسنده عن سالم عن أبيه قال قال رسول الله ﷺ «لا يمسه القرآن إلا طاهر» والمراد بالقرآن المصحف سماه قرآنًا على قرب الجوار والاتساع، كما روي «أن رسول الله ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو» وأراد به المصحف وقال الحكم وحماة وأبو حنيفة يجوز للمحدث والجنب حمل المصحف ومسه بخلافه.

التوحيد. وقرأ الآخرون بمواقع على الجميع. قال ابن عباس: أراد نجوم القرآن فإنه كان نزل على رسول الله ﷺ متفرقاً نجوماً. وقال جماعة من المفسرين: أراد مغارب النجوم ومساقطها. وقال عطاء بن أبي رباح أراد منازلها. وقال الحسن: أراد انكدارها وانتشارها يوم القيامة.

﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ إنه ﴿، يعني هذا الكتاب وهو موضع القسم. ﴿لقرآن كريم﴾، عزيز مكرم لأنه كلام الله. قال بعض أهل المعاني: الكريم الذي من شأنه أن يعطي الخير الكثير.

﴿في كتاب مكنون﴾، مصون عند الله في اللوح المحفوظ محفوظ من الشياطين.

﴿لا يمسه﴾، أي ذلك الكتاب المكنون، ﴿إلا المطهرون﴾، وهم الملائكة الموصوفون بالطهارة يروى هذا عن أنس وهو قول سعيد بن جبیر وأبي العالية، وقتادة وابن زيد: أنهم الملائكة، وروى حسن عن الكلبي قال هم السفرة الكرام البررة وروى محمد بن الفضل عنه لا يقرأه إلا الموحدون. قال عكرمة: وكان ابن عباس ينهى أن يمكن اليهود والنصارى من قراءة القرآن. قال الفراء: لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن به. وقال قوم: معناه لا يمسه إلا المطهرون من الأحداث والجنابات. وظاهر الآية نفي ومعناها نهى، قالوا: لا يجوز للجنب ولا للحائض ولا

فإن قلت: إذا كان الأصح أن المراد من الكتاب هو اللوح المحفوظ وأن المراد من «لا يمسه إلا المطهرون» هم الملائكة ولو كان المراد نفي الحدث لقال لا يمسه إلا المتطهرون من التطهر فكيف يصح قول الشافعي لا يصح للمحدث مس المصحف.

قلت من قال إن الشافعي أخذه من صريح الآية حملة على التفسير الثاني وهو القول بأن المراد من الكتاب هو المصحف ومن قال إنه أخذه من طريق الاستنباط قال المس بطهر صفة دالة على التعظيم والمس بغير طهر نوع استهانة وهذا لا يليق بمباشرة المصحف الكريم والصحيح أنه أخذه من السنة ودليله ما تقدم من الأحاديث والله أعلم. قوله تعالى:

تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَّظُرُونَ ﴿٨٤﴾

﴿تنزيل من رب العالمين﴾ صفة للقرآن أي القرآن منزل من عند رب العالمين سمي المنزل تنزيلاً على اتساع اللغة يقال للمقدور قدر وللمخلوق خلق وفيه رد على من قال إن القرآن شعر أو سحر أو كهانة فقال الله تعالى بل القرآن تنزيل من رب العالمين.

قوله عز وجل: ﴿أفبهذا الحديث﴾ يعني القرآن ﴿أنتم﴾ أي يا أهل مكة ﴿مدهنون﴾ قال ابن عباس مكذبون وقيل كافرون والمدهن والمداهن الكذاب والمنافق والإدهان الجري في الباطل على خلاف الظاهر هذا أصله ثم قيل للمكذب والكافر مدهن وإن صرح بالتكذيب والكفر، ﴿وتجعلون رزقكم﴾ أي حظكم ونصيبكم من القرآن ﴿أنكم تكذبون﴾ قال الحسن في هذه الآية خسر عبد لا يكون حظه من كتاب الله إلا التكذيب وقال جماعة من المفسرين معناه وتجعلون شكركم أنكم تكذبون أي بنعمة الله عليكم وهذا في الاستسقاء بالأنواء وذلك أنهم كانوا إذا مطروا يقولون مطرنا بنوء كذا ولا يرون ذلك المطر من فضل الله عليهم ف قيل لهم أتجعلون رزقكم أي شكركم بما رزقكم التكذيب فمن نسب الإنزال إلى النجم فقد كذب برزق الله تعالى ونعمه وكذب بما جاء به القرآن والمعنى أتجعلون بدل الشكر التكذيب، (ق) عن يزيد بن خالد الجهني قال «صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال قال أصبح من عبادي

المحدث حمل المصحف ولا مسّه، وهو قول عطاء وطاوس وسالم والقاسم وأكثر أهل العلم، وبه قال مالك والشافعي وقال الحكم وحماد وأبو حنيفة: يجوز للمحدث والجنب حمل المصحف ومسّه بغلاف، والأول قول أكثر الفقهاء، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمر بن حازم أن لا يمسه القرآن إلا طاهر والمراد بالقرآن المصحف، سمّاه قرآنا على قرب الجواز والاتساع. كما رُوي أن رسول الله ﷺ: ﴿نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو﴾، وأراد به المصحف.

﴿تنزيل من رب العالمين﴾، أي القرآن مُنزل من عند رب العالمين سُمي المنزل تنزيلاً على اتساع اللغة، كما يقال للمقدور قدر وللمخلوق خلق.

﴿أفبهذا الحديث﴾، يعني القرآن، ﴿أنتم﴾، يا أهل مكة، ﴿مدهنون﴾، قال ابن عباس: مكذبون. وقال مقاتل بن حيان: كافرون نظيره: ﴿ودّوا لو تدهن فيدهنون﴾ [القلم: ٩]، والمدهن والمداهن الكذاب

مؤمن بي وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب» رواه مسلم وفيه عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ بمعناه وزاد فنزلت هذه الآية فلا أقسم بمواقع النجوم إلى قوله وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون، وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال ما أنزل الله من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين ينزل الله الغيث فيقولون الكوكب كذا وكذا وفي رواية بكوكب كذا وكذا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون قال شكركم تقولون مطرنا بنوء كذا وكذا وبنجم كذا وكذا» وفي رواية بكوكب كذا وكذا أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب.

قوله في أثر سماء أي أثر مطر والنوء الكوكب يقال ناء النجم بنوء إذا سقط وغاب وقيل ناء إذا نهض وطلع واختلف العلماء في معنى الحديث وكفر من قال مطرنا بنوء كذا على قولين أحدهما أنه كفر بالله تعالى سالب لأصل الإيمان مخرج عن ملة الإسلام وذلك فيمن قال ذلك معتقداً أن الكوكب فاعل مدبر منشىء للمطر كما كان بعض الجاهلية يزعم فمن اعتقد هذا فلا شك في كفره، وهذا القول هو الذي ذهب إليه جماهير العلماء منهم الشافعي وهو ظاهر الحديث وعلى هذا لو قال مطرنا بنوء كذا وكذا وهو معتقد أن إيجاد المطر من الله ورحمته وأن النوء ميقات له ومراده إنا مطرنا في وقت طلوع نجم كذا ولم يقصد إلى فعل النجم كما جاء عن عمر أنه استسقى بالمصلى ثم نادى العباس كم بقي من نوء الثريا؟ فقال إن العلماء يزعمون أنها تعترض في الأفق سبعاً بعد وقوعها فوالله ما مضت تلك السبع حتى غيث الناس وإنما أراد عمركم بقي من الوقت الذي جرت العادة أنه إذا تم أتى الله بالمطر فهذا جائز لا كفر فيه واختلفوا في كراهية هذا والأظهر أنها كراهية تنزيه لا إثم فيها ولا تحريم وسبب هذه الكراهية أنها كلمة مترددة بين الكفر وغيره فيساء الظن بقائلها ولأنها من شعار الجاهلية ومن سلك مسلكهم، والقول الثاني في تأويل أصل الحديث أن المراد بالكفر كفر النعمة لله تعالى لاقتصاره على إضافة الغيث إلى الكواكب وهذا جار فيمن لا يعتقد تدبير الكواكب

والمناقض، وهو من الادهان وهو الجري في الباطن على خلاف الظاهر، هذا أصله ثم قيل للمكذب مدهن وإن صرح بالتكذيب والكفر.

﴿وتجعلون رزقكم﴾، حظكم ونصيبكم من القرآن، ﴿أنكم تكذبون﴾، قال الحسن في هذه الآية: خسر عبد لا يكون حظه من كتاب الله إلا التكذيب به. وقال جماعة من المفسرين: معناه وتجعلون شكركم أنكم تكذبون. وقال الهيثم بن عدي: إن من لغة أزد شنؤة ما رزق فلان بمعنى ما شكر وهذا في الاستسقاء بالأنواء وذلك أنهم كانوا يقولون: إذا مطروا مطرنا بنوء كذا ولا يرون ذلك من فضل الله تعالى، فقليل لهم: أتجعلون رزقكم أي شكركم بما رزقتم يعني شكر رزقكم التكذيب، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر ابن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن ملك عن صالح بن كيسان عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن زيد بن خالد الجهني قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي، وكافر بالكواكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي ومؤمن بالكواكب». ورواه ابن عباس عن رسول الله ﷺ وزاد: فنزلت هذه الآية ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ إلى قوله: ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج حدثني محمد بن سلمة المرادي ثنا عبد الله بن وهب عن عمرو بن الحارث أنا أبو يونس حدثه عن أبي

ويؤيد هذا التأويل حديث أبي هريرة «ما أنزل الله من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين» فقوله بها يدل على أنه كفر بالنعمة والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا﴾ أي فهلا ﴿إِذَا بَلَغْتَ الْحَلْقُومَ﴾ أي النفس أو الروح إلى الحلقوم عند الموت ﴿وَأَنْتُمْ﴾ يعني يا أهل الميت ﴿حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ﴾ يعني إلى الميت متى تخرج نفسه وقيل تنظرون إلى أمري وسلطاني لا يمكنكم الدفع ولا تملكون شيئاً.

وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾

﴿ونحن أقرب إليه منكم﴾ أي بالعلم والقدرة والرؤية وقيل ورسلنا الذين يقبضون روحه أقرب إلى الميت منكم ﴿ولكن لا تبصرون﴾ أي الذين حضروه من الملائكة لقبض روحه وقيل لا تبصرون أي لا تعلمون ذلك ﴿فلولا إن كنتم غير مدينين﴾ أي مملوكين وقيل محاسبين ومجزيين ﴿ترجعونها إن كنتم صادقين﴾ أي تردون نفس هذا الميت إلى جسده بعد ما بلغت الحلقوم فأجاب عن قوله فلولا إذا بلغت الحلقوم وعن قوله فلولا إن كنتم غير مدينين بجواب واحد وهو قوله ترجعونها والمعنى إن كان الأمر كما تقولون إنه لا بعث ولا حساب ولا إله يجازي فهلا تردون نفس من يعز عليكم إذا بلغت الحلقوم وإذا لم يمكنكم ذلك فاعلموا أن الأمر إلى غيركم وهو الله تعالى فآمنوا به ثم ذكر

هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أنزل الله من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين، ينزل الله تعالى الغيث فيقولون: مطرنا بكوكب كذا وكذا».

قوله عز وجل: ﴿فَلَوْلَا﴾، فهلا، ﴿إِذَا بَلَغْتَ الْحَلْقُومَ﴾، أي بلغت النفس الحلقوم عند الموت.

﴿وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ﴾، يريد وأنتم يا أهل الميت تنظرون إليه متى تخرج نفسه. وقيل: معنى قوله تنظرون أي إلى أمري وسلطاني لا يمكنكم الدفع ولا تملكون شيئاً.

﴿ونحن أقرب إليه منكم﴾، بالعلم والقدرة والرؤية. وقيل: ورسلنا الذين يقبضون روحه أقرب إليه منكم، ﴿ولكن لا تبصرون﴾، الذين حضروه.

﴿فَلَوْلَا﴾، فهلا ﴿إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾، مملوكين، وقال أكثرهم: محاسبين ومجزيين.

﴿ترجعونها إن كنتم صادقين﴾، أي تردون نفس هذا الميت إلى جسده بعدما بلغت الحلقوم فأجاب عن

قوله: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغْتَ الْحَلْقُومَ﴾ وعن قوله: ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ بجواب واحد، ومثله قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا يَأْتِيَنَاكَ مِنْهُ هُدًى فَمَنْ تَبِعْ هُدَايَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ٣٨] أجيباً بجواب واحد، معناه إن كان الأمر كما تقولون أنه لا بعث ولا حساب ولا إله يجازي فهلا تردون نفس من يعز عليكم إذا بلغت الحلقوم، وإذا لم يمكنكم ذلك فاعلموا أن الأمر إلى غيركم وهو الله عز وجل فآمنوا به، ثم تذكر طبقات الخلق عند الموت وبين درجاتهم فقال:

﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾، وهم السابقون.

طبقات الخلق عند الموت وبين درجاتهم فقال تعالى : ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ يعني السابقين . ﴿فَرُوحٌ﴾ أي فله روح وهو الراحة وقيل فله فرح وقيل رحمة ﴿وَرِيحَانٌ﴾ أي وله استراحة وقيل رزق وقيل هو الريحان الذي يشم قال أبو العالية لا يفارق أحد من المقربين الدنيا حتى يؤتى بغصن من ريحان الجنة فيشمه فتقبض روحه ﴿وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ أي وله جنة النعيم يفضي إليها في الآخرة قال أبو بكر الوراق الروح النجاة من النار والريحان رضوان دار القرار ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ﴾ يعني المتوفى ﴿مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ فسلام لك من أصحاب اليمين ﴿أَيُّ فَسْلَامَةٍ لَكَ يَا مُحَمَّدٌ مِنْهُمْ وَالْمَعْنَى فَلَا تَهْتَمُّ لَهُمْ فَإِنَّهُمْ سَلِمُوا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ إِنَّكَ تَرَى فِيهِمْ مَا تَحِبُّ مِنَ السَّلَامَةِ وَقِيلَ هُوَ أَنَّ اللَّهَ يَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ وَيَقْبَلُ حَسَنَاتِهِمْ وَقِيلَ مَعْنَاهُ مُسَلِّمٌ لَكَ أَنَّهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ أَوْ يُقَالُ لِصَاحِبِ الْيَمِينِ مُسَلِّمٌ لَكَ أَنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَقِيلَ فَسْلَامٌ عَلَيْكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ، ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ﴾ أي بالبعث ﴿الضَّالِّينَ﴾ أي عن الهدى وهم أصحاب الشمال .

فَنَزَلَ مِنَ جَحِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةٌ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾

﴿فَنَزَلَ مِنَ جَحِيمٍ﴾ أي الذي يعد لهم حميم جهنم ﴿وتصلية جحيم﴾ أي وإدخال نار عظيمة ﴿إِنَّ هَذَا﴾ يعني ما ذكر من قصة المحتضرين ﴿لهو حق اليقين﴾ أي لا شك فيه وقيل إن هذا الذي قصصناه عليك في هذه السورة من

﴿فروح﴾ قرأ يعقوب ﴿فروح﴾ بضم الراء والباقون بفتحها فَمَنْ قرأ بالضم، قال الحسن معناه: تخرج روحه في الريحان، وقال قتادة: الروح الرحمة أي له الرحمة، وقيل: معناه فحياة وبقاء لهم، وَمَنْ قرأ بالفتح معناه فله روح وهو الراحة، وهو قول مجاهد. وقال سعيد بن جبيرة: فرح. وقال الضحاك: مغفرة ورحمة. ﴿وريحان﴾، استراحة، وقال مجاهد وسعيد بن جبيرة: رزق. وقال مقاتل: هو الرزق بلسان حمير، يقال خرجت أطلب ريحان الله أي رزق الله. وقال آخرون: هو الريحان الذي يشم قال أبو العالية: لا يفارق أحد من المقربين الدنيا حتى يؤتى بغصن من ريحان الجنة فيشمه ثم تقبض روحه. ﴿وجنة نعيم﴾، قال أبو بكر الوراق: الروح النجاة من النار والريحان دخول دار القرار.

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ﴾ المتوفى، ﴿مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ فسلام لك من أصحاب اليمين، أي سلامة لك يا محمد منهم فلا تهتم لهم فإنهم سلموا من عذاب الله أو أنك ترى فيهم ما تحب من السلامة. قال مقاتل: هو أن الله تعالى يتجاوز عن سيئاتهم ويقبل حسناتهم. وقال الفراء وغيره: فسلام لك إنهم من أصحاب اليمين، أو يقال لصاحب اليمين: سلام لك إنك من أصحاب اليمين فألقيت إن كان الرجل يقول إني مسافر عن قليل، فتقول له: أنت مصدق مسافر عن قليل، وقيل: فسلام لك أي عليك من أصحاب اليمين.

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ﴾، بالبعث، ﴿الضَّالِّينَ﴾، عن الهدى وهم أصحاب المشأمة.

﴿فَنَزَلَ مِنَ جَحِيمٍ﴾، فالذي يعدلهم حميم جهنم.

﴿وتصلية جحيم﴾، وإدخال نار عظيمة.

﴿إِنَّ هَذَا﴾، يعني ما ذكر من قصة المحتضرين، ﴿لهو حق اليقين﴾، أي الحق اليقين أضافه إلى نفسه.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾، قيل: فصل بذكر ربك وأمره. وقيل: الباء زائدة أي فسبح اسم ربك العظيم. أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أنا ابن فنجويه أنا ابن شيبه ثنا حمزة بن محمد الكاتب ثنا نعيم بن حماد ثنا عبد الله بن المبارك عن موسى بن أيوب الغافقي عن عمه وهو إياس بن

الأقاصيص وما أعد الله لأوليائه من النعم وما أعد لأعدائه من العذاب الأليم وما ذكر مما يدل على وحدانيته يقين لا شك فيه، ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ أي فتزه ربك العظيم عن كل سوء وقيل معناه فصل بذكر ربك العظيم وبأمره.

عن عقبة بن عامر الجهني قال «لما نزلت فسبح باسم ربك العظيم قال رسول الله ﷺ اجعلوها في ركوعكم ولما نزلت سبح اسم ربك الأعلى قال اجعلوها في سجودكم» أخرجه أبو داود عن حذيفة أنه صلى مع النبي ﷺ فكان يقول في ركوعه «سبحان ربي العظيم وفي سجوده سبحان ربي الأعلى وما أتى على آية رحمة إلا وقف وسأل وما أتى على آية عذاب إلا وقف وتعوذ» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح وله عن جابر عن النبي ﷺ قال «من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة». (م) عن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ «ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله تعالى قال سبحان الله وبحمده». (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم» هذا الحديث آخر حديث في صحيح البخاري والله أعلم.

عامر عن عقبة بن عامر الجهني قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾، قال: اجعلوها في ركوعكم، ولما نزلت ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ [الأعلى: ١] قال رسول الله ﷺ: «اجعلوها في سجودكم» أخبرنا أبو عثمان الضبي أنا أبو محمد الجراحي ثنا أبو العباس المجبوبي ثنا أبو عيسى الترمذي ثنا محمود بن غيلان ثنا أبو داود قال أنا شعبة عن الأعمش قال: سمعت سعيد بن عبيدة يحدث عن المستورد عن صلة بن زفر عن حذيفة أنه صلى مع النبي ﷺ فكان يقول في ركوعه: «سبحان ربي العظيم وفي سجوده سبحان ربي الأعلى، وما أتى على آية رحمة إلا وقف وسأل، وما أتى على آية عذاب إلا وقف وتعوذ» أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا قتبية بن سعيد ثنا محمد بن فضيل أنا عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»، أخبرنا أبو نصر محمد بن الحسن الجعفري حدثني أبو القاسم تمام بن محمد بن عبد الله الرازي بدمشق ثنا علي بن الحسين البزاز وأحمد بن سليمان بن حكم وابن راشد قالوا أخبرنا بكار بن قتيبة ثنا روح بن عبادة ثنا حجاج الصراف عن أبي الزبير عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قال سبحان الله العظيم وبحمده غُرِسَتْ له نخلة في الجنة»، أخبرنا عبد الواحد المليحي قال أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان ثنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا يونس بن عبد الأعلى أنا ابن وهب أخبرني السري بن يحيى أن شجاعاً حدثه عن أبي طيبة عن عبد الله بن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً»، وكان أبو طيبة لا يدعها أبداً.

سورة الحديد

مدنية وهي تسع وعشرون آية وخمسمائة وأربع وأربعون كلمة وألفان وأربعمائة وستة وسبعون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾

قوله عز وجل: ﴿سبح لله ما في السموات والأرض﴾ يعني كل ذي روح وغيره يسبح الله تعالى فتسبيح العقلاء تنزيه الله عز وجل عن كل سوء وعما لا يليق بجلاله وتسبيح غير العقلاء من ناطق وجماد اختلفوا فيه فقليل تسبيحه دلالة على صانعه فكأنه ناطق بتسبيحه وقيل تسبيحه بالقول يدل عليه قوله «ولكن لا تفقهون تسبيحهم» أي قولهم والحق أن التسبيح هو القول الذي لا يصدر إلا من العاقل العارف بالله تعالى وما سوى العاقل ففي تسبيحه وجهان أحدهما أنها تدل على تعظيمه وتنزيهه والثاني أن جميع الموجودات بأسرها منقادة له يتصرف فيها كيف يشاء فإن حملنا التسبيح المذكور في الآية على القول كان المراد بقوله ما في السموات والأرض من في السموات وهم الملائكة ومسبحي الأرض وهم المؤمنون العارفون بالله وإن حملنا التسبيح على التسبيح المعنوي فجميع أجزاء السموات وما فيها من شمس وقمر ونجوم وغير ذلك وجميع ذرات الأرضين وما فيها من جبال وبحار وشجر ودواب وغيره ذلك كلها مسبحة خاشعة خاضعة لجلال عظمة الله جل جلاله وتقديست أسماؤه وصفاته منقادة له يتصرف فيها كيف يشاء.

فإن قلت قد جاء في بعض فواتح السور سبح بلفظ الماضي وفي بعضها يسبح بلفظ المضارع فما معناه.

قلت فيه إشارة إلى كون جميع الأشياء مسبحاً لله أبداً غير مختص بوقت دون وقت بل هي كانت مسبحة أبداً في الماضي وستكون مسبحة أبداً في المستقبل ﴿وهو العزيز﴾ أي الغالب الكامل القدرة الذي لا ينزعه شيء، ﴿الحكيم﴾ أي الذي جميع أفعاله على وفق الحكمة والصواب ﴿له ملك السموات والأرض﴾ أي أنه الغني عن جميع

سُورَةُ الْحَدِيدِ

مدنية وهي تسع وعشرون آية.

﴿سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ له ملك السموات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾، يعني هو الأول قبل كل شيء بلا ابتداء بل كان هو ولم يكن

خلقه وكلهم محتاجون إليه، ﴿يحيي ويميت﴾ أي يحيي الأموات للبعث ويميت الأحياء في الدنيا ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ قوله عز وجل: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾ يعني هو الأول قبل كل شيء بلا ابتداء كان هو ولم يكن شيء موجوداً والآخر بعد فناء كل أحد بلا انتهاء يفني الأشياء ويبقى هو والظاهر الغالب العالي على كل شيء والباطن العالم بكل شيء هذا معنى قول ابن عباس وقيل هو الأول بوجوده ليس قبله شيء والآخر ليس بعده شيء وقيل هو الأول بوجوده في الأزل وقيل الابتداء والآخر بوجوده في الأبد وبعد الانتهاء والظاهر بالدلائل الدالة على وحدانيته والباطن الذي احتجب عن العقول أن تكيفه، وقيل هو الأول الذي سبق وجوده كل موجود والآخر الذي يبقى بعد كل مفقود وقال الإمام أبو بكر بن الباقلاني معناه أنه تعالى الباقي بصفاته من العلم والقدرة وغيرهما التي كان عليها في الأزل، ويكون كذلك بعد موت الخلائق وذهاب علومهم وقدرهم وحواسهم وتفرق أجسامهم قال وتعلقت المعتزلة بهذا الاسم فاحتجوا لمذهبهم في فناء الأجسام وذهابها بالكلية قالوا معناه أنه الباقي بعد فناء خلقه ومذهب أهل الحق يعني أهل السنة بخلاف ذلك وأن المراد الآخر بصفاته بعد ذهاب صفاتهم كما يقال آخر من بقي من بني فلان فلان يراد حياته ولا يراد فناء أجسام موتاه وذهابها بالكلية هذا آخر كلام ابن الباقلاني، وقيل هو الأول السابق للأشياء والآخر الباقي بعد فناء الأحياء والظاهر بحججه الباهرة وبراهينه النيرة الزاهرة وشواهد الدالة على وحدانيته والباطن الذي احتجب عن أبصار الخلق فلا تستوي عليه الكيفية وقيل هو الأول القديم والآخر الرحيم والظاهر الحكيم والباطن العليم، وقيل هو الأول ببره إذ عرفك توحيده والآخر بجوده إذ عرفك طريق التوبة عما جنيت والظاهر بتوفيقه إذ وفكك للسجود له والباطن بستره إذا عصيت يستر عليك، وقال الجنيد هو الأول بشرح القلوب والآخر بغفران الذنوب والظاهر بكشف الكروب والباطن بعلم الغيوب وسأل عمر كعباً عن هذه الآية فقال معناها أن علمه بالأول كعلمه بالآخر وعلمه الظاهر كعلمه بالباطن ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ (م) عن سهيل بن أبي صالح قال كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام أن يضطجع على شقه الأيمن ثم يقول «اللهم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى منزل التوراة والإنجيل والقرآن أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته» وفي رواية «من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عنا الدين وأغننا من الفقر» وكان يروى ذلك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ وعن أبي هريرة أيضاً قال «بينما النبي ﷺ جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب فقال رسول الله ﷺ أتدرون ما هذا؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال هذه العنان هذه روايا الأرض يسوقها الله تعالى إلى قوم لا يشكرونه ولا

شيء موجوداً والآخر بعد فناء كل شيء بلا انتهاء، تفنى الأشياء ويبقى هو والظاهر الغالب العالي على كل شيء، والباطن العالم بكل شيء، هذا معنى قول ابن عباس. وقال يمان: هو الأول القديم والآخر الرحيم، والظاهر الحليم، والباطن العليم. وقال السدي: هو الأول ببره إذ عرفك توحيده والآخر بجوده إذ عرفك التوبة على ما جنيت، والظاهر بتوفيقه إذ وفكك للسجود له، والباطن بستره إذ عصيته فستر عليك. وقال الجنيد: هو الأول بشرح القلوب، والآخر بغفران الذنوب، والظاهر بكشف الكروب، والباطن بعلم الغيوب. وسأل عمر رضي الله تعالى عنه كعباً عن هذه الآية فقال: معناها إن علمه بالأول كعلمه بالآخر، وعلمه بالظاهر كعلمه بالباطن. ﴿وهو بكل شيء عليم﴾، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج حدثني زهير بن حرب ثنا جرير عن سهيل قال كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام أن يضطجع على شقه الأيمن ثم يقول: اللهم رب السموات ورب الأرض ورب كل شيء فالق الحب والنوى منزل التوراة والإنجيل والقرآن، أعوذ بك من شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته، أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عني

يدعونهم ثم قال هل تدرون ما فوقكم؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال فإنها الرقيع سقف محفوظ وموج مكفوف ثم قال هل تدرون كم بينكم وبينها؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال بينكم وبينها خمسمائة سنة ثم قال هل تدرون ما فوق ذلك؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال سماءان بعد ما بينهما خمسمائة سنة حتى عد سبع سموات ما بين كل سماء كما بين السماء والأرض، ثم قال هل تدرون ما فوق ذلك؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال فإن فوق ذلك العرش وبينه وبين السماء بعد ما بين السماءين ثم قال هل تدرون ما الذي تحتكم؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال فإنها الأرض ثم قال هل تدرون ما الذي تحت ذلك؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال فإن تحتها أرضاً أخرى بينهما مسيرة خمسمائة سنة حتى عد سبع أرضين بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة ثم قال والذي نفس محمد بيده لو أنكم دليتم بجبل إلى الأرض السابعة السفلى لهبط على الله ثم قرأ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب قال الترمذي قال بعض أهل العلم في تفسير هذا الحديث إنما أراد لهبط على علم الله وقدرته وسلطانه وعلم الله وقدرته وسلطانه في كل مكان وهو على العرش كما وصف نفسه في كتابه.

العنان اسم للسحاب ومعنى روايا الأرض الحوامل والرقيع اسم للسماء وقيل هو اسم لسماء الدنيا قوله عز وجل: ﴿هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها﴾ تقدم تفسيره ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ أي بالعلم والقدرة فليس ينفك أحد من تعليق علم الله تعالى وقدرته أينما كان من أرض أو سماء براً وبحراً وقيل هو معكم بالحفظ والحراسة.

وقوله تعالى: ﴿والله بما تعملون بصير﴾ يدل على صحة القول الأول، ﴿له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور﴾.

يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِيُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقُكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَتَنَبَّأُ بِخُرُوجِكُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاتُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُمْ مَن أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلِ أَوْلِيَّكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدِ وَقَتْلَوْا وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾

﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ تقدم تفسيره.

قوله تعالى: ﴿آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ لما ذكر أنواعاً من الدلائل الدالة على التوحيد والعلم والقدرة شرع يخاطب

الذين واغني من الفقر. وكان يُروى ذلك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ.

﴿هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم﴾، بالعلم، ﴿أينما كنتم والله بما تعملون بصير﴾.

﴿له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور﴾.

﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، يخاطب

كفار قريش ويأمرهم بالإيمان بالله ورسوله ويأمرهم بترك الدنيا والإعراض عنها والنفقة في جميع وجوه البر وهو قوله تعالى: ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ يعني المال الذي كان بيد غيركم فأهلكهم وأعطاكم إياه فكنتم في ذلك المال خلفاء عمن مضى ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ يعني وأي عذر لكم في ترك الإيمان بالله والرسول يدعوكم إليه وينبهكم عليه ويتلو عليكم الكتاب الناطق بالبرهان والحجج، ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ أي أخذ الله ميثاقكم حين أخرجكم من ظهر آدم عليه السلام بأن الله ربكم لا إله لكم سواه وقيل أخذ ميثاقكم حيث ركب فيكم العقول ونصب لكم الأدلة والبراهين والحجج التي تدعو إلى متابعة الرسول، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي يوماً ما فالآن أخرى الأوقات أن تؤمنوا لقيام الحجج والإعلام ببعثة الرسول ﷺ وهو قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَى عَبْدِهِ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ يعني القرآن ﴿لِيُخْرِجَكُمْ﴾ يعني الله بالقرآن وقيل الرسول بالدعوة ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرْؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يقول أي شيء لكم في ترك الإنفاق فيما يقربكم من الله تعالى وأنتم ميتون تاركون أموالكم لغيركم فالأولى أن تنفقوها أنتم فيما يقربكم إلى الله تعالى وتستحقون به الثواب ثم بين فضل من سبق بالإنفاق في سبيل الله وبالجهد فقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلٌ﴾ يعني فتح مكة في قول أكثر المفسرين وقيل هو صلح الحديبية، والمعنى لا يستوي في الفضل من أنفق ماله وقاتل العدو مع رسول الله ﷺ قبل فتح مكة مع من أنفق ماله وقاتل بعد الفتح ﴿أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ

كَفَرُوا مَكَّةَ، ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾، مملكين فيه يعني المال الذي كان بيد غيرهم فأهلكهم وأعطاه قريشاً فكانوا في ذلك المال خلفاء عمن مضوا. ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾، قرأ أبو عمرو ﴿أَخَذَ﴾ بضم الهمزة وكسر الخاء ﴿مِيثَاقَكُمْ﴾ برفع القاف على ما لم يُسم فاعله، وقرأ الآخرون بفتح الهمزة والخاء ونصب القاف، أي: أخذ الله ميثاقكم حين أخرجكم من ظهر آدم عليه السلام، بأن الله ربكم لا إله لكم سواه، قاله مجاهد. وقيل: أخذ ميثاقكم بإقامة الحجج والدلائل التي تدعو إلى متابعة الرسول ﷺ. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يوماً، فالآن أخرى الأوقات أن تؤمنوا لقيام الحجج والإعلام ببعثة محمد ﷺ ونزول القرآن.

﴿هُوَ الَّذِي يُنْزِلُ عَلَى عَبْدِهِ﴾، محمد ﷺ، ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾، يعني القرآن، ﴿لِيُخْرِجَكُمْ﴾، الله بالقرآن، ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، وقيل: ليخرجكم الرسول بالدعوة من الظلمات إلى النور أي من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرْؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، يقول: أي شيء لكم في ترك الإنفاق فيما يقرب من الله وأنتم ميتون تاركون أموالكم، ثم بين فضل من سبق بالإنفاق في سبيل الله وبالجهد فقال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ﴾، يعني فتح مكة في قول أكثر المفسرين، وقال الشعبي: هو صلح الحديبية، ﴿وَقَاتِلٌ﴾، يقول لا يستوي في الفضل من أنفق ماله وقاتل العدو مع رسول الله ﷺ قبل فتح مكة مع من أنفق وقاتل بعده، ﴿أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتِلُوا﴾، وروى محمد بن فضيل عن الكلبي أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه فإنه أول من أسلم وأول من أنفق ماله في سبيل الله. وقال عبد الله بن مسعود: أول من أظهر إسلامه بسيفه النبي ﷺ وأبو بكر، أخبرنا أحمد بن إبراهيم الثعلبي أنا عبد الله بن حامد بن محمد أنا أحمد بن إسحاق بن أيوب أنا محمد بن يونس ثنا العلاء بن عمرو الشيباني ثنا أبو إسحاق الفزاري ثنا

أنفقوا من بعد وقاتلوا ﴿١١﴾ قال الكلبي إن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه لأنه أول من أسلم وأول من أنفق ماله في سبيل الله وذهب عن رسول الله ﷺ وقال عبد الله بن مسعود أول من أظهر إسلامه سبع منهم النبي ﷺ وأبو بكر وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال «كنت عند رسول الله ﷺ وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خلها في صدره بخلال فنزل جبريل فقال ما لي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خلها في صدره بخلال فقال أنفق ماله على قبل الفتح قال فإن الله عز وجل يقول اقرأ عليه السلام وقل له أراض أنت عني في فرك هذا أم ساخط فقال رسول الله ﷺ يا أبا بكر إن الله يقرئك السلام ويقول لك أراض أنت في فرك هذا أم ساخط فقال أبو بكر أسخط على ربي إني على ربي راض إني على ربي راض ﴿١٢﴾ وكلاً وعد الله الحسنى ﴿١٣﴾ يعني الجنة قال عطاء درجات الجنة تتفاضل فالذين أنفقوا قبل الفتح في أفضلها، ﴿١٤﴾ والله بما تعملون خبير ﴿١٥﴾.

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيَضَعْفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكَ يَوْمَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْظَرُونَا نَقْتَسِمَ مِنْ ثَوْرِكُمْ فِيلَ أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُمْ بَابٌ بَاطِنٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرٌ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾

﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ أي صادقاً محتسباً بالصدقة طيبة بها نفسه وسمي هذا الإنفاق قرضاً من حيث إنه وعد به الجنة تشبيهاً بالقرض قال بعض العلماء القرض لا يكون حسناً حتى تجمع فيه أوصاف عشرة وهي أن يكون المال من الحلال وأن يكون من أجود المال وأن تصدق به وأنت محتاج إليه وأن تصرف صدقتك إلى الأحوج إليها وأن تكتم الصدقة ما أمكنك وأن لا تتبعها باليمن والأذى وأن تقصد بها وجه الله ولا ترائي بها الناس وأن تستحقر

سفيان بن سعيد عن آدم بن علي عن ابن عمر قال: كنت عند رسول الله ﷺ وعنده أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وعليه عباءة قد خلها في صدره بخلال، فنزل عليه جبريل فقال: ما لي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خلها في صدره بخلال؟ فقال: «أنفق ماله علي قبل الفتح»، قال: فإن الله عز وجل يقول: اقرأ عليه السلام وقل له أراض أنت عني في فرك هذا أم ساخط؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول لك: أراض أنت في فرك هذا أم ساخط؟» فقال أبو بكر: أسخط على ربي إني عن ربي راض إني عن ربي راض. ﴿١٤﴾ وكلاً وعد الله الحسنى ﴿١٥﴾، أي كلا الفريقين وعدهم الله الجنة. قال عطاء: درجات الجنة تتفاضل، فالذين أنفقوا قبل الفتح في أفضلها. وقرأ ابن عامر وكل بالرفع، ﴿١٦﴾ والله بما تعملون خبير ﴿١٧﴾.

﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم﴾ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم ﴿١٨﴾، يعني على الصراط، ﴿١٩﴾ بين أيديهم وبأيمنهم ﴿٢٠﴾، يعني عن أيمنهم. قال بعضهم: أراد جميع جوانبهم فعبر بالبعض عن الكل وذلك دليلهم إلى الجنة. وقال قتادة: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال: «إن من المؤمنين من يضيء نوره، يعني: على الصراط، من المدينة إلى عدن أبين وصنعاء ودون ذلك، حتى أن من المؤمنين من لا يضيء نوره إلا موضع قدميه». وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما: يؤتون نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يؤتى نوره كالنخلة، ومنهم من يؤتى نوره كالرجل القائم، وأدناهم نوراً من نوره أعلى إبهامه فيطفا مرة ويقد مرة. وقال الضحاك ومقاتل: يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمنهم كتبهم يريد أن كتبهم التي أعطوها بأيمنهم ونورهم بين أيديهم، وتقول لهم الملائكة: ﴿بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم﴾.

ما تعطي وتتصدق به وإن كان كثيراً وأن يكون من أحب أموالك إليك وأن لا ترى عز نفسك وذل الفقير فهذه عشرة أوصاف إذا اجتمعت في الصدقة كانت قرصاً حسناً، ﴿فيضاعفه له﴾ يعني يعطيه أجره على إنفاقه مضاعفاً، ﴿وله أجر كريم﴾ يعني وذلك الأجر كريم في نفسه.

قوله عز وجل: ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات﴾ يعني على الصراط ﴿يسعى نورهم بين أيديهم وبأييمانهم﴾ أي عن أييمانهم وقيل أراد جميع الجوانب فعبّر بالبعض عن الكل وذلك دليلهم إلى الجنة، وقال قتادة ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال «من المؤمنين من يضيء نوره من المدينة إلى عدن أبيين وصنعاء ودون ذلك حتى إن من المؤمنين من لا يضيء نوره إلا موضع قدميه» وقال عبد الله بن مسعود يؤتون نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يؤتي نوره كالنخلة ومنهم من يؤتي نوره كالرجل القائم وأدناهم نوراً من نوره على إيهامه فيطفاً مرة ويوقد مرة وقيل في معنى الآية يسعى نورهم بين أيديهم أي يعطون كتبهم بأييمانهم وتقول لهم الملائكة ﴿بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا﴾ أي انتظرونا ﴿نقتبس من نوركم﴾ أي نستضيء من نوركم قيل تغشى الناس ظلمة شديدة يوم القيامة فيعطي الله المؤمنين نوراً على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط ويعطي المنافقين أيضاً نوراً خديعة لهم فيبيناهم يمشون إذ بعث الله ريحاً وظلمة فأطفأت نور المنافقين فذلك قوله تعالى ﴿يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأييمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا﴾ مخافة أن يسلبوا نورهم كما سلب نور المنافقين وقيل بل يستضيئون بنور المؤمنين ولا يعطون النور فإذا سبقهم المؤمنون بقوا في الظلمة وقالوا للمؤمنين انظرونا نقتبس من نوركم، ﴿قيل ارجعوا وراءكم﴾ قال ابن عباس يقول لهم المؤمنون وقيل يقول لهم الملائكة ارجعوا وراءكم من حيث جئتم وقيل ارجعوا إلى الدنيا فاعملوا فيها أعمالاً يجعلها الله لكم نوراً وقيل معناه لا نور لكم عندنا فارجعوا وراءكم ﴿فالتمسوا﴾ أي اطلبوا لأنفسكم هناك ﴿نوراً﴾ أي لا سبيل لكم إلى الاقتباس من نورنا فيرجعون في طلب النور فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم ليلقوهم فيميز بينهم وبين المؤمنين فذلك قوله تعالى: ﴿فضرب بينهم﴾ أي المؤمنين والمنافقين ﴿بسور﴾ وهو حائط بين الجنة والنار ﴿له﴾ أي لذلك السور ﴿باب باطنه فيه الرحمة﴾ أي في باطن ذلك السور الرحمة وهي الجنة ﴿وظاهره من قبله العذاب﴾ أي من قبل ذلك الظاهر العذاب وهو النار وروي عن عبد الله بن عمر قال إن السور الذي ذكر في القرآن هو سور بيت المقدس

﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا﴾، قرأ الأعمش وحمزة: ﴿انظرونا﴾ بفتح الهمزة وكسر الظاء يعني أمهلونا. وقيل: انتظرونا. وقرأ الآخرون بحذف الألف في الوصل وضمها في الابتداء وضم الظاء، تقول العرب: انظرني وأنظرني يعني انتظرني. ﴿نقتبس من نوركم﴾، نستضيء من نوركم، وذلك أن الله تعالى يعطي المؤمنين نوراً على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط، ويعطي المنافقين أيضاً نوراً خديعة لهم، وهو قوله عز وجل: ﴿وهو خادعهم﴾ [النساء: ١٤٢]، فيبيناهم يمشون إذ بعث الله عليهم ريحاً وظلمة فأطفأت نور المنافقين، فذلك قوله: ﴿يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأييمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا﴾ [التحریم: ٨] مخافة أن يسلبوا نورهم كما سلب نور المنافقين. وقال الكلبي: بل يستضيء المنافقون بنور المؤمنين ولا يعطون النور فإذا سبقهم المؤمنون بقوا في الظلمة قالوا للمؤمنين انظرونا نقتبس من نوركم، ﴿قيل ارجعوا وراءكم﴾، قال ابن عباس: يقول لهم المؤمنون، وقال قتادة: تقول لهم الملائكة ارجعوا وراءكم من حيث جئتم، ﴿فالتمسوا نوراً﴾، فاطلبوا هناك لأنفسكم نوراً فإنه لا سبيل لكم إلى الاقتباس من نورنا، فيرجعون في طلب النور فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم ليلقوهم فيميز بينهم وبين المؤمنين، وهو قوله: ﴿فضرب بينهم بسور﴾، أي سور، والباء صلة يعني بين المؤمنين والمنافقين، وهو حائط بين الجنة والنار، ﴿له﴾ أي لذلك

الشرقي باطنه فيه المسجد وظاهره من قبله العذاب وادي جهنم وقال ابن شريح كان كعب يقول في الباب الذي يسمى باب الرحمة في بيت المقدس إنه الباب الذي قال الله تعالى: ﴿فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ﴾ الآية.

يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوِيَّتُكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

﴿ينادونهم﴾ يعني ينادي المنافقون المؤمنين من وراء ذلك السور حين حجب بينهم وبقوا في الظلمة ﴿ألم نكن معكم﴾ أي في الدنيا نصلي ونصوم ﴿قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم﴾ أي أهلكتموها بالنفاق والكفر واستعملتموها في المعاصي والشهوات وكلها فتنة ﴿وتربصتم﴾ أي بالإيمان والتوبة وقيل تربصتم بمحمد ﷺ وقتلتم يوشك أن يموت فنستريح منه ﴿وارتبتهم﴾ أي شككتهم في نبوته وفيما أوعدكم به ﴿وغرركم الأمانى﴾ أي الأباطيل وذلك ما كنتم تتمنون من نزول الدوائر بالمؤمنين ﴿حتى جاء أمر الله﴾ يعني الموت وقيل هو إلقاؤهم في النار وهو قوله تعالى: ﴿وغرركم بالله الغرور﴾ يعني الشيطان قال قتادة ما زالوا على خدعة من الشيطان حتى قذفهم الله في النار ﴿فاليوم لا يؤخذ منكم فدية﴾ أي عوض وبدل بأن تفدوا أنفسكم من العذاب وقيل معناه لا يقبل منكم إيمان ولا توبة ﴿ولا من الذين كفروا﴾ يعني المشركين وإنما عطف الكفار على المنافقين وإن كان المنافق كافراً في الحقيقة لأن المنافق أبطن الكفر والكافر أظهره فصار غير المنافق فحسن عطفه على المنافق ﴿مأواكم النار﴾ أي مصيركم، ﴿هي مولاكم﴾ أي وليكم وقيل هي أولى بكم لما أسلفتم من الذنوب والمعنى هي التي تلي عليكم لأنها ملكت أمركم وأسلمتم إليها فهي أولى بكم من كل شيء وقيل معنى الآية لا مولى لكم ولا ناصر لأن من كانت النار مولا فلا مولى له ﴿وبئس المصير﴾.

السور، ﴿باب باطنه فيه الرحمة﴾، أي في باطن ذلك السور الرحمة وهي الجنة، ﴿وظاهره﴾، أي خارج ذلك السور، ﴿من قبله﴾، أي من قبل ذلك الظاهر، ﴿العذاب﴾، وهو النار.

﴿ينادونهم﴾ رُوِيَ عن عبد الله بن عمر قال: إن السور الذي ذكر الله تعالى في القرآن ﴿فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ﴾ هو سور بيت المقدس الشرقي باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، وادي جهنم. وقال ابن شريح: كان كعب يقول: في الباب الذي يسمى باب الرحمة في بيت المقدس إنه الباب الذي قال الله عز وجل: ﴿فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ﴾ الآية، ينادونهم يعني: ينادون المنافقون المؤمنين من وراء السور حين حجب بينهم بالسور وبقوا في الظلمة: ﴿ألم نكن معكم﴾ في الدنيا نصلي ونصوم؟ ﴿قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم﴾، أهلكتموها بالنفاق والكفر واستعملتموها في المعاصي والشهوات، وكلها فتنة، ﴿وتربصتم﴾، بالإيمان والتوبة. قال مقاتل: وتربصتم بمحمد ﷺ وقتلتم يوشك أن يموت فنستريح منه، ﴿وارتبتهم﴾، شككتهم في نبوته وفيما أوعدكم به، ﴿وغرركم الأمانى﴾، الأباطيل وما كنتم تتمنون من نزول الدوائر بالمؤمنين، ﴿حتى جاء أمر الله﴾، يعني الموت، ﴿وغرركم بالله الغرور﴾، يعني الشيطان، قال قتادة: ما زالوا على خدعة من الشيطان حتى قذفهم الله في النار.

﴿فاليوم لا يؤخذ منكم فدية﴾، قرأ أبو جعفر وابن عامر ويعقوب (تؤخذ) بالتاء، وقرأ الآخرون بالياء، ﴿فدية﴾ بدل وعوض بأن أنفذوا أنفسكم من العذاب، ﴿ولا من الذين كفروا﴾، يعني المشركين، ﴿مأواكم النار هي مولاكم﴾، صاحبكم وأولى بكم لما أسلفتم من الذنوب، ﴿وبئس المصير﴾.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (١٦) ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١٧) ﴿إِنَّ الْمَصْدَقِينَ وَالْمَصْدَقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَعُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (١٨)

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ قيل نزلت في المنافقين بعد الهجرة بسنة وذلك أنهم قالوا لسلمان الفارسي ذات يوم حدثنا عن التوراة فإن فيها العجائب فنزل ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ فأخبرهم أن القرآن أحسن من غيره فكفوا عن سؤال سلمان ما شاء الله ثم عادوا فسألوه مثل ذلك فنزل ﴿الله نزل أحسن الحديث﴾ الآية فكفوا عن سؤاله ما شاء الله ثم عادوا فسألوه فنزلت هذه الآية فعلى هذا القول يكون تأويل قوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني في العلانية باللسان ولم يؤمنوا بالقلب، وقيل نزلت في المؤمنين وذلك أنهم لما قدموا المدينة أصابوا من لين العيش ورفاهيته ففتروا عن بعض ما كانوا عليه فعوتبوا ونزل في ذلك ألم يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا الآية قال ابن مسعود ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين أخرجه مسلم وقال ابن عباس إن الله تعالى استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن فقال ألم يَأْنِ يعني أما حان للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم أي ترق وتلين وتخضع قلوبهم لذكر الله أي لمواعظ الله ﴿وما نزل من الحق﴾ يعني القرآن ﴿ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل﴾ يعني اليهود والنصارى، ﴿فطال عليهم الأمد﴾ أي الزمان الذي بينهم وبين أنبيائهم ﴿فقس قلوبهم﴾ قال ابن عباس مالوا إلى الدنيا وأعرضوا عن مواعظ القرآن والمعنى أن الله نهى المؤمنين أن يكونوا في صحبة القرآن كاليهود والنصارى الذين قست قلوبهم لما طال عليهم الدهر روي عن أبي موسى الأشعري أنه بعث إلى قراء البصرة فدخل عليه ثلاثمائة رجل قد قرؤوا القرآن فقال أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم قاتلوه ولا يطولن عليكم الأمد

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾، قال الكلبي ومقاتل: نزلت في المنافقين بعد الهجرة بسنة، وذلك أنهم سألوا سلمان الفارسي ذات يوم فقالوا حدثنا عن التوراة فإن فيها العجائب، فنزلت: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ [يوسف: ٣]، فأخبرهم أن القرآن أحسن قصصاً من غيره فكفوا عن سؤال سلمان ما شاء الله، ثم عادوا فسألوا سلمان عن مثل ذلك فنزل: ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً﴾ [الزمر: ٢٣]، فكفوا عن سؤاله ما شاء الله ثم عادوا فقالوا: حدثنا عن التوراة فإن فيها العجائب فنزلت هذه الآية. فعلى هذا تأويل قوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾، يعني في العلانية وباللسان. وقال الآخرون: نزلت في المؤمنين. قال عبد الله بن مسعود: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾، إلا أربع سنين. وقال ابن عباس: إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن، فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾، ألم يحن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم وتلين وتخضع قلوبهم لذكر الله، ﴿وما نزل﴾، قرأ نافع وحفص عن عاصم بتخفيف الزاي، وقرأ الآخرون بتشديدها، ﴿من الحق﴾، وهو القرآن، ﴿ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل﴾، وهم اليهود والنصارى، ﴿فطال عليهم الأمد﴾، الزمان بينهم وبين أنبيائهم، ﴿فقس قلوبهم﴾، قال ابن عباس: مالوا إلى الدنيا وأعرضوا عن مواعظ الله، والمعنى أن الله عز وجل ينهى المؤمنين أن يكونوا في صحبة القرآن كاليهود الذين قست قلوبهم لما طال عليهم الدهر. روي أن أبا موسى الأشعري بعث إلى قراء أهل البصرة فدخل عليه ثلاثمائة رجل قد قرؤوا القرآن فقال لهم: أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم قاتلوه ولا يطولن عليكم الأمد فتقسوا قلوبكم كما قست قلوب من كان قبلكم.

فتفسو قلوبكم كما قست قلوب من كان قبلكم ﴿وكثير منهم فاسقون﴾ يعني الذين تركوا الإيمان بعيسى ومحمد ﷺ قوله عز وجل: ﴿اعلموا أن الله يحيي الأرض﴾ أي بالمطر ﴿بعد موتها﴾ أي يخرج منها النبات بعد يسها فكذاك يقدر على إحياء الموتى وقال ابن عباس يلين القلوب بعد قسوتها فيجعلها مخبته منية وكذلك يحيي القلوب الميتة بالعلم والحكمة وإلا فقد علم إحياء الأرض بالمطر مشاهدة ﴿قد بينا لكم الآيات﴾ أي الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ﴿لعلكم تعقلون﴾ إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً ﴿أي بالنفقة والصدقة في سبيل الله﴾ ﴿يضاعف لهم﴾ أي ذلك القرض ﴿ولهم أجر كريم﴾ أي ثواب حسن وهو الجنة.

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّٰدِقُونَ وَالشَّٰهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴿٢٠﴾

﴿والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون﴾ أي الكثير والصدق قال مجاهد كل من آمن بالله ورسوله فهو صديق وتلا هذه الآية فعلى هذا الآية عامة في كل من آمن بالله ورسوله وقيل إن الآية خاصة في ثمانية نفر من هذه الأمة سبقوا أهل الأرض في زمانهم إلى الإسلام وهم أبو بكر وعلي وزيد وعثمان وطلحة والزبير وسعد وحمة وتاسعهم عمر بن الخطاب ألحقه الله بهم لما عرف من صدق نيته، ﴿والشهداء عند ربهم﴾ قيل أراد بالشهداء المؤمنين المخلصين قال مجاهد كل مؤمن صديق شهيد وتلا هذه الآية وقيل هم التسعة الذين تقدم ذكرهم وقيل تم الكلام عند قوله هم الصديقون ثم ابتداء الشهداء عند ربهم وهم الأنبياء الذين يشهدون على الأمم يروى ذلك عن ابن عباس وقيل هم الذين استشهدوا في سبيل الله، ﴿لهم أجرهم﴾ أي بما عملوا من العمل الصالح ﴿ونورهم﴾ يعني على الصراط ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ لما ذكر حال المؤمنين أتبعه بحال الكافرين.

﴿وكثير منهم فاسقون﴾، يعني الذين تركوا الإيمان بعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

وقوله عز وجل: ﴿اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾ * إن المصدقين والمصدقات، ﴿قرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم بتخفيف الصاد فيهما من التصديق أي المؤمنين والمؤمنات، وقرأ الآخرون بتشديدهما أي المتصدقين والمتصدقات أدغمت التاء في الصاد، ﴿وأقرضوا الله قرضاً حسناً﴾، بالصدقة والنفقة في سبيل الله عز وجل، ﴿يضاعف لهم﴾، ذلك القرض ﴿ولهم أجر كريم﴾، ثواب حسن وهو الجنة.

﴿والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون﴾، والصديق الكثير الصدق، قال مجاهد: كل من آمن بالله ورسوله فهو صديق وتلا هذه الآية. قال الضحاك: هم ثمانية نفر من هذه الأمة سبقوا أهل الأرض في زمانهم إلى الإسلام أبو بكر وعلي وزيد وعثمان وطلحة والزبير وسعد وحمة، وتاسعهم عمر بن الخطاب رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ألحقه الله بهم لما عرف من صدق نيته. ﴿والشهداء عند ربهم﴾، اختلفوا في نظم هذه الآية منهم من قال: هي متصلة بما قبلها والواو والنسق، وأراد بالشهداء المؤمنين المخلصين. وقال الضحاك: هم الذين سمّيناهم. وقال مجاهد: كل مؤمن صديق شهيد، وتلا هذه الآية. وقال قوم: تم الكلام عند قوله: ﴿هم الصديقون﴾، ثم ابتداء فقال: والشهداء عند ربهم، والواو وأو الاستئناف، وهو قول ابن عباس ومسروق وجماعة، ثم اختلفوا فيهم فقال قوم هم الأنبياء الذين يشهدون على الأمم يوم القيامة، يروى ذلك عن ابن عباس وهو قول

قوله عز وجل: ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا﴾ أي مدة الحياة في هذه الدار الدنيا وإنما أراد من صرف حياته في غير طاعة الله فحياته مذمومة ومن صرف حياته في طاعة الله فحياته خير كلها ثم وصفها بقوله ﴿لعب﴾ أي باطل لا حاصل له كلعب الصبيان ﴿ولهو﴾ أي فرح ساعة ثم ينقضي عن قريب ﴿وزينة﴾ أي منظر يتزينون به ﴿وتفاخر بينكم﴾ يعني إنكم تشتغلون في حياتكم بما يفتخر به بعضكم على بعض ﴿وتكاثروا في الأموال والأولاد﴾ أي مباحاة بكثرة الأموال والأولاد وقيل بجمع ما لا يحل له فيتطاول بماله وخدمه وولده على أولياء الله تعالى وأهل طاعته ثم ضرب لهذه الحياة مثلاً فقال تعالى: ﴿كمثل غيث أعجب الكفار﴾ أي الزراع إنما سمي الزراع كفاراً لسترهم الأرض بالذرة ﴿نباته﴾ أي ما نبت بذلك الغيث ﴿ثم يهيج﴾ أي ييسر ﴿فتراه مصفراً﴾ أي بعد خضرته ﴿ثم يكون حطاماً﴾ أي يتحطم ويتكسر بعد ييسره ويفنى ﴿وفي الآخرة عذاب شديد﴾ أي لمن كانت حياته بهذه الصفة قال أهل المعاني زهد الله بهذه الآية في العمل للدنيا وهذه صفة حياة الكافرين وحياة من يشتغل باللعب واللهو ورغب في العمل للآخرة بقوله: ﴿ومغفرة من الله ورضوان﴾ أي لأوليائه وأهل طاعته وقيل عذاب شديد لأعدائه ومغفرة من الله ورضوان لأوليائه لأن الآخرة إما عذاب وإما جنة ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ أي لمن عمل لها ولم يعمل للآخرة فمن اشتغل في الدنيا بطلب الآخرة فهي له بلاغ إلى ما هو خير منه وقيل متاع الغرور لمن لم يشتغل فيها بطلب الآخرة.

سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لَّكِنَّا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُونَ بِمَا ءَاتَيْنَاكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۚ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَصُرُّهُ وَرُسُلُهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾

قوله عز وجل: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم﴾ معناه لتكن مفاخرتكم ومكاثرتكم في غير ما أنتم عليه بل

مقاتل بن حيان. وقال مقاتل بن سليمان: هم الذين استشهدوا في سبيل الله، ﴿لهم أجرهم﴾، بما عملوا من العمل الصالح، ﴿ونورهم﴾، على الصراط ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾.

قوله عز وجل: ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا﴾، أي أن الحياة الدنيا، و(ما) صلة أي إن الحياة في هذه الدار، ﴿لعب﴾، باطل لا حاصل له، ﴿ولهو﴾، فرح ثم ينقضي، ﴿وزينة﴾، منظر تتزينون به، ﴿وتفاخر بينكم﴾، تفخر به بعضكم على بعض، ﴿وتكاثروا في الأموال والأولاد﴾، أي مباحاة بكثرة الأموال والأولاد، ثم ضرب لها مثلاً فقال: ﴿كمثل غيث أعجب الكفار﴾، أي الزراع، ﴿نباته﴾، ما نبت من ذلك الغيث، ﴿ثم يهيج﴾، ييسر، ﴿فتراه مصفراً﴾، بعد خضرته ونضرته، ﴿ثم يكون حطاماً﴾، يتحطم ويتكسر بعد ييسره ويفنى، ﴿وفي الآخرة عذاب شديد﴾، قال مقاتل: لأعداء الله، ﴿ومغفرة من الله ورضوان﴾ لأوليائه وأهل طاعته، ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾، قال سعيد بن جبير: متاع الغرور لمن يشتغل فيها بطلب الآخرة ومن اشتغل بطلبها فله متاع بلاغ إلى ما هو خير منه.

﴿سابقوا﴾، سارعوا، ﴿إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض﴾، لو وصل بعضها

أحرصوا على أن تكون مسابقتكم في طلب الآخرة والمعنى سارعوا مسارعة المسابقين في المضمار إلى مغفرة أي إلى ما يوجب المغفرة وهي التوبة وقيل سابقوا إلى ما كلفتم به من الأعمال فتدخل فيه التوبة وغيرها، ﴿وجنة عرضها كعرض السماء والأرض﴾ قيل إن السموات السبع والأرضين السبع لو جعلت صفائح وألرزق بعضها ببعض لكان عرض الجنة في قدرها جميعاً وقال ابن عباس إن لكل واحد من المطيعين جنة بهذه السعة وقيل إن الله تعالى شبه عرض الجنة بعرض السموات والأرضين ولا شك أن الطول يكون أزيد من العرض فذكر العرض تنبيهاً على أن طولها أضعاف ذلك وقيل إن هذا تمثيل للعباد بما يعقلونه ويقع في نفوسهم وأفكارهم وأكثر ما يقع في نفوسهم مقدار السموات والأرض فشبه عرض الجنة بعرض السموات والأرض على ما يعرفه الناس، ﴿أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله﴾ فيه أعظم رجاء وأقوى أمل لأنه ذكر أن الجنة أعدت لمن آمن بالله ورسوله ولم يذكر مع الإيمان شيئاً آخر يدل عليه قوله في سياق الآية ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾ فبين أنه لا يدخل أحد الجنة إلا بفضل الله تعالى لا بعمله، ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «لن يدخل أحداً منكم الجنة عمله قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل رحمته» وقد تقدم الكلام على معنى هذا الحديث والجمع بينه وبين قوله ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون في تفسير سورة النحل.

قوله تعالى: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض﴾ يعني عدم المطر وقلة النبات ونقص الثمار، ﴿ولا في أنفسكم﴾ يعني الأمراض وفقد الأولاد ﴿إلا في كتاب﴾ يعني في اللوح المحفوظ ﴿من قبل أن نبرأها﴾ أي من قبل أن نخلق الأرض والأنفس وقال ابن عباس من قبل أن نبرأ المصيبة ﴿إن ذلك على الله يسير﴾ أي إثبات ذلك على كثرة هين على الله عز وجل: ﴿لكيلا تأسوا﴾ أي تحزنوا ﴿على ما فاتكم﴾ من الدنيا ﴿ولا تفرحوا﴾ أي لا تبطروا ﴿بما آتاكم﴾ أي أعطاكم قال عكرمة ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ولكن اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً قال صاحب الكشاف: إن قلت ما من أحد يملك نفسه عند مضرة تنزل به ولا عند منفعة ينالها أن لا يحزن ولا يفرح قلت المراد الحزن المخرج إلى ما يذهل صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر الله ورجاء ثواب الصابرين والفرح المطغي الملهي عن الشكر فأما الحزن الذي لا يكاد الإنسان يخلو منه مع الاستسلام والسرور بنعمة الله والاعتداد بها مع الشكر فلا بأس بهما والله أعلم وقال جعفر بن محمد الصادق يا ابن آدم ما لك تأسف على مفقود لا يردّه إليك الفوت وما لك تفرح

ببعض، ﴿أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾، فبين أن أحداً لا يدخل الجنة إلا بفضل الله.

قوله عز وجل: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض﴾، يعني قحط المطر وقلة النبات ونقص الثمار، ﴿ولا في أنفسكم﴾، يعني الأمراض وفقد الأولاد. ﴿إلا في كتاب﴾، يعني اللوح المحفوظ، ﴿من قبل أن نبرأها﴾، من قبل أن نخلق الأرض والأنفس. قال ابن عباس: من قبل أن نبرأ المصيبة. وقال أبو العالية: يعني النسيئة، ﴿إن ذلك على الله يسير﴾، أي إثبات ذلك على كثرة هين على الله عز وجل.

﴿لكيلا تأسوا﴾، تحزنوا، ﴿على ما فاتكم﴾، من الدنيا، ﴿ولا تفرحوا بما آتاكم﴾، قرأ أبو عمرو بقصر الألف لقوله: ﴿فاتكم﴾، فجعل الفعل له، وقرأ الآخرون ﴿آتاكم﴾ بمد الألف، أي: أعطاكم. قال عكرمة: ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ولكن اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً. ﴿والله لا يحب كل مختال﴾، متكبر بما أوتي من الدنيا، ﴿فخور﴾، يفخر به على الناس. قال جعفر بن محمد الصادق: يا ابن آدم ما لك تأسف على مفقود لا يردّه إليك الفوت، وما لك تفرح بموجود لا يتركه في يدك الموت.

﴿الذين يبخلون﴾، قيل: هو في محل الخفض على نعمت المختال. وقيل: هو رفع بالابتداء وخبره فيما

بموجود لا يتركه في يدك الموت، ﴿والله لا يحب كل مختال﴾ أي متكبر بما أوتي من الدنيا ﴿فخور﴾ أي بذلك الذي أوتي على الناس ﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل﴾ قيل هذه الآية متعلقة بما قبلها والمعنى والله لا يحب الذين يبخلون يريد إذا رزقوا مالاً وحظاً من الدنيا فلحجهم له وعزته عندهم يبخلون به ولا ينفقونه في سبيل الله ووجوه الخير ولا يكفيهم أنهم بخلوا به حتى يأمرؤا الناس بالبخل وقيل إن الآية كلام مستأنف لا تعلق له بما قبله وإنها في صفة اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ وبخلوا ببيان نعته ﴿ومن يتول﴾ قال ابن عباس عن الإيمان ﴿فإن الله هو الغني﴾ أي عن عباده ﴿الحميد﴾ أي إلى أوليائه.

قوله عز وجل: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات﴾ أي بالدلالات والآيات والحجج ﴿وأنزلنا معهم الكتاب﴾ أي المتضمن للأحكام وشرائع الدين ﴿والميزان﴾ يعني العدل أي وأمرنا بالعدل وقيل المراد بالميزان هو الآلة التي يوزن بها وهو يرجع إلى العدل أيضاً وهو قوله ﴿ليقوم الناس بالقسط﴾ أي ليتعاملوا بينهم بالعدل، ﴿أنزلنا الحديد﴾ قيل إن الله تعالى أنزل مع آدم عليه الصلاة والسلام لما أهبط إلى الأرض السندان والمطرقة والكلبتين وروي عن ابن عمر يرفعه «إن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض الحديد والنار والماء والملح» وقيل أنزلنا هنا بمعنى أنشأنا وأحدثنا الحديد وذلك أن الله تعالى أخرج لهم الحديد من المعادن وعلمهم صنعتهم بوحيه وإلهامه، ﴿فيه بأس شديد﴾ أي قوة شديدة فمته جنة وهي آلة الدفع ومنه سلاح وهي آلة الضرب ﴿ومنافع للناس﴾ أي ومنه ما ينتفعون به في مصالحهم كالسكين والفأس والإبرة ونحو ذلك، إذ الحديد آلة لكل صنعة فلا غنى لأحد عنه ﴿وليعلم الله﴾ أي وأرسلنا رسلنا وأنزلنا معهم هذه الأشياء ليتعامل الناس بالحق والعدل وليرى الله ﴿من ينصره﴾ أي من ينصر دينه ﴿ورسله بالغيب﴾ أي الذين لم يروا الله ولا الآخرة وإنما يحمد ويثاب من أطاع بالغيب وقال ابن عباس ينصرونه ولا يبصرونه ﴿إن الله قوي﴾ في أمره ﴿عزیز﴾ في ملكه.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوءَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ

بعده. ﴿ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول﴾ أي يُعرض عن الإيمان ﴿فإن الله هو الغني الحميد﴾، قرأ أهل المدينة والشام: ﴿فإن الله الغني﴾، بإسقاط هو وكذلك هو في مصاحفهم.

قوله عز وجل: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات﴾، بالآيات والحجج، ﴿وأنزلنا معهم الكتاب والميزان﴾، يعني العدل. وقال مقاتل بن سليمان: هو ما يوزن به أي ووضعنا الميزان كما قال: ﴿والسما رفعها﴾ [الرحمن: ٧]، بأن وضع ﴿الميزان ليقوم الناس بالقسط﴾، ليتعاملوا بينهم بالعدل، ﴿وأنزلنا الحديد﴾، روي عن ابن عمر يرفعه: إن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض الحديد والنار والماء والملح، وقال أهل المعاني معنى قوله: ﴿أنزلنا الحديد﴾، أنشأنا وأحدثنا، أي أخرج لهم الحديد من المعادن وعلمهم صنعتهم بوحيه. وقال قطرب: هذا من النزول كما يقال أنزل الأمير على فلان نزلاً حسناً فمعنى الآية أنه جعل ذلك نزلاً لهم. ومثله قوله: ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ [الزمر: ٦]. ﴿فيه بأس شديد﴾، قوة شديدة يعني السلاح للحرب. قال مجاهد: فيه جنة وسلاح يعني آلة وآلة الضرب، ﴿ومنافع للناس﴾، مما ينتفعون به في مصالحهم كالسكين والفأس والإبرة ونحوها إذ هو آلة لكل صنعة، ﴿وليعلم الله﴾، أي أرسلنا رسلنا وأنزلنا معهم هذه الأشياء ليتعامل الناس بالحق والعدل وليعلم الله وليرى الله، ﴿من ينصره﴾، أي دينه، ﴿ورسله بالغيب﴾، أي قام بنصرة الدين ولم ير الله ولا الآخرة وإنما يحمد ويثاب من أطاع الله بالغيب. ﴿إن الله قوي عزيز﴾، قوي في أمره عزيز في ملكه.

فَسَقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَافَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾

﴿ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب﴾ معناه أنه تعالى شرف نوحاً وإبراهيم بالرسالة وجعل في ذريتهما النبوة والكتاب فلا يوجد نبي إلا من نسلهما ﴿فمنهم﴾ أي من الذرية ﴿مهتد وكثير منهم فاسقون ثم قفينا﴾ أي اتبعنا ﴿على آثارهم رسلنا﴾ والمعنى بعثنا رسولاً بعد رسول إلى أن انتهت الرسالة إلى عيسى ابن مريم وهو قوله تعالى: ﴿وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه﴾ أي على دينه، ﴿رافة ورحمة﴾ يعني أنهم كانوا متوادين بعضهم لبعض، ﴿ورهبانية ابتدعوها﴾ ليس هذا عطفاً على ما قبله والمعنى أنهم جاؤوا بها من قبل أنفسهم وهي ترهبهم في الجبال والكهوف والغيران والديرة فروا من الفتنة وحملوا أنفسهم المشاق في العبادة الزائدة وترك النكاح واستعمال الخشن في المطعم والمشرب والملبس مع التقلل من ذلك ﴿ما كتبناها عليهم﴾ أي ما فرضناها نحن عليهم ﴿إلا ابتغاء رضوان الله﴾ أي لكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله ﴿فما رعوها حق رعايتها﴾ يعني أنهم يراعوا تلك الرهبانية حق رعايتها بل ضيعوها وضموإ إليها التلث والاتحاد وكفروا بدين عيسى ودخلوا في دين ملوكهم وأقام أناس منهم على دين عيسى حتى أدركوا محمداً ﷺ فآمنوا به فذلك قوله تعالى: ﴿فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم﴾ وهم الذين ثبتوا على الدين الصحيح، ﴿وكثير منهم فاسقون﴾ وهم الذين تركوا الرهبانية وكفروا بدين عيسى ﷺ وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن مسعود قال دخلت على رسول الله ﷺ فقال يا ابن مسعود «اختلف من كان

﴿ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون * ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه﴾، على دينه، ﴿رافة﴾، وهي أشد الرقة، ﴿ورحمة﴾، كانوا متوادين بعضهم لبعض، كما قال الله تعالى في وصف أصحاب النبي ﷺ: ﴿رحماء بينهم﴾ [الفتح: ٢٩]، ﴿ورهبانية ابتدعوها﴾، من قبل أنفسهم وليس هذا بعطف على ما قبله وانتصابه بفعل مضمّر كأنه قال: وابتدعوا رهبانية أي جاؤوا بها من قبل أنفسهم، ﴿ما كتبناها﴾، أي ما فرضناها، ﴿عليهم إلا ابتغاء رضوان الله﴾، يعني ولكنهم ابتغوا رضوان الله بتلك الرهبانية وتلك الرهبانية ما حملوا أنفسهم من المشاق في الامتناع من المطعم والمشرب والملبس والنكاح والتعب في الجبال، ﴿فما رعوها حق رعايتها﴾، أي لم يراعوا الرهبانية حق رعايتها بل ضيعوها وكفروا بدين عيسى فتهودوا وتنصروا ودخلوا في دين ملوكهم وتركوا الترهيب، وأقام منهم أناس على دين عيسى عليه الصلاة والسلام حتى أدركوا محمداً ﷺ فآمنوا به، وذلك قوله تعالى: ﴿فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم﴾، وهم الذين ثبتوا عليها وهم أهل الرافة والرحمة، ﴿وكثير منهم فاسقون﴾، وهم الذين تركوا الرهبانية وكفروا بدين عيسى عليه الصلاة والسلام، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنبأني عبد الله بن حامد أنا أحمد بن عبد الله المزني ثنا محمد بن عبد الله بن سليمان ثنا شيبان بن فروخ ثنا الصعق بن حرب عن عقيل الجعدي عن أبي إسحاق عن سويد بن غفلة عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ فقال: «يا ابن مسعود اختلف من كان قبلكم على اثنتين وسبعين فرقة نجا منها ثلاث وهلك سائرهن فرقة وازت الملوك وقتلوهم على دين عيسى عليه الصلاة والسلام، فأخذوهم وقتلوهم وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازة الملوك ولا بأن يقيموا بين ظهرائهم يدعونهم إلى دين الله ودين عيسى عليه السلام فساحوا في البلاد وترهبوا، وهم الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم﴾ فقال

قبلكم على اثنتين وسبعين فرقة نجا منها ثلاث وهلك سائرهن: فرقة وازت الملوك وقتلوهم على دين عيسى فأخذوهم وقتلوهم، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك ولا أن يقيموا بين ظهرانيهم يدعونهم إلى دين الله ودين عيسى فساحوا في البلاد وترهبوا وهم الذين قال الله عز وجل فيهم ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم» قال ﷺ «من آمن بي وصدقني واتبعني فقد رعاها حق رعايتها ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الهالكون». وعنه قال كنت رديف رسول الله ﷺ على حمار فقال لي «يا ابن أم عبد هل تدري من أين أخذت بنو إسرائيل الرهبانية؟ قلت الله ورسوله أعلم قال ظهرت عليهم الجبابة بعد عيسى يعملون بالمعاصي فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم فهزم أهل الإيمان ثلاث مرات فلم يبق منهم إلا القليل فقالوا إن ظهرنا لهؤلاء فتنونا ولم يبق أحد يدعو إليه تعالى فتعالوا لتتفرق في الأرض إلى أن يبعث الله النبي الذي وعدنا عيسى به - يعنون محمداً ﷺ - فتفرقوا في غيران الجبال وأحدثوا الرهبانية فمنهم من تمسك بدينه ومنهم من كفر ثم تلا هذه الآية ﴿ورهبانية ابتدعوها﴾ إلى ﴿فأتينا الذين آمنوا منهم﴾ أي من الذين ثبتوا عليها أجرهم ثم قال النبي ﷺ «يا ابن أم عبد أتدري ما رهبانية أمتي؟ قلت الله ورسوله أعلم قال الهجرة والصلاة والجهاد والصوم والحج والعمرة والتكبير على التلاع»، وروي عن أنس عن النبي ﷺ قال «إن لكل أمة رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله» وعن ابن عباس قال «كانت ملوك بعد عيسى عليه الصلاة والسلام بدلوا التوراة والإنجيل وكان فيهم جماعة مؤمنون يقرؤون التوراة والإنجيل ويدعونهم إلى دين الله فقيل لملوكهم لو جمعتم هؤلاء الذين شقوا عليكم فقتلتموهم أو دخلوا فيما نحن فيه فجمعهم ملكهم وعرض عليهم القتل أو يتركوا قراءة التوراة والإنجيل إلا ما بدلوا منها فقالوا ما تريدون إلى ذلك دعونا نحن نكفيكم أنفسنا فقالت طائفة منهم ابنوا لنا أسطوانات ثم ارفعونا فيه ثم أعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا فلا نرد عليكم وطائفة قالت دعونا نسيح في الأرض ونهيم ونشرب كما يشرب الوحش فإن قدرتم علينا في أرضكم فاقتلونا. وقالت طائفة منهم ابنوا لنا دوراً في الفيافي ونحتفر الآبار ونحترب

النبي ﷺ: «من آمن بي وصدقني واتبعني فقد رعاها حق رعايتها، ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الهالكون». وروى عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنت رديف النبي ﷺ على حمار فقال لي: «يا ابن أم عبد هل تدري من أين اتخذت بنو إسرائيل الرهبانية؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: ظهرت عليهم الجبابة بعد عيسى عليه السلام يعملون بالمعاصي فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم فهزم أهل الإيمان ثلاث مرات فلم يبق منهم إلا القليل، فقالوا: إن ظهرنا لهؤلاء أفنونا ولم يبق للدين أحد يدعو إليه، فقالوا: تعالوا نتفرق في الأرض إلى أن يبعث الله النبي الذي وعدنا به عيسى عليه السلام»، يعنون محمداً ﷺ، ففترقوا في غيران الجبال، وأحدثوا رهبانية فمنهم من تمسك بدينه ومنهم من كفر، ثم تلا هذه الآية: ﴿ورهبانية ابتدعوها﴾ الآية، ﴿فأتينا الذين آمنوا منهم﴾، يعني من ثبتوا عليها أجرهم، ثم قال النبي ﷺ: «يا ابن أم عبد أتدري ما رهبانية أمتي؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «الهجرة والجهاد والصلاة والصوم والحج والعمرة والتكبير على التلاع»، وروى عن أنس عن النبي ﷺ قال: «إن لكل أمة رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله»، وروى سعيد بن جبیر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت ملوك بني إسرائيل بعد عيسى عليه السلام بدلوا التوراة والإنجيل، وكان فيهم مؤمنون يقرؤون التوراة والإنجيل ويدعونهم إلى دين الله فقيل لملوكهم لو جمعتم هؤلاء الذين شقوا عليكم فقتلتموهم أو دخلوا فيما نحن فيه، فجمعهم ملكهم وعرض عليهم القتل أو يتركوا قراءة التوراة والإنجيل إلا ما بدلوا منها، فقالوا: نحن نكفيكم أنفسنا فقالت طائفة ابنوا لنا أسطوانات، ثم ارفعونا إليها ثم أعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا، ولا نرد عليكم، وقالت طائفة: دعونا نسيح في الأرض ونهيم ونشرب كما يشرب الوحش، فإن قدرتم علينا بأرض فاقتلونا، وقالت طائفة: ابنوا لنا دوراً في الفيافي نحتفر الآبار ونحترب البقول فلا نرد عليكم ولا نمر بكم، ففعلوا بهم ذلك فمضى أولئك

البقول ولا نرد عليكم ولا نمر عليكم وليس أحد من القبائل إلا وله حميم فيهم قال ففعلوا ذلك فمضى أولئك على منهاج عيسى وخلف قوم من بعدهم ممن غيروا الكتاب فجعل الرجل يقول نكون في مكان فلان نتعبد كما تعبد فلان ونسيح كما ساح فلان ونتخذ دوراً كما اتخذ فلان وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم فذلك قول الله عز وجل: ﴿ورهبانية ابتدعوها﴾ يعني ابتدعها الصالحون فما رعوها حق رعايتها يعني الآخرين الذين جاؤوا من بعدهم ﴿فأتينا الذين آمنوا منهم أجرهم﴾ يعني الذين ابتدعوها ﴿ابتغاء رضوان الله وكثير منهم فاسقون﴾ وهم الذين جاؤوا من بعدهم فلما بعث النبي ﷺ ولم يبق منهم إلا القليل انحط رجل من صومعته وجاء سائح من سياحته وصاحب دير من ديره فآمنوا به وصدقوه فقال الله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَعْفَ عَنْكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته﴾ أجريين بإيمانهم بعيسى وبالتوراة والإنجيل وإيمانهم بمحمد ﷺ وتصديقهم له وقال ﴿ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾ القرآن واتباعهم النبي ﷺ وقال ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب﴾ الذين يتشبهون بكم ﴿ألا يقدرُونَ على شيء من فضل الله﴾ الآية أخرجه النسائي موقوفاً على ابن عباس وقال قوم انقطع الكلام عند قوله ورحمة ثم قال ورهبانية ابتدعوها وذلك أنهم تركوا الحق فأكلوا الخنزير وشربوا الخمر وتركوا الوضوء والغسل من الجنابة والختان، «فما رعوها» يعني الملة والطاعة حق رعايتها كناية عن غير مذكور ﴿فأتينا الذين آمنوا منهم أجرهم﴾ وهم أهل الرأفة والرحمة ﴿وكثير منهم فاسقون﴾ وهم الذين غيروا وبدلوا وابتدعوا الرهبانية ويكون معنى قوله: ﴿ابتغاء رضوان الله﴾ على هذا التأويل: ﴿ما كتبناها عليهم﴾ ولكن ابتغاء رضوان الله وابتغاء رضوان الله اتباع ما أمر به دون التهرب لأنه لم يأمر به.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾ الخطاب لأهل الكتابين من اليهود والنصارى يعني يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى اتقوا الله في محمد وآمنوا به وهو قوله تعالى: ﴿وآمنوا برسوله﴾ يعني بمحمد ﷺ ﴿يؤتكم كفلين﴾ أي

على منهاج عيسى عليه الصلاة والسلام، وخلف قوم من بعدهم ممن قد غير الكتاب، فجعل الرجل يقول نكون في مكان فلان فتعبد كما تعبد فلان ونسيح كما ساح فلان ونتخذ دوراً كما اتخذ فلان وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم فذلك قوله عز وجل: ﴿ورهبانية ابتدعوها﴾ أي ابتدعها هؤلاء الصالحون فما رعوها حق رعايتها، يعني الآخرين الذين جاؤوا من بعدهم، فأتينا الذين آمنوا منهم أجرهم، يعني الذين ابتدعوها ابتغاء رضوان الله، وكثير منهم فاسقون الذين جاؤوا من بعدهم، قال: فلما بعث النبي ﷺ ولم يبق منهم إلا قليل انحط رجل من صومعته وجاء سائح من سياحته وصاحب دير من ديره وآمنوا به.

فقال الله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾، الخطاب لأهل الكتابين من اليهود والنصارى، يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى اتقوا الله في محمد ﷺ وآمنوا برسوله ﷺ، ﴿يؤتكم كفلين﴾، نصيبين، ﴿من رحمته﴾، يعني يؤتكم أجريين لإيمانكم بعيسى عليه الصلاة والسلام، والإنجيل وبمحمد ﷺ والقرآن، وقال قوم: انقطع الكلام عند قوله: ﴿ورحمة﴾ ثم قال: ورهبانية ابتدعوها وذلك أنهم تركوا الحق فأكلوا الخنزير وشربوا الخمر وتركوا الوضوء والغسل من الجنابة والختان، فما رعوها يعني الطاعة والملة حق رعايتها كناية عن غير مذكور، فأتينا الذين آمنوا منهم أجرهم، وهم أهل الرأفة والرحمة وكثير منهم فاسقون، وهم الذين ابتدعوا

نصيبين ﴿من رحمته﴾ يعني يؤتكم أجرين لإيمانكم بعيسى والإنجيل وبمحمد ﷺ والقرآن (ق) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ثلاثة لهم أجران رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ والعبد المملوك الذي أدى حق مواليه وحق الله ورجل كانت عنده أمة يطؤها فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها فله أجران»، ﴿ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾ يعني على الصراط وقال ابن عباس: النور هو القرآن وقيل هو الهدى والبيان أي يجعل لكم سبيلاً واضحاً في الدين تهتدون به ﴿ويغفر لكم﴾ أي ما سلف من ذنوبكم قبل الإيمان بمحمد ﷺ، ﴿والله غفور رحيم لئلا يعلم أهل الكتاب﴾ قيل لما سمع من لم يؤمن من أهل الكتاب قوله: ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين﴾، قالوا للمسلمين أما من آمن منا بكتابكم فله أجره مرتين لإيمانه بكتابكم وكتابتنا ومن لم يؤمن فله أجر كأجركم فما فضلكم علينا فنزل ﴿لئلا يعلم﴾ أي ليعلم ولا صلة أهل الكتاب يعني الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ وحسدوا المؤمنين ﴿ألا يقدرون﴾ يعني أنهم لا يقدرون ﴿على شيء من فضل الله﴾ والمعنى جعلنا الأجرين لمن آمن بمحمد ﷺ ليعلم الذين لم يؤمنوا به أنهم لا أجر لهم ولا نصيب من فضل الله وقيل لما نزل في مسلمي أهل الكتاب ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين﴾ افتخروا على المسلمين بزيادة الأجر فشق ذلك على المسلمين فنزل لئلا يعلم أهل الكتاب يعني المؤمنين منهم أن لا يقدرون على شيء من فضل الله، ﴿وأن الفضل بيد الله﴾ يعني الذي خصكم به فإنه فضلكم على جميع الخلائق وقيل يحتمل أن يكون الأجر الواحد أكثر من الأجرين وقيل قالت اليهود يوشك أن يخرج منا نبي يقطع الأيدي والأرجل فلما خرج من العرب كفروا به فأنزل هذه الآية فعلى هذا يكون فضل الله النبوة ﴿يؤتاه من يشاء﴾ يعني محمداً ﷺ وهو قوله ﴿وأن الفضل بيد الله﴾ أي في ملكه وتصرفه يؤتاه من يشاء لأنه قادر مختار، ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ (خ) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ وهو قائم على المنبر يقول «إنما بقاؤكم فيمن سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس أوتي أهل التوراة التوراة فعملوا بها حتى انتصف النهار ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً ثم أوتي أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا إلى صلاة العصر ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً ثم أوتينا القرآن فعملنا إلى غروب الشمس فأعطينا قراطين قراطين فقال

الرهبانية، وإليه ذهب مجاهد، معنى قوله: ﴿إلا ابتغاء رضوان الله﴾ على هذا التأويل ما أمرناهم وما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله، وما أمرناهم بالترهب. قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾ أي يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى اتقوا الله وآمنوا برسوله محمد ﷺ يؤتكم كفلين نصيبين من رحمته. وروينا عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل كانت له جارية فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها، ورجل من أهل الكتاب آمن بكتابه وآمن بمحمد ﷺ، وعبد أحسن عبادة لله ونصح سيده» ﴿ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾، قال ابن عباس ومقاتل: يعني على الصراط، كما قال: ﴿نورهم يسعى بين أيديهم﴾ [التحریم: ٨]، ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النور هو القرآن. وقال مجاهد: هو الهدى والبيان، أي يجعل لكم سبيلاً واضحاً في الدين تهتدون به، ﴿ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾، وقيل: لما سمع من لم يؤمن من أهل الكتاب قوله عز وجل: ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين﴾ [القصص: ٥٤] قالوا للمسلمين: أما من آمن منا بكتابكم فله أجره مرتين لإيمانه بكتابكم وكتابتنا وأما من لم يؤمن منا فله أجر كأجركم فما فضلكم علينا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته﴾، فيجعل لهم الأجرين إذا آمنوا برسوله محمد ﷺ وزادهم النور والمغفرة.

ثم قال: ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب﴾، قال قتادة: حسد الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب المؤمنين منهم، فأنزل الله تعالى: ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب﴾ قال مجاهد: قالت اليهود يوشك أن يخرج منا نبي يقطع الأيدي
تفسير الخازن والبنوي/ ج ٦/ ٩٢

أهل الكتابين أي ربنا أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين وأعطينا قيراطاً ونحن أكثر عملاً قال الله تعالى هل ظلمتكم من أجركم شيئاً قالوا لا قال فهو فضلي أوتيته من أشياء» وفي رواية «إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالاً فقال من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط قيراط فعملت اليهود إلى نصف النهار على قيراط قيراط ثم قال من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط فعملت النصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ثم قال من يعمل لي من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين ألا فأنتم الذين يعملون من صلاة العصر إلى غروب الشمس ألا لكم الأجر مرتين فغضبت اليهود والنصارى وقالوا نحن أكثر عملاً وأقل عطاء قال الله عز وجل وهل ظلمتكم من حقكم شيئاً قالوا لا قال فإنه فضلي أصيب به من شئت» أي أعطيه من شئت (خ) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له إلى الليل على أجر معلوم فعملوا إلى نصف النهار فقالوا لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا وما عملنا باطل فقال لهم لا تفعلوا اعملوا بقية يومكم وخذوا أجركم كاملاً فأبوا وتركوا واستأجر آخرين بعدهم فقال اعملوا بقية يومكم ولكم الذي شرطت لهم من الأجر فعملوا حتى إذا كان حين صلاة العصر قالوا ما عملنا باطل ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه فقال أكمّلوا بقية عملكم فإن ما بقي من النهار شيء يسير فأبوا فاستأجر قوماً أن يعملوا بقية يومهم فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس واستكملوا أجر الفريقين كليهما فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور» والله سبحانه وتعالى أعلم.

والأرجل، فلما خرج من العرب كفروا به، فأنزل الله تعالى: ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب﴾ أي ليعلم (لا) صلة، ﴿ألا يقدرّون على شيء من فضل الله﴾، أي ليعلم الذين لم يؤمنوا أنهم لا أجر لهم ولا نصيب لهم في فضل الله، ﴿وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا قتيبة بن سعيد ثنا الليث عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم كما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالاً فقال من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط قيراط، فعملت اليهود إلى نصف النهار على قيراط قيراط، ثم قال من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط، فعملت النصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط، ثم قال من يعمل لي من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين، ألا فأنتم الذين تعملون من صلاة العصر إلى مغرب الشمس ألا لكم الأجر مرتين، فغضبت اليهود والنصارى وقالوا: نحن أكثر عملاً وأقلّ عطاء؟ قال الله تعالى: «هل ظلمتكم من حقكم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: «فإنه فضلي أعطيه من شئت». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل حدثني محمد بن العلماء ثنا أبو أسامة عن يزيد عن أبي بردة عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له عملاً إلى الليل على أجر معلوم فعملوا إلى نصف النهار، فقالوا لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا وما عملناه باطل، فقال لهم: لا تفعلوا أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملاً، فأبوا وتركوا واستأجر قوماً آخرين بعدهم، فقال أكملوا بقية يومكم هذا ولكم الذي شرطت لهم من الأجر فعملوا حتى إذا كان حين الصلاة العصر قالوا ما عملنا باطل ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه، فقال أكملوا بقية عملكم فإنما بقي من النهار شيء يسير، فأبوا فاستأجر قوماً أن يعملوا له بقية يومهم فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس، فاستكملوا أجر الفريقين كليهما فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور».

سورة المجادلة

مدنية وهي اثنان وعشرون آية وأربعمئة وثلاث وسبعون كلمة وألف وسبعمائة واثنان وتسعون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾

قوله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ «نزلت في خولة بنت ثعلبة وقيل اسمها جميلة وزوجها أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت وكان به لمم وكانت هي حسنة الجسم فأرادها فأبت عليه فقال لها أنت عليّ كظهر أمي ثم ندم على ما قال وكان الظهار والإيلاء من طلاق أهل الجاهلية فقال ما أظنك إلا قد حرمت عليّ فقالت والله ما ذاك طلاق فأتت رسول الله ﷺ وعائشة تغسل شق رأسه فقالت يا رسول الله إن زوجي أوس بن الصامت تزوجني وأنا شابة غنية ذات أهل ومال حتى إذا أكل مالي وأفنى شبابي وتفرق أهلي وكبر سني ظاهر مني وقد ندم فهل من شيء يجمعني وإياه وتنعشني به فقال رسول الله ﷺ حرمت عليه فقالت يا رسول الله والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر الطلاق وإنه أبو ولدي وأحب الناس إليّ فقال رسول الله ﷺ حرمت عليه فقالت أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي قد طالت له صحبتي ونثرت له بطني فقال رسول الله ﷺ ما أراك إلا قد حرمت عليه ولم أؤمر في شأنك بشيء فجعلت

سُورَةُ الْمُجَادَلَةِ

مدنية وهي اثنتان وعشرون آية.

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾، الآية نزلت في خولة بنت ثعلبة كانت تحت أوس بن الصامت وكانت حسنة الجسم وكان به لمم فأرادها فأبت فقال لها أنت عليّ كظهر أمي، ثم ندم على ما قال وكان الظهار والإيلاء من طلاق أهل الجاهلية، فقال لها: ما أظنك إلا قد حرمت عليّ فقالت: والله ما ذاك طلاق وأتت رسول الله ﷺ وعائشة رضي الله عنها تغسل شق رأسه، فقالت: يا رسول الله إن زوجي أوس بن الصامت تزوجني وأنا شابة غنية ذات مال وأهل حتى إذا أكل مالي وأفنى شبابي وتفرق أهلي وكبر سني ظاهر مني، وقد ندم فهل من شيء يجمعني وإياه تنعشني به؟ فقال رسول الله ﷺ: «حُرِّمَ عليه»، فقالت: يا رسول الله والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقاً وإنه أبو ولدي وأحب الناس إليّ، فقال رسول الله ﷺ: «حُرِّمَ عليه»، فقالت أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي قد طالت صحبتي ونقضت له بطني، فقال رسول الله ﷺ: «ما أراك إلا قد حُرِّمَ عليه ولم أؤمر في شأنك بشيء»، فجعلت تراجع رسول الله ﷺ، وإذا قال لها رسول الله ﷺ: «حُرِّمَ عليه» هتفت، وقالت أشكو إلى الله فاقتي وشدة حالي وإن لي صبيةً صغيراً إن ضممتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إليّ جاعوا، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول: اللهم إني أشكو إليك، اللهم فأنزل على لسان نبيك فرجي، وكان هذا أول ظهار في الإسلام،

تراجع رسول الله ﷺ وكلما قال لها رسول الله ﷺ حرمت عليه هتفت وقالت أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي وشدة حالي وإن لي صبية صغاراً إن ضمنتهم إليّ جاعوا وإن ضمنتهم إليه ضاعوا وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول اللهم أشكو إليك اللهم فأنزل على لسان نبيك فرجي وهذا كان أول ظهار في الإسلام، فقامت عائشة تغسل شق رأسه الآخر فقالت انظر في أمري جعلني الله فداك يا نبي الله فقالت عائشة أقصري حديثك ومجادلتك أما ترين وجه رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي أخذه مثل السبات فلما قضى الوحي قال ادعي لي زوجك فتلا عليه رسول الله ﷺ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها الآية (ق) عن عائشة قالت الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات لقد جاءت المجادلة خولة إلى رسول الله ﷺ وكلمته في جانب البيت وما أسمع ما تقول فأنزل الله ﴿سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله﴾ الآية وأما تفسير الآية فقوله تعالى قد سمع الله قول التي تجادلك أي تحاورك وتخاصمك وتراجعك في زوجها أي في أمر زوجها ﴿وتشتكي إلى الله﴾ أي شدة حالها وفاقتها ووحدتها، ﴿والله يسمع تحاوركما﴾ أي مراجعتكما الكلام ﴿إن الله سميع﴾ أي لمن يناجيه ويتضرع إليه ﴿بصير﴾ أي بمن يشكو إليه ثم ذم الظهار فقال تعالى:

الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مَنْ نَسَاءَهُمْ مَا هُمْ بِأُمَّهَاتِهِمْ إِنَّمَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴿٢﴾

﴿الذين يظاهرون منكم من نسائهم﴾ يعني يقولون لمن أنتن كظهور أمهاتنا ﴿ما هن أمهاتهم﴾ أي ما اللواتي يجعلونهن من زوجاتهن كالأمهات بأمهات والمعنى ليس هن بأمهاتهم ﴿إن أمهاتهم﴾ أي ما أمهاتهم ﴿إلا اللاتي ولدنهم وإنهم﴾ يعني المظاهرين ﴿ليقولون منكرًا من القول﴾ يعني لا يعرف في الشرع ﴿وزورًا﴾ يعني كذباً وقيل إنما وصفه بكونه منكرًا من القول وزوراً لأن الأم محرمة تحريماً مؤبداً والزوجة لا تحرم عليه بهذا القول تحريماً مؤبداً فلا جرم صار ذلك منكرًا من القول وزوراً ﴿وإن الله لعفو غفور﴾ عفا الله عنهم وغفر لهم بإيجاب الكفارة عليهم.

(فصل في أحكام الظهار: وفيه مسائل)

المسألة الأولى: في معناه لغة قيل إن مشتق من الظهر وهو العلو وليس هو من ظهر الإنسان إذ ليس الظهر بأولى من سائر الأعضاء التي هي مواضع التلذذ والمباضعة ثبت بهذا أنه مأخوذ من الظهر الذي هو العلو لأن امرأة الرجل مركب له وظهر يدل عليه قول العرب في الطلاق نزلت عن امرأتي أي طلقته وفي قولهم أنت علي كظهر أمي حذف

فقامت عائشة تغسل شق رأسه الآخر، فقالت: انظر في أمري جعلني الله فداك يا نبي الله، فقالت عائشة: أقصري حديثك ومجادلتك أما ترين وجه رسول الله ﷺ؟ وكان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه أخذه مثل السبات، فلما قضى الوحي قال لها: ادعي زوجك فدعته، فتلا عليه رسول الله ﷺ: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك﴾، الآيات، قالت عائشة: تبارك الذي وسع سمعه الأصوات كلها إن المرأة لتحاور رسول الله ﷺ وأنا في ناحية البيت أسمع بعض كلامها ويخفي عليّ بعضه إذ أنزل الله ﴿قد سمع الله﴾ الآيات، ومعنى قوله: ﴿قول التي تجادلك﴾ وتخاصمك وتحاورك وتراجعك في زوجها، ﴿وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما﴾، مراجعتكما الكلام، ﴿إن الله سميع بصير﴾، سميع لما تناجيه وتتضرع إليه بصير بمن يشكو إليه، ثم ذم الظهار.

فقال: ﴿الذين يظاهرون منكم من نسائهم﴾، قرأ عاصم ﴿يظاهرون﴾ فيها بضم الياء وتخفيف الظاء وألف بعدها وكسر الهاء، وقرأ ابن عامر وأبو جعفر وحزمة والكسائي بفتح الياء والهاء، وتشديد الظاء وألف بعدها، وقرأ الآخرون بفتح الياء وتشديد الظاء والهاء من غير ألف. ﴿ما هن أمهاتهم﴾، أي ما اللواتي يجعلونهن من

وإضمار لأن تأويله ظهر كعلي أي ملكي إياك وعلوي عليك حرام كعلوي أُمي وعلوه عليها حرام.

المسألة الثانية: كان الظهار من أشد طلاق أهل الجاهلية لأنه في التحريم أكد ما يمكن فإن كان ذلك الحكم صار مقررًا بالشرع كانت الآية ناسخة له وإلا لم يعد نسخاً لأن النسخ إنما يدخل في الشرائع لا في أحكام الجاهلية وعاداتهم.

المسألة الثالثة: في الألفاظ المستعملة لهذا المعنى في الشريعة وعرف الفقهاء الأصل في هذا قوله أنت عليّ كظهر أُمي وأنت مني أو معي أو عندي كظهر أُمي وكذا لو قال أنت عليّ كبطن أُمي أو كرأس أُمي أو كيد أُمي أو قال بطنك أو رأسك أو يدك عليّ كظهر أُمي أو شبه عضواً منها بعضو من أعضاء أمه يكون ذلك ظهاراً وقال أبو حنيفة إن شبهها ببطن أمه أو بفرجها أو بفخذها يكون ظهاراً وإن شبهها ببعضو غير هذه الأعضاء لا يكون ظهاراً ولو قال أنت عليّ كأُمي أو كروح أُمي وأراد به الإعزاز والإكرام لا يكون ظهاراً حتى ينويه ويريده ولو شبهها بجذته فقال أنت عليّ كظهر جدتي يكون ظهاراً وكذلك لو شبهها بامرأة محرمة عليه بالقرابة بأن قال أنت عليّ كظهر أختي أو عمتي أو خالتي أو شبهها بامرأة محرمة عليه بالرضاع يكون ظهاراً على الأصح.

المسألة الرابعة: فيمن يصح ظهاره قال الشافعي الضابط في هذا أن كل من صح طلاقه صح ظهاره فعلى هذا يصح ظهار الذمي وقال أبو حنيفة لا يصح احتج الشافعي بعموم قوله ﴿وَالَّذِينَ يَظَاهَرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ واحتج أبو حنيفة بأن هذا خطاب للمؤمنين فيدل على أن الظهار مخصوص بالمؤمنين وأجيب عنه بأن هذا خطاب يتناول جميع الحاضرين فلم قلتم إنه مختص بالمؤمنين.

وَالَّذِينَ يَظَاهَرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكَ تُوعِظُونَ بِهِ وَاللَّهُ

يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ ﴿٣١﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَظَاهَرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ يعني يمتنعون بهذا اللفظ من جماعهن ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ اختلف العلماء في معنى العود في قوله ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ ولا بد أولاً من بيان أقوال أهل العربية ثم بيان أقوال الفقهاء فنقول قال الفراء لا فرق في اللغة بين أن يقال يعودون لما قالوا وفيما قالوا وقال أبو علي الفارسي كلمة إلى

زوجاتهم كالأمهات بأمهات وخفض التاء في أمهاتهم على خبر ﴿مَا﴾ ومحله نصب كقوله: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: ٣١] المعنى ليس هنَّ بأمهاتهم، ﴿إِنْ أَمَهَاتِهِمْ﴾ أي ما أمهاتهم، ﴿إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ﴾، لا يعرف في شرع ﴿وَزُورًا﴾، كذباً، ﴿وَإِنْ اللَّهُ لَعَفُوٌ غَفُورٌ﴾، عفا عنهم وغفر لهم بإيجاب الكفارة عليهم، وصورة الظهار أن يقول الرجل لامرأته أنت عليّ كظهر أُمي، أو أنت مني أو معي أو عندي كظهر أُمي، وكذلك لو قال: أنت عليّ كبطن أُمي أو كرأس أُمي أو كيد أُمي أو قال بطنك أو رأسك أو يدك عليّ كظهر أُمي أو شبه عضواً منها بعضو آخر من أعضاء أمه فيكون ظهاراً. وعند أبي حنيفة رضي الله عنه إن شبهها ببطن الأم أو فرجها أو فخذها يكون ظهاراً وإن شبهها ببعضو آخر لا يكون ظهاراً. ولو قال أنت عليّ كأُمي أو كروح أُمي وأراد به الإعزاز والكرامة فلا يكون ظهاراً حتى يريده، ولو شبهها بجذته فقال أنت عليّ كظهر جدتي يكون ظهاراً وكذلك لو شبهها بامرأة محرمة عليه بالقرابة بأن قال أنت عليّ كظهر أختي أو عمتي أو خالتي أو شبهها بامرأة محرمة عليه بالرضاع يكون ظهاراً على الأصح من الأقاويل.

﴿وَالَّذِينَ يَظَاهَرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾، ثم حكم الظهار أنه يحرم على الزوج

اللام تتعاقبان كقوله ﴿وَأَوْحَى إِلَى نُوحٍ - وَيَأْنُ رَبُّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ وأما لفظة «ما» في قوله لما فهي بمعنى الذي والمعنى يعودون إلى الذي قالوا وفي الذي قالوا . وفيه وجهان :

أحدهما : إنه لفظ الظهار والمعنى أنهم يعودون إلى ذلك اللفظ .

الوجه الثاني : أن المراد لما قالوا أي القول فيه وهو الذي حرموه على أنفسهم بلفظ الظهار تنزيلاً للقول منزلة المقول فيه وعلى هذا المعنى قوله ثم يعودون لما قالوا أي يعودون إلى شيء وذلك الشيء هو الذي قالوا فيه ذلك القول ثم إذا فسر هذا اللفظ بالوجه الأول يجوز أن يكون المعنى عاد لما فعل أي فعله مرة أخرى وعلى الوجه الثاني يجوز أن يقال عاد لما فعل أي نقض ما فعل وذلك أن من فعل شيئاً ثم أراد أن يفعله ثانياً فقد عاد إليه وكذا من فعل شيئاً ثم أراد إبطاله فقد عاد إليه بالتصرف فيه فقد ظهر بما تقدم أن قوله ثم يعودون لما قالوا يحتمل أن يكون المراد ثم يعودون إليه بأن يفعلوا مثله مرة أخرى ويحتمل أن يكون المراد ثم يعودون إليه بالنقض والرفع والإزالة وإلى هذا الاحتمال ذهب أكثر المجتهدين ثم اختلفوا فيه على وجوه :

الأول : وهو قول الشافعي إن معنى العود لما قالوا هو السكوت عن الطلاق بعد الظهار زماناً يمكنه أن يطلقها فيه وذلك لأنه لما ظاهر فقد قصد التحريم فإن وصله بالطلاق فقد تم ما شرع فيه من إيقاع التحريم ولا كفارة عليه فإذا سكت عن الطلاق فذلك يدل على أنه ندم على ما ابتدأ به من التحريم فحيثئذ تجب عليه الكفارة وفسر ابن عباس العود بالندم فقال يندمون فيرجعون إلى الألفة .

الوجه الثاني : في تفسير العود وهو قول أبي حنيفة إنه عبارة عن استباحة الوطء والملامسة والنظر إليها بالشهوة وذلك أنه لما شبهها بالأم في حرمة هذه الأشياء ثم قصد استباحة ذلك كان مناقضاً لقوله أنت علي كظهر أمي .

الوجه الثالث : وهو قول مالك إن العود إليها عبارة عن العزم على وطنها وهو قريب من قول أبي حنيفة .

الوجه الرابع : وهو قول الحسن وقتادة وطاوس والزهري إن العود إليها عبارة عن جماعها وقالوا لا كفارة عليه

وطؤها بعد الظهار ما لم يكفر، والكفارة تجب بالعود بعد الظهار. لقوله تعالى : ﴿ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة﴾، واختلف أهل العلم في العود فقال أهل الظاهر: هو إعادة لفظ الظهار، وهو قول أبو العالية، وقال: ثم يعودون لما قالوا أي إلى ما قالوا أي إعادة مرة أخرى فإن لم يكرّر اللفظ فلا كفارة عليه، وذهب قوم إلى أن الكفارة تجب بنفس الظهار والمراد من العود هو العود إلى ما كانوا عليه في الجاهلية من نفس الظهار، وهو قول مجاهد والثوري. وقال قوم: المراد من العود الوطء، وهو قول الحسن وقتادة وطاوس والزهري، وقالوا لا كفارة عليه ما لم يطأها، وقال قوم هو العزم على الوطء، وهو قول مالك وأصحاب الرأي، وذهب الشافعي إلى أن العود هو أن يمسكها عقيب الظهار زماناً يمكنه أن يفارقها، فلم يفعل فإن طلقها عقيب الظهار في الحال أو مات أحدهما في الوقت فلا كفارة عليه لأن العود للقول هو المخالفة، وفسر ابن عباس العود بالندم، فقال: يندمون فيرجعون إلى الألفة ومعناه هذا، قال الفراء: يقال عاد فلان لما قال أي فيما قال وفي نقض ما قال يعني رجع عما قال، وهذا يبين ما قال الشافعي وذلك أن قصده بالظهار التحريم فإذا أمسكها على النكاح فقد خالف قوله ورجع عما قاله فتلزمه الكفارة حتى قال لو ظاهر عن امرأته الرجعية ينقذ ظهاره ولا كفارة عليه حتى يراجعها فإن راجعها صار عائداً ولزمته الكفارة قوله: ﴿فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا﴾ والمراد بالتماس المجامعة فلا يحل للمظاهر وطء امرأته التي ظاهر عنها ما لم يكفر سواء أراد التكفير بالإعتاق أو بالصيام أو بالإطعام، وعند مالك: إن أراد التكفير بالإطعام يجوز له الوطء قبله لأن الله تعالى قيد العتق والصوم بما قبل الميسيس وقال في الإطعام: ﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِإِطْعَامِ سِتِّينَ

ما لم يطأها قال العلماء والعود المذكور هنا هب أنه صالح للجماع أو للعزم عليه أو لاستباحته إلا أن الذي قاله الشافعي هو أقل ما ينطلق عليه الاسم فيجب تعليق الحكم عليه لأنه هو الذي به يتحقق مسمى العود وأما الباقي فزيادة لا دليل عليه وأما الاحتمال الأول في قوله ثم يعودون أي يفعلون مثل ما فعلوه فعلى هذا الاحتمال في الآية وجوه أيضاً الأول قال مجاهد والثوري العود هو الإتيان بالظهار في الإسلام وتجب الكفارة به والمراد من العود هو العود إلى ما كانوا عليه في الجاهلية ذلك أن أهل الجاهلية كانوا يطلقون بالظهار فجعل الله حكم الظهار في الإسلام على خلاف حكمه عندهم فمعنى ثم يعودون لما قالوا أي في الإسلام فيقولون في الإسلام مثل ما كانوا يقولون في الجاهلية فكفارته كذا وكذا على الوجه الثاني قال أبو العالية إذا كرر لفظ الظهار فقد عاد وإلا لم يكن عود وهذا قول أهل الظاهر واحتجوا عليه بأن ظاهر قوله ثم يعودون لما قالوا يدل على إعادة ما فعلوه وهذا لا يكون إلا بالتكرير وإن لم يكرر اللفظ فلا كفارة عليه .

وقوله تعالى : ﴿ فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ﴾ المراد بالتماس المجامعة فلا يحل للمظاهر وطء امرأته التي ظاهر منها ما لم يكفر ، ﴿ ذلكم توعظون به ﴾ يعني أن غلظ الكفارة وعظ لكم حتى تتركوا الظهار ولا تعاودوه ﴿ والله بما تعملون ﴾ أي من التكفير وتركه ﴿ خبير ﴾ ثم ذكر حكم العاجز عن الرقبة فقال تعالى :

فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ

لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾

﴿ فمن لم يجد ﴾ أي الرقبة ﴿ فصيام شهرين ﴾ أي فكفارته وقيل فعله صيام شهرين ﴿ متتابعين من قبل أن يتماسا ﴾ فمن لم يستطع ﴿ أي الصيام ﴾ (ف) كفارته ﴿ إطعام ستين مسكيناً ذلك ﴾ أي الفرض الذي وصفناه ، ﴿ لتؤمنوا بالله ورسوله ﴾ أي لتصدقوا الله فيما أمر به وتصدقوا الرسول ﷺ فيما أخبر به عن الله تعالى : ﴿ وتلك حدود الله ﴾ يعني ما وصف من الكفارة في الظهار ﴿ وللكافرين ﴾ أي لمن جحد هذا وكذب به ﴿ عذاب أليم ﴾ أي في نار جهنم يوم القيامة .

مسكيناً ﴿ [المجادلة : ٤] ﴾ ولم يقل من قبل أن يتماسا ، وعند الآخرين الإطلاق في الطعام محمول على المقيد في العتق والصيام ، واختلفوا في تحريم ما سوى الوطء من المباشرات قبل التكفير كالقبلة والتلذذ فذهب أكثرهم إلى أنه لا يحرم سوء الوطء وهو قول الحسن وسفيان الثوري وأظهر قول الشافعي ، كما أن الحيض يحرم الوطء دون سائر الاستمتاع وذهب بعضهم إلى أنه يحرم لأن اسم التماس يتناول الكل ولو جامع المظاهر قبل التكفير يعصى الله تعالى ، والكفارة في ذمته ولا يجوز أن يعود ما لم يكفر ولا يجب بالجماع كفارة أخرى ، وقال بعض أهل العلم : إذا واقعها قبل التكفير عليه كفارتان وكفارة الظهار مرتبة عليه يجب عليه عتق رقبة مؤمنة ، فإن لم يجد فعليه صيام شهرين متتابعين ، فإن أفطر يوماً متعمداً أو نسي النية يجب عليه استئناف الشهرين ، فإن عجز عن الصوم يجب عليه أن يطعم ستين مسكيناً ، وقد ذكرنا في سورة المائدة مقدار ما يطعم كل مسكين ، ﴿ ذلكم توعظون به ﴾ ، تؤمرون به ، ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ .

﴿ فمن لم يجد ﴾ ، يعني الرقبة ، ﴿ فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ﴾ ، فإن كانت له رقبة إلا أنه محتاج إلى خدمته أو له ثمن رقبة لكنه محتاج إليه لنفقته ونفقة عياله فله أن ينتقل إلى الصوم . وقال مالك والأوزاعي : يلزمه الإعتاق إذا كان واجداً للرقبة أو ثمنها وإن كان محتاجاً إليه . وقال أبو حنيفة : إن كان واجداً العين الرقبة يجب عليه إعتاقها ، وإن كان محتاجاً إليها فأما إذا كان واجداً لثمن الرقبة وهو محتاج إليه فله أن يصوم فلو شرع المظاهر في صوم شهرين ثم جامع في خلال الشهر بالليل يعصى الله تعالى بتقديم الجماع على الكفارة ، ولكن لا

(فصل : في أحكام الكفارة، وما يتعلق بالظهار)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى : اختلفوا فيما يحرمه الظهار فللشافعي قولان : أحدهما أنه يحرم الجماع فقط . والقول الثاني وهو الأظهر أنه يحرم جميع جهات الاستمتاع وهو قول أبي حنيفة .

المسألة الثانية : اختلفوا فيمن ظاهر مراراً فقال الشافعي وأبو حنيفة لكل ظهار كفارة إلا أن يكون في مجلس واحد وأراد التكرار للتأكيد فإن عليه كفارة واحدة وقال مالك من ظاهر من امرأته في مجالس متفرقة فليس عليه إلا كفارة واحدة .

المسألة الثالثة : الآية تدل على إيجاب الكفارة قبل المماسّة سواء أراد التكفير بالإعتاق أو بالصيام أو بالإطعام وعند مالك إن أراد التكفير بالإطعام يجوز له الوطء قبله لأن الله تعالى قيد العتق والصوم بما قبل المسيس ولم يقل في الإطعام «من قبل أن يتماسا» فدل على ذلك . وعند الآخرين الإطلاق في الطعام محمول على المقيد في العتق والصيام فإن جامع قبل أن يكفر لم يجب عليه إلا كفارة واحدة وهو قول أكثر أهل العلم كمالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد وسفيان وقال بعضهم وإن واقعها قبل أن يكفر فعليه كفارتان وهو قول عبد الرحمن بن مهدي .

المسألة الرابعة : كفارة الظهار مرتبة فيجب عليه عتق رقبة مؤمنة وقال أبو حنيفة هذه الرقبة تجزي سواء كانت مؤمنة أو كافرة لقوله تعالى : ﴿فتحريم رقبة﴾ فهذا اللفظ يفيد العموم في جميع الرقاب .

دليلنا أنا أجمعنا على أن الرقبة في كفارة القتل مقيدة بالإيمان فكذا هنا وحمل المطلق على المقيد أولى .

المسألة الخامسة : الصوم فمن لم يجد الرقبة فعليه صيام شهرين متتابعين فإن أفطر يوماً متعمداً أو نسي النية يجب عليه استئناف الشهرين ولو شرع في الصوم ثم جامع في خلال الشهرين بالليل عصى الله تعالى بتقديم الجماع على الكفارة لكن لا يجب عليه استئناف الشهرين وعند أبي حنيفة يجب عليه استئناف الشهرين .

المسألة السادسة : إن عجز عن الصوم لمرض أو كبر أو فرط شهوة بحيث لا يصبر عن الجماع يجب عليه إطعام ستين مسكيناً كل مسكين مد من الطعام الذي يقتات به أهل البلد من حنطة أو شعير أو أرز أو ذرة أو تمر أو نحو ذلك

يجب عليه استئناف الشهرين، وعند أبي حنيفة يجب عليه استئناف الشهرين . قوله عز وجل : ﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإطعام ستين مسكيناً﴾، يعني المظاهر إذا لم يستطع الصوم لمرض أو كبر أو فرط شهوة لا يصبر عن الجماع يجب عليه إطعام ستين مسكيناً . أخبرنا أبو عبد الله بن محمد بن الفضل الخرقى أنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني أنا عبد الله بن عمر الجوهري ثنا أحمد بن علي الكشمهيني ثنا علي بن حجر ثنا إسماعيل بن جعفر عن محمد بن أبي حرملة عن عطاء بن يسار أن خولة بنت ثعلبة كانت تحت أوس بن الصامت، فظاهر منها وكان به لم، فجاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: إن أوساً ظاهر مني وذكر أن به لماً فقالت: والذي بعثك بالحق ما جئتك إلا رحمة له إن له في منافع، فأنزل القرآن فيهما فقال رسول الله ﷺ: «مريه فليعتق رقبة»، فقالت: والذي بعثك بالحق ما عنده رقبة ولا ثمنها، قال: «مريه فليصم شهرين متتابعين»، فقالت: والذي بعثك بالحق لو كلفته ثلاثة أيام ما استطاع، قال: «مريه فليطعم ستين مسكيناً»، قالت: والذي بعثك بالحق ما يقدر عليه، قال: «مريه فليذهب إلى فلان ابن فلان فقد أخبرني أن عنده شطر تمر صدقة فليأخذه صدقة عليه ثم ليتصدق به على ستين مسكيناً». وروى سليمان بن يسار عن سلمة بن صخر قال: كنت امرأة أصيب من النساء ما لم يصب غيري فلما دخل

وقال أبو حنيفة يعطي لكل مسكين نصف صاع من بر أو دقيق أو سويق أو صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير ولو أطعم مسكيناً واحداً ستين جزءاً لا يجزيه عند الشافعي وقال أبو حنيفة يجزيه .

حجة الشافعي ظاهر الآية وهو أن الله تعالى أوجب إطعام ستين مسكيناً فوجب رعاية ظاهر الآية وحجة أبي حنيفة أن المقصود دفع الحاجة وهو حاصل .

وأجيب عنه بأن إدخال السرور على قلب ستين مسكيناً أولى من إدخال السرور على قلب مسكين واحد .

المسألة السابعة: إذا كانت له رقبة إلا أنه محتاج إلى الخدمة أو له ثمن الرقبة لكنه محتاج إليه لنفقته ونفقة عياله فله أن ينتقل إلى الصوم وقال مالك والأوزاعي يلزمه الإعتاق إذا كان واجداً للرقبة أو ثمنها وإن كان محتاجاً إليه وقال أبو حنيفة إن كان واجداً لعين الرقبة يجب عليه إعتاقها وإن كان محتاجاً إليه ، وإن كان واجداً لثمن الرقبة لكنه محتاج إليه فله أن يصوم .

المسألة الثامنة: قال أصحاب الشافعي الشبق المفرط والغلبة الهائجة عذر في الانتقال من الصيام إلى الإطعام والدليل عليه ما روي عن سلمة بن صخر البياضي قال «كنت امرأ أصيب من النساء ما لا يصيب غيري فلما دخل شهر رمضان خفت أن أصيب من امرأتي شيئاً تتابع بي حتى أصبحت فظاهرت منها حتى ينسلخ شهر رمضان فبينما هي تخدمني ذات ليلة إذ انكشف لي منها شيء فما لبثت أن نزوت عليها فلما أصبحت خرجت إلى قومي فأخبرتهم الخبر قال فقلت امشوا معي إلى رسول الله ﷺ قالوا لا والله فانطلقت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته فقال أنت بذاك يا سلمة قلت أنا بذاك يا رسول الله مرتين وأنا صابر لأمر الله فاحكم بما أمرك الله به . قال حرر رقبة قلت والذي بعثك بالحق نبياً ما أملك رقبة غيرها وضربت صفحة رقبتني قال فصم شهرين متتابعين قال وهل أصبت الذي أصبت إلا من الصيام قال فأطعم وسقاً من تمر ستين مسكيناً قلت والذي بعثك بالحق نبياً لقد بتنا وحشين لا نملك لنا طعاماً قال فانطلق إلى صاحب صدقة بني زريق فليدفعها إليك فأطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر وكل أنت وعيالك بقيتها فرجعت إلى قومي فقلت وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي ووجدت عند النبي ﷺ السعة وحسن الرأي وقد أمر لي بصدقتكم وبنو بياضة بطن من بني زريق» أخرجه أبو داود .

قوله نزوت عليها أي وثبت عليها وأراد به الجماع وقوله تتابع به التتابع الوقوع في الشر واللجاج فيه والوسق ستون صاعاً ، وقوله وحشين يقال رجل وحش وإذا لم يكن له طعام وأوحش الرجل إذا جاع .

وعن خولة بنت مالك بن ثعلبة قالت «ظاهر مني زوجي أوس بن الصامت فجنث رسول الله ﷺ أشكو إليه ورسول الله ﷺ يجادلني فيه ويقول اتقي الله فإنه ابن عمك فما برحت حتى نزل القرآن قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها إلى الفرض قال يعتق رقبة قلت لا يجد قال فليصم شهرين متتابعين قلت يا رسول الله إنه شيخ كبير ما به من صيام قال فليطعم ستين مسكيناً قلت ما عنده شيء يتصدق به قال فإني سأعيته بعرق من تمر قلت يا رسول الله وأنا أعينه

شهر رمضان خفت أن أصيب من امرأتي شيئاً فظاهرت منها حتى ينسلخ شهر رمضان فبينما هي تحدّثني ذات ليلة إذ تكشف لي منها شيء فلم ألبث أن وقعت عليها ، فانطلقت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته فقالت: أنت بذاك ، فقلت: أنا بذاك قاله ثلاثاً ، قلت أنا بذاك وها أنا ذا فامض في حكم الله فإني صابر لذلك ، قال: «فاعتق رقبة» فضربت صفحة عنقي بيدي فقلت: لا والذي بعثك بالحق ما أملك غيرها ، قال: «فصم شهرين متتابعين» ، فقلت: يا رسول الله وهل أصابني ما أصابني إلا من الصيام؟ قال «فأطعم ستين مسكيناً» ، قلت: والذي بعثك بالحق لقد بتنا ليلتنا هذه وحشياً ما لنا عشيّاً ، قال: «اذهب إلى صاحب صدقة بني زريق فقل له فليدفعها إليك فأطعم عنك منها وسقاً

بعرق آخر قال قد أحسنت اذهبي فأطعمي بهما عنه ستين مسكيناً أرجعي إلى ابن عمك» أخرجه أبو داود وفي رواية «قلت إن أوساً ظاهر مني وذكرت أن به لهما وقالت والذي بعثك بالحق ما جئتكم إلا رحمة له إن له في منافع وذكرت نحوه» العرق بفتح العين والراء المهملتين زنبيل يسع ثلاثين صاعاً وقيل خمسة عشر صاعاً وقولها إن به لهما اللهم طرف من الجنون وقال الخطابي لبس المراد من اللهم هنا الجنون والخبل إن لو كان به ذلك ثم ظاهر في تلك الحال لم يلزمه شيء بل معنى اللهم هاهنا الإلمام بالنساء وشدة الحرص والشبق والله أعلم.

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَثَبُوا وَكَبُتْوا كَمَا كَبَتْ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ يَنْتَهِىَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِاللَّيْلِ وَالنَّجْوَى وَمَعَصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءَهُمْ حَيْوَتُكَ بِمَا لَمْ يَحْجُبْكَ بِهِ اللَّهُ يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلَوْنَهَا فَيَنْسَوْنَ الْعَصِيرَ ﴿٨﴾

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي يعادون الله ورسوله ويشاقون ويخالفون أمرهما، ﴿كَثَبُوا﴾ أي ذلوا وأخزوا وأهلكوا ﴿كَمَا كَبَتْ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي كما أخزي من كان قبلهم من أهل الشرك، ﴿وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ يعني فرائض وأحكاماً. ﴿وَاللَّكَافِرِينَ﴾ أي الذين لم يعملوا بها وجحدوها ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ﴿أَي حَفِظَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ ونسوه ﴿أَي نَسُوا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فِي الدُّنْيَا﴾، ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي ألم تعلم ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى عالم بجميع المعلومات لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السموات ثم أكد ذلك بقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ﴾ أي من أسرار ثلاثة وهي المسارة والمشاورة والمعني ما من شيء يناجي به الرجل صاحبه وقيل ما يكون من متناجين ثلاثة يسار بعضهم بعضاً ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ أي بالعلم يعني يعلم نجواهم كأنه حاضر معهم

ستين مسكيناً، ثم استعن بسائره عليك وعلى عيالك»، قال: فرجعت إلى قومي فقلت وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي، ووجدت عند رسول الله ﷺ السعة والبركة أمر لي بصدقتكم فدفعوها إليه. ﴿ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، لتصدقوا ما أتى به الرسول ﷺ من الله عز وجل، ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾، يعني ما وصف من الكفارات في الظهار، ﴿وَاللَّكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، قال ابن عباس: لَمَنْ جحدته وكذب به.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، أي يعادون الله ورسوله ويشاقون ويخالفون أمرهما، ﴿كَثَبُوا﴾، أذلوا وأخزوا وأهلكوا، ﴿كَمَا كَبَتْ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا﴾، إليك، ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَاللَّكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ﴾، حفظ الله أعمالهم، ﴿وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ * ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون، ﴿قَرَأَ أَبُو جَعْفَرٍ بِالتَّاءِ لِتَأْنِيثِ النَّجْوَى، وَقَرَأَ الْآخَرُونَ بِالْيَاءِ لِأَجْلِ الْحَائِلِ، ﴿مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ﴾، أي من سرار ثلاثة يعني من المسارة، أي: ما من شيء يناجي به الرجل صاحبه، ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾، بالعلم وقيل: معناه ما يكون من متناجين ثلاثة يسار بعضهم بعضاً إلا هو

ومشاهدهم كما تكون نجواهم معلومة عند الرابع الذي يكون معهم ﴿ولا خمسة إلا هو سادسهم﴾ فإن قلت لما خص الثلاثة والخمسة .

قلت : أقل ما يكفي في المشاورة ثلاثة حتى يتم الغرض فيكون اثنان كالمتنازعين في النفي والإثبات والثالث كالمتوسط الحاكم بينهما فحينئذ تحمد تلك المشاورة ويتم ذلك الغرض وهكذا كل جمع يجتمع للمشاورة لا بد من واحد يكون حكماً بينهم مقبول القول وقيل إن العدد الفرد أشرف من الزوج فلهذا خص الله تعالى الثلاثة والخمسة ثم قال تعالى : ﴿ولا أدنى من ذلك ولا أكثر﴾ يعني ولا أقل من ثلاثة وخمسة ولا أكثر من ذلك العدد ﴿إلا هو معهم أينما كانوا﴾ أي بالعلم والقدرة ، ﴿ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم﴾ قوله عز وجل : ﴿ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى﴾ نزلت في اليهود والمنافقين وذلك أنهم كانوا يتناجون فيما بينهم دون المؤمنين وينظرون إلى المؤمنين ويتغامزون بأعينهم ويوهمون المؤمنين أنهم يتناجون بما يسوءهم فيحزن المؤمنون لذلك ويقولون ما نراهم إلا قد بلغهم عن إخواننا الذين خرجوا في السرايا قتل أو هزيمة فيقع ذلك في قلوبهم ويحزنهم فلما طال على المؤمنين وكثر شكوا إلى رسول الله ﷺ فأمرهم أن لا يتناجوا دون المؤمنين فلم ينتهوا فأنزل الله ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى أي المناجاة فيما بينهم ، ﴿ثم يعودون لما نهوا عنه﴾ أي يرجعون إلى المناجاة التي نهوا عنها ﴿ويتناجون بالإثم والعدوان﴾ يعني ذلك السر الذي كان بينهم لأنه إما مكر وكيد بالمسلمين أي شيء يسوءهم وكلاهما إثم وعدوان ، ﴿ومعصية الرسول﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ كان قد نهاهم عن النجوى فعصوه وعادوا إليها وقيل معناه يوصي بعضهم بعضاً بمعصية الرسول ﴿وإذا جاؤوك﴾ يعني اليهود ﴿حيوك بما لم يحيك به الله﴾ وذلك أن اليهود كانوا يدخلون على النبي ﷺ ويقولون السام عليك والسام الموت وهم يوهمونه بأنهم يسلمون عليه وكان النبي ﷺ يرد فيقول عليكم ﴿ويقولون في أنفسهم﴾ يعني إذا خرجوا من عنده قالوا ﴿لولا يعذبنا الله بما نقول﴾ يريدون لو كان نبياً لعذبنا الله بما نقول من الاستخفاف به قال الله تعالى : ﴿حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير﴾ المعنى أن تقديم العذاب إنما يكون بحسب المشيئة والمصلحة وإذا لم تقتض المشيئة والمصلحة تقديم العذاب فعذاب جهنم يوم القيامة كافيههم (ق) عن

رابعهم بالعلم يعلم نجواهم ﴿ولا خمسة إلا هو سادسهم﴾ . ﴿ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا﴾ قرأ يعقوب أكثر بالرفع على محل الكلام قبل دخول من ﴿ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم﴾ .

﴿ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى﴾ ، نزلت في اليهود والمنافقين وذلك أنهم كانوا يتناجون فيما بينهم دون المؤمنين وينظرون إلى المؤمنين ويتغامزون بأعينهم ويوهمون المؤمنين أنهم يتناجون فيما يسوءهم ، فيحزنون لذلك ويقولون ما نراهم إلا وقد بلغهم عن إخواننا الذين جرحوا في السرايا قتل أو موت أو هزيمة فيقع ذلك في قلوبهم ويحزنهم ، فلما طال ذلك عليهم وكثر شكوا إلى رسول الله ﷺ فأمرهم أن لا يتناجوا دون المسلمين ، فلم ينتهوا عن ذلك وعادوا إلى مناجاتهم فأنزل الله : ﴿ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى﴾ أي المناجاة ﴿ثم يعودون لما نهوا عنه﴾ ، أي يرجعون إلى المناجاة التي نهوا عنها ﴿ويتناجون﴾ ، قرأ الأعمش وحمزة و(يتناجون) على وزن يفتعلون ، وقرأ الآخرون ﴿ويتناجون﴾ لقوله : ﴿إذا تناجيتهم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول﴾ ، وذلك أن النبي ﷺ كان قد نهاهم عن النجوى فعصوه ، ﴿وإذا جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله﴾ ، وذلك أن اليهود كانوا يدخلونها على النبي ﷺ ، ويقولون ، السام عليك ، والسام الموت وهم يوهمونه أنهم يقولون السلام عليك ، وكان النبي ﷺ يرد عليهم فيقول عليكم فإذا خرجوا قالوا : ﴿في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول﴾ ، يريدون لو كان نبياً حقاً لعذبنا الله بما نقول ، قال الله عز وجل : ﴿حسبهم جهنم يصلونها فبئس

عائشة رضي الله تعالى عنها قالت «دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا السام عليك قالت عائشة ففهمتها فقلت عليكم السام واللعنة قالت فقال رسول الله ﷺ مهلاً يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله فقلت يا رسول الله ألم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله ﷺ قد قلت عليكم» وللبخاري «إن اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا السام عليك فقال وعليكم فقالت عائشة السام عليكم ولعنكم الله وغضب عليكم فقال رسول الله ﷺ يا عائشة عليك بالرفق وإياك والعنف والفحش قالت أولم تسمع ما قالوا؟ قال أولم تسمعي ما قلت رددت عليهم فيستجاب لي فيهم ولا يستجاب لهم في» السام الموت قال الخطابي عامة المحدثين يروون إذا سلم عليكم أهل الكتاب فإنما يقولون السام عليكم فقولوا وعليكم الحديث فيثبتون الواو في وعليكم وكان سفيان بن عيينة يرويه بغير واو قال وهو الصواب لأنه إذا حذف الواو صار قولهم الذي قالوه مردوداً عليهم بعينه وإذا أثبت الواو وقع الاشتراك معهم لأن الواو تجمع بين الشيتين، والعنف ضد الرفق واللين، والفحش الرديء من القول.

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَنَاجُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجُوا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ
الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَرَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى
اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَنَاجُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ في المخاطبين بهذه الآية قولان أحدهما أنه خطاب للمؤمنين وذلك أنه لما ذم اليهود والمنافقين على التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول أتبعه بأن نهى المؤمنين أن يسلكوا مثل طريقهم وأن يفعلوا كفعالهم فقال لا تتناجوا بالإثم وهو ما يقبح من القول والعدوان وهو ما يؤدي إلى الظلم ومعصية الرسول وهو ما يكون خلافاً عليه.

والقول الثاني: وهو الأصح أنه خطاب للمنافقين والمعنى: يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم وقيل آمنوا بزعمهم كأنه قال لهم لا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﴿وتناجوا بالبر والتقوى﴾ أي بالطاعة وترك المعصية ﴿واتقوا الله﴾ الذي إليه تحشرون إنما النجوى من الشيطان ﴿أي من تزيين الشيطان وهو ما يأمرهم به. من الإثم والعدوان ومعصية الرسول﴾ ليحزن الذين آمنوا ﴿إنما يزين ذلك ليحزن المؤمنين (ق) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال

المصير﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا قتبية بن سعيد ثنا عبد الوهاب ثنا أبو أيوب عن ابن أبي مليكة عن عائشة أن اليهود أتوا النبي ﷺ وقالوا: السام عليك قال وعليكم، فقالت عائشة السام عليكم ولعنكم الله وغضب عليكم، فقال رسول الله ﷺ مهلاً يا عائشة عليك بالرفق وإياك والعنف والفحش، قالت أولم تسمع ما قالوا؟ قال: أولم تسمعي ما قلت رددت عليهم، فيستجاب لي فيهم ولا يُستجاب لهم في، ثم إن الله نهى المؤمنين أن يتناجوا فيما بينهم كفعل المنافقين واليهود.

فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَنَاجُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾، أي كفعل المنافقين واليهود وقال مقاتل أراد بقوله: آمنوا المنافقين أي آمنوا بلسانهم قال عطاء: يريد الذين آمنوا بزعمهم قال لهم لا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، ﴿وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي إليه تُحْشَرُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ﴾، أي من تزيين الشيطان، ﴿ليحزن الذين آمنوا﴾، أي إنما يزين لهم ذلك ليحزن المؤمنين، ﴿وليس﴾، التناجي، ﴿بضارهم شيئاً﴾، وقيل: ليس الشيطان بضارهم شيئاً، ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، أخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الطاهري أنا جدي أبو سهل عبد الصمد بن

«إذا كانوا ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث» زاد ابن مسعود في رواية «فإن ذلك يحزنه» وهذه الزيادة لأبي داود «وليس بضارهم شيئاً» يعني ذلك التناجى وقيل الشيطان ليس بضارهم شيئاً «إلا بإذن الله» أي إلا ما أراد الله تعالى وقيل إلا بإذن الله في الضر «وعلى الله فليتوكل المؤمنون» أي فليكل المؤمنون أمرهم إلى الله تعالى ويستعيذوا به من الشيطان فإن من توكل على الله لا يخيب أمله ولا يبطل سعيه .

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَاشْرُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

قوله عز وجل : «يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا» الآية قيل في سبب نزولها «إن النبي ﷺ كان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار فجاء ناس منهم يوماً وقد سبقوا إلى المجلس فقاموا حيال النبي ﷺ فسلموا عليه فرد عليهم ثم سلموا على القوم فردوا عليهم ثم قاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فلم يفسحوا وشق ذلك على النبي ﷺ فقال لمن حوله قم يا فلان وأنت يا فلان فأقام من المجلس بقدر أولئك نفر الذين كانوا بين يديه من أهل بدر فشق ذلك على من أقيم من مجلسه وعرف النبي ﷺ الكراهية في وجوههم فأنزل الله هذه الآية» وقيل نزلت في ثابت بن قيس بن شماس وقد تقدمت القصة في سورة الحجرات ، وقيل كانوا يتنافسون في مجلس رسول الله ﷺ ويحبون القرب منه فكانوا إذا رأوا من جاءهم مقبلاً تضاموا في مجلسهم فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض وقيل كان ذلك يوم الجمعة في الصفة والمكان ضيق والأقرب أن المراد مجلس رسول الله ﷺ لأنهم كانوا يتضامون فيه تنافساً على القرب من رسول الله ﷺ وحرصاً على استماع كلامه فأمر الله المؤمنين بالتواضع وأن يفسحوا في المجلس لمن أراد الجلوس عند النبي ﷺ ليتساوى الناس في الأخذ بالحظ منه وقرئ في المجلس لأن لكل واحد مجلساً ومعناه ليفسح كل رجل في مجلسه فافسحوا أي فأوسعوا في المجلس أمروا بأن يوسعوا في المجالس لغيرهم ، «يفسح الله لكم» أي يوسع الله لكم في الجنة والمجالس فيها (ق) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال

عبد الرحمن البزار أنا أبو بكر محمد بن زكريا العذافري أنا إسحاق بن إبراهيم الدبري ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن أيوب عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه ، فإن ذلك يحزنه» .

قوله عز وجل : «يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا» ، الآية ، قال مقاتل بن حيان : كان النبي يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار فجاء ناس منهم يوماً وقد سبقوا إلى المجلس فقاموا حيال النبي ﷺ وسلموا عليه فرد عليهم ثم سلموا على القوم فردوا عليهم فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم ، فلم يفسحوا لهم فشق ذلك على النبي ﷺ ، فقال لمن حوله : «قم يا فلان وأنت يا فلان فأقام من المجلس بقدر نفر الذين قاموا بين يديه من أهل بدر» ، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه وعرف النبي ﷺ الكراهية في وجوههم فأنزل الله هذه الآية . وقال الكلبي : نزلت في ثابت بن قيس بن شماس وقد ذكرنا في سورة الحجرات قصته . وقال قتادة : كانوا يتنافسون في مجلس النبي ﷺ وكانوا إذا رأوا من جاءهم مقبلاً ضنوا بمجلسهم فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض ، وقيل : كان ذلك يوم الجمعة فأنزل الله عز وجل : «يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا» أي توسعوا في المجلس ، قرأ الحسن وعاصم في المجالس لأن الكل جالس مجلساً معناه ليتفسح كل رجل في مجلسه ، وقرأ الآخرون (في المجلس) على التوحيد لأن المراد منه مجلس النبي ﷺ ، فافسحوا : أوسعوا ، يقال فسح يفسح فسحاً إذا وسع في المجلس ، «يفسح الله لكم» ، يوسع الله لكم الجنة ، والمجالس فيها . أخبرنا

«لا يقيمن أحدكم رجلاً من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن توسعوا وتفسحوا يفسح الله لكم»، (م) عن جابر بن عبد الله قال «لا يقيمن أحدكم أخاه يوم الجمعة ثم يخالف إلى مقعده فيقعد فيه ولكن يقول افسحوا» ذكره الحميدي في أفراد مسلم موقوفاً على جابر ورفع غير الحميدي وقيل في معنى الآية إن هذا في مجالس العرب ومقاعد القتال كان الرجل يأتي القوم وهم في الصف فيقول توسعوا فيأبون عليه لحرصهم على القتال ورغبتهم في الشهادة فأمرؤا بأن توسعوا لإخوانهم لأن الرجل الشديد البأس قد يكون متأخراً عن الصف الأول والحاجة داعية إلى تقدمه فلا بد من التفسح له ثم يقاس على ذلك سائر المجالس كمجالس العلم والقرآن والحديث والذكر ونحو ذلك لأن كل من وسع على عباد الله أنواع الخير والراحة وسع الله عليه خيري الدنيا والآخرة. ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانْشُزُوا﴾ أي إذا قيل ارتفعوا عن مواضعكم حتى توسعوا لإخوانكم فارتفعوا وقيل كان رجال يتثاقلون عن الصلاة في الجماعة إذا نودي لها فأنزل الله تعالى هذه الآية والمعنى إذا نودي إلى الصلاة فانهضوا إليها وقيل إذا قيل لكم انهضوا إلى الصلاة وإلى الجهاد وإلى كل خير فانهضوا إليه ولا تقصروا عنه، ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ أي بطاعتهم لله ولرسوله وامثال أوامره في قيامهم من مجالسهم وتوسعتهم لإخوانهم ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي ويرفع الله الذين أوتوا العلم من المؤمنين بفضل علمهم وسابقتهم ﴿درجات﴾ أي على من سواهم في الجنة قيل يقال للمؤمن الذي ليس بعالم إذا انتهى إلى باب الجنة أدخل ويقال للعالم قف فاشفع في الناس أخبر الله عز وجل أن رسوله ﷺ مصيب فيما أمرؤا أن أولئك المؤمنين مثابون فيما ائتمروا وأن النفر من أهل بدر مستحقون لما عوملوا به من الإكرام ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ قال الحسن قرأ ابن مسعود هذه الآية وقال يا أيها الناس افهموا هذه الآية ولنرغبكم في العلم فإن الله تعالى يقول يرفع المؤمن العالم فوق المؤمن

عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال ثنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا سفيان بن عيينة عن نافع عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقيمن أحدكم الرجل من مجلسه ثم يخلفه فيه، ولكن تفسحوا وتوسعوا». أخبرنا عبد الوهاب بن الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا عبد المجيد عن ابن جريج قال: قال سليمان بن موسى عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: «لا يقيمن أحدكم أخاه يوم الجمعة ولكن ليقل افسحوا»، وقال أبو العالية والقرظي والحسن: هذا في مجالس الحرب ومقاعد القتال، كان الرجل يأتي القوم في الصف فيقول توسعوا فيأبون عليه لحرصهم على القتال ورغبتهم في الشهادة. ﴿وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا﴾، قرأ أهل المدينة والشام وعاصم بضم الشين، وقرأ الآخرون بكسرهما، وهما لغتان أي ارتفعوا، قيل: ارتفعوا عن مواضعكم حتى توسعوا لإخوانكم. وقال عكرمة والضحاك: كان رجال يتثاقلون عن الصلاة إذا نودي لها فأنزل الله تعالى هذه الآية، معناه: إذا نودي للصلاة فانهضوا لها. وقال مجاهد وأكثر المفسرين: معناه إذا قيل لكم انهضوا إلى الصلاة وإلى الجهاد وإلى مجالس كل خير وحق فقوموا لها ولا تقصروا، ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾، بطاعتهم لرسوله ﷺ وقيامهم من مجالسهم وتوسعتهم لإخوانهم، ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾، من المؤمنين بفضل علمهم وسابقتهم، ﴿درجات﴾، فأخبر الله عز وجل أن رسوله ﷺ مصيب فيما أمرؤا أن أولئك المؤمنين مثابون فيما ائتمروا، وأن النفر من أهل بدر مستحقون لما عوملوا من الإكرام، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، قال الحسن: قرأ ابن مسعود هذه الآية وقال: أيها الناس افهموا هذه الآية ولنرغبكم في العلم فإن الله تعالى يقول: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ درجات﴾ المؤمن العالم الذي لا يعلم درجات. أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي ثنا الإمام أبو الطيب سهل بن محمد بن سليمان ثنا أبو علي حامد بن محمد بن عبد الله الهروي أنا محمد بن يونس القرشي أنا عبد الله بن داود ثنا عاصم بن رجاء بن حيوة حدثني داود بن جميل عن كثير بن قيس قال: كنت جالساً مع أبي

الذي ليس بعالم درجات وقيل إن العالم يحصل له بعلمه من المنزلة والرفعة ما لا يحصل لغيره لأنه يقتدي بالعالم في أقواله وفي أفعاله كلها عن قيس بن كثير قال قدم رجل من المدينة على أبي الدرداء وهو بدمشق فقال ما أقدمك يا أخي قال حديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله ﷺ قال أما جئت لحاجة غيره؟ قال لا قال أما قدمت في تجارة؟ قال لا قال ما جئت إلا في طلب هذا الحديث؟ قال نعم قال فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول «من سلك طريقاً يتغي فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة وإن الملائكة تضع أجنحتها رضاً لطالب العلم وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر» أخرجه الترمذي ولأبي داود نحوه، (ق) عن معاوية بن أبي سفيان قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «من يريد الله به خيراً يفقهه في الدين» وعن ابن عباس مثله أخرجه الترمذي وروى البغوي بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص «أن رسول الله ﷺ مر بمجلسين في مسجده أحد المجلسين يدعون إلى الله ويرغبون إليه والآخر يتعلمون الفقه ويعلمونه فقال كلا المجلسين على خير وأحدهما أفضل من صاحبه».

أما هؤلاء فيدعون إلى الله ويرغبون إليه وأما هؤلاء فيتعلمون الفقه ويعلمون الجاهل فهؤلاء أفضل وإنما بعثت معلماً ثم جلس فيهم: قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُثُوكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ

اللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة﴾ يعني إذا أردتم مناجاة رسول الله ﷺ فقدموا أمام ذلك صدقة وفائدة ذلك إعظام مناجاة رسول الله ﷺ فإن الإنسان إذا وجد الشيء بمشقة استعظمه وإن وجدته بسهولة استحققره ونفع كثير من الفقراء بتلك الصدقة المقدمة قبل المناجاة قال ابن عباس إن الناس سألوا رسول

الدرداء في مسجد دمشق فجاء رجل فقال: يا أبا الدرداء إني جئتكم من مدينة الرسول ﷺ لحديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله ﷺ، قال: ما كانت لك حاجة غيره؟ قال: لا، قال: ولا جئت لتجارة؟ قال: لا، قال: ولا جئت إلا رغبة فيه؟ قال: نعم، قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم، وإن السموات والأرض والحوت في الماء لتدعوا له، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو علي الحسين بن أحمد بن إبراهيم السراج أنا الحسن بن يعقوب العدل ثنا محمد بن عبد الوهاب الفراء ثنا جعفر بن عون، أنا عبد الرحمن بن زياد عن عبد الرحمن بن رافع عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ مر بمجلسين في مسجده أحد المجلسين يدعون الله ويرغبون إليه والآخر يتعلمون الفقه ويعلمونه، قال: «كلا المجلسين على خير وأحدهما أفضل من صاحبه، أما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون إليه فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وأما هؤلاء فيتعلمون الفقه ويعلمون الجاهل، فهؤلاء أفضل وإنما بعثت معلماً، ثم جلس فيهم».

قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم﴾، أمام مناجاتكم، ﴿صدقة﴾، قال ابن عباس: وذلك أن الناس سألوا رسول الله ﷺ وأكثروا حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف على نبيه ويثبطهم ويردعهم عن ذلك فأمرهم أن يقدموا صدقة على المناجاة مع الرسول ﷺ. وقال مقاتل بن حيان:

الله ﷺ وأكثروا حتى شق عليه فأراد الله تعالى أن يخفف على نبيه ﷺ ويثبطهم عن ذلك فأمرهم أن يقدموا صدقة على مناجاة رسول الله ﷺ وقيل نزلت في الأغنياء وذلك أنهم كانوا يأتون رسول الله ﷺ فيكثرون مناجاته ويغلبون الفقراء على المجالس حتى كره رسول الله ﷺ طول جلوسهم ومناجاتهم فلما أمروا بالصدقة كفوا عن مناجاته فأما الفقراء وأهل العسرة فلم يجدوا شيئاً وأما الأغنياء وأهل الميسرة فضنوا واشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فنزلت الرخصة وقال مجاهد نهوا عن المناجاة حتى يتصدقوا فلم يناجيه إلا علي بن أبي طالب تصدق بدينار وناجاه ثم نزلت الرخصة فكان علي يقول آية في كتاب الله لم يعمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي وهي آية المناجاة. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال لما نزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ﴾ قال لي النبي ﷺ ما ترى ديناراً قلت لا يطبقونه قال فنصف دينار قلت لا يطبقونه قال فكم قلت شعيرة قال إنك لزهد قال فنزلت.

ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٦﴾

﴿أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات﴾ الآية قال في خفف الله عن هذه الأمة أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب قوله قلت شعيره أي وزن شعيرة من ذهب وقوله إنك لزهد يعني قليل المال قدرت على قدر حالك.

فإن قلت في هذه الآية منقبة عظيمة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه إذ لم يعمل بها أحد غيره.

قلت هو كما قلت وليس فيها طعن على غيره من الصحابة ووجه ذلك أن الوقت لم يتسع ليعملوا بهذه الآية ولو اتسع الوقت لم يتخلفوا عن العمل بها وعلى تقدير اتساع الوقت ولم يفعلوا ذلك إنما هو مراعاة لقلوب الفقراء الذين لم يجدوا ما يتصدقون به لو احتاجوا إلى المناجاة فيكون ذلك سبباً لحزن الفقراء إذ لم يجدوا ما يتصدقون به عند

نزلت في الأغنياء وذلك أنهم كانوا يأتون النبي ﷺ فيكثرون مناجاته ويغلبون الفقراء على المجالس، حتى كره النبي ﷺ طول جلوسهم ومناجاتهم، فلما رأوا ذلك انتهوا عن مناجاته فأما أهل العسرة فلم يجدوا شيئاً وأما أهل الميسرة فضنوا واشتد ذلك على أصحاب النبي ﷺ، فنزلت الرخصة. قال مجاهد: نهوا عن المناجاة حتى يتصدقوا فلم يناجيه إلا علي رضي الله عنه تصدق بدينار وناجاه، ثم نزلت الرخصة فكان علي رضي الله عنه يقول: آية في كتاب الله لم يعمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي وهي آية المناجاة. وروى عن علي رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية دعاني رسول الله ﷺ فقال: «أما ترى ديناراً؟ قلت: لا يطبقونه، قال: «فكم قلت حبة أو شعيرة»، قال: إنك لزهد، فنزلت: ﴿أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات﴾، قال علي رضي الله تعالى عنه في قد خفف الله عن هذه الأمة. ﴿ذلك خير لكم﴾، يعني تقديم الصدقة على المناجاة، ﴿وأظهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم﴾، يعني الفقراء الذين لا يجدون ما يتصدقون به مغفور عنهم.

﴿أأشفقتم أن تقدموا﴾ قال ابن عباس: أبخلتم؟ والمعنى: أخفتم العيلة والفاقة إن قدمتم، ﴿بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا﴾، ما أمرتم به، ﴿وتاب الله عليكم﴾، تجاوز عنكم ولم يعاقبكم بترك الصدقة،

مناجاته ووجه آخر وهو أن هذه المناجاة لم تكن من المفروضات ولا من الواجبات ولا من الطاعات المندوب إليها بلى إنما كلفوا هذه الصدقة لتركوا هذه المناجاة ولما كانت هذه المناجاة أولى بأن تترك لم يعملوا بها وليس فيها طعن على أحد منهم، وقوله: ﴿ذلك خير لكم﴾ يعني تقديم الصدقة على المناجاة لما فيه من طاعة الله وطاعة رسوله ﴿وأطهر﴾ أي لذنوبكم ﴿فإن لم تجدوا﴾ يعني الفقراء الذين لا يجدون ما يتصدقون به ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ يعني أنه تعالى رفع عنهم ذلك ﴿أأشفقتم﴾ قال ابن عباس أبخلتم والمعنى أخفتم العيلة والفاقة إن قدمتم وهو قوله ﴿أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذا لم تفعلوها﴾ أي ما أمرتم به، ﴿وتاب الله عليكم﴾ أي تجاوز عنكم ونسخ الصدقة قال مقاتل بن حيان كان ذلك عشر ليالٍ ثم نسخ، وقال الكلبي ما كان إلا ساعة من نهار ثم نسخ ﴿فأقيموا الصلاة﴾ أي المفروضة ﴿وآتوا الزكاة﴾ أي الواجبة ﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ أي فيما أمر ونهى ﴿والله خير بما تعملون﴾ أي إنه محيط بأعمالكم ونيّكم.

قوله عز وجل: ﴿ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم﴾ نزلت في المنافقين وذلك أنهم تولوا اليهود ونصحوهم ونقلوا أسرار المؤمنين إليهم فأراد بقوله قوماً غضب الله عليهم اليهود ﴿ما هم﴾ يعني المنافقين ﴿منكم﴾ أي من المؤمنين في الدين والولاء ﴿ولا منهم﴾ يعني ولا من اليهود ﴿ويحلفون على الكذب وهم يعلمون﴾ أي أنهم كذبة «نزلت في عبد الله بن نبتل المنافق وكان يجالس رسول الله ﷺ ويرفع حديثه إلى اليهود فيينا رسول الله ﷺ في حجرة من حجره إذ قال يدخل عليكم الآن رجل قلبه جبار ينظر بعيني شيطان فدخل عبد الله بن نبتل وكان أزرق العينين فقال له النبي ﷺ علام تشمني أنت وأصحابك فحلف بالله ما فعل وجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه فأنزل الله هذه الآية» ﴿أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون اتخذوا أيمانهم﴾ يعني الكاذبة ﴿جنة﴾ أي يستجنون بها من القتل ويدفعون بها عن أنفسهم وأموالهم ﴿فصدوا عن سبيل الله﴾ يعني أنهم صدوا المؤمنين عن جهادهم بالقتل وأخذ أموالهم بسبب أيمانهم، وقيل معناه صدوا الناس عن دين الله الذي هو الإسلام ﴿فلهم عذاب مهين﴾ يعني في الآخرة.

وقيل: الواو صلة مجازة فإن لم تفعلوها تاب الله عليكم تجاوز عنكم وخفف عنكم، ونسخ الصدقة. قال مقاتل بن حيان: كان ذلك عشر ليالٍ ثم نسخ. وقال الكلبي: ما كانت إلا ساعة من نهار. ﴿فأقيموا الصلاة﴾، المفروضة، ﴿وآتوا الزكاة﴾، الواجبة، ﴿وأطيعوا الله ورسوله والله خير بما تعملون﴾.

﴿ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم﴾، نزلت في المنافقين تولوا اليهود وناصحوهم ونقلوا أسرار المؤمنين إليهم وأراد بقوله: ﴿غضب الله عليهم﴾ اليهود، ﴿ما هم منكم ولا منهم﴾، يعني المنافقين ليسوا من المؤمنين في الدين والولاية ولا من اليهود والكافرين، كما قال: ﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾ [النساء: ١٤٣]، ﴿ويحلفون على الكذب وهم يعلمون﴾، قال السدي ومقاتل: نزلت في عبد الله بن نبتل المنافق كان يجالس رسول الله ﷺ ثم يرفع حديثه إلى اليهود، فبينما رسول الله ﷺ في حجرة من حجراته إذ قال: يدخل عليكم الآن رجل قلبه جبار وينظر بعيني شيطان، فدخل عبد الله بن نبتل وكان أزرق العينين، فقال النبي ﷺ: «علام تشمني أنت وأصحابك فحلف بالله ما فعل وجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه، فأنزل الله عز وجل هذه الآيات، فقال: ﴿ويحلفون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ أنهم كذبة.

﴿أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ اتخذوا أيمانهم، الكاذبة، ﴿جنة﴾، يستجنون بها من القتل ويدفعون بها عن أنفسهم وأموالهم، ﴿فصدوا عن سبيل الله﴾، صدوا المؤمنين عن جهادهم بالقتل وأخذ أموالهم، ﴿فلهم عذاب مهين﴾.

لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذْلِينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

﴿لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ يوم القيامة ﴿من الله شيئاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له﴾ يعني كاذبين أنهم ما كانوا مشركين ﴿كما يحلفون لكم﴾ أي في الدنيا وقيل كان الحلف جنة لهم في الدنيا فظنوا أنه ينفع في الآخرة أيضاً ﴿ويحسبون أنهم على شيء﴾ يعني من إيمانهم الكاذبة ﴿ألا إنهم هم الكاذبون﴾ يعني في أقوالهم وإيمانهم، ﴿استحوذ عليهم الشيطان﴾ أي غلب واستولى عليهم وملكهم ﴿فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾ إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين ﴿يعني في جملة من يلحقهم الذل في الدنيا والآخرة لأن ذل أحد الخصمين على حسب عز الخصم الثاني.

ولما كانت عزة الله غير متناهية كانت ذلة من ينازعه غير متناهية ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ أي قضى ذلك قضاء ثابتاً قيل غلبة الرسل على نوعين فمنهم من يؤمر بالحرب فهو غالب بالحرب ومن لم يؤمر بالحرب فهو غالب بالحجة، ﴿إن الله قوي﴾ أي على نصر رسله وأوليائه ﴿عزیز﴾ أي غالب على أعدائه.

قوله تعالى: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله﴾ أخبر الله تعالى أن إيمان المؤمنين يفسد بموادة الكافرين وأن من كان مؤمناً لا يوالي من كفر لأن من أحب أحداً امتنع أن يحب عدوه فإن قلت قد أجمعت الأمة على أنه تجوز مخالفتهم ومعاشرتهم فما هذه المودة المحظورة قلت المودة المحظورة هي مناصحتهم وإرادة الخير لهم ديناً ودنيا مع كفرهم، فأما ما سوى ذلك فلا حظر فيه ثم إنه تعالى بالغ في الذكر عن

﴿لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ﴾، يوم القيامة، ﴿أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ من الله شيئاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له، كاذبين ما كانوا مشركين، ﴿كما يحلفون لكم﴾، في الدنيا ﴿ويحسبون أنهم على شيء﴾ من إيمانهم الكاذبة، ﴿ألا إنهم هم الكاذبون﴾.

﴿اسْتَحْوَذَ﴾، غلب واستولى، ﴿عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾ إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين، الأسفلين أي هم في جملة من يلحقهم للذل في الدنيا والآخرة.

﴿كتب الله﴾، قضى الله قضاءً ثابتاً، ﴿لأغلبن أنا ورسلي﴾ إن الله قويٌّ عزيزٌ، نظيره قوله: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين أنهم لهم المنصورون﴾ [الصافات: ١٧١ و١٧٢]، قال الزجاج: غلبة الرسل على نوعين من بُعث منهم بالحرب فهو غالب بالحرب، ومن لم يؤمر بالحرب فهو غالب بالحجة.

مودتهم بقوله ﴿ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم﴾ يعني أن الميل إلى هؤلاء من أعظم أنواع الميل ومع هذا فيجب أن يطرح الميل إلى هؤلاء والمودة لهم بسبب مخالفة الدين قيل نزلت هذه الآية في حاطب بن أبي بلتعة حين كتب إلى أهل مكة وستأتي قصته في سورة الممتحنة وروي عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية قال ولو كانوا آباءهم يعني أبا عبيدة بن الجراح قتل أباه الجراح يوم أحد أو أبناءهم يعني أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه دعا ابنه يوم بدر إلى البراز وقال يا رسول الله دعني أكن في الرعدة الأولى فقال له رسول الله ﷺ «متعنا بنفسك يا أبا بكر» أو إخوانهم يعني مصعب بن عمير قتل أخاه عبد الله بن عمير أو عشيرتهم يعني عمر بن الخطاب قتل خاله العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر وعلي بن أبي طالب وحزمة وأبا عبيدة قتلوا عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر، ﴿أولئك كتب في قلوبهم الإيمان﴾ أي أثبت التصديق في قلوبهم فهي مؤمنة موقنة مخلصه وقيل حكم لهم بالإيمان وإنما ذكر القلوب لأنها موضعه ﴿وأيدهم بروح منه﴾ أي قواهم بنصر منه وإنما سمى نصره إياهم روحاً لأن به حيي أمرهم.

وقيل بالإيمان وقيل بالقرآن وقيل بجبريل وقيل برحمته ﴿ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ إنما ذكر رضوانه عليهم بعد دخولهم الجنة لأن أعظم النعم وأجل المراتب ثم لما ذكر هذه النعم أتبعه بما يوجب ترك المودة لأعداء الله سبحانه وتعالى فقال ﴿أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ والله أعلم بمراده.

قوله عز وجل: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم﴾، الآية أخبر أن إيمان المؤمنين يفسد بموادة الكفار وأن من كان مؤمناً لا يوالي من كفر، وإن كان من عشيرته. قيل: نزلت في حاصب بن أبي بلتعة حين كتب إلى أهل مكة وسيأتي في سورة الممتحنة، إن شاء الله عز وجل. وروي مقاتل بن حيان عن مرة الهمداني عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية قال: ولو كانوا آباءهم يعني أبا عبيدة بن الجراح، قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أحد أو أبناءهم، يعني أبا بكر دعا ابنه يوم بدر إلى البراز، وقال: يا رسول الله دعني أكن في الرحلة الأولى، فقال له رسول الله ﷺ: «متعنا بنفسك يا أبا بكر»، أو إخوانهم يعني مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أحد، عشيرتهم يعني عمر قتل خاله العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر، وعلياً وحزمة وعبيدة قتلوا يوم بدر عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة. ﴿أولئك كتب في قلوبهم الإيمان﴾، أثبت التصديق في قلوبهم فهي موقنة مخلصه. وقيل: حكم لهم بالإيمان فذكر القلوب لأنها موضعه. ﴿وأيدهم بروح منه﴾، قواهم بنصر منه قال الحسن: سمى نصره إياهم روحاً لأن أمرهم يحيا به. وقال السدي: يعني بالإيمان. وقال الربيع، يعني بالقرآن وحججه، كما قال: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾ [الشورى: ٥٢]، وقيل: برحمة منه. وقيل: أمدهم بجبريل عليه السلام. ﴿ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾.

سورة الحشر

قال سعيد بن جبير قلت لابن عباس سورة الحشر فقال قل سورة النضير وهي مدنية أربع وعشرون آية وأربعمائة وخمس وأربعون كلمة وألف وتسعمائة وثلاثة عشر حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾

قوله عز وجل: ﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم ﴿قال المفسرون نزلت هذه السورة في بني النضير وهم طائفة من اليهود وذلك «أن النبي ﷺ لما دخل المدينة صالحه بنو النضير على أن لا يقاتلوه ولا يقاتلوه معه فقبل ذلك رسول الله ﷺ فلما غزا رسول الله ﷺ بدرأ وظهر على المشركين قال بنو النضير والله إنه النبي الأمي الذي نجد نعته في التوراة لا ترد له راية فلما غزا أحداً وهزم المسلمون ارتابوا وأظهروا العداوة لرسول الله ﷺ وللمؤمنين ونقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، وركب كعب بن الأشرف في أربعين راكباً من اليهود إلى مكة فأتوا قريشاً فحالفوهم وعاهدوهم على أن تكون كلمتهم واحدة على محمد ﷺ ودخل أبو سفيان في أربعين من قريش وكعب بن الأشرف في أربعين من اليهود المسجد الحرام وأخذ بعضهم على بعض الميثاق بين أستاذ الكعبة ثم رجع كعب وأصحابه إلى المدينة فنزل جبريل عليه الصلاة والسلام فأخبر النبي ﷺ بما تعاهد عليه كعب وأبو سفيان وأمره بقتل كعب بن الأشرف فقتله محمد بن مسلمة غيلة»

سُورَةُ الْحَشْرِ

مدنية وهي أربع وعشرون آية. قال سعيد بن جبير: قلت لابن عباس: سورة الحشر، قال: قل: سورة النضير.

﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، قال المفسرون: نزلت هذه السورة في بني النضير، وذلك أن النبي ﷺ دخل المدينة فصالحه بنو النضير على أن لا يقاتلوه ولا يقاتلوه معه، فقبل ذلك رسول الله ﷺ منهم فلما غزا رسول الله ﷺ بدرأ وظهر على المشركين قالت بنو النضير: والله إنه النبي الذي وجدنا نعته في التوراة لا ترد له راية، فلما غزا أحداً وهزم المسلمون ارتابوا وأظهروا العداوة لرسول الله ﷺ والمؤمنين، ونقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، وركب كعب بن الأشرف في أربعين راكباً من اليهود إلى مكة فأتوا قريشاً فحالفوهم وعاهدوهم على أن تكون كلمتهم واحدة على محمد ﷺ، ودخل أبو سفيان في أربعين وكعب في أربعين من اليهود المسجد الحرام وأخذ بعضهم على بعض الميثاق بين الأستار والكعبة، ثم رجع كعب وأصحابه إلى المدينة ونزل جبريل فأخبر النبي ﷺ بما تعاهد عليه كعب وأبو سفيان، فأمر النبي ﷺ بقتل كعب بن

وقد تقدمت القصة في سورة آل عمران وكان النبي ﷺ قد اطلع منهم على خيانة حين أتاهم يستعينهم في دية الرجلين المسلمين اللذين قتلتهما عمرو بن أمية الضمري في منصرفه من بئر معونة فهموا بطرح حجر على النبي ﷺ من الحصن فعصمه الله منهم وأخبره بذلك وقد تقدمت القصة في سورة المائدة.

فلما قتل كعب بن الأشرف أصبح رسول الله ﷺ وأمر الناس بالمسير إلى بني النضير وكانوا بقرية يقال لها زهرة فلما سار إليها النبي ﷺ وجدهم ينوحون على كعب بن الأشرف فقالوا يا محمد واعية على أثر واعية وباكية على أثر باكية قال نعم فقالوا ذرنا نبك شجوناً ثم ائتمر أمرك فقال النبي ﷺ اخرجوا من المدينة فقالوا الموت أقرب إلينا من ذلك ثم تنادوا بالحرب وأذنوا بالقتال ودس المنافقون عبد الله بن أبي وأصحابه إليهم أن لا تخرجوا من الحصن فإن قاتلوكم فنحن معكم ولا نخذلكم ولننصرنكم ولئن أخرجتم لنخرجن معكم فدرّبوا على الأرزقة وحصنوها ثم إنهم أجمعوا على الغدر برسول الله ﷺ فأرسلوا إليه أن اخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك وليخرج منا ثلاثون حتى نلتقي بمكان نصف بيننا وبينك فيسمعوا منك فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا كلنا فخرج النبي ﷺ في ثلاثين من أصحابه وخرج إليه ثلاثون حبراً من اليهود حتى كانوا في براز من الأرض فقال بعض اليهود لبعض كيف تخلصون إليه ومعه ثلاثون رجلاً من أصحابه كلهم يحب الموت قبله ولكن أرسلوا إليه كيف نفهم ونحن ستون اخرج في ثلاثة من أصحابك ويخرج إليك ثلاثة من علمائنا فيسمعون منك فإن آمنوا بك وآمنوا بك وصدقناك، فخرج رسول الله ﷺ في ثلاثة من أصحابه وخرج ثلاثة من اليهود معهم الخناجر وأرادوا الفتك برسول الله ﷺ فأرسلت امرأة ناصحة من بني النضير إلى أخيها وهو رجل مسلم من الأنصار فأخبرته بما أراد بنو النضير من الغدر برسول الله ﷺ فأقبل أخوها سريعاً حتى أدرك النبي ﷺ فساره بخبرهم قبل أن يصل إليهم فرجع النبي ﷺ فلما كان من الغد صبحهم رسول الله ﷺ بالكتائب

الأشرف، فقتله محمد بن مسلمة ذكرناه في سورة آل عمران. وكان النبي ﷺ اطلع منهم على خيانة حين أتاهم يستعينهم في دية المسلمين الذين قتلتهما عمرو بن أمية الضمري في منصرفه من بئر معونة، فهموا بطرح حجر عليه من فوق الحصن، فعصمه الله وأخبره بذلك، ذكرناه في سورة المائدة، فلما قتل كعب بن الأشرف أصبح رسول الله ﷺ وأمر الناس بالمسير إلى بني النضير، وكانوا بقرية يقال لها زهرة فلما سار إليهم النبي ﷺ وجدهم ينوحون على كعب بن الأشرف، فقالوا: يا محمد واعية على أثر واعية وباكية على أثر باكية؟ قال: «نعم»، قالوا: ذرنا نبكي شجوناً ثم ائتمر بأمرك، فقال النبي ﷺ: «أخرجوا من المدينة»، فقالوا: الموت أقرب إلينا من ذلك فتنادوا بالحرب وأذنوا بالقتال، ودس المنافقون عبد الله بن أبي سلول وأصحابه إليهم أن لا تخرجوا من الحصن، فإن قاتلوكم فنحن معكم ولا نخذلكم ولننصرنكم ولئن أخرجتم لنخرجن معكم فدرّبوا على الأرزقة وحصنوها، ثم إنهم أجمعوا على الغدر برسول الله ﷺ فأرسلوا إليه أن اخرج في ثلاثين رجلاً من أصحابك وليخرج منا ثلاثون حتى نلتقي بمكان بيننا وبينك، فيستمعوا منك فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا كلنا، فخرج النبي ﷺ في ثلاثين من أصحابه وخرج إليه ثلاثون حبراً من اليهود حتى إذا كانوا في براز من الأرض قال بعض اليهود لبعض: كيف تخلصون إليه ومعه ثلاثون رجلاً من أصحابه كلهم يحب أن يموت قبله؟ فأرسلوا إليه كيف نفهم ونحن ستون رجلاً؟ أخرج في ثلاثة من أصحابك ونخرج إليك في ثلاثة من علمائنا فيستمعوا منك، فإن آمنوا بك وآمنوا بك وصدقناك، فخرج النبي ﷺ في ثلاثة من أصحابه، وخرج ثلاثة من اليهود، واشتملوا على الخناجر وأرادوا الفتك برسول الله ﷺ، فأرسلت امرأة ناصحة من بني النضير إلى أخيها وهو رجل مسلم من الأنصار فأخبرته بما أراد بنو النضير من الغدر برسول الله ﷺ فأقبل أخوها سريعاً حتى أدرك النبي ﷺ، فساره بخبرهم قبل أن يصل النبي ﷺ إليهم، فرجع النبي ﷺ، فلما كان الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة، فقذف الله في قلوبهم الرعب وأيسوا من نصر

فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة فكدف الله في قلوبهم الرعب وأيسوا من نصر المنافقين فسألوا رسول الله ﷺ الصلح فأبى عليهم إلا أن يخرجوا من المدينة على ما يأمرهم به فقبلوا ذلك فصالحهم على الجلاء وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من أموالهم إلا الحلقة وهي السلاح وعلى أن يخلوا لهم ديارهم وعقارهم وسائر أموالهم.

وقال ابن عباس «على أن يحمل كل أهل بيت على بعير ما شاؤوا من متاعهم وللنبي ﷺ ما بقي» وقيل أعطى كل ثلاثة نفر بعيراً وسقاء ففعلوا ذلك وخرجوا من ديارهم إلى أذرعات وأريحاء من أرض الشام إلا أهل بيتين منهم آل أبي الحقيق وآل حبي بن أخطب فإنهم لحقوا بخيبر ولحقت طائفة بالحيرة، فذلك قوله عز وجل:

هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ
لَمَنْعَتُهُمْ حُصُونَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَلْنَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ
وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾

«هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب» يعني بني النضير «من ديارهم» يعني التي كانت بالمدينة.

قال ابن إسحاق كان إجماع بني النضير مرجع النبي ﷺ من أحد، وفتح قريظة مرجعه من الأحزاب وبينهما سستان ﴿لأول الحشر﴾ قال الزهري كانوا من سبط لم يصبهم جلاء فيما مضى وكان الله قد كتب عليهم الجلاء ولولا ذلك لعذبهم في الدنيا قال ابن عباس من شك أن المحشر بالشام فليقرأ هذه الآية فكان هذا أول حشر إلى الشام قال النبي ﷺ أخرجوا قالوا إلى أين؟ قال إلى أرض المحشر ثم يحشر الخلق يوم القيامة إلى الشام وقيل إنما قال لأول الحشر لأنهم كانوا أول من أجلى من أهل الكتاب من جزيرة العرب ثم أجلى آخرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقيل كان هذا أول الحشر من المدينة والحشر الثاني من خيبر وجميع جزيرة العرب إلى أذرعات وأريحاء من أرض الشام في أيام عمر، وقيل كان هذا أول الحشر والحشر الثاني نار تحشرهم يوم القيامة من المشرق إلى المغرب تبيت معهم حيث

المنافقين، فسألوا رسول الله ﷺ الصلح، فأبى عليهم إلا أن يخرجوا من المدينة على ما يأمرهم به النبي ﷺ فقبلوا ذلك فصالحهم على الجلاء وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من أموالهم إلا الحلقة وهي السلاح، وعلى أن يخلوا لهم ديارهم وعقارهم وسائر أموالهم. وقال ابن عباس: على أن يحمل كل أهل ثلاثة أبيات على بعير ما شاؤوا من متاعهم، ولنبي الله ﷺ ما بقي. وقال الضحاك: أعطى كل ثلاثة نفر بعيراً وسقاء ففعلوا وخرجوا من المدينة إلى الشام إلى أذرعات وأريحاء إلا أهل بيتين منهم آل أبي الحقيق وآل حبي بن أخطب فإنهم لحقوا بخيبر، ولحقت طائفة منهم بالحيرة.

فذلك قوله عز وجل: ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب﴾، يعني بني النضير، ﴿من ديارهم﴾، التي كانت بيثرب، قال ابن إسحاق: كان إجماع بني النضير بعد مرجع النبي ﷺ من أحد وفتح قريظة عند مرجعه من الأحزاب وبينهما سستان. ﴿لأول الحشر﴾، قال الزهري: كانوا من سبط لم يصبهم جلاء فيما مضى، وكان الله عز وجل قد كتب عليهم الجلاء، ولولا ذلك لعذبهم في الدنيا. قال ابن عباس: من شك أن المحشر بالشام فليقرأ هذه الآية فكان هذا أول حشر إلى الشام، قال لهم النبي ﷺ: «أخرجوا»، قالوا: إلى أين؟ قال: «إلى أرض المحشر»، ثم يحشر الخلق يوم القيامة إلى الشام، وقال الكلبي: إنما قال لأول الحشر لأنهم كانوا أول من أجلى من أهل الكتاب من جزيرة العرب، ثم أجلى آخرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه. قال مرة الهمداني: كان أول الحشر من المدينة والحشر الثاني من خيبر وجميع جزيرة العرب إلى أذرعات وأريحاء من الشام

باتوا وتقبل معهم حيث قالوا ﴿ مَا ظَنَنْتُمْ ﴾ يعني أيها المؤمنون ﴿ أَنْ يَخْرُجُوا ﴾ أي من المدينة لعزتهم ومنعتهم وذلك أنهم كانوا أهل حصون وعقار ونخل كثير ﴿ وَظَنُوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ أي وظن بنو النضير أن حصونهم تمنعهم من سلطان الله ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ ﴾ أي أتاهم أمر الله وعذابه ﴿ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ وهو أن الله أمر نبيه ﷺ بقتالهم وإجلالهم وكانوا لا يظنون ذلك، ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ أي الخوف الشديد بقتل سيدهم كعب بن الأشرف ﴿ يَخْرُبُونَ بَيْوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال الزهري وذلك أن النبي ﷺ لما صالحهم على أن لهم ما أقلت الإبل كانوا ينظرون إلى الخشب في منازلهم فيهدمونها وينزعون ما استحسونه منها فيحملونه على إيلهم ويخرب المؤمنون باقيها وقيل كانوا يقلعون العمود وينقضون السقوف وينقبون الجدران لثلا يسكنها المؤمنون حسداً منهم وبغضاً وقيل كان المسلمون يخربون ما يليهم من ظاهرها ويخربها اليهود من داخلها وقال ابن عباس كلما ظهر المسلمون على دار من دورهم هدموها لتتسع لهم المقاتل وجعل أعداء الله ينقبون دورهم من أدبارها فيخرجون إلى التي بعدها فيتحصنون فيها ويكسرون ما يليهم ويرمون بالتي خرجوا منها أصحاب رسول الله ﷺ، ﴿ فَاعْتَبِرُوا ﴾ يعني فاتعظوا وانظروا ما نزل بهم ﴿ يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ يعني يا ذوي العقول والبصائر.

وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبُهمُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١﴾ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِىَ الْفَاسِقِينَ ﴿٣﴾

﴿ ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء ﴾ يعني الخروج من الوطن ﴿ لعذبهم في الدنيا ﴾ يعني بالقتل والسبي كما فعل ببني قريظة ﴿ ولهم في الآخرة عذاب النار ذلك ﴾ أي الذي لحقهم ونزل بهم ﴿ بأنهم شاقوا الله ورسوله ﴾ أي خالفوا الله ورسوله ﴿ ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب ﴾ قوله تعالى: ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

في أيام عمر، وقال قتادة: كان هذا أول الحشر والحشر الثاني نار تحشرهم من المشرق إلى المغرب تبيت معهم حيث باتوا وتقبل معهم حيث قالوا: ﴿ مَا ظَنَنْتُمْ ﴾، أيها المؤمنون ﴿ أَنْ يَخْرُجُوا ﴾، من المدينة لعزتهم ومنعتهم وذلك أنهم كانوا أهل حصون وعقار ونخل كثيرة، ﴿ وَظَنُوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾، أي وظن بنو النضير أن حصونهم تمنعهم من سلطان الله، ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ ﴾، أي أمر الله وعذابه، ﴿ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾، وهو أنه أمر نبيه ﷺ بقتالهم وإجلالهم وكانوا لا يظنون ذلك، ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾، بقتل سيدهم كعب بن الأشرف، ﴿ يَخْرُبُونَ ﴾، قرأ أبو عمر بالتشديد والآخرين بالتخفيف ومعناها واحد، ﴿ بَيْوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾، قال الزهري: وذلك أن النبي ﷺ لما صالحهم على أن لهم ما أقلت الإبل كانوا ينظرون إلى الخشب في منازلهم فيهدمونها وينزعون منها ما يستحسنونه فيحملونه على إيلهم، ويخرب المؤمنون باقيها. قال ابن زيد: كانوا يقلعون العمود وينقضون السقوف وينقبون الجدران ويقلعون الخشب حتى الأوتاد يخربونها لثلا يسكنها المؤمنون حسداً منهم وبغضاً. قال قتادة: كان المسلمون يخربون ما يليهم من ظاهرها ويخربها اليهود من داخلها. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كلما ظهر المسلمون على دار من دورهم هدموها لتتسع لهم المقاتل، وجعل أعداء الله ينقبون دورهم في أدبارها فيخرجون إلى التي بعدها فيتحصنون فيها ويكسرون ما يليهم ويرمون بالتي خرجوا منها أصحاب رسول الله ﷺ، فذلك قوله عز وجل: ﴿ يَخْرُبُونَ بَيْوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا ﴾، فاتعظوا وانظروا فيما نزل بهم، ﴿ يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾، يا ذوي العقول والبصائر.

﴿ ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء ﴾، الخروج من الوطن، ﴿ لعذبهم في الدنيا ﴾، بالقتل والسبي كما فعل

الله ﴿ الآية وذلك أن النبي ﷺ لما نزل ببني النضير وتحصنوا بحصونهم أمر بقطع نخيلهم وأحرقها فجزع أعداء الله عند ذلك وقالوا يا محمد زعمت أنك تريد الصلاح أفمن الصلاح عقر الشجر وقطع النخل وهل وجدت فيما زعمت أنه أنزل عليك الفساد في الأرض فوجد المسلمون في أنفسهم من قولهم وخشوا أن يكون ذلك فساداً.

واختلفوا في ذلك فقال بعضهم لا تقطعوا فإنه مما أفاء الله علينا وقال بعضهم بل نغيظهم بقطعه فأنزل الله هذه الآية بتصديق من نهى عن قطعه وتحليل من قطعه من الإثم وأن ذلك كان بإذن الله تعالى (ق) عن ابن عمر قال: حرق رسول الله ﷺ نخل بني النضير وقطع وهي البويرة فنزل ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين البويرة ﴾ اسم موضع لبني النضير وفي ذلك يقول حسان بن ثابت:

وهان على سراة بني لؤي حريق بالبويرة مستطير

قال ابن عباس النخل كلها لينة ما خلا العجوة وكان النبي ﷺ يقطع نخيلهم إلا العجوة، وأهل المدينة يسمون ما خلا العجوة من التمر الألوان وقيل النخل كلها لينة إلا العجوة والبرنية وقيل اللينة النخل كلها من غير استثناء وقال ابن عباس في رواية أخرى عنه هي لون من النخل وقيل كرام النخل وقيل هي ضرب من النخل يقال لثمرها اللون وهو شديد الصفرة ويرى نواه من خارج يغيب فيه الضرس وكان من أجود تمرهم وأعجبه إليهم وكانت النخلة الواحدة ثمنها ثمن وصيف وأحب إليهم من وصيف فلما رأوهم يقطعونها شق عليهم ذلك وقالوا للمؤمنين إنكم تكرهون الفساد وأنتم تفسدون دعوا هذا النخل قائماً هو لمن غلب عليه فأخبر الله أن قطعها كان بإذنه، ﴿ وليخزي الفاسقين ﴾ يعني اليهود والمعنى ولأجل إخراج اليهود أذن الله في قطعها احتج العلماء بهذه الآية على أن حصون الكفار وديارهم لا بأس

ببني قريظة، ﴿ ولهم في الآخرة عذاب النار * ذلك ﴾، الذي لحقهم، ﴿ بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب ﴾.

﴿ ما قطعتم من لينة ﴾، الآية، وذلك أن رسول الله ﷺ لما نزل ببني النضير وتحصنوا بحصونهم أمر بقطع نخيلهم وإحراقها، فجزع أعداء الله عند ذلك وقالوا: يا محمد زعمت أنك تريد الصلاح أفمن الصلاح عقر الشجر وقطع النخل؟ فهل وجدت فيما زعمت أنه أنزل عليك الفساد في الأرض، فوجد المسلمون في أنفسهم من قولهم وخشوا أن يكون ذلك فساداً، واختلفوا في ذلك فقال بعضهم: لا تقطعوا فإنه مما أفاء الله علينا. وقال بعضهم: بل نغيظهم بقطعه، فأنزل الله هذه الآية بتصديق من نهى عن قطعه وتحليل من قطعه من الإثم. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا آدم ثنا الليث عن نافع عن ابن عمر قال: حرق رسول الله ﷺ نخل بني النضير وقطع وهي البويرة، فنزلت: ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله ﴾، أخبر الله في هذه الآية إن ما قطعتموه وما تركوه فبإذن الله، ﴿ وليخزي الفاسقين ﴾، واختلفوا في اللينة فقال قوم: النخل كلها لينة ما خلا العجوة، وهو قول عكرمة وقتادة، ورواه زاذان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يقطع نخيلهم إلا العجوة وأهل المدينة يسمون ما خلا العجوة من التمر الألوان واحدها لون ولينة. وقال الزهري: هي ألوان النخل كلها إلا العجوة والبرنية. وقال مجاهد وعطية: هي النخل كلها من غير استثناء. وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما: هي لون من النخل. وقال سفيان: هي كرام النخل. وقال مقاتل: هي ضرب من النخل يقال لثمرها اللون، وهو شديد الصفرة يرى نواه من خارج يغيب فيها الضرس، وكان من أجود تمرهم وأعجبها إليهم، وكانت النخلة الواحدة منها ثمنها ثمن وصيف، وأحب إليهم من وصيف، فلما رأوهم يقطعونها شق ذلك عليهم وقالوا للمؤمنين إنكم تكرهون الفساد في الأرض وأنتم تفسدون دعوا هذا

أن تهدم وتحرق وترمى بالمجانيق وكذلك قطع أشجارهم ونحوها.

وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾

قوله عز وجل: ﴿وما أفاء الله على رسوله﴾ أي ما رد الله على رسوله ﴿منهم﴾ أي من يهود بني النضير ﴿فما أوجفتهم عليه﴾ يعني أوضعتم وهو سرعة السير ﴿من خيل ولا ركاب﴾ يعني الإبل التي تحمل القوم وذلك أن بني النضير لما تركوا رباعهم وضياعهم طلب المسلمون من رسول الله ﷺ أن يقسمها بينهم كما فعل بغنائم خيبر فبين الله تعالى في هذه الآية أنها لم يوجف المسلمون عليها خيلاً ولا ركاباً ولم يقطعوا إليها شقة ولا نالوا مشقة وإنما كانوا يعني بني النضير على ميلين من المدينة فمشوا إليها مشياً ولم يركب إلا رسول الله ﷺ كان على جمل، ﴿ولكن الله يسלט رسله على من يشاء﴾ من أعدائه ﴿والله على كل شيء قدير﴾ أي فهي له خاصة يضعها حيث يشاء فقسمها رسول الله ﷺ بين المهاجرين ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا ثلاثة نفر كانت بهم حاجة وهم أبو دجانة سماك بن خرشة وسهل بن حنيف والحارث بن الصمة (ق) عن مالك بن أوس النضري أن عمر دعاه إذ جاءه حاجبه يرفاً فقال هل لك يا أمير المؤمنين في عثمان وعبد الرحمن بن عوف والزيبر وسعد يستأذنون؟ قال نعم فادخلهم فلبث قليلاً ثم جاء يرفاً فقال هل لك في عباس وعلي يستأذنان؟ قال نعم فأذن لهما فلما دخلا قال العباس يا أمير المؤمنين اقض بيني وبين هذا فقال القوم أجل يا أمير المؤمنين اقض بينهما وأرح أحدهما من الآخر قال مالك بن أوس يخيل إلي أنهم قد كانوا قدموه لذلك فقال عمر اتدوا أنشدكم بالله الذي يأذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال «لا نورث ما تركنا صدقة» يريد بذلك نفسه قالوا نعم ثم أقبل عمر على العباس وعلي وقال أنشدكما بالله الذي يأذنه تقوم

النخل قائماً هو لمن غلب عليه، فأخبر الله تعالى أن ذلك يأذنه.

﴿وما أفاء الله على رسوله﴾، أي رده على رسوله، يقال فاء يفيء أي رجع وفاءها الله، ﴿منهم﴾ أي من يهود بني النضير، ﴿فما أوجفتهم﴾، أوضعتم، ﴿عليه من خيل ولا ركاب﴾، يقال: وجف الفرس والبعير يجف وجيفاً وهو سرعة السير، وأوجفه صاحبه إذا حملة على السير، وأراد بالركاب الإبل التي تحمل القوم. وذلك أن بني النضير لما تركوا رباعهم وضياعهم طلب المسلمون من رسول الله ﷺ أن يقسمها بينهم، كما فعل بغنائم خيبر، فبين الله تعالى في هذه الآية أنه فيء لم يوجف المسلمون عليها خيلاً ولا ركاباً ولم يقطعوا إليها شقة ولا نالوا مشقة ولم يلقوا حرباً، ﴿ولكن الله يسלט رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير﴾، فجعل أموال بني النضير لرسول الله ﷺ خاصة يضعها حيث يشاء، فقسمها رسول الله ﷺ بين المهاجرين ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا ثلاثة نفر كانت بهم حاجة وهم أبو دجانة سماك بن خرشة وسهل بن حنيف والحارث بن الصمة، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو اليمان أنا شعيب عن الزهري أخبرني مالك بن أوس بن الحدثان النضري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دعاه إذ جاءه حاجبه يرفاً، فقال: هل لك في عثمان وعبد الرحمن والزيبر وسعد يستأذنون؟ قال: نعم، فلما دخلا قال ابن عباس: يا أمير المؤمنين اقض بيني وبين هذا وهما يختصمان في الذي أفاء الله على رسوله من بني النضير، فقال الرهط: يا أمير المؤمنين اقض بينهما وأرح أحدهما من الآخر، قال: اتدوا أنشدكم بالله الذي يأذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث ما تركنا صدقة» يريد رسول الله ﷺ نفسه؟ قالوا: قد قال ذلك، فأقبل عمر على علي وعباس، فقال: أنشدكما بالله هل تعلمان أن رسول الله ﷺ قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: فإني أحدثكم عن هذا الأمر

السماء والأرض أتعلمان أن رسول الله ﷺ قال «لا نورث ما تركنا صدقة» قالوا نعم قال عمر إن الله خص رسول الله ﷺ بخاصة لم يخص بها أحداً غيره فقال «وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب» الآية قال فقسم رسول الله ﷺ بينكم أموال بني النضير فوالله ما استأثرها عليكم ولا أخذها دونكم فقد أعطاكموها وقسمها فيكم حتى بقي هذا المال وكان رسول الله ﷺ يأخذ منه نفقة سنة ثم ما بقي يجعله مجعل مال الله فعمل بذلك رسول الله ﷺ حياته ثم أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض أتعلمون ذلك؟ قالوا نعم قال ثم نشد عباساً وعلياً بمثل ما نشد القوم أتعلمان ذلك؟ قالوا نعم قال فلما توفي رسول الله ﷺ قال أبو بكر أنا ولي رسول الله ﷺ فقبضه أبو بكر فعمل فيه بما عمل رسول الله ﷺ وأنتم حينئذ وأقبل على علي وعباس وقال تذاكران أن أبا بكر عمل فيه كما تقولان والله يعلم إنه لصادق راشد تابع للحق ثم توفي الله أبا بكر فقلت أنا ولي رسول الله ﷺ وأبي بكر فقبضته سنتين من إمارتي أعمل فيهما بما عمل فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر والله يعلم إنني فيه لصادق بار راشد تابع للحق ثم جئتماني كلاكما وكلمتكما واحدة وأمركما جميع فقلت لكما إن رسول الله ﷺ قال «لا نورث ما تركنا صدقة» قلتما ادفعها إلينا فلما بدا لي أن أدفعها إليكما قلت إن شئتما دفعته إليكما على أن عليكما عهداً لله وميثاقه لتعملان فيه بما عمل فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر وما عملت فيه منذ وليت وإلا فلا تكلماني فقلتما ادفعه إلينا بذلك فدفعته إليكما أفتلتسان مني قضاء غير ذلك فوالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض لا أقضي فيها بقضاء غير ذلك حتى تقوم الساعة فإن عجزتما عنه فادفعاه إلي فإني أكفيكماه.

مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كُنْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا إِلَيْكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَكُمُ عَنْهُ فَأَنْتَهُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ



قوله تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ يعني من أموال كفار أهل القرى قال ابن عباس هي قريظة

أن الله كان خص رسول الله ﷺ في هذا الفيء بشيء لم يعطه أحداً غيره، فقال: ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب﴾، إلى قوله: ﴿قدير﴾، وكانت هذه خالصة لرسول الله ﷺ ما احتازها دونكم ولا استأثرها عليكم لقد أعطاكموها وبثها فيكم حتى بقي منها هذا المال، فكان رسول الله ﷺ ينفق على أهله نفقة سنتهم من هذا المال ثم يأخذ ما بقي فيجعله مجعل مال الله، فعمل بذلك رسول الله ﷺ حياته، ثم توفي النبي ﷺ، فقال أبو بكر: أنا ولي رسول الله ﷺ فقبضها أبو بكر رضي الله تعالى عنه فعمل بها بما عمل به فيها رسول الله ﷺ، وأنتم حينئذ جميع، وأقبل على علي وعباس: تذاكران أن أبا بكر فعل فيه كما تقولان والله يعلم أنه فيها صادق بار راشد تابع للحق، ثم توفي الله أبا بكر، فقلت: أنا ولي رسول الله ﷺ وأبي بكر فقبضتها سنتين من إمارتي أعمل فيها بما عمل رسول الله ﷺ، وأبو بكر والله يعلم أنني فيه صادق بار راشد تابع للحق، ثم جئتماني كلاكما وكلمتكما واحدة، وأمركما جميع فقلت لكما: إن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث ما تركنا صدقة»، فلما بدا لي أن أدفعه إليكما قلت إن شئتما دفعته إليكما على أن عليكما عهد الله وميثاقه لتعملان فيها بما عمل به رسول الله ﷺ وأبو بكر، وبما عملت به فيها منذ وليتها، وإلا فلا تكلماني فيها، فقلتما ادفعها إلينا بذلك فدفعتها إليكما أفتلتسان مني قضاء غير ذلك، فوالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض لا أقضي فيها قضاء غير ذلك حتى تقوم الساعة، فإن عجزتما عنها فادفعاهما إلي فإني أكفيكماها.

قوله عز وجل: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾، يعني من أموال كفار أهل القرى، قال ابن

والنضير وفدك وخيبر وقرى عرينة ﴿فلله وللرسول ولذي القربى﴾ يعني بني هاشم وبني المطلب ﴿واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ قد تقدم تفسيره في سورة الأنفال في حكم الغنيمة وقسمتها وأما حكم الفيء فإنه لرسول الله ﷺ مدة حياته يضعه حيث يشاء فكان ينفق على أهله منه نفقة سنتهم ويجعل ما بقي مجعل مال الله في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله .

واختلف العلماء في مصرف الفيء بعد رسول الله ﷺ فقال قوم هو للأئمة بعده وللشافعي فيه قولان أحدهما أنه للمقاتلة والثاني هو لمصالح المسلمين ويبدأ بالمقاتلة ثم بالأهم فالأهم من المصالح .

واختلفوا في تخميس مال الفيء فذهب قوم إلى أنه يخمس فخمس لأهل خمس الغنيمة وأربعة للمقاتلة أو للمصالح وذهب الأكثرون إلى أنه لا يخمس بل مصرف جميعه واحد ولجميع المسلمين فيه حق قرأ عمر بن الخطاب «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى حتى بلغ للفقراء المهاجرين إلى قوله والذين جاؤوا من بعدهم» ثم قال هذه استوعبت المسلمين عامة قال وما على وجه الأرض مسلم إلا وله في هذا الفيء حق إلا ما ملكت أيما نكم ﴿كيلا يكون﴾ الفيء ﴿دولة﴾ والدولة اسم للشيء الذي يتداوله القوم بينهم ﴿بين الأغنياء منكم﴾ يعني بين الرؤساء والأقوياء فيغلبوا عليه الفقراء والضعفاء وذلك أن أهل الجاهلية كانوا إذا غنموا غنيمة أخذ الرئيس ربعها لنفسه وهو المربع ثم يصطفي بعده ما شاء فجعله الله لرسول الله ﷺ يقسمه فيما أمره به ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه﴾ أي من مال الفيء والغنيمة ﴿وما نهاكم عنه﴾ أي من الغلول وغيره ﴿فانتهوا﴾ وهذا نازل في أموال الفيء وهو عام في كل ما أمر به النبي ﷺ أو نهى عنه من قول أو عمل من واجب أو مندوب أو مستحب أو نهى عن محرم فيدخل فيه الفيء وغيره (ق) عن عبد الله بن مسعود أنه قال «لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها أم يعقوب وكانت تقرأ القرآن فأتته فقالت ما حديث بلغني عنك أنك قلت كذا وكذا وذكرته فقال عبد الله وما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله تعالى فقالت المرأة لقد قرأت لוחي

عباس: هي قريظة والنضير وفدك وخيبر وقرى عرينة، ﴿فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾، قد ذكرنا في سورة الأنفال حكم الغنيمة وحكم الفيء إن مال الفيء كان لرسول الله ﷺ في حياته يضعه حيث يشاء وكان ينفق منه على أهله نفقة سنتهم ويجعل ما بقي مجعل مال الله . واختلف أهل العلم في مصرف الفيء بعد رسول الله ﷺ، فقال قوم: هو للأئمة بعده . وللشافعي فيه قولان: أحدهما هو للمقاتلة، والثاني لمصالح المسلمين، ويبدأ بالمقاتلة ثم بالأهم فالأهم من المصالح . واختلفوا في تخميس مال الفيء فذهب بعضهم إلى أنه يخمس فخمسه لأهل خمس الغنيمة وأربعة أخماسه للمقاتلة وللمصالح، وذهب الأكثرون إلى أنه لا يخمس بل مصرف جميعه واحد، ولجميع المسلمين فيه حق، قرأ عمر بن الخطاب: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى﴾، حتى بلغ: ﴿للفقراء المهاجرين والذين جاؤوا من بعدهم﴾، ثم قال: هذه استوعبت المسلمين عامة، وقال: ما على وجه الأرض مسلم إلا له في هذا الفيء حق إلا ما ملكت أيما نكم . ﴿كيلا يكون دولة﴾، قرأ العامة بالياء، ﴿دولة﴾ نصب أي لكيلا يكون الفيء دولة، وقرأ أبو جعفر (تكون) بالتاء ﴿دولة﴾ بالرفع على اسم كان أي كيلا يكون الأمر إلى دولة، وجعل الكينونة بمعنى الوقوع وحينئذ لا خبر له والدولة اسم للشيء الذي يتداوله القوم بينهم، ﴿بين الأغنياء منكم﴾، يعني بين الرؤساء والأقوياء، معناه كيلا يكون الفيء دولة بين الأغنياء والأقوياء فيغلبوا عليه الفقراء والضعفاء، وذلك أن أهل الجاهلية كانوا إذا اغتنموا غنيمة أخذ الرئيس ربعها لنفسه، وهو المربع، ثم يصطفي منها بعد المربع ما شاء، فجعله الله لرسوله ﷺ يقسمه فيما أمر به، ثم قال: ﴿وما آتاكم﴾، أعطاكم، ﴿الرسول﴾، من الفيء والغنيمة، ﴿فخذوه وما نهاكم عنه﴾، من الغلول وغيره،

المصحف فما وجدته فقال إن كنت قرأته لقد وجدته قال الله عز وجل: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ الوشم هو غرز العضو من الإنسان بالإبرة ثم يحشى بكحل والمستوشمة هي التي تطلب أن يفعل بها ذلك والنامصة هي التي تنتف الشعر من الوجه والمتفلجة هي التي تتكلف تفريج ما بين ثناياها بصناعة وقيل هي التي تنفلج في مشيتها فكل ذلك منهى عنه (ق) عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» وفي رواية «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» عن أبي رافع أن رسول الله ﷺ قال «لا ألفين أحكم متكناً على أريكته يأتيه أمر مما أمرت به ونهيت عنه فيقول لا أدري ما وجدناه في كتاب الله اتبعناه» أخرجه أبو داود والترمذي.

وقال هذا حديث حسن الأريكة كل ما اتكىء عليه من سرير أو فراش أو منصة أو نحو ذلك ﴿واتقوا الله﴾ أي في أمر الفيء ﴿إن الله شديد العقاب﴾ أي على ترك ما أمركم به رسول الله ﷺ أو نهاكم عنه ثم بين من له الحق في الفيء فقال عز وجل:

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾

﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم﴾ يعني الجأهم كفار مكة إلى الخروج ﴿يبتغون فضلاً من الله﴾ أي رزقاً وقيل ثواباً من الله ﴿ورضواناً﴾ أي أخرجوا من ديارهم طلباً لرضا الله عز وجل: ﴿وينصرون الله ورسوله﴾ أي بأنفسهم وأموالهم والمراد بنصر الله نصر دينه وإعلاء كلمته ﴿أولئك هم الصادقون﴾ أي في إيمانهم قال قتادة المهاجرون الذين تركوا الديار والأموال والعشائر وخرجوا حباً لله ولرسوله واختاروا الإسلام على ما كانوا فيه من شدة حتى ذكر لنا أن الرجل كان يعصب الحجر على بطنه ليقيم به صلبه من الجوع وكان الرجل يتخذ الحفيرة في الشتاء ما له دثار غيرها (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن فقراء

﴿فانتهوا﴾، وهذا نازل في أموال الفيء، وهو عام في كل ما أمر به النبي ﷺ ونهى عنه، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا سفيان عن منصور عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله، فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها أم يعقوب، فجاءت فقالت: إنه بلغني أنك لعنت كيت وكيت، فقال: وما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله تعالى، فقالت: لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول، قال: لئن كنت قرأته لقد وجدته أما قرأت: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾؟ قالت: بلى، قال: فإنه قد نهى عنه. ﴿واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾، ثم بين من له الحق في الفيء فقال:

﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً﴾ رزقاً ﴿من الله ورضواناً﴾، أي أخرجوا إلى دار الهجرة طلباً لرضا الله عز وجل، ﴿وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون﴾، في إيمانهم. قال قتادة: هؤلاء المهاجرون الذين تركوا الديار والأموال والعشائر وخرجوا حباً لله ولرسوله، واختاروا الإسلام على ما كانوا فيه من شدة، حتى ذكر لنا أن الرجل كان يعصب الحجر على بطنه ليقيم به صلبه من الجوع، وكان الرجل يتخذ الحفيرة في الشتاء ما له دثار غيرها، أخبرنا محمد بن الحسن المروزي أنا أبو العباس الطحان أنا أبو أحمد بن محمد بن قيس بن سليمان أنا علي بن عبد العزيز المكي أنا أبو عبد القاسم بن سلام حدثني

المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفاً» وعن أبي سعيد قال قال رسول الله ﷺ «أبشروا صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم وذلك خمسمائة سنة» أخرجه أبو داود.

وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ يعني الأنصار توطنوا الدار وهي المدينة واتخذوها سكناً ﴿من قبلهم﴾ يعني أنهم أسلموا في ديارهم وآثروا الإيمان وابتنوا المساجد قبل قدوم النبي ﷺ بستتين والمعنى والذين تبوءوا الدار من قبل المهاجرين وقد آمنوا لأن الإيمان ليس بمكان يتبوأ ﴿يحبون من هاجر إليهم﴾ وذلك أنهم أنزلوا المهاجرين في منازلهم وأشركوهم في أموالهم ﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة﴾ أي حزاة وغيظاً وحسداً ﴿مما أوتوا﴾ أي أعطى المهاجرين من الفيء وذلك أن رسول الله ﷺ قسم أموال بني النضير بين المهاجرين ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا ثلاثة فطابت أنفس الأنصار بذلك ﴿ويؤثرون على أنفسهم﴾ أي ويؤثر الأنصار المهاجرين بأموالهم ومنازلهم على أنفسهم ﴿ولو كان بهم خصاصة﴾ أي فاقة وحاجة إلى ما يؤثرون به (ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال إني مجهود فأرسل إلى بعض نسائه فقالت والذي بعثك بالحق ما عندي إلا الماء ثم أرسل به إلى أخرى فقالت مثل ذلك وقلن كلهن مثل ذلك فقال رسول الله ﷺ من يضيفه يرحمه الله فقام رجل من الأنصار يقال له أبو طلحة فقال أنا يا رسول الله ﷺ فانطلق به إلى رحله فقال لامرأته هل عندك شيء؟ قالت لا إلا قوت صبياني قال فعليهم بشيء ونوميهم فإذا دخل ضيفنا فأريه أنا نأكل فإذا هوى بيده ليأكل فقومي إلى السراج كي تصلحيه فأطفيئيه ففعلت فقعدوا وأكل الضيف وباتا طاويين فلما أصبح غدا على رسول الله ﷺ فقال رسول

عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان عن أبي إسحاق عن أمية بن خالد بن عبد الله بن أسيد عن النبي ﷺ: أنه كان يستفتح بصعاليك المهاجرين. قال أبو عبيد: هكذا قال عبد الرحمن وهو عندي أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد. وروينا عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «أبشروا يا معشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة، تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم، وذلك مقدار خمسمائة سنة».

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾، وهم الأنصار تبوؤوا الدار توطنوا الدار، أي المدينة اتخذوها دار الهجرة والإيمان، ﴿من قبلهم﴾، أي أسلموا في ديارهم وآثروا الإيمان وابتنوا المساجد قبل قدوم النبي ﷺ بستتين. ونظم الآية والذين تبوؤوا الدار من قبلهم أي من قبل قدوم المهاجرين عليهم، وقد آمنوا لأن الإيمان ليس بمكان تبوء، ﴿يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة﴾، حزاة وغيظاً وحسداً، ﴿مما أوتوا﴾، أي مما أعطى المهاجرين دونهم من الفيء، وذلك أن رسول الله ﷺ قسم أموال بني النضير بين المهاجرين، ولم يعط منها الأنصار فطابت أنفس الأنصار بذلك، ﴿ويؤثرون على أنفسهم﴾، أي يؤثرون على إخوانهم من المهاجرين بأموالهم ومنازلهم على أنفسهم، ﴿ولو كان بهم خصاصة﴾، فاقة وحاجة إلى ما يؤثرون، وذلك أنهم قاسموهم ديارهم وأموالهم، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا مسدد ثنا عبد الله بن داود عن فضيل بن غزوان عن أبي حازم عن أبي هريرة أن رجلاً أتى النبي ﷺ فاستضافه فبعث إلى نسائه هل عندكن من شيء؟ فقلن: ما معناه إلا الماء، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ يَضُمُّ أَوْ يضيف هذا؟» فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله، فانطلق به إلى امرأته فقال أكرمي ضيف رسول الله ﷺ،

الله ﷺ لقد عجب الله أو ضحك الله من فلان وفلانة» زاد في رواية «فأنزل الله ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» (ق) عن أبي هريرة قال «قالت الأنصار للنبي ﷺ أقسم بيننا وبين إخواننا النخيل قال لا فقالوا تكفونا ونشرككم في الثمر قالوا سمعنا وأطعنا» (خ) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال «دعا رسول الله ﷺ الأنصار إلى أن يقطع لهم البحرين فقالوا لا إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها فقال أما لا فاصبروا حتى تلقوني على الحوض فإنه سيصيبكم أثره بعدي» وفي رواية «ستلقون بعدي أثره فاصبروا حتى تلقوني على الحوض» الأثره بفتح الهمزة والثاء والراء وضبطه بعضهم بضم الهمزة وإسكان الثاء والأول أشهر ومعناه الاستثثار وهو أن يستأثر عليكم بأمور الدنيا ويفضل غيركم عليكم ولا يجعل لكم في الأمر نصيب وقيل هو من أثر إذا أعطى أراد يستأثر عليكم غيركم فيفضل في نصيبه من الفيء والاستثثار الانفراد بالشيء وقيل الأثره الشدة والأول أظهر وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم النضير للأنصار «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وتشاركونهم في هذه الغنيمة وإن شئتم كانت لكم أموالكم ودياركم ولم نقسم لكم شيئاً من الغنيمة فقالت الأنصار بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها فأنزل الله عز وجل ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون» والشح في كلام العرب البخل مع الحرص وقد فرق بعض العلماء بين البخل والشح فقال البخل نفس المنع والشح هو الحالة النفسانية التي تقتضي ذلك المنع.

فقالت: ما عندنا إلا قوت الصبيان، فقال هيئي طعامك وأصبحي سراجك ونومي صبيانك، إذا أرادوا عشاء، فهياتي طعامها وأصبحت سراجها، ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته، فجعلوا يربانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين، فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ، فقال: ضحك الله الليلة أو عجب من فعالكما، فأنزل الله عز وجل: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾. ﴿وَمَنْ يُوقْ شَحْ نفسه فأولئك هم المفلحون﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا الحكيم بن نافع أنا شعيب ثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قالت الأنصار: أقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: لا، فقالوا: تكفونا المؤنة ونشرككم في الثمرة، قالوا: سمعنا وأطعنا. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عبد الله بن محمد ثنا سفيان عن يحيى بن سعيد سمع أنس بن مالك حين خرج معه إلى الوليد قال: دعا النبي ﷺ الأنصار إلى أن يقطع لهم البحرين، فقالوا: لا إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها، قال: «ألا فاصبروا حتى يلقيني على الحوض، فإنه سيصيبكم أثره بعدي». ورؤي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم النضير للأنصار: «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وتشاركونهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة»، فقالت الأنصار: بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها، فأنزل الله عز وجل: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة وَمَنْ يُوقْ شَحْ نفسه فأولئك هم المفلحون﴾. والشح في كلام العرب: البخل ومنع الفضل. وفرق العلماء بين الشح والبخل. روي أن رجلاً قال لعبد الله بن مسعود: إني أخاف أن أكون قد هلك، فقال: وما ذاك؟ قال: أسمع الله يقول: ﴿وَمَنْ يُوقْ شَحْ نفسه فأولئك هم المفلحون﴾، وأنا رجل شحيح، لا يكاد يخرج من يدي شيء، فقال عبد الله: ليس ذاك بالشح الذي ذكر الله عز وجل في القرآن، ولكن الشح أن تأكل مال أخيك ظلماً ولكن ذلك البخل وبش الشيء البخل. وقال ابن عمر: ليس الشح أن يمنع الرجل ماله إنما الشح أن تطمح عين الرجل إلى ما ليس له. وقال سعيد بن جبير: الشح هو أخذ الحرام ومنع الزكاة. وقيل: الشح هو الحرص الشديد الذي يحمله على ارتكاب المحارم. قال ابن زيد: من لم يأخذ شيئاً نهاه الله عنه،

ولما كان الشح من صفات النفس لا جرم قال الله تعالى: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ أي الفائزون بما أرادوا وروى أن رجلاً قال لابن مسعود إني أخاف أن أكون قد هلكت قال وما ذاك قال إني أسمع الله يقول ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج من يدي شيء فقال عبد الله ليس ذلك بالشح الذي ذكر الله في القرآن ولكن الشح أن تأكل مال أخيك ظلماً ولكن ذلك البخل وبش الشيء البخل وقال ابن عمر ليس الشح أن يمنع الرجل ماله إنما الشح أن تطمع عين الرجل فيما ليس له وقيل الشح هو الحرص الشديد الذي يحمل صاحبه على ارتكاب المحارم وقيل من لم يأخذ شيئاً نهى الله عن أخذه ولم يمنع شيئاً أمره الله بإعطائه فقد وقاه شح نفسه (م) عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم» عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالع» أخرجه أبو داود الهلع أشد الجزع والمراد منه أن الشحيح يجزع جزعاً شديداً ويحزن على شيء يفوته أو يخرج من يده والخالع الذي خلع فؤاده لشدة خوفه وفزعه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبداً ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً» أخرجه النسائي.

وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾

قوله تعالى: ﴿والذين جاءوا من بعدهم﴾ يعني من بعد المهاجرين والأنصار وهم التابعون لهم إلى يوم القيامة ﴿يقولون ربنا اغفر لنا وإخواننا الذين سبقونا بالإيمان﴾ أخبر أنهم يدعون لأنفسهم بالمغفرة وإخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان ﴿ولا تجعل في قلوبنا غلاً﴾ أي غشاً وحسداً وبغضاً ﴿للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾ فكل من كان في قلبه غل أو بغض لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ ولم يترحم على جميعهم فإنه ليس ممن عناء الله بهذه الآية لأن الله تعالى رتب المؤمنين على ثلاث منازل المهاجرين ثم من بعدهم التابعون الموصوفون بما ذكر فمن لم يكن من

ولم يدعه الشح إلى أن يمنع شيئاً من شيء أمره الله به فقد وقاه شح نفسه. أخبرنا الإمام محمد بن أبي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو سعد خلف بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي نزار ثنا أبو بكر أحمد بن محمد بن أحمد بن حراز القهندري ثنا أبو عبد الله محمد بن إسحاق السعدي ثنا أحمد بن منصور الرمادي ثنا القعني ثنا داود بن قيس الفراء عن عبيد الله بن مقسم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة. واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن استحلو دماءهم واستحلوا محارمهم». أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي ثنا أبو العباس الأصم أنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم أنا أبي وشعيب قالوا: أنا الليث عن يزيد بن الهاد عن سهيل بن أبي صالح عن صفوان بن يزيد عن القعقاع هو ابن اللجلاج عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبداً، ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً».

﴿والذين جاءوا من بعدهم﴾، يعني التابعين وهم الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار إلى يوم القيامة، ثم ذكر أنهم يدعون لأنفسهم وللمن سبقهم بالإيمان والمغفرة، فقال: ﴿يقولون ربنا اغفر لنا وإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً﴾، غشاً وحسداً وبغضاً، ﴿للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾، فكل من كان في قلبه غل على أحد من الصحابة ولم يترحم على جميعهم فإنه ليس ممن عناء الله بهذه الآية، لأن الله تعالى رتب

التابعين بهذه الصفة كان خارجاً من أقسام المؤمنين وليس له في المسلمين نصيب وقال ابن أبي ليلى الناس على ثلاثة منازل الفقراء المهاجرون والذين تبوءوا الدار والإيمان والذين جاؤوا من بعدهم فاجتهد أن لا تكون خارجاً من هذه الثلاث منازل (ق) عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه» (م) عن عروة بن الزبير قال قالت عائشة «يا ابن أخي أمروا أن يستغفروا لأصحاب رسول الله ﷺ فسبوا» عن عبد الله بن مغفل قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه» أخرجه الترمذي وقال مالك بن أنس: من انتقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ أو كان في قلبه غل عليهم فليس له حق في فيء المسلمين ثم تلا هذه الآية ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى إلى والذين جاؤوا من بعدهم - إلى - رؤوف رحيم﴾ وقال مالك بن مغول قال الشعبي يا مالك تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلة سئلت اليهود من خير أهل ملتكم؟ قالوا أصحاب موسى وسئلت النصارى من خير أهل ملتكم؟ قال حوارى عيسى وسئلت الرافضة من شر أهل ملتكم؟ فقالوا أصحاب محمد رسول الله ﷺ أمروا أن يستغفروا لهم فسبواهم والسيف مسلول عليهم إلى يوم القيامة لا تقوم لهم راية ولا يثبت لهم قدم ولا تجمع لهم كلمة كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله بسفك دمائهم وتفريق شملهم وإدحاض حجتهم أعاذنا الله وإياكم من الأهواء المضلة.

وروي عن جابر قال قيل لعائشة إن ناساً يتناولون أصحاب رسول الله ﷺ حتى أبا بكر وعمر فقالت وما تعجبون من هذا انقطع عنهم العمل فأحب الله أن لا يقطع عنهم الأجر.

وروي أن ابن عباس سمع رجلاً ينال من أصحاب رسول الله ﷺ فقال له من أمن المهاجرين الأولين أنت؟ قال لا قال أفمن الأنصار أنت؟ قال لا قال فأنا أشهد بأنك لست من التابعين لهم بإحسان قوله عز وجل:

المؤمنين على ثلاثة منازل: المهاجرين والأنصار والتابعين الموصوفين بما ذكر، فمن لم يكن من التابعين بهذه الصفة كان خارجاً من أقسام المؤمنين. قال ابن أبي ليلى الناس على ثلاثة منازل: المهاجرين، والذين تبوءوا الدار والإيمان، والذين جاؤوا من بعدهم، فاجتهد أن لا تكون خارجاً من هذه المنازل. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا عبد الله بن حامد أنا أحمد بن عبد الله بن سليمان ثنا محمد بن عبد الله ثنا ابن نمير ثنا أبي عن إسماعيل بن إبراهيم عن عبد الملك بن عمير عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت: أمرتم بالاستغفار لأصحاب محمد ﷺ، فسببتموهم سمعت نبيكم ﷺ يقول: «لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها أولها»، وقال مالك بن مغول: قال عامر بن شرحبيل الشعبي: يا مالك تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلة سئلت اليهود من خير أهل ملتكم، فقالت أصحاب موسى عليه السلام، وسئلت النصارى من خير أهل ملتكم، فقالوا حوارى عيسى عليه السلام، وسئلت الرافضة من شر أهل ملتكم، فقالوا أصحاب محمد ﷺ أمروا بالاستغفار لهم فسبواهم، فالسيف مسلول إلى يوم القيامة لا تقوم لهم راية ولا يثبت لهم قدم، ولا تجمع لهم كلمة كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله بسفك دمائهم وتفريق شملهم وإدحاض حجتهم، أعاذنا الله وإياكم من الأهواء المضلة. قال مالك بن أنس من يبغض أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ أو كان في قلبه عليهم غل فليس له حق في فيء المسلمين، ثم تلا: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى﴾ [الحشر: ٨ و٩]، حتى أتى على هذه الآية: ﴿للفقراء المهاجرين والذين تبوءوا الدار والإيمان والذين جاؤوا من بعدهم﴾ [الحشر: ٨ و٩]، إلى قوله: ﴿رؤوف رحيم﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَيَنَّ الْأَدْبَارُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿ألم تر إلى الذين نافقوا﴾ يعني أظهروا خلاف ما أضمروا وهم عبد الله بن أبي ابن سلول وأصحابه ﴿يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ يعني اليهود من بني قريظة وبني النضير وإنما جعل المنافقين إخوانهم لأنهم كفار مثلهم ﴿لئن أخرجتم﴾ أي من المدينة ﴿لنخرجن معكم﴾ أي منها ﴿ولا نطيع فيكم أحدا أبدا﴾ يعني إن سألنا أحد خلافكم وخذلانكم فلا نطيعه فيكم ﴿وإن قوتلتم لننصرنكم﴾ أي لنعيننكم ولنقاتلن معكم ﴿والله يشهد إنهم﴾ يعني المنافقين ﴿لكاذبون﴾ أي فيما قالوا ووعدوا ثم أخبر الله عن حال المنافقين فقال تعالى: ﴿لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم﴾ وكان الأمر كذلك فإنهم أخرجوا ولم يخرج المنافقون معهم وقوتلوا فلم ينصروهم ﴿لئن نصروهم ليولن الأدبار﴾ يعني لو قدروا نصرهم أو لو قصدوا نصر اليهود لولوا الأدبار منهزمين ﴿ثم لا ينصرون﴾ يعني بني النضير لا يصيرون منصورين إذا انهزم ناصرهم.

﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنْتُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنْتُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَذَلِكِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاتُوا أَبًا لَهُمْ أَتْرَهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَذَلِكِ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾

﴿لأنتم﴾ يعني يا معشر المسلمين ﴿أشد رهبة في صدورهم من الله﴾ أصل الرهبة والرهب الخوف الشديد مع حزن واضطراب والمعنى أنهم يرهبون ويخافون منكم أشد من رهبتهم من الله ﴿ذلك﴾ أي الخوف منكم ﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾ يعني عظمة الله تعالى: ﴿لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة﴾ أي لا يبرزون لقتالكم إنما يقاتلونكم

قوله عز وجل: ﴿ألم تر إلى الذين نافقوا﴾، أي أظهروا خلاف ما أضمروا يعني عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه، ﴿يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب﴾، وهم اليهود من بني قريظة والنضير جعل المنافقين إخوانهم في الدين، لأنهم كفار مثلهم. ﴿لئن أخرجتم﴾، من المدينة، ﴿لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا﴾، يسألنا خذلانكم وخلافكم، ﴿أبدأ وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم﴾، يعني المنافقين ﴿لكاذبون﴾.

﴿لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم﴾، وكان الأمر كذلك، فإنهم أخرجوا من ديارهم فلم يخرج المنافقون معهم، وقوتلوا فلم ينصروهم. قوله تعالى: ﴿ولئن نصروهم ليولن الأدبار﴾، أي لو قدر وجود نصرهم. قال الزجاج معناه لو قصدوا نصر اليهود لولوا الأدبار منهزمين، ﴿ثم لا ينصرون﴾، يعني بني النضير لا يصيرون منصورين إذا انهزم ناصرهم.

﴿لأنتم﴾، يا معشر المسلمين، ﴿أشد رهبة في صدورهم من الله﴾، أي يرهبونكم أشد من رهبتهم من الله، ﴿ذلك﴾، أي ذلك الخوف منكم، ﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾، عظمة الله.

متحصنين بالقرى والجدران وهو قوله تعالى: ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدَارٍ﴾ وقرئ جدر ﴿بأسهم بينهم شديد﴾ أي بعضهم فظ على بعض أو عداوة بعضهم بعضاً شديدة وقيل بأسهم فيما بينهم من وراء الحيطان والحصون شديد فإذا خرجوا إليكم فهم أجبن خلق الله ﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى﴾ أي متفرقة مختلفة قال قتادة أهل الباطل مختلفة أهواؤهم مختلفة أعمالهم مختلفة شهاداتهم وهم مجتمعون في عداوة أهل الحق وقيل أراد أن دين المنافقين وآراءهم يخالف دين اليهود وآراءهم ﴿ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾ ثم ضرب لليهود مثلاً فقال تعالى: ﴿كمثل الذين من قبلهم قريباً﴾ يعني مشركي مكة ﴿ذاقوا وبال أمرهم﴾ يعني القتل بيدر وكان ذلك قبل غزوة بني النضير وقال ابن عباس «كمثل الذين من قبلهم» يعني بني قينقاع وقيل مثل قريظة كمثل بني النضير وكان بينهما ستان ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي في الآخرة ثم ضرب مثلاً آخر للمنافقين واليهود جميعاً في تخاذلهم وتخلى بعضهم عن بعض فقال تعالى ﴿كمثل الشيطان﴾ أي مثل المنافقين مع بني النضير وخذلانهم إياهم كمثل الشيطان ﴿إذ قال للإنسان اكفر﴾ وذلك ما روي عن عطاء وغيره عن ابن عباس قال كان راهب في الفترة يقال له برصيصا تعبد في صومعة له سبعين سنة لم يعص الله فيها طرفة عين وأن إبليس أعياه في أمره الحيل فجمع ذات يوم مردة الشياطين وقال ألا أحد منكم يكفيني أمر برصيصا؟ فقال الأبيض وهو صاحب الأنبياء وهو الذي تصدى للنبي ﷺ وجاء في صورة جبريل ليوسوس إليه على وجه الوحي فلحقه جبريل عليه السلام فدفعه إلى أقصى أرض الهند لإبليس أنا أكفيك أمره فانطلق فتزين بزينة الرهبان وحلق وسط رأسه وأتى صومعة برصيصا فناداه فلم يجبه وكان لا يقتل عن صلاته إلا في كل عشرة أيام ولا يفطر إلا في كل عشرة أيام مرة فلما رأى الأبيض أنه لا يجيبه أقبل على العبادة في أصل الصومعة فلما انفتل برصيصا من صلاته اطلع من صومعته فرأى الأبيض قائماً يصلي في هيئة حسنة على هيئة الرهبان فلما رأى ذلك من حاله ندم في نفسه أي لام نفسه حين لم يجبه فقال له إنك ناديتني وكنت مشتغلاً عنك فما حاجتك قال الأبيض حاجتي أني جئت لأكون معك فأتأدب بأدبك وأقتبس من

﴿ لا يقاتلونكم ﴾، يعني اليهود، ﴿جميعاً إلا في قرى محصنة﴾، أي لا يبرزون لقتالكم إنما يقاتلونكم متحصنين بالقرى والجدران، وهو قوله: ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدَرٍ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿جدار﴾ على الواحد، وقرأ الآخرون (جُدر) بضم الجيم والذال على الجمع. ﴿بأسهم بينهم شديد﴾، أي بعضهم فظ على بعض وعداوة بعضهم بعضاً شديدة. وقيل: بأسهم فيما بينهم من وراء الحيطان والحصون شديد، فإذا خرجوا لكم فهم أجبن خلق الله، ﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى﴾، متفرقة مختلفة، قال قتادة: أهل الباطل مختلفة أهواؤهم مختلفة شهادتهم، مختلفة أعمالهم، وهم مجتمعون في عداوة أهل الحق. وقال مجاهد: أراد أن دين المنافقين يخالف دين اليهود. ﴿ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾.

﴿كمثل الذين من قبلهم﴾، يعني مثل هؤلاء اليهود كمثل الذين من قبلهم، ﴿قريباً﴾، يعني مشركي مكة، ﴿ذاقوا وبال أمرهم﴾، يعني القتل بيدر، وكان ذلك قبل غزوة بني النضير، قاله مجاهد. وقال ابن عباس: كمثل الذين من قبلهم يعني بني قينقاع. وقيل: مثل قريظة كمثل بني النضير وكان بينهما ستان. ﴿ولهم عذاب أليم﴾، ثم ضرب مثلاً للمنافقين واليهود جميعاً في تخاذلهم.

فقال: ﴿كمثل الشيطان﴾، أي مثل المنافقين في غرورهم بني النضير وخذلانهم كمثل الشيطان، ﴿إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك﴾، وذلك ما روي عطاء وغيره عن ابن عباس قال: كان راهب في الفترة يقال له برصيصاً تعبد في صومعة له سبعين سنة لم يعص الله فيها طرفة عين، وإن إبليس أعياه في أمره الحيل، فجمع ذات يوم مردة الشياطين فقال ألا أحد منكم يكفيني أمر برصيصا؟ فقال الأبيض وهو صاحب الأنبياء وهو الذي تصدى للنبي ﷺ، وجاء في صورة جبرائيل ليوسوس إليه على وجه الوحي فدفعه جبرائيل إلى أقصى أرض

عملك ونجتمع على العبادة فتدعو لي وأدعو لك قال برصيصا إني لفي شغل عنك فإن كنت مؤمناً فإن الله سيجعل لك فيما للمؤمنين نصيباً إن استجاب لي ثم أقبل على صلاته وترك الأبيض وأقبل الأبيض يصلي فلم يلتفت إليه برصيصا أربعين يوماً فلما انفتل بعدها رآه قائماً يصلي فلما رأى برصيصا شدة اجتهاد الأبيض قال له ما حاجتك؟ قال حاجتي أن تأذن لي فأرتفع إليك فأذن له فارتفع إليه في صومعته فأقام حولاً يتعبد لا يفطر إلا في كل أربعين يوماً مرة ولا ينفثل عن صلاته إلا كذلك وربما مد إلى الثمانين فلما رأى برصيصا اجتهاده تقاصرت إليه نفسه وأعجبه شأن الأبيض فلما حال الحول قال الأبيض لبرصيصا إني منطلق فإن لي صاحباً غيرك ظننت أنك أشد اجتهاداً مما رأيت وكان يبلغنا عنك غير الذي رأيت فدخل من ذلك على برصيصا أمر شديد وكره مفارقه لما رأى من كثرة اجتهاد ولما ودعه الأبيض قال له إن عندي دعوات أعلمكها تدعو بهن فهو خير لك مما أنت فيه يشفي الله بها السقم ويعافي بها المبتلى والمجنون قال برصيصا أنا أكره هذه المنزلة لأن لي في نفسي شغلاً وإني أخاف إن علم الناس شغلوني عن العبادة فلم يزل به الأبيض حتى علمه ثم انطلق حتى أتى إبليس فقال قد والله أهلك الرجل فانطلق الأبيض فتعرض لرجل فخنقه ثم جاء في صورة رجل متطبب فقال لأهله إن بصاحبكم جنوناً فأعالجه؟ قالوا نعم فعالجه فلم يفد فقال لهم إني لا أقوى على جنته ولكن سأرشدكم إلى من يدعو الله فيعافيه انطلقوا إلى برصيصا فإن عنده الاسم الذي إذا دعا به أجيب قال انطلقوا إليه فسألوه ذلك فدعا بتلك الكلمات فذهب عنه الشيطان فكان الأبيض يفعل ذلك بالناس ويرشدهم إلى برصيصا فيدعو لهم فيعافون فانطلق الأبيض فتعرض لجارية من بنات ملوك بني إسرائيل ولها ثلاثة إخوة وكان أبوهم هو الملك فلما مات استخلف أخاه فكان عم تلك الجارية ملك بني إسرائيل فخنقها وعذبها، ثم جاء إليهم كما كان يأتي الناس في صورة متطبب فقال لهم أعالجها؟ قالوا نعم فقال إن الذي عرض لها مارد لا يطاق ولكن سأرشدكم إلى من تثقون به تدعونها عنده فإذا جاء شيطانها دعا لها فإذا علمتم أنها قد عوفيت تردونها صحيحة قالوا ومن هو؟ قال برصيصا قالوا

الهند، فقال الأبيض لإبليس أنا أكفيك أمره، فانطلق فترين بزينة الرهبان وحلق وسط رأسه وأتى صومعة برصيصا فناده فلم يجبه، وكان لا ينفثل عن صلاته إلا في كل عشرة أيام ولا يفطر إلا في عشرة أيام مرة، فلما رأى الأبيض أنه لا يجيبه أقبل على العبادة في أصل صومعته، فلما انفتل برصيصاً أطلع من صومعته فرأى الأبيض قائماً يصلي في هيئة حسنة من هيئة الرهبان، فلما رأى ذلك من حاله ندم في نفسه حين لم يجيبه، فقال له: إنك ناديتني وكنت مشتغلاً عنك، فما حاجتك؟ قال: حاجتي أنني أحببت أن أكون معك، فأتأدب بك وأقتبس من عملك وعلمك، ونجتمع على العبادة فتدعو لي وأدعو لك، فقال برصيصاً: إني لفي شغل عنك فإن كنت مؤمناً فإن الله سيجعل لك فيما أدعو للمؤمنين نصيباً إن استجاب لي، ثم أقبل على صلاته وترك الأبيض، وأقبل الأبيض يصلي فلم يلتفت إليه برصيصاً أربعين يوماً بعدها، فلما انفتل رآه قائماً يصلي فلما رأى برصيصاً شدة اجتهاده قال له: ما حاجتك؟ قال: حاجتي أن تأذن لي فأرتفع إليك فأذن له فارتفع إليه في صومعته، فأقام معه حولاً يتعبد لا يفطر إلا في كل أربعين يوماً ولا ينفثل عن صلاته إلا في كل أربعين يوماً مرة، وربما مد إلى الثمانين، فلما رأى برصيصاً اجتهاده تقاصرت إليه نفسه وأعجبه شأن الأبيض، فلما حال الحول قال الأبيض لبرصيصاً: إني منطلق فإن لي صاحباً غيرك ظننت أنك أشد اجتهاداً مما أرى، وكان يبلغنا عنك غير الذي رأيت، فدخل من ذلك على برصيصاً أمر شديد وكره مفارقه للذي رأى من شدة اجتهاده، فلما ودعه قال له الأبيض: إن عندي دعوات أعلمكها تدعونهن فهن خير مما أنت فيه يشفي الله بها السقيم ويعافي بها المبتلى والمجنون، قال برصيصاً: إني أكره هذه المنزلة لأن لي في نفسي شغلاً وإني أخاف إن علم به الناس شغلوني عن العبادة، فلم يزل به الأبيض حتى علمه، ثم انطلق حتى أتى إبليس فقال قد والله أهلك الرجل، قال: فانطلق الأبيض فتعرض لرجل فخنقه ثم جاء في صورة رجل متطبب فقال

وكيف لنا أن يجيئنا إلى هذا وهو أعظم شأنًا من ذلك قال فانطلقوا فابنوا صومعة إلى جنب صومعته حتى تشرف عليه فإن قبلها وإلا فضعوها في صومعتها وقلوا له هذه أمانة عندك فاحتسب أمانتك قال فانطلقوا فسألوه ذلك فأبى عليهم فبنوا صومعة على ما أمرهم الأبيض ثم انطلقوا فوضعوا الجارية في صومعتها وقالوا يا برصيصا هذه أختنا أمانة عندك فاحتسب فيها ثم انصرفوا فلما انفتل برصيصا عن صلاته حتى عاين الجارية وما هي عليه من الجمال فوقعت في قلبه ودخل عليه أمر عظيم فجاءها الشيطان فخنقها فدعا برصيصا بتلك الدعوات فذهب الشيطان عنها ثم أقبل برصيصا على صلاته فجاءها الشيطان فخنقها فكانت تكشف عن نفسها وتعرض لبرصيصا فجاءه الشيطان وقال له ويحك واقعها فلم تجد مثلها وستتوب بعد ذلك فتدرك ما تريد من الأمر فلم يزل به حتى واقعها فلم يزل كذلك يأتيها حتى حملت وظهر حملها فقال له الشيطان ويحك يا برصيصا قد افتضحت فهل لك أن تقتلها وتتوب؟ فإن سألوك فقل ذهب بها شيطانها فلم أقف عليه فقتلها ثم انطلق بها فدفنها إلى جانب الجبل فجاء الشيطان وهو يدفنها بالليل فأخذ بطرف إزارها فبقي خارجاً من التراب ثم رجع برصيصا إلى صومعته وأقبل على صلاته إذ جاء إخوتها يتعاهدون أختهم وكانوا يجيئون في بعض الأيام يسألون عنها ويوصونه بها فقالوا يا برصيصا ما فعلت أختنا قال قد جاء شيطانها فذهب بها ولم أطقه فصدقوه وانصرفوا فلما أمسوا وهم مكروبون جاء الشيطان إلى أكبرهم في منامه فقال ويحك إن برصيصا فعل بأختك كذا وكذا وإنه دفنها في موضع كذا وكذا فقال هذا حلم وهو من الشيطان إن برصيصا خير من ذلك فتتابع

لأهله إن بصاحبكم جنونا أفعالجه؟ قالوا: نعم، فقال لهم: إني لا أقوى على جنته ولكن سأرشدكم إلى من يدعو الله فيعافيه، انطلقوا إلى برصيصاً فإن عنده الاسم الأعظم الذي إذا دعا به أجيب، فانطلقوا إليه فسألوه ذلك فدعا بتلك الكلمات فذهب عنه الشيطان، فكان الأبيض يفعل ذلك بالناس ويرشدهم إلى برصيصاً، فيدعو فيُعافون، فانطلق الأبيض فتعرض لجارية من بنات ملوك بني إسرائيل بين ثلاثة إخوة وكان أبوهم ملكهم، فمات واستخلف أخاه فكان عمها ملك بني إسرائيل، فعذبها وخنقها ثم جاء إليهم في صورة متطبب فقال لهم: أتريدون أن أعالجها؟ قالوا: نعم، قال: إن الذي عرض لها مارد لا يُطاق، ولكن سأرشدكم إلى رجل تنفعون به تدعونها عنده إذا جاء شيطانها دعا لها حتى تعلموا أنها قد عُوِفِت وتردونها صحيحة، قالوا: ومن هو؟ قال: برصيصاً، قالوا: وكيف لنا أن يجيئنا إلى هذا وهو أعظم شأنًا من ذلك؟ قال: فانطلقوا فابنوا صومعة إلى جانب صومعته حتى تشرفوا عليه، فإن قبلها وإلا فضعوها في صومعته، ثم قلوا له هي أمانة عندك، فاحتسب فيها، قال: فانطلقوا إليه فسألوه فأبى عليهم، فبنوا صومعة على ما أمرهم الأبيض ووضعوا الجارية في صومعته، وقالوا هذه أختنا أمانة فاحتسب فيها، ثم انصرفوا فلما انفتل برصيصاً عن صلاته عاين الجارية وما بها من الحُسن والجمال، فوقعت في قلبه ودخل عليه أمر عظيم، ثم أقبل في صلاته فجاءها الشيطان فخنقها فدعا برصيصاً بتلك الدعوات فذهب عنها الشيطان، ثم أقبل على صلاته فجاءها الشيطان فخنقها فدعا برصيصاً بتلك الدعوات، ثم أقبل على صلاته فذهب عنها الشيطان فخنقها، وكانت تكشف عن نفسها، فجاءه الشيطان وقال واقعها فستتوب بعد ذلك والله تعالى غفار للذنوب والخطايا، فتدرك ما تريد من الأمر، فلم يزل به حتى واقعها فلم يزل على ذلك يأتيها حتى حملت وظهر حملها، فقال له الشيطان: ويحك يا برصيصاً قد افتضحت فهل لك أن تقتلها وتتوب، فأت سألوك فقل ذهب بها شيطانها فلم أقدر عليه، فدخل فقتلها ثم انطلق بها فدفنها إلى جانب الجبل فجاء الشيطان وهو يدفنها ليلاً فأخذ بطرف إزارها فبقي طرف خارجاً من التراب، ثم رجع برصيصاً إلى صومعته فأقبل على صلاته إذ جاء إخوتها يتعاهدون أختهم وكانوا يجيئون في بعض الأيام يسألون عنها ويوصونه بها، فقالوا: يا برصيصاً ما فعلت أختنا؟ قال قد جاء شيطانها فذهب بها ولم أطقه فصدقوه وانصرفوا، فلما أمسوا وهم مكروبون جاء الشيطان إلى أكبرهم في منامه فقال ويحك إن برصيصاً فعل

عليه ثلاث ليال فلم يكثر به فانطلق الشيطان إلى أوسطهم فقال الأوسط مثل ما قال الأكبر ولم يخبر به أحداً فانطلق إلى أصغرهم بمثل ذلك قال الأصغر لأخويه والله لقد رأيت كذا وكذا فقال الأوسط أنا والله قد رأيت مثله فقال الأكبر أنا والله قد رأيت مثله فانطلقوا إلى برصيصا فقالوا يا برصيصا ما فعلت أختنا فقال أليس قد أعلمتكم بحالها فكأنكم قد اتهمتموني فقالوا لا والله لا نتهمك واستحيوا منه وانصرفوا فجاءهم الشيطان فقال ويحكم إنها لمدفونة في موضع كذا وكذا وإن طرف إزارها خرج من التراب فانطلقوا فرأوا أختهم على ما رأوه في النوم فمشوا في مواليتهم وغلمانهم معهم الفؤوس والمساحي فهدموا صومعة برصيصا وأنزلوه منها وكتفوه ثم انطلقوا به للملك فأقر على نفسه وذلك أن الشيطان أتاه فوسوس له فقال له تقتلها ثم تكابر يجتمع عليك أمران قتل ومكابرة اعترف فلما اعترف أمر الملك بقتله وصلبه على خشبة فلما صلب أتاه الأبيض فقال يا برصيصا أتعرفني؟ قال لا فقال أنا صاحبك الذي علمتك الدعوات وكنت إذا دعوت بهن يستجاب لك ويحك ما اتقيت الله في أمانتك خنت أهلها وإنك زعمت أنك أعبد بني إسرائيل أما استحييت فلم يزل يعيره ويعنفه حتى قال في آخر ذلك ألم يكفك ما صنعت حتى أقررت على نفسك وفضحت أشباهك من الناس وفضحت نفسك فإن مت على هذه الحالة لن تفلح أبداً ولن يفلح أحد من نظرائك قال فكيف أصنع؟ قال تطيعني في خصلة واحدة حتى أخلصك مما أنت فيه فأخذ بأعينهم وأخرجك من مكانك قال وما هي؟ قال تسجد لي قال ما أستطيع أفعل قال بطرفك أفل فسجد له برصيصا فقال يا برصيصا هذا الذي أردت منك صارت عاقبة أمرك إلى أن كفرت بربك، ﴿فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين﴾ قال الله تعالى:

فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾

﴿فكان عاقبتهم﴾ يعني الشيطان وذلك الإنسان ﴿أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين﴾ قال ابن

بأختك كذا وكذا وأنه خاف منكم فقتلها ودفنها في موضع كذا وكذا فقال الأخ في نفسه هذا حلم وهو من عمل الشيطان، فإن برصيصاً خير من ذلك، قال فتتابع عليه ثلاث ليالٍ فلام يكثر، فانطلق إلى الأوسط بمثل ذلك فقال الأوسط مثل ما قاله الأكبر فلم يخبر أحداً فانطلق إلى أصغرهم بمثل ذلك فقال أصغرهم لأخويه والله لقد رأيت كذا وكذا، وقال الأوسط وأنا والله قد رأيت مثله، وقال الأكبر وأنا رأيت مثله، فانطلقوا إلى برصيصاً وقالوا: يا برصيصاً ما فعلت أختنا؟ قال: أليس قد أعلمتكم بحالها فكأنكم اتهمتموني، فقالوا: والله لا نتهمك واستحيوا منه فانصرفوا، فجاءهم الشيطان فقال: ويحكم إنها لمدفونة في موضع كذا وإن طرف إزارها خارج من التراب فانطلقوا فرأوا أختهم على ما رأوا في النوم، فمشوا في مواليتهم وغلمانهم ومعهم الفؤوس والمساحي فهدموا صومعته وأنزلوه ثم كتفوه فانطلقوا به إلى الملك فأقر على نفسه، وذلك أن الشيطان أتاه فقال تقتلها ثم تكابر يجتمع عليك أمران قتل ومكابرة اعترف، فلما اعترف أمر الملك بقتله وصلبه على خشبة، فلما صلب أتاه الأبيض فقال: يا برصيصاً أتعرفني؟ قال: لا، قال: أنا صاحبك الذي علمتك الدعوات فاستجيب لك ويحك ما اتقيت الله في أمانتك خنت أهلها وإنك زعمت أنك أعبد بني إسرائيل، أما استحييت، فلم يزل يعيره، ثم قال في آخر ذلك ألم يكفك ما صنعت حتى أقررت على نفسك وفضحت نفسك وفضحت أشباهك من الناس، فإن مت على هذه الحالة لم يفلح أحد من نظرائك، قال: فكيف أصنع قال تطيعني في خصلة واحدة حتى أنجيك مما أنت فيه فأخذ بأعينهم فأخرجك من مكانك؟ قال: وما هي قال تسجد لي، قال ما أستطيع أفعل، قال: «بطرفك أفل فسجد له فقال يا برصيصاً هذا الذي كنت أردت منك صارت عاقبة أمرك إلى أن كفرت بربك إني بريء منك ﴿إني أخاف الله رب العالمين﴾».

يقول الله تعالى: ﴿فكان عاقبتهم﴾، يعني الشيطان وذلك الإنسان ﴿أنهما في النار خالدين فيها وذلك

عباس ضرب الله هذا المثل ليهود بني النضير والمنافقين من أهل المدينة وذلك أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ بإجلاء بني النضير فدرس المنافقون إلى اليهود وقالوا لا تجيبوا محمداً إلى ما دعاكم ولا تخرجوا من دياركم فإن قاتلكم فإننا معكم وإن أخرجكم خرجنا معكم فأجابوهم ودربوا على حصونهم وتحصنوا في ديارهم رجاء نصر المنافقين فخذلوهم وتبرؤوا منهم كما تبرأ الشيطان من برصيصا وخذله فكان عاقبة الفريقين النار قال ابن عباس فكان الرهبان بعد ذلك لا يمشون في بني إسرائيل إلا بالتقية والكتمان وطمع أهل الفسق والفجور في الأحبار ورموهم بالبهتان والقبیح حتى كان من أمر جريج الراهب ما كان فلما برأه الله مما رموه به من الزنا انبسط الرهبان بعده وظهروا للناس وكانت قصة جريج على ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة عيسى ابن مريم وصاحب جريج وصاحب يوسف وكان جريج رجلاً صالحاً عابداً فاتخذ صومعة فكان فيها فأتته أمه وهو يصلي فيها فقالت يا جريج فقال يا رب أمي وصلاتي فأقبل على صلاته فانصرفت فلما كان من الغد أتته فقالت يا جريج فقال يا رب أمي وصلاتي فأقبل على صلاته فانصرفت فلما كان من الغد أتته فقالت يا جريج فقال يا رب أمي وصلاتي فأقبل على صلاته فقالت اللهم لا تمته حتى ينظر في وجوه المومسات فتذاكر بنو إسرائيل جريجاً وعبادته وكانت امرأة بغية يتمثل بحسنها معهم، فقالت إن شئتم لأفتننه لكم قال فتعرضت له فلم يلتفت إليها فأتت راعياً كان يأوي إلى صومعته فأمكنته من نفسها فوقع عليها فحملت فلما ولدت قالت هو من جريج فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته وجعلوا يضربونه فقال ما شأنكم فقالوا زנית بهذه البغي فولدت منك فقال أين الصبي فجاءوا فقال دعوني حتى أصلي فصلى؟ فلما انصرف أتى الصبي فطعن في بطنه وقال يا غلام من أبوك قال فلان الراعي قال فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به وقالوا له نبي لك صومعتك من ذهب قال أعيدوها من طين كما كانت ففعلوا وبينما صبي يرضع من أمه

جزاء الظالمين ﴿﴾، قال ابن عباس ضرب الله هذا المثل ليهود بني النضير والمنافقين من أهل المدينة، وذلك أن الله عز وجل أمر نبيه ﷺ بإجلاء بني النضير عن المدينة فدرس المنافقون إليهم، وقالوا: لا تجيبوا محمداً إلى ما دعاكم ولا تخرجوا من دياركم فإن قاتلكم فإننا معكم وإن أخرجكم خرجنا معكم، فأجابوهم ودربوا على حصونهم وتحصنوا في ديارهم رجاء نصر المنافقين، حتى جاءهم النبي ﷺ فناصره الحرب يرجون نصر المنافقين، فخذلوهم وتبرؤوا منهم كما تبرأ الشيطان من برصيصاً وخذله، فكان عاقبة الفريقين النار. قال ابن عباس رضي الله عنه: فكان الرهبان بعد ذلك في بني إسرائيل لا يمشون إلا بالتقية والكتمان، وطمع أهل الفسوق والفجور في الأحبار ورموهم بالبهتان والقبیح حتى كان أمر جريج الراهب، فلما برأه الله مما رموا به انبسط بعده الرهبان وظهروا للناس، وكانت قصة جريج على ما أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد ثنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج حدثني زهير بن حرب ثنا يزيد بن هارون أنا جرير بن حازم ثنا محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة عيسى ابن مريم عليه السلام وصاحب جريج وصاحب يوسف وكان جريج رجلاً عابداً فاتخذ صومعة فكان فيها فأتته أمه وهو يصلي فقالت: يا جريج، فقال: يا رب أمي وصلاتي فأقبل على صلاته، فانصرفت فلما كان من الغد أتته وهو يصلي، فقالت: يا جريج، فقال: أي رب أمي وصلاتي؟ فأقبل على صلاته، فقالت اللهم لا تمته حتى ينظر إلى وجوه المومسات، فتذاكر بنو إسرائيل جريجاً وعبادته وكانت امرأة بغية يتمثل بحسنها، فقالت: إن شئتم لأفتننه لكم قال فتعرضت له فلم يلتفت إليها، فأتت راعياً كان يأوي إلى صومعته فأمكنته من نفسها فوقع عليها فحملت فلما ولدت قالت: هو من جريج، فأتوه فاستنزلوه من صومعته وهدموا صومعته وجعلوا يضربونه، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: زנית بهذه البغي فولدت منك، فقال: أين الصبي؟ فجاءوا به، فقال دعوني حتى أصلي فلما انصرف أتى الصبي وطعن في بطنه

فمر رجل راكب على دابة فارهة ذو شارة حسنة فقالت أمه اللهم اجعل ابني مثل هذا فترك الثدي وأقبل عليه فنظر إليه فقال اللهم لا تجعلني مثل هذا ثم أقبل على ثديه فجعل يرضع قال فكأنني أنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكي ارتضاعه بأصبعه السبابة في فيه فجعل يمصها قال ومر بجارية وهم يضربونها ويقولون زנית وسرقت وهي تقول حسبي الله ونعم الوكيل فقالت أمه اللهم لا تجعل ابني مثلها فترك الرضاع ونظر إليها فقالت اللهم اجعلني مثلها فهناك تراجع الحديث، فقالت مر رجل حسن الهيئة فقالت اللهم اجعل ابني مثله فقلت اللهم لا تجعلني مثله ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون زנית وسرقت فقلت اللهم لا تجعل ابني مثلها فقلت اللهم اجعلني مثلها فقال إن ذلك الرجل كان جباراً فقلت اللهم لا تجعلني مثله وإن هذه يقولون لها زנית ولم تزن وسرقت ولم تسرق فقلت اللهم اجعلني مثلها» أخرجه مسلم بتمامه وهذا لفظه وأخرجه البخاري مفرقاً حديث جريح تعليقاً وحديث المرأة وابنها خاصة.

المومسات الزواني جمع مومسة وهي المرأة الفاجرة والبغي الزانية أيضاً وقوله يتمثل بحسنها أي يتعجب منه ويضرب به المثل وقوله ذو شارة حسنة أي صاحب جمال ظاهر في الهيئة والملبس والمركب ونحو ذلك والجبار العاتي المتكبر القاهر للناس.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾
وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسُهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ
الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ
اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضِرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ
الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ أي لينظر أحدكم إلى شيء قدم لنفسه من الأعمال عملاً صالحاً ينجيه أم سيئاً يوبقه والمراد بالغد يوم القيامة وقربه على الناس كان يوم القيامة يأتي غداً وكل ما

وقال: يا غلام من أبوك؟ قال: فلان الراعي، قال فأقبلوا على جريح يقبلونه ويتمسحون به، وقالوا نبني لك صومعتك من ذهب، قال: لا أعيدوها من طين كما كانت، ففعلوا. وبينما صبي يرضع من أمه فمر رجل راكب على دابة فارهة وشارة حسنة فقالت أمه اللهم اجعل ابني مثل هذا فترك الثدي وأقبل عليه ونظر إليه فقال اللهم لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثديه فجعل يرضع، قال فكأنني أنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكي ارتضاعه بأصبعه السبابة في فمه، فجعل يمصها، قال: ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون زנית وسرقت وهي تقول حسبي الله ونعم الوكيل، فقالت أمه اللهم لا تجعل ابني مثلها فترك الرضاع ونظر إليها فقال: اللهم اجعلني مثلها، فهناك تراجع الحديث، فقالت مر رجل حسن الهيئة فقلت اللهم اجعل ابني مثله، فقلت: اللهم لا تجعلني مثله، ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون زנית وسرقت، فقلت: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فقلت: اللهم اجعلني مثلها، قال: إن ذاك الرجل كان جباراً فقلت اللهم لا تجعلني مثله، وإن هذه يقولون لها زנית ولم تزن وسرقت ولم تسرق، فقلت اللهم اجعلني مثلها».

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾، يعني ليوم القيامة، أي لينظر

هو آت فهو قريب، ﴿واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ قيل كرر الأمر بالتقوى تأكيداً وقيل معنى الأول اتقوا الله في أداء الواجبات ومعنى الثاني واتقوا الله فلا تأتوا المنهيات ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله﴾ أي تركوا أمر الله ﴿فأنساهم أنفسهم﴾ أي أنساهم حظوظ أنفسهم حتى لم يقدموا لها خيراً ينفعها وعنده ﴿أولئك هم الفاسقون لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون﴾ لما أرشد المؤمنين إلى ما يصلحهم بقوله «ولتنظر نفس ما قدمت لغد هدد الكافرين بقوله نسوا الله فأنساهم أنفسهم بين الفرق بين الفريقين بقوله لا يستوي أصحاب النار يعني الذين هم في العذاب الدائم وأصحاب الجنة يعني الذين هم في النعيم المقيم ثم أتبعه بقوله أصحاب الجنة هم الفائزون ومعلوم أن من جعل له النعيم المقيم فقد فاز فوزاً عظيماً.

قوله تعالى: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾ قيل معناه أنه لو جعل في الجبل تمييزاً وعقلاً كما جعل فيكم وأنزل عليه القرآن لخشع أي تطأطأ وخضع وتشقق وتصدع من خشية الله والمعنى أن الجبل مع صلابته ورزاقته مشقق من خشية الله، وحذر من أن لا يؤدي حق الله تعالى في تعظيم القرآن والكافر مستخف بحقه معرض عما فيه من العبر والأحكام كأنه لم يسمعها.

وصفه بقساوة القلب فهو غافل عما يتضمنه القرآن من المواعظ والأمثال والوعيد وتميز الحق من الباطل والواجب مما لا يجب بأحسن بيان وأوضح برهان ومن وقف على هذا وفهمه أوجب له الخشوع والخشية وهذا تمثيل لأن الجبل لا يتصور منه الخشوع والخشية إلا أن يخلق الله تعالى له تمييزاً وعقلاً يدل على أنه تمثيل.

قوله تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ أي الغرض من هذا التمثيل التنبيه على فساد قلوب هؤلاء الكفار وقساوتها وغلظ طباعهم.

ولما وصف القرآن بالعظم أتبعه بوصف عظمته فقال تعالى: ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة﴾ يعني أنه تعالى أعلم بما غاب عن العباد مما لم يعاينوه ولم يعلموه وعلم ما شاهدوه وما علموه وقيل استوى في علمه تعالى السر والعلانية والموجود والمعدوم وقيل علم حال الدنيا والآخرة ﴿هو الرحمن الرحيم﴾ اسمان مشتقان اشتقاقهما من الرحمة وهما صفتان لله تعالى ومعناهما ذو الرحمة ورحمة الله إرادته الخير والنعمة والإحسان إلى خلقه وقيل إن الرحمن أشد مبالغة من الرحيم ولهذا قيل هو رحمن الدنيا ورحيم الآخرة لأن إحسانه تعالى في الدنيا يعم المؤمن والكافر وفي الآخرة يختص إحسانه وإنعامه بالمؤمنين ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو الملك﴾ أي المتصرف بالأمر والنهي في جميع خلقه المالك لهم فهم تحت ملكه وقهره وإرادته ﴿القدوس﴾ أي الطاهر عن كل عيب المنزه عما لا يليق به وقيل هو الذي كثرت بركته ﴿السلام﴾ أي الذي سلم من النقائص وكل آفة تلحق الخلق.

أحدكم أي شيء قدم لنفسه عملاً صالحاً يُنجيه أم سيئاً يوبقه، ﴿واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾.

﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله﴾، تركوا أمر الله، ﴿فأنساهم أنفسهم﴾، أي حظوظ أنفسهم حتى لم يقدموا لها خيراً، ﴿أولئك هم الفاسقون﴾.

﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون﴾.

قوله عز وجل: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾، قيل: لو جعل في الجبل تمييزاً وأنزل عليه القرآن لخشع وتشقق وتصدع من خشية الله مع صلابته ورزاقته، حذراً من أن لا يؤدي حق الله عز وجل في تعظيم القرآن، والكافر يعرض عما فيه من العبر كأن لم يسمعها، يصفه بقساوة القلب، ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾.

فإن قلت على هذا التفسير لا يبقى بين القدوس والسلام فرق فيكون كال تكرار وذلك لا يليق بفصاحة القرآن.

قلت الفرق بينهما أن القدوس إشارة إلى براءته عن جميع العيوب والنقائص في الماضي والحاضر والسلام إشارة إلى أنه لا يطرأ عليه شيء من العيوب والنقائص في المستقبل فإن الذي يطرأ عليه شيء من ذلك تزول سلامته ولا يبقى سليماً، وقيل السلام أي سلم خلقه ممن ظلمه، ﴿المؤمن﴾ قال ابن عباس هو الذي آمن الناس من ظلمه وأمن من آمن به من عذابه وقيل هو المصدق لرسله بإظهار المعجزات لهم والمصدق للمؤمنين بما وعدهم من الثواب وبما أوعد الكافرين من العذاب ﴿المهيمن﴾ قال ابن عباس أي الشهيد على عباده بأعمالهم الذي لا يغيب عنه شيء وقيل هو القائم على خلقه برزقه وأنشد في معناه:

ألا إن خير الناس بعد نبيه مهيمنه التاليه في العرب والنكر
أي القائم على الناس بعده وقيل هو الرقيب الحافظ، وقيل هو المصدق وقيل هو القاضي وقيل هو بمعنى الأمين والمؤمن وقيل بمعنى العلي ومنه قول العباس يمدح النبي ﷺ في أبيات منها:

حتى احتوى بينك المهيمن من خندف علياً زانها النطق
وقيل: المهيمن اسم من أسماء الله تعالى هو أعلم بتأويله وأنشدوا في معناه:

جل المهيمن عن صفات عبيده ولقد تعالى عن عقول أولي النهى
راموا بزعمهم صفات مليكهم والوصف يعجز عن مليك لا يرى

﴿العزیز﴾ أي الذي لا يوجد له نظير وقيل الغالب القاهر ﴿الجبار﴾ قال ابن عباس الجبار هو العظيم وجبروت الله عظمته فعلى هذا هو صفة ذات وقيل هو من الجبر يعني الذي يغني الفقير ويجبر الكسير فعلى هذا هو صفة فعل وهو سبحانه وتعالى كذلك يجبر كل كسير ويغني كل فقير وقيل هو الذي يجبر الخلق ويقهرهم على ما أراد: وسئل بعضهم عن معنى الجبار فقال هو القهار الذي إذا أراد أمراً فعله لا يحجزه عنه حاجز وقيل الجبار هو الذي لا ينال ولا يداني والجبار في صفة الله تعالى صفة مدح وفي صفة الناس صفة ذم وكذلك ﴿المتكبر﴾ في صفة الناس صفة ذم لأن المتكبر هو الذي يظهر من نفسه الكبر وذلك نقص في حقه لأنه ليس له كبر ولا علو بل له الحقارة والذلة فإذا أظهر الكبر كان كذاباً في فعله فكان مذموماً في حق الناس وأما المتكبر في صفة الله تعالى فهو صفة مدح لأن له جميع

﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة﴾ الغيب ما غاب عن العباد مما لم يعاينوه ولم يعلموه، والشهادة ما شاهده وما علموه، ﴿هو الرحمن الرحيم﴾.

﴿هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس﴾، الطاهر من كل عيب المنزه عما لا يليق به، ﴿السلام﴾، الذي سلم من النقائص، ﴿المؤمن﴾، قال ابن عباس: هو الذي آمن الناس من ظلمه وأمن من آمن به من عذابه، هو من الأمان الذي هو ضد التخويف كما قال: ﴿وآمنهم من خوف﴾ [قريش: ٤]، وقيل: معناه الصدق لرسله بإظهار المعجزات، والمصدق للمؤمنين بما وعدهم من الثواب، وللکافرين بما أوعدهم من العقاب. ﴿المهيمن﴾، الشهيد على عباده بأعمالهم، وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي ومقاتل، يقال: هيمن يهيمن فهو مهيمن إذا كان رقيباً على الشيء، وقيل: هو في الأصل مؤيمن قلبت الهمزة هاء، كقولهم أرقط وهرقت، ومعناه المؤمن، وقال الحسن: الأمين. وقال الخليل: هو الرقيب الحافظ. وقال ابن زيد: المصدق. وقال سعيد بن المسيب والضحاك: القاضي. وقال ابن كيسان: هو اسم من أسماء الله تعالى في الكتب والله أعلم بتأويله. ﴿العزیز الجبار﴾، قال ابن عباس: الجبار هو العظيم، وجبروت الله عظمته، وهو على هذا القول صفة ذات الله،

صفات العلو والعظمة ولهذا قال في آخر الآية ﴿سبحان الله عما يشركون﴾ كأنه قيل إن بعض الخلق يتكبر فيكون ذلك نقصاً في حقه أما الله تعالى فله العلو والعظمة والعزة والكبرياء فإن أظهر ذلك كان ضم كمال إلى كمال قال ابن عباس المتكبر هو الذي تكبر برؤيته فلا شيء مثله وقيل هو الذي تكبر عن كل سوء وقيل هو المتعظم عما لا يليق بجماله وجلاله وقيل هو المتكبر عن ظلم عباده وقيل الكبر والكبرياء الامتناع، وقيل هو ذو الكبرياء وهو الملك سبحانه الله عما يشركون أي من ادعاء الكبر لأنفسهم.

هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

﴿هو الله الخالق﴾ أي المقدر لما يوجد فهو سبحانه وتعالى قدر أفعاله على وجوه مخصوصة فهو راجع إلى الإرادة، وقيل المقدر لقلب الشيء بالتدبير إلى غيره ﴿البارئ﴾ أي المخترع المنشئ للأعيان من العدم إلى الوجود ﴿المصور﴾ أي الذي يخلق صورة الخلق على ما يريده وقيل معناه الممثل للمخلوقات بالعلامات التي يتميز بعضها عن بعض وقيل الخالق المبدئ للخلق المخترع له على غير مثال سبق الباري المنشئ لما يريد بخلقه فيظهره من العدم إلى الوجود المصور لما خلقه وأنشأه على صور مختلفة وأشكال متباينة وقيل معنى التصوير التخطيط والتشكيل فأولاً يكون خلقاً ثم برءاً ثم تصويراً وإنما قدم الخالق على الباري لأن تأثير الإرادة مقدم على تأثير القدرة وقدم الباري على المصور لأن إيجاد الذات مقدم على إيجاد الصفات ﴿له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ عن معقل بن يسار رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «من قال حين يصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وقرأ الثلاث الآيات من آخر سورة الحشر وكل به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي فإن مات في ذلك اليوم مات شهيداً ومن قالها حين يمسي كان كذلك» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب والله أعلم.

وقيل: هو من الجبر وهو الإصلاح، يقال: جبرت الكسر والأمر، وجبرت العظم إذا أصلحته بعد الكسر، فهو يغني الفقير ويصلح الكسير. وقال السدي ومقاتل: هو الذي يقهر الناس ويجبرهم على ما أراد. وسأل بعضهم عن بعض عن معنى الجبار فقال: هو القهار الذي إذا أراد أمراً فعله لا يحجزه عنه حاجز. ﴿المتكبر﴾، الذي تكبر عن كل سوء. وقيل: المتعظم عما لا يليق به وأصل الكبر والكبرياء الامتناع. وقيل: ذو الكبرياء وهو الملك، ﴿سبحان الله عما يشركون﴾.

﴿هو الله الخالق﴾، المقدر والمقلب للشيء بالتدبير إلى غيره، كما قال يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق، ﴿البارئ﴾، المنشئ للأعيان من العدم إلى الوجود ﴿المصور﴾، الممثل للمخلوقات بالعلامات التي يتميز بعضها عن بعض. يقال: هذه صورة الأمر أي مثاله، فأولاً يكون خلقاً ثم برءاً ثم تصويراً. ﴿له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾، أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أخبرني ابن فنجويه ثنا ابن شيبه ثنا ابن وهب ثنا أحمد بن أبي شريح وأحمد بن منصور الرمادي قالا أنا أبو أحمد الرمادي قالا أنا أبو أحمد الزبيري ثنا خالد بن طهمان حدثني نافع بن أبي نافع عن معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، وقرأ الثلاث الآيات من آخر سورة الحشر وكل به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي، فإن مات في ذلك اليوم مات شهيداً، ومن قال حين يمسي كان بتلك المنزلة» ورواه أبو عيسى عن محمود بن غيلان عن أبي أحمد الزبيري بهذا الإسناد، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

سورة الممتحنة

(مدنية وهي ثلاث عشرة آية وثلاثمائة وثمان وأربعون كلمة وألف وخمسمائة وعشرة أحرف)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِي وَآيَتِيَ مَرْضًا قِي تُسْرُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ الآية (ق) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال «بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها طعينة معها كتاب فخذوه منها قال فانطلقنا تتعادي بنا خيلنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالطعينة فقلنا أخرجي الكتاب فقالت ما معي من كتاب فقلنا لتخرجي الكتاب أو لنلقين الثياب فأخرجته من عقاصها فأتينا به النبي ﷺ فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ يا حاطب ما هذا فقال يا رسول الله لا تعجل علي إني كنت امرأة ملصقة في قريش ولم أكن من أنفسهم وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهلهم وأموالهم بمكة فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي وما فعلته كفراً ولا ارتداداً عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ إنه قد صدقكم فقال عمر دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق فقال رسول الله ﷺ إنه قد شهد بداراً وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقالوا اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم فأنزل الله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ إِلَى قَوْلِهِ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾

سُورَةُ الْمُؤْتَحَنَةِ

مدنية وهي ثلاث عشرة آية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾، الآية أخبرنا عبد الواحد المليحي ثنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا قتبية بن سعيد ثنا سفيان عن عمرو بن دينار أخبرني الحسن بن محمد أنه سمع عبد الله بن أبي رافع يقول سمعت علياً رضي الله عنه يقول: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها طعينة معها كتاب فخذوه منها»، قال: فانطلقنا تتعادي بنا خيلنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالطعينة، فقلنا أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي كتاب فقلنا لتخرجي الكتاب أو لنلقين الثياب، قال: فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، فقال: «يا حاطب ما هذا؟» قال: يا رسول الله لا تعجل علي

روضة خاخ موضع بقرب حمراء الأسد من المدينة وقيل إنه موضع قريب من مكة والأول أصح والظعينة المرأة المسافرة سميت بذلك لملازمتها اليهودج والعقاص الشعر المضفور قال المفسرون نزلت هذه الآية في حاطب بن أبي بلتعة كما جاء في الحديث وذلك أن سارة مولاة أبي عمرو بن صيفي بن هاشم بن عبد مناف أتت المدينة من مكة ورسول الله ﷺ يتجهز لفتح مكة فقال لها رسول الله ﷺ أمسلمة جئت؟ قالت لا قال أمهاجرة جئت؟ قالت لا قال فما جاء بك؟ قالت كتتم الأهل والعشيرة والموالي وقد ذهبت موالي وقد احتجت حاجة شديدة فقدمت عليكم لتعطوني وتكسوني وتحملوني فقال لها وأين أنت من شباب مكة وكانت مغنية نائحة قالت ما طلب مني شيء بعد وقعة بدر فحث عليها بني عبد المطلب فأعطوها نفقة وكسوها وحملوها فأثاها حاطب بن أبي بلتعة حليف بني أسد بن عبد العزى فكتب معها إلى أهل مكة وأعطاهما عشرة دنائير وكساهما برداً على أن توصل الكتاب إلى أهل مكة وكتب في الكتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة إن رسول الله ﷺ يريدكم فخذوا حذرکم فخرجت سارة ونزل جبريل عليه السلام فأخبر النبي ﷺ بما فعل فبعث رسول الله ﷺ علياً وعماراً والزبير وطلحة والمقداد بن الأسود وأبا مرثد فرساناً فقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين فخذوه منها وخلوا سبيلها وإن لم تدفعه لكم فاضربوا عنقها فخرجوا حتى أدركوها في ذلك المكان الذي قال رسول الله ﷺ فقالوا لها أين الكتاب؟ فحلفت بالله ما معها من كتاب فبحثوا وفتشوا متاعها فلم يجدوا معها كتاباً فهموا بالرجوع،

إني كنت امرأً ملصقاً في قريش، يقول كنت حليفاً ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهلهم وأموالهم فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرابتي ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضاء بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «أما أنه قد صدقكم»، فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال إنه شهد بداراً وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بداراً فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، فأنزل الله تعالى هذه السورة: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة﴾ إلى قوله: ﴿سواء السبيل﴾، قال المفسرون: نزلت الآية في حاطب بن أبي بلتعة كما جاء في الحديث، وذلك أن سارة مولاة أبي عمرو بن صيفي بن هاشم بن عبد مناف أتت المدينة من مكة، ورسول الله ﷺ يتجهز لفتح مكة، فقال لها رسول الله ﷺ: «أمسلمة جئت؟» قالت: لا، قال: «أمهاجرة جئت؟» قالت: لا، قال: «فما جاء بك؟» قالت: كتتم الأصل والعشيرة والموالي وقد ذهبت موالي وقد احتجت حاجة شديدة فقدمت عليكم لتعطوني وتكسوني وتحملوني، فقال لها: «وأين أنت من شباب مكة؟» وكانت مغنية نائحة، قالت: ما طلب مني شيء بعد وقعة بدر، فحث رسول الله ﷺ بني عبد المطلب وبني المطلب فأعطوها نفقة وكسوها وحملوها، فأثاها حاطب بن أبي بلتعة حليف بني أسد بن عبد العزى، فكتب معها إلى أهل مكة وأعطاهما عشرة دنائير وكساهما برداً على أن توصل الكتاب إلى أهل مكة، وكتب في الكتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة إن رسول الله ﷺ يريدكم فخذوا حذرکم، فخرجت سارة، ونزل جبريل فأخبر النبي ﷺ بما فعل فبعث رسول الله ﷺ علياً وعماراً والزبير وطلحة والمقداد بن الأسود وأبا مرثد فرساً، فقال لهم: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين، فخذوه منها وخلوا سبيلها، وإن لم تدفعه إليكم فاضربوا عنقها»، قال: فخرجوا حتى أدركوها في ذلك المكان الذي قال رسول الله ﷺ، فقالوا لها: أين الكتاب فحلفت بالله ما معها كتاب فبحثوها وفتشوا متاعها فلم يجدوا معها كتاباً، فهموا بالرجوع، فقال علي رضي الله عنه: والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله ﷺ وسل سيفه فقال أخرجني الكتاب وإلا لأجرذنك ولأضربن عنقك، فلما رأت الجذ أخرجته من ذؤابتها، وكانت قد خبأته في شعرها، فخلوا سبيلها ولم يتعرضوا لها ولا لما معها، فرجعوا بالكتاب إلى رسول

فقال علي والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله ﷺ وسل السيف وقال أخرجني الكتاب وإلا لأجردنك ولأضربن عنقك فلما رأت الجد أخرجته من ذوائبها وكانت قد خبأتها في شعرها فخلوا سبيلها ولم يتعرضوا لها ولا لما معها ورجعوا بالكتاب إلى رسول الله ﷺ فأرسل رسول الله ﷺ إلى حاطب فأتاه فقال له هل تعرف الكتاب قال نعم قال فما حملك على ما صنعت؟ فقال والله ما كفرت منذ أسلمت ولا غششتك منذ نصحتك ولا أحببتهم منذ فارقتهم ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلا وله بمكة من يمنع عشيرته وكنت غريباً منهم وكان أهلي بين ظهرائهم فخشيت على أهلي فأردت أن أتخذ لي عندهم يداً وقد علمت أن الله تعالى ينزل بهم بأسه وأن كتابي لا يغني عنهم شيئاً فصدق رسول الله ﷺ وعذره فقام عمر بن الخطاب فقال يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق فقال رسول الله ﷺ وما يدريك يا عمل لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم فأنزل الله في شأن حاطب بن أبي بلتعة: يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء يعني أصدقاء وأنصاراً ﴿تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ﴾ أي بأسباب المحبة وقيل معناه تلقون إليهم أخبار النبي ﷺ وسره بالمودة التي بينكم وبينهم ﴿وَقَدْ كَفَرُوا﴾ أي وحالهم أنهم كفروا ﴿بِمَا جَاءَ مِنَ الْحَقِّ﴾ يعني القرآن ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ يعني من مكة ﴿أَنْ تُؤْمِنُوا﴾ أي لأن آمنتُم، كأنه قال يفعلون ذلك لإيمانكم ﴿بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ﴾ هذا شرط جوابه متقدم والمعنى إن كنتم خرجتم ﴿جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ فلا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء.

وقوله: ﴿تَسْرُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ﴾ أي بالنصيحة ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ﴾ أي من المودة للكفار ﴿وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ أي أظهرتم بالستتكم منها ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ مِنْكُمْ﴾ أي الأسرار وإلقاء المودة إليهم فقال: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي أخطأ طريق الهدى ثم أخبر عن عداوة الكفار فقال تعالى:

إِنْ يَتَفَقَّهْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ

الله ﷺ فأرسل رسول الله ﷺ إلى حاطب، فأتاه فقال: «هل تعرف الكتاب؟» قال: نعم، قال: «فما حالك على ما صنعت؟» فقال: يا رسول الله والله ما كفرت منذ أسلمت ولا غششتك منذ نصحتك، ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلا وله بمكة من يمنع عشيرته وكنت غريباً فيهم، وكان أهلي بين ظهرائهم، فخشيت على أهلي، فأردت أن أتخذ عندهم يداً وقد علمت أن الله ينزل بهم بأسه، وأن كتابي لا يغني عنهم شيئاً، فصدق رسول الله ﷺ وعذره، فقام عمر بن الخطاب فقال: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر؟ فقال لهم: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، فأنزل الله عز وجل في شأن حاطب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾، ﴿تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ﴾، قيل: أي المودة، والباء زائدة كقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بَظْلَمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، وقال الزجاج: معناه تلقون إليهم أخبار النبي ﷺ، وسره بالمودة التي بينكم وبينهم، ﴿وَقَدْ كَفَرُوا﴾، الواو للحال أي وحالهم أنهم كفروا، ﴿بِمَا جَاءَ مِنَ الْحَقِّ﴾، يعني القرآن ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾، من مكة، ﴿أَنْ تُؤْمِنُوا﴾، أي لأن آمنتُم، كأنه قال يفعلون ذلك لإيمانكم، ﴿بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ﴾، هذا شرط جوابه متقدم وهو قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ﴾، ﴿جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تَسْرُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ﴾، قال مقاتل بالنصيحة، ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ﴾، من المودة للكفار، ﴿وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾، أظهرتم بالستتكم ومن يفعله منكم ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾، أخطأ طريق الهدى.

وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا اسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾

﴿إن يتفقوكم﴾ أي يظفروا بكم ويروكم ﴿يكونوا لكم أعداء ويسطوا إليكم أيديهم وألستهم بالسوء﴾ أي بالضرب والقتل والشم والسب ﴿وودوا﴾ أي تمنوا ﴿لو تكفرون﴾ أي ترجعون إلى دينهم كما كفروا والمعنى أن أعداء الله لا يخلصون المودة لأولياء الله ولا يناصحونهم لما بينهم من الخلاف فلا تناصحوهم أنتم ولا توادوهم ﴿لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم﴾ أي لا يدعونكم ولا يحملنكم ذوو أرحامكم وقراباتكم وأولادكم الذين بمكة إلى خيانة رسول الله ﷺ والمؤمنين وترك مناصحتهم ونقل أخبارهم وموالة أعدائهم فإنه لا تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم الذين عصيتم الله لأجلهم ﴿يوم القيامة يفصل بينكم﴾ أي يدخل أهل طاعته الجنة وأهل معصيته النار ﴿والله بما تعملون بصير﴾ قوله تعالى: ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم﴾ يخاطب حاطباً والمؤمنين ويأمرهم بالافتداء بإبراهيم عليه الصلاة والسلام، ﴿والذين معه﴾ أي من أهل الإيمان ﴿إذ قالوا لقومهم﴾ يعني المشركين ﴿إنا برآء منكم﴾ جمع بريء ﴿ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم﴾ أي جحدناكم وأنكرنا دينكم ﴿وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده﴾ والمعنى أن إبراهيم عليه السلام وأصحابه تبرؤوا من قومهم وعادوهم لكفرهم فأمر حاطباً والمؤمنين أن يتأسوا بهم ﴿إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك﴾ يعني لكم أن تتأسوا بإبراهيم في جميع أموره إلا في الاستغفار لأبيه المشرك فلا تتأسوا به فإن إبراهيم كان قد قال لأبيه لأستغفرن لك فلما تبين له إقامته على الكفر تبرأ منه ﴿وما أملك لك

﴿إن يتفقوكم﴾، يظفروا بكم ويروكم، ﴿يكونوا لكم أعداء ويسطوا إليكم أيديهم﴾، بالضرب والقتل، ﴿وألستهم بالسوء﴾، بالشتم، ﴿وودوا لو تكفرون﴾، كما كفروا يقول لا تناصحوهم فإنهم لا يناصحونكم ولا يوادونكم.

﴿لن تنفعكم أرحامكم﴾، معناه لا يدعونكم ولا يحملنكم ذوو أرحامكم وقراباتكم وأولادكم التي بمكة إلى خيانة الرسول ﷺ والمؤمنين وترك مناصحتهم وموالة أعدائهم فلن تنفعكم أرحامكم، ﴿ولا أولادكم﴾، الذين عصيتم الله لأجلهم، ﴿يوم القيامة يفصل بينكم﴾، فیدخل أهل طاعته الجنة وأهل معصيته النار، قرأ عاصم ويعقوب ﴿يفصل﴾ بفتح الياء وكسر الصاد مخففاً وقرأ حمزة والكسائي بضم الياء وكسر الصاد مشدداً، وقرأ ابن عامر بضم الياء وفتح الصاد مشدداً، وقرأ الآخرون بضم الياء وفتح الصاد مخففاً. ﴿والله بما تعملون بصير﴾.

﴿قد كانت لكم أسوة﴾، قدوة، ﴿حسنة في إبراهيم والذين معه﴾، من أهل الإيمان ﴿إذ قالوا لقومهم﴾، من المشركين، ﴿إنا برآء منكم﴾، جمع بريء، ﴿ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم﴾، جحدنا وأنكرنا دينكم، ﴿وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده﴾، يأمر حاطباً والمؤمنين بالافتداء بإبراهيم عليه الصلاة والسلام، والذين معه من المؤمنين في التبرؤ من المشركين، ﴿إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك﴾، يعني لكم أسوة حسنة في إبراهيم وأموره إلا في استغفاره لأبيه المشرك فإن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان قد قال لأبيه لأستغفرن لك، ثم تبرأ منه على ما ذكرناه في سورة التوبة، ﴿وما أملك لك من الله من شيء﴾، يقول إبراهيم لأبيه ما أغني عنك ولا أدفع عنك عذاب الله إن عصيته وأشركت به، ﴿ربنا عليك توكلتنا﴾، يقوله إبراهيم ومن معه من المؤمنين، ﴿إليك أنبأنا وإليك المصير﴾.

من الله من شيء ﴿٦﴾ هذا من قول إبراهيم لأبيه يعني ما أغني عنك ولا أدفع عنك عذاب الله إن عصيته وأشرت به وإنما وعده بالاستغفار رجاء إسلامه وكان من دعاء إبراهيم ومن معه من المؤمنين ﴿ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا﴾ أي لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على الحق، وقيل معناه لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم ذلك ﴿٧﴾ واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم.

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾
 عَسَىٰ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾

﴿لقد كان لكم فيهم﴾ يعني في إبراهيم ومن معه ﴿أسوة حسنة﴾ أي اقتداء حسن ﴿لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾ أي إن هذه الأسوة لمن يخاف الله ويخاف عذاب الآخرة ﴿ومن يتول﴾ أي يعرض عن الإيمان ويوالي الكفار ﴿فإن الله هو الغني﴾ أي عن خلقه ﴿الحميد﴾ أي إلى أهل طاعته وأوليائه فلما أمر الله المؤمنين بعداوة الكفار عادى المؤمنون أقرباءهم المشركين وأظهروا لهم العداوة والبراءة وعلم الله شدة وجد المؤمنين بذلك فأنزل الله تعالى ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم﴾ أي من كفار مكة ﴿مودة﴾ ففعل الله تعالى ذلك بأن أسلم كثير منهم فصاروا لهم أولياء وإخواناً وخالطوهم وناكحوهم وتزوج النبي ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان ولان لهم أبو سفيان ﴿والله قدير﴾ أي علي جعل المودة بينكم ﴿والله غفور رحيم﴾ أي لمن تاب منهم وأسلم ثم رخص في صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم فقال تعالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم﴾ أي لا ينهاكم الله عن بر الذين لم يقاتلوكم ﴿وتقسطوا إليهم﴾ أي تعدلوا فيهم بالإحسان إليهم والبر ﴿إن الله

﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا﴾، قال الزجاج: لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على الحق فيفتنوا. وقال مجاهد: لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولون لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم ذلك. ﴿٧﴾ واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم. ﴿٨﴾

﴿لقد كان لكم فيهم﴾، أي في إبراهيم ومن معه ﴿أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾، هذا بدل من قوله لكم وبيان أن هذه الأسوة لمن يخاف الله ويخاف عذاب الآخرة، ﴿ومن يتول﴾، يعرض عن الإيمان ويوالي الكفار، ﴿فإن الله هو الغني﴾، عن خلقه، ﴿الحميد﴾، فولى أوليائه وأهل طاعته. قال مقاتل: فلما أمر الله المؤمنين بعداوة الكفار عادى المؤمنون أقرباءهم المشركين وأظهروا لهم العداوة والبراءة، ويعلم الله شدة وجد المؤمنين بذلك فأنزل الله:

﴿٦﴾ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم ﴿٧﴾، أي من كفار مكة، ﴿مودة﴾، ففعل الله ذلك بأن أسلم كثير منهم فصاروا لهم أولياء وإخواناً وخالطوهم وناكحوهم، ﴿والله قدير﴾، والله غفور رحيم ﴿٨﴾، ثم رخص الله تعالى في صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم فقال:

﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم﴾، أي لا ينهاكم الله عن بر الذين لم يقاتلوكم، ﴿وتقسطوا إليهم﴾، تعدلوا فيهم بالإحسان والبر، ﴿إن الله يحب المقسطين﴾، قال ابن عباس: نزلت في خزاعة كانوا قد صالحوا النبي ﷺ على أن لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه أحداً، فرخص الله في برهم. وقال عبد الله بن الزبير: نزلت في أسماء بنت أبي بكر وذلك أن أمهاتهم قتيلة بنت عبد العزى قديمت عليها

يحب المقيمين) أي العادلين قال ابن عباس نزلت في خزاعة وذلك أنهم صالحوا رسول الله ﷺ على أن لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه أحداً فرخص الله في برهم وقال عبد الله بن الزبير نزلت في أمه وهي أسماء بنت أبي بكر وذلك أن أمها قتيلة بنت عبد العزى قدمت عليها المدينة بهدايا ضباباً وأقطاً وسمناً وهي مشركة فقالت أسماء لا أقبل منك هدية ولا تدخلني علي بيتاً حتى أستأذن رسول الله ﷺ فسأله فأنزل الله تعالى هذه الآية فأمرها رسول الله ﷺ أن تدخلها منزلها وأن تقبل هديتها وتكرمها وتحسن إليها، (ق) عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما قالت «قدمت على أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله ﷺ ومدتهم فاستفتيت رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله إن أمي قدمت علي وهي راغبة أفأصلها قال نعم صليها»، زاد في رواية قال ابن عيينة فأنزل الله فيها ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين﴾ ثم ذكر الله الذي نهى عن صلتهم وبرهم فقال تعالى :

إِنَّمَا يَنْهَى اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِن عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا مِنْ حِلٍّ لَّهُنَّ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُوهُمْ مَا أَنَفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا ءَانَسْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ وَلَا تُتِمَّسِكُوا بَعَصِمَ الْكُوفَرِ وَتَسْأَلُوا مَا أَنَفَقْتُمْ وَلَيْسَتْ لَكُمُ الذِّكْرُ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

﴿إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين أخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم﴾ وهم مشركو مكة ﴿أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾ قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن﴾ الآية (خ) عن عروة بن الزبير أنه سمع مروان والمسور بن مخزومة يخبران عن أصحاب رسول الله ﷺ، وقال لما كاتب سهيل بن عمرو يومئذ كان فيما اشترط سهيل بن عمرو عن النبي ﷺ إنه لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا وخليت بيننا وبينه وكره المؤمنون ذلك وأبي سهيل إلا ذلك فكانت النبي ﷺ على ذلك فرد يومئذ

المدينة بهدايا ضباباً وأقطاً وسمناً وهي مشركة، فقالت أسماء: لا أقبل منك هدية ولا تدخلني بيتي حتى أستأذن رسول الله ﷺ، فسألت رسول الله ﷺ فأنزل الله هذه الآية فأمرها رسول الله ﷺ أن تدخلها منزلها وتقبل هديتها وتكرمها وتحسن إليها. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا قتبية ثنا حاتم عن هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: قدمت على أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله ﷺ ومدتهم فاستفتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله إني أمي قدمت علي وهي راغبة أفأصلها؟ قال: «صليها»، ورؤي عن ابن عيينة قال: فأنزل الله فيها ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين﴾ ثم ذكر الذين نهاهم عن صلتهم فقال:

﴿إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم﴾، وهم مشركو مكة، ﴿أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾.

قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن﴾، الآية، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يحيى بن بكير ثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب أخبرني عروة بن الزبير أنه سمع مروان والمسور بن مخزومة يخبران عن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: لما كاتب سهيل بن عمرو يومئذ كان فيما اشترط سهيل بن عمرو على النبي ﷺ أنه لا يأتيك منا أحد وإن كان

أبا جندل إلى أبيه سهيل بن عمرو ولم يأت أحد من الرجال إلا رده في تلك المدة وإن كان مسلماً وجاءت المؤمنات مهاجرات وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى رسول الله ﷺ يومئذ وهي عاتق فجاء أهلها يسألون عنها النبي ﷺ أن يرجعها إليهم فلم يرجعها حتى أنزل الله فيهن ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتُ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ الله أعلم بإيمانهن - إلى - ولا هم يحلون لهن ﴿قَالَ عَرَوْهُ فَأَخْبِرْتَنِي عَائِشَةُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَمْتَحِنُ بِهَذِهِ الْآيَةِ﴾ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات - إلى قوله غفور رحيم ﴿قَالَ عَرَوْهُ قَالَتْ عَائِشَةُ فَمَنْ أَقَرَّتْ بِهَذَا الشَّرْطِ مِنْهُنَّ؟ قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ بَايَعْتُكَ كَلَاماً يَكْلِمُهَا وَاللَّهِ مَا مَسَّتْ يَدُهُ امْرَأَةً قَطُّ فِي الْمُبَايَعَةِ وَلَا بَايَعَهُنَّ إِلَّا بِقَوْلِهِ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ «أَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعْتَمِراً حَتَّى إِذَا كَانَ بِالْحَدِيثِ صَالِحَهُ مُشْرَكُو مَكَّةَ عَلَى أَنْ مِنْ أَتَاهُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ رَدَّهُ إِلَيْهِمْ وَمَنْ أَتَى مَكَّةَ مِنْ أَصْحَابِهِ لَمْ يَرُدُّهُ إِلَيْهِ وَكَتَبُوا بِذَلِكَ كِتَاباً وَخَتَمُوا عَلَيْهِ فَجَاءَتْ سَبْعَةُ بَنَاتِ الْحَارِثِ الْأَسْلَمِيَّةِ مُسْلِمَةً بَعْدَ فَرَاغِ الْكِتَابِ وَأَقْبَلَ زَوْجَهَا مُسَافِرٌ مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ وَقِيلَ هُوَ صَيْفِيُّ بْنُ الرَّاهِبِ فِي طَلِبِهَا وَهُوَ كَافِرٌ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ ارْجِعْ عَلَيَّ امْرَأَتِي فَإِنَّكَ قَدْ شَرَطْتَ أَنْ تَرُدَّ عَلَيْنَا مَنْ أَتَاكَ مِنَّا وَهَذِهِ طَيَّةُ الْكِتَابِ لَمْ تَجَفْ بَعْدَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتُ أَيَّ مِنْ دَارِ الْكُفْرِ إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ فَامْتَحِنُوهُنَّ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ امْتَحَانُهَا أَنْ تَسْتَحْلِفَ مَا خَرَجْتَ مِنْ بَغْضِ زَوْجٍ وَلَا رَغْبَةٍ عَنْ أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ وَلَا لِحْدَةٍ أَحْدَثْتَهُ وَلَا التَّمَّاسَ دُنْيَا وَمَا خَرَجْتَ إِلَّا رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ وَحَبَّاً لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ فَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى ذَلِكَ لَمْ يَرُدَّهَا فَاسْتَحْلَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَبْعَةَ فَحَلَفَتْ فَلَمْ يَرُدَّهَا وَأَعْطَى زَوْجَهَا مَهْرَهَا وَمَا أَنْفَقَ عَلَيْهَا فَتَزَوَّجَهَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ الْمَفْسُرُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

على دينك إلا رددته إلينا، وخليت بيننا وبينه، فكره المؤمنون ذلك وأبى سهيل إلا ذلك فكاتبه النبي ﷺ على ذلك، فردَّ النبي ﷺ يومئذ أبا جندل إلى أبيه سهيل بن عمرو ولم يأت أحد من الرجال إلا رده في تلك المدة وإن كان مسلماً، وجاءت المؤمنات مهاجرات، وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى رسول الله ﷺ يومئذ مهاجرة وهي عاتق، فجاء أهلها يسألون النبي ﷺ أن يرجعها إليهم فلم يرجعها إليهم لما أنزل الله فيهن: ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتُ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ الله أعلم بإيمانهن ﴿إِلَى﴾ ولا هم يحلون لهن ﴿قَالَ عَرَوْهُ فَأَخْبِرْتَنِي عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَمْتَحِنُ بِهَذِهِ الْآيَةِ:﴾ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات ﴿إِلَى قوله: ﴿غُفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قَالَ عَرَوْهُ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فَمَنْ أَقَرَّتْ بِهَذَا الشَّرْطِ مِنْهُنَّ قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَدْ بَايَعْتُكَ كَلَاماً يَكْلِمُهَا بِهِ»، وَاللَّهِ مَا مَسَّتْ يَدُهُ امْرَأَةً قَطُّ فِي الْمُبَايَعَةِ مَا بَايَعَهُنَّ إِلَّا بِقَوْلِهِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعْتَمِراً حَتَّى إِذَا كَانَ بِالْحَدِيثِ صَالِحَهُ مُشْرَكُو مَكَّةَ عَلَى أَنْ مِنْ أَتَاهُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ رَدَّهُ إِلَيْهِمْ وَمَنْ أَتَى أَهْلَ مَكَّةَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَرُدُّهُ عَلَيْهِ وَكَتَبُوا بِذَلِكَ كِتَاباً وَخَتَمُوا عَلَيْهِ، فَجَاءَتْ سَبْعَةُ بَنَاتِ الْحَارِثِ الْأَسْلَمِيَّةِ مُسْلِمَةً بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنَ الْكِتَابِ، فَأَقْبَلَ زَوْجَهَا مُسَافِرٌ مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ، وَقِيلَ مُقَاتِلُ صَيْفِيِّ بْنِ الرَّاهِبِ فِي طَلِبِهَا، وَكَانَ كَافِراً، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ رُدَّ عَلَيَّ امْرَأَتِي فَإِنَّكَ قَدْ شَرَطْتَ أَنْ تَرُدَّ عَلَيْنَا مَنْ أَتَاكَ مِنَّا وَهَذِهِ طَيَّةُ الْكِتَابِ لَمْ تَجَفْ بَعْدَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتُ﴾ مِنْ دَارِ الْكُفْرِ إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ، ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: امْتَحَانُهَا أَنْ تَسْتَحْلِفَ مَا خَرَجْتَ لِبَعْضِ زَوْجِهَا وَلَا عَشْقاً لِرَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَلَا رَغْبَةً عَنْ أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ وَلَا لِحْدَةً أَحْدَثْتَهُ وَلَا لَتَمَّاسَ دُنْيَا، وَمَا خَرَجْتَ إِلَّا رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ وَحَبَّاً لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ، قَالَ: فَاسْتَحْلَفَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى ذَلِكَ فَحَلَفَتْ فَلَمْ يَرُدَّهَا، وَأَعْطَى زَوْجَهَا مَهْرَهَا وَمَا أَنْفَقَ عَلَيْهَا، فَتَزَوَّجَهَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَ يَرُدُّ مَنْ جَاءَهُ مِنَ الرِّجَالِ، وَيَحْبِسُ مَنْ جَاءَهُ مِنَ النِّسَاءِ بَعْدَ الْامْتِحَانِ وَيُعْطِي أَزْوَاجَهُنَّ مَهْرَهُنَّ، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾ أَيُّ هَذَا الْامْتِحَانِ لَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ، ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تُرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا مِنْ حِلٍّ لِهِنَّ وَلَا لَهُمْ يَحْلُونَ لِهِنَّ﴾، مَا أَحَلَّ اللَّهُ مُؤْمِنَةً لِكَافِرٍ، ﴿وَأَتَوْهُمْ﴾

لأنه هو الذي تولى امتحانهم بنفسه فكان يمسك من جاءه من النساء بعد الامتحان ويعطي أزواجهن مهورهن ويرد من جاء من الرجال.

واختلف العلماء هل دخل رد النساء في عقد الهدنة لفظاً أو عموماً فقليل قد كان شرط ردهن في عقد الهدنة لفظاً صريحاً فنسخ الله تعالى ردهن من العقد ومنع منه وأبقاه في الرجال على ما كان في العقد وقيل لم يشترط ردهن في العقد لفظاً صريحاً وإنما أطلق العهد فكان ظاهره العموم لاشتماله على النساء وعلى الرجال فبين الله تعالى خروجهن من عموم العقد وفرق بينهن وبين الرجال في الحكم، ﴿الله أعلم بإيمانهن﴾ أي هذا الامتحان لكم والله أعلم بإيمانهن ﴿فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا من حل لهم ولا هم يحلون لهن﴾ أي إذا أقرن بالإيمان فلا تردوهن إلى الكفار لأن الله لم يبيح مؤمنة لكفار ﴿وآتوهن﴾ يعني أزواجهن ﴿ما أنفقوا﴾ أي عليهن من المهر الذي دفعوه إليهن، ﴿ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتهن أجورهن﴾ أي مهورهن أباح الله للمسلمين نكاح المهاجرات من دار الحرب إلى دار الإسلام وإن كان لهن أزواج كفار في دار الحرب لأن الإسلام فرق بينهن وبين أزواجهن الكفار ووقفت الفرقة بانقضاء عدتها فإن أسلم الزوج قبل انقضاء عدتها فهي زوجته وبه قال الأوزاعي والليث بن سعد ومالك والشافعي وأحمد وقال أبو حنيفة تقع الفرقة باختلاف الدارين، ﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾ جمع عصمة وهي ما اعتصم به من العقد: والسبب نهى الله تعالى المؤمنين عن المقام على نكاح المشركات يقول الله تعالى وإن كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتد بها فقد انقطعت عصمة الزوجية بينهما.

قال الزهري لما نزلت هذه الآية طلق عمر بن الخطاب امرأتين كانتا بمكة مشركتين قريية بنت أبي أمية بن المغيرة فتزوجها معاوية بن أبي سفيان وهما على شركهما بمكة والأخرى أم كلثوم بنت عمرو بن جروال الخزاعية وهي أم ابنه عبيد الله فتزوجها أبو جهم بن حذافة بن غنم وهما على شركهما.

وكانت أروى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب تحت طلحة بن عبيد الله فهاجر طلحة وبقيت هي على دين قومها ففرق الإسلام بينهما فتزوجها بعده في الإسلام خالد بن سعيد بن العاص بن أمية قال الشعبي وكانت زينب بنت رسول الله ﷺ امرأة أبي العاص بن الربيع أسلمت وهاجرت ولحقت بالنبي ﷺ وأقام أبو العاص بمكة مشركاً ثم أتى المدينة فأسلم فردها عليه رسول الله ﷺ ﴿واسألوا﴾ أي أيها المؤمنون ﴿ما أنفقتم﴾ يعني إن لحقت امرأة منكم

يعني أزواجهن الكفار، ﴿ما أنفقوا﴾، عليهن يعني المهر الذي دفعوا إليهن، ﴿ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتهن أجورهن﴾، أي مهورهن، أباح الله نكاحهن للمسلمين، وإن كان لهن أزواج في دار الكفر لأن الإسلام فرق بينهن وبين أزواجهن الكفار، ﴿ولا تمسكوا﴾، قرأ أبو عمرو ويعقوب بالتشديد، والآخرين بالتخفيف من الإمساك، ﴿بعصم الكوافر﴾، والعصم جمع العصمة وهي ما يعتصم به من العقد والنسب، والكوافر جمع الكافرة، نهى الله المؤمنين عن المقام على نكاح المشركات، يقول من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتد بها فقد انقطعت عصمة الزوجية بينهما، قال الزهري: فلما نزلت هذه الآية طلق عمر بن الخطاب رضي الله عنه امرأتين كانتا له بمكة مشركتين قريية بنت أبي أمية بن المغيرة، فتزوجها بعده معاوية بن أبي سفيان، وهما على شركهما بمكة، والأخرى أم كلثوم بنت عمرو بن جروال الخزاعية أم ابنه عبيد الله بن عمر، فتزوجها أبو جهم بن حذافة بن غانم وهما على شركهما، وكانت أروى بنت ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب تحت طلحة بن عبيد الله فهاجر طلحة وهي بمكة على دين قومها، ففرق الإسلام بينهما فتزوجها في الإسلام خالد بن سعيد بن العاص بن أمية، قال الشعبي: وكانت زينب بنت رسول الله ﷺ امرأة أبي العاص بن الربيع أسلمت ولحقت بالنبي ﷺ وأقام أبو العاص بمكة مشركاً ثم أتى المدينة فأسلم فردها عليه رسول الله ﷺ، ﴿واسألوا﴾، أيها المؤمنون، ﴿ما

بالمشركين مرتدة فاطلبوا ما أنفقتم من المهر إذا منعوها ممن تزوجها منهم ﴿وليسألوا﴾ يعني المشركين الذين لحقت أزواجهم بكم ﴿ما أنفقوا﴾ من المهر ممن تزوجها منكم ﴿ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم﴾ قال الزهري ولولا الهدنة والعهد الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين قريش لأمسك النساء ولم يرد الصداق وكذلك صنع بمن جاء من المسلمات قبل العهد فلما نزلت هذه الآية أقر المؤمنون بحكم الله تعالى وأدوا ما أمروا به من أداء نفقات المشركين على نسائهم وأبى المشركون أن يقرّوا بحكم الله فيما أمر من أداء نفقات المسلمين فأنزل الله عز وجل:

وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَأَنْفَقُوا اللَّهُ

الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

﴿وإن فاتكم﴾ أيها المؤمنون ﴿شيء من أزواجكم إلى الكفار﴾ أي فالحقن بهم مرتدات ﴿فعاقبتهم﴾ معناه غزوتهم فغنمتم وأصبتم من الكفار عقبي وهي الغنيمة وقيل معناه ظهرتم وكانت العاقبة لكم ﴿فاتوا الذين ذهب أزواجهم﴾ أي إلى الكفار ﴿مثل ما أنفقوا﴾ معناه أعطوا الذين ذهب أزواجهم منكم إلى الكفار مرتدات مثل ما أنفقوا عليها من الغنائم التي صارت في أيديكم من أموال الكفار قال ابن عباس لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين ست نسوة أم الحكم بنت أبي سفيان وكان تحت عياض بن شداد الفهري وفاطمة^(١) بنت أبي أمية بن المغيرة أخت أم سلمة وكانت تحت عمر بن الخطاب فلما أراد عمر أن يهاجر بها أبت وارتدت وبروع بنت عقبة وكانت تحت شماس بن عثمان وعزة بنت عبد العزيز بن نضلة وتزوجها عمرو بن عبد ود وهند بنت أبي جهل بن هشام وكانت تحت هشام بن العاص بن وائل وأم كلثوم وكانت تحت عمر بن الخطاب فكلهن رجعن عن الإسلام فأعطى رسول الله ﷺ أزواجهن مهور نسائهم من الغنيمة واختلف القول في رد مهر من أسلمت من النساء إلى زوجها هل كان واجباً أو مندوباً وأصل

أنفقتهم، أي إن لحقت امرأة منكم بالمشركين مرتدة فاسألوا ما أنفقتم من المهر إذا منعوها ممن تزوجها منهم، ﴿وليسألوا﴾، يعني المشركين الذين لحقت أزواجهم بكم ﴿ما أنفقوا﴾، من المهر ممن تزوجها منكم، ﴿ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم﴾، قال الزهري: لولا الهدنة والعهد الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين قريش يوم الحديبية لأمسك النساء ولم يرد الصداق، وكذلك كان يصنع بمن جاءه من المسلمات قبل العهد، فلما نزلت هذه الآية أقر المؤمنون بحكم الله عز وجل وأدوا ما أمروا به من نفقات المشركين على نسائهم، وأبى المشركون أن يقرّوا بحكم الله فيما أمروا من أداء نفقات المسلمين على نسائهم.

فأنزل الله عز وجل: ﴿وإن فاتكم﴾، أيها المؤمنون، ﴿شيء من أزواجكم إلى الكفار﴾، فالحقن بهم مرتدات، ﴿فعاقبتهم﴾، قال المفسرون معناه غنمتم أي غزوتهم فأصبتم من الكفار عقبي وهي الغنيمة، وقيل ظهرتم وكانت العاقبة لكم، وقيل: أصبتموهم في القتال بعقوبة حتى غنمتم، قرأ حميد الأعرج (فعقبتم) بالتشديد وقرأ الزهري (فعقبتم) خفيفة بغير ألف، وقرأ مجاهد (فأعبتهم) أي صنعتهم بهم كما صنعوا بكم وكلها لغات بمعنى واحد، يقال: عاقب وعقب وعقب وأعقب وتعقب وتعاقب واعتقب، إذا غنم، وقيل: التعقيب غزوة بعد غزوة، ﴿فاتوا الذين ذهب أزواجهم﴾، إلى الكفار منكم، ﴿مثل ما أنفقوا﴾، عليهن من الغنائم التي صارت في أيديكم من أموال الكفار. وقيل: فعاقبتهم المرتدة بالقتل. وروى عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين ست نسوة أم الحكم بنت أبي سفيان كانت تحت عياض بن شداد القهري وفاطمة بنت أبي

(١) قوله فاطمة، تقدم أن إسمها قريية فلعل في إسمها خلافاً، وذكر الخطيب أولاً أن إسمها قريية وثانياً فاطمة كما هنا والله أعلم اهـ.

هذه المسألة أن الصلح هل كان وقع على رد النساء أم لا فيه قولان أحدهما أنه وقع على رد الرجال والنساء جميعاً لما روي أنه لا يأتيك منا أحد إلا رددته ثم صار الحكم في رد النساء منسوخاً بقوله تعالى ﴿فلا ترجعوهن إلى الكفار﴾ فعلى هذا كان رد المهر واجباً. والقول الثاني أن الصلح لم يقع على رد النساء لأنه روي عن علي أنه قال لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته وذلك لأن الرجل لا يخشى عليه من الفتنة في الرد ما يخشى على المرأة من إصابة المشرك إياها وأنه لا يؤمن عليها الردة إذا خوفت وأكرهت عليها لضعف قلبها وقلة هدايتها إلى المخرج من الكفر بإظهار كلمة الكفر مع التورية وإضمار كلمة الإيمان وطمأنينة القلب عليه ولا يخشى ذلك على الرجل لقوته وهدايته إلى التقية فعلى هذا كان المهر مندوباً.

واختلفوا في أنه هل يجب العمل به اليوم في رد المال إذا شرط في معاقدة الكفار فقال قوم لا يجب وزعموا أن الآية منسوخة وهم عطاء ومجاهد وقتادة قال قوم الآية غير منسوخة ويرد عليهم ما أنفقوا قوله تعالى: ﴿واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾.

يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعُكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقَ وَلَا يَزْنِيَ وَلَا يَقْتُلَنَّ
أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَابْتَغِهِنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ
إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾

﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبأيعنك﴾ الآية قال المفسرون لما فتح رسول الله ﷺ مكة وفرغ من بيعة الرجال وهو على الصفا أتته النساء يبلغنه وعمر بن الخطاب أسفل منه يبلغهن عنه وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان

أمية بن المغيرة أخت أم سلمة كانت تحت عمر بن الخطاب، فلما أراد عمر أن يهاجر أبت وارتدت، ويروع بنت عقبة كانت تحت شماس بن عثمان، وعزة بنت عبد العزيز بن نضلة وتزوجها عمرو بن عبد ود، وهند بنت أبي جهل بن هشام كانت تحت هشام بن العاص بن وائل، وأم كلثوم بنت جرول كانت تحت عمر بن الخطاب، فكلهن يرجعن إلى الإسلام، فأعطى رسول الله ﷺ أزواجهن مهور نسائهم من الغنيمة. ﴿واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾، واختلف القول في أن رد مهر من أسلمت من النساء إلى أزواجهن، كان واجباً أو مندوباً وأصله أن الصلح هل كان وقع على رد النساء، فيه قولان أحدهما أنه وقع على رد الرجال والنساء جميعاً لما روي أنه لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، ثم صار الحكم في رد النساء منسوخاً بقوله: ﴿فلا ترجعوهن إلى الكفار﴾، فعلى هذا كان رد المهر واجباً والقول الآخر أن الصلح لم يقع على رد النساء، لأنه روي عن علي أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، وذلك لأن الرجل لا يخشى عليه من الفتنة في الرد ما يخشى على المرأة من إصابة المشرك إياها، وأنه لا يؤمن عليها الردة إذا خوفت، وأكرهت عليها لضعف قلبها، وقلة عقلها وقلة هدايتها إلى المخرج منها بأظهار كلمة الكفر مع التورية، وإضمار الإيمان، ولا يخشى ذلك على الرجل لقوته وهدايته إلى التقية، فعلى هذا كان رد المهر مندوباً واختلفوا في أنه هل يجب العمل به اليوم في رد المال إذا شرط في معاقدة الكفار، فقال قوم: لا يجب وزعموا أن الآية منسوخة، وهو قول عطاء ومجاهد وقتادة، وقال قوم: هي غير منسوخة ويرد إليهم ما أنفقوا.

قوله عز وجل: ﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبأيعنك﴾، الآية، وذلك يوم فتح مكة لما فرغ رسول الله ﷺ من بيعة الرجال، وهو على الصفا وعمر بن الخطاب أسفل منه، وهو يبائع النساء بأمر رسول الله ﷺ ويبلغهن

متنقبة متنكرة مع النساء خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعرفها فقال رسول الله ﷺ «أبايعهن» ﴿على أن لا يشركن بالله شيئاً﴾ فرفعت هند رأسها وقالت والله إنك لتأخذ علينا أمراً وما رأيك أخذته على الرجال وكان قد بايع الرجال يومئذ على الإسلام والجهاد فقط فقال النبي ﷺ ﴿ولا يسرقن﴾ فقالت هند إن أبا سفيان رجل شحيح وإنني أصبت من ماله هنات فلا أدري يحل لي أم لا فقال أبو سفيان ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غبر فهو حلال فضحك النبي ﷺ وعرفها فقال لها وإنك لهند بنت عتبة قالت نعم فاعف عما سلف عفا الله عنك فقال ﴿ولا يزنين﴾ فقالت هند أو تزني الحرة فقال ﴿ولا يقتلن أولادهن﴾ فقالت هند ريبناهم صغاراً وقتلتموهم كباراً فأنتم وهم أعلم وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قتل يوم بدر فضحك عمر حتى استلقى وتبسم رسول الله ﷺ ﴿ولا يأتين ببهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن﴾ فقالت هند والله إن البهتان لقبيح وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق، ﴿ولا يعصينك في معروف﴾ فقالت هند ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء فأقر النسوة بما أخذ عليهن من البيعة قال ابن الجوزي وجملة من أحصى من المبايعات أربعمائة وسبعة وخمسون امرأة ولم يصافح في البيعة امرأة وإنما بايعهن بالكلام، (ق) عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت «كان رسول الله ﷺ يبائع النساء بالكلام بهذه الآية على أن لا يشركن بالله شيئاً وما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة لا يملكها» وأما تفسير الآية فقوله تعالى: ﴿ولا يقتلن أولادهن﴾ أراد به وأد البنات الذي كان يفعله أهل الجاهلية ثم هو عام في كل نوع من قتل الولد ولا يأتين ببهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن يعني لا تلحق المرأة بزوجها غير ولده وذلك أن المرأة كانت تلتقط المولود فتقول لزوجها هذا ولدي منك فهذا هو البهتان المفترى وليس المراد منه نهيهن عن الزنا لأن النهي عنه قد تقدم ذكره ومعنى بين أيديهن وأرجلهن أن الولد إذا وضعته الأم سقط بين يديها ورجليها ولا يعصينك في معروف أي في كل ما تأمرهن به أو تنهاهن عنه وقيل في كل أمر وافق

عنه، وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان متنقبة متنكرة مع النساء خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعرفها، فقال رسول الله ﷺ: «أبايعهن» ﴿على أن لا يشركن بالله شيئاً﴾، فرفعت هند رأسها وقالت والله إنك لتأخذ علينا أمراً ما رأيك أخذته على الرجال، وبايع الرجال يومئذ على الإسلام والجهاد فقط، فقال النبي ﷺ: «ولا يسرقن»، فقالت هند: إن أبا سفيان رجل شحيح وإنني أصبت من ماله هنات فلا أدري أيحل لي أم لا؟ فقال أبو سفيان: ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غبر فهو لك حلال، فضحك رسول الله ﷺ وعرفها، فقال لها: «وإنك لهند بنت عتبة؟» قالت: نعم، فاعف عما سلف عفا الله عنك، فقال: ﴿ولا يزنين﴾، فقالت هند أو تزني الحرة؟ فقال: ﴿ولا يقتلن أولادهن﴾، فقالت هند: ريبناهن صغاراً وقتلتموهم كباراً فأنتم وهم أعلم، وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قتل يوم بدر، فضحك عمر رضي الله عنه حتى استلقى، وتبسم رسول الله ﷺ، فقال: ﴿ولا يأتين ببهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن﴾، وهي أن تقذف ولدك على زوجها ليس منه، قالت هند: والله إن البهتان لقبيح وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق، فقال: ﴿ولا يعصينك في معروف﴾، قالت هند ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء فأقر النسوة بما أخذ عليهن، قوله: ﴿ولا يقتلن أولادهن﴾ أراد وأد البنات الذي كان يفعل أهل الجاهلية، قوله: ﴿ولا يأتين ببهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن﴾: ليس المراد منه نهيهن عن الزنا لأن النهي عن الزنا قد تقدم ذكره، بل المراد منه أن تلتقط مولوداً وتقول لزوجها هذا ولدي منك، فهو البهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهن، لأن الولد إذا وضعته الأم سقط بين يديها ورجليها، قوله: ﴿ولا يعصينك في معروف﴾: أي في كل أمر وافق طاعة الله. قال بكر بن عبد الله المزني في كل أمر فيه رشد. وقال مجاهد: لا تخلو المرأة بالرجال. وقال سعيد بن المسيب والكلبي وعبد الرحمن بن زيد: هو النهي عن النوح والدعاء بالويل وتمزيق الثوب وحلق الشعر وتنفه وخمش الوجه، ولا تحدث المرأة الرجال إلا ذا محرم، ولا تخلو برجل غير ذي محرم، ولا تسافر إلا مع ذي

طاعة الله وكل أمر فيه رشد وقيل هو النهي عن النوح والدعاء بالويل وتمزيق الثياب وحلق الشعر وتنفه وخمش الوجه وأن لا تحدث المرأة الرجال الأجانب ولا تخلو برجل غير ذي محرم ولا تسافر مع غير ذي محرم قال ابن عباس في قوله ولا يعصينك في معروف إنما هو شرط شرطه الله على النساء أخرجه البخاري (ق) عن أم عطية قالت «بايعنا رسول الله ﷺ فقرأ علينا أن لا يشركن بالله شيئاً ونهانا عن النياحة فقبضت امرأة منا يدها فقالت فلانة أسعدتني فأنا أريد أن أجزيها فما قال لها النبي ﷺ شيئاً فانطلقت ثم رجعت فبايعها»، (ق) عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية» عن أسيد بن أسيد عن امرأة من المبايعات قالت «كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ من المعروف الذي أخذ علينا أن لا نعصيه فيه أن لا نخمش وجهاً ولا ندعو ويلاً ولا نشق جيباً ولا ننشر شعراً» أخرجه أبو داود عن أنس رضي الله عنه «إن رسول الله ﷺ أخذ على النساء حين بايعهن أن لا ينحن فقلن يا رسول الله نساء أسعدتنا في الجاهلية فنسعدهن فقال رسول الله ﷺ لا إسعاد في الإسلام» أخرجه النسائي، (م) عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقوم يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب» وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال «لعن رسول الله ﷺ النائحة والمستمعة» أخرجه أبو داود، وقوله تعالى: ﴿فبايعهن﴾ يعني إذا بايعتك على هذه الشروط فبايعهن ﴿واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم﴾ عن أميمة بنت رقية قالت «بايعت رسول الله ﷺ في نسوة فقال لنا فيما استطعتن وأطقتن قلنا الله ورسوله أرحم بنا منا بأنفسنا قلت يا رسول الله بايعنا قال سفيان يعني صافحنا فقال رسول الله ﷺ إنما قلتي لمائة امرأة كقولتي لامرأة واحدة» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

محرم. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو معمر ثنا عبد الوارث ثنا أيوب عن حفصة بنت سيرين عن أم عطية قالت: بايعنا رسول الله ﷺ فقرأ علينا ﴿أن لا يشركن بالله شيئاً﴾، ونهانا عن النياحة فقبضت امرأة يدها فقالت أسعدتني فلانة أريد أن أجزيها، فما قال لها النبي ﷺ شيئاً، فانطلقت ورجعت وبايعها. أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أنا الحسين بن محمد بن الحسين الدينوري ثنا أحمد بن محمد بن إسحاق ثنا أبو يعلى الموصلي ثنا هدية بن خالد ثنا أبان بن يزيد ثنا يحيى بن أبي كثير أن زيداً حدثه أن أبا سلام حدثه أن أبا مالك الأشعري حدثه أن رسول الله ﷺ قال: «أربع في أمي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب والطعن في الأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة». وقال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقوم يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عمرو بن حفص ثنا أبي أنا الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق عن عبد الله قال: قال النبي ﷺ: «ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية». قوله: ﴿فبايعهن﴾، يعني إذا بايعتك فبايعهن، ﴿واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل حدثني محمود ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يبايع النساء بالكلام بهذه الآية: ﴿لا يشركن بالله شيئاً﴾ قالت: وما مسّت يد رسول الله ﷺ يد امرأة إلا امرأة يملكها. أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا محمد بن عبد الله بن حمدون أنا مكّي بن عبدان ثنا عبد الرحمن بن بشر ثنا سفيان بن عيينة عن محمد بن المنكدر سمع أميمة بنت رقية تقول: بايعت رسول الله ﷺ في نسوة، فقال لنا: «فيما استطعتن وأطقتن»، فقلت: رسول الله ﷺ أرحم بنا من أنفسنا، قلت: يا رسول الله بايعنا، قال سفيان: يعني صافحنا، فقال: «إني لا أصافح النساء، إنما قلتي لامرأة كقولتي لمائة امرأة».

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ

الْقُبُورِ ﴿١٣﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني من اليهود وذلك أن ناساً من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود بأخبار المسلمين يتوصلون إليهم بذلك فيصيّبون من ثمارهم فنهاهم الله عن ذلك ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ يعني اليهود وذلك أنهم عرفوا محمداً ﷺ وأنه رسول الله ﷺ فكذبوا به فيئسوا من أن يكون لهم ثواب أو خير في الآخرة ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ يعني كما يئس الذين ماتوا على الكفر وصاروا في القبور من أن يكون لهم ثواب في الآخرة وذلك أن الكفار إذا دخلوا قبورهم أيسوا من رحمة الله تعالى وقيل معناه كما يئس الكفار من أصحاب القبور أن يرجعوا إليهم والمعنى: أن اليهود الذين عاينوا رسول الله ﷺ ولم يؤمنوا به قد يئسوا من ثواب الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور أن يرجعوا إليهم، والله سبحانه وتعالى أعلم.

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، وهم اليهود وذلك أن أناساً من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود أخبار المسلمين، يتوصلون إليهم بذلك فيصيّبون من ثمارهم، فنهاهم الله عن ذلك، ﴿قَدْ يَئِسُوا﴾، يعني هؤلاء اليهود، ﴿مِنَ الْآخِرَةِ﴾، بأن يكون لهم فيها ثواب وخير، ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾، أي كما يئس الكفار الذين ماتوا وصاروا في القبور من أن يكون لهم حظّ وثواب في الآخرة. قال مجاهد: الكفار حين دخلوا قبورهم أيسوا من رحمة الله. قال سعيد بن جبیر: يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار الذين ماتوا فعاينوا الآخرة. وقيل: كما يئس الكفار من أصحاب القبور أن يرجعوا إليهم.

سورة الصف

وفيها قولان: أحدهما أنها مدنية وهو قول ابن عباس والجمهور.

والثاني أنها مكية وهي أربع عشرة آية ومائتان وإحدى وعشرون كلمة وتسعمائة حرف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا

تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾

قوله عز وجل: ﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴿٢﴾ قيل سبب نزولها ما روي عن عبدالله بن سلام رضي الله عنه قال «قلنا نفرأ من أصحاب رسول الله ﷺ فتذكرنا فقلنا لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعلنا فأنزل الله تعالى سبِّح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون قال عبد الله بن سلام فقرأها علينا رسول الله ﷺ» أخرجه الترمذي وقال المفسرون إن المؤمنين قالوا لو علمنا أحب الأعمال إلى الله لعلنا ولبذلنا فيها أموالنا وأنفسنا فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا وَأَنْزَلَ اللَّهُ هَلْ أَدْلَكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ﴾ الآية فابتلوا بذلك يوم أحد فولوا مدبرين وكرهوا الموت وأحبوا الحياة فأنزل الله تعالى لم تقولون ما لا تفعلون وقيل لما أخبر الله تعالى رسوله ﷺ بشواب أهل بدر قالت الصحابة لئن لقينا قتالاً لنفرغن فيه وسعنا ففروا يوم أحد فغيرهم الله بهذه الآية وقيل نزلت في شأن القتال كان الرجل يقول قاتلت ولم يقاتل وأطعمت ولم يطعم وضربت ولم يضرب فنزلت هذه الآية وقيل نزلت في المنافقين وذلك أنهم كانوا يعدون النصر للمؤمنين وهم كاذبون.

كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا

كَأَنَّهُمْ بُنِينَ مَرْصُورٍ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقِيمُوا لِي وَذُنِّي فَقَدْ نَعْلَمُونَ أَيْ رَسُولُ اللَّهِ

سُورَةُ الصَّفِّ

مدنية وقال عطاء: مكية وهي أربع عشرة آية.

﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴿٢﴾ قال المفسرون إن المؤمنين قالوا لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله عز وجل لعلنا ولبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ [الصف: ٤] فابتلوا بذلك يوم أحد فولوا مدبرين، فأنزل الله تعالى ﴿لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾، وقال محمد بن كعب: لما أخبر الله تعالى رسوله ﷺ بشواب شهداء بدر، قالت الصحابة: لئن لقينا بعده قتالاً لنفرغن فيه وسعنا، ففروا يوم أحد فغيرهم الله بهذه الآية. وقال قتادة والضحاك: نزلت في شأن القتال، كان الرجل يقول: قاتلت ولم يقاتل، وطعنت ولم يطعن، وضربت ولم يضرب، فنزلت هذه الآية. قال ابن زيد: نزلت في المنافقين كانوا يعدون النصر للمؤمنين وهم كاذبون.

إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾

﴿كبر مقتاً عند الله﴾ أي عظم بغضاً عند الله ﴿أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ معناه أن يعدوا من أنفسهم شيئاً ولم يفوا به ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً﴾ أي يصفون أنفسهم عند القتال صفاً ولا يزولون عن أماكنهم ﴿كانهم بنيان مرصوص﴾ أي قد رص بعضه ببعض والرزق بعضه إلى بعض وأحكم فليس فيه فرجة ولا خلل ومنه الحديث «تراصوا في الصف» ومعنى الآية إن الله يحب من يثبت في الجهاد في سبيله ويلزم مكانه كثبوت البناء المرصوص.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ أي واذكر يا محمد لقومك إذ قال موسى لقومه بني إسرائيل ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تَوَدُّونَنِي﴾ قيل: إنهم كانوا يؤذونه بأنواع من الأذى التعتت منها قولهم أرنا الله جهرة وقولهم لن نصبر على طعام واحد ومنها أنهم رموه بالأدرة ﴿وقد تعلمون أنني رسول الله إليكم﴾ يعني تؤذونني وأنتم عالمون علماً قطعياً أنني رسول الله إليكم والرسول يعظم ويوقر ويحترم ولا يؤذي ﴿فلما زاغوا﴾ أي عدلوا ومالوا عن الحق ﴿أزاع الله قلوبهم﴾ أي أمالها عن الحق إلى غيره ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي لا يهدي من سبق في علمه أنه فاسق خارج عن طاعته وهدايته وهذا تنبيه على عظم إيذاء الرسل حتى إن أذاهم يؤدي إلى الكفر وزيف القلوب عن الهدى ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ أي إني رسول أرسلت إليكم بالوصف الذي وصفت به في التوراة ﴿مصدقاً لما بين يدي من التوراة﴾ أي مقر معترف بأحكام التوراة وكتب الله وأنبيائه جميعاً ممن قد تقدم ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي﴾ أي يصدق بالتوراة على مثل تصديقي فكأنه قيل ما اسمه فقال ﴿اسمه أحمد﴾ عن أبي موسى قال «أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يأتوا النجاشي» وذكر الحديث، وفيه قال سمعت النجاشي يقول أشهد أن محمداً رسول الله ﷺ بشر به عيسى ولولا ما أنا فيه من الملك وما تحملت من أمر الناس لأتيته حتى أحمل نعليه» أخرجه أبو داود وعن عبد الله بن سلام قال مكتوب في التوراة صفة محمد وعيسى ابن مريم يدفن معه فقال أبو داود المدني قد بقي في البيت موضع قبر أخرجه الترمذي عن كعب الأحبار أن الحواريين قالوا لعيسى ﷺ يا روح الله هل بعدنا من أمة؟ قال نعم^(١) يأتي بعدكم أمة حكماء علماء أبرار أتقياء كأنهم في الفقه أنبياء يرضون من الله باليسير من الرزق ويرضى الله منهم باليسير من العمل (ق) عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لي خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد

﴿كبر مقتاً عند الله أن تقولوا﴾، قوله: ﴿أن تقولوا﴾ في موضع رفع فهو كقولك بش رجلاً أخوك، ومعنى الآية أي عظم ذلك في المقت والبغض عند الله أي إن الله يبغض بغضاً شديداً أن تقولوا، ﴿ما لا تفعلون﴾، أي تعدوا من أنفسكم شيئاً ثم لم تفوا به.

﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً﴾، أي يصفون أنفسهم عند القتال صفاً ولا يزولون عن أماكنهم، ﴿كانهم بنيان مرصوص﴾، قد رص بعضه ببعض أي ألزق بعضه ببعض وأحكم فليس فيه فرجة ولا خلل. وقيل أحكم بالرصاص.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾، من بني إسرائيل، ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تَوَدُّونَنِي﴾، وذلك حين رموه بالأدرة، ﴿وقد تعلمون أنني رسول الله إليكم﴾، والرسول يُعَظَّمُ وَيُحْتَرَمُ، ﴿فلما زاغوا﴾، عدلوا عن الحق، ﴿أزاع الله قلوبهم﴾، أمالها عن الحق، يعني أنهم لما تركوا الحق بإيذاء نبيهم أمال الله قلوبهم عن الحق، ﴿والله لا يهدي

(١) قوله قال نعم الخ كذلك في نسخة وفي أخرى قال نعم أمة أحمد حكماء اهد من هامش.

وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي يوم القيامة وأنا العاقب الذي ليس بعدي نبي وقد سماه الله تعالى رؤوفاً رحيماً» وأحمد يحتمل معنيين أحدهما أنه مبالغة من الفاعل ومعناه أن الأنبياء كلهم حمادون لله عز وجل وهو أكثر حمداً لله من غيره والثاني أنه مبالغة من المفعول ومعناه أن الأنبياء كلهم محمودون لما فيهم من الخصال الحميدة وهو أكثر مبالغة وأجمع للفضائل والمحاسن والأخلاق التي يحمد بها من غيره، ﴿فلما جاءهم بالبينات﴾ قيل هو عيسى ﷺ وقيل هو محمد ﷺ ﴿قالوا هذا سحر مبين﴾ أي ظاهر.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَحَرِّ تَنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُقْلِقُونَ ﴿١١﴾ يَقِفْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَسَكَتِكُمْ فِي جَنَّتٍ عَذْبٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْصَارُ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَتَامَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾

﴿ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب﴾ أي ومن أقبح ظلماً ممن بلغ افتراؤه أن يكذب على الله وذلك أنهم علموا أن ما نالوه من نعمة فمن الله ثم كفروا به ﴿وهو يدعى إلى الإسلام﴾ معنى الآية أي الناس أشد ظلماً ممن يدعوه ربه على لسان نبيه ﷺ إلى الإسلام الذي له فيه سعادة الدارين فيجعل مكان إجابته افتراء الكذب على الله بقوله هذا سحر مبين ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي لا يوفقهم للهداية علم من حالهم عقوبة لهم ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم﴾ يعني إرادتهم إبطال الإسلام بقولهم في القرآن هذا سحر ﴿والله متم نوره﴾ يعني متم للحق ومظهره ومبلغه غايته وقال ابن عباس مظهر دينه ﴿ولو كره الكافرون هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾ أي ليعليه على الأديان المخالفة له ولقد فعل ذلك فلم يبق دين من الأديان إلا وهو مغلوب ومقهور بدين الإسلام ﴿ولو كره المشركون﴾، قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم﴾ نزلت هذه الآية

القوم الفاسقين﴾، قال الزجاج: يعني لا يهدي من سبق في علمه أنه فاسق.

﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾، والألف فيه للمبالغة في الحمد، وله وجهان أحدهما أنه مبالغة من الفاعل أي الأنبياء كلهم حمادون لله عز وجل وهو أكثر حمد الله من غير والثاني أنه مبالغة من المفعول أي الأنبياء كلهم محمودون لما فيهم من الخصال الحميدة وهو أكثر مناقب وأجمع للفضائل والمحاسن التي يحمد بها ﴿فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين﴾.

﴿ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون.

﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم﴾، قرأ ابن عامر تنجيكم بالتشديد والآخرين بالتخفيف،

﴿من عذاب أليم﴾، نزل هذا حين قالوا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله عز وجل لعملناه، وجعل ذلك بمنزلة

حين قالوا لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله عز وجل لعملناه وإنما سماه تجارة لأنهم يربحون فيه رضا الله عز وجل ونيل جنته والنجاة من النار ثم بين تلك التجارة فقال تعالى: ﴿تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلك خير لكم﴾ أي الذي أمركم به من الإيمان والجهاد في سبيله ﴿إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم﴾ هذا جواب قوله تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون لأن معناه معنى الأمر والمعنى آمنوا بالله وجاهدوا في سبيل الله أي إذا فعلتم ذلك يغفر لكم ذنوبكم ﴿ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم﴾ يعني هذا الجزاء الذي ذكر هو الفوز العظيم، ﴿وأخرى تحبونها﴾ أي ولكم تجارة أخرى وقيل لكم خصلة أخرى تحبونها في العاجل مع ثواب الآخرة وتلك الخصلة ﴿نصر من الله وفتح قريب﴾، قيل هو النصر على قريش وفتح مكة وقيل فتح مدائن فارس والروم ﴿وبشر المؤمنين﴾ أي يا محمد بالنصر في الدنيا والجنة في الآخرة ثم حضهم على نصر الدين وجهاد المخالفين فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله﴾ أي مع الله والمعنى انصروا دين الله كما نصر الحواريون دين الله لما قال لهم عيسى من أنصاري إلى الله ﴿قال الحواريون نحن أنصار الله﴾ وكانوا اثني عشر رجلاً أول من آمن بعيسى عليه الصلاة والسلام وحواري الرجل صفيه وخلاصته ومنه قوله ﷺ «حواري» الزبير ﴿فأمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة﴾ قال ابن عباس في زمن عيسى عليه الصلاة والسلام وذلك أنه لما رفع تفرق قومه ثلاث فرق فرقة قالوا كان الله فارتفع وفرقة قالوا كان ابن الله فرفعه وفرقة قالوا كان عبد الله ورسوله فرفعه وهم المؤمنون واتباع كل فرقة منهم طائفة من الناس فاقتتلوا فظهرت الفرقتان الكافرتان على المؤمنين حتى بعث الله محمداً ﷺ فظهرت الفرقة المؤمنة على الكافرة فذلك قوله تعالى: ﴿فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾ أي غالبين وقيل معناه فأصبحت حجة من آمن بعيسى ظاهرة بتصديق محمد ﷺ أن عيسى روح الله وكلمته والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

التجارة لأنهم يربحون فيها رضا الله ونيل جنته والنجاة من النار ثم بين تلك التجارة فقال:

﴿تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم.

﴿وأخرى تحبونها﴾، ولكم خصلة أخرى تحبونها في العاجل مع ثواب الآخرة وتلك الخصلة، ﴿نصر من الله وفتح قريب﴾، قال الكلبي: هو النصر على قريش، وفتح مكة. وقال عطاء: يريد فتح فارس والروم. ﴿وبشر المؤمنين﴾، يا محمد بالنصر في الدنيا والجنة في الآخرة ثم حضهم على نصره الدين وجهاد المخالفين.

فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله﴾، قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو (أنصاراً) بالتنوين (الله) بلام الإضافة، وقرأ الآخرون ﴿أنصار الله﴾ بالإضافة كقوله: ﴿نحن أنصار الله﴾، ﴿كما قال عيسى ابن مريم للحواريين﴾، أي انصروا دين الله مثل نصره الحواريين لما قال لهم عيسى عليه السلام: ﴿من أنصاري إلى الله﴾، أي من ينصرني مع الله، ﴿قال الحواريون نحن أنصار الله فأمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة﴾، قال ابن عباس: يعني في زمن عيسى عليه السلام، وذلك أنه لما رفع تفرق قومه ثلاث فرق: فرقة قالوا كان الله فارتفع، وفرقة قالوا كان ابن الله فرفعه الله إليه، وفرقة قالوا كان عبد الله ورسوله فرفعه إليه وهم المؤمنون، واتباع كل فرقة منهم طائفة من الناس، فاقتتلوا فظهرت الفرقتان الكافرتان على المؤمنين حتى بعث الله محمداً ﷺ فظهرت المؤمنة على الكافرة، فذلك قوله تعالى: ﴿فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾، غالبين عالين، وروى مغيرة عن إبراهيم قال فأصبحت حجة من آمن بعيسى ظاهرة بتصديق محمد ﷺ أن عيسى كلمة الله وروحه.

سورة الجمعة

(مدنية وهي إحدى عشرة آية ومائة وثلاثون كلمة وسبعمائة وعشرون حرفاً)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾

قوله عز وجل: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ﴾ يعني العرب وكانت العرب أمة أمية لا تكتب ولا تقرأ حتى بعث فيهم نبي الله وقيل الأمي هو الذي على ما خلق عليه كأنه منسوب إلى أمه ﴿رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ يعني محمد ﷺ يعلمون نسبه وهو من جنسهم وقيل أمياً مثلهم وإنما كان أمياً لأن نعته في كتب الأنبياء النبي الأمي وكونه بهذه الصفة أبعد من توهم الاستعانة بالكتابة على ما أتى به من الوحي والحكمة ولتكون حاله مشاكلة لحال أمته الذين بعث فيهم وذلك أقرب إلى صدقه ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ أي التي يبين رسالته وقيل آياته التي يتميز بها الحلال من الحرام والحق من الباطل ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي يظهرهم من دنس الشرك

سُورَةُ الْجُمُعَةِ

مدنية وهي إحدى عشرة آية.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ﴾، يعني العرب كانت أمة أمية لا تكتب ولا تقرأ ﴿رَسُولًا مِنْهُمْ﴾، يعني محمداً ﷺ نسبه نسبهم، ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، أي ما كانوا قبل بعثة الرسول إلا في ضلال مبين يعبدون الأوثان.

﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ﴾، وفي آخرين وجهان من الإعراب أحدهما الخفض على الرد إلى الأميين مجازه وفي آخرين والثاني النصب على الرد إلى الهاء والميم في قوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾ أي ويعلم آخرين منهم، أي المؤمنين الذين يدينون بدينهم، لأنهم إذا أسلموا صاروا منهم، فإن المسلمين كلهم أمة واحدة، واختلف العلماء فيهم فقال قوم: هم العجم، وهو قول ابن عمر وسعيد بن جبير ورواية ليث عن مجاهد، والدليل عليه ما أخبرنا أبو جعفر محمد بن عبد الله بن محمد المعلم الطوسي بها ثنا أبو الحسن محمد بن يعقوب أنا أبو النصر محمد بن محمد بن يوسف ثنا الحسين بن سفيان وعلي بن طيفور وأبو العباس الثقفي قالوا حدثنا قتيبة ثنا عبد العزيز عن ثور عن أبي الغيث عن أبي هريرة قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نزلت عليه سورة الجمعة، فلما قرأ: ﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

﴿ويعلمهم الكتاب﴾ أي القرآن وقيل الفرائض ﴿والحكمة﴾ قيل هي السنة ﴿وإن كانوا من قبل﴾ أي من قبل إرسال محمد ﷺ ﴿لفي ضلال مبين وآخرين منهم﴾ أي من المؤمنين الذين ظهروا يدينون بدينهم لأنهم إذا أسلموا صاروا منهم فإن المسلمين كلهم أمة واحدة، وقيل أراد بالآخرين العجم وهو قول ابن عمر وسعيد بن جبير ورواية عن مجاهد يدل عليه ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال «كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نزلت سورة الجمعة فتلاها فلما بلغ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم قال له رجل يا رسول الله من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا فلم يكلمه حتى سأله ثلاثاً قال وسلمان الفارسي فينا فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان وقال والذي نفسي بيده لو كان الإيمان بالثريا لتناوله رجال من هؤلاء» أخرجاه في الصحيحين، وقيل هم جميع من دخل في الإسلام بعد النبي ﷺ إلى يوم القيامة ﴿لما يلحقوا بهم﴾ لم يدركوهم ولكنهم جاؤوا بعدهم وقيل لم يلحقوا بهم في الفضل والسابقة لأن التابعين لا يدركون شأراً الصحابة ﴿وهو العزيز﴾ أي الغالب الذي قهر الجبابرة ﴿الحكيم﴾ أي الذي جعل كل مخلوق يشهد بوحدايته.

ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾ يعني الإسلام وقيل النبوة خص بها محمد ﷺ ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ أي على خلقه حيث أرسل فيهم رسوله محمد ﷺ.

قوله تعالى: ﴿مثل الذين حملوا التوراة﴾ يعني اليهود حيث كلفوا القيامة بها والعمل بما فيها وليس هو من الحمل على الظهر وإنما هو من الحمال والحميل والكفيل ﴿ثم لم يحملوها﴾ أي لم يعملوا بما فيها ولم يؤدوا حقها، ﴿كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾ جمع سفر الكتب العظام من العلم سمى سفراً لأنه سفر عما فيه من المعنى وهذا مثل ضربه الله تعالى لليهود الذين أعرضوا عن العمل بالتوراة والإيمان بمحمد ﷺ شبهوا إذا لم يتفعلوا بما في التوراة الدال

يلحقوا بهم﴾ قال رجل: من هؤلاء يا رسول الله فلم يراجعه النبي ﷺ حتى سأله مرتين أو ثلاثاً، قال: وفينا سلمان الفارسي؟ قال: فوضع النبي ﷺ يده على سلمان، ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء»، أخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الطاهري أنا جدي عبد الصمد بن عبد الرحمن البزار أنا محمد بن زكريا العذافري أنا إسحاق الدبري ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن جعفر الجري عن يزيد بن الأصم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كان الدين عند الثريا لذهب إليه رجل أو قال رجال من أبناء فارس حتى يتناولوه»، وقال عكرمة ومقاتل: هم التابعون. وقال ابن زيد: هم جميع من دخل في الإسلام بعد النبي ﷺ. وهي رواية ابن أبي نجيح عن مجاهد. قوله: ﴿لما يلحقوا بهم﴾ أي لم يدركوهم ولكنهم يكونون بعدهم. وقيل لما يلحقوا بهم أي في الفضل والسابقة لأن التابعين لا يدركون شيئاً والصحابة. ﴿وهو العزيز الحكيم﴾.

﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾، يعني الإسلام والهداية. ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾.

قوله عز وجل: ﴿مثل الذين حُمِّلُوا التَّوْرَةَ﴾، أي كُلفوا القيام بها والعمل بما فيها، ﴿ثم لم يحملوها﴾، لم يعملوا بما فيها ولم يؤدوا حقها، ﴿كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾، أي كتباً من العلم واحداً سفر، قال الفراء:

على الإيمان بمحمد ﷺ بالحمار الذي يحمل الكتب ولا يدري ما فيها ولا ينتفع بها كذلك اليهود الذين يقرؤون التوراة ولا ينتفعوا بها لأنهم خالفوا ما فيها وهذا المثل يلحق من لم يفهم معاني القرآن ولم يعمل بما فيه وأعرض عنه إعراض من لا يحتاج إليه ولهذا قال ميمون بن مهران يا أهل القرآن اتبعوا القرآن قبل أن يتبعكم ثم تلا هذه الآية ثم ذم هذا المثل والمراد منهم ذمهم فقال تعالى: ﴿بَشِّرْ مَثَلِ الْقَوْمِ﴾ يعني بش مَثَلًا مثل القوم ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني محمداً ﷺ وما أتى من آيات القرآن وقيل المراد من الآيات آيات التوراة لأنهم كذبوا بها حين تركوا الإيمان بمحمد ﷺ ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا يهدي من سبق في علمه أن يكون ظالماً وقيل يعني الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب آيات الله وأنبيائه ﴿قُلْ﴾ أي قل يا محمد ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ أي من دون محمد ﷺ وأصحابه ﴿فَتَمْنُوا الْمَوْتَ﴾ ادعوا على أنفسكم ﴿بِالْمَوْتِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعني فيما زعمتم أنكم أبناء الله وأحباؤه فإن الموت هو الذي يوصلكم إليه لأن الآخرة خير لأولياء الله من الدنيا ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَ أَبَدًا بِمَا قَدِمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي بسبب ما قدموا من الكفر والتكذيب ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ قُلْ إِنْ الْمَوْتُ الَّذِي تُفَرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ أي لا ينتفعكم الفرار منه ﴿ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيه وعيد وتهديد.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ

إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ﴾ أي لوقت الصلاة ﴿مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ أي في يوم الجمعة وأراد بهذا النداء الإذن عند قعود الإمام على المنبر للخطبة لأنه لم يكن في عهد رسول الله ﷺ نداء سواه «كان إذا جلس ﷺ على المنبر أذن بلال» (خ) عن السائب بن يزيد قال «كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر فلما كان عثمان وكثر الناس زاد النداء الثاني على الزوراء» زاد في رواية «فتبث الأمر على ذلك»، ولأبي داود قال «كان يؤذن بين يدي النبي ﷺ إذا جلس على المنبر يوم الجمعة على باب المسجد وذكر نحوه» الزوراء موضع عند سوق المدينة قريب من المسجد وقيل كان مرتفعاً كالمنارة.

هي الكتب العظام يعني كما أن الحمار يحملها ولا يدري ما فيها ولا ينتفع بها، كذلك اليهود يقرؤون التوراة ولا ينتفعون بها لأنهم خالفوا ما فيها، ﴿بَشِّرْ مَثَلِ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب الأنبياء يعني من سبق في علمه أنه لا يهديهم.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾، محمد ﷺ وأصحابه، ﴿فَتَمْنُوا الْمَوْتَ﴾، فدعوا بالموت على أنفسكم، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، أنكم أبناء الله وأحباؤه فإن الموت هو الذي يوصلكم إليه.

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَ أَبَدًا بِمَا قَدِمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ * قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تَرُدُّونَ إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩﴾.

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾، أي في يوم الجمعة كقوله: ﴿أُرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٠] أي في الأرض، وأراد بهذا النداء الأذان عند قعود الإمام على المنبر للخطبة، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا آدم ثنا ابن أبي ذئب عن الزهري عن السائب بن يزيد قال: كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد النبي ﷺ وأبي بكر وعمر، فلما كان عثمان وكثر الناس زاد النداء الثاني على الزوراء، قرأ الأعمش:

واختلفوا في تسمية هذا اليوم جمعة فقيل لأن الله تعالى جمع فيه خلق آدم وقيل لأن الله تعالى فرغ من خلق الأشياء فيه فاجتمعت فيه المخلوقات وقيل لاجتماع الجماعات فيه للصلاة وقيل أول من سمى هذا اليوم جمعة كعب بن لؤي قال أبو سلمة أول من قال أما بعد كعب بن لؤي وكان أول من سمى الجمعة جمعة وكان يقال لها يوم العروبة، عن ابن سيرين قال جمع أهل المدينة قبل أن يقدم النبي ﷺ المدينة وقبل أن تنزل الجمعة وهم الذين سموها الجمعة وقالوا لليهود يوم يجتمعون فيه كل سبعة أيام وللنصارى يوم فهلهم فلنجعل يوماً نجتمع فيه فنذكر اسم الله تعالى ونصلي فقالوا يوم السبت لليهود ويوم الأحد للنصارى فاجعلوه يوم العروبة ثم أنزل الله تعالى في ذلك اليوم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ﴾ الآية عن كعب بن مالك أنه كان إذا سمع النداء يوم الجمعة ترحم لأسعد بن زرارة فقال له ابنه عبد الرحمن يا أبت إذا سمعت النداء ترحمت لأسعد بن زرارة قال لأنه أول من جمع بنا في هزم النبى من حرة بني بياضة في نقيع يقال له نقيع الخضعات قلت له كم كنتم يومئذ؟ قال أربعون» أخرجه أبو داود وأما أول جمعة جمعها رسول الله ﷺ فذكر أصحاب السير أن النبي ﷺ لما دخل المدينة مهاجراً نزل قباء على بني عمرو بن عوف وذلك يوم الاثنين لثنتي عشرة خلت من ربيع الأول حين امتد الضحى فأقام بقباء يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء ويوم الخميس وأسس مسجدهم ثم خرج من بين أظهرهم يوم الجمعة عامداً إلى المدينة فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن واديهم وقد اتخذوا في ذلك الموضع مسجداً فجمع فيه رسول الله ﷺ وخطب.

وقوله تعالى: ﴿فَاسْعُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي فامضوا إليه واعملوا له وليس المراد من السعي الإسراع في المشي

﴿من يوم الجمعة﴾ بسكون الميم، وقرأ العامة بضمها، واختلفوا في تسمية هذا اليوم جمعة، منهم من قال: لأن الله تعالى جمع فيه خلق آدم عليه السلام. وقيل: لأن الله تعالى فرغ من خلق جميع الأشياء فاجتمعت فيه المخلوقات. وقيل: لاجتماع الجماعات فيها. وقيل: لاجتماع الناس فيها للصلاة. وقيل: أول من سمّاها جمعة كعب بن لؤي قال أبو سلمة: أول من قال أما بعد كعب بن لؤي، وكان أول من سمى الجمعة جمعة، وكان يقال له يوم العروبة. وعن ابن سيرين قال: جمع أهل المدينة قبل أن يقدم النبي ﷺ المدينة. وقيل: إن ينزل يوم الجمعة وهم الذين سمّوها الجمعة. وقالوا لليهود يوم يجتمعون فيه كل سبعة أيام، وللنصارى يوم، فهلهم فلنجعل يوماً نجتمع فيه، فنذكر الله ونصلي فيه، فقالوا: يوم السبت لليهود، ويوم الأحد للنصارى، فاجعلوه يوم العروبة، فاجتمعوا إلى أسعد بن زرارة فصلّى بهم ركعتين وذكرهم فسّموه يوم الجمعة، ثم أنزل الله عزّ وجلّ في ذلك بعد. ورؤي عن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه عن كعب أنه كان إذا سمع النداء يوم الجمعة ترحم لأسعد بن زرارة، فقلت له: إذا سمعت النداء ترحمت لأسعد بن زرارة؟ قال: لأنه أول من جمع بنا في هزم النبى من حرة بني بياضة في نقيع يقال له نقيع الخضعات، قلت له: كم كنتم يومئذ؟ قال: أربعون، وأما أول جمعة جمعها رسول الله ﷺ بأصحابه فذكر أهل السير أن النبي ﷺ لما قدّم المدينة مهاجراً نزل قباء على بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين لثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول حين امتد الضحى، فأقام بقباء يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء ويوم الخميس، وأسس مسجدهم، ثم خرج من بين أظهرهم يوم الجمعة عامداً إلى المدينة فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن وادٍ لهم، وقد اتخذوا في ذلك الموضع مسجداً فجمع هناك وخطب، قوله تعالى: ﴿فَاسْعُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾، أي فامضوا إليه واعملوا له، وليس المراد من السعي الإسراع إنما المراد منه العمل والفعل، كما قال: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وقال: ﴿إِنْ سَعَيْكُمْ لَشَتَى﴾ [الليل: ٤]، وكان عمر بن الخطاب يقرأ: فامضوا إلى ذكر الله، وكذلك هي في قراءة عبد الله بن مسعود. وقال الحسن: أما والله ما هو بالسعي على الأقدام ولقد نهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار، ولكن بالقلوب والنية والخشوع.

وإنما المراد منه العمل وكان عمر بن الخطاب يقرأ فامضوا إلى ذكر الله وقال الحسن أما والله ما هو بالسعي على الاقدام ولقد نهوا أن يأتوا إلى الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار ولكن بالقلوب والنية والخشوع.

وعن قتادة في هذه الآية فاسعوا إلى ذكر الله قال السعي أن تسعى بقلبك وعملك وهو المشي إليها وكان يتأول قوله: ﴿فلما بلغ معه السعي﴾ بقوله فلما مشى معه (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم السكينة والوقار ولا تسرعوا فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا» وفي رواية «إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون وأتوها تمشون وعليكم السكينة» وذكره زاد مسلم «فإن أحدكم إذا كان يعمد إلى الصلاة فهو في الصلاة» والمراد بقوله فاسعوا إلى ذكر الله الصلاة وقال سعيد بن المسيب هو موعظة الإمام ﴿وذروا البيع﴾ يعني البيع والشراء لأن البيع اسم يتناولهما جميعاً وهو من لوازمه وإنما يحرم البيع والشراء عند الأذان الثاني وقال الزهري عند خروج الإمام وقال الضحاك إذا زالت الشمس حرم البيع والشراء ﴿ذلكم﴾ أي الذي ذكرت من حضور الجمعة وترك البيع والشراء ﴿خير لكم﴾ أي من المبايعة في ذلك الوقت ﴿إن كنتم تعلمون﴾ أي من مصالح أنفسكم والله تعالى أعلم.

(فصل: في فضل الجمعة وأحكامها وإثم تاركها)

وفيه مسائل:

(المسألة الأولى): في فضلها (م) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج لما منها»، زاد في رواية «ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة» (ق) عنه «أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة فقال: فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو يصلي يسأل فيها شيئاً

وعن قتادة في هذه الآية: فاسعوا إلى ذكر الله، قال: فالسعي أن تسعى بقلبك وعملك وهو المشي إليها، وكان يتأول قوله: ﴿فلما بلغ معه السعي﴾ [الصفّات: ١٠٢] يقول فلما مشى معه. أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا محمد بن محمد بن معقل الميداني ثنا محمد بن يحيى ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن الزهري عن ابن المسيب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون، ولكن اتوها تمشون وعليكم السكينة والوقار، فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموها»، قوله: ﴿إلى ذكر الله﴾ أي الصلاة، وقال سعيد بن المسيب: ﴿فاسعوا إلى ذكر الله﴾ قال هو موعظة الإمام، ﴿وذروا البيع﴾، يعني البيع والشراء لأن اسم البيع يتناولهما جميعاً. وإنما يحرم البيع والشراء عند الأذان الثاني، وقال الزهري عند خروج الإمام. وقال الضحاك: إذا زالت الشمس حرم البيع والشراء، ﴿ذلكم﴾، الذي ذكرت من حضور الجمعة وترك البيع، ﴿خير لكم﴾، من المبايعة، ﴿إن كنتم تعلمون﴾، مصالح أنفسكم، واعلم أن صلاة الجمعة من فروض الأعيان فتجب على كل من جمع العقل والبلوغ والحرية والذكورة والإقامة إذا لم يكن له عذر فمَن تركها استحق الوعيد أما الصبي والمجنون فلا جمعة عليهما، لأنهما ليسا من أهل أن يلزمهما فرض الأبدان لنقصان أبدانهما، ولا جمعة على النساء بالاتفاق، أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا إبراهيم بن محمد حدثني سلمة بن عبد الله الخطمي عن محمد بن كعب أنه سمع رجلاً من بني وائل يقول: قال النبي ﷺ: «تجب ترك الجمعة على كل مسلم إلا امرأة أو صبيّاً أو مملوكاً» وذهب أكثرهم إلى أنه لا جمعة على العبيد. وقال الحسن وقاتدة والأوزاعي: تجب على العبد المخارج ولا على المسافر عند الأكثرين. وقال النخعي والزهري: تجب على المسافر إذا سمع النداء،

إلا أعطاه إياه وأشار بيده يقللها» (ق) عنه أن رسول الله ﷺ قال «من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة فإذا أحرم الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر»، وفي رواية «إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المساجد ملائكة يكتبون الأول فالأول فإذا جلس الإمام طووا الصحف وجاؤوا يستمعون الذكر» قوله من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة معناه غسل كغسل الجنابة (م) عنه أن رسول الله ﷺ قال «من توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى الجمعة واستمع وأنصت غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام ومن مس الحصى فقد لغا» قوله ومن مس الحصى فقد لغا معناه أنه يشغله عن سماع الخطبة كما يشغله الكلام فجعله كاللغو (خ) عن عبادة قال أدركني أبو عيسى وأنا ذاهب إلى الجمعة فقال سمعت النبي ﷺ يقول «من اغبرت قدماء في سبيل الله حرمه الله على النار» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال خرجت إلى الطور فرأيت كعب الأحبار فجلست معه فحدثني عن التوراة وحدثته عن رسول الله ﷺ وكان فيما حدثته أن قلت له قال رسول الله ﷺ «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أهبط وفيه مات وفيه تيب عليه وفيه تقوم الساعة وما دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة من حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقاً من الساعة إلا الجن والإنس وفيها ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو يصلي يسأل الله تعالى شيئاً إلا أعطاه إياه» قال كعب ذاك في كل سنة يوماً فقلت بل في كل جمعة فقرأ كعب التوراة فقال صدق رسول الله ﷺ قال أبو هريرة ثم لقيت عبد الله بن سلام فحدثته بمجلسي مع كعب الأحبار وما حدثته في يوم الجمعة فقال عبد الله بن سلام قد علمت أي ساعة هي قال أبو هريرة فقلت أخبرني بها ولا تكن عني، وفي رواية تضمن عليّ قال هي آخر ساعة في يوم الجمعة قال أبو هريرة قلت وكيف تقول آخر ساعة في يوم الجمعة وقد قال رسول الله ﷺ لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي وتلك الساعة لا يصلي

وكل من له عذر من مرض أو تعهد مريض أو خوف، جاز له ترك الجمعة، وكذلك له تركها بعذر المطر والوحل، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل أخبرنا عبد المجيد صاحب الزيايدي ثنا عبد الله بن الحارث بن عمر ثنا محمد بن سيرين قال ابن عباس لمؤذنه في يوم مطير: إذا قلت أشهد أن محمداً رسول الله فلا تقل حيّ على الصلاة قل صلّوا في بيوتكم، فكأن الناس استنكروا، فقال فعله من هو خير مني إن الجمعة عزيمة وإني كرهت أن أخرجكم من بيوتكم فتمشون في الطين والدحض، وكل من لا يجب عليه حضور الجمعة، فإذا حضر وصلى مع الإمام الجمعة سقط عنه فرض الظهر، ولكن لا يكمل به عدد الجمعة إلا صاحب العذر، فإنه إذا حضر يكمل به العدد، أخبرنا الإمام أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد الداودي أنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسي في سنة إحدى وثمانين وثلثمائة أنا عيسى بن عمر بن العباس السمرقندي ثنا أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي السمرقندي أنا يحيى بن حسان ثنا معاوية بن سلام أخبرني زيد بن سلام أنه سمع أبا سلام يقول حدثني الحكم بن مينا أن ابن عمر حدثه وأبا هريرة أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول وهو على أعواد منبره: «ليتنهين أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين». أخبرنا أبو عثمان الضبيّ أنا أبو محمد الخزاعي ثنا أبو العباس المحجوبي ثنا أبو عيسى الترمذي ثنا علي بن خشرم أنا عيسى بن يونس عن محمد بن عمرو عن عبيدة بن سفيان عن أبي الجعد يعني الضميري قال: قال رسول الله ﷺ؛ «من ترك الجمعة ثلاثة مرات تهاوناً بها طبع الله على قلبه»، واختلف أهل العلم في موضع إقامة الجمعة وفي العدد الذي تتعقد به الجمعة، وفي المسافة التي يجب أن يؤتى منها، أما الموضع فذهب قوم إلى أن كل قرية اجتمع فيها أربعون رجلاً من أهل الكمال، بأن يكونوا أحراراً عاقلين بالغين مقيمين لا

تفسير الخازن والبغوي/ ج ٦/ م ١٣

فيها قال عبد الله بن سلام ألم يقل رسول الله ﷺ «من جلس مجلساً ينتظر الصلاة فهو في صلاة حتى يصليها» قال أبو هريرة فقلت بلى قال فهو ذلك أخرجه مالك في الموطأ والنسائي (خ) عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ «لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من الطهور ويدهن من دهنه ويمس من طيب بيته ثم يخرج فلم يفرق بين اثنين ثم يصلي ما كتب له ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة» الأخرى عن أوس بن أوس الثقفي قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «من غسل واغتسل وبكر وابتكر ومشى ولم يركب ودنا من الإمام ولم يلبغ واستمع كان له بكل خطوة أجر عمل سنة صيامها وقيامها» أخرجه أبو داود والنسائي قال أبو داود سئل مكحول عن غسل واغتسل قال غسل رأسه وجسده.

(المسألة الثانية): في إثم تاركها (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص وأبي هريرة أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول على منبره «لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين» عن أبي الجعد الضمري وكان له صحبة أن رسول الله ﷺ قال من «ترك ثلاث جمع تهاوناً طبع الله على قلبه» أخرجه أبو داود والنسائي وللترمذي نحوه (م) عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال لقوم يتخلفون عن الجمعة «هممت أن أمر رجلاً يصلي بالناس ثم أحرق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم».

(المسألة الثالثة): في تأكيد وجوبها قال العلماء صلاة الجمعة هي من فروض الأعيان فتجب على كل مسلم حر بالغ عاقل ذكر مقيم إذا لم يكن له عذر في تركها ومن تركها من غير عذر استحق الوعيد أما الصبي والمجنون فلا جمعة عليهما لأنهما ليسا من أهل الفرض ولا جمعة على النساء بالاتفاق يدل عليه ما روي عن طارق بن شهاب أن رسول

يظعنون عنها شتاءً ولا صيفاً، إلا ظعن حاجة، تجب عليهم إقامة الجمعة فيها، وهو قول عبيد الله بن عبد الله وعمر بن عبد العزيز، وبه قال الشافعي وأحمد وإسحاق، وقالوا: لا تنعقد الجمعة بأقل من أربعين رجلاً على هذه الصفة وشرط عمر بن عبد العزيز مع عدد الأربعين أن يكون فيهم وال، والوالي غير شرط عند الشافعي، وقال علي لا جمعة إلا في مضر جامع وهو قول أصحاب الرأي، ثم عند أبي حنيفة رضي الله عنه تنعقد بأربعة والوالي شرط، وقال الأوزاعي وأبو يوسف: تنعقد بثلاثة إذا كان فيهم وال. وقال الحسن وأبو ثور: تنعقد باثنين كسائر الصلوات. وقال ربيعة: تنعقد باثني عشر رجلاً، والدليل على جواز إقامتها في القرى ما أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن المشني أنا أبو عامر العقدي ثنا إبراهيم بن طهمان عن أبي جمرة الضبعي عن ابن عباس قال: إن أول جمعة جمعت بعد جمعة في مسجد رسول الله ﷺ في مسجد عبد القيس بحدواتي من البحرين، وإذا كان الرجل مقيماً في قرية لا تقام فيها الجمعة، أو كان مقيماً في قرية، فذهب قوم إلى أنه إن كان يبلغهم النداء في موضع الجمعة بلزمهم حضور الجمعة، وإن كان لا يبلغهم النداء فلا جمعة عليهم، وهو قول الشافعي وأحمد وإسحاق، والشرط أن يبلغهم نداء مؤذن جهوري الصوت مؤذن في وقت تكون الأصوات فيه هادئة والرياح ساكنة، فكل قرية تكون من موضع الجمعة في القرب على هذا القدر يجب على أهلها حضور الجمعة. وقال سعيد بن المسيب: تجب على كل من آواه المبيت. وقال الزهري: تجب على من كان على ستة أميال. وقال ربيعة: على أربعة أميال. وقال مالك والليث: على ثلاثة أميال. وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: لا جمعة على أهل السواد قريبة كانت القرية أو بعيدة. وكل من تلزمه صلاة الجمعة لا يجوز له أن يسافر يوم الجمعة بعد الزوال قبل أن يصلي الجمعة، وجوز أصحاب الرأي أن يسافر بعد الزوال إذا كان يفارق البلد قبل خروج الوقت، أما إذا سافر قبل الزوال قبل طلوع الفجر فيجوز، غير أنه يكره إلا أن يكون سفره سفر طاعة من حج أو غزو، وذهب بعضهم إلى أنه إذا أصبح يوم الجمعة مقيماً فلا يسافر حتى يصلي الجمعة، والدليل على

الله ﷺ قال «الجمعة حق واجب على كل مسلم في جماعة إلا على أربعة عبد مملوك أو امرأة أو صبي أو مريض»، أخرجه أبو داود وقال طارق «رأى النبي ﷺ وبعضاً من أصحاب النبي ﷺ ولم يسمع منه شيئاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال «الجمعة على من سمع النداء» أخرجه أبو داود وقال رواه جماعة ولم يرفعه وإنما أسنده قبضة عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال «الجمعة على من آواه الليل إلى أهله»، أخرجه الترمذي ولا تجب الجمعة على العبيد وقال الحسن وقتادة والأوزاعي تجب على العبد المكاتب وعن أحمد في العبيد روايتان وتجب الجمعة على أهل القرى والبوادي إذا سمعوا النداء من موضع تقام فيه الجمعة يلزمهم الحضور وإن لم يسمعوا فلا جمعة عليهم وبه قال الشافعي وأحمد وإسحاق والشرط أن يبلغهم نداء مؤذن جهوري الصوت يؤذن في وقت تكون الأصوات فيه هادئة والرياح ساكنة فكل قرية تكون من موضع الجمعة في القرب على هذا القدر يجب على أهلها حضور الجمعة وقال سعيد بن المسيب تجب الجمعة على من آواه المبيت وقال الزهري تجب على كل من كان على ستة أميال وقال ربيعة على أربعة أميال، وقال مالك والليث على ثلاثة أميال وقال أبو حنيفة لا جمعة على أهل السواد سواء كانت القرية قريبة أو بعيدة دليل الشافعي ومن وافقه ما روي البخاري عن ابن عباس قال «إن أول جمعة جمعت بعد جمعة في مسجد رسول الله ﷺ في مسجد عبد القيس بجوآثي من البحرين» ولأبي داود نحوه فيه بجوآثي قرية من قرى البحرين.

(المسألة الرابعة): في تركها لعذر كل من له عذر من مرض أو تعهد مريض أو خوف جاز له ترك الجمعة وكذا له تركها بعذر المطر والوحل يدل على ذلك ما روي عن ابن عباس «أنه خطب في يوم ذي ردغ فأمر المؤذن فلما بلغ حي

جوازه ما أخبرنا أبو عثمان الضبي أنا أبو محمد الجراحي أنا أبو العباس المحبوبي أنا أبو عيسى ثنا أحمد بن منيع ثنا معاوية عن الحجاج عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس قال: بعث النبي ﷺ عبد الله بن رواحة في سرية فوافق ذلك في يوم الجمعة فغدا أصحابه وقال أتخلف فأصلي مع رسول الله ﷺ ثم ألحقهم، فلما صلى مع النبي ﷺ رآه فقال: «ما منعك أن تغدوا مع أصحابك؟» قال: أردت أن أصلي معك ثم ألحقهم، فقال: «لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما أدركت فضل غدوتهم». وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع رجلاً عليه هيئة السفر يقول لولا أن اليوم يوم الجمعة لخرجت، فقال عمر: اخرج فإن الجمعة لا تحبس أحداً عن سفر. وقد ورد أخبار في سنن يوم الجمعة وفضله منها ما أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي أنا زاهر بن أحمد الفقيه أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن يزيد بن عبد الله بن الهاد عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة أنه قال: خرجت إلى الطور فلقيت كعب الأحمار فجلست معه فحدثني عن التوراة وحدثته عن رسول الله ﷺ، فكان فيما حدثته أن قلت: قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم، وفيه أهبط وفيه تيب عليه، وفيه مات وفيه تقوم الساعة، وما من دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة من حين تصبح حين تطلع الشمس شفقا من الساعة إلا الجن والإنس، وفيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه»، قال كعب: ذلك في كل سنة يوم، فقلت: بل في كل جمعة، قال: فقرأ كعب التوراة قال: فصدق رسول الله ﷺ. قال أبو هريرة: ثم لقيت عبد الله بن سلام فحدثته بمجلسي مع كعب الأحمار وما حدثته في يوم الجمعة، قال عبد الله بن سلام: قد علمت آية ساعة هي آخر ساعة في يوم الجمعة، قال أبو هريرة: وكيف تكون آخر ساعة في يوم الجمعة؟ وقد قال رسول الله ﷺ: «لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي فيها» وتلك ساعة لا يصلي فيها؟ فقال عبد الله بن سلام: ألم يقل رسول الله ﷺ: «مَنْ جلس مجلساً تنتظر الصلاة فهو في صلاة حتى يصلّيها؟» قال أبو هريرة: بلى، قال: فهو ذاك. أخبرنا أبو الحسن

على الصلاة قال قل الصلاة في الرحال فنظر بعضهم إلى بعض كأنهم أنكروا ذلك فقال كأنكم أنكرتم هذا إن هذا فعله من هو خير مني يعني النبي ﷺ وإنها عزمة وإني كرهت أن أخرجكم» زاد في رواية «فتمشون في الطين والدحض والزلق»، أخرجه البخاري ومسلم وكل من لا تجب عليه الجمعة فإذا حضر وصلى مع الإمام الجمعة سقط عنه فرض الظهر ولكن لا يكمل به عدد الذين تنعقد بهم الجمعة إلا صاحب العذر فإنه إذا حضر كمل به العدد.

(المسألة الخامسة): في العدد الذي تنعقد به الجمعة اختلف أهل العلم في العدد الذي تنعقد به الجمعة فقليل لا تنعقد بأقل من أربعين رجلاً وهو قول عبيد الله بن عبد الله وعمر بن عبد العزيز وبه قال الشافعي وأحمد وإسحاق قالوا لا تنعقد الجمعة بأقل من أربعين رجلاً من أهل الكمال وذلك بأن يكونوا أحراراً بالغين عاقلين مقيمين في موضع لا يظعنون عنه شتاء ولا صيفاً إلا ظعن حاجة، وشرط عمر بن عبد العزيز أن يكون فيهم وال والوالي غير شرط عند الشافعي وقال علي بن أبي طالب: لا جمعة إلا في مصر جامع وهو قول أصحاب الرأي ثم عند أبي حنيفة تنعقد بأربعة والوالي شرط عنده وقال الأوزاعي وأبو يوسف تنعقد بثلاثة إذا كان فيهم وال وقال الحسن تنعقد باثنين وكسائر الصلوات وقال ربيعة تنعقد باثني عشر رجلاً ولا يكمل العدد بمن لا تجب عليه الجمعة كالعبد والمرأة والمسافر والصبي ولا تنعقد إلا في موضع واحد من البلد وبه قال الشافعي ومالك وأبو يوسف وقال أحمد تصح بموضعين إذا كثر الناس وضاق الجامع.

(المسألة السادسة): لا يجوز أن يسافر الرجل يوم الجمعة بعد الزوال قبل أن يصلي الجمعة وجوز أصحاب الرأي أن يسافر بعد الزوال إذا كان يفارق البلد قبل خروج الوقت أما إذا سافر قبل الزوال وبعد طلوع الفجر فإنه يجوز غير أنه يكره إلا أن يكون سفره طاعة كحج أو غزو، وذهب بعضهم إلى أنه إذا أصبح يوم الجمعة مقيماً فلا يسافر حتى يصلي الجمعة يدل على جوازه ما روي عن ابن عباس قال «بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة في سرية فوافق

السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي ثنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل ثنا آدم ثنا ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري أخبرني أبي عن عبد الله بن وداعة عن سلمان الفارسي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من طهر، ويدهن من دهنه أو يمس من طيب بيته ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين ثم يصلي ما كتب له، ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلّا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان ثنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا أحمد بن خالد ثنا محمد بن إسحاق عن محمد بن إبراهيم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وعن أبي أمامة يعني ابن سهل بن حنيف حدثنا عن أبي سعيد وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ اغتسل يوم الجمعة واستنّ ومسّ من طيب إن كان عنده ولبس من أحسن ثيابه ثم خرج حتى يأتي المسجد، فلم يتخط رقاب الناس ثم ركع ما شاء الله أن يركع، وأنصت إذا خرج الإمام كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة التي كانت قبلها»، وقال أبو هريرة وزيادة ثلاثة أيام لأن الله تعالى يقول: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مِثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، أخبرنا أبو طاهر عمر بن عبد العزيز القاشاني أنا أبو القاسم بن جعفر الهاشمي أنا أبو علي بن أحمد بن عمر اللؤلؤي ثنا أبو داود سليمان بن الأشعث ثنا محمد بن حاتم الجرجاني ثنا ابن المبارك عن الأوزاعي حدثنا حسان بن عطية حدثني أبو الأشعث الصنعاني حدثني أوس بن أوس الثقفي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ غَسَلَ يوم الجمعة واغتسل وبكّر وابتكر ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام واستمع، ولم يلغ كان له بكل خطوة عمل سنة أجر صيامها وقيامها». أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا

ذلك يوم الجمعة فغدا أصحابه وقال أتخلف فأصلي مع رسول الله ﷺ ثم ألحقهم فلما صلى مع النبي ﷺ رآه فقال ما منعك أن تغدو مع أصحابك؟ قال أردت أن أصلي معك ثم أتبعهم فقال لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما أدركت فضل غدوتهم» أخرجه الترمذي وروى أن عمر رأى رجلاً عليه أهبة السفر وسمعه يقول لولا أن اليوم يوم الجمعة لخرجت فقال له عمر اخرج فإن الجمعة لا تحبس عن سفر.

وللجمعة شرائط وسنن وآداب مذكورة في كتب الفقه وفي هذا القدر كفاية والله أعلم.

فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ النَّجْرَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾

قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي إذا فرغ من صلاة الجمعة فانتشروا في الأرض للتجارة والتصرف في حوائجكم ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ يعني الرزق وهذا أمر إباحة قال ابن عباس إن شئت فاخرج وإن شئت فاقعد وإن شئت فصل إلى العصر وقيل قوله فانتشروا في الأرض ليس لطلب دنيا ولكن لعيادة مريض وحضور جنازة وزيارة أخ في الله وقيل وابتغوا من فضل الله هو طلب العلم وعن عراك بن مالك أنه كان إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد وقال اللهم أجبت دعوتك وصليت فريضتك وانتشرت كما أمرتني فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي إذا فرغتم من الصلاة ورجعتم إلى التجارة والبيع والشراء فاذكروا الله كثيراً قيل باللسان وقيل بالطاعة قيل لا تكون من الذاكرين الله كثيراً حتى تذكره قائماً وقاعداً ومضطجعاً ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ (ق) عن جابر قال «بينما نحن نصلي مع رسول الله ﷺ إذ أقبلت غير تحمل طعاماً فأنفقلوا إليها حتى ما بقي مع النبي ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً فنزلت هذه الآية وإذا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا» وفي رواية «أن النبي ﷺ كان يخطب قائماً فجاءت غير من الشام وذكر نحوه» وفيه «إلا اثنا عشر رجلاً فيهم أبو بكر وعمر» ولمسلم «كنا مع النبي ﷺ يوم الجمعة فقدمت سوقة قال فخرج الناس إليها فلم يبق إلا اثنا عشر رجلاً أنا فيهم» وذكر الحديث وهو حجة من يرى صحة الجمعة باثني عشر رجلاً.

عبد العزيز بن أحمد الخلال ثنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا سفيان عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم الجمعة وقفت على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الناس على منازلهم، الأول فالأول فإذا خرج الإمام طويت الصحف واستمعوا الخطبة والمهجر إلى الصلاة كالمهدي بدنة، ثم الذي يليه كالمهدي بقرة، ثم الذي يليه كالمهدي شاة ثم الذي يليه كالمهدي كبشا حتى ذكر الدجاجة والبيضة».

قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، أي إذا فرغ من الصلاة فانتشروا في الأرض للتجارة والتصرف في حوائجكم، ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾، يعني الرزق وهذا أمر إباحة كقوله: ﴿وَإِذَا حُلِلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢]، قال ابن عباس: إن شئت فاخرج وإن شئت فاقعد وإن شئت فصل إلى العصر، وقيل: فانتشروا في الأرض ليس لطلب الدنيا ولكن لعيادة مريض وحضور جنازة وزيارة أخ في الله. وقال الحسن وسعيد بن جبير ومكحول: ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ هو طلب العلم. ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ الآية، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا حفص بن عمر ثنا خالد بن عبد الله أنا

وأجيب عنه بأنه ليس فيه بيان أنه أقام بهم الجمعة حتى يكون الحديث حجة لاشتراط هذا العدد وقال ابن عباس في رواية عنه لم يبق في المسجد إلا ثمانية رهط قال الحسن وأبو مالك «أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر فقدم دحية بن خليفة الكلبي بتجارة زيت وطعام من الشام والنبى ﷺ يخطب فلما رأوه بالبقيع قاموا إليه خشية أن يسبقوا إليه فلم يبق مع النبى ﷺ إلا رهط فيهم أبو بكر وعمر، فنزلت هذه الآية فقال النبى ﷺ والذي نفس محمد بيده لو تتابعتم حتى لا يبقى منكم أحد لسال بكم الوادي ناراً» وقال مقاتل «بينا رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة إذ قدم دحية بن خليفة الكلبي من الشام بالتجارة وكان إذا قدم لم تبق عاتق بالمدينة إلا آتته وكان يقدم بكل ما يحتاج إليه من دقيق وبر وزيت وغيره وينزل عند أحجار الزيت وهو مكان في سوق المدينة ثم يضرب بالطبل ليؤذن الناس بقدومه فيخرج إليه الناس ليتابعوا منه فقدم ذات جمعة وذلك قبل أن يسلم ورسول الله ﷺ قائم على المنبر يخطب فخرج إليه الناس ولم يبق في المسجد إلا اثنا عشر رجلاً وامرأة فقال النبى ﷺ كم بقي في المسجد؟ فقالوا اثني عشر رجلاً وامرأة، فقال النبى ﷺ لولا هؤلاء لسومت لهم الحجارة من السماء فأنزل الله هذه الآية» وأراد باللهو الطبل وكانت العير إذا قدمت استقبلوها بالطبل والتصفيق، وقوله تعالى انفضوا أي تفرقوا وذهبوا نحوها والضمير في إليها راجع إلى التجارة لأنها أهم إليهم وتركوك قائماً اتفقوا على أن القيام كان في الخطبة للجمعة قال علقمة «سئل ابن مسعود أكان النبى ﷺ يخطب قائماً أو قاعداً؟ قال أما تقرأون وتركوك قائماً» قال العلماء الخطبة فريضة في صلاة الجمعة وقال داود الظاهري هي مستحبة ويجب أن يخطب الإمام قائماً خطبتين يفصل بينهما بجلوس وقال أبو حنيفة وأحمد لا يشترط القيام ولا القعود وتشترط الطهارة في الخطبة عند الشافعي في أحد القولين وأقل ما يقع عليه اسم الخطبة أن يحمد الله ويصلي على النبى ﷺ ويوصي بتقوى الله هذه الثلاث شروط في الخطبتين جميعاً ويجب أن يقرأ في الأولى آية من القرآن ويدعو للمؤمنين في الثانية ولو ترك واحدة من هذه الخمسة لم تصح خطبته ولا جمعته عند الشافعي وذهب أبو

حصين عن سالم بن أبي الجعد وعن أبي سفيان عن جابر بن عبد الله قال: أقبلت عير يوم الجمعة ونحن مع النبى ﷺ، فنار الناس إلا اثني عشر رجلاً فأنزل الله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ ويحتج بهذا الحديث من يرى الجمعة باثني عشر رجلاً وليس فيه بيان أنه أقام بهم الجمعة حتى يكون حجة، لاشتراط هذا العدد. وقال ابن عباس في رواية الكلبي: لم يبق في المسجد إلا ثمانية رهط. وقال الحسن وأبو مالك: أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر فقدم دحية بن خليفة بتجارة زيت من الشام والنبى ﷺ يخطب يوم الجمعة، فلما رأوه قاموا إليه بالبقيع خشوا أن يسبقوا إليه، فلم يبق مع النبى ﷺ إلا رهط منهم أبو بكر وعمر فنزلت هذه الآية، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لو تتابعتم حتى لا يبقى منكم أحد لسال بكم الوادي ناراً»، وقال مقاتل: «بينا رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة إذ قدم دحية بن خليفة الكلبي من الشام بالتجارة، وكان إذا قدم لم تبق بالمدينة عاتق إلا آتته، وكان يقدم إذا قدم بكل ما يحتاج إليه من دقيق وبر وغيره، فينزل عند أحجار الزيت وهو مكان في سوق المدينة ثم يضرب بالطبل ليؤذن الناس بقدومه فيخرج إليه الناس ليتابعوا منه، فقدم ذات جمعة وكان ذلك قبل أن يسلم ورسول الله ﷺ قائم على المنبر يخطب، فخرج إليه الناس فلم يبق في المسجد إلا اثني عشر رجلاً وامرأة، فقال النبى ﷺ: «كم بقي في المسجد؟ فقالوا: اثني عشر رجلاً وامرأة، فقال النبى ﷺ: «لولا هؤلاء لسومت لهم الحجارة من السماء»، فأنزل الله هذه الآية وأراد باللهو الطبل. وقيل: كانت العير إذا قدمت المدينة استقبلوها بالطبل والتصفيق. وقوله: ﴿انْفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ رد الكناية إلى التجارة لأنها أهم. وقال علقمة: سئل عبد الله بن عمر: أكان النبى ﷺ يخطب قائماً أو قاعداً؟ قال: أما تقرأ وتركوك قائماً. أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال ثنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا إبراهيم بن محمد أخبرني

حنيفة إلى أنه لو أتى بتسبيحة أو تحميدة أو تكبيرة أجزأه وهذا القدر لا يقع عليه اسم الخطبة وهو مأمور بالخطبة والسنة للإمام إذا صعد المنبر أن يستقبل الناس وأن يسلم عليهم خلافاً لأبي حنيفة ومالك وهل يحرم الكلام في حال الخطبة فيه خلاف بين العلماء والأصح أنه يحرم على المستمع دون الخاطب ويستحب أن يصلي تحية المسجد إذا دخل والإمام يخطب خلافاً لأبي حنيفة ومالك.

(ذكر الأحاديث الواردة الدالة على هذه الأحكام)

(ق) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال «كان النبي ﷺ يخطب خطبتين يقعد بينهما» وفي رواية أخرى «كان يخطب يوم الجمعة وهو قائم ثم يقوم فيتم كما يفعلون الآن» (م) عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال «كانت للنبي ﷺ خطبتان يجلس بينهما يقرأ القرآن ويذكر الناس» زاد في رواية «فمن حدثك أنه كان يخطب جالساً فقد كذب»، (م) عن كعب بن عجرة رضي الله عنه أنه دخل المسجد وعبد الرحمن بن الحكم يخطب جالساً فقال انظروا إلى هذا الخبيث يخطب قاعداً وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾، (م) عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال «كنت أصلي مع رسول الله ﷺ الصلاة فكانت صلاته قصداً وخطبته قصداً» زاد أبو داود ويقرأ آيات من القرآن ويذكر الناس عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «كل خطبة ليس فيها تشهد فهي كاليد الجذماء» أخرجه أبو داود والترمذي ولأبي داود عنه أن رسول الله ﷺ قال «كل كلام لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم» عن ابن مسعود رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ كان إذا تشهد قال الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا من يهدي الله فهو المهتد ومن يضل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وأرسله بالحق بشيراً ونذيراً بين يدي الساعة من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصيهما فإنه لا يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئاً» وفي رواية أن يونس سأل ابن شهاب عن تشهد رسول الله ﷺ يوم الجمعة فذكر نحوه وقال فيه «ومن يعصيهما فقد غوى ونسأل الله ربنا أن يجعلنا ممن يطيعه ويطيع رسوله ويتبع رضوانه ويجتنب سخطه إنما نحن به وله» أخرجه أبو داود (م) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال «كانت خطبة رسول الله ﷺ يوم الجمعة يحمد الله ويثني عليه بما هو أهله ثم يقول على أثر ذلك وقد علا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومساكم ويقول بعثت أنا والساعة

جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر بن عبد الله: كان النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة خطبتين قائماً يفصل بينهما بجلوس. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج ثنا أبو بكر بن أبي شيبة أنا أبو الأحوص عن سماك عن جابر بن سمرة قال: كان للنبي ﷺ خطبتان يجلس بينهما يقرأ القرآن ويذكر الناس. وبهذا الإسناد عن جابر بن سمرة قال: كنت أصلي مع النبي ﷺ، فكانت صلاته قصداً وخطبته قصداً والخطبة فريضة في صلاة الجمعة، ويجب أن يخطب قائماً خطبتين وأقل ما يقع عليه اسم الخطبة أن يحمد الله ويصلي على النبي ﷺ ويوصي بتقوى الله هذه الثلاثة فرض في الخطبتين جميعاً، ويجب أن يقرأ في الأولى آية من القرآن يدعو للمؤمنين في الثانية فلو ترك واحدة من هذه الخمس لا تصح جمعة عند الشافعي، وذهب أبو حنيفة رضي الله عنه إلى أنه لو أتى بتسبيحة أو تحميدة أو تكبيرة أجزأه وهذا القدر لا يقع عليه اسم الخطبة، وهو مأمور بالخطبة. أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا عبد الله بن يوسف بن محمد بن مأمونة أنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد البصري بمكة ثنا الحسن بن الصباح الزعفراني ثنا عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن عبد الله بن أبي رافع أن مروان استخلف أبا هريرة على المدينة، فصلّى بهم أبو هريرة الجمعة فقرأ سورة الجمعة في الركعة الأولى وفي الثانية: ﴿إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ [المنافقون: ١] فقال عبيد الله: فلما انصرف مشيت إلى جنبه فقلت له لقد قرأت بسورتين سمعت

كهايتين ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى ويقول أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة ثم يقول أنا أولى بكل مؤمن من نفسه من ترك مالا فلهله ومن ترك ديناً أو ضياعاً فالْيَّ وعليّ» عن ابن مسعود رضي الله عنه قال «كان رسول الله ﷺ إذا استوى على المنبر استقبلناه بوجوهنا أخرجه الترمذي (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة انصت والإمام يخطب فقد لغوت» عن نافع أن ابن عمر رأى رجلين يتحدثان والإمام يخطب يوم الجمعة فحصبهما أن اصمتا أخرجه مالك في الموطأ قال ابن شهاب خروج الإمام يقطع الصلاة وكلامه يقطع الكلام «فأما صفة صلاة الجمعة» فركعتان يجهر فيهما بالقراءة ولجواز الجمعة خمس شروط الوقت وهو وقت الظهر ما بين زوال الشمس إلى دخول وقت العصر والعدد والإمام والخطبة ودار الإقامة فإن فقد شرط من هذه الشروط لخمس يجب أن يصلي ظهراً ولا يجوز للإمام أن يتبدىء الخطبة قبل تمام العدد وهو أربعون عند الشافعي فلو اجتمعوا وخطب بهم ثم انفضوا قبل افتتاح الصلاة أو انفض واحد من العدد لا يجوز أن يصلي بهم الجمعة بل يصلي الظهر ولو افتتح بهم الصلاة ثم انفضوا فأصح أقوال الشافعي أن بقاء الأربعين شرط إلى آخر الصلاة كما أن بقاء الوقت شرط إلى آخر الصلاة فلو نقص واحد قبل أن يسلم الإمام يجب على الباقي أن يصلوها ظهراً، وفيه قول آخر وهو أنه إن بقي معه اثنان أتمها جمعة وقيل إن بقي معه واحد أتمها جمعة وعند المزني إن انفضوا بعد ما صلى بهم الإمام ركعة أتمها جمعة وإن بقي وحده وإن كان في الركعة الأولى يتمها أربعاً وإن انفض من العدد واحداً، وبه قال أبو حنيفة لكن في العدد الذي يشترط كالمسبوق إذا أدرك مع الإمام ركعة من الجمعة فإذا سلم الإمام أتمها جمعة وإن أدرك أقل من ركعة أتمها أربعاً (خ) عن أنس رضي الله عنه «أن النبي ﷺ كان يصلي الجمعة حين تميل الشمس» (م) عن عبيد الله بن أبي رافع قال «استخلف مروان أبا هريرة على المدينة وخرج إلى مكة فصلى بنا أبو هريرة الجمعة فقرأ بعد الحمد سورة الجمعة في الأولى وإذا جاءك المنافقون في الثانية قال فأدركت أبا هريرة حين انصرف فقلت له إنك قرأت سورتين كان علي بن أبي طالب يقرأ بهما في الكوفة فقال أبو هريرة إني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بهما يوم الجمعة»، (م) عن النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه قال «كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيدين وفي الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى وهل أتاك حديث الغاشية قال وإذا اجتمع العيد والجمعة في

علي بن أبي طالب يقرأ بهما في الصلاة، فقال سمعت النبي ﷺ يقرأ بهما. أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن ضمرة بن سعيد المازني عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن الضحاك بن قيس سأل النعمان بن بشير ماذا كان يقرأ به رسول الله ﷺ يوم الجمعة على أثر سورة الجمعة، فقال: كان يقرأ بهل أتاك حديث الغاشية. أخبرنا أبو عثمان الضبي أنا أبو محمد الجراحي ثنا أبو العباس المحبوبي ثنا أبو عيسى ثنا قتيبة ثنا أبو عوانة عن إبراهيم بن محمد بن المنتشر عن أبيه عن حبيب بن سالم عن النعمان بن بشير قال: كان النبي ﷺ يقرأ في العيدين وفي الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى، وهلى أتاك حديث الغاشية، وربما اجتمع في يوم واحد فيقرأ بهما، ولجواز الجمعة خمس شرائط: الوقت الظهر ما بين زوال الشمس إلى دخول وقت العصر، والعدد، والإمام، والخطبة، ودار الإقامة، فإذا فقد شرط من هذه الخمسة يجب أن يصلوها ظهراً، ولا يجوز للإمام أن يتبدىء الخطبة قبل اجتماع العدد، وهو عدد الأربعين عند الشافعي، فلو اجتمعوا وخطب بهم ثم انفضوا قبل افتتاح الصلاة أو انتقص واحد من العدد لا يجوز أن يصلي بهم الجمعة، بل يصلي الظهر ولو افتتح بهم الصلاة ثم انفضوا، فأصح أقوال الشافعي أن بقاء الأربعين شرط إلى آخر الصلاة، كما أن بقاء الوقت شرط إلى آخر الصلاة ولو انتقص واحد منهم قبل أن يسلم الإمام يجب على الباقي أن يصلوها أربعاً، وفيه قول آخر إن بقي معه اثنان أتمها جمعة. وقيل: إن بقي معه واحد أتمها جمعة، وعند المزني إذا انفضوا

يوم واحد يقرأ بهما في الصلاتين» عن سمرة بن جندب رضي الله عنهما «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى وهل أذاك حديث الغاشية» أخرجه أبو داود والنسائي .

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي ما عند الله من الثواب والأجر على الصلاة والثبات مع النبي ﷺ ﴿خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾ الذي جاء بهما دحية ﴿والله خير الرازقين﴾ يعني أنه تعالى موجد الأرزاق وأصلها منه فيأيه فاسألوا ومنه فاطلبوا، والله تعالى أعلم .

بعد ما صلى الإمام بهم ركعة أتمها جمعة، وإن بقي وحده فإن كان في الركعة الأولى يتمها أربعاً وإن انتقص من العدد واحد، وبه قال أبو حنيفة في العدد الذي يشترطه كالمسبوق إذا أدرك مع الإمام ركعة من الجمعة فإذا سلم الإمام أتمها جمعة فإن أدرك أقل من ركعة أتمها أربعاً. قوله عز وجل: ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾، أي ما عند الله من الثواب على الصلاة والثبات مع النبي ﷺ خير من اللهو ومن التجارة، ﴿والله خير الرازقين﴾، لأنه موجد الأرزاق فيأيه فاسألوا ومنه فاطلبوا.

سورة المنافقين

مدنية وهي إحدى عشرة آية ومائة وثمانون كلمة وتسعمائة وستة وسبعون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾

قوله عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ يعني عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه قالوا ﴿نشهد أنك لرسول الله﴾ وتم الخبر عنهم ثم ابتداء فقال تعالى: ﴿والله يعلم أنك لرسوله﴾ أي هو الذي أرسلك فهو عالم بك ﴿والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ يعني في قولهم تشهد أنك لرسول الله لأنهم أضمرُوا خلاف ما أظهروا وذلك لأن حقيقة الإيمان أن يواطىء اللسان القلب وكذلك الكلام فمن أخبر عن شيء واعتقد خلافه أو أضمر خلاف ما أظهر فهو كاذب ألا ترى أنهم كانوا يقولون بألسنتهم تشهد أنك لرسول الله وسماء كذباً لأن قولهم خالف اعتقادهم ﴿اتخذوا أيمانهم جنة﴾ أي ستره يسترون بها من القتل ومعنى أيمانهم ما أخبر الله عنهم من حلفهم إنهم لمحكم وقولهم تشهد أنك لرسول الله ﴿فصدوا عن سبيل الله﴾ أي عرضوا بأنفسهم عن طاعة الله وطاعة رسوله وقيل منعوا الناس عن الجهاد وعن الإيمان بمحمد ﷺ ﴿إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ يعني حيث آثروا الكفر على الإيمان ﴿ذلك بأنهم آمنوا﴾ أي في الظاهر وذلك إذا رأوا المؤمنين أقروا بالإيمان ﴿ثم كفروا﴾ أي في السر وذلك إذا خلوا مع المشركين وفيه تأكيد لقوله والله يشهد إنهم لكاذبون ﴿طبع على قلوبهم﴾ أي بالكفر ﴿فهم لا يفقهون﴾ أي الإيمان وقيل لا يتدبرون القرآن.

سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ

مدنية وهي إحدى عشرة آية.

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾، يعني عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه، ﴿قالوا تشهد أنك لرسول الله والله يعلم أنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾، لأنهم أضمرُوا خلاف ما أظهروا.

﴿اتخذوا أيمانهم جنة﴾، ستره، ﴿فصدوا عن سبيل الله﴾، منعوا الناس عن الجهاد والإيمان بمحمد ﷺ، ﴿إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾.

﴿ذلك بأنهم آمنوا﴾، أقروا باللسان إذا رأوا المؤمنين، ﴿ثم كفروا﴾، إذا خلوا إلى المشركين، ﴿طبع على قلوبهم﴾، بالكفر، ﴿فهم لا يفقهون﴾، الإيمان.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَانَتْهُمْ حُشْبٌ مِّنْ شُجْرَةٍ يُحْسَبُونَ ۚ كُلَّ صَيِّحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ ۖ إِنَّهُ يُوَفُّكَونَ ۖ﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأُ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ۖ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ يعني المنافقين مثل عبد الله بن أبي ابن سلول ﴿تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ يعني أن لهم أجساماً ومناظر حسنة ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ أي فتحسب أنه صدق قال ابن عباس كان عبد الله بن أبي ابن سلول جسيماً فصيحاً ذلق اللسان فإذا قال سمع النبي ﷺ قوله ﴿كَانَتْهُمْ حُشْبٌ مِّنْ شُجْرَةٍ﴾ أي أشباح بلا أرواح وأجسام بلا أحلام شبههم بالخشب المسندة إلى جذر وليست بأشجار مثمرة ينتفع بها ﴿يُحْسَبُونَ كُلَّ صَيِّحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ يعني أنهم لا يسمعون صوتاً في العسكر بأن ينادي مناد أو تنفلت دابة أو تشد ضالة إلا ظنوا من خبثهم وسوء ظنهم أنهم يرادون بذلك وظنوا أنهم قد أتوا لما في قلوبهم من الرعب وقيل إنهم على خوف ووجل من أن ينزل فيهم أمر يهتك أستارهم ويبيح دماءهم وتم الكلام عند قوله عليهم ثم ابتداء فقال تعالى: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ أي لا تأمنهم فإنهم وإن كانوا معك ويظهرون تصديقك أعداء لك فاحذرهم ولا تأمنهم على شرك لأنهم عيون لأعدائك من الكفار ينقلون إليهم أسرارك ﴿قَاتِلْهُمْ اللَّهُ﴾ أي لعنهم الله ﴿إِنَّهُ يُوَفُّكَونَ﴾ أي يصرفون عن الحق.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأُ رُءُوسَهُمْ﴾ أي أمالوها وأعرضوا بوجوههم رغبة عن الاستغفار ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ أي يعرضون عما دعوا إليه ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ أي عن استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ إن الله لا يهدي القوم الفاسقين).

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾، يعني أن لهم أجساماً ومناظر، ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾، فتحسب أنه صدق، قال عبد الله بن عباس: كان عبد الله بن أبي جسيماً فصيحاً ذلق اللسان فإذا قال سمع النبي ﷺ قوله: ﴿كَانَتْهُمْ حُشْبٌ مِّنْ شُجْرَةٍ﴾، أشباح بلا أرواح وأجسام بلا أحلام، قرأ أبو عمرو والكسائي: ﴿حُشْبٌ﴾ بسكون الشين، وقرأ الباقر بضمها، ﴿مُسْنَدَةٌ﴾ مُمَالَةٌ إلى جدار من قولهم أسندت الشيء إذا أملته، والثقل للتكثير، وأراد أنها ليست بأشجار تثمر ولكنها خشب مُسْنَدَةٌ إلى حائط، ﴿يُحْسَبُونَ كُلَّ صَيِّحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾، أي لا يسمعون صوتاً في العسكر بأن نادى مناد أو انفلتت دابة أو أنشدت ضالة لا ظنوا من جنبهم وسوء ظنهم أنهم يرادون بذلك وظنوا أنهم قد أتوا لما في قلوبهم من الرعب. وقيل: ذلك لكونهم على وجل من أن ينزل الله فيهم أمراً بهتك أستارهم ويبيح دماءهم ثم قال: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾، هذا ابتداء وخبره، ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾، ولا تأمنهم، ﴿قَاتِلْهُمْ اللَّهُ﴾، لعنهم الله ﴿إِنَّهُ يُوَفُّكَونَ﴾، يُصَرِّفُونَ عن الحق.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأُ رُءُوسَهُمْ﴾، أي عطفوا وأعرضوا بوجوههم رغبة عن الاستغفار، قرأ نافع ويعقوب ﴿لَوَّأُ﴾ بالتخفيف وقرأ الآخرون بالتشديد، لأنهم فعلوها مرة بعد مرة. ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾، يُعَرِّضُونَ عَمَّا دُعُوا إِلَيْهِ، ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾، متكبرون عن استغفار رسول الله ﷺ لهم.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ﴾، يا محمد، ﴿أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ إن الله لا يهدي القوم

(ذكر القصة : في سبب نزول هذه الآية)

قال محمد بن إسحاق وغيره من أصحاب السير إن رسول الله ﷺ بلغه أن بني المصطلق يجتمعون لحربه وقائدهم الحارث بن أبي ضرار وهو أبو جويرية زوج النبي ﷺ فلما سمع رسول الله ﷺ بذلك خرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل فتزاحم الناس واقتتلوا فهزم الله تعالى بني المصطلق وأمكن منهم وقيل من قتل منهم ونقل رسول الله ﷺ أبناءهم ونساءهم وأموالهم فأفاءها عليهم فبينما الناس على ذلك الماء إذ وردت واردة الناس ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له جهجاه بن سعيد الغفاري يقود له فرسه فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء فاقتتلا فصرخ الجهني يا معشر الأنصار وصرخ الغفاري يا معشر المهاجرين وأعان جهجاهاً رجلاً من المهاجرين يقال له جعال وكان فقيراً فقال عبد الله بن أبي الجعال وإنك لهنالك فقال جعال وما يمنعني أن أفعل ذلك فغضب عبد الله بن أبي وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم وهو غلام حديث السن فقال عبد الله بن أبي أفعلوها قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا والله ما مثلنا زائدة ومثلهم إلا كما قال القائل سمنك كلبك يأكلك أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ثم أقبل على من حضر من قومه فقال هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم أما والله لو أمسكتهم عن جعال وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم ولتحولوا إلى غير بلادكم فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد فقال زيد بن أرقم أنت والله الذليل القليل المبغض في قومك ومحمد ﷺ في عز من الرحمن ومودة من المسلمين فقال عبد الله بن أبي اسكت لقد كنت ألعب فمشى زيد بن أرقم إلى رسول الله ﷺ وذلك بعد فراغه من الغزو فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب فقال دعني أضرب عنقه يا رسول الله قال كيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ولكن أذن بالرحيل وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرحل فيها فارتحل الناس وأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي

الفاستقين ﴿٤﴾، ذكر محمد بن إسحاق وغيره من أصحاب رسول الله ﷺ بلغه أن بني المصطلق يجتمعون لحربه وقائدهم الحارث بن أبي ضرار أبو جويرية زوج النبي ﷺ، فلما سمع بهم رسول الله ﷺ خرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل، فتزاحف الناس واقتتلوا فهزم الله بني المصطلق، وقتل من قتل منهم، ونقل رسول الله ﷺ أبناءهم ونساءهم وأموالهم فأفاءها عليهم، فبينما الناس على ذلك الماء إذ وردت واردة الناس ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار، يقال له جهجاه بن سعيد الغفاري يقود له فرسه فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء فاقتتلا، فصرخ الجهني يا معشر الأنصار وصرخ الغفاري يا معشر المهاجرين وأعان جهجهاها الغفاري رجلاً من المهاجرين يقال له جعال، وكان فقيراً وغضب عبد الله بن أبي سلول وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم غلام حديث السن، فقال ابن أبي أفعلوها؟ فقد نافرونا وكاثرونا في بلادنا والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال القائل سمنك كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، يعني بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله ﷺ، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتهم عن جعال وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم ولتحولوا إلى غير بلادكم، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد، فقال زيد بن أرقم أنت والله الذليل القليل المبغض في قومك ومحمد ﷺ في عز من الرحمن عز وجل ومودة من المسلمين، فقال عبد الله بن أبي اسكت فإنما كنت ألعب قال فمشى زيد بن أرقم إلى رسول الله ﷺ، وذلك بعد فراغه من الغزو فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، فقال: دعني أضرب عنقه يا رسول الله، قال: «كيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟» ولكن أذن بالرحيل وذلك في ساعة لم يكن رسول

فأتاه فقال أنت صاحب هذا الكلام الذي بلغني فقال عبد الله بن أبي والذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئاً من ذلك وإن زيدا لكاذب وكان عبد الله في قومه شريفاً عظيماً فقال من حضر من الأنصار من أصحابه يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد وهم في حديثه ولم يحفظ ما قاله فعذره النبي ﷺ وفشت الملامة لزيد في الأنصار وكذبوه وقال له عمه وكان زيد معه ما أردت إلا أن كذبك رسول الله ﷺ والناس ومقتوك وكان زيد يساير النبي ﷺ فاستحيا بعد ذلك أن يدنو من النبي ﷺ فلما استقل رسول الله ﷺ وسار لقيه أسيد بن حضير فحياه بتحية النبوة وسلم عليه ثم قال يا رسول الله ﷺ لقد رحت في ساعة منكراً ما كنت تروح فيها فقال له رسول الله ﷺ أو ما بلغك ما قال صاحبك عبد الله بن أبي فقال أسيد وما قال؟ قال يزعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل فقال أسيد أنت والله يا رسول الله تخرجه هو والله الذليل وأنت والله العزيز ثم قال يا رسول الله أرفق به فوالله لقد جاء الله بك وإن قومه لينظّمون له الخرز ليتوجوه فإنه ليرى أنك قد سلبته ملكاً وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي ما كان من أبيه فأتى رسول الله ﷺ وقال يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي لما بلغك عنه فإن كنت فاعلاً فمرني فأنا أحمل إليك رأسه فوالله لقد علمت الخرج ما كان بها رجل أبر بوالديه مني وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي على الأرض فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار فقال رسول الله ﷺ بل نرفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا قالوا وسار رسول الله ﷺ يومه ذلك حتى أمسى وليته حتى أصبح وصدر يومه حتى آذتهم الشمس فنزل بالناس فلم يكن إلا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً وإنما فعل ذلك ليشغل الناس عن حديث عبد الله بن أبي الذي كان منه بالأمس ثم راح بالناس حتى نزل على ماء بالحجاز فويق البقيع يقال لها نقعاء فهاجت ريح شديدة آذتهم وتخوفوها وضلت ناقة رسول الله ﷺ وذلك بالليل فقال رسول الله ﷺ لا تخافوا فإنما هبت لموت عظيم من عظماء الكفار توفي بالمدينة فقيل من هو؟ قال رفاعة بن زيد بن التابوت فقال رجل من المنافقين كيف يزعم أنه يعلم الغيب

الله ﷺ يرتحل فيها فارتحل الناس وأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي فأتاه فقال له أنت صاحب هذا الكلام الذي بلغني؟ فقال عبد الله: والذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئاً من ذلك، وإن زيدا لكاذب، وكان عبد الله في قومه شريفاً عظيماً، فقال من حضر من أصحابه من الأنصار: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام وهم في حديثه ولم يحفظ ما قاله، فعذره النبي ﷺ وفشت الملامة في الأنصار لزيد وكذبوه، وقال له عمه وكان زيد معه: ما أردت إلى أن كذبك رسول الله ﷺ والناس كلهم يقولون إن عبد الله شيخنا وكبيرنا لا يصدق عليه كلام غلام من غلمان الأنصار، ومقتوك وكان زيد يساير النبي ﷺ فاستحيا بعد ذلك أن يدنو من النبي ﷺ، فلما استقبل رسول الله ﷺ وسار لقيه أسيد بن حضير فحياه بتحية النبوة وسلم عليه، ثم قال: يا رسول الله لقد رحت في ساعة منكراً ما كنت تروح فيها، فقال له رسول الله ﷺ: «أو ما بلغك ما قال صاحبكم عبد الله بن أبي؟» قال: وما قال؟ قال: «زعم إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل» فقال أسيد: فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله أرفق به فوالله لقد جاء الله بك، وإن قومه لينظّمون له الخرز ليتوجوه فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي ما كان من أمر أبيه فأتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي لما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخرج ما كان بها رجل أبر بوالديه مني وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر. فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ: «بل نرفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا»، قال: وسار رسول الله ﷺ يومه ذلك حتى أمسى وليته، حتى أصبح وصدر يومه ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس فلم يكن إلا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً، وإنما فعل ذلك ليشغل الناس

ولا يعلم بمكان ناقتة ألا يخبره الذي يأتيه بالوحي فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فأخبره بقول المنافق وبمكان ناقتة فأخبر بذلك رسول الله ﷺ أصحابه وقال ما أزعجني أعلم الغيب ولا أعلمه ولكن الله أخبرني بقول المنافق وبمكان ناقتي هي في الشعب وقد تعلق زمامها بشجرة فخرجوا يسعون قبل الشعب فإذا هي كما قال فجاءوا بها فآمن ذلك المنافق وحسن إيمانه فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعه بن زيد بن التابوت قد مات في ذلك اليوم وكان من عظماء اليهود وكهفياً للمنافقين فلما وافى رسول الله ﷺ المدينة قال زيد بن أرقم جلست في البيت لما بي من الهم والحياء فأنزل الله عز وجل سورة المنافقين في تصديق زيد بن أرقم وتكذيب عبد الله بن أبي فلما نزلت أخذ رسول الله ﷺ بإذن زيد وقال يا زيد إن الله قد صدقك وأوفى بإذنك (ق) عن زيد بن أرقم قال «خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر أصاب الناس فيه شدة فقال عبد الله بن أبي لا تنفقوا علي من عند رسول الله ﷺ حتى ينفضوا من حوله وقال لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل قال فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك فأرسل إلى عبد الله بن أبي فسأله فاجتهد يمينه ما فعل فقالوا كذب زيد رسول الله ﷺ قال فوق في نفسي مما قالوه شدة حتى أنزل الله بتصديقي إذا جاءك المنافقون قال ثم دعاهم رسول الله ﷺ ليستغفر لهم قال فلجأ رؤوسهم وقوله كأنهم خشب مسندة قال كانوا رجالاً أجمل شيء» (ق) عن جابر قال «غزونا مع رسول الله ﷺ وقد بات معه ناس من المهاجرين حتى كثروا وكان من المهاجرين رجل لعاب فكسع أنصاريًا فغضب الأنصاري غضباً شديداً حتى تداعوا وقال الأنصاري يا للأنصار وقال المهاجري يا للمهاجرين فخرج رسول الله ﷺ فقال ما بال دعوى الجاهلية ثم قال ما شأنهم فأخبر بسكعة المهاجري الأنصاري فقال دعوها فإنها خبيثة وقال عبد الله بن أبي ابن سلول أقد تداعوا علينا لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل قال عمر ألا أقتل يا نبي الله هذا الخبيث لعبد الله فقال النبي ﷺ لا يتحدث الناس أنه كان يقتل أصحابه» ولمسلم رواية «وفيها فقال لا بأس ولنصر الرجل أخاه ظالماً كان أو مظلوماً إن كان ظالماً فلينهه فإنه له نصر وإن كان مظلوماً فلينصره» وزاد الترمذي فيه «فقال له ابنه عبد الله بن عبد الله لا تنقلب حتى تقرأ أنك أنت الذليل ورسول الله ﷺ العزيز ففعل» قال أصحاب السير وكان عبد الله بن أبي بقرب المدينة فلما أراد أن يدخلها جاءه ابنه عبد الله حتى أنأخ على مجامع طرق المدينة فلما جاء عبد الله بن أبي قال له ابنه وراءك قال ويلك ما لك قال لا والله لا

عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبي، ثم راح بالناس حتى نزل على ماء بالحجاز فوق البقيع، يقال له نقعاء فهاجت ريح شديدة أذتهم وتخوفوا منها، وضلت ناقة النبي ﷺ وذلك ليلاً، فقال رسول الله ﷺ: «لا تخافوا فإنما هبت لموت عظيم من عظماء الكفار توفي بالمدينة»، قيل: من هو؟ قال: «رفاعة بن زيد بن التابوت»، فقال رجل من المنافقين: كيف يزعم أنه يعلم الغيب ولا يعلم مكان ناقتة ألا يخبره الذي يأتيه بالوحي، فأتاه جبريل فأخبره بقول المنافق وبمكان الناقة، وأخبر بذلك رسول الله ﷺ أصحابه، وقال: «ما أزعجني أعلم الغيب وما أعلمه ولكن الله أخبرني بقول المنافق وبمكان ناقتي هي في الشعب قد تعلق زمامها بشجرة، فخرجوا يسعون قبل الشعب فإذا هي كما قال: فجاءوا بها من ذلك الشعب وآمن ذلك المنافق، فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعه بن زيد بن التابوت قد مات ذلك اليوم، وكان من عظماء اليهود وكهفياً للمنافقين، فلما وافى رسول الله ﷺ المدينة قال زيد بن أرقم: جلست في البيت لما بي من الهم والحياء فأنزل الله تعالى سورة المنافقين في تصديق زيد وتكذيب عبد الله بن أبي فلما نزلت أخذ رسول الله ﷺ بإذن زيد وقال: «يا زيد إن الله قد صدقك وأوفى بإذنك وكان عبد الله بن أبي أتى بقرب المدينة، فلما أراد أن يدخلها جاءه ابنه عبد الله بن عبد الله حتى أنأخ على مجامع طرق المدينة، فلما جاء عبد الله بن أبي قال: وراءك، قال: ما لك ويلك؟ قال: لا والله لا تدخلها أبداً إلا بإذن رسول الله ﷺ، ولتعلمن اليوم من الأعز من الأذل، فشكا عبد الله إلى رسول الله ﷺ ما صنع ابنه، فأرسل رسول الله ﷺ أن خل عنه حتى يدخل، فقال: أما إذا جاء أمر رسول الله ﷺ فنعم، فدخل فلم يلبث إلا أياماً قلائل

تدخلها أبداً إلا أن يأذن رسول الله ﷺ ولتعلمن اليوم من الأعز ومن الأذل فشكا عبد الله بن أبي إلى رسول الله ﷺ ما صنع ابنه عبد الله فأرسل رسول الله ﷺ أن خل عنه يدخل فقال عبد الله أما إذا جاء أمر رسول الله ﷺ فنعم فدخل قالوا فلما نزلت هذه السورة وتبين كذب المنافقين قيل يا أبا حباب إنه قد نزل فيك آي شداد فاذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك فلوى رأسه وقال أمرتموني أن أومن فأمنت وأمرتموني أن أعطي زكاة مالي فقد أعطيت فما بقي إلا أن أسجد لمحمد ﷺ فأنزل الله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوُوا رُءُوسَهُمْ﴾ الآية ونزل.

هُم الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لِنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تِلْكَ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾

﴿هم الذين يقولون لا تنفقوا علي من عند رسول الله ﷺ حتى ينفضوا﴾ أي يتفرقوا عنه ﴿والله خزائن السموات والأرض﴾ يعني بيده مفاتيح الرزق فلا يعطي أحد أحداً شيئاً إلا بإذنه ولا يمنعه إلا بمشيئته ﴿ولكن المنافقين لا يفقهون﴾ يعني أن أمر الله إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴿يقولون لئن رجعنا إلى المدينة﴾ يعني من غزوة بني المصطلق ﴿ليخرجنا الأعز منها الأذل﴾ فرد الله عليهم بقوله ﴿والله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ فعزة الله تعالى قهره وغلبته على من دونه وعزة رسوله ﷺ إظهار دينه على الأديان كلها وعزة المؤمنين نصر الله إياهم على أعدائهم ﴿ولكن المنافقين لا يعلمون﴾ أي ذلك لو علموا ما قالوا هذه المقالة قال أصحاب السير فلما نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي ابن سلول لم يلبث إلا أياماً قلائل حتى اشتكى ومات على نفاقه.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم﴾ أي لا تشغلكم ﴿أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله﴾ يعني عن الصلوات الخمس والمعنى لا تشغلكم أموالكم ولا أولادكم كما شغلت المنافقين عن ذكر الله ﴿ومن يفعل ذلك﴾ أي

حتى اشتكى ومات، قالوا: فلما نزلت الآية وبأن كذب عبد الله بن أبي قيل له: يا أبا حباب إنه قد نزل فيك آي شداد فاذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك، فلوى رأسه ثم قال: أمرتموني أن أومن فأمنت، وأمرتموني أن أعطي زكاة مالي فقد أعطيت فما بقي، إلا أن أسجد لمحمد ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوُوا رُءُوسَهُمْ﴾ الآية.

ونزل: ﴿هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله ﷺ حتى ينفضوا﴾، يتفرقوا، ﴿والله خزائن السموات والأرض﴾، فلا يعطي أحد أحداً شيئاً إلا بإذنه ولا يمنعه إلا بمشيئته، ﴿ولكن المنافقين لا يفقهون﴾، أن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

﴿يقولون لئن رجعنا إلى المدينة﴾، عن غزوة بني المصطلق، ﴿ليخرجنا الأعز منها الأذل﴾ والله العزة ولرسوله وللمؤمنين، ﴿فعزة الله قهره من دونه، وعزة رسوله إظهار دينه على الأديان كلها، وعزة المؤمنين نصر الله إياهم على أعدائهم.﴾ ﴿ولكن المنافقين لا يعلمون﴾ ذلك ولو علموا ما قالوا هذه المقالة.

قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم﴾ لا تشغلكم ﴿أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله﴾ قال المفسرون يعني الصلوات الخمس نظيره قوله: ﴿لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾ [النور: ٣٧] ﴿ومن يفعل ذلك﴾ أي من شغله ماله وولده عن ذكر الله ﴿فأولئك هم الخاسرون﴾.

ومن شغله ماله وولده عن ذكر الله ﴿فأولئك هم الخاسرون﴾ أي في تجارتهم حيث آثروا الفاني على الباقي .

وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْتُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

﴿وأنفقوا مما رزقناكم﴾ قال ابن عباس يريد زكاة الأموال ﴿من قبل أن يأتي أحدكم الموت﴾ أي دلائل الموت ومقدماته وعلاماته فيسأل الرجعة ﴿فيقول رب لولا أخرتني﴾ أي هلا أمهلتنى وقيل لو أخرت أجلي ﴿إلى أجل قريب فأصدق﴾ أي فأزكي مالي ﴿وأكن﴾ وقرئ وأكون ﴿من الصالحين﴾ أي المؤمنين وقيل نزلت هذه الآية في المنافقين ويدل على هذا أن المؤمن لا يسأل الرجعة وقيل نزلت في المؤمنين والمراد بالصلاح هنا الحج قال ابن عباس ما من أحد يموت وكان له مال ولم يؤد زكاته أو أطاق الحج ولم يحج إلا سأل الرجعة عند الموت وقرأ هذه الآية وأكون من الصالحين أي أحج وأزكي ﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها﴾ يعني أنه تعالى لا يؤخر من حضر أجله وانقضت مدته ﴿والله خبير بما تعملون﴾ يعني أنه لو رد إلى الدنيا وأجيب إلي ما سأل ما حج وما زكى وقيل هو خطاب شائع لكل عامل عملاً من خير أو شر، والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿وأنفقوا مما رزقناكم﴾، قال ابن عباس: يريد زكاة الأموال، ﴿من قبل أن يأتي أحدكم الموت﴾، فيسأل الرجعة، ﴿فيقول رب لولا أخرتني﴾، هلاً أخرتني أمهلتنى، وقيل: ﴿لا﴾ صلة فيكون الكلام بمعنى التمني أي لو أخرتني، ﴿إلى أجل قريب فأصدق﴾، فأصدق وأزكى مالي، ﴿وأكن من الصالحين﴾، أي من المؤمنين نظيره، قوله تعالى: ﴿ومن صلح من آبائهم﴾ [الرعد: ٢٣]، هذا قول مقاتل وجماعة، وقالوا: نزلت الآية في المنافقين. وقيل: نزلت الآية في المؤمنين. والمراد بالصلاح هنا الحج، وروى الضحاك وعطية عن ابن عباس أنه قال: ما من أحد يموت وكان له مال لم يؤد زكاته وأطاق الحج فلم يحج إلا سأل الرجعة عند الموت. وقرأ هذه الآية. وقال: ﴿وأكن من الصالحين﴾ قرأ أبو عمرو وأكون بالواو ونصب النون على جواب التمني وعلى لفظ فأصدق، قال: إنما حذفت الواو من المصحف اختصاراً، وقرأ الآخرون وأكن بالجزم عطفاً على قوله فأصدق لو لم يكن فيه الفاء لأنه لو لم يكن فيه الفاء لكان جزماً يعني إن أخرتني أصدق وأكن ولأنه مكتوب في المصحف بحذف الواو.

﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون﴾، قرأ أبو بكر يعملون بالياء وقرأ الآخرون بالتاء .

سورة التغابن

وهي مدنية في قول الأكثر وقيل هي مكية إلا ثلاث آيات من قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ﴾ إلى آخر ثلاث آيات وهي ثماني عشرة آية ومائتان وإحدى وأربعون كلمة وألف وسبعون حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾

قوله عز وجل: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ يعني أنه تعالى متصرف في ملكه كيف يشاء تصرف اختصاص لا شريك له فيه وله الحمد لأن أصول النعم كلها منه وهو الذي يحمد على كل حال فلا محمود في جميع الأحوال إلا هو ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء كما يشاء بلا مانع ولا مدافع ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾ قال ابن عباس إن الله تعالى خلق بني آدم مؤمناً وكافراً ثم يعيدهم يوم القيامة كما خلقهم مؤمناً وكافراً (م) عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ قال «إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم وخلق للنار أهلاً خلقهم لهم وهم في أصلاب آبائهم» (ق) عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «وكل الله بالرحم ملكاً فيقول أي رب نطفة أي رب علقة أي رب مضغة فإذا أراد الله

سُورَةُ التَّغَابُنِ

قال عطاء هي مكية إلا ثلاث آيات من قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاجِكُمْ﴾ [التغابن: ١٤] إلى آخرهن، وهي ثماني عشرة آية.

﴿يُسَبِّحُ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير، قال ابن عباس: إن الله خلق بني آدم مؤمناً وكافراً ثم يعيدهم يوم القيامة كما خلقهم مؤمناً وكافراً. وروينا عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الغلام الذي قتله الخضر عليه السلام طبع كافراً». وقال جل ذكره: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاكِراً كُفَّاراً﴾ [نوح: ٢٧]. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا سليمان بن حرب ثنا حماد بن عبد الله بن أبي بكر عن أنس عن النبي ﷺ قال: «وكل الله بالرحم ملكاً فيقول: أي رب نطفة، أي رب علقة، أي رب مضغة، فإذا أراد الله أن يقضي خلقها قال: يا رب أذكر أم أنثى أشقي أم سعيد؟ فما الرزق فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أمه». وقال جماعة: معنى الآية إن الله خلق الخلق ثم كفروا وآمنوا، لأن الله تعالى ذكر الخلق ثم وصفهم بفعالهم، فقال: ﴿فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾، كما قال الله تعالى: ﴿والله

أن يقضي خلقها قال يا رب أذكر أم أنثى أشقي أم سعيد فما الزرق فما الأجل فيكتب ذلك وهو في بطن أمه» وقال جماعة في معنى الآية إن الله تعالى خلق الخلق ثم كفروا وآمنوا لأن الله ذكر الخلق ثم وصفهم بفعلهم فقال فمنكم كافر ومنكم مؤمن ثم اختلفوا في تأويلها فروي عن أبي سعيد الخدري أنه قال فمنكم كافر حياته مؤمن في العاقبة ومنكم مؤمن حياته كافر في العاقبة وقال عطاء بن أبي رباح فمنكم كافر بالله مؤمن بالكواكب وقيل فمنكم كافر أي بأن الله خلقه وهم الدهرية وأصحاب الطوائف ومنكم مؤمن أي بأن الله خلقه وجملة القول فيه أن الله تعالى خلق الكافر وكفره فعلاً له وكسباً وخلق المؤمن وإيمانه فعلاً له وكسباً فلكل واحد من الفريقين كسب واختيار وكسبه واختياره بتقدير الله وبمشيئته فالمؤمن بعد خلق الله إياه يختار الإيمان لأن الله تعالى أراد ذلك منه وقدره عليه وعلمه منه والكافر بعد خلق الله إياه يختار الكفر لأن الله تعالى قدر ذلك عليه وعلمه منه هذا طريق أهل السنة فمن سلك هذا أصاب الحق وسلم من مذهب الجبرية والقدرية ﴿والله بما تعملون بصير﴾ أي أنه عالم بكفر الكافر وإيمان المؤمن.

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تَعْلَنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وِبَالَ أَمْرِهمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْنِيهِمْ رُسُلَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشِّرْهُدُونَا فَكَفَرُوا وَقُولُوا اسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾

﴿خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم﴾ أي إنه أتقن وأحكم صوركم على وجه لا يوجد مثله في الحسن والمنظر من حسن القامة والمناسبة في الأعضاء وقد علم بهذا أن صورة الإنسان أحسن صورة وأكملها ﴿وإليه المصير﴾ أي المرجع في القيامة ﴿يعلم ما في السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور﴾ معناه أنه لا تخفى عليه خافية فاستوى في علمه الظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم قوله تعالى: ﴿الم﴾

خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ﴿[النور: ٤٥] فالله خلقهم والمشي فعلهم ثم اختلفوا في تأويلها، فروي عن أبي سعيد الخدري أنه قال: فمنكم كافر في حياته مؤمن في العاقبة، ومنكم مؤمن في حياته كافر في العاقبة. وقال عطاء بن أبي رباح: فمنكم كافر بالله مؤمن بالكواكب، ومنكم مؤمن بالله كافر بالكواكب. وقيل: فمنكم كافر بأن الله تعالى خلقه وهو مذهب الدهرية، ومنكم مؤمن بأن الله خلقه. وجملة القول فيه: أن الله خلق الكافر، وكفره فعلاً له وكسباً، وخلق المؤمن، وإيمانه فعلاً له وكسباً، فلكل واحد من الفريقين كسب واختيار وكسبه واختياره بتقدير الله ومشيتته، فالمؤمن بعد خلق الله إياه يختار الإيمان لأن الله تعالى أراد ذلك منه وقدره عليه وعلمه منه، والكافر بعد خلق الله تعالى إياه يختار الكفر لأن الله تعالى أراد ذلك منه وقدره عليه وعلمه منه، وهذا طريق أهل السنة والجماعة من سلكه أصاب الحق وسلم من الجبر والقدر.

﴿خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير يعلم ما في السموات والأرض﴾.

﴿ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور﴾ ألم يأتيكم مكة، ﴿نبا الذين كفروا من قبل﴾، يعني الأمم الخالية، ﴿فذاقوا وِبَالَ أَمْرِهم﴾، يعني ما لحقهم من العذاب في الدنيا، ﴿ولهم عذاب أليم﴾، في الآخرة.

يأتكم﴾ يخاطب كفار مكة ﴿نبا الذين كفروا من قبل﴾ يعني خبر الأمم الخالية ﴿فذاقوا وبال أمرهم﴾ أي جزاء أعمالهم وهو ما لحقهم من العذاب في الدنيا ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي في الآخرة ﴿ذلك﴾ أي الذي نزل بهم من العذاب ﴿بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهودونا﴾ معناه أنهم أنكروا أن يكون الرسول بشراً وذلك لقلّة عقولهم وسخافة أحلامهم ولم ينكروا أن يكون معبودهم حجراً ﴿فكفروا﴾ أي جحدوا وأنكروا ﴿وتولوا﴾ أي أعرضوا ﴿واستغنى الله﴾ أي عن إيمانهم وعبادتهم ﴿والله غني﴾ أي عن خلقه ﴿حميد﴾ أي في أفعاله ثم أخبر الله تعالى عن إنكارهم البعث فقال تعالى:

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ النَّعَابِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبَشَ الْأَمْصِيرُ ﴿١٠﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُمِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾

﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل﴾ أي قل لهم يا محمد ﴿بلى وربى لتبعثن﴾ أي يوم القيامة ﴿ثم لتنبئن﴾ أي لتخبرن ﴿بما عملتم وذلك على الله يسير﴾ أي أمر البعث والحساب يوم القيامة ﴿فآمنوا بالله ورسوله﴾ لما ذكر حال الأمم الماضية المكذبة وما نزل بهم من العذاب قال فآمنوا أنتم بالله ورسوله لثلا ينزل بكم ما نزل بهم من العقوبة ﴿والنور الذي أنزلنا﴾ يعني القرآن سماه نوراً لأنه يهتدى به في ظلمات الضلال كما يهتدى بالنور في الظلمة ﴿والله بما تعملون خبير﴾ يعني أنه مطلع عليكم عالم بأحوالكم جميعاً فراقبوه وخافوه.

قوله عز وجل: ﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع﴾ يعني يوم القيامة يجمع الله فيه الأولين والآخرين وأهل السموات وأهل الأرضين ﴿ذلك يوم التغابن﴾ من الغبن وهو فوت الحظ والمراد في المجازاة والتجارة وذلك أنه إذا أخذ الشيء بدون قيمته فقد غبن والمغبون من غبن أهله ومنازله في الجنة وذلك لأن كل كافر له أهل ومنزل في الجنة لو أسلم فيظهر يومئذ غبن كل كافر يتركه الإيمان ويظهر غبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان وقيل إن قوماً في النار يعذبون

﴿ذلك﴾، العذاب، ﴿بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهودونا﴾، ولم يقل يهدينا لأن البشر وإن كان لفظه واحد فإنه في معنى الجمع، وهو اسم الجنس لا واحد له من لفظه، وواحد إنسان، ومعناه ينكرون ويقولون آدمي مثلنا يهدينا، ﴿فكفروا وتولوا واستغنى الله﴾، عن إيمانهم، ﴿والله غني﴾، عن خلقه، ﴿حميد﴾، في أفعاله، ثم أخبر عن إنكارهم البعث.

فقال جل ذكره: ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل﴾، يا محمد، ﴿بلى وربى لتبعثن ثم لتنبئن بما عملتم وذلك على الله يسير﴾ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا، وهو القرآن، ﴿والله بما تعملون خبير﴾.

﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع﴾، يعني يوم القيامة يجمع فيه أهل السموات والأرض، ﴿ذلك يوم التغابن﴾، وهو تفاعل من الغبن وهو فوت الحظ، والمراد فالمغبون من غبن عن أهله ومنازله في الجنة فيظهر يومئذ غبن كل كافر بتركه الإيمان، وغبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان، ﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته﴾

وقوماً في الجنة ينعمون فلا غبن أعظم من هذا وقل هو غبن المظلوم للظالم لأن المظلوم مغبون في الدنيا فصار في الآخرة غائباً لظالمه وأصل الغبن في البيع والشراء وقد ذكر الله في حق الكافرين «أنهم خسروا وغبنوا في شرائهم فقال تعالى: ﴿اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ وقال في حق المؤمنين ﴿هَلْ أَدْلَكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ﴾ وإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة» فخسرت صفقة الكافرين وربحت صفقة المؤمنين ﴿ومن يؤمن بالله﴾ على ما جاءت به الرسل من الإيمان بالبعث والجنة والنار ﴿ويعمل صالحاً﴾ أي في إيمانه إلى أن يموت على ذلك ﴿يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم والذين كفروا﴾ أي بوحداية الله وقدرته ﴿وكذبوا بآياتنا﴾ أي الدالة على البعث ﴿أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله﴾ أي بقضاء الله وقدره وإرادته ﴿ومن يؤمن بالله﴾ أي يصدق أنه لا يصيبه مصيبة من موت أو مرض أو ذهاب مال ونحو ذلك إلا بقضاء الله وقدره وإذنه ﴿يهد قلبه﴾ أي يوفقه لليقين حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه فيسلم لقضاء الله تعالى وقدره وقيل يهد قلبه للشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء ﴿والله بكل شيء عليم وأطيعوا الله﴾ أي فيما أمر ﴿وأطيعوا الرسول﴾ أي فيما جاء به عن الله وما أمركم به ﴿فإن توليتم﴾ أي عن إجابة الرسول فيما دعاكم إليه ﴿فإنما على رسولنا البلاغ المبين الله لا إله إلا هو﴾ أي لا معبود ولا مقصود إلا هو ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَّوْا
وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ
عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَ نَفْسِهِ
فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم﴾ عن ابن عباس قال هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة وأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا النبي ﷺ فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين فهموا أن يعاقبهم فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم

ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار﴾، قرأ أهل المدينة والشام نكفر (وندخله)، وفي سورة الطلاق [١١] ﴿ندخله﴾ بالنون فيهنّ وقرأ الآخرون بالياء، ﴿خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير﴾.

﴿ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله﴾، بإرادته وقضائه، ﴿ومن يؤمن بالله﴾، فيصدق أنه لا يصيبه مصيبة إلا بإذن الله، ﴿يهد قلبه﴾، يوفقه لليقين حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه فيسلم لقضائه، ﴿والله بكل شيء عليم﴾.

﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين﴾.

﴿الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾.

قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم﴾، قال ابن عباس: هؤلاء رجال من أهل مكة أسلموا وأرادوا أن يهاجروا إلى المدينة فمنعهم أزواجهم وأولادهم، وقالوا صبرنا على إسلامكم فلا نصبر على فراقكم فأطاعوهم، وتركوا الهجرة، فقال تعالى: ﴿فاحذروهم﴾ أن تطيعوهم وتدعو

وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم ﴿١٤﴾ الآية أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح وعنه قالوا لهم صبرنا على إسلامكم فلا صبر لنا على فراقكم فأطاعوهم وتركوا الهجرة فقال تعالى فاحذروهم أي أن تطيعوهم وتدعوا الهجرة ﴿١٥﴾ وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا ﴿١٦﴾ هذا فيمن أقام على الأهل والولد ولم يهاجر ثم هاجر فرأى الذين قد سبقوه بالهجرة فقد فقهوا في الدين فهم أن يعاقب زوجته وولده الذين ثبطوه ومنعوه عن الهجرة لما لحقوا به ولا ينفق عليهم ولا يصيبهم بخير فأمره الله بالعفو والصفح عنهم وقال عطاء بن يسار نزلت في عوف بن مالك الأشجعي وكان ذا أهل وولد فإذا أراد أن يغزو بكوا عليه ورققوه وقالوا إلى من تدعنا فيرق عليهم فيقيم فأنزل الله تعالى إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم ﴿١٧﴾ فإنا لله غفور رحيم ﴿١٨﴾ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴿١٩﴾ أي بلاء واختبار وشغل عن الآخرة وقد يقع الإنسان بسببهم في العظائم ومنع الحق وتناول الحرام وغضب مال الغير ونحو ذلك ﴿٢٠﴾ والله عنده أجر عظيم ﴿٢١﴾ يعني الجنة والمعنى لا تباشروا المعاصي بسبب أولادكم ولا تؤثروهم على ما عند الله من الأجر العظيم قال بعضهم لما ذكر الله العداوة أدخل من للتبعيض فقال إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم لأنهم كلهم ليسوا بأعداء ولم يذكر من في قوله إنما أموالكم وأولادكم فتنة لأنهم لم يخلوا من الفتنة واشتغال القلب بهم وكان عبد الله بن مسعود يقول لا يقولن أحدكم اللهم إني أعوذ بك من الفتنة فإنه ليس أحد منكم يرجع إلى أهل ومال وولد إلا يشتمل على فتنة ولكن ليقل اللهم إني أعوذ بك من مضلات الفتن.

عن بريدة رضي الله تعالى عنه قال «كان رسول الله ﷺ يخطبنا فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ثم قال صدق الله إنما أموالكم وأولادكم

الهجرة، ﴿١٧﴾ وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم ﴿١٨﴾، هذا فيمن أقام على الأهل والولد ولم يهاجر فإذا هاجر رأى الذين سبقوه بالهجرة وقد فقهوا في الدين هم أن يعاقب زوجته وولده الذين ثبطوه عن الهجرة، وإن لحقوا في دار الهجرة لم ينفق عليهم ولم يصيبهم بخير، فأمرهم الله عز وجل بالعفو عنهم والصفح، وقال عطاء بن يسار: نزلت في عوف بن مالك الأشجعي: كان ذا أهل وولد وكان إذا أراد الغزو بكوا إليه ورققوه، وقالوا إلى من تدعنا فيرق لهم ويقيم، فأنزل الله ﴿١٩﴾ إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم ﴿٢٠﴾ بحملهم إياكم على ترك الطاعة، فاحذروهم أن تقبلوا منهم، ﴿٢١﴾ وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا ﴿٢٢﴾ فلا تعاقبوهم على خلافهم إياكم فالله غفور رحيم.

﴿٢٣﴾ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴿٢٤﴾، بلاء واختبار وشغل عن الآخرة، يقع بسببها الإنسان في العظائم ومنع الحق وتناول الحرام، ﴿٢٥﴾ والله عنده أجر عظيم ﴿٢٦﴾، قال بعضهم: لما ذكر الله العداوة أدخل فيه من للتبعيض، فقال: إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم لأن كلهم ليسوا بأعداء، ولم يذكر من في قوله: ﴿٢٧﴾ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴿٢٨﴾ لأنها لا تخلو عن الفتنة واشتغال القلب. وكان عبد الله بن مسعود يقول: لا يقولن أحدكم اللهم إني أعوذ بك من الفتنة فإنه ليس منكم أحد يرجع إلى مال وأهل وولد إلا وهو مشتمل على فتنة، ولكن ليقل: اللهم إني أعوذ بك من مضلات الفتن. أخبرنا أبو منصور محمد بن عبد الملك المظفري أنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن الفضل الفقيه أنا أبو الحسن أحمد بن إسحاق الفقيه ثنا أحمد بن بكر بن سيف ثنا علي بن الحسن أنا الحسين بن واقد عن عبد الله بن بريدة قال سمعت أبا بريدة يقول: كان رسول الله ﷺ يخطبنا فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ثم قال: صدق الله ﴿٢٩﴾ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴿٣٠﴾ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما.

فتنة نظرت إلى هذين الصبيني يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب .

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي ما أطقتم وهذه الآية ناسخة لقوله «اتقوا الله حق تقاته» ﴿وَاسْمَعُوا﴾ أي الله ولسوله فيما يأمركم به وينهاكم عنه ﴿وَأَنْفَقُوا﴾ أي من أموالكم حق الله الذي أمركم به ﴿خَيْراً لَّأَنْفُسِكُمْ﴾ أي ما أنفقتم في طاعة الله ﴿وَمَنْ يَوْقِ شَحْ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمَفْلُحُونَ﴾ تقدم تفسيره .

إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضْعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

﴿إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ القرض الحسن هو التصدق من الحلال مع طيبة نفس يعني إن تقرضوا أي تنفقوا في طاعة الله متقربين إليه بالإنفاق ﴿يُضَاعَفْهُ لَكُمْ﴾ أي يجزكم بالضعف إلى سبعمائة إلى ما يشاء من الزيادة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ﴾ يعني يحب المتقربين إليه ﴿حَلِيمٌ﴾ أي لا يعاجل بالعقوبة مع كثرة ذنوبهم ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ والله أعلم .

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، أي أطقتم، هذه الآية ناسخة لقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ﴿وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾، الله ورسوله، ﴿وَأَنْفَقُوا خَيْراً لَّأَنْفُسِكُمْ﴾، أي أنفقوا من أموالكم خيراً لأنفسكم. ﴿وَمَنْ يَوْقِ شَحْ نَفْسِهِ﴾ حتى يعطي حق الله من ماله ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمَفْلُحُونَ﴾. ﴿إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعَفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ * عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم .

سورة الطلاق

مدنية وهي اثنتا عشرة آية ومائتان وتسع وأربعون كلمة وألف وستون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ نادى النبي ﷺ ثم خاطب أمته لأنه المقدم عليهم فإذا خوطب خطاب لجمع كانت أمته داخلة في ذلك الخطاب وقيل معناه يا أيها النبي قل لأمتك فأضمر القول إذا طلقتم النساء أي إذا أردتم تطليقهن ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ أي لزمان عدتهن وهو الطهر لأنها تعتد بالملك الطهر من عدتها وتحصل في العدة عقيب الطلاق فلا يطول عليها زمان العدة وكان ابن عباس وابن عمر يقرآن فطلقوهن في قبل عدتهن وهذا في المدخول بها لأن غير المدخول بها لا عدة عليها نزلت هذه الآية في عبد الله بن عمر كان قد طلق امرأته في حال الحيض (ق) عن ابن عمر رضي الله عنهما «أنه طلق امرأته وهي حائض فذكر ذلك عمر لرسول الله ﷺ فتغيظ منه رسول الله ﷺ ثم قال مره فليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها قبل أن يمسها فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء» زاد في رواية «كان عبد الله طلقها تطليقة فحسب من طلاقها وراجعها عبد الله كما أمر رسول الله ﷺ» وفي رواية لمسلم «إنه طلق امرأته وهي حائض فذكر ذلك عمر للنبي ﷺ فقال مره فليراجعها ثم ليطلقها طاهراً أو حاملاً» ولمسلم من حديث أبي الزبير أنه سمع عبد الرحمن بن أيمن مولى عروة يسأل

سُورَةُ الطَّلَاقِ

مدنية وهي اثنتا عشرة آية.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾، نادى النبي ﷺ ثم خاطب أمته لأنه السيد المقدم، فخاطب الجميع معه، وقيل: مجازة يا أيها النبي قل لأمتك إذا طلقتم النساء، أي إذا أردتم تطليقهن، كقوله عز وجل: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [النحل: ٩٨] أي إذا أردت القراءة. ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾، أي لظهرهن بالذي يقضينه من عدتهن، وكان ابن عباس وابن عمر يقرآن (فَطَلِّقُوهُنَّ في قبل عدتهن)، نزلت هذه الآية في عبد الله بن عمر كان قد طلق امرأته في حال الحيض، أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي أنا زاهر بن أحمد الفقيه أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أنه طلق امرأته وهي حائض

عمر وأبو الزبير يسمع كيف ترى في رجل طلق امرأته حائضاً فقال «طلق ابن عمر امرأته وهي حائض على عهد رسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ ليراجعها فردها وقال إذا طهرت فليطلق أو ليمسك قال ابن عمر وقرأ النبي ﷺ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن في قبل عدتهن»^(١).

(فصل)

اعلم أن الطلاق في حال الحيض والنفاس بدعة وكذلك في الطهر الذي جامعها فيه لقول النبي ﷺ وإن شاء طلق قبل أن يمسه، والطلاق السني أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه وهذا في حق امرأة تلزمها العدة بالأقراء فأما إذا طلق غير المدخول بها في حال الحيض أو طلق الصغيرة التي لم تحض أو الآيسة بعد ما جامعها أو طلق الحامل بعد ما جامعها أو طلق التي لم تر الدم لا يكون بدعيّاً ولا سنة، ولا بدعة في طلاق هؤلاء لأن النبي ﷺ قال «ثم ليطلقها طاهراً أو حاملاً» والخلع في حال الحيض أو في طهر جامعها فيه لا يكون بدعيّاً لأن النبي ﷺ أذن لثابت بن قيس في مخالعة زوجته قبل أن يعرف حالها ولولا جوازه في جميع الأحوال لأمره أن يتعرف الحال؛ ولو طلق امرأته في حال الحيض أو في طهر جامعها فيه قصداً عصى الله تعالى ووقع الطلاق لأن النبي ﷺ أمر ابن عمر بالمراجعة فلولا وقوع الطلاق لم يأمره بالمراجعة، وإذا راجعها في حال الحيض يجوز أن يطلقها في حال الطهر الذي يعقب تلك الحيضة قبل المسيس كما رواه يونس بن جبير وأنس بن سيرين عن ابن عمر ولم يقلوا ثم تحيض ثم تطهر وما رواه نافع عن ابن عمر ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر فأمر استحباب استحباب تأخير الطلاق إلى الطهر الثاني حتى لا تكون مراجعته إياها للطلاق كما أنه يكره النكاح للطلاق، ولا بدعة في الجمع بين الطلقات الثلاث عند بعض أهل العلم فلو طلق امرأته في حال الطهر ثلاثاً لا يكون بدعيّاً وهو قول الشافعي وأحمد وذهب بعضهم إلى أنه بدعة وهو قول مالك وأصحاب الرأي.

في عهد رسول الله ﷺ فسأل عمر بن الخطاب رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: يا عمر مره فليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك بعد وإن شاء طلق قبل أن يمسه، فتلك العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء. ورواه سالم عن ابن عمر قال: «مره فليراجعها ثم ليطلقها طاهراً أو حاملاً»، ورواه يونس بن جبير وأنس بن سيرين عن ابن عمر: ولم يقلوا ثم تحيض ثم تطهر، أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا مسلم وسعيد بن سالم عن ابن جريج قال: أخبرني أبو الزبير أنه سمع عبد الرحمن بن أيمن مولى عروة يسأل عبد الله بن عمر وأبو الزبير يسمع فقال: كيف ترى في رجل طلق امرأته حائضاً؟ فقال ابن عمر: طلق عبد الله بن عمر امرأته حائضاً، فقال النبي ﷺ: «مره فليراجعها فإذا طهرت فليطلق أو ليمسك»، قال ابن عمر: وقال الله عز وجل: «يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن في قبل عدتهن أو لقبل عدتهن»، الشافعي يشك. ورواه حجاج بن محمد عن ابن جريج. وقال: قال ابن عمر: وقرأ النبي ﷺ: يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن في قبل عدتهن.

فصل

اعلم أن الطلاق في حال الحيض والنفاس بدعة وكذلك في الطهر الذي جامعها فيه، لقول النبي ﷺ: «وإن شاء طلق قبل أن يمسه». والطلاق السني أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه، وهذا في حق امرأة تلزمها العدة

(١) قوله في قبل عدتهن. قال في شرح مسلم هير قراءة ابن عباس وابن عمر وهي شاذة لا تثبت قرآناً بالإجماع ولا يكون لها حكم خبر الواحد عندنا اهـ.

قوله تعالى: ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ أي عدة أقرائها فاحفظوها؛ قيل أمر بإحصاء العدة لتفريق الطلاق على الأقراء إذا أراد أن يطلق ثلاثاً، وقيل للعلم ببقاء زمان الرجعة ومراعاة أمر النفقة والسكنى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ أي واحشوا الله ولا تعصوه فيما أمركم به ﴿لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بَيْوتِهِنَّ﴾ يعني إذا كان المسكن الذي طلقها فيه الزوج له بملك أو إكراء وإن كان عارية فارتفعت كان على الزوج أن يكرى لها منزلاً غيره ولا يجوز للزوج أن يخرج المرأة من المسكن الذي طلقها فيه ﴿وَلَا يَخْرُجَنَّ﴾ يعني ولا يجوز للمرأة أن تخرج ما لم تنقض عدتها لحق الله تعالى فإن خرجت لغير ضرورة أثمت فإن وقعت ضرورة بأن خافت هدماً أو غرقاً جاز لها أن تخرج إلى منزل آخر وكذلك إذا كان لها حاجة ضرورية من بيع غزل أو شراء قطن جاز لها الخروج نهاراً ولا يجوز ليلاً، يدل على ذلك أن رجالاً استشهدوا بأحد فقالت نسأؤهم نستوحش في بيوتنا فأذن لهن رسول الله ﷺ أن يتحدثن عند إحداهن فإذا كان وقت النوم تأوي كل امرأة إلى بيتها وأذن رسول الله ﷺ لخالة جابر وقد كان طلقها زوجها أن تخرج لجذاذ نخلها فإذا لزمته العدة في السفر تعتد في أهلها ذاهبة وراجعة والبدوية تنبأ حيث يتبوأ أهلها في العدة لأن الانتقال في حقهم كالإقامة في حق المقيم.

بالأقراء، فأما إذا طلق غير المدخول بها في حال الحيض أو طلق الصغيرة التي لم تحض قط أو الأيسة بعد ما جامعها، أو طلق الحامل بعد ما جامعها، أو في حال رؤية الدم لا يكون بدعياً ولا سُنَّة ولا بدعة، في طلاق هؤلاء لأن النبي ﷺ قال: «ثم ليطلقها طاهراً أو حاملاً». والخلع في حال الحيض أو في طهر جامعها فيه لا يكون بدعياً لأن النبي ﷺ أذن لثابت بن قيس في مخالعة زوجته من غير أن يعرف حالها، ولولا جوازه في جميع الأحوال لأشبهه أن يتعرف الحال، ولو طلق امرأته في حال الحيض أو في طهر جامعها فيه قصداً يعصي الله تعالى، ولكن يقع الطلاق لأن النبي ﷺ أمر ابن عمر بالمراجعة ولولا وقوع الطلاق لكان لا يأمره بالمراجعة، وإذا راجعها في حال الحيض يجوز أن يطلقها في الطهر الذي يعقب تلك الحيضة قبل المسيس، كما رواه يونس بن جبيرة وأنس بن سيرين عن ابن عمر، وما رواه نافع عن ابن عمر: ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر، فاستحباب استحباب تأخير الطلاق إلى الطهر الثاني حتى لا يكون مراجعته إياها للطلاق كما يكره النكاح للطلاق، ولا بدعة في الجمع بين الطلقات الثلاث عند بعض أهل العلم، حتى لو طلق امرأته في حال الطهر ثلاثاً لا يكون بدعياً وهو قول الشافعي وأحمد، وذهب بعضهم إلى أنه بدعة وهو قول مالك وأصحاب الرأي. قوله عز وجل: ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾، أي عدد أقرائها فاحفظوها، قيل: أمر بإحصاء العدة لتفريق الطلاق على الأقراء إذا أراد أن يطلق ثلاثاً. وقيل: للعلم ببقاء زمان الرجعة ومراعاة أمر النفقة والسكنى. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بَيْوتِهِنَّ﴾. أراد به إذا كان المسكن الذي طلقها فيه للزوج لا يجوز أن يخرجها منه، ﴿وَلَا يَخْرُجَنَّ﴾، ولا يجوز لها أن تخرج ما لم تنقض العدة، فإن خرجت لغير ضرورة أو حاجة أثمت، فإن وقعت ضرورة بأن خافت هدماً أو غرقاً لها أن تخرج إلى منزل آخر، وكذلك إن كانت لها حاجة من بيع غزل أو شراء قطن فيجوز لها الخروج نهاراً ولا يجوز ليلاً، فإن رجالاً استشهدوا بأحد فقالت نسأؤهم: نستوحش في بيوتنا، فأذن لهن النبي ﷺ أن يتحدثن عند إحداهن، فإذا كان وقت النوم تأوي كل امرأة إلى بيتها، وأذن النبي ﷺ لخالة جابر حين طلقها زوجها أن تخرج لجذاذ نخلها، وإذا لزمته العدة في السفر تعتد في أهلها ذاهبة وجائية، والبدوية تنبأ حيث يتبوأ أهلها في العدة، لأن الانتقال في حقهم كالإقامة في حق المقيم. قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ﴾، قال ابن عباس: الفاحشة المبينة أن تبدأ على أهل زوجها فيحل إخراجها، وقال جماعة: أراد بالفاحشة أن تزني فتخرج لإقامة الحد عليها، ثم ترد إلى منزلها، ويروى ذلك عن ابن مسعود، وقال قتادة: معناه إلا أن يطلقها على نشوزها فلها أن تتحول من بيت زوجها. والفاحشة: النشوز. وقال ابن عمر والسدي: خروجها قبل انقضاء العدة فاحشة. ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾، يعني ما

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ﴾ قال ابن عباس الفاحشة المبينة بذاتها على أهل زوجها فيحل إخراجها لسوء خلقها وقيل أراد بالفاحشة أن تزني فتخرج لإقامة الحد عليها ثم ترد إلى منزلها يروى ذلك عن ابن مسعود وقيل معناه إلا أن يطلقها على نشوزها فلها أن تتحول من بيت زوجها والفاحشة النشوز وقيل خروجها قبل انقضاء عدتها فاحشة ﴿وتلك حدود الله﴾ يعني ما ذكر من سنة الطلاق وما بعده من الأحكام ﴿ومن يتعد حدود الله﴾ أي فيطلق لغير السنة أو تجاوز هذه الأحكام ﴿فقد ظلم نفسه﴾ أي ضر نفسه ﴿لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾ أي يوقع في قلب الزوج مراجعتها بعد الطلقة والطلقتين وهذا يدل على أن المستحب أن يفرق الطلقات ولا يوقع الثلاث دفعة واحدة حتى إذا ندم أمكنه المراجعة.

عن محارب بن دثار أن رسول الله ﷺ قال «ما أحل الله شيئاً أبغض إليه من الطلاق» وأخرجه أبو داود مرسلًا وله في رواية عنه عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال «أبغض الحلال إلى الله الطلاق» عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال «أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير بأس به حرام عليها رائحة الجنة» وأخرجه أبو داود والترمذي.

فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ﴾ أي إذا قربن من انقضاء عدتهن ﴿فأمسكوهن﴾ أي راجعوهن ﴿بمعروف أو فارقوهن بمعروف﴾ أي اتركوهن حتى تنقضي عدتهن فبين منكم ﴿وأشهدوا ذوي عدل منكم﴾ أي على الرجعة وعلى الفراق أمر بالإشهاد على الرجعة وعلى الطلاق.

عن عمران بن حصين أنه سئل عن رجل يطلق امرأته ثم يقع عليها ولم يشهد على طلاقها ولا على رجعتها فقال طلقت لغير سنة وراجعت لغير سنة أشهد على طلاقها وعلى رجعتها ولا تعد. أخرجه أبو داود وهذا الإشهاد مندوب إليه عند أبي حنيفة كما في قوله وأشهدوا إذا تبايعتم وعند الشافعي هو واجب في الرجعة مندوب إليه في الفرقة وفائدة هذا الإشهاد أن لا يقع بينهما التجاحد وأن لا يتهم في إمساكها وأن لا يموت أحد الزوجين فيدعي الآخر ثبوت الزوجية ليرث؛ وقيل أمر بالإشهاد للاحتياط مخافة أن تنكر الزوجة المراجعة فتنقض العدة فتتكح زوجاً غيره ﴿وأقيموا الشهادة﴾ يعني أيها الشهود ﴿لله﴾ أي طلباً لمرضاة الله وقياماً بوصيته والمعنى اشهدوا بالحق وأدوها على الصحة ﴿ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾ قيل معناه ومن يتق الله فيطلق للسنة يجعل له مخرجاً إلى الرجعة.

ذكر من سنة الطلاق وما بعدها، ﴿ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾، يوقع في قلب الزوج مراجعتها بعد الطلقة والطلقتين، وهذا يدل على أن المستحب أن يفرق الطلقات، ولا يوقع الثلاث دفعة واحدة حتى إذا ندم أمكنه المراجعة.

﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ﴾، أي قربن من انقضاء عدتهن، ﴿فأمسكوهن﴾، أي راجعوهن، ﴿بمعروف أو فارقوهن بمعروف﴾، أي اتركوهن حتى تنقضي عدتهن فبين منكم، ﴿وأشهدوا ذوي عدل منكم﴾، على الرجعة أو الفراق أمر بالإشهاد على الرجعة وعلى الطلاق. ﴿وأقيموا الشهادة لله﴾، أيها الشهود، ﴿ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر. ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾، قال عكرمة والشعبي والضحاك: ومن يتق الله فيطلق للسنة يجعل له مخرجاً إلى الرجعة، وأكثر المفسرين قالوا: نزلت في عوف بن مالك الأشجعي أسر المشركون ابناً له يسمى مالكا فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أسر العدو ابني وشكا إليه أيضاً الفاقة، فقال له

وقال أكثر المفسرين نزلت في عوف بن مالك أسر ابن له يسمى مالكا فأتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله أسر العدو ابني وشكا إليه أيضاً فاقه فقال له النبي ﷺ اتق الله واصبر وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله ففعل الرجل ذلك فبينما هو في بيته إذ أتاه ابنه وقد غفل عنه العدو فأصاب منهم إبلاً وجاء بها إلى أبيه .

وعن ابن عباس قال غفل عنه العدو فاستاق غنمهم فجاء بها إلى أبيه وهي أربعة آلاف شاة فنزلت ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ أي في ابنه .

وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ

قَدْرًا ﴿٢﴾

﴿ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ يعني ما ساق من الغنم وقيل أصاب غنماً ومتاعاً ثم رجع إلى أبيه فانطلق أبوه إلى النبي ﷺ وأخبره الخبر وسأله أيحل له أن يأكل ما أتى به ابنه؟ فقال له النبي ﷺ نعم ونزلت الآية وقال ابن مسعود ومن يتق الله يجعل له مخرجاً من كل شيء ويرزقه من حيث لا يحتسب هو أن يعلم أنه من قبل الله وأن الله رازقه وقال الربيع بن خثيم يجعل له مخرجاً من كل شيء ضاق على الناس وقيل محرراً من كل شدة وقيل مخرجاً عما نهاه الله عنه ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ يعني من يتق الله فيما نابه كفاه ما أهمه وروي أن النبي ﷺ قال «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً» ﴿إن الله بالغ أمره﴾ أي منفذ أمره وممض في خلقه ما قضاه ﴿قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾ أي جعل لكل شيء من شدة أو رخاء أجلاً ينتهي إليه وقال مسروق في هذه الآية إن الله بالغ أمره توكل عليه أم لم يتوكل عليه غير أن المتوكل يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً .

وَالَّذِي يَسْنَنَ مِنَ الْمَجِيضِ مِنْ نَسَائِكُمْ إِنْ زَنْبَنُمْ فَعَدَّيْنِ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ وَالَّذِي لَا يَحْضَنُّ وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ

النبي ﷺ: «أتق الله واصبر وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله»، ففعل الرجل ذلك، فبينما هو في بيته إذ أتاه ابنه وقد غفل عنه العدو، فأصاب إبلاً وجاء بها إلى أبيه . وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: فغفل عنه العدو فاستاق غنمهم فجاء بها إلى أبيه، وهي أربعة آلاف شاة . فنزلت: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ في ابنه .

﴿ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾، ما ساق من الغنم، وقال مقاتل: أصاب غنماً ومتاعاً ثم رجع إلى أبيه فانطلق أبوه إلى النبي ﷺ وأخبره الخبر، وسأله أيحل له أن يأكل ما أتى به ابنه؟ فقال له النبي ﷺ: «نعم»، فأنزل الله هذه الآية . قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وابن مسعود: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ هو أن يعلم أنه من قبل الله وأن الله رازقه . وقال الربيع بن خثيم: ﴿يجعل له مخرجاً﴾ من كل شيء ضاق على الناس . وقال أبو العالية: ﴿يجعل له مخرجاً﴾ من كل شدة . وقال الحسن: ﴿مخرجاً﴾ عما نهاه الله عنه . ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾، يتق الله فيما نابه كفاه ما أهمه . وروينا أن النبي ﷺ قال: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً» . ﴿إن الله بالغ أمره﴾، قرأ طلحة بن مصرف وحفص عن عاصم ﴿بالغ أمره﴾ بالإضافة، وقرأ الآخرون ﴿بالغ﴾ بالتنوين ﴿أمره﴾ نصب، أي منفذ أمره ممض في خلقه قضاءه . ﴿قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾، أي جعل الله لكل شيء من الشدة والرخاء أجلاً ينتهي إليه . قال مسروق: في هذه الآية ﴿إن الله بالغ أمره﴾، توكل عليه أو لم يتوكل غير أن المتوكل عليه يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً .

أَجْلَهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْنَا وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾

قوله عز وجل: ﴿واللّٰئي يثسّن من المحيض من نسائكم﴾ قيل لما نزلت ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾ قال خلاد بن النعمان بن قيس الأنصاري يا رسول الله فما عدة من تحيض والتي لم تحض وعدة الحبلى فأنزل الله عز وجل: ﴿واللّٰئي يثسّن من المحيض من نسائكم﴾ يعني القواعد اللّٰئي قعدن عن الحيض فلا يرجى أن يحضن وهن العجائز الآيسات من الحيض ﴿إن ارتبتم﴾ أي شككنم في حكمهن ولم تدروا ما عدتهن ﴿فعدتهن ثلاثة أشهر واللّٰئي لم يحضن﴾ يعني الصغائر اللّٰئي لم يحضن بعد فعدتهن أيضاً ثلاثة أشهر أما الشابة التي كانت تحيض فارتفع حيضها قبل بلوغ سن الآيسات فذهب أكثر أهل العلم إلى أن عدتها لا تنقضي حتى يعاودها الدم فتعتد بثلاثة أقراء وتبلغ سن الآيسات فتعتد بثلاثة أشهر وهذا قول عثمان وعلي وزيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود وبه قال عطاء وإليه ذهب الشافعي وأصحاب الرأي وحكي عن عمر أنها تربص تسعة أشهر فإن لم تحض فتعتد بثلاثة أشهر وهو قول مالك وقال الحسن تربص سنة فإن لم تحض فتعتد بثلاثة أشهر وهذا كله في عدة الطلاق وأما المتوفى عنها زوجها فعدتها أربعة أشهر وعشر سواء كانت ممن تحيض أو لا تحيض وأما الحامل فعدتها بوضع الحمل سواء طلقها زوجها أو مات عنها وهو قوله تعالى: ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾ (ق) «عن سبيعة الأسلمية أنها كانت تحت سعد بن خولة وهو من بني عامر بن لؤي وكان ممن شهد بدرأ فتوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك رجل من بني عبد الدار فقال لها ما لي أراك تجملت للخطاب ترجين النكاح وأنت والله ما أنت بناكح حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشر قالت سبيعة فلما قال لي ذلك جمعت علي ثيابي حتى أمسيت وأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي وأمرني بالتزوج إن بدا لي» لفظ البخاري ولمسلم نحوه وزاد قال ابن شهاب ولا أرى

قوله عز وجل: ﴿واللّٰئي يثسّن من المحيض من نسائكم﴾، فلا يرجون أن يحضن، ﴿إن ارتبتم﴾، أي شككنم فلم تدروا ما عدتهن، ﴿فعدتهن ثلاثة أشهر﴾، قال مقاتل: لما نزلت: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾ [البقرة: ٢٢٨]، قال خلاد بن النعمان بن القيس الأنصاري: يا رسول الله فما عدة من لا تحيض والتي لم تحض وعدة الحبلى؟ فأنزل الله: ﴿واللّٰئي يثسّن من المحيض من نسائكم﴾ يعني القواعد اللّٰئي قعدن عن الحيض ﴿إن ارتبتم﴾ شككنم في حكمهن ﴿فعدتهن ثلاثة أشهر﴾. ﴿واللّٰئي لم يحضن﴾، يعني الصغائر اللّٰئي لم يحضن فعدتهن أيضاً ثلاثة أشهر أما الشابة التي كانت تحيض فارتفع حيضها قبل بلوغها سن الآيسات، فذهب أكثر أهل العلم إلى أن عدتها لا تنقضي حتى يعاودها الدم فتعتد بثلاثة أقراء أو تبلغ سن الآيسات فتعتد بثلاثة أشهر، وهو قول عثمان وعلي وزيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود، وبه قال عطاء وإليه ذهب الشافعي وأصحاب الرأي، وحكي عن عمر: أنها تربص تسعة أشهر فإن لم تحض فتعتد بثلاثة أشهر وهو قول مالك. وقال الحسن: تربص سنة فإن لم تحض فتعتد بثلاثة أشهر. وهذا كله في عدة الطلاق، أما المتوفى عنها زوجها فعدتها أربعة أشهر وعشر سواء كانت ممن تحيض أو لا تحيض، وأما الحامل فعدتها بوضع الحمل سواء طلقها زوجها أو مات عنها لقوله تعالى: ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾، أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا سفيان أنا الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن أبيه أن سبيعة بنت الحارث وضعت بعد وفاة زوجها بليالٍ فمرّ بها أبو السنابل بن بعكك فقال قد

بأساً أن تتزوج حين وضعت وإن كانت في دمها غير أنها لا يقربها زوجها حتى تطهر ﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً﴾ أي يسهل عليه أمر الدنيا والآخرة ﴿ذلك﴾ أي ذلك الذي ذكر من الأحكام ﴿أمر الله أنزله إليكم﴾ أي لتعلموا به ﴿ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً﴾

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَمْرُهُمْ بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فَسَرِّضْ لَهُ أُخْرَى ۖ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۖ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً ءَاتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾

قوله تعالى: ﴿أسكنوهن﴾ يعني مطلقات نسائك ﴿من حيث سكنتم من وجدكم﴾ أي من سعتكم وطاقتم فإن كان موسراً يوسع عليها في المسكن والنفقة وإن كان فقيراً فعلى قدر الطاقة ﴿ولا تضاروهن﴾ أي لا تؤذوهن ﴿لتضيقوا عليهن﴾ يعني في مساكنهن فيخرجن ﴿وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن﴾ أي فيخرجن من عدتهن.

(فصل: في حكم الآية)

اعلم أن المعتدة الرجعية تستحق على الزوج النفقة والسكنى ما دامت في العدة ونعني بالسكنى مؤنة السكنى فإن كانت الدار التي طلقها الزوج فيها ملك الزوج يجب عليه أن يخرج منها ويترك الدار لها مدة عدتها وإن كانت بإجارة فعلى الزوج الأجرة وإن كانت عارية فرجع الميعر فعليه أن يكتري لها داراً تسكنها وأما المعتدة البائنة بالخلع أو بالطلاق الثلاث أو باللعان فلها السكنى حاملاً كانت أو غير حامل عند أكثر أهل العلم وروي عن ابن عباس أنه قال لا سكنى لها إلا أن تكون حاملاً وهو قول الحسن والشعبي.

تصنعت للأزواج أنها أربعة أشهر وعشر، فذكرت ذلك سبعة لرسول الله ﷺ فقال: «كذب أبو السنابل أو ليس كما قال أبو السنابل قد حللت فتزوجي». ﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً﴾، أي يسهل عليه أمر الدنيا والآخرة. ﴿ذلك﴾، يعني ما ذكر من الأحكام، ﴿أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً﴾. ﴿اسكنوهن﴾، يعني مطلقات نسائك ﴿من حيث سكنتم﴾، ﴿من﴾ صلة أي اسكنوهن حيث سكنتم، ﴿من وجدكم﴾، سعتكم وطاقتم يعني إن كان موسراً يوسع عليها في المسكن والنفقة، وإن كان فقيراً فعلى قدر الطاقة، ﴿ولا تضاروهن﴾، لا تؤذوهن، ﴿لتضيقوا عليهن﴾، مساكنهن فيخرجن، ﴿وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن﴾، فيخرجن من عدتهن.

فصل

اعلم أن المعتدة الرجعية تستحق على الزوج النفقة والسكنى ما دامت في العدة ونعني بالسكنى مؤنة السكنى فإن كانت الدار التي طلقها فيها ملكاً للزوج يجب على الزوج أن يخرج منها ويترك الدار لها مدة عدتها، وإن كانت بإجارة فعلى الزوج الأجرة، وإن كانت عارية ورجع الميعر فعليه أن يكتري لها داراً تسكنها، فأما المعتدة البائنة بالخلع أو بالطلاق الثلاث أو باللعان فلها السكنى حاملاً كانت أو حائلاً عند أكثر أهل العلم. روي ذلك عن ابن عباس أنه قال: لا سكنى لها إلا أن تكون حاملاً وهو قول الحسن وعطاء والشعبي، واختلفوا في نفقتها فذهب قوم

واختلفوا في نفقتها فذهب قوم إلى أنه لا نفقة لها إلا أن تكون حاملاً، يروى ذلك، عن ابن عباس وهو قول الحسن والشعبي وبه قال الشافعي وأحمد ومنهم من أوجبها بكل حال يروى ذلك عن ابن مسعود وهو قول إبراهيم النخعي، وبه قال الثوري وأصحاب الرأي وظاهر القرآن يدل على أنها لا تستحق النفقة إلا أن تكون حاملاً لقوله تعالى: ﴿وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يوضعن حملهن﴾ وأما الدليل على ذلك من السنة فما روي عن فاطمة بنت قيس أن أبا عمرو بن حفص طلقها البتة وهو غائب فأرسل إليها وكيله بشعير فسخطته فقال والله ما لك علينا من شيء فجاءت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فقال لها ليس لك عليه نفقة وأمرها أن تعتد في بيت أم شريك ثم قال تلك امرأة يغشاها أصحابي فاعتدي عند ابن أم مكتوم فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك عنده فإذا حللت فأذيني قالت فلما حللت ذكرت له أن معاوية بن أبي سفيان وأبا جهم خطباني فقال رسول الله ﷺ أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه وأما معاوية فصعلوك لا مال له انكحي أسامة بن زيد فكرهته ثم قال انكحي أسامة بن زيد فنكحته فجعل الله فيه خيراً واغتبطت به» أخرجه مسلم واحتج بهذا الحديث من لم يجعل لها سكنى وقال إن النبي ﷺ أمرها أن تعتد في بيت عبد الله بن أم مكتوم ولا حجة له فيه لما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت كانت فاطمة في مكان وحش فخيف على ناحيتها وقال سعيد بن المسيب إنما نقلت فاطمة لطول لسانها على أحمائها وكان في لسانها ذرابة: وأما المعتدة عن وطء الشبهة والمفسوخ نكاحها بعيب أو خيار عتق فلا سكنى لها ولا نفقة وإن كانت حاملاً وأما المعتدة عن وفاة الزوج فلا نفقة لها عند أكثر أهل العلم وروي عن علي أن لها النفقة إن كانت حاملاً من التركة حتى تضع وهو قول شريح والشعبي والنخعي والثوري.

واختلفوا في سكنائها وللشافعي فيه قولان:

إلى أنه لا نفقة لها إلا أن تكون حاملاً. روي ذلك عن ابن عباس وهو قول الحسن وعطاء والشعبي، وبه قال الشافعي وأحمد ومنهم من أوجبها بكل حال روي ذلك عن ابن مسعود، وهو قول إبراهيم النخعي وبه قال الثوري وأصحاب الرأي وظاهر القرآن يدل على أنها لا تستحق إلا أن تكون حاملاً لأن الله تعالى قال: ﴿وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن﴾ والدليل عليه من جهة السنة ما أخبرنا أبو الحسن محمد بن أحمد السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا مصعب عن مالك عن عبد الله بن يزيد مولى الأسود بن سفيان عن أبي سلمة عن عبد الرحمن عن فاطمة بنت قيس أن أبا عمرو بن حفص طلقها البتة وهو غائب بالشام فأرسل إليها وكيله بشعير فسخطته، فقال: والله ما لك علينا من شيء فجاءت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فقال لها: «ليس لك عليه نفقة وأمرها أن تعتد في بيت أم شريك»، ثم قال: «تلك امرأة يغشاها أصحابي فاعتدي عند ابن أم مكتوم فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك فإذا حللت فأذيني»، قالت: فلما حللت ذكرت له أن معاوية بن أبي سفيان وأبا جهم خطباني، فقال رسول الله ﷺ: «أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأما معاوية فصعلوك لا مال له، انكحي أسامة بن زيد»، قالت فكرهته، ثم قال: «انكحي أسامة بن زيد»، فنكحته فجعل الله فيه خيراً واغتبطت به. واحتج من لم يجعل لها السكنى بحديث فاطمة بنت قيس أن النبي ﷺ أمرها أن تعتد في بيت عبد الله بن أم مكتوم ولا حجة فيه لما روي عن عائشة أنها قالت كانت فاطمة في مكان وحش فخيف على ناحيتها. وقال سعيد بن المسيب: إنما نقلت فاطمة لطول لسانها على أحمائها وكان للسانها ذرابة أما المعتدة عن وطء الشبهة والمفسوخ نكاحها بعيب أو خيار عتق فلا سكنى لها ولا نفقة وإن كانت حاملاً، والمعتدة عن وفاء الزوج لا نفقة لها حاملاً كانت أو حائلاً عند أكثر أهل العلم، وروي عن علي رضي الله تعالى عنه أن لهذه النفقة إن كانت حاملاً من التركة حتى تضع، وهو قول شريح والشعبي والنخعي والثوري، واختلفوا في سكنائها وللشافعي رضي الله عنه فيه قولان أحدهما لا سكنى لها بل

أحدهما: أنه لا سكنى لها بل تعتد حيث تشاء وهو قول علي وابن عباس وعائشة وبه قال عطاء والحسن وهو قول أبي حنيفة.

والثاني: أن لها السكنى وهو قول عمر وعثمان وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وبه قال مالك والثوري وأحمد وإسحاق.

واحتج من أوجب لها السكنى بما روي عن الفريضة بنت مالك بن سنان وهي أخت أبي سعيد الخدري «أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ وسألته أن ترجع إلى أهلها في بني خدرة فإن زوجها خرج في طلب أعبد له أبقوا حتى إذا كان بطرف القدوم لحقهم فقتلوه قالت فسألت رسول الله ﷺ أن أرجع إلى أهلي في بني خدرة فإن زوجي لم يتركني في مسكن يملكه ولا نفقة قالت فقال رسول الله ﷺ نعم قالت فانصرفت حتى إذا كنت في الحجرة ناداني رسول الله ﷺ أو أمر بي فنوديت فقال كيف قلت فرددت عليه القصة التي ذكرت له من شأن زوجي فقال امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله قالت فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشرًا قالت فلما كان عثمان أرسل إليّ فسألني عن ذلك فأخبرته فاتبعه وقضى به» أخرجه أبو داود والترمذي، فمن قال بهذا القول قال إذنه لفريضة أولاً بالرجوع صار منسوخاً بقوله آخرًا «امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله» ومن لم يوجب السكنى قال أمرها بالملك في بيتها آخرًا استحباباً لا وجوباً.

قوله عز وجل: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ يعني أولادكم ﴿فَاتَوْهْنَ أَجُورَهُنَّ﴾ يعني على إرضاعهن، وفيه دليل على أن اللبن وإن كان قد خلق لمكان الولد فهو ملك للأم وإلا لم يكن لها أن تأخذ عليه أجرًا وفيه دليل على أن حق الرضاع والنفقة على الأزواج في حق الأولاد ﴿وَأْتَمَرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي ليقبل بعضكم من بعض إذا أمره بالمعروف وقيل يتراضى الأب والأم على أجر مسمى والخطاب للزوجين جميعاً أمرهم أن يأتوا بالمعروف وما هو الأحسن ولا يقصدوا الضرر، وقيل المعروف هاهنا لا أن يقصر الرجل في حق المرأة ونفقتها ولا المرأة في حق الولد ورضاعه ﴿وَأَنْ تَعَاْسَ رَبُّنَّ﴾ أي في حق الولد وأجرة الرضاع فأبى الزوج أن يعطي المرأة أجرة رضاعها وأبى الأم أن ترضعه فليس له

تعتد حيث تشاء، وهو قول علي وابن عباس وعائشة، وبه قال عطاء والحسن وهو قول أبي حنيفة رضي الله عنه، والثاني: لها السكنى وهو قول عمر وعثمان وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر، وبه قال مالك وسفيان الثوري وأحمد وإسحاق، واحتج من أوجب لها السكنى بما أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن سعيد بن إسحاق بن كعب بن عجرة عن عمته زينب بنت كعب أن الفريضة بنت مالك بن سنان وهي أخت أبي سعيد الخدري أخبرتها أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ تسأله أن ترجع إلى أهلها في بني خدرة فإن زوجها خرج في طلب أعبد له أبقوا حتى إذا كان بطرف القدوم لحقهم، فقتلوه فسألت رسول الله ﷺ أن أرجع إلى أهلي فإن زوجي لم يتركني في منزل يملكه ولا نفقة فقالت: قال رسول الله ﷺ: «نعم»، فانصرفت حتى إذا كنت في الحجرة أو في المسجد دعاني أو أمر بي رسول الله ﷺ فدُعيت له، فقال رسول الله ﷺ: «كيف؟» قالت فرددت عليه القصة التي ذكرت من شأن زوجي، فقال: «امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله»، قالت: فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشرًا، قالت: فلما كان عثمان أرسل إليّ فسألني عن ذلك فأخبرته فاتبعه وقضى به، فمن قال بهذا القول قال: إذنه لفريضة أولاً بالرجوع إلى أهلها صار منسوخاً بقوله آخرًا: «امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله»، ومن لم يوجب السكنى قال أمرها بالملك في بيتها آخرًا استحباباً لا وجوباً. قوله عز وجل: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾، أي أرضعن أولادكم، ﴿فَاتَوْهْنَ أَجُورَهُنَّ﴾، على إرضاعهن ﴿وَأْتَمَرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾، ليقبل بعضكم من بعض إذا أمره بالمعروف، وقال الشافعي: شاوروا قال مقاتل

إكراهها على إرضاعه بل يستأجر للصبي مرضعاً غير أمه وذلك قوله: ﴿فسترضع له أخرى لينفق ذو سعة من سعته﴾ أي على قدر غناه ﴿ومن قدر﴾ أي ضيق ﴿عليه رزقه﴾ فكان بمقدار القوت ﴿فلينفق مما آتاه الله﴾ أي على قدر ما آتاه الله من المال ﴿لا يكلف الله نفساً﴾ أي في النفقة ﴿إلا ما آتاه﴾ يعني من المال والمعنى لا يكلف الفقير مثل ما يكلف الغني في النفقة ﴿سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ أي بعد ضيق وشدة غنى وسعة. قوله تعالى:

وَكَايْنٍ مِّن قَرْيَةٍ عَنَتٍ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَهَا حَسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكَرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّخُرَاجِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَكُمْ رِزْقًا ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾

﴿وكاين من قرية عنت﴾ أي عصت وطغت والمراد أهل القرية ﴿عن أمر ربها ورسوله﴾ أي وأمر رسله ﴿فحاسبناها حساباً شديداً﴾ أي بالمناقشة والاستقصاء وقيل حاسبها بعملها في الكفر فجزاها النار وهو قوله ﴿وعذبناها عذاباً نكراً﴾ أي منكرأ فظيعاً وقيل في الآية تقديم وتأخير مجازها فعذبناها في الدنيا بالجوع والقحط والسيوف وسائر أنواع البلاء وحاسبناها في الآخرة حساباً شديداً ﴿فذاقَتْ وبَالَ أمرها﴾ أي شدة أمرها وجزاء كفرها ﴿وكان عاقبة أمرها خسراً﴾ أي خسراناً في الدنيا والآخرة ﴿أعد الله لهم عذاباً شديداً﴾ يخوف كفار مكة أن ينزل بهم مثل ما نزل بالأمم الماضية ﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب﴾ أي يا ذوي العقول ثم نعتهم فقال تعالى: ﴿الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً﴾ يعني القرآن ﴿رسولاً﴾ أي وأرسل إليكم رسولاً ﴿يتلو عليهم آيات الله مبينات﴾ قرىء مبينات

بتراضي الأب والأم على أجر مسمى، والخطاب للزوجين جميعاً يأمرهم أن يأتوا بالمعروف وبما هو الأحسن ولا يقصدوا الضرار، ﴿وإن تعاسرتم﴾، في الرضاع والأجرة فأبى الزوج أن يعطي المرأة أجرتها وأبت الأم أن ترضعه فليس له إكراهها على إرضاعه، ولكنه يستأجر للصبي مرضعاً غير أمه وذلك قوله: ﴿فسترضع له أخرى﴾. ﴿لينفق ذو سعة من سعته﴾، على قدر غناه، ﴿ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله﴾، من المال، ﴿لا يكلف الله نفساً﴾، في النفقة، ﴿إلا ما آتاه﴾، أعطاه من المال، ﴿سيجعل الله من بعد عسر يسراً﴾، بعد ضيق وشدة غنى وسعة.

قوله عز وجل: ﴿وكاين من قرية عنت﴾، عصت وطغت، ﴿عن أمر ربها ورسوله﴾، أي وأمر رسله، ﴿فحاسبناها حساباً شديداً﴾، بالمناقشة والاستقصاء، قال مقاتل: حاسبها بعملها في الدنيا فجزاها بالعذاب، وهو قوله: ﴿وعذبناها عذاباً نكراً﴾، منكرأ فظيعاً وهو عذاب النار لفظهما ماضٍ ومعناها المستقبل، وقيل: في الآية تقديم وتأخير مجازها فعذبناها في الدنيا بالجوع والقحط والسيوف وسائر البلاء وحاسبناها في الآخرة حساباً شديداً. ﴿فذاقَتْ وبَالَ أمرها﴾، جزاء أمرها، وقيل: ثقل عاقبة كفرها، ﴿وكان عاقبة أمرها خسراً﴾، خسراناً في الدنيا والآخرة.

﴿أعد الله لهم عذاباً شديداً فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً﴾، يعني القرآن. ﴿رسولاً﴾ بدلاً من الذكر، وقيل: أنزل إليكم قرآناً وأرسل رسولاً وقيل مع الرسول، وقيل: الذكر هو

بالخفض أي تبين الحلال من الحرام والأمر والنهي وقرئ بالنصب ومعناه أنها واضحات ﴿ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور﴾ أي من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ومن ظلمة الجهل إلى نور العلم ﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً﴾ يعني الجنة التي لا ينقطع نعيمها وقيل يرزقون طاعة في الدنيا وثواباً في الآخرة ﴿الله الذي خلق سبع سموات﴾ يعني بعضها فوق بعض ﴿ومن الأرض مثلهن﴾ أي في العدد ﴿يتنزل الأمر بينهن﴾ أي الوحي إلى خلقه من السماء العليا إلى الأرض السفلى وقيل هو ما يدبر فيهن من عجائب تدبيره ينزل المطر ويخرج النبات ويأتي بالليل والنهار وبالصيف والشتاء ويخلق الحيوان على اختلاف هيئاته وينقله من حال إلى حال فيحكم بحياة بعض وموت بعض وسلامة هذا وهلاك هذا، وقيل في كل سماء من سمواته وأرض من أرضيه خلق من خلقه وأمر من أمره وقضاء من قضائه ﴿لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى عالم بكل شيء لا تخفى عليه خافية وأنه قادر على الإنشاء بعد الإفناء وكل الكائنات جارية تحت قدرته داخله في علمه والله تعالى أعلم.

الرسول، وقيل: ذكراً أي شرفاً ثم بين ما هو فقال: ﴿يتلوا عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً﴾، يعني الجنة التي لا ينقطع نعيمها.

﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن﴾، في العدد، ﴿يتنزل الأمر بينهن﴾، بالوحي من السماء السابعة إلى الأرض السفلى، قال أهل المعاني: هو ما يدبر فيهن من عجيب تدبيره فيُنزل المطر ويُخرج النبات، ويأتي بالليل والنهار والصيف والشتاء، ويخلق الحيوان على اختلاف هيئاتها وينقلها من حال إلى حال. وقال قتادة: في كل أرض من أرضه وسماء من سمائه خلق من خلقه وأمر من أمره وقضاء من قضائه. ﴿لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾، فلا يُخفى عليه شيء.

سورة التحريم

(مدنية وهي اثنتا عشرة آية ومائتان وسبع وأربعون كلمة وألف وستون حرفاً)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾

قوله عز وجل: ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم﴾ ذكر سبب نزولها، (ق) عن عائشة رضي الله عنها قالت «كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه فيدنو من إحداهن فدخل على حفصة بنت عمر فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس فغرت فسألت عن ذلك فقيل لي أهدت لها امرأة من قومها عكة من عسل فسقت النبي ﷺ منه شربة فقلت أما والله لنحتالن له فذكرت ذلك لسودة وقلت إذا دخل عليك فإنه سيدنو منك فقولي له يا رسول الله أكلت مغاير فإنه سيقول لا فقولي ما هذه الرياح التي أجد وكان رسول الله ﷺ يشتد عليه أن يوجد منه الريح فإنه سيقول لك سقتني حفصة شربة عسل فقولي له جرت نحله العرفط وسأقول ذلك وقولي أنت يا صفية ذلك فلما دخل على سودة قالت تقول سودة والله الذي لا إله إلا هو لقد كدت أبادئه بالذي قلت لي وإنه لعلى الباب فرقاً منك فلما دنا منها قالت له سودة يا رسول الله أكلت

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

مدنية وهي اثنتا عشرة آية.

﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم﴾، وسبب نزولها ما أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عبيد الله بن إسماعيل ثنا أبو أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل وكان إذا صلى العصر دخل على نسائه فيدنو منهن فدخل على حفصة فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس فسألت عن ذلك، فقيل لي أهدت لها امرأة من قومها عكة عسل فسقت رسول الله ﷺ منها شربة فقلت أما والله لنحتالن له فذكرت ذلك لسودة، وقلت إذا دخل عليك فإنه سيدنو منك فقولي له يا رسول الله أكلت مغاير فإنه سيقول لا فقولي له ما هذه الرياح، وكان رسول الله ﷺ يشتد عليه أن يوجد منه الريح فإنه سيقول سقتني حفصة شربة عسل، فقولي له رسول الله جرت نحله العرفط، سأقول ذلك وقولي أنت يا صفية، فلما دخل على سودة قالت سودة: والله الذي لا إله إلا هو لقد كدت أن أبادئه بالذي قلت لي وإنه لعلى الباب فرقاً منك، فلما دنا رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله أكلت مغاير، قال: «لا»، قالت: فما بال هذه الريح؟ قال: «سقتني حفصة شربة عسل»، قالت: جرت نحله العرفط، فلما دخل عليّ قلت له مثل ذلك، ودخل على صفية فقالت مثل ذلك. فلما دخل

مغافير؟ قال لا قالت فما هذه الريح التي أجد منك؟ قال سقتني حفصة شربة عسل قال جرت نحل العرط فلما دخل علي قلت له مثل ذلك ثم دخل على صفية فقالت له مثل ذلك فلما دخل على حفصة قالت له يا رسول الله ألا أسقيك منه؟ قال لا حاجة لي فيه قالت تقول سودة سبحان الله لقد حرمناه قلت لها اسكتي» (ق) عن عائشة رضي الله عنها «أن النبي ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلاً فتواطيت أنا وحفصة أن آيتنا دخل عليها النبي ﷺ فلتقل له إني أجد منك ريح مغافير أكلت مغافير فدخل على إحدهما فقالت ذلك له فقال بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود له فنزلت ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾ إلى قوله ﴿إن تتوبا إلى الله﴾ لعائشة وحفصة «وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً» لقوله «بل شربت عسلاً ولن أعود له وقد حلفت فلا تخبري بذلك أحداً» زاد في رواية «يبتغي بذلك مرضاة أزواجه».

(شرح غريب ألفاظ الحديثين وما يتعلق بهما)

قولها كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل الحلواء بالمد وهو كل شيء حلو وذكر العسل بعدها وإن كان داخلاً في جملة الحلواء تنبيهاً على شرفه ومزيته وهو من باب ذكر الخاص بعد العام قولها في الحديث الثاني فتواطيت أنا وحفصة هكذا ذكر في الرواية وأصله فتواطأت أي اتفقت أنا وحفصة قولها إني لأجد منك ريح مغافير هو بغين معجمة وفاء بعدها ياء وراء وهو صمغ حلو كالناطف وله رائحة كريهة ينضحه شجر يقال له العرط بضم العين المهملة وبالفاء يكون بالحجاز وقيل العرط نبات له ورق عريض يفرش على الأرض له شوكة وثمره خبيث الرائحة، وقال أهل اللغة العرط من شجر العضاه وهو كل شجر له شوك، وقيل رائحته كرائحة النبيذ وكان النبي ﷺ يكره أن يوجد منه رائحة كريهة قولها جرت نحل العرط نحل العرط هو بالجيم والراء وبالسین المهملتين ومعناه أكلت نحل العرط فصار منه العسل قولها في الحديث الثاني فقال شربت عسلاً عند زينب بنت جحش وفي الحديث الأول أن الشرب كان عند حفصة بنت عمر بن الخطاب وأن عائشة وسودة وصفية هن اللواتي تظاهرن عليه قال القاضي عياض والصحيح الأول قال النسائي إسناده حديث حجاج بن محمد عن ابن جريج صحيح حيد غاية وقال الأصيلي حديث حجاج أصح وهو أولى بظاهر كتاب الله وأكمل فائدة يريد قوله تعالى: ﴿وإن تظاهرا عليه﴾ وهما ثنتان لا ثلاثة وأنهما عائشة وحفصة كما اعترف به عمر في حديث ابن عباس وسيأتي الحديث قال وقد انقلبت الأسماء على الراوي في الرواية الأخرى يعني الحديث الأول الذي فيه أن الشرب كان عند حفصة قال القاضي عياض: والصواب أن شرب العسل كان عند زينب بنت جحش ذكره الشيخ محيي الدين النووي في شرح مسلم وكذا ذكره القرطبي أيضاً وقال المفسرون في سبب النزول «إن النبي ﷺ كان يقسم بين نسائه فلما كان يوم حفصة استأذنت رسول الله ﷺ في زيارة أبيها فأذن لها فلما خرجت أرسل رسول الله ﷺ جاريته مارية القبطية فأدخلها بيت حفصة وخلّا بها فلما رجعت حفصة وجدت الباب

على حفصة قالت له: يا رسول الله ألا أسقيك منه قال: «لا حاجة لي به»، قالت تقول سودة: سبحان الله لقد حرمناه، قالت: قلت لها: اسكتي. وأخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا الحسن بن محمد الصباح ثنا الحجاج عن أبي جريج قال: زعم عطاء أنه سمع عبيد بن عمير يقول سمعت عائشة رضي الله عنها تقول: إن رسول الله ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلاً فتواطيت أنا وحفصة أن آيتنا دخل عليها النبي ﷺ فلتقل له إني أجد منك ريح مغافير، فدخل على إحدهما فقالت له ذلك، فقال: لا بأس شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود له، فنزلت: ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك﴾ إلى قوله: ﴿إن تتوبا إلى الله﴾ لعائشة وحفصة، ﴿وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً﴾ لقوله: بل شربت عسلاً، وبهذا الإسناد قال: حدثنا محمد بن إسماعيل أنا

مغلقاً فجلست عند الباب فخرج رسول الله ﷺ ووجهه يقطر عرقاً وحفصة تبكي فقال ما يبكيك؟ قالت إنما أذنت لي من أجل هذا أدخلت أمتك بيتي ووقعت عليها في يومي وعلى فراشي أما رأيت لي حرمة وحقاً ما كنت تصنع هذا بامرأة منهم فقال رسول الله ﷺ أليس هي جاريتي قد أحلها الله لي اسكتي فهي علي حرام ألتمس بذلك رضاك فلا تخبري بهذا امرأة منهم فلما خرج رسول الله ﷺ قرعت حفصة الجدار الذي بينها وبين عائشة فقالت ألا أبشرك أن رسول الله ﷺ قد حرم عليه أمته مارية وقد أراحنا الله منها وأخبرت عائشة بما رأت وكانت متصافيتين متظاهرتين على سائر أزواج النبي بها ﷺ فغضبت عائشة فلم تزل بنبي الله ﷺ حتى حلف أن لا يقربها عن أنس بن مالك رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها بها فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرماها على نفسه فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾ الآية أخرجه النسائي قال العلماء الصحيح في سبب نزول الآية أنها في قصة العسل لا في قصة مارية المروية في غير الصحيحين ولم تأت قصة مارية من طريق صحيح قال النسائي إسناد حديث عائشة في العسل جيد صحيح غاية، ﴿وأما التفسير﴾ فقوله ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾ أي من العسل أو ملك اليمين على اختلاف الرواية فيه وهذا التحريم تحريم امتناع عن الانتفاع بها أو بالعسل لا تحريم اعتقاد بكونه حراماً بعد ما أحله الله فالنبي ﷺ امتنع عن الانتفاع بذلك مع اعتقاده أن ذلك حلال تبتغي مرضاة أزواجك أي تطلب رضاهن بترك ما أحل الله لك والله غفور رحيم أي غفر لك ذلك التحريم.

قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذَا أَسَرَ الْتَوَّىٰ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُمْ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾

﴿قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم﴾ أي بين وأوجب لكم تحليل أيمانكم بالكفارة وهو ما ذكر في سورة المائدة فأمره الله أن يكفر عن يمينه ويراجع أمته فأعتق رقبة ﴿والله مولاكم﴾ أي وليكم وناصركم ﴿وهو العليم﴾ أي بخلقكم ﴿الحكيم﴾ أي فيما فرض من حكمه.

إبراهيم بن موسى أنا هشام بن يوسف عن ابن جريج عن عطاء بإسناده وقال: قال: لا ولكن كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش فلن أعود له، وقد حلفت فلا تخبري بذلك أحداً، يبتغي بذلك مرضات أزواجه، وقال المفسرون: وكان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه، فلما كان يوم حفصة استأذنت رسول الله ﷺ في زيارة أبيها فأذن لها، فلما خرجت أرسل رسول الله ﷺ إلى جاريتها مارية القبطية فأدخلها بيت حفصة، فوقع عليها فلما رجعت حفصة وجدت الباب مغلقاً، فجلست عند الباب فخرج رسول الله ﷺ ووجهه يقطر عرقاً، وحفصة تبكي فقال: «ما يبكيك؟» فقالت: إنما أذنت لي من أجل هذا أدخلت أمتك بيتي ثم وقعت عليها في يومي وعلى فراشي أما رأيت لي حرمة وحقاً ما، كنت تصنع هذا بامرأة منهم، فقال رسول الله ﷺ: «أليست هي جاريتي أحلها الله لي اسكتي فهي حرام علي ألتمس بذلك رضاك، فلا تخبري بهذا امرأة منهم»، فلما خرج رسول الله ﷺ قرعت حفصة الجدار الذي بينها وبين عائشة فقالت: ألا أبشرك أن رسول الله ﷺ قد حرم عليه أمته مارية، وقد أراحنا الله منها وأخبرت عائشة بما رأت وكانت متصافيتين متظاهرتين على سائر أزواج النبي ﷺ، فغضبت عائشة فلم تزل بنبي الله ﷺ حتى حلف أن لا يقربها، فأنزل الله عز وجل: ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾ يعني العسل ومارية ﴿تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم﴾ وأمر أن يكفر يمينه ويراجع أمته، فقال:

﴿قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم﴾، أي بين وأوجب أن تكفروها إذا حنثتم وهي ما ذكر في سورة المائدة

(فصل)

اختلف العلماء في لفظ التحريم فقليل ليس هو يمين فإن قال لزوجته أنت علي حرام أو قال حرمتك فإن نوى طلاقاً فهو طلاق وإن نوى ظهاراً فظهار وإن نوى تحريم ذاتها أو أطلق فعليه كفارة اليمين بنفس اللفظ وإن قال ذلك لجاريته فإن نوى عتقاً عتقت وإن نوى تحريم ذاتها أو أطلق فعليه كفارة اليمين وإن قال لطعام حرمة على نفسي فلا شيء عليه وهذا قول أبي بكر وعمر وغيرهما من الصحابة والتابعين وإليه ذهب الشافعي وإن لم ينو شيئاً ففيه قولان للشافعي أحدهما أنه يلزمه كفارة اليمين، والثاني لا شيء عليه وأنه لغو فلا يترتب عليه شيء من الأحكام وذهب جماعة إلى أنه يمين فإن قال ذلك لزوجته أو جاريته فلا تجب عليه الكفارة ما لم يقربها كما لو حلف أن لا يطؤها وإن حرم طعاماً فهو كما لو حلف أن لا يأكله فلا كفارة عليه ما لم يأكله وإليه ذهب أبو حنيفة وأصحابه (ق) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال «إذا حرم الرجل امرأته فهي يمين يكفرها وقال لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة» وفي رواية «إذا حرم امرأته ليس بشيء» وقال لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة» لفظ الحميدي.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ يعني ما أسر إلى حفصة من تحريم مارية على نفسه واستكتمها ذلك وهو قوله لا تخبري بذلك أحداً وقال ابن عباس أسر أمر الخلافة بعده فحدثت به حفصة قال الكلبي أسر إليها إن أباك وأبا عائشة يكونان خليفتين على أمتي من بعدي، وقيل لما رأى الغيرة في وجه حفصة أراد أن

[٨٩]، ﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾، وليكم وناصركم، ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾، واختلف أهل العلم في لفظ التحريم، فقال قوم: ليس هو يمين فإن قال لزوجته أنت علي حرام أو حرمتك فإن نوى به طلاقاً فهو طلاق، وإن نوى به ظهاراً فظهار، وإن نوى تحريم ذاتها أو أطلق فعليه كفارة اليمين بنفس اللفظ، وإن قال ذلك لجاريته فإن نوى عتقاً عتقت، وإن نوى تحريم ذاتها أو أطلق فعليه كفارة اليمين، فإن قال لطعام حرمة على نفسي فلا شيء عليه، وهذا قول ابن مسعود وإليه ذهب الشافعي، وذهب جماعة إلى أنه يمين، فإن قال ذلك لزوجته أو جاريته فلا تجب عليه الكفارة ما لم يقربها، كما لو حلف أن لا يطأها وإن حرم طعاماً فهو كما لو حلف أن لا يأكله فلا كفارة عليه ما لم يأكل، يُروى ذلك عن أبي بكر وعائشة، وبه قال الأوزاعي وأبو حنيفة رضي الله عنه، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا معاذ بن فضالة ثنا هشام عن يحيى عن ابن حكيم وهو يعلى بن حكيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال في الحرام يكفر، وقال ابن عباس: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

﴿وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾، وهو تحريم فتاته على نفسه، وقوله لحفصة: «لا تخبري بذلك أحداً»، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: أسر أمرك الخلافة بعده فحدثت به حفصة. قال الكلبي: أسر إليها أن أباك وأبا عائشة يكونان خليفتين على أمتي من بعدي. وقال ميمون بن مهران: أسر إليها أن أبا بكر خليفتي من بعدي. ﴿فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ﴾، أخبرت به حفصة عائشة، ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾، أي أطلع الله تعالى نبيه على أنها أنبأت به، ﴿عَرَفَ بَعْضُهُ﴾، قرأ عبد الرحمن السلمي والكسائي ﴿عَرَفَ﴾ بتخفيف الراء أي عرف بعض الفعل الذي فعلته من إفشاء سره، أي غضب من ذلك عليها وجازاها به، من قول القائل لَمَنْ أَسَاءَ إِلَيْهِ لِأَعْرِفَنَّ لَكَ مَا فَعَلْتَ، أي لأجازينك عليه، وجازاها به عليه بأن طلقها، فلما بلغ ذلك عمر قال: لو كان في آل الخطاب خير لما طلقك رسول الله ﷺ، فجاء جبريل وأمره بمراجعتها واعتزل رسول الله ﷺ نساءه شهراً وقعد في مشربة أم إبراهيم مارية، حتى نزلت آية التخيير. وقال مقاتل بن حيان: لم يطلق رسول الله ﷺ حفصة وإنما هم بطلاقها فاتاه جبريل

يراضيا فسرهما بشيئين بتحريم مارية على نفسه وأن الخلافة بعده في أبي بكر وأبيها عمر ﴿فلما نبأت به﴾ أي أخبرت بذلك حفصة عائشة ﴿وأظهره الله عليه﴾ أي أطلع الله نبيه ﷺ على قول حفصة لعائشة ﴿عرف بعضه﴾ قرئء بتخفيف الراء أي عرف بعض الذي فعلته حفصة فغضب من إفشاء سره وجازاها عليه بأن طلقها فلما بلغ عمر قال لها لو كان في آل الخطاب خير لما طلقك رسول الله ﷺ فجاءه جبريل عليه السلام وأمره بمراجعتها وقيل لم يطلق رسول الله ﷺ حفصة وإنما هم بطلاقها فأثاه جبريل فقال لا تطلقها فإنها صوامة قوامة وإنها من نسائك في الجنة وقرئء عرف بالتشديد، ومعناه عرف حفصة بعض الحديث وأخبرها ببعض ما كان منها ﴿وأعرض عن بعض﴾ أي لم يعرفها إياه ولم يخبرها به قال الحسن ما استقصى كريم قط قال الله تعالى عرف بعضه وأعرض عن بعض والمعنى أن النبي ﷺ أخبر حفصة ببعض ما أخبرت به عائشة وهو تحريم الأمة وأعرض عن ذكر الخلافة لأنه ﷺ كره أن ينتشر ذلك في الناس ﴿فلما نبأها به﴾ أي أخبر حفصة بما أظهره الله عليه ﴿قالت﴾ يعني حفصة ﴿من أنباك هذا﴾ أي من أخبرك بأنني أفشيت السر ﴿قال نبأني العليم﴾ أي بما تكنه الضمائر ﴿الخبير﴾ أي بخفيات الأمور.

إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ

وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ

قوله عز وجل: ﴿إن تتوبا إلى الله﴾ يخاطب عائشة وحفصة أي من التعاون على رسول الله ﷺ والإيذاء له ﴿فقد صغت قلوبكما﴾ أي زاغت ومالت عن الحق واستوجبتما أن تتوبا وذلك بأن سرهما ما كره رسول الله ﷺ وهو اجتناب مارية، (ق) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال «لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر بن الخطاب عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله عز وجل إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما حتى حج عمر وحججت معه فلما كان عمر ببعض الطريق عدل وعدلت معه بالإداوة فبرز ثم أتاني فصبيت على يديه فتوضأ فقلت يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج

عليه السلام، وقال: لا تطلقها فإنها صوامة قوامة وإنها من جملة نسائك في الجنة، فلم يطلقها. وقرأ الآخرون ﴿عرف﴾ بالتشديد أي عرف حفصة بعد ذلك الحديث، أي أخبرها ببعض القول الذي كان منها، ﴿وأعرض عن بعض﴾، يعني لم يعرفها إياه، ولم يخبرها به، قال الحسن: ما استقصى كريم قط، قال الله تعالى: ﴿عرف بعضه وأعرض عن بعض﴾، وذلك أن النبي ﷺ لما رأى الكراهية في وجه حفصة أراد أن يتراضاها فأسر إليها شيئين: تحريم الأمة على نفسه وتبشيرها بأن الخلافة بعده في أبي بكر وفي أبيها عمر رضي الله عنها، وأطلع الله نبيه عليه، عرف حفصة وأخبرها ببعض ما أخبرت به عائشة وهو تحريم الأمة وأعرض عن بعض يعني ذكر الخلافة، كره رسول الله ﷺ أن ينتشر ذلك في الناس، ﴿فلما نبأها به﴾، أي أخبر النبي ﷺ حفصة بما أظهره الله عليه، ﴿قالت﴾، حفصة، ﴿من أنباك هذا﴾، أي من أخبرك بأنني أفشيت السر؟ ﴿قال نبأني العليم الخبير﴾.

﴿إن تتوبا إلى الله﴾، أي من التعاون على النبي ﷺ بالإيذاء يخاطب عائشة وحفصة، ﴿فقد صغت قلوبكما﴾، أي زاغت ومالت عن الحق واستوجبتما التوبة. قال ابن زيد: مالت قلوبكما بأن سرهما ما كره رسول الله ﷺ من اجتناب جاريته. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو اليمان أنا شعيب الزهري أخبرنا عبيد الله بن عبد الله بن أبي ثور أنا عبد الله بن عباس قال: لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر بن الخطاب عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى لهما: ﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما﴾، حتى حج فحججت معه وعدلت معه بإداوة فبرز ثم جاء فسكبت على يديه من الإداوة، فتوضأ فقلت له: يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله عز وجل

النبي ﷺ اللتان قال الله تعالى إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما قال عمر واعجباً لك يا ابن العباس قال الزهري كره منه ما سأله عنه ولم يكتمه قال هما عائشة وحفصة ثم أخذ يسوق الحديث قال كنا معشر قريش قوماً تغلب النساء فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم قال وكان منزلي في بني أمية بن زيد بالعوالي فغضبت يوماً على امرأتي فإذا هي تراجعني فأنكرت أن تراجعني فقالت ما تنكر أن أراجعك فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت أتراجعن رسول الله ﷺ؟ فقالت نعم فقلت أتهجره إحدكن اليوم إلى الليل؟ قالت نعم قلت لقد خابت من فعلت ذلك منكن وخسرت أفتأمن إحدكن أن يغضب الله عليها لغضب رسول الله ﷺ فإذا هي قد هلكت لا تراجعني رسول الله ﷺ ولا تسأليه شيئاً وسليني ما بدا لك ولا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم وأحب إلى رسول الله ﷺ منك يريد عائشة وكان لي جار من الأنصار فكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ فينزل يوماً ويأتيني بخبر الوحي وغيره وآتية بمثل ذلك وكنا نتحدث أن غسان تبعث الخيل لتغزونا فتزل صاحبي الأنصاري يوم نوبته ثم أتاني عشاء فضرب بابي ثم ناداني فخرجت إليه فقال حدث أمر عظيم قلت ماذا أ جاءت غسان؟ قال لا بل أعظم من ذلك وأهول طلق رسول الله ﷺ نساءه قلت قد خابت حفصة وخسرت قد كنت أظن هذا يوشك أن يكون حتى إذا صليت الصبح شددت على ثيابي ثم نزلت فدخلت على حفصة وهي تبكي فقلت أطلقكن رسول الله ﷺ؟ قالت لا أدري ها هو ذا معتزل في هذه المشربة فأتيت غلاماً له أسود فقلت

لهما: ﴿إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾؟ فقال: واعجباً لك يا ابن عباس هما عائشة وحفصة. ثم استقبل عمر الحديث يسوقه فقال: إني كنت أنا وجاراً لي من الأنصار في بني أمية بن زيد وهي من عوالي المدينة، وكنا نتناوب النزول على النبي ﷺ فينزل يوماً وأنزل يوماً فإذا نزلت حدثته بما حدث من خبر ذلك اليوم من الأمر أو غيره وإذا نزل فعل مثله، وكنا معشر قريش تغلب النساء، فلما قدمنا على الأنصار إذا هم قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار فصحت على امرأتي فراجعتي فأنكرت أن تراجعني، فقالت: ولم تنكر أن أراجعك فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه، وإن إحداهن تهجره اليوم حتى الليل. فأفزعتني فقلت: خابت من فعلت منهنّ بعظيم، ثم جمعت عليّ ثيابي فدخلت على حفصة، فقلت: أي حفصة أتغاضب إحدكنّ النبي ﷺ حتى الليل؟ فقالت: نعم، فقلت: خابت وخسرت أفتأمنين أن يغضب الله تعالى لغضب رسوله فهلكي لا تستكثري على النبي ﷺ ولا تراجعيه في شيء، ولا تهجره وسليني ما بدا لك، ولا يغرنك أن كانت جارتك هي أوضأ منك وأحب إلى النبي ﷺ يريد عائشة، قال عمر: وكنا تحدثنا أن غسان تبعث الخيل لتغزونا فتزل صاحبي يوم نوبته، فرجع عشاء فضرب بابي ضرباً شديداً وقال: أئنم هو، ففرغت فخرجت إليه فقال: حدث عظيم؟ فقلت: ما هو أ جاءت غسان؟ قال: لا بل أعظم منه وأطول طلق النبي ﷺ نساءه، فقلت قد خابت حفصة وخسرت كنت أظن أن هذا يوشك أن يكون، فجمعت عليّ ثيابي فصليت صلاة الفجر مع النبي ﷺ، فدخل مشربة له فاعتزل فيها فدخلت على حفصة فإذا هي تبكي، فقلت: ما يُبكيك أو لم أكن حذرتك؟ أطلقكنّ النبي ﷺ؟ قالت: لا أدري هو ذا في المشربة، فخرجت فجئت المنبر فإذا حوله رهط يبكي بعضهم، فجلست معهم قليلاً ثم غلبنني ما أجد، فجئت المشربة التي فيها النبي ﷺ فقلت للغلام له أسود: استأذن لعمر، فدخل فكلم النبي ﷺ ثم رجع إليّ فقال: قد كلمت النبي ﷺ فذكرتك له فصمت، فانصرفت حتى جلست مع الرهط الذين عند المنبر، ثم غلبنني ما أجد فجئت للغلام: استأذن لعمر، فدخل ثم رجع إليّ فقال: قد ذكرت لك له فصمت، فخرجت فجئت المنبر، ثم غلبنني ما أجد فجئت الغلام فقلت: استأذن لعمر، فاستأذن ثم رجع إليّ فقال، قد ذكرت لك له فصمت، فلما وليت منصرفاً فإذا الغلام يدعوني، فقال: قد أذن لك النبي ﷺ، فدخلت على رسول الله ﷺ فإذا هو

استأذن لعمر فدخل ثم خرج إليّ فقال قد ذكرت لك له فصمت فانطلقت حتى أتيت المنبر فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم فجلست قليلاً ثم غلبني ما أجد فأتيت الغلام فقلت استأذن لعمر فدخل ثم خرج فقال قد ذكرت لك له فصمت فجلست إلى المنبر ثم غلبني ما أجد فأتيت الغلام فقلت استأذن لعمر فدخل ثم خرج فقال قد ذكرت لك له فصمت فوليت مديراً فإذا الغلام يقول يدعوني فقال ادخل فقد أذن لك فدخلت فسلمت على رسول الله ﷺ فإذا هو متكئ على رمال حصير قد أثر في جنبه فقلت أطلقت يا رسول الله نساءك فرفع رأسه إليّ وقال لا فقلت الله أكبر لو رأيته يا رسول الله قد كنا معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن من نساءهم فغضبت على امرأتي يوماً فإذا هي تراجعني فأنكرت إذ راجعتني فقالت ما تنكر أن أراجعك فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل فقلت قد خاب من فعل ذلك منهن وخسر أفتاً من إحداهن أن يغضب الله عليها لغضب رسول الله ﷺ فإذا هي قد هلكت فتبسم رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله قد دخلت علي حفصة فقلت لا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم وأحب إلى رسول الله ﷺ منك فتبسم أخرى فقلت استأنس يا رسول الله قال نعم قال فجلست فرفعت رأسي في البيت فوالله ما رأيت فيه ما يرد البصر إلا أهبة ثلاثة فقلت يا رسول الله ادع الله أن يوسع على أمتك فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله فاستوى جالساً ثم قال أفي أشك أنت يا ابن الخطاب أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا فقلت استغفر لي يا رسول الله وكان قد أقسم أن لا يدخل عليهن شهراً من أجل ذلك الحديث حين أفشته حفصة لعائشة من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله تعالى قال الزهري فأخبرني عروة عن عائشة قالت «لما مضت تسع وعشرون دخل علي رسول الله ﷺ بدأ بي فقلت يا رسول الله إنك أقسمت أن لا تدخل علينا شهراً وإنك دخلت في ليلة تسع وعشرين أعدهن فقال إن الشهر يكون تسعاً وعشرين زاد في رواية وكان ذلك الشهر تسعاً وعشرين ليلة ثم قال يا عائشة إني ذاك لك أمراً فلا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمري أبويك ثم قال يا أيها

مضطجع على رمال حصير ليس بينه وبينه فراش، قد أثر الرمال بجنبه متكئاً على وسادة من آدم حشوها ليف، فسلمت عليه ثم قلت وأنا قائم: يا رسول الله أطلقت نساءك؟ فرفع إليّ بصره فقال: «لا»، فقلت: الله أكبر، ثم قلت وأنا قائم: استأنس يا رسول الله لو رأيته، وكنا معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا المدينة إذا قوم تغلبهم نساؤهم، فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قلت: يا رسول الله لو رأيته، ودخلت على حفصة فقلت لها لا يغرنك إن كانت جارتك أوسماً منك وأحب إلى رسول الله ﷺ يريد عائشة، فتبسم النبي ﷺ تبسمة أخرى، فجلست حين رأيته يتبسم فرفعت بصري في بيته فوالله ما رأيت فيه شيئاً يرد البصر غير أهبة ثلاثة، فقلت: يا رسول الله ادع الله تعالى فليوسع على أمتك فإن فارس والروم قد وسع عليهم وأعطوا من الدنيا وهم لا يعبدون الله تعالى، فجلس النبي ﷺ وكان متكئاً فقال: «أو في هذا أنت يا ابن الخطاب؟ إن أولئك قوم عجلوا طيباتهم في الحياة الدنيا»، فقلت: يا رسول الله استغفر لي فاعتزل النبي ﷺ، وسلم نساءه من أجل ذلك الحديث حين أفشته حفصة إلى عائشة تسعاً وعشرين ليلة، وكان يقول: «ما أنا بداخل عليهن شهراً من شدة موجدته عليهن حين عاتبه الله تعالى، فلما مضت تسعاً وعشرون ليلة، دخل علي عائشة رضي الله عنها فبدأ بها، فقالت له عائشة: يا رسول الله إنك كنت أقسمت أن لا تدخل علينا شهراً وإنما أصبحت من تسع وعشرين ليلة أعدّها عدّاً؟ فقال: «الشهر تسع وعشرون»، وكان ذلك الشهر تسعاً وعشرين ليلة. قالت عائشة: ثم أنزل الله آية التخيير فبدأ بي أول امرأة من نسائه، فاخترته ثم خير نساءه كلهن فقلن مثل ما قالت عائشة، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو اليمان أنا شعيب عن الزهري أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمر الله تعالى أن يخير أزواجه فبدأ بي رسول الله ﷺ، فقال: «إني ذاك لك

النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها حتى بلغ إلى قوله عظيماً قالت عائشة قد علم رسول الله والله أن أبوي لم يكونا ليأمراني بفراقه فقلت أفي هذا أستمأر أبوي فأني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، زاد في رواية «أن عائشة قالت لا تخبر نساءك أنني اخترتك فقال لها النبي ﷺ إن الله أرسلني مبلغاً ولم يرسلني متعتاً» ولمسلم عن ابن عباس عن عمر نحوه وفيه قال «دخلت عليه فقلت يا رسول الله ما يشق عليك من شأن النساء فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك وقلما تكلمت وأحمد الله بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قلبي الذي أقول فنزلت هذه الآية عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير»، وفيه أنه استأذن رسول الله ﷺ أن يخبر الناس أنه لم يطلق نساءه فأذن له وأنه قام على باب المسجد فنادى بأعلى صوته لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه.

(شرح بعض ألفاظه)

قوله فعدلت معه بالإداوة أي فملت معه بالركوة فتبرز أي أتى البراز وهو الفضاء من الأرض لقضاء الحاجة.

العوالي جمع عالية وهي أماكن بأعلى أراضي المدينة قوله ولا يغرنك أن كانت جارتك يريد بها الضرة وهي عائشة أوسم منك أي أكثر حسناً وجمالاً منك قوله فكنا تتناوب النزول التناوب هو أن يفعله الإنسان مرة ويفعله الآخر بعده المشربة بضم الراء وفتحها الغرفة قوله فإذا هو متكئ على رمال حصير يقال رملت الحصير إذا صفرته ونسجته والمراد به أنه لم يكن على السرير وطاء سوى الحصير قوله ما رأيت فيه ما يرد البصر إلا أهبة ثلاثة الأهبة والأهب جمع إهاب وهو الجلد قوله من شدة موجدته الموجدة الغضب.

قوله تعالى: ﴿وإن تظاهرا عليه﴾ أي تعاونوا على إيذاء النبي ﷺ ﴿فإن الله هو مولاه﴾ أي وليه وناصره ﴿وجبريل﴾ يعني وجبريل ووليه وناصره أيضاً وإنما أفردته وإن كان داخلاً في جملة الملائكة تعظيماً له وتنبيهاً على علو منزلته ومكانته ﴿وصالح المؤمنين﴾ روي عن ابن مسعود وأبي بن كعب صالح المؤمنين أبو بكر وعمر وقيل هم المخلصون من المؤمنين الذين ليسوا بمنافقين وقيل هم الأنبياء ﴿والملائكة بعد ذلك﴾ أي بعد نصر الله وجبريل

أمراً فلا عليك أن لا تعجلي بالجواب حتى تستأمري أبويك»، وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه، ثم قال: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك﴾ [الأحزاب: ٢٨ و ٥٩] إلى تمام الآيتين، فقلت: أو في هذا أستمأر أبوي فأني أريد الله ورسوله والدار الآخرة. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج حدثني زهير بن حرب ثنا عمر بن يونس الحنفي ثنا عكرمة بن عمار عن سماك بن زميل حدثنا عبد الله بن عباس حدثني عمر بن الخطاب قال: لما اعتزل النبي ﷺ نساءه وذكر الحديث. وقال: دخلت عليه فقلت: يا رسول الله ما يشق عليك من شأن النساء فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك. وقلما تكلمت وأحمد الله تعالى بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قلبي الذي أقول، ونزلت هذه الآية: ﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن﴾ [التحريم: ٥]. ﴿وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير﴾. قوله: ﴿وإن تظاهرا عليه﴾، أي تتظاهرا أو تتعاونوا على أذى النبي ﷺ، قرأ أهل الكوفة بتخفيف الظاء، والآخرين بتشديدها، ﴿فإن الله هو مولاه﴾، أي وليه وناصره قوله: ﴿وجبريل وصالح المؤمنين﴾، روي عن ابن مسعود وأبي بن كعب: ﴿وصالح المؤمنين﴾ أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وقال الكلبي: هم المخلصون الذين ليسوا بمنافقين. قوله: ﴿والملائكة بعد ذلك ظهير﴾، قال مقاتل: بعد الله وجبريل وصالح المؤمنين ظهير، أي: أعوان للنبي ﷺ، وهذا

وصالح المؤمنين ﴿ظهير﴾ أي أعوان للنبي ﷺ ينصرونه.

عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَنَاطَاتٍ تَزِينْنَ لِجَنَّتِ سِدِّحَاتٍ تَبْتِغِينَ

وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾

﴿عسى ربه﴾ أي واجب من الله ﴿إن طلقكن﴾ يعني رسول الله ﷺ ﴿أن يبدله أزواجاً خيراً منك﴾ ثم وصف الأزواج اللواتي كان يزوجهن بهن فقال ﴿مسلمات﴾ أي خاضعات لله بالطاعة ﴿مؤمنات﴾ أي مصدقات بتوحيد الله تعالى: ﴿قناتات﴾ أي طائعات وقيل داعيات وقيل مصليات بالليل ﴿قناتات﴾ أي تاركات للذنوب، لقبها أو كثيرات التوبة ﴿عابدات﴾ وكثيرات العبادة ﴿سائحات﴾ أي صائمات وقيل مهاجرات وقيل يسحن معه حيث ساح ﴿ثيبات﴾ جمع ثيب وهي التي تزوجت ثم بانت بوجه من الوجوه ﴿وأبكاراً﴾ أي عذارى جمع بكر وهذا من باب الإخبار عن القدرة لا عن الكون لأنه قال إن طلقكن وقد علم أنه لا يطلقهن فأخبر عن قدرته أنه إن طلقهن أبداً أزواجاً خيراً منهن تخويفاً لهن.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا

يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْدِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُبَوِّأُ إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ

يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا لَنَا نُورًا وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَهْدَ الْكُفَّارِ

وَالْمُنَافِقِينَ وَآغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾

قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم﴾ قال ابن عباس بالانتهاء عما نهاكم الله عنه والعمل بطاعته ﴿وأهليكم﴾ يعني مروهم بالخير وانهوهم عن الشر وعلموهم وأدبوهم تقوهم بذلك، ﴿ناراً وقودها الناس والحجارة﴾ يعني الكبريت، لأنه أشد الأشياء حراً وأسرع إيقاداً ﴿عليها ملائكة﴾ يعني خزنة النار وهم الزبانية ﴿غلاظ﴾ أي فظاظ على أهل النار ﴿شداد﴾ يعني أقوياء يدفع الواحد منهم بالدفع الواحدة سبعين ألفاً في النار لم

من الواحد الذي يؤدي عن الجمع، كقوله: ﴿وحسن أولئك رفيقاً﴾ [النساء: ٦٩].

﴿عسى ربه إن طلقكن﴾، أي واجب من الله إن طلقكن رسوله، ﴿أن يبدله أزواجاً خيراً منك﴾

مسلمات، خاضعات لله بالطاعة، ﴿مؤمنات﴾، مصدقات بتوحيد الله، ﴿قناتات﴾، طائعات، وقيل: داعيات

وقيل مصليات، ﴿قناتات عابدات سائحات﴾، صائمات، وقال زيد بن أسلم: مهاجرات. وقيل: يسحن معه

حيث ما ساح، ﴿ثيبات وأبكاراً﴾، وهذا في الأخبار عن القدرة لا عن الكون لأنه قال: ﴿إن طلقكن﴾ وقد علم

أنه لا يطلقهن وهذا كقوله: ﴿وإن تولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ [محمد: ٣٨]، وهذا إخبار عن

القدرة لأن في الوجود أمة هم خير من أمة محمد ﷺ.

قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم﴾، قال عطاء عن ابن عباس: أي بالانتهاء عما نهاكم الله

تعالى عنه والعمل بطاعته، ﴿وأهليكم ناراً﴾، يعني مروهم بالخير وانهوهم عن الشر، وعلموهم وأدبوهم تقوهم

يخلق الله الرحمة فيهم ﴿لَا يَعصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ أي لا يخالفون الله فيما أمرهم به ونهاهم عنه ﴿ويفعلون ما يؤمرون﴾ أي لا تأخذهم رافة في تنفيذ أوامره والانتقام من أعدائه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ﴾ أي يقال لهم لا تعتذروا اليوم وذلك حين يعاينون النار وشدها لأنه قد قدم إليهم الإنذار والإعذار فلا ينفعهم الاعتذار لأنه غير مقبول بعد دخول النار ﴿إِنَّمَا تَجْزُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني أن أعمالكم السيئة ألزمتكم العذاب.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ أي ذات نصح تنصح صاحبها بترك العود إلى الذنب الذي تاب منه قال عمر بن الخطاب وأبي بن كعب ومعاذ التوبة النصوح أن يتوب ثم لا يعود إلى الذنب كما لا يعود اللبث إلى الضرع وقال الحسن هي أن يكون العبد نادماً على ما مضى مجمعاً على أن لا يعود إليه وقال الكلبي أن يستغفر باللسان ويندم بالقلب ويمسك بالبدن وقال سعيد بن المسيب معناه توبة تنصحون بها أنفسكم وقال محمد بن كعب القرظي التوبة النصوح أربعة أشياء الاستغفار باللسان والإقلاع بالأبدان وإضمار ترك العود بالجنان ومهاجرة سيئ الإخوان.

(فصل)

وقال العلماء التوبة واجبة من كل ذنب على الفور ولا يجوز تأخيرها سواء كانت المعصية صغيرة أو كبيرة فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي فلها ثلاث شروط:

أحدها: أن يقلع عن المعصية؛ والثاني أن يندم على فعلها، والثالث أن يعزم على أن لا يعود إليها أبداً فإذا اجتمعت هذه الشروط في التوبة كانت نصوحاً وإن فقد شرط منها لم تصح توبته فإن كانت المعصية تتعلق بحق آدمي فشروطها أربعة هذه الثلاثة المتقدمة والرابع أن يبرأ من حق صاحبها فإن كانت المعصية مالا ونحوه رده إلى صاحبه وإن كان حد قذف أو نحوه مكنه من نفسه أو طلب عفو وإن كانت غيبة استحله منها ويجب أن يتوب العبد من جميع الذنوب فإن تاب من بعضها صحت توبته من ذلك الذنب وبقي عليه ما لم يتب منه هذا مذهب أهل السنة، وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة (م) عن الأغرب بن يسار المزني قال: قال رسول الله ﷺ «يَا أَيُّهَا النَّاسُ تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ» (خ) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»، (ق) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «الله أفرح بتوبة عبده المؤمن من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة الحديث» (م) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب

بذلك ناراً، ﴿وَقُوْدُهَا النَّاسُ وَالْحَجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ﴾، يعني خَزَنَةُ النَّارِ، ﴿غِلَظٌ﴾، فِظَاطٌ عَلَى أَهْلِ النَّارِ، ﴿شِدَادٌ﴾، أَقْوِيَاءُ يَدْفَعُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ بِالْذَّفْعَةِ الْوَاحِدَةِ سَبْعِينَ أَلْفًا فِي النَّارِ وَهُمْ الزَّبَانِيَةُ لَمْ يَخْلُقِ اللَّهُ فِيهِمُ الرَّحْمَةَ، ﴿لَا يَعصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا، ﴿قَرَأَ الْحَسَنُ وَأَبُو بَكْرٍ عَنْ عَاصِمٍ﴾ ﴿نَصُوحًا﴾ بضم النون، وقرأ العامة بفتحها أي توبة ذات نصح تنصح صاحبها بترك العود إلى ما تاب منه، واختلفوا في معناه قال عمر وأبي ومعاذ: التوبة النصوح أن يتوب ثم لا يعود إلى الذنب، كما لا يعود اللبث إلى الضرع. قال الحسن: هي أن يكون العبد نادماً على ما مضى مجمعاً على ألا يعود فيه. قال الكلبي أن يستغفر باللسان ويندم بالقلب ويمسك بالبدن. قال سعيد بن المسيب: توبة تنصحون بها أنفسكم. قال القرظي: يجمعها أربعة أشياء الاستغفار باللسان والأقلام بالأبدان وإضمار ترك العود بالجنان ومهاجرة سيئ الإخوان. ﴿عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله

مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها» عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن .

وقوله تعالى: ﴿عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم﴾ هذا إطماع من الله تعالى لعباده في قبول التوبة وذلك تفضلاً وتكرماً لا وجوباً عليه ﴿ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يحزى الله النبي والذين آمنوا معه﴾ أي لا يعذبهم بدخول النار ﴿نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم﴾ يعني على الصراط ﴿يقولون ربنا﴾ يعني إذا انطفأ نور المنافقين ﴿أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾ تقدم تفسيره .

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبِخَوَّاتِ عَمَلِي وَبِخَوَّاتِ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ فِيهَا مِنَ الْقَنِينِ ﴿١٢﴾

قوله تعالى: ﴿ضرب الله مثلاً﴾ أي بين شبهها وحالاً ﴿للذين كفروا امرأة نوح﴾ واسمها واعلة ﴿وامرأة لوط﴾ واسمها واهلة وقيل اسمها والعة والهة ﴿كانتا تحت عبدین من عبادنا صالحین﴾ وهما نوح ولوط عليهما الصلاة والسلام وقوله من عبادنا إضافة تشريف وتعظيم ﴿فخانتاهما﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما ما بغت امرأة نبي قط وإنما كانت خيانتهم أنها كانت على غير دينهما وكانت امرأة نوح تقول للناس إنه مجنون وإذا آمن أحد أخبرته به الجبابة من قومها وأما امرأة لوط فإنها كانت تدل قومها على أضيافه إذا نزل به ضيف بالليل أوقدت النار وإذا نزل به ضيف بالنهار دخت لتعلم قومها بذلك وقيل أسرتا النفاق وأظهرتا الإيمان ﴿فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً﴾ أي لم يدفع عن امرأتيهما مع نبوتهم عذاب الله ﴿وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾ وهذا مثل ضربه الله تعالى للصالحين والصالحات

النبي والذين آمنوا معه ، أي لا يعذبهم الله بدخول النار ، ﴿نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم﴾ ، على الصراط ، ﴿يقولون﴾ ، إذ طُفِيَء نور المنافقين ، ﴿ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير﴾ .
﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾ ، ثم ضرب الله مثلاً للصالحين والصالحات من النساء .

فقال جلّ ذكره: ﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح﴾ ، واسمها واعلة ، ﴿وامرأة لوط﴾ ، واسمها واهلة . وقال مقاتل : والعة والهة ، ﴿كانتا تحت عبدین من عبادنا صالحین﴾ ، وهما نوح ولوط عليهما السلام ، ﴿فخانتاهما﴾ ، قال ابن عباس : ما بغت امرأة نبي قط وإنما كانت خيانتهم أنها كانت على غير دينهما ، فكانت امرأة نوح تقول للناس : إنه مجنون وإذا آمن به أحد أخبرته به الجبابة ، وأما امرأة لوط فإنها كانت تدلّ قومه على أضيافه إذا نزل به ضيف بالليل أوقدت النار ، وإذا نزل بالنهار دخت لتعلم قومه أنه نزل به ضيف . وقال الكلبي : أسرتا النفاق وأظهرتا الإيمان ، ﴿فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً﴾ ، لم يدفع عنهما مع نبوتهم عذاب الله ، ﴿وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾ ، قطع الله بهذه الآية طمع كل من يركب المعصية أن ينفعه صلاح غيره ، ثم أخبر أن معصية غيره لا تضره إذا كان مطيعاً .

من النساء وأنه لا ينفع العصي طاعة غيره ولا يضر المطيع معصية غيره وإن كانت القرابة متصلة بينهم وأن القريب كالأجانب بل أبعد وإن كان القريب الذي يتصل به الكافر نبياً كامراً نوح وامراً لوط لما خاتاهما لم يغن هذان الرسولان عن امرأتيهما شيئاً فقطع بهذه الآية طمع من يرتكب المعصية ويتكل على صلاح غيره وفي هذا المثل تعريض بأمي المؤمنين عائشة وحفصة وما فرط منهما وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشدّه ثم ضرب مثلاً آخر يتضمن أن معصية الغير لا تضره إذا كان مطيعاً وأن وصلة المسلم بالكافر لا تضر المؤمن فقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ يعني آسية بنت مزاحم قال المفسرون لما غلب موسى السحرة آمنت به امرأة فرعون فلما تبين لفرعون إسلامها أوتد يديها ورجليها بأربعة أوتاد وألقاها في الشمس فكانت تعذب في الشمس فإذا انصرفوا عنها أظلتها الملائكة ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ فكشف الله لها عن بيتها في الجنة وقيل إن فرعون أمر بصخرة عظيمة لتلقى عليها فلما أتوها بالصخرة قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة فأبصرت بيتها في الجنة، من درة بيضاء وانتزعت روحها فألقيت الصخرة على جسد لا روح فيه ولم تجد ألماً وقيل رفع الله امرأة فرعون إلى الجنة فهي تأكل وتشرب فيها ﴿وَنَجِّنِي﴾ من فرعون وعمله ﴿يعني وشركه﴾ وقال ابن عباس عمله يعني جماعه ﴿وَنَجِّنِي﴾ من القوم الظالمين ﴿يعني الكافرين﴾ ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها ﴿أَيَّ عَنِ الْفَوَاحِشِ وَالْمَحْصَنَةِ الْعَفِيفَةِ﴾ فنفعنا فيه ﴿أَيَّ فِي جِيبِ دَرْعِهَا وَلِذَلِكَ ذَكَرَ الْكُنْيَةَ﴾ من روحنا ﴿إِضَافَةً تَمْلِكُ وَتَشْرِيفُ كَبِيتِ اللَّهِ وَنَاقَةِ اللَّهِ﴾ وصدقت بكلمات ربها ﴿يعني الشرائع التي شرعها الله لعباده بكلماته المنزلة على أنبيائه﴾ وكتبه ﴿يعني الكتب المنزلة على إبراهيم وموسى وداود وعيسى عليهم الصلاة والسلام﴾ وكانت من القانتين ﴿يعني كانت من القوم القانتين أي المطيعين وهم رهطها وعشيرتها لأنهم كانوا أهل بيت صلاح وطاعة الله عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «حسبك من نساء العالمين مريم ابنة عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون» أخرجه الترمذي وقال حديث صحيح. والله أعلم بمراده.

فقال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾، وهي آسية بنت مُزَاحِم، قال المفسرون: لَمَّا غَلَبَ مُوسَى السُّحْرَةَ آمَنَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ لَمَّا تَبَيَّنَ لِفِرْعَوْنَ إِسْلَامُهَا أَوْتَدَ يَدَيْهَا وَرَجْلَيْهَا بِأَرْبَعَةِ أَوْتَادٍ وَأَلْقَاهَا فِي الشَّمْسِ. قَالَ سَلْمَانَ: كَانَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ تُعَذَّبُ بِالشَّمْسِ إِذَا انْصَرَفُوا عَنْهَا ظَلَّتْهَا الْمَلَائِكَةُ ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾، فَكَشَفَ اللَّهُ لَهَا عَنْ بَيْتِهَا فِي الْجَنَّةِ حَتَّى رَأَتْهُ فِي الْقِصَّةِ أَنَّ فِرْعَوْنَ أَمَرَ بِصَخْرَةٍ عَظِيمَةٍ لَتَلْقَى عَلَيْهَا، فَلَمَّا أَتَوْهَا بِالصَّخْرَةِ قَالَتْ: رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ فَأَبْصُرْتُ بَيْتَهَا فِي الْجَنَّةِ مِنْ دَرَّةٍ، وَانْتَزَعَتْ رُوحَهَا فَأَلْقَيْتُ الصَّخْرَةَ عَلَى جَسَدِ لَا رُوحَ فِيهِ، وَلَمْ تَجِدْ أَلَمًا. وَقَالَ الْحَسَنُ وَابْنُ كَيْسَانَ: رَفَعَ اللَّهُ امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِلَى الْجَنَّةِ فَهِيَ فِيهَا تَأْكُلُ وَتَشْرَبُ. ﴿وَنَجِّنِي﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴿، قَالَ مُقَاتِلٌ: وَعَمَلُهُ يَعْنِي الشَّرْكَ. وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: وَعَمَلُهُ، قَالَ: جَمَاعُهُ. ﴿وَنَجِّنِي﴾ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿، الْكَافِرِينَ.

﴿وَمَرْيَمُ ابْنَتُ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾، أَيَّ فِي جِيبِ دَرْعِهَا، وَلِذَلِكَ ذَكَرَ الْكُنْيَةَ، ﴿مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾، يَعْنِي الشَّرَائِعَ الَّتِي شَرَعَهَا اللَّهُ لِلْعِبَادِ بِكَلِمَاتِهِ الْمُنْزَلَةِ، ﴿وَكُتِبَ﴾، قَرَأَ أَهْلُ الْبَصَرَةِ وَحَفْصٌ ﴿وَكُتِبَ﴾ عَلَى الْجَمْعِ، وَقَرَأَ الْآخَرُونَ (وَكُتِبَ) عَلَى التَّوْحِيدِ، وَالْمُرَادُ مِنْهُ الْكُثْرَةُ أَيْضًا. وَأَرَادَ الْكُتُبَ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَدَاوُدَ وَعِيسَى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾، أَيَّ مِنَ الْقَوْمِ الْقَانِتِينَ الْمَطِيعِينَ لِرَبِّهَا وَلِذَلِكَ لَمْ يَقُلْ مِنَ الْقَانِتَاتِ. وَقَالَ عَطَاءٌ: مِنَ الْقَانِتِينَ أَيَّ مِنَ الْمَصْلِينَ وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ بِالْقَانِتِينَ رَهْطَهَا وَعَشِيرَتَهَا فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ صَلَاحٍ مَطِيعِينَ لِلَّهِ. وَرَوَيْنَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ: مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ».

سورة الملك

مكية وهي ثلاثون آية وثلاثمائة وثلاثون كلمة وألف وثلاثمائة وثلاثة عشر حرفاً.

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال «إن من القرآن سورة ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له وهي تبارك الذي بيده الملك» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن ولأبي داود ونحوه، وفيه «تشفع لصاحبها» عن ابن عباس قال «ضرب بعض أصحاب رسول الله ﷺ خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر فإذا هو قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها فاتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ضربت خبائي على قبر إنسان وأنا لا أحب أنه قبر فإذا هو قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها فقال النبي ﷺ هي المانعة هي المنجية تنجيه من عذاب القبر» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ

الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾

قوله عز وجل: ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾ أي له الأمر والنهي والسلطان فيعز من يشاء ويذل من يشاء ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ أي من الممكنات ﴿الذي خلق الموت والحياة﴾ قيل أراد موت الإنسان وحياته في الدنيا جعل الله الدنيا دار حياة وفناء وجعل الآخرة دار جزاء وبقاء وإنما قدم الموت لأنه أقرب إلى قهر الإنسان، وقيل قدمه لأنه أقدم وذلك لأن الأشياء كانت في الابتداء في حكم الموتى كالتراب والنفطة والعلقة ونحو ذلك ثم طرأ عليها الحياة وقال ابن عباس خلق الموت على صورة كبش أملح لا يمر بشيء ولا يجد ريحه شيء إلا مات وخلقت الحياة على صورة فرس بقاء وهي التي كان جبريل والأنبياء يركبونها لا تمر بشيء ولا يجد ريحها شيء إلا حيي وهي التي أخذ السامري قبضة من أثرها فألقاها في العجل فخار وحيي وقيل إن الموت صفة وجودية مضادة للحياة، وقيل الموت عبارة عن زوال

سُورَةُ الْمُلْكِ

مكية وهي ثلاثون آية.

﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير﴾ الذي خلق الموت والحياة، قال عطاء عن ابن عباس: يريد الموت في الدنيا والحياة في الآخرة. وقال قتادة: أراد موت الإنسان وحياته في الدنيا، جعل الله الدنيا دار حياة وفناء، وجعل الآخرة دار جزاء وبقاء. قيل: إنما قدم الموت لأنه إلى القهر أقرب. وقيل: قدمه لأنه أقدم لأن الأشياء في الابتداء كانت في حكم الموت كالنفطة والتراب ونحوهما، ثم طرأت عليها الحياة. وقال ابن عباس: خلق الموت على صورة كبش أملح لا يمر بشيء ولا يجد ريحه شيء إلا مات وخلقت الحياة على صورة فرس

القوة الحيوانية وإبانة الروح عن الجسد وضده الحياة وهي القوة الحساسة مع وجود الروح في الجسد وبه سمي الحيوان حيواناً وقيل إن الموت نعمة لأن الفاصل بين حال التكليف في هذه الدار وحال المجازاة في دار القرار والحياة أيضاً نعمة إذ لولاها لم يتنعم أحد في الدنيا ولم يصل إليه الثواب في الآخرة ﴿لِيلُوكُمْ﴾ أي ليختبركم فيما بين الحياة إلى الموت ﴿أَيْكُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ روي عن ابن عمر مرفوعاً أحسن عملاً أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعته وقال الفضيل بن عياض أحسن عملاً أخلصه وأصوبه، وقال أيضاً العمل لا يقبل حتى يكون خالصاً صواباً فالخالص إذا كان لله والصواب إذا كان على السنة وقيل أيكم أزهد في الدنيا ﴿وهو العزيز﴾ أي الغالب المنتقم ممن عصاه ﴿الغفور﴾ أي لمن تاب إليه ورجع عن إساءته.

الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٢﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٤﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَسُومُونَ الْمَصِيرَ ﴿٥﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورٌ ﴿٦﴾ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٧﴾

قوله تعالى: ﴿الذي خلق سبع سموات طباقاً﴾ يعني طباقاً على طبق بعضها فوق بعض كل سماء مقببة على الأخرى وسماء الدنيا كالقبة على الأرض قال كعب الأحبار سماء الدنيا موج مكفوف والثانية مرمرة بيضاء والثالثة حديد والرابعة صفر أو قال نحاس والخامسة فضة والسادسة ذهب والسابعة ياقوتة حمراء وما بين السماء إلى الحجب السبعة صحار من نور، ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾ أي ما ترى يا ابن آدم في شيء مما خلق الرحمن اعوجاجاً ولا اختلافاً ولا تناقضاً بل خلقهن مستقيمة مستوية ﴿فارجع البصر﴾ أي كرر النظر ﴿هل ترى من فطور﴾ أي من شقوق وصدوع ﴿ثم ارجع البصر كرتين﴾ قال ابن عباس مرة بعد مرة ﴿ينقلب﴾ أي ينصرف ﴿إليك﴾ فيرجع ﴿البصر خاسئاً﴾ أي صاغراً ذليلاً مبعداً لم ير ما يهوي ﴿وهو حسير﴾ أي كليل منقطع لم يدرك ما طلب ﴿ولقد زينا السماء الدنيا﴾ أي القربى من الأرض وهي التي يراها الناس ﴿بمصابيح﴾ أي بكواكب كالمصابيح في الإضاءة وهي

بلقاء أنثى وهي التي كان جبريل والأنبياء يركبونها لا تمر بشيء ولا يجد ريحها شيء إلا حي، وهي التي أخذ السامري قبضة من أثرها فألقى على العجل فحي ﴿لِيلُوكُمْ﴾، فيما بين الحياة إلى الموت، ﴿أَيْكُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾، رُوي عن ابن عمر مرفوعاً أحسن عملاً أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله، وأسرع في طاعة الله. وقال الفضيل بن عياض: أحسن عملاً أخلصه وأصوبه. وقال: العمل لا يقبل حتى يكون خالصاً صواباً فالخالص إذا كان لله والصواب إذا كان على السنة. وقال الحسن: أيكم أزهد في الدنيا وأترك لها. وقال الفراء: لم تقع البلوى على أيٍّ إلا وبينهما إضمار كما تقول بلوتكم لأنظر أيكم أطوع ومثله سلهم أيهم بذلك زعيم أي سلهم وانظر أيهم، فإن رفع على الابتداء وأحسن خبره، ﴿وهو العزيز﴾، في انتقامه ممن عصاه، ﴿الغفور﴾، لمن تاب إليه.

﴿الذي خلق سبع سموات طباقاً﴾، طباقاً على طبق بعضها فوق بعض، ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾، قرأ حمزة والكسائي من تفوت بتشديد الواو بلا ألف، وقرأ الآخرون بتخفيف الواو وألف قبلها، وهما لغتان كالتحمّل والتحامل والتظهر والتظاهر، ومعناه: ما ترى يا ابن آدم في خلق الرحمن من اعوجاج واختلاف وتناقض، بل هي مستقيمة مستوية وأصله من الفتوت وهو أن يفوت بعضها بعضاً لقلّة استوائها، ﴿فارجع البصر﴾، كرّر النظر، معناه: انظر ثم ارجع، ﴿هل ترى من فطور﴾، شقوق وصدوع. ﴿ثم ارجع البصر كرتين﴾، قال ابن عباس مرة بعد مرة، ﴿ينقلب﴾، ينصرف ويرجع ﴿إليك البصر

أعلام الكواكب، وقال ابن عباس بنجوم لها نور وقيل خلق الله النجوم لثلاث زينة للسماء وعلامات يهتدى بها في ظلمات البر والبحر ورجوماً للشياطين وهو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رَجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ قال ابن عباس يرجم بها الشياطين الذين يسترقون السمع.

فإن قلت جعل الكواكب زينة للسماء يقتضي بقاءها وجعلها رجوماً للشياطين يقتضي زوالها فكيف الجمع بين هاتين الحالتين.

قلت قالوا إنه ليس المراد أنهم يرمون بأجرام الكواكب بل يجوز أن تنفصل من الكواكب شعلة وترمي الشياطين بتلك الشعلة وهي الشهب ومثلها كمثله قبس يؤخذ من النار وهي على حالها ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ أي وأعدنا للشياطين بعد الاحتراق في الدنيا ﴿عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ أي في الآخرة وهي النار الموقدة ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ أي ليس العذاب مختصاً بالشياطين بل لكل من كفر بالله من إنس وجن ﴿عَذَابَ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ثم وصف جهنم فقال تعالى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا﴾ هو أول صوت نهيق الحمار وذلك أفتح الأصوات ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ أي تغلي بهم كغلي الرجل وقيل تفور بهم كما يفور الماء الكثير بالحب القليل، ﴿تَكَادُ تَمِيزُ﴾ أي تنقطع ﴿مِنَ الْغَيْظِ﴾ من تغيطها عليهم ﴿كَلِمًا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ أي جماعة ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ يعني سؤال توبيخ وتقريع ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ أي رسول يندركم.

قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَأَعْرِضُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾

﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا﴾ يعني للرسول ﴿مَا نَزَلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ وهذا اعتراف منهم بأنه أزاح

خاصاً، صاغراً ذليلاً مبعداً لم ير ما يهوي، ﴿وهو حسير﴾، كليل منقطع لم يدرك ما طلب. وروى عن كعب أنه قال: الساء الدنيا موج مكفوف، والثانية من درة بيضاء، والثالثة حديد، والرابعة صفراء، وقال نحاس، والخامسة فضة، والسادسة ذهب، والسابعة ياقوتة حمراء، ومن السماء السابعة إلى الحجب السبعة صحارى نور.

﴿ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح﴾، أراد الأدنى من الأرض وهي التي يراها الناس. وقوله: ﴿بمصابيح﴾ الكواكب، واحداً مصباح، وهو السراج سمي الكوكب مصباحاً لإضاءته، ﴿وجعلناها رجوماً﴾، مرامي، ﴿للشياطين﴾، إذا استرقوا السمع، ﴿وأعدنا لهم﴾، في الآخرة، ﴿عذاب السعير﴾، النار الموقدة. ﴿وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير﴾ إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً، وهو أول نهيق الحمار وذلك أفتح الأصوات، ﴿وهي تفور﴾، تغلي بهم كغلي المِرْجَل. وقال مجاهد: تفور بهم كما يفور الماء الكثير بالحب القليل.

﴿تَكَادُ تَمِيزُ﴾، تنقطع، ﴿من الغيظ﴾، من تغيطها عليهم، قال ابن قتيبة: تكاد تنشق غيظاً على الكفار، ﴿كلما ألقى فيها فوج﴾، جماعة منهم، ﴿سألهم خزنتها﴾، سؤال توبيخ، ﴿ألم يأتكم نذير﴾، رسول يندركم. ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا﴾، للرسول، ﴿مَا نَزَلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾.

عللهم ببعثة الرسل ولكنهم كذبوا وقالوا ما نزل الله من شيء ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ فيه وجهان أحدهما وهو الأظهر أنه من جملة قول الكفار للرسل والثاني يحتمل أن يكون من كلام الخزنة للكفار والمعنى لقد كنتم في الدنيا في ضلال كبير ﴿وقالوا لو كنا نسمع﴾ أي من الرسل ما جاؤوا به ﴿أو نعقل﴾ أي نفهم منهم، قال ابن عباس لو كنا نسمع الهدى أو نعقله فنعمل به ﴿ما كنا في أصحاب السعير﴾ وقيل معناه لو كنا نسمع سمع من يعي ونعقل عقل من يميز وننظر ونتفكر ما كنا في أصحاب السعير ﴿فاعترفوا بذنبهم﴾ هو في معنى الجمع أي بتكذيبهم الرسل وقولهم «ما نزل الله من شيء» ﴿فسحقاً﴾ أي بعداً ﴿لأصحاب السعير﴾ قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ أي يخافون ربهم ولم يروه فيؤمنوا به خوفاً من عذابه ﴿لهم مغفرة﴾ أي لذنوبهم ﴿وأجر كبير﴾ يعني جزاء أعمالهم الصالحة ﴿وأسروا قولكم أو أجهروا به﴾ قال ابن عباس نزلت في المشركين كانوا ينالون من رسول الله ﷺ فيخبره جبريل بما قالوا فقال بعضهم لبعض أسروا قولكم كي لا يسمع إله محمد فأخبره الله أنه لا يخفى عليه خافية فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ثم أكد ذلك بقوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ يعني ألا يعلم من خلق مخلوقه، وقيل ألا يعلم الله من خلق والمعنى ألا يعلم الله ما في صدور من خلق ﴿وهو اللطيف﴾ أي باستخراج ما في الصدور ﴿الخبير﴾ بما فيها من السر والوسوسة.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا﴾ الذلول المنقاد من كل شيء والمعنى جعلها لكم سهلة لا يمتنع المشي فيها لحزونها وغلظها ﴿فامشوا في مناكبها﴾ أمر بإباحة وكذا قوله ﴿وكلوا من رزقه﴾ ومناكبها جوانبها وأطرافها ونواحيها وقيل طرقها وفجاجها وقال ابن عباس جبالها والمعنى هو الذي سهل لكم السلوك في جبالها وهو

﴿وقالوا لو كنا نسمع﴾، من الرسل ما جاؤونا به، ﴿أو نعقل﴾، منهم، وقال ابن عباس: لو كنا نسمع الهدى أو نعقله فنعمل به، ﴿ما كنا في أصحاب السعير﴾، قال الزجاج: لو كنا نسمع سمع من يعي ويتفكر أو نعقل عقل من يميز وينظر ما كنا من أهل النار.

﴿فاعترفوا بذنبهم فسحقاً﴾، بعداً، ﴿لأصحاب السعير﴾، قرأ أبو جعفر والكسائي ﴿فسحقاً﴾ بضم الحاء، وقرأ الباقون بسكونها، وهما لغتان مثل الرعب والرعب والسحت والسحت.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور، قال ابن عباس: نزلت في المشركين كانوا ينالون من رسول الله ﷺ فيخبره جبريل عليه السلام بما قالوا، فقال بعضهم لبعض أسروا قولكم كي لا يسمع إله محمد.

فقال الله جل ذكره: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾، ألا يعلم ما في الصدور من خلقها، ﴿وهو اللطيف الخبير﴾، لطيف علمه في القلوب الخبير بما فيها من السر والوسوسة. وقيل: ﴿مَنْ﴾ يرجع إلى المخلوق، أي ألا يعلم الله مخلوقه.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا﴾، سهلاً لا يمتنع المشي فيها بالحزونة، ﴿فامشوا في مناكبها﴾، قال ابن عباس وقتادة: في جبالها. وقال الضحاك: في آكامها. وقال مجاهد: في طرقها وفجاجها. قال الحسن: في سبلها. وقال الكلبي: في أطرافها. وقال مقاتل: في نواحيها. قال الفراء: في جوانبها. والأصل في الكلمة الجانب، ومنه منكب الرجل، الريح النكباء وتنكب فلان. ﴿وكلوا من رزقه﴾، مما خلقه رزقاً لكم في الأرض، ﴿وإليه النشور﴾، أي وإليه تبعثون من قبوركم.

أبلغ التذلل وكلوا من رزقه أي مما خلقه الله لكم في الأرض ﴿وإليه النشور﴾ أي وإليه تبعثون من قبوركم ثم خوف كفار مكة فقال تعالى: ﴿أأنتم من في السماء﴾ قال ابن عباس يعني عقاب من في السماء إن عصيتموه ﴿أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور﴾ أي تتحرك بأهلها وقيل تهوي بهم والمعنى أن الله تعالى يحرك الأرض عند الخسف بهم حتى يقلبهم إلى أسفل وتعلو الأرض عليهم وتمور فوقهم أي تجيء وتذهب.

أَمْ أَمِنْتُمْ مَنِ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَائِلٌ وَيَقْبِضُنَّ مَا يُمَسْكُهُنَّ إِلَّا الرِّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُمْ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَنْ يَمْشِيَ مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِيَ سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّتَ وُجُوهَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿٢٧﴾

﴿أم أمتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً﴾ يعني ريحاً ذات حجارة كما فعل بقوم لوط ﴿فستعلمون﴾ أي عند الموت في الآخرة ﴿كيف نذير﴾ أي إنذاري إذا عايتم العذاب ﴿ولقد كذب الذين من قبلهم﴾ أي من قبل كفار مكة وهم الأمم الخالية ﴿فكيف كان نكير﴾ أي إنكاري عليهم أليس وجدوا العذاب حقاً.

قوله عز وجل: ﴿أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات﴾ أي باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانها ﴿ويقبضن﴾ أي يضممن أجنحتهن إذا ضربن بهن جنوبهن بعد البسط ﴿ما يمسكهن﴾ أي حال القبض والبسط ﴿إلا الرحمن﴾ والمعنى: أن الطير مع ثقلها وضخامة جسمها لم يكن بقاءها وثبوتها في الجو إلا بإمساك الله عز وجل إياها وحفظه لها.

ثم خوف الكفار فقال: ﴿أأنتم من في السماء﴾، قال ابن عباس: أي عذاب من في السماء إن عصيتموه، ﴿أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور﴾، قال الحسن: تتحرك بأهلها. وقيل: تهوي بهم، والمعنى: أن الله تعالى يحرك الأرض عند الخسف بهم حتى تلقىهم إلى أسفل تعلو عليهم وتمر فوقهم. يقال: مار يمر إذا جاء وذهب.

﴿أم أمتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً﴾، ريحاً ذات حجارة كما فعل بقوم لوط. ﴿فستعلمون﴾، في الآخرة وعند الموت، ﴿كيف نذير﴾، أي إنذاري إذا عايتم العذاب.

﴿ولقد كذب الذين من قبلهم﴾، يعني كفار الأمم الماضية، ﴿فكيف كان نكير﴾، أي إنكاري عليهم بالعذاب.

﴿أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات﴾، تصف أجنحتها في الهواء، ﴿ويقبضن﴾، أجنحتهن بعد البسط، ﴿ما يمسكهن﴾، في حال القبض والبسط أن يسقطن، ﴿إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير﴾.

﴿أمن هذا الذي هو جند لكم﴾، استفهام إنكار. قال ابن عباس: أي منعة لكم، ﴿ينصركم من دون الرحمن﴾، يمنعكم من عذابه ويدفع عنكم ما أراد بكم. ﴿إن الكافرون إلا في غرور﴾، أي في غرور من الشيطان يغرهم بأن العذاب لا ينزل بهم.

﴿إنه بكل شيء بصير﴾ يعني أنه تعالى لا تخفى عليه خافية ﴿أمن هذا الذي هو جند لكم﴾ استفهام إنكار أي لا جند لكم ﴿ينصركم﴾ أي يمنعكم ﴿من دون الرحمن﴾ أي من عذاب الله قال ابن عباس أي من ينصركم مني إن أردت عذابكم ﴿إن الكافرون إلا في غرور﴾ أي من الشيطان يغره بأن العذاب لا ينزل بهم ﴿أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه﴾ يعني من ذا الذي يرزقكم المطر إن أمسكه الله عنكم ﴿بل لجوا﴾ أي تبادوا ﴿في عتو﴾ أي نبو وتكبر ﴿ونفور﴾ أي تباعد عن الحق ثم ضرب مثلاً للكافر والمؤمن فقال تعالى: ﴿أفمن يمشي مكباً على وجهه﴾ أي كاباً رأسه في الضلالة والجهالة أعمى القلب والعين لا يبصر يميناً ولا شمالاً وهو الكافر أكب على الكفر والمعاصي في الدنيا فحشره الله على وجهه يوم القيامة ﴿أهدى﴾ أي هو أهدى، ﴿أمن يمشي سوياً﴾ أي قائماً معتدلاً لا يبصر الطريق ﴿على صراط مستقيم﴾ يعني المؤمن يمشي يوم القيامة سوياً ﴿قل هو الذي أنشأكم﴾ أي خلقكم ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ يعني أنه تعالى ركب فيكم هذه القوى لكنكم ضيعتموها فلم تقبلوا ما سمعتموه ولا اعتبرتم بما أبصرتموه ولا تأملتم ما عقلتموه فكأنكم ضيعتم هذه النعم فاستعملتموها في غير ما خلقت له فلهذا قال ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ وذلك لأن شكر نعم الله صرفها في وجه مرضاته فلما صرفتموها في غير مرضاته فكأنكم ما شكرتم رب هذه النعم الواهب لها ﴿قل هو الذي ذرأكم﴾ أي خلقكم وبثكم ﴿في الأرض وإليه تحشرون﴾ أي يوم القيامة والمعنى أن القادر على الإبداء قادر على الإعادة ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴿هذا سؤال يحتمل وجهين: أحدهما أنه سؤال عن نزول العذاب بهم والثاني أنه سؤال عن يوم القيامة فأجاب الله عن ذلك بقوله ﴿قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين﴾ أمره بإضافة العلم إلى الله تعالى وتبليغ ما أوحى إليه ﴿فلما رأوه﴾ يعني العذاب في الآخرة على قول أكثر المفسرين، وقيل يعني العذاب ببدر ﴿زلفة﴾ أي قريباً ﴿سيئت وجوه الذين كفروا﴾ أي اسودت وعلتها الكآبة والمعنى قبحت وجوههم بالسواد ﴿وقيل﴾ لهم أي وقالت لهم الخزنة ﴿هذا الذي كنتم به تدعون﴾ من الدعاء أي تتمنون وتطلبون أن يعجله لكم وقيل من الدعوى أي تدعون أنه باطل.

﴿أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه﴾، أي من الذي يرزقكم المطر إن أمسك الله عنكم، ﴿بل لجوا في عتو﴾، تبادوا في الضلال، ﴿ونفور﴾، تباعد من الحق.

ثم ضرب مثلاً فقال: ﴿أفمن يمشي مكباً على وجهه﴾، ركباً رأسه في الضلالة والجهالة أعمى العين والقلب لا يبصر يميناً ولا شمالاً وهو الكافر. قال قتادة: ركباً على المعاصي في الدنيا فحشره الله على وجهه يوم القيامة، ﴿أهدى آمن يمشي سوياً﴾، معتدلاً يبصر الطريق وهو، ﴿على صراط مستقيم﴾، وهو مؤمن. قال قتادة: يمشي يوم القيامة سوياً.

﴿قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾، قال مقاتل: يعني أنهم لا يشكرون رب هذه النعم.

﴿قل هو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون﴾ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين * فلما رأوه﴾، يعني العذاب في الآخرة على قول أكثر المفسرين. وقال مجاهد: يعني العذاب ببدر، ﴿زلفة﴾، أي قريباً وهو اسم يوصف به المصدر يستوي فيه المذكر والمؤنث والواحد والاثنتان والجمع، ﴿سيئت وجوه الذين كفروا﴾، اسودت وعلتها الكآبة، فالمعنى قبحت وجوههم بالسواد يقال ساء الشيء يسوء فهو سيئ إذا قبح، وسيئ يساء إذا قبح، ﴿وقيل﴾ لها أي قال لهم الخزنة، ﴿هذا﴾، أي هذا العذاب، ﴿الذي كنتم به تدعون﴾، تفتعلون من الدعاء أي أن تدعوه وتتمنوه أنه يجعله لكم، وقرأ يعقوب تدعون بالتخفيف، وهي قراءة قتادة ومعناها واحد مثل تذكرون وتذكرون.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٣٠﴾

﴿قل﴾ يا محمد لمشركي مكة الذين يتمنون هلاكك ﴿أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي﴾ أي من المؤمنين ﴿أو رحمنا﴾ أي فأبقانا وآخر في آجالنا ﴿فمن يجير الكافرين من عذاب أليم﴾ أي إنه واقع بهم لا محالة وقيل في معنى الآية قل أرأيتم إن أهلكني الله أي فعذبني ومن معي أو رحمنا أي فغفر لنا فنحن مع إيماننا خائفون أن يهلكنا بذنوبنا لأن حكمه نافذ فينا فمن يجيركم أو يمنعكم من عذاب أليم وأنتم كافرون وهذا قول ابن عباس، ﴿قل﴾ أي قل لهم في إنكارك عليهم وتوبيخك لهم ﴿هو الرحمن أمانا به وعليه توكلنا﴾ أي نحن أمانا به وعبدناه وأنتم كفرتم به ﴿فستعلمون﴾ أي عند معاينة العذاب ﴿من هو في ضلال مبين﴾ أي نحن أم أنتم وهذا تهديد لهم ثم ذكرهم ببعض نعمه عليهم على طريق الاحتجاج فقال تعالى: ﴿قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا﴾ أي غائرا ذاهبا في الأرض لا تناله الأيدي ولا الدلاء ﴿فمن يأتيكم بماء معين﴾ أي ظاهر تراه العيون وتناله الأيدي والدلاء، وقال ابن عباس معين أي جار والمقصود من الآية أن يجعلهم مقرين ببعض نعمه عليهم ويريههم قبح ما هم عليه من الكفر والمعنى أخبروني إن صار ماؤكم ذاهبا في الأرض فمن يأتيكم بماء معين فلا بد أن يقولوا هو الله تعالى فيقال لهم حيثئذ فلم تجعلون معه من لا يقدر على شيء أصلاً شريكاً له في العبودية فهذا محال، والله أعلم.

﴿قل﴾، يا محمد لمشركي مكة الذين يتمنون هلاكك، ﴿أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي﴾، من المؤمنين، ﴿أو رحمنا﴾، فأبقاها إلى منتهى آجالنا، ﴿فمن يجير الكافرين من عذاب أليم﴾، فإنه واقع بهم لا محالة، وقيل: معناه أرأيتم إن أهلكني الله فيعذبني ومن معي أو رحمنا فيغفر لنا، فنحن مع إيماننا خائفون أن يهلكنا بذنوبنا لأن حكمه نافذ فينا فمن يجير الكافرين، فمن يجيركم ويمنعكم من عذابه وأنتم كافرون، وهذا معنى قول ابن عباس.

﴿قل هو الرحمن﴾، الذي نعبد، ﴿أمانا به وعليه توكلنا فستعلمون﴾، قرأ الكسائي بالياء وقرأ الباقون بالتاء. ﴿من هو في ضلال مبين﴾، أي ستعلمون عند معاينة العذاب من الضلال نحن أم أنتم.

﴿قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا﴾، أي غائرا ذاهبا في الأرض لا تناله الأيدي والدلاء. قال الكلبي ومقاتل: يعني ماء زمزم، ﴿فمن يأتيكم بماء معين﴾، ظاهر تراه العيون وتناله الأيدي والدلاء. وقال عطاء عن ابن عباس: معين أي جار. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني الحسن الفارسي ثنا أبو عبد الله محمد بن يزيد ثنا أبو يحيى البراز ثنا محمد بن يحيى ثنا أبو داود ثنا عمران عن قتادة عن ابن عباس الجشمي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: إن سورة من كتاب الله ما هي إلا ثلاثون آية شفعت لرجل فأخرجته يوم القيامة وأدخلته الجنة، وهي سورة تبارك.

سورة نّ

مكية وهي اثنان وخمسون آية وثلاثمائة كلمة وألف ومائتان وستة وخمسون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾

قوله عز وجل : ﴿نّ﴾ قال ابن عباس هو الحوت الذي على ظهره الأرض وعنه «إن أول ما خلق الله القلم فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة ثم خلق النون فبسط الأرض على ظهره فتحرك النون فمادت الأرض فأثبتت الجبال فإن الجبال لتفخر على الأرض ثم قرأ نّ والقلم وما يسطرون» قيل اسم النون بهموت وقيل لوثيا وعن علي بلهوث .

قال أصحاب السير والأخبار لما خلق الله الأرض وفتحها سبع أرضين بعث من تحت العرش ملكاً فهبط إلى الأرض حتى دخلت تحت الأرضين السبع وضبطها فلم يكن لقدميه موضع قرار فأهبط الله تعالى من الفردوس ثوراً له أربعون ألف قرن وأربعون ألف قائمة وجعل قرار قدم الملك على سنامه فلم تستقر قدمه فأخذ الله ياقوته خضراء من أعلى درجة الفردوس غلظها مسيرة خمسمائة سنة فوضعها بين سنام الثور إلى أذنه فاستقر عليها قدما الملك وقرون ذلك الثور خارجة من أقطار الأرض ومنخرأه في البحر فهو يتنفس كل يوم نفساً فإذا تنفس مد البحر وإذا رد نفسه جزر البحر فلم يكن لقوائم الثور قرار فخلق الله تعالى صخرة كغلظ سبع سموات وسبع أرضين فاستقرت قوائم الثور عليها وهي الصخرة التي قال لقمان لابنه فتكن في صخرة فلم يكن للصخرة مستقر فخلق الله تعالى نوناً وهو الحوت العظيم

سُورَةُ الْقَلَمِ

مكية وهي اثنان وخمسون آية.

﴿نّ﴾ اختلفوا فيه فقال ابن عباس : هو الحوت الذي على ظهره الأرض . وهو قول مجاهد ومقاتل والسدي والكلبي . وروى أبو ظبيان عن ابن عباس قال : أول ما خلق الله القلم ، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة ، ثم خلق النون فبسط الأرض على ظهره فتحرك النون فمادت الأرض ، فأثبتت بالجبال وأن الجبال لتفخر على الأرض ، ثم قرأ ابن عباس : ﴿نّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ . واختلفوا في اسمه ، فقال الكلبي ومقاتل : بهموت . وقال الواقدي : ليوثاً . وقال كعب : لوثيا . وعن علي : اسمه بلهوث : وقال الرواة : لما خلق الله الأرض وفتحها بعث من تحت العرش ملكاً فهبط إلى الأرض حتى دخل تحت الأرضين السبع فوضعها على عاتقه إحدى يديه بالمشرق والأخرى بالمغرب باسطين قابضتين على الأرضين السبع ، حتى ضبطها فلم يكن لقدميه موضع قرار ، فأهبط الله عليه من الفردوس ثوراً له أربعون ألف قرن وأربعون ألف قائمة ، وجعل قرار قدمي الملك على سنامه ، فلم تستقر قدماه فأخذ الله ياقوته خضراء من أعلى درجة في الفردوس غلظها مسيرة خمسمائة عام فوضعها بين سنام الثور إلى أذنه فاستقرت

فوضع الصخرة على ظهره وسائر جسده خال والحوث على البحر والبحر على متن الريح والريح على القدرة قيل فكل الدنيا بما عليها حر فان قال لها الجبار سبحانه وتعالى وتنزه وتقدس كوني فكانت .

قال كعب الأحبار إن إبليس تغلغل إلى الحوث الذي على ظهر الأرض فوسوس إليه فقال له أتدري ما على ظهرك يا ليوثا من الأمم والدواب والشجر والجبال لو نفضتهم لألقيتهم على ظهرك فهم ليوثا أن يفعل ذلك فبعث له دابة فدخلت منخره فوصلت إلى دماغه فعج الحوث إلى الله تعالى منها فأذن لها فخرجت قال كعب الأحبار فوالذي نفسي بيده إنه لينظر إليها وتنظر إليه إن هم بشيء من ذلك عادت كما كانت وعن ابن عباس أيضاً أن النون هو الدواة ومنه قول الشاعر:

إذا ما الشوق برح بي إليهم ألقى النون بالدمع السجام

أراد بالنون الدواة وعن ابن عباس أيضاً أن نوناً حرف من حروف الرحمن إذا جمعت الرحمن وقيل هو مفتاح اسمه ناصر ونصير وقيل اسم للسورة ﴿والقلم﴾ هو القلم الذي كتب الله به الذكر وهو قلم من نور طوله ما بين السماء والأرض ويقال أول ما خلق الله القلم فنظر إليه فانشق نصفين ثم قال اجر بما هو كائن إلى يوم القيامة فجرى على اللوح المحفوظ بذلك وإنما يجري الناس على أمر قد فرغ منه ﴿وما يسطرون﴾ أي وما يكتب الحفظة من أعمال بني آدم وقيل إن حملنا القلم على ذلك القلم المعين فيحتمل أن يكون المراد وما يسطرون فيه وهو اللوح المحفوظ ويكون الجمع في وما يسطرون للتعظيم لا للجمع .

مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾

﴿ما أنت﴾ يا محمد ﴿بنعمة ربك بمجنون﴾ هذا جواب القسم أقسم الله بنون والقلم وما يسطرون وما أنت

عليها قدماء، وقرون ذلك الثور خارجة من أقطار الأرض، ومنخره في البحر فهو يتنفس كل يوم نفساً فإذا تنفس مَدَّ البحر وأزبد وإذا رَدَّ نفسه جزر فلم يكن لقوائم الثور موضع قرار، فخلق الله تعالى صخرة كغلظ سبع سموات وسبع أرضين فاستقرت قوائم الثور عليها وهي الصخرة التي قال لقمان لابنه فتكن في صخرة ولم يكن للصخرة مستقر، فخلق الله نوناً وهو الحوث العظيم، فوضع الصخرة على ظهره وسائر جسده خال والحوث على البحر، والبحر على متن الريح، والريح على القدرة. قيل: فكل الدنيا كلها بما عليها حرفان قال لها الجبار: كوني فكانت. كعب الأحبار: إن إبليس تغلغل إلى الحوث الذي على ظهره الأرض فوسوس إليه، فقال له: أتدري ما على ظهرك يا لوثيا من الأمم والدواب والشجر والجبال لو نفضتهم ألقىتهم عن ظهرك، فهم لوثيا أن يفعل ذلك فبعث الله دابة فدخلت منخره فوصلت إلى دماغه فعج الحوث إلى الله منها فأذن لها فخرجت. قال كعب: فوالذي نفسي بيده إنه لينظر إليها وتنظر إليه إن هم بشيء من ذلك عادت إلى ذلك كما كانت. وقال بعضهم: إن نون آخر حروف الرحمن، وهي رواية عكرمة عن ابن عباس. وقال الحسن وقتادة والضحاك: النون الدواة. وقيل: هو قسم أقسم الله به. وقيل: فاتحة السورة. وقال عطاء: افتتاح اسمه نور وناصر. وقال محمد بن كعب: أقسم الله بنصرته المؤمنين. ﴿والقلم﴾، هو الذي كتب الله به الذكر وهو قلم من نور طوله ما بين السماء والأرض، ويقال أول ما خلق الله القلم ونظر إليه فانشق نصفين، ثم قال: اجر بما هو كائن إلى يوم القيامة فجرى على اللوح المحفوظ بذلك. ﴿وما يسطرون﴾، يكتبون أي ما تكتب الملائكة الحفظة من أعمال بني آدم.

﴿ما أنت بنعمة﴾، بنوة، ﴿ربك بمجنون﴾، هذا جواب لقولهم: ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ [الحجر: ٦] فأقسم الله بالنون والقلم وما يكتب من الأعمال فقال: ﴿ما أنت بنعمة ربك﴾، بنوة ربك

بنعمة ربك بمجنون وهو رد لقولهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ والمعنى إنك لا تكون مجنوناً وقد أنعم الله عليك بالنبوة والحكمة فنفى عنه الجنون وقيل معناه ما أنت بمجنون والنعمة لله وهو كما يقال ما أنت بمجنون والحمد لله وقيل إن نعمة الله كانت ظاهرة عليه من الفصاحة التامة والعقل الكامل والسيرة المرضية والأخلاق الحميدة والبراءة من كل عيب والاتصاف بكل مكرمة وإذا كانت هذه النعم محسوسة ظاهرة فوجودها ينفي حصول الجنون فنبه الله تعالى بهذه الآية على كونهم كاذبين في قولهم إنك لمجنون ﴿وإن لك لأجراً غير ممنون﴾ أي غير منقوص ولا مقطوع ومنه قول لبيد:

عبس كواسب ما يمن طعامها

أي ما يقطع يصف بذلك كلاباً ضارية، وقيل في معنى الآية إنه غير مكدر عليك بسبب المنة والقول هو الأول ومعناه إن لك على احتمالك الطعن وصبرك على هذا القول القبيح وافترائهم عليك أجراً عظيماً دائماً لا ينقطع، وقيل إن لك على إظهار النبوة وتبليغ الرسالة ودعاء الخلق إلى الله تعالى والصبر على ذلك وبيان الشرائع لهم أجراً عظيماً فلا تمنعك نسبتهم إياك إلى الجنون عن الاشتغال بهذا الأمر العظيم الذي قد حملته ثم وصفه بما يخالف حال المجنون فقال تعالى: ﴿وإنك لعلی خلق عظیم﴾ وهذا كالتفسير لقوله ﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ لأن الأخلاق الحميدة والأفعال المرضية كانت ظاهرة عليه ومن كان كذلك لم تجز إضافة الجنون إليه ولما كانت أخلاق رسول الله ﷺ كاملة حميدة وأفعاله المرضية الجميلة وافرة وصفها الله تعالى بأنها عظيمة وحقيقة الخلق قوى نفسانية يسهل على المتصف بها الإتيان بالأفعال الحميدة والآداب المرضية فيصير ذلك كالخلقة في صاحبه ويدخل في حسن الخلق التحرز من الشح والبخل والتشديد في المعاملات ويستعمل في حسن الخلق التحبب إلى الناس بالقول والفعل والبذل وحسن الأدب والمعاشرة بالمعروف مع الأقارب والأجانب والتساهل في جميع الأمور والتسامح بما يلزم من الحقوق وترك التقاطع والتهاجر واحتمال الأذى من الأعلى والأدنى مع طلاقة الوجه وإدامة البشر فهذه الخصال تجمع جميع محاسن

﴿بمجنون﴾، هذا جواب القسم أي: إنك لا تكون مجنوناً وقد أنعم الله عليك بالنبوة والحكمة. وقيل: بعصمة ربك. وقيل: هو كما يقال ما أنت بمجنون والحمد لله. وقيل: معناه ما أنت بمجنون والنعمة لربك، كقولهم: سبحانك اللهم وبحمدك أي والحمد لك.

﴿وإن لك لأجراً غير ممنون﴾، أي منقوص ولا مقطوع بصبرك على افترائهم عليك.

﴿وإنك لعلی خلق عظیم﴾، قال ابن عباس ومجاهد: دين عظيم لا دين أحب إلي ولا أرضى عندي منه، وهو دين الإسلام. وقال الحسن: هو آداب القرآن. سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن. قال قتادة: هو ما كان يأتمر به من أمر الله وينتهي عنه من نهي الله، والمعنى إنك لعلی الخلق الذي أمرك الله به في القرآن. وقيل: سمى الله خلقه عظيماً لأنه امثل تأديب الله إياه بقوله: ﴿خذ العفو﴾ [الأعراف: ١٩٩] الآية، وروينا عن جابر أن النبي ﷺ قال: «إن الله بعثني لتمام مكارم الأخلاق، وتمام محاسن الأفعال». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أحمد بن سعيد أبو عبد الله ثنا إسحاق بن منصور ثنا إبراهيم بن يوسف عن أبيه عن أبي إسحاق قال سمعت البراء يقول: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً ليس بالطويل البائن ولا بالقصير. أخبرنا عبد الله بن عبد الصمد الجورجاني أنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي أنا أبو سعيد الهيثم بن كليب الشاشي ثنا أبو عيسى الترمذي ثنا قتيبة بن سعيد ثنا جعفر بن سليمان الضبيعي عن ثابت عن أنس بن مالك قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي أف قط وما قال لشيء صنعته لم صنعته، ولا لشيء تركته، وكان رسول الله ﷺ من أحسن

الأخلاق ومكارم الأفعال ولقد كان جميع ذلك في رسول الله ﷺ ولهذا وصفه الله تعالى بقوله ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾، وقال ابن عباس معناه على دين عظيم لا دين أحب إلي ولا أرضى عندي منه وهو دين الإسلام وقال الحسن هو آداب القرآن سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت كان خلقه القرآن وقال قتادة هو ما كان ياتمر من أوامر الله وينتهي عنه من مناهي الله تعالى والمعنى وإنك لعلى الخلق الذي أمرك الله به في القرآن وقيل سمى الله خلقه عظيماً لأنه امتثل تأديب الله إياه بقوله ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ والله سبحانه وتعالى أعلم.

(فصل: في فضل حسن الخلق وما كان عليه رسول الله ﷺ)

من ذلك ما روى جابر أن النبي ﷺ قال «إن الله بعثني لتمام مكارم الأخلاق وتمام محاسن الأفعال» (م) عن النواس بن سمعان قال «سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال رسول الله ﷺ: البر حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس»، عن عائشة رضي الله عنها قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم» أخرجه أبو داود وعنها قالت: قال رسول الله ﷺ «إن من أكمل الناس إيماناً أحسنهم خلقاً والطفهم بأهله» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن.

عن أبي الدرداء أن رسول الله ﷺ قال «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن وإن الله تعالى يبيغض الفاحش البذيء» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح، وله عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «إن من أحبكم إلى الله وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً»، (ق) عن البراء رضي الله عنه قال

الناس خلقاً وما مسست خزاً قط ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شمت مسكاً ولا عطراً كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي أنا عبد الله محمد بن عبد الله الصفار ثنا أحمد بن محمد بن عيسى البرني ثنا محمد بن كثير ثنا سفیان الثوري عن الأعمش عن أبي وائل عن مسروق عن عبد الله بن عمرو قال: إن رسول الله ﷺ لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً وكان يقول: «خياركم أحاسنكم أخلاقاً». أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي أنا أبو العباس الأصم ثنا محمد بن هشام بن ملاس ثنا مروان الفزاري ثنا حميد الطويل عن أنس أن امرأة عرضت لرسول الله ﷺ في طريق من طرق المدينة فقالت: يا رسول الله إن لي إليك حاجة فقال: «يا أم فلان اجلسي في أي سكك المدينة شئت أجلس إليك»، قال: ففعلت فقعدها إليها رسول الله ﷺ، حتى قضت حاجتها. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل قال: قال لي محمد بن عيسى ثنا هشام أنا حميد الطويل ثنا أنس بن مالك قال: إن كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنتقل به حيث شئت. وأخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو محمد بن عبد الرحمن بن أبي شريح أنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي ثنا علي بن الجعد أخبرنا عمران بن يزيد الثعلبي عن زيد العمي عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان إذا صافح الرجل لم ينزع يده حتى يكون هو الذي ينزع يده ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون هو الذي يصرف وجهه عن وجهه، ولم ير مقدماً ركبتيه بين يدي جليس له. أخبرنا عبد الله بن عبد الصمد أنا أبو القاسم الخزاعي أنا الهيثم بن كليب ثنا أبو عيسى ثنا هارون بن إسحاق الهمداني ثنا عبدة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا ضرب خادماً ولا امرأة. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل أنا

«كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً ليس بالطويل ولا بالقصير» (ق) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال «إن رسول الله ﷺ لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً» وكان يقول «خياركم أحاسنكم أخلاقاً» (ق) عن أنس رضي الله عنه قال «خدمت النبي ﷺ عشر سنين والله ما قال لي أف قط ولا قال لشيء لم فعلت كذا وهلا فعلت كذا» زاد الترمذي «وكان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقاً وما مسست خزاً قط ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله ﷺ ولا شممت مسكاً قط ولا عطراً كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ»، (خ) عنه قال «إن كانت الأمة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنتلق به حيث شاءت» زاد في رواية «ويجب إذا دعي» وعنه قال «كان رسول الله ﷺ إذا استقبله الرجل فصافحه لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل ينزع يده ولا يصرف وجهه حتى يكون الرجل هو الذي يصرفه ولم ير مقدماً ركبتيه بين يدي جليس له» أخرجه الترمذي، (ق) عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت «ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم»، زاد مسلم عنها «وما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده ولا امرأة ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل الله تعالى» (ق) عن أنس قال «كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجبذه جبذة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته ثم قال يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك فالتفت إليه رسول الله ﷺ وضحك وأمر له بعتاء»، (ق) عنه رضي الله عنه قال «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً وكان لي أخ يقال له أبو عمير وكان فطيماً كان إذا جاءنا قال يا أبا عمير ما فعل النغير لنغير كان يلعب به» النغير طائر صغير يشبه العصفور إلا أنه أحمر المتقار (م) عن الأسود قال «سألت عائشة ما كان رسول الله ﷺ يفعل في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة يتوضأ ويخرج إلى الصلاة» المهنة الخدمة عن عبد الله بن الحارث بن جزء قال «ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ» أخرجه الترمذي قوله تعالى:

إسماعيل بن عبد الله حدثني مالك بن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس قال كنت أمشي مع رسول الله ﷺ ببرد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة، ورجع النبي ﷺ في نحر الأعرابي حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك ثم أمر له بعتاء. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا علي المديني ثنا ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن ابن أبي مليكة عن يعلى بن مملك عن أم الدرداء تحدثت عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «إن أثقل شيء يوضع في ميزان المؤمن يوم القيامة خُلُقٌ حَسَنٌ، والله تعالى ييغض الفاحش البذيء»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني أنا أبو جعفر الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا أبو نعيم ثنا داود بن يزيد الأودي سمعت أبي سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أتدرون ما أكثر ما يدخل الناس النار؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن أكثر ما يدخل الناس النار الأجوفان: الفرج والفم، أتدرون ما أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «إن أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحُسن الخُلُق». أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالح أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي ثنا أبو العباس الأصم ثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم أنا أبي شعيب قال ثنا الليث عن أبي المهاده عن عمرو بن أبي عمرو عن عبد المطلب بن عبد الله عن عائشة، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن المؤمن ليدرك بحُسن خلقه درجة قائم الليل وصائم النهار».

فَسْتَبْصِرْ وَتُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تَطْعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾

﴿فستبصر﴾ أي يا محمد ﴿وتبصرون﴾ يعني أهل مكة إذا نزل بهم العذاب ﴿بأيكم المفتون﴾ قال ابن عباس معناه بأيكم المجنون وقيل الباء بمعنى «في» معناه فستبصر وتبصرون في أي الفريقين المجنون في فريقك أو فريقهم وقيل المفتون هو الشيطان الذي فتن بالجنون ﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ معناه إنهم رموه بالجنون والضلال ووصفوا أنفسهم بالعقل والهداية فأعلم الله تعالى أنه هو العالم بالفريقين الضال والمهتدي والمجنون والعاقل ﴿فلا تطع المكذبين﴾ يعني مشركي مكة وذلك أنهم دعوه إلى دين آبائهم فنهاه الله أن يطيعهم.

وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تَطْعِ كُلَّ حِلَافٍ مِّمَّهِينَ ﴿١٠﴾

﴿ودوا لو تدهن فيدهنون﴾ أصل الإدهان اللين والمصانة والمقاربة في الكلام وقيل أدهن الرجل في دينه وداهن في أمره إذا خان فيه وأظهر خلاف ما أبطن ومعنى الآية أنهم تمنوا أن تترك بعض ما أنت عليه مما لا يرضونه مصانة لهم فيفعلوا مثل ذلك ويتركوا بعض ما لا ترضى به فتلين لهم ويلينون لك وقيل معناه ودوا لو تكفر فيكفرون وهو أن تعبد آلهتهم مدة ويعبدون الله مدة ﴿ولا تطع كل حلاف﴾ أي كثير الحلف بالباطل ﴿مهمين﴾ أي ضعيف حقير ذليل وقيل هو من المهانة وهي قلة الرأي والتمييز وقال ابن عباس كذاب وهو قريب من الأول لأن الإنسان إنما يكذب لمهانة نفسه عليه قيل هو الوليد بن المغيرة وقيل هو الأسود بن عبد يغوث وقيل هو الأخنس بن شريق.

قوله عز وجل: ﴿فستبصر وتبصرون﴾، فسترى يا محمد ويرون يعني أهل مكة إذا نزل بهم العذاب.

﴿بأيكم المفتون﴾، قيل معناه بأيكم المجنون فالمفتون مفعول بمعنى المصدر، كما يقال ما بفلان مجلود ومعقول، أي جلادة وعقل، وهذا معنى قول الضحاك ورواية العوفي عن ابن عباس. وقيل: الباء بمعنى في، مجازة: فستبصر وتبصرون في أي الفريقين المجنون في فريقك أو في فريقهم. وقيل: بأيكم المفتون وهو الشيطان الذي فتن بالجنون، وهذا قول مجاهد. وقال آخرون: الباء فيه زائدة معناه: أيكم المفتون؟ أي المجنون الذي فتن بالجنون، وهذا قول قتادة.

﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ * فلا تطع المكذبين، يعني مشركي مكة فإنهم كانوا يدعونه إلى دين آبائهم فنهاه الله أن يطيعهم.

﴿ودوا لو تدهن فيدهنون﴾، قال الضحاك: لو تكفر فيكفرون. وقال الكلبي: لو تلين لهم فيلينون لك. قال الحسن: لو تصانعهم في دينك فيصانعون في دينهم. قال زيد بن أسلم: لو تنافق وتراثي فينافقون. قال ابن قتبية: أرادوا على أن تعبد آلهتهم مدة ويعبدون الله مدة.

﴿ولا تطع كل حلاف﴾، كثير الحلف بالباطل. قال مقاتل: يعني الوليد بن المغيرة. وقيل: الأسود بن عبد يغوث: وقال عطاء: الأخنس بن شريق. قوله: ﴿مهمين﴾، ضعيف حقير. قيل: هو فعيل من المهانة وهي قلة الرأي والتمييز. وقال ابن عباس: كذاب، وهو قريب من الأول لأن الإنسان إنما يكذب لمهانة نفسه عليه.

هَمَازٍ مَشَاءٍ بَنِمِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتْلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ إِيْتُنَا قَالَكِ اسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾

﴿هماز﴾ أي مغتاب يأكل لحوم الناس بالطعن والعيب وقيل هو الذي يغمز بأخيه في المجلس ﴿مشاء بنميم﴾ أي فتان يسعى بالنميمة ليفسد بين الناس ﴿مناع للخير﴾ أي بخيل بالمال وقال ابن عباس مناع للخير أي يمنع ولده وعشيرته عن الإسلام يقول لئن دخل واحد منكم في دين محمد لا أنفعه بشيء أبداً، ﴿معتد﴾ أي ظلوم يتعدى الحق ﴿أثيم﴾ أي فاجر يتعاطى الإثم ﴿عتل﴾ أي غليظ جاف وقيل هو الفاحش السيء الخلق وقيل هو الشديد في الخصومة بالباطل وقيل هو الشديد في كفره وقيل العتل الأكل الشروب القوي الشديد ولا يزن في الميزان شعيرة يدفع الملك من أولئك سبعين ألفاً في النار دفعة واحدة ﴿بعد ذلك زنيم﴾ أي مع ما وصفناه به من الصفات المذمومة زنيم وهو الدعي الملقق في القوم وليس منهم قال ابن عباس يريد مع هذا هو دعي في قريش وليس منهم قيل إنما ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة سنة وقيل الزنيم هو الذي له زمة كزمة الشاة وقال ابن عباس في هذه الآية نعت من لا يعرف حتى قيل زنيم فعرف وكانت له زمة في عنقه يعرف بها وعنه أيضاً قال يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزمنتها قال ابن قتيبة لا نعلم أن

﴿همّاز﴾، مغتاب يأكل لحوم الناس بالطعن والغيبة. وقال الحسن هو الذي يغمز بأخيه في المجلس، كقوله: ﴿همزة﴾ [الهمزة: ١] ﴿مشاء بنميم﴾. قتات يسعى بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم.

﴿مناع للخير﴾. بخيل بالمال قال ابن عباس مناع للخير أي للإسلام يمنع ولده وعشيرته عن الإسلام، يقول: لئن دخل واحد منكم في دين محمد لا أنفعه بشيء أبداً. ﴿معتد﴾، ظلوم يتعدى الحق، ﴿أثيم﴾. فاجر.

﴿عتل﴾، العتل: الغليظ الجافي. وقال الحسن: هو الفاحش السيء الخلق. قال الفراء: هو الشديد الخصومة في الباطل. وقال الكلبي: هو الشديد في كفره، وكل شديد عند العرب عتل، وأصله من العتل وهو الدفع بالعنف. قال عبيد بن عمير: العتل الأكل الشروب القوي الشديد لا يزن في الميزان شعيرة، يدفع الملك من أولئك سبعين ألفاً دفعة واحدة. ﴿بعد ذلك﴾، أي مع ذلك يريد مع ما وصفناه به، ﴿زنيم﴾، وهو الدعي الملقق بالقوم، وليس منهم، قال عطاء عن ابن عباس: يريد مع هذا هو دعي في قريش وليس منهم. قال مرة الهمداني: إنما ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة سنة. وقيل: الزنيم الذي له زمة كزمة الشاة. وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية نعت من لا يعرف حتى قيل زنيم فعرف، وكانت له زمة في عنقه يُعرف بها. وقال سعيد بن جبير: عن ابن عباس قال: يُعرف بالشر كما تُعرف الشاة بزمنتها. قال ابن قتيبة: لا نعلم أن الله وصف أحداً ولا ذكر من عيوبه ما ذكر من عيوب الوليد بن المغيرة، فألحق به عاراً لا يفارقه في الدنيا والآخرة. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان الواعظ حدثني أبو محمد بن زنجويه بن محمد ثنا علي بن الحسين الهمداني ثنا عبد الله بن الوليد العوفي عن سفيان حدثني معبد بن خالد القيسي عن حارث بن وهب الخزاعي قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأهل الجنة كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جواظ متكبر».

﴿أن كان ذا مالٍ وبنتين﴾، قرأ أبو جعفر وابن عامر وحمزة وأبو بكر ويعقوب (أأن) بالاستفهام، ثم حمزة وأبو بكر يخففان الهمزتين بلا مدٍّ، ويمدّ الهمزة الأولى أبو جعفر وابن عامر ويعقوب، ويلينون الثانية، وقرأ الآخرون

الله وصف أحداً ولا ذكر من عيوبه مثل ما ذكر من عيوب الوليد بن المغيرة فألحق به عاراً لا يفارقه في الدنيا ولا في الآخرة ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ قرىء على الخبر ومعناه فلا تطع كل حلاف مهين لأن كان ذا مال وبنتين أي لا تطعه لماله وبنيه وقرىء أن كان ذا مال وبنتين بالاستفهام ومعناه لأن كان ذا مال وبنتين ﴿إِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي جعل مجازاة النعم التي خولها من المال والبنتين الكفر بآياتنا وقيل لأن كان ذا مال وبنتين تطيعه ثم أوعده فقال تعالى:

سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْبَمُوا بِصِرْمَتِهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْتُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾

﴿سنسمه على الخرطوم﴾ أي على الأنف والمعنى نسود وجهه فنجعل له علماً يعرف به في الآخرة وهو سواد الوجه فعبر بالأنف عن الوجه وقال ابن عباس سنسمه بالسيف وفعل به ذلك يوم بدر، وقيل معناه سنلحق به شيئاً لا يفارقه أي سنسمه ميسم سوء يريد نلحق به عاراً لا يفارقه كما أن السم لا تمحى ولا يعفى أثرها.

وقد ألحق الله به بما ذكر من عيوبه عاراً لا يفارقه في الدنيا ولا في الآخرة كالوسم على الخرطوم الذي لا يخفى قط وقيل معناه سنكويه على وجهه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾ أي اختبرنا أهل مكة بالقحط والجوع ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ روي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ قال بستان باليمن يقال له الضروان دون صنعاء بفرسخين يطؤه أهل الطريق وكان غرسه قوم من أهل الصلاة وكان لرجل فمات فورثه ثلاث بنين له وكان يترك للمساكين إذا صرموا نخلهم كل شيء تعداه المنجل إذا طرح من فوق النخل إلى البساط وكل شيء يخرج من المنجل إلى البساط فهو أيضاً للمساكين وإذا حصدوا زرعهم فكل شيء تعداه المنجل فهو للمساكين وإذا داسوه كان لهم كل

بلا استفهام على الخبر، فمن قرأ بالاستفهام فمعناه: لأن كان ذا مال وبنتين.

﴿إِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، أي جعل مجازاة النعم التي خولها من البنين والمال الكفر بآياتنا. وقيل: معناه لأن كان ذا مال وبنتين تطيعه. ومن قرأ على الخبر فمعناه: لا تطع كل حلاف مهين لأن كان ذا مال وبنتين، أي لا تطعه لماله وبنيه، ﴿إِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

ثم أوعده فقال: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ﴾، والخرطوم الأنف. قال أبو العالية ومجاهد: أي نسود وجهه فنجعل له علماً في الآخرة يعرف به وهو سواد الوجه. قال الفراء: خص الخرطوم بالسمّة وأنه في مذهب الوجه لأن بعض الشيء يعبر به عن كله. وقال ابن عباس: سنخطمه بالسيف، وقد فعل ذلك يوم بدر. وقال قتادة: سنلحق به شيئاً لا يفارقه. قال القتيبي تقول العرب للرجل: سب الرجل سبة قبيحة قد وسّمه ميسم سوء، يريد ألصق به عاراً لا يفارقه، كما أن السمّة لا ينمحي ولا يعفو أثرها، وقد ألحق الله بما ذكر من عيوبه عاراً لا يفارقه في الدنيا والآخرة، كالوسم على الخرطوم. وقال الضحاك والكسائي: سنكويه على وجهه.

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾، يعني اختبرنا أهل مكة بالقحط والجوع، ﴿كَمَا بَلَوْنَا﴾، ابتلينا، ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾، روى محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾، قال: كان بستان باليمن يقال له الضروان دون صنعاء بفرسخين يطؤه أهل الطريق كان غرسه قوم من أهل

شيء ينتثر أيضاً فلما مات الأب وورثه بنوه هؤلاء الإخوة الثلاثة قالوا والله إن المال قليل وإن العيال كثير وإنما كان هذا الأمر يفعل لما كان المال كثيراً والعيال قليلاً فأما إذا قل المال وكثر العيال فإننا لا نستطيع أن نفعل فتحالفوا بينهم يوماً أن يغدوا غدوة قبل خروج الناس فليصر من نخلمهم فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا﴾ أي تحالفوا ﴿لِيَصْرِمْنَهَا﴾ أي ليقطعن ثمرها ﴿مُصْبِحِينَ﴾ أي إذا أصبحوا قبل أن يخرج إليهم المساكين وقبل أن يعلم بها المساكين، ﴿وَلَا يَسْتَنُونَ﴾ أي ولم يقولوا إن شاء الله وقيل لا يستنون شيئاً للمساكين من ثمر جنتهم ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي عذاب من ربك ولا يكون الطائف إلا بالليل وهو قوله تعالى: ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ وكان ذلك الطائف ناراً أنزلت من السماء فأحرقتها وهو قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَتْ﴾ أي الجنة ﴿كَالْصَّرِيمِ﴾ أي كالليل الأسود المظلم وقيل تصرم منها الخير فليس فيها شيء ينتفع به وقال ابن عباس كالرماد الأسود وهو بلغة خزيمة.

فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنْ أَغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدُوا عَلَى حَرٍِّ قَدِيرٍ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَوْنَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَوْمَئِذٍ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾

﴿فتنادوا﴾ أي فنادى بعضهم بعضاً ﴿مصباحين﴾ يعني لما أصبحوا ﴿أن اغدوا على حركم﴾ يعني الثمار والزروع والأعنان ﴿إن كنتم صارمين﴾ أي قاطعين ثماركم ﴿فانطلقوا﴾ أي مشوا إليها ﴿وهم يتخافتون﴾ أي يتسارون يقول

الصلاة وكان لرجل فمات فورثه ثلاثة بنين له وكان يكون للمساكين إذا صرموا نخلمهم كل شيء تعداه المِنْجَل إذا طرح من فوق النخل إلى البساط فكل شيء يسقط على البساط فهو أيضاً للمساكين، وإذا حصدوا زرعهم فكل شيء تعداه المِنْجَل فهو للمساكين، وإذا داسوا كان لهم كل شيء يُنتثر أيضاً، فلما مات الأب وورثه هؤلاء الإخوة عن أبيهم، فقالوا: والله إن المال لقليل وإن العيال لكثير، وإنما كان هذا الأمر يفعل إذا كان المال كثيراً والعيال قليلاً فأما إذا قلّ المال وكثر العيال فإننا لا نستطيع أن نفعل هذا، فتحالفوا بينهم يوماً ليغدوا غدوة قبل خروج الناس فليصر من نخلمهم ولم يستنوا، يعني لم يقولوا: إن شاء الله، فغدا القوم بسدفة من الليل إلى جنتهم ليصرموها قبل أن يخرج المساكين، فأروها مسودة وقد طاف عليها من الليل طائف من العذاب فأحرقها فأصبحت كالصريم فذلك قوله عز وجل: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا﴾، حلفوا، ﴿لِيَصْرِمْنَهَا مُصْبِحِينَ﴾، ليقطعن ثمرها إذا أصبحوا قبل أن يعلم المساكين، ﴿وَلَا يَسْتَنُونَ﴾، لا يقولون إن شاء الله.

﴿فطاف عليها طائف﴾، عذاب، ﴿من ربك﴾، ليلاً ولا يكون الطائف إلا بالليل وكان ذلك الطائف ناراً نزلت من السماء فأحرقتها، ﴿وهم نائمون﴾.

﴿فأصبحت كالصريم﴾، كالليل المظلم الأسود. وقال الحسن: أي صرم منها الخير فليس فيها شيء. وقال الأخفش كالصبح الصريم من الليل وأصل الصريم المصروم، مثل قتيل ومقتول وكل شيء قطع فهو صريم فالليل صريم والصبح صريم، لأن كل واحد منهما ينصرم عن صاحبه. وقال ابن عباس كالرماد الأسود بلغة خزيمة. ﴿فتنادوا مصباحين﴾، نادى بعضهم بعضاً لما أصبحوا.

﴿أن اغدوا على حركم﴾ يعني الثمار والزروع والأعنان، ﴿إن كنتم صارمين﴾، قاطعين للنخل.

﴿فانطلقوا﴾، مشوا إليها، ﴿وهم يتخافتون﴾، يتسارون يقول بعضهم لبعض سراً.

بعضهم لبعض سراً ﴿أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ وَغَدُوا عَلَى حَرْدٍ﴾ أي على قصد ومنع وقيل معناه على جد وجهه وقيل على أمر مجتمع قد أسسوه بينهم وقيل على حقد وغضب من المساكين وقال ابن عباس على قدرة ﴿قَادِرِينَ﴾ أي عند أنفسهم على جنتهم وثمارها لا يحول بينهم وبينها أحد ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ أي رأوا الجنة محترقة ﴿قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ﴾ أي لمخطئون الطريق أضللنا عن مكان جنتنا وليست هذه جنتنا ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي قال بعضهم قد حرمتنا خيرها ونفعها بمنعنا المساكين وتركنا الاستثناء ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أي أعدلهم وأعقلهم وأفضلهم ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تَسْبِيحُونَ﴾ أي هلا تستثنون أنكر عليهم ترك الاستثناء في قولهم ليصر منها مصبحين سماه تسبيحاً لأنه تعظيم لله وإقرار بأنه لا يقدر أحد على شيء إلا بمشيئته، وعلى التفسير الثاني أن الاستثناء بمعنى لا يتركون شيئاً للمساكين من ثمر جنتهم يكون معنى لولا تسبحون أي تتوبون وتستغفرون الله من ذنوبكم وتفريطكم ومنعكم حق المساكين وقيل كان استثناءهم سبحانه الله وقيل هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم من نعمه ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبَّنَا﴾ معناه أنهم نزهوه عن الظلم فيما فعل وأقروا على أنفسهم بالظلم فقالوا ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي بمنعنا المساكين حقوقهم ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَامُؤْنَ﴾ أي يلوم بعضهم بعضاً ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا﴾ دعوا على أنفسهم بالويل ﴿إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ أي في منعنا حق الفقراء والمساكين وقيل معناه طغينا في نعم الله فلم نشكرها ولم نصنع ما كان يصنع آباؤنا من قبل ثم رجعوا إلى أنفسهم فقالوا:

﴿أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ * وَغَدُوا عَلَى حَرْدٍ﴾، الحَرْدُ في اللغة يكون بمعنى القصد والمنع والغضب، قال الحسن وقتادة وأبو العالية: على جد وجهه. وقال القرظي ومجاهد وعكرمة: على أمر مجتمع قد أسسوه بينهم، وهذا على معنى القصد لأن القاصد إلى الشيء جادٌ مجيع على الأمر. وقال أبو عبيدة والكتبي: غدوا من بيتهم على منع المساكين، يقال: حاربت السنة إذا لم يكن لها مطر، وحاربت الناقة إذا لم يكن لها لبن. وقال الشعبي وسفيان: على حقد وغضب من المساكين. وعن ابن عباس: على قدرة، ﴿قَادِرِينَ﴾، عند أنفسهم على جنتهم وثمارها لا يحول بينها وبينهم أحد.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ﴾، أي لما رأوا الجنة محترقة قالوا: إِنَّا لَمَخْطُونَ الطريق أضللنا مكان جنتنا ليست هذه بجنتنا.

فقال بعضهم: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾، حُرِمْنَا خيرها ونفعها لمنعنا المساكين وتركنا الاستثناء.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾، أعدلهم وأعقلهم وأفضلهم، ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تَسْبِيحُونَ﴾، هلا تستثنون، أنكر عليهم ترك الاستثناء في قولهم ليصر منها مصبحين، وسَمِيَ الاستثناء تسبيحاً لأنه تعظيم لله وإقرار بأنه لا يقدر أحد على شيء إلا بمشيئته. وقال أبو صالح: كان استثناءهم سبحانه الله، وقيل: هلا تسبحون الله وتقولوا سبحانه الله وتشكرونه على ما أعطاكم. وقيل: هلا تستغفرونه من فعلكم.

﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبَّنَا﴾، نزهوه عن أن يكون ظالماً فيما فعل وأقروا على أنفسهم بالظلم فقالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، بمنعنا المساكين.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَامُؤْنَ﴾، يلوم بعضهم بعضاً في منع المساكين حقوقهم ونادوا على أنفسهم بالويل.

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾، في منعنا حق الفقراء. وقال ابن كيسان: طغينا نَعَمَ الله فلم نشكرها ولم نصنع ما صنع آباؤنا من قبل.

عَسَىٰ رَبِّنَا أَنْ يَبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَٰعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّا لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِلِقَاءِ رَبِّكُمُ الْيَوْمَ الْفَاصِمَةِ إِنَّا لَكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلَامٌ عَلَيْهُمْ بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾

﴿عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها﴾ إنا إلى ربنا راغبون ﴿﴾ قال ابن مسعود بلغني أن القوم أخلصوا وعرف الله منهم الصدق فأبدلهم بها جنة يقال لها الحيوان فيها عنب يحمل البغل منه عنقوداً قال الله تعالى: ﴿كذلك العذاب﴾ أي كفعلنا بهم نفعل بمن تعدى حدودنا وخالف أمرنا يخوف بذلك كفار مكة ثم قال تعالى: ﴿ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾ ثم أخبر بما أعد الله للمتقين فقال تعالى: ﴿إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم﴾ أي عند ربهم في الآخرة ولما نزلت هذه الآية قال المشركون إنا نعطي في الآخرة أفضل مما تعطون فقال الله تعالى تكذيباً للمشركين ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين﴾ يعني أن التسوية بين المسلم والمجرم غير جائزة فكيف يكون أفضل أو يعطى أفضل منه ولما قال تعالى ذلك على سبيل الاستبعاد والإنكار قال لهم على طريق الالتفات ﴿ما لكم كيف تحكمون﴾ يعني هذا الحكم المعوج ﴿أم لكم كتاب﴾ أي نزل من عند الله ﴿فيه﴾ أي في ذلك الكتاب ﴿تدرسون﴾ أي تقرأون ﴿إن لكم فيه﴾ أي في ذلك الكتاب ﴿لما تخيرون﴾ أي تختارون وتشتهون ﴿أم لكم أيمان علينا بالغة﴾ معناه ألكم عهود ومواثيق مؤكدة عاهدناكم عليها فاستوثقت بها منا ﴿إلى يوم القيامة﴾ أي لا تنقطع تلك الأيمان والعهود إلى يوم القيامة ﴿إن لكم﴾ أي في ذلك العهد ﴿لما تحكمون﴾ أي لأنفسكم من الخير والكرامة عند الله تعالى ثم قال الله تعالى لنبية ﷺ ﴿سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ أي أيهم كفيل لهم بأن لهم في الآخرة ما للمسلمين ﴿أم لهم شركاء﴾ أي بل لهم شركاء

ثم رجعوا إلى أنفسهم فقالوا: ﴿عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها﴾ إنا إلى ربنا راغبون ﴿﴾، قال عبد الله بن مسعود: بلغني أن القوم أخلصوا وعرف الله منهم الصدق فأبدلهم بها جنة يقال لها الحيوان فيها عنب يحمل البغل منه عنقوداً واحداً.

﴿كذلك العذاب﴾، أي كفعلنا بهم نفعل بمن تعدى حدودنا وخالف أمرنا، ﴿ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾.

ثم أخبر بما عنده للمتقين فقال: ﴿إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم﴾، فقال المشركون: إنا نعطي في الآخرة أفضل مما تعطون فقال الله تكذيباً لهم:

﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين﴾ ما لكم كيف تحكمون أم لكم كتاب ﴿﴾، نزل من عند الله، ﴿فيه﴾. في هذا الكتاب، ﴿تدرسون﴾، تقرأون.

﴿إن لكم فيه﴾، في ذلك الكتاب، ﴿لما تخيرون﴾، تختارون وتشتهون.

﴿أم لكم أيمان﴾، عهود ومواثيق، ﴿علينا بالغة﴾، مؤكدة عاهدناكم عليها، فاستوثقت بها منا فلا تنقطع، ﴿إلى يوم القيامة إن لكم﴾، كسر ﴿إن﴾ لدخول اللام في الخبر ذلك العهد، ﴿لما تحكمون﴾ لأنفسكم من الخير والكرامة عند الله.

ثم قال لنبية ﷺ: ﴿سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾، كفيل أي أيهم يكفل لهم بأن لهم في الآخرة ما للمسلمين.

يعني ما كانوا يجعلونه الله شريكاً وإنما أضاف الشركاء إليهم لأنهم هم جعلوها شركاء لله، وقيل معنى شركاء شهداء يشهدون بصدق ما ادعوه ﴿فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين﴾ أي في دعواهم ﴿يوم يكشف﴾ أي فليأتوا بشركائهم في ذلك اليوم لتتفعهم وتشفع لهم ﴿عن ساق﴾ أي عن أمر فظيع شديد قال ابن عباس هو أشد ساعة في القيامة تقول العرب للرجل إذا وقع في أمر عظيم فظيع يحتاج فيه إلى الجِدِّ ومقاساة الشدة شمر عن ساقك إذا قام في ذلك الأمر ويقال إذا اشتد الأمر في الحرب كشفت الحرب عن ساق وسئل ابن عباس عن هذه الآية فقال إذا خفي عليكم شيء من القرآن فابتغوه في الشعر فإنه ديوان العرب أما سمعتم قول الشاعر:

سن لنا قومك ضرب الأعناق وقامت الحرب بنا على ساق

ثم قال ابن عباس هو يوم كرب وشدة وأنشد أهل اللغة أبياتاً في هذا المعنى فمنها ما أنشده أبو عبيدة لقيس بن زهير:

فإن شمرت لك عن ساقها فذنها ربيع ولا تسأم
ومنها قول جرير:

ألا رب ساهي الطرف من آل مازن إذا شمرت عن ساقها الحرب شمرا

وقد كثر مثل هذا في كلام العرب حتى صار كالمثل للأمر العظيم الشديد (ق) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن ناساً في زمن النبي ﷺ قالوا يا محمد هل نرى ربنا يوم القيامة قال رسول الله ﷺ نعم هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صحوا ليس معها سحاب وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صحوا ليس فيها سحاب قالوا لا يا رسول الله قال ما تضارون في رؤية الله يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن لتتبع كل أمة ما كانت تعبد فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر وغير أهل الكتاب فيدعى اليهود فيقال لهم ما كنتم تعبدون قالوا كنا نعبد عزيراً ابن الله قال كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد فماذا تبغون فيقولون عطشنا يا ربنا فاسقنا فيشار إليهم ألا تردون فيحشرون

﴿أم لهم شركاء﴾، أي عندهم شركاء لله أرباب تفعل هذا. وقيل: شهداء يشهدون لهم بصدق ما يدعونه. ﴿فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين﴾.

﴿يوم يكشف عن ساق﴾، قيل يوم ظرف لقوله فليأتوا بشركائهم أي فليأتوا بها في ذلك اليوم لتتفعهم وتشفع لهم، يوم يكشف عن ساق، قيل: عن أمر فظيع شديد، قال ابن عباس: هو أشد ساعة في القيامة. قال سعيد بن جبير: يوم يكشف عن ساق: عن شدة الأمر. وقال ابن قتبية: تقول العرب للرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج فيه إلى الجِدِّ ومقاساة الشدة شمر عن ساقه، ويقال: إذا اشتد الأمر في الحرب كشفت الحرب عن ساق. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد ثنا محمد بن عيسى الجلودي أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج حدثني سويد بن سعيد حدثني حفص بن ميسرة عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن أناساً في زمن النبي ﷺ قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صحواً ليس معها سحاب؟ وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صحواً ليس فيها سحاب؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «ما تضارون في رؤية الله يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما، إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن لتتبع كل أمة ما كانت تعبد فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله من

إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً فيتساقطون في النار ثم تدعى النصارى فيقال لهم ما كنتم تعبدون قالوا كنا نعبد المسيح ابن الله فيقال لهم كذبتُم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد فيقال لهم ماذا تبغون فيقولون عطشنا يا ربنا فاسقنا فيشار إليهم ألا تردون فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً فيتساقطون في النار حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر أتاهم رب العالمين في أدنى صورة من التي رأوه فيها قال فماذا تنتظرون لتتبع كل أمة ما كانت تعبد فيقولون يا ربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم فيقول أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئاً مرتين أو ثلاثاً حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب فيقول هل بينكم وبينه آية لتعرفونه بها فيقولون نعم فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد من تلقاء نفسه إلا أذن له بالسجود ولا يبقى من كان يسجد نفاقاً ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خر على قفاه ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة فقال أنا ربكم فيقولون أنت ربنا ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة ويقولون اللهم سلم سلم، قيل يا رسول الله وما الجسر قال دحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحسكة تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكردس في نار جهنم حتى إذا خلص المؤمنون من النار فوالذي نفسي بيده ما من أحد منكم بأشد منا شدة لله في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيام لإخوانهم الذين في النار فيقولون ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون فيقال لهم أخرجوا من عرفتم فتحرم صورهم على النار فيخرجون خلقاً كثيراً وقد أخذت النار إلى نصف ساقيه وإلى ركبتيه، ثم يقولون ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقاً كثيراً ثم يقولون ربنا لم نذر فيها أحداً ممن أمرتنا به فيقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقاً كثيراً ثم يقولون ربنا لم نذر فيها أحداً ممن أمرتنا به ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقاً كثيراً ثم يقولون ربنا لم نذر فيها خيراً، وكان أبو سعيد يقول إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقروا إن شئتم: إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً فيقول الله عز وجل شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حمماً فيلقهم في نهر في أفواه الجنة

الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر وغير أهل الكتاب فتدعى اليهود فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزيز ابن الله فيقال كذبتُم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فماذا تبغون؟ فقالوا: عطشنا يا ربنا فاسقنا فيشار إليهم ألا تردون فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً فيتساقطون في النار، ثم تدعى النصارى فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد المسيح ابن الله، فيقال لهم كذبتُم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فيقال لهم: ماذا تبغون؟ فيقولون: عطشنا يا ربنا فاسقنا فيشار إليهم ألا تردون فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً، فيتساقطون في النار حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر أتاهم رب العالمين في أدنى صورة من التي رأوه فيها، قال: فماذا تنتظرون؟ لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، قالوا يا ربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم فيقول أنا ربكم، فيقولون نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئاً مرتين أو ثلاثاً حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب فيقول هل بينكم وبينه آية تعرفونه بها، فيقولون: نعم فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود، فلا يبقى من كان يسجد نفاقاً ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خر على قفاه ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في الصورة التي رأوه فيها أول مرة فقال: أنا ربكم، فيقولون أنت ربنا، ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة، ويقولون اللهم سلم سلم، قيل: يا رسول الله وما الجسر؟ قال: «دحض مُزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحسكة يكون

يقال له نهر الحياة فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر ما يكون إلى الشمس أصفر أو أخضر وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض قال فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم تعرفهم أهل الجنة هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه ثم يقول ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم فيقولون ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحداً من العالمين فيقول لكم عندي أفضل من هذا فيقولون ربنا أي شيء أفضل من هذا؟ فيقول رضائي فلا أسخط عليكم أبداً» لفظ مسلم والبخاري نحوه بمعناه.

(فصل: في شرح ألفاظ الحديث وما يتعلق به)

أما الرؤية وما يتعلق بها فسيأتي الكلام عليها في موضعها إن شاء الله تعالى.

قوله «حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر أتاهم رب العالمين في أدنى صورة من التي رأوه فيها وفي رواية أبي هريرة فيأتيهم الله في صورة غير صورته التي يعرفون فيقول أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء عرفناه فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون فيقول أنا ربكم فيقولون أنت ربنا فيتبعونه» قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله وغيره اعلم أن هذا الحديث من أكبر أحاديث الصفات وأعظمها وللعلماء فيه وفي أمثاله قولان:

أحدهما: وهو قول معظم السلف أو كلهم أنه لا يتكلم في معناها بل يقولون يجب علينا أن نؤمن بها ونعتقد أن لها معنى يليق بجلال الله تعالى وعظمته مع اعتقادنا الجازم أن الله تعالى ليس كمثله شيء وأنه منزّه عن التجسيم والانتقال والتحيز في جهة وعن سائر صفات المخلوقين وهذا القول هو مذهب جماعة من المتكلمين واختاره جماعة من محققهم وهو أسلم وقال الخطابي هذا الحديث تهيب القول فيه شيوخنا فأجروه على ظاهر لفظه ولم يكشفوا عن باطن معناه على نحو مذهبهم في التوقف عن تفسير كل ما لا يحيط العلم بكنهه من هذا الباب.

والقول الثاني: وهو مذهب معظم المتكلمين أنها تتأول على ما يليق بها على حسب مواقعها وإنما يسوغ تأويلها لمن كان من أهله فعلى هذا المذهب يقال في قوله ﷺ فيأتيهم الله أن الإتيان عبارة عن رؤيتهم إياه لأن العادة أن من غاب عن غيره لا يمكنه رؤيته بالإتيان فعبر بالإتيان والمجيء هنا عن الرؤية مجازاً وقيل الإتيان فعل من أفعال الله تعالى سماه إتياناً وقيل المراد بآتيهم الله يأتيهم بعض ملائكته قال القاضي عياض وهذا الوجه أشبه عندي بالحديث قال ويكون هذا الملك هو الذي جاءهم في الصورة التي أنكروها من سمات الحدوث الظاهرة على الملك والمخلوق قال أو يكون معناه يأتيهم الله في صورة أي يصور ويظهر لهم من صور ملائكته ومخلوقاته التي لا تشبه صفات الإله

بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان فيمرّ المؤمنون كطرف العين والبرق والريح والطير وكأجاويد الخيل والركاب فنانج مسلم ومخدوش مرسل ومكرّس في نار جهنم، حتى إذا خلص المؤمنون من النار فوالذي نفسي بيده ما من أحد منكم بأشدّ مناشدة لله في استيفاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار، يقولون: ربنا كانوا يصومون معنا ويصلّون ويحجّون، فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم فتحرمّ صورهم على النار فيخرجون خلقاً كثيراً قد أخذت النار إلى نصف ساقه وإلى ركبتيه، ثم يقولون: ربنا ما بقي فيها أحد ممّن أمرتنا به، فيقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها أحداً ممّن أمرتنا به، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها أحداً ممّن أمرتنا به، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها أحداً فيه خير ممّن أمرتنا به»، وكان أبو سعيد الخدري يقول: إن

ليختبرهم وهذا آخر امتحان المؤمنين فإذا قال لهم هذا الملك أو هذه الصورة أنا ربكم رأوا عليه علامة من علامات المخلوقات مما ينكرونه ويعلمون بذلك أنه ليس ربهم فيستعيذون بالله منه .

وأما قوله ﷺ فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون فالمراد بالصورة هنا الصفة ومعناه فيتجلى الله تعالى لهم في الصفة التي يعلمونها ويعرفونها بها وإنما عرفوه بصفته وإن لم تكن تقدمت لهم رؤية له سبحانه وتعالى لأنهم على هذه الصفة يرونه شيئاً من مخلوقاته وقد علموا أنه لا يشبه شيئاً من مخلوقاته فيعلمون بذلك أنه ربهم فيقولون أنت ربنا وإنما عبر عن الصفة بالصورة لمشابتها إياها ولمجانسة الكلام فإنه تقدم ذكر الصورة .

وقوله في حديث أبي سعيد «أتاهم رب العالمين في أدنى صورة من التي رأوه فيها» معنى رأوه فيها أي علموها وهي صفته المعلومة للمؤمنين وهي أنه لا يشبهه شيء وقولهم «نعوذ بالله منك لا نشرك بالله» إنما استعاذوا منه لما قدمناه من كونهم رأوا عليه سمات المخلوق .

قوله «فيكشف عن ساق وفي رواية للبخاري يكشف ربنا عن ساقه» ذكر هذه الرواية البيهقي في كتاب الأسماء والصفات، قال أبو سليمان الخطابي فيحتمل أن يكون معنى قوله فيكشف عن ساقه أي عن قدرته التي تكشف عن الشدة وضبط يكشف بفتح الياء وضمها وقد تقدم تفسير كشف الساق وقيل المراد بالساق في هذا الحديث نور عظيم . وورد ذلك في حديث عن النبي ﷺ وهو ما روي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله «يوم يكشف عن ساق قال نور عظيم يخرون له سجداً تفرد به روح بن حبان مولى عمر بن عبد العزيز وهو شامي يأتي بأحاديث منكورة لا يتابع عليها وموالي عمر بن عبد العزيز كثيرون ففي إسنادهم مجهول أيضاً وقال ابن فورك ومعنى ذلك ما يتجدد للمؤمن عند رؤية الله تعالى من الفوائد والألطاف قال القاضي عياض وقيل قد يكون الساق علامة بينه وبين المؤمنين من ظهور جماعة من الملائكة على خلقة عظيمة وقد تكون ساقاً مخلوقة جعلها الله تعالى علامة للمؤمنين خارجة عن السوق المعتادة، قيل معناه كشف الحزن وإزالة للرعب عنهم وما كان غلب على عقولهم من الأهوال فتطمئن حيثئذ نفوسهم عند ذلك ويتجلى الله لهم فيخرون سجداً قال الخطابي وهذه الرؤية في هذا المقام يوم القيامة غير الرؤية التي هي في الجنة لكرامة أولياء الله وإنما هذه الرؤية امتحان الله لعباده وقوله فلا يبقى من كان يسجد لله تعالى من تلقاء نفسه إلا أذن الله له في السجود ولا يبقى من كان يسجد نفاقاً ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة هذا السجود امتحان من الله تعالى لعباده ومعنى طبقة واحدة أي فقارة واحدة كالصحيفة فلا يقدر على السجود وقوله ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة معناه ثم يرفعون رؤوسهم وقد أزال المانع لهم من رؤيته وتجلى لهم فيقولون أنت ربنا وقوله ثم يضرب الجسر على جهنم الجسر بفتح الجيم وكسرها لغتان وهو الصراط

لم تصدقوني بهذا الحديث فاقروا إن شئتم : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يضاعفها وَيؤْتِ مِنْ لَدُنْهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء: ٤٠]، فيقول الله شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حمماً فيلقينهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى ما يكون إلى الشمس أصيفر وأخضر، وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض، قال: فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتيم تعرفهم أهل الجنة هؤلاء عتقاء الله من النار الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه، ثم يقول: «ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم فيقولون ربنا: أعطيتنا ما لم تعط أحداً من العالمين، فيقول: لكم عندي أفضل من هذا فيقولون: يا ربنا أي شيء أفضل من هذا؟ فيقول رضائي فلا أسخط عليكم بعده أبداً». وروى محمد بن إسماعيل هذا الحديث عن يحيى بن بكير عن الليث عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن زيد بن أسلم بهذا

وتحل للشفاعة بكسر الحاء وقيل بضمها من حل ومعناه وتقع الشفاعة ويؤذن فيها قوله دحض مزلة أي تزلق فيه الأقدام ولا تثبت قوله فيه خطاطيف جمع خطاف وهو الذي يخطف الشيء وكلايب جمع كلوب وهو الحديد التي يعلق بها اللحم والحسك الذي يقال له السعدان نبت له شوك عظيم من كل جانب قوله فجاج مسلم ومخدوش مرسل ومكردس في نار جهنم معناه أنهم ثلاثة أقسام قسم يسلم فلا يناله شيء أصلاً وقسم يخذش ثم يرسل فيخلص وقسم يكردس أي يلقي ويسقط في جهنم وفي هذا إثبات الصراط وهو مذهب أهل السنة وأهل الحق وهو جسر يجعل على متن جهنم وهو أرق من الشعر وأحد من السيف فيمر عليه الناس كلهم فالمؤمنون ينجون على حسب منازلهم وأعمالهم والآخرون يسقطون في جهنم أعادنا الله منها، ومعنى مناشدة المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار شفاعتهم لهم وقوله فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير ومثقال نصف دينار من خير ومثقال ذرة قال القاضي عياض قيل معنى الخير اليقين قال والصحيح أن معناه شيء زائد على مجرد الإيمان لأن الإيمان الذي هو التصديق لا يتجزأ وإنما يكون هذا الخير زائداً عليه من عمل صالح وذكر خفي وعمل من أعمال القلب من شفقة على مسكين أو خوف من الله تعالى أو نية صادقة ومثقال الذرة مثل لأقل الخير لأن ذلك أقل المقادير وقول المؤمنين لم نذر فيها خيراً أي صاحب خير وقوله تعالى: «شفعت الملائكة هو بفتح الفاء وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط» هؤلاء الذين معهم مجرد الإيمان فقط ولم يعملوا خيراً قط وتفرد الله تعالى بعلم ما تكنه القلوب فالرحمة لمن ليس عنده إلا مجرد الإيمان فقط ومعنى قبض قبضة أي جمع جماعة.

قوله قد عادوا حمماً أي صاروا فحماً فيلقئهم في نهر في أفواه الجنة جمع فوهة وهي أول النهر.

قوله فيخرجون كاللؤلؤ أي في الصفاء في رقابهم الخواتم قيل معناه أنه يعلق في رقابهم أشياء من ذهب أو غير ذلك مما يعرفون بها والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَ إِلَى السَّجْدِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ السجود يعني الكفار والمنافقين تصير أصلابهم كصيافي البقر أو كصفيحة نحاس فلا يستطيعون السجود.

خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السَّجْدِ وَهُمْ سَلَامُونَ ﴿٤٣﴾

﴿خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة﴾ وذلك أن المؤمنين يرفعون رؤوسهم من السجود ووجوههم أشد بياضاً من الثلج وقد علاها النور والبهاء وتسود وجوه الكفار والمنافقين ويغشاهم ذل وخسران وندامة ﴿وقد كانوا يدعون إلى السجود﴾ يعني في دار الدنيا كانوا يدعون إلى الصلاة المكتوبة بالأذان والإقامة وذلك أنهم كانوا يسمعون حي على

المعنى، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا آدم ثنا الليث عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن يزيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياءً وسُمةً فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً». قوله عز وجل: ﴿يدعون إلى السجود فلا يستطيعون﴾، يعني الكفار والمنافقون، تصير أصلابهم كصيافي البقر فلا يستطيعون السجود.

﴿خاشعة أبصارهم﴾، وذلك أن المؤمنين يرفعون رؤوسهم من السجود ووجوههم أشد بياضاً من الثلج، وتسود وجوه الكافرين والمنافقين، ﴿ترهقهم ذلة﴾، يغشاهم ذل الندامة والحسرة، ﴿وقد كانوا يدعون إلى السجود﴾، قال إبراهيم التيمي: يعني إلى الصلاة المكتوبة بالأذان والإقامة. وقال سعيد بن جبیر: كانوا يسمعون حي على الصلاة حي على الفلاح فلا يجيبون، ﴿وهم سالمون﴾، أصحاء فلا يأتونه، قال كعب الأحبار: والله ما

الصلاة حي على الفلاح فلا يجيبون ﴿وهم سالمون﴾ يعني أنهم كانوا يدعون إلى الصلاة وهم أصحاء فلا يأتونها قال كعب الأحبار والله ما نزلت هذه الآية إلا في الذين يتخلفون عن الجماعة.

فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْنِبْهُ رَبُّهُ فَعَمَلُوا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾

قوله عز وجل: ﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث﴾ أي دعني والمكذبين بالقرآن وخل بيني وبينهم ولا تشغل قلبك بهم وكلهم إلي فإني أكفيك إياهم ﴿سنستدرجهم﴾ أي سنأخذهم بالعذاب ﴿من حيث لا يعلمون﴾ فعذبوا يوم بدر بالقتل والأسر، وقيل في معنى الآية كلما أذنبوا ذنباً جددنا لهم نعمة وأنسيناهم الاستغفار والتوبة. وهذا هو الاستدرج لأنهم يحسبونه تفضيلاً لهم على المؤمنين وهو في الحقيقة سبب إهلاكهم فعلى العبد المسلم إذا تجددت عنده نعمة أن يقابلها بالشكر وإذا أذنب ذنباً أن يعاجله بالاستغفار والتوبة. ﴿وأُملي لهم﴾ أي أمهلهم وأطيل لهم المدة. وقيل معناه أمهلهم إلى الموت فلا أعجلهم بالعقوبة ﴿إن كيدي متين﴾ أي عذابي شديد وقيل الكيد ضرب من الاحتيال فيكون بمعنى الاستدرج المؤدي إلى العذاب ﴿أم تسألهم أجراً﴾ أي على تبليغ الرسالة ﴿فهم من مغرم مثقلون﴾ المغرم الغرامة والمعنى أتطلب منهم أجراً فيثقل عليهم حمل الغرامات في أموالهم فيثبطهم ذلك عن الإيمان ﴿أم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾ أي عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون منه ما يحكمون به وهو استفهام على سبيل الإنكار ﴿فاصبر لحكم ربك﴾ أي اصبر على أذاهم لقضاء ربك قيل إنه منسوخ بآية السيف ﴿ولا تكن﴾ في الضجر والعجلة ﴿كصاحب الحوت﴾ يعني يونس بن متى ﴿إذ نادى﴾ ربه أي في بطن الحوت ﴿وهو مكظوم﴾ أي مملوء غماً ﴿لولا أن تداركه نعمة من ربه﴾ أي حين رحمه وتاب عليه، ﴿لنُبذ بالعراء﴾ أي لطرَح بالفضاء من بطن الحوت على الأرض ﴿وهو مذموم﴾ أي يذم ويلام بالذنب. وقيل في معنى الآية لولا أن تداركته نعمة من ربه لبقى في بطن الحوت إلى يوم القيامة ثم ينبذ بعراء القيامة أي بأرضها وفضاءها فإن قلت هل يدل قوله وهو مذموم على كونه كان فاعلاً للذنب.

قلت الجواب عنه من ثلاثة أوجه: أحدها: أن كلمة لولا دلت على أنه لم يحصل منه ما يوجب الذم الثاني لعل المراد منه ترك الأفضل فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين الثالث لعل هذه الواقعة كانت قبل النبوة يدل عليه قوله

نزلت هذه الآية إلا عن الذين يتخلفون عن الجماعات.

﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث﴾، أي فدعني والمكذبين بالقرآن، وخل بيني وبينهم. قال الزجاج: معناه لا تشغل قلبك به وكله إلي فإني أكفيك أمره، ﴿سنستدرجهم﴾، سنأخذهم بالعذاب، ﴿من حيث لا يعلمون﴾، فعذبوا يوم بدر.

﴿وأُملي لهم إن كيدي متين﴾، ﴿أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون﴾ أم عندهم الغيب فهم يكتبون * فاصبر لحكم ربك، اصبر على أذاهم لقضاء ربك، ﴿ولا تكن﴾، في الضجر والجلّة، ﴿كصاحب الحوت﴾، وهو يونس بن متى، ﴿إذ نادى﴾، ربه وهو في بطن الحوت، ﴿وهو مكظوم﴾، مملوء غماً. ﴿لولا أن تداركه﴾، أدركه ﴿نعمة من ربه﴾، حين رحمه وتاب عليه، ﴿لنُبذ بالعراء﴾، لطرَح بالفضاء من بطن الحوت، ﴿وهو مذموم﴾، يذم ويلام بالذنب.

تعالى: ﴿فاجتنباه ربّه﴾ والفاء للتعقيب أي اصطفاه ورد عليه الوحي وشفعه في قومه ﴿فجعلله من الصالحين﴾ أي النبين.

قوله تعالى: ﴿وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم﴾ وذلك أن الكفار أرادوا أن يصيبوا النبي ﷺ بالعين فنظرت قريش إليه وقالوا ما رأينا مثله ولا مثل حججه، وقيل كانت العين في بني أسد حتى أن كانت الناقة أو البقرة لتتمر بأحدهم فيعابنها ثم يقول لجاريته خذي الممثل والدرهم فائتينا بلحم من لحم هذه فما تبرح حتى تقع بالموت فتنحر. وقيل كان رجل من العرب يمكث لا يأكل يومين أو ثلاثة ثم يرفع جانب خبائه فتمر به الإبل فيقول لم أر كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه فما تذهب إلا قليلاً حتى يسقط ما عناه فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب رسول الله ﷺ بالعين ويفعل به مثل ذلك فعصم الله نبيه ﷺ وأنزل وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم قال ابن عباس: معناه ينفذونك وقيل يصيبونك بعيونهم كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه. وقيل يصرعونك وقيل يصرفونك عما أنت عليه من تبليغ الرسالة وإنما أراد أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظراً شديداً بالعداوة والبغضاء يكاد يسقطك، ومنه قولهم نظر إلي نظراً يكاد يصرعني أو يكاد يهلكني يدل على صحة هذا المعنى أنه قرن هذا النظر بسماع القرآن وهو قوله ﴿لما سمعوا الذكر﴾ لأنهم كانوا يكرهون ذلك أشد الكراهة ويحدون النظر إليه بالبغضاء ﴿ويقولون إنه لمجنون﴾ أي ينسبونه إلى الجنون إذا سمعوه يقرأ القرآن قال تعالى رداً عليهم.

وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾

﴿وما هو﴾ يعني القرآن ﴿إلا ذكر للعالمين﴾ قال ابن عباس موعظة للمؤمنين قال الحسن: دواء من أصابته

﴿فاجتنباه ربّه﴾، اصطفاه، ﴿فجعلله من الصالحين﴾ * وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم، وذلك أن الكفار أرادوا أن يصيبوا رسول الله ﷺ بالعين فنظر إليه قوم من قريش وقالوا ما رأينا مثله ولا مثل حججه. وقيل: كانت العين في بني أسد حتى كانت الناقة والبقرة السميئة تمر بأحدهم فيعابنها ثم يقول يا جارية خذي الممثل والدرهم فائتينا بشيء من لحم هذه فما تبرح حتى تقع بالموت، فتنحر. وقال الكلبي: كان رجل من العرب يمكث لا يأكل يومين أو ثلاثاً ثم يرفع جانب خبائه فتمر به الإبل فيقول لم أر كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه، فما تذهب إلا قليلاً حتى تسقط منها طائفة وعدة، فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب رسول الله ﷺ ويفعل به مثل ذلك، فعصم الله نبيه ﷺ وأنزل: ﴿وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم﴾، أي ويكاد، ودخلت اللام في ﴿ليزلقونك﴾ لمكان أن، وقرأ أهل المدينة ﴿ليزلقونك﴾ بفتح الياء، والآخرين بضمها، وهما لغتان، يقال: زلقه يزلقه زلقاً وأزلقه يزلقه أزلاقاً. قال ابن عباس: معناه ينفذونك، يقال: زلق السهم إذا أنفذ، قال السدي: يصيبونك بعيونهم. قال النضير بن شميل: يعينونك. وقيل: يزيلونك. وقال الكلبي: يصرعونك. وقيل: يصرفونك عما أنت عليه من تبليغ الرسالة. قال ابن قتبية: ليس يريد أنهم يصيبونك بأعينهم كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه، وإنما أراد أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظراً شديداً بالعداوة والبغضاء، يكاد يسقطك. وقال الزجاج: يعني من شدة عداوتهم يكادون ينظروهم نظر البغضاء أن يصرعوك، وهذا مستعمل في الكلام يقول القائل: نظر إليّ يكاد يصرعني، ونظراً يكاد يأكلني، يدل على صحة هذا المعنى أنه قرن هذا النظر بسماع القرآن. وهو قوله: ﴿لما سمعوا الذكر﴾، وهم كانوا يكرهون ذلك أشد الكراهية فيحدون إليه النظر بالبغضاء، ﴿ويقولون إنه لمجنون﴾، أي ينسبونه لجنون إذا سمعوه يقرأ القرآن.

فقال الله تعالى: ﴿وما هو﴾، يعني القرآن، ﴿إلا ذكر للعالمين﴾، قال ابن عباس: موعظة للمؤمنين. قال

العين أن تقرأ عليه هذه الآية (ق)، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ «العين حق» زاد البخاري «ونهى عن الوشم» (م) عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: «العين حق ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين وإذا استغسلتم فاغسلوا» وعن عبيد الله بن رفاعة الزرقى «أن أسماء بنت عميس كانت تقول يا رسول الله إن ولد جعفر تسرع إليهم العين أفأسترفي لهم؟ قال: نعم ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين» أخرجه الترمذي قوله العين حق أخذ بظاهر هذا الحديث جماهير العلماء وقالوا العين حق وأنكره طوائف من المبتدعة والدليل على فساد قولهم «أن كل معنى ليس مخالفاً في نفسه ولا يؤدي إلى قلب حقيقة ولا إفساد دليل فإنه من مجوزات العقول فإذا أخبر الشارع بوقوعه وجب اعتقاده ولا يجوز تكذيبه ومذهب أهل السنة أن العين إنما تفسد وتهلك عند مقابلة هذا الشخص الذي هو العائن لشخص آخر فتؤثر فيه بقدرة الله تعالى وفعله وقوله ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين، فيه إثبات القدر وأنه حق والمعنى أن الأشياء كلها بقدر الله ولا يقع شيء إلا على حسب ما قدر الله وسبق به علمه ولا يقع شر العين وغيره من الخير والشر إلا بقدرة الله وفيه صحة إثبات العين وأنها قوية الضرر إذا وافقها القدر، والله أعلم.

الحسن: دواء إصابة العين أن يقرأ الإنسان هذه الآية. أخبرنا أبو علي حسان بن سعيد المنيعي أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي ثنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان أنا أحمد بن يوسف السلمي ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن همام بن منبه أنا أبو هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «العين حق» ونهى عن الوشم أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي ثنا السيد أبو الحسن بن محمد بن الحسين بن داود العلوي، أنا أبو نضر بن محمد بن حمدويه بن سهل المروزي ثنا محمود بن آدم المروزي ثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عروة بن عامر عن عبيد بن رفاعة الزرقى أن أسماء بنت عميس قالت: يا رسول الله إن ابني جعفر تصيبهم العين أفأسترفي لهم؟ قال: «نعم فلو كان شيء يسبق القضاء لسبقته العين».

سورة الحاقة

مكية وهي اثنتان وخمسون آية ومائتان وست وخمسون كلمة وألف وأربع وثلاثون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾

قوله عز وجل: ﴿الحاقة﴾ يعني القيامة سميت حاقة من الحق الثابت يعني أنها ثابتة الوقوع لا ريب فيها. وقيل لأن فيها تحقيق الأمور فتعرف على الحقيقة وفيها يحق الجزاء على الأعمال أي يجب. وقيل الحاقة النازلة التي حقت فلا كاذبة لها. وقيل الحاقة هي التي تحق على القوم أي تقع بهم، ﴿ما الحاقة﴾ استفهام ومعناه التفخيم لشأنها والتهويل لها والمعنى أي شيء هي الحاقة ﴿وما أدراك ما الحاقة﴾ أي إنك لا تعلمها إذ لم تعينها ولم تر ما فيها من الأهوال على أنه من العظم والشدة أمر لا تبلغه دراية أحد ولا فكره وكيف قدرت حالها فهي أعظم من ذلك.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَحْلٌ خَاوِيَةٌ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكْتُ بِالْخَطِيطَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَا رَسُولُ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً ﴿١٠﴾

﴿كذبت ثمود وعاد بالقارعة﴾ قال ابن عباس بالقيامة سميت قارعة لأنها تقرع قلوب العباد بالمخافة. وقيل كذبت بالعذاب أي الذي أوعدهم نبيهم حتى نزل بهم فقرع قلوبهم ﴿فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية﴾ أي طغيانهم

سُورَةُ الْحَاقَّةِ

مكية وهي اثنتان وخمسون آية.

﴿الحاقة﴾، يعني القيامة سُميت حاقة لأنها حَقَّتْ فلا كاذبة لها. وقيل: لأن فيها حواق الأمور وحقائقها، ولأن فيها يحق الجزاء على الأعمال، أي يجب، يقال: حَقَّ عليه الشيء إذا وجب يحق حقوقاً، قال الله تعالى: ﴿ولكن حَقَّتْ كلمة العذاب على الكافرين﴾ [الزمر: ٧١] قال الكسائي: الحاقة يوم الحق.

﴿ما الحاقة﴾، هذا استفهام معناه التفخيم لشأنها، كما يقال: زيدٌ ما زيدٌ، على التعظيم لشأنه.

﴿وما أدراك ما الحاقة﴾، أي أنك لا تعلمها إذ لم تعينها ولم تر ما فيها من الأهوال.

﴿كذبت ثمود وعاد بالقارعة﴾، قال ابن عباس وقادة: بالقيامة سُميت قارعة لأنها تقرع قلوب العباد

وكفرهم. وقيل الطاغية الصيحة الشديدة المجاوزة الحد في القوة. وقيل الطاغية الفرقة التي عقروا الناقة فأهلك قوم ثمود بسببهم ﴿وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلَكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ أي شديدة الصوت في الهبوب لها صرصرة. وقيل هي الباردة من الصر كأنها التي كرر فيها البرد وكثر فهي تحرق بشدة بردها ﴿عَاتِيَةً﴾ أي عتت على خزنها فلم تطعمهم ولم يكن لهم عليهم سبيل وجاوزت الحد والمقدار فلم يعرفوا مقدار ما خرج منها. وقيل عتت على عاد فلم يقدروا على دفعها عنهم بقوة ولا حيلة ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي أرسلها وسلطها عليهم وفيه رد على من قال إن سبب ذلك كان باتصال الكواكب فنفي هذا المذهب بقوله سخرها عليهم وبين الله تعالى أن ذلك بقضائه وقدره وبمشيئته لا باتصال الكواكب، ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ﴾ ذات برد ورياح شديدة. قال وهب هي الأيام التي سماها العرب العجوز لأنها أيام ذات برد ورياح شديدة وسميت عجوزاً لأنها تأتي في عجز الشتاء وقيل لأن عجوزاً من قوم عاد دخلت سربها فاتبعها الريح حتى قتلتها ﴿حُسُومًا﴾ أي متتابعة دائمة ليس فيها فتور، وذلك أن الريح المهلكة تتابعت عليهم في هذه الأيام فلم يكن لها فتور ولا انقطاع حتى أهلكتهم، وقيل حُسُومًا شُومًا وقيل لهذه الأيام حُسُومًا لأنها تحسم الخير عن أهلها والحسم القطع. والمعنى أنها حسمتهم بعذاب الاستئصال فلم تبق منهم أحداً ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا﴾ أي في تلك الليالي والأيام ﴿صَرْعَى﴾ أي هلكى جمع صريع قد صرعهم الموت ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ أي ساقطة وقيل خالية الأجواف شبههم بجذوع نخل ساقطة ليس لها رؤوس ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ أي من نفس باقية، قيل إنهم لما أصبحوا موتى في اليوم الثامن كما وصفهم الله تعالى بقوله ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ حملتهم الريح فألقته في البحر فلم يبق منهم أحد.

بالمخافة. وقيل: كذبت بالعذاب الذي أوعدهم نبيهم حتى نزل بهم فقرع قلوبهم.

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلَكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾، أي بطغيانهم وكفرهم. قيل: هي مصدر، وقيل: نعت، أي بأفعالهم الطاغية، وهذا معنى قول مجاهد، كما قال: ﴿كذبت ثمود بطغواها﴾ [الشمس: ١١] وقال قتادة: بالصيحة الطاغية، وهي التي جاوزت مقادير الصباح فأهلكتهم. وقيل: طَغَتْ على الخزان كما طغى الماء على قوم نوح. ﴿وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلَكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾، عتت على خزائنها فلم تطعمهم ولم يكن لهم عليها سبيل، وجاوزت المقدار فلم يعرفوا كم خرج منها.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾. أرسلها عليهم. وقال مقاتل: سلطها عليهم. ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ﴾، قال وهب: هي الأيام التي تسميها العرب أيام العجوز ذات برد ورياح شديدة. قيل: سُمِّيت عجوزاً لأنها عجز الشتاء. وقيل: سُمِّيت بذلك لأن عجوزاً من قوم عاد دخلت سرباً فاتبعتها الريح، فقتلتها اليوم الثامن من نزول العذاب وانقطع العذاب. ﴿حُسُومًا﴾، قال مجاهد وقاتل: متتابعة ليس فيها فترة، فعلى هذا هو حسم الكي، وهو أن يتابع على موضع الداء بالمكوة حتى يبرأ، ثم قيل لكل شيء توبع: حاسم، وجمعه حُوسم، مثل شاهد وشهود، وقال الكلبي ومقاتل: حُسُومًا دائمة. وقال النضر بن شميل: حسمتهم قطعتهم وأهلكتهم، والحسم: القطع والمنع ومنه حسم الداء. قال الزجاج: أي تحسمهم حُسُومًا تفنيهم وتذهبهم. وقال عطية شُومًا كأنها حسمت الخير عن أهلها. ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا﴾، أي في تلك الليالي والأيام، ﴿صَرْعَى﴾، هلكى جمع صريع، ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾، ساقطة، وقيل: خالية الأجواف.

﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾، أي من نفس باقية يعني لم يبقَ منهم أحد.

﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ﴾، قرأ أهل البصرة والكسائي بكسر القاف، وفتح الباء أي ومن معه من جنوده

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ قرىء بكسر القاف وفتح الباء أي ومن معه من جنوده وأتباعه وقرىء بفتح القاف وسكون الباء أي ومن قبله من الأمم الكافرة ﴿الْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ يعني قرى قوم لوط يريد أهل المؤتفكات، وقيل يريد الأمم الذين اتفكوا بخطيئتهم وهو قوله ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ أي بالخطيئة والمعصية وهو الشرك ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾، قيل يعني موسى بن عمران وقيل لوطاً والأولى أن يقال المراد بالرسول كلاهما لتقدم ذكر الأمتين جميعاً ﴿فَأَخَذَهُمُ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾ يعني نامية وقال ابن عباس شديدة وقيل زائدة على عذاب الأمم.

إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ ﴿١٧﴾

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾ أي عتا وجاوز حده حتى علا على كل شيء وارتفع فوقه وذلك في زمن نوح عليه الصلاة والسلام وهو الطوفان ﴿حَمَلْنَاكِ فِي الْجَارِيَةِ﴾ يعني حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم فصح خطاب الحاضرين في الجارية أي السفينة التي تجري في الماء ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ أي لنجعل تلك الفعلة التي فعلناها من إغراق قوم نوح ونجاة من حملنا معه، ﴿لَكُمْ تَذْكِرَةٌ﴾ أي عبرة وموعظة ﴿وَتَعِيَهَا﴾ أي تحفظها ﴿أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ أي حافظة لما جاء من عند الله. وقيل أذن سمعت وعقلت ما سمعت وقيل لتحفظها كل أذن فتكون عظة وعبرة لمن يأتي بعد والمراد صاحب الإذن والمعنى ليعتبر ويعمل بالموعظة.

قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةً وَاحِدَةً﴾ يعني النفخة الأولى ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ أي رفعت من أماكنها ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ أي كسرتا وفتتتا حتى صارتا هباء منبثاً والضمير عائد إلى الأرض والجبال فعبر عنهما بلفظ الاثنين ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ أي قامت القيامة ﴿وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ أي ضعيفة لتشققتها ﴿وَالْمَلَكُ﴾ يعني الملائكة ﴿عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ يعني نواحيها وأقطارها وهو الذي لم ينشق منها قال الضحاك تكون الملائكة على حافتها حتى يأمرهم الرب فينزلون فيحيطون بالأرض ومن عليها ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ﴾ أي فوق

وأتباعه، وقرأ الآخرون بفتح القاف وسكون الباء، أي ومن قبله من الأمم الكافرة، ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾، يعني أي قرى قوم لوط يريد أهل المؤتفكات. وقيل: يريد الأمم الذين اتفكوا بخطيئتهم، ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾، أي بالخطيئة والمعصية وهي الشرك.

﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾، يعني لوطاً وموسى، ﴿فَأَخَذَهُمُ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾، نامية، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: شديدة. وقيل: زائدة على عذاب الأمم.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾، أي عتا وجاوز حده حتى علا على كل شيء وارتفع فوقه يعني زمن نوح عليه السلام. ﴿حَمَلْنَاكِ﴾، أي حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم، ﴿فِي الْجَارِيَةِ﴾، في السفينة التي تجري في الماء.

﴿لِنَجْعَلَهَا﴾، أي لنجعل تلك الفعلة التي فعلنا من إغراق قوم نوح ونجاة من حملنا معه، ﴿لَكُمْ تَذْكِرَةٌ﴾، عبرة وعظة ﴿وَتَعِيَهَا﴾، قرأ القوّاس عن ابن كثير وسليم عن حمزة باختلاس العين، وقرأ الآخرون بكسرها أي تحفظها، ﴿أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾، أي: حافظة لما جاء من عند الله. قال قتادة: أذن سمعت وعقلت ما سمعت. قال الفراء: لتحفظها كل أذن فتكون عبرة وموعظة لمن يأتي بعد.

رؤوسهم يعني الحملة ﴿يومئذ﴾ أي يوم القيامة ﴿ثمانية﴾ يعني ثمانية أملاك، وجاء في الحديث أنهم اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة آخرين فكانوا ثمانية على صورة الأوعال بين أظلافهم إلى ركبهم كما بين سماء إلى سماء. الأوعال نIOS الجبل وروى السدي عن أبي مالك قال إن الصخرة التي تحت الأرض السابعة ومنتهى علم الخلائق على أرجائها يحملها أربعة من الملائكة لكل واحد منهم أربعة وجوه إنسان ووجه أسد ووجه ثور ووجه نسر فهم قيام عليها قد أحاطوا بالسموات والأرض ورؤوسهم تحت العرش، وعن عروة بن الزبير قال حملة العرش منهم من صورته على صورة الإنسان ومنهم من صورته على صورة النسر ومنهم من صورته على صورة الثور ومنهم من صورته على صورة الأسد. وعن ابن عباس قال صدق النبي ﷺ أمية بن أبي الصلت في شيء من الشعر فقال:

رجل وثور تحت رجل يمينه والنسر للأخرى وليث يرصد

عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام أخرجه أبو داود بإسناد صحيح غريب عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه عم النبي ﷺ قال «كنت جالساً في البطحاء في عصابة ورسول الله ﷺ فيهم إذ مرت سحابة فنظروا إليها فقال رسول الله ﷺ هل تدرون ما اسم هذه قلنا نعم هذا السحاب قال والمزن قالوا والمزن قال رسول الله ﷺ والعنان قالوا والعنان ثم قال لهم رسول الله ﷺ هل تدرون كم بعد ما بين السماء والأرض؟ قالوا لا والله ما ندري قال: فإن بعد ما بينهما إما قال واحدة وإما قال اثنتان وإما ثلاث وسبعون سنة وبعد التي فوقها كذلك وكذلك حتى سبع سموات كذلك ثم فوق السماء السابعة بحراً أعلاه وأسفله كما بين سماء إلى سماء وفوق ذلك ثمانية أوعال بين أظلافهم وركبهم كما بين سماء إلى سماء ثم فوق ظهورهن العرش بين أسفله وأعلاه مثل ما بين السماء إلى السماء والله عز وجل فوق ذلك» أخرجه الترمذي وأبو داود زاد في رواية «وليس يخفى عليه من أعمال بني آدم شيء»، عن ابن مسعود قال ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام وما بين كل سماء وسماء خمسمائة عام وفضاء كل سماء وأرض مسيرة خمسمائة

﴿ فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة ﴾، وهي النفخة الأولى.

﴿ وحملت الأرض والجبال ﴾، رفعت أماكنها، ﴿ فدنكتا ﴾، كسرتا، ﴿ دكة ﴾ كسرة، ﴿ واحدة ﴾، فصارتا هباءً منثوراً.

﴿ فيومئذ وقعت الواقعة ﴾، قامت القيامة.

﴿ وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ﴾، ضعيفة قال الفراء: وهيها تشققها.

﴿ والملك ﴾، يعني الملائكة، ﴿ على أرجائها ﴾، نواحيها وأقطارها ما لم ينشق منها واحدا رجاً وتثنيته رجوان. قال الضحاك: تكون الملائكة على حافاتهما حتى يأمرهم الرب فينزلون فيحيطون بالأرض ومن عليها. ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم ﴾، أي فوق رؤوسهم يعني الحملة، ﴿ يومئذ ﴾، يوم القيامة، ﴿ ثمانية ﴾، أي ثمانية أملاك، جاء في الحديث: «إنهم اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة أخرى، فكانوا ثمانية على صورة الأوعال ما بين أظلافهم إلى ركبهم كما بين سماء إلى سماء»، وجاء في الحديث: «لكل ملك منهم وجه رجل ووجه أسد ووجه ثور ووجه نسر». أخبرنا أبو بكر بن الهيثم الترابي أنا أبو الفضل محمد بن الحسين الحدادي أنا محمد بن يحيى الخالدي أنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي ثنا عبد الرزاق ثنا يحيى بن العلاء الراعي عن عمه شعيب بن خالد ثنا سماك بن حرب عن عبد الله بن عمير عن العباس بن عبد المطلب قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ بالبطحاء فمرت سحابة فقال النبي ﷺ: «أتدرون ما هذا؟» قلنا: السحاب، قال: «والمزن»، قلنا: والمزن، قال:

عام وما بين السماء السابعة والكرسي مسيرة خمسمائة عام وما بين الكرسي والماء مسيرة خمسمائة عام والعرش على الماء والله على العرش لا يخفى عليه شيء من أعمالكم». أخرجه أبو سعيد الدارمي وابن خزيمة وغيرهما موقوفاً على ابن مسعود قال ابن خزيمة اختلاف خبر العباس وابن مسعود في قدر المسافة على اختلاف سير الدواب. وعن ابن عباس قال: «لحملة العرش قرون ما بين أحمص أحدهم إلى كعبه مسيرة خمسمائة عام ومن كعبه إلى ركبته مسيرة خمسمائة عام ومن ترقوته إلى موضع القرط مسيرة خمسمائة عام».

وعن عبد الله بن عمر قال «الذين يحملون العرش ما بين موق أحدهم إلى مؤخر عينيه خمسمائة عام» وعن شهر بن حوشب قال «حملة العرش ثمانية فأربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك، وأربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك» وروي عن ابن عباس في قوله يومئذ ثمانية قال ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عدتهم إلا الله عز وجل:

يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابُ يَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَوْفَىٰ بِمَا كُنْتُمْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حَسْبَاءِ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ ﴿٢٤﴾ فِي الْأَيَّامِ الْغَالِيَةِ ﴿٢٥﴾

﴿يومئذ تعرضون﴾ أي على الله تعالى للحساب ﴿لا تخفى منكم خافية﴾ أي فعلة خافية. والمعنى أنه تعالى عالم بأحوالكم لا يخفى عليه شيء منها وأن عرضكم يوم القيامة عليه ففيه المبالغة والتهديد، وقيل معناه لا يخفى منكم يوم القيامة ما كان مخفياً في الدنيا فإنه يظهر أحوال الخلائق فالمحسنون يسرون بإحسانهم والمسيئون يحزنون بإساءتهم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «تعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فأما عرضتان فجداول ومعاذير وأما العرضة الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فأخذ يمينه وأخذ بشماله» أخرجه الترمذي وقال ولا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة وقد رواه بعضهم عن الحسن عن أبي موسى عن النبي ﷺ.

«والعنان»، فقلنا: والعنان، فسكتنا فقال: «هل تدرون كم بين السماء والأرض؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكذلك غلط كل سماء خمسمائة سنة، وفوق السماء السابعة بحر بين أعلاه وأسفله ما بين السماء والأرض، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين أظلافهن وربكهن كما بين السماء والأرض، وفوق ذلك العرش بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض والله تعالى فوق ذلك، وليس يخفى عليه من أعمال بني آدم شيء». ويروى هذا عن عبد الله بن عمير عن الأحنف بن قيس عن العباس. وروى عن ابن عباس أنه قال: فوفهم يومئذ ثمانية أي ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عدتهم إلا الله.

﴿يومئذ تعرضون﴾، على الله، ﴿لا تخفى﴾، قرأ بالياء، وقرأ الآخرون بالتاء، ﴿منكم خافية﴾، أي فعلة خافية. قال الكلبي: لا يخفى على الله منكم شيء. قال أبو موسى: يعرض الناس ثلاث عرضات، فأما عرضتان فجداول ومعاذير، وأما العرضة الثالثة فعندها تطير الصحف فأخذ يمينه وأخذ بشماله.

وذلك قوله عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِهِ﴾، الهاء في ﴿كتابيه﴾ هاء الوقف.

﴿إني ظننت﴾ علمت وأيقنت، ﴿أنني ملأني حسابه﴾، أي أحاسب في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْتِي﴾ أي أعطي ﴿كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ﴾ أي تعالوا ﴿اقْرَأُوا كِتَابِي﴾ والمعنى أنه لما بلغ الغاية في السرور وعلم أنه من الناجين بإعطاء كتابه بيمينه أحب أن يظهر ذلك لغيره حتى يفرحوا له، وقيل يقول ذلك لأهله وأقربائه ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ﴾ أي عملت وأيقنت وإنما أجرى الظن مجرى العلم لأن الظن في الغالب يقوم مقام العلم في العادات والأحكام ﴿أَنِّي مَلَأْتُ حِسَابِي﴾ أي في الآخرة والمعنى أنني كنت في الدنيا أستيغن أي أحاسب في الآخرة ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ أي في حالة من العيش مرضية وذلك بأنه لقي الثواب وأمن من العقاب ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ رفيعة ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ أي ثمارها قريبة لمن يتناولها ينالها قائماً وقاعداً ومضطجعاً يقطعونها كيف شاؤوا ﴿كُلُوا﴾ أي يقال لهم كلوا ﴿وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ﴾ أي بما قدمتم لآخرتكم من الأعمال الصالحة ﴿فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ أي الماضية يريد أيام الدنيا.

وَأَمَّا مَنْ أَوْتِي كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ لِيَلَنِي لِمَ أَوْتِ كِتَابِي ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِي ﴿٢٦﴾ يَلَنِيهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴿٢٩﴾ خَذُوهُ فَعْلُوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ لَجِجِمَ صَلْوُهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سَلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُمْ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣٤﴾

﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْتِي كتابه بشماله﴾، قيل تلوى يده اليسرى خلف ظهره ثم يعطى كتابه بها. وقيل تنزع يده اليسرى من صدره إلى خلف ظهره ثم يعطى كتابه بها ﴿فيقول يا ليتني لم أوت كتابي﴾ وذلك لما نظر في كتابه ورأى قبائح أعماله مثبتة عليه تمنى أنه لم يؤت كتابه لما حصل له من الخجل والافتضاح ﴿ولم أدري ما حسابه﴾ أي لم أدري أي شيء حسابي لأنه لا طائل ولا حاصل له وإنما كله عليه لا له ﴿يا ليتني كانت القاضية﴾ تمنى أنه لم يبعث للحساب والمعنى يا ليت الموتة التي متها في الدنيا كانت القاضية عن كل ما بعدها والقاطعة للحياة أي ما أحيا بعدها قال قتادة تمنى الموت ولم يكن شيء عنده أكره منه إليه أي من الموت في الدنيا لأنه رأى تلك الحالة أشنع وأمر مما ذاقه من الموت ﴿ما أغنى عني مالي﴾ أي لم يدفع عني يساري ومالي من العذاب شيئاً ﴿هلك عني سلطانتي﴾ أي ضلت عني حجتني التي كنت أحتج بها في الدنيا وقيل ضلت عنه حجته حين شهدت عليه الجوارح بالشرك وقيل معناه زال عني ملكي وقوتي وتسلطي على الناس وبقيت ذليلاً حقيراً فقيراً ﴿خذوه﴾ أي يقول الله تعالى لخزنة جهنم خذوه ﴿فعلوه﴾ أي

﴿فهو في عيشة﴾، يعني حالة من العيش، ﴿راضية﴾، مرضية كقوله: ﴿ماء دافق﴾ [الطارق: ٦] يريد برضاها بأن لقي الثواب وأمن العقاب.

﴿في جنة عالية﴾، رفيعة.

﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾، ثمارها قريبة لمن يتناولها ينالها قائماً وقاعداً ومضطجعاً يقطعونها كيف شاؤوا.

ويقال لهم: ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم﴾، قدّمتم لآخرتكم من الأعمال الصالحة، ﴿في الأيام الخالية﴾، الماضية يريد أيام الدنيا.

﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْتِي كتابه بشماله﴾، قال ابن السائب تلوى يده اليسرى خلف ظهره ثم يعطى كتابه. وقيل: تنزع يده اليسرى من صدره إلى خلف ظهره ثم يعطى كتابه. ﴿فيقول يا ليتني لم أوت كتابي﴾، يتمنى أنه لم يؤت كتابه لما يرى فيه من قبائح أعماله.

﴿ولم أدري ما حسابه﴾، يا ليتني كانت القاضية، يقول يا ليت الموتة التي متها في الدنيا كانت القاضية من كل ما بعدها، والقاطعة للحياة، فلم أحى بعدها. والقاضية موت لا حياة بعدها يتمنى أنه لم يبعث للحساب. قال

أجمعوا يديه إلى عنقه ﴿ثم الجحيم صلوه﴾ أي أدخلوه معظم النار لأنه كان يتعاضم في الدنيا ﴿ثم في سلسلة﴾ وهي حلق منتظمة كل حلقة منها في حلقة ﴿ذرعها﴾ أي مقدارها والذرع التقدير بالذراع من اليد أو غيرها ﴿سبعون ذراعاً﴾ قال ابن عباس بذرع الملك. وقال نوفر البكالي سبعون ذراعاً كل ذراع سبعون باعاً كل باع أبعد مما بينك وبين مكة وكان في رحبة الكوفة. وقال سفيان كل ذراع سبعون ذراعاً، وقال الحسن الله أعلم أي ذراع هو عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ «لو أن رضاضة مثل هذه وأشار إلى مثل الجمجمة أرسلت من السماء إلى الأرض وهي مسيرة خمسمائة سنة لبلغت الأرض قبل الليل ولو أنها أرسلت في رأس السلسلة لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار قبل أن تبلغ قعرها أو أصلها» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن.

الرضاض الحصباء الصغار، وقوله مثل هذه وأشار إلى مثل الجمجمة.

الجمجمة قدح من خشب وجمعه جماجم والجمجمة الرأس وهو أشرف الأعضاء وقال وهب لو جمع حديد الدنيا ما وزن حلقة منها وقوله تعالى: ﴿فاسلكوه﴾ أي أدخلوه فيها قال ابن عباس تدخل في دبره وتخرج من منخره. وقيل تدخل في فيه وتخرج من دبره ﴿إنه كان لا يؤمن بالله العظيم﴾ أي لا يصدق بوحدانية الله وعظمته، ﴿ولا يحض على طعام المسكين﴾ أي ولا يحث نفسه على إطعام المسكين ولا يأمر أهله بذلك وفيه دليل على تعظيم الجرم في حرمان المساكين لأن الله تعالى عطفه على الكفر وجعله قرينه. قال الحسن في هذه الآية أدركت أقواماً يعزمون على أهليهم أن لا يردوا سائلاً وعن بعضهم أنه كان يأمر أهله بكثير المرقاة لأجل المساكين ويقول خلعنا نصف السلسلة بالإيمان أفلا نخلع النصف الثاني بالإطعام.

قتادة: يتمنى الموت وإن لم يكن عنده في الدنيا شيء أكره من الموت.

﴿ما أغنى عني ماليه﴾، لم يدفع عني من عذاب الله شيئاً.

﴿هلك عني سلطانيه﴾، ضلّت عني حجّتي، عن أكثر المفسرين، وقال ابن زيد: زال عني مُلكي وقوّتي.

قال مقاتل: يعني حين شهدت عليه الجوارح بالشرك يقول الله لخزنة جهنم:

﴿خذوه فغلّوه﴾، اجمعوا يده إلى عنقه.

﴿ثم الجحيم صلوه﴾، أي أدخلوه الجحيم.

﴿ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه﴾، فأدخلوه فيها. قال ابن عباس: سبعون ذراعاً بذرع

الملك، فيدخل في دبره ويخرج من منخره. وقيل: يدخل في فيه ويخرج من دبره. وقال نوف البكالي: سبعون ذراعاً كل ذراع سبعون باعاً كل باع أبعد مما بينك وبين مكة، وكان في رحبة الكوفة. وقال سفيان: كل ذراع سبعون ذراعاً. وقال الحسن: الله أعلم أي ذراع هو. أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث أنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود ثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن سعيد بن يزيد عن أبي السمح عن عيسى بن هلال الصدفي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن رضاضة مثل هذه، وأشار إلى مثل الجمجمة أرسلت من السماء إلى الأرض وهي مسيرة خمسمائة سنة، لبلغت الأرض قبل الليل، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة التي ذكرها الله في القرآن لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار. قبل أن تبلغ أصلها». وعن كعب قال: لو جمع حديد الدنيا ما وزن حلقة منها.

فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾ فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ ﴿٤٢﴾ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾

﴿فليس له اليوم هاهنا حميم﴾ أي ليس له في الآخرة قريب ينفعه أو يشفع له ﴿ولا طعام إلا من غسلين﴾ يعني صديد أهل النار مأخوذ من الغسل كأنه غسالة جروحهم وقروحهم وقيل هو شجر يأكله أهل النار ﴿لا يأكله إلا الخاطئون﴾ أي الكافرون.

قوله عز وجل: ﴿فلا أقسم﴾ قيل إن لا صلة والمعنى أقسم. وقيل لا رد لكلام المشركين كأنه قال ليس الأمر كما يقول المشركون ثم قال تعالى أقسم وقيل لا هنا نافية للقسم على معنى أنه لا يحتاج إليه لوضوح الحق فيه كأنه قال لا أقسم على أن القرآن قول رسول كريم فكأنه لوضوحه استغنى عن القسم.

وقوله ﴿بما تبصرون وما لا تبصرون﴾ يعني بما ترون وتشاهدون وبما لا ترون وما لا تشاهدون أقسم بالأشياء كلها فيدخل فيه جميع المكونات والموجودات، وقيل أقسم بالدنيا والآخرة. وقيل بما تبصرون يعني على ظهر الأرض وما لا تبصرون أي ما في بطنها. وقيل بما تبصرون يعني الأجسام وما لا تبصرون يعني الأرواح. وقيل بما تبصرون يعني الإنس وما لا تبصرون يعني الملائكة والجن. وقيل بما تبصرون من النعم الظاهرة وما لا تبصرون من النعم الباطنة. وقيل بما تبصرون هو ما أظهره الله من مكنون غيبه لملائكته والروح والقلم وجميع خلقه وما لا تبصرون هو ما استأثر الله بنعمه فلم يطلع عليه أحداً من خلقه، ثم ذكر المقسم عليه فقال تعالى ﴿إنه﴾ يعني للقرآن ﴿لقول رسول كريم﴾ يعني تلاوة رسول كريم وهو محمد ﷺ وقيل: الرسول هو جبريل عليه السلام فعلى هذا يكون المعنى إنه لرسالة رسول كريم والقول الأول أصح لأنهم لم يصفوا جبريل بالشعر والكهانة وإنما وصفوا بهما محمداً ﷺ.

﴿إنه كان لا يؤمن بالله العظيم﴾ ولا يحض على طعام المسكين، لا يطعم المسكين في الدنيا ولا يأمر أهله بذلك.

﴿فليس له اليوم ههنا حميم﴾، قريب ينفعه ويشفع له.

﴿ولا طعام إلا من غسلين﴾، وهو صديد أهل النار مأخوذ من الغسل كأنه غسالة جروحهم وقروحهم. قال الضحاك والربيع: هو شجر يأكله أهل النار.

﴿لا يأكله إلا الخاطئون﴾، أي الكافرون.

﴿فلا أقسم﴾، لا رد لكلام المشركين كأنه قال: ليس كما يقول المشركون أقسم، ﴿بما تبصرون﴾ وما لا تبصرون، أي بما ترون وبما لا ترون. قال قتادة: أقسم بالأشياء كلها فيدخل فيه جميع المكونات والموجودات. وقال: أقسم بالدنيا والآخرة. وقيل: ما تبصرون ما على وجه الأرض وما لا تبصرون ما في بطنها. وقيل: ما تبصرون من الأجسام وما لا تبصرون من الأرواح. وقيل: ما تبصرون: الإنس وما لا تبصرون: الملائكة والجن. وقيل: النعم الظاهرة والباطنة. وقيل: ما تبصرون ما أظهر الله للملائكة والروح والقلم، وما لا تبصرون ما استأثر بعلمه فلم يطلع عليه أحداً.

﴿إنه﴾ يعني القرآن، ﴿لقول رسول كريم﴾، أي تلاوة رسول كريم يعني محمداً ﷺ.

﴿وما هو بقول شاعر قليلًا ما تؤمنون﴾ ولا بقول كاهن قليلًا ما تذكرون، قرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب

فإن قلت قد توجه هنا سؤال وهو أن جمهور الأمة وهم أهل السنة مجمعون على أن القرآن كلام الله فكيف يصح إضافته إلى الرسول.

قلت أما إضافته إلى الله تعالى فلا أنه هو المتكلم به وأما إضافته إلى الرسول فلا أنه هو المبلغ عن الله تعالى ما أوحى إليه ولهذا أكد به قوله ﴿تنزيل من رب العالمين﴾ ليزول هذا الإشكال. قال ابن قتيبة لم يرد أنه قول الرسول وإنما أراد أنه قول الرسول المبلغ عن الله تعالى. وفي الرسول ما يدل على ذلك فاكتمى به عن أن يقول عن الله تعالى وقوله تعالى: ﴿وما هو بقول شاعر﴾ يعني أن هذا القرآن ليس بقول رجل شاعر ولا هو من ضروب الشعر ولا تركيبه ﴿قليلاً ما تؤمنون﴾ أراد بالقليل عدم إيمانهم أصلاً. والمعنى أنكم لا تصدقون بأن القرآن من عند الله تعالى: ﴿ولا يقول كاهن﴾ أي وليس هو بقول رجل كاهن ولا هو من جنس الكهانة ﴿قليلاً ما تذكرون﴾ يعني لا تذكرون البتة ﴿تنزيل﴾ أي هو تنزيل يعني القرآن، ﴿من رب العالمين﴾ وذلك أنه لما قال إنه لقول رسول كريم أتبعه بقوله تنزيل من رب العالمين ليزول هذا الإشكال.

قوله تعالى: ﴿ولو تقول علينا﴾ أي اختلق علينا محمد ﴿بعض الأقاويل﴾ يعني أتى بشيء من عند نفسه لم نقله نحن ولم توجه إليه ﴿لأخذنا منه باليمين﴾ أي لأخذناه بالقوة والقدرة وانتقمنا منه باليمين أي بالحق. قال ابن عباس لأخذناه بالقوة والقدرة قال الشماخ يمدح عرابة ملك اليمن:

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

أي بالقوة فعبّر عن القوة باليمين لأن قوة كل شيء في يمينه. والمعنى لأخذنا منه اليمين أي سلبناه القوة فعلى هذا المعنى الباء زائدة. وقيل معنى الآية ذلناه وأهاناه كفعل السلطان بمن يريد أن يهيئه، يقول لبعض أعوانه خذ بيده فأقمه. وإنما أخص اليمين بالذكر لأنه أشرف العضوين.

ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّكُمْ لَلْمُنْكَرِ لَلْمُنْكَرِ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّكُمْ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّكُمْ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

﴿ثم لقطعنا منه الوتين﴾ قال ابن عباس يعني نياط القلب، وقيل هو جبل الظهر. وقيل هو عرق يجري في الظهر

(يؤمنون ويذكرون) بالياء فيهما، وقرأ الآخرون بالتاء، وأراد بالقليل نفي إيمانهم أصلاً كقولك لمن لا يزول: قلما تأتينا وأنت تريد لا تأتينا أصلاً.

﴿تنزيل من رب العالمين﴾ ولو تقول ﴿﴾، تحرّض واختلق، ﴿علينا﴾، محمد، ﴿بعض الأقاويل﴾، وأتى بشيء من عند نفسه.

﴿لأخذنا منه باليمين﴾، قيل: (من) صلة، مجازة: لأخذناه وانتقمنا منه باليمين أي بالحق، كقوله: ﴿كنتم تأتوننا عن اليمين﴾ [الصافات: ٢٨]، أي: من قبل الحق. وقال ابن عباس: لأخذناه بالقوة والقدرة. قال الشماخ يمدح عرابة ملك اليمن:

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

أي بالقوة عبّر عن القوة باليمين لأن قوة كل شيء في يمينه. وقيل: معناه لأخذنا بيده اليمنى، وهو مثل معناه: لأذلناه، وأهاناه كالسلطان إذا أراد الاستخفاف ببعض من بين يديه، يقول لبعض أعوانه: خذ بيده فأقمه. ﴿ثم لقطعنا منه الوتين﴾، قال ابن عباس: أي نياط القلب، وهو قول أكثر المفسرين. وقال مجاهد: الحبل

حتى يتصل بالقلب فإذا انقطع مات صاحبه . وقيل هو عرق يتصل من القلب بالرأس ، قال ابن قتبية لم يرد أنا نقطعه بعينه بل المراد منه أنه لو كذب علينا لأمتناه فكان كمن قطع وتينه والمعنى أنه لو كذب علينا وتقول علينا قولاً لم نقله لمنعناه من ذلك إما بواسطة إقامة الحجة عليه بأن نقيض له من يعارضه ويظهر للناس كذبه فيكون ذلك إبطالاً لدعواه ، وإما أن نسلب عنه قوة التكلم بذلك القول الكذب حتى لا يشتبه الصادق بالكاذب ، وإما أن نميته ، ﴿فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ أي مانعين يحجزوننا عن عقوبته والمعنى أن محمداً لا يتكلم الكذب علينا لأجلكم مع علمه أنه لو تكلمه لعاقبناه ولا يقدر أحد على دفع عقوبتنا عنه وإنما قال حاجزين بلفظ الجمع وهو وصف أحد رداً على معناه ﴿وإنه﴾ يعني القرآن وذلك أنه لما وصفه بأنه تنزيل من رب العالمين بواسطة جبريل إلى النبي ﷺ بين ما هو فقال تعالى : ﴿لتذكرة﴾ أي لعظة ﴿للمتقين﴾ أي لمن اتقى عقاب الله ﴿وإننا لنعلم أن منكم مكذبين﴾ فيه وعيد لمن كذب بالقرآن ﴿وإنه﴾ يعني القرآن ﴿لحسرة على الكافرين﴾ يعني يوم القيامة والمعنى أنهم يندمون على ترك الإيمان به لما يرون من ثواب من آمن به ﴿وإنه لحق اليقين﴾ معناه أنه حق معين لا بطلان فيه ويقين لا شك ولا ريب فيه ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ أي نزه ربك العظيم واشكره على أن جعلك أهلاً لإيحائه إليك والله سبحانه وتعالى أعلم .

الذي في الظهر . وقيل هو عرق يجري في الظهر حتى يتصل بالقلب ، فإذا انقطع مات صاحبه .
﴿فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ ، مانعين يحجزوننا عن عقوبته ، والمعنى : أن محمداً لا يتكلف الكذب لأجلكم مع علمه بأنه لو تكلمه لعاقبناه ولا يقدر أحد على دفع عقوبتنا عنه ، وإنما قال : ﴿حاجزين﴾ بالجمع وهو فعل واحد رداً على معناه كقوله : ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ [البقرة: ٢٨٥] .
﴿وإنه﴾ ، يعني القرآن ، ﴿لتذكرة للمتقين﴾ ، أي لعظة لمن اتقى عقاب الله .
﴿وإننا لنعلم أن منكم مكذبين﴾ وإنه لحسرة على الكافرين ، يوم القيامة يندمون على ترك الإيمان به .
﴿وإنه لحق اليقين﴾ ، أضافه إلى نفسه لاختلاف اللفظين .
﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ .

سورة سأل سائل

وتسمى المعارج مكية وهي أربع وأربعون آية ومائتان وأربع وعشرون كلمة وتسعة وعشرون حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾

قوله عز وجل: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ قرئ بغير همزة وفيه وجهان الأول أنه لغة في السؤال والثاني أنه من السيل. ومعناه اندفع عليهم واد بعذاب وقيل سال واد من أودية جهنم. وقرئ سأل سائل بالهمز من السؤال ﴿بعذاب﴾ قيل الباء بمعنى عن أي عذاب ﴿واقع﴾ أي نازل وكائن وعلى من ينزل ولمن ينزل ولمن ذلك العذاب فقال الله تعالى مجيباً لذلك السؤال.

لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنْ آلِهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾

﴿للكافرين﴾ وذلك أن أهل مكة لما خوفهم النبي ﷺ بالعذاب قال بعضهم لبعض: من أهل هذا العذاب ولمن هو سلوا عنه محمداً فسألوه فأنزل الله تعالى سأل سائل بعذاب واقع للكافرين أي هو للكافرين. والباء صلة ومعنى الآية دعا داع وطلب طالب عذاباً واقعاً للكافرين. وهذا السائل هو النضر بن الحارث حيث دعا على نفسه وسأل العذاب فقال «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك» الآية فنزل به ما سأل فقتل يوم بدر صبراً وهذا قول ابن عباس،

سُورَةُ الْمَعَارِجِ

مكية وهي أربع وأربعون آية.

﴿سأل سائل﴾، قرأ أهل المدينة والشام ﴿سأل﴾ بغير همز وقرأ الآخرون بالهمز، فمن همز فهو من السؤال، ومن قرأ بغير همز قيل: هو لغة في السؤال، يقال: سال يسال مثل خاف يخاف، يعني سال يسال خفف الهمزة وجعلها ألفاً. وقيل: هو من السيل. وسال واد من أودية جهنم، يُروى ذلك عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، والأول أصح. واختلفوا في الباء في قوله: ﴿بعذاب﴾، قيل: هي بمعنى (عن) كقوله: ﴿فاسئل به خبيراً﴾ [الفرقان: ٥٩] أي عنه خبير، ومعنى الآية سأل سائل عن عذاب، ﴿واقع﴾، نازل كائن على من ينزل ولمن ذلك العذاب.

فقال الله مبيناً مجيباً لذلك السائل: ﴿للكافرين﴾، وذلك أن أهل مكة لما خوفهم النبي ﷺ بالعذاب قال بعضهم لبعض: من أهل هذا العذاب؟ ولمن هو؟ سلوا عنه محمداً فأنزل الله: ﴿سأل سائل بعذاب واقع

﴿ليس له دافع﴾ أي أن العذاب واقع بهم لا محالة سواء طلبوه أو لم يطلبوه إما في الدنيا بالقتل وإما في الآخرة، لأن العذاب واقع بهم في الآخرة لا يدفعه دافع ﴿من الله﴾ أي بعذاب من الله، والمعنى ليس لذلك العذاب الصادر من الله للكافرين دافع يدفعه عنهم ﴿ذي المعارج﴾ قال ابن عباس ذي السموات سماها معارج لأن الملائكة تعرج فيها. وقيل ذي الدرجات وهي المصاعد التي تعرج الملائكة فيها. وقيل ذي الفواضل والنعم وذلك لأن أفضاله وأنعامه مراتب وهي تصل إلى الخلق على مراتب مختلفة، ﴿تعرج الملائكة والروح﴾ يعني جبريل عليه الصلاة والسلام وإنما أفرده بالذكر وإن كان من جملة الملائكة لشرفه وفضل منزلته. وقيل إن الله تعالى إذا ذكر الملائكة في معرض التخويف والتهويل أفرد الروح بالذكر وهذا يقتضي أن الروح أعظم الملائكة ﴿إليه﴾ أي إلى الله عز وجل ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ أي من سني الدنيا. والمعنى أنه لو صعد غير الملك من بني آدم من انتهى أمر الله تعالى من أسفل الأرض السابعة إلى انتهى أمر الله تعالى من فوق السماء السابعة لما صعد في أقل من خمسين ألف سنة والملك يقطع ذلك كله في ساعة واحدة وأقل من ذلك وذكر أن مقدار ما بين الأرض السابعة السفلى إلى انتهى العرش مسافة خمسين ألف سنة. وقيل إن ذلك اليوم هو يوم القيامة قال الحسن هو يوم القيامة وأراد أن موقفهم للحساب حتى يفصل بين الناس في مقدار خمسين ألف سنة من سني الدنيا وليس يعني أن مقدار طول ذلك اليوم خمسون ألف سنة دون غيره من الأيام لأن يوم القيامة له أول وليس له آخر لأنه يوم ممدود لا آخر له. ولو كان له آخر لكان منقطعاً وهذا الطول في حق الكفار دون المؤمنين. قال ابن عباس يوم القيامة يكون على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة. وروى البغوي بسنده عن أبي سعيد الخدري قال «قيل لرسول الله ﷺ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فما أطول هذا اليوم فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون عليه أخف من صلاة مكتوبة يصلّيها في

للكافرين﴾ أي هو للكافرين، هذا قول الحسن وقتادة. وقيل: التاء صلة ومعنى الآية: دعا داعٍ وسأل سائل عذاباً واقعاً للكافرين أي على الكافرين، اللام بمعنى على، وهو النضر بن الحارث حيث دعا على نفسه وسأل العذاب، فقال: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك، الآية، فنزل به ما سأل يوم بدر فقتل صبراً. وهذا قول ابن عباس ومجاهد. ﴿ليس له دافع﴾.

﴿من الله﴾، أي بعذاب من الله، ﴿ذي المعارج﴾، قال ابن عباس: أي ذي السموات، سماها معارج لأن الملائكة تعرج فيها. وقال سعيد بن جبیر: ذي الدرجات. وقال قتادة: ذي الفواضل والنعم، ومعارج الملائكة. ﴿تعرج الملائكة﴾، قرأ الكسائي (يعرج) بالياء، وهي قراءة ابن مسعود، وقرأ الآخرون ﴿تعرج﴾ بالتاء، ﴿والروح﴾، يعني جبريل عليه السلام، ﴿إليه﴾ أي إلى الله عز وجل، ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾، من سني الدنيا لو صعد غير الملك من بني آدم من انتهى أمر الله تعالى من أسفل الأرض السابعة إلى انتهى أمر الله تعالى من فوق السماء السابعة، لما صعد في أقل من خمسين ألف سنة والملك يقطع ذلك كله في ساعة واحدة. وروى ليث عن مجاهد أن مقدار هذا خمسين ألف سنة. وقال محمد بن إسحاق: لو سار بنو آدم من الدنيا إلى موضع العرش ساروا خمسين ألف سنة. وقال عكرمة وقتادة: هو يوم القيامة. وقال الحسن أيضاً: هو يوم القيامة. وأراد أن موقفهم للحساب حتى يفصل بين الناس خمسون ألف سنة من سني الدنيا، ليس يعني به أن مقدار طوله هذا دون غيره لأن يوم القيامة له أول وليس له آخر لأنه يوم ممدود، ولو كان له آخر لكان منقطعاً. وروى ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال: هو يوم القيامة يكون على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة، أخبرنا أبو الفرج المظفر بن إسماعيل التميمي أنا أبو القاسم حمزة بن يوسف السهمي أنا أبو أحمد عبد الله بن عدي الحافظ ثنا عبد الله بن سعيد ثنا أسد بن موسى ثنا ابن لهيعة عن دراج أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري قال:

الدنيا» وقال ابن عباس معناه لو ولي محاسبة العباد في ذلك اليوم غير الله لم يفرغ منه في خمسين ألف سنة. وقال عطاء ويفرغ الله تعالى منها في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا. وقال الكلبي يقول الله تعالى لو وليت حساب ذلك اليوم الملائكة والجن والإنس وطوقتهم محاسبتهم لم يفرغوا منه في خمسين ألف سنة وأنا أفرغ منه في ساعة من نهار. وقال يمان هو يوم القيامة فيه خمسون موطناً كل موطن ألف سنة فعلى هذا يكون المعنى ليس له دافع من الله في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة. وقيل معناه سأل سائل بعذاب واقع في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة وفيه تقديم وتأخير.

فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْتَلُ حِمِيمٌ حِمِيمًا ﴿١٠﴾ يُصْرُوهُمْ يُودُ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِئِذٍ بِنِيبَةٍ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِي وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَبُّ عَلَى اللَّهِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٣﴾

﴿فاصبر﴾ أي يا محمد على تكذيبهم إياك ﴿صبراً جميلاً﴾ أي لا جزع فيه وهذا قبل أن يؤمر بالقتال ثم نسخ بآية السيف، ﴿إنهم يرونه﴾ أي العذاب ﴿بعيداً﴾ أي غير كائن ﴿ونراه قريباً﴾ أي كائناً لا محالة لأن كل ما هو آت قريب، وقيل الضمير في يرونه بعيداً يعود إلى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة والمعنى أنهم يستبعدونه على جهة الانكسار والإحالة ونحن نراه قريباً في قدرتنا غير بعيد علينا فلا يتعذر علينا إمكانه ﴿يوم تكون السماء كالمهل﴾ أي كعكر الزيت وقال الحسن كالفضة المذابة ﴿وتكون الجبال كالعهن﴾ أي الصوف المصبوغ. وإنما شبه الجبال بالمصبوغ من الصوف لأنها ذات ألوان أحمر وأبيض وغرايب سود ونحو ذلك فإذا بست الجبال وسيرت أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح. وقيل العهن الصوف الأحمر وهو أضعف الصوف وأول ما تتغير الجبال تصير رملاً مهياً ثم عنها منفوشاً

قيل لرسول الله ﷺ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة: فما أطول هذا اليوم؟ فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف من صلاة مكتوبة يصلّيها في الدنيا». وقيل: معناه لو ولي محاسبة العباد في ذلك اليوم غير الله لم يفرغ منه في خمسين ألف سنة. وهذا معنى قول عطاء عن ابن عباس ومقاتل. وقال عطاء ويفرغ الله منه في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا. وروى محمد بن الفضل عن الكلبي قال: يقول لو وليت حساب ذلك اليوم الملائكة والجن والإنس وطوقتهم محاسبتهم لم يفرغوا منه في خمسين ألف سنة، وأنا أفرغ منها في ساعة من النهار. وقال يمان: هو يوم القيامة فيه خمسون موطناً كل موطن ألف سنة. وفيه تقديم وتأخير كأنه قال: ليس له دافع من الله ذي المعارج في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة تعرج الملائكة والروح إليه.

﴿فاصبر صبراً جميلاً﴾، يا محمد على تكذيبهم، وهذا قبل أن يؤمر بالقتال.

﴿إنهم يرونه بعيداً﴾، يعني العذاب، ﴿ونراه قريباً﴾، لأن ما هو آت قريب وهو يوم القيامة.

﴿يوم تكون السماء كالمهل﴾، كعكر الزيت. وقال الحسن: كالفضة إذا أذيت.

﴿وتكون الجبال كالعهن﴾، كالصوف المصبوغ. ولا يقال: عهن إلا للمصبوغ. وقال مقاتل: كالصوف

المنفوش. وقال الحسن: كالصوف الأحمر وهو أضعف الصوف، وأول ما تتغير الجبال تصير رملاً مهياً ثم عنها منفوشاً ثم تصير هباءً منثوراً.

﴿ولا يسأل حميم حميماً﴾، قرأ البرقي عن ابن كثير ﴿ولا يسأل﴾ بضم الياء أي لا يسأل حميم عن حميم،

أي لا يقال له أين حميمك؟ وقرأ الآخرون بفتح الياء، أي لا يسأل قريب قريباً لشغله بشأن نفسه.

ثم تصوير هباء منشوراً ﴿ولا يسأل حميم حميماً﴾ أي لا يسأل قريب قريبه لشغله بشأن نفسه والمعنى لا يسأل الحميم حميمه كيف حاله ولا يكلمه لهول ذلك اليوم وشدته. وقيل لا يسأله الشفاعة ولا يسأله الإحسان إليه ولا الرفق به كما كان يسأله في الدنيا وذلك لشدة الأمر وهول يوم القيامة ﴿يبصرونهم﴾ أي يرونهم وليس في القيامة مخلوق من جن أو إنس إلا وهو نصف عين صاحبه فيبصر الرجل أباه وأخاه وقربته فلا يسألهم ويبصر حميمه فلا يكلمه لاشتغاله بنفسه. وقال ابن عباس يتعارفون ساعة من النهار ثم لا يتعارفون بعد ذلك، وقيل يعرف الحميم حميمه ومع ذلك لا يسأله عن حاله لشغله بنفسه. وقيل يبصرونهم أي يعرفونهم أما المؤمن فيعرف بيباض وجهه وأما الكافر فيعرف بسواد وجهه ﴿يود المجرم﴾ أي يتمنى المشرک ﴿لو يفتدي من عذاب يومئذ﴾ أي عذاب يوم القيامة ﴿ببنيه وصاحبه﴾ أي زوجته ﴿وأخيه وفصيلته﴾ أي عشيرته وقيل قبيلته وقيل أقربائه الأقربين ﴿التي تؤويه﴾ أي تضمه ويأوي إليها ﴿ومن في الأرض جميعاً﴾ يعني أنه يتمنى لو ملك هؤلاء وكانوا تحت يده ثم إنه يفتدي بهم جميعاً ﴿ثم ينجي﴾ أي ذلك الفداء من عذاب الله.

كَلَّا إِنَّهَا لَلْظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَاعَةٌ لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُو مَنَ أَذْبَرَ تَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾

﴿كلا﴾ أي لا ينجي من عذاب الله شيء ثم ابتداء فقال تعالى ﴿إنها لالظى﴾ يعني النار ولظى اسم من أسمائها وقيل: الدركة الثانية من النار سميت لظى لأنها تلتظى أي تلتهب، ﴿نزاعة للشوى﴾ يعني الأطراف كاليدن والرجلين مما ليس بمقتل. والمعنى أن النار تنزع الأطراف فلا تترك عليها لحماً ولا جلدًا. وقال ابن عباس تنزع العصب والعقب وقيل تنزع اللحم دون العظام وقيل تأكل الدماغ كله ثم يعود كما كان ثم تأكله فذلك دأبها. وقيل لمكارم خلقه ومحاسن وجهه وأطرافه، ﴿تدعو﴾ يعني النار إلى نفسها ﴿من أذبر﴾ أي عن الإيمان ﴿وتولى﴾ أي عن الحق فتقول له إني يا مشرك إني يا منافق إني إلي. قال ابن عباس تدعو الكافر والمنافق بأسمائهم بلسان فصيح ثم تلتقطهم كما يلتقط

﴿يبصرونهم﴾ يرونهم وليس في القيامة مخلوق إلا وهو نصب عين صاحبه من الجن والإنس فيبصر الرجل أباه وأخاه وقربته فلا يسأله، ويبصر حميمه فلا يكلمه لاشتغاله بنفسه. قال ابن عباس: يتعارفون ساعة من النهار ثم لا يتعارفون بعده. وقيل: يبصرونهم يعرفونهم أي يعرف الحميم حميمه حتى يعرفه، ومع ذلك لا يسأله عن شأنه لشغله بنفسه. وقال السدي: يعرفونهم أما المؤمن فييباض وجهه، وأما الكافر فبسواد وجهه، ﴿يود المجرم﴾، يتمنى المشرک، ﴿لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه﴾.

﴿وصاحبه﴾، زوجته، ﴿وأخيه * وفصيلته﴾، عشيرته التي فصل منهم. وقال مجاهد: قبيلته. وقال غيره: أقربائه الأقربين. ﴿التي تؤويه﴾، أي تعنيه ويأوي إليها.

﴿ومن في الأرض جميعاً﴾، يود لو يفتدي بهم جميعاً، ﴿ثم ينجي﴾، ذلك الفداء من عذاب الله.

﴿كلا﴾، لا ينجي من عذاب الله شيء، ثم ابتداء فقال: ﴿إنها لالظى﴾، وهي اسم من أسماء جهنم. وقيل: هي الدركة الثانية، سُميت بذلك لأنها تلتظى أي تلتهب.

﴿نزاعة للشوى﴾، قرأ حفص عن عاصم ﴿نزاعة﴾ نصب على الحال والقطع، وقرأ الآخرون بالرفع أي هي نزاعة للشوى، وهي الأطراف: اليدين، والرجلان، والأطراف. وقال مجاهد: لجلود الرأس. وروى إبراهيم بن المهاجر عنه: اللحم دون العظام. قال مقاتل: تنزع النار الأطراف فلا تترك لحماً ولا جلدًا. وقال الضحاك: تنزع

الطير الحب. وقيل تدعو أي تعذب قال أعرابي لآخر دعاك الله أي عذبك الله ﴿وجمع فأوعى﴾ يعني وتدعو من جمع المال في الوعاء ولم يؤد حق الله منه، ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً﴾ قال ابن عباس الهلوع الحريص على ما لا يحل. وقيل شحيحاً بخيلاً. وقيل ضجوراً وقيل جزوعاً، وقيل ضيق القلب والهلوع شدة الحرص وقلة الصبر وقال ابن عباس تفسيره ما بعده وهو قوله تعالى: ﴿إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً﴾ يعني إذا أصابه الفقر لم يصبر وإذا أصابه المال لم ينفق. وقال ابن كيسان خلق الله الإنسان يحب ما يسره ويهرب مما يكره ثم تعبه بإففاق ما يحب والصبر على ما يكره. قيل أراد بالإنسان هنا الكافر وقيل هو على عمومته ثم استثنى الله عز وجل فقال تعالى: ﴿إلا المصلين﴾ وهذا استثناء الجمع من الواحد لأن الإنسان واحد وفيه معنى الجمع ﴿الذين هم على صلاتهم دائمون﴾ يعني يقيمونها في أوقاتها وهي الفرائض.

فإن قلت كيف قال على صلاتهم دائمون ثم قال بعده على صلاتهم يحافظون؟

قلت معنى إدامتهم عليها أن يواظبوا على أدائها، وأن لا يتركوها في شيء من الأوقات وأن لا يشتغلوا عنها بغيرها إذا دخل وقتها، والمحافظة عليها ترجع إلى الاهتمام بحالها وهو أن يأتي بها العبد على أكمل الوجوه. وهذا إنما يحصل بأمور ثلاثة منها ما هو سابق للصلاة كاشتغاله بالوضوء وستر العورة وإرصاد المكان الطاهر للصلاة، وقصد الجماعة وتعلق القلب بدخول وقتها وتفرغته عن الوسواس والالتفات إلى ما سوى الله عز وجل. وأما الأمور المقارنة للصلاة فهي أن لا يلتفت في الصلاة يميناً ولا شمالاً وأن يكون حاضر القلب في جميعها بالخشوع والخوف

الجلد واللحم عن العظام. قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: للعصب والعقب. وقال الكلبي: لأم الرأس تأكل الدماغ كله ثم يعود كما كان، ثم تعود لأكله فتأكله فذلك دأبها. وقال قتادة: لمكارم خلقه وأطرافه. وقال أبو العالية: لمحاسن وجهه. وقال ابن جرير: الشوى جوارح الإنسان ما لم يكن مقتلاً، يقال: رمى فأشوى إذا أصاب الأطراف ولم يصب المقتل.

﴿تدعو﴾، النار إلى نفسها، ﴿من أدبر﴾، على الإيمان، ﴿وتولى﴾، عن الحق فنقول إليّ يا مشرك إليّ يا منافق إليّ إليّ. قال ابن عباس: تدعو الكافرين والمنافقين بأسمائهم بلسان فصيح ثم تلتقطهم كما يلتقط الطير الحب. حُكي عن الخليل: أنه قال: تدعو أي تعذب. وقال: قال أعرابي لآخر: دعاك الله أي عذبك الله.

﴿وجمع﴾، أي جمع المال، ﴿فأوعى﴾، أمسكه في الوعاء ولم يؤد حق الله منه.

﴿إن الإنسان خلق هلوعاً﴾، روى السدي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: الهلوع الحريص على ما لا يحل له. وقال سعيد بن جبير: شحيحاً. وقال عكرمة: ضجوراً. وقال الضحاك والحسن: بخيلاً. وقال قتادة: جزوعاً. وقال مقاتل: ضيق القلب. والهلوع: شدة الحرص، وقلة الصبر. وقال عطية عن ابن عباس: تفسيره ما بعد.

وهو قوله: ﴿إذا مسه الشر جزوعاً * وإذا مسه الخير منوعاً﴾، يعني إذا أصابه الفقر لم يصبر، وإذا أصابه المال لم ينفق. قال ابن كيسان: خلق الإنسان يحب ما يسره ويهرب مما يكره، ثم تعبه بإففاق ما يحب والصبر على ما يكره.

ثم استثنى فقال: ﴿إلا المصلين﴾، استثنى الجمع من الواحد لأن الإنسان في معنى الجمع.

﴿الذين هم على صلاتهم دائمون﴾، يقيمونها في أوقاتها يعني الفرائض. أخبرنا أبو بكر محمد بن

وإتمام ركوعها وسجودها. وأما الأمور الخارجة عن الصلاة فهو أن يحترز عن الرياء والسمعة خوف أن لا تقبل منه مع الابتغال والتضرع إلى الله تعالى في سؤال قبولها وطلب الثواب فالمداومة على الصلاة ترجع إلى نفسها والمحافظة عليها ترجع إلى أحوالها وهيئاتها. وروى البغوي بسنده عن أبي الخير قال سألتنا عقبة بن عامر عن قوله عز وجل الذين هم على صلاتهم دائمون أهم الذين يصلون أبداً؟ قال لا ولكنه إذا صلى لم يلتفت عن يمينه ولا عن شماله ولا خلفه.

وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيَّومَ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَّمُونَ ﴿٣٥﴾ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيُطَمَّعُ كُلُّ فِرْعَوْنٍ مِّنْهُمْ أَنْ يَدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

﴿والذين في أموالهم حق معلوم﴾ يعني الزكاة المفروضة لأنها مقدرة معلومة. وقيل هي صدقة التطوع وذلك بأن يوظف الرجل على نفسه شيئاً من الصدقة يخرجها على سبيل النذب في أوقات معلومة ﴿للسائل﴾ يعني الذي يسأل ﴿والمحروم﴾ يعني الفقير المتعفف عن السؤال فيحسب غنياً فيحرم ﴿والذين يصدقون بيوم الدين﴾ أي يؤمنون بالبعث بعد الموت والحشر والنشر والجزاء يوم القيامة ﴿والذين هم من عذاب ربهم مشفقون﴾ أي خائفون ثم أكد ذلك الخوف فقال تعالى: ﴿إن عذاب ربهم غير مأمون﴾ يعني أن الإنسان لا يمكنه القطع بأنه أدى الواجبات كما ينبغي ولا اجتناب المحظورات بالكلية كما ينبغي بل قد يكون وقع منه تقصير من الجانبين فلا جرم ينبغي أن يكون بين الخوف والرجاء.

قوله تعالى: ﴿والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ تقدم تفسيره في سورة المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿والذين هم بشهاداتهم قائمون﴾ أي يقومون فيها عند الحكام ولا يكتُمونها ولا يغيرونها وهذه الشهادة من جملة الأمانات إلا أنه خصها بالذكر لفضلها لأن بها تحيا الحقوق وتظهر وفي تركها تموت وتضيع، وقيل أراد بالشهادة الشهادة له بأن لا إله إلا الله واحد لا شريك له ولهذا عطف عليها ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾

عبد الله بن أبي توبة ثنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث أنا محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن أبي لهيعة حدثني يزيد بن أبي حبيب أن أبا الخير أخبره قال: سألتنا عقبة بن عامر عن قول الله تعالى: ﴿الذين هم على صلاتهم دائمون﴾ أهم الذين يصلون أبداً؟ قال: لا ولكنهم إذا صلوا لم يلتفتوا عن يمينهم ولا عن شمالهم ولا خلفهم.

﴿والذين في أموالهم حق معلوم﴾ للسائل والمحروم * ﴿والذين يصدقون بيوم الدين﴾ والذين هم من عذاب ربهم مشفقون * إن عذاب ربهم غير مأمون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم بشهاداتهم قائمون *، قرأ حفص عن عاصم ويعقوب بشهاداتهم على الجمع، وقرأ الآخرون بشهاداتهم على التوحيد. ﴿قائمون﴾ أي يقومون فيها بالحق ولا يكتُمونها ولا يغيرونها.

ثم ذكر ما أعدّه لهم فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾ يعني من هذه صفته ﴿فِي جَنَّاتٍ مَّكْرُومٍ﴾ قوله تعالى: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي فما بالهم ﴿قَبْلَكَ مَهْطَعِينَ﴾ أي مسرعين مقبلين إليك مادي أعناقهم ومديمي النظر إليك متطلعين نحوك، نزلت في جماعة من الكفار كانوا يجتمعون حول النبي ﷺ يسمعون كلامه ويستهنئون به ويكذبونه فقال الله تعالى ما لهم ينظرون إليك ويجلسون عندك وهم لا ينتفعون بما يسمعون منك ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ يعني أنهم كانوا عن يمينه وعن شماله مجتمعين حلقاً وفاقاً، والعزون جماعات في تفرقة ﴿أَيُّطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةً نَعِيمٍ﴾ قال ابن عباس معناه أيطمع كل رجل منهم أن يدخل جنتي نعيم كما يدخلها المسلمون ويتنعمون فيها وقد كذبوا نبيي، ﴿كَلَّا﴾ أي لا يدخلها ثم ابتداء فقال تعالى ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي من الأشياء المستقدرة من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة نبه الله على أنهم خلقوا من أصل واحد وشيء واحد وإنما يتفاضلون بالمعرفة ويستوجبون الجنة بالإيمان والطاعة. روى البغوي بإسناد الثعلبي عن بشر بن جحاش قال: قال رسول الله ﷺ وبصق يوماً في كفه ووضع عليها أصبعه فقال «يقول الله عز وجل يا ابن آدم أتني تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك ومشيت بين بردين والأرض منك وتيد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أتصدق وأني أوان الصدقة»، وأخرجه ابن الجوزي في تفسيره بلا إسناد. وقيل في معنى الآية إنا خلقناهم من أجل ما يعلمون وهو الأمر والنهي والثواب والعقاب. وقيل معناه إنا خلقناهم ممن يعلمون ويعقلون ولم نخلقهم كالبهائم بلا علم ولا عقل.

فَلَا أَقْسِمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿١﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٢﴾ فَذَرَهُمْ يَخُونُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى

﴿والذين هم على صلاتهم يحافظون * أولئك في جنات مكرمون﴾.

﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي فما بال الذين كفروا، كقوله: ﴿فما لهم عن التذكرة معرضين﴾ [المذثر: ٤٩]، ﴿قَبْلَكَ مَهْطَعِينَ﴾، مسرعين مقبلين إليك مادي أعناقهم ومديمي النظر إليك متطلعين نحوك، نزلت في جماعة من الكفار كانوا يجتمعون حول النبي ﷺ يستمعون كلامه ويستهنئون به ويكذبونه، فقال الله تعالى: ما لهم ينظرون إليك ويجلسون عندك وهم لا ينتفعون بما يستمعون.

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾، حلقاً وفاقاً، والعزون: جماعات في تفرقة واحدها عزة.

﴿أَيُّطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةً نَعِيمٍ﴾، قال ابن عباس: معناه أيطمع كل رجل منهم أن يدخل جنتي كما يدخلها المسلمون ويتنعم فيها وقد كذب نبي؟

﴿كَلَّا﴾، لا يدخلونها، ثم ابتداء فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾، أي من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، نبه الناس على أنهم خلقوا من أصل واحد وإنما يتفاضلون ويستوجبون الجنة بالإيمان والطاعة. أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أحمد بن إبراهيم الثعلبي أخبرنا الحسين بن محمد بن فنجويه ثنا موسى بن محمد بن علي ثنا جعفر بن محمد الفريابي ثنا صفوان بن صالح ثنا الوليد بن مسلم ثنا جرير بن عثمان الرحبي عن عبد الرحمن بن ميسرة عن جبير بن نفير عن بشر بن جحاش قال: قال النبي ﷺ وبصق يوماً في كفه ووضع عليها إصبعه فقال: «يقول الله عز وجل: ابن آدم أتني تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك وعدلتك، ومشيت بين بردين، والأرض منك وتيد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أتصدق، وأني أوان الصدقة؟» وقيل: معناه إنا خلقناهم من أجل ما يعلمون وهو الأمر والنهي والثواب والعقاب. وقيل: (ما) بمعنى (من)، مجازة: إنا خلقناهم ممن يعلمون ويعقلون لا كالبهائم.

يُلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُوفُضُونَ ﴿٤٨﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٩﴾

﴿فلا أقسم﴾ يعني وأقسم وقد تقدم بيانه ﴿برب المشارق والمغارب﴾ يعني مشرق كل يوم من السنة ومغربه . وقيل يعني مشرق كل نجم ومغربه ﴿إننا لقادرون على أن نبدل خيراً منهم﴾ معناه إننا لقادرون على إهلاكهم وعلى أن نخلق أمثلاً منهم وأطوع لله ﴿وما نحن بمسبوقين﴾ أي بمغلوبين عاجزين عن إهلاككم وإبدالكم بمن هو خير منكم ﴿فذرهم يخوضوا﴾ أي في أباطيلهم ﴿ويلعبوا﴾ في دنياهم ﴿حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾ نسختها آية القتال ثم فسر ذلك فقال تعالى: ﴿يوم يخرجون من الأجداث﴾ يعني القبور ﴿سراعاً﴾ أي إلى إجابة الداعي ﴿كانهم إلى نصب﴾ يعني إلى شيء منصوب كالعلم والراية ونحوه . وقرئ بضم النون والصاد وهي الأصنام التي كانوا يعبدونها ﴿يوفضون﴾ أي يسرعون ومعنى الآية أنهم يخرجون من الأجداث يسرعون إلى الداعي مستبقين إليه كما كانوا يستبقون إلى نصبهم ليستلموها ﴿خاشعة أبصارهم﴾ أي ذليلة خاضعة ﴿ترهقهم ذلة﴾ أي يغشاهم هوان ﴿ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون﴾ يعني يوم القيامة الذي كانوا يوعدون به في الدنيا، والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿فلا أقسم ربَّ المشارق والمغارب﴾، يعني مشرق كل يوم من السنة ومغربه، ﴿إننا لقادرون * على أن نبدل خيراً منهم﴾، على أن نخلق أمثلاً منهم وأطوع لله، ﴿وما نحن بمسبوقين﴾ .
﴿فذرهم يخوضوا﴾، في باطلهم، ﴿ويلعبوا﴾، في دنياهم، ﴿حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾، نسختها آية القتال .

﴿يوم يخرجون من الأجداث﴾، أي القبور، ﴿سراعاً﴾، إلى إجابة الداعي، ﴿كانهم إلى نصب﴾، قرأ ابن عامر وحفص ﴿نصب﴾، بضم النون والصاد، وقرأ الآخرون بفتح النون وسكون الصاد، يعنون إلى شيء منصوب، يقال: فلان نُصِبَ عيني . وقال الكلبي: إلى علم ودراية . ومن قرأ بالضم . قال مقاتل والكسائي: يعني إلى أوثانهم التي كانوا يعبدونها من دون الله . قال الحسن: يسرعون إليها أيهم يستلمها أولاً . ﴿يوفضون﴾، أي يسرعون .

﴿خاشعة﴾، ذليلة خاضعة ﴿أبصارهم ترهقهم ذلة﴾، يغشاهم هوان، ﴿ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون﴾، يعني يوم القيامة .

سورة نوح

مكية وهي ثمان وعشرون آية ومائتان وأربعة وعشرون كلمة وتسعمائة وتسعة وتسعون حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَذِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَاعَهُمْ فِي أَذَانِهِمْ وَأَسْتَفْسَهُوا بِثَابَتِهِمْ وَأَصْرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ﴿٨﴾

قوله عز وجل: ﴿إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك﴾ أي بأن خوف قومك وحذرهم ﴿من قبل أن يأتيهم عذاب أليم﴾ يعني الغرق بالطوفان والمعنى إنا أرسلناه لينذرهم بالعذاب إن لم يؤمنوا ﴿قال يا قوم إني لكم نذير مبين﴾ أي أنذرهم وأبين لكم ﴿أن اعبدوا الله﴾ أي وحدوه ولا تشركوا به شيئاً ﴿واتقوه﴾ أي وخافوه بأن تحفظوا أنفسكم مما يؤثمكم ﴿وأطيعوا﴾ أي فيما أمركم به من عبادة الله وتقواه ﴿يغفر لكم من ذنوبكم﴾ أي يغفر لكم ذنوبكم. ومن صلة وقيل يغفر لكم ما سلف من ذنوبكم إلى وقت الإيمان وذلك بعض الذنوب ﴿ويؤخركم إلى أجل مسمى﴾ أي إلى منتهى آجالكم فلا يعاقبكم ﴿إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون﴾، معناه يقول آمنوا قبل الموت تسلموا من العذاب فإن أجل الله وهو الموت إذا جاء لا يؤخر، قال الزمخشري إن قلت كيف قال ويؤخركم مع الإخبار بامتناع تأخير الأجل وهل هذا إلى تناقض قلت قضى مثلاً أن قوم نوح إن آمنوا عمرهم ألف سنة وإن بقوا على كفرهم أهلكهم

سورة نوح

مكية وهي ثمان وعشرون آية.

﴿إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك﴾، بأن أنذر قومك، ﴿من قبل أن يأتيهم عذاب أليم﴾، المعنى: إنا أرسلناه لينذرهم بالعذاب إن لم يؤمنوا.

﴿قال يا قوم إني لكم نذير مبين﴾، أنذرهم وأبين لكم.

﴿أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعوا﴾ يغفر لكم من ذنوبكم، ﴿من﴾ صلة أي يغفر لكم ذنوبكم. وقيل: يعني ما سلف من ذنوبكم إلى وقت الإيمان، وذلك بعض ذنوبهم، ﴿ويؤخركم إلى أجل مسمى﴾، أن يعافيك إلى منتهى آجالكم فلا يعاقبكم، ﴿إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون﴾، يقول آمنوا قبل الموت، تسلموا من العذاب، فإن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ولا يمكنكم الإيمان.

على رأس تسعمائة سنة فقليل لهم آمنوا يؤخركم إلى أجل مسمى أي إلى وقت سماه الله وضربه أمداً تنتهون إليه لا تتجاوزونه وهو الوقت الأطول تمام الألف . ثم أخبر أنه إذا جاء ذلك الأجل لا يؤخر كما يؤخر هذا الوقت ولم تكن حيلة فبادروا في أوقات الإمهال والتأخير عنكم وحيث يمكنكم الإيمان ، ﴿قال﴾ يعني نوحاً عليه الصلاة والسلام ﴿رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدتهم دعائي إلا فراراً﴾ أي نفاراً وإدباراً عن الإيمان ﴿وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم﴾ أي ليؤمنوا بك فتغفر لهم ﴿جعلوا أصابعهم في آذانهم﴾ لئلا يسمعوا دعوتي ﴿واستغشوا ثيابهم﴾ أي غطوا وجوههم بثيابهم لئلا يرون ﴿وأصروا﴾ على كفرهم ﴿واستكبروا﴾ عن الإيمان بك ﴿استكباراً﴾ أي تكبراً عظيماً ﴿ثم إني دعوتهم جهاراً﴾ أي معلناً قال ابن عباس بأعلى صوتي .

ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾

﴿ثم إني أعلنت لهم﴾ أي كررت لهم الدعاء معلناً ﴿وأسررت لهم إسراراً﴾ قال ابن عباس يريد الرجل بعد الرجل أكلمه سرّاً بيني وبينه أذعه إلى عبادتك وتوحيديك ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ وذلك أن قوم نوح لما كذبوه زماناً طويلاً حبس الله عنهم المطر وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة فهلك أموالهم ومواشيهم فقال لهم استغفروا ربكم أي من الشرك واطلبوا المغفرة بالتوحيد حتى يفتح عليكم أبواب نعمه وذلك لأن الاشتغال بالطاعة يكون سبباً لاتساع الخير والرزق .

وأن الكفر سبب لهلاك الدنيا فإذا اشتغلوا بالإيمان والطاعة حصل ما يحتاجون إليه في الدنيا . وروى الشعبي أن

﴿قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً﴾ فلم يزدتهم دعائي إلا فراراً ، نفاراً وإدباراً عن الإيمان .

﴿وإني كلما دعوتهم﴾ ، إلى الإيمان بك ، ﴿لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم﴾ ، لئلا يسمعوا دعوتي ، ﴿واستغشوا ثيابهم﴾ ، غطوا بها وجوههم لئلا يروني ، ﴿وأصروا﴾ ، على كفرهم . ﴿واستكبروا﴾ ، عن الإيمان بك ، ﴿استكباراً﴾ .

﴿ثم إني دعوتهم جهاراً﴾ ، معناه : بالدعاء . قال ابن عباس : بأعلى صوتي .

﴿ثم إني أعلنت لهم﴾ ، أي كررت الدعاء معلناً ، ﴿وأسررت لهم إسراراً﴾ ، قال ابن عباس : يريد الرجل بعد الرجل أكلمه سرّاً بيني وبينه ، أذعه إلى عبادتك وتوحيديك .

﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً﴾ يرسل السماء عليكم مدراراً ، وذلك أن قوم نوح لما كذبوه زماناً طويلاً حبس الله عنهم المطر وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة ، فهلك أولادهم وأموالهم ومواشيهم ، فقال لهم نوح : استغفروا ربكم من الشرك ، أي استدعوا المغفرة بالتوحيد ، يرسل السماء عليكم مدراراً . وروى مطرف عن الشعبي أن عمر رضي الله تعالى عنه خرج يستسقي بالناس ، فلم يزد على الاستغفار حتى رجع ، فقليل له : ما سمعناك استسقيت؟ فقال : طلبت الغيث بمجاديح السماء التي يستنزل بها القطر ، ثم قرأ : ﴿استغفروا ربكم إنه كان غفاراً﴾ يرسل السماء عليكم مدراراً .

عمر بن الخطاب خرج يستسقي بالناس فلم يزد على الاستغفار حتى يرجع فقبل له ما سمعناك استسقيت فقال طلبت الغيث بمجاديح السماء التي يستنزل بها القطر ثم قرأ ﴿استغفروا ربكم إنه كان غفاراً﴾ الآية قوله بمجاديح السماء واحدها مجدح وهو نجم من النجوم. وقيل هو الدبران وقيل هي ثلاثة كواكب كالأثافي تشبيهاً بالمجدح الذي له شعب وهي عند العرب من الأنواء الدالة على المطر فجعل عمر الاستغفار مشبهاً بالأنواء مخاطبة لهم بما يعرفون وكانوا يزعمون أن من شأنها المطر لا أنه يقول بالأنواء.

وعن بكر بن عبد الله أن أكثر الناس ذنباً أقلهم استغفاراً وأكثرهم استغفاراً أقلهم ذنباً. وعن الحسن أن رجلاً شكاً إليه الجذب فقال له استغفر الله وشكاً آخر إليه الفقر وقلة النسل وآخر قلة ريع أرضه فأمرهم كلهم بالاستغفار فقال له الربيع بن صبيح أذاك رجال يشكون أنواعاً فأمرتهم كلهم بالاستغفار؟ فلا هذه الآية وقوله يرسل السماء عليكم أي يرسل ماء السماء وذلك لأن ماء المطر ينزل من السماء إلى السحاب ثم ينزل من السحاب إلى الأرض. وقيل أراد بالسماء السحاب، وقيل أراد بالسماء المطر من قول الشاعر

إذا نزل السماء بأرض قوم فحلوا حيثماً نزل السماء

يعني المطر مدراراً أي كثير الدر وهو حلب الشاة حالاً بعد حال. وقيل مدراراً أي متتابعاً ﴿ويمدكم بأموال وبنين﴾ أي يكثر أموالكم وأولادكم ﴿ويجعل لكم جنات﴾ أي البساتين ﴿ويجعل لكم أنهاراً﴾ وهذا كله مما يميل طبع البشرية إليه ﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً﴾ قال ابن عباس أي لا ترون لله عظمة. وقيل معناه لا تخافون عظمته فالرجاء بمعنى الخوف، والوقار العظمة من التوقير وهو التعظيم. وقيل التعظيم وقيل معناه ما لكم لا تعرفون لله حقاً ولا تشكرون له نعمة وقيل معناه ما لكم لا ترجون في عبادة الله أن يثيبكم على توقيركم إياه خيراً ﴿وقد خلقكم أطواراً﴾ يعني تارة بعد تارة وحالاً بعد حال نطفة ثم علقه ثم مضغة إلى تمام الخلق. وقيل معناه خلقكم أصنافاً مختلفين لا يشبه بعضهم بعضاً وهذا مما يدل على وحدانية الله وسعة قدرته ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً﴾ أي بعضها فوق بعض.

﴿وجعل القمر فيهن نوراً﴾ يعني في سماء الدنيا وقوله فيهن هو كما يقال أتيت بني تميم وإنما أتى رجلاً منهم ﴿وجعل الشمس سراجاً﴾ يعني مصباحاً مضيئة. قال عبد الله بن عمرو إن الشمس والقمر وجوههما إلى السموات وضوء الشمس والقمر فيهن جميعاً وأقفيتهما إلى الأرض ويروى هذا عن ابن عباس أيضاً، ﴿والله أنبتكم من الأرض

﴿ويمدكم بأموال وبنين﴾، قال عطاء: يكثر أموالكم وأولادكم، ﴿ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾ ما لكم لا ترجون لله وقاراً، قال ابن عباس ومجاهد: لا ترون لله عظمة. وقال سعيد بن جبير: ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته. وقال الكلبي: لا تخافون الله حق عظمته. والرجاء: بمعنى الخوف، والوقار: العظمة، اسم من التوقير وهو التعظيم. قال الحسن: لا تعرفون لله حقاً ولا تشكرون له نعمة. قال ابن كيسان: ما لكم لا ترجون في عبادة الله أن يثيبكم على توقيركم إياه خيراً.

﴿وقد خلقكم أطواراً﴾، تارات، حال بعد حال، نطفة ثم علقه ثم مضغة إلى تمام الخلق.

﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً﴾ وجعل القمر فيهن نوراً، قال الحسن: يعني في السماء الدنيا، كما يقال أتيت بني تميم وإنما أتى بعضهم، وفلان متوارٍ في دور بني فلان وهو دار واحدة. وقال عبد الله بن عمرو: إن الشمس والقمر وجوههما إلى السموات وضوء الشمس ونور القمر فيهن وأقفيتهما إلى الأرض. ويروى هذا عن ابن عباس.

نباتاً ﴿ أراد مبدأ خلق آدم وأصل خلقه من الأرض والناس كلهم من ولده وقوله نباتاً اسم جعل في موضع المصدر أي إنباتاً. وقيل تقديره أنبتكم فنبتم نباتاً وفيه دققة لطيفة وهي أنه لو قال أنبتكم إنباتاً كان المعنى أنبتكم إنباتاً عجيباً غريباً ولما قال أنبتكم نباتاً كان المعنى أنبتكم نباتاً عجيباً وهذا الثاني أولى لأن الانبات صفة الله تعالى وصفة الله تعالى غير محسوسة لنا فلا يعرف أن ذلك الانبات إنبات عجيب كامل إلا بواسطة إخبار الله تعالى وهذا المقام مقام الاستدلال على كمال قدرة الله تعالى فكان هذا موافقاً لهذا المقام فظهر بهذا أن العدول عن تلك الحقيقة إلى هذا المجاز كان لهذا السر اللطيف.

ثُمَّ يَعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكْرُؤًا مَكْرًا كَبِيرًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾

﴿ثم يعيدكم فيها﴾ أي في الأرض بعد الموت ﴿ويخرجكم﴾ أي منها يوم البعث ﴿إخراجاً﴾ يعني إخراجاً حقاً لا محالة ﴿والله جعل لكم الأرض بساطاً﴾ أي فرشها لكم مبسوطة تتقلبون عليها كما يتقلب الرجل على بساطه ﴿لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً﴾ أي طرقاً واسعة.

قوله تعالى: ﴿قال نوح رب إنهم عصوني﴾ أي لم يجيبوا دعوتي ﴿واتبعوا من لم يزد ماله وولده إلا خساراً﴾ يعني اتبع السفلة والفقراء والقادة والرؤساء الذين لم تزد ماله وولده إلا ضللاً في الدنيا وعقوبة في الآخرة ﴿ومكروا مكراً كبراً﴾ يعني كبيراً عظيماً يقال كبيراً وكباراً بالتشديد والتخفيف والتشديد أشد وأعظم في المبالغة والماكرون هم الرؤساء والقادة ومكرهم احتيالهم في الدين وكيدهم لنوح عليه الصلاة والسلام وتحريش السفلة على آذاه وصد الناس عن الإيمان به والميل إليه والاستماع منه. وقيل مكرهم هو قولهم لا تذر آلهم وتعبداً إله نوح،

﴿وجعل الشمس سراجاً﴾، مصباحاً مضيئاً.

﴿والله أنبتكم من الأرض نباتاً﴾، أراد مبدأ خلق أبي البشر آدم خلقه من الأرض، والناس ولده، قوله: ﴿نباتاً﴾ اسم جعل في موضع المصدر أي نباتاً، قال الخليل: مجازة فنبتم نباتاً.

﴿ثم يعيدكم فيها﴾، بعد الموت، ﴿ويخرجكم﴾، منها يوم البعث أحياء، ﴿إخراجاً﴾.

﴿والله جعل لكم الأرض بساطاً﴾، فرشها وبسطها لكم.

﴿لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً﴾، طرقاً واسعة.

﴿قال نوح رب إنهم عصوني﴾، يعني لم يجيبوا دعوتي، ﴿واتبعوا من لم يزد ماله وولده إلا خساراً﴾، يعني اتبع السفلة والفقراء والقادة والرؤساء الذين هم لم يزد ماله وولده إلا ضللاً في الدنيا وعقوبة في الآخرة.

﴿ومكروا مكراً كبراً﴾، أي كبيراً عظيماً، يقال: كبير وكبار، بالتخفيف، وكبار بالتشديد، شدة للمبالغة، وكلها بمعنى واحد كما يقال: أمر عجيب وعجاب وعجاب بالتشديد أشد في المبالغة، واختلفوا في مكرهم. قال ابن عباس: قالوا قولاً عظيماً. قال الضحاك: افترأوا على الله وكذبوا رسله. وقيل منع الرؤساء أتباعهم عن الإيمان بنوح وحرشهم على قتله.

وقال ابن عباس في مكرهم قالوا قولاً عظيماً. وقيل افتروا على الله الكذب وكذبوا رسله ﴿وقالوا﴾ يعني القادة للأتباع ﴿لا تذرنا آلهتكم﴾ أي لا تترك عبادتها ﴿ولا تذرنا ودّاً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً﴾ هذه أسماء آلهتهم وإنما أفرد بالذكر وإن كانت داخله في جملة قوله لا تذرنا آلهتكم لأنهم كانت لهم أصنام هذه الخمسة المذكورة هي أعظمها عندهم. قال محمد بن كعب هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح فلما ماتوا كان أتباعهم يقتدون بهم ويأخذون بعدهم بأخذهم في العبادة فجاءهم إبليس وقال لهم: لو صورتم صورهم كان ذلك أنشط لكم وأشوق إلى العبادة ففعلوا ذلك ثم نشأ قوم بعدهم فقال لهم إبليس إن الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم. فابتداء عبادة الأوثان كان من ذلك وسميت تلك الصور بهذه الأسماء لأنهم صوروها على صورة أولئك القوم الصالحين من المسلمين، (خ) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: صارت الأوثان التي كانت تعبد قوم نوح في العرب بعد. أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد ثم صارت لبني غطفان بالجرف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع. وروى سفيان عن موسى عن محمد بن قيس في قوله ولا تذرنا ودّاً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً، قال كانت أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى هلك أولئك ونسخ العلم فعبدت الأوثان، وروي عن ابن عباس أن تلك الأوثان دفنها الطوفان وطمها التراب فلم تزل مدفونة حتى أخرجها الشيطان لمشركي العرب، وكانت للعرب أصنام آخر فاللات كانت لثقيف والعزى لسليم وغطفان وجشم، ومناة كانت لخزاعة بقديد وإساف ونائلة وهبل كانت لأهل مكة. ولذلك سمت العرب أنفسهم بعدد ود وعبد يغوث وعبد العزى ونحو ذلك من الأسماء.

وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُعْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَكَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا

﴿وقالوا﴾، لهم ﴿لا تذرنا آلهتكم﴾، أي عبادتها، ﴿ولا تذرنا ودّاً﴾، قرأ أهل المدينة بضم الواو والباقون بفتحها، ﴿ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً﴾، هذه أسماء آلهتهم. قال محمد بن كعب: هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح، فلما ماتوا كان لهم أتباع يقتدون بهم ويأخذون بعدهم مأخذهم في العبادة فجاءهم إبليس وقال لهم: لو صورتم صورهم كان أنشط لكم وأشوق إلى العبادة، ففعلوا ثم نشأ قوم بعدهم فقال لهم إبليس: إن الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم فعبدوهم، فابتداء عبادة الأوثان كان من ذلك وسميت تلك الصور بهذه الأسماء لأنهم صوروها على صور أولئك القوم من المسلمين. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا إبراهيم بن موسى ثنا هشام عن ابن جريج وقال عطاء عن ابن عباس: صارت الأوثان التي كانت تعبد في قوم نوح في العرب بعده، أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطفان بالجرف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع. وهذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبّدت. وروى عن ابن عباس: أن تلك الأوثان دفنها الطوفان وطمها التراب، فلم تزل مدفونة حتى أخرجها الشيطان لمشركي العرب، وكانت للعرب أصنام أخر، فاللات كانت لثقيف، والعزى لسليم وغطفان وجشم، ومناة لقديد، وإساف ونائلة وهبل لأهل مكة.

فَاجْرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا
نَبَارًا ﴿٢٨﴾

﴿وقد أضلوا كثيراً﴾ أي ضل بسبب الأصنام كثير من الناس . وقيل أضل كبراء قوم نوح كثيراً من الناس ﴿ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً﴾ يعني ولا تزد المشركين بعبادتهم الأصنام إلا ضلالاً وهذا دعاء عليهم وذلك أن نوحاً عليه السلام كان قد امتلأ قلبه غضباً وغيظاً عليهم فدعا عليهم .

فإن قلت كيف يليق بمنصب النبوة أن يدعو بمزيد الضلال وإنما بعث ليصرفهم عنه .

قلت إنما دعا عليهم بعد أن أعلمه الله أنهم لا يؤمنون وهو قوله تعالى : ﴿إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾ وقيل إنما أراد بالضلال في أمر الدنيا وما يتعلق بها لا في أمر الآخرة ﴿مما خطيئاتهم أغرقوا﴾ أي بالطوفان ﴿فأدخلوا ناراً﴾ أي في حالة واحدة وذلك في الدنيا كانوا يغرقون من جانب ويحترقون من جانب . واستدل بعضهم بهذه الآية على صحة عذاب القبر وذلك لأن الفاء تقتضي التعقيب في قوله تعالى أغرقوا فأدخلوا ناراً، وهذا يدل على أنه إنما حصل دخول النار عقب الإغراق ولا يمكن حمله على عذاب الآخرة لأنه يبطل دلالة الفاء، وقيل معناه أنهم سيدخلون ناراً في الآخرة فعبر عن المستقبل بلفظ الماضي لصدق الوعد في ذلك والأول أصح ﴿فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً﴾ يعني تنصرهم وتمنعهم من العذاب الذي نزل بهم ﴿وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ يعني أحد يدور في الأرض فيذهب ويجيء من الدوران . وقيل أصله من الدار أي نازل دار ﴿إنك إن تذرهم يضلوا عبادك﴾ قال ابن عباس وغيره كان الرجل ينطلق بابنه إلى نوح فيقول له احذر هذا فإنه كذاب وإن أبي حذرنه، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك ﴿ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾ إنما قال نوح هذا حين أخرج الله كل مؤمن من أصلابهم وأرحام نسائهم وأعقم بعد ذلك أرحام النساء وأبیس أصلاب الرجال وذلك قبل نزول العذاب بأربعين سنة . وقيل بسبعين سنة وأخبر الله نوحاً أنهم لا يؤمنون ولا يلدون مؤمناً فحينئذ دعا عليهم فأجاب الله دعوته فأهلكهم جميعاً

﴿وقد أضلوا كثيراً﴾، أي ضل بسبب الأصنام كثير من الناس كقوله عز وجل : ﴿رب إنهن أضللن كثيراً من الناس﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وقال مقاتل : أضل كبرائهم كثيراً من الناس . ﴿ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً﴾، هذا دعاء عليهم بعدما أعلم الله نوحاً أنهم لا يؤمنون، وهو قوله : ﴿أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾ [هود: ٣٦] .

﴿مما خطيئاتهم﴾، أي من خطيئاتهم، و(ما) صلة، وقرأ أبو عمرو (خطاياهم) وكلاهما جمع خطيئة، ﴿أغرقوا﴾، بالطوفان، ﴿فأدخلوا ناراً﴾، قال الضحاك هي في حالة واحدة في الدنيا يغرقون من جانب ويحترقون من جانب، وقال مقاتل : فأدخلوا ناراً في الآخرة، ﴿فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً﴾، لم يجدوا أحداً يمنعهم من عذاب الله الواحد القهار .

﴿وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾، أحداً يدور في الأرض فيذهب ويجيء من الدوران، وقال القتيبي : إن أصله من الدار أي نازل دار .

﴿إنك إن تذرهم يضلوا عبادك﴾، قال ابن عباس والكلبي ومقاتل : كان الرجل ينطلق بابنه إلى نوح فيقول احذر هذا فإنه كذاب وإن أبي حذرنه فيموت الكبير وينشأ الصغير عليه، ﴿ولا يلد إلا فاجراً كفاراً﴾، قال محمد بن كعب ومقاتل والربيع وغيرهم : إنما قال نوح هذا حين أخرج الله كل مؤمن من أصلابهم وأرحام نسائهم

ولم يكن معهم صبي وقت العذاب لأن الله تعالى أعظمهم قبل العذاب ﴿رب اغفر لي﴾ وذلك أنه لما دعا على الكفار قال رب اغفر لي يعني ما صدر مني من ترك الأفضل، وقيل يحتمل أنه لما دعا على الكفار قال رب اغفر لي يعني ما صدر مني من ترك الأفضل. وقيل يحتمل أنه حين دعا على الكفار أنه إنما دعا عليهم بسبب تأذيه منهم فكان ذلك الدعاء عليهم كالانتقام منهم فاستغفر من ذلك لما فيه من طلب حظ النفس أو لأنه ترك الاحتمال. ﴿ولوالدي﴾ وكان اسم أبيه ملك بن متوشلخ واسم أمه سمحاء بنت أنوش وكانا مؤمنين وقيل لم يكن بين آدم ونوح عليهما السلام من آبائه كافر وكان بينهما عشرة آباء ﴿ولمن دخل بيتي مؤمناً﴾ أي داري وقيل مسجدي وقيل سفيتي ﴿وللمؤمنين والمؤمنات﴾ وهذا عام في كل مؤمن آمن بالله وصدق الرسل، وإنما بدأ بنفسه لأنها أولى بالتخصيص والتقديم ثم ثنى بالمتصلين به لأنهم أحق بدعائه من غيرهم ثم عمم جميع المؤمنين والمؤمنات ليكون ذلك أبلغ في الدعاء، ﴿ولا تزد الظالمين إلا تباراً﴾ أي هلاكاً ودماراً فاستجاب الله تعالى دعاءه فأهلكهم جميعاً والله أعلم.

وأعقم أرحام نسائهم وأيس أصلاب رجالهم قبل العذاب بأربعين سنة. وقيل: سبعين سنة وأخبر الله نوحاً أنهم لا يؤمنون ولا يلدون مؤمناً فحينئذ دعا عليهم نوح فأجاب الله دعاءه، وأهلكهم كلهم ولم يكن فيهم صبي وقت العذاب لأن الله تعالى قال: ﴿وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم﴾ [الفرقان: ٣٧]، ولم يوجد التكذيب من الأطفال. ﴿رب اغفر لي ولوالدي﴾، واسم أبيه لمك بن متوشلخ واسم أمه سمحاء بنت أنوش وكانا مؤمنين، ﴿ولمن دخل بيتي﴾، داري ﴿مؤمناً﴾، وقال الضحاك والكلبي: مسجدي. وقيل: سفيتي. ﴿وللمؤمنين والمؤمنات﴾، هذا عام في كل من آمن بالله وملائكته وصدق الرسل، ﴿ولا تزد الظالمين إلا تباراً﴾، هلاكاً ودماراً فاستجاب الله دعاءه فأهلكهم.

سورة الجن

وهي ثمان وعشرون آية ومائتان وخمسة وثمانون كلمة وثمانمائة وسبعون حرفاً.

لَيْسَ مِنَ اللَّهِ الرَّخَمُونَ إِلَّا الرَّخِيمُ

قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانَا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ

يَرْبِنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنْتُمْ كَانْتُمْ يَقُولُونَ سَفِينُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾

قوله عز وجل: ﴿قُلْ أُوْحِي إِلَى أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ اختلف الناس قديماً وحديثاً في ثبوت وجود الجن فأنكر وجودهم معظم الفلاسفة، واعترف بوجودهم جمع منهم وسموهم بالأرواح السفلية، وزعموا أنهم أسرع إجابة من الأرواح الفلكية إلا أنهم أضعف. وأما جمهور أرباب الملل وهم أتباع الرسل والشرائع فقد اعترفوا بوجود الجن لكن اختلفوا في ماهيتهم، ف قيل الجن حيوان هوائي يتشكل بأشكال مختلفة، وقيل إنها جواهر وليست بأجسام ولا أعراض ثم هذه الجواهر أنواع مختلفة بالماهية فبعضها خيرة كريمة محبة للخيرات وبعضها دنيئة خسيسة شريرة محبة للشرور والآفات ولا يعلم عدة أنواعهم إلا الله تعالى، وقيل إنهم أجسام مختلفة الماهية لكن تجمعهم صفة واحدة وهي كونهم حاصلون في الحيز موصوفون بالطول والعرض والعمق، وينقسمون إلى لطيف وكثيف وعلوي وسفلي ولا يمتنع في بعض الأجسام اللطيفة الهوائية أن تكون مخالفة لسائر أنواع الأجسام في الماهية وأن يكون لها علم مخصوص وقدرة مخصوصة على أفعال عجبية أو شاقة يعجز البشر عن مثلها. وقد يتشكلون بأشكال مختلفة وذلك بإقدار الله تعالى إياهم على ذلك، وقيل إن الأجسام متساوية في تمام الماهية وليست البنية شرطاً للحياة وهذا قول الأشعرى وجمهور أتباعه، وشذ تأويل المعتزلة من هذه الأمة فأنكروا وجود الجن وقالوا البنية شرط للحياة وإنه لا بد من صلابة البنية حتى يكون قادراً على الأفعال الشاقة، وهذا قول منكر وصاحب هذا القول ينكر خرق العادات ورد ما ثبت وجوده بنص الكتاب والسنة.

(فصل)

اختلف الرواة هل رأى النبي ﷺ الجن فأثبتها ابن مسعود فيما رواه عنه مسلم في صحيحه وقد تقدم حديثه في

سُورَةُ الْجِنِّ

مَكِّيَّةٌ وَهِيَ ثَمَانٍ وَعِشْرُونَ آيَةً.

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنَّ﴾، وكانوا تسعة من جنّ نصيين. وقيل: سبعة، استمعوا قراءة

النبي ﷺ ذكرنا خبرهم في سورة الأحقاف [٢٩]. ﴿فَقَالُوا﴾، لِمَا رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قِرَاءَانَ عَجَبًا﴾، قال ابن عباس: بليغاً أى قرأناً ذا عجب يُعْجِبُ منه لبلاغته.

تفسير سورة الأحقاف عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ﴾ وأنكرها ابن عباس فيما رواه عنه البخاري ومسلم. قال ابن عباس «ما قرأ رسول الله ﷺ عن الجن ولا رآهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسل عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا ما لكم فقيل حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب؟ قالوا وما ذاك إلا من شيء قد حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء. فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة بالنبي ﷺ وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء فرجعوا إلى قومهم فقالوا ﴿يَا قَوْمْنَا إِنَّا سَمِعْنَا قرآنًا عجبًا يهدي إلى الرشد فآمنّا به ولن نشرك بربنا أحدا﴾ فأنزل الله تعالى على نبيه ﴿قل أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن﴾ زاد في رواية «وإنما أوحى إليه قول الجن» أخرجه في الصحيحين، قال القرطبي في شرح مسلم في حديث ابن عباس هذا معناه أنه لم يقصدهم بالقراءة بل لما تفرقوا يطلبون الخبر الذي حال بينهم وبين استراق السمع، صادف هؤلاء النفر رسول الله ﷺ يصلي بأصحابه وعلى هذا فهو ﷺ لم يعلم باستماعهم ولم يكلمهم وإنما أعلمه الله عز وجل بما أوحى إليه من قوله قل أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن وأما حديث ابن مسعود فقضية أخرى وجن آخرون.

والحاصل من الكتاب والسنة العلم القطعي بأن الجن والشياطين موجودون متعبدون بالأحكام الشرعية على النحو الذي يليق بخلقهم وبحالهم، وأن النبي ﷺ رسول إلى الإنس والجن فمن دخل في دينه فهو من المؤمنين ومعهم في الدنيا والآخرة والجنة، ومن كفر به فهو من الشياطين المبعدين المعذبين فيها والنار مستقره. وهذا الحديث يقتضي أن الجسم بالنجوم ولم يكن قبل المبعث. وذهب قوم إلى أنه كان قبل مبعثه وآخرون إلى أنه كان لكن زاد بهذا المبعث وبهذا القول يرتفع التعارض بين الحديثين هذا آخر كلام القرطبي والله أعلم.

عكاظ سويقة معروفة بقرب مكة كان العرب يقصدونها في كل سنة مرة في الجاهلية وأول الإسلام وتهامة كل ما نزل عن نجد من بلاد الحجاز سميت تهامة لتغير هوائها. ومكة من تهامة معدودة ونخلة واد من أودية مكة قريب منها.

وأما التفسير فقوله سبحانه وتعالى: ﴿قل أوحى إليّ﴾ أمر الله نبيه ﷺ أن يظهر لأصحابه واقعة الجن وكما أنه مبعوث إلى الإنس فهو أيضاً مبعوث إلى الجن لتعلم قريش أن الجن مع تمردهم لما سمعوا القرآن عرفوا إعجازه فآمنوا به وقوله استمع نفر من الجن النفر ما بين الثلاثة إلى العشرة قيل كانوا تسعة من جن نصيبين. وقيل سبعة سمعوا قراءة النبي ﷺ ﴿فقالوا﴾ أي لما رجعوا إلى قومهم، ﴿إنا سمعنا قرآنًا عجبًا﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما بليغاً أي ذا عجب يعجب منه لبلاغته وفصاحته ﴿يهدي إلى الرشد﴾ أي يدعو إلى الصواب يعني التوحيد والإيمان ﴿فآمنّا به﴾ أي بالقرآن ﴿ولن نشرك بربنا أحدا﴾ أي ولن نعود إلى ما كنا عليه من الشرك. وفيه دليل على أن أولئك النفر كانوا مشركين قيل كانوا يهوداً وقيل كانوا نصارى وقيل كانوا مجوساً ومشركين ﴿وأنه تعالى جد ربنا﴾ أي جلال ربنا وعظمته، ومنه قول أنس «كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا» أي عظم قدره وقيل الجد الغنى. ومنه الحديث

﴿يهدي إلى الرشد﴾، يدعو إلى الصواب من التوحيد والإيمان، ﴿فآمنّا به ولن نشرك بربنا أحدا﴾.

﴿وأنه تعالى جد ربنا﴾، قرأ أهل الشام والكوفة غير أبي بكر عن عاصم ﴿وأنه تعالى﴾ بفتح الهمزة وكذلك ما بعده إلى قوله: ﴿وإنّا منّا المسلمون﴾، وقرأ الآخرون بكسره وفتح أبو جعفر منها ﴿وأنه﴾ وهو ما كان مردوداً على الوحي، وكسر ما كان حكاية عن الجن، والاختيار كسر الكل لأنه من قول الجن لقومهم، فهو معطوف على قوله: ﴿فقالوا إِنّا سمعنا قرآنًا عجبًا﴾، وقالوا: ﴿وأنه تعالى﴾ ومن فتح على قوله: ﴿فآمنّا به﴾ وآمنّا بكل ذلك، ففتح (أن) لوقوع الإيمان عليه، ﴿جد ربنا﴾ جلال ربنا وعظمته، قاله مجاهد وعكرمة وقتادة، يقال: جد

«ولا ينفع ذا الجد منك الجد» أي لا ينفع ذا الغنى غناه. وقال ابن عباس عظمت قدرة ربنا وقيل أمر ربنا وقيل فعله وقيل آلاؤه ونعمائؤه على خلقه وقيل علا ملك ربنا ﴿ما اتخذ صاحبة ولا ولدًا﴾ أي أنه تعالى جلال ربنا وعظمته عن أن يتخذ صاحبة أو ولدًا لأن صاحبة تتخذ للحاجة والولد للاستئناس به والله تعالى منزّه عن كل نقص ﴿وأنه كان يقول سفيهاً﴾ يعني جاهلنا قيل هو إبليس ﴿على الله شططاً﴾ أي كذباً وعدواناً وهو وصفه تعالى بالشريك والولد أي الشطط وهو مجاوزة الحد في كل شيء.

وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۖ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ۖ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَثِّتًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ۖ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ ۖ فَمَنْ يَسْمَعِ ۖ آلَانَ يَجِدُ لَهَا بِأَرْصَادًا ۖ

﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي كنا نظن أن الإنس والجن صادقون في قولهم إن لله صاحبة وولدًا وأنهم لا يكذبون على الله في ذلك فلما سمعنا القرآن علمنا أنهم قد كذبوا على الله.

قوله تعالى: ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن﴾ وذلك أن الرجل من العرب في الجاهلية كان إذا سافر فأمسى في أرض قفر قال أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه فبييت في أمن وجوار منهم حتى يصبح. روى البغوي بإسناد الثعلبي عن كردم بن أبي السائب الأنصاري قال خرجت مع أبي إلى المدينة في حاجة وذلك أول ما ذكر رسول الله ﷺ بمكة فأوانا المبيت إلى راعي غنم فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملًا من الغنم فوثب الراعي فقال: يا عامر الوادي جارك فنادى مناد لا نراه يا سرحان أرسله فأتى الحمل يشتد حتى دخل الغنم ولم تصبه كدمته فأنزل الله على رسوله ﷺ بمكة وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن، ﴿فزادوهم رهقاً﴾ وذكره ابن

الرجل أي عظم، ومنه قول أنس: إذا كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا، أي عظم قدره، وقال السدي: ﴿جدّ ربنا﴾ أي أمر ربنا. وقال الحسن: غنى ربنا. ومنه قيل للجد: حظ، ورجل مجدود. وقال ابن عباس: قدرة ربنا. قال الضحاك: فعله. وقال القرطبي: آلاؤه ونعمائؤه على خلقه. وقال الأخفش: علا ملك ربنا. ﴿ما اتخذ صاحبة ولا ولدًا﴾، قيل: تعالى جلاله وعظمته عن أن يتخذ صاحبة وولدًا.

﴿وأنه كان يقول سفيهاً﴾، هو إبليس، ﴿على الله شططاً﴾، كذباً وعدواناً وهو وصفه بالشريك والولد. ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا﴾، حسبنا، ﴿أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ﴾، قرأ يعقوب ﴿نقول﴾ بفتح الواو وتشديد هاء، ﴿على الله كذباً﴾، أي كنا نظنهم في قولهم إن لله صاحبة وولدًا حتى سمعنا القرآن.

قال الله: ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن﴾، وذلك أن الرجل من العرب في الجاهلية كان إذا سافر فأمسى في هذا الوادي من شرّ أرض قفر، قال: أعوذ بسيد سفهاء قومه، فبييت في أمن وجوار منهم حتى يصبح، أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا ابن فنجويه ثنا عبد الله بن يوسف بن أحمد بن مالك ثنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن إسحاق المروزي ثنا موسى بن سعيد بن النعمان بن برطوس ثنا فروة بن أبي المعز الكندي ثنا القاسم بن مالك عن عبد الرحمن بن إسحاق عن أبيه عن كردم بن أبي سائب الأنصاري قال: خرجت مع أبي إلى المدينة في حاجة وذلك أول ما ذكر رسول الله ﷺ بمكة، فأوانا المبيت إلى راعي غنم، فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملًا من الغنم، فوثب الراعي فقال: يا عامر الوادي جارك فنادى مناد لا نراه، يقول يا سرحان أرسله فأتى الحمل يشتد حتى دخل الغنم ولم تصبه كدمته، فأنزل الله عز وجل على

الجوزي في تفسيره بغير سند ومعنى الآية زاد الإنس الجن باستعاذتهم بقادتهم رهقاً، قال ابن عباس إثمًا. وقيل طغياناً وقيل غياً وقيل شراً وقيل عظمة وذلك أنهم كانوا يزدادون بهذا التعوذ طغياناً وعظمة ويقولون يعني عظماء الجن سدنا الجن والإنس. والرهق في كلام العرب الإثم وغشيان المحارم ﴿وأنهم ظنوا﴾ يعني الجن ﴿كما ظننتم﴾ أي يا معشر الكفار من الإنس ﴿أن لن يبعث الله أحداً﴾ يعني يقول الجن وأنا ﴿لمسنا السماء﴾ أي طلبنا بلوغ السماء الدنيا واستماع كلام أهلها ﴿فوجدناها ملئت حرساً﴾ يعني من الملائكة ﴿شديداً وشهباً﴾ أي من النجوم ﴿وأنا كنا نقعد منها﴾ أي من السماء ﴿مقاعد للسمع﴾ يعني كنا نجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب والآل قد ملئت المقاعد كلها ﴿فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً﴾ أي أرصد له ليرمى به. وقيل شهاباً من الكواكب ورصداً من الملائكة، عن ابن عباس قال «كان الجن يصعدون إلى السماء يستمعون الوحي فإذا سمعوا الكلمة زادوا عليها تسعاً، فأما الكلمة فتكون حقاً وأما ما زاد فيكون باطلاً. فلما بعث رسول الله ﷺ منعوا مقاعدهم فذكروا ذلك لإبليس ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك فقال لهم إبليس ما هذا إلا من أمر قد حدث في الأرض فبعث جنوده فوجدوا رسول الله ﷺ قائماً يصلي بين جبلين أراه قال بمكة فأخبروه فقال هذا الحدث في الأرض»، أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح. وقال ابن قتيبة إن الرجم كان قبل مبعث النبي ﷺ ولكن لم يكن مثل ما كان بعد مبعثه في شدة الحراسة وكانوا يسترقون في بعض الأحوال فلما بعث منعوا من ذلك أصلاً فعلى هذا القول يكون حمل الجن على الضرب في الأرض. وطلب السبب إنما كان لكثرة الرجم ومنعهم عن الاستراق بالكلية.

وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَارِقًا قَدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَنَّ لَنْ كُنْجَزَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ ءَامَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَحْسَ وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَالْوُاسِقُونَ أَلْوَ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾

﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي يرمي الشهب ﴿أم أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ ومعنى الآية لا ندري هل

رسوله ﷺ بمكة ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن﴾، ﴿فزادوهم﴾، يعني زاد الإنس والجن باستعاذتهم بقادتهم، ﴿رهقاً﴾، قال ابن عباس: إثمًا. وقال مجاهد: طغياناً. وقال مقاتل: غياً. قال الحسن: شراً. قال إبراهيم: عظمة وذلك أنهم كانوا يزدادون بهذا التعوذ طغياناً، يقولون: سدنا الجن والإنس، والرهق في كلام العرب الإثم وغشيان المحارم.

﴿وأنهم ظنوا﴾، يقول الله تعالى إن الجن ظنوا، ﴿كما ظننتم﴾، يا معشر الكفار من الإنس، ﴿أن لن يبعث الله أحداً﴾، بعد موته.

﴿وأنا﴾، يقول الجن، ﴿لمسنا السماء﴾، قال الكلبي: السماء الدنيا، ﴿فوجدناها ملئت حرساً شديداً﴾، من الملائكة ﴿وشهباً﴾، من النجوم.

﴿وأنا كنا نقعد منها﴾، من السماء، ﴿مقاعد للسمع﴾، أي كنا نستمع، ﴿فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً﴾، أرصد له ليرمى به، قال ابن قتيبة: إن الرجم كان قبل مبعث النبي ﷺ ولكن لم يكن مثل ما كان بعد مبعثه في شدة الحراسة، وكان يسترقون في بعض الأحوال، فلما بعث النبي ﷺ منعوا من ذلك أصلاً ثم قالوا: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾، يرمي الشهب، ﴿أم أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾.

المقصود من المنع من الاستراق هو شر أريد بأهل الأرض أم أريد بهم صلاح وخير ﴿وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي المؤمنون المخلصون ﴿وَمِنَا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي دون الصالحين مرتبة. قيل المراد بهم غير الكاملين في الصلاح وهم المقتصدون فيدخل فيهم الكافر وغيره ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا﴾ أي جماعات متفرقين وأصنافاً مختلفة والقدة القطعة من الشيء، قال مجاهد يعنون مسلمين وكافرين. وقيل أهواء مختلفة وشيعاً متفرقة لكل فرقة هوى كأهواء الناس وذلك أن الجن فيهم القدرية والمرجئة والرافضة والخوارج وغير ذلك من أهل الأهواء، فعلى هذا التفسير يكون معنى طرائق قدداً أي سنن طرائق قدداً وهو بيان للقسم المذكورة أي كنا ذوي مذاهب مختلفة متفرقة، وقيل معناه كنا في اختلاف أحوالنا مثل الطرائق المختلفة ﴿وَأَنَا ظَنَّا﴾ الظن هنا بمعنى العلم واليقين أي علمنا وأيقنا ﴿أَنْ لَنْ نَعْبُزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي لن نفوته إن أراد بنا أمراً ﴿وَلَنْ نَعْبُزَهُ هَرَبًا﴾ أي إن طلبنا فلن نعبزه أينما كنا ﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهَدَىٰ آمَنَّا بِهِ﴾ أي لما سمعنا القرآن آمنا به وبمحمد ﷺ ﴿فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا﴾ أي نقصاناً من عمله وثوابه ﴿وَلَا رَهَقًا﴾ يعني ظلماً وقيل مكروهاً يغشاه ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وهم الذين آمنوا بالنبي ﷺ ﴿وَمِنَا الْقَاسِطُونَ﴾ أي الجائرون العادلون عن الحق، قال ابن عباس وهم الذين جعلوا لله أنداداً ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ أي قصدوا طريق الله وتوخواه ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ﴾ يعني الذين كفروا ﴿فَكَانُوا لَـجَنَـمَ حَطَبًا﴾ يعني وقوداً للنار يوم القيامة.

فإن قلت قد يتمسك بظاهر هذه الآية من لا يرى لمؤمني الجن ثواباً وذلك لأن الله تعالى ذكر عقاب الكافرين منهم ولم يذكر ثواب المؤمنين منهم.

قلت ليس فيه تمسك له وكفى بقوله فأولئك تحروا رشداً فذكر سبب الثواب والله أعدل وأكرم من أن يعاقب القاسط ولا يثيب الراشد.

فإن قلت كيف يعذب الجن بالنار وقد خلقوا منها.

﴿وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَا دُونَ ذَلِكَ﴾، دون الصالحين، ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا﴾، أي جماعات متفرقين وأصنافاً مختلفة، والقدة: القطعة من الشيء، يقال: صار القوم قدداً إذا اختلف حالاتهم، وأصلها من القد وهو القطع، قال مجاهد: يعنون مسلمين وكافرين، وقيل: أهواء مختلفة. وقال الحسن والسدي: الجن أمثالكم فمنهم قدرية ومرجئة ورافضة. وقال ابن كيسان: شيعاً ورفقاً ولكل فرقة هوى كأهواء الناس. وقال سعيد بن جبير: ألواناً شتى. وقال أبو عبيدة: أصنافاً.

﴿وَأَنَا ظَنَّا﴾، علمنا وأيقنا، ﴿أَنْ لَنْ نَعْبُزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ﴾، أي لن نفوته إن أراد بنا أمراً، ﴿وَلَنْ نَعْبُزَهُ هَرَبًا﴾، إن طلبنا.

﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهَدَىٰ﴾، القرآن وما أتى به محمد، ﴿آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا﴾، نقصاناً من عمله وثوابه، ﴿وَلَا رَهَقًا﴾، ظمأ. وقيل: مكروهاً يغشاه.

﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، وهم الذين آمنوا بمحمد ﷺ، ﴿وَمِنَا الْقَاسِطُونَ﴾، الجائرون العادلون عن الحق. قال ابن عباس: الذين جعلوا لله ندّاً، يقال: أقسط الرجل إذا عدل فهو مقسط، وقسط إذا جار فهو قاسط. ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾، أي قصدوا طريق الحق وتوخواه.

﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ﴾، الذين كفروا، ﴿فَكَانُوا لَـجَنَـمَ حَطَبًا﴾، كانوا وقود النار يوم القيامة.

ثم رجع إلى كفار مكة فقال: ﴿وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾، اختلفوا في تأويلها، فقال قوم: لو استقاموا

قلت وإن خلقوا من النار فقد تغيروا عن تلك الهيئة وصاروا خلقاً آخر والله تعالى قادر أن يعذب النار بالنار قوله عز وجل: ﴿وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾.

اختلفوا فيمن يرجع الضمير إليه فقيل هو راجع إلى الجن الذين تقدم ذكرهم ووصفهم والمعنى لو استقام الجن على الطريقة المثلى الحسنى لأنعمنا عليهم وإنما ذكر الماء كناية عن طيب العيش وكثرة المنافع وقيل معناه لو ثبت الجن الذين سمعوا القرآن. على الطريقة التي كانوا عليها قبل استماع القرآن ولم يسلموا ﴿لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقاً﴾ أي لوسعنا الرزق عليهم.

لَنَفْتَنَّهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ، يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنْتُمْ لَكُمْ قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾

﴿لَنَفْتَنَّهُمْ فِيهِ﴾ وقيل الضمير راجع إلى الإنس وتم الخبر عن الجن ثم رجع إلى خطاب الإنس فقال تعالى: ﴿وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا﴾ يعني كفار مكة على الطريقة يعني على طريقة الحق والإيمان والهدى وكانوا مؤمنين مطيعين ﴿لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقاً﴾ يعني كثيراً وذلك بعد ما رفع عنهم المطر سبع سنين.

والمعنى لو آمنوا لوسعنا عليهم في الدنيا ولأعطيناهم ماء كثيراً وعيشاً رغداً. وإنما ذكر الماء الغدق مثلاً لأن الخير والرزق كله أصله من المطر وقوله «لَنَفْتَنَّهُمْ فِيهِ» أي لنختبرهم كيف شكرهم فيما خولوا فيه. وقيل في معنى الآية لو استقاموا أي ثبتوا على طريقة الكفر والضلالة لأعطيناهم مالاً كثيراً ولوسعنا عليهم لنفتنهم فيه عقوبة لهم واستدراباً لهم حتى يفتنوا به فعذبهم والقول الأول أصح لأن الطريقة معرفة بالآلف واللام وهي طريقة الهدى والقول بأن الآية في الإنس أولى لأن الإنس هم الذين ينتفعون بالمطر ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ﴾ أي عن عبادة ربه وقيل عن مواعظه

على طريقة الحق والإيمان والهدى فكانوا مؤمنين مطيعين، ﴿لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقاً﴾، كثيراً، قال مقاتل: وذلك بعدما رفع عنهم المطر سبع سنين. وقالوا: معناه لو آمنوا لوسعنا عليهم في الدنيا وأعطيناهم مالاً كثيراً وعيشاً رغداً، وضرب الماء الغدق مثلاً لأن الخير والرزق كله في المطر، كما قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦]، الآية. وقال: ﴿لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف: ٩٦] الآية.

وقوله تعالى: ﴿لَنَفْتَنَّهُمْ فِيهِ﴾، أي لنختبرهم كيف شكرهم فيما خولوا. وهذا قول سعيد بن المسيب وعطاء بن أبي رواح والضحاك وقتادة ومقاتل والحسن. وقال آخرون: معناها وأن لو استقاموا على طريقة الكفر والضلالة لأعطيناهم مالاً كثيراً ولوسعنا عليهم لنفتنهم فيه عقوبة لهم واستدراباً حتى يفتنوا بها فعذبهم، وهذا قول الربيع بن أنس وزيد بن أسلم والكلبي وابن كيسان، كما قال الله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤] الآية. ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ﴾، قرأ أهل الكوفة ويعقوب ﴿يَسْلُكْهُ﴾ بالياء، وقرأ الآخرون بالنون، أي ندخله، ﴿عَذَاباً صَعَدًا﴾، قال ابن عباس شاقاً، والمعنى ذا صعد أي ذا مشقة. قال قتادة: لا راحة فيه. وقال مقاتل: لا فرح فيه. قال الحسن: لا يزداد إلا شدة. والأصل فيه أن الصعود يشق على الإنسان.

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾، يعني المواضع التي بُنيت للصلاة وذكر الله، ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾، قال قتادة: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله، فأمر الله المؤمنين أن يُخلصوا لله الدعوة إذا دخلوا

﴿يسلكه﴾ أي يدخله ﴿عذاباً صعباً﴾، قال ابن عباس شاقاً وقيل عذاباً لا راحة فيه وقيل لا يزداد إلا شدة.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ يعني المواضع التي بنيت للصلاة والعبادة، وذكر الله تعالى فيدخل فيه مساجد المسلمين والكنائس والبيع التي لليهود والنصارى ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ قال قتادة كان اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله فيها فأمر الله عز وجل المؤمنين أن يخلصوا الدعوة لله إذا دخلوا المساجد كلها. وقيل أراد بالمساجد بقاع الأرض كلها لأن الأرض كلها جعلت مسجداً للنبي ﷺ فعلى هذا يكون المعنى فلا تسجدوا على الأرض لغير الله تعالى، قال سعيد بن جبير «قالت الجن للنبي ﷺ كيف لنا أن نشهد معك الصلاة ونحن نأوون عنك فنزلت وأن المساجد لله» وروي عنه أيضاً أن المراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها الإنسان وهي سبعة الجبهة واليدان والركبتان والقدمان والمعنى أن هذه الأعضاء التي يقع عليها السجود مخلوقة لله فلا تسجدوا عليها لغيره، (م) عن العباس بن عبد المطلب أنه سمع النبي ﷺ يقول «إذا سجد العبد سجد معه سبعة آراب وجهه وكفاه وركبته وقدماه» الآراب الأعضاء، (ق) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال «أمرنا النبي ﷺ أن نسجد على سبعة أعضاء وأن لا نكف شعراً ولا ثوباً: الجبهة واليدين والركبتين والقدمين» وفي رواية أن النبي ﷺ قال «أمرت أن أسجد على سبعة أعضاء على الجبهة وأشار بيده إلى أنفه واليدين والركبتين وأطراف القدمين ولا نكف الثياب ولا الشعر» كف شعره عقصه وغرز طرفه في أعلى الضفيرة وقد نهى عن ذلك.

قوله عز وجل: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ﴾ يعني النبي ﷺ ﴿يَدْعُوهُ﴾ يعني يعبد الله ويقرأ القرآن وذلك حين كان يصلي الفجر ببطن نخلة ﴿كَادُوا﴾ يعني الجن ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ يعني يركب بعضهم بعضاً من الازدحام عليه حرصاً على استماع القرآن، قاله ابن عباس. وعنه أيضاً أنه من قول النفر من الجن الذين رجعوا إلى قومهم فأخبروهم عن طاعة أصحاب النبي ﷺ له واقتدائهم به في الصلاة. وقيل في معنى الآية لما قدم عبد الله بالدعوة تلبدت الإنس والجن

المساجد وأراد بها المساجد كلها. وقال الحسن: أراد بها البقاع كلها لأن الأرض جعلت كلها مسجداً للنبي ﷺ. وقال سعيد بن جبير: قالت الجن للنبي ﷺ: كيف لنا أن نشهد معك الصلاة ونحن نأوون؟ فنزلت: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾. وروى عن سعيد بن جبير أيضاً: أن المراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها الإنسان وهي سبعة: الجبهة واليدان والركبتان والقدمان، يقول: هذه الأعضاء التي يقع عليها السجود مخلوقة لله فلا تسجدوا عليها لغيره. أخبرنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن العباس الحميدي أنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ أنا عبد الله محمد بن يعقوب ثنا علي بن الحسن الهلالي والسري بن خزيمة قالوا ثنا يعلى بن أسد ثنا وهيب عن عبد الله بن طاوس عن أبيه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أسجد على سبعة أعضاء الجبهة، وأشار بيده إليها، واليدين والركبتين وأطراف القدمين، ولا أكف الثوب ولا الشعر»، فإن جعلت المساجد مواضع الصلاة فواحدها مسجداً بكسر الجيم، وإن جعلتها الأعضاء فواحدها مسجداً بفتح الجيم.

﴿وَأَنَّهُ﴾، قرأ نافع وأبو بكر بكسر الهمزة، وقرأ الباقر بفتحها، ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ﴾، يعني النبي ﷺ، ﴿يَدْعُوهُ﴾، يعني يعبد الله ويقرأ القرآن وذلك حين كان يصلي ببطن نخلة ويقرأ القرآن، ﴿كَادُوا﴾، يعني الجن، ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾، أي يركب بعضهم بعضاً، ويزدحمون حرصاً على استماع القرآن، هذا قول الضحاك ورواية عطية عن ابن عباس. وقال سعيد بن جبير عنه: هذا من قول النفر الذين رجعوا إلى قومهم من الجن أخبروهم بما رأوا من طاعة أصحاب النبي ﷺ واقتدائهم به في الصلاة. وقال الحسن وقاتدة وابن زيد: يعني لما قام عبد الله بالدعوة تلبدت الإنس والجن، وتظاهروا عليه ليبطلوا الحق الذي جاءهم به، ويطفئوا نور الله فأبى الله إلا

وتظاهروا عليه ليطلوا الحق الذي جاءهم به ويطفئوا نور الله فأبى الله إلا أن يتم نوره ويظهر هذا الأمر وينصره على من ناوأه وعاداه. وأصل اللبد الجماعة بعضهم فوق بعض.

قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْأَلُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَذْرِي أَقْرَبُ مِمَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾

﴿قل﴾ يعني النبي ﷺ وقرىء على الأمر ﴿إنما أدعو ربي﴾ وذلك أن كفار مكة قالوا للنبي ﷺ لقد جئت بأمر عظيم فارجع عنه فنحن نجيرك فقال لهم النبي ﷺ «إنما أدعو ربي ﴿ولا أشرك به أحد﴾ قل إنني لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً» أي لا أقدر على أن أدفع عنكم ضرراً ولا أسوق إليكم رشداً وإنما الضار والنافع والمرشد والمغوي هو الله تعالى. ﴿قال إنني لن يجيرني من الله أحد﴾ أي لن يمنعني منه أحد إن عصيته ﴿ولن أجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ أي ملجأً ألبأ إليه. وقيل حرزاً احترز به وقيل مداخلاً في الأرض مثل السرب أدخل فيه ﴿إلا بلاغاً من الله ورسالاته﴾ أي فيه الجوار والأمن والنجاة. وقيل معناه ذلك الذي يجبرني من عذاب الله يعني التبليغ وقيل إلا بلاغاً من الله فذلك الذي أملكه بعون الله وتوفيقه. وقيل معناه لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً لكن أبلغ بلاغاً عن الله عز وجل فإنما أنا مرسل لا أملك إلا ما ملكت، ﴿ومن يعص الله ورسوله﴾ يعني ولم يؤمن ﴿فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً حتى إذا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ يعني العذاب يوم القيامة ﴿فيسعلمون﴾ أي عند نزول العذاب ﴿من أضعف ناصراً وأقل عدداً﴾ أهم أم المؤمنون ﴿قل إن أدري﴾ أي ما أدري ﴿أقرب ما توعدون﴾ يعني العذاب وقيل يوم القيامة ﴿أم يجعل له ربي أمداً﴾ أي أجلاً وغاية تطول مدتها والمعنى أن علم وقت العذاب غيب لا يعلمه إلا الله عز وجل ﴿عالم الغيب﴾ أي هو عالم ما غاب عن العباد ﴿فلا يظهر﴾ أي فلا يطلع ﴿على غيبه﴾ أي الغيب الذي يعلمه وانفرد به ﴿أحد﴾ أي من الناس ثم استثنى فقال تعالى: ﴿إلا من ارتضى من رسول﴾ يعني إلا من يصطفيه

أن يتم نوره، ويتم هذا الأمر وينصره على من ناوأه. وقرأ هشام عن ابن عامر ﴿لبداً﴾ بضم اللام، وأصل اللبد الجماعات بعضها فوق بعض، ومنه سُمي اللبد الذي يفرش لتراكمه وتلبّد الشعر إذا تراكم.

﴿قل إنما أدعو ربي﴾، قرأ أبو جعفر وعاصم وحمة ﴿قل﴾ على الأمر، وقرأ الآخرون (قال) يعني رسول الله ﷺ: ﴿إنما أدعو ربي﴾، قال مقاتل: وذلك أن كفار مكة قالوا للنبي ﷺ: لقد جئت بأمر عظيم فارجع عنه فنحن نجيرك، فقال لهم: ﴿إنما أدعو ربي﴾، ﴿ولا أشرك به أحد﴾.

﴿قل إنني لا أملك لكم ضرراً﴾، لا أقدر أن أدفع عنكم ضرراً، ﴿ولا رشداً﴾، أي لا أسوق لكم أو إليكم رشداً، أي خيراً يعني أن الله يملكه.

﴿قل إنني لن يجيرني من الله أحد﴾، لن يمنعني منه أحد إن عصيته. ﴿ولن أجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾، ملجأ أميل إليه. ومعنى الملتحد أي المائل، قال السدي: حرزاً. وقال الكلبي: مداخلاً في الأرض مثل السرب.

﴿إلا بلاغاً من الله ورسالاته﴾، فيه الجوار والأمن والنجاة، قاله الحسن. قال مقاتل: ذلك الذي يجيرني

لرسالته ونبوته فيظهره على ما يشاء من الغيب حتى يستدل على نبوته بما يخبر به من المغيبات فيكون ذلك معجزة له وآية دالة على نبوته. قال الزمخشري وفي هذا إبطال الكرامات لأن الذين تضاف إليهم الكرامات وإن كانوا أولياء مرتضين فليسوا برسل وقد خص الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب وفيه أيضاً إبطال الكهانة والتنجيم لأن أصحابهما أبعد شيء من الارتضاء وأدخله في السخط. قال الواحدي وفي هذا دليل على أن من ادعى أن النجوم تدله على ما يكون من حياة أو موت ونحو ذلك فقد كفر بما في القرآن. فأما الزمخشري فأنكر كرامات الأولياء جرياً على قاعدة مذهبه في الاعتزال ووافق الواحدي وغيره من المفسرين في إبطال الكهانة والتنجيم قال الإمام فخر الدين ونسبة الآية في صورتين واحدة فإن جعل الآية دالة على المنع من أحكام النجوم فينبغي أن يجعلها دالة على المنع من الكرامات قال: وعندي أن الآية لا دلالة فيها على شيء من ذلك والذي تدل عليه أن قوله ﴿فلا يظهر على غيبه أحداً﴾ ليس فيه صيغة عموم فيكفي في العمل بمقتضاه أن لا يظهر الله تعالى خلقه على غيب واحد من غيوبه فنحمله على وقت وقوع القيامة، فيكون المراد من الآية أنه تعالى لا يظهر هذا الغيب لأحد فلا يبقى في الآية دلالة على أنه لا يظهر شيئاً من الغيوب لأحد ثم إنه يجوز أن يطلع الله على شيء من المغيبات غير الرسل كالكهنة وغيرهم وذكر ما يدل على صحة قوله.

والذي ينبغي أن مذهب أهل السنة إثبات كرامات الأولياء خلافاً للمعتزلة وأنه يجوز أن يلهم الله بعض أوليائه وقوع بعض الوقائع في المستقبل فيخبر به وهو من إطلاع الله إياه على ذلك. ويدل على صحة ذلك ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «لقد كان فيمن كان قبلكم من الأمم ناس محدثون من غير أن يكونوا أنبياء وإن يكن في أمي أحد فإنه عمر بن الخطاب» أخرجه البخاري قال ابن وهب تفسير محدثون ملهمون.

ولمسلم عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه كان يقول «قد كان يكون في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمي منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم»، ففي هذا إثبات كرامات الأولياء ولا يقال لو جازت الكرامة للولي لما تميزت معجزة النبي عن غيرها ولا نسد الطريق إلى معرفة الرسول من غيره فنقول الفرق بين معجزة النبي وكرامة الولي أن المعجزة أمر خارق للعادة مع عدم المعارضة مقرون بالتحدي، ولا يجوز للولي أن يدعي خرق العادة مع التحدي إذ لو ادعاه الولي لكفر من ساعته فبان الفرق بين المعجزة والكرامة وقد يظهر على يد الولي أمر خارق للعادة من غير دعواه. وهذا أيضاً يدل على ثبوت نبوة النبي لأن الكرامة إنما تظهر على يد من هو معتقد للرسول متابع له فلو لم تكن

من عذاب الله، يعني التبليغ. وقال قتادة: إلاّ بلاغاً من الله فذلك الذي أملكه بعون الله وتوفيقه. وقيل: لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً لكن أبلغ بلاغاً من الله فإنما أنا مرسل به لا أملك إلاّ ما ملكت. ﴿وَمَنْ يَعَصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، ولم يؤمن، ﴿فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً﴾.

﴿حتى إذا رآوا ما يوعدون﴾، يعني العذاب يوم القيامة، ﴿فسيعلمون﴾، عند نزول العذاب، ﴿من أضعف ناصرًا وأقلّ عدداً﴾، أهم أم المؤمنون.

﴿قل إن أدري﴾، أي ما أدري، ﴿أقرب ما توعدون﴾، من العذاب وقيل يوم القيامة، ﴿أم يجعل له ربي أمداً﴾.

﴿عالم الغيب﴾، رفع على نعت أجلاً وغايةً تطول مدتها يعني: أن علم وقت العذاب غيب لا يعلمه إلاّ الله. قوله: ﴿ربي﴾، وقيل: هو عالم الغيب؛ ﴿فلا يظهر﴾، لا يطلع، ﴿على غيبه أحداً﴾ * إلاّ من ارتضى من رسول، إلاّ من يصطفيه لرسالته فيظهره على ما يشاء من الغيب لأنه يستدلّ على نبوته بالآية المعجزة التي تخبر

نبوته حقاً لما ظهر الخارق على يد متابعه . وأما الكاهن فليس بمتبع للرسول وقد انسد باب الكهانة بمبعث النبي ﷺ فمن ادعى منهم اطلاعاً على غيب فقد كفر بما جاء به القرآن وكذلك حكم المنجم والله تعالى أعلم، وقوله تعالى: ﴿فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه﴾ أي من بين يدي الرسول ومن خلفه وذكر البعض دال على جميع الجهات ﴿رصداً﴾ أي حفظه من الملائكة يحفظونه من الشيطان أن يسترق السمع من الملائكة ويحفظونه من الجن أن يسمعوا الوحي فيلقوه إلى الكهنة فيخبروا به قبل الرسول . وقيل إن الله تعالى كان إذا بعث رسولاً أتاه إبليس في صورة ملك يخبره فيبعث الله من بين يديه ومن خلفه رصداً من الملائكة يحرسونه ويطردون الشيطان عنه فإذا جاءه شيطان في صورة ملك أخبروه بأنه شيطان فاحذره وإن جاء ملك قالوا له هذا رسول ربك .

لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَنَا رَبَّهُمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾

﴿ليعلم﴾ أي ليعلم محمد ﷺ ﴿أن﴾ أي أن جبريل قد بلغ إليه رسالات ربه وقيل معناه ليعلم محمد أن الرسل قبله قد أبلغوا رسالات ربهم وأن الله قد حفظهم ودفع عنهم . وقيل معناه ليعلم الله أن الرسل ﴿قد أبلغوا رسالات ربهم﴾ فيعلم الله ذاك ظاهراً موجوداً فيوجب فيه الثواب ﴿وأحاط بما لديهم﴾ أي علم الله ما عند الرسل فلا يخفى عليه شيء من أمورهم ﴿وأحصى كل شيء عدداً﴾ قال ابن عباس أحصى ما خلق وعرف ما خلق لم يفته شيء حتى مثاقيل الذر والخردل ، والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه .

عن الغيب، ﴿فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً﴾ ، ذكر بعض الجهات دلالة على جميعها رصداً أي يجعل بين يديه وخلفه حَفَظَةً من الملائكة يحفظونه من الشياطين أن يسترقوا السمع ، ومن الجن أن يستمعوا الوحي فيلقوا إلى الكهنة . قال مقاتل وغيره : كان الله إذا بعث رسولاً أتاه إبليس في صورة ملك يخبره فيبعث الله من بين يديه ومن خلفه رصداً من الملائكة يحرسونه ويطردون الشياطين ، فإذا جاءه شيطان في صورة ملك أخبروه بأنه شيطان ، فاحذره وإذا جاءه ملك قالوا له : هذا رسول ربك .

﴿ليعلم﴾ ، قرأ يعقوب ليعلم بضم الياء أي ليعلم الناس ، ﴿أن﴾ الرسل ، ﴿قد أبلغوا﴾ ، وقرأ الآخرون بفتح الياء أي ليعلم الرسول أن الملائكة قد أبلغوا ، ﴿رسالات ربهم وأحاط بما لديهم﴾ ، أي علم الله ما عند الرسل فلم يُخَفَ عليه شيء ، ﴿وأحصى كل شيء عدداً﴾ ، قال ابن عباس : أحصى ما خلق وعرف عدد ما خلق فلم يفته علم شيء حتى مثاقيل الدر والخردل ، ونصب ﴿عدداً﴾ على الحال ، وإن شئت على المصدر ، أي عدّ عدداً .

سورة المزمّل

مكية قيل غير آيتين منها وهما قوله ﴿واصبر على ما يقولون﴾ وقيل غير آية وهي ﴿إن ربك يعلم أنك تقوم﴾ الآية وهي عشرون آية ومائتان وخمس وثمانون كلمة وثمانمائة وثمانية وثلاثون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمَزْمُلُ ﴿١﴾ قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نَصَفَهُ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾

قوله عز وجل: ﴿يا أيها المزمّل﴾ هذا خطاب للنبي ﷺ وأصله المزمّل وهو الذي ترمّل في ثيابه أي تلفف به. قال المفسرون كان النبي ﷺ يتزمل في ثيابه أول ما جاءه جبريل فرقاً منه فكان يقول زمّلوني زمّلوني حتى أنس به. وقيل خرج يوماً من البيت وقد لبس ثيابه فناده جبريل يا أيها المزمّل، وقيل معناه متزمل النبوة أي حاملها والمعنى زمّلت هذا الأمر فقم به واحمله فإنه أمر عظيم وإنما لم يخاطب بالنبي والرسول لأنه كان في أول الأمر ومبدئه، ثم خوطب بالنبي والرسول بعد ذلك، وقيل كان ﷺ قد نام وهو متزمل في ثوبه فنودي يا أيها المزمّل ﴿قم الليل﴾ أي للصلاة والعبادة واهجر هذه الحالة واشتغل بالصلاة والعبودية وكان قيام الليل فريضة في ابتداء الإسلام ﴿إلا قليلاً﴾ أي صل الليل إلا قليلاً تنام فيه وهو الثلث ثم بين قدر القيام فقال تعالى: ﴿نصفه﴾ أي قم نصف الليل ﴿أو انقص منه قليلاً﴾ أي إلى الثلث.

أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾

﴿أو زد عليه﴾ أي على النصف إلى الثلثين خيره بين هذه المنازل فكان النبي ﷺ وأصحابه يقومون على هذه

سُورَةُ الْمُزْمَلِ

مكية وهي عشرون آية.

﴿يا أيها المزمّل﴾، أي الملفف بثوبه، وأصله المزمّل أدغمت التاء في الزاي، ومثله المدثر أدغمت التاء في الدال، يقال: تزمّل وتدثر بثوبه إذا تغطى به. وقال السدي: أراد يا أيها النائم قم فصلّ. قال الحكماء: كان هذا الخطاب للنبي ﷺ في أول الوحي قبل تبليغ الرسالة ثم خوطب بعد بالنبي والرسول.

﴿قم الليل﴾، أي للصلاة، ﴿إلا قليلاً﴾، وكان قيام الليل فريضة في الابتداء ثم بين قدره فقال:

﴿نصفه أو أنقص منه قليلاً﴾، إلى الثلث.

﴿أو زد عليه﴾، على النصف إلى الثلثين، خيره بين هذه المنازل، فكان النبي ﷺ وأصحابه يقومون على

المقادير وكان الرجل منهم لا يدري متى ثلث الليل أو متى نصفه أو متى ثلثه، فكان يقوم الليل كله حتى يصبح مخافة أن لا يحفظ القدر الواجب واشتد ذلك عليهم حتى انتفخت أقدامهم فرحمهم الله وخفف عنهم ونسخها عنهم بقوله ﴿فأقرؤوا ما تيسر منه﴾ قيل ليس في القرآن سورة نسخ آخرها أولها إلا هذه السورة وكان بين نزول أولها ونزول آخرها سنة. وقيل ستة عشر شهراً. وكان قيام الليل فرضاً ثم نسخ بعد ذلك في حق الأمة بالصلوات الخمس وثبتت فريضة على النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك﴾ (م) عن سعد بن هشام قال «انطلقت إلى عائشة فقلت يا أم المؤمنين أنبئني عن خلق رسول الله ﷺ قالت ألتست تقرأ القرآن قلت بلى قالت فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن. قلت فقيام رسول الله ﷺ يا أم المؤمنين؟ قالت ألتست تقرأ المزمل قلت بلى قالت فإن الله افترض القيام في أول هذه السورة فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة فصار قيام الليل تطوعاً بعد الفريضة».

وقوله تعالى: ﴿ورتل القرآن ترتيلاً﴾ قال ابن عباس بينه وبيننا وعنه أيضاً «اقرأ على هيتك ثلاث آيات وأربعاً وخمساً»، وقيل الترتيل هو التوقف والترسل والتمهل والإفهام وتبيين القراءة حرفاً حرفاً أثره في أثر بعض بالمد والإشباع والتحقيق. وترتيلاً تأكيد في الأمر به وأنه لا بد للقارئ منه، وقيل إن الله تعالى لما أمر بقيام الليل أتبعه بترتيل القرآن حتى يتمكن المصلي من حضور القلب والتأمل والفكر في حقائق الآيات ومعانيها فعند الوصول إلى ذكر الله تعالى يستشعر بقلبه عظمة المذكور وجلاله وعند ذكر الوعد والوعيد يحصل الرجاء والخوف وعند ذكر القصص

هذه المقادير، وكان الرجل لا يدري متى ثلث الليل ومتى النصف ومتى الثلثان، فكان يقوم حتى يصبح مخافة أن لا يحفظ القدر الواجب، واشتد ذلك عليهم حتى انتفخت أقدامهم فرحمهم الله وخفف عنهم ونسخها عنهم بقوله: ﴿فأقرؤوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى﴾ [المزمل: ٢٠] الآية، فكان بين أول السورة وآخرها سنة. أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو نعيم عبد الملك بن الحسن الأسفرايني أنا أبو عوانة يعقوب بن إسحاق الحافظ ثنا الحسن بن علي بن عفان ثنا يحيى بن بشر ثنا سعيد يعني ابن أبي عروبة ثنا قتادة عن زرادة بن أوفى عن سعيد بن هشام قال: انطلقت إلى عائشة فقلت: يا أم المؤمنين أنبئني عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت: ألتست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن، قلت: فقيام رسول الله ﷺ يا أم المؤمنين؟ قالت: ألتست تقرأ ﴿يا أيها المزمل﴾؟ قلت: بلى، قالت: فإن الله افترض القيام في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعاً بعد الفريضة. قال مقاتل وابن كيسان: كان هذا بمكة قبل أن تُفرض الصلوات الخمس، ثم نسخ ذلك بالصلوات الخمس، ﴿ورتل القرآن ترتيلاً﴾، قال ابن عباس: بينه وبيننا. قال الحسن: أقرأه قراءة بيّنة. قال مجاهد: ترسل فيه ترسلاً. قال قتادة: فثبت فيه تثبناً. وعن ابن عباس أيضاً: أقرأه على هيتك ثلاث آيات أو أربعاً أو خمساً. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عمرو بن عاصم ثنا هشام عن قتادة قال: سُئِلَ أنس كيف كانت قراءة النبي ﷺ؟ فقال: كانت مدّاً مدّاً ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمدّ بسم الله ويمدّ الرحمن ويمدّ الرحيم. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا آدم ثنا شعبة ثنا عمرو بن مرة قال: سمعت أبا وائل قال: جاء رجل إلى ابن مسعود، قال: قرأت المفصل الليلة في ركعة، فقال: هذا كهذا الشعر، لقد عرفت النظائر التي كان النبي ﷺ يقرن بينهما فذكر عشرين سورة من المفصل كل سورتين في ركعة. أخبرنا أبو جعفر أحمد بن أبي أحمد منويه أنا الشريف أبو القاسم علي بن محمد بن علي الحسيني الحراني

والأمثال يحصل الاعتبار فيستنير القلب عند ذلك بنور المعرفة، والإسراع في القراءة لا يحصل فيها ذلك فظهر بذلك أن المقصود من الترتيل إنما هو حضور القلب عند القراءة.

(فصل)

(خ) عن قتادة قال «سئل أنس كيف كانت قراءة رسول الله ﷺ فقال كانت مداً ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد بسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم» عن أم سلمة رضي الله عنها وقد سألتها يعلى بن مالك عن قراءة رسول الله ﷺ وصلاته فقالت «ما لكم وصلاته ثم نعتت قراءته فإذا هي نعتت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً»، أخرجه النسائي وللمزمذني قالت «كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته يقول الحمد لله رب العالمين ثم يقف الرحمن الرحيم، ثم يقف وكان يقول مالك يوم الدين ثم يقف» وفي رواية أبي داود قالت «قراءة رسول الله ﷺ بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين يقطع قراءته آية آية» (ق) عن عبدالله بن مغفل قال «رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته يقرأ سورة الفتح فرجع في قراءته»، (ق) عن أبي وائل شقيق بن سلمة قال «جاء رجل إلى ابن مسعود قال إني لأقرأ المفصل في ركعة قال عبد الله هذا كهذا الشعر إن أقواماً يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ولكن إذا وقع في القلب فرسخ نفع، إن أفضل الصلاة الركوع والسجود إني لأعرف النظائر التي كان رسول الله ﷺ يقرن بينهما سورتين في كل ركعة» وفي رواية «فذكر عشرين سورة من المفصل» الهذ سرعة القطع والمراد به هنا سرعة القراءة والعجلة فيها، وقوله لا يجاوز تراقيهم التراقي جمع ترقوة وهي العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق وعند مخرج الصوت، والنظائر جمع نظير وهو الشبه والمثل. عن عائشة رضي الله عنها قالت «قام النبي ﷺ بآية من القرآن»، أخرجه الترمذني والنسائي عن أبي ذر نحوه وزاد «والآية إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم» عن سهل بن سعد قال «خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نقرأ فقال: الحمد لله كتاب الله واحد وفيكم الأحمر وفيكم الأبيض وفيكم الأسود اقرؤوا القرآن قبل أن يقرأه أقوام يقيمونه كما يقال السهل يتعجل لقراءته ولا يتأجله» أخرجه أبو داود وزاد غيره في رواية «لا يجاوز تراقيهم» عن جابر رضي الله عنه قال خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نقرأ القرآن وفينا العربي والعجمي فقال: اقرؤوا فكل حسن وسيجيء أقوام يقومونه كما يقوم القدرح يتعجلونه ولا

فيما كتبه إليّ، أنا أبو بكر محمد بن الحسين الأجري أنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن حميد الواسطي ثنا زيد بن أجيروم ثنا محمد بن الفضل ثنا سعيد بن زيد عن أبي حمزة عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله يعني ابن مسعود قال: لا تنثروه نثر الدقل ولا تهذوه هذا الشعر، قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة. أخبر أبو جعفر أحمد بن أبي أحمد بن منويه أنا الشريف أبو القاسم علي بن محمد علي الحسيني الحراني كتب إليّ ثنا أبو بكر محمد بن الحسين الأجري ثنا أبو محمد يحيى بن محمد بن ساعد ثنا الحسين بن الحسن المروي ثنا ابن المبارك الحنبلي أنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث أنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن موسى بن عبيدة عن عبد الله بن عبيدة وهو أخوه عن سهل بن سعد الساعدي قال: بينا نحن نقرأ إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «الحمد لله كتاب الله واحد وفيكم الأحمر والأسود والأبيض اقرؤوا القرآن قبل أن يأتي أقوام يقرؤونه، يقيمون حروفه كما يُقام السهم لا يجاوز تراقيهم، يتعجلون أجره ولا يتأجلونه» أخبرنا أبو عثمان الضبي أنا أبو محمد الجراحي ثنا أبو العباس المحبوبي ثنا أبو عيسى الترمذني ثنا أبو بكر محمد بن نافع البصري ثنا عبد الصمد بن عبد الوارث عن إسماعيل بن مسلم العبدي عن أبي المتوكل الناجي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قام النبي ﷺ بآية من القرآن ليلة. ورواه أبو ذر، قال: قام النبي ﷺ حتى أصبح بآية، والآية: ﴿إِنْ تَعَذَّبْهُمْ

يتأجلونه» أخرجه أبو داود عن ابن مسعود قال «لا تنثروه نثر الدقل ولا تهذوه هذ الشعر قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ولا يكن هم أحدكم آخر السورة» قوله تعالى:

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۖ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ۖ﴾

﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾ قال ابن عباس شديداً. وقيل ثقيلاً يعني كلاماً عظيماً جليلاً ذا خطر وعظمة لأنه كلام رب العالمين وكل شيء له خطر ومقدار فهو ثقیل والمعنى فصير نفسك مستعدة لقبول هذا القول العظيم الثقيل الشاق، وقيل سماه ثقيلاً لما فيه من الأوامر والنواهي فإن فيه مشقة وكلفة على الأنفس وقيل ثقيلاً لما فيه من الوعد والوعيد والحلال والحرام والحدود والفرائض والأحكام. وقيل ثقيلاً على المنافقين لأنه يبين عيوبهم ويظهر نفاقهم، وقيل هو خفيف على اللسان بالتلاوة ثقيل في الميزان بالثواب يوم القيامة. وقيل ثقيلاً أي ليس بالخفيف ولا السفساف لأنه كلام ربنا تبارك وتعالى. وقيل معناه أنه قول مبين في صحته وبيانه ونفعه كما تقول هذا كلام رصين وهذا قول له وزن إذا استجدته وعلمت أنه صادق الحكمة والبيان. وقيل سماه ثقيلاً لما فيه من المحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ. وقيل ثقيلاً في الوحي وذلك أنه ﷺ «كان إذا نزل عليه القرآن والوحي يجد له مشقة»، (ق) عن عائشة رضي الله عنها «أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ أحياناً يأتيني في مثل صلصلة الجرس وهذا أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول. قالت عائشة ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً» (م) عن عبادة بن الصامت قال «كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي كرب لذلك وتردد له وجهه» وفي رواية «كان إذا نزل عليه الوحي عرفنا ذلك في فيه وغمض عينيه وتردد وجهه» قوله مثل صلصلة الجرس الصلصلة الصوت

فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴿[المائدة: ١١٨].

﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: شديداً. قال الحسن: إن الرجل ليهذ السورة ولكن العمل بها ثقيل. قال قتادة: ثقيلاً هو والله فرائضه وحدوده. قال مقاتل: ثقيل لما فيه من الأمر والنهي والحدود. قال أبو العالية: ثقيل بالوعد والوعيد والحلال والحرام. وقال محمد بن كعب: ثقيل على المنافقين: قال الحسين بن الفضل: قولاً خفيفاً على اللسان ثقيلاً في الميزان. قال الفراء: ثقيلاً ليس بالخفيف السفساف لأنه كلام ربنا. قال ابن زيد: هو والله ثقيل مبارك كما ثقل في الدنيا ثقل في الموازين يوم القيامة. أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد السرخسي أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة زوج النبي ﷺ أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهذا أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول». قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وأن جبينه ليتفصد عرقاً.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾، أي ساعته كلها وكل ساعة منه ناشئة، سميت بذلك لأنها تنشأ أي تبدو ومنه نشأت السحابة إذا بدت وكل ما حدث بالليل وبدأ فقد نشأ فهو ناشيء، والجمع ناشئة. وقال ابن أبي مليكة: سألت ابن عباس وابن الزبير عنها، فقالا: الليل كله ناشئة. وقال سعيد بن جبير وابن زيد: أي ساعة قام من الليل فقد نشأ وهو بلسان الحبش القيام، يقال: نشأ فلان أي قام. وقالت عائشة: الناشئة القيام بعد النوم. وقال ابن كيسان: هي القيام من آخر الليل. وقال عكرمة: هي القيام من أول الليل. يروى عن علي بن الحسين أنه كان

الشديد الصلب اليابس من الأشياء الصلبة كالجرس ونحوه. قوله فيفصم أي يفصل عني ويفارقني وقد وعيت ما قال أي حفظت. وقولها ليتفصد عرقاً أي يجري عرقه كما يجري الدم من الفاصد. قوله تربد وجهه الربدة في الألوان غبرة مع سواد، وقوله تعالى: ﴿إِنْ نَاشِئَةُ اللَّيْلِ﴾ أي ساعاته كلها وكل ساعة منه ناشئة، لأنها تنشأ عن التي قبلها وقال ابن أبي مليكة سألت ابن عباس وابن الزبير عنها فقالا الليل كله ناشئة وهي عبارة عن الأمور التي تحدث وتنشأ في الليل وقالت عائشة الناشئة القيام بعد النوم. وقيل هي قيام آخر الليل وقيل أوله، وقيل أي ساعة قام الإنسان من الليل فقد نشأ. روي عن زين العابدين علي بن الحسين أنه كان يصلي بين المغرب والعشاء ويقول هذه ناشئة الليل، وقيل كل صلاة بعد العشاء الآخرة فهي ناشئة الليل، وقيل ناشئة الليل قيامه وقيل ناشئة الليل وطاؤه ﴿هي أشد وطأ﴾ قرىء بكسر الواو مع المد يعني من المواطأة والموافقة وذلك لأن مواطأة القلب اللسان والسمع والبصر تكون بالليل أكثر مما تكون بالنهار. وقرىء وطأ بفتح الواو وسكون الطاء أي أشد على المصلي وأثقل. من صلاة النهار لأن الليل جعل للنوم والراحة فكان قيامه على النفس أشد وأثقل وقال ابن عباس كانت صلاتهم أول الليل هي أشد وطأ يقول هي أجدر أن يحصوا ما فرض الله عليهم من القيام وذلك أن الإنسان إذا نام لا يدري متى يستيقظ. وقيل أثبت للخير وأحفظ للقراءة من النهار وقيل هي أوطأ للقيام وأسهل على المصلي من ساعات النهار لأنه خلق ليعمل في النهار والليل والخلوة برب العباد ولأن الليل أفرغ للقلب من النهار ولا يعرض له في الليل حوائج وموانع مثل النهار وأمنع من الشيطان وأبعد من الرياء وهو قوله تعالى: ﴿وَأَقُومَ قِيلاً﴾ أي أصوب قراءة وأصح قولاً من النهار لهدأة الناس وسكون الأصوات وقيل معناه أبين قولاً بالقرآن.

والحاصل أن عبادة الليل أشد نشاطاً وأتم إخلاصاً وأبعد عن الرياء وأكثر بركة وأبلغ في الثواب وأدخل في القبول.

إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴿٨﴾ رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾

﴿إن لك في النهار سبحاً طويلاً﴾ أي تصرفاً وتقلباً وإقبالاً وإدباراً في حوائجك واشتغالك. وقيل فراغاً وسعة لنومك وتصرفك في حوائجك أفضل من الليل ﴿واذكر اسم ربك﴾ أي بالتوحيد والتعظيم والتقديس والتسبيح ﴿وتبتل

يصلي بين المغرب والعشاء، ويقول: هذه ناشئة الليل. وقال الحسن: كل صلاة بعد العشاء الآخرة فهي ناشئة من الليل. وقال الأزهري: ناشئة الليل قيام الليل، مصدر جاء على فاعلة كالعافية بمعنى العفو. ﴿هي أشد وطأ﴾، قرأ ابن عامر وأبو عمر وطاء بكسر الواو ممدوداً بمعنى المواطأة والموافقة، يقال وطأت فلاناً مواطأة القلب والسمع والبصر واللسان، بالليل تكون أكثر مما يكون بالنهار. وقرأ الآخرون بفتح الواو وسكون الطاء أي أشد على المصلي وأثقل من صلاة النهار، لأن الليل للنوم والراحة ومنه قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ أَشَدُّ وَطْأَتِكَ عَلَى مَضْرٍ»، وقال ابن عباس: كانت صلاتهم أول الليل هي أشد وطأ، يقول هي أجدر أن تحصوا ما فرض الله عليكم من القيام، وذلك أن الإنسان إذا نام لم يدري متى يستيقظ. وقال قتادة: أثبت في الخير وأحفظ للقراءة. وقال الفراء: أثبت قياماً أي أوطأ للقيام وأسهل للمصلي من ساعات النهار، لأن النهار خلق ليعمل في النهار والليل للخلوة بالعبادة، والليل للخلوة فبالعبادة فيه أسهل. وقيل: أشد نشاطاً. وقال ابن زيد: أفرغ له قلباً من النهار لأنه لا تعرض فيه حوائج. وقال الحسن: أشد وطأ في الخير وأمنع من الشيطان. ﴿وأقوم قِيلاً﴾، وأصوب قراءة وأصح قولاً لهدأة الناس وسكون الأصوات. وقال الكلبي: أبين قولاً بالقرآن، وفي الجملة عبادة الليل أشد نشاطاً وأتم إخلاصاً وأكثر بركة وأبلغ في الثواب.

﴿إن لك في النهار سبحاً طويلاً﴾، أي تصرفاً وتقلباً وإقبالاً وإدباراً في حوائجك وأشغالك، وأصل السبح

إليه تبتيلاً ﴿١١﴾ قال ابن عباس أخلص إليه إخلاصاً وقيل تفرغ لعبادته وانقطع إليه انقطاعاً والمعنى بتل إليه نفسك واقطعها عن كل شيء سواه. وقيل التبتل رفض الدنيا وما فيها والتماس ما عند الله. وقيل معناه وتوكل عليه توكلًا واجتهد في العبادة وقيل يقال للعابد إذا ترك كل شيء وأقبل على العبادة قد تبتل أي انقطع عن كل شيء إلا من عبادة الله وطاعته.

فإن قلت كيف قال تبتيلاً مكان تبتلاً ولم يجيء على مصدره؟

قلت جاء تبتيلاً على بتل نفسك إليه تبتيلاً فوقع المصدر موضع مقارنة في المعنى ويكون التقدير وبتل نفسك إليه تبتيلاً فهو كقوله والله أنبتكم من الأرض نباتاً، وقيل لأن معنى تبتل بتل نفسك فجيء به على معناه مراعاة لحق الفواصل. وقيل الأصل في تبتل أن يقال تبتلت تبتيلاً وتبتلت تبتيلاً محمول على معنى بتل إليه تبتيلاً وقيل إنما عدل عن هذه العبارة لدقيقة لطيفة وهي أن المقصود إنما هو التبتل فأما التبتيل فهو تصرف والمشتغل بالتصرف لا يكون متبتلاً إلى الله تعالى لأن المشتغل بغير الله لا يكون منقطعاً إليه إلا أنه لا بد من التبتيل حتى يحصل التبتل فذكر أولاً التبتل لأنه المقصود وذكر التبتيل ثانياً إشعاراً بأنه لا بد منه ﴿رب المشرق والمغرب﴾ يعني أن التبتل والانقطاع لا يليق إلا لله تعالى الذي هو رب المشرق والمغرب ﴿لا إله إلا هو فاتخذة وكيلاً﴾ أي فوض أمرك إليه وتوكل عليه. وقيل معناه اتخذ يا محمد ربك كفيلاً بما وعدك من النصر على الأعداء ﴿واصبر على ما يقولون﴾ أي من التكذيب لك والأذى ﴿واهجرهم هجراً جميلاً﴾ أي واعتزلهم اعتزالاً حسناً لا جزع فيه وهذه الآية منسوخة بآية القتال.

وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمْ قُلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَنْفَوْنَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُمْطِرُ بِرٍّ كَانَ وَعَدُومٌ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾

﴿وذرنى والمكذبين﴾ أي دعني ومن كذبك لا تهتم به فإنني أكفيكه ﴿أولي النعمة﴾ أي أصحاب النعم والترفة

سرعة الذهاب، ومنه السباحة في الماء، وقيل: سباحاً طويلاً أي فراغاً وسعة لنومك وتصرفك في حوائجك فصل من الليل، وقرأ يحيى بن يعمر ﴿سبحاً﴾ بالخاء المعجمة أي استراحة وتخفيفاً للبدن، منه قول النبي ﷺ لعائشة، وقد دعت على سارق: (لا تسبحني عنه بدعائك عليه)، أي لا تخففي.

﴿واذكر اسم ربك﴾، بالتوحيد والتعظيم، ﴿وتبتل إليه تبتيلاً﴾، قال ابن عباس وغيره: أخلص إليه إخلاصاً. قال الحسن: اجتهد. وقال ابن زيد: تفرغ لعبادته. وقال سفيان: توكل عليه توكلًا. وقيل: انقطع إليه في العبادة انقطاعاً، وهو الأصل في الباب، يقال: تبتلت الشيء أي قطعتة وصدقه، قولهم: أنت بته بته أي مقطوعة عن صاحبها لا سبيل له عليها، والتبتيل: تفعيل، منه يقال: بثلته فتبتل، المعنى: بتل إليه نفسك، ولذلك قال: تبتيلاً. قال ابن زيد: التبتل رفض الدنيا وما فيها، والتماس ما عند الله تعالى.

﴿رب المشرق والمغرب﴾، قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو وحفص ﴿رب﴾ برفع الباء على الابتداء، وقرأ الآخرون بالجر على نعت الرب في قوله: ﴿اذكر اسم ربك﴾، ﴿لا إله إلا هو فاتخذة وكيلاً﴾، قِيماً بأمورك ففوضها إليه.

﴿واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً﴾، نسختها آية القتال.

﴿وذرنى والمكذبين أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمْ قُلِيلًا﴾، نزلت في صناديد قريش المستهزئين. وقال مقاتل بن

نزلت في صناديد قريش المستهزئين وقيل نزلت في المطعمين ببدر ﴿ومهلهم قليلاً﴾ يعني إلى يوم بدر فلم يكن إلا يسير حتى قتلوا ببدر. وقيل أراد بالقليل أيام الدنيا ثم وصف عذابهم فقال تعالى: ﴿إن لدينا﴾ أي عندنا في الآخرة ﴿أنكالا﴾ يعني قيوداً عظماً ثقالاً لا تنفك أبداً وقيل أغلالاً من حديد ﴿وجحيماً وطعاماً ذا غصة﴾ أي غير سائغ في الحلق لا ينزل ولا يخرج وهو الزقوم والضريع ﴿وعذاباً أليماً﴾ أي وجيعاً ﴿يوم ترجف الأرض والجبال﴾ أي تتزلزل وتحرك وهو يوم القيامة ﴿وكانت الجبال كتيلاً مهيلاً﴾ يعني رملاً سائلاً وهو الذي إذا أخذت منه شيئاً يتبعك ما بعده ﴿إنا أرسلنا إليكم﴾ يعني يا أهل مكة ﴿رسولاً﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿شاهداً عليكم﴾ أي بالتبليغ وإيمان من آمن منكم وكفر من كفر ﴿كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً﴾ يعني موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، قيل إنما خص فرعون وموسى بالذكر من بين سائر الأمم والرسول لأن محمداً ﷺ آذاه أهل مكة واستخفوا به لأنه ولد فيهم كما أن فرعون ازدري بموسى وآذاه لأنه رباه ﴿فعصى فرعون الرسول فأخذناه﴾ أي فرعون ﴿أخذاً وبيلاً﴾ أي شديداً ثقيلاً يعني عاقبناه عقوبة غليظة، خوَّف بذلك كفار مكة ثم خوَّفهم يوم القيامة فقال تعالى: ﴿فكيف تتقون إن كفرتم﴾ أي كيف لكم بالتقوى يوم القيامة إن كفرتم أي في الدنيا، المعنى لا سبيل لكم إلى التقوى إذا وافيتم القيامة. وقيل معنى الآية فكيف تتقون العذاب يوم القيامة، وبأي شيء تتحصنون من عذاب ذلك اليوم، وكيف تنجون منه إن كفرتم في الدنيا ﴿يوماً يجعل الولدان شيباً﴾ يعني شيوخاً شمطاً من هول ذلك اليوم وشدته وذلك حين يقال لآدم عليه الصلاة والسلام قم، فابعث بعث النار من ذريتك. (ق) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «يقول الله عز وجل يوم القيامة: يا آدم فيقول لبيك وسعديك» زاد في رواية «والخير في يديك فينادي بصوت إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعث النار قال يا رب، وما بعث النار؟ قال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون، فحينئذ تضع الحامل حملها، ويشيب الوليد وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد، فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم قالوا: يا رسول الله أينما ذلك الرجل فقال النبي ﷺ أبشروا فإن من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعاً وتسعين ومنكم واحد ثم قال: أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود، وفي رواية كالرقمة في ذراع الحمار، وإني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، فكبرنا ثم قال: ثلث أهل الجنة فكبرنا ثم قال شطر أهل الجنة فكبرنا» أما ما يتعلق بمعنى الحديث فقوله أن تخرج من ذريتك بعث النار فمعناه ميز أهل الجنة من أهل النار، وأما الرقمة بفتح الراء وإسكان القاف فهي الأثرة في باطن عضد الحمار. وقوله إنني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة وثلث أهل الجنة، وشطر أهل الجنة فيه البشارة العظيمة لهذه الأمة وجعلهم ربع أهل الجنة أولاً ثم الثلث ثم الشطر لفائدة حسنة، وهي أن ذلك أوقع في نفوسهم، وأبلغ في إكرامهم فإن إعطاء الإنسان مرة بعد مرة

حيان: نزلت في المطعمين ببدر فلم يكن إلا يسير حتى قتلوا ببدر.

﴿إن لدينا﴾، عندنا في الآخرة، ﴿أنكالا﴾، قيوداً عظماً لا تنفك أبداً واحداً نكل. قال الكلبي: أغلالاً من حديد، ﴿وجحيماً﴾.

﴿وطعاماً ذا غصة﴾، غير سائغة يأخذ بالحق لا ينزل ولا يخرج وهو الزقوم والضريع. ﴿وعذاباً أليماً﴾.

﴿يوم ترجف الأرض والجبال﴾، أي تتزلزل وتحرك، ﴿وكانت الجبال كتيلاً مهيلاً﴾، رملاً سائلاً. قال الكلبي: هو الرمل الذي أخذت منه شيئاً تبعك ما بعده، يقال: أهلت الرمل أهيله هيلاً إذا حرّكت أسفله حتى انهال من أعلاه.

﴿إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً﴾.

دليل على الاعتناء به، ودوام ملاحظته وفيه تكرير البشارة مرة بعد أخرى، وفيه أيضاً حملهم على تجديد شكر الله وحمده على إنعامه عليهم، وهو تكبيرهم لهذه البشارة العظيمة، وسرورهم بها، وأما ما يتعلق بمعنى الآية الكريمة، والحديث في قوله تعالى: ﴿فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً﴾ وقوله ﷺ «ويشيب الوليد» ففيه وجهان: الأول عند زلزلة الساعة قبل خروجهم من الدنيا، فعلى هذا هو على ظاهره الثاني أنه في القيامة، فعلى هذا يكون ذكر الشيب مجازاً، لأن القيامة ليس فيها شيب، وإنما هو مثل في شدة الأمر، وهوله يقال في اليوم الشديد يوم تشيب فيه نواصي الأطفال، والأصل فيه أن الهموم والأحزان إذا تعاقب على الإنسان أسرع فيه الشيب. قال المتنبي:

والهم يخترم الجسيم نحافة ويشيب ناصية الصبي وبهرم

فلما كان الشيب من لوازم كثرة الهموم والأحزان جعلوه كناية عن الشدة والهول، وليس المراد أن هول ذلك اليوم يجعل الولدان شيباً حقيقة لأن الطفل لا تميز له، وقيل يحتمل أن يكون المراد وصف ذلك اليوم بالطول، وأن الأطفال يبلغون سن الشيخوخة والشيب. ﴿السماء منفطر به﴾ وصف اليوم بالشدة أيضاً وأن السماء مع عظمها تنفطر به، وتشقق فما ظنك بغيرها من الخلائق، وقيل تشقق لنزول الملائكة، وقيل به أي بذلك المكان، وقيل الهاء ترجع إلى الرب سبحانه وتعالى أي بأمره وهيئته. ﴿كان وعده مفعولاً﴾ أي كائناً لا محالة فيه، ولا خلف ﴿إن هذه﴾ أي آيات القرآن ﴿تذكرك﴾ أي مواعظ يتذكر بها ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ بالإيمان والطاعة. قوله تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلَاثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلَاثِي نَوْمٍ مَعَكَ وَاللَّهُ يَقْدِرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عِلْمَ الْآنَ تُخْصَوُهُ فَتَابَ عَلَيْكَ فَاقْرَأْ مَا يَنْسَرُ مِنَ الْقُرْآنِ عِلْمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَمَا آخَرُونَ بِضَرِيُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَمَا آخَرُونَ بِقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأْ مَا يَنْسَرُ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾

﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل﴾ أي أقل من ثلثي الليل ﴿ونصفه وثلثه﴾ أي تقوم نصفه وثلثه ﴿وطائفة من الذين معك﴾ يعني المؤمنين، وكانوا يقومون معه الليل ﴿والله يقدر الليل والنهار﴾ يعني أن العالم بمقادير الليل والنهار وأجزائهما وساعاتهما هو الله تعالى. لا يفوته علم ما يفعلون، فيعلم القدر الذي يقومون من الليل والذي

﴿فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً﴾، شديداً ثقيلاً، يعني عاقبناه عقوبة غليظة يخوف كفار مكة.

﴿فكيف تتقون إن كفرتم﴾، أي كيف لكم بالتقوى يوم القيامة إذ كفرتم في الدنيا يعني لا سبيل لكم إلى التقوى إذا وافيتم يوم القيامة؟ وقيل: معناه كيف تتقون العذاب يوم القيامة وبأي شيء تحصنون منه إذا كفرتم؟ ﴿يوماً يجعل الولدان شيباً﴾، شمطاً من هوله وشدته، وذلك حين يقال لآدم قم فابعث بعث النار من ذريتك.

ثم وصف هول ذلك اليوم فقال: ﴿السماء منفطر به﴾، منشق لنزول الملائكة به أي بذلك المكان. وقيل: الهاء ترجع إلى الرب أي بأمره وهيئته، ﴿كان وعده مفعولاً﴾، كائناً.

﴿إن هذه﴾، أي آيات القرآن ﴿تذكرك﴾، تذكير وموعظة ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾، بالإيمان والطاعة.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ﴾، أقل من، ﴿ثلثي الليل ونصفه وثلثه﴾، قرأ أهل مكة والكوفة ﴿نصفه وثلثه﴾ بنصب الفاء والثاء وإشباع الهاءين ضمّاً، أي وتقوم نصفه وثلثه وقرأ الآخرون بجرّ الفاء والثاء وإشباع

ينامون منه. ﴿علم أن لن تحصوه﴾ يعني أن لن تطيقوا معرفته على الحقيقة. قيل قاموا حتى انتفخت أقدامهم، فنزل: علم أن لن تحصوه أي لن تطيقوه، قيل كان الرجل يصلي الليل كله مخافة أن لا يصيب ما أمر الله به من القيام فقال تعالى: علم أن لن تحصوه أي لن تطيقوا معرفة ذلك ﴿فتاب عليكم﴾ أي فعاد عليكم بالعفو والتخفيف، والمعنى عفا عنكم ما لم تحيطوا بعلمه ورفع المشقة عنكم ﴿فاقرؤوا ما تيسر من القرآن﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن المراد بهذه القراءة. القراءة في الصلاة، وذلك لأن القراءة أحد أجزاء الصلاة، فأطلق اسم الجزء على الكل، والمعنى فصلوا ما تيسر عليكم. وقال الحسن: يعني في صلاة المغرب والعشاء، قال قيس بن أبي حازم: صليت خلف ابن عباس بالبصرة فقرأ في أول ركعة بالحمد، وأول آية من البقرة، ثم قام في الثانية، فقرأ بالحمد والآية الثانية من البقرة، ثم ركع فلما انصرف أقبل علينا بوجهه فقال: إن الله تعالى يقول فاقروا ما تيسر منه، وقيل نسخ ذلك التهجد، واكتفي بما تيسر ثم نسخ ذلك أيضاً بالصلوات الخمس وذلك في حق الأمة وثبت قيام الليل في حقه ﷺ بقوله تعالى: ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك﴾.

القول الثاني: أن المراد بقوله فاقروا ما تيسر من القرآن دراسته، وتحصيل حفظه وأن لا يعرض للنسيان، فقيل يقرأ مائة آية ونحوها، وقيل إن قراءة السورة القصيرة كافية. روى البغوي بإسناده عن أنس رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول «من قرأ خمسين آية في يوم أو ليلة لم يكتب من الغافلين، ومن قرأ مائة آية كتب من القانتين، ومن قرأ مائتي آية، لم يحاجه القرآن يوم القيامة، ومن قرأ خمسمائة آية كتب له قنطار من الأجر». وذكره الشيخ محيي الدين في كتابه الأذكار ولم يضعفه وقال: في رواية «من قرأ أربعين آية بدل خمسين وفي رواية عشرين» وفي رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من قرأ عشر آيات لم يكتب من الغافلين» (ق) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ «ألم أخبر أنك تصوم الدهر، وتقرأ القرآن كل ليلة قلت

الهائين كسراً عطفاً على ثلثي، ﴿وطائفة من الذين معك﴾ يعني المؤمنين وكانوا يقومون معه، ﴿والله يقدر الليل والنهار﴾، قال عطاء: يريد لا يفوته علم ما تفعلون، أي أنه يعلم مقادير الليل والنهار فيعلم القدر الذي تقومون من الليل، ﴿علم أن لن تحصوه﴾، قال الحسن: قاموا حتى انتفخت أقدامهم، فنزل: ﴿علم أن لن تحصوه﴾، لن تطيقوه. وقال مقاتل: كان الرجل يصلي الليل كله، مخافة أن لا يصيب ما أمر به من قيام، فقال: علم أن لن تحصوه لن تطيقوا معرفة ذلك. ﴿فتاب عليكم﴾، فعاد عليكم بالعفو والتخفيف، ﴿فاقرؤوا ما تيسر من القرآن﴾، يعني في الصلاة، قال الحسن: يعني في صلاة المغرب والعشاء. قال قيس بن حازم: صليت خلف ابن عباس بالبصرة فقرأ في أول ركعة بالحمد وأول آية من البقرة، ثم قام في الثانية فقرأ بالحمد والآية الثانية من البقرة، ثم ركع، فلما انصرف أقبل علينا بوجهه فقال: إن الله عز وجل يقول: فاقروا ما تيسر منه. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني ثنا أبو جعفر الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا عثمان بن صالح ثنا ابن لهيعة حدثني حميد بن مخراق عن أنس بن مالك أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ خمسين آية في يوم أو في ليلة لم يكتب من الغافلين، ومن قرأ مائة آية كتب من القانتين، ومن قرأ مائتي آية لم يحاجه القرآن يوم القيامة، ومن قرأ خمسمائة آية كتب له قنطار من الأجر». أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى ثنا إبراهيم بن محمد ثنا مسلم بن الحجاج حدثني القاسم بن زكريا بن عبيد الله بن موسى عن شيبان عن يحيى عن محمد بن عبد الرحمن مولى بن زهرة عن أبي سلمة عن عبد الله بن عمرو قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ القرآن في كل شهر»، قال: قلت: إني أجد قوة، قال: «فاقرأه في عشرين ليلة»، قال: قلت: إني أجد قوة، قال: «فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك». قوله عز وجل: ﴿علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل

بلى يا رسول الله، ولم أرد بذلك إلا الخير قال فصم صوم داود وكان أعبد الناس وأقرأ القرآن في كل شهر مرة قال قلت يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك قال فاقراه في كل عشر قال: قلت يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك قال فاقراه في سبع ولا تزيد على ذلك» ثم ذكر الله حكمة التسخ والتخفيف. فقال تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى﴾ يعني أن المريض يضعف عن التهجد بالليل فخفف الله عز وجل عنه لأجل ضعفه وعجزه عنه ﴿وآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني المسافرين للتجارة ﴿يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي يطلبون من رزق الله وهو الربح في التجارة ﴿وآخَرُونَ يقاتلون في سبيل الله﴾ يعني الغزاة والمجاهدين، وذلك لأن المجاهد والمسافر مشغول في النهار بالأعمال الشاقة، فلو لم ينم بالليل لتوالت عليه أسباب المشقة، فخفف الله عنهم لذلك. روي عن ابن مسعود: قال «أبدا رجل جلب شيئا إلى مدينة من مدائن المسلمين صابراً محتسباً، فباعه بسعر يومه كان عند الله بمنزلة الشهداء ثم قرأ عبد الله: وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله» ﴿فاقرؤوا ما تيسر منه﴾ أي من القرآن وإنما أعاده للتأكيد ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يعني المفروضة ﴿وآتوا الزكاة﴾ أي الواجبة. ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ قال ابن عباس: يريد سوى الزكاة من صلة الرحم وقرى الضيف، وقيل يريد سائر الصدقات، وذلك بأن يخرجها على أحسن وجه من كسب طيب، ومن أكثر الأموال نفعاً للفقراء ومراعاة النية والإخلاص وابتغاء مرضاة الله تعالى بما يخرج والصرف إلى المستحق. ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله﴾ أي ثوابه وأجره ﴿هو خيراً وأعظم أجراً﴾ يعني أن الذي قدمتم لأنفسكم خير من الذي أخرتموه ولم تقدموه وروى البغوي بسنده عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ «أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه قالوا يا رسول الله ما منا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه قال اعلموا ما تقولون قالوا ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله قال ما منكم رجل إلا ماله وارثه أحب إليه من ماله، قالوا كيف يا رسول الله؟ قال: إنما قال أحدكم ما قدم ومال وارثه ما أخر» ﴿واستغفروا الله﴾ أي لذنوبكم وتقصيركم في قيام الليل ﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي لجميع الذنوب والله تعالى أعلم.

الله، يعني المسافرين للتجارة يطلبون من رزق الله، ﴿وآخرون يقاتلون في سبيل الله﴾، لا يطيقون قيام الليل، روى إبراهيم عن ابن مسعود قال: أبدا رجل جلب شيئا ما إلى مدينة من مدائن المسلمين صابراً محتسباً فباعه بسعر يومه كان عند الله بمنزلة الشهداء، ثم قرأ عبد الله: ﴿وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله، وآخرون يقاتلون في سبيل الله﴾. ﴿فاقرؤوا ما تيسر منه﴾، أي ما تيسر عليكم من القرآن. قال أهل التفسير كان هذا في صدر الإسلام ثم نسخ بالصلوات الخمس، وذلك قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾، قال ابن عباس: يريد سوى الزكاة من صلة الرحم، وقرى الضيف. ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً﴾، تجدوا ثوابه في الآخرة أفضل مما أعطيتكم، ﴿وأعظم أجراً﴾، من الذي أخرتم، ولم تقدموه، ونصب (خير وأعظم) على المفعول الثاني، فإن الوجود إذا كان بمعنى الرؤية يتعدى إلى مفعولين، وهو فصل في قول البصريين، وعماد في قول الكوفيين، لا محل لها في الإعراب، أخبرنا أبو القاسم يحيى بن علي الكشمهيني أنا أبو نصر أحمد بن علي البخاري بالكوفة أنا أبو القاسم نصر بن أحمد الفقيه بالموصل ثنا أبو يعلى الموصلي ثنا أبو خزيمة ثنا جرير عن الأعمش عن إبراهيم التيمي عن الحارث بن سويد قال: قال عبد الله قال رسول الله ﷺ: «أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه؟» قالوا: يا رسول الله ما منا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه، قال: «اعلموا ما تقولون»، قالوا: ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله، قال: «ما منكم رجل إلا مال وارثه أحب إليه من ماله»، قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: «إنما مال أحدكم ما قدم ومال وارثه ما أخر». ﴿واستغفروا الله﴾، لذنوبكم، ﴿إن الله غفور رحيم﴾.

سورة المدثر

وهي مكية وقيل غير آية من آخرها وهي ست وخمسون آية ومائتان وخمس وخمسون كلمة وألف حرف وعشرة أحرف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكْبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ﴾ (ق) عن يحيى بن كثير قال «سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن قال يا أيها المدثر قلت يقولون اقرأ باسم ربك قال أبو سلمة سألت جابراً عن ذلك وقلت له مثل الذي قلت فقال لي جابر لا أحدثك إلا ما حدثنا به رسول الله ﷺ قال «جاورت بحراء شهراً فلما قضيت جوارى هبطت فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً ونظرت خلفي فلم أر شيئاً فرفعت رأسي فرأيت شيئاً.

فأتيت خديجة فقلت دثروني فدثروني» وصبوا علي ماء بارداً فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبِّكَ فَكْبِرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ وذلك قبل أن تفرض الصلاة وفي رواية «فلما قضيت جوارى هبطت فاستبطنت الوادي - وذكر نحوه - فإذا هو قاعد على عرش في الهواء - يعني جبريل - فأخذتني رجفة شديدة» (ق) عن جابر رضي الله عنه من رواية الزهري «عن أبي سلمة عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي فقال لي في حديثه: فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فجثت منه رعباً فقلت زملوني زملوني فدثروني فأنزل الله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ﴾ إلى ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ وفي رواية «فجثت منه حتى هويت إلى الأرض فجثت إلى أهلي» وذكره وفيه قال أبو سلمة الرجز الأوثان قال ثم حمى الوحي بعد وتتابع.

سُورَةُ الْمُدَّثِّرِ

مكية وهي ست وخمسون آية.

أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يحيى ثنا وكيع عن علي بن المبارك عن يحيى بن أبي كثير قال: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن؟ قال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ﴾، قلت: يقولون: ﴿إِقرأ باسم ربك﴾ [العلق: ١]؟ وقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله عن ذلك، وقلت له مثل الذي قلت، فقال لي جابر لا أحدثك إلا بما حدثنا رسول الله ﷺ، قال: «جاورت بحراء شهراً فلما قضيت جوارى هبطت فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً ونظرت أمامي فلم أر شيئاً ونظرت من خلفي فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً فأتيت خديجة فقلت:

فإن قلت دل هذا الحديث على أن سورة المدثر أول ما نزل من القرآن، ويعارضه حديث عائشة رضي الله عنها المخرج في الصحيحين أيضاً في بدء الوحي، وسيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى وفيه «فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾، حتى بلغ - ﴿ما لم يعلم﴾ - فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده» الحديث.

قلت الصواب الذي عليه جمهور العلماء أن أول ما نزل من القرآن على الإطلاق ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾، كما صرح به في حديث عائشة، وقول من قال إن سورة المدثر أول ما نزل من القرآن على الإطلاق ضعيف لا يعتد به، وإنما كان نزولها بعد فترة الوحي كما صرح به في رواية الزهري عن أبي سلمة عن جابر، ويدل عليه أيضاً قوله في الحديث وهو يحدث عن فترة الوحي إلى أن قال وأنزل الله تعالى يا أيها المدثر ويدل عليه أيضاً قوله «فإذا الملك الذي جاءني بحراء ثم قال وأنزل الله تعالى: يا أيها المدثر» وأيضاً قوله «ثم حمى الوحي بعد وتابع» فالصواب إن أول ما نزل من القرآن على رسول الله ﷺ سورة ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ وإن أول ما نزل بعد فترة الوحي سورة المدثر فحصل بهذا الذي بيناه الجمع بين الحديثين، والله أعلم قوله «فإذا هو قاعد على عرش بين السماء والأرض» يريد به السرير الذي يجلس عليه وقوله يحدث عن فترة الوحي، أي عن احتباسه وعدم تتابعه، وتواليه في النزول قوله «فجئت منه» روى بجيم مضمومة ثم همزة مكسورة ثم ثاء مثناة ساكنة ثم تاء الضمير وروى بثاءين مثلثتين بعد الجيم، ومعناه فرعبت منه وفزعت. وقوله «وحمى الوحي بعد وتابع» أي كثر نزوله، وازداد بعد فترته من قولهم حميت الشمس والنار إذا ازداد حرهما، وقوله وصبوا علي ماء فيه أنه ينبغي لمن فزع أن يصب عليه ماء حتى يسكن فزعه والله أعلم.

وأما التفسير فقوله عز وجل: يا أيها المدثر أصله المتدثر وهو الذي يتدثر في ثيابه ليستدفئ بها، وأجمعوا على أنه رسول الله ﷺ وإنما سماه مدثراً لقوله ﷺ دثروني، وقيل معناه يا أيها المدثر بدار النبوة والرسالة من قولهم ألبسه الله لباس التقوى، فجعل النبوة كالدار واللباس، مجازاً ﴿قم فأنذر﴾ أي حذرهم من عذاب ربك إن لم يؤمنوا والمعنى قم من مضجعك ودنارك، وقيل قم قيام عز واشتغل بالإنذار الذي تحمته ﴿وربك فكبر﴾ أي عظم ربك عما يقوله عبدة الأوثان ﴿وثيابك فطهر﴾ فيه أربعة أوجه: أحدها أن ينزل لفظ الثياب والتطهير على الحقيقة، والثاني أن

دثروني وصبوا علي ماء بارداً، قال: فدثروني وصبوا علي ماء بارداً، قال فنزلت: ﴿يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عبد الله بن يوسف ثنا الليث عن عقيل قال ابن شهاب: سمعت أبا سلمة قال أخبرني جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي قال: «فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فجئته منه رعباً حتى هويت إلى الأرض، فجئت أهلي فقلت: زملوني زملوني فزملوني، فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها المدثر قم فأنذر﴾، إلى قوله: ﴿فاهجر﴾، قال أبو سلمة: والرجز الأوثان، ثم حمى الوحي بعد وتابع.

قوله عز وجل: ﴿يا أيها المدثر * قم فأنذر﴾، أي أُنذر كفار مكة.

﴿وربك فكبر﴾، أي عظمه عما يقوله عبدة الأوثان.

﴿ثيابك فطهر﴾، قال قتادة ومجاهد: نفسك فطهر من الذنب، فكنتي عن النفس بالثوب، وهو قول إبراهيم والضحاك والشعبي والزهري. وقال عكرمة: سئل ابن عباس عن قوله: ﴿وثيابك فطهر﴾، فقال: لا تلبسها على معصية ولا على غدر. ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي: «إني بحمد الله لا ثوب فاجر

ينزل لفظ الثياب على الحقيقة والتطهير على المجاز والثالث أن ينزل لفظ الثياب على المجاز، والتطهير على الحقيقة والرابع أن ينزل لفظ الثياب والتطهير على المجاز.

أما الوجه الأول: فمعناه وثيابه فطهر من النجاسات والمستقذرات، وذلك أن المشركين لم يكونوا يحترزون عنها فأمر ﷺ بصون ثيابه من النجاسات، وغيرها خلافاً للمشركين.

الوجه الثاني: معناه وثيابه فقصر وذلك لأن المشركين كانوا يطولون ثيابهم ويجرون أذيالهم على النجاسات وفي الثوب الطويل من الخيلاء والكبر والفخر ما ليس في الثوب القصير فهى عن تطويل الثوب وأمر بتقصيره لذلك، وقيل معناه وثيابه فطهر عن أن تكون مغصوبة أو محرمة بل تكون من وجه حلال وكسب طيب.

الوجه الثالث: معناه حمل الثوب على النفس قال عنترة:

وشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم

يريد نفسه والمعنى ونفسك فطهر عن الذنوب والريب وغيرهم وكنى بالثياب عن الجسد لأنها تشتمل عليه.

الوجه الرابع: وهو حمل الثياب والتطهير على المجاز، فقيل معناه وقلبك فطهر عن الصفات المذمومة، وقيل معناه وخلقتك فحسن وسئل ابن عباس عن قوله، وثيابه فطهر فقال: لا تلبسها على معصية ولا غدر أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي:

وإنني بحمد الله لا ثوب فاجر لبست ولا من غدره أتقنع

والعرب تقول في وصف الرجل بالصدق والوفاء هو طاهر الثياب، وتقول لمن غدر إنه لدنس الثوب، والسبب في ذلك أن الثوب كالشيء الملازم للإنسان فلهذا جعلوه كناية عن الإنسان كما يقال الكرم في ثوبه والعفة في أزاره، وقيل إن من طهر باطنه طهر ظاهره.

وقوله تعالى: ﴿والرجز فاهجر﴾ يعني أترك الأوثان ولا تقربها وقال ابن عباس: اترك المآثم، وقيل الشرك والمعنى اترك كل ما أوجب لك العذاب من الأعمال والأقوال.

لبست ولا من غدره أتقنع والعرب تقول في وصف الرجل بالصدق والوفاء إنه طاهر الثياب، وتقول لمن غدر إنه لدنس الثياب، وقال أبي بن كعب: لا تلبسها على غدر ولا على ظلم ولا على إثم، البسها وأنت برّ طاهر. وروى أبو روق عن الضحاك معناه: وعملك فأصلح. قال السدي: يقال للرجل إذا كان صالحاً إنه لطاهر الثياب، وإذا كان فاجراً إنه لخبث الثياب. وقال سعيد بن جبيرة: وقلبك ونيتك فطهر. وقال الحسن والقرظي: وخلقتك فحسن. وقال ابن سيرين وابن زيد: أمر بتطهير الثياب من النجاسات التي لا تجوز الصلاة معها، وذلك أن المشركين كانوا لا يتطهرون ولا يطهرون ثيابهم. وقال طاوس: وثيابه فقصر لأن تقصير الثياب طهرة لها.

﴿والرجز فاهجر﴾، قرأ أبو جعفر وحفص عن عاصم ويعقوب والرجز بضم الراء، وقرأ الآخرون بكسرهما وهما لغتان ومعناها واحد. قال مجاهد وعكرمة وقتادة والزهري وابن زيد وأبو سلمة: المراد بالرجز الأوثان، قال: فاهجرها ولا تقربها. وقيل: الزاي فيه منقلبة عن السين، والعرب تعاقب بين السين والزاي لقرب مخرجهما، ودليل هذا التأويل قوله: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾ [الحج: ٣٠]، وروى عن ابن عباس أن معناه: اترك المآثم، وقال أبو العالية والربيع: الرجز بضم الراء الصنم، وبالكسر النجاسة والمعصية. قال الضحاك: يعني الشرك. وقال الكلبي: يعني العذاب، ومجاز الآية اهجر ما أوجب لك العذاب من الأعمال.

وَلَا تَمَنَّ تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ عَذْرٌ
يَسِيرٌ ﴿١٠﴾ ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَا لَا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَيْنَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾

﴿ولا تمنن تستكثر﴾ يعني لا تعط مالك مصانعة لتعطي أكثر منه هذا قول أكثر المفسرين وهذا النهي مختص بالنبي ﷺ وإنما نهى عن ذلك تنزيهاً لمنصب النبوة لأن من أعطى شيئاً لغيره يطلب منه الزيادة عليه لا بد وأن يتواضع لذلك الذي أعطاه، ومنصب النبوة بحل عن ذلك وهذا غير موجود في حق الأمة، فيجوز لغيره من الأمة ذلك كما قيل هما رباءان حلال وحرام فالحلال الهدية يهديها الرجل لغيره ليعطيه أكثر منها وأما الحرام فالربا المحرم بنص الشرع، وقيل معناه لا تعط شيئاً لمجازاة الدنيا أعطى الله وأراد به وجه الله. وقيل معناه لا تمنن على الله بعملك فتستكثره، ولا يكثرن عملك في عينك فإنه مما أنعم الله به عليك وأعطاك. وقيل معناه لا تمنن على أصحابك بما تعلمهم من أمر الدين وتبلغهم من أمر الوحي كالمستكثر بذلك عليهم، وقيل لا تمنن عليهم بنيتك فتأخذ منهم على ذلك أجراً تستكثر به، وقيل معناه لا تمنن لا تضعف عن الخير تستكثر منه، وقيل معناه لا تمنن على الناس بما تنعم عليهم وتعطيهم استكثاراً منك لتلك العطية، فإن المن يحبط العمل ﴿ولربك فاصبر﴾ أي على طاعته وأوامره ونواهيه لأجل ثواب الله تعالى؛ وقيل معناه فاصبر لله على ما أوديت فيه، وقيل معناه إنك حملت أمراً عظيماً فيه محاربة العرب والعجم، فاصبر على ذلك الله عز وجل، وقيل معناه فاصبر تحت موارد القضاء لأجل الله ﴿فإذا نُقِرَ في الناقور﴾ أي نفخ في الصور وهو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل وهي النفخة الأولى، وقيل الثانية وهو الأصح ﴿فذلك يومئذ﴾ يعني يوم النفخة وهو يوم القيامة ﴿يوم عسير﴾ أي شديد ﴿على الكافرين﴾ يعني يعسر عليهم في ذلك اليوم الأمر، فيعطون كتبهم بشمائلهم وتسود وجوههم ﴿غير يسير﴾ أي غير هين.

فإن قلت ما فائدة قوله غير يسير وعسير مغن عنه.

﴿ولا تمنن تستكثر﴾، أي لا تعط مالك مصانعة لتعطي أكثر منه، وهذا قول أكثر المفسرين، قال الضحاك ومجاهد: كان هذا للنبي ﷺ خاصة. قال الضحاك: هما رباءاً من حلال وحرام، فأما الحلال فالهدايا، وأما الحرام فالربا. قال قتادة: لا تعط شيئاً طمعاً لمجازاة الدنيا، يعني أعطِ لربك وأرد به الله. وقال الحسن: معناه لا تمنن على الله بعملك فتستكثره، قال الربيع: لا يكثرن عملك في عينك فإنه فيما أنعم الله عليك وأعطاك قليل. وروى خصيف عن مجاهد: ولا تضعف أن تستكثر من الخير، من قولهم: حبل متين إذا كان ضعيفاً دليله قراءة ابن مسعود (ولا تمنن أن تستكثر من الخير)، وقال ابن زيد معناه: لا تمنن بالنبوة على الناس فتأخذ عليها أجراً أو عرضاً من الدنيا.

﴿ولربك فاصبر﴾، قيل: فاصبر على طاعته وأوامره ونواهيه لأجل ثواب الله. وقال مجاهد: فاصبر لله على ما أوديت فيه. وقال ابن زيد: معناه حملت أمراً عظيماً فيه محاربة العرب والعجم فاصبر عليه الله عز وجل. وقيل: فاصبر تحت موارد القضاء لأجل الله.

﴿فإذا نُقِرَ في الناقور﴾، أي نُفِخَ في الصور، وهو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل يعني النفخة الثانية.

﴿فذلك﴾ أي النفخ في الصور، ﴿يومئذ﴾، يعني يوم القيامة، ﴿يوم عسير﴾، شديد.

﴿على الكافرين﴾، يعسر فيه الأمر عليهم، ﴿غير يسير﴾، غير هين.

قوله عز وجل: ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً﴾، أي خلقته في بطن أمه وحيداً فريداً لا مال له ولا ولد، نزلت

قلت فائدة التكرار التأكيد كقوله: أنا محب لك غير مبغض، وقيل لما كان على الكافرين غير يسير دل على أنه يهون على المؤمنين بخلاف الكفار فإنه عليهم عسير لا يسر فيه ليزداد غيظ الكافرين وبشارة المؤمنين قوله تعالى: ﴿ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتَ وَحِيداً﴾ أي خلقته في بطن أمه وحيداً فريداً لا مال له ولا ولد، وقيل معناه خلقته وحدي لم يشاركني في خلقه أحد، والمعنى ذرني وإيّاها، فأنا أكفيكه نزلت هذه الآية في الوليد بن المغيرة المخزومي، وكان يسمى الوحيد في قومه. ﴿وجعلت له مالا ممدوداً﴾ أي كثير يمد بعضه بعضاً دائماً غير منقطع، وقيل ما يمد بالنماء كالزرع والضرع والتجارة واختلفوا في مبلغه، فقيل كان ألف دينار وقيل أربعة آلاف درهم، وقيل ألف ألف وقال ابن عباس: تسعة آلاف مثقال فضة وعنه كان له بين مكة والطائف إبل وخيل ونعم، وكان له غنم كثيرة وعبيد وجوار: وقيل كان له بستان بالطائف لا تنقطع ثماره شتاء ولا صيفاً، وقيل كان له غلة شهر بشهر، ﴿وبنين شهوداً﴾ أي حضوراً بمكة لا يغيبون عنه لأنهم كانوا أغنياء غير محتاجين إلى الغيبة لطلب الكسب، وقيل معنى شهوداً أي رجالاً يشهدون معه المحافل والمجامع، قيل كانوا عشرة وقيل سبعة وهم الوليد بن الوليد وخالد وعمارة وهشام والعاص وقيس وعبد شمس أسلم منهم ثلاثة نفر خالد وهشام وعمارة ﴿ومهدت له تمهيداً﴾ أي بسطت له في العيش وطول العمر بسطاً مع الجاه العريض والرياسة في قومه، وكان الوليد من أكابر قريش وكان يدعى ربحانة قريش.

ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأْرَهْقُهُ صُعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّكُمْ فُكْرٌ وَقَدَرٌ ﴿١٨﴾

﴿ثم يطمع﴾ أي يرجو ﴿أن أزيد﴾ أي أزيد مالا وولداً وتمهيداً ﴿كلا﴾ أي لا أفعل ولا أزيد قالوا فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقصان ماله وولده حتى هلك ﴿إنه كان لا ياتنا عنيداً﴾ أي معانداً والمعنى أنه كان معانداً في جميع دلائل التوحيد والقدرة والبعث والنبوة منكرراً للكل، وقيل كان كفره كفر عناد وهو أنه كان يعرف هذا بقلبه وينكره بلسانه وهو أقبح الكفر وأفحشه ﴿سأرهقه صعوداً﴾ يعني سأكلفه مشقة من العذاب لا راحة له فيها، وعن أبي

في الوليد بن المغيرة المخزومي كان يسمى الوحيد في قومه.

﴿وجعلت له مالا ممدوداً﴾. أي كثيراً. قيل: هو ما يمد بالنماء كالزرع والضرع والتجارة. واختلفوا في مبلغه، قال مجاهد وسعيد بن جبيرة: مائة ألف دينار. وقال قتادة: أربعة آلاف دينار. وقال سفيان الثوري: ألف ألف. وقال ابن عباس تسعة آلاف مثقال فضة. وقال مقاتل: كان له بستان بالطائف لا تنقطع ثماره شتاء ولا صيفاً. وقال عطاء عن ابن عباس: كان له بين مكة والطائف إبل وخيل ونعم، وكان له غير كثيرة وعبيد وجوار. وقيل: مالا ممدوداً غلة شهر بشهر.

﴿وبنين شهوداً﴾ حضوراً بمكة لا يغيبون عنه وكانوا عشرة، قاله مجاهد وقاتدة. وقال مقاتل: كانوا سبعة وهم الوليد بن الوليد وخالد وعمارة وهشام والعاص وقيس وعبد شمس، أسلم منهم ثلاثة خالد وهشام وعمارة. ﴿ومهدت له تمهيداً﴾، أي بسطت له في العيش وطول العمر بسطاً. وقال الكلبي: يعني المال بعضه على بعض كما يمهد الفرش.

﴿ثم يطمع﴾، يرجو، ﴿أن أزيد﴾، أي أن أزيد مالا وولداً، وتمهيداً.

﴿كلا﴾، لا أفعل ولا أزيد، قالوا: فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقصان ماله وولده حتى هلك. ﴿إنه كان لا ياتنا عنيداً﴾، معانداً.

﴿سأرهقه صعوداً﴾، سأكلفه مشقة من العذاب لا راحة له فيها، وروينا عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال:

سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «الصعود عقبة في النار يتصعد فيها الكافر سبعين خريفاً ثم يهوي فيها سبعين خريفاً فهو كذلك أبداً» أخرجه الترمذي. وقال حديث غريب وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله سأرهقه صعوداً. قال هو جبل من نار يكلف أن يصعده فإذا وضع يده ذابت فإذا رفعها عادت، وإذا وضع رجله ذابت فإذا رفعها عادت وقال الكلبي الصعود صخرة ملساء في النار يكلف الكافر أن يصعدها لا يترك يتنفس في صعوده يجذب من أمامه بسلاسل الحديد، ويضرب من خلفه بمقامع من حديد فيصعدها في أربعين عاماً، فإذا بلغ ذروتها أحدر إلى أسفلها، ثم يكلف أن يصعدها يجذب من أمامه، ويضرب من خلفه فذلك دأبه أبداً قوله عز وجل ﴿إِنَّهُ فَعَّرَ وَقَدَّرَ﴾ أي فكر في الأمر الذي يريده ونظر فيه وتدبره ورتب في قلبه كلاماً، وهياً لذلك لأمر وهو المراد بقوله ﴿وَقَدَّرَ﴾ أي وقدر ذلك الكلام في قلبه وذلك أن الله تعالى لما أنزل على نبيه ﷺ ﴿حَمَّ تَنْزِيلَ الْكِتَابِ﴾ من الله العزيز العليم ﴿إِلَى قَوْلِهِ﴾ المصير ﴿قَامَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ يَصْلِي وَالْوَلِيدُ بْنُ الْمَغيرة قَرِيبَ مِنْهُ يَسْمَعُ قِرَاءَتَهُ فَلَمَّا فَطِنَ النَّبِيُّ ﷺ لَاسْتِمَاعِهِ أَعَادَ قِرَاءَةَ الْآيَةِ فَانْطَلَقَ الْوَلِيدُ حَتَّى أَتَى مَجْلِسَ قَوْمِهِ مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ فَقَالَ وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتُ مِنْ مُحَمَّدٍ أَنْفَاءً كَلَاماً مَا هُوَ مِنْ كَلَامِ الْإِنْسِ وَلَا مِنْ كَلَامِ الْجِنِّ، وَاللَّهُ إِنْ لَهُ لِحَلَاوَةٌ وَإِنْ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةٌ وَإِنْ أَعْلَاهُ لَمُثْمَرٌ وَإِنْ أَسْفَلُهُ لَمَغْدُوقٌ، وَإِنَّهُ يَعْلُو وَمَا يُعْلَى ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى مَنْزِلِهِ فَقَالَتْ قُرَيْشٌ صَبَأَ وَاللَّهُ الْوَلِيدُ وَلْتَصْبُونَ قُرَيْشَ كُلَّهُمْ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: إِنَّا أَكْفَيْكُمُوهُ فَانْطَلَقَ حَتَّى جَلَسَ إِلَى جَنْبِ الْوَلِيدِ حَزِيناً فَقَالَ لَهُ الْوَلِيدُ مَا لِي أَرَاكَ حَزِيناً يَا ابْنَ أَخِي؟ فَقَالَ وَمَا يَمْنَعُنِي أَنْ لَا أَحْزَنَ وَهَذِهِ قُرَيْشٌ يَجْمَعُونَ لَكَ نَفَقَةً يَعِينُونَكَ عَلَى كِبَرِ سِنِّكَ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّكَ زَيْنَتْ كَلَامَ مُحَمَّدٍ، وَإِنَّكَ تَدْخُلُ عَلَى ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ، وَابْنُ أَبِي قَحَافَةَ لَتَنَالَ مِنْ فَضْلِ طَعَامِهِمْ. فَغَضِبَ الْوَلِيدُ وَقَالَ أَلَمْ تَعْلَمْ قُرَيْشٌ

«الصعود جبل من نار يتصعد فيه سبعين خريفاً، ثم يهوي». أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني ابن فنجويه ثنا عمر بن الخطاب ثنا عبد الله بن الفضل أنا منجاب بن الحارث أنا شريك عن عمار الذهني عن عطية عن أبي سعيد عن النبي ﷺ في قوله: «سأرهقه صعوداً» قال: «هو جبل في النار من نار يكلف أن يصعده فإذا وضع يده ذابت، فإذا رفعها عادت فإذا وضع رجله ذابت، وإذا رفعها عادت». وقال الكلبي: الصعود صخرة ملساء في النار يكلف أن يصعدها لا يترك أن يتنفس في صعوده ويجذب من أمامه بسلاسل من حديد ويضرب من خلفه بمقامع من حديد، فيصعدها في أربعين عاماً فإذا بلغ ذروتها أحدر إلى أسفلها، ثم يكلف أن يصعدها ويجذب من أمامه ويضرب من خلفه فذلك دأبه أبداً.

﴿إِنَّهُ فَعَّرَ وَقَدَّرَ﴾ الآيات، وذلك أن الله تعالى لما أنزل على النبي ﷺ ﴿حَمَّ تَنْزِيلَ الْكِتَابِ﴾ من الله العزيز العليم ﴿إِلَى قَوْلِهِ﴾ المصير ﴿غَافِرٌ: ١ - ٣٢﴾ قام النبي ﷺ في المسجد والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته فلما فطن النبي ﷺ لاستماعه لقراءته أعاد قراءة الآية، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بني مخزوم، فقال: والله لقد سمعت من محمد أنفأ كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدوق، وأنه يعلو وما يُعلى، ثم انصرف إلى منزله فقالت قريش: صبا والله الوليد، والله لتصبون قريش كلهم، وكان يقال للوليد: ريحانة قريش، فقال لهم أبو جهل: أنا أكفيكموه فانطلق فقعده إلى جنب الوليد حزيناً، فقال له الوليد: ما لي أراك حزيناً يا ابن أخي؟ قال: وما يمني أن لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك على كبر سنك ويزعمون أنك زينت كلام محمد وأنت تدخل على ابن أبي كبشة، وابن أبي قحافة لتنال من فضل طعامهم، فغضب الوليد، فقال: ألم تعلم قريش أنني أكثرهم مالاً وولداً، وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام فيكون لهم فضل، ثم قام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه، فقال لهم: تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق قط؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه قط تكهن؟ قالوا:

أني من أكثرهم مالاً وولداً؟ وهل شيع محمد وأصحابه من الطعام حتى يكون لهم فضل طعام ثم قام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه، فقال لهم تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق قط؟ قالوا اللهم لا قال تزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه قط تكهن؟ قالوا اللهم لا قال تزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه ينطق بشعر قط؟ قالوا اللهم لا قال تزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب، قالوا اللهم لا وكان رسول الله ﷺ يسمى الأمين قبل النبوة لصدقه، فقالت قريش للوليد فما هو فتفكر في نفسه، ثم قال ما هو إلا ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل، وأهله، وولده، ومواليه فهو ساحر وما يقوله سحر يؤثر. فذلك قوله عز وجل: ﴿إِنَّهُ فَكَرَ﴾ أي في أمر محمد ﷺ والقرآن وقدر في نفسه ماذا يمكنه أن يقول في محمد ﷺ والقرآن.

فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ﴿٢٧﴾ لَا بَقِيَّ وَلَا نَذْرٌ ﴿٢٨﴾ لَوْ أَعْلَمْتُ الْبَشَرِ ﴿٢٩﴾

﴿فقتل كيف قدر﴾ أي عذب، وقيل لعن كيف قدر وهو على طريق التعجب والإنكار والتوبيخ ﴿ثم قتل كيف قدر﴾ كرره للتأكيد، وقيل معناه لعن على أي حال قدر من الكلام ﴿ثم نظر﴾ أي في طلب ما يدفع به القرآن ويرده ﴿ثم عبس وبسر﴾ أي كلع وقطب وجهه كالمهتم المتفكر في شيء يدبره ﴿ثم أدبر﴾ أي عن الإيمان ﴿واستكبر﴾ أي حين دعى إليه ﴿فقال إن هذا﴾ الذي يقوله محمد ويقرؤه ﴿إلا سحر يؤثر﴾ يروى ويحكى عن السحرة ﴿إن هذا إلا قول البشر﴾ يعني يساراً وجبراً فهو يأثره عنهما الله قال الله تعالى: ﴿سأصليه﴾ أي سأدخله ﴿سقر﴾ هو اسم من أسماء جهنم وقيل آخر دركاتهما ﴿وما أدراك ما سقر﴾ أي وما أعلمك أي شيء هي سقر، وإنما ذكره على سبيل التهويل والتعظيم لأمرها ﴿لا تبقى ولا تذر﴾ قيل هما بمعنى كما تقول صد عني وأعرض عني وقيل لا بد من الفرق وإلا لزم

اللهم لا، قال: تزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه ينطق بشعر قط؟ قالوا: اللهم لا. قال: تزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيء من الكذب؟ قالوا: لا، وكان رسول الله ﷺ يسمى الأمين قبل النبوة من صدقه، فقالت قريش للوليد: فما هو؟ فتفكر في نفسه ثم نظر وعبس، فقال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟ فهو ساحر وما يقوله سحر يؤثر، فذلك قوله عز وجل: ﴿إِنَّهُ فَكَرَ﴾ في محمد والقرآن ﴿وقدر﴾ في نفسه ماذا يمكنه أن يقول في محمد والقرآن.

﴿فقتل﴾، لعن، وقال الزهري: عذب، ﴿كيف قدر﴾، على طريق التعجب والإنكار والتوبيخ ﴿ثم قتل كيف قدر﴾، كرره للتأكيد، وقيل: معناه لعن على أي حال قدر من الكلام، كما يقال لأضربنه كيف صنع أي على أي حال صنع.

﴿ثم نظر﴾ في طلب ما يدفع به القرآن ويرده.

﴿ثم عبس وبسر﴾، كلع وقطب وجهه فنظر بكراهية شديدة كالمهتم المتفكر في شيء.

﴿ثم أدبر﴾، عن الإيمان، ﴿واستكبر﴾، تكبر حين دعى إليه.

﴿فقال إن هذا﴾، ما هذا الذي يقرأه محمد، ﴿إلا سحر يؤثر﴾، يروى ويحكى عن السحرة.

﴿إن هذا إلا قول البشر﴾، يعني يساراً وجبراً فهو يأثره عنهما. وقيل: يرويه عن مسلمة صاحب اليمامة.

قال الله تعالى: ﴿سأصليه﴾، سأدخله، ﴿سقر﴾، وسقر اسم من أسماء جهنم.

التكرار فليل معناه لا تبقى أحداً من المستحقين للعذاب إلا أخذته، ثم لا تذر من لحوم أولئك شيئاً إلا أكلته وأهلكته، وقيل لا يموت فيها ولا يحيا أي لا تبقى من فيها حياً ولا تذر من فيها ميتاً كلما احترقوا جددوا وأعيدوا، وقيل لا تبقى لهم لحماً ولا تذر منهم عظماً، وقيل لكل شيء ملال وفترة إلا جهنم ليس لها ملال ولا فترة فهي لا تبقى عليهم ولا تذرهم ﴿لواحة للبشر﴾ جمع بشرة أي مغيرة للجلد حتى تجعله أسود قال مجاهد: تلفح الجلد حتى تدعه أشد سواداً من الليل وقال ابن عباس: محرقة للجلد، وقيل تلوح لهم جهنم حتى يروها عياناً.

عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْفِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ خُودُ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾

﴿عليها تسعة عشر﴾ أي على النار تسعة عشر من الملائكة وهم خزنتها مالك ومعه ثمانية عشر جاء في الأثر «إن أعينهم كالبرق الخاطف وأنبياهم كالصياصي يخرج لهب النار من أفواههم ما بين منكيي أحدهم مسيرة سنة قد نزعت منهم الرحمة يدفع أحدهم سبعين ألفاً فيرميهم حيث أراد من جهنم» وقال عمرو بن دينار: إن أحدهم يدفع بالدفع الواحدة في جهنم أكثر من ربيعة ومضر وقال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية. قال أبو جهل: لقريش ثكلتكم أمهاتكم أسمع من ابن أبي كبشة يخبر أن خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الدهم يعني الشجعان أفيعجز كل عشر منكم أن تبطش بواحد منهم يعني خزنة جهنم، فقال أبو الأشد بن أسيد بن كلفة بن خلف الجمحي أنا أكفيكم منهم سبعة عشر عشرة على ظهري، وسبعة على بطني، وأكفوني أنتم اثنين ويروى عنه أنه قال أنا أمشي بين أيديكم على الصراط فأدفع عشرة بمنكيي الأيمن وتسعة بمنكيي الأيسر في النار ونمضي فندخل الجنة. فأنزل الله تعالى: ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا

﴿وما أدراك ما سقر﴾ لا تبقي ولا تذر﴾، أي لا تبقي ولا تذر فيها شيئاً إلا أكلته وأهلكته. وقال مجاهد: لا تميت ولا تحيي يعني لا تبقى فيها حياً ولا تذر من فيها ميتاً كلما احترقوا جددوا. وقال السدي: لا تبقى لهم لحماً ولا تذر لهم عظماً. وقال الضحاك: إذا أخذت فيهم لم تبقى منهم شيئاً وإذا أعيدوا لم تذرهم حتى تنفيهم، ولكل شيء ملالة وفترة إلا جهنم.

﴿لواحة للبشر﴾، مغيرة للجلد حتى تجعله أسود، يقال: لاهه السقم والحزن إذ غيره، قال مجاهد: تلفح الجلد حتى تدعه أشد سواداً من الليل. وقال ابن عباس وزيد بن أسلم: محرقة للجلد. وقال الحسن وابن كيسان: تلوح لهم جهنم حتى يروها عياناً نظيره قوله: ﴿وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١]، و﴿لواحة﴾ رفع على نعت، ﴿سقر﴾ في قوله: ﴿وما أدراك ما سقر﴾، و﴿البشر﴾ جمع بشرة وجمع البشر أبطار.

﴿عليها تسعة عشر﴾، أي على النار تسعة عشر من الملائكة، وهم خزنتها مالك ومعه ثمانية عشر، وجاء في الأثر: أعينهم كالبرق الخاطف وأنبياهم كالصياصي يخرج لهب النار من أفواههم ما بين منكيي أحدهم مسيرة سنة، نزع منهم الرحمة يرفع أحدهم سبعين ألفاً فيرميهم حيث أراد من جهنم. قال عمرو بن دينار: إن واحداً منهم يدفع بالدفع الواحدة في جهنم أكثر من ربيعة ومضر. قال ابن عباس وقتادة والضحاك: لما نزلت هذه الآية قال أبو جهل لقريش ثكلتكم أمهاتكم أسمع ابن أبي كبشة يخبر أن خزنة جهنم تسعة عشر وأنتم الدهم أي الشجعان أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد من خزنة جهنم؟ قال أبو الأشد أسيد بن كلفة بن خلف الجمحي: أنا أكفيكم منهم سبعة عشر، عشرة على ظهري وسبعة على بطني، فأكفوني أنتم اثنين. ورؤي أنه قال: أنا أمشي بين أيديكم على

ملائكة﴾ يعني لا رجالاً آدميين فمن ذا يغلب الملائكة وإنما جعلهم ملائكة ليكونوا من غير جنس المعذبين وأشد منهم لأن الجنسية مظنة الرأفة والرحمة ﴿وما جعلنا عدتهم﴾ أي عددهم في القلة ﴿إلا فتنة للذين كفروا﴾ أي ضلالة لهم حتى قالوا ما قالوا، وقيل فتنتهم هي قولهم لم لم يكونوا عشرين، وما الحكمة في تخصيص هذا العدد وقيل فتنتهم هي قولهم كيف يقدر هذا العدد، القليل على تعذيب جميع من في النار.

وأجيب عن قولهم لم لم يكونوا عشرين بأن أفعال الله تعالى لا تعلل ولا يقال فيها لم، وتخصيص الزبانية بهذا العدد لأمر اقتضته الحكمة، وقيل وجه الحكمة في كونهم تسعة عشر أن هذا العدد يجمع أكثر القليل، وأقل الكثير، ووجه ذلك أن الآحاد أقل الأعداد وأكثرها تسعة، وأقل الكثير عشرة فوقه الاقتصار على عدد يجمع أقل الكثير وأكثر القليل لهذه الحكمة، وما سوى ذلك من الأعداد فكثير لا يدخل تحت الحصر.

وأجيب عن قولهم كيف يقدر هذا العدد القليل على تعذيب جميع أهل النار، وذلك بأن الله جلّ جلاله يعطي هذا القليل من القوة والقدرة ما يقدر به على ذلك، فمن اعترف بكمال قدرة الله، وأنه على كل شيء قدير وأن أحوال القيامة على خلاف أحوال الدنيا زال عن قلبه هذا الاستبعاد بالكلية. ﴿ليستيقن الذين أوتوا الكتاب﴾ يعني أن هذا العدد مكتوب في التوراة والإنجيل أنهم تسعة عشر ﴿ويزداد الذين آمنوا إيماناً﴾ يعني من آمن من أهل الكتاب يزدادون تصديقاً بمحمد ﷺ، وذلك أن العدد كان موجوداً في كتابهم وأخبر به النبي ﷺ على وفق ما عندهم من غير سابقة دراسة، وتعلم علم إنما حصل له ذلك بالوحي السماوي، فزادوا بذلك إيماناً وتصديقاً بمحمد ﷺ. ﴿ولا يرتاب﴾ أي ولا يشك ﴿الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون﴾ يعني في عددهم وإنما قال ولا يرتاب وإن كان الاستيقان يدل على نفي الارتياب ليجمع لهم بين إثبات اليقين ونفي الشك، وذلك أبلغ وأكد لأن فيه تعريضاً بحال غيرهم كأنه قال: وليخالف حالهم حال الناس المرتابين من أهل الكفر، والنفاق ﴿وليقول الذين في قلوبهم مرض﴾ أي شك ونفاق ﴿والكافرون﴾ أي مشركو مكة.

فإن قلت لم يكن بمكة نفاق فكيف قال، وليقول الذين في قلوبهم مرض وهم المنافقون وهذه السورة مكية.

قلت لأنه كان في علم الله تعالى أن النفاق سيحدث فأخبره عما سيكون وهو كسائر الإخبار بالغيوب فعلى هذا تصوير الآية معجزة للنبي ﷺ لأنه إخبار عن غيب سيقع وقد وقع على وفق الخبر، وقيل يحتمل أن يراد بالذين في قلوبهم مرض أهل مكة لأن فيهم من هو شاك وفيهم من هو قاطع بالكذب ﴿ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ يعني أي شيء أراد الله بهذا المثل العجيب، وإنما سموه مثلاً لأنه استعارة من المثل المضروب لأنه مما غرب من الكلام وبدع استغراباً منهم لهذا العقد واستبعاداً له، والمعنى أي غرض قصد في جعل الملائكة تسعة عشرة لا عشرين ومرادهم بذلك إنكار

الصراط فأدفع عشرة بمنكبي الأيمن وتسعة بمنكبي الأيسر في النار ونمضي فندخل الجنة.

فأنزل الله عز وجل: ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة﴾، لا رجالاً آدميين فمن ذا يغلب الملائكة؟ ﴿وما جعلنا عدتهم﴾، أي عددهم في القلة، ﴿إلا فتنة للذين كفروا﴾، أي ضلالة لهم حتى قالوا ما قالوا، ﴿ليستيقن الذين أوتوا الكتاب﴾، لأنه مكتوب في التوراة والإنجيل إنهم تسعة عشر، ﴿ويزداد الذين آمنوا إيماناً﴾، يعني من آمن من أهل الكتاب يزدادون تصديقاً بمحمد ﷺ إذا وجدوا ما قاله موافقاً لما في كتبهم، ﴿ولا يرتاب﴾، لا يشك، ﴿الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون﴾، في عددهم، ﴿وليقول الذين في قلوبهم مرض﴾، شك ونفاق، ﴿والكافرون﴾، مشركو مكة ﴿ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾، أي شيء أراد بهذا الحديث؟ وأراد بالمثل الحديث نفسه. ﴿كذلك﴾، أي كما أضل الله من أنكر عدد الخزنة وهدى من صدق كذلك، ﴿يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾، قال مقاتل: هذا جواب أبي جهل حين قال: أما لمحمد أعوان إلا

هذا من أصله وإنه ليس من عند الله فلهذا سموه مثلاً ﴿كذلك﴾ أي كما أضل من أنكر عدد الخزنة وهدى من صدق به كذلك ﴿يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾ لأن الله تعالى بيده الهداية والإضلال ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾ هذا جواب لأبي جهل حين قال: أما لمحمد أعوان إلا تسعة عشر، والمعنى أن الخزنة تسعة عشر، ولهم أعوان وجنود من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله تعالى خلقوا لتعذيب أهل النار وقيل كما أن مقدورات الله تعالى غير متناهية فكذلك جنوده غير متناهية، ﴿وما هي﴾ يعني النار ﴿إلا ذكرى للبشر﴾ أي إلا تذكرة وموعظة للناس، وقيل ما هي يعني آيات القرآن ومواعظه إلا تذكرة للناس يتعظون بها ﴿كلاً﴾ أي لا يتعظون ولا يتذكرون، وقيل معناه ليس الأمر كما يقول من زعم أنه يكفي أصحابه خزنة النار وقيل كلا هنا بمعنى حقاً ﴿والقمر﴾.

وَاللَّيْلَ إِذَا أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحَ إِذَا أَصْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لِإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّتٍ يَسَاءُ لُونُ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾

﴿والليل إذا أدبر﴾ أي ولى ذاهباً، وقيل دبر بمعنى أقبل تقول العرب دبرني فلان أي جاء خلفي فالليل يأتي خلف النهار ﴿والصبح إذا أسفر﴾ أي أضاء وتبين وهذا قسم وجوابه ﴿إنها لإحدى الكبر﴾ يعني إن سقر لإحدى الأمور العظام، وقيل أراد بالكبر دركات النار وهي سبعة جهنم ولظى والحطمة والسعير وسقر والجحيم والهاوية ﴿نذيراً للبشر﴾ قيل يحتمل أن يكون نذيراً صفة للنار، والمعنى أن النار نذير للبشر قال الحسن: والله ما أنذر بشيء أدهى من النار، وقيل يجوز أن يكون نذيراً صفة لله تعالى، والمعنى أنا لكم منها نذير فاتقوها وقيل هو صفة للنبي ﷺ ومعناه يا أيها المدثر قم نذيراً للبشر فأنذر ﴿لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر﴾ أي يتقدم في الخير والطاعة أو يتأخر عنهما فيقع في الشر والمعصية، والمعنى أن الإنذار قد حصل لكل واحد ممن آمن أو كفر، وقد تمسك بهذه الآية من يرى أن العبد غير مجبور على الفعل وأنه متمكن من فعل نفسه.

تسعة عشر؟ قال عطاء: وما يعلم جنود ربك إلا هو يعني من الملائكة الذين خلقهم لتعذيب أهل النار، لا يعلم عدتهم إلا الله، والمعنى إن تسعة عشر هم خزنة النار، ولهم من الأعوان والجنود من الملائكة ما لا يعلمهم إلا الله عز وجل، ثم رجع إلى ذكر سقر فقال: ﴿وما هي﴾، يعني النار، ﴿إلا ذكرى للبشر﴾، إلا تذكرة وموعظة للناس.

﴿كلاً والقمر﴾، هذا قسم يقول حقاً.

﴿والليل إذا أدبر﴾، قرأ نافع وحزمة وحفص ويعقوب ﴿إذ﴾ بغير ألف، ﴿أدبر﴾ بالالف، وقرأ الآخرون (إذا) بالالف، (دبر) بلا ألف، لأنه أشد موافقة لما يليه، وهو قوله: ﴿والصبح إذا أسفر﴾، ولأنه ليس في القرآن قسم بجانبه إذ وإنما بجانب الأقسام إذا وكلاهما لغة، يقال: دبر الليل وأدبر إذا ولى ذاهباً. قال أبو عمرو: دبر لغة قريش، وقال قطرب: دبر أي أقبل، تقول العرب: دبرني فلان أي جاء خلفي، فالليل يأتي خلف النهار.

﴿والصبح إذا أسفر﴾، أضاء وتبين.

﴿إنها لإحدى الكبر﴾، يعني أن سقر لإحدى الأمور العظام، وواحد الكبر كبرى، قال مقاتل والكلبي: أراد بالكبر دركات جهنم وهي سبعة: جهنم ولظى والحطمة والسعير وسقر والجحيم والهاوية.

﴿نذيراً للبشر﴾، يعني النار نذيراً للبشر. قال الحسن: والله ما أنذر الله بشيء أدهى منها، وهو نصب على القطع من قوله لإحدى الكبر إنها معروفة، ونذيراً نكرة، قال الخليل: النذير مصدر كالنكير. ولذلك وصف به المؤمن، وقيل: هو من صفة الله سبحانه وتعالى، مجازه: وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة نذيراً للبشر أي إنذاراً

وأجيب عنه بأن مشيئته تابعة لمشيئة الله تعالى؛ وقيل إضافة المشيئة إلى المخاطبين على سبيل التهديد كقوله ﴿اعملوا ما شئتم﴾ وقيل هذه المشيئة لله تعالى، والمعنى لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر.

قوله تعالى: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ أي مرتهنة في النار بكسبها ومأخوذة بعملها ﴿إلا أصحاب اليمين﴾ فإنهم غير مرتهين بذنوبهم في النار، ولكن الله يغفرها لهم، وقيل معناه فكوا رقاب أنفسهم بأعمالهم الحسنة كما يفك الراهن رهنه بأداء الحق الذي عليه.

واختلفوا في أصحاب اليمين من هم فقيل هم المؤمنون المخلصون، وقيل هم الذين يعطون كتبهم بإيمانهم، وقيل هم الذين كانوا على يمين آدم يوم أخذ الميثاق وحين قال الله تعالى لهم: ﴿هؤلاء في الجنة ولا أبالي﴾ وقيل هم الذين كانوا ميامين أي مباركين على أنفسهم، وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنهم أطفال المسلمين وهو أشبه بالصواب لأن الأطفال لم يكتسبوا إثماً يرتهنون به وعن ابن عباس قال هم الملائكة ﴿في جنات﴾ أي هم في بساتين ﴿يتساءلون عن المجرمين﴾ أي يتساءلون المجرمين وعن صلة فيقولون لهم.

مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمَسْكِينِ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ آتَانَا الْيَقِينَ ﴿٤٧﴾ فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّفِيعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَزَتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾

﴿ما سلككم في سقر﴾ قيل وهذا يقوي قول من قال إن أصحاب اليمين هم الأطفال لأنهم لم يعرفوا الذنوب التي توجب النار، وقيل معناه يسأل بعضهم بعضاً عن المجرمين، فعلى هذا التفسير يكون معنى ما سلككم، أي يقول المسؤولون للسائلين قلنا للمجرمين ما سلككم، أي أدخلكم وقيل ما حبسكم في سقر، وهذا سؤال توبيخ وتقريع

لهم قال أبو رزين يقول أنا لكم منها نذير، فاتقوها. وقيل: هو صفة محمد ﷺ معناه: يا أيها المدثر قم نذيراً للبشر، فأنذر، وهذا معنى قول ابن زيد.

﴿لمن شاء﴾، بدل من قوله للبشر: ﴿منكم أن يتقدم﴾، في الخير والطاعة، ﴿أو يتأخر﴾، عنها في الشر والمعصية، والمعنى: أن الإنذار قد حصل لكل واحد ممن آمن أو كفر.

﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾، مرتهنة في النار بكسبها مأخوذة بعملها.

﴿إلا أصحاب اليمين﴾، فإنهم لا يرتهنون بذنوبهم في النار ولكن يغفرها الله لهم. قال قتادة: علق الناس كلهم إلا أصحاب اليمين. واختلفوا فيهم روي عن علي رضي الله عنه أنهم أطفال المسلمين. وروى أبو ظبيان عن ابن عباس: هم الملائكة. وقال مقاتل: هم أصحاب الجنة الذين كانوا على يمين آدم يوم الميثاق، حين قال الله لهم: هؤلاء في الجنة ولا أبالي وعنه أيضاً: هم الذين أعطوا كتبهم بإيمانهم، وعنه أيضاً: هم الذين كانوا ميامين على أنفسهم. وقال الحسن: هم المسلمون المخلصون. وقال القاسم: كل نفس مأخوذة بكسبها من خير أو شر إلا من اعتمد على الفضل، وكل من اعتمد على الكسب فهو رهين به، ومن اعتمد على الفضل فهو غير مأخوذ به.

﴿في جنات يتساءلون﴾ عن المجرمين، ﴿المشركين﴾.

﴿ما سلككم﴾، أدخلكم، ﴿في سقر﴾، فأجابوا.

﴿قالوا لم نك من المصلين﴾، الله.

﴿ولم نك نطعم المسكين﴾ وكنّا نخوض، ﴿في الباطل﴾، ﴿مع الخائضين﴾ وكنّا نكذب بيوم الدين *

﴿قَالُوا﴾ مجيبين لهم ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلِينَ﴾ أي الله في الدنيا ﴿وَلَمْ نَكُ نَطْعَمُ الْمَسْكِينِ﴾ أي لم نتصدق عليه ﴿وَكُنَّا نَخْوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ أي في الباطل ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي بيوم الجزاء على الأعمال وهو يوم القيامة ﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ يعني الموت قال الله تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ قال ابن مسعود: تشفع الملائكة والنبيون والشهداء والصالحون وجميع المؤمنين فلا يبقى في النار إلا أربعة ثم تلا ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلِينَ﴾ الآية، وقال عمران بن حصين: الشفاعة نافعة لكل أحد دون هؤلاء الذين تسمعون. روى البغوي بسنده عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ «يصف أهل النار فيعذبون قال فيمر بهم الرجل من أهل الجنة، فيقول للرجل منهم يا فلان فيقول ما تريد فيقول أما تذكر رجلاً سقاك شربة يوم كذا وكذا قال؛ فيقول وإنك لأنت هو فيقول نعم فيشفع له فيشفع فيه قال، ثم يمر بهم الرجل من أهل الجنة فيقول يا فلان فيقول ما تريد فيقول أما تذكر رجلاً وهب لك وضوءاً يوم كذا وكذا، فيقول وإنك لأنت هو فيقول نعم فيشفع له فيشفع فيه» ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ أي عن مواعظ القرآن ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ﴾ جمع حمار ﴿مُسْتَنْفَرَةٌ﴾ قرىء بالكسر أي نافرة وقرىء بالفتح أي منفرة مذعورة محمولة على النفار ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ قيل القسورة جماعة الرماة لا واحد له من لفظه، وهي رواية عن ابن عباس وعنه أنها القناص وعنه قال: هي حبال الصيادين، وقيل معناه فرت من رجال أقوياء وكل ضخم شديد عند العرب قسورة وقصور وقيل القسورة لغط القوم وأصواتهم وقيل القسورة شدة سواد ظلمة الليل وقال أبو هريرة: هي الأسد وذلك لأن الحمر الوحشية إذا عاينت الأسد هربت فكذلك هؤلاء المشركون إذا سمعوا النبي ﷺ يقرأ القرآن هربوا منه شبههم بالحمر في

حتى أتانا اليقين، وهو الموت.

قال الله عز وجل: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾، قال ابن مسعود: تشفع الملائكة والنبيون والشهداء والصالحون وجميع المؤمنين، فلا يبقى في النار إلا أربعة، ثم تلا: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلِينَ﴾ إلى قوله: ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾، قال عمران بن الحصين: الشفاعة نافعة لكل واحد دون هؤلاء الذين تسمعون. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أحمد بن الحسين الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي ثنا محمد بن حماد ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن يزيد الرقاشي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ يصف أهل النار فيعذبون قال: «فيمر بهم الرجل من أهل الجنة فيقول الرجل منهم يا فلان قال: فيقول: ما تريد؟ فيقول: أما تذكر رجلاً سقاك شربة ماء يوم كذا وكذا؟ قال: فيقول: وإنك لأنت هو؟ فيقول: نعم، فيشفع له فيشفع فيه. قال: ثم يمر بهم الرجل من أهل الجنة فيقول: يا فلان، فيقول: ما تريد؟ فيقول: أما تذكر رجلاً وهب لك وضوءاً يوم كذا وكذا؟ فيقول: إنك لأنت هو؟ فيقول: نعم فيشفع له فيشفع فيه».

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾، عن مواعظ القرآن معرضين نصب على الحال، وقيل صاروا معرضين. ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ﴾، جمع حمار، ﴿مُسْتَنْفَرَةٌ﴾، قرأ أهل المدينة والشام بفتح الفاء، وقرأ الباقون بكسرها، فمن قرأ بالفتح فمعناها مُنْفَرَةٌ مذعورة، ومن قرأ بالكسر فمعناها نافرة، يقال: نفر واستنفر بمعنى واحد، كما يقال عجب واستعجب.

﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾، قال مجاهد وقتادة والضحاك: القسورة جماعة الرماة لا واحد لها من لفظها، وهي رواية عطاء عن ابن عباس. وقال سعيد بن جبیر: هم القناص وهي رواية عطية عن ابن عباس. وقال زيد بن أسلم: من رجال أقوياء وكل ضخم شديد عند العرب قسور وقسورة. وعن أبي المتوكل قال: هي لغط القوم وأصواتهم. وروى عكرمة عن ابن عباس قال: هي حبال الصيادين. وقال أبو هريرة: هي الأسد، وهو قول عطاء والكلبي،

البلادة والبله، وذلك أنه لا يرى مثل نفار حمر الوحش إذا خافت من شيء.

بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنشَرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ ﴿٥٤﴾
فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ النَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

﴿بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشرة﴾ قال المفسرون إن كفار قريش قالوا لرسول الله ﷺ ليصبح عند رأس كل رجل منا كتاب منشور من الله إنك رسوله نؤمر فيه بإتباعك، وقيل إن المشركين قالوا يا محمد بلغنا أن الرجل من بني إسرائيل كان يصبح، وعند رأسه ذنبه وكفارته فأتنا بمثل ذلك ﴿كلا﴾ أي لا يؤتون الصحف وهو ردع لهم عن هذه الاقتراحات ﴿بل لا يخافون الآخرة﴾ أي لا يخافون عذاب الآخرة والمعنى أنهم لو خافوا النار لما اقترحوا هذه الآيات بعد قيام الأدلة، لأنه لما حصلت المعجزات الكثيرة كفت في الدلالة على صحة النبوة فطلب الزيادة يكون من باب التعتن ﴿كلا﴾ أي حقاً ﴿إنه تذكرة﴾ يعني إنه عظة عظيمة ﴿فمن شاء ذكره﴾ أي اتعظ به فإنما يعود نفع ذلك عليه ﴿وما يذكرون إلا أن يشاء الله﴾ أي إلا أن يشاء الله لهم الهدى فيتذكروا ويتعظوا ﴿هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾ أي هو حقيق بأن يتقيه عباده ويخافوا عقابه فيؤمنوا به ويطيعوه، وهو حقيق بأن يغفر لهم ما سلف من كفرهم وذنوبهم. وقيل هو أهل أن تتقي محارمه، وأهل أن يغفر لمن اتقاه عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في هذه الآية: هو أهل التقوى وأهل المغفرة قال الله تبارك، وتعالى أنا أهل أن أتقي فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهاً فأنا أهل أن أغفر له أخرجه الترمذي، وقال حديث غريب وفي إسنادة سهيل بن عبد الله القطيعي وليس بالقوي في الحديث وقد تفرد به عن ثابت، والله تعالى أعلم بمراده.

وذلك أن الحمر الوحشية إذا عاينت الأسد هربت، كذلك هؤلاء المشركين إذا سمعوا النبي ﷺ يقرأ القرآن هربوا منه. قال عكرمة: هي ظلمة الليل، ويقال لسواد أول الليل قسورة.

﴿بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشرة﴾، قال المفسرون: إن كفار قريش قالوا لرسول الله ﷺ: ليصبح عند رأس كل رجل منا كتاب منشور من الله أنك لرسوله نؤمر فيه بإتباعك. قال الكلبي: إن المشركين قالوا: يا محمد بلغنا أن الرجل من بني إسرائيل كان يصبح مكتوباً عند رأسه ذنبه وكفارته، فاتنا بمثل ذلك، والصحف الكتب وهي جمع الصحيفة ومنشرة منشورة.

فقال الله تعالى: ﴿كلا﴾، لا يؤتون الصحف. وقيل: حقاً وكل ما ورد عليك منه فهذا وجهه بل، ﴿لا يخافون الآخرة﴾، أي لا يخافون عذاب الآخرة، والمعنى أنهم لو خافوا النار لما اقترحوا هذه الآيات بعد قيام الأدلة.

﴿كلا﴾، حقاً، ﴿إنه﴾، يعني القرآن، ﴿تذكرة﴾، موعظة.

﴿فمن شاء ذكره﴾، اتعظ به.

﴿وما يذكرون﴾، قرأ نافع ويعقوب تذكرون بالتاء والآخرين بالياء، ﴿إلا أن يشاء الله﴾، قال مقاتل: إلا أن يشاء الله لهم الهدى. ﴿هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾، أي أهل أن يتقى محارمه وأهل أن يغفر لمن اتقاه، أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا ابن فنجويه ثنا عمر بن الخطاب ثنا عبد الله بن الفضل ثنا هدية بن خالد ثنا سهيل بن أبي حزم عن ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ قال في هذه الآية: ﴿هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾ قال: قال ربكم عز وجل: «أنا أهل أن أتقى ولا يُشرك بي غيري، وأنا أهل لمن أتقى أن يشرك بي أن أغفر له»، وسهيل هو ابن عبد الرحمن القطيعي أخو حزم القطيعي.

سورة القيامة

مكية وهي أربعون آية ومائة وتسع وتسعون كلمة وستمائة واثنان وخمسون حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴿١﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ اِيْحَسْبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْعَ عِظَامُهُ ﴿٣﴾

قوله عز وجل: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ اتفقوا على أن المعنى أقسم، واختلفوا في لفظ لا فقل إدخال لفظة لا على القسم مستفيض في كلام العرب، وأشعارهم قال امرؤ القيس:

لا وأبيك ابنة العامري لا يدعى القوم أني أفر

قالوا: وفائدتها تأكيد القسم كقولك لا والله ما ذاك كما تقول تريد والله فيجوز حذفها. لكنه أبلغ في الرد مع إثباتها، وقيل إنها صلة كقول الله تعالى: ﴿لَنَلَا يَعْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ وفيه ضعف لأنها لا تزداد إلا في وسط الكلام لا في أوله.

وأجيب عنه بأن القرآن في حكم السورة الواحدة بعضه متصل ببعض يدل عليه أنه قد يجيء ذكر الشيء في سورة، ويذكر جوابه في سورة أخرى كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ وجوابه في سورة ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٌ﴾ وإذا كان كذلك كان أول هذه السورة جارياً مجرى الوسط وفيه ضعف أيضاً لأن القرآن في حكم السورة الواحدة في عدم التناقض لا أن تقرأ سورة بما بعدها فذلك غير جائز، وقيل لا رد لكلام المشركين المنكرين للبعث أي ليس الأمر كما زعموا، ثم ابتداء فقال أقسم بيوم القيامة وأقسم بالنفس اللوامة، وقيل الوجه فيه أن يقال إن لا هي للنفي، والمعنى في ذلك كأنه قال لا أقسم بذلك اليوم ولا بتلك النفس إلا إعظماً لهما فيكون الغرض تعظيم المقسم به وتفخيم شأنه، وقيل معناه لا أقسم بهذه الأشياء على إثبات هذا المطلوب فإنه إثباته أظهر من أن يقسم عليه. وروى البغوي في تفسير القيامة عن المغيرة بن شعبة قال: يقولون القيامة وقيامه أحدهم موته وشهد علقمة

سُورَةُ الْقِيَامَةِ

مكية وهي أربعون آية.

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، قرأ القواس عن ابن كثير (لا قسم) الحرف الأول بلا ألف قبل الهمزة.

﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾، بالألف وكذلك قرأ عبد الرحمن الأعرج، على معنى أنه أقسم بيوم القيامة، ولم يقسم بالنفس اللوامة والصحيح، أنه أقسم بهما جميعاً و﴿لَا﴾ صلة فيهما أي أقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة. وقال أبو بكر بن عياش: هو تأكيد للقسم كقولك لا والله. وقال الفراء: لا رد لكلام المشركين المنكرين،

جنازة فلما دفنت قال أما هذا فقد قامت قيامته وفيه ضعف لاتفاق المفسرين على أن المراد به القيامة الكبرى لسياق الآيات في ذلك. وقوله ﴿وَلَا أَقْسَمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ﴾ قيل هي التي تلوم على الخير والشر ولا تصبر على السراء والضراء، وقيل اللوامة هي التي تندم على ما فات فتقول لو فعلت ولو لم تفعل وقيل ليس من نفس برة ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسها إن كانت عملت خيراً تقول هلا ازددت وإن عملت شراً تقول يا ليتني لم أفعل وقال الحسن: هي نفس المؤمن إن المؤمن ما تراه إلا يلوم نفسه ما أردت بكلامي ما أردت بأكلي، وإن الكفار يمضي ولا يحاسب نفسه، ولا يعاتبها، وقيل هي النفس الشريفة التي تلوم النفوس العاصية يوم القيامة بسبب ترك التقوى، وقيل هي النفس الشريفة التي لا تزال تلوم نفسها وإن اجتهدت في الطاعة وقيل هي النفس الشقية العاصية يوم القيامة بسبب ترك التقوى، وقيل هي النفس الشقية تلوم نفسها حين تعاین أهوال يوم القيامة فتقول «يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله» فإن قلت أي مناسبة بين يوم القيامة، وبين النفس اللوامة حتى جمع بينهما في القسم.

قلت وجه المناسبة أن في يوم القيامة تظهر أحوال النفوس اللوامة من الشقاوة أو السعادة فلهذا حسن الجمع بينهما في القسم وقيل إنما وقع القسم بالنفس اللوامة على معنى التعظيم لها من حيث إنها أبدأ تستحق فعملها واجتهادها في طاعة الله تعالى؛ وقيل إنه تعالى: أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة فكأنه قال أقسم بيوم القيامة تعظيماً لها ولا أقسم بالنفس اللوامة تحقيراً لها لأن النفس الكافرة أو الفاجرة لا يقسم بها، فإن قلت المقسم به هو يوم القيامة، والمقسم عليه هو يوم القيامة، فيصير حاصله أنه أقسم بيوم القيامة على وقوع القيامة وفيه إشكال.

قلت إن المحققين قالوا: القسم بهذه الأشياء قسم بربها في الحقيقة، فكأنه قال أقسم برب القيامة، وقيل لله تعالى أن يقسم بما يشاء من خلقه وجواب القسم محذوف تقديره لتبعثن ثم لتحاسبن يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ وقيل جواب القسم قوله:

ثم ابتداء فقال أقسم بيوم القيامة وأقسم بالنفس اللوامة. وقال المغيرة بن شعبة: يقولون القيامة وقيامه أحدهم موته، وشهد علقمة جنازة فلما دفنت قال: أما هذا فقد قامت قيامته. ﴿وَلَا أَقْسَمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ﴾ قال سعيد بن جبيرة وعكرمة: تلوم على الخير والشر ولا تصبر على السراء والضراء. قال قتادة: اللوامة الفاجرة. قال مجاهد: تندم على ما فات وتقول لو فعلت ولو لم أفعل. قال الفراء: ليس من نفس برة ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسها، إن كانت عملت خيراً قالت: هلا ازددت، وإن عملت شراً قالت: ليتني لم أفعل. قال الحسن: هي النفس المؤمنة قال: إن المؤمن والله ما تراه إلا يلوم نفسه ما أردت بكلامي ما أردت بأكلتي وإن الفاجر يمضي قُدماً لا يحاسب نفسه ولا يعاتبها. قال مقاتل: هي النفس الكافرة تلوم نفسها في الآخرة على ما فرطت في أمر الله في الدنيا.

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾، نزلت في عدي بن ربيعة حليف بني زهرة ختن الأخنس بن شريق الثقفي، وكان النبي ﷺ يقول: اللَّهُمَّ اكْفِنِي جَارِي السَّوِّءِ عَدِيًّا وَالْأَخْنَـسَ. وذلك أن عدي بن ربيعة أتى النبي ﷺ فقال: يا محمد حدثني عن القيامة متى تكون وكيف أمرها وحالها؟ فأخبره النبي ﷺ فقال: لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك ولم أؤمن بك أو يجمع الله العظام، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ﴾ يعني الكافر ﴿أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ بعد التفرق والبلى فنُحييه، قيل: ذكر العظام وأراد نفسه لأن العظام قالب النفس لا يستوي الخلق إلا باستوائها. وقيل: هو خارج على قول المنكر أو يجمع الله العظام كقوله: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨].

بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾

﴿بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾ ومعنى أيحسب الإنسان أيعظم أن العظام بعد تفرقها ورجوعها رميمًا، ورفاتًا مختلطة بالتراب وبعد ما نسفتها الريح فطيرتها في أباعد الأرض أن لن نجمع عظامه، أي لا يمكننا جمعها مرة أخرى وكيف خطر بباله هذا الخاطر الفاسد، وما علم أن القادر على الإبداء قادر على الإعادة نزلت هذه الآية في عدي بن ربيعة حليف بني زهرة وهو ختن الأخنس بن شريق الثقفي وكان النبي ﷺ يقول اللهم اكفني جاري السوء يعني عدياً والأخنس وذلك أن عدياً أتى النبي ﷺ فقال يا محمد حدثني متى تكون القيامة وكيف أمرها وحالها فأخبره النبي ﷺ فقال عدي بن ربيعة لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك، ولم أؤمن بك أو يجمع الله العظام فأنزل الله عز وجل . أيحسب الإنسان يعني هذا الكافر أن لن نجمع عظامه يعني بعد التفرق والبلاء فنحييه ما كان أول مرة، وقيل ذكر العظام وأراد بها نفسه جميعها لأن العظام قالب النفوس، ولا يستوي الخلق إلا باستوائها، وقيل إنما خرج على وفق قول هذا المنكر، أو يجمع الله العظام بلى قادرين يعني على جمع عظامه، وتألّفها وإعادةها إلى التركيب الأول والحالة، والهيئة الأولى وعلى ما هو أعظم من ذلك، وهو أن نسوي بنانه يعني أنامله فنجعل أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً كخف البعير، أو كحافر الحمار، فلا يقدر أن يرتفق بها بالقبض والبسط والأعمال اللطيفة كالكتابة والخياطة وغيرهما، وقيل معناه أظن الكافر أن لن نقدر على عظامه بلى نقدر على جمع عظامه حتى نعيد السلاميات على صغرها إلى أماكنها، ونؤلف بينها حتى نسوي البنان فمن يقدر على جمع العظام الصغار، فهو على جمع كبارها أقدر وهذا القول أقرب إلى الصواب، وقيل إنما خص البنان بالذكر لأنه آخر ما يتم به الخلق .

قوله تعالى: ﴿بل يريد الإنسان ليفجر أمامه﴾ أي ليدوم على فجوره فيما يستقبله من الزمان ما عاش لا ينزع عن المعاصي ولا يتوب وقال سعيد بن جبير يقدم الذنب ويؤخر التوبة، ويقول سوف أتوب سوف أعمل حتى يأتيه الموت وهو على سوء حاله وشر أعماله، وقيل هو طول الأمل يقول أعيش فأصيب من الدنيا كذا وكذا ولا يذكر الموت وقال ابن عباس: يكذب بما أمامه من البعث والحساب، وأصل الفجور الميل وسمي الكافر والفاسق فاجراً لميله عن الحق .

﴿بلى قادرين﴾، أي نقدر استقبال صرف إلى الحال، قال الفراء: ﴿قادرين﴾ نصب على الخروج من نجمع كما نقول في الكلام أتحسب أن لا نقدر عليك؟ بلى قادرين على أقوى منك، يريد بلى قادرين على أكثر من ذا، مجاز الآية: بلى نقدر على جمع عظامه وعلى ما هو أعظم من ذلك، وهو: ﴿على أن نسوي بنانه﴾، أنامله فنجعل أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً كخف البعير وحافر الحمار فلا يرتفق بها بالقبض والبسط والأعمال اللطيفة كالكتابة والخياطة وغيرها، هذا قول أكثر المفسرين . وقال الزجاج وابن قتيبة: معناه ظن الكافر أننا لا نقدر على جمع عظامه بلى نقدر على أن نعيد السلاميات على صغرها فنؤلف بينها حتى نسوي البنان، فمن قدر على جمع صغار العظام فهو على جمع كبارها أقدر .

﴿بل يريد الإنسان ليفجر أمامه﴾، يقول لا يجهل ابن آدم أن ربه قادر على جمع عظامه لكنه يريد أن يفجر أمامه أي يمضي قدماً في الله ما عاش راكباً رأسه لا ينزع عنها ولا يتوب، هذا قول مجاهد والحسن وعكرمة والسدي . وقال سعيد بن جبير: ليفجر أمامه يقدم على الذنب ويؤخر التوبة فيقول سوف أتوب سوف أعمل حتى يأتيه الموت على شر أحواله وأسوأ أعماله . وقال الضحاك: هو الأمل يقول أعيش فأصيب من الدنيا كذا وكذا ولا يذكر الموت . وقال ابن عباس وابن زيد: يكذب بما أمامه من البعث والحساب . وأصل الفجور الميل وسمي الفاسق والكافر فاجراً لميله عن الحق .

يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَتَيْنَ الْمَفْرُءَ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَيْكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾

﴿يسأل أيان يوم القيامة﴾ أي متى يكون يوم القيامة والمعنى أن الكافر يسأل سؤال متعنت مستبعد لقيام الساعة قال الله تعالى: ﴿فإذا برق البصر﴾ أي شخص البصر عند الموت فلا يطرف مما يرى من العجائب التي كان يكذب بها في الدنيا، وقيل تبرق أبصار الكفار عند رؤية جهنم، وقيل برق إذا فزع وتحير لما يرى من العجائب، وقيل برق أي شق عينه وفتحها من البريق وهو التلألؤ ﴿وخسف القمر﴾ أي أظلم وذهب ضوءه ﴿وجمع الشمس والقمر﴾ يعني أسودين مكورين كأنهما ثوران عقيران، وقيل يجمع بينهما في ذهاب الضوء، وقيل يجمعان ثم يقذفان في البحر فهناك نار الله الكبرى ﴿يقول الإنسان﴾ يعني الكافر المكذب ﴿يومئذ﴾ أي القيامة ﴿أين المفر﴾ أي المهرب وهو موضع الفرار ﴿كلا﴾ أي لا ملجأ لهم يهربون إليه وهو قوله ﴿لا وزر﴾ أي لا حرز ولا ملجأ ولا جبل، وكانوا إذا فزعوا لجؤوا إلى الجبل فتحصنوا به، فقيل لهم لا جبل لكم يومئذ تتحصنون به وأصل الوزر الجبل المنيع، وكل ما التجأت إليه وتحصنت به فهو وزر ومنه قول كعب بن مالك.

الناس آلت علينا فيك ليس لنا إلا السيوف وأطراف القنا وزر

ومعنى الآية إنه لا شيء يعصمهم من أمر الله تعالى لا حصن ولا جبل يوم القيامة يستندون إليه من النار ﴿إلى ربك يومئذ المستقر﴾ يعني مستقر الخلق وقال عبد الله بن مسعود إليه الصمير والمرجع وهو بمعنى لاستقرار، وقيل إلى ربك مستقرهم أي موضع قرارهم من جنة أو نار، وذلك مفوض إلى مشيئته فمن شاء أدخله الجنة برحمته ومن

﴿يسأل أيان يوم القيامة﴾، أي متى يكون ذلك تكديماً به.

قال الله تعالى: ﴿فإذا برق البصر﴾، قرأ أهل المدينة ﴿برق﴾ بفتح الراء وقرأ الآخرون بكسرها وهما لغتان. قال قتادة ومقاتل: شخص البصر فلا يطرف مما يرى من العجائب التي كان يكذب بها في الدنيا. قيل: ذلك عند الموت. وقال الكلبي: عند رؤية جهنم تبرق أبصار الكفار. وقال الفراء والخليل برق بالكسر أي فزع وتحير لما يرى من العجائب، وبرق بالفتح أي شق عينه وفتحها من البريق وهو التلألؤ.

﴿وخسف القمر﴾، أظلم وذهب نوره وضوءه.

﴿وجمع الشمس والقمر﴾، أي صارا أسودين مكورين كأنهما ثوران عقيران. وقيل: يجمع بينهما في ذهاب الضياء. وقال عطاء بن يسار يجمعان يوم القيامة ثم يقذفان في البحر فيكونان نار الله الكبرى. وقيل: يجمعان ثم يقذفان في النار. وقيل: يجمعان فيطلعان من المغرب.

﴿يقول الإنسان﴾، أي الكافر المكذب ﴿يومئذ أين المفر﴾، أي المهرب وهو موضع الفرار. وقيل: هو مصدر أي أين الفرار.

قال الله تعالى: ﴿كلا لا وزر﴾، لا حصن ولا حرز ولا ملجأ. وقال السدي: لا جبل وكانوا إذا فزعوا لجؤوا إلى الجبل فتحصنوا به. وقال تعالى: لا جبل يومئذ يمنعهم.

﴿إلى ربك يومئذ المستقر﴾، أي مستقر الخلق. وقال عبد الله بن مسعود: المصير والمرجع نظيره قوله تعالى: ﴿إلى ربك الرجعى﴾ [العلق: ٨] ﴿وإلى الله المصير﴾ [آل عمران: ٢٨، النور: ٤٢، فاطر: ١٨] وقال

شاء أدخله النار بعدله ﴿يُنَبِّأُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس: بما قدم قبل موته من عمل صالح أو سيئ وما أخر بعد موته من سنة حسنة، أو سيئة يعمل بها، وعن ابن عباس أيضاً بما قدم من المعصية وأخر من الطاعة، وقيل بما قدم من طاعة الله وأخر من حق الله فضيعه، وقيل بأول عمله وآخره وهو ما عمله في أول عمره وفي آخره، وقيل بما قدم من ماله لنفسه قبل موته وما أخر من ماله لورثته.

بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرُهُ ﴿١٥﴾ لَا تَحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾

﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾ أي بل الإنسان على نفسه من نفسه رقباء يرقبونه ويشهدون عليه بعمله وهي سمعه وبصره وجوارحه، وإنما دخلت الهاء في البصيرة لأن المراد من الإنسان جوارحه، وقيل معناه بل الإنسان على نفسه عين بصيرة وفي رواية عن ابن عباس بل الإنسان على نفسه شاهد فتكون الهاء للمبالغة كعلامة ﴿ولو ألقى معاذيره﴾ يعني ولو اعتذر بكل عذر وجادل عن نفسه، فإنه لا ينفعه لأنه قد شهد عليه شاهد من نفسه، وقيل معناه ولو اعتذر فعليه من نفسه ما يكذب عذره، وقيل إن أهل اليمن يسمون الستر معذاراً وجمعه معاذير، فعلى هذا يكون معناه ولو أرخى الستور وأغلق الأبواب ليخفي ما يعمل، فإن نفسه شاهدة عليه، وهذا في حق الكافر لأنه ينكر يوم القيامة فتشهد عليه جوارحه بما عمل في الدنيا.

قوله عز وجل: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾ (ق) عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾ قال كان النبي ﷺ يعالج من التنزيل شدة وكان مما يحرك شفتيه قال ابن جبير: قال ابن عباس أنا أحركهما كما كان رسول الله ﷺ يحركها فحرك شفتيه فأنزل الله عز وجل ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾ إن علينا جمعه وقرآنه قال: جمعه في صدرك ثم تقرأه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. قال فاستمع وأنصت ثم إن علينا أن تقرأه، قال فكان رسول الله ﷺ إذا أتاه جبريل بعد ذلك استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما قرأه، وفي رواية

السدي: المنتهى نظيره: ﴿وإن إلى ربك المنتهى﴾ [النجم: ٤٢].

﴿يُنَبِّأُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾، قال ابن مسعود وابن عباس بما قدم قبل الموت من عمل صالح وسيئ، وما أخر بعد موته من سنة حسنة أو سيئة يعمل بها. وقال عطية عن ابن عباس بما قدم من المعصية وأخر من الطاعة. وقال قتادة: بما قدم من طاعة الله وأخر من حق الله فضيعه. وقال مجاهد: بأول عمله وآخره. وقال عطاء: قدم في أول عمره وما أخر في آخر عمره. وقال زيد بن أسلم بما قدم من أمواله لنفسه وما أخر خلفه للورثة.

﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾، قال عكرمة ومقاتل والكلبي معناه بل الإنسان على نفسه من نفسه رقباء يرقبونه ويشهدون عليه بعمله، وهي سمعه وبصره وجوارحه، ودخل الهاء في البصيرة لأن المراد بالإنسان ههنا جوارحه ويحتمل أن يكون معناه بل الإنسان على نفسه بصيرة، يعني لجوارحه، فحذف حرف الجر كقوله: ﴿وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم﴾ [البقرة: ٢٣٣] أي لأولادكم، ويجوز أن يكون نعتاً لاسم مؤنث أي بل الإنسان على نفسه عين بصيرة. وقال أبو العالية وعطاء بل الإنسان على نفسه شاهد وهي رواية العوفي عن ابن عباس والهاء في بصيرة للمبالغة دليل هذا التأويل. قوله عز وجل: ﴿كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ [الإسراء: ١٤].

﴿ولو ألقى معاذيره﴾، يعني يشهد عليه الشاهد ولو اعتذر وجادل عن نفسه لم ينفعه، كما قال: ﴿يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم﴾ [غافر: ٥٢]، وهذا قول مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير وابن زيد وعطاء: قال الفراء: ولو اعتذر فعليه الإلقاء القول كما قال: ﴿فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون﴾ [النحل: ٨٦]. وقال الضحاك والسدي:

كما وعده الله تعالى لفظ الحميدي، ورواه البغوي من طريق البخاري وقال: فيه كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحي، كان مما يحرك لسانه وشفثيه فيشتد عليه، وكان يعرف منه فأنزل الله عز وجل الآية، التي في لا أقسم بيوم القيامة لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه، قال إن علينا أن نجمله في صدرك، وتقرأه فإذا قرأناه، فاتبع قرآنه، فإذا أنزلناه فاستمع ثم إن علينا بيانه علينا أن نبينه بلسانك. قال فكان إذا أتاه جبريل أطرق فإذا ذهب قرأه كما وعده الله تعالى؛ وفي رواية كان يحرك شفثيه إذا نزل عليه يخشى أن ينفلت منه فقل له لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه، أي نجمله في صدرك وقرآنه أن تقرأه، ومعنى الآية لا تحرك بالقرآن لسانك، وإنما جاز هذه الإضمار وإن لم يجز له ذكر للدلالة الحال عليه لتجعل به أي بأخذه ﴿إن علينا جمعه﴾ أي جمعه في صدرك وحفظك إياه ﴿وقرآنه﴾ أي قراءته علينا والمعنى سنقرئك يا محمد بحيث تصير لا تنساه ﴿فإذا قرآنه فاتبع قرآنه﴾ أي لا تكن قراءتك مقارنة لقراءة جبريل عليك بل اسكت حتى يتم جبريل ما يوحى إليك، فإذا فرغ جبريل من القراءة، فخذ أنت فيها، وجعل قراءة جبريل قراءته لأنه بأمره نزل بالوحي ونظيره. «من يطع الرسول فقد أطاع الله» وقيل معناه اعمل به واتبع حلاله، وحرامه، والقول الأول أولى لأن هذا ليس موضع الأمر باتباع حلاله وحرامه وإنما هو موضع الأمر بالاستماع حتى يفرغ جبريل من قراءته فكان النبي ﷺ بعد ذلك إذا نزل عليه جبريل بالوحي أصغى إليه فإذا فرغ من قراءته وعاه النبي ﷺ وحفظه ﴿ثم إن علينا بيانه﴾ أي أن نبينه بلسانك فتقرأه كما أقرأك جبريل وقيل إذا أشكل شيء من معانيه فنحن نبينه لك، وعلينا بيان ما فيه من الأحكام والحلال والحرام، وذلك أن النبي ﷺ كان إذا أشكل عليه شيء سأل جبريل عن معانيه لغاية حرصه على العلم فقل له نحن نبينه لك.

قوله تعالى: ﴿كلا﴾ أي حقاً ﴿بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة﴾ أي تختارون الدنيا على العقبى وتعملون لها يخاطب كفار مكة.

﴿ولو ألقى معاذيره﴾ يعني ولو أرحى الستور وأغلق الأبواب من نفسه من يكذب عذره. ومعنى وأهل اليمن يسمون الستر معذاراً وجمعه معاذير، ومعناه على هذا القول: وإن أسبل الستر ليخفي ما كان يعمل فإن نفسه شاهدة عليه.

قوله عز وجل: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي ثنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا قتبية بن سعيد ثنا جرير عن موسى بن أبي عائشة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾ قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل جبريل بالوحي كان يحرك لسانه وشفثيه فيشتد عليه، وكان يعرف منه فأنزل الله عز وجل الآية التي في لا أقسم بيوم القيامة، ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾.

﴿إن علينا جمعه وقرآنه﴾، قال علينا أن نجمله في صدرك، قرآنه.

﴿فإذا قرآنه فاتبع قرآنه﴾، فإذا أنزلناه فاستمع.

﴿ثم إن علينا بيانه﴾، علينا أن نبينه بلسانك. قال: وكان إذا أتاه جبريل أطرق فإذا ذهب قرأه كما وعده الله عز وجل: ورواه محمد بن إسماعيل عن عبد الله بن موسى عن إسرائيل عن موسى بن أبي عائشة بهذا الإسناد وقال: كان يحرك شفثيه إذا نزل عليه يخشى أن ينفلت منه، فقل له: ﴿لا تحرك به لسانك﴾ ﴿إن علينا جمعه﴾ أن نجمله في صدرك ﴿وقرآنه﴾ أن تقرأه.

﴿كلاً بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة﴾. قرأ أهل المدينة والكوفة تحبون وتذرون بالتاء فيهما، وقرأ الآخرون بالياء أي يختارون الدنيا على العقبى ويعملون لها يعني كفار مكة، ومن قرأ بالتاء فعلى تقدير قل لهم يا محمد: بل تحبون وتذرون.

وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَنْظُرُ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ
الْتَرَاقي ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْتَفَتِ الْسَاقِ ﴿٢٩﴾

﴿وجوه يومئذ﴾ أي يوم القيامة ﴿ناضرة﴾ من النضارة، وهي الحسن قال ابن عباس: حسنة وقيل مسرورة بالنعيم، وقيل ناعمة، وقيل مسفرة مضيئة، وقيل بيض يعلوها نور وبهاء وقيل مشرقة بالنعيم. ﴿إلى ربها ناظرة﴾ قال ابن عباس وأكثر المفسرين: تنظر إلى ربها عياناً بلا حجاب قال الحسن حق لها أن تنظر وهي تنظر إلى الخالق سبحانه وتعالى، وروي عن مجاهد وأبي صالح أنهما فسرا النظر في هذه الآية بالانتظار قال مجاهد تنتظر من ربها ما أمر لها به وقال أبو صالح تنتظر الثواب من ربها قال الأزهري ومن قال إن معنى قوله ﴿إلى ربها ناظرة﴾ بمعنى منتظرة فقد أخطأ لأن العرب لا تقول نظرت إلى الشيء بمعنى انتظرته إنما تقول نظرت فلاناً أي انتظرته ومنه قول الحطيئة:

وقد نظرتكم أعشاء صادرة للورد طال بها حوري وتنسائي

فإذا قلت نظرت إليه لم يكن إلا بالعين، وإذا قلت نظرت في الأمر احتمل أن يكون تفكر فيه وتدبر بالقلب، وهذا آخر كلامه ويشهد لصحة هذا أن النظر الوارد في التزليل بمعنى الانتظار كثير ولم يوصل في موضع بالي كقوله ﴿انظرونا نفتس من نوركم﴾ وقوله ﴿هل ينظرون إلا تأويله - هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله﴾ والوجه إذا وصف بالنظر وعدي بالي لم يحتمل غير الرؤية، وأما قوله أنظر إلى الله ثم إليك على معنى أتوقع فضل الله ثم فضلك، فيكون النظر إلى الوجه لم يحتمل نظر القلب إنما يجوز هذا إذا لم يسند إلى الوجه، فإذا أسند النظر إلى الوجه لم يحتمل نظر القلب، ولا الانتظار وإذا بطل المعنيان لم يبق لبقاء الرؤية كلام وإن شق ذلك عليهم، والأحاديث الصحيحة تعضد قول من فسر النظر في هذه الآية بالرؤية وسندكرها إن شاء الله تعالى.

(فصل: في إثبات رؤية المؤمنين ربهم سبحانه وتعالى في الآخرة)

قال علماء أهل السنة رؤية الله سبحانه وتعالى ممكنة غير مستحيلة عقلاً، وأجمعوا على وقوعها في الآخرة، وأن المؤمنين يرون الله سبحانه، وتعالى دون الكافرين بدليل قوله تعالى: ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾ وزعمت طوائف من أهل البدع كالمعتزلة والخوارج، وبعض المرجئة أن الله تعالى لا يراه أحد من خلقه، وأن رؤيته مستحيلة عقلاً، وهذا الذي قالوه خطأ صريح وجهل قبيح، وقد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة وإجماع الصحابة، فمن بعدهم من سلف الأمة على إثبات رؤية الله تعالى، وقد رواها نحو من عشرين صحابياً عن رسول الله ﷺ وآيات القرآن فيها مشهورة، واعتراضات المبتدعة عليها لها أجوبتها مشهورة في كتب المتكلمين من أهل السنة، وكذلك باقي شبههم وأجوبتها مشهورة مستفاضة في كتب الكلام، وليس هذا موضع ذكرها، ثم مذهب أهل الحق أن الرؤية قوة يجعلها الله في خلقه، ولا يشترط فيها اتصال الأشعة، ولا مقابلة المرئي ولا غير ذلك.

﴿وجوه يومئذ﴾، يوم القيامة ﴿ناضرة﴾، قال ابن عباس حسنة، وقال مجاهد: مسرورة. وقال ابن زيد: ناعمة. وقال مقاتل: بيض يعلوها النور. وقال السدي: مضيئة. وقال يمان: مسفرة. وقال الفراء: مشرقة بالنعيم. يقال: نضر الله وجهه ينضر نضراً، ونضره الله وأنضره ونضر وجهه ينضر نضرة ونضارة. قال الله تعالى: ﴿تعرف في وجوههم نضرة النعيم﴾ [المطففين: ٢٤]، ﴿إلى ربها ناظرة﴾، قال ابن عباس: وأكثر الناس تنظر إلى ربها عياناً بلا حجاب. قال الحسن: تنظر إلى الخالق وحق لها أن تنضر وهي تنظر إلى الخالق. أخبرنا أبو بكر بن أبي الهيثم الترابي أنا عبد الله بن أحمد الحموي أنا إبراهيم بن خزيم الشاشي أنا عبد الله بن حميد ثنا شابة عن إسرائيل عن

وأما الأحاديث الواردة في إثبات الرؤية فمنها ما روى عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه، وأزواجه، ونعيمه وخدمه، وسروره مسيرة ألف سنة، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية، ثم قرأ رسول الله ﷺ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة» أخرجه الترمذي وقال: هذا حديث غريب، وقال: وقد روى عن ابن عمر رضي الله عنهما ولم يرفعه (ق) عن جرير بن عبد الله قال «كنا عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر، وقال إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس، وقبل الغروب» قوله «لا تضامون» روي بفتح التاء وتشديد الميم وقد تضمن التاء مع التشديد أيضاً ومعناه لا ينضم بعضكم إلى بعض ولا تزدهمون وقت النظر إليه، وروي بتخفيف الميم ومعناه لا ينالكم ضيم في رؤيته فيراه بعضكم دون بعض وقوله «إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون القمر» معناه تشبيه الرؤية بالرؤية في الوضوح وزوال الشك والمشقة لا تشبيه المرئي بالمرئي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه «أن أناساً قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال رسول الله ﷺ: هل تضارون في القمر ليلة البدر، قالوا: لا يا رسول الله قال: هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب، قالوا: لا يا رسول الله قال رسول الله ﷺ: فإنكم سترونه كذلك» أخرجه أبو داود وأخرجه الترمذي. وليس عنده في أوله أن أناساً سألوا رسول الله ﷺ ولا قوله ليس دونها سحاب. قال الترمذي وقد روى مثل هذا الحديث عن أبي سعيد وهو صحيح، وهذا الحديث طرف من حديث طويل قد أخرجه البخاري ومسلم، ومعنى تضارون وتضامون واحد.

عن أبي رزين العقيلي قال: «قلت يا رسول الله أكلنا يرى ربه مخلياً به يوم القيامة، قال نعم قلت وما آية ذلك في خلقه قال يا أبا رزين أليس كلكم يرى القمر ليلة البدر مخلياً به قلت بلى قال: فالله أعظم إنما هو خلق من خلق الله يعني القمر فالله أجل وأعظم» أخرجه أبو داود (م) عن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم فيقولون ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى» والأحاديث في الباب كثيرة وهذا القدر كاف والله أعلم. قوله عز وجل: «ووجوه يومئذ باسرة» أي عابسة كالحة متغيرة مسودة قد أظلمت ألوانها، وعدمت آثار النعمة، والسرورة منها لما أدركها من اليأس من رحمة الله تعالى: وذلك حين يميز بين أهل الجنة والنار ﴿تظن﴾ أي تستيقن والظن هنا بمعنى اليقين ﴿أن يفعل بها فاقرة﴾ أن يفعل بهم أمر عظيم من العذاب

ثوير قال: سمعت ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسروره مسيرة ألف سنة، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾.

﴿ووجوه يومئذ باسرة﴾، عابسة كالحة متغيرة مسودة.

﴿تظن أن يفعل بها فاقرة﴾، تستيقن أن يعمل بها عزيمة من العذاب، والفاقرة: الداهية العظيمة، والأمر الشديد. يكسر ففار الظهر. قال سعيد بن المسيب: قاصمة الظهر. قال ابن زيد: هي دخول النار. وقال الكلبي: هي أن يحتجب عن رؤية الرب عز وجل.

﴿كلا إذا بلغت﴾، يعني النفس كناية عن غير مذكور، ﴿الترافي﴾، فحشرج بها عند الموت والترافي جمع الترقوة، وهي العظام بين ثغرة النحر والعاتق ويكنى ببلوغ النفس التراقي عن الإشراف على الموت.

﴿وقيل من راق﴾، أي قال من حصره الموت هل من طبيب يرقيه ويداويه فيشفيه برقيته أو دوائه، وقال

والفاقرة الداهية العظيمة والأمر الشديد الذي يكسر فقار الظهر ويقصمه وقيل الفاقة دخول النار، وقيل هي أن تحجب تلك الوجوه عن رؤية الله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي حقاً ﴿إِذَا بَلَغْتَ﴾ يعني النفس كناية عن غير مذكور ﴿التراقي﴾ جمع ترقوة وهي العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق ويكنى ببلوغ النفس التراقي عن الإشراف على الموت ومنه قول دريد بن الصمة:

ورب عزيمة دافعت عنها ————— وقد بلغت نفوسهم التراقي

﴿وقيل﴾ يعني وقال من حضره ﴿من راق﴾ أي هل من طيب يرقه ويداويه مما نزل به ويشفيه ويخلصه من ذلك برقيته ودوائه، وقيل لما نزل به من قضاء الله ما نزل التمسوا له الأطباء، فلم يغنوا عنه من قضاء الله شيئاً، وقيل هذا من قول الملائكة الذين يحضرونه عند الموت يقول بعضهم لبعض من يرقى بروحه إذا خرجت فيصعد بها ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب، ﴿وظن﴾ أي أيقن الذين بلغت روحه التراقي ﴿أنه الفراق﴾ يعني الخروج من الدنيا وفراق المال والأهل والولد ﴿والتفت﴾ أي اجتمعت ﴿الساق بالساق﴾ أي الشدة بالشدة يعني شدة مفارقة الدنيا مع شدة الموت وكرهه، وقيل شدة الموت بشدة الآخرة، وقيل تابعت عليه الشدائد لا يخرج من كرب إلا جاءه ما هو أشد منه، وقال ابن عباس: أمر الدنيا بأمر الآخرة فكان في آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة، وقيل الناس يجهزون جسده والملائكة يجهزون روحه، وقيل هما ساقا الميت إذا لفتا في الكفن، وقيل هما ساقاه عند الموت ألا تراه كيف يضرب بإحدى رجله على الأخرى عند النزع، وقيل إذا مات يست ساقاه فالتفت إحداهما بالأخرى.

إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ﴿٣١﴾ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَمِطُّ ﴿٣٣﴾ أَوَّلَ لَكَ فَأُولَٰئِكَ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوَّلَ لَكَ فَأُولَٰئِكَ ﴿٣٥﴾ ائْتَحَسَبَ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نَفْثَةً مِنْ مَّيِّ يَمْئَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَعَمَلَ مِنْهُ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُخْجِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

﴿إلى ربك يومئذ المساق﴾ أي مرجع العباد إلى الله تعالى يساقون إليه يوم القيامة ليفصل بينهم.

قوله تعالى: ﴿فلا صدق ولا صلى﴾ يعني أبا جهل لم يصدق بالقرآن، ولم يصل لله تعالى: ﴿ولكن كذب

قتادة: التمسوا له الأطباء فلم يغنوا عنه من قضاء الله شيئاً. وقال سليمان التيمي ومقاتل بن سليمان: هذا من قول الملائكة يقول بعضهم لبعض من يرقى بروحه فتصعد بها ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب. ﴿وظن﴾، أيقن الذي بلغت روحه التراقي، ﴿أنه الفراق﴾، من الدنيا.

﴿والتفت الساق بالساق﴾، قال قتادة الشدة بالشدة. قال عطاء شدة الموت بشدة الآخرة قال سعيد بن جبير تابعت عليه الشدائد، قال السدي: لا يخرج من كرب إلا جاءه أشد منه قال ابن عباس: أمر الدنيا بأمر الآخرة فكان في آخر يوم من الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة، وقال مجاهد اجتمع فيه الحياة والموت. وقال الضحاك: الناس يجهزون جسده والملائكة يجهزون روحه. وقال الحسن: هما ساقاه إذا التفتا في الكفن. وقال الشعبي: هما ساقاه إذا التفتا عند الموت.

﴿إلى ربك يومئذ المساق﴾، أي مرجع العباد إلى الله يساقون إليه.

﴿فلا صدق ولا صلى﴾، يعني أبا جهل لم يصدق بالقرآن ولا صلى لله.

﴿ولكن كذب وتولى﴾، عن الإيمان.

وتولى ﴿أي أعرض عن الإيمان والتصديق﴾ ثم ذهب إلى أهله يتمطى ﴿أي يتبختر ويختال في مشيته، وقيل أصله يتمط أي يتمدد من المط، وقيل من المطا وهو الظهر لأنه يلويه. ﴿أولى لك فأولى﴾ هذا وعيد على وعيد من الله تعالى لأبي جهل. وهي كلمة موضوعة للتهديد والوعيد ومعناه، ويل لك مرة بعد مرة وهو دعاء عليه بأن يليه ما يكرهه، وقيل معناه أنك أجدر بهذا العذاب. وأحق وأولى به. يقال ذلك لمن يصيبه مكروه يستوجهه قال قتادة: ذكر لنا «أن النبي ﷺ لما نزلت هذه الآية أخذ بمجامع ثوب أبي جهل بالبطحاء وقال له أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى» فقال أبو جهل أتوعدوني يا محمد والله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلوا بي شيئاً وإني لأعز من مشى بين جبلين فلما كان يوم بدر صرعه وقتله أشد قتله» وكان نبي الله يقول ﷺ إن لكل أمة فرعوناً وإن فرعون هذه الأمة أبو جهل «أيحسب الإنسان أن يترك سدى» أي هملأ لا يؤمر ولا ينهى ولا يكلف في الدنيا ولا يحاسب في الآخرة ﴿ألم يك نطفة﴾ أي ماء قليلاً ﴿من منى يميني﴾ أي يصيب في الرحم، والمعنى كيف يليق بمن خلق من شيء قدر مستقذر أن يتكبر ويتمرد عن الطاعة. ﴿ثم كان علقه﴾ أي صار الإنسان علقه بعد النطفة ﴿فخلق فسوى﴾ أي فقدر خلقه وسواه وعدله وقيل نفخ فيه الروح وكمل أعضائه ﴿فجعل منه﴾ أي من الإنسان ﴿الزوجين﴾ أي الصنفين ثم فسرهما فقال ﴿الذكر والأنثى﴾ أي خلق من مائة أولاداً ذكراً وإناثاً ﴿أليس ذلك﴾ أي الذي فعل وأنشأ الأشياء أول مرة ﴿بقادر على أن يحيي الموتى﴾ أي بقادر على إعادته بعد الموت عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من قرأ منكم

﴿ثم ذهب إلى أهله﴾، رجع إليهم، ﴿يتمطى﴾، يتبختر ويختال في مشيه قيل: أصله يتمط أي يتمدد والمط هو المد.

﴿أولى لك فأولى﴾ ثم أولى لك فأولى ﴿، هذا وعيد على وعيد من الله عز وجل لأبي جهل، وهي كلمة موضوعة للتهديد والوعيد. وقال بعض العلماء: معناه إنك أجدر بهذا العذاب وأحق وأولى به، تُقال للرجل حيث يصيبه مكروه يستوجهه. وقيل: هي كلمة تقولها العرب لمن قاربه المكروه وأصلها من الولي وهو القرب قال الله تعالى قاتلوا الذين يلونكم من الكفار. وقال قتادة: ذكر لنا أن النبي ﷺ لما نزلت هذه الآية أخذ بمجامع ثوب أبي جهل بالبطحاء وقال له: ﴿أولى لك فأولى﴾ ثم أولى لك فأولى ﴿، فقال أبو جهل: أتوعدني يا محمد والله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلوا بي شيئاً وإني لأعز من مشى بين جبلين؟ فلما كان يوم بدر صرعه الله شر صرعه، وقتله أسوأ قتله. وكان النبي ﷺ يقول: إن لكل أمة فرعوناً وإن فرعون هذه الأمة أبو جهل.

﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾، هملأ لا يؤمر ولا ينهى، قال السدي: معناه المهمل وإبل سدى إذا كانت ترعى حيث شئت بلا راع.

﴿ألم يك نطفة من منى يميني﴾، تصف في الرحم، قرأ حفص عن عاصم ﴿يمنى﴾ بالياء وهي قراءة الحسن، وقرأ الآخرون بالتاء لأجل النطفة.

﴿ثم كان علقه فخلق فسوى﴾، فجعل فيه الروح وسوى خلقه.

﴿فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى﴾، خلق من مائة أولاداً ذكوراً وإناثاً.

﴿أليس ذلك﴾، الذي فعل هذا، ﴿بقادر على أن يحيي الموتى﴾، أخبرنا أبو طاهر عمر بن عبد العزيز القاشاني أنا أبو عمر القاسم بن جعفر الهاشمي أنا أبو علي محمد بن أحمد بن عمر اللؤلؤي ثنا أبو داود سليمان بن أشعث ثنا عبد الله بن محمد الزهري ثنا سفيان حدثنني إسماعيل بن أمية قال: سمعت أعرابياً يقول سمعت أبا هريرة

﴿والتين والزيتون﴾، فانتهى إلى آخرها ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ فليقل بلى وأنا على ذلك من الشاهدين. ومن قرأ ﴿لا أقسم بيوم القيامة﴾ فانتهى إلى ﴿أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾، فليقل بلى ومن قرأ ﴿ والمرسلات فبلغ، فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ فليقل آمنا بالله» أخرجه أبو داود وله عن موسى بن أبي عائشة قال «كان رجل يصلي فوق بيته. فكان إذا قرأ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى قال سبحانك بلى فسألوه عن ذلك فقال سمعته من رسول الله ﷺ» والله سبحانه وتعالى أعلم:

يقول: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ منكم والتين والزيتون فانتهى إلى آخرها: ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ [التين: ٨] فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين، وَمَنْ قرأ: ﴿لا أقسم بيوم القيامة﴾ [القيامة: ١] فانتهى إلى: ﴿أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾ فليقل: بلى، وَمَنْ قرأ: ﴿المرسلات﴾، فبلغ ﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ [الأعراف: ١٨٥] فليقل: آمنا بالله». أخبرنا عمر بن العزيز أنا أبو القاسم بن جعفر أنا أبو علي اللؤلؤي أنا أبو داود ثنا محمد بن المثنى ثنا محمد بن جعفر ثنا شعبة عن موسى بن أبي عائشة قال: كان رجل يصلي فوق بيته وكان إذا قرأ: ﴿أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾ قال: سبحانك بلى، فسألوه عن ذلك فقال: سمعته من رسول الله ﷺ.

سورة هل أتى

وتسمى سورة الإنسان أيضاً وهي مدنية كذا قال مجاهد، وقتادة والجمهور، وقيل مكية يحكى ذلك عن ابن عباس وعطاء بن يسار ومقاتل، وقيل فيها مكي ومدني، فالمكي منها قوله ﴿وَلَا تَطْعَمْنَاهُمْ مِنْكُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ وباقيها مدني قاله الحسن وعكرمة وقيل إن المدني من أولها إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُزَلُّ عَلَى الْفِرْعَوْنَ﴾ ومن هذه الآية إلى آخرها مكي حكاها الماوردي وهي إحدى وثلاثون آية ومائتان وأربعون كلمة وألف وأربعة وخمسون حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ

فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾

قوله عز وجل: ﴿هل أتى﴾ أي قد أتى ﴿على الإنسان﴾ يعني آدم عليه الصلاة والسلام ﴿حين من الدهر﴾ يعني مدة أربعين سنة وهو من طين ملقى (م) عن أنس رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ قال «لما صور الله آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليس يطوف به وينظر إليه فلما رآه أجوف عرف أنه خلف لا يتمالك» قوله يطوف أي يدور حوله فلما رآه أجوف أي صاحب جوف وقيل هو الذي داخله خال قوله عرف أنه خلق لا يتمالك، أي لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات، وقيل لا يملك دفع الوسواس عنه، وقيل لا يملك نفسه عند الغضب. وروي في تفسير الآية أن آدم بقي أربعين سنة طيناً، وبقي أربعين سنة حمأ مسنوناً وأربعين سنة صلصالاً كالفخار

سُورَةُ الْإِنْسَانِ

مدنية وهي إحدى وثلاثون آية.

قال عطاء: هي مكية. وقال مجاهد وقتادة: مدنية. وقال الحسن وعكرمة: هي مدنية إلا آية وهي قوله: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾، ﴿وَلَا تَطْعَمْنَاهُمْ مِنْكُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [٢٤] وهي إحدى وثلاثون آية.

﴿هل أتى﴾، قد أتى، ﴿على الإنسان﴾، يعني آدم عليه السلام، ﴿حين من الدهر﴾، أربعون سنة وهو من طين ملقى بين مكة والطائف قبل أن ينفخ فيه الروح، ﴿لم يكن شيئاً مذكوراً﴾، لا يذكر ولا يعرف ولا يدري ما اسمه ولا ما يراد به، يريد كان شيئاً ولم يكن مذكوراً، وذلك من حين خلقه من طين إلى أن نفخ فيه الروح، روي أن عمر سمع رجلاً يقرأ هذه الآية: ﴿لم يكن شيئاً مذكوراً﴾ فقال عمر: ليتها تمت يريد ليته بقي على ما كان، قال ابن عباس: ثم خلقه بعد عشرين ومائة سنة.

﴿إنا خلقنا الإنسان﴾، يعني ولد آدم، ﴿من نطفة﴾، يعني مني الرجل ومني المرأة. ﴿أمشاج﴾، أخلاط

فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة ﴿لم يكن شيئاً مذكوراً﴾ أي لا يذكر ولا يعرف ولا يدري ما اسمه، ولا ما يراد به وذلك قبل أن ينفخ فيه الروح كان شيئاً ولم يكن شيئاً يذكر.

روي عن عمر أنه سمع رجلاً يقرأ هذه الآية: لم يكن شيئاً مذكوراً فقال عمر ليتها تمت يعني ليتي بقي على ما كان عليه ويروى نحوه عن أبي بكر وابن مسعود، وقيل المراد بالإنسان جنس الإنسان وهم بنو آدم بدليل قوله ﴿إنا خلقنا الإنسان﴾ فالإنسان في الموضعين واحد فعلى هذا يكون معنى قوله حين من الدهر طائفة من الدهر غير مقدرة لم يكن شيئاً مذكوراً يعني أنهم كانوا نطفاً في الأصلاب. ثم علقاً، ومضغاً في الأرحام لم يذكروا بشيء إنا خلقنا الإنسان يعني ولد آدم ﴿من نطفة﴾ أي مني الرجل ومني المرأة ﴿أمشاج﴾ أي أخلاط قال ابن عباس وغيره: يعني ماء الرجل، وماء المرأة يختلطان في الرحم فيكون منهما الولد فماء الرجل أبيض غليظ، وماء المرأة أصفر رقيق فأيهما علا صاحبه كان الشبه له وما كان من عصب، وعظم فمن نطفة الرجل، وما كان من لحم ودم وشعر فمن ماء المرأة، وقيل الأمشاج اختلاف ألوان النطفة، فنطفة الرجل بيضاء ونطفة المرأة صفراء. وكل لونين اختلطا فهو أمشاج. وقال ابن مسعود: هي العروق التي تكون في النطفة، وقيل هي نطفة مشجت أي خلطت بدم وهو دم الحيض فإذا حبلت المرأة ارتفع دم الحيض، وقيل الأمشاج أطوار الخلق نطفة ثم علقة ثم مضغة، ثم عظاما ثم يكسوه لحماً ثم ينشئه خلقاً آخر، وقيل إن الله تعالى جعل في النطفة أخلاطاً من الطبائع التي تكون في الإنسان من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة فعلى هذا يكون التقدير من نطفة ذات أمشاج. ﴿نبتليه﴾ أي لنختبره بالأمر والنهي ﴿فجعلناه سميعاً بصيراً﴾ قيل فيه تقديم وتأخير تقديره فجعلناه سميعاً بصيراً لنبتليه لأن الابتلاء لا يقع إلا بعد تمام الخلقة، وقيل معناه إنا خلقنا الإنسان من هذه الأمشاج للابتلاء والامتحان ثم ذكر أنه أعطاه ما يصح معه الابتلاء، وهو السمع والبصر وهما كنيان عن الفهم والتمييز وقيل المراد بالسمع والبصر الحاستان المعروفتان، وإنما خصهما بالذكر لأنهما أعظم الحواس وأشرفها.

إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٢﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَلَنا وَسْعِيرًا ﴿٣﴾

الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٤﴾

﴿إنا هديناه السبيل﴾ أي بينا له سبيل الحق والباطل والهدى والضلالة، وعرفناه طريق الخير والشر، وقيل معناه أرشدناه إلى الهدى لأنه لا يطلق اسم السبيل إلا عليه والمراد من هداية السبيل نصب الدلائل، وبعثه الرسل وإنزال

واحدها مشج ومشيج، مثل خدن وخدين، قال ابن عباس والحسن ومجاهد والربيع: يعني ماء الرجل وماء المرأة يختلطان في الرحم فيكون منهما الولد، فماء الرجل أبيض غليظ وماء المرأة أصفر رقيق، فأيهما علا صاحبه كان الشبه له وما كان من عصب وعظم فهو من نطفة الرجل، وما كان من لحم ودم وشعر فمن ماء المرأة. وقال الضحاك: أراد بالأمشاج اختلاف ألوان النطفة فنطفة الرجل بيضاء وحمراء ونطفة المرأة خضراء وحمراء وصفراء، وهي رواية الوالبي عن ابن عباس. وكذلك قال الكلبي: قال: الأمشاج البياض في الحمرة والصفرة. وقال يمان: كل لونين اختلطا فهو أمشاج. وقال ابن مسعود: هي العروق التي تكون في النطفة. وقال الحسن: نطفة مشجت بدم وهو دم الحيضة فإذا حبلت ارتفع الحيض. وقال قتادة: هي أطوار الخلق نطفة، ثم علقة ثم مضغة، ثم عظاماً ثم يكسوه لحماً ثم ينشئه خلقاً آخر. ﴿نبتليه﴾ نختبره بالأمر والنهي، ﴿فجعلناه سميعاً بصيراً﴾ قال بعض أهل العربية: وفيه تقديم وتأخير، مجازة: فجعلناه سميعاً بصيراً لنبتليه، لأن الابتلاء لا يقع إلا بعد تمام الخلقة.

﴿إنا هديناه السبيل﴾، أي بينا له سبيل الحق والباطل والهدى والضلالة، وعرفناه طريق الخير والشر. ﴿إما

الكتب . ﴿إِذَا شَاكَرًا وَإِذَا كَفُورًا﴾ يعني إما موحداً طائعاً لله ، وإما مشركاً بالله في علم الله وذلك أن الله تعالى بين سبيل التوحيد ليتبين شكر الإنسان من كفره ، وطاعته عن معصيته ، وقيل في معنى الآية إما مؤمناً سعيداً وإما كافراً شقيماً . وقيل معناه الجزاء أي بينا له الطريق إن شكر أو كفر ، وقيل المراد من الشاكر الذي يكون مقراً معترفاً بوجوب شكر خالقه سبحانه وتعالى عليه ، والمراد من الكفور الذي لا يقر بوجوب الشكر عليه ثم بين ما للفريقين فوعده الشاكر ، وأوعده الكافر فقال تعالى : ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ أي هبنا في جهنم ﴿لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ﴾ يعني يشدون بها ﴿وَأَغْلَالًا﴾ أي في أيديهم تغل بها إلى أعناقهم ﴿وَسَعِيرًا﴾ يعني وقوداً لا توصف شدته وهذا من أعظم أنواع الترهيب والتخويف ثم ذكر ما أعد للشاكرين الموحدين فقال تعالى : ﴿إِن الْأَبْرَارَ﴾ يعني المؤمنين الصادقين في إيمانهم المطيعين لربهم ، واحدهم بار وبرو وأصله التوسع فمعنى البر المتوسع في الطاعة ﴿يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ﴾ يعني فيها شراب ﴿كَانَ مَزَاجُهَا كَافُورًا﴾ قيل يمزج لهم شرابهم بالكافور ويختم بالمسك .

فإن قلت إن الكافور غير لذيذ ، وشربه مضر فما وجه مزج شرابهم به .

قلت قال أهل المعاني : أراد بالكافور بياضه ، وطيب ريحه وبرده . لأن الكافور لا يشرب وقال ابن عباس : هو اسم عين في الجنة والمعنى أن ذلك الشراب يمازجه شراب ماء هذه العين التي تسمى كافوراً ، ولا يكون في ذلك ضرر لأن أهل الجنة لا يمسه ضرر فيما يأكلون ، ويشربون وقيل هو كافور لذيق طيب الطعم ليس فيه مضرة ، وليس ككافور الدنيا ولكن الله سمى ما عنده بما عندكم بمزج شرابهم . بذلك الكافور والمسك والزنجبيل .

عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالْذِّكْرِ وَمَخَافُونَ يَوْمًا كَانَتْ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَنٍ

شاكراً وإما كفوراً ، ﴿إِذَا شَاكَرًا وَإِذَا كَفُورًا﴾ ، إما مؤمناً سعيداً وإما كافراً شقيماً . وقيل : معنى الكلام الجزاء يعني بينا له الطريق إن شكر أو كفر .

ثم بين ما للفريقين فقال : ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا﴾ ، يعني في جهنم ، قرأ أهل المدينة والكسائي وأبو بكر عن عاصم (سلاسل) و﴿قوارير﴾ [النمل : ٤٤ ، الإنسان : ١٥] «قوارير» بالألف في الوقف وبالتنوين في الوصل فيهن جميعاً ، وقرأ حمزة ويعقوب بلا ألف في الوقف ، ولا تنوين في الوصل فيهن ، وقرأ ابن كثير ﴿قوارير﴾ الأولى بالألف في الوقف وبالتنوين في الوصل ، و﴿سلاسل﴾ و﴿قوارير﴾ الثانية بلا ألف ولا تنوين وقرأ أبو عمرو وابن عامر وحفص (سلاسل) وقواريراً الأولى بالألف في الوقف على الخط وبغير تنوين في الوصف ، و﴿قوارير﴾ الثانية بغير ألف ولا تنوين ، قوله : ﴿وَأَغْلَالًا﴾ يعني في أيديهم تغل في أعناقهم ، ﴿وَسَعِيرًا﴾ ، وقوداً شديداً .

﴿إِن الْأَبْرَارَ﴾ ، يعني المؤمنين الصادقين في إيمانهم المطيعين لربهم واحدهم بار ، مثل شاهد وأشهد ، وناصر وأنصار ، وبر أيضاً مثل نهر وأنهار ، ﴿يَشْرَبُونَ﴾ ، في الآخرة ، ﴿مِنْ كَأْسٍ﴾ ، فيه شراب ﴿كَانَ مَزَاجُهَا كَافُورًا﴾ ، قال قتادة يمزج لهم بالكافور ويختم بالمسك ، قال عكرمة مزاجها طعمها ، وقال أهل المعاني أراد كالكافور في بياضه وطيب ريحه وبرده لأن الكافور لا يشرب ، وهو كقوله : ﴿حتى إذا جعله ناراً﴾ [الكهف : ٩٦] أي كنار ، وهذا معنى قول مجاهد ومقاتل وقاتلة : يمازجه ريح الكافور . وقال ابن كيسان : طيبت بالكافور والمسك والزنجبيل . قال عطاء والكلبي : الكافور اسم لعين ماء في الجنة .

حُبِّهِ، مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿٩﴾

﴿عَيْنًا﴾ بدلاً من الكافور وقيل أعني عينا ﴿يشرب بها﴾ أي يشرب منها ﴿عباد الله﴾ قال ابن عباس أولياء الله ﴿يفجرونها تفجيراً﴾ أي يقودونها إلى حيث شاؤوا من منازلهم وقصورهم تفجييراً سهلاً لا يمتنع عليهم.

قوله تعالى: ﴿يوفون بالنذر﴾ لما وصف الله تعالى ثواب الأبرار في الآخرة وصف أعمالهم في الدنيا التي يستوجبون بها هذا الثواب والمعنى كانوا في الدنيا يوفون بالنذر والنذر الإيجاب. والمعنى يوفون بما فرض الله عليهم فيدخل فيه جميع الطاعات من الأيمان والصلاة، والزكاة والصوم والحج، والعمرة، وغير ذلك من الواجبات، وقيل النذر في عرف الشرع. واللغة أن يوجب الرجل على نفسه شيئاً ليس بواجب عليه، وذلك بأن يقول الله على كذا وكذا من صدقه أو صلاة أو صوم أو حج أو عمرة يعلق ذلك بأمر يلتمسه من الله. وذلك بأن يقول إن شفى الله مريضى أو قدم غائبى كان الله على كذا، ولو نذر في معصية لا يجب الوفاء به (خ) عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول «من نذر أن يطيع الله فليطع الله بنذره، ومن نذر أن يعصى الله فلا يف به» وفي رواية «فليطعه ولا يعصيه» وعن ابن عباس قال: «استفتى سعد بن عباد رسول الله ﷺ في نذر كان على أمه فتوفيت قبل أن تقضيه فأمره أن يقضيه عنها» أخرجه الجماعة. وفي الآية دليل على وجوب الوفاء بالنذر، وهذا مبالغة في وصفهم بأداء الواجبات لأن من وفى بما أوجبه على نفسه كان لما أوجبه الله عليه أوفى. ﴿ويخافون يوماً كان شره مستطيراً﴾ أي منتشرأ فاشياً ممتداً، وقيل استطار خوفه في أهل السموات والأرض، وفي أولياء الله وأعدائه، وقيل فشا سره في السموات. فانشقت وتناثرت الكواكب وفزعت، الملائكة وكورت الشمس، والقمر وفي الأرض. فتشقت الجبال وغارت المياه وكسر كل شيء على الأرض من جبل وبناء، والمعنى أنهم يوفون بالنذر وهم خائفون من شر ذلك اليوم وهوله وشدته.

قوله عز وجل: ﴿ويطعمون الطعام على حبه﴾ أي حب الطعام وقلته وشهوتهم له والحاجة إليه فوصفهم الله تعالى: بأنهم يؤثرون غيرهم على أنفسهم بالطعام، ويواسون به أهل الحاجة، وذلك لأن أشرف أنواع الإحسان والبر إطعام الطعام. لأن به قوام الأبدان، وقيل على حب الله عز وجل أي لحب الله ﴿مسكيناً﴾ يعني فقيراً وهو الذي لا مال له ولا يقدر على الكسب ﴿ويَتِيمًا﴾ أي صغيراً وهو الذي لا أب له يكتسب له، وينفق عليه ﴿وأَسِيرًا﴾ قيل هو المسجون من أهل القبلية يعني من المسلمين، وقيل هو الأسير من أهل الشرك. أمر الله بالأسرى أن يحسن إليهم وإن

﴿عَيْنًا﴾، نصب تبعاً للكافور. وقيل: نصب على المدح. وقيل: أعني عينا. وقال الزجاج: الأجود أن يكون المعنى من عين، ﴿يشرب بها﴾، قيل: يشربها والياء صلة وقيل بها أي منها، ﴿عباد الله﴾، قال ابن عباس أولياء الله، ﴿يفجرونها تفجييراً﴾، أي يقودونها حيث شاؤوا من منازلهم وقصورهم، كَمَنْ يكون له نهر يفجره ههنا إلى حيث يزيد.

﴿يوفون بالنذر﴾، هذا من صفاتهم في الدنيا أي كانوا في الدنيا كذلك، قال قتادة: أراد يوفون بما فرض الله عليهم من الصلاة والزكاة والصوم والحج والعمرة، وغيره من الواجبات، ومعنى النذر الإيجاب. وقال مجاهد وعكرمة: إذا نذروا في طاعة الله وفؤا به. أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن طلحة بن عبد الملك الأيلي عن القاسم بن محمد عن عائشة زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ نذر أن يطيع الله فليطعه، وَمَنْ نذر أن يعصى الله فلا يعصه» ﴿ويخافون يوماً كان شره

أسراهم يومئذ أهل الشرك. فعلى هذا الوجه يجوز إطعام الأسرى، وإن كانوا على غير ديننا، وأنه يرجى ثوابه، ولا يجوز أن يعطوا من الصدقة الواجبة كالزكاة والكفارة، وقيل الأسير المملوك، وقيل الأسير المرأة لقول النبي ﷺ «اتقوا الله في النساء فإنهن عندكم عوان» يعني أسرى، وقيل غريمك أسيرك فأحسن إلى أسيرك.

واختلفوا في سبب نزول الآية، فقيل نزلت في رجل من الأنصار يقال له أبو الدحداح صام يوماً فلما كان وقت الإفطار جاءه مسكين، ويقيم، وأسير فأطعمهم ثلاثة أرغفة، وبقي له ولأهله رغيف واحد. فنزلت هذه الآية فيه، وروي عن ابن عباس أنها نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وذلك أنه عمل ليهودي بشيء من شعير فقبض ذلك الشعير فطحن منه ثلثه، وأصلحوا منه شيئاً يأكلونه فلما فرغ أتى مسكين فسأل فأعطوه ذلك ثم عمل الثلث الثاني فلما فرغ أتى يتيماً فسأل فأعطوه ذلك، ثم عمل الثلث الباقي فلما تم نضجه أتى أسير من المشركين فسأل فأعطوه ذلك وطوا يومهم وليلتهم فنزلت هذه الآية. وقيل هذه عامة في كل من أطعم المسكين واليتيم والأسير لله تعالى وأثر على نفسه ﴿إنما نطعمكم لوجه الله﴾ أي لأجل وجه الله تعالى: ﴿لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً﴾ قيل إنهم لم يتكلموا به ولكن علم الله ذلك من قلوبهم. فأثنى به عليهم، وقيل قالوا ذلك منعاً للمحتاجين من المكافأة، وقيل قالوا ذلك ليقندي بهم غيرهم في ذلك وذلك أن الإحسان إلى الغير تارة يكون لأجل الله تعالى لا يراد به غيره. فهذا هو الإخلاص، وتارة يكون لطلب المكافأة أو لطلب الحمد من الناس أو لهما، وهذان القسمان مردودان لا يقبلهما الله تعالى لأن فيهما شركاً، ورياء فنفوا ذلك عنهم بقولهم إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً.

إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطًا ﴿١٥﴾ فَوَقَّهُمْ اللَّهُ سَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَصْرَةً وَسُرُورًا ﴿١٦﴾ وَجَزَّهْمُ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٧﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٨﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَذِيلًا ﴿١٩﴾

مستطيراً ﴿﴾، فاشياً ممتدداً، يقال: استطار الصبح إذا امتد وانتشر. قال مقاتل: كان شره فاشياً في السموات فانشقت وتناثرت الكواكب وكورت الشمس والقمر وفزعت الملائكة، وفي الأرض فنسفت الجبال وغارت المياه وتكسر كل شيء على الأرض من جبل وبناء.

﴿ويطعمون الطعام على حبه﴾، أي على حب الطعام وقلته وشهوتهم له وحاجتهم إليه. وقيل: على حب الله، ﴿مسكيناً﴾، فقيراً لا مال له، ﴿ويطيماً﴾، صغيراً لا أب له ﴿وأسيراً﴾، قال مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء: هو المسجون من أهل القبلة. وقال قتادة: أمر الله بالأمراء أن يحسن إليهم وإن أسراهم يومئذ لأهل الشرك. وقيل: الأسير المملوك. وقيل المرأة، يقول النبي ﷺ: «اتقوا الله في النساء فإنهن عندكم عوان» أي أسراء، واختلفوا في سبب نزول هذه الآية، قال مقاتل: نزلت في رجل من الأنصار أطعم في يوم واحد مسكيناً ويطيماً وأسيراً. وروى عن مجاهد وعطاء عن ابن عباس: أنها نزلت في علي بن أبي طالب، وذلك أنه عمل ليهودي بشيء من شعير، فقبض الشعير فطحن ثلثه فجعلوا منه شيئاً يأكلوه، فلما تم إنضاجه أتى مسكين فسأل فأخرجوا إليه الطعام، ثم عمل الثلث الثاني فلما تم إنضاجه أتى يتيماً فسأل فأطعموه، ثم عمل الثلث الباقي فلما تم إنضاجه أتى أسير من المشركين، فسأل فأطعموه، وطوا يومهم ذلك. وهذا قول الحسن وقتادة، أن الأسير كان من أهل الشرك، وفيه دليل على أن إطعام الأسارى وإن كانوا من أهل الشرك حسن يرجى ثوابه.

﴿إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً﴾، والشكور مصدر كالعقود والدخول والخروج. قال مجاهد وسعيد بن جبير: إنهم لم يتكلموا به ولكن علم الله ذلك من قلوبهم، فأثنى عليهم.

وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِبَآئِنَةٍ مِّنْ فَضَّةٍ وَأَكْوَابٍ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾

﴿إنا نخاف من ربنا يوماً﴾ يعني أن إحساننا إليكم للخوف من شدة ذلك اليوم لا لطلب مكافأتكم ﴿عبوساً﴾ وصف ذلك اليوم بالعبوس مجازاً كما يقال نهاره صائم، والمراد أهله والمعنى تعبس فيه الوجوه من هوله وشدته وقيل وصف اليوم بالعبوس لما فيه من الشدة. ﴿قمطيراً﴾ يعني شديداً كريهاً يقبض الوجوه والجباه بالتعيس، وقيل العبوس الذي لا انبساط فيه، والقمطير الشديد، وقيل هو أشد ما يكون من الأيام وأطولها في البلاء ﴿فوقاهم الله شر ذلك اليوم﴾ أي الذي يخافونه ﴿ولقاهم نضرة﴾ أي حسناً في وجوههم ﴿وسروراً﴾ أي في قلوبهم ﴿وجزاهم بما صبروا﴾ أي على طاعة الله واجتناب معصيته، وقيل على الفقر والجوع مع الوفاء بالنذر والإيثار ﴿جنة وحريراً﴾ أي أدخلهم الجنة وألبسهم الحرير ﴿متكئين فيها﴾ أي في الجنة ﴿على الأرائك﴾ جمع أريكة وهي السرر في الحجال ولا تسمى أريكة إلا إذا اجتمعا ﴿لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً﴾ يعني لا يؤذيهم حر الشمس، ولا برد الزمهرير كما كان يؤذيهم في الدنيا والزمهرير أشد البرد وحكى الزمخشري قولاً إن الزمهرير هو القمر وعن ثعلب أنه في لغة طيء وأنشد:

وليلة ظلامها قد اعتكر قطعتها والزمهرير ما زهر

والمعنى أن الجنة ضياء لا يحتاج فيها إلى شمس وقمر ﴿ودانية عليهم ظلالها﴾ أي قريبة منهم ظلال أشجارها ﴿وذلت﴾ أي سخرت وقربت ﴿قطوفها﴾ أي ثمارها ﴿تذليلاً﴾ أي يأكلون من ثمارها قياماً وقعوداً ومضطجعين، ويتناولونها كيف شاؤوا وعلى أي حال أرادوا. ﴿ويطاف عليهم ببآنية من فضة وأكواب﴾ قيل هي الكيزان التي لا عرى

﴿إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً﴾، تعبس فيه الوجوه من هوله وشدته، ونسب العبوس إلى اليوم، كما يقال يوم صائم وليل نائم. وقيل: وصف اليوم بالعبوس لما فيه من الشدة، ﴿قمطيراً﴾، قال قتادة ومجاهد ومقاتل: القمطير الذي يقبض الوجوه والجباه بالتعيس. وقال الكلبي: العبوس الذي لا انبساط فيه، والقمطير: الشديد، قال الأخفش: القمطير: أشد ما يكون من الأيام وأطولها في البلاء، يقال: يوم قمطير وقماطر إذا كان شديداً كريهاً، واقمطر اليوم فهو مقمطر.

﴿فوقاهم الله شر ذلك اليوم﴾، الذي يخافون، ﴿ولقاهم نضرة﴾، حسناً في وجوههم، ﴿وسروراً﴾، في قلوبهم.

﴿وجزاهم بما صبروا﴾، على طاعة الله واجتناب معصيته، وقال الضحاك: على الفقر. وقال عطاء: على الجوع. ﴿جنة وحريراً﴾، قال الحسن: أدخلهم الله الجنة وألبسهم الحرير.

﴿متكئين﴾، على الحال، ﴿فيها﴾ في الجنة، ﴿على الأرائك﴾، السرر في الحجال، ولا تكون أريكة إلا إذا اجتمعا، ﴿لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً﴾، أي صيفاً ولا شتاءً. قال مقاتل: يعني شمساً يؤذيهم حرها ولا زمهريراً يؤذيهم برده، لأنهما يؤذيان في الدنيا. والزمهرير: البرد الشديد.

﴿ودانية عليهم ظلالها﴾، أي قريبة منهم ظلال أشجارها، ونصب ﴿دانية﴾ بالعطف على قوله: ﴿متكئين﴾، وقيل: على موضع قوله: ﴿لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً﴾ ويرون ﴿دانية﴾، وقيل: على المدح، ﴿وذلت﴾، سخرت وقربت، ﴿قطوفها﴾، ثمارها، ﴿تذليلاً﴾، يأكلون من ثمارها قياماً وقعوداً ومضطجعين ويتناولونها كيف شاؤوا على أي حال كانوا.

لها كالقدح ونحوه ﴿كانت قواريراً قوارير من فضة﴾ قال أهل التفسير أراد بياض الفضة في صفاء القوارير وهو الزجاج، والمعنى أن آنية أهل الجنة من فضة بيضاء في صفاء الزجاج، والمعنى يرى ما في باطنها من ظاهرها، قال الكلبي: إن الله تبارك وتعالى جعل قوارير كل قوم من تراب أرضهم، وإن أرض الجنة من فضة فجعل منها قوارير يشربون فيها، وقيل إن القوارير التي في الدنيا من الرمل والقوارير التي في الجنة من الفضة، ولكنها أصفى من الزجاج. ﴿قدروها تقديراً﴾ أي قدروا الكؤوس على قدر ربيهم، وكفايتهم لا تزيد ولا تنقص. والمعنى أن السقاة والخدم الذين يطوفون عليهم يقدرونها لهم ثم يسقونهم.

وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُوسٌ خُضَرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوْا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾

﴿ويسقون فيها﴾ أي في الجنة ﴿كأساً كان مزاجها زنجبيلاً﴾ قيل إن الزنجبيل هو اسم للعين التي يشرب منها الأبرار يوجد منها طعم الزنجبيل يشرب بها المقربون صرفاً، ويمزج لسائر أهل الجنة، وقيل هو النبت المعروف، والعرب كانوا يجعلون الزنجبيل في شرابهم لأنه يحصل فيه ضرب من اللذع قال الأعشى:

كَأَنَّ الْقَرْنَفَلَ وَالزَّجْبِيلَ ——— لَبَّاتَا بِفِيهَا وَأَرِيَا مَشُورَا

الأري العسل والمشور المستخرج من بيوت النحل وقال المسيب بن علس:

فَكَأَنَّ طَعْمَ الزَّجْبِيلِ ——— يَلْبَهُ إِذْ ذُقْتَهُ وَسَلَافَةُ الْخَمْرِ

فلما كان الزنجبيل مستطاباً عند العرب وصف الله تعالى: شراب أهل الجنة بذلك، وقيل إن شراب أهل الجنة على برد الكافور، وطعم الزنجبيل وريح المسك قال ابن عباس: كل ما ذكر الله تعالى في القرآن مما في الجنة وسماء ليس له مثل في الدنيا، وذلك لأن زنجبيل الجنة لا يشبه زنجبيل الدنيا ﴿عينا فيها تسمى سلسبيلاً﴾ أي سلسلة منقادة

﴿ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريراً﴾ قوارير من فضة، قال المفسرون: أراد بياض الفضة في صفاء القوارير، فهي من فضة في صفاء الزجاج، يرى ما في داخلها من خارجها. قال الكلبي: إن الله جعل قوارير كل قوم من تراب أرضهم، وإن أرض الجنة من فضة، فجعل منها قوارير يشربون فيها، ﴿قدروها تقديراً﴾، قدروا الكأس على قدر ربهم لا يزيد ولا ينقص، أي قدرها لهم السقاة والخدم الذين يطوفون عليهم يقدرونها ثم يسقون.

﴿ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً﴾، يشوق ويطرب، والزنجبيل: مما كانت العرب تستطيه جداً، فوعدهم الله تعالى أنهم يسقون في الجنة الكأس الممزوجة بزنجبيل الجنة. قال مقاتل: لا يشبه زنجبيل الدنيا. قال ابن عباس: كل ما ذكر الله القرآن مما في الجنة وسماء ليس له في الدنيا مثل. وقيل: هو عين في الجنة يوجد منها طعم الزنجبيل. قال قتادة: يشربها المقربون صرفاً، ويمزج لسائر أهل الجنة.

﴿عينا فيها تسمى سلسبيلاً﴾، قال قتادة: سلسلة منقادة لهم يصرفونها حيث شاؤوا، قال مجاهد: حديدة الجرية. قال أبو العالية ومقاتل بن حيان: سُميت سلسبيلاً لأنها تسيل عليهم في الطرق وفي منازلهم تنبع من أصل العرش من جنة عدن إلى أهل الجنان وشراب الجنة على برد الكافور وطعم الزنجبيل وريح المسك. قال الزجاج:

لهم يصرفونها حيث شاؤوا وقيل حديدية الجرية سميت سلسبيلاً لأنها تسيل عليها في طرقهم، ومنازلهم تنبع من أصل العرش من جنة عدن إلى سائر الجنان، وقيل سميت بذلك لأنها في غاية السلاسة تتسلسل في الحلق ومعنى تسمى أي توصف لأن أكثر العلماء على أن سلسبيلاً صفة لا اسم ﴿ويطوف عليهم ولدان مخلدون﴾ أي في الخدمة وقيل مخلدون مسرورون ومقرطون ﴿إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً﴾ يعني في بياض اللؤلؤ الرطب وحسنه، وصفائه، واللؤلؤ إذا انتثر على البساط كان أصفى منه منظوماً، وقيل إنما شبهوا بالمنثور لانتثارهم في الخدمة.

قوله عز وجل: ﴿وإذا رأيت﴾ قيل الخطاب للنبي ﷺ وقيل لكل واحد ممن يدخل الجنة والمعنى إذا رأيت ببصرك ونظرت به ﴿ثم﴾ يعني إلى الجنة ﴿رأيت نعيماً﴾ أي لا يوصف عظمه ﴿وملكاً كبيراً﴾ قيل هو أن أدناهم منزلة من ينظر في ملكه مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه، وقيل هو أن رسول رب العزة من الملائكة لا يدخل عليه إلا بإذنه وهو استئذان الملائكة عليهم وقيل معناه ملكاً لا زوال له ولا انتقال ﴿عليهم﴾ أي فوقهم ﴿ثياب سندس خضر﴾ وهو مارق من الديباج ﴿واستبرق﴾ وهو ما غلظ منه وكلاهما داخل في اسم الحرير ﴿وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً﴾ يعني طاهراً من الأقدار والأردان لم تدمس الأيدي، ولم تدمس الأرجل كخمر الدنيا وقيل إنه لا يستحيل بولاً، ولكنه يستحيل رشحاً في أبدانهم كرشح المسك، وذلك أنهم يؤتون بالطعام ثم من بعده يؤتون بالشراب الطهور فيشربون منه فتطهر بطونهم ويصير ما أكلوا رشحاً يخرج من جلودهم أطيب من المسك الأذفر، وتضمير بطونهم وتعود شهواتهم، وقيل الشراب الطهور هو عين ماء على باب الجنة من شرب منه نزع الله ما كان في قلبه من غل وغش وحسد.

سُميت سلسبيلاً لأنها في غاية السلاسة تتسلسل في الحلق، ومعنى قوله: ﴿تسمى﴾ أي توصف لأن أكثر العلماء على أن سلسبيلاً صفة لا اسم.

﴿ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً﴾، قال عطاء: يريد في بياض اللؤلؤ وحسنه واللؤلؤ إذا نثر من الخيط على البساط، كان أحسن منه منظوماً. وقال أهل المعاني: إنما شبهوا بالمنثور لانتثارهم في الخدمة، فلو كانوا صفاً لشبهوا بالمنظوم.

﴿وإذا رأيت ثم﴾، أي إذا رأيت ببصرك ونظرت به ثم يعني في الجنة، ﴿رأيت نعيماً﴾، لا يوصف، ﴿وملكاً كبيراً﴾، وهو أن أدناهم منزلة ينظر إلى ملكه في مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه. قال مقاتل والكلبي: هو أن رسول رب العزة من الملائكة لا يدخل عليه إلا بإذنه. وقيل: ملكاً لا زوال له.

﴿عليهم ثياب سندس﴾، قرأ أهل المدينة وحزمة ﴿عليهم﴾ ساكنة الياء مكسورة الهاء، فيكون في موضع رفع بالابتداء، وخبره ثياب سندس، وقرأ الآخرون بنصب الياء وضمت الهاء على الصفة، أي فوقهم وهو نصب على الطرف ثياب سندس، ﴿خضر واستبرق﴾، قرأ نافع وحفص ﴿خضر واستبرق﴾ مرفوعان عطفاً على الثياب، وقرأهما حمزة والكسائي مجرورين، وقرأ ابن كثير وأبو بكر ﴿خضر﴾ جرّ ﴿واستبرق﴾، رفع، وقرأ أبو جعفر وأهل البصرة والشام على ضده فالرفع على نعت الثياب والجرّ على نعت السندس. ﴿وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً﴾، قيل: طاهراً من الأقدار والإقذاء لم تدمس الأيدي والأرجل كخمر الدنيا. وقال أبو قلابة وإبراهيم: إنه لا يصير بولاً نجساً ولكنه يصير رشحاً في أبدانهم، كريح المسك، وذلك أنهم يؤتون بالطعام فيأكلون، فإذا كان آخر ذلك أتوا بالشراب الطهور، فيشربون فتطهر بطونهم ويصير ما أكلوا رشحاً يخرج من جلودهم أطيب من المسك الإذفر، وتضمير بطونهم وتعود شهواتهم. وقال مقاتل: هو عين ماء على باب الجنة من شرب منها نزع الله ما كان في قلبه من غل وغش وحسد.

إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا نَفِيلًا ﴿٢٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾

﴿إن هذا كان لكم جزاء﴾ أي يقال لأهل الجنة بعد دخولهم فيها ومشاهدتهم نعيمها. إن هذا كان لكم جزاء قد أعدّه الله لكم إلى هذا الوقت. فهو لكم بأعمالكم، وقيل هو إخبار من الله تعالى لعباده المؤمنين أنه قد أعدّه لهم في الآخرة ﴿وكان سعيكم مشكوراً﴾ أي شكرتكم عليه وآيتكم أفضل منه، وهو الثواب، وقيل شكر الله لعباده هو رضا منهم بالقليل من الطاعة وإعطاؤه إياهم الكثير من الخيرات.

قوله عز وجل: ﴿إنا نحن نزلنا عليك﴾ أي يا محمد ﴿القرآن تنزيلاً﴾ قال ابن عباس: متفرقاً آية بعد آية ولم تنزله جملة واحدة، والمعنى أنزلنا عليك القرآن متفرقاً لحكمة بالغة تقتضي تخصيص كل شيء بوقت معين، والمقصود من ذلك تثبيت قلب رسول الله ﷺ وشرح صدره وإن الذي أنزله إليه وحي منه ليس بكهانة، ولا سحر لتزول تلك الوحشة التي حصلت له من قول الكفار إنه سحر أو كهانة. ﴿فاصبر لحكم ربك﴾ أي لعبادته فهي من الحكمة المحضة، وقيل معناه فاصبر لحكم ربك في تأخير الإذن في القتال، وقيل هو عام في جميع التكاليف، أي فاصبر لحكم ربك في كل ما حكم الله به سواء كان تكليفاً خاصاً كالعبادات والطاعات أو عاماً متعلقاً بالغير كالتبليغ، وأداء الرسالة وتحمل المشاق وغير ذلك. ﴿ولا تطع منهم أثماً أو كفوراً﴾ قيل أراد به أبا جهل، وذلك أنه لما فرضت الصلاة على النبي ﷺ نهاه أبو جهل عنها، وقال لئن رأيت محمداً يصلي لأطأن عنقه، وقيل أراد بالآثم عتبة بن ربيعة، وبالكفور الوليد بن المغيرة وذلك أنهما قالاً للنبي ﷺ إن كنت صنعت ما صنعت لأجل النساء، والمال فارجع عن هذا الأمر، وقال عتبة أنا أزوجك ابنتي وأسوقها إليك بغير مهر، وقال الوليد أنا أعطيك من المال حتى ترضى فارجع عن هذا الأمر فأنزل الله تعالى هذه الآية.

فإن قلت هل من فرق بين الآثم والكفور قلت نعم. الآثم هو المقدم على المعاصي أي معصية كانت، والكفور

﴿إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً﴾، أي ما وصف من نعيم الجنة كان لكم جزاء بأعمالكم وكان سعيكم عملكم في الدنيا بطاعة الله مشكوراً، قال عطاء: شكرتكم عليه وأثبتكم أفضل الثواب.

قوله عز وجل: ﴿إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً﴾، قال ابن عباس: متفرقاً آية بعد آية، ولم ينزل جملة واحدة.

﴿فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم﴾، يعني من مشركي مكة، ﴿أثماً أو كفوراً﴾، يعني وكفوراً، والألف صلة، قال قتادة: أراد بالآثم والكفور أبا جهل وذلك أنه لما فرضت الصلاة على النبي ﷺ نهاه أبو جهل عنها، وقال: لئن رأيت محمداً يصلي لأطأن عنقه. وقال مقاتل: أراد بالآثم عتبة بن ربيعة، وبالكفور الوليد بن المغيرة، قالاً للنبي ﷺ: إن كنت صنعت ما صنعت لأجل النساء والمال فارجع عن هذا الأمر، قال عتبة: فأنأ أزوجك ابنتي وأسوقها إليك بغير مهر، وقال الوليد: أنا أعطيك من المال حتى ترضى، فارجع عن هذا الأمر، فأنزل الله هذه الآية.

قوله عز وجل: ﴿واذكر اسم ربك بكرةً وأصيلاً﴾ ومن الليل فاسجد له، يعني صلاة المغرب والعشاء،

هو الجاحد فكل كفور آثم، ولا يتعكس لأن من عبد غير الله فقد اجتمع في حقه هذان الوصفان لأنه لما عبد غير الله فقد عصاه وجحد نعمه عليه. ﴿واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً﴾ قيل المراد من الذكر الصلاة، والمعنى وصل لربك بكرة يعني صلاة الصبح وأصيلاً يعني صلاة الظهر والعصر ﴿ومن الليل فاسجد له﴾ يعني صلاة المغرب والعشاء فعلى هذا تكون الآية جامعة لمواقيت الصلاة الخمس ﴿وسبحه ليلاً طويلاً﴾ يعني صلاة التطوع بعد المكتوبة وهو التهجد بالليل، وقيل المراد من الآية هو الذكر باللسان، والمقصود أن يكون ذاكراً لله تعالى في جميع الأوقات في الليل والنهار بقلبه ولسانه. قوله عز وجل: ﴿إن هؤلاء﴾ يعني كفار مكة ﴿يحبون العاجلة﴾ يعني الدار العاجلة، وهي الدنيا. ﴿ويذرون وراءهم﴾ يعني أمامهم ﴿يوماً ثقیلاً﴾ يعني شديداً وهو يوم القيامة والمعنى أنهم يتركونه فلا يؤمنون به، ولا يعملون له ﴿نحن خلقناهم وشددنا﴾ أي قوينا وأحكمنا ﴿أسرهم﴾ أي خلقهم وقيل أوصالهم شددنا بعضها إلى بعض بالعروق والأعصاب، وقيل الأسر مجرى البول والغائط، وذلك أنه إذا خرج الأذى انقبضا. ﴿وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً﴾ أي إذا شئنا أهلكناهم، وآتينا بأشباههم فجعلناهم بدلاً منهم.

إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

﴿إن هذه﴾ أي السورة ﴿تذكرة﴾ أي تذكير وعظة ﴿فمن شاء اتخذ﴾ أي لنفسه في الدنيا ﴿إلى ربه سبيلاً﴾ أي وسيلة بالطاعة، والتقرب إليه وهذه مما يتمسك بها القدرية يقولون اتخذ السبيل هو عبارة عن التقرب إلى الله تعالى، وهو إلى اختيار العبد، ومشيتته قال أهل السنة ويرد عليهم قوله عز وجل في سياق الآية. ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾ أي لستم تشاؤون إلا بمشيئة الله تعالى لأن الأمر إليه، ومشيتة الله مستلزمة لفعل العبد فجميع ما يصدر عن العبد بمشيئة الله جلّ جلاله وتعالى شأنه ﴿إن الله كان عليماً﴾ أي بأحوال خلقه وما يكون منهم ﴿حكيماً﴾ أي حيث خلقهم مع علمه بهم ﴿يدخل من يشاء في رحمته﴾ أي في دينه وقيل في جنته فإن فسرت الرحمة بالدين كان ذلك من الله تعالى وإن فسرت بالجنة كان دخول الجنة بسبب مشيئة الله جلّ جلاله وتعالى شأنه وفضله وإحسانه لا بسبب الاستحقاق ﴿والظالمين﴾ يعني المشركين ﴿أعد لهم عذاباً أليماً﴾ أي مؤلماً، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿وسبحه ليلاً طويلاً﴾، يعني التطوع بعد المكتوبة.

﴿إن هؤلاء﴾، يعني كفار مكة ﴿يحبون العاجلة﴾، أي الدار العاجلة وهي الدنيا. ﴿ويذرون وراءهم﴾، يعني أمامهم، ﴿يوماً ثقیلاً﴾، شديداً وهو يوم القيامة. أي يتركونه فلا يؤمنون به ولا يعملون له. ﴿نحن خلقناهم وشددنا﴾، قوينا وأحكمنا، ﴿أسرهم﴾، قال مجاهد وقتادة ومقاتل: أسرهم أي خلقهم، يقال رجل حسن الأسر أي الخلق، وقال الحسن: يعني أوصالهم شددنا بعضها إلى بعض بالعروق والعصب. ورؤي عن مجاهد في تفسير الأسر قال: الفرج يعني موضع مصر في البول والغائط إذا خرج الأذى انقبضا. ﴿وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً﴾، أي إذا شئنا أهلكناهم وآتينا بأشباههم فجعلناهم بدلاً منهم.

﴿إن هذه﴾، يعني هذه السورة، ﴿تذكرة﴾، تذكير وعظة، ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ وسيلة

للطاعة.

﴿وما تشاؤون﴾، قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو (يشاؤون) بالياء، وقرأ الآخرون بالتاء، ﴿إلا أن يشاء الله﴾ أي لستم تشاؤون إلا بمشيئة الله عز وجل، لأن الأمر إليه ﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾ يدخل من يشاء في رحمته والظالمين، أي المشركين. ﴿أعد لهم عذاباً أليماً﴾.

سورة المرسلات

(مكية وهي خمسون آية ومائة وثمانون كلمة وثمانمائة وستة عشر حرفاً)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝ (١) فَالْعَصْفَاتِ ۝ (٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ۝ (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ۝ (٤)

قوله عز وجل: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ فالعاصفات عصفاً والناشرات نشرًا فالفارقات فرقاً فالملقيات ذكرًا عذراً أو نذراً أعلم أن المفسرين ذكروا في هذه الكلمات الخمس وجوها:

الأول: أن المراد بأسرها الرياح ومعنى المرسلات عرفاً الرياح أرسلت متتابعة كعرف الفرس، وقيل عرفاً أي كثيراً ﴿فالعاصفات عصفاً﴾ يعني الرياح الشديدة الهبوب، ﴿والناشرات نشرًا﴾. يعني الرياح اللينة، وقيل هي الرياح التي أرسلها نشرًا بين يدي رحمته، وقيل هي الرياح التي تنشر السحاب، وتأتي بالمطر فالفارقات فرقاً يعني الرياح التي تفرق السحاب، وتبدده فالملقيات ذكرًا يعني أن الرياح إذا أرسلت عاصفة شديدة قلعت الأشجار، وخربت الديار، وغيرت الآثار. فيحصل بذلك خوف للعباد في القلوب، فيلجئون إلى الله تعالى ويذكرونه، فصارت تلك الرياح كأنها ألقت الذكر، والمعرفة في القلوب عند هبوبها.

الوجه الثاني: أن المراد بأسرها الملائكة الذين أرسلهم الله تعالى ومعنى والمرسلات عرفاً. الملائكة الذين أرسلوا بالمعروف من أمر الله، ونهيه وهذا القول رواية عن ابن مسعود فالعاصفات عصفاً يعني الملائكة تعصف في طيرانهم، ونزولهم كعصف الرياح في السرعة، والناشرات نشرًا يعني أنهم إذا نزلوا إلى الأرض نشروا أجنتهم، وقيل هم الذين ينشرون الكتب، ودواوين الأعمال يوم القيامة فالفارقات فرقاً. قال ابن عباس: يعني الملائكة تأتي بما يفرق بين الحق والباطل، فالملقيات ذكرًا يعني الملائكة تلقي الذكر إلى الأنبياء، وقيل يجوز أن يكون الذكر هو القرآن

سُورَةُ الْمُرْسَلَاتِ

مكية وهي خمسون آية.

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾، يعني الرياح أرسلت متتابعة كعُرف الفرس. وقيل: عُرْفًا أي كثير تقول العرب: الناس إلى فلان عرف واحد، إذا توجهوا إليه فأكثروا، هذا معنى قول مجاهد وقتادة، قال مقاتل: يعني الملائكة التي أرسلت بالمعروف من أمر الله ونهيه، وهي رواية مسروق عن ابن مسعود.

﴿فالعاصفات عصفاً﴾، يعني الرياح الشديدة الهبوب.

﴿والناشرات نشرًا﴾، يعني الرياح اللينة. وقال الحسن: هي الرياح اللينة. وقال الحسن: هي الرياح التي

خاصة فعلى هذا يكون الملقى هو جبريل وحده، وإنما ذكره بلفظ الجمع على سبيل التعظيم.

الوجه الثالث: أن المراد بأسرها آيات القرآن، ومعنى المرسلات عرفاً آيات القرآن المتتابعة في النزول على محمد ﷺ بكل عرف وخير فالعاصفات عصفاً يعني آيات القرآن تعصف القلوب بذكر الوعيد حتى تجعلها كالعصف وهو النبت المتكسر، والناشرات نشرأ يعني آيات القرآن تنشر أنوار الهداية والمعرفة في قلوب المؤمنين. فالفارقات فرقاً يعني آيات القرآن تفرق بين الحق والباطل فالملقيات ذكرأ يعني آيات القرآن هي الذكر الحكيم الذي يلقي الإيمان والنور في قلوب المؤمنين.

فَالْمَلَقَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عَذْرًا أَوْ نَذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٍ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُفِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِنَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَذْرَبَكُمْ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ تَهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُنْعِمُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ إِنَّ قَدْرَ مَعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾

الوجه الرابع: أنه ليس المراد من هذه الكلمات الخمس شيئاً واحداً بعينه فعلى هذا يكون المراد بقوله تعالى: ﴿والمرسلات عرفاً فالعاصفات عصفاً والناشرات نشرأ الرياح﴾ ويكون المراد بقوله ﴿والفارقات فرقاً فالملقيات ذكرأ﴾ الملائكة.

فإن قلت وما المجانسة بين الرياح والملائكة حتى جمع بينهما في القسم قلت الملائكة روحانيون فهم بسبب لطافتهم، وسرعة حركاتهم شابهوا الرياح فحصلت المجانسة بينهما من هذا الوجه فحسن الجمع بينهما في القسم عذراً أو نذراً أي للإعذار والإنذار من الله، وقيل عذراً من الله ونذراً منه إلى خلقه، وهذه كلها أقسام وجواب القسم قوله تعالى: ﴿إن ما توعدون﴾ أي من أمر الساعة ومجيئها ﴿لواقع﴾ أي لكائن نازل لا محالة، وقيل معناه إن ما

يرسلها الله بشرأ بين يدي رحمته. وقيل: هي الرياح التي تنشر السحاب وتأتي بالمطر. وقال مقاتل: هم الملائكة ينشرون الكتب.

﴿والفارقات فرقاً﴾، قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: يعني الملائكة تأتي بما يفرق بين الحق والباطل. وقال قتادة والحسن: هي أي القرآن تفرق بين الحلال والحرام. ورؤي عن مجاهد قال: هي الرياح تفرق السحاب وتبدده.

﴿فالملقيات ذكرأ﴾، يعني الملائكة تلقي الذكر إلى الأنبياء، نظيرها: ﴿يلقي الروح من أمره﴾ [غافر: ١٥].

﴿عذراً أو نذراً﴾، أي للإعذار والإنذار، قرأ الحسن ﴿عذراً﴾ بضم الذال واختلف فيه عن أبي بكر عن عاصم، وقراءة العامة بسكونها، وقرأ أبو عمرو وحمة والكسائي وحفص ﴿نذراً﴾ ساكنة الذال، وقرأ الباقون بضمها، ومن سكن قال لأنهما في موضع مصدرين بمعنى الإنذار والإعذار وليسا بجمع فينقلان إلى ههنا أقسام ذكرها على قوله:

﴿إنما توعدون﴾، من أمر الساعة والبعث، ﴿لواقع﴾، لكائن ثم ذكر متى يقع.

فقال: ﴿فإذا النجوم طُمست﴾، مَجِي نورها.

توعدون به من الخير والشر لواقع بكم. ثم ذكر متى يقع فقال تعالى: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ أي محي نورها وقيل محقت ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ أي شقت وقيل فتحت ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ أي قلعت من أماكنها ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْتُتْ﴾ وقرئ وقتت بالواو ومعناها وأحد أي جمعت لميقات يوم معلوم، وهو يوم القيامة ليشهدوا على الأمم ﴿لَأَيَّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ أي أخرت وضرب الأجل لجميعهم كأنه تعالى يعجب لعباده من تعظيم ذلك اليوم، والمعنى جمعت الرسل في ذلك اليوم لتعذيب من كذبهم وتعظيم من آمن بهم، ثم بين ذلك اليوم فقال تعالى: ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ قال ابن عباس يوم فصل الرحمن فيه بين الخلائق ثم أتبع ذلك تعظيماً وتهويلاً فقال تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ أي وما أعلمك بيوم الفصل وهو له شدته ﴿وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي بالتوحيد والنبوة والمعاد والبعث والحساب.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ يعني الأمم الماضية بالعذاب في الدنيا حين كذبوا رسلهم ﴿ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخَرِينَ﴾ يعني السالكين سبيلهم في الكفر والتكذيب، وهم كفار قريش، أي نهلكهم بتكذيبهم محمداً ﷺ ﴿كَذَلِكَ نَفْعِلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ أي إنما نفعل بهم ذلك لكونهم مجرمين ﴿وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾ يعني النطفة ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ يعني الرحم ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ يعني وقت الولادة وهو معلوم لله تعالى لا يعلم ذلك غيره ﴿فَقَدَرْنَا﴾ قرئ بالتشديد من التقدير، أي قدرنا ذلك تقديراً ﴿فَنَعْمُ الْقَادِرُونَ﴾ أي المقدرون له وقرئ بالتخفيف من القدرة، أي قدرنا على خلقه، وتصويره كيف شئنا فنعم القادرون حيث خلقناه في أحسن صورة وهيئة.

وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رُوسًا شِمْخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾، شُقَّتْ.

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾، قُلِعَتْ من أماكنها.

﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْتُتْ﴾، قرأ أهل البصرة (وقتت) بالواو، وقرأ أبو جعفر بالواو وتخفيف القاف، وقرأ الآخرون بالألف وتشديد القاف، وهما لغتان. والعرب تعاقبت بين الواو والهمزة كقولهم: وكدت وأكدت، ورخت وأرخت، ومعناها جمعاً لميقات يوم معلوم، وهو يوم القيامة ليشهدوا على الأمم.

﴿لَأَيَّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾، أي أخرت، وضرب الأجل لجمعهم فعجب العباد من ذلك اليوم.

ثم بين فقال: ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾، قال ابن عباس: يوم فصل الرحمن بين الخلائق.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ وويل يومئذ للمكذبين * أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾، يعني الأمم الماضية بالعذاب في الدنيا حين كذبوا رسلهم.

﴿ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخَرِينَ﴾، السالكين سبيلهم في الكفر والتكذيب يعني كفار مكة بتكذيبهم محمداً ﷺ.

﴿كَذَلِكَ نَفْعِلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ ويل يومئذ للمكذبين * أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾، يعني النطفة.

﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾، يعني الرحم.

﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾، وهو وقت الولادة.

﴿فَقَدَرْنَا﴾، قرأ أهل المدينة والكسائي ﴿فَقَدَرْنَا﴾ بالتشديد من التقدير، وقرأ الآخرون بالتخفيف من

القدرة، لقوله: ﴿فَنَعْمُ الْقَادِرُونَ﴾، وقيل: معناهما واحد، وقوله: ﴿فَنَعْمُ الْقَادِرُونَ﴾ أي المقدرّون.

مَاءَ فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ اٰنْطَلِقُوا۟ اِلٰى مَا كُنْتُمْ بِهٖ تَكْذِبُوْنَ ﴿٢٩﴾ اٰنْطَلِقُوا۟ اِلٰى ظِلِّ ذِي ثُلُثٍ شُعْبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْلَّهَبِ ﴿٣١﴾ اِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾

﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ أي المنكرين للبعث لأن القادر على الابتداء قادر على الإعادة ﴿ألم نجعل الأرض كفاتاً﴾ يعني وعاء وأصله الضم والجمع ﴿أحياء وأمواتاً﴾ يعني تكفّتهم أحياء على ظهرها بمعنى تضمهم في دورهم ومنازلهم وتكفّتهم أمواتاً في بطنها في قبورهم، ولذلك تسمى الأرض أما لأنها تضم الناس كالأم تضم ولدها ﴿وجعلنا فيها﴾ أي في الأرض ﴿رواسي شامخات﴾ يعني جبلاً عالياً ﴿وأسقيناكم ماء فراتاً﴾ يعني عذاباً ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ يعني أن هذا كله أعجب عن البعث فالقادر عليه قادر على البعث.

قوله عز وجل: ﴿انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون﴾ يعني يقال للمكذبين بيوم القيامة في الدنيا انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون وهو العذاب ثم فسرهُ بقوله ﴿انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب﴾ يعني دخان جهنم إذا سطع وارتفع تشعب، وتفرق ثلاث فرق، وكذلك شأن الدخان العظيم. فيقال لهم كونوا فيه إلى أن يفرغ من الحساب كما يكون أولياء الله تعالى في ظل عرشه، وقيل يخرج عنق من النار فيتشعب ثلاث شعب على رؤوسهم وعن أيماهم وعن شمائلهم ﴿لا ظليل﴾ أي إن ذلك الظل لا يظل من حر ﴿ولا يغني من اللهب﴾ أي لا يرد عنهم لهب جهنم والمعنى أنهم إذا استظلوا بذلك الظل لا يدفع عنهم حر اللهب ﴿إنها﴾ يعني جهنم ﴿ترمي بشرراً﴾ جمع شرارة وهي ما تطاير من النار

﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ * ألم نجعل الأرض كفاتاً، وعاء، ومعنى الكفت: الضم والجمع، يقال: كفت الشيء إذا ضمّه وجمعه. وقال الفراء يريد تكفّتهم أحياء على ظهرها في دورهم ومنازلهم وتكفّتهم أمواتاً في بطنها أي تحوزهم.

وهو قوله: ﴿أحياء وأمواتاً﴾ وجعلنا فيها رواسي، جبلاً ﴿شامخات﴾، عالياً، ﴿وأسقيناكم ماء فراتاً﴾، عذاباً.

﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾، قال مقاتل: وهذا كله أعجب من البعث الذي تكذبون به، ثم أخبر أنه يقال لهم يوم القيامة.

﴿انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون﴾، في الدنيا.

﴿انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب﴾، يعني دخان جهنم إذا ارتفع انشعب وافترق ثلاث فرق. وقيل: يخرج عنق من النار فيتشعب ثلاث نور ودخان ولهب، فأما النور فيقف على رؤوس المؤمنين، والدخان يقف على رؤوس المنافقين، واللهب الصافي يقف على رؤوس الكافرين.

ثم وصف ذلك الظل فقال: ﴿لا ظليل﴾ يظل من الحر، ﴿ولا يغني من اللهب﴾، قال الكلبي: لا يرد لهب جهنم عنكم، والمعنى أنهم إذا استظلوا بذلك الظل لم يدفع عنهم حرّ اللهب.

﴿إنها﴾، يعني جهنم، ﴿ترمي بشرراً﴾، وهو ما تطاير من النار، واحداً شرراً. ﴿كالقصر﴾، وهو البناء العظيم، قال ابن مسعود: يعني الحصون. وقال عبد الرحمن بن عباس عن قوله: ﴿إنها ترمي بشرراً كالقصر﴾ قال: هي الخشب العظيم المقطعة، وكنا نعمد إلى الخشب فنقطعها ثلاثة أذرع وفوق ذلك ودونه نذخرها للشتاء، فكنا نسميها القصر. وقال سعيد بن جبيرة والضحاك: هي أصول النخل والشجر العظيم، واحداً قصر، مثل تمر

﴿كالقصر﴾ يعني كالبناء العظيم ونحوه قيل هي أصول الشجر، والنخل العظام واحدها قصرة وسئل ابن عباس عن قوله، ﴿ترمي بشر كالقصر﴾ فقال هي الخشب العظام المقطعة وكنا نعد إلى الخشبة فنقطعها ثلاثة أذرع، وفوق ذلك ودونه وندخرها للشتاء، وكنا نسميها القصر.

كَانَ يَوْمَ يَوْمِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوْقَهُمْ مَتَابِشُهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُّوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كَسَبْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُّوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا تَرَكَعُوا ﴿٤٨﴾

﴿كانه﴾ يعني الشرر ﴿جماليات﴾ جمع الجمال، وقال ابن عباس: هي حبال السفن يجمع بعضها إلى بعض حتى تكون كأوساط الجمال ﴿صفر﴾ جمع أصفر يعني أن لون ذلك الشرر أصفر وأنشد بعضهم:

دعتهم بأعلى صوتها ورمتهم بمثل الجمال الصفر نزاعة الشوى

وقيل الصفر هنا معناه الأسود لأنه جاء في الحديث أن شرر نار جهنم أسود كالقيز، والعرب تسمى سود الإبل صفراً لأنه يشوب سوادها شيء من الصفرة، وقيل هي قطع النحاس، والمعنى أن هذا الشرر يرتفع كأنه شيء مجموع غليظ أصفر. ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ قوله عز وجل: ﴿هذا يوم لا ينطقون﴾ يعني بحجة تنفعهم قيل هذا في بعض مواطن القيامة ومواقفها، وذلك لأن في بعضها يتكلمون وفي بعضها يختصمون، وفي بعضها يختم على أفواههم فلا ينطقون ﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ عطف على يؤذن واختير ذلك لأن رؤوس الآي بالنون فلو قال فيعتذروا لم يوافق الآيات، والعرب تستحب وفاق الفواصل كما تستحب وفاق القوافي، والقرآن نزل على ما تستحب العرب من موافقة المقاطع، والمعنى لا يكون إذن واعتذار قال الجنيدي: أي عذر لمن أعرض عن منعمه وكفر بأياديه ونعمه. فإن قلت قد توهم أن لهم عذراً، ولكن قد منعوا من ذكره.

قلت ليس لهم عذر في الحقيقة لأنه قد تقدم الإعذار والإنذار في الدنيا فلم يبق لهم عذر في الآخرة، ولكن ربما تخيلوا خيلاً فاسداً أن لهم عذراً فلم يؤذن لهم في ذلك العذر الفاسد ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ يعني أنه لما تبين إنه لا

ونمر، وجمرة وجمر، وقرأ علي وابن عباس ﴿كالقصر﴾ بفتح الصاد، أي أعناق النخل، والقصرة العنق، وجمعها قصر وقصرات.

﴿كانه﴾ رد الكناية إلى اللفظ، ﴿جمالة﴾. قرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿جمالة﴾ على جمع الجمل مثل حجر وحجارة، وقرأ يعقوب بضم الجيم بلا ألف أراد الأشياء العظام المجموعة، وقرأ الآخرون ﴿جماليات﴾ بالألف وكسر الجيم على جمع الجمال، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبیر: هي حبال السفن يجمع بعضها إلى بعض، حتى يكون كأوساط الرجال، ﴿صفر﴾، جمع الأصفر، يعني لون قناب، وقيل: الصفر معناه السود لأنه جاء في الحديث أن شرر نار جهنم أسود كالقيز، والعرب تسمى سود الإبل صفر لأنه يشوب سوادها شيء من صفرة كما يقال لبيض الطباء: آدم لأنها بياضها يعلوه كدرة.

﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ هذا يوم لا ينطقون، أي في القيامة لأن فيها مواقف، ففي بعضها يختصمون ويتكلمون وفي بعضها يختم على أفواههم فلا ينطقون.

عذر لهم، ولا حجة فيما أتوا به من الأعمال السيئة، ولا قدرة لهم على دفع العذاب عنهم لا جرم قال في حقهم ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ هذا يوم الفصل ﴿يعني بين أهل الجنة وأهل النار، وقيل هو الفصل بين العباد في الحقوق والمحاکمات﴾ ﴿جمعناكم والأولين﴾ يعني مكذبي هذه الأمة والذين كذبوا أنبياءهم من الأمم الماضية. ﴿فإن كان لكم كيد فكيّدون﴾ أي إن كانت لكم حيلة تحتالون بها لأنفسكم فاحتالوا وهم يعلمون أن الحيل يومئذ منقطعة لا تنفع وهذا في نهاية التوبيخ والتقريع فلماذا عقبة بقوله ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ قوله عز وجل ﴿إن المتقين﴾ أي الذين اتقوا الشرك ﴿في ظلال﴾ جمع ظل وهو ظل الأشجار ﴿وعيون﴾ أي في ظلهم عيون ماء ﴿وفواكه مما يشتهون﴾ أي يتلذذون بها ﴿كلوا واشربوا﴾ أي ويقال لهم كلوا واشربوا، وهذا القول يحتمل أن يكون من جهة الله تعالى بلا واسطة، وما أعظمها من نعمة أو يكون من جهة الملائكة على سبيل الإكرام ﴿هنيئاً﴾ أي خالص اللذة لا يشوبه تنغيص ﴿بما كنتم تعملون﴾ أي في الدنيا من الطاعات ﴿إننا كذلك نجزي المحسنين﴾ قيل المقصود منه تذكير الكفار ما فاتهم من النعم العظيمة، ليعلموا أنهم لو كانوا من المتقين المحسنين لفازوا بمثل ذلك الخير العظيم. فلما لم يفعلوا ذلك وقعوا في قوله. ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ قوله عز وجل: ﴿كلوا وتمتعوا قليلاً﴾ يقول الكفار مكة كلوا وتمتعوا قليلاً في الدنيا إلى منتهى آجالكم، وهذا وإن كان ظاهر اللفظ أمراً إلا أنه في المعنى نهى بليغ وزجر عظيم ﴿إنكم مجرمون﴾ أي مشركون بالله مستحقون للعقاب لا جرم أتبعه بقوله ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ﴿أي وإذا قيل لهم صلوا مع محمد وأصحابه لا يصلون فعبر عن الصلاة بلفظ الركوع لأنه ركن من أركانها وقال ابن عباس: إنما يقال لهم هذا يوم القيامة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴿أي بعد نزول القرآن إذا لم يؤمنوا به فبأي شيء يؤمنون والله أعلم.

﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ قال الجنيد: أي لا عذر لمن أعرض عن منعمه وكفر بأياديه ونعمه.

﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ هذا يوم الفصل، بين أهل الجنة والنار، ﴿جمعناكم والأولين﴾، يعني مكذبي هذه الأمة والأولين الذين كذبوا أنبياءهم.

﴿فإن كان لكم كيد فكيّدون﴾، قال مقاتل: إن كانت لكم حيلة فاحتالوا لأنفسكم.

﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ إن المتقين في ظلال، جمع ظل أي في ظلال الشجر، ﴿وعيون﴾، الماء.

﴿وفواكه مما يشتهون﴾.

ويقال لهم: ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون﴾، في الدنيا بطاعتي.

﴿إننا كذلك نجزي المحسنين﴾ ويل يومئذ للمكذبين.

ثم قال لكفار مكة: ﴿كلوا وتمتعوا قليلاً﴾، في الدنيا، ﴿إنكم مجرمون﴾، مشركون بالله عز وجل مستحقون للعذاب.

﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ وإذا قيل لهم اركعوا، يعني صلوا، لا يركعون، لا يصلون، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: إنما يقال لهم هذا يوم القيامة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون.

﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ فبأي حديث بعده، أي بعد القرآن، ﴿يؤمنون﴾، إذا لم يؤمنوا به.

سورة النبأ

وتسمى سورة عم يتساءلون والتساؤل مكية وهي أربعون آية ومائة وثلاث وسبعون كلمة وتسعمائة وسبعون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْتَهُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾

قوله عز وجل: ﴿عم﴾ أصله عن ما ﴿يتساءلون﴾ عن أي شيء يتساءلون يعني المشركين ولفظه استفهام، ومعناه التفخيم كقولك، أي شيء زيد إذا عظمت شأنه، وذلك أن النبي ﷺ لما دعاهم إلى التوحيد، وأخبرهم بالبعث بعد الموت، وتلا عليهم القرآن جعلوا يتساءلون فيما بينهم فيقول بعضهم لبعض ماذا جاء به محمد ﷺ ثم ذكر عما ذا تساؤلهم فقال تعالى: ﴿عن النبأ العظيم﴾ يعني الخبر العظيم الشأن قال الأكثرون هو القرآن، وقيل هو البعث وقيل نبوة محمد ﷺ وما جاء به ﴿الذي هم فيه مختلفون﴾ فمن فسر النبأ العظيم بالقرآن قال اختلافهم فيه هو قولهم إنه سحر أو شعر أو كهانة أو نحو ذلك مما قالوه في القرآن، ومن فسر النبأ العظيم بالبعث قال اختلافهم فيه فمن مصدق به، وهم المؤمنون ومن مكذب به، وهم الكافرون ومن فسره بنبوة محمد ﷺ قال اختلافهم فيه كاختلافهم في القرآن ﴿كلا﴾ هي ردع وزجر وقيل هي نفي لاختلافهم، والمعنى ليس الأمر كما قالوا ﴿سيعلمون﴾ أي عاقبة تكذيبهم حين ينكشف الأمر يعني في القيامة ﴿ثم كلا سيعلمون﴾ وعيد على أثر وعيد، وقيل معناه كلا سيعلمون يعني الكافرين عاقبة

سُورَةُ النَّبَأِ

مكية وهي أربعون آية.

﴿عم﴾، أصله (عن ما) فأدغمت النون في الميم وحذفت ألف ما كقوله: (فيم)، و(بم)، ﴿يتساءلون﴾، أي عن أي شيء يتساءل هؤلاء المشركون، وذلك أن النبي ﷺ لما دعاهم إلى التوحيد وأخبرهم بالبعث بعد الموت، وتلا عليهم القرآن جعلوا يتساءلون بينهم فيقولون: ماذا جاء به محمد ﷺ، قال الزجاج: اللفظ لفظ استفهام ومعناه التفخيم، كما تقول: أي شيء زيد؟ إذا أعظمت أمره وشأنه.

ثم ذكر أن تساؤلهم عمّاذا فقال: ﴿عن النبأ العظيم﴾، قال مجاهد والأكثرون: هو القرآن، دليله قوله: ﴿قل هو نبأ عظيم﴾ [ص: ٦٧]، وقال قتادة: هو البعث.

﴿الذي هم فيه مختلفون﴾، فمصدق ومكذب، ﴿كلا سيعلمون﴾، كلا نفي يقول هم سيعلمون عاقبة تكذيبهم حين تنكشف الأمور.

تكذيبهم وكفرهم ثم كلا سيعلمون يعني المؤمنين عاقبة تصديقهم وإيمانهم ثم ذكر أشياء من عجائب صنائعه ليستدلوا بذلك على توحيده، ويعلموا أنه قادر على إيجاد العالم وفنائه بعد إيجاده وإيجاده مرة أخرى للبعث والحساب، والثواب، والعقاب فقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ أي فراشاً وبساطاً لتستقر عليها الأقدام ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ يعني للأرض حتى لا تميد ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ يعني أصنافاً ذكوراً وإناثاً.

وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلْنَا أَلْفَاظًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾

﴿وجعلنا نومكم سباتاً﴾ أي راحة لأبدانكم وليس الغرض أن السبات للراحة بل المقصود منه أن النوم يقطع التعب ويزيله، ومع ذلك تحصل الراحة، وأصل السبت القطع، ومعناه أن النوم يقطع عن الحركة والتصرف في الأعمال ﴿وجعلنا الليل لباساً﴾ أي غطاء وغشاء يستر كل شيء بظلمته عن العيون، ولهذا سمي الليل لباساً على وجه المجاز، ووجه النعمة في ذلك هو أن الإنسان يستتر بظلمة الليل عن العيون إذا أراد هرباً من عدو ونحو ذلك. ﴿وجعلنا النهار معاشاً﴾ أي سبباً للمعاش والتصرف في المصالح وقال ابن عباس تبتغون فيه من فضل الله وما قسم لكم من رزقه ﴿وبيننا فوقكم سبعاً شداداً﴾ يعني سبع سموات محكمة ليس يتطرق عليها شقوق ولا فطور على ممر الزمان إلى أن يأتي أمر الله تعالى: ﴿وجعلنا سراجاً وهَّاجاً﴾ يعني الشمس مضيئة منيرة، وقيل الوهَّاج الوقاد، وقيل جعل في

﴿ثم كلا سيعلمون﴾، وعيد لهم على أثر وعيد. قال الضحاك: كلا سيعلمون يعني الكافرين ثم كلا سيعلمون يعني المؤمنين ثم ذكر صنائعه ليعلموا توحيده.

فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾، فراشاً.

﴿والجبال أوتاداً﴾، للأرض حتى لا تميد.

﴿وخلقناكم أزواجاً﴾، أصنافاً ذكوراً وإناثاً.

﴿وجعلنا نومكم سباتاً﴾، أي راحة لأبدانكم. قال الزجاج: السبات أن ينقطع عن الحركة والروح فيه. وقيل: معناه جعلنا نومكم قطعاً لأعمالكم لأن أصل السبت القطع.

﴿وجعلنا الليل لباساً﴾، غطاءً وعشاء يستر كل شيء بظلمته.

﴿وجعلنا النهار معاشاً﴾، المعاش العيش وكل ما يُعاش فيه فهو معاش، أي جعلنا منها سبباً للمعاش والتصرف في المصالح. قال ابن عباس: يريد تبتغون فيه من فضل الله، وما قسم لكم من رزقه.

﴿وبيننا فوقكم سبعاً شداداً﴾، يريد سبع سموات.

﴿وجعلنا سراجاً﴾، يعني الشمس، ﴿وهَّاجاً﴾، مضيئاً منيراً. قال الزجاج: الوهَّاج الوقاد. وقال مقاتل: جعل فيه نوراً وحرارة، والوهج يجمع النور والحرارة.

﴿وأنزلنا من المعصرات﴾، قال مجاهد وقتادة ومقاتل والكلبي: يعني الرياح التي تعصر السحاب، وهي رواية العوفي عن ابن عباس، قال الأزهري: هي الرياح ذوات الأعاصير، وعلى التأويل تكون من بمعنى الباء أي

الشمس حرارة ونوراً والوهج يجمع النور والحرارة ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمَعْصِرَاتِ﴾ يعني الرياح التي تعصر السحاب . وهي رواية عن ابن عباس: وقيل هي الرياح ذوات الأعاصير، وعلى هذا المعنى تكون من بمعنى الباء، أي وأنزلنا بالمعصرات، وذلك لأن الريح تستدر المطر من السحاب، وقيل هي السحاب وفي الرواية الأخرى عن ابن عباس المعصرات السحابة التي حان لها أن تمطر، ولما تمطر وقيل المعصرات المغيئات والعاصر هو الغيث، وقيل المعصرات السموات، وذلك لأن المطر ينزل من السماء إلى السحاب ﴿مَاءً ثَجَاجًا﴾ أي صباباً مدراراً متتابعاً يتلو بعضه بعضاً، ومنه الحديث «أفضل الحج العج والثج»، أي رفع الصوت بالتلبية وصب دماء الهدى ﴿لَنُخْرِجَ بِهِ﴾ أي بذلك الماء ﴿حَبًّا﴾ أي ما يأكله الإنسان كالحنطة ونحوها ﴿وَنَبَاتًا﴾ أي ما ينبت في الأرض من الحشيش مما يأكل منه الأنعام ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ أي ملتفة بالشجر ليس بينها خلال فدل على البعث بذكر ابتداء الخلق ثم أخبر عنه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ أي الحساب ﴿كَانَ مِيقَاتًا﴾ أي لما وعده الله من الثواب والعقاب وقيل ميقاتاً يجمع فيه الخلائق ليقضي بينهم ﴿يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ يعني النفخة الأخيرة ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ يعني زمراً زمراً من كل مكان للحساب.

وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاغِينَ
مَنَابًا ﴿٢٢﴾ لَيْسَ فِيهَا آحْقَابٌ ﴿٢٣﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾

﴿وفتحت السماء فكانت أبواباً﴾ يعني فكانت ذوات أبواب لنزول الملائكة، وقيل تنحل وتتناثر حتى يصير فيها أبواب وطرق ﴿وسيرت الجبال﴾ أي عن وجه الأرض ﴿فكانت سراباً﴾ أي هباء منبثاً كالسراب في عين الناظر ﴿إن جهنم كانت مرصاداً﴾ أي طريقاً وممرّاً فلا سبيل لأحد إلى الجنة حتى يقطع النار وروي عن ابن عباس «إن على جسر جهنم سبع محابس يسئل العبد عند أولها عن شهادة أن لا إله إلا الله فإن جاء بها تامة جاز إلى الثاني فيسأل عن

بالمعصرات، وذلك أن الريح تستدر المطر، وقال أبو العالية والربيع والضحاك: المعصرات هي السحاب وهي رواية الوالبي عن ابن عباس، وقال الفراء: المعصر السحابة التي تتحلب بالمطر ولا تمطر، كالمرأة المعصر هي التي دنا حيضها ولم تحض. وقال ابن كيسان: هي المغيئات من قوله: ﴿فيه يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٩]. وقال الحسن وسعيد بن جبيرة وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان: من المعصرات أي من السموات. ﴿ماءً ثَجَاجًا﴾، أي صباباً، وقال مجاهد: مدراراً. وقال قتادة: متتابعاً يتلو بعضه بعضاً. وقال ابن زيد: كثيراً. ﴿لَنُخْرِجَ بِهِ﴾، أي بذلك الماء، ﴿حَبًّا﴾، وهو ما يأكله الناس، ﴿وَنَبَاتًا﴾، ما تنبت الأرض مما تأكله الأنعام.

﴿وجنات ألفافاً﴾، ملتفة بالشجر واحدها لف وليف، وقيل: هو جمع الجمع، يقال جنة لفا وجمعها لف، بضم اللام وجمع الجمع ألفاف.

﴿إن يوم الفصل﴾، يوم القضاء بين الخلق، ﴿كان ميقاتاً﴾، لما وعده الله من الثواب والعقاب.

﴿يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا﴾، زمراً زمراً من كل مكان للحساب.

﴿وفتحت السماء﴾، قرأ أهل الكوفة فتحت بالتخفيف، وقرأ الآخرون بالتشديد، أي شقت لنزول الملائكة، ﴿فكانت أبواباً﴾، أي ذات أبواب. وقيل: تنحل وتتناثر حتى تصير فيها أبواب وطرق.

﴿وسيرت الجبال﴾، عن وجه الأرض، ﴿فكانت سراباً﴾، أي هباء منبثاً لعين الناظر كالسراب.

الصَّلوات فإن جاء بها تامة جاز إلى الثالث فيسأل عن الزَّكاة فإن جاء بها تامة جاز إلى الرابع فيسأل عن الصوم، فإن جاء به تامة جاز إلى الخامس، فيسأل عن الحج فإن جاء به تامة جاز إلى السادس، فيسأل عن العمرة فإن جاء بها تامة جاز إلى السابع، فيسأل عن المظالم فإن خرج منها، وإلا يقال انظروا فإن كان له تطوع أكملت به أعماله فإذا فرغ انطلق به إلى الجنة»، وقيل كانت مرصداً أي معدة لهم، وقيل هو من رصدت الشيء أرصده إذا ترقبته، والمرصاد المكان الذي يرصد فيه الراصد العدو، والمعنى إن جهنم ترصد الكفار أي تنتظرهم ﴿لِلطَّاغِينَ﴾ أي الكافرين ﴿مَأْبَأً﴾ أي مرجعاً يرجعون إليها ﴿لَابِثِينَ فِيهَا﴾ أي في جهنم ﴿أَحْقَاباً﴾ جمع حقب وهو ثمانون سنة كل سنة اثنا عشر شهراً كل شهر ثلاثون يوم كل يوم ألف سنة يروى ذلك عن علي بن أبي طالب، وقيل الحقب الواحد سبعة عشر ألف سنة.

فإن قلت الأحقاب وإن طالت فهي متناهية وعذاب الكفار في جهنم غير متناه فما معنى قوله أحقاباً.

قلت ذكروا فيه وجوهاً:

أحدها: ما روي عن الحسن قال: إن الله تعالى لم يجعل على النار مدة بل قال لابثين فيها أحقاباً، فوالله ما هو إلا أنه إذا مضى حقب دخل حقب آخر، ثم آخر إلى الأبد فليس للأحقاب عدة إلا الخلود وروي عن عبد الله بن مسعود قال: «لو علم أهل النار أنهم يلبثون في النار عدد حصى الدنيا لفرحوا، ولو علم أهل الجنة أنهم يلبثون في الجنة عدد حصى الدنيا لحزنوا».

الوجه الثاني: أن لفظ الأحقاب لا يدل على نهاية، والحقب الواحد متناه، والمعنى أنهم يلبثون فيها أحقاباً لا

﴿إن جهنم كانت مرصداً﴾، طريقاً وممرّاً فلا سبيل لأحد إلى الجنة حتى يقطع النار. وقيل: كانت مرصداً أي مُعدّة لهم، يقال: أرصدت الشيء إذا أعددت له. وقيل: هو من رصدت الشيء أرصده إذا ترقبته والمرصاد المكان الذي يرصد الراصد فيه العدو. وقوله: ﴿إن جهنم كانت مرصداً﴾، أي ترصد الكفار. وروي مقسم عن ابن عباس: أن على جسر جهنم سبع محابس يُسئل العبد عند أولها عن شهادة أن لا إله إلا الله فإن جاء بها تامة جاز إلى الثاني، فيُسئل عن الصلاة فإن جاء بها تامة جاز إلى الثالث، فيُسئل عن الزكاة فإن جاء بها تامة جاز إلى الرابع، فيُسئل عن الصوم فإن جاء به تامة جاز إلى الخامس، فيُسئل عن الحج فإن جاء به تامة جاز إلى السادس، فيُسئل عن العمرة فإن جاء بها تامة جاز إلى السابع، فيُسئل عن المظالم فإن خرج منها وإلا يقال: انظروا فإن كان له تطوع أكمل به أعماله، فإذا فرغ انطلق به إلى الجنة.

﴿لِلطَّاغِينَ﴾، للكافرين، ﴿مَأْبَأً﴾، مرجعاً يرجعون إليه.

﴿لَابِثِينَ﴾، قرأ حمزة ويعقوب (لبثين) بغير ألف، وقرأ العامة ﴿لَابِثِينَ﴾ بالألف وهما لغتان. ﴿فيها أحقاباً﴾، جمع حقب، والحقب الواحد: ثمانون سنة، كل سنة اثنا عشر شهراً، كل شهر ثلاثون يوماً، كل يوم ألف سنة. روي ذلك عن علي بن أبي طالب، وقال مجاهد: الأحقاب ثلاثة وأربعون حقباً، كل حقب سبعون خريفاً، كل خريف سبعمئة سنة، كل سنة ثلاثمئة وستون يوماً، كل يوم ألف سنة. قال الحسن: إن الله لم يجعل لأهل النار مدة، بل قال: ﴿لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً﴾ فوالله ما هو إلا إذا مضى حقب دخل آخر ثم آخر إلى الأبد، فليس للأحقاب عدة إلا الخلود. وروي السدي عن مرة عن عبد الله قال: لو علم أهل النار أنهم يلبثون في النار عدد حصى الدنيا لفرحوا، ولو علم أهل الجنة أنهم يلبثون في الجنة عدد حصى الدنيا لحزنوا. وقال مقاتل بن حيان: الحقب الواحد سبع عشرة ألف سنة. قال: وهذه الآية منسوخة نسختها ﴿فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾ [النبا: ٣٠] يعني أن العدد قد ارتفع والخلود قد حصل.

يذوقون فيها أي في تلك الأحقاب برداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً، فهذا توقيت لأنواع العذاب الذي يبدلونه ولا توقيت للبشهم فيها.

الوجه الثالث: أن الآية منسوخة بقوله فلن نزيدكم إلا عذاباً يعني أن العدد قد ارتفع والخلود قد حصل. ﴿لا يذوقون فيها برداً﴾ قال ابن عباس: البرد النوم وقيل برداً أي روحاً وراحة، وقيل لا يذوقون برداً ينفعهم. ﴿ولا شراباً﴾ أي يغنيهم عن عطش ﴿إلا حميماً وغساقاً﴾ أي لكن يشربون حميماً قيل هو الصفر المذاب، وقيل هو الماء الحار الذي انتهى حره وغساقاً قال ابن عباس الغساق الزمهرير يحرقهم ببرده، وقيل هو صديد أهل النار.

جَزَاءً وَفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾

﴿جزاء وفاقاً﴾ أي جازيناهم جزاء وافق أعمالهم، وقيل وافق العذاب الذنب فلا ذنب أعظم من الشرك، ولا عذاب أعظم من النار. ﴿إنهم كانوا لا يرجون حساباً﴾ أي لا يخافون أن يحاسبوا، والمعنى أنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث ولا بأنهم يحاسبون ﴿وكذبوا بآياتنا﴾ أي التي جاءت بها الأنبياء، وقيل كذبوا بدلائل التوحيد والتبوة والبعث والحساب ﴿كذباً﴾، أي تكديماً قال الفراء هي لغة يمانية فصيحة يقولون في مصدر التفعيل فعال، قال وقد سألتني أعرابي منهم يستفتيني الحلق أحب إليك أم القصار يريد التقصير ﴿وكل شيء﴾ أي من الأعمال ﴿أحصيناه﴾ أي بيناه وأثبتناه ﴿كتاباً﴾ أي في كتاب وهو اللوح المحفوظ، وقيل معناه وكل شيء علمناه علماً لا يزول ولا يتغير ولا يتبدل

﴿لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً﴾، روي عن ابن عباس: أن البرد النوم، ومنه ما قال الكسائي وأبو عبيدة، تقول العرب: منع البرد البرد أي أذهب البرد النوم. وقال الحسن وعطاء: لا يذوقون فيها برداً أي روحاً وراحة. قال مقاتل: لا يذوقون فيها برداً ينفعهم من حرّ ولا شراباً ينفعهم من عطش. ﴿إلا حميماً وغساقاً﴾، قال: الغساق الزمهرير يحرقهم ببرده. وقيل: صديد أهل النار، وقد ذكرناه في سورة ص [٥٧].

﴿جزاء وفاقاً﴾، أي جازيناهم جزاء وافق أعمالهم. وقال مقاتل: وافق العذاب الذنب فلا ذنب أعظم من الشرك ولا عذاب أعظم من النار.

﴿إنهم كانوا لا يرجون حساباً﴾، لا يخافون أن يحاسبوا، والمعنى: أنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث ولا بأنهم يحاسبون.

﴿وكذبوا بآياتنا﴾، أي بما جاء به الأنبياء، ﴿كذباً﴾، يعني تكديماً، قال الفراء: هي لغة يمانية فصيحة، يقولون في مصدر التفعيل فعال قال: قال لي أعرابي منهم، على المروة يستفتيني: الحلق أحب إليك أم القصار. ﴿وكل شيء أحصيناه كتاباً﴾، أي وكل شيء من الأعمال بيناه في اللوح المحفوظ، كقوله: ﴿وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ [يس: ١٢].

﴿فذوقوا﴾، أي يقال لهم فذوقوا، ﴿فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾.

والمعنى أنا عالم بجميع ما فعلوه من خير وشر، وأنا أجازيهم على قدر أعمالهم جزاء وفاقاً ﴿فذوقوا﴾ أي يقال لهم ذوقوا ﴿فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾ قيل هذه الآية أشد آية في القرآن على أهل النار كلما استغاثوا من نوع من العذاب أغيثوا بأشد منه.

قوله عز وجل: ﴿إن للمتقين مفازاً﴾ أي فوزاً أي نجاة من العذاب، وقيل فوزاً بما طلبوه من نعيم الجنة، ويحتمل أن يفسر الفوز بالأمرين جميعاً لأنهم فازوا بمعنى نجوا من العذاب، وفازوا بما حصل لهم من النعيم. ثم فسره فقال ﴿حدائق﴾ جمع حديقة وهي البستان المحوط فيه كل ما يشتهون ﴿وأعناباً﴾ التنكير يدل على تعظيم ذلك العنب ﴿وكواعب﴾ جمع كاعب يعني جوارى نواهد قد تكعبت ثديهن ﴿أتراباً﴾ يعني مستويات في السن ﴿وكأساً دهاقاً﴾ قال ابن عباس: مملوءة مترعة، وقيل متتابعة، وقيل صافية ﴿لا يسمعون فيها﴾ أي في الجنة، وقيل في حالة شربهم لأن أهل الدنيا يتكلمون بالباطل في حالة شربهم ﴿لغوا﴾ أي باطلاً من الكلام ﴿ولا كذاباً﴾ أي تكذيباً والمعنى أنه لا يكذب بعضهم بعضاً ولا ينطقون به ﴿جزاء من ربك عطاء حساباً﴾ أي جازاهم جزاء وأعطاهم عطاء حساباً أي كافياً وافياً، وقيل حساباً يعني كثيراً، وقيل جزاء بقدر أعمالهم ﴿رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطاباً﴾ أي لا يقدر الخلق أن يكلموا الرب إلا بإذنه، وقيل لا يملكون منه خطاباً أي لا يملكون شفاعته إلا بإذنه في ذلك اليوم.

يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ

قوله عز وجل: ﴿إن للمتقين مفازاً﴾، فوز ونجاة من النار، وقال الضحاك: متزهاً.

﴿حدائق وأعناباً﴾، يريد أشجار الجنة وثمارها.

﴿وكواعب﴾، جوارى نواهد قد تكعبت ثديهن، واحديثها كاعب، ﴿أتراباً﴾، مستويات في السن.

﴿وكأساً دهاقاً﴾، قال ابن عباس والحسن وقتادة وابن زيد: مترعة مملوءة. وقال سعيد بن جبيرة ومجاهد: متتابعة. قال عكرمة: صافية.

﴿لا يسمعون فيها لغوا﴾، باطلاً من الكلام، ﴿ولا كذاباً﴾، تكذيباً، لا يكذب بعضهم بعضاً. وقرأ الكسائي ﴿كذاباً﴾ بالتخفيف مصدر المكاذبة، وقيل: هو الكذب. وقيل: هو بمعنى التكذيب كالمشدد.

﴿جزاء من ربك عطاء حساباً﴾، أي جازاهم جزاء وأعطاهم عطاء حساباً أي كافياً وافياً، يقال: أحسبت فلاناً أي أعطيته ما يكفيه حتى قال حسبي. وقال ابن قتيبة: عطاء حساباً أي كثيراً. وقيل: هو جزاء بقدر أعمالهم.

﴿رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن﴾، قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو ﴿رب﴾ رفع على الاستثنا والرحمن خبره وقرأ الآخرون بالجر إتياعاً لقوله من ربك وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب ﴿الرحمن﴾ جرّاً إتياعاً لقوله: ﴿رب السموات والأرض﴾، وقرأ الآخرون بالرفع، فحمزة والكسائي يقرآن ﴿رب﴾ بالخفض لقربه من قوله: ﴿جزاء من ربك﴾ ويقرآن ﴿الرحمن﴾ بالرفع لبعده منه على الاستثنا، وقوله: ﴿لا يملكون﴾ في موضع رفع خبره، ومعنى: ﴿لا يملكون منه خطاباً﴾، قال مقاتل: لا يقدر الخلق على أن يكلموا الرب إلا بإذنه. وقال الكلبي: لا يملكون شفاعته إلا بإذنه.

شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴿٣٨﴾ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تَرَابًا ﴿٣٩﴾

﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً﴾ قيل هو جبريل عليه الصلاة والسلام وقال ابن عباس: الروح ملك من الملائكة ما خلق الله مخلوقاً أعظم منه، فإذا كان يوم القيامة قام وحده صفاً، وقامت الملائكة كلهم صفاً واحداً فيكون من عظم خلقه مثلهم، وقال ابن مسعود: الروح ملك عظيم أعظم من السموات والأرض والجبال وهو في السماء الرابعة يسبح الله كل يوم اثني عشر ألف تسبيحة يخلق الله من كل تسبيحة ملكاً يجيء يوم القيامة صفاً وحده، وقيل الروح خلق على صورة بني آدم وليسوا بناس يقومون صفاً والملائكة صفاً هؤلاء جند وهؤلاء جند وقال ابن عباس الروح خلق على صورة بني آدم وما ينزل من السماء ملك إلا ومعه واحد منهم، وعنه أنهم بنو آدم يقومون صفاً والملائكة صفاً، وقيل يقوم سماطان سماط من الروح وسماط من الملائكة ﴿لا يتكلمون﴾ يعني الخلق كلهم إجلالاً لعظمته تعالى جلّ جلاله وتعالى عطاؤه وشأنه من هول ذلك اليوم ﴿إلا من أذن له الرحمن﴾ أي في الكلام ﴿وقال صواباً﴾ أي حقاً في الدنيا وعمل به، وقيل قال لا إله إلا الله قيل الاستثناء يرجع إلى الروح والملائكة، ومعنى الآية لا يشفعون إلا في شخص أذن الرحمن في الشفاعة له، وذلك الشخص ممن كان يقول صواباً في الدنيا، وهو لا إله إلا الله ﴿ذلك اليوم الحق﴾ أي الكائن الواقع لا محالة وهو يوم القيامة. ﴿فمن شاء اتخذ إلىٰ ربه مآباً﴾ أي سبيلاً يرجع إليه وهو طاعة الله وما يتقرب به إليه ﴿إنا أنذرناكم﴾ أي خوفناكم في الدنيا ﴿عذاباً قريباً﴾ أي في الآخرة وكل ما هو آت قريب ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه﴾ يعني من خير أو شر مثبتاً في صحيفته ينظر إليه يوم القيامة. ﴿ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾ قال عبد الله بن عمرو «إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مد الأديم وحشر الدواب والبهائم والوحوش، ثم يجعل القصاص بين البهائم حتى يقتص للشاء الحماء من الشاة القرناء نطحتها. فإذا فرغ من القصاص

﴿يوم يقوم الروح﴾، أي في ذلك اليوم، ﴿والملائكة صفاً﴾، واختلفوا في هذا الروح، قال الشعبي والضحاك: هو جبريل. وقال عطاء عن ابن عباس: الروح ملك من الملائكة ما خلق الله مخلوقاً أعظم منه، فإذا كان يوم القيامة قام وحده صفاً وقامت الملائكة كلهم صفاً واحداً، فيكون عظم خلقه مثلهم. وعن ابن مسعود: الروح ملك أعظم من السموات ومن الجبال، ومن الملائكة وهو في السماء الرابعة، يسبح كل يوم اثني عشر ألف تسبيحة، يخلق الله من كل تسبيحة ملكاً يجيء يوم القيامة صفاً وحده. وقال مجاهد وقتادة وأبو صالح: الروح خلق على صورة بني آدم وليسوا بناس يقومون صفاً والملائكة صفاً، هؤلاء جند وهؤلاء جند. وروى مجاهد عن ابن عباس قال: هم خلق على صورة بني آدم وما ينزل من السماء ملك إلا معه واحد منهم. وقال الحسن: هم بنو آدم. ورواه قتادة عن ابن عباس، وقال: هذا مما كان يكتمه ابن عباس، والملائكة صفاً، قال الشعبي: هما سماطا رب العالمين، يوم يقوم سماط من الروح وسماط من الملائكة. ﴿لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً﴾، في الدنيا، أي حقاً. وقيل: قال: لا إله إلا الله.

﴿ذلك اليوم الحق﴾، الكائن الواقع يعني يوم القيامة، ﴿فمن شاء اتخذ إلىٰ ربه مآباً﴾، مرجعاً وسبيلاً بطاعته، أي فمن شاء رجع إلى الله بطاعته.

﴿إنا أنذرناكم عذاباً قريباً﴾، يعني العذاب في الآخرة، وكل ما هو آت قريب. ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه﴾، أي كل امرئ يرى في ذلك اليوم ما قدم من العمل مثبتاً في صحيفته، ﴿ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾، قال عبد الله بن عمرو: إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مد الأديم، وحشر الدواب والبهائم والوحوش، ثم

قيل لها كوني تراباً فعند ذلك يقول الكافر يا ليتني كنت تراباً» وقيل يقول الله عز وجل للبهائم بعد القصاص ﴿إنا خلقناكم وسحرناكم لبني آدم وكنتم مطيعين لهم أيام حياتكم فارجعوا إلى ما كنتم عليه كونوا تراباً﴾، فإذا رأى الكافر ذلك تمنى، وقال يا ليتني كنت في الدنيا في صورة بعض هذه البهائم، وكنت اليوم تراباً وإذا قضى الله بين الناس وأمر بأهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، وقيل لسائر الأمم سوى الناس والجن عودوا تراباً فيعودون تراباً فحيثذ يقول الكافر يا ليتني كنت تراباً، وقيل معناه إن الكافر إذا رأى ما أنعم الله به على المؤمنين من الخير، والرحمة، قال يا ليتني كنت تراباً يعني متواضعاً في طاعة الله في الدنيا، ولم أكن جباراً متكبراً، وقيل إن الكافر هاهنا هو إبليس، وذلك أنه عاب آدم وكونه خلق من تراب، وافتخر عليه بأنه خلق من نار فإذا كان يوم القيامة، ورأى ما فيه آدم وبنوه المؤمنين من الثواب والرحمة، وما هو فيه من الشدة والعذاب قال يا ليتني كنت تراباً قال أبو هريرة رضي الله عنه يقول التراب لا ولا كرامة لك من جعلك مثلي، والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه.

يجعل القصاص بين البهائم حتى يقتصر للشاة الجماء من الشاة القرناء تنطحها، فإذا فرغ من القصاص قيل لها: كوني تراباً، فعند ذلك يقول الكافر: يا ليتني كنت تراباً. ومثله عن مجاهد، وقال مقاتل: يجمع الله الوحوش والبهائم والهوام والطير فيقضي بينهم حتى يقتصر للجماء من القرناء، ثم يقول لهم: إنما خلقتكم وسخرتكم لبني آدم وكنتم مطيعين إياهم أيام حياتكم، فارجعوا إلى الذي كنتم كونوا تراباً فإذا التفت الكافر إلى شيء صار تراباً يتمنى، فيقول: يا ليتني كنت في الدنيا في صورة خنزير، وكنت اليوم تراباً. وعن أبي الزناد عبد الله بن ذكوان قال: إذا قضى الله بين الناس وأمر بأهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، وقيل لسائر الأمم وللمؤمنين الجن عودوا تراباً فحيثذ يقول الكافر: يا ليتني كنت تراباً. وبه قال ليث بن أبي ثليم، مؤمنوا الجن يعودون تراباً. وقيل: إن الكافر ههنا إبليس، وذلك أنه عاب آدم وأنه خلق من التراب وافتخر بأنه خلق من النار، فإذا عاين يوم القيامة ما فيه آدم وبنوه المؤمنون من الثواب والرحمة، وما هو فيه من الشدة والعذاب، قال: يا ليتني كنت تراباً. قال أبو هريرة فيقول: التراب لا ولا كرامة لك من جعلك مثلي؟

سورة النازعات

مكية وهي ست وقيل خمس وأربعون آية ومائة وسبع وتسعون كلمة وسبعمائة وثلاثة وخمسون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّزَّاقِ ذِي

وَالْتَنَزَعَاتِ غَرَقًا ۝ وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا ۝

قوله عز وجل: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرَقًا وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ والسابحات سباحاً فالسابقات سابقاً ﴿اختلفت عبارات المفسرين في هذه الكلمات هل هي صفات لشيء واحد أم لأشياء مختلفة على أوجه واتفقوا على أن المراد بقوله ﴿فالمدبرات أمراً﴾ وصف لشيء واحد وهم الملائكة:

الوجه الأول: في قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرَقًا﴾ يعني الملائكة تنزع أرواح الكفار من أقاصي أجسامهم. كما يغرق النازع في القوس فيبلغ بها غاية المد، والغرق من الإغراق أي، والنازعات إغراقاً وقال ابن مسعود: «إن ملك الموت، وأعوانه ينزعون روح الكافر كما ينزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبتل، فتخرج نفس الكافر كالغريق في الماء» ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ الملائكة تنشط نفس المؤمن أي تسليها سلاً رقيقاً فتقبضها كما ينشط العقال من يد البعير، وإنما خص النزع بنفس الكافر والنشط بنفس المؤمن، لأن بينهما فرقاً فالنزع جذب بشدة والنشط جذب برفق،

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

مكية وهي ست وأربعون آية.

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرَقًا﴾، يعني الملائكة تنزع أرواح الكفار من أجسادهم، كما يغرق النازع في القوس فيبلغ بها غاية المد، والغرق اسم أقيم مقام الإغراق، أي والنازعات إغراقاً والمراد بالإغراق المبالغة في المد، وقال ابن مسعود: ينزعها ملك الموت من تحت كل شعرة ومن الأظافر وأصول القدمين، ويردّها في جسده بعدما ينزعها حتى إذا كادت تخرج ردّها في جسده بعدما ينزعها، فهذا عمله بالكفار. وقال مقاتل: ملك الموت وأعوانه ينزعون روح الكفار كما ينزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبتل، فتخرج نفسه كالغريق في الماء. وقال مجاهد: هو الموت ينزع النفوس. وقال السدي: هي النفس حين تغرق في الصدر. وقال الحسن وقتادة وابن كيسان: هي النجوم تنزع من أفق إلى أفق تطلع ثم تغيب. وقال عطاء وعكرمة: هي القسي. وقيل: هم الغزاة الرماة.

﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾، هي الملائكة تنشط نفس المؤمن، أي تحلّ حلاً رقيقاً فتقبضها، كما ينشط العقال من يد البعير، أي يحلّ برفق، حكى الفراء هذا القول، ثم قال: والذي سمعت من العرب أن يقولوا: أنشطت العقال إذا حللته ونشطته إذا عقدته بانشوطة. وفي الحديث: كأنما أنشط من عقال. وعن ابن عباس: هي نفس

﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ يعني الملائكة يقبضون أرواح المؤمنين يسلونها سلاً رقيقاً، ثم يدعونها حتى تستريح، ثم يستخرجونها كالسباح في الماء يتحرك فيه برفق ولطافة، وقيل هم الملائكة ينزلون من السماء مسرعين كالفرس الجواد إذا أسرع في جريه. يقال له سابع ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ يعني الملائكة سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح، وقيل هم الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة.

الوجه الثاني: في قوله ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ يعني النفس حين تنزع من الجسد، فتغرق في الصدر ثم تخرج ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾، قال ابن عباس: هي نفوس المؤمنين تنشط للخروج عند الموت لما ترى من الكرامة، وذلك لأنه يعرض عليه مقعده في الجنة قبل أن يموت وقال علي بن أبي طالب: هي أرواح الكفار تنشط بين الجلد، والأظفار حتى تخرج من أفواههم بالكرب والغم.

وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۖ فَالْمُتَبِّعَاتِ سَبْقًا ۖ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۚ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۖ تَتَّبِعُنَّ الرَّادِفَةَ ۖ

﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ يعني أرواح المؤمنين حين تسبح في الملكوت ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ يعني استباقها إلى الحضرة المقدسة.

الوجه الثالث: في قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ يعني النجوم تنزع من أفق إلى أفق تطلع ثم تغيب ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾، يعني النجوم تنشط من أفق إلى أفق، أي تذهب ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾، يعني النجوم والشمس والقمر يسبحون في الفلك. ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ يعني النجوم يسبق بعضها بعضاً في السير.

الوجه الرابع: في قوله تعالى ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾. يعني خيل الغزاة تنزع في أعنتها وتغرق في عرقها وهي الناشطات نشطاً لأنها تخرج بسرعة إلى ميدانها، وهي السابحات في جريها، وهي السابقات سبباً لاستباقها إلى الغاية.

المؤمن من تنشط للخروج عند الموت، لما يرى من الكرامة لأنه تعرض عليه الجنة قبل أن يموت. وقال علي بن أبي طالب: هي الملائكة تنشط أرواح الكفار مما بين الجلد والأظفار حتى تخرجها من أفواههم بالكرب والغم، والنشط: الجذب والتزع، يقال: نشطت الدلو نشطاً إذا نزعته، قال الخليل: النشط والأنشاط مدك الشيء إلى نفسك، حتى ينحل. وقال مجاهد: هو الموت ينشط النفوس. وقال السدي: هي النفس تنشط من القدمين أي بجذب. وقال قتادة: هي النجوم تنشط من أفق إلى أفق، أي تذهب، يقال: نشط من بلد إلى بلد إذا خرج في سرعة، ويقال حمارنا شط ينشط من بلد إلى بلد، وقال عطاء وعكرمة: هي الإرهاق.

﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾، هم الملائكة يقبضون أرواح المؤمنين يسلونها سلاً رقيقاً، ثم يدعونها حتى تستريح كالسباح بالشيء في الماء يرفق به. وقال مجاهد وأبو صالح: هم الملائكة ينزلون من السماء مسرعين كالفرس الجواد يقال له سابع إذا أسرع في جريه. وقيل: هي خيل الغزاة. وقال قتادة: هي النجوم والشمس والقمر، قال الله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، وقال عطاء: هي السفن.

﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾، قال مجاهد: هي الملائكة سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح. وقال مقاتل: هي الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة. وعن ابن مسعود قال: هي أنفس المؤمنين تتسارع وتسبق إلى الملائكة الذين يقبضونها شوقاً إلى لقاء الله وكرامته، وقد عاينت السرور. وقال قتادة: هي النجوم يسبق بعضها بعضاً في السير. وقال عطاء: هي الخيل.

﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾، قال ابن عباس: هم الملائكة وكلوا بأمور عرفهم الله عز وجل العمل بها. قال

الوجه الخامس: في قوله ﴿وَالنَّازِعَاتُ غُرَقًا﴾ يعني الغزاة حين تنزع قسيها في الرمي فتبلغ غاية المد وهو قوله غُرَقًا، ﴿وَالنَّاشِطَاتُ نَشْطًا﴾، أي السهام في الرمي ﴿وَالسَّابِحَاتُ سَبْحًا﴾، يعني الخيل والإبل حين يخرجها أصحابها إلى الغزو.

الوجه السادس: ليس المراد بهذه الكلمات شيئاً واحداً، فقوله والنازعات يعني ملك الموت ينزع النفوس غُرَقًا حتى بلغ بها الغاية، ﴿وَالنَّاشِطَاتُ نَشْطًا﴾ يعني النفس تنشط من القدمين بمعنى تجذب، ﴿وَالسَّابِحَاتُ سَبْحًا﴾ يعني السفن، ﴿وَالسَّابِقَاتُ سَبْقًا﴾ يعني مسابقة نفوس المؤمنين إلى الخيرات والطاعات.

أما قوله: ﴿فَالْمُدْبِرَاتُ أَمْرًا﴾، فأجمعوا على أنهم الملائكة قال ابن عباس: هم الملائكة وكلوا بأمر عرفهم الله عز وجل: العمل بها وقال عبد الرحمن بن سابط يدبر الأمر في الدنيا أربعة أملاك جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت، واسمه عزرائيل، فأما جبريل فموكل بالرياح والجنود، وأما ميكائيل فموكل بالقطر والنبات، وأما ملك الموت فموكل بقبض الأنفس، وأما إسرافيل فهو ينزل عليهم بالأمر من الله تعالى أقسم الله بهذه الأشياء لشرفها، والله أن يقسم بما يشاء من خلقه، أو يكون التقدير، ورب هذه الأشياء، وجواب القسم محذوف تقديره لتبعثن، ولتحاسبن، وقيل جوابه «إن في ذلك لعبرة لمن يخشى» وقيل هو قوله:

قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَيْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَيْنَا كُنَّا عِظَمًا نَخْرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾

﴿قلوب يومئذ واجفة﴾ يوم ترجف الراجفة يعني النفخة الأولى يتزلزل ويتحرك لها كل شيء، ويموت منها

عبد الرحمن بن سابط: يدبر الأمر في الدنيا أربعة جبريل وميكائيل وملك الموت وإسرافيل عليهم السلام، أما جبريل فموكل بالوحي والبطش وهزم الجيوش، وأما ميكائيل فموكل بالمطر والنبات والأرزاق، وأما ملك الموت فموكل بقبض الأنفس، وأما إسرافيل فهو صاحب الصور، ولا ينزل إلا للأمر العظيم، وجواب هذه الأقسام محذوف على تقديره: لتبعثن ولتحاسبن. وقيل: جوابه قوله: إن في ذلك لعبرة لمن يخشى. وقيل: فيه تقديم وتأخير تقديره: يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة والنازعات غُرَقًا.

قوله عز وجل: ﴿يوم ترجف الراجفة﴾، يعني النفخة الأولى يتزلزل ويتحرك لها كل شيء، ويموت منها جميع الخلق.

﴿تتبعها الرادفة﴾، وهي النفخة الثانية ردت الأولى وبينهما أربعون سنة. قال قتادة: هما صيحتان فالأولى تُميت كل شيء والأخرى تُحيي كل شيء بإذن الله عز وجل. وقال مجاهد: ترجف الراجفة تتزلزل الأرض والجبال. تتبعها الرادفة حين تنشق السماء، وتُحمل الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة. وقال عطاء: الراجفة القيامة، والرادفة البعث. وأصل الرجفة: الصوت والحركة. أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أخبرني ابن فنجويه ثنا عبد الله بن يوسف بن أحمد بن مالك ثنا محمد بن هارون الحضرمي ثنا الحسن بن عرفة ثنا قبيصة بن عقبة عن سفيان الثوري عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبي بن كعب قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ربع الليل قام، وقال: «يا أيها الناس اذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه».

﴿قلوب يومئذ واجفة﴾، خائفة قلقة مضطربة، وسُمي الوجيف في السير لشدة اضطرابه، يقال: وجف

جميع الخلق ﴿تتبعها الرادفة﴾ يعني النفخة الثانية ردت الأولى وبينهما أربعون سنة، وقال قتادة: هما صيحتان فالأولى تمت كل شيء، والأخرى تحيي كل شيء بإذن الله عز وجل وقيل الراجفة التي تزلزل الأرض، والجبال والرادفة التي تشق السماء، وقيل الراجفة القيامة والرادفة البعث يوم القيامة روى البغوي بسند الثعلبي عن أبي بن كعب قال: «كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ربع الليل قام وقال: أيها الناس اذكروا الله جاءت الراجفة تتبعها الرادفة جاء الموت بما فيه.

قوله عز وجل: ﴿قلوب يومئذ واجفة﴾ أي خافقة قلقة مضطربة، وقيل وجلّه زائلة عن أماكنها ﴿أبصارها خاشعة﴾ أي أبصار أهلها خاشعة ذليلة، والمراد بها لكفار بدليل قوله تعالى: ﴿يقولون﴾ يعني المنكرين للبعث إذا قيل لهم إنكم مبعوثون بعد الموت. ﴿أئنا لمردودون في الحافرة﴾ يعني أئنا لو أردنا إلى أول الحال، وابتداء الأمر فنصير أحياء بعد الموت كما كنا أول مرة والعرب تقول رجع فلان في حافرتة، أي رجع من حيث جاء فالحافرة عنده اسم لا ابتداء الشيء وأول الشيء ويقال رجع فلان في حافرتة أي في طريقه الذي جاء منه يحفره بمشيئته، فحصل بأثر قدميه حفر فهي محفورة في الحقيقة، وقيل الحافرة الأرض التي تحفر فيها قبورهم سميت حافرة لأنها يستقر عليها الحافر، والمعنى أئنا لمردودون إلى الأرض فنبعث خلقاً جديداً نمشي عليها، وقيل الحافرة النار ﴿أئنا كنا عظاماً نخرة﴾ أي بالية وقرىء ناخرة وهما بمعنى، وقيل الناخرة المحجوفة التي يمر فيها الريح فتتخر أي توصت ﴿قالوا﴾ يعني المنكرين للبعث إذا عاينوا أهول القيامة ﴿تلك إذا كرة خاسرة﴾ أي رجعة غابنة يعني إن رددنا بعد الموت لنخسر بما يصيبنا بعد الموت. ﴿فإنما هي﴾ يعني النفخة الأخيرة ﴿زجرة واحدة﴾ أي صيحة واحدة يجمعون بها جميعاً ﴿فإذا هم بالساهرة﴾ يعني وجه الأرض سميت ساهرة لأن عليها نوم الحيوان وسهرهم، وقيل هي التي كثر الوطء عليها كأنها

القلب ووجف وجوفاً ووجيفاً ووجوباً ووجيباً. وقال مجاهد: وجلة. وقال السدي: زائلة عن أماكنها، نظيره ﴿إذ القلوب لدى الحناجر﴾ [غافر: ١٨].

﴿أبصارها خاشعة﴾، ذليلة كقوله: ﴿خاشعين من الذل﴾ [الشورى: ٤٥] الآية.

﴿يقولون﴾ يعني المنكوبين للبعث إذا قيل لهم إنكم مبعوثون من بعد الموت: ﴿أئنا لمردودون في الحافرة﴾؟ أي إلى أول الحال وابتداء الأمر فنصير أحياء بعد الموت كما كنا؟ تقول العرب: رجع فلان في حافرتة أي رجع من حيث جاء، والحافرة عندهم اسم لا ابتداء الشيء، وأول الشيء. وقال بعضهم: الحافرة وجه الأرض التي تحفر فيها قبورهم، سُميت الحافرة بمعنى المحفورة، كقوله: ﴿عيشة راضية﴾ [الحاقة: ٢١، القارعة: ٧]، أي مرضية. وقيل: سُميت حافرة لأنها مستقر الحوافر، أي أئنا لمردودون إلى الأرض فنبعث خلقاً جديداً نمشي عليها؟ وقال ابن زيد: الحافرة النار.

﴿أئنا كنا عظاماً نخرة﴾، قرأ نافع وابن عامر والكسائي ويعقوب (أئنا) مستفهم، (إذا) بتركه، ضده أبو جعفر، الباقون باستفهامها، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ﴿عظاماً ناخرة﴾، والآخر (نخرة) وهما لغتان، مثل الطمع والطامع والحذر والحاذر، ومعناها البالية، وفرق قوم بينهما، فقالوا: النخرة البالية والناخرة المجوفة التي تمر فيها الريح فتتخر أي تصوت.

﴿قالوا﴾، يعني المنكرين، ﴿تلك إذا كرة خاسرة﴾، رجعة خائبة، يعني إن رددنا بعد الموت لنخسر بما يصيبنا بعد الموت.

قال الله عز وجل: ﴿فإنما هي﴾، يعني النفخة الأخيرة، ﴿زجرة واحدة﴾، صيحة، ﴿واحدة﴾، يسمعونها.

سهرت، والمعنى أنهم كانوا في بطن الأرض. فلما سمعوا الصيحة صاروا على وجهها، وقيل هي أرض الشام وقيل أرض القيامة، وقيل هي أرض جهنم.

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿٢٦﴾ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خُلُقًا أَوْ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾

قوله عز وجل: ﴿هل أتاك حديث موسى﴾ يا محمد وذلك أنه ﷺ شق عليه حين كذبه قومه، فذكر له قصة موسى عليه الصلاة والسلام وأنه كان يتحمل المشاق من قومه ليتأسى به ﴿إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى﴾ أي المطهر ﴿طوى﴾ هو اسم واد بالشام عند الطور ﴿أذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ أي علا وتكبر وكفر بالله ﴿فقل هل لك إلى أن تزكى﴾ أي تتطهر من الشرك والكفر، وقيل معناه تسلم وتصلح العمل وقال ابن عباس: تشهد أن لا إله إلا الله ﴿وأهديك إلى ربك﴾ أي أدعوك إلى عبادة ربك وتوحيده ﴿فتخشى﴾ يعني عقابه وإنما خص فرعون بالذكر، وإن كانت دعوة موسى شاملة لجميع قومه لأن فرعون كان أعظمهم فكانت دعوته دعوة لجميع قومه ﴿فأراه﴾ أي أرى موسى فرعون ﴿الآية الكبرى﴾ يعني اليد البيضاء والعصا ﴿فكذب﴾ يعني فرعون بأنها من الله ﴿وعصى﴾ أي تمرد وأظهر التجبر ﴿ثم أدبر﴾ أي أعرض عن الإيمان ﴿يسعى﴾ يعمل الفساد في الأرض ﴿فحشر﴾ أي فجمع قومه وجنوده ﴿فنادى﴾ أي لما اجتمعوا ﴿فقال﴾ يعني فرعون لقومه ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ أي لا رب فوقى، وقيل أراد أن الأصنام أرباب وهو ربها وربهم ﴿فأخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾ أي عاقبة فجعله عبرة لغيره بأن أغرقه في الدنيا ويدخله النار

﴿فإذا هم بالساهرة﴾، يعني وجه الأرض أي صاروا على وجه الأرض بعدما كانوا في جوفها. والعرب تسمي الفلاة ووجه الأرض: ساهرة. قال بعض أهل اللغة: تراهم ستموها ساهرة لأن فيها نوم الحيوان وسهرهم. قال سفيان: هي أرض الشام، وقال قتادة: هي جهنم.

قوله عز وجل: ﴿هل أتاك حديث موسى﴾، يقول قد جاءك يا محمد حديث موسى.

﴿إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى﴾.

فقال يا موسى: ﴿أذهب إلى فرعون إنه طغى﴾، علا وتكبر وكفر بالله.

﴿فقل هل لك إلى أن تزكى﴾، قرأ أهل الحجاز ويعقوب بتشديد الزاي: أي تزكى وتتطهر من الشرك، وقرأ الآخرون بالتخفيف أي تسلم وتصلح، قال ابن عباس: تشهد أن لا إله إلا الله.

﴿وأهديك إلى ربك فتخشى﴾، أي أدعوك إلى عبادة ربك وتوحيده فتخشى عقابه.

﴿فأراه الآية الكبرى﴾، وهي العصا واليد البيضاء.

﴿فكذب﴾، بأنها من الله، ﴿وعصى﴾.

﴿ثم أدبر﴾، تولى وأعرض عن الإيمان ﴿يسعى﴾، يعمل بالفساد في الأرض.

﴿فحشر﴾، فجمع قومه وجنوده، ﴿فنادى﴾، لما اجتمعوا.

في الآخرة، وقيل أراد بالآخرة والأولى كلمتي فرعون وهما قوله ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ وقوله ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ وكان بينهما أربعون سنة ﴿إن في ذلك﴾ أي في الذي فعل بفرعون حين كذب وعصى ﴿لعبرة﴾ أي عظة ﴿لمن يخشى﴾ أي يخاف الله عز وجل ثم عاتب منكري البعث فقال تعالى: ﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها﴾ معناه أخلقكم بعد الموت أشد أم خلق السماء عندكم في تقديركم. فإن كلا الأمرين بالنسبة إلى قدرة الله واحد، لأن خلق الإنسان على صغره وضعفه إذا أضيف إلى خلق السماء مع عظمها وعظم أحوالها كان يسيراً فبين تعالى: أن خلق السماء أعظم، وإذا كان كذلك كان خلقكم بعد الموت أهون على الله تعالى: فكيف تنكرون ذلك مع علمكم بأنه خلق السموات والأرض ولا تنكرون ذلك. ثم إنه تعالى ذكر كيفية خلق السماء والأرض فقال تعالى:

رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا ۖ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۚ ﴿٢٨﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۚ ﴿٢٩﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۚ ﴿٣٠﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَسَهَا ۚ ﴿٣١﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَمِكُمْ ۚ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٤﴾ وَتُرْزِقُ الْجَحِيمُ لِمَن رَّىٰ ﴿٣٥﴾ فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ ﴿٣٦﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٧﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣٩﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤٠﴾ يَتَشَلُّونَكَ عِىَ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۚ ﴿٤١﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا ۚ ﴿٤٢﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ۚ ﴿٤٣﴾

﴿رفع سمكها﴾ يعني علو سمتها، وقيل رفعها بغير عمد ﴿فسواها﴾ أي اتقن بناءها، فليس فيها شقوق، ولا فطور، ﴿وأغطش﴾ أي أظلم ﴿ليلها﴾ والغطش الظلمة ﴿وأخرج﴾ أي وأظهر وأبرز ﴿ضحاهها﴾ أي نهارها، وإنما عبر عن النهار بالضحى لأنه أكمل أجزاء النهار في النور، والضوء، وإنما أضاف الليل والنهار إلى السماء لأنهما يجريان بسبب غروب الشمس وطلوعها، وهي في السماء ثم وصف كيفية خلق الأرض. فقال تعالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ أي بسطها ومدّها قال أمية بن أبي الصلت:

﴿فقال أنا ربكم الأعلى﴾، فلا ربّ فوقى. وقيل: أراد أن الأصنام أرباب وأنا ربكم وربّها.

﴿فأخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾، قال الحسن وقتادة: عاقبه الله فجعله نكال الآخرة والأولى، أي في الدنيا بالغرق وفي الآخرة بالنار. وقال مجاهد وجماعة من المفسرين: أراد بالآخرة والأولى كلمتي فرعون قوله: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ [القصص: ٣٨] وقوله: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾، وكان بينهما أربعون سنة. ﴿إن في ذلك﴾، الذي فعل بفرعون حين كذب وعصى، ﴿لعبرة﴾، عظة، ﴿لمن يخشى﴾، الله عز وجل.

ثم خاطب مُنْكَرِي البعث فقال: ﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء﴾، يعني أخلقكم بعد الموت أشد عندكم وفي تقديركم أم السماء؟ وهما في قدرة الله واحد، كقوله: ﴿لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس﴾ [غافر: ٥٧]، ثم وصف من خلق السماء فقال: ﴿بناها﴾.

﴿رفع سمكها﴾، سقفاها ﴿فسواها﴾، بلا شقوق ولا فطور.

﴿وأغطش﴾، أظلم، ﴿ليلها﴾، والغطش والغبش الظلمة، ﴿وأخرج ضحاها﴾، أبرز وأظهر نهارها ونورها، وأضافهما إلى السماء لأن الظلمة والنور كلاهما ينزل من السماء.

﴿والأرض بعد ذلك﴾، بعد خلق السماء، ﴿دحاها﴾، بسطها، والدحو: البسط. قال ابن عباس: خلق

دحوت البلاد فسويتها وأنت على طيها قادر

فإن قلت ظاهر هذه الآية، يقتضي أن الأرض خلقت بعد السماء بدليل قوله تعالى ﴿بعد ذلك﴾ وقد قال تعالى: في حمّ السجدة ﴿ثم استوى إلى السماء﴾ فكيف الجمع بين الآيتين وما معناهما.

قلت خلق الله الأرض، أولاً مجتمعة، ثم سمك السماء ثانياً: ثم دحا الأرض بمعنى مدها وبسطها. ثالثاً: فحصل بهذا التفسير الجمع بين الآيتين، وزال الإشكال قال ابن عباس: خلق الله الأرض بأقواتها، من غير أن يدحوها قبل السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات، ثم دحا الأرض بعد ذلك، وقيل معناه والأرض مع ذلك دحاها كقوله ﴿عتل بعد ذلك زنيم﴾ أي مع ذلك ﴿أخرج منها ماءها ومرعاها﴾ أي فجر من الأرض عيونها، ومرعاها أي رعيها، وهي ما يأكله الناس، والأنعام واستعير الرعي للإنسان على سبيل التجوز. ﴿والجبال أرساها﴾ أي أثبتها ﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ أي الذي أخرج من الأرض هو بلغة لكم ولأنعامكم.

قوله عز وجل: ﴿فإذا جاءت الطامة الكبرى﴾ يعني النفخة الثانية، التي فيها البعث، وقيل الطامة القيامة سميت بذلك لأنها تطم على كل شيء فتعلو عليه، والطامة عند العرب الداهية التي لا تستطاع. ﴿يوم يتذكر الإنسان ما سعى﴾ أي ما عمل في الدنيا من خير، أو شر. ﴿وبرزت الجحيم لمن يرى﴾ يعني أنه ينكشف عنها الغطاء فينظر إليها الخلق ﴿فأما من طفئ﴾ أي كفر ﴿وآثر الحياة الدنيا﴾ أي على الآخرة ﴿فإن الجحيم هي المأوى﴾ أي لمن هذه صفته ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى﴾ أي المحارم التي يشتهيها وقيل هو الرجل يهمل بالمعصية، فيذكر مقامه بين يديه جلّ جلاله للحساب فيتركها لذلك ﴿فإن الجنة هي المأوى﴾ أي لمن هذه صفته.

قوله عز وجل: ﴿يسألونك﴾ أي يا محمد ﴿عن الساعة أئان مرساها﴾ أي متى ظهورها وقيامها ﴿فيم أنت من ذكراها﴾ أي لست في شيء من علمها وذكرها حتى تهتم لها وتذكر وقتها ﴿إلى ربك منتهاها﴾ أي منتهى علمها لا

الله الأرض بأقواتها من غير أن يدحوها قبل السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات، ثم دحا الأرض بعد ذلك. وقيل: معناه إذ الأرض مع ذلك دحاها، كقوله عز وجل: ﴿عتل بعد ذلك زنيم﴾ [القلم: ١٣] أي مع ذلك.

﴿أخرج منها ماءها ومرعاها﴾ والجبال أرساها * متاعاً لكم ولأنعامكم * فإذا جاءت الطامة الكبرى، يعني النفخة الثانية التي فيها البعث وقامت القيامة، وسُميت القيامة طامة لأنها تطم على كل هائلة من الأمور فتعلو فوقها وتغمر ما سواها والطامة عند العرب الداهية التي لا تستطاع.

﴿يوم يتذكر الإنسان ما سعى﴾، ما عمل في الدنيا من خير وشر.

﴿وبرزت الجحيم لمن يرى﴾، قال مقاتل يكشف عنها الغطاء فينظر إليها الخلق.

﴿فأما من طفئ﴾، في كفره.

﴿وآثر الحياة الدنيا﴾، على الآخرة.

﴿فإن الجحيم هي المأوى﴾ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، عن المحارم التي

تشتهيها، قال مقاتل: هو الرجل يهمل بالمعصية فيذكر مقامه للحساب فيتركها.

﴿فإن الجنة هي المأوى﴾ يسألونك عن الساعة أئان مرساها، متى ظهورها وثبوتها.

يعلم متى تقوم الساعة إلا هو، وقيل معناه فيم إنكار لسؤالهم، أي فيم هذا السؤال، ثم قال أنت يا محمد من ذكرها، أي من علامتها، لأنك آخر الرسل، وخاتم الأنبياء، فكفاهم ذلك دليلاً على دنوها، ووجوب الاستعداد لها.

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا﴾ ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبِثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ ﴿٤٦﴾

﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾ أي إنما ينفع إنذارك من يخافها. ﴿كأنهم﴾ يعني الكفار ﴿يوم يرونها﴾ أي يعاينون يوم القيامة. ﴿لم يلبثوا﴾ أي في الدنيا، وقيل في قبورهم ﴿إلا عشية أو ضحاها﴾.

فإن قلت العشية ليس لها ضحى فما معنى قوله ﴿أو ضحاها﴾.

قلت قيل إن الهاء والألف صلة، والمعنى لم يلبثوا إلا عشية، أو ضحى، وقيل إضافة الضحى إلى العشية، إضافة إلى يومها، كأنه قال: إلا عشية أو ضحى يومها. والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا﴾، لست في شيء من علمها وذكرها، أي لا تعلمها.

﴿إلى ربك متهاها﴾، أي منتهى علمها عند الله.

﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾، قرأ أبو جعفر منذر بالتثنية أي أنت مخوف من يخاف قيامها، أي إنما ينفع إنذارك من يخافها.

﴿كأنهم﴾، يعني كفار قريش، ﴿يوم يرونها﴾، يعاينون يوم القيامة، ﴿لم يلبثوا﴾، في الدنيا، وقيل:

في قبورهم، ﴿إلا عشية أو ضحاها﴾، قال القراء: ليس للعشية ضحى إنما الضحى اسم لصدر النهار، ولكن هذا ظاهر من كلام العرب أن يقولوا: آتيك العشية أو غداها، إنما معناه آخر يوم أو أوله، نظيره قوله: ﴿يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار﴾ [الأحقاف: ٣٥].

سورة عبس

مكية وهي إحدى وأربعون آية ومائة وثلاثون وخمسمائة وثلاثة وثلاثون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّكَ يُنْزِلُ ۚ

قوله عز وجل: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ أي كَلَحَ وقَطَبَ وجهه وتولى أي أعرض بوجهه. ﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ يعني ابن أم مكتوم، واسمه عمرو، وقيل عبد الله بن شريح بن مالك بن ربيعة، وقيل عمرو قيس بن زائدة بن الأصم بن زهرة بن رواحة القرشي الفهري من بني عامر بن لؤي، واسم أمه عاتكة بنت عبد الله المخزومية، وهو ابن خالة خديجة بنت خويلد أسلم قديماً بمكة، وذلك أنه أتى النبي ﷺ، وهو يناجي عتبة بن ربيعة، وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب، وأبي بن خلف، وأخاه أمية بن خلف ويدعوهم إلى الله يرجو إسلامهم فقال ابن أم مكتوم: يا رسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله؛ وجعل يناديه ويكرر النداء، وهو لا يدري أنه مقبل على غيره حتى ظهرت الكراهة في وجه رسول الله ﷺ لقطعه كلامه، وقال في نفسه يقول هؤلاء الصناديد إنما اتبعه الصبيان، والعبيد، والسفلة فعبس وجهه وأعرض عنه، وأقبل على القوم الذين كان يكلمهم، فأنزل الله هذه الآيات معاتبة لرسول الله ﷺ فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يكرمه إذا رآه، ويقول مرحباً بمن عاتبني الله فيه ويقول له هل لك من حاجة، واستخلفه على المدينة مرتين في غزوتين وكان من المهاجرين الأولين، وقيل قتل شهيداً بالقادسية قال أنس: رأيته يوم القادسية، وعليه درع ومعه راية سوداء، عن عائشة رضي الله عنها قالت «أنزلت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول يا رسول الله أرشدني، وعند رسول الله ﷺ عظماء قريش من المشركين فجعل رسول الله ﷺ

سُورَةُ عَبَسَ

مكية وهي اثنتان وأربعون آية.

﴿عَبَسَ﴾، كَلَحَ، ﴿وَتَوَلَّى﴾، أعرض بوجهه.

﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾، وهو ابن أم مكتوم واسمه عبد الله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهري من بني عامر بن لؤي، وذلك أنه أتى رسول الله ﷺ، وهو يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب وأبي بن خلف، وأخاه أمية يدعوهم إلى الله، يرجو إسلامهم، فقال ابن أم مكتوم: يا رسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله، فجعل يناديه ويكرر النداء ولا يدري أنه مقبل على غيره حتى ظهرت الكراهة في وجه رسول الله ﷺ لقطعه كلامه، وقال في نفسه يقول هؤلاء الصناديد إنما أتباعه العميان والعبيد والسفلة، فعبس وجهه وأعرض عنه، وأقبل على القوم الذين يكلمهم فأنزل الله هذه الآية، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يكرمه، وإذا رآه قال مرحباً بمن عاتبني فيه ربي، ويقول له هل لك من حاجة واستخلفه على المدينة مرتين في غزوتين غزاها رسول الله ﷺ، قال

يعرض عنه ويقبل على الآخرين ويقول أترى بما أقول بأساً فيقول لا ففي هذا أنزلت» أخرجه الترمذي، وقال حديث غريب ﴿وما يدريك﴾ أي أي شيء يجعلك دارياً ﴿لعله يزكى﴾ أي يتطهر من الذنوب بالعمل الصالح وما يتعلمه منك.

أَوْ يَذْكُرْ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرُ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنْ أَسْتَفْنَى ﴿٥﴾ فَأَنْتَ لَمْ تَصْدَى ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبَ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَى ﴿٩﴾ فَأَنْتَ عَنْهُ لَلْهُى ﴿١٠﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَذِكْرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾

﴿أو يذكر﴾ أي يتعظ ﴿فتنفعه الذكرى﴾ أي الموعظة ﴿أما من استغنى﴾ قال ابن عباس: عن الله وعن الإيمان بما له من المال ﴿فأنت له تصدى﴾ أي تتعرض له، وتقبل عليه وتصغى إلى كلامه ﴿وما عليك ألا يزكى﴾ أي لا يؤمن، ولا يهتدي وإنما عليك البلاغ ﴿وأما من جاءك يسعى﴾ يعني يمشي يعني ابن أم مكتوم ﴿وهو يخشى﴾ أي الله عز وجل ﴿فأنت عنه تلهى﴾ أي تشاغل وتعرض عنه ﴿كلا﴾ أي لا تفعل بعدها مثلها ﴿إنها﴾ يعني الموعظة وقيل آيات القرآن ﴿تذكرة﴾ أي موعظة للخلق ﴿فمن شاء﴾ أي من عباد الله ﴿ذكره﴾ أي اتعظ به يعني القرآن ثم وصف

أنس بن مالك: فرأيت يوم القادسية عليه درع ومعه راية سوداء.

﴿وما يدريك لعله يزكى﴾، يتطهر من الذنوب بالعمل الصالح وما يتعلمه منك، وقال ابن زيد: يسلم.
﴿أو يذكرك﴾، يتعظ، ﴿فتنفعه الذكرى﴾، الموعظة قرأ عاصم فتنفعه بنصب العين على جواب لعلّ بالفاء وقراءة العامة بالرفع نسقاً على قوله: ﴿يذكر﴾.

﴿أما من استغنى﴾، قال ابن عباس عن الله وعن الإيمان بما له من المال.
﴿فأنت له تصدى﴾، تتعرض له وتقبل عليه وتصغى إلى كلامه، قرأ أهل الحجاز ﴿تصدى﴾ بتشديد الصاد، أي تتصدى، وقرأ الآخرون بتخفيف الصاد على الحذف.

﴿وما عليك ألا يزكى﴾، أن لا يؤمن ولا يهتدي، إن عليك إلا البلاغ.

﴿وأما من جاءك يسعى﴾، يمشي يعني ابن أم مكتوم.

﴿وهو يخشى﴾، الله عز وجل.

﴿فأنت عنه تلهى﴾، تشاغل وتعرض عنه.

﴿كلا﴾، زجر أي لا تفعل بعدها مثلها، ﴿إنها﴾، يعني هذه الموعظة. وقال مقاتل: آيات القرآن، ﴿تذكرة﴾، موعظة وتذكير للخلق.

﴿فمن شاء﴾، من عباد الله، ﴿ذكره﴾، أي اتعظ به. وقال مقاتل: فمن شاء الله ذكره وفهمه واتعظ بمشيئته وتفهمه، والهاء في ﴿ذكره﴾ راجعة إلى القرآن والتنزيل والوعظ. ثم أخبر عن جلالته عنده فقال:

﴿في صحف مكرمة﴾، يعني اللوح المحفوظ. وقيل: كتب الأنبياء، دليله قوله تعالى: ﴿إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى﴾ [الأعلى: ١٨ و١٩].

﴿مرفوعة﴾، رفيعة القدر عند الله عز وجل. وقيل: مرفوعة يعني في السماء السابعة. ﴿مطهرة﴾، لا يمسها إلا المطهرون، وهم الملائكة.

جلالة القرآن، ومحلّه عنده فقال عز وجل ﴿في صحف مكرمة﴾ يعني القرآن في اللوح المحفوظ ﴿مرفوعة﴾ أي رفيعة القدر عند الله، وقيل مرفوعة في السماء السابعة ﴿مطهرة﴾ يعني الصحف لا يمسها إلا المطهرون، وهم الملائكة ﴿بأيدي سفرة﴾ قال ابن عباس: يعني كتبه، وهم الملائكة الكرام الكاتبون، واحدهم سافر ومنه قيل للكتاب سفر، وقيل هم الرسل من الملائكة إلى الأنبياء واحدهم سفير، ثم أثنى عليهم. بقوله:

كِرَامٍ بَرَرُوا ﴿١٦﴾ قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرُوا ﴿٢٣﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾

﴿كرام﴾ أي هم كرام على الله ﴿بررة﴾ أي مطيعين له جمع بار.

قوله عز وجل: ﴿قتل الإنسان﴾ أي لعن الكافر وطرده ﴿ما أكفره﴾ أي أشد كفره بالله مع كثرة إحسانه إليه، وأياديه عنده وهذا على سبيل التعجب، أي أعجبوا من كفره وقيل معناه أي شيء حمّله على الكفر، نزلت هذه الآية في عتبة بن أبي لهب، وقيل في أمية بن خلف، وقيل في الذين قتلوا يوم بدر، وقيل الآية عامة في كل كافر، ثم بين من أمره ما كان ينبغي أن يعلم أن الله تعالى: خالقه منه فقال تعالى: ﴿من أي شيء خلقه﴾ لفظة استفهام ومعناه التقرير، ثم فسر ذلك فقال تعالى: ﴿من نطفة خلقه فقدره﴾ يعني خلقه أطواراً نطفة ثم علقه، ثم مضغه، إلى آخر خلقه، وقيل قدره يعني خلق رأسه، وعينه ويديه، ورجليه على قدر ما أرادته ﴿ثم السبيل يسره﴾ أي سهل له طريق خروجه من بطن

﴿بأيدي سفرة﴾، قال ابن عباس ومجاهد: كتبه، وهم الملائكة الكرام الكاتبون، واحدهم سافر، يقال: سفرت أي كتبت. ومنه قيل للكتاب: سِفْرٌ وجمعه أسفار. وقال الآخرون: هم الرسل من الملائكة واحدهم سفير، وهو الرسول، وسفير القوم الذي يسعى بينهم بالصلح، وسفرت بين القوم إذا أصلحت بينهم. ثم أثنى عليهم فقال: ﴿كرام بررة﴾، أي كرام على الله بررة مطيعين جمع بار.

قوله عز وجل: ﴿قتل الإنسان﴾، أي لعن الكافر. قال مقاتل: نزلت في عتبة بن أبي لهب ﴿ما أكفره﴾، ما أشد كفره مع كثرة إحسانه إليه وأياديه عنده، على طريق التعجب، قال الزجاج: معناه اعجبوا أنتم من كفره. قال الكلبي ومقاتل: هو ﴿ما﴾ الاستفهام، يعني أي شيء حمّله على الكفر؟ ثم بين من أمره ما كان ينبغي معه أن يعلم أن الله خالقه.

فقال: ﴿من أي شيء خلقه﴾، لفظة استفهام ومعناه التقرير.

ثم فسره فقال: ﴿من نطفة خلقه فقدره﴾، أطواراً: نطفة ثم علقه إلى آخر خلقه. قال الكلبي: قدر خلقه رأسه وعينه ويديه ورجليه.

﴿ثم السبيل يسره﴾، أي طريق خروجه من بطن أمه. قال السدي ومقاتل، وقال الحسن ومجاهد: يعني طريق الحق والباطل سهل له العلم به، كما قال: ﴿إنا هديناه السبيل﴾ [الإنسان: ٣] ﴿وهديناه النجدين﴾ [البلد: ١٠]، وقيل: يسر على كل أحد ما خلقه له وقدر عليه.

﴿ثم أماته فأقبره﴾، جعل له قبراً يوارى فيه. قال الفراء: جعله مقبوراً ولم يجعله ممّن يلقي كالسباع والطيور. يقال قبرت الميت إذا دفنته، وأقبره الله أي صيّره بحيث يقبر، وجعله ذا قبر، كما يقال: طردت فلاناً والله أطرده أي صيّره طريداً.

أمه، وقيل سهل له العلم بطريق الحق والباطل، وقيل يسر على كل أحد ما خلق له وقدر عليه. ﴿ثم أماته فأقبره﴾ أي جعل له قبراً يوارى فيه، وقيل جعله مقبوراً، ولم يجعله ملقى للسباع، والوحوش والطيور، أو أقبره معناه ستره الله بحيث يقبر وجعله ذا قبر يدفن فيه، وهذه تكرمة لبني آدم على سائر الحيوانات. ثم قال تعالى: ﴿ثم إذا شاء أنشره﴾ أي أحياه بعد موته للبعث، والحساب وإنما قال تعالى ﴿ثم إذا شاء أنشره﴾ لأن وقت البعث غير معلوم لأحد فهو إلى مشيئة الله تعالى متى شاء أن يحيي الخلق أحياءهم ﴿كلاً﴾ ردع وزجر للإنسان عن تكبره وتجبره وترفعه، وعن كفره وإصراره على إنكار التوحيد، وإنكار البعث والحساب ﴿لما يقض ما أمره﴾ أي لم يفعل ما أمره به ربه، ولم يؤد ما فرض عليه، ولما ذكر خلق ابن آدم ذكر رزقه ليعتبر فإنه موضع الاعتبار فقال تعالى: ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه﴾ إلى قدرة ربه فيه أي كيف قدره ربه، ويسره ودبره له وجعله سبباً لحياته، وقيل مدخل طعامه ومخرجه. ثم بين ذلك فقال تعالى: ﴿أنا صببنا الماء صباً﴾ يعني المطر.

ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلَبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مِّنْعًا لَّكُمْ وَلِتَعْمَلُنَّ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَاحَةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ أُمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُنْبِئُهُ ﴿٣٧﴾

﴿ثم شققنا الأرض شقاً﴾ أي بالنبات ﴿فأنبتنا فيها﴾ أي بذلك الماء ﴿حباً﴾ يعني الحبوب التي يتغذى بها الإنسان ﴿وعنباً﴾ يعني أنه غداء من وجهه، وفاكهة من وجهه، فلهذا أتبعه الحب ﴿وقضباً﴾ يعني القث وهو الرطب سمي بذلك لأنه يقتضب، أي يقطع في كل الأيام، وقيل القضب هو العلف كله الذي تعلق به الدواب. ﴿وزيتوناً﴾ وهو ما يعصر منه الزيت ﴿ونخلاً وحدائق﴾ جمع حديقة ﴿غلباً﴾ يعني غلاظ الأشجار، وقيل الغلب الشجر الملتف

﴿ثم إذا شاء أنشره﴾، أحياه بعد موته.

﴿كلاً﴾، ردّ عليه أي ليس كما يقول ويظن هذا الكافر وقال الحسن: حقاً. ﴿لما يقض ما أمره﴾، أي لم يفعل ما أمره به ربه ولم يؤد ما فرض عليه، ولما ذكر خلق ابن آدم ذكر رزقه ليعتبر.

فقال: ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه﴾، كيف قدره ربه ودبره له وجعله سبباً لحياته. وقال مجاهد: إلى مدخله ومخرجه.

ثم بين فقال: ﴿أنا﴾ قرأ أهل الكوفة ﴿أنا﴾ بالفتح على تكرير الخافض، مجازة فلينظر إلى أنا، وقرأ الآخرون بالكسر على الاستئناف. ﴿صببنا الماء صباً﴾، يعني المطر. ﴿ثم شققنا الأرض شقاً﴾، بالنبات.

﴿فأنبتنا فيها حباً﴾، يعني الحبوب التي يتغذى بها.

﴿وعنباً وقضباً﴾، وهو القث الرطب، سمي بذلك لأنه يقتضب في كل الأيام أي يقطع. وقال الحسن: القضب العلف للدواب.

﴿وزيتوناً﴾، وهو ما يعصر منه الزيت، ﴿ونخلاً﴾، جمع نخلة.

﴿وحدائق غلباً﴾، غلاظاً، الأشجار واحداً أغلب، ومنه قيل: الغليظ الرقة أغلب. وقال مجاهد ومقاتل: الغلب الشجر الملتف بعضها في بعض، قال ابن عباس: طوالاً.

بعضه على بعض . وقال ابن عباس : طوالاً ﴿وفاكهة﴾ يعني جميع ألوان الفاكهة ﴿وأباً﴾ يعني الكلاً والمرعى الذي لم يزرعه الناس مما يأكله الدواب والأنعام ، وقيل فاكهة ما يأكله الناس ، والأب ما يأكله الدواب . وقال ابن عباس : ما أنبت الأرض مما يأكل الناس . والأنعام روى إبراهيم التيمي أن أبا بكر سئل عن قوله : ﴿وفاكهة وأباً﴾ فقال أي سماء تظلني ، وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم (خ) عن أنس أن عمر قرأ ﴿وفاكهة وأباً﴾ قال فما الأب ، ثم قال ما كلفنا أو قال ما أمرنا بهذا لفظ البخاري ، وزاد غيره ثم قال اتبعوا ما بين لكم هذا الكتاب وما لا فدعوه . ﴿متاعاً لكم﴾ يعني الفواكه والحب ، والعشب منفعة لكم ﴿ولأنعامكم﴾ ثم ذكر أهوال القيامة فقال تعالى : ﴿فإذا جاءت الصّاخة﴾ يعني صيحة القيامة سميت صاخة لأنها تصخ أسماع الخلق ، أي تبالغ في أسماعهم حتى تكاد تصمها ﴿يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته ، وبنيه﴾ أي إنه لا يلتفت إلى واحد من هؤلاء لشغله بنفسه ، والمراد من الفرار التّباع ، والسبب في ذلك الاحتراز عن المطالبة بالحقوق فالأخ يقول ما واسيتني بمالك ، والأبوان يقولان قصرت في برنا ، والصاحبة تقول لم توفيني حقي والبنون يقولون ما علمتنا وما أرشدتنا ، وقيل أول من يفر هابيل من أخيه قابيل ، والنبى ﷺ من أمه وإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام من أبيه ولوط من صاحبتة ونوح من ابنه ، وقيل يفر المؤمن من موالة هؤلاء ، ونصرتهم والمعنى أن هؤلاء الذين كانوا يقربونهم في الدنيا ، ويتقنون بهم ويتعززون بهم يفرون منهم في الدّار الآخرة ، وفائدة الترتيب كأنه قيل يوم يفر المرء من أخيه بل من أبويه لأنهما أقرب من الإخوة بل من الصّاحبة ، والولد لأن تعلقه بهما أشد من تعلقه بالأبوين ﴿لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ أي يشغله شأن نفسه عن شأن غيره عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : «تحشرون حفاة عراة غرلاً ، فقالت امرأة أيبصر أحدنا ، أو يرى بعضنا عورة بعض قال : يا

﴿وفاكهة﴾ ، يريد ألوان الفواكه ، ﴿وأباً﴾ ، يعني الكلاً والمرعى الذي لم يزرعه الناس ، مما يأكله الأنعام والدواب . قال عكرمة : الفاكهة ما يأكل الناس ، والأب ما يأكله الدواب . ومثله عن قتادة قال : الفاكهة لكم والأب لأنعامكم . وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : ما أنبت الأرض مما يأكل الناس والأنعام . وروى عن إبراهيم التيمي أن أبا بكر سئل عن قوله : ﴿وفاكهة وأباً﴾ فقال : أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم . وروى ابن شهاب عن أنس أنه سمع عمر بن الخطاب قرأ هذه الآية ثم قال : كل هذا قد عرفنا فما الأب ؟ ثم رفع عصاً كانت بيده وقال : هذا لعمركم الله التكلّف ، وما عليك يا ابن أم عمر أن لا تدري ما الأب ، ثم قال : اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب ، وما لا فدعوه .

﴿متاعاً لكم﴾ ، منفعة لكم يعني الفاكهة ، ﴿ولأنعامكم﴾ ، يعني العشب .

ثم ذكر القيامة فقال : ﴿فإذا جاءت الصّاخة﴾ ، يعني صيحة القيامة سُميت بذلك لأنها تصخّ الأسماع ، أي تبالغ في أسماعها حتى تكاد تصمّها .

﴿يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه﴾ ، لا يلتفت إلى واحد منهم لشغله بنفسه ، حكى عن قتادة قال في هذه الآية : يفر المرء من أخيه ، قال : يفر هابيل من قابيل ، ويفر النبى ﷺ من أمه ، وإبراهيم عليه السلام من أبيه ، ولوط عليه السلام من صاحبتة ، ونوح عليه السلام من ابنه .

﴿لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ ، يشغله عن شأن غيره . أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أخبرني الحسين بن محمد بن عبد الله أنا عبد الله بن عبد الرحمن ثنا محمد بن عبد العزيز ثنا ابن أبي أويس ثنا أبي عن محمد بن أبي عياش عن عطاء بن يسار عن سودة زوج النبى ﷺ قالت : قال رسول الله ﷺ : «يُبعث الناسُ حفاةً عراةً غرلاً ، قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الأذان» ، فقلتُ : يا رسول الله

فلانة لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه» أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح ولما ذكر الله تعالى حال القيامة، وأهوالها بين حال المكلفين، وأنهم على قسمين منهم السعداء والأشقياء. فوصف السعداء بقوله تعالى:

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۖ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۖ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ غَبَرَةٌ ۖ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُ ۚ﴾

الْفَجْرَةُ ﴿٤٢﴾

﴿وجوه يومئذ مسفرة﴾ أي مشرقة مضيئة من أسفر الصبح إذا أضاء، وقيل مسفرة من قيام الليل، وقيل من أثر الوضوء، وقيل من الغبار في سبيل الله ﴿ضاحكة﴾ أي عند الفراغ من الحساب ﴿مستبشرة﴾ أي بالسرور فرحة بما تنال من كرامة الله، ورضوانه. ثم وصف الأشقياء فقال تعالى: ﴿ووجوه يومئذ عليها غبرة﴾ أي سواد وكآبة للهم الذي نزل بهم ﴿ترهقها قترة﴾ أي تعلوها، وتغشاها ظلمة، وكسوف وقال ابن عباس: تغشاها ذلة والفرق بين الغبرة والقطرة أن الغبرة ما كان أسفل في الأرض، والقطرة ما ارتفع من الغبار فلحق بالسماء ﴿أولئك﴾ أي الذين صنع بهم هذا ﴿هم الكفرة الفجرة﴾ جميع كافر وفاجر والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه.

واسوأته ينظر بعضها إلى بعض؟ فقال: «قد شغل الناس لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه».

﴿وجوه يومئذ مسفرة﴾، مشرقة مضيئة.

﴿ضاحكة﴾، بالسرور ﴿مستبشرة﴾، فرحة بما نالت من كرامة الله عز وجل.

﴿ووجوه يومئذ عليها غبرة﴾، سواد وكآبة مما يشاهدونه من الغم والهم.

﴿ترهقها قترة﴾، تعلوها وتغشاها ظلمة وكسوف. قال ابن عباس: تغشاها ذلة. قال ابن زيد الفرق بين

الغبرة والقطرة أن القطرة ما ارتفع من الغبار فلحق بالسماء، والغبرة ما كان أسفل في الأرض.

﴿أولئك﴾، الذين يصنع بهم هذا، ﴿هم الكفرة الفجرة﴾، جمع الكافر والفاجر.

سورة التكوير

مكية وهي تسع وعشرون آية ومائة، وأربع كلمات وخمسمائة وثلاثون حرفاً.

عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى العين فليقرأ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾» أخرجه الترمذي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾

قوله عز وجل: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ قال ابن عباس: أظلمت، وغورت، وقيل اضمحلت، وقيل لفت كما تلف العمامة، وأصل التكوير جمع بعض الشيء إلى بعض ومعناه أن الشمس يجمع بعضها إلى بعض، ثم تلف فإذا فعل بها ذلك ذهب ضوءها، قال ابن عباس: يكور الله الشمس، والقمر، والنجوم يوم القيامة في البحر، ثم يبعث عليها ريحاً دبوراً فتضربها فتصير ناراً. (خ) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الشمس والقمر يكوران يوم القيامة» قيل إن الشمس، والقمر، جمادان فالقائهما في النار يكون سبباً لازدياد الحر في جهنم. ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ أي تناثرت من السماء، وسقطت على الأرض. قال الكلبي وعطاء: تمطر السماء يومئذ نجوماً، فلا يبقى نجم إلا وقع ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أي عن وجه الأرض، فصارت هباء منثوراً. ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ يعني النوق الحوامل التي أتى عليها عشرة أشهر من حملها، واحدها عشراء، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع لتنام سنة، وهي أنفس مال عند العرب فإذا كان ذلك اليوم عطلت، وتركت هملًا بلا راع أهملها أهلها، وقد كانوا لازمين لأذنانها ولم يكن مال أعجب

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

مكية وهي تسع وعشرون آية.

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي ثنا أبو الحسن علي بن محمد بن سهل الماسرجسي إملاءً أنا أبو الوفاء المؤمل بن الحسن بن عيسى الماسرجسي ثنا أحمد بن منصور الرمادي ثنا إبراهيم بن خالد ثنا عبد الله بن بحير القاضي قال سمعت عبد الرحمن بن زيد الصنعاني قال سمعت ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ فِي أَحْوَالِ الْقِيَامَةِ فَلْيَقْرَأْ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾».

قوله عز وجل: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أظلمت، وقال قتادة ومقاتل والكلبي: ذهب ضوءها. وقال سعيد بن جبیر: غُورَتْ. وقال مجاهد: اضمحلت. وقال الزجاج: لُفَّت كما تلف

إليهم منها لما جاءهم من أهوال يوم القيامة. ﴿وإذا الوحوش﴾ يعني من دواب البر ﴿حشرت﴾ أي جمعت يوم القيامة ليقص لبعضها من بعض. وقال ابن عباس: حشرها موتها قال: وحشر كل شيء موته غير الجن والإنس، فإنهما يوقنان يوم القيامة. ﴿وإذا البحار سجرت﴾ قال ابن عباس: أوقدت فصارت ناراً تضطرم، وقيل فجر بعضها في بعض العذاب، والملح حتى صارت البحار كلها بحراً واحداً وقيل صارت مياهها من حميم أهل النار، وقيل سجرت أي بيست، وذهب ماؤها فلم تبق فيها قطرة.

قال أبي بن كعب: ست آيات قبل يوم القيامة، بينما الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على الأرض، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم فتحركت، واضطربت، وفزعت الإنس، والجن، واختلطت الدواب، والطير، والوحش، وماج بعضهم في بعض. فذلك قوله تعالى: ﴿إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت وإذا الجبال سيرت وإذا العشار عطلت وإذا الوحوش حشرت وإذا البحار سجرت﴾ فحينئذ تقول: الجن

العمامة، يقال كُورت العمامة على رأسي أكوّرها كوراً وكُورتها تكويراً إذا لفقتها، وأصل التكويد جمع بعض الشيء إلى بعض، فمعناه أن الشمس يجمع بعضها إلى بعض ثم تلف، فإذا فعل بها ذلك ذهب ضوءها. قال ابن عباس: يكوّر الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة في البحر، ثم يبعث عليها ريحاً دبوراً فتضربها فتصير ناراً. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا مسدد ثنا عبد العزيز بن المختار ثنا عبد الله الدانا ج حدثني أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الشمس والقمر يكوّران يوم القيامة».

﴿وإذا النجوم انكدرت﴾، أي تناثرت من السماء وتساقطت على الأرض، يقال: انكدر الطائر إذا سقط عن عشه، قال الكلبي وعطاء: تمطر السماء يومئذ نجوماً فلا يبقى نجم إلا وقع.

﴿وإذا الجبال سُيرت﴾، على وجه الأرض فصارت هباءً منبثاً.

﴿وإذا العُشار عُطلت﴾، وهي النوق الحوامل التي أتى على حملها عشرة أشهر، واحدها عشاء، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع لتمام سنة، وهي أنفس مال عند العرب، عُطلت تركت هملأً بلا راعٍ أهملها أهلها، وكانوا لازمين لأذنانها، ولم يكن لهم مال أعجب إليهم منها لما جاءهم من أهوال يوم القيامة.

﴿وإذا الوحوش﴾، يعني دواب البر، ﴿حشرت﴾، جمعت بعد البعث ليقص لبعضها من بعض. وروى عكرمة عن ابن عباس قال: حشرها موتها. وقال: حشر كل شيء الموت غير الجن والإنس، فإنهما يوقنان يوم القيامة. وقال أبي بن كعب: اختلطت.

﴿وإذا البحار سُجرت﴾، قرأ أهل مكة والبصرة بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد، قال ابن عباس: أوقدت فصارت ناراً تضطرم. وقال مجاهد ومقاتل: يعني فجر بعضها في بعض العذب والملح، فصارت البحور كلها بحراً واحداً. وقال الكلبي: ملئت، وهذا أيضاً معنى قوله: ﴿والبحر المسجور﴾ [الطور: ٦]، والمسجور: المملوء، وقيل: صارت مياهها بحراً واحداً من الحميم لأهل النار. وقال الحسن: بيست وهو قول قتادة قال ذهب ماؤها فلم يبق فيها قطرة، وروى أبو العالية عن أبي بن كعب، قال: ست آيات قبل يوم القيامة: بينما الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت، وفزعت الجن إلى الإنس وإلى الجن، واختلطت الدواب والطير والوحش والسباع، وماج بعضهم في بعض، فذلك قوله: ﴿وإذا الوحوش حُشرت﴾، واختلطت، ﴿وإذا العُشار عُطلت﴾ وإذا

للإنس نحن نأتكم بالخبر، فينطلقون إلى البحر، فإذا هو نار تأجج، فبينما هم كذلك إذ انصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى، وإلى السماء السابعة العليا، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم ريح فأماتهم، وعن ابن عباس قال: هي اثنتا عشرة خصلة ستة في الدنيا، وستة في الآخرة، وهي ما ذكر بعد هذه. وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ روى النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب أنه سئل عن هذه الآية، فقال: يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار، وقيل ألحق كل امرئ بشيعته اليهود باليهود، والنصارى بالنصارى، وقيل يحشر الرجل مع صاحب عمله، وقيل زُوِّجَتْ النفوس بأعمالها، وقيل زُوِّجَتْ نفوس المؤمنين بالحوار العين، وقرنت نفوس الكافرين بالشیاطين، وقيل معنى زُوِّجَتْ ردت الأرواح إلى الأجساد.

وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ ٨ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ٩ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ١١ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ ١٢ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنْزِلَتْ ١٣

﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ﴾ يعني الجارية التي دفنت، وهي حية سميت بذلك لما يطرح عليها من التراب، فيؤدبها، أي يثقلها حين تموت، وكانت العرب تفضل ذلك في الجاهلية. تدفن البنات حية مخافة العار، والحاجة، وروى عن ابن عباس قال: كانت المرأة في الجاهلية إذا حملت، وكان أوان ولادتها حفرت حفرة، فتمخضت على رأس الحفرة فإن ولدت جارية رمت بها في الحفرة، وإذا ولدت غلاماً حبسته، وقيل كان الرجل في الجاهلية إذا ولدت له بنت، وأراد بقاءها حية ألبسها جبة صوف، أو شعر وتركها ترعى الإبل، والغنم في البادية، وإذا أراد قتلها تركها حتى تشب، فإذا بلغت قال لأمرائها طيبيها وزينيها حتى أذهب بها إلى أحماثها، وقد حفر بئراً في الصحراء، فيبلغ بها البئر فيقول لها: انظري فيها، فإذا نظرت دفعها من ورائها، ويهيل عليها التراب حتى تستوي بالأرض، عن ابن

البحار سحرت ﴿، قال: قالت الجنّ للإنس نحن نأتكم بالخبر فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تأجج، قال فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى، وإلى السماء السابعة العليا، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فأماتهم. وعن ابن عباس أيضاً قال: هي اثنتا عشرة خصلة ستة في الدنيا وستة في الآخرة.

وهي ما ذكره بقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾، روى النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب أنه سئل عن هذه الآية فقال يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار، وهذا قول عكرمة، وقال الحسن وقتادة: ألحق كل امرئ بشيعته، اليهودي باليهودي والنصراني بالنصراني، قال الربيع بن خيثم: يحشر الرجل مع صاحب عمله. وقيل: زُوِّجَتْ النفوس بأعمالها. وقال عطاء ومقاتل: زُوِّجَتْ نفوس المؤمنين بالحوار العين، وقرنت نفوس الكافرين بالشیاطين. ورُوِيَ عن عكرمة قال: وإذا النفوس زُوِّجَتْ ردت الأرواح في الأجساد.

﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ﴾، وهي الجارية المدفونة حية سميت بذلك لما يطرح عليها من التراب فيؤدبها، أي يثقلها حتى تموت وكانت العرب تدفن البنات حية مخافة العار والحاجة، يقال: وَادَّ يَثُدُّ وَادًّا، فهو وائد والمفعول مؤود، روى عكرمة عن ابن عباس: كانت المرأة في الجاهلية إذا حملت وكان أوان ولادتها حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة فإن ولدت جارية رمت بها في الحفرة، وإن ولدت غلاماً حبسته.

﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾، قرأ العامة على الفعل المجهول فيهما، وأبو جعفر يقرأ: ﴿قُتِلَتْ﴾ بالشديد، ومعناه تسئل الموءدة، فيقال لها ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾، ومعنى سؤالها توبيخ قاتلها لأنها تقول: قُتِلْتُ بغير ذنب. ورُوِيَ أن

مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «الوائدة، والموءودة في النار» أخرجه أبو داود، وكان صعصعة بن ناجية ممن منع الواد، ولم يند فافتخر به الفرزدق في شعره فقال:

ومنا الذي منع الوائدات وأحيا الوئيد فلم تواد

﴿بأي ذنب قتلت﴾ معناه تسأل الموءودة، فيقال لها، بأي ذنب قتلت، ومعنى سؤالها لها توبيخ قاتلها. لأنها قتلت بغير ذنب. ﴿وإذا الصحف نشرت﴾ يعني صحائف الأعمال تنتشر للحساب ﴿وإذا السماء كشطت﴾ أي نزع، وطويت، وقيل قلعت كما يقلع السقف، وقيل كشفت، وأزيلت عمن فيها. ﴿وإذا الجحيم سعرت﴾ أوقدت لأعداء الله تعالى ﴿وإذا الجنة أزلفت﴾ أي قربت لأولياء الله.

عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَا أَقْسِمُ بِالْخَنَسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾

﴿علمت نفس ما أحضرت﴾ يعني عند ذلك تعمل كل نفس ما أحضرت من خير، أو شر وهذا جواب لقوله إذا الشمس كورت إلى هنا.

قوله عز وجل: ﴿فلا أقسم﴾ لا زائدة والمعنى أقسم، وقد تقدم ذلك في قوله ﴿لا أقسم بيوم القيامة﴾. بالخنس الجوار الكنس يعني النجوم تبدو بالليل، فتظهر، وتخس بالنهار تحت نور الشمس، ونحو هذا المعنى روي عن علي بن أبي طالب، وقيل هي النجوم الخمسة زحل، والمشتري، والمريخ، والزهرة، وعطارد، تخس في مجاريها، أي ترجع وراءها في الفلك، وتنكس، أي تستر وقت اختفائها، وقيل إنها تخس، أي تتأخر عن مطالعها،

جابر بن زيد كان يقرأ: ﴿وإذا الموءودة سئلت﴾ * بأي ذنب قتلت، ومثله قرأ أبو الضحى.

﴿وإذا الصحف نشرت﴾، قرأ أهل المدينة والشام وعاصم ويعقوب ﴿نشرت﴾ بالتخفيف، وقرأ الآخرون بالتشديد، لقوله: ﴿يؤتى صحفاً منشرة﴾ [المذثر: ٥٢]، يعني صحائف الأعمال تنتشر للحساب.

﴿وإذا السماء كشطت﴾، قال الفراء: نزع فطويت. وقال الزجاج: قلعت كما يقلع السقف. وقال مقاتل: تكشف عمن فيها. ومعنى الكشط رفعك شيئاً عن شيء قد غطاه كما يكشط الجلد عن السنام.

﴿وإذا الجحيم سعرت﴾، قرأ أهل المدينة والشام وحفص عن عاصم ﴿سعرت﴾ بالتشديد، وقرأ الباقر بالتخفيف أي أوقدت لأعداء الله.

﴿وإذا الجنة أزلفت﴾، قربت لأولياء الله.

﴿علمت﴾، عند ذلك كل، ﴿نفس ما أحضرت﴾، من خير أو شر، وهذا جواب لقوله: ﴿إذا الشمس كورت﴾ وما بعدها.

قوله عز وجل: ﴿فلا أقسم﴾ بالخنس * الجوار الكنس، ولا زائدة معناه أقسم بالخنس، قال قتادة: هي النجوم تبدو بالليل وتخس بالنهار، فتخفى فلا ترى. وعن علي أيضاً: أنها الكواكب تخس بالنهار فلا ترى، وتكنس بالليل فتأوي إلى مجاريها. وقال قوم: هي النجوم الخمسة زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد، تخس في مجراها أي ترجع وراءها وتكنس تستر وقت اختفائها وغروبها، كما تكنس الأطباء في مغارها. وقال ابن زيد: معنى الخنس أنها تخس أي تتأخر عن مطالعها في كل عام تأخراً تتأخره عن تعجيل ذلك الطلوع، تخس عنه

والكنس معناه أنها لا ترى بالنهار، وقيل هي الظباء، وهي رواية عن ابن عباس، وأصل الخنوس الرجوع إلى وراء، والخنوس هو أن تأوي إلى كناسها، وهو الموضع الذي يأوي إليه الوحوش. ﴿والليل إذا عسعس﴾ أي أقبل بظلامه وقيل أدبر، والعسعسة رقة الظلام، وذلك يكون في طرف الليل. ﴿والصبح إذا تنفس﴾ أي أقبل وبدأ أوله وقيل أسفر.

وفي تنفسه قولان أحدهما: أن في إقبال الصبح روحاً، ونسيماً فجعل ذلك نفساً على المجاز الثاني، أنه شبه الليل بالمكروب المحزون، فإذا تنفس وجد راحة، فكأنه تخلص من الحزن، فعبّر عنه بالتنفس، فهو استعارة لطيفة، ولما ذكر المقسم به أتبعه بالمقسم عليه فقال تعالى: ﴿إنه﴾ يعني القرآن ﴿لقول رسول كريم﴾ يعني جبريل عليه الصلاة والسلام والمعنى أن جبريل نزل به عن الله عز وجل: ﴿ذي قوة﴾ وكان من قوته أنه اقتلع قري قوم لوط الأربع من الماء الأسود، وحملها على جناحه، فرفعها إلى السماء، ثم قلبها، وأنه أبصر إبليس يكلم عيسى عليه الصلاة والسلام على بعض عقاب الأرض المقدسة، فنفخه بجناحه نفخة ألقاه إلى أقصى جبل بالهند، وأنه صاح صيحة بشمود، فأصبحوا جائمين، وأنه يهبط من السماء إلى الأرض، ثم يصعد في أسرع من رد الطرف ﴿عند ذي العرش مكين﴾ أي في المنزل والجاه ﴿مطاع ثم﴾ أي في السموات تطيعه الملائكة، ومن طاعة الملائكة له أنهم فتحوا أبواب السموات ليلة المعراج بقوله لرسول الله ﷺ وفتح خزنة الجنة أبوابها بقوله ﴿أمين﴾ يعني على وحي الله تعالى إلى أنبيائه ﴿وما صاحبكم﴾ يعني محمداً ﷺ يخاطب كفار مكة ﴿بمجنون﴾ وهذا أيضاً من جواب القسم أقسم على أن القرآن نزل به جبريل وأن محمداً ﷺ ليس بمجنون كما يقول أهل مكة، وذلك أنهم قالوا إنه مجنون، وأن ما يقوله ليس هو إلا من عند نفسه فنفى الله عنه الجنون، وكون القرآن من عند نفسه.

بتأخرها. والكنس أي تكنس بالنهار فلا ترى. وروى الأعمش عن إبراهيم عن عبد الله أنها هي الوحش. وقال سعيد بن جبير: هي الظباء. وهي رواية العوفي عن ابن عباس. وأصل الخنوس: الرجوع إلى وراء، والخنوس أي تأوي إلى مكانسها، وهي المواضع التي تأوي إليها الوحوش.

﴿والليل إذا عسعس﴾، قال الحسن: أقبل بظلامه. وقال الآخرون أدبر. تقول العرب: عسعس الليل وسعسع إذا أدبر ولم يبق منه إلا اليسير.

﴿والصبح إذا تنفس﴾، أقبل وبدأ أوله وقيل امتد ضوءه وارتفع.

﴿إنه﴾، يعني القرآن. ﴿لقول رسول كريم﴾، يعني جبريل أي نزل به جبريل عن الله تعالى.

﴿ذي قوة﴾، وكان من قوته أنه اقتلع قريات قوم لوط من الماء الأسود وحملها على جناحه فرفعها إلى السماء ثم قلبها، وأنه أبصر إبليس يكلم عيسى على بعض عقاب الأرض المقدسة فنفخه بجناحه نفخة ألقاه إلى أقصى جبل بالهند، وأنه صاح صيحة بشمود فأصبحوا جائمين، وأنه يهبط من السماء إلى الأرض ويصعد في أسرع من الطرف، ﴿عند ذي العرش مكين﴾، في المنزل.

﴿مطاع ثم﴾، أي في السموات تطيعه الملائكة ومن طاعة الملائكة إياه أنهم فتحوا أبواب السموات ليلة المعراج، بقوله لرسول الله ﷺ وفتح خزنة الجنة أبوابها بقوله: ﴿أمين﴾، على وحي الله ورسالته إلى أنبيائه.

﴿وما صاحبكم بمجنون﴾، يقول لأهل مكة وما صاحبكم يعني محمداً ﷺ بمجنون. وهذا أيضاً من جواب القسم أقسم على أن القرآن نزل به جبريل، وأن محمداً ﷺ ليس كما يقوله أهل مكة، وذلك أنهم قالوا إنه مجنون، وما يقول يقوله من عند نفسه.

وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾

﴿ولقد رآه﴾ يعني رأى النبي ﷺ جبريل عليه الصلاة والسلام على صورته التي خلق فيها ﴿بالأفق المبين﴾ يعني بالأفق الأعلى من ناحية المشرق حيث تطلع الشمس، وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل عليه الصلاة والسلام «إني أحب أن أراك في صورتك التي تكون فيها في السماء قال: لن تقوى على ذلك قال، بلى قال فأين تشاء أن أتخيل لك قال بالأبطح، قال لا يسعني ذلك، قال: فبمنى قال لا يسعني ذلك قال فبعرفات، قال: لا يسعني ذلك قال بحراء قال إن يسعني فواعده فخرج النبي ﷺ في ذلك الوقت. فإذا هو بجبريل قد أقبل من حيال عرفات بخشخشة، وكلكلة قد ملأ ما بين المشرق، والمغرب، ورأسه في السماء، ورجلاه في الأرض، فلما رآه النبي ﷺ خر مغشياً عليه، فتحول جبريل عن صورته، وضمه إلى صدره، وقال: يا محمد لا تخف، فكيف لو رأيت إسرافيل، ورأسه تحت العرش، ورجلاه في تخوم الأرض السابعة، وإن العرش لعلى كاهله، وإنه ليتضاءل أحياناً من مخافة الله جلّ جلاله وعلا علاؤه وشأنه حتى يصير كالصعو، يعني العصفور حتى ما يحمل عرش ربك إلا عظمته» ﴿وما هو﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿على الغيب﴾ أي الوحي وخبر السماء، وما أطلع عليه مما كان غائباً عن علمه من القصص والأنباء. ﴿بضنين﴾ قرأ بالطاء، ومعناه بمتهم والمظنة التهمة، وقرئ بضنين بالضاد، ومعناه

﴿ولقد رآه﴾، يعني رأى النبي ﷺ جبريل عليه السلام على صورته، ﴿بالأفق المبين﴾، وهو الأفق الأعلى من ناحية المشرق، قاله مجاهد وقتادة أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أخبرني ابن فنجويه ثنا محمد بن جعفر ثنا الحسن ابن عليوة ثنا إسماعيل بن عيسى ثنا إسحاق بن بشر أنا ابن جريج عن عكرمة بن خالد ومقاتل عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «إني أحب أن أراك في صورتك التي تكون فيها في السماء»، قال: لن تقوى على ذلك، قال: «بلى»، قال: فأين تشاء أن أتخيل لك؟ قال: «بالأبطح»، قال: لا يسعني، قال: «فهننا»، قال: لا يسعني، قال: «فبعرفات»، قال: ذلك بالحران يسعني فواعده، فخرج النبي ﷺ في الوقت فإذا هو بجبريل قد أقبل من جبال عرفات بخشخشة وكلكلة، قد ملأ ما بين المشرق والمغرب، ورأسه في السماء ورجلاه في الأرض، فلما رآه النبي ﷺ كبر وخر مغشياً عليه. قال: فتحول جبريل في صورته فضمه إلى صدره، وقال: يا محمد لا تخف فكيف لو رأيت إسرافيل ورأسه من تحت العرش ورجلاه في تخوم الأرض السابعة، وأن العرش لعلى كاهله، وإنه ليتضاءل أحياناً من مخافة الله عز وجل حتى يصير مثل الصعو يعني العصفور، حتى ما يحمل عرش ربك إلا عظمته.

﴿وما هو﴾، يعني محمداً ﷺ، ﴿على الغيب﴾، أي الوحي، وخبر السماء وما أطلع عليه مما كان غائباً عنه من الأنباء والقصص، ﴿بضنين﴾، قرأ أهل مكة والبصرة والكسائي بالطاء أي بمتهم، يقال: فلان يظن بمال ويزن أي يتهم به والظنة التهمة، وقرأ الآخرون بالضاد أي ييخل يقول إنه يأتيه علم الغيب فلا ييخل به عليكم بل يعلمكم ويخبركم به، ولا يكتمه كما يكتم الكاهن ما عنده حتى يأخذ عليه حلواناً، تقول العرب: ضننت بالشيء بكسر النون أضن به ضناً وضناً فأنا به ضنين أي بخيل.

﴿وما هو﴾، يعني القرآن، ﴿بقول شيطان رجيم﴾، قال الكلبي: يقول إن القرآن ليس بشعر ولا كهانة كما قالت قريش.

ببخل يقول إنه يأتيه علم الغيب، ولا يبخل به عليكم، ويخبركم به، ولا يكتمه كما يكتُم الكاهن ما عنده حتى يأخذ عليه حلواناً، وهو أجرة الكاهن، وقراءة الظاء أولى لأنهم لم يبخلوه، وإنما اتهموه، فنفى الله عنه تلك التهمة، ولو أراد البخل لقال وما هو بالغيب. ﴿وما هو﴾ يعني القرآن ﴿يقول شيطان رجيم﴾ يعني إن القرآن ليس بشعر، ولا كهانة كما قالت قريش، وقيل كانوا يقولون إن شيطاناً يلقيه على لسانه، فنفى الله ذلك عنه، ﴿فأين تذهبون﴾ أي فأين تعدلون عن القرآن، وفيه الشفاء، والهدى، والبيان، وقيل معناه أي طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي قد بينت لكم. ﴿إن هو﴾ يعني ما في القرآن ﴿إلا ذكر للعالمين﴾ أي موعظة للخلق أجمعين ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾ أي يتبع الحق، ويقيم عليه، ويتنفع به ثم بين أن مشيئة العبد موقوفة بمشيئته فقال تعالى: ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ أعلمهم الله أن المشيئة في التوفيق للاستقامة إليه، وأنهم لا يقدرُونَ على ذلك إلا بمشيئة الله، وتوفيقه، وفيه إعلام أن أحداً لا يعمل خيراً إلا بتوفيق الله تعالى؛ ولا شراً إلا بخذلانه، ومشيئته والله تعالى أعلم.

﴿فأين تذهبون﴾، أي أين تعدلون عن هذا القرآن، وفيه الشفاء والبيان قال الزجاج: أي طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي قد بينت لكم.

ثم بين فقال: ﴿إن هو﴾، أي ما القرآن، ﴿إلا ذكر للعالمين﴾، موعظة للخلق أجمعين.

﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾، أي يتبع الحق ويقيم عليه.

﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾، أي أعلمهم أن المشيئة في التوفيق إليه وأنهم لا يقدرُونَ على ذلك إلا بمشيئة الله وفيه إعلام أن أحداً لا يعمل خيراً إلا بتوفيق الله ولا شراً إلا بخذلانه.

سورة الانفطار

مكية وهي تسع عشرة آية وثمانون كلمة وثلاثمائة وسبعة وعشرون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ﴿٤﴾ عَلِمْتَ نَفْسٌ ﴿٥﴾ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٦﴾ يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾

قوله عز وجل: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ أي انشقت ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ أي تساقطت ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ﴾ أي فجر بعضها في بعض واختلط العذب بالملح، فصارت بحراً واحداً، وقيل معنى فجرت فاضت. ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ﴾ أي بَحِثَتْ، وقلب ترابها وبعث من فيها منه الموتى أحياء. ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ يعني علمت في ذلك اليوم ما قدمت من عمل صالح، أو سيئ، وأخرت بعدها من حسنة أو سيئة، وقيل ما قدمت من الصدقات وأخرت من الزكوات، وهذه أحوال يوم القيامة. قوله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ أي ما خدعك، وسول لك الباطل حتى صنعت ما صنعت، وضيعت ما أوجب عليك، والمعنى ماذا أمنك من عقابه، قيل

سُورَةُ الْإِنْفِطَارِ

مكية وهي تسع عشرة آية.

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾، انشَقَّتْ.

﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾، تساقطت.

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ﴾، فَجَّرَ بعضها في بعض واختلط العذب بالملح فصارت بحراً واحداً. وقال الربيع: فجرت فاضت.

﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ﴾، بَحِثَتْ وقلب ترابها وبعث من فيها من الموتى أحياء، يقال: بعثت الحوض وبعثته إذا قلبته فجعلت أسفله أعلاه.

﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾، قيل ما قدمت من عمل صالح أو سيئ، وما أخرت من سنة حسنة أو سيئة. وقيل: ما قدمت من الصدقات وأخرت من التَرَكَات، على ما ذكرنا في قوله: ﴿يَبْنِى الْإِنْسَانُ يَوْمئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣].

﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾، ما خدعك وسول لك الباطل حتى أضعت ما وجب عليك، والمعنى: ماذا أمنك من عقابه؟ قال عطاء: نزلت في الوليد بن المغيرة. وقال الكلبي ومقاتل: نزلت في أبي الشريق

نزلت في الوليد بن المغيرة، وقيل في أبي الشريق، واسمه أسيد بن كلفة، وقيل كلفة بن خلف، وكان كافراً ضرب النبي ﷺ فلم يعاقبه الله وأنزل الله هذه الآية، وقيل الآية عامة في كل كافر، وعاص يقول ما الذي غرك، قيل غره حمقه، وجهله وقيل تسويل الشيطان له، وقيل غره عفو الله عنه حيث لم يعاجله بالعقوبة في أول مرة بربك الكريم، أي المتجاوز عنك، فهو بكرمه لك لم يعاجلك بعقوبته بل بسط لك المدة لرجاء التوبة. قال ابن مسعود «ما منكم من أحد إلا سيخلو الله عز وجل به يوم القيامة. فيقول: يا ابن آدم ما غرك بي يا ابن آدم! ماذا عملت؟ فيما علمت يا ابن آدم؟ ماذا أجبك المرسلين»، وقيل للفضيل بن عياض لو أقامك الله يوم القيامة فيقول لك يا ابن آدم ما غرك بربك الكريم؟ ماذا كنت تقول. قال: أقول غرني ستورك المرخاة، وقال يحيى بن معاذ: لو أقامني بين يديه، وقال ما غرك بي أقول غرني بربك بي سالفاً وأنفاً، وقال أبو بكر الوراق لو قال لي ما غرك بربك الكريم لقلت غرني كرم الكريم، وقال بعض أهل الإشارة. إنما قال بربك الكريم دون سائر أسمائه، وصفاته كأنه لقنه حجته في الإجابة حتى يقول غرني كرم الكريم.

الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوِّكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَنِينِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ
الَّذِينَ ﴿١٥﴾

﴿الذي خلقك﴾ أي أوجدك من العدم إلى الوجود ﴿فسواك﴾ أي جعلك سوياً سالم الأعضاء، تسمع وتبصر ﴿فعدلك﴾ أي عدل خلقك في مناسبة الأعضاء فلم يجعل بعضها أطول من بعض، وقيل معناه جعلك قائماً معتدلاً حسن الصورة، ولم يجعلك كالبهيمة المنحنية ﴿في أي صورة ما شاء ركبك﴾ أي في أي شبه من أب أو أم أو خال أو عم، وجاء في الحديث «إن النطفة إذا استقرت في الرحم. أحضر كل عرق بينه وبين آدم ثم قرأ: ﴿في أي صورة ما

ضرب النبي ﷺ فلم يعاقبه الله عز وجل، فأنزل الله هذه الآية يقول: ما الذي غرك بربك الكريم المتجاوز عنك إذ لم يعاقبك عاجلاً بكفرك؟ قال قتادة: غره عدوه المسلط عليه يعني الشيطان. قال مقاتل: غره عفو الله حين لم يعاقبه في أول مرة. وقال السدي: غره رفق الله به. وقال ابن مسعود: ما منكم من أحد إلا سيخلو الله به يوم القيامة. فيقول: يا ابن آدم ما غرك بي؟ يا ابن آدم ماذا عملت فيما علمت؟ يا ابن آدم ماذا أجبك المرسلين؟ وقيل للفضيل بن عياض: لو أقامك الله يوم القيامة فقال: يا فضيل ما غرك بربك الكريم؟ ماذا كنت تقول؟ قال: أقول غرني ستورك المرخاة. وقال يحيى بن معاذ لو أقامني بين يديه فقال: يا يحيى ما غرك بي؟ قلت: غرني بك برك بي سالفاً وأنفاً. وقال أبو بكر الوراق: لو قال لي: ما غرك بربك الكريم؟ لقلت: غرني بك كرم الكريم. قال بعض أهل الإشارة: إنما قال بربك الكريم دون سائر أسمائه وصفاته كأنه لقنه الإجابة حتى يقول: غرني كرم الكريم.

﴿الذي خلقك فسواك فعدلك﴾، قرأ أهل الكوفة وأبو جعفر ﴿فعدلك﴾ بالتخفيف فصرفك وأمالك إلى أي صورة شاء حسناً وقيحاً وطويلاً وقصيراً. وقرأ الآخرون بالتشديد أي قومك وجعلك معتدل الخلق والأعضاء.

﴿في أي صورة ما شاء ركبك﴾، قال مجاهد والكلبي ومقاتل: في أي شبه من أب أو أم أو خال أو عم وجاء في الحديث أن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضر كل عرق بينه وبين آدم ثم قرأ ﴿في أي صورة ما شاء ركبك﴾، وذكر الفراء والزجاج قولاً آخر ﴿في أي صورة ما شاء ركبك﴾ إما طويلاً أو قصيراً أو حسناً أو غير ذلك. قال عكرمة وأبو صالح في أي صورة ما شاء ركبك، إن شاء في صورة إنسان وإن شاء في صورة دابة، أو حيوان آخر.

شاء ركبك ﴿﴾، وقيل معناه إن شاء ركبك في صورة إنسان، وإن شاء في صورة دابة أو حيوان، وقيل في أي صورة ما شاء ركبك من الصور المختلفة بحسب الطول، والقصر، والحسن، والقبح والذكورة، والأنوثة، وفي هذه دلالة على قدرة الصانع المختار القادر. وذلك أنه لما اختلفت الهيئات، والصفات دل ذلك على كمال القدرة، واتساع الصنعة، وأن المدبر المختار هو الله تعالى.

قوله عز وجل: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدين﴾ أي بيوم الحساب والجزاء ﴿وإن عليكم لحافظين﴾ يعني رقباء من الملائكة يحفظون عليكم أعمالكم ﴿كراماً﴾ أي على الله ﴿كاتبين﴾ أي يكتبون أقوالكم وأعمالكم ﴿يعلمون ما تفعلون﴾ يعني من خير أو شر. قوله عز وجل ﴿إن الأبرار﴾ يعني الذين برؤا وصدقوا في إيمانهم بأداء ما افترض الله عليهم، واجتناب معاصيه. ﴿لفي نعيم﴾ يعني نعيم الجنة ﴿وإن الفجار لفي جحيم﴾ روي أن سليمان بن عبد الملك قال: لأبي حازم المزني ليت شعري ما لنا عند الله، فقال له: اعرض عملك على كتاب الله، فإنك تعلم ما لك عند الله، قال: أين أجد ذلك في كتاب الله؟ قال: عند قوله ﴿إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم﴾ قال سليمان فأين رحمة الله قال قريب من المحسنين ﴿يصلونها يوم الدين﴾ يعني يوم القيامة لأنه يوم الجزاء.

وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾

﴿وما هم عنها بغائبين﴾ أي عن النار ثم عظم شأن ذلك اليوم فقال تعالى: ﴿وما أدراك ما يوم الدين﴾ قيل

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ﴾، قرأ أبو جعفر بالياء، وقرأ الآخرون بالتاء لقوله: ﴿وإن عليكم لحافظين﴾، ﴿بالدين﴾، بالجزاء والحساب.

﴿وإن عليكم لحافظين﴾، رقباء من الملائكة يحفظون عليكم أعمالكم.

﴿كراماً﴾ على الله، ﴿كاتبين﴾، يكتبون أقوالكم وأعمالكم.

﴿يعلمون ما تفعلون﴾، من خير أو شر.

قوله عز وجل: ﴿إن الأبرار لفي نعيم﴾، الأبرار الذين برؤا وصدقوا في إيمانهم بأداء فرائض الله عز وجل واجتناب معاصيه.

﴿وإن الفجار لفي جحيم﴾، روي أن سليمان بن عبد الملك قال لأبي حازم المزني: ليت شعري ما لنا عند الله؟ قال: أعرض عملك على كتاب الله فإنك تعلم ما لك عند الله؟ فقال: فأين أجده في كتاب الله؟ فقال عند قوله: ﴿إن الأبرار لفي نعيم﴾ * وإن الفجار لفي جحيم، قال سليمان فأين رحمة الله؟ قال: ﴿قريب من المحسنين﴾ [الأعراف: ٥٦].

قوله عز وجل: ﴿يصلونها﴾، يدخلونها، ﴿يوم الدين﴾، يوم القيامة.

﴿وما هم عنها بغائبين﴾.

ثم عظم ذلك اليوم، فقال: ﴿وما أدراك ما يوم الدين﴾، كرر تفخيماً لشأنه.

فقال: ﴿ثم ما أدراك ما يوم الدين﴾ * يوم لا تملك، قرأ أهل مكة والبصرة يوم برفع الميم رداً على اليوم

المخاطب بذلك هو الكافر، وهو على وجه الزجر له، وقيل هو خطاب للنبي ﷺ: والمعنى أي شيء أعلمك به لو لم نعرفك أحواله ﴿ثم ما أدراك ما يوم الدين﴾ التكرير لتعظيم ذلك اليوم، وتفخيم شأنه ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً﴾ أي لا تملك نفس كافرة لنفس كافرة شيئاً من المنفعة ﴿والأمر يومئذ لله﴾ يعني أنه لم يملك الله في ذلك أحداً شيئاً كما ملكهم في الدنيا، والله أعلم.

الأول، وقرأ الآخرون بنصبها أي في يوم يعني هذه الأشياء في يوم لا تملك. ﴿نفسٌ لنفس شيئاً﴾، قال مقاتل: يعني لنفس كافرة شيئاً من المنفعة، ﴿والأمر يومئذ لله﴾، أي يوم لا يملك الله في ذلك اليوم أحداً شيئاً كما ملكهم في الدنيا.

سورة المطففين

مدنية في قول ومكية في قول: وقيل فيها ثمان آيات مكية وهي من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ إلى آخرها، وقيل فيها آية مكية، وهي قوله تعالى: ﴿إِذَا تَتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وقيل إنها نزلت بين مكة، والمدينة زمن الهجرة، وهي ست وثلاثون آية ومائة وتسع وستون كلمة وسبعمائة وثلاثون حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾

قوله عز وجل: ﴿وَبَلِّغْ﴾ أي قبح وهي كلمة تذكر عند وقوع البلاء، يقال ويل له وويل عليه، وقيل ويل إسم واد في جهنم ﴿لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ يعني الذين ينقصون المكيال والميزان لأنه لا يكاد المطفف يسرق في الكيل والوزن، إلا الشيء اليسير الطفيف قال ابن عباس: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ فأحسنوا الكيل، وقيل لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، وبها رجل يقال له أبو جهينة، ومعه صاعان يكيل بأحدهما، ويكتال بالآخر، فأنزل الله هذه الآية وجعل الويل للمطففين ثم بين من هم. فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ يعني أنهم إذا اکتالوا من الناس، ومن على يتعاقبان، وقيل معناه إذا اکتالوا من الناس، أي اشتروا شيئاً استوفوا عليهم لأنفسهم الكيل والوزن.

سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ

مكية أو مدنية وهي ست وثلاثون آية.

﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾، يعني الذين ينقصون المكيال والميزان ويبخسون حقوق الناس. قال الزجاج: إنما قيل للذي ينقص المكيال والميزان مطفف لأنه لا يكاد يسرق في المكيال والميزان إلا الشيء اليسير الطفيف. أخبرنا أبو بكر يعقوب بن أحمد بن محمد علي الصيرفي ثنا أبو محمد الحسن بن أحمد المخلدي أنا أبو حامد أحمد بن محمد بن الحسن الحافظ ثنا عبد الرحمن بن بشر ثنا علي بن الحسين بن واقد حدثني أبي حدثني يزيد النحوي أن عكرمة حدثه عن ابن عباس قال: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ كَانُوا مِنْ أَخْبَثِ النَّاسِ كَيْلًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ فَأَحْسِنُوا الْكَيْلَ. وقال السدي: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ وَبِهَا رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ أَبُو جَهَيْنَةَ وَمَعَهُ صَاعَانُ يَكِيلُ بِأَحَدِهِمَا وَيَكْتَالُ بِالْآخَرِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ، فَاللَّهُ تَعَالَى جَعَلَ الْوَيْلَ لِلْمُطَفِّفِينَ.

ثم بين أن المطففين من هم فقال: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾، وأراد إذا اکتالوا من الناس أي أخذوا منهم، (وَمَنْ)، (وَعَلَى) يتعاقبان. قال الزجاج: المعنى إذا اکتالوا من الناس استوفوا عليهم الكيل، وأراد الذين إذا اشتروا لأنفسهم استوفوا في الكيل والوزن.

وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سَعِيرٍ ﴿٧﴾

﴿وإذا كالوهم أو وزنوهم﴾ يعني وإذا كالوا لهم أو وزنوا لهم للناس كما يقال نصحتك ونصحت لك. ﴿يخسرون﴾ أي ينقصون الكيل والوزن وهذا الوعيد يلحق من يأخذ لنفسه زائداً ويدفع إلى غيره ناقصاً، ويتناول الوعيد القليل والكثير لكن إذا لم يتب، منه فإن تاب منه ورد الحقوق إلى أهلها قبلت توبته ومن فعل ذلك، وأصر عليه كان مصراً على كبيرة من الكبائر، وذلك لأن عامة الخلق محتاجون إلى المعاملات وهي مبنية على أمر الكيل والوزن والذرع، فلهذا السبب عظم الله أمر الكيل والوزن، قال نافع: كان ابن عمر يمر بالبائع فيقول له اتق الله أوف الكيل والوزن، فإن المطففين يوقفون يوم القيامة حتى يلجمهم العرق، وقال قتادة: أوف يا ابن آدم كما تحب أن يوفى لك، واعدل كما تحب أن يعدل لك قال الفضيل: بخس الميزان سواد يوم القيامة. ﴿ألا يظن﴾ أي ألا يعلم ويستيقن ﴿أولئك﴾ أي الذين يفعلون هذا الفعل، وهم المطففون ﴿أنهم مبعوثون ليوم عظيم﴾ يعني يوم القيامة ﴿يوم يقوم الناس﴾ يعني من قبورهم ﴿لرب العالمين﴾ أي لأمره وجزائه وحسابه (ق) عن نافع «أن ابن عمر تلا ﴿ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾، قال يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه»، وروي مرفوعاً عن المقداد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «تدنو الشمس من رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى تكون منهم

﴿وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾، أي كالوا لهم أو وزنوا لهم أي للناس يقال وزنتك ووزنتك حقك وكلتك طعامك أي وزنت لك وكلت لك كما يقال نصحتك ونصحت لك وشكرتك وشكرت لك كتبك وكتبت لك. قال أبو عبيدة وكان عيسى بن عمر يجعلهما حرفين يقف على (كالوا أو وزنوا) ويتبدىء (هم يخسرون) قال أبو عبيدة: والاختيار الأولى يعني أن كل واحدة كلمة واحدة، لأنهم كتبوها بغير ألف، ولو كانتا مقطوعتين لكتب: (كالوا أو وزنوا) بالألف كسائر الأفعال مثل جاؤا وقالوا: واتفقت المصاحف على إسقاط الألف، ولأنه يقال في اللغة: كلتك وزنتك كما يقال كلت لك وزنت لك. وقوله: ﴿يخسرون﴾ أي ينقصون، قال نافع: كان ابن عمر يمر بالبائع فيقول اتق الله أوف الكيل والوزن، فإن المطففين يوقفون يوم القيامة حتى إن العرق ليلجمهم إلى أنصاف آذانهم.

﴿ألا يظن﴾، يستيقن، ﴿أولئك﴾، الذين يفعلون ذلك، ﴿أنهم مبعوثون * ليوم عظيم﴾، يعني يوم القيامة.

﴿يوم يقوم الناس﴾، من قبورهم، ﴿لرب العالمين﴾، أي لأمره وجزائه ولحسابه، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل أنا إبراهيم بن المنذر أنا معن حدثني مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ قال: «يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه». أخبرني أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة الكشميهني أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث ثنا محمد بن يعقوب الكسائي ثنا عبد الله بن محمود ثنا إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن عبد الرحمن بن يزيد عن جابر حدثني سليم بن عامر حدثني المقداد صاحب رسول الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد حتى تكون قدر ميل أو ميلين»، قال سليم: لا أدري أي الميلين يعني مسافة الأرض أو الميل الذي تكحل به العين، قال: «فتصهرهم الشمس فيكونون في العرق بقدر أعمالهم، فمنهم من يأخذه إلى عقبه ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه ومنهم من يأخذه إلى حقويه،

كمقدار ميل» زاد الترمذي أو ميلين «قال سليم بن عامر والله ما أدري ما يعني بالميل مسافة الأرض، أو الميل ما تكتحل به العين قال فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق فمنهم من يكون إلى كعبه ومنهم من يكون إلى ركبتيه ومنهم من يكون إلى حقويه ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً، وأشار رسول الله ﷺ بيديه إلى فيه «قوله عز وجل: ﴿كَلَّا﴾ قيل إنه ردع وتنبيه أي ليس الأمر على ما هم عليه من بخس الكيل والميزان، فليرتدعوا عنه فعلى هذا تم الكلام هنا، وقيل كلا ابتداء يتصل بما بعده على معنى حقاً ﴿إِنْ كُنَّ الْفَجَارُ﴾ أي الذي كتبت فيه أعمالهم ﴿لَفِي سَجِينٍ﴾ قال ابن عمر هي الأرض السابعة السفلى، وفيها أرواح الكفار وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ «سجين أسفل سبع أرضين وعليون في السماء السابعة تحت العرش» وقال شمر بن عطية: جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال أخبرني عن قول الله عز وجل ﴿إِنْ كُنَّ الْفَجَارُ لَفِي سَجِينٍ﴾ قال إن روح الفاجر يصعد بها إلى السماء، فتأبى السماء أن تقبلها ثم يهبط بها إلى الأرض، فتأبى أن تقبلها فتدخل تحت سبع أرضين حتى ينتهي بها إلى سجين، وهو موضع جند إبليس فيخرج لها من سجين رق، فليقم ويختم ويوضع تحت جند إبليس لمعرفة الهلاك بحساب يوم القيامة، وقيل هي صخرة تحت الأرض السابعة السفلى خضراء خضرة السماء منها فتقلب، ويجعل كتاب الفجار تحتها، قال وهب: هي آخر سلطان إبليس وجاء في الحديث «الفلق جب في جهنم مغطى وسجين جب في جهنم مفتوح»، وقيل معناه لفي سجين لفي خسار وضلال، وقيل إنه مشتق من السجن، ومعناه لفي حبس وضيق شديد.

وَمَا أَذْرَكَ مَا سَمِعَ ۖ كُنْتُ مَرْقُومٌ ۖ وَيَلْجَمُ الْإِلْجَامَ ۖ وَالَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الدِّينِ ۖ وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا

ومنهم من يلجمه إلجاماً فرأيت رسول الله ﷺ، وهو يشير بيده إلى فيه يقول: «يلجمه إلجاماً».

قوله عز وجل: ﴿كَلَّا﴾، ردع أي ليس الأمر على ما هم عليه فليرتدعوا، وتمام الكلام ههنا، وقال الحسن: كلاً ابتداء يتصل بما بعده على معنى حقاً، ﴿إِنْ كُنَّ الْفَجَارُ﴾، الذي كتبت فيه أعمالهم، ﴿لَفِي سَجِينٍ﴾، قال عبد الله بن عمرو وقتادة ومجاهد والضحاك: ﴿سَجِينٍ﴾ هي الأرض السابعة السفلى فيها أرواح الكفار. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا الحسين بن محمد بن فنجويه: ثنا موسى بن محمد ثنا الحسن بن علويه أنا إسماعيل بن عيسى ثنا المسيب ثنا الأعمش عن المنهال عن زاذان عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ سجين أسفل سبع أرضين، وعليون في السماء السابعة تحت العرش. وقال سمرة بن عطية: جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال: أخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿إِنْ كُنَّ الْفَجَارُ لَفِي سَجِينٍ﴾، فقال: إن روح الفاجر يصعد بها إلى السماء فتأبى السماء أن تقبلها ثم تهبط بها إلى الأرض، فتأبى الأرض أن تقبل فتدخل تحت سبع أرضين حتى ينتهي بها إلى سجين، وهو موضع جند إبليس، فيخرج لها من سجين من تحت جند إبليس رق فيرقم ويختم ويوضع تحت جند إبليس، لمعرفة الهلاك بحساب يوم القيامة، وإليه ذهب سعيد بن جبير، قال: سجين تحت جند إبليس. وقال عطاء الخراساني: هي الأرض السفلى، وفيها إبليس وذريته، وقال الكلبي: هي صخرة تحت الأرض السابعة السفلى خضراء، وخضرة السماء منها يجعل كتاب الفجار تحتها. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد أيضاً قال: سجين صخرة تحت الأرض السفلى تقلب فيجعل كتاب الفجار فيها. وقال وهب: هي آخر سلطان إبليس. وجاء في الحديث: «الفلق حب في جهنم مغطى، وسجين حب في جهنم مفتوح». وقال عكرمة: ﴿لَفِي سَجِينٍ﴾ أي لفي خسار وضلال. وقال الأخفش: هو فعيل من السجن، كما يقال: فسيق وشريب، معناه لفي حبس وضيق شديد.

كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٧﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٩﴾

﴿وما أدراك ما سجين﴾ أي ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت، ولا قومك، وقيل إنما قال ذلك تعظيماً لأمر سجين ﴿كتاب مرقوم﴾ ليس هذا تفسيراً للسجن وإنما هو بيان للكتاب المذكور في قوله ﴿إن كتاب الفجار﴾ والمعنى إن كتاب الفجار مرقوم أي مكتوب فيه أعمالهم مثبتة عليهم كالرقم في الثوب لا ينسى ولا يمحي حتى يحاسبوا به، ويجازوا عليه، وقيل مرقوم رقم عليه بشر كأنه علم بعلامة يعرف بها أنه كافر، وقيل مرقوم أي مختوم وهو بلغة حمير ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ قيل إنه متصل بقوله يوم يقوم الناس لرب العالمين ومعنى الآية ويل لمن كذب بهذا اليوم، وقيل معناه مرقوم بالشقاوة، ثم قال ويل يومئذ للمكذبين أي في ذلك اليوم من ذلك الكتاب المرقوم عليهم بالشقاوة ﴿الذين يكذبون بيوم الدين﴾ أي بيوم القيامة لأنه يوم الجزاء ﴿وما يكذب به﴾ أي بيوم القيامة ﴿إلا كل معتد﴾ أي متجاوز عن نهج الحق ﴿أثيم﴾ هو مبالغة في الآثم وهو المرتكب الإثم والمعاصي ﴿إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾ أي أكاذيب الأولين.

قوله عز وجل: ﴿كلا﴾ أي لا يؤمن ثم استأنف فقال ﴿بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال «إن العبد إن أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه وإن عاد زيد فيها حتى تعلق قلبه، وهو الران الذي قال الله: ﴿بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾» أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح وأصل الران الغلبة ومعنى الآية أن الذنوب والمعاصي غلبت على قلوبهم وأحاطت بها، وقيل هو الذنب على الذنب حتى يمت القلب وقال ابن عباس: ران على قلوبهم طبع عليها، وقيل الرين أن يسود القلب من الذنوب، والطبع أن يطبع على القلب وهو أشد من الرين والإفقال أشد من الطبع وقيل الرين التغطية، والمعنى أنه يغشى القلب شيء كالصدى فيخطيه فعند ذلك يموت القلب.

﴿وما أدراك ما سجين﴾، قال الزجاج: أي ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت ولا قومك.

﴿كتاب مرقوم﴾، ليس هذا تفسير السجين بل هو بيان الكتاب المذكور في قوله: إن كتاب الفجار أي هو كتاب الفجار مرقوم أي هو كتاب مرقوم، أي مكتوب فيه أعمالهم مثبتة عليهم كالرقم في الثوب، لا ينسى ولا يمحي حتى يجازوا به. وقال قتادة ومقاتل: رقم عليه شركائه علم بعلامة يعرف بها أنه كافر. وقيل: مختوم بلغة حمير.

﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ الذين يكذبون بيوم الدين * وما يكذب به إلا كل معتد أثيم * إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين.

﴿كلا﴾، قال مقاتل: أي لا يؤمنون، ثم استأنف فقال: ﴿بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾، أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الصمد الترابي ثنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسي أنا إبراهيم بن حزم الشاشي أنا أبو محمد عبد الله بن حميد الكميتي ثنا صفوان بن عيسى عن ابن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه منها، وإن زاد زادت حتى تعلق قلبه»، فذلك الران الذي ذكر الله في كتابه: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾. وأصل الرين الغلبة، يقال: رانت الخمر على عقله تريناً وربوناً إذا غلبت عليه حتى سكر، ومعنى الآية: غلبت على قلوبهم المعاصي وأحاطت بها. قال الحسن: هو الذنب على الذنب حتى يموت القلب. قال ابن عباس: ران على قلوبهم طبع عليها.

كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّا إِنَّ
كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيَيْنَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلَّتُوهٗ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَرْفُوعٌ ﴿٢٠﴾

﴿كلا﴾ قال ابن عباس يريد لا يصدقون وقيل معناه ليس الأمر كما يقولون إن لهم في الآخرة خيراً ثم استأنف فقال تعالى: ﴿إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾ قيل عن كرامته ورحمته ممنوعون، وقيل إن الله لا ينظر إليهم ولا يزكيهم وهذا التفسير فيه ضعف أما حمله على منع الكرامة والرحمة فهو عدول عن الظاهر بغير دليل، وكذا الوجه الثاني فإن من حجب عن الله فإن الله لا ينظر إليه نظر رحمة، ولا يزكيه والذي ذهب إليه أكثر المفسرين أنهم محجوبون عن رؤية الله، وهذا هو الصحيح واحتج بهذه الآية من أثبت الرؤية للمؤمنين قالوا: لولا ذلك لم يكن للتخصيص فائدة، ووجه آخر وهو أنه تعالى ذكر الحجاب في معرض الوعيد والتهديد للكفار، وما يكون وعيداً وتهديداً للكفار لا يجوز حصوله في حق المؤمنين، فوجب أن لا يحصل هذا الحجاب في حق المؤمنين قال الحسن: لو علم الزاهدون والعابدون أنهم لا يرون ربهم في المعاد لزهقت أنفسهم في الدنيا.

وقيل كما حجبهم في الدنيا عن توحيد حجبهم في الآخرة عن رؤيته وسئل مالك عن هذه الآية، فقال: لما حجب الله أعداءه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه، وقال الشافعي في قوله ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾ دلالة على أن أولياء الله يرون الله جلّ جلاله وعنه كما حجب قوماً بالسخط دل على أن قوماً يرونه بالرضا، ثم أخبر أن الكفار مع كونهم محجوبون عن الله يدخلون النار. فقال عز من قائل ﴿ثم إنهم لصالوا الجحيم﴾ أي لداخلوا النار ﴿ثم يقال﴾ أي تقول لهم الخزنة ﴿هذا﴾ أي هذا العذاب ﴿الذي كنتم به تكذبون﴾ يعني في الدنيا ﴿كلا﴾ أي ليس الأمر كما يتوهمه الفجار من إنكار البعث، وقيل كلا أي لا يؤمنون بالعذاب الذي يصلونه، ثم بين محل كتاب الأبرار فقال تعالى: ﴿إن كتاب الأبرار لفي عليين﴾ جمع علي من العلو، وقيل هو موضوع على صفة الجمع لا واحد له من لفظه

﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾، قال ابن عباس: كلا يريد لا يصدقون، ثم استأنف فقال: ﴿إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾، قال بعضهم: عن كرامته ورحمته ممنوعون. وقال قتادة: هو ألا ينظر إليهم ولا يزكيهم. وقال أكثر المفسرين: عن رؤيته. قال الحسن: لو علم الزاهدون العابدون أنهم لا يرون ربهم في المعاد لزهقت أنفسهم في الدنيا. قال الحسين بن الفضل كما حجبهم في الدنيا عن توحيد حجبهم في الآخرة عن رؤيته. وسئل مالك عن هذه الآية فقال: لما حجب أعداءه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه. وقال الشافعي رضي الله عنه في قوله: ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾: دلالة على أن أولياء الله يرون الله عياناً، ثم أخبر أن الكفار مع كونهم محجوبين عن الله يدخلون النار فقال:

﴿ثم إنهم لصالوا الجحيم﴾، لداخلوا النار.

﴿ثم يقال﴾، أي تقول لهم الخزنة، ﴿هذا﴾، أي هذا العذاب، ﴿الذي كنتم به تكذبون﴾.

﴿كلا﴾، قال مقاتل: لا يؤمن بالعذاب الذي يصلاه، ثم بين محل كتاب الأبرار فقال: ﴿إن كتاب الأبرار لفي عليين﴾، روي عن البراء مرفوعاً: «أن عليين في السماء السابعة تحت العرش». وقال ابن عباس: هو لوح من زبرجدة خضراء معلق تحت العرش أعمالهم مكتوبة فيه، وقال كعب وقتادة: هو قائمة العرش اليمنى. وقال عطاء عن ابن عباس: هو الجنة. وقال الضحاك: سدرة المنتهى، وقال بعض أهل المعاني: علو بعد علو وشرف بعد شرف، ولذلك جمعت بالياء والنون. وقال الفراء: هو اسم موضوع على صيغة الجمع لا واحد له من لفظه مثل عشرين وثلاثين.

وتقدم من حديث البراء المرفوع إن عليين في السماء السابعة تحت العرش وقال ابن عباس: هو لوح من زبرجدة خضراء معلق تحت العرش أعمالهم مكتوبة فيه، وقيل هو قائمة العرش اليمنى وقال ابن عباس في رواية عنه هي الجنة، وقيل هي سدرة المنتهى، وقيل معناه علو بعد علو وشرف بعد شرف، وقيل هي مراتب عالية محفوفة بالجلالة وقد عظمها الله وأعلاها. ﴿وما أدراك ما عليون﴾ تنبيهاً له على عظم شأنه ﴿كتاب مرقوم﴾ ليس تفسير العليين، والمعنى أن كتاب الأبرار كتاب مرقوم في عليين فيه ما أعد لهم في الآخرة من الكرامة، وقيل مكتوب فيه أعمالهم وعليون محل الملائكة وضده سجين، وهو محل إبليس وجنوده.

يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خَتَمُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِنَ الْجِبِّ مَنَازِلٌ مِنْ نَسِيمٍ ﴿٢٧﴾

﴿يشهده المقربون﴾ يعني الملائكة الذين هم في عليين يشهدون، أي يحضرون ذلك المكتوب ومن قال أنه كتاب الأعمال قال: يشهد ذلك الكتاب إذا صعد به إلى عليين المقربون من الملائكة لكرامة المؤمن.

قوله تعالى: ﴿إن الأبرار﴾ يعني المطيعين لله ﴿لفي نعيم﴾ يعني نعيم الجنة ﴿على الأرائك﴾ جمع أريكة وهي الأسرة في الحجال ﴿ينظرون﴾ أي إلى ما أعد الله لهم من نعيم الجنة، وقيل ينظرون إلى أعدائهم كيف يعذبون في النار، وقيل ينظرون إلى ربهم سبحانه وتعالى ﴿تعرف في وجوههم نضرة النعيم﴾ يعني أنك إذا رأيتهم تعرف أنهم من أهل النعمة لما ترى على وجوههم من النور والحسن والبياض، قيل النضرة في الوجه والسرور في القلب ﴿يسقون من رحيق﴾ يعني الخمر الصافية الطيبة البيضاء ﴿مختوم﴾ يعني ختم على ذلك الشراب ومنع من أن تمسه الأيدي إلى أن يفك ختمه الأبرار.

فإن قلت قد قال في سورة محمد ﷺ ﴿وأنهار من خمر﴾ والنهر لا يختم عليه فكيف طريق الجمع بين الآيتين، قلت يحتمل أن يكون المذكور في هذه الآية. في أوان مختوم عليها، وهي غير تلك الخمر التي في الأنهار، وإنما ختم

﴿وما أدراك ما عليون﴾ كتاب مرقوم، ليس هذا بتفسير عليين هو بيان الكتاب المذكور في قوله: ﴿إن كتاب الأبرار لفي عليين﴾، أي مكتوب أعمالهم كما ذكرنا في كتاب الفجار، وقيل: كتب هناك ما أعد الله لهم من الكرامة، وهو معنى قول مقاتل، وقيل: رقم لهم بخير وتقدير الآية على التقديم والتأخير مجازاً: إن كتاب الأبرار كتاب مرقوم في عليين، وهو محل الملائكة، ومثله كتاب الفجار كتاب مرقوم في سجين، وهو محل إبليس وجنده.

﴿يشهده المقربون﴾، يعني الملائكة الذين في عليين يشهدون ويحضرون ذلك المكتوب، وذلك الكتاب إذا صعد به إلى عليين.

﴿إن الأبرار لفي نعيم﴾ على الأرائك ينظرون، إلى ما أعطاهم الله من الكرامة والنعمة، وقال مقاتل: ينظرون إلى عدوهم كيف يعذبون.

﴿تعرف في وجوههم نضرة النعيم﴾، إذا رأيتهم عرفت أنهم من أهل النعمة مما ترى في وجوههم من النور والحسن والبياض، قال الحسن: النضرة في الوجه والسرور في القلب، وقرأ أبو جعفر ويعقوب ﴿تعرف﴾ بضم التاء وفتح الراء على غير تسمية الفاعل ﴿نضرة﴾ رفع وقرأ الباقون بفتح التاء وكسر الراء ﴿نضرة﴾ نصب. ﴿يسقون من رحيق﴾، خمر صافية طيبة قال مقاتل: الخمر البيضاء. ﴿مختوم﴾، ختم ومنع من أن تمسه

عليها لشرفها ونفاستها ﴿خَتَامُهُ مَسْكٌ﴾ أي طيبته التي ختم عليه بها مسك بخلاف خمر الدنيا فإن ختامها طين وقال ابن مسعود مختوم أي ممزوج ختامه أي آخر طعمه، وعاقبته مسك، وقيل يمزج لهم بالكافور ويختم لهم بالمسك ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ أي فليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله عز وجل، ليحصل لهم هذا الشراب المختوم بالمسك وقيل أصله من الشيء النفيس الذي تحرص عليه نفوس الناس، ويريد كل أحد لنفسه وينفس به على غيره أي يضمن ويبخل ﴿ومزاجه من تسنيم﴾ أي شراب ينصب عليهم من غرفهم ومنازلهم وقيل يجري في الهواء مسنماً فيصب في أواني أهل الجنة على قدر ملئها فإذا امتلأت أمسك وأصل هذه الكلمة من العلو ومنه سنام البعير لأنه أعلاه، وقيل هو شراب اسمه تسنيم وهو من أشرف شراب أهل الجنة وقال ابن مسعود وابن عباس، هو خالص للمقربين يشربونه صرفاً ويمزج لسائر أهل الجنة، وسئل ابن عباس عن قوله من تسنيم فقال: هذا مما قال الله تعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين﴾.

عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾

﴿عينا يشرب بها﴾ أي منها وقيل يشربها ﴿المقربون﴾ أي صرفاً وقوله عز وجل: ﴿إن الذين أجمعوا﴾ أي أشركوا يعني كفار قریش أبا جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأصحابهم من مترفي أهل مكة ﴿كانوا من الذين آمنوا﴾ أي من عمار وخباب وصهيب وبلال وأصحابهم من فقراء المؤمنين ﴿يضحكون﴾ أي منهم ويستهزئون

يد إلى أن يفك ختمه الأبرار، قال مجاهد: ﴿مختوم﴾ أي مطين.

﴿ختامه﴾، أي طينه، ﴿مسك﴾، كأنه ذهب إلى هذا المعنى، قال ابن زيد: ختامه عند الله مسك وختام الدنيا طين. وقال ابن مسعود: مختوم أي ممزوج ختامه أي آخر طعمه، وعاقبته مسك فالمختوم الذي له ختام، أي آخر وختم كل شيء الفراغ منه. وقال قتادة: يمزج لهم بالكافور ويختم بالمسك وقراءة العامة ﴿ختامه مسك﴾ بتقديم التاء، وقرأ الكسائي (خاتمته) وهي قراءة عليّ وعلقمة ومعناها واحد كما يقال: فلان كريم الطابع والطباع والخاتم والختام آخر كل شيء. ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾، فليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله عز وجل. وقال مجاهد: فليعمل العاملون، نظيره قوله تعالى: ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾ [الصافات: ٦١]، وقال مقاتل بن سليمان: فليتنازع المتنازعون. وقال عطاء: فليستبق المستبقون، وأصله من الشيء النفيس الذي تحرص عليه نفوس الناس، ويريد كل أحد لنفسه وينفس به على غيره، أي يضمن.

﴿ومزاجه من تسنيم﴾، شراب ينصب عليهم من علو في غرفهم ومنازلهم، وقيل: يجري في الهواء متسنماً فينصب في أواني أهل الجنة على قدر ملئها فإذا امتلأت أمسك وهذا معنى قول قتادة وأصل كلمة السنام من العلو، يقال للشيء المرتفع سنام ومنه سنام البعير. قال الضحاك: هو شراب اسمه تسنيم وهو أشرف الشراب. قال ابن مسعود وابن عباس: هو خالص للمقربين يشربونها صرفاً ويمزج لسائر أهل الجنة. وهو قوله: ﴿ومزاجه من تسنيم﴾.

﴿عينا يشرب بها المقربون﴾، وروى يوسف بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن قوله: ﴿من تسنيم﴾ قال هذا مما قاله الله تعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين﴾ [السجدة: ١٧]، ﴿عينا﴾ نصب على الحال، ﴿يشرب بها﴾ أي منها، وقيل: يشرب بها المقربون صرفاً.

بهم ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ﴾ يعني مر المؤمنون الفقراء بالكفار الأغنياء ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ يعني يتغامز الكفار والغمز الإشارة بالجفن والحاجب أي يشيرون إليها بالأعين استهزاء بهم ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ﴾ يعني الكفار ﴿انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ أي معجبين بما هم فيه، وقيل ينقلبون بذكرهم كأنهم يتفكّهون بحدِيثهم ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ يعني رأوا أصحاب محمد ﷺ ﴿قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءَ لَضَالُونَ﴾ أي هم في ضلال يأتون محمداً ويرون أنهم على شيء. قال الله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلُوا﴾ يعني المشركين ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يعني على المؤمنين ﴿حَافِظِينَ﴾ أي لأعمالهم والمعنى أنهم لم يوكّلوا بحفظ أعمالهم قوله عز وجل: ﴿فَالْيَوْمَ﴾ يعني في الآخرة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ وسبب هذا الضحك أن الكفار لما كانوا في الدنيا يضحكون من المؤمنين لما هم فيه من الشدة والبلاء فلما أفوضوا إلى الآخرة انعكس ذلك الأمر فصار المؤمنون في السرور والتعيم وصار الكفار في العذاب والبلاء، فضحك المؤمنون من الكافرين لما رأوا حالهم وقال أبو صالح: تفتح للكافرين أبواب النار وهم فيها ويقال لهم اخرجوا فإذا انتهوا إليها أغلقت دونهم فيفعل ذلك بهم مراراً والمؤمنون ينظرون إليهم ويضحكون منهم وقال كعب بين الجنة والنار كوى، فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدوه في الدنيا من الكفار اطلع عليه من تلك الكوى وهو يعذب فيضحك منه فذلك قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾.

عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ تُوْبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

﴿على الأرائك﴾ جمع أريكة وهو السرير ويتخذ في الحجلة وهي الكلة يزين بها البيت، وأرائك الجنة من الدر

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾، أشركوا يعني كفّار قريش أبا جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأصحابهم من مُتَرَفِي مَكَّة، ﴿كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عَمَّارٌ وَخَبَّابٌ وَصُهَيْبٌ وَبِلَالٌ وَأَصْحَابُهُمْ مِنْ فَقَرَاءِ الْمُؤْمِنِينَ. ﴿يَضْحَكُونَ﴾، وبهم يستهزؤون.

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ﴾، يعني مرّ المؤمنون بالكفّار، ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾، والغمز الإشارة بالجفن والحاجب، أي يشيرون إليهم بالأعين استهزاءً.

﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا﴾، يعني الكفّار، ﴿إِلَى أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾، معجبين بما هم فيه يتفكّهون بذكرهم.

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾، رأوا أصحاب النبي ﷺ، ﴿قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءَ لَضَالُونَ﴾، يأتون محمداً ﷺ يرون أنهم على شيء.

﴿وَمَا أَرْسَلُوا﴾، يعني المشركين، ﴿عَلَيْهِمْ﴾، يعني على المؤمنين، ﴿حَافِظِينَ﴾، أعمالهم أي لم يوكّلوا بحفظ أعمالهم.

﴿فَالْيَوْمَ﴾، يعني في الآخرة، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾، قال أبو صالح: وذلك أنه يفتح للكفّار وهم في النار أبوابها، ويقال لهم: اخرجوا فإذا رأوها مفتوحة أقبلوا إليها ليخرجوا والمؤمنون ينظرون إليهم فإذا انتهوا إلى أبوابها غلقت دونهم، يفعل بهم ذلك مراراً والمؤمنون يضحكون. وقال كعب: بين الجنة والنار كوى فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدوّ له كان في الدنيا اطلع عليه من تلك الكوى، كما قال: ﴿فَاطْلِعْ فَرَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الصّافات: ٥٥]، فإذا اطلعوا في الجنة إلى أعدائهم وهم يُعَذَّبُونَ في النار ضحكوا فذلك قوله عز وجل: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾.

﴿على الأرائك﴾، من الدرّ والياقوت، ﴿يَنْظُرُونَ﴾، إليهم في النار.

والياقوت ﴿ينظرون﴾ يعني إليهم وهم في النار يعذبون قال الله تعالى ﴿هل ثوب الكفار﴾ أي جوزي الكفار ﴿ما كانوا يفعلون﴾ أي بالمؤمنين من الاستهزاء والضحك وهذا الاستفهام بمعنى التقرير وثوب، وأثيب بمعنى قال أوس.

سأجزيك أو يجزيك عني مثوب وحسبك أن يثنى عليك وتحمدي

والله سبحانه وتعالى أعلم.

قال الله تعالى: ﴿هل ثوب﴾، هل جُوزِي، ﴿الكفار ما كانوا يفعلون﴾، أي جزاء استهزائهم بالمؤمنين ومعنى الاستفهام ههنا التقرير. وثوب وأثاب بمعنى واحد.

سورة الانشقاق

(مكية وهي خمس وعشرون آية ومائة وسبع كلمات وأربعمئة وثلاثون حرفاً)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أَوْفَ كَتَبْتُ بِبَيْمِينِهِ ﴿٧﴾

قوله عز وجل: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ يعني عند قيام الساعة وهي من علاماتها ﴿وأذنت لربها﴾ أي سمعت أمر ربها بالانشقاق، وأطاعته من الأذن وهو الاستماع ﴿وحقت﴾ أي حق لها أن تطيع أمر ربها ﴿وإذا الأرض مدت﴾ يعني مد الأديم العكاظي وزيد في سعتها، وقيل سويت فلا يبقى فيها بناء ولا جبل ﴿وألقت ما فيها﴾ أي أخرجت ما في بطنها من الموتى والكنوز ﴿وتخلت﴾ أي من ذلك الذي كان في بطنها من الموتى والكنوز ﴿وأذنت لربها وحقت﴾ واختلفوا في جواب إذا فقيل جوابه محذوف تقديره إذا كان هذه الأشياء يرى الإنسان الثواب أو العقاب، وقيل جوابه يا أيها الإنسان إنك كادح والمعنى إذا انشقت السماء لقي كل كادح ما عمله وقيل جوابه وأذنت وحينئذ تكون الواو زائدة ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً﴾ أي ساع إليه في عملك سعيًا والكدح عمل الإنسان وجهده في

سُورَةُ الانشِقَاقِ

مكيّة وهي خمس وعشرون آية.

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ ، انشقاقها من علامات القيامة .

﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا﴾ ، أي سمعت أمر ربها بالانشقاق وأطاعته ، من الأذن وهو الاستماع ، ﴿وَحُقَّتْ﴾ ، أي وحق لها أن تطيع ربّها .

﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ ، مدّ الأديم العكاظي ، وزيد في سعتها . وقال مقاتل : سُوِّيت كمدّ الأديم فلا يبقى فيها بناء ولا جبل .

﴿وَأَلْقَتْ﴾ ، أخرجت ، ﴿مَا فِيهَا﴾ من الموتى والكنوز ، ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ ، خلت منها .

﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ ، واختلفوا في جواب إذا قيل : جوابه محذوف تقديره : إذا كانت هذه الأشياء يرى الإنسان الثواب والعقاب .

وقيل جوابه : ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ ، ومجازه إذا السماء انشقت لقي كل كادح ما عمله . وقيل : جوابه وأذنت ، وحينئذ تكون الواو زائدة ومعنى قوله : ﴿كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ ، أي ساعٍ إليه في

الأميرين الخير والشر، وقيل معناه عامل لربك عملاً وقيل معناه إنك كادح في لقاء ربك وهو الموت، والمعنى أن هذا الكدح يستمر بك إلى الموت، وقيل معناه إنك تكدح في دنياك كدحاً تصير به إلى ربك. ﴿فملاقية﴾ أي فملاق جزاء عملك.

فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَنَقْلَبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُ لَنْ يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ أَقْسِمُ بِالسَّفْقِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾

﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾ سوف من الله واجب والحساب اليسير هو أن تعرض عليه أعماله، فيعرف بالطاعة، والمعصية ثم يثاب على الطاعة، ويتجاوز له عن المعصية فهذا هو الحساب اليسير لأنه لا شدة فيه على صاحبه، ولا مناقشة ولا يقال له لم فعلت هذا ولا يطالب بالعدر فيه، ولا الحجة عليه فإنه متى طوّل بذلك لم يجد عذراً، ولا حجة فيفتضح (ق) عن ابن أبي مليكة أن عائشة كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه وأن النبي ﷺ قال: من حوسب عذب قال: فقلت، أوليس يقول الله عز وجل فسوف يحاسب حساباً يسيراً قالت فقال إنما ذلك العرض ولكن من نوقش الحساب عذب. ﴿ونقلب إلى أهله﴾ يعني في الجنة من الحور العين والآدميات ﴿مسروراً﴾ أي بما أوتي من الخير والكرامة ﴿وأما من أوتي كتابه وراء ظهره﴾ يعني أنه تغلّ يده اليمنى إلى عنقه، وتجعل يده اليسرى وراء ظهره، فيعطي كتابه بشماله من وراء ظهره، وقيل تخلع يده الشمال فتخرج من وراء ظهره فيعطي بها كتابه ﴿فسوف يدعوا ثبوراً﴾ يعني عند إعطائه كتابه بشماله من وراء ظهره يعلم أنه من أهل النار فيدعو بالويل

عملك، والكدح: سعي الإنسان وجهده في الأمر من الخير والشر حتى يكدح ذلك فيه، أي يؤثر. وقال قتادة والكلبي والضحاك: عامل لربك عملاً، ﴿فملاقية﴾، أي ملاقي جزاء عملك خيراً كان أو شراً.

﴿فأما من أوتي كتابه﴾، ديوان أعماله، ﴿بيمينه﴾ فسوف يحاسب حساباً يسيراً، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا سعيد بن أبي مريم أنا نافع عن ابن عمر حدثني ابن أبي مليكة أن عائشة زوج النبي ﷺ كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وإن النبي ﷺ قال: «مَنْ حُوسِبَ عَذَّبَ» قالت عائشة رضي الله عنها فقلت: يا رسول الله أوليس يقول الله عز وجل: ﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾؟ قالت: فقال: «إنما ذلك العرض، ولكن من نوقش في الحساب يهلك».

﴿ونقلب إلى أهله﴾، يعني في الجنة من الحور العين والآدميات، ﴿مسروراً﴾، بما أوتي من الخير والكرامة.

﴿وأما من أوتي كتابه وراء ظهره﴾، فتغلّ يده اليمنى إلى عنقه وتجعل يده الشمال وراء ظهره، فيؤتي كتابه بشماله من وراء ظهره. وقال مجاهد: تخلع يده اليسرى من وراء ظهره.

﴿فسوف يدعوا ثبوراً﴾، ينادي بالويل والهلاك إذا قرأ كتابه يقول: يا ويلاه يا ثبوراه، لقوله تعالى: ﴿دعوا هنالك ثبوراً﴾ [الفرقان: ١٣].

﴿ويصلى سعيراً﴾، قرأ أبو جعفر وأهل البصرة وعاصم وحمزة ويصلى بفتح الياء خفيفاً كقوله: ﴿يصلى النار الكبرى﴾ [الأعلى: ١٢]، وقرأ الآخرون بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام لقوله: ﴿وتصلية جحيم﴾

والهلاك، فيقول يا ويلاه يا ثوراه ﴿ويصلى سعيراً﴾ أي ويقاسي التَّهَاب النَّارَ وحرها ﴿إنه كان في أهله﴾ يعني في الدنيا ﴿مسروراً﴾ يعني باتباع هواه وركوب شهواته ﴿إنه ظن أن لن يحور﴾ أي لن يرجع إلينا ولن يبعث والحدود الرجوع ﴿بلى﴾ ليس الأمر كما ظن بل يحور إلينا، ويبعث ويحاسب ﴿إن ربه كان به بصيراً﴾ أي من يوم خلقه إلى أن يبعث قوله عز وجل: ﴿فلا أقسم بالشفق﴾ تقدم الكلام ﴿لا أقسم﴾ في سورة القيامة.

وأما الشفق فقال مجاهد: هو النهار كله وحجته في ذلك أنه عطف عليه فيجب أن يكون المذكور أولاً هو النهار فعلى هذا الوجه يكون القسم بالليل والنهار اللذين فيهما معاش العالم وسكونه، وقيل هو ما بقي من النهار وقال ابن عباس، وأكثر المفسرين: هو الحمرة التي تبقى في الأفق بعد غروب الشمس، وهو مذهب عامة العلماء، وقيل هو البياض الذي يعقب تلك الحمرة وهو مذهب أبي حنيفة ﴿والليل وما وسق﴾ أي جمع وضم ما كان منتشراً بالنهار من الخلق والدواب والهوام وذلك أن الليل إذا أقبل أوى كل شيء إلى مأواه، وقيل وما عمل فيه ويحتمل أن يكون ذلك تهجد العباد، فيجوز أن يقسم به.

وَالْقَمَرَ إِذَا انْسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَكُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾

﴿والقمر إذا انسق﴾ أي اجتمع وتم نوره وذلك في الأيام البيض، وقيل استدار واستوى، ولما ذكر المقسم به أتبعه بالمقسم عليه فقال تعالى ﴿لتركبن﴾ قرىء بفتح الباء وهو خطاب الواحد والمعنى لتركبن يا محمد ﴿طبقاً عن طبق﴾ يعني سماء بعد سماء وقد فعل الله ذلك معه ليلة أسري به، فأصعده سماء بعد سماء، وقيل درجة بعد درجة،

[الواقعة: ٩٤]، ﴿ثم الجحيم صلوه﴾ [الحاقة: ٣١].

﴿إنه كان في أهله مسروراً﴾، يعني في الدنيا باتباع هواه وركوب شهواته.

﴿إنه ظن أن لن يحور﴾، أن لن يرجع إلينا ولن يبعث.

ثم قال: ﴿بلى﴾، أي ليس كما ظن بل يحور إلينا ويبعث، ﴿إن ربه كان به بصيراً﴾، خلقه إلى أن بعثه.

قوله عز وجل: ﴿فلا أقسم بالشفق﴾، قال مجاهد: هو النهار كله. وقال عكرمة: ما بقي من النهار. وقال ابن عباس وأكثر المفسرين: هو الحمرة التي تبقى في الأفق بعد غروب الشمس. وقال قوم: هو البياض الذي يعقب تلك الحمرة.

﴿والليل وما وسق﴾، أي جمع وضم يقال وسقته اسقه وسقاً أي جمعته واستوثقت الإبل إذا اجتمعت وانضمت، والمعنى: والليل وما جمع وضم ما كان بالنهار منتشراً من الدواب، وذلك أن الليل إذا أقبل أوى كل شيء إلى مأواه. روى منصور عن مجاهد قال: ما لف وضم وأظلم عليه. وقال مقاتل بن حيان: ما أقبل من ظلمة أو كوكب. وقال سعيد بن جبير. وما عمل فيه.

﴿والقمر إذا انسق﴾، اجتمع واستوى وتم نوره وهو في الأيام البيض. وقال قتادة: استدار وهو افتعل من الوسق الذي هو الجمع.

﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾، قرأ أهل مكة وحزمة والكسائي ﴿لتركبن﴾ بفتح الباء، يعني لتركبن يا محمد.

قال الشعبي ومجاهد: سماء بعد سماء. قال الكلبي: يعني تصعد فيها. ويجوز أن يكون درجة بعد درجة ورتبة بعد

ورتبة بعد رتبة في القرب من الله تعالى: وقيل معناه لتركبن حالاً بعد حال (خ) عن ابن عباس قال: لتركبن طبقاً عن طبق حالاً بعد حال هذا لنبيكم ﷺ ومعنى هذا يكون لك الظفر والغلبة على المشركين حتى يختتم لك بجميل العاقبة فلا يحزنك تكاذيبهم وتماديهم في كفرهم وقرىء لتركبن بضم الباء، وهو الأشبه ويكون خطاب الجمع والمعنى لتركبن أيها الناس حالاً بعد حال وأمرأ بعد أمر، وذلك في موقف القيامة تتقلب بهم الأحوال فيصيرون في الآخرة على غير الحال التي كانوا عليها في الدنيا. وقال ابن عباس يعني الشدائد وأحوال الموت ثم البعث ثم العرض، وقيل حال الإنسان حالاً بعد حال رضيع ثم فطيم ثم غلام ثم شاب ثم كهل ثم شيخ، وقيل معناه لتركبن سنن من كان قبلكم وأحوالهم. (ق) عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال «لتبتعن سنن من كان قبلكم وأحوالهم شبراً بعد شبر وذراعاً بعد ذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى قال فمن»، وقيل في معنى الآية إنه أراد به السماء تتغير لوناً بعد لون فتصير تارة وردة كالذهان وتارة كالمهل وتنشق مرة وتطوي أخرى ﴿فما لهم لا يؤمنون﴾ يعني بالبعث والحساب وهو استفهام إنكار ﴿وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون﴾ يعني لا يصلون فعبّر بالسجود عن الصلاة لأنه جزء منها، وقيل أراد به سجود التلاوة وهذه السجدة أحد سجديات القرآن عند الشافعي ومن وافقه (ق) عن رافع قال «صليت مع أبي هريرة العتمة فقراً ﴿إذا السماء انشقت﴾ فسجد، فقلت ما هذا قال: سجدت

رتبة في القرب من الله تعالى والرفعة. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا سعيد بن النضر أنا هيثم أنا أبو بشر عن مجاهد قال: قال ابن عباس: لتركبن طبقاً عن طبق حالاً بعد حال، قال: هذا نبيكم ﷺ. وقيل: أراد به السماء تتغير لوناً بعد لون، فتصير تارة كالذهان وتارة كالمهل، فتتنشق بالغمام مرة وتطوي أخرى. وقرأ الآخرون بضم الباء لأن المعنى بالناس أشبه لأنه ذكر من قبل: فأما من أوتي كتابه بيمينه، وشماله وذكر من بعد ﴿فما لهم لا يؤمنون﴾، وأراد لتركبن حالاً بعد حال وأمرأ بعد أمر في موقف القيامة، يعني الأحوال تتقلب بهم فيصيرون في الآخرة على غير الحال التي كانوا عليها في الدنيا. ﴿وعن﴾ بمعنى بعد، وقال مقاتل: يعني الموت ثم الحياة ثم الموت ثم الحياة. وقال عطاء: مرة فقيراً ومرة غنياً. وقال عمرو بن دينار عن ابن عباس: يعني الشدائد والأحوال الموت، ثم البعث ثم العرض. وقال عكرمة: حالاً بعد حال رضيع ثم فطيم ثم غلام ثم شاب ثم شيخ. وقال أبو عبيدة: لتركبن سنن من كان قبلكم وأحوالهم. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن عبد العزيز أنا أبو عمرو الصنعاني من اليمن عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ: «لتبتعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم» قيل: يا رسول الله اليهود والنصارى؟

قال فمن قوله عز وجل: ﴿فما لهم لا يؤمنون﴾، استفهام إنكار.

﴿وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون﴾. قال الكلبي ومقاتل: لا يصلون. أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي أنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي ثنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي ثنا أبو عيسى الترمذي ثنا قتيبة ثنا سفيان بن عيينة عن أيوب بن موسى عن عطاء بن مينا عن أبي هريرة قال: سجداً مع رسول الله ﷺ في إقرأ باسم ربك وإذا السماء انشقت. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا مسدد أنا معمر قال: سمعت أبي قال حدثني بكر عن أبي رافع قال: صليت مع أبي هريرة العتمة فقراً إذا السماء انشقت، فسجد فقلت: ما هذا؟ قال: سجدت بها خلف أبي القاسم ﷺ. فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه.

بها خلف أبي القاسم ﷺ فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه ولمسلم عنه قال: «سجدنا مع رسول الله ﷺ في ﴿اقرأ باسم ربك﴾ ﴿إذا السماء انشقت﴾».

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

﴿بل الذين كفروا يكذبون﴾ يعني بالقرآن والبعث ﴿والله أعلم بما يوعون﴾ يعني يجمعون في صدورهم من التكذيب ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ يعني على عنادهم وكفرهم ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون﴾ يعني غير مقطوع ولا منقوص في الآخرة، والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه.

﴿بل الذين كفروا يكذبون﴾، بالقرآن والبعث.

﴿والله أعلم بما يوعون﴾. في صدورهم من التكذيب. قال مجاهد: يكتمون.

﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون﴾، غير مقطوع ولا

منقوص.

سورة البروج

مكية وهي اثنتان وعشرون آية ومائة وتسع كلمات وأربعمائة وخمسة وستون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ مَّشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُلْ أَصْحَبُ الْأَعْدُدِ ﴿٤﴾

قوله عز وجل: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ يعني البروج الاثني عشر وإنما حسن القسم بها لما فيها من عجب
حكمة الباري جلّ جلاله، وهو سير الشمس والقمر الكواكب فيها على قدر معلوم لا يختلف وقيل البروج والكواكب
العظام سميت بروجاً لظهورها ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ يعني يوم القيامة ﴿وشاهد ومشهود﴾ عن أبي هريرة رضي الله عنه
قال قال رسول الله ﷺ: «اليوم الموعود يوم القيامة، والمشهود يوم عرفة، والشاهد يوم الجمعة ما طلعت الشمس ولا
غربت على يوم أفضل من يوم الجمعة فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير إلا استجاب الله له ولا يستعيز من
شر إلا أعاده الله منه» أخرجه الترمذي وضعف أحد رواته من قبل حفظه وهذا قول ابن عباس والأكثرين أن الشاهد يوم
الجمعة والمشهود يوم عرفة وقيل الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم النحر وقيل الشاهد يوم التروية، والمشهود يوم
عرفة وإنما حسن القسم بهذه الأيام لعظمها وشرفها، واجتماع المسلمين فيها، وقيل الشاهد هو الله تعالى والمشهود
يوم القيامة، وقيل الشاهد هم الأنبياء والمشهود أي عليهم هم الأمم وقيل الشاهد هو الملك والمشهود أي عليه هو آدم
وذريته، وقيل الشاهد هذه الأمة ونبيها ﷺ والمشهود عليهم هم الأمم المتقدمة، وقيل الشاهد الأنبياء والمشهود له هو

سُورَةُ الْبُرُوجِ

مكية وهي اثنتان وعشرون آية.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾، هو يوم القيامة.

﴿وشاهد ومشهود﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان أنا أبو جعفر
محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا عبد الله بن موسى بن عبيدة عن أيوب بن خالد عن
عبد الله بن رافع عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اليوم الموعود يوم القيامة، واليوم المشهود يوم عرفة،
والشاهد يوم الجمعة، وما طلعت الشمس ولا غربت عليّ يوم أفضل منه فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله فيها
بخير إلا استجاب الله له، ولا يستعيز من شيء إلا أعاده الله منه»، وهذا قول ابن عباس والأكثرين: أن الشاهد يوم
الجمعة والمشهود يوم عرفة. ورؤي عن ابن عمر الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم النحر. قال سعيد بن المسيّب:
الشاهد يوم التروية، والمشهود يوم عرفة. وروى يوسف بن مهران عن ابن عباس قال: الشاهد محمد ﷺ والمشهود
يوم القيامة، ثم تلا: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ [النساء: ٤١] وقال:
ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود. وقال عبد العزيز بن يحيى الشاهد محمد ﷺ، والمشهود الله عز وجل

محمد ﷺ لأن الأنبياء قبله شهدوا له بالنبوة وقوله، ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ وَالْيَوْمَ الْمَوْعُودِ وَشَاهِدٌ وَمَشْهُودٌ﴾ أقسام أقسم الله تعالى بها لشرفها، وعظمها. وجواب القسم قوله تعالى: ﴿قَتَلَ أَصْحَابَ الْأَخْدُودِ﴾ أي لعن وقتل وقيل جوابه ﴿إِنْ بَطِشَ رَبُّكَ لَشَدِيدٌ﴾ والأخدود الشق المستطيل في الأرض.

واختلفوا فيهم فروي عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال «كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر فلما كبر الساحر قال للملك إني قد كبرت فابعث إلي غلاماً أعلمه السحر فبعث إليه غلاماً يعلمه، وكان في طريقه إذا سلك إليه راهب فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب، وقعد إليه فإذا أتى الساحر ضربه، وإذا رجع من الساحر قعد إلى الراهب وسمع كلامه، فإذا أتى أهله ضربوه فشكا ذلك إلى الراهب فقال إذا خشيت الساحر، فقل حبسني أهلي وإذا خشيت أهلك فقل حبسني الساحر فينما هو كذلك إذا أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال اليوم أعلم الراهب أفضل أم الساحر فأخذ حجراً ثم قال اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر، فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها فمضى الناس، فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب: أي بني أنت أفضل مني قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلي فإن ابتليت فلا تدل علي فكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك كان قد عمي فأتاه بهدايا كثيرة فقال ما ها هنالك أجمع إن أنت شفيتني قال إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله عز وجل، فإن آمنت بالله دعوت الله عز وجل فشفاك فآمن به فشفاه الله عز وجل فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس فقال له الملك من رد عليك بصرك فقال ربي: فقال أولك رب غيري قال ربي، وربك الله فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دله على الغلام فجاء بالغلام، فقال له الملك أي بني إنه قد بلغ من سحر ك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل، فقال إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله عز وجل فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب فجاء له بالراهب، فقيل له ارجع عن دينك فأبى فدعا بالميشار فوضع الميشار في مفرق رأسه فشقه

بيانه قوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾ [النساء: ٤١]. وروى ابن أبي نجيج عن مجاهد قال: الشاهد آدم والمشهود يوم القيامة. وقال عكرمة الشاهد: الإنسان والمشهود يوم القيامة. وعنه أيضاً: الشاهد الملك يشهد على ابن آدم، والمشهود يوم القيامة. وتلا: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١]، ﴿وَذَلِكَ يَوْمُ مَشْهُودٍ﴾ [هود: ١٠٣]، وقيل: الشاهد الحَفَظَةُ والمشهود بنو آدم. وقال عطاء بن يسار: الشاهد آدم ورؤيته، والمشهود يوم القيامة. وروى الوالي عن ابن عباس: الشاهد هو الله عز وجل والمشهود يوم القيامة. وقال الحسين بن الفضل: الشاهد هذه الأمة والمشهود سائر الأمم. بيانه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقال سالم بن عبد الله: سألت سعيد بن جبيرة عن قوله: ﴿وَشَاهِدٌ وَمَشْهُودٌ﴾، فقال: الشاهد هو الله والمشهود نحن، بيانه: ﴿وَكُفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ [الفتح: ٢٨] وقيل: الشاهد أعضاء بني آدم، بيانه: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ﴾ [النور: ٢٤] الآية. وقيل: الشاهد الأنبياء والمشهود محمد، بيانه قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ إلى قوله: ﴿فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

﴿قَتَلَ أَصْحَابَ الْأَخْدُودِ﴾، أي لعن، والأخدود: الشق المستطيل في الأرض كالنهر، وجمعه أخاديد. واختلفوا فيهم. أخبرنا أبو حامد أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسن علي بن أحمد بن أبي عبد الله بن سعدان الخطيب أخبرني أبو أحمد محمد بن أحمد بن محمد بن قريش بن نوح بن رستم ثنا أبو عبد الله محمد بن إبراهيم البوشنجي ثنا هدية بن خالد ثنا حماد بن سلمة ثنا ثابت البناني عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال: «كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر، فلما كبر قال: إني قد كبرت فابعث إلي غلاماً أعلمه السحر، فبعث إليه غلاماً يعلمه، وكان في طريقه إذا سلك إليه راهب، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، وكان إذا

به حتى وقع شقاه ثم جيء بجليس الملك، فقيل له ارجع عن دينك فدعا بالميشار فوضع الميشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه ثم جيء بالغلام فقيل له ارجع عن دينك فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال لهم اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل فإذا بلغت ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال اللهم اكفنيهم بما شئت فرجف بهم الجبل، فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال كفانيهم الله فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال اذهبوا به فاحملوه في قرقور فتوسطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فاقدفوه، فذهبوا به فقال اللهم اكفنيهم بما شئت فانكفأت بهم السفينة، فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك ما فعل أصحابك؟ قال كفانيهم الله تعالى فقال للملك إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به فقال: وما هو قال تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع نخل ثم خذ سهماً من كناتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل بسم الله رب الغلام ثم ارمني به فإنك إن فعلت ذلك قتلتني فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع ثم أخذ سهماً من

أتى الساحر مراً بالراهب، وقعد إليه فإذا أتى الساحر ضربه، وإذا رجع من عند الساحر قعد إلى الراهب وسمع كلامه فإذا أتى أهله ضربه، فشكا إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر، فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم الراهب أفضل أم الساحر، فأخذ حجراً ثم قال اللهم: إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها فمضى الناس، فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب: أي بني أنت اليوم أفضل مني قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبلى فإن ابتليت فلا تدل عليّ وكان الغلام يرى الأكمة والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك وكان قد عمي، فأناه بهدايا كثيرة، فقال: ما هذا؟ قال: هذا لك أجمع إن أنت شفيتني، قال: إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله، فإن آمنت بالله دعوت الله لك فشفاك، فأمن بالله فشفاه الله، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من ردّ عليك بصلك؟ قال: ربي عز وجل، قال: أولئك ربّ غيري؟ قال: ربي وربك الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الغلام، فجاء بالغلام، فقال له الملك: أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرئ به الأكمة والأبرص وتفعل كذا وتفعل كذا، قال: إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الراهب، فجاء بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى فدعا بالميشار فوضع الميشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك فأبى فوضع الميشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به فإذا بلغت ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا، فجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور فتوسطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فاقدفوه، فذهبوا به فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع ثم خذ سهماً من كناتي ثم ضع السهم في كبد القوس وقل: بسم الله ربّ الغلام، ثم ارمني فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهماً من كناته ثم وضع السهم في كبد قوسه، ثم قال: بسم الله ربّ الغلام، ثم رماه فوق السهم في صدغه فوضع يده على صدغه في موضع السهم، فمات، فقال الناس: آمنا ربّ الغلام ثلاثاً فأتى الملك، فقيل له: رأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرُك، قد آمن الناس، فأمر

كنانته ثم وضع السهم في كبد القوس ثم قال بسم الله رب الغلام ثم رماه فوق السهم في صدغه فوضع يده على صدغه موضع السهم فمات، فقال الناس آمنا برب الغلام ثلاثاً، فأتى الملك فقيل له رأيت ما كنت تحذر قد، والله نزل بك حذرنا قد آمن الناس فأمر بالأخدود في أفواه السكك فخذت وأضرم النيران وقال من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها ففعلوا ذلك حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام يا أماه اصبري ولا تقاعسي فإنك على الحق». هذا حديث صحيح أخرجه مسلم.

وفي هذا الحديث إثبات كرامات الأولياء، وفيه جواز الكذب في مصلحة ترجع إلى الدين، وفيه إنقاذ النفس من الهلاك والأكمه هو الذي خلق أعمى، والميشار بالياء وتخفيف الهمة وروي بالنون وذروة الجبل بالضم والكسر أعلاه، ورجف تحرك واضطرب والفرقور بضم القاف الأولى السفينة الصغيرة وانكفأت انقلبت، والصعيد هنا الأرض البارزة والسكك الطرق والأخدود الشق العظيم في الأرض، وأقحموه أي ارموه وتقاعست أي تأخرت وكرهت

بالأخدود بأفواه السكك، فخذت وأضرم نيران، وقال: مَنْ لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها أو قيل له اقتحم، قال: ففعلوا حتى جاءت امرأة معها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أماه اصبري فإنك على الحق»، هذا حديث صحيح أخرجه مسلم بن الحجاج عن هدية بن خالد عن حماد بن سلمة وذكر محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه أن رجلاً كان قد بقي على دين عيسى فوقع إلى نجران فدعاهم فأجابوه فسار إليه ذو نواس اليهودي بجنوده من حمير وخيهرهم بين النار واليهودية، فأبوا عليه فخذ الأخاديد وأحرق اثني عشر ألفاً، ثم غلب أرياط على اليمن فخرج ذو نواس هارباً فاقتحم البحر بفرسه فغرق، قال الكلبي: وذو نواس قتل عبد الله بن التامر. وقال محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر أن خربة احتفرت في زمن عمر بن الخطاب فوجدوا عبد الله بن التامر واضعاً يده على ضربة في رأسه إذا أميطت يده عنها انبعثت دماً وإذا تركت ارتدت مكانها، وفي يده خاتم من حديد فيه مكتوب ربّي الله، فبلغ ذلك عمر فكتب أن أعيدوا عليه الذي وجدتم عليه. وروى عطاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان بنجران ملك من ملوك حمير يقال له: يوسف ذو نواس بن شراحيل في الفترة قبل مولد النبي ﷺ سبعين سنة، وكان في بلاده غلام يقال له عبد الله بن تامر، وكان أبوه قد سلّمه إلى معلّم يعلمه السحر فكره ذلك الغلام ولم يجد بداً من طاعة أبيه فجعل يختلف إلى المعلّم وكان في طريقه راهب حسن القراءة حسن الصوت، فأعجبه ذلك، وذكر قريباً من معنى حديث صهيب إلى أن قال الغلام للملك: إنك لا تقدر على قتلي إلا أن تفعل ما أقول لك، قال: فكيف أقتلك؟ قال: تجمع أهل مملكتك وأنت على سريرك فترميني بسهم باسم إلهي، ففعل الملك فقتله، فقال الناس: لا إله إلا الله إله عبد الله بن تامر لا دين إلا دينه، فغضب الملك وأغلق باب المدينة وأخذ أفواه السكك وخذ أخذوداً وملأه ناراً ثم عرضهم رجلاً رجلاً فمن رجع عن الإسلام تركه، ومن قال: ديني دين عبد الله بن تامر ألقاه في الأخدود فأحرقه، وكان في مملكته امرأة أسلمت فيمن أسلم ولها أولاد ثلاثة أحدهم رضيع، فقال لها الملك: ارجعي عن دينك وإلا ألقيتك وأولادك في النار، فأبت فأخذ ابنها الأكبر فألقاه في النار، ثم قال لها: ارجعي عن دينك، فأبت، فألقى الثاني في النار، ثم قال لها: ارجعي، فأبت، فأخذوا الصبي منها ليلقوه في النار فهتّت المرأة بالرجوع، فقال الصبي: يا أماه لا ترجعي عن الإسلام فإنك على الحق، ولا بأس عليك، فألقى الصبي في النار، وألقيت أمه على أثره. وقال سعيد بن جبيرة وابن أبيزي: لما انهزم أهل إسفندهار قال عمر بن الخطاب: أي شيء يجري على المجوس من الأحكام فإنهم ليسوا بأهل كتاب، فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: بلى قد كان لهم كتاب وكانت الخمر أحلت لهم فتناولها ملك من ملوكهم فغلبته على عقله فتناول أخته فوقع عليها فلما ذهب عنه السكر ندم، وقال لها: ويحك ما هذا الذي أتيت، وما المخرج منه قالت: المخرج

الدخول في النار. وقال ابن عباس: «كان بنجران ملك من ملوك حمير يقال له يوسف ذو نواس بن شراحيل بن شراحيل في الفترة قبل مولد النبي ﷺ بسبعين سنة، وكان في بلاده غلام يقال له عبدالله بن تامر، وكان أبوه يسلمه إلى معلم يعلمه السحر فكره ذلك الغلام ولم يجد بداً من طاعة أبيه فجعل يختلف إلى المعلم وكان في طريقه راهب حسن القراءة حسن الصوت فأعجبه ذلك». وذكر نحو حديث صهيب وقال وهب بن منبه: إن رجلاً كان قد بقي على دين عيسى، فوقع إلى نجران فأحبوه فسار إليه ذو نواس اليهود بجنوده من حمير وخيرهم بين النار واليهودية، فأبوا عليه فخذ الأخدود وحرق اثني عشر ألفاً ثم غلب أرباط على اليمن فخرج ذو نواس هارباً، فاقتحم البحر بفرسه فغرق.

وقال: محمد بن إسحاق عن عبدالله بن أبي بكر إن خربة احتفرت في زمن عمر بن الخطاب، فوجدوا عبدالله بن تامر واضعاً يده على ضربة في رأسه، إذا أميطت يده عنها انبعثت دماً، وإذا تركت ارتدت مكانها وفي يده خاتم حديد فيه مكتوب ربي الله فبلغ ذلك عمر، فكتب أن أعيّدوا عليه الذي وجدتم عليه.

وقال: سعيد بن جبير وابن أبيزى لما انهزم أهل اسفندهار، قال: عمر بن الخطاب أي شيء يجري على المجوس من الأحكام، فإنهم ليسوا بأهل كتاب، فقال علي بن أبي طالب بلى قد كان لهم كتاب، وكانت الخمر قد أحلت لهم فتناولها ملك من ملوكهم، فغلبت على عقله فوقع على أخته فلما ذهب عنه السكر ندم، وقال لها ويحك ما هذا الذي أتيت وما المخرج منه قالت: المخرج منه إنك تخطب التمس وتقول إن الله قد أحل نكاح الأخوات فإذا ذهب في الناس وتناسوه خطبتهم فحرمتهم. فقام خطيباً بذلك فقال إن الله قد أحل لكم نكاح الأخوات فقال الناس بأجمعهم معاذ الله أن نؤمن بهذا أو نقر به، ما جاءنا به من نبي، ولا أنزل علينا في كتاب، فبسط فيهم السوط فأبوا أن يقرؤا، فجرد فيهم السيف فأبوا أن يقرؤا به فجرد لهم الأخدود، وأوقدوا فيها النيران وعرضهم عليها فمن أبى قذفه في النار ومن أجاب أطلقه. وروي عن علي قال كان أصحاب الأخدود نبيهم حبشي بعث من الحبشة إلى قومه ثم قرأ علي

منه أن تخطب الناس، وتقول: إن الله قد أحل نكاح الأخوات فإذا ذهب في الناس وتناسوه خطبتهم فحرمتهم، فقام خطيباً فقال: إن الله قد أحل لكم نكاح الأخوات، فقال الناس بأجمعهم معاذ الله أن نؤمن بهذا، أو نقر به، وما جاءنا به نبي ولا أنزل عليها في كتاب، فبسط فيهم السوط فأبوا أن يقرؤا فجرد فيهم السيف. فأبوا أن يقرؤا. فخذ لهم أخدوداً وأوقد فيه النيران وعرضهم عليها فمن أبى ولم يطمعه قذفه في النار ومن أجاب خلّى سبيله. وقال الضحاك: أصحاب الأخدود من بني إسرائيل أخذوا رجالاً ونساءً فخذوا لهم أخدوداً ثم أوقدوا فيها النيران فأقاموا المؤمنين عليها، فقالوا: أتكفرون أم نقذفكم في النار؟ ويزعمون أنه دانيال وأصحابه، وهذه رواية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال أبو الطفيل عن علي رضي الله عنه: كان أصحاب الأخدود نبيهم حبشي بعث من الحبشة إلى قومه، ثم قرأ علي رضي الله عنه: ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك﴾ [غافر: ٧٨]، الآية، فدعاهم فتابعه ناس فقاتلهم أصحابه فأخذوا وأوثقوا من أفلت منهم فخذوا أخدوداً فملؤوها ناراً فمن أتبع النبي رُمي فيها، ومن تابعهم تركوه، فجاءوا بامرأة ومعها صبي رضيع فجزعت، فقال الصبي: يا أمه مري ولا تنافقي. وقال عكرمة: كانوا من النبط أحرقوا بالنار. وقال مقاتل: كانت الأخدود ثلاثة واحدة بنجران باليمن، والأخرى بالشام، والأخرى بفارس، أما التي بالشام فهو أباطاموس الرومي، وأما التي بفارس فبختنصر، وأما التي بأرض العرب فهو ذو نواس يوسف، فأما التي بالشام وفارس فلم يُنزل الله فيهما قرآناً وأنزل في التي كانت بنجران، وذلك أن رجلاً مسلماً ممن يقرأ الإنجيل آجر نفسه في عمل، وجعل يقرأ الإنجيل فرأت بنت المستأجر النور يضيء من قراءة الإنجيل، فذكرت ذلك لأبيها فرمقه حتى رآه فسأله فلم يخبره، فلم يزل به حتى أخبره بالدين والإسلام،

﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾ الآية، فدعاهم فتابعه أناس فقاتلهم الكفار، فقتل أصحابه وأخذ من انفلت منهم فأوثقوه ثم خدوا له الأخدوداً فملؤوها ناراً، فمن تبع ذلك النبي رمي به في النار ومن تابعهم تركوه فجاءوا بامرأة معها صبي رضيع فجزعت، فقال الصبي يا أماه قعي ولا تقاعسي وقيل كانت الأخدود ثلاثة واحدة بنجران باليمن، والأخرى بالشام، والأخرى بفارس حرقوا بالنار فأما التي بالشام فهو أبطاموس الرومي وأما التي بفارس فبختنصر ويزعمون أنهم أصحاب دانيال وأما التي باليمن فذو نواس يوسف؛ فأما التي بالشام وفارس فلم ينزل الله فيهم قرآناً وأنزل في التي بنجران اليمن وذلك أن هذه القصة كانت مشهورة عند أهل مكة، فذكر الله تعالى ذلك لأصحاب رسول الله ﷺ يحملهم بذلك على الصبر، وتحمل المكاره في الدين.

النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَنَوُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾

وقوله تعالى: ﴿النار ذات الوقود﴾، هو تعظيم لأمر تلك النار قال الربيع بن أنس نجى الله المؤمنين الذين ألقوا في النار بقبض أرواحهم، قبل أن تمسهم النار وخرجت النار إلى من على شفير الأخدود من الكفار فأحرقتهم ﴿إذ هم عليها قعود﴾، أي جلوس عند الأخدود ﴿وهم﴾ يعني الملك الذي خد الأخدود وأصحابه ﴿على ما يفعلون بالمؤمنين﴾ أي من عرضهم على النار وإرادتهم أن يرجعوا إلى دينهم ﴿شهود﴾ أي حضور وقيل يشهدون أن المؤمنين ضلال حين تركوا عبادة الصنم، ﴿وما نقموا منهم﴾ قال ابن عباس ما كرهوا منهم ﴿إلا أن يؤمنوا بالله﴾، وقيل ما عابوا ولا علموا فيهم عيباً إلا إيمانهم بالله ﴿العزیز﴾، يعني إن الذي يستحق العبادة هو الله العزيز الغالب القاهر الذي لا يغالب ويدافع، ﴿الحميد﴾ يعني الذي يستحق أن يحمد ويثنى عليه، وهو أهل لذلك وهو الله جل جلاله، ﴿الذي له

فتابعه هو وسبعة وثمانون إنساناً من بين رجل وامرأة، وهذا بعدما رفع عيسى عليه السلام إلى السماء، فسمع ذلك يوسف ذو نواس فخذلهم في الأرض وأوقد فيها ناراً فعرضهم على الكفر، فمن أبى أن يكفر قذفه في النار ومن رجع عن دين عيسى لم يقذفه، وإن امرأة جاءت ومعها ولد صغير لا يتكلم، فلما قامت على شفير الخندق نظرت إلى ابنها فرجعت عن النار، فضربت حتى تقدمت فلم تزل كذلك ثلاث مرات، فلما كانت في الثالثة ذهبت ترجع فقال لها ابنها: يا أماه إني أرى أمامك ناراً لا تطفأ، فلما سمعت ذلك قذفا جميعاً أنفسهما في النار، فجعلها الله وابنها في الجنة، فقذف في النار في يوم واحد سبعة وسبعون ألف إنسان. فذلك قوله عز وجل: ﴿قتل أصحاب الأخدود﴾.

﴿النار ذات الوقود﴾، بدل من الأخدود، قال الربيع بن أنس: نجى الله المؤمنين الذين ألقوا في النار بقبض أرواحهم قبل أن تمسهم النار وخرجت النار إلى من على شفير الأخدود من الكفار فأحرقتهم.

﴿إذ هم عليها قعود﴾، أي عند النار جلوس يعذبون المؤمنين. قال مجاهد: كانوا قعوداً على الكراسي عند الأخدود.

﴿وهم﴾، يعني الملك وأصحابه الذين خدوا الأخدود، ﴿على ما يفعلون بالمؤمنين﴾، من عرضهم على النار وإرادتهم أن يرجعوا إلى دينهم، ﴿شهود﴾، حضور، وقال مقاتل: يعني يشهدون أن المؤمنين ضلال حين تركوا عبادة الصنم.

ملك السموات والأرض ﴿أي فهو المستحق للعبادة﴾ والله على كل شيء ﴿أي من أفعالهم بالمؤمنين﴾. ﴿شاهد﴾ وفيه وعد عظيم للمؤمنين ووعد عظيم للكافرين.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فُتِنُوا﴾ أي عذبوا وأحرقوا ﴿المؤمنين والمؤمنات﴾ أي بالنار ﴿ثم لم يتوبوا﴾ أي لم يرجعوا عما هم عليه من الكفر وفيه دليل على أنهم إذا تابوا وآمنوا يقبل منهم، ويخرجون من هذا الوعد، وأن الله تعالى يقبل منهم التوبة، وأن توبة القاتل مقبولة، وأنهم إن لم يتوبوا ﴿فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق﴾ يعني لهم عذاب جهنم بكفرهم، ولهم عذاب الحريق بما أحرقوا المؤمنين، وقيل لهم عذاب الحريق في الدنيا وذلك أن الله أحرقهم بالنار التي أحرقوا بها المؤمنين ارتفعت إليهم من الأخدود فأحرقتهم، ولهم عذاب جهنم في الآخرة ثم ذكر ما أعد للمؤمنين فقال تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُمْ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ الْجَنَّاتِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾. قوله عز وجل: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ قال ابن عباس إن أخذه بالعذاب إذا أخذ الظلمة لشديد. ﴿إنه هو يبدى ويعيد﴾ أي يخلقهم أولاً في الدنيا، ثم يعيدهم أحياء بعد الموت ليجازيهم بأعمالهم في القيامة ﴿وهو الغفور﴾ يعني لذنوب جميع المؤمنين. ﴿الودود﴾ أي المحب لهم، وقيل المحبوب أي يوده أولياؤه ويحبونه، وقيل يغفر ويود أن يغفر، وقيل هو

﴿وما نقموا منهم﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما كرهوا منهم، ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾، قال مقاتل ما عابوا منهم. وقيل: ما علموا فيهم عيباً. قال الزجاج: ما أنكروا عليهم ذنباً إلا إيمانهم بالله، ﴿العزیز الحمید﴾. ﴿الذي له مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾، من أفعالهم، ﴿شاهد﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ فُتِنُوا﴾، عذبوا وأحرقوا، ﴿المؤمنين والمؤمنات﴾، يقال: فتنت الشيء إذا أحرقت، نظيره: ﴿يومهم على النار يفتنون﴾ [الذاريات: ١٣]، ﴿ثم لم يتوبوا﴾ فلهم عذاب جهنم، ﴿بكفرهم﴾، ولهم عذاب الحريق، ﴿بما أحرقوا المؤمنين﴾. وقيل: ولهم عذاب الحريق في الدنيا، وذلك أن الله أحرقهم بالنار التي أحرقوا بها المؤمنين، ارتفعت إليهم من الأخدود، قاله الربيع بن أنس والكلبي.

ثم ذكر ما أعد للمؤمنين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾، واختلفوا في جواب القسم فقال بعضهم: جوابه ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ﴾، يعني لقد قتل، وقيل: فيه تقديم وتأخير تقديره: قتل أصحاب الأخدود والسماء ذات البروج. وقال قتادة: جوابه:

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾، قال ابن عباس: إن أخذه بالعذاب إذا أخذ الظلمة لشديد، كقوله: ﴿إِنْ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

﴿إنه هو يبدى ويعيد﴾، أي بخلقهم أولاً في الدنيا ثم يعيدهم أحياء بعد الموت.

﴿وهو الغفور﴾، لذنوب المؤمنين، ﴿الودود﴾، المحب لهم، وقيل: معناه المودود، كالحلوب

المتودد إلى أوليائه بالمغفرة. ﴿ذو العرش﴾ أي خالقه ومالكة. ﴿المجيد﴾ قرىء بالرفع على أنه صفة لله تعالى لأن المجد من صفات التعالي والجلال، وذلك لا يليق إلا بالله تعالى. وقرىء المجيد بالكسر على أنه صفة للعرش أي للسرير العظيم إذ لا يعلم صفة العرش وعظمته إلا الله تعالى وقيل أراد حسنه فوصفه بالمجيد فقد قيل إن العرش أحسن الأجسام، ثم قال تعالى: ﴿فعال لما يريد﴾ يعني أنه لا يعجزه شيء ولا يمنع منه شيء طلبه، وقيل فعال لما يريد لا يعترض عليه معترض، ولا يغلبه غالب، فهو يدخل أوليائه الجنة برحمته، لا يمنعه من ذلك مانع، ويدخل أعداءه النار لا ينصرهم منه ناصر. ﴿هل أذاك﴾ أي قد أذاك ﴿حديث الجنود﴾ أي خبر الجموع الكافرة الذين تجندوا على الأنبياء ثم بين من هم فقال تعالى: ﴿فرعون﴾ يعني وقومه ﴿وئمود﴾ وكانت قصتهم عند أهل مكة مشهورة ﴿بل الذين كفروا﴾ أي من قومك يا محمد. ﴿في تكذيب﴾ يعني لك وللقرآن كما كذب من كان قبلهم من الأمم، ولم يعتبروا بمن أهلكنا منهم ﴿والله من ورائهم محيط﴾، أي عالم بهم لا يخفى عليه شيء من أعمالهم يقدر أن ينزل بهم ما أنزل بمن كان قبلهم.

بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾

﴿بل هو قرآن مجيد﴾ أي كريم شريف كثير النفع والخير ليس هو كما زعم المشركون أنه شعر وكهانة. ﴿في لوح محفوظ﴾ قرىء بالرفع على أنه نعت للقرآن، محفوظ يعني أن القرآن من التبديل والتغيير والتحريف، وقرىء محفوظ بالكسر على أنه نعت للوح لأنه يعرف باللوح المحفوظ وهو أم الكتاب، ومنه تنسخ الكتب وسمي محفوظاً

والركوب، بمعنى المحلوب والمركوب. وقيل: يغفر ويود أن يغفر، وقيل: المتودد إلى أوليائه بالمغفرة.

﴿ذو العرش المجيد﴾، قرأ حمزة والكسائي ﴿المجيد﴾ بالجر على صفة العرش أي السرير العظيم. وقيل: أراد حسنه فوصفه بالمجد كما وصفه بالكرم، فقال: ﴿رب العرش الكريم﴾ [المؤمنون: ١١٦]، ومعناه الكمال، والعرش: أحسن الأشياء وأكملها، وقرأ الآخرون بالرفع على صفة ذو العرش.

﴿فعال لما يريد﴾، لا يعجزه شيء يريده ولا يمتنع منه شيء طلبه.

قوله عز وجل: ﴿هل أذاك حديث الجنود﴾، قد أذاك خبر الجموع الكافرة الذين تجندوا على الأنبياء، ثم بين من هم؟

فقال: ﴿فرعون وئمود بل الذين كفروا﴾، من قومك يا محمد، ﴿في تكذيب﴾، لك وللقرآن كدأب من قبلهم، ولم يعتبروا بمن كان قبلهم من الكفار.

﴿والله من ورائهم محيط﴾، عالم بهم لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، يقدر أن ينزل بهم ما أنزل بمن كان قبلهم.

﴿بل هو قرآن مجيد﴾، كريم شريف كثير الخير، ليس كما زعم المشركون أنه شعر وكهانة.

﴿في لوح محفوظ﴾، قرأ نافع محفوظ بالرفع على نعت القرآن فإن القرآن محفوظ من التبديل والتغيير والتحريف، قال الله تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [الحجر: ٩]، وقرأ الآخرون بالجر على نعت اللوح وهو الذي يعرف باللوح المحفوظ، وهو أم الكتاب، ومنه تنسخ الكتب، محفوظ من الشياطين، ومن الزيادة فيه والنقصان، أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أنا الحسين بن محمد بن

لأنه حفظ من الشياطين من الزيادة والنقص، وهو عن يمين العرش، وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن عباس قال «إن في صدر اللوح لا إله إلا الله وحده دينه الإسلام، ومحمد عبده ورسوله، فمن آمن بالله عز وجل وصدق بوعده واتبع رسله، أدخله الجنة» وقال: واللوح لوح من درة بيضاء طوله ما بين السماء والأرض، وعرضه ما بين المشرق والمغرب، وحافته الدر والياقوت، ودفتاه ياقوتة حمراء، وقلمه من نور، وكلامه سر معقود بالعرش وأصله في حجر ملك والله تعالى أعلم بمراده.

فنجويه أنا مخلص بن جعفر ثنا الحسن بن علويه أنا إسماعيل بن عيسى ثنا إسحاق بن بشر أخبرني مقاتل وابن جريج عن مجاهد عن ابن عباس قال: إن في صدر اللوح لا إله إلا الله وحده، دينه الإسلام ومحمد عبده ورسوله، فمن آمن بالله عز وجل وصدق بوعده واتبع رسله أدخله الجنة، قال واللوح لوح من درة بيضاء طوله ما بين السماء والأرض، وعرضه ما بين المشرق والمغرب وحافته الدر والياقوت ودفتاه ياقوتة حمراء، وقلمه نور، وكلامه قديم، وكل شيء فيه مستور. وقيل: أعلاه معقود بالعرش، وأصله في حجر ملك قال مقاتل: اللوح المحفوظ عن يمين العرش.

سورة الطارق

مكية وهي سبع عشرة آية، وإحدى وستون كلمة، ومائتان وتسعة وثلاثون حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمِ الثَّاقِبِ ﴿٣﴾

قوله عز وجل: ﴿والسمااء والطارق﴾ قيل نزلت في أبي طالب وذلك أنه أتى النبي ﷺ فأتحفه بخبز ولبن فبينما هو جالس يأكل إذا انحط نجم فامتلاً ماءً ثم ناراً ففرع أبو طالب، وقال: أي شيء هذا فقال النبي ﷺ: هذا نجم رمي به، وهو آية من آيات الله، فعجب أبو طالب فأنزل الله والسمااء والطارق يعني النجم يظهر بالليل، وكل ما أتاك بالليل فهو طارق، ولا يسمى ذلك بالنهار، وسمي النجم طارقاً لأنه يطرق بالليل قالت هند:

نحن بنات طارق نمشي على النمـارق

تريد أن أبأها نجم في علوه وشرفه. ﴿وما أدراك ما الطارق﴾ قيل لم يكن ﷺ يعرفه، حتى بينه الله له بقوله ﴿النجم الثاقب﴾، أي المضيء المنير، وقيل المتوهج، وقيل المرتفع العالي، وقيل هو الذي يرمى به الشيطان فيثقبه أي ينفذه، وقيل النجم الثاقب هو الثريا لأن العرب تسميها النجم، وقيل هو زحل سمي بذلك لارتفاعه، وقيل هو كل نجم يرمى به الشيطان لأنه يثقبه فينفذه، وهذه أقسام أقسم الله بها، وقيل تقديره ورب هذه الأشياء وجواب القسم قوله تعالى:

إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَيَنْظُرُ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾

إِنَّكَ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَائِدٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾

﴿إن كل نفس لما عليها حافظ﴾، يعني أن كل نفس عليها حافظ من ربها يحفظ عملها ويحصي عليها ما تكسب

سُورَةُ الطَّارِقِ

مكية وهي سبع عشرة آية.

﴿والسمااء والطارق﴾، قال الكلبي: نزلت في أبي طالب وذلك أنه أتى النبي ﷺ فأتحفه بخبز ولبن، فبينما هو جالس يأكل إذ انحط نجم فامتلاً ماءً ثم ناراً، ففرع أبو طالب وقال: أي شيء هذا؟ فقال رسول الله ﷺ: «هذا نجم رُمي به وهو آية من آيات الله عز وجل، فعجب أبو طالب، فأنزل الله عز وجل: ﴿والسمااء والطارق﴾، وهذا قسم، والطارق النجم يظهر بالليل، وما أتاك ليلاً فهو طارق.

﴿وما أدراك ما الطارق﴾.

ثم فسره فقال: ﴿النجم الثاقب﴾، أي المضيء المنير، قال مجاهد: المتوهج، قال ابن زيد: أراد به

من خير أو شر، قال ابن عباس: هم الحفظة من الملائكة، وقيل حافظ من الله تعالى يحفظها، ويحفظ قولها، وفعلها، حتى يدفعها ويسلمها إلى المقادير، ثم يحل عنها، وقيل يحفظها من المهلك والمعاطب إلا ما قدر لها.

قوله عز وجل: ﴿فليُنظر الإنسان﴾ يعني نظر تفكر واعتبار ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾ أي من أي شيء خلقه ربه، ثم بين ذلك فقال تعالى: ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ﴾ يعني من مني ﴿دَافِقٍ﴾، أي مدفوق مصبوب في الرحم، وأراد به ماء الرجل، وماء المرأة، لأن الولد مخلوق منهما وإنما جعله واحداً لامتزاجهما ﴿يُخْرَجُ﴾ يعني ذلك الماء وهو المني، ﴿مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ يعني صلب الرجل، وترائب المرأة، وهي عظام الصدر والنحر. قال ابن عباس: هي موضع القلادة من الصدر، وعنه أنها بين الثدي المرأة، قيل إن المني، يخرج من جميع أعطاء الإنسان، وأكثر ما يخرج من الدماغ، فينصب في عرق في ظهر الرجل، وينزل في عروق كثيرة من مقدم بدن المرأة، وهي الترائب، فلهاذا السبب خصَّ الله تعالى، هذين العضوين بالذكر ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ يعني إن الله تعالى قادر على أن يرد النطفة في الإحليل، وقيل قادر على رد الماء في الصلب الذي خرج منه، وقيل قادر على رد الإنسان ماء كما كان من قبل، وقيل معناه إن شئت رددته من الكبر إلى الشباب، ومن الشباب إلى الصبا ومن الصبا، إلى النطفة وقيل إنه على حبس ذلك الماء حتى لا يخرج لقادر، وقيل معناه إن الذي قدر على خلق الإنسان ابتداء قادر على إعادته حياً بعد موته، وهو أهون عليه، وهذا القول هو الأصح، والأولى بمعنى الآية لقوله تعالى بعده ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾ وذلك يوم القيامة.

الثريا، والعرب تسميه النجم. وقيل: هو زحل سُمي بذلك لارتفاعه، تقول العرب للطائر إذا لحق ببطن السماء ارتفاعاً: قد ثقب.

﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ﴾، جواب القسم، ﴿لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾، قرأ أبو جعفر وابن عامر وعاصم وحزمة ﴿لَمَّا﴾ بالتشديد يعنون ما كل نفس إلا عليها حافظ، وهي لغة هذيل يجعلون ﴿لَمَّا﴾ بمنزلة (إلا) يقولون: نشدتك الله لَمَّا قمت، أي إلا قمت، وقرأ الآخرون بالتخفيف جعلوا (ما) صلة، مجازة: إن كل نفس لعلها حافظ، وتأويل الآية: كل نفس عليها حافظ من ربها يحفظ عملها ويحصي عليها ما تكتسب من خير وشر. قال ابن عباس: هم الحفظة من الملائكة. قال الكلبي: حافظ من الله يحفظها ويحفظ قولها وفعلها حتى يدفعها ويسلمها إلى المقادير، ثم يخلي عنها.

﴿فليُنظر الإنسان مِمَّ خُلِقَ﴾، أي فليفتكر من أي شيء خلقه ربه، أي فليُنظر نظر المتفكر.

ثم بين فقال: ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾، مدفوق أي مصبوب في الرحم، وهو المني، فاعل بمعنى مفعول كقوله: ﴿عِيشَةٌ رَاضِيَةٌ﴾ [القارة: ٧، الحاقة: ٢١]، والدَّفَقُ الصَّبُّ وأراد ماء الرجل وماء المرأة لأن الولد مخلوق منهما، وجعله واحداً لامتزاجهما.

﴿يُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾، يعني صلب الرجل وترائب المرأة والترائب جمع التريبة وهي عظام الصدر والنحر. قال ابن عباس: هي موضع القلادة من الصدر، وروى الوالبي عنه: بين الثدي المرأة. وقال قتادة: النحر. وقال ابن زيد: الصدر.

﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾، قال مجاهد: على ردِّ النطفة في الإحليل. وقال عكرمة: على ردِّ الماء في الصلب الذي خرج منه. وقال الضحاك: إنه على ردِّ الإنسان ماءً كما كان من قبل لقادر. وقال مقاتل بن حيان: إن شئت رددته من الكبر إلى الشباب ومن الشباب إلى الصبا ومن الصبا إلى النطفة. وقال ابن زيد: إنه على حبس ذلك الماء لقادر حتى لا يخرج. وقال قتادة: إن الله تعالى على بعث الإنسان وإعادته بعد الموت قادر. وهذا أولى الأقاويل.

قليل معناه تظهر الخبايا. وقيل معنى تبلى تختبر، وقيل السرائر هي فرائض الأعمال كالصوم، والصلاة، والوضوء، والغسل من الجنابة، فكل هذه سرائر بين العبد وبين ربه عز وجل وذلك لأن العبد قد يقول صليت ولم يصل، وصمت ولم يصم، واغتسلت ولم يغتسل، فإذا كان يوم القيامة يختبر حتى يظهر من أداها ومن ضيعها. قال عبد الله بن عمر: يبدي الله تعالى يوم القيامة كل سر، فيكون زينا في وجوه وشينا في وجوه، يعني من أدى الفرائض كما أمر كان وجهه مشرقاً، مستنيراً يوم القيامة، ومن ضيعها أو انتقص منها كان وجهه أغبر.

فَأَلْزَمَ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُويْدًا ﴿١٧﴾

﴿فماله﴾ أي لهذا الإنسان المنكر البعث. ﴿من قوة﴾ أي يمتنع بها من عذاب الله ﴿ولا ناصر﴾ أي ينصره من الله، ثم ذكر قسماً آخر فقال تعالى ﴿والسما ذات الرجع﴾ أي ذات المطر، سمي به لأنه يجيء ويرجع ويتكرر ﴿والأرض ذات الصدع﴾ أي تصدع وتنبثق عن النبات، والشجر، والأنهار، وجواب القسم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ﴾ يعني القرآن ﴿لقول فصل﴾ أي إنه لحق وجد يفصل بين الحق والباطل. ﴿وما هو بالهزل﴾ أي باللعب والباطل. ﴿إنهم﴾ يعني مشركي مكة، ﴿يكيدون كيداً﴾ يعني يحتالون بالمكر بالنبي ﷺ، وذلك حين اجتمعوا في دار الندوة وتشاوروا فيه. ﴿وأكيد كيداً﴾ يعني أجازيهم على كيدهم بأن استدراجهم من حيث لا يعلمون فأنقم منهم في الدنيا بالسيف، وفي الآخرة بالنار ﴿فمهمل الكافرين﴾ أي لا تستعجل ولا تدع بهلاكهم. قال ابن عباس: هذا وعيد لهم من الله عز وجل، ثم لما أمره بإمهالهم بين أن ذلك الإمهال قليل. فقال تعالى: ﴿أمهلهم رويداً﴾ يعني قليلاً، فأخذهم الله يوم بدر ونسخ الإمهال بآية السيف، والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده.

لقوله: ﴿يوم تبلى السرائر﴾، وذلك يوم القيامة تبلى السرائر تظهر الخفايا. قال قتادة ومقاتل: تختبر. قال عطاء بن أبي رباح: السرائر فرائض الأعمال، كالصوم والصلاة والوضوء والاعتزال من الجنابة، فإنها سرائر بين الله تعالى وبين العبد، فلو شاء العبد لقال: صمت ولم يصم. وصليت ولم يصل، واغتسلت ولم يغتسل، فيختبر حتى يظهر من أداها ممن ضيعها. قال ابن عمر: يبدي الله عز وجل يوم القيامة كل سر فيكون زيناً في وجوه وشيناً في وجوه، يعني من أداها كان وجهه مشرقاً ومن ضيعها كان وجهه أغبر.

﴿فما له من قوة ولا ناصر﴾، أي ما لهذا الإنسان المنكر للبعث من قوة يمتنع بها من عذاب الله ولا ناصر ينصره من الله.

ثم ذكر قسماً آخر فقال: ﴿والسما ذات الرجع﴾، أي ذات المطر لأنه يرجع كل عام ويتكرر. وقال ابن عباس: هو السحاب يرجع المطر.

﴿والأرض ذات الصدع﴾، أي تصدع وتنشق عن النبات والأشجار والأنهار.

وجواب القسم قوله: ﴿إنه﴾، يعني القرآن، ﴿لقول فصل﴾، حق وجد يفصل بين الحق والباطل.

﴿وما هو بالهزل﴾، باللعب والباطل.

ثم أخبر عن مشركي مكة فقال: ﴿إنهم يكيدون كيداً﴾، يخافون النبي ﷺ ويظهرون ما هم على خلافه.

﴿وأكيد كيداً﴾، وكيد الله استدراجهم إياهم من حيث لا يعلمون.

﴿فمهمل الكافرين﴾، قال ابن عباس: هذا وعيد من الله عز وجل لهم. ﴿أمهلهم رويداً﴾، قليلاً ومعنى مهمل وأمهل انظر ولا تعجل فأخذهم الله يوم بدر، ونسخ الإمهال بآية السيف.

سورة الأعلى

مكية وهي تسع عشرة آية، واثنان وسبعون كلمة، ومائتان وأحد وتسعون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝

قوله عز وجل: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ أي قل سبحان ربي الأعلى، وهو قول جماعة من الصحابة والتابعين يدل عليه ما روي عن ابن عباس «أن النبي ﷺ قرأ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، فقال سبحان ربي الأعلى»، ذكره البغوي بإسناد الثعلبي، وقيل معناه نزه ربك الأعلى عما يصفه الملحدون، فعلى هذا يكون الاسم صلة، وقيل معناه نزه تسمية ربك الأعلى بأن تذكره وأنت له معظم، ولذكره محترم. وقال ابن عباس: سَبِّحْ أي صل بأمر ربك الأعلى عن عقبة بن عامر، قال: «لما نزلت فسبح باسم ربك العظيم قال النبي ﷺ اجعلوها في ركوعكم، ولما نزلت ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال: اجعلوها في سجودكم» أخرجه أبو داود ﴿الذي خلق فسوى﴾ أي خلق كل ذي روح فسوى اليدين والرجلين والعينين، وقيل خلق الإنسان مستويًا معتدل القامة. ﴿والذي قدر فهدى﴾ قيل قدر الأرزاق وهدى لاكتسابها، وقيل قدر لكل شيء شكله فهدى، أي فعرف كيف يأتي الذكر الأثنى وقيل قدر مدة الجنين في الرحم وهداه

سورة الأعلى

مكية وهي تسع عشرة آية.

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، يعني قل سبحان ربي الأعلى وإلى هذا ذهب جماعة من الصحابة والتابعين أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أنا عبد الله بن حامد أنا أحمد بن عبد الله ثنا محمد بن عبد الله ثنا عبد الله بن عمر بن أبان ثنا وكيع عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبي ﷺ قرأ: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ فقال: «سبحان ربي الأعلى». وقال قوم: معناه نزه ربك الأعلى عما يصفه به الملحدون، واجعلوا الاسم صلة، ويحتج بهذا من يجعل الاسم والمسمى واحداً إلا أن أحداً لا يقول: سبحان اسم الله، وسبحان اسم ربنا، إنما يقولون: سبحان الله وسبحان ربنا، وكان معنى سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ. وقال آخرون: نزه تسمية ربك بأن تذكره وأنت معظم ولذكره محترم، وجعلوا الاسم بمعنى التسمية. وقال ابن عباس: سَبِّحْ أي صل بأمر ربك الأعلى.

﴿الذي خلق فسوى﴾، قال الكلبي: خلق كل ذي روح فسوى اليدين والرجلين والعينين. قال الزجاج: خلق الإنسان مستويًا، ومعنى سَوَّى: عدل قامته.

﴿والذي قدر فهدى﴾، قرأ الكسائي ﴿قدر﴾ بتخفيف الدال، وشددها الآخرون، وهما بمعنى واحد.

إلى الخروج منه، وقيل قدر السعادة لأقوام، والشقاوة لأقوام، ثم هدى كل فريق من الطائفتين لسلوك سبيل ما قدر له، وعليه، وقيل قدر الخير والشر، وهدى إليهما، وقيل قدر أي أعطى كل حيوان ما يحتاج إليه، وهدى الأنعام وسائر الحيوانات لمراعيها، وهو قوله تعالى: ﴿والذي أخرج المرعى﴾ أي أنبت العشب وما ترعاه الأنعام من أخضر وأصفر وأحمر وأبيض وغير ذلك.

فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴿٥﴾ سَنَقِرْثُكَ فَلَا تَنْسَى ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴿٧﴾ وَيُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ﴿٨﴾ فَذَكَرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ﴿٩﴾ سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى ﴿١٠﴾ وَيَنْجِبُهَا الْأَشَقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴿١٤﴾

﴿فجعله﴾ يعني المرعى بعد الخضرة ﴿غشاء﴾ أي هشيمًا يابسًا بالياً كالغشاء الذي تراه فوق السيل. ﴿أحوى﴾ أي أسود بعد الخضرة، وذلك أن الكلاً إذا جف وبيس سود.

قوله عز وجل: ﴿سنقرثك﴾ أي نعلمك القرآن بقراءة جبريل عليك. ﴿فلا تنسى﴾ يعني ما يقرأ عليك، وذلك أن النبي ﷺ كان إذا نزل جبريل بالوحي، لم يفرغ من آخر الآية حتى يتكلم رسول الله ﷺ بأولها، مخافة أن ينساها، فأنزل الله تعالى ﴿سنقرثك فلا تنسى﴾ فلم ينس شيئاً بعد ذلك ﴿إلا ما شاء الله﴾ يعني أن تنساه وهو ما نسخ الله تعالى تلاوته من القرآن ورفع من الصدور، وقيل معناه إلا ما شاء الله أن تنساه، ثم تذكره بعد ذلك، كما صح من حديث عائشة رضي الله عنها. قال: «سمع رسول الله ﷺ رجلاً يقرأ في سورة بالليل فقال يرحمه الله لقد أذكرني كذا وكذا، آية

وقال مجاهد: هدى الإنسان لسبيل الخير والشر والسعادة والشقاوة، وهدى الأنعام لمراتها. وقال مقاتل والكلبي: قدّر لكل شيء مسلكه فهدى، عرفها كيف يأتي الذكر والأُنثى. وقيل: قدّر الأرزاق فهدى لاكتساب الأرزاق والمعاش. وقيل: خلق المنافع في الأشياء وهدى الإنسان لوجه استخراجها منها. وقال السدي: قدّر مدة الجنين في الرحم ثم هداه للخروج من الرحم. قال الواسطي: قدّر السعادة والشقاوة عليهم، ثم يسّر لكل واحد من الطائفتين سلوك سبيل ما قدر عليه.

﴿والذي أخرج المرعى﴾، أنبت العشب وما ترعاه النعم، من بين أخضر وأصفر وأحمر وأبيض. ﴿فجعله﴾، بعد الخضرة، ﴿غشاء﴾، هشيمًا بالياً، كالغشاء الذي تراه فوق السيل. ﴿أحوى﴾، أسود بعد الخضرة، وذلك أن الكلاً إذا جف وبيس أسود.

﴿سنقرثك﴾، سنعلمك بقراءة جبريل عليك، ﴿فلا تنسى﴾ * إلا ما شاء الله، أن تنساه وما نسخ الله تلاوته من القرآن، كما قال: ﴿ما نسخ من آية أو نساها﴾ [البقرة: ١٠٦]، والإنساء نوع من النسخ. وقال مجاهد والكلبي: كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل لم يفرغ من آخر الآية حتى يتكلم رسول الله ﷺ بأولها مخافة أن ينساها، فأنزل الله: ﴿سنقرثك فلا تنسى﴾، فلم ينس بعد ذلك شيئاً. ﴿إنه يعلم الجهر﴾، من القول والفعل، ﴿وما يخفى﴾، منهما، والمعنى: أنه يعلم السر والعلانية.

﴿وييسرك لليسرى﴾، قال مقاتل: نهون عليك عمل الجنة، وهو معنى قول ابن عباس، نيسرك لأن تعمل خيراً، واليسرى عمل الخير. وقيل: نوفقك للشرعية اليسرى وهي الحنيفية السمحة. وقيل: هو متصل بالكلام الأول ومعناه: أنه يعلم الجهر مما تقرأه على جبريل إذا فرغ من التلاوة، وما يخفى ما تقرأ في نفسك مخافة

كنت أنسيتها من سورة كذا وكذا» وفي رواية «كنت أسقطنهن من سورة كذا» أخرجاه في الصحيحين، وقيل هذا الاستثناء لم يقع، ولم يشأ الله أن ينسيه شيئاً. ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ﴾ يعني من القول والفعل. ﴿وَمَا يَخْفَى﴾ يعني منهما والمعنى، أنه تعالى يعلم السر والعلانية. ﴿وَنَيْسِرِكَ لِلْيَسْرِ﴾ أي نهون عليك أن تعمل خيراً ونسهله عليك حتى تعمله، وقيل نوقفك للسرعة اليسرى وهي الحنيفية السمحة، وقيل هو متصل بالكلام الأول، والمعنى إنه يعلم الجهر مما تقرأه على جبريل إذا فرغ من التلاوة، وما يخفى مما تقرأه في نفسك مخافة النسيان، ثم وعده فقال: ونيسرك لليسرى أي نهون عليك الوحي حتى تحفظه، ولا تنساه. ﴿فَذَكَرْ﴾ أي فعظ بالقرآن. ﴿إِنْ نَفَعْتَ الذِّكْرَى﴾ أي مدة نفع الموعظة، والتذكير، والمعنى عظ أنت، وذكر أن نفعت الذكرى، أو لم تنفع، إنما عليك البلاغ. ﴿سَيَذَكَّرُ مِنْ يَخْشَى﴾ أي سيتعظ من يخشى الله تعالى. ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ أي الذكرى ويتباعد عنها. ﴿الْأَشْقَى﴾ أي في علم الله تعالى، ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾ أي النار العظيمة الفظيعة، وقيل النار الكبرى هي نار الآخرة، والنار الصغرى هي نار الدنيا ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ أي في النار فيستريح ﴿وَلَا يَحْيَى﴾ أي حياة طيبة تنفعه.

قوله عز وجل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ أي تطهر من الشرك وقال لا إله إلا الله قاله ابن عباس: وقيل قد أفلح من كان عمله زاكياً، وقيل هو صدقة الفطر، روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ قال: أعطي صدقة الفطر.

وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٨﴾ صُحُفٍ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿١٩﴾

﴿وذكر اسم ربه فصلّى﴾ قال: خرج إلى العيد فصلّى وكان ابن مسعود يقول رحم الله امرأ تصدق ثم صلى. ثم يقرأ هذه الآية وقال نافع: كان ابن عمر إذا صلى الغداة يعني يوم العيد قال: يا نافع أخرجت الصدقة، فإن قلت نعم

النسيان، ثم وعده فقال: ﴿وَنَيْسِرِكَ لِلْيَسْرِ﴾ أي نهون عليك الوحي حتى تحفظه وتعلمه.

﴿فَذَكَرْ﴾، عظ بالقرآن، ﴿إِنْ نَفَعْتَ الذِّكْرَى﴾، الموعظة والتذكير، والمعنى: نفعت أول لم تنفع، ولم يذكر الحالة الثانية، كقوله: ﴿سَرَابِيلٌ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، وأراد الحرّ والبرد جميعاً.

﴿سَيَذَكَّرُ﴾، سيتعظ، ﴿مَنْ يَخْشَى﴾، الله عز وجل.

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾، أي يتجنب الذكرى ويتباعد عنها، ﴿الْأَشْقَى﴾، الشقي في علم الله.

﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾، العظيمة والفظيعة لأنها أعظم وأشدّ حرّاً من نار الدنيا.

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾، فيستريح، ﴿وَلَا يَحْيَى﴾، حياة تنفعه.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾، تطهر من الشرك وقال: لا إله إلا الله، هذا قول عطاء وعكرمة، ورواية الوالبي وسعيد بن جبيرة عن ابن عباس. وقال الحسن: مَنْ كان عمله زاكياً. وقال آخرون: هو صدقة الفطر روي عن أبي سعيد الخدري في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ قال: أعطى صدقة الفطر.

﴿وذكر اسم ربه فصلّى﴾، قال خرج إلى العيد فصلّى صلاته، وكان ابن مسعود يقول: رحم الله امرأ تصدق ثم صلى، ثم يقرأ هذه الآية. وقال نافع: كان ابن عمر إذا صلى الغداة يعني من يوم العيد قال: يا نافع خرجت الصدقة فإن قلت نعم مضى إلى المصلّى، وإن قلت لا قال فالآن فأخرج فإنما نزلت هذه الآية في هذا

مضى إلى المصلّى، وإن قلت لا قال: فالآن فأخرج، فإنما هذه الآية في هذا قد أفلح من تزكى، وذكر اسم ربه فصلّى.

فإن قلت فما وجه هذا التأويل، وهذه السورة مكية، ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة فطر.

قلت يجوز أن يكون النزول سابقاً على الحكم، كما قال: ﴿وَأَنْتَ حَلُّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ وهذه السورة مكية، وظهر أثر الحل يوم الفتح، وكذا نزل بمكة ﴿سِيَهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدَّبْرَ﴾، وكان ذلك يوم بدر. قال عمر بن الخطاب: كنت لا أدري أي جمع سيهزم، فلما كان يوم بدر رأيت النبي ﷺ يشب في الدرع، ويقول سيهزم الجمع ويولون الدبر. ووجه آخر وهو أنه كان في علم الله تعالى أنه سيكون ذلك فأخبر عنه، وقيل وذكر اسم ربه فصلّى يعني الصلوات الخمس، وقيل أراد بالذكر تكبيرات العيد، وبالصلاة صلاة العيد.

قوله عز وجل: ﴿بَلْ تَوَثُّوْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ خَيْرَ وَأَبْقَى﴾ يعني أن الدنيا فانية والآخرة باقية، والباقي خير من الفاني، وأنتم توثرون الفاني على الباقي قال عرفة الأشجعي: كنا عند ابن مسعود فقرأ هذه الآية فقال لنا أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة. قلنا لا قال: لأن الدنيا حضرت، وعجل لنا طعامها وشرابها ونساؤها ولذاتها وبهجتها، وإن الآخرة تغيبت وزويت عنا فأحبينا العاجل، وتركنا الآجل، وقيل إن أريد بذلك الكفار، فالمعنى أنهم يوثرون الدنيا على الآخرة، لأنهم لا يؤمنون بالآخرة، وإن أريد بذلك المسلمون بالمعنى يوثرون الاستكثار من الدنيا على الثواب الذي يحصل في الآخرة، وهو خير وأبقى. ﴿إِنْ هَذَا﴾ أي الذي ذكر من قوله قد أفلح من تزكى إلى هنا، وهو أربع آيات. ﴿لَفِي الصَّحْفِ الْأَوَّلِيِّ﴾ أي الكتب المتقدمة التي نزلت قبل القرآن، ذكر في تلك الصحف فلاح من تزكى والمصلي وإيثار الدنيا وإن الآخرة خير وأبقى ثم بين ذلك فقال تعالى: ﴿صَحْفَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ يعني أن هذا القدر المذكور في صحف إبراهيم وموسى، وقيل إنه مذكور في جميع صحف الأنبياء التي منها صحف إبراهيم وموسى لأن هذا القدر المذكور في هذه الآيات لا تختلف فيه شريعة، بل جميع الشرائع متفقة عليه.

عن أبي ذر رضي الله عنه قال «دخلت المسجد فقال رسول الله ﷺ إن للمسجد تحية فقلت وما تحيته يا رسول الله، قال: ركعتان تركعهما، قلت يا رسول الله هل أنزل الله عليك شيئاً مما كان في صحف إبراهيم وموسى؟ قال: يا

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ وذكر اسم ربه فصلّى، وهو قول أبي العالية وابن سيرين، وقال بعضهم: لا أدري ما وجه هذا التأويل لأن هذه السورة مكية ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة فطر، قال الشيخ الإمام محيي السنة رحمه الله: يجوز أن يكون النزول سابقاً على الحكم كما قال: ﴿وَأَنْتَ حَلُّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: ٢] فالسورة مكية، وظهر أثر الحل يوم الفتح حتى قال عليه الصلاة والسلام: «أَحَلَّتْ لِي سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ» وكذلك نزل بمكة: ﴿سِيَهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدَّبْرَ﴾ [القمر: ٤٥]، قال عمر بن الخطاب: كنت لا أدري أي جمع يهزم، فلما كان يوم بدر رأيت النبي ﷺ يشب في الدرع ويقول: سيَهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدَّبْرَ، وذكر اسم ربه فصلّى، أي وذكر ربه فصلّى، وقيل: الذكر تكبيرات العيد والصلاة صلاة العيد، وقيل: الصلاة ههنا الدعاء.

﴿بَلْ تَوَثُّوْنَ﴾، قرأ أبو عمرو ويعقوب بالياء يعني الأشقيين الذين ذكروا وقرأ الآخرون بالتاء دليله قراءة أبي بن كعب ﴿بَلْ أَنْتُمْ تَوَثُّوْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

﴿وَالْآخِرَةَ خَيْرَ وَأَبْقَى﴾، قال عرفة الأشجعي: كنا عند ابن مسعود فقرأ هذه الآية فقال لنا: أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة؟ قلنا: لا، قال: لأن الدنيا أحضرت وعجل لنا طعامها وشرابها ونساؤها ولذاتها وبهجتها، وأن الآخرة نعت لنا وزويت عنا فأحبينا العاجل وتركنا الآجل.

أبا ذر اقرأ قد أفلح من تزكى، وذكر اسم ربه فصلى بل تؤثرون الحياة الدنيا، والآخرة خير وأبقى، إن هذا لفي الصحف الأولى، صحف إبراهيم وموسى، قلت يا رسول الله، فما كان صحف موسى، قال: كانت عبراً كلها: عجبت لمن أيقن بالموت، كيف يفرح؟! عجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك؟! عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن؟ عجبت لمن أيقن بالقدر ثم ينصب! عجبت لمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل! أخرج هذا الحديث رزين في كتابه، وذكره ابن الأثير في كتابه جامع الأصول. ولم يعلم عليه شيئاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان النبي ﷺ يقرأ في الوتر بسبح اسم ربك الأعلى، وقل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد في ركعة ركعة». أخرجه الترمذي والنسائي. وعن عبد العزيز بن جريج قال «سألنا عائشة بأي شيء كان يوتر رسول الله ﷺ قالت كان يقرأ في الأولى بسبح اسم ربك الأعلى، وفي الثانية يقل يا أيها الكافرون، وفي الثالثة يقل هو الله أحد المعوذتين»، أخرجه أبو داود، والنسائي، والترمذي. وقال: حديث حسن غريب، والله أعلم.

﴿إن هذا﴾، يعني ما ذكر من قوله: ﴿قد أفلح من تزكى﴾، إلى أربع آيات، ﴿لفي الصحف الأولى﴾، أي الكتب الأولى التي أنزلت قبل القرآن ذكر فيها فلاح المتزكى والمصلّي وإيثار الخلق الدنيا، وأن الآخرة خير وأبقى.

ثم بين الصحف فقال: ﴿صحف إبراهيم وموسى﴾، قال عكرمة والسدي: هذه السورة في صحف إبراهيم وموسى أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا محمد بن أحمد بن مغفل الميداني ثنا محمد بن يحيى ثنا سعيد بن كثير ثنا يحيى بن أيوب عن يحيى بن سعيد عن عمرة بنت عبد الرحمن عن عائشة. قالت: كان النبي ﷺ يقرأ في الركعتين اللتين يوتر بعدهما بسبح اسم ربك الأعلى وقل يا أيها الكافرون، وفي الوتر بقل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس.

سورة الغاشية

مكية وهي ست وعشرون آية واثنان وتسعون كلمة وثلاثمائة واحد وثمانون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تَشْقَى مِنْ عَيْنٍ أَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿٦﴾

قوله عز وجل: ﴿هل أتاك﴾ أي قد أتاك ﴿حديث الغاشية﴾ يعني القيامة، سُميت غاشية لأنها تغشي كل شيء بأهوالها، وقيل الغاشية النار، سُميت بذلك لأنها تغشى وجوه الكفار ﴿وجوه يومئذ﴾ يعني يوم القيامة ﴿خاشعة﴾ يعني ذليلة، والمراد بالوجوه أصحابها فعبر بالجزء عن الكل، ولأن الوجه أشرف أعضاء الإنسان، فعبر به عنه. ﴿عاملة ناصبة﴾ قال ابن عباس: يعني الذين عملوا ونصبوا في الدنيا على غير دين الإسلام من عبدة الأوثان وكفار أهل الكتاب، مثل الرهبان وأصحاب الصوامع، لا يقبل الله منهم اجتهاداً في ضلال بل يدخلون النار يوم القيامة. ومعنى النصب الدؤوب في العمل بالتعب. (ق) عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»، وفي رواية «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»، أما الرواية فإنها تختص بمن أحدث في دين الإسلام شيئاً ابتدعه من عنده فهو مردود عليه لا يقبل منه. وأما الرواية الثانية فإنها تشمل على كل عامل في دين الإسلام، أو غير دين الإسلام فإنه مردود عليه إذا لم يكن تابعاً لنا نبينا ﷺ. وقيل في معنى الآية عاملة في الدنيا بالمعاصي ناصبة في الآخرة في النار. وقيل عاملة ناصبة في النار، لأنها لم تعمل لله في الدنيا فأعملها وأنصبها في النار

سُورَةُ الْغَاشِيَةِ

مكية وهي ست وعشرون آية.

﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾، قد أتاك حديث القيامة تغشى كل شيء بالأهوال.

﴿وجوه يومئذ﴾، يعني يوم القيامة، ﴿خاشعة﴾، ذليلة.

﴿عاملة ناصبة﴾، قال عطاء عن ابن عباس: يعني الذين عملوا ونصبوا في الدنيا على غير دين الإسلام من عبدة الأوثان وكفار أهل الكتاب مثل الرهبان وغيرهم لا يقبل الله منهم اجتهاداً في ضلالة، يدخلون النار يوم القيامة، وهو قول سعيد بن جبير وزيد بن أسلم، ومعنى النصب الدأب في العمل بالتعب، وقال عكرمة والسدي: عاملة في الدنيا بالمعاصي، ناصبة في الآخرة في النار. وقال بعضهم: عاملة في النار ناصبة فيها. قال الحسن: لم تعمل لله في الدنيا فأعملها وأنصبها في النار بمعالجة السلاسل، والأغلال، وبه قال قتادة: وهي رواية العوفي عن ابن عباس، قال ابن مسعود: تخوض في النار كما تخوض الإبل في الوحل، قال الكلبي: يُجَرَّون على وجوههم في النار. وقال الضحاك: يكلفون ارتقاء جبل من حديد في النار والكلام خرج على الوجوه والمراد منها أصحابها.

بمعالجة السلاسل والأغلال، وهي رواية عن ابن عباس قال ابن مسعود: تخوض في النار كما تخوض الإبل في الوحل، وقيل يجرون على وجوههم في النار، وقيل يكلفون ارتقاء جبل من حديد في النار وهو قوله تعالى: ﴿تَصْلِي نَاراً حَامِيَةً﴾ قال ابن عباس: قد حميت فهي تتلظى على أعداء الله عز وجل: ﴿تَسْقَى مِنْ عَيْنِ آنِيَةٍ﴾ أي متناهية في الحرارة قد أوقدت عليها جهنم مذ خلقت لو وقعت منها قطرة على جبال الدنيا لذابت فيدفعون إليها وروداً عطاشاً، فهذا شرابهم، ثم ذكر طعامهم فقال تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ قيل هو نبت ذو شوك لا طيء بالأرض تسميه قريش الشبرق فإذا هاج سموه الضريع، وهو أخبث طعام وأبشعه، وهي رواية عن ابن عباس، فإذا يبس لا تقربه دابة، وقيل الضريع في الدنيا هو الشوك اليبس الذي له ورق، وهو في الآخرة شوك من نار، وجاء في الحديث عن ابن عباس يرفعه الضريع شيء في النار يشبه الشوك، أمر من الصبر، وأنتن من الجيفة، وأشدّ حرّاً من النار، قال أبو الدرداء: إن الله تعالى يرسل على أهل النار الجوع حتى يعدل عندهم ما هم فيه من العذاب فيستغيثون فيغاثون بطعام ذي غصة فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصص في الدنيا بالماء فيستسقون فيعطشهم ألف سنة ثم يسقون من عين آنية شربة لا هنيئة، ولا مريئة، فإذا أدنوه من وجوههم سلخ جلدة وجوههم، وشواها، فإذا وصل إلى بطونهم قطعها فذلك قوله تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ قال المفسرون فلما نزلت هذه الآية قال المشركون إن إبلنا لتسمن على الضريع وكذبوا في ذلك، فإن الإبل إنما ترعاه رطباً فإذا يبس لا تأكله فأنزل الله تعالى:

لَا يَسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَفِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَارٌ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَوَاجٌ مَبْنُوءَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾

﴿لا يسمن ولا يغني من جوع﴾ يعني إن هذا الطعام لا تقدر البهائم على أكله فكيف يقدر الإنسان على أكله، فهو إذاً لا يسمن ولا يغني من جوع.

﴿تصلي ناراً﴾، قرأ أهل البصرة وأبو بكر (تصلى) بضم التاء اعتباراً بقوله: ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنِ آنِيَةٍ﴾، وقرأ الآخرون بفتح التاء، ﴿حامية﴾، قال ابن عباس: قد حميت فهي تتلظى على أعداء الله. ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنِ آنِيَةٍ﴾، متناهية في الحرارة قد أوقدت عليها جهنم منذ خلقت، فدفعوا إليها وروداً عطاشاً. قال المفسرون لو وقعت منها قطرة على جبال الدنيا لذابت، هذا شرابهم ثم ذكر طعامهم. فقال: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾، قال مجاهد وعكرمة وقتادة: هو نبت ذو شوك لا طيء بالأرض، تسمية قريش الشبرق فإذا هاج سموها الضريع، وهو أخبث طعام وأبشعه. وهو رواية العوفي عن ابن عباس. قال الكلبي: لا تقربه دابة إذا ييست. قال ابن زيد: أما في الدنيا فإن الضريع الشوك اليبس الذي يبس له ورق، وهو في الآخرة شوك من نار، جاء في الحديث عن ابن عباس: الضريع شيء في النار يشبه الشوك أمر من الصبر، وأنتن من الجيفة وأشدّ حرّاً من النار، قال أبو الدرداء والحسن: إن الله تعالى يرسل على أهل النار الجوع حتى يعدل عندهم ما هم فيه من العذاب، فيستغيثون فيغاثون بالضريع، ثم يستغيثون فيغاثون بطعام ذي غصة، فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصص في الدنيا بالماء فيستسقون فيعطشهم ألف سنة، ثم يسقون من عين آنية شربة لا هنيئة ولا مريئة، كلما أدنوه من وجوههم، سلخ جلود وجوههم وشواها فإذا وصل إلى بطونهم قطعها فذلك قوله: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، قال المفسرون: فلما نزلت هذه الآية قال المشركون: إن إبلنا لتسمن على الضريع، وكذبوا في ذلك، فإن الإبل إنما ترعاه ما دام رطباً تسمى شبرقاً فإذا يبس لا يأكله شيء. فأنزل الله ﴿لَا يَسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾.

فإن قلت قد ذكر الله تعالى في هذه الآية أنه لا طعام لهم إلا من ضريع، وذكر في موضع آخر أنه لا طعام لهم إلا من غسيلين، فكيف الجمع بينهما؟!.

قلت إن النار دركات فعلى قدر الذنوب تقع العقوبات، فمنهم من طعامه الزقوم لا غير، ومنهم من طعامه الضريع، ومنهم من طعامه الغسيلين.

ثم وصف أهل الجنة فقال تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناعمة﴾ أي متنعمة ذات بهجة وحسن، ونعمة، وكرامة ﴿لسعيها راضية﴾ أي لسعيها في الدنيا راضية في الآخرة حيث أعطيت الجنة بعملها. ﴿في جنة عالية﴾ قيل هو من العلو الذي هو الشرف، وقيل من العلو في المكان، وذلك لأن الجنة درجات بعضها أعلى من بعض، كل درجة كما بين السماء والأرض. ﴿لا تسمع فيها لاغية﴾ أي ليس فيها لغو ولا باطل. ﴿فيها عين جارية﴾ على وجه الأرض في غير أخدود، وقيل تجري حيث أرادوا من منازلهم، وقصورهم. ﴿فيها سرر مرفوعة﴾ قال ابن عباس: ألواحها من ذهب، مكللة بالزبرجد، والياقوت، مرتفعة ما لم يجيء أهلها، فإذا أراد أهلها الجلوس عليها تواضعت لهم حتى يجلسوا عليها، ثم ترتفع إلى مواضعها ﴿وأكواب﴾ يعني الكيزان التي لا عري لها. ﴿موضوعة﴾ يعني عندهم بين أيديهم، وقيل موضوعة على حافات العين الجارية كلما أرادوا الشرب منها وجدوها مملوءة. ﴿ونمارق مصفوفة﴾ يعني وسائد ومرافق مصفوفة، بعضها جنب بعض أينما أراد أن يجلس ولي الله جلس على واحدة، واستند إلى الأخرى. ﴿وزرابي﴾ يعني البسط العريضة قال ابن عباس: هي الطنافس التي لها خمل، واحدها زريبة ﴿مبثوثة﴾ أي مبسوطه، وقيل متفرقة في المجالس.

قوله عز وجل: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾ قال أهل التفسير لما نعت الله عز وجل ما في هذه السورة مما في الجنة عجب من ذلك أهل الكفر وكذوبه، فذكرهم الله صنعه، فقال: أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإنما بدأ بالإبل لأنها من أنفس أموال العرب، ولهم فيها منافع كثيرة والمعنى إن الذي صنع لهم هذا في الدنيا هو الذي صنع لأهل الجنة ما صنع؛ وتكلمت علماء التفسير في وجه تخصيص الإبل بالذكر من بين سائر الحيوانات، فقال: مقاتل لأن العرب لم يروا بهيمة قط أعظم منها، ولم يشاهد الفيل إلا النادر منهم، وقال الكلبي لأنها تنهض بحملها وقد كانت باركة، وقال قتادة: لما ذكر الله تعالى ارتفاع سرر الجنة وفرشها قالوا كيف نصعدها فأنزل الله تعالى هذه الآية. وسئل الحسن عن هذه الآية، وقيل له الفيل أعظم في الأعجوبة فقال: أما الفيل فإن العرب بعيدة العهد به، ثم

ثم وصف أهل الجنة فقال: ﴿وجوه يومئذ ناعمة﴾، قال مقاتل في نعمة وكرامة.

﴿لسعيها﴾، في الدنيا، ﴿راضية﴾، في الآخرة حين أعطيت الجنة بعملها.

﴿في جنة عالية لا تسمع فيها لاغية﴾، لغواً وباطلاً قرأ أهل مكة والبصرة (لا يسمع) بالياء وضمتها، ﴿لاغية﴾ رفع، وقرأ نافع بالتاء وضمتها، ﴿لاغية﴾ رفع، وقرأ الآخرون بالتاء وفتحها ﴿لاغية﴾ بالنصب على الخطاب للنبي ﷺ.

﴿فيها عين جارية﴾ فيها سرر مرفوعة، قال ابن عباس: ألواحها من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت مرتفعة ما لم يجيء أهلها، فإذا أراد أن يجلس عليها تواضعت له حتى يجلس عليها ثم ترتفع إلى مواضعها. ﴿وأكواب موضوعة﴾، عندهم.

﴿ونمارق﴾، وسائد ومرافق، ﴿مصفوفة﴾، بعضها بجنب بعض واحدها نمرة بضم النون.

هو لا خير فيه لأنه لا يركب على ظهره، ولا يؤكل لحمه، ولا يحلب دره، والإبل أعزّ مال للعرب، وأنفسه تأكل النوى وألقت وغيره، وتخرج اللبن، ومن منافع الإبل أنها مع عظمها تلين للحمل الثقيل، وتنقاد للقائد الضعيف حتى أن الصبي الصغير يأخذ بزمامها فيذهب بها حيث شاء، ومنها أنها فضلت على سائر الحيوانات بأشياء، وذلك أن جميع الحيوانات إنما تقتنى إما للزينة أو للركوب، أو للحمل، أو للبن، أو لأجل اللحم، ولا توجد جميع هذه الخصال إلا في الإبل، فإنها زينة، وتركب فيقطع عليها المفازات البعيدة، وتحمل الثقيل، وتحلب الكثير، ويأكل من لحمها الجمل الغفير، وتصبر على العطش عدة أيام، ومنها أن يحمل عليها، وهي باركة ثم تنهض بحملها بخلاف سائر الحيوانات، ومنها أنها ترعى في كل نبات في البراري مما لا يرعاه غيرها من الحيوانات، وهي سفن البر يحمل عليها الثقيل، ويقطع عليها المفاز البعيدة. وكان شريح يقول: اخرجوا بنا إلى الكناسة حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت.

فإن قلت كيف حسن ذكر الإبل مع السماء والأرض والجبال، ولا مناسبة بينهما ولم بدأ بذكر الإبل قبل السماء والأرض والجبال.

قلت لما كان المراد ذكر الدلائل الدالة على توحيده وقدرته، وأنه هو الخالق لهذه الأشياء جميعها، وكانت الإبل من أعظم شيء عند العرب فينظرون إليها ليلاً ونهاراً، ويصاحبونها طعناً وإسفاراً ذكرهم عظيم نعمته عليهم فيها ولهذا بدأ بها ولأنها من أعجب الحيوانات عندهم.

وَالِى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَالِى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَعَذَابُ اللَّهِ أَلَمٌ أَلَمٌ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾

﴿وإلى السماء كيف رفعت﴾ يعني فوق الأرض بغير عمد، ولا ينالها شيء. ﴿وإلى الجبال كيف نصبت﴾ أي

﴿وزراي﴾، يعني البسط العريضة قال ابن عباس: هي الطنافس التي لها حمل واحدتها زريبة، ﴿مبثوثة﴾، مبسوطة، وقيل متفرقة في المجالس.

﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾، قال أهل التفسير: لما نعت الله تعالى في هذه السورة ما في الجنة عجب من ذلك أهل الكفر وكذبوه، فذكر لهم الله تعالى صنعه فقال: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾ وكانت الإبل أعظم عيس العرب، لهم فيها منافع كثيرة فكما صنع لهم ذلك في الدنيا صنع لأهل الجنة فيها ما صنع وتكلمت الحكماء في وجه تخصيص الإبل من بين سائر الحيوانات، فقال مقاتل: لأنهم لم يروا بهيمة قط أعظم منها، ولم يشاهدوا الفيل إلا الشاذ منهم. وقال الكلبي: لأنها تنهض بحملها وهي باركة، وقال قتادة: ذكر الله ارتفاع سرر الجنة وفرشها، فقالوا: كيف نصعدها فأنزل الله هذه الآية. وسئل الحسن عن هذه الآية وقيل له: الفيل أعظم في الأعجوبة؟ فقال: أما الفيل فالعرب بعيدة العهد بها، ثم هو خنزير لا يركب ظهرها ولا يؤكل لحمها ولا يحلب درها، والإبل من أعزّ مال للعرب وأنفسها تأكل النوى وألقت وتخرج اللبن. وقيل: أنها مع عظمها تلين للحمل الثقيل وتنقاد للقائد الضعيف، حتى إن الصبي الصغير يأخذ بزمامها فيذهب بها حيث شاء، وكان شريح القاضي يقول: اخرجوا بنا إلى الكناسة حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت.

﴿وإلى السماء كيف رفعت﴾، عن الأرض حتى لا ينالها شيء يغيرها.

على الأرض نصباً ثابتاً راسخاً لا يزول. ﴿وإلى الأرض كيف سطحت﴾ أي بسطت، ومهدت بحيث يستقر على ظهرها كل شيء. قال ابن عباس: المعنى هل يقدر أحد أن يخلق مثل الإبل، أو يرفع مثل السماء أو ينصب مثل الجبال، أو يسطح مثل الأرض غير الله القادر على كل شيء. ولما ذكر الله تعالى دلائل التوحيد ولم يعتبروا ولم يتفكروا فيها خاطب نبيه ﷺ فقال تعالى ﴿فذكر إنما أنت مذكر﴾ أي فعظ إنما أنت واعظ ﴿لست عليهم بمسيطر﴾ أي بمسلط فتكرههم على الإيمان، وهذه الآية منسوخة نسختها آية القتال. ﴿إلا من تولى وكفر﴾ استثناء منقطع عما قبله معناه لكن من تولى وكفر بعد التذكير ﴿فيعذبه الله العذاب الأكبر﴾ وهو أن يدخله النار، وإنما قال: الأكبر لأنهم عذبوا في الدنيا بأنواع من العذاب مثل الجوع، والقحط والقتل، والأسر، فكانت النار أكبر من هذا كله. ﴿إن إلينا إيابهم﴾ أي رجوعهم بعد الموت. ﴿ثم إن علينا حسابهم﴾ يعني جزاءهم بعد الرجوع إلينا، والله أعلم.

﴿وإلى الجبال كيف نُصبت﴾، على وجه الأرض مرساة لا تزول.

﴿وإلى الأرض كيف سُطِحت﴾، بسطت، قال عطاء عن ابن عباس: هل يقدر أحد أن يخلق مثل الإبل أو يرفع مثل السماء أو ينصب مثل الجبال أو يسطح مثل الأرض غيري؟
﴿فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر﴾، بمسلط فتقتلهم وتكرههم على الإيمان نسختها آية القتال.

﴿إلا من تولى﴾، استثناء منقطع عما قبله معناه لكن من تولى، ﴿وكفر﴾، بعد التذكير.

﴿فيعذبه الله العذاب الأكبر﴾ وهو أن يدخله النار وإنما قال الأكبر لأنهم عذبوا في الدنيا بالجوع والقحط والقتل والأسر.

﴿إن إلينا إيابهم﴾، رجوعهم بعد الموت، يقال: آب يؤوب أوباً وإياباً، وقر أبو جعفر ﴿إيابهم﴾ بتشديد الياء وهو شاذ لم يُجزه أحد غير الزجاج فإنه قال يقال: أيب إياباً على فعل فيعلاً.

﴿ثم إن علينا حسابهم﴾، يعني جزاءهم بعد المرجع إلى الله عز وجل.

سورة الفجر

مكية وهي تسع وعشرون آية وقيل ثلاثون آية ومائة وتسعون كلمة وخمسمائة وسبعة وتسعون حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّؤُوفِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣

قوله عز وجل: ﴿والفجر﴾ أقسم الله عز وجل بالفجر وما بعده لشرفها وما فيها من الفوائد الدينية وهي أنها دلائل باهرة، وبراهين قاطعة، على التوحيد، وفيها من الفوائد الدنيوية أنها تبعث على الشكر.

واختلفوا في معاني هذه الألفاظ، فروي عن ابن عباس، أنه قال: الفجر هو انفجار الصبح في كل يوم، أقسم الله تعالى به لما يحصل فيه من انقضاء الليل، وظهور الضوء، وانتشار الناس، وسائر الحيوانات في طلب الأرزاق، وذلك يشبه نشر الموتى من قبورهم للبعث. وعن ابن عباس أيضاً أنه صلاة الفجر، والمعنى أنه أقسم بصلاة الفجر لأنها مفتتح النهار، ولأنها مشهودة يشهدها ملائكة الليل، وملائكة النهار، وقيل إنه فجر معين.

واختلفوا فيه، فقيل هو فجر أول يوم من المحرم، لأن منه تنفجر السنة، وقيل هو فجر ذي الحجة، لأنه قرن به الليالي العشر، وقيل هو فجر يوم النحر، لأن فيه أكثر مناسك الحج، وفيه القربات. ﴿وليلٍ عشر﴾ قيل إنما نكرها لما فيها من الفضل، والشرف الذي لا يحصل في غيرها. روي عن ابن عباس أنها العشر الأول من ذي الحجة لأنها أيام الاشتغال بأعمال الحج، وأخرج الترمذي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أيام العمل فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر»، وذكر الحديث، وروي عن ابن عباس قال: هي العشر الأواخر من رمضان، لأن فيها ليلة

سُورَةُ الْفَجْرِ

مكية وهي ثلاثون آية.

﴿والفجر﴾ أقسم الله عز وجل بالفجر، روى أبو صالح عن ابن عباس قال: هو انفجار الصبح كل يوم. وهو قول عكرمة، وقال عطية عنه: صلاة الصبح. وقال قتادة: هو فجر أول يوم من المحرم تنفجر منه السنة. وقال الضحاك: فجر ذي الحجة لأنه قرن به الليالي العشر.

﴿وليلٍ عشر﴾، روي عن ابن عباس: أنها العشر الأول من ذي الحجة. وهو قول مجاهد وقتادة والضحاك والسدي والكلبي، وقال أبو روق عن الضحاك: هي العشر الأول من شهر رمضان. وروى أبو ظبيان عن ابن عباس قال: هي العشر الأواخر من شهر رمضان. وقال يمن بن رباب: هي العشر الأول من المحرم التي عاشرها يوم عاشوراء.

﴿والشفع والوتر﴾، قرأ حمزة والكسائي الوتر بكسر الواو، وقرأ الآخرون بفتحها، واختلفوا في الشفع

القدر، ولأن رسول الله ﷺ كان إذا دخل العشر الأخير من رمضان أحيا ليلة، وشد مثزره، وأيقظ أهله، يعني للعبادة؛ وقيل هي العشر الأول من المحرم، وهو تنبيه على شرفه، ولأن فيه يوم عاشوراء. ﴿والشفع والوتر﴾ قيل الشفع هو الخلق، والوتر هو الله تعالى يروي ذلك عن أبي سعيد الخدري، وقيل الشفع هو الخلق كالإيمان والكفر، والهدى، والضلالة، والسعادة، والشقاوة، والليل، والنهار، والأرض، والسماء، والشمس، والقمر، والبر، والبحر، والنور، والظلمة، والجن، والإنس. والوتر هو الله تعالى، وقيل الخلق كله فيه شفع وفيه وتر. وقيل هما الصلوات منها شفع ومنها وتر عن عمران بن حصين رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ سئل عن الشفع والوتر قال: هي الصلاة بعضها شفع وبعضها وتر» أخرجه الترمذي. وقال: حديث غريب وعن ابن عباس قال: الشفع صلاة الغداة، والوتر صلاة المغرب، وعن عبد الله بن الزبير قال: الشفع النفر الأول، والوتر النفر الأخير، وروى أن رجلاً سأله عن الشفع، والوتر، والليالي العشر فقال: أما الشفع والوتر فقول الله عز وجل: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ فهما الشفع والوتر، وأما الليالي العشر فالثمان، وعرفة والنحر، وقيل الشفع الأيام، والليالي؛ والوتر اليوم الذي لا ليلة معه، وهو يوم القيامة، وقيل الشفع درجات الجنة لأنها ثمان، والوتر دركات النار لأنها سبع، فكأنه أقسم بالجنة، والنار. وقيل الشفع أوصاف المخلوقين المتضادة، مثل العز، والذل، والقدرة، والعجز، والقوة، والضعف، والغنى، والفقر، والعلم، والجهل، والبصر، والعمى، والموت، والحياة، والوتر، صفات الله تعالى التي تفرد بها عز بلا ذل، وقدرة بلا عجز، وقوة بلا ضعف، وغنى بلا فقر، وعلم بلا جهل، وحياة بلا موت.

وَأَلَيْلٍ إِذَا يَسِرُّ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرِ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِمَادِ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾

﴿والليل إذا يسر﴾ أي إذا سار وذهب، وقيل إذا جاء، وأقبل، وأراد به كل ليلة، وقيل هي ليلة المزدلفة، وهي

والوتر، قيل: الشفع الخلق، قال الله تعالى: ﴿وخلقناكم أزواجاً﴾ [النبا: ٨] والوتر: هو الله عز وجل. روي ذلك عن أبي سعيد الخدري، وهو قول عطية العوفي، وقال مجاهد ومسروق: الشفع الخلق كله، كما قال الله تعالى: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾ [الذاريات: ٤٩]، الكفر والإيمان، والهدى والضلالة، والسعادة والشقاوة، والليل والنهار، والسماء والأرض، والبر والبحر، والشمس والقمر، والجن والإنس، والوتر هو الله، قال الله تعالى: ﴿قل هو الله أحد﴾ [الإخلاص: ١]، قال الحسن وابن زيد: الشفع والوتر الخلق كله منه شفع ومنه وتر. وروى قتادة عن الحسن قال: هو العدد منه شفع ومنه وتر. وقال قتادة: هما الصلوات منها شفع ومنها وتر. وروي ذلك عن عمران بن حصين مرفوعاً، وروى عطية عن ابن عباس: الشفع صلاة الغداة، والوتر صلاة المغرب. وعن عبد الله بن الزبير قال: الشفع يوم النفر الأول والوتر يوم النفر الأخير. روي أن رجلاً سأله عن الشفع والوتر والليالي العشر، فقال: أما الشفع والوتر فقول الله عز وجل: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣] فهما الشفع والوتر، وأما الليالي العشر فالثمان وعرفة والنحر. وقال مقاتل بن حيان: الشفع الأيام والليالي والوتر اليوم الذي لا ليلة بعده وهو يوم القيامة. وقال الحسين بن الفضل: الشفع درجات الجنة لأنها ثمان، والوتر دركات النار لأنها سبع، كأنه أقسم بالجنة والنار، وسئل أبو بكر الوراق عن الشفع والوتر فقال: الشفع تضاد أوصاف المخلوقين من العز والذل، والقدرة والعجز، والقوة والضعف، والعلم والجهل، والبصر والعمى، والحياة والموت، والوتر انفراد صفات الله عز بلا ذل، وقدرة بلا عجز، وقوة بلا ضعف، وعلم بلا جهل، وحياة بلا موت.

﴿والليل إذا يسر﴾، أي إذا سار وذهب كما قال: ﴿والليل إذا أدبر﴾ [المدثر: ٣٣]، وقال قتادة: إذا جاء

ليلة النحر التي يسار فيها من عرفات إلى مزدلفة فعلى هذا يكون المعنى والليل الذي يسار فيه. ﴿هل في ذلك﴾ أي فيما ذكرت ﴿قسم﴾ مقنع ومكتفي في القسم فهو استفهام بمعنى التأكيد. ﴿لذي حجر﴾ أي لذي عقل سمي بذلك لأنه يحجر صاحبه عما لا يحل له، ولا ينبغي كما سمي عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن القبائح، وسمي نهيه لأنه ينهى عما لا يحل، ولا ينبغي وأصل الحجر المنع، ولا يقال ذو حجر إلا لمن هو قاهر لنفسه ضابط لها عما لا يليق، كأنه حجر على نفسه ومنعها ما تريد، والمعنى إن من كان ذا لب، وعقل علم أن ما أقسم الله عز وجل به من هذه الأشياء فيه عجائب، ودلائل تدل على توحيده، وربوبيته. فهو حقيق بأن يقسم به لدلالته على خالقه. قيل جواب القسم قوله تعالى ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾، واعترض بين القسم وجوابه قوله تعالى ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد﴾، وقيل جواب القسم محذوف وتقديره ورب هذه الأشياء ليعذب الكافر يدل عليه قوله تعالى ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد﴾؟ إلى قوله ﴿فصب عليهم ربك سوط عذاب﴾، وقوله عز وجل ﴿ألم تر كيف فعل ربك﴾؟ أي ألم تعلم وإنما أطلق لفظ الرؤية على العلم لأن أخبار عاد وثمود وفرعون كانت معلومة عندهم.

وقوله: ﴿ألم تر﴾ خطاب للنبي ﷺ ولكنه عام لكل أحد. ﴿كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد﴾ المقصود من ذلك تخويف أهل مكة وكيف أهلكهم وهم كانوا أطول أعماراً، وأشد قوة، من هؤلاء فأما عاد فهو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، ومنهم من يجعل عاداً اسماً للقبيلة لقوله تعالى: ﴿وأنه أهلك عاداً الأولى وإرم﴾ هو جد عاد على ما ذكر في نسبه عاد. وقيل إن المتقدمين من قوم عاد كانوا يسمون بإرم اسم جدتهم. وقيل إرم هم قبيلة من عاد، وكان فيهم الملك، وكانوا بمهرة اسم موضع باليمن وكان عاد أباهم فنسبوا إليه وهو إرم بن عاد بن شيم بن سام بن نوح؛ وقال الكلبي: إرم هو الذي يجتمع إليه نسب عاد وثمود أهل السواد، وأهل الجزيرة، وكان يقال عاد إرم وثمود إرم فأهلك عاد وثمود، وأبقى أهل السواد، وأهل الجزيرة؛ وقال سعيد بن المسيب: إرم ذات العماد دمشق وقيل الإسكندرية، وفيه ضعف لأن منازل عاد كانت من عمان إلى حضر موت، وهي بلاد الرمال والأحفاف. وقيل إن عاداً كانوا أهل عمد وخيام وماشية سيارة في الربيع فإذا هاج العود ويس رجعوا إلى منازلهم، وكانوا أهل جنان وزروع ومنازلهم بوادي القرى، وهي التي قال الله تعالى: ﴿التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ وسموا ذات العماد لأنهم كانوا أهل عمد سيارة، وهو قول قتادة ومجاهد والكلبي، ورواية ابن عباس. وقيل سمو ذات العماد لطول قامتهم يعني طولهم، مثل العماد في الشبه، قال مقاتل: كان طول أحدهم اثني عشر ذراعاً، وقوله ﴿التي يخلق مثلها في البلاد﴾ يعني لم يخلق مثل تلك القبيلة في الطول، والقوة، وهم الذين قالوا «من أشد منا قوة». وقيل سمو ذات العماد لبناء بناء بعضهم، فشيد عمدته ورفع بناءه، وقيل كان لعاد ابنان شداد وشديد فملكا بعده، وقهرا البلاد والعباد فمات شديد وخلص الملك لشداد فملك الدنيا ودانت له ملوكها وكان يحب قراءة الكتب القديمة فسمع بذكر الجنة وصفتها فدعته نفسه إلى بناء مثلها عتواً على الله وتجبراً؛ روى وهب بن منبه عن عبد الله بن قلابة أنه خرج في طلب إبل له شردت

وأقبل وأراد كل ليلة. وقال مجاهد وعكرمة والكلبي: هي ليلة المزدلفة، قرأ أهل الحجاز والبصرة (يسري) بالياء في الوصل ويقف ابن كثير ويعقوب بالياء أيضاً، والباقون يحذفونها في الحالين، فمن حذف فلوفاق رؤوس الآي، ومن أثبت فلائها لام الفعل، والفعل لا يُحذف منه في الوقف، نحو قوله: هو يقضي وأنا أقضي، وسئل الأخفش عن العلة في سقوط الياء، فقال: الليل لا يسري ولكن يُسرى فيه، فهو مصروف فلما صرفه بخسه حقه من الإعراب، كقوله: ﴿وما كانت أمك بغياً﴾ [مريم: ٢٨]، ولم يقل بغية لأنه صرف من باغية.

﴿هل في ذلك﴾، أي فيما ذكرت، ﴿قسم﴾، أي مقنع ومكتفي في القسم، ﴿لذي حجر﴾، لذي عقل سمي بذلك لأنه يحجر صاحبه عما لا يحل ولا ينبغي، كما سمي عقلاً لأنه يعقله عن القبائح، ونهي لأنه ينهى عما

فبينما هو يسير في صحارى عدن إذا وقع على مدينة في تلك الفلوات عليها حصن وحول الحصن قصور كثيرة فلما دنا منها ظن أن فيها أحداً يسأله عن إبله فلم ير خارجاً ولا داخلاً فنزل عن دابته وعقلها، وسل سيفه ودخل من باب المدينة فإذا هو ببابين عظيمين وهما مرصعان بالياقوت الأحمر فلما رأى ذلك دهش، ففتح الباب ودخل، فإذا هو بمدينة لم ير أحد مثلها، وإذا فيها قصور في كل قصر منها غرف، وفوق الغرف غرف مبنية بالذهب، والفضة، وأحجار اللؤلؤ والياقوت؛ وإذا أبواب تلك القصور مثل مصاريع باب المدينة يقابل بعضها بعضاً وهي مفروشة كلها باللؤلؤ وبنادق المسك والزعفران، فلما عاين ذلك ولم ير أحداً هاله ذلك ثم نظر إلى الأزقة فإذا في تلك الأزقة أشجار مثمرة، وتحت تلك الأشجار أنهار مطردة يجري ماؤها في قنوات من فضة فقال الرجل في نفسه هذه الجنة وحمل معه من لؤلؤ ترابها ومن بنادق مسكها وزعفرانها، ورجع إلى اليمن وأظهر ما كان معه وحذث بما رأى فبلغ ذلك معاوية، فأرسل إليه فقدم عليه فسأله عن ذلك فقص عليه ما رأى فأرسل معاوية إلى كعب الأحبار فلما أتاه قال له: يا أبا إسحاق هل في الدنيا مدينة من ذهب وفضة قال نعم هي إرم ذات العماد بناها شداد بن عاد قال: فحدثني حديثها فقال لما أراد شداد بن عاد عملها أمر عليها مائة قهرمان مع كل قهرمان ألف من الأعوان، وكتب إلى ملوك الأرض أن يمدوه بما في بلادهم من الجواهر فخرجت القهارة يسيرون في الأرض ليجدوا أرضاً موافقة فوقفوا على صحراء نقية من التلال وإذا فيها عيون ماء ومروج فقالوا هذه الأرض التي أمر الملك أن نبني فيها فوضعوا أساسها من الجزع اليماني، وأقاموا في بنائها ثلاثمائة سنة، وكان عمر شداد تسعمائة سنة فلما أتوه وقد فرغوا منها قال: انطلقوا فاجعلوا حصناً يعني سوراً واجعلوا حوله ألف قصر وعند كل قصر ألف علم ليكون في كل قصر وزير من وزرائي ففعلوا وأمر الملك وزراءه وهم ألف وزير أن يتهيؤوا للنقلة إلى إرم ذات العماد، وكان الملك وأهله في جهازهم عشر سنين ثم ساروا إليها فلما كانوا من المدينة على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليه وعلى من كان معه صيحة من السماء فأهلكتهم

لا ينبغي، وأصل الحجر المنع وجواب القسم قوله: ﴿إِنْ رَبِّكَ لَبِالْمُرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]، واعترض بين القسم وجوابه قوله عز وجل:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾، قال الفراء: ألم تخبر. وقال الزجاج: ألم تعلم ومعناه التعجب. ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ إرم، يخوف أهل مكة يعني كيف أهلكهم، وهم كانوا أطول أعماراً وأشد قوة من هؤلاء، واختلفوا في إرم فقال سعيد بن المسيب إرم ﴿ذات العماد﴾: دمشق، وبه قال عكرمة، وقال القرظي هي الإسكندرية، وقال مجاهد: هي أمة. وقيل: معناها القديمة. وقال قتادة ومقاتل: هم قبيلة من عاد. قال مقاتل: كان فيهم الملك وكانوا بمهرة وكان عاد أباهم فنسبهم إليه وهو رام بن عاد بن شيم بن سام بن نوح. وقال محمد بن إسحاق هو جد عاد وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، وقال الكلبي: إرم هو الذي يجتمع إليه نسب عاد وثمود وأهل الجزيرة، كان يقال: عاد إرم وثمود إرم، فأهلك الله عاداً ثم ثمود وبقي أهل السواد والجزيرة، وكانوا أهل عمد وخيام وماشية سيرة في الربيع، فإذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم، وكانوا أهل جنان وزروع ومنازلهم بوادي القرى، وهي التي يقول الله فيها:

﴿التي لم يُخْلَقْ مثلها في البلاد﴾، وسُموا ذات العماد لهذا لأنهم كانوا أهل عمد سيرة، وهو قول قتادة ومجاهد والكلبي، ورواية عطاء عن ابن عباس، وقال بعضهم: سُموا ذات العماد لطول قامتهم. قال ابن عباس: يعني طولهم مثل العماد. وقال مقاتل: كان طول أحدهم اثني عشر ذراعاً. وقوله: ﴿لم يَخْلُقْ مثلها في البلاد﴾، أي لم يُخْلَقْ مثل تلك القبيلة في الطول والقوة، وهم الذين قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مَنَا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، وقيل: سُموا ذات العماد لبناء بناه بعضهم فشيد عنده، ورفع بناءه، يقال: بناه شداد بن عاد على صفة لم يُخْلَقْ في الدنيا

جميعاً، ولم يبق منهم أحد ثم قال كعب: وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال، وعلى عنقه خال، يخرج في طلب إبل له ثم التفت فأبصر عبد الله بن قلابه فقال: هذا والله ذلك الرجل.

وَتُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾

قوله عز وجل: ﴿وَتُمُودَ﴾ أي وفعل بشمود مثل ما فعل بعاد ﴿الذين جابوا﴾ أي قطعوا ﴿الصخر﴾ أي الحجر ﴿بالواد﴾ يعني بوادي القرى وكانت ثمود أول من قطع الصخر ونحته واتخذوا مساكن في الجبال وبيوتاً. ﴿وفرعون ذى الأوتاد﴾ سمي بذلك لكثرة جنوده وكثرة مضاربهم وخيامهم التي كانوا يضربونها، إذا نزلوا، وقيل معناه ذى الملك كما قيل في ظل ملك راسخ الأوتاد.

وقيل سمي بذلك لأنه كان يعذب الناس بالأوتاد وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن عباس أن فرعون إنما سمي ذا الأوتاد لأنه كانت عنده امرأة مؤمنة وهي امرأة خازنة حزيل وكان مؤمناً كتم إيمانه مائة سنة وكانت امرأته ماشطة بنت فرعون فبينما هي ذات يوم تمشط رأس بنت فرعون إذ سقط المشط من يدها فقالت تعس من كفر بالله فقالت بنت فرعون وهل لك من إله غير أبي فقالت إلهي وإله أبيك وإله السموات والأرض واحد لا شريك له فقامت ودخلت على أبيها وهي تبكي فقال لها ما يبكيك قالت الماشطة امرأة خازنك تزعم أن إلهك وإلهنا وإله السموات والأرض واحد لا شريك له فأرسل إليها فسألها عن ذلك فقالت صدقت فقال لها: ويحك اكفري بإلهك وقرى أنني إلهك قالت لا أفعل فمدها بين أربعة أوتاد ثم أرسل عليها الحيات والعقارب وقال لها: اكفري بالله وإلا عذبتك بهذا العذاب شهرين فقالت لو عذبتني سبعين شهراً ما كفرت بالله وكان لها ابتتان فجاء بابتها الكبرى فذبحها على قلبها ثم قال اكفري بالله وإلا ذبحت الصغرى على فيك وكانت رضيعاً فقالت لو ذبحت من في الأرض على في ما كفرت بالله

مثله وسار إليه في قومه، فلما كان منه على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليه وعلى قومه صيحة من السماء فأهلكتهم جميعاً.

﴿وتمود﴾، أي وبشمود، ﴿الذين جابوا الصخر﴾، قطعوا الحجر، صخرة واحداً، ﴿بالواد﴾، يعني وادي القرى كانوا يقطعون الجبال فيجعلون فيها بيوتاً، وأثبت ابن كثير ويعقوب الباء في الوادي وصلاً ووقفاً على الأصل، وأثبتها ورش وصلاً والآخرين بحذفها في الحاليين على وفق رؤوس الآي.

﴿وفرعون ذى الأوتاد﴾، سُمي بذلك لأنه كان يعذب الناس بالأوتاد، وقد ذكرناه في سورة ص [١٢]. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا ابن فنجويه ثنا مخلد بن جعفر ثنا الحسن بن علويه ثنا إسماعيل بن عيسى ثنا إسحاق بن بشر عن سمعان عن عطاء عن ابن عباس: أن فرعون إنما سُمي ذا الأوتاد لأنه كانت له امرأة، وهي امرأة خازنة حزيل، وكان مؤمناً كتم إيمانه مائة سنة، وكانت امرأته ماشطة بنت فرعون فبينما هي ذات يوم تمشط رأس بنت فرعون إذ سقط المشط من يدها، فقالت: تعس من كفر بالله، فقالت بنت فرعون: وهل لك من إله غير أبي؟ فقالت: إلهي وإله أبيك وإله السموات والأرض واحد لا شريك له، فقامت فدخلت على أبيها وهي تبكي، فقال: ما يبكيك؟ قالت: الماشطة امرأة خازنك تزعم أن إلهك وإلهها وإله السموات والأرض واحد لا شريك له، فأرسل إليها فسألها عن ذلك، فقالت: صدقت، فقال لها: ويحك اكفري بإلهك وأقرى بآني إلهك، قالت: لا أفعل فمدها بين أربعة أوتاد ثم أرسل عليها الحيات والعقارب، وقال لها: اكفري بالله وإلا عذبتك بهذا العذاب شهرين، فقالت له: ولو عذبتني سبعين شهراً ما كفرت بالله، وكان لها ابتتان فجاء بابتها الكبرى فذبحها على قلبها، وقال لها: اكفري بالله وإلا ذبحت الصغرى على فيك، وكانت رضيعاً، فقالت: لو ذبحت من على وجه الأرض على في ما

عزّ وجلّ فأتى بابنتها فلما اضطجعت على صدرها وأراد ذبحها جزعت المرأة فأطلق الله لسان ابنتها فتكلمت وهي من الأربعة الذين تكلموا في المهد صغاراً أطفالاً وقالت يا أمّاه لا تجزعي فإن الله قد بنى لك بيتاً في الجنة فاصبري فإنك تفضين إلى رحمة الله وكرامته فذبحت فلم تلبث الأم أن ماتت فأسكنها الله الجنة قال: وبعث في طلب زوجها حزقيل فلم يقدروا عليه فقبل لفرعون إنه قد رؤي في موضع كذا في جبل كذا فبعث رجلين في طلبه فانتهى إليه الرجلان، وهو يصلي وثلاثة صفوف من الوحش خلفه يصلون فلما رأوا ذلك انصرفوا فقال، حزقيل: اللهم إنك تعلم أنني كتمت إيماني مائة سنة ولم يظهر عليّ أحد فأَيّما هذين الرجلين كتم عليّ فاهده إلى دينك وأعطه من الدنيا سؤاله وأَيّما هذين الرجلين أظهر عليّ فعجل عقوبته في الدنيا واجعل مصيره في الآخرة إلى النار فانصرف الرجلان إلى فرعون فأما أحدهما فاعتبر وآمن وأما الآخر فأخبر فرعون بالقصة على رؤوس الملأ فقال له فرعون وهل معك غيرك قال نعم فلان فدعا به فقال أحق ما يقول هذا قال ما رأيت مما يقول شيئاً فأعطاه فرعون وأجزل وأما الآخر فقتله ثم صلبه قال: وكان فرعون قد تزوج امرأة من أجمل نساء بني إسرائيل يقال لها آسية بنت مزاحم، فرأت ما صنع فرعون بالماشطة، فقالت وكيف يسعني أن أصبر على ما يأتي فرعون وأنا مسلمة وفرعون كافر؟ فبينما هي كذلك تؤامر نفسها إذ دخل عليها فرعون فجلس قريباً منها، فقالت يا فرعون أنت أشر الخلق وأخبثهم، عمدت إلى الماشطة فقتلتها قال فلعل بك الجنون الذي كان بها، قالت: ما بي جنون وإن إلهها وإلهك وإلهي وإله السموات والأرض واحد لا شريك له فبصق عليها وضربها، وأرسل إلى أبيها، وأما فدعاهما وقال لهما إن الجنون الذي كان بالماشطة أصابها، قالت: أعوذ بالله من ذلك، إني أشهد أن ربي وربك ورب السموات والأرض واحد لا شريك له، فقال لها أبوها يا آسية ألسنت من خير نساء العماليق، وزوجك إله العماليق قالت: أعوذ بالله من ذلك إن كان ما يقول حقاً فقولا له أي يتوجني تاجاً تكون

كفرت بالله عزّ وجلّ، فأتى بابنتها الصغرى فلما اضطجعت على صدرها وأرادوا ذبحها جزعت المرأة فأطلق الله لسان ابنتها فتكلمت وهي من الأربعة الذين تكلموا أطفالاً، فقالت: يا أمّاه لا تجزعي فإن الله قد بنى لك بيتاً في الجنة، اصبري فإنك تفضين إلى رحمة الله وكرامته، فذبحت فلم تلبث أن ماتت فأسكنها الله الجنة، قال: وبعث في طلب زوجها حزقيل فلم يقدروا عليه، فقبل لفرعون: إنه قد رؤي في موضع كذا في جبل كذا، فبعث رجلين في طلبه فانتهى إليه وهو يصلي وليه صفوف من الوحش خلفه يصلون، فلما رأيا ذلك انصرفا، فقال حزقيل: اللهم إنك تعلم أنني كتمت إيماني مائة سنة ولم يظهر على أحد فأَيّما هذان الرجلين كتم عليّ فاهده إلى دينك وأعطه من الدنيا سؤاله، وأَيّما هذين الرجلين أظهر عليّ فعجل عقوبته في الدنيا واجعل مصيره في الآخرة إلى النار، فانصرف الرجلان إلى فرعون فأما أحدهما فاعتبر وآمن، وأما الآخر فأخبر فرعون بالقصة على رؤوس الملأ، فقال له فرعون: وهل كان معك غيرك؟ قال: نعم فلان، فدعا به فقال: أحق ما يقول هذا؟ قال: لا ما رأيت مما قال شيئاً فأعطاه فرعون وأجزل وأما الآخر فقتله، ثم صلبه، قال: وكان فرعون قد تزوج امرأة من نساء بني إسرائيل يقال لها آسية بنت مزاحم فرأت ما صنع فرعون بالماشطة، فقالت: وكيف يسعني أن أصبر على ما يأتي فرعون وأنا مسلمة وهو كافر؟ فبينما هي كذلك تؤامر نفسها إذ دخل عليها فرعون فجلس قريباً منها، فقالت: يا فرعون أنت أشر الخلق وأخبثهم عمدت إلى الماشطة فقتلتها، قال: فلعل بك الجنون الذي كان بها قالت: ما بي من جنون، وإن إلهي وإلهك وإله السموات والأرض واحد لا شريك له، فمزق عليها ثيابها وضربها وأرسل إلى أبوها فدعاهما، فقال لهما: ألا تريان أن الجنون الذي كان بالماشطة أصابها، قالت: أعوذ بالله من ذلك إني أشهد أن ربي وربك ورب السموات والأرض واحد لا شريك له، فقال أبوها: يا آسية ألسنت من خير نساء العماليق وزوجك إله العماليق؟ قالت: أعوذ بالله من ذلك، إن كان ما يقول حقاً فقولا له أن يتوجني تاجاً تكون الشمس أمامه والقمر خلفه والكواكب

الشمس أمامه والقمر خلفه والكواكب حوله. فقال لهما فرعون أخرجني ثم مدها بين أربعة أوتاد يعذبها ففتح الله لها باباً إلى الجنة ليهون عليها ما يصنع بها فرعون، فعند ذلك «قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله»، فقبض الله روحها وأدخلها الجنة.

الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبَلْمرصادٍ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾

قوله عز وجل: ﴿الذين طغوا في البلاد﴾ يعني عاداً وثموداً وفرعون عملوا بالمعاصي، وتجبروا، ثم فسر ذلك الطغيان بقوله ﴿فأكثروا فيها الفساد﴾ يعني القتل والفساد ضد الصلاح، فكما أن الصلاح يتناول جميع أقسام البر فكذلك الفساد يتناول جميع أقسام الإثم. ﴿فصب عليهم ربك سوط عذاب﴾ يعني لونا من العذاب صبه عليهم، وقيل هو تشبيه بما يكون في الدنيا من العذاب بالسوط، وقيل هو إشارة إلى ما خلط لهم من العذاب، لأن أصل السوط خلط الشيء بفضه ببعض؛ وقيل هذا على الاستعارة، لأن السوط غاية العذاب فجرى ذلك لكل نوع منه. وقيل جعل سوطه الذي ضربهم به العذاب، وكان الحسن إذا قرأ هذه الآية يقول إن عند الله أسواطاً كثيرة، فأخذهم بسوط منها. ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ قال ابن عباس يعني بحيث يرى ويسمع، وقيل عليه طريق العباد، لا يفوته أحد وقيل عليه ممر الناس لأن الرصد والمرصاد الطريق. وقيل ترجع الخلق إلى حكمه وأمره وإليه مصيرهم، وقيل إنه يرصد أعمال بني آدم. والمعنى أنه لا يفوته شيء من أعمال العباد، كما لا يفوت من المرصاد، وقد قيل أرصد النار على طريقهم حتى تهلكهم.

قوله عز وجل: ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه﴾ أي امتحنه ﴿ربه﴾ أي بالنعمة ﴿فأكرمه﴾ أي بالمال ﴿ونعمه﴾ أي بما يوسع عليه ﴿فيقول ربي أكرمن﴾ أي بما أعطاني من المال والنعمة.

حوله، فقال لهما فرعون: أخرجني، فمدها بين أربعة أوتاد يعذبها ففتح الله لها باباً إلى الجنة ليهون عليها ما يصنع بها فرعون، فعند ذلك قالت: ﴿رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله، ونجني من القوم الظالمين﴾ [التحریم: ١١]، فقبض الله روحها وأسكنها الجنة.

﴿الذين طغوا في البلاد﴾، يعني عاداً وثمود وفرعون عملوا في الأرض بالمعاصي وتجبروا.

﴿فأكثروا فيها الفساد﴾ فصب عليهم ربهم سوط عذاب، قال قتادة: يعني لونا من العذاب صبه عليهم، قال أهل المعاني: هذا على الاستعارة لأن السوط عندهم غاية العذاب، فجرى ذلك لكل نوع من العذاب. قال الزجاج: جعل سوطه الذي ضربهم به العذاب.

﴿إن ربك لبالمرصاد﴾، قال ابن عباس: يعني بحيث يرى ويسمع ويُبصر ما تقول وتفعل وتهجس به العباد. قال الكلبي: عليه طريق العباد لا يفوته أحد. قال مقاتل: ممر الناس عليه والمرصاد، والمرصد: الطريق. وقيل: مرجع الخلق إلى حكمه وأمره وإليه مصيرهم. وقال الحسن وعكرمة: يرصد أعمال بني آدم. والمعنى: أنه لا يفوته شيء من أعمال العباد كما لا يفوت من هو بالمرصاد. وقال السدي: أرصد الله النار على طريقهم حتى يهلكهم.

﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه﴾، امتحنه، ﴿ربه﴾، بالنعمة، ﴿فأكرمه﴾، بالمال، ﴿ونعمه﴾، بما وسع عليه، ﴿فيقول ربي أكرمن﴾، بما أعطاني.

وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحْضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾

﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ﴾ يعني بالفقر ﴿فقدّر عليه﴾ أي فضيق عليه، وقيل قتر. ﴿رزقه﴾ أي وقد أعطاه ما يكفيه. ﴿فيقول ربّي أهانني﴾ أي أذلني بالفقر، قيل نزلت في أمية بن خلف الجمحي الكافر، وقيل ليس المراد به واحداً بعينه، بل المراد جنس الكافر، وهو الذي تكون الكرامة والهوان عنده بكثرة المال والحظ في الدنيا وقلته فرد الله تعالى على من ظن أن سعة الرزق إكرام وأن الفقر إهانة فقال تعالى: ﴿كلا﴾ أي ليس الأمر كذلك، أي لم ابتله بالغنى لكرامته، ولم ابتله بالفقر لهوانه، فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال، وسعة الرزق وقلته، ولكن الغنى والفقر بتقدير الله جلّ جلاله وحكمته فقد يوسع على الكافر لا لكرامته، ويضيق على المؤمن لا لهوانه، لكن لأمر اقتضته حكمة الله تعالى، وإنما يكرم المرء بطاعته، ويهينه بمعصيته، وقد يوسع على الإنسان من أصناف المال ليختبره، ويشكر أم يكفر، ويضيق عليه ليختبره، أيصبر أم يضجر، ويقلق. ﴿بل لا تكرمون اليتيم﴾ أي لا يعطونه حقه الثابت له في الميراث قال مقاتل: كان قدامة بن مظعون يتيماً في حجر أمية بن خلف، فكان يدفعه عن حقه. ﴿ولا تحضون على طعام المسكين﴾ أي لا يطعمون مسكيناً، ولا يأمرّون بإطعامه، وقرئ ولا يحاضون ومعناه، ولا يحض بعضهم بعضاً على ذلك. ﴿وتأكلون التراث﴾ أي الميراث ﴿أكلاً لماً﴾ أي شديداً، والمعنى أنه يأكل نصيبه ونصيب غيره، وذلك أنهم كانوا في الجاهلية لا يورثون النساء، ولا الصبيان، ويأكلون نصيبهم، وقيل الآكل اللّم الذي يأكل كل شيء يجده لا يسأل أحلال أم حرام، فيأكل الذي له ولغيره. ﴿وتحبون المال حباً جماً﴾ أي كثيراً والمعنى يحبون جمع

﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ﴾، بالفقر، ﴿فقدّر عليه رزقه﴾، قرأ أبو جعفر وابن عامر ﴿فقدّر﴾ بتشديد الدال، وقرأ الآخرون بالتخفيف، وهما لغتان أي ضيق عليه رزقه. وقيل: قدر بمعنى قتر وأعطاه قدر ما يكفيه. ﴿فيقول ربّي أهانني﴾، أذلني بالفقر. وهذا يعني به الكافر تكون الكرامة والهوان عنده بكثرة المال والحظ في الدنيا وقلته. قال الكلبي ومقاتل: نزلت في أمية بنت خلف الجمحي الكافر فردّ الله عل من ظن أن سعة الرزق إكرام وأن الفقر إهانة.

فقال: ﴿كلا﴾ لم ابتله بالغنى لكرامته ولم ابتله بالفقر لهوانه، فأخبر أن الإكرام والإهانة لا تدور على المال وسعة الرزق، ولكن الفقر والغنى بتقديره فيوسع على الكافر لا لكرامته، ويقدر على المؤمن لا لهوانه، إنما يكرم المرء بطاعته ويهينه بمعصيته. وقرأ أهل الحجاز والبصرة (أكرمني وأهانني) بإثبات الياء في الوصل، ويقف ابن كثير ويعقوب بالياء، والآخرون يحذفونها وصلاً ووقفاً. ﴿بل لا تكرمون اليتيم﴾، قرأ أهل البصرة (يكرمون، ويحضون، ويأكلون، ويحبون) بالياء فيهنّ، وقرأ الآخرون بالتاء، ﴿لا تكرمون اليتيم﴾، لا تحسنوا إليه. وقيل: لا تعطونه حقه. قال مقاتل كان قدامة بن مظعون يتيماً في حجر أمية بن خلف وكان يدفعه عن حقه.

﴿ولا تحاضون على طعام المسكين﴾، أي لا تأمرّون بإطعامه، وقرأ أبو جعفر وأهل الكوفة ﴿تحاضون﴾ بفتح الحاء وألف بعدها أي لا يحض بعضهم بعضاً عليه.

﴿وتأكلون التراث﴾، أي الميراث، ﴿أكلاً لماً﴾، شديداً يأكل نصيبه ونصيب غيره، وذلك أنهم كانوا لا يورثون النساء ولا الصبيان، ويأكلون نصيبهم. قال ابن زيد: الأكل اللّم الذي يأكل كل شيء يجده لا يسأل عنه أحلال هو أم حرام، ويأكل الذي له ولغيره، يقال لممت على الخوان إذا أتيت ما عليه فأكلته.

المال، ويولعون به، وبجبه. ﴿كَلَّا﴾ أي لا ينبغي أن يكون الأمر هكذا، من الحرص على جمع المال وجبه. وقيل معناه لا يفعلون ما أمروا به من إكرام اليتيم وغيره من المسلمين، ثم أخبر عن تلّهمهم على ما سلف منهم، وذلك حين لا ينفعهم الندم. فقال تعالى: ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ أي دقت وكسرت مرة بعد مرة، وكسر كل شيء عليها من جبل وبناء وغيره، حتى لا يبقى على ظهرها شيء.

وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنْذَعُ الْأَنْسُنُ وَأَنْتَ لَهُ الذَّكْرَى ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وِثْقَاهُ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً ﴿٢٨﴾

﴿وجاء ربك﴾ اعلم أن هذه الآية من آيات الصفات التي سكت عنها وعن مثلها عامة السلف وبعض الخلف، فلم يتكلموا فيها وأجروها كما جاءت من غير تكيف ولا تشبيه ولا تأويل، وقالوا يلزمنا الإيمان بها وأجرواها على ظاهرها، وتأولها بعض المتأخرين، وغالب المتكلمين فقالوا ثبت بالدليل العقلي، أن الحركة على الله محال، فلا بد من تأويل الآية. فقل في تأويلها وجاء أمر ربك بالمحاسبة والجزاء. وقيل جاء أمر ربك وقضاؤه. وقيل وجاء دلائل آيات ربك فجعل مجيئها مجيئاً له تفخيماً لتلك الآيات. ﴿والملاك صفّاً صفّاً﴾ أي تنزل ملائكة كل سماء صفّاً صفّاً على حدة، فيصطفون صفّاً بعد صف، محدقين بالجن والإنس، فيكونون سبع صفوف. ﴿وجيء يومئذ﴾ يعني يوم القيامة ﴿بجهنم﴾ قال ابن مسعود: في هذه الآية تقاد جهنم بسبعين ألف زمام، كل زمام بيد سبعين ألف ملك، لها تغيط وزفير حتى تنصب عن يسار العرش ﴿يومئذ﴾ يعني يوم يجاء بجهنم ﴿يتذكر الإنسان﴾ أي يتعظ الكافر ويتوب.

﴿وتحبون المال حبا جمّاً﴾، أي كثيراً يعني يحبون جمع المال ويولعون به، يقال: جمّ الماء في الحوض إذا كثر واجتمع.

﴿كَلَّا﴾، ما هكذا ينبغي أن يكون الأمر. وقال مقاتل: أي لا يفعلون ما أمروا به من إكرام اليتيم وإطعام المسكين، ثم أخبر عن تلّهمهم على ما سلف منهم حين لا ينفعهم، فقال عزّ من قائل: ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ مرة بعد مرة وكسر كل شيء على ظهرها من جبل وبناء وشجر فلم يبق على ظهرها شيء. ﴿وجاء ربك﴾، قال الحسن: جاء أمره وقضاؤه. وقال الكلبي: ينزل حكمه، ﴿والملاك صفّاً صفّاً﴾، قال عطاء: يريد صفوف الملائكة، وأهل كل سماء صف على حدة. قال الضحاك: أهل كل سماء إذا نزلوا يوم القيامة كانوا صفّاً مختلفين بالأرض ومن فيها فيكون سبع صفوف.

﴿وجيء يومئذ بجهنم﴾، قال عبد الله بن مسعود ومقاتل في هذه الآية: تقاد جهنم سبعين زماماً بيد كل زمام سبعين ألف ملك لها تغيط وزفير حتى تنصب على يسار العرش. ﴿يومئذ﴾ يعني يوم يجاء بجهنم، ﴿يتذكر الإنسان﴾، يتعظ ويتوب الكافر، ﴿وأنتى له الذكرى﴾، قال الزجاج: يظهر التوبة ومن أين له التوبة.

﴿يقول يا ليتني قدّمتُ لحياتي﴾، أي قدّمت الخير والعمل الصالح لحياتي في الآخرة، أي لاخرتي التي لا موت فيها.

﴿فيومئذ لا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا * وَلَا يُوثِقُ وِثْقَاهُ أَحَدًا﴾، قرأ الكسائي ويعقوب ﴿لا يُعَذِّبُ﴾، ﴿ولا يوثق﴾ بفتح الذال والثاء على معنى لا يعذب أحد في الدنيا كعذاب الله يومئذ، ولا يوثق كوثاقه يومئذ، وقيل: هو رجل بعينه، وهو أُمّية بن خلف، يعني لا يعذب كعذاب هذا الكافر أحد، ولا يوثق كوثاقه أحد، وقرأ الآخرون بكسر

﴿وَأَنِّي لَهُ الذِّكْرَى﴾ يعني أنه يظهر التوبة، ومن أين له التوبة. ﴿يقول يا ليتني قدمت لحياتي﴾ أي قدمت الخير، والعمل الصالح لحياتي في الآخرة التي لا موت فيها. ﴿فيومئذ لا يعذب عذابه أحد﴾ أي لا يعذب أحد في الدنيا كعذاب الله الكافر يومئذ. ﴿ولا يوثق وثاقه أحد﴾ يعني لا يبلغ أحد من الخلق كبلاغ الله في العذاب، والوثاق هو الأسر في السلاسل، والأغلال، وقرى لا يعذب، ولا يوثق بفتح الذال والثاء، ومعناه لا يعذب عذاب هذا الكافر أحد، ولا يوثق وثاقه أحد، وهو أمية بن خلف، وذلك لشدة كفره وعتوه.

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ أي الثابتة على الإيمان، والإيقان، المصدقة بما قال الله تعالى، الموقنة التي قد أيقنت بالله تعالى، وبأن الله ربها، وخضعت لأمره، وطاعته، وقيل المطمئنة المؤمنة، الموقنة، وقيل هي الراضية بقضاء الله، وقيل هي الآمنة من عذاب الله، وقيل هي المطمئنة بذكر الله؛ قيل نزلت في حمزة بن عبد المطلب حين استشهد بأحد، وقيل في حبيب بن عدي الأنصاري، وقيل في عثمان حين اشترى بئر رومة وسبيلها وقيل في أبي بكر الصديق؛ والأصح أن الآية عامة في كل نفس مؤمنة مطمئنة، لأن هذه السورة مكية ﴿ارجعي إلى ربك﴾ أي إلى ما وعد ربك من الجزاء والثواب، قيل يقال لها ذلك عند خروجها من الدنيا. قال عبد الله بن عمر: إذا توفي العبد المؤمن أرسل الله عز وجل إليه ملكين، وأرسل إليه بتحفة من الجنة، فيقال اخرجي أيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى روح وريحان، وربك عنك راض، فتخرج كأطيب ريح مسك وجده أحد في أنفه، والملائكة على أرجاء السماء يقولون قد جاء من الأرض روح طيبة ونسمة طيبة فلا تمر بباب إلا فتح لها، ولا بملك، إلا صلى عليها حتى يؤتي بها الرحمن جل جلاله، فتسجد له ثم يقال لميكائيل اذهب بهذه النفس فاجعلها مع أنفس المؤمنين، ثم يؤمر فيوسع عليه قبره سبعون ذراعاً عرضه، وسبعون ذراعاً طوله وينبذ له فيه الروح والريحان، فإن كان معه شيء من القرآن كفاه نوره، وإن لم يكن جعل له نور مثل الشمس في قبره، ويكون مثله مثل العروس ينام فلا يوقظه إلا أحب

الذال والثاء، أي لا يعذب أحد في الدنيا كعذاب الله الكافر يومئذ، ولا يوثق كوثاقه أحد، يعني لا يبلغ أحد من الخلق كبلاغ الله في العذاب، والوثاق هو الإسار في السلاسل والأغلال.

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾، إلى ما وعد الله المصدقة بما قال الله. قال مجاهد: المطمئنة التي أيقنت أن الله تعالى ربها وصبرت جاشاً لأمره وطاعته. وقال الحسن: المؤمنة الموقنة. وقال عطية: الراضية بقضاء الله تعالى. وقال الكلبي: الآمنة من عذاب الله. وقيل المطمئنة بذكر الله، بيانه قوله: ﴿وتطمئن قلوبهم بذكر الله﴾ [الرعد: ٢٨]، واختلفوا في وقت هذه المقالة، فقال قوم: يقال لها ذلك عند الموت فيقال لها:

﴿ارجعي إلى ربك﴾، إلى الله، ﴿راضية﴾، بالثواب، ﴿مرضية﴾، عنك، وقال الحسن: إذا أراد الله قبضها اطمأنت إلى الله ورضيت عن الله ورضي الله عنها. قال عبد الله بن عمرو: إذا توفي العبد المؤمن أرسل الله عز وجل ملكين وأرسل إليه بتحفة من الجنة، فيقال لها: اخرجي يا أيتها النفس المطمئنة، اخرجي إلى روح وريحان ورب عنك راض، فتخرج كأطيب ريح مسك وجده أحد في أنفه، والملائكة على أرجاء السماء يقولون: قد جاء من الأرض روح طيبة ونسمة طيبة. فلا تمر بباب إلا فتح لها ولا بملك إلا صلى عليها، حتى يؤتي بها الرحمن فتسجد، ثم يقال لميكائيل: اذهب بهذه فاجعلها مع أنفس المؤمنين، ثم يؤمر فيوسع عليه قبره سبعون ذراعاً عرضه وسبعون ذراعاً طوله، وينبذ له الريحان، وإن كان معه شيء من القرآن كفاه نوره، وإن لم يكن جعل له نوره مثل الشمس في قبره، ويكون مثله مثل العروس ينام فلا يوقظه إلا أحب أهله إليه. وإذا توفي الكافر أرسل الله إليه ملكين وأرسل قطعة من بجاد أنتن وأخشن من كل خشن، فيقال: يا أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى جهنم

أهله إليه، وإذا توفي الكافر أرسل الله إليه ملكين، وأرسل قطعة من بجاد أي من كساء أنتن من كل نتن، وأخشن من كل خشن، فيقال أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى جهنم وعذاب أليم، وربك عليك غضبان وقيل في معنى قوله ﴿ارجعي إلى ربك﴾ أي إلى صاحبك وهو الجسد، وإنما يقال لها ذلك عند البعث فيأمر الله الأرواح أن ترجع إلى أجسادها، وهو قول عكرمة وعطاء والضحاك ورواية عن ابن عباس. وقيل ارجعي إلى ثواب ربك وكرامته ﴿راضية﴾ أي عن الله بما أعد لك ﴿مرضية﴾ أي رضي الله عنها، وقيل لها في الدنيا ارجعي إلى ربك راضية مرضية، فإذا كان يوم القيامة قيل لها.

فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾

﴿فادخلي في عبادي﴾ أي في جملة عبادي، الصالحين المصطفين ﴿وادخلي جنتي﴾ قال سعيد بن جبير مات ابن عباس بالطائف فشهدت جنازته، فجاء طائر لم ير على خلقه طائر قط، فدخل نعشه ثم لم ير خارجاً منه، فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر لا يدرى من تلاها ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية وادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾، وقال: بعض أهل الإشارة في تفسير هذه الآية يا أيتها النفس المطمئنة إلى الدنيا، ارجعي إلى ربك بتركها، والرجوع إليه هو سلوك سبيل الآخرة والله أعلم.

وعذاب أليم وربك عليك غضبان. وقال أبو صالح في قوله: ﴿ارجعي إلى ربك راضية مرضية﴾، قال: هذا عند خروجها من الدنيا فإذا كان يوم القيامة قيل: ﴿ادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾، وقال آخرون إنما يقال لها ذلك عند البعث ارجعي إلى ربك، أي إلى صاحبك وجسدك، فيأمر الله الأرواح أن ترجع إلى الأجساد، وهذا قول عكرمة وعطاء والضحاك، ورواية العوفي عن ابن عباس، وقال الحسن: معناه ارجعي إلى ثواب ربك وكرامته راضية عن الله بما أعد لها مرضية رضي عنها ربها.

﴿فادخلي في عبادي﴾، أي مع عبادي في جنتي. وقيل: في جملة عبادي الصالحين المطيعين المصطفين، نظيره: ﴿وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾ [النمل: ١٩].

﴿وادخلي جنتي﴾، وقال بعض أهل الإشارة: يا أيتها النفس المطمئنة إلى الدنيا ارجعي إلى الله بتركها، والرجوع إلى الله هو سلوك سبيل الآخرة. وقال سعيد بن جبير: مات ابن عباس بالطائف فشهدت جنازته، فجاء طائر لم تر على صورة خلقه فدخل نعشه، ثم لم تر خارجاً منه فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر، ولم ندر من قرأها: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾.

سورة البلد

(مكية وهي عشرون آية، واثنان وثمانون كلمة، وثلاثمائة وعشرون حرفاً)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾

قوله عز وجل: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ تقدم الكلام على قوله لا أقسم في أول سورة القيامة، والبلد هي مكة في قول جميع المفسرين. ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ أي مقيم به، نازل فيه، فكأنه عظم حرمة مكة من أجل أنه ﷺ مقيم بها وقيل حل أي حلال، والمعنى أحلت لك تصنع فيها ما تريد من القتل، والأسر، ليس عليك ما على الناس من الإثم في استحلالها، أحل الله عز وجل له مكة يوم الفتح حتى قاتل، وأمر بقتل ابن خطل، وهو متعلق بأستار الكعبة، ومقيس بن صبابه وغيرهما، وأحل دماء قوم، وحرّم دماء قوم آخرين، فقال من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ثم قال بعد ذلك إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، ولم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، والمعنى أن الله تعالى لما أقسم بمكة دل ذلك على عظم قدرها، وشرفها، وحرمتها، ومع ذلك فقد وعد نبيه ﷺ، أنه يحلها له حتى يقاتل فيها، وأن يفتحها على يده، فهذا وعد من الله تعالى في الماضي، وهو مقيم بمكة أن يفتحها عليه في المستقبل بعد الهجرة، وخروجه منها، فكان كما وعده، وقيل في معنى قوله ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾، أي أنهم

سُورَةُ الْبَلَدِ

مكية وهي عشرون آية.

﴿لَا أُقْسِمُ﴾، يعني أقسم، ﴿بِهَذَا الْبَلَدِ﴾، يعني مكة.

﴿وَأَنْتَ حِلٌّ﴾، أي حلال، ﴿بِهَذَا الْبَلَدِ﴾، تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر ليس عليك ما على الناس فيه من الإثم أحل الله لنبيه ﷺ مكة يوم الفتح، حتى قاتل وقتل وأمر بقتل ابن خطل، وهو متعلق بأستار الكعبة، ومقيس بن صبابه وغيرهما، فأحل دماء قوم وحرّم دماء قوم، فقال: مَنْ دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ثم قال: إن الله حرّم مكة يوم خلق السموات والأرض ولم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي، وإنما أُحِلَّت لي ساعة من نهار، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، والمعنى: أن الله تعالى لما أقسم بمكة دل ذلك على عظيم قدرها مع حرمة فوعده نبيه ﷺ أنه يحلها له حتى يقاتل فيها، وأن يفتحها على يده فهذا وعد من الله عز وجل بأن يحلها له. قال شرحبيل بن سعد: ومعنى قوله وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ، قال: يحرمون أن يقتلوا بها صيداً ويستحلّون إخراجك وقتلك؟.

يحرمون أن يقتلوا به صيداً، ويستحلون قتلك فيه، وإخراجك منه. ﴿ووالد وما ولد﴾ يعني آدم وذريته أقسم الله تعالى بمكة لشرفها، وحرمتها، وبآدم، وبالأنبيا والصالحين من ذريته، لأن الكافر وإن كان من ذريته فلا حرمة له حتى يقسم به، وجواب القسم قوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ قال ابن عباس: في نصب، وقيل يكابد مصائب الدنيا، وشدائد الآخرة، وعنه أيضاً قال: في شدة من حمله، وولادته، ورضاعه، وفطامه، وفصاله، ومعاشه، وحياته، وموته وأصل الكبد الشدة، وقيل لم يخلق الله خلقاً يكابد، ما يكابد ابن آدم، وهو مع ذلك أضعف الخلق، وعن ابن عباس أيضاً قال: الكبد الاستواء، والاستقامة، فعلى هذا يكون المعنى، خلقنا الإنسان منتصباً معتدلاً القامة، وكل شيء من الحيوان يمشي منكباً، وقيل منتصباً، رأسه في بطن أمه فإذا أذن الله في خروجه انقلب رأسه إلى أسفل، وقيل في كبد أي في قوة نزلت في أبي الأشد أسيد بن كلد بن جمح، وكان شديداً قوياً يضع الأديم العكاظي تحت قدميه، ويقول من أزالني عنه فله كذا وكذا فلا يطاق أن ينزع من تحت قدميه إلا قطعاً، ويبقى من ذلك الأديم بقدر موضع قدميه.

أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا لَبْدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَلْ لَكُمْ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾

﴿أيحسب﴾ أبا الأشد من قوته ﴿أن لن يقدر عليه أحد﴾ يعني أيظن لشدة في نفسه، أنه لا يقدر عليه الله، وقيل هو الوليد بن المغيرة المخزومي. ﴿يقول﴾ يعني هذا الكافر ﴿أهلكت﴾ أي أنفقت ﴿مالاً لبداً﴾ أي كثيراً من التلبيد

﴿ووالد وما ولد﴾، يعني آدم عليه السلام وذريته.

﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾، روى الوالبي عن ابن عباس: في نصب. قال الحسن: يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة. وقال قتادة: في مشقة فلا تلقاه إلا يكابد أمر الدنيا. قال سعيد بن جبیر: في شدة. وقال عطاء عن ابن عباس: في شدة خلق حمله وولادته ورضاعه، وفطامه وفصاله ومعاشه وحياته وموته. وقال عمرو بن دينار: عند نبات أسنانه. قال يمان: لم يخلق الله خلقاً يكابد ما يكابد ابن آدم وهو مع ذلك أضعف الخلق. وأصل الكبد: الشدة. وقال مجاهد وعكرمة وعطية والضحاك: يعني منتصباً معتدلاً القامة، وكل شيء خلق فإنه يمشي مكباً، وهي رواية مقسم عن ابن عباس، والكبد الاستواء والاستقامة. وقال ابن كيسان: منتصباً رأسه في بطن أمه فإذا أذن الله في خروجه انقلب رأسه إلى رجلي أمه. وقال مقاتل: في كبد، أي في قوة نزلت في أبي الأشد واسمه أسيد بن كلد بن الجمحي، وكان شديداً قوياً يضع الأديم العكاظي تحت قدميه فيقول: من أزالني عنه فله كذا وكذا، فلا يطاق أن ينزع من تحت قدميه إلا قطعاً ويبقى موضع قدميه.

﴿أيحسب﴾، يعني أبا الأشد من قوته، ﴿أن لن يقدر عليه أحد﴾، أي يظن من شدته أن لن يقدر عليه الله تعالى. وقيل: هو الوليد بن المغيرة.

﴿يقول أهلكت﴾، يعني أنفقت، ﴿مالاً لبداً﴾، أي كثيراً بعضه على بعض من التلبيد في عداوة محمد ﷺ، قرأ أبو جعفر لبداً بتشديد الباء على جمع لأبد، مثل راع وركع، وقرأ الآخرون بالتخفيف على جمع (لبدة)، وقيل على الواحد مثل قُثم وحطم.

﴿أيحسب أن لم يره أحد﴾، قال سعيد بن جبیر وقاتدة: أيظن أن الله لم يره، ولا يسأله عن ماله من أين اكتسبه، وأين أنفقه؟ وقال الكلبي: إنه كان كاذباً في قوله أنفقت كذا وكذا، ولم يكن أنفق جميع ما قال يقول أيظن

الذي يكون بعضه فوق بعض . يعني في عداوة محمد ﷺ ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ يعني أيظن أن الله لم يره، ولا يسأله عن ماله من أين اكتسبه، وفيهم أنفقه، وقيل كان كاذباً في قوله، إنه أنفق ولم ينفق جميع ما قال والمعنى أيظن أن الله لم ير ذلك منه فيعلم مقدار نفقته . ثم ذكره نعمه عليه ليعتبر فقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ﴾ يعني أن نعم الله على عبده متظاهرة، يقروه بها كي يشكره، وجاءه في الحديث «إن الله عز وجل يقول: ابن آدم إن نازعك لسانك فيما حرمت عليك فقد أعتكك عليه بطبقتين فأطبق عليه، وإن نازعك بصرك فيما حرمت عليك فقد أعتكك عليه بطبقتين فأطبق عليه، وإن نازعك فرجك فيما حرمت عليك فقد أعتكك عليه بطبقتين فأطبق عليه» . ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ قال أكثر المفسرين طريق الخير والشر والحق والباطل، والهدى والضلالة، وقال ابن عباس: الثديين ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ أي فهلا أنفق ماله فيما يجوز به العقبة من فك الرقاب وإطعام المساكين يكون ذلك خيراً له من إنفاقه في عداوة من أرسله الله إليه، وهو محمد ﷺ، وقيل معناه لم يقتحمها ولا جاوزها والافتحام الدخول في الأمر الشديد، وذكر العقبة مثل ضربه الله تعالى: لمجاهدة النفس، والهوى، والشيطان في أعمال الخير، والبر، فجعله كالذي يتكلف صعود العقبة يقول الله عز وجل: لم يحمل على نفسه المشقة بعق الرقبة، والإطعام، وقيل إنه شبه ثقل الذنوب على مرتكبها بالعقبة، فإذا أعتق رقبة وأطعم المساكين . كان كمن اقتحم العقبة وجاوزها، وروي عن ابن عمر أن هذه العقبة جبل في جهنم، وقيل هي عقبة شديدة في النار دون الجسر فاقتموها بطاعة الله ومجاهدة النفس، وقيل هي الصراط يضرب على متن جهنم كحد السيف مسيرة ثلاثة آلاف سنة سهلاً وصعوداً وهبوطاً، وأن بجنيبه كلاليب وخطاطيف، كأنها شوك السعدان فناج مسلم، وناج مخدوش، ومكردس في الناس منكوس، فمن الناس من يمر كالبرق الخاطف، ومنهم من يمر كالريح العاصف، ومنهم من يمر كالفرس، ومنهم من يمر كالرجل

أن الله عز وجل لم ير ذلك منه فيعلم مقدار نفقته ثم ذكره نعمه ليعتبر.

فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ﴾، قال قتادة: نعم الله متظاهرة يقربك بها كيما تشكر، وجاء في الحديث: أن الله عز وجل يقول ابن آدم إن نازعك لسانك فيما حرمت عليك فقد أعتكك عليه بطبقتين فأطبق، وإن نازعك بصرك إلى بعض ما حرمت عليك، فقد أعتكك عليه بطبقتين . فأطبق، وإن نازعك فرجك إلى ما حرمت عليك فقد أعتكك عليه بطبقتين فأطبق.

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾، قال: أكثر المفسرين طريق الخير والشر، والحق والباطل، والهدى والضلالة، كقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ [الإنسان: ٣] وقال محمد بن كعب عن ابن عباس: وهديناه النجدين قال: الثديين، وهو قول سعيد بن المسيب والضحاك، والنجد: طريق ارتفاع.

﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾، يقول: فهلاً أنفق ماله فيما يجوز به العقبة من فك الرقاب وإطعام السغبان، فيكون خيراً له من إنفاقه على عداوة محمد ﷺ، هذا قول ابن زيد وجماعة، وقيل: فلا اقتحم العقبة أي لم يقتحمها ولا جاوزها. والافتحام: الدخول في الأمر الشديد، وذكر العقبة ههنا مثلاً ضربه الله لمجاهدة النفس والهوى والشيطان في أعمال البر، فجعله كالذي يتكلف صعود العقبة، تقول لم يحمل على نفسه المشقة بعق الرقبة ولا طعام، وهذا معنى قول قتادة. وقيل: إنه شبه ثقل الذنوب على مرتكبها بعقبة فإذا أعتق رقبة وأطعم كان كمن اقتحم العقبة وجاوزها، وروى عن ابن عمر: أن هذه العقبة جبل في جهنم، وقال الحسن وقاتدة: عقبة شديدة في النار دون الجسر، فاقتموها بطاعة الله تعالى. وقال مجاهد والضحاك والكلبي: هي صراط يضرب على جهنم كحد السيف مسيرة ثلاثة آلاف سنة سهلاً وصعوداً وهبوطاً، وإن بجنيبه كلاليب وخطاطيف كأنها شوك السعدان، فناج مسلم، وناج مخدوش، ومكردس في النار منكوس، فمن الناس من يمر كالبرق الخاطف، ومنهم من يمر كالريح

يعدو، ومنهم من يمر كالرجل يسير، ومنهم من يزحف زحفاً ومنهم الزالون ومنهم من يكردس في النار، وقيل معنى الآية: فهلا سلك طريق النجاة ثم بين ما هي. فقال تعالى:

وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعُقْبَةُ ﴿١٢﴾ فَكَّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَصَّوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَّصَّوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾

﴿وما أدراك ما العقبة﴾ أي وما أدراك ما اقتحام العقبة ﴿فكَّ رقبه﴾ يعني عتق الرقبة وهو إيجاب الحرية لها، وإبطال الرق، والعبودية عنها، وذلك بأن يعتق الرجل الرقبة التي في ملكه، أو يعطي مكاتباً ما يصرفه في فكك رقبته ومن أعتق رقبة كانت فداءه من النار (ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من أعتق رقبة مسلمة أعتق الله بكل عضو منها عضواً منه من النار حتى فرجه بفرجه» وروى البغوي بسنده عن البراء بن عازب قال: «جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله علمني عملاً يدخلني الجنة قال لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة أعتق النسمة، وفك الرقبة قال أوليساً واحداً قال لا عتق النسمة أن تنفرد بعقبتها، وفك الرقبة أن تعين في ثمنها والمنحة الوكوف والفيء على ذي الرحم الظالم، فإن لم تطق ذلك فأطعم الجائع واسق الظمآن وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر، فإن لم تطق ذلك فكف لسانك إلا من خير» وقيل في معنى الآية وفك رقبة من رق الذنوب بالتوبة وبما يتكلفه من العبادات، والطاعات التي يصير بها إلى رضوان الله، والجنة فهي الحرية الكبرى ويتخلص بها

العاصف، ومنهم من يمر كالفرس، ومنهم من يمر عليه كالرجل يعدو، ومنهم من يمر كالرجل يسير، ومنهم من يزحف زحفاً، ومنهم الزالون، ومنهم من يكردس في النار. قال ابن زيد: يقول فهلاً سلك الطريق التي فيها النجاة ثم بين ما هي فقال:

﴿وما أدراك ما العقبة﴾، ما اقتحم العقبة، قال سفيان بن عيينة: كل شيء، قال: وما أدراك فإنه أخبر به، وما قال: وما يدريك فإنه لم يخبر به.

﴿فكَّ رقبه﴾ أو إطعام، قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ﴿فكَّ﴾ بفتح الكاف، ﴿رقبة﴾ نصب، (أو أطعم) بفتح الهمزة والميم على الماضي، وقرأ الآخرون ﴿فكَّ﴾ برفع الكاف، ﴿رقبة﴾ جرّاً، ﴿أو إطعام﴾ على المصدر، وأراد بفكَّ الرقبة إعاقها وإطلاقها، ومن أعتق رقبة كانت الرقبة فداءه من النار. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان ثنا أبو جعفر بن محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرباني ثنا حميد بن زنجويه ثنا عبد الله بن صالح حدَّثني الليث بن سعد حدَّثني ابن الهاد عن عمر بن علي بن حسين عن سعيد بن حارثة قال: سمعته يحدث عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار، حتى يعتق فرجه بفرجه». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني أنا أبو جعفر الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا محمد بن كثير العبدى ثنا عيسى بن عبد الرحمن السلمي عن طلحة بن مصرف الياحي عن عبد الرحمن بن عوسجة عن البراء بن عازب قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله علمني عملاً يدخلني الجنة، قال: «لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة، أعتق النسمة وفكَّ الرقبة»، قال: أوليساً واحداً؟ قال: «لا عتق النسمة أن تنفرد بعقبتها وفكَّ الرقبة أن تعين في ثمنها، والمنحة الوكوف، والفيء على ذي الرحم الظالم، فإن لم تطق ذلك فأطعم الجائع واسق الظمآن، وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر، فإن لم تطق ذلك فكف لسانك إلا من خير». وقال عكرمة قوله: ﴿فكَّ رقبه﴾، يعني فكَّ رقبة من الذنوب بالتوبة ﴿أو إطعام في يوم ذي مسغبة﴾، مجاعة، يقال: سغب يسغب سغباً إذا جاع.

من النار ﴿أو إطعام في يوم ذي مسغبة﴾ أي في يوم ذي مجاعة والسغب الجوع ﴿يتيماً ذا قرابة﴾ أي ذا قرابة يريد يتيماً بينك وبينه قرابة ﴿أو مسكيناً ذا متربة﴾ يعني قد لصق بالتراب من فقره وضره وقال ابن عباس: هو المطروح في التراب لا يقيه شيء والمتربة الفقر، ثم بين أن هذه القرب لا تنفع إلا مع الإيمان بقوله ﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾ والمعنى أنه كان مؤمناً تنفعه هذه القرب، وكان مقتحماً العقبة، وإن لم يكن مؤمناً لا تنفعه هذه القرب ولا يقتحم العقبة ﴿وتواصوا بالصبر﴾ يعني وصى بعضهم بعضاً على الصبر على أداء الفرائض، وجميع أوامر الله ونواهيه. ﴿وتواصوا بالرحمة﴾ أي برحمة الناس وفيه الإشارة إلى تعظيم أمر الله والشفقة على خلق الله.

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ﴿٢٠﴾

﴿أولئك﴾ يعني أهل هذه الخصال ﴿أصحاب الميمنة والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة﴾ يعني مطبقة عليهم أبوابها لا يدخل فيها روح ولا يخرج منها غم. والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده.

﴿يتيماً ذا قرابة﴾، أي ذا قرابة يريد يتيماً بينك وبينه قرابة.

﴿أو مسكيناً ذا متربة﴾، لقد لصق بالتراب من فقره وضره. وقال مجاهد عن ابن عباس: هو المطروح في التراب لا يقيه شيء. والمتربة مصدر ترب يترب ترَباً ومتربة إذا افتقر.

﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾، ثم بين أن هذا القرب إنما ينفع مع الإيمان، وقيل: ﴿ثم﴾ بمعنى الواو، ﴿وتواصوا﴾، أوصى بعضهم بعضاً، ﴿بالصبر﴾، على فرائض الله وأوامره، ﴿وتواصوا بالرحمة﴾، برحمة الناس.

﴿أولئك أصحاب الميمنة﴾ والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة * عليهم نار مؤصدة، مطبقة عليهم أبوابها لا يدخل فيها روح ولا يخرج منها غم، قرأ أبو عمرو ووحمة وحفص بالهمزة هاهنا، وفي الهمزة [٨]، وقرأ الآخرون بلا همز وهما لغتان، يقال: آصدت الباب وأوصدته إذا أغلقته وأطبقت، وقيل: معنى الهمزة المطبقة وغير الهمزة المغلقة.

سورة الشمس

مكية وهي خمس عشرة آية وأربع وخمسون كلمة ومائتان وسبعة وأربعون حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾

قوله عز وجل: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ أي إذا بدا ضوءها والضحي حين ترتفع الشمس، ويصفو ضوءها، وقيل الضحي النهار كله لأن الضحي هو نور الشمس، وهو حاصل في النهار كله، وقيل الضحي هو حر الشمس لأن حرها ونورها متلازمان، فإذا اشتد نورها قوى حرها وهذا أضعف الأقوال. ﴿وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا﴾ أي تبعها وذلك في النصف الأول من الشهر إذا غربت الشمس تلاها القمر في الإضاءة وخلفها في النور، وقيل تلاها في الاستدارة وذلك حين يكمل ضوءه، ويستدير وذلك في الليالي البيض، وقيل تلاها تبعها في الطلوع، وذلك في أول ليلة من الشهر إذا غربت الشمس ظهر الهلال فكأنه تبعها. ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا﴾ يعني جلا ظلمة الليل بضياءه وكشفها بنوره، وهو كناية عن غير مذكور لكونه معروفاً ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ أي يغشى الشمس حين تغيب فتظلم الآفاق وحاصل هذه الأقسام الأربعة ترجع إلى الشمس في الحقيقة. لأن وجودها يكون النهار ويشد الضحي، وبغروبها يكون الليل ويتبعها القمر.

وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَّهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾

﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا﴾ أي ومن بناها، وقيل والذي بناها فعلى هذا كأنه أقسم به وبأعظم مخلوقاته، ومعنى بناها

سُورَةُ الشَّمْسِ

مكية وهي خمس عشرة آية.

﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾، قال مجاهد والكلبي: ضوءها، والضحي: حين تطلع الشمس، فيصفو ضوءها. قال قتادة: هو النهار كله. وقال مقاتل: حرها، كقوله في طه [١١٩] ﴿وَلَا تَضْحَى﴾، يعني لا يؤذك الحر. ﴿وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا﴾، تبعها وذلك في النصف الأول من الشهر إذا غربت الشمس، تلاها القمر في الإضاءة وخلفها في النور. وقال الزجاج: وذلك حين استدار يعني كمل ضوءه فصار تابعا للشمس في الإنارة وذلك في الليالي البيض.

﴿وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا﴾، يعني إذا جلى الظلمة كناية عن غير مذكور لكونه معروفاً.

﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا﴾، يعني يغشى الشمس حين تغيب فتظلم الآفاق.

﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا﴾، قال الكلبي ومن بناها وخلقها كقوله: ﴿فَأَنكحُوا مَا طَاب لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾

خلقها، وقيل ما بمعنى المصدر أي والسماء وبنائها ﴿والأرض وما طحاها﴾ أي بسطها وسطحها على الماء ﴿ونفس وما سواها﴾ أي عدل خلقها وسوى أعضائها هذا إن أريد بالنفس الجسد وإن أريد بها المعنى القائم بالجسد فيكون معنى سواها أعطائها القوى الكثيرة كالقوة الناطقة، والسماعة والباصرة، والمفكرة، والمخيلة وغير ذلك من العلم، والفهم، وقيل إنما نكرها لأنه أراد بها النفس الشريفة المكلفة التي تفهم عنه خطابه، وهي نفس جميع من خلق من الإنس والجن ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾ قال ابن عباس: بين لها الخير والشر وعنه علمها الطاعة والمعصية، وعنه عرفها ما تأتي وما تتقي، وقيل ألزمها فجورها، وتقواها، وقيل وجعل فيها ذلك بتوفيقه إياها للتقوى، وخذلانه إياها للفجور، وذلك لأن الله تعالى خلق في المؤمن التقوى، وفي الكافر الفجور (م) عن أبي الأسود الدبلي قال: قال لي عمران بن حصين رأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه شيء قضى عليهم، ومضى عليهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلونه مما أتاهم به نبيهم ﷺ وثبتت الحجة عليهم، فقلت بل شيء قضى عليهم ومضى عليهم، فقال أفلا يكون ظلماً قال ففزعت من ذلك فرعاً شديداً، وقلت كل شيء خلق الله وملك يده فلا يسأل عما يفعل، وهم يسألون فقال لي يرحمك الله إني لم أرد بما سألتك إلا لأختبر عقلك «إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا يا رسول الله رأيت ما يعمل الناس اليوم، ويكدحون فيه شيء قضى عليهم، ومضى عليهم، من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ﷺ وثبتت الحجة عليهم فقال لا بل شيء قضى عليهم، ومضى فيهم، وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل، ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها» (م) عن جابر قال: «جاء سراقه بن مالك بن جعشم فقال: يا رسول الله بين لنا ديننا كأننا خلقنا الآن فيم العمل اليوم فيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير أو فيما يستقبل قال: لا بل فيما

[النساء: ٣]، أي من طاب قال عطاء: يريد والذي بناها. وقال الفراء والزجاج: ﴿ما﴾ بمعنى المصدر، أي وبنائها كقوله: ﴿بما غفر لي ربي﴾ [يس: ٢٧].

﴿والأرض وما طحاها﴾، بسطها.

﴿ونفس وما سواها﴾، عدل خلقها وسوى أعضائها قال عطاء يريد جميع ما خلق من الجن والإنس.

﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾، قال ابن عباس في رواية علي بن أبي طلحة: بين لها الخير والشر. وقال في رواية عطية: علمها الطاعة والمعصية. وروى الكلبي عن أبي صالح عنه: عرفها ما تأتي وما تتقي. وقال سعيد بن جبير: ألزمها فجورها وتقواها. قال ابن زيد: جعل فيها ذلك يعني بتوفيقه إياها للتقوى، وخذلانه إياها للفجور. واختار الزجاج هذا، وحمل الإلهام على التوفيق والخذلان، وهذا يبين أن الله عز وجل خلق في المؤمن التقوى وفي الكافر الفجور، أنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أخبرني الحسين بن محمد بن الحسين بن عبد الله ثنا موسى بن محمد ثنا علي بن عبد الله أنا عبد الله بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن إبراهيم أنا عروة بن ثابت الأنصاري، ثنا يحيى بن عقيل عن يحيى بن يعمر عن الأسود الدبلي قال: قال لي عمران بن حصين: رأيت ما يعمل الناس ويكدحون فيه شيء قضى عليهم ومضى فيهم من قدر سبق؟ أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم وأكددت عليهم الحجة؟ قلت: بلى شيء قد قضى عليهم، قال: فهل يكون ذلك ظلماً؟ قال: ففزعت منه فرعاً شديداً، وقلت: إنه ليس شيء إلا وهو خلقه وملك يده لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فقال لي: سدّدك الله إنما سألتك لأختبر عقلك أن رجلاً من جهينة أو مزينة أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله رأيت ما يعمل الناس ويكدحون فيه شيء قضى عليهم ومضى فيهم من قدر سبق؟ أو فيما يستقبلون به مما أتاهم نبيهم وأكددت به عليهم الحجة؟ فقال: «لا بل شيء قد قضى عليه ومضى فيهم»، قال: قلت: ففيم العمل إذا؟ قال: «من كان الله خلقه

جفت به الأقلام، وجرت به المقادير قال: فقيم العمل؟ فقال اعملوا فكل ميسر لما خلق له» وهذه أقسام أقسم الله تعالى بالشمس وضحاها وما بعدها لشرفها ومصالح العالم بها، وقيل فيه إضمار تقديره ورب الشمس وما بعدها.

وأورد على هذا القول أنه قد دخل في جملة هذا القسم قوله، ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا﴾ وذلك هو الله تعالى، فيكون التقدير رب السماء، ورب من بناها، وهذا خطأ لا يجوز وأجيب عنه بأن ما إن فسرت بالمصدرية فلا إشكال وإن فسرت بمعنى من فيكون التقدير ورب السماء الذي بناها وجواب القسم قوله تعالى:

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَحَسَّوْنَهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾

﴿قد أفلح من زكاها﴾ المعنى لقد أفلح من زكاها أي فازت وسعدت نفس زكاها الله أي أصلحها وطهرها من الذنوب، ووفقها للطاعة. ﴿وقد خاب من دساها﴾ أي خابت وخسرت نفس أضلها الله تعالى، وأفسدها، وأصله من دس الشيء إذا أخفاه فكأنه سبحانه وتعالى أقسم بأشرف مخلوقاته على فلاح من طهره، وزكاها، وخسارة من خذله، وأضله حتى لا يظن أحد أنه يتولى تطهير نفسه، أو إهلاكها بالمعصية من غير قدر متقدم وقضاء سابق (م) عن زيد بن أرقم قال: كان رسول الله ﷺ يقول «اللهم إني أعوذ بك من العجز، والكسل، والبخل، والهزم وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها، ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها».

لإحدى المنزلتين يهيئه الله لها»، وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿ونفس وما سواها * فآلهمها فجورها وتقواها﴾، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أبو محمد عبد الرحمن بن أبي شريح أنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي ثنا علي بن الجعد ثنا زهير بن معاوية عن أبي الزبير عن جابر قال جاء سُرَاقَةُ بن مالك بن جعشم فقال: يا رسول الله بين لنا ديننا كأننا خلقنا الآن، أرايتَ عمرتنا هذه ألعاننا هذا أم للأبد؟ قال: «بل للأبد»، قال: يا رسول الله بين لنا ديننا كأننا خلقنا الآن فيما العمل اليوم فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير؟ أو فيما نستقبل؟ قال: «لا بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير»، قال: فقيم العمل؟ فقال زهير: كلمة خفيت علي فسألت عنها نسي بعد فذكر أنه سمعها، فقال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له».

﴿قد أفلح من زكاها﴾، وهذا موضع القسم أي فازت وسعدت نفس زكاها الله، أي أصلحها وطهرها من الذنوب ووفقها للطاعة.

﴿وقد خاب من دساها﴾، أي خانت وخسرت نفس أضلها الله فأفسدها. وقال الحسن: معناه قد أفلح من زكى نفسه فأصلحها وحملها على طاعة الله عز وجل، ﴿وقد خاب من دساها﴾ أهلكها وأضلها وحملها على المعصية، فجعل الفعل للنفس، ودساها أصله: دسها من التدسيس، وهو إخفاء الشيء، فأبدلت السين الثانية ياءً، والمعنى ههنا: أحمّلها وأخفى محلها بالكفر والمعصية، أخبرنا أبو الحسن علي بن يوسف الجويني أنا أبو محمد بن محمد بن علي بن محمد بن شريك الشافعي أنا عبد الله بن محمد بن مسلم ثنا أبو بكر الجوربردي ثنا أحمد بن حرب ثنا أبو معاوية عن عاصم عن أبي عثمان وعبد الله بن الحارث عن زيد بن أرقم قال: لا أقول لكم إلّا ما قال رسول الله ﷺ لنا: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والبخل والجبن والهزم وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن نفس لا تشبع

قوله عز وجل: ﴿كَذَبَتْ ثمودُ﴾ وهم قوم صالح عليه الصلاة والسلام ﴿بطغواها﴾ أي بطغيانها وعدوانها، والمعنى أن الطغيان حملهم على التكذيب حتى كذبوا ﴿إذا انبعث أشقاها﴾ أي قام وأسرع وذلك أنهم لما كذبوا بالعذاب، وكذبوا صالحاً انبعث أشقى القوم وهو قدار بن سالف، وكان رجلاً أشقر أزرق العين قصيراً فقعر الناقة (ق) عن عبد الله بن زمعة «أنه سمع النبي ﷺ يخطب وذكر الناقة، والذي عقرها فقال رسول الله ﷺ: إذا انبعث أشقاها انبعث لها رجل عزيز عارم منيع في أهله مثل أبي زمعة» لفظ البخاري قوله عارم أي شديد ممتنع.

قوله تعالى: ﴿فقال لهم رسول الله﴾ يعني صالحاً عليه الصلاة والسلام ﴿ناقة الله﴾ أي ذروا ناقة الله وإنما قال لهم ذلك لما عرف منهم أنهم قد عزموا على عقرها وإنما أضافها إلى الله تعالى لشرفها كبيت الله. ﴿وسقياها﴾ أي وشربها ولا تعرضوا للماء يوم شربها ﴿فكذبوه﴾ يعني صالحاً ﴿ففقروها﴾ يعني الناقة ﴿فدمدم عليهم ربهم﴾ أي فدمر عليهم ربهم وأهلكهم والدمدمة هلاك استئصال، وقيل دمدم أي أطبق عليهم العذاب طبقاً حتى لم ينفلت منهم أحد ﴿بذنبيهم﴾ أي فعلنا ذلك بهم بسبب ذنبيهم، وهو تكذيبهم صالحاً عليه الصلاة والسلام وعقرهم الناقة ﴿فسواها﴾ أي فسوى الدممة عليهم جميعاً وعمهم بها، وقيل معناه فسوى بين الأمة وأنزل بصغيرهم، وكبيرهم، وغنيهم، وفقيرهم العذاب، ﴿ولا يخاف عقباها﴾ أي لا يخاف الله تبعه من أحد في هلاكهم كذا قال ابن عباس: وقيل هو راجع إلى العاقر والمعنى لا يخاف صالح عاقبة ما أنزل الله بهم من العذاب أن يؤذيه أحد بسبب ذلك والله أعلم.

ومن قلب لا يخشع، ومن دعوة لا يُستجاب لها.

قوله عز وجل: ﴿كَذَبَتْ ثمودُ بطغواها﴾، بطغيانها وعدوانها أي الطغيان حملهم على التكذيب.

﴿إذا انبعث أشقاها﴾، أي قام، والإنبعث: هو الإسراع في الطاعة للباعث، أي كذبوا بالعذاب وكذبوا صالحاً لما انبعث أشقاها وهو: قدار بن سالف، وكان أشقر أزرق قصيراً قام لعقر الناقة. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل أنا موسى بن إسماعيل ثنا وهب ثنا هشام عن أبيه أنه أخبره عبد الله بن زمعة أنه سمع النبي ﷺ يخطب وذكر الناقة والذي عقرها فقال رسول الله ﷺ: ﴿إذا انبعث أشقاها﴾، انبعث لها رجل عزيز عارم منيع في أهله مثل أبي زمعة.

﴿فقال لهم رسول الله﴾، صالح، ﴿ناقة الله﴾، أي احذروا عقر ناقة الله. وقال الزجاج: منصوب على معنى ذروا ناقة الله، ﴿وسقياها﴾، شربها أي ذروا ناقة الله وذروا شربها من الماء، فلا تعرضوا للماء يوم شربها.

﴿فكذبوه﴾ يعني صالحاً، ﴿ففقروها﴾، يعني الناقة.

﴿فدمدم عليهم ربهم﴾، قال عطاء ومقاتل: فدمر عليهم ربهم فأهلكهم. قال المؤرخ: الدممة الهلاك باستئصال. ﴿بذنبيهم﴾، بتكذيبهم الرسول وعقرهم الناقة، ﴿فسواها﴾، فسوى الدممة عليهم جميعاً، وعمهم بها فلم يفلت منهم أحد. وقال الفراء: سوى الأمة وأنزل العذاب بصغيرها وكبيرها، يعني سوى بينهم، ﴿ولا يخاف عقباها﴾، قرأ أهل المدينة والشام فلا بالفاء وكذلك في مصاحفهم، وقرأ الباقون بالواو وهكذا في مصاحفهم ﴿عقباها﴾ عاقبتها. قال الحسن: معناه لا يخاف الله من أحد تبعه في إهلاكهم. وهي رواية ابن عباس، وقال الضحاك والسدي والكلبي: هو راجع إلى العاقر في الكلام تقديم وتأخير تقديره: إذا انبعث أشقاها ولا يخاف عقباها.

سورة والليل

مكية وهي إحدى وعشرون آية وإحدى وسبعون كلمة وثلاثمائة وعشرة أحرف .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾

قوله عز وجل : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ أي يغشى النهار بظلمته فيذهب الله بضوئه . أقسم الله تعالى بالليل لأنه سكن لكافة الخلق يأوى فيه كل حيوان إلى مأواه، ويسكن عن الاضطراب، والحركة، ثم أقسم بالنهار بقوله ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ أي بان وظهر بعد الظلمة لأن فيه حركة الخلق في طلب الرزق ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ أي ومن خلق فعلى هذا يكون أقسم بنفسه تعالى، والمعنى والقادر العظيم الذي قدر على خلق الذكر، والأنثى من ماء واحد إن أريد به جنس الذكر والأنثى، وقيل هما آدم وحواء، وإنما أقسم بهما لأنه تعالى ابتداء خلق آدم من طين وخلق منه حواء من غير أم وجواب القسم قوله تعالى : ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ أي إن أعمالكم لمختلفة فساع في فكاك نفسه، وساع في عطبها روى أبو مالك الأشعري عن رسول الله ﷺ أنه قال : «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها» قوله موبقها أي مهلكها .

قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى﴾ أي أنفق ماله في سبيل الله عز وجل : ﴿وَاتَّقَى﴾ أي ربه، وفيه إشارة إلى الاحتراز عن كل ما لا ينبغي .

سُورَةُ اللَّيْلِ

مكية وهي إحدى وعشرون آية .

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ ، أي يغشى النهار بظلمة فيذهب بضوئه .

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ ، بان وظهر من بين الظلمة .

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ ، يعني ومن خلق، وقيل : هي ﴿مَا﴾ المصدرية أي خلق الذكر والأنثى . قال مقاتل والكلبي : يعني آدم وحواء وفي قراءة ابن مسعود وأبي الدرداء والذكر والأنثى جواب القسم .

قوله : ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ ، إن أعمالكم لمختلفة فساع في فكاك نفسه وساع في عطبها . روى أبو مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها» .

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى﴾ ، ماله في سبيل الله ، ﴿وَاتَّقَى﴾ ، ربه .

وَصَدَّقَ بِالْحَسَنِيِّ ﴿٦﴾ فَسَيِّسِرُهُ لِلْيَسْرِ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحَسَنِيِّ ﴿٩﴾ فَسَيِّسِرُهُ لِلْعُسْرِ ﴿١٠﴾

﴿وَصَدَّقَ بِالْحَسَنِيِّ﴾ قال ابن عباس صدق بقول لا إله إلا الله وعنه صدق بالخلف به ، أي أيقن أن الله سيخلف عليه ما أنفق في طاعته ، وقيل صدق بالجنة ، وقيل صدق بموعد الله عز وجل الذي وعده أنه يشبه ﴿فسييسره﴾ فسنهيئه في الدنيا ﴿لليسر﴾ أي للخلة والفعله اليسرى ، وهو العمل بما يرضاه الله .

قوله عز وجل : ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ أي بالتفقه في الخير والطاعة ﴿وَاسْتَغْنَى﴾ أي عن ثواب الله تعالى فلم يرغب فيه ﴿وَكَذَّبَ بِالْحَسَنِيِّ﴾ أي بلا إله إلا الله أو كذب بما وعده الله عز وجل من الجنة والثواب ﴿فسييسره للعسر﴾ أي فسنهيئه للشر بأن نجريه على يديه حتى يعمل بما لا يرضى الله تعالى فيستوجب بذلك النار ، وقيل نعسر عليه أن يأتي خيراً وفي الآية دليل لأهل السنة وصحة قولهم في القدر وأن التوفيق والخذلان والسعادة والشقاوة بيد الله تعالى ، ووجوب العمل بما سبق له في الأزل (ق) عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال : «كنا في جنازة في بقيع الغرقد ، فأتانا رسول الله ﷺ فقعده وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس ، وجعل ينكت بمخصرته ثم قال ما منكم من أحد إلا ، وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة» زاد مسلم ^(١) «وإلا وقد كتبت شقية أو سعيدة فقالوا: يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل فقال اعملوا فكل ميسر لما خلق له أما من كان من أهل السعادة فيصير لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاوة ، فيصير لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحَسَنِيِّ فَسَيِّسِرُهُ لِلْيَسْرِ﴾ ، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحَسَنِيِّ فَسَيِّسِرُهُ لِلْعُسْرِ﴾ المخصرة بكسر الميم كالتسوط والعصا ، ونحو ذلك مما يمسكه الإنسان بيده ، والنكت بالتاء المثناة فوق ضرب الأرض بذلك أو غيرها مما يؤثر فيه الضرب ، وهذه

﴿وَصَدَّقَ بِالْحَسَنِيِّ﴾ ، قال أبو عبد الرحمن السلمي والضحاك : وَصَدَّقَ بلا إله إلا الله ، وهي رواية عطية عن ابن عباس . وقال مجاهد : بالجنة دليله قوله تعالى : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحَسَنِي﴾ [يونس: ٢٦] ، يعني الجنة . وقيل : صَدَّقَ بِالْحَسَنِيِّ أي بالخلف ، أي أيقن أن الله تعالى سيخلفه . وهي رواية عكرمة عن ابن عباس . وقال قتادة ومقاتل والكلبي : بموعد الله عز وجل الذي وعده أن يفي به .

﴿فسييسره﴾ ، فسنهيئه في الدنيا ، ﴿لليسر﴾ ، أي للخلة اليسرى وهي العمل بما يرضاه الله عز وجل .
﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ ، بالتفقه في الخير ، ﴿وَاسْتَغْنَى﴾ ، عن ثواب الله فلم يرغب فيه .

﴿وَكَذَّبَ بِالْحَسَنِيِّ﴾ فسييسره للعسر ، سنهيئه للشر بأن نجريه على يديه حتى يعمل بما لا يرضى الله ، فيستوجب به النار . قال مقاتل : نعسر عليه أن يأتي خيراً ، وروينا عن علي عن النبي ﷺ قال : «ما من نفس منفوسة إلا قد كتبت مكانها من الجنة أو النار» ، فقال رجل : أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل ؟ قال : «لا ولكن اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، أما أهل الشقاء فييسرون لعمل أهل الشقاء ، وأما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة» ، ثم تلا : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحَسَنِيِّ﴾ فسييسره لليسر * وأما مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وكذب بالحسني * فسييسره للعسر . قيل : نزلت في أبي بكر الصديق اشترى بلالاً من أمية بن خلف ببردة وعشر أواق ، فأعتقه فأنزل الله تعالى : ﴿والليل إذا يغشى﴾ إلى قوله : ﴿إِنْ سَعَيْكُمْ لَشَتَى﴾ يعني سعي أبي بكر وأميه . وروى علي بن حجر عن إسحاق عن أبي نجيع عن عطاء ، قال : كان لرجل من الأنصار نخلة وكان له جار يسقط من

(١) (قوله زاد مسلم الخ) حديث مسلم «ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار وإلا وقد كتبت شقية أو سعيدة» الخ .

الآية نزلت في أبي بكر الصديق، وذلك أنه اشترى بلالاً من أمية بن خلف ببردة وعشرة أواق فأعتقه، فأنزل الله تعالى ﴿والليل إذا يغشى﴾ إلى قوله ﴿إن سعيكم لشتى﴾ يعني سعى أبي بكر وأميه بن خلف، وقيل كان لرجل من الأنصار نخلة وفرعها في دار رجل فقير وله عيال، فكان صاحب النخلة إذا طلع نخلته ليأخذ منها التمر فربما سقطت التمرة، فيأخذها صبيان ذلك الفقير، فينزل الرجل عن نخلته حتى يأخذ التمرة من أيديهم وإن وجدها في فم أحدهم أدخل أصبعه في فيه حتى يخرجها فشكا ذلك الرجل الفقير إلى النبي ﷺ فلقي النبي ﷺ صاحب النخلة فقال له: تعطيني نخلتك التي فرعها في دار فلان، ولك بها نخلة في الجن فقال الرجل: إن لي نخلاً، وما فيه أعجب إليّ منها ثم ذهب، فسمع بذلك أبو الدحداح رجل من الأنصار، فقال لصاحب النخلة هل لك أن تبيعها بحش يعني حائطاً له فيه نخل، فقال هي لك فأتى الدحداح للنبي ﷺ فقال يا رسول الله ﷺ تشتريها مني بنخلة في الجنة، فقال نعم فقال هي لك فدعا النبي ﷺ ذلك الرجل الفقير جار الأنصاري صاحب النخلة قال خذها لك ولعيالك فأنزل الله هذه الآية، وهذا القول فيه ضعف لأن هذه السورة مكية، وهذه القصة كانت بالمدينة فإن كانت القصة صحيحة تكون هذه السورة قد نزلت بمكة، وظهر حكمها بالمدينة، والصحيح أنها نزلت في أبي بكر الصديق وأميه بن خلف لأن سياق الآيات يقتضي ذلك.

وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٦﴾ وَسَيَجْزِيهَا الْآلَفَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾

قوله عز وجل: ﴿وما يغني عنه ماله﴾ أي الذي بخل به ﴿إذا تردى﴾ أي إذا مات، وقيل هوى في جهنم ﴿إن علينا للهدى﴾ أي إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلالة وذلك أنه لما عرفهم ما للمحسن من اليسرى، وما للمسيء من العسرى أخبرهم أن بيده الإرشاد والهداية وعليه تبيين طريقها، وقيل معناه إن علينا للهدى والإضلال فاكتفى بذكر أحدهما، والمعنى أرشد أوليائي إلى العمل بطاعتي وأصرف أعدائي عن العمل بطاعتي، وقيل معناه من سلك سبيل الهدى فعلى الله سبيله. ﴿وإن لنا للآخرة والأولى﴾ أي لنا ما في الدنيا والآخرة فمن طلبهما من غير

بلحها في داره، وكان صبيانهم يتناولون منه فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: «يعنيها بنخلة في الجنة»، فأبى، فخرج فلقيه أبو الدحداح، فقال له: هل لك أن تبيعها بحش، يعني حائطاً له، فقال: هي لك فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أتشتريها مني بنخلة في الجنة، قال: «نعم» قال: هي لك، فدعا النبي ﷺ جار الأنصاري فقال: «خذها». فأنزل الله تعالى: ﴿والليل إذا يغشى﴾ إلى قوله: ﴿إن سعيكم لشتى﴾، أبو الدحداح والأنصاري صاحب النخلة، ﴿فأما من أعطى واتقى﴾ أبو الدحداح، ﴿وصدق بالحسنى﴾ فنيسره لليسرى ﴿يعني الجنة﴾، ﴿وأما من بخل واستغنى﴾ يعني الأنصاري، ﴿وكذب بالحسنى﴾ يعني الثواب، ﴿فنيسره للعسرى﴾، يعني النار.

﴿وما يغني عنه ماله﴾، الذي بخل به، ﴿إذا تردى﴾، قال مجاهد: إذا مات. وقال قتادة وأبو صالح: هوى في جهنم.

﴿إن علينا للهدى﴾، يعني البيان. قال الزجاج: علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال، وهو قول قتادة، قال: على الله بيان حلاله وحرامه. قال الفراء: يعني من سلك الهدى فعلى الله سبيله، كقوله تعالى: ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ [النحل: ٩] يقول: من أراد الله فهو على السبيل القاصد. وقيل معناه: إن علينا للهدى والإضلال كقوله: ﴿بيدك الخير﴾ [آل عمران: ٢٦].

مالكهما فقد أخطأ الطريق ﴿فأنذرتكم﴾ أي يا أهل مكة ﴿ناراً تلظى﴾ أي تتوقد وتتوهج ﴿لا يصلها إلا الأشقى﴾ يعني الشقي ﴿الذي كذب﴾ يعني الرسل ﴿وتولى﴾ أي عن الإيمان ﴿وسيجنبها الأتقى﴾ يعني التقي ﴿الذي يؤتي﴾ أي يعطي ﴿ماله يتزكى﴾ أي يطلب عند الله أن يكون زاكياً لا يطلب بما ينفقه رياء ولا سمعة وهو أبو بكر الصديق في قول جميع المفسرين قال ابن الزبير: كان بيتاع الضعفاء فيعتقهم، فقال له أبوه أي بني لو كنت تبتاع من يمنع ظهرك، قال منع ظهري أريد فأنزل الله ﴿وسيجنبها الأتقى﴾ إلى آخر السورة، وذكر محمد ابن إسحاق قال: كان بلال لبعض بني جمح وهو بلال بن رباح، واسم أمه حمامة، وكان صادق الإسلام طاهر القلب، وكان أمية بن خلف يخرجها إذا حميت الشمس فيطرحه على ظهره ببطحاء مكة ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد فيقول وهو في ذلك أحد أحد قال محمد بن إسحاق عن هشام بن عروة عن أبيه قال: مر به أبو بكر يوماً وهم يصنعون به ذلك، وكانت دار أبي بكر في بني جمح فقال لأمية: ألا تتقي الله في هذا المسكين قال: أنت أفسدته فأنقذه مما ترى فقال أبو بكر أفعل عندي غلام أسود أجلد منه، وأقوى، وهو على دينك أعطيكه قال قد فعلت فأعطاه أبو بكر غلامه وأخذ بلالاً فأعتقه، وكان قد أعتق ست رقاب على الإسلام قبل أن يهاجر بلال سابعهم، وهم عامر بن فهيرة شهد بدرأً وأحدأً، وقتل يوم بئر معونة شهيداً، وأم عميس وزهرة فأصيب بصرها حين أعتقها أبو بكر فقالت قريش: ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى فقالت: كذبوا ورب البيت ما تضر اللات، والعزى، ولا تنفعان فرد الله تعالى: عليها بصرها وأعتق التهذية وابنتها، وكانت امرأة من بني عبد الدار، فراهما أبو بكر وقد بعثتهما سيدتهما يحتطبان لها وهي تقول والله لا أعتقهما أبداً فقال أبو بكر كلا يا أم فلان فقالت كلا أنت أفسدتهم فأعتقهما، قال فبكم قالت بكذا وكذا قال قد أخذتهما وهما حرتان ومر بجارية من بني المؤمل وهي تعذب فابتاعها وأعتقها فقال عمار بن ياسر: يذكر بلالاً وأصحابه وما كانوا فيه من البلاء وإعتاق أبي بكر إياهم وكان اسم أبي بكر عتيقاً فقال في ذلك:

جزى الله خيراً عن بلال وصحبه	عتيقاً وأخزى فاكهاً وأبا جهل
عشية همافي بلال بسوءة	ولم يحذرا أما يحذر المرء ذو العقل
بتوحيـد رب الأنـام وقولـه	شهدت بأن الله ربي على مهل
فإن تقتلونني فاقتلوني فلم أكن	لأشرك بالرحمن من خيفة القتل

﴿وإن لنا للآخرة والأولى﴾، فمن طلبهما من غير مالكهما فقد أخطأ الطريق.

﴿فأنذرتكم﴾، يا أهل مكة، ﴿ناراً تلظى﴾، أي تلظى يعني تتوقد وتتوهج.

﴿لا يصلها إلا الأشقى الذي كذب﴾ الرسول، ﴿وتولى﴾، عن الإيمان.

﴿وسيجنبها الأتقى﴾، يريد بالأشقى الشقي، وبالأتقى التقي.

﴿الذي يؤتي ماله﴾، يعطي ماله، ﴿يتزكى﴾، يطلب أن يكون عند الله زاكياً لا رياء ولا سمعة، يعني أبا بكر الصديق، في قول الجميع، قال ابن الزبير: كان أبو بكر بيتاع الضعفة فيعتقهم، فقال أبوه: أي بني لو كنت تبتاع من يمنع ظهرك؟ قال: منع ظهري أريد، فنزل: ﴿وسيجنبها الأتقى﴾ إلى آخر السورة. وذكر محمد بن إسحاق قال: كان بلال لبعض بني جمح وهو بلال بن رباح واسم أمه حمامة، وكان صادق الإسلام طاهر القلب، وكان أمية بن خلف يخرجها إذا حميت الظهر فيطرحه على ظهره ببطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد، فيقول وهو في ذلك البلاء: أحد أحد، وقال

فيا رب إبراهيم والعبد يونس وموسى وعيسى نجني ثم لا تملي
لمن ظل يهوى الغي من آل غالب على غير حق كان منه ولا عدل

قال سعيد بن المسيب: بلغني أن أمية بن خلف قال لأبي بكر في بلال حين قال له أتبعه قال نعم أبيعه بنسطاس عبد لأبي بكر وكان نسطاس صاحب عشرة آلاف دينار وغللمان وجوار ومواش وكان مشركاً حملة أبو بكر على الإسلام على أن يكون ماله له فأبى، فأبغضه أبو بكر، فلما قال أمية أبيعه بسلامك نسطاس اغتنمه أبو بكر، وباعه به فقال المشركون ما فعل ذلك أبو بكر ببلال إلا ليد كانت لبلال عنده. فأنزل الله عز وجل:

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ (٢٠) ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ (٢١)

﴿وما لأحد عنده﴾ أي عند أبي بكر ﴿من نعمة تجزى﴾ أي من يد يكافئه عليها ﴿إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى﴾ أي لم يفعل ذلك مجازاة لأحد ولا ليد كانت له عنده لكن فعله ابتغاء وجه ربه الأعلى وطلب مرضاته ﴿ولسوف يرضى﴾ أي بما يعطيه الله عز وجل في الآخرة من الجنة والخير والكرامة جزاء على ما فعل، والله أعلم.

محمد بن إسحاق عن هشام بن عروة عن أبيه قال: مر به أبو بكر يوماً وهم يصنعون به ذلك، وكانت دار أبي بكر في بني جمح، فقال لأمية: ألا تتقي الله تعالى في هذا المسكين؟ قال: أنت أفسدته فأنقذه مما ترى، قال أبو بكر: أفعّل! عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى، على دينك، أعطيكه؟ قال: قد فعلت فأعطاه أبو بكر غلامه وأخذه فأعتقه، ثم أعتق معه علي الإسلام قبل أن يهاجر ست رقاب، بلال سابعهم، عامر بن فهيرة شهد بدرًا وأُخذًا، وقتل يوم بئر معونة شهيداً، وأم عميس، وزهرة فأصيب بصرها وأعتقها، فقالت قريش: ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى، فقالت: كذبوا وبيت الله ما تضر اللات والعزى وما تنفعان، فردّ الله إليها بصرها، وأعتق النهدية وابنتها، وكانت لامرأة من بني عبد الدار فمرّ بهما وقد بعثتهما سيدتهما تطحنان لها وهي تقول والله لا أعتقكما أبداً، فقال أبو بكر: كلا يا أم فلان، فقالت: كلا أنت أفسدتهم فأعتقتهما، قال: فيكم؟ قالت: بكذا وكذا، قال: قد أخذتهما وهما حرتان، ومرّ بجارية بني المؤمل وهي تُعذّب فابتاعها فأعتقها. وقال سعيد بن المسيب: بلغني أن أمية بن خلف قال لأبي بكر في بلال حين قال: أتبعه؟ قال: نعم أبيعه بنسطاس، وكان نسطاس عبداً لأبي بكر صاحب عشرة آلاف دينار، وغللمان وجوار ومواش، وكان مشركاً حملة أبو بكر على الإسلام على أن يكون ماله، فأبى فأبغضه أبو بكر، فلما قال له أمية أبيعه بسلامك نسطاس اغتنمه أبو بكر وباعه منه، فقال المشركون: ما فعل ذلك أبو بكر إلا ليد كانت لبلال عنده.

فأنزل الله: ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى﴾، يد يكافئه عليها.

﴿إلا﴾، لكن ﴿ابتغاء وجه ربه الأعلى﴾، يعني لا يفعل ذلك مجازاة لأحد بيد له عنده، ولكنه يفعله ابتغاء وجه ربه الأعلى وطلب رضاه.

﴿ولسوف يرضى﴾، بما يعطيه الله عز وجل في الآخرة من الجنة والكرامة جزاء على ما فعل.

سورة الضحى

مكية وهي إحدى عشرة آية وأربعون كلمة ومائة واثنان وسبعون حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَى ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴿٢﴾

قوله عز وجل: ﴿وَالضُّحَى﴾ اختلفوا في سبب نزول هذه السورة على ثلاثة أقوال: القول الأول (ق) «عن جندب بن سفيان البجلي قال اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً فجاءت امرأة فقالت: يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك لم أره قربك ليلتين أو ثلاثاً فأنزل الله عز وجل: ﴿وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ ما ودعك ربك وما قلى» وأخرجه الترمذي عن جندب قال كنت مع النبي ﷺ في غار فدميت أصبعه فقال النبي ﷺ:

سُورَةُ الضُّحَى

مكية وهي إحدى عشرة آية.

أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أحمد بن يونس ثنا زهير ثنا الأسود بن قيس قال: سمعت جندب بن سفيان قال اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً فجاءت امرأة فقالت: يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَالضُّحَى﴾ * والليل إذا سجي * ما ودعك ربك وما قلى، وقيل: إن المرأة التي قالت ذلك أم جميل امرأة أبي لهب. وقال المفسرون سألت اليهود رسول الله ﷺ عن ذي القرنين وأصحاب الكهف وعن الروح فقال سأخبركم غداً، ولم يقل: إن شاء الله، فاحتبس عنه الوحي. وقال زيد بن أسلم: كان سبب احتباس جبريل عليه السلام عنه كان جرواً في بيته، فلما نزل عاتبه رسول الله ﷺ على إبطائه، فقال: إنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة. واختلفوا في مدة احتباس الوحي عنه، فقال ابن جريج: اثنا عشر يوماً. وقال ابن عباس: خمسة عشر يوماً. وقال مقاتل: أربعون يوماً. قال المفسرون فقال المشركون: إن محمداً ودّعه ربه وقلاه، فأنزل الله تعالى هذه السورة، فقال النبي ﷺ: «يا جبريل ما جئت حتى اشتقت إليك»، فقال جبريل: «إني كنت أشدّ شوقاً إليكم، ولكنني عبدٌ مأمور»، فأنزل: ﴿وما ننزّل إلا بأمر ربك﴾ [مريم: 64].

قوله عز وجل: ﴿وَالضُّحَى﴾، أقسم بالضحى وأراد به النهار كله بدليل أنه قابله بالليل إذا سجي، نظيره قوله: ﴿أن يأتيهم بأسنا ضحى﴾ [الأعراف: 98]، أي نهراً. وقال قتادة ومقاتل: يعني وقت الضحى، وهي الساعة التي فيها ارتفاع الشمس، واعتدال النهار في الحرّ والبرد والصيف والشتاء.

﴿والليل إذا سجي﴾، قال الحسن: أقبل بظلامه، وهي رواية العوفي عن ابن عباس، وقال الوالبي عنه: إذا

هل أنت إلا أصبع دميست وفي سبيل الله ما لقيت

قال: فأبطأ عليه جبريل فقال المشركون قد ودع محمداً ربه فأنزل الله عز وجل:

مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾

﴿ما وعدك ربك وما قلى﴾ وقيل إن المرأة المذكورة في الحديث المتفق عليه هي أم جميل امرأة أبي لهب.

القول الثاني: قال المفسرون: سألت اليهود رسول الله ﷺ عن الروح، وعن ذي القرنين، وأصحاب الكهف، فقال سأخبركم غداً، ولم يقل إن شاء الله فاحتبس الوحي عليه.

القول الثالث: قال زيد بن أسلم: كان سبب احتباس الوحي، وجبريل عنه أن جروا كان في بيته، فلما نزل عليه عاتبه رسول الله ﷺ على إبطائه فقال إنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة.

واختلفوا في مدة احتباس الوحي عنه، فقيل اثنا عشر يوماً وقال ابن عباس: خمسة عشر يوماً، وقيل أربعون يوماً فلما نزل جبريل عليه الصلاة والسلام قال النبي ﷺ يا جبريل ما جئت حتى اشتقت إليك فقال جبريل: إني كنت إليك أشد شوقاً، ولكنني عبد مأمور. ونزل ﴿وما تنتزل إلا بأمر ربك﴾ وأنزل الله هذه السورة قوله عز وجل: ﴿والضحى﴾ قيل أراد به النهار كله بدليل أنه قابله بالليل كله في قوله، ﴿والليل إذا سجي﴾، وقيل وقت الضحى وهي الساعة التي فيها ارتفاع الشمس واعتدال النهار في الحر والبرد في الصيف والشتاء. ﴿والليل إذا سجي﴾ قال ابن عباس أقبل بظلامه وعنه إذا ذهب وقيل معناه غطى كل شيء بظلامه، وقيل معناه سكن فاستقر ظلامه فلا يزداد بعد ذلك، وهذا قسم أقسم الله تعالى بالضحى والليل إذا سجي وجواب القسم قوله تعالى: ﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾ أي ما تركك ربك منذ اختارك ولا أبغضك منذ أحبك، وإنما قال قلى ولم يقل قلاك لموافقة رؤوس الآي، وقيل معناه وما قلى أحداً من أصحابك ومن هو على دينك إلى يوم القيامة. ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾ أي الذي أعطاك ربك في الآخرة خير لك وأعظم من الذي أعطاك في الدنيا، وروى البغوي بسنده عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «إنا أهل البيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا» ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ قال ابن عباس هي الشفاعة في أمته حتى يرضى (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص «أن النبي ﷺ رفع يديه وقال: اللهم أمتي أمتي وبكى فقال الله عز وجل يا جبريل اذهب إلى محمد، واسأله ما يبكيك، وهو أعلم فأتى جبريل، وسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم، فقال الله يا جبريل اذهب إلى محمد وقل له إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك» (ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته وإنني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة فهي

ذهب، قال عطاء والضحاك: غطى كل شيء بالظلمة. وقال مجاهد: استوى. وقال قتادة وابن زيد: سكن واستقر ظلامه فلا يزداد بعد ذلك. يقال: ليل ساج وبحر ساج إذا كان ساكناً.

قوله تعالى: ﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾، هذا جواب القسم: أي ما تركك منذ اختارك ولا أبغضك منذ أحبك.

﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾، حدثنا المطهر بن علي الفارسي أنا محمد بن إبراهيم الصالحاني أنا عبد الله بن محمد بن جعفر أبو الشيخ الحافظ أنا ابن أبي عاصم أنا أبو بكر بن أبي شيبة أنا معاوية بن هشام عن علي بن صالح عن يزيد بن زياد عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا».

ناثلة إن شاء الله تعالى من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً» عن عوف بن مالك أن رسول الله ﷺ قال «أتاني آت من عند ربي فخيرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة، فهي نائلة إن شاء الله تعالى من مات لا يشرك بالله شيئاً» أخرجه الترمذي قال حرب بن شريح سمعت جعفر بن محمد بن علي يقول إنكم يا معشر أهل العراق تقولون أرجى آية في القرآن ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾ وإنا أهل البيت نقول أرجى آية في كتاب الله ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ وقيل في معنى الآية ولسوف يعطيك ربك من الثواب فترضى، وقيل من النصر والتمكين وكثرة المؤمنين فترضى وحمل الآية على ظاهرها من خيري الدنيا والآخرة معاً أولى، وذلك أن الله تعالى أعطاه في الدنيا النصر الظفر على الأعداء وكثرة الأتباع، والفتوح في زمنه، وبعده إلى يوم القيامة وأعلى دينه وإن أمته خير الأمم، وأعطاه في الآخرة الشفاعة العامة، والخاصة، والمقام المحمود وغير ذلك، مما أعطاه في الدنيا والآخرة ثم أخبر عن حاله صغيراً وكبيراً قبل الوحي وذكر نعمه عليه وإحسانه إليه. فقال عز وجل:

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾

﴿ألم يجدك يتيماً﴾ أي صغيراً ﴿فآوى﴾ أي ألى يعلمك الله يتيماً من الوجود الذي هو بمعنى العلم، والمعنى ألى يجدك يتيماً صغيراً حين مات أبوك، ولم يخلف لك مالاً، ولا مأوى فجعل لك مأوى تأوي إليه وضمك إلى عمك أبي طالب حتى أحسن تربيتك وكفاك المؤنة.

وذلك أن عبد الله مات ورسول الله ﷺ حمل فكفله جده عبد المطلب، فلما مات عبد المطلب، كفله عمه أبو طالب إلى أن قوي، واشتد وتزوج خديجة، وقيل هو من قولهم درة يتيمة، والمعنى ألى يجدك واحداً في قریش عديم النظير فأواك إليه وأيدك وشرفك بنبوته واصطفاك برسالته. ﴿ووجدك ضالاً﴾ أي عما أنت عليه اليوم ﴿فهدى﴾ أي فهداك إلى توحيدته ونبوته، وقيل وجدك ضالاً عن معالم النبوة وأحكام الشريعة، فهداك إليها وقال ابن عباس: إن رسول الله ﷺ ضل في شعاب مكة وهو صبي صغير، فرآه أبو جهل منصرفاً من أغنامه، فردّه إلى جده عبد المطلب، وقال سعيد بن المسيب: خرج رسول الله ﷺ مع عمه أبي طالب في قافلة ميسرة غلام خديجة فيبينما هو راكب ذات ليلة مظلمة إذ جاء إبليس فأخذ بزمام ناقته، فعدل به عن الطريق، فجاء جبريل عليه السلام فنفخ إبليس نفخة وقع منها إلى

﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾، قال عطاء عن ابن عباس: هو الشفاعة في أمته حتى يرضى، وهو قول علي والحسن. وروينا عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال: «اللَّهُمَّ أمتي أمتي ويكي، فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له إنا سنرضيك في أمتك، ولا نسوءك فيهم». وقال حرب بن شريح سمعت أبا جعفر محمد بن علي يقول: إنكم معشر أهل العراق تقولون أرجى آية في القرآن: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾ [الزمر: ٥٣]، وإنا أهل البيت نقول أرجى آية في كتاب الله ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾، قيل: ﴿ولسوف يعطيك ربك﴾ من الثواب. وقيل: من النصر والتمكين وكثرة المؤمنين، ﴿فترضى﴾. ثم أخبره الله عز وجل عن حاله التي كان عليها قبل الوحي، وذكره نعمه فقال جل ذكره:

﴿ألم يجدك يتيماً فآوى﴾، أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي فقال: أنبأني عبد الله بن حامد الأصفهاني أنا محمد بن عبد الله النيسابوري ثنا محمد بن عيسى أنا أبو عمرو الحوضي وأبو الربيع الزهراني عن حماد بن زيد عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «سألت ربي مسألة ووددت إنني لم أكن سألته، قلت: يا رب إنك أتيت سليمان بن داود ملكاً عظيماً، وأتيت فلاناً كذا، وأتيت فلاناً كذا»، قال: يا محمد ألم أجذك يتيماً فآويناك؟

الحبشة، ورد رسول الله ﷺ إلى القافلة فمن الله عليه بذلك، وقيل وجدك ضالاً نفسك لا تدري من أنت فعرفك نفسك وحالك، وقيل ووجدك بين أهل الضلال فعصمك من ذلك وهداك إلى الإيمان وإلى إرشادهم، وقيل الضلال هنا بمعنى الحيرة وذلك لأنه كان ﷺ يخلو في غار حراء في طلب ما يتوجه به إلى ربه حتى هداه الله لدينه، وقال الجنيد: ووجدك متحيراً في بيان ما أنزل الله إليك، فهذاك لبيان هذا ما قيل في هذه الآية ولا يلتفت إلى قول من قال إنه ﷺ كان قبل النبوة على ملة قومه، فهذا الله إلى الإسلام لأن نبينا ﷺ، وكذلك الأنبياء قبله منذ ولدوا نشؤوا على التوحيد، والإيمان قبل النبوة وبعدها، وأنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بصفات الله تعالى وتوحيده ويدل على ذلك أن قريشاً لما عابوا النبي ﷺ ورموه بكل عيب سوى الشرك وأمر الجاهلية فإنهم لم يجدوا لهم عليه سبيلاً إذ لو كان فيه لما سكتوا عنه ولنقل ذلك فبرأه الله تعالى من جميع ما قالوه فيه وعيروه به. ويؤكد هذا ما روي في قصة بحير الرّاهب حين استحلف النبي ﷺ بالآلات والعزى، وذلك حين سافر مع عمه أبي طالب إلى الشام فرأى بحيراً علامة النبوة فيه وهو صبي فاخبره بذلك فقال النبي ﷺ: لا تسألني بهما فوالله ما أبغضت شيئاً بغضهما، ويؤكد هذا شرح صدره ﷺ في حال الصغر واستخراج العلقه منه وقول جبريل هذا حظ الشيطان منك وملؤه حكمة وإيماناً وقوله تعالى: ﴿ما ضل صاحبكم وما غوى﴾ وقال الزمخشري: ومن قال كان على أمر قومه أربعين سنة فإن أراد أنه على خلوهم من العلوم والسمعية، فنعمة وإن أراد أنه كان على دين قومه، فمعاذ الله والأنبياء يجب أن يكونوا معصومين قبل النبوة وبعدها من الكبائر، والصغائر الشائنة، فما بال الكفر والجهل بالصانع ﴿ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء﴾ والله أعلم.

قوله عز وجل: ﴿ووجدك عائلاً فأغنى﴾ يعني فقيراً فأغناك بمال خديجة ثم بالغنائم، وقيل أرضاك بما أعطاك من الرزق، وهذه حقيقة الغني (ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس» العرض بفتح العين والراء المال (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال «قد أفلح من أسلم ورزق كافاً وقنع الله بما آتاه» وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «سألت ربي عز وجل مسألة وددت أني لم أكن سألته قلت: يا رب إنك آتيت سليمان بن داود ملكاً عظيماً، وآتيت فلاناً كذا وفلاناً كذا قال يا محمد ألم أجذك يتيماً فأويتك؟ قلت بلى يا رب» قال:

قلت: «بلى أي رب»، قال: ألم أجذك ضالاً فهديتك؟ قلت: «بلى أي رب»، قال: ألم أجذك عائلاً فأغنيك؟ قلت: «بلى أي رب»، وزاد غيره عن حماد قال: ألم نشرح لك صدرك ووضعت عنك وزرك؟ قلت: «بلى أي رب»، ومعنى الآية: ألم يجذك يتيماً صغيراً فقيراً حين مات أبوك ولم يخلفك لك مالاً ولا مأوى، فجعل لك مأوى تأوي إليه وضمتك إلى عمك أبي طالب حتى أحسن تربيتك وكفاك المؤونة.

﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾، يعني ضالاً عما أنت عليه فهذاك للتوحيد والنبوة: قال الحسن والضحاك وابن كيسان: ﴿ووجدك ضالاً﴾ عن معالم النبوة وأحكام الشريعة غافلاً عنها، فهذاك إليها، كما قال: ﴿وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ [يوسف: ٣] وقال: ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾ [الشورى: ٥٢]، وقيل: ضالاً في شعاب مكة وهو صبي صغير، فرآه أبو جهل منصرفاً من أغنامه فردّه إلى عبد المطلب: وقال سعيد بن المسيب: خرج رسول الله ﷺ مع عمه أبي طالب في قافلة مسيرة غلام خديجة فبينما هوراكب ذات ليلة ظلماء ناقة جاء إبليس فأخذ بزمام الناقة فعدل به عن الطريق، فجاء جبريل فنفع إبليس نفخة وقع منها إلى أرض الحبشة، وردّه إلى القافلة فمن الله عليه بذلك. وقيل: وجدك ضالاً نفسك لا تدري من أنت، فعرفك نفسك وحالك.

﴿ووجدك عائلاً فأغنى﴾، أي فقيراً فأغناك بمال خديجة ثم بالغنائم، وقال مقاتل: فرضاك بما أعطاك من

ألم أجذك ضالاً فهديتك؟ قلت بلى يا رب قال ألم أجذك عائلاً فأغنيتك؟ قلت بلى يا رب زاد في رواية «ألم أشرح لك صدرك ووضعت عنك وزرك؟ قلت بلى يا رب».

فإن قلت كيف يحسن بالجواد الكريم أن يمن بإنعامه على عبده، والمن مذموم في صفة المخلوق، فكيف يحسن بالخالق تبارك وتعالى.

قلت إنما حسن ذلك لأنه سبحانه وتعالى: قصد بذلك أن يقوي قلبه، ويعدده بدوام نعمه عليه فظهر الفرق بين امتنان الله تعالى الممدوح وبين امتنان المخلوق المذموم لأن امتنان الله تعالى زيادة إنعامه، كأنه قال ما لك تقطع رجاءك عني أأنت الذي ربيتك وأويتك وأنت يتيم صغير أتظنني تاركك ومضيعك كبيراً. بل لا بد وأن أتم نعمتي عليك فقد حصل الفرق بين امتنان الخالق، وامتنان المخلوق، ثم أوصاه باليتامى، والمساكين، والفقراء فقال عز وجل:

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۖ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۖ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾

﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾ أي لا تحقر اليتيم فقد كنت يتيماً، وقيل لا تقهره على ماله فتذهب به لضعفه، وكذا كانت العرب في الجاهلية تفعل في أمر اليتامى يأخذون أموالهم، ويظلمونهم حقوقهم روى البغوي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه ثم قال: أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا ويشير بأصبعه» (خ) عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله

الرزق. واختاره الفراء. وقال: لم يكن غنياً عن كثرة المال ولكن الله رضاء بما آتاه وذلك حقيقة الغنى، أخبرنا حسان بن سعيد المنيعي أنبأنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزياتي أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان ثنا أحمد بن يوسف السلمي ثنا عبد الرزاق أنا معمر بن همام بن منبه أنه قال أنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس»، أنا عبد الواحد المليحي أنا أبو عبد الله محمد بن الحسين الزعفراني أنا أحمد بن سعيد أنا أبو يحيى محمد بن عبد الله ثنا أبي حدثني شرحبيل بن شريك عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه»، ثم أوصاه باليتامى والفقراء.

فقال: ﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾، قال مجاهد: لا تحتقر اليتيم فقد كنت يتيماً. وقال الفراء والزجاج: لا تقهره على ماله فتذهب بحقه لضعفه، وكذا كانت العرب تفعل في أمر اليتامى، تأخذ أموالهم وتظلمهم حقوقهم. أخبرنا أبو بكر محمد عبد الله بن أبي توبة أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث أنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا أبو إسحاق بن إبراهيم بن الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن سعيد بن أبي أيوب عن يحيى بن سليمان عن يزيد بن أبي عتاب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه»، ثم قال بأصبعه: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وهو يشير بأصبعه السبابة والوسطى».

﴿وأما السائل فل تنهر﴾، قال المفسرون: يريد السائل على الباب، يقول: لا تنهره لا تزجره إذا سأل، فقد كنت فقيراً فإما أن تطعمه وإما أن تردّه ردّاً لئناً، يقال: نهرة وانتهره إذا استقبله بكلام يزجره. قال قتادة: ردّ السائل برحمة ولين قال إبراهيم بن أدهم نعم القوم السائل يحملون زادنا إلى الآخرة. وقال إبراهيم النخعي السائل يريدنا إلى الآخرة يجيء إلى باب أحدكم فيقول: هل توجهون إلى أهليكم بشيء؟ ورؤي عن الحسن في قوله: ﴿أما السائل فلا تنهر﴾، قال: طالب العلم.

﴿أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وأشار بالسبابة، والوسطى، وفرج بينهما﴾ «وأما السائل فلا تنهر» يعني السائل على الباب يقول لا تزجره إذا سألك فقد كنت فقيراً فإما أن تطعمه وإما أن ترده ردّاً ليناً برفق ولا تكهر بوجهك في وجهه وقال إبراهيم بن أدهم: نعم القوم السؤال يحملون زادنا إلى الآخرة وقال إبراهيم النخعي السائل: يريدنا إلى الآخرة يجيء إلى باب أحدكم فيقول هل توجهون إلى أهليكم بشيء وقيل السائل هو طالب العلم فيجب إكرامه وإسعافه بمطلوبه ولا يعبس في وجهه ولا ينهر ولا يلقي بمكروه ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ قيل أراد بالنعمة النبوة أي بلغ ما أرسلت به وحدث بالنبوة التي أتاك الله، وقيل النعمة هي القرآن أمره أن يقرأه ويقرئه غيره، وقيل أشكره لما ذكره نعمه عليه في هذه السورة من جبر اليتيم والهدى بعد الضلالة والإغناء بعد العيلة والفقر أمره أن يشكره على إنعامه عليه، والتحدث بنعمة الله تعالى شكرها.

عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «من أعطى عطاء فليجزيه إن وجد فإن لم يجد فليثن عليه فإن من أثنى عليه فقد شكره، ومن كتبه فقد كفره ومن تحلى بما لم يعط كان كلابس ثوبي زور» أخرجه الترمذي وله عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله» وله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال

﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾، قال مجاهد يعني النبوة روى عنه أبو بشر واختاره الزجاج وقال: أي بلغ ما أرسلت به، وحدث بالنبوة التي أتاك. وقال الليث عن مجاهد: يعني القرآن وهو قول الكلبي، أمره أن يقرأه، وقال مقاتل: أشكر لما ذكر من النعمة عليك في هذه السورة من جبر اليتيم والهدى بعد الضلالة والإغناء بعد العيلة، والتحدث بنعمة الله شكراً. أخبرنا أبو سعيد بكر بن محمد بن محمد عبد محمي البسامي ثنا أبو الحسن عبد الرحمن بن إبراهيم بن محمد بن يحيى ابن شختويه أنا عبد الله بن محمد بن الحسين النصر آبادي ثنا علي بن سعيد النسوي أنا سعيد بن غفير ثنا يحيى بن أيوب عن عمارة بن غزية عن شرحبيل مولى الأنصاري، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ فَلْيُجْزِهِ إِنْ وَجَدَ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ مَا يُجْزِي بِهِ فَلْيُثْنِ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ إِذَا أَثْنَى عَلَيْهِ فَقَدْ شَكَرَهُ، وَإِنْ كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ، وَمَنْ تَحَلَّى بِمَا لَمْ يُعْطَ كَانَ كَلَابِسَ ثَوْبِي زُورٍ»، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا الحسين بن محمد بن أحمد بن محمد بن إسحاق ثنا أبو القاسم بن منيع ثنا منصور بن أبي مزاحم ثنا وكيع عن أبي عبد الرحمن يعني القاسم بن الوليد عن الشعبي عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْقَلِيلَ لَمْ يَشْكُرِ الْكَثِيرَ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ، التَّحَدَّثْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ شُكْرًا، وَتَرَكْهُ كُفْرًا، وَالْجَمَاعَةُ رَحِمَةٌ وَالْفِرْقَةُ عَذَابٌ»، والسُّنَّةُ فِي قِرَاءَةِ أَهْلِ مَكَّةَ أَنْ يَكْبُرَ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الضَّحَى عَلَى رَأْسِ كُلِّ سُورَةٍ حَتَّى يَخْتِمَ الْقُرْآنَ، فيقول: الله أكبر، كذلك قرأته على الإمام المقرئ أبي نصر محمد بن أحمد بن علي الحامدي بمرو، قال: قرأت على أبي القاسم طاهر بن علي الصيرفي، قال: قرأت على أبي بكر أحمد بن الحسين بن مهران، قال: قرأت على أبي علي محمد بن أحمد بن حامد الصفار المقرئ، قال: قرأت على أبي بكر محمد بن موسى الهاشمي، قال: قرأت على أبي ربيعة والحسين بن محمد الحداد، وهما قرأاً على أبي الحسين بن أبي بزة وأخبرهما ابن أبي بزة أنه قرأ على عكرمة بن سليمان بن كثير المكي، وأخبره عكرمة أنه قرأ على شبل بن عباد وإسماعيل بن قسطنطين، وأخبراه أنهما قرأاً على عبد الله بن كثير، وأخبرهما عبد الله أنه قرأ على مجاهد، وأخبره مجاهد أنه قرأ على ابن عباس، وأخبره ابن عباس أنه قرأ على أبي بن كعب، وأخبرنا الإمام المقرئ أبو نصر محمد بن أحمد بن علي وقرأت عليه بمرو، وقال: أنا الشريف أبو القاسم علي بن محمد الزبدي بالتكبير، وقرأت عليه بثغر حران، قال ثنا أبو بكر محمد بن الحسن بن زياد الموصلي المعروف بالنقاش، وقرأت عليه بمدينة السلام ثنا أبو ربيعة محمد بن إسحاق الريعي، وقرأت عليه بمكة

رسول الله ﷺ «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر» وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدث بنعمة الله شكر وتركه كفر والجماعة رحمة والفرقة عذاب» والسنة في قراءة أهل مكة أن يكبر من أول سورة الضحي على رأس كل سورة حتى يختم القرآن فيقول الله أكبر وسبب ذلك أن الوحي لما احتبس عن رسول الله ﷺ قال المشركون: هجره شيطانه، وودعه، فاغتم النبي ﷺ لذلك فلما نزلت والضحي كبر رسول الله ﷺ فرحاً بنزول الوحي، فاتخذته سنة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ثنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بزة، وقرأت عليه قال لي: قرأتُ على عكرمة بن سليمان، وأخبرني أنه قرأ على إسماعيل بن قسطنطين وشبل بن عباد فلما بلغت ﴿ والضحي ﴾ قال لي: كبر حتى تختم، مع خاتمة كل سورة، فإننا قرأنا على ابن كثير فأمرنا بذلك. وأخبرنا أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك، وأخبره مجاهد أنه قرأ على ابن عباس فأمره بذلك، وأخبره ابن عباس أنه قرأ على أبي بن كعب فأمره بذلك وأخبره أبي أنه قرأ على النبي ﷺ فأمره بذلك، وكان سبب التكبير أن الوحي لما احتبس قال المشركون هجره شيطانه، وودعه، فاغتم النبي ﷺ لذلك، فلما نزل ﴿ والضحي ﴾ كبر رسول الله ﷺ فرحاً بنزول الوحي، فاتخذوه سنة.

سورة ألم نشرح

مكية وهي ثمان آيات وسبع وعشرون كلمة ومائة وثلاثة أحرف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ ۖ

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ استفهام بمعنى التقرير، أي قد فعلنا ذلك ومعنى الشرح الفتح بما يصده عن الإدراك والله تعالى فتح صدر نبيه ﷺ للهدى، والمعرفة بإذهاب الشواغل التي تصده عن إدراك الحق، وقيل معناه ألم نفتح قلبك ونوسعه ونلينه بالإيمان، والموعظة، والعلم، والنبوة، والحكمة، وقيل هو شرح صدره في صغره (م) عن أنس رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه، فاستخرجه فاستخرج منه علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه ثم أعاده إلى مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه يعني ظئره فقالوا: إن محمداً قد قتل فاستقبلوه، وهو منتقع اللون. قال أنس: وقد كنت أرى أثر المخيط في صدره» ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾ أي حططنا عنك وزرك الذي سلف منك في الجاهلية فهو كقوله ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ وقيل الخطأ والسهو وقيل ذنوب أمتك فأضافها إليه لاشتغال قلبه بها، وقيل المراد بذلك ما أثقل ظهره من أعباء الرسالة حتى يبلغها لأن الوزر في اللغة الثقل تشبيهاً بوزر الجبل، وقيل معناه عصمتك عن الوزر الذي ينقض ظهره لو كان ذلك الوزر حاصلاً فسمي العصمة وضعاً مجازاً.

واعلم أن القول في عصمة الأنبياء قد تقدم مستوفى في سورة طه عند قوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ وعند قوله ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾.

الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۖ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۚ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۚ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۚ

﴿الذي أنقض ظهره﴾ أي أثقله وأوهنه حتى سمع له نقيض وهو الصوت الخفي الذي يسمع من المحمل، أو

سُورَةُ الشَّرْحِ

مكية وهي ثمان آيات.

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، ألم نفتح ونوسع ونلين لك قلبك بالإيمان والنبوة والعلم والحكمة؟.

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾، قال الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك: حططنا عنك الذي سلف منك في الجاهلية، وهو كقوله: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ [الفتح: ٢]. وقال الحسين بن الفضل: يعني الخطأ والسهو. وقيل: ذنوب أمتك فأضافها إليه لاشتغال قلبه بهم.

﴿الذي أنقض ظهره﴾، أثقل ظهره فأوهنه حتى سمع له نقيض أي صوت. وقال عبد العزيز بن يحيى وأبو

الرحل فوق البعير، فمن حمل الوزر على ما قبل النبوة قال هو اهتمام النبي ﷺ بأمور كان فعلها قبل نبوته إذ لم يرد عليه شرع بتحريمها، فلما حرمت عليه بعد النبوة عدها أوزاراً وثقلت عليه وأشفق منها فوضعها الله عنه وغفرها له ومن حمل ذلك على ما بعد النبوة قال: هو ترك الأفضل لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين، وقوله عز وجل: ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ روى البغوي بإسناد الثعلبي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ «أنه سأل جبريل عن هذه الآية، ورفعنا لك ذكرك قال: قال الله عز وجل: إذا ذكرت ذكرت معي» قال ابن عباس: يريد الأذان، والإقامة، والتشهد، والخطبة على المنابر، فلو أن عبداً عبد الله وصدقه في كل شيء، ولم يشهد أن محمداً ﷺ لم ينتفع من ذلك بشيء وكان كافراً، وقال قتادة: رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادي أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله وقال الضحاك: لا تقبل صلاة إلا به ولا تجوز خطبة إلا به، وقال مجاهد يريد التأذين وفيه يقول حسان بن ثابت:

أغر عليه للنبوة خاتم	من الله مشهود يلوح ويشهد
وضم الإله اسم النبي مع اسمه	إذا قال في الخمس المؤذن أشهد
وشق له من اسمه ليحمله	فدو العرش محمود وهذا محمد

وقيل رفع ذكره بأخذ ميثاقه على النبيين، وإلزامهم الإيمان به، والإقرار بفضله، وقيل رفع ذكره بأن قرن اسمه باسمه في قوله «محمد رسول الله» وفرض طاعته على الأمة بقوله: «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول» ومن يطع الله ورسوله فقد فاز، ونحو ذلك مما جاء في القرآن وغيره من كتب الأنبياء ثم وعده باليسر، والرخاء بعد الشدة والعناء، وذلك أنه

عبيدة: يعني خففنا عنك أعباء النبوة والقيام بأمرها.

﴿ورفعنا لك ذكرك﴾، أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أنا أبو القاسم عبد الخالق بن علي المؤذن ثنا أبو بكر بن حبيب ثنا أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل ثنا صفوان يعني بن صالح أبو عبد الملك ثنا الوليد يعني بن مسلم حدثني عبد الله بن لهيعة عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه سأل جبريل عليه السلام عن هذه الآية ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ قال: قال الله تعالى: «إذا ذُكِرْتُ ذُكِرْتُ معي»، وعن الحسن قال: ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ إذا ذكرت ذكرت. وقال عطاء عن ابن عباس: يريد الأذان والإقامة والتشهد والخطبة على المنابر، ولو أن عبداً عبد الله وصدقه في كل شيء ولم يشهد أن محمداً رسول الله لم ينتفع بشيء، وكان كافراً. وقال قتادة: رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادي أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. وقال الضحاك: لا تقبل صلاة إلا به ولا تجوز خطبة إلا به. وقال مجاهد: يعني بالتأذين، وفيه يقول حسان بن ثابت:

ألم تر أن الله أرسل عبده	ببرهانه واللَّهُ أعلى وأمجد
أغر عليه للنبوة خاتم	من الله مشهود يلوح ويشهد
وضم الإله اسم النبي مع اسمه	إذا قال في الخمس المؤذن أشهد
وشق له من اسمه ليحمله	فدو العرش محمود وهذا محمد

وقيل رفعه بأخذ ميثاقه على النبيين وإلزامهم الإيمان به والإقرار بفضله، ثم وعده اليسر والرخاء بعد الشدة، وذلك أنه كان بمكة في شدة.

كان في شدة بمكة فقال تعالى ﴿فإن مع العسر يسراً﴾ أي مع الشدة التي أنت فيها من جهاد المشركين يسراً ورخاء بأن يظهرهم عليهم حتى ينقادوا للحق الذي جتتهم به ﴿إن مع العسر يسراً﴾ وإنما كرره لتأكيد الوعد وتعظيم الرجاء قال الحسن: لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «أبشروا فقد جاءكم اليسر لن يغلب عسر يسرين» وقال ابن مسعود: لو كان العسر في حجر لطلبه اليسر حتى يدخله عليه ويخرجه إنه لن يغلب عسر يسرين قال المفسرون في معنى قوله لن يغلب عسر يسرين إن الله تعالى كرر لفظ العسر، وذكره بلفظ المعرفة، وكرر اليسر بلفظ النكرة، ومن عادة العرب. إذا ذكرت اسماً معرفاً ثم أعادته كان الثاني هو الأول وإذا ذكرت اسماً نكرة ثم أعادته كان الثاني غير الأول كقولك كسبت درهماً فأنفقت درهماً. فالثاني غير الأول وإذا قلت كسبت درهماً، فأنفقت الدرهم فالثاني هو الأول، فالعسر في الآية مكرر بلفظ التعريف فكان عسراً واحداً، واليسر مكرر بلفظ التنكير فكانا يسرين، فكأنه قال فإن مع العسر يسراً إن مع ذلك العسر يسراً آخر وزيف أبو على الحسن بن يحيى الجرجاني صاحب النظم هذا القول، وقال قد تكلم الناس في قوله لن يغلب عسر يسرين فلم يحصل منه غير قولهم إن العسر معرفة، واليسر نكرة، فوجب أن يكون عسر واحد ويسران وهو قول مدخول فيه إذا قال الرجل إن مع الفارس سيفاً إن مع الفارس سيفاً فهذا لا يوجب أن يكون الفارس واحداً والسيف اثنين فمجاز قوله لن يغلب عسر يسرين أن الله عز وجل بعث نبيه ﷺ وهو مقل مخف، فكانت قریش تعيره بذلك حتى قالوا: إن كان بك طلب الغنى جمعنا لك مالاً حتى تكون كأيسر أهل مكة فاغتم النبي ﷺ لذلك، وظن أن قومه إنما كذبوه لفقره فعدد الله نعمه عليه في هذه السورة، ووعد الغنى ليسليه بذلك عما خامره من الغم. فقال تعالى: ﴿فإن مع العسر يسراً﴾ أي لا يحرنك الذي يقولون فإن مع العسر الذي في الدنيا يسراً عاجلاً، ثم أنجز ما وعده وفتح عليه القرى القريبة، ووسع ذات يده حتى كان يعطي المئين من الإبل، ويهب الهبة السنية ثم ابتدأ فضلاً آخر من أمور الآخرة فقال تعالى: ﴿إن مع العسر يسراً﴾ والدليل على ابتدائه تعريه من الفاء والواو، وهذا وعد لجميع المؤمنين، والمعنى أن مع العسر الذي في الدنيا للمؤمن يسراً في الآخرة وربما اجتمع له اليسران يسر الدنيا وهو ما ذكره في الآية الأولى ويسر الآخرة وهو ما ذكره في الآية الثانية فقوله لن يغلب عسر يسرين أي إن عسر الدنيا

فقال: ﴿فإن مع العسر يسراً﴾ * إن مع العسر يسراً﴾ أي مع الشدة التي أنت فيها من جهاد المشركين يسراً ورخاء بأن يظهرهم عليهم حتى ينقادوا للحق الذي جتتهم به إن مع العسر يسراً كرره لتأكيد الوعد وتعظيم الرجاء وقال الحسن لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «أبشروا قد جاءكم اليسر، لن يغلب عسر يسرين»، قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: لو كان العسر في حجر لطلبه اليسر حتى يدخل، إنه لن يغلب عسر يسرين. قال المفسرون: ومعنى قوله: «لن يغلب عسر يسرين» إن الله تعالى كرر العسر بلفظ المعرفة واليسر بلفظ النكرة، ومن عادة العرب إذا ذكرت اسماً معرفاً، ثم أعادته كان الثاني هو الأول، وإذا ذكرت نكرة ثم أعادته مثله صار اثنين، وإذا أعادته معرفة فالثاني هو الأول، كقولك: إذا كسبت درهماً أنفقت الدرهم، فالثاني غير الأول، وإذا قلت إذا كسبت درهماً فأنفقت درهماً، فالثاني هو الأول، فالعسر في الآية مكرر بلفظ التعريف، فكان عسراً واحداً، واليسر مكرر بلفظ النكرة، فكانا يسرين، كأنه قال: فإن مع العسر يسران، مع ذلك العسر يسراً آخر. وقال أبو علي الحسين بن يحيى بن نصر الجرجاني صاحب النظم تكلم الناس في قوله: «لن يغلب عسر يسرين»، فلم يحصل منه غير قولهم: إن العسر معرفة واليسر نكرة. فوجب أن يكون عسر واحد ويسران، وهذا قول مدخول، إذا قال الرجل: إن مع الفارس سيفاً إن مع الفارس سيفاً، فهذا لا يوجب أن يكون الفارس واحد والسيف اثنان، فمجاز قوله: لن يغلب عسر يسرين أن الله بعث نبيه ﷺ وهو مقل مخف، فكانت قریش تعيره بذلك، حتى قالوا: إن كان بك طلب الغنى جمعنا لك مالاً حتى تكون كأيسر أهل مكة، فاغتم النبي ﷺ لذلك، فظن أن قومه إنما يكذبونه لفقره، فعدد الله نعمه عليه في هذه

لن يغلب اليسر الذي وعده الله للمؤمنين في الدنيا واليسر الذي وعدهم في الآخرة إنما يغلب أحدهما وهو يسر الدنيا فأما يسر الآخرة، فدائم أبداً غير زائل، أي لا يجتمعان في الغلبة فهو كقوله ﷺ «شعرا عبد لا ينقصان» أي لا يجتمعان في النقص قال القشيري: كنت يوماً في البادية بحالة من الغم فألقى في روعي بيت شعر فقالت:

أرى المـوت لـمـن أصـ بـح مـغـمـو مـأ لـه أروـح
فلما جن الليل سمعت هاتفاً يهتف في الهواء:

ألا يـا أيـها المـرء الـ لـذي الـهـم بـه بـرح
وقـد أنشـد بيـتاً لـم يـزل فـي فـكـره يـسـرح
إذا اشـتد بـك العـسـر فـفـ كـر فـي أـلم نـشـرح
فعـسـر بيـن يـسـريـن إذا أبـصـرتـه فـافـرح

قال فحفظت الأبيات ففرج الله عني وقال إسحاق بن بهلول القاضي:

فـلا تيـأس إذا أعـسرت يـوماً فقـد أيسـرت فـي دهر طـويل
ولا تـظنن بـربك ظـن سـوء فإـن الله أولـى بـالجميـل
فإـن العـسر يـتبعـه يـسار وقـول الله أصـدق كـل قـيل

وقال أحمد بن سليمان في المعنى:

تـوقـع لعـسر دهاك سـروراً تـرى العـسر عـنك يـسر تـسرى
فـما الله يـخلف مـيعادـه وقـد قال إـن مـع العـسر يـسرا
وقال غيره:

وكل الحادثات إذا تناهت يكون وراءها فرج قريب

﴿إِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ ﴿وَلِكِ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾

قوله عز وجل: ﴿إِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ لما عدد الله على نبيه ﷺ نعمه السالفة حثه على الشكر، والاجتهاد في

السورة، ووعد الغنى يسلي به ذلك عما خامره من الغم، فقال: ﴿إِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾، مجازة: لا يحزنك ما يقولون فإن مع العسر يسراً في الدنيا عاجلاً، ثم أنجزه ما وعده، وفتح عليه القرى العربية ووسّع عليه ذات يده، حتى كان يعطي المشين من الإبل ويهب الهبات السيئة، ثم ابتداءً فضلاً آخر من أمر الآخرة، فقال: إن مع العسر يسراً، والدليل على ابتدائه تعريه من الفاء والواو وهذا وعد لجميع المؤمنين، ومجازة: إن مع العسر يسراً أي إن مع العسر في الدنيا للمؤمن يسراً في الآخرة، فربما اجتمع له اليسر في الدنيا وهو ما ذكره في الآية الثانية، فقوله عليه السلام: لن يغلب عسر يسرين، أي: لن يغلب عسر الدنيا اليسر الذي وعده للمؤمنين في الدنيا واليسر الذي وعدهم في الآخرة، وإنما يغلب أحدهما هو يسر الدنيا، وأما يسر الآخرة فدائم غير زائل أي لا يجمعهما في الغلبة، كقوله ﷺ: «شهر عيد لا ينقصان» أي لا يجتمعان في النقصان.

﴿إِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾، أي فاتعب، والنصب: التعب، قال ابن عباس وقتادة والضحاك ومقاتل والكلبي:

﴿إِذَا فَرَغْتَ﴾ من الصلاة المكتوبة فانصب إلى ربك في الدعاء، وارغب إليه في المسألة يعطك. وروى عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه قال: إذا صليت فاجتهد في الدعاء والمسألة. وقال ابن مسعود: إذا فرغت من

العبادة، والنصب فيها وأن لا يخلي وقتاً من أوقاته منها، فإذا فرغ من عبادة أتبعها بأخرى، والنصب التعب قال ابن عباس: إذا فرغت من الصلوة المكتوبة، فانصب إلى ربك في الدعاء، وارغب إليه في المسألة وقال ابن مسعود: إذا فرغت من الفرائض، فانصب في قيام الليل، وقيل إذا فرغت من التشهد فادع لدينك وآخرتك، وقيل إذا فرغت من جهاد عدوك فانصب في عبادة ربك، وقيل إذا فرغت من تبليغ الرسالة فانصب في الاستغفار لك وللمؤمنين. قال عمر بن الخطاب إني لأكره أن أرى أحداً فارغاً سهلاً لا في عمل دنياه ولا في عمل آخرته. السهل الذي لا شيء معه، وقيل السهل الباطل ﴿والى ربك فارغب﴾ أي تضرع إليه راغباً في الجنة راغباً من النار، وقيل اجعل رغبتك إلى الله تعالى في جميع أحوالك لا إلى أحد سواه والله أعلم.

الفرائض فانصب في قيام الليل. وقال الشعبي: إذا فرغت من التشهد فادع لدينك وآخرتك. وقال الحسن وزيد بن أسلم: إذا فرغت من جهاد عدوك فانصب في عبادة ربك. وقال منصور عن مجاهد: إذا فرغت من أمر الدنيا فانصب في عبادة ربك وصل. وقال حيّان عن الكلبي: إذا فرغت من تبليغ الرسالة فانصب، أي: استغفر لذنبك وللمؤمنين.

﴿والى ربك فارغب﴾، قال عطاء تضرع إليه راغباً من النار راغباً في الجنة. وقيل: فارغب إليه في جميع أحوالك. قال الزجاج: أي اجعل رغبتك إلى الله وحده.

سورة والتين

(مكية وهي ثمان آيات وأربع وثلاثون كلمة ومائة وخمسة أحرف)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ

أَسْفَلَ سَفَلِينَ ﴿٥﴾

قوله عز وجل: ﴿والتين والزيتون﴾ قال ابن عباس: هو تينكم الذي تأكلون وزيتونكم الذي تعصرون منه الزيت، قيل إنما خص التين بالقسم لأنه فاكهة مخلصة من شوائب التنغيص، وفيه غذاء ويشبه فواكه الجنة لكونه بلا عجم.

ومن خواصه أنه طعام لطيف سريع الهضم لا يمكث في المعدة يخرج بطريق الرشح ويلين الطبيعة، ويقلل البلغم وأما الزيتون فإنه من شجرة مباركة فيه إدام ودهن يؤكل ويستصبح به وشجرته في أغلب البلاد ولا يحتاج إلى خدمة وتربية وينبت في الجبال التي ليست فيها دهنية ويمكث في الأرض ألوفاً من السنين، فلما كان فيهما من المنافع، والمصالح الدالة على قدرة خالقهما لا جرم أقسم الله بهما، وقيل هما جبلان فالتين الجبل الذي عليه دمشق والزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس، واسمهما بالسريانية طور تيناً وطور زيتاً لأنهما ينبتان التين والزيتون، وقيل هما مسجدان فالتين مسجد دمشق والزيتون مسجد بيت المقدس، وإنما حسن القسم بهما لأنهما موضع الطاعة، وقيل التين مسجد أصحاب الكهف والزيتون مسجد إيلياء، وقيل التين مسجد نوح الذي بناه على الجودي والزيتون مسجد

سُورَةُ التِّينِ

مكية وهي ثمان آيات.

﴿والتين والزيتون﴾، قال ابن عباس والحسن ومجاهد وإبراهيم وعطاء بن أبي رباح ومقاتل والكلبي: هو تينكم الذي تأكلونه وزيتونكم هذا الذي تعصرون منه الزيت. قيل: خص التين بالقسم لأنها فاكهة مختصة لا عجم فيها، شبيهة بفواكه الجنة. والزيتون شجرة مباركة جاء بها الحديث وهو تمر ودهن يصلح للاصطباج والاصطباح. وقال عكرمة: هما جبلان. قال قتادة: التين الجبل الذي عليه دمشق والزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس لأنهما ينبتان التين والزيتون. وقال الضحاك: هما مسجدان بالشام. قال ابن زيد: التين مسجد دمشق والزيتون مسجد بيت المقدس. وقال محمد بن كعب: التين مسجد أصحاب الكهف والزيتون مسجد إيلياء.

﴿وطور سينين﴾، يعني الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام وذكرنا معناه عند قوله: ﴿وشجرة تخرج من طور سيناء﴾ [المؤمنون: ٢٠].

بيت المقدس ﴿وطور سينين﴾ يعني الجبل الذي كلم الله موسى عليه الصلاة والسلام وسينين اسم للمكان الذي فيه الجبل سمي سينين وسيناء لحسنه ولكونه مباركاً وكل جبل فيه أشجار مثمرة يسمى سينين وسيناء ﴿وهذا البلد الأمين﴾ يعني الآمن، وهو مكة حرسها الله تعالى لأنه الحرم الذي يأمن فيه الناس في الجاهلية والإسلام لا ينفر صيده ولا يعضد شجره، ولا تلتقط لقطته إلا لمتشد وهذه أقسام أقسم الله بها لما فيها من المنافع والبركة وجواب القسم قوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ يعني في أعدل قامة، وأحسن صورة، وذلك أنه تعالى خلق كل حيوان منكباً على وجهه يأكل بفيه إلا الإنسان فإنه خلقه مديد القامة حسن الصورة يتناول مأكوله بيده مزيناً بالعلم، والفهم، والعقل، والتمييز، والمنطق. ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ يعني إلى الهرم وأرذل العمر فيضعف بدنه وينقص عقله والسافلون هم الضعفاء، والزمنى والأطفال والشيخ الكبير أسفل من هؤلاء جميعاً لأنه لا يستطيع حيلة، ولا يهتدي سبيلاً لضعف بدنه وسمعه وبصره وعقله، وقيل ثم رددناه إلى النار لأنها دركات بعضها أسفل من بعض ثم استثنى فقال تعالى:

إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ

الْحَكِيمِ ﴿٨﴾

﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ فإنهم لا يردون إلى النار أو إلى أسفل سافلين وعلى القول الأول يكون الاستثناء منقطعاً، والمعنى ثم رددناه أسفل سافلين فزال عقله وانقطع عمله فلا تكتب له حسنة لكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولازموا عليها إلى أيام الشيخوخة والهرم والضعف، فإنه يكتب لهم بعد الهرم والخرف مثل الذي كانوا يعملون في حالة الشباب والصحة وقال ابن عباس: هم نفر ردوا إلى أرذل العمر على زمن النبي ﷺ فأنزل الله عذرهم وأخبرهم أن لهم أجرهم الذي عملوا قبل أن تذهب عقولهم فعلى هذا القول السبب خاص وحكمه عام قال عكرمة ما يضر هذا الشيخ كبره إذا ختم الله له بأحسن ما كان يعمل وروي عن ابن عباس: قال إلا الذين قرؤوا القرآن وقال: من

﴿وهذا البلد الأمين﴾، أي الآمن، يعني مكة يأمن فيه الناس في الجاهلية والإسلام، هذه أقسام والمقسم عليه قوله:

﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾، أعدل قامة وأحسن صورة، وذلك أنه تعالى خلق كل حيوان منكباً على وجهه إلا الإنسان خلقه مديد القامة يتناول مأكوله بيده مزيناً بالعقل والتمييز.

﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾، يريد إلى الهرم وأرذل العمر، فينقص عقله ويضعف بدنه، والسافلون هم الضعفاء والزمنى والأطفال، فالشيخ الكبير من هؤلاء جميعاً، وأسفل سافلين نكرة تعم الجنس، كما تقول: فلان أكرم قائم. وفي مصحف عبد الله ﴿أسفل السافلين﴾. وقال الحسن وقتادة ومجاهد: يعني ثم رددناه إلى النار، يعني إلى أسفل السافلين، لأن جهنم بعضها أسفل من بعض. قال أبو العالية: يعني إلى النار في شر صورة في صورة خنزير.

ثم استثنى فقال: ﴿إلا الذين آمنوا﴾، فإنهم لا يردون إلى النار. ومن قال بالقول الأول قال: رددناه أسفل سافلين، فزال عقلهم وانقطعت أعمالهم، فلا يكتب لهم حسنة إلا الذين آمنوا. ﴿وعملوا الصالحات﴾، فإنه يكتب لهم بعد الهرم، والخرف، مثل الذي كانوا يعملون في حال الشباب والصحة. وقال ابن عباس: هم نفر ردوا إلى أرذل العمر على عهد رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى عذرهم، فأخبر أن لهم أجرهم الذي عملوا قبل أن تذهب عقولهم. قال عكرمة: لم يضر هذا الشيخ كبره إذ ختم الله له بأحسن ما كان يعمل. وروي عاصم الأحول عن

قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر ﴿فلهم أجر غير ممنون﴾ يعني غير مقطوع لأنه يكتب له بصلاح ما كان يعمل قال الضحاك: أجر بغير عمل ثم قال الزاماً للحجة. ﴿فما يكذبك﴾ يعني يا أيها الإنسان وهو خطاب على طريق الالتفات ﴿بعد﴾ أي بعد هذه الحجة والبرهان ﴿بالدين﴾ أي بالحساب والجزاء، والمعنى فما الذي يلجئك أيها الناس إلى هذا الكذب ألا تتفكر في صورتك وشبابك، ومبدأ خلقك، وهرمك، فتعتبر وتقول أن الذي فعل ذلك قادر على أن يبعثني ويحاسبني، فما الذي يكذبك بالمجازاة، وقيل هو خطاب للنبي ﷺ والمعنى فمن يكذبك أيها الرسول بعد ظهور هذه الدلائل، والبراهين ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ أي بأقضى القاضين يحكم بينكم وبين أهل التكذيب يوم القيامة عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من قرأ التين والزيتون، فقرأ أليس الله بأحكم الحاكمين، فليقل بلى وأنا على ذلك من الشاهدين» أخرجه الترمذي وعن البراء أن النبي ﷺ كان في سفر فصلى العشاء الأخيرة فقرأ في إحدى الركعتين بالتين والزيتون فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه ﷺ والله تعالى أعلم.

عكرمة عن ابن عباس قال: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ قال: إلا الذين قرؤوا القرآن، وقال: من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر. ﴿فلهم أجر غير ممنون﴾، غير مقطوع لأنه يكتب له كصلاح ما كان يعمل. قال الضحاك: أجر بغير عمل، ثم قال: إلزاماً للحجة.

﴿فما يكذبك﴾، أيها الإنسان، ﴿بعد﴾، أي بعد هذه الحجة والبرهان، ﴿بالدين﴾، بالحساب والجزاء والمعنى، ألا تتفكر في صورتك وشبابك وهرمك فتعتبر وتقول إن الذي فعل ذلك قادر على أن يبعثني ويحاسبني، فما الذي يكذبك بالمجازاة بعد هذه الحجج.

﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾، بأقضى القاضين، قال مقاتل: يحكم بينك وبين أهل التكذيب يا محمد. وروينا أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ التين والزيتون فانهي إلى آخرها: أليس الله بأحكم الحاكمين، فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل أنا أبو الوليد ثنا شعبة عن عدي قال: سمعت البراء قال: إن النبي ﷺ كان في سفر فقرأ في العشاء في إحدى الركعتين بالتين والزيتون.

سورة العلق

(مكية وهي تسع عشرة آية واثنان وتسعون كلمة ومائتان وثمانون حرفاً)

قال أكثر المفسرين هذه السورة أول سورة نزلت من القرآن وأول ما نزل خمس آيات من أولها إلى قوله ﴿ما لم يعلم﴾ (ق) عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: «أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة» ولمسلم «الصداقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبيت إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه، وهو التعب الليلي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الوحي» وفي رواية حتى فجأه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال اقرأ قال ما أنا بقارئ قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ قلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم﴾ حتى بلغ ﴿ما لم يعلم﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره حتى دخل على خديجة بنت خويلد فقال زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع ثم قال لخديجة أي خديجة مالي وأخبرها الخبر قال لقد خشيت على نفسي قالت له خديجة كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتصديق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزي وهو ابن عم خديجة، وكان امرؤ تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب وكان شيخاً كبيراً قد عمي فقالت له خديجة: أي ابن عم اسمع من ابن أخيك فقال: له ورقة يا ابن أخي ماذا ترى فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى فقال له ورقة هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى يا ليتني فيها جذعاً ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك فقال رسول الله ﷺ، أو مخرجي هم قال نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك حياً أنصرك نصراً مؤزراً ثم لم يلبث ورقة أن توفي وفتر الوحي» زاد البخاري قال: حتى حزن النبي ﷺ فيما بلغنا حزناً غداً منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهد الجبال فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه تبدى له جبريل فقال يا محمد إنك رسول الله ﷺ حقاً فيسكن لذلك جأشه وتقر عينه، فيرجع فإذا طالت عليه فترة الوحي غداً لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة الجبل لكي يلقي نفسه منه تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك.

سُورَةُ الْعَلَقِ

مَكِّيَّةٌ وَهِيَ تِسْعٌ عَشْرَةَ آيَةً.

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾، أكثر المفسرين: على أن هذه أول سورة نزلت من القرآن، وأول ما نزل خمس آيات من أولها إلى قوله: ﴿ما لم يعلم﴾ أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يحيى بن بكير ثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير

(فصل)

في هذا الحديث دليل صحيح صريح على أن سورة اقرأ أول ما نزل من القرآن وفيه رد على من قال إن المدثر أول ما نزل من القرآن، وقد تقدم الكلام على ذلك والجمع بين القولين في أول سورة المدثر وهذا الحديث من مراسيل الصحابة لأن عائشة لم تدرك هذه القصة فيحتمل أنها سمعتها من النبي ﷺ أو من غيره من الصحابة ومرسل الصحابي حجة عند جميع العلماء إلا ما انفرد به الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني، وإنما ابتدئ ﷺ بالرؤيا لثلا يفجأه الملك، فيأتيه بصريح النبوة بغتة فلا تحملها القوى البشرية، فبدئ بأول علامات النبوة توطئه للوحي، وأما التحنث فقد فسر في الحديث بالتعبد، وهو تفسير صحيح لأن أصل التحنث من الحنث، وهو الإثم، والمعنى أنه فعل فعلاً يخرج به من الإثم وقولها فجأة الحق أي جاءه الحق بالوحي بغتة.

قوله: فغطني بالغين المعجمة، والطاء المشالة المهملة، أي عصرتني، وضمني ضمّاً شديداً، وهو قوله حتى بلغ مني الجهد قال العلماء: والحكمة في الغط شغله عن الالتفات إلى غيره، والمبالغة في صفاء قلبه ولهذا كرره ثلاثاً.

قوله زملوني زملوني كذا هو في الروايات مكرر مرتين، ومعناه غطوني بالثياب، وقوله حتى ذهب عنه الروح أي الفزع قولها كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً يروى بضم الياء وبالحاء المعجمة من الخزي أي لا يفضحك الله، ولا يكسرك، ولا يهينك ولا يذلّك وروي بفتح الياء وبالحاء المهملة وبالنون أي لا يحزنك من الحزن الذي هو ضد الفرح وقولها وتحمل الكل أي الثقيل والحوائج المهمة، وتكسب المعدوم أي تعطي المال لمن هو معدوم عنده ومعنى كلام خديجة أنك لا يصيبك مكروه لما جعل فيك من مكارم الأخلاق وحميد الفعال. وخصال الخير وذلك سبب السلامة من مصارع السوء.

عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، وكان لا يرى رؤياً إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه، وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزوّد لذلك ثم يرجع إلى خديجة، فيتزوّد لمثلها حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال: «ما أنا بقارىء»، قال: «فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني»، فقال: اقرأ، فقلت: «ما أنا بقارىء»، قال: «فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني»، فقال: اقرأ، فقلت: «ما أنا بقارىء»، «فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني»، فقال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علّم بالقلم * علّم الإنسان ما لم يعلم﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال: «زملوني» فزملوه حتى ذهب عنه الروح، فقال لخديجة وأخبرها الخبر، وقال: «لقد خشيت على نفسي»، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن عمّ خديجة، وكان امرأ تنصّر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العربي، فيكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى، فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله: «أومخرجي هم؟» قال: نعم لم يأت رجل قط ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرأ مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة إلى أن توفي، وفتر الوحي. وروى محمد بن إسماعيل هذا الحديث في موضع آخر من كتابه عن يحيى بن بكير بهذا الإسناد، وقال:

قولها وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية وفي رواية مسلم «وكان يكتب الكتاب العربي يكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله تعالى أن يكتب» ومعناها صحيح وحاصله أنه تمكن من دين النصرانية بحيث صار يتصرف في الإنجيل، فيكتب أي موضع شاء منه بالعبرانية إن أراد، أو بالعربية إن أراد ذلك، قوله هذا التأموس الذي أنزل الله على موسى هو بالنون والسين المهملة، يعني جبريل عليه الصلاة والسلام ومعنى التأموس صاحب خبر الخير. إنما سمي جبريل بذلك لأن الله خصه بالوحي إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قوله يا ليتني فيها، أي في أيام النبوة وإظهار الرسالة جذعاً أي شاباً قوياً حتى أبلغ في نصرتك، وهو قوله وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً أي قوياً بالغاً قولها ثم لم يلبث ورقة أن توفي أي فلم يلبث أن مات قبل ظهور النبي ﷺ قوله كي يتردى التردى الوقوع من علو، وذروة الجبل أعلاه قوله تبدى له أي ظهر له قوله فيسكن لذلك جأشه أي قلبه، وقيل الجأش هو ثبوت القلب عند الأمر العظيم المهور، وقيل الجأش هو ما ثار من فزع وهاج من حزنه والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾

قوله عز وجل: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ قيل الباء زائدة مجازة اقرأ اسم ربك، والمعنى اذكر اسم ربك أمر أن يتبدى القراءة باسم الله تأديباً، وقيل الباء على أصلها والمعنى اقرأ القرآن مفتتحاً باسم ربك أي قل بسم الله، ثم اقرأ فعلى هذا يكون في الآية دليل على استحباب البداءة بالتسمية في أول القراءة، وقيل معناه اقرأ القرآن مستعيناً باسم ربك على ما تتحمله من النبوة وأعباء الرسالة ﴿الذي خلق﴾ يعني جميع الخلائق وقيل الذي حصل منه الخلق واستأثر به لا خالق سواه وقيل الذي خلق كل شيء.

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ

لَطَغِيٍّ ﴿٦﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْتَى ﴿٧﴾ إِنَّ لَكَ رَبِّكَ الرَّحْمَنَ ﴿٨﴾ أَرَاهُ يَتَكَبَّرُ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿١٠﴾

﴿خلق الإنسان﴾ يعني آدم وإنما خص الإنسان بالذكر من بين سائر المخلوقات لأنه أشرفها، وأحسنها خلقه ﴿من علق﴾ جمع علقه ولما كان الإنسان اسم جنس في معنى الجمع جمع العلق ولمشاكله رؤوس الآي أيضاً ﴿اقرأ﴾ كرره تأكيداً وقيل الأول اقرأ في نفسك، والثاني اقرأ للتبليغ وتعليم أمتك ثم استأنف. فقال تعالى: ﴿وربك الأكرم﴾

حدثني عبد الله بن محمد ثنا عبد الرزاق أنا معمر قال الزهري فأخبرني عروة عن عائشة وذكر الحديث، وقال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ حتى بلغ ﴿ما لم يعلم﴾ وزاد في آخره فقال: وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ، فيما بلغنا حزناً غداً منه مراراً حتى يتردى من رؤوس شواهد الجبال، فلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه، تبدى له جبريل فقال: يا محمد إنك رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غداً لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل، فقال له مثل ذلك. أخبرنا محمد بن إبراهيم الشريحي أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أنا عبد الله بن حامد الوراق أنا مكِّي بن عبدان أنا عبد الرحمن بن بشر ثنا سفيان عن محمد بن إسحاق عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: أول سورة نزلت قوله عز وجل: ﴿اقرأ باسم ربك﴾، قال أبو عبيدة مجازة: اقرأ اسم ربك يعني أن الباء زائدة، والمعنى: اذكر اسمه، أمر أن يتبدى القراءة باسم الله تأديباً، ﴿الذي خلق﴾ قال الكلبي: يعني الخلائق ثم فسره فقال:

﴿خلق الإنسان﴾ يعني ابن آدم، ﴿من علق﴾، جمع علقه.

يعني الذي لا يوازيه كريم ولا يعادله في الكرم نظير وقد يكون الأكرم بمعنى الكريم كما جاء الأعز بمعنى العزيز، وغاية الكريم إعطاؤه الشيء من غير طلب العوض، فمن طلب العوض فليس بكريم، وليس المراد أن يكون العوض عيناً بل المدح والثواب عوض والله سبحانه وجلّ جلاله وتعالى علاؤه وشأنه يتعالى عن طلب العوض ويستحيل ذلك في وصفه لأنه أكرم الأكرمين، وقيل الأكرم هو الذي له الابتداء في كل كرم وإحسان وقيل هو الحليم عن جهل العباد فلا يعجل عليهم بالعقوبة، وقيل يحتمل أن يكون هذا حثاً على القراءة، والمعنى اقرأ وربك الأكرم لأنه يجزي بكل حرف عشر حسنات ﴿الذي علم بالقلم﴾ أي الخط والكتابة التي بها تعرف الأمور الغائبة وفيه تنبيه على فضل الكتابة لما فيها من المنافع العظيمة لأن بالكتابة ضبطت العلوم، ودونت الحكم وبها عرفت أخبار الماضين، وأحوالهم وسيرهم ومقالاتهم ولولا الكتابة ما استقام أمر الدين والدنيا قال قتادة: القلم نعمة من الله عظيمة. لولا القلم لم يقيم دين ولم يصلح عيش، فسأل بعضهم عن الكلام، فقال ربح لا يبقى قيل له فما قيده قال الكتابة لأن القلم ينوب عن اللسان ولا ينوب اللسان عنه ﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾ قيل يحتمل أن يكون المراد علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم، فيكون المراد من ذلك معنى واحداً، وقيل علمه من أنواع العلم، والهداية، والبيان، ما لم يكن يعلم، وقيل علم آدم الأسماء كلها، وقيل المراد بالإنسان هنا محمد ﷺ.

قوله عز وجل: ﴿كلا﴾ أي حقاً ﴿إن الإنسان ليطغى﴾ أي يتجاوز الحد، ويستكبر على ربه ﴿أن﴾ أي لأن ﴿رآه استغنى﴾ أي رأى نفسه غنياً وقيل يرتفع عن منزلته إلى منزلة أخرى في اللباس والطعام وغير ذلك، نزلت في أبي جهل

﴿اقرأ﴾، كره تأكيداً ثم استأنف فقال: ﴿ وربك الأكرم ﴾، فقال الكلبي: الحليم عن جهل العباد لا يعجل عليهم بالعقوبة.

﴿الذي علم بالقلم﴾، يعني الخط والكتابة.

﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾، من أنواع الهدى والبيان. وقيل: علم آدم الأسماء كلها. وقيل: الإنسان ههنا محمد ﷺ، بيانه: «وعلمك ما لم تكن تعلم».

﴿كلا﴾، حقاً، ﴿إن الإنسان ليطغى﴾، ليتجاوز حدّه ويستكبر على ربّه.

﴿أن﴾، لأن، ﴿رآه استغنى﴾، أن رأى نفسه غنياً، قال الكلبي: يرتفع عن منزلة إلى منزلة في اللباس والطعام وغيرهما. وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل كان إذا أصاب مالا زاد في ثيابه ومركبه وطعامه فذلك طغيانه.

﴿إن إلى ربك الرجعى﴾، أي المرجع في الآخرة.

﴿أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى﴾، نزلت في أبي جهل نهى النبي ﷺ عن الصلاة. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج ثنا عبد الله بن معاذ ومحمد بن عبد الأعلى القيسي قالوا ثنا المعتمر عن أبيه حدثني نعيم بن أبي هند عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل: نعم، فقال: واللآلئ والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته ولأعفرن وجهه في التراب، قال: فأتاني رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليظاً على رقبته، فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: إن بيني وبينه لخذقاً من نار، وهولاً وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً»، قال: فأنزل الله - لا ندري في حديث أبي هريرة أو شيء بلغه - ﴿كلا إن الإنسان ليطغى﴾ * أن رآه

وكان قد أصاب مالا فزاد في ثيابه ومركبه وطعامه فذلك ظغيانه ﴿إِنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الرَّجْعِي﴾ أي المرجع في الآخرة وفيه تهديد، وتحذير لهذا الإنسان من عاقبة الطغيان، ثم هو عام لكل طاغ متكبر.

أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٤﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٥﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٨﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٩﴾

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾ نزلت في أبي جهل وذلك أنه نهى النبي ﷺ عن الصلاة (م) عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم، فقيل نعم فقال واللآت والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، ولأعفرن وجهه في التراب قال فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ليظاً على رقبته قال فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبه ويتقي بيديه، فقيل له ما لك قال إن بيني وبينه خندقاً من نار وهو لا وأجنحة فقال النبي ﷺ «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً» فأنزل الله هذه الآية، لا أدري في حديث أبي هريرة أو شيء بلغه كلا إن الإنسان ليطنى إلى قوله كلا لا تطعه قال: وأمره بما أمره به زاد في رواية، فليدع ناديه يعني قومه (خ) عن ابن عباس قال قال أبو جهل لئن رأيته محمداً يصلي عند البيت لأطأن على عنقه. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «لو فعله لأخذته الملائكة» زاد الترمذي عياناً ومعنى أَرَأَيْتَ تعجباً للمخاطب وهو رسول الله ﷺ وفائدة التنكير في قوله عبداً تدل على أنه كامل العبودية، والمعنى أَرَأَيْتَ الذي ينهي أشد الخلق عبودية عن العبودية، وهذا دأبه وعادته، وقيل إن هذا الوعيد يلزم لكل من ينهى عن الصلاة عن طاعة الله تعالى، ولا يلزم منه عدم جواز المنع من الصلاة في الدار المغصوبة، وفي الأوقات المكروهة لأنه قد ورد النهي عن ذلك في الأحاديث الصحيحة، ولا يلزم من ذلك أيضاً عدم جواز منع المولى عبده، والرجل زوجته عن قيام الليل، وصوم التطوع والاعتكاف لأن ذلك استيفاء مصلحة إلا أن يأذن فيه المولى أو الزوج ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ﴾ يعني العبد المنهي وهو النبي ﷺ ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ﴾ يعني في الإخلاص والتوحيد ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ﴾ يعني أبا جهل ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أي عن الإيمان وتقدير نظم الآية أَرَأَيْتَ الذي ينهى عبداً إذا صلى وهو على الهدى أمر بالتقوى والنأهي مكذب متول عن الإيمان أي أعجب من هذا ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ﴾ يعني أبا جهل ﴿بِأَنَّ اللَّهَ﴾

استغنى * إِنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الرَّجْعِي * أَرَأَيْتَ الذي ينهى * عبداً إذا صَلَّى * الآيات. ومعنى أَرَأَيْتَ ههنا تعجب للمخاطب، وكرّر هذه اللفظة للتأكيد.

﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ﴾، يعني العبد المنهي وهو محمد ﷺ.

﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ﴾، يعني بالإخلاص والتوحيد.

﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ﴾، يعني أبا جهل، ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾، عن الإيمان، وتقدير نظم الآية أَرَأَيْتَ الذي ينهى عبداً إذا صَلَّى وهو على الهدى، أمر بالتقوى، والنأهي مكذب متول عن الإيمان، فما أعجب من هذا.

﴿أَلَمْ يَعْلَمْ﴾، يعني أبا جهل، ﴿بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾، ذلك فيجازه به.

﴿كَلَّا﴾، لا يعلم ذلك، ﴿لئن لم ينته﴾، عن إيذاء محمد ﷺ وتكذيبه، ﴿لنسفعاً بالناسية﴾، لناخذن بنأصيته فلنجرنه من النار، كما قال: ﴿فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ [الرحمن: ٤١]، يقال: سعت بالشئ إذا أخذته وجذبتة جذباً شديداً، والنأصية: شعر مقدّم الرأس.

ثم قال على البدل: ﴿نأصية كاذبة خاطئة﴾، أي صاحبها كاذب خاطيء، قال ابن عباس: لما نهى أبو جهل

يرى ﴿ يعني يرى ذلك الفعل فيجازيه به ، وفيه وعيد شديد وتهديد عظيم ﴾ ﴿ كلا ﴾ أي لا يعلم ذلك أبو جهل ﴿ لئن لم ينته ﴾ يعني عن إيذاء محمد ﷺ وعن تكذيبه ﴿ لنسفعاً بالناصية ﴾ أي لناخذن بناصيته فلنجرنه إلى النار ، يقال سفعت بالشيء إذا أخذته وجذبتة جذباً شديداً والناصية شعر مقدم الرأس والسفع الضرب أي لنضربن وجهه في النار ، ولنسودن وجهه ولنذلنه ثم قال على البديل ﴿ ناصية كاذبة خاطئة ﴾ أي صاحبها كاذب خاطيء .

قال ابن عباس : لما نهى أبو جهل رسول الله ﷺ عن الصلاة انتهره رسول الله ﷺ فقال أبو جهل : أنتتهرني فوالله لأملأن عليك هذا الوادي إن شئت خيلاً جرداً ، ورجالاً مردأً وعن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يصلي فجاءه أبو جهل فقال : ألم أنك عن هذا ؟ فانصرف النبي ﷺ فزيره فقال أبو جهل إنك لتعلم ما بها ناد أكثر مني فأنزل الله تعالى ﴿ فليدع ناديه سندع الزبانية ﴾ قال ابن عباس : والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله أخرجه الترمذي ، وقال حديث حسن غريب صحيح ، ومعنى فليدع ناديه أي عشيرته قومه فليتنصر بهم ، وأصل النادي المجلس الذي يجمع الناس ، ولا يسمى نادياً ما لم يكن فيه أهله سندع الزبانية يعني الملائكة الغلاظ الشداد قال ابن عباس : يريد زبانية جهنم سموا بذلك لأنهم يدفعون أهل النار إليها بشدة مأخوذ من الزبن وهو الدفع ﴿ كلا ﴾ أي ليس الأمر على ما هو عليه أبو جهل ﴿ لا تطعه ﴾ أي في ترك الصلاة ﴿ واسجد ﴾ يعني صل الله ﴿ واقرب ﴾ أي من الله (م) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء» وهذه السجدة من عزائم سجود التلاوة عند الشافعي فيسن للقاريء ، والمستمع أن يسجد عند قراءتها يدل عليه ما روي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال «سجدنا مع رسول الله ﷺ في اقرأ باسم ربك وإذا السماء انشقت» أخرجه مسلم والله سبحانه وتعالى أعلم .

رسول الله ﷺ عن الصلاة انتهره رسول الله ﷺ ، فقال أبو جهل : أنتتهرني ؟ فوالله لأملأن عليك هذا الوادي إن شئت خيلاً جرداً ورجالاً مردأً .

قال الله عز وجل : ﴿ فليدع ناديه ﴾ ، أي قومه وعشيرته ، أي فليستنصر بهم .

﴿ سندع الزبانية ﴾ ، جمع زبني مأخوذ من الزبن ، وهو الدفع ، قال ابن عباس : يريد زبانية جهنم سموا بها لأنهم يدفعون أهل النار إليها ، قال الزجاج : هم الملائكة الغلاظ الشداد ، قال ابن عباس : لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله .

ثم قال : ﴿ كلا ﴾ ، ليس الأمر على ما عليه أبو جهل ، ﴿ لا تطعه ﴾ ، في ترك الصلاة ، ﴿ واسجد ﴾ ، صل لله ، ﴿ واقرب ﴾ ، من الله . أخبرنا أبو طاهر عمر بن عبد العزيز القاشاني أنا أبو عمر القاسم بن جعفر الهاشمي ثنا أبو علي محمد بن أحمد اللؤلؤي ثنا أبو داود سليمان بن الأشعث ثنا أحمد بن صالح وأحمد بن عمرو بن السراج ومحمد بن سلمة قالوا : أخبرنا وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن عمارة بن غزية عن سمي مولى أبي بكر أنه سمع أبا صالح ذكوان يحدث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء» .

سورة القدر

وهي مدنية وقيل إنها مكية والقول الأول أصح، وهو قول الأكثرين، قيل إنها أول ما نزل بالمدينة وهي خمس آيات وثلاثون كلمة ومائة واثناعشر حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾

قوله عز وجل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ يعني القرآن كناية عن غير مذكور ﴿في ليلة القدر﴾ وذلك أن الله تعالى أنزل القرآن العظيم جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ليلة القدر فوضعه في بيت العزة، ثم نزل به جبريل عليه السلام على النبي ﷺ نجوماً متفرقة في مدة ثلاث وعشرين سنة، فكان ينزل بحسب الوقائع، والحاجة إليه، وقيل إنما أنزله إلى السماء الدنيا لشرف الملائكة بذلك ولأنها كالمشترك بيننا وبين الملائكة، فهي لهم سكن ولنا سقف وزينة وسميت ليلة القدر لأن فيها تقدير الأمور، والأحكام، والأرزاق، والآجال، وما يكون في تلك السنة إلى مثل هذه الليلة من السنة المقبلة يقدر الله ذلك في بلاده وعباده، ومعنى هذا أن الله يظهر ذلك لملائكته ويأمرهم بفعل ما هو من وظيفتهم بأن يكتب لهم ما قدره في تلك السنة ويعرفهم إياه، وليس المراد منه أن يحدثه في تلك الليلة لأن الله تعالى قدر المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض في الأزل، قيل للحسين بن الفضل أليس قد قدر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض قال: نعم قيل له فما معنى ليلة القدر قال سوق المقادير إلى المواقيت وتنفيذ القضاء المقدر، وقيل سميت ليلة القدر لعظم قدرها وشرفها على الليالي من قولهم لفلان قدر عند الأمير، أي منزلة وجاه، وقيل

سُورَةُ الْقَدْرِ

مكية وهي خمس آيات.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، يعني القرآن كناية عن غير مذكور، أنزله جملة واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، فوضعه في بيت العزة، ثم كان ينزل به جبريل عليه السلام نجوماً في عشرين سنة.

ثم عجب نبيه فقال: ﴿وما أدراك ما ليلة القدر﴾، سُمِّيت ليلة القدر لأنها ليلة تقدير الأمور والأحكام، يقدر الله فيها أمر السنة في عباده وبلاده إلى السنة المقبلة، كقوله تعالى: ﴿فيها يفرق كل أمر حكيم﴾ [الدخان: ٤]، وهو مصدر قولهم: قدر الله الشيء بالتخفيف قدراً وقدراً، كالنهر والنهر والشعر والشعر، وقدره بالتشديد تقديرأ بمعنى واحد، قيل للحسين بن الفضل: أليس قد قدر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض؟ قال: نعم، قيل: فما معنى ليلة القدر؟ قال: سوق المقادير التي خلقها إلى المواقيت، وتنفيذ القضاء المقدر. وقال الأزهري: وليلة العظمة والشرف من قول الناس: لفلان عند الأمير قدر، أي جاه ومنزلة، يقال: قدرت فلاناً أي عظمته. قال

سميت بذلك لأن العمل الصالح يكون فيها ذا قدر عند الله لكونه مقبولاً، وقيل سميت بذلك لأن الأرض تضيق بالملائكة فيها.

(فصل في فضل ليلة القدر وما ورد فيها)

(ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»، واختلف العلماء في وقتها فقال بعضهم إنها كانت على عهد رسول الله ﷺ ثم رفعت لقوله ﷺ حين تلاحي الرجلان «إني خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحي فلان وفلان فرفعت وعسى أن يكون خيراً لكم» وهذا غلط ممن قال بهذا القول لأن آخر الحديث يرد عليهم فإنه ﷺ قال في آخره «فالتمسوها في العشر الأواخر في التاسعة والسابعة والخامسة»، فلو كان المراد رفع وجودها لم يأمر بالتمسائها وعامة الصحابة والعلماء فمن بعدهم على أنها باقية إلى يوم القيامة، روي عن عبد الله بن خنيس مولى معاوية قال قلت لأبي هريرة زعموا أن ليلة القدر رفعت قال كذب من قال ذلك قلت هي في كل شهر رمضان استقبله قال نعم.

ومن قال ببقائها ووجودها اختلفوا في محلها، فقليل هي منتقلة تكون في سنة في ليلة وفي سنة أخرى في ليلة أخرى هكذا أبداً قالوا: وبهذا يجمع بين الأحاديث الواردة في أوقاتها المختلفة وقال: مالك والثوري وأحمد، وإسحاق وأبو ثور، إنها تنتقل في العشر الأواخر من رمضان، وقيل بل تنتقل في رمضان كله، وقيل إنها في ليلة معينة لا تنتقل عنها أبداً في جميع السنين لا تفارقها، فعلى هذا هي في ليلة من السنة كلها وهو قول ابن مسعود وأبي حنيفة، وصاحبيه وروي عن ابن مسعود أنه قال: من يقيم الحول يصعبها فبلغ ذلك عبد الله بن عمر فقال يرحم الله أبا عبد الرحمن. أما إنه علم أنها في شهر رمضان ولكن أراد أن لا يتكل الناس وقال جمهور العلماء: أنها في شهر رمضان، واختلفوا في تلك الليلة فقال أبو رزين العقيلي: في أول ليلة من شهر رمضان، وقيل هي ليلة سبعة عشر وهي الليلة التي كانت صبيحتها وقعة بدر يحكى هذا عن زيد بن أرقم وابن مسعود أيضاً، والحسن والصحيح الذي عليه الأكثرون أنها في العشر الأواخر من رمضان والله سبحانه وتعالى أعلم.

الله تعالى: ﴿وما قدرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١، الزمر: ٦٧، الحج: ٧٤]، أي: ما عظموه حق تعظيمه. وقيل: لأن العمل الصالح فيه يكون ذا قدر عند الله لكونه مقبولاً. واختلفوا في وقتها فقال بعضهم: إنها كانت على عهد رسول الله ﷺ ثم رفعت، وعامة الصحابة والعلماء على أنها باقية إلى يوم القيامة. وروي عن عبد الله بن الحسين مولى معاوية قال: قلت لأبي هريرة: زعموا أن ليلة القدر قد رُفعت؟ قال: كذب من قال ذلك، قلت: هي في كل شهر؟ قال: لا بل في شهر رمضان، فاستقبله. وقال بعضهم: هي ليلة من ليالي السنة حتى لو علق رجل طلاق امرأته وعتق عبده بليلة القدر لا يقع ما لم تمض سنة من حين حلف، يُروى ذلك عن ابن مسعود، قال: من يقيم الحول يصعبها فبلغ ذلك عبد الله بن عمر فقال: يرحم الله أبا عبد الرحمن أما إنه علم أنها في شهر رمضان، ولكن أراد أن لا يتكل الناس والجمهور من أهل العلم على أنها في شهر رمضان، واختلفوا في تلك الليلة، قال أبو رزين العقيلي: هي أول ليلة من شهر رمضان، وقال الحسن: ليلة سبع عشرة، وهي الليلة التي كانت صبيحتها وقعة بدر. والصحيح والذي عليه الأكثرون: أنها في العشر الأواخر من شهر رمضان، أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي أنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي ثنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي ثنا أبو عيسى الترمذي ثنا هارون بن إسحاق الهمداني ثنا عبدة بن سليمان عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يجاور في العشر الأواخر من رمضان، ويقول: «تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان». أخبرنا أبو عثمان الضبي أنا أبو محمد الجراحي ثنا أبو العباس المحبوبي ثنا أبو عيسى ثنا قتيبة ثنا

(ذكر الأحاديث الواردة في ذلك)

(ق) عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يجاور العشر الأواخر من رمضان ويقول تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان» (م) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «أريت ليلة القدر ثم أيقظني بعض أهلي فنسيتها فالتمسوها في العشر الأواخر من رمضان» وذهب الشافعي إلى أنها ليلة إحدى وعشرين (ق) عن أبي هريرة أن أبا سعيد قال «اعتكفنا مع رسول الله ﷺ العشر الأوسط فلما كانت صبيحة عشرين نقلنا متاعنا فأتانا النبي ﷺ فقال من كان اعتكف فليرجع إلى معتكفه، وأنا رأيت هذه الليلة، ورأيتني أسجد في ماء وطين، فلما رجع إلى معتكفه هاجت السماء فمطرنا فوالذي بعثه بالحق لقد هاجت السماء من آخر ذلك اليوم، وكان المسجد على عريش، ولقد رأيت على أنفه وأرنبته أثر الماء والطين»، وفي رواية نحوه إلا أنه قال «حتى إذا كانت ليلة إحدى وعشرين وهي الليلة التي يخرج من صبيحتها من اعتكافه قال من اعتكف معي فليعتكف العشر الأواخر»، وورد في فضل ليلة القدر اثنتان وعشرون حديثاً عن عبد الله بن أنيس قال: «كنت في مجلس لبني سلمة وأنا أصغرهم فقالوا من يسأل لنا رسول الله ﷺ عن ليلة القدر وذلك في صبيحة إحدى وعشرين من رمضان فخرجت فوافيت رسول الله ﷺ فقلت أرسلي إليك رهط من بني سلمة يسألونك عن ليلة القدر، فقال كم الليلة فقلت اثنتان وعشرون فقال هي الليلة، ثم رجع فقال أو القابلة يريد ثلاثاً وعشرين» أخرجه أبو داود.

وذهب جماعة من الصحابة وغيرهم أن ليلة القدر ليلة ثلاث وعشرين ومال إليه الشافعي أيضاً (خ) عن الصنابحي، أنه سأل رجلاً هل سمعت في ليلة القدر شيئاً قال، أخبرني بلال مؤذن رسول الله ﷺ أنها في أول السبع من العشر الأواخر، وهذا اللفظ مختصر عن عبد الله بن أنيس قال: «قلت يا رسول الله إن لي بادية أكون فيها وأنا أصلي فيها بحمد الله فمرني بليلة أنزلها إلى هذا المسجد، فقال أنزل ليلة ثلاث وعشرين قيل لابنه كيف كان أبوك يصنع قال: كان يدخل المسجد إذا صلى العصر فلا يخرج إلا لحاجة حتى يصلي الصبح، فإذا صلى الصبح وجد دابته على باب المسجد فجلس عليها ولحق بباديته» أخرجه أبو داود ولمسلم عنه أن رسول الله ﷺ قال «أريت ليلة القدر ثم أنسيتها وأراني أسجد صبيحتها في ماء وطين» قال فمطرنا ليلة ثلاث وعشرين فصلى بنا رسول الله ﷺ وانصرف وإن أثر الماء والطين على جبهته وأنفه، ويحكى عن بلال وابن عباس والحسن أنها ليلة أربع وعشرين (خ) عن ابن عباس قال

عبد الواحد بن زياد عن الحسن بن عبيد الله عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيرها. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا علي بن عبد الله ثنا سفيان عن أبي يعقوب عن أبي الضحى عن مسروق عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأواخر من رمضان شدّ مئزره وأحيا ليله، وأيقظ أهله. واختلفوا في أنها في أي ليلة من العشر أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا قتيبة بن سعيد ثنا إسماعيل بن جعفر ثنا أبو سهيل عن أبيه عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان». أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا عبد الله بن حامد الوزان أنا مكّي بن عبدان ثنا عبد الله بن هاشم بن حيّان ثنا يحيى بن سعيد القطان ثنا عيينة بن عبد الرحمن حدّثني أبي قال: ذكرت ليلة القدر عند أبي بكر، فقال: ما أنا بطالها بعد شيء سمعته من رسول الله ﷺ إلا في العشر الأواخر، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «التمسوها في العشر الأواخر من تسع يققن أو سبع يققن أو خمس يققن أو ثلاث يققن أو آخر ليلة»، وكان أبو بكر إذا دخل رمضان يصلي كما يصلي في سائر السنة، فإذا دخل العشر الأواخر اجتهد. وأخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن

التمسوها في أربع وعشرين، وقيل في ليلة خمس وعشرين دليله قوله ﷺ «تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان»، وقيل هي ليلة سبع وعشرين يحكى ذلك عن جماعة من الصحابة منهم أبي بن كعب وابن عباس وإليه ذهب أحمد (م) عن زر بن حبیش قال سمعت أبي بن كعب يقول وقيل له إن عبد الله بن مسعود يقول من قام السنة أصاب ليلة القدر قال أبي والله الذي لا إله إلا هو إنها لفي رمضان يحلف، ولا يستثنى، فوالله إني لأعلم أي ليلة هي الليلة التي أمرنا رسول الله ﷺ بقيامها، وهي ليلة سبع وعشرين وأمارتها أن تطلع الشمس من صبيحة يومها بيضاء لا شعاع لها عن معاوية عن النبي ﷺ «في ليلة القدر، قال ليلة سبع وعشرين» أخرجه أبو داود، وقيل هي ليلة تسع وعشرين دليله قوله «تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان» وقيل هي ليلة آخر الشهر، عن ابن عمر قال: «سئل رسول الله ﷺ عن ليلة القدر وأنا أسمع، فقال هي في كل رمضان» أخرجه أبو داود قال ويروى موقوفاً عليه.

(ذكر ليال مشتركة)

عن ابن مسعود قال: قال لنا رسول الله ﷺ في ليلة القدر «اطلبوها ليلة سبع وعشرين من رمضان، وليلة إحدى وعشرين وليلة ثلاث وعشرين، ثم سكت» أخرجه أبو داود عن عتبة بن عبد الرحمن قال: حدثني أبي قال ذكرت ليلة القدر عند أبي بكرة فقال ما أنا بملتسمها بشيء سمعته من رسول الله ﷺ، إلا في العشر الأواخر، فإني سمعته يقول «التمسوها في تسع يمين أو في خمس يمين، أو في ثلاث يمين أواخر الشهر» قال وكان أبو بكرة يصلي في العشرين من رمضان كصلاته في سائر السنة، فإذا دخل العشر الأواخر اجتهد أخرجه الترمذي (خ) عن عبادة بن الصامت قال: خرج «رسول الله ﷺ ليخبر بليلة القدر، فتلاحى رجلان من المسلمين فقال النبي ﷺ: إني خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحى فلان وفلان فرفعت وعسى أن يكون خيراً لكم فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة» قوله فتلاحى رجلان أي تخاصم رجلان، وقوله فرفعت لم يرد رفع عينها، وإنما أراد رفع بيان وقتها، ولو كان المراد رفع وجودها لم يأمر بالتماسها، (خ) عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «هي في العشر في سبع مضين أو سبع يمين يعني القدر» وفي رواية «في تاسعة تبقى في سابعة تبقى في خامسة تبقى» قال أبو عيسى: «روي عن النبي ﷺ في ليلة القدر أنها ليلة إحدى وعشرين، وليلة ثلاث وعشرين، وخمس وعشرين، وسبع وعشرين، وتسع وعشرين، وآخر ليلة من

يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن المثنى حدثني خالد بن الحارث ثنا حميد ثنا أنس عن عبادة بن الصامت قال: خرج النبي ﷺ ليخبرنا بليلة القدر فتلاحى رجلان من المسلمين، فقال: «خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحى فلان وفلان فرفعت، وعسى أن يكون خيراً لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة»، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ رأوا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر من رمضان فقال رسول الله ﷺ: «إني أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر فمن كان متحريها فليتحريها في السبع الأواخر». وروى عن أبي سعيد الخدري: أنها ليلة إحدى وعشرين. أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن يزيد بن عبد الله بن الهاد عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي سعيد الخدري أنه قال: كان النبي ﷺ يعتكف العشر الوسطى من رمضان، واعتكف عاماً حتى إذا كانت ليلة إحدى وعشرين وهي الليلة التي يخرج صبحها من اعتكافه، قال: «من كان اعتكف معي فليعتكف العشر الأواخر، وقد رأيت هذه الليلة ثم أنسيتها، وقد رأيتني أسجد في صبيحتها في ماء وطين، فالتمسوها في العشر الأواخر والتمسوها في كل وتر»، فقال أبو سعيد الخدري: فمطرت السماء تلك الليلة، وكان المسجد على عريش

رمضان» قال الشافعي: كان هذا عندي والله أعلم أن النبي ﷺ كان يجيب على نحو ما يسأل عنه يقال له نلتمسها في كذا، فقال التمسوها في ليلة كذا قال الشافعي: وأقوى الروايات عندي في ليلة إحدى وعشرين قال البغوي وبالجمله أبهم الله تعالى هذه الليلة على الأمة ليجتهدوا في العبادة ليالي شهر رمضان طمعاً في إدراكها، كما أخفى ساعة الإجابة في يوم الجمعة، وأخفى الصلاة الوسطى في الصلوات الخمس، واسمه الأعظم في القرآن في أسمائه، ورضاه في الطاعات ليرغبوا في جميعها، وسخطه في المعاصي لينتهوا عن جميعها، وأخفى قيام الساعة ليجتهدوا في الطاعات حذراً من قيامها، ومن علاماتها. ما روى الحسن رفعه «إنها ليلة بلجة سمحة لا حارة ولا باردة تطلع الشمس صبيحتها بيضاء لا شعاع لها» (ق) عن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأواخر أحيا الليل، وأيقظ أهله، وجد وشد المثزر» ولمسلم عنها قالت «كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر الأواخر من رمضان ما لا يجتهد في غيره» (ق) عنها أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجل ثم اعتكف أزواجه من بعده (ق) عن ابن عمر رضي الله عنهما «أن رسول الله ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان» عن عائشة قالت «قلت يا رسول الله إن علمت ليلة القدر ما أقول فيها قال: قل لي اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عني» أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن صحيح أخرجه النسائي وابن ماجه.

فوكف المسجد، قال أبو سعيد: فبصرت عينا رسول الله ﷺ قد انصرف علينا وعلى جبهته وأنفه أثر الماء والطين من صبيحة إحدى وعشرين. وقال بعضهم: هي ليلة ثلاث وعشرين. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني ثنا أبو جعفر الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا أحمد بن خالد الحمصي ثنا محمد بن إسحاق عن محمد بن إبراهيم حدثني عبد الله بن أنس عن أبيه أنه قال لرسول الله ﷺ: إني أكون ببادية يقال لها الوطأة وأني بحمد الله أصلي بهم فمُرني بليلة من هذا الشهر أنزلها إلى المسجد فأصليها فيه، فقال: «انزل ليلة ثلاث وعشرين فصلها فيه، وإن أحببت أن تستتم آخر الشهر فافعل، وإن أحببت فكف». قال: فكان إذا صلى العصر دخل المسجد فلم يخرج إلّا من حاجة حتى يصلي الصبح، فإذا صلى الصبح كانت دابته بباب المسجد. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني ثنا أبو جعفر الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا يعلى بن عبيد ثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: تذاكرنا ليلة القدر فقال رسول الله ﷺ: «كم مضى من الشهر؟» فقلنا: اثنان وعشرون وبقي ثمان، فقال: «مضى اثنان وعشرون وبقي سبع، اطلبوها الليلة الشهر تسع وعشرون» وقال قوم: في ليلة سبع وعشرين، وهو قول علي وأبي وعائشة، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني ثنا أبو جعفر الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا يعلى بن عبيد ثنا سفيان عن عاصم عن زر بن حبیش قال: قلت لأبي بن كعب: يا أبا المنذر أخبرنا عن ليلة القدر، فإن ابن مسعود عبد الله يقول: مَنْ يَمِمْ الحَوْلَ يَصْهَها، فقال: رحم الله أبا عبد الرحمن، أما إنه قد علم أنها في رمضان ولكن كره أن يخبركم فتتكلوا هي والذي أنزل القرآن على محمد ﷺ ليلة سبع وعشرين، فقلنا: يا أبا المنذر أتني علمت هذا؟ قال: بالآية التي أخبرنا النبي ﷺ فحفظناها وعددناها هي والله لا تنسى، قال: قلنا: وما الآية؟ قال: تطلع الشمس كأنها طاس ليس لها شعاع، ومن علاماتها ما روي عن الحسن رفعه: أنها ليلة بلجة سمحة لا حارة ولا باردة، تطلع الشمس صبيحتها لا شعاع لها. وفي الجملة أبهم الله هذه الليلة على هذه الأمة ليجتهدوا في العبادة ليالي رمضان طمعاً في إدراكها، كما أخفى ساعة الإجابة في يوم الجمعة وأخفى الصلاة الوسطى في الصلوات الخمس، واسمه الأعظم في الأسماء ورضاه في الطاعات ليرغبوا في جميعها، وسخطه في المعاصي لينتهوا عن جميعها، وأخفى قيام الساعة ليجتهدوا في الطاعات حذراً من قيامها.

لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ نَزَّلَ الْمَلَكُوتُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾

قوله عز وجل: ﴿وما أدراك ما ليلة القدر﴾ أي شيء يبلغ درايتك قدرها ومبلغ فضلها، وهذا على سبيل التعظيم لها، والتشويق إلى خيرها ثم ذكر فضلها من ثلاثة أوجه:

فقال تعالى: ﴿ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ قال ابن عباس: ذكر لرسول الله ﷺ رجل من بني إسرائيل حمل السلاح على عاتقه في سبيل الله ألف شهر، فعجب رسول الله ﷺ لذلك، وتمنى ذلك لأُمَّته فقال: يا رب جعلت أمتي أقصر الأمم أعماراً، وأقلها أعمالاً، فأعطاه الله تبارك وتعالى ليلة القدر، فقال ليلة القدر خير من ألف شهر التي حمل فيها الإسرائيلي السلاح في سبيل الله لك ولأمتك إلى يوم القيامة، وعن مالك أنه سمع من يثق به من أهل العلم أن النبي ﷺ أرى أعمار الناس قبله، أو ما شاء الله من ذلك، فكأنه تقاصر أعمار أُمَّته أي لا يبلغوا من العمل مثل الذي يبلغ غيرهم في طول العمر فأعطاه الله ليلة القدر خيراً من ألف شهر أخرجه مالك في الموطأ قال المفسرون: معناه العمل الصالح في ليلة القدر خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، وإنما كان كذلك لما يريد الله تعالى فيها من المنافع والأرزاق وأنواع الخير والبركة.

الوجه الثاني: من فضلها قوله عز وجل: ﴿تنزل الملائكة﴾ يعني إلى الأرض وسبب هذا أنهم لما قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها وظهر أن الأمر بخلاف ما قالوه وتبين حال المؤمنين وما هم عليه من الطاعة، والعبادة، والجد، والاجتهاد نزلوا إليهم ليسلموا عليها ويعتذروا مما قالوه، ويستغفروا لهم لما يرون من تقصير قد يقع من بعضهم ﴿والروح﴾ يعني جبريل عليه الصلاة والسلام قاله أكثر المفسرين: وفي حديث أنس عن رسول الله ﷺ قال: «إذا كانت ليلة القدر نزل جبريل في كبكبة من الملائكة يصلون، ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله عز وجل» ذكره ابن

قوله عز وجل: ﴿ليلة القدر خير من ألف شهر﴾، قال عطاء عن ابن عباس: ذكر لرسول الله ﷺ رجل من بني إسرائيل حمل السلاح على عاتقه في سبيل الله ألف شهر، فعجب رسول الله ﷺ لذلك وتمنى ذلك لأُمَّته، فقال: «يا رب جعلت أمتي أقصر الأمم أعماراً وأقلها أعمالاً؟ فأعطاه الله ليلة القدر، فقال: ﴿ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ التي حمل فيها الإسرائيلي السلاح في سبيل الله، ولأمتك إلى يوم القيامة. قال المفسرون: ﴿ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ معناه: عمل صالح في ليلة القدر خير من عمل ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، حدثنا أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري إملاءً ثنا أبو نعيم الإسفريني أنا أبو عوانة ثنا أبو إسماعيل ثنا الحميدي ثنا سفيان ثنا الزهري أخبرني أبو سلمة عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «مَنْ قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه». وقال سعيد بن المسيب: مَنْ شهد المغرب والعشاء في جماعة فقد أخذ بحظه من ليلة القدر. أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا أبو بكر بن عبدوس المزكي ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ثنا الحسن بن مكرم ثنا يزيد بن هارون أنا كهَمَس عن عبد الله بن بريدة أن عائشة قالت للنبي ﷺ: إن وافيت ليلة القدر فما أقول؟ قال: «قولي اللهم إنك عفوّ تحبّ العفوَ فاعفُ عني».

قوله عز وجل: ﴿تنزل الملائكة والروح﴾، يعني جبريل عليه السلام معهم، ﴿فيها﴾، أي في ليلة القدر، ﴿بإذن ربهم من كل أمر﴾، أي بكل أمر من الخير والبركة، كقوله: ﴿يحفظونه من أمر الله﴾ [الرعد: ١١] أي بأمر الله.

الجوزي، وقيل إن الرّوح طائفة من الملائكة لا تراهم الملائكة إلا في تلك الليلة ينزلون من لدن غروب الشّمس إلى طلوع الفجر، وقيل إن الروح ملك عظيم ينزل مع الملائكة، تلك الليلة ﴿فيها﴾ أي في ليلة القدر ﴿يأذن ربهم﴾ أي بأمر ربهم ﴿من كل أمر﴾ أي بكل أمر من الخير والبركة، وقيل بكل ما أمر به وقضاه من كل أمر.

الوجه الثالث: من فضلها قوله تعالى: ﴿سلام﴾ أي سلام على أولياء الله وأهل طاعته قال الشعبي: هو تسليم الملائكة في ليلة القدر على أهل المساجد من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر، وقيل الملائكة ينزلون فيها كلما لقوا مؤمناً أو مؤمنة يسلمون عليه من ربه عزّ وجلّ، وقيل تم الكلام عند قوله ﴿من كل أمر﴾ ثم ابتداء فقال تعالى: ﴿سلام هي﴾ يعني القدر سلامة وخير ليس فيها شر، وقيل لا يقدر الله في تلك اللّيلة ولا يقضي إلا السلامة، وقيل إن ليلة القدر سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً أو يحدث فيها أذى ﴿حتى مطلع الفجر﴾ أي أن ذلك السّلام أو السّلامة تدوم إلى مطلع الفجر، والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده.

﴿سلام﴾، قال عطاء يريد سلام على أولياء الله وأهل طاعته. قال الشعبي: هو تسليم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر. قال الكلبي: الملائكة ينزلون فيها كلما لقوا مؤمناً أو مؤمنة سلّموا عليه من ربه حتى يطلع الفجر. وقيل: تمّ الكلام عند قوله: ﴿يأذن ربهم من كل أمر﴾ ثم ابتداء فقال: ﴿سلام هي﴾، أي ليلة القدر سلام وخير كلها، ليس فيها شرّ. قال الضّحّاك: لا يُقدّر الله في تلك الليلة ولا يقضي إلا السلامة. وقال مجاهد: يعني أن ليلة القدر سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً، ولا أن يحدث فيها أذى، ﴿حتى مطلع الفجر﴾، أي إلى مطلع الفجر، قرأ الكسائي مطلع بكسر اللام، والآخرين بفتحها وهو الاختيار بمعنى الطلوع على المصدر، يقال: طلع الفجر طلوعاً ومطلعاً، والكسر موضع الطلوع.

سورة لم يكن

وتسمى سورة البينة وهي مدنية قاله الجمهور، وفي رواية عن ابن عباس أنها مكية هي ثمان آيات، وأربع وتسعون كلمة وثلاثمائة وتسعة وتسعون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾

قوله عز وجل: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿والمشركين﴾ أي ومن المشركين، وهم عبدة الأوثان، وذلك أن الكفار كانوا جنسين أحدهما أهل كتاب وسبب كفرهم ما أحدثوه في دينهم، أما اليهود فقولهم عزيز ابن الله وتشبيههم الله بخلقه، وأما النصارى فقولهم المسيح ابن الله وثالث ثلاثة وغير ذلك، والثاني المشركون أهل الأوثان الذين لا ينتسبون إلى كتاب الله، فذكر الله الجنسين في قوله: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين﴾ أي منتهين عن كفرهم وشركهم وقيل معناه زائلين ﴿حتى تأتيهم﴾ أي حتى أتتهم لفظه مضارع ومعناه الماضي ﴿البينة﴾ أي الحجة الواضحة يعني محمداً ﷺ أتاهم بالقرآن فبين لهم ضلالتهم، وشركهم وما كانوا عليه من الجاهلية، ودعاهم إلى الإيمان، فأمنوا فأنقذهم الله من الجهالة والضلالة ولم يكونوا منفصلين عن كفرهم قبل بعثه إليهم، والآية فيمن آمن من الفريقين، قال الواحدي في بسطه، وهذه الآية من أصعب ما في القرآن نظاماً، وتفسيراً وقد تخطب فيها الكبار من العلماء.

قال الإمام فخر الدين في تفسيره إنه لم يخلص كيفية الإشكال، فيها وأنا أقول وجه الإشكال أن تقدير الآية لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى تأتيهم البينة التي هي الرسول، ثم إنه تعالى لم يذكر أنهم منفكون عما ذاك لكنه معلوم إذ المراد هو الكفر الذي كانوا عليه، فصار التقدير لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى تأتيهم البينة، التي هي الرسول، ثم إن كلمة حتى لانتها الغاية، فهذه الآية تقتضي أنهم صاروا منفكين عن كفرهم عند إتيان الرسول ثم قال بعد ذلك وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة، وهذا يقتضي أن كفرهم قد ازداد عند

سُورَةُ الْبَيِّنَةِ

مدنية وهي ثمان آيات.

﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب﴾، وهم اليهود والنصارى، ﴿والمشركين﴾، وهم عبدة الأوثان، ﴿منفكين﴾، زائلين منفصلين، يقال: فككت الشيء فانفك أي انفصل، ﴿حتى تأتيهم البينة﴾، لفظه مستقبل ومعناه الماضي أي حتى أتتهم الحجة الواضحة، يعني محمداً ﷺ أتاهم بالقرآن فبين لهم ضلالتهم وجهالتهم ودعاهم إلى الإسلام والإيمان، فهذه الآية فيمن آمن من الفريقين، أخبر أنهم لم ينتهوا عن الكفر حتى أتاهم

مجيء الرسول، فحينئذ يحصل بين الآية الأولى والثانية مناقضة في الظاهر، وهذا منتهى الإشكال في ظني قال والجواب عنه من وجوه:

أولها: وأحسنها الوجه، الذي لخصه صاحب الكشاف وهو أن الكفار من الفريقين أهل الكتاب، وعبداء الأوثان كانوا يقولون قبل مبعث محمد ﷺ لا ننفعك عما نحن عليه من ديننا، ولا نتركه حتى يبعث النبي الموعود الذي هو مكتوب في التوراة، والإنجيل وهو محمد ﷺ فحكى الله تعالى عنهم ما كانوا يقولونه، ثم قال ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب﴾، أي أنهم كانوا يعدلون اجتماع الكلمة والاتفاق على الحق إذا جاءهم الرسول، ثم ما فرقه عن الحق ولا أقرهم على الكفر إلا مجيء الرسول، ونظيره في الكلام ما يقول الفاسق الفقير لمن يعظه لست بمنفك مما أنا فيه من الأفعال القبيحة حتى يرزقني الله الغنى فيرزقه الله الغنى فيزداد فسقاً، فيقول واعظه لم تكن منفكاً عن الفسق حتى توسر وما غمست رأسك في الفسق إلا بعد اليسار فيذكره ما كان يقول توبيخاً، وإلزاماً قال الإمام فخر الدين: وحاصل هذا الجواب يرجع إلى حرف واحد وهو أن قوله تعالى لم يكن الذين كفروا منفيين عن كفرهم حتى تأتيهم البينة مذكور حكاية عنهم، وقوله وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إخبار عن الواقع، والمعنى أن الذي وقع كان بخلاف ما ادعوا أو ثانياً أن تقدير الآية لم يكن الذين كفروا منفيين عن كفرهم وإن جاءتهم البينة وعلى هذا التقدير يزول الإشكال إلا أن تفسير لفظة حتى بهذا ليس من اللغة في شيء وذكر وجوهاً أخر قال: والمختار هو الأول ثم فسر البينة فقال تعالى: ﴿رسول من الله﴾ أي تلك البينة رسول من الله ﴿يتلوا﴾ أي يقرأ الرسول ﷺ ﴿صحفاً﴾ أي كتباً يريد ما تضمنه المصحف من المكتوب فيه وهو القرآن لأنه كان ﷺ يقرأ عن ظهر قلبه لا عن كتاب ﴿مطهرة﴾ أي من الباطل والكذب، والزور، والمعنى أنها مطهرة من القبيح، وقيل معنى مطهرة معظمة، وقيل مطهرة أي لا ينبغي أن يمسها إلا المطهرون ﴿فيها﴾ أي في الصحف ﴿كتب﴾ أي الآيات المكتوبة وقيل الكتب بمعنى الأحكام ﴿قيمة﴾ أي عادلة مستقيمة غير ذات عوج، وقيل قيمة بمعنى قائمة مستقلة بالحجة من قولهم قام بالأمر إذا أجراه على وجهه، ثم ذكر من لم يؤمن من أهل الكتاب فقال تعالى: ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب﴾ يعني في أمر محمد ﷺ ﴿إلا من بعد ما جاءتهم البينة﴾ يعني جاءتهم البينة في كتبهم أنه نبي مرسل قال المفسرون لم يزل أهل الكتاب مجتمعين في تصديق

الرسول فدعاهم إلى الإيمان فآمنوا فأنقذهم الله من الجهل والضلالة.

ثم فسر البينة فقال: ﴿رسول من الله يتلو﴾، يقرأ، ﴿صحفاً﴾، كتاباً، يريد ما يتضمنه الصحف من المكتوب فيها، وهو القرآن لأنه كان يتلو عن ظهر قلبه لا عن كتاب، قوله: ﴿مطهرة﴾، من الباطل والكذب والزور.

﴿فيها﴾، أي في الصحف، ﴿كتب﴾، يعني الآيات والأحكام المكتوبة فيها، ﴿قيمة﴾، عادلة مستقيمة غير ذات عوج.

ثم ذكر من لم يؤمن من أهل الكتاب فقال: ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب﴾، في أمر محمد ﷺ، ﴿إلا من بعد ما جاءتهم البينة﴾، أي البيان في كتبهم أنه نبي مرسل. قال المفسرون: لم يزل أهل الكتاب مجتمعين في تصديق محمد ﷺ حتى بعث الله، فلما بعث تفرقوا في أمره واختلفوا، فآمن به بعضهم، وكفر آخرون. وقال بعض أئمة اللغة: معنى قوله: ﴿منفكين﴾ أي هالكين، من قولهم: انفك صلاء المرأة عند الولادة، وهو أن ينفصل فلا يلتصق فتهلك. ومعنى الآية: لم يكونوا هالكين معذبين إلا من بعد قيام الحجة عليهم بإرسال الرسول وإنزال الكتاب، والأول أصح، ثم ذكر ما أمروا به في كتبهم فقال:

محمد ﷺ حتى بعثه الله تعالى فلما بعث تفرقوا في أمره، واختلفوا فيه، فأمن به بعضهم وكفر به آخرون، ثم ذكر ما أمروا به في كتبهم فقال تعالى:

وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾

﴿وما أمروا﴾ يعني هؤلاء الكفار ﴿إلا ليعبدوا الله﴾ أي وما أمروا إلا أن يعبدوا الله قال ابن عباس: ما أمروا في التوراة، والإنجيل، إلا بإخلاص العبادة لله موحدين له ﴿مخلصين له الدين﴾ الإخلاص عبارة عن النية الخالصة، وتجريدها عن شوائب الرياء، وهو تنبيه على ما يجب من تحصيل الإخلاص من ابتداء الفعل إلى انتهائه، والمخلص هو الذي يأتي بالحسن لحسنه والواجب لوجوبه والنية الخالصة لما كانت معتبرة. كانت النية معتبرة فقد دلت الآية على أن كل مأمور به فلا بد وأن يكون منوياً فلا بد من اعتبار النية في جميع المأمورات، قال أصحاب الشافعي: الوضوء مأمور به ودلت هذه الآية على أن كل مأمور به يجب أن يكون منوياً، فتجب النية في الوضوء، وقيل الإخلاص محله القلب وهو أن يأتي بالفعل لوجه الله تعالى مخلصاً له، ولا يريد بذلك رياء ولا سمعة ولا غرضاً آخر حتى قالوا في ذلك لا يجعل طلب الجنة مقصوداً ولا النجاة من النار مطلوباً، وإن كان لا بد من ذلك بل يجعل العبد عبادته لمحض العبودية واعترافاً لربه عز وجل بالربوبية، وقيل في معنى مخلصين له الدين مقرين له بالعبودية، وقيل قاصدين بقلوبهم رضا الله تعالى بالعبادة (م) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله تعالى لا ينظر إلى أجسامكم، ولا صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم» ﴿حنفاء﴾ أي مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام، وقيل متبعين ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وقيل حنفاء أي حجاجاً وإنما قدمه على الصلاة والزكاة لأن فيه صلاة وإنفاق مال، وقيل حنفاء أي مختونين محرمين لنكاح المحارم، وقيل الحنيف الذي آمن بجميع الأنبياء والرسل، ولا يفرق بين أحد منهم فمن لم يؤمن بأشرف الأنبياء وهو محمد ﷺ فليس بحنيف ﴿ويقيموا الصلاة﴾ أي المكتوبة في أوقاتها ﴿ويؤتوا الزكاة﴾ أي المفروضة عند محلها ﴿وذلك﴾ أي الذي أمروا به ﴿دين القيمة﴾ أي الملة المستقيمة والشريعة المتبوعة، وإنما أضاف الدين إلى القيمة وهي نعتة لاختلاف اللفظين وأنت القيمة رداً إلى الملة، وقيل الهاء في القيمة للمبالغة كعلامة، وقيل القيمة الكتب التي جرى ذكرها، أي وذلك دين أصحاب الكتب القيمة، وقيل القيمة جمع القيم، والقيم، والقائم واحد والمعنى وذلك دين القائمين لله بالتوحيد واستدل بهذه الآية من يقول إن الإيمان قول وعمل لأن الله تعالى ذكر الاعتقاد أولاً وأتبعه بالعمل ثانياً ثم قال وذلك دين القيمة والدين هو الإسلام والإسلام هو الإيمان بدليل قوله ﴿فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾ ثم ذكر ما للفريقين فقال تعالى: ﴿إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين﴾ فإن قلت لم قدم أهل الكتاب على المشركين.

﴿وما أمروا﴾، يعني هؤلاء الكفار، ﴿إلا ليعبدوا الله﴾ يعني إلا أن يعبدوا الله، ﴿مخلصين له الدين﴾، قال ابن عباس: ما أمروا في التوراة والإنجيل إلا بإخلاص العبادة لله موحدين، ﴿حنفاء﴾، مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام، ﴿ويقيموا الصلاة﴾، المكتوبة في أوقاتها، ﴿ويؤتوا الزكاة﴾، عند محلها، ﴿وذلك﴾، الذي أمروا به، ﴿دين القيمة﴾، أي الملة والشريعة المستقيمة، أضاف الدين إلى القيمة وهي نعتة لاختلاف اللفظين، وأنت القيمة رداً بها إلى الملة، وقيل: الهاء فيه للمبالغة، وقيل: القيمة هي الكتب التي جرى ذكرها، أي

قلت لأن جنائتهم أعظم في حق رسول الله ﷺ وذلك أنهم كانوا يستفتحون به قبل بعثته ويقولون بنبوته، فلما بعث أنكروه وكذبوه وصدوه مع العلم به فكانت جنائتهم أعظم من المشركين فلماذا قدمهم عليهم .

فإن قلت إن المشركين أعظم جناية من أهل الكتاب لأن المشركين أنكروا الصانع والنبوة، والقيامة وأهل الكتاب اعترفوا بذلك غير أنهم أنكروا نبوة محمد ﷺ وإذا كان كذلك كان كفرهم أخف فلم سوى بين الفريقين في العذاب .

قلت لما أراد أهل الكتاب الرفعة في الدنيا بإنكارهم نبوة محمد ﷺ أذلهم الله في الدنيا، وأدخلهم أسفل سافلين في الآخرة ولا يمنع من دخولهم النار مع المشركين أن تفاوت مراتبهم في العذاب . ﴿ في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية ﴾ أي هم شر الخلق والمعنى أنهم لما استحقوا النار بسبب كفرهم قالوا: فهل إلى خروج من سبيل فقال بل تبقون خالدين فيها، فكأنهم قالوا لم ذلك قال لأنكم شر البرية . ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ﴾ يعني أنهم بسبب أعمالهم الصالحة واجتنابهم الشرك استحقوا هذا الاسم ﴿ جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ قيل الرضا ينقسم إلى قسمين: رضا به ورضا عنه، فالرضا به أن يكون ربا ومدبراً، والرضا عنه فيما يقضي ويدبر قال السري: إذا كنت لا ترضى عن الله فكيف تسأله الرضا عنك، وقيل رضى الله أعمالهم، ورضوا عنه بما أعطاهم من الخير والكرامة ﴿ ذلك ﴾ أي هذا الجزاء والرضا ﴿ لمن خشي ربه ﴾ أي لمن خاف ربه في الدنيا وانتهى عن المعاصي (ق) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ «إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ قال وسماني قال نعم فبكى» وفي رواية البخاري «أن النبي ﷺ قال لأبي بن كعب إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن، قال الله سمانى لك، قال نعم قال وقد ذكرت عند رب العالمين قال نعم قيل فذرفت عيناه»:

(شرح غريب الحديث)

أما بكاء أبي فإنه بكى سروراً، واستصغاراً لنفسه عن تأهله لهذه النعمة العظيمة وإعطائه تلك المنزلة الكريمة، والنعمة عليه فيها من وجهين أحدهما: كونه منصوباً عليه بعينه والثاني قراءة النبي ﷺ، فإنها منقبة عظيمة لم يشاركه فيها أحد من الصحابة، وقيل إنما بكى خوفاً من تقصيره في شكره هذه النعمة .

وأما تخصيص هذه السورة بالقراءة، فإنها مع وجازتها جامعة لأصول وقواعد ومهات عظيمة، وكان الحال

وذلك دين الكتب القيمة فيما تدعو إليه وتأمُر به، كما قال: ﴿ وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ [البقرة: ٢١٣]. قال النضر بن شميل: سألت الخليل بن أحمد عن قوله: ﴿ وذلك دين القيمة ﴾ فقال: القيمة جمع القيم، والقيّم والقائم واحد، مجاز الآية: وذلك دين القائمين لله بالتوحيد .

ثم ذكر ما للفريقين فقال: ﴿ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية ﴾، قرأ نافع وابن عامر (البريئة) بالهمزة في الحرفين لأنه من قولهم: برأ الله الخلق، وقرأ الآخرون مشدداً بغير همز كالذرية، ترك همزها في الاستعمال .

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ﴾ جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه، وتناهى عن المعاصي، وقيل: الرضا ينقسم إلى قسمين: رضا به ورضاً عنه، فالرضا به: رباً ومُدبراً، والرضا عنه: فيما يقضي ويقدر. قال السري

يقتضي الاختصار، وأما الحكمة في أمر النبي ﷺ بالقراءة على أبي فهي أن يتعلم أبي القراءة من ألفاظه ﷺ، وضبط أسلوب الوزن المشروع وقدره بخلاف ما سواه من النعم المستعملة في غيره فكانت قراءته على أبي ليتعلم أبي منه لا ليتعلم هو من أبي وقيل إنما قرأ على أبي ليتعلم غيره التواضع والأدب وأن لا يستنكف الشريف وصاحب الرتبة العالية أن يتعلم القرآن ممن هو دونه، وفيه تنبيه على فضيلة أبي والحث عن الأخذ عنه وتقديمه في ذلك فكان كذلك بعد النبي ﷺ رأساً وإماماً ما في القراءة وغيرها، وكان أحد علماء الصحابة رضي الله عنهم أجمعين والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه.

رحمه الله: إذا كنت لا ترضى عن الله فكيف تسأله الرضا عنك؟ أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن بشر ثنا غندر ثنا شعبة سمعت قتادة عن أنس بن مالك قال قال النبي ﷺ لأبي: «إن الله تعالى أمرني أن أقرأ عليك: ﴿لم يكن الذين كفروا﴾»، قال: وسماني ربي؟ قال: «نعم»، فبكى، وقال همّام عن قتادة: «أمرني أن أقرأ عليك القرآن».

سورة الزلزلة

وهي مكية وقيل مدنية وهي ثمان آيات وخمس وثلاثون كلمة ومائة وتسعة وأربعون حرفاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «إذا زلزلت تعدل نصف القرآن، وقل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن، وقال يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن» أخرجه الترمذي وقال: حديث غريب وله عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من قرأ ﴿إذا زلزلت﴾ عدلت له نصف القرآن ومن قرأ ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ عدلت له ربع القرآن ومن قرأ ﴿قل هو الله أحد﴾ عدلت له ثلث القرآن» وقال حديث غريب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۖ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۖ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا هَٰذَا ۚ يَوْمَئِذٍ تُخْبِرُهَا ۚ أَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۖ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيرَوْا أَعْمَلَهُمْ ۚ

قوله عز وجل: ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾ أي تحركت حركة شديدة، واضطربت، وذلك عند قيام الساعة، وقيل تنزل من شدة صوت إسرافيل حتى ينكسر كل ما عليها من شدة الزلزلة ولا تسكن حتى تلقي ما على ظهرها من جبل، وشجر، وبناء وفي وقت هذه الزلزلة قولان أحدهما: وهو قول الأكثرين، أنها في الدنيا، وهي من أشراط الساعة والثاني أنها زلزلت يوم القيامة. ﴿وأخرجت الأرض أثقالها﴾ فمن قال إن الزلزلة تكون في الدنيا قال أثقالها كنوزها، وما في بطنها من الدفائن، والأموال فتلقيها على ظهرها يدل على صحة هذا القول، ما روي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ «تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوانة من الذهب، والفضة، فيجيء القاتل فيقول في هذا قتلت ويجيء القاطع، فيقول في هذا قطعت رحمي، ويجيء السارق فيقول في هذا قطعت يدي،

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

مدنية وهي ثمان آيات.

﴿إذا زلزلت الأرض﴾، حرّكت الأرض حركة شديدة لقيام الساعة، ﴿زلزالها﴾، تحريكها.

﴿وأخرجت الأرض أثقالها﴾، موتها وكنوزها فتلقيها على ظهرها، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر بن عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان حدثنا مسلم بن الحجاج حدثنا واصل بن عبد الأعلى ثنا محمد بن فضيل عن أبيه عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوانة من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول في هذا قتلت، ويجيء القاطع فيقول في هذا قطعت رحمي، ويجيء السارق فيقول في هذا قطعت يدي، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً».

﴿وقال الإنسان ما لها﴾؟ قيل: في الآية تقديم وتأخير تقديره:

ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً» أخرجه مسلم والأفلاذ جمع فلذة وهي القطعة المستطيلة شبه ما يخرج من باطنها بإقطاع كبدها، لأن الكبد مستور في الجوف، وإنما خص الكبد لأنها من أطيب ما يشوى عند العرب من الجزور، واستعار القيء للإخراج، ومن قال بأن الزلزلة تكون يوم القيامة، قال أثقالها الموتى فتخرجهم إلى ظهرها قيل إن الميت إذا كان في بطن الأرض، فهو ثقل لها وإذا كان فوقها، فهو ثقل عليها، ومنه سميت الجن والإنس بالثقلين لأن الأرض تثقل بهم أحياء وأمواتاً. ﴿وقال الإنسان ما لها﴾ يعني ما لها تزلزلت هذه الزلزلة العظيمة، ولفظت ما في بطنها وفي الإنسان وجهان. أحدهما أنه اسم جنس يعم المؤمن والكافر، وهذا على قول من جعل الزلزلة من أشراط الساعة، والمعنى أنها حين وقعت لم يعلم الكل أنها من أشراط الساعة، فيسأل بعضهم بعضاً عن ذلك، والثاني أنه اسم للكافر خاصة وهذا على قول من جعلها زلزلة القيامة لأن المؤمن عارف بها فلا يسأل عنها، والكافر جاحد لها، فإذا وقعت سأل عنها، وقيل مجاز الآية ﴿يومئذ تحدث أخبارها﴾ فيقول الإنسان ما لها، والمعنى أن الأرض تحدث بكل ما عمل على ظهرها من خير أو شر، فتشكوا العاصي، وتشهد عليه وتشكر الطائع وتشهد له «عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿يومئذ تحدث أخبارها﴾ قال أتدرون ما أخبارها قالوا الله ورسوله أعلم، قال فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها تقول عمل يوم كذا وكذا فهذه أخبارها» أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن صحيح ﴿بأن ربك أوحى لها﴾ أي أمرها بالكلام وأذن لها أن تخبر بما عمل عليها قال ابن عباس: أوحى إليها قيل إن الله تعالى يخلق في الأرض الحياة، والعقل، والنطق حتى تخبر بما أمر الله به وهذا مذهب أهل السنة.

قوله تعالى: ﴿يومئذ يصدر الناس﴾ أي عن موقف الحساب بعد العرض ﴿أشتاتاً﴾ أي متفرقين فأخذ ذات اليمين إلى الجنة وأخذ ذات الشمال إلى النار ﴿ليروا أعمالهم﴾ قال ابن عباس ليروا جزاء أعمالهم، وقيل معناه ليروا صحائف أعمالهم التي فيها الخير والشر وهو قوله تعالى:

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

﴿فمن يعمل مثقال ذرة﴾ قال وزن نملة صغيرة وقيل هو ما لصق من التراب باليد ﴿خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة

﴿يومئذ تحدث أخبارها﴾، فيقول الإنسان: ما لها، أي تخبر الأرض بما عمل عليها، أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا طاهر محمد بن أحمد بن الحارث أنا محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن سعيد بن أبي أيوب ثنا يحيى بن أبي سليمان عن سعيد المقبري عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿يومئذ تحدث أخبارها﴾ قال: «أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها، تقول: عمل يوم كذا وكذا كذا، قال: فهذه أخبارها».

﴿بأن ربك أوحى لها﴾، أي أمرها بالكلام وأذن لها بأن تخبر بما عمل عليها. قال ابن عباس والقرظي: أوحى إليها، ومجاز الآية: يوحى الله إليها، يقال: أوحى لها وأوحى إليها ووحي لها ووحي إليها واحد.

قوله تعالى: ﴿يومئذ يصدر الناس﴾، يرجع الناس عن موقف الحساب بعد العرض، ﴿أشتاتاً﴾، متفرقين فأخذ ذات اليمين إلى الجنة وأخذ ذات الشمال إلى النار، كقوله: ﴿يومئذ يتفرقون﴾ [الروم: ١٤] ﴿يومئذ يصدعون﴾ [الروم: ٤٣]. ﴿ليروا أعمالهم﴾، قال ابن عباس: ليروا جزاء أعمالهم، والمعنى أنهم يرجعون عن الموقف فرقاً لينزلوا منازلهم من الجنة والنار.

﴿فمن يعمل مثقال ذرة﴾، وزن نملة صغيرة أصغر ما يكون من النمل. ﴿خيراً يره﴾.

شراً يره ﴿ قال ابن عباس: ليس مؤمن ولا كافر عمل خيراً أو شراً في الدنيا إلا أراه الله إياه يوم القيامة، فأما المؤمن فيرى حسناته وسيئاته فيغفر الله له سيئاته، ويثيبه بحسناته، وأما الكافر، فيرد حسناته ويعذبه بسيئاته، وقال محمد بن كعب القرظي فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره من كافر يرى ثوابه في الدنيا في نفسه وولده وأهله وماله حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله خير ومن يعلم مثقال ذرة شراً يره من مؤمن يرى عقوبته في الدنيا في نفسه، وماله، وولده وأهله حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله شر قيل نزلت هذه الآية في رجلين وذلك أنه لما نزلت ﴿ويطعمون الطعام على حبه﴾ وكان أحدهما يأتيه السائل، فيستقل أن يطعمه التمرة والكسرة، والجوزة ونحو ذلك ويقول هذا ليس بشيء يؤجر عليه إنما يؤجر على ما يعطي ونحن نحبه، وكان الآخر يتهاون بالذنب الصغير مثل الكذبة والنظرة وأشباه ذلك ويقول إنما وعد الله النار على الكبائر وليس في هذا، إثم فأنزل الله هذه الآية يرغبهم في القليل من الخير أن يعطوه فإنه يوشك أن يكثروا ويحذروهم من اليسير من الذنب، فإنه يوشك أن يكبر والإثم الصغير في عين صاحبه يصير مثل الجبل العظيم يوم القيامة قال ابن مسعود: أحكم آية في القرآن ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ وسمي رسول الله ﷺ هذه الآية الجامعة الفادة حين سأل عن زكاة الحمير، فقال ما أنزل الله فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفادة، ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ وتصدق عمر بن الخطاب وعائشة كل واحد منهما بحبة عنب، وقالوا فيها مثاقيل كثيرة، قلت إنما كان غرضهما تعليم الغير وإلا فهما من كرماء الصحابة رضي الله تعالى عنهم وقال الربيع بن خيثم: مر رجل بالحسن وهو يقرأ هذه السورة فلما بلغ آخرها قال حسبي الله قد انتهت الموعظة، والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه.

﴿ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾، وقال ابن عباس: ليس مؤمن ولا كافر عمل خيراً أو شراً في الدنيا إلا أراه الله له يوم القيامة، فأما المؤمن فيرى حسناته وسيئاته فيغفر الله سيئاته ويثيبه بحسناته، وأما الكافر فيرد حسناته ويعذب بسيئاته. قال محمد بن كعب: في هذه الآية: ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾، من كافر يرى ثوابه في الدنيا في نفسه وماله وأهله وولده، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله خير، ﴿ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ من مؤمن يرى عقوبته في الدنيا في نفسه وماله وأهله وولده، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله شر. قال مقاتل: نزلت هذه الآية في رجلين وذلك أنه لما نزل ﴿ ويطعمون الطعام على حبه ﴾ [الإنسان: ٨] كان أحدهما يأتيه السائل فيستقل أن تعطيه التمرة والكسرة والجوزة ونحوها، يقول: ما هذا بشيء إنما تؤجر على ما تعطي ونحن نحبه، وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير كالكذبة والغيبة والنظرة وأشباه ذلك، ويقول: إنما وعد الله النار على الكبائر، وليس في هذا إثم، فأنزل الله تعالى هذه الآية يرغبهم في القليل من الخير أن يعطوه، فإنه يوشك أن يكثروا ويحذروهم اليسير من الذنب فإنه يوشك أن يكثروا، فالإثم الصغير في عين صاحبه أعظم عند الله من الجبال يوم القيامة، وجميع محاسنه أقل من كل شيء. قال ابن مسعود: أحكم آية في القرآن ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾ * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴿. وكان رسول الله ﷺ يسميها الجامعة الفادة حين سئل عن زكاة الحمير فقال: «ما أنزل عليّ فيها شيء إلا هذه الآية الجامعة الفادة ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾ * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾». وتصدق عمر بن الخطاب وعائشة بحبة عنب، وقالوا: فيها مثاقيل كثيرة. وقال الربيع بن خيثم: مر رجل بالحسن وهو يقرأ هذه السورة فلما بلغ آخرها قال: حسبي قد انتهت الموعظة. أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرنا محمد بن القاسم ثنا أبو بكر محمد بن عبد الله ثنا الحسن بن سفيان ثنا علي بن حجر ثنا يزيد بن هارون ثنا اليمان بن المغيرة ثنا عطاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ إذا زلزلت الأرض ﴾ تعدل نصف القرآن، و﴿ قل هو الله أحد ﴾ [الإخلاص: ١] تعدل ثلث القرآن، و﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ [الكافرون: ١] تعدل ربع القرآن.

سورة العاديات

وهي مكية في قول ابن مسعود وغيره مدنية في قول ابن عباس، وهي إحدى عشرة آية وأربعون كلمة ومائة وثلاثة وستون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾

قوله عز وجل: ﴿والعاديات ضبحاً﴾ فيه قولان أحدهما، أنها الإبل في الحج قال عليّ كرم الله وجهه: هي الإبل تعدو من عرفة إلى المزدلفة ومن المزدلفة إلى منى، وعنه قال كانت أول غزاة في الإسلام بدرأ، وما كان معنا إلا فرسان فرس للزبير، وفرس للمقداد بن الأسود، فكيف تكون العاديات؟ فعلى هذا القول يكون معنى ضبحها مد

سُورَةُ الْعَادِيَّاتِ

مكية وهي إحدى عشرة آية .

﴿والعاديات ضبحاً﴾، قال ابن عباس وعطاء ومجاهد وعكرمة والحسن والكلبي وقتادة ومقاتل وأبو العالية وغيرهم: هي الخيل العادية في سبيل الله تضبح، والضبح صوت أجوافها إذا عدت. قال ابن عباس: وليس شيء من الحيوانات يضبح غير الفرس والكلب والثعلب، وإنما تضبح هذه الحيوانات إذا تغير حالها من تعب أو فرح وهو من قول العرب: ضبحته النار إذا غيرت لونه. وقوله: ﴿ضبحاً﴾ نصب على المصدر، مجازة: والعاديات تضبح ضبحاً. وقال عليّ: هي الإبل في الحج تعدو من عرفة إلى المزدلفة ومن المزدلفة إلى منى، وقال: كانت أول غزوة في الإسلام بدرأ، وما كان معنا إلا فرسان فرس للزبير وفرس للمقداد بن الأسود، فكيف تكون الخيل العادية؟ وإلى هذا ذهب ابن مسعود ومحمد بن كعب والسدي. وقال بعض من قال: هي الإبل قوله: ﴿ضبحاً﴾ يعني ضباحاً تمد أعناقها في السير.

﴿فالموريات قدحاً﴾، قال عكرمة وعطاء والضحاك ومقاتل والكلبي: هي الخيل تواري النار بحوافرها إذا سارت في الحجارة، يعني والقادحات قدحاً يقدحن بحوافرهن. وقال قتادة: هي الخيل تهيج الحرب ونار العداوة بين فرسانها. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: هي الخيل تغزو في سبيل الله ثم تأوي بالليل فيورون نارهم ويصنعون طعامهم. وقال مجاهد وزيد بن أسلم: هي مكر الرجال، يعني رجال الحرب، والعرب تقول إذا أراد الرجل أن يمكر بصاحبه: أما والله لأقدحنّ لك ثم لأورينّ لك. وقال محمد بن كعب: هي النيران بجمع.

﴿فالمغيرات صبحاً﴾، هي الخيل تُغير بفرسانها على العدو عند الصباح، هذا قول أكثر المفسرين. وقال

أعناقها في السير وأصله من حركة النار في العود. ﴿فالموريات قدحاً﴾ يعني أن أخفاف الإبل ترمي بالحجارة من شدة عدوها فيضرب الحجر حجراً آخر فيوري النار، وقيل هي النيران بجمع ﴿فالمغيرات صبحاً﴾ يعني الإبل تدفع بركبانها يوم النحر من جمع إلى منى والسنة أن لا يدفع حتى يصبح والإغارة سرعة السير، ومنه قولهم أشرق ثبير كيما نغير ﴿فأثرن به نقعاً﴾ أي هيجن بمكان سيرها غباراً.

فَوْسَطَنَ بِهِ جَمْعاً ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝ وَخُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝

﴿فوسطن به جمعاً﴾ أي وسطن بالنقع جمعاً وهو مزدلفة، فوجه القسم على هذا أن الله تعالى أقسم بالإبل لما فيها من المنافع الكثيرة، وتعريضه بإبل الحج للترغيب وفيه تقريع لمن لم يحج بعد القدرة عليه، فإن الكنود هو الكفور، ومن لم يحج بعد الوجوب موصوف بذلك القول الثاني في تفسير، والعاديات قال ابن عباس وجماعة هي الخيل العادية في سبيل الله والصبح صوت أجوافها إذا غدت قال ابن عباس: وليس شيء من الحيوانات يضح سوى الفرس، والكلب، والثعلب، وإنما تضبح هذه الحيوانات إذا تغير حالها من فزع أو تعب، وهو من قول العرب ضبحته النار إذا غيرت لونه، ﴿فالموريات قدحاً﴾ يعني أنها توري النار بحوافرها إذا سارت في الحجارة، وقيل هي الخيل تهيج الحرب ونار العداوة بين فرسانها وقال ابن عباس: هي الخيل تغزو في سبيل الله ثم تأوي بالليل فيوري أصحابها ناراً، ويصنعون طعامهم، وقيل هو مكر الرجال في الحرب، والعرب تقول إذا أراد الرجل أن يمكر بصاحبه أما والله لأقدحن لك ثم لأورين لك، ﴿فالمغيرات صبحاً﴾ يعني الخيل تغير فرسانها على العدو عند الصباح لأن الناس في غفلة في ذلك الوقت عن الاستعداد، فأثرن به أي بالمكان نقعاً أي غباراً فوسطن به جمعاً أي دخلن به أي بذلك النقع وهو الغبار، وقيل صرن بعدوهن وسط جمع العدو، وهم الكتيبة وهذا القول في تفسير هذه الآيات أولى بالصحة، وأشبه بالمعنى، لأن الصبح من صفة الخيل، وكذا إيراء النار بحوافرها، وإثارة الغبار أيضاً، وإنما أقسم الله بخيل الغزاة لما فيها من المنافع الدينية، والدنيوية، والأجر، والغنيمة، وتنبهها على فضلها، وفضل رباطها في سبيل الله عز وجل، ولما ذكر الله تعالى المقسم به ذكر المقسم عليه. فقال تعالى: ﴿إن الإنسان لربه كنود﴾ أي لكفور وهو جواب القسم قال ابن عباس: الكنود الكفور الجحود لنعمة الله تعالى، وقيل الكنود هو العاصي، وقيل هو الذي يعد

القرظي: هي الإبل تدفع بركبانها يوم النحر من جمع إلى منى، والسنة أن لا تدفع حتى تصبح، والإغارة سرعة السير، ومنه قولهم: أشرق ثبير كيما نغير.

﴿فأثرن به﴾، أي هيجن بمكان سيرها كناية عن غير مذكور لأن المعنى مفهوم، ﴿نقعاً﴾، غباراً والنقع الغبار.

﴿فوسطن به جمعاً﴾، أي دخلن به وسط العدو، وهم الكتيبة يقال: وسطت القوم بالتخفيف، ووسطتهم بالتشديد وتوسطهم بالتشديد كلها بمعنى واحد. قال القرظي: يعني جمع منى أقسم الله بهذه الأشياء.

﴿إن الإنسان لربه كنود﴾، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: لکنود لكفور جحود لنعم الله تعالى. قال الكلبي: هو بلسان مضر وربيعة الكفور، وبلسان كندة وحضرموت العاصي. وقال الحسن: هو الذي يعد المصائب وينسى النعم. وقال عطاء: هو الذي لا يعطي في النائة مع قومه. وقال أبو عبيدة: هو قليل الخير، والأرض الكنود التي لا تنبت شيئاً. وقال الفضيل بن عياض: الكنود الذي آنتسته الخصلة الواحدة من الإساءة الخصال الكثيرة من الإحسان، والشكور الذي آنتسته الخصلة الواحدة من الإحسان الخصال الكثيرة من الإساءة.

المصائب، وينسى النعم، وقيل هو قليل الخير مأخوذ من الأرض الكنود، وهي التي لا تنبت شيئاً، وقال الفضيل بن عياض الكنود: الذي أنسته الخصلة الواحدة من الإساءة الخصال الكثيرة من الإحسان، وضده الشكور الذي أنسته الخصلة الواحدة من الإحسان الخصال الكثيرة من الإساءة ﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾ قال أكثر المفسرين: وإن الله على كونه كنود الشاهد، وقيل الهاء راجعة إلى الإنسان، والمعنى أنه شاهد على نفسه بما صنع ﴿وإنه﴾ يعني الإنسان ﴿لحب الخير﴾ أي المال ﴿لشديد﴾ أي لبخيل والمعنى أنه من أجل حب المال لبخيل، وقيل معناه وإنه لحب المال وإيثار الدنيا لقوي شديد ﴿أفلا يعلم﴾ يعني هذا الإنسان ﴿إذا بعثر﴾ أي أثير وأخرج ﴿ما في القبور﴾ يعني من الموتى ﴿وحصل ما في الصدور﴾ أي ميز وأبرز ما فيها من الخير والشر ﴿إن ربهم بهم﴾ أي جمع الكناية لأن الإنسان اسم جنس ﴿يومئذ لخبير﴾ أي عالم والله تعالى خبير بهم في ذلك اليوم، وفي غيره، ولكن المعنى أنه يجازيهم في ذلك اليوم على كفرهم وإنما خص أعمال القلوب بالذكر في قوله، ﴿وحصل ما في الصدور﴾ لأن أعمال الجوارح تابعة لأعمال القلوب، فإنه لولا البواعث والإرادات التي في القلوب لما حصلت أعمال الجوارح والله أعلم.

﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾، قال أكثر المفسرين: وإن الله على كونه كنوداً لشاهد. وقال ابن كيسان: الهاء راجعة إلى الإنسان أي إنه شاهد على نفسه بما يصنع.

﴿وإنه﴾، يعني الإنسان، ﴿لحب الخير﴾، أي لحب المال، ﴿لشديد﴾ أي لبخيل، أي إنه من أجل حب المال لبخيل. يقال للبخيل: شديد ومتشدد. وقيل: معناه وإنه لحب الخير لقوي أي شديد الحب للخير، أي المال.

﴿أفلا يعلم﴾، هذا الإنسان، ﴿إذا بعثر﴾، أثير وأخرج، ﴿ما في القبور﴾.

﴿وحصل ما في الصدور﴾، أي مُيز وأبرز ما فيها من خير أو شر.

﴿إن ربهم بهم﴾، جمع الكناية لأن الإنسان اسم الجنس، ﴿يومئذ لخبير﴾، عالم، قال الزجاج: الله خبير بهم في ذلك اليوم وفي غيره ولكن المعنى أنه يجازيهم على كفرهم في ذلك اليوم.

سورة القارعة

مكية وهي ثمان آيات وست وثلاثون كلمة ومائة واثنان وخمسون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ
الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي
عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا هِيَ ﴿١٠﴾ نَارٌ
حَامِيَةٌ ﴿١١﴾

قوله عز وجل: ﴿القارعة﴾ أصل القرع الصوت الشديد، ومنه قوارع الدهر أي شدائده، والقارعة من أسماء القيامة. سميت بذلك لأنها تقرع القلوب بالفرع، والشدائد وقيل سميت قارعة بصوت إسرافيل لأنه إذا نفخ في الصور مات جميع الخلائق من شدة صوت نفخته، ﴿ما القارعة﴾ تهويل وتعظيم، والمعنى أنها فاقت القوارع في الهول والشدة ﴿وما أدراك ما القارعة﴾ معناه لا علم لك بكنهها لأنها في الشدة بحيث لا يبلغها فهم أحد وكيفما قدرت أمرها فهي أعظم من ذلك ﴿يوم يكون الناس كالفراش المبثوث﴾ الفراش هذه الطير التي تراها تتهافت في النار سميت بذلك لفرشها، وانتشارها، وإنما شبه الخلق عند البعث بالفراش، لأن الفراش إذا ثار لم يتجه لجهة واحدة. بل كل واحدة تذهب إلى غير جهة الأخرى، فدل بهذا التشبيه على أن الخلق في البعث يتفرقون، فيذهب كل واحد إلى غير جهة الآخر، والمبثوث المتفرق، وشبههم أيضاً بالجراد فقال: كأنهم جراد منتشر وإنما شبههم بالجراد لكثرتهم قال

سُورَةُ الْقَارِعَةِ

مكية وقيل مدنية وهي إحدى عشرة آية.

﴿القارعة﴾، اسم من أسماء القيامة لأنها تقرع القلوب بالفرع.

﴿ما القارعة﴾، تهويل وتعظيم.

﴿وما أدراك ما القارعة﴾ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث، الفراش الطير التي تراها تتهافت في النار والمبثوث المفرق. وقال الفراء: كغواء الجراد شبه الناس عند البعث بها يموج بعضهم في بعض ويركب بعضهم بعضاً من الهول كما قال: ﴿كأنهم جراد منتشر﴾ [القمر: ٧].

﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾، كالصوف المندوف.

الفراء: كغواء الجراد يركب بعضه بعضاً فشبّه الناس عند البعث بالجراد لكثرتهم بموج بعضهم في بعض، ويركب بعضهم بعضاً من شدة الهول. ﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾ أي كالصوف المندوف، وذلك لأنها تتفرق أجزاءها في ذلك اليوم حتى تصير كالصوف المتطاير عند الندف، وإنما ضم بين حال الناس وحال الجبال، كأنه تعالى نبه على تأثير تلك القارعة في الجبال العظيمة الصلدة الصلبة حتى تصير كالعهن المنفوش، فكيف حال الإنسان الضعيف عند سماع صوت القارعة ثم لما ذكر حال القيامة قسم الخلق على قسمين فقال تعالى: ﴿فأما من ثقلت موازينه﴾ يعني رجحت موازين حسناته قيل هو جمع موزون، وهو العمل الذي له قدر وخطر عند الله تعالى، وقيل هو جمع ميزان وهو الذي له لسان وكفتان توزن فيه الأعمال فيؤتى بحسنات المؤمن في أحسن صورة فتوضع في كفة الميزان، فإن رجحت فالجنة له ويؤتى بسيئات الكافر في أقبح صورة فتخفف ميزانه، فيدخل النار، وقيل إنما توزن أعمال المؤمنين فمن ثقلت حسناته على سيئاته دخل الجنة، ومن ثقلت سيئاته على حسناته دخل النار، فيقتص منه على قدرها ثم يخرج منها، فيدخل الجنة أو يعفو الله عنه بكرمه، فيدخل الجنة بفضل الله وكرمه، ورحمته، وأما الكافرون فقد قال: في حقهم ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾ روى عن أبي بكر الصديق أنه قال: إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة بإتباعهم الحق في دار الدنيا، وثقله عليهم وحق لميزان يوضع فيه الحق غداً أن يكون ثقيلاً، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة بإتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم، وحق لميزان يوضع فيه الباطل غداً أن يكون خفيفاً.

قوله تعالى: ﴿فهو في عيشة راضية﴾ أي مرضية في الجنة، وقيل في عيشة ذات رضا يرضاها صاحبها ﴿وأما من خفت موازينه﴾ أي رجحت سيئاته على حسناته ﴿فأمه هاوية﴾ أي مسكنة النار سمي المسكن أما لأن الأصل في السكون الأمهات، وقيل معناه فأم رأسه هاوية في النار، والهاوية اسم من أسماء النار، وهي المهواة التي لا يدرك قعرها فيهبون فيها على رؤوسهم، وقيل كان الرجل إذا وقع في أمر شديد يقال هوت أمه أي هلكت حزناً وثكلاً ﴿وما أدراك ماهيه﴾ يعني الهاوية ثم فسرها فقال ﴿نار حامية﴾ أي جارة قد انتهت حرها نعوذ بالله وعظمته منها والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿فأما من ثقلت موازينه﴾، رجحت حسناته، ﴿فهو في عيشة راضية﴾، مرضية في الجنة. قال الزجاج ذات رضاء يرضاها صاحبها.

﴿وأما من خفت موازينه﴾، رجحت سيئاته على حسناته.

﴿فأمه هاوية﴾، مسكنة النار سمي المسكن أما لأن الأصل في السكون إلى الأمهات، والهاوية اسم من أسماء جهنم، وهو المهواة لا يدرك قعرها، وقال قتادة: وهي كلمة عربية كان الرجل إذا وقع في أمر شديد، يقال: هوت أمه. وقيل: أراد أم رأسه يعني أنهم يهبون في النار على رؤوسهم، وإلى هذا التأويل ذهب قتادة وأبو صالح.

﴿وما أدراك ماهيه﴾، يعني الهاوية وأصلها ما هي أدخل الهاء فيها للوقف ثم فسرها.

فقال: ﴿نار حامية﴾، أي حارة قد انتهت حرها.

سورة التكاثر

مكية وهي ثمان آيات وثمان وعشرون كلمة ومائة وعشرون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّزَّاقِ الْكَافٍ

أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ ۚ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۚ (٢)

قوله عز وجل: ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ أي شغلتكم المفاخرة، والمباهات، والمكاثرة بكثرة المال، والعدد، والمناقب عن طاعة الله ربكم، وما ينجيكم من سخطه، ومعلوم أن من اشتغل بشيء أعرض عن غيره، فينبغي للمؤمن العاقل أن يكون سعيه وشغله في تقديم الأهم وهو ما يقربه من ربه عز وجل. فالتفاخر بالمال والجاه والأعوان، والأقرباء تفاخر بأخس المراتب، والاشتغال به يمنع الإنسان من الاشتغال بتحصيل السعادة الآخورية التي هي سعادة الأبد، ويدل على أن المكاثرة، والمفاخرة بالمال مذمومة، ما روي عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ فقال يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما تصدقت، فأمضيت أو أكلت فأفنت أو لبست فأبليت» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح (خ) عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ «يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى معه واحد يتبعه ماله وأهله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله» ﴿حتى زرتم المقابر﴾ أي حتى متم ودفنتم في المقابر يقال لمن مات زار قبره وزار رسمه، فيكون معنى الآية ألهاكم حرصكم على تكثير أموالكم عن طاعة ربكم حتى أتاكم الموت، وأنتم على ذلك قيل نزلت هذه الآية في اليهود، قالوا نحن أكثر من بني فلان، وبنو فلان أكثر من بني فلان، شغلهم ذلك حتى ماتوا ضللاً، وقيل نزلت في حيين من قريش، وهما بنو عبد مناف، وبنو سهم بن عمرو، وكان بينهما تفاخر فتعادوا القادة، والأشراف

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

مكية وهي ثمان آيات.

﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، شغلتكم المباهاة والمفاخرة بكثرة المال والعدد عن طاعة ربكم وما ينجيكم من سخطه.

﴿حتى زرتم المقابر﴾، حتى متم ودفنتم في المقابر. وقال قتادة: نزلت في اليهود قالوا نحن أكثر من بني فلان وبنو فلان أكثر من بني فلان، شغلهم ذلك حتى ماتوا ضللاً. وقال مقاتل والكلبي: نزلت في حيين من قريش بني عبد مناف بن قصي وبني سهم بن عمرو كان بينهما تفاخر، فتعادوا السادة والأشراف أيهم أكثر عدداً، فقال بنو عبد مناف: نحن أكثر سيداً وأعزّ عزيزاً وأعظم نفراً وأكثر عدداً، وقال بنو سهم مثل ذلك، فكثرهم بنو عبد مناف، ثم قالوا: نعدّ موتانا حتى زاروا القبور فعدّوهم، فقالوا: أهذا قبر فلان وهذا قبر فلان فكثرهم بنو سهم بثلاثة أبيات

أَيُّهُمْ أَكْثَرُ فَقَالَ بَنُو عَبْدِ مَنْفٍ نَحْنُ أَكْثَرُ سَيِّدًا، وَأَعَزُّ عَزِيزًا، وَأَعْظَمُ نَفَرًا، وَأَكْثَرُ عِدَدًا، وَقَالَ بَنُو سَهْمٍ مِثْلَ ذَلِكَ، فَكَاتَرَهُمْ بَنُو عَبْدِ مَنْفٍ، ثُمَّ قَالُوا نَعِدُ مَوْتَانَا فَعَدُوا الْمَوْتَى حَتَّى زَارَ الْقُبُورَ، فَعَدَوْهُمْ فَقَالُوا هَذَا قَبْرُ فُلَانٍ وَهَذَا قَبْرُ فُلَانٍ فَكَثَرَهُمْ بَنُو سَهْمٍ بِثَلَاثَةِ آيَاتٍ لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَكْثَرُ عِدَدًا فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ، وَهَذَا الْقَوْلُ أَشْبَهَ بِظَاهِرِ الْقُرْآنِ لِأَن قَوْلَهُ ﴿حَتَّى زَرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَمْرِ مَضَى، فَكَأَنَّهُ تَعَالَى يَعْجَبُهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَيَقُولُ مَجِيبًا هَبْ إِنَّكُمْ أَكْثَرُ عِدَدًا، فَمَاذَا يَنْفَعُ ثُمَّ رَدَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ فَقَالَ:

كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾

﴿كَلَّا﴾ أي ليس الأمر كما يتوهمه هؤلاء بالتكاثر والتفاخر، وقيل المعنى حقاً ﴿سوف تعلمون﴾ وعيد لهم ﴿ثم كَلَّا سوف تعلمون﴾ كرهه تأكيداً والمعنى سوف تعلمون عاقبة تكاثركم وتفاخركم إذا نزل بكم الموت، فهو وعيد بعد وعيد، وقيل معناه كَلَّا سوف تعلمون يعني الكافرين ثم كَلَّا سوف تعلمون يعني المؤمنين وصاحب هذا القول يقرأ الأولى بالياء والثانية بالتاء. ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أي علماً يقيناً وجواب لو محذوف والمعنى لو تعلمون علماً يقيناً لشغلكم ما تعلمون عن التكاثر والتفاخر، قال قتادة كنا نحدث أن علم اليقين أن يعلم أن الله باعته بعد الموت ﴿لترون الجحيم﴾ اللام تدل على أنه جواب قسم محذوف والقسم لتوكيد الوعيد، وإن ما أوعدوا به لا يدخله شك ولا

لأنهم كانوا في الجاهلية أكثر عدداً، فأنزل الله هذه الآية، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحى أنا أبو بكر أحمد بن الحسين الحيرى أنا حاجب بن أحمد الطوسي ثنا عبد الرحيم بن منيب ثنا النضر بن شميل عن قتادة عن مطرف بن عبد الله الشخيرى عن أبيه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، قال: «يقول ابن آدم: مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيته أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت؟» أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا الحميدي ثنا سفيان ثنا عبد الله أبي بكر بن عمرو بن حزم سمع أنس بن مالك يقول: قال رسول الله ﷺ: «يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى معه واحد، يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله» ثم رَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَقَالَ:

﴿كَلَّا﴾، ليس الأمر بالتكاثر، ﴿سوف تعلمون﴾، وعيد لهم ثم تكرر تأكيداً فقال: ﴿ثُمَّ كَلَّا سوف تعلمون﴾، قال الحسن ومقاتل هو وعيد بعد وعيد والمعنى سوف تعلمون عاقبة تكاثركم وتفاخركم إذا نزل بكم الموت. وقال الضحاك: ﴿كَلَّا سوف تعلمون﴾ يعني الكفار، ﴿ثُمَّ كَلَّا سوف تعلمون﴾ يعني المؤمنين وكان يقرأ الأولى بالتاء والثانية بالياء.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾، أي علماً يقيناً فأضاف العلم إلى اليقين كقوله: ﴿لهو حق اليقين﴾ [الواقعة: ٩٥]، وجواب ﴿لو﴾ محذوف أي لو تعلمون علماً يقيناً لشغلكم ما تعلمون عن التكاثر والتفاخر. قال قتادة: كنا نتحدث أن علم اليقين أن يعلم أن الله باعته بعد الموت.

﴿لترون الجحيم﴾، قرأ ابن عامر والكسائي ﴿لترون﴾ بضم التاء من أريته الشيء، وقرأ الآخرون بفتح التاء أي ترونها بأبصاركم من بعد.

﴿ثم لترونها﴾، مشاهدة، ﴿عين اليقين﴾.

﴿ثم لتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾، قال مقاتل: يعني كفار مكة كانوا في الدنيا في الخير والنعمة، فيسألون يوم

ريب، والمعنى أنكم ترون الجحيم بأبصاركم بعد الموت ﴿ثم لترونها﴾ يعني مشاهدة ﴿عين اليقين﴾ وإنما كرر الرؤية لتأكيد الوعيد ﴿ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾ يعني أن كفار مكة كانوا في الدنيا في الخير والنعمة، فيسألون يوم القيامة عن شكر ما كانوا فيه لأنهم لم يشكروا رب النعيم حيث عبدوا غيره ثم يعذبون على ترك الشكر، وذلك لأن الكفار لما ألهاهم التكاثر بالدنيا، والتفاخر بلذاتها عن طاعة الله والاشتغال بشكره سألهم عن ذلك، وقيل أن هذا السؤال يعم الكافر، والمؤمن، وهو الأولى لكن سؤال الكافر توبيخ، وتقريع لأنه ترك شكر ما أنعم الله به عليه، والمؤمن يسأل سؤال تشريف وتكريم لأنه شكر ما أنعم الله به عليه، وأطاع ربه فيكون السؤال في حقه تذكرة بنعم الله عليه. يدل على ذلك ما روي «عن الزبير قال لما نزلت ﴿ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾ قال الزبير: يا رسول الله وأي نعيم نسأل عنه وإنما هما الأسودان التمر والماء قال أما أنه سيكون» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن واختلفوا في النعيم الذي يسأل البعد عنه، فروي عن ابن مسعود رفعه قال لتسألن يومئذ عن النعيم قال الأمن، والصحة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من النعيم أن يقال له ألم نصح لك جسمك ونروك من الماء البارد» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب (م) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال «خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال ﷺ ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة، قالوا الجوع يا رسول الله قال وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما، فقوموا فقاموا معه فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته فلما رآته المرأة قالت

القيامة عن شكر ما كانوا فيه، ولم يشكروا رب النعيم حيث عبدوا غيره، ثم يعذبون على ترك الشكر، هذا قول الحسن، وعن ابن مسعود رفعه قال: ﴿لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ قال: «الأمن والصحة». وقال قتادة: إن الله يسأل كل ذي نعمة عما أنعم عليه، أخبرنا أبو بكر بن الهيثم الترابي أنا عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسي ثنا إبراهيم بن خزيمة الشاشي ثنا عبد الله بن حميد ثنا شعبة عن عبد الله بن العلاء عن الضحاك بن عازم الأشعري قال سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما يسأل العبد يوم القيامة من النعيم أن يقال: ألم نصح جسمك؟ ونروك من الماء البارد؟» أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبد الصمد الجوزجاني أنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي أنا أبو سعيد الهيثم بن كليب الشاشي أنا أبو عيسى الترمذي أنا محمد بن إسماعيل ثنا آدم بن أبي إياس ثنا شيبان أبو معاوية ثنا عبد الملك بن عمير عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ في ساعة لا يخرج فيها ولا يلقاه فيها أحد، فأتاه أبو بكر فقال: «ما جاء بك يا أبا بكر؟» فقال: خرجت لألقى رسول الله ﷺ وأنظر إلى وجهه وللتسليم عليه، فلم يلبث أن جاء عمر، فقال: «ما جاء بك يا عمر؟» قال: الجوع يا رسول الله، قال النبي ﷺ: «وأنا قد وجدت بعض ذلك»، فانطلقوا إلى منزل أبي الهيثم بن التيهان الأنصاري، وكان رجلاً كثير النخل والشاة، ولم يكن له خدم فلم يجده فقلوا لامرأته: أين صاحبك؟ فقالت: انطلق ليستعذب لنا الماء، فلم يلبث أن جاء أبو الهيثم بقرية زعبها ماء فوضعها، ثم جاء يلتزم رسول الله ﷺ ويفديه بأبيه وأمه، ثم انطلق بهم إلى حديثه فبسط لهم بساطاً، ثم انطلق إلى نخلة فجاء بقنو فوضعه، فقال النبي ﷺ: «أفلا تنقيت لنا من رطبه وبسره»، فقال: يا رسول الله إني أردت أن تتخبروا من رطبه وبسره، فأكلوا وشربوا من ذلك الماء، فقال النبي ﷺ: «هذا والذي نفسي بيده من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة، ظل بارد ورطب طيب وماء بارد»، فانطلق أبو الهيثم ليصنع لهم طعاماً فقال النبي ﷺ: «لا تذبحن ذات در»، فذبح لهم عناقاً أو جدياً فأتاهم بها، فأكلوا، فقال النبي ﷺ: «هل لك خادم؟» قال: لا، قال النبي ﷺ: «فإذا أتانا صبي فأتنا»، فأتي النبي ﷺ برأسين ليس معها ثالث، فأتاه أبو الهيثم فقال النبي ﷺ: «اختر منهما»، فقال: يا نبي الله اختر لي، فقال النبي ﷺ: «إن المستشار مؤتمن، خذ هذه فإنني رأيته يصلي واستوص به معروفاً» فانطلق به أبو الهيثم إلى امرأته فأخبرها

مرحباً وأهلاً، فقال لها رسول الله ﷺ أين فلان قالت ذهب يستعذب لنا الماء إذا جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه ثم قال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني قال فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر، وتمر، ورطب فقال: كلوا وأخذ المدينة فقال له رسول الله ﷺ إياك والحلوب، فذبح لهم شاة فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا فلما شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم» وأخرجه الترمذي بأطول من هذا «وفيه ظل بارد ورطب طيب وماء بارد» وروي عن ابن عباس قال: النعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار يسأل الله العبيد يوم القيامة فيم استعملوها وهو أعلم بذلك منهم، وقيل يسأل عن الصحة والفراغ والمال (خ) عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ»، وقيل الذي يسأل العبد عنه هو القدر الزائد على ما يحتاج إليه فإنه لا بد لكل أحد من مطعم، ومشرب، وملبس، ومسكن، وقيل يسأل عن تخفيف الشرائع وتيسير القرآن، وقيل عن الإسلام فإنه أكبر النعم، وقيل يسأل عما أنعم به عليكم وهو محمد ﷺ الذي أنقذكم به من الضلال إلى الهدى، والنور وامتن به عليكم والله أعلم.

بقول رسول الله ﷺ، فقالت امرأته: ما أنت ببالح فيه ما قال رسول الله ﷺ إلا أن تعتقه، قال: فهو عتيق، فقال النبي ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى لم يبعث نبياً ولا خليفة إلا وله بطانتان بطانة تأمره بالمعروف وتنهيه عن المنكر، وبطانة لا تألوه إلا خبالاً، ومن يؤق بطانة السوء فقد وقي» وروي عن ابن عباس قال: النعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار يسأل الله العبيد فيم استعملوها، وهو أعلم بذلك منهم، وذلك قوله: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦]، قال عكرمة: عن الصحة والفراغ. وقال سعيد بن جبيرة: عن الصحة والفراغ والمال. أخبرنا الإمام أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد الداودي ثنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى بن الصلت ثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي ثنا الحسين بن الحسن بمكة ثنا عبد الله بن المبارك والفضل بن موسى قالوا ثنا عبد الله بن سعيد بن أبي هند عن أبيه عن أبي هند عن أبيه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ». قال محمد بن كعب: يعني عما أنعم عليكم بمحمد ﷺ. وقال أبو العالية: عن الإسلام والسنن. وقال الحسين بن الفضل: تخفيف الشرائع وتيسير القرآن.

سورة العصر

مكية قاله ابن عباس والجمهور وقيل هي مدنية وهي ثلاث آيات وأربع عشر كلمة وثمانية وستون حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِرٌ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا

بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

قوله عز وجل: ﴿والعصر﴾ قال ابن عباس: هو الدهر قيل أقسم الله به لما فيه من العبر، والعجائب للنظر وقد ورد في الحديث «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر» وذلك لأنهم كانوا يضيفون التَّوَابِ والتَّوَّازِل إلى الدهر، فأقسم به تنبيهاً على شرفه وإن الله هو المؤثر فيه فما حصل فيه من التَّوَابِ والتَّوَّازِل كان بقضاء الله وقدره، وقيل تقديره ورب العصر، وقيل أراد بالعصر الليل والنهار لأنهما يقال لهما العصران، فبه على شرف الليل والنهار لأنهما خزانة أعمال العباد، وقيل أراد بالعصر آخر طرفي النهار أقسم بالعشى كما أقسم بالضحى، وقيل أراد صلاة العصر أقسم بها لشرفها ولأنها الصَّلَاة الوسطى في قول بدليل قوله تعالى: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾ لما قيل هي صلاة العصر والذي في مصحف عائشة رضي الله عنها وحفصة والصَّلَاة الوسطى صلاة العصر وفي الصحيحين «شغلونا عن الصَّلَاة الوسطى صلاة العصر» وقال ﷺ «من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله»، وقيل أراد بالعصر زمن رسول الله ﷺ أقسم بزمانه كما أقسم بمكانه في قوله ﴿لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد﴾ نبه بذلك على أنه زمانه أفضل الأزمان وأشرفها، وجواب القسم. قوله تعالى: ﴿إن الإنسان لفي خسر﴾ أي لفي خسران ونقصان قيل أراد بالإنسان جنس الإنسان بدليل قولهم كثر الدرهم في أيدي الناس أي الدرهم وذلك لأن الإنسان لا ينفك عن خسران، لأن الخسران هو تضييع عمره وذلك لأن كل ساعة تمر من عمر الإنسان إما أن تكون تلك الساعة في طاعة أو معصية،

سُورَةُ الْعَصْرِ

مكية وقيل مدنية وهي ثلاث آيات.

﴿والعصر﴾، قال ابن عباس: والدهر. قيل: أقسم به لأن فيه عبرة للناس. وقيل: معناه ورب العصر، وكذلك في أمثاله. وقال ابن كيسان: أراد بالعصر الليل والنهار، يقال لهما العصران. وقال الحسن: من بعد زوال الشمس إلى غروبها. وقال قتادة: آخر ساعة من ساعات النهار. وقال مقاتل: أقسم بصلاة العصر وهي الصلاة الوسطى.

﴿إن الإنسان لفي خسر﴾، أي خسران ونقصان، قيل: أراد به الكافر بدليل أنه استثنى المؤمنين، والخسران ذهاب رأس مال الإنسان في هلاك نفسه وعمره بالمعاصي، وهما أكبر رأس ماله.

فإن كانت في معصية فهو الخسران المبين الظاهر وإن كانت في طاعة، فلعل غيرها أفضل وهو قادر على الإتيان بها فكان فعل غير الأفضل تضييعاً وخسراناً، فبان بذلك أنه لا ينفك أحد من خسران، وقيل إن سعادة الإنسان في طلب الآخرة وحبها والإعراض عن الدنيا ثم إن الأسباب الداعية إلى حب الآخرة خفية، والأسباب الداعية إلى حب الدنيا ظاهرة، فلهذا السبب كان أكثر الناس مشتغلين بحب الدنيا مستغرقين في طلبها، فكانوا في خسران وبوار قد أهلكوا أنفسهم بتضييع أعمارهم، وقيل أراد بالإنسان الكافر بدليل أنه استثنى المؤمنين فقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني فإنهم ليسوا في خسر، والمعنى أن كل ما مر من عمر الإنسان في طاعة الله تعالى فهو في صلاح وخير وما كان بضده فهو في خسر وفساد وهلاك. ﴿وتواصوا﴾ أي أوصى بعض المؤمنين بعضاً ﴿بالحق﴾ يعني بالقرآن والعمل بما فيه، وقيل بالإيمان والتوحيد ﴿وتواصوا بالصبر﴾ أي على أداء الفرائض وإقامة أمر الله وحدوده، وقيل أراد أن الإنسان إذا عمر في الدنيا وهم لفي نقص وتراجع إلا الذين آمنوا، وعملوا الصالحات فإنهم تكتب أجورهم ومحاسن أعمالهم التي كانوا يعملونها في شبابهم وصحتهم وهي مثل قوله ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين﴾ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ﴿والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، فإنهم ليسوا في خسران، ﴿وتواصوا﴾، أوصى بعضهم بعضاً، ﴿بالحق﴾، بالقرآن قاله الحسن وقتادة، وقال مقاتل: بالإيمان والتوحيد. ﴿وتواصوا بالصبر﴾، على أداء الفرائض وإقامة أمر الله. وروى ابن عون عن إبراهيم قال: أراد أن الإنسان إذا عمر في الدنيا وهم لفي نقص وتراجع إلا المؤمنين فإنهم يكتب لهم أجورهم ومحاسن أعمالهم التي كانوا يعملونها في شبابهم وصحتهم، وهي مثل قوله: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين﴾ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿[التين: ٤ وه و٦].

سورة الهمزة

مكية وهي تسع آيات وثلاثون كلمة ومائة وثلاثون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾

قوله عز وجل: ﴿ويلٌ﴾ أي قبح، وقيل اسم واد في جهنم ﴿لكل همزة لمزة﴾ قال ابن عباس هم المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة الباغون للبراء العيب وقيل معناهما واحد وهو العياب المغتاب للناس في بعضهم قال الشاعر:

إذا لقيتكَ من كره تكاشرنِي وإن تغيبت كنت الهامزًا للمزا

وقيل بل يختلف معناهما فقليل الهمزة الذي يعيبك في الغيب، واللمزة الذي يعيبك في الوجه، وقيل هو على ضده، وقيل الهمزة الذي يهزم الناس بيده ويضربهم، واللمزة الذي يلزمهم بلسانه ويعيبهم، وقيل هو الذي يهزم بلسانه ويلزم بعينه، وقيل الهمزة الذي يؤدي جليسه بسوء اللفظ، واللمزة الذي يرمى بعينه ويشير برأسه ويرمز بحاجبه، وقيل الهمزة المغتاب للناس واللمزة الطعان في أنسابهم وحاصل هذه الأقاويل يرجع إلى أصل واحد، وهو الطعن وإظهار العيب وأصل الهمز الكسر والقبض على الشيء بالعنف، والمراد منه هنا الكسر من أعراض الناس والغض منهم، والطعن فيهم، ويدخل فيه من يحاكي الناس بأقوالهم، وأفعالهم، وأصواتهم ليضحكوا منه، وهما نعتان للفاعل على نحو سخرة وضحكة للذي يسخر ويضحك من الناس، واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية، فقليل نزلت في الأخنس بن شريق بن وهب. كان يقع في الناس ويغتابهم وقال محمد بن إسحاق: ما زلنا نسمع أن سورة الهمزة

سُورَةُ الْهُمَزَةِ

مكية وهي تسع آيات.

﴿ويلٌ لكل همزة لمزة﴾، قال ابن عباس: هم المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة الباغون للبراء العنت، ومعناهما واحد وهو العياب. وقال مقاتل: الهمزة الذي يعيبك في الغيب واللمزة الذي يعيبك في الوجه. وقال أبو العالية والحسن بضدّه، وقال سعيد بن جبيرة وقتادة: الهمزة الذي يأكل لحوم الناس ويغتابهم، واللمزة الطعان عليهم. وقال ابن زيد: الهمزة الذي يهزم الناس بيده ويضربهم، واللمزة الذي يلزمهم بلسانه ويعيبهم. وقال سفيان الثوري: ويهزم بلسانه ويلزم بعينه. ومثله قال ابن كيسان الهمزة الذي يؤدي جليسه بسوء اللفظ واللمزة الذي يومض بعينه ويشير برأسه، ويرمز بحاجبه وهما لغتان للفاعل نحو سخرة وضحكة للذي يسخر ويضحك من

نزلت في أمية بن خلف الجمحي، وقيل نزلت في الوليد بن المغيرة كان يغتاب النبي ﷺ من ورائه ويطعن عليه في وجهه، وقيل نزلت في العاص بن وائل السهمي، وقيل هي عامة في كل شخص هذه صفته كائناً من كان، وذلك لأن خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ والحكم، ومن قال إنها في أناس معينين قال أن يكون اللفظ عاماً لا ينافي أن يكون المراد منه شخصاً معيناً وهو تخصيص العام بقريضة العرف والأولى أن تحمل على العموم في كل من هذه صفته ثم وصفه فقال تعالى:

الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدُوهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا
الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقُودَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾

﴿الذي جمع مالا﴾ وإنما وصفه بهذا الوصف لأنه يجري مجرى السبب والعللة في الهمز واللمز يعني وهو بإعجابه بما جمع من المال يستصغر الناس ويسخر منهم، وإنما نكر مالا لأنه بالنسبة إلى مال هو أكثر منه كالشيء الحقيق وإن كان عظيماً عند صاحبه فكيف يليق بالعاقل أن يفتخر بالشيء الحقيق ﴿وعدده﴾ أي أحصاه من العدد، وقيل هو من العدة أي استعدده وجعله ذخيرة وغنى له ﴿يحسب أن ماله أخلده﴾ أي يظن أنه يخلد في الدنيا ولا يموت ليساره وغناه قال الحسن ما رأيت يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت ومعناه أن الناس لا يشكون في الموت مع أنهم يعملون عمل من يظن أنه يخلد في الدنيا ولا يموت ﴿كلا﴾ رد عليه أي لا يخلده ماله بل يخلده ذكر العلم، والعمل الصالح ومنه قول على مات خزان المال، وهم أحياء والعلماء باقون ما بقي الدهر، وقيل معناه حقاً ﴿لينبذن﴾ واللام في لينبذن جواب القسم فدل ذلك على حصول معنى القسم، ومعنى لينبذن ليطرحن ﴿في الحطمة﴾ أي في النار، وهو اسم من أسمائها مثل سقر ولظى، وقيل هو اسم للدركة الثانية منها وسميت حطمة لأنها تحطم العظام وتكسرها، والمعنى يا أيها الهمزة اللمزة الذي يأكل لحوم الناس، ويكسر من أعراضهم إن وراءك الحطمة التي تأكل

الناس، وأصل الهمز الكسر والعرض على الشيء بالعنف، واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية، قال الكلبي: نزلت في الأخنس بن شريق بن وهب الثقفي كان يقع في الناس ويغتابهم. وقال محمد بن إسحاق: ما زلنا نسمع أن سورة الهمزة نزلت في أمية بن خلف الجمحي. وقال مقاتل: نزلت في الوليد بن المغيرة، كان يغتاب النبي ﷺ من ورائه ويطعن عليه في وجهه. وقال مجاهد: هي عامة في حق كل من هذه صفته.

ثم وصفه فقال: ﴿الذي جمع مالا﴾، قرأ أبو جعفر وابن عامر وحفص وحمزة والكسائي (جمع) بتشديد الميم على التكثير، وقرأ الآخرون بالتخفيف. ﴿وعدده﴾، أحصاه، وقال مقاتل: استعدده وأذخره وجعله عتاداً له، يقال: أعددت الشيء وعددته إذا أمسكته.

﴿يحسب أن ماله أخلده﴾، في الدنيا يظن أنه لا يموت مع يساره.

﴿كلا﴾، رد عليه أن لا يخلده ماله، ﴿لينبذن﴾، ليطرحن، ﴿في الحطمة﴾، في جهنم والحطمة من أسماء النار مثل سقر ولظى سميت حطمة لأنها تحطم العظام وتكسرها.

﴿وما أدراك ما الحطمة﴾ نار الله الموقدة * التي تطلع على الأفئدة *، أي التي يبلغ ألمها ووجعها إلى القلوب، والاطلاع والبلوغ بالتطلع بمعنى واحد، يحكى عن العرب متى طلعت أرضنا أي بلغت، ومعنى الآية: أنها تأكل كل شيء منه حتى تنتهي إلى فؤاده، قاله القرظي والكلبي.

﴿إنها عليهم مؤصدة﴾، مطبقة مغلقة.

اللحوم وتكسر العظام ﴿وما أدراك ما الحطمة﴾ أي نار لا كسائر النيران ﴿نار الله﴾ إنما أضافها إليه على سبيل التفخيم والتعظيم لها ﴿الموقدة﴾ أي لا تخمد أبداً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة» أخرجه الترمذي قال ويروى عن أبي هريرة موقوفاً وهو أصح ﴿التي تطلع على الأفتدة﴾ أي يبلغ ألمها ووجعها إلى القلوب، والمعنى أنها تأكل كل شيء حتى تنتهي إلى الفؤاد، وإنما خص الفؤاد بالذكر لأنه أطف شيء في بدن الإنسان، وأنه يتألم بأدنى شيء، فكيف إذا اطلعت عليه واستولت عليه، ثم إنه مع لطافته لا يحترق إذ لو احترق لمات صاحبه، وليس في النار موت، وقيل إنما خصه بالذكر لأن القلب موطن الكفر، والعقائد، والنيات الفاسدة. ﴿إنها عليهم مؤصدة﴾ أي مطبقة مغلقة ﴿في عمد ممددة﴾ قال ابن عباس: أدخلهم في عمد فمدت عليهم بعماد وفي أعناقهم السلاسل سدت عليهم بها الأبواب، وقال قتادة: بلغنا أنهم عمد يعذبون بها في النار، وقيل هي أوتاد الأطباق التي تطبق على أهل النار، والمعنى أنها مطبقة عليهم بأوتاد ممدودة، وقيل أطبقت الأبواب عليهم ثم سدت بأوتاد من حديد من نار حتى يرجع عليهم غمها وحرها، فلا يفتح عليهم باب، ولا يدخل عليهم روح، وممددة صفة العمد، أي مطولة فتكون أرسخ من القصيرة نعوذ بالله من النار، وحرها والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿في عمد ممددة﴾، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر في ﴿عمد﴾ بضم العين والميم، وقرأ الآخرون بفتحهما كقوله تعالى: ﴿رفع السموات بغير عمد ترونها﴾ [الرعد: ٢]، وهما جميعاً جمع عمود مثل أديم وأدم وأدم، قاله الفراء، وقال أبو عبيدة: جمع عماد مثل إهاب وأهب وأهب. قال ابن عباس: أدخلهم في عمد فمدت عليهم بعماد، وفي أعناقهم السلاسل سدت عليهم بها الأبواب، وقال قتادة: بلغنا أنها عمد يعذبون بها في النار. وقيل: هي أوتاد الأطباق التي تطبق على أهل النار، أي أنها مطبقة عليهم بأوتاد ممدودة وهي في قراءة عبد الله (بعمد) بالباء، قال مقاتل: أطبقت الأبواب عليهم ثم سدت بأوتاد من حديد من نار حتى يرجع عليهم غمها وحرها فلا يفتح عليهم باب ولا يدخل عليهم ريح، والممددة من صفة العمد، أي مطولة فتكون أرسخ من القصيرة.

سورة الفيل

مكية وهي خمس آيات وعشرون كلمة وستة وتسعون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِ تَرَّ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾

قوله عز وجل: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل﴾ كانت قصة أصحاب الفيل على ما ذكره محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم عن سعيد بن جبير، وعكرمة عن ابن عباس، وذكره الواقدي أن النجاشي ملك الحبشة كان بعث أرياط إلى اليمن، فغلب عليها فقام رجل من الحبشة يقال له أبرهة بن الصباح بن يكسوم، فساخط أرياط في أمر الحبشة حتى انصدعوا صدعين، فكان طائفة مع أرياط، وطائفة مع أبرهة، فتزاحفا فقتل أبرهة أرياط، واجتمعت الحبشة لأبرهة، وغلب على اليمن، وأقره النجاشي على عمله، ثم إن أبرهة رأى الناس يتجهزون أيام الموسم إلى مكة لحج بيت الله عز وجل، فبنى كنيسة بصنعاء، وكتب إلى النجاشي إني قد بنيت لك بصنعاء كنيسة لم يبن لملك مثلاً، ولست منتهياً حتى أصرف إليها حج العرب فسمع بذلك مالك بن كنانة فخرج لها ليلاً، فدخل وتغوط فيها ولطخ بالعدرة قبلتها، فبلغ ذلك أبرهة فقال: من اجتراً عليّ، فليل صنع ذلك رجل من العرب من أهل ذلك البيت سمع بالذي قلت، فحلف أبرهة عند ذلك ليسيرن إلى الكعبة حتى يهدمها، فكتب إلى النجاشي يخبره بذلك، وسأله أن يبعث إليه بفيله، وكان له فيل يقال له محمود، وكان فيلاً لم ير مثله عظماً، وجسماً، وقوة، فبعث به إليه، فخرج

سُورَةُ الْفِيلِ

مكيّة وهي خمس آيات.

﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل﴾؟ وكانت قصة أصحاب الفيل على ما ذكره محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم عن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس وذكره الواقدي: أن النجاشي ملك الحبشة كان قد بعث أرياطاً إلى أرض اليمن فغلب عليها، فقام رجل من الحبشة يقال له أبرهة بن الصباح أبو مكتوم، فساخط أرياط في أمر الحبشة حتى انصدعوا صدعين وكانت طائفة مع أرياط وطائفة مع أبرهة فتزاحفا فقتل أبرهة أرياط، واجتمعت الحبشة لأبرهة وغلب على اليمن وأقره النجاشي على عمله، ثم إن أبرهة رأى الناس يتجهزون أيام الموسم إلى مكة لحج بيت الله، فبنى كنيسة بصنعاء وكتب إلى النجاشي: إني قد بنيت لك بصنعاء كنيسة لم يبن لملك مثلاً، ولست منتهياً حتى أصرف إليها حج العرب، فسمع به رجل من بني مالك بن كنانة فخرج إليها مستخفياً فدخلها ليلاً فقعد فيها وتغوط بها ولطخ بالعدرة قبلتها، فبلغ ذلك أبرهة فقال: من اجتراً عليّ ولطخ كنيسة بالعدرة؟ فليل صنع ذلك رجل من العرب من أهل ذلك البيت سمع بالذي قلت، فحلف أبرهة عند ذلك ليسيرن إلى الكعبة حتى

أبرهة في الحبشة سائراً إلى مكة، وخرج معهم الفيل، فسمعت العرب بذلك، فعظموه ورأوا جهاده حقاً عليهم، فخرج ملك من ملوك اليمن يقال له ذو نفر بمن أطاعه من قومه، فقاتلوه فهزمه أبرهة، وأخذ ذا نفر فقال يا أيها الملك استبقني فإن بقائي خير لك من قتلي فاستحياه وأوثقه وكان أبرهة رجلاً حليماً، ثم سار حتى إذا دنا من بلاد خثعم، خرج إليه نفيل بن حبيب الخثعمي في خثعم ومن اجتمع إليه من قبائل اليمن، فقاتلوه فهزمهم، وأخذ نفيلاً فقال نفيل أيها الملك إني دليل بأرض العرب، وهاتان يداي على قومي بالسمع والطاعة، فاستبقاه وخرج معه يده حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن مغيث في رجال من ثقيف فقال: أيها الملك نحن عبيدك ليس عندنا خلاف لك، إنما تريد البيت الذي بمكة نحن نبعث معك من يدلك عليه، فبعثوا معه أبا رغال مولى لهم، فخرج حتى إذا كان بالمغمس مات أبو رغال وهو الذي يرجم قبره، وبعث أبرهة رجلاً من الحبشة يقال له الأسود بن مسعود على مقدمة خيله، وأمره بالغارة على نعم الناس، فجمع الأسود أموال أصحاب الحرم، وأصاب لعبد المطلب مائتي بعير، ثم إن أبرهة أرسل بحناطة الحميري إلى أهل مكة، وقال له: سل عن شريفها، ثم أبلغه ما أرسلك به إليه أخبره أنني لم آت لقتال، إنما جئت لأهدم هذا البيت، فانطلق حتى دخل مكة، فلقي عبد المطلب بن هاشم فقال له إن الملك أرسلني إليك لأخبرك أنه لم يأت لقتال، إلا أن تقاتلوه، إنما جاء لهدم هذا البيت ثم الانصراف عنكم، فقال عبد المطلب: ما له عندنا قتال ولا لنا به يد إنا سنخلي بينه وبين ما جاء له، فإن هذا بيت الله الحرام، وبيت إبراهيم خليله عليه الصلاة والسلام، فإن يمنعه فهو بيته وحرمة وإن يخل بينه وبين ذلك فوالله ما لنا به قوة قال فانطلق معي إلى الملك، فزعم

يهدمها، فكتب إلى النجاشي يخبره بذلك وسأله أن يبعث إليه بفيله، وكان له فيل يقال له محمود وكان فيلاً لم ير مثله عظيماً جسيماً وقوة، فبعث به إليه فخرج أبرهة من الحبشة سائراً إلى مكة، وأخرج معه الفيل، فسمعت العرب بذلك فاستعظموه ورأوا جهاده حقاً عليهم، فخرج ملك من ملوك اليمن يقال له ذو نفر بمن أطاعه من قومه، فقاتله فهزمه أبرهة وأخذ ذا نفر، فقال: أيها الملك لا تقتلني فإن استبقائي خيراً لك من قتلي فاستحياه وأوثقه، وكان أبرهة رجلاً حليماً ثم سار حتى إذا دنا من بلاد خثعم، خرج نفيل بن حبيب الخثعمي في خثعم ومن اجتمع إليه من قبائل اليمن، فقاتلوه فهزمهم وأخذ نفيل، فقال نفيل: أيها الملك إني دليل بأرض العرب وهاتان يداي على قومي بالسمع والطاعة فاستبقاه، وخرج معه يده حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن مغيث في رجال من ثقيف فقال: أيها الملك نحن عبيدك ليس لك عندنا خلاف وقد علمنا أنك تريد البيت الذي بمكة نحن نبعث معك من يدلك عليه، فبعثوا أبا رغال مولى لهم فخرج حتى إذا كان بالمغمس مات أبو رغال وهو الذي يرجم قبره، وبعث أبرهة من المغمس رجلاً من الحبشة يقال له الأسود بن مسعود على مقدمة خيله وأمره بالغارة على نعم الناس، فجمع الأسود إليه أموال الحرم، وأصاب لعبد المطلب مائتي بعير، ثم إن أبرهة بعث حناطة الحميري إلى أهل مكة، فقال: سل عن شريفها ثم أبلغه ما أرسلك به إليه، أخبر أنني لم آت لقتال إنما جئت لأهدم هذا البيت، فانطلق حتى دخل مكة فلقي عبد المطلب بن هاشم، فقال: إن الملك أرسلني إليك لأخبرك أنه لم يأت لقتال إلا أن تقاتلوه، إنما جاء لهدم هذا البيت ثم الانصراف عنكم، فقال عبد المطلب: ما له عندنا قتال ولا له عندنا إلا أن نخلي بينه وبين ما جاء له، فإن هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم عليه السلام، فإن يمنعه فهو بيته وحرمة، وإن يخل بينه وبين ذلك فوالله ما لنا قوة إلا به، قال: فانطلق معي إلى الملك، فزعم بعض العلماء أنه أردفه على بغلة كان عليها وركب معه بعض بنيته حتى قَدِمَ المعسكر، وكان ذو نفر صديقاً لعبد المطلب فأتاه فقال: يا ذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا؟ فقال: ما غناء رجل أسير لا يأمن أن يقتل بكرة أو عشياً، ولكن سأبعث إلى أنيس سائس الفيل فإنه لي صديق فأسأله أن يصنع لك عند الملك ما استطاع من خير ويعظم خطرك ومنزلتك عنده، قال: فأرسل إلى أنيس فأتاه فقال

بعض العلماء أنه أردفه على بغلة كان عليها، وركب معه بعض بنيه حتى قدم على العسكر، وكان ذو نفر صديقاً لعبد المطلب، فأتاه فقال: يا ذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا؟ قال فما غناء رجل أسير لا يأمن من أن يقتل بكرة أو عشية، ولكن سأبعث إلى أنيس سائس الفيل، فإنه لي صديق، فأسأله أن يصنع لك عند الملك ما استطاع من خير، ويعظم خطرك، ومنزلتك عنده قال فأرسل إلى أنيس، فأتاه فقال، له إن هذا سيد قريش، وصاحب غير مكة يطعم الناس في السهل، والوحوش في رؤوس الجبال، وقد أصاب الملك له مائتي بعير فإن استطعت أن تنفعه عنده، فأنفعه فإنه صديق لي أحب ما وصل إليه من الخير، فدخل أنيس على أبرهة فقال: أيها الملك هذا سيد قريش، وصاحب غير مكة الذي يطعم الناس في السهل، والوحوش في رؤوس الجبال يستأذن عليك، وأنا أحب أن تأذن له، فيكلمك فقد جاء غير ناصب، ولا مخالف عليك، فأذن له وكان عبد المطلب رجلاً جسيماً، وسيماً فلما رآه أبرهة عظمه، وأكرمه، وكره أن يجلس معه على السرير وأن يجلس تحته، فهبط إلى البساط فجلس عليه، ثم دعاه، فأجلسه معه ثم قال لترجمانه قل له ما حاجتك إلى الملك فقال الترجمان: ذلك له فقال له عبد المطلب حاجتي إلى الملك أن يرد عليّ مائتي بعير أصابها لي، فقال أبرهة لترجمانه قل له كنت أعجبتي حين رأيتك، ولقد زهدت الآن فيك قال لم قال جئت إلى بيت هو دينك، ودين آبائك، وهو شرفكم، وعصمتكم لأهدمه لم تكلمني فيه، وتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك، قال عبد المطلب: أنا رب هذه الإبل، ولهذا البيت رب سيمنه منك، قال ما كان ليمنعه مني قال فانت وذاك فأمر بإبله فردت عليه، فلما ردت الإبل على عبد المطلب خرج، فأخبر قريشاً الخبر وأمرهم أن يتفرقوا في الشعاب ويتحرزوا في رؤوس الجبال تخوفاً عليهم من معرة الحبش، ففعلوا وأتى عبد المطلب الكعبة، وأخذ حلقة الباب وجعل يقول:

يا رب لا أرجوا لهم سواكا يا رب فامنع منهم حماكا
إن عدو البيت من عاداكا امنعهم أن يخربوا قراكا

له: إن هذا سيد قريش صاحب غير مكة الذي يطعم الناس في السهل والوحوش في رؤوس الجبال، وقد أصاب له الملك مائتي بعير فإن استطعت أن تنفعه عنده فأنفعه فإنه صديق لي أحب ما وصل إليه من الخير، فدخل أنيس على أبرهة فقال: أيها الملك هذا سيد قريش وصاحب غير مكة الذي يطعم الناس في السهل والوحوش في رؤوس الجبال، يستأذن إليك وأحب أن تأذن له فيكلمك وقد جاء غير ناصب لك ولا مخالف عليك، فأذن له وكان عبد المطلب رجلاً جسيماً وسيماً فلما رآه أبرهة أعظمه وأكرمه، وكره أن يجلس معه على سريره وأن يجلس تحته فهبط إلى البساط فجلس عليه ثم دعاه فأجلسه معه، ثم قال لترجمانه قل له: ما حاجتك إلى الملك؟ فقال له الترجمان ذلك، فقال عبد المطلب: حاجتي إلى الملك أن يردّ إليّ مائتي بعير أصابها لي، فقال أبرهة لترجمانه قل له: لقد كنت أعجبتي حين رأيتك، ولقد زهدت فيك، قال: لم؟ قال: جئت إلى بيت هو دينك ودين آبائك وهو شرفكم وعصمتكم لأهدمته لم تكلمني فيه وتكلمني في مائتي بعير أصبتها؟ قال عبد المطلب: أنا رب هذه الإبل وإن لهذا البيت رباً سيمنع عنه من يقصده بسوء، قال: ما كان ليمنعه مني، قال: فانت وذاك، فأمر بإبله فردت عليه، فلما ردت الإبل إلى عبد المطلب خرج فأخبر قريشاً الخبر الذي وقع بينه وبين أبرهة، وأمرهم أن يتفرقوا في الشعاب ويتحرزوا في رؤوس الجبال تخوفاً عليهم من معرة الحبش فيهم، ففعلوا وأتى عبد المطلب الكعبة وأخذ بحلقة الباب وجعل يقول:

يا رب لا أرجو لهم سواكا يا رب فامنع منهم حماكا
إن عدو البيت من عاداكا امنعهم أن يخربوا قراكا

وقال أيضاً:

لا هـم إن العبد يم	نع رحله فامنع رحالك
وانصر على آل الصلي	ب وعابديه اليوم آلك
لا يغلبن صليهم	ومحالهم عدوا محالك
جروا جموع بلادهم	والفيل كي يسبوا عيالك
عمدوا حماك بكيدهم	جهلاً وما رقبوا جلالك
إن كنت تاركهم وكعد	بتنا فأمراً ما بدالك

ثم ترك عبد المطلب الحلقة، وتوجه في بعض تلك الوجوه مع قومه، وأصبح أبرهة بالمغمس، وقد تهيأ للدخول، وهياً جيشه، وهياً فيله، وكان فيلاً لم ير مثله في العظم والقوة، ويقال كان معه اثنا عشر فيلاً، فأقبل نفيل إلى الفيل الأعظم، ثم أخذ بإذنه، وقال له أبرك محمود وارجع راشداً من حيث جئت، فإنك بيلد الله الحرام، فبرك الفيل، فبعثوه فأبى، فضربوه بالمعول في رأسه، فأدخلوا محاجنهم تحت مراقه، ومرافقه، ففزعوه ليقوم فأبى فوجهوه راجعاً إلى اليمن، فقام يهرول ووجهوه إلى الشام، ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك فصرفوه إلى الحرم، فبرك وأبى أن يقوم، وخرج نفيل يشتد حتى صعد الجبل، وأرسل الله عز وجل طيراً من البحر أمثال الخطاطيف مع كل طائر منها ثلاثة أحجار حجران في رجليه وحجر في منقاره أمثال الحمص، والعدس، فلما غشين القوم أرسلنها عليهم، فلم تصب تلك الحجارة أحداً إلا هلك، وليس كل قوم أصابت وخرجوا هاربين لا

وقال أيضاً:

لَا هُمْ إن العبد يم	نع رحله فامنع رحالك
وانصر على آل الصل	يب وعابديه اليوم آلك
لا يغلبن صليهم	ومحالهم عدواً محالك
جروا جموع بلادهم	والفيل كي يسبوا عيالك
عمدوا حماك بكيدهم	جهلوا وما رقبوا جلالك
إن كنت تاركهم وكعد	بتنا فأمراً ما بدالك

ثم ترك عبد المطلب الحلقة وتوجه في بعض تلك الوجوه مع قومه، وأصبح بأبرهة بالمغمس قد تهيأ للدخول وهياً جيشه وهياً فيله وكان فيلاً عظيماً لم ير مثله في العظم والقوة، ويقال كان معه اثني عشر فيلاً، فأقبل نفيل إلى الفيل الأعظم ثم أخذ بأذنه فقال: أبرك محمود وارجع راشداً من حيث جئت فإنك في بلد الله الحرام، فبرك الفيل فبعثوه فأبى فضربوه بالمعول في رأسه فأبى، فأدخلوا محاجنهم تحت مراقه ومرافقه ففزعوه ليقوم فأبى، فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، فصرفوه إلى الحرم فبرك وأبى أن يقوم، وخرج نفيل يشتد حتى صعد في أعلى وأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف مع كل طائر منها ثلاثة أحجار حجران في رجليه وحجر في منقاره أمثال الحمص والعدس، فلما غشيت القوم أرسلنها عليهم فلم تصب تلك الحجارة أحداً إلا هلك، وليس كل القوم أصابت وخرجوا هاربين لا يهتدون إلى الطريق الذي جاؤوا منه، وهم يتساءلون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن، ونفيل ينظر إليهم من بعض تلك الجبال، فصرخ القوم وماج بعضهم في بعض يتساقطون بكل طريق ويهلكون على كل منهل، وبعث

يهتدون إلى الطريق الذي جاؤوا منه ويتساءلون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن، ونفيل ينظر إليهم من بعض الجبال وفي ذلك يقول نفيل:

فإنك ما رأيت ولن تراه لدى حين المحصب ما رأينا
حمدت الله إذ أبصرت طيراً وحصب حجارة تلقى علينا
وكلهم يسائل عن نفيل كأن على للحبشان ديناً

وخرج القوم وماج بعضهم في بعض يتساقطون بكل طريق، ويهلكون في كل منهل، وبعث الله على أبرهة داء في جسده، فجعل تتساقط أنامله كلما سقطت أنملة تبعثها مدة من قيح، ودم، فانتهى إلى صنعاء، وهو مثل فرخ الطير، فيمن بقي من أصحابه، وما مات حتى انصدع صدره عن قلبه، ثم هلك قال الواقدي: وأما محمود فيل النجاشي فربض ولم يشجع على الحرم، والفيل الآخر شجعوا، فحصبوا أي رموا بالحصباء، وقال بعضهم أنفلت أبو يكسوم وزير أبرهة، وتبعه طير، فحلّق فوق رأسه حتى بلغ النجاشي فقص عليه القصة، فلما أنهاها وقع عليه حجر من ذلك الطير، فخر ميتاً بين يدي النجاشي قال أمية بن أبي الصلت:

إن آيات ربنا ساطعات ما يماري فيهن إلا الكفور
حبس الفيل بالمغمس حتى ظل يعوي كأنه معفور

وروي عن عائشة رضي الله عنها قالت: رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة يستطعمان الناس، وزعم مقاتل بن سليمان أن السبب الذي جرّأ أصحاب الفيل، أن فئة من قريش أججوا ناراً حين خرجوا تجاراً إلى أرض النجاشي، فدنوا من ساحل البحر، وثم بيعة للنصارى تسميها قريش الهيكل، فنزلوا فأججوا النار واشتوا، فلما ارتحلوا تركوا النار كما هي في يوم عاصف، فهاجت الريح، فاضطرم الهيكل ناراً فانطلق الصرير إلى النجاشي فأسف غضباً للبيعة، فبعث أبرهة لهدم الكعبة، وكان في مكة يومئذ أبو مسعود الثقفي وكان مكفوف البصر يصيف بالطائف ويشتو بمكة، وكان رجلاً نبهاً نبيلاً تستقيم الأمور برأيه، وكان خليلاً لعبد المطلب فقال له عبد المطلب: ماذا عندك فهذا يوم لا يستغنى فيه عن رأيك؟ فقال أبو مسعود اصعد بنا إلى حراء، فصعد الجبل فقال أبو مسعود لعبد المطلب اعمد إليّ مائة من الإبل، فاجعلها لله وقلدها نعلًا، واجعلها لله ثم أبثها في الحرم، فلعل بعض السودان يعقر منها شيئاً، فيغضب

الله على أبرهة داءً في جسده فجعل تتساقط منه أنامله كلما سقطت أنملة اتبعته مدة من قيح ودم، فانتهى إلى صنعاء وهو مثل فرخ الطائر فيمن بقي من أصحابه، وما مات حتى انصدع صدره من قلبه ثم هلك. قال الواقدي: وأما محمود فيل النجاشي فربض ولم يشجع على الحرم فنجا والفيل الآخر شجعوا فحصبوا، وزعم مقاتل بن سليمان أن السبب الذي جرّأ أصحاب الفيل: أن فتية من قريش خرجوا تجاراً إلى أرض النجاشي فدنوا من ساحل البحر ثم بيعة للنصارى تسميها قريش الهيكل، فنزلوا فأججوا ناراً فاضطروا فلما ارتحلوا تركوا النار كما هي في يوم عاصف فهاجت الريح فاضطرم الهيكل ناراً فانطلق الصغير إلى النجاشي فأسف، واغتاظ غيظاً شديداً، فبعث أبرهة لهدم الكعبة، وقال فيه: إنه كان بمكة يومئذ أبو مسعود الثقفي وكان مكفوف البصر يصيف بالطائف ويشتو بمكة، وكان رجلاً نبهاً نبيلاً تستقيم الأمور برأيه، وكان خليلاً لعبد المطلب، فقال له عبد المطلب: ماذا عندك هذا يوم لا يُستغنى فيه عن رأيك؟ فقال أبو مسعود: اصعد بنا إلى حراء فصعد الجبل، فقال أبو مسعود لعبد المطلب: اعمد إلى مائة من الإبل فاجعلها لله وقلدها نعلًا ثم أرسلها في الحرم لعل بعض هذه السودان يعقر منها شيئاً، فيغضب ربّ هذا البيت فيأخذهم، ففعل ذلك عبد المطلب فعمد القوم إلى تلك الإبل فحملوا عليها وعقروا بعضها وجعل

رب هذا البيت، فيأخذهم ففعل ذلك عبد المطلب فعمد القوم إلى تلك الإبل، فحملوا عليها، وعقروا بعضها وجعل عبد المطلب يدعو فقال أبو مسعود إن لهذا البيت رباً يمنعهُ فقد نزل تبع ملك اليمن صحن هذا البيت، وأراد هدمه فمنعه الله وابتلاه، وأظلم عليه ثلاثة أيام، فلما رأى تبع ذلك كساه القباطي البيض، وعظمه ونحر له جزوراً، فانظر نحو البحر، فنظر عبد المطلب فقال: أرى طيراً بيضاء نشأت من شاطئ البحر فقال ارمقها ببصرك أين قرارها قال أراها قد دارت على رؤوسنا، قال: هل تعرفها؟ قال والله ما أعرفها ما هي بنجدية، ولا بتهامية، ولا عربية، ولا شامية، قال: ما قدرها؟ قال: أشباه اليعاسيب في مناقيرها حصى، كأنها حصى الخذف قد أقبلت كالليل يتبع بعضها بعضاً أمام كل رفقة طير يقودها أحمر المنقار أسود الرأس طويل العنق، فجاءت حتى إذا حاذت عسكر القوم ركدت فوق رؤوسهم، فلما توافت الرجال كلهم أهالت الطير ما في مناقيرها على من تحتها مكتوب على كل حجر اسم صاحبه، ثم إنها رجعت من حيث جاءت فلما أصبحت انحطت من ذروة الجبل، فمشيا حتى صعدا ربوة، فلم يؤنسا أحداً ثم دنوا فلم يسمعا حساً فقال بات القوم سامرين، فأصبحوا نياماً فلما دنوا من عسكر القوم فإذا هم خامدون وكان يقع الحجر على بيضة أحدهم فيخرقها حتى تقع في دماغه، وتخرق الفيل والدابة ويغيب الحجر في الأرض من شدة وقعه، فعمد عبد المطلب، فأخذ فأساً من فؤوسهم، فحفر حتى أعرق في الأرض، فملأه من الذهب الأحمر، والجواهر، وحفر لصاحبه مثله فملأه ثم قال لأبي مسعود اختر إن شئت حفرتي وإن شئت حفرتك، وإن شئت فهما لك معاً فقال أبو مسعود فاختر لي على نفسك، فقال عبد المطلب إنني أرى أجود المتاع في حفرتي فهي لك وجلس كل واحد منهما على حفرتة ونادى عبد المطلب في الناس فتراجعوا، وأصابوا من فضلها حتى ضاقوا به، وساد عبد المطلب بذلك قريشاً، وأعطته القادة فلم يزل عبد المطلب وأبو مسعود في أهليهما في غنى من ذلك المال، ودفع الله عز وجل عن كعبته، واختلفوا في تاريخ عام الفيل، فقيل كان قبل مولد النبي ﷺ بأربعين سنة وقيل بثلاث وعشرين سنة، والأصح الذي عليه الأكثرون من علماء السير، والتواريخ، وأهل التفسير أنه كان في العام الذي ولد فيه رسول الله ﷺ فإنهم يقولون ولد عام الفيل، وجعلوه تاريخاً لمولده ﷺ وأما التفسير فقوله عز وجل ﴿ألم تر﴾ أي ألم تعلم، وذلك لأن هذه الواقعة كانت قبل مبعثه بزمان طويل إلا أن العلم بها كان حاصلاً عنده لأن الخبر بها كان مستفيضاً

عبد المطلب يدعو، فقال أبو مسعود: إن لهذا البيت رباً يمنعهُ، فقد نزل تبع ملك اليمن صحن هذا البيت وأراد هدمه فمنعه الله وابتلاه، وأظلم عليه ثلاثة أيام، فلما رأى تبع ذلك كساه القباطي البيض، وعظمه وتحوله جزوراً، ثم قال أبو مسعود: انظر نحو البحر، فنظر عبد المطلب فقال: أرى طيراً أبيض نشأت من شاطئ البحر، فقال: ارمقها ببصرك أين قرارها، قال: أراها قد دارت على رؤوسنا، قال: فهل تعرفها؟ قال: فوالله ما أعرفها ما هي بنجدية ولا تهامية ولا عربية ولا شامية، قال: ما قدرها؟ قال أشباه اليعاسيب في مناقيرها حصى كأنها حصى الخذف، قد أقبلت كالليل يكسع، بعضها بعضاً أمام كل رفقة طير يقودها أحمر المنقار أسود الرأس طويل العنق، فجاءت حتى إذا حازت بعسكر القوم ركدت فوق رؤوسهم، فلما توفت الرجال كلها أهالت الطير ما في مناقيرها على من تحتها، مكتوب في كل حجر اسم صاحبه، ثم أنها انصاعت راجعة من حيث جاءت، فلما أصبحت انحطت من ذروة الجبل، فمشيا ربوة فلم يؤنسا أحداً ثم دنوا ربوة فلم يسمعا حساً، فقالوا: بات القوم سامرين، فأصبحوا نياماً فلما دنوا من عسكر القوم فإذا هم خامدون، وكان يقع الحجر على بيضة أحدهم فيخرقها حتى يقع في دماغه ويخرق الفيل والدابة ويغيب الحجر في الأرض من شدة وقعه، فعمد عبد المطلب فأخذ فأساً من فؤوسهم فحفر حتى أعرق في الأرض حفرة فملأها من أموالهم من الذهب الأحمر والجواهر، وحفر لصاحبه حفرة فملأها كذلك، ثم قال لأبي مسعود: هات فاختر إن شئت حفرتي وإن شئت حفرتك، وإن شئت فهما لك معاً، قال أبو مسعود: اختر لي على نفسك، فقال

معروفاً بمكة وإذا كان كذلك فكأنه ﷺ علمه وشاهده يقيناً، فلهذا قال تعالى ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل﴾، قيل كان معهم فيل واحد، وقيل كانوا فيلة ثمانية، وقيل اثني عشر وإنما وحده لأنه نسبهم إلى الفيل الأعظم الذي كان يقال له محمود، وقيل وإنما وحده لو فاق الآي، وفي قصة أصحاب الفيل دلالة عظيمة على قدرة الله تعالى وعلمه، وحكمته إذ يستحيل في العقل أن طيراً تأتي من قبل البحر تحمل حجارة ترمي بها ناساً مخصوصين، وفيها دلالة عظيمة على شرف محمد ﷺ ومعجزة ظاهرة له وذلك أن الله تعالى إنما فعل ذلك لنصر من ارتضاه، وهو محمد ﷺ الداعي إلى توحيد، وإهلاك من سخط عليه، وليس ذلك لنصرة قريش، فإنهم كانوا كفاراً لا كتاب لهم، والحجشة لهم كتاب فلا يخفى على عاقل، أن المراد بذلك نصر محمد ﷺ فكأنه تعالى قال أنا الذي فعلت ما فعلت بأصحاب الفيل تعظيماً لك، وتشريفاً لقدمك، وإذا قد نصرتك قبل قدمك فكيف أتركك قبل ظهورك.

أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۚ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٢﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٣﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٤﴾

﴿ألم يجعل كيدهم﴾ يعني مكرهم، وسعيهم في تخريب الكعبة ﴿في تضليل﴾ أي تضييع وخسار، وإبطال ما أرادوا أضل كيدهم، فلم يصلوا إلى ما أرادوا من تخريب البيت، بل رجع كيدهم عليهم، فخربت كنيستهم، واحترقت، وهلكوا وهو قوله تعالى: ﴿وأرسل عليهم طيراً أبابيل﴾ يعني طيراً كثيرة متفرقة يتبع بعضها بعضاً، وقيل أبابيل أقاطيع كالإبل المؤبلة، وقيل أبابيل جماعات في تفرقة قيل لا واحد لها من لفظها، وقيل واحداً أبالة، وقيل أبيل، وقيل أبول مثل عجول قال ابن عباس: كانت طيراً لها خراطيم، كخراطيم الطير، وأكف كأف الكلاب، وقيل رؤوس كرؤوس السباع، وقيل لها أنياب كأنياب السباع، وقيل طير خضر لها مناقير صفر، وقيل طير سود جاءت من قبل البحر فوجاً فوجاً مع كل طائر ثلاثة أحجار، حبران في رجله، وحجر في منقاره لا تصيب شيئاً إلا هشمته، ووجه الجمع بين هذه الأقاويل في اختلاف أجناس هذه الطير أنه كانت فيها هذه الصفات كلها فبعضها على ما حكاه

عبد المطلب: إني لم أر أن أجعل أجود المتاع في حُفرتي فهو لك، وجلس كل واحد منهما على حُفرتي، ونادى عبد المطلب في الناس فتراجعوا وأصابوا من فضلها حتى ضاقوا به ذرعاً، وساد عبد المطلب بذلك قريشاً وأعطته القيادة، فلم يزل عبد المطلب وأبو مسعود في أهليهما في غنى من ذلك المال، ودفع الله عن كعبته وبيته. واختلفوا في تاريخ عام الفيل، فقال مقاتل: كان قبل مولد النبي ﷺ بأربعين سنة. وقال الكلبي: بثلاث وعشرين سنة. والأكثر على أنه كان في العام الذي وُلِدَ فيه رسول الله ﷺ. وقوله عز وجل: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل﴾؟ قال مقاتل: كان معهم فيل واحد. وقال الضحاك: كانت الفيلة ثمانية. وقيل: اثني عشر سوى الفيل الأعظم، وإنما وحده لأنه نسبهم إلى الفيل الأعظم. وقيل: لوفاق رؤوس الآي.

﴿ألم يجعل كيدهم في تضليل﴾، كيدهم يعني مكرهم وسعيهم في تخريب الكعبة. وقوله: في تضليل عما أرادوا ضلل كيدهم حتى لم يصلوا إلى الكعبة، وإلى ما أرادوه بكيدهم. قال مقاتل: في خسارة. وقيل: في بلاطن.

﴿وأرسل عليهم طيراً أبابيل﴾، كثيرة متفرقة يتبع بعضها بعضاً. وقيل: أقاطيع كالإبل المؤبلة. قال أبو عبيدة: أبابيل جماعات في تفرقة، يقال: جاءت الخيل أبابيل من ههنا وههنا. قال الفراء: لا واحد لها، من لفظها. وقيل: واحداً إبالة. وقال الكسائي: إني كنت أسمع النحويين يقولون واحداً أبول، مثل عجول وعجاجيل. وقيل: واحداً من لفظها أبيل. قال ابن عباس: كانت طيراً لها خراطيم كخراطيم الطير وأكف كأف الكلاب. وقال

ابن عباس، وبعضها على ما حكاه غيره، فأخبر كل واحد بما بلغه من صفاتها، والله أعلم.

قوله عز وجل: ﴿ترميهم بحجارة﴾ قال ابن مسعود: صاحت الطير، ورمتهم بالحجارة، وبعث الله ريحاً، فضربت بالحجارة، فزادتها شدة، فما وقع حجر منها على رجل إلا خرج من الجانب الآخر، وإن وقع على رأسه خرج من دبره ﴿من سجيل﴾ قيل السجيل اسم علم للديوان الذي كتب فيه عذاب الكفار، واشتقاقه من الأسحال، وهو الإرسال، والمعنى ترميهم بحجارة من جملة العذاب المكتوب المدون بما كتب الله في ذلك الكتاب، وقيل معناه من طين مطبوخ كما يطبخ الأجر، وقيل سجيل حجر، وطين مختلط، وأصله سنك، وكل فارسي معرب، وقيل سجيل الشديد. ﴿فجعلهم كعصف مأكول﴾ يعني كزرع وتين أكلته الدواب، ثم رائته، فييس، وتفرقت أجزاؤه شبه تقطع أوصالهم، وتفرقها بتفرق أجزاء الروث، وقيل العصف ورق الحنطة، وهو التبن، وقيل كالحب إذا أكل، فصار أجوف وقال ابن عباس: هو القشر الخارج الذي يكون على حب الحنطة كهيئة الغلاف، والله تعالى أعلم.

عكرمة: لها رؤوس كرؤوس السباع. قال الربيع: لها أنياب كأنياب السباع. وقال سعيد بن جبیر: خضر لها مناقير صفر. وقال قتادة طير سود جاءت من قبل البحر فوجاً فوجاً مع كل طائر ثلاثة أحجار حجران في رجله وحجر في منقاره لا تصيب شيئاً إلا هشمته.

﴿ترميهم بحجارة من سجيل﴾، قال ابن مسعود صاحت الطير ورمتهم بالحجارة فبعث الله ريحاً فضربت الحجارة فزادتها شدة فما وقع منها حجر على رجل إلا خرج من الجانب الآخر، وإن وقع على رأسه خرج من دبره. ﴿فجعلهم كعصف مأكول﴾، كزرع وتين أكلته الدواب فرائته فييس وتفرقت أجزاؤه، شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزاء الروث. قال مجاهد: العصف ورق الحنطة. وقال قتادة: هو التبن. وقال عكرمة: كالحب إذا أكل فصار أجوف. وقال ابن عباس: هو القشر الخارج الذي يكون على حب الحنطة كهيئة الغلاف له.

سورة قريش

مكية وقيل مدنية والأول أصح وأكثر وهي أربع آيات وسبع عشرة كلمة وثلاثة وسبعون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ

قوله عز وجل: ﴿لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ﴾ اختلفوا في هذه اللام، فقيل هي متعلقة بما قبلها وذلك أن الله تعالى ذكر أهل مكة عظيم نعمته عليهم بما صنع بالحبشة، فقال فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش، أي هلك أصحاب الفيل لتبقى قريش، وما ألفوا من رحلة الشتاء والصيف، ولهذا جعل أبي بن كعب هذه السورة وسورة الفيل واحدة ولم يفصل بينهما في مصحفه بسم الله الرحمن الرحيم والذي عليه الجمهور من الصحابة وغيرهم، وهو المشهور أن هذه السورة منفصلة عن سورة الفيل وأنه لا تعلق بينهما وأجيب عن مذهب أبي بن كعب في جعل هذه السورة، والسورة التي قبلها سورة واحدة بأن القرآن كالسورة الواحدة يصدق بعضه بعضاً ويبين بعضه معنى بعض وهو معارض أيضاً بإطباق الصحابة، وغيرهم على الفصل بينهما، وأنهما سورتان فعلى هذا القول اختلفوا في العلة الجالبة للام في قوله ﴿لَا إِلَافَ﴾، فقيل هي لام التعجب، أي اعجبوا الإيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف، وتركهم عبادة رب هذا البيت، ثم أمرهم بعبادته، فهو كقوله على وجه التعجب اعجبوا لذلك، وقيل هي متعلقة بما بعدها تقديره، فليعبدوا رب هذا البيت لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف، أي ليجعلوا عبادتهم شكراً لهذه النعمة والإيلاف من ألفت الشيء إلفاءً وهو بمعنى الإثلاف فيكون المعنى لإيلاف قريش هاتين الرحلتين فتتصلا ولا تنقطعاً، وقيل هو من ألفت كذا، أي لزمته وألفنيه الله ألزمنيه الله، وقريش هم ولد النضر بن كنانة، فكل من ولده النضر، فهو من قريش، ومن لم يلد النضر، فليس بقريشي (م) عن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى

سورة قريش

مكية وهي أربع آيات.

﴿لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ﴾، قرأ أبو جعفر (ليلاف) بغير همز (إلا فهم) طلباً للخفة، وقرأ ابن عامر (لآلاف) بهمزة مختلصة من غير ياء بعدها، وقرأ الآخرون بهمزة مشبعة وياء بعدها، واتفقوا غير أبي جعفر في ﴿إيلافهم﴾ أنها بياء بعد الهمزة إلا عبد الوهاب بن فليج عن ابن كثير فإنه قرأ (الفهم) ساكنة اللام بغير ياء وعدّ بعضهم سورة الفيل. وهذه السورة واحدة منهم أبي بن كعب لا فصل بينهما في مصحفه، وقالوا: اللام في ﴿لَا إِلَافَ﴾ تتعلق بالسورة التي قبلها، وذلك أن الله تعالى ذكر أهل مكة عظيم نعمته عليهم فيما صنع بالحبشة، وقال: ﴿لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ﴾، وقال الزجاج: المعنى جعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش، أي هلك أصحاب الفيل لتبقى قريش، وما ألفوا من

قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» (م) عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «الناس تبع لقريش في الخير والشر» (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «إن الناس تبع لقريش في هذا الشأن مسلمهم لمسلمهم وكافرهم لكافرهم» عن سعيد بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ «من أراد هوان قريش أهانه الله» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «اللهم أذقت أول قريش نكالاً، فأذق آخرهم نوالاً» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح غريب.

النكال: العذاب، والمشقة، والشدة، والنوال: العطاء، والخير، وسموا قريشاً من القرش، والتقريش وهو الجمع، والتكسب، يقال فلان يقرش لعياله، ويقترش لهم، أي يكتسب وذلك لأن قريشاً كانوا قوماً تجاراً وعلى جمع المال، والأفضال حراًصاً، وقال أبو ريحانة سأل معاوية عبد الله بن عباس لم سميت قريش قريشاً قال لدابة تكون في البحر هي من أعظم دوابه يقال لها القرش لا تمر بشيء من الغث والسمين إلا أكلته، وهي تأكل ولا تؤكل وتعلو، ولا تعلو، قال وهل تعرف العرب ذلك في أشعارها قال نعم وأنشده شعر الجمحي.

وقريش هي التي تسكن البحر	ر بها سميت قريش قريشاً
سلطت بالعلو في لجة البحر	ر وعلى سائر البحور جيوشاً
تأكل الغث والسمين ولا تت	رك فيه لذي الجناحين ريشاً
هكذا في الكتاب حي قريش	يأكلون البلاد أكلاً كميشتاً

رحلة الشتاء والصيف. وقال مجاهد: ألقوا ذلك فلا يشقّ عليهم في الشتاء والصيف، والعامّة على أنهما سورتان، واختلفوا في العلة الجالبة للام في قوله: ﴿لَا يَلَا ف﴾ قال الكسائي والأخفش: هي لام التعجب، يقول: أعجبوا لإيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف، وتركهم عبادة ربّ هذا البيت، ثم أمرهم بعبادته كما الحبشة يقال له الأسود بن مسعود على مقدمة خيله وأمره بالغارة على نَعَم الناس، فجمع الأسود إليه أموال تقول في الكلام لزيد وإكرامنا إيّاه على وجه التعجب، أي اعجبوا لذلك، والعرب إذا جاءت بهذه اللام اكتفوا بها دليلاً على التعجب من إظهار الفعل منه. وقال الزجاج: هي مردودة إلى ما بعدها تقديره: فليعبدوا ربّ هذا البيت لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف. وقال ابن عيينة: لنعمتي على قريش، وقريش هم ولد النضر بن كنانة، وكلّ من ولده النضر فهو قرشي، ومن لم يلد له النضر فليس بقرشي، أخبرنا أبو الحسن علي بن يوسف الجويني أنا أبو محمد محمد بن علي بن محمد بن شريك الشافعي أنا عبد الله بن مسلم أبو بكر الجوربردي ثنا يونس بن عبد الأعلى الصدفي أنا بشر بن بكر عن الأوزاعي حدّثني شدّاد أبو عمّار ثنا وائلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى من كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»، وسمّوا قريشاً من القرش والتقريش وهو التكسب والجمع، يقال: فلان يقرش لعياله ويقترش أي يكتسب وهم كانوا تجاراً حرصاً على جمع المال والأفضال. وقال أبو ريحانة: سأل معاوية عبد الله بن عباس لِمَ سُمّيت قريش قريشاً؟ قال: لدابة تكون في البحر من أعظم دوابه يقال لها القرش لا تمرّ بشيء من الغث والسمين إلا أكلته، وهي تأكل ولا تؤكل، وتعلو ولا تعلو، قال: وهل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال: نعم، فأنشده شعر الجمحي:

وقريش هي التي تسكن البحر	ر سميت قريش قريشاً
سلطت بالعلو في لجة البحر	ر على سائر البحور جيوشاً
تأكل الغث والسمين ولا تت	رك فيه لذي الجناحين ريشاً
هكذا في البلاد حي قريش	يأكلون البلاد أكلاً كميشتاً

ولههم في آخر الزمان نبي يكثر القتل فيهم والخموشا
يملاً الأرض خيلة ورجالاً يحشرون المطي حشراً كميها

وقيل إن قريشاً كانوا متفرقين في غير الحرم، فجمعهم قصي بن كلاب، وأنزلهم الحرم فاتخذوه مسكناً فسموا قريشاً لتجمعهم، والتقرش التجمع يقال تقرش القوم إذا تجمعوا، وسمي قصي مجمعاً لذلك قال الشاعر:

أبوكم قصي كان يدعى مجمعا به جمع الله القبائل من فهر

إِلَيْهِمْ رَحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿١﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٢﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ
وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٣﴾

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِمْ﴾ هو بدل من الأول تفخيماً لأمر الإيلاف، وتذكيراً لعظم المنة فيه. ﴿رحلة الشتاء والصيف﴾ قال ابن عباس كانوا يشتون بمكة ويصيفون بالطائف فأمرهم الله تعالى أن يقيموا بالحرم، ويعبدوا رب هذا البيت، وقال الأكثرون كانت لهم رحلتان في كل عام للتجارة: رحلة في الشتاء إلى اليمن لأنها أدفاً، ورحلة في الصيف إلى الشام، وكان الحرم وادياً مجذباً لا زرع فيه، ولا ضرع، وكانت قريش تعيش بتجارتهن ورحلتهم، وكانوا لا يتعرض لهم أحد بسوء، وكانوا يقولون قريش سكان حرم الله وولاية بيته وكانت العرب تكرمهم، وتعزمهم، وتعظمهم لذلك، فلولا الرحلتان لم يكن لهم مقام بمكة ولولا الأمن بجوار البيت لم يقدروا على التصرف، فشق عليهم الاختلاف إلى اليمن والشام، فأخصبت تبالة وجرش من بلاد اليمن، فحملوا الطعام إلى مكة، أهل الساحل حملوا طعامهم في البحر على السفن إلى مكة وأهل البر حملوا على الإبل والحمير فألقى أهل الساحل بجدة وأهل البر بالمحصب وأخصب الشام فحملوا الطعام إلى مكة وألفوا بالأبطح فامتار أهل مكة من قريب، وكفاهم الله مؤنة الرحلتين جميعاً وقال ابن عباس: كانوا في ضر ومجاعة حتى جمعهم هاشم على الرحلتين، فكانوا يقسمون ربحهم

ولههم في آخر الزمان نبي يكثر القتل فيهم والخموشا

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِمْ﴾، بدل من الإيلاف الأول، ﴿رحلة الشتاء والصيف﴾، ﴿رحلة﴾ نصب على المصدر، أي ارتحالهم رحلة الشتاء والصيف. روى عكرمة وسعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانوا يشتون بمكة ويصيفون بالطائف فأمرهم الله تعالى أن يقيموا بالحرم ويعبدوا رب هذا البيت. وقال الآخرون: كانت لهم رحلتان في كل عام للتجارة إحداهما في الشتاء إلى اليمن لأنها أدفاً، والأخرى في الصيف إلى الشام. وكان الحرم وادياً جذباً لا زرع فيه ولا ضرع، وكانت قريش تعيش بتجارتهن ورحلتهم، وكان لا يتعرض لهم أحد بسوء، كانوا يقولون: قريش سكان حرم الله وولاية بيته فلولا الرحلتان لم يكن لهم مقام بمكة، ولولا الأمن بجوار البيت لم يقدروا على التصرف، وشق عليهم الاختلاف إلى اليمن والشام فأخصبت تبالة وجرش من بلاد اليمن، فحملوا الطعام إلى مكة أهل الساحل من البحر على السفن وأهل البر على الإبل والحمير فألقى أهل الساحل بجدة، وأهل البر بالمحصب، وأخصب الشام فحملوا الطعام إلى مكة فألقوا بالأبطح، فامتاروا من قريب وكفاهم الله مؤنة الرحلتين، وأمرهم بعبادة رب البيت.

فقال: ﴿فليعبدوا رب هذا البيت﴾، أي الكعبة.

﴿الذي أطعمهم من جوع﴾، أي من بعد جوع بحمل الميرة إلى مكة، ﴿وآمنهم من خوف﴾، بالحرم

بين الغني، والفقير حتى كان فقيرهم كغنيهم، وقال الكلبي: كان أول من حمل السمراء يعني القمح إلى الشام، ورحل إليها الإبل هاشم بن عبد مناف وفيه يقول الشاعر:

قل للذي طلب السّاحة والنّدى	هلاً مررت بآل عبد مناف
هلاً مررت بهم تريد قراهم	منعوك من ضرّ ومن أكفاف
الرّائشين وليس يوجد رائش	والقائلين هلم للأضياف
والخالطين غنيهم بفقيرهم	حتى يكون فقيرهم كالكافي
والقائمين بكل وعد صادق	والراحلين برحلة الإيلاف
عمرو العلا هشيم الثريد لقومه	ورجال مكة مستنون عجاف
سفرين سنهما له ولقومه	سفر الشتاء ورحلة الأضياف

قوله عز وجل: ﴿فليعبدوا رب هذا البيت﴾ يعني الكعبة، وذلك أن الأنعام على قسمين أحدهما: دفع ضر، وهو ما ذكره في سورة الفيل، والثاني جلب نفع، وهو ما ذكره في هذه السورة، ولما دفع الله عنهم الضرّ، وجلب لهم النفع، وهما نعمتان عظيمتان أمرهم بالعبودية، وأداء الشكر، وقيل إنه تعالى لما كفاهم أمر الرّحلتين أمرهم أن يشتغلوا بعبادة رب هذا البيت. فإنه هو ﴿الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ ومعنى الذي أطعمهم من جوع، أي من بعد جوع بحمل الميرة إليهم من البلاد في البر والبحر، وقيل في معنى الآية أنهم لما كذبوا محمداً ﷺ دعا عليهم، فقال اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف فاشتد عليهم القحط، وأصابهم الجوع، والجهد، فقالوا: يا محمد ادع الله لنا فإننا مؤمنون فدعا رسول الله ﷺ فأخصبت البلاد، وأخصبت أهل مكة بعد القحط، والجهد، فذلك قوله تعالى ﴿الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾، أي بالحرم وكونهم من أهل مكة حتى لم يتعرض لهم أحد في رحلتهم، وقيل آمنهم من خوف الجذام فلا يصيبهم ببلدهم الجذام، وقيل آمنهم بمحمد ﷺ وبالإسلام والله أعلم.

وكونهم من أهل مكة حتى لم يتعرض لهم في رحلتهم. وقال عطاء عن ابن عباس: إنهم كانوا في ضرّ ومجاعة حتى جمعهم هاشم على الرحلتين، وكانوا يقسمون ربهم بين الفقير والغني حتى كان فقيرهم كغنيهم. قال الكلبي: وكان أول من حمل السمراء من الشام ورحل إليها الإبل هاشم بن عبد مناف وفيه يقول الشاعر:

قل للذي طلب السّاحة والنّدى	هلاً مررت بآل عبد مناف
هلاً مررت بهم تريد قراهم	منعوك من ضرّ ومن أكفاف
الرّائشين وليس يوجد رائش	والقائلين هلم للأضياف
والخالطين فقيرهم بغنيهم	حتى يكون فقيرهم كالكافي
والقائمين بكل وعد صادق	والراحلين برحلة الإيلاف
عمرو العلا هشيم الثريد لقومه	ورجال مكة مستنون عجاف
سفرين سنهما له ولقومه	سفر الشتاء ورحلة الأضياف

وقال الضحّاك والربيع وسفيان: ﴿وآمنهم من خوف﴾ من خوف الجذام، فلا يصيبهم ببلدهم الجذام.

سورة الماعون

مكية وقيل نزل نصفها بمكة في العاص بن وائل والنصف الثاني بالمدينة في عبد الله بن أبي بن سلول المنافق. وهي سبع آيات وخمس وعشرون كلمة ومائة وخمسة وعشرون حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّؤُوفِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ﴿١﴾

قوله عز وجل: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ﴾ قيل نزل في العاص بن وائل السهمي، وقيل في الوليد بن المغيرة، وقيل في عمرو بن عائذ المخزومي، وفي رواية عن ابن عباس أنها في رجل من المنافقين، ومعنى الآية هل عرفت الذي يكذب بיום الجزاء، والحساب، فإن لم تعرفه.

فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣﴾ قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ

هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾

﴿فذلك الذي يدع اليتيم﴾ ولفظ أرايت استفهام، والمراد به المبالغة في التعجب من حال هذا المكذب بالدين وهو خطاب للنبي ﷺ، وقيل هو خطاب لكل واحد، والمعنى أرايت يا أيها الإنسان أو يا أيها العاقل هذا الذي يكذب بالدين بعد ظهور دلائله، ووضوح بيانه، فكيف يليق به ذلك الذي يدع اليتيم، أي يقهره، ويدفعه عن حقه، والدفع بعنف، وجفوة، والمعنى أنه يدفعه عن حقه، وماله بالظلم، وقيل يترك المواساة له وإن لم تكن المواساة واجبة، وقيل يزجره، ويضربه، ويستخف به، وقرئ يدعو بالتخفيف، أي يدعو ليعتد به قهراً واستطالة. ﴿ولا يحض على طعام المسكين﴾ أي لا يطعمه ولا يأمر بإطعامه لأنه يكذب بالجزاء، وهذا غاية البخل، لأنه يخل بماله وبمال غيره بالإطعام.

سُورَةُ الْمَاعُونِ

مكية وهي سبع آيات.

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ﴾، قال مقاتل: نزلت في العاص بن وائل السهمي. وقال السدي ومقاتل بن حيان وابن كيسان: في الوليد بن المغيرة. قال الضحاك: نزلت في عمرو بن عائذ المخزومي. وقال عطاء عن ابن عباس: في رجل من المنافقين. ومعنى يُكَذِّبُ بالدين أي بالجزاء والحساب.

﴿فذلك الذي يدع اليتيم﴾، يقهره ويدفعه عن حقه، والدع: الدفع بالعنف والجفوة.

﴿ولا يحض على طعام المسكين﴾، لا يطعمه ولا يأمر بإطعامه لأنه يكذب بالجزاء.

قوله تعالى: ﴿فويل للمصلين﴾ يعني المنافقين، ثم نعتهم فقال تعالى: ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ روى البغوي بسنده عن سعد «سئل قال رسول الله ﷺ عن الذين هم عن صلاتهم ساهون قال إضاعة الوقت» وقال ابن عباس: هم المنافقون يتركون الصلاة إذا غابوا عن الناس. ويصلون في العلانية إذا حضروا معهم لقوله تعالى ﴿الذين هم يراؤون﴾ وقال تعالى في وصف المنافقين ﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس﴾، وقيل ساه عنها لا يبالي صلى أو لم يصل، وقيل لا يرجون لها ثواباً إن صلوا ولا يخافون عليها عقاباً إن تركوا، وقيل غافلون عنها ويتهاونون بها، وقيل هم الذين إن صلوا صلوا رياء وإن فاتتهم لم يندموا عليها وقيل هم الذين لا يصلونها لمواقيتها، ولا يتمون ركوعها، ولا سجودها، وقيل لما قال تعالى عن صلاتهم ساهون بلفظة عن علم أنها في المنافقين، والمؤمن قد يسهو في صلاته والفرق بين السهوين أن سهو المنافق هو أن لا يتذكرها، ويكون فارغاً عنها، والمؤمن إذا سها في صلاته تداركه في الحال، وجبره بسجود السهو فظهر الفرق بين السهوين، وقيل السهو عن الصلاة هو أن يبقى ناسياً لذكر الله في جميع أجزاء الصلاة، وهذا لا يصدر إلا من المنافق الذي يعتقد أنه لا فائدة في الصلاة، فأما المؤمن الذي يعتقد فائدة صلاته، وأنها عليه واجبة، ويرجو الثواب على فعلها، ويخاف العقاب على تركها، فقد يحصل له سهو في الصلاة يعني أن يصير ساهياً في بعض أجزاء الصلاة بسبب وارد يرد عليه بوسوسة الشيطان أو حديث النفس، وذلك لا يكاد يخلو منه أحد، ثم يذهب ذلك الوارد عنه، فثبت بهذا الفرق أن السهو عن الصلاة من أفعال المنافق والسهو في الصلاة من أفعال المؤمن. ﴿الذين هم يراؤون﴾ يعني يتركون الصلاة في السر ويصلونها في العلانية، والفرق بين المنافق، والمرائي أن المنافق هو الذي يبطن الكفر ويظهر الإيمان، والمرائي يظهر الأعمال مع زيادة الخشوع ليعتقد فيه من يراه أنه من أهل الدين والصلاح أما من يظهر التواضع ليقترى به ويأمن على نفسه من الرياء، فلا بأس بذلك وليس بمراء ثم وصفهم بالبخل. فقال تعالى: ﴿ويمنعون الماعون﴾ روي عن علي أنه قال هي الزكاة، وهو قول ابن عمر والحسن، وقتادة، والضحاك ووجه ذلك أن الله تعالى ذكرها بعد الصلاة فذمهم على ترك الصلاة، ومنع الزكاة وقال ابن مسعود: الماعون الفأس والدلو والقدر، وأشبه ذلك، وهي رواية عن ابن عباس، ويدل عليه ما روي عنه قال كنا نعد الماعون على عهد رسول الله ﷺ عارية الدلو، والقدر، أخرجه أبو داود، وقال مجاهد: الماعون

﴿فويل للمصلين﴾ الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي أنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصفار أنا أبو جعفر محمد بن غالب بن تمام الضبي ثنا حرمي بن حفص القسملي ثنا عكرمة بن إبراهيم الأزدي ثنا عبد الكريم بن عمير عن مصعب بن سعد عن أبيه أنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾، قال: «إضاعة الوقت»، قال ابن عباس: هم المنافقون يتركون الصلاة إذا غابوا عن الناس، ويصلونها في العلانية إذا حضروا.

لقوله تعالى: ﴿الذين هم يراؤون﴾، وقال في وصف المنافقين: ﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس﴾، وقال قتادة: ساه عنها لا يبالي صلى أم لم يصل. قيل: لا يرجون لها ثواباً إن صلوا ولا يخافون عقاباً إن تركوا. وقال مجاهد: غافلون عنها يتهاونون بها. وقال الحسن: هو الذي إن صلاها صلاها رياء، وإن فاتته لم يندم. وقال أبو العالية: لا يصلونها لمواقيتها ولا يتمون ركوعها وسجودها.

﴿ويمنعون الماعون﴾، روي عن علي رضي الله عنه أنه قال: هي الزكاة، وهو قول ابن عمر والحسن وقتادة والضحاك. وقال عبد الله بن مسعود: الماعون الفأس والدلو والقدر وأشبه ذلك، وهي رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس. قال مجاهد: الماعون العارية. وقال عكرمة: أعلاها الزكاة المعروفة، وأدناها عارية المتاع. وقال محمد بن كعب والكلبي: الماعون المعروف الذي يتعاطاه الناس فيما بينهم. قال قطرب: أصل الماعون من القلة،

العارية وقال عكرمة: الماعون أعلاه الزكاة المفروضة، وأدناه عارية المتاع، وقال محمد بن كعب القرظي، الماعون المعروف كله الذي يتعاطاه الناس فيما بينهم وقيل أصل الماعون من القلة فسمي الزكاة والصدقة، والمعروف ماعوناً لأنه قليل من كثير، وقيل الماعون ما لا يحل منعه مثل الماء، والملح، والنار، ويلتحق بذلك البثر، والتنور في البيت فلا يمنع جيرانه من الانتفاع بهما، ومعنى الآية الزجر عن البخل بهذه الأشياء القليلة الحقيرة، فإن البخل بها في نهاية البخل قال العلماء ويستحب أن يستكثر الرجل في بيته مما يحتاج إليه الجيران فيعيرهم ويتفضل عليهم ولا يقتصر على الواجب والله أعلم.

تقول العرب: ما له سعة ولا منعة، أي شيء قليل، فسمى الزكاة والصدقة والمعروف ماعوناً لأنه قليل من كثير. وقيل: الماعون ما لا يحل منعه مثل الماء والملح والنار.

سورة الكوثر

وهي مكية قاله ابن عباس والجمهور، وقيل إنها مدنية قاله الحسن وعكرمة، وفتادة وهي ثلاث آيات وعشر كلمات واثنان وأربعون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

قوله عز وجل: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ نهر في الجنة أعطاه الله محمداً ﷺ، وقيل الكوثر القرآن العظيم، وقيل هو النبوة، والكتاب، والحكمة، وقيل هو كثرة أتباعه، وأمه، وقيل الكوثر الخير الكثير كما فسره ابن عباس (خ) عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال الكوثر الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه، قال أبو بشر قلت لسعيد بن جبير أن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة، فقال سعيد النهر الذي في الجنة من الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه، وأصل الكوثر فوعل من الكثرة، والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد أو كثير القدر والخطر كوثرأ، وقيل الكوثر الفضائل الكثيرة التي فضل بها على جميع الخلق فجميع ما جاء في تفسير الكوثر فقد أعطيه النبي ﷺ أعطى النبوة، والكتاب، والحكمة، والعلم، والشفاعة، والحوض المورود، والمقام المحمود، وكثرة الأتباع، والإسلام، وإظهاره على الأديان كلها، والتصر على الأعداء، وكثرة الفتوح في زمنه وبعده إلى يوم القيامة.

وأولى الأقاويل في الكوثر الذي عليه جمهور العلماء، أنه نهر في الجنة كما جاء مبيناً في الحديث (ق) عن أنس قال «بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءه ثم رفع رأسه متبسماً، فقلنا ما أضحكك يا رسول الله قال أنزلت علي أنفاً سورة، فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾، ثم قال أتدرون ما الكوثر، قلنا الله ورسوله أعلم قال، فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل فيه خير كثير هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة. آتيته عدد نجوم السماء، فيختلج العبد منهم، فأقول رب إنه من أمتي. فيقول ما تدري ما أحدث بعدك» لفظ مسلم وللبخاري قال: قال رسول الله ﷺ «لما عرج بي إلى السماء أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف، فقلت ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك فإذا طينه أو طيته مسك أذفر» شك الراوي عن أنس رضي الله عنه قال «سئل رسول الله ﷺ ما الكوثر قال ذلك نهر أعطانيه الله يعني في الجنة أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من

سُورَةُ الْكَوْثَرِ

مكية وهي ثلاث آيات.

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج ثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا علي بن مسهر عن المختار يعني بن فلفل عن أنس قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذا أغفى إغفاءه ثم رفع رأسه متبسماً،

العسل فيه طير أعناقها، كأعناق الجزور قال عمر إن هذه لناعمة فقال رسول الله ﷺ «أكلتها أنعم منها» أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن صحيح.

عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «الكوثر نهر في الجنة حافته من ذهب ومجره على الدر، والياقوت تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج» أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن صحيح (خ) «عن عامر بن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما قال سألت عائشة عن قوله تعالى ﴿إِنَّا أُعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، فقالت الكوثر نهر أعطيه نبيكم ﷺ شاطئاه در مجوف آنيته كعدد نجوم السماء» (ق) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «حوضي مسيرة شهر ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء من شرب منها لا يظمأ أبداً» زاد في رواية «وزواياه سواء» (ق) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال «أمامكم حوضي ما بين جنبه كما بين جربا وأذرح» قال بعض الرواة هما قرستان بالشام بينهما مسيرة ثلاثة أيام، وفي رواية «فيه أباريق كنجوم السماء من ورده فشرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبد» (ق) عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «ما بين ناحيتي وفي رواية لآبتي حوضي كما بين صنعاء والمدينة» وفي رواية «مثل ما بين المدينة وعمان» وفي رواية قال «إن قدر حوضي كما بين أيلة وصنعاء من اليمن، وإن فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء» (م) عن أبي ذر رضي الله عنه قال «قلت يا رسول الله ما آنية الحوض قال والذي نفسي بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء، وكواكبها ألا في الليلة المظلمة المصحبة آنية الجنة من شرب منها لم يظمأ آخر ما عليه يشخب فيه ميزابان من الجنة من شرب منه لم يظمأ عرضه، مثل طوله ما بين عمان إلى أيلة ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل» (م) عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «إني لبعقر حوضي أذود الناس لأهل اليمن أضرب بعصاي، أي حتى يرفض عليهم، فسئل عن عرضه فقال من مقامي إلى عمان وسئل عن شربه فقال أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل يغت فيه ميزابان يمدانه من الجنة أحدهما: من ذهب، والآخر من الورق» (ق) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «أنا فرطكم على الحوض وليرفعن إلى رجال منكم حتى إذا أهويت إليهم لأناولهم اختلجوا دوني، فأقول أي ربي أصحابي، فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك» (ق) عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «قال ليردن على الحوض رجال ممن صاحبنني حتى إذا رفعوا إليّ اختلجوا دوني، فلاقولن أي رب أصحابي أصحابي فليقلن لي إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك» وفي رواية «يردن على ناس من أمتي الحديث» وفي آخره «فأقول سحقاً لمن بدل بعدي» (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال إن رسول الله ﷺ قال «يرد على يوم القيامة رهطان من أصحابي أو قال من أمتي فيجلون عن الحوض، فأقول رب أصحابي، فيقول إنه لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقري» ولمسلم أن رسول الله ﷺ قال «ترد على أمتي الحوض، وأنا أذود الناس عنه كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله قالوا أيا نبي الله تعرفنا قال نعم لكم سيما ليست لأحد غيركم تردون على غرا محجلين من آثار الوضوء وليصدن عني طائفة منكم فلا يصلون إليّ فأقول يا رب هؤلاء من أصحابي فيجيبني ملك فيقول وهل تدري ما أحدثوا بعدك»

فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «نزلت عليّ آناً سورة، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّا أُعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ * فصلٌ لربك وانحر * إن شأنتك هو الأثر»، ثم قال: «تدرون ما الكوثر؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه نهر وعدنيه ربي فيه خير كثير هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم فيختلج العبد منهم، فأقول: رب إنه مني، فيقول: ما تدري ما أحدث بعدك». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عمرو بن محمد ثنا هاشم ثنا أبو بشر وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: قال الكوثر الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه. قال أبو بشر قلت لسعيد بن جبير: إن أناساً يزعمون أنه نهر في الجنة؟ فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه. قال الحسن: هو

(ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «والذي نفسي بيده لأذودن رجالاً عن حوضي كما تذاذ الغريبة من الإبل عن الحوض» (م) عن حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «إن حوضي لأبعد من أيلة إلى عدن، والذي نفسي بيده لأذودن عنه الرجل كما يذود الرجل الإبل الغريبة عن إبله قالوا يا رسول الله وتعرفنا؟ قال نعم تردون على غرا محجلين من آثار الوضوء ليس لأحد غيركم» عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال «كنا مع رسول الله ﷺ فنزلنا منزلاً فقال ما أنتم إلا جزء من مائة ألف جزء ممن يرد على الحوض، قيل كم كنتم يومئذ قال سبعمائة أو ثمانمائة» أخرجه أبو داود.

(فصل في شرح هذه الأحاديث وذكر ما يتعلق بالحوض)

قال الشيخ محي الدين النووي: قال القاضي عياض أحاديث الحوض صحيحة، والإيمان به فرض، والتصديق به من الإيمان، وهو على ظاهره عند أهل السنة، والجماعة لا يتأول، ولا يختلف فيه، وحديثه متواتر النقل رواه الخلائق من الصحابة، فذكره مسلم من رواية ابن عمر وأبي سعيد، وسهل بن سعد، وجندب بن عبد الله، وعبد الله بن عمر وعائشة وأم سلمة، وعقبة بن عامر، وابن مسعود، وحذيفة، وحارثة بن وهب، والمستورد وأبي ذر وثوبان، وأنس، وجابر بن سمرة، ورواه غير مسلم من رواية أبي بكر الصديق وزيد بن أرقم وأبي أمامة وعبد الله بن زيد وأبي برزة وسويد بن حبله وعبد الله بن الصنابحي والبراء بن عازب وأسماء بنت أبي بكر الصديق وخولة بنت قيس وغيرهم، قال الشيخ محيي الدين، ورواه البخاري ومسلم أيضاً من رواية أبي هريرة ورواه غيرهما من رواية عمر بن الخطاب وعائذ بن عمرو وآخرين، وقد جمع ذلك كله الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه البعث، والنشور بأسانيده وطرقه، المتكاثرة قلت وقد اتفقا على إخراج حديث الحوض وعن جماعة ممن تقدم ذكرهم من الصحابة على ما سبق ذكره في الأحاديث، وفيه بيان ما اتفقا عليه، وانفرد به كل واحد منهما، وأخرجنا أيضاً حديث الحوض عن أسماء بنت أبي بكر الصديق وذكرها القاضي عياض، فيمن خرج له في غير الصحيحين قال القاضي عياض وفي بعض هذا ما يقتضي كون الحديث متواتراً، وأما صفة الحوض، ومقداره فقد قال في رواية «حوضي مسيرة شهر وفي رواية ما بين جنبه كما بين جرباء، وأذرح، وفي رواية كما بين أيلة، وصنعاء اليمن، وفي رواية عرضه مثله طوله ما بين عمان إلى أيلة، وفي رواية إن حوضي لأبعد من أيلة إلى عدن» فهذا الاختلاف في هذه الروايات في قدر الحوض ليس موجباً للاضطراب فيها لأنه لم يأت في حديث واحد بل في أحاديث مختلفة الرواة عن جماعات من الصحابة سمعوا من النبي ﷺ في مواطن مختلفة ضربها النبي ﷺ مثلاً لبعد أقطار الحوض وسعته وقرب ذلك على إفهام السامعين لبعد ما بين هذه البلاد المذكورة لأعلى التقدير الموضوع للتحديد بل لإعلام السامعين عظم بعد المسافة

القرآن. قال عكرمة: النبوة والكتاب. وقال أهل اللغة: الكوثر فوعل من الكثرة، كنوفل فوعل من النفل، والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد أو كثير في القدر والخطر: كوثرأ. والمعروف: أنه نهر في الجنة أعطاه الله رسول الله ﷺ كما جاء في الحديث: أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقى أنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني أنا عبد الله بن عمر الجوهري ثنا أحمد بن علي الكشمهيني ثنا علي بن حجر ثنا إسماعيل بن جعفر ثنا حميد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت الجنة فإذا أنا بنهر يجري بياضه بياض اللبن، وأحلى من العسل، وحافاته خيام اللؤلؤ، فضربت بيدي فإذا الثرى مسك أذفر، فقلت لجبريل: ما هذا؟ قال: الكوثر الذي أعطاكه الله عز وجل». أخبرنا عبد الرحمن بن محمد الداودي أنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى الصلت ثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي أنا أبو سعيد الأشج ثنا محمد بن فضيل عن عطاء بن السائب عن محارب بن دثار عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهر في الجنة حافاته الذهب مجراه على الدر والياقوت تربته أطيب

وسعة الحوض وليس في ذكر القليل من هذه المسافة منع من الكثير، فإن الكثير ثابت على ظاهره، وصحت الرواية به، والقليل داخل فيه فلا معارضة، ولا منافاة بينهما وكذلك القول في آنية الحوض من أن العدد المذكور في الأحاديث على ظاهره، وأنها أكثر عدداً من نجوم السماء ولا مانع يمنع من ذلك إذ قد وردت الأحاديث الصحيحة الثابتة بذلك وكذلك القول في الواردين إلى الحوض الشاربين منه، وكثرتهم وقوله ﷺ «ما أنتم إلا جزء من مائة ألف جزء ممن يرد الحوض» لم يرد به الحصر بهذا العدد المذكور وإنما ضربه مثلاً لأكثر العدد المعروف للسامعين ويدل على هذا قوله ﷺ «من ورد شرب منه» فهذا صريح في أن جميع الواردين يشربون، وإنما يمنع منه الذين يزدادون، ويمنعون الورود لارتدادهم، وتبديلهم وهو قوله ﷺ «فيختلج العبد منهم فأقول رب إنه من أمتي، فيقول ما تدري ما أحدث بعدك، وفي رواية وليرفعن إلى رجال منكم حتى إذا أهويت لأناولهم اختلجوا دوني، فأقول أي رب أصحابي، فيقول إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك» ونحو هذا من الروايات المذكورة في الأحاديث السابقة، وهذا مما يختلف العلماء في معناه، وفي المراد به من هم، فقليل المراد بهم المنافقون، والمرتدون في زمن النبي ﷺ فيحتمل أنهم إذا حشروا عرفهم النبي ﷺ للسيما التي عليهم فيناديهم، فيقال له ليس هؤلاء ممن وعدت بهم إنهم قد بدلوا بعدك، أي لم يكونوا على ما ظهر من إسلامهم، وقيل المراد بهم من أسلموا في زمن النبي ﷺ ثم ارتدوا بعده في زمن أبي بكر الصديق وهم الذين قاتلهم على الردة، وهم أصحاب مسيلمة الكذاب، فيناديهم النبي ﷺ لما كان يعرفه من إيمانهم في حياته فيقال له قد ارتدوا بعدك، وقيل المراد بهم أصحاب البدع الذين لم يخرجوا ببدعتهم عن الإسلام، وأصحاب المعاصي، والكبائر الذين ماتوا على التوحيد، ولم يتوبوا من بدعتهم ومعاصيهم فعلى هذا القول لا يقطع لهؤلاء المطرودين عن الحوض بالتأثر بل يجوز أن يزدادوا عنه عقوبة لهم ثم يرحمهم الله، فيدخلهم الجنة من غير عذاب، وقال ابن عبد البر كل من أحدث في الدين كالأخارج والروافض وسائر أصحاب الأهواء فهو من المطرودين عن الحوض قال وكذلك الظلمة المسرفون في الجور، وغمط الحق، والمعلنون بالكبائر فكل هؤلاء يخاف أن يكونوا ممن عني بهذا الحديث وقوله من شرب منه لم يظلم أبداً قال القاضي عياض: ظاهر هذا الحديث أن الشرب منه يكون بعد الحساب، والنجاة من النار، ويحتمل أن من شرب منه من هذه الأمة وقدر عليه دخول النار لا يعذب فيها بالظلم بل يكون عذابه بغير ذلك لأن ظاهر الحديث أن جميع الأمة تشرب منه إلا من ارتد، وصار كافراً، وقيل إن جميع المؤمنين يأخذون كتبهم بأيمانهم، ثم يعذب الله من شاء من عصاتهم، وقيل إنما يأخذ بيمينه الناجون منهم خاصة، والشرب من الحوض مثله.

(شرح غريب ألفاظ الأحاديث)

قوله فيختلج العبد منهم، أي ينتزع ويجذب منهم، قوله ما بين جنبيه كما بين جرباً، وأذرح أما جرباً فبجيم ثم

من المسك وأشدّ بياضاً من الثلج». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف حدثنا محمد بن إسماعيل ثنا سعيد بن أبي مريم ثنا نافع عن ابن عمر عن ابن أبي مليكة قال: قال عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من يشرب منها لم يظلم أبداً». أخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الطاهري أنا جدي عبد الصمد بن عبد الرحمن البزاز أنا محمد بن زكريا العذافري أنا إسحاق بن إبراهيم الدبري ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن قتادة عن سالم بن أبي الجعد عن معدان بن أبي طلحة عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا عند عقر حوضي أزود الناس عنه لأهل اليمن»، أي أضربهم بعصاي حتى يرفضوا عنه، «وإنه ليغت فيه ميزابان من الجنة أحدهما من ورق والآخر من ذهب، طوله ما بين بصرى وصنعاء، أو ما بين أيلة ومكة، أو من مقامي هذا إلى عُمان».

راء ساكنة ثم باء موحدة ثم ألف مقصورة، ووقع عند بعض رواة البخاري فيها المد والقصر أولى، وهي قرية من الشام، وأما أذرح فبهزمة ثم ذال معجمة ثم راء ثم حاء مهملة، وهي في طرف الشام قريب من الشوبك، وأما عمان فبفتح العين وتشديد الميم بليدة بالبلقاء من أرض الشام، وأما ألياء فبفتح الهمزة وإسكان المثناة تحت وفتح اللام مدينة معروفة في طرف الشام على ساحل البحر متوسطة بين دمشق ومصر بينها وبين المدينة نحو خمس عشرة مرحلة وبينها وبين مصر ثمان مراحل وإلى دمشق اثنا عشر مرحلة وهي آخر الحجاز وأول الشام، وأما صنعاء فهي قاعدة اليمن، وأكبر مدنه، وإنما قيد باليمن في الحديث لأن بدمشق موضعاً يعرف بصنعاء دمشق وقد تقدم الكلام على اختلاف هذه المسافات والجمع بين روايتها قوله يشخب فيه ميزابان هو بفتح الياء المثناة تحت وبالشين والخاء المعجمتين، أي يسيل فيه وفي الحديث الآخر يغت بفتح الياء وبالعين المعجمة وكسرها، وتشديد التاء المثناة فوق، أي يدفق منه ميزابان تدفقاً شديداً متتابعاً قوله إني لبعقر حوضي هو بضم العين المهملة، وإسكان القاف وهو موقف الإبل من الحوض إذا وردته للشرب، وقيل هو مؤخر الحوض قوله أذود الناس، أي أضرب الناس لأهل اليمن بعصاي حتى يرفض عليهم، معناه أطردهم الناس عنه غير أهل اليمن، ومعنى يرفض أي يسيل عليهم، وفيه منقبة عظيمة لأهل اليمن قوله أنا فرطكم على الحوض الفرط بفتح الفاء والراء هو الذي يتقدم على الواردين ليصلح لهم الحياض، والدلاء ونحوها من آلات الاستقاء، والمعنى أنا سابقكم على الحوض كالمهيء له قوله سحقاً، أي بعداً وفيه دليل لمن قال إنهم أهل الردة إذ لا يقال للمؤمن سحقاً بل يشفع قلت في حديث أنس الأول دليل لمن يقول أن سورة الكوثر مدنية وهو الأظهر لقوله بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا إذا أغفى إغفاءه يعني نام نومة ثم رفع رأسه متبسماً والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فصل لربك وانحر﴾ معناه أن ناساً كانوا يصلون لغير الله تعالى وينحرون لغير الله فأمر الله نبيه ﷺ أن يصلي له وينحر له متقرباً إلى ربه بذلك، وقيل معناه فصل لربك صلاة العيد يوم النحر، وانحر نسكك، وقيل معناه فصل الصلاة المفروضة بجمع، وانحر البدن بمنى وقال ابن عباس: ﴿فصل لربك ونحر﴾ أي ضع يدك اليمنى على اليسرى في الصلاة عند النحر، وقيل هو رفع اليدين مع التكبير إلى النحر حكاه ابن الجوزي، ومعنى الآية قد أعطيتك ما لا نهاية لكثرة من خير الدارين وخصصتك بما لم أخص به أحداً غيرك، فاعبد ربك الذي أعطاك هذا العطاء الجزيل، والخير الكثير، وأعزك، وشرفك على كافة الخلق، ورفع منزلتك فوقهم فصل له واشكره على إنعامه عليك، وانحر البدن متقرباً إليه ﴿إن شئت﴾ يعني عدوك ومبغضك ﴿هو الأبر﴾ يعني هو الأذل المنقطع دابره نزلت في العاص بن وائل السهمي وذلك أنه رأى النبي ﷺ خارجاً من المسجد وهو داخل فالتقيا عند باب بني سهم وتحدثا وأناس من صناديد قريش جلوس في المسجد فلما دخل العاص قالوا له من الذي كنت تتحدث معه فقال ذلك الأبر

قوله عز وجل: ﴿فصل لربك وانحر﴾، قال محمد بن كعب: إن أناساً كانوا يصلون لغير الله وينحرون لغير الله، فأمر الله نبيه ﷺ أن يصلي وينحر لله عز وجل. وقال عكرمة وعطاء وقتادة: فصل لربك صلاة العيد يوم النحر وانحر نسكك. وقال سعيد بن جبيرة ومجاهد: فصل الصلوات المفروضة بجمع وانحر البدن بمنى ورؤي عن أبي الجوزاء عن ابن عباس قال: ك ﴿فصل لربك وانحر﴾ قال وضع اليمين على الشمال في الصلاة عند النحر.

قوله تعالى: ﴿إن شئت﴾، عدوك ومبغضك، ﴿هو الأبر﴾، هو الأقل الأذل المنقطع دابره، نزلت في العاص بن وائل السهمي، وذلك أنه رأى النبي ﷺ يخرج من المسجد وهو يدخل فالتقيا عند باب بني سهم وتحدثا، وأناس من صناديد قريش جلوس في المسجد فلما دخل العاص قالوا له: من الذي كنت تتحدث معه؟ قال: ذلك الأبر يعني النبي ﷺ، وكان قد توفي ابن لرسول الله ﷺ من خديجة رضي الله عنها، وذكر محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان قال: كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ قال: دعوه لنا فإنه رجل أبر، لا عقب

يعني به النبي ﷺ وكان قد توفي ابن لرسول الله ﷺ من خديجة، وقيل إن العاص بن وائل كان إذا ذكر رسول الله ﷺ قال دعوه فإنه رجل أبتَر لا عقب له، فإذا هلك انقطع ذكره، فأنزل الله تعالى هذه السورة وقال ابن عباس: نزلت في كعب بن الأشرف، وجماعة من قريش، وذلك أنه لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت له قريش نحن أهل السقاية والسدانة وأنت سيد أهل المدينة فنحن خير أم هذا الصنبر المنبر من قومه، فقال أنتم فنزلت فيه ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾ ونزلت في الذين قالوا إنه أبتَر ﴿إن شأنتك هو الأبتَر﴾ أي المنقطع من كل خير قولهم في النبي ﷺ هذا الصنبر أرادوا أنه فرد ليس له ولد، فإذا مات انقطع ذكره شبهوه بالنخلة المفردة يدق أسفلها، وتسمى الصنبر، وقيل هي النخلة التي تخرج في أصل أخرى تغرس، وقيل الصنابر سعفات تنبت من جذع النخلة تضربها ودواؤها أن تنقطع تلك الصنابر منها فأراد كفار مكة أن محمداً ﷺ بمنزلة الصنابر تنبت في جذع نخلة فإذا انقلع استراحت النخلة فكذا محمد إذا مات انقطع ذكره، وقيل الصنبر الوحيد الضعيف الذي لا ولد له ولا عشيرة ولا ناصر من قريب ولا غريب فأكذبهم الله تعالى في ذلك ورد عليهم أشنع رد فقال إن شأنتك يا محمد هو الأبتَر الضعيف، الوحيد، الحقيق، وأنت الأعز، الأشرف الأعظم، والله أعلم بمراده.

له فإذا هلك انقطع ذكره، فأنزل الله تعالى هذه السورة. وقال عكرمة عن ابن عباس: نزلت في كعب بن الأشرف وجماعة من قريش، وذلك أنه لما قَدِمَ كعب مكة قالت له قريش: نحن أهل السقاية والسدانة، وأنت سيد أهل المدينة فنحن خير أم هذا الصنبر المنبر من قومه؟ فقال: بل أنتم خير منه، فنزلت: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾ [النساء: ٥١] الآية، ونزل في الذين قالوا إنه أبتَر: ﴿إن شأنتك هو الأبتَر﴾ أي المنقطع من كل خير.

سورة قل يا أيها الكافرون

مكية وهي ست آيات وست وعشرون كلمة وأربعة وتسعون حرفاً

عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «من قرأ ﴿إذا زلزلت﴾ عدلت له نصف القرآن ومن قرأ ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ عدلت له ربع القرآن ومن قرأ ﴿قل هو الله أحد﴾ عدلت له ثلث القرآن» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب وله عن ابن عباس نحوه، وقال فيه غريب، ووجه كون هذه السورة تعدل ربع القرآن أن القرآن مشتمل على الأمر والنهي، وكل واحد منهما ينقسم إلى ما يتعلق بعمل القلوب، وإلى ما يتعلق بعمل الجوارح، فحصل من ذلك أربعة أقسام وهذه السورة مشتملة على النهي عن عبادة غير الله تعالى وهي من الاعتقاد وذلك من أفعال القلوب، فكانت هذه السورة ربع القرآن على هذا التقسيم، والله سبحانه وتعالى أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾

قوله عز وجل: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ إلى آخر السورة نزلت في رهط من قريش منهم الحارث بن قيس السهمي، والعاص بن وائل السهمي والوليد بن المغيرة، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن عبد المطلب بن أسد، وأمّية بن خلف قالوا يا محمد هلم اتبع ديننا ونتبع دينك، ونشركك في ديننا كله تعبد آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة فإن كان الذي جئت به خيراً كنا قد شركناك فيه، وأخذنا حظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً كنت قد شركتنا في أمرنا، وأخذت بحظك منه فقال له رسول الله ﷺ معاذ الله أن أشرك به غيره قالوا فاستلم بعض آلهتنا نصدقك، ونعبد إلهك قال حتى أنظر ما يأتي من ربي فأنزل الله ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ إلى آخر السورة فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه أولئك الملأ من قريش، فقام على رؤوسهم ثم قرأها عليهم حتى فرغ من السورة فأيسوا منه عند ذلك وآذوه وأصحابه، وقيل إنهم لقوا العباس، فقالوا يا أبا الفضل لو أن ابن أخيك استلم بعض آلهتنا لصدقناه فيما يقول، ولآمنا بإلهه، فأتاه العباس، فأخبره بقولهم، فنزلت هذه السورة وقيل نزلت في أبي جهل والمستهزئين ومن لم يؤمن منهم.

سُورَةُ الْكَافِرُونَ

مكية وهي ست آيات.

﴿قل يا أيها الكافرون﴾، إلى آخر السورة نزلت في رهط من قريش منهم: الحارث بن قيس السهمي، والعاص بن وائل والوليد بن المغيرة، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب بن أسد، وأمّية بن خلف، قالوا: يا محمد هلم فاتبع ديننا ونتبع دينك ونشركك في أمرنا كله، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، فإن كان الذي جئت به خيراً كنا قد شركناك فيه وأخذنا حظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً كنت قد شركتنا في أمرنا وأخذت بحظك

ومعنى ذلك، أن النبي ﷺ كان مأموراً بتبليغ الرسالة بجميع ما أوحى إليه فلما قال الله تعالى ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ أداه النبي ﷺ كما سمعه من جبريل عليه السلام فكأنه ﷺ قال أمرت بتبليغ جميع ما أنزل الله عليّ، وكان فيما نزل عليه ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ وقيل إن النفوس تأبى سماع الكلام الغليظ الشنيع من التّظير، ولا أشنع ولا أغلظ من المخاطبة بالكفر فكأنه ﷺ قال ليس هذا من عندي إنما هو من عند الله عزّ وجلّ وقد أنزل الله على قل يا أيها الكافرون والمخاطبون بقوله يا أيها الكافرون كفره مخصوصون قد سبق في علم الله أنهم لا يؤمنون ﴿لا أعبد ما تعبدون﴾ في معنى الآية قولان: أحدهما أنه لا تكرر فيها، فيكون المعنى لا أعبد ما تعبدون لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ أي ولا أنتم فاعلون في المستقبل ما أطلبه منكم من عبادة إلهي ثم قال ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم﴾ أي ولست في الحال بعابد معبودكم ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ أي ولا أنتم في الحال بعابدين معبودي وقيل يحتمل أن يكون الأول للحال، والثاني للإستقبال، وقيل يصلح كل واحد منهما أن يكون للحال، والاستقبال، ولكن يختص أحدهما بالحال والثاني للإستقبال لأنه أخبر أولاً عن الحال ثم أخبر ثانياً عن الاستقبال، فيكون المعنى لا أعبد ما تعبدون في الحال ولا أنتم عابدون ما أعبد في الاستقبال وما بمعنى من أي من أعبد ويحتمل أن تكون بمعنى الذي أي الذي أعبد.

القول الثاني: حصول التكرار في الآية، وعلى هذا القول يقال إن التكرار يفيد التوكيد، وكلما كانت الحاجة إلى التوكيد أشد كان التكرار أحسن، ولا موضع أحوج إلى التوكيد من هذا الموضع لأن الكفار راجعوا النبي ﷺ في هذا المعنى مراراً فحسن التوكيد، والتكرار في هذا الموضع لأن القرآن نزل بلسان العرب وعلى مجاري خطابهم، ومن مذهبهم التكرار إرادة التوكيد، والإفهام كما أن من مذهبهم الاختصار إرادة التخفيف، والإيجاز، وقيل تكرر الكلام لتكرار الوقت، وذلك أنهم قالوا للنبي ﷺ إن سرك أن ندخل في دينك عاماً فأدخل في ديننا عاماً، فنزلت هذه السورة جواباً لهم على قولهم ﴿لکم دینکم ولی دینی﴾ أي لكم كفركم ولي إخلاصي، وتوحيدي، والمقصود منه التهديد فهو كقوله ﴿اعملوا ما شئتم﴾ وهذه الآية منسوخة بآية القتال، والله أعلم.

منه، فقال: معاذ الله أن أشرك به غيره، قالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصداً لك ونعبد إلهك، فقال: حتى أنظر ما يأتي من عند ربّي، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ إلى آخر السورة، فغداً رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش، فقام على رؤوسهم ثم قرأها عليهم حتى فرغ من السورة، فأيسوا منه عند ذلك وأذوه وأصحابه.

ومعنى الآية: ﴿لا أعبد ما تعبدون﴾، في الحال.

﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾، في الحال، ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم﴾، في الاستقبال، ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾، في الاستقبال، وهذا خطاب لمن سبق في علم الله أنهم لا يؤمنون، وقوله: ﴿ما أعبد﴾ أي من أعبد، لكنه ذكره لمقابلة ما تعبدون، ووجه التكرار: قال أكثر أهل المعاني: هو أن القرآن نزل بلسان العرب، وعلى مجازي خطابهم، ومن مذهبهم التكرار إرادة التوكيد والإفهام، كما أن من مذهبهم الاختصار إرادة التخفيف والإيجاز. وقال القتيبي: تكرر الكلام لتكرار الوقت، وذلك أنهم قالوا: إن سرك أن ندخل في دينك عاماً فأدخل في ديننا عاماً، فنزلت هذه السورة.

﴿لکم دینکم﴾، الشرك، ﴿ولی دین﴾، الإسلام، قرأ ابن كثير ونافع وحفص: ﴿ولی﴾ بفتح الياء، والآخرين بإسكانها.

تفسير سورة النصر

مدنية وهي ثلاث آيات وسبع عشرة كلمة وسبعة وسبعون حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّكُمْ كَانْتُمْ تَوَّابًا ﴿٣﴾

قوله عز وجل: ﴿١﴾ إذا جاء نصر الله والفتح﴾ يعني فتح مكة وكانت قصة الفتح على ما ذكره محمد بن إسحاق، وأصحاب الأخبار «أن رسول الله ﷺ لما صالح قريشاً عام الحديبية اصطلحوا على وضع الحرب بين الناس عشرين سنة، وقيل عشر سنين يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد ﷺ وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش، وعهدهم دخل فيه. فدخلت بنو بكر في عهد قريش، ودخلت خزاعة في عهد النبي ﷺ وكان بينهما شر قديم ثم إن بني بكر عدت على خزاعة، وهم على ما لهم أسفل مكة يقال له الوتير، فخرج نوفل بن معاوية الدؤلي في بني الدئل من بني بكر حين بقيت خزاعة على الوتير، فأصابوا منهم رجلاً، وتحاوروا واقتتلوا، وردفت قريش بني بكر بالسلاح، وقاتل معهم من قريش من قاتل بالليل مستخفياً حتى حازوا خزاعة إلى الحرم، وكان ممن أعان بني بكر من قريش على خزاعة ليلتذ بأنفسهم بكر بن صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو مع عبيدهم، فلما انتهوا إلى الحرم قالت بنو بكر يا نوفل إنا قد دخلنا إلى إلهك فقال كلمة عظيمة إنه لا إله اليوم يا بني بكر أصيبوا ثأركم فلعمري إنكم لتسرفون في الحرم، أفلا تصيبون ثأركم فيه قال: فلما

سُورَةُ النَّصْرِ

مدنية وهي ثلاث آيات.

﴿١﴾ إذا جاء نصر الله والفتح﴾، أراد فتح مكة وكانت قصته على ما ذكر محمد بن إسحاق وأصحاب الأخبار أن رسول الله ﷺ لما صالح قريشاً عام الحديبية، اصطلحوا على وضع الحرب بين الناس عشرين سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض، وأنه من أحب أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، فدخلت بنو بكر في عقد قريش، ودخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ، وكان بينهما شر قديم، ثم إن بني بكر عدت على خزاعة، وهم على ما لهم أسفل مكة، يقال له الوتير، فخرج نوفل بن معاوية الدؤلي في بني الدئل من بني بكر حتى بيت خزاعة، فأصابوا منهم رجلاً وتحاربوا واقتتلوا، وردفت قريش بني بكر بالسلاح وقاتل معهم من قريش من قاتل مستخفياً بالليل، حتى حازوا خزاعة إلى الحرم، وكان ممن أعان بني بكر من قريش على خزاعة ليلتذ بأنفسهم متكررين: صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو،

تظاهر بنو بكر وقريش على خزاعة، وأصابوا منهم ما أصابوا ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد والميثاق بما استحلوا من خزاعة، وكانوا في عقده خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة، وكان ذلك مما أهاج فتح مكة فوقف عليه وهو في المسجد جالس بين ظهرائي الناس فقال:

يا رب إنني ناشد محمداً	حلف أبينا وأبيه الأتلا
قد كتمو ولدأ وكنأ والدا	ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصرأ أعتدا	وادع عباد الله يأتسوا مددا
فيههم رسول الله قد تجردا	إن سيم خسفاً وجهه تربدا
في فيلق كالبحر يجري مزبدا	إن قريشأ أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا	وجعلوا لي في كداء رصدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا	وهم أذل وأقل عددا
هم يبتوننا بالتوتير هجدا	وقتلوننا ركعاً وسجدا

فانصر هداك الله نصرأ أيذا

فقال رسول الله ﷺ: قد نصرت يا عمرو بن سالم ثم عرض لرسول الله ﷺ عنان من السماء، فقال إن هذه السحابة لتشهد بنصر بني كعب، وهم رهط عمرو بن سالم، ثم خرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة فأخبروه بما أصيب منهم، وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم ثم انصرفوا راجعين إلى مكة، وقد كان رسول الله ﷺ قال للناس كأنكم بأبي سفيان قد جاء يشدد في العقد ويزيد في المدة، ومضى بديل بن ورقاء وأصحابه حتى لقوا أبا سفيان بعسفان قد بعثه قريش إلى رسول الله ﷺ يشدد في العقد ويزيد في المدة وقد رهبوا من الذي صنعوا، فلما لقي أبا سفيان بديلاً قال: من أين أقبلت يا بديل وظن أنه أتى رسول الله ﷺ قال: سرت في خزاعة

مع عبيدهم فلما انتهوا إلى الحرم قالت بنو بكر: يا نوفل إنا دخلنا الحرم إلى إلهك فقال كلمة عظيمة إنه لا إله لي اليوم، أصيبوا ثأركم فيه، فلما تظاهرت قريش على خزاعة وأصابوا منهم ونقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد بما استحلوا من خزاعة، وكانوا في عقده خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة، وكان ذلك مما أهاج فتح مكة، فوقف عليه وهو في المسجد جالس بين ظهرائي الناس، فقال:

لا هم إنني ناشد محمداً	حلف أبينا وأبيه الأتلا
إن قريشأ أخلفوك الموعدا	ونقضوا ميثاقك المؤكدا

الآيات كما ذكرنا في سورة التوبة، فقال رسول الله ﷺ: «قد نصرت يا عمرو بن سالم»، ثم عرض لرسول الله ﷺ عنان بين السماء، فقال: «إن هذه السحابة لتسهل بنصر بني كعب»، وهم رهط عمرو بن سالم، ثم خرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدموا على رسول الله ﷺ فأخبروه بما أصيب منهم ومظاهرة قريش بني بكر عليهم، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة، وقد كان رسول الله ﷺ قال للناس: «كأنكم بأبي سفيان قد جاء ليشدد العقد ويزيد في المدة»، ومضى بديل بن ورقاء فلقى أبا سفيان بعسفان، قد بعثه قريش إلى رسول الله ﷺ، ليشدد العقد ويزيد في المدة، وقد رهبوا الذي صنعوا فلما لقي أبو سفيان بديلاً قال: من أين أقبلت يا بديل؟ وظن أنه قد أتى رسول الله ﷺ، قال: سرت إلى خزاعة في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي، قال: أو ما أتيت محمداً؟ قال: لا، فلما راح بديل إلى مكة قال أبو سفيان: لئن كان جاء المدينة لقد علف ناقته بها النوى فعمد إلى مبرك ناقته فأخذ من

في هذا الساحل، وفي بطن هذا الوادي قال: وهل أتيت محمداً قال: لا فلما راح بديل إلى مكة قال أبو سفيان لئن كان جاء المدينة لقد علف منها النوى فعمد إلى مبرك ناقته فأخذ من بعرها ففته فرأى فيه النوى فقال أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة بنت أبي سفيان، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه فقال: أي بنية أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني فقالت بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس لم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ فقال: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر، ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلمه، فلم يرد عليه شيئاً، ثم ذهب إلى أبي بكر، فكلمه أن يكلم له رسول الله ﷺ فقال: ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر بن الخطاب، فكلمه فقال أنا لا أشفع لك إلى النبي ﷺ. فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به، ثم خرج فدخل على علي بن أبي طالب، وعنده فاطمة بنت رسول الله ﷺ وعندها الحسن بن علي غلاماً يدب بين يديها فقال: يا علي إنك أمس القوم بي رحماً، وأقربهم مني قرابة، وقد جئت في حاجة فلا أرجع كما جئت خائباً، فاشفع لي إلى رسول الله ﷺ فقال: ويحك يا أبا سفيان لقد أرى عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه. فالتفت إلى فاطمة وقال: يا بنت محمد هل لك أن تأمري بنيك هذا فيجبر بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر. فقالت: والله ما بلغ بني أن يجبر بين الناس، وما يجبر أحد على رسول الله ﷺ فقال: يا أبا الحسن إنني أرى الأمور قد اشتدت عليّ، فانصحنى قال والله لا أعلم شيئاً يغني عنك، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك قال: وترى ذلك مغنياً عني شيئاً قال لا والله ما أظن ذلك ولكن لا أجد لك غير ذلك. فقام أبو سفيان في المسجد، فقال أيها الناس إنني قد أجرت بين الناس، ثم ركب بعيره، فانطلق فلما قدم على قريش قالوا ما رواءك قال: جئت محمداً فكلمته فوالله ما رد علي شيئاً ثم جئت ابن أبي قحافة، فلم أجد عنده خيراً، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أعدى القوم، ثم أتيت علي بن أبي طالب فوجدته ألين القوم وقد أشار عليّ بشيء

بعرها ففته فرأى فيه النوى، فقال: أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً، ثم خرج أبو سفيان حتى قَدِمَ على رسول الله ﷺ المدينة، فدخل على ابنته أم حبيبة بنت أبي سفيان، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه، فقال: يا بنية أرغبت بي عن هذا الفراش أم أرغبت به عني؟ قالت: بلى هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس، فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ، فقال: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شيء، ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلمه فلم يرد عليه شيئاً، ثم ذهب إلى أبي بكر فكلمه أن يكلم له رسول الله ﷺ، فقال ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال أنا لا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ، فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به، ثم خرج فدخل على علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعنده فاطمة بنت رسول الله ﷺ وعندها الحسن بن علي رضي الله عنهما غلام يدب بين يديها، فقال: يا علي إنك أمس القوم بي رحماً وأقربهم مني قرابة، وقد جئت في حاجة فلا أرجع كما جئت خائباً، إشفع لنا إلى رسول الله ﷺ، فقال: ويحك يا أبا سفيان لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه، فالتفت إلى فاطمة فقال: يا بنت محمد هل لك أن تأمري بنيك هذا فيجبر بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ قالت: والله ما بلغ بني أن يجبر بين الناس، وما يجبر على رسول الله ﷺ أحد، فقال: يا أبا الحسن أرى الأمور قد اشتدت عليّ فانصحنى، قال: والله ما أعلم شيئاً يغني عنك، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرضك، قال: أو تر ذلك مغنياً عني؟ قال: لا والله ما أظن ولكن لا أجد لك غير ذلك، فقام أبو سفيان في المسجد فقال: يا أيها الناس إنني قد أجرت بين الناس، ثم ركب بعيره فانطلق فلما قَدِمَ على قريش قالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمداً فكلمته والله ما رد علي شيئاً ثم جئت ابن أبي قحافة، فلم أجد عنده خيراً، فجئت ابن الخطاب فوجدته أعدى القوم، ثم أتيت علي بن أبي طالب فوجدته

صنعتة فوالله ما أدري هل يغني ذلك شيئاً أم لا قالوا: وما ذاك قال أمرني أن أجير بين الناس، ففعلت قالوا فهل أجاز ذلك محمد قال لا قالوا ويلك والله ما زاد على أن لعب بك فما يغني عنك ما قلت قال لا والله ما وجدت غير ذلك قال: وأمر رسول الله ﷺ بالجهاز وأمر أهله أن يجهزوه، فدخل أبو بكر على ابنته عائشة، وهي تصلح بعض جهاز رسول الله ﷺ فقال أي بنية أمركم رسول الله ﷺ أن تجهزوه، قالت نعم. قال فأين تريه يريد قالت لا والله ما أدري ثم إن رسول الله ﷺ أعلم الناس أنه سائر إلى مكة، وأمرهم بالجد والتهيؤ وقال اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها، فتجهز الناس وكتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺ، وقد تقدمت قصته في تفسير سورة الممتحنة ثم مضى رسول الله ﷺ لسفره، واستخلف على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين بن عتبة بن خلف الغفاري وخرج رسول الله ﷺ عامداً إلى مكة لعشر بقين من رمضان سنة ثمان من الهجرة فصام النبي ﷺ وصام الناس معه حتى إذا كان بالكديد بين عسفان، وأمع أفطر ثم مضى حتى نزل بمر الظهران في عشرة آلاف من المسلمين. ولم يتخلف من الأنصار والمهاجرين عنه أحد فلما نزل بمر الظهران، وقد عميت الأخبار عن قريش، ولا يأتيهم خبر عن رسول الله ﷺ، ولا يدرون ما هو فاعل خرج في تلك الليالي أبو سفيان بن حرب، وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتجسسون الأخبار وينظرون هل يجدون خبراً أو يسمعون به وقد كان العباس بن عبد المطلب لقي رسول الله ﷺ ببعض الطريق قال ابن هشام: لقيه بالجحفة مهاجراً بعياله، وقد كان قبل ذلك مقيماً بمكة على سقايته، ورسول الله ﷺ عنه راض فلما نزل رسول الله ﷺ مر الظهران قال العباس بن عبد المطلب. ليلتذ وأصبح قريش، والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه الهلاك لقريش إلى آخر الدهر. قال فجلست على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، فخرجت عليها حتى جئت الأراك لعلي أجد خطاباً، أو صاحب لبن أو ذا حاجة يدخل مكة، فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عنوة قال العباس: فوالله إني

ألين القوم، وقد أشار علي بشيء صنعته فوالله ما أدري هل يغنيني شيئاً أم لا؟ قالوا: وماذا أمرك؟ قال: أمرني أن أجير بين الناس ففعلت، قالوا: فهل أجاز ذلك محمد ﷺ؟ قال: لا، قالوا: والله إن زاد علي على أن لعب بك فلا يغني عنا ما قلت، قال: لا والله ما وجدت غير ذلك، قال وأمر رسول الله ﷺ الناس بالجهاز، وأمر أهله أن يجهزوه، فدخل أبو بكر على ابنته عائشة رضي الله عنها وهي تصلح بعض جهاز رسول الله ﷺ، فقال: أي بنية أمركم رسول الله ﷺ بأن تجهزوه؟ قالت: نعم فتجهز، قال: فأين تريه يريد؟ قالت: ما أدري ثم إن رسول الله ﷺ أعلم الناس أنه سائر إلى مكة، وأمرهم بالجد والتهيؤ، وقال: اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها، فتجهز الناس وكتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش ذكرناها في سورة الممتحنة، ثم استخلف رسول الله ﷺ على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين بن خلف الغفاري، وخرج عامداً إلى مكة لعشر مضين من رمضان سنة ثمان، فصام رسول الله ﷺ وصام الناس معه، حتى إذا كان بالكديد ما بين عسفان وأمع أفطر، ثم مضى حتى نزل بمر الظهران في عشرة آلاف من المسلمين، ولم يتخلف من المهاجرين والأنصار عنه أحد، فلما نزل بمر الظهران وقد عميت الأخبار عن قريش، فلا يأتيهم خبر عن رسول الله ﷺ ولا يدرون ما هو فاعل، فخرج في تلك أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتجسسون الأخبار هل يجدون خبراً، وقد قال العباس بن عبد المطلب ليلتذ: وأصبح قريش، والله لئن بغتها رسول الله ﷺ في بلادها فدخل مكة عنوة إنها لهلاك قريش إلى آخر الدهر، فخرج العباس على بغلة رسول الله ﷺ وقال اخرج إلى الأراك لعلي أرى خطاباً أو صاحب لبن أو داخلاً يدخل مكة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ فيأتونه فيستأمنونه قبل أن يدخلها عليهم عنوة، قال العباس فخرجت وإني لأطوف في الأراك ألتمس ما خرجت له إذ سمعت صوت أبي سفيان وحكيم وحزام وبديل بن ورقاء، وقد خرجوا يتجسسون

لأسير عليها وألتمس ما خرجت له إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء، وهما يتراجعان، وأبو سفيان يقول ما رأيت كالليلة نيراناً قط. فقال بديل هذه والله نيران خزاعة حمشتها الحرب، فقال أبو سفيان خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها، فعرفت صوته فقلت يا أبا حنظلة فعرف صوتي، فقال يا أبا الفضل فقلت نعم قال مالك فذاك أبي وأمي قلت: ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله ﷺ قد جاء بما لا قبل لكم به بعشرة آلاف من المسلمين قال: وما الحيلة قلت والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله ﷺ فاستأمنه لك فردفني، ورجع صاحبه فخرجت أركض به على بغلة رسول الله ﷺ كلما مررت بنار من نيران المسلمين ينظرون إليّ، ويقولون عم رسول الله ﷺ على بغلة رسول الله ﷺ حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال من هذا فقام إليّ فلما رأى أبا سفيان على عجز البغلة، قال أبو سفيان عدو الله الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد، ولا عهد ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ، وركضت البغلة فسبقته كما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء قال فاقترحت عن البغلة سريعاً، فدخلت على رسول الله ﷺ، ودخل عليه عمر فقال: يا رسول الله هذا عدو الله أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد، ولا عهد فدعني أضرب عنقه قال فقلت يا رسول الله إني قد أجرته ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه، وقلت والله لا ينجيك الليلة أحد دوني فلما أكثر عمر في شأنه قلت مهلاً يا عمر. فوالله ما تصنع هذا إلا أنه رجل من بني عبد مناف، ولو كان من بني عدي بن كعب ما قلت هذا، فقال مهلاً يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم، وما ذاك إلا لأنني أعلم أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم فقال رسول الله ﷺ اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتني به قال فذهبت به إلى رحلي فبات عندي، فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه قال ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ﷺ قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً

الخبر، فسمعت أبا سفيان يقول: والله ما رأيت كالليلة قط نيراناً، وقال بديل: هذه والله نيران خزاعة حمشتها الحرب، فقال أبو سفيان خزاعة الأُم من ذلك وأذل، فعرفت صوته فقلت: يا أبا حنظلة، فعرف صوتي فقال: يا أبا الفضل، فقلت: نعم، فقال: ما لك فذاك أبي وأمي؟ قلت: ويحك يا أبا سفيان هذا والله رسول الله ﷺ قد جاء بما لا قبل لكم به بعشرة آلاف من المسلمين، قال: وما الحيلة؟ قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله ﷺ فاستأمنه، فردفني ورجع صاحبه فخرجت أركض به بغلة رسول الله ﷺ، كلما مررت بنار من نيران المسلمين فنظروا إليّ قالوا: هذا عم رسول الله ﷺ، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب، فقال: من هذا؟ وقام إليّ فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة، قال أبو سفيان عدو الله الحمد لله الذي أمكن منك بغير عهد ولا عقد، ثم اشتد نحو رسول الله ﷺ فركضت البغلة وسبقته بما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء، فاقترحت عن البغلة فدخلت على رسول الله ﷺ ودخل عليه عمر، فقال: يا رسول الله هذا أبو سفيان عدو الله قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عقد، فدعني أضرب عنقه، فقلت: يا رسول الله إني قد أجرته، ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه وقلت: والله لا ينجيه الليلة أحد دوني، فلما أكثر فيه عمر رضي الله عنه قلت: مهلاً يا عمر فوالله ما تصنع هذا إلا أنه رجل من بني عبد مناف، ولو كان من بني عدي بن كعب ما قلت هذا، قال: مهلاً يا عباس فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم، وذلك لأنني أعلم أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم، فقال رسول الله ﷺ: «اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به»، قال فذهبت به إلى رحلي فبات عندي، فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه قال: «ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟» قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك،

بعد قال ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنني رسول الله، قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك، وأوصلك أما هذه فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً فقال العباس: ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك فتشهد شهادة الحق وأسلم قال العباس: فقلت يا رسول الله إن أبا سفيان هذا رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً قال نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن فلما ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ: يا عباس احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله قال فخرجت به حيث أمرني رسول الله ﷺ أن أحبسه قال ومرت به القبائل على راياتها كلما مرت به قبيلة قال من هؤلاء يا عباس، فأقول سليم فيقول ما لي ولسليم، ثم القبيلة فيقول من هؤلاء، فأقول مزينة فيقول ما لي ولمزينة حتى نفدت القبائل. لا تمر قبيلة إلا سألتني عنها، فإذا أخبرته عنها. فيقول ما لي، ولبني فلان حتى مر رسول الله ﷺ في كتيبه الخضراء، وإنما قيل لها الخضراء لكثرة الحديد، وظهوره فيها وفيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد فقال سبحانه الله من هؤلاء يا عباس؟ قلت هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين، والأنصار. قال ما لأحد بهؤلاء من قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً قلت ويحك إنها النبوة، قال فنعلم إذا فقلت الحق الآن بقومك فحذرهم، فخرج سريعاً حتى أتى مكة، فصرخ في المسجد بأعلى صوته يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به قالوا فمه قال: قال من دخل دار أبي سفيان فهو آمن. قالوا ويحك، وما تغني عنا دارك قال من دخل المسجد، فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن فتفرق الناس إلى دورهم، وإلى المسجد قال وجاء حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء إلى رسول الله ﷺ فأسلما وبايعاه، فلما بايعاه بعثهما رسول الله ﷺ بين يديه إلى قريش يدعوانهم إلى الإسلام، ولما خرج حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء من عند رسول الله ﷺ عامدين إلى مكة بعث في أثرهما الزبير وأعطاه رايته وأمره على خيل المهاجرين والأنصار وأمره أن يركز رايته بأعلى مكة بالحجون، وقال لا تبرح حيث

والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره فقد أغنى عني شيئاً بعد، قال: «ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنني رسول الله؟» قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً، قال العباس: قلت له ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، قبل أن يضرب عنقك، قال فشهد شهادة الحق وأسلم، قال العباس قلت يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً، قال: «نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن»، فلما ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ: «يا عباس احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها»، قال: فخرجت به حتى حبسته حيث أمرني رسول الله ﷺ، قال ومرت به القبائل على راياتها، كلما مرت قبيلة قال: من هؤلاء يا عباس؟ قال: أقول سليم، قال: يقول: ما لي ولسليم، ثم تمر القبيلة فيقول: من هؤلاء؟ فأقول: مزينة، فيقول: ما لي ولمزينة، حتى نفدت القبائل لا تمر قبيلة إلا سألتني عنها، فإذا أخبرته يقول: ما لي ولبني فلان حتى مر رسول الله ﷺ في الخضراء كتيبة رسول الله ﷺ فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، قال: سبحانه الله من هؤلاء يا عباس؟ قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، فقال: والله ما لأحد بهؤلاء من قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح مُلكُ ابن أخيك عظيماً، فقال: ويحك إنها النبوة، قال: نعم إذاً، فقلت: إلحقي الآن بقومك فحذرهم، فخرج سريعاً حتى أتى مكة فصرخ في المسجد بأعلى صوته يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، قالوا: فمه؟ قال: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: ويحك وما تغني عنا دارك؟ قال: ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد، قال: وجاء حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء إلى رسول الله ﷺ بمر الظهران فأسلما وبايعاه، فلما بايعاه

أمرتك أن تركز رايتي حتى آتيك، ثم إن رسول الله ﷺ لما انتهى إلى ذي طوى وقف على راحلته معتجراً بشقه عليه برد حبرة، وإن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعاً لله عز وجل حين رأى ما أكرمه به من الفتح حتى أن عثنونه ليكاد يمس واسطة الرحل، ثم إن رسول الله ﷺ دخل مكة وضرب قبته بأعلى مكة، وأمر خالد بن الوليد، فيمن أسلم من قضاة، وبني سليم أن يدخلوا من أسفل مكة وبها بنو بكر، وقد استغفرتهم قريش، وبنو الحارث بن عبد مناف ومن كان من الأحابيش أمرتهم قريش أن يكونوا بأسفل مكة، وأن صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو كانوا قد جمعوا ناساً بالخدمة ليقاتلوا وقال النبي ﷺ لخالد والزبير حين بعثهما لا تقاتلا إلا من قاتلكما، وأمر سعد بن عباد أن يدخل في بعض الناس من كدي فقال سعد: حين توجه داخلاً اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحُرمة فسمعها رجل من المهاجرين قيل: هو عمر بن الخطاب فقال: لرسول الله ﷺ اسمع ما قال سعد بن عباد، وما نأمن أن يكون له في قريش صولة فقال النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب أدركه بهذه الراية. فكن أنت الذي تدخل بها، فلم يكن بأعلى مكة من قبل الزبير قتال، وأما خالد بن الوليد، فقدم على قريش وبني بكر، والأحابيش بأسفل مكة، فقاتلوه فهزمهم الله، ولم يكن بمكة قتال غير ذلك، وقتل من المشركين اثنا عشر رجلاً أو ثلاثة عشر رجلاً، ولم يقتل من المسلمين إلا رجل من جهينة يقال له سلمة بن الميلاء من خيل خالد بن الوليد ورجلان يقال لهما كرز بن جابر، وخنيس بن خالد بن الوليد شذا وسلكا طريقاً غير طريقه، وكان رسول الله ﷺ قد عهد إلى أمرائه من المسلمين حين أمرهم أن يدخلوا مكة أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم إلا نفرأ منهم سماهم أمر بقتلهم، وإن وجدوا تحت أستار الكعبة منهم عبد الله بن سعد ابن أبي سرح، وإنما أمر بقتله لأنه كان قد أسلم فارتد مشركاً ففر إلى عثمان، وكان أخاه من الرضاعة فغيبه حتى أتى به رسول الله ﷺ بعد أن اطمأن أهل مكة فاستأمنه له وعبد الله بن خطل رجل من بني تميم بن غالب، وإنما أمر بقتله لأنه كان مسلماً فبعثه رسول الله ﷺ مصداقاً، وكان له مولى يخدمه، وكان مسلماً فنزل منزلاً وأمر

بعثهما رسول الله ﷺ بين يديه إلى قريش يدعوانهم إلى الإسلام، ولما خرج حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء من عند النبي ﷺ عامدين إلى مكة بعث في إثرهما الزبير وأعطاه رايته وأمره على خيل المهاجرين والأنصار، وأمره أن يركز رايته بأعلى مكة بالحجون، وقال: لا تبرح حيث أمرتك أن تركز رايتي حتى آتيك، ومن ثم دخل رسول الله ﷺ مكة وضربت هناك قبته، وأمر خالد بن الوليد فيمن أسلم من قضاة وبني سليم أن يدخل من أسفل مكة وبها بنو بكر قد استغفرتهم قريش وبنو الحارث بن عبد مناف ومن كان من الأحابيش أمرتهم قريش أن يكونوا بأسفل مكة، وإن صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو، وكانوا قد جمعوا ناساً بالخدمة ليقاتلوا، وقال لي النبي ﷺ لخالد والزبير حين بعثهما لا تقاتلا إلا من قاتلكم، وأمر سعد بن عباد أن يدخل في بعض الناس من كدي، فقال سعد حين توجه داخلاً: اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحُرمة، فسمعها رجل من المهاجرين فقال: يا رسول الله اسمع ما قال سعد بن عباد، وما نأمن أن يكون له في قريش صولة، فقال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب: أدركه فخذ الراية منه، فكن أنت الذي تدخل بها، فلم يكن يا علي من قبل الزبير قتال، وأما خالد بن الوليد فقدم على قريش وبني بكر والأحابيش بأسفل مكة، فقاتلهم فهزمهم الله، ولم يكن بمكة قتال غير ذلك، وقتل من المشركين قريب من اثني عشر أو ثلاثة عشر، ولم يقتل من المسلمين إلا رجل من جهينة يقال له سلمة بن الميلاء من خيل خالد بن الوليد، ورجلان يقال لهما كرز بن جابر وخنيس بن خالد كانا في خيل خالد بن الوليد. فشذا عنه وسلكا طريقاً غير طريقه، فقتلا جميعاً، وكان رسول الله ﷺ قد عهد إلى أمرائه من المسلمين حين أمرهم أن يدخلوا مكة أن لا يقاتلوا أحداً إلا من قاتلهم، إلا في نفر سماهم أمر بقتلهم، وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، منهم: عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وإنما أمر بقتله لأنه كان قد أسلم فارتد مشركاً، ففر إلى عثمان وكان أخاه من

المولى أن يذبح له تيساً ويصنع له طعاماً ونام فاستيقظ، ولم يصنع له شيئاً فعدا عليه فقتله ثم ارتد مشركاً، وكان له قيتان يغنيان بهجاء رسول الله ﷺ فأمر بقتلهما معه والحويث بن نقيد بن وهب، وكان ممن يؤذيه بمكة ومقيس صباة، وإنما أمر بقتله لقتله الأنصاري الذي قتل أخاه خطأ، ورجوعه إلى قريش مرتدّاً، وسارة مولاة لبني عبد المطلب، وكانت ممن يؤذيه بمكة، وعكرمة بن أبي جهل فأما عكرمة فهرب إلى اليمن، وأسلمت امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام، فاستأمنت له رسول الله ﷺ فأمنه فخرجت في طلبه حتى أتت به رسول الله ﷺ، وأما عبد الله بن خطل فقتله سعيد بن الحارث المخزومي وأبو برزة الأسلمي اشتراكاً في دمه وأما مقيس بن صباة فقتله نميلة بن عبد الله رجل من قومه وأما قيتا بن خطل فقتلت إحداهما، وهربت الأخرى حتى استؤمن لها رسول الله ﷺ فأمنها وأما سارة فتغيبت حتى استؤمن لها رسول الله ﷺ فعاشت حتى أوطأها رجل من الناس فرساً له في زمن عمر بن الخطاب بالأبطح فقتلها، وأما الحويث ابن نقيد فقتله علي بن أبي طالب قالت أم هانئ: لما نزل رسول الله ﷺ بأعلى مكة فر إلى رجلين من أحمائي من بني مخزوم، وكانت عند هبيرة بن أبي وهب المخزومي قالت: فدخل علي علي بن أبي طالب أخي فقال: والله لأقتلنهما، فأغلقت عليهما باب بيتي، ثم جئت رسول الله ﷺ، وهو بأعلى مكة، فوجدته يغتسل من جفنة وأن فيها لأثر العجين، وفاطمة ابنته تستره بثوبه فلما اغتسل أخذ ثوبه فتوشع به، ثم صلى ثمان ركعات الضحى، ثم انصرف إليّ فقال مرحباً وأهلاً بأم هانئ ما جاء بك. فأخبرته خبر الرجلين وخبر علي بن أبي طالب فقال: قد أجرتنا من أجرت وأماننا من آمنت فلا نقتلهما ثم إن رسول الله ﷺ خرج لما اطمأن الناس حتى جاء البيت فطاف به سبعاً على راحلته يستلم الركن بمحجن في يده فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة، وأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها، ثم وقف على باب الكعبة، وقد استكف له الناس في المسجد فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب

الرضا، فغيبه حتى أتى به رسول الله ﷺ بعد أن اطمأن أهل مكة، فاستأمن له، وعبد الله بن خطل كان رجلاً من بني تميم بن غالب، وإنما أمر بقتله لأنه كان مسلماً فبعثه رسول الله ﷺ مصداً، وكان له مولى يخدمه وكان مسلماً، فنزل منزلاً وأمر المولى أن يذبح له تيساً ويصنع له طعاماً، ونام فاستيقظ ولم يصنع له شيئاً فعدا عليه فقتله، ثم ارتد مشركاً، وكانت له قيتان تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ، فأمر بقتلهما معه، والحويث بن نقيد بن وهب كان ممن يؤذيه بمكة، ومقيس بن صباة، وإنما أمر بقتله لقتله الأنصاري الذي قتل أخاه خطأ ورجوعه إلى قريش مرتدّاً، وسارة مولاة كانت لبعض بني المطلب كانت ممن يؤذيه بمكة، وعكرمة بن أبي جهل، فأما عكرمة فهرب إلى اليمن وأسلمت امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام فاستأمنت له رسول الله ﷺ فأمنه، فخرجت في طلبه حتى أتت به رسول الله ﷺ فأسلم، وأما عبد الله بن خطل فقتله سعد بن حريث المخزومي وأبو برزة الأسلمي اشتراكاً في دمه، وأما مقيس بن صباة فقتله نميلة بن عبد الله رجل من قومه، وأما قيتا بن خطل فقتلت إحداهما وهربت الأخرى حتى استؤمن لها رسول الله ﷺ، فأمنها، وأما سارة فتغيبت حتى استؤمن لها فأمنها، فعاشت حتى أوطأها رجل من الناس فرساً له في زمن عمر بن الخطاب بالأبطح فقتلها، وأما الحويث بن نقيد فقتله علي بن أبي طالب، فلما دخل رسول الله ﷺ مكة وقف قائماً على باب الكعبة وقال: لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، إلا إن كل مأثرة أودم أو مال في الجاهلية يُدعى فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدان البيت وسقاية الحاج، يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظيمها بالأباء، الناس من آدم وآدم خلق من تراب، ثم تلا: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى﴾ [الحجرات: ١٣] الآية، يا أهل مكة ماذا ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، فأعتقهم رسول الله ﷺ، وقد كان الله أمكنه

وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهي تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت، وسقاية الحاج ألا قتل الخطأ شبه العمد بالسوط، والعصا، ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل أربعون منها خلفه في بطونها أولادها. يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظيمها بالآباء الناس من آدم وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾ الآية ثم قال يا معشر قريش ما ترون إني فاعل فيكم، قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم قال فاذهبوا فأنتم الطلقاء، فأعتقهم رسول الله ﷺ في المسجد، وكان الله أمكنه منهم عنوة فبذلك سموا أهل مكة الطلقاء، ثم جلس رسول الله ﷺ فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة بيده فقال: يا رسول الله اجمع لنا بين الحجابة، والسقاية فقال رسول الله ﷺ أين عثمان بن طلحة فدعي له فقال هاك مفتاحك يا عثمان اليوم يوم وفاء وبر، قال واجتمع الناس للبيعة فجلس إليهم رسول الله ﷺ على الصفا، وعمر بن الخطاب أسفل منه يأخذ على الناس. فبايعوه على السمع والطاعة فيما استطاعوا، فلما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء قال عروة بن الزبير: خرج صفوان بن أمية يريد جدة ليركب منها إلى اليمن فقال عمير بن وهب الجمحي يا رسول الله إن صفوان بن أمية سيد قومي قد خرج هارباً منك ليقتذف بنفسه في البحر، فأمنه يا رسول الله، فقال هو آمن قال: يا رسول الله أعطني شيئاً يعرف به أمانك، فأعطاه رسول الله ﷺ عمامته التي دخل بها مكة، فخرج بها عمير حتى أدركه بجدة، وهو يريد أن يركب البحر فقال يا صفوان فذاك أبي وأمي أذكرك الله في نفسك أن تهلكها، فهذا أمان رسول الله ﷺ جئتكم به؟ فقال ويلك أغرب عني لا تكلمني قال: فذاك أبي وأمي أفضل الناس، وأبر الناس وأحلم الناس، وخير الناس ابن عمك عزه عرك وشرفه شرفك، وملكه ملكك، قال إني أخافه على نفسي قال: هو أحلم من ذلك، وأكرم فرجع به معه حتى وقف به على رسول الله ﷺ، فقال صفوان: إن هذا يزعم أنك أمتني قال صدق، قال فاجعلني في ذلك بالخيار شهرين قال: أنت بالخيار أربعة أشهر «قال ابن هشام وبلغني أن النبي ﷺ حين افتتح مكة، ودخلها قام على الصفا يدعو، وقد أحدث به الأنصار فقالوا فيما بينهم أترون أن رسول الله ﷺ إذا فتح الله عليه مكة أرضه، وبلاده يقيم بها فلما فرغ من دعائه قال ماذا قلتم قالوا لا شيء يا رسول الله فلم يزل بهم حتى أخبروه.

فقال النبي ﷺ معاذ الله المحيا محياكم والممات مماتكم قال ابن إسحاق: وكان جميع من شهد فتح مكة من المسلمين عشرة آلاف، وكان فتح مكة لعشر ليال بقين من رمضان سنة ثمان، وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد فتحها خمس عشرة ليلة يقصر الصلاة ثم خرج إلى هوازن وثقيف، وقد نزلوا حينئذ (ق) عن أبي هريرة أن خزاعة قتلوا رجلاً

من قابهم عنوة، فلذلك سُمي أهل مكة الطلقاء، ثم اجتمع الناس للبيعة فجلس لهم رسول الله ﷺ على الصفا، وعمر بن الخطاب أسفل منه يأخذ على الناس، فبايعوه على السمع والطاعة فيما استطاعوا، فلما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء. قال عروة بن الزبير: خرج صفوان بن أمية يريد جدة ليركب منها إلى اليمن فقال عمير بن وهب الجمحي: يا نبي الله إن صفوان بن أمية سيد قومي، وقد خرج هارباً منك ليقتذف بنفسه في البحر، فأمنه، قال رسول الله ﷺ: «هو آمن»، قال: يا رسول الله أعطني شيئاً يعرف به أمانك، فأعطاه رسول الله ﷺ عمامته التي دخل بها مكة، فخرج بها عمير حتى أدركه بجدة، وهو يريد أن يركب البحر، فقال: يا صفوان فذاك أبي وأمي أذكرك الله في نفسك أن تهلكها، فهذا أمان رسول الله ﷺ قد جئتكم به، فقال: ويلك اغرب عني فلا تكلمني، قال: أي صفوان فذاك أبي وأمي أفضل الناس وأبر الناس وأحلم الناس وخير الناس ابن عمك عزه عرك وشرفه شرفك وملكه ملكك، قال: إني أخافه على نفسي، قال: هو أحلم من ذلك وأكرم، فرجع به معه حتى وقف به على رسول الله ﷺ، فقال صفوان: إن هذا يزعم أنك أمتني؟ قال: «صدق»، قال: فاجعلني في أمري بالخيار شهرين، قال أنت فيه بالخيار أربعة أشهر، قال ابن إسحاق وكان جميع من شهد فتح مكة من المسلمين عشرة آلاف وكان فتح

من بني ليث عام الفتح بقتيل لهم في الجاهلية فقام رسول الله ﷺ في الناس فحمد الله، وأثنى عليه وقال: إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين ألا وإنها لم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد من بعدي ألا، وإنما أحلت لي ساعة من نهار إلا، وإنها ساعتى هذه فلا ينفر صيدها ولا يختلي خلاها، ولا يقطع شوكةا، ولا تحل ساقطتها ألا لمنشد، ومن قتل له قتيل، فهو بخير النظرين. إما أن يفتدى وإما أن يقيد فقال العباس: إلا الأذخر فإننا نجعله لقبورنا وبيوتنا، فقال رسول الله ﷺ إلا الأذخر، فقام أبو شاه رجل من أهل اليمن فقال اكتبوا لي يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ: اكتبوا لأبي شاه قال الأوزاعي: يعني الخطبة التي سمعها من رسول الله ﷺ.

(وأما التفسير)

فقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ يعني إذا جاءك يا محمد نصر الله، ومعوته على من عاداك وهم قريش.

ومعنى مجيء النصر أن جميع الأمور مرتبطة بأوقاتها يستحيل تقدمها عن وقتها أو تأخرها عنه فإذا جاء ذلك الوقت المعين حضر معه ذلك الأمر المقدر، فهذا المعنى قال ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ يعني فتح مكة في قول جمهور المفسرين، وقيل هو جنس نصر الله المؤمنين وفتح بلاد الشرك عليهم على الإطلاق، والفرق بين النصر والفتح. أن النصر هو الإعانة والإظهار على الأعداء وهو تحصيل المطلوب، وهو كالسبب للفتح. فهذا بدأ بذكر النصر وعطف عليه الفتح، وقيل النصر هو إكمال الدين وإظهاره، والفتح هو الإقبال الذي هو تمام النعمة. ﴿وَرَأَيْتُ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ يعني زمراً وأرسالاً القبيلة بأسرها. والقوم بأجمعهم من غير قتال قال الحسن: لما فتح الله على رسول الله ﷺ مكة قالت العرب بعضها لبعض إذا ظفر الله محمد بأهل الحرم، وكان قد أجارهم من أصحاب الفيل فليس لكم به يدان فكانوا يدخلون في دين الله أفواجاً. بعد أن كانوا يدخلون واحداً واحداً واثنين اثنين. وقيل أراد بالناس أهل اليمن (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «أتاكم أهل اليمن هم أضعف قلوباً، وأرق أفئدة الإيمان يمان، والحكمة يمانية ودين الله هو الإسلام» وأضافه إليه تشريفاً وتعظيماً، كبيت الله وناقة الله قوله ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ يعني فإنك حيثنذ لاحق به (ق) عن ابن عباس: قال كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فقال: بعضهم لم يدخل هذا الفتى معنا، ولنا أبناء مثله فقال إنه ممن قد علمتم قال فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم.

قال وما رأيته أنه كان دعاني يومئذ إلا ليريهم مني.

مكة لعشر ليالٍ بقين من رمضان سنة ثمان، وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد فتحها خمس عشرة ليلة يقصر الصلاة، ثم خرج إلى هوازن وثقيف، وقد نزلوا حنيناً. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو نعيم ثنا شيبان عن يحيى بن سلمة عن أبي هريرة أن خزاعة قتلوا رجلاً، وقال محمد بن إسماعيل، قال عبد الله بن رجاء ثنا حرب عن يحيى ثنا أبو سلمة أنا أبو هريرة أنه قال: عام فتح مكة قتل خزاعة رجلاً من بني ليث بقتيل لهم في الجاهلية، فقام رسول الله ﷺ فقال: إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليهم رسوله والمؤمنين، ألا وإنها لم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي، ألا وإنما أحلت لي ساعة من نهار، ألا وإنها ساعتى هذه حرام لا يختلي شوكةا ولا يعصدها شجرها، ولا يلتقط ساقطتها إلا منشداً، ومن قتل له قتيل فهو بخير النظر إما يؤدوا وإما يفادوا، فقام رجل من أهل اليمن يقال له أبو شاه فقال: اكتب لي يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ اكتبوا لأبي شاه، ثم قام رجل من قريش فقال: يا رسول الله إلا الأذخر فإننا نجعله في بيوتنا وقبورنا، فقال رسول الله ﷺ: «إلا الأذخر». أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله أن أبا مرة مولى أم هانئ بنت أبي طالب أخبره أنه

قال ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ حتى ختم السورة، فقال بعضهم أمرنا أن نحمد الله، ونستغفره إذ نصرنا، وفتح علينا، وسكن بعضهم فلم يقل شيئاً فقال لي أذكلك تقول يا ابن عباس، قال: قلت؛ لا قال فما هو قلت هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه، فقال ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، فذلك علامة أجلك فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً، قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم (ق) عن عائشة قالت: «ما صلى رسول الله ﷺ صلاة بعد أن أنزلت عليه إذا جاء نصر الله والفتح، إلا يقول فيها سبحانك ربنا، وبحمدك اللهم اغفر لي، وفي رواية قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي يتأول القرآن، وفي رواية قالت كان رسول الله ﷺ يكثر القول من سبحان الله، وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه، وقال أخبرني ربي أنني سأرى علامة في أمتي. فإذا رأيته أكثر من قول سبحان الله وبحمده وأستغفر الله وأتوب إليه قد رأيته إذا جاء نصر الله والفتح فتح مكة، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً». قال ابن عباس: لما نزلت هذه السورة علم النبي ﷺ أنه نعت إليه نفسه.

وقال الحسن أعلم أنه قد اقترب أجله فأمر بالتسبيح والتوبة، ليختم بالزيادة في العمل الصالح قيل عاش النبي ﷺ بعد نزول هذه السورة سنتين، وقيل في معنى السورة إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فاشتغل أنت بالتسبيح والتحميد، والاستغفار، فالاشتغال بهذه الطاعة يصير سبباً لمزيد درجاتك في الدنيا والآخرة.

وفي معنى التسبيح وجهان: أحدهما نزه ربك عما لا يليق بجلاله ثم احمده.

سمع أم هانئ بنت أبي طالب تقول: ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح فوجدته يغتسل وفاطمة ابنته تستره بثوب، قالت: فسلمت، فقال: «من هذه؟» فقلت: أنا أم هانئ بنت أبي طالب، قال: «مرحباً بأم هانئ»، فلما فرغ من غسله قام فصلى ثمان ركعات ملتحفاً في ثوب واحد، ثم انصرف فقلت له: يا رسول الله زعم ابن أمي علي بن أبي طالب أنه قاتل رجلاً أجرته فلان بن هبيرة، فقال رسول الله ﷺ: «قد أجرنا من أجرته يا أم هانئ، وذلك ضحى». قوله عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ يا محمد على من عاداك وهم قريش، والفتح فتح مكة.

﴿ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً﴾، زُمرأ وأرسالاً القبيلة بأسرها والقوم بأجمعهم من غير قتال. قال الحسن: لما فتح الله عز وجل مكة على رسوله قالت العرب بعضها لبعض: إذا ظفر محمد بأهل الحرم، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان، فكانوا يدخلون في دين الله أفواجاً بعد أن كانوا يدخلون واحداً واحداً، واثنين اثنين. وقال عكرمة ومقاتل: أراد بالناس أهل اليمن، أنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقى أنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني أنا عبد الله بن عمر الجوهري ثنا أحمد بن الكشمهيني ثنا علي بن حجر ثنا إسماعيل بن جعفر ثنا محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتاكم أهل اليمن هم أضعف قلوباً وأرق أفئدة، الإيمان يمان والحكمة يمانية». ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾، فإنك حينئذ لاحق به. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو النعمان ثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فقال بعضهم: لِمَ تدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنه ممن قد علمتم، قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم، قال: وما رأيته دعاني يومئذ إلا ليُرِيهم مني، فقال: ما تقولون في قوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ حتى ختم السورة؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا جاء نصر وفتح علينا، وقال

والثاني فصل لربك لأن التسبيح جزء من أجزاء الصلاة، ثم قيل عني به صلاة الشكر، وهو ما صلاه رسول الله ﷺ يوم فتح مكة ثمان ركعات.

وقيل هي صلاة الضحى. وفي الآية دليل على فضيلة التسبيح، والتحميد حيث جعل ذلك كافياً في أداء ما وجب عليه من شكر نعمة النصر والفتح.

فإن قلت ما معنى هذا الاستغفار، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

قلت إنه تعبد به الله بذلك ليقترن به غيره. إذ لا يأمن كل واحد من نقص يقع في عبادته واجتهاده ففيه تنبيه على أن النبي ﷺ مع عصمته وشدة اجتهاده ما كان يتسغني عن الاستغفار فكيف بمن هو دونه وقيل هو ترك الأفضل والأولى لا عن ذنب صدر منه ﷺ وعلى قول من جوز الصغائر على الأنبياء يكون المعنى، واستغفره لما عسى أن يكون قد وقع من تلك الأمور منه، وقيل المراد منه الاستغفار لذنوب أمته، وهذا ظاهر لأن الله تعالى أمره بذلك في قوله ﴿واستغفر لذنبك، وللمؤمنين، والمؤمنات﴾ والله سبحانه وتعالى أعلم.

بعضهم: لا ندري، ولم يقل بعضهم شيئاً، فقال لي: يا ابن عباس أكذلك تقول؟ قلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه به: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ فتح مكة، فذلك علامة أجلك.

﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل حدثني عثمان بن أبي شيبة ثنا جرير عن منصور عن أبي الضحى عن مسروق عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي، يتأول القرآن. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج ثنا محمد بن المثنى حدثني عبد الأعلى ثنا داود عن عامر عن مسروق عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر من قول: سبحان الله وبحمده استغفر الله وأتوب إليه، قالت: فقلت يا رسول الله أراك تكثر من قول سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه؟ فقال: «أخبرني ربي أنني سأرى علامة في أمتي، فإذا رأيتها أكثر من قول سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه، فقد رأيتها: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾، فالفتح فتح مكة، ﴿ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا﴾ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً». قال ابن عباس: لما نزلت هذه السورة علم النبي ﷺ أنه نعت إليه نفسه. قال الحسن: أعلم أنه قد اقترب أجله فأمر بالتسبيح والتوبة ليختم له بالزيادة في العمل الصالح. قال قتادة ومقاتل: عاش النبي ﷺ بعد نزول هذه السورة سبعين يوماً.

سورة المسد

مكية وهي خمس آيات وعشرون كلمة وسبعة وسبعون حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝
وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝

قوله عز وجل: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (ق) «عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا، ونادى يا بني فهر يا بني عدي لبطون من قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي، قالوا نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً قال فإني لكم نذير بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ وفي رواية «أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل، فنادى يا صباحاه فاجتمعت عليه قريش». الحديث وذكر نحوه ومعنى تبَّتْ خابت وخسرت، والتباب هو الخسار المفضي إلى الهلاك، والمراد من اليد صاحبها وجملة بدنه، وذلك على عادة العرب في التعبير ببعض الشيء عن كله، وجميعه، وقيل إنه رمى النبي ﷺ بحجر، فأدمى عقبه فلهذا ذكرت اليد، وإن كان المراد جملة البدن فهو كقولهم خسرت يده، وكسبت يده فأضيفت الأفعال إلى اليد، وأبو لهب هو عبد العزي بن عبد المطلب بن هاشم عم النبي ﷺ وكني بأبي لهب لحسنه وإشراق وجهه.

سُورَةُ الْمَسَدِ

مكية وهي خمس آيات.

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحى أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيرى أنا حاجب بن أحمد الطوسي حدثنا محمد بن حماد ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: صعد رسول الله ﷺ ذات يوم على الصفا فقال: «يا صباحاه»، قال: فاجتمعت إليه قريش، فقالوا له: ما لك؟ قال: «أرايتم لو أخبرتكم أن العدو مصبحكم أمّا كنتم تصدقوني؟» قالوا: بلى، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، فقال أبو لهب: تباً ألهذا دعوتنا جميعاً؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ إلى آخرها. قوله: ﴿تَبَّتْ﴾ أي خابت وخسرت يدا أبي لهب، أي هو أخبر عن يديه، والمراد به نفسه على عادة العرب في التعبير ببعض الشيء عن كله. وقيل: اليد صلة، كما يقال: يد الدهر ويد الرزايا والبلايا. وقيل: المراد به ماله وملكه، يقال: فلان قليل ذات اليد، يعنون به المال والثياب والخسار الهلاك. وأبو لهب هو ابن عبد المطلب

فإن قلت لم كناه وفي الكنية تشريف وتكرمة قلت فيه وجوه أحدها أنه كان مشتهراً بالكنية دون الاسم، فلو ذكره باسمه لم يعرف الثاني أنه كان اسمه عبد العزى، فعدل عنه إلى الكنية لما فيه من الشُّرك الثالث. أنه لما كان من أهل النار وماله إلى النار، والنار ذات لهب وافقت حاله كنيته، وكان جديراً بأن يذكر بها. ﴿وتب﴾ قيل الأول أخرج مخرج الدعاء عليه، والثاني أخرج مخرج الخبر كما يقال أهلكه الله، وقد هلك وقيل ثبت يدا أبي لهب، يعني ماله وملكه، كما يقال فلان قليل ذات اليد يعنون به المال، وتب يعني نفسه أي وقد أهلكت نفسه ﴿ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾ قال ابن مسعود: لما دعى رسول الله ﷺ أقرباءه إلى الله تعالى قال أبو لهب: إن كان ما تقول يا ابن أخي حقاً، فأنا أفتدي نفسي بمالي وولدي، فأنزل الله تعالى: ﴿ما أغنى عنه ماله﴾، أي شيء يغني عنه ماله، أي ما يدفع عنه عذاب الله، وما كسب يعني من المال، وكان صاحب مواشي، أي ما جمع من المال أو ما كسب من المال، أي الربح بعد رأس ماله، وقيل وما كسب يعني ولده لأن ولد الإنسان من كسبه، كما جاء في الحديث «إن أطيب ما أكلتم من كسبكم، وإن أولادكم من كسبكم» أخرجه الترمذي ثم أوعده بالنار فقال تعالى: ﴿سيصلى ناراً ذات لهب﴾ أي ناراً تلتهب عليه ﴿وامراته﴾ يعني أم جميل بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان بن حرب عمة معاوية بن أبي سفيان، وكانت في نهاية العداوة لرسول الله ﷺ. ﴿حمالة الحطب﴾ قيل كانت تحمل الشوك، والحسك والعضاء بالليل، فتطرحة في طريق رسول الله ﷺ وأصحابه لتؤذيهم بذلك وهي رواية عن ابن عباس فإن قلت إنها كانت من بيت العز

عم النبي ﷺ، واسمه عبد العزى. قال مقاتل كُني بأبي لهب لحُسْنه وإشراق وجهه. وقرأ ابن كثير ﴿أبي لهب﴾ ساكنة الهاء وهي مثل نهر ونهر. واتفقوا في ذات ﴿لهب﴾ أنها مفتوحة الهاء لِفَوَاقِ الفواصل، وتب أبو لهب، وقرأ عبد الله: وقد تب. قال الفرّاء: الأول دعاء، والثاني خبر، كما يقال: أهلكه الله، وقد فعل.

﴿ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾، قال ابن مسعود: لما دعا رسول الله ﷺ أقرباءه إلى الله عز وجل قال أبو لهب: إن كان ما يقول ابن أخي حقاً فإني أفتدي نفسي بمالي وولدي، فأنزل الله تعالى: ﴿ما أغنى عنه ماله﴾ أي ما يغني، وقيل: أي شيء يُغني عنه ماله، أي ما يدفع عنه عذاب الله ما جمع من المال؟ وكان صاحب مواشي، ﴿وما كسب﴾ قيل: يعني ولده لأن ولد الإنسان من كسبه كما جاء في الحديث: «أطيب ما يأكل أحدكم من كسبه، وإن ولده من كسبه».

ثم أوعده بالنار فقال: ﴿سيصلى ناراً ذات لهب﴾، أي ناراً تلتهب عليه. ﴿وامراته﴾، أم جميل بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان ﴿حمالة الحطب﴾، قال زيد والضحاك: كانت تحمل الشوك والعضاء فطرحة في طريق رسول الله ﷺ، وأصحابه لتعقرهم، وهي رواية عطية عن ابن عباس. وقال قتادة ومجاهد والسدي: كانت تمشي بالنميمة وتنقل الحديث فتلقي العداوة بين الناس، وتوقد نارها كما توقد النار الحطب، يقال: فلان يحطب على فلان إذا كان يغري به. وقال سعيد بن جبير: حمالة الخطايا، دليله قوله: ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾ [الأنعام: ٣١]، قرأ عاصم ﴿حمالة﴾ بالنصب على الذم، كقوله: ﴿ملعونين﴾ [الأحزاب: ٦١]، وقرأ الآخرون بالرفع وله وجهان أحدهما ﴿سيصلى ناراً﴾ هو، ﴿وامراته حمالة الحطب﴾ والثاني: ﴿وامراته حمالة الحطب﴾ في النار أيضاً.

﴿في جيدها﴾، في عنقها، وجمعه أجياد، ﴿حبل من مسد﴾، واختلفوا فيه قال ابن عباس وعروة بن الزبير: سلسلة من حديد ذرعها سبعون ذراعاً تدخل في فيها وتخرج من دبرها، ويكون سائرهما في عنقها، وأصله من المسد وهو القتل، والمسد ما قتل وأحكم من أي شيء كان، يعني السلسلة التي في عنقها ففتلت من الحديد تفسير الخازن والبنوني/ ج ٦/ م ٣٤

والشرف فكيف يليق بها حمل الحطب؟ قلت يحتمل أنها كانت مع كثرة مالها، وشرفها في نهاية البخل والخسة، فكان يحملها بخلها على حمل الحطب بنفسها، ويحتمل أنها كانت تفعل ذلك لشدة عداوتها لرسول الله ﷺ ولا ترى أنها تستعين في ذلك بأحد بل تفعله هي بنفسها، وقيل كانت تمشي بالنميمة وتنقل الحديث وتلقي العداوة بين الناس وتوقد نارها، كما توقد النار الحطب يقال فلان يحطب على فلان إذا كان يغري به، وقيل حمالة الخطايا والآثام التي حملتها في عداوة رسول الله ﷺ لأنها كانت كالحطب في مصيرها إلى النار. ﴿في جيدها﴾ أي عنقها ﴿حبل من مسد﴾ قال ابن عباس: سلسلة من حديد ذرعها سبعون ذراعاً تدخل من فيها، وتخرج من دبرها، ويكون سائرها في عنقها. فتلت من حديد فتلاً محكماً وقيل هو حبل من ليف، وذلك الحبل هو الذي كانت تحتطب به، فبينما هي ذات يوم حاملة الحزمة أعييت، فقعدت على حجر تستريح أتاها ملك، فجذبها من خلفها، فأهلكها، وقيل هو حبل من شجر ينبت باليمن يقال له المسد، وقيل قلادة من ودع، وقيل كانت لها خرزات في عنقها، وقيل كانت لها قلادة فاخرة. قالت لأنفقنها في عداوة محمد ﷺ والله تعالى أعلم.

فتلاً محكماً. وروى الأعمش عن مجاهد: من مسد أي من حديد، والمسد الحديدية التي تكون في البكرة، يقال لها المحور، وقال الشعبي ومقاتل: من ليف. قال الضحاك وغيره: في الدينا من ليف وفي الآخرة من نار، وذلك الليف هو الحبل الذي كانت تحتطب به، فبينما هي ذات يوم حاملة حزمة فأعييت فقعدت على حجر تستريح فأتاها ملك فجذبها من خلفها فأهلكها، قال ابن زيد: حبل من شجر ينبت باليمن يقال له مسد، قال قتادة: قلادة من ودع. وقال الحسن: كانت خرزات في عنقها. وقال سعيد بن المسيب: كانت لها قلادة في عنقها فاخرة، فقالت: لأنفقنها في عداوة محمد ﷺ.

سورة الإخلاص

(وهي مكية وقيل مدنية وهي أربع آيات، وخمس عشرة كلمة وسبعة وأربعون حرفاً)

(فصل في فضلها)

(خ) عن أبي سعيد الخدري «أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿قل هو الله أحد﴾ يرددها، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ، فذكر ذلك له وكان الرجل يتقالها فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن»، وفي رواية قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة فشق ذلك عليهم فقالوا: أيتنا يطيق ذلك يا رسول الله فقال: ﴿قل هو الله أحد﴾، الله الصمد ثلث القرآن» (م) عن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال «إن الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء، فجعل قل هو الله أحد جزءاً من القرآن» (م) عن أبي هريرة قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ فقال أقرأ عليكم ثلث القرآن، فقرأ ﴿قل هو الله أحد الله الصمد﴾، حتى ختمها»، وقد ذكر العلماء رضي الله عنهم في كونه ﷺ جعل سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن أقوال متناسبة متقاربة، فقيل إن القرآن العزيز لا يعدو ثلاثة أقسام، وهي الإرشاد إلى معرفة ذات الله تعالى: وتقديسه أو صفاته وأسمائه أو معرفة أفعاله، وسنته مع عباده، ولما اشتملت سورة الإخلاص على أحد هذه الأقسام الثلاثة، وهو التقديس وازنها رسول الله ﷺ بثلث القرآن لأن منتهى التقديس في أن يكون واحداً في ثلاثة أمور لا يكون حاصلاً منه من هو من نوعه وشبهه ودل عليه. قوله ﴿لم يلد﴾، ولا يكون حاصلاً ممن هو نظيره، وشبيهه، ودل عليه قوله ﴿ولم يولد﴾، ولا يكون أحد في درجته وإن لم يكن أصلاً له، ولا فرعاً منه، ودل عليه قوله ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾، ويجمع ذلك كله قوله ﴿قل هو الله أحد﴾، وجملته وتفصيله، هو قولك لا إله إلا الله فهذا سر من أسرار القرآن المجيد الذي لا تنتهى أسرار، ولا تنقضي عجائبه وقال الإمام فخر الدين الرازي: لعل الغرض منه أن يكون المقصود الأشرف في جميع الشرائع، والعبادات معرفة ذات الله جلّ جلاله وتعالى علاؤه وثناؤه، ومعرفة أفعاله، وهذه السورة مشتملة على معرفة ذات الله تعالى، فلها كانت هذه السورة معادلة لثلث القرآن، وقال الشيخ محي الدين النووي رحمه الله، قيل معناه إن القرآن على ثلاثة أنحاء قصص، وأحكام وصفات الله تعالى، وقل هو الله أحد متضمنة للصفات، فهي ثلث القرآن، وجزء من ثلاثة أجزاء، وقيل معناه أن ثواب قراءتها يتضاعف بقدر ثواب قراءة ثلث القرآن بغير تضعيف. قوله يتقللها يقال استقللت الشيء، وتقللته وتقاللته أي عدته قليلاً في بابه، ونظرت إليه بعين القلة قيل سميت ﴿قل هو الله أحد﴾ سورة الإخلاص. إما لأنها خالصة لله تعالى في صفته أو لأن قارئها قد أخلص لله التوحيد، ومن فوائد هذه السورة أن الاشتغال بقراءتها يفيد الاشتغال بالله، وملازمة الأعراض عما سوى الله تعالى وهي متضمنة تنزيهه تعالى، وبرأته، عن كل ما لا يليق به لأنها مع قصرها جامعة لصفات الأحديّة والصمدانية، والفردانية، وعدم النظير عن أنس عن النبي ﷺ قال: «من قرأ كل يوم مائتي مرة قل هو الله أحد، محبت عنه ذنوب خمسين سنة إلا أن يكون عليه دين»، وفي رواية عنه عن النبي ﷺ قال: «من أراد أن ينام على فراشه، فنام على يمينه فقرأ قل هو الله أحد مائة مرة فإذا كان يوم القيامة يقول الرب جلّ جلاله يا عبدي ادخل عن يمينك الجنة» أخرجه الترمذي وقال: حديث غريب وعنه «أن رجلاً قال يا رسول الله إني أحب هذه السورة ﴿قل هو الله

«أحد»، قال حبك إياها أدخلك الجنة» أخرجه الترمذي عن أبي هريرة قال «أقبلت مع رسول الله ﷺ، فسمع رجلاً يقرأ ﴿قل هو الله أحد الله الصمد﴾، فقال رسول الله ﷺ وجبت قلت: وما وجبت قال الجنة» أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن غريب صحيح، والله سبحانه وتعالى أعلم بمراحه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكُنْ لَكَ يُولَدٌ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝

قوله عز وجل: ﴿قل هو الله أحد﴾ عن أبي بن كعب «أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ انسب لنا ربك، فأنزل الله ﴿قل هو الله أحد الله الصمد﴾ والصمد الذي لم يلد، ولم يولد لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله لا يموت ولا يورث، ولم يكن له كفواً أحد. قال لم يكن له شبيه، ولا عديل، وليس كمثله شيء» أخرجه الترمذي وقال: وقد روي عن أبي العالية أن النبي ﷺ ذكر ألتهم، فقالوا انسب لنا ربك، فأتاه جبريل بهذه السورة ﴿قل هو الله أحد﴾ وذكر نحوه، ولم يذكر فيه عن أبي بن كعب، وهذا أصح وقال ابن عباس أن عامر بن الطفيل، وأريد بن ربيعة أتيا النبي ﷺ فقال عامر: إلام تدعونا يا محمد قال إلى الله قال صفه لنا أمن ذهب هو أم من فضة، أم من حديد، أم من خشب، فنزلت هذه السورة، ﴿وأهلك الله أريد بالصاعقة وعامر بالطاعون﴾ وقد تقدم ذكرهما في سورة الرعد، وقيل جاء ناس من أحبار اليهود إلى النبي ﷺ، فقالوا صف لنا ربك لعلنا نؤمن بك، فإن الله تعالى أنزل نعتة في التوراة، فأخبرنا من أي شيء هو، وهل يأكل ويشرب، وممن ورث الربوبية، ولمن يورثها، فأنزل الله هذه السورة ﴿قل هو الله أحد﴾ يعني الذي سألتهموني عنه هو الله الواحد في الألوهية، والربوبية الموصوف بصفات الكمال والعظمة المنفرد عن الشبه، والمثل والنظير، وقيل لا يوصف أحد بالأحدية غير الله تعالى فلا يقال رجل أحد، ودرهم أحد بل أحد صفة من صفات الله تعالى. استأثر بها فلا يشركه فيها أحد، والفرق بين الواحد، والأحد أن الواحد يدخل في الأحد، ولا ينعكس، وقيل إن الواحد يستعمل في الإثبات والأحد في النفي تقول في الإثبات رأيت رجلاً واحداً، وفي النفي ما رأيت أحداً، فتفيد العموم، وقيل الواحد هو المنفرد بالذات فلا يضاهيه أحد، والأحد هو

سُورَةُ الْإِخْلَاصِ

مكية وهي أربع آيات.

﴿قل هو الله أحد﴾، روى أبو العالية عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: أنسب لنا ربك، فأنزل الله تعالى هذه السورة. وروى أبو ظبيان وأبو صالح عن ابن عباس أن عامر بن الطفيل وأريد بن ربيعة أتيا النبي ﷺ فقال عامر: إلام تدعونا يا محمد؟ قال: إلى الله، قال: صفه لنا أمن ذهب هو؟ أم من فضة؟ أم من حديد؟ أم من خشب؟ فنزلت هذه السورة. فأهلك الله أريد بالصاعقة وعامر بن الطفيل بالطاعون، ذكرناه في سورة الرعد [١٣]. وقال الضحاك وقتادة ومقاتل: جاء ناس من أحبار اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: صف لنا ربك يا محمد لعلنا نؤمن بك، فإن الله أنزل نعتة في التوراة، فأخبرنا من أي شيء هو؟ وهل يأكل ويشرب؟ ومن يرث السماء؟ ومن يرث الأرض؟ فأنزل الله هذه السورة: ﴿قل هو الله أحد﴾ أي واحد، ولا فرق بين الواحد والأحد، يدل عليه قراءة ابن مسعود: قل هو الله الواحد.

﴿الله الصمد﴾، قال ابن عباس ومجاهد والحسن وسعيد بن جبير: الصمد الذي لا جوف له. قال الشعبي:

المنفرد بالمعنى فلا يشاركه فيه أحد ﴿الله الصمد﴾ قال ابن عباس: الصمد الذي لا جوف له وبه قال جماعة من المفسرين، ووجه ذلك من حيث اللّغة أن الصّمد الشيء المصمد الصّلب الذي ليس فيه رطوبة، ولا رخاوة، ومنه يقال لسداد القارورة الصماد. فإن فسر الصمد بهذا كان من صفات الأجسام، ويتعالى الله جلّ وعزّ عن صفات الجسميّة، وقيل وجه هذا القول إن الصمد الذي ليس بأجوف، معناه هو الذي لا يأكل، ولا يشرب، وهو الغني عن كل شيء، فعلى هذا الاعتبار هو صفة كمال، والقصد بقوله الله الصّمد التنبيه على أنه تعالى بخلاف من أثبتوا له الإلهية، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام﴾ وقيل الصّمد الذي ليس بأجوف شيّان أحدهما دون الإنسان، وهو سائر الجمادات الصّلبة والثاني أشرف من الإنسان وأعلى منه وهو الباريء جلّ وعزّ وقال أبي بن كعب الصمد الذي لم يلد، ولم يولد لأن من يولد سيموت، ومن يموت يورث منه. وروى البخاري في أفراداه عن أبي وائل شقيق بن سلمة قال: الصّمد هو السيّد الذي انتهى سودده، وهي رواية عن ابن عباس، أيضاً قال هو السيّد الذي كمل فيه جميع أوصاف السوّد، وقيل هو السيّد المقصود في جميع الحوائج المرغوب إليه في الرغائب المستعان به عند المصائب، وتفريج الكرب وقيل هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله وتلك دالة على أنه المتناهي في السوّد والشرف، والعلو والعظمة، والكمال والكرم والإحسان، وقيل الصمد الدائم الباقي بعد فناء خلقه، وقيل الصمد الذي ليس فوقه أحد، وهو قول علي، وقيل هو الذي لا تعثره الآفات ولا تغييره الأوقات وقيل هو الذي لا عيب فيه وقيل الصمد هو الأول الذي ليس له زوال والآخر الذي ليس لملكه انتقال. والأولى أن يحمل لفظ الصمد على كل ما قيل فيه لأنه محتمل له، فعلى هذا يقتضي أن لا يكون في الوجود صمد سوى الله تعالى

الذي لا يأكل ولا يشرب. وقيل: تفسيره ما بعده. روى أبو العالية عن أبي بن كعب قال: الصمد الذي لم يلد ولم يولد لأن من يولد سيموت ومن يرث يورث منه. قال أبو وائل شقيق بن سلمة: هو السيّد الذي قد انتهى سُودده، وهو رواية عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس، قال: هو السيّد الذي قد كمل في جميع أنواع السُودد. وعن سعيد بن جبيرة أيضاً: هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله. وقيل: هو السيّد المقصود في الحوائج. وقال السدي: هو المقصود إليه في الرغائب المستغاث به عند المصائب، تقول العرب: صمدت فلاناً أصمده صمداً بسكون الميم إذا قصدته، والمقصود صمد بفتح الميم. وقال قتادة: الصمد الباقي بعد فناء خلقه. وقال عكرمة: الصمد الذي ليس فوقه أحد، وهو قول علي. وقال الربيع: الذي لا تعثره الآفات. قال مقاتل بن حيان: الذي لا عيب فيه.

﴿لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد﴾، قرأ حمزة وإسماعيل (كفواً) ساكنة الفاء مهموزاً، وقرأ حفص عن عاصم بضمّ الفاء من غير همز، وقرأ الآخرون بضمّ الفاء مهموزاً، وكلها لغات صحيحة، ومعناه: المثل أي هو أحد، وقيل: هو على التقديم والتأخير مجازة: لم يكن له أحد كفواً أي مثلاً. قال مقاتل: قال مشركوا العرب: الملائكة بنات الله، وقالت اليهود: عزيز ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، فأكذبهم الله ونفى عن ذاته الولادة والمثل. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو اليمان أنا شعيب عن الزهري أنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى: كذّبي ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقلوه: لن يعيدني كما بدّاني وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقلوه: اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد». أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي أنا أبو علي زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة الأنصاري عن أبيه عن أبي سعيد الخدري أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ: ﴿قل هو الله أحد﴾ ويردّد، فلما أصبح أتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، وكان

العظيم القادر على كل شيء وأنه اسم خاص بالله تعالى انفرد به له الأسماء الحسنی والصفات العليا ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾.

قوله عز وجل: ﴿لم يلد ولم يولد﴾ وذلك أن مشركي العرب قالوا الملائكة بنات الله، وقالت اليهود عزيز ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله فكذبهم الله عز وجل، ونفى عن نفسه ما قالوا بقوله ﴿لم يلد﴾ يعني كما ولد عيسى، وعزير، ﴿ولم يولد﴾ معناه أن من ولد كان له والد فنفي عنه إحاطة النسب من جميع الجهات، فهو الأول الذي لم يتقدمه، والد كان عنه وهو الآخر الذي لم يتأخر عنه ولد يكون عنه، ومن كان كذلك فهو الذي لم يكن له كفواً أحد، أي ليس له من خلقه مثل، ولا نظير ولا شبيه فنفي عنه. بقوله ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ العدیل والنظير، والصاحبة والولد (خ) عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «قال الله عز وجل كذبتني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني، ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقلوه لن يعيدني كما بداني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقلوه اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد، ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد» والله سبحانه وتعالى أعلم.

الرجل يتفاتها، فقال له رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن»، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا أبو بكر محمد بن الحسن الأصفهاني أنا عبد الله بن جعفر بن أحمد بن فارس ثنا يونس بن حبيب ثنا أبو داود الطيالسي ثنا شعبة عن قتادة سمعت سالم بن أبي الجعد يحدث عن معدان بن أبي طلحة عن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟ قلت: يا رسول الله ومن يطيق ذلك؟ قال: اقرؤوا قل هو الله أحد»، وأخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن عبيد الله بن عبد الرحمن عن عبيد بن جبير مولى زيد بن الخطاب أنه قال: سمعت أبا هريرة يقول أقبلت مع رسول الله ﷺ فسمع رجلاً يقرأ: ﴿قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد﴾. فقال رسول الله ﷺ: «وجبت»، فسألته: ماذا يا رسول الله؟ فقال: «الجنة». فقال أبو هريرة: فأردت أن أذهب إلى الرجل فأبشره، ثم فرقت أن يغفوني الغداء مع رسول الله ﷺ فأثرت الغداء، ثم ذهبت إلى الرجل فوجدته قد ذهب. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالح أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي ثنا عبد الرحيم بن منيب ثنا يزيد بن هارون ثنا المبارك بن فضالة عن ثابت عن أنس قال: قال رجل لرسول الله ﷺ: إني أحب هذه السورة: ﴿قل هو الله أحد﴾: قال: «حبك إياها أدخلك الجنة».

سورة الفلق

مدنية وقيل مكية والأول أصح وهي خمس آيات وثلاث وعشرون كلمة وأربعة وسبعون حرفاً.

(م) عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال «ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط، ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾، ﴿وقل أعوذ برب الناس﴾ فيه بيان عظيم فضل هاتين السورتين، وفيه دليل واضح على كونهما من القرآن، وفيه رد على من نسب إلى ابن مسعود خلاف هذا، وفيه بيان أن لفظة قل من القرآن أيضاً وأنه من أول السورتين بعد البسملة، وقد اجتمعت الأمة على هذا كله بعد خلاف ذكر فيه (خ) عن زر بن حبیش قال: «سألت أبي بن كعب عن المعوذتين قلت يا أبا الوليد إن أخاك ابن مسعود يقول كذا، وكذا، فقال سألت رسول الله ﷺ فقال: قيل لي فقلت فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ، وفي رواية مثله ولم يذكر ابن مسعود عن عبد الله بن حبيب قال «أصابنا طش وظلمة فانتظرنا رسول الله ﷺ يصلي بنا فخرج فقال قلت ما أقول قال ﴿قل هو الله أحد الله الصمد﴾، والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح تكفيك كل شيء» وفي رواية «قال كنت مع رسول الله ﷺ بطريق مكة فأصبت خلوة من رسول الله ﷺ، فدنوت منه فقال قل قلت ما أقوال قال ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾، حتى تختمها ثم ﴿قل أعوذ برب الناس﴾، حتى تختمها ثم قال ما تعوذ بالناس بأفضل منهما» أخرجه النسائي عن جابر بمثله، ومعنى الطش الطشيش المطر الضعيف، وهو قول أبي الدرداء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

قوله عز وجل: ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ قال ابن عباس وعائشة: «كان غلام من اليهود يخدم النبي ﷺ فدبت إليه اليهود، فلم يزالوا به حتى أخذ من مشاطة رأس رسول الله ﷺ وعدة من أسنان مشطه، فأعطاهم اليهود، فسحروه فيها، وتولى ذلك لبید بن الأعصم رجل من اليهود فنزلت السورتان فيه». (ق) عن عائشة «أن النبي ﷺ سحر حتى كان يخيل إليه أن يصنع الشيء ولم يصنعه» وفي رواية «أنه يخيل إليه فعل الشيء، وما فعله حتى إذا كان يوم، وهو عندي دعا الله، ودعاه ثم قال أشعرت يا عائشة أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه قلت، وما ذاك يا رسول الله قد جاءني رجلان،

سُورَةُ الْفَلَقِ

مكية وقيل مدنية وهي خمس آيات.

﴿قل أعوذ برب الفلق﴾، قال ابن عباس وعائشة: كان غلام من اليهود يخدم رسول الله ﷺ فدبت إليه اليهود، فلم يزالوا به حتى أخذ مشاطة رأس النبي ﷺ وعدة أسنان من مشطه، فأعطاهم اليهود فسحروه فيها، وتولى

فجلس أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، ثم قال أحدهما لصاحبه ما وجع الرجل قال مطبوب، قال ومن طبه قال لبيد بن الأعصم اليهودي من بني زريق قال: فيما ذا قال في مشط ومشاطة، وجف طلعة ذكر قال فأين هو قال في بئر ذروان، ومن الرواة من قال في بئر بني زريق فذهب النبي ﷺ في أناس من أصحابه إلى البئر فنظر إليها وعليها نخل ثم رجع إلى عائشة فقال والله لكأن ماءها نقاعة الحناء، ولكأن نخلها رؤوس الشياطين قلت يا رسول الله فأخرجه. قال أما أنا فقد عافاني الله وشفاني، وخفت أن أثير على الناس منه شراً. وفي رواية للبخاري «أنه كان يرى أنه يأتي النساء، ولا يأتيهن قال سفيان وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذلك» عن زيد بن أرقم قال «سحر رجل من اليهود النبي ﷺ فاشتكى ذلك أياماً فأتاه جبريل فقال إن رجلاً من اليهود سحرك، وعقد لك عقداً في بئر كذا فأرسل رسول الله ﷺ علياً فاستخرجها، فجاء بها فحلها فجعل كلما حل عقدة وجد لذلك خفة فقام رسول الله ﷺ كأنما نشط من عقال، فما ذكر ذلك لليهودي، ولا رآه في وجهه قط» أخرجه النسائي وروى «أنه كان تحت صخرة في البئر فرفعوا الصخرة وأخرجوا جف الطلعة، فإذا فيه مشاطة من رأسه ﷺ وأسنان من مشطه»، وقيل كان في وتر عقد عليه إحدى عشرة عقدة وقيل كان مغروزاً بالإبر فأنزل الله هاتين السورتين، وهما إحدى عشرة آية سورة الفلق خمس آيات، وسورة الناس ست آيات، فكان كلما قرأ آية انحلت عقدة حتى انحلت العقد كلها، فقام النبي ﷺ كأنما نشط من عقال وروى «أنه لبث ستة أشهر، واشتد عليه ذلك ثلاث ليال فنزلت المعوذتان» (م) عن أبي سعيد الخدري «أن جبريل أتى النبي ﷺ، فقال يا محمد اشتكت قال نعم قال بسم الله أريقك من كل شيء يؤذيك، ومن شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك بسم الله أريقك».

(فصل وقبل الشروع في التفسير نذكر معنى الحديث، وما قيل فيه، وما قيل في السحر، وما قيل في الرقى)

قولها في الحديث إن النبي ﷺ سحر حتى كان يخيل إليه أنه يصنع الشيء، ولم يصنعه.

قال الإمام المازري مذهب أهل السنة، وجمهور علماء الأمة على إثبات السحر، وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء الثابتة خلافاً لمن أنكر ذلك، ونفى حقيقته، وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة لا حقائق لها، وقد ذكره الله في كتابه، وذكر أنه مما يتعلم، وذكر ما فيه إشارة إلى أنه مما يكفر به، وأنه يفرق بين المرء، وزوجه وهذا كله لا يمكن أن يكون مما لا حقيقة له وهذا الحديث الصحيح مصرح بإثباته، ولا يستنكر في العقل إن الله تعالى يخرق العادة عند النطق بكلام ملفق أو تركيب أجسام أو المزج بين قوي لا يعرفها إلا الساحر، وأنه لا فاعل إلا الله تعالى، وما يقع من ذلك فهو عادة أجراها الله تعالى على يد من يشاء من عباده.

ذلك لبيد بن الأعصم رجل من اليهود، فنزلت السورتان فيه، أخبرنا أبو حامد أحمد بن عبد الله الصالحى أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم ثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم أنا أنس بن عياض عن هشام عن أبيه عن عائشة أن النبي ﷺ طَبَّ حتى أنه ليخيل إليه أنه قد صنع شيئاً وما صنعه وإنه دعا ربّه ثم قال أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه، فقالت عائشة: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: جاءني رجلان فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ قال الآخر: هو مطبوب، قال: مَنْ طَبَّهُ؟ قال لبيد بن الأعصم، قال: فيما ذا قال في مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر، قال: فأين هو؟ قال: في ذروان، وذروان بئر في بني زريق، قالت عائشة: فأتاها رسول الله ﷺ ثم رجع إلى عائشة، فقال: والله لكأن ماءها نقاعة الحناء ولكأن نخلها رؤوس الشياطين، قالت: فقلت له يا رسول الله فهل أخرجته؟ قال: «أما أنا فقد شفاني الله فكرهت أن أثير على الناس به شراً»، وروى أنه كان تحت صخرة في البئر فرفعوا الصخرة وأخرجوا جف الطلعة فإذا

فإن قلت المستعاذ منه هل هو بقضاء الله ، وقدره فذلك قدح في القدرة .

قلت كل ما وقع في الوجود هو بقضاء الله ، وقدره والاستشفاء بالتعوذ ، والرقي من قضاء الله ، وقدره يدل على صحة ذلك . ما روى الترمذي عن ابن أبي خزيمة عن أبيه قال : « سألت رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله أرأيت رقي نسترقى بها ، ودواء نتداوى به ، وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً ، قال : هي من قدر الله تعالى » قال الترمذي : هذا حديث حسن وعن عمر نفر من قدر الله إلى قدر الله تعالى .

(فصل)

وقد أنكر بعض المبتدعة حديث عائشة المتفق عليه ، وزعم أنه يحط منصب النبوة ويشكك فيها وأن تجويزه يمنع الثقة بالشرع .

ورد على هذا المبتدع بأن الذي ادعاه باطل لأن الدلائل القطعية ، والنقلية قد قامت على صدقه ﷺ ، وعصمته فيما يتعلق بالتبليغ ، والمعجزة شاهدة بذلك ، وتجويز ما قام الدليل بخلافه باطل .

وأما ما يتعلق ببعض أمور الدنيا ، وهو ما يعرض للبشر فغير بعيد أن يخيل إليه من أمور الدنيا ما لا حقيقة له .

وقد قيل إنه كان يخيل إليه أنه وطىء زوجاته ، وليس واطىء ، وهذا مثل ما يتخيله الإنسان في المنام . فلا يبعد أن يتخيله في اليقظة ، ولا حقيقة له ، وقيل إنه يخيل إليه أنه فعله وما فعله ، ولكن لا يعتقد ما تخيله فتكون اعتقاداته على السداد قال القاضي : وقد جاءت في بعض روايات هذا الحديث مبينة أن السحر إنما سلط على بدنه وظواهر جوارحه لا على قلبه وعقله واعتقاده وليس في ذلك ما يوجب لبساً على الرسالة ولا طعناً لأهل الزيغ والضلالة ، وقوله ما وجع الرجل قال مطبوب أي مسحور قوله ، وجف طلعة ذكر يروى بالباء ويروى بالفاء ، وهو وعاء طلع النخل .

وأما الرقي والتعاويذ فقد اتفق الإجماع على جواز ذلك إذا كان بآيات من القرآن ، أو إذ كانت وردت في الحديث ، ويدل على صحته الأحاديث الواردة في ذلك منها حديث أبي سعيد المتقدم أن جبريل رقي النبي ﷺ ، ومنها ما روي عن عبيد بن رفاع الزرقى « أن أسماء بنت عميس قالت يا رسول الله إن ولد جعفر تسرع إليهم العين . أفأسترقى لهم قال نعم فإنه لو كان شيء سابق القدر لسبقته العين » أخرجه الترمذي وقال : حديث صحيح وعن أبي سعيد الخدري « أن النبي ﷺ كان يتعوذ ويقول أعوذ بالله من الجان ، وعين الإنسان فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما ، وترك ما سواهما » أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن غريب فهذه الأحاديث تدل على جواز الرقية ، وإنما المنهي عنه منها ما كان فيه كفر أو شرك أو ما لا يعرف معناه مما ليس بعربي لجواز أن يكون فيه كفر والله أعلم .

فيه مشاطة رأسه وأسنان مشطه فيها . أخبرنا المطهر بن علي الفارسي أنا محمد بن إبراهيم الصالحاني ثنا عبد الله بن محمد بن جعفر أبو الشيخ الحافظ أنا ابن أبي عاصم ثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن يزيد بن حيان عن زيد بن أرقم قال : سحر النبي ﷺ رجل من اليهود ، قال فاشتكى لذلك أياماً ، قال : فأتاه جبريل ، فقال : إن رجلاً من اليهود سحرَكَ وعقد لك عقداً ، فأرسل رسول الله ﷺ علياً فاستخرجها فجاء بها ، فجعل كلما حلَّ عقدة وجد لذلك خفة ، فقام رسول الله ﷺ كأنما نشط من عقال ، فما ذكر ذلك لليهود ولا رآه في وجهه قط ، قال مقاتل والكلبي : كان في وتر عقد عليه إحدى عشرة عقدة . وقيل : كانت العقدة مغروزة بالإبرة ، فأنزل الله هاتين السورتين وهي إحدى عشرة آية ، سورة الفلق خمس آيات ، وسورة الناس ست آيات ، كلما قرأ آية انحلت عقدة ، حتى انحلت العقد كلها ، فقام النبي ﷺ كأنما نشط من عقال . وروى : أنه لبث فيه ستة أشهر واشتد عليه ثلاث ليالٍ ، فنزلت المعوذتان ، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا

(وأما التفسير)

فقوله عز وجل ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾، أراد بالفلق الصبح، وهو قول الأكثرين، ورواية عن ابن عباس لأن الليل ينفلق عن الصبح وسبب تخصيصه في التعوذ أن القادر على إزالة هذه الظلمة عن العالم قادر على أن يدفع عن المستعذ ما يخافه، ويخشاه، وقيل إن طلوع الصبح كالمثال لمجيء الفرج، كما أن الإنسان ينتظر طلوع الصباح، فكذلك الخائف يتربص بمجيء النجاح، وقيل إن تخصيص الصبح بالذكر في هذا الموضع لأنه وقت دعاء المضطرين، وإجابة الملهوفين، فكأنه يقول قل أعوذ برب الوقت، الذي يفرج فيه هم المهمومين والمغمومين، وروي عن ابن عباس أن الفلق سجن في جهنم، وقيل هو واد في جهنم إذ فتح استعاذ أهل النار من حره، ووجهه أن المستعذ قال: أعوذ برب هذا العذاب، القادر عليه من شر عذابه، وغيره وروي عن ابن عباس أيضاً أن الفلق الخلق، ووجه هذا التأويل، أن الله تعالى فلق ظلمات بحر العدم بإيجاد الأنوار، وخلق منه الخلق، فكأنه قال قل أعوذ برب جميع الممكنات، ومكون جميع المحدثات ﴿من شر ما خلق﴾ قيل يريد به إبليس خاصة لأنه لم يخلق الله خلقاً هو شر منه، ولأن السحر لا يتم إلا به وبأعوانه وجنوده، وقيل من شر كل ذي شر، وقيل من شر ما خلق من الجن، والإنس. ﴿ومن شر غاسق إذا وقب﴾ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت «إن رسول الله ﷺ نظر إلى القمر فقال يا عائشة استعذي بالله من شر هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح، فعلى هذا الحديث المراد به القمر إذا خسف، واسود ومعنى وقب دخل في الخسوف، أو أخذ في الغيوبة، وقيل سمي به لأنه إذا خسف اسود، وذهب ضوءه وقيل إذا وقب دخل في المحاق، وهو آخر الشهر وفي ذلك الوقت يتم السحر المورث للتمريض، وهذا مناسب لسبب نزول هذه الآية. وقال ابن عباس: الغاسق الليل إذا وقب أي أقبل بظلمته من المشرق، وقيل سمي الليل غاسقاً لأنه أبعد من النهار، والغسق البرد وإنما أمر بالتعوذ من الليل لأن فيه تنشر الآفات، ويقل الغوث وفيه يتم السحر، وقيل الغاسق الثريا إذا سقطت، وغابت، وقيل إن الأسقام تكثر عند وقوعها، وترتفع عند طلوعها فلهذا أمر بالتعوذ من الثريا عند سقوطها ﴿ومن شر النفاثات في العقد﴾ يعني السواحر اللاتي ينفثن في عقد الخيط حين يرقين عليها، وقيل المراد بالنفاثات بنات لبيد بن الأعصم اللاتي سحرن النبي ﷺ، والنفت النفخ مع ريق قليل، وقيل إنه النفخ فقط.

إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج ثنا بشر بن هلال الصواف ثنا عبد الوارث ثنا عبد العزيز بن صهيب عن أبي نضرة عن أبي سعيد: أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ فقال: يا محمد اشتكيت؟ قال: نعم، قال: «بسم الله أرقيك من كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك، بسم الله أرقيك». قوله عز وجل: ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾، أراد بالفلق الصبح، وهو قول جابر بن عبد الله والحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة وأكثر المفسرين، وهي رواية العوفي عن ابن عباس بدليل قوله: ﴿فالتق الإصباح﴾ [الأنعام: ٩٦] وروى عن ابن عباس: أنه سجن في جهنم. وقال الكلبي: واد في جهنم. وقال الضحاك: يعني الخلق، وهي رواية الوالبي عن ابن عباس، والأول المعروف.

﴿من شر ما خلق﴾ * ومن شر غاسق إذا وقب، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا جعفر بن محمد المغلس ثنا هارون بن إسحاق الهمداني ثنا وكيع عن ابن أبي ذئب عن خالد بن الحارث بن عبد الرحمن عن أبي سلمة عن عائشة قالت: أخذ النبي ﷺ بيدي فنظر إلى القمر فقال: «يا عائشة استعذي بالله من شر غاسق إذا وقب، هذا غاسق إذا وقب» فعلى هذا المراد به القمر إذا خسف واسود: وقب، أي دخل في الخسوف أو أخذ في الغيوبة وأظلم. وقال ابن عباس: الغاسق الليل إذا أقبل بظلمته من المشرق ودخل في كل شيء وأظلم، والغسق

واختلفوا في جواز النفث في الرقي، والتعاويذ الشرعية المستحبة فجوزه الجمهور من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم، ويدل عليه حديث عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا مرض أحد من أهله نفث عليه بالمعوذات» الحديث وأنكر جماعة الثقل، والنفث في الرقي، وأجازوا النفث بلا ريق قال عكرمة: لا ينبغي للرّاقى أن ينفث ولا يمسح ولا يعقد، وقيل النفث في العقد إنما يكون مذموماً إذا كان سحراً مضراً بالأرواح والأبدان، وإذا كان النفث لإصلاح الأرواح والأبدان وجب أن لا يكون مذموماً، ولا مكروهاً بل هو مندوب إليه. ﴿ومن شر حاسد إذا حسد﴾ الحاسد هو الذي يتمنى زوال نعمة الغير، وربما يكون مع ذلك سعي، فلذلك أمر الله تعالى بالتعوذ منه، وأراد بالحاسد هنا اليهود، فإنهم كانوا يحسدون النبي ﷺ أو لبيد بن الأعصم وحده والله سبحانه، وتعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه.

الظلمة، يقال غسق الليل وأغسق إذا أظلم، وهو قول الحسن ومجاهد، يعني: الليل إذا أقبل ودخل، والوقوب: الدخول، وهو دخول الليل بغروب الشمس. قال مقاتل: يعني ظلمة الليل إذا دخل سواده في ضوء النهار. وقيل: سُمّي الليل غاسقاً لأنه أبرد من النهار، والغسق البرد. وقال ابن زيد: يعني الثريا إذا سقطت. ويقال: إن الأقسام تكثر عند وقوعها وترتفع عند طلوعها.

﴿ومن شرّ النّفّاثات في العقد﴾، يعني السواحر اللّاتي ينفثن في عقد الخيط حين يرقين عليها. قال أبو عبيدة: هنّ بنات لبيد بن الأعصم سحرن النبي ﷺ.

﴿ومن شرّ حاسد إذا حسد﴾، يعني اليهود فإنهم كانوا يحسدون النبي ﷺ.

سورة الناس

وهي مدنية وقيل مكية والأول أصح وهي ست آيات وعشرون كلمة وتسعة وسبعون حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾
الَّذِي يُوسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾

قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ إنما خصص الناس بالذكر، وإن كان رب جميع المحدثات لأنه لما أمر بالاستعاذة من شر الوسواس، فكأنه قال أعوذ من شر الوسوس إلى الناس بربهم الذي يملك عليهم أمورهم، وهو إلههم ومعبودهم فإنه هو الذي يعيذهم من شرهم، وقيل إن أشرف المخلوقات هم الناس، فلهذا خصهم بالذكر. ﴿مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ﴾ إنما وصف نفسه أولاً: بأنه رب الناس، لأن الرب قد يكون ملكاً، وقد لا يكون ملكاً فبه بذلك على أنه ربهم، وملكهم ثم إن الملك لا يكون إلهاً، فبه بقوله ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ على أن الإلهية خاصة بالله سبحانه، وتعالى لا يشاركه فيها أحد، والسبب في تكرير لفظ الناس يقتضي مزيد شرفهم على غيرهم ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ يعني الشيطان ذا الوسواس، والوسوسة الهمز، والصوت الخفي. ﴿الْخَنَّاسِ﴾ يعني الرجاء من الذي عادته أن يخنس أي يتأخر. قيل إن الشيطان جاثم على قلب الإنسان، فإذا غفل وسها وسوس، وإذا ذكر الله تعالى خنس الشيطان عنه، وتأخر وقال قتادة الخناس له خرطوم كخرطوم الكلب وقيل كخرطوم الخنزير في صدر الإنسان فإذا ذكر العبد ربه خنس، ويقال رأسه كراس الحية واضع رأسه على ثمرة القلب يمسه ويجذبه، فإذا ذكر الله تعالى خنس وإذا لم يذكر الله

سُورَةُ النَّاسِ

مَكِّيَّةٌ وَقِيلَ مَدَنِيَّةٌ وَهِيَ سِتُّ آيَاتٍ.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ * ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ * ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ * ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾، يعني الشيطان يكون مصدراً واسماً، قال الزجاج: يعني الشيطان ذا الوسواس الخناس الرجاء، وهو الشيطان جاثم على قلب الإنسان، فإذا ذكر الله خنس وإذا غفل وسوس. قال: الخناس له خرطوم كخرطوم الكلب في صدر الإنسان فإذا ذكر العبد ربه خنس. ويقال: رأسه كراس الحية واضع رأسه على ثمرة القلب يُمِئِهِ ويَحْدِثُهُ، فإذا ذكر الله خنس وإذا لم يذكر يرجع ويضع رأسه.

فذلك ﴿الَّذِي يُوسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾، بالكلام الخفي الذي يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع.

﴿مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾، يعني يدخل في الجنّي كما يدخل في الإنسي، ويوسوس الجنّي كما يوسوس

تعالى رجع، ووضع رأسه على القلب فذلك قوله تعالى: ﴿الذي يوسوس في صدور الناس﴾ يعني بالكلام الخفي الذي يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع، والمراد بالصدر القلب ﴿من الجنة﴾ يعني الجن ﴿والناس﴾ وفي معنى الآية وجهان:

أحدهما: أن الناس لفظ مشترك بين الجن والإنس، ويدل عليه قول بعض العرب جاء قوم من الجن، فقليل من أنتم قالوا أناس من الجن، وقد سماهم الله تعالى رجالاً في قوله ﴿يعوذون برجال من الجن﴾ فعلى هذا يكون معنى الآية: أن الوسواس الخناس يوسوس للجن كما يوسوس للإنس.

الوجه الثاني: أن الوسواس الخناس قد يكون من الجنة، وهم الجن وقد يكون من الإنس، فكما أن شيطان الجن قد يوسوس للإنسان تارة، ويخنس أخرى، فكذلك شيطان الإنس قد يوسوس للإنسان كالتأصح له فإن قيل زاد في الوسوسة، وإن كره السامع ذلك انخنس وانقبض فكأنه تعالى أمر أن يستعاذ به من شر الجن والإنس جميعاً (ق) عن عائشة رضي الله تعالى عنها «أن رسول الله ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم ينثف فيهما، فيقرأ

الإنسي، قاله الكلبي، وقوله: ﴿في صدور الناس﴾ أراد بالناس ما ذكر من بعد وهو الجنة والناس، فسَمَّى الجن ناساً كما سَمَّاهم رجالاً، فقال: ﴿وإنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن﴾ [الجن: ٦]، وقد ذكر عن بعض العرب أنه قال وهو يحدث جاء قوم من الجن فوقعوا، فقل: مَن أنتم؟ قالوا: أناس من الجن. وهذا معنى قول الفراء، قال بعضهم: ثبت أن الوسواس للإنسان من الإنسان كالوسوسة للشيطان من الشيطان، فجعل الوسواس من فعل الجنة والناس جميعاً، كما قال: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن﴾ [الأنعام: ١١٢]، كأنه أمر أن يستعيذ من شر الجن والإنس جميعاً، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج ثنا قتيبة بن سعيد ثنا جويرية عن بنان عن قيس بن أبي حازم عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم ترَ آيات أنزلت الليلة لم يرَ مثلهن قط، ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ [الفلق: ١]، ﴿وقل أعوذ برب الناس﴾، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أنا أبو الحسن بن عبد الرحمن بن إبراهيم العدل ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ثنا أبو العباس بن الوليد بن مرثد أخبرني أبي ثنا الأوزاعي حدثني يحيى بن كثير حدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي عن عقبة بن عامر الجهني أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبرك بأفضل ما تتعوذ به المتعوذون؟» قلت: بلى، قال: «﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ [الفلق: ١]، و﴿قل أعوذ برب الناس﴾»، أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبد الصمد الجوزجاني أنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي أنا أبو سعيد الهيثم بن كليب الشاشي أنا أبو عيسى الترمذي ثنا قتيبة بن الفضل بن فضالة عن عقيل عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما، فقرأ فيهما: ﴿قل هو الله أحد﴾ [الإخلاص: ١] و﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ [الفلق: ١] و﴿قل أعوذ برب الناس﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرّات. أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ: كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينثف، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح عليه بيده رجاء بركتهما. أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي وأبو حامد أحمد بن عبد الله الصالحي قالوا: ثنا أبو بكر أحمد بن الحسين الخيري أنا محمد بن أحمد بن معقل الميداني أنا محمد بن يحيى ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن الزهري عن سالم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه

﴿قل هو الله أحد﴾، ﴿وقل أعوذ برب الفلق﴾، ﴿وقل أعوذ برب الناس﴾، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه، وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات» عن عائشة رضي الله عنها «أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات، وينفض، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه، وأمسح عنه بيديه رجاء بركتهما» أخرجه مالك في الموطأ ولهما بمعناه (ق) عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل، وأطراف النهار، ورجل آتاه الله مالا، فهو ينفق منه آناء الليل وأطراف النهار» عن ابن عباس قال: «قيل يا رسول الله أي الأعمال أحب إلى الله تعالى، قال الحال المرتحل قيل، وما الحال المرتحل قال الذي يضرب من أول القرآن إلى آخره كلما حل ارتحل» أخرجه الترمذي، والله سبحانه، وتعالى أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا إبراهيم بن حمزة حدثني ابن أبي حازم عن يزيد يعني ابن الهادي عن محمد بن إبراهيم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة أنه سمع النبي ﷺ يقول: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت بالقرآن يجهر به».

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

فهرس محتويات
الجزء السادس
من تفسير الخازن والبغوي

فهرس المحتويات

٣٥	 الآيات : ٤٦ - ٤٩	تفسير سورة ق	 الآيات : ١ - ٤
	تفسير سورة النجم	٣	 الآيات : ٥ - ١١
٣٨	 الآيات : ١ - ٤	٤	 الآيات : ١٢ - ١٨
٣٩	 الآيات : ٥ - ١١	٥	 الآيات : ١٩ - ٢٤
٤٢	 الآيات : ١٢ - ١٦	٧	 الآيات : ٢٥ - ٣٠
٤٤	 الآيات : ١٧ - ١٩	٨	 الآيات : ٣١ - ٣٤
٤٨	 الآيات : ٢٠ - ٢٣	١٠	 الآيات : ٣٥ - ٣٩
٤٩	 الآيات : ٢٤ - ٣٠	١١	 الآيات : ٤٠ - ٤١
٥٠	 الآيات : ٣١ - ٣٢	١٢	 الآيات : ٤٢ - ٤٥
٥٤	 الآيات : ٣٣ - ٤١	١٤	تفسير سورة الذاريات
٥٦	 الآيات : ٤٢ - ٤٧		 الآيات : ١ - ١٤
٥٨	 الآيات : ٤٨ - ٥٦	١٥	 الآيات : ١٥ - ١٨
٥٩	 الآيات : ٥٧ - ٦٢	١٧	 الآيات : ١٩ - ٢٤
	تفسير سورة القمر	١٩	 الآيات : ٢٥ - ٣٤
٦١	 الآيات : ١ - ٣	٢٠	 الآيات : ٣٥ - ٤٣
٦٣	 الآيات : ٤ - ٧	٢١	 الآيات : ٤٤ - ٥١
٦٤	 الآيات : ٨ - ١٤	٢٣	 الآيات : ٥٢ - ٥٧
٦٥	 الآيات : ١٥ - ٢٤	٢٤	 الآيات : ٥٨ - ٦٠
٦٧	 الآيات : ٢٥ - ٣١	٢٦	تفسير سورة الطور
٦٨	 الآيات : ٣٢ - ٤٢		 الآيات : ١ - ١٠
٦٩	 الآيات : ٤٣ - ٤٨	٢٧	 الآيات : ١١ - ٢١
٧١	 الآيات : ٤٩ - ٥١	٢٩	 الآيات : ٢٢ - ٢٣
٧٣	 الآيات : ٥٢ - ٥٥	٣١	 الآيات : ٢٤ - ٣٠
	تفسير سورة الرحمن علا، وعز وجل	٣٢	 الآيات : ٣١ - ٣٧
٧٥	 الآيات : ١ - ٤	٣٣	 الآيات : ٣٨ - ٤٥
٧٦	 الآيات : ٥ - ١١	٣٤	

تفسير سورة المجادلة

١٣١	 الآية : ١	٧٧	 الآيات : ١٢ - ١٥
١٣٢	 الآية : ٢	٧٨	 الآيات : ١٦ - ٢٥
١٣٣	 الآية : ٣	٨٠	 الآيات : ٢٦ - ٣١
١٣٥	 الآية : ٤	٨٢	 الآيات : ٣٢ - ٣٥
١٣٨	 الآيات : ٥ - ٨	٨٣	 الآيات : ٣٦ - ٤١
١٤٠	 الآيتان : ٩ ، ١٠	٨٤	 الآيات : ٤٢ - ٤٦
١٤١	 الآية : ١١	٨٦	 الآيات : ٤٧ - ٥٤
١٤٣	 الآية : ١٢	٨٧	 الآيات : ٥٥ - ٥٨
١٤٤	 الآيات : ١٣ - ١٦	٨٨	 الآيات : ٥٩ - ٦٦
١٤٦	 الآيات : ١٧ - ٢٢	٩٠	 الآيات : ٦٧ - ٧٦
		٩٢	 الآيتان : ٧٧ ، ٧٨

تفسير سورة الحشر

١٤٨	 الآية : ١	٩٣	 الآيات : ١ - ٨
١٥٠	 الآية : ٢	٩٤	 الآيات : ٩ - ١٦
١٥١	 الآيات : ٣ - ٥	٩٦	 الآيات : ١٧ - ٢٣
١٥٣	 الآية : ٦	٩٧	 الآيات : ٢٤ - ٣١
١٥٤	 الآية : ٧	٩٩	 الآيات : ٣٢ - ٣٦
١٥٦	 الآية : ٨	١٠٠	 الآيات : ٣٧ - ٤٠
١٥٧	 الآية : ٩	١٠٣	 الآيات : ٤١ - ٥٦
١٥٩	 الآية : ١٠	١٠٤	 الآيات : ٥٧ - ٦٥
١٦١	 الآيات : ١١ - ١٦	١٠٦	 الآيات : ٦٦ - ٧٣
١٦٥	 الآية : ١٧	١٠٧	 الآيات : ٧٤ - ٧٩
١٦٧	 الآيات : ١٨ - ٢٣	١٠٩	 الآيات : ٨٠ - ٨٤
١٧٠	 الآية : ٢٤	١١١	 الآيات : ٨٥ - ٩٢
		١١٢	 الآيات : ٩٣ - ٩٥

تفسير سورة الممتحنة

١٧١	 الآية : ١
١٧٤	 الآيات : ٢ - ٥
١٧٥	 الآيات : ٦ - ٨
١٧٦	 الآيتان : ٩ ، ١٠
١٧٩	 الآية : ١١
١٨٠	 الآية : ١٢
١٨٣	 الآية : ١٣

تفسير سورة الصف

١٨٤	 الآيتان : ١ ، ٢
١٨٥	 الآيات : ٣ - ٦

تفسير سورة الواقعة

٩٣	 الآيات : ١ - ٨
٩٤	 الآيات : ٩ - ١٦
٩٦	 الآيات : ١٧ - ٢٣
٩٧	 الآيات : ٢٤ - ٣١
٩٩	 الآيات : ٣٢ - ٣٦
١٠٠	 الآيات : ٣٧ - ٤٠
١٠٣	 الآيات : ٤١ - ٥٦
١٠٤	 الآيات : ٥٧ - ٦٥
١٠٦	 الآيات : ٦٦ - ٧٣
١٠٧	 الآيات : ٧٤ - ٧٩
١٠٩	 الآيات : ٨٠ - ٨٤
١١١	 الآيات : ٨٥ - ٩٢
١١٢	 الآيات : ٩٣ - ٩٥

تفسير سورة الحديد

١١٤	 الآيات : ١ - ٥
١١٦	 الآيات : ٦ - ١٠
١١٨	 الآيات : ١١ - ١٣
١٢٠	 الآيتان : ١٤ ، ١٥
١٢١	 الآيات : ١٦ - ١٨
١٢٢	 الآيتان : ١٩ ، ٢٠
١٢٣	 الآيات : ٢١ - ٢٥
١٢٦	 الآيتان : ٢٦ - ٢٧
١٢٨	 الآيتان : ٢٨ ، ٢٩

٢٤٤	 الآيات: ٢٨ - ٣٠	١٨٦	 الآيات: ٧ - ١٤
	تفسير سورة نّ		تفسير سورة الجمعة
٢٤٥	 الآية: ١	١٨٨	 الآيات: ١ - ٣
٢٤٦	 الآيات: ٢ - ٤	١٨٩	 الآيات: ٤ - ٨
٢٥٠	 الآيات: ٥ - ١٠	١٩٠	 الآية: ٩
٢٥١	 الآيات: ١١ - ١٥	١٩٧	 الآيتان: ١٠، ١١
٢٥٢	 الآيات: ١٦ - ٢٠		تفسير سورة المنافقين
٢٥٣	 الآيات: ٢١ - ٣١	٢٠٢	 الآيات: ١ - ٣
٢٥٥	 الآيات: ٣٢ - ٤٢	٢٠٣	 الآيات: ٤ - ٦
٢٦٠	 الآية: ٤٣	٢٠٧	 الآيات: ٧ - ٩
٢٦١	 الآيات: ٤٤ - ٥١	٢٠٨	 الآيتان: ١٠، ١١
٢٦٢	 الآية: ٥٢		تفسير سورة التغابن
	تفسير سورة الحاقة	٢٠٩	 الآيتان: ١، ٢
٢٦٤	 الآيات: ١ - ١٠	٢١٠	 الآيات: ٣ - ٦
٢٦٦	 الآيات: ١١ - ١٧	٢١١	 الآيات: ٧ - ١٣
٢٦٨	 الآيات: ١٨ - ٢٤	٢١٢	 الآيات: ١٤ - ١٦
٢٦٩	 الآيات: ٢٥ - ٣٤	٢١٤	 الآيتان: ١٧، ١٨
٢٧١	 الآيات: ٣٥ - ٤٥		تفسير سورة الطلاق
٢٧٢	 الآيات: ٤٦ - ٥٢	٢١٥	 الآية: ١
	تفسير سورة سأل سائل	٢١٨	 الآية: ٢
٢٧٤	 الآيات: ١ - ٤	٢١٩	 الآية: ٣
٢٧٦	 الآيات: ٥ - ١٤	٢٢٠	 الآيتان: ٤، ٥
٢٧٧	 الآيات: ١٥ - ٢٣	٢٢١	 الآيتان: ٦، ٧
٢٧٩	 الآيات: ٢٤ - ٣٩	٢٢٤	 الآيات: ٨ - ١٢
٢٨١	 الآيات: ٤٠ - ٤٤		تفسير سورة التحريم
	تفسير سورة نوح	٢٢٦	 الآية: ١
٢٨٢	 الآيات: ١ - ٨	٢٢٨	 الآيتان: ٢، ٣
٢٨٣	 الآيات: ٩ - ١٧	٢٣٠	 الآية: ٤
٢٨٥	 الآيات: ١٨ - ٢٣	٢٣٤	 الآيات: ٥ - ٩
٢٨٧	 الآيات: ٢٤ - ٢٨	٢٣٦	 الآيات: ١٠ - ١٢
	تفسير سورة الجن		تفسير سورة الملك
٢٨٩	 الآيات: ١ - ٤	٢٣٨	 الآيتان: ١، ٢
٢٩١	 الآيات: ٥ - ٩	٢٣٩	 الآيات: ٣ - ٨
٢٩٢	 الآيات: ١٠ - ١٦	٢٤٠	 الآيات: ٩ - ١٦
٢٩٤	 الآيات: ١٧ - ١٩	٢٤٢	 الآيات: ١٧ - ٢٧

٣٤٦	 الآيات: ٢٤ - ٣٢	٢٩٦	 الآيات: ٢٠ - ٢٧
٣٤٧	 الآيات: ٣٣ - ٤٨	٢٩٨	 الآية: ٢٨
٣٤٨	 الآيات: ٤٩ ، ٥٠	تفسير سورة المزمل	
تفسير سورة النبأ		٢٩٩	 الآيات: ١ - ٤
٣٤٩	 الآيات: ١ - ٨	٣٠٢	 الآيات: ٥ ، ٦
٣٥٠	 الآيات: ٩ - ١٨	٣٠٣	 الآيات: ٧ - ١٠
٣٥١	 الآيات: ١٩ - ٢٥	٣٠٤	 الآيات: ١١ - ١٩
٣٥٣	 الآيات: ٢٦ - ٣٧	٣٠٦	 الآية: ٢٠
٣٥٥	 الآيات: ٣٨ - ٤٠	تفسير سورة المدثر	
تفسير سورة النازعات		٣٠٩	 الآيات: ١ - ٥
٣٥٧	 الآيات: ١ ، ٢	٣١٢	 الآيات: ٦ - ١٤
٣٥٨	 الآيات: ٣ - ٧	٣١٣	 الآيات: ١٥ - ١٨
٣٥٩	 الآيات: ٨ - ١٤	٣١٥	 الآيات: ١٩ - ٢٩
٣٦١	 الآيات: ١٥ - ٢٧	٣١٦	 الآيات: ٣٠ - ٣٢
٣٦٢	 الآيات: ٢٨ - ٤٤	٣١٨	 الآيات: ٣٣ - ٤١
٣٦٤	 الآيات: ٤٥ ، ٤٦	٣١٩	 الآيات: ٤٢ - ٥١
تفسير سورة عبس		٣٢١	 الآيات: ٥٢ - ٥٦
٣٦٥	 الآيات: ١ - ٣	تفسير سورة القيامة	
٣٦٦	 الآيات: ٤ - ١٥	٣٢٢	 الآيات: ١ - ٣
٣٦٧	 الآيات: ١٦ - ٢٥	٣٢٤	 الآيات: ٤ ، ٥
٣٦٨	 الآيات: ٢٦ - ٣٧	٣٢٥	 الآيات: ٦ - ١٣
٣٧٠	 الآيات: ٣٨ - ٤٢	٣٢٦	 الآيات: ١٤ - ٢١
تفسير سورة التكويد		٣٢٨	 الآيات: ٢٢ - ٢٩
٣٧١	 الآيات: ١ - ٧	٣٣٠	 الآيات: ٣٠ - ٤٠
٣٧٣	 الآيات: ٨ - ١٣	تفسير سورة هل أتى	
٣٧٤	 الآيات: ١٤ - ٢٢	٣٣٣	 الآيات: ١ ، ٢
٣٧٦	 الآيات: ٢٣ - ٢٩	٣٣٤	 الآيات: ٣ - ٥
تفسير سورة الانفطار		٣٣٦	 الآيات: ٦ - ٩
٣٧٨	 الآيات: ١ - ٦	٣٣٨	 الآيات: ١٠ - ١٦
٣٧٩	 الآيات: ٧ - ١٥	٣٣٩	 الآيات: ١٧ - ٢١
٣٨٠	 الآيات: ١٦ - ١٩	٣٤١	 الآيات: ٢٢ - ٢٨
تفسير سورة المطففين		٣٤٢	 الآيات: ٢٩ - ٣١
٣٨٢	 الآيات: ١ ، ٢	تفسير سورة المرسلات	
٣٨٣	 الآيات: ٣ - ٧	٣٤٣	 الآيات: ١ - ٤
٣٨٥	 الآيات: ٨ - ١٤	٣٤٤	 الآيات: ٥ - ٢٣

٤٣٠	 الآيات: ٥ - ١١	٣٨٦	 الآيات: ١٥ - ٢٠
٤٣٢	 الآيات: ١٢ - ١٧	٣٨٧	 الآيات: ٢١ - ٢٧
٤٣٣	 الآيات: ١٨ - ٢٠	٣٨٨	 الآيات: ٢٨ - ٣٤
	تفسير سورة الشمس	٣٨٩	 الآيتان: ٣٥، ٣٦
٤٣٤	 الآيات: ١ - ٨		تفسير سورة الانشقاق
٤٣٦	 الآيات: ٩ - ١٥	٣٩١	 الآيات: ١ - ٧
	تفسير سورة الليل	٣٩٢	 الآيات: ٨ - ١٧
٤٣٨	 الآيات: ١ - ٥	٣٩٣	 الآيات: ١٨ - ٢١
٤٣٩	 الآيات: ٦ - ١٠	٣٩٥	 الآيات: ٢٢ - ٢٥
٤٤٠	 الآيات: ١١ - ١٨		تفسير سورة البروج
٤٤٢	 الآيات: ١٩ - ٢١	٣٩٦	 الآيات: ١ - ٤
	تفسير سورة الضحى	٤٠١	 الآيات: ٥ - ١٠
٤٤٣	 الآيتان: ١، ٢	٤٠٢	 الآيات: ١١ - ٢٠
٤٤٤	 الآيات: ٣ - ٥	٤٠٣	 الآيتان: ٢١، ٢٢
٤٤٥	 الآيات: ٦ - ٨		تفسير سورة الطارق
٤٤٧	 الآيات: ٩ - ١١	٤٠٥	 الآيات: ١ - ٩
	تفسير سورة ألم نشرح	٤٠٧	 الآيات: ١٠ - ١٧
٤٥٠	 الآيات: ١ - ٦		تفسير سورة الأعلى
٤٥٣	 الآيتان: ٧، ٨	٤٠٨	 الآيات: ١ - ٤
	تفسير سورة والتين	٤٠٩	 الآيات: ٥ - ١٤
٤٥٥	 الآيات: ١ - ٥	٤١٠	 الآيات: ١٥ - ١٩
٤٥٦	 الآيات: ٦ - ٨		تفسير سورة الغاشية
	تفسير سورة العلق	٤١٣	 الآيات: ١ - ٦
٤٦٠	 الآيات: ١ - ١٠	٤١٤	 الآيات: ٧ - ١٧
٤٦٢	 الآيات: ١١ - ١٩	٤١٦	 الآيات: ١٨ - ٢٦
	تفسير سورة القدر		تفسير سورة الفجر
٤٦٤	 الآيتان: ١، ٢	٤١٨	 الآيات: ١ - ٣
٤٦٩	 الآيات: ٣ - ٥	٤١٩	 الآيات: ٤ - ٨
	تفسير سورة لم يكن	٤٢٢	 الآيتان: ٩، ١٠
٤٧١	 الآيات: ١ - ٤	٤٢٤	 الآيات: ١١ - ١٥
٤٧٣	 الآيات: ٥ - ٨	٤٢٥	 الآيات: ١٦ - ٢١
	تفسير سورة الزلزلة	٤٢٦	 الآيات: ٢٢ - ٢٨
٤٧٦	 الآيات: ١ - ٦	٤٢٨	 الآيتان: ٢٩، ٣٠
٤٧٧	 الآيتان: ٧، ٨		تفسير سورة البلد
		٤٢٩	 الآيات: ١ - ٤

٥٠٣	الآيات: ٢ - ٤	تفسير سورة العاديات	٤٧٩	الآيات: ١ - ٤
	تفسير سورة الماعون		٤٨٠	الآيات: ٥ - ١١
٥٠٥	الآيات: ١ - ٧	تفسير سورة القارعة		
	تفسير سورة الكوثر		٤٨٢	الآيات: ١ - ١١
٥٠٨	الآيات: ١ - ٣	تفسير سورة التكاثر		
	تفسير سورة قل يا أيها الكافرون		٤٨٤	الآيتان: ١، ٢
٥١٤	الآيات: ١ - ٦		٤٨٥	الآيات: ٣ - ٨
	تفسير سورة النصر	تفسير سورة العصر		
٥١٦	الآيات: ١ - ٣		٤٨٨	الآيات: ١ - ٣
	تفسير سورة المسد	تفسير سورة الهمزة		
٥٢٨	الآيات: ١ - ٥		٤٩٠	الآية: ١
	تفسير سورة الإخلاص		٤٩١	الآيات: ٢ - ٩
٥٣٢	الآيات: ١ - ٤	تفسير سورة الفيل		
	تفسير سورة الفلق		٤٩٣	الآية: ١
٥٣٥	الآيات: ١ - ٥		٤٩٩	الآيات: ٢ - ٥
	تفسير سورة الناس	تفسير سورة قريش		
٥٤٠	الآيات: ١ - ٦		٥٠١	الآية: ١

مؤسسة حمد للطباعة والتصوير



هاتف : ٨٢٨١٥٦ - ٢٠٨٢٦٧٠٢ - بكتيون - ليلانت